

جَمَاهِرَةٌ
خُطَبُ الْعَرَبِ
فِي عَصُورِ الْعَرَبِيَّةِ الزَّاهِرَةِ

تأليف
أحمد زكي صفوت
وكيل كلية الدراسات والبحوث السابقة

الكتبة العلمية
بيروت - لبنان

لجوه خط العرب

في عصور العرب الزاهرة

الجزء الأول

العصر الجاهلي
عصر صدر الإسلام

تأليف

أحمد زكي صفوت

وكيل كلية دار العلوم جامعة القاهرة سابقا

المكتبة العلمية

بيروت - لبنان

تصدير

الطبعة الأولى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أحمدك اللهم على ما أوليتني من نعمك السابغة ، وآلائك الضافية ، وأصلى وأسلم على رسولك المجتبي ، سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

وبعد : فلا مراء أن خطب العرب في عصور ازدهار اللغة مرآة يتجلى فيها ما حباهم الله من ذلاقة اللسان ، وعذوبة البيان ، ومعرض يتمثل فيه نتاج قرائمهم ، وثمرات ألبابهم ، في كثير من مناحي القول ، وإنها لتعدّ - بعد القرآن الكريم والحديث الشريف - مثالا ساميا للبلاغة العربية ، ونموذجا قويا يحتذيه المتأدب في تقويم قلمه المعوج ، وشحذ لسانه الكلليل ، وهي فوق ذلك معين فيأض يستقى منه مؤرخ الأدب العربي ما يعين له من آراء ، ومادة غزيرة يستنبط منها ما يقفه عليه البحث من فكر .

وقد نظرت فوجدت تلك الخطب مبعثرة منشورة في كتب الأدب والتاريخ ، لا يؤلف بينها نظام ، ولا يضم أشتاتها كتاب ، فإذا ما شئت أن تتعرف صورة الخطابة في عصر

من العصور ، أو ترجم لخطيب من خطباء العربية ، ألفيت الطريق أمامك وعرة شائكة ، وأنفقت وقتاً مديداً في التنقيب عن خطبه في بطون الأسفار ، بله ما يعترضك من مشاق في تحرير ألفاظها ، وتحقيق عباراتها ، لما نالها من عبث النساخ والطباع ، من التصحيف والتحريف الذي ينبهم معه معناها ، ويستغلق به تفهمها .

كل أولئك حدّأ بي أن أعبد السبيل لشدة الأدب العربي إلى ذلك التراث النفيس ، الذي يتوقون إلى الارتواء من مناهله العذبة ، فلا يكادون يُسيغونها ، وَيَصُبُون إلى اجتناء ثماره الشهيّة ، فتحول دونها الأشواك ، وفيهم من درس اللغات الإفرنجية ، وتزود من أفكار الغربيين وآرائهم بقسط وفير ، ولكنه تُعوزه جزالة اللفظ ، ورسالة الأسلوب .

استخرت الله ، فجمعت كل ما أثر عن العرب في عصور العربية الزاهرة ، من خطب ووصايا من مظانها - على قدر ما هداني إليه اطلاعي - وضممت إليها ما دار في مجالس الملوك والخلفاء والرؤساء ، من حوار ومجاوبة ، أو جدال ومناظرة ، مما يدخل في باب الخطب ، وينتظم في سلكها ، وأودعتها ذلك السفر كي يكون لها ديوانا جامعا ، ومرجعا عاما ، يسهل مراجعتها فيه ، وسميته : جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة .

وبوّته أربعة أبواب في ثلاثة أجزاء :

الجزء الأول : ويحوى الباب الأول في خطب الجاهلية ، والباب الثاني في خطب صدر الإسلام .

الجزء الثاني : ويحوى الباب الثالث : في خطب العصر الأموي .

الجزء الثالث : ويحوى الباب الرابع : في خطب العصر العباسي الأول ، وذيل الجمهرة ، في خطب متفرقة .

وإذ كان الشريف الرضى رحمه الله قد أفرد خطب الإمام على كرم الله وجهه بمؤلف خاص ، وهو : « نهج البلاغة » والإمام أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر طينفور ، قد جمع في مؤلفه : « بلاغات النساء » طائفة قيِّمة من كلام بليغات النساء ، وطرائف أقوالهن . رأيت أن نقل ما ورد في هذين السفرين الجليلين بحذافيره ، ليس على الحقيقة إلا ضمهما إلى كتابي ، وتضخيمه بهما ، ولذلك اجتزأت بإيراد جملة صالحة مما جاء فيهما ، مما استدعاه المقام .

ولم أقتصر على إيراد الخطبة بإحدى الروايات الواردة فيها ، بل عنيت بالتوفيق بين الروايات المختلفة ، وإتمام بعضها من بعض ، لما في ذلك من زيادة الفائدة للقارئ ، فإذا ما رأيت الخطبة مروية بصورتين يتبين فيهما الاختلاف ، أوردت الصورتين جميعاً .

وقد ضبطت ألفاظها ضبطاً وافياً ، وعقبت كل خطبة بذكر مصادرها التي نقلتها عنها ، كما ذيلتها بشرح يفسر غريب ألفاظها ، ويحلّ مستغلق كلماتها ، وأوردت فيه كل ما تمس إليه الحاجة في فهمها ، من نَبذ تاريخية توضح المقامات التي أقيت فيها ، إلى ما هنالك .

ولست أستطيع أن أصور للقارئ مقدار ما عانيت من المتاعب في ردّ كثير من الألفاظ إلى أصولها الصحيحة ، بعد تقليبها على كل وجه ممكن ، حتى تخلص من شوائب التشويه الشائن ، الفاشي في كتب الأدب والتاريخ .

وإني أقدم كتابي هذا إلى أبناء العربية الشريفة ، وفاء بما لها في عنقي من حق واجب ، وصنيعة مشكورة ، وافقه أسأل أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم ، وأن ينفع به النفع المرجو منه ، وأن يمدني بروح منه ؛ ويظلني بظلال الصحة

والعافية ، حتى أصدر ما اعتزمت إصداره بعد تمام هذا الكتاب إن شاء الله ،
وهو كتاب : « جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة »

كي تكمل حلقة الفثر العربي في تلك العصور ، إنه المستعان ، عليه توكلت
وإليه أنيب.

أحمد زكي صفوت

حرر بالقاهرة في { ربيع الآخر سنة ١٣٥٢ هـ
يوليو سنة ١٩٣٣ هـ



فهرس

مآخذ الخطب في هذا الجزء

- الأمالى لأبي عليّ القالى : الجزء الأول - الثانى - ذيل الأمالى
- الأغانى لأبي الفرج الأصبهانى : « الرابع - السابع - الثامن - الحادى عشر - الرابع عشر - الخامس عشر
- صبح الأعشى لأبي العباس القلقشندى : الجزء الأول - الثانى
- نهاية الأرب لشهاب الدين النويرى : « الثالث - الخامس - السابع
- عيون الأخبار لابن قتيبة الدينورى : المجلد الثانى
- الكامل لأبي العباس المبرد : الجزء الأول - الثانى
- العقد الفريد لابن عبد ربه : « الثانى - الثالث
- زهر الآداب لأبي إسحق الحضرى : «
- البيان والتبيين للجاحظ : « الثانى - الثالث
- نهج البلاغة للشريف الرضى : «
- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : المجلد الأول - الثانى - الثالث - الرابع
- أمالى السيد المرتضى : الجزء الأول - الثانى
- مجمع الأمثال لأبي الفضل الميدانى : « - «
- جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري : « - «
- خزانة الأدب لعبد القادر البغدادى : «

- تاريخ الأمم والملوك لأبي جعفر : الجزء الثاني - الثالث - الرابع - الخامس -
ابن جرير الطبري : السادس
تاريخ الكامل لابن الأثير : الجزء الأول - الثاني - الثالث
مروج الذهب للمسعودي : » » - الثاني
الإمامة والسياسة لابن قتيبة : » »
المختصر في أخبار البشر لأبي الفداء : » »
معجم البلدان لياقوت الحموي : » الثامن
سيرة النبي صلى الله عليه وسلم لابن هشام : » الأول - الثاني
السيرة الحلبية لابن برهان الدين الحلبي : » »
إعجاز القرآن لأبي بكر الباقلاني :
بلاغات النساء لابن أبي طاهر طيفور :
شرح العيون ، شرح رسالة ابن زيدون :
لابن نباتة المصري :
أبناء نجباء الأبناء لابن ظفر المكي :
المحاسن والأضداد للجاحظ :
الشعر والشعراء لابن قتيبة :
شرح قصيدة ابن عبدون لابن بدرود :
بلوغ الأرب للسيد محمود شكري : الجزء الأول - الثالث
الألوسی :
مفتاح الأفكار للشيخ أحمد مفتاح :

الباب الأول

الخطبة الوصائية

في

العصر الجاهلي

الخطبة

إصلاح مرثد الخير

بين سُبَيْعِ بْنِ الْحَارِثِ ، وَبَيْنَ مَيْمِ بْنِ مَثُوبٍ

كان مرثد الخير بن يَنْكَفَ قَيْلًا ، وكان حَدَبًا على عشيرته ، محبًا لصلاحهم ، وكان سُبَيْعِ بْنِ الْحَارِثِ ^(١) ومَيْمِ بْنِ مَثُوبِ بْنِ ذِي رُعَيْنِ تنازعا الشرف ، حتى تشاحنا ، وخيف أن يقع بين حبيهما شر ، فبتفاني جذماهما ^(٢) ، فبعث إليهما مرثد ، فأحضرهما ليصلح بينهما ، فقال لهما :

(١) أخو علس ، وعلس هو ذو جدن .

(٢) الجذم : الأصل وكذا الجذر .

١ - مقال مرثد الخير

إِنَّ التَّخْبِطَ^(١) وَأُمْتِطَاءَ الْمَجَاجِ^(٢) ، وَأُسْتِحْقَابَ^(٣) اللَّجَاجِ ، سَيَقْفُكُمَا
عَلَى شَفَا هُوَّةٍ ، فِي تَوَرُّدِهَا^(٤) بِوَارِ الْأَصِيلَةِ^(٥) ، وَانْقِطَاعِ الْوَسِيلَةِ ، فَتَلَاوِيَا أَمْرًا كَمَا
قَبْلَ أَنْتِكَاتِ^(٦) الْعَهْدِ ، وَانْحِلَالِ الْعَقْدِ ، وَتَشْتِ الْأَلْفَةِ ، وَتَبَايُنِ الشُّهُمَةِ^(٧) ،
وَأَنْتَا فِي فَسْحَةِ رَافِهِةٍ^(٨) ، وَقَدَمِ وَاطِدَةٍ^(٩) ، وَالْمَوَدَّةِ مُثْرِيَةً^(١٠) ، وَالْبُقْيَا
مُعْرِضَةً^(١١) ، فَقَدْ عَرَقْتُمْ أَنْبَاءَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنَ الْعَرَبِ : مِمَّنْ عَصَى
النَّصِيحَ ، وَخَالَفَ الرَّشِيدَ ، وَأَضْعَى إِلَى التَّقَاطُعِ ، وَرَأَيْتُمْ مَا آلَتْ إِلَيْهِ عَوَاقِبُ
سُوءِ سَعْيِهِمْ ، وَكَيْفَ كَانَ صَيُورُ^(١٢) أُمُورِهِمْ ، فَتَلَاوُوا الْقُرْحَةَ^(١٣) قَبْلَ
تَفَاقُمِ الثَّمَايِ^(١٤) ، وَأَسْتِفْحَالِ^(١٥) الدَّاءِ ، وَإِعْوَازِ الدَّوَاءِ ، فَإِنَّهُ إِذَا سَفِيكَتِ
الدَّمَاءُ ، أُسْتَحْكَمَتِ الشَّحْنَاءُ ، وَإِذَا اسْتَحْكَمَتِ الشَّحْنَاءُ ، تَقْضَبَتِ^(١٦) عُرَى
الْإِبْقَاءِ ، وَشَمِلَ^(١٧) الْبَلَاءُ .

(١) التخبط : ركوب الرجل رأسه في الشر خاصة ، أو السير على غير هدى . (٢) ركب فلان هجاج (غير مصروف) ، ووهاج مبنيا على الكسر : أى ركب رأسه . (٣) الاستحقاب : استفعال من الحقيبة أو من الحقاب ، فأما الحقيبة ، فأي يحمل الرجل فيه متاعه من خرج أو غيره ، والحقاب : برسيم تشد به المرأة وسطها (والبرسيم خيط فيه لوانان) ، وهذا مثل : إما أن يكون أراد أنه احتزم بالهجاج أو جعله في وعائه . (٤) التورد : الإشراف على الماء وغيره ، دخله أو لم يدخله . (٥) الأصل .
(٦) انتقاض : (والأنكاث جمع نكث ، وهو مانقض من الحبال ليعاد ثانية) . (٧) القرابة .
(٨) ناعمة من الرفاهية . (٩) ثابتة . (١٠) متصلة . (١١) ممكنة قد أمكنت من عرضها ، أى من جنبها وناحيتها ، يقال قد أعرض لك الظى فارمه ، أى أمكنتك من عرضه . (١٢) عاقبة .
(١٣) الجرح . (١٤) السعى والمثاى : الإنسداد والجراح والقتل ونحوه . (١٥) اشتداده ، وهو أن يصير مثل الفحل . (١٦) تقطعت . (١٧) من باب فرح ونصر .

٢ - مقال سبيع بن الحرث

فَقَالَ سَبِيعُ :

أَيُّهَا الْمَلِكُ ! إِنَّ عَدَاوَةَ بَنِي الْعَلَاتِ^(١) لَا تُبْرِئُهَا الْأَسَاءَةُ^(٢) ، وَلَا تَشْفِيهَا
الرِّقَاةُ ، وَلَا تَسْتَقِلُّ^(٣) بِهَا الْكِفَاةُ ، وَالْحَسَدُ الْكَامِنُ ، هُوَ الدَّاءُ الْبَاطِنُ ، وَقَدْ
عَلِمَ بَنُو أَبِينَا هَوْلَاءَ ، أَنَا لَهُمْ رِدْءٌ^(٤) إِذَا رَهَبُوا ، وَغَيْثٌ إِذَا أَجْدَبُوا ، وَعَضُدٌ
إِذَا حَارَبُوا ، وَمَقْرَعٌ إِذَا نَكَبُوا ، وَأَنَا وَإِيَاهُمْ كَمَا قَالَ الْأَوَّلُ :
إِذَا مَا عَلَوْا قَالُوا أَبُوْنَا وَأُمَّنَا وَلَيْسَ لَهُمْ عَالِيْنَ أُمَّ وَلَا أَبُ

٣ - مقال ميثم بن مشوب

فَقَالَ مَيْثَمُ :

أَيُّهَا الْمَلِكُ ! إِنَّ مَنْ نَفَسَ عَلَى ابْنِ أَبِيهِ الزَّعَامَةَ ، وَجَدَّ بِهِ^(٥) فِي الْمَقَامَةِ^(٦) ،
وَاسْتَكْتَرَ لَهُ قَلِيلَ الْكِرَامَةِ ، كَانَ قَرِيفًا^(٧) بِالْمَلَامَةِ ، وَمُؤَنَّبًا عَلَى تَرْكِ الْأَسْتِقَامَةِ ،
وَإِنَّا وَاللَّهِ مَا نَعْتَدُ لَهُمْ بِيَدِي إِلَّا وَقَدْ نَاهَلْنَا مِنْهَا كِفَاؤَهَا ، وَلَا نَذْكُرُ لَهُمْ حَسَنَةً
إِلَّا وَقَدْ تَطَلَّعَ مِنْهَا إِلَيْهِمْ جَزَاؤُهَا ، وَلَا يَتَفَيَّأُ لَهُمْ عَلَيْنَا ظِلُّ نِعْمَةٍ إِلَّا وَقَدْ قُوبِلُوا
بِشَرِّهَا^(٨) ، وَنَحْنُ بَنُو فَحْلِ مُقَرَّمٍ^(٩) ، لَمْ تَقْعُدْ بِنَا الْأُمَهَاتُ وَلَا بِهِمْ ،
وَلَمْ تَنْزِعْنَا أَعْرَافُ الشُّوءِ وَلَا إِيَاهُمْ ، فَعَلَامَ مَطِّ^(١٠) الْخُدُودِ ، وَخَزَرُ الْعُيُونِ^(١١)

(١) العلة: الضرة ، وبنو العلات بنو أمهات شتى من رجل واحد ، (والأخفاف : من أمهم واحدة
والآباء شتى) . (٢) جمع آمن ، وهو الطيب . (٣) تمهض بها وتحملها . (٤) عون .
(٥) عابه . (٦) المجلس . (٧) خليقا . (٨) مثلها . (٩) القرم : السيد ، وأقرمه :
جمعه قرما . (١٠) مد . (١١) الخزر أن ينظر الرجل إلى أحد عرضيه . يقال إنه ليخازرني :
إذا نظر إليه بمؤخر عينه ولم يستقبله بنظره .

وَالْجَنيفُ^(١) وَالْتَصَعْرُ ، وَالْبَأُو وَالْتَكْبَرُ ؟ أَلِكَثْرَةِ عَدَدٍ ، أَمْ لِفَضْلِ جَلَدٍ ، أَمْ لِطُولِ مُعْتَقَدٍ^(٢) ؟ وَإِنَّا وَإِيَّاهُمْ لَكَمَا قَالَ الْأَوَّلُ :

لَا هِ ابْنُ عَمِّكَ ، لَا أَفْضَلْتَ فِي حَسَبٍ عَنِّي ، وَلَا أَنْتَ دِيَّانِي فَتَحْزُونِي^(٣)
وَمَقَاطِعُ الْأُمُورِ ثَلَاثَةٌ : حَرْبٌ مُبِيرَةٌ^(٤) ، أَوْ سَلْمٌ قَرِيرَةٌ ، أَوْ مُدَاجَاةٌ
وَعَفِيرَةٌ^(٥) .

٤ - مقال مرثد الخير

فَقَالَ الْمَلِكُ :

لَا تُنْشِطُوا^(٦) عُقْلَ الشَّوَارِدِ ، وَلَا تُلْقِحُوا الْعُونَ الْقَوَاعِدَ^(٧) ، وَلَا تُورَثُوا^(٨)
نِيرَانَ الْأَحْقَادِ ، فَفِيهَا الْمَتَفَةُ الْمُسْتَأْصِلَةُ ، وَالْجَائِحَةُ^(٩) وَالْأَلِيلَةُ^(١٠) ، وَعَفْوًا بِالْجُلْمِ ،
أَبْلَادَ^(١١) الْكَلْمِ ، وَأَنْدَبُوا إِلَى السَّبِيلِ الْأَرْشَدِ ، وَالْمَنْهَجِ الْأَقْصَدِ ، فَإِنَّ الْحَرْبَ
تَقْبِيلُ بَرْبِرِجٍ^(١٢) الْغُرُورِ ، وَتُدْبِرُ بِالْوَيْلِ وَالشُّبُورِ ، ثُمَّ قَالَ الْمَلِكُ :

أَلَا هَلْ أَتَى الْأَقْوَامَ بَدَلِي نَصِيحَةً حَبَوْتُ بِهَا مَنِي سُبَيْمًا وَمِيمًا
وَقَلْتُ أَعْلَمَا أَنَّ التَّدَابِرَ غَادَرْتُ عَوَاقِبُهُ لِلذَّلِّ وَالْقَلِّ جُرْهُمَا
فَلَا تَقْدَحَا زَنْدَ الْعُقُوقِ وَأَبْقِيَا عَلَى الْعِزَّةِ الْقَعَسَاءِ^(١٣) أَنْ تَهْدَمَا
وَلَا تَجْنِيَا حَرْبًا تَجْرُ عَلَيْكَا عَوَاقِبُهَا يَوْمًا مِنَ الشَّرِّ أَشَامًا

(١) التكبر ، وكذا البأو . (٢) اعتقد ضيعة ومالا : اقتناها . (٣) لاه : أراد الله ، فعذف اللام الحافظة اكتفاءً بالتي تليها ، والديان القائم بالأمر ، وتحزوني : تسوسني . (٤) مهلكة . (٥) مسارة وغفران . (٦) نشط العقدة : عقدها ، وأنشطها حلها ، والعقل ككتب جمع عقال ، وهو الخبل . (٧) هو مثل ، وأصله في الإبل ، يقال : لقحت الناقة إذا حملت ، وألقحها الفحل ، ثم ضرب ذلك مثلا للحرب إذا ابتدأت ، والعون جمع عوان ، وهي الثيب . يقال للحرب عوان إذا كان قد قوتل فيها مرة بعد مرة (٨) تذكوا . (٩) الاستئصال . (١٠) الشكل . (١١) الأبلاد : الآثار ، جمع بلد (كالندوب جمع نذب) . (١٢) السحاب الذي تشفره الريح والزينة . (١٣) الثابتة .

فَإِنَّ جُنَاتَ الْحَرْبِ لِلْحَيِّينَ عُرْضَةٌ تَفُوقُهُمْ مِنْهَا الذُّعَافَ الْمُقَشَّمَا (١)
حَذَارٍ ، فَلَا تَسْتَنْبِثُوهَا ، فَإِنَّهَا تَغَادِرُ ذَا الْأَنْفِ الْأَشْمَّ مُكَشَّمَا (٢)
فَقَالَا : لَا ، أَيُّهَا الْمَلِكُ . بَلْ نَقْبِلُ نَصْحَكَ ، وَنُطِيعُ أَمْرَكَ ، وَنُطْفِئُ النَّارَةَ (٣) ،
وَنَحْمِلُ الضَّمَانُ ، وَتُثَوِّبُ إِلَى السَّلَامِ .
(الأمال : ١ : ٩٢)

ه - طريف بن العاصي والحارث بن ذبيان يتفاخران

عند بعض مقاول حمير

أَجْتَمَعَ طَرِيفُ بْنُ الْعَاصِيِ الدَّوْسِيُّ ، وَالْحَارِثُ بْنُ ذُبْيَانَ - وَهُوَ أَحَدُ الْمُعَمَّرِينَ -
عِنْدَ بَعْضِ مَقَاوِلِ (٤) حَمِيرٍ ، فَتَفَاخَرَا . فَقَالَ الْمَلِكُ لِلْحَارِثِ : يَا حَارِثُ ! أَلَا تَخْبِرُنِي بِالسَّبَبِ
الَّذِي أَخْرَجَكَ عَنْ قَوْمِكَ حَتَّى لِحِقَمَ بِالنَّمْرِ بْنِ عُمَانَ ؟ فَقَالَ : أَخْبِرُكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ . خَرَجَ
هَجِينَانُ (٥) مِنْ بَرِّ عِيَانَ غَنَمًا لهُمَا ، فَتَشَاوَلَا (٦) بِسَيْفَيْهِمَا ، فَأَصَابَ صَاحِبُهُمْ عَقِبَ صَاحِبِنَا ،
فَمَاتَ (٧) فِيهِ السَّيْفُ ، فَزِفَ (٨) ، فَمَاتَ ، فَسَأَلُونَا أَخْذَ دِيَةِ صَاحِبِنَا دِيَةَ الْهَجِينِ ، وَهِيَ
نِصْفُ دِيَةِ الصَّرِيحِ (٩) ، فَأَبَى قَوْمِي ، وَكَانَ لَنَا رِبَابًا (١٠) عَلَيْهِمْ ، فَأَيَّبْنَا إِلَّا دِيَةَ الصَّرِيحِ ،
وَأَبَوْا إِلَّا دِيَةَ الْهَجِينِ ، فَكَانَ أَسْمُ هَجِينِنَا ذُهَيْنَ بْنِ زَبْرَاءَ ، وَأَسْمُ صَاحِبِهِمْ عَنَّقَشَ بْنِ
مُهَيَّرَةَ ، وَهِيَ سُودَاءُ أَيْضًا (١١) ، فَتَفَاقَمَ الْأَمْرَ بَيْنَ الْحَيِّينَ ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْنا :

(١) تفوقهم : تعقيهم الفواق بالضم (وهو ما بين الحلبتين) والذعاف : الدم ، أو سم ساعة (وسم ذعاف)
والمقشم : المخلوط . (٢) هو مثل : أي لا تخرجوا نبيثتها ، وهو ما يخرج من البئر إذا حفرت : يريد
لا تثيروا الحرب ، ومكشما : مقطوعا . (٣) العداوة والشحناء . (٤) جمع مقول ، والمقول والقيل
هو الذي دون الملك الأعظم . (٥) الهجين : عربي ولد من أمة ، أو من أبوه خير من أمه (والمقرف :
الذي أمه عربية ، وأبوه ليس بعربي) . (٦) تضاربا . (٧) أفسد . (٨) نزف الرجل إذا
سال دمه حتى يضعف . (٩) الصريح : الخالص النسب . (١٠) زيادة . (١١) كذا في الأصل ،
ولم يتقدم الحكم على شيء بالسواد ، فلمل الأصل : « ذهين بن زبراء وهي سوداء » .

حُلُومَكُمُ يَا قَوْمَ لَا تُعْزِبُنَهَا^(١) وَلَا تَقْطَعُوا أَرْحَامَكُمُ بِالتَّدَابِيرِ
وَأَدُّوا إِلَى الْأَقْوَامِ عَقْلَ ابْنِ عَمِّهِمْ وَلَا تُرْهِقُوهُمْ سُبَّةً فِي الْعَشَائِرِ^(٢)
فَإِنَّ ابْنَ زِبْرَاءَ الَّذِي قَادَ لَمْ يَكُنْ بِدُونِ خَلِيفٍ أَوْ أَسِيدٍ بِنِ جَابِرٍ^(٣)
فَإِنْ لَمْ تَعَاطُوا الْحَقَّ فَالسَّيْفُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ، وَالسَّيْفُ أَجُورُ جَائِرٍ
فَتَظَاهَرُوا^(٤) عَلَيْنَا حَسِداً ، فَاجْمَعِ ذُووُ الْحِجْبِيِّ مَنَا أَنْ نَلْحَقَ بِأَمْنَعِ بَطْنِ مِنَ الْأَزْدِ ،
فَلَحَقْنَا بِالنَّمْرِ بْنِ عُمَانَ ، فَوَاللَّهِ مَا فَتَّ^(٥) فِي أَعْضَادِنَا ، فَأَبْنَا عَنْهُمْ ، وَلَقَدْ أَثَارْنَا^(٦)
صَاحِبَنَا وَمِ رَاغَمُونَ .

فوثب طريف بن العاصي من مجلسه ، فجلس بإزاء الحرث ، ثم قال :
تالله ما سمعتُ كالليوم قولاً أبعدَ من صواب ، ولا أقربَ من خطأل^(٧) ، ولا أجلب
لقدع^(٨) من قول هذا ؛ والله أيها الملك ما قتلوا بهجيتهم بذجاً^(٩) ، ولا رُقوا به درجاً ،
ولا أنطوا^(١٠) به عقلاً ، ولا أجتفتوا^(١١) به خشلاً^(١٢) ، ولقد أخرجهم الخوف عن أصلهم ،
وأجلام عن محلهم ، حتى أستلنا خشونة الإزعاج ، ولجثوا إلى أضيقي الولاغ^(١٣) :
قلاً وذلاً .

فقال الحرث : أسمع يا طريف ، إني والله ما إخالك كافاً غريباً^(١٤) لسانك ،
ولا مُنهنها^(١٥) شيرة نزوانك ، حتى أسطوبك سطوبة تكف طماحك ، وترد

(١) لا تبعدها - وأعزب : بعد وأبعد . (٢) العقل : الدية ، يقال : عقلت فلانا إذا غرمت ديته ، وعقلت عن فلان إذا غرمت عنه دية جنائته . وأرهقته عمراً : كلفته ذلك . (٣) فاد يفود : مات (وفاد يفيد : تبخر) . (٤) تظاهروا . (٥) أوهن وأضعف . (٦) أثارت : أدركت منه ثأري (وأصله اثأرت) . (٧) خطأ . (٨) الكلام القبيح ، أفذع له إذا أسمه كلاماً قبيحاً . (٩) البلج : الحروف ، فارسي معرب . (١٠) لغة في أعطوا . (١١) صرعوا . (١٢) الخشل : شجر المقل (الدوم) وهذه أمثال كلها ، يريد أنهم لم ينالوا ثأره . (١٣) الولاغ الباب ، وجمعه الولاغ ، وهي أيضاً النواحي والأزقة . (١٤) غرب الشيء : حده . (١٥) نهنه عن الأمر فنهته : كفه وزجره فكف ، والشرة : الخدة ، والنزوان : الوثوب .

جِاحِك ، وَتَكَيْتِ تَتْرَعُكَ^(١) ، وَتَقَمَّ نَسْرُعُكَ .

فقال طريف : مهلا يا حارث ، لا تعرِّض لِطُحْمَةِ^(٢) اسْتِنَانِي ، وَذَرَبِ^(٣) سِنَانِي ،
وَغَرَبِ شِبَابِي ، وَمِيسِمِ^(٤) سِبَابِي ، فَتَكُونَ كَالْأُظَلِّ^(٥) الْمَوْطُوءِ ، وَالْعَجَبِ الْمَوْجُوءِ^(٦) .
فقال الحارث : إياي تخاطب بمثل هذا القول ؟ فوالله لو وطئتكَ لَأَسَخْتُكَ^(٧) ،
وَلَوْ وَهَصْتُكَ^(٨) لَأَوْهَطْتُكَ^(٩) ، وَلَوْ نَفَعْتُكَ^(١٠) لَأَفَدْتُكَ .

فقال طريف متمثلاً :

وَإِنَّ كَلَامَ الْمَرْءِ فِي غَيْرِ كُنْهِهِ لَكَالْثَبَلِ تَهْوِي لَيْسَ فِيهَا نِصَاةً هَا
أَمَّا وَالْأَصْنَامِ الْمَحْجُوبَةِ ، وَالْأَنْصَابِ^(١١) الْمَنْصُوبَةِ ، إِنَّ لَمْ تَرَبِّعْ عَلَيَّ ظَلْمَكَ^(١٢) ،
وَتَقِفْ عِنْدَ قَدْرِكَ ، لَأَدْعَنَّ حَزْنَكَ سَهْلًا ، وَغَمْرَكَ ضَحْلًا^(١٣) ، وَصَفَاكَ^(١٤) وَحْلًا .
فقال الحارث : أَمَا وَالله لو رُمْتُ ذَلِكَ لَمَرُّغْتَ بِالْحَضِيضِ^(١٥) ، وَأُغْصِصْتَ
بِالْجَرِيضِ^(١٦) ، وَضَاقَتْ عَلَيْكَ الرَّحَابُ ، وَتَقَطَّعَتْ بِكَ الْأَسْبَابُ ، وَلَا لَأُنْفِيَتْ لَيَّ^(١٧)

(١) التمرع إلى الشر . (٢) طحمة السيل دفعته ، واستن الفرس قص وعدا لمرحه ونشاطه

شوطا أو شوطين ، والاستنان : النشاط ، استن الفرس : جرى في نشاطه على سنه في جهة واحدة .

(٣) الذرب : الحدة ، وكذا الغرب . (٤) المكواة . (٥) الأظل : أسفل خف البعير .

(٦) العجب : أصل الذنب والموجوء : المدقوق (من وجأ التيس : دق عروق خصيه بين حجرين ولم يخرجهما

شبهها بالحصاء) . (٧) أساخه : جعله يسيخ (أو يسوخ في الأرض) أي يغوص . (٨) كمرتك .

(٩) صرعتك صرعة لا تقوم منها . (١٠) نفحه بسيفه : تناوله . (١١) الأنصاب : حجارة كانت

حول الكعبة تنصب فيهل عليها ويذبح لغير الله تعالى ، وقيل الأنصاب حجارة نصبت وعبدت من دون الله

جمع نصب ، وقيل النصب جمع نصاب . (١٢) ربع يربع : كف ، وظلع ظلعا غمز في مشيه ، وأربع

على ظلمك أي إنك ضعيف فانتع عما لا تطيقه وكف . (١٣) الغمر : الماء الكثير ، والضحل : الماء القليل

(وكذا الضحضاح) . (١٤) الصفا : جمع صفاة وهي الحجر الصلد الضخم أو الصفا بمعنى الصفو .

(١٥) أسفل الجبل . (١٦) الجريض . القصة من الحرص ، وهو الريق يفتن به يقال جرض بريقه

يجرض ابتله بالجهد على هم وحزن ، وفي المثل : حال الجريض دون القريض ، يضرب للأمر يقدر عليه أخيرا

حين لا ينفع . قاله جوشن الكلابي حين منعه أبوه من الشعر فرفض حزنا حتى أشرف على الهلاك ، فرق له وقال

انطق بما أحببت : فقال ذلك . (١٧) اللقي : الملقى المطروح .

تَهَادَاهُ الرُّوَامِسَ ^(١) . بِالسَّهْبِ الطَّامِسِ ^(٢) .

فقال طريف : دون ما ناجتكَ به نفسك مُقَارَعَةٌ أَبْطَالٌ ، وَحِيَاضٌ أَهْوَالٌ ،
وَحَفْزَةٌ ^(٣) إِعْجَالٌ ، يُمْنَعُ مَعَهُ تَطَامُنُ الْإِمْنَالِ .

فقال الملك : إِيهًا ^(٤) عنكما ! فإرأيت كأيوم مقال رجلين لم يَقْصِبَا ^(٥) ، ولم
يَثْلِبَا ^(٦) ، ولم يَلْصُوا ^(٧) ، ولم يَقْفُوا ^(٨) .
(الأمالي ١ : ٧٣)

(١) الروامس : الرياح التي ترمس أي تدفن . (٢) المستوى من الأرض ، والطامس : الدارس
(كالطامس) (٣) الحفز : الدفع . (٤) إيهما : كلمة زجر بمعنى حسبك (وإيه : أمر . كلمة
استزادة واستنطاق) . (٥) لم يشتا . قصبه يقصبه إذا وقع فيه وأصله القطع . (٦) ثلبه : عابه .
(٧) لصاه : قذفه . (٨) قفاه : قذفه بأمر عظيم .

وفود العرب

يعزون سلامة ذا فائس باين له مات

نشأ لسلامة ذى فائس ابن كَأ كل أبناء المَقاول ، وكان مسروراً به يرشحه لموضعه ، فركب ذات يوم فرساً صعباً ، فكبا به فوقه^(١) ، فجزع عليه أبوه جزعا شديدا ، وامتنع من الطعام ، واحتجب عن الناس ، واجتمعت وفود العرب ببابه ليعزوه ، فلامه نصحاؤه في إفراط جزعه ، فخرج إلى الناس فقام خطباؤهم يوسونه^(٢) ، وكان في القوم الملبب ابن عوف ، وجعادة بن أفلاح ، فقام الملبب فقال :

٦ - خطبة الملبب بن عوف

أيها الملك ، إن الدنيا تجود لتسلب ، وتعطي لتأخذ ، وتجمع لِدُشَّتت ، وتُحلى لِتُمِرَّ ، وتزرع الأحزان في القلوب ، بما تَفْجأُ به من استرداد الموهوب ، وكل مصيبة تخطأتك جَلَل^(٣) ، ما لم تُدِنِ الأجل ، وتَقْضِ الأمل ، وإن حادنا أَلَمَ بك ، فاستبد^(٤) بأفلك ، وصفح عن أكثرك ، لمن أجل النعم عليك ، وقد تنأهت إليك أنباء من رزى فَصَبَرَ ؛ وأصيب فاغْتَفَرَ ، إذ كان شَوَى^(٥) فيما يُرْتَقَبُ ويُحْدَرُ ، فاستشعر اليأس عما فات ، إذ كان ارتجاعه مُمْتَنِعاً ، ومرامه مُسْتَصْعَباً ، فَلَشِيَءٌ ما ضربت الأسي ، وفزع أولو الألباب إلى حسن العزاء .

(١) وقص عنقه : كسرهما . (٢) أساء تأسية : عزاه ، وأصله : أن يقول له لك أسوة بفلان وفلان . (٣) الجلل : العظيم والحقير وهو هنا بالمعنى الثاني . (٤) البدة بالضم : النصيب ، واستبد به : جعله نصيبه . (٥) الشوى : الهين اليسير ورذال المال .

٧ - خطبة جمادة بن أفلح

وقام جمادة فقال : « أيها الملك ، لا تُشعر قلبك الجزع على ما فات ، فيغفل دهنك عن الاستعداد لما يأتي ، وناضل عوارض الحزن بالأنفة عن مضاهاة^(١) أفعال أهل وهي^(٢) العقول ، فإن العزاء لحزماء الرجال ، والجزع لربات الحجال^(٣) ، ولو كان الجزع يرُدُّ فائتًا ، أو يُجني تالفًا ، لكان فعلًا دينيًا ، فكيف وهو مجانب لأخلاق ذوى الألباب ، فارغب بنفسك أيها الملك عما يتهافت^(٤) فيه الأردلون ، وصن قدرك عما يركبه المحسوسون ، وكن على ثقة أن طمعك فيما استبدت به الأيام ، ضلة كاحلام النيام » .

(الأمال ٢ : ١٠١)

٨ - تساؤل عامر بن الظرب وحممة بن رافع

عند أحد ملوك حمير

اجتمع عامر بن الظرب العدواني ، وحممة بن رافع الدوسي عند ملك من ملوك حمير ، فقال : تساء لا حتى أسمع ما تقولان . قال عامر لحممة : أين تحب أن تكون أيديك ؟ قال : عند ذى الرثية^(٥) العديم ، وذى الخلة^(٦) الكريم ، والمسر الغريم ، والمستضعف الهضم . قال : من أحق الناس بالمت ؟ قال : الفقير المحتال ، والضعيف الصوال ، والعي القوال . قال : فمن أحق الناس بالمنع ؟ قال : الحريص الكاند^(٧) ، والمستמיד^(٨) الحاسد ، والمُلحف الواجد . قال : فمن أجدر الناس بالصنعة ؟ قال : من إذا أعطى شكر ، وإذا

(١) مشاكلة . (٢) ضعف . (٣) والحجال جمع حجلة (بفتحين) ، وهي القبة وموضع يزين

بالياب والستور للعروس . (٤) التهافت : التتابع . (٥) الرثية : جمع المفاصل واليدين والرجلين

(الرومانزم) . (٦) الخلة الحاجة . (٧) الكاند : الذى يكفر النعمة ، والكنود الكفور : (إن

الإنسان لربه لكنود) . (٨) المستמיד والمستعير : المستعطي .

مُنِعَ عَدْرَ ، وَإِذَا مُوْطِلَ صَبَرَ ، وَإِذَا قَدَّمَ الْعَهْدُ ذَكَرَ . قَالَ : مِنْ أَكْرَمِ النَّاسِ عَشْرَةٌ ؟ قَالَ : مِنْ إِنْ قَرُبَ مَنَعَ ، وَإِنْ بَعُدَ مَدَحَ ، وَإِنْ ظَلِمَ صَفَحَ ، وَإِنْ ضَوِيَقَ سَمَحَ ، قَالَ : مِنْ أَلَمِ النَّاسِ ؟ قَالَ : مِنْ إِذَا سَأَلَ خَضَعَ ، وَإِذَا سُئِلَ مَنَعَ ، وَإِذَا مَلَكَ كَنَعَ (١) ، ظَاهِرُهُ جَشَعَ (٢) ، وَبَاطِنُهُ طَبَعَ (٣) . قَالَ : فَمِنْ أَحْلَمِ النَّاسِ ؟ قَالَ : مِنْ عَفَا إِذَا قَدَرَ ، وَأَجَلَ إِذَا انْتَصَرَ ، وَلَمْ تُطْعَمِ عِزَّةَ الظَّفَرِ . قَالَ : فَمِنْ أَحْزَمِ النَّاسِ ؟ قَالَ : مَنْ أَخَذَ رِقَابَ الْأُمُورِ بِيَدَيْهِ ، وَجَمَلَ الْعَوَاقِبَ نُصَبَ عَيْنِيهِ ، وَبَنَدَ التَّهَيِّبَ دَبْرَ أُذُنِيهِ (٤) ، قَالَ : فَمِنْ أَخْرَقِ النَّاسِ ؟ قَالَ : مِنْ رَكَبَ الْخِطَارَ (٥) ، وَاعْتَسَفَ (٦) الْعِنَارَ ، وَأَسْرَعَ فِي الْبِدَارِ ، قَبْلَ الْاِقْتِدَارِ . قَالَ : فَمِنْ أَجُودِ النَّاسِ ؟ قَالَ : مَنْ بَذَلَ الْمَجْهُودَ ، وَلَمْ يَأْسَ عَلَى الْمَجْهُودِ . قَالَ : فَمِنْ أْبْلَغِ النَّاسِ ؟ قَالَ : مَنْ جَلَّى الْمَعْنَى الْمَزِيزَ (٧) ، بِاللَّفْظِ الْوَجِيزِ ، وَطَبَّقَ (٨) الْمَفْصِلَ قَبْلَ التَّحْزِينِ . قَالَ : فَمِنْ أَنْعَمِ النَّاسِ عَيْشًا ؟ قَالَ : مَنْ تَحَلَّى بِالْعِفَافِ ، وَرَضِيَ بِالْكَفَافِ ، وَتَجَاوَزَ مَا يَخَافُ إِلَى مَا لَا يَخَافُ . قَالَ : فَمِنْ أَشْقَى النَّاسِ ؟ قَالَ : مَنْ حَسَدَ عَلَى النِّعَمِ ، وَتَسَخَّطَ عَلَى الْقِسْمِ ، وَاسْتَشْعَرَ النَّدَمَ ، عَلَى فُوتِ مَا لَمْ يُحْتَمَمَ . قَالَ : مَنْ أَغْنَى النَّاسَ ؟ قَالَ : مَنْ اسْتَشْعَرَ الْيَأْسَ ، وَأَبْدَى التَّجَمُّلَ لِلنَّاسِ ، وَاسْتَكْتَفَرَ قَلِيلَ النِّعَمِ ، وَلَمْ يَسْتَخْطَ عَلَى الْقِسْمِ . قَالَ : فَمِنْ أَحْكَمِ النَّاسِ ؟ قَالَ : مَنْ صَمَتَ فَأَدَّ كَرَّ ، وَنَظَرَ فَاعْتَبَرَ ، وَوَعِظَ فَازْدَجَرَ . قَالَ : مَنْ أَجْهَلَ النَّاسِ ؟ قَالَ : مَنْ رَأَى الْخُرْقَ مَغْنَمًا ، وَالتَّجَاوَزَ مَغْرَمًا .

(الأمالي ٢ : ٢٨٠)

٩ - خطبة عامر بن الظرب العدواني وقد خطبت ابنته

خطب صعصعة بن معاوية إلى عامر بن الظرب العدواني ابنته عمرة فقال :

- (١) تقبض . تكنع جلده إذا تقبض أي مسك بخيل . (٢) الجشع : أسوأ الحرص . (٣) اللدنس . (٤) جعلت الشيء دبر أذني : إذا لم ألثفت إليه . (٥) جمع خطر ، وهو الإشراف على الهلاك . (٦) الاعتساف : ركوب الطريق على غير هداية وركوب الأمر على غير معرفة . (٧) الصمب . (٨) التطبيق : أن يصيب السيف المفاصل فيفصلها لا يجاوزها .

« يا صعبة إنك جئت تشتري منى كبدى ، وأرحم ولدى عندى ، منعتك ، أو بعثك ،
النكاح خير من الأئمة^(١) ، والحسب كفاء الحسب ، والزوج الصالح أبٌ بعد أبٍ ،
وقد أتكحتك خشية ألا أجد مثلك ، أفر من السر إلى العلانية ، أنصح ابنا ، وأودع
ضعيفا قويا ، ثم أقبل على قومه فقال :

« يا معشر عدوان : أخرجت من بين أظهركم كريمتم ، على غير رغبة عنكم ،
ولكن من خطأ له شيء جاءه ، رب زارع لنفسه حاصدٌ سواء ، ولولا قسم الحظوظ
على قدر الجدود ، ما أدرك الآخر من الأول شيئا يعيش به ، ولكن الذى أرسل الحيا^(٢) ،
أنبت المرعى ، ثم قسمه أكلًا^(٣) لكل فم بقلة ، ومن الماء جرعة ، إنكم ترون
ولا تعلمون ، لن يرى ما أصف لكم إلا كل ذى قلب واع^(٤) ، ولكل شيء راع ،
ولكل رزق ساع ، إما أكيس وإما أحق ، وما رأيت شيئا إلا سمعت حسه ،
ووجدت مسه ، وما رأيت موضوعا إلا مصنوعا ، وما رأيت جائيا إلا داعيا ، ولا غائما
إلا خائبا ، ولا نعمة إلا ومعها بؤس ، ولو كان يُميت الناس الداء ، لأحياهم الدواء ، فهل
لكم فى العلم العليم ؟ قيل ما هو ؟ قد قلت فأصبت ، وأخبرت فصدقت ، فقال : أمورا
شتى ، وشيئا شيا ، حتى يرجع الميت حيا ، ويعود لا شيء شيئا ، ولذلك خلقت الأرض
والسموات ، فتولوا عنه راجعين ، فقال : ويأبها^(٥) نصيحة لو كان من يقبلها .

(مجم الأمثال ١ : ٢١١ ، البيان والتبيين ٢ : ٣٧ ، والمقد القريرد ٣ : ٢٢٣)

١٠ - حديث بعض مقاول حمير مع ابنيه

وما دار بينه وبينهما من المساءلة حين كبرت سنه

كان لرجل من مقاول حمير ابنان ، يقال لأحدهما عمرو ، وللآخر ربيعة ، وكانا قد

(١) الأيامى : الذين لأزواج لهم من الرجال والنساء الواحد منهما أيم كجيد ، سواء كان تزوج من
قبل أم لم يتزوج ، وامرأة أيم بكرا كانت أو ثيبا ، وقد آمت تميم أيما وأيمة وأيوما ، وفى الحديث :
« أنه كان يتعوذ من الأئمة » . (٢) الحيا : المطر . (٣) الأكل : ما يؤكل والرزق . (٤) حافظ .
(٥) يقال للمستجد ويلمه . أى ويل لأمه ، كقولهم : لأب لك يريدون لأب لك فركبوه وجعلوه كالشيء الواحد .

برعا في الأدب والعلم ، فلما بلغ الشيخ أقصى عمره ، وأشقى^(١) على الفناء ، دعاها لِيَبْلُو^(٢) عقولهما ، ويعرف مبلغ علمهما ، فلما حضرا : قال لعمره - وكان الأكبر - أخبرني عن أحب الرجال إليك ، وأكرمهم عليك . قال : « السيد الجواد ، القليل الأنداد ، الماجد الأجداد ، الراسي الأوتاد ، الرفيع العماد ، العظيم الرماد ، الكثير الحساد ، الباسل الذؤاد^(٣) ، الصادر الوراد » قال : ما تقول ياربعة ؟ قال : ما أحسن ما وصف ! وغيره أحب إلى منه ، قال : ومن يكون بعد هذا ؟ قال : « السيد الكريم ، المانع للحريم ، المفضل الخليم ، المقام^(٤) الزعيم ، الذي إن هم فعل ، وإن سئل بذل . »

قال : أخبرني يا عمرو بأبغض الرجال إليك ؟ قال : البرم^(٥) اللئيم ، المستخذي^(٦) للخصيم ، المبطن^(٧) النهيم ، العبي البكيم ، الذي إن سئل منع ، وإن هُدَّ خضع ، وإن طلب جشع^(٨) .. قال : ما تقول ياربعة ؟ قال : غيره أبغض إلى منه . قال : ومن هو ؟ قال : النثوم الكذوب ، الفاحش الغضوب ، الرغيب عند الطعام ، الجبان عند الصدام .

قال : أخبرني يا عمرو : أي النساء أحب إليك ؟ قال : الهز كولة^(٩) اللفاء^(١٠) ، المنكورة^(١١) الجيداء ، التي يشفي السقيم كلامها ، ويبري الوصب^(١٢) إلمامها ، التي إن أحسنت إليها شكرت ، وإن أسأت إليها صبرت ، وإن استعنتبها^(١٣) أعتبت ، الفاترة الطرف ، الطفلة^(١٤) الكف ، العميمة الرذف . قال : ما تقول ياربعة ؟ قال : نعت فأحسن ! وغيرها أحب إلى منها . قال : ومن هي ؟ قال : « الفتانة العيين ،

(١) أشقى عليه : أشرف . (٢) ليختبر . (٣) من زاد عنه : إذا دفع . (٤) السيد (ويضم) .
(٥) البرم : من لا يدخل مع القوم في الميسر . (٦) الخاضع المستكين ، والخصيم : المخاصم .
(٧) من همه بطنه ، أو الرغيب لا ينتمى من الأكل . (٨) الجشع : أسوأ الحرص . (٩) المرتجة الأرداف . (١٠) الملتفة الجسم . (١١) المطوية الخلق من النساء والمستديرة الساقين ، والجيداء : من الجيد بالتحريك ، وهوطول الرقبة ، أودقتها مع طول . (١٢) المريض . (١٣) استعنتبه : طلب إليه العتي (الرضا) وأعتبه أعطاه العتيبي .
(١٤) الناعمة .

الاسيلة^(١) الخدين ، الكاعب^(٢) الثديين ، الرذاح^(٣) الوركين ، الشاكرة للقليل ،
للمساعدة للخليل^(٤) ، الرخيمة^(٥) الكلام ، الجماء^(٦) العظام ، الكريمة الأخوال
والأعمام ، العذبة اللثام^(٧) .

قال : فأى النساء إليك أبغض يا عمرو ؟ قال : أقتاتته^(٨) الكذوب ، الظاهرة
العيوب ، الطوافة^(٩) المهبوب ، العابسة القطوب ، السبابة الوثوب ، التي إن أئتمنها
زوجها خانتها ، وإن لان لها أهانتها ، وإن أرضاها أعضبتها ، وإن أطاعها عصته ، قال :
ما تقول يا ربعة ؟ قال : بئس والله المرأة ذكر ! وغيرها أبغض إلى منها . قال : وأيتهن
التي هي أبغض إليك من هذه ؟ قال : السليطة^(١٠) اللسان ، المؤذية للجيران ، الناطقة
بالبهتان ، التي وجهها عابس ، وزوجها من خيرها آيس ، التي إن عاتبها زوجها وترته^(١١) ،
وإن ناطقها اتهرته . قال ربعة : وغيرها أبغض إلى منها . قال : ومن هي ؟ قال : التي
شقى صاحبها ، وخزى خاطبها ، وافتضح أقاربها . قال : ومن صاحبها ؟ قال : مثلها
في خصالها كلها ، لا تصلح إلا له ، ولا يصلح إلا لها . قال : فصفه لى . قال : الكفور
غير الشكور ، اللثيم الفجور ، العبوس الكالح^(١٢) ، الحرون الجامح ، الراضى بالهوان ،
المختال المنان ، الضعيف الجنان ، الجعد^(١٣) البنان ، القثول غير الفعول ، الملول غير
الوصول ، الذى لا يرع^(١٤) عن المحارم ، ولا يرتدع عن المظالم .

قال : أخبرنى يا عمرو : أى الخيل أحب إليك عند الشدائد ، إذا التقى الأقران
للتجالد ؟ قال : الجواد الأنيق ، الحصان العتيق ، الكفيمت^(١٥) العريق ، الشديد الوثيق ،
الذى يفوت إذا هرب ، ويكحق إذا طلب . قال : نعم الفرس والله نعت ! قال : فما تقول

(١) الأسيل من الحدود : الطويل المسترسل . (٢) كعب الثدي : نهد . (٣) الثقيلة العجيذة الضخمة
الوركين . (٤) الزوج . (٥) اللينة الكلام . (٦) التي ليس لعظامها حجم . (٧) المراد
موضع اللثام ، فهو على حذف مضاف . (٨) البتامة . (٩) الكثرة الانتباه ، والهيوب : الريح المثيرة
للغبار . (١٠) الطويلة . (١١) أحفظته وأغضبته . (١٢) كالج : تكشف فى عبوس .
(١٣) كناية عن البخل . (١٤) ورع : كورث كف . (١٥) السريع .

يا ربیعة؟ قال : غيره أحب إلى منه . قال : وما هو؟ قال : الحصان الجواد ، السلس القياد ، الشهم الفواد ، الصبور إذا سرى ، السابق إذا جرى .

قال : فأى الخيل أبغض إليك يا عمرو؟ قال : الجموح الطموح ، النكول^(١) الأنوح^(٢) ، الصئول^(٣) الضعيف ، الملول العنيف ، الذى إن جاربه سبقتة ، وإن طلبته أدركته . قال : ما تقول يا ربیعة؟ قال : غيره أبغض إلى منه . قال : وما هو؟ قال : البطيء الثقيل ، الحرّون الكليل ، الذى إن ضربته قمص ، وإن دنوت منه شمس^(٤) ، يدركه الطالب ، ويفوته الهارب ، ويقطع بالصاحب . قال ربیعة : وغيره أبغض إلى منه . قال : وما هو؟ قال : الجموح الخبوط^(٥) ، الرّكّوض الخروط^(٦) ، الشّموس الضروط^(٧) ، القطوف^(٨) فى الصعود والهبوط ، الذى لا یسلم الصاحب ، ولا ینجو من الطالب .

قال : أخبرنى يا عمرو أى العیش ألدّ؟ قال : عیش فى كرامة ، ونعم وسلامة ، واغتياب^(٩) مدامة . قال : ما تقول يا ربیعة؟ قال : نعم العیش والله وصف ! وغيره أحب إلى منه . قال : وما هو؟ قال : عیش فى أمن ونعم ، وعزّ وغنى عميم ، فى ظل نجاح ، وسلامة مساءً وصباح ، وغيره أحب إلى منه . قال : وما هو؟ قال : غنى دائم ، وعیش سالم ، وظلّ ناعم .

قال : فما أحب السيوف إليك يا عمرو؟ قال : الصقيل الحسام ، الباتر المجذام^(١٠) ، الماضى السطام^(١١) المرهف^(١٢) الصمصام^(١٣) ، الذى إن هزته لم يكب^(١٤) ، وإذا ضربت به لم ينب^(١٥) . قال : ما تقول يا ربیعة؟ قال : نعم السيف نعت ! وغيره أحب

(١) النكول : الذى ينكل عن قرنه . (٢) الكثير الزحير . (٣) كثير الصئيل : وصئيل الفرس : صهيله . (٤) شمس الفرس ، منع ظهره : فهو شامس وشموس . (٥) الكثير الخبط : وهو السير على غير هدى . (٦) الخروط : الدابة الجموح تجتذب رسلها من يد ممسكها ثم تمضى . (٧) الكثير الضراط . (٨) قطفت الدابة : ضاق مشيها فهي قطوف . (٩) اغتياب : شرب الغبوق ، وهو ما يشرب بالمشى ، والمدامة : الخمر كالمدام . (١٠) من الجذم : وهو القطع . (١١) الحد . (١٢) رهف السيف ، وأرهفه : رققه . (١٣) السيف لا ينثنى كالصمصامة . (١٤) لم يعثر . (١٥) لم يكمل عن الضريبة .

إلى . قال : وما هو ؟ قال : الحسام القاطع ، ذو الرّونق اللامع ، الظمآن الجائع ، الذى إن هزته هتَكَ^(١) ، وإذا ضربت به بَتَكَ^(٢) . قال : فما أبغض السيوف إليك يا عمرو ؟ قال : الفطّار^(٣) الكهام^(٤) ، الذى إن ضرب به لم يقطع ، وإن ذُبح به لم ينخع^(٥) . قال : فما تقول يا ربّيعة ؟ قال : بئس السيف والله ذكر ! وغيره أبغض إلىّ منه . قال : وما هو ؟ قال : الطّيب^(٦) الدّدان^(٧) ، المعضد^(٨) المهان .

قال : فأخبرنى يا عمرو : أى الرّماح أحبُّ إليك عند المرّاس ، إذا اعتكر البأس ، وأشتجّر الدّعاس^(٩) ؟ قال : أحبها إلىّ المارن^(١٠) المتقف ، المقوم المخطف^(١١) ، الذى إذا هزته لم ينعطف ، وإذا طعنت به لم ينقصف . قال : ما تقول يا ربّيعة ؟ قال : « نعم الرمح نعت ! وغيره أحبُّ إلىّ منه . قال : وما هو ؟ قال : الذابل^(١٢) العسال ، المقوم النّسال ، الماضى إذا هزته ، النافذ إذا همزته .

قال : فأخبرنى يا عمرو عن أبغض الرّماح إليك ؟ قال : الأصيل^(١٣) عند الطمان ، المثلم السّنان ، الذى إذا هزته انعطف ، وإذا طعنت به انقصف . قال : ما تقول يا ربّيعة ؟ قال : بئس الرمح ذكر ! وغيره أبغض إلىّ منه . قال : وما هو ؟ قال : الضعيف المهز^(١٤) ؛ اليباس الكز^(١٥) ، الذى إذا أكرهته انحطم ، وإذا طعنت به انقصم . قال : انصرفا ، الآن طاب لى الموت . (الأمال ١ : ١٥٢)

(١) مزق . (٢) قطع . (٣) الذى لا يقطع ، وهو مع ذلك حديث الطبع . (٤) سيف كهام : كليل . (٥) لم يبلغ النخاع . (٦) من الطبع : أى الصدا . (٧) الذى لا يقطع . (٨) القصير الذى يمتن فى قطع الشجر وغيرها . (٩) الطمان : دعه إذا طعنته . (١٠) المارن : مالان من الرمح ، والمتقف : المسوى بالثقف ، وهو مائسوى به الرماح . (١١) الخطف بضم فسكون : الضمر ، وإخطاف الحشى : انطواؤه ، ومنه فرس مخطف الحشى : أى ضامره ، ورجل مخطف كذلك ، ورمح مخطف أى دقيق . (١٢) قنا ذابل : أى دقيق لاصق بالليط (بكر اللام ، والليطة : قشر القنّاة) ، والعسال : الشديد الاضطراب إذا هزته ومنه العسلان بالتحريك ، وهو عدو فيه اضطراب ، والنسلان قريب منه . (١٣) الملتوى : المموج (١٤) مهزه كتمه : دفعه . (١٥) الكزازة : اليبس والانقباض كز فهو كز .

١١ - إحدى ملكات اليمن وخاطبوها

وذكروا أن ملكة كانت بسبباً^(١) ، فأتاها قوم يخطبونها ، فقالت : ليصف كل رجل منكم نفسه ، وليصدق وليؤجز ، لأتقدم إن تقدمت ، أو أدع إن تركت ، على علم ، فتكلم رجل منهم يقال له مُدْرِك ، فقال : « إن أبي كان في العز الباذخ^(٢) ، والحسب الشامخ ، وأنا شرس الخليقة ، غير رغديد^(٣) عند الحقيقة » قالت : لا عتاب على الجنادل فأرسلتها مثلاً^(٤) ، ثم تكلم آخر منهم ويقال له ضبيس بن شرس فقال : « أنا في مال أثيث^(٥) ، وخلق غير خييث ، وحسب غير عثيث^(٦) ، أحذو النعل بالنعل ، وأجزى القرض^(٧) بالقرض » فقالت : لا يسرك غائباً من لا يسرك شاهداً ، فأرسلتها مثلاً . ثم تكلم آخر منهم ، يقال له شماس بن عباس فقال : « أنا شماس ابن عباس ، معروف بالندی والباس ، حسن الخلق في سحابة ، والعدل في قضية ، مالى غير محذور على القل والكثر ، وبابى غير محبوب على العسر واليسر ، قالت : الخير متبع والشر محذور ، فأرسلتها مثلاً . ثم قالت : اسمع يا مدرك ، وأنت يا ضبيس ، لن يستقيم معكما معاشره لعشير حتى يكون فيكما ابن عريكة^(٨) ، وأما أنت يا شماس ، فقد حلت منى محل الأهزج^(٩) من الكنانة ، والواسطة^(١٠) من القلادة ، لدمائة^(١١) خلقك ، وكرم طباعك ، ثم اسمع مجدٍ أودع ، فأرسلتها مثلاً ، وتزوجت شماسا .

(مجمع الأمثال ٢ : ١١٨)

(١) سبياً : بلدة باليمن . (٢) العالى . (٣) الرعيد : الجبان . (٤) قال الميداني : « يضرب في الأمر الذى إذا وقع لامرده ، قاله أبو عمرو » . (٥) كثير : عظيم . (٦) لم أجد في كتب اللغة وصفاً من مادة عث على فاعيل ، وإنما الذى فيها « رجل عث بفتح العين أى ضئيل الجسم » وسياق الفواصل يرجح أن الوصف الذى هنا فاعيل ، وأرى أن معناه مشين معيب من عث العثة الصوف إذا أكلته فهو عثيث بمعنى معثوث . (٧) القرض : القطع . (٨) المريكة : الطبيعة ، ورجل ابن العريكة : أى سلس الخلق . (٩) الأهزج آخر سهم في الكنانة رديثاً كان أو جيداً أو هو أفضل سهامها لأنه يدخر لشدة أو هو أردوها ، والمراد هنا الثانى . (١٠) واسطة العقد : الجوهرة الفاخرة التى تجمل وسطه . (١١) المائة : السهولة .

١٢ - رواد مذحج يصفون ما ارتادوا من المراعي

عن أشياخ من بنى الحرث بن كعب قالوا :

« أَجْدَبَتْ بِلَادَ مَذْحِجٍ فَأَرْسَلُوا رُؤَادًا ^(١) ، مِنْ كُلِّ بَطْنٍ رَجُلًا ، فَبِعَثَتْ بَنُو زَيْبِدٍ رَائِدًا ، وَبِعَثَتْ النَّخَعُ رَائِدًا ، وَبِعَثَتْ جُعْفِيُّ رَائِدًا ، فَلَمَّا رَجَعَ الرُّوَادُ قِيلَ لِرَائِدِ بَنِي زَيْبِدٍ : مَا وَرَاءَكَ ؟ قَالَ : رَأَيْتُ أَرْضًا مُوشِمَةً ^(٢) الْبِقَاعِ ، نَاتِحَةً النَّقَاعِ ^(٣) ، مُسْتَحْلِسَةً الْغَيْطَانِ ^(٤) ضَاكِكَةً الْقُرْيَانِ ^(٥) وَاعْدَةً ^(٦) وَأَحْرَ بَوْفَاءَهَا ، رَاضِيَةً أَرْضُهَا عَنْ سَمَائِهَا . وَقِيلَ لِرَائِدِ جُعْفِيٍّ : مَا وَرَاءَكَ ؟ قَالَ : رَأَيْتُ أَرْضًا جَمَعَتْ السَّمَاءَ ^(٧) أَقْطَارَهَا ، فَأَمْرَعَتْ أَصْبَارَهَا ^(٨) ، وَدَيْبَتْ أَوْعَارَهَا ^(٩) ، فَبُطِنَانَهَا غَمِيقَةً ^(١٠) وَظَهْرَانَهَا غَدِيقَةً ^(١١) ، وَرِيَاضَهَا مُسْتَوْسِقَةً ^(١٢) ، وَرَقَاقَهَا رَائِخًا ^(١٣) ، وَوِاطِنَهَا سَائِخًا ^(١٤) ، وَمَاشِيَهَا ^(١٥) مَسْرُورًا ، وَمُضْرِمُهَا ^(١٦) مَحْسُورًا . وَقِيلَ لِلنَّخَعِيِّ مَا وَرَاءَكَ ؟ فَقَالَ : « مَدَاحِي ^(١٧) سَيْلٍ ، وَزُهَاءٌ ^(١٨) لَيْلٍ ،

(١) الرواد : جمع رائد ، وهو المرسل في طلب الكلاء . (٢) أوشمت الأرض : إذا بدا فيها شيء من النبات (وأوشمت السماء : إذا بدا فيها برق) . (٣) النقاع : جمع نقع (كشمس) وهو الأرض الحرة الطين يستنقع فيها الماء ، ونايحة : أي راشحة ، من التتح وهو خروج العرق من الجلد . (٤) الغوط ، والغيط ، والفاط ، والفاائط : المطنن الواسع من الأرض وجمعه غوط (بالضم) وأغواط وغيطان ، وغياط ، واستحلس النبت : إذا غطى الأرض أو كاد يغطيها . (٥) القرينان : مجارى الماء من الربو إلى الرياض جمع قرى كفى . (٦) أي تعد تمام نباتها وخيرها ، وأحر : أخلق . (٧) السماء هنا : المطر ، يريد أن المطر جاد بها ، فطال النبت ، فصار المطر كأنه قد جمع أكنافه . (٨) مرع الوادى مثلث الراء مراعاة وأمرع : أعشب وأخصب فهو مرعي ومرع ، وأصبارها : نواحيها جمع صبر بالكسر والضم . (٩) ديبت : لينت . (١٠) البطنان : جمع بطن ، وهو الغامض من الأرض أى المطنن منها ، وغمقة : ندية . (١١) الظهران : جمع ظهر ، وهو ما ارتفع يسيرا ، وغدقة : كثيرة البلل والماء . (١٢) منتظمة . (١٣) الرقاق : الأرض اللينة من غير رمل ، ورائخ : مفرط اللين ، يقال : ربحت العجين إذا كثرت مائه ، ورائخ العجين يريخ . (١٤) أي تسوخ رجلاه في الأرض من لينها ، وتسوخ وتثوخ واحد . (١٥) الماشى : صاحب المشاية ، مشى الرجل وأمشى : كثرت ماشيته . (١٦) المصرم : الفقير المقل . (١٧) مداحى : جمع مدحى اسم مكان من دحا الأرض يدحوها ويدحاها دحوا : أي بسطها . (١٨) الزهاء : الشخص ، وإنما جعل نباتها زهاء ليل لشدة خضرته .

وَعَثِيلٌ^(١) يُوَاصِي غَيْبًا ، قَدْ ارْتَوَتْ أَجْرَازُهَا^(٢) ، وَدُمَّتْ عَزَاؤُهَا^(٣) ، وَالتَّبِيدَتْ
أَقْوَاؤُهَا^(٤) ، فَرَأَيْدَهَا أُنِقَ^(٥) وَرَاعِيهَا سَنِقَ^(٦) فَلَا قَضَضَ وَلَا رَمَضَ^(٧) ، عَازِبُهَا^(٨)
لَا يُفْزَعُ ، وَوَارِدُهَا لَا يُنْكَعُ^(٩) ، فَاخْتَارُوا مَرَادَ^(١٠) النَّخْمِيِّ . (الأماك ١ : ١٨٣)

١٣ - مادار من الحديث بين المنذر بن النعمان الأكبر

و بين عامر بن جوين الطائي

وفد عامر بن جوين الطائي على المنذر بن النعمان الأكبر ، جد النعمان بن المنذر ،
وذلك بعد انقضاء ملك كندة ، ورجوع الملك إلى تخلم ، وكان عامر قد أجاز امرأ القيس
ابن حُجْر ، أيام كان مقبلاً بالجبلين^(١١) ، وقال كلمته التي يقول فيها :
هَذَاكَ لَا أُعْطِي مَلِيكَ ظُلَامَةً وَلَا سُوقَةً حَتَّى يَثُوبَ ابْنُ مَنَدَلَةَ^(١٢)

(١) الغيل : الماء الجارى على وجه الأرض ، ويواصل : يواصل . (٢) الأجزاء : جمع جزر
(بضمتين) وهى التي لم يصبها المطر ، أو التي قد أكل نباتها ، أو التي لا تنبت . (٣) دمت : لين
(وروى دمت كفرح) ودمت : لان ، والعزاز : الأرض الصلبة . (٤) الأقواز جمع قوز
(كشمس) : وهو المستدير من الرمل . (٥) أى معجب بالمرعى . (٦) من سنق كفرح أى بشم وانخم ،
وراعيا : الذى يرهاها . (٧) القفضض : الحصى الصغار ، يريد أن النبات قد غطى الأرض فلا ترى
هناك قفضضا ، والرمض : أن يحصى الحصى والحجارة من شدة الحر ، يقول : ليس هناك رمض ، لأن النبات
قد غطى الأرض . (٨) العازب : الذى يعزب بابله أى يبعد بها فى المرعى . (٩) أى لا يمنع .
(١٠) أى مرعى . (١١) الجبلان : سلمى وأجأ (كجيل) شرق المدينة ، وهما طي ، قال رجل من
بنى سلامان جاورنى طي :

ألفت مساكن الجليلين إني رأيت الغوث يألفها الغريب

(والغوث قبيلة من طيء) . (١٢) قال صاحب اللسان : « ابن مندلة رجل من سادات العرب ، قال
عمرو بن جوين فيما زعم السيرافي ، أو امرؤ القيس فيما حكى الفراء :

وآليت لا أعطى مليكا مقادق ولا سوقة حتى يثوب ابن مندله »

وقال الميداني فى شرح المثل « لاغزو إلا التعقيب » - ج ٢ : ص ١٣١ - : « يقال عقب الرجل :
وهو أن يغزو مرة ثم يثوب من سنته ، وأول من قال ذلك حجر بن الحارث بن عمرو آكل المرار (أبو امرئ) =

وكان المنذر ضغينا عليه ، فلما دخل عليه قال له : يا عامر ، لَسَاءَ مَثْوَى أَثْوَيْتَهُ رَبِّكَ وَثَوِيكَ^(١) ، حين حاولت إصباؤه طَلَّتِهِ^(٢) ومخالفتَهُ إلى عشيره ، أما والله لو كنت كَرِيماً لأثويتَهُ مُكْرَمًا مُوقَرًا ، ولجانبتَهُ مُسَلِّمًا ، فقال له : أبيتَ اللعن^(٣) لقد عَلِمْتُ

(= القيس) وذلك أن الحرث بن مندلة ملك الشام ، وكان من ملوك سليح من ملوك الضجاعم (سليح كجريح قبيلة باليمن ، والضجاعم كانوا ملوكا بالشام) وهو الذي ذكره مالك بن جويرين الطائي في شعره فقال :

هنالك لا أعطى رئيسا مقادة ولا ملكا حتى يثوب ابن مندله

وكان قد أغار على أرض نجد ، وهي أرض حجر بن الحارث هذا ، وذلك على عهد بهرام جور ، وكان بها أهل حجر فوجد القوم خلوفا ، (الخلوف بالضم : الذين ذهبوا من الحى ، ومن حضر منهم أيضا) ووجد حجرا قد غزا أهل نجران ، فاستاق ابن مندلة مال حجر ، وأخذ امرأته هند الهنود (وهي هند بنت ظالم بن وهب بن الحرث بن معاوية) ووقع بها فأعجبها ، وكان آكل المرار شيئا كبيرا ، وابن مندلة شابا جميلا ، فقالت له : النجاء النجاء ، فإن ورامك طالبا حثيثا ، وجمعا كثيرا ، ورأيا صليبا ، وحزما وكيدا ، فخرج ابن مندلة مغذا إلى الشام (أى مسرعا) فلما رجع حجر وجد ماله قد استيق ، ووجد هنداً قد أخذت ، فقال : من أغار عليكم ؟ قالوا ابن مندلة ، قال : مذكم ؟ قالوا : ثمانى ليال ، فقال حجر : لاغزو إلا التعميب ، فأرسلها مثلا يعني غزوه الأول والثاني .

ثم جد في طلب ابن مندلة ، حتى دفع إلى واد دون منزل ابن مندلة فكن فيه ، وبعث سدوس ابن شيبان ، فقال له . اذهب متكررا إلى القوم حتى تعلم لنا علمهم ، فانطلق حتى انتهى إلى ابن مندلة ، ثم رجع إلى حجر فحدثه بحديث امرأته مع ابن مندلة ، فضرب حجر بيده على المرار (والمرار كغراب : شجرة مرة إذا أكلت منها الإبل تقلصت مشافرها) فأكل منها من الغضب ، فسمته العرب آكل المرار ، (وقيل : آكل المرار هو أبوه الحارث) ، ثم خرج حتى أغار على ابن مندلة فقتله ثم قتل هنداً وأنشأ يقول :

إن من يأمن النساء بشيء بعد هند لجاهل مغرور

كل أنثى وإن تبينت منها آية الحب ، حبها خيتعور

(والحيتعور : كل شيء لا يدوم على حالة واحدة ، ويضمحل كالمراب ، وكالذي ينزل من الهواء في شدة الحر كنسج العنكبوت) .

وذكر أبو الفرج الأصبهاني هذه القصة في الأغاني (١٥ : ٨٢) ولكنه روى أن الذى أغار على حجر هو زياد بن الهبولة قال : « ثم إن زياد بن الهبولة بن عمرو بن عوف بن ضجعم بن حاطة بن سعد ابن سليح القضاعى أغار عليه وهو ملك في ربيعة بن نزار ، وكان قد غزا بريعة البحرين فبلغ زيادا غزاه فأقبل حتى أغار في مملكة حجر فأخذ مالا كثيرا وسبي امرأة حجر إلى آخر القصة » .

(١) ثوى المسكان وبه : نزل ، وأثواه : أضافه ، والمثوى : المنزل ، والثوى : كفى البيت المهيباً له ، والضيف وهو المراد هنا . (٢) الطلة المعجوز ، وصبا الرجل مال إلى الجهل والفتوة وأصبته المرأة والمراد حاولت رد عزه السالف إليه . (٣) أبيت اللعن : تحية جاهلية أى أبيت أن تأتى ماتلن به .

أبناءه أدد^(١) إني لأعزها جاراً ، وأكرمها جواراً ، وأمنعها داراً ، ولقد أقام وافرأ ،
 وزال شاكرأ ، فقال له المنذر : « يا عامر ، وإنك لتخال هُضَيَّاتِ أَجَا ذَاتِ الوِبَارِ^(٢) ،
 وَأَفْنِيَّاتِ سَمَى ذَاتِ الأَغْفَارِ^(٣) ، مَا نِعَاتِكَ مِنَ المَجْرِ^(٤) الجَرَّارِ ، ذِي العَدَدِ الكَثَارِ^(٥)
 وَالْحُصْنِ وَالمِهَارِ^(٦) والرماحِ الحِرَارِ^(٧) ، وكل ماضى الغرَّارِ^(٨) ، بيد كل مسعرٍ كريمٍ
 النَّجَّارِ^(٩) ؟ قال عامر : أبيت اللعن ، إن بين تلك الهُضَيَّاتِ وَالرَّعَانِ^(١٠) والشعَابِ
 وَالمُصْدَانِ^(١١) لَفَتِيَانَا أَبطالاً ، وكهولاً أزوَالاً^(١٢) ، يضرِبون القَوَانِسَ^(١٣) ويستنزِلون
 الفوارسَ ، بالرماحِ المَدَاعِسِ^(١٤) لم يَتَّبِعُوا الرِّعَاءَ^(١٥) ، ولم تُرَشِّحْهُمْ^(١٦) الإِماءُ ، فقال
 الملك : يا عامر لو قد تجاوزت الخيل في تلك الشعاب صهيلاً ، كانت الأصوات قَعْقَعَةً^(١٧)
 وصليلاً ، وَفَمَرَ المَوْتُ^(١٨) ، وأعجز القَوْتُ ، فتقارشت الرِّمَاحُ^(١٩) وَحَمَى السِّلاحُ ،
 لَتَسَاقَى قَوْمُكَ كَأَسَا لا صَحْوَ بَعْدَهَا ، فقال مهلاً أبيت اللعن ، إن شَرَّ ابْنًا وَبَيْلًا ،

(١) هو ادد بن زيد بن يشجب (بضم الجيم) بن عريب (بفتح العين) بن زيد بن كهلان بن سبأ
 ابن يشجب بن يعرب بن قحطان ، وبنو أدد : هم مذحج وطبي والأشعر .
 (٢) الوبار : شجرة حامضة شائكة . (٣) الغفر بالتحريك : صغار الكلاب .
 (٤) المجر : الجيش العظيم . (٥) الكثير . (٦) الحصن : جمع حصان ، وهو الفرس الذكور ،
 والمهارة : جمع مهر ، وهو ولد الفرس . (٧) الحرار والأحرار : جمع حر ، وهو خيار كل شيء .
 (٨) الغرار : حد الرمح والسهم والسيف . (٩) يقال هو مسعر حرب : أى موقد نارها كأنه
 آلة لسعر الحرب أى إيقادها ، والنجار : الأصل .
 (١٠) الرعان : جمع رعن (كشمس) وهو أنف يتقدم الجبل ، والجبل الطويل ويجمع أيضاً على
 رعون .

(١١) الشعب : بالفتح الجبل ، وبالكسر : الطريق في الجبل ، ومسيل الماء في بطن أرض ، أو ما انفرج
 بين الجبلين ، المصد (كشمس وكتف) والمصاد (كسحاب) الهضبة العالية وجمعه أمصدة ومصدان .
 (١٢) أزال : جمع زول ، وهو الشجاع . (١٣) القوانس : جمع قونس كجعفر ، والقونس
 والقونوس : أعلى بيضة الحديد . (١٤) المداعس : جمع مدعس ، وهو الرمح الذى لا يثنى .
 (١٥) الرعاء : بالضم والكسر ، الرعاة : جمع راع . (١٦) الترشيح : التربية .
 (١٧) القعقعة : حكاية صوت السلاح ، وتحريك الشيء اليابس الصلب مع صوت .
 (١٨) فمر الموت فاه : أى فتحه . (١٩) تقارشت الرماح : تداخلت في الحرب .

وَحَدَّنَا أَلِيلٌ^(١) ، وَمُعْجَمًا صَلِيبٌ^(٢) ، وَلِقَاءَنَا مَهَيْبٌ ، فَقَالَ لَهُ : يَا عَامُ إِنَّهُ لَقَلِيلٌ بَقَاؤُهُ ،
الصَّخْرَةَ الصَّرَاءَ^(٣) عَلَى وَقَعِ الْمَلَّاطِيسِ^(٤) ، فَقَالَ : آيَاتُ اللَّعْنِ ، إِنَّ صِفَاتِنَا عِبْرٌ
الْمَرَادِيسِ^(٥) ، فَقَالَ : لَا وَقِظَنَّ قَوْمَكَ مِنْ سِنَةِ الْغَفْلَةِ . ثُمَّ لَا تُعْقِبْتَهُمْ بَعْدَهَا رَقْدَةً
لَا يَهْبُ رَاقِدًا ، وَلَا يَسْتَيْقِظُ هَاجِدًا^(٦) ، فَقَالَ لَهُ عَامِرٌ : إِنَّ الْبَغْيَ أَبَادَ عَمْرًا^(٧) ،
وَصَرَاعَ حُجْرًا^(٨) ، وَكَانَا أَعَزَّ مِنْكَ سُلْطَانًا ، وَأَعْظَمَ شَأْنًا ، وَإِنْ لَقِينَا لَمْ تَلْقَ أَنْكَاسًا

(١) حاد ، والله تأنيلا حده . (٢) عجم العود كنصر : إذا عضه ليعرف صلابته من خوره ،
والمعجم اسم مكان منه وصليب أى صلب ، وهو كناية عن شدتهم ومنعتهم . (٣) صخرة صراء : صماء .
(٤) الملتطس : كمنبر ، والمملطاس : الممول الغليظ لكسر الحجارة . (٥) الصفاة : الحجر الصلد الضخم ،
ويقال ناقة عبر أسفار (بتثليث العين) أى قوية على السفر تشق مامرت به ، تقطع الأسفار عليها ، وكذا
الرجل الجرىء على الأسفار الماضى فيها القوى عليها ، والمردس والمرداس : شئ صلب عريض تدك به الأرض ،
وردها دكها به وردس الحجر بالحجر (كنصر وضرب) كسره ، ومعنى العبارة إن صفاتنا تحمل ذلك المراديس
فلا تتحطم تحتها ، كناية عن صلابتهم وشدتهم . (٦) الهجود : النوم .

(٧) هو عمرو بن المنذر بن ماء السماء ملك الخيرة ، وكان يلقب مضرط الحجارة لشدة ملكه ، وقوة
سياسته (وهو عمرو بن هند) وأمه هند بنت الحارث بن عمرو عمه امرئ القيس بن حجر بن الحارث ،
وكان سبب قتله أنه قال يوما لجلسائه : هل تعلمون أن أحدا من العرب يأنف أن تحلم أمه أمى ؟ قالوا :
مانعرفه إلا أن يكون عمرو بن كلثوم التغلبي ؛ فإن أمه ليلى بنت مهلهل بن ربيعة ، وعمها كليب وائل ،
وزوجها كلثوم بن عتاب ، وأبنا عمرو ، فسكت مضرط الحجارة على ما فى نفسه وبعث إلى عمرو بن كلثوم
يستزيره ، ويسأله أن تزور أمه أمه ، فقدم عمرو بن كلثوم فى فرسان من بنى تغلب ، ومعه أمه ليلى ، فنزل
على شاطئ الفرات ، وبلغ عمرو بن هند قدمه ، فأمر فضربت خيامه بين الخيرة والفرات ، وأرسل إلى
وجوه أهل ملكته ، فصنع لهم طعاما ، ثم دعا الناس إليه فقرب إليهم الطعام على باب السراشق ، وجلس هو
وعمر بن كلثوم وخوادم أصحابه فى السراشق ، ولأمه هند قبة فى جانب السراشق ، وليلى أم عمرو
ابن كلثوم معها فى القبة « وقد قال مضرط الحجارة لأمه إذا فرغ الناس من الطعام ولم يبق إلا الطرف
فنحى خدمك عنك ؛ فإذا دنا الطرف فاستخدمى ليلى ومرها فتناولك الشئ بعد الشئ ، ففعلت هند
ما أمرها به ابنها ، فلما استدعى الطرف ، قالت هند لليلى : ناو ليلى ذلك الطبق . قالت لتقم صاحبة الحاجة إلى
حاجتها ، فألحت عليها ، فقالت ليلى : واذا له يا آل تغلب فسمها وادها عمرو بن كلثوم ، فثار الدم فى وجهه
والقوم يشربون ، فعرف عمرو بن هند الشر فى وجهه وثار ابن كلثوم إلى سيف ابن هند وهو معلق فى
السراشق وليس هناك سيف غيره فأخذه ، ثم ضرب به رأس مضرط الحجارة فقتله ، وخرج فنادى يا آل
تغلب فاتمبوا ماله وخيله ، وسبوا النساء ، وساروا فلاحقوا بالخيرة (تاريخ الكامل لابن الأثير ١ :
(٨) هو حجر بن الحارث (أبو امرئ القيس) وقد تقدم خبره . (١٩٧)

ولا أغسأسا^(١) ، فهبش^(٢) وضائعتك^(٣) وصنائعتك^(٤) ، وهلم^(٥) إذا بدالك ، فنحن الآلى^(٦) قسطوا^(٧) على الأملاك قبلك ، ثم أتى راحلته فركبها ، وأنشأ يقول :

تَعَلَّمْ (أَبَيْتَ اللَّعْنَ) أَنْ قَنَاتَنَا تَزِيدُ عَلَى غَمْرِ الثَّقَافِ تَصَعَّبًا^(٨)
 أَتُوْعِدُنَا بِالْحَرْبِ ؟ أُمُكَ هَابِلٍ رُوَيْدِكَ بَرَقًا ، لَا أَبَا لَكَ ، خُلْبًا^(٩)
 إِذَا خَطَرْتُ دُونِي جَدِيلَةٌ بِالْقَنَا وَحَامَتِ رِجَالُ الْغَوْثِ دُونِي تَحْدُبًا^(١٠)
 أَبَيْتُ الَّتِي تَهْوَى ، وَأَعْطَيْتُكَ الَّتِي تَسُوقُ إِلَيْكَ الْمَوْتَ أَخْرَجَ أَكْهَبًا^(١١)
 فَإِنْ شَدَّتْ أَنْ تَزْدَارِنَا فَاتٍ تَعْتَرِفُ رِجَالًا يُذِيلُونَ الْحَدِيدَ الْمُعْقَرَبًا^(١٢)
 وَإِنَّكَ لَوْ أَبْصَرْتَهُمْ فِي مَجَاهِلِهِمْ رَأَيْتَ لَهُمْ جَمْعًا كَثِيفًا وَكَوْ كِبَا^(١٣)
 وَذَكَرَكَ الْعَيْشَ الرَّخِيَّ جِلَادُهُمْ وَمَلَهَى بِأَكْنَفِ السَّيْرِ وَمَشْرَبًا^(١٤)
 فَأَغْضَى عَلَى غَيْظٍ وَلَا تَرْمِ الَّتِي تُحَكِّمُ فِيكَ الزَّاعِيَّ الْمُحْرَبًا^(١٥)

(ذيل الأمل ص ١٧٩)

- (١) الأنكاس : جمع نكس بالكسر وهو الضعيف ، والأغساس : جمع غس بانضم وهو الضعيف أيضا .
 (٢) هبش : جمع ، والوضائع : جمع وضيمة ، أثقال القوم وما يأخذه السلطان من الخراج والعشور .
 والصنائع : جمع صنعة : يقال هو صنعة فلان ، وصنيعه إذا اصطنعه وأدبه وخرجه ورباه ، والمعنى :
 فجهز للحرب ، واجمع الأموال اللازمة لذلك واحشد رجالك المدربين على القتال . (٣) أى جاروا .
 (٤) الثقف : ماتسوى به الرماح . (٥) هيلته أمه (كفرح) فقدته ، والبرق الخلب : المطمع
 المخلف . (٦) خطر الرجل سيفه ورمحه : رفعه مرة ووضعته أخرى ، وجديلة والغوث من
 طي ، وتحذب به تعلق ، وتحذب عليه تعطف . (٧) الخرج كسبب : لونان من بياض وسواد خرج
 كفرح فهو أخرج ، وظليم أخرج : وهو الذى لون سواده أكثر من بياضه كلون الرماد ، والكهية : الدهمة
 (السواد) أو غبرة مشربة سوادا ، كهب كفرح وكرم فهو أكهب وكاهب . (٨) ازداره : زاره
 (انتقل من الزيارة) واعترف الشيء عرفه ، وأذال ثوبه : إذا أطال ذيله قال كثير :

على ابن أبي العاصمى دلاص حصينة اجاد المسدى سردها فأذاها

- والحديد : الدروع ، وشيء معقرب : أى معوج معطوف ، يريد أنها دروع مزرودة (الزرد والسردي
 بالفتح : تداخل حلق الدرع بعضها فى بعض) والمعنى تجد أبطالا قد لبسوا الدروع السابغة المزرودة ، وهناك
 معنى آخر وهو : يقال أذال فرسه إذا أهانه ؛ والحديد : أى الفرس الحديد السير أى السريع ، والمعقرب
 الشديد الخلق المجتمع . ومار معقرب الخلق أى ملزج مجتمع شديد ، فالمعنى : تجد أبطالا يجهدون فى ميدان
 القتال أفراسهم كرا وصولا على الأهداء . (٩) الكوكبة : الجماعة . (١٠) السدير والخورنق :
 قصران بناهما النعمان الأكبر بالحيرة . (١١) الريح الزاعجى : هو الذى إذا هز كأن كعوبه يجرى
 بعضها فى بعض لينة ، والحرب : المحدد .

١٤ - قيس بن رفاعة والحارث بن أبي شمير الغساني

كان قيس بن رفاعة يفتد سنة إلى الثمان اللخمي بالعراق ، وسنة إلى الحارث ابن أبي شمير الغساني بالشام^(١) ، فقال له يوماً وهو عنده : يا ابن رفاعة ، بلغني أنك تفضل النعمان^(٢) على^(٣) ؟ قال :

« وكيف أفضله عليك أبيت اللعن ؟ فوالله لثقفاك أحسن من وجهه ، ولأثرك أشرف من أبيه ، ولأبوك أشرف من جميع قومه ، ولشمالك أجود من يمينه ، ولحرمائك أنفع من نداءه ، ولقليلك أكثر من كثيره ، ولثيادك^(٤) أغزر من غديره ، ولكرسيك أرفع من سريره ، ولجدولك أغمر من بحوره ، وليومك أفضل من شهره ، ولشهرك أمد من حوله ، ولحولك خير من حقه^(٥) ، ولزئدك أورى من زنده ، ولجندك أعز من جنده ، وإنك لمن غسان أرباب الملوك ، وإنه لمن نخم الكثير النوك^(٦) ، فكيف أفضله عليك^(٧) ؟ » .

(الأمل ١ : ٢٦١ ومروج الذهب ١ : ٢٩٨)

١٥ - قيس بن خفاف البرجمي وحاتم طيء

أتى أبو جُبَيْل قيس بن خفاف البرجمي حاتم طيء ، في دماء حملها عن قومه ، فأسلموه^(٧) فيها ، وعجز عنها ، فقال : والله لآتين من يحملها عنى ، وكان شريفاً شاعراً ، فلما قدم عليه قال : « إنه وقعت بين قومي دماء فتوا كلوها ، وإنى حملتها في مالي وأملى ،

(١) كان المناذرة ملوك الحيرة من نخم ، والغساسنة : ملوك الشام من الأزدي . فكلاهما من أصل يمني ، وكان بينهما أحقاد وأصغان وحروب . (٢) النعمان بن المنذر . (٣) انتماد : الماء القليل لا مادة له . (٤) الحقب بالضم وبضمين : ثمانون سنة أو أكثر ، والدهر ، والسنة أيضاً . (٥) النوك بالضم والفتح : الحق . (٦) وذكر المسعودي أن هذا الحديث كان بين حسان بن ثابت الأنصاري ، وبين الحارث بن أبي شمير . (٧) خذلوه .

فَقَدَّمْتُ مَالِي ، وَكُنْتُ أُمَلِي ، فَإِنْ تَحْمَلُهَا فَرَبِ حَقِّ قَضِيَّتِهِ ، وَهَمَّ قَدْ كَفَيْتَهُ ،
وَإِنْ حَالَ دُونَ ذَلِكَ حَائِلٌ لَمْ أَذْمِمْ يَوْمَكَ ، وَلَمْ أَيْأَسْ مِنْ غَدِكَ . ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ :

حَمَلْتُ دِمَاءَ لِلْبِرَاجِمِ جَمَّةً^(١) فَجِئْتُكَ لِمَا أَسْلَمْتَنِي الْبِرَاجِمُ^(١)

وَقَالُوا (سَفَاها) لِمَ حَمَلْتَ دِمَاءَنَا فَقُلْتُ لَهُمْ يَكْفِي الْحِمَالَةَ حَاتِمُ^(٢)

مَتَى آتَاهَا فِيهَا يَقُولُ لِي مَرْحَبًا وَأَهْلًا وَسَهْلًا أَخْطَأْتُكَ الْأَشَائِمُ^(٣)

فِيحْمَلُهَا عَنِّي ، وَإِنْ شِئْتَ زَادَنِي زِيَادَةٌ مَنُ حَنَّتْ إِلَيْهِ الْمَكَارِمُ

يَعِيشُ النَّدَى مَا عَاشَ حَاتِمٌ طَيِّبٌ فَإِنْ مَاتَ قَامَتْ لِلسَّخَاءِ مَاتِمُ

يُنَادِينُ مَاتَ الْجُودُ مَعَكَ فَلَا نَرَى مَجِيئًا لَهُ مَا حَامَ فِي الْجَوْ حَاتِمُ

وَقَالَ رِجَالٌ أَنَّهُ بَ الْعَامُ مَا لَهُ فَقُلْتُ لَهُمْ إِنِّي بِذَلِكَ عَالِمٌ^(٤)

وَلَكِنَّهُ يَعْطَى مِنْ أَمْوَالِ طَيِّبٍ إِذَا جَلَّفَ الْمَالَ الْحَقُوقُ الْوَلَايِمُ^(٥)

فَيُعْطَى الَّتِي فِيهَا الْغِنَى وَكَانَهُ لِتَصْغِيرِهِ تِلْكَ الْعَطِيَّةَ جَارِمُ^(٦)

بِذَلِكَ أَوْصَاهُ عَدِيٌّ وَحَشَرَ حَجٌّ وَوَعَدُ وَعَبَدَ اللَّهُ تِلْكَ الْقِيَامُ^(٧)

فَقَالَ لَهُ حَاتِمٌ : إِنْ كُنْتُ لِأَحَبِّ أَنْ يَأْتِيَنِي مِثْلَكَ مِنْ قَوْمِكَ ، هَذَا مِرْبَاعِي^(٨) مِنَ
النَّارَةِ عَلَى بَنِي تَمِيمٍ ، فَخُذْهُ وَافِرًا ، فَإِنْ وَفَى بِالْحِمَالَةِ ، وَإِلَّا أَكَلْتَهَا لَكَ ، وَهُوَ مَائِنَا بَعِيرٌ
سِوَى بَنِيهَا وَفِصَالُهَا ، مَعَ أَنِّي لَا أَحِبُّ أَنْ تُؤَيِّسَ قَوْمَكَ بِأَمْوَالِهِمْ ، فَضَحَكَ أَبُو جُبَيْلٍ
وَقَالَ : لَكُمْ مَا أَخَذْتُمْ مِنَّا ، وَلَنَا مَا أَخَذْنَا مِنْكُمْ ، وَأَيُّ بَعِيرٍ دَفَعْتَهُ إِلَيَّ ، لَيْسَ ذَنْبُهُ
فِي يَدِ صَاحِبِهِ ، فَأَنْتَ مِنْهُ بَرِيءٌ ، فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ وَزَادَهُ مِائَةَ بَعِيرٍ ، فَأَخَذَهَا وَانصَرَفَ رَاجِعًا
إِلَى قَوْمِهِ . فَقَالَ حَاتِمٌ فِي ذَلِكَ :

(١) البراجم من تميم . (٢) السفاه : السفه . والحماله : الدية يحملها قوم عن قوم .
(٣) الأشائم : ضد الأيامن . (٤) أنهب المال : جملة نهبها يغار عليه . (٥) أي جرفته وانتقصه .
(٦) جرم الرجل (بفتح الحين) : أذنب كأجرم . (٧) جمع ققام : وهو السيد . (٨) المربع : ربع
الغنيمة ، وكان يختص به قائد الغارة وفارسها .

أَنَايَ الْبُرْجِيِّ أَبُو جُبَيْلٍ لَهْمٌ فِي حَمَالَتِهِ طَوِيلِ
فَقَلْتُ لَهُ خُذِ الْمَرْبَاعَ رَهْوًا فَإِنِّي لَسْتُ أَرْضَى بِالْقَلِيلِ (١)
عَلَى حَالٍ ، وَلَا عَوَّدْتُ نَفْسِي عَلَى عَائِلَتِهَا عِلَلِ الْبَخِيلِ
فَنَزَعْنَا مِنْهَا مَائِنًا بِعِيرِ سَوَى النَّابِ الرَّذِيَّةِ وَالْفَصِيلِ (٢)
فَلَا مَنْ عَلَيْكَ بِهَا ، فَإِنِّي رَأَيْتُ الْمَنْ يُزْرَى بِالْجَزِيلِ
فَأَبَ الْبُرْجِيِّ وَمَا عَلَيْهِ مِنْ أَعْبَاءِ الْحَمَالَةِ مِنْ فَتِيلِ
يَجْرُ الذَّلِيلُ يَنْفُضُ مَذْرُوبَهُ خَفِيفَ الظَّهْرِ مِنْ حَمَلِ ثَقِيلِ (٣)

(ذيل الأماك ٢٢ ، والأغانى ٧ : ١٤٥)

١٦ - مقال قبيصة بن نعيم لامرئ القيس بن حجر

قدم على امرئ القيس بن حجر الكندي بعد مقتل أبيه رجال من قبائل بني أسد
وفيهم قبيصة بن نعيم يسألونه العفو عن دم أبيه (٤) ، فخرج عليهم في قباء وخف وعمامة
سوداء - وكانت العرب لا تقم بالسواد إلا في الترات - فلما نظروا إليه قاموا له ، وبدر
إليه قبيصة فقال :

« إنك في المحلِّ والقدر ، والمعرفة بتصرف الدهر ، وما مُحدثه أيامه ، وتنتقل به
أحواله ، بحيث لا تحتاج إلى تذكير من واعظ ، ولا تبصير من مجرب ، ولك من سودد
منصبك ، وشرف أعراقك (٥) ، وكرم أصلك في العرب ، محتد (٦) يحتمل ما حمل عليه

(١) يقال : آتيتك به رهوا أى آتيتك به عفوا سهلا لا احتباس فيه . (٢) الناقة المسنة ، والرذية :

مؤنث الرذى ، وهو الضعيف من كل شيء ومن أثقله المرض . (٣) المذروان . أطراف الألية

بلا واحد أو هو المذرى ، ومن الرأس ناحيته ، ويقال جاء ينفض مذرويه . أى باغيا مهتدا .

(٤) وكانت بنو أسد (وهم من المضرية) خاضعة للملوك كندة ، وآخر ملك عليهم هو حجر

أبو امرئ القيس ، وقد ثاروا عليه وقتلوه لأنه كان قد عسف في حكمه لهم ، واشتط عليهم في الإتاوة التى

يؤدونها إليه . (٥) الأعراق : جمع عرق وهو أصل كل شيء . (٦) المحتد : الأصل .

من إقالة العثرة ، ورجوع عن الحقوة ، ولا تتجاوز المهم إلى غاية إلا رجعت إليك ، فوجدت عندك من فضيلة الرأي ، وبصيرة الفهم ، وكرم الصفح ، ما يطول رغباتها ، ويستغرق طلباتها ، وقد كان الذي كان من الخطب الجليل ، الذي عمّت رزيتة نزاراً واليمن ، ولم تُخصَّصْ بذلك كندة دوننا ، للشرف البارع كان لحجر ، التاج والعمّة فوق الجبين الكريم ، وإخاء الحمد وطيب الشيم ، ولو كان يُفدى هالك بالأنفس الباقية بعده لما بخلت كرامتنا بها على مثله ، ولكنه مضى به سبيل لا يرجع أخراه على أولاه ، ولا يُلحق أقصاه أدناه .

فأحمد الحالات في ذلك أن تعرف الواجب عليك في إحدى خلال ثلاث :
إمّا أن اخترت من بني أسد أشرفها بيتاً ، وأعلاها في بناء المكرّمات صوتاً ، فقدناه إليك بنسعة^(١) ، تذهب مع شفرات حُسامك بياقي قصرته^(٢) ، فنقول : رجل امتحن بهالك عزيز ، فلم يستلّ سخيمته^(٣) إلا تمكينه من الانتقام . أو فداء بما يروح^(٤) على بني أسد من نعمها ، فهي ألوف تجاوز الحسبة ، فكان ذلك فداء رجعت به القُضب^(٥) إلى أجانها ، لم يرددها تسليط الإحن^(٦) على البرآء . وإما أن وادعنا إلى أن تضع الحوامل ، فتسُد الأزر ، وتُعقد الخمر فوق الرايات .

فبكي امرؤ القيس ساعة ، ثم رفع رأسه فقال :

(١) النسع : سير عريض تشد به الرحال ، والقطعة منه نسعة . (٢) القصرة : أصل العتق .
(٣) السخيمة : الحقد . (٤) يرجع ، وأراح الإبل : ردها إلى المراح بالضم أى المأوى ، والنعم الإبل والشاء ، أو خاص بالإبل ، وهو المراد هنا . (٥) السيوف . (٦) الإحن : جمع إحنة ، وهي الحقد .

١٧ - رد امرئ القيس عليه

« لقد علمت العرب أنه لا كُفءٌ لحِجْرٍ في دمٍ ، وأنى لن أعتاضَ به بجملاً ولا ناقةً ، فأكتسب به سُبَّةَ الأبد ، وفَتَّ العَضْدِ (١) ، وأما النَّظْرَةَ (٢) فقد أوجبها الأجنَّةُ في بَطُونِ أمهاتها ، ولن أكون لعَظْها سبباً ، وستعرفون طلائع كِنْدَةَ من بعد ذلك ، تحمل في القلوب حنقاً ، وفوق الأسننة علقاً (٣) » :

إذا جالت الحرب في مَازِقٍ تُصَافِحُ فيه المنايا النفوسا

أتقيمون أم تنصرفون ؟ »

قالوا : « بل ننصرف بأسوأ الاختيار ، وأبلى الاجترار ، بمكروه وأذية ، وحرب وبليّة » ثم نهضوا عنه وقبيصة يتمثل :

لعلك أن تستوخمَ الورْدَ إنْ غَدَتْ كَتَائِبُنَا في مَازِقِ الحربِ تَمَطِّرُ (٤)

فقال امرؤ القيس : « لا والله ، ولكن أستعذبه ، فرؤيدا ، ينفرج لك دُجَاهَا عن فُرسان كِنْدَةَ وكتائب حخير ، ولقد كان ذكر غير هذا بي أولى ، إذ كنت نازلا برَبِي (٥) ، ولكنك قلت فأوجبت » فقال قبيصة : « ما يتوقع فوق قدر المعاتبة والإعتاب (٦) » فقال امرؤ القيس : « هو ذاك » .

(صبح الأعشى ٢ : ٢١٦ والأغاني ٨ : ٧٢ والمثل السائر ١٠١)

(١) فته : كسره ، وهو كناية عن الضعف والوهن . (٢) الإمهال . (٣) أى دما .

(٤) تستوخمه : أى تجده وخيما . (٥) الربع : المنزل . (٦) أعتبه : أرضاه .

١٨ - خطبة هاني بن قبيصة الشيباني

قال هاني بن قبيصة الشيباني يحرّضُ قَوْمَهُ يَوْمَ ذِي قَارِ (١) :

« يَا مَعْشَرَ بَكْرٍ ، هَالِكٌ مَمْدُورٌ ، خَيْرٌ مِنْ نَاجٍ فَرُورٍ ، إِنَّ الْخَذَرَ لَا يُنْجِي
مِنَ الْقَدَرِ ، وَإِنَّ الصَّبْرَ مِنْ أَسْبَابِ الظَّفَرِ ، الْمَنِيَّةُ وَلَا الدَّيْنِيَّةُ ، اسْتِقْبَالُ الْمَوْتِ خَيْرٌ
مِنِ اسْتِدْبَارِهِ ، الطَّعْنُ فِي ثَغْرِ (٢) النَّحُورِ ، أَكْرَمُ مِنْهُ فِي الْأَعْجَازِ وَالظُّهُورِ ،
يَا آلَ بَكْرٍ ، قَاتِلُوا فَمَا لِلْمَنَآيَا مِنْ بَدٍّ » .
(الأمال : ١ : ٩٢)

١٩ - خطبة عمرو بن كلثوم

« أما بعد : فإنه لا يخبر عن فضل المرء أصدق من تركه تزكية نفسه ، ولا يعبر عنه
في تزكية أصحابه أصدق من اعتماده إياهم برغبته ، واثمائه إياهم على حرّمتهم » .
(البيان والتبيين : ٢ : ٦٩)

٢٠ - أكرم بن صيفي يعزي عمرو بن هند عن أخيه

وعزّي أكرم بن صيفي عمرو بن هند ملك العرب عن أخيه فقال له :
« إِنَّ أَهْلَ هَذِهِ الدَّارِ سَفَرٌ لَا يَحْمِلُونَ عَقْدَ الرَّحَالِ إِلَّا فِي غَيْرِهَا ، وَقَدْ أَتَاكَ
مَالِيَسٌ بِمَرْدُودِ عُنُقِكَ ، وَارْتَحَلَ عُنُقَكَ مَا لَيْسَ بِرَاجِعٍ إِلَيْكَ ، وَأَقَامَ مَعَكَ مَنْ سَيَظُنُّ
عُنُقَكَ وَيَدْعُوكَ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الدُّنْيَا ثَلَاثَةٌ أَيَّامٌ ، فَأَمْسِ عِظَةً وَشَاهِدْ عَدْلًا ، فَجَعَلَكَ بِنَفْسِهِ ،

(١) كان من أعظم أيام العرب وأبلغها في توهين أمر الأعاجم ، وهو يوم لبني شيبان ، وكان

أبرويز أغزاهم جيشا ، فظفر بنو شيبان ، وهو أول يوم انتصرت فيه العرب من العجم .

(٢) جمع ثغرة بالضم : وهي نقرة النحر بين الترقوتين (والثغرة بالفتح : كل عورة منفتحة) .

وأبقى لك وعليك حكمته؛ واليوم غنيمة، وصديق أتك ولم تأته، طالت عليك غيبته،
وستسرع عنك رحلته؛ وغد لا تدري من أهله، وسيأتيك إن وجدك، فما أحسن الشكر
للمنعم، والتسليم للقادر، وقد مضت لنا أصول نحن فروعها، فما بقاء الفروع بعد أصولها،
واعلم أن أعظم من المصيبة سوء الخلف منها، وخير من الخير معطيه، وشر من الشر
فعله .

(للعقد الفريد ٢ : ٣٥ ، نهاية الأرب ٥ : ١٦٤)

٢١ - خطبة قس بن ساعدة الإيادي

خطب قس بن ساعدة الإيادي بسوق عكاظ ، فقال :

« أيها الناس : اسمعوا وعُوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو
آت آت ، ليل داج^(١) ، ونهار ساج ، وسماء ذات أبراج ، ونجوم تزهر^(٢) ، وبحار
تزخر^(٣) ، وجبال مرساة ، وأرض مدحاة^(٤) ، وأنهار مجرأة . إن في السماء لخبراً ،
وإن في الأرض لعبراً ، ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون ، أرضوا فأقاموا ، أم تركوا
فناموا ؟ يقسم قس بالله قسماً لا إثم فيه : إن لله ديناً هو أرضى له ، وأفضل من
دينكم الذي أنتم عليه ، إنكم لتأتون من الأمر منكرأ . ويروى أن قسا أنشأ بعد ذلك
يقول :

في الداهيين الأولين من القرون لنا بصائر

لما رأيت موارد الموت ليس لها مصادر

(١) مظلم . (٢) تضيء وتتلاذلاً . (٣) تمتلئ وترتفع . (٤) مدحوة : أى مهبسطة ،

وإنما قال مدحاة لمراعاة السجع .

ورأيت قومي نحوها تمضي الأَكْبَرُ والأَصَاغِرُ
لا يرجع الماضي إلى ولا من الباقيين غابر^(١)
أيقنت أني لا محالة حيث صار القوم صائر

(صبح الأعتى ١ : ٢١٢ ، وإعجاز القرآن ١٢٤ ، البيان والتبيين ١ : ١٦٨ ،
الأغاني ١٤ : ٤٠ ، المقدم الفريد ٢ : ١٥٦ ، ومجمع الأمثال للميداني ١ : ٧٤)

٢٢ - قس بن ساعدة عند قيصر

وكان قس بن ساعدة ينفذ على قيصر ويزوره ، فقال له قيصر يوماً : ما أفضل
العقل ؟ قال : معرفة المرء بنفسه ، قال : فما أفضل العلم ؟ قال : وقوف المرء عند علمه ،
قال : فما أفضل المروءة ؟ قال : استبقاء الرجل ماء وجهه ، قال : فما أفضل المال ؟ قال :
ما قضى به الحقوق .
(الأمالي ٢ : ٩٣)

٢٣ - خطبة المأمون الحارثي

قعد المأمون الحارثي في نادي قومه ، فنظر إلى السماء والنجوم ، ثم أفكر طويلاً ،
ثم قال : « أرفعوني أسماعكم ، وأضعفوا إلى قلوبكم ، يَبْلُغُ الوعظ منكم حيث أريد ،
طَمَحَ^(٢) بالأهواء الأثَرُ ، وَرَانَ^(٣) على القلوب الكدر ، وطخطنخ^(٤) الجهل النظر ،
إن فيما ترى لَمُعْتَبَرًا لمن اعتبر ، أرض موضوعة ، وسماء مرفوعة ، وشمس تَطْلُعُ وَتَغْرُبُ
ونجوم تسرى فَتَعْرُبُ ، وقمر تَطْلُعُهُ النحور ، وَتَمَحَّقُهُ أَدْبَارُ الشهور ، وعاجز مُثْرٍ ،
وَحَوْلٌ مُكْدٍ^(٥) ، وَشَابٌ مُحْتَضِرٌ ، وَيَفَنُ^(٦) قَدَّ غَيْرٌ ، وَرَاحِلُونَ لا يَثُوبُونَ ، وموقوفون

(١) مقيم . (٢) ارتفع وعلا وذهب . (٣) غلب . (٤) أظلم . (٥) رجل حول :
شديد الاحتيال ، وأكلى : لم ينجح ، وأصله من أكلى إذا حفر فصادف الكدية (بضم الكاف) وهي
الصفة العظيمة الشديدة . (٦) الذي يموت حدثاً ، وهو مأخوذ من الخصرة كأنه حصد أخضر ،
واليفن : الشيخ الكبير .

لَا يُفَرِّطُونَ^(١) ، وَمَطَرٌ يَرْسَلُ بِقَدَرٍ ، فَيُحْيِي الْبَشَرَ ، وَيُورِقُ الشَّجَرَ ، وَيُطْلِعُ الثَّمَرَ ،
وَيَنْبِتُ الزَّهَرَ ، وَمَاءٌ يَتَفَجَّرُ ، مِنَ الصَّخْرِ الْأَيَّرِ^(٢) ، فَيَصْدَعُ الْمَدْرَ ، عَنْ أَفْنَانِ الْخَصْرِ ،
فَيُحْيِي الْأَنْامَ ، وَيُسْبِعُ السَّوَّامَ ، وَيُنْمِي الْأَنْعَامَ ، إِنْ فِي ذَلِكَ لِأَوْضَحِ الدَّلَائِلِ
عَلَى الْمَدْبَرِ الْمَقْدَّرِ ، الْبَارِي الْمَصَوِّرِ . بِأَيِّهَا الْعُقُولُ الْناْفِرَةُ ، وَالْقُلُوبُ الْناثِرَةُ^(٣) ،
أَتَى تَوْفِكُونَ ، وَعَنْ أَيِّ سَبِيلٍ تَعْمَهُونَ ، وَفِي أَيِّ حَيْرَةٍ تَهَيِّمُونَ ، وَإِلَى أَيِّ غَايَةٍ
تُوفِضُونَ^(٤) ، لَوْ كُشِفَتِ الْأَغْطِيَةُ عَنِ الْقُلُوبِ ، وَجَلَّتِ الْعِشَاوَةُ عَنِ الْعَيْونِ ، لَعَرَّحَ
الشُّكَّ عَنِ الْيَقِينِ ، وَأَفَاقَ مِنْ نَشْوَةِ الْجَهَالَةِ مَنْ أَسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ .

(الأمل ١ : ٢٧٦)

٢٤ - بين مهلهل بن ربيعة ومرة بن ذهل بن شيبان

لما قتل جَسَّاس^(٥) بن مُرَّة بن ذُهَل الشَّيْبَانِي كَلَيْب^(٦) بن ربيعة التَّغْلَبِيَّ ،
تَشَمَّرَ أَخُوهُ مَهْلَهْل^(٧) ، وَاسْتَعَدَّ لِحَرْبِ بَكْرِ ، وَجَمَعَ إِلَيْهِ قَوْمَهُ ، فَأَرْسَلَ رِجَالًا مِنْهُمْ

(١) يَقْلِمُونَ . (٢) الصَّلْبُ . (٣) النَّائِرَةُ الْناْفِرَةُ ، نَارَتْ نَوْرًا بِفَتْحِ النَّونِ ، وَنَوَارًا
بِفَتْحِهَا وَكسرها : نَفَرَتْ . (٤) تَسْرَعُونَ .

(٥) وَسَبَبَ ذَلِكَ أَنَّ الْبَسُوسَ بَنَتْ مَنَقَدَ التَّمِيمِيَّةَ خَالَةَ جَسَّاسٍ كَانَ لَهَا جَارٌ مِنْ جَرْمٍ يُقَالُ لَهُ سَعْدُ بْنُ
شَمِيسٍ ، وَكَانَتْ لَهُ نَاقَةٌ يُقَالُ لَهَا سَرَابٌ ، وَكَانَ كَلَيْبٌ قَدْحِي أَرْضًا مِنْ أَرْضِ الْعَالِيَةِ ، فِي أَنْفِ الرَّبِيعِ ،
فَلَمْ يَكُنْ يَرَعَاهُ أَحَدٌ إِلَّا إِبِلَ جَسَّاسٍ لِمَصَاهِرَةِ بَيْنَهُمَا - وَكَانَتْ حَلِيلَةَ بَنَتْ مَرَّةَ أُخْتِ جَسَّاسٍ تَحْتَ كَلَيْبٍ -
فَخَرَجَتْ سَرَابٌ فِي إِبِلِ جَسَّاسٍ تَرعى فِي حَمِي كَلَيْبٍ ، وَنَظَرَ إِلَيْهَا كَلَيْبٌ فَأَنكَرَهَا فَرَمَاهَا بِسَهْمٍ فَأَصَابَ
ضَرْعَهَا ، فَوَلَّتْ حَتَّى بَرَكْتَ بِفَنَاءِ صَاحِبِهَا وَضَرْعِهَا يَشْخَبُ دَمًا وَلَبِنًا ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهَا صَرَخَ بِالذَّلِّ ،
فَخَرَجَتْ الْبَسُوسُ فَضَرَبَتْ يَدَهَا عَلَى رَأْسِهَا ، وَنَادَتْ وَادَّلَاهُ وَسَمِعَهَا جَسَّاسٌ فَسَكَّتْهَا ، وَقَالَ لَهَا : لِيَقْتُلَنَّ غَدًا
فَحَلَّ أَعْظَمَ مِنْ نَاقَةِ جَارِكَ ، وَلَمْ يَزَلْ يَتَوَقَّعُ عُرَّةَ كَلَيْبٍ حَتَّى أَمَكَّتْهُ مِنْهُ الْفُرْصَةُ فَقَتَلَهُ ، وَنَشِبَتْ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ
الْحَرْبُ (حَرْبُ الْبَسُوسِ) بَيْنَ بَكْرِ وَتَغْلَبِ ابْنِي وَائِلِ أَرْبَعِينَ سَنَةً « وَبَنُو شَيْبَانَ بَطْنٌ مِنْ بَكْرِ » .

(٦) اسْمُهُ وَائِلُ بْنُ رَبِيعَةَ بْنِ حَارِثِ بْنِ زُهَيْرِ بْنِ جِشْمِ بْنِ بَكْرِ بْنِ حَبِيبِ بْنِ عَمْرِو بْنِ غَنَمِ بْنِ تَغْلَبِ بْنِ وَائِلِ ،
وَإِنَّمَا لُقِبَ كَلَيْبًا لِأَنَّهُ كَانَ إِذَا سَارَ أَخَذَ مَعَهُ جَرَّو كَلْبًا ، فَإِذَا مَرَّ بِرَوْضَةٍ أَوْ مَوْضِعٍ يَعْجَبُهُ ، ضَرَبَهُ ثُمَّ أَلْقَاهُ
فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ وَهُوَ يَصِيحُ وَيَعْمَى ، فَلَا يَسْمَعُ عَوَاذَهُ أَحَدٌ إِلَّا تَجَنَّبَهُ وَلَمْ يَقْرَبِهِ ، وَكَانَ يُقَالُ لِكَلَيْبِ وَائِلٌ ثُمَّ
اِخْتَصَرُوا فَقَالُوا كَلَيْبٌ فَقَلَّبَ عَلَيْهِ . (٧) اسْمُهُ عَدِيُّ بْنُ رَبِيعَةَ ، وَإِنَّمَا قِيلَ لَهُ الْمَهْلَهْلُ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ هَلْهَلَ
الشَّعْرَ : أَيَّ أَرْقَهُ .

إلى بني شيبان ، فأتوا مرة بن ذهل بن شيبان « أبا جساس » وهو في نادي قومه ، فقالوا له :

« إنكم أتيتم عظيمًا بقتلكم كليبًا بناب^(١) من الإبل ، فقطعتم الرّحيم ، وانتهكتم الحرمه ، وإنا كرهنا العجالة عليكم دون الإعذار إليكم ، ونحن نعرض عليكم خلالا أربعا ، لكم فيها مخرج ، ولنا فيها مقنع ، فقال مرة : وما هي ؟ قالوا : تُحْيِي لنا كليبًا ، أو تدفع إلينا جساسًا قاتله فنقتله به ، أو هَمَّامًا^(٢) فإنه كفء له ، أو تمكنا من نفسك ، فإن فيك وفاء من دمه ، فقال : « أمّا إحيائي كليبًا ، فهذا ما لا يكون ، وأما جساس فإنه غلام طعن طعنة على عجل ، ثم ركب فرسه ، فلا أدري أي البلاد احتوى عليه ، وأما همام فإنه أبو عشرة ، وأخو عشرة ، وعم عشرة ، كلهم فرسان قومهم ، فلن يسلموه لي ، فأدفعه إليكم يُقتل بجريرة^(٣) غيره . وأما أنا فهل هو إلا أن تجول الخليل جولة غدًا ، فأكون أول قتيل بينها ؟ فما أتعجل الموت ، ولكن لكم عندي خصلتان : أما إحداهما فمؤلاء بني الباقون ، فعلقوا في عنق أيهم شتم نسعة ، فانطلقوا به إلى رحالكم ، فاذبحوه ذبح الجزور ، وإلا فألف ناقة سود الحدق ، حمر الوبر ، أقيم لكم بها كفيلا من بني وائل ، فغضب القوم وقالوا : لقد أسأت ، تبذل لنا ولدك ، وتسومنا اللبن من دم كليب ؟ » ونشبت الحرب بينهم .

(المقد الفريد ٣ : ٧٨ ، والكامل لابن الأثير ١ : ١٩٠ ، والأغاني ٤ : ١٤١)

٢٥ — منافرة علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل العامريين

لما أَسَنَّ أبو براء : عامر بن مالك بن جعفر بن مُلاعب الأسيئة ، تنازع في الرياسة عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر ، وعلقمة بن علاثة بن عوف بن الأحوص ابن جعفر .

(٢) هو همام بن مرة أخو جساس ، وكان نديما لمهلل .

(١) الناقة المسنة .

(٣) الجريرة : الجريمة .

فقال علقمة : كانت لجدِّي الأحوص ، وإنما صارت لعمك بسببه ، وقد قعد عمك عنها ، وأنا استرجعتها ، فأنا أولى بها منك ، فشري^(١) الشرُّ بينهما ، وسارا إلى المنافرة . فقال علقمة : إن شئت نافرتك ، فقال عامر قد شئت . والله إنِّي لأكرمُ منك حسَباً^(٢) ، وأثبتُ منك نسباً ، وأطولُ منك قصباً^(٣) .

فقال علقمة : والله لأنا خيرُ منك ليلاً ونهاراً ، فقال عامر : والله لأنا أحبُّ إلى نِسائِكَ أنْ أُصبحَ فِيهِنَّ مِنْكَ ، أنا أَنَحْرُ مِنْكَ لِلقَاحِ^(٤) ، وخيرُ منك في الصبّاح ، وأطعمُ منك في السنة الشِّياح^(٥) .

فقال علقمة : أنا خيرُ منك أنثراً ، وأحدُّ منك بصرأً ، وأعزُّ منك نفرأً ، وأشرفُ منك ذِكْرأً . فقال عامر : ليس لبني الأحوص فضلُ عليّ بنى مالك في العدد ، وبصري ناقصٌ ، وبصرك صحيحٌ ، ولكني أنافرك ، إنِّي أسمى منك سمةً^(٦) ، وأطولُ منك قِمةً ، وأحسنُ منك لمةً^(٧) ، وأجعدُ منك جمةً^(٨) ، وأسرعُ منك رجةً ، وأبعدُ منك همةً . فقال علقمة : أنتَ رجلٌ جسيمٌ ، وأنا رجلٌ قضيفٌ^(٩) ، وأنتَ جميلٌ ، وأنا قبيحٌ ، ولكني أنافرك بآبائي وأعمامي . فقال عامر . آباؤك أعمامي ، ولم أكن لأنافرك بهم ولكني أنافرك ، أنا خيرُ منك عقباً ، وأطعمُ منك جدّاً . فقال علقمة : قد علمت أن لك عقباً ، وقد أطعمت طيباً ، ولكني أنافرك ، إنِّي خيرُ منك ، وأولى بالخيرات منك . فخرجت أمُّ عامر - وكانت تسمع كلامهما - فقالت : يا عامر نافرهِ ، أيكها أولى بالخيرات . قال عامر : إنِّي والله لأرُكبُ منك في الحماة ، وأقتلُ منك للكُمأة^(١٠) ،

(١) استطار . (٢) الحسب : ما تعدّه من مفاخر آبائك ، أو الشرف الثابت في الآباء ، أو الكرم ، أو الشرف في الفعل أو القمّال الصالح . (٣) القصب : عظام اليدين والرجلين ونحوهما ، كناية عن طول قامته . (٤) الابل : واحدتها لقوح . (٥) الشياح : القحط . (٦) السمة : القرابة ، ويروى أنا أنشر منك أمة ، أي أكثر قوماً . (٧) اللمة : الشعر المجازز شحمة الأذن . (٨) مجتمع شعر الرأس . (٩) نحيف من القصف ، وهو النحافة . (١٠) جمع كمي ، وهو الشجاع .

وَخَيْرٌ مِنْكَ لِلْمَوَالِي وَالْمَوَالِاةِ : فَقَالَ لَهُ عُلْقَمَةُ : وَاللَّهِ إِنِّي لَبَرٌّ ، وَإِنَّكَ لَفَاجِرٌ ، وَإِنِّي لَوْلُودٌ ، وَإِنَّكَ لِعَاقِرٌ ^(١) ، وَإِنِّي لَعَفٌّ ، وَإِنَّكَ لِعَاهِرٌ ، وَإِنِّي لَوَفِيٌّ ، وَإِنَّكَ لِعَادِرٌ ، فَفِيمَ تُفَاخِرُنِي يَا عَامِرُ؟ فَقَالَ عَامِرٌ : وَاللَّهِ إِنِّي لَا أَنْزِلُ مِنْكَ لِلْقَفْرَةِ ^(٢) ، وَأَنْحَرُ مِنْكَ لِلْبَكْرَةِ ^(٣) ، وَأَطْعَمُ مِنْكَ لِلْهَبْرَةِ ^(٤) ، وَأَطْعَمُ مِنْكَ لِلشُّغْرَةِ . فَقَالَ عُلْقَمَةُ : وَاللَّهِ إِنَّكَ لَكَلِيلُ الْبَصْرِ ، نَكِيدُ النَّظَرَ ، وَثَّابٌ عَلَى جَارَاتِكَ بِالسَّحَرِ .

فَقَالَ بَنُو خَالِدِ بْنِ جَعْفَرٍ - وَكَانُوا يَدُومُونَ مَعَ بَنِي الْأَحْوَصِ عَلَى بَنِي مَالِكِ بْنِ جَعْفَرٍ - لَنْ تُطِيقَ عَامِرًا ، وَلَكِنْ قُلْ لَهُ أَنْفَرُكَ بِخَيْرِنَا وَأَقْرَبْنَا إِلَى الْخَيْرَاتِ . فَقَالَ لَهُ عُلْقَمَةُ هَذَا الْقَوْلُ ، فَقَالَ عَامِرٌ : عَيْرٌ ^(٥) وَتَيْسٌ ، وَتَيْسٌ وَعَنْزٌ . فَذَهَبَتْ مِثْلًا . نَعَمْ ، عَلَى مِائَةِ مِثْلِ الْإِبِلِ إِلَى مِائَةِ مِثْلِ الْإِبِلِ يُعْطَاهَا الْحَكَمَ ، أَيُّنَا نَفَرَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ أَخْرَجَهَا ، فَفَعَلُوا ذَلِكَ ، وَوَضَعُوا بِهَا رَهْنًا مِنْ أَبْنَائِهِمْ عَلَى يَدَيْ رَجُلٍ يُقَالُ لَهُ خَزِيمَةُ بْنُ عَمْرٍو بْنِ الْوَحِيدِ ، فَسُمِّيَ « الضَّمِينِ » .

وَخَرَجَ عُلْقَمَةُ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ بَنِي خَالِدٍ ، وَخَرَجَ عَامِرٌ فِيمَنْ مَعَهُ مِنْ بَنِي مَالِكٍ ، وَجَمْعًا مَنَافِرَتَهُمَا إِلَى أَبِي سَفْيَانَ بْنِ حَرْبِ بْنِ أُمَيَّةَ ، فَلَمْ يَقْلُ بَيْنَهُمَا شَيْئًا ، وَكَرِهَ ذَلِكَ لِحَالِهِمَا وَحَالِ عَشِيرَتِهِمَا ، وَقَالَ : أَنْتُمَا كَرَكِبْتُمَا الْبَعِيرَ الْأَدْرَمَ ^(٦) ، قَالَا : فَأَيُّنَا الْيَمِينُ؟ قَالَ كِلَا كَالْيَمِينِ ، وَأَبِي أَنْ يَقْضَى بَيْنَهُمَا . فَانْطَلَقَا إِلَى أَبِي جَهْلٍ بْنِ هِشَامٍ فَأَبَى أَنْ يَحْكُمَ بَيْنَهُمَا - وَقَدْ كَانَتِ الْعَرَبُ تَحْكُمُ إِلَى قُرَيْشٍ - فَأَيُّنَا عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنِ بْنِ حَذِيفَةَ ،

(١) رجل عاقِر: لم يولد له ولد . (٢) القفرة: القفر . الخلاء من الأرض . (٣) البكرة : الفتية من الإبل . (٤) الهبرة : قطعة مجتمعة من اللحم . هبرة قطعه قطعا كبيرا ، وهبر له من اللحم هبرة قطع قطعة . (٥) العير : الحمار وغلب على الوحشى ، وهو أقوى من التيس ، أى مثل وإياك كالعير والتيس ، أو على الأقل كالتيس والعنز ، إذ التيس أقوى على النطح من العنز ، وفى المثل : « كان عنزا فاستتيس » أى صار تيسا . يضرب للذليل الضعيف يصير عزيزا قويا . (٦) درم العظام : وراه اللحم حتى لم يبق له حجم ، وامرأة درماء لاتستين كعوبها ومرافقها ، وكل ماغطاء الشحم واللحم وخفى حجمه فقد درم .

فأبى أن يقول بينهما شيئاً ، فأتيا غَيْلَانَ بن سَلَمَةَ الثَّقَفِي ، فَرَدَّهُمَا إلى حَرَمَلَةَ
ابن الأشعر المرسي ، فَرَدَّهُمَا إلى هَرَمِ بن قُطَيْبَةَ بن سنان الفزاري ، فانطلقا حتى نزلا به ،
وقد ساقا الإبل معهما حتى أَشْتَتَ وأرْبَعَتَ ، لا يأتیان أحداً إلا هَابَ أن يقضى
بينهما ، فقال هَرَم : لعمرى لأحكنّ بينكما ثمّ لا أفصلنّ ، فأعطيني موثقاً
أطمئنّ إليه أن ترضيا بما أقول ، وتُسَلِّما لما قضيتُ بينكما ، وأمرها بالانصراف ،
ووعدهما ذلك اليوم من قابل ، فانصرفا ، حتى إذا بلغ الأجل خرجا إليه ، وأقام القوم
عنده أياماً .

فأرسل هَرَم إلى عامر فأتاهُ سرّاً لا يعلم به علقمة ، فقال يا عامر : قد كنت أرى لك
رأياً ، وأن فيك خيراً . وما حبستك هذه الأيام إلا لتتصرف عن صاحبك ، أتنافر
رجلا لا تفخر أنت وقومك إلا بأبائه ! فما الذي أنت به خيرٌ منه ؟ فقال عامر :
نشدتك الله والرحم أن لا تفضل عليّ علقمة ، فوالله لئن فعلت لا أفلح بعدها أبداً .
هذه ناصيتي فاجزؤها واحتكم في مالي ، فإن كنت لا بد فاعلا ، فسوّ بيني وبينه ،
قال : انصرف فسوف أرى رأيي . فخرج عامر وهو لا يشك أنه ينفره^(١) عليه ، ثم أرسل
إلى علقمة سرّاً لا يعلم به عامر ، فأتاه ، وقال له مثل ما قال لعامر ، فرد عليه علقمة بما ردّ به
عامر ، وانصرف وهو لا يشك أنه سيفضل عليه عامراً . ثم إن هرما أرسل إلى بنيه
وبني أبيه : إني قائل غداً بين هذين الرجلين مقالة ، فإذا فعلت فليطرد بعضكم عشر
جزائر ، فلينجرحها عن علقمة ، ويطرد بعضكم عشر جزائر ، ينجرها عن عامر ، وفرقوا
بين الناس لا تكون لهم جماعة ، وأصبح هَرَم مجلس مجلسه ، وأقبل الناس ، وأقبل علقمة
وعامر حتى جلسا ، فقام هَرَم فقال : يا بني جعفر ، قد تماكتما عندي ، وأنما كركبتي

(١) أنفره عليه ونفره عليه : قضى له عليه بالغبلة .

البعير الأدرم : تقعان إلى الأرض معا ، وليس فيكما أحد إلا وفيه ما ليس في صاحبه ،
وكلا كما سيد كريم ، وعمد بنو هرم وبنو أخيه إلى تلك الجزر ، فنحروها حيث أمرهم
هرم ، وفرقوا الناس ، ولم يفضل هرم أحدا منهما على صاحبه ، وكره أن يفعل ، وهما ابنا عم
فيجلب بذلك عداوة ، ويوقع بين الحيين شرا .

(الأغاني ١٥ : ٥١ ، وصبح الأعشى ١ : ٣٨٢ ، ومرح العيون ١٠٦ ، والعمدة ١ : ٢٨)

أشرف العرب بين يدي كسرى

قال كسرى^(١) للنعمان بن المنذر يوماً : هل في العرب قبيلة تشرف على قبيلة ؟ قال نعم ، قال فبأي شيء ؟ قال : من كانت له ثلاثة آباء متوالية رؤساء ، ثم اتصل ذلك بكال الرابع ، فاليبت من قبيلته فيه ، ويُنسب إليه ، قال فاطلب ذلك ، فطلبه فلم يصبه إلا في آل حذيفة بن بدر ، وآل حاجب بن زُرارة ، وآل ذى الجدين ، وآل الأشعث ابن قيس بن كندة ، فجمع هؤلاء الرهط ومن تبعهم من عشائرهم ، وأقعد لهم الحكام والعدول ، وقال : ليتكلم كل منكم بماثر قومه وليصدق ، فكان حذيفة بن بدر الفزاري أول متكلم ، وكان ألسن القوم ، فقال :

٢٦ - مقالة حذيفة بن بدر الفزاري

« قد علمت العرب أن فينا الشرف الأقدم ، والأعز الأعظم ، ومأثرة^(٢) للصنيع الأكرم ، فقال من حوله : ولِمَ ذاك يا أخا فزارة ؟ فقال : ألسنا الدعائم التي لا تُرام ، والعز الذي لا يُضام ، قيل صدقت ، ثم قام شاعرهم فقال :

فزارَةَ بيت العزِّ ، والعزُّ فيهمُ فزارَةُ قيس ، حسبُ قيسٍ نضاً لها
لها العزَّةُ القمساءُ والحسبُ الذي بناه لقيس في القديم رجالها

(١) هو كسرى أنوشروان ، حكم من سنة ٥٣١ إلى ٥٧٨ ميلادية .

(٢) المأثر بالفتح والضم : المكرمة المتوارثة .

فهيأت قد أعيأ القُرُونِ التي مضت مَآزِرُ قيسٍ تَجْدُهَا وَفَعَالِهَا
وهل أَحَدٌ إِذْ هَزَّ يَوْمًا بِكَفِّهِ إِلَى الشَّمْسِ فِي مَجْرَى النُّجُومِ يِنَالِهَا
فَإِنْ يَصْلِحُوا يَصْلُحْ لِذَلِكَ جَمِيعُهَا وَإِنْ يَفْسُدُوا يَفْسُدْ مِنَ النَّاسِ حَالِهَا

٢٧ - مقال الأشعث الكندي

ثم قام الأشعث الكندي - وإنما أذن له أن يقوم قبل ربيعة وتميم لقرابته من
النعمان بن المنذر - فقال: قد علمت العرب أنا نقاتل عديدها الأكثر، وزحفها الأكبر،
وإننا لغيث الكرّبات، ومعدن المكرّمات، قالوا: ولم يا أخا كندة؟ قال: لأننا
ورثنا ملك كندة، فاستظللنا بأفيائه^(١) وتقلدنا منكبها الأعظم، وتوسّطنا محبوبه
الأكرم، ثم قام شاعرهم فقال:

إِذَا قَسَتْ أَبْيَاتَ الرِّجَالِ بَيْتِنَا وَجَدْتَ لَنَا فَضْلًا كَلَىٰ مِنْ يَفَاخِرِ
فَمَنْ قَالَ كَلًّا أَوْ أَنَا نَا بِخُطَّةٍ يُبَاغِرُنَا فِيهَا فَنَحْنُ نَخَاطِرِ
تَعَالَوْا قَفُوا كَيْ يَعْلَمَ النَّاسُ أَيُّنَا لَهُ الْفَضْلُ فَمَا أَوْرَثَهُ الْأَكَابِرِ

٢٨ - مقال بسطام الشيباني

ثم قام بسطام الشيباني، فقال: قد علمت العرب أنا بناء بيتها الذي لا يزول،
ومغرس عزها الذي لا يحول، قالوا ولم يا أخا شيبان؟ قال: لأننا أدرّ كهّم للنار،
وأضربهم للسلك الجبار، وأقومهم للحكم، وألدّهم للخضم، ثم قام شاعرهم،
فقال:

(١) جمع فيء: وهو ما كان شمسًا فينسخه الظل.

لَعَمْرِي بِسْطَامٍ أَحَقُّ بِفَضْلِهَا وَأَوَّلُ بَيْتِ الْعِزِّ عِزُّ الْقِبَائِلِ
فَسَائِلُ - أَيْبِتَ اللَّعْنُ - عَنْ عِزِّ قَوْمِهَا إِذَا جَدَّ يَوْمَ الْفَخْرِ كُلُّ مُنَاقِلِ^(١)
أَلْسِنَا أَعَزَّ النَّاسِ قَوْمًا وَنُصْرَةً وَأَضْرَبَهُمُ لِلْكَبْشِ بَيْنَ الْقِبَائِلِ^(٢)
وَقَائِعُ غُرِّ كُلِّهَا رَبْعِيَّةٌ تَذِلُّ لَهَا عِزًّا رِقَابُ الْمَحَافِلِ
إِذَا ذُكِرَتْ لَمْ يَنْكُرِ النَّاسُ فَضْلَهَا وَعَاذَ بِهَا مِنْ شَرِّهَا كُلِّ وَائِلِ^(٣)
وَإِنَّا مُلُوكُ النَّاسِ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ إِذَا نَزَلَتْ بِالنَّاسِ إِحْدَى الزَّلَازِلِ

٢٩ - مقال حاجب بن زرارة

ثم قام حاجب بن زرارة التميمي ، فقال : قد علمت معدُّ أنا فرع^(٤) دعائمها ،
وقادة زحفها ، قالوا : ولم ذاك يا أخا بني تميم ؟ قال : لأننا أكثرُ الناسِ عديدا ،
وأأنجبهم طرًّا وليدا ، وأنَّا أعطاهم للجزيل ، وأأحلمهم للثقل ، ثم قام شاعرهم ،
فقال :

لقد علمت أبناء خندف أننا لنا العزُّ قدما في الخطوب الاوائل^(٥)
وأنا كرام أهل مجد وثروة وعزٍّ قديم ليس بالمتضائل
فكم فيهم من سيد وابن سيد أغرَّ نجيب ذي فعال ونائل^(٦)
فسائل (أبيت اللعن) عنا فإننا دعائم هذا الناس عند الجلائل^(٧)

(١) أبيت اللعن : تحية في الجاهلية ، أى أبيت أن تأق أمرا تلعن عليه . والمناقلة في المنطق : أن تحدث
آخر ويحدثك . (٢) الكبش : سيد القوم وقائدهم . (٣) لاجئ ، من وأل إليه يثل وألا .
(٤) فرع كل شيء : أعلاه . (٥) خندف : هى أم مدركة ، وطابحة وقمة أبناء الياس بن مضر بن
تزار بن معد بن عدنان . (٦) الفعال : اسم الفعل الحسن ، والسكرم . (٧) أى الأمور الجلائل
جمع جلية .

٣٠ — مقال قيس بن عاصم السعدي

ثم قام قيس بن عاصم السعدي ، فقال : لقد علم هؤلاء أنا أرفعهم في المكرمات
دعائهم ، وأثبتهم في النائبات مقاديرهم ، قالوا : ولم ذلك يا أخا بني سعد ؟ قال : لأننا
أدركتهم للنار ، وأمنعهم للجار ، وأنا لا ننكس^(١) إذا حملنا ، ولا نرام إذا حللنا ،
ثم قام شاعرهم فقال :

لقد علمت قيسٌ وحندفُ أننا وجُلُّ تميمٍ والجميعُ الذي ترى^(٢)
بأننا عمادٌ في الأمور وأننا لنا الشرف الضخم المرَّكَّبُ في الندى
وأننا لثبوتُ الناسِ في كلِّ مآزقٍ إذا جزَّ بالبيض الجاجمُ والطلا^(٣)
فمن ذا ليومِ الفخرِ يعدلُ عاصمًا وقيسًا إذا مرَّت أوف إلى العلا
فهبات قد أعيأ الجميعُ فعألهمُ وقاموا بيومِ الفخرِ مسعاةً من سعى
فقال كسرى حينئذ : ليس منهم إلا سيد يصلح لموضعه ، وأسنى حياءهم ، وأعظم
صيلاتهم ، وكرم ما بهم .
(صبح الأعي ١ : ٣٧٧ والأغانى ١٧ : ١٠٥)

(١) لا ننكس ولا نجبن . (٢) قيس بن عيلان بن مضر . (٣) الطلا : جمع طلية ،

وهي المنق .

وفود العرب على كسرى

قدم النعمان بن المنذر على كسرى وعنده وفود الروم والهند والصين ، فذكروا من ملوكهم وبلادهم ، فافتخر النعمان بالعرب ، وفضلهم على جميع الأمم ، لا يستثنى فارس ولا غيرها ، فقال كسرى - وأخذته عزّة الملك - يا نعمان ، لقد فكرتُ في أمر العرب وغيرهم من الأمم ، ونظرت في حالة من يقدّم على من وفود الأمم ، فوجدت للروم حظاً في اجتماع ألفتها ، وعظم سلطانها ، وكثرة مدائنها ، ووثيق بنيانها ، وأن لها ديناً يبين حلالها وحرامها ، ويردّ سفيتها ، ويقيم جاهلها ، ورأيت الهند نحواً من ذلك في حكمتها وطبها ، مع كثرة أنهار بلادها وثمارها ، وعجيب صناعتها ، وطيب أشجارها ، ودقيق حسابها ، وكثرة عددها ، وكذلك الصين في اجتماعها ، وكثرة صناعات أيديها ، وفروسياتها وهمتها في آلة الحرب ، وصناعة الحديد ، وأن لها مراكباً يجمعها ، والترك والخزر على ما بهم من سوء الحال في المعاش ، وقلة الرّيف^(١) والثمار والحصون ، وما هو رأس عمارة الدنيا من المساكن والملابس ، لهم ملوك تضمّ قواصيمهم ، وتدبر أمرهم ، ولم أر للعرب شيئاً من خصال الخيز في أمر دين ولا دنيا ، ولا حزم ولا قوّة ، ومع أن مما يدلّ على مهانتها وذلها ، وصفر همتها بحجّتهم^(٢) التي همّ بها مع الوحوش النافرة ، والطير الحائرة ، يقتلون أولادهم من الفاقة ، ويأكل بعضهم بعضاً من الحاجة ، قد خرجوا من مطاعم الدنيا وملابسها ومشاربها ولهوها ولذاتها ، فأفضل طعام ظفّر به ناعمهم لحوم الابل ، التي يعافها كثير من السباع ، لثقلها ، وسوء طعمها ، وخوف دائها ، وإن قرى أحدهم ضيفاً عدّها مكرومة ،

(١) الرّيف : أرض فيها زرع وخصب ، والسعة في المأكّل والمشرب . (٢) حل السكان وبه

يجل بالكسر والضم .

وإن اطعم أكلة عدّها غنيمة ، تنطق بذلك أشعارهم ، وتفتخر بذلك رجالهم ، ما خلا هذه التَنُوخِيَّة التي أسس جدّي اجتماعها ، وشدّ مملكتها ، ومنعها من عدوّها ، فجرى لها ذلك إلى يومنا هذا ، وإن لها مع ذلك آثاراً ولَبُوساً^(١) ، وقرى وحصونا ، وأموراً تشبه بعض أمور الناس - يعني اليمين - ثم لا أراكم تستكيفون على ما بكم من الذلّة والقلة والفاقة والبؤس حتى تفتخروا وتريدوا أن تنزلوا فوق مراتب الناس ، قال النعمان : أصلح الله الملك . حُقَّ^(٢) لأمة الملك منها أن يسمو فضلها ، ويعظم خطبها ، وتعلو درجتها ، إلا أن عندي جواباً في كلّ ما نطق به الملك ، في غير ردّ عليه ، ولا تكذيب له ، فإن أمتي من غضبه نطقت به ، قال كسرى : قل فأنت آمن .

٣١ - خطبة النعمان بن المنذر

قال النعمان : أما أمتك أيها الملك ، فليست تُنَازِعُ في الفضل ، لموضعها الذي هي به : من عقولها وأحلامها ، وبَسَطَةِ محالها ، وَبُجُوحَةِ عزّها ، وما أكرمها الله به من ولاية آبائك وولايتك . وأما الامم التي ذكرت ، فأى أمة تَقْرِنُهَا بالعرب إلا فَضَلْتَهَا . قال كسرى بماذا ؟ قال النعمان : بِعِزِّهَا ، وَمَنْعَتِهَا ، وحسن وجوهها ، وبأسها ، وسخاها ، وحكمة ألسنتها ، وشدّة عقولها ، وأنفها ، ووفائها .

فأما عزّها ومنعتها ، فإنها لم تنزل مجاورة لآبائك الذين دوّخوا البلاد ، ووطدّوا الملك ، وقادوا الجند ، لم يطمَعُ فيهم طامع ، ولم ينلَهُمْ نائل ، حصونهم ظهور خيلهم ، ومهادهم الأرض ، وسقوفهم السماء ، وجنتهم السيوف ، وعدتهم الصبر ، إذ غيرها من الأمم إنما عزها من الحجارة والطين وجزائر البحور .

وأما حسن وجوهها وألوانها ، فقد يُعرَفُ فضلهم في ذلك كلّى غيرهم : من الهند المنحرفة ، والصين المنحرفة ، والترک المشوّهة ، والروم المقشّرة .

(٢) حق لك أن تفعل كذا وحققت أن تفعله بمعنى .

(١) الدروع .

وأما أنسابها وأحسابها ، فليست أمة من الأمم إلا وقد جهات آباءها وأصولها وكثيراً من أولها ، حتى إن أحدهم يُسأل عن وراء أبيه ذنباً^(١) ، فلا ينسبه ولا يعرفه ، وليس أحد من العرب إلا يسمى آباءه أبا فابا ، حاطوا بذلك أحسابهم ، وحفظوا به أنسابهم ، فلا يدخل رجلٌ في غير قومه ، ولا ينتسبُ إلى غير نسبه ، ولا يدعى إلى غير أبيه .

وأما سخاؤها ، فإن أدنانهم رجلا ، الذي تكون عنده البكرة والقباب^(٢) ، عليها بلاغته^(٣) في حموله^(٤) وشبعه وريبه ، فيطرقه الطارق ، الذي يكتبني بالفلذة^(٥) ، ويجتزي بالشربة ، فيعقرها له ، ويرضى أن يخرج عن دنياه كلها فيما يكسبه حسن الاحدوثة وطيب الذكر .

وأما حكمة أستاذهم ، فإن الله تعالى أعطاهم في أشعارهم ورونق كلامهم ، وحسنه ووزنه وقوافيه ، مع معرفتهم الأشياء ، وضربهم للأمثال ، وإبلاغهم في الصفات ، ما ليس لشيء من السنة الأجناس ثم خيلهم أفضل الخيل ، ونساؤهم أعف النساء ، ولبائسهم أفضل اللباس ، ومعادنهم الذهب والفضة ، وحجارة جبالهم الجزع^(٦) ، ومظاياهم التي لا يبلغ على مثلها سقر ، ولا يقطع بمثلها بلد قفر .

وأما دينها وشريعتها ، فإنهم متمسكون به ، حتى يبلغ أحدهم من نسكه بدينه أن لهم شهراً حرماً ، وبلداً محرماً ، وبيتاً محجوجاً ، ينسكون فيه مناسكهم ، ويذبحون فيه ذبائحهم ، فيلقتي الرجل قاتل أبيه أو أخيه ، وهو قادر على أخذ ثاره ، وإدراك رغبته^(٧) منه ، فيحجزه كرمه ، ويمنعه دينه عن تناوله بأذى .

(١) هو ابن عمي دنيا بضم الدال وكسرهما مع التنوين ، وبكسرهما بلا تنوين : أي لحما .

(٢) الناقة المسنة . (٣) البلاغ : الكفاية . (٤) الحمول والأحمال جمع حمل .

(٥) القطعة من الشيء . (٦) الجزع ويكسر : الحرز اليماني الصيني فيه سواد وبياض ، تشبه

به العيون . (٧) الذل .

وأما وفاؤها ، فإن أحدهم يَلْحَظُ اللحظة ، وَيُوعِيُ الإيماءة ، فهي وَكْثٌ (١) وعقدة ، لا يَحُلُّهَا إلا خروج نَفْسِهِ ، وإن أحدهم يرفع عوداً من الأرض فيكون رهناً بِيَدَيْهِ ، فَلَا يَغْلِقُ (٢) رَهْنَهُ ، ولا تُخْفَرُ (٣) ذمته ، وإن أحدهم ليلبغه أن رجلاً استجار به وعسى أن يكون نائياً عن داره ، فيصاب ، فلا يرضى حتى يُفْنِي تلك القبيلة التي أصابته ، أو تَفْنِي قبيلته ، لما أَخْفَرَ من جواره ، وإنه ليلجأ إليهم المجرم المُحْدِثُ ، من غير معرفة ولا قرابة ، فتكون أنفسهم دون نفسه ، وأموالهم دون ماله .

وأما قولك أيها الملك يَثِدُونَ أولادهم ، فإنما يفعله من يفعله منهم بالإناث أنفةً من العار ، وَغَيْرَةَ من الأزواج .

وأما قولك إن أفضل طعامهم لحوم الإبل - عَلَى ما وصفت منها - فما تركوا ما دونها إلا احتقاراً لها ، فَعَمَدُوا إلى أجلها وأفضلها ، فكانت صرا كبهم وطعامهم ، مع أنها أكثر البهائم شحوماً ، وأطيبها لحوماً ، وَأَرْقَاهَا ألباناً ، وأقلها غائلةً (٤) ، وأحلاها مَضْفَةً ، وإنه لا شيء من اللُّحْمَانِ يُعَالِجُ مَا يُعَالِجُ به لحمها إلا أستبان فضلها عليه .

وأما تحاربهم وأكل بعضهم بعضاً ، وتركهم الانقيادَ لرجل يسوسهم ويجمعهم ، فإنما يفعل ذلك من يفعله من الأم إذا أُنِسَتْ من نفسها ضعفاً ، وتخوفت نهوضَ عدوها إليها بالزحف ، وإنه إنما يكون في المملكة العظيمة أهل بيت واحد ، يُعْرِفُ فَضْلَهُمْ عَلَى سائر غيرهم ، فَيَلْتَقُونَ إليهم أمورهم ، وينقادون لهم بأزمتهم ، وأما العرب فإن ذلك كثير فيهم ، حتى لقد حاولوا أن يكونوا ملوكاً أجمعين ، مع أنفتهم من أداء الخراج وَالْوَطْثِ (٥) بِالصَّفِّ .

(١) عهد . (٢) غلق الرهن : استحققه المرتهن ، وذلك إذا لم يفتك في الوقت المشروط .

(٣) خفر به وأخفره : نقض عهده وغدره . (٤) شرا . (٥) الوطث : الضرب الشديد بالرجل

وأما اليمن التي وصفها الملك ، فإنما أتى جدَّ الملك إليها الذي ^(١) أتاه ، عند غلبة الحبش له ، على ملك متسقي ، وأمر مجتمع ، فأتاه مسلوباً طر يداً مستصرخاً ، ولولا ما وتربَّ به من يليه من العرب ، لمال إلى مجال ، ولوجد من يجيد الطعان ، ويغضب للأحرار من غلبة العبيد الأشرار .

فعجب كسرى لما أجابه النعمان به ، وقال : إنك لأهل لموضعك من الرياسة في أهل إقليمك ، ثم كساد من كِسْوَتِهِ ، ومَرَّحَهُ إلى موضعه من الحيرة .

فلما قدم النعمان الحيرة ، وفي نفسه ما فيها مما سمع من كسرى ، من تنقص العرب ، وتهجين ^(٢) أمرهم ، بعث إلى أكَثَمَ بْنِ صَيْفِيٍّ ، وحاجب بن زُرَّارَةَ التميميين ، وإلى الحرث بن عُبَّاد ، وقيس بن مسعود البكريين ، وإلى خالد بن جعفر ، وعلقمة بن علاثة ، وعامر بن الطُّفَيْلِ العامريين ، وإلى عمرو بن الشَّرِيدِ السَّلَمِيِّ ، وعمرو بن معد يكرب الزُّبَيْدِيِّ ، والحرث بن ظالم المُرِّيِّ ، فلما قدموا عليه في الخوَرَنْقِ ، قال لهم : قد عرفتم هذه الأعاجم ، وقُرْبَ جِوَارِ العرب منها ، وقد سمعت من كسرى مقالات ، تخوفت أن يكون لها غَوْرٌ ، أو يكون إنما أظهرها لأمر أراد أن يتخذ به العرب خوفاً ، كبعض طِمَاطِمَتِهِ ^(٣) ، في تأديتهم الخراج إليه ^(٤) ، كما يفعل بملوك الأمم الذين حوله ، فاقصص عليهم مقالات كسرى ، وما ردد عليه ، فقالوا : أيها الملك ، وفقك الله ! ما أحسن ما رددت ! وأبلغ ما حججته به ! فرنا بأمرك ، وادعنا إلى ماشئت . قال : إنما أنا رجل منكم ، وإنما ملكت وعززت بمكانكم ، وما يتخوف من ناحيتكم ، وليس شيء أحبَّ إليَّ مما سَدَّدَ اللهُ به أمركم ، وأصلح به شأنكم ، وأدام به عزَّكم ، والرأي أن تسيروا بجماعتكم أيها الرهط ، وتنطلقوا إلى كسرى ، فإذا دخلتم نطق كل رجل منكم

(١) هو سيف بن ذي يزن . (٢) تقييح واستهجان ، والهجنة من الكلام : ما يعيبه .

(٣) رجل طمطم وطمطبي « بكسر الطاءين » وطمطمانى « بضمهما » : في لسانه عجمة . (٤) كان

«الفرس يعفون عرب الحيرة من دفع الأتاوة مقابل أن يقوموا بحمايتهم من كل غارة من نواحيهم .

بما حضره ، ليعلم أن العرب على غير ما ظنَّ ، أو حَدَّثَتْهُ نفسهُ ، ولا ينطق رجل منكم بما يُغضبهُ ، فإنه ملك عظيم السلطان ، كثير الأعوان ، مُتَرَفٌ ، مُتَرَفٌ ، مُتَعَجَّبٌ بنفسه ، ولا تنخزلوا^(١) له انخزال الخاضع الدليل ، وليكن أمرٌ بين ذلك ، تظهر به وثاقة حلومكم ، وفضلُ منزلتكم ، وعظيم أخطاركم ، وليكن أول من يبدأ منكم بالكلام أكرم ابن صيفي ، ثم تتابعوا على الأمر من منازلكم التي وضعتكم بها ، فإنما دعاني إلى التقدمة إليكم ، على بميل كلِّ رجل منكم إلى التقدم قبل صاحبه ، فلا يكون ذلك منكم ، فيجد في آدابكم مطعناً ، فإنه ملك مترف ، وقادر مُسَلِّطٌ ، ثم دعا لهم بما في خزائنه من طرائف حلل الملوك ، كل رجل منهم حلة وعمامة عمامة ، وختمة بياقوتة ، وأمر لكل رجل منهم بنجبية مَهْرِيَّة^(٢) و فرس نجبية ، وكتب معهم كتاباً :

« أما بعد : فإن الملك ألقى إليّ من أمر العرب ما قد علم ، وأجبتُهُ بما قد فهم ، بما أحببت أن يكون منه على علم ، ولا يتكَلَجَلَجُ في نفسه أن أمة من الأمم التي احتجرت دونه بما ملكتها ، وسمحت ما يليها بفضل قوتها ، تبالغها في شيء من الأمور ، التي يتعزز بها ذور الحزم والقوة والتدبير والمكيدة ، وقد أوفدت إليها الملك رهطاً من العرب لهم فضل في أحسابهم وأنسابهم وعقولهم وآدابهم ، فليسمع الملك ، وليغض عن جفاء إن ظهر من منطقتهم ، وليكرمني يا كرامهم ، وتعجيل سراحهم ، وقد نسبتهم في أسفل كتابي هذا إلى عشائريهم . »

فخرج القوم في أهبتهم حتى وقفوا بباب كسرى بالمدائن ، فدفعوا إليه كتاب النعمان فقراه ، وأمر بإنزالهم إلى أن يجلس لهم مجلساً يسمع منهم ، فلما أن كان بعد ذلك بأيام ، أمر مرزبانته^(٣) ووجوه أهل مملكته ، فحضروا وجلسوا على كراسي ، عن يمينه

(١) الانخزال : مشية في تناقل . (٢) النجبية : البعير والفرس إذا كانا كريمين عشيقين ،

والمهوية : نسبة إلى مهرة بن حيدان ، حتى تنسب إليه الإبل النجبية . (٣) جمع مرزبان ، بفتح الميم

وضم الزاي ؛ هو الرئيس من الفرس .

وشماله ، ثم دعا بهم على الولاء^(١) والمراتب التي وصفهم النعمان بها في كتابه ، وأقام
الترجمان^(٢) ليؤدّي إليه كلامهم ، ثم أذن لهم في الكلام .

٣٢ - خطبة أكرم بن صيفي

فقام أكرم بن صيفي فقال :

« إن أفضل الأشياء أعاليها ، وأعلى الرجال ملوكها ، وأفضل الملوك أعمها نفعاً ، وخير
الأزمنة أخصبها ، وأفضل الخطباء أصدقها ، الصدق منجاة ، والكذب مهوأة ، والشر
لجاجة^(٣) ، والحزم مرّ كبّ صعب ، والعجز مركب وطىء . آفة الرأي الهوى ، والعجز
مفتاح الفقر ، وخير الأمور الصبر ، حسن الظنّ ورطة ، وسوء الظنّ عصمة ، إصلاح
فساد الرعية خير من إصلاح فساد الراعي ، من فسدت بطانته كان كالأغاص بالماء ، شرّ
البلاد بلاد لا أمير بها ، شرّ الملوك من خافه البريء ، المرء يعجز^(٤) لا المحالة^(٥) ، أفضل
الأولاد البررة ، خير الأعوان من لم يراء بالنصيحة ، أحقّ الجنود بالنصر من حسنت
سريته ، يكفيك من الزاد ما بلفك الحلال ، حسبك من شرّ سماعه ، الصمت حكم^(٦)
وقليل فاعله ، البلاغة الإيجاز ، من شدد نفره ، ومن تراخى تألّف . »

فتعجب كسرى من أكرم ، ثم قال : وَيَحْكُ^(٧) يا أكرم ما أحكمك وأوثق
كلامك ! لولا وضعك كلامك في غير موضعه . قال أكرم : الصدق ينبي عنك
لا الوعيد . قال كسرى : لو لم يكن للعرب غيرك لسكني .

قال أكرم : رَبِّ قَوْلٍ أَنْفَذَ مِنْ صَوْلِ .

(١) التابع والتوالي ، مصدر وانى . (٢) ترجمان : بفتح التاء وضم الجيم وبضمهما

وبفتحهما . (٣) أى أصله اللجاجة ، وهى تماحك الحصين وتماديهما . (٤) من بابي ضرب

وسع . (٥) المحالة : الحيلة . (٦) الحكم : الحكمة (وآتيناها الحكم صيباً) . (٧) ويح : كلمة

رحمة ، (وويل : كلمة عذاب) ، وقيل هما بمعنى واحد .

٣٣ - خطبة حاجب بن زرارة

ثمّ قام حاجب بن زرارة التميمي فقال :

« وَرَى ^(١) زَنْدَكَ ، وَعَلَّتْ يَدُكَ ، وَهَيْبَ سُلْطَانِكَ ، إِنَّ الْعَرَبَ أُمَّةٌ قَدْ غَلْظَتْ
أَكْبَادَهَا ، وَاسْتَحْصَدَتْ ^(٢) مِرْيَتَهَا ، وَمُنِعَتْ دِرْسَتَهَا ^(٣) ، وَهِيَ لَكَ وَامِقَةٌ مَا تَأَلَّفَتْهَا ،
مُسْتَرْسَلَةٌ مَا لَا يَنْتَهَى ، سَامِعَةٌ مَا سَامَحَتْهَا ، وَهِيَ الْعَلْقَمُ مَرَّازَةٌ ، وَالصَّابُ ^(٤) غَضَاضَةٌ ^(٥) ،
وَالعسل حَلَاوَةٌ ، وَالْمَاءُ الزَّلَالُ ^(٦) سَلَاسَةٌ ^(٧) ، نَحْنُ وَفُودُهَا إِلَيْكَ ، وَأَسْنَتُهَا لَدَيْكَ ،
ذَمْتُنَا مَحْفُوظَةٌ ، وَأَحْسَابُنَا مَمْنُوعَةٌ ، وَعِشَائِرُنَا فِينَا سَامِعَةٌ مَطِيعَةٌ ، إِنْ نَوَّبْتَ لَكَ حَامِدِينَ خَيْرًا
فَلَكَ بِذَلِكَ عَمُومٌ مَحْمَدَتْنَا ، وَإِنْ نَدُمْتَ لَمْ نُحْصِ بِالذَّمِّ دُونَهَا » .

قال كسرى : يا حاجب ، ما أشبه حجر التلال بألوان صخرها ، قال حاجب :
بل زئير الأسد بصولتها ، قال كسرى : وذلك .

٣٤ - خطبة الحارث بن عباد

ثمّ قام الحارث بن عباد البكري ، فقال :

دامت لك المملكة باستكمال جزيل حظها ، وعلو سنائها ، من طال رشأوه ^(٨) ،
كثُرَ مَتَّحُهُ ^(٩) ، ومن ذهب ماله ، قلَّ مَنَعُهُ . تناقل الأقاويل يُعرِّفُ اللب ، وهذا

(١) وري الزند بفتح الراء وكسرهما وريا ورية فهو وار وورى : خرجت ناره . وأوريته ووريته
واستوريته ، والزند : العود الذي يقلح به النار جمعه زناد وأزناد . (٢) استحصد الحبل :
استحكم ، والمرة : طاقة الحبل ، والقوة : العقل . كناية عن قوتهم . (٣) الدرّة : اللبن كالدر .
(٤) عصارة : شجر مر . (٥) هي احتمال المسكروه . والذلة والمنقصة . (٦) ماء زلال :
سريع المرفى الخلق بارد عذب صاف سهل سلس . (٧) سهولة . السلس : السهل اللين المنقاد .
(٨) الرشاء : الحبل . (٩) المتح : نزع الماء من البئر .

مقام سَيُوجِفُ^(١) بما ينطق به الرَّكْبُ ، وتعرف به كُنْهَ حَالِنَا الْعَجَمِ وَالْعَرَبِ ، وَنَحْنُ جِيرَانُكَ الْأَدْنُونَ ، وَأَعْوَانُكَ الْمَعِينُونَ ، خِيُولُنَا بَجَّةً ، وَجِيوشُنَا فُحْمَةً ، إِنْ اسْتَنْجَدْتَنَا فَعِيرُ رُبُضٍ^(٢) ، وَإِنْ اسْتَطَرَقْتَنَا^(٣) فَعِيرُ جُهْضٍ^(٤) ، وَإِنْ طَلَبْتَنَا فَعِيرُ غَمُضٍ^(٥) ، لَا نَنْشِي لِذَعْرِ ، وَلَا نَنْتَكِرُ لِدَهْرِ ، رَمَاحُنَا طَوَالٌ ، وَأَعْمَارُنَا قِصَارٌ .

قال كسرى : أنفس عزيزة وأمة ضعيفة ، قال الحرث : أيها الملك وأنى يكون لضعيف عِزَّةٌ أو لصغير مِرَّةٌ ! قال كسرى : لو قَصُرَ عَمْرُكَ ، لَمْ تَسْتَوِلْ عَلَى لِسَانِكَ نَفْسُكَ . قال الحرث : أيها الملك إنَّ الفارس إذا حمل نفسه عَلَى السَّكْبِيَّةِ مُقَرَّرًا بِنَفْسِهِ عَلَى الْمَوْتِ ، فَهِيَ مَنِيَّةٌ اسْتَقْبَلَهَا ، وَجِنَانٌ اسْتَدْبَرَهَا ، وَالْعَرَبُ تَعْلَمُ أَنِّي أَبْعَثُ الْحَرْبَ قُدُمًا^(٦) ، وَأُحْبِسُهَا وَهِيَ تَصَرَّفُ بِهَا ، حَتَّى إِذَا جَاشَتْ نَارُهَا ، وَسَعَرَتْ لُظَاهَا ، وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا ، جَعَلْتُ مَقَادِمَهَا رُمْحِي ، وَبَرَقَهَا سِيفِي ، وَرَعَدَهَا زَيْبِيرِي ، وَلَمْ أَقْصِرْ عَنْ خَوْصِ خَضْمَخَاضِهَا^(٧) ، حَتَّى أَنْفَسَ فِي غَمْرَاتِ بُلْجِيهَا ، وَأَكُونَ فُلْدَكَ لِفِرْسَانِي إِلَى بُجْبُوحَةِ كِبَشِهَا^(٨) ، فَاسْتَمَطَرَهَا دَمًا ، وَأَتْرَكْتُ حَمَاتَهَا جَزَرَ^(٩) السَّبَّاعِ وَكَلَّ نَسْرَ

(١) وجف الفرس والبعير عدا ، وأوجفته : أعديته ، يقال : أو جف فأعجف (فا أو جفتم عليه من خيل ولا ركاب) أى ما أعلمتم .

(٢) يقال : رجل ربض عن الحاجات لا يهض فيها ، وهو هنا جمع ربوض بالفتح من ربضت الشاة كبركت الناقة : أى لا تنقاعس عن نصرتك ولا تنجم . (٣) استطرقه فحلا : طلبه منه ليضرب في إبله ، هذا هو الأصل ، والمراد استعنت بنا . (٤) أجهضت الناقة والمرأة ولدها : أسقطته ناقص الخلق ، والسقط : جهيض ، وجمعه جهض ، أى أن فعلنا إذا ضرب النياق (نسكحها) ثم تأت بجهض بل تنتج ، والمراد أنه إن استجد بهم أمر ذلك الاستنجد ولم يجب . (٥) من الغمض ، وهو النوم ، يقال ما غمضت ، ولا أغمضت ، ولا اغتمضت ، فالوصف من الأول غامض ، وللمبالغة غموض ، والجمع غمض أى فلا تنام عن نصرتك . (٦) القدم : المضى أمام أمام ، وهو يمضى القدم : إذا مضى في الحرب . والقدم : المقدم الشجاع . وفى الحديث « طوبى لعبد مغبر قدم فى سبيل الله » . (٧) الخضخاض : نفض أسود رقيق تهنا به الإبل الجرب (ولعله خضاخضها) بضم الخاء ، والخضخاض : المكان الكثير الماء . (٨) سيد القوم وقائدهم . (٩) أى قطما .

قَشَمَ (١) . ثم قال كسرى لمن حضره من العرب : أ كذالك هو ؟ قالوا : فعاله أنطق
من لسانه .

قال كسرى : ما رأيت كالسيوم وَفَدًا أَحشد ، ولا شهوداً أوفد .

٣٥ - خطبة عمرو بن الشريد

ثم قام عمرو بن الشريد السلمي ، فقال :

« أيها الملك ، نعيم بالكَ ، ودام في السرور حالك ، إن عاقبة الكلام مُتدبِّرة ،
وأشكال الأمور مُعتبِّرة ، وفي كثير ثقله ، وفي قليل بُلغته ، وفي الملوك سورة (٢) العز ،
وهذا منطوق له ما بعده ، شرف فيه من شرف ، وخل فيه من خل ، لم نأت لضيحك ،
ولم نقد لسخطك ، ولم نعرض لرفدك (٣) إن في أموالنا مُنتقداً (٤) ، وعلى عزنا
مُعتمداً ، إن أوزيننا (٥) نارا أثقينا ، وإن أود (٦) دهر بنا اعتدلنا ، إلا أنا مع
هذا لجوارك حافظون ، ولئن رامك كافحون ، حتى يُحمد الصدر (٧) وَيُسْتَطَاب
الخبير » .

قال كسرى : ما يقوم قصد منطقتك بإفراطك ، ولا مدحك بذمك ، قال عمرو :
كفي بقليل قصدي هاديا ، وبأيسر إفراطى مُخبرا ، ولم يُلم من غربت نفسه عما يعلم ،
ورضى من القصد بما بلغ . قال كسرى : ما كل ما يعرف المرء ينطق به .
اجلس .

(١) مسن . (٢) سورة المجد : أثره وعلامته ، وسورة السلطان : ساقوته (والسورة المنزلة)

بالضم . (٣) الرفد : العطاء . (٤) انتقد الدراهم قبضها . (٥) أو قدنا . (٦) اعوج .

(٧) الرجوع .

٣٦ - خطبة خالد بن جعفر الكلابي

ثمّ قام خالد بن جعفر الكلابي فقال :

« أحضر الله الملك إسعاداً ، وأرشده إرشاداً ، إن لكل منطلق فرصة ، ولكل حاجة غصة ، وعي المنطق أشد من عي الشكوت ، وعثار القول أنكأ^(١) من عثار الوعث^(٢) . وما فرصة المنطق عندنا إلا بما نهوى ، وغصة المنطق بما لانهوى غير مستساغة^(٣) ، وتركي ما أعلم من نفسي ، ويُعلم من سمعي أني له مطيق ، أحب إلي من تكلفي ما أخوف ويتخوف مني ، وقد أوفدنا إليك ملكنا النعمان ، وهو لك من خير الأعوان ، ونعم حامل المعروف والإحسان ، أنفسنا بالطاعة لك باخعة^(٤) ، ورقابنا بالنصيحة خاضعة ، وأيدينا لك بالوفاء رهينة » .

قال له كسرى : نطقت بعقل ، وسموت بفضل ، وعلوت بنبل .

٣٧ - خطبة علقمة بن علاثة العامري

ثمّ قام علقمة بن علاثة العامري فقال :

« نهجت^(٥) لك سبل الرشاد ، وخضعت لك رقاب العباد ، إن للأقويل مناهج ، وللآراء موالج^(٦) وللعويص مخارج ، وخير القول أصدق ، وأفضل الطلب أنجح ، إنا وإن كانت الهبة أحضرتنا ، والوفادة قرّبتنا ، فليس من حضرك منا بأفضل ممن عزب عنك ، بل لو قست كل رجل منهم ، وعلمت منهم ما علمنا ، لوجدت له في آبائه

(١) نكأ العدو ونكاه نكاية : قتل وجرح ، وأنكأ : أي أشد نكاية وقهراً . (٦) الوعث : المكان السهل الدهس تغيب فيه الأقدام والطريق العسر . (٣) أساغ الفصة ابتلعها ، وساغ الشراب : سهل مدخله في الخلق . (٤) خاضعة ومقرة ، نجح بالحق أقرب به وخضع له . (٥) وضحت . (٦) مداخل ، جمع مولج . كجلس ، وليج يلج واوجا ولجة .

دُنْيَا ، أُنْدَادًا وَأَكْفَاءَ ، كُلَّهُمْ إِلَى الْفَضْلِ مَنْسُوبٌ ، وَبِالشَّرَفِ وَالسُّؤْدُودِ^(١) مُوصُوفٌ ،
وَبِالرَّأْيِ الْفَاضِلِ وَالْأَدَبِ الْنَافِذِ^(٢) مَعْرُوفٌ ، يَحْمِي حِمَاهُ ، وَيُرْوِي نَدَامَاهُ^(٣) ، وَبِذُودِ
أَعْدَائِهِ ، لَا تَحْمُدُ^(٤) نَارَهُ ، وَلَا يَحْتَرِزُ مِنْهُ جَارَهُ ، أَيُّهَا الْمَلِكُ : مَنْ يَبِيلُ الْعَرَبَ يَعْرِفُ
فَضْلَهُمْ ، فَاصْطَنَعَ^(٥) الْعَرَبُ ، فَإِنَّهَا الْجِبَالُ الرَّوَّاسِي عِزًّا ، وَالْبَحُورُ الزَّوَاخِرُ طُمِيًّا^(٦) ،
وَالنَّجُومُ الزَّوَاهِرُ شُرْفًا ، وَالْحَصَى عِدْدًا ، فَإِنْ تَعْرِفْ لَهُمْ فَضْلَهُمْ يُعِزُّوكَ ، وَإِنْ
تَسْتَصْرِخَهُمْ^(٧) لَا يَخْذُلُوكَ .

قال كسرى : وخشى أن يأتي منه كلام يحمله على السخط عليه - حسبك
أبلغت وأحسن .

٣٨ - خطبة قيس بن مسعود الشيباني

ثم قام قيس بن مسعود الشيباني ، فقال :

« أَطَابَ اللَّهُ بِكَ الْمَرَادَ ! وَجَنَّبَكَ الْمَصَائِبَ ! وَوَقَاكَ مَكْرُوهَ الشَّصَائِبِ^(٨) !
مَا أَحَقَّنَا - إِذْ أَتَيْنَاكَ - بِإِسْمَاعِكَ مَا لَا يُحْنِقُ صَدْرَكَ ، وَلَا يَزْرَعُ لَنَا حَقْدًا فِي قَلْبِكَ !
لَمْ نَقْدَمْ أَيُّهَا الْمَلِكُ لِمُسَامَاةٍ ، وَلَمْ نَنْتَسِبْ لِمُعَادَاةٍ ، وَلَكِنْ لَتَعْلَمَ أَنْتَ وَرَعِيَّتُكَ وَمَنْ حَضَرَكَ مِنْ
وَفُودِ الْأُمَمِ ، أَنَا فِي الْمَنْطِقِ غَيْرُ مُحْجِمِينَ ، وَفِي النَّاسِ غَيْرُ مُقَصِّرِينَ ، إِنْ جُورِينَا فَعَبِيرُ
مَسْبُوقِينَ ، وَإِنْ سُوْمِينَا فَعَبِيرُ مَغْلُوبِينَ . »

(١) السؤدد بفتح الدال والسؤدد بضمها والسود والسيادة . (٢) الظاهر أثره .

(٣) نداهى . جمع ندمان ، وهو النديم ، وجمع النديم ندماء ، وناداهى : جالسه على الشراب (ندمان
بمعنى منادم مصروف ، لأن مؤنثه ندمانة ، أما ندمان بمعنى نادم فلا يصرف لأن مؤنثه ندى :

كل فعلان فهو أثناء فعلى غير وصف النديم بالندمان)

(٤) خد : كنصر وسمع . (٥) اختر واصطف . (٦) طمى الماء يطمى طميا علا ، والنبت

طال والبحر امتلا ، وهته علت . (٧) تستنجد بهم . (٨) جمع شصيبة ، وهى الشدة .

قال كسرى : غير أنكم إذا عاهدتم غير وافين (وهو يعرضُ به في تركه الوفاء بضمانه السواد^(١)) قال قيس : أيها الملك ما كنتُ في ذلك إلا كوافٍ غدِر به ، أو كخافر أخفِرَ بدمته . قال كسرى : ما يكون لضعيف ضمان ، ولا لذليل خفارة ، قال قيس : أيها الملك : ما أنا فيما أخفِرَ من ذمتي أحقُّ بإلزامي العار منك فيما قتل من رعييتك ، وأنتَ هكَّ من حرمتك ، قال كسرى : ذلك لأن من اتّمن الخيانة^(٢) ، واستنجد الأئمة ، ناله من الخطأ ما نالني ، وليس كل الناس سواء ، كيف رأيت حاجب بن زرارة ، لم يُحكِّم قواه ، فيئرم ، ويعهد فيؤني ، ويبعد فينجز ، قال وما أحقه بذلك ، وما رأيتَه إلا لي ، قال كسرى : القوم بزل^(٣) فأفضلها أشدّها .

٣٩ خطبة عامر بن الطفيل العامري

ثمَّ قام عامر بن الطفيل العامري فقال :

« كثر فنون المنطق ، ولَبَسُ القول أعمى من حِنْدِس^(٤) الظلماء ، وإنما الفخر في الفعّال ، والعجز في النجدة ، والسودد مطاوعة القدرة^(٥) ، وما أهلك بقدرنا ، وأبصرنا بفضلنا ، وبالحرمي^(٦) إن أدالت^(٧) الأيام ، وثابت الأحلام أن تحدث لنا أمورالها أعلام^(٨) . قال كسرى : وما تلك الأعلام ، قال مُجْتَمَع^(٩) الأحياء من ربيعة ومُضَر ، على أمر يذكر قال كسرى : وما الأمر الذي يذكر ؟ قال : مالي علم بأكثر مما خبّرني به مخبر ، قال كسرى : متى تكاهنت يا بن الطفيل ؟ قال : لست بكاهن ، ولكني بالمرح

(١) أي سواد العراق . (٢) الخيانة والخونة : جمع خائن . (٣) البازل : الجمل في السنة التاسعة ، والرجل الكامل في تجربته جمع بزل وبزل . (٤) الليل المظلم والظلمة . (٥) أي أن يأتي المرء ما يقدر عليه ، فإن ذلك يبلغه السودد . (٦) خليق وجدير . (٧) نصرتنا . (٨) أي مشهورة . (٩) اجتماع .

طاعن ، قال كسرى : فإن اتاك آت من جهة عينك العوراء ما أنت صانع ؟ قال :
ما هيبتى فى قفاى بدون هيبتى فى وجهى ، وما أذهب عيني عيث^(١) ، ولكن
مطاوعة العبت .

٤٠ - خطبة عمرو بن معد يكرب الزبيدى

ثم قام عمرو بن معديكرب الزبيدى ، فقال :

« إنما المرء بأصغريه : قلبه ولسانه ، فبلاغ المنطق الصواب ، وملاك النجعة^(٢)
الارتياذ ، وعفو الرأى خير من استكراه الفكرة ، وتوقيف الخيرة خير من اعتساف
الخيرة ، فاجتنب^(٣) طاعتنا بلفظك ، واكتظم بادرتنا بملك ، وألن لنا كنفك يسلس
لك قيادنا ، فإننا أناس لم يؤقس^(٤) صفاتنا قراع منا قير^(٥) من أراد لنا قضا^(٦) ، ولكن
منعنا حمانا من كل من رام لنا هضا »

٤١ - خطبة الحارث بن ظالم المرى

ثم قام الحارث بن ظالم المرى ، فقال :

« إن من آفة المنطق الكذب ، ومن لؤم الأخلاق اللق ، ومن خطل الرأى خفة
الملك المسلط ، فإن أعلمناك أن مواجعتنا لك عن الائتلاف ، وأتقيادنا لك عن تصافى ،
فما أنت لقبول ذلك منا بخليق ، ولا للاعتماد عليه بتحقيق ، ولكن الوفاء بالعهود ،
وإحكام وث العقود ، والأمر بيننا وبينك معتدل ، ما لم يأت من قبلك
ميل أو زلل . »

(١) الإفساد . (٢) النجعة : طلب الكلا فى موضعه . (٣) اجتذب . (٤) الوقس :

انتشار الجرب فى البدن ، والتوقيس : الإجراب ، أى لم يחדش صفاتنا ويؤثر فيها . (٥) جمع منقار ،

وهو حديدة كالفأس ينقر بها . (٦) أصله الأكل بأطراف الأسنان .

قال كسرى : من أنت ؟ قال الحرث بن ظالم ، قال إن في أسماء آبائك لدليلاً على قلة وفائك ، وأن تكون أولى بالقدر ، وأقرب من الوزر . قال الحرث : إن في الحق مَنُضِبَةٌ . والسَرُّوُ التغافل^(١) ، ولن يستوجب أحدٌ الحلم لإلامع القدرة ، فلتُشْبِهْ أفعالك مجلسك ، قال كسرى : هذا فتى القوم

ثم قال كسرى : قد فهمت ما نطقت به خطباؤكم ، وتفنن فيه متكلموكم ، ولولا أنى أعلم أن الأدب لم يُثَقَّفْ أَوْدَكم ، ولم يُحَكَّمْ أَسْرَكم ، وأنه ليس لكم ملك يجمعكم ، فتنتطقون عنده منطلق الرعية الخاضعة الباخمة ، فنطقتم بما استولى على ألسنتكم ، وغلب على طباعكم ، لم أُجِزْ لكم كبراً مما تكلمتم به ، وإني لأكره أن أُجِبَّه وفودى ، أو أُحْنِقَ صدورهم ، والذي أحب من إصلاح مُدَبِّرِكمُ ، وتألف شواذكم ، والإعذار إلى الله فيما بيني وبينكم ، وقد قبلت ما كان في منطلقكم من صواب ، وصفحتم عما كان فيه من خلل ، فانصرفوا إلى ملككم ، فأحسنوا موازرتهم ، والتزموا طاعته ، واردعوا سفهاءكم وأقيموا أودهم ، وأحسنوا أدهم ، فإن في ذلك صلاح العامة . (المقد الفريد ١: ١٠١)

٤٢ - مخالس بن مزاحم وقاصر بن سلمة عند النعمان بن المنذر

كان مخالس بن مزاحم الكلبى ، وقاصر بن سلمة الجذامى بباب النعمان بن المنذر ، وكان بينهما عداوة ، فأتى قاصر إلى ابن فراتى وهو عمرو بن هند أخو النعمان ابن المنذر ، وقال : إن مخالساً هجاك ، وأنشده فى ذلك أبياتاً ، فلما سمع عمرو ذلك أتى النعمان ، فشكا مخالساً وأنشده الأبيات ، فأرسل النعمان إلى مخالس ، فلما دخل عليه قال : « لا أم لك ! أتهجوا امرأ هو ميتاً خيرٌ منك حياً ، وهو سقيماً خيرٌ منك صحيحاً . وهو غائباً خيرٌ منك شاهداً ؟ فبحرمة ماء المزن^(١) ، وحقّ أبى قابوس^(٢) ، لئن لاح لى أن ذلك كان منك ، لأنزِعَنَّ غلصمتك من قفاك ، ولا طعمتتك لحك » .

قال مخالس : « أبيت اللعن ! كلا ، والذي رفع ذروتك بأعمادها ، وأمات حسادك بأكادها ، ما بلغت غير أفاريل الوشاة ، ونمائم العصاة ، وما هجوت أحداً ، ولا أهجو امرأ ذكرت أبداً ، وإنى أعوذ بجدك الكريم ، وعزيتك القديم ، أن ينالنى منك عقاب ، أو يفاجئنى منك عذاب ، قبل الفحص والبيان ، عن أساطير أهل البهتان » . فدعا النعمان قاصراً فسأله ، فقال قاصر : « أبيت اللعن ! وحقك لقد هجاه وما أروانيها سواه » فقال مخالس : « لا يأخذن أيها الملك منك قول امرئ آفك^(٣) ، ولا توردنى سبيل المهالك . واستدليل على كذبه بقوله : إنى أرويته مع ما تعرف من عداوته » ، فعرف النعمان صدقه فأخرجهما .

فلما خرجا ، قال مخالس لقاصر : « شقي جدك ، وسفل خدك ، وبطل كيدك ، ولاح للقوم جرّمك ، وطاش عنى سهمك ، ولأنت أضيق حجراً من نقاز^(٤) ، وأقل قوى من الحامل على الكراز^(٥) » فأرسلها مثلاً . (جمع الأمثال ١ : ١٤٠)

(١) المزن : السحاب أو أبيضه أو ذو الماء ، جمع مزنة . (٢) يعنى نفسه وأبو قابوس كنيته . (٣) كذاب . (٤) الحجر : العقل ، والنقاز : كرمان ، وشداد : طائر أو صغار العصفير ومن قول حسان بن ثابت :

لابأس بالقوم من طول ومن قصر
جسم البغال وأحلام المصافير

(٥) الكراز : الكبيش يحمل خرج الراعى ، أى أقل قوى من الراعى يحمل زاده على الكبيش ، وهو مثل يضرب لمن يرمى باللؤم .

٤٣ - ضمرة بن ضمرة عند النعمان بن المنذر

قيل إن رجلا من بني تميم يقال له ضمرة بن ضمرة ، كان يُغير على مسالِح^(١) النعمان بن المنذر ، حتى إذا عيل صبر النعمان ، كتب إليه أن أدخل في طاعتي ، ولك مائة من الإبل ، فقبلها وأتاه ، فلما نظر إليه أزدراه - وكان ضمرة دَمِيماً - فقال : تسمع بأُمُعَيْدِي لا أن تراه^(٢) . فقال ضمرة : مَهَلًا أيها الملك . إن الرجال لا يكأون بالصَّيْعَانِ^(٣) . وإنما المرء بأصْفَرِيهِ قَلْبِهِ ولسانِهِ . إن قَاتَلَ قَاتَلَ بِجِنَانٍ . وإن نطق نطق ببيان . قال : صدقت لله دَرَكٌ ، هل لك علم بالأمور والؤلوج فيها ؟ قال : والله إني لأُبرِمُ منها المَسْحُولُ^(٤) . وأنقُضُ منها المَفْتُولُ . وأحِيلها حتى تَحُولَ ، ثم أنظر إلى ما يثول . وليس للأمور بصاحب . ممن لا ينظر في العواقب . قال : صدقت ، لله درك ! فأخبرني : ما العجز الظاهر ، والفقر الحاضر ، والداء العيَاءُ^(٥) ، والسوءة السوءاء ؟ قال ضمرة :

« أما العجز الظاهر . فالشابُّ القليل الحيلة . اللزومُ لِلْحَلِيلَةِ . الذي يحوم حولها . ويسمع قولها . فإن غَضِبَتْ تَرَضَّاهَا . وإن رَضِيَتْ تَفَدَّاهَا . وأما الفقر الحاضر فالمرء لا تشبَعُ نفسه . وإن كان من ذهبٍ خِلْسُهُ^(٦) . وأما الداء العيَاءُ : فجار السوء ، إن كان فوقك قَهْرَكَ ، وإن كان دونك هَمَزَكَ^(٧) . وإن أعطيته كفرك ، وإن منعتة شتمك ، فإن كان ذلك جارك ، فأخْلِ له دارك ، وَعَجِّلْ منه فرارك ، وإلا فَأَقِمِ بَدْلًا

(١) مسالِح جمع مسلحة يافتح وهى الثغر . (٢) وفي رواية « تسمع بالمعدي خير من أن تراه »

وهو مثل يضرب لمن خبره خير من مرآه ، والمعدي تصغير المعدي نسبة إلى معد وهو حى ، خففت الدال استئقالا للتشديد مع ياء التصغير ، وقيل منسوب إلى معيد وهو اسم قبيلة . (٣) الصيغان جمع صاع وهو مكيال يكال به ، ومعياره الذى لا يختلف أربع حفنات بكفى الرجل الذى ليس بمعظم الكففين ولا صغيرهما . وحرر بعض المحققين أن الصاع بالمصرى قد حان وثلاث . (٤) سحل الثوب : لم يبرم غزله . (٥) داء عيَاء : لا يبرأ منه . (٦) الخلس كماء يجعل على ظهر البعير تحت رحله . (٧) الحمز : الغمز .

وصَفَّارٌ ، وَكُنْ كَكَلْبٍ هَرَّارٍ^(١) ، وَأَمَّا السُّوءَةُ السُّوءَاءُ : فَالْحَلِيلَةُ الصَّخَّابَةُ^(٢) ، الْخَفِيفَةُ
الْوَثَابَةُ ، السَّلِيْطَةُ^(٣) السَّبَابَةُ ، الَّتِي تَعْجَبُ مِنْ غَيْرِ عَجَبٍ ، وَتَغْضَبُ مِنْ غَيْرِ غَضَبٍ ،
الظَّاهِرُ عَيْبُهَا ، وَالْمَخُوفُ غَيْبُهَا ، فَزَوْجُهَا لَا يَصْلِحُ لَهُ حَالٌ ، وَلَا يَنْتَمُ لَهُ بَالٌ ، إِنْ كَانَ غَنِيًّا
لَا يَنْفَعُهُ غِنَاهُ ، وَإِنْ كَانَ فَقِيرًا أَبَدَتْ لَهُ قِلَافَهُ^(٤) ، فَأَرَاخَ اللَّهِ مِنْهَا بَعْلَمَهَا ، وَلَا مَتَعَ اللَّهُ
بِهَا أَهْلَهَا .

فَأَعْجَبَ النَّعْمَانَ حُسْنَ كَلَامِهِ ، وَحُضُورَ جَوَابِهِ ، فَأَحْسَنَ جَائِزَتَهُ . وَاحْتَبَسَهُ قَبْلَهُ .

(جوهرة الأمثال ١ : ١٨٦)

٤٤ — لبيد بن ربيعة يصف بقلة

وَفَدَى عَلَى النَّعْمَانَ بْنِ الْمُنْذِرِ عَامِرُ بْنُ مَالِكٍ مُلَاعِبِ الْأَسِنَّةِ فِي رَهْطٍ مِنْ بَنِي جَعْفَرِ
ابْنِ كِلَابٍ ، فِيهِمْ لَبِيدُ بْنُ رَبِيعَةَ ، فَطَعَنَ فِيهِمُ الرَّبِيعُ بْنُ زِيَادِ الْعُبَيْسِيِّ ، وَذَكَرَ
مَعَابِيَهُمْ — وَكَانَ نَدِيمًا لِلنَّعْمَانَ ، وَكَانَتْ بَنُو جَعْفَرٍ لَهُمْ أَعْدَاءٌ — فَلَمْ يَزَلْ بِالنَّعْمَانَ حَتَّى صَدَّه
عَنْهُمْ ، فَدَخَلُوا عَلَيْهِ يَوْمًا ، فَرَأَوْا مِنْهُ جَفَاءً — وَقَدْ كَانَ يَكْرَهُهُمْ وَيَقْرَهُهُمْ — فَخَرَجُوا غَضَابًا ،
وَلَبِيدٌ مَتَخَلِّفٌ فِي رَحَالِهِمْ ، يَحْفَظُ مَتَاعَهُمْ ، وَيَعْتَدُو بِإِبْلِهِمْ كُلَّ صَبَاحٍ يَرَعَاهَا — وَكَانَ
أَحَدُهُمْ سَنًا — فَأَتَاهُمْ ذَاتَ لَيْلَةٍ وَهُمْ يَتَذَاكِرُونَ أَمْرَ الرَّبِيعِ ، فَسَأَلَهُمْ عَنْهُ فَكْتَمُوهُ ،
فَقَالَ : وَاللَّهِ لَا حَفِظْتُ لَكُمْ مَتَاعًا ، وَلَا سَرَّحْتُ لَكُمْ بَعِيرًا ، أَوْ تَخْبِرُونِي فِيمَ أَنْتُمْ ؟
وَكَانَتْ أُمُّ لَبِيدٍ يَتِيمَةً فِي حِجْرِ الرَّبِيعِ ، فَقَالُوا : خَالَكَ قَدْ غَلَبْنَا عَلَى الْمَلِكِ ، وَصَدَّ عَنْنَا وَجْهَهُ ،
فَقَالَ لَبِيدٌ : هَلْ تَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ تَجْمَعُوا بَيْنِي وَبَيْنَهُ ، فَأَزْجِرَهُ عَنْكُمْ بِقَوْلِ مُمِضٍ مُؤَلِّمٍ ،
لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ النَّعْمَانُ بَعْدَهُ أَبَدًا ؟ قَالُوا : وَهَلْ عِنْدَكَ شَيْءٌ ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالُوا : فَإِنَّا نَبْلُوكَ .

(١) هرير الكلب : صوته ، وهو دون النباح . (٢) أى كثيرة اللغظ والجلبة من الصخب

بالتحريك . (٣) الطويلة اللسان من السلاطة كفصاحة . (٤) القلى : البغض والكراهية .

قال : وما ذلك ؟ قالوا : تَشَمُّ هذه البَقْلَة - وَقَدْ آمَهُمْ بَقْلَةٌ دَقِيقَةُ الْقَضْبَانِ ، قَلِيلَةُ الْأُورَاقِ ، لاصِقَةٌ بِالْأَرْضِ ، تَدْعَى التَّرْبَةَ - فقال :

« هذه للتربة التي لا تُذْكَى (١) نَاراً ، ولا تُؤْهِلُ (٢) دَاراً ، ولا تَسْرُ جَاراً ، عُوْدُهَا ضَنْبِيلٌ ، وَفَرْعُهَا كَلِيلٌ (٣) ، وخيرها قليل ، أقبح البقول مرعى ، وأقصرها قرعاً ، وأشدّها قلعاً ، فتعسّساً لها وَجَدْعاً (٤) ، بلدها شاسع (٥) ، وَنَبْتُهَا خَاشِعٌ ، وآكلها جَانِعٌ ، والمقيم عليها قَانِعٌ (٦) ، فالتقوا بى أخا بنى عَبَسَ ، أُرْدَاهُ عَنْكُمْ بِتَعَسٍ (٧) وَنُكْسٍ ، وَأَتْرَكَهُ مِنْ أَمْرِهِ فِي لَبْسٍ . »

فلما أصبحوا غَدَوْا به معهم إلى النعمان ، فذكروا حاجتهم ، فاعترض الربيع ، فرجز به لبيد رَجَزاً مَالِبِثَ مَعَهُ النِّعْمَانَ أَنْ تَقْرَزَ مِنْهُ ، وَأَمْرَهُ بِالْانْصِرَافِ إِلَى أَهْلِهِ

(مجمع الأمثال ٢ : ٣٣ وجمهرة الأمثال ٢ : ١١٦ ، الأغاني ١٤ : ٩١ ،

أبناء نجباء الأبناء ص ١٧١ ، وأمال السيد المرتضى ١ : ١٣٥)

٤٥ - كلمات هند بنت الحُسن الإيادية

أتى رجل هندَ بنتِ الحُسنِ الإياديةِ يستشيرها في امرأة يتزوَّجها . فقالت : « انظر رمكاء (٨) جَسِيمَةً ، أوبيضاء وَسِيمَةً ، في بيتِ جِدِّ ، أوبيتِ حَدِّ ، أوبيتِ عَزِّ » قال : حانركتِ من النساءِ شيئاً ، قالت : « بلى ، شرَّ النساءِ تركتُ : السَّوِيْدَاءُ الْمِمْرَاضُ (٩) ، وَالْحَمِيْرَاءُ الْمِحْيَاضُ (١٠) الْكَثِيْرَةُ الْمِظَاطُ (١١) . »

وقيل لها : أى النساءِ أسوأ ؟ قالت : « التى تقعدُ بالفناء ، وتملأُ الإِنَاءُ ، وتمدُّقُ (١٢) »

(١) تذكى : تشمل . (٢) أى ولا تؤدم أهل دار من الإهالة (ككتابة) وهى كل ما يؤدم

به ، ويقال ثريدة مأهولة : أى فيها إهالة . (٣) ضعيف . (٤) قطعاً . (٥) بعيد .

(٦) أى سائل . (٧) التعس : الهلاك .

(٨) الرمكاء : السمراء ، والرمكة كحمر لون الرماد . (٩) الممراض : المسقام .

(١٠) الكثيرة الحيض . (١١) المظاظ : المنازعة والمشاركة . (١٢) تمزج .

ما في السقاء» قيل : فأى النساء أفضل ؟ قالت : « التي إذا مشت أُغْبِرَتْ^(١) ، وإذا نطقت صرَّصرت^(٢) ، متورِّكة جارية^(٣) ، في بطنها جارية^(٤) » .

قيل : فأى الغلمان أفضل ؟ قالت : « الأسوق الأعنق^(٥) ، الذي إن شبَّ كأنه أحق » قيل : فأى الغلمان أفضل^(٦) ؟ قالت : « الأويقص^(٧) القصير العضد ، العظيم الحاوية^(٨) ، الأغيب الغشاء ، الذي يطبع أمه ، ويعصى عمه » .

(الأمالي ٢ . ٢٦٠)

وقيل لها : أى الرجال أحبُّ إليك ؟ قالت : السهل النجيب ، السمح الحسيب ، الندب^(٩) الأريب ، السيد المهيب ، قيل لها : فهل بقي أحد من الرجال أفضل من هذا ؟ قالت : نعم الأهيف الهفاه^(١٠) ، الأنف العياف ، المقيد المتلاف ، الذي يُخيف ولا يخاف ، قيل لها : فأى الرجال أبغضُ إليك ؟ قالت : الأوره^(١١) النثوم ، الوكل النثوم ، الضعيف الحيزوم ، اللثيم الملوّم . قيل لها : فهل بقي أحد شر من هذا ؟ قالت : نعم ، الأحق النزاع ، الضائع المضاع ، الذي لا يهاب ولا يطاع ، قالوا : فأى النساء أحب إليك ؟ قالت : البيضاء العطرة ، كأنها ليلة قمر^(١٢) قيل : فأى النساء

(١) أثارت الغبار في مشيتها . (٢) أحلت صوتها . (٣) أى حاملة لها على وركها .

(٤) أى هي مثنات . (٥) الأسوق : الطويل الساق ، والأعنق : الطويل العنق .

(٦) أفضل من فسل : ككرم وعلم وعن فساله وفسولة فهو فسل ؛ أى رذل لا مروءة له .

(٧) الأويقص : تصغير أوقص ، وهو الذي يدنو رأسه من صدره .

(٨) ماتحوى من الأمعاء أى استدار .

(٩) الندب : الخفيف في الحاجة الظريف النجيب ، والأريب : العاقل . (١٠) الأهيف وصف

من اهيف بالتحريك ، وهو رقة الخاصرة ، والقميص الخفاه ، أى الرقيق الشفاف . (١١) الأوره :

الأحق من وره كفرح . (١٢) ليلة قمر وقراء ومقمره : فيها القمر .

أبيض اليك؟ قالت: العنْفِصُ^(١) القصيرة، التي إن استنطقتْها سكتت، وإن سكتت عنها نطقتْ». (ذيل الأمال ص ١٢٠)

وقال لها أبوها يوماً: أى المال خير؟ قالت: «النَّخْلُ، الراسخاتُ في الوَحْلِ، المطعماتُ في المَحَلِّ^(٢)» قال: وأى شيء؟ قالت: «الضَّانُ: قرية لاوباء بها. تنتجها رُخَالاً^(٣)، وتَحْلُبها عِلَالاً^(٤)، وتَجْزُّ لها جُفَالاً^(٥)، ولا أرى مثلاً مالا» قال: فلا يبل مالكِ توخرَينها؟ قالت: «هى أذكار الرجال، وإِرْقَاءُ الدماء، ومُهْوَرُ النساء» قال: فأى الرجال خير؟ قالت:

خير الرِّجَالِ المُرَهَّقُونَ كما خيرُ تِلَاعِ البلادِ أَوْطُوها^(٦)

قال: أيهم؟ قالت: «الذى يُسأل ولا يسأل، ويضيف ولا يضاف، ويصلح ولا يضلح». قال: فأى الرجال شر؟ قالت: «النُّصَيْطُ النُّطَيْطُ^(٧) الذى معه سُوَيْطُ^(٨)، الذى يقول أذر كوني من عبد بنى فلان؛ فإنى قاتله أو هو قاتلى». قال: فأى النساء خير؟ قالت: «التي فى بطنها غلامٌ، تحمل على وركها غلاماً، يمشى وراءها غلام» قال: فأى الجمال خير؟ قالت: «السَّبْحَلُ الرَّبَّجَلُ^(٩)، الراحلة الفحل». قال:

(١) العنْفِصُ: المرأة البديهة القليلة الحياء، والقليلة الجسم الكثيرة الحركة.

(٢) المحل: الشدة والجذب وانقطاع المطر. (٣) الرخال جمع رخل كحمل وكنتف، وهو الأثني

من أولاد الضأن. (٤) يقال عالت الناقة، وهو أن تحلب أول النهار ووسطه وآخره، والاسم علال ككتاب. (٥) الجفال: الكثير من الصوف.

(٦) المرهق: من يعشاه الناس والأضياف. (٧) النطيط: الذى لالحية له، والنطيط:

الهلذريان (بكسر الهاء والراء) وهو الكثير الكلام يأتي بالخطأ والصواب عن غير معرفة.

(٨) تصغير سوط. (٩) السبحل والربجل: البعير الضخم الكثير اللحم.

أرأيتك الجذع^(١) ، قالت : لا يضرب ، ولا يدع ، قال : أرأيتك الثني^(٢) قالت :
يضرب ، وضرابه وفي^(٣) ، قال : أرأيتك السدس^(٤) ، قالت : ذلك العرس^(٥) .
(نيل الأمل ص ١٠٨)

وقيل لها : أي الخيل أحب إليك ؟ قالت : « ذوالليعة الصنيع^(٦) ، السليط
التليع^(٧) ، الأبد الضليع^(٨) الملهب^(٩) السريع » فقيل لها : أي الغيوث أحب إليك ؟
قالت : « ذوالهيذب المنبثق^(١٠) ، الأضخم المؤتلق^(١١) الصخب المنبثق^(١٢) » وقيل
لها : ما مائة من المعز ؟ قالت : مؤيل يشف الفقر من ورائه ، مال الضعيف ، وحرفة
العاجز « قيل : فما مائة من الضأن ؟ قالت « قرية لاجي بها » قيل : فما مائة من الإبل ؟
قالت : « بخ^(١٣) ، جمال ومال ، ومئى الرجال » . قيل : فما مائة من الخيل ؟ قالت :

-
- (١) أرأيتك : كلمة تقولها العرب بمعنى أخبرني ، الجذع : البعير إذا كان في السنة الخامسة .
(٢) البعير إذا كان في السادسة وأتى ثنيته . (٣) قال أبو علي : الصواب أنى أى بطيء .
(٤) السدس : البعير إذا كان في الثامنة . (٥) العرس : الأسد .
(٦) ماع الفرس يبيع : جرى ، وصنعة الفرس : حسن القيام عليه ، صنعت فرسى صنعا وصنعة
(بفتح الصاد فيهما) والصنيع ذلك الفرس . (٧) السليط : الشديد ، والحديد من كل شيء ، والتليع :
الطويل العنق من التلع بفتححتين وهو طول العنق . (٨) الأيد ككيس : القوى ، من آد يثيد أيذا أى
قوى واشتد ، والضليع وصف من ضلع كفصح ضلاعة ، وهى القوة وشدة الأضلاع .
(٩) هو الذى يجتهد في عدوه حتى يثير الغبار ، من أهب . (١٠) الهيدب : السحاب المتدلى ،
والمنبثق : المنبج بالمطر . (١١) الضخم : كشمس وسبب وأحمد وغراب : العظيم من كل شيء ، وائتلق
البرق وتألقت : لمع . (١٢) الصخب : وصف من الصخب كسبب وهو شدة الصوت ، والمنبثق : المنفجر
(١٣) بخ كقعد : أى عظم الأمر وفخم ، تقال وحدها وتكرر ، يخ بخ الأول منون مكسور ، والثانى
مسكن ، ويقال فى الأفراد : يخ ساكنة الخاء ؛ ويخ مكسورة ، ويخ منونة مضمومة ، ويقال
بخ بخ مسكين ، وبخ بخ منونين مكسورين ، وبخ بخ مكسورين مشدين منونين كلمة تقال عند الرضا
والإعجاب بالشيء .

« طَفَى مِنْ كَانَتْ لَهُ وَلَا يُوْجِدُ » قِيلَ : فَمَا مَائَةٌ مِنَ الْحُمْرِ ؟ قَالَتْ : عَازِبَةٌ ^(١) اللَّيْلِ ،
وَخَزْيِ الْمَجْلِسِ ، لَا لَبَنَ فَيُحَلَّبُ ، وَلَا صُوفَ فَيُجَزَّى ، إِنْ رُبِطَ عَيْرُهَا ^(٢) أَدْلَى ،
وَإِنْ تُرِكَ وَتَلَّى ، وَقِيلَ لَهَا : مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ فِي عَيْنِكَ ؟ قَالَتْ « مَنْ كَانَتْ لِي إِلَيْهِ حَاجَةٌ » .
(سرح العيون ص ١٨٤)

وقالت : « أَخْبِثُ الذَّنَابُ ذُئْبُ الْفَضَا ^(٣) ، وَأَخْبِثُ الْأَفَاعِي أفعَى الْجَدْبِ ،
وَأَسْرَعُ الظُّبَاءِ ظَبَاءُ الْحُلْبِ ^(٤) ، وَأَشَدُّ الرِّجَالِ الْأَعْجَفُ ^(٥) ، وَأَجْمَلُ النِّسَاءِ الْفَخْمَةُ
الْأَسِيلَةُ ^(٦) ، وَأَقْبَحُ النِّسَاءِ الْجَهْمَةُ الْقَفِيرَةُ ^(٧) ، وَآكَلُ الدُّوَابِّ الرَّغُوْثُ ^(٨) ، وَأَطْيَبُ
اللَّحْمِ عُودُهُ ^(٩) ، وَأَغْلَظُ الْمَوَاطِيءِ الْحَصَى عَلَى الصَّفَا ، وَشَرُّ الْمَالِ مَا لَا يَزُكِي ^(١٠)
وَلَا يُدْكِي ^(١١) ، وَخَيْرُ الْمَالِ سِكَّةٌ مَأْبُورَةٌ ^(١٢) ، أَوْ مُهْرَةٌ مَأْمُورَةٌ ^(١٣) » .
(مجمع الأمثال ١ : ١٧٤)

(١) يقال جمل عازب : أى لا يروح على الحمى من العزوب : وهو الغيبة والذهاب ، وقولها : خزى
المجلس ، أى بما تحدثه من النهيق المزعج والإدلاء . (٢) العير : الحمار (وغلب على الوحشى) ،
وأدلى : أى أخرج قضيبه ليبول أو يضرب .
(٣) الفضا : شجر له جمر يبقى طويلا . (٤) الحلب : نبت ، قال حمزة : « العرب تسمى
ضروباً من البهائم بضروب من المراعى تنسبها إليها ، فيقولون : ظبى الحلب ، وتيس الربلة (والربيل محرقة
نبات شديد الخضرة) ، وشيطان الحماطة (والحماطة كسحابة : شجر شبيه بالتين ، أحب شجر إلى
الحيات) . الخ وذلك كله على قدر طباع الأمكنة والأغذية العاملة فى طباع الحيوان . (٥) من المعجف
بالتحريك وهو ذهاب السمن . (٦) الطويلة المسترسلة . (٧) الجهمه : مؤنث الجهم وهو الوجه
الغليظ المجتمع السمج ، والقفرة : القليلة القفر بالتحريك : أى الشعر . (٨) الرغوْث : كل مرضعة
كالمرغث . (٩) ما عاذ بالعظم من اللحم . (١٠) زكى كرضى نما وزاد كزكا يزكو . (١١) ذكى
تذكية : سمن وبدن (بضم الدال) . (١٢) السكة : السطر من النخل ، والمأبورة : المصلحة ، من
أبرت النخل آبره إذا لقتته وأصلحته . (١٣) مأبورة : أى كثيرة الولد ، من أمرها الله أى كثرتها ،
وكان ينبغى أن يقال مؤمرة ، ولكنه أتبع مأبورة - اقرأ فى كتاب بلاغات النساء ص ٥٧ فصلا طويلا
فى كلام هند بنت الحس وأختها جمعة .

٤٦ - خطبة كعب بن لؤي

وخطب كعب بن لؤي (وهو الجد السابع للنبي صلى الله عليه وسلم) فقال :
« اسمعوا وعُوا ، وَتَعَلَّمُوا تَعَلَّمُوا ، وَتَفَهَّمُوا تَفَهَّمُوا ، لَيْلِ سَاجٍ ^(١) ، وَنَهَارِ صَاجٍ ^(٢) ،
وَالْأَرْضِ مِهَادٍ ، وَالْجِبَالِ أَوْتَادٍ ، وَالْأُولُونَ كَالْآخِرِينَ ، كُلُّ ذَلِكَ إِلَى بَلَاءٍ ، فَصَلُّوا أَرْحَامَكُمْ ،
وَأَصْلِحُوا أحوَالَكُمْ . فإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْ هَلِكٍ رَجِعْ ، أَوْ مِيتًا نُشِرْ ، الدارُ أَمَامَكُمْ ، وَالظَّنْ
خِلَافُ مَا تَقُولُونَ ، زِينُوا حَرَمَكُمْ وَعَظْمُوهُ ، وَتَمَسَّكُوا بِهِ وَلَا تَفَارِقُوهُ ، فَسَيَأْتِي لَهُ نَبَأٌ عَظِيمٌ
وَيُخْرِجُ مِنْهُ نَبِيٌّ كَرِيمٌ ، ثُمَّ قَالَ :

نَهَارٌ وَلَيْلٌ وَأَخْتِلَافٌ حَوَادِثٍ سَوَاءٌ عَلَيْنَا حُلُوهَا وَمَرِيرُهَا
يُثَوِّبَانِ بِالْأَحْدَاثِ حَتَّى تَأْوَبَا وَبِالنِّعَمِ الضَّافِي عَلَيْنَا سُتُورُهَا ^(٣)
صُرُوفٌ وَأَنْبَاءٌ تَقَلِّبُ أَهْلَهَا لَهَا عُقْدٌ مَا يَسْتَحِيلُ مَرِيرُهَا
عَلَى غَفْلَةٍ يَأْتِي النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ فَيُخْبِرُ أَخْبَارًا صَدُوقًا خَبِيرُهَا
ثُمَّ قَالَ :

يَا لَيْتَنِي شَهِدْتُ فَحْوَاءَ دَعْوَتِهِ حِينَ الْعَشِيرَةِ تَبْغِي الْحَقَّ خِذْلَانَا ^(٤)

(صبح الأعشى ١ : ١١٢)

(١) الساجي : الساكن والدائم . (٢) لعله ساج من ضج القوم صاحوا واجلبوا .

(٣) التأوب الرجوع . (٤) فعوى الكلام وفحوأه معناه و مذهبه .

٤٧ - خطبة هاشم بن عبد مناف

بمَثِّ قَرِيشًا عَلَى إِكْرَامِ زُورِ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ

كَانَ هَاشِمُ بْنُ عَبْدِ مَنْفٍ يَقُومُ أَوَّلَ نَهَارِ الْيَوْمِ الْأَوَّلِ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ فَيُسْنِدُ ظَهْرَهُ إِلَى الْكَعْبَةِ مِنْ تَلْقَاءِ بَابِهَا ، فَيَخْطُبُ قَرِيشًا ، فَيَقُولُ :

« يَا مَعْشَرَ قَرِيشَ ، أَنْتُمْ سَادَةُ الْعَرَبِ ، أَحْسَنُهَا وَجُوهًا ، وَأَعْظَمُهَا أَحْلَامًا ، وَأَوْسَطُهَا ^(١) أَنْسَابًا ، وَأَقْرَبُهَا أَرْحَامًا . يَا مَعْشَرَ قَرِيشَ ، أَنْتُمْ جِيرَانُ بَيْتِ اللَّهِ ، أَكْرَمُكُمْ بَوْلَايَتِهِ ، وَخَصَمُكُمْ بِجِوَارِهِ ، دُونَ بَنِي إِسْمَاعِيلَ ، وَحَفِظَ مِنْكُمْ أَحْسَنَ مَا حَفِظَ جَارٌ مِنْ جَارِهِ ، فَأَكْرَمُوا ضَيْفَهُ ، وَزُورُوا بَيْتَهُ ، فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَكُمْ شُعْمًا ^(٢) غُبْرًا مِنْ كُلِّ بَلَدٍ ، فَوَرَبُّ هَذِهِ الْبَيْتِ ^(٣) ، لَوْ كَانَ لِي مَالٌ يَحْمِلُ ذَلِكَ لَكَفَيْتُكُمْ ، أَلَا وَإِنِّي نَخْرُجُ مِنْ طَيِّبِ مَالِي وَحَلَالِهِ ، مَا لَمْ يُقَطَّعْ فِيهِ رَحِمٌ ، وَلَمْ يُؤْخَذْ بِظَلْمٍ ، وَلَمْ يَدْخُلْ فِيهِ حَرَامٌ ، فَوَاضِعُهُ ، فَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَفْعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ فَعَلْ ، وَأَسْأَلُكُمْ بِحُرْمَةِ هَذَا الْبَيْتِ أَلَّا يُخْرِجَ رَجُلٌ مِنْكُمْ مِنْ مَالِهِ ، لِكِرَامَةِ زُورِ بَيْتِ اللَّهِ وَمَعُونَتِهِمْ إِلَّا طَيِّبًا ، لَمْ يُؤْخَذْ ظَلْمًا ، وَلَمْ يُقَطَّعْ فِيهِ رَحِمٌ ، وَلَمْ يَغْتَصَبْ » .

(شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣ . ٤٥٨)

(١) خيرهم : الوسط من كل شيء أعدل (قال أوسطهم . . . وكذلك جعلناكم أمة وسطا) .

(٢) جمع أشعث : وهو ملبد الشعر مغبره . (٣) الكعبة : والبنية بكسر الباء وضدها وسكون

٤٨ — خطبة هاشم بن عبد مناف في قريش وخزاعة

تنافرت قريش وخزاعة^(١) إلى هاشم بن عبد مناف ، فخطبهم بما أذعن له الفريقان بالطاعة ، فقال في خطبته :

« أيها الناس ، نحن آل إبراهيم ، وذرية إسماعيل ، وبنو النضر بن كنانة^(٢) وبنو قصي بن كلاب ، وأرباب مكة ، وسكان الحرم ، لنا ذروة الحسب ، ومعدن المجد ، ولكل في كل حلف^(٣) يجب عليه نصرته ، وإجابة دعوته ، إلا مادعا إلى عقوق عشيرة ، وقطع رحم ؛ يا بني قصي : أنتم كفصني شجرة أيها كسير أوحش صاحبه ، والسيف لا يصابن إلا بغمده ، وراعي العشيرة يصيبه سهمه ، ومن أمحكه^(٤) اللجاج أخرجه إلى البغي .

أيها الناس : الحلم شرف ، والصبر ظفر ، والمعروف كنز ، والجود سوؤد ، والجهل سفة ، والأيام دول ، والدهر غير^(٥) ، والرء منسوب إلى فعله ، ومأخوذ بعمله ، فاصطنعوا المعروف تكسبوا الحمد ، ودعوا الفضول تجانبكم السفهاء ، وأكرموا الجليس يغمركم ناديك ، وحاموا الخليط يرغب في جواركم ، وأنصفوا من أنفسكم يوثق بكم ؛ وعليكم

(١) خزاعة : حى من الأزد ، سموا بذلك لأنهم تخزعوا عن قومهم (أى تخلفوا عنهم وانقطعوا) إقبالهم من اليمن . وذلك أنه لما تفرقت الأزد من اليمن في البلاد نزل بنو مازن على ماء بين زبيد وزمع ؛ وأقبل بنو عمرو بن عامر فانزعوا عن قومهم فنزلوا مكة .

(٢) النضر : الجد الثاني عشر للنبي صلى الله عليه وسلم ، وقصي الجد الرابع . (٣) الحلف : في العهد بين القوم والصدقة ، والصديق يخلف أصحابه أن لا يندر به ، وقوله « لكل في كل » أى لكل في صاحبه صديق يجب عليه نصرته .

(٤) أمحكه . (٥) أى ذو غير ، وغير الدهر : أحداثه المغيرة ، جمع غيرة بالكسر ، أو مفرد وجمعه أغيار .

بمكارم الأخلاق فإنها رفعة ، وإياكم والأخلاق الدنيئة فإنها تضع الشرف ، وتهدم المجد ،
وإن نهنية^(١) الجاهل أهون من جريرته^(٢) ، ورأس العشيبة يحمل أثقالها ، ومقام الحليم
عظة لمن انتفع به .

قالت قريش : « رضينا بك أبا نضلة » وهي كنيته .

(بلوغ الأرب ١ : ٢٢٢)

٤٩ - خطبة عبد المطلب بن هاشم

يهنى سيف بن ذى يزن باسترداد ملكه من الحبشة

لما ظفر سيف بن ذى يزن بالحبشة ، أتته وفود العرب وأشرافها وشعراؤها تهنته
وتمدحه ، ومنهم وفد قريش ، وفيهم عبد المطلب بن هاشم ، فاستأذنه في الكلام فأذن
له ، فقال :

« إن الله تعالى - أيها الملك - أحلك محلاً رفيعاً ، صعباً منيعاً ، باذخاً^(٣) شائخاً ،
وأنتك منبتاً طابت أرومته^(٤) ، وعزت جرثومته^(٥) ، وثبت أصله ، وبسق^(٦)
فرعه ، في أكرم معدن ، وأطيب موطن ، فأنت - أبيت اللعن - رأس العرب وربيعها
الذي به تخلص ، وملكها الذي به تنقاد ، وعمودها الذي عليه العباد ، ومقلها^(٧) الذي
إليه يلجأ العباد ، سلفك خير سلف ، وأنت لنا بعدم خير خلف ، ولن يهلك من أنت

(١) نهنية عن الأمر : كفه وزجره . (٢) في الأصل « جريرته » ، وفي كتب اللغة : « حزة

المال ؛ وجريرته : خياره » ولا معنى لها هنا ، وأرى أنها مصحفة عن « جريرته » .

(٣) عالياء من بذخ بذخا كفرح . (٤) أرومة : بانصم والفتح أى أصل . (٥) أصله أيضاً .

(٦) علا وطال . (٧) الملجأ .

خَلْفَهُ ، وَلَنْ يَحْمَلَ مَنْ أَنْتَ سَلَفُهُ ، نَحْنُ أَيُّهَا الْمَلِكُ أَهْلَ حَرَمِ اللَّهِ وَذِمَّتِهِ ، وَسَدَنَةَ بَيْتِهِ ، أَشْخَصْنَا إِلَيْكَ الَّذِي أَبْهَجَكَ بِكُشْفِ الْكُرْبِ الَّذِي فَدَحْنَا (١) ، فَنَحْنُ وَفَدِ التَّهْنِئَةِ ، لَا وَفَدِ الْمَرْزُوتَةِ (٢) .

(المقدم الفريد ١ : ١٠٧ ، وأنباء نبياء الأبناء ص ١١) .

٥٠ - خطبة أبي طالب

في زواج الرسول صلى الله عليه وسلم بالسيدة خديجة

خطب أبو طالب حين زواج النبي صلى الله عليه وسلم بالسيدة خديجة فقال :

« الحمد لله الذي جعلنا من زرع إبراهيم ، وذرية إسماعيل ، وجعل لنا بلداً حراماً ، وبيتاً محجوجاً ، وجعلنا الحكام على الناس ، ثم إن محمد بن عبد الله ابن أخي من لا يوازن به فتى من قريش إلا رجع عليه : برّاً وفضلاً ، وكرماً وعقلاً ، ومجداً ونُبلاً (٣) ، وإن كان في المال قُلٌّ (٤) ، فإنما المال ظل زائل ، وعارية (٥) مُسْتَرْجَعَةٌ ، وله في خديجة بنت خويلد رغبةٌ ، ولها فيه مثلٌ ذلك ، وما أحببتم من الصداق فعلى » .

(صبح الأعشى ١) ٢١٣ ، وإعجاز القرآن ١٢٦ ، وتهذيب البكامل ١ : ٤ ؛ والصرة الحلبية ١ : ١٣٣)

(١) أثقلنا . (٢) رزاه ماله : كجعل وعلم أصاب منه شيئاً رزاه ، كارتزاه ماله ، ورزاه

رزاه ومرزوة أصاب منه خيراً : أى لسنا وافدين للعطاء .

(٣) ذكاه ونجابه . (٤) قلة . (٥) ما يستعار ، مشددة وقد تخفف .

خطب الكهان

٥١ - الكاهن الخزاعي ينفر هاشم بن عبد مناف

على أمية بن عبد شمس

وَلِيَ هَاشِمٌ بَعْدَ أَبِيهِ عَبْدِ مَنْفٍ ، مَا كَانَ إِلَيْهِ مِنَ السَّقَايَةِ وَالرَّفَادَةِ^(١) ، فَحَسَدَهُ أُمِيَّةُ بْنُ عَبْدِ شَمْسٍ بْنُ عَبْدِ مَنْفٍ عَلَى رِيَاسَتِهِ وَإِطْعَامِهِ ، وَكَانَ ذَا مَالٍ ، فَتَكَافَأَ أَنْ يَصْنَعَ صَنِيعَ هَاشِمٍ ، فَعَجَزَ عَنْهُ ، فَشَمِتَ بِهِ نَاسٌ مِنْ قُرَيْشٍ ، فَغَضِبَ وَنَالَ مِنْ هَاشِمٍ ، وَدَعَاهُ إِلَى الْمَنَافِرَةِ ، فَكَرِهَ هَاشِمٌ ذَلِكَ لِسِنِّهِ وَقَدْرِهِ ، فَلَمْ تَدْعُهُ قُرَيْشٌ حَتَّى نَافَرَهُ عَلَى خَمْسِينَ نَاقَةً ، سُودَ الْحَدَقِ يَنْحَرُهَا بَيْطُنَ مَكَّةَ ، وَالْجَلَاءُ عَنْ مَكَّةَ عَشْرَ سَنِينَ ، فَرَضَى بِذَلِكَ أُمِيَّةُ ، وَجَعَلَا بَيْنَهُمَا الْكَاهِنَ الْخَزَاعِيَّ - وَهُوَ جَدُّ عَمْرٍو بْنِ الْحَقِّقِ ، وَمَنْزَلُهُ بِمُسْتَفَانَ^(٢) ، وَكَانَ مَعَ أُمِيَّةَ هَمَّهُمَةُ بْنُ عَبْدِ الْعَزَمِيِّ الْفِهْرِيِّ ، وَكَانَتْ ابْنَتُهُ عِنْدَ أُمِيَّةَ ، فَقَالَ الْكَاهِنُ :

« وَالْقَمَرِ الْبَاهِرِ ، وَالْكَوْكَبِ الزَّاهِرِ ، وَالنِّعَامِ الْمَاطِرِ ، وَمَا بِالْجَوِّ مِنْ طَائِرٍ ، وَمَا اهْتَدَى بِعِلْمٍ^(٣) مَسَافِرٍ ، مِنْ مُنْجِدٍ وَغَاوِرٍ^(٤) ، لَقَدْ سَبَقَ هَاشِمٌ أُمِيَّةَ إِلَى الْمَآثِرِ ، أَوَّلَ مِنْهُ وَآخِرَ ، وَأَبُو هَمَّهُمَةَ بِذَلِكَ خَابِرٌ . »

(١) السقاية : هي إسقاء الحجيج الماء العذب ، والرفادة : خرج كانت تخرجه قريش في كل موسم من أموالها ، فتدفعه إليه ، فيصنع به طعاما للحجاج يأكله من لم يكن له سعة ولا زاد .

(٢) مسفان : موضع على مرحلتين من مكة . (٣) العلم : مانصب في الطريق يهتدى به .

(٤) أنجد : أنى نجدا ، وغار وأغار : أنى غورا .

فقضى لهاشم بالغلبة ، وأخذ هاشم الإبل ، ففجرها وأطعمها ، وغاب أمية عن مكة بالشام عشر سنين ، فكانت هذه أول عداوة وقعت بين هاشم وأمية .

(تاريخ الكامل لابن الأثير ٢ : ٦ ، والسيرة الحلبية ١ : ٤ ، وتاريخ الطبري ٢ : ١٨٠)

٥٢ - عوف بن ربيعة الأسدي يتكهن بمقتل حجر بن الحارث

كان حجر بن الحارث (أبو امرئ القيس) ملك بني أسد ، وكان له عليهم إتاوة^(١) كل سنة لما يحتاج إليه ، فبقي كذلك دهرًا ، ثم بعث إليهم من يحيى ذلك منهم ، وحجر يومئذ بهامة ؛ فطردوا رسله وضربوه ، فبلغ ذلك حجرًا ، فسار إليهم ، فأخذ سرواتهم^(٢) وخيارهم ، وجعل يقتلهم بالعصا (فسموا عبيد العصا) وأباح الأموال وصيرهم إلى تهامة ، وحبس جماعة من أشرفهم منهم عبيد بن الأبرص الشاعر ، فقال شعرًا يستعطفه فيه ، ومنه قوله :

أنت المليك عليهم وهم العبيد إلى القيامة

فرق لهم وعفا عنهم ، ورددهم إلى بلادهم ، فلما صاروا على مسيرة يوم من تهامة تكهن كاهنهم وهو عوف بن ربيعة بن عامر الأسدي ، فقال لهم : يا عبادي ، قالوا : لبيك ربنا ، فقال : « من الملك الصلِّب^(٣) ، الغلابُ غير المُغَلَّب^(٤) ، في الإبل كأنها الرِّبْرِب^(٥) ، لا يُلْقِي رأسه الصَّخْبُ ، هذا دمه يُنْثَعِب^(٦) ، وهو غداً أول من يُسْتَلَب^(٧) » قالوا : ومن هو ؟ ربنا . قال : « لولا تجيِّش^(٧) نفس جاشية ، لأخبرتكم أنه حجرٌ ضاحية^(٨) » .

(١) خراج . (٢) سروات جمع سراة بالفتح : وهي اسم جمع سري كفتى من سرو سروا وهو

المروءة في شرف . (٣) حجر صلب : شديد صلب ، والصلب أيضا : الشديد من الإبل ، والرجل

الطويل ، وفي الشعر والشعراء والأغاني « الأصهب » ومن معانيه الأسد . (٤) المغلب : المغلوب مرارا

(وهو أيضا المحكوم له بالغلبة . ضد) . (٥) الررب : القطيع من بقر الوحوش . (٦) ينثجر .

(٧) جاشت النفس وتجيشت : ارتفعت من حزن أو فزع . (٨) علانية ، يقال فعله ضاحية : أي علانية .

فركبوا كل صعب وذلول ، حتى بلغوا عسكر حجر ، فهجموا عليه في قبته
فقتلوه .

(تاريخ الكامل لابن الأثير ١ : ١٨٣ ، والشعر والشعراء ، ص ٣١ ، والأغاني ٨ : ٦٣)

٥٣ - كاهن بنى الحارث بن كعب يحذرهم غزو بني تميم

كان بنو تميم قد أغاروا على لَطِيْمَةَ^(١) لكسرى ، فيها مسك وعنبر وجوهر كثير ،
فأوقع كسرى بهم ، وقتل المُقَاتِلَةَ ، وبقيت أموالهم وذراتهم في مساكنهم لا مانع لها
وبلغ ذلك بنى الحارث بن كعب من مذحج ، فشى بعضهم إلى بعض ، وقالوا اغتبنوا
بنى تميم ، فاجتمعت بنو الحارث وأحلافها من زيد وحزم بن رِيَّان في عسكر عظيم ،
وساروا يريدون بنى تميم ، فحذَّروهم كاهن كان مع الحارث واسمه سَلَمَةُ بن المُغَفَّل ،
وقال :

« إنكم تسيرون أعقاباً^(٢) ، وَتَغْزُونَ أَحْبَاباً^(٣) ، سَعْدًا وَرَبَابًا ، وَتَرِدُونَ
مِيَاهًا جِبَابًا^(٤) ، فَتَلْقَوْنَ عَلَيْهَا ضِرَابًا ، وَتَكُونُ غَنِيمَتِكُمْ تَرَابًا^(٥) ، فَأَطِيعُوا
أَمْرِي وَلَا تَغْزُوا تَمِيمًا » وَلَكُمْهُمْ خَالِفُوهُ وَقَاتِلُوا بَنِي تَمِيمٍ ، فَهَزِمُوا هَزِيمَةَ نَكَرَاءِ .

(تاريخ الكامل لابن الأثير ١ : ٢٢٧ ، والأغاني ١٥ : ٧٠)

(١) اللطيمة : العير تحمل الطيب ويز التجار .

(٢) أى يسير بعضكم عقب بعض ، فريقا في إثر فريق . وقد ذكر ابن الأثير أنهم كانوا نحو ثمانية
آلاف ، ولا يعلم في الجاهلية جيش أكثر منه ومن جيش كسرى بنى قار ومن يوم جيلة . وروى أبو الفرج
الأصبهاني أنه اجتمع من مذحج ونفها اثنا عشر ألفا . (٣) هذه الفاصلة والفاصلتان قبلها ، وردت في
الأصل محرفة هكذا : « إنكم تسيرون أعيانا ، وتغزون أحيانا ؛ سعدا وربانا » .

(٤) الجباب والأجباب جمع جب : وهو البئر الكثيرة الماء البعيدة القمر . (٥) أورد صاحب
الأغاني من هذه الفقرة الست ، الفقرة الأولى والرابعة والسادسة ، وعزاها إلى المأمور الحارثي وهو كاهن أيضا

٥٤ - أحد كهان اليمن يفصل في أمر هند بنت عتبة

كان الفاكه بن المغيرة المخزومي أحد فتیان قريش ، وكان قد تزوج هند بنت عتبة ، وكان له بيت للضيافة يَغشاه الناس فيه بلا إذن ، فقال ^(١) يوماً في ذلك البيت ، وهند معه ، ثم خرج عنها وتركها نائمة ؛ فجاء بعض من كان يغشى البيت ، فلما وجد المرأة نائمة ولي عنها ، فاستقبله الفاكه بن المغيرة ، فدخل على هند وأنها ، وقال : من هذا الخارج من عندك ؟ قالت : والله ما انتبهت حتى أذهبتني ، وما رأيت أحداً قط ، قال : الحق بأبيك ، وخاض الناس في أمرهم ، فقال لها أبوها : يا بنية العار ^(٢) وإن كان كذباً ، بُدِّئني شأنك ، فإن كان الرجل صادقاً دَسَسْتُ عليه من يقتله ، فيقطعُ عنك العار ، وإن كان كاذباً حاكته إلى بعض كهان اليمن ، قالت : والله يا أبتِ إنه لكاذب ، فخرج عتبة فقال : إنك رميت ابنتي بشيء عظيم ، فإما أن تُبَيِّن ما قلت ، وإلا فحاكمتني إلى بعض كهان اليمن ، قال : ذلك لك ، فخرج الفاكه في جماعة من رجال قريش ، ونسوة من بني مخزوم ، وخرج عتبة في رجال ونسوة من بني عبد مناف ، فلما شارفوا بلاد الكاهن تغير وجه هند ، وكسفَ بالها ، فقال لها أبوها : أي بنية ، ألا كان هذا قبل أن يشتهر في الناس خروجنا ؟ قالت : يا أبتِ والله ما ذلك لمكروه قبلي ، ولكنكم تأتون بشراً يخطيء ويصيب ، ولعله أن يسميني بِسِمَةٍ تبقى على السنة العرب ، فقال لها أبوها : صدقت ، ولكني سأخبرُهُ لَكَ ، فصفرَ بفرسه ، فلما أدلى عمدَ إلى حبة بُرٍ ، فأدخلها في إحليله ، ثم أوكى ^(٣) عليها وسار ، فلما نزلوا على الكاهن أكرمهم ونحر لهم ، فقال له عتبة : إنا أتيناك في أمر ، وقد خبأنا لك خبيثَةً ، فاهي ؟ قال : بورة في

(١) قال قبلا وقائلة وقيلولة ومقيلا : نام في القائلة وهي نصف النهار . (٢) أخت العار .

(٣) الوكاء ككتاب : جبل يشد به رأس القربة ، ووكاها وأوكاها وأوكى عليها شدفها بالوكاء .

كَمْرَةٍ^(١) ، قال : أريد أبينَ من هذا ، قال : « حَبَّةُ بُرِّ » ، في إحلِيلِ مُهْرٍ » قال : صدقت ، فانظر في أمر هؤلاء النسوة ، فجعل يمسح رأس كل واحدة منهن ، ويقول : قومي لشأنك ، حتى إذا بلغ إلى هند مسح يده على رأسها وقال : « انهضى غير رَقَاءٍ^(٢) ولا زانية ، وَسَتَلِدِينَ مَلِكًا يَسْمَى معاوية .

فلما خرجت أخذ الفأكه بيدها ، فنثرت يده من يدها ، وقالت : إليك عني ، والله لأحرصن أن يكون ذلك الولد من غيرك ، فتزوجها أبو سفيان ، فولدت له معاوية .

(المقد الفريد ٣ : ٢٢٤ ، وصبح الأضوى ١ : ٢٩٨ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ ص ١١١)

٥٥ - خمسة نفر من طيٍّ يمتحنون سواد بن قارب الدوسي

خرج خمسة نفر من طيٍّ من ذوى الحِجَابِ والرأى ، منهم بُرْجُ بن مُسَهْرٍ ، وهو أحد المُعَرِّين . وَأُنَيْفُ بن حارثة بن لَأَمٍ ، وعبد الله بن سعد بن الحَشْرَجِ أبو حاتم طيٍّ ، وعارف الشاعر ، ومُرَّةُ بن عَبْدِ رُضَى ، يريدون سَوَادَ بن قَارِبِ الدَّوْسِيِّ ، ليمتحنوا علمه ، فلما قرئوا من السَّرَاةِ ، قالوا : لِيَخْبَأُ كلُّ رجل منا خَبِيئًا ، ولا يُخْبِرَ به صاحبه ، ليسأله عنه ، فإن أصاب عَرَفْنَا عِلْمَهُ ، وإن أخطأ ارتحلنا عنه ، فَخَبَأَ كل رجل منهم خَبِيئًا ، ثم صاروا إليه ، فأهدوا له إِبْلًا وطُرْفًا من طُرْفِ الحَيْرَةِ ، فضرب عليهم قبة ، ونحَرَ لهم ، فلما مضت ثلاثٌ دعا بهم ، فدخلوا عليه .

فتكلم بُرْجُ - وكان أسنهم - فقال : « جَادَكَ السَّحَابُ ، وَأَمْرَعُ لَكَ الْجَنَابُ^(٣) »

(١) الكمرة : رأس الذكر . (٢) الرقحاء : البنى التي تكتسب بالفجور ، من الرقاحة كفصاحة

وهي الكسب والتجارة ، هذا ما ورد في ابن أبي الحديد ، وفي غيره « رسحاء » والرسحاء : القبيحة ، والرسحاء أيضا : القليلة لحم المعز والفخذين والأول أنسب . (٣) أمرع : أخصب ، والجناب :

وَضَعَتْ عَلَيْكَ النِّعَمَ الرَّغَابَ^(١) ، نَحْنُ أَوْلُو الْأَكَالِ^(٢) ، وَالْحِدَائِقُ وَالْأَغْيَالِ^(٣) ،
وَالنِّعَمَ الْجَفَالَ^(٤) ، وَنَحْنُ أَصْهَارُ الْأَمْلَاكِ ، وَفُرْسَانُ الْعِرَاكِ - يُورِي عَنْهُمْ أَنَّهُمْ مِنْ
بَكْرِ بْنِ وَاثِلٍ - .

فَقَالَ سَوَادٌ : « وَالسَّمَاءُ وَالْأَرْضُ ، وَالنَّعْمُ وَالْبَرُضُ^(٥) ، وَالْقَرَضُ وَالْقَرَضُ^(٦) ،
إِنَّكُمْ لِأَهْلُ الْمُهْضَابِ الشُّمِّ ، وَالنَّخِيلِ الْعَمِّ^(٧) ، وَالصُّخُورِ الصَّمِّ ، مِنْ أَجَا الْعَيْطَاءِ ،
وَسَلَمَى ذَاتِ الرَّقَبَةِ السُّطْمَاءِ^(٨) . »

فَالُوا : إِنَّا كَذَلِكَ ، وَقَدْ خَبَأْتُ كُلَّ رَجُلٍ مِنْ خَبِيئًا ، لِتَخْبِرْنَا بِاسْمِهِ وَخَبِيئِهِ ،
فَقَالَ لِبَرَجٍ : « أَقْسَمُ بِالضِّيَاءِ وَالْحَلَاكِ^(٩) ، وَالنَّجُومِ وَالْفَلَكَ ، وَالشَّرُوقِ وَالذَّلَاكِ^(١٠) ،
لَقَدْ خَبَأْتُ بُرْمَانَ فَرَّخَ^(١١) ، فِي إِعْلِيظِ مَرَّخِ^(١٢) ، تَحْتَ أَمْرَةِ الشَّرَّخِ^(١٣) » قَالَ :
مَا أَخْطَأْتَ شَيْئًا ، فَمَنْ أَنَا ؟ قَالَ : أَنْتَ بُرْجُ بْنُ مُسْمِرٍ ، عَصْرَةَ الْمُعْمِرِ^(١٤) ، وَنِمَالُ
الْمُحَجَّرِ^(١٥) .

-
- (١) الضافي : السابغ الكثير ، ويقال : خير فلان ضاف على قومه : أى سابغ عليهم ، والرغاب :
الواسعة الكثيرة جمع رغبية . (٢) الآكال : جمع أكل (كقفل وعنق) الرزق والحظ من الدنيا .
(٣) الأغيال جمع غيل كشمس : وهو الماء الجارى على وجه الأرض . (٤) الجفال :
الكثيرة . (٥) النعم : الماء الكثير ، ويقال : رجل غمر الخلق إذا كان واسع الخلق سخيا ، والبرض :
الماء القليل ، ويقال فلان يبرض حقه . أى يأخذه قليلا قليلا .
(٦) القرض : ماتعطيه لتقضاه ، والقرض : ما فرضته على نفسك فوهبته أو جدت به لغير ثواب .
(٧) الشم : الطوال ، وكذا العم . (٨) أجأ وسلمى : جبلا طيبا ، والعيطاء : الطويلة ؛ وكذا
السطماء . (٩) الحلك : شدة السواد . (١٠) دلكت الشمس دلوكا : غربت أو اصفرت ؛ والدلك
وقت الدلوك . (١١) البرثن : ظفر كل مالا يصيد من السباع والطيور مثل الحمام والضب والقارة فإذا كان
مما يصيد ؛ قيل لظفره مخلب . (١٢) المرخ : شجر تقدر منه النار ؛ والإعليظ : وعاء ثمر المرخ ،
والعرب تشبه به آذان الخيل . (١٣) الأسرة والإسار : القدر الذى يشد به خشب الرحل ، وشرخا الرحل
جانباها . (١٤) المعمر : الذى ذهب ماله ، والعصرة : الملجأ والمنجاة .
(١٥) النمال : الغياث الذى يقوم بأمر قومه ؛ والحجر : الملجأ (بصيغة اسم المفعول) المضيق عليه .

ثم قام أنيف بن حارثة ، فقال : ما خبيثي وما اسمي ؟ فقال : « والسحاب والتراب ، والأصباب والأحداب ^(١) والنعم الكتاب ^(٢) ، لقد خبأت قطامة فسيط ^(٣) ، وقذّة مريط ^(٤) ، في مدرّة من مدري مطيط ^(٥) » قال : ما أخطأت شيئا ، فمن أنا ؟ قال : أنت أنيف ، قارى الضيف ، ومعمل السيف ، وخالط الشتاء بالصيف .

ثم قام عبد الله بن سعد . فقال : ما خبيثي وما اسمي ؟ فقال سواد : « أقسم بالسوام العازب ^(٦) ، والوقير الكارب ^(٧) : والمجدد الراكب ، والمشيع الحارب ^(٨) ، لقد خبأت نفائة فنن ^(٩) ، في قطيع قد مرّن ^(١٠) ، أو أديم قد جرن . » قال : ما أخطأت حرفا فمن أنا ؟ قال : أنت ابن سعد النوال ، عطاوك سجال ^(١١) ، وشركك عضال ، وعمدك طوال ، وبيتك لاينال .

ثم قام عارف ، فقال : ما خبيثي وما اسمي ؟ فقال سواد : « أقسم بنفنن اللوح ^(١٢)

(١) الأصباب : جمع صيب كسبب : وهو ما تخفض من الأرض ؛ والأحداب : جمع حدب كسبب أيضا : وهو ماعلا . (٢) النعم : القطامة : ما قطمته بفيك ؛ والقطم بأطراف الأسنان ، والفسيط : قلامة الظفر . (٣) القذّة : الريشة ؛ والمريط من السهام : الذي قد تمرط ريشه أى نتف (٤) المدرّة : قطعة طين يابسة ؛ والمدى : جدول صغير يسيل فيه ، اهريق من ماء البئر ؛ والمطيط : الماء الخائر في أسفل الحوض .

(٦) السوام : المال الراعى من الإبل ؛ والعازب : البعيد . (٧) الوقير : القطيع من الغنم ، والكارب : القريب . (٨) المشيع : الجاد ؛ فى لغة هذيل ؛ وفى غيرها الحاذر ؛ والحارب : السالب حربه حربا كطلبه طلبا : سلبه ماله . (٩) النفائة : ما تنفته من فيك ؛ والفرن : واحد أفنان الأشجار وهى أغصانها . (١٠) القطيع : ما يقطع من الشجر ؛ ومرن وجرن : لان .

(١١) أى متداول بين الناس ، لكل فريق منه نصيب . (١٢) النفنن واللوح واحد ، وهما الهواء

وإنما أضاف لما اختلف اللفظان ، فكأنه أضاف الشيء إلى غيره .

والماء المسفوح^(١) ، والفضاء المندوح^(٢) ، لقد خبأت زمعةً ظلًّا أَعْفَر^(٣) ، في زِعْنِنَةٍ^(٤) أَدِيمٍ أَحْمَرٍ ، تحت حِلْسٍ نِضْوٍ أَدْبَر^(٥) » قال : ما أخطأت شيئاً ، فمن أنا ؟ قال : « أنت عارف ذو اللسان الْعَضْب ، والقلب النَّدْب^(٦) ، وَاللَّضَاءُ الْغَرْب^(٧) ، مَنَّاعِ السَّرْب^(٨) وَمُبِيحِ النَّهْب » .

ثم قام مُرَّةٌ بن حَبْدِ رُضَى ، فقال : ما خبيثي وما اسمي ؟ فقال سواد : « أقسم بالأرض والسماء ، والبروج والأَنْوَاء^(٩) ، والظلمة والضياء ، لقد خَبَّات دِمَّة^(١٠) ، في رِمَّة^(١١) ، تحت مَشِيْطِ لِمَّة^(١٢) » . قال : ما أخطأت شيئاً ، فمن أنا ؟ قال : « أنت مُرَّةٌ ، السريع الكرَّة ، البَطِيءُ الْفَرَّة ، الشديد المِرَّة^(١٣) » .

قالوا : فأخبرنا بما رأينا في طريقنا إليك ، فقال : « وَالنَّاظِرِ مِنْ حَيْثُ لَا يُرْسَى ، وَالسَّامِعِ قَبْلَ أَنْ يُنَاجَى ، وَالْعَالِمِ بِمَا لَا يُدْرَى ، لقد عَنَّتْ لَكُمْ عُقَابٌ عَجَزَاهُ^(١٤) ، فِي شَفَانِيْبِ^(١٥) دَوْحَةِ جَرْدَاءٍ ، تَحْمَلُ جَدَلًا^(١٦) ، فَمَارِيْمَ^(١٧) إِمَامًا يَدًا وَإِمَامًا رِجْلًا » ، فقالوا . كذلك ، ثم مه ؟ قال : « سَنَعَ آكَمِ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّرْقِ^(١٨) ، سَيْدُ أَمَقِ^(١٩) ،

-
- (١) المصبوب . (٢) الواسع . (٣) الظلا : ولد الظبي ساعة يولد ، والصغير من كل شيء ، والأعفر من الظباء ما يعلو بياضه حمرة ، والزمعة : الشعرات المتدلّيات في رجل الأرنب .
(٤) زعانف الأديم : أطرافه مثل اليدين والرجلين ، وما لا خير فيه جمع زعنفة بكسر الزاي والنون ، ومنه قيل لردال الناس الزعانف .
(٥) الحلس للبعير كالبرذعة للحافر ، والنضو : المهزول من الإبل وغيرها ، والأدبر : الذي أصابه الدبر (بالتحريك) وهو قرحة الدابة . (٦) الذكي . (٧) الحد . (٨) السرب بالفتح : الماشية كلها ، وبالكسر القطيع من الظباء والنساء وغيرها . (٩) الأنواء : جمع نوء (كسهم) النجم : مال للغروب . (١٠) الدمة : القملة . (١١) الرمة : العظام البالية .
(١٢) اللمة : الشعر المجاوز شحمة الأذن ، والمشيط : المشوط .
(١٣) المرة : القوة . (١٤) العجزاء : التي أبيض ذنبها ، (وفي غير هذا الموضع : التي كبرت عجزيتها) . (١٥) الشغانيب جمع شغوب كمصفور وهو الغصن الناعم الرطب ، والدوحة : الشجرة العظيمة . (١٦) الجدل : العضو وجمعه جدول . (١٧) تجادلتم . (١٨) الشرق : الشمس ، والغرب تقول لا أفعل ذلك ما طلع شرق ، وشرقت الشمس : طلعت ، وأشرقت : أضاءت . (١٩) السيد : الذئب والأمق : الطويل .

على ماء طَرَقَ^(١) « قالوا : ثم ماذا ؟ قال : « ثم تيس أفرق^(٢) ، سَنَدَ في أْبْرَق^(٣) ، فرماه الغلام الأزرق ، فأصاب بين الوابلة^(٤) والمِرْفَقِ « . قالوا : صدقت ، وأنت أعلم من تحمل الأرض ، ثم ارتحلوا عنه .

(الأمالي ٢ : ٢٩٢)

٥٦ - حديث مصاد بن مدعور القيني

كَانَ مَصَادُ بْنُ مَدْعُورِ الْقَيْنِيِّ رَئِيسًا ، قَدْ أَخَذَ مِرْبَاعًا^(٥) قَوْمِهِ دَهْرًا ، وَكَانَ ذَا مَالٍ ، فَتَدَّ ذَوْدًا^(٦) . مِنْ أَذْوَادِهِ لَهُ ، فَخَرَجَ فِي بَغَائِمًا^(٧) ، قَالَ : فَإِنِّي لِنِي طَلَبُهَا ، إِذْ هَبَطْتُ وَادِيًا شَجِيرًا^(٨) كَثِيفَ الظَّلَالِ ، وَقَدْ تَفَسَّخْتُ أَيْنًا^(٩) ، فَأَنْخَتُ رَاحِلَتِي فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ ، وَحَطَّطْتُ رَحْلِي ، وَرَسَفْتُ^(١٠) بِعَيْرِي ، وَاضْطَجَعْتُ فِي بُرْدِي ، فَإِذَا أَرْبَعُ جَوَارٍ ، كَأَنَّهَا اللَّالِي ، يَرَعَيْنَ بَهْمًا لَهْنًا ، فَلَمَّا خَالَطْتُ عَيْنِي السَّنَةَ ، أَقْبَلَنَ حَتَّى جَلَسَنَ قَرِيبًا مِنِّي ، وَفِي كَفِّ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ حَصِيَّاتٌ تُتَقَلَّبْنَ ، فَخَطَّتْ إِحْدَاهُنَّ ثُمَّ طَرَقَتْ^(١١) ، فَقَالَتْ : « قَلْنِ يَا بَنَاتِ عَرَّافٍ ، فِي صَاحِبِ الْجَمَلِ النَّيَافِ^(١٢) ، وَالْبُرْدِ الْكُثَافِ^(١٣) ، وَالْجِرْمِ^(١٤) الْخَفَافِ^(١٥) » ، ثُمَّ طَرَقَتْ الثَّانِيَةَ ، فَقَالَتْ :

(١) الطروق : الماء الذي بولت فيه الإبل ، يقال : ماء طروق ومطروق .

(٢) الأفرق من الشاء : البعيد ما بين خصييه . (٣) سند في الجبل : صعد ، والأبرق والبرقاء

والبرقة كفرصة : غلظ من الأرض فيه حجارة ورمل ، وجبل أبرق : إذا كان فيه لوانان .

(٤) الوابلة : رأس المضد الذي يلي المنكب . (٥) المرباع : ربع الغنيمة ، وكان يختص به

الرئيس في الجاهلية . (٦) زد : شرد ، والذود : ثلاثة أبعرة إلى العشرة ، أو خمسة عشر ،

أو عشرون ، أو ثلاثون . (٧) طلبها . (٨) كثير الشجر . (٩) تعبًا وكلالًا .

(١٠) شددت رسنه . (١١) الطروق : ضرب الكاهن بالخصي .

(١٢) جمال نياف ككتاب وشداد : طويل في ارتفاع . (١٣) الكثيف . (١٤) الجسد .

(١٥) الخفيف .

« مُضِلُّ أذْوَادٍ عَلَاكِدٌ ^(١) ، كُومٌ صَلَاحِدٌ ^(٢) ، مِنْهُنَّ ثَلَاثٌ مَقَاحِدٌ ^(٣) ، وَأَرْبَعٌ جَدَائِدٌ ^(٤) ، شُسْفٌ صَمَارِدٌ ^(٥) » ، ثُمَّ طَرَقَتِ الثَّلَاثَةُ فَقَالَتْ : « رَعَيْنَ الْفَرْعَ ^(٦) ، ثُمَّ هَبَطْنَ الْكِرْعَ ^(٧) ، بَيْنَ الْعَقِدَاتِ وَالْجِرْعِ ^(٨) . فَقَالَتِ الرَّابِعَةُ : « لِيَهْبِطَ الْغَائِطُ الْأَفْيِخَ ^(٩) ، ثُمَّ لِيُظْهَرَ فِي الْمَلَا الصَّحْصَحِ ^(١٠) ، بَيْنَ سَدِيرٍ وَأَمْلَحٍ ^(١١) ، فَهِنَاكَ الذَّوْدُ رِتَاعٌ بِمُنْعَرَجِ الْأَجْرَعِ » قَالَ : فَقَمْتُ إِلَى جَمَلِي فَشَدَدْتُ عَلَيْهِ رِجْلَهُ وَرَكِبْتُ ، وَوَاللَّهِ مَا سَأَلْتُهُنَّ مَنْ هُنَّ وَلَا يَمَنُّ هُنَّ ؟ فَلَمَّا أَدْبَرْتُ ، قَالَتْ إِحْدَاهُنَّ : « أَبْرَحُ ^(١٢) فَتَيَّ إِنْ جَدَّ فِي طَلْبِ ، فَمَالَهُ غَيْرُهُنَّ نَشَبَ ^(١٣) ، وَسَيُثُوبُ عَنْ كَثَبٍ ^(١٤) ، فَفَزَعُ قَلْبِي وَاللَّهِ قَوْلَهَا ، فَقُلْتُ : وَكَيْفَ هَذَا ، وَقَدْ خَلَّفْتُ بَوَادِيَّ عَرَجًا عُكَامِسًا ^(١٥) ؟ فَرَكِبْتُ السَّمْتَ ^(١٦) الَّذِي وَصَفَ لِي ، حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى الْمَوَاضِعِ ، فإِذَا ذَوْدِي رَوَاتِعُ ، فَضَرَبْتُ أَعْبَازَهُنَّ ،

-
- (١) أضل دابته : فقدتها ، والملاكد : الصلاب الشداد جمع ملكد كجعفر وزبرج وقتنذ . (٢) بدير أكوم ، وناقاة كوماه : عظيمة السنام والجمع كروم ، والصلاخذ : العظام الشداد ، واحدها صلاحد بالضم . (٣) المقاحد جمع مقحاد ، وهي الغليظة السنام (والقحدة كرقبة : السنام أو أصله) . (٤) الجدائد جمع جدود كصبور : وهي التي انقطع لبنها . (٥) شسف جمع شاسف : وهو اليايس ضمرا وهزالا ، والصمارد جمع صمرد كزبرج : القليلة اللبن . (٦) الفرع جمع فرعة وهي أعلى الجبل . (٧) الكرع : ماء السماء ينزل فيستنقع ، وسمي كرها لأن الماشية تكرر فيه . (٨) العقيدات جمع عقدة : وهي ماتمقد من الرمل ، والجزع جمع جرة بالسكون ويحرك : الرملة الطيبة المنتبت لاوعوثة فيها ، أو الأرض ذات الحزونة تشاكل الرمل أو الدعص لاينبت ، أو الكثيب جانب منه رمل وجانب حجارة كالأجرع والجرعاء . (٩) انغايط : المطنن من الأرض ، والأفْيِخ : الواسع . (١٠) الملا : الفضاء ، والصحصح والصحصاح : ما استوى من الأرض . (١١) سدير وأملح : موضعان . (١٢) أشد . (١٣) المال الأصيل من الناطق والصامت . (١٤) يثوب : يرجع ، والكثب : القرب . (١٥) العرج : نحو خمسانة من الإبل ، والعكاس والفكاس : الكثير . (١٦) الطريق .

حتى أشرفت على الوادى الذى فيه إبلى ، فإذا ارتعاه تدعو بالويل ، فقلت ما شأنكم ؟
قالوا : أغارت بهزاه على إبلك ، فأسحفتها^(١) ، فأمسيت والله مالى مال غير الذود ،
فرمى الله فى نواصيهن بالرغس^(٢) ، وإنى اليوم لآكثر بنى اتقين مالا .

(الأمال ١ : ١٤٣)

٥٧ - حديث خنافر بن التوأم الحميرى مع ربه شصار

كان خنافر بن التوأم الحميرى كاهنا ، وكان قد أوتى بسطة فى الجسم ، وسعة
فى المال ، وكان عاتيا ، فلما وفدت وفود اليمن على النبي صلى الله عليه وسلم وظهر الإسلام أغار
على إبل لمرادٍ فاكسحها ، وخرج بأهله وماله ، ولحق بالشجر ، فخالف جودان بن يحيى
الفرضى ، وكان سيدا منيعا ، ونزل بواد من أودية الشجر مخصبا كثير الشجر من الأيكة
والعرين^(٣) قال خنافر : وكان ربي^(٤) فى الجاهلية لا يكاد يتمغيب عنى ، فلما شاع الإسلام فقدته
مدة طويلة ، وساءنى ذلك ، فبينما أنا ليلةً بذلك الوادى نائما ، إذ هوى هوى العقاب ،
فقال : خنافر ؟ فقلت : شصار ؟ فقال : اسمع أقل ، قلت : قل اسمع ، فقال : « عه
تغنم ، لكل مدة نهاية ، وكل ذى أمد إلى غاية ، قلت : أجل ، فقال : كل دولة إلى
أجل ، ثم يتاح لها حول^(٥) ، أنتسخت النحل ، ورجعت إلى حقائقها الممل ، إنك
سجير^(٦) موصول ، والنضح لك مبدول ، وإنى آنت^(٧) بأرض الشام نفرا من
آل العذام^(٨) ، حكاما على الحكام ، يذبرون^(٩) ذارونق من الكلام ، ليس

(١) استأصلتها . (٢) الرغس : البركة والنماء .

(٣) الأيكة : الشجر الملتف الكثير ، والغريضة تنبت السدر والأزك ، أو الجماعة من كل الشجر ،

والعرين : جماعة الشجر . (٤) الرئى : ما يترامى للإنسان من الجن فيحب .

(٥) الحول : التحول . (٦) السجير : الصديق ، والشجير : الغريب ، وقيل يقال السجير

والشجير للصديق . (٧) أبصرت . (٨) العذام : قبيلة من الجن ، كذا قيل .

(٩) ذبرت الكتاب : قرأته (وذبرته أيضا : كتبه كزبرته) .

بالشعر المؤلف ، ولا السجع المتكاف « فأصغيت فزجرت ، فعاودت فظلمت^(١) ، فقلت :
 بم تهينمون^(٢) ، وإلام تعزون^(٣) ؟ قالوا : « خطاب كبار^(٤) ، جاء من عند الملك
 الجبار ، فاسمع يا شصار ، عن أصدق الأخبار ، واسلك أوضح الآثار ، تنج من أوار^(٥)
 النار » ، فقلت : وما هذا الكلام ؟ فقالوا : « فرقان بين الكفر والإيمان ، رسول من
 مصر ، من أهل المدر ، ابتعث فظهر ، فجاء بقول قد بهر ، وأوضح نهجاً قد دثر ، فيه
 مواعظ لمن اعتبر ، ومعاذ لمن ازدجر ، ألفت بالأي الكبر^(٦) » قلت : ومن هذا المبعوث
 من مصر ؟ قال : « أحمد خير البشر ، فإن آمنت أعطيت الشبر^(٧) ، وإن خالفت
 أصليت سقر ، فآمنت يا خافر ، وأقبلت إليك أبادر ، فجانب كل كافر ، وشايغ كل
 مؤمن طاهر ، وإلا فهو الفراق ، لآعن تلاق^(٨) » ، قلت : من أين أبغى هذا الدين ؟ قال :
 من ذات الإحرين^(٩) والنفر اليمانيين ، أهل الماء والطين ، قلت : أوضح ، قال :
 « الحق بيثرب ذات النخل ، والحررة ذات النعل^(١٠) ، فهناك أهل الطول والفضل ،
 والمواساة والبذل ، ثم أمس^(١١) عني ، فبت مذعوراً أراعى الصباح ، فلما برق لي
 النور ، امتطيت راحتي ، وآذنت^(١٢) أعبدي ، واحتملت بأهلي ، حتى وردت
 الجوف ، فرددت الإبل على أربابها ، بجولها وسقائها^(١٣) ، وأقبلت أريد صنعاء ،
 فأصبت بها معاذ بن جبل أميراً لرسول الله صلى الله عليه وسلم فبايعته على الإسلام ،
 وعلمني سوراً من القرآن ، فمن الله على بالهدى بعد الضلالة ، والعلم بعد الجهالة .

(الأمالي ١ : ١٣٣)

(١) منعت . (٢) الهينة : الصوت الخفي . (٣) تنتسبون . (٤) كبير .
 (٥) الأوار : حر النار . (٦) الشبر بالسكون : الخير وحرك للسجع . (٧) الحررة
 (بالفتح) أرض ذات حجارة نخرة سود وتجمع على حررات وحرار وحرين وأحرين . (٨) النعل :
 المكان الغليظ من الحررة . (٩) أفلت . (١٠) أعلمت . (١١) الحول جمع حائل وهي الأثني
 من أولاد الإبل ، والسقاب جمع سقب كشمس وهو الذكر .

٥٨ شافع بن كليب الصدفي يتكهن بظهور النبي صلى الله عليه وسلم

قَدِمَ عَلَى تَبَعِ الْآخِرِ مَلِكِ الْيَمَنِ ، قَبْلَ خُرُوجِهِ لِقِتَالِ الْمَدِينَةِ ^(١) ، شَافِعُ بْنُ كَلَيْبِ
الْصَدْفِيِّ ^(٢) ، وَكَانَ كَاهِنًا ، فَقَالَ لَهُ تَبَعٌ : هَلْ تَجِدُ لِقَوْمِ مَلِكِا يُوَازِي مَلِكِي ؟ قَالَ : لَا ،
إِلَّا مُلْكَ غَسَّانَ ، قَالَ : فَهَلْ تَجِدُ مَلِكًا يَزِيدُ عَلَيْهِ ؟ قَالَ :

« أَجِدُهُ لِبَارٍ مَبْرُورٍ ، وَرَائِدٍ ^(٣) بِالْقَهْورِ ^(٤) ، وَوَصْفٍ فِي الزَّبُورِ ، فَضَلَّتْ

(١) قال ابن إسحق : « كان تبع الآخري حين أقبل من المشرق بعد أن ملك البلاد جعل طريقه على المدينة ، وكان حين مر بها في بدايته لم يهج أهلها ، وخلف بين أظهرهم ابنا له ، فقتل غيلة ، فقدمها وهو مجمع على تخريبها واستئصال أهلها ، فجمع له الأنصار حين سمعوا ذلك وخرجوا لقتاله ، فترجم الأنصار أنهم كانوا يقاتلونه بالنهار ويقرونه بالليل ، فيعجبه ذلك منهم ، ويقول : والله إن قومنا لكرام ، فبينما هو على ذلك إذ جاءه خبران من أحبار اليهود من بني قريظة عالمان راسخان في العلم ، فقالا له : قد سمعنا ما تريد أن تفعل ، وإنك إن أبيت إلا ذلك ؛ حيل بينك وبينه ، ولم نأمن عليك حاجل العقوبة ، فقال : ولم ذلك ؟ قالا : إنها مهاجر (بفتح الجيم) نبي يخرج من هذا الحرم من قريش تكون داره وقراره ، فأنهى عما كان يريد ، وأعجبه ما سمع منهما ، واتبعهما على دينهما ، وكان هو وقومه أصحاب أوثان ، وخرج متوجها إلى اليمن فدعا قومه إلى اليهودية فأبوا عليه ، ثم أطبقوا على دينه ، فن هنالك وعن ذلك كان أصل اليهودية باليمن (سيرة ابن هشام ١ : ١١ ، والكامل لابن الأثير ١ : ١٤٦) .

(٢) الصدفي نسبة إلى صدف ككتف : بطن من كندة . (٣) الرائد في الأصل : المرسل في طلب الكلا من الرود وهو الطلب ، يعنى به نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم ؛ فقد كان رائدا لأمته يرتاد لها الخبير قال عليه الصلاة والسلام في أول خطبة خطبها بمكة حين دعا قومه : « إن الرائد لا يكذب أهله » .

(٤) جاء في معجم البلدان : « القهر (كشمس) أسافل الحجاز مايل نجدا من قبل الطائف .

وأشده لخداش بن زهير :

دعوا جانبي ، إني سأنزل جانبا
سكم واسعا بين النيامة والقهر

وأقول : هذا الوصف ينطبق على مكة فهي واقعة جنوبي الحجاز . . . الخ . فالمعنى : « أجد ملكا يزيد على ملكك لرائد يظهر بتلك البقاع » أما كلمة القهور فلم أجدها في معجم ، ولعل الكاهن جمع « القهر » على قهور ، لإقامة الفاصلة ، أو هو على حد قول امرئ القيس :

يزل الغلام الخف عن صهواته
كما زلت الصفواء بالمنزل

أُمَّتِهِ فِي الشُّفُورِ^(١) ، يَفْرَجُ الظُّلْمَ بِالنُّورِ ، أَحْمَدُ النَّبِيِّ ، طَوَّبَ لَأُمَّتِهِ حِينَ يَجِي ، أَحَدُ
بَنِي لُؤَيٍّ ، ثُمَّ أَحَدُ بَنِي قُصَيٍّ .

فَنظَرَ تَبِعَ فِي الزُّبُورِ ، فَإِذَا هُوَ يَجِدُ صِفَةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

(تاريخ الكامل لابن الأثير ١ : ١٦٤)

٥٩ - سَطِيحُ الذُّبِيِّ^(٢) يَعْبُرُ رُؤْيَا رَيْبِعَةَ بِنَ نَصْرِ اللَّخْمِيِّ

وَرَأَى رَيْبِعَةَ بِنَ نَصْرِ اللَّخْمِيِّ مَلِكِ الْيَمَنِ - وَقَدْ مَلَكَ بَعْدَ تَبِعِ الْآخِرِ - رُؤْيَا هَالَتَهُ ،
فَلَمْ يَدْعُ كَاهِنًا ، وَلَا سَاحِرًا ، وَلَا عَائِفًا ، وَلَا مَنْجِمًا مِنْ أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ إِلَّا جَمَعَهُ إِلَيْهِ ،
فَقَالَ لَهُمْ : إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ رُؤْيَا هَالَتْنِي وَفَطَعْتُ^(٣) بِهَا ، فَأَخْبِرُونِي بِهَا وَتَأْوِيلَهَا ، قَالُوا لَهُ :
أَقْصُصْهَا عَلَيْنَا نَخْبِرَكَ بِتَأْوِيلِهَا ، قَالَ : إِنِّي إِذَا أَخْبَرْتَكُمْ بِهَا لَمْ أَطْمَئِنِّ إِلَى خَبْرِكُمْ عَنْ تَأْوِيلِهَا
فَإِنَّهُ لَا يَعْرِفُ تَأْوِيلَهَا إِلَّا مَنْ عَرَفَهَا قَبْلَ أَنْ أَخْبِرَهُ بِهَا ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنْهُمْ : فَإِنْ كَانَ
الْمَلِكُ يَرِيدُ هَذَا ، فَلْيَبْعِثْ إِلَى سَطِيحِ وَشِقِّ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ أَعْلَمُ مِنْهُمَا فِيهَا ، يُخْبِرَانِهِ
بِمَا سَأَلَ عَنْهُ ، فَبَعِثْ إِلَيْهِمَا ، فَقَدِمَ عَلَيْهِ سَطِيحٌ قَبْلَ شِقِّ ، فَقَالَ لَهُ : إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ رُؤْيَا

(١) السفر (كحمل) الكتاب الكبير ، أو جزء من أجزاء التوراة ، وفي كتب اللغة أنها تجمع على

أسفار ، ولعله جمعها على سفور للمحافظة على السجع أيضا .

(٢) اسمه ربيع بن ربيعة بن مسعود بن مازن بن ذئب بن عدى بن مازن غسان ، وكان يقال له الذببي

نسبة إلى ذئب بن عدى ، وكان من المعمرين قيل عاش ثلثمائة سنة وقيل سبعمائة ، وزعموا أنه لم يكن له رأس
ولا عتق ، وأن وجهه كان في صدره ، وأنه كان جسدا ملق لاجوارح له ، وكان لا يقدر على الجلوس إلا
إذا غضب ، فإنه ينتفخ فيجلس ، وكان له سرير من الجريد والحوص ، إذا أريد نقله إلى مكان يطوى من
رجليه إلى جمجمته كما يطوى الثوب فيوضع على ذلك السرير ، وإذا أريد استخباره ليخبر عن المغيبات يحرك
كما يحرك سقاء اللبن فينتفخ ويمتلئ ويعلوه النفس فيسأل فيخبر عما يسأل عنه ، (كذا) وأن كاهنة بنى سعد
ابن هذيم وكانت بأعلى الشام لما حضرته الوفاة طلبت سطيحا وشقا (وسياق ذكره) وتقلت في فهمها ،
وذكرت أن سطيحا يخلفها في كهانتها ، ثم ماتت في يومها ذلك .

(٣) فظع بالأمر كفرح فظاعة : إذا هاله وغلبه .

هالفتي وفَطِئْتُ بها ، فأخبرني بها ، فإنك إن أصدبتها أصبت تأويلها . قال : أفعل
 « رأيت حُمَّةً ^(١) ، خرجت من ظُلْمَةٍ ^(٢) ، فوقعت بأرض تَهْمَةٍ ^(٣) ، فأكلت منها كلَّ
 ذاتِ جُجْمَةٍ ^(٤) » ، فقال له الملكُ : ما أخطأت منها شيئاً يسطيح ، فما عندك في تأويلها ؟
 فقال : « أخلِفُ بما بين الحَرَّتَيْنِ ^(٥) من حَنَسٍ ، لِيَهْبِطَنَّ أرضكم الحبشُ ، فَلْيَمْلِكَنَّ
 ما بين أبين ^(٦) إلى جُرش ^(٧) » فقال له الملك : وأبيك يا سطيح . إن هذا لنا لغائظ
 مَوْجِع ، فمتى هو كائن ، أفي زمانى هذا أم بعده ؟ قال : « لا ، بل بعده بحين ، أ أكثر
 من ستين أو سبعين ، يمضين من السنين » قال : أفيدوم ذلك من ملكهم أم ينقطع ؟
 قال : « لا ، بل ينقطع لبضعِ وسبعين من السنين ، ثم يُقتلون بها أجمعين ، ويخرجون
 منها هاربين » قال : ومن يلي ذلك من قتلهم وإخراجهم ؟ قال : « يليه إرم ^(٨)
 ذى يزن ، يخرج عليهم من عدن ، فلا يترك أحداً منهم باليمن » قال : أفيدوم ذلك من
 سلطانه أم ينقطع ؟ قال : « بل ينقطع » قال : ومن يقطعه ؟ قال « نبي ز كى ، يأتيه الوحي
 من قِبَلِ الْعَلِيِّ » قال : ومن هذا النبي ؟ قال : « رجل من ولد غالب بن فهر ، بن مالك
 ابن النَّضْرِ ، يكون الملك في قومه إلى آخر الدهر » قال : وهل للدهر من آخر ؟ قال :

(١) الحممة وتجمع على حمم : للفحمة والرماد وكل ما احترق من النار ، وتطلق الحممة على الجمر مجازاً
 باعتبار ما يثول إليه وهو المراد هنا . (٢) الظلمة : الظلام ، وسرى في تعبير الرؤيا أنها إشاوة إلى
 الأحباش السود . (٣) التهمة بالتحريك : الأرض المتصوبة إلى البحر ، كالتهم محرقة أيضاً كأنهما
 مصدران من تهامة ، لأن التهام متصوبة إلى البحر ويقال أيضاً : أرض تهمة كفرحة أى شديدة الحر ، من
 التهم بالتحريك وهو شدة الحر وفي ابن الأثير « تهمة » بالباء يقال : أرض تهمة كفرحة أى كثيرة البهي ،
 والبهي بالضم اسم نبت ، والضبط الأول عندي أرجح . (٤) أى كل نفس . (٥) الحرة : أرض
 ذات حجارة سود نخرة ، (٦) مخلاف باليمن منه مدينة عدن . (٧) مخلاف باليمن من جهة مكة .

(٨) الإرم كعنب وكتف : العلم (بالتحريك) أو خاص بعاد ، والعلم سيد القوم ، أى يتولاه سيد بنى

« نعم . يومٌ يُجْمَعُ فيه الأولون والآخرون ، يَسْعَدُ فيه المحسنون ، ويشقى فيه السيئون » .
قال : أَحَقُّ ما تُخبرنا ياسطيح ؟ قال : « نعم ، والشَّقِّقِ ، وَالْفَسَقِ ^(١) ، وَالْفَلَقِ ^(٢) »
إذا انشَقَّ ، إن ما أنباتك به لَحَقَّ » .

٦٠ شق أنمار ^(٣) يعبر رؤيا ربيعة بن نصر أيضا

ثم قدم عليه شقٌّ ، فقال له كقوله لسطيح ، وكتمه ما قال سطيح ، لينظر أيتفقان أم يختلفان ، قال : « نعم ، رأيت حُمَّة ، خرجت من ظلمة ، فوقعت بين روضة وأكمة فأكلت منها كل ذات نَسَمَة » . فلما سمع الملك ذلك قال : ما أخطأت ياشقٍ منها شيئا ، فما عندك في تأويلها ؟ قال : « أَحْلِفُ بما بين الحَرَّتَيْنِ من إنسان ، لينزلن أرضكم السودان ، فليغلبن على كل طفلة ^(٤) البنان . وليلمكن ما بين أُبَيْنَ إلى نَجْوَانَ ^(٥) »
فقال له الملك : وأبيك ياشقٍ ، إن هذا لنا لعائظ موجه ، فتى هو كائن : أى زمانى أم بعده ؟ قال : « لا ، بعده بزمان ، ثم يستنقذكم منهم عظيم ذوشان ، ويذيقهم أشدَّ الهوان » قال : ومن هذا العظيم الشأن ؟ قال : « غلام ليس بدني ولا مدن ^(٦) » ، يخرج عليهم من بيت ذى يزن ^(٧) » قال أفيدوم سلطانه أم ينقطع ؟ قال : « بل ينقطع برسول

(١) الشفق : الحمرة فى الأفق من الغروب إلى قريب العتمة ، والغسق : ظلمة أول الليل .

(٢) الفلق : الصبح أو ما انفلق من عموده . (٣) هو شق بن مصعب بن يشكر بن رهم بن أقزل

ابن قيس بن عبقر بن أنمار بن نزار ، وزعموا أنه كان شق إنسان (أى نصفه) له يد واحدة ورجل واحدة وعين واحدة . (٤) مؤنث طفل : وهو الرخص الناعم من شيء . (٥) مخلاف شمالى اليمن .

(٦) الدنى : مسهل عن دنىء ، والمدنى : المقصر عما ينبغى له أن يفعله ، وفى ابن الأثير « مزن »

بالزأى والمزن : المتهم ، من أزننته بكذا أى اتهمته به .

(٧) وخبر ذلك أن زرعة بن كعب الملقب بذى نواس أحد ملوك التبابعة باليمن (وكان قد تهود وتعصب

للإهودية وحمل عليها قبائل اليمن) اضطهد نصارى نجران لأن يهوديا بنجران عدا أهلها على ابنين له فقتلوهما ظلما ، فتوسل إلى ذى نواس باليهودية ، واستنصره عليهم ، فسمى له ولديه وغزاهم ، ويقال إن رجلا من =

مُرْسَل ، يأتي بالحق والعدل ، بين أهل الدين والفضل ، يكون الملك في قومه إلى يوم
الْقَصَل . قال : وما يوم الفصل ؟ قال : « يوم تُجْزَى فيه الولاية ، يدعى فيه من السماء
بِدَعَوَات ، يسمع منها الأحياء والأموات ، وَيُجْمَعُ فيه بين الناس للميقات ، يكون فيه
لمن اتقى الفوز والخيرات » قال : أحق ما تقول ؟ قال : « إى ورب السماء والأرض ،
وما بينهما من رفع وخفض ، إن ما أنبأتك به لحق ما فيه أمض ^(١) » .

فوقع في نفس ربيعة بن نصر ماقالا ، فجهز بنيو وأهل بيته إلى العراق بما يصلحهم ،
وكتب لهم إلى ملك من ملوك فارس ، يقال له سابور فأسكنهم الحيرة . فمن بقيته ولده
النعمان بن المنذر ملك الحيرة ، وهو النعمان بن المنذر بن النعمان بن المنذر بن عمرو بن
امرى القيس بن عمرو بن عدى بن ربيعة بن نصر .

(تاريخ الطبري : ٩٩ وسيرة ابن هشام ١ : ٨ ، والكامل لابن الأثيرا : ١٤٦)

٦١ - وفود عبد المسيح بن بقبيلة على سطيح

عن ابن عباس رضى الله عنه قال :

« لما كان ليلة ولد النبي صلى الله عليه وسلم ، ارتجح إيوان كسرى ، فسقطت
منه أربع عشرة شُرْفَة ، فعظم ذلك على أهل مملكته ، فما كان أوشك أن كتب إليه

= أهل نجران أفلت من القتل ، وسار إلى قيصر الروم يستنجده على ذى نواس ، فبعث قيصر إلى نجاشي الحبشة
يأمره بنصرة النصارى ، فجهز جيشا إلى اليمن ، فركبوا البحر إليها ، ولقيهم ذو نواس فيمن معه فدارت
الدائرة عليه ، وملكت الحبشة اليمن ، ولما طال البلاء من الحبشة على أهلها خرج سيف بن ذى يزن الحميرى
وقدم على قيصر يوستنيان يستنجده على الحبشة فأبى ، وقال : الحبشة على دين النصارى ؛ فرجع إلى كسرى
أنوشروان واستعانه ، فأمدته بجيش من كانوا في سجونهم ؛ فقاتلوا الأحباش وهزمهم ؛ واسترد سيف
عرش آباءه على فريضة يؤديها كل عام للفرس حتى قتل ؛ فأرسل كسرى عاملا على اليمن واستمرت عماله إلى أن
كان آخرهم باذان فأسلم ؛ وصارت اليمن إلى الإسلام في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم .

(١) أى شك أو باطل .

صاحب اليمن يخبره أن بحيرة ساوة^(١) غاضت تلك الليلة ، وكتب إليه صاحب السماوة يخبره أن وادي السماوة^(٢) انقطع تلك الليلة ، وكتب إليه صاحب طبرية أن الماء لم يجر تلك الليلة في بحيرة طبرية ، وكتب إليه صاحب فارس يخبره أن بيوت النيران تحمدت تلك الليلة ، ولم تخمد قبل ذلك بألف سنة ، فلما تواترت الكتب أبرز سريره وظهر لأهل مملكته فأخبرهم الخبر ، فقال الموبدان^(٣) : أيها الملك إني رأيت تلك الليلة رؤيا هالتي ، قال له : وما رأيت ؟ قال : رأيت إبلا صعباً ، تقود خيلاً عرباً ، قد اقتحمت دجلة وانتشرت في بلادنا ، قال : رأيت عظيماً فإعني في تأويلها ؟ قال : ما عندي فيها ولا في تأويلها شيء ، ولكن أرسل إلى عاملك بالبحيرة يوجه إليك رجلاً من علمائهم ، فإنهم أصحاب علم بالحدثان ، فبعث إليه عبد المسيح بن بقبيلة الغساني . فلما قدم عليه أخبره كسرى الخبر ، فقال له : أيها الملك ، والله ما عندي فيها ولا في تأويلها شيء ، ولكن جهزني إلى خال لي بالشام يقال له سطيح . قال : جهزوه ، فلما قدم إلى سطيح وجده قد احتضر ، فناداه فلم يجبه ، وكلمه فلم يرد عليه ، فقال عبد المسيح :

أَصَمُّ أُمُّ بِسْمِ غَطْرِيفُ الْيَمَنُ يَا فَاصِلَ الْخَطَّةِ أُعِمَّتْ مَنْ وَمَنْ^(٤)
أَتَاكَ شَيْخٌ الْحَىُّ مِنْ آلِ سَنَنْ أبيض فضفاض الرِّداءِ وَالْبَدَنُ^(٥)
رَسُولٌ قَيْلِ الْعُجْمِ يَهْوَى لِلْوَنِّ لَا يَرَهَبُ الرَّعْدَ وَلَا رَبِّبَ الزَّمَنِ^(٦)

(١) هكذا في العقد الفريد ، وفي السيرة الحلبية « وورد عليه كتاب من صاحب إيليا (بالشام) يخبره أن بحيرة ساوة غاضت تلك الليلة » وفي معجم البلدان : « ساوة مدينة حسنة بين الرى وهمدان في وسط ، بينها وبين كل واحد من همدان والرى ثلاثون فرسخاً ، وفي حديث سطيح في أعلام النبوة : « وخمدت نار فارس وغارت بحيرة ساوة . . . الخ » ومنه يستفاد أنها في فارس .

(٢) موضع بين الكوفة والشام . (٣) الموبدان والموبد : فقيه الفرس وحاكم المجوس .

(٤) الغطريف : السيد الشريف . (٥) الفضفاض : الواسع .

(٦) القيل : الملك ؛ أو هو دون الملك الأعلى .

فرغ إليه رأسه وقال : « عبد المسيح ، على جبل مُشِيح^(١) ، إلى سَطِيح ، وقد أوفى على الضَّرِيح^(٢) ، بعثك ملك بني ساسان ، لارتجاج الإيوان ، وخود النيران ، ورؤيا الموبدَّان ، رأى إبلا صِعَابًا ، تقود خَيْلاً عِرَابًا ، قد اقتحمت في الواد ، وانتشرت في البلاد . يا عبد المسيح : إذا كثرت التَّلَاوة^(٣) ، وظهر صاحب الهراوة^(٤) ، وفاض وادي السماوة ، وَغَاضَتْ بِحِيْرَة ساوة ، وخذت نار فارس ، فليست بابل للفرس مَقَامًا ، ولا الشام لسطيح شامًا ، يملك منهم ملوك وملكات^(٥) ، عدد سقوط الشُّرُفَات ، وكل ما هو آتٍ آتٍ » ثم قال :

إن كان ملك بني ساسان أفرطهم فإن ذا الدهر أطوارًا دَهَارِير^(٦)
منهم بنو الصَّرح بهرام وإخوته والهزْمُزَانُ وَسَابُورُ وسابور
فربما أصبحوا يومًا بمنزلة تهابُ صَوْنَهُمُ الأَسْدُ المَهَاصِير^(٧)
حَبْنُوا المَطِيَّ وَجَدُّوا في رِحَالِهِمْ فما يقوم لهم سَرَجٌ وَلَا كُور^(٨)
والناس أولاد عِلَاتٍ فمن علموا أنْ قَدْ أَقْلَّ فمحقور ومهجور^(٩)
والخير والشرِّ مقرونان في قَرَن فالخير مُتَّبِعٌ والشرُّ محذور

(١) جاد سريع . (٢) أى القبر ؛ والمراد الموت . (٣) أى تلاوة القرآن .

(٤) الهراوة : العصا الضخمة ؛ وصاحبها هو النبي صلى الله عليه وسلم لأنه كان يمسك العصا كثيرا عند مشيه . (٥) قول صاحب السيرة الحلبية : « لم أقف على أنه ملك منهم من النساء إلا واحدة وهى بوران ؛ ملكت سنة تم هلكت » .

(٦) أفرطهم : تركهم وزال عنهم ؛ قال تمالى : « لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ ، وَأَمَّهُمْ

مُفْرَطُونَ »

أى متروكون فيها ؛ ودهر دهارير : أى شديد (كليلة ليلاء ويوم أيوم) .

(٧) المهاصير جمع مهصار أو مهصير وهو الأسد من المحصر وهو الكمر والحذب والإمالة .

(٨) الكور : الرجل بأداته . (٩) أولاد للملات : أولاد أمهات شقي من رجل واحد .

ثم أتى كسرى فأخبره بما قاله سطيح فغمه ذلك ، ثم تعزى ، فقال : إلى أن يملك
منا أربعة عشر ملكا يدور الزمان ، فهلكوا كلهم في أربعين سنة ، وكان آخر من هلك
منهم في أول خلافة عثمان رضى الله عنه .

(تاريخ الطبرى ٢ : ١٢٢ والعقد الفريد ١ : ١٠٨ ، والسيرة الحلبية ١ : ٧٠ ، والمختصر في أخبار البشر

لأبي الفداء ١ : ١١٠) .

٦٢ - شق وسطيح ينبئان بأصل ثقيف

عن ابن الكلبي قال : « كان قسي^(١) - وهو ثقيف^(٢) - مقبلا باليمن ، فضاق عليه
موضعه ونبا^(٣) به ، فأتى الطائف ، وهو يومئذ منازل فهم وعدوان بن عمرو بن قيس
ابن عيلان ، فاتتهى إلى الظرب المدوانى ، فوجده نائما تحت شجرة فأيقظه ، وقال :
من أنت ؟ قال : أنا الظرب ، قال : على الألية^(٤) إن لم أقتلك ، أو تحلف لى لتزوجنى
ابنتك ، ففعل ، وانصرف الظرب وقسي^(٥) معه ، فلقية ابنه عامر بن الظرب ، فقال : من
هذا معك يا أبت ؟ فقص قصته ، قال عامر : لله أبوه ! لقد ثقف^(٦) أمره ، فسمى يومئذ

(١) هو أبو القبيلة المشهورة ، وهو ثقيف بن منبه بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة

ابن خصفة بن قيس بن عيلان بن مضر ؛ وقد اختلف النسابون في نسب ثقيف ، فقال قوم : إنهم من
هوازن ، وهو القول الذى يزعمه الثقفيون ؛ وعليه جمهور الناس ، ويزعم آخرون أن ثقيفا من إياد بن نزار
ابن معد بن عدنان ؛ وأن النخع أخوه لأبيه وأمه ؛ ثم افترقا ؛ فصارا أحدهما في عداد هوازن والآخر في عداد مذحج ؛
وقال قوم آخرون إن ثقيفا من بقايا ثمود من العرب القديمة التى بادت وانقرضت . قال الحجاج على المنبر :

يزعمون أنا من بقايا ثمود فقد كذبهم الله بقوله : « وَثَمُودَ فَمَا أُبْقَى » وقال مرة أخرى : ولئن كنا

من بقايا ثمود لما نجتمع صالح إلا خيارهم - اقرأ كلمة عن نسب ثقيف في شرح ابن أبي الحديد م ٢

ص ٣٩٢ ؛ والعقد الفريد ٣ : ٨ ، والأغانى ٤ : ٧٤ ؛ ومروج الذهب ٢ : ٦٨ ؛ وتاريخ الطبرى

٧ : ٢٣٣ . (٢) نبا به منزله : لم يوافقته . (٣) الألية : اليمين . (٤) ثقف ككرم وفرح :

صار حاذقا خفيفا فطنا . وثقف الشيء كفرح : ظفر به .

ثقيفاً ، وعُيِّرَ الظرب بتزويجه قسيّاً ، وقيل زوجتَ عبدًا ، فسار إلى الكهان يسألهم ، فأتتهى إلى شقّ بن مُصعب البَجَلِيّ ، وكان أقربهم منه . فلما انتهى إليه قال : إنا قد جئناك في أمر فما هو ؟ قال : « جئتم في قسيّ ، وقسيّ عبدُ إياد ، أبق^(١) ليلة الواد ، في وَجِّ^(٢) ذاتِ الأنداد ، فوالى سعدًا لِيُفَادَ ، ثم لوى بغير معاد » يعنى سعد بن قيس ابن عيّلان بن مضر ، ثم توجه إلى سطيح الذئبي حَيٌّ من غَسَّان ، ويقال إنهم حى من قُضاعة نُزول في غَسَّان . فقالوا : إنا جئناك في أمر فما هو ؟ قال : « جئتم في قسيّ ، وقسيّ من ولد ثمود القديم ، ولدتها أمه بصَحْرَاءَ تَرِيمٍ^(٣) ، فالتقطه إياد وهو عَدِيم ، فاستعبده وهو مُلِيم^(٤) » . فرجع الظرب وهو لا يدري ما يصنع في أمره . وقد وُكِّدَ عليه في الحَلِيفِ والتزويج ، وكانوا على كفرهم يُوفون بالقول ، فلهذا يقول من قال إن ثقيفاً من ثمود ، لأن إياداً من ثمود .

(الأغانى ٤ : ٧٥)

٦٣ - تنافر عبد المطلب بن هاشم والثقيفين إلى عزي سلمة الكاهن

كان لعبد المطلب بن هاشم مال بالطائف يقال له : ذواهُرَم^(٥) ، فغلبه عليه خنْدِف ابن الحارث الثَّقَفِيُّ ، فنافروهم عبد المطلب إلى عَزَى سلمة الكاهن - أو إلى نُفَيْل ابن عبد العزى جد عمر بن الخطاب^(٦) - فخرج عبد المطلب مع ابنه الحارث ، وليس له يومئذ غيره ، وخرج الثقيفون مع صاحبهم ، وحربُ بن أمية معهم على عبد المطلب ، فنقد ماء عبد المطلب ، فطلب إليهم أن يسقوه ، فأبَوْا ، فبلغ العطش منه كل مَبْتَلِغ ، وأشرف

(١) هرب . (٢) وج : اسم واد بالطائف . (٣) رام يريم ربما : تباعد .

(٤) الام فهو مليم : أتى ما يلام عليه .

(٥) ضبطه في القاموس المحيط بفتح فسكون ؛ والصحيح أنه بالتحريك كما يدل على ذلك الأسجاع

الآتية . (٦) وعبارة معجم ياقوت : « فنافروهم عبدالمطلب إلى الكاهن القضاعي وهوسلمة بن أبي حية

فخرجوا إليه إلى الشام » .

على الهلاك ، فبينما عبد المطلب يُثِيرُ بعيره ليركب ، إذ فَجَّرَ اللهُ له عينا من تحت جِرَانِهِ ، فحمد الله وعلم أن ذلك منه ، فَشَرِبَ وشرب أصحابه رِيَهُمْ وتزودوا منه حاجتهم ، وَنَفَدَ ماء الثقيين ، فطلبوا إلى عبد المطلب أن يسقيهم فأنعم عليهم ، فقال له ابنه الحارث لَأُنْحِنِينَ على سيفي حتى يخرج من ظهري ، فقال عبد المطلب : لَأَسْقِيَنَّهُمْ فلا تفعل ذلك بنفسك فسقام ، ثم انطلقوا ، حتى أتوا الكاهن ، وقد خَبَثُوا له رأسَ جَرَادَةٍ ، في خُرْزُقِ مَزَادَةٍ^(١) ، وجعلوه في قِلَادَةٍ كلب لهم يقال له سَوَّار ، فلما أتوا الكاهن إذا هم ببقرتين تسوقان بينهما بَخْرَجًا^(٢) كتأها تزعم أنه ولدها ، وَوَلَدَتَا في ليلة واحدة ، فأكل النَّعِيرُ أحدَ الْبَخْرَجَيْنِ . فهما ترهُأمان^(٣) الباقي ، فلما وقفنا بين يديه . قال الكاهن : هل تدرُونَ ما تريد هاتان البقرتان ؟ قَالُوا : لا . قال الكاهن : « ذهب به ذوجسدِ أَرْبَدٍ^(٤) ، وَشِدْقِ مَرْمَعٍ^(٥) ، وَنَابِ مُعَلِقٍ^(٦) ، ما للصغرى في ولد الكبرى حقٌّ » ففرضى به للكبرى ، ثم قال : ما حاجتكم ؟ قَالُوا : قد خَبَثْنَا لك خَبَثًا ، فَأُنْبِئْنَا عَنْهُ ، ثم نخبرك بما جئنا ، قال : « خَبَثْنَا لى شيئًا طَارَ فسطح ، فتصوّب فوقه ، في الأرض منه بُقَعٌ ، قَالُوا : لآدَه ، أَى بَيْئِنَه . قال : « هو شىء طار ، فاستطار ، ذو ذَنَبٍ جَرَّارٍ ، وساق كَالْمِنْشَارِ ، ورأس كَالْمِسْمَارِ » قَالُوا : لآدَه ، قال : « إن لآدَه قِلَادَه^(٧) ، هو

- (١) المَزَادَةُ : الراوية ، والخُرْزُقُ : السير يخرز به . (٢) البَخْرَجُ : ولد البقرة .
 (٣) رَثِمَتْ ولدها : عطفت عليه ولزمته . (٤) من الريدة (كصفرة) : لون إلى الغبرة .
 (٥) رمع كنع رمانا (بالتحريك) وترمع : تحرك واضطرب ، وقوله مرمع : اسم فاعل من رمع المضعف ، يشير إلى أنه مفترس كاسر . (٦) من أعلق الصائد إذا علق الصيد في حبالته أى نشب .
 (٧) روى ابن الأعرابي إلهة فلاهه ساكن أهاء . ويروى إلهة فلاهه مكسور الهاء منونة ، قال ياقوت في معجمه : « يقول إن لم يكن قولى بياناً فلا بيان » وقال الزمخشري في المستقصى : « إن لآدَه فلاهه بفتح الدال ويكسر ، وهى كلمة فارسية معناها الضرب قد استعملتها العرب فى كلامها . وأصله أن الموتور كان يلقى واره فلا يتعرض له فيقال له ذلك ، والمعنى إنك إن لم تضربه الآن فلا تضربه أبداً ، والتقدير إن لا يكون ده فلا يكون ده : أى إن لا يوجد ضرب الساعة ، فلا يوجد ضرب أبداً ، ثم اتسعوا فيه فضربوه مثلاً فى كل شىء لا يقدم عليه الرجل ، وقد حان حينه ووجب إحداثه من قضاء دين قد حل أو حاجة طلبت ، أو ما أشبه ذلك من الأمور التى لا يسوغ تأخيرها » . وقال المنذرى : « قالوا معناها إلا هذه فلا هذه ، يعنى أنه الأصل لإلهة فلاهه بالبدال المعجمة ، فعربت بالبدال غير المعجمة كما قالوا يهودا ثم عرب فقيل يهودا » .

رأس جَرَادَة ، في خُرُز مَزَادَة ، في عُتُق سَوَارِ ذِي الْقِلَادَة ، قالوا : صدقت ،
فَأخْبِرْنَا فِيمَ اخْتَصَمْنَا إِلَيْكَ ؟ قال : « أَحْكُمُ بِالضِيَاءِ وَالظُّلْمِ ، وَبِالْبَيْتِ وَالْحَرَمِ ، أَنْ الْمَالُ
ذَا الْحَرَمِ ، لِلْقُرَشِيِّ ذِي الْكُرَمِ » ففُضِيَ بَيْنَهُمْ ، وَرُجِعُوا إِلَى مَنَازِلِهِمْ عَلَى حَكْمِهِ .

(ُصِغُغِ الْأَمْثَالِ ١ : ٣٠ وَبِصِغُغِ الْبِلْدَانِ ٨ : ٤٦٠)

وَرَوَى الْجَاهِظُ لِعَزَى سَلْمَةَ أَنَّهُ قَالَ :

« وَالْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ ، وَالْعُقَابِ وَالصَّقْعَاءِ ^(١) ، وَاقِعَةَ بَيْتِغَمَاءَ ^(٢) ، لَقَدْ نَفَرَّ الْمَجْدُ
بِئِى الْعُشْرَاءِ ^(٣) ، لِلْمَجْدِ وَالسَّنَاءِ ^(٤) . »

(الْبَيَانُ وَالتَّيْبِينُ ١ : ١٥٩)

٦٤ - مناصرة عبد المطلب بن هاشم وحرب بن أمية ^(٥)

تَنَافَرَ عَبْدُ الْمَطْلُبِ بِنُ هَاشِمٍ وَحَرْبُ بِنِ أُمِيَّةَ إِلَى النِّجَاشِيِّ مَلِكِ الْحَبَشَةِ ، فَأَبَى أَنْ
يَنْفِرَ بَيْنَهُمَا ، فَجَعَلَا بَيْنَهُمَا نَفِيلًا بِنُ عَبْدِ الْعَزْمِيِّ بِنِ رِيَّاحٍ ، فَقَالَ لِحَرْبٍ :

(١) الصَّقْعَةُ بِالضَّمِّ : بِيَاضٍ فِي وَسْطِ رِهْوسِ الطَّيْرِ وَغَيْرِهَا ، وَهُوَ أَصْقَعٌ ، وَهِيَ صَقْعَاءُ (وَالصَّقْعَاءُ
أَيْضًا الشَّمْسُ) . (٢) الْبَيْتِغَمَاءُ : اسْمُ مَاءٍ . (٣) الْعُشْرَاءُ : قَوْمٌ مِنْ فِزَارَةَ ، وَنَفَرَهُ عَلَيْهِ : قَضَى لَهُ
عَلَيْهِ بِالْغَلْبَةِ . (٤) السَّنَاءُ : الرِّفْعَةُ .

(٥) وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ عَبْدَ الْمَطْلُبِ كَانَ لَهُ جَارٌ يَهُودِيٌّ يُقَالُ لَهُ أُذَيْنَةُ ، يَتَّجِرُ وَهُوَ مَالٌ كَثِيرٌ ، فَغَاطَ ذَلِكَ
حَرْبُ بِنِ أُمِيَّةَ ، وَكَانَ زَيْمٌ عَبْدُ الْمَطْلُبِ ، فَأَغْرَى بِهِ فَنِيَانًا مِنْ قَرِيشٍ لِيَقْتُلُوهُ ، وَيَأْخُذُوا مَالَهُ ، فَقَتَلَهُ عَامِرُ
ابْنُ عَبْدِ مَنَافٍ بِنِ عَبْدِ الدَّارِ ؛ وَصَخْرُ بِنِ عَمْرُو بْنِ كَعْبِ التَّيْمِيِّ ، جَدُّ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَلَمْ يَعْرِفْ
عَبْدُ الْمَطْلُبِ قَاتِلَهُ ، فَلَمْ يَزَلْ يَبْحَثُ حَتَّى عَرَفَهُمَا ، وَإِذَا هُمَا قَدْ اسْتَجَارَا بِحَرْبِ بِنِ أُمِيَّةَ ، فَأَتَى حَرْبًا وَوَلَامَهُ
وَطَلَبَهُمَا مِنْهُ فَأَخْفَاهُمَا ؛ فَتَنَاطَلَا فِي الْقَوْلِ ؛ حَتَّى تَنَافَرَا إِلَى النِّجَاشِيِّ فَلَمْ يَدْخُلْ بَيْنَهُمَا ، فَجَعَلَا بَيْنَهُمَا نَفِيلًا
ابْنُ عَبْدِ الْعَزْمِيِّ جَدُّ عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ فَتَنَفَّرَ عَبْدُ الْمَطْلُبِ عَلَيْهِ ؛ فَفَرَّكَ عَبْدُ الْمَطْلُبِ مَنَادِمَةَ حَرْبٍ ، وَفَادَمَ عَبْدُ اللَّهِ
ابْنَ جُدْعَانَ التَّيْمِيَّ ، وَأَخَذَ مِنْ حَرْبٍ مِائَةَ نَاقَةٍ ؛ فَدَفَعَهَا إِلَى ابْنِ عَمِّ الْيَهُودِيِّ ، وَارْتَجَعَ مَالَهُ إِلَّا شَيْئًا هَلَكَ ،
فَقَرَمَهُ مِنْ مَالِهِ .

« يا أبا عمرو: أتنافر رجلا هو أطول منك قامّة ، وأعظم منك هامة ، وأوسم منك وسامة^(١) ، وأقل منك ملامة ، وأكثر منك ولدا ، وأجزل صفدا^(٢) ، وأطول منك مذودا^(٣) ، وإني لأقول هذا وإنك لبعيد الغضب ، رفيع الصوت في العرب ، جلد المريرة^(٤) ، جليل العشيرة ، ولكنك نافرت منقرا . »

فغضب حرب وقال : إن من انتكاس^(٥) الزمان أن جعلت حكما .

(تاريخ الكامل لابن الأثير ٢ : ٦ ، وتاريخ الطبري ٢ : ١٨١)

٦٥ - ما أمر به عبد المطلب بن هاشم في منامه من حفر زمزم

وَلِيَّ عبد المطلب بن هاشم السقاية والرّفاة بعد عمه المطلب ، وشرف في قومه ، وعظم شأنه ، ثم إنه حفر زمزم ، وهي بئر إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، التي أسقاه الله منها ، وكانت جرّمهم قد دفنتها^(٦) ، وكان سبب حفره إياها أنه قال :

« بينا أنا نائم بالحجر إذ أتاني آت فقال : احفر طيبة ، قلت : وما طيبة ؟ فذهب وتركني ، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي ، فنمت فيه ، فجاءني فقال : احفر برة ، قلت : وما برة ؟ فذهب وتركني ، فلما كان من الغد رجعت إلى مضجعي ،

(١) الوسامة : الحسن والجمال . (٢) الصفد : العطاء . (٣) المذود : السان .

(٤) المريرة : الحبل الشديد الفتل ، والعزيمة . (٥) أي انقلاب الزمان من انتكس أي وقع

على رأسه ، وفق للطبري : انتكاث بالثاء من انتكاث الحبل وهو انتقاضه .

(٦) وذلك أن جرهم لما استخفت بأمر البيت الحرام ؛ وارتكبوا الأمور العظام ، قام فيهم رئيسهم مضاض بن عمرو خطيبا ووعظهم فلم يراعوا ، فلما رأى ذلك منهم عمد إلى غزالين من ذهب كانا في الكعبة وما وجد فيها من الأموال أي السيوف والدرع التي كانت تهدي إليها ، ودفنها في بئر زمزم ، وكانت قد نصب ماؤها فحفرها مضاض بالليل وأعمق الحفر ودفن فيها ذلك وطم البئر ، وما زالت مطمومة إلى زمن عبد المطلب .

فتمت فيه ، فجاءني فقال : احفر المذنونة ، قلت : وما المذنونة ؟ ^(١) فذهب عني ، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فتمت فيه ، فجاءني فقال : احفر زمزم ، إنك إن حفرتها لا تندم ، فقلت : وما زمزم ؟ قال : « ترأت من أهلك الأعظم ، لا تُنزف أبداً ولا تُدم ^(٢) ، تسقى الحجاج الأعظم ، مثل نعام جافل لم يقسم ^(٣) ، ينذر فيها ناذر لمنعم ، تكون ميراثاً وعقداً مُحكم ، ليس كبعض ما قد تعلم ، وهي بين القرث والدم ^(٤) ، عند نُقرة الغراب الأعصم ^(٥) ، عند قرية النمل » .

فلما بين له شأنها ، ودله على موضعها ، وعرف أنه قد صدق . غدا بمعوله ومعه ابنه الحارث ليس له ولد غيره ، فحفر بين أساف ونائلة ، في الموضع الذي تنحرف فيه قريش لأصنامها ، وقد رأى الغراب ينقر هناك ، فلما بدا له الطوى ^(٦) كبر ، فعرفت قريش أنه قد أدرك حاجته .

(تاريخ الكامل لابن الأثير ٢ : ٥ ، والسيرة الحلبية ١ : ٣١ ، وسيرة ابن هشام ١ : ٩٥)

(١) طيبة ، وبرة ، والمذنونة : أسماء لزمزم . (٢) نزلت البئر : نزلت كنزفت بالضم ، وبئر ذمة بالفتح وذميم وذميمة : قليلة الماء لأنها تدم . (٣) جفل النعام : أسرع وذهب في الأرض ، ولم يقسم : لم يفرق . (٤) أى في محلها ، والقرث : السرجين في الكرش ، وذلك بين إساف ونائلة ، (وإساف ككتاب وسحاب : صنم وضعه عمرو بن لحي على الصفا ، ونائلة على المروة تجاه الكعبة) ، وكانت قريش تذبح عندهما ذبائحها التي تقترب بها . (٥) الأعصم : قيل أحمر المنتقار والرجلين ، وقيل أبيض البطن ، وقيل أبيض الجناحين ، وقيل أبيض إحدى الرجلين . (٦) الطوى : البئر .

خطب الكواهن

٦٦ - الشعناء الكاهنة تصف سبعة إخوة

كانت عثمة بنت مطرود البَجَلِيَّة ذات عقل ورأى مُسْتَمَع في قومها ، وكانت لها أخت يقال لها خَوْد ، وكانت ذات جمال وَمِيسَم^(١) وعقل ، فخطب سبعة إخوة غِلْمَة من بطن الأزْد خودا إلى أبيها ، فَأَتَوْه وعليهم الحُللُ اليمانية ، وتحتمهم النجائب الفُرّه^(٢) ، فقالوا : نحن بنو مالك بن غَفِيْلَةَ ذِي النَّحِيَيْنِ ، فقال لهم : انزلوا على الماء ، فنزلوا ليلتهم ، ثم أصبحوا غَادِينِ فِي الحُللِ والهَيْئَةِ ، ومعهم رَيْبِيَّةٌ^(٣) لهم يقال لها الشَّعْنَاءُ : كاهنةٌ ، فَمَرَّوْا بِوَصِيْدِهَا^(٤) يتعرضون لها ، وكلهم وَسِيمٌ جميل ، وخرج أبوها ، فجلسوا إليه ، فرحَّبَ بهم ، فقالوا : بلغنا أن لك بنتًا ، ونحن كما ترى شبَّاب ، وكلنا يَمْنَعُ الجانب ، ويَمْنَحُ الراغب ، فقال أبوها : كلِّم خِيَارَ ، فأقيموا نرى رأينا ، ثم دخل على ابنته ، فقال : ما تَرَيْنِ ، فقد أَتَاكِ هؤُلاءِ القوم ؟ فقالت : « أَنْكِحْنِي على قدرى ، ولا تَشْطُطْ فِي مَهْرِي ، فَإِنْ تُحْطِئْنِي أَخْلَامَهُمْ ، لا تُحْطِئْنِي أَجْسَامَهُمْ ، لعلِّي أُصِيبُ وَلَدًا ، وَأَكْثُرُ عَدَدًا » فخرج أبوها ، فقال : أخبروني عن أفضلكم .

قالت ربيبتهم الشعناء الكاهنة : « أَسْمَعُ أَخْبِرْكَ عَنْهُمْ : هم إخوة ، وكلهم أَسْوَةٌ^(٥) .

(١) المييم والوسامة : أثر الحسن . (٢) النجائب جمع نجيب : وهو البعير والفرس إذا كانا كريمين عتيقين ، والفره : (كقفل ور كع وكتب) جمع فاره ، وهو من الدواب الجيد السير النشط الخفيف . (٣) الربيبة : الخاضنة . (٤) الوصيد : الفناء (بالكسر) والعتبة . (٥) الأسوة : القدوة .

أما الكبير فالِكُ ، جَرِيءُ فَاتِكُ ، يُتَمَبُّ السَّنَابِكُ^(١) ، ويستصغر المهالك . وأما الذي يليه فالغمرُ ، بحرٌ غمرٌ^(٢) ، يَقْصُرُ دونه الفخرُ ، نَهْدٌ^(٣) صَقْرٌ . وأما الذي يليه فعَلْقَمَةٌ ، صَلِيبُ المَعْجَمَةِ^(٤) ، مَنِيْعُ المَشْتَمَةِ^(٥) ، قليلُ الجَمْعَةِ^(٦) . وأما الذي يليه فعاصِمٌ ، سَيِّدُ نَاعِمٍ^(٧) ، جَلْدٌ صَارِمٌ ، أَبِي حازِمٍ ، جيشُهُ غانِمٌ ، وَجَارُهُ سالمٌ . وأما الذي يليه فنَوَابٌ ، سَرِيْعُ الجَوَابِ ، عَتِيدُ الصَوَابِ^(٨) ، كَرِيمُ النِّصَابِ^(٩) ، كَلَيْثُ الغَابِ . وأما الذي يليه فُدْرِكٌ ، بَدُولٌ لِمَا يَمْلِكُ ، عَزُوبٌ^(١٠) عما يتركُ ، يُفْنِي وَيُهْلِكُ . وأما الذي يليه فَجَنْدَلٌ ، لِقْرِينِهِ مُجَدَّلٌ^(١١) ، مُقِلٌّ^(١٢) لما يُحْمَلُ ، يُعْطَى وَيَبْدُلُ ، وعن عدوه لَا يَنْكُلُ^(١٣) .

فشاورت أختها فيهم ، فقالت أختها عنمة : « تَرَى الفَتَيَانَ كَالنَّخْلِ ، وما يُدْرِكُ ما الدَّخْلُ ؟ »^(١٤) اسمى منى كلمة ، إن شَرَّ الغريبة يُعْلَنُ ، وخيرها يُدْفَنُ ، انكحى فى قومك ولا تَفْرُزْكَ الأجسام ، فلم تقبل منها ، وبعثت إلى أبيها : انكحنى مدركا ، فأنكحها أبوها على مائة ناقة ورُعايها ، وحملها مدرك ، فلم تلبث عنده إلا قليلا ، حتى صَبَّحهم فوارسٌ من بنى مالك بن كِنانة ، فاقتلوا ساعة ، ثم إن زوجها وإخوته وبنى عامر انكشفوا ، فَسَبَّوْها فيمن سَبَّوا ، فبينما هى تسير بكت ، فقالوا : ما يُبْكِيكُ ، أَعْلَى فراق زوجك ؟ قالت : قَبَّحَهُ اللهُ ، قالوا : لقد كان جميلا ! قالت : قَبَّحَ اللهُ جمالا

(١) السنابك جمع سنبك كقنفذ . وهو طرف الحافر ، أى أنه يجهد الخيل فى حومة الوغى .

(٢) الغمر : معظم البحر ، والسكرم : الواسع الخلق .

(٣) النهْد : الأسد ، والسكرم . (٤) من عجم العود إذا عضه ليعرف صلابته من خوره .

(٥) المشتمة : مصدر شتم ، والمعنى : أنه فى حرز من أن يشتم ويسب عرضه ، لحسن فعله وكرم خلقه

(٦) الجمجمة : إخفاء الشيء فى الصدر .

(٧) نعم كسمع ونصر وضرب فهو ناعم : أى ذو تنعم وترفه . (٨) العتيد : الحاضر المهيأ .

(٩) الصاب : الأصل . (١٠) بعيد . (١١) جدله : صرعه على الجدالة (كسحابة)

وهى الأرض . (١٢) حامل . (١٣) نكل عنه كضرب ونصر وعلم : نكص وجبن .

(١٤) الدخلى : ما يبطن فى الشيء ، وهو مثل يضرب للرجل له منظر ولا يخبر له .

لا نَفَعَ مَعَهُ ، إِنَّمَا أَبْكَى عَلَى عَصِيَانِي أُخْتِي ، وَقَوْلُهَا : « تَرَى الْفَتِيَانَ كَالنَّخْلِ ، وَمَا يَدْرِيكَ مَا الدَّخْلُ » وَأَخْبَرْتَهُمْ كَيْفَ خَطَبُوهَا ، فَقَالَ لَهَا رَجُلٌ مِنْهُمْ يُكْنَى أَبُو نَوَاسٍ شَابٌ أَسْوَدٌ أَفْوَهُ ^(١) مَضْطَرِبٌ الْخَلْقُ : أَرْضَيْنِ بِي ، عَلَى أَنْ أَمْنَعَكَ مِنْ ذُنَابِ الْعَرَبِ ؟ فَقَالَتْ لِأَصْحَابِهِ : أَكْذَلِكَ هُوَ ؟ قَالُوا : نَعَمْ ، إِنَّهُ مَعَ مَا تَرَيْنِ كَيْمَنَعَ الْحَلِيلَةَ ^(٢) ، وَتَتَّقِيهِ الْقَبِيلَةَ ، قَالَتْ : هَذَا أَجَلُ جَمَالٍ ، وَأَأْكُلُ كَمَالَ ، قَدْ رَضِيتُ بِهِ ، فَزَوَّجُوهَا مِنْهُ .
(مجمع الأمثال للميداني ١ : ٩١)

٦٧ - طريفة الخير تتكهن بسيل العرم وخراب سد مأرب

قال عبد الملك بن عبد الله بن بَدْرُونَ في شرح قصيدة الوزير عبد المجيد بن عبدون، التي قالها في رثاء دولة بني الأفطس بالأندلس :

كَانَ أَوَّلَ مَنْ خَرَجَ مِنَ الْيَمَنِ فِي أَوَّلِ تَمْزِيقِهِمْ ، عَمْرُو بْنُ عَاصِمٍ مُزَيَّقِيَاءَ ^(٣) ، وَكَانَ سَبَبَ خُرُوجِهِ ، أَنَّهُ كَانَتْ لَهُ زَوْجَةٌ كَاهِنَةٌ ، يُقَالُ لَهَا « طَرِيفَةُ الْخَيْرِ » ، وَكَانَتْ رَأَتْ فِي مَنَامِهَا أَنَّ سَحَابَةَ غَشِيَتْ أَرْضَهُمْ فَأَرَعَدَتْ وَأَبْرَقَتْ ، ثُمَّ صَعَقَتْ ، فَأَحْرَقَتْ كُلَّ مَا وَقَعَتْ عَلَيْهِ ، فَفَزِعَتْ طَرِيفَةُ لِذَلِكَ فَزَعًا شَدِيدًا ، وَأَتَتْ الْمَلِكَ عَمْرًا ، وَهِيَ تَقُولُ : « مَا رَأَيْتُ الْيَوْمَ ، أَزَالَ عَنِّي النَّوْمَ ، رَأَيْتُ غَيْمًا رَعَدَ وَبَرَقَ ^(٤) طَوِيلًا ، ثُمَّ صَعَقَ ، فَمَا وَقَعَتْ عَلَيَّ شَيْءٌ إِلَّا أَحْرَقَ » ، فَلَمَّا رَأَى مَا دَاخَلَهَا مِنَ الْفَزَعِ سَكَنَهَا ، ثُمَّ إِذَا عَمْرًا دَخَلَ حَدِيقَةَ لَهُ ، وَمَعَهُ جَارِيَتَانِ مِنْ جَوَارِيهِ ، فَبَلَغَ ذَلِكَ طَرِيفَةَ ، فَخَرَجَتْ إِلَيْهِ وَخَرَجَ مَعَهَا وَصِيفٌ ^(٥) ، لَهَا اسْمُهُ سِنَانٌ ، فَلَمَّا بَرَزَتْ مِنْ بَيْتِهَا عَرَضَ لَهَا ثَلَاثُ مُنَاجِيْدٍ مُنْتَصِبَاتٍ عَلَى

(١) الأفوه : وصف من الفوه بالتحريك ، وهو سعة الفم . (٢) الزوجة .

(٣) لقب بذلك ، لأنه كان يلبس كل يوم حلتين ، ويمزقهما بالعشى ، يكره العود فيهما ، ويأنف

أن يلبسهما غيره . (٤) رعدت السماء وبرقت (كنصر) ، وأرعدت السماء وأبرقت ، وأنكر الأصمعي

الرباعي فيهما . (٥) الوصيف : الخادم والخادمة .

أرجلهم ، واضعات أيديهن على أعينهن - وهي دواب تشبه اليرابيع^(١) - فقعدت إلى الأرض واضعة يديها على عينيها ، وقالت لوصيفها : إذا ذهبت هذه المناجيد فأخبرني ، فلما ذهبت أعلمها ، فانطلقت مسرعة ، فلما عارضها خليج الحديقة التي فيها عمرو ، وثبتت من الماء سُلْحَفَاءَ . فوقعت في الطريق على ظهرها ، وجعلت تروم الانقلاب فلا تستطيع ، وتستعين بذنبها ، فتَحَثُوُ التراب على بطنها من جَنَبَاتِهِ ، وتَقْدِفُ بالبَوْلِ قَذْفًا ، فلما رأتها طريفة جلست إلى الأرض ، فلما عادت السلحفاة إلى الماء ، مضت إلى أن دخلت على عمرو وذلك حين انتصف النهار في ساعةٍ شديدة الحرِّ ، فإذا الشجر يتكفأ من غير ريح ، فلما رآها عمرو استجيا منها ، وأمر الجاريتين بالتنجى ، ثم قال لها يا طريفة : فكهنت وقالت : « والنور والظلماء ، والأرض والسماء ، إن الشجر لهالك ، وليعودنَّ الماء كما كان في الزمان السالك » . قال عمرو : ومن خبرك بهذا ؟ قالت : « أخبرتنى المناجيد ، بسنين شدايد ، يقطع فيها الولد الوالد » قال : ما تقولين ؟ قالت . « أقول قول الذئمان لهفًا ، لقد رأيت سُلْحَفَاءَ^(٢) ، تَجْرُفُ الترابَ جَرْفًا ، وتَقْدِفُ بالبَوْلِ قَذْفًا ، فدخلت الحديقة ، فإذا الشجر من غير ريح يتكفأ » قال عمرو : وما ترين ؟ قالت : « داهية دهياء ، من أمور جسيمة ، ومصائب عظيمة » قال : وما هو؟ وَبَلِّكِ ! قالت : « أجل ، إن فيه الويل ، وما لك فيه من قَيْلٍ^(٣) ، وإن الويل فيما يحيى به السيل » فألقى عمرو نفسه عن فراشه ، وقال : ما هذا يا طريفة ؟ قالت : « هو خُطْبُ جليل ، وحزن طويل ، وَخَلْفٌ قليل » قال : وما علامة ما تذكرين ؟ قالت « اذهب إلى السد ، فإذا رأيت جُرْدًا مُكْثِرُ بيديه في السدِّ الحفْرَ ، ويقبُّ برجليه من أجل الصخر ، فاعلم أن غمرَ القمَرِ^(٤)

(١) اليربوع : دويبة نحو الفأرة لكن ذنبه وأذناه أطول منها؛ ورجلاه أطول من يديه عكس الزرافة .

(٢) يقال : سلحفاة وسلحفاء وسلحفا ، ويقال أيضا سلحفا ساكنة اللام مفتوحة الحاء .

(٣) قال قتيلا : نام في القائلة ، وهي نصف النهار ، والمراد هنا الإقامة والمكث .

(٤) الغمر : المساء الكثير .

وَأَنْ قَدْ وَقَعَ الْأَمْرُ . قَالَ : وَمَا هَذَا الَّذِي تَذَكِّرِينَ ؟ قَالَتْ : « وَعَدُّ مِنْ اللَّهِ نَزَلَ ، وَبَاطِلٌ بَاطِلٌ ، وَنَكَالٌ بِنَا نَكَلٌ ، فَيَبْغِيكَ يَا عَمْرُؤُ فَلَيَكُنِ الشَّكْلُ ^(١) ، فَاَنْطَلِقْ عَمْرُؤُ فَإِذَا الْجُرْذُ يَقْلَبُ بِرَجْلَيْهِ صَخْرَةً مَا يَقْلِبُهَا خَمْسُونَ رَجُلًا ، (كَذَا) فَرَجَعَ إِلَى طَرِيفَةِ فَأَخْبَرَهَا الْخَبْرَ وَهُوَ يَقُولُ :

أَبْصَرْتُ أَمْرًا عَادَنِي مِنْهُ أَلَمٌ وَهَاجَ لِي مِنْ هَوْلِهِ بَرْحٌ السَّقَمِ ^(٢)
 مِنْ جُرْذٍ كَفَعَلٍ خَنْزِيرِ الْأَجَمِ أَوْ كَبَشٍ صِرْمٍ مِنْ أَفَارِيقِ الْغَمِ ^(٣)
 يَسْحَبُ صَخْرًا مِنْ جَلَامِيدِ الْعَرَمِ لَهُ مَخَالِبٌ وَأَنْيَابٌ قُضْمِ ^(٤)
 مَا فَاتَهُ سَحْلًا مِنَ الصَّخْرِ قَصَمِ ^(٥)

فَقَالَتْ طَرِيفَةُ : وَإِنْ مِنْ عِلَامَاتٍ مَا ذَكَرْتَ لَكَ أَنْ تَجْلِسَ فَتَأْمُرُ بِزَجَاجَةٍ فَتَوْضِعُ بَيْنَ يَدَيْكَ ، فَإِنَّ الرِّيحَ تَمَلُّوْهَا مِنْ تَرَابِ الْبَطْحَاءِ ^(٦) ، مِنْ سِهْلَةٍ ^(٧) الْوَادِي وَرَمَلِهِ ، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ الْجِنَانَ مُظَلَّلَةٌ لَا يَدْخُلُهَا شَمْسٌ وَلَا رِيحٌ ، فَأَمْرُ عَمْرُؤُ بِزَجَاجَةٍ فَوْضَعَهَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَمْ يَمَكُثْ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى امْتَلَأَتْ مِنْ تَرَابِ الْبَطْحَاءِ ، فَأَخْبَرَ عَمْرُؤُ طَرِيفَةَ بِذَلِكَ وَقَالَ لَهَا : مَتَى يَكُونُ هُلَاكُ السَّدِّ ؟ قَالَتْ لَهُ : فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ سَبْعِ سِنِينَ . قَالَ : فَفِي أَيِّهَا يَكُونُ ؟ قَالَتْ : « لَا يَعْلَمُ بِذَلِكَ إِلَّا اللَّهُ ، وَلَوْ عَلِمَهُ أَحَدٌ لَعَلَّمْتُهُ ، وَلَا تَأْتِي عَلَيَّ لَيْلَةٌ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ سَبْعِ السِّنِينَ إِلَّا ظَنَنْتُ الْهَلَاكَ فِي غَدَا ، أَوْ فِي مَسَائِهَا ، ثُمَّ رَأَى عَمْرُؤُ فِي نَوْمِهِ سَيْلَ الْعَرَمِ ، وَقِيلَ لَهُ : آيَةٌ ذَلِكَ أَنْ تَرَى الْحَصْبَاءَ فِي سَعَفِ النَّخْلِ ، فَنَظَرَ إِلَيْهَا ، فَوَجَدَ الْحَصْبَاءَ فِيهَا قَدْ

(١) الشَّكْلُ كَسَبَبٍ وَقَتْلٍ : الْمَوْتُ وَالْهَلَاكُ .

(٢) الْبَرْحُ : الشَّدَّةُ . (٣) الْأَجَمُ جَمْعُ أَجْمَةٍ : وَهِيَ الشَّجَرُ الْكَثِيرُ الْمَلْتَفُ ، وَالصَّرْمُ : الْجَمَاعَةُ وَالْفَرَقَةُ تَجْمَعُ عَلَى فَرْقٍ ، وَجَمْعُ الْجَمْعِ أَفْرَاقٌ ، وَجَمْعُ جَمْعِ الْجَمْعِ أَفَارِيقٌ ، وَالْجَلَامِيدُ جَمْعُ جَلْمُودٍ كَعَصْفُورٍ : الصَّخْرَةُ . (٤) الْعَرَمُ : السَّدُّ يَمْرُضُ بِهِ الْوَادِي (وَمِنْ مَعَانِيهِ أَيْضًا الْمَطَرُ الشَّدِيدُ ، وَالْجُرْذُ ، وَوَادٍ جَاءَ السَّيْلُ مِنْ قَبْلِهِ) . (٥) سَحْلُهُ كَمَنْعِهِ : قَشْرُهُ وَنَحْتُهُ ، وَتَقْصَمُهُ : كَسَرُهُ .

(٦) الْبَطْحَاءُ وَالْأَبْطَحُ : مَسِيلٌ وَاسِعٌ فِيهِ دَفَاقُ الْحَصَى . (٧) السَّهْلَةُ بِالْكَسْرِ : تَرَابٌ كَالرَّمْلِ يَجِيءُ بِهِ الْمَسَاءُ ، وَأَرْضٌ سَهْلَةٌ كَفَرْحَةٍ : كَثِيرَتَاهَا .

ظهرت ، فلم أن ذلك واقع ، وأن بلادهم مستخرَّب ، فكتم ذلك وأخفاء ، وأجمع على بيع كل شيء له بأرض مأرب^(١) وأن يخرج منها هو وولده^(٢) ، فخرج ثم أرسل الله تعالى على السد^(٣) السيل فهدمه . (شرح قصيدة ابن عبدون لابن بدرون ص ٩٨)

* * *

(١) مأرب : مدينة باليمن ، وكانت في الزمان الأول قاعدة التبابعة ، وهي مدينة بلقيس ، بينها وبين صنعاء نحو أربع مراحل ، وتسمى سبأ باسم بانها سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان .
(٢) وقد خشي أن يستنكر الناس عليه ذلك ، فأمر أحد أولاده إذا دعاه لما يدعوه إليه أن يتأني عليه ، وأن يفعل ذلك به في الملاء من الناس ، وإذا لطمه ، يرفع هو يده ويلطمه ، ثم صنع طعاما وبعث إلى أهل مأرب أن عمرا صنع يوم مجد وذكر ، فاحضروا طعامه . فلما جلس الناس للطعام جلس عنده ابنه الذي أمره بما أمر ؛ فجعل يأمره بأمر فيتأني عليه وينهاه فلا ينتهي ، فرفع عمرو يده فلطمه على وجهه فلطمه ابنه ؛ وكان اسمه ملكا ، فصاح عمرو واذلاه يوم فخر عمرو بهيجه صبي ويضرب وجهه ، وحلف ليقتلنه ، فلم يزالوا بعمرو يرغبون إليه حتى تركه ، فقال : والله لا أقيم بموضع صنع بي فيه هذا : ولأبيعن أموال حتى لا يرث منها بعدى شيئا ، فقال الناس بعضهم لبعض : اغتبنوا غضب عمرو واشتروا منه أمواله قبل أن يرضى فابتاع الناس منه كل أمواله التي بأرض مأرب ، وفشا بعض حديثه فيما بلغه من شأن سيل العرم ، فقام ناس من الأزد فباعوا أموالهم ، فلما أكثروا البيع استنكر للناس ذلك فأمسكوا أيديهم عن الشراء ، ولما اجتمعت إلى عمرو أمواله أخبر الناس بشأن سيل العرم ، ولما خرج عمرو من اليمن خرج لخروجه منها بشر كثير ، فنزلوا أرض عك فحاربهم عك . فارتحلوا عنها ، ثم اصطلحوا وبقوا بها حتى مات عمرو بن عامر ، وتفرقوا على البلاد ، فذهب من صار إلى الشام ، وهم أولاد جفنة بن عمرو بن عامر ، ومنهم من صار إلى يثرب ، وهم ابنا قبيلة الأوس والحزرج ، وأبوها حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر ، وصارت أزد الشراة إلى أرض الشراة ؛ وأزد عمان إلى عمان ، وصار ملك ابن فهم إلى العراق ، ثم خرجت بعد عمرو ببسير من أرض اليمن طيسى فنزلت جبل طيسى أجأ وسلمى ، ونزلت ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر تهامة ، وسوا خزاعة لانحزاعهم من إخوانهم وتمزقوا في البلاد كل بزق .

(٣) كان السد فيما يذكر قد بناه لقمان الأكبر بن عاد ، وكان رصفه لحجارة السد بالرصاص والحديد ويقال إن الذي بناه كان من ملوك حير ، وذلك أن الماء كان يأتي أرض سبأ من الشحر وأودية اليمن ، فردموا ردما بين جبلين وحبسوا الماء ، وجعلوا في ذلك الردم ثلاثة أبواب بعضها فوق بعض ، فكانوا يسقون من الباب الأعلى ثم من الثاني ثم من الثالث ، فأخصبوا وكثرت أموالهم ، فلما كذبوا رسولهم أرسل الله عليهم سيل العرم

وقال أبو الفرج الأصبهاني في الأغاني :

وسارت القبائل من أهل مأرب حين خافوا سيل العرم ، وعليهم مزْيَقِيَاء ، ومعهم

طريفة الكاهنة ، فقالت لهم :

« لَا تَوْتُمُوا مَكَّةَ حَتَّى أَقُولَ ، وَمَا عَلَّمَنِي مَا أَقُولُ إِلَّا الْحَكِيمُ الْمُحَكَّمُ ، رَبُّ

جَمِيعِ الْأُمَمِ ، مِنْ عَرَبٍ وَعَجَمٍ » قالوا لها : ما شأنك يا طريفة ؟ قالت : خذوا البعير

الشَّدَقَمَ ^(١) ، فحَضَبُوهُ بِالْدَمِ ، تَكُنْ لَكُمْ أَرْضُ جُرْمٍ ^(٢) ، جيران بيته المحرَّم .

(الأغاني ١٣ : ١٠٥)

* * *

وروى الميداني في مجمع الأمثال قال :

« أَلَقْتُ طَرِيفَةَ الْكَاهِنَةِ إِلَى عَمْرِو بْنِ عَامِرٍ الَّذِي يُقَالُ لَهُ مَزْيَقِيَاءُ بْنُ مَاءِ السَّمَاءِ ،

وَكَانَتْ قَدِ رَأَتْ فِي كَهَانَتِهَا ^(٣) أَنَّ سَدَّ مَأْرِبٍ سَيَخْرُبُ ، وَأَنَّهُ سَيَأْتِي سَيْلُ الْعَرَمِ ، فَيُخْرَبُ

الْجَنَّتَيْنِ ^(٤) ، فَبَاعَ عَمْرِو بْنُ عَامِرٍ أَمْوَالَهُ ، وَسَارَ هُوَ وَقَوْمُهُ حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى مَكَّةَ ، فَأَقَامُوا بِمَكَّةَ

وَمَا حَوْلَهَا ، فَأَصَابَتْهُمْ الْحُمَّى ، وَكَانُوا يَبْلُدُونَ فِيهَا مَا لَمْ يَكُنْ ، فَدَعَوْا طَرِيفَةَ فَشَكَرُوا

إِلَيْهَا الَّذِي أَصَابَهُمْ ، فَقَالَتْ لَهُمْ : قَدْ أَصَابَنِي الَّذِي تَشْكُونَ ، وَهُوَ مُفَرَّقٌ بَيْنَنَا . قَالُوا :

فَمَا تَأْمُرِينَ ؟ قَالَتْ :

(١) الواسع الشدق . (٢) وكانوا يسكنون مكة ، فأرسل إليهم عمرو أن افسحوا لنا في بلادكم

حتى نقيم قدر ما نستريح ونرسل روادا إلى الشام وإلى الشرق ، فحيثما بلغنا أنه أمثل لحقنا به ، فأبت ذلك جرحهم إباء شديدا ، وقالوا : لا والله ما نحب أن ينزلوا فيضيقوا علينا مراتبنا ومواردنا ، وكانت الحرب بين الفريقين ، وانتهزت جرحهم فلم يفلت منهم إلا الشريد .

(٣) كهن كهانة بالفتح فهو كاهن ، وحرفته الكهانة بالكسر .

(٤) قال تعالى : « لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ ،

كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ، بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ » .

« من كان منكم ذا هَمٍّ بعيد ، وَجَمَلٍ شديد ، وَمَزَادٍ ^(١) جديد ، فَلْيَلْحَقْ بقصر عمان المشيد ^(٢) ، فكانت أزدُ عُمان ، ثم قالت : من كان منكم ذا جَلَدٍ وَقَسْرٍ ^(٣) ، وَصَبْرٍ على أزمات الدهر ، فعليه بالأراك ^(٤) من بطن مُرٍ ^(٥) ، فكانت خُزاعة ، ثم قالت : من كان منكم يريد الراسيات في الوَحْل ، المُطعمات في المَحْل ^(٦) ، فليلحق بيثرب ذات النخل ، فكانت الأوسُ والحَزْرَج ، ثم قالت : من كان منكم يريد الخمرَ الخَمير ، والمُلْكُ والتأمير ، وَيَلْبَسُ الدِّياج والحريير ، فليلحق ببُصْرَى وَغَوِير ، (وهما من أرض الشام) ، فكان الذين سكنوها من آل جَفْنَةَ من غَسَّان ، ثم قالت : من كان منكم يد النياب الرِّقاق ، والحليل العِتاق ، وكنوزَ الأرزاق ، والدمَّ المَهراق ، فليلحق بأرض العراق ، فكان الذين سكنوها آل جَذِيمة الأبرش ، ومن كان بالحيرة وآل مُحَرَّقٍ ^(٧) .
(مجمع الأمثال : ١ : ١٨٦)

٦٨ - حديث زبراء الكاهنة مع بني رثام من قضاة

كان ثلاثة أبطنٍ من قضاة مَجْتُورِينَ ^(٨) بين الشَّحْرِ وَحَضْرَمَوْتَ : بنو ناعبٍ ، وبنو دَاهِنٍ ، وبنو رِثَامٍ وكانت بنو رثام أقلهم عددًا ، وأشجعهم لقاءً وكانت لبني رثام عجوز تسمى خُوَيْلَةَ ، وكانت لها أمةٌ من مَوْلِدَات العرب تسمى زبراءً ، وكان يدخلُ على خُوَيْلَةَ أربعون رجلاً ، كُلُّهُم لها مَحْرَمٌ ، بنو إخوة وبنو أخوات ، وكانت خُوَيْلَةَ عَقِيماً ، وكان بنو ناعب ، وبنو داهن متظاهرين على بني رثام ، فاجتمع بنو رثام ذات يوم في عُرْسٍ لهم ، وهم سبعون رجلاً ، كلهم شجاع بَيْسٍ ^(٩) ، فَطَعَمُوا وأقبلوا على شرايهم ، وكانت

(١) المِزَاد والمزايِد جمع مِزَادَة : وهى الراوية . (٢) المشيد : المرفوع ، قال مسلم بن الوليد في رثاء يزيد بن يزيد : أما هدت لمصرعه نزار ؟ بلى ، وتقوض المجد المشيد .

(٣) قسره على الأمر : قهره . (٤) الأراك : القطة من الأرض ، وموضع بعرفات ، وجبل بهذيل . (٥) مر بن أد بن طابحة . (٦) المحل : الشدة والجذب . (٧) هو عمرو بن هند ، لأنه حرق مائة من بني تميم . (٨) متجاورين . (٩) البئيس : الشجاع ، من يؤس ككرم بأسا .

زبراء كاهنة، فقالت لخويبة : انطلقى بنا إلى قومك أنذرهم ، فأقبلت خويبة تتوكأ على زبراء ، فلما أبصرها القوم ، قاموا إجلالاً لها . فقالت : « يَا ثَمَرَ الْأَكْبَادِ ، وَأَنْدَادَ^(١) الأولاد ، وشَجَابَ^(٢) الحُسَادِ ، هذه زبراء ، تخبركم عن أنبياء ، قبل انْحِسَارِ الظُّلَمَاءِ ، بالمؤيدِ^(٣) الشَّنْعَاءِ ، فاسمعوا ما تقول . قالوا : وما تقولين يا زبراء ؟ قالت : « واللُّوحِ^(٤) الخافِقِ ، والليلِ الفَاسِقِ^(٥) ، والصَّبَاحِ الشَّارِقِ ، والنَّجْمِ الطَّارِقِ^(٦) ، والمُزْنِ الوادِقِ^(٧) ، إن شجر الوادى لَيَأْدُو خَتْلًا^(٨) ، ويَحْرُقُ أنيابًا عُصَلًا^(٩) ، وإن صَخِرَ الطُّودُ لَيُنْذِرُ نُكْلًا^(١٠) ، لا تجدون عنه مَعْلًا^(١١) » .

فوافقت قومًا أُشَارَى^(١٢) سُكَارَى ، فقالوا : « رِيحٌ خَجُوجٌ^(١٣) ، بَعِيدَةٌ ما بين الفُرُوجِ ، أتت زبراء بِالْأَبْلَقِ النَّتُوجِ^(١٤) » .

فقالت زبراء : « مَهَلًا يَا بَنِي الْأَعِزَّةِ ، والله إني لَأَشْمُ ذَفَرَ^(١٥) الرجال تحت الحديد »

(١) أنداد : جمع ند بالكسر ، وهو المثل والنظير . (٢) الشجا : ما اعترض في الحلق من عظم ونحوه . (٣) المؤيد : الداهية والأمر العظيم . (٤) اللوح بالضم والفتح (والضم أعلى) : الهواء بين السماء والأرض . (٥) غسق الليل كجلس : اشتدت ظلمته . (٦) الطارق : في الأصل ، كل من أتى ليلا ، ثم استعمل في النجوم لطلوعها ليلا . (٧) المزن : السحاب أو أبيضه أو ذو الماء ، والوادق من ودق المطر كوعد : قطر . (٨) أدوث له آدو أدوا إذا ختلك وخذعته (ودأيت له ، ودألت له أيضا) والختل : الخدع . (٩) حرق أنيابه : إذا حك بعضها ببعض ، والعرب تقول عند الغضب يفضبه الرجل على صاحبه : « هو يحرق على الأرم » والأرم كسكر : الأضراس ، والعصل : المعوجة جمع أعصل . (١٠) الطود : الجبل ، والشكل ؛ الفقد . (١١) المعل : المنجى . (١٢) الأشر محرقة : المرح . (١٣) الخجوج : السريعة المر .

(١٤) الأبلق : وصف من البلق محرقة ، وهو ارتفاع البياض في قوائم الفرس إلى الفخذين ، والأبلق لا يكون نتوجا ، والعرب تضرب هذا مثلا للشيء الذي لا ينال ، تقول « طلب الأبلق العقوق ، فلما فاته أراد بيض الأنوق » والعقوق كصبور : الحامل ، والأنوق كصبور أيضا : الذكر من الرخم ولا يبيض له ، هذا قول بعض اللغويين . فالمعنى أنه طلب مالا يمكن ، فلما لم يجد طلب أيضا مالا يكون ولا يوجد ، وعامتهم يقولون : الأنوق الرخفة وهي تبيض في مكان لا يوصل فيه إلى بيضها إلا بعد عناء . فالمعنى أنه طلب مالا يقدر عليه ، فلما لم ينله طلب ما يجوز أن يناله . (١٥) الذفر : حدة الريح ، يكون في التتن والطيب (والنفر لا يكون إلا في التتن) .

فقال لها فتى منهم يقال له هُذَيْل بن مُنْقِدٍ : « يَا خَدَاقِ ^(١) ، والله ما تَسْمِينِ
إِلَّا ذَفَرَ إِبْطِيكَ » فانصرفت عنهم وارتاب قوم من ذوى أسنانهم ، فانصرف منهم أربعون
رجلاً ، وبقي ثلاثون ، فَرَقَدُوا فِي مَشْرَبِهِمْ ، وَطَرَقْتَهُمْ بَنُو دَاهِنٍ وَبَنُو نَاعِبٍ ، فَفَقَتَلُوهُمْ
أَجْمَعِينَ ، وَأَقْبَلَتْ خُوَيْلَةَ مَعَ الصَّبَاحِ ، فَوَقَفَتْ عَلَى مِصَارِعِهِمْ ، ثُمَّ عَمَدَتْ إِلَى خِناصِرِهِمْ ،
فَقَطَعَتْهَا وَانْتَضَمَتْ مِنْهَا قِلَادَةً ، وَأَلْقَتْهَا فِي عُنُقِهَا ، وَخَرَجَتْ حَتَّى لَحِقَتْ بِمَرْضَاوِي بْنِ سَعْوَةَ
الْمَهْرِيِّ ، وَهُوَ ابْنُ أُخْتِهَا فَأَنَاخَتْ بِفَنَائِهِ ، فَاسْتَعْمَدَتْهُ عَلَى بَنِي دَاهِنٍ وَبَنِي نَاعِبٍ ، فَخَرَجَ
فِي مَذْئِيرٍ ^(٢) مِنْ قَوْمِهِ ، فَطَرَقَهُمْ فَأَوْجَعَ فِيهِمْ .
(الأمال : ١ : ١٢٦)

٦٩ - كاهنة ذى الخلصة تكهن بما فى بطن رقية بنت جشم

زعموا أن رُقِيَّةَ بِنْتَ جُشَمِ بْنِ مَعَاوِيَةَ وَلِدَتْ مُمَيَّرًا وَهَيْلًا وَسَوَادَةَ ، ثُمَّ اعْتَاطَتْ ^(٣)
فَأَتَتْ كَاهِنَةَ بَدْيِ الْخَلِصَةِ ^(٤) ، فَأَرَسَتْهَا بِطْنِهَا ، وَقَالَتْ : إِنِّي قَدْ وَلِدْتُ ثُمَّ أَعْتَاطْتُ ،
فَنظَرَتْ إِلَيْهَا وَمَسَّتْ بِطْنِهَا ، وَقَالَتْ :

« رَبُّ قَبَائِلَ فِرْقِي ، وَبِحَجَالِسَ حِقِّي ، وَظُنُّنُ ^(٥) حَزْقُ ^(٦) ، فِي بَطْنِكَ زُقٌّ ^(٧) . »

(١) خدّاق : كناية عما يخرج من الانسان ، يقال : خذق ومزق وزرق .

(٢) المنسر من الخيل : ما بين الثلاثين إلى الأربعين ، أو من الأربعين إلى الخمسين ، أو إلى الستين

أو المائة إلى المائتين ، وقطعة من الجيش تمر قدام الجيش الكبير .

(٣) اعتاطت المرأة : لم تحمل سنين من غير عقر . (٤) ذو الخلصة محرّكة وبضمّتين : بيت كان

يدعى للكعبة اليمانية الخضم ، كان فيه صنم اسمه الخلصة . (٥) الظنن والظمان جمع ظمينة : وهى الهودج

سواء كان فيه امرأة أم لا ، والمرأة مادامت فى الهودج ، ويقال ، الظمينة فى الأصل وصف للمرأة فى هودجها

ثم سميت بهذا الاسم وإن كانت فى بيتها ، لأنها تصير مظعونة (أى يظمن بها زوجها ، فهى فعيلة بمعنى

مفعولة). (٦) الحزق والحزقة (بكسر الحاء) والحازقة والحزيق والحزيقة والحزاقة (بالفتح) الجماعة ،

والجمع حزائق وحزيق وحزق (بضمّتين) . (٧) أى وضع واصل أنزق : رمى الطائر بذرقه ، والمعنى :

رب جنين تتشعب منه قبائل متفرقة ، ويتناسل منه ذكوران يتحلّقون فى المجالس والأندية وجهاعات من النسوة

قد أودع بطنك .

فلما نَحَضَّتْ^(١) بربيعة بن عامر^(٢) ، قالت : إني أعرف صَرَطِي بِهَلال ، « أي هو غلام ، كما أن هلالا كان غلاماً » . (مجمع الأشكال ١ : ٣٢١)

٧٠ - رأى سلمى الهمدانية في حريم المرادى

أغار رجل من « مُرَادٍ » يقال له « حَرِيمٌ » على إبل عمرو بن بَرّاقة الهمداني وخيل له ، فذهب بها ، فأتى عمرو سلمى الهمدانية ، وكانت بنت سيدهم ، وعن رأيها كانوا يصدّرون ، فأخبرها أن حريماً المرادى أغار على إبله وخيله ، فقالت : « وانخفوا وَالْوَمِيضُ^(٣) ، وَالشَّفَقِ كَالأَحْرِيضِ^(٤) ، وَالقَلَّةِ وَالْحَضِيضِ^(٥) ، إن حريماً لمَنيعُ الحيز^(٦) ، سَيِّدٌ مَزِيزٌ^(٧) ذُو مَعْقِلٍ حَرِيزٌ ، غَيْرَ أَنِي أَرى الحِمَّةَ^(٨) سَتَظْفَرُ مِنْهُ بِعَثْرَةٍ ، بِطَيْئَةِ الجُبْرَةِ ، فَأَغِرْ وَلَا تُنْكَعْ^(٩) » فأغار عمرو ، فاستاق كل شيء له ، فأتى حريم بعد ذلك يطلب إلى عمرو أن يرد عليه بعض ما أخذ منه ، فامتنع ورجع حريم .

(الأمال ٢ : ١٢٣)

(١) نَحَضَّتْ كسبح ومنتع وعنى : أخذها الطلق .

(٢) هو ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة

ابن قيس بن عيلان بن مضر ومن نسله بنو كلاب بن ربيعة بن عامر وبنو جعفر بن كلاب بن ربيعة .

(٣) الخفو : الاعمان الضعيف ، والوميض : أشد من الخفو . (٤) الاحريض : العصفر .

(٥) القلة : أعلى الرأس والجبل وكل شيء ، والحضيض : انقرار من الأرض عند منقطع الجبل .

(٦) الناحية . (٧) مزيز : فاضل ، من قوتهم هذا أمر من هذا أي أفضل منه .

(٨) الحمة : القدر (محرّكة) ، وقيل هي واحد الحمام (بالكسر) .

(٩) نكعه عن الأمر (كنع) رده ودفنه .

٧١ - تنافر العجفاء بنت علقمة وصواحباتها إلى الكاهنة السعدية

روى أن العجفاء بنت علقمة السعدية ، وثلاث نسوة من قومها ، خرجن فاتمذن بروضة يتحدثن فيها ، قوافين بها ليلاً في قمر زاهر ، وليلة طلقة ساكنة ، وروضة معشبة خضبة ، فلما جلسن قلن : ما رأينا كالليلة ليلة ، ولا كهذه الروضة روضة أطيب ريحاً ولا أنضر ، ثم أفضن في الحديث ، فقلن : أي النساء أفضل ؟ قالت إحداهن : الخرود^(١) أودود الودود . قالت الأخرى : خيرهن ذات الغناء^(٢) ، وطيب الثناء ، وشدة الحياء . قالت الثالثة : خيرهن السموع الجموع ، النفع غير المنوع . قالت الرابعة : خيرهن الجامعة لأهلها ، الودعة الرافعة ، لا الواضعة . قلن : فأى الرجال أفضل ؟ قالت إحداهن : خيرهم الحظ^(٣) الرضى ، غير الحظ^(٤) البطى . قالت الثانية : خيرهم السيد الكريم ، ذو الحسب العميم ، والمجد القديم . قالت الثالثة : خيرهم السخي ، الوفي الرضى ، الذى لا يُغير^(٥) الحرّة ، ولا يتخذ الضرّة . قالت الرابعة : وأبيكن ، إن فى أبى لنعتمكن ، كرم الأخلاق ، والصدق عند التلاق ، والفانج^(٦) عند السباق ، ويحمده أهل الرفاق . قالت العجفاء عند ذلك : كل فتاة بأبيها معجبة .

وفى بعض الروايات أن إحداهن قالت : إن أبى يُكرم الجار ، ويعظم الخطار^(٧) ، وينحر العشار^(٨) ، بعد الحوار^(٩) ، ويحمل الأمور الكبار ، ويأنف من الصغار ، فقالت

(١) الخرود والخريد والخريدة : الحية الطويلة السكوت الخافضة الصوت المتسترة .

(٢) الكفاية والمنفعة . (٣) الحظى : ذو الخطوة والمكانة عند روجه ، والحظية كذلك .

(٤) رجل حظال ككتف وشداد وصبور : مقتر يحاسب أهله بما ينفق عليهم ، وفى مجمع الأمثال

« غير الحظال ، ولا التبال » والتبال بالتشديد من التبل (بفتح فسكون) وهو الحقد .

(٥) أغار امرأته : تزوج عليها . (٦) الفوز والظفر .

(٧) الخطار جمع خطر كسبب وهو سبق يتراهن عليه . (٨) العشار جمع عشراء كنفساء وهى

من النوق التى مضى لحملها عشرة أشهر أو ثمانية . (٩) الحوار بالضم وقد يكسر : ولد الناقة ساعة تضعه

أو إلى أن يفصل عن أمه .

الثانية : إن أبي عظيم الخطر ، منيع الوزر^(١) ، عزيز النفر ، يُحمدُ منه الوِردُ والصِّدرُ ،
فقلت الثالثة : إن أبي صدوق اللسان ، حديد الجنان ، رذوم^(٢) الجفان ، كثير
الأعوان ، يُروى السنان ، عند الطعان ، قالت الرابعة : إن أبي كريم النزال ، مُنيف
المقال ، كثير النوال ، قليل السؤال ، كريم الفعال .

ثم تنافرن إلى كاهنة معهن في الحى ، فقلن لها : اسمى ما قلنا ، واحكى بيننا واعدلى ،
ثم أعدن عليها قولهن ، فقالت لهن : « كل واحدة منكن ماردة^(٣) ، بأبيها واجدة^(٤) ،
على الإحسان جاهدة ، لصواحبها حاسدة ، ولكن اسمعن قولى : خيرُ النساءِ المُبقيةِ
على بعلها ، الصابرة على الضراء مخافة أن ترجع إلى أهلها مُطلقة ، فهى تُؤثرُ حظَّ زوجها
على حظِّ نفسها ، فتلك الكريمة الكاملة ، وخير الرجال الجوادُ البطل ، القليل الفشل ،
إذا سأله الرجل ، ألفاه قليل العِلل ، كثير النفل^(٥) ، ثم قالت : كل واحدة منكن
بأبيها مُعجبة .

(مجمع الأمثال ٢ : ٥٤ وجمهرة الأمثال ٢ : ١٣٣)

٧٢ - عفيراء الكاهنة تعبر رؤيا مرثد بن عبد كلال

روى أن مرثد بن عبد كلال قفل من غزاة غزاها بغنائم عظيمة ، فوفد عليه زعماء
العرب وشعراؤها وخطباؤها يهنتونه ، فرفع الحجاب عن الوافدين ، وأوسعهم عطاء ،
واشدد سروره بهم ، فبينما هو كذلك إذ نام يوماً فرأى رؤيا فى المنام أخافته وأذعرتة
وهالته فى حال منامه ، فلما اتقى أنسبها حتى لم يذكر منها شيئاً ، وثبت ارتياحاً فى نفسه
بها ، فانقلب سروره حزناً ، واحتجب عن الوفود حتى أساءوا به الظن ، ثم إنه حشر
الكهَّان فجعل يخلو بكاهن كاهن ، ثم يقول له : أخبرنى عما أريد أن أسألك عنه ،

(١) الوزر : الملجأ . (٢) الرذوم : القصة الممتلئة تتصبب جوانبها .

(٣) أى قد بلغت الغاية . (٤) وجدبه (بالكسر) أحبه . (٥) النفل : الهبة .

فيجيبه الكاهن بأن لا علم عندي ، حتى لم يدع كاهناً علمه إلا كان إليه منه ذلك ، فتضاعف قلقه ، وطال أرقه ، وكانت أمه قد تكهنت ، فقالت له : أبيت اللعن أيها الملك ، إن الكواهن أهدى إلى ما تسأل عنه ، لأن أتباع الكواهن من الجان ، أطف وأظرف من أتباع الكهّان ، فأمر بجسر الكواهن إليه ، وسألهم كما سأل الكهّان ، فلم يجد عند واحدة منهن علماً مما أراد علمه ، ولما يئس من طلبته سأل عنها ، ثم إنه بعد ذلك ذهب يتصيد ، فأوغل في طلب الصيد ، وانفرد عن أصحابه ، فرُفعت له أبيات من ذرّاً^(١) جبل ، وكان قد لفتح الهجير ، فعدّل إلى الأبيات ، وقصد بيتاً منها كان منفرداً عنها ، فبرزت إليه منه عجوز ، فقالت له : أنزل بالرحب والسعة ، والأمن والدعة ، والجفنة المدعدة^(٢) ، والعلبة المترعة^(٣) ، فنزل عن جواده ، ودخل البيت ، فلما احتجب عن الشمس ، وخفت عليه الأرواح^(٤) ، نام فلم يستيقظ حتى تصرّم الهجير ، فجلس يمسح عينيه ، فإذا هو بين يديه فتاة لم ير مثلها قواماً ولا جمالا ، فقالت : « أبيت اللعن أيها الملك الهمام ! هل لك في الطعام ؟ » فاشتد إشفاقه وخاف على نفسه كما رأى أنها عرفته ، وتصام عن كلماتها ، فقالت له : « لا حذر ، فذاك البشر ، فجدك الأكبر ، وحظنا بك الأوفر » . ثم قربت إليه ثريداً وقديداً وحيساً^(٥) ، وقامت تذب عنه ، حتى انتهى أكله ، ثم سقته لبناً صريفاً وضريباً^(٦) ، فشرّب ما شاء ، وجعل يتأملها مقبلةً ومدبرةً ، فلأت عينيه حسناً ، وقلبه هوّى ، فقال لها : ما اسمك يا جارية ؟ قالت : اسمي عفيراء ، فقال لها : يا عفيراء ، من الذي دعوته بالملك الهمام ؟ قالت : « مرثد العظيم الشان ، حاشر الكواهن والكهّان ، لمعضلة بعد عنها الجان » ، فقال يا عفيراء :

(١) أي في كنفه وستره . (٢) الجفنة : القصة ، والمدعدة : التي ملئت بقوة ثم حركت حتى

تراص مافيا ، ثم ملئت بعد ذلك . (٣) العلية : قذح ضخم من جلود الإبل أو من خشب يحلب فيها ،

والمترعة : المملوءة . (٤) الأرواح ، والرياح جمع ريح . (٥) القديد : اللحم المقدد ، أو

ما قطع منه طولاً ، والحيس : تمر يخلط بسمن وأقط ، فيعجن شديداً ثم يندر منه نواه (والأقط شيء يتخذ من

المخيض الغنمي) . (٦) الصريف : اللبن ساعة حلب ، والضريب : اللبن يحلب من عدة لقاح في إناء .

أتعلمين تلك المعضلة؟ قالت: «أجل أيها الملك، إنها رؤيا منام، ليست بأضغاث»^(١)
 أحلام». قال الملك: أصبت يا عفراء، فما تلك الرؤيا؟ قالت: «رأيت أعاصير»^(٢) زوابع
 بعضها لبعض تابع، فيها هَبّ لامع، ولها دُخان ساطع، يقفوها نهر مُتدافع، وسمعت
 فيما أنت سامع، دُعاء ذى جرسٍ^(٣) صَادِعٍ: هَلُّوا إلى المِشَارِعِ^(٤)، فَرَوَى جَارِعٌ^(٥)،
 وَغَرِقَ كَارِعٌ^(٦)». فقال الملك: أجل، هذه رؤياي، فما تأويلها يا عفراء؟ قالت:
 «الأعاصير الزوابع، ملوكٌ تَبَّاعٌ^(٧)، والنهر علم واسع، والداعي نبيٌ شافع، والجارع
 وليٌّ تابع، والكارِعُ عدوٌّ منازِعٌ». فقال الملك: يا عفراء، أسلمَ هذا النبي أم حرب؟
 فقالت: «أقسيمُ برافع السماء، ومُنزِلُ الماء من العَمَاءِ^(٨)، إنه لِمُطِلُّ الدماءِ^(٩)، ومُنطِقُ
 العقائلِ نُطْقُ الإِمَاءِ^(١٠)». فقال الملك: إلام يدعو يا عفراء؟ قالت: «إلى صلاة
 وصيام، وَصِلَةِ أرحام، وكسر أصنام: وتعظيم أزلام^(١١)، واجتناب آثام» فقال الملك:

(١) أضغاث أحلام: رؤيا لا يصح تأويلها لاختلاطها. (٢) الأعاصير جمع إعصار وهو
 الريح التي تهب من الأرض كالعمود نحو السماء، أو التي فيها العصار بالكسر وهو الغبار الشديد.
 (٣) الجرس: الصوت. (٤) المِشَارِع جمع مشرعة وهي مورد الشاربة. (٥) جارع: فاعل
 من جرع الماء كسمع ومنع إذا بلعه. (٦) كارع فاعل من كرع في الماء كسمع ومنع تناوله بفيه من
 موضعه من غير أن يشرب بكفيه ولا باناء. (٧) التباع جمع تبع كسكر: ملوك اليمن.
 (٨) العماء: السحاب الكثيف. (٩) انظر قوله عليه الصلاة والسلام في خطبته في حجة الوداع
 «وإن دماء الجاهلية موضوعة». (١٠) العقائل: كرائم النساء جمع عقيلة، والنطق جمع نطق ككتاب
 والنطاق والمنطقة: ما تشد به المرأة وسطها للمهنة، ونطقها تنظيها: ألبسها النطاق فتنطقت وانتطقت
 ومنطق النساء أي يسبين فيشددن للنطق على أوساطهن للخدمة كالإماء. (١١) الأزلام جمع زلم كسبب
 قذاح كان العرب يستقسمون بها في الجاهلية (أي يطلبون معرفة ما قسم لهم) وذلك أنهم كانوا إذا قصدوا
 فعلا من تجارة أو سفر أجالوا ثلاثة قذاح (القذاح جمع قدح بالكسر وهو السهم قيل أن يراش) وكانت
 عند أصنامهم، أحدها مكتوب عليه: أمرني ربي، والثاني: نهاني ربي، والثالث: غفل، فإن خرج
 الأول مضوا في الأمر، أو الثاني أحجموا عنه، أو الثالث أجالوها ثانية حتى يخرج أحد الأولين.

يا عفراء ، إذا ذَبَحَ قَوْمَهُ فَمِنْ أَعْضَادِهِ^(١) ؟ قالت : أَعْضَادُهُ غَطَارِيفُ^(٢) يَمَانُونَ ،
طَائِرُهُمْ بِهِ مَيِّمُونَ ، يُغْزِيهِمْ قَيْغُزُونَ ، وَيُدَمِّمُ^(٣) بِهِمُ الْخُزُونَ ، وَإِلَى نَصْرِهِ يَعْتَزُونَ .
فَأَطْرَقَ الْمَلِكُ يُؤَامِرُ^(٤) نَفْسَهُ فِي خِطْبَتِهَا ، فَقَالَتْ : « أَيُّبَتُ اللَّعْنِ أَيُّهَا الْمَلِكُ ! إِنْ تَابَعِي
غَيُورَ ، وَلَأَمْرِي صَبُورَ ، وَنَا كِحِي مَثْبُورَ ، وَالْكَكَلْفُ بِي ثُبُورَ^(٥) » . فَهَضَّ الْمَلِكُ
وَجَالَ فِي صَهْوَةٍ^(٦) جَوَادِهِ ، وَانْطَلَقَ ، فَبَعَثَ إِلَيْهَا بِمِائَةِ نَاقَةٍ كَوْمَاءَ^(٧) .

(بلوغ الأرب ٣ : ٢٩٦)

(١) الأعضاد : الأنصار جمع عضد ، والذبح معروف ، والمراد هنا إذا قطعوه وتركوا نصرته .
(٢) الغطاريف جمع غطريف وهو السيد الشريف . (٣) يسهل ، والخزون جمع حزن كشمس
وهو ما غلظ من الأرض . (٤) يشاور . (٥) الثبور : الهلاك . (٦) الصهوة : مقعد الفارس
من ظهر فرسه . (٧) الكوماء : الناقة العظيمة السنم .

الوصايا

٧٣ - وصية أوس بن حارثة لابنه مالك

عاش الأوس بن حارثة دهرًا ، وليس له ولد إلا مالك ، وكان لأخيه الخزرج خمسة : عمرو ، وعوف ، وجشم ، والحارث ، وكعب . فلما حضره الموت ، قال له قومه : قد كنا نأمرك بالتزويج في شبابك ، فلم تزوج حتى حضر الموت ، فقال الأوس : « لم يهلك هالك ، ترك مثل مالك ، وإن كان الخزرج ذا عدد ، وليس لمالك ولد ، فلعل الذي استخرج العذق^(١) من الجريمة^(٢) ، والنار من الوثيمة^(٣) ، أن يحمل لمالك نسلا ، ورجالا بسلا^(٤) ، يا مالك ، المنية ولا الدنية ، والعتاب قبل العقاب ، والتجلد لا التبلد ، وأعلم أن القبر خير من الفقر ، وشر شارب المشتف^(٥) ، وأقبح طاعم المقتف^(٦) ، ودهاب البصر خير من كثير من النظر ، ومن كرم الكريم ، الدفاع عن الحریم ، ومن قلّ ذلّ ، ومن أمر^(٧) قلّ ، وخير الغنى القناعة ، وشر الفقر الضراعة ، والدهر يومان ، فيوم

(١) العذق : النخلة بجمعها والعذق (بكسر العين) القنو منها . (٢) النواة .

(٣) الوثيمة : الحجارة ، وثمه : كسره ودقه . ووثم الفرس الأرض : رنجها بجوافره . ومن أيمان العرب لا والذي أخرج العذق من الجريمة . والنار من الوثيمة ، وقولهم : لا والذي شقهن خسا من واحدة يعنون الأصابع ، وقولهم : لا والذي أخرج قاتبة من قوب يعنون فرخا من بيضة . لا والذي وجهي زمم بيته (بالتحريك) أى قصده وحذاه . (٤) شجعانا : جمع باسل .

(٥) المستقصى ، اشتف ما في الإناء شربه كله . واشتف إذا شرب الشفاقة (بالضم) ، وهى البقية

تبقى في الإناء . (٦) الآخذ بمجلة ، ومنه سمي القفاف وهو من يسرق الدراهم بين أصحابه .

(٧) أمر كفرح أمرا وأمرة : كثر وتم فهو أمر وأمرة الله وأمره كنصره كثره : (وإذا أردنا أن

هلك قرية أمرنا مترفيها) . أى كثرنا .

لك ويوم عليك، فإذا كان لك فلا تبطر، وإذا كان عليك فاصبر، فسكلاهما سَيْنَحَسِر^(١)،
فإنما تعز^(٢) من ترى ويعزك من لا ترى، ولو كان الموت يُشْتَرَى، لسلم منه أهل الدنيا،
ولسكن الناس فيه مستوون، الشريف الأبلج، واللَّيِّم المَعْلَهَج^(٣)، وَالْمَوْتُ الْمُنْفِيتُ،
خير من أن يقال لك هَبِيت^(٤)، وكيف بالسلامة، لمن ليست له إقامة، وشرٌّ من المصيبة
سوء الخلف، وكل مجموع إلى تلف، حَيَّاكَ إلهك.

(الأمالي ١ : ١٠٢ ، وشرح ابن أبي الحديد ٤ : ١٥٤)

٧٤ - وصية ذي الإصبع العدو أنى لابنه أسيد

لما أُحْتَضِر^(٥) ذو الإصبع دعا ابنه أسيداً ، فقال له : يا بني إن أباك قد فنى وهو
حى ، وعاش حتى سَمَّ العيش ، وإنى موصيك بما إن حفظته بَلَّغْتَ فى قومك ما بلغته ،
فاحفظ عنى . أَلِنْ جانبك لقومك يحبوك ، وتواضع لهم يرفعوك ، وَأَبْسُطْ لهم وجهك
يطيعوك ، وَلَا تَسْتَأْثِرْ عليهم بشيء يسوؤوك ، وَأَكْرِمْ صفارهم كما تكرم كبارهم ،
يُكْرِمُكَ كبارهم ، وَيَكْبُرْ على مودتك صفارهم . واسمح بمالك ، وَأَحْمِ حَرِيمَكَ ،
وَأَعِزْ جارك ، وَأَعِنْ مَنْ أَسْتَعَانَ بك ، وَأَكْرِمْ ضيفك ، وأسرع النهضة فى الصريخ^(٦) ،
فإن لك أجلاً لا يعدوك ، وَصُنْ وجهك عن مسألة أحد شيئاً ، فبذلك يتمُّ سُوْدُوك .

(الأغاني ٣ : ٦)

(١) يتكشف . (٢) تغلب . عزه يعزه كتنصره عزا ، وعزيعز كضرب عزا وعزة صار عزيزا .
(٣) المشناهى فى الدناءة والأؤم . (٤) الأحمق الضميف . (٥) حضره الموت .
(٦) أى فى وقت الصريخ وهو نداء المستغيث .

٧٥ - وصية عمرو بن كلثوم لابنيه

أوصى عمرو بن كلثوم التَّغَلَبِيَّ ، فقال : يَا بَنِيَّ إِنِّي قَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْعَمْرِ مَا لَمْ يَبْلُغْ أَحَدٌ مِنْ آبَائِي وَأَجْدَادِي ، وَلَا بَدَّ مِنْ أَمْرِ مُقْتَبِلٍ ، وَأَنْ يَنْزَلَ بِي مَا نَزَلَ بِالْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ ، وَالْأُمَّهَاتِ وَالْأَوْلَادِ ، فَاحْفَظُوا عَنِّي مَا أَوْصِيكُمْ بِهِ : إِنِّي وَاللَّهِ مَا عَيَّرْتُ رَجُلًا قَطُّ أَمْرًا إِلَّا عَيَّرَ بِي مِثْلَهُ ، إِنْ حَقَّ فَحَقًّا ، وَإِنْ بَاطَلَ فَبَاطِلًا ، وَمَنْ سَبَّ سُبًّا ، فَكُنُوا عَنِ الشَّتْمِ فَإِنَّهُ أَسْلَمَ لِأَعْرَاضِكُمْ ، وَصَلُوا أَرْحَامَكُمْ ، تَعَمَّرُوا دَارَكُمْ ، وَأَكْرَمُوا جَارَكُمْ يَحْسُنْ ثَنَاؤُكُمْ ، وَزَوَّجُوا بَنَاتِ الْعَمِّ بَنِي الْعَمِّ ، فَإِنْ تَعَدَّيْتُمْ بِهِنَ إِلَى الْغُرَبَاءِ ، فَلَا تَأْتُوا بِهِنَ إِلَّا كِفَاءً ، وَأَبْعَدُوا بِيُوتِ النِّسَاءِ مِنْ بِيُوتِ الرِّجَالِ ، فَإِنَّهُ أَغْضُّ لِلْبَصْرِ ، وَأَعْفَى لِلذِّكْرِ ، وَمَتَى كَانَتْ الْمَعَايِنَةُ وَاللِّقَاءُ ، فِي ذَلِكَ دَاءٍ مِنَ الْأَدْوَاءِ ، وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يَغَارُ لغيرِهِ ، كَمَا يَغَارُ لِنَفْسِهِ ، وَقُلِّ مَنِ انْتَهَكَ حَرَمَةَ لغيرِهِ إِلَّا انْتَهَيْتُمْ حَرَمَتَهُ ، وَأَمْنَعُوا الْقَرِيبَ مِنْ ظَلَمِ الْغَرِيبِ ، فَإِنَّكَ تَذَلُّ عَلَى قَرِيبِكَ ، وَلَا يَحِلُّ بِكَ ذَلُّ غَرِيبِكَ ، وَإِذَا تَنَازَعْتُمْ فِي الدَّمَاءِ فَلَا يَكُنْ حَقُّكُمْ لِلِقَاءِ ، فَرُبَّ رَجُلٍ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ ، وَوَدَّ خَيْرٌ مِنْ خَلْفِ ، وَإِذَا حَدَّثْتُمْ فَعُؤًا ، وَإِذَا حَدَّثْتُمْ فَأَوْجُزُوا ، فَإِنَّ مَعَ الْإِكْثَارِ يَكُونُ الْإِهْذَارُ^(١) ، وَمَوْتُ عَاجِلٍ خَيْرٌ مِنْ ضَنْئِ آجِلٍ ، وَمَا بَكَيْتَ مِنْ زَمَانٍ إِلَّا دَهَانِي بَعْدَهُ زَمَانٌ ، وَرَبَّمَا شَجَانِي مِنْ لَمْ يَكُنْ أَمْرُهُ عَنَانِي ، وَمَا عَجِبْتُ مِنْ أَحْدُوثةٍ إِلَّا رَأَيْتُ بَعْدَهَا أُعْجُوبَةً ، وَاعْلَمُوا أَنَّ أَشْجَعَ الْقَوْمِ الْعَطُوفُ ، وَخَيْرُ الْمَوْتِ تَحْتَ ظِلَالِ السِّيُوفِ ، وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا رُويَةَ لَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ ، وَلَا فِيمَنْ إِذَا عُوتِبَ لَمْ يُعْتَبِ^(٢) ، وَمَنْ النَّاسُ مِنْ لَا يُرْجَى خَيْرُهُ ، وَلَا يَخَافُ شَرَّهُ ، فَبِكُؤُهُ^(٣) خَيْرٌ مِنْ دَرِّهِ ، وَعَقُوقُهُ خَيْرٌ مِنْ بَرِّهِ ، وَلَا تُبْرِّحُوا فِي حَبْكُمْ ، فَإِنَّهُ مِنْ بَرَّحٍ فِي حَبٍّ ، آلَ

(١) أهدر : هدى . (٢) لم يرض . (٣) بكأت الناقة بكنا قل لبنا .

ذلك إلى قبيح بغض ، وكم قد زارني إنسان وزرته ، فانقلب الدهر بنا فَبَرْتَهُ^(١) ، واعلموا أن الحكيم سليم ، وأن السيف كلیم ، إني لم أمت ولكن هرمت ، ودخلتني ذلة فسكت ، وضعف قلبي فَأَهْتَرْتُ^(٢) ، سلمكم ربكم وحياكم .

(شرح ابن أبي الحديد ٤ : ١٥٥ والأغانى ٩ : ١٧٨)

٧٦ - وصية الحرث بن كعب لبنيه

وأوصى الحرث بن كعب بنيه فقال :

« يَا بَنِيَّ قَدْ أَتَىٰ عَلَىٰ مِائَةٍ وَسِتُونَ سَنَةً ، مَا صَاحَتْ يَمِينِي يَمِينِ غَادِرٍ ، وَلَا قَنَعْتُ لِنَفْسِي بِخُلَّةٍ^(٣) فَاجِرٍ ، وَلَا صَبَّوْتُ بِابْنَةِ عَمٍّ وَلَا كَنَّةٍ^(٤) ، وَلَا بُحْتُ لَصَدِيقٍ بِسَرٍّ ، وَلَا طَرَّحْتُ عَنْ مُوسِمَةِ قِنَاعَا ، وَلَا بَقِيَ عَلَىٰ دِينِ عَيْسَىٰ بْنِ مَرْيَمَ - وَرَوَىٰ : عَلَىٰ دِينِ شَعِيبٍ - مِنَ الْعَرَبِ غَيْرِي وَغَيْرِ تَمِيمِ بْنِ مَرَّةٍ ، وَأَسَدِ بْنِ خَزِيمَةَ ، فَمُوتُوا عَلَىٰ شَرِيعَتِي ، وَاحْفَظُوا وَصِيَّتِي ، وَإِلَهَكُمْ فَاتَقُوا ، وَيَكْفِكُمْ مَا أَهَمَّكُمْ ، وَيُصَلِّحْ لَكُمْ حَالَكُمْ ، وَإِيَّاءَكُمْ وَمَعْصِيَّتَهُ ، فَيُحِلَّ بِكُمْ الدَّمَارَ ، وَيُبُوحِشَ مِنْكُمْ الدِّيَارَ . كُونُوا جَمِيعًا وَلَا تَفْرَقُوا ، فَتَكُونُوا شِيْعًا ، وَبُزُّوا قَبْلَ^(٥) أَنْ تُبَزُّوا ، فَمُوتْ فِي عَزٍّ خَيْرٌ مِنْ حَيَاةٍ فِي ذُلٍّ وَعَجْزٌ ، وَكُلُّ مَا هُوَ كَأَنَّ كَأَنَّ ، وَكُلُّ جَمْعٍ إِلَىٰ تَبَايُنٍ ، وَالدهرُ ضَرْبَانٌ ، ضَرْبٌ بِبَلَاءٍ ، وَضَرْبٌ رِخَاءٍ ، وَالْيَوْمُ يَوْمَانٌ ، يَوْمٌ حَبْرَةٌ ، وَيَوْمٌ عَبْرَةٌ ، وَالنَّاسُ رَجُلَانٌ ، رَجُلٌ لَكَ ، وَرَجُلٌ عَلَيْكَ ، زَوَّجُوا النِّسَاءَ الْأَكْفَاءَ ، وَإِلَّا فَانْتَظَرُوا بِهِنَ الْقَضَاءَ ، وَلِيَكُنْ أَطِيبَ طَيْبِهِنَّ

(١) باره : جر به . (٢) أهتر بالضم : ذهب العقل من كبر أو مرض أو حزن وقد أهتر فهو مهتر

بفتح التاء شاذ ، وقيل أهتر بالبناء للمجهول .

(٣) الخلة : الصداقة المختصة لاخلال فيها تكون في عفاف وفي دعارة (والخلة أيضا الصديق للذكر

والأنثى والواحد والجميع) . (٤) الكنة : امرأة الابن أو الأخ جمعه كذائن .

(٥) بزّه : سلبه ، وفي المثل : من عزب ، أى من غلب سلب .

الماء ، وإياكم وَأَوْزَهَاءَ^(١) ، فإنها أدواُ الداء ، وإن ولدها إلى أفن^(٢) يكون ، لا راحة لقاطع القرابة ، وإذا اختلف القوم أمكنوا عدوهم ، وآفة العدو اختلاف الكلمة ، والتفضل بالحسنة ، يبق السيئة ، والمكافأة بالسيئة دخول فيها ، وعمل السوء يزيل النعماء ، وقطيعة الرحم تورث الهم ، وانتهاك الحرمة ، يزيل النعمة ، وعقوق الوالدين يُعقِبُ النكد ، ويخرب البلد ، وَيَحَقِّقُ العدد ، والإسراف في النصيحة ، هو الفضيحة ، والحقد يمنع الرِّفْد ، ولزوم الخطيئة ، يعقب البلية ، وسوء الرِّعَّة^(٣) ، يقطع أسباب المنفعة ، والضغائن تدعو إلى التباين ، يا بني ، إني قد أكلت مع أقوام وشربت ، فذهبوا وَغَبَرَتْ ، وَكَأَنِّي بِهِمْ قَدْ لَحِقْتُ ، ثم قال :

أكلت شبابي فأفنيته وأبليت بعد دهورٍ دهورا
ثلاثة أهلين صاحبهم فبادوا وأصبحت شيخاً كبيراً
قليلَ الطعام ، عسير القيام قد ترك الدهرَ خطوِي قصيرا
أبيت أراي نجوم السماء أَقْلَبُ أَمْرِي بطوناً ظهورا

(شرح ابن أبي الحديد ٤ : ١٥٤)

٧٧ - وصية عامر بن الظرب العدواني لقومه

وَكَانَ عَامِرُ بْنُ الظَّرْبِ العَدَوَانِي سَيِّدَ قَوْمِهِ ، فَلَمَّا كَبُرَ وَخَشِيَ عَلَيْهِ قَوْمُهُ أَنْ يَمُوتَ ، اجْتَمَعُوا إِلَيْهِ وَقَالُوا : إِنَّكَ سَيِّدُنَا وَقَائِلُنَا وَشَرِيفُنَا ، فَاجْعَلْ لَنَا شَرِيفًا وَسَيِّدًا وَقَائِلًا بِعَدِّكَ ، فَقَالَ :

« يَا مَعْشَرَ عَدَوَانٍ : كَلِّمْتُمُونِي بَغِيًّا ، إِن كُنْتُمْ شَرَفْتُمُونِي فَإِنِّي أُرِيْتُمْ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِي ، فَأَنَّى لَكُمْ مِثْلِي ؟ افْهَمُوا مَا أَقُولُ لَكُمْ ، إِنَّهُ مِنْ جَمْعِ بَيْنِ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ لَمْ

(١) الحمقاء : من وره كفرح : حتم فهو أورده .

(٢) ضعف الرأي والعقل . (٣) الرعة : الطريقة .

بجتماعه ، وكان الباطلُ أولى به ، وإن الحق لم يزل ينفِر من الباطل ، ولم يزل الباطل ينفِر من الحق .

يا معشر عدوان : لا تَسْمَتُوا بِالذَّلَّةِ ، ولا تفرحوا بالعزَّةِ ، فبكل عيش يعيش الفقير مع الغنى ، ومن يَرَى يَوْمًا يُرَبِّهِ ^(١) ، وأعدُّوا لكل امرئٍ جوابه ، إن مع السفاهة الندامة ، والعقوبة نكال وفيها ذِمَامَةٌ ^(٢) ، ولليد العُلْيَا ^(٣) العاقبة ، والقَوْدُ ^(٤) راحة ، لا لك ولا عليك ، وإذا شئت وجدت مثلك ، إن عليك كما أن لك ، وللكثرة الرعبُ ، وللصبر الغلبةُ ، ومن طلب شيئاً وجدته ، وإن لم يجده يوشك أن يقع قريباً منه .

(مجمع الأمثال ٢ : ١٨٣)

٧٨ — وصية دويد بن زيد لبنيه

لما حضرت دُوَيْدَ ^(٥) بن زيد الوفاةُ قال لبنيه :

« أوصيكم بالناس شراً ، لا ترَحِّمُوا لهم عِبْرَةً ، ولا تُقِيلُوا عَثْرَةَ ^(٦) ، قَصِّرُوا الأَعْتَةَ ، وطَوَّلُوا الأَسِنَّةَ ، واطعنوا شَزْرًا ^(٧) ، واضربوا هَبْرًا ^(٨) ، وإذا أردتم المحاجزة ،

(١) أى من رأى يوماً على عدوه رأى مثله على نفسه .

(٢) الذمامة بالفتح ويكسر ، والذمة : العهد ، والكفالة : والحق ، والحرمة . (٣) اليد العليا

المعطية ؛ والسفلى : السائلة ، وفى الحديث : « اليد العليا خير من اليد السفلى » ؛ وهو حث على الصدقة .

(٤) القود : القصاص . (٥) هو دويد بن زيد بن نهد الحميرى ، وكان من المعمرين . قيل عاش

أربعمائة وستا وخسين سنة ، (قالوا : ولا يعد العرب معمراً إلا من عاش مائة وعشرين سنة فصاعداً) .

(٦) أقال الله عثرته : رفعه من سقوطه . (٧) الطعن فى الجوانب يمينا وشمالا .

(٨) هبر اللحم : قطعه قطعا كبيرا ، والهبرة (بالفتح) القطعة المجتمعة منه وضرب هبر وهبير هابر :

أى يقطع اللحم .

قبل المناجزة ، والمرء يعجز لا المحالة ، بالجد لا بالكد ، التجلد ولا التبلد ، والمنية
ولا الدنية ، ولا تأسوا على فائت وإن عزّ فقهه ، ولا تحنوا إلى ظالمين وإن ألف قربه ،
ولا تطمعوا فتطمعوا^(١) ، ولا تهنؤا فتخرعوا^(٢) . ولا يكونن لكم المثل السوء « إن
الموصين بنو سهوان^(٣) » إذا ميت فأرحبوا^(٤) خطّ مضجعي ، ولا تضنوا على
برح^(٥) الأرض ، وما ذلك بمودّ إلى رَوْحا^(٦) ، ولكن حاجة نفس خامرها
الإشفاق » .

قال أبو بكر بن دريد في حديث آخر إنه قال :

اليوم يُبني لدويد بيته ياربّ نهب صالح حويته
ورب قرني بطل أزديته وربّ غيل حسن لويته^(٧)
ومعصم مخضب نثيته لو كان للدهر بلي أبليته^(٨)
أو كان قرني واحداً كفيته

(أماك السيد المرتضى ١ : ١٧١)

(١) الطبع محرّكة : للدنس . (٢) الوهن الضعف ، والخراعة : (كناية) اللين والرخاوة
خرع : ككرم ، وخرع كفرح ضعف وانكسر ، فهو خرع ، وخرع .
(٣) قال الميداني في مجمع الأمثال « ١ : ٦ » : « هذا مثل تخبط في تفسيره كثير من الناس ، قال
بعضهم : إنما يحتاج إلى الوصية من سهو ويفعل ، فأما أنت فغير محتاج إليها لأنك لا تسهو ، وقال بعضهم
يريد بقوله بنو سهوان جميع الناس لأن كلهم سهو ، والأصوب في معناه أن يقال : إن الذين يوصون
بالشيء يستولى عليهم السهو حتى كأنه موكل بهم ؛ يضرب لمن سهو عن طلب شيء أمر به ، والسهوان ،
السهو ، ويجوز أن يكون صفة أي بنو رجل سهوان ، وهو آدم عليه السلام حين عهد إليه فسها ونسي ، يقال
رجل سهوان وساه ، أي إن الذين يوصون لا بد أن يسهوا لأنهم بنو آدم عليه السلام » .
(٤) أرحبه : وسعه .

(٥) الرحب : بالضم مصدر ؛ وبالفتح وصف . (٦) أي راحة ، أو هو بالضم أي وما ذلك
بمراجع إلى روي . (٧) الغيل : الساعد الريان الممتلئ . (٨) المعصم : موضع السوار أو اليد ،
وهو المراد هنا .

٧٩ - وصية زهير بن جناب الكلبي

وأوصى زهير بن جناب الكلبي^(١) بنيه فقال :

« يَا بَنِيَّ : قَدْ كَبِرَتْ سِنِّي ، وَبَلَغَتْ حَرَسًا^(٢) مِنْ دَهْرِي ، فَأَحْكَمْتَنِي التَّجَارِبَ ، وَالْأُمُورَ تَجْرِبَةً وَاجْتِبَارًا ، فَاحْفَظُوا عَنِّي مَا أَقُولُ وَعُودِي ، إِيَّاكُمْ وَالْخَوَارَ عِنْدَ الْمَصَائِبِ ، وَالتَّوَاكُلَ عِنْدَ النُّوَائِبِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ دَاعِيَةٌ لِلْغَمِّ ، وَشِمَاتَةٌ لِلْعُدُوِّ ، وَسُوءُ ظَنِّ بِالرَّبِّ ، وَإِيَّاكُمْ أَنْ تَكُونُوا بِالْأَحْدَاثِ مَقْتَرِينَ ، وَلَهَا آمَنِينَ ، وَمِنْهَا سَاخِرِينَ ، فَإِنَّهُ مَا سَخَّرَ قَوْمٌ قَطُّ إِلَّا ابْتُلُوا ، وَلَسْكَنَ تَوَقُّعُهَا ، فَإِنَّمَا الْإِنْسَانُ فِي الدُّنْيَا غَرَضٌ^(٣) تَعَاوَرَهُ الرِّثْمَةُ ، فَتَقْصُرُ دُونَهُ ، وَجَمَّازٌ لِمَوْضِعِهِ ، وَوَأَقَعَ عَنِ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ ، ثُمَّ لَا بَدَّ لَهُ أَنَّهُ مُصِيبُهُ » .

(آمال السيد المرتضى ١ : ١٧٣)

٨٠ - وصية النعمان بن ثواب العبدي لبنيه

كَانَ لِلنُّعْمَانِ بْنِ ثَوَابِ الْعَبْدِيِّ بَنُونَ ثَلَاثَةٌ : سَعْدٌ وَسَعِيدٌ وَسَاعِدَةٌ ، وَكَانَ أَبُوهُمْ ذَا شَرَفٍ وَحِكْمَةٍ ، وَكَانَ يُوصِي بَنِيَهُ ، وَيَحْمَلُهُمْ عَلَى أَدْبِهِ ، أَمَا ابْنُهُ سَعْدٌ فَكَانَ شَجَاعًا بَطَلًا مِنْ شَيَاطِينِ الْعَرَبِ ، لَا يُقَامُ لِسَبِيلِهِ ، وَلَمْ تَفْتَهُ طَلِبَتُهُ قَطُّ ، وَلَمْ يَفِرَّ عَنْ قِرْنٍ ؛ وَأَمَا سَعِيدٌ فَكَانَ يُشْبِهُ أَبَاهُ فِي شَرَفِهِ وَسُودَدِهِ ؛ وَأَمَا سَاعِدَةٌ فَكَانَ صَاحِبَ شَرَابٍ وَنَدَامَى وَإِخْوَانٍ ، فَلَمَّا رَأَى الشَّيْخَ حَالَ بَنِيهِ دَعَا سَعْدًا ، وَكَانَ صَاحِبَ حَرْبٍ ، فَقَالَ :

(١) هو زهير بن جناب بن هبل الكلبي ، قيل عاش مائتين وعشرين سنة ، وقيل مائتين وخسين ، وقيل أربعمائة وخسين ، وكان يدعى الكاهن لصحة رأيه .

(٢) الحرس من الدهر : الطويل ، وحرس : كسمع عاش زمانا طويلا .

(٣) الغرض : الهدف ، وتماوره (تماوره) أى تتداوله .

« يا بُنَيَّ إِنْ الصَّارِمَ يَنْبُؤُ ، وَالْجَوَادَ يَكْبُؤُ ، وَالْأَثَرَ يَعْفُو ^(١) ، فَإِذَا شَهِدْتَ حَرْبًا ،
فَرَأَيْتَ نَارَهَا تَسْتَمِرُّ ، وَبَطْلَهَا يَنْخَطِرُ ، وَبِحَرْهَا يَزْخَرُ ، وَضَعِيفَهَا يَنْصَرُ ، وَجَبَانَهَا يَجْسُرُ ،
فَأَقْبِلِ الْمَكْثَ وَالْإِنْتِظَارَ ، فَإِنَّ الْفِرَارَ غَيْرُ عَارٍ ، إِذَا لَمْ تَكُنْ طَالِبَ ثَارٍ ، فَإِنَّمَا يَنْصَرُونَ
هُمْ ^(٢) ، وَإِبَاكَ أَنْ تَكُونَ صَيْدَ رَمَاحِهَا ، وَنَطِيحَ نِطَاحِهَا . »

وقال لابنه سعيد ، وكان جوادا : « يا بني لا يبخل الجواد ، فابذل الطَّارِفَ
والتَّلَادَ ^(٣) ، وأقبل التَّلَاحَ ^(٤) ، تذكّر عند السَّمَّاحِ ، وأقبل ^(٥) إخوانك ، فإنّ وفيهم
قليل ، واصنع المعروف عند محتَمَلِهِ . »

وقال لابنه ساعدة ، وكان صاحب شراب : « يا بني إن كثرة الشراب ، تُفَسِدُ
القلب ، وتقلل الكسب وتُجِدِّدُ اللعب ^(٦) ، فأبصر نديمك ، واحم حرِيمك ، وأمن
غريمك ^(٧) واعلم أن الظمأ القامح ^(٨) ، خير من الرمي الفاضح ، وعليك بالقصد فإن فيه
بلاغاً . »
(مجمع الأمثال ١ : ٤٨)

٨١ — وصية قيس بن زهير لبني النمر بن قاسط

جاور قيس بن زهير العبسي ^(٩) بعد يوم الهبأة النمر بن قاسط ، وتزوج منهم ،
وأقام فيهم حتى ولد له ، فلما أراد الرحيل عنهم قال :

(١) عفا الأثر : درس واحي . (٢) أي طلاب الثار . (٣) الطارف والطريف : المال
المستحدث ، والتالذ ، والتليذ ، والتلاد ، والمتلذ : المال القديم الأصلي الذي ولد عندك .
(٤) التلاحي : التنازع ، ولاحاه ملاحاة ولحاه نازعه . (٥) اختبر . (٦) أي تجعله جدا ؛
والجد (بالكسر) ضد الهزل . (٧) الغريم : المدين (وهو الدائن أيضا) . (٨) معناه العطش
الشاق خير من رى يفضح صاحبه ، وقح البعير قوحا : رفع رأسه عند الخوض وامتنع من الشرب فهو
قامح ، وقح البعير : اشتد عطشه حتى فتر شديدا .

(٩) هو صاحب حرب داحس والغبراء ، وكان من قصته أنه تراهن هو وحذيفة بن بدر سيد بني
ذبيان على فرسيهما داحس (فرس قيس) والغبراء (فرس حذيفة) — وقيل إنهما تراهنا على داحس والغبراء
فرسى قيس ، والخطار والحنفاء فرسى حذيفة — وتواضعا الرهان على مائة بعير ، ثم قادوهما إلى رأس =

« يا معشر النمر : إن لكم على حقًا ، وأنا أريد أن أوصيكم ، فأمركم بخصال ،
وأنها كم عن خصال ، عليكم بالآثاء ، فإن بها تدرك الحاجة ، وتنال الفرصة ، وتسويد
من لا تعاون بتسويدة ، وعليمكم بالوفاء ، فإن به يعيش الناس ، وبإعطاء من يريدون
إعطاءه قبل المسألة ، ومنع من يريدون منعه قبل الإلحاح ، وإجارة الجار على الدهر ،
وتنفيس المنازل عن بيوت اليتامى ، وخطط الضيف بالعيال .

وأنها كم عن الغدر ، فإنه عار الدهر ، وعن الرهان ، فإن به تكلت مالكا أخى
وعن البغى ، فإنه قتل زهيرًا أبا^(١) ، وعن الإعطاء فى الفضول ، فتمجزوا عن الحقوق ،
وعن السرف فى الدماء ، فإن يوم الهبأة^(٢) أزمى العار ، ومنع الحرم إلا من الأكفاء ،

= الميدان ، وفى طرف الغاية شعاب كثيرة ، فأكن حل بن بدر فى تلك الشعاب فتيازا على طريق الفرسين ،
وأمرهم إن جاء داحس سابقا أن يردوا وجهه عن الغاية ، فأرسلوها فأحضرا ، فلما شارف داحس الغاية
ودنا من الفتية ، وثبوا فى وجهه فردوه عنها ؛ وهلم قيس بذلك ؛ وبعث حذيفة بن بدر ابنه مالكا إلى
قيس يطلب منه حق السبق ؛ فقال قيس كلا لأمطلنك به ، فتناول ابن حذيفة من عرض قيس وشتمه وأغلظ
له ؛ وكان إلى جنب قيس رمح قطعنه به فدق صلبه ، واجتمع الحيان وأدوا ذيقة المقتول ، وأخذها حذيفة
دفعاً للشر ، ثم إن قومه ندموه فعاد الشر بينهم ، وقامت الفتن بين الحيين ، وعدا حذيفة على مالك بن زهير
أخى قيس فقتله ؛ وكان الربيع بن زياد عمهما معتمزل الحرب ، فلما سمع بمقتل ابن أخيه مالك شق ذلك عليه
وقاتل بنى ذبيان ، ثم توالى أيام الحروب بينهم ، وكان أعظمها يوم الهبأة حتى أصلح بينهم الحرث بن عوف
وهرم بن سنان المريان ؛ وحلا ديات القتلى ثلاثة آلاف بعير .

(١) وسبب مقتل زهير بن جذيمة العبسى أبى قيس ، أن هوازن بن منصور كانت توثى الإتاوة زهير
ابن جذيمة — ولم تكثر عامر بن صعصعة بعد — فأثت عجوز من هوازن إلى زهير بسمن فى نحى (النحى
كحمل الزق ، أو ما كان للسمن خاصة) فاعتذرت إليه ؛ وشكت السنين اللواتى تتابعن على الناس « فذاقه فلم
يرض طعمه ، فدعها أى دفعها بقوس فى يده فسقطت فبذت عورتها ، فغضبت من ذلك هوازن وحقدته
إلى ما كان فى صدرها من الغيظ ، وكانت يومئذ قد كثرت بنو عامر بن صعصعة فثاروا إليه فقاتلوه حتى
قتلوه .

(٢) وكان حذيفة بن بدر وأخوه نزلام أصحابهما فى جفر الهبأة ؛ فاتبعهم قيس ومن معه حتى
أدركهم فيه ، وقد أرسلوا خيولهم ونزعوا سلاحهم (وكان حذيفة قد أخذ غلامين من بنى عبس ، فقتلتهما
وهما يسغيثان يا أبتاه حتى ماتا) فشد قيس والربيع ومن معهما عليهم ، وهم ينادون ليبيكم ليبيكم ، يعنى أنهم =

فإن لم تصيبوا لمن الأَكْفَاء . فإن خير منا كهنَّ القبور ، (أو خير منازلها) ، واعلموا
أنى كنت ظالماً مظلوماً ، ظمئى بنو بدر بقتلهم مالكاً أخى ، وظلمتهم بأن قتل
من لا ذنب له .

(العقد الفريد ٣ : ٢٢٤ ، وآمال السيد المرتضى ١ : ١٤٩ ، وشرح العيون ص ٩٠)

٨٢ — وصية حصن بن حذيفة لبيته

وأوصى حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري بنى بدر فقال :

« اسمعوا منى ما أوصيكم به : لَا يَتَكَلَّمُ آخِرُكُمْ عَلَى أَوْلَسِكُمْ ، فَإِنَّمَا يُدْرِكُ الْآخِرُ
مَا أَدْرَكَهُ الْأَوَّلُ ، وَأَنْكِحُوا الْكُفَّءَ الْغَرِيبَ ، فَإِنَّهُ عِزٌّ حَادِثٌ ، وَإِذَا حَضَرَكُمْ
أَمْرَانِ ، فَخُذُوا بِخَيْرِهِمَا صَدْرًا^(١) ، فَإِنْ كُلُّ مَوْرِدٍ مَعْرُوفٌ ، وَاصْحَبُوا قَوْمَكُمْ بِأَجَلٍ
أَخْلَاقِكُمْ ، وَلَا تَخَالَفُوا فِيمَا اجْتَمَعُوا عَلَيْهِ ، فَإِنْ ائْتَلَفَ زُرَى بِالرَّئِيسِ الْمَطَّاعِ ، وَإِذَا حَادَثَكُمْ
فَارْبَعُوا^(٢) ، ثُمَّ قُولُوا الصَّدَقَ ، فَإِنَّهُ لَأَخِيرُ فِي الْكُذْبِ ، وَصُونُوا الْخَلِيلَ فَإِنَّهَا حُصُونُ
الرِّجَالِ ، وَأَطِيلُوا الرِّمَاحَ فَإِنَّهَا قُرُونُ الْخَلِيلِ ، وَأَعْزُّوا الْكَبِيرَ بِالْكَبِيرِ ، فَإِنِّي بِذَلِكَ كُنْتُ
أَغْلِبُ النَّاسَ ، وَلَا تَغْرُؤُوا إِلَّا بِالْعَمِيونِ^(٣) ، وَلَا تَسْرَحُوا حَتَّى تَأْمَنُوا الصَّبَاحَ^(٤) ، وَأَعْطُوا
عَلَى حَسَبِ الْمَالِ ، وَأَعْجِلُوا الضَّيْفَ بِالْقَرَى^(٥) ، فَإِنْ خَيْرَهُ أَعْجَلَهُ ، وَاتَّقُوا فَضِيحَاتِ
الْبَغْيِ ، وَفَلَتَاتِ الْمَزَاحِ ، وَلَا تُجِيرُوا عَلَى الْمَلُوكِ ، فَإِنْ أَيْدِيَهُمْ أَطُولَ مِنْ أَيْدِيكُمْ .

(آمال السيد المرتضى ٢ : ١٦٨)

= يجيئون زداء الضيعة لما قتلوا ينادون يا ابتاه ، فنشدهم الله والرحم ، فلم يقبلوا منهم ، وقتلوا حذيفة
وحلا أخاه ، ومثلوا بحذيفة فقطعوا مذاكيره وجعلوها في فيه وجعلوا لسانه في استه ، وأسرف قيس في
النكابة والقتل ، وكانت فزارة تسمى هذه الواقعة البوار ، ولكن قيساً ندم بعد ذلك ورثى حمل بن بدر ،
وهو أول من رثى مقتوله .

(١) الصدر : الرجوع . (٢) ربع : كنع انتظر وتحبس ، وربع الخيل : قتله من أربع طاقات .

والمعنى إذا حادثتم فتأنوا وتمهلوا ، أو فأحكموا القول . (٣) العيون : جمع عين ، وهى خيار كل

شئ . (٤) الصباح الغارة : أى ولا تسرحوا مقاتلتكم حتى تأمنوا الغارة .

(٥) قرى الضيف يقريه قرى : أحسن إليه ، والقرى أيضاً ما قرى به الضيف .

٨٣ - وصية لأكرم بن صيفي

كتب النعمان بن حنيفة الباروقي إلى أكرم بن صيفي: «مثل لنا مثالا نأخذه»^(١)

فقال :

« قد حَلَبْتُ الدهرَ أَشْطَرَهُ^(٢) فَعَرَفْتُ حُلُوهَ وَمُرَّهُ . عَيْنَ عَرَفْتُ فَذَرَفْتُ^(٣) ،
إِنَّ أُمَامِي مَالًا أُسَامِي^(٤) . رَبُّ سَامِعٍ بِخَبْرٍ لَمْ يَسْمَعْ بِعُذْرِي . كُلُّ زَمَانٍ لِمَنْ فِيهِ .
فِي كُلِّ يَوْمٍ مَا يُكْرَهُ . كُلُّ ذِي نُصْرَةٍ سَيُخَذَلُ . تَبَارَكُوا فَإِنَّ الْبِرَّ يَنْمِي^(٥) عَلَيْهِ الْعَدَدُ
وَكُفُّوا أَسْنَتَكُمْ فَإِنَّ مَقْتَلَ الرَّجُلِ بَيْنَ فَكَيْهِ . إِنَّ قَوْلَ الْحَقِّ لَمْ يَدْعُ لِي صَدِيقًا .
الْصَّدَقُ مَنْجَاةٌ لَا يَنْفَعُ مَعَ الْجُزَعِ التَّبَقُّيُّ . وَلَا يَنْفَعُ مِمَّا هُوَ وَاقِعٌ التَّوَقُّيُّ ، سَتُسَاقُ إِلَى مَا أَنْتَ
لَا قِيْرَ . فِي طَلَبِ الْمَعَالِي يَكُونُ الْعِنَاءُ . الْاِفْتِصَادُ فِي السَّمِيِّ أَبْقَى لِلْجَمَامِ^(٦) مِنْ لَمْ يَأْسَ^(٧) .
عَلَى مَا فَاتَهُ وَدَعَّ بَدَنَهُ ، وَمَنْ قَنَعَ بِمَا هُوَ فِيهِ قَرَّتْ عَيْنُهُ . التَّقَدُّمُ قَبْلَ التَّنَدُّمِ^(٨) .
أَصْبَحُ عِنْدَ رَأْسِ الْأَمْرِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَصْبَحَ عِنْدَ ذَنْبِهِ . لَمْ يَهْلِكْ مِنْ مَالِكَ مَا وَعَظَكَ .
وَيْلٌ لِعَالَمٍ أَمْرٌ مِنْ جَاهِلِهِ . يَتَشَابَهُ الْأَمْرُ إِذَا أُقْبِلَ ، فَإِذَا أُدْبِرَ عَرَفَهُ الْكَيْسُ وَالْأَحْقُ .
الْوَحْشَةُ ذَهَابُ الْأَعْلَامِ^(٩) . الْبَطْرُ عِنْدَ الرِّخَاءِ حُجْمٌ . وَالْمِعْجَزُ عِنْدَ الْبَلَاءِ أَفْنٌ^(١٠) . لَا تَغْضَبُوا

- (١) هكذا روى أبو هلال العسكري في جمهرة الأمثال : وذكر الميداني أن أكرم وصى بها بنيه حين
جمعهم ، والرواية الأولى أطول بكثير من الثانية ، وقد جمعت بين الروایتين . (٢) للناقة شطران :
قادمان وآخران ، فكل خلفين من أخلافها شطر (والخلف بالكسر لها كالضرع للبقرة) وأشطره بدل
من الدهر ؛ والمعنى أنه اختبر شطري الدهر خيره وشره فعرف مافيه ، وهو مثل يضرب فيمن جرب الدهر .
(٣) ذرفت عينه كضرب : سال دمعها ، وذرفت العين دمعها أسالته ؛ وهو مثل يضرب لمن رأى
الأمر فعرف حقيقته . (٤) ساماه : باراه في السمو . (٥) يزيد ، وفي مجمع الأمثال « يبق » .
(٦) أى أبقى للقوة ، من جم الفرس جماما (بالفتح) ترك الضراب فتجمع ماؤه ، وجم الماء يجم
بضم الجيم وكسرها جموما كثر واجتمع ، والبئر تراجع ماؤها ؛ والجمام بالفتح أيضا : الراحة .
(٧) يحزن . (٨) أى ففكر في التقدم قبل أن تندم . (٩) الأعلام جمع علم : وهو سيد القوم .
(١٠) الأفن : ضعف الرأى والعقل ، وفي الأصل أمن وهو تحريف .

من اليسير ، فربما جنى الكثير . لا تُجيبوا فيما لم تُسألوا عنه . ولا تضحكوا بما لا يضحك منه . حيلةٌ من لا حيلةَ له الصبر . كونوا جميعاً فإن الجمع غالب ، تثبتوا . ولا تسارعوا فإن أحزم الفريقين الرّكين . رب عَجَلَةٍ تَهَب رَيْثًا . ادرِعوا الليل واتخذوه جَمَلًا . فإن الليل أخفى للويل . ولا جماعة لمن اختلف . تناهوا في الديار ولا تباغضوا . فإنه من يجتمع يَتَقَعَّقُ (١) عَمْدُهُ . أَلْزَمُوا النِّسَاءَ المَهَابَةَ (٢) نِعَمَ هُوَ الفِرَّةُ (٣) المِغْزَلُ . إن تَعِشْ تَرَمَّ مَالَمَ تَرَه . قد أَقْرَّ صَامِتٍ . المِكْثَارُ كحَاطِبٍ (٤) لَيْلٍ . من أ كثر أسقط (٥) . لا تجعلوا سِرا إلى أمة . لا تفرّقوا في القبائل ، فإن الغريب بكل مكانٍ مظلوم ، عاقِدُوا الثَّرْوَةَ (٦) . وإياكم والشائظ (٧) فإن مع أَلِقَلَةِ الذَّلَّةِ : لو سُئِلَتِ العارِيَةُ قالت أُنْبِئِي لأهلي ذُلًّا . الرسولُ مُبَلِّغٌ غيرُ مَلُومٍ . من فَسَدَتْ بِطَانَتُهُ غَصَّ بالماء . أساءَ سَمْعًا فأساءَ جَابَةً (٨) . الدَّالُّ على الخير كفاعله . إن المسألةَ مِنْ أضعفِ المَسْكَنَةِ . قد تجوع الحرّة

(١) تقمع : اضطرب وتحرك . وفي الأصل عنده بدل عمدته وهو تحريف ، وهذا مثل . معناه لا بد من الافتراق بعد الاجتماع ، أو معناه إذا اجتمع القوم وتقاربوا وقع بينهم الشر فتنفروا ، أو من غبط بكثرة العدد واتساق الأمر فهو بمرض الزوال والانتشار . (٢) أي أن هبتم ويوقرنكم ، وفي الأصل « المهانة » وهو تصحيف .

(٣) الشريفة . (٤) الحاطب : الذي يجمع الحطب ؛ وهو حاطب ليل : أي مخلط في كلامه .

(٥) أسقط كلمة ؛ وأسقط في كلمة أي أخطأ .

(٦) عاقدوا : حالفوا ، والثروة : كثرة العدد من الناس . (٧) يقال هم وشيظة في قومهم أي

حشوفهم . (٨) جابة بمعنى إجابة ، اسم وضع موضع المصدر ، ومثلها الطاعة والطاقة والغارة والعمارة . قال المفضل : أول من قال ذلك سهيل بن عمرو ، وكان تزوج صفية بنت أبي جهل بن أبي هشام ، فولدت له أنس بن سهيل ، فخرج معه ذات يوم ؛ فوقف بحزورة مكة (والحزورة كقسورة : الرابية الصغيرة) فأقبل الأخنس بن شريق الثقفي ، فقال : من هذا ؟ قال سهيل : ابني ؛ قال الأخنس : حياك الله يانتي ! قال : لا ، والله ما أمي في البيت ، انطلقت إلى أم حنظلة تطحن دقيقا ، فقال أبوه : أساء سمعا فأساء جابة فأرسلها مثلا .

ولا تأكل بثدييها^(١) . لم يجزُ سالِكُ القَصْدِ ، ولم يَعْمَ قاصِدُ الحق . من شَدَدَ نَفَرٍ ،
ومن تراخى تألَّف . الشرف التفاضل . أوفى القول أوجزه . أصوب الأمور ترك الفضول .
التغريب مفتاح البؤس . التواني والعجز ينتجان الهلكة . لكل شيء ضراوة^(٢) .
أحوج الناس إلى الغنى من لا يصلحه إلا الغنى ، وهم الملوك . حُبُّ المدح رأسُ الضياع .
رضاً الناس غاية لا تُبَلَّغ . لا تَكْرَهُ سُخْطَ مَنْ رِضاهُ الْجَوْرُ معالجة العقاف مَسْقَةَ
فتموِّذ بالصبر . أقصر لسانك على الخير وأخر الغضب ، فإن القدرة من ورائك ، من قَدَرَ
أزعم ، أمرُ أعمال المقتدرين الانتقام ، جازٍ بالحسنة ولا تكافئُ بالسيئة ، أغنى الناس
عن الحِقدِ مَنْ عَظُمَ عن المجازاة . مَنْ حَسَدَ مَنْ دُونَهُ قَلَّ عُدْرُهُ ، من جعل الحُسن الظن
نصيبياً رَوَّحَ عن قلبه ، عِيَّ الصمت أحمد من عي المنطق ، الناس رجلان محترس ومحترس
منه كثير النصح يَهْجُمُ على كثير الظنَّة^(٣) ، من ألحَّ في المسألة أبرم^(٤) ، خير السخاء

(١) أى لا تعيش بسبب ثدييها وبما يغلان عليها من أجرة الإرضاع ، يضرب فى صيانة
الرجل نفسه عن خسيس المكاسب ، وذكروا أن أول من قاله الحارث بن سليل الأسدى ، وكان شيخا
كبيرا وكان حليفا لعقمة بن خصفة الطائى ، فزاره فنظر إلى ابنته الزباء ، وكانت من أجمل أهل دهرها
فأعجب بها ، فقال له : أتيتك خاطبا ، وقد ينكح الخاطب ، ويدرك الطالب ، ويمنح الراغب ، فقال له
عقمة : أنت كفاء كريم يقبل منك الصفو ، ويؤخذ منك العفو ، فأقم نظرك فى أمرك ؛ ثم انكفأ إلى أمها
فقال إن الحارث بن سليل سيد قومه حسبا ومنصبا وبيتا ، وقد خطب إلينا الزباء ، فلا ينصرفن إلا بحاجته
فقالت امرأته لابنتها : أى الرجال أحب إليك ؟ الكهل الجحجاج (أى السيد) ، الواصل المناخ ، أم الفتى
الوضاح ؟ قالت ، لا بل الفتى الواضاح ، قالت : إن الفتى يعبرك ، وإن الشيخ يميرك ، وليس الكهل
الفاضل ، الكثير النائل ، كالحديث السن ، الكثير المن ، قالت : يا أمته ، إن الفتاة تحب الفتى كحب
الرعاء أتيق الكلا ، قالت : أى بنية ، إن الفتى شديد الحجاب ، كثير العتاب ، قالت إن الشيخ يبلى
شبابى ، ويدنس ثيابى ، ويشمت بى أترابى ، فلم تزل أمها بها حتى غلبتها على رأيها ، فتزوجها الحرث على
مائة وخمسين من الإبل وخدام وألف درهم ، فابتنى بها ثم رحل بها إلى قومه ، فبينما هو ذات يوم جالس بفناء
قومه وهى إلى جانبه إذ أقبل إليه شباب من بنى أسد يعتلجون ، (أى يتصارعون ويتقاتلون) فتنفست الصعداء
ثم أرخت عينها بالبكاء ، فقال لها : ما بيكيك ؟ قالت : مالى وللشيوخ ، الناهضين كالقروخ ؛ فقال لها
شكلكم أملك تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها ، الحق بأهلك فلا حاجة لى فيك .

(٢) يقال : ضرى الكلب بالصيد (كفرح) ضراوة أى تعود ، وكلب ضار ؛ وأضراره صاحبه
هوده وأضراره به ؛ أغراه ، وضراه أيضا تضرية . (٣) التهمة . (٤) أبرمه : أضجره وأمله .

ما وافق الحاجة ، الصمت يكسب المحبة ، لن يغلب الكذب شيئاً إلا غلبَ عليه الصدق ، القلب قد يُتَّهم وإن صدق اللسان ، الانقباض عن الناس مَكْسَبَةٌ للعداوة ، وتقريبهم مكسبة لقرين السوء ، فكن من الناس بين القرب والبعد . فإن خير الأمور أوساؤها ، فُسُؤْلَةٌ^(١) الوزراء أضر من بغض الأعداء ، خير القرّناء المرأة الصالحة ، وعند الخوف حُسْنُ العمل ، من لم يكن له من نفسه زاجرٌ لم يكن له من غيره واعظ ، وتمكّن منه عدوه على أسوأ عمله ، لن يَهْلِكَ امرؤٌ حتى يملَّ^(٢) الناس عتيد فعله ويشتد على قومه ، ويُعْجَب بما ظهر من مروءته ، ويفخر بقومه ، والأمر يأتية من فوقه ، ليس للمختال في حسن الثناء نصيب ، لا تَمَاءٌ مع العَدَم ، إنه من أتى المكروه إلى أحد بدأ بنفسه . العيُّ أن تتكلم فوق ما تسد به حاجتك ، لا ينبغي لعاقل أن يثق بإخاء من تضطره إلى إخائه حاجةً ، أقلُّ الناس راحةً الحَقُود ، من تَعَمَّدَ الذنب لا تحل رحمة دون عقوبته ، فإن الأدب رِفَقٌ ، والرفق يُمِّنُ .

(جمهرة الأمثال ١ : ٣٢٠ ، ومجمع الأمثال ٢ : ١٤٥)

٨٤ - وصية أكرم بن صيفي لطبي

وقال أكرم بن صيفي في وصية كتب بها إلى طبي :
« أوصيكم بتقوى الله وَصِلَةَ الرَّحِمِ . وإياكم وَنِكَاحَ الْحَمَقَاءِ ، فإن نكاحها غررٌ^(٣) ، وَوَلَدَهَا ضِيَاعٌ . وعليكم بالخيل فأكرموها ، فإنها حصون العرب ، ولا تضعوا رقاب الإبل في غير حقها . فإن فيها ثمن الكريمة^(٤) ، وَرَقُوءُ الدَّمِ^(٥) ، وبألبانها يتخفف

(١) فسل فسولة فهو فسل : أي رذل لامروءة له ، والوزراء : جمع وزير وهو النصير والظهير .

(٢) في الأصل « يملك » وأرى صوابه يمل .

(٣) الغرر : الخطر : غرر بنفسه تغريراً : عرضها للهلكة والاسم الغرر . (٤) يريد مهرها .

(٥) رقاً الدم : جف وسكن ، والرقوء كصبور ما يوضع على الدم ليرققه ، والمعنى أنها تعطى في

الديات فتحقن بها الدماء .

الكبير^(١) ، وَيُغْذَى الصَّغِيرَ ، ولو أن الإبل كَلَّفْتَ الطَّحْنَ لَطَحْتَ . ولن يَهْلِكَ امرؤ عرف قدره . والعُدْمُ^(٢) عُدْمُ العقل ، لا عُدْمُ المال . وَلرَجُلٌ خَيْرٌ من ألف رجل . ومن عَتَبَ على الدهر طالت مَعْتَبَتُهُ . ومن رَضِيَ بالقَسَمِ^(٣) طابت معيشته . وآفة الرأى الهوى . والعادة أَمَلَكُ^(٤) . والحاجة مع الحجة خير من البَغْضِ مع الغنى . والدنيا دُولٌ ، فما كان لك أتاك على ضعفك ؛ وما كان عليك لم تدفعه بقوتك . والحسد داء ليس له دواء . والشماتة تُعَقِّبُ . ومن يرَ يوماً يرَ به . قبل الرِّمَاءِ مُتَمَلِّئاً الكِنَانِ^(٥) . الندامة مع السفاهة . دِعامَةُ العقلِ الحِلْمُ . خيرُ الأمور مَعَبَةٌ الصبر . بقاء المودة عَدْلٌ^(٦) التماهد . من يَزُرُ غِيَابًا يزدد حبًّا . التفرير مفتاح البؤس . من التواني والعجز نُتِجَتِ^(٧) الهَلَكَةُ . لكل شيء ضراوة . فَضَرَّ لسانك بالخير عِي الصمت أحسن من عي المنطق . الحزم حفظ ما كَلَّفْتَ وترك ما كَنَيْتَ . كثير النصح يَهْجُمُ على كثير الظَّنَّةِ . من ألحف في المسألة ثقل . من سأل فوق قدره استحق الحرمان . الرِّفْقُ يُبْنِ ، والخرقُ شُومٌ . خير السخاء ما وافق الحاجة . خير العفو ما كان بعد القدرة .

(مجمع الأمثال ٢ : ٨٧)

٨٥ - وصية أكرم بن صيفى لبنيه ورهطه

وصى أكرم بن صيفى بنيه ورهطه ، فقال : « يا بني تميم لا يفوتنكم وعظى إن فاتكم الدهر بنفسى ، إن بين حيزومي^(٨) وصدري لكلاماً لا أحد له مواقع إلا

-
- (١) التحفة : البر واللفظ والطرفة ، وقد أتخفته تحفة .
 (٢) العدم بالضم وبضمين وبالتحريك الفقدان وغلب على فقدان المال . (٣) القسم : القدر
 (٤) وفي رواية : « العادة أملك من الأدب » .
 (٥) الرماء مصدر رأى كالمراعاة ، والكنائن جمع كنانة : وهى جعبة السهام ، وهو مثل معناه :
 تؤخذ للأمر أهيته قبل وقوعه ، ومثله قولهم « قبل الرمي يراش السهم » أى يوضع له الريش .
 (٦) العدل : الاستقامة أى بقاء المودة فى استقامة التماهد والحرص على سلامة شروطه .
 (٧) ويروى نتجت الفاقة . (٨) الحيزوم : وسط الصدر وما يضم عليه الحزام .

أسماعكم ، ولا مقاراً إلا قلوبكم ، فتلقوه بأسماع مصغية ، وقلوب واعية ، تحمدوا مغبته .
الهوى يقظان ، والعقل راقد ، والشهوات مُطْلَقَةٌ ، والحزم معقول^(١) والنفس مهملة ،
والروية مُقَيَّدَةٌ ، ومن جهة التواني وترك الروية يَتَلَف الحزم ، وإن يعدم المشاور مُرْشِداً ،
والمُسْتَبِدَّ برأيه موقوف على مَدَاحِص^(٢) الزلل ، ومن سمع سُمع به ، ومصارع الرجال
تحت بروق الطمع ، ولو اعتُبرت مواقع الحن ما وُجِدَتْ إلا في مقاتل الكرام ، وعلى
الاعتبار طريق الرشاد ، ومن سلك الجَدَد^(٣) أَمِن العثار ، ولن يعدم الحسود أن يُتَعَب
قلبه ، وَيَشْغَل فِكْره ، وَيُورِث^(٤) غيظه ، ولا تجاوز مَصْرَفَتُهُ نَفْسَه

يا بني تميم : الصبر على جَرَعِ الحلم أعذب من جَنَى ثمر الندامة ، ومن جعل عِرْضه
دون ماله أَسْتَهْدَفَ للذم ، وَكَلَّمَ اللسان أنكى من كَلَّمَ اللسان ، والسكامة مرهونة مالم
تَنجُم من الفم ، فإذا نَجَمَتْ فهي أسد مُحَرَّب^(٥) ، أو نار تَلَهَّب ، ورأى الناصح اللبيب
دليل لا يجوز ، ونفاذ الرأى في الحرب ، أجدى من الطعن والضرب .

(شرح ابن أبي الحديد ٤ : ١٥٥ ، وشرح العيون ١٥ وجمهرة الأمثال ٢ : ٢١٢)

٨٦ - نصيحة أكرم بن صيفي لقومه

ونصح قومه فقال : « أَقِلُّوا الخلاف على أمرائكم ، واعلموا أن كثرة الصياح من
الفشل ، والمرء يعجز لا محالة ، يا قوم تثبتوا فإن أحزم الفريقين الرَّكِين^(٦) ورب عَجَلَةٍ
سَهْبُ رَيْثَا^(٧) ، وَأَتَزِرُوا للحرب ، وَأَدْرِغُوا الليل ، فإنه أخفى للويل ، ولا جماعة
لمن أختلف » .

(الأغاني ١٥ : ٧٠)

(١) محبوس . (٢) جمع مدحضة : وهى المزلة . (٣) الأرض المستوية . (٤) يوقد .

(٥) التحريب : التحريش والتحديد ، والمحرب والمتحرب الأسد . (٦) الرزين . (٧) بطنا

٨٧ — أمثال أكرم بن صيفي (وَبُرُوجِمَهُ) الفارسي^(١)

« العقل بالتجارب . الصاحب مناسب^(٢) . الصديق مَنْ صَدَقَ غَيْبُهُ^(٣) . الغريب من لم يكن له حبيب . رب بعيدٍ أقربُ من قريب . القريب من قُرْبِ نَفْعِهِ . لو تكاشفتم ما تدافنتم . خير أهلك من كفالك ، خير سلاحك ما وقاك . خير إخوانك من لم تخبره . رب غريبٍ ناصح الجيب^(٤) ، وابنِ أبٍ متهم بالغيب ، أخوك مَنْ صَدَقَكَ ، الأخ مرآة أخيه . إذا عزَّ أخوك فهنُّ^(٥) . مكره أخاك لا يبطل^(٦) . تباعدوا في الديار وتقاربوا في الحجة . أيُّ الرجال المهذب^(٧) ؟ مَنْ لك بأخيك كله . إنك إن فرحت لآقٍ فرحاً .

(١) هكذا في العقد الفريد ، وليس من الميسور تمييز أمثال أحدهما من أمثال الآخر إلا في القليل ، على أنه قد ورد بينها أمثال لغير أكرم ، (ولعله تمثل بها) وأخرى له قد وردت في ثنايا كلامه الذي أو رده آنفاً ، ولكنني آثرت إيراد المقال برمته كما جاء في العقد ، وبرزجمه : مركب من بزرج معرب بزرگ أي الكبير ، ومهر أي الروح وهو بزرجمهر بن البختگان وزير كسرى أنوشروان ملك الفرس ، وكان شديد الفكر ، حصيف الرأي . (٢) المناسب والنسيب : القريب ، من النسبة (بالكسر والضم) وهي : القرابة ، وبينهما مناسبة أي مشاكلة ، هذا يناسب ذلك أي يقاربه شها .

(٣) في الأصل « من صدق عينيه » وهو محرف ، وأراه من صدق غيبه أو غيبته أي من صدق في مودته ، وحفظ الاخاء ، في الغيبة لآقٍ المحضر فحسب . (٤) جيب القميص طوقه ، وهو ناصح الجيب أي القلب كناية عن أنه خالص الطوية لا غش فيه .

(٥) في الميداني : هذا المثل لهذيل بن هبيرة التغلبي ، وكان أغار على بني ضبة فغتم فأقبل بالغنائم . فقال له أصحابه قسمها بيننا ، فقال إني أخاف إن تشاغلتم بالاقتسام أن يدرككم الطلب فأبوا ، فعنها قال : « إذا عز أخوك فهن » ثم نزل فقسم بينهم الغنائم ، ومعناها ، مياسرتك صديقك ليست بضمير يركبك منه فتدخلك الحمية به ، إنما هو حسن خلق وتفرض ، فإذا عاسرك فياسره .

(٦) قاله أبو حنشل : وذلك أن رجلاً من بني فزارة يقال له بهيس أخبر أن ناساً من أشجع في غار يشربون فيه — وكانوا قد قتلوا إخوته الستة — فانطلق بخال له يسمى أبا حنش ؛ فقال له هل لك في غار فيه ظباء لعلنا نصيب منها — ويروى : هل لك في غنيمة باردة — ثم انطلق به حتى أقامه على فم الغار ، ودفعه فيه فقال : ضرباً أبا حنش ، فقال بعضهم : إن أبا حنش لبطل ، فقال أبو حنش : مكره أخاك لا يبطل ، فأرسلها مثلاً . (٧) في الميداني : أول من قاله النابغة الذبياني حيث قال :

ولست بمستيق أخاً لا تلمه على شعث ، أي الرجال المهذب ؟

أَحْسِنُ يُحَسِّنُ إِلَيْكَ . أَرْحَمَ تُرْحَمَ . كَمَا تَدِينُ تُدَانُ ^(١) . مِنْ يَوْمٍ يَوْمًا بِرَبِّهِ ، وَالدهر
لَا يُغْتَرَّبُ بِهِ ، عَيْنٌ عَرَفَتْ فَذَرَفَتْ ^(٢) . فِي كُلِّ خَيْبَةٍ عَيْبَةٌ ، مِنْ مَأْمَنِهِ يُؤْتِي الخُدْرَ .
لَا يَمْعُدُو المَرْهَ رِزْقَهُ وَإِنْ حَرَصَ . إِذَا نَزَلَ القَدْرَ عَمِيَ البَصْرَ ، وَإِذَا نَزَلَ الحَيْنُ نَزَلَ بَيْنَ
الأُذُنِ وَالعينِ ^(٣) . الخمرُ مَفْتاحُ كُلِّ شَرٍّ . العِنَاءُ رُقِيَّةُ الزِنَاءِ ^(٤) . القِنَاعَةُ مَالٌ لَا يَنْفَعُ .
خَيْرُ الغِنَى غِنَى النَفْسِ . مَنْسَأَقٌ إِلَى مَا أَنْتَ لَاقٍ . خِذْ مِنَ العَافِيَةِ مَا أُعْطِيَتْ . مَا لِلإنْسَانِ
إِلَّا القَلْبُ وَاللِسَانُ . إِنَّمَا لَكَ مَا أَمْضَيْتَ . لَا تَتَكَلَّفْ مَا كُفِّيتَ . القَلَمُ أَحَدُ اللِّسَانِينَ .
قَلَّةُ العِيَالِ أَحَدُ اليَسَارِينَ ، رَبَّمَا ضَاقَتِ الدُّنْيَا بِاثْنَيْنِ . لَنْ تَعْدَمَ الحَسَنَاءُ دَامًا ^(٥) . لَمْ يَعْدَمَ
الغَاوِي لَأَثْمًا . لَا تَكُ فِي أَهْلِكَ كَالجِنَازَةِ ^(٦) . لَا تَسْخَرَنَّ مِنْ شَيْءٍ فَيَجُوزَ بِكَ . آخِرُ
الشَّرِّ إِذَا شئتَ تَعَجَّلْتَهُ . صَغِيرُ الشَّرِّ يُوْشِكُ أَنْ يَكْبُرَ . يَبْصُرُ القَلْبُ مَا يَعْصَى عَنْهُ البَصْرُ .
الحُرُّ حُرٌّ وَإِنْ مَسَّهُ الضَّرُّ . العَبْدُ عَبْدٌ وَإِنْ سَاعَدَهُ جَدٌّ ^(٧) مِنْ عَرَفَ قَدْرَهُ اسْتَبَانَ

(١) الدين بالكسر : الجزاء دانه يدينه ديننا بالفتح ويكسر ، ومعنى المثل كما تجازى تجازى : أى كما
تعمل تجازى ، إن حسنا فحسن ، وإن سيئا فسيئ ، وقوله تدين : أراد تعمل فسمى الابتداء جزاء
للمطابقة والموافقة ، وعلى هذا قوله تعالى : « فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ » .
ويجوز أن يجرى كلاهما على الجزاء أى كما تجازى أنت الناس على صنيعهم كذلك تجازى على صنيعك .
(٢) فى الأصل « عين رفت » وهو تشويه ، وصوابه « عين عرفت فذرفت » .
(٣) الحين : الهلاك ، وقوله : نزل بين الأذن والعين أى بسمع ومر أى من نزل به لا يختفيا عنه .
(٤) زفى يزفى زفى وزناء .

(٥) اللزام : والذم العيب ، قال اليماني : « وأول من تكلم بهذا المثل فيما زعم أهل الأخبار حبي
بنت مالك بن عمرو العدوانية (وحبي : بضم الحاء ، وتشديد الباء المفتوحة) وكانت من أجمل النساء ،
فسمع بجمالها ملك غسان فخطبها إلى أبيها ، وحكمه فى مهرها ، وسأله تعجيلها ، فلما عزم الأمر ، قالت
أمرها لتباعها : إن لنا عند الملامسة رشحة فيها هنة ، فإذا أردت ، إدخالها على زوجها ، فطيبنها بما فى أصدافها
فلما كان الوقت أعجلهن زوجها ، فأغفلن تطيبها ، فلما أصبح قيل له : كيف وجدت أهلك : طروقتك ،
البارحة ؟ فقال ما رأيت كالليلة قط لولا رويحة أنكرتها ، فقالت هى من خلف الستر « لا تعدم الحسنة
داما » فأرسلتها مثلا .

(٦) الجنازة بالكسر : الميت ، ويفتح ، أو بالكسر الميت ؛ وبالفتح السرير ، أو عكسه ؛ أو
بالكسر السرير مع الميت ، والمراد هنا الميت ، وهذا المثل والمثلان قبله فى الأصل مشوهة مختلطة هكذا :
لن تعدم الحسنة ما لم يعدم الغاوى لا يمالأ بك فى أهلك كالجنازة » . (٧) الجد : الحظ .

أمره . من سرّه بنوه ساءته نفسه . من تعظّم على الزمان أهانه . من تعرض للسلطان آذاه ، ومن تطامن له تخطّاه . من خطّا يخطو^(١) . كل مبذول تملول . كل ممنوع مرغوب فيه . كل عزيز تحت القدرة ذليل . لكل مقام مقال . لكل زمان رجال . لكل أجل كتاب . لكل عمل ثواب . لكل نيا مستقر . لكل سرّ مستودع . قيمة كل إنسان ما يُحسِن . اطلب لكل غلق^(٢) مفتاحاً . أكثر في الباطل يكن حقاً . عند القنط^(٣) يأتي الفرج . عند الصباح يُحمد السرى^(٤) . الصدق منجاة ، والكذب مهوأة . الاعتراف يهدم الاقتراف . ربّ قول أنفذ من صول . رب ساءة ليس بها طاعة . رب عجلة تُعقب ريثاً^(٥) . بعض الكلام أقطع من الحسام . بعض الجهل أبلغ

(١) يريد : من حاول الخطو وعالجه استطاه ومرن عليه ، أى أن من أراد أمراً وتحيل له وأخذ في معالجته وممارسته ، تم له ما يبغي ، وهو كقولهم : إنما العلم بالتعلم ، « ورفع يخطو في المثل حسن لأن الشرط ماض » . (٢) الغلق : القفل كالمغلاق . (٣) القنط والقنوط : اليأس .

(٤) السرى : السير ليلاً ، ويروى « عند الصباح يحمد القوم السرى » وهو مثل يضرب للرجل يحتمل المشقة رجاء الراحة ، وفي الميداني : « أن أول من قال ذلك خالد بن الوليد لما بعث إليه أبو بكر رضى الله عنهما وهو باليمامة أن سر إلى العراق ، فأراد سلوك المفازة ، فقال له رافع الطائي : قد سلكتها في الجاهلية ، هي خمس للإبل الواردة (فلاة خمس بكسر الخاء : بعد وردها حتى يكون ورد النعم اليوم الرابع سوى اليوم الذى شربت فيه) ولا أظنك تقدر عليها إلا أن تحمل من الماء ، فاشترى مائة شارب (الشارب الناقة المستنة) فمطشها ثم سقاها الماء حتى رويت ، ثم سلك المفازة ، حتى إذا مضى يومان وخاف العطش على الناس والخيل ، وخشى أن يذهب ما في بطون الإبل نحر الإبل ، واستخرج ما في بطونها من المساء ، فسقى الناس والخيل ومضى ، فلما كان في الليلة الرابعة . قال رافع : انظروا هل ترون سدرًا عظاماً (السدر بالكسر شجر النبق) فإن رأيتموها وإلا فهو الهلاك ، فنظر الناس قرأوا السدر فأخبروه فكبر وكبر الناس ، ثم هجموا على المساء فقال خالد رجوا منه « عند الصباح يحمد القوم السرى » .

(٥) الريث : الإبطاء ويروى تهب ريثاً ، وفي الميداني : « أن أول من قال ذلك مالك بن عوف ابن أبي عمرو بن عوف بن محلم الشيباني ، وكان سنان بن مالك بن أبي عمرو بن عوف بن محلم شام غيما ، فأراد أن يرحل بامرأته وهي أخت مالك بن عوف ، فقال له مالك : أين تظن يا أخي ؟ قال : أطلب موقع هذه السحابة . قال : لا تفعل فإنه ربما خيلت ، وليس فيها قطر ، وأنا أخاف عليك فأبى ، ومضى فعرض له مروان القرظ بن زنباع العبسي ، فأعجله عنها وانطلق بها ، وجعلها بين بناته وإخوته ولم يكشف =

من الحلم . ربيع القلب ما اشتهى . الهوى شديد العمى . الهوى الإله المعبود . الرأى
 نأثم ، والهوى يقظان . غلب عليك من دعا إليك . لا راحة لحسود ولا وفاء . لا سرور
 كطيب النفس . العمر أقصر من أن يحتمل الهجر . أحق الناس بالعمو أقدرهم على
 العقوبة . خير العلم ما نفع . خير القول ما اتبع . البطنة^(١) تذهب الفطنة . شر العمى
 عمى القلب . أوثق العرى كلمة التقوى^(٢) . النساء حبايل الشيطان . الشباب شعبة من
 الجنون . الشقى من شقى في بطن أمه . السعيد من وعظ بغيره . لكل امرئ في بدنه
 شغل . من يعرف البلاء يصبر عليه . المقادير تريك مالا يخطر ببالك . أفضل الزاد
 ما تزود للعاد . الفحل أحى للشول^(٣) . صاحب الحظوة غداً ، من بلغ المدى . عواقب
 الصبر محمودة . لا تبلى الغايات بالأمانى . الصريمة^(٤) على قدر العزيمة . الضيف يثنى أو
 يذم من تفكر اعتبر . كم شاهد لك لا ينطق . ليس منك من غشك . ما نظر لأمرئ مثل
 نفسه . ماسد فقرك إلا ملك يمينك . ما على عاقل ضيعة . الغنى في الغربة وطن . المقل في أهله
 غريب ، أول المعرفة الاختبار : يدك منك وإن كانت شلاء . أنفك منك وإن كان أجدع^(٥) .

= لها ستر فقال مالك بن عوف لسان : ما فعلت أختي ؟ قال : نفتني عنها الرماح ؛ فقال مالك : « رب عجلة
 تهب ريثا . ورب فروقة يدعى ليثا ، ورب غيث لم يكن غيثا » ، فأرسلها مثلاً ، يضرب للرجل يشتد حرصه
 على حاجة ، ويحرق فيها حتى تذهب كلها .

(١) البطنة : الامتلاء الشديد من الطعام . (٢) انظر خطبة عبد الله بن مسعود .

(٣) الشول : جمع شائلة وهي من الإبل ما أتى عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر فجف لبنها ،

وأحى : أفل من الجمالية . (٤) الصريمة : قطع الأمر (والعزيمة) .

(٥) ويروى « منك أنفك وإن كان أجدع » وفي الميداني : « أول من قال ذلك قنفذ بن جعونة المازني

للربيع بن كعب المازني . وذلك أن الربيع دفع فرسا كان قد أبر على الخيل (أى زاد) كرمًا وجودة إلى
 أخيه كيش ليأتي به أهله ؛ وكان كيش أنوك مشهورا بالحرق ، وكان رجل من بني مالك يقال له قراد
 ابن جرم قدم على أصحاب الفرس ليصيب منهم غرة فيأخذها ، وكان داهية فكث فيهم مقيما لا يعرفون
 نسبه ولا يظهره هو ، فلما نظر إلى كيش راكبا الفرس ركب نافته ثم عارضه ، فقال يا كيش : هل لك
 في عانة لم أر مثلها سمنًا ولا عظما (العانة : القطيع من حمر الوحش) وغير معها من ذهب ؟ فأما الآن
 (بضمين جمع أتان) فتروح بها إلى أهلك فتملأ قدورهم ، وتفرح صدورهم ، وأما العير فلا افتقار بعده =

من عُرِفَ بالكذب جاز صدقه^(١) . الصحة داعية السقم . الشباب داعية الهرم .
كثرة الصيَّاح من الفشل . إذا قَدُمَت المصيبة تُرِكَت التعزية . إذا قَدُمَ الإخاء
سَمَّجَ الثناء . العادة أملك من الأدب . الرفق يُمنِّ وألحرقُ شؤم . المرأة رِيحانة
وليست بقَهْرمانة^(٢) . الدال على الخير كفاعله . المحاجزة قبل المناجزة . قبل الرِّمائية تملأ
الكنائن . لكل ساقطة لا قطة . مَقْتَل الرجل بين فكَّيه . تركُّ الحركة غفلة . الصمت
حُبسة . مَنْ خَيْرٌ خَيْرٌ . إن تَسْمَعُ تَمَطَّر^(٣) . كفى بالمرء خِيانةً أن يكون أميناً للخونة .
قَيِّدُوا النِّعَمَ بالشكر . من يزرع المعروف يحصد الشكر . لا تغتر بمودة الأمير إذا غشك
الوزير . أعظم من المصيبة سوء الخلف منها . من أراد البقاء فليوطن نفسه على المصائب .
لقاء الأحبة مَسَلَةٌ للهم . قطيعة الجاهل كصلة العاقل . من رضى على نفسه كَثُرَ الساخط
عليه . قتلت أرضٌ جاهلها ، وقتل أرضاً عارفها . أدوا الداء الخلق الدني ، واللسان البدي .
إذا جعلك السلطان أخاً فاجعله رباً . احذر الأمين ولا تأمن الخائن . عند الغاية يُعْرَفُ
السَّبْقُ . عند الرِّهَانِ يُحْمَدُ المضمَر . السؤال وإن قلَّ ، أكثر من النوال وإن جلَّ . كافي
المعروف بمثله أو انشُرْه . لا خَلَّةَ^(٤) مَعَ عَيْلَةٍ . لا سروة مع ضرٍّ ، ولا صبر مع شكوى .

= قال له كيش : وكيف لنا به ؟ قال : أنا لك به ؛ وليس يدرك إلا على فرسك هذا ، ولا يرى إلا بليل ،
ولا يراه غيري ، قال كيش : فدونكه ؛ قال نعم وأمسك أنت راحتي ، فركب قراد الفرس وقال :
انتظرنى فى هذا المكان إلى هذه الساعة من غد ؛ قال : نعم ومضى قراد : فلم يزل كيش ينتظره حتى أمسى
من غده وجاع ، فلما لم ير له أثرا انصرف إلى أهله وقال فى نفسه : إن سألنى أخى عن الفرس قلت تحول
ناقة ، فلما رآه أخوه الربيع عرف أنه خدع عن الفرس ، فقال له : أين الفرس ؟ قال : تحول ناقة ؛ قال
فافل الصرح ؟ قال : لم أذكر السرج فاطلب له علة ، فصرعه الربيع ليقتله ؛ فقال له قنفذ بن جعونة :
ننه عما فاتك ، فإن أنفك منك وإن كان أجدع ؛ فذهبت مثلا .

- (١) فى مجمع الأمثال (٢ : ١٧٥) : « من عرف بالصدق جاز كذبه ؛ ومن عرف بالكذب لم
يجز صدقه » . (٢) القهرمان : هو كالحازن والوكيل الحافظ لما تحت يده ؛ والقائم بأموال الرجل
بلغة الفرس . (٣) أى إن تفتش أذنك للأقاويل تمطر وابلا منها .
(٤) الخلة : الصداقة المختصة لا خلل فيها . والعيلة الفقر .

ليس من العدل ، سرعة العَدْلِ^(١) . عبدٌ غيرك حرٌّ مثلك . لا يَعْدَمُ أُخْيَارَ ، من استشار .
الوضيع من وضع نفسه . المَهِينِ من نَزَلَ وُحْدَهُ من أكثر أهجر^(٢) . كفى بالمرء كذباً
أن يحدث بكل ما سمع . (العقد الفريد ١ : ٢٧٢)

* * *

ومن أمثال أكرم بن صيفي أيضاً :

« في الجريرة تَشْتَرِكُ العشيبة^(٣) . إذا قَرِعَ الفؤاد ذهب الرُقَاد . هل يَهْلِكُنِي
قَدُّ ما لا يعود ؟ أعوذ بالله أن يرميني امرؤ بدائه . رَبُّ كَلام ، ليس فيه اكتتام .
حافظ على الصديق ، ولو في الحريق . ليس يدسير ، تقويم العسير . إذا أردت النصيحة ،
فتأهب للظنة . متى تعالج مال غيرك تَسَامُ . غَثُّكَ خير من سمين غيرك . لا تَنْطَحُ جَمَّاهُ^(٤)
ذات قرْن . قد يُبْلَغُ الخضم بالخضم^(٥) . قد صَدَعَ الفِراقُ ، بين الرفاق . اسْتَأْنُوا^(٦)
أخاكم ، فإن مع اليوم غداً . الحُرُّ عَزُوفُ^(٧) . لا تطمع في كل ما تسمع .
(جمهرة الأمثال ٢ : ١٠٣)

٨٨ — نصيحة الجمانه بنت قيس بن زهير لجرها الربيع بن زياد

كان قيس بن زهير العَبْسِيُّ قد اشترى من مكة دِرْعاً حَسَنَةً ، تسمى ذات الفُضُول ،
وَوَرَدَ بها إلى قومه ، فرآها عمه الربيع بن زياد ، وكان سيد بني عَبَسَ ، فأخذها منه

(١) اللوم . (٢) الإهجار : الافحاش وهو أن يأتي في كلامه بالفحش .

(٣) مثل يضرب في الحث على المواثبة .

(٤) الجماء : الشاة بلاقرن مؤنث الأجم . (٥) الخضم : الأكل بأطراف الأسنان ، والخضم

الأكل بأقصى الأضراس ، ومعنى المثل : قد تدرك الغاية البعيدة بالرفق . (٦) انتظروا .

(٧) من عزفت نفسه عنه : إذا زهدت فيه وانصرفت عنه أي أنف راغب عن الدنيا .

غَضَبًا ، فقالت الجحانة بنت قيس لأبيها : دعني أناظِرُ جدِّي ، فإن صلح الأمر بينكما ، وإلا كنتُ من وراء رأيك ، فأذن لها ، فأنت الربيع فقالت :

« إذا كان قيسُ أبي ، فإنك يا ربيعُ جدِّي ، وما يجب له من حق الأبوَّةِ عليَّ ، إلا كالذي يجب عليك من حق البُنُوَّةِ لي ، والرأيُ الصحيحُ تَبِعْتَهُ العِنَايَةُ ، وتَجَلَّى عن حَضِيهِ النَصِيحَةُ ، إنك قد ظلمتَ قيسًا بأخذِ درعه ، وأجدُّ مكافأته إياك سوءَ عزمه ، والمعارضُ منتصرٌ ، والباديُ أظلمُ ، وليس قيسٌ بمن يُخَوِّفُ بالوعيد ، ولا يرُدُّعه التهديدُ ، فلا تركننَّ إلى منابذته ، فالخزمُ في متارَ كتبه ، والحربُ متلفَةٌ للعباد ، ذهابَةٌ بالطَّارفِ والتَّللاد ، والسلمُ أزرخى للبال ، وأبقى لأنفسِ الرجال ، وبحقِّ أقول : لقد صدَّعتُ بحكمٍ ، وما يدفعُ قولي إلا غيرُ ذِي فهمٍ » ، ثم أنشأت تقول :

أبي لا يَرَى أن يتركَ الدهرَ درعهُ وجدِّي يَرَى أن يأخذَ الدرْعَ من أبي
فرايُ أبي رأى البخيـلَ بماله وشيمةُ جدِّي شيمةُ الخائفِ الأبي

(بلاغات النساء ص ١٢٥)

٨٩ - وصف عصام الكندية أم إياس بنت عوف بن محم الشيباني

لما بلغ الحارث بن عمرو ملك كندة جمالاً أمَّ إياس بنت عوف بن محم الشيباني ، وكألها وقوَّة عقلها ، أراد أن يتزوجها ، فدعا امرأة من كندة ، يقال لها عصام ، ذات عقل ولسان ، وأدب وبيان ، وقال لها : اذهبي حتى تعلمي لي علم ابنة عوف ، فمضت حتى انتهت إلى أمها أمانة بنت الحارث ، فأعلمتها ما قدِّمت له ، فأرسلت أمانة إلى ابنتها وقالت : أي بُنيَّة ، هذه خالتك أتت إليك لتنظر إلى بعض شأنك ، فلا تستري عنها شيئاً أرادت النظر إليه ، من وجهه وخلق ، وناطقياً فيما استنظمتك فيه ، فدخلت عصام عليها ، فنظرت إلى مالم ترَّ عينها مثله قطُّ بهجةً وحسناً وجمالاً ، فإذا هي أكل الناس عقلاً ، وأفصحهم لساناً ، فخرجت من عندها وهي تقول : (تَرَكَ الخِدَاعَ مَنْ كَشَفَ

القِنَاعَ) فذهبت مثلاً ، ثم أقبلت إلى الحارث فقال لها : (ما ورائك يا عِصَامُ) ؟ فأرسلها مثلاً ، قالت : (صَرَّحَ الْمَخْضُ عَنِ الزُّبْدِ ^(١)) ، فذهبت مثلاً . قال أخبريني ، قالت : أخبرك صدقاً وحقاً :

« رأيت جبهة كالمراة الصقيلة ، يزينها شعر حالك ، كأذ ناب الخيل المصفورة ^(٢) ، إن أرسلته خلته السلاسل ، وإن مشطته قلت عنا قيد كرم جلاها الوابل ^(٣) ، وحاجبين كأنهما خطا بقلم ، أوسودا محمم ^(٤) قد تقوسا على عيني الظبية العبهر ^(٥) التي لم يرعها قانص ، ولم يذعرها قسورة ^(٦) ، بينهما أنف كحدت السيف المصقول ^(٧) ، لم يخنس به ^(٨) قصر ، ولم يمض ^(٩) به طول ، حفت به وجنتان كالأرجوان ^(١٠) ، في بياض تخض كالجمان ^(١١) ، شق فيه فم كالخاتم ، لذيد المبتسم ، فيه ثنأيا غر ، ذوات أشر ^(١٢) ، وأسنان تبدو كالدرر ، وريق كالخمر له نشر الروض بالسحر ، يتقلب فيه لسان ذو فصاحة وبيان ، يجر كه عقل وافر ، وجواب حاضر ، تلتقى دونه شفقتان حراوان كالورد ، يجلبان ريقا كالشهد ، تحت ذلك عنق كإبريق الفضة ، ركب في صدر كصدر تمثال دمية ^(١٣) ، يتصل بها عضدان ممتلئان لحماً ، مكتنزان ^(١٤) شحماً ، وذراعان ليس فيهما عظم يحس ، ولا عرق يحس ، ركبت فيهما كفن ، دقيق

- (١) مخض اللبن : أخذ زبده ، والتصريح : تبين الأمر ، وهو مثل يضرب للأمر إذا انكشف وتبين . (٢) في الأصل « المقصورة » وهو تحريف وصوابه « المصفورة » . (٣) المطر الشديد الضخم القطر . (٤) الحمم : الفحم . (٥) العبهر والعبهر : الرقيقة البشرة الناصعة البياض ، والسمينة الممتلئة الجسم . (٦) القسورة : الرماة من الصيادين ، الواحد قسور . (٧) في مجمع الأمثال « الصنيع » وهو السيف الصقيل المجرب . (٨) خنس عنه كضرب وكرم تأخر « والخنس : محرمة تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع قليل في الأرنبة ، خنس كفرح فهو أخنس وهي خنساء » . (٩) وفي جمهرة الأمثال « ولم يعن » . (١٠) الأرجوان : صبغ أحمر . (١١) الجمان : اللؤلؤ ، أو هنوات أشكال اللؤلؤ من فضة . (١٢) أشر الأسنان : التحزيز الذي فيها . (١٣) الدمية : الصورة المنقشة من الرخام أو عام . (١٤) اكتنز : اجتمع وامتلاء .

قَصَبَهُمَا ، لَيْنٌ عَصَبُهُمَا ، يُعْقَدُ إِنْ شئتَ مِنْهُمَا الْأَنَامِلُ ، وَتُرَكَّبُ الْفُصُوصُ فِي حُمْرِ
الْمَفَاصِلِ ، وَقَدْ تَرَبَّعَ فِي صَدْرِهَا حُقَّانٌ ، كَأُنْهُمَا رُمَانَتَانِ ، يَخْرِقَانِ عَلَيْهَا ثِيَابَهَا ، تَحْتَ
ذَلِكَ بَطْنٌ طَوِيٌّ كَطَيِّ الْقِبَاطِيِّ ^(١) الْمُدْبِجَةِ ، كَمِيٍّ عَكْنًا ^(٢) كَالْقِرَاطِيِّسِ الْمُدْرَجَةِ ^(٣)
تَحِيطُ تِلْكَ الْعُكْنُ بِسُرَّةِ كَمُدْهِنٍ ^(٤) الْعَاجِ الْمَجْلُوتِ ، خَلْفَ ذَلِكَ ظَهْرٌ كَالْجَدْوَلِ ،
يَنْتَهِي إِلَى خَصْرِ ، لَوْلَا رَحْمَةُ اللَّهِ لَأَنْبَتَرَ ، تَحْتَهُ كَفَلٌ ^(٥) يُقْعِدُهَا إِذَا نَهَضَتْ ،
وَيُنْهَضُهَا إِذَا قَعَدَتْ ، كَأَنَّهُ دِعْصٌ ^(٦) رَمَلٍ ، لَبَدَهُ سَقُوطُ الطَّلِّ ، يَحْمِلُهُ فِخْدَانٌ لَفَّائِانٌ ^(٧)
كَأُنْهُمَا نَضِيدُ الْجُمَانِ ، تَحْتَهُمَا سَاقَانِ ، خَدَلَتَانِ ^(٨) كَالْبَرْدِيِّ ، وَشَيْتًا بِشَعْرٍ أَسْوَدَ ،
كَأَنَّهُ حَلِيقُ الزَّرْدِ ، يَحْمِلُ ذَلِكَ قَدَمَانِ ، كَحَذْوِ اللِّسَانِ ، فَتُبَارِكُ اللَّهُ مَعَ صَفْرِهَا
كَيْفَ تَطْيِقَانِ حَمْلَ مَا فَوْقَهُمَا ، فَأَمَّا مَاسُوِيٌّ ذَلِكَ فَتَرَكْتَ أَنْ أَصْفَهُ ، غَيْرَ أَنَّهُ أَحْسَنُ
مَا وَصَفَهُ وَأَصْفُ بِنَظْمٍ أَوْ نَثْرٍ » ، فَأَرْسَلَ الْمَلِكُ إِلَى أَبِيهَا فَنَظَّمَهَا ، فَرَوَّجَهُ إِيَّاهَا ^(٩) .

(العقد الفريد ٣ : ٢٣٥ ، ومجمع الأمثال ٢ : ١٤٣ ، وجمهرة الأمثال ٢ : ٢٧)

- (١) القباطي (بضم الأول مع تشديد الآخر) وقباطي (بفتح الأول مع تخفيف الآخر) جمع قبطية (بالضم على غير قياس وقد تكسر) : ثياب كتان بيض رفاق كانت تعمل في مصر .
(٢) العكن : جمع عكنة (كفرصة) وهي ما انطوى وتثنى من لحم البطن سمنا . (٣) المطوية .
(٤) المدهن : تارورة الدهن . (٥) عجز .
(٦) الدعص : الكشيبي من الرمل المجتمع . (٧) الأغماء : الفخذ الضخمة (والضخمة الفخذين) .
(٨) ساق خدلة : تمتك ضخمة (والخدلة المرأة الغليظة الساق المستديرتها وفي العقد : « خد لجتان » .
(٩) بفتح الحاء والذال وتشديد اللام) والجدلة : المرأة الممتلئة الذراعين والساقين .
(٩) في مجمع الأمثال وجمهرة الأمثال ، أن الذي تزوج أم إياس هو الحارث بن عمرو ، والحارث هذا هو جد امرئ القيس ، وذكر صاحب العقد أن الذي تزوجها هو عمرو بن حجر ، وأنها ولدت له الحارث ابن عمرو جد امرئ القيس غير أنا نلاحظ أنه قال في مقدمة هذا الوصف : « ثم أقبلت عصام إلى الحارث فقال لها ما وراثةك يا عصام ؟ . . . الخ » .

٩٠ - وصية أمامة بنت الحارث لابنتها أم إياس

فما أُحْمِلت إلى زوجها قالت لها أمها أمامة بنت الحارث :

« أَى بِنِيَّةُ : إِنْ الْوَصِيَّةُ لَوْ تَرَكْتُ لِفَضْلِ أَدَبٍ ، تَرَكْتُ لَدَلِكِ مِنْكَ ، وَلَكِنهَا تَذَكْرَةٌ لِلْعَافِلِ ، وَمَعُونَةٌ لِلْعَاقِلِ ، وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً اسْتَعْنَتِ عَنِ الزَّوْجِ لِفَنِيِّ أَبْوَيْهَا ، وَشِدَّةِ جَاجَتِهَا إِلَيْهَا ، كُنْتُ أَغْنِي النَّاسَ عَنْهُ ، وَلَكِنِ النِّسَاءَ لِلرِّجَالِ خُلِقْنَ ، وَلَهُنَّ خُلِقَ الرِّجَالُ .

أَى بِنِيَّةُ : إِنَّكَ فَارَقْتِ الْجَوْ الَّذِي مِنْهُ خَرَجْتِ ، وَخَلَفْتِ الْعُشَّ الَّذِي فِيهِ دَرَجْتِ ، إِلَى وَكْرٍ لَمْ تَعْرِفِيهِ ، وَقَرِينَ لَمْ تَأَلْفِيهِ ، فَأَصْبِحْ بِمِلْكِهِ (١) عَلَيْكَ رَقِيْبًا وَمَلِيْكًا ، فَكُونِي لَهُ أُمَّةً يَكُنْ لَكَ عِبْدًا وَشِيْكًا (٢) . يَا بِنِيَّةُ : احْمَلِي عَنِّي عَشْرَ خِصَالٍ تَكُنْ لَكَ ذُخْرًا وَذِكْرًا ، الصَّحْبَةُ بِالْقَنَاعَةِ ، وَالْمَعَاشِرَةُ بِحَسَنِ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ ، وَالتَّعَهُدُ لِمَوْعِدِ عَيْنِهِ ، وَالنَّفَقْدُ لِمَوْضِعِ أَنْفِهِ ، فَلَا تَقَعِ عَيْنُهُ مِنْكَ عَلَى قَبِيْحٍ ، وَلَا يَشَمَّ مِنْكَ إِلَّا أَطِيْبَ رِيْحٍ ، وَالكَحْلُ أَحْسَنُ الْحَسَنِ ، وَالْمَاءُ أَطْيَبُ الطَّيِّبِ الْمَفْقُودِ ، وَالتَّعَهُدُ لَوْقَتِ طَعَامِهِ ، وَالهُدُوُّ عَنْهُ عِنْدَ مَنَامِهِ ، فَإِنْ حَرَارَةُ الْجُوعِ مَلْهَبَةٌ ، وَتَفْغِيصُ النَّوْمِ مَغْضَبَةٌ ، وَالِاحْتِفَازُ بِبَيْتِهِ وَمَالِهِ ، وَالِإِرْعَاءُ عَلَى نَفْسِهِ وَحَشَمِهِ وَعِيَالِهِ ، فَإِنْ الِاحْتِفَازُ بِالْمَالِ حَسَنُ التَّقْدِيرِ ، وَالِإِرْعَاءُ عَلَى الْعِيَالِ وَالْحَشْمُ جَمِيْلُ حَسَنِ التَّقْدِيرِ ، وَلَا تَفْشِيْ لَهُ سِرًّا ، وَلَا تَعْصِيْ لَهُ أَمْرًا ، فَإِنَّكَ إِنْ أَفْشَيْتِ سِرَّهُ ، لَمْ تَأْمَنِيْ غَدْرَهُ ، وَإِنْ عَصَيْتِ أَمْرَهُ ، أَوْغَرْتِ صَدْرَهُ ، ثُمَّ انْتَقِيْ مِنْ

(١) أَمَلَكْتُ إِيَّاهَا : زَوْجَهُ فَلَكِهَا مَلِكًا ، مِثْلُ الْمَيْمِ .

(٢) الْوَشِيْكُ ، السَّرِيْعُ : أَى يَكُنْ عِبْدًا سَرِيْعَ الْإِجَابَةِ .

ذلك الفَرَحَ إن كان تَرِحًا ، والا ككتابَ عنده إن كان فَرِحًا ، فإن الخصلة الأولى من
التقصير ، والثانية من التكدير ، وكوني أشد ما تكونين له إعظمتا ، يكن أشدَّ
ما يكون لك إكرامًا ، وأشدَّ ما تكونين له موافقة ، يكن أطولَ ما تكونين له
مُراقبةً ، واعلمى أنك لا تصلين إلى ما تحبين ، حتى تُؤثري رضاه على رضاك ، وهواه
على هواك فيما أحببت وكرهت ، والله ينجي لك .

(مجمع الأمثال ٢ : ١٤٣ ، والمقد الفريد ٣ : ٢٢٣)

الخطبة والوصايا

في

عصر صدر الإسلام

خطب النبي صلى الله عليه وسلم

١ - أول خطبة خطبها بمكة حين دعا قومه

حَمْدُ اللَّهِ وَاتْنِي عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ :

« إِنَّ الرَّائِدَ ^(١) لَا يَكْذِبُ أَهْلَهُ ، وَاللَّهِ لَوْ كَذَبْتُ النَّاسَ جَمِيعًا مَا كَذَبْتُكُمْ ،
وَلَوْ غَرَّرْتُ النَّاسَ جَمِيعًا مَا غَرَّرْتُكُمْ ، وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِنِّي لِرَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ
خَاصَّةٌ ، وَإِلَى النَّاسِ كَافَّةٌ ، وَاللَّهُ لَمَوْئِنٌّ كَمَا تَنَامُونَ ، وَلَتُبْهَمُونَ كَمَا تَسْتَيْقِظُونَ ،
وَلَتُحَاسِنَنَّ بِمَا تَعْمَلُونَ ، وَلَتُجْزَوْنَ بِالْإِحْسَانِ إِحْسَانًا ، وَبِالسُّوءِ سُوءًا ، وَإِنَّهَا لَجَنَّةٌ أَبَدًا ،
أَوْ لِنَارٍ أَبَدًا » .

(السيرة الخلية ١ : ٢٧٢ ، والكامل لابن الأثير ٢ : ٢٧)

(١) المرسل في طلب الكلاذ .

٢ - أول خطبة خطبها بالمدينة

حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال :

« أما بعد أيها الناس فقدّموا لأنفسكم ، تعلمنّ والله ليصعقنّ أحدكم ، ثم ليدعنّ غمّه ليس لها راع ، ثم ليقولن له ربه وليس له ترّجان ولا حاجب يحجبه دونه : ألم يأتك رسولى فبلغك ، وآتيتك مالا ، وأفضلت عليك ، فما قدّمت لنفسك ؟ فلينظرن يميناً وشمالاً ، فلا يرى شيئاً ، ثم لينظرن قدّامه فلا يرى غير جهنّم ، فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ، ولو بشقّ من تمرّة فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة ، فإن بها تُجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف^(١) ، والسلام عليكم وعلى رسول الله ورحمة الله وبركاته . »

(سيرة ابن هشام ١ : ٣٠٠)

٣ - خطبته في أول جمعة جمعها بالمدينة

« الحمد لله أحمدُهُ واستعينه وأستغفره وأستهديه وأؤمن به ولا أكفرُهُ وأعادي من يكفرُهُ ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى والنور والموعظة على فترّة من الرسل ، وقلة من العلم ، وضلالة من الناس ، وانقطاع من الزمان ، ودنو من الساعة ، وقرب من الأجل ، من يطع الله ورسوله فقد رشّد^(٢) ، ومن يعصهم ما فقد غوى وفرط ، وضلّ ضلالاً بعيداً ، وأوصيكم بتقوى الله ، فإنه خير ما أوصى به المسلم المسلم أن يحضه على الآخرة ، وأن يأمره بتقوى الله ، فاحذروا ما حذركم الله من نفسه ، ولا أفضل من ذلك نصيحة ، ولا أفضل من ذلك ذكراً ، وإن

(١) ضعف الشيء مثله ، وضعفاه مثلاه ، أو الضعف المثل إلى ما زاد ، ويقال لك ضعفه يريدون مثليه

(٢) كنصر وفرح . وثلاثة أمثاله لأنه زيادة غير محصورة .

تقوى الله لمن عمل به على وَجَلٍ ومخافة من ربه، عونٌ صِدْقٌ على ما تبغون من أمر الآخرة، ومن يصلح الذي بينه وبين الله من أمره في السرِّ والعلانية لا ينوى بذلك إلا وَجَهَ الله، يكن له ذكراً في عاجل أمره، وَذُخْرًا فيما بعد الموت حين يفتقر المرء إلى ما قدَّم، وما كان من سوى ذلك يودُّ لو أن بيده وبينه أمدًا بعيداً، ويحذركم الله نفسه، والله رءوف بالعباد، والذي صَدَقَ قَوْلُهُ، وَأَنْجِزْ وَعْدَهُ لَا خُلْفَ لَذَلِكَ، فإنه يقول عز وجل: « مَا يَبْدُلُ الْقَوْلُ لَدَىَّ، وَمَا أَنَا بِظَالِمٍ لِّلْعَبِيدِ » فاتقوا الله في عاجل أمركم وآجله، في السر والعلانية، فإنه من يَتَّقِ الله يُسَكِّرْهُ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ، وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا، ومن يتق الله فقد فاز فوزاً عظيماً، وإن تقوى الله يوقى مقتته، ويوقى عقوبته، ويوقى سُخْطَهُ، وإن تقوى الله يبيِّض الوجوه، ويرضى الربَّ، ويرفع الدرجة، خذوا بِحِطَّتِكُمْ وَلَا تَفْرُطُوا فِي جَنبِ اللهِ، قد علمكم الله كتابه، وَنَهَجَ لَكُمْ سَبِيلَهُ، ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين، فَأَحْسِنُوا كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكُمْ، وَعَادُوا أَعْدَاءَهُ، وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ، هو اجتباكم وسماكم المسلمين، لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْتِنَا، وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَن بَيْتِنَا، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، فأكثرُوا ذِكْرَ اللهِ، وَأَعْمَلُوا مَا بَعْدَ الْيَوْمِ، فإنه من يُصْلِحْ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ يَكْفِهِ اللهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ، ذلك بأن الله يقضى على الناس، ولا يقضون عليه، يَمْلِكُ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ، اللهُ أَكْبَرُ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَظِيمِ .

(تاريخ الطبري ٢ : ٢٥٥)

٤ — خطبة له يوم أحد

قام عليه الصلاة والسلام فخطب الناس فقال :

« أيها الناس أوصيكم بما أوصاني الله في كتابه، من العمل بطاعته، والتناهي عن محاربه، ثم إنكم اليوم بمنزل أجر وذخرٍ لمن ذكر الذي عليه، ثم وطن نفسه على الصبر واليقين، والجد والنشاط، فإن جهاد العدو شديدٌ كربته، قليلٌ من يصبر عليه إلا

من عزم له على رشده ، إن الله مع من أطاعه ، وإن الشيطان مع من عصاه ، فاستفتحوا أعمالكم بالصبر على الجهاد ، واتمسوا بذلك ما وعدكم الله ، وعليكم بالذي أمركم به ، فإنى حريص على رشدكم . إن الاختلاف والتنازع والتبسيط من أمر العجز والضعف ، وهو مما لا يحبه الله ، ولا يعطى عليه النصر .

أيها الناس إنه قُذِفَ في قلبي أن من كان على حرام فرغب عنه ابتغاء ما عند الله غفر له ذنبه ، ومن صلى على محمد وملائكته عشرا ، ومن أحسنَ وقع أجره على الله في عاجل دنياه ، أو في آجل آخرته ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فعليه الجمعة يوم الجمعة ، إلا صبيا أو امرأة أو مريضا أو عبدا مملوكا ، ومن استغنى عنها استغنى الله عنه ، والله غنى حميد .

ما أعلم من عمل يقربكم إلى الله إلا وقد أمرتكم به ، ولا أعلم من عمل يقربكم إلى النار إلا وقد نهيتكم عنه ، وإنه قد نَفَثَ الرُّوحَ الأمين في رُوعِي أنه إن تموت نفس حتى تستوفى أقصى رزقها لا ينقص منه شيء وإن أبطأ عنها ، فاتقوا الله ربكم ، وأجلوا في طلب الرزق ، ولا يحملنكم استبطاؤه على أن تطلبوه بمعصية ربكم ، فإنه لا يُقَدَّرُ على ما عنده إلا بطاعته ، قد بين لكم الحلال والحرام ، غير أن بينهما شَبَها من الأمر لم يعلمها كثير من الناس إلا من عَصَم ، فمن تركها حفظ عرضه ودينه ، ومن وقع فيها كان كالراعى إلى جنب الحمى أو شك أن يقع فيه ، وليس ملاك إلا وله حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه ، والمؤمن من المؤمنين كالرأس من الجسد ، إذا اشتكى تداعى إليه سائر جسده ، والسلام عليكم .

(شرح ابن أبي الحديد ٣ : ٣٦٥)

٥ - خطبته بالخيف

وخطب بالخيف من مئى فقال :

« نَضْرَ (١) الله عبداً سمعَ مقاتلي فوعاها ، ثم أذاها إلى من لم يسمعها ، فرب حاملِ
فقهٍ لافقه له ، ورب حامل فقهٍ إلى من هو أفقه منه ، ثلاث لا يغلُّ (٢) عليهنَّ قلبُ المؤمنِ :
إخلاصُ العَمَلِ لله ، والنصيحةُ لِأولى الأمر ، ولزومُ الجماعة ، إنَّ دعوتهم تكون من
ورائِهِ ، ومن كان همه الآخرةَ جمعَ الله شمله ، وجعل غناهُ في قلبه ، وأتته الدنيا وهى
راغمة ، ومن كان همه الدنيا فرَّقَ الله أمره ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأتِهِ من الدنيا
إلا ما كُتِبَ له . » (إعجاز القرآن ص ١١٢)

٦ - خطبة له عليه الصلاة والسلام

ومن خطبه أيضاً أنه خطب بعد العصر فقال :

« ألا إنَّ الدنيا خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ ، ألا وإنَّ الله مستخلفكم فيها فناظرٌ كيف تعملون
فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء ، ألا لا يمتنعنَّ رجلاً مخافةُ الناس أن يقول الحق إذا علمه .
ولم يزل يخطب حتى لم تبق من الشمس إلا حمرة على أطراف السَّعَف فقال : إنه لم يبق
من الدنيا فيما مضى إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى . » (إعجاز القرآن ص ١١٣)

(١) من النضرة والنضارة : وهى الحسن .

(٢) غل صدره يغل كضرب غلا : وهو الحقد والضغن .

٧ - خطبة له عليه الصلاة والسلام

« إن الحمد لله أحمدُه وأستعينه ، نعوذ بالله من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا ، مَنْ يَهْدِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ ، وَمَنْ يُضِلِّ فَلَا هَادِيَ لَهُ ، وأشهد أن لا إلهَ إلا اللهُ وحده لا شريك له ، إنَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ ، قد أفلح مَنْ زَيَّنَهُ اللهُ فِي قَلْبِهِ ، وأدخله فِي الإسلام بعد الكفر ، واختاره على ما سواه من أحاديثِ النَّاسِ ، إنه أَصْدَقُ الْحَدِيثِ وَأَبْلَغُهُ ، أَحِبُّوا مَنْ أَحَبَّ اللهُ ، وَأَحِبُّوا اللهُ مِنْ كُلِّ قَلُوبِكُمْ ، وَلَا تَمَلُّوا كَلَامَ اللهِ وَذِكْرَهُ ، وَلَا تَقْسُوا عَلَيْهِ قُلُوبَكُمْ ، اعبُدُوا اللهُ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، اتقُوا اللهُ حَقَّ تَقَاتِهِ ^(١) ، وَصَدَّقُوا صَالِحَ مَا تَعْمَلُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ ، وَتَحَابُّوا بِرُوحِ اللهِ بَيْنَكُمْ ، والسلام عليكم ورحمة الله . »

(إعجاز القرآن ص ١١٠)

٨ - خطبة له عليه الصلاة والسلام

« أيها الناس إن لكم معالِمَ ^(٢) فانتهاوا إلى معالِمِكُمْ ، وإن لكم نهايةً فانتهاوا إلى نهايةتِكُمْ ، فإن العبد بين مخافتين ، أَجَلٍ قد مضى لا يدري ما اللهُ فاعلٌ فيه ، وَأَجَلٍ باقٍ لا يدري ما اللهُ قاضٍ فيه ، فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبية قبل الكبر ، ومن الحياة قبل الممات ، فوالذي نفسُ مُحَمَّدٍ بيده : ما بعد الموت من مُسْتَعْتَبٍ ^(٣) ، ولا بعد الدنيا من دارٍ إلا الجَنَّةُ أو النار . »

(تهذيب الكامل ١ : ٥ ، إعجاز القرآن ١١٠ ، البيان والتبيين ١ : ١٦٥ ، عيون الأخبار م ٢ : ص ٢١٣ ، وغرر الخصائص الواضحة ١٥٠) .

(١) التقاة : التقوى .

(٢) جمع معلم كذهب ؛ وهو الأثر يستدل به على الطريق ؛ والمراد حدود الشريعة المطهرة .

(٣) استعته : أعطاه العتبي (وهي الرضا والصفح) وطلب إليه العتبي .

٩ - خطبة له عليه الصلاة والسلام

« أيها الناس كأنّ الموت فيها على غيرنا قد كُتِبَ ، وَكَانَ الْحَقُّ فِيهَا عَلَى غَيْرِنَا قَدْ وَجَبَ ، وَكَانَ الَّذِي نُشِيْعُ مِنَ الْأَمْوَاتِ سَفَرٌ ، عَمَّا قَلِيلٍ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ، نَبُوهُمْ أَجْدَانَهُمْ ، وَنَأْكُلُ مِنْ تُرَائِهِمْ ، كَأَنَّا مُخَلَّدُونَ بَعْدَهُمْ ، وَنَسِينَا كُلَّ وَاعِظَةٍ ، وَأَمِنَّا كُلَّ جَائِحَةٍ ^(١) ، طُوبَى ^(٢) لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عِيُوبِ النَّاسِ ، طُوبَى لِمَنْ أَنْفَقَ مَالًا ا كَتَسَبَهُ مِنْ غَيْرِ مَعْصِيَةٍ ، وَجَالَسَ أَهْلَ الْفِقْهِ وَالْحِكْمَةِ ، وَخَالَطَ أَهْلَ الذِّلِّ وَالْمَسْكِنَةِ ، طُوبَى لِمَنْ زَكَّتْ وَحَسُنَتْ خَلِيقَتُهُ ، وَطَابَتْ سَرِيرَتُهُ ، وَعَزَلَّ عَنِ النَّاسِ شَرَّهُ ، طُوبَى لِمَنْ أَنْفَقَ الْفَضْلَ مِنْ مَالِهِ ، وَأَمْسَكَ الْفَضْلَ مِنْ قَوْلِهِ ، وَوَسِعَتْهُ السُّنَّةُ ، وَلَمْ تَشْهَوِهِ الْبِدْعَةُ » .

(صبح الأعشى ١ : ٢١٣)

١٠ - خطبة له عليه الصلاة والسلام

أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ ، تَوَبُّوا إِلَى رَبِّكُمْ قَبْلَ أَنْ تَمُوتُوا ، وَبَادِرُوا الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ قَبْلَ أَنْ تُشْغَلُوا ، وَصَلُّوا الَّذِي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ رَبِّكُمْ بِكَثْرَةِ ذِكْرِكُمْ لَهُ ، وَكَثْرَةِ الصَّدَقَةِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ ، تُرْزَقُوا وَتُؤَجَّرُوا وَتُنَصَّرُوا . وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - قَدْ افْتَرَضَ عَلَيْكُمْ الْجُمُعَةَ ، فِي مَقَامِي هَذَا ، فِي عَامِي هَذَا ، فِي شَهْرِي هَذَا ، إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، حَيَاتِي وَمِنْ بَعْدِ مَوْتِي ، فَمَنْ تَرَكَهَا وَلَهُ إِمَامٌ ، فَلَا جَمَعَ اللَّهُ لَهُ شَمْلَهُ ، وَلَا بَارَكَ لَهُ فِي أَمْرِهِ ، أَلَا وَلَا حِجَّ لَهُ ، أَلَا وَلَا صَوْمَ لَهُ ، أَلَا وَلَا صَدَقَةَ لَهُ ، أَلَا وَلَا بِرَّ لَهُ ، أَلَا وَلَا يَوْمٌ أَعْرَابِيٌّ مُهَاجِرًا ، أَلَا وَلَا يَوْمٌ فَاجِرٌ مُؤْمِنًا ، إِلَّا أَنْ يَقْهَرَهُ سُلْطَانٌ يَخَافُ سَيْفَهُ أَوْ سَوْطَهُ » .

(إعجاز القرآن ص ١١٠)

(١) الجوح : الإهلاك والاستئصال كلاجتياح . (٢) مؤنث أطيب ؛ والحسنى ، والخير ، وشجرة في الجنة أو الجنة .

١١ - خطبته يوم فتح مكة

وقف على باب الكعبة ثم قال : « لا إلهَ إلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شريكَ له ، صدقَ وَعْدَهُ ، ونصرَ عَبْدَهُ ، وهزمَ الأحزابَ وَحْدَهُ ، ألاَّ كلُُّ مأثُرةٍ ^(١) أو دمٍ أو مالٍ يَدْعَى ، فهو تحتَ قَدَمَيَّ هَاتينِ ، إلاَّ سِدَانَةَ البَيْتِ ^(٢) ، وسِقَايَةَ الحَاجِّ ، ألاَّ وَقَتْلُ الخَطَا مِثْلُ العَمْدِ بالسُّوْطِ والعِصَا ، فِيهِمَا اللِّدِيَةُ مُغْلَظَةٌ ، مِنْهَا أربعمونَ خَلِقةً ^(٣) فِي بَطُونِهَا أولادها ، يامعشرَ قريشَ ، إنَّ اللهُ قد أَذْهَبَ عَنْكُم نَجْوَةَ الجَاهِلِيَّةِ ، وَتَعَظَّمَهَا ^(٤) بِالآبَاءِ ، النَّاسُ مِنْ آدَمَ ، وآدَمُ خَلِيقٌ مِنْ تَرَابٍ ، ثم تلا : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) الآية يامعشر قريش (أو يأهل مكة) ما ترون أنى فاعل بكم؟ قالوا خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم، قال : اذهبوا فانتم الطلقاء .

(تاريخ الطبرى ٣ : ١٢٠ ، وإعجاز القرآن ص ١١٢ ، والكامل لابن الأثير ٢ : ١٢١ ، وسيرة ابن هشام ٢ : ٢٧٣) .

١٢ - خطبته فى الاستسقاء

روى أن أعرابياً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله فى عام جدب ، فقال : أتيناك يا رسول الله ، ولم يبقَ لنا صبي برّ نَضِيع ، ولا شَارِفٌ ^(٥) تجترُّ ثم أنشده :
أَتَيْنَاكَ وَالْعَذْرَاءُ بِذِي لَبَاءِهَا ^(٦) وَقَدْ شُغِفَتْ أُمُّ الرُّضِيعِ عَنِ الطِّفْلِ
وَأَلْقَى بِكَفِّهِ الفَتَى لِاسْتِسْقَاةٍ مِنَ الْجُوعِ حَتَّى مَا يُمِرُّ وَلَا يَحْمِلِي ^(٧)

(١) المأثرة : المكربة . (٢) خدمة الكعبة . (٣) الخلفة : الحامل من النياق .
(٤) تعظم : تكبر . (٥) الشارف من النوق : المسنة الهرمة كالشارفة . (٦) أى يدمى صدرها لامتهانها نفسها فى الخدمة حيث لا يجد مانع عليه من يحملها من الجذب وشدة الزمان . (٧) أى ما يضر وما ينفع ، أو ما يأتى بكلمة ولا فعله مرة ولا حلوة .

ولا شيء مما يأكل الناس عندنا سوى الحنظل العامى والعلهز الفسل^(١)
وليس لنا إلا إليك فرارنا وأين فرار الناس إلا إلى الرثيل؟
فقام النبي صلى الله عليه وسلم يجر رداءه حتى صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وقال:
« اللهم أسقنا غيثاً مغيثاً، مريئاً هنيئاً مريئاً^(٢)، سحاً سجالاً^(٣)، غدقاً^(٤)
طبقة^(٥)، ديماً درراً^(٦)، تخيي به الأرض، وتنبئت به الزرع، وتندر به الضرع،
واجله سقياً نافعةً، عاجلاً غير راث^(٧)».

فوالله ما رد رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله يده إلى تحريه، حتى ألقت السماء
أرواقها^(٨)، وجاء الناس يضحجون: الفرق الفرق يا رسول الله، فقال: اللهم حوالينا
ولا علينا! فأنجاب^(٩) السحاب عن المدينة، حتى استدار حولها كالإكليل، فضحك
رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه^(١٠). (شرح ابن أبي الحديد م ٣ ص ٢١٦)

١٣ - خطبته في حجة الوداع

« الحمد لله محمده واستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا،
ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلله فلا هادي له،
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أوصيكم

(١) العامى: الذى أتى عليه عام، قال الشاعر: « من أن شجاك طلال عامى » والعلهز: طعام
من الدم والوبر كان يتخذ في المجاعة، والفسل: الرىء الرذل من كل شيء.
(٢) المربع الحصب، أى تخصب به الأرض التى ينزل عليها. (٣) أى متداولاً بين البلاد، يقال
كل منها نصيبه منه، والسجل بالفتح: النصيب والدلو المماومة العظيمة، ويقال الحرب سجال: أى نصرتها
بين القوم متداوله سجل منها على هؤلاء وآخر على هؤلاء. (٤) الغدق: الماء الكثير.
(٥) أى ماثلاً للأرض مغطياً لها، يقال غيث طبق: أى عام واسع يطبق الأرض.
(٦) هو جمع درة بالكسر، يقال للسحاب درة: أى صب واندفاق، وقيل الدرر: الدار، كقوله تعالى:
« دَبَّتْ قِيَا » أى قانما.

(٧) أى غير بطيء. (٨) ألقت السحابة أرواقها: أى مطرها ووبلها.

(٩) انكشف. (١٠) النواحد: أقصى الأضراس.

عباد الله بتقوى الله ، وأحسكم على طاعته ، وأستفتح^(١) بالذى هو خير ، أما بعد : أيها الناس اسمعوا مني أبيض لكم ، فإني لا أدري لعلى لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا . أيها الناس : إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم ، إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا . ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد ! فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها ، وإن ربا الجاهلية موضوع ، وإن أول ربا أبدا به ربا عمى العباس بن عبد المطلب ، وإن دماء الجاهلية موضوعة ، وإن أول دم نبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب^(٢) ، وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية ، والعمد قود^(٣) ، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير ، فمن زاد ، فهو من أهل الجاهلية .

أيها الناس : إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه ، ولكنه^(٤) قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم ، أيها الناس : إنما النسيء^(٥) زيادة

(١) الاستفتاح : الانتاح والاستنصار . (٢) وكان مسترضعا في بني ليث فقتلته بنو هذيل .

(٣) القود : القصاص ، أى من قتل عمدا يقتل . (٤) في رواية الكامل لابن الأثير : « إن

الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه أبدا ، ولكنه يطاع فيما سوى ذلك ؛ وقد رضى بما تحقرون من أعمالكم » . (٥) أى تأخير حرمة شهر إلى آخر ، وذلك أن العرب في الجاهلية كانوا إذا جاء شهر حرام وهم محاربون أحلوه ، وحرّموا مكانه شهرا آخر فيحلون المحرم ، ويحرمون صفرا ، فإن احتاجوا أحلوه وحرّموا ربيعا الأول ، وهكذا حتى استدار التحريم على الشهور السنة كلها ، وكانوا يعتبرون في التحريم مجرد العدد لا خصوصية الأشهر المعلومه ، وأول من أحدث ذلك جنادة بن عوف الكناني ، كان يقوم على جمل في الموسم فينادى : إن آلتكم قد أحلت لكم المحرم فأحلوه ، ثم ينادى في القبائل : إن آلتكم قد حرمت عليكم المحرم . فحرموه - زيادة في الكفر ، أى كفر آخر ضمّوه إلى كفرهم . نيواطئوا : أى يوافقوا عدة الأشهر الأربعة المحرمة ، وكانوا ربما زادوا في عدد الشهور بأن يجعلوها ثلاثة عشر أو أربعة عشر ليتسع لهم الوقت ويجعلوا أربعة أشهر من السنة حراما أيضا ، ولذا نص على العدد المبين في الكتاب والسنة ؛ وكان وقت حجهم يختلف من أجل ذلك ، وكان في السنة التاسعة التى حج فيها أبو بكر بالناس في ذى القعدة ، وفي حجة الوداع في ذى الحجة ، وهو الذى كان على عهد إبراهيم الخليل ومن قبله من الأنبياء ، ولذا قال عليه الصلاة والسلام « إن الزمان قد استدار . . . الخ » - راجع تفسير الألوسى ج ٣ ص ٣٠٥

في الكفر يضلُّ به الذين كفروا يجلُّونهُ عامًّا ويحرمونه عامًّا ليواطئوا عدَّة ما حرَّم الله ،
وإن الزمان قد أستدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند
الله اثنا عشر شهرًا في كتاب الله ، يوم خلق السموات والأرض ، منها أربعة حرُّم ،
ثلاثة متواليات ، ووَّاحِد فرد : ذو القعدة ، وذو الحِجَّة ، والمحرم ، ورجب^(١) الذي بين
جمادى وشعبان ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد !

أيها الناس : إن لنسائكم عليكم حقًّا ، ولكم علينا حق ، لكم علينا ألا يوطئن
فرشكم غيركم ، ولا يدخِلن أحدًا تكثرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ، ولا يأتين بفاحشة ، فإن فعلن
فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن^(٢) وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضربًا غير
مبرح ، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وإنما النساء عندهم
عوان^(٣) لا يملكن لأنفسهن شيئًا ، أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة
الله ، فاتقوا الله في النساء ، واستوصوا بهن خيرًا ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد !

أيها الناس : إنما المؤمنون إخوة ، ولا يحلُّ لامرئٍ مالٌ أخيه إلا عن طيب نفس
منه ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد ! فلا ترجعن بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض
فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلُّوا بعده ، كتاب الله ، ألا هل بلغت ؟
اللهم اشهد !

أيها الناس : إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلُّكم لآدم ، وآدم من تراب ،
أكرمكم عند الله أتقاكم ، وليس لعربي على عجمي فضلٌ إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت ؟
اللهم اشهد ! قالوا نعم . قال : فليبلغ الشاهد الغائب .

(١) قالوا في تثنية رجب وشعبان رجبان للتغليب .

(٢) الفضل : الحبس والتضييق . (٣) جمع عانية من عنا ، أي خضع وذلل ، والمعاني : الأسر

أيها الناس : إن الله قد قَسَمَ لِكُلِّ وَارِثٍ نَصِيبَهُ مِنَ المِيرَاثِ ، وَلَا يَجُوزُ لِوَارِثٍ وَصِيَّةٌ ، وَلَا يَجُوزُ وَصِيَّةٌ فِي أَكْثَرِ مِنَ الثَّلَاثِ ، وَالْوَالِدُ لِلْفِرَاثِلِ وَاللِّعَاظِرِ الْحَجَرِ (١) ، مِنْ أَدْعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ ، أَوْ تَوَلَّى غَيْرَ مَوَالِيهِ ، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ، لَا يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ (٢) ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ .

(البيان والتبيين ٢ : ١٥ ، المقصد الفريد ٢ : ١٣ ، إيجاز القرآن ١١١ ، شرح ابن أبي الحديد ١ : ٤١ ، تاريخ الطبري ٣ : ١٦٨ ، السكامل لابن الأثير ٢ : ١٤٦ ، سيرة ابن هشام ٢ : ٣٩٠)

١٤ - خطبته في مرض موته

عن الفضل بن عباس قال : جاءني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرجت إليه فوجدته مَوْعُوكًا قد عَصَبَ رَأْسُهُ ، فَقَالَ : خذ بيدي يا فضلُ ، فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ حَتَّى جَلَسَ عَلَى الْمَنْبَرِ ، ثُمَّ قَالَ نَادَى فِي النَّاسِ ، فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ ، فَقَالَ :

« أَمَا بَعْدُ : أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكُمْ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَإِنَّهُ قَدْ دَنَا مِنِّي خَفُوقٌ (٣) مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِكُمْ ، فَمَنْ كُنْتُ جَلَدْتُ لَهُ ظَهْرًا ، فَهَذَا ظَهْرِي فَلَيْسَتْ قَدِ (٤) مِنْهُ وَمَنْ كُنْتُ شَتَمْتُ لَهُ عِرْضًا ، فَهَذَا عِرْضِي فَلَيْسَتْ قَدِ مِنْهُ ، وَمَنْ أَخَذْتُ لَهُ مَالًا فَهَذَا مَالِي فَلْيَأْخُذْ مِنْهُ ، وَلَا يَنْحَسِ الشَّحْنَاءَ مِنْ قِبَلِي ، فَإِنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ شَأْنِي ، أَلَا وَإِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ مَنْ أَخَذَ مِنِّي حَقًّا إِنْ كَانَ لَهُ ، أَوْ حَلَلَنِي فَلَقِيتُ رَبِّي وَأَنَا طَيِّبُ النَّفْسِ ، وَقَدْ أَرَى أَنَّ هَذَا غَيْرُ مَعْنٍ عَنِّي حَتَّى أَقُومَ فِيكُمْ مَرَارًا » .

(١) والمعاهر : أي الزاني ، أي لاحق له في النسب ولا حظ له في الولد ، وإنما هو لصاحب القران أي لصاحب أم الولد وهو زوجها أو مولاها ، وهو كقبوله الآخر : أي التراب ، أي لاشيء له .

(٢) الصرف : التوبة . والعدل : الفدية ، وقيل الصرف القيمة . والعدل المثل ، وأصله في الفدية يقال : لم يقبلوا منهم صرفًا ولا عدلًا ، أي لم يأخذوا منهم دية ولم يقتلوا بقتيلهم رجلاً واحداً ، أي طلبوا منهم أكثر من ذلك ، ثم جعل بعد في كل شيء حتى صار مثلاً فيمن لم يؤخذ منه الذي يجب عليه وألزم أكثر منه .

(٣) خفق النجم يخفق خفوقاً : غاب ، والطار طار ، والليل ذهب أكثره . (٤) فليقتصص (من القود) وهو القصاص ، أقاد القاتل بالقتيل قته به ، واستقاد الحاكم سألته أن يقيد القاتل بالقتيل .

ثم نزل فصلى الظهر ، ثم رجع فجلس على المنبر فعاد لمقاتله الأولى ، فادعى عليه رجل بثلاثة دراهم ، فأعطاه عوضها ، ثم قال : « أيها الناس ، من كان عنده شيء فليؤدّه ولا يقل فضوح الدنيا ، ألا وإن فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة » ثم صلى على أصحاب أحد وأستغفر لهم ، ثم قال : « إن عبدًا خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عنده ، فسكى أبو بكر ، وقال : فدينك بأنفسنا وآبائنا . »

(تاريخ الطبري ٢ : ١٩١ : والكامل لابن الأثير ٢ : ١٥٤)

١٥ - خطبة أكرم بن صيفي يدعو قومه إلى الإسلام

لما ظهر النبي عليه الصلاة والسلام بمكة ، ودعا الناس إلى الإسلام بعث أكرم ابن صيفي ابنه حبيشًا ، فأتاه بخبره ، فجمع بني تميم وقام فيهم خطيبًا فقال : « يا بني تميم : لا تحضروني سفيها ، فإنه من يسمع يخل^(١) ، إن السفيه يوهن من فوقه ، ويتبب من دونه^(٢) . لا خير فيمن لا عقل له . كبرت سني ودخلتني ذلة ، فإذا رأيتم مني حسنًا فاقبلوه ، وإن رأيتم مني غير ذلك فقوموني أستقيم . إن ابني شافه هذا الرجل مشافهًا ، وأتاني بخبره ، وكتابه يأمر فيه بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويأخذ فيه بمحاسن الأخلاق ، ويدعو إلى توحيد الله تعالى ، واخلع الأوثان ، وترك الحليف بالنيران ، وقد عرف ذوو الرأي منكم أن الفضل فيما يدعو إليه ، وأن الرأي ترك

(١) خال : ظن ، ومضارعه إخال بالكسر وهو الأفصح ، وبنو أسد يقولون أخال بالفتح وهو القياس ، وقوله « من يسمع يخل » مثل ، معناه من يسمع أخبار الناس ومعايهم يقع في نفسه عليهم المكروه .
(٢) في مجمع الأمثال « ويثبت من دونه » من أثبت : أي أثنى بالجراح ، والمعنى يضعف ويوهن ، ومنه قوله تعالى : « وإذ يمكركم بك الدين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك » ليثبتوك : أي يجرحوك جراحة لاتقوم معها أو يهسوك ، وفي شرح العيون « ويثبت من دونه » من تبهه بالتشديد : أي أهلكه ، ومنه قوله تعالى : « وما زادوهم غير تنبيد » .

مَا يَنْهَى عَنْهُ ، إِنْ أَحَقَّ النَّاسَ مَعُونَةَ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَمُسَاعَدَتَهُ عَلَى أَمْرِهِ أَنْتُمْ ، فَإِنْ يَكُنْ الَّذِي يَدْعُو إِلَيْهِ حَقًّا ، فَهَوْلَكُمْ ^(١) دُونَ النَّاسِ ، وَإِنْ يَكُنْ بَاطِلًا كُنْتُمْ أَحَقُّ النَّاسِ بِالْكَفِّ عَنْهُ وَبِالسُّتْرِ عَلَيْهِ ، وَقَدْ كَانَ أُسْتَقْفُ نَجْرَانَ يُحَدِّثُ بِصِفَتِهِ ، وَكَانَ سُفْيَانُ بْنُ مُجَاشِعٍ يُحَدِّثُ بِهِ قَبْلَهُ ، وَسَمَّى ابْنَهُ مُحَمَّدًا ، فَكَوْنُوا فِي أَمْرِهِ أَوْلَا ، وَلَا تَسْكُونُوا آخِرًا ، ائْتُوا طَائِعِينَ قَبْلَ أَنْ تَأْتُوا كَارِهِينَ ، إِنْ الَّذِي يَدْعُو إِلَيْهِ مُحَمَّدٌ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَوْ لَمْ يَكُنْ دِينًا كَانَ فِي أَخْلَاقِ النَّاسِ حَسَنًا ، أَطِيعُونِي وَاتَّبِعُوا أَمْرِي ، أَسْأَلُ لَكُمْ أَشْيَاءَ لَا تُنَزَعُ مِنْكُمْ أَبَدًا ، وَأَصْبَحْتُمْ أَعَزَّ حَيٍّ فِي الْعَرَبِ ، وَأَكْثَرَهُمْ عَدَدًا ، وَأَوْسَعَهُمْ دَارًا ، فَإِنِّي أَرَى أَمْرًا لَا يَحْتَنِبُهُ عَزِيزٌ إِلَّا ذَلَّ ، وَلَا يَلْزَمُهُ ذَلِيلٌ إِلَّا عَزَّ ، إِنْ الْأَوَّلُ لَمْ يَدْعُ لِلْآخِرِ شَيْئًا ، وَهَذَا أَمْرٌ لَهُ مَا بَعْدَهُ ، مِنْ سَبَقَ إِلَيْهِ غَمْرُ الْمُعَالِي ^(٢) ، وَاقْتَدَى بِهِ التَّالِي وَالْعَزِيمَةُ حَزْمٌ ، وَالْاِخْتِلَافُ عَجْزٌ .

فَقَالَ مَالِكٌ ^(٣) بِنُورَةَ : قَدْ خَرَفَ شَيْخُكُمْ ، فَلَا تَتَعَرَّضُوا لِلْبَلَاءِ ، فَقَالَ أَكْثَمُ :
وَيْلٌ لِلشَّجِيِّ مِنَ الْخَلِيِّ ، وَالْهِنِيِّ عَلَى أَمْرٍ لَمْ أَشْهَدْهُ وَلَمْ يَسْعُنِي ^(٤) .
ثُمَّ رَحَلَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَاتَ فِي الطَّرِيقِ ، وَبَعَثَ بِإِسْلَامِهِ مَعَ مَنْ أَسْلَمَ
مَنْ كَانَ مَعَهُ ^(٥) .
(مجمع الأمثال ٢ : ٢١٨ ، شرح العيون ص ١٤) .

(١) يريد للعرب .

(٢) من غمره المساء : أى غطاه . (٣) وقد أسلم ثم ارتد بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم في بعض بني تميم ، وسار إليه خالد بن الوليد فقتله ، وقصته في التاريخ مشهورة .

(٤) وفي شرح العيون : ولم يسبقني . (٥) وذكر عن ابن عباس أن قوله تعالى :

« وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ » نزل في أكرم ومن تبعه من أصحابه .

١٦ - وصية أبي طالب لوجوه قريش عند موته

لما حضرت أبا طالب^(١) الوفاة ، جمع إليه وجوه قريش فأوصاهم فقال :

« يا معشر قريش : أنتم صفوة الله من خلقه ، وَقَلْبُ الْعَرَبِ ، فيكم السيد المطاع ، وفيكم المقدم الشجاع ، الواسع الباع ، واعلموا أنكم لم تتركوا للعرب في المآثر نصيباً إلا أحرزتموه ، ولا شرفاً إلا أدركتموه ، فلکم بذلك على الناس الفضيلة ، ولهم به إليكم الوسيلة ، والناس لكم حرب ، وعلى حربكم ألب^(٢) ، وإني أوصيكم بتعظيم هذه البنية - يعني الكعبة - فإن فيها مَرَضَةُ الْعَرَبِ ، وَقَوَامًا لِلْعَاشِ ، وَثِبَاتًا لِلْوَطْأَةِ ، صَلُّوا أَرْحَامَكُمْ فَإِنَّ فِي صَلَّةِ الرَّحِمِ مَنَسَأَةً^(٣) فِي الْأَجَلِ ، وَزِيَادَةً فِي الْعَدَدِ ، اتْرَكُوا الْبَغْيَ وَالْعُقُوقَ ، ففِيهِمَا هَلَكَتِ الْقُرُونُ قَبْلَكُمْ ، أَجِيبُوا الدَّاعِيَ ، وَأَعْطُوا السَّائِلَ ، فَإِنَّ فِيهِمَا شَرَفَ الْحَيَاةِ وَالْمَاتِ ، وَعَلَيْكُمْ بِصَدَقِ الْحَدِيثِ ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ ، فَإِنَّ فِيهِمَا مَحَبَّةً فِي الْخَاصِّ ، وَمَكْرَمَةً فِي الْعَامِّ .

وإني أوصيكم بمحمد خيراً ، فإنه الأمين في قريش ، وَالصِّدِّيقُ فِي الْعَرَبِ ، وَهُوَ الْجَامِعُ لِكُلِّ مَا أُرْصِيْتُمْ بِهِ ، وَقَدْ جَاءَنَا بِأَمْرِ تَبِيلِهِ الْجَنَانُ^(٤) ، وَأَنْكَرَهُ اللِّسَانُ ، مَخَافَةَ الشَّنَانِ^(٥) ، وَأَيْمُ اللهِ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى صَعَالِيكَ الْعَرَبِ وَأَهْلِ الْأَطْرَافِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ النَّاسِ قَدْ أَجَابُوا دَعْوَتَهُ ، وَصَدَّقُوا كَلِمَتَهُ ، وَعَظَّمُوا أَمْرَهُ ، فَخَاضَ بِهِمْ غَمْرَاتِ الْمَوْتِ ، وَصَارَتْ رُؤْسَاءُ قَرِيْشٍ وَصِنَادِيْدُهَا أَذْنَابًا ، وَدُورُهَا خِرَابًا ، وَضَعْفَاؤُهَا أَرْبَابًا^(٦) ، وَإِذَا

(١) توفي في السنة العاشرة من النبوة وهو ابن بضع وثمانين سنة ، وإسلامه مختلف فيه « اقرأ فصلا

طويلا في ذلك في شرح ابن أبي الحديد م ٣ : ص ٣١١ » .

(٢) أي ذوو ألب ، والألب : التدبير على العدو من حيث لا يعلم .

(٣) أي فسحة وامتدادا : من نساء ، أي آخره . (٤) القلب . (٥) البغض والكراهية .

(٦) سادة .

أعظمهم عليه أحوَجُهُمْ إليه ، وأبعدم منه أخطأهم عنده ، قد حَصَّته^(١) العرب وِدَادَهَا
وأصفت له بلادها ، وأعطته قِيَادَهَا ، يامعشر قريش : كونوا له وُلاَةً ، وَحِزْبَهُ حِمَاةً ،
وإذ لا يسلك أحد سبيله إلا رَشِدًا ، ولا يأخذ بهديه أحد ، إلا سَعِدَ ، ولو كان لنفسي
مدة ، وفي أجلي تأخير ، لكففت عنه الهزَاهِزَ^(٢) ، ولدافعت عنه الدَّوَاهِي .

(بلوغ الأرب ١ : ٢٢٧)

(١) محضه الود ، وأحصه : أخلصه .

(٢) الهزاهز والهزهزة : تحريك البلياء والحروب الناس .

خطب الوفود

١٧ - خطبة عطار د بن حاجب بن زرارة

بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم

قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة تسع للهجرة عطار د بن حاجب بن زرارة ، في أشراف من بني تميم ، فلما دخل الوفد المسجد نادوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من وراء الحجرات : أن اخرج إلينا يا محمد ، فأذى ذلك من صياحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج إليهم ، فقالوا : يا محمد ، جنناك لنفاخرك ، فأذن لشاعرنا وخطيبنا ، قال نعم ، قد أذنت لخطيبكم فليقل ، فقام إليه عطار د فقال :

« الحمد لله الذي له علينا الفضل ، وهو أهله ، الذي جعلنا ملوكا ، ووهب لنا أموالا عظاما ، نفعل فيها المعروف ، وجعلنا أعز أهل المشرق ، وأكثره عددا ، وأيسره عدا ، فمن مثلنا في الناس ، ألسنا براءوس الناس وأولى فضلهم ؟ فمن يفاخرنا فليعدد مثل ما عددنا ، وإنا لو نشاء لأكثرنا الكلام ، ولكننا نحيا من الإكثار فيما أعطانا ، وإنا نعرف بذلك أقول هذا الآن لتأتونا بمثل قولنا ، وأمر أفضل من أمرنا ، ثم جلس . »
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لثابت بن قيس بن الشماس ، قم فأجب الرجل في خطبته ، فقام ثابت فقال :

١٨ - خطبة ثابت بن قيس بن الشماس

« الحمد لله الذي : السموات والأرض خلقه ، قضى فيهن أمره ، ووسع كرسيه علمه ، ولم يك شيء قط إلا من فضله ، ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكا ، واصطفى

من خير خلقه رسولا ، أكرمهم نسبا ، وأصدقهم حديثا ، وأفضلهم حسبا ، فأنزل عليه كتابه ، وأتمته على خلقه ، فكان خيرة الله من العالمين ، ثم دعا الناس إلى الإيمان ، فأمن برسول الله صلى الله عليه وسلم المهاجرون من قومه وذوى رحمه ، أكرم الناس أنسابا ، وأحسن الناس وجوها ، وخير الناس فعلا ، ثم كان أول الخلق استجابة لله ، حين دعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم نحن ، فنحن أنصار الله . ووزراء رسوله ، نقابل الناس حتى يؤمنوا بالله ، فمن آمن بالله ورسوله منعه الله ودمه ، ومن كفر جاهدناه في الله أبدا ، وكان قتله علينا يسيرا ، أقول قولى هذا ، وأستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات ، والسلام عليكم .

ثم قالوا يا محمد : ائذن لشاعرنا ، فقال نعم ، فقام الزبير بن بدر ، فأنشد قصيدة في الفخر ، وبعث النبي صلى الله عليه وسلم إلى حسان بن ثابت فرد عليه ، فقال الأقرع ابن حابس التميمي . إن هذا الرجل لموتى له ، لخطيبه أخطب من خطيبنا ، ولشاعره أشعر من شاعرنا ، وأصواتهم أعلى من أصواتنا ، فلما فرغ القوم أسلموا ، وجوزهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأحسن جوائزهم .

(تاريخ الطبرى ٣ : ١٥٠ ، والكامل لابن الأثير ٢ : ١٣٩ ، وسيرة ابن هشام ٢ : ٢٦٣)

وصبح الأعشى ١ : ٣٧٣ .

١٩ - عمرو بن الأهتم والزبير بن بدر

بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم

وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن الأهتم عن الزبير بن بدر^(١) فقال عمرو : « مطاع في أدبته^(٢) ، شديد المعارضة^(٣) . مانع لما وراء ظهره » فقال الزبير بن بدر :

(١) هما سيدان من بني تميم . (٢) أى فى الأذنين منه : أى الأقربين ، وأصله أذنين حذف نونه

لإضافته إلى الضمير . (٣) المعارضة : قوة الكلام وتنقيحه ، والرأى الجيد .

« والله يا رسول الله ، إنه ليعلم منى أكثر مما قال ، ولكنه حسدنى شرفى » فقال عمرو :
« أما لئن قال ما قال ، فوالله ما علمته إلا لأضيق الصدر ، زمير المروءة^(١) ، أحق الوالد ،
لثيم الخال ، حديث الغنى » فلما رأى أنه خالف قوله الآخر قوله الأول ، ورأى الإنكار
فى عين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : يا رسول الله رضيت ، فقلت أحسن ما علمت ،
وغضبت فقلت أقبح ما علمت ، وما كذبت فى الأولى ، واتقد صدقت فى الأخرى .
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك : « إِنَّ مِنَ الْبَيَّانِ لَسِحْرًا » .

(البيان والتبيين ١ : ٣١ ، والعقد الفريد ١ : ١١٧ ، ومجمع الأمثال للميداني ١ : ٥)

٢٠ - خطبة طهفة بن أبى زهير النهدي

بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم

لما قَدِمَتْ وفودُ العرب على النبي صلى الله عليه وسلم قام طهفة بن أبى زهير النهدي
فقال : « يا رسول الله أتيناك من غوزى^(٢) تهامة بأكوار الميس ، ترمى بنا العيس^(٣)
نستحلب الصبير^(٤) ، ونستجاب الخبير^(٥) ، ونستعصد^(٦) البرير ، ونستخيل الرهام^(٧) ،
ونستحيل الجهام^(٨) ، من أرض غائلة النطاء^(٩) ، غليظة الوطاء ، نشف المدهن^(١٠) ،

(١) قليل المروءة . (٢) الغور : كل ما انحدر مغربا عن تهامة ، والأكوار : جمع كور بالضم ،
وهو الرجل أو بأداته ، والميس : شجر عظام أى بالأكوار المصنوعة منه . (٣) العيس جمع عيساء :
الإبل البيض يخالط بياضها شقرة . (٤) الصبير : السحاب الكثيف . (٥) العشب .
(٦) استعصد الثمرة : اجتنأها ، والبرير : ثمر الأراك ، وكانوا يأكلونه وقت الجذب لقللة الزاد .
(٧) الرهم جمع رهمة بالكسر : وهى المطر الضعيف الدائم . ونستخيل : نخال ونظن . وسحابة مخيلة
بضم فكسر : أى تحسبها ما طرة . (٨) الجهام : السحاب قد أراق ماءه . (٩) النطاء : البعد ،
أى بعينة بعدا مهلكا . (١٠) مستنقع الماء : أو كل موضع حفره سيل ، ونشف الحوض الماء : شربه .

وَيَبِسَ الْجُعَيْنِ (١) ، وَسَقَطَ الْأُمْلُوجُ (٢) ، ومات العُسلُوجُ (٣) ، وهلك الهمْدِيُّ (٤) ،
ومات الودِيّ (٥) ، بَرِّئْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنَ الْوَثْنِ وَالْعَثْنِ (٦) ، وما يحدث الزمن ،
لنا دعوة السلام ، وشرية الإسلام ، ما طمّى (٧) البحر ، وقام تعار (٨) ، ولنا نعم ،
همل (٩) أغفال (١٠) ، ماتبيض (١٠) ببلال ، ووقير (١١) كثير الرّسل ، قليل الرّسل ، أصابتها
سنيّة حراء مؤزلة (١٢) ، ليس بها علال ولا نهيل .

٢١ - رده صلى الله عليه وسلم

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« اللهم بارك لهم في مخضها (١٣) ومخضها ومدقها ، وابعث راعيها في الدثر (١٤)
بيانع الثمر ، وافجر له التمد (١٥) ، وبارك له في المال والولد . من أقام الصلاة كان مسلماً ،
ومن آتى الزكاة كان محسناً ، ومن شهد أن لا إله إلا الله كان مخلصاً ، يا بني نهد ،
ودائع (١٦) الشرك ، ووضائع الملث ، لا تلطط في الزكاة ، ولا تلجد في الحياة ، ولا تتأقل
عن الصلاة »

(العقد الفريد ١ : ١١٣)

(١) أصل النبات . (٢) ورق كورق السرو لشجر بالبادية . (٣) مالان واخضر من
القضبان . وعلجت الشجرة : أخرجته . (٤) ما يهدى إلى مكة لينحر . (٥) الودى الفسيل (النخل
الصغار) . (٦) الصنم الصغير . (٧) امتلأ وعلا . (٨) جبل ببلاد قيس . (٩) مهمل .
والأغفال جمع غفل بالضم : وهو ما لاسمة عليه من الدواب . (١٠) بض الماء يبض : سال قليلا
قليلا ، والبلال : البلبل ، والمراد قلة اللبن . (١١) القطيع من الغنم . (١٢) الرسل : القطيع من
كل شيء ، والرسل : اللبن ، وسنية : تصغير تعظيم لسنة ، وهى القحط والمجاعة ، وحراء : أى شديدة ،
ومؤزلة : ذات أزل بسكون الزاى ، وهو الضيق والشدة . (١٣) اللبن الخالص ، ومخض اللبن : أخذ
زبده : والمذيق : اللبن الممزوج بالماء ، مذاقه فامتدق . (١٤) الدثر : المال الكثير . وقيل هو الكثير
من كل شيء ، وأراد به هنا الخصب والنبات الكثير .
(١٥) الماء القليل لامادة له ، أو ما يظهر فى الشتاء ويذهب فى الصيف . (١٦) أى الغنائم
التي تغنم من المشركين وتودع بيت مال المسلمين ، ليقروا بها على شئونهم ، والوضائع جمع وضاعة : وهى =

٢٢ - خطبة ظبيان بن حداد

بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم

وقد ظبيان بن حداد في سِراة مَذْحِجِ عَلَى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال بعد السلام على رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، والثناء على الله عزَّ وجلَّ بما هو أهله :

« الحمد لله الذي صَدَعَ^(١) الأَرْضَ بالنبات ، وفتق السماء بالرَّجْعِ^(٢) ، ثم قال : نحن قوم من سِراةِ مَذْحِجِ مِنْ يُحَايِرِ^(٣) بِنِ مالِك ، ثم قال : فتَوَقَّلتُ^(٤) بِنَا القِلاصُ من أعالي الحُوفِ ورءوس الهضاب ، يرفعها عُرُرُ^(٥) الرُّبَا ، ويخفضها بطنان الرِّقاق ، وتَلَحُّقُهَا دياحى الدُّجى ، ثم قال : وسرَّوات الطائف كانت لبني مهلائيل بن قينان ، غرسوا وديانَه ، وذَلَّلُوا خِشَانَه^(٦) ورَعَوْا قُرْبانَه ، ثم ذكر نوحًا حين خرج من السفينة بمن معه ، قال فكان أكثر بنيهِ بناتٍ ، وأسرعهم نباتًا ، عادٌ وثمود ، فرماهم الله بالدِّمالِ^(٧) ، وأهلكهم بالصواعق ؛ ثم قال : وكانت بنوهانى من ثمود تسكن

= ما يأخذه السلطان من الخراج والعشور. يريد أن يقول لهم: إن موارد المال للأمة الإسلامية هما هذان الركنان الغنائم والزكاة ، فلا تمطلوا الزكاة ، ولذا عقب ذلك القول بقونه : لا تلطط في الزكاة أى لا تمنعها : لطلط حقه جحدته كالتلطط ، ولا تلحد في الحياة : أى لا يجرى منكم ميل عن الحق مادتم أحياء ، ولا تتناقل عن الصلاة : أى عن أداؤها في وقتها ، ويروى : ولا يلطط في الزكاة ، ولا يلحد في الحياة (بالبناء للمجهول) ولا تتناقل عن الصلاة . (١) شق . (٢) المطر بعد المطر . (٣) هو مراد بن مالك (وهو مذحج) ابن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان . (٤) توقل في الجبل . صعد ، والقلاص جمع قلوص : وهى الناقة الشابة أو الباقية على السير ، والحوف : بلد بعمان . (٥) فى الأصل : « عوار » ولا معنى له هنا ، وأرى أن صوابه « عرر » جمع عرة كقبة وعره السنام : الشحمة العليا ، أى ذروته وأعله : أى أنها تسير فى أعلى الربا وذراها : وربما كان الأصل « عراعر » بفتح العين الأولى جمع عرعة بضمها ، وعرعة الجبل والسنام وكل شئ : رأسه ، وبطنان جمع باطن : وهو الغامض من الأرض : أى المظمن منها ، والرقاق جمع رق بالفتح ، وهى كل أرض إلى جنب واد ينسبط الماء عليها أيام المد ثم ينضب ودياجى الليل حنادسه كأنه جمع ديمحة ، والدجى جمع دجية : وهى الظلمة . (٦) الحشن والأخشن : الأخرش من كل شئ جمعه خشان . (٧) الأملس : المستدير من الحجارة .

الطائف ، وهم الذين خَطُّوا مشاربها ، وَأَتَوْا جَدَاوِلَهَا^(١) ، وَأَحْيَوْا غِرَاسَهَا ، ورفعوا
عربشها ، ثم قال : وإن حمير ملكوا مَعَاقِلَ الأَرْضِ وَقَرَّارَهَا ، وَكُهُولَ النَّاسِ
وَأُغْمَارَهَا^(٢) ورءوس الملوك وَعَرَّارَهَا ، فَكَانَ لَهُمُ البِيضَاءُ وَالسُّودَاءُ ، وفارس الحمراء ،
والجزية الصفراء^(٣) ، فَبَطَرُوا النِّعَمَ ، واستحقوا النَّقْمَ ، فضرب الله بعضهم ببعض ، ثم
قال : وإن قبائل من الأزد نزلوا على عهد عمرو بن عامر ، ففتحوها فيها الشرائع^(٤) ،
وَبَنَوْا فِيهَا المِصَانِعَ^(٥) ، وَاتَّخَذُوا الدِّسَائِمَ^(٦) ، ثم ترامت مذحج بأسننتها ، وتنزت^(٧)
بأعنتها ، فغلب العزيز أذلها ، وقتل الكثير أفلها ، ثم قال : وكان بنو عمرو
ابن خالد بن جذيمة يَخْبِطُونَ عَضِيدَهَا^(٨) ، وَيَأْكُلُونَ حَصِيدَهَا ، وَيَرْشَحُونَ^(٩)
حصيدها .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن نعيم الدنيا أفل وأصغر عند الله من خرم
بُعِيضَةٍ ، ولو عدلت عند الله جناح ذباب لم يكن لكافر منها خلاق ، ولا لمسلم منها لحاق » .
(العقد الفريد ١ : ١١٠)

٢٣ - خطبة مالك بن نمط

بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم

وقدم وفد همدان على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيهم مالك بن نمط أبو ثور
فقام بين يديه ثم قال :

(١) أتى الماء تأتيه سهل وأصلح مجراه ، أى سهلوا طرق المياه إليها . (٢) جمع غمر مثلث النين :
وهو الحدث لا تجرته له ، والعرار : الرفعة والسودد . (٣) أى الذهبية . (٤) جمع شريعة ، وهى
مورد الشاربة كالمشرفة . (٥) المباني من القصور والحصون . (٦) جمع دسعة ، وهى الجفنة
والسكرة . (٧) تنزى : تؤثب وتمرع . (٨) العصيد : ما قطع من الشجر ؛ أى يضربونه ليمسقط
ورقه فيتخذوه علفا لإبلهم . (٩) الترشيح : التربية وحسن القيام على المال ، والحصيد : ماخضد من
الشجر ونحى عنه ، وكل ما قطع من عود رطب (فعيل بمعنى مفعول) أى يصلحونه ويقومون بأمره .

« يارسول الله ، نَصِيَّةٌ ^(١) من هَمْدَانَ ، من كل حَاضِرٍ وَبَادٍ ، أَنْوَكٌ عَلَى قُلُوصٍ
نَوَاجٍ ^(٢) ، متصلةٌ بِجبال الإسلام ، لا تأخذهم في الله لومة لأثم ، مِنْ مِخْلَافٍ ^(٣)
خَارِفٍ ^(٤) ، وَيَامٍ ، وَشَاكِرٍ ، أهل السَّوَادِ وَالقُرَى ، أَجَابُوا دَعْوَةَ الرِّسُولِ ، وَفَارَقُوا
آلِهَةَ الْأَنْصَابِ ^(٥) عَهْدُهُمْ لَا يَنْقُضُ ، مَا أَقَامَ لَعَلَّعٌ ^(٦) ، وَمَا جَرَى الْيَعْفُورُ بِصَلْعٍ ^(٧) .
(صبح الأعشى ٢ : ٢٤٤)

٢٤ - سفانة بنت حاتم

بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم

حَدَّثَ الْإِمَامُ عَلِيُّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ قَالَ : لَمَّا أَتَيْنَا بِسَبَايَا طَيْبٍ ، كَانَتْ فِي النِّسَاءِ
جَارِيَةٌ جَمِيلَةٌ - وَهِيَ سَفَانَةُ بِنْتُ حَاتِمٍ ^(٨) - فَلَمَّا رَأَيْتَهَا أُعْجِبْتُ بِهَا ، فَقُلْتُ لِأَطْلُبْنَهَا إِلَى
رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيَجْمَلَهَا مِنْ فَيْئِي ، فَلَمَّا تَكَلَّمْتُ أُنْسِيتُ جَاهَهَا ، لَمَّا سَمِعْتُ
مِنْ فَصَاحَتِهَا ، فَقَالَتْ :

« يَا مُحَمَّدُ : هَلَكَ الْوَالِدُ ، وَغَابَ الْوَالِدُ ، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَخَلِّيَ عَنِّي ، فَلَا تُسَمِّتْ بِي
أَحْيَاءَ الْعَرَبِ ، فَإِنِّي بِنْتُ سَيِّدِ قَوْمِي ^(٩) . كَانَ أَبِي يَفْكَ الْعَانِي ^(١٠) ، وَيَحْمِي الدَّمَارَ ،

(١) النصية من القوم : الخيار ، وهمدان : من عرب اليمن . (٢) القلوص : جمع قلووص ؛ وهي
من الإبل الشابة أو الباقية على السير ، والنواجي : جمع ناجية ، وهي المسرعة في السير . (٣) المخلاف
الكورة . (٤) خارف : لقب مالك بن عبد الله أبي قبيلة من همدان ، ويام ، وشاكر ، قبيلتان من
همدان باليمن . (٥) الأنصاب : جمع نصب بضم نين ، وهو حجر نصب وعبد من دون الله ، وقيل
النصب جمع واحدها نصاب ، قيل هي الأصنام وقيل غيرها . (٦) اسم جبل . (٧) اليعفور : ولد
البقرة الوحشية ، والصلع : الموضع لاينبت شيئا .

(٨) السفانة في الأصل : الألوثة . (٩) جواب الشرط محذوف وهذا تعليل له أي فافعل: فإني . .

(١٠) العاني : الأسير .

وَيَقْرِي الضَّيْفَ ، وَيُشْبِعُ الجَائِعَ ، وَيُفَرِّجُ عَنِ المَكْرُوبِ ، وَيُطْعِمُ الطَّعَامَ ، وَيُنْفِثِي السَّلَامَ ، وَلَمْ يَرُدَّ طَالِبَ حَاجَةٍ قَطُّ ، أَنَا بِنْتُ حَاتِمِ طَيْئٍ .

فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا جارية هذه صفة المؤمن ، لو كان أبوك إسلامياً لترخمتنا عليه ، خلأوا عنها ، فإن أباهما كان يجب مكارم الأخلاق ، والله يجب مكارم الأخلاق . » (الأغانى ١٦ : ٩٣)

٢٥ - وصية دريد بن الصمة

قال دُرَيْدُ بن الصَّمَّةِ لِمَالِكِ بن عوف النَّصْرِيِّ قَائِدِ هِوَاذِينَ يوم حُنَيْنٍ (١) :

« يا مالِكُ ، إِنَّكَ قد أصبحتَ رَئِيسَ قومِكَ ، وَإِنْ هذا يومٌ له ما بعده من أَيامٍ ، مَالِي أسمعُ رُغَاءَ البَعِيرِ ، ونَهيقَ الحَمِيرِ ، وبكاءَ الصَّغِيرِ ، وَيُعَارُ (٢) الشَّاءُ . قال : سقتُ معَ النَّاسِ أبناءَهُم ونساءَهُم وأموالَهُم ، قال : ولم ؟ قال : أردتُ أن أجعلَ خلفَ كلِّ رجلٍ أهلهَ ومالهَ ، ليقاتلَ عنهم ، فَأَنْقَضَ به (٣) ، ثم قال راعِي (٤) ضَانٍ وَاللهِ ، وهل يردُّ المَهْزَمُ شيءٌ ؟ لِنِهَا إن كَانَتْ لَكَ ، لم ينفعَكَ إلا رجلٌ بسيفه ورحمه ، وَإِنْ كَانَتْ عَلَيْكَ ، فَضِحْتَ فِي أهلكَ ومالكَ ، ويحكُ ، إِنَّكَ لم تصنعَ بتقديمِ البَيْضَةِ (٥) بيضةً هِوَاذِينَ إلى نَحْوِ الخَيْلِ شيئاً ، ارفعَهُم إلى ممتنعِ بلادِهِم ، وَعَلِيَاءِ قومِهِم ، ثم أتَى الصَّبَا (٦) عَلَى متونِ الخَيْلِ ، فَإِنْ كَانَتْ لَكَ لِحَقِّ بكَ من وِرَاءِكَ ، وَإِنْ كَانَتْ عَلَيْكَ ، كُنْتَ قد أَحْرَزْتَ أهلكَ ومالكَ .

(١) غزوة حنين كانت بين المسلمين وبين هوازن وثقيف سنة ثمان بعد الفتح انهزم فيها المسلمون أو لا ثم لموا شعثهم وشدوا على عدوهم فهزموهم . (٢) اليعار : صوت القم أو المعزى أو الشديد من أصوات الشاء . (٣) يقال أنقض أصابعه : ضرب بها لتصوت ، وأنقض بالدابة : ألصق لسانه بالحنك ثم صوت في حافتيه . (٤) يضرب به المثل في الحق فيقال : « أحق من راعي ضأن » . (٥) بيضة القوم : جماعتهم وأصلهم ، وفي الحديث : « ولا تسلط عليهم عدوا من عدوهم فيستبيح بيضتهم » يريد جماعتهم وأصلهم . (٦) أى ذوى الصبا : أى الشبان .

قال لا والله ما أفعل ، إنك قد كبرت وذَهَلَّ عَقْلُكَ . قال دريد : هذا يوم لم أشهده ، ولم يَفْتِنِي ، ثم أنشأ يقول :

يا ليتني فيها جَدَعٌ أَحَبُّ فيها وَأَضَعُ^(١)
أفود وطفاء الزَّمَعِ كأنها شاة صدَعُ^(٢)

(سيرة ابن هشام ٢ : ٢٨٩ ، المقدم الفريد ١ : ٤١)

١٦ - وصية عمير بن حبيب الصحابي لبنيه

أوصى عمير بن حبيب بنيه فقال :

« يا بني إياكم ومخالطة السفهاء ، فإن مجالستهم داء ، وإن من يحلم عن السفية يسر بحلمه ، ومن يحببه يندم ، ومن لا يقرّ بقليل ما يأتي به السفية ، يقر بالكثير . وإذا أراد أحدكم أن يأمر بالمعروف ، أو ينهى عن المنكر ، فليوطن قبل ذلك على الأذى ، وليوقن بالثواب من الله عز وجل ، إنه من يوقن بالثواب من الله عز وجل لا يجد مسّ الأذى . »

(الأمالي ٢ : ٦٠)

٢٧ - وصية قيس بن عاصم المنقري لبنيه

أوصى قيس بن عاصم المنقري بنيه فقال :

« يا بني ، خذوا عني ، فلا أحد أصلح لكم مني ، إذا دفتتموني فانصرفوا إلى رجالكم ، فسودّوا أكبركم ، فإن القوم إذا سودّوا أكبرهم خلفوا أباهم ، وإذا سودّوا

(١) الحبيب : ضرب من العدو ، ووضعت الناقة وأوضعت : أسرعت في سيرها .

(٢) الوطف ؛ كثرة شعر الحاجبين والعينين ، والزمع جمع زمعة ؛ وهي هنة زائدة وراء الظلف أو

الشمرات المدلاة في مؤخر رجب الشاة ، والصدع : من الأوعال والإبل الفقى الشاب القوى .

أصغرهم ، أزرى ذلك بهم في أكفائهم ، وإياكم ومعصية الله ، وقطيعة الرحم ، وتمسكوا
بطاعة أمرائكم ، فإنهم من رفعوا ارتفع ، ومن وضعوا اتضع ، وعليكم بهذا المال فأصلحوه
فإنه منبّهة للكريم ، وَجَنَّةٌ لِعِرْضِ اللَّيْمِ ، وإياكم والمسألة ، فإنها أخير^(١) كَسْبِ
الرجل ، وإن أحداً لم يسأل إلا ترك الكسب ، وإياكم والنياحة ، فإنى سمعت رسول الله
صلى الله عليه وسلم ينهى عنها ، وادفونى فى ثيابى التى كنت أصلى فيها وأصوم ، ولا يعلم
بكر بن وائل بمدفنى ، فقد كانت بينى وبينهم مشاحنات فى الجاهلية والإسلام ، وأخاف
أن يُدْخِلُوا عَلَيْكُمْ بى عاراً ، وخذوا عنى ثلاث خصال : إياكم وكلَّ عِرْقٍ لئيم أن تلابسوه
فإنه إن يسرركم اليوم ، يسؤكم غداً ، واكظموا الغيظ ، واحذروا بنى أعداء آبائكم ،
فإنهم على منهاج آبائهم ، ثم قال :

أحيا الضغائنَ آباءنا لسلفوا فلن تَبِيدَ والآباءُ أبناء

(شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ١٥٥ ، وتهذيب الكامل ١ : ١١)

(١) آخر بقصر الهمة لاغير : أى أدنى وأرذل ، ومن رواه بالله أخطأ .

خطب يوم السقيفة

لما قبض النبي صلى الله عليه وسلم اجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة فقالوا :
نؤلى هذا الأمر بهد محمد عليه الصلاة والسلام سعد بن عبادة ، وأخرجوا سعداً إليهم
وهو مريض ، فلما اجتمعوا قال لابنه أو بعض بني عمه ، إني لا أقدر لشكواي أن أسمع
القوم كلهم كلامي ، ولكن تلق مني قولي فأسمهموه ، فكان يتكلم ويحفظ الرجل
قوله : فيرفع صوته ، فيسمع أصحابه :

٢٨ - خطبة سعد بن عبادة

فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

« يا معشر الأنصار ، لكم سابقة في الدين ، وفضيلة في الإسلام ، ليست لقبيلة من
العرب ، إن محمداً عليه الصلاة والسلام لبث بضع عشرة سنة في قومه يدعوهم إلى عبادة
الرحمن ، وخلع الأنداد والأوثان ، فما آمن به من قومه إلا رجال قليل ، وما كانوا
يقدرون على أن يمنعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أن يعزوا دينه ، ولا أن يدفعوا
عن أنفسهم ضيماً عموا به ، حتى إذا أراد بكم الفضيلة ساق إليكم الكرامة ، وخصكم
بالنعم ، فرزقكم الله الإيمان به وبرسوله ، والمنع له ولأصحابه ، والإغزاز له ولدينه ،
والجهاد لاعدائه ، فكنتم أشد الناس على عدوه من غيركم ، حتى استقامت العرب
لأمر الله طوعاً وكرهاً ، وأعطى البعيد المقادة صاغراً داخراً^(١) ، حتى أئمن^(٢)

(١) صاغراً ذليلاً : من دخر كنع وفرح دخورا ودخرا بالتحريك .

(٢) أئمن فلانا : أوهنته ، والمراد أخضع .

الله عز وجل لرسوله بكم الأرض ، ودانت بأسيافكم له العرب ، وتوفاه الله وهو عنكم راضٍ ، وبكم قرير عَيْنٍ ، أَسْتَبِدُّوا بهذا الأمر دون الناس ، فإنه لكم دون الناس .

فأجابوه بأجمعهم أن قد وُقِّتَ في الرَّأْيِ ، وَأَصْبَتَ في القَوْلِ ، ولن نَعُدُّو ما رأيتَ نوَلِّيكَ هذا الأمرَ ، وأتى عمرَ الخَبْرُ ، فأقبل إلى أبي بكر فقال : « أما علمت أن الأنصار قد اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة ، يريدون أن يولوا هذا الأمر سعدَ بنَ عبادة ؟ وَأَحْسَنُهُمْ مَقَالَةً من يقول : مِثْلُ أَمِيرٍ وَمِنْ قُرَيْشٍ أَمِيرٌ » فمضيا مسرعين نحوهم ، فلحقيا أبا عبيدة بن الجراح فمأشوا إليهم ثلاثتهم ، فجاهوا وهم مجتمعون . فقال عمر : أتيناكم وقد كنت زويت^(١) كلاماً أردت أن أقوم به فيهم ، فلما أن دفعت إليهم ذهبيت لأبتدىء المنطق . فقال لي أبو بكر : رويداً حتى أتسكلم ، ثم انطق بعدُ بما أحببت فنطق . فقال عمر : فما شيء كنت أردت أن أقوله إلا وقد أتى به أوزاد عليه .

٢٩ - خطبة أبي بكر رضي الله عنه

حمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« إن الله بعث محمداً رسولاً إلى خلقه ، وشهيداً على أمته ، ليعبدوا الله ويوحّدوه ، وهم يعبدون من دونه آلهة شتى ، ويزعمون أنها لهم عنده شافعة ، ولهم نافعة ، وإنما هي من حَجَرٍ مَنْحُوتٍ ، وَخَشَبٍ مَنْجُورٍ^(٢) ، ثم قرأ : (وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ، وَيَقُولُونَ هُوَ لَاءُ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ، وَقَالُوا مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى) فَعَظَّمَ عَلَى الْعَرَبِ أَنْ يَتْرَكُوا دِينَ آبَائِهِمْ . فَخَصَّ اللَّهُ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ مِنْ

(١) زواه يزويه جمعه ، والمراد أعدت . ورواية العقد الفريد (٢ : ٢٠٤) زورت كلاماً في

نفسه ، وزور الشيء حسنه وقومه ، والمراد أيضاً هيأت وأعدت . (٢) النجر : نحت الخشب .

قومه بتصديقه ، والإيمان به ، والمؤاساة له ، والصبر معه ، على شدة أذى قومهم لهم ،
وتكذيبهم إياهم ، وكلُّ الناس مخالفٌ زارٍ^(١) عليهم ، فلم يستوحشوا لقلة عددهم ،
وشنّف^(٢) الناس لهم ، وإجماع قومهم عليهم ، فهم أولٌ من عبَدَ الله في الأرض ، وآمنَ
بالله وبالرَّسول ، وهم أولياؤه وعشيرته ، وأحق الناس بهذا الأمر من بعده ، ولا ينازعهم
ذلك إلا ظالمٌ ، وأنتم يا معشر الأنصار من لا يُنكرُ فضلهم في الدين ، ولا سابقتهم
العظيمة في الإسلام ، رَضِيكم الله أنصارًا لدينه ورسوله ، وجعل إليكم هِجْرَتَهُ وفيكم
جِلَّةُ أزواجِهِ وأصحابه ، فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم ، فنحن الأمراء ،
وأنتم الوزراء ، لا تُفتأتونَ بِمَشُورَةٍ وَلَا تُقْضَى دُونِكُمُ الْأُمُورُ .

« هذه رواية الطبرى لتلك الخطبة ، وأوردها غيره بنص آخر ، وها كه : »

٣٠ - نص آخر لخطبة أبي بكر يوم السقيفة

حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : نحن المهاجرون ، أول الناس إسلامًا ، وأكرمهم أحسابًا ، وأوسطهم
دارًا ، وأحسنهم وجوهًا ، وأكثر الناس ولادة في العرب ، وأمتهم رحماً برسول الله
صلى الله عليه وسلم ، أسلمنا قبلكم ، وقدمنا في القرآن عليكم ، فقال تبارك وتعالى :
« وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ »
فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار . إخواننا في الدين . وشركاؤنا في الفداء^(٣) ، وأنصارنا
على العدو ، آوئتم وواسيتم ، فجزاكم الله خيرًا ، فنحن الأمراء ، وأنتم الوزراء ،

(١) زرى عليه زراية : عابه . (٢) شنّف له كفرح : أبغضه وتكره فهو شنّف .

(٣) الغنيمة والحراج .

لَا تَدِينُ الْعَرَبُ إِلَّا لِهَذَا الْحَى مِنْ قَرِيشٍ ، فَلَا تَنْفَسُوا^(١) عَلَى إِخْوَانِكُمْ مَا مَنَعَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ .

(المقد الفريد ٢ : ١٣٠ - ٢٠٤ ، عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٣٣ ، البيان والتبيين ٣ : ١٤٧ والإمامة والسياسة ١ : ٧)

٣١ - خطبة الحباب بن المنذر

ثمّ قام الحباب بن المنذر بن الجحوح فقال :

« يا معشر الأنصار : امْلِكُوا عَلَيْكُمْ أَمْرَكُمْ ، فَإِنَّ النَّاسَ فِي قَيْئُسِكُمْ وَفِي ظَلَمِكُمْ ، وَلَنْ يَجْتَرِيَّ يَجْتَرِيَّ عَلَى خِلَافِكُمْ ، وَلَنْ يَصْدُرَ النَّاسُ إِلَّا عَنْ رَأْيِكُمْ ، أَنْتُمْ أَهْلُ الْعِزِّ وَالثَّرْوَةِ ، وَأَوْلُو الْعَدَدِ وَالْمَنْعَةِ وَالتَّجْرِبَةِ ، وَذَوُو الْبَأْسِ وَالنَّجْدَةِ ، وَإِنَّمَا يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَى مَا تَصْنَعُونَ ، وَلَا تَخْتَلِفُوا فَيَفْسُدَ عَلَيْكُمْ رَأْيِكُمْ ، وَيَنْتَقِضَ عَلَيْكُمْ أَمْرُكُمْ ، فَإِنَّ أَبِي هُوَ لَأِلا مَا سَمِعْتُمْ ، فَمَا أَمِيرٌ وَمِنْهُمْ أَمِيرٌ . »

٣٢ - خطبة عمر بن الخطاب رضى الله عنه

فقال عمر : « هيهات لا يجتمع اثنان في قرآن^(٢) ، والله لا ترضى العرب أن يؤمرؤكم^(٣) ونبيها من غيركم ، ولكن العرب لا تمتنع أن تولى أمرها من كانت النبوة فيهم ، وتولى أمورهم منهم ، ولنا بذلك على من أبى من العرب الحجة الظاهرة ، والسلطان المبين ، من ذابنازنا سلطان محمد وإمارته ، ونحن أولياؤه وعشيرته ، لإمدل بباطل ، أو متجانف^(٣) لإيهم ، أو متورط في هلكة ؟ » .

(١) نفس عليه بخير (كفرح) حسده ، ونفس عليه الشيء نفاسة لم يره أهلا له .

(٢) حبل . (٣) مائل جانح .

٣٣ - خطبة أخرى للحباب بن المنذر

فقال الحباب بن المنذر ، فقال :

« يا معشر الأنصار املِكُوا على أيديكم ، وَلَا تسمعُوا مقالة هذا وأصحابه ، فيذهبوا بنصيبكم من الأمر ، فإن أبوا عليكم ما سألتهموه ، فأجلوهم عن هذه البلاد ، وتولوا عليهم هذه الأمور ، فأنتم والله أحقُّ بهذا الأمر منهم ، فإنه بأسيا فكم دان لهذا الدين من دان ممن لم يكن يدين ؛ أنا جُذَيْلُهَا الْمُحَكَّكُ ، وَعُذَيْبُهَا الْمُرَجَّبُ ^(١) ، أما والله لئن شتمت لنعيذنها جَذَعَةً ^(٢) . »

فقال عمر : إذن يقتلك الله ، قال : بل إياك يقتل ، فقال أبو عبيدة :

يا معشر الأنصار : إنكم أولُّ من نصر وآزر ، فلا تكونوا أولَّ من بدَّلَ وَغَيَّرَ .

٣٤ - خطبة بشير بن سعد

فقال بشير بن سعد - أبو النعمان بن بشير - فقال :

« يا معشر الأنصار ، إنا والله لئن كُنَّا أولى فضيلة في جهاد المشركين ، وسابقة في هذا الدين ، ما أردنا به إلا رضا ربنا ، واطاعة نبينا ، والكُدْحَ لأنفسنا ، فما ينبغي لنا أن نستطيل على الناس بذلك ، ولا نبتغي به من الدنيا عَرَضًا ، فإنَّ اللهَ وَلىَّ الْمِنَّةِ عَلَيْنَا

(١) الجذيل : تصغير الجذل (بالكسر) ، وهو أصل الشجرة ، وعود ينصب للإبل الجربي لتحكك

به وتتمرس ، والمحكك الذي تتحككك به ، والعذيق تصغير العذق (بالفتح) ، وهو النخلة. والمرجب : الذي جعل له رجة ، وهي دعامة تبنى حولها من الحجارة ، وذلك إذا كانت النخلة كريمة وطالت تخوفوا عليها أن تنقر من الرياح العواصف ، والتصغير هنا يراد به التكبير والتعظيم ، وهو مثل ، والمراد أنه رجل يستشقى برأيه وعقله . (٢) الجذعة : الشابة الفتية ؛ يريد الحروب والغارات .

بذلك ، ألا إن محمداً صلى الله عليه وسلم من قريش ، وقومهُ أَحَقُّ به وأولى ، وإيم الله لا يرانى الله أنازعهم هذا الأمرَ أبداً ، فاتقوا الله ولا تخالفوه ولا تنازعوه .

فقال أبو بكر : هذا عمر ، وهذا أبو عبيدة ، فأَيُّهما شئتُم فبايعوا ، فقالا لا والله لا نتولى هذا الأمرَ عليك ، فإنك أفضل المهاجرين ، وثانى اثنين إذ هما فى الغار ، وخليفة رسول الله على الصلاة ، والصلاة أفضل دين المسلمين ، فمن ذا ينبغى له أن يتقدمك ، أو يتولى هذا الأمرَ عليك ؟ ابسط يدك نبايعك ، وقام الناس إليه فبايعوه .

(تاريخ الطبرى ٣ : ٢٠٧ ، والكامل لابن الأثير ٢ : ١٥٨)

خطب أبي بكر الصديق ووصاياہ

رضى الله عنه

٣٥ - خطبته يوم قبض الرسول صلى الله عليه وسلم

دخل أبو بكر الصديق رضوان الله عليه ، على النبي عليه الصلاة والسلام وهو

مُسَجَّى (١) بثوب ، فكشف عنه الثوب ، وقال :

« بأبي أنت وأُمِّي ا طِيبْتَ حَيًّا ، وَطِيبْتَ مَيِّتًا ! وانقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من الأنبياء من النبوة ، فعظمت عن الصفة ، وجللت عن البكاء ، وخصصت حتى صرت مسلاة (٢) ، وعممت حتى صرنا فيك سواء (٣) ، ولولا أن موتك كان اختياراً منك (٤) ، لجدنا لموتك بالنفوس ، ولولا أنك نهيت عن البكاء ، لأفدنا عليك ماء الشئون (٥) ، فأما ما لا نستطيع نفيه عنا ، فكمد وإدناف (٦) ، يتخالفان ولا يبرحان

(١) تسجية الميت : تغطيته . (٢) خص الشيء من باب قعد خصوصاً فهو خاص : خلاف عم ،

مثل اختص (وكلا الفعلين يستعمل متعدياً ولازماً) ، والمعنى إنك يا رسول الله قد صرت بموتك مسلاة للناس فإنك مع ما اختصصت به من مناقب النبوة قد نزل بك الموت ، فللهباد فيك أسوة حسنة .

(٣) أى عمت مصيبتك جميع المسلمين فصرنا نحن وقرابتك سواء في الحزن عليك والتفجع لفقدك .

(٤) يشير إلى قوله عليه الصلاة والسلام : «لم يقبض نبي حتى يرى مقعده من الجنة ثم يخير» قالت عائشة : فسمته

وقد شخص بصره ؛ وهو يقول : « في الرفيق الأهل » فعلمت أنه خير ، فعلمت أنه لا يختارنا إذن ، وقلت

هو الذى كان يحدثنا وهو صحيح . (٥) جمع شأن ، وهو مجرى الدمع إلى العين .

(٦) دنف المريض كفرح ، وأدنف : ثقل ، والشمس : دنت للغروب واصفرت .

اللهم فأبلغنا عن السلام ، اذ كرنا يا محمد عند ربك ، ولنكن من بالاك ، فلو لا ما خلقت من السكينة لم نُقمَ لما خلقت من الوحشة ، اللهم أبلغ نبيك عنا ، واحفظه فينا ! ثم خرج إلى الناس وهم في شديد غمراتهم ، وعظيم سكراتهم ، فخطب خطبة قال فيها :

« أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ، وأشهد أن الكتاب كما نزل ، وأن الدين كما شرع ، وأن الحديث كما حدث ، وأن القول كما قال ، وأن الله هو الحق المبين ... في كلام طويل ، ثم قال : أيها الناس ، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، وإن الله قد تقدم إليكم في أمره ، فلا تدعوه جزعاً ، وإن الله قد اختار لنبيه ما عنده على ما عندهم ، وقبضه إلى ثوابه ، وخلف فيكم كتابه ، وسنة نبيه ، فمن أخذ بهما عرف ، ومن فرق بينهما أنكر . (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط^(١)) ، ولا يشغلنكم الشيطان بموت نبيكم ، ولا يفتننكم عن دينكم ، فعاجلوه بالذي تمجزونه ، ولا تستنظروه فيلحق بكم . »
(زهر الآداب ١ : ٣٥)

٣٦ - خطبته بعد البيعة

حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : إني قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن رأيتُموني على حق فأعينوني ، وإن رأيتُموني على باطل فسددوني ، أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم ، ألا إن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحق له ، وأضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق منه ، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم . »

(العقد الفريد ٢ : ١٣٠ ، وإعجاز القرآن ص ١١٥ ، وعيون الأخبار م ٢ : ٢٣٤ ، وتهذيب

الكامل ١ : ٦ ، وتاريخ الطبري ٣ : ٢٠٣ ، وابن أبي الحديد م ٢ : ٨ ، وم ٤ : ١٦٧ ، وسيرة ابن هشام ٢ : ٤٣٠ . »

٣٧ — خطبة أخرى له بعد البيعة

وقال الطبري : نادى منادى أبي بكر من بعد الغد من متوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم : لِيَمَّ بَعَثَ أُسَامَةَ : أَلَا لَا يَبْقَيْنَ بِالْمَدِينَةِ أَحَدٌ مِنْ جُنْدِ أُسَامَةَ إِلَّا خَرَجَ إِلَى عَسْكَرِهِ ، وَقَامَ فِي النَّاسِ ، فَحَمَدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّمَا أَنَا مِثْلُكُمْ ، وَإِنِّي لَا أُدْرِي لِعَلَّكُمْ سَتُكَلِّفُونِي مَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُطِيقُ . إِنْ اللَّهُ اصْطَفَى مُحَمَّدًا عَلَى الْعَالَمِينَ ، وَعَصَمَهُ مِنَ الْآفَاتِ ، وَإِنَّمَا أَنَا مُتَّبِعٌ ، وَلَسْتُ بِمُبْتَدِعٌ ، فَإِنْ اسْتَقَمْتَ فَتَابِعُونِي ، وَإِنْ زِغْتَ فَقَوِّمُونِي : وَإِنْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُبِضَ ، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَطْلُبُهُ بِمِظْلَمَةٍ^(١) ضَرْبَةٍ سَوْطِ فَمَا دُونَهَا ، أَلَا وَإِنْ لِي شَيْطَانًا^(٢) يِعْتَرِينِي ، فَإِذَا غَضِبْتُ فَاجْتَنِبُونِي ، لَا أُؤَثِّرُ فِي أَشْعَارِكُمْ وَأَبْشَارِكُمْ^(٣) ، أَلَا وَإِنْ كُمْ تَغْدُونَ وَتَرْوِحُونَ فِي أَجَلٍ قَدْ غُيِّبَ عَنْكُمْ عِلْمُهُ ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ الْأَيْمُضَى هَذَا الْأَجَلَ إِلَّا وَأَنْتُمْ فِي عَمَلٍ صَالِحٍ فَافْعَلُوا ، وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا ذَلِكَ إِلَّا بِاللَّهِ ، فَسَابِقُوا فِي مَهَلٍ آجَالِكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُسَلِّمَ آجَالِكُمْ إِلَى انْقِطَاعِ الْأَعْمَالِ ، فَإِنْ قَوْمًا نَسُوا آجَالَهُمْ ، وَجَعَلُوا أَعْمَالَهُمْ لغيرِهِمْ ، فَيَا كُمْ أَنْ تَكُونُوا أَمْثَالَهُمْ ، الْجِدَّةَ الْجِدَّةَ ، وَالْوَحَا^(٤) الْوَحَا ، وَالنَّجَاءَ^(٥) النَّجَاءَ ، فَإِنْ وِرَاءَكُمْ طَالِبًا حَثِيثًا^(٦) ، أَجَلًا مَرَّةً سَرِيعًا ، احذَرُوا الْمَوْتَ وَاعْتَبِرُوا بِالْآبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ وَالْإِخْوَانَ ، وَلَا تَغْتَبِطُوا^(٧) الْأَحْيَاءَ إِلَّا بِمَا تَغْتَبِطُونَ بِهِ الْأَمْوَاتُ »

(تاريخ الطبري ٣ : ٢١١ ، وشرح ابن أبي الحديد م ٤ : ص ١٦٧)

(١) الظلامة . (٢) قال ابن أبي الحديد : وأراد بالشیطان الغضب ، ولم يرد أن له شیطانا من مردة الجن يعتریه إذا غضب ، ولو كان له شیطان من الجن يعتاده وينوبه لكان فی عداد المصروعین من المجانین ؛ وما ادعی أحد علی أبي بكر هذا لامن أولیائه ولا من أعدائه . (٣) أبشار جمع بشر ، وهو جمع بشرة : وهی ظاهر الجلد . (٤) العجلة والإسراع ، وحی وتوحی : أسرع ، ووحاه ، عجله . (٥) الإسراع أيضا . (٦) سریعا . (٧) غبطه : تمنی مثل حاله من غیر أن یرید زوال نعمته عنه .

٣٨ - خطبة أخرى

قال الطبري : وقام ايضاً فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« إن الله عز وجل لا يقبل من الأعمال إلا ما أريد به وجهه ، فأريدوا الله بأعمالكم ، واعلموا أن ما أخلصتم لله من أعمالكم فطاعة أتيتموها ، وحظ ظفرتكم به ، وضرائب أديتموها ، وسلف قدمتموه ، من أيام فانية لأخرى باقية ، لحين فقرم وحاجتكم ، اعتبروا عباد الله بمن مات منكم ، وتفكروا فيمن كان قبلكم . أين كانوا أمس ؟ وأين هم اليوم ؟ أين الجبارون ؟ وأين الذين كان لهم ذكر القتال والغلبة في مواطن الحروب ؟ قد تضعض بهم الدهر ، وصاروا رمياً ، قد تركت عليهم القالات^(١) الخبيثات ، وإنما الخبيثات للخبيثين ، والخبيثون للخبيثات ، وأين الملوك الذين أثاروا الأرض وعمروها ؟ قد بعدوا ، ونسي ذكرهم ، وصاروا كلاً شياً ، ألا وإن الله قد أبقى عليهم التبعات ، وقطع عنهم الشهوات ، ومضوا والأعمال أعمالهم ، والدنيا دنيا غيرهم ، وبقينا خلفاً من بعدهم ، فإن نحن اعتبرنا بهم نجونا ، وإن أغترنا كنا مثلهم ، أين الوضاء^(٢) الحسنة وجوههم ، المعجبون بشبابهم ؟ صاروا تراباً ، وصار ما فرطوا فيه حسرة عليهم ، أين الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحوائط ، وجعلوا فيها الأعاجيب ؟ قد تركوها لمن خلفهم ، فلك مساكنهم خاوية ، وهم في ظلمات القبور ، هل تحس منهم من أحد ، أو تسمع لهم ركزاً^(٣) ؟ أين من تعرفون من أبنائكم وإخوانكم ؟ قد انتهت بهم آجالهم ، فوردوا على ما قدموا ، فحلوا عليه ، وأقاموا للشقوة والسعادة فيما بعد الموت ،

(١) القول : في الخير ، والقال والقيل والقالة : في الشر . (٢) الوضاء جمع وضىء : وهو الحسن

والنظيف ، وهو أيضا وضاء بضم الواو وتشديد الضاد ، وجمعه وضاءون . (٣) الصوت الخفي .

ألا إن الله لا شريك له ليس بينه وبين أحد من خلقه سبب يعطيه به خيراً، ولا يصرف عنه به سوءاً إلا بطاعته واتباع أمره ، واعلموا أنكم عبيد مدينون ، وأن ما عنده لا يدرك إلا بطاعته ، أما وإنه لا خيرَ بخيرِ بعده النارُ ، ولا شرَّ بِشَرِّ بعده الجنة .

(تاريخ الطبرى ٣ : ٣١١ ، وشرح ابن أبي الحديد ٤ ص ١٦٧)

٣٩ - خطبة له

ومن خطبه : « حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :
إن أشقى الناس في الدنيا والآخرة الملوك ، فرقع الناس رؤوسهم ، فقال : مالكم يامعشر الناس ؟ إنكم لطمعون عجولون ، إن من الملوك من إذا ملأه الله فيما في يده ، ورغبه فيما في يده غيره ، وانتقصه شطرَ أجله ، وأشرب قلبه الإشفاق ، فهو يحسد على القليل ، ويتسخط^(١) الكثير ، ويسأم الرخاء ، وتنقطع عنه لذة البهاء ، لا يستعمل العبرة ، ولا يسكن إلى الثقة ، فهو كالدرهم القسي^(٢) ، والسراب الخادع ، جذل الظاهر ، حزين الباطن ، فإذا وجبت^(٣) نفسه ، ونضب عمره ، وضحا ظله^(٤) ، حاسبه الله فأشدَّ حسابته ، وأقلَّ عفوهُ . ألا إن الفقراء هم المرحومون ، وخير الملوك من آمن بالله ، وحكم بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وإنكم اليوم على خلافة نبوة ، ومفرق محجة ، وسترون بعدى ملكاً عضوضاً^(٥) ، وأمة شعاعاً^(٦) ، ودماً مفاخاً^(٧) ، فإن كانت للباطل نزوة^(٨) ، ولأهل الحق جولة ، يعفولها الأثر ، وتموت السنن ، فالزموا المساجد ،

(١) تسخط عطاه : استقله ولم يقع منه موقعا . (٢) الزائف . (٣) مات . ووجبت الشمس :

غابت ؛ والعين غارت . (٤) مات أيضا . (٥) العضوض : ما يمرض عليه ، وملك عضوض : فيه

عسف وظلم . (٦) متفرقة . (٧) أفاحه : أراقه . (٨) وثبة .

واستشيروا القرآن ، والزمو الجماعة ، وليكن الإبرام بعد التشاور ، والصِّفقة بعد طول
التناظر ، أى بلاد خَرَشَنَةَ^(١) إن الله سيفتح عليكم أقصاها كما فتح أدناها .

(عيون الأخبار م ٢ ص ٢٣٣ ، والبيان والتبيين ٢ : ٢١ ، والمقد الفريد ٢ : ١٣١ ، وصبح

الأعشى ١ : ٢١٣ ، وزهر الآداب ١ : ٣٩) .

٤٠ — خطبة له

وخطب أيضا فقال :

« الحمد لله ، أحمده ، وأستعينه ، وأستغفره ، وأؤمن به ، وأتوكل عليه ، وأشهدى الله
بالمهدى ، وأعوذ به من الضلالة والردى ، ومن الشك والعمى ، من يهد الله فهو المهتدى ،
وَمَنْ يُضِلِّ فَلَئِنْ تَجَدَّ لَهُ وَلِيَا مُرَشِدًا ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ
وَلَهُ الْحَمْدُ ، يُحْيِي وَيُمِيتُ ، وَهُوَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ ، يُعْزِّزُ مَنْ يَشَاءُ ، وَيُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ بِيَدِهِ الْخَيْرُ ،
وهو على كلِّ شئٍ قدير ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق
لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ، إلى الناس كافةً ، رحمةً لهم ، وحجة عليهم
والناس حينئذ على شرٍّ حال في ظلمات الجاهلية ، دينهم بدعة ، ودعوتهم فرية ، فأعزَّ الله
الدين بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وألَّفَ بين قلوبكم أيها المؤمنون ، فأصبحتم بنعمته إخوانا ،
وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون .
فأطيعوا الله ورسوله ، فإنه قال عزَّ وجل : « مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ، وَمَنْ
تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا » .

أما بعد أيها الناس : إني أوصيكم بتقوى الله العظيم في كلِّ أمر ، وعلى كلِّ حال ،
ولزوم الحق فيما أحببتم وكرهتم ، فإنه ليس فيما دون الصدق من الحديث خير ، مَنْ يَكْذِبْ

(١) خرشنة : بلد بالروم ، والمراد بلاد الروم .

يَفْجُرُ ، ومن يفجرُ يَهْلِكُ ، وإياكم والفخرَ ، وماخرُ من خلق من التراب ، وإلى التراب يعود ؟ هو اليوم حى ، وغداً ميت ، فاعملوا وعدُّوا أنفسكم فى الموتى ، وما أشكلَ عليكم فردوا علمه إلى الله ، وقدموا لأنفسكم خيراً تجدوه مُحَضَّرًا ، فإنه قال عزَّ وجلَّ « يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحَضَّرًا ، وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ، وَيَحْذَرُ كُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ، وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ » . فاتقوا الله عباد الله وراقبوه ، واعتبروا بمن مضى قبلكم ، واعلموا أنه لا بد من لقاء ربكم والجزاء بأعمالكم صغيرها وكبيرها ، إلا ماغفر الله ، إنه غفور رحيم ، فأنفسم أنفسكم ، والمستعان الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله « إن الله وملائكته يصلون على النبي ، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً » اللهم صلِّ على محمد عبدك ورسولك ، أفضلَ ما صلَّيت على أحد من خلقك ، وزكنا بالصلاة عليه ، وألحقنا به ، وأحشرنا فى زمرة ، وأوردنا حوضه .
اللهم أعنا على طاعتك ، وانصرنا على عدوك .
(العقد الفريد ٢ : ١٣١)

٤١ - خطبة له

وخطب أيضاً ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« أوصيكم بتقوى الله ، وأن تثنوا عليه بما هو أهله ، وأن تخلطوا الرغبة بالرَّهبة ، وتجمعوا الإلحاف بالمسألة ، فإن الله أثنى على زكريا وعلى أهل بيته فقال : « إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ » ثم أعلموا عباد الله أن الله قد ارتهن بحقه أنفسكم ، وأخذ على ذلك موثيقكم ، وعوضكم بالقليل الفانى الكثير الباقى ، وهذا كتابُ الله فيكم لا تفتنى عجائبه ، ولا يطفأ نوره ، فثقوا بقوله ،

وانتصحو^(١) كتابه ، واستبصروا فيه ليوم الظلمة ، فإنه خلقكم لعبادته ، وَوَكَلْ بِكُمْ
الكرام الكاتبين يعلمون ماتفعلون^(٢) .

(المقد الفريد ٢ : ١٣١ ، وعيون الأخبار م ٢ ص ٢٣٢)

٤٢ — خطبة له في الأنصار

ووصل إليه مال من البحرين ، فساوى فيه بين الناس ، فغضبت الأنصار ، وقالوا
له فَضَّلْنَا ، فقال أبو بكر صدقتم ، إن أردتم أن أفضلكم صار ما عملتموه للدنيا ، وإن
صبرتم كان ذلك لله عز وجل ، فقالوا : والله ما عملنا إلا لله تعالى وانصرفوا ، فرقى
أبو بكر المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم . ثم قال :

« يامعشر الأنصار : إن شئتم أن تقولوا إنا آويناكم في ظلالنا ، وشاطرناكم في
أموالنا ، ونصرناكم بأنفسنا ، قلم : وإن لكم من الفضل مالا يُحصيه العدد وإن طال به
الأمْدُ . فنحن وأنتم كما قال طفيل الغنوي :

جزى الله عنا جفراً حين أزلت بنا نعلنا في الواطئين فزلت
أبوا أن يملؤنا ، ولو أن أمنا تلاقى الذي يلقون منا لملت
هم أسكنونا في ظلال بيوتهم ظلال بيوت أدفات وأظلت

(زهر الآداب ١ : ٣٩ وصبح الأمتى ١٣ : ١٠٨)

(١) انتصح فلان : قبل النصيحة ، يقال : انتصحني فإني لك ناصح . (٢) ورد عقب ذلك
« ثم اعلّموا عباد الله أنكم تغدون وتروحون في ليل قد غيب عنكم علمه . . . الخ » ما أورده ابن جرير
الطبري في الخطبة التي أسلفنا ذكرها ص ١٨١ .

٤٣ - وصيته لأسامة بن زيد

وأوصى أسامة بن زيد وجيشه حين سيره إلى أبي بن سفيان^(١) ، فقال :
« يا أيها الناس : قِفُوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني : لا تخونوا ، ولا تغلوا^(٢) ،
ولا تغدروا^(٣) ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ، ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا
تَقْعَرُوا^(٤) مَخْلاً ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مشمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً
إلا لِمَا كَلَلَهُ^(٥) ، وسوف تمرُّون بأقوام قد فرَّغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرَّغوا
أنفسهم له ، وسوف تقدّمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام ، فإذا أكلتم منها
شيئاً بعد شيء ، فاذكروا اسم الله عليها ، وَتَلْقَوْنَ أَقْوَامًا قد فحصوا أوساط رؤوسهم ،
وتركوا حولها مثل العصائب ، فاخفِّقوهم^(٦) بالسيف خففاً ، اندفعوا باسم الله^(٧) . »

(تاريخ الطبري ٣ : ٢١٣ ، والكامل لابن الأثير ٢ : ١٦٢)

٤٤ - وصيته لعمر بن العاص والوليد بن عقبة

وشيع عمرو بن العاص والوليد بن عقبة مَبْعُهُمَا على الصدقة ، وأوصى كل واحد منهما

بوصية واحدة :

« اتق الله في السرِّ والعلانية ، فإنه من يتق الله يجعل له مخرجاً ، ويرزقه من حيث

(١) موضع بقرب مؤتة بمشارق الشام قتل فيه والده زيد بن حارثة . (٢) غل يغل كنعصر :

خان كأغل ، وغل صدره يغل كضرب غليلاً وغلا : حقد . (٣) غدره وغدر به كنعصر وضرب وسمع .

(٤) قعر النخلة : كنع فانتعرت قطامها من أصلها فسقطت . (٥) المأكلة : ما أكل .

(٦) خفقه : ضربه بشيء عريض . (٧) وأورد العقد الفريد هذه الوصية وذكر أنها وصية من

أبي بكر لزيد بن أبي سفيان - راجع العقد ج ١ ص ٤٠ .

لا يحْتَسِب ، ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ، ويعظم له أجراً ، فإن تقوى الله خير ما تواصى به عباد الله ، إنك في سبيل من سبيل الله ، لا يسمعك فيه الإدهان^(١) والتفريط والغفلة عما فيه قوام دينكم ، وعصمة أمركم فلا تن ، ولا تفتن .

(تاريخ الطبري ٤ : ٢٩)

خطب الفتوح في عهد أبي بكر

٤٥ — وصيته لخالد بن الوليد

ووصى أبو بكر خالد بن الوليد فقال :

« سر على بركة الله ، فإذا دخلت أرض العدو ، فكن بعيداً من الحملة ، فإنى لا آمن عليك الجولة ، واستظهر بالزاد ، وسر بالأدلاء ، ولا تقا تل بمجروح ، فإن بعضه ليس منه ، واحترس من البيات ، فإن في العرب غرة ، وأقلل من الكلام ، فإن مالك ما وُعِيَ عنك ، واقبل من الناس علانيتهم ، وكلهم إلى الله في سريرتهم ، وأستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه » .

(المقد الفريد ١ : ٤٠)

٤٦ — خطبة خالد بن الوليد

وكان أبو بكر رضى الله عنه قد بعث المشي بن حارثة على جيش إلى العراق ، فقدم العراق فقاتل وأغار على أهل فارس ونواحي السواد ، ثم بعث أخاه مسعودا إلى أبي بكر يستمده . فكتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد - وكان باليمامة - أن يسير إلى العراق ، فلما قرأ خالد الكتاب .

قام في الناس فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال :

(١) الإدهان : المداينة والنش .

« الحمد لله والله أهله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، أما بعد : فإن خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب إلينا يحضنا على طاعة ربنا ، وجهاد عدونا وعدو الله ، وبالجهاد في سبيل الله أنجز الله دعوتنا ، وجمع كلمتنا وأمنيتنا ، والحمد لله رب العالمين ، ألا إني خارج ومعسكر وساثر إن شاء الله وممّجّل ، فمن أراد ثواب العاجل والآجل فليتكش^(١) » :

٤٧ - خطبة لأبي بكر في ندب الناس لفتح الشام

وَخطب يندب الناس لفتح الشام ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على رسوله ، وقال :
« ألا إن لكل أمرٍ جوامعَ ، فمن بلغها فهي حسبهُ ، ومن عمل لله كفاه الله ،
عليكم بالجد والقصد ، فإن القصد أبلغ ، ألا إنه لا دين لأحد لا إيمان له ، ولا أجر لمن
لا حسبةَ له ، ولا عمل لمن لا نيةَ له ، ألا وإن في كتاب الله من الثواب على الجهادِ
في سبيل الله ، كما ينبغي للمسلم أن يحب أن يُخصَّ به ، هي التجارة التي دل الله عليها ، ونجى
بها من الخزي ، وألحق بها الكرامة في الدنيا والآخرة » . (تاريخ الطبري ٤ : ٣٠)

فتح الشام

حدث أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي البصري صاحب فتوح الشام قال : لما أراد أبو بكر رحمة الله عليه أن يجهز الجنود إلى الشام ، دعا عمر وعثمان وعلياً وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد ابن أبي وقاص وأبا عبيدة بن الجراح ووجوه المهاجرين والأنصار من أهل بدر وغيرهم ، فدخلوا عليه فقال :

٤٨ - خطبة أبي بكر

« إن الله تبارك وتعالى لا تُحصَى نعمه ، ولا تباع جزاءها الأعمالُ ، فله الحمد كثيراً على ما اصطنع عندكم ، فقد جمع كلمتكم ، وأصلح ذات بينكم ، وهداكم إلى الإسلام ، ونفى عنكم الشيطان ، فليس يطمع أن تشركوا بالله ، ولا أن تتخذوا إلهاً غيره ، فالعرب اليوم بنو أم وأب ، وقد أردت أن أستنفرهم إلى جهاد الروم بالشام ليؤيد الله المسلمين ، ويجعل الله كلمته العليا ، مع أن للمسلمين في ذلك الحظ الأوفر . فمن هلك منهم هلك شهيداً ، وما عند الله خير للأبرار ، ومن عاش منهم عاش مدافعاً عن الدين ، مستوجباً على الله عز وجل ثواب المجاهدين ، هذا رأي الذي رأيت فليشر على أمرؤُ بمبلغ رأيه . »

٤٩ - خطبة عمر

فقام عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال :

« الحمد لله الذى يخلص بالخير من يشاء من خلقه ، والله ما استبقنا إلى شئ من الخير قط إلا سبقتنا إليه ، وذلك فضلُ الله يؤتیه من يشاء ، قد والله أردتُ لقاءك لهذا رأى

الذي ذكرت ، فاقضى الله أن يكون ذلك حتى ذكرته الآن ، فقد أصبت ، أصاب الله بك سبل الرشاد ، سرّب إليهم الخيل في إثر الخيل ، وابتعث الرجال تتبعها الرجال ، والجنود تتبعها الجنود . فإن الله عز وجل ناصر دينه ، ومُميز الإسلام وأهله ، ومنجز ما وعدّ رسوله .
(فتوح الشام ص ١ وتاريخ ابن عساكر ١ : ١٢٦ - ١٢٧)

٥٠ - خطبة عبد الرحمن بن عوف

ثم إن عبد الرحمن بن عوف قام فقال :

« يا خليفة رسول الله ، إنها الروم وبنو الأصفر ، حدّ حديد ، ووركن شديد ، والله ما أرى أن تُقحم الخيل عليهم إقحاما ، ولكن تبعث الخيل ، فتغير في أذانى أرضهم ، ثم تبعثها فتغير ، ثم ترجع إليك ، ثم تبعثها فتغير ، ثم ترجع إليك ، فإذا فعلوا ذلك مرارا أضروا بدموم ، وغنموا من أذانى أرضهم ، فقوموا بذلك على قتالهم ، ثم تبعث إلى أقاصى أهل اليمن ، وإلى أقاصى ربيعة ومضر فتجمعهم إليك جميعا . فإن شئت عند ذلك غزوتهم بنفسك ، وإن شئت بعثت على غزوم غيرك . »

ثم جلس وسكت وسكت الناس .

قال لهم أبو بكر مآرون ؟ رحمكم الله . فقام عثمان بن عفان رضوان الله عليه . فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال :

« رأيت رأيي ناصح لأهل هذا الدين ، عليهم شفيق . فإذا رأيت رأيا علمته لهم رشدا وصلاحا وخيرا ، فاعزم على إمضائه ، فإنك غير ظنين ولا متهم عليهم . »

فقال طلحة بن الزبير وسعد وأبو عبيدة بن الجراح وسعيد بن زيد وجميع من حضر ذلك المجلس من المهاجرين والأنصار :

« صدق عثمان فيما قال ، ما رأيت من رأى فأمض ، فإننا سامعون لك مطيعون ، ولا نخالف أمرك ، ولا نهم رأيك ، ولا نتخلف عن دعوتك وإجابتك . »

فذكروا هذا وشبهه ، وعلى بن أبي طالب رحمة الله عليه في القوم لا يتكلم ، فقال له أبو بكر : ما ترى يا أبا الحسن ؟ قال :

« أرى أنك مبارك الأمر ، ميمون النقيية ، وأنتك إن سرت إليهم بنفسك أو بعثت إليهم نصرت إن شاء الله » .

فقال له أبو بكر : بشرك الله بخير ، فن أين علمت هذا ؟ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يزال هذا الدين ظاهرا على كل من ناواه ، حتى يقوم الدين وأهله ظاهرين » فقال أبو بكر : سبحان الله ! ما أحسن هذا الحديث ! لقد سررتني شرك الله في الدنيا والآخرة .

٥١ - خطبة أبي بكر

ثم إن أبا بكر رحمة الله عليه ورضوانه قام في الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ، وذكره بما هو أهله ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال :

« أيها الناس ، إن الله قد أنعم عليكم بالإسلام ، وأعزكم بالجهاد ، وفضلكم بهذا الدين على أهل كل دين . فتجهزوا عباد الله إلى غزو الروم بالشام ، فإني مؤمّر عليكم أمراء وعاقدهم ألوية ، فأطيعوا ربكم ، ولا تخالفوا أمراءكم ، ولتحسن نيتكم وسيرتكم وطعمتكم ، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » .

فسكت الناس ، فوالله ما أجابه أحد هيبة لغزو الروم لما يعلمون من كثرة عددهم وشده شوكتهم ، فقام عمر بن الخطاب رحمة الله عليه ورضوانه فقال : يامعشر المسلمين ما لكم لا تجيبون خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ دعاكم لمناجيتكم .

٥٢ - خطبة خالد بن سعيد بن العاص

فقام خالد بن سعيد بن العاص ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

« الحمد لله الذي لا إله إلا هو ، الذي بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، فإن الله منجز وعده ، ومُعز دينه ، ومُهلك عدوه » ثم أقبل على أبي بكر فقال : « نحن غير مخالفين لك ، ولا متخلفين عنك ، وأنت الموالى الناصح الشفيق ، ننفر إذا استنفرتنا ، ونطيعك إذا أمرتنا ، ونجيبك إذا دعوتنا » .

ففرح أبو بكر بمقاتته ، وقال له : « جزاك الله من أخ و خليل خيراً ، فقد أسلمت مرتعباً ، وهاجرت محتسباً ، وهربت بدينك من الكفار ، لكي يطاع الله ورسوله ، وتكون كلمة الله هي العليا ، فتيسر رحمتك الله » .

فتجهز خالد بن سعيد بأحسن الجهاز وخرج هو وإخوته وغلمانه ومن تبعه من أهل بيته ، فكان أول من عسكر ، وأمر أبو بكر بلالا فنادى في الناس : أن انفروا إلى جهاد عدوكم الروم بالشام ، فنفروا إليه — وكان خالد من عمال رسول الله صلى الله عليه وسلم فكره الإمارة واستغنى أبا بكر فأعفاه — (فتوح الشام ص ١) ورأى أبو بكر أن يكتب كتاباً إلى أهل اليمن يدعوهم إلى الجهاد ، ويرغبهم في ثوابه ، وبعث الكتاب مع أنس بن مالك .

قال أنس : أتيت أهل اليمن جناحاً جناحاً وقبيلة قبيلة ، أقرأ عليهم كتاب أبي بكر وإذا فرغت من قراءته قلت :

« الحمد لله ؛ وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد : فأني رسول خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ورسول المسلمين إليكم ، ألا وإني قد تركتهم معسكرين ، ليس يمتنعهم من الشخوص إلى عدوهم إلا انتظاركم ، فعبجوا إلى إخوانكم رحمة الله عليكم أيها المسلمون » .

فكان كل من أقرأ عليه ذلك الكتاب ، ويسمع مني هذا القول يحسن الرد على ، ويقول : نحن سائرون وكأنا قد فعلنا .

٥٣ — خطبة ذى الكلاع

حتى انتهيت إلى ذى الكلاع ، فلما قرأت عليه الكتاب ، وقلت هذا المقال ؛ دعا بفرسه وسلاحه ؛ ونهض في قومه من ساعته ولم يؤخر ذلك ، وأمر بالمعسكر فسا برحنا حتى عسكر وعسكر معه جموع كثيرة من أهل اليمن وسارعوا ، فلما اجتمعوا إليه قام فيهم :

فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال : « أيها الناس إن من رحمة الله إياكم ، ونعمته عليكم ، أن بعث فيكم رسولا ، وأنزل عليه كتابا فأحسن عنه البلاغ ، فعلمكم ما يرشدكم ، ونهاكم عما يفسدكم ، حتى علمكم ما لم تكونوا تعلمون ، ورجبكم في الخير فيما لم تكونوا ترغبون ، ثم قد دعاكم إخوانكم الصالحون إلى جهاد المشركين ، واكتساب الأجر العظيم ، فابتغوا من أراد النفير معي الساعة » .
فنفر بعدد من أهل اليمن كثير ، وقدموا على أبي بكر ففرح بمقدمهم .

(فتوح الشام ص ٦)

٥٤ - وصية خالد بن سعيد بن العاص لأبي بكر

ولما أراد خالد بن سعيد بن العاص أن يغدو سائرا إلى الشام ، ابس سلاحه ، وأمر إخوته فلبسوا أسلحتهم ، عمرا والحكم وأبان ، وغلمته ومواليه ، ثم أقبل إلى أبي بكر رضى الله عنه بعد صلاة الغداة وصلى معه ، فلما انصرفوا قام إليه هو وإخوته ، فجلسوا إليه فحمد الله خالد وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال :

« يا أبا بكر ، إن الله أكرمنا وإياك والمسلمين طرا بهذا الدين ، فأحق من أقام السنة ، وأمات البدعة ، وعدل في السيرة ، الوالى على الرعية ، وكل امرئ من أهل هذا الدين محقوق بالإحسان ، ومعدلة الوالى أعم نفعا ، فاتق الله يا أبا بكر فيمن ولأك الله أمره ، وارحم الأرملة واليتيم ، وأعين الضعيف المظلوم ، ولا يكن رجل من المسلمين إذا رضيت عنه آثرَ عندك في الحق منه إذا سخِطَ عليه ، ولا تغضب . ما قدرت على ذلك ، فإن الغضب يجر الجور . ولا تحقد على مسلم وأنت تستطيع ، فإن حقدك على المسلم يجعلك له عدوا ، وإن اطلع على ذلك منك عاداك ، فإذا عادى الوالى الرعية ، وعادت الرعية الوالى ، كان ذلك قمعنا أن يكون إلى هلاكهم داعيا ، وكن لنا للمحسن ، واشدد على المريب ، ولا تأخذك في الله لومة لأم » .

م قال : هات يدك ، فإني لا أدري : هل نلتقي في الدنيا بعد هذا اليوم ؟ فإن قضى الله لنا التقاء فنسأل الله عفوه وغفرانه ؛ وإن كانت هي الفرقة التي ليس بعدها التقاء ، فعرفنا الله وإياك وجه النبي صلى الله عليه وسلم في جنات النعيم » فأخذ أبو بكر رضى الله عنه بيده ، ثم بكى وبكى خالد والمسلمون ، وظنوا أنه يريد الشهادة .
(فتوح الشام ص ١٧)

٥٥ - وصية أبي بكر لخالد بن سعيد بن العاص

فلما خرج من المدينة قال له أبو بكر رضى الله عنه :

« إنك قد أوصيتني برشدى وقد وعيتي ، وأنا موصيك فاستمع وصيتي وعيها ، إنك امرؤ قد جعل الله لك سابقة في الإسلام ، وفضيلة عظيمة ، والناس ناظرون إليك ، ومستمعون منك ، وقد خرجت في هذا الوجه العظيم الأجر ، وأنا أرجو أن يكون خروجك فيه لحسبة ونية صادقة إن شاء الله ، فثبت العالم ، وعلم الجاهل ، وعاتب السفية المتترف ، وانصح لعامة المسلمين ، واخصص الوالى على الجند من نصيحتك ومشورتك ما يحق الله والمسلمين عليك واعمل لله كأنك تراه ، واعدد نفسك فى الموتى ، واعلم أنا عما قليل ميتون ثم مبعوثون ثم مساءلون ومحاسبون ، جعلنا الله وإياك لأنعمه من الشاكرين ولننقمه من الخائفين ثم أخذ يده فودعه » .

وجهاز أبو بكر أربعة جيوش على أحدها عمرو بن العاص ووجهه إلى فلسطين ، وعلى الثانى شرحبيل ابن حسنة ووجهه إلى الأردن ، وعلى الثالث يزيد بن أبى سفيان ووجهه إلى البلقاء ، وعلى الرابع أبو عبيدة عامر بن الجراح ووجهه إلى حمص ، وشيخ الأمراء ووصاهم .
(فتوح الشام ص ١٨)

٥٦ - وصية أبي بكر لعمرو بن العاص

ولما أجمع أبو بكر أن يبعث الجيوش إلى الشام كان أول من سار من عماله عمرو ابن العاص .

وخرج أبو بكر يمشى إلى جنب راحلة عمرو بن العاص وهو يوصيه ويقول :

« يا عمرو اتق الله في سر أمرك وعلانيته ، واستخيه فإنه يراك ويرى عملك ، وقد رأيت تقديمي إياك على من هو أقدم سابقاً منك ، ومن كان أعظم غناء عن الإسلام وأهله منك ، فكن من عمال الآخرة ، وأرد بما تعمل وجه الله ، وكن والدا لمن معك . ولا تكشفن الناس عن أستارهم ، واكفف بعلايتهم ، وكن مجداً في أمرك ، واصدق اللقاء إذا لافيت ولا تبجن ، وتقدم في العلوم^(١) وعاقب عليه ، وإذا وعظت أصحابك فأوجز وأصلح نفسك تصلح لك رعيتك في وصية له طويلة » .

(تاريخ ابن عساكر ١ : ١٢٩)

٥٧ - وصية أخرى

وأمد أبو بكر أبا عبدة بجيش عليه عمرو بن العاص ، فلما أراد الشخصوص خرج معه أبو بكر رضى الله عنه يشيعه وقال :

« يا عمرو إنك ذو رأي وتجربة بالأمور وتبصرة بالحرب . وقد خرجت مع أشرف قومك ، ورجال من صلحاء المسلمين ، وأنت قادم على إخوانك فلا تألمهم نصيحة ، ولا تدخر عنهم صالح مشورة ، فرب رأى لك محمود في الحرب ، مبارك في عواقب الأمور » فقال له عمرو : ما أخلقني أن أصدق ظنك وأن أقبل رأيك ، ثم ودعه وانصرف .

(فتوح الشام ص ٤١)

٥٨ - وصية أبي بكر ليزيد بن أبي سفيان

ودعا يزيد بن أبي سفيان فمقد له وأوصاه فقال :

« يا يزيد ، إني أوصيك بتقوى الله وطاعته ، والإيثار له ، والخوف منه ، وإذا لقيت

(١) هكذا في الأصل .

العدو فأظفركم الله بهم ، فلا تغل ولا تمتل ، ولا تغدرو ولا تجبن ، ولا تقتلوا وليدا ،
ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ، ولا تحرقوا نخلا ولا تقعره ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ،
ولا تقفروا بهيمة إلا لما كلفه ، وستمرون بقوم في الصوامع ، يزعمون أنهم حبسوا أنفسهم
لله ، فدعوهوم وما حبسوا أنفسهم له ، وستجدون آخرين قد فحص الشيطان عن أوساط
رءوسهم ، حتى كأن أوساط رءوسهم أفاحيص^(١) القطا ، فاضربوا ما فحسوا من رءوسهم
بالسيوف ، حتى يُنبيوا إلى الإسلام ، أو يؤدوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، ولينصرن الله
من ينصره ورسله بالغيب « ثم أخذ يده فقال : « إني أستودعك الله وعليك سلام الله
ورحمته » ثم ودّعه وقال : « إنك أول أمرائي ، وقد وليتك على رجال من المسلمين أشرف
غير أوزاع^(٢) في الناس ، فأحسن صحبتهم ، ولتكن لهم كنفًا واخفض لهم جناحك
وشاورهم في الأمر ، أحسن الله لك الصحابة وعلينا الخلافة » . (فتوح الشام ص ٨)

٥٩ - وصية أخرى ليزيد بن أبي سفيان

ووصى يزيد بن أبي سفيان أيضا حين وجهه لفتح الشام قال :

« إني قد وليتك لأبلوك وأجربك وأخرجك^(٣) ، فإن أحسنت رددتك إلى عمك

وزدتك ، وإن أسأت عزلتك ، فعليك بتقوى الله ، فإنه يرى من باطنك مثل الذي يرى

من ظاهرك ، وإن أولى الناس بالله أشدهم توليا له ، وأقرب الناس من الله أشدهم تقربا

إليه بعمله ، وقد وليتك عمل خالد^(٤) ، فأياك وعبيبة^(٥) الجاهلية ، فإن الله يُبغضها ويُبغض

(١) جمع أفحوص وهو ما يجثم فيه القطا . (٢) أى ليسوا بأدنياء ولا ضعفاء ولا جفاة .

(٣) خرجه : دربه وعلمه . (٤) هو خالد بن سعيد العاص ، وكان أبو بكر سيره إلى

الشام أولا ثم عزله . (٥) العبيبة : الكبر والفخر ، وفي الحديث : « إن الله قد وضع عنكم عيبة الجاهلية »

يعنى الكبر .

أهلها ، وإِذَا قَدِمْتَ عَلَى جُنْدِكَ فَأَحْسِنْ مُحِبَّتَهُمْ وابدأهم بالخير ، وَعِدْهُمْ إِيَّاهُ ، وَإِذَا وَعَظْتَهُمْ فَأَوْجِزْ ، فَإِنَّ كَثِيرَ الْكَلَامِ يُنْسِي بَعْضُهُ بَعْضًا ، وَأَصْلِحْ نَفْسَكَ يَصْلِحْ لَكَ النَّاسُ ، وَصَلِّ الصَّلَوَاتِ لِأَوْقَاتِهَا بِإِتْمَامِ رُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا وَالتَّخَشُّعِ فِيهَا ، وَإِذَا قَدِمَ عَلَيْكَ رُسُلُ عَدُوِّكَ فَأَكْرِمْهُمْ وَأَقِلِّ لُبَّيْهِمْ حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْ عَسْكَرِكَ وَهُمْ جَاهِلُونَ بِهِ ، وَلَا تُرِيْبُهُمْ ^(١) فَيَرَوْا خَلَّكَ ، وَيَعَامُوا عِلْمَكَ ، وَأَنْزِلْهُمْ فِي ثُرُوةِ عَسْكَرِكَ ، وَامْنَعْ مِنْ قِبَلِكَ مِنْ مَحَادِثِهِمْ ، وَكُنْ أَنْتَ الْمُتَوَلَّى لِكَلَامِهِمْ ، وَلَا تَجْعَلْ سِرَّكَ لِعَالَمِيَّتِكَ ، فَيَخْتَلِطُ أَمْرُكَ ، وَإِذَا اسْتَشْرَتْ فَاصْدُقْ الْحَدِيثَ تُصَدِّقِ الْمَشُورَةَ ، وَلَا تَخْزُنْ عَنِ الْمُسِيرِ خَبْرَكَ ، فَتَوَلَّى مِنْ قِبَلِ نَفْسِكَ ، وَاسْمُرْ بِاللَّيْلِ فِي أَصْحَابِكَ تَأْتِكَ الْأَخْبَارُ ، وَتَنْكَشِفُ عِنْدَكَ الْأَسْتَارُ ، وَأَكْثِرْ حَرَسَكَ وَبَدِّدْهُمْ فِي عَسْكَرِكَ ، وَأَكْثِرْ مَفَاجِئَهُمْ فِي مَحَارِمِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ مِنْهُمْ بِكَ ، فَمَنْ وَجَدْتَهُ غَفَلَ عَنْ حَرَسِهِ ، فَأَحْسِنْ أَدَبَهُ وَعَاقِبَهُ فِي غَيْرِ إِفْرَاطٍ ، وَعَقِّبْ ^(٢) بَيْنَهُمْ بِاللَّيْلِ ، وَاجْعَلِ النَّوْبَةَ الْأُولَى أَطْوَلَ مِنَ الْأَخِيرَةِ ، فَإِنَّهَا أَيْسَرُهَا لِقَرَبِهَا مِنَ النَّهَارِ ، وَلَا تَخَفْ مِنْ عَقُوبَةِ الْمُسْتَحَقِّ ، وَلَا تَلْجُنْ فِيهَا ، وَلَا تُسْرِعْ إِلَيْهَا ، وَلَا تَخَذْ لَهَا مُدْقِعًا ^(٣) ، وَلَا تَغْفُلْ عَنِ أَهْلِ عَسْكَرِكَ فَتُفْسِدَهُ ، وَلَا تَجَسَّسْ عَلَيْهِمْ فَتَفْضَحَهُمْ ، وَلَا يَكْشِفِ النَّاسُ عَنْ أَسْرَارِهِمْ ، وَاصْطِدْقِ اللَّقَاءَ ، وَلَا تَجِبْنِ فَيَجِبَنَّ النَّاسُ ، وَاجْتَنِبِ الْغُلُولَ ^(٤) فَإِنَّهُ يَقْرَبُ الْفَقْرَ ، وَيُدْفَعُ النَّصْرَ ، وَسَتَجِدُونَ أَقْوَامًا حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ فِي الصَّوَامِعِ ، فَدَعَهُمْ وَمَا حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ لَهُ .

(تاريخ الكامل لابن الأثير ٢ : ١٩٦)

(١) من الريث : وهو الإبطاء . (٢) عقبه تعقيبا : جاء بعقبه . (٣) لاتخذ : من خذا يتخذو

كنصر وخذى يتخذى كرضى إذا استرخى ، والمدقع : المصق بالدقواء أو الحارب أو أشد الهزلي هزالا ؛ أى ولا تضعف ، ولا تجبن أمام تنفيذ العقوبة وهو مقابل لقوله : ولا تسرع إليها .

(٤) غل غلولا : خان .

٦٠ - دعاء أبي بكر

وكان أبو بكر رحمة الله عليه يدعو في كل يوم غُدُوةً وَعَشِيَّةً في دُبُرِ صلاة الغداة

وبعد العصر يقول :

« اللهم إنك خلقتنا ولم نك شيئا ، ثم بعثت إلينا رسولا ، رحمة منك لنا ، وفضلا منك علينا ، فهديتنا وكنا ضلّالا ، وحبّبت إلينا الإيمان وكنا كفارا ، وكثرتنا وكنا قليلا وجمعتنا وكنا أشتاتا ، وقويتنا وكنا ضعافا ، ثم فرضت علينا الجهاد ، وأمرتنا بقتال المشركين حتى يقولوا لا إله إلا الله أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، اللهم لأصبحنا أن نطلب رضاك ، ونجاهد أعداءك ، من عدل بك ، وعبد معك إلها غيرك ، تعاليت عما يقولون علوا كبيرا ، اللهم فانصر عبادك المسلمين على عدوك من المشركين ، اللهم افتح لهم فتحا يسيرا ، وانصرهم نصرا عزيزا ، واجعل لهم من لدنك سلطانا نصيرا ، اللهم شجّع جُبنهم وثبت أقدامهم ، وزلزل بعدوهم ، وأدخل الرعب قلوبهم ، واستأصل شأقتهم ، واقطع دابرهم ، وأبد خضراءهم ، وأورثنا أرضهم ودبارهم وأموالهم ، وكن لنا وليا ، وبنا حفييا ، وأصلح لنا شأننا كله ونياتنا وقضاءنا وتبعاتنا ، واجعلنا لأنعمك من الشاكرين ، واغفر لنا والمؤمنين والمؤمنات ، والمسلمين والمسلمات ، الأحياء منهم والأموات ، ثبتنا الله وإياكم بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، إنه بالمؤمنين رءوف رحيم . » (فتوح الشام ص ٩)

٦١ - وصيته لشرحبيل بن حسنة

ووجه شرحبيل بن حسنة ، وودعه فقال له : يا شرحبيل ، ألم تسمع وصيتي ليزيد

ابن أبي سفيان ؟ قال : بلى ، قال : فإني أوصيك بعثلها ، وأوصيك بنخال أغفلت ذكرهن

ليزيد : أوصيك بالصلاة في وقتها ، وبالصبر يوم البأس حتى تظفر أو تقتل وبعبادة
المرضى ، وبحضور الجنائز ، وذكر الله كثيرا على كل حال « (فتوح الشام ص ١١)

٦٢ - وصيته لأبي عبيدة بن الجراح

ولما أراد أن يبعث أبا عبيدة بن الجراح دعاه فودعه ثم قال له :

« اسمع سماع من يريد أن يفهم ما قيل له ، ثم يعمل بما أمر به ، إنك تخرج في
أشرف الناس ، وبيوتات العرب ، وصلاحاء المسلمين ، وفرسان الجاهلية ، كانوا يقاتلون
إذ ذاك على الحمية ، وهم اليوم يقاتلون على الحسبة والنية الحسنة ، أحسن صحبة من
صحبك ، وليكن الناس عندك في الحق سواء ، واستعن بالله وكفى بالله معينا ، وتوكل على
الله وكفى بالله وكيفا ، اخرج من غد إن شاء الله . » (فتوح الشام ص ١٢)

٦٣ - وصيته لأبي عبيدة بن الجراح أيضا

فلما كان من الغد خرج أبو بكر رضى الله عنه يمشى في رجال من المسلمين ، حتى
أتى أبا عبيدة ، فسار معه حتى بلغ ثنية الوداع ، ثم قال حين أراد أن يفارقه :
« يا أبا عبيدة ، اعمل صالحا . وعش مجاهدا ، وتوف شهيدا ، يعطك الله كتابك
بيمينك ، ولتقر عينك في دنياك وآخرتك ، فوالله إنى لأرجو أن تكون من التوابين
الأوابين الخجبتين^(١) الزاهدين في الدنيا ، الراغبين في الآخرة ، إن الله قد صنع بك خيرا
وساقه إليك ، إذ جعلك تسير في جيش من المسلمين إلى عدوه من المشركين ، فقاتل من
كفر بالله وأشرك به ، وعبد معه غيره . » (فتوح الشام ص ١٤)

(١) في الأصل « المخشبتين » ، وأخبت : خشع وتواضع .

٦٤ - خطبة أبي بكر

وسار أبو عبيدة حتى إذا دنا من الجابية بلغه أن هرقل ملك الروم بأنطاكية ، وأنه قد جمع لهم جموعا كثيرة ، فكتب أبو عبيدة إلى أبي بكر يخبره بذلك ، فقام أبو بكر رضى الله عنه في الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد فإن إخوانكم المسلمين معافون مكثون^(١) ، مدفوع عنهم ، مصنوع لهم ، وقد ألقى الله الرعب في قلوب عدوهم منهم ، وقد اعتصموا حصونهم ، وأغلقوا أبوابها دونهم عليهم ، وقد جاءتني رسالهم يخبرونني بهرب هرقل ملك الروم من بين أيديهم ، حتى نزل قرية من قرى الشام في أقصى الشام ، وقد بعثوا إلى يخبرونني أنه قد وجه إليهم هرقل جندا من مكانه ذلك ، فرأيت أن أمد إخوانكم المسلمين بجند منكم يشدد الله بكم ظهورهم ، ويكتب بهم عدوهم ، ويلق بهم الرعب في قلوبهم . فانتدبوا رحمكم الله مع هاشم بن عتبة بن أبي وقاص . واحتسبوا في ذلك الأجر والخير فإنكم إن نصرتم فهو الفتح والغنيمة . وإن تهلكوا فهي الشهادة والكرامة » .
(فتوح الشام ص ٢٧)

٦٥ - وصية أبي بكر لهاشم بن عتبة

ولما سار هاشم بن عتبة ودعه أبو بكر رضى الله عنه وقال له :
« يا هاشم إنا إنما كنا ننتفع من الشيخ الكبير برأيه ومشورته وحسن تدبيره ، وكنا ننتفع من الشاب بصبره وبأسه ونجدته ، وإن الله عز وجل قد جمع لك تلك الخصال كلها ، وأنت حديث السن مستقبل الخير ، فإذا لقيت عدوك فاصبر وصابر ، واعلم أنك لا تخطو خطوة ، ولا تنفق نفقة ، ولا يصيبك ظمأ ولا نصب ولا غمصة^(٢) في سبيل الله إلا كتب الله لك به عملا صالحا ، إن الله لا يضيع أجر المحسنين » .

فقال هاشم : إن يرد الله بي خيراً يحطني كذلك ، وأنا أفعل ولا قوة إلا بالله ، وأنا أرجو إن أنا لم أقتل أن أقتل ثم أقتل إن شاء الله .

فقال له عمه سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه : « يا ابن أخي لا تطعن طعنة ولا تضر بن ضربة إلا وأنت تريد بها وجه الله ، واعلم أنك خارج من الدنيا رشيداً ، وراجع إلى الله قريباً ، ولن يصحبك من الدنيا إلى الآخرة إلا قدم صدق قدمته ، أو عمل صالح أسلفته » .

فقال أي عم : لا تخالن^(١) مني غير هذا ، إنى إذا لمن الخاسرين ، إن جعلت حلي وارتحالي وغدوى ورواحي وسيفي وطعني برحى وضربي بسيفي رياء للناس .
ثم خرج فقدم على أبي عبيدة فتباشر بمقدمه المسلمون . (فتوح الشام ص ٢٨)

٦٦ — خطبة خالد بن الوليد يوم اليرموك

ووجه هرقل إلى كل جيش من جيوش المسلمين جيشاً يفوقه ، فأشار عمرو بن العاص على الأمراء بالاجتماع ، فأرسلوا إلى أبي بكر في ذلك فأشار عليهم بمثل رأى عمرو .
فاجتمعوا باليرموك وكل واحد من الأمراء أمير على جيشه ، والروم أمامهم ، وبين الفريقين خندق ؛ فكان الروم يقاتلون باختيارهم ، وإن شاءوا احتجزوا بخنادقهم ، فأرسل الأمراء إلى أبي بكر يستمدونه .
فكتب إلى خالد بن الوليد أمير جند العراق يأمره أن يستخلف على جنده بعد أن يأخذ معه نصفه ويتوجه إلى الشام مدداً لأمرائه ؛ فسار إلى الشام ؛ ووافى المسلمين وهم متضايقون ، إذ وصل باهان بجيش مددا للروم ، فولى خالد قتاله ، وقاتل كل أمير من بإزائه متساندين^(٢) ، فرأى خالد أن هذا القتل لا يجدي نفعا مادامت كل فرقة من الجيش لها أمير فجمع الأمراء وخطبهم .

فحمد الله وأثنى عليه وقال :

« إن هذا يوم من أيام الله ، لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي ، أخلصوا جهادكم ، وأريدوا الله بعملكم ، فإن هذا يوم له ما بعده ، ولا تقاتلوا قوماً على نظام وتعبية ، على تساند

(١) في الأصل « لا تخافن » . (٢) أي تحت رايات شق لا تجمعهم راية أمير واحد .

وانتشار ، فإن ذلك لا يحل ولا ينبغي ، وإن من وراءكم^(١) لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا ، فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذي ترون أنه الرأي من واليكم ومحبتته .
قالوا : فهات فما الرأي؟ قال : إن أبا بكر لم يبعثنا إلا وهو يرى أنا سنتياسر^(٢) ، ولو علم بالذي كان ويكون لما جمعكم . إن الذي أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيتهم ، وأنفع للمشركين من أمدادهم ، ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم ، فالله الله فقد أفرد كل رجل منكم ببلد من البلدان ، لا ينتقص منه أن دان لأحد من أمراء الجنود ، ولا يزيده عليه أن دانوا له ، إن تأمير بعضكم لا ينتقصكم عند الله ، ولا عند خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هلموا فإن هؤلاء قد تهيأوا ، وهذا يوم له ما بعده إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم ، وإن هزمونا لم نفلح بعدها ، فهلموا فلنتعاور^(٣) الإمارة ، فليكن عليها بعضنا اليوم ، والآخر غدا ، والآخر بعد غد ، حتى يتأمر كلكم ودعوني أتأمر اليوم « فأمره وانتهت الموقعة بهزيمة الروم شر هزيمة (سنة ١٣ هـ) .

(تاريخ الطبري ٤ : ٣٣ والكامل لابن الأثير ٢ : ٢٠٠)

٦٧ - خطبة أبي عبيدة في وقعة اليرموك

ولما برز المسلمون إلى الروم في وقعة اليرموك سار أبو عبيدة في المسلمين ثم قال :
« يا عباد الله ، انصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ، فإن وعد الله حق ، يا معشر المسلمين اصبروا ، فإن الصبر منجاة من الكفر ، ومرضاة للرب ، ومدحضة للعار ، فلا تبرحوا مصافكم ، ولا تخطوا إليهم خطوة ولا تبدهوهم بقتال ، وأشرعوا الرماح ، واستتروا بالدرق ، والزموا الصمت إلا من ذكر الله ، حتى آمركم إن شاء الله » .

(فتوح الشام ص ١٩٥)

(٣) نتعاقب عليها .

(٢) التياسر : التساهل .

(١) يعني أبا بكر .

٦٨ - قصص معاذ بن جبل

وخرج معاذ بن جبل يقص على الناس ويقول :

« يا قراء القرآن ، ومستحفظى الكتاب ، وأنصار الهدى ، وأولياء الحق ، إن رحمة الله - والله - لا تُنال ، وجنته لا تدخل بالأمانى ، ولا يؤتى الله المغفرة والرحمة الواسعة إلا الصادقين المصدقين بما وعدهم الله عز وجل ، ألم تسمعوا لقول الله « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » .

أنتم إن شاء الله منصورون ، فأطيعوا الله ورسوله ، وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ، واستحيوا من ربكم أن يراكم فراراً من عدوكم ، وأنتم في قبضته ورحمته ، وليس لأحد منكم ملجأ ولا ملتجأ من دونه ولا متعزز بغير الله » .

فجعل يمشى فى الصفوف ويحرضهم ويقص عليهم ثم انصرف إلى موقفه .

(فتوح الشام ص ١٩٥)

٦٩ - خطبة عمرو بن العاص

ومر عمرو بن العاص يومئذ على الناس ، فجعل يعظهم ويقص عليهم ، ويحرضهم ويقول :

« أيها الناس : غضوا أبصاركم ، واجثثوا على الركب ، وأشرعوا الرماح ، والزموا مراكم ومصافكم ، فإذا حمل عليكم عدوكم فأمهلوهم ، حتى إذا ركبوا أطراف الأُسنة ، فثبوا فى وجوههم وثوب الأسد ، فوالذى يرضى الصدق ويمتُ الكذب ويعاقب عليه ،

ويجزى بالإحسان ، لقد بلغنى أن المسلمين سيفتحونها كفرةً كفرةً^(١) ، وقصراً قصراً ، فلا يهولنكم جموعهم ولا عددهم ، فإنكم لو قد صدقتموهم الشدة لقد اندعروا اندعار أولاد الحجل^(٢) .

(فتوح الشام ص ١٩٦)

٧٠ - خطبة أبي سفيان بن حرب

وكان أبو سفيان بن حرب يسير في الناس يوم اليرموك ، ويقف على أهل كل راية وعلى كل جماعة فيحرض الناس ويحضهم ويعظمهم ويقول :

« إنكم يا معشر المسلمين أصبحتم في دار العجم ، منقطعين عن الأهل^(٣) ، نائنين عن أمير المؤمنين وأمداد المسلمين ، وقد والله ، أصبحتم بإزاء عدو كثير عددهم ، شديد عليكم حنقهم ، وقد وترتموهم في أنفسهم ونسائهم وأولادهم وأموالهم وبلادهم ، فلا والله لا ينجيكم منهم اليوم وتبلغون رضوان الله إلا بصدق اللقاء ، والصبر في مواطن المكروه ، فامتنعوا بسيوفكم ، وتقرّبوا بها إلى خالقكم ، ولتكن هي الحصون التي تلجئون إليها ، وبها تمنعون . »

وقاتل أبو سفيان يومئذ قتالاً شديداً ، وأبلى بلاءً حسناً . (فتوح الشام ص ١٩٧)

٧١ - وصية أبي بكر لعمر رضي الله عنهما عند موته

« إني مستخلفك من بعدي ، وموصيك بتقوى الله ، إن لله عملاً بالليل لا يقبله بالنهار ، وعملاً بالنهار لا يقبله بالليل ، وإنه لا تقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة ، فإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة بانبايعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم ،

(١) القرية . (٢) الحجل : الذكر من القبيح .

(٣) في الأصل « الأبل » وهو تحريف .

وَحَقٌّ لِمِيزَانٍ لَا يُوَضَعُ فِيهِ إِلَّا الْحَقُّ أَنْ يَكُونَ ثَقِيلًا ، وَإِنَّمَا خَفْتُ مُوَازِينَ مِنْ خَفْتُ مُوَازِينُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِاتِّبَاعِهِمُ الْبَاطِلَ وَخَفْتِهِ عَلَيْهِمْ ، وَحَقٌّ لِمِيزَانٍ لَا يُوَضَعُ فِيهِ إِلَّا الْبَاطِلُ أَنْ يَكُونَ خَفِيفًا . إِنْ اللَّهُ ذَكَرَ أَهْلَ الْجَنَّةِ فَذَكَرَهُمْ بِأَحْسَنِ أَعْمَالِهِمْ ، وَتَجَاوَزَ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ ، فَإِذَا ذَكَرَهُمْ قُلْتُ إِنِّي أَخَافُ أَلَّا أَكُونَ مِنْ هَؤُلَاءِ ، وَذَكَرَ أَهْلَ النَّارِ فَذَكَرَهُمْ بِأَسْوَأِ أَعْمَالِهِمْ وَلَمْ يَذْكُرْ حَسَنَاتِهِمْ ، فَإِذَا ذَكَرَهُمْ قُلْتُ إِنِّي لِأَرْجُو أَلَّا أَكُونَ مِنْ هَؤُلَاءِ ، وَذَكَرَ آيَةَ الرَّحْمَةِ مَعَ آيَةِ الْعَذَابِ لِيَكُونَ الْعَبْدُ رَاغِبًا رَاهِبًا ، وَلَا يَقْمَنِي عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ، وَلَا يُلْقَى بِيَدِهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ ، فَإِذَا حَفِظْتُ وَصِيَّتِي فَلَا يَكُنْ غَائِبٌ أَحَبُّ إِلَيْكَ مِنَ الْمَوْتِ وَهُوَ آتِيكَ ، وَإِنْ ضَيَعْتَ وَصِيَّتِي فَلَا يَكُنْ غَائِبٌ أَبْغَضُ إِلَيْكَ مِنَ الْمَوْتِ وَلَسْتُ بِمُعْجِزِ اللَّهِ .

(البيان والتبيين ٢ : ٢٢ ، والكامل لابن الأثير ٢ : ٢٠٨ ، والعقد الفريد : ٢٩٨)

٧٢ - كلامه لعبد الرحمن بن عوف في علمته التي مات فيها

وقال عبد الرحمن بن عوف :

« دخلت يوماً على أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ، في علمته التي مات فيها ، فقلت له : أراك بارئاً يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أما إني على ذلك لشديد الوجع ، ولما لقيت منكم يا معشر المهاجرين أشدَّ عليَّ من وجعي ، إني ولَّيتُ أموركم خيركم في نفسي ، فكلِّسكم ورمَّ أنفهُ أن يكون له الأمرُ من دونه ، والله لتتخذنَّ نضائد^(١) الدَّبَّاجِ وستور الحرير ، ولتألمنَّ النومَ على الصوف الأذري^(٢) ، كما يألمُ أحدكم النومَ على حسك السعدان^(٣) ، والذي نفسي بيده ، لأنَّ يُقدِّمَ أحدكم فتضربَ

(١) جمع نضيدة ؛ وهي الوسادة وما ينضد من المناع . (٢) نسبة إلى أذربيجان .

(٣) نبت كثير الحسك تأكله الإبل فتسمن عليه ويفذوها غذاء لا يوجد في غيره ، وفي المثل : مرعى

عنفه في غير حدّ خير له من أن يخوض غمرات الدنيا ، يا هادي الطريق جرّت إنما هو والله
الفجر أو البجر^(١) ،

فقلت : خفض عليك يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن هذا يهيبك^(٢) إلى
ما بك ، فوالله ما زلتَ صالحاً مصلحاً ، لا تأسى على شيء فاتك من أمر الدنيا ، ولقد
تخلّيت بالأمر وحدك فما رأيت إلاّ خيراً .

(تهذيب الكامل ١ : ٦ ، وإعجاز القرآن ١١٦ ، والمقد الفريد ٢ : ٢٠٨ ، وتاريخ الطبري ٤ : ٥٢)

٧٣ - خطبة السيدة عائشة في الانتصار لأبيها

يروى أنه بلغ عائشة رضی الله عنها أن أقواماً يتناولون أبا بكر رضی الله عنه
فأرسلت إلى أزفلة^(٣) من الناس ، فلما حضروا أسدلت^(٤) أستارها ، وعلت وسادها ،
ثم قالت :

« أبي وما أبيه ، أبي والله لا تعطوه الأيدي^(٥) ، ذاك طود منيف^(٦) ، وفرع^(٧)
مديد ، هيبات كذبت الظنون ، أنجح^(٨) إذا كديتم ، وسبق إذ ونيتم^(٩) ، سبق
الجواد إذا استولى على الأمد^(١٠) ، فتي قریش ناشتاً ، وكهفها^(١١) كهلا ، يفك عانيها ،
ويريش^(١٢) مملقها ، ويرأب شعبها^(١٣) ، ويلم شعنها ، حتى حليت^(١٤) قلوبها ، ثم

-
- (١) الشر والأمر العظيم . يقول : إن انتظرت حتى يضي لك الفجر والطريق أبصرت قصدك ؛ وإن
خبطت الظلماء وركبت العشواء هجما بك على المسكروه ؛ وضرب ذلك مثلاً لغمرات الدنيا وتخييرها أهلها .
(٢) هاض العظم : كسره بعد الجبور .
(٣) جماعة . (٤) سدله يسدله : كنصر وضرب وأسدله أرخاه . (٥) تتناولوه .
(٦) الطود : الجبل ، والمنيف : المشرف . (٧) فرع كل شيء أعلاه ، ومن القوم شريفهم .
(٨) أنجح : صار ذا نجح . (٩) الكدية : يضم فسكون الأرض الغليظة ، والصفاء العظيمة
الشديدة ، وحفر فأكدى إذا صادفها فلا يمكنه الحفر (وسأله فأكدى وجده مثلها) : وونيتم أى فترتم وضعفتم
(١٠) الغاية والمنتهى . (١١) الكهف : الوزر والملجأ ، والكهل من جاوز الثلاثين أو أربعاً
وثلاثين إلى إحدى وخسين . (١٢) راش السهم يريشه ألزق عليه الريش كريشه ؛ والمراد يعينه ويساعده .
(١٣) يصلح . والشعب : الصدع . (١٤) حل الشيء : استحلاه .

استشرى^(١) في دين الله ، فما برحت شكيمته^(٢) في ذات الله عز وجل ، حتى اتخذ
 بفنائِه مسجداً ، يحيي فيه ما أمات المبتلون ، وكان رحمه الله غزير الدّعة ، وقيد^(٣)
 الجوانح ، شجى النّشيج^(٤) ، فانقضت إليه نسوان مكة وولداها ، يسخرون منه ويستهمزون
 به « الله يستهمزى بهم ، ويمدّهم في طغيانهم يعمهون »^(٥) فأكبرت ذلك رجالات
 من قريش ، فحنت قسيها ، وفوّقت سهامها^(٦) ، وامثلوه^(٧) غرضاً ، فما قواله صفاء^(٨) ،
 ولا قصفواله قناة ، ومرّ على سيسائه^(٩) ، حتى إذا ضرب الدين بجيرانه^(١٠) ، ورست
 أوتاده ، ودخل الناس فيه أفواجا ، ومن كل فرقة أرسلالاً^(١١) وأشتاتاً ، اختار الله لنبيه
 ما عنده ، فلما قبض الله نبيه صلى الله عليه وسلم ضرب الشيطان رؤوقه^(١٢) ، ومدّ
 طنبه^(١٣) ، ونصب حباله ، وأجلب^(١٤) بجيله ورجله ، واضطرب حبل الإسلام ،
 ومرج^(١٥) عهده ، وماج أهله ، وبني الفوائل ، فظنت رجال أن قد أكتبت^(١٦)
 أطاعهم ، ولات حين الذي يرجون ، وأنى والصدّيق بين أظهرهم ، فقام حاسراً مشمراً ،

(١) غضب ولىج .

(٢) الشكيمة الأنفة وفي اللجام الحديدية المعترضة في فم الفرس . وهو شديد الشكيمة أنف أبي لاينقاد .

(٣) الوقيد : الصريع والشديد المرض المشرف . (٤) الشجى : الحزين ، والنشيج : صوت البكاء

نشج الباكي ينشج كجلس غصن بالبكاء في حلقه من غير انتعاب . (٥) العمه بفتح الحين التردد في الضلال .

(٦) فوق السهم : جعل له فوقاً ، وهو موضع الوتر من السهم . (٧) امثلوه : مثلوه .

(٨) الحجر الصلد : الضخم . (٩) شدته . حمله على سيساء الحق أى على حده ، والسيساء : عظم

الظهر ، والعرب تضربه مثلاً لشدة الأمر . (١٠) جران البعير : مقدم عنقه من مذبحه إلى منحره .

(١١) جمع رسل بفتح الحين ، وهو القطيع من كل شيء . (١٢) فسطاطه . (١٣) حبل طويل يشد به

سرادق البيت أو الوتد . (١٤) أجلب : صاح ، والخليل : الخيالة ؛ ومنه « ياخيل الله اركبى »

والرجل : اسم جمع راجل كالصاحب والركب ، أى صاح بالركاب والمشاة وقرى ورجلك بكسر

الجيم وضمها .

(١٥) المرج : بفتح الحين الفساد والقلق والاختلاط والاضطراب (وإنما يسكن مع المهرج) .

(١٦) أكتب : قرب ، والنهز جمع نهزة بضم النون وهى الفرصة .

فجمع حاشيتيه^(١) ، ورفع قطريه^(٢) ، فرد رسن^(٣) الإسلام على غزبه^(٤) ، ولم
شعته بطبه ، وانتاش^(٥) الدين فنعشه ، فلما أراح^(٦) الحق على أهله ، وقرر الرءوس
على كواهلها^(٧) ، وحقن الدماء في أهبها^(٨) ، أته منيته ، فسدت ثلثه بنظيره في الرحمة ،
وشقيقه في السيرة والمعدلة ، ذاك ابن الخطاب ، فله دَرَّ أم^(٩) حلت به ، ودَرَّت عليه ،
لقد أوحدت^(١٠) به ، ففتح^(١١) الكفرة ، وديخها^(١٢) ، وشرد الشرك شذر مذر^(١٣) ،
وبعج^(١٤) الأرض وبخها^(١٥) ، فقاءت أكلها^(١٦) ولفظت خباها ، ترأمة^(١٧) ويصدق
عنها ، وتصدى^(١٨) له ويأبأها ، ثم وزع فيها فيها ، وودعها كما صحبها ، فأروني ماذا
ترثون ، وأي يومى^(١٩) أبي تنقمون ، أيوم إقامته إذ عدل فيكم أم يوم ظمغه إذ نظر لكم^(١٩) ؟
أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ، ثم أقبلت على الناس بوجهها ، فقالت : أنشدكم الله
هل أنكرتم مما قلت شيئا ، قالوا : اللهم لا

(صبح الأعشى ١ : ٢٤٨ ، والمعقد الفريد ٢ : ٢٠٦ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٣٠)

-
- (١) حاشية كل شيء : جانبه وطرفه . (٢) القطر : الناحية . (٣) الحبل .
(٤) العرب : حد الشيء . (٥) انتشل ، ونعشه الله كأنه شه ، ونعشه : رفعه .
(٦) أراح على فلان حقه : رده عليه . (٧) الكاهل : مقدم أعلى الظهر مما يلي العنق .
(٨) جمع إهاب ، وهو الجلد ، والمراد الأجسام . (٩) الدر : اللبن والنفس والعمل .
(١٠) أوحدت المرأة : ولدت واحدا ، أى جاءت به منفردا لا نظير له . (١١) أذل وقهر .
(١٢) داخ البلاد ودوخها وديخها : قهرها واستولى على أهلها . (١٣) تفرقوا شذر مذر : ذهبوا
في كل وجه . (١٤) شقها : كناية عن الفتح . (١٥) قهر أهلها واستخرج ما فيها من الكنوز وأموال
الملوك . (١٦) الأكل : ما يؤكل ، أى أخرجت خيراتها . (١٧) تعطف عليه ، ويصدق أى
يعرض . (١٨) تتعرض . (١٩) أى فيما يصلحكم فولى عليكم عمر .

٧٤ - رثاؤها لأبيها

لما توفى أبو بكر رضى الله عنه ، وقفت عائشة على قبره فقالت :

« نَفَرَ^(١) اللهُ وجهك يا أبتِ ، وشكر لك صالحَ سعيك ، فلقد كنتَ للدنيا مُذِلًّا
يُادِبُاركَ عنها ، وللآخرة مُعِزًّا بِإِقْبَالِكَ عليها ، ولئن كانَ أَجَلُ الحوادثِ بعدَ رسولِ الله
صلى اللهُ عليه وسلم رُزُوكَ ، وأعظمَ المصائبِ بعده فَقُدُّكَ ، إن كتابَ اللهِ لِيَعِدُّ بِحَسَنِ الصبرِ
فِيكَ حُسْنَ العِوَضِ مِنكَ ، وأنا أَسْتَنْجِزُ موعودَ اللهِ تعالى بالصبرِ فِيكَ ، وأَسْتَقْضِيهِ^(٢)
بالاستِغْفارِ لَكَ ، أما لئن قاموا بِأَمْرِ الدنْيا ، لقد قُتِ بِأَمْرِ الدِينِ ، لِمَا وَهَى شَعْبُهُ^(٣) ،
وتَفاقَمَ صَدَّعُهُ^(٤) ، وَرَجَّفتَ^(٥) جوانِبَهُ ، فَعَلَيْكَ سَلامُ اللهِ تودِيعَ غَيْرِ قَالِيَةِ^(٦) لِحِيانِكَ ،
ولا زارِيَةِ^(٧) عَلَى القِضاءِ فِيكَ . »

(زهر الآداب ١ : ٤٠ ، المقدم الفريد ٢ : ٧ ، نهاية الأرب ٥ : ١٦٧ ، البيان والتبيين ٢ : ١٦٠)

(١) من النضرة والنضارة بفتح النون وهي الحسن .

(٢) أطلب قضاءه . (٣) وهي ضعف ، والشعب الجمع . (٤) الصدع : الشق .

(٥) اضطريت . (٦) ميفضة . (٧) عائبة ولائمة .

خطب عمر بن الخطاب

رضى الله عنه

٧٥ - خطبته حين ولى الخلافة

لما استخلف عمر رضى الله عنه صعد المنبر فقال : « إني قائل كلمات فأمنوا عليهن »

فكان أول منطق نطق به حين استخلف ، قال :

« إنما مثل العرب مثل جمل أنف^(١) اتبع قائده فليُنظر قائده حيث يقوده ، وأما أنا فوَرَب

الكعبة لأحملهم على الطريق » . (تاريخ الطبرى ٤ : ٥٤ ، والكمال لابن الأثير ٢ : ٢٠٨)

٧٦ - خطبة أخرى

وقال ابن قتيبة فى عيون الأخبار : لما ولى عمر صعد المنبر فقال :

« ما كان الله ليرانى أرى نفسى أهلاً لمجلس أبى بكر ، ثم نزل عن مجلسه مَرْقاة

فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « اقرءوا القرآن تُعَرَفُوا به ، واعملوا به تكونوا من أهله

إنه لم يَبْلُغْ حَقَّ ذى حَقِّ أن يطاع فى معصية الله ، ألا وإنى أنزلت نفسى من مال الله

(١) أنف البعير : اشتكى أنفه من البرة فهو أنف وأنف ؛ وفى الحديث : « المؤمن كالجمل الأنف إن

قيد انقاد ؛ وإن استنخ على صخرة استناخ » وذلك للوجع الذى به فهو ذلول متقاد .

بمنزلة والى اليتيم ، إن أستغنيتُ عَفَفْتُ ، وإن افتقرتُ أكلتُ بالمعروف ، تَقَرُّمٌ (١)
الْبَهْمَةُ (٢) الأعرابية ، الْقَضْمُ لَا الْخَضْمُ (٣) .

(عيون الأخبار م ٢ ص ٢٣٥ ، والمعقد الفريد ٢ : ١٣٢)

٧٧ — خطبة له

وذكر الطبري أنه خطب فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم ذكّر الناس بالله عزّ وجل واليوم الآخر ، ثم قال :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ : إِنِّي قَدْ وَلَيْتُ عَلَيْكُمْ ، وَلَوْلَا رَجَاءُ أَنْ أَكُونَ خَيْرَكُمْ لَكُمْ ، وَأَقْوَامَكُمْ عَلَيْكُمْ ، وَأَشَدُّكُمْ اسْتِضْلَاعًا (٤) بِمَا يَنْوِبُ مِنْ مُهِمِّ أُمُورِكُمْ ، مَا تَوَلَيْتُ ذَلِكَ مِنْكُمْ ، وَلَكِنِّي عَمْرَ مُهِمًّا مُخْزِنًا أَنْتَظَرُ مُوَافَقَةَ الْحِسَابِ بِأَخْذِ حَقُوقِكُمْ كَيْفَ آخَذَهَا ، وَوَضْعِهَا أَيْنَ أَضَعَهَا ، وَبِالسَّيْرِ فِيكُمْ كَيْفَ أُسِيرُ ، فَرَبِّي الْمُسْتَعَانُ ، فَإِنْ عَمِرَ أَصْبَحَ لَا يَشِقُ بِقُوَّةٍ وَلَا حِيلَةَ إِنْ لَمْ يَتَدَارَكْهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِرَحْمَتِهِ وَعَوْنِهِ وَتَأْيِيدِهِ » .

(تاريخ الطبري ٥ : ٢٥ ، وشرح ابن أبي الحديد م ٣ ص ١٢٤)

٧٨ — خطبة له

ثم خطب فقال :

« إِنْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ وَلَّانِي أَمْرَكُمْ ، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنْفَعُ مَا بَحَضَرْتُمْ لَكُمْ ، وَإِنِّي أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَعِينَنِي عَلَيْهِ ، وَأَنْ يَحْرُسَنِي عِنْدَهُ كَمَا حَرَسَنِي عِنْدَ غَيْرِهِ ، وَأَنْ يُلْهِمَنِي الْعَدْلَ

(١) تَقَرَّمُ الصَّبِيُّ أَكَلَ أَكْلًا ضَعِيفًا ، وَذَلِكَ فِي أَوَّلِ أَكْلِهِ . (٢) الْبَهْمَةُ : أَوْلَادُ الضَّأْنِ وَالْمَعَزِ

وَالْبَقَرِ . (٣) الْقَضْمُ : الْأَكْلُ بِأَطْرَافِ الْأَسْنَانِ وَالْخَضْمُ الْأَكْلُ بِأَقْصَى الْأَضْرَاسِ .

(٤) الَّتِي فِي كِتَابِ الْفَتْحِ « اِضْطِلَاعٌ » يُقَالُ هُوَ مُضْطَلَعٌ بِهَذَا الْأَمْرِ ، أَيْ قَوِيَ عَلَيْهِ .

فقسّم كالذي أمرني به ، وإني امرؤ مسلم وعبد ضعيف ، إلا ما أعان الله عز وجل ، ولن
يغير الذي وليت من خلافتكم من خلق شيئاً إن شاء الله ، إنما العظمة لله عز وجل ،
وليس للعباد منها شيء ، فلا يقولن أحد منكم إن عمر تغيّر منذ ولي ، أعقل الحق من
نفسى ، وأتقدّم وأبين لكم أمرى ، فأبما رجلٍ كانت له حاجة ، أو ظلمَ مظلمةً ، أو عتب
علينا في خلق فليؤذني ، فإنما أنا رجل منكم ، فعليكم بتقوى الله في سرّكم وعلانياتكم
وحُرّماتكم وأعراضكم ، وأعطوا الحق من أنفسكم ، ولا يحمل بعضكم بعضاً على أن
تحاكموا إلى ، فإنه ليس بيني وبين أحد من الناس هوادة ، وأنا حبيب إلى صلاحكم ،
عزيب على عنتكم ، وأنتم أناسٌ عامةٌ حصر في بلاد الله ، وأهل بلد لا زرع فيه
ولا ضرع ، إلا ما جاء الله به إليه ، وإن الله عز وجل قد وعدكم كرامة كثيرة ، وأنا
مسئول عن أمانتي وما أنا فيه ، ومُطلّع على ما يحضرتي بنفسى إن شاء الله ، لا أكله
إلى أحد ، ولا أستطيع ما بعد منه إلا بالأمناء وأهل النصيح منكم للعامة ، ولست أجعل
أمانتي إلى أحد سواهم إن شاء الله .

(تاريخ الطبرى ٥ : ٢٦ ، وشرح ابن أبي الحديد ٣ : ١٢٤)

٧٩ - خطبة أخرى

وقال ابن عبد ربه : وخطب إذ ولي الخلافة : صعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ،

ثم قال :

«بأيها الناس ، إني دايع فأمنوا ، اللهم إني غليظ فليّني لأهل طاعتك ، بموافقة

الحق ، ابتغاء وجهك والدار الآخرة ، وارزقني الغلظة والشدة على أعدائك ، وأهل

الدعارة^(١) والنفاق ، من غير ظلم مني لهم ، ولا اعتداء عليهم ، اللهم إني شحيح ، فسخني

(١) الفجور .

في نوابغ المعروف ، قَصْدًا من غير سَرَفٍ ولا تَبْذِيرٍ ولا رِيَاءٍ ولا سُمْعَةٍ ، واجعلني أبتغى
بذلك وجهك والدار الآخرة ، اللهم ارزقني خَفْضَ الْجَنَاحِ ، وَلَيْنَ الْجَانِبِ لِلْمُؤْمِنِينَ ،
اللهم إني كثير الغفلة والنسيان ، فألهمني ذكرك على كل حال ، وَذِكْرَ الْمَوْتِ فِي كُلِّ حِينٍ .
اللهم إني ضعيف عن العمل بطاعتك ، فارزقني النشاط فيها ، والقوة عليها ، بالنية الحسنة
التي لا تكون إلا بعزتك وتوفيقك ، اللهم ثبتني باليقين والبرِّ والتقوى ، وذكر المقام بين
يديك ، والحياء منك ، وارزقني الخشوعَ فيما يرضيك عني ، والمحاسبة لنفسي ، وإصلاح
الساعاتِ والحذرَ من الشُّبُهَاتِ ، اللهم ارزقني التَّفَكُّرَ والتدبر لما يتلوه لساني من كتابك ،
والفهمَ له ، والمعرفةَ بمعانيه ، والنظرَ في عجائبه ، والعملَ بذلك ما بقيت ، إنك على كل
شيء قدير .

(العقد الفريد ٢ : ١٣٣)

٨٠ - خطبة له

وخطب أيضاً ، فقال بعد ما حمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم :
« أيها الناس ، إن بعض الطمع فقر ، وإن بعض اليأس غنى ، وإنكم تجمعون
مالاً تأكلون ، وتأمّلون مالاً تُدرِكُون ، وأنتم مؤجّلون في دار غرور ، كنتم على عهد
رسول الله صلى الله عليه وسلم تؤخذون بالوحي ، فمن أسرَّ شيئاً أخذَ بسريرته ، ومن أعلن
شيئاً أخذَ بعلايته ، فأظهرُوا لنا أحسن أخلاقكم ، والله أعلم بالسراير ، فإنه من أظهر لنا
قبيحاً وزعم أن سريرته حسنة لم نصدقه ، ومن أظهر لنا علانية حسنة ظننّا به حسناً ،
واعلموا أن بعض الشُّحِّ شُعبَةٌ من النفاق ، فأنفقوا خيراً لأنفسكم ، وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ
قَآوَلَتْكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . أيها الناس أطيعوا أموراكم ، وأصلحوا أموركم ، واتقوا الله
ربكم ، ولا تلبسوا نساءكم القباطي^(١) فإنه إن لم يشف فإنه يصف . أيها الناس : إني لو ددتُ

(١) القباطي (بضم الأول وتشديد الآخر ، أو القباطي بفتح الأول وتخفيف الآخر) ثياب
كتان بيض رقاق كانت تعمل في مصر جمع قبطية (بضم القاف نسبة إلى القبط على غير قياس وقد تكسر)
وشف الثوب يشف رق فعكى ماتحه ، وتوله : فإنه يصف أي ماتحته من أجزاء البدن ويحددها لرقته وطراوته

أن أنجو كغافاً لآلى ولا على ، وإني لأرجو إن مُعَمَّرت فيكم يسيراً أو كثيراً أن أعمل بالحق فيكم إن شاء الله ؛ وأن لا يبقى أحد من المسلمين وإن كان في بيته إلا أتاه حقه ونصيبه من مال الله وإن لم يُعمل إليه نفسه ، ولم يُنصب إليه بدنه ، وأصلحوا أموالكم التي رزقكم الله ، وَتَقَلَّلِ فِي رَفْقٍ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ فِي عَنَفٍ ، وَالْقَتْلُ حَتْفٌ مِنَ الْحَتُوفِ ، يَصِيبُ الْبِرَّ وَالْفَاجِرَ ، وَالشَّهِيدَ مِنْ أَحْتَسَبَ نَفْسَهُ ، وَإِذَا أَرَادَ أَحَدُكُمْ بَعِيْرًا فَلْيَعْمِدْ إِلَى الطَّوِيلِ الْعَظِيمِ فَلْيَضْرِبْهُ بِعَصَا ، فَإِنْ وَجَدَهُ حَدِيدَ الْفُؤَادِ فَلْيَشْتَرِهِ .

(تاريخ الطبري ٥ : ٢٦ ، وشرح ابن أبي الحديد ٣ : ص ١٢٥)

٨١ - خطبة له

وخطب أيضاً فقال :

« إن الله سبحانه وبحمده قد استوجب عليكم الشكر ، واتخذ عليكم الحجج فيما آتاكم من كرامة الآخرة والدنيا من غير مسألة منكم له ، ولا رغبة منكم فيه إليه ، فخلقكم يبارك وتعالى ولم تكونوا شيئاً ، لنفسه وعبادته ، وكان قادراً أن يجعلكم لأهون خلقه عليه ، فجعل لكم عامّة خلقه ، ولم يجعلكم لشيء غيره ، وَسَخَّرَ لَكُمْ مافي السموات وما في الأرض ، وأسبغ عليكم نعمة ظاهرةً وباطنةً ، وحملكم في البرّ والبحر ، ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون ، ثم جعل لكم سمعاً وبصراً ، ومن نعم الله عليكم نعمة عمّ بها بني آدم ، ومنها نعمة اختص بها أهل دينكم ، ثم صارت تلك النعم خواصّها وعوامّها في دوائكم وزمانكم وطبقتكم ، وليس من تلك النعم نعمة وصلت إلى امرئ خاصة إلا لو قسّم ما وصل إليه منها بين الناس كلهم أنعمهم شكرها ، وَفَدَحَهُمْ حَقَّهَا إِلَّا بَعُونَ اللَّهَ مَعَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، فَأَنْتُمْ مُسْتَخْلَفُونَ فِي الْأَرْضِ ، قَاهِرُونَ لِأَهْلِهَا ، قَدْ نَصَرَ اللَّهُ دِينَكُمْ ، فَلَمْ تَصْبِحْ أُمَّةً مُخَالَفَةً لِدِينِكُمْ إِلَّا أُمَّتَانِ ، أُمَّةٌ مُسْتَعْبِدَةٌ لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ ،

يتجرون لكم ، تستصفون^(١) معايشهم وكذا أئمتهم وورشح جباههم ، عليهم المثونة ولكم المنفعة ، وأمة تنتظر وقائع الله وسطواته في كل يوم وليلة ، قد ملأ الله قلوبهم رعبا ، فليس لهم معقلٌ يلجئون إليه ، ولا مهرب يتقون به ، قد دهمهم جنود الله عز وجل ، ونزلت بساحتهم مع رفاغة^(٢) العيش ، واستفاضة المال ، وتتابع البعوث ، وسد الثغور بإذن الله في العافية الجليلة العامة ، التي لم تكن هذه الأمة على أحسن منها مذ كان الإسلام ، والله المحمود مع الفتوح العظام في كل بلد ، فما عسى أن يبلغ مع هذا شكر الشاكرين ، وذِكْرُ الذاكرين ، واجتهاد المجتهدين ، مع هذه النعم التي لا يحصى عددها ، ولا يقدر قدرها ، ولا يستطيع أداء حقها ، إلا بعون الله ورحمته ولطفه . فسأل الله الذي لا إله إلا هو ، الذي أبلانا هذا ، أن يرزقنا العمل بطاعته ، والمسارة إلى مرضياته . فاذكروا عباد الله بلاء الله عندكم ، واستتموا نعمة الله عليكم ، وفي مجالسكم مثني وفرادى فإن الله عز وجل قال لموسى : « أَخْرِج قُوَّةَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكَرَهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ » وقال لمحمد صلى الله عليه وسلم : « وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ » فلو كنتم إذ كنتم مستضعفين محرومين خير الدنيا على شعبة من الحق تؤمنون بها ، وتستريحون إليها ، مع المعرفة بالله ودينه ، وترجون بها الخير فيما بعد الموت لكان ذلك ، ولكنكم كنتم أشد الناس معيشة ، وأعظم الناس بالله جهالة . فلو كان هذا الذي ابتلاكم به لم يكن معه حظ في دنياكم . غير أنه ثقة لكم في آخرتكم ؛ التي إليها المعاد والمنقلب ، وأنتم من جهد المبيشة على ما كنتم عليه ، كنتم أحرى أن تشحوا على نصيبكم منه ، وأن تظهروه على غيره قبلة^(٣) ما أنه قد جمع لكم فضيلة الدنيا ، وكرامة الآخرة ، أولم نشاء أن يجمع له ذلك منكم . فاذكروكم الله الحائل بينكم وبين قلوبكم ، إلا ما عرفتم حق الله

(١) استصنى الشيء : أخذ منه صفوه .

(٢) رفع عيشه ككرم رفاغة : اتسع ، والرفاغة والرفاغية : سعة العيش والخصب والسعة .

(٣) بلة : اسم فعل بمعنى دع واترك ، فإبعدها منصوب ، ومصدر بمعنى الترك ، فإبعدها مجرور

بالإضافة ، واسم مرادف لكيف فإبعدها مرفوع بالابتداء .

فَعَمِلْتُمْ لَهُ ، وَقَسَرْتُمْ أَنْفُسَكُمْ عَلَى طَاعَتِهِ ، وَجَعَلْتُمْ مَعَ السَّرُورِ بِالنَّعْمِ خَوْفًا لَزْوَالِهَا وَلَا تَنْتَقَالِهَا ،
وَوَجَلًا مِنْ تَحْوِيلِهَا ، فَإِنَّهُ لَا شَيْءَ أَسْلَبَ لِلنَّعْمَةِ مِنْ كَفْرَانِهَا ، وَإِنَّ الشُّكْرَ أَمْنًا لِلغَيْرِ ،
وَنَمَاءً لِلنَّعْمَةِ ، وَاسْتِجْلَابًا لِلزِّيَادَةِ ، وَهَذَا اللَّهُ عَلَى مَنْ أَمَرَكُمْ وَنَهَىكُمْ وَاجِبٌ .

(تاريخ الطبري ٥ : ٢٧ وشرح ابن أبي الحديد م ٣ ص ١٢٥)

٨٢ - خطبة له

وخطب أيضا ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أَيُّهَا النَّاسُ : مَنْ أَرَادَ أَنْ يُسْأَلَ عَنِ الْقُرْآنِ ، فَلْيَأْتِ أَبِيَّ بْنَ كَعْبٍ ، وَمَنْ أَرَادَ أَنْ
يُسْأَلَ عَنِ الْفَرَائِضِ ، فَلْيَأْتِ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ . وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُسْأَلَ عَنِ الْفِقْهِ فَلْيَأْتِ مُعَاذَ
ابْنَ جَبَلٍ . وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُسْأَلَ عَنِ الْمَالِ فَلْيَأْتِنِي ، فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَنِي لَهُ خَازِنًا وَقَاسِمًا ، إِنِّي
بَادَيْتُ بِأَزْوَاجِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَعْطَيْتُهُمْ ، ثُمَّ الْمُهَاجِرِينَ الْأُولَى الَّذِينَ أُخْرِجُوا
مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ أَنَا وَأَصْحَابِي ، ثُمَّ بِالْأَنْصَارِ الَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ ،
ثُمَّ مَنْ أَسْرَعَ إِلَى الْهَجْرَةِ أَسْرَعَ إِلَيْهِ الْعَطَاءُ ، وَمَنْ أَبْطَأَ عَنِ الْهَجْرَةِ أَبْطَأَ عَنْهُ الْعَطَاءُ ،
فَلَا يَلُومَنَّ رَجُلًا إِلَّا مُنَآخَ رَاحِلَتِهِ ، إِنِّي قَدْ بَقِيتُ فِيكُمْ بَعْدَ صَاحِبِي ، فَابْتَلَيْتُ بِكُمْ ،
وَابْتَلَيْتُمْ بِي ، وَإِنِّي لَنْ يُحْضِرَنِي مِنْ أُمُورِكُمْ شَيْءٌ فَأَكُلُهُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِ الْجَزَاءِ وَالْأَمَانَةِ ،
فَلَنْ أَحْسِنُوا لِأَحْسِنَ إِلَيْهِمْ ، وَلَنْ أَسَاءُوا لِأَنْكَلَنَّ بِهِمْ » . (العقد الفريد ٢ : ١٣٢)

٨٣ - خطبة له

وخطب أيضا فقال :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَعَزَّنَا بِالْإِسْلَامِ ، وَأَكْرَمَنَا بِالْإِيمَانِ ، وَرَحَّمَنَا بِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ ، فَهَدَانَا بِهِ مِنَ الضَّلَالَةِ ، وَجَمَعَنَا بِهِ مِنَ الشَّتَاتِ ، وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِنَا ، وَنَصَرَنَا عَلَى

عدونا ، وَمَكَّنْ لَنَا فِي الْبِلَادِ ، وَجَعَلْنَا بِهِ إِخْوَانًا مُتَحَابِّينَ ، فَاحْمَدُوا اللَّهَ عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ ،
وَأَسْأَلُوهُ الْمَزِيدَ فِيهَا وَالشُّكْرَ عَلَيْهَا ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ صَدَّقَكُمْ الْوَعْدَ ، بِالنَّصْرِ عَلَى مَنْ خَالَفَكُمْ ،
وَأَيَّاكُمْ وَالْعَمَلَ بِالْمَعَاصِي ، وَكُفِّرَ النِّعْمَةَ ، فَقَلَّمَا كَفَرَ قَوْمٌ بِنِعْمَةٍ ، وَلَمْ يَنْزِعُوا إِلَى التَّوْبَةِ ،
إِلَّا سُلِبُوا عِزَّهُمْ ، وَسُلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوُّهُمْ . أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعَزَّ دَعْوَةَ هَذِهِ الْأُمَّةِ ،
وَجَمَعَ كَلِمَتَهَا ، وَأَظْهَرَ فَلَجَهَا^(١) وَنَصَرَهَا وَشَرَّفَهَا ، فَاحْمَدُوهُ عِبَادَ اللَّهِ عَلَى نِعْمِهِ ، وَاشْكُرُوهُ
عَلَى آيَاتِهِ ، جَعَلْنَا اللَّهُ وَأَيَّاكُمْ مِنَ الشَّاكِرِينَ .

(العقد الفريد ٢ : ١٣٢)

٨٤ - خطبة له

وخطب عمر الناس فقال :

« وَالَّذِي بَعَثَ مُحَمَّدًا بِالْحَقِّ لَوْ أَنَّ جَمَلًا هَلَكَ ضِيَاعًا بِشَطِّ الْفِرَاتِ ، خَشِيتُ أَنْ يَسْأَلَ
اللَّهُ عَنْهُ آلَ الْخَطَابِ » .

قال أبو زيد « آل الخطاب » يعني نفسه ما يعني غيرها . (تاريخ الطبري ٥ : ١٨)

٨٥ - خطبة له

وخطب أيضاً فقال :

« أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّهُ أَتَى عَلَيَّ حِينٌ ، وَأَنَا أَحْسَبُ أَنْ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ إِنَّمَا يَرِيدُ بِهِ اللَّهَ
وَمَا عِنْدَهُ ، أَلَا وَإِنَّهُ قَدْ خُبِّلَ إِلَيَّ أَنْ أَقْوَامًا يَقْرءُونَ الْقُرْآنَ يَرِيدُونَ بِهِ مَا عِنْدَ النَّاسِ ،
أَلَا فَأَرِيدُوا اللَّهَ بِقِرَاءَتِكُمْ ، وَأَرِيدُوهُ بِأَعْمَالِكُمْ ، فَإِنَّمَا كُنَّا نَعْرِفُكُمْ إِذَ الْوَحْيِ يَنْزِلُ ،
وَإِذَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ أَظْهُرِنَا ، فَقَدْ رُفِعَ الْوَحْيُ ، وَذَهَبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ ، فَإِنَّمَا أَعْرِفُكُمْ بِمَا أَقُولُ لَكُمْ ، أَلَا فَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا خَيْرًا ظَنَنَّا بِهِ خَيْرًا ، وَأَثْنَيْنَا بِهِ عَلَيْهِ ،

(١) الفلج : الظفر والفوز .

ومن أظهر لنا شرًا ظننا به شرًا ، وأبغضناه عليه ، أقدموا^(١) هذه النفوس عن شهواتها ، فإنها طلعة^(٢) وإنكم إلا تقدعوها تنزع بكم إلى شر غاية ، إن هذا الحق ثقيل مريء^(٣) ، وإن الباطل خفيف وبيء^(٤) ، وترك الخطيئة خير من معالجة التوبة ، ورب نظرة زرعت شهوة ، وشهوة ساعة أورثت حزنًا طويلًا .

وفي رواية صاحب المقد : « ألا وإني إنما أبعث عمالي ليعلموكم دينكم وسنتكم ، ولا أبعثهم ليضربوا ظهوركم ، ويأخذوا أموالكم ، ألا من رابه شيء من ذلك فليرفعه إلى ، فوالذي نفسي بيده لأقصنكم منه ، فقام عمرو بن العاص فقال : يا أمير المؤمنين ، رأيت إن بعثت عاملًا من عمالك ، فأدب رجلاً من رعيتك فضر به ، أتقصه منه؟ قال : نعم والذي نفس عمر بيده لأقصنه منه ، فقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه . »

وفي رواية الطبري :

وخطب عمر الناس يوم الجمعة فقال :

« اللهم إني أشهدك على أمراء الأمصار ، أني إنما بعثتهم ليعلموا الناس دينهم وسنة نبيهم ، وأن يقيموا فيهم فيهم ، وأن يعدلوا ، فإن أشكل عليهم شيء رفعوه إلى » .
« يأبها الناس : إني والله ما أرسل إليكم عمالا ليضربوا أبقاركم ، ولا ليأخذوا أموالكم ، ولكني أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم ، فمن فعل به شيء سوى ذلك فليرفعه إلى ، فوالذي نفسي عمر بيده لأقصنه منه . »

فوثب عمرو بن العاص فقال :

يا أمير المؤمنين : رأيتك إن كان رجل من أمراء المسلمين على رعيتك فأدب بعض رعيتك إنك أتقصنه منه ؟ قال : إني والذي نفسي عمر بيده إذن لأقصنه منه ، وكيف

(١) قدعه كمنه : كفه . (٢) نفس طلعة : تكثر التطلع إلى الشيء . (٣) حميد العاقبة .

(٤) وخيم العاقبة .

لا أقصه منه وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقصّ من نفسه ؟ ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ولا تجمروهم فتفتنوهم ، ولا تمنعوا حقوقهم فكفروهم ، ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم .»

(البيان والتبيين ٣ : ٧١ ، وصبح الأعشى ١ : ٢١٤ ، والعقد الفريد ٢ : ١٣٢)

وتاريخ الطبري ٥ : ١٩)

٨٦ - خطبته عام الرمادة

وخطب عام الرمادة^(١) بالعباس رحمه الله :

حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ، ثم قال :

« أيها الناس : استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ، اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك ، اللهم إنا نتقرب إليك بعم نبيك وبقية آبائه وكبار رجاله ، فإنك تقول : (وَقَوْلِكَ الْحَقُّ) « وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ ، وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا ، وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا » فحفظتهما لصلاح أبيهما ، فاحفظ اللهم نبيك في عمه ، اللهم اغفر لنا إنك كنت غفاراً ، اللهم أنت الراعي لا تهمل الضالّة ، ولا تدع الكسيرة بمضيعة ، اللهم قد ضرع الصغير ورقّ الكبير ، وارتفعت الشكوى ، وأنت تعلم السرّ وأخفى ، اللهم أئهِمهم بغيّائك ، قبل أن يقنطوا فيهلكوا ، فإنه لا يئأس من روح الله إلا القوم الكافرون .»

فما برحوا حتى علّقوا الخِذاء ، وقلّصوا المآزر ، وطقق الناس بالعباس يقولون :

(العقد الفريد : ١٣٢)

« هنيئاً لك يا ساقى الحرمين .»

(١) في السنة الثامنة عشرة أصابت الناس مجاعة شديدة بالمدينة وما حولها فكانت تسنى إذا ريحت قرابا

كالرماد ؛ فسمى ذلك العام عام الرمادة (الطبري ٤ : ٢٢٣) .

٨٧ - خطبته وقد بلغه أن قوما يفضلونه على أبي بكر

وبلغه أن قوما يفضلونه على أبي بكر الصديق ، فوثب مُغضبًا حتى صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

« أيها الناس : إني سأخبركم عنى وعن أبي بكر ، إنه لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتدت العرب ، ومنعت شاتها وبعيرها ، فأجمع رأينا كلنا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أن قلنا له يا خليفة رسول الله : إن رسول الله كان يقاتل العرب بالوحى والملائكة يُمدُّه الله بهم ، وقد انقطع ذلك اليوم ، فالزم بيتك ومسجدك ، فإنه لا طاقة لك بقتال العرب ، فقال أبو بكر : أو كلكم رأيه على هذا ؟ فقلنا نعم ، فقال : والله لأن آخر من السماء فتخطفنى الطير ، أحب إلى من أن يكون رأى هذا ، ثم صعد المنبر ، فحمد الله وكبره ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم أقبل على الناس فقال :

« أيها الناس : من كان يعبد محمدا ، فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت . أيها الناس : أن أكثر أعداؤكم ، وقل عددكم ، ركب الشيطان منكم هذا المركب ؟ والله ليظهرن الله هذا الدين على الأديان كلها ، ولو كره المشركون ، قوله الحق ، ووعد الصديق ، بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق . وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين . والله أيها الناس : لو منعوني عقالاً^(١) لجاهدتهم عليه ، واستعنت عليهم الله وهو خير معين » ثم نزل .

(تهذيب الكامل ١ : ٨)

(١) العقال : زكاة عام من الإبل والغنم ، أو المراد به الجبل مبالغة في التشديد .

خطب الفتوح في عهد عمر

في فتح فارس

كان المثنى بن حارثة الشيباني أمير جيش العراق قدم على أبي بكر بالمدينة يستمده فألفاه مريضاً ، ووصى أبو بكر عمر بالمبادرة إلى إرسال الجيوش معه ، فكان أول ما عمل به عمر ، أن ندب الناس مع المثنى إلى أهل فارس ، قبل صلاة الفجر ، من الليلة التي مات فيها أبو بكر - وكان وجه فارس من أكره الوجوه إليهم ، وأثقلها عليهم لشدة سلطانهم ، وشوكتهم ، وعزيمهم ، وقهرهم الأمم - وجعل يندبهم ثلاثة أيام فلا ينتدب أحد إلى فارس ، فلما كان اليوم الرابع عاد فندب الناس إلى العراق ، فكان أول منتدب أبو عبيد بن مسعود الثقفي - والد المختار - وتتابع الناس ، وتكلم المثنى بن حارثة فقال :

٨٨ - خطبة المثنى بن حارثة الشيباني

« أيها الناس : لا يعظمن عليكم هذا الوجه ، فإننا قد تبجحنا^(١) ريف فارس ، وغلبناهم على خير شقي السواد ، وشاطرناهم وقلنا منهم ، واجترأنا من قبلنا عليهم ، ولها إن شاء الله ما بعدها .

٨٩ - خطبة عمر رضي الله عنه

وقام عمر في الناس فقال :
« إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النجعة^(٢) ، ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك ،

(١) تبجح : تمكن في المقام والحلول كبجح ، والدار توسطها . (٢) طلب الكاذب في موضعه .

أين الطُّرَّاء^(١) المهاجرون عن موعود الله ، سيروا في الأرض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها ، فإنه قال : « لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ » والله مُظْهِر دِينِهِ ، وَمُعِز نَاصِرِهِ ، وَمَوْلَى أَهْلِهِ مَوَارِيثِ الْأُمَمِ ، أين عباد الله الصالحون ... ؟

فلما اجتمع له البعث أمرَ عليهم أو لهم انتداباً^(٢) وهو أبو عبيد وقال له : « اسمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأشركهم في الأمر ، ولا تجتهد مسرعاً حتى تدبِّين فإنها الحرب ، والحرب لا يصلحها إلاَّ الرجل المكيث^(٣) الذي يعرف الفرصة والكفَّ » .
(تاريخ الطبرى ٤ : ٦٠ ، والكامل لابن الأثير ٢ : ٢١١)

٩٠ - وصية عمر لأبي عبيد بن مسعود

وتقدم عمر إلى أبي عبيد بن مسعود فقال :
« إنك تقدم على أرض المسكر والخديعة ، والخيانة والجبرية ، تقدم على قوم قد جرؤوا على الشر فعلموه ، وتناسوا الخير فجهلوه ، فانظر كيف تكون ، واخزن لسانك ، ولا تفشين سرك ، فإن صاحب السر - ماضبطه - متحصن لا يؤتى من وجه يكرهه ، وإذا ضيَّعه كان بمضيعة » .
(تاريخ الطبرى ٤ : ٦٦)

٩١ - خطبة له وقد شيع جيش سعد بن أبي وقاص

وشيع جيش سعد بن أبي وقاص ، حين وجهه لحرب العراق ، فقام في الناس خطيباً فقال :

« إن الله تعالى إنما ضرب لكم الأمثال ، وصرف لكم الأقوال ، ليحني بها

(١) جمع طارىء، من طرأ عليهم كنع أتاها من مكان أو خرج عليهم منه فجأة .

(٢) ندب القوم إلى الأمر : دعاهم وحثهم ، وانتدبوا إليه أسرعوا . (٣) الرزين .

القلوب ، فإنَّ القلوب ميتة في صدورها حتى يُحييها الله ، من علم شيئاً فلينتفع به ، وإنَّ للعدل أماراتٍ وتباشيرَ ، فأما الأمارات: فالحياء ، والسخاء ، والهمين ، واللين . وأما التباشير: فالرحمة ، وقد جعل الله لكل أمر باباً ، وَيَسَّرَ لكل باب مفتحاً . فباب العدل الاعتبار ومفتاحه الزهد ، والاعتبار ذكر الموت بتذكُّر الأموات ، والاستعداد له بتقديم الأعمال ، والزهد أخذ الحق من كل أحدٍ قبله حق ، وتأدية الحق إلى كل أحد له حق ، ولا تُصانَع في ذلك أحداً ، واكتف بما يكفيه من الكفاف ، فإن من لم يكفه الكفاف ، لم يُغنّه شيء ، إني بينكم وبين الله ، وليس بيني وبينه أحد ، وإن الله قد أزماني دفع الدعاء عنه ، فَأَهْوُوا شَكَاتِكُمْ إِلَيْنَا ، فمن لم يستطع ، فإلى من يُبَلِّغُنَاهَا ، نأخذ له الحق غير مُتَمَتِّعٍ .
(تاريخ الطبري ٤ : ٨٥)

٩٢ - وصيته لسعد بن أبي وقاص

وصى سعد بن أبي وقاص حين أمره على حرب العراق فقال :
« يَا سَعْدُ سَعْدَ بَنِي وَهَيْبٍ ، لَا يُغْرَنُكَ مِنْ اللَّهِ أَنْ قِيلَ خَالَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَصَاحِبُ رَسُولِ اللَّهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَمْحُو السَّيِّئَ بِالسَّيِّئِ وَلَكِنَّهُ يَمْحُو السَّيِّئَ بِالْحَسَنِ ، فَإِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحَدٍ نَسَبٌ إِلَّا طَاعَتُهُ ، فَالْأَنْسَابُ شَرِّ يُفْهَمُ وَوَضِيْعُهُمْ فِي ذَاتِ اللَّهِ سَوَاءٌ ، اللَّهُ رَبُّهُمْ وَهُمْ عِبَادُهُ ، يَتَفَاضَلُونَ بِالْعَافِيَةِ ، وَيَدْرِكُونَ مَا عِنْدَهُ بِالطَّاعَةِ ، فَانظُرِ الْأَمْرَ الَّذِي رَأَيْتَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْذُ بُعِثَ إِلَى أَنْ فَارَقْنَا فَأَلْزَمَهُ ، فَإِنَّهُ الْأَمْرُ ، هَذِهِ عِظَتِي إِيَّاكَ إِنْ تَرَكْتَهَا وَرَغِبْتَ عَنْهَا حَبِطَ عَمَلُكَ ، وَكُنْتَ مِنَ الْخَاسِرِينَ .
(تاريخ الطبري ٤ : ٨٤ ؛ والكامل لابن الأثير ٢ : ٢٢٠)

٩٣ - وصيته لسعد بن أبي وقاص أيضا

ولما أراد أن يسرَّحه دعاه فقال :
« إني قد وليتك حرب العراق ، فاحفظ وصيتي فإنك تقدم على أمر شديد كريبه ،

لا يَخْلُصُ مِنْهُ إِلَّا الْحَقُّ ، فَعَوِّذُ نَفْسِكَ وَمَنْ مَعَكَ الْخَيْرَ وَأَسْتَفْتِحُ بِهِ ، وَأَعْلَمُ أَنَّ لِكُلِّ عَادَةٍ عَتَادًا^(١) ، فَعَتَادُ الْخَيْرِ الصَّبْرُ ، فَالصَّبْرُ الصَّبْرَ عَلَى مَا أَصَابَكَ أَوْ نَابَكَ ، يَجْتَمِعُ لِكَ خَشْيَةِ اللَّهِ ، وَأَعْلَمُ أَنَّ خَشْيَةَ اللَّهِ تَجْتَمِعُ فِي أَمْرَيْنِ : فِي طَاعَتِهِ ، وَاجْتِنَابِ مَعْصِيَتِهِ ، وَإِنَّمَا أَطَاعَهُ مَنْ أَطَاعَهُ بِبُغْضِ الدُّنْيَا وَحُبِّ الْآخِرَةِ ، وَعَصَاهُ مَنْ عَصَاهُ بِحُبِّ الدُّنْيَا وَبُغْضِ الْآخِرَةِ ، وَلِلْقُلُوبِ حَقَائِقُ يُنْشِئُهَا اللَّهُ إِنْشَاءً ، مِنْهَا السِّرُّ ، وَمِنْهَا الْعِلَانِيَةُ . فَأَمَّا الْعِلَانِيَةُ فَأَنَّ يَكُونُ حَامِدُهُ وَذَمُّهُ فِي الْحَقِّ سَوَاءً ، وَأَمَّا السِّرُّ فَيَعْرِفُ بِظَهْوَرِ الْحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِهِ وَبِمَحَبَّةِ النَّاسِ ، فَلَا تَزْهَدُ فِي التَّعَجُّبِ ، فَإِنَّ النَّبِيِّينَ قَدْ سَأَلُوا مُحِبِّيَهُمْ ، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا حَبَّيْبُهُ ، وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا أَبْغَضَهُ ، فَاعْتَبِرْ مَنَزَلَتَكَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى بِمَنَزَلَتِكَ عِنْدَ النَّاسِ مَنْ يَشْرَعُ مَعَكَ فِي أَمْرِكَ . (تاريخ الطبري ٤ : ٨٥)

٩٤ - وصية أخرى كتبها إلى سعد بن أبي وقاص

وكتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما ومن معه من الأجناد .

« أما بعد : فَإِنِّي أَمْرُكَ وَمَنْ مَعَكَ مِنَ الْأَجْنَادِ بِتَقْوَى اللَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ ، فَإِنَّ تَقْوَى اللَّهِ أَفْضَلُ الْعُدَّةِ عَلَى الْعَدُوِّ ، وَأَقْوَى الْمَكِيدَةِ فِي الْحَرْبِ ، وَأَمْرُكَ وَمَنْ مَعَكَ أَنْ تَكُونُوا أَشَدَّ احْتِرَاسًا مِنَ الْمَعَاصِي مِنْكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ ، فَإِنَّ ذُنُوبَ الْجَيْشِ أَخَوْفُ عَلَيْهِمْ مِنْ عَدُوِّهِمْ ، وَإِنَّمَا يُنْصَرُّ الْمُسْلِمُونَ بِمَعْصِيَةِ عَدُوِّهِمْ لِقَوْلِهِ ، وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَمْ تَكُنْ لَنَا بِهِمْ قُوَّةٌ ، لِأَنَّ عِدَدَنَا لَيْسَ كَعِدَدِهِمْ ، وَلَا عُدَّتُنَا كَعِدَّتِهِمْ ، فَإِنَّ اسْتَوَيْنَا فِي الْمَعْصِيَةِ ، كَانَ لَهُمُ الْفَضْلُ عَلَيْنَا فِي الْقُوَّةِ ، وَإِلَّا نُنْصَرُّ عَلَيْهِمْ بِفَضْلِنَا لَمْ تَغْلِبْهُمْ بِقُوَّتِنَا ، فَاعْلَمُوا أَنَّ عَلَيْكُمْ فِي سِيرِكُمْ حَفَظَةً مِنَ اللَّهِ يَعْمَلُونَ مَا تَعْمَلُونَ ، فَاسْتَحْيُوا مِنْهُمْ وَلَا تَعْمَلُوا بِمَعَاصِي اللَّهِ وَأَنْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ،

(١) العتاد : العدة .

ولا تقولوا إنَّ عَدُوَّنَا شَرُّ مِنَّا ، فَلَئِنِ يُسَلِّطَ عَلَيْنَا ، فَرُبَّ قَوْمٍ سُلِّطَ عَلَيْهِمْ شَرُّ مِنْهُمْ كَمَا سُلِّطَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ (لَمَّا عَمَلُوا بِمَسَاحِطِ اللَّهِ) كُفَّارُ الْجُوسِ ، فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ، وَاسْأَلُوا اللَّهَ الْعَوْنَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، كَمَا تَسْأَلُونَهُ النَّصَرَ عَلَى عَدُوِّكُمْ .

أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى ذَلِكَ لَنَا وَإِلَيْكُمْ . وَتَرَفَّقَ بِالْمُسْلِمِينَ فِي مَسِيرِهِمْ ، وَلَا تَجَسَّمْهُمْ مَسِيرًا يُتَعَبِهِمْ ، وَلَا تُقَصِّرْ بِهِمْ عَنِ مَنَزِلِ يَرْفُقُ بِهِمْ ، حَتَّى يَبْلُغُوا عَدُوَّهُمْ (وَالسَّفَرُ لَمْ يَنْقُصْ قُوَّتَهُمْ) فَإِنَّهُمْ سَائِرُونَ إِلَى عَدُوِّ مُقِيمٍ ، حَامِي الْأَنْفُسِ وَالْكَرَاعِ^(١) ، وَأَقِمْ بَيْنَ مَعِكَ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ يَوْمًا وَلَيْلَةً ، حَتَّى تَكُونَ لَهُمْ رَاحَةً يُحْيُونَ فِيهَا أَنْفُسَهُمْ ، وَيَرْمُونَ^(٢) أَسْلِحَتَهُمْ وَأَمْتَعَتَهُمْ ، وَنَحِّ مَنَازِلَهُمْ عَنِ قُرَى أَهْلِ الصَّلْحِ وَالذِّمَّةِ ، فَلَا يَدْخُلُهَا مِنْ أَصْحَابِكَ إِلَّا مَنْ تَنَقَّ بِدِينِهِ ، وَلَا يَزَأْ^(٣) أَحَدًا مِنْ أَهْلِهَا شَيْئًا ، فَإِنَّ لَهُمْ حَرَمَةً وَذِمَّةً ابْتَلَيْتُمْ بِالْوَفَاءِ بِهَا ، كَمَا ابْتَلَوْا بِالصَّبْرِ عَلَيْهَا ، فَمَا صَبَرُوا لَكُمْ فَتَوَلَّوْهُمْ خَيْرًا ، وَلَا تَسْتَنْصِرُوا عَلَى أَهْلِ الْحَرْبِ بِظَلْمِ أَهْلِ الصَّلْحِ ، وَإِذَا وَطِئْتَ أَرْضَ الْعَدُوِّ فَأَذْكِ^(٤) الْعِيُونَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ ، وَلَا يَحْفَ عَلَيْكَ أَمْرُهُمْ ، وَلِيَكُنْ عِنْدَكَ مِنَ الْعَرَبِ ، أَوْ مِنَ أَهْلِ الْأَرْضِ مَنْ تَطْمَئِنُّ إِلَى نَصَحِهِ وَصَدْقِهِ ، فَإِنَّ الْكَذُوبَ لَا يَنْفَعُكَ خَبْرُهُ ، وَإِنْ صَدَّقَكَ فِي بَعْضِهِ ، وَالغَاشِ عَيْنَ عَلَيْكَ ، وَلَيْسَ عَيْنًا لَكَ ، وَلِيَكُنْ مِنْكَ عِنْدَ دَنُوكَ مِنْ أَرْضِ الْعَدُوِّ أَنْ تُتَكَّرَ الطَّلَاعُ ، وَتَبُثَّ السَّرَايَا^(٥) بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ ، فَتَقْطَعَ السَّرَايَا أَمْدَادَهُمْ وَمَرَافِقَهُمْ ، وَتَتَّبِعَ الطَّلَاعُ عَوْرَاتِهِمْ ، وَتَنَقَّ^(٦) لِلطَّلَاعِ أَهْلَ الرَّأْيِ وَالْبَأْسِ مِنْ أَصْحَابِكَ ، وَتُخَيَّرَ لَهُمْ سَوَابِقَ الْخَيْلِ ، فَإِنْ لَقُوا عَدُوًّا كَانَ أَوْلَى مَا تَلْقَاهُمُ الْقُوَّةُ مِنْ رَأْيِكَ ، وَاجْعَلْ أَمْرَ السَّرَايَا إِلَى أَهْلِ الْجِهَادِ ، وَالصَّبْرِ عَلَى الْجِلَادِ ، وَلَا تَخْصَّ بِهَا أَحَدًا بَهْوَى ، فَتَضِيعَ مِنْ رَأْيِكَ وَأَمْرِكَ ، أَكْثَرَ مَا حَابَيْتَ بِهِ أَهْلَ

(١) الكراع من كل شيء: طرفه واسم يجمع الخيل .

(٢) رمه يرمه : أصلحه . (٣) رزاه ماله : أصاب منه شيئاً . (٤) أذكى عليه العيون :

إذا أرسل عليه الطلائع . (٥) جمع سرية ، وهي من خمسة أنفس إلى ثلاثمائة أو أربعمائة .

(٦) تنقاه وانتقاه : اختاره .

خاصتك ، ولا تبعن طليعة ، ولا سرية ، في وجهٍ تتخوف فيه غلبة أو ضيعةً ونكابة ،
فإذا عاينت العدو ، فاضم إليك أفاضيك وطلانك وسراياك ، واجمع إليك مكيدتك
وقوتك ، ثم لاتعاجلهم المناجزة ، ما لم يستكركم قتال ، حتى تبصر عورة عدوك
ومقاتله ، وتعرف الأرض كلها كعرفة أهلها ، فتصنع بعدوك ، كصنعه بك ، ثم أذك
أحراسك على عسكريك ، وتيقظ من البيات جهدك ، ولا تؤتني بأسير ليس له عقد^(١)
إلا ضربت عنقه ، لترهب به عدو الله وعدوك ، والله ولي أمرك ومن معك ، وولى النصر
لكم على عدوكم ، والله المستعان .

(العقد الفريد ١ : ٤٠)

٩٥ - وصيته للجاهدين

كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول عند عقد الألوية :

« بسم الله وبالله ، وعلى عون الله ، امضوا بتأييد الله ، وما النصر إلا من عند الله ،
ولزوم الحق والصبر ، فقاتلوا في سبيل الله من كفر بالله ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب
المعتدين ، ولا تجبنوا عند اللقاء ، ولا تمثلوا عند القدرة ، ولا أسرفوا عند الظهور^(٢)
ولا تقتلوا هريماً ولا امرأة ولا وليداً ، وتوقوا قتلهم إذا التقى الزحفان ، وعند شن^(٣)
الغارات .

(العقد الفريد ١ : ٤٠)

(١) عهد .

(٢) الغلبة .

(٣) شن الغارة عليهم : صبا من كل وجه .

٩٦ - وصية عمر ليعلى بن أمية

في إجلاء أهل نجران

روى الطبرى قال :

كان أول بعث بعثه عمر بعث أبي عبيد ، ثم بعث يعلى بن أمية إلى اليمن ، وأمره بإجلاء أهل نجران ، لوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه بذلك ، ولوصية أبي بكر رحمه الله بذلك في مرضه ، وقال :

« اتهم ولا تفتنهم عن دينهم ، ثم أجلبهم من أقام منهم على دينه ، وأقرر المسلم ، وامسح أرض كل من تجلبى منهم ، ثم خيرهم البلدان ، وأعلمهم أنا نُجلبهم بأمر الله ورسوله ألا يُترك بجزيرة العرب دينان ، فليخرجوا من أقام على دينه منهم ، ثم نعطيهم أرضا كأرضهم إقرارا لهم بالحق على أنفسنا ، ووفاء بدمتهم ، فيما أمر الله من ذلك بدلا بينهم وبين جيرانهم من أهل اليمن وغيرهم فيما صار لجيرانهم بالريف » .

(تاريخ الطبرى ٤ : ٦٢)

٩٧ - خطبة لعمر

ولما انتهى إلى عمر قتل أبي عبيد بن مسعود نادى في المهاجرين والأنصار وخرج حتى أتى صيرارا فمسك به ، واستشار الناس فكلمهم أشار عليه بالسير إلى فارس واستشار ذوى رأى فأشاروا عليه أن يقيم ويبعث رجلا فقام في الناس فقال :

« إن الله عز وجل قد جمع على الإسلام أهله ، فألف بين القلوب ، وجعلهم فيه إخوانا ، والمسلمون فيما بينهم كالجسد لا يخلو منه شيء من شيء أصاب غيره . وكذلك يحق على المسلمين أن يكونوا (وأمرهم شورى بينهم) بين ذوى رأى منهم ، فالناس تبع لمن قام

بهذا الأمر ، ما اجتمعوا عليه ورضوا به لزم الناس وكانوا فيه تبعاً لهم ، ومن قام بهذا الأمر تبع لأولى رأيهم مارأوا لهم ورضوا به لهم من مكيدة في حرب كانوا فيه تبعاً لهم .

يأيها الناس إني إنما كنت كرجل منكم حتى صرفني ذوو الرأي منكم عن الخروج فقد رأيت أن أقيم وأبعث رجلاً ، وقد أحضرت هذا الأمر من قدمتُ ومن خلفتُ .
(تاريخ الطبرى ٤ : ٨٣)

٩٨ - خطبة جرير بن عبد الله البجلي

وقال المثني بن حارثة وهو على قتال فارس : من يتبع الناس إلى السَّيب ؟ فقام جرير بن عبد الله البجلي في قومه فقال :

« يا معشر بَجِيلَة : إنكم وجميع من شهد هذا اليوم في السابقة والفضيلة والبلاء سواء ، وليس لأحد منهم في هذا الخميس غدا من النَّفَل مثل الذى لكم منه ، ولكم ربع خمسة نفلا من أمير المؤمنين ، فلا يكونن أحد أسرع إلى هذا العدو ، ولا أشد عليه منكم للذى لكم منه ، ونيةً إلى ما ترجون ، فإنما تنتظرون إحدى الحسنين : الشهادة والجنة أو الغنيمة والجنة . »
(تاريخ الطبرى ٤ : ٧٦)

٩٩ - خطبة سعد بن أبي وقاص يوم أرمات

وخطب سعد بن أبي وقاص يوم أرمات^(١) (سنة ١٤ هـ) فحمد الله وأثنى عليه وقال :

« إن الله هو الحق لا شريك له في الملك وليس لقوله خلف » قال الله جل ثناؤه :

(١) هو اليوم الأول من أيام القادسية .

(وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) ،
إن هذا ميراثكم وموعد ريبكم ، وقد أباحها لكم منذ ثلاث حجج ، فأنتم تطعمون منها
وتأكلون منها ، وتقتلون أهلها وتجبنونهم وتنبئونهم إلى هذا اليوم بما نال منهم أصحاب
الأيام منكم ، وقد جاءكم منهم هذا الجمع ، وأنتم وجوه العرب وأعيانهم ، وخيار كل قبيلة
وعز من وراءكم ، فإن تزهّدوا في الدنيا وترغبوا في الآخرة جمع الله لكم الدنيا والآخرة ،
ولا يقرب ذلك أحدا إلى أجله ، وإن تفشلوا وهنأوا وتضعفوا تذهب ريحكم وتوبقوا
آخرتكم .
(تاريخ الطبري ٤ : ١١٤)

١٠٠ - خطبة عاصم بن عمرو

وقام عاصم بن عمرو فقال :

« إن هذه بلاد قد أحل الله لكم أهلها ، وأنتم تنالون منها منذ ثلاث سنين ما لا ينالون
منكم ، وأنتم الأعلون والله معكم ، إن صبرتم وصدقتموهم الضرب والظعن فلكم أموالهم
ونسأؤهم وأبناؤهم وبلادهم ، وإن خرتهم وفشلتهم - والله لكم من ذلك جارٌّ وحافظ - لم
يبق هذا الجمع منكم باقية ، مخافة أن تعودوا عليهم بمائدة هلاك ، الله الله ، اذكروا
الأيام وما منحكم الله فيها ، أو لا ترون أن الأرض وراءكم بسابس^(١) قفار ليس فيها خمر^(٢)
ولا وزر يعقل إليه ويمتنع به ؟ اجعلوا همكم الآخرة .
(تاريخ الطبري ٤ : ١١٤)

١٠١ - خطبة طليحة بن خويلد الأسدي

وحمل أصحاب القبيلة من جيش الفرس على المسلمين ، وكادت بجيلة أن تؤكل ، فرت
عنها خيلها نفارا ، فأرسل سعد إلى بني أسد : ذببوا^(٣) عن بجيلة ، وقام طليحة بن خويلد
الأسدي في قومه حين استصرخهم سعد فقال :

(١) البسيس : القفر . (٢) الحمر : ماوارك من شجر وغيره . (٣) دافعوا عنها .

« يا عشيرته : إن المنوّه باسمه الموثوقُ به ، وإن هذا لو علم أن أحداً أحق بإغاثة هؤلاء منكم استفتأهم ، ابتدئوهم الشدة ، وأقدموا عليهم إقدام الليوث الحربية^(١) فإنما سُميت أسداً لتفعلوا فعله ، شدوا ولا تصدوا وكروا ولا تفروا ، لله درُّ ربيعة ! أى فرى يفرون ، وأى قرن يُفنون ! هل يوصل إلى مواقفهم ؟ فأغنوا عن مواقفكم أعانكم الله ، شدوا عليهم باسم الله . »
(تاريخ الطبرى ٤ : ١١٨)

١٠٢ - الخنساء تحرض أولادها على القتال

حضرت الخنساء حرب القادسية ومعها بنوها أربعة رجال ، فقالت لهم :
« يا بني ، أنتم أسلمتم طائعين ، وهاجرتم مختارين ، ووالله الذى لا إله غيره ، إنكم لبنور رجل واحد ، كما أنكم بنو امرأة واحدة ، ما خنت أباكم ، ولا فضحت خالكم ، ولا هجنت^(٢) حسبكم ، ولا غيبت^(٣) نسبكم ، وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب العظيم فى حرب الكافرين ، وأعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية ، يقول الله عز وجل : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) فإذا أصبحتم غداً ، فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين ، والله على أعدائه مستنصرين . »

فلما أضاء لهم الصبح باكروا مرا كزهم ، فتقدموا واحداً بعد واحد ، يُنشدون الأراجيز ، فقاتلوا حتى استشهدوا جميعاً ، فلما بلغها الخبر قالت : الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم ، وأرجو من ربي أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمة . فكان عمر رضى الله عنه يعطيها أرزاق أولادها الأربعة لكل واحد منهم مائة درهم ، حتى قبض وماتت الخنساء .
(خزاة الأدب : ١ ، ٣٩٥)

(١) حرب : كليب واشتد غضبه فهو حرب . (٢) النهجين : التقيح .

(٣) غيره : لطفه بالغباء ، أى دنست .

١٠٣ — خطبة عتبة بن غزوان

وفي سنة ١٤ هـ وجه عمر بن الخطاب عتبة بن غزوان إلى البصرة وأمره بنزولها بمن معه وقطع مادة أهل فارس عن الدين بالمداين ونواحيها منهم ، فرفعوا له منبرا وقام يخطب فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

« أما بعد : فإن الدنيا قد تولت حذاء^(١) مُدْبِرَةً ، وقد آذنت أهلها بِصِرْمٍ^(٢) ، وإنما بقي منها صُبابَةٌ^(٣) كَصُبابَةِ الْإِنَاءِ يَصْطَبُّهَا صَاحِبُهَا ، ألا وإنكم مفارقوها لا محالة ، ففارقوها بأحسن ما يحضركم ، ألا وإن من العجب أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الحجر الضخم يُبَلِّغُ في النار من شفيرها^(٤) ، فَيَهْوِي فِيهَا سَبْعِينَ خَرِيفًا^(٥) ، ولجهم سبعة أبواب ما بين البابين منها مَسِيرَةٌ خَمِيسَةٌ سَنَةً ، ولتأتين عليها ساعة وهي كظيظ^(٦) بالزحام ، ولقد كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سابع سابعة ، مالنا طعامٌ إلا ورقُ البَشَامِ^(٧) ، حتى قرحت أشداقنا ، فوجدت أنا وسعد بن مالك تمرة ، فشققتها بيني وبينه نصفين ، والتقطت بُدَّةً فشققتها بيني وبينه ، فَأَنْزَرْتُ بِنِصْفِهَا ، وَأَنْزَرَ بِنِصْفِهَا ، وما منا أحد اليوم إلا وهو أمير على مصر من الأمصار ، وإنه لم يكن نبوة قط إلا تناسختها^(٨) جَبْرِيَّةٌ ، وأنا أعوذ بالله أن أكون في نفسي عظيماً ، وفي أعين الناس صغيراً ، وستجربون الأمراء من بعدى ، فتعرفون وتذكرون . »

(تاريخ الطبري ٤ : ١٤٩ . والمعقد الفريد ٢ : ١٥٦ ، والبيان والتبيين ٢ : ٢٧ ،

والكامل لابن الأثير ٢ : ١٨٨)

(١) السريعة الماضية التي لا يتعلق بها شيء . (٢) آذنت : أعلمت ، والصرم : القطع .

(٣) الصبابة : بقية الماء في الإناء . (٤) الشفير : حرف كل شيء .

(٥) سنة : والمراد أنها بعيدة الأقطار شاسعة الأرجاء . (٦) من كظه الطعام : ملاءه حتى لا يطيق النفس ،

ورجل كظ وكظيظ ومكظوظ تهظه الأمور حتى يعجز عنها . (٧) البشام : شجر عطر الرائحة يستاك به .

(٨) في الحديث « لم تكن نبوة إلا تناسخت » أي تحولت من حال إلى حال ، يعني أمر الأمة وتغاير

أحوالها ، والجبرية الجبروت .

١٠٤ - خطبة لسعد بن أبي وقاص

ولما نزل سعد بهر سير - وهي المدينة الدنيا - طلب السفن ليعبر بالناس إلى المدينة القصوى (على نهر دجلة) فلم يقدر على شيء ووجدهم قد ضموا السفن ، فجمع الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال :

« إن عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر ، فلا تخلصون إليه معه ، وهم يخلصون إليكم إذا شاءوا ، فيناوشونكم في سفنهم ، وليس وراءكم شيء تخافون أن تؤثروا منه ، فقد كفاكموه أهل الأيام ، وعطلوا ثغورهم ، وأفنوا ذاتهم . وقد رأيت من الرأي أن تبادروا جهاد العدو بنياتكم قبل أن تحصركم الدنيا ، ألا إنى قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم . »

فقالوا جميعا : عزم الله لنا ولك على الرشد فافعل .

واقترح دجلة وفتح المدينة القصوى (سنة ١٦ هـ) . (تاريخ الطبرى ٤ : ١٧٠)

١٠٥ - خطبة عمر

ولما تجمعت جموع الفرس بنهاوند كتب سعد إلى عمر يخبره بذلك فاجتمع الناس وقام عمر على المنبر خطيبا فأخبرهم الخبر واستشارهم وقال :

« هذا يوم له ما بعده من الأيام ، ألا وإنى قد هممت بأمر وإنى عارضه عليكم فاسمعوه ، ثم أخبروني وأوجزوا ، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، ولا تكثروا ولا تطيلوا فتفشغ^(١) بكم الأمور ، ويلتوى عليكم الرأي ، أفن الرأي أن أسير فيمن قبلى ومن قدرت عليه ، حتى أنزل منزلا وسطا بين هذين المصرين فاستنفرهم ثم أكون

(١) فشغ كنهه : علاه حتى غطاه .

لهم ردها حتى يفتح الله عليهم ويقضى ما أحب ، فإن فتح الله عليهم أن أضربهم عليهم
في بلادهم ليتنازعوا ملكهم .

فقام عثمان بن عفان ورجال من أهل الرأي من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم
فتكلموا كلاما فقالوا :

« لا نرى ذلك ، ولكن لا يفيعن عنهم رأيك وأثرك ، وقالوا : بإزائهم وجوه
العرب وفرسانهم وأعلامهم ومن قد فضّ جوعهم ، وقتل ملوكهم ، وبأشر من حروبهم
ما هو أعظم من هذه ، وإنما استأذنوك ولم يستصرخوك فأذن لهم واندب إليهم وادع
لهم . » (تاريخ الطبري ٤ : ٢٣٧)

١٠٦ - خطبة لعلي

وقام علي بن أبي طالب فقال :

« أصاب القوم يا أمير المؤمنين الرأي ، وفهموا ما كتبت به إليك ، وإن هذا الأمر
لم يكن نصره ولا خذلانه لكثرة ولا قلة ، هو دينه الذي أظهره ، وجنده الذي أعزه
وأيده بالملائكة حتى بلغ ما بلغ ، فنحن على موعود من الله ، والله منجز وعده ، وناصر
جنده ، ومكانك منهم مكان النظام من الخرز يجمعه ويمسكه ، فإن انحلّ تفرق ما فيه
وذهب ، ثم لم يجتمع بمخذافيه أبدا ، والعرب اليوم وإن كانوا قليلا فهي كثير عزيز
بالإسلام ، فأقم واكتب إلى أهل الكوفة ، فهم أعلام العرب ورؤساؤهم ، ومن لم يحفل
بمن هو أجمع وأحد وأجد من هؤلاء ، فليأتهم الثلثان وليقم الثلث ، واكتب إلى أهل
البصرة أن يمدوهم ببعض من عندهم . »

(تاريخ الطبري ٤ : ٢٣٧)

فسر عمر بحسن رأيهم وأعجبه ذلك منهم .

١٠٧ - خطبة طلحة بن عبيد الله

وقام طلحة بن عبيد الله وكان من خطباء رسول الله صلى الله عليه وسلم فتشهد ثم قال :
« أما بعد يا أمير المؤمنين فقد أحكمتك الأمور، وعَجَمَتِكَ ^(١) البلايا، واحتَنَكَّتِكَ ^(٢)
التجارب، وأنت وشأنك، وأنت ورأيك، لا تنبؤ في يديك ولا نكل عليك، إليك
هذا الأمرُ فرُّنا نُطع، وادعنا نجب، واحملنا نركب، ووقدنا نقد، وقدنا ننقد، فإنك
ولى هذا الأمر، وقد بلوتَ وجربتَ واختبرت، فلم ينكشف شيء من عواقب قضاء الله
لك إلا عن خيار » ثم جلس .
(تاريخ الطبرى ٤ : ٢٣٨)

١٠٨ - خطبة عثمان بن عفان

فعاد عمر فقال : إن هذا يوم له ما بعده من الأيام فتكلموا ، فقام عثمان بن عفان
فتشهد وقال :
« أرى يا أمير المؤمنين أن تكتب إلى أهل الشام فيسيروا من شامهم ، وتكتب
إلى أهل اليمن فيسيروا من بينهم، ثم تسير أنت بأهل هذين الحرمين إلى المصرين : البصرة
والكوفة ، فتلقى جميع المشركين بجمع المسلمين ، فإنك إذا سرت بمن معك وعندك .
قل في نفسك ما قد تكاثر من عدد القوم ، وكنت أعزّ عزا وأكثر يا أمير المؤمنين ،
إنك لا تستبقي من نفسك بعد العرب باقيةً ، ولا تمتنع من الدنيا بعزير ، ولا تلوذ منها
بحريز ، ، إن هذا اليوم له ما بعده من الأيام ، فاشهده برأيك وأعوانك ولا تغب عنه »
ثم جلس .
(تاريخ الطبرى ٤ : ٢٣٨)

(١) عجم العود : عضه ليعرف صلابته من خوره .

(٢) أحكمتك .

١٠٩ - خطبة علي بن أبي طالب

فعاد عمر فقال : إن هذا يوم له ما بعده من الأيام فتكلموا ، فقام علي بن أبي طالب فقال :

« أما بعد يا أمير المؤمنين فإنك إن أشخّصت أهل الشام من شأمهم ، سارت الروم إلى ذراريهم ، وإن أشخّصت أهل اليمن من يمنهم ، سارت الحبشة إلى ذراريهم ، وإنك إن شخّصت من هذه الأرض ، انتقضت عليك الأرض من أطرافها وأقطارها ، حتى يكون ما تدع وراءك أهمّ إليك مما بين يديك من العورات والعيلات ، أقرز هؤلاء في أمصارهم ، واكتب إلى أهل البصرة فليتفرقوا فيها ثلاث فرق : فلتقم فرقة لهم في حرّمهم وذراريهم ، ولتقم فرقة في أهل عهدهم لئلا ينتقضوا عليهم ، ولتسر فرقة إلى إخوانهم بالكوفة مددا لهم .

إن الأعاجم إن ينظروا إليك غدا قالوا هذا أمير العرب وأصل العرب ، فكان ذلك أشد لكلبهم وألبتهم^(١) على نفسك ، وأما ما ذكرت من مسير القوم فإن الله أكره لمسيرهم منك ، وهو أقدر على تغيير ما يكره ، وأما ما ذكرت من عددهم فإننا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة وإنما كنا نقاتل بالنصر .

فقال عمر : أجل والله لئن شخّصت من هذه البلدة لتنتقضنّ على الأرض من أطرافها وأكنافها ، ولئن نظرت إلى الأعاجم لا يفارقنّ العرصة^(٢) ، وليمدّهم من لم يمدهم ، وليقولنّ : هذا أصل العرب ، فإذا اقتطعتموه اقتطعتهم أصل العرب : فأشيروا عليّ برجل أوله ذلك الثغر غدا ، قالوا أنت أفضل رأيا ، وأحسن مقدرة ، قال : أشيروا عليّ به واجعلوه عراقيا ، قالوا يا أمير المؤمنين أنت أعلم بأهل العراق ،

(١) ألب إليه القوم : أتوه من كل جانب . (٢) الساحة .

وجندك قد وفدوا عليك ورأيتهم وكتبتهم ، فقال : أما والله لأولين أمرهم رجلا ليكونن
لأول الأسننة إذا لقيها غدا ، فقيل من يا أمير المؤمنين ؟ فقال : النعمان بن مقرن المزني ،
فقالوا : هو لها ، والنعمان يومئذ بالبصرة ، فولآه . (تاريخ الطبري ٤ : ٢٣٨)

١١٠ - خطبة النعمان بن مقرن

ونشب القتال بين المسلمين والفرس ، وكان النعمان يسير في الناس على بردون
أحوى^(١) قريب من الأرض فيقف على كل راية ويحمد الله ويثنى عليه ويقول :

« قد علمت ما أعزكم الله به من هذا الدين ، وما وعدكم من الظهور ، وقد أنجز لكم
هوادي^(٢) ما وعدكم وصدوره ، وإنما بقيت أعجازه وأكارعه ، والله منجز وعده ، ومتبع
آخر ذلك أوله ، واذكروا ماضى إذ كنتم أذلة ، وما استقبلتم من هذا الأمر وأنتم أعزة ،
فأنتم اليوم عباد الله حقا وأولياؤه ؛ وقد علمت انقطاعكم من إخوانكم من أهل الكوفة ،
والذى لهم في ظفركم وعزكم ، والذى عليهم في هزيمتكم وذلكم ، وقد ترون من أنتم بإزائه
من عدوكم ، وما أخطرتكم وما أخطروا لكم ، فأما ما أخطروا لكم فهذه الرثة^(٣) وما ترون
من هذا السواد ، وأما ما أخطرتكم لهم فدينكم وبيضتكم ، ولا سواها ما أخطرتكم وما أخطروا ،
فلا يكونن على دنياهم أحى منكم على دينكم ، واتق الله عبد صدق الله وأبلى نفسه فأحسن
البلاء ، فإنكم بين خيرين منتظرين : إحدى الحسينين ، من بين شهيد حى مرزوق أو فتح
قريب وظفر يسير ، فكفى كل رجل ما يليه ، ولم يكل قرنه إلى أخيه ، فيجتمع عليه قرنه
وقرن نفسه ، وذلك من الملامة ، وقد يقاتل الكلب عن صاحبه ، فكل رجل منكم
مسلط على ما يليه ، فإذا قضيت أمرى فاستعدوا ، فإنى مكبر ثلاثا ، فإذا كبرت التكبير

(١) وصف من الحوة وهى : حرة إلى السواد . (٢) أوائل جمع هاد .

(٣) الرثة : ضعفاء الناس .

الأولى فليتهياً من لم يكن تهبياً ، فإذا كبرت الثانية فليشد عليه سلاحه وليتهياً للنهوض ،
فإذا كبرت الثالثة فإني حامل إن شاء الله فاحملوا معا ، اللهم أعز دينك وانصر عبادك ،
واجعل النعمان أول شهيد اليوم على إعزاز دينك ونصر عبادك .

وزلق فرسه في دماء القوم فصرع فاستشهد . (تاريخ الطبري ٤ : ٢٤٢)

خطب رجال من الفاتحين

بين يدي يزدجرد ملك الفرس وقواده

وكتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص وهو على فتح العراق يأمره أن يبعث إلى يَزْدَجِرْدَ ملك الفرس رجلاً من أهل المنظرة^(١) والرأى والجلد يدعونه ، فاخترهم وأنفذهم إليه بالمدائن ، فلما دخلوا عليه أمر التَّزْمِجَانَ بيده وبينهم فقال : سلهم ما جاء بكم وما دعاكم إلى غزونا والوَلُوعِ ببلادنا ، أمن أجل أنا أجمناكم^(٢) وتشاغلنا عنكم اجترأتم علينا ؟ فقال لهم النعمان بن مقرن : إن شئتم أجبت عنكم ، ومن شاء آثرته ، فقالوا : بل تكلم ، فتكلم النعمان فقال :

١١١ - خطبة النعمان بن مقرن

« إن الله رَحِمَنَا فَأَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولًا يَدُلُّنَا عَلَى الْخَيْرِ ، وَيَأْمُرُنَا بِهِ ، وَيَعْرِفُنَا الشَّرَّ ، وَيَنْهَانَا عَنْهُ ، وَوَعَدَنَا عَلَى إِجَابَتِهِ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَلَمْ يَدْعُ إِلَى ذَلِكَ قَبِيلَةً إِلَّا صَارُوا فِرْقَتَيْنِ : فِرْقَةٌ تَقَارِبُهُ ، وَفِرْقَةٌ تَبَاعِدُهُ ، وَلَا يَدْخُلُ مَعَهُ فِي دِينِهِ إِلَّا الْخَوَاصُّ ، فَكَثُرَ بِذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَمَكُثَ ، ثُمَّ أَمَرَ أَنْ يَنْبِذَ إِلَى مَنْ خَالَفَهُ مِنَ الْعَرَبِ ، وَبَدَأَ بِهِمْ وَفَعَلَ ، فَدَخَلُوا مَعَهُ جَمِيعًا عَلَى وَجْهَيْنِ : مُكْرَهُ عَلَيْهِ فَاغْتَبِطَ ، وَطَائِعُ أَتَاهُ فَازْدَادَ ، فَعَرَفْنَا جَمِيعًا فَضْلَ مَا جَاءَ بِهِ عَلَى الَّذِي كُنَّا عَلَيْهِ ، مِنْ الْعَدَاوَةِ وَالضِّيْقِ ، ثُمَّ أَمَرْنَا أَنْ نَبْدَأَ بِمَنْ يَلِينَا مِنَ الْأُمَمِ ، فَندَعُوهُمْ إِلَى الْإِنصَافِ ، فَنَحْنُ ندَعُوكُمْ إِلَى دِينِنَا ، وَهُوَ دِينُ حَسَنٍ

(١) المنظرة . (٢) من أجم للماء إذا تركه يجتمع ، أي أرحناكم وانصرفنا عنكم .

الْحَسَنَ ، وَقَبَّحَ الْقَبِيحَ كُلَّهُ ، فَإِنْ أَيْتِمَ فَأَمْرٌ مِنَ الشَّرِّ ، هُوَ أَهْوَنُ مِنْ آخِرِ شَرِّهِ مِنْهُ ،
الْجِزَاءُ^(١) ، فَإِنْ أَيْتِمَ فَالْمُنَاجِزَةُ ، فَإِنْ أَجَيْتُمْ إِلَى دِينِنَا خَلَقْنَا فِيكُمْ كِتَابَ اللَّهِ ، وَأَقْنَانَاكُمْ
عَلَيْهِ ، عَلَى أَنْ تَحْكُمُوا بِأَحْكَامِهِ ، وَتَرْجِعَ عَنْكُمْ وِشَائِكُمْ وَبِلَادِكُمْ ، وَإِنْ اتَّقَيْتُمُونَا بِالْجِزَاءِ
قَبْلِنَا وَمَنْعْنَاكُمْ ، وَإِلَّا قَاتَلْنَاكُمْ .

* * *

فقال يزدجرد : إني لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عدداً ، ولا أسوأ
ذات بين منكم ، قد نوكل بكم قري الضواحي فيكفونناكم ، لا تغزوكم فارس ،
ولا تطعمون أن تقوموا لهم ، فإن كان غرور لحكمكم ، فلا يغررناكم منا ، وإن كان
الجهد دعاكم ، فرضنا لكم قوتاً إلى خضبتكم ، وأكرمنا وجوهكم ، وكسوناكم ، وملكنا
عليكم ملكاً يرفق بكم ، فقام المغيرة بن زرارة فقال :

١١٢ - خطبة المغيرة بن زرارة

أيها الملك : إن هؤلاء رؤوس العرب ووجوههم ، وهم أشراف يستحيون من
الأشراف ، وإنما يكرم الأشراف الأشراف . ويعظم حقوق الأشراف الأشراف ،
ويفضخ الأشراف الأشراف ، وليس كل ما أرسلوا به جموعه لك ، ولا كل ما تكلمت
به أجاوبك عليه ، وقد أحسنوا ولا يحسن بمثلهم إلا ذلك ، فجاوبني لأكون الذي
أبلغك ، ويشهدون على ذلك ، إنك قد وصفتنا صفة لم تكن بها عالماً ، فأما ما ذكرت
من سوء الحال ، فما كان أسوأ حالاً منا ، وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع ، كنا نأكل
الخنافس ، والجعلان^(٢) والمقارب والحيات فترى ذلك طعامنا ، وأما المنازل فإنما هي ظهر
الأرض ، ولا نلبس إلا ما غزلنا من أوبار الإبل ، وأشعار الغنم ، ديننا أن يقتل بعضنا

(١) الجزاء : جمع جزية . (٢) جمع جعل يضم ففتح : وهو الحرياء .

بعضاً ، وَيُغَيِّرُ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ ، وَإِنْ كَانَ أَحَدُنَا لَيَذْفَنُ ابْنَتَهُ وَهِيَ حَيَّةٌ كَرَاهِيَةٌ أَنْ تَأْكُلَ مِنْ طَعَامِنَا ، فَكَانَتْ حَالُنَا قَبْلَ الْيَوْمِ عَلَى مَا ذَكَرْتُ لَكَ ، فَبِعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَجُلًا مَعْرُوفًا نَعْرِفُ نَسَبَهُ ، وَنَعْرِفُ وَجْهَهُ وَمَوْلَدَهُ ، فَأَرْضُهُ خَيْرُ أَرْضِنَا ، وَحَسَبُهُ خَيْرُ أَحْسَابِنَا ، وَبَيْتُهُ أَكْثَمُ بِيوتِنَا ، وَقَبِيلَتُهُ خَيْرُ قَبِيلَتِنَا ، وَهُوَ بِنَفْسِهِ كَانَ خَيْرِنَا فِي الْحَالِ الَّتِي كَانَ فِيهَا ، أَصْدَقْنَا وَأَحْلَيْنَا ، فَدَعَانَا إِلَى أَمْرٍ ، فَلَمْ يَجِبْ أَحَدًا أَوْلَّ مِنْ تَرْبٍ كَانَ لَهُ ، وَكَانَ الْخَلِيفَةَ مِنْ بَعْدِهِ ، فَقَالَ وَقَلْنَا ، وَصَدَّقَ وَكَذَبْنَا ، وَزَادَ وَنَقَصْنَا فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا إِلَّا كَانَ ، فَقَذَفَ اللَّهُ فِي قُلُوبِنَا التَّصْدِيقَ لَهُ وَاتِّبَاعَهُ ، فَصَارَ فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، فَمَا قَالَ لَنَا فَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ ، وَمَا أَمَرْنَا فَهُوَ أَمْرُ اللَّهِ ، فَقَالَ لَنَا : إِنْ رَبِّكُمْ يَقُولُ : إِنْ أَنَا اللَّهُ وَحْدِي لَا شَرِيكَ لِي ، كُنْتُ إِذْ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ ، وَكُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهِي ، وَأَنَا خَلَقْتُ كُلَّ شَيْءٍ ، وَإِلَىٰ يَصِيرُ كُلُّ شَيْءٍ ، وَإِنْ رَحْمَتِي أَدْرَكْتَكُمْ ، فَبِعَثْتُ إِلَيْكُمْ هَذَا الرَّجُلَ ، لِأَدُلَّكُمْ عَلَى السَّبِيلِ الَّتِي بِهَا أُبْجِحُكُمْ بَعْدَ الْمَوْتِ مِنْ عَذَابِي ، وَلِأُحْيَاكُمْ دَارِي دَارَ السَّلَامِ ، فَذَشَّهْدُ عَلَيْهِ أَنَّهُ جَاءَ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِ الْحَقِّ ، وَقَالَ : مَنْ تَابَعَكُمْ عَلَى هَذَا ، فَلَهُ مَا لَكُمْ وَعَلَيْهِ مَا عَلَيْكُمْ ، وَمَنْ أَبِي فَاغْرَضُوا عَلَيْهِ الْجُزْيَةَ ثُمَّ امْنَعُوهُ مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ ، وَمَنْ أُنِيَ فَقَاتَلُوهُ ، فَأَنَا الْحَكَمُ بَيْنَكُمْ ، فَمَنْ قُتِلَ مِنْكُمْ أَدْخَلْتُهُ جَنَّتِي ، وَمَنْ بَقِيَ مِنْكُمْ أَعْقَبْتُهُ النَّصْرَ عَلَى مَنْ نَاوَاهُ ، فَاخْتَرِ إِنْ شِئْتَ الْجُزْيَةَ عَنْ يَدِي وَأَنْتِ صَاغِرٌ ، وَإِنْ شِئْتَ فَالسِّيفَ ، أَوْ تَسَلِمَ فَتَنْجِي نَفْسَكَ .

فقال بزدرجد : أتستقبلني بمثل هذا ؟ لولا أن الرسل لا تقتل اقتلتكم ، لا شيء لكم عندي ، ثم قال : اثنوني بوقر^(١) من تراب ، فقال احموه على أشرف هؤلاء ، ثم سوقوه حتى يخرج من باب المدائن .

(تاريخ الطبري ٤ : ٩٢ ، والكامل لابن الأثير ٢ : ٢٢٣)

(١) الوقر : الحمل الثقيل أو أعم .

١١٣ — مقال ربيع بن عامر عند رستم قائد جيش الفرس

وأرسل رستم قائد جيش الفرس ، إلى سعد بن أبي وقاص ، أن ابعث إلينا رجلاً نكلمه ويكلمنا ، فبعث إليه ربيع بن عامر ، فلما انتهى إليه قال له التَّزْجَان (واسمه عبود من أهل الحيرة) ما جاء بكم ؟ قال :

« الله ابتعثنا ، والله جاء بنا ، لنُخرج من شاء من عبادة العباد ، إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه ، فمن قبل منا ذلك قبلنا ذلك منه ، ورجعنا عنه وتركناه وأرضه يليها دوننا ، ومن أبى قاتلناه أبداً ، حتى نُنفِضِي إلى موعود الله ، قال وماموعود الله ؟ قال : الجنة لمن مات على قتال من آب ، والظفر لمن بقي . »

(تاريخ الطبري ٤ : ١٠٦ ، والكامل لابن الأثير ٢ : ٢٢٧)

١١٤ — خطبة المغيرة بن شعبه في حضرة رستم

وبعث إليه أيضاً المغيرة بن شعبه ، فتكلم بحضرته ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« إن الله خالق كل شيء ورازقه ، فمن صنع شيئاً فأنا هو يصنعه والذي له ، وأما الذي ذكرت به نفسك وأهل بلادك من الظهور على الأعداء ، والتمكن في البلاد ، وعِظَم السلطان في الدنيا ، فنحن نعرفه ، ولسنا ننكره ، فالله صنعه بكم ، ووضع فيكم وهو له دونكم ، وأما الذي ذكرت فينا من سوء الحال ، وضيق المعيشة ، واختلاف القلوب ، فنحن نعرفه ، ولسنا ننكره ، والله ابتلانا بذلك ، وصيرنا إليه ، والدنيا دُول ، ولم يزل أهل شدائدها يتوقعون الرخاء ، حتى يصيروا إليه ، ولم يزل أهل رخاؤها يتوقعون الشدائد ، حتى تنزل بهم ، ويصيروا إليها ، ولو كنتم فيما آتاكم الله ذوى شكر ، كان

شكركم يقصُرُ عما أوتيتم ، وأسلكم ضعف الشكر إلى تغير الحال ، ولو كنا فيما ابتلينا به أهل كفر ، كان عظيم ما تتابع علينا ، مستجلباً من الله رحمة يُرَفِّه بها عنا ، ولكن الشأن غير ما تذهبون إليه ، أو كنتم تعرفوننا به ، إن الله تبارك وتعالى بعث فينا رسولاً ، ثم ذكر مثل الكلام الأول .

(تاريخ الطبرى ٤ : ١٠٩ ، والكامل لابن الأثير ٢ : ٢٢٨)

١١٥ - خطبة المغيرة بن شعبه

لما اجتمعت جيوش المسلمين ببهاوند (سنة ٢١ هـ) وأميرم النعمان بن مقرن المزني أرسل بُندارَ العليج إليهم أن أرسلوا إلينا رجلاً نكلمه ، فأرسلوا إليه المغيرة بن شعبه ، فأدخل إليه وترجم له قوله :

« إنكم معشر العرب أبعد الناس من كل خير ، وأطول الناس جوعاً ، وأشقى الناس شقاءً ، وأقدر الناس قدراً ، وأبعد داراً ، وما منعتني أن آمر هؤلاء الأساورة^(١) حولي أن ينتظموكم بالنشاب إلا تنجسوا لبيفكم ، فإنكم أرجاس ، فإن تذهبوا نُحِلَّ عنكم ، وإن تأبوا نُرِكَم مصارعكم . »

قال : فحمدت الله وأنذيت عليه فقلت : « والله ما أخطأت من صفتنا شيئاً ولا من نعمتنا . إن كنا لأبعد الناس داراً ، وأشد الناس جوعاً ، وأشقى الناس شقاءً ، وأبعد الناس من كل خير ، حتى بعث الله عز وجل إلينا رسوله صلى الله عليه وسلم ، فوعدنا النصر في الدنيا والجنة في الآخرة ، فوالله ما زلنا نتعرف من ربنا منذ جاءنا رسوله بالفتح والنصر حتى أتيناكم ، وإنا والله لا نرجع إلى ذلك الشقاء أبداً حتى تغلبكم على ما في أيديكم ، أو نقتل بأرضكم . »

(تاريخ الطبرى ٤ : ٢٣٤)

(١) الأساورة : جمع أسوار ، والأسوار : بالضم والكسر قائد الفرس .

١١٦ - خطبة عمر

وغزا الأحنف بن قيس خراسان وحارب يزدجرد سنة ٢٢ هـ ثم أقبل أهل فارس على الأحنف فصالحوه وعاقدوه ودفنوا إليه خزائن يزدجرد وتراجعوا إلى بلادهم ، وبعث الأحنف بالخبر والغنائم إلى عمر بن الخطاب فجمع الناس وخطبهم فقال في خطبته :

« إن الله تبارك وتعالى ذكر رسوله صلى الله عليه وسلم وما بعثه به من الهدى ، ووعد على اتباعه من عاجل الثواب وآجله خير الدنيا والآخرة فقال : (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) فالحمد لله الذي أنجز وعده ، ونصر جنده ، ألا إن الله قد أهلك مملكة الجوسية وفرق شملهم ، فليسوا يملكون من بلادهم شيئا يضر بمسلم ، ألا وإن الله قد أورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأبنائهم لينظر كيف تعملون .

ألا وإن المصريين من مسالحها^(١) اليوم كأنتم والمصريين فيما مضى من البعد ، وقد وغلوا في البلاد ، والله بالغ أمره ومنجز وعده ، ومُتبع آخر ذلك أوله ، فقوموا في أمره على رجل يوفِّ لكم بعهد ، ويؤتكم وعده ، ولا تُبدلوا ولا تُغَيَّرُوا فيستبدل الله بكم غيركم ، فإنني لا أخاف على هذه الأمة أن تُوتى إلا من قبلكم .

(تاريخ الطبري ٤ : ٢٦٧)

١١٧ - خطبة عثمان بن أبي العاص

ولما فتح عثمان بن أبي العاص إصطخر (سنة ٢٣ هـ) وجمع إليه ما أفاء الله على المسلمين خمسَه ، وبعث بالخمسة إلى عمر ، وقسم أربعة أخماس المغنم في الناس ،

(١) المسالِح: جمع مسلحة ، وهي الثغر .

وعنت الجند عن النَّهَاب ، وأدّوا الأمانة ، واستدقوا^(١) الدنيا ، فجمعهم عثمان ثم قام
فيهم وقال :

« إن هذا الأمر لا يزال مقبلا ، ولا يزال أهله معافين مما يكرهون ما لم يغلّوا ،

فإذا غلّوا رأوا ما يُنكرون : ولم يسدّ الكثير مسدّ القليل اليوم » .

(تاريخ الطبرى ٥ : ٣)

(١) رأوا دقيقة حقيرة .

في فتح الشام

١١٨ - بين الروم ومعاذ بن جبل

وبعث الروم إلى أبي عبيدة أن « أرسل إلينا رجلا من صلحائكم نسأله عما تريدون ، وما تسألون ، وما تدعون إليه ، ونخبره بذات أنفسنا ، وندعوكم إلى حظكم إن قبلتم ، فأرسل إليهم أبو عبيدة معاذ بن جبل ، فأتاهم ، فقالوا للترجمان قل له :

« أخبرونا ما تطلبون ؟ وإلام تدعون إليه ؟ وما أدخلكم بلادنا ؟ وتركتم أرض الحبشة وليسوا منكم ببعيد ، وتركتم أرض فارس وقد هلك ملك فارس وهلك ابنه ، وإنما تملكهم اليوم النساء ونحن مديكنا حتى ، وجنودنا عظيمة كثيرة ، وإن اقتحمتم من مدائننا مدينة ، أو من قرانا قرية ، أو من حصوننا حصنا ، أو هزمت لنا عسكريا ، أظنتم أنكم قد ظفرتم بجماعتنا ؟ وأنكم قد قطعتم حربنا عنكم ؟ أو فرغتم من وراءنا منا ، ونحن عدد نجوم السماء وحصى الأرض ! وأخبرونا لِمَ تستحلون قتالنا ، وأنتم تؤمنون بنبيينا وكتابتنا ؟ » .

فلما قالوا هذا القول وفسره الترجمان لمعاذ سكتوا ، فقال معاذ للترجمان : قد فرغوا ؟ قال له : نعم ، قال : فأفهمهم عني أن أول ما أنا ذا أكره حمد الله الذي لا إله إلا هو ، والصلاة على محمد نبيه صلى الله عليه وسلم ، وأن أول ما أَدْعُوكم إلى الله أن تؤمنوا بالله وحده ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم ، وأن تصلُّوا صلاتنا وتستقبلوا قبلتنا ، وأن تستنوا بسنة نبيينا صلى الله عليه وسلم ، وتكسروا الصليب ، وتجتنبوا شرب الخمر ، وأكل لحم الخنزير ، ثم أنتم منا ونحن منكم ، وأنتم إخواننا في ديننا ، لكم مالنا ، وعليكم ما علينا ، وإن

أبيتم فأذوا الجزية إلينا في كل عام وأنتم صاغرون ، ونكف عنكم ، وإن أنتم أبيتم هاتين الخصلتين فليس شيء مما خلق الله عز وجل نحن قابله منكم ، فابرزوا إلينا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ، فهذا ما نأمركم به وما ندعوكم إليه .

وأما قولكم : « ما أدخلكم بلادنا وتركتم أرض الحبشة وليسوا منكم بعيد ، وتركتم أهل فارس ، وقد هلك ملكهم » فإنني أخبركم عن ذلك : ما بدأنا قتالكم لأنكم أقرب إلينا منهم ، وإنكم عندنا جميعاً بالسواء ، وما جاءنا كتابنا بالكف عنهم ، ولكن الله عز وجل أنزل في كتابه على نبينا صلى الله عليه وسلم فقال : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً) وكنتم أقرب إلينا منهم ، فبدأنا بكم لذلك ، وقد أتاهم طائفة منا وهم يقاتلونهم ، وأرجو أن يظفرهم الله ويفتح عليهم فينصر .

وأما قولكم : « إن ملكنا حي » ، وإن جنودنا عظيمة ، وإنا عدد نجوم السماء وحصى الأرض » وتوئسونا من الظهور عليكم فإن الأمر في ذلك ليس إليكم ، وإنما الأمور كلها إلى الله ، وكل شيء في قبضته وقدرته ، وإذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، وإن يكن ملككم هرقل فإن ملكنا الله عز وجل الذي خلقنا ، وأميرنا رجل منا ، إن عمل فينا بكتاب ديننا وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم أقرناه علينا ، وإن عمل بغير ذلك عزلناه عنا ، وإن هو سرق قطعنا يده ، وإن زنى جلدناه ، وإن شتم رجلاً منا شتمه كما شتمه ، وإن جرحه أفاده^(١) من نفسه ، ولا يمتجب منا . ولا يتكبر علينا ، ولا يستأثر علينا في فيئنا الذي أفاه الله علينا وهو كرجل منا .

وأما قولكم : « جنودنا كثيرة » فإنها وإن عظمت وكثرت حتى تكون أكثر من نجوم السماء وحصى الأرض ، فإننا لا نثق بها ولا نتكل عليها ، ولا نرجو النصر على

(١) أنصه .

عدونا بها ، ولكننا تبرأ من الحول والقوة ، ونتوكل على الله عز وجل ، ونثق بربنا ،
فكم من فئة قليلة قد أعزها الله ونصرها وأغناها ، وغلبت فئة كثيرة بإذن الله ، وكم
من فئة كثيرة قد أذلها الله وأهانها ، قال تبارك وتعالى : « كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ
فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ » .

وأما قولكم « كيف نستحلون قتالنا وأنتم تؤمنون بنبينا وكتابتنا » فأنا أخبركم عن
ذلك : نحن نؤمن بنبيكم ونشهد أنه عبد من عبيد الله ، وأنه رسول من رسل الله ،
وأن مثله عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كُن فيكون ، ولا نقول إنه
الله ، ولا نقول إنه ثاني اثنين ، ولا ثالث ثلاثة ، ولا إن لله والدًا ولا إن له صاحبة
ولا ولدًا ، ولا إن معه آلهة أخرى ، لا إله إلا هو ، تعالى عما يقولون علوا كبيرا ، وأنتم
تقولون في عيسى قولا عظيما ، فلو أنكم قلتم في عيسى كما نقول ، وآمنتم بنبوته
نبينا صلى الله عليه وسلم كما تجدون في كتابكم ، وكما نؤمن نحن بنبيكم ، وأقررتم
بما جاء به من عند الله ، ووحدتم الله ، ما قاتلناكم ، بل كنا نسالمكم ونواليكم ونقاتل
معكم عدوكم » .

فلما فرغ معاذ من خطابه قالوا له : ما نرى بيننا وبينك إلا متباعدا ، وقد بقيت
خصلة نحن نعرضها عليكم ، فإن قبلتموها منا فهو خير لكم ، وإن أبيتم فهو شر لكم .
نعطيكم البلقاء وما والى أرضكم من سواد الأردن ، وتمنحوا عن بقية أرضنا وعن مدائننا ،
ونكتب عليكم كتابا نسمى فيه خياركم وصلاحكم ، ونأخذ عهدكم ومواثيقكم على ألا
تطلبوا من أرضنا غير ما صالحناكم عليه ، وعليكم بأهل فارس فقاتلهم ، ونحن معكم نعينكم
عليهم حتى تقتلهم وتظهروا عليهم .

فقال معاذ : هذا الذي عرضتم علينا وتعطوناه كله في أيدينا ولو أعطيتهمونا جميع
مافي أيديكم مما لم يظهر عليه ، ومنعتمونا خصلة من الخصال الثلاثة التي وصفت
لكم ما فعلنا » .

فغضبوا عند ذلك وقالوا : نتقرب إليك وتتباعد عنا ؟ اذهب إلى أصحابك فوالله إنا لنرجو أن نفرقكم في الجبال غداً ، فقال معاذ : أما الجبال فلا ، ولكن والله لتقتلنا عن آخرنا ، أو لنخرجنكم من أرضكم أذلة وأنتم صاغرون » وانصرف معاذ .

١١٩ - بين أبي عبيدة ورسول الروم

وانصرف معاذ إلى أبي عبيدة فأخبره بما قالوا ، ثم أرسل الروم رسولا من قبلهم إلى أبي عبيدة فقال له : أنا أعرض عليكم أمراً لكم فيه حظ إن قبِلْتُمُوهُ : نحن نعطيكم دينارين دينارين وثوباً ثوباً ، ونعطيك أنت ألف دينار ، ونعطى الأمير الذى فوقك - يعنون عمر - ألفى دينار ، وتنصرفون عنا ، وإن شئتم أعطيناكم أرض البلقاء وما والى أرضكم من سواد الأردن ، وخرجتم من مدائننا وأرضنا وبلادنا ، وكتبنا فيما بيننا وبينكم كتاباً يستوثق فيه بعضنا من بعض بالأيمان المغلظة ليقومن به وليقين بما عاهد الله عليه .

فحمد الله أبو عبيدة وأثنى عليه بما هو أهله ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم

ثم قال :

« إن الله بعث فينا رسولا نبيا ، وأنزل عليه كتابا حكما ، وأمره أن يدعو الناس إلى عبادة ربهم رحمة منه للعالمين ، وقال لهم : إن الله إله واحد ، عزيز حكيم ، على مجيد ، وهو خالق كل شيء وليس كمثل شيء ، وأمرهم أن يوحدوا الله الذى لا إله إلا هو ، ولا يتخذوا له صاحبة ولا ولداً ، ولا يتخذوا معه آلهة أخرى ، وأن كل شيء يعبده الناس دونه فهو خلقه ، وأمرنا صلى الله عليه وسلم فقال : إذا أتيتم المشركين فدعوهم إلى الإيمان بالله وبرسوله ، وبالإقرار بما جاء من عند الله عز وجل ، فمن آمن وصدق فهو أخوكم فى دينكم ، له مالكم وعليه ما عليكم ، ومن أبى فاعرضوا عليه الجزية حتى يؤدوها عن يديهم وهم صاغرون ، فإن أبوا أن يؤمنوا أو يؤدوا الجزية

فأقتلوهم وقتلوهم فإن قتلكم المحتسب بنفسه شهيد عند الله ، وهو في جنات النعيم ،
وقتل عدوكم في النار .

فإن قبلتم ماسمعتهم مني فهو خير لكم ، وإن أبيتم ذلك فابرزوا إلينا حتى يحكم الله بيننا
وهو خير الحاكمين .

فقال الرومي : قد أبيتم إلا هذا ؟ فقال له أبو عبيدة : نعم ، فقال له الرومي : أما والله
على ذلك ، إنى لآنراكم تتمنون أنكم قبلتم منا دون ما عرضنا عليكم .
(فتوح الشام ص ١٠٠)

١٢٠ — بين باهان وخالد بن الوليد

وبعث باهان أمير الروم إلى خالد بن الوليد أن القني ، فأقبل إليه خالد ، فقال باهان :
إن شئت فتكلم ، وإن شئت بدأتك فتكلمت ، فقال له خالد : فتكلم ،
فقال باهان :

« الحمد لله الذي جعل نبينا أفضل الأنبياء ، ومَلِكنا أفضل الملوك ، وأمتنا خير الأمم ،
فلما بلغ هذا المكان ، قال خالد للترجمان : وقطع على صاحب الروم منطقه ثم قال :
« الحمد لله الذي جعلنا نؤمن بنبينا وندبيكم وبجميع الأنبياء ، وجعل الأمير الذي وليناه
أمرنا رجلا كبعضنا ، فلو زعم أنه ملك علينا لعزنا عفا ، ولسنا نرى أن له على رجل
من المسلمين فضلا ، إلا أن يكون أتقى منه عند الله وأبر ، والحمد لله الذي جعل أمتنا
تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، وتقرُّ بالذنب وتستغفر الله منه ، وتعبد الله وحده
لا تشرك به شيئا » قل الآن ما بدا لك .

فأصفر وجه باهان ومكث قليلا ، ثم قال : « الحمد لله الذي أبلانا فأحسن البلاء
عندنا ، وأغنانا من الفقر ، ونصرنا على الأمم ، وأعزنا فلا نذل ، ومنعنا من الضيم ،
فلا يباح حريمنا ، ولسنا فيما أعزنا الله به وأعطانا من ديننا بيطرين ولا مَرحين ولا

باغبين على الناس ، وقد كانت لنا منكم يا معشر العرب جيران كُنَّا نحسِّن حِوَارهم ،
ونُعظم قدرهم ، ونُقْضِل عليهم ، ونَفِي لهم بالعهد ، وخَيْرناهم بلادنا ، ينزلون منها حيث
شاءوا ، فينزلون آمنين ، ويرحلون آمنين ، وكنا نرى أن جميع العرب عن لايجاورنا
سيشكر لنا ذلك الذي أتينا إلى إخوانهم ، وما اصطَنَعنا عندهم ، فلم يَرُعنا منكم
إلا وقد فاجأتمونا بالخيال والرجال ، تقاتلوننا على حُصُوننا ، وتريدون أن تغلبونا على
بلادنا ، وقد طلب هذا منا قبلكم من كان أكثر منكم عدداً ، وأعظم مَكيدة ،
وأوفى جُنْدًا ، ثم رددناهم عنها ، فلم يرجعوا عَنَّا إلا وهم بين قتيلٍ وأسير ، وأراد ذلك
منا فارس ، فقد بلغكم كيف صنع الله عزَّ جلَّ بهم ، وأراد ذلك منا الترك فلقيناهم
بأشد مما لقينا به فارس ، وأرادنا غيركم من أهل المشرق والمغرب من ذوى المنعة والعزِّ
والجنود العظيمة ، فكلمهم أظفَرنا الله بهم ، وصنع لنا عليهم ، ولم تكن أمة من الأمم
بأرقَّ عندنا منكم شأنًا ، ولا أصغر أخطارا^(١) إنما جَلَّكم رِعاء الشاء والإبل ،
وأهل الصخر والحجر والبؤس والشقاء ، فأنتم تطمعون أن نجلى لكم عن بلادنا ؟ بئس
ما طعمتم فيه منا ، وقد ظننا أنه لم يأت بكم إلى بلادنا - ونحن يفتي كل من حولنا من الأمم
العظيمة الشأن الكثيرة العدد ، مع كثرتنا وشدة شوكتنا - إلا جهْدُ نزل بكم من جدوبة
الأرض وقحط المطر ، وعثمت في بلادنا وأفسدت كل الفساد ، وقد ركبتهم مراكبنا ، وليست
كمرابكم ، ولبسهم ثيابنا وليست كثيابكم ، وثياب الروم البيض كأنها صفايح الفضة ،
وطعمتم من طعامنا وليس كطعامكم ، وأصبتم منا وملاتم أيديكم من الذهب الأحمر والفضة
البيضاء والمتاع الفاخر ، وقد لقيناكم الآن وذلك كله لنا ، فهو في أيديكم ، فنحن نسلمه
لكم فاخرجوا به وانصرفوا عن بلادنا ، فإن أبت أنفسكم إلا أن تحرصوا وتشرهوا ،
وأردتم أن تزيدكم من بيوت أموالنا ما يقوى به الضعيف منكم ، ويرى الغائب أن قد

رجع إلى أهله بخير ، فعلنا ، ونأمر للأمير منكم بعشرة آلاف دينار ، ونأمر لك بمثلها ،
ونأمر لرؤسائكم بألف دينار ألف دينار ، ونأمر لجميع أصحابك بمائة دينار مائة دينار ،
على أن توثقوا لنا بالأيمان المغلظة ألا تعودوا إلى بلادنا ، ثم سكت .

١٢١ — جواب خالد

فقال خالد رحمه الله : الحمد لله الذي لا إله إلا هو ، فلما فسر له الترجمان قوله : الحمد لله
الذي لا إله إلا هو رفع يده إلى السماء ، ثم قال لخالد نعم ما قلت ، ثم قال خالد : وأشهد
أن محمداً رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فلما فسر له الترجمان قال باهان : الله أعلم ،
ما أدري ، لعله كما تقول ، فأخبر خالد الترجمان . ثم قال خالد رحمه الله :

« أما بعد : فإن كل ما ذكرت به قومك من الغنى والعز ومنع الحریم والظهور
على الأعداء ، والتمكن في البلاد ، فنحن به عارفون ، وكل ما ذكرت من إنعامكم
على جيرانكم منا ، فقد عرفناه ، وذلك لأمر كنتم تصلحون به دنياكم ، وإصلاحكم
كان إليهم وإحسانكم إليهم ، كان ذلك زيادة في ملككم وعزائمكم ، ألا ترون أن
تلثيهم أو شطرهم دخلوا معكم في دينكم فهم يقاتلوننا معكم ؟ .

وأما ما ذكرتنا به من رعي الإبل والغنم ، فما أقل من رأيت واحداً منايكرهه ، ومالم
يكن يكرهه منا فضل على من يفعله ، وأما قولكم : إنا أهل الصخر والحجر والبؤس
والشقاء ، فإنا والله كما وصفته ، ما نتقي من ذلك ولا نتبرأ منه ، وكنا على أسوأ
وأشد مما ذكرت ، وسأقص عليك قصتنا ، وأعرض عليك أمرنا ، وأدعوك إلى حظك
إن قبلت ، ألا إنا كنا معشر العرب أمة من هذه الأمم ، أنزلنا الله — وله الحمد —
منزلاً من الأرض . ليست به أنهار جارية ، ولا يكون به من الزرع إلا القليل ، وكل
أرضنا المهامة^(١) والقفار ، فكنا أهل حجر ومدار^(٢) وشاء وبعبير ، وعيش شديد ، وبلاء

(١) جمع مهمه : القفر . (٢) المدر : قطع الطين اليابس .

دائم لازم ، نقطع أرحامنا ونقتل خشية الإملاق أولادنا ، ويأكل قلوبنا ضعيفنا ، وكثيرنا قليلنا ، ولا تأمن قبيلة منا قبيلة إلا أربعة أشهر من السنة^(١) ، نعبد من دون الله أربابا وأصناما ، نفتحها بأيدينا من الحجارة التي نختارها على أعيننا ، وهي لا تضر ولا تنفع ، ونحن عليها مكبون ، فبينما نحن كذلك على شفا^(٢) حفرة من النار ، من مات من مات مشركا ، وصار إلى النار ، ومن بقي منا بقي كافراً مشركا بربه ، قاطعاً لرحمه ، إذ بعث الله فينا رسولا من صميمنا وشرقاتنا وخيارنا وكرماتنا وأفضلنا ، دعانا إلى الله وحده أن نعبده ولا نشرك به شيئا ، وأن نخلع الأنداد التي يعبدها المشركون دونه ، وقال لنا لا تتخذوا من دون الله ربكم إلهاً ولا ولياً ولا نصيراً ، ولا تجعلوا معه صاحبة ولا ولداً ولا تعبدوا من دونه ناراً ولا حجراً ، ولا شمساً ولا قرأ ، واكتفوا به رباً وإلهاً من كل شيء دونه ، وكونوا أوليائه ، وإليه فادعوا ، وإليه فارغبوا ، وقال لنا : قاتلوا من اتخذ مع الله آلهة أخرى ، وكل من زعم أن لله ولداً وأنه ثانی اثنين أو ثالث ثلاثة حتى يقولوا لا إله إلا الله وحده لا شريك له ويدخلوا في الإسلام ، فإن فعلوا حرمت عليكم دماؤهم وأموالهم وأعراضهم إلا بحقها ، وهم إخوانكم في الدين ، لهم ما لكم وعليهم ما عليكم ، فإن هم أبوا أن يدخلوا في دينكم وأقاموا على دينهم فاعرضوا عليهم الجزية أن يؤدوها عن يديهم وهم صاغرون ، فإن هم فعلوا فاقبلوا منهم وكفوا عنهم ، وإن أبوا فقاتلواهم فإنه من قتل منكم كان شهيدا حياً عند الله مرزوقاً ، وأدخله الله الجنة ، ومن قتل من عدوكم قتل كافراً ، وصار إلى النار مخلداً فيها أبداً ، ثم قال خالد :

وهذا والله الذي لا إله إلا هو أمر الله به نبيه صلى الله عليه وسلم فعلنا وأمرنا به أن ندعو الناس إليه ونحن ندعوكم إلى ما دعانا إليه نبينا صلى الله عليه وسلم ، وإلى ما أمرنا به أن ندعو إليه الناس ، فندعوكم إلى الإسلام ، وإلى أن تشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وإلى أن تقيموا الصلاة ، وتؤتوا الزكاة ، وتقرؤوا بما جاء من عند الله

(١) هي الأشهر الحرم : رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم . (٢) حرف .

عز وجل ، فإن فعلتم فأنتم إخواننا في الإسلام ، لكم مالنا ، وعليكم ما علينا ، وإن أبيتُم فإننا نفرض عليكم أن تعطوا الجزية عن يدي وأنتم صاغرون ، فإن فعلتم قبلنا منكم وكففتنا عنكم ، وإن أبيتُم أن تفعلوا فقد والله جاءكم قوم ثم أحرص على الموت منكم على الحياة ، فأخرجوا بنا على اسم الله حتى نحكمكم إلى الله ، فإنما الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين » ثم سكت خالد .

فقال باهان : أما أن ندخل في دينكم فما أبعد من ترى من الناس من أن يترك دينه ويدخل في دينكم ، وأما أن نوذى الجزية — فتنفس الصعداء^(١) وثقلت عليه وعظمت عنده — فقال : سيموت من ترى جميعاً قبل أن يُؤذوا الجزية إلى أحد من الناس ، وهم يأخذون الجزية ولا يعطونها ، وأما قولك : فأخرجوا حتى يحكمكم الله بيننا ، فلمرى ما جاءك هؤلاء القوم وهذه الجوع إلا ليحاكموك إلى الله ، وأما قولك : إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده فصدقت ، والله ما كانت هذه الأرض التي نقاتلكم عليها وتقاتلوننا فيها ، إلا لأمة من الأمم كانوا قبلنا فيها ، فقاتلناهم عليها فأخرجناهم منها ، وقد كانت قبل ذلك لقوم آخرين فأخرجهم منها هؤلاء الذين كُنا قاتلناهم عنها ، فأبرزوا على اسم الله فإننا خارجون إليكم .

(فتوح الشام ص : ١٧٩)

١٢٢ - خطبة عمرو بن العاص

ولما نقض أهل الأردن العهد الذي كان بينهم وبين المسلمين ، قام عمرو بن العاص ، وجمع إليه من كان قبله من المسلمين :

فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

« أما بعد فقد برئت ذممة الله من رجل من أهل عهدنا من أهل الأردن قدم

(١) التنفس الطويل .

على رجل من أهل إيليا ، أو كان عنده لم يأتنا به ، ولم يرفعه إلينا ، ألا ولا يَبْقَيْنَ رجل من أهل عهدنا إلا تَهَيَّأ واستعد ، حتى يسير معي إلى أهل إيليا ، فإني أريد المسير إليهم ، والنزولَ بساحتهم ، ثم لا أُرَايِلُهُمْ حتى أقتل مقاتلتهم ، وأسبي ذراريهم ، أو يؤذوا الجزية عن يدي وهم صاغرون . » (فتوح الشام ص ١٤٦)

١٢٣ - خطبة عمر

ولما حصر أبو عبيدة أهل إيليا ورأوا أنهم لا طاقة لهم بحربه سألوه الصلح على أن يكون عمر هو الذي يعطيهم العهد ، ويكتب لهم الأمان ، فأقبل عمر إلى الشام حتى انتهى إلى الجابية فقام في الناس فقال :
« الحمد لله الحميد المستحمد الحميد ، الدافع الغفور الودود ، الذي من أراد أن يهديه من عباده اهتدى ، ومن يضل فلن تجد له وليا مرشدا . »

أما بعد - فإني سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن خيار أمتي الذين يلونكم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يفسو الكذب حتى يشهد الرجل على الشهادة ولم يُسْتَشْهَدَ عليها ، وحتى يحلف على اليمين ولم يُسألها ، فمن أراد بَجْبُوحَةٍ^(١) الجنة فليزِم الجماعة ، ولا يبالي اللهُ شذوذَ من شذ ، ألا لا يَخْلُونَ رجل منكم بامرأةٍ إلا أن يكون لها محرماً فإن ثالثهما الشيطان . » (فتوح الشام ص ٢٢٦)

١٢٤ - خطبة عمر

ولما كان عمر رضى الله عنه بالشام ، قام في الناس فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال :

(١) وسطها .

« يا أهل الإسلام ، إن الله قد صدقكم الوعد ، وتصركم على الأعداء ، وورثكم البلاد ، ومكن لكم في الأرض ، فلا يكن جزاء ربكم إلا الشكر ، وإياكم والعمل بالمعاصي ، فإن العمل بالمعاصي كفرٌ للنعم ، وقاماً كفر قوم بما أنعم الله عليهم ثم لم يفتنوا إلى التوبة ، إلا سلبوا عزهم ، وسلط عليهم عدوهم » ثم نزل .
(فتوح الشام ص ٢٣١)

١٢٥ - خطبة لعمر

وقفل عمر من الشام إلى المدينة في ذي الحجة سنة ١٧ هـ ، وخطب حين أراد القبول فحمد الله وأثنى عليه وقال :

« ألا إني قد وُلّيت عليكم ، وقضيت الذي عليّ في الذي ولّاني الله من أمركم إن شاء الله ، قَسَطْنَا^(١) بينكم فيئكم ومنازلكم ومغازيكم ، وأبلغنا ما لديكم ، فجنّدنا لكم الجنود ، وهَيَّأْنَا لَكُمْ الفروج^(٢) ، وبوَأْنَا كُمْ ووسّعنا عليكم ما بلغ فيئكم ، وما قاتلتم عليه من شأكم ، وسمينا لكم أطماعكم ، وأمرنا لكم بإعطائكم أرزاقكم ومعاونكم ، فمن عَلمَ عَلمَ شيء ينبغي العمل به فبلغنا نعمل به إن شاء الله ، ولا قوة إلا بالله »
(تاريخ الطبري ٤ - ٢٠٤)

١٢٦ - خطبة عمر

ولما رجع عمر رضي الله عنه إلى المدينة ، استقبله الناس يهنئون بالنصر والفتح ، فجاء حتى دخل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فصلى ركعتين عند المنبر ، ثم صعد المنبر فاجتمع الناس إليه ، فقام :

فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم وقال : « أَيُّهَا النَّاسُ ،
إِنَّ اللَّهَ قَدْ اصْطَنَعَ عِنْدَ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَنْ يُحْمَدَ وَيُشْكِرَ ، وَقَدْ أَعَزَّ دَعْوَتَهَا ، وَجَمَعَ كَلِمَتَهَا ،
وَأَظْهَرَ فَلَجَهَا ^(١) ، وَنَصَرَهَا عَلَى الْأَعْدَاءِ ، وَشَرَّفَهَا وَمَكَّنَ لَهَا فِي الْأَرْضِ ، وَأَوْرَثَهَا
بِلَادَ الْمُشْرِكِينَ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ، فَأَحْدِثُوا لِلَّهِ شُكْرًا يَزِيدُكُمْ ، وَاحْمَدُوا عَلَى نِعْمَةِ عَلَيْهِمْ
يُدِيمُهَا لَكُمْ ، جَعَلْنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ مِنَ الشَّاكِرِينَ » ثم نزل . (فتوح الشام ص ٢٣٩)

١٢٧ - وصية أبي عبيدة للمسلمين

وقد أصابه طاعون عمواس

وكان طاعون عمواس قد عمَّ أهل الشام (سنة ١٨ هـ) ومات فيه بشرٌ كثير ،
ومات فيه أبو عبيدة رحمه الله .

ولما طعن أبو عبيدة وهو بالأردن ، دعا المسلمين ، فلما دخلوا عليه قال :

« إِنِّي أَوْصِيكُمْ بِوَصِيَّةٍ إِنْ قَبِلْتُمُوهَا لَمْ تَزَالُوا بِخَيْرٍ مَا بَقِيتُمْ ، وَبَعْدَ مَا تَهْلِكُونَ ،
أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ، وَصُومُوا وَتَصَدَّقُوا ، وَحُجُّوا وَاعْتَمِرُوا ، وَتَوَاصَلُوا وَتَحَابُّوا
وَاصْدُقُوا أُمَّرَاءَكُمْ وَلَا تَغشَوْهُمْ ، وَلَا تُلْهِكُمْ الدُّنْيَا ، فَإِنْ أَمْرًا لَوْ عُمرَ أَلْفَ حَوْلٍ مَا كَانَ
لَهُ بَدٌّ مِنْ أَنْ يَصِيرَ إِلَى مَضْرَعِي هَذَا الَّذِي تَرَوْنَ ، وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ كَتَبَ الْمَوْتَ عَلَى بَنِي آدَمَ
فَهُمْ مَيِّتُونَ ، وَأَكْرَمُهُمْ مِنْهُمْ أَطْوَعُهُمْ لِرَبِّهِ ، وَأَعْلَمُهُمْ لِيَوْمِ مَعَادِهِ » ثم قال : يَا مَعَاذُ صَلِّ
بِالنَّاسِ ، فَصَلَّى مَعَاذَ النَّاسِ ، وَمَاتَ أَبُو عُبَيْدَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ . (فتوح الشام ص : ٢٤٠)

(١) التلج : الفوز والظفر .

١٢٨ - خطبة معاذ بن جبل عند موت أبي عبيدة

فقام معاذ بن جبل في الناس فقال :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، تَوَبُوا إِلَى اللَّهِ مِنْ ذُنُوبِكُمْ تَوْبَةً ، فَإِنَّ عَبْدًا أَنْ يَلْقَى اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ تَائِبًا مِنْ ذَنْبِهِ ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ ذُنُوبَهُ ، وَمَنْ كَانَ عَلَيْهِ دَيْنٌ فَلْيَقْضِهِ ، فَإِنَّ الْعَبْدَ مَرَّتَيْنِ بَدِينَهُ ، وَمَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ مِصَارِمًا^(١) مُسَلِّمًا فَلْيَلِيقْهُ وَلْيَصَالِحْهُ إِذَا لَقِيَهُ وَلْيَصَالِحْهُ ، فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ، وَالذَّنْبُ فِي ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ ، وَأَنْتُمْ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ قَدْ فَجَعْتُمْ بِرَجُلٍ وَاللَّهِ مَا أُرْزِعُ أَنْي رَأَيْتُمْ مِنْكُمْ عَبْدًا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ قَطُّ أَقْلَ غَمْرًا^(٢) ، وَلَا أَبْرَ صَدْرًا ، وَلَا أَبْعَدَ مِنَ الْغَائِلَةِ^(٣) ، وَلَا أَنْصَحَ لِلْعَامَةِ ، وَلَا أَشَدَّ عَلَيْهِمْ تَحْتُنَا وَشَفَقَةً مِنْهُ ، فَتَرَحَّمُوا عَلَيْهِ ثُمَّ احْضَرُوا الصَّلَاةَ عَلَيْهِ ، غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ ، وَاللَّهُ لَا يَلِي عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ مِثْلَهُ أَبَدًا » .

فاجتمع النَّاسُ ، وَأَخْرَجَ أَبُو عُبَيْدَةَ ، وَتَقَدَّمَ مِعَاذٌ فَصَلَّى عَلَيْهِ ، حَتَّى إِذَا أَتَى بِهِ قَبْرَهُ ، دَخَلَ قَبْرَهُ مِعَاذٌ وَعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ وَالضُّحَّاكُ بْنُ قَيْسٍ ، فَلَمَّا وَضَعُوهُ فِي قَبْرِهِ وَخَرَجُوا مِنْهُ فَسَفَّوْا عَلَيْهِ التُّرَابَ ، قَالَ مِعَاذُ :

١٢٩ - رثاء معاذ بن جبل لأبي عبيدة

« رَحِمَكَ اللَّهُ يَا أَبَا عُبَيْدَةَ ، فَوَاللَّهِ لِأَثْنَيْنِ عَلَيْكَ بِمَا عَلِمْتُ ، وَاللَّهُ لَا أَقُولُ بِاطْلًا ، أَخَافُ أَنْ يَلْحَقَنِي مِنَ اللَّهِ مَقْتٌ ، كُنْتُ وَاللَّهِ - مَا عَلِمْتُ - مِنَ الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا ، وَمِنَ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هُوْنًا ، وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ، وَمِنْ

(١) مقاطما . (٢) الغمر : الحقد . (٣) الأمر النكر .

الذين يبیتون لربهم سُجَّداً وقياماً ، ومن الذين إذا أنفقوا لم يُسرفوا ولم يَقترُوا ، وكان بين ذلك قَوَاماً ، وكنتَ والله — ما علمتُ — من الحُبَّتين المتواضعين ، ومن الذين يرحمون اليتيم والمسكين ، ويُبغضون الجفأة والتكبرين .

ولم يكن أحدٌ من الناس كان أشدَّ جزعاً على فقد أبي عبيدة وعلى موته ولا أطول حُزناً عليه من معاذ بن جبل . (فتوح الشام ص : ٢٤٢)

١٣٠ — ابن العاص ومعاذ والطاعون

وصلى معاذ بالناس أياماً ، واشتد الطاعون ، وكثر الموت في الناس ، فلما رأى ذلك عمرو بن العاص قال : أيها الناس ، إن هذا الطاعون هو الرِّجْز الذي عذب الله به بني إسرائيل مع الطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدم ، وأمر الناس بالفرار منه ، فأخبر معاذ بقول عمرو ، فقال : ما أراد إلى ما يقول مالا علم له به ، ثم جاء معاذ حتى صعد المنبر .

فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم ذكر الوباء فقال : ليس كما قال عمرو ولكنه رحمة بكم . ودعوة نبيكم ، وموت الصالحين قبلكم ، اللهم أعطِ معاذاً وآل معاذ منه النصيب الأوفر .

١٣١ — وصية لمعاذ بن جبل

ثم صلى ورجع إلى منزله ، فإذا هو بابنه عبد الرحمن قد طعن ، فلم يلبث إلا قليلاً حتى مات يرحمه الله ، وصلى عليه معاذ ثم دفنّه ، فلما رجع معاذ إلى منزله طعن ، فاشتدَّ به وجعُهُ ، وجعل أصحابه يَحْتَلِقُونَ إليه ، فإذا أتاه أصحابه أقبل عليهم فقال لهم :

« اَعْمَلُوا وَأَنْتُمْ فِي مُهَلَّةٍ وَحَيَاةٍ ، وَفِي بَقِيَّةٍ مِنْ آجَالِكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْتَوُوا الْعَمَلَ فَلَا تَجِدُوا إِلَيْهِ سَبِيلًا . وَأَنْفِقُوا مِمَّا عِنْدَكُمْ لِمَا عِنْدَكُمْ قَبْلَ أَنْ تَهْلِكُوا وَتَدْعُوا ذَلِكَ كَلِمَةً مِيرَاثًا لِمَنْ بَعْدَكُمْ ، وَعَلِمُوا أَنَّهُ لَيْسَ لَكُمْ مِنْ أَمْوَالِكُمْ إِلَّا مَا أَكَلْتُمْ وَشَرَبْتُمْ وَلَبِستُمْ وَأَنْفَقْتُمْ وَأَعْطَيْتُمْ فَأَمْضَيْتُمْ ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَلِلْوَارِثِينَ . » (فتوح الشام ص ٢٤٣)

١٣٢ - وصية لمعاذ بن جبل أيضا

وأُتاه رجل في مرضه فقال : يا معاذ علمني شيئا ينفعني الله به قبل أن تُفارقني ، فلا أراك ولا تراني ، ولا أجدُ منك خلفا ، ثم لعلني أن أحتاج إلى سؤال الناس عما ينفعني بعدك ، فلا أجدُ فيهم مثلك ، فقال معاذ : كَلَّا إِنَّ صَلْحَاءَ الْمُسْلِمِينَ - وَالْحَمْدُ لِلَّهِ - كَثِيرٌ ، وَلَنْ يُضَيِّعَ اللَّهُ أَهْلَ هَذَا الدِّينِ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ :

« خُذْ عَنِّي مَا أَمْرُكَ ، كُنْ مِنَ الصَّائِمِينَ بِالنَّهَارِ ، وَمِنَ الْمُصَلِّينَ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ ، وَمِنَ الْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ، وَمِنَ الذَّاكِرِينَ اللَّهَ عَلَى كُلِّ حَالٍ كَثِيرًا ، وَلَا تَشْرَبِ الْخَمْرَ ، وَلَا تَزْنِينَ ، وَلَا تَعُقَّ وَالِدَيْكَ ، وَلَا تَأْكُلْ مَالَ الْيَتِيمِ ، وَلَا تَفِرَّ مِنَ الزَّحْفِ ، وَلَا تَأْكُلْ الرِّبَا ، وَلَا تَدْعَ الصَّلَاةَ الْمَكْتُوبَةَ ، وَلَا تُضَيِّعَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ ، وَصِلْ رَحِمَكَ وَكُنْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ، وَلَا تَظْلِمُ مُسْلِمًا ، وَحُجَّ وَاعْتَمِرْ وَجَاهِدْ ، ثُمَّ أَنَا لَكَ زَعِيمٌ بِالْجَنَّةِ . » (فتوح الشام ص ٢٤٤)

ومات رحمه الله ، وقد استخلف عمرو بن العاص فصرى عليه عمرو .

فلما دفنه قال :

« رَحِمَكَ اللَّهُ يَا مَعَاذَ ، فَقَدْ كُنْتَ - مَا عَلِمْنَاكَ - مِنْ نَصَحَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَمِنْ خِيَارِهِمْ

وَأَعْلَامِهِمْ ، ثُمَّ كُنْتَ مُؤَدِّبًا لِلْجَاهِلِ ، شَدِيدًا عَلَى الْفَاجِرِ ، رَحِيمًا بِالْمُؤْمِنِينَ ، وَأَيْمُ اللَّهِ

(فتوح الشام ص ٢٤٥)

لَا يَسْتَخْلَفُ مِنْ بَعْدِكَ مِثْلَكَ . »

ولما انتهى إلى عمر رضى الله عنه هلاك أبي عبيدة وهلاك معاذ فرق عماله على كور الشام ، فبعث عبد الله ابن قرط على حمص ثم عزله وولى عبادة بن الصامت الأنصارى ، واستعمل على دمشق أبا الدرداء الأنصارى وكتب إلى يزيد بن أبي سفيان أن يسير إلى قيسارية .

١٣٣ - خطبة عبادة بن الصامت

فلما قدم عبادة على أهل حمص قام في الناس خطيبا .
فحمد الله وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال :
« أما بعد ، ألا إن الدنيا عرض حاضر ، يأكلُ منه البرّ والفاجر ، ألا وإن الآخرة وعدّ صادقٌ يحكم فيه ملكٌ قادرٌ ، ألا وإنكم معروضون على أعمالكم ، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ، ألا وإنّ للدنيا بينين وللآخرة بينين ، فكونوا من أبناء الآخرة ، ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، فإنّ كلّ أمّ يتبعها بنوها يوم القيامة » .
(فتوح الشام ص ٢٤٨)

١٣٤ - خطبة شداد بن أوس

ثم قال لشداد بن أوس قم يا شداد فعظ الناس وكان شداد مفوّهًا ، قد أعطى لسانًا وحكمةً وفضلاً وبيانًا ، فقام شداد فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال :

« أما بعد ، أيها الناس راجعوا كتاب الله وإن تركه كثيرٌ من الناس ، فإنكم لم تروا من الخير إلا أسبابه ، ولا من الشر إلا أسبابه ، وإن الله جمع الخير كلّهُ بحذاقيره فجعله في الجنة ، وجمع الشرّ بحذاقيره فجعله في النار ، ألا وإنّ الجنة وعرّة حزنّة ، ألا وإنّ النار سهلةٌ لينّة ، ألا وإنّ الجنة حُفّت بالكُره والصبر ، ألا وإنّ النار حُفّت

بالمهوى والشهوة، ألا فن كشف حجاب الكره والصرأشنى على الجنة، ومن أشنى على الجنة كان من أهلها، ألا ومن كشف حجاب المهوى والشهوة أشنى على النار، وكان من أهلها، فاعملوا بالحق تنزلوا منازل أهل الحق يوم لا يُقضى إلا بالحق» .

(فتوح الشام ص ٢٤٩)

١٣٥ - خطبة أبي الدرداء

وقام أبو الدرداء في أهل دمشق خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم صلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال :

« أما بعد ، يا أهل دمشق اسمعوا مقالة أخ لكم ناصح ، فما بالكم تجمعون مالا تأكلون ، وتبنون مالا تسكنون ، وتأمّلون مالا تدركون ؟ وقد كان من كان قبلكم جمعوا كثيراً ، وبنوا شديداً ، وأمّلوا بعيداً ، وماتوا قريباً ، فأصبحت أعمالهم بُوراً ، ومساكنهم قُبوراً ، وأمّلتهم غُروراً ، ألا وإن عاداً وثموداً كانوا قد ملّثوا ما بين بصرى وعدن أموالاً وأولاداً ونعماً ، فمن يشتري منى ما تركوا بدرهمين ؟ » .

(فتوح الشام ص ٢٥٠)

١٣٦ - خطبة يزيد بن أبي سفيان

وسار يزيد بن أبي سفيان إلى قيسارية فقام في جنده فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال :

« أما بعد : فإن كتاب أمير المؤمنين عمر المبارك الفاروق أتاني يحثني على السير إلى قيسارية ، وأن أدعوم إلى الإسلام ، وأن يدخلوا فيما دخل فيه أهل الكور من

أهل الشام ، فيؤذوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون ، فإن أبوا نزلت عليهم فلم أزيلهم
حتى أقتل مقاتلتهم وأسبي ذراريهم ، فسيروا ، رحمكم الله ، إليهم فإنني أرجو أن يجمع الله لكم
الغنيمة في الدنيا والآخرة . (فتوح الشام ص ٢٥١)

١٣٧ - وصية العباس بن عبد المطلب (المتوفى سنة ٣٢ هـ)

لابنه عبد الله

قال عبد الله بن عباس : قال لي أبي :

يا بُنَيَّ ، إني أرى أمير المؤمنين - يعني عمر بن الخطاب - قد اختصك دون من ترى
من المهاجرين والأنصار ، وإني موصيك بخلال أربع : لا يجربنَّ عليك كذباً ،
ولا تغتابنَّ عنده مسلماً ، ولا تُفشينَّ له ميراً ، ولا تطو عنه نصيحة ، قال : فقلت يا أبة .
كلّ واحدة منها خير من ألف ، فقال : كلّ واحدة منها خير من عشرة آلاف .

(تهذيب الكامل ١ : ١٥ والعقد الفريد ١ : ١١)

١٣٨ - وصية عمر للخليفة من بعده

وأوصى عمر الخليفة من بعده ، فقال :

« أوصيك بتقوى الله لا شريك له ، وأوصيك بالمهاجرين الأولين خيراً ، أن تعرف
لهم سابقتهم ، وأوصيك بالأنصار خيراً ، فاقبل من محسنهم ، وتجاوز عن مسيئتهم ،
وأوصيك بأهل الأمصار خيراً ، فإنهم رذء العدو ، وجبأة الفئء ، لا تحمل فيهم ، إلا عن
فضل منهم ، وأوصيك بأهل البادية خيراً ، فإنهم أصل العرب ، ومادّة الإسلام ، أن
تأخذ من حواشي أموال أغنيائهم ، فتردّ على فقرائهم ، وأوصيك بأهل الذمة خيراً ، أن

تقاتل من ورأسهم ، ولا تكلفهم فوق طاقتهم ، إذا أدوا ما عليهم للمؤمنين طوعاً ، أو عن
يَدِهِمْ صَاغِرُونَ ، وأوصيك بتقوى الله وشدة الحذر منه ، وَمَخَافَةِ مَقْتِهِ ، أَنْ يَطَّلِعَ مِنْكَ
عَلَى رِيْبَةٍ ، وأوصيك أن تخشى الله في الناس ، وتخشى الناس في الله ، وأوصيك بالعدل
فِي الرَّعِيَةِ ، والتفرغ لحوائجهم وثغورهم ، ولا تؤخر غنيهم على فقيرهم ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَأْذَنُ اللَّهُ
سَلَامَةَ لِقَابِكَ ، وَحَطَّ لَوِزْرِكَ ، وخير في عافية أمرك ، حتى تُفْضِيََ مِنْ ذَلِكَ إِلَى مَنْ
يَعْرِفُ سِرِّيَّتَكَ ، ويحول بينك وبين قلبك ، وأمرك أن تشد في أمر الله ، وفي حدوده
ومعاصيه ، على قريب الناس وبعيدهم ، ثُمَّ لَا تَأْخُذُكَ فِي أَحَدٍ رَأْفَةً حَتَّى تَنْتَهِكَ مِنْهُ ،
مِثْلَ مَا أَنْتَ مِنْ حَرَمَةِ اللَّهِ ، واجعل الناس عندك سواء ، لا تبالى على من وجب الحق ، ثُمَّ
لَا تَأْخُذُكَ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لِأَنْتُمْ ، وَإِيَّاكَ وَالْآثَرَةَ وَالْحَابَابَةَ فِيمَا وَلَّاكَ اللَّهُ ، مما آفأه الله على المؤمنين ،
فتجور وتظلم ، وتحرم نفسك من ذلك ما قد وسعه الله عليك ، وقد أصبحت بمنزلة من منازل
الدنيا والآخرة ، وأنت إلى الآخرة جد قريب فإن اقترفت لدنياك عدلاً وعفة عما بسط الله لك ،
اقترفت به إيماناً ورضواناً ، وإن غلبك الهوى ، اقترفت به سخط الله ، وأوصيك ألا تُرَخِّصَ
لِنَفْسِكَ وَلَا لِغَيْرِكَ فِي ظَلَمِ أَهْلِ الذِّمَّةِ ، وقد أوصيتك وحضضتك ونصحتك ، فابتغ بذلك
وَجْهَ اللَّهِ وَالِدَارَ الْآخِرَةَ ، واخترت من دلائلك ما كنت دالاً عليه نفسى وولدى ، فإن
عملت بالذى وعظمتك ، وانتهيت إلى الذى أمرتك ، أخذت به نصيباً وافراً ، وحظاً وافياً ،
وإن لم تقبل ذلك ، ولم يهَمْكَ ، ولم تُنْزِلْ مَعَاظِمَ الْأُمُورِ عِنْدَ الَّذِي يَرْضَى اللَّهُ بِهِ عَنْكَ ،
يَكُنْ ذَلِكَ بِكَ انْتِقَاصًا ، ورأيت فيه مدخولاً ، لأن الأهواء مُشْتَرِكَةٌ ، ورأس كل خطيئة
إِبْلِيسُ ، وهو داع إلى كل هَلَكَةٍ ، وقد أضلَّ القرون السالفة قبلك ، فأوردهم النار ،
ولبئس الثمن أن يكون حظُّ امرئ موالاةَ عدوِّ الله الداعى إلى معاصيه ، ثم اركب الحق
وَخُضَّ إِلَيْهِ الْعِمْرَاتِ ، وكن واعظاً لنفسك ، أنشدك الله لما تَرَحَّمْتَ عَلَى جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ ،
فَأَجَلَّتْ كَبِيرُهُمْ ، ورحمت صغيرهم ، ووقرت عالمهم ، ولا تضربهم فيذُلُّوا ، ولا تستأثر

عليهم بالنفي ، فتبغضهم ، ولا تحرمهم عطاياهم عند محلمها فتفقروهم ، ولا تجمرهم^(١) في البعوث ، فتقطع نسلهم ، ولا تجعل المال دولة بين الأغنياء منهم ، ولا تغلق بابك دونهم ، فيأكل قوتهم ضعيفهم . هذه وصيتي إياك ، وأشهد الله عليك ، وأقرأ عليك السلام . (شرح ابن أبي الحديد م ٣ : ٩٦ والبيان والتبيين ٢ : ٢٢ وتاريخ الطبري ٥ : ١٣)

وفي رواية الطبري :

قال : « وأوصى الخليفة من بعدى بالأنصار الذين تبوءوا الدار والإيمان أن يُحسن إلى محسنهم ، وأن يعفو عن مسيئتهم ، وأوصى الخليفة من بعدى بالعرب ، فإنها مادة الإسلام ، أن يؤخذ من صدقاتهم حقها فتوضع في فقرائهم ، وأوصى الخليفة من بعدى بذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يوفى لهم بمهدم ، اللهم هل بلغت ؟ تركت الخليفة من بعدى على أنتق من الراحة » .

(١) جمر الجيش : حبسهم في أرض العدو ولم يقفلهم .

خطب يوم الشورى

بعد دفن عمر اجتمع أهل الشورى ، وهم : عبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن عفان ، وعلى بن أبي طالب ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة بن عبيد الله - وكان طلحة غائبا - فبدأ عبد الرحمن بن عوف بالكلام ، فقال :

١٣٩ - خطبة عبد الرحمن بن عوف

« يا هؤلاء ، إن عندى رأياً ، وإن لكم نظراً ، فاسمعوا تعلموا ، وأجيبوا تفقهوا ، فإن حايباً^(١) خير من زاهق^(٢) ، وإن جرعة من شراب^(٣) بارد ، أنفع من عذب موب^(٤) ، أنتم أئمة يهتدى بكم ، وعلما يصدّر^(٥) إليكم ، فلا تفلأ المدى باختلاف بينكم ، ولا تغمدوا السيوف عن أعدائكم ، فتوتروا^(٦) ناركم ، وتوالتوا^(٧) أعمالكم ، لكل أجل كتاب ، ولكل بيت إمام ، بأمره يقومون ، وبنيه يرعون^(٨) ، قلدوا أمركم واحداً منكم ، تمشوا الهوينى ، وتلحقوا الطلب ، لولا فتنة عمياء ، وضلالة حيراء ، يقول أهلها ما يرون ، وتخلهم الحبوة كرى^(٩) ، ما عدت نياتكم معرفتكم ، ولا أعمالكم

(١) الحاي من السهام : ما يزحف إلى الهدف . (٢) السهم الزاهق : ما جاوز الهدف .

(٣) الشراب والشريب والشروب : ما يشرب . (٤) أصله موبى ، مسهل عن موبى .

(٥) يرجع . (٦) قال فى اللسان : « قال الأزهرى : هو من الوتر (الثأر) يقال : وترت فلانا

إذا أصبته بوتر ؛ وأوترته أوجدته ذلك (أى أظفرته به ، أوجدت فلانا مطلوبه أى أظفرته به) قال : والثأر هاهنا العدو لأنه موضع الثأر ، والمعنى لا توجدوا عدوكم للوتر فى أنفسكم . »

(٧) أنه حقه يألته وآلته : نقصه . (٨) ورع يرع : كورث يرث من الورع ، وهو التقوى .

(٩) رمل يفضل فيه السالك ، والداهية .

نياتكم ، احذروا نصيحة الهوى ، ولسان الفرقة ، فإن الحيلة في المنطق أبلغ من السيوف
في الكلم ، علقوا أمركم رَحْب الذراع فيما حل ، مأمون الغيب فيما نزل ، رِضاً منكم
وكلكم رضاً ، ومُقْتَرَعاً^(١) منكم وكلكم منتهى ، لا تطيعوا مُفسداً يتنصَّح^(٢) ،
ولا تخالفوا مرشداً ينتصر ، أقول قولي هذا ، وأستغفر الله لي ولكم :
ثم تكلم عثمان بن عفان ، فقال :

١٤٠ - خطبة عثمان بن عفان

« الحمد لله الذي اتخذ محمداً نبياً ، وبعثه رسولا ، صدقه وعده ، ووهب له نصره
على كل من بعد نَسَباً ، أو قرُب رَحْمًا صلى الله عليه وسلم ، جعلنا الله له تابعين ، وبأمره
مُهْتَدِينَ ، فهو لنا نور ، ونحن بأمره نقوم عند تفرُّق الأهواء ، ومجادلة الأعداء ، جعلنا الله
بفضله أُمَّة ، وبطاعته أمراء ، لا يخرج أمرنا منا ، ولا يدخل علينا غيرنا ، إلا من سَفَه
الحق ، ونسكِل عن القصد ، وأخر بها يابن عوف أن تُتْرَكَ ، وأجدربها أن تكون ،
إن خواف أمرك ، وتترك دعاؤك ، فأنا أوّل مجيب لك ، وداع إليك ، وكفيل بما أقول
زعيم ، وأستغفر الله لي ولكم . »

ثم تكلم الزبير بن العوام بعده فقال :

١٤١ - خطبة الزبير بن العوام

« أما بعد : فإن داعى الله لا يُجْهَل ، ومجيبه لا يُخْذَل ، عند تفرُّق الأهواء ،
ولّى الأعناق ، ولن يقصر عما قلت إلا غوى ، ولن يترك ما دعوت إليه إلا شقى ، لولا
حدود الله فرضت ، وفرائض الله حُدَّت ، تُرَاح^(٣) على أهلها ، وتحيا لا تموت ، لكان

(١) مختاراً . (٢) تنصح : تشبه بالنصحاء . (٣) أراح حقه عليه : رده عليه .

الموت من الإمارة نجاةً ، والفرارُ من الولاية عِصْمَةً ، ولكن الله علينا إجابة الدعوة ، وإظهار السنة ، لثلاث موتٍ مِيتةٍ عُمِّيَّةٍ^(١) ، ولا نَعْمَى عَمَى الجاهلية ، فأنا مجيبك إلى ما دعوت ، ومعينك على ما أمرت ، ولا حول ولا قوَّة إلا بالله ، وأستغفر الله لى ولكم .

١٤٢ - خطبة سعد بن أبي وقاص

ثم تكلم سعد بن أبي وقاص فقال :

« الحمد لله بديئاً^(٢) كان ، وآخرًا يعود ، أحمده لما نبجاني من الضلالة ، وبصرني من الغواية ، فبهدي الله فاز من نجا ، وبرحمته أفلح من زكا ، وبمحمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم أنارت الطرق ، واستقامت السبل ، وظهر كلُّ حق ، ومات كل باطل ، إياكم أيها النفرُ وقول الزور ، وأمنيَّة أهل الغرور ، فقد سلبت الأمانى قوماً قبلكم ، ورثوا ما ورثتم ، ونالوا ما نلتهم ، فاتخذهم الله عدواً ، ولعنهم لعناً كبيراً ، قال الله عزَّ وجل : (لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ، كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) إني نكبت^(٣) قرني ، فأخذت سهمي الفالَج^(٤) ، وأخذت لطلحة ابن عبيد الله ما ارتضيت لنفسى ، فأنا به كفيل ، وبما أعطيتُ عنه زعيم ، والأمر إليك يا بن هوف بجهد النفس ، وقصد النصح ، وعلى الله قصد السبيل ، وإليه الرجوع ، وأستغفر الله لى ولكم ، وأعوذ بالله من مخالفتكم . »

(١) العمية : الكبر أو الضلال .

(٢) البئى : الأول . (٣) النكب : للطرح . والقرن : الجمعة . (٤) الفائز الظافر ،

١٤٣ - خطبة علي بن أبي طالب

ثم تكلم علي بن أبي طالب فقال :

« الحمد لله الذي بعث محمداً منا نبياً ، وبعثه إلينا رسولا ، فنحن بيت النبوة ، ومعدن الحكمة ، وأمان أهل الأرض ، ونجاة لمن طلب ، لنا حق إن نُعطَه نأخذه ، وإن مُنمَّعَه نركب أعجاز الإبل ، ولو طال السرى ، لو عهد إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم عهداً لأنفذنا عهده ، ولو قال لنا قولاً جادلنا عليه حتى نموت ، لن يسرع أحد قبلي إلى دعوة حق ، وصلة رحم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، اسمعوا كلامي ، وعُوا منطقي ، عسى أن ترَوُا هذا الأمر من بعد هذا الجمع ، تُنتَصَى^(١) فيه السيوف ، وتُخَان فيه العهود ، حتى تكونوا جماعة ، ويكون بعضكم أئمة لأهل الضلالة ، وشيعة لأهل الجهالة ، ثم أنشأ يقول :

فإن تك جاسم^(٢) هلكت فإني بما فعلت بنو عبد بن ضخم

مُطِيع في المواجر كلِّ عَمِيٍّ بصيرٍ بالنوى من كل نجم

(تاريخ الطبرى ٥ : ٣٨ ، والكامل لابن الأثير ٣ : ٢٦)

(١) تسلي .

(٢) بنو جاسم حتى قديم .

خطب عثمان بن عفان

رضى الله عنه

١٤٤ - خطبته حين بايعه أهل الشورى

روى الطبرى قال : « لما بايع أهل الشورى عثمان خرج وهو أشدم كآبة ، فأتى منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخطب الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال :

« إنكم فى دار قُلعة^(١) ، وفى بقية أعمار ، فبادرُوا آجالكم بخير ما تقدرون عليه ، فلقد أتيتُم ، صُبَّحْتُم أو مُسَّيْتُم ، ألا وإن الدنيا طُوِّبَتْ على الغرور ، فلا تَغْرُنْكُمْ الحياة الدنيا ، ولا يَغْرُنْكُمْ بالله الغرورُ ، اعتبروا بمن مضى ثم جدُّوا ولا تَغْفُلُوا ، فإنه لا يُغْفَلُ عنكم ، أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين آثروها وعمرُّوها ، ومُتَّعُوا بها طويلا ، ألم تَلْفِظْهُمُ ؟ أَرْمُوا بالدنيا حيث رى الله بها ، واطلبوا الآخرة فإن الله قد ضرب لها مثلا ، والذي هو خير ، فقال عز وجل : (وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ، الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا) وأقبل الناس يبايعونه . » (تاريخ الطبرى ٥ : ٤٣)

(١) أى انقلاع ، ومنزلنا منزل قلعة « بتسكين اللام وضمها وفتحها » أى ليس بمستوطن ، أو لانهلكه ،

أو لاندرى متى نتحول منه .

١٤٥ - خطبته بعد البيعة

وقال أيضاً : خطب عثمان الناس بعد ما بويع ، فقال :

« أما بعد ، فإنني قد مُحِلْتُ وقد قَبِلْتُ ، ألا وإني متَّبِعٌ ، ولست بمبتدِعٌ ، ألا وإن لكم هليَّ بعد كتاب الله عزَّ وجل ، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ثلاثاً : اتَّبَاعٌ من كان قبلي فيما اجتمعتم عليه وسنتم ، وَسَنٌ سُنَّةِ أَهْلِ الْخَيْرِ فيما لم تَسُنُّوا عن مَلَأُ ، وَالكَفَّ عَنكُمْ إلا فيما استوجبتم . ألا وإن الدنيا خَصْرَةٌ قد شُهِّيت إلى الناس ، ومال إليها كثير منهم ، فلا تَرَوْا كُنُوا إلى الدنيا ، ولا تَتَّقُوا بها ، فإنها ليست بثقَّة ، واعلموا أنها غير تاركة إلا من تركها . »

(تاريخ الطبرى ٥ : ١٤٩)

١٤٦ - خطبة أخرى

وقال ابن قتيبة : لما ولي عثمان صعد المنبر ، فجلس على ذروته ، فرماه الناس بأبصارهم ، فقال :

« إن أول مرَّ كَبَّ صعب ، وإن مع اليوم أيَّامًا ، وما كنا خطباءً ، وإن نَعِشْ لَكُمْ تَأْتِيَكُمُ الْخُطْبَةُ عَلَى وَجْهِهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . »

(عيون الأخبار م ٢ ص ٢٣٥ ، والعقد الفريد ٢ : ١٣٣)

١٤٧ - خطبة لعثمان

وبعث عثمان بدء الفتنة إلى عمال الأمصار فقدموا عليه ، فقال : وَيُحْكَمْ ، ما هذه الشكاية وما هذه الإذاعة ؟ إني والله لخائف أن تكونوا مصدُّوقا عليكم ، وما يُعْصَبُ هذا إلا بي ، ثم قال : أشيروا عليّ ، فأشار عليه كلُّ بما يراه .

وقام عثمان فحمد الله وأثنى عليه وقال :

« كل ما أشرت به عليّ قد سمعت ، ولكل أمر بابٍ يؤتى منه إِنْ هذا الأمر الذي يخافُ على هذه الأمة كأن ، وإن بابه الذي يُعلق عليه فيكفكف به اللينُ والمؤاتاة والمتابعة إلا في حدود الله تعالى ذكره ، التي لا يستطيع أحدٌ أن يُبَادِي بعيب أحدها ، فإن سده شيء فرقق ، فذاك والله لِيُفْتَحَن ، وليست لأحد على حجة حق ، وقد علم الله أني لم آلُ الناس خيرا ولا نفسي ، ووالله إن رحى الفتنة لدائرة ، فطوبى لعثمان إن مات ولم يجرَّ كها ، كفكفوا الناس وهبوا لهم حقوقهم ، واعتفروا لهم ، وإذا تعوطيت حقوق الله فلا تُدهنوا فيها . »
(تاريخ الطبري ٥ : ١٠٠)

١٤٨ - خطبة عثمان

ولما حدثت الأحداث بالمدينة خرج منها رجالٌ إلى الأمصار ، ثم رجعوا جميعا إلى المدينة إلا من كان بالشأم ، فأخبروا عثمان بنخبرهم ، فقام عثمان في الناس خطيباً فقال :

« يا أهل المدينة ، أنتم أصل الإسلام ، وإنما يفسد الناس بفسادكم ، ويصلحون بصلاحكم ، والله والله والله لا يبلغني عن أحدٍ منكم حدثٌ أحدثه إلا سيرته ، ألا فلا أعرفنَّ أحدا عرض دون أولئك بكلام ولا طلب ، فإن من كان قبلكم كانت تُقطع أعضاؤهم دون أن يتكلم أحد منهم بما عليه ولا له . »

وأيُّمُ الله لاخذن العفو من أخلاقكم ولا بذلته لكم من خلقي ، وقد دنت أمور ، ولا أحب أن تحل بنا وبكم ، وأنا على وجل وحذر ، فاحذروا واعتبروا . »

(تاريخ الطبري ٥ : ١٢٥)

١٤١ - خطبته حين نقم عليه الناس

وخطب عثمان حين نقم عليه الناس ما نقموا فقال :

« أما بعد : فإن لكل شيء آفة ، وإن لكل نعمة عاهة ، وإن آفة هذه الأمة ، وعاهة هذه النعمة ، عيابون ظنانون ، يُظهرون لكم ما تُحبون ، ويُسرُّون ما تُكرهون ، يقولون لكم وتقولون ، طعام^(١) مثل النعام ، يتبعون أول ناعق ، أحبُّ مواردكم إليهم النازح^(٢) ، لا يشربون إلا نغصا^(٣) ، ولا يردُّون إلا عسكرا ، لا يقوم لهم رائد ، وقد أعييتهم الأمور ، وتعذرت عليهم المكاسب .

لقد أفررتُم لابن الخطاب بأكثر مما نقيتم عليّ ، ولكنه وطئكم برجله ، وضربكم بيده ، ووقمكم وقمعكم^(٤) وزجركم زجر النعام الخزيمة^(٥) ، فدنتم له على ما أحببتُم أو كرهتُم ، ولنت لكم وأوطأت لكم كنفى ، وكففت يدي ولساني عنكم ، فاجترأتُم عليّ .

أما والله إنى لأقرب ناصرًا ، وأعزّ نفرا ، وأكثر عددًا ، وأقمن - إن قلت هم - أن تجاب دعوتي من عمر .

ولقد أعددت لكم أقرانكم ، وأفضلت عليكم فضولا ، وكشرت لكم عن نابي ، وأخرجتُم مني خلقًا لم أكن أحسنه ، ومنطقًا لم أنطق به .

(١) أوغاد الناس ، الواحد والجمع فيه سواء ، أو واحده كسحابة . (٢) المورد النازح : الذي

نزع ماؤه ، أى غاض وقل أو بعد . (٣) نغص البعير كفريح : لم يتم شربه . (٤) وقم الدابة جذب عنانها ، ووقه قهره وأذله أو رده أقيح الرد وحزنه أشد الحزن وقعه : ضربه بالمقمة وقهره وأذله .

(٥) خزم البعير : جعل في جانب منخره الخزيمة ، والطير كلها مخزومة ومخزومة لأن وترات أنوفها

مخزومة ؛ وكذا النعام .

فكفوا عليكم ألسنتكم وطعنكم ، وعيكم على ولائكم ، فإنى قد كفتُ عنكم من
لو كان هو الذى يكلمكم لرؤيتم منه بدون منطقي هذا .

ألا فما تفقدون من حكم ؟ فوالله ما قصرت فى بلوغ ما كان يبلغ من كان قبلى ،
ومن لم تكونوا تختلفون عليه ، فضلَ فضلُ من مالى ، فمالى لا أصنع فى الفضل ما أريد ؟
إذن فلم كنت إماما ؟ .

(تاريخ الطبرى ٥ : ٩٧ وإعجاز القرآن ص ١١٨ ،

وصبح الأعشى ١ : ٢١٤ والبيان والتبيين ١ : ٢٠٠) .

١٥٠ - خطبته التى نزع فيها ، وأعطى الناس من نفسه التوبة

حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال :

« أما بعد أيها الناس : فوالله ما عاب من عاب منكم شيئاً أجهله ، وما جئت شيئاً
إلا وأنا أعرفه ، ولكنى مننتى نفسى وكذبتنى ، وضلّ عنى رشدى ، ولقد سمعت رسول
الله صلى الله عليه وسلم يقول : « مَنْ زَلَّ فَلْيَتَّبِ ، وَمَنْ أَخْطَأَ فَلْيَتَّبِ ، وَلَا يَتِمَّادَى
فِي الْمَلَكَةِ ، إِنْ مَنَّ تَمَّادَى فِي الْجَوْرِ ، كَانَ أَبْعَدَ مِنَ الطَّرِيقِ » فأنا أول من اتعظ ،
أستغفر الله مما فعلت . ، وأتوب إليه ، ففتلى نزع وتاب ، فإذا نزلت فليأتنى أشرافكم ،
فليرونى رأيهم ، فوالله لئن ردّنى الحق عبداً لَأَسْتَتِنَنَّ بسنة العبد ، وَلَا ذُلَّ لِلْعَبْدِ ،
وَلَا كَوْنَنَّ كالمرقوق ، إِنْ مُلِكَ صَبْرٌ ، وَإِنْ عُنِقَ شُكْرٌ ، وما عن الله مذهب إلا إليه ،
فلا يَمَجِّزَنَّ عنكم خياركم أن يدنوا إلىّ ، لئن أبت يمينى لمتابعينى شمالي . »

(تاريخ الطبرى ٥ : ١١١ ، والكامل لابن الأثير ٣ : ٨٠)

١٥١ - خطبته في الرد على الثوار

وقال يرد على الثوار :

« الحمد لله ، أحمده ، وأستعينه ، وأومن به ، وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون ؛ أما بعد : فإنكم لم تعدلوا في المنطق ، ولم تُنصِفُوا في القضاء ، أما قولكم تخلع نفسك ، فلا أنزع قميصاً قمصتنيه الله عز وجل ، وأكرمني به ، وخصني به على غيري ، ولكني أتوب وأنزع ، ولا أعود لشيء عابه المسلمون ، فإني والله الفقير إلى الله ، الخائف منه . »

قالوا : إن هذا لو كان أول حدث أحدثته ثم تبت منه ، ولم تُقِم عليه ، لكان علينا أن نقبل منك ، وأن ننصرف عنك . . . إلى آخر ما قالوا .

فقال عثمان : « أما أن أتبرأ من الإمارة ، فإن تصلبوني أحب إلي من أن أتبرأ من أمر الله عز وجل وخلافته ، وأما قولكم تقتلون من دوني ، فإني لا أمر أحداً بقتالكم ، فن قاتل دوني وإنما قاتل بغير أمري ، ولعمري لو كنت أريد قتالكم ، لقد كنت كتبت إلى الأجناد ، فقادوا الجنود ، وبعثوا الرجال ، أو لحقت ببعض أطراف بصر أو عراق ، فآله الله في أنفسكم ، فأبقوا عليها ، إن لم تبقوا علي ، فإنكم مجتلبون بهذا الأمر إن قتلتموني دماً » فانصرفوا عنه ، وآذنوه بالحرب .

(تاريخ الطبري ٥ : ١٢١ ، والكامل لابن الأثير ٣ : ٨٤)

١٥٢ - خطبته وقد اشتد عليه الحصار

ولما اشتد الحصار عليه أرسل إلى عليّ وطلحة والزبير فحضروا ، فأشرف عليهم ، فقال :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ : اجلسوا ، فجلسوا : الحاربُ والسلامُ ، فقال لهم يا أهل المدينة ، أستودعكم الله ، وأسأله أن يحسن عليكم الخلافة من بعدى ، ثم قال : أنشدكم بالله هل تعلمون أنكم دعوتم الله عند مصاب عمر أن يختار لكم ، ويجمعكم على خيركم ؟ أتقولون إن الله لم يستجب لكم ، وهنتم عليه ، وأنتم أهل حقه ؟ أم تقولون هان على الله دينه ، فلم يبال مَنْ وَلى ، والدين لم يتفرق أهله يومئذ ؟ أم تقولون لم يكن أخذ عن مشورة ، إنما كان مكابرة ، فوكل الله الأمة إذ عصته ، ولم يشاوروا في الإمامة ، أم تقولون إن الله لم يعلم عاقبة أمرى ؟ أنشدكم بالله أتعلمون لى من سابقة خير ، وقدم خير ، قدّمه الله لى يحقّ على كلّ من جاء بعدى أن يعرفوا لى فضلها ؟ فهلا لا تقتلونى ، فإنه لا يحلّ إلا قتل ثلاثة : رجل زنى بعد إحصائه ، أو كفر بعد إيمانه ، أو قتل نفساً بغير حق ، فإنكم إذا قتلتمونى وضعتم السيف على رقابكم ، ثم لم يرفع الله عنكم الاختلاف أبداً » .

(تاريخ الكامل لابن الأثير ٣ : ٨٤)

١٥٣ - آخر خطبة خطبها عثمان

« إن الله عزّ وجلّ إنما أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة ، ولم يُعطيكموها لتركوا كنفوا إليها ، إن الدنيا تَفنى والآخرة تبقى ، فلا تُبَطِرَنَّكم الفانية ، ولا تشغلنكم عن الباقية ، فأترؤا ما يبقى على ما يفنى ، فإن الدنيا منقطعة ، وإن المصير إلى الله ، اتقوا الله جلّ وعزّ ،

فإن تقواه جنة من بأسه ، ووسيلة عنده ، واحذروا من الله الغير ، والزموا جماعتكم ،
لا تصيروا أحزاباً ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم
بنعمته إخواناً . (تاريخ الطبرى ٥ : ١٢٦ ، ١٤٩)

١٥٤ - خطبة الوليد بن عقبة

قال الطبرى :

لما أصاب الوليد بن عقبة حاجته من أرمينية (سنة ٢٤ هـ) - وكان أهلها قد منعوا
ما صالحوا عليه أهل الإسلام أيام عمر - ودخل الموصل فنزل الحديثه ، أتاه كتاب من
عثمان رضى الله عنه :

« أما بعد فإن معاوية بن أبي سفيان كتب إلى يخبرنى أن الروم قد أجلبت على
المسلمين بجموع عظيمة ، وقد رأيت أن يمدم إخوانهم من أهل الكوفة ، فإذا أتاك
كتابى هذا فابعث رجلاً ممن ترضى نجدته وبأسه وشجاعته وإسلامه ، فى ثمانية آلاف
أو تسعة آلاف أو عشرة آلاف ، من المكان الذى يأتىك فيه رسولى والسلام . »

فقام الوليد فى الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أما بعد : أيها الناس فإن الله قد أبلى المسلمين فى هذا الوجه بلاء حسناً فرد عليهم
بلادهم التى كفرت ، وفتح بلاداً لم تكن فتحت ، وردهم سالمين غانمين مأجورين ،
فالحمد لله رب العالمين . »

وقد كتب إلى أمير المؤمنين يأمرنى أن أندب منكم ما بين العشرة الآلاف
إلى الثمانية الآلاف تمدون إخوانكم من أهل الشام ، فإنهم قد جاشت عليهم الروم ،
وفى ذلك الأجر العظيم ، والفضل المبين ، فانتدبوا رحمكم الله مع سلمان بن ربيعة الباهلى . -

(تاريخ الطبرى ٥ : ٤٦)

فانتدب الناس

١٥٥ - خطبة سعيد بن العاص حين قدم الكوفة واليا عليها

عزل عثمان رضى الله عنه الوليد بن عقبة بن أبي معيط من إمارة الكوفة ، وكان قد اتهم بشرب الخمر وولى مكانه سعيد بن العاص سنة ٣٠ هـ ، فلما قدم الكوفة صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« والله لقد بعثت إليكم وإني لكاره ، ولكني لم أجد بداً إذ أمرت أن أتتبع ، ألا إن الفتنة قد أطلعت خطمها^(١) وعينها ، والله لأضربن وجهها حتى أقعها أو تُقَيِّبِنِي^(٢) ، وإني لرأئد^(٣) نفسي اليوم » ثم نزل (تاريخ الطبرى ٥ : ٦٢)

١٥٦ - خطبة عبد الله بن الزبير حين قدم بفتح إفريقية^(٤)

قدم عبد الله بن الزبير على عثمان بن عفان بفتح إفريقية ، فأخبره مشافهة ، وقص عليه كيف كانت الواقعة ، فأعجب عثمان ما سمع منه ، فقال له : أتقوم بمثل هذا الكلام على الناس ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، إني أهيب لك منى لهم ، فقام عثمان فى الناس خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس : إن الله قد فتح عليكم إفريقية ، وهذا عبد الله بن الزبير يخبركم خبرها إن شاء الله ، وكان عبد الله بن الزبير إلى جانب المنبر ، فقام خطيباً - وكان أول من خطب إلى جانب المنبر - فقال :

« الحمد لله الذى ألف بين قلوبنا ، وجعلنا متحابين بعد البغضة ، الذى لا يُجحد نعاؤه ، ولا يزول ملكه ، له الحمد كما حمد نفسه ، وكما هو أهله ، انتخب محمداً صلى الله

(١) الخطم : جمع خطام ، وهو ما وضع فى أنف البعير ليقتاد به ، والمراد ظهورها ونشوبها .

(٢) أى تمجزئ . (٣) الرود : الطلب .

(٤) فتحها عبد الله بن سعد بن أبي سرح سنة ٢٦ هـ ، وأمه عثمان بجيش يرأسه عبد الله بن الزبير .

عليه وسلم ، فاختره بعلمه ، وَأَمَّنَهُ عَلَى وَحْيِهِ ، واختار له من الناس أعوانا ، قذف في قلوبهم تصديقه ومحبته ، فَأَمَّنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ ^(١) وَوَقَّرُوهُ ، وجاهدوا في الله حق جهاده ، فاستشهد ^(٢) الله منهم من استشهد على المنهاج الواضح ، والبيع الرابع ، وبقى منهم من بقي ، لا تأخذهم في الله لومة لائم .

أيها الناس : رحمكم الله إنا خرجنا للوجه الذي علمتم ، فكنا مع والٍ حافظ ، حفظ وصية أمير المؤمنين ، كان يسير بنا الأبردان ^(٣) ، وَيَخْفِضُ ^(٤) بنا في الظهائر ، ويتخذ الليل جملاً ، يُعَجِّلُ الرحلة من المنزل الجذب ، ويطيل اللبث في المنزل الخصب ، فلم نزل على أحسن حالة نعرفها من ربنا ، حتى انتهينا إلى إفريقية ، فنزلنا منها حيث يسمعون صهيل الخيل ، ورُغَاء الإبل ، وقعمة السلاح ، فأقنا أياماً ، نُجِمُّ كُرَاعِنَا ^(٥) ، ونصلح سلاحنا ، ثم دعوناهم إلى الإسلام والدخول فيه ، فأبعدوا منه ، فسألناهم الجزية عن صغارٍ أو الصلح ، فكانت هذه أبعد ، فأقنا عليهم ثلاث عشرة ليلة نتائناهم ، وتختلف رسلنا إليهم ، فلما يئس منهم قام خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، وذكر فضل الجهاد ، وما لصاحبه إذا صبر واحتسب ، ثم نهضنا إلى عدونا ، وقاتلناهم أشد القتال ، يوماً ذلك ، وصبرَ فيه الفريقان فكانت بيننا وبينهم قتلى كثيرة ، واستشهد الله فيهم رجالا من المسلمين ، فبِتْنَا وَبَاتُوا ، وللمسلمين دوى بالقرآن كدوى النحل ، وبات المشركون في خورهم وملاعبهم ، فلما أصبحنا أخذنا مصافنا التي كنا عليها بالأمس ، فزحف بعضنا على بعض ، فأفرغ الله علينا صبره ، وأنزل علينا نصره ، ففتحناها من آخر النهار ، فأصبنا غنائم كثيرة ، وفيئنا واسعاً ، بلغ فيه الخمس خمسمائة ألف ، فَصَفَّقَ ^(٦) عليها مروان بن الحكم ، فتركت المسلمين قد

(١) التعزيز : التفخيم والتعظيم والإعانة ، وهو أيضا ضرب دون الحد أو هو أشد الضرب ضد .

(٢) استشهد (مبني للمجهول) قتل في سبيل الله .

(٣) الأبردان : الغداة والمشي . (٤) خفض بالمكان : أقام ، والظهائر : جمع ظهيرة .

(٥) الكراع : جماعة الخيل ، وأجم الفرس : ترك ركوبه . (٦) صفق الباب يصفقه وأصفقه

لفلقه : أي أغلق عليها باب الخزان .

قَرَّتْ أَعْيُنُهُمْ ، وَأَغْنَاهُم النَّفْلَ ، وَأَنَا رَسُولُهُمْ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَبْشِرْهُ وَإِيَّاكُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ
مِنَ الْبِلَادِ ، وَأَذَلَّ مِنَ الشَّرِكِ ، فَاحْتَدُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ عَلَى آيَاتِهِ ، وَمَا أَحَلَّ بِأَعْدَائِهِ ،
مِنَ بَأْسِهِ الَّذِي لَا يُرَدُّ عَنِ الْقَوْمِ الْمَجْرَمِينَ .

ثم سكت فنهض إليه أبوه الزبير ، فقبل بين عينيه وقال : (ذُرِّيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ
بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) يَا بُنَيَّ مَا زِلْتَ تَنْطِقُ بِلِسَانِ أَبِي بَكْرٍ حَتَّى صَمَمْتُ .

(المقدم الفريد ٢ : ١٤٩)

١٥٧ — خطبة عبد الله بن مسعود

(المتوفى سنة ٣٢ هـ)

أصدق الحديث كتاب الله ، وأوثق العرا كلمة التقوى . أكرم الملة إبراهيم ،
وخير السنن سنة محمد صلى الله عليه وسلم . خير الأمور أوسطها ، وشر الأمور محدثاتها .
ما قل وكفى خير مما كثر وألهى . خير الغنى غنى النفس ، وخير ما ألقى في القلب اليقين .
الخر جماع الآثام . النساء حباله الشيطان . الشباب شعبة من الجنون . حب الكفاية
مفتاح المعجزة . شر الناس من لا يأتى الجماعة إلا دُبُرًا ، ولا يذكر الله إلا هَجْرًا^(١) .
أعظم الخطايا اللسان الكذوب ، سباب المؤمن فسق ، وقتاله كفر ، وأكل لحمه معصية .
من يتألم^(٢) على الله يكذبه ، ومن يغفر يغفر له . مكتوب في ديوان المحسنين : من عفا
عفا الله عنه . الشقى من شقى فى بطن أمه ، والسعيد من وعظ بغيره . الأمور بعواقبها .
ملاك العمل خواتيمه . أشرف الموت الشهادة . من يعرف البلاء يصبر عليه . ومن لا يعرف
البلاء ينكره . (إعجاز القرآن ١٢٢ ، المقدم الفريد ٢ : ١٥٦ ، البيان والتبيين ٢ : ٢٧)

(١) الهجر ككفف : الذى يمشى مثقلاً ضعيفاً : أى لا يعرف الله إلا وقت الشدة .

(٢) تألم : أغم .

١٥٨ - أبو زيد الطائي يصف الأسد

قال عثمان بن عفان رضى الله عنه يوماً لأبي زُبَيْدٍ : حَرَمَلَةَ بن المنذر الطائي - وكان نصرانياً - يا أَخَا تَبَعِ المَسيحِ ، أَسَمِمْنَا بعض قولك ، فقد أُنْبِئْتُ أنك تجيد ، فأنشده قصيدة له في وصف الأسد ، فقال عثمان : تالله تَفْتَأُ تذكُر الأسد ما حَيَّيتُ الله إنى لأحسبك جَبَانًا هَرَّابًا ، قال : كَلَّا ، يا أمير المؤمنين ، ولكنى رأيت منه مَنظَرًا ، وَشَهِدْتُ منه مَشْهَدًا ، لَا يَبْرَحُ ذِكْرُهُ يتجدد ويترددُ في قلبي ، ومعذور أنا يا أمير المؤمنين غيرُ معلوم ، فقال له عثمان : وَأنى كَانَ ذلك ؟ قال :

« خرجت في صَيَابَةٍ^(١) أشرف من أبناء قبائل العرب ، ذوى هيئة وشارقة^(٢) حسنة ، ترمى بنا المَهَارَى^(٣) بأكسائها^(٤) ، ونحن نزيد الحارث بن أبى شِمْر النَّسَّانِي ملك الشام ، فأخروط^(٥) بنا السير في حَمَارَةِ القَيْظِ ، حتى إذا عَصَبَتِ الأفواه ، وَذَبَلَتِ الشِّفَاهُ ، وشالت^(٦) المياه ، وأذكتِ الجُوزَاءَ المِعْزَاءَ^(٧) ، وذاب الصَّيْهَبُ^(٨) ، وَصَرَ الجُنْدُبُ^(٩) ، وأضاف العُصْفُورُ الضَّبَّ في وَكْرِهِ ، وجاوره في جُجْرِهِ ، قال قائل : أيها الركب ، غُورُوا^(١٠) بنا في دَوْحِ هذا الوادى ، وإذا وادٍ قد بدا لنا كثير الدَّغَلِ^(١١) ، دَأْمُ القَلَلِ^(١٢)

(١) الصيابة بالتشديد وتخفف : الخالص والصميم والخيار من الشيء . (٢) الشارقة : الهيئة واللباس والزينة ، والجمال . (٣) مهرة بن حيدان (بفتح الميم والحاء) : حى تنسب إليه الإبل المهرية ، وجمعها مَهَارَى (بفتح الميم والراء) ومهارة (منقوصة) ومهارة . (٤) الأكساء : جمع كساء (كقفل وعتق) وكساء كل شيء : مؤخره . (٥) اخروط بهم الطريق : طال وامتد .

(٦) قلت . (٧) أذكت : أشعلت ، والمعزاء من المعز بالتحريك : وهو الصلابة ، مكان أمعز وأرض معزاء ، كناية عن اشتداد الحر . (٨) الصيهب : الصخرة الصلبة والموضع الشديد وكل موضع تحمى عليه الشمس حتى ينشوى اللحم عليه . (٩) نوع من الجراد ، وصر : صوت .

(١٠) الغور والغور : الدخول في الشيء . والدوح : جمع دوحه ، وهى الشجرة العظيمة .

(١١) الدغل : الشجر الكثير الملتف ، واشتباك أنبت وكثرته . (١٢) الغلل : المساء الذى يجرى

أشجاره مُغِنَّةٌ^(١) ، وأطياره مُرِنَةٌ^(٢) ، فَحَطَطْنَا رِحَالَنَا بِأُصُولِ دَوْحَاتِ كَنْهَبُلَاتٍ^(٣) ،
فَأَصْبَدْنَا مِنْ فِضَلَاتِ الْمَزَاوِدِ ، وَأَتْبَعْنَاهَا الْمَاءَ الْبَارِدَ ، فَإِنَّا لَنَصِيفُ حَرًّا يَوْمَنَا وَمَمَاطَلْتَهُ ،
إِذْ صَرََّ أَقْصَى الْخَيْلِ أُذُنِيهِ^(٤) ، وَفَحَّصَ الْأَرْضَ بِيَدِيهِ ، فَوَاللَّهِ مَا لَبِثْتُ أَنْ جَالَ ،
ثُمَّ تَحَمَّحَمَ^(٥) فَبَالَ ، ثُمَّ فَعَلَ فَعْلَهُ الْفَرَسُ الَّذِي يَلِيهِ وَاحِدًا فَوَاحِدًا ، فَتَضَعُضَعَتِ الْخَيْلُ ،
وَتَكْفُكَمَتِ^(٦) الْإِبِلُ ، وَتَقَهَّقَرَتِ الْبَعَالُ ، فَمِنْ نَافِرٍ بِشِكَاَلِهِ^(٧) ، وَنَاهِضٍ بِمِقَالِهِ ،
فَعَلَمْنَا أَنَا قَدْ أَتَيْنَا ، وَأَنَّهُ السَّبْعُ لِأَشْكَ فِيهِ ، فَفَزَعُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَّا إِلَى سَيْفِهِ ، فَاسْتَلَّهُ مِنْ
جُرْبَانِهِ^(٨) ، ثُمَّ وَقَفْنَا رَزْدَقًا أَرْسَالًا^(٩) ، وَأَقْبَلَ أَبُو الْحَارِثِ مِنْ أُمَّجَمَتِهِ ، يَتَطَالَعُ^(١٠)
فِي مَشِيَّتِهِ ، كَأَنَّهُ مَجْنُوبٌ أَوْ فِي هِجَارٍ^(١١) ، لِيَصْدِرَهُ نَحِيْطٌ^(١٢) ، وَلِبَلَاغِهِ غَطِيْطٌ^(١٣) ،
وَلِطَرَفِهِ وَمِيْضٌ ، وَلَأَرْسَاغِهِ تَقِيْضٌ^(١٤) ، كَأَنَّمَا يَنْحَبُطُ هَشِيمًا ، أَوْ يَطَأُ صَرِيْمًا^(١٥) ، وَإِذَا
هَامَةً كَأَلْمِجَنٍ^(١٦) وَخَدَّ كَأَلْمِنٍ ، وَعَيْنَانِ سَجْرَاوَانٍ^(١٧) كَأَنَّهُمَا سِرَاجَانِ يَتَّقِدَانِ ،

- (١) أغن الذباب : صوت ، ويقال : واد مغن ، وهو الذى صار فيه صوت الذباب ، ولا يكون
الذباب إلا فى واد مخصب ممشب ، والغنة (بالضم) صوت فى الخيشوم ؛ والأغن : الذى يتكلم من قبل
خياشيمه غن يغن بالفتح فهو أغن ، ومنه قالوا واد أغن : أى كثير المشب لأنه إذا كان كذلك ألفه الذباب وفى
أصواتها غنة ، وروضة غناه كذلك ، أو تمر فيها الرياح غير صافية الصوت لكثافة عشبها .
- (٢) رنت وأرنت : صاحت . (٣) الكنبيل : شجر عظام ، والمزاود : جمع مزود كبير ،
وهو وهاء الزاد . (٤) صر الحمار بأذنه وصرها وأصر بها : سواها ونصبها الاستماع .
- (٥) الحمحة والتحمم : صياح الفرس حين يقصر فى الصهيل ويستمين بنفسه ، وصوته إذا طلب
الملف . (٦) خافت وفزعت ، ككفمته فتكمكع : جبنته وخوفته . (٧) الشكال : الحبل الذى
تشد به قوائم الدابة . (٨) الجربان : غمد السيف . (٩) الرزدق : الصف من الناس والأرسال
جمع رسل كسبب ، وهو القطيع من كل شيء .
- (١٠) من ظلع كنع : إذا غمز فى مشيه . (١١) جنبه : قاده إلى جنبه ، فهو جنيب ومجنوب ومجنب
والهजार : حبل يشد فى رسخ رجل البعير ثم يشد إلى حقوه ، وإن كان مرحولا شد إلى الحقب .
- (١٢) النحيط : الزفير ، والناحط : من يعمل شديدا . (١٣) غط البعير غطيطا : هدر ، والنائم
صوت وكذا المذبوح والمخنوق . (١٤) نقيض الأصابع والأضلاع والمفاصل : أصواتها .
- (١٥) ثمر صريم : أى مقطوع . (١٦) المجن : الترس . (١٧) عين سجرأه : خالطت
بياضها حمرة .

وَقَصْرَةٌ رِبْلَةٌ (١) ، وَلِهَزِيمَةٌ رَهْلَةٌ (٢) ، وَكَتْدٌ مُغْبِطٌ (٣) وَزَوْرٌ مُفْرَطٌ (٤) وَسَاعِدٌ
 مَجْدُولٌ ، وَعَضُدٌ مَفْتُولٌ ، وَكَفٌّ شَدْنَةُ الْبِرَائِنِ (٥) إِلَى مَخَالِبِ كَالْمَحَاجِنِ (٦) ،
 فَضْرَبَ بِيَدَيْهِ فَأَرْهَجَ (٧) ، وَكَثَّرَ (٨) فَأَفْرَجَ عَنْ أَنْيَابِ كَالْمَعَاوِلِ ، مَصْقُولَةٌ ، غَيْرَ مَقُولَةٍ ،
 وَفَمٌّ أَشْدَقُ (٩) كَالْفَارِ الْأَخْوَقِ (١٠) ، ثُمَّ تَمَطَّى فَأَسْرَعَ بِيَدَيْهِ ، وَحَفَزَ (١١) وَرَكِبَهُ بِرَجْلَيْهِ ،
 حَتَّى صَارَ ظِلُّهُ مِثْلِيهِ ، ثُمَّ أَقْعَى (١٢) فَأَقْشَعَرَ ، ثُمَّ مَثَّلَ فَكَفَهَرَ (١٣) ، ثُمَّ تَجَهَّمَ فَازْبَارَ (١٤)
 فَلَاوَذُو (١٥) بَيْتَهُ فِي السَّمَاءِ ، مَا انْتَقِيَاهُ إِلَّا بِأَخٍ لَنَا مِنْ فَرَازَةَ ، كَانَ ضَخْمَ الْجَزَارَةِ (١٦) ،
 فَوَقَصَهُ (١٧) ثُمَّ نَقَضَهُ نَقْضَةً ، فَقَضَقَصَ (١٨) مَثْنِيَهُ ، فَجَعَلَ يَلْبَغُ فِي دَمِهِ ، فَذَمَرَتْ (١٩)
 أَحْسَابِي ، فَبَعْدَ لَايٍ (٢٠) مَا اسْتَقْدَمُوا ، فَهَجَّهَجْنَا (٢١) بِهِ ، فَكَّرَ مَقْشَعِرِ الزُّبْرَةِ (٢٢) ،

- (١) القصرة : أصل العنق؛ والربالة بالفتح : كثرة اللحم ، وهي ربله ومتربله .
 (٢) الهازمتان ناتان تحت الأذنين ، والجمع لهازم ، ورهل لحمه : كفرح انتفخ وورم من غير دام .
 (٣) الكتد : مجتمع الكتفين ، أو السكاهل ، أو ما بين السكاهل إلى الظهر ، وأغبط النبات : غطى الأرض ، وكشف وتداني ، وأرض مغبطة بفتح الباء ، أي وكاهل مغطى بالشعر .
 (٤) من أفرطه : إذا ملأه حتى أسال المساء فهو مفرط . (٥) شتنة : أي غليظة خشنة ، شنت
 كفه : كفرح وكرم ، والبرائن : جمع برثن كبرقع ، وهو مخلب الأسد . (٦) المحاجن : جمع محجن
 كنبير ومكنسة : العصا المموجة وكل معطوف معوج . (٧) أرهج : أثار الغبار ، والرهج (كشمس
 وسبب) الغبار . (٨) كثر عن أسنانه : أبدى . (٩) من الشدق (كسبب) وهو سعة الشدق .
 (١٠) من الخوق (كسبب أيضا) وهو السعة ومنه مفازة خوقاء . (١١) حفزه : دفعه .
 (١٢) أقعى : جلس على استه مفترشا رجله ناصبا يديه . (١٣) مثل : قام منتصبا ، والمكفهر
 من الوجوه : الضارب لونه إلى الغبرة مع غلظ ، والمتميس . (١٤) تجهمه وجهمه (كنع وسمع) استقبله
 بوجه كربه ، وازبار : تنفش . (١٥) ذو : بمعنى الذي في لغة طييء .
 * فحسبى من ذو عندهم ما كفانيا *
 (١٦) الجزيرة : بالضم اليدان والرجلان والعنق . (١٧) وقص عتقه : كسرهما . (١٨) من نقض
 البناء: أي هدسه ، وقضقض : مزق . (١٩) النمر : الملاحة ، والحض والتهدد . (٢٠) اللأي : الإبطاء
 والاحتباس . (٢١) هجج بالأسد : صاح . (٢٢) الزبرة (كفرصة) هي الشعر المجتمع بين كتفي
 الأسد .

كَأَن بِهِ شَيْهَمًا^(١) حَوْلِيًّا ، فَاخْتَجَّ^(٢) رَجُلًا أَعْجَرَ ذَا حَوَايَا ، فَنَقَضَهُ نَقْضَةً تَزَايَلَتْ مِنْهَا
مَفَاصِلُهُ ، ثُمَّ هَمَّهُمْ فَفَرَّقَر^(٣) ، ثُمَّ زَفَرَ فَبَزَبَرَ^(٤) ، ثُمَّ زَارَ فَجَرَ جَرَّ^(٥) ، ثُمَّ لَحَظَ ،
فَوَاللَّهِ نَلَحْتُ الْبَرْقَ يَتَطَايَرُ مِنْ تَحْتِ جَفْوَنِهِ ، عَنْ شِمَالِهِ وَيَمِينِهِ ، فَأُرْعِشَتِ الْأَيْدِي ،
وَأَصْطَكَّتِ الْأَرْجُلُ ، وَأَطَّتْ^(٦) الْأَضْلَاعُ ، وَارْتَجَّتِ الْأَسْمَاعُ ، وَشَخَّصَتِ^(٧) الْعَيُونُ ،
وَتَحَقَّقَتِ الظُّنُونُ ، وَانْحَزَلَتْ^(٨) الْمُتُونُ ، وَلَحِقَتِ الظُّهُورُ بِالْبَطُونِ ، ثُمَّ سَاءَتِ الظُّنُونُ ،
فَقَالَ لَهُ عِمَّانُ : اسْكُتْ قَطَعَ اللَّهُ لِسَانَكَ ! فَقَدْ أُرْعِبْتَ قُلُوبَ الْمُسْلِمِينَ .

(الأغانى ١١ : ٢٣ والمحاسن والأضداد ص ١١٢)

(١) الشيهم : معظم شوكة من ذكران القنفاذ ، والحولى : ما أتى عليه حول .

(٢) اختلج : جذب وانتزع ، والأعجر : السمين ، عجر : كفح غلظ وسمن وضخم بطنه ، والحوايا

جمع حاوية ؛ وهى ماتحوى من الأمعاء أى استدار ، والمعنى أنه عظيم البطن . (٣) المهمة : تردد

الزئير فى الصدر ، وكل صوت معه ببح ، والقرقرة : هدير البعير . (٤) البربرة : الجلبة والصياح .

(٥) الجرجرة : صوت يردده البعير فى حنجرتة . (٦) الأيط : صوت الرجل والإبل إذا

أنت تمبا أو حيننا ، وصوت الظهر ، والجوف من الجوع . (٧) شخص بصره كنع : فتح عينيه وجعل

لايطرف . (٨) الانخزال والتخزل : مشية فى تناقل . وهتنا الظهر : مكتنفا الصلب عن يمينه وشماله .

خلافة الإمام علي

كرم الله وجهه

١٥٩ - وصية عليّ لقيس بن سعد

ولما قتل عثمان رضي الله عنه وولى عليّ بن أبي طالب الأمر ، دعا قيس بن سعد ابن عبادة الأنصاري وولاه مصر سنة ٤٣٦ هـ .
وقال له :

« سر إلى مصر فقد وليتكمها ، واخرج إلى رحلك ، واجمع إليك ثقاتك ، ومن أحببت أن يصحبك حتى تأتيها ومعك جند ، فإن ذلك أرعب لعدوك ، وأعز لوليك ، فإذا أنت قدمتها إن شاء الله فأحسن إلى المحسن ، واشتد على المريب ، وارفق بالعامّة والخاصة فإن الرفق يُمنّ » .
(تاريخ الطبري ٥ : ٢٢٧)

١٦٠ - خطبة لقيس بن سعد

ولما دخل قيس مصر قام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم
وقال :

« الحمد لله الذي جاء بالحق وأما الباطل ، وكبت الظالمين
أيها الناس إنا قد بايعنا خير من نعلم بعد محمد نبينا صلى الله عليه وسلم ، فقوموا
أيها الناس فبايعوا على كتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فإن نحن
لم نعمل لكم بذلك فلا بيعة لنا عليكم » .
فقام الناس فبايعوا .
(تاريخ الطبري ٥ : ٢٢٨)

فتنة أصحاب الجمل

ولما قدمت السيدة عائشة رضی الله عنها البصرة ، للطلب بدم عثمان ، خرج إليها من أهلها من أراد أن يكون معها ، واجتمع القوم بالمربد ، وجعلوا يشوبون ، حتى غصَّ بالناس ، فتكلم طلحة ، فأنصتوا له :

١٦١ - خطبة طلحة

حمد الله وأثنى عليه ، وذكر عثمان رضی الله عنه وفضله ، والبلد وما أُسْتُجِلَ منه ، وعظم ما أتى إليه ، ودعا إلى الطلب بدمه وقال :

« إن في ذلك إعزازَ دين الله عزَّ وجل وسلطانه ، وأما الطلب بدم الخليفة المظلوم ، فإنه حدٌّ من حدود الله ، وإنكم إن فعلتم أصبتم ، وعاد أمركم إليكم ، وإن تركتم لم يبق لكم سلطان ، ولم يكن لكم نظام » .

وتكلم الزبير بمثل ذلك ، ثم تكلمت السيدة عائشة وكانت جهورية الصوت .

١٦٢ - خطبة السيدة عائشة بالمربد

حمدت الله عزَّ وجل ، وأثنت عليه وقالت :

« كَانِ النَّاسُ يَتَجَنَّبُونَ^(١) عَلَى عِمَانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَيُتْرَوْنَ^(٢) عَلَى عَمَالِهِ ، وَيَأْتُونَنا بِالْمَدِينَةِ ، فَيَسْتَشِيرُونَنا فِيمَا يَخْبِرُونَنا عَنْهُمْ ، فَنَنْظُرُ فِي ذَلِكَ فَنَجِدُهُ بَرِيًّا ، تَقِيًّا وَفِيًّا ،

(١) تجنى عليه : ادعى ذنباً لم يفعله . (٢) زرى عليه : عابه كأزرى لكنه قليل .

ونجدهم فجرة غدرة كذبة ، يحاولون غير ما يُظهرون ، فلما قووا على المكاثرة كاثروه ،
واقتمحوا عليه داره ، واستحلوا الدم الحرام ، والمال الحرام ، والبلد الحرام ، بلا ترة^(١)
ولإ عذر ، ألا إن مما ينبغى ، لا ينبغى لكم غيره ، أخذ قتلة عثمان رضى الله عنه ، وإقامة
كتاب الله عز وجل : (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى
كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ) الآية .

(تاريخ الطبرى ٥ : ١٧٥ ، والكمال لابن الأثير ٣ : ١٠٥)

١٦٣ - خطبة لعلی

وخطب علی لما سار الزبير وطلحة من مكة ومعهما عائشة يريدون البصرة فقال :
« أيها الناس : إن عائشة سارت إلى البصرة ومعها طلحة والزبير ، وكل منهما يرى
الأمر له دون صاحبه ، أما طلحة فابن عمها ، وأما الزبير فحتمها ، والله لو ظفروا بما
أرادوا - ولن ينالوا ذلك أبدا - ليضربن أحدهما عنق صاحبه بعد تنازع منهما شديد ،
والله إن راكبة الجمل الأحمر ما تقطع عقبه ولا تحل عقدة ، إلا في معصية الله وسخطه ،
حتى تُورد نفسها ومن معها موارد الهلكة ، إى والله ليقتلن ثلثهم ، وليهزبن ثلثهم ،
وليتوبن ثلثهم ، وإنما التي تنبجها كلاب الحوآب ، وإنهما ليعلمان أنهما مخطئان ، ورب
عالم قتله جهله ، ومعه علمه لا ينفعه ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، فقد قامت الفتنة فيها الفئنة
الباغية ، أين المحتسبون ؟ أين المؤمنون ؟ مالى ولقريش ! أما والله لقد قتلتهم كافرين ،
ولأقتلهم مفتونين ، وما لنا إلى عائشة من ذنب إلا أننا أدخلناها في حيزنا ، والله لأبقرن
الباطل حتى يظهر الحق من خاصرته ، فقل لقريش فلتضج ضجيجها » ثم نزل .

(ابن أبي الحديد م ١ : ص ٧٨)

١٦٤ - خطبة لعلی

ولما رجعت رسل علی من عند طلحة والزبير وعائشة يؤذنونه بالحرب قام فحمد الله
وأثنى عليه وصلى على رسوله ثم قال :

« أيها الناس : إني قد راقت هؤلاء القوم كي يرعوا أو يرجعوا ، ووبختهم
بنكثهم ، وعرقهم بغيرهم فلم يستحيوا ، وقد بعثوا إلى أن ابرؤز للطعان ، واصبر للجلاد ،
وإنما تمنيك نفسك أمانى الباطل ، وتعدك الفرور ، ألا هبيلتهم^(١) الهبول ، لقد كنت
وما أهدد بالحرب ، ولا أرهب بالضرب ، ولقد أنصف القارة^(٢) من رامها ، فليعدوا
وليبرقوا ، فقد رأوني قديما ، وعرفوا نكايتي ، فكيف رأوني ؟ أنا أبو الحسن الذي فلتت
حدّ المشركين ، وفترقت جماعتهم ، وبذلك القلب ألقى عدوى اليوم ، وإني لعلی ما وعدني
ربي من النصر والتأييد ، وعلى يقين من أمری ، وفي غير شبهة من دينی .

أيها الناس : إن الموت لا يفوته المقيم ، ولا يعجزه الهارب ، ليس عن الموت تحييد
ولا تحييص ، من لم يُقتل مات ، إن أفضل الموت القتل ، والذي نفس علی بيده لألف
ضربة بالسيف أهون من موة واحدة على الفراش .

اللهم إن طلحة نكث بيعتي ، وألب على عثمان حتى قتله ، ثم عضيتني^(٣) به ورماني ،
اللهم فلا تمهل .

اللهم إن الزبير قطع رحمي ، ونكث بيعتي ، وظاهر علی عدوي ، فاكفنيه اليوم
بما شئت « ثم نزل .
(ابن أبي الحديد م ١ : ١٠١)

(١) هبيلته أمه : نكلته .

(٢) القارة : قبيلة ، وهم قوم رماة . (٣) عضه : بهته وقال فيه مالم يكن .

١٦٥ - خطبة لعلی

حمد الله وصلى على رسوله ثم قال :

« أما بعد فإنه لما قبض الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ، قلنا نحن أهله وورثته وعترته وأولياؤه دون الناس ، لا ينازعنا سلطانه أحد ، ولا يطمع في حقنا طامع ، إذ انبرى لنا قومنا فغصبونا سلطان نبينا ، فصارت الإمرة لغيرنا ، وصرنا سوقة يطمع فينا الضعيف ، ويتعزز علينا الدليل ، فبكت الأعين منا لذلك ، وخشنت الصدور ، وجزعت النفوس . وأئتم الله لولا مخافة الفرقة بين المسلمين ، وأن يعود الكفر ويبور الدين ، لكننا على غير ما كنا لهم عليه ، فولى الأمر ولادة لم يألوها الناس خيرا ، ثم استخرج جثموني أيها الناس من بيتي ، فبايعتموني على شئ مني لأمركم ، وفراسة تصدقتني ماني قلوب كثير منكم ، وبايعني هذان الرجلان في أول من بايع - تعلمون ذلك - وقد نكثا وغدرا ونهضا إلى البصرة بعائشة ، ليفرقا جماعتكم ، ويلقيا بأسمك بينكم ، اللهم فخذها بما عملا أخذة واحدة رابية ، ولا تنعش لها صرعة ، ولا تُقل لها عثرة ، ولا تمهلها فواقا^(١) ، فإنهما يطلبان حقا تركاه ، ودما سفكاه ، اللهم إني أقتضيك وعدك ، فإنك قلت وقولك الحق « ثم بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللهُ » اللهم فأنجز لي موعودك ، ولا تكني إلى نفسي إنك على كل شيء قدير . »

(ابن أبي الحديد م ١ : ١٠١)

١٦٦ - خطبة عدی بن حاتم

يستنفر قومه لنصرة الإمام عليّ

ولما شخّص الإمام عليّ كرم الله وجهه من المدينة إلى البصرة وقد علم بمسير طلحة والزبير وعائشة إليها ، قام عدی بن حاتم إليه فقال : يا أمير المؤمنين لو تقدمتُ إلى قومي

(١) الفواق بالضم ويفتح : ما بين الخلبتين من الوقت ، أو ما بين فتح يدك وقبضها على الضرع .

(١٩ - جمهرة خطب العرب - أول)

أخبرهم بمسيرك ، وأستنفِهم ، فإن لك من طيبي مثل الذى معك ، فقال على : نعم فافعل ، فتقدم عدى إلى قومه ، فاجتمعت إليه رؤساء طيبي ، فقال لهم :

« يا معشر طيبي : إنكم أمسكتم عن حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الشرك ، ونصرتم الله ورسوله فى الإسلام على الردّة ، وعلى قادم عليكم ، وقد ضمنت له مثل عدّة من معه منكم ، فخففوا ^(١) معه ، وقد كنتم تقاتلون فى الجاهلية على الدنيا ، فقاتلوا فى الإسلام على الآخرة ، فإن أردتم الدنيا فعند الله مغنم كثيرة ، وأنا أدعوكم إلى الدنيا والآخرة ، وقد ضمنت عنكم الوفاء ، وباهيت بكم الناس ، فأجيبوا قولى ، فإنكم أعز العرب داراً ، لكم فضل معاشكم وخيلكم ، فاجملوا فضل المعاش للعيال ^(٢) ، وفضل الخيل للجهاد ، وقد أظلمكم على والناس معه من المهاجرين والبدرين ^(٣) والأنصار ، فكونوا أكثرهم عدداً ، فإن هذا سبيل للحى فيه الغنى والسرور ، وللقتيال فيه الحياة والرزق » .

فصاحت طيبي : نعم نعم ! حتى كاد أن يُعَمَّ من صياحهم .

(الإمامة والسياسة ١ : ٤٥)

١٦٧ — خطبة زفر بن زيد

يستنفِر قومه لنصرة على أيضاً

وقام إلى على زفر بن زيد الأسدى - وكان من سادة بنى أسد - فقال : يا أمير المؤمنين ، إن طيبتاً إخواننا وجيراننا قد أجابوا عدياً ، ولى فى قومي طاعة ، فأذن لى فأتيتهم ، قال : نعم ، فأتاهم فجمعهم ، وقال :

(١) أى ارتحلوا مسرعين .

(٢) جمع عيل (كجيد) وهو من يجب الإنفاق عليه .

(٣) أى الذين حضروا وقعة بدر .

« يا بني أسد : إن عدى بن حاتم ضمن لعلى قومه ، فأجابوه ، وقصوا عنه ذمّاه^(١) ، فلم يقتل الغنى بالغنى ، ولا الفقير بالفقر ، وواسى بعضهم بعضاً حتى كأنهم المهاجرون في الهجرة ، والأنصار في الأثر^(٢) ، وهم جيرانكم في الديار ، وخلطاءكم^(٣) في الأموال ، فأنشدكم الله لا يقول الناس غداً : نصرت طيئاً ، وخذلت بنو أسد ، وإن الجار يُقاس بالجار ، كالنعل بالنعل ، فإن خفيتم فتوسّعوا في بلادهم ، وانضموا إلى جيلهم ، وهذه دعوة لها ثوابٌ من الله في الدنيا والآخرة » .

(الإمامة والسياسة ١ : ٤٦)

١٦٨ — خطبة علي بالربذة

روى الطبرى قال :

لما أتى عليا الخبر - وهو بالمدينة - بأمر عائشة وطلحة والزبير أنهم قد توجهوا نحو العراق ، خرج يبادر وهو يرجو أن يدركهم ويردهم ، فلما انتهى إلى الربذة^(٤) أتاه عنهم أنهم قد أمعنوا ، فأقام بالربذة أياماً ، وبقي بها يتبهاً ، وأرسل إلى المدينة فالحقه ما أراد من دابة وسلاح ، وقام في الناس فخطبهم وقال :

« إن الله عز وجل أعزنا بالإسلام ، ورفّعنا به ، وجعلنا به إخواناً بعد ذلّة وقلّة ، وتباغض وتباعد ، فجرى الناس على ذلك ما شاء الله ، الإسلام دينهم ، والحق فيهم ، والكتاب إمامهم ، حتى أصيب هذا الرجل بأيدى هؤلاء القوم الذين نزغهم الشيطان ، لينزغ بين هذه الأمة ، ألا إن هذه الأمة لا بد مفترقة كما افترت الأمم قبلهم ، فنعوذ بالله من شر ما هو كائن .

(١) المهدي والحرمة . (٢) أى يؤثر كل منهم أخاه على نفسه ، ويفضله كما فعل الأنصار بالمهاجرين

« وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ » (٣) الخلطاء: جمع خليط ، وهو الشريك .

(٤) قرب المدينة .

ثم عاد ثانية فقال : إنه لا بد مما هو كائن أن يكون . ألا وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة ، شرها فرقة تنتحلني ولا تعمل بعملى ، فقد أدركتم ورايتم ، فالزموا دينكم واهدوا بهدى نبيكم صلى الله عليه وسلم واتبعوا سنته ، واعرضوا ما أشكل عليكم على القرآن ، فما عرفه القرآن فالزموه ، وما أنكره فردوه ، وارضوا بالله عز وجل رباً وبالإسلام ديناً ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ، وبالقرآن حكماً وإماماً .

(تاريخ الطبرى ٥ : ١٨٥)

١٦٩ خطبة سعيد بن عبيد الطائى

ولما كان الإمام على كرم الله وجهه بالرَّبْدَة ، أتته جماعة من طيى ، فقيل لعلى : « هذه جماعة من طيى قد أتتك ، منهم من يريد الخروج معك ، ومنهم من يريد التسليم عليك » قال : « جزى الله كلاً خيراً ، وَفَضَلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا » ثم دخلوا عليه ، فقال على : ما شهدتمونا به ؟ قالوا : شهدناك بكل ما تحب ، قال : « جزاكم الله خيراً ، فقد أسلمتم طائعين ، وقاتلم المرتدين ، ووافيتم بصداقاتكم المسلمين » فنهض سعيد بن عبيد الطائى فقال :

« يا أمير المؤمنين : إن من الناس من يُعَبِّرُ لسانه عما فى قلبه ، وإنى والله ما كُلتُ ما أُجِدُّ فى قلبى يُعَبِّرُ عنه لسانى ، وسأجهدُ (وبالله التوفيق) أما أنا فسانصح لك فى السرِّ والعلانية ، وأقاتل عدوك فى كل موطن ، وأرى لك من الحق ما لا أراه لأحد من أهل زمانك ، لفضلك وقرابتك » .

قال : رحمتك الله ! قد أدى لسانك عما يُجِنُّ^(١) ضميرك ، فقتل معه صفيين رحمه الله !

(تاريخ الطبرى ٥ : ١٨٤)

١٧٠ - خطبة الحسن بن علي

ولما دخل الحسن وعمار الكوفة اجتمع إليهما الناس فقام الحسن فاستنفر الناس .
فحمد الله وصلى على رسوله ثم قال :

« أيها الناس إننا جئنا ندعوكم إلى الله وإلى كتابه وسنة رسوله ، وإلى أفقه من تفقه من المسلمين وأعدل من تعدلون ، وأفضل من تفضلون ، وأوفى من تبايعون ، من لم يعبه القرآن ، ولم تجهله السنة ، ولم تقعد به السابقة ، إلى من قرّبه الله تعالى ورسوله قرابتين قرابة الدين وقرابة الرحم ، إلى من سبق الناس إلى كل مآثرة ، إلى من كفى الله ورسوله والناس متخاذلون ، فقرّب منه وهم متباعدون ، وصلى معه وهم مشركون ، وقاتل معه وهم منهزمون ، وبارز معه وهم محجمون ، وصدّقه وهم يكذبون ، إلى من لم تردّ له ولا تكافأ له سابقة ، وهو يسألكم النصر ، ويدعوكم إلى الحق ، ويأمركم بالمسير إليه لتوازروه وتنصروه على قوم نكثوا بيعته ، وقتلوا أهل الصلاح من أصحابه ، ومثلوا بعالمه ، واتهبوا بيت ماله ، فاشخصوا إليه رحمكم الله ، فمروا بالمعروف وانهموا عن المنكر ، واحضروا بما يحضر به الصالحون » .

(شرح ابن أبي الحديد م ٣ : ٢٩٢)

١٧١ - خطبة أخرى للحسن

« الحمد لله العزيز الجبار ، الواحد القهار ، الكبير المتعال ، سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار ، أحمدته على حسن البلاء ، وتظاهر النعماء ، وعلى ما أحببنا وكرهنا من شدة ورخاء ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، امتن علينا بنبوته ، واختصه برسالته ، وأنزل عليه وحيه ، واصطفاه على جميع خلقه ، وأرسله إلى الإنس والجن ، حين عبّدت الأوثان ، وأطبع الشيطان ، ووجد الرحمن ، وصلى الله عليه وعلى آله ، وجزاه أفضل ماجزى المسلمين .

أما بعد ، فإني لا أقول لكم إلا ما تعرفون ، إن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ،
أرشد الله أمره ، وأعز نصره ، بعثني إليكم يدعوكم إلى الصواب ، وإلى العمل بالكتاب ،
والجهاد في سبيل الله ، وإن كان في عاجل ذلك ما تكرهون ، فإن في آجله ما تحبون
إن شاء الله .

ولقد علمتم أن علياً صلى مع رسول الله صلى الله عليه وآله وحده . وإنه يوم صدق به
لني عاشرة من سنه ، ثم شهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله جميع مشاهدته ، وكان من
اجتهاده في مرضاة الله وطاعة رسوله وآثاره الحسنة في الإسلام ما قد بلغكم ، ولم يزل
رسول الله صلى الله عليه وآله راضياً عنه ، حتى غمضه بيده ، وغسله وحده ، والملائكة
أعوانه ، والفضل ابن عمه ينقل إليه الماء ، ثم أدخله حفرة ، وأوصاه بقضاء دينه وعِداته
وغير ذلك من أموره ، كل ذلك من من الله عليه .

ثم والله ما دعا إلى نفسه ، ولقد تذاك الناس عليه تذاك الإبل الهيم عند ورودها ،
فبايعوه طائعين ، ثم نكث منهم نا كثون بلا حدث أحدثه ، ولا خلاف أتاه ، حسداً
له وبغياً عليه .

فعليكم عباد الله بتقوى الله وطاعته والجد والصبر والاستعانة بالله والخفوف إلى ما دعاكم
إليه أمير المؤمنين ، عصمنا الله وإياكم بما عصم به أوليائه وأهل طاعته ، وألهمنا وإياكم
نقواه ، وأعاننا وإياكم على جهاد أعدائه ، وأستغفر الله العظيم لي ولكم .

(شرح ابن أبي الحديد م ٣ : ٢٩٢)

١٧٢ - خطبة عمار بن ياسر

وقام بعده عمار ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله ثم قال :

أيها الناس أخو نبيكم وابن عمه يستنفركم لنصر دين الله وقد بلاكم الله بحق دينكم ،
وحرمة أمكم ، فحق دينكم أوجب ، وحرمة أعظم .

« أيها الناس عليكم بإمام لا يؤدّب ، وبقية لا يعلم ، وصاحب بأس لا ينكل ،
وذي سابقة في الإسلام ليست لأحد ، وإنكم لو قد حضرتموه بين لكم أمركم إن
شاء الله » .

١٧٣ - خطبة أبي موسى الأشعري

فلما سمع أبو موسى الأشعري خطبة الحسن وعمار قام فصعد المنبر وقال :

الحمد لله الذي أكرمنا بمحمد فجمعنا بعد الفرقة ، وجعلنا إخواناً متحابين بعد العداوة
وحرّم علينا دماءنا وأموالنا، قال الله سبحانه : (وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمُ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)
وقال تعالى : (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا) فاتقوا الله عباد الله .
وضعوا أسلحتكم ، وكفوا عن قتال إخوانكم .

أما بعد ، يا أهل الكوفة إن تطيعوا الله باديًا ، وتطيعوني ثانياً تكونوا جُرثومة^(١) من
جرائم العرب ، يأوى إليكم المضطر ، ويأمن فيكم الخائف ، إن علياً إنما يستنفركم لجهاد
أمكم عائشة وطلحة والزبير حوارى رسول الله ومن معهم من المسلمين، وأنا أعلم بهذه الفتن .
إنها إذا أقبلت شبّهت ، وإذا أدبرت أسفرت ، إني خائف عليكم أن يلتقى غاراً منكم
فيقتلوا ، ثم يُتركا كالأحلاس الملقاة بِنَجْوَةٍ من الأرض لا يُدرى من أين تؤتى ، تترك
الحليم حيران ، كأنى أسمع رسول الله صلى الله عليه وآله بالأمس يذكر الفتن فيقول :
أنت فيها نأماً خيراً منك قاعداً ، وأنت فيها جالساً خيراً منك قائماً ، وأنت فيها قائماً خيراً
منك ساعياً ، فقلّوا سيوفكم ، وقصّفوا رماحكم ، وأنصّلوا^(٢) مهامكم ، وقطعوا أوتاركم ،
وخلوا قريشاً ترتق فتقها ، وترأب صدعها ، فإن فعلت فلا نفسها ما فعلت ، وإن أبت فعلى
أنفسها ما جنت ، سمنها في أديمها ، استنصحنوني ولا تستغشوني ، وأطيعوني ولا تعصوني ،
يتبين لكم رشدكم ، وتصلى هذه الفتنة من جناها . (شرح ابن الحديد م ٢٩٣)

(١) جرموثة الشيء: أصله . (٢) أنصل السهم ونصله بالتشديد: جعل فيه نصلاً وأزاله عنه - ضد - .

صورة أخرى

١٧٤ - خطبة أبي موسى الأشعري

وكتب الإمام عليّ من الرّبذة أبا موسى الأشعري - وكان عامله على الكوفة -
ليستنفر الناس لقتال عائشة ومن معها ، فثبّطهم وخطبهم ، فقال :

« أيها الناس : إن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الذين صحبوه في الوطن ، أعلم بالله
جلّ وعزّ وبرسوله صلى الله عليه وسلم ممن لم يصحبه ، وإن لكم علينا حقا ، فأنا مؤدّيه
إليكم ، كان الرأي ألاّ تستخفوا بسلطان الله عزّ وجلّ ، ولا تجترثوا على الله عزّ وجلّ ،
وكان الرأي الثاني أن تأخذوا من قديم عليكم من المدينة فتدروهم إليها ، حتى يجتمعوا ، وهم
أعلم بمن تصلح له الإمامة منكم ، ولا تكلفوا الدخول في هذا ، فأما إذ كان ما كان ،
فإنها فتنة صمّاء ، النائم فيها خير من اليقظان ، واليقظان فيها خير من القاعد . والقاعد خير
من القائم ، والقائم خير من الراكب ، فكونوا جرثومة^(١) من جرائم العرب ،
فأغمدوا^(١) السيوف ، وأنصلوا الأسنة ، واقطعوا الأوتار ، وآووا المظلوم والمضطهد ،
حتى يلتئم هذا الأمر ، وتفجلى هذه الفتنة . »

(تاريخ الطبري ٥ : ١٨٧ ، والكامل لابن الأثير ٣ : ١١٣)

(١) غمد السيف يغمده كنصر وضرب وأغمده : جملة في الغمد .

١٧٥ - صورة أخرى

وخطب أيضاً في هذا الصدد ، فقال :

« أيها الناس : أطيعوني تكونوا جرنومة من جرائم العرب ، ياوى إليكم المظلوم ، ويأمن فيكم الخائف ، إنا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أعلم بما سمعنا ، إن الفتنة إذا أقبلت شُبِّهت ، وإذا أدبرت بَيِّتت ، وإن هذه الفتنة باقرة^(١) كداء البطن ، تجرى بها الشَّمال وَالجنُوب ، وَالصبا^(٢) والدَّبور ، فتسكن أحياناً ، فلا يُدْرَى من أين تؤتى ، تَذرُ الحلِيم كَابْنِ أَمْس ، شِيمُوا^(٣) سيوفكم ، وَفَصِّدُوا^(٤) رماحكم ، وأرسلوا سهامكم ، واقطعوا أوتاركم ، والزموا بيوتكم ، خَلُّوا قريشاً إذا أَبَوْا إلاَّ الخُروجَ من دار الهجرة ، وفراق أهل العلم بالإمرة ، ترتق^(٥) فتقها ، وَتَشَعِب^(٦) صدعها ، فإن فعلت فلا نفسها سَعَت ، وإن أبت فعلى أنفسها جنت ، سمَّها شُرَيْق في أديمها ، استنصحوني ولا تستغشوني ، وأطيعوني يَسَلِّمَ لكم دينكم ودنياكم ، ويشقى بحرِّ هذه الفتنة من جناها . »

١٧٦ - خطبة زيد بن صوحان

فقام زيد بن صوحان ، فشال^(٧) يده المقطوعة ، فقال :

« يا عبد الله^(٨) بَنَ قَيْس ، رُدَّ الفُرات عن أدراجه^(٩) ، أَرُدُّده من حيث يجيء ، »

(١) فتنة باقرة : صادعة للألغة شاقة للعصا . وفي الكامل لابن الأثير : فاقرة بانفاه ، وهي الداهية تكسر فقار الظهر . (٢) الصبا : ريح تهب من مطلع الشمس إذا استوى الليل والنهار . والدبور : ريح تقابلها . (٣) شام سيفه يشيمه : غمده واستله ، ضد . (٤) التقصيد والقصد : الكسر بأى وجه كان أو بالنصف ، ورمح قصد ككثف وقصيد وأقصاد متكسر . (٥) رتق الفتق : سدده . (٦) الشعب : الإصلاح والإفساد ، والجمع والتفريق ، ضد . (٧) شال : رفع ؛ قطعت يده يوم جلولاه ، وقيل بالقادسية في قتال الفرس ؛ وقتل يوم الجمل (أسد الغابة ٢ : ٢٣٤) . (٨) هو اسم أبي موسى . (٩) جمع درج بفتحيتين ، وهو الطريق .

حتى يعود كما بدأ ، فإن قدرت على ذلك ، فستقدر على ما تريد ، فدع عنك ما لست
مُدْرِكَه ، ثم قرأ : (أَلَمْ ، أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكَوْا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ،
وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ) سيروا
إلى أمير المؤمنين ، وسيد المسلمين ، وَأَنْفِرُوا^(١) إليه أجمعين ، تصيبوا الحق .

١٧٧ - خطبة القعقاع بن عمرو

فقام القعقاع بن عمرو فقال :

« إني لكم ناصح ، وعليكم شفيق ، أحب أن ترشدوا^(٢) ، وَلَا أَقُولَنَّ لَكُمْ قَوْلًا
هُوَ الْحَقُّ ، أَمَا مَا قَالَ الْأَمِيرُ فَهُوَ الْأَمْرُ ، لو أن إليه سبيلاً ، وأما ما قال زيد فزيد عدو هذا
الأمر ، فلا تستنصحوه ، فإنه لا ينتزع أحد من الفتنة طعن فيها ، وجرى إليها ، والقول
الذي هو الحق أنه لا بد من إماره تنظيـم الناس ، وتزع^(٣) الظالم ، وتُعز المظلوم ، وهذا
على بلى بما ولى ، وقد أنصف في الدعاء ، وإنما يدعو إلى الإصلاح ، فانفروا وكونوا من هذا
الأمر بمرأى ومسمع . »

١٧٨ - خطبة سيحان بن صوحان

وقال سيحان :

« أيها الناس : إنه لا بد لهذا الأمر وهؤلاء الناس من وال ، يدفع الظالم ويُعز
المظلوم ، ويجمع الناس ، وهذا واليكم يدعوكم لينظر فيما بينه وبين صاحبيه^(٤) ، وهو المأمون
على الأمة ، الفقيه في الدين ، فمن نهض إليه ، فإننا سائرنا معه . »

(١) اذهبوا . وكانت السيدة عائشة قد كتبت إليه كتابا تأمره فيه بملازمة بيته أو نصرتها ، فقال :

أمرت أن تقر في بيتها ، وأمرنا أن نقاتل حتى لا تكون فتنة ، فأمرتنا بما أمرت به ، وركبت ما أمرنا به .

(٢) رشد : كنصر وفرح . (٣) تردع وتكف . (٤) طلحة والزبير .

١٧٩ - خطبة الحسن بن علي

وقام الحسن بن علي رضي الله عنه ، فقال :

« أيها الناس : أجيئوا دعوة أميركم ، وسيروا إلى إخوانكم ، فإنه سيوجد لهذا الأمر من ينفّر إليه ، والله لأن يلبّيه أولو النهى أمثل في العاجلة ، وخير في العاقبة ، فأجيئوا دعوتنا ، وأعينونا على ما ابتلينا به وابتليتم ، وإن أمير المؤمنين يقول : قد خرجت مخرجي هذا ظالماً أو مظلوماً ، وإني أذكر الله رجلاً رعى حق الله إلا نفّر ، فإن كنت مظلوماً أعانني ، وإن كنت ظالماً أخذ مني ، والله إن طلحة والزبير لأول من بايعني ، وأول من غدر ، فهل استأثرت بمال ، أو بدلت حكماً ؟ فأنفروا ، فمروا بالمعروف ، وانهوا عن المنكر » .

(تاريخ الطبري ٥ : ١٨٨ ، والكمال لابن الأثير ٣ : ١١٤)

١٨٠ - وفادة القعقاع بن عمرو إلى أصحاب الجمل

ولما نزل الإمام عليّ كرم الله وجهه بذي قار ، دعا القعقاع بن عمرو ، فأرسله إلى أهل البصرة ، وقال له : اتق هذين الرجلين - طلحة والزبير - يابن الحنظلية ، « وكان القعقاع من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم » فاذعُهما إلى الألفة والجماعة ، وعظّم عليهما الفرقة ، وقال له : كيف أنت صانع فيما جاءك منهما ، مما ليس عندك فيه وصاة^(١) مني ؟ فقال : نلقاهم بالذي أصرت به ، فإذا جاء منهما أمر ليس عندنا منك فيه رأي ، اجتهدنا الرأي ، وكلمناهم على قدر ما نسمع ونرى أنه ينبغي ، قال : أنت لها .

(١) وصية .

فخرج القعقاع حتى قَدِمَ البصرة فبدأ بعائشة رضى الله عنها ، فسلم عليها ، وقال :
أى أمة : ما أشخصك وما أقدمك هذه البلدة ؟ قالت : أى بنى : إصلاح بين الناس ،
قال : فابغى إلى طلحة والزبير ، حتى تسمى كلامى وكلامهما ، فبعثت إليهما فجاءا ، فقال :
إنى سألت أم المؤمنين ما أشخصها وأقدمها هذه البلاد ؟ فقالت : إصلاح بين الناس ،
فما تقولان أنما ؟ أمُتابعان أم مُخالفان ؟ قالا : متابعان ، قال : فأخبرانى ، ما وجه هذا
الإصلاح ؟ فوالله لئن عرفناه أنصلحن ، ولئن أنكرناه لا نصلح ، قالا : قتلة عثمان
رضى الله عنه ، فإن هذا إن ترك كان تركاً للقرآن ، وإن عمل به كان إحياءاً للقرآن ،
فقال : قد قتلما قتلة عثمان من أهل البصرة ، وأنتم قتلتم أقرب إلى الاستقامة منكم
اليوم ، قتلتم ستمائة إلا رجلاً ، فغضب لهم ستة آلاف ، واعتزلوكم ، وخرجوا من بين
أظهركم ، وطلبتم ذلك الذى أفدت — يعنى حرقوص بن زهير — ففنع ستة آلاف
وهم على رجل ، فإن تركتموه كنتم تاركين لما تقولون ، فإن قاتلتموهم والذين اعتزلوكم
فأديلوا^(١) عليكم ، فالذى حذرتم وقرَّبتم^(٢) به هذا الأمر أعظم مما أراكم تكرهون ،
وأنتم أحيمم مُضَرَّ وربيعة من هذه البلاد ، فاجتمعوا على حربكم وخذلانكم نصرَةً لهؤلاء
كما اجتمع هؤلاء لأهل هذا الحدِّ العظيم ، والذنب الكبير .

فقالت أم المؤمنين : فتقول أنت ماذا ؟ قال : أقول هذا الأمر دواؤه التسكين ، وإذا
سكن اختلجوا^(٣) ، فإن أنتم بايعتمونا فعلامة خير ، وتباشيرُ رحمة ، ودَرَكَ بئارِ هذا
الرجل ، وعافية وسلامة لهذه الأمة ، وإن أنتم أبيتم إلا مكابرةَ هذا الأمر واعتسافه ،
كانت علامة شرٍّ وذهاب هذا الثار ، وبعثة الله فى هذه الأمة هزاهزاً^(٤) ، فأثروا العافية
ترزقوها ، وكونوا مفاتيح الخير ، كما كنتم تكونون ، ولا تعرِّضونا للبلاء ، ولا تعرِّضوا

(١) أى غلبوكم وانتصروا عليكم . (٢) فربه (كسمع) قرب منه (ككرم) .

(٣) اضطربوا وتفككوا . (٤) الهززة والهزاهز : تحريك البليات والحروب الناس .

له ، فَيَصْرَعَنَا وَيَاكُمْ ، وَأَيْمُ اللَّهِ إِنِّي لَأَقُولُ هَذَا وَأَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ ، وَإِنِّي لَخَائِفٌ الْآيَمِيمِ ،
حتى يأخذ الله عزَّ وجلَّ حاجته من هذه الأمة ، التي قلَّ متاعها ، ونزل بها ما نزل ، فإن
هذا الأمر الذي حدث ليس يُقَدَّر ، وليس كالأمور ، ولا كقتل الرَّجُلِ الرَّجُلَ ، ولا
النفر الرجلَ ، ، ولا القَبِيلَةَ الرَّجُلَ .

فقالوا : نعم ، إذن قد أحسنت وأصبت المقالة فارجع ، فإن قَدِمَ عليّ ، وهو على مثل
رأيك ، صلح هذا الأمر ، فرجع إلى عليّ فأخبره ، فأعجبه ذلك ، وأشرف القوم على الصلح ^(١) .
(تاريخ الطبري ٥ : ١٩١)

١٨١ - خطبة علي بن أبي طالب

فلما رجع القمقاع من عند أم المؤمنين وطلحة والزبير ، جمع الإمام عليّ الناس ، ثم قام
على الغرائر ، فحمد الله عزَّ وجلَّ ، وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، وذكر
الجاهلية وشقاها ، والإسلام والسعادة ، وإنعام الله على الأمة بالجماعة بالخليفة ، بعد رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، ثم الذي يليه ، ثم الذي يليه ، ثم حدث هذا الحدث ، الذي جرَّه
على هذه الأمة أقوام طلبوا هذه الدنيا ، حسدوا من أفاءها الله عليه على الفضيلة ، وأرادوا
رد الأشياء على أديبارها ، والله بالغ أمره ، ومُصِيبٌ ما أراد ، ألا إني راحلٌ غدًا فارتحلوا ،
ألا ولا يرتهلن غدًا أحدٌ أعان على عثمان رضى الله عنه بشيء ، في شيء من أمور الناس ،
وَلْيُفْنِ السُّفَهَاءُ عَنِّي أَنفُسَهُمْ .

(تاريخ الطبري ٥ : ١٩٤)

(١) ولكن السبئيين أحبطوا مساعي الصلح ، إذ خرجوا في الغلس دون أن يشعروا بهم أحد ، فقصدهم
مضرهم مضر البصرة ، وربيعتهم ربيعة البصرة ، ويمنهم يمن البصرة ، ووضعوا فيهم السلاح . فثار كل
قوم في وجوه أصحابهم ، ودارت رحى القتال بينهم ، وكلا الفريقين لا يعلم بكنهه تلك المكيدة ، وكان
بينهما ما كان .

١٨٢ - خطبة لعلی

ولما أراد علیّ المسیر إلى البصرة قام فخطب الناس فقال بعد أن حمد الله وصلى على رسوله :

إن الله لما قبض نبيه صلى الله عليه وآله . استأثرت علينا قریش بالأمر ، ودفعتنا عن حق نحن أحق به من الناس كافة ، فرأيت أن الصبر على ذلك أفضل من تفريق كلمة المسلمين ، وسفك دماهم ، والناسُ حديثو عهد بالإسلام ، والدين يُمخض مخض الوطْب^(١) يفسده أدنى وهن ، وينكسه^(٢) أقل خلق ، فولى الأمر قوم لم يألوا في أمرهم اجتهادا ، ثم انتقلوا إلى دار الجزاء ، والله ولىّ تمحيص سيئاتهم ، والعفو عن هفواتهم ، فما بال طلحة والزبير — وليسا من هذا الأمر بسبيل — لم يصبرا علىّ حولا ولا أشهراً حتى وثبنا ومرقا ، ونازعاني أمرا لم يجعل الله لها إليه سبيلا ، بعد أن بايعاني طائعين غير مكرهين ، يرتضعان أمّا قد فطمت ، ويحييان بدعة قد أميتت ، أدمَ عثمان زعماء ؟ والله ما التبعة إلا عندهم وفيهم ، وإن أعظم حجبتهم لعلی أنفسهم ، وأنا راض بحجة الله عليهم وعلمه فيهم ، فإن قاءً وأنا با لحظهما أحرزا ، وأنفسهما غنيا ، وأعظمُ بهما غنيمَةً ، وإن أبا أعطيتهما حدَّ السيف ، وكفى به ناصرا لحقّ ، وشافيا لباطل » ثم نزل .

(شرح ابن أبي الحديد م ١ : ١٠٢)

(١) الوطْب : سقاء اللبن . (٢) فى الأصل « ويمكسه » وأراه محرفا ، نكسه : قلبه

١٨٣ - خطبة لعلی

وخطب فقال :

« الحمد لله على كل أمر وحال ، في الغدور والآصال ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، ابتعثه رحمة للعباد ، وحياة للبلاد ، - حين امتلأت الأرض فتنة ، واضطرب حيلها ، وعُبد الشيطان في أكنافها ، واشتمل عدو الله إبليس على عقائد أهلها ، فكان محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الذي أطفأ الله به نيرانها ، وأخذ به شرارها ، ونزع به أوتادها ، وأقام به ميلها ، إمام الهدى ، والنبي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ، فلقد صدع بما أمر به ، وبلغ رسالات ربه ، فأصلح الله به ذات البين ، وآمن به السبل ، وحقن به الدماء ، وألف به بين ذوى الضغائن الواغرة في الصدور ، حتى أتاه اليقين ، ثم قبضه الله إليه حميدا .

ثم استخلف الناس أبا بكر فلم يأل جهده ، ثم استخلف أبو بكر عمر فلم يأل جهده ، ثم استخلف الناس عثمان ، فقال منكم ونالم منه ، حتى إذا كان من أمره ما كان ، أتيتموني لتبايعوني فقلت لا حاجة لي في ذلك ودخلت منزلي فاستخرجتموني ، فقبضت يدي فبسطتموها ، وتداكم على حتى ظننت أنكم قاتلي ، وأن بعضكم قاتل بعض ، فبايعتموني وأنا غير مسرور بذلك ولا جدل ، وقد علم الله سبحانه أني كنت كارها للحكومة بين أمة محمد صلى الله عليه وآله ، ولقد سمعته صلى الله عليه وآله يقول : « ما من وائل يبلى شيئا من أمر أمتي إلا أتني به يوم القيامة مقلوبة يدها إلى عنقه على رؤوس الخلائق ، ثم ينشر كتابه ، فإن كان عادلا نجيا ، وإن كان جائرا هوى » حتى اجتمع على ملوكم ، وبايعني طلحة والزبير ، وأنا أعرف الغدر في أوجههما ، والنكث في أعينهما ، ثم استأذناني في العمرة فأعلمتهما أن ليس العمرة يريدان ، فسارا إلى مكة واستخفعا عاشة وخذعاها ، وشخص معهما أبناء الطلقاء ، فقدموا البصرة فقتلوا بها المسلمين وفعلوا المنكر ، وباعجبا

لاستقامتهما لأبي بكرٍ وعمر وبنيهما عليّ وهما يعلمان أنى لست دون أحدهما ، ولو شئت أن أقول لقلتُ ، ولقد كان معاوية كتب إليهما من الشام كتاباً يخدمهما فيه ، فكتماه عني ، وخرجا يوهمان الطغّام أنهما يطلبان بدم عثمان ، والله ما أنكرا على منكرا ، ولا جملا بيني وبينهم نصفاً ، وإن دم عثمان لمعصوب بهما ومطلوبٌ منهما ، يا خيبة الدّاعي إلام دعا؟ وبماذا أجيب؟ والله إنهما لعلّى ضلالة صمّاء ، وجهالة عمياء ، وإن الشيطان قد ذمر لها حزبه ، واستجلب منهما خيله ورّجه ، ليعيد الجور إلى أوّطانه ، ويردّ الباطل إلى نصابه .

ثم رفع يديه فقال : اللهم إنّ طلحة والزبير قطعاني وظلماني وألبا عليّ ، فاحلل ما عقدا ، وانكث ما أبرما ، ولا تغفر لها أبداً ، وأرهما المساءة فيما عملا وأملا .
(شرح ابن أبي الحديد م ١ : ١٠٢)

١٨٤ - خطبة الأشر

فقام إليه الأشر فقال :

« الحمد لله الذي منّ علينا فأفضل ، وأحسن إلينا فأجمل ، قد سمعنا كلامك يا أمير المؤمنين ، ولقد أصبتَ ووُفقتَ وأنت ابن عم نبيّنا ، وصهره ووصيه ، وأوّل مصدق به ومصلّ معه ، شهدت مشاهدَه كلها ، فكان لك الفضل فيها على جميع الأُمّة ، فمن اتبعك أصاب حظّه ، واستبشر بفلقه^(١) ، ومن عصاك ورغب عنك فإلى أمه الهاوية ، لعمرى يا أمير المؤمنين ما أمر طلحة والزبير وعائشة علينا بمُخيل^(٢) ، ولقد دخلَ الرّجلان فيما دخلا فيه ، وفارقا على غير حدّث أحدثت ولا جور صنعت ، فإن زعما أنهما يطلبان بدم عثمان فليقيدا من أنفسهما ، فإنهما أوّل من ألب عليه وأغرى النَّاس بدمه ، وأشهد الله لئن لم يدخلوا فيما خرجا منه لنلحقنهما بعثمان ، فإن سيوفنا في عواتقنا ، وقلوبنا في صدورنا ، ونحن اليوم كما كنّا أمس » ثم قعد .
(شرح ابن أبي الحديد م ١ : ١٠٢)

(١) الفلج : الفوز . (٢) من أخالت الناقة إذا كان في ضرعها لبن ، والأرض بالنبات ازدانت .

١٨٥ - خطبة السيدة عائشة (توفيت سنة ٥٧ هـ)

وخطبت السيدة عائشة وقد أخذ الناس مصافهم للحرب فقالت :

« أما بعد : فإننا كنا نعلمنا على عثمان ضرب السوط ، وإسرة الفتيان ، وموقع السحابة المحمية ، ألا وإنكم استعقبتموه فأعقبكم ، فلما مُصِّتموه (١) كما يخاص الثوب الرِّحيض (٢) عدوتم عليه ، فارتكبتم منه دما حراما ، وإيم الله إن كان لأحصنكم فرجا ، وأتقاكم الله . »

(شرح ابن أبي الحديد ٢ : ٨١)

١٨٦ - خطبة لعلي

وخطب على لما توافف الجمعان فقال :

« لا تقاتلوا القوم حتى يبدءوكم ، فإنكم محمد الله على حجة ، وكفكم عنهم حتى يبدءوكم حجة أخرى ، وإذا قاتلتموهم فلا تجهزوا على جريح ، وإذا هزمتموهم فلا تتبعوا مدبرا ، ولا تكشفوا عورة ، ولا تملوا بقتيل ، وإذا وصلتم إلى حال القوم فلا تهتكوا سترا ، ولا تدخلوا دارا ، ولا تأخذوا من أموالهم شيئا ، ولا تهيجوا امرأة بأذى وإن شتمن أعراضكم ، وسببن أمراءكم وصلحاءكم ، فإنهن ضعاف القول والأنفس والعقول ، لقد كنا نؤمر بالكف عنهن وإنهن لمشركات ، وإن كان الرجل ليتناول المرأة بالهراوة والجريدة ، فيعيِّر بها وعقبه من بعده . »

(شرح ابن أبي الحديد ٢ : ٨١)

(١) الموص : ذلك باليد . (٢) رخص الثوب كمنه : غسله فهو رحيض ومرحوض .

١٨٧ - خطبة السيدة عائشة يوم الجمل

وخطبت السيدة عائشة رضي الله عنها أهل البصرة يوم الجمل فقالت :

« أيها الناس : صه صه ، إن لي عليكم حقًّا الأُمومة ، وَحُرْمَةَ المَوْعِظَةِ ، لَا يَتَّبِعُنِي إِلَّا مَنْ عَصَى رَبَّهُ ، مات رسول الله صلى الله عليه وسلم بين سَخْرِي ^(١) وَنَحْرِي ، فأنا إحدى نساؤه في الجنة ، له ادَّخَرَنِي رَبِّي ، وَخَلَصَنِي مِنْ كُلِّ بَضَاعَةٍ ، وَبِي مَبْرَ مَنْفَقَكُمْ مِنْ مُؤْمِنِكُمْ ، وَبِي أَرْخَصَ اللهُ لَكُمْ فِي صَيْدِ الأَبْوَاءِ ^(٢) ، ثُمَّ أَيْ ثَانِي اثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا وَأَوَّلُ مَنْ سُمِّيَ صِدِّيقًا ، مَضَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَاضِيًا عَنْهُ ، وَطَوَّقَهُ أَعْبَاءُ الإِمَامَةِ ، ثُمَّ اضْطَرَبَ حَبْلُ الدِّينِ بَعْدَهُ ، فَسَكَ أَبُو بَطْرَفِيهِ ، وَرَتَقَ لَكُمْ فَتَقَ النِّفَاقِ ، وَأَغَاضَ نَبْعَ الرَّدَّةِ . وَأَطْفَأَ مَا خَشَّ ^(٣) يَهُودٌ ، وَأَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ جُحُظُّ العِيُونَ ، تَنْظُرُونَ العَدْرَةَ ، وَتَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ ، فَرَأَبَ الثَّأْيِ ^(٤) وَأَوَّدَ ^(٥) مِنَ الغِلَظَةِ ، وَانْتَشَى مِنَ الهُوَّةِ ،

(١) السحر : الرثة . (٢) الصعيد : التراب أو وجه الأرض ، والأبواء : قرية بها قبر آمنة بنت وهب أم النبي صلى الله عليه وسلم ، تشير إلى ما حدث ببركتها من ترخيص المولى (جل وعلا) للمسلمين في التميم إذا لم يجدوا ماء يتوضئون به . وفي الحديث : « عن عائشة رضي الله عنها : قالت خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره حتى إذا كنا بالبيداء أو بذات الجيش انقطع عقدي ، فأقام رسول الله على التماسه ، وأقام الناس معه وليسوا على ماء ، فأق الناس إلى أبي بكر الصديق فقالوا ألا ترى ما صنعت عائشة ؟ أقامت برسول الله صلى الله عليه وسلم والناس ، وليسوا على ماء وليس معهم ماء ، فجاء أبو بكر ورسول الله قد نام ، فقال حبست رسول الله والناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء ، فقالت عائشة فعاتبنى أبو بكر ، وقال ما شاء الله أن يقول ، وجعل يطعنني بيده في خصاصرقي ، فقام رسول الله حين أصبح على غير ماء ، فأنزل الله آية التميم ، فتميموا ، فقال أسيد بن الحضير (بصيغة التصغير) ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر ، قالت فبعثنا البعير الذي كنت عليه فأصبنا المقد تحتة » (راجع الحديث كاملا في باب التميم من صحيح البخاري ١ : ٧٠ ، وصحيح مسلم ١ : ١٤٦) . (٣) حش النار : أوقدها . (٤) الثأى والثأى بسكون الهززة وفتحها : الإفساد . (٥) أوّده فتأود : عطفه فانمطف .

وَأُجْتَحَى^(١) دَفِينِ الدَّاءِ ، حَتَّى أَعْطَنَ^(٢) الْوَارِدُ ، وَأَوْزَدَ الصَّادِرُ ، وَعَلَّ^(٣) النَّاهِلُ ، فَقَبِضَهُ اللهُ إِلَيْهِ ، وَاطَّأَ عَلَى هَامَاتِ^(٤) النِّفَاقِ ، مُذْ كَيْبًا^(٥) نَارَ الْحَرْبِ لِلْمُشْرِكِينَ ، فَانْتَضَمَتْ طَاعَتِكُمْ بِحَبْلِهِ ، فَوَلَّى أَمْرَكُمْ رَجُلًا مُرْهِيًّا إِذَا رُكِنَ إِلَيْهِ ، بَعِيدَ مَا بَيْنَ اللَّابَتَيْنِ^(٦) ، عُرْكَةً لِلْأَذَاةِ بِجَنْبِهِ^(٧) ، صَفُوحًا عَنِ أَذَاةِ الْجَاهِلِينَ ، يَقْظَانُ اللَّيْلَ فِي نَصْرَةِ الْإِسْلَامِ ، فَسَلَّكَ مَسَلَّكَ السَّابِقَةِ ، فَفَرَّقَ شَمْلَ الْفِتْنَةِ ، وَجَمَعَ أَعْضَادَ مَا جَمَعَ الْقُرْآنُ ، وَأَنَا نُصَبُ الْمَسْأَلَةَ عَنْ مَسِيرِي هَذَا ، لَمْ أَلْمَسْ إِثْمًا ، وَلَمْ أُوْنِسْ فِتْنَةً أَوْ طِشْكُوهَا ، أَقُولُ قَوْلِي هَذَا صِدْقًا وَعَدْلًا ، وَإِعْذَارًا وَإِنْذَارًا ، وَأَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَيَّ مُحَمَّدًا ، وَأَنْ يُخَلِّفَهُ فِيكُمْ بِأَفْضَلِ خِلَافَةِ الْمُرْسَلِينَ .

(المقد الفريد ٢ : ١٥٦ - ٢٢٦)

١٨٨ - خطبة زفر بن قيس

وكتب الإمام على كرم الله وجهه ، مع زفر بن قيس إلى جرير بن عبد الله البجليّ - وكان على ثغر همدان استعمله عليه عثمان - كتاباً يخبره فيه بما كان بينه وبين أصحاب الجبل ، وما أوتى من الانتصار عليهم ، واستعمال ابن عباس على البصرة ، فلما قدم زفر على جرير بكتاب علىّ وقرأه جرير ، قام زفر خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : إن علياً كتب إليكم بكتاب ، لا نقول بعده إلا رَجِيْعًا^(٨) من القول ، إن الناس بايعوا علياً بالمدينة غير محاباةٍ ببيعتهم ، لعنه بكتاب الله وبرى الحق

(١) اجتعاها: استأصله . (٢) أعطن الإبل: حبسها عند الماء . (٣) العل والعلل: (بفتحين)

الشرب بعد الشرب تباعا عل يعل بكسر العين وضما ، والنهل: أول الشرب نهل ينهل كفرح .

(٤) جمع هامة: وهي الرأس . (٥) مشعلا . (٦) اللابة: الحرة بفتح الحاء (أرض ذات حجارة

نخرة سود) ولابتا المدينة: حرتان تكتنفانها . أرادت أنه واسع الصدر واسع العطن فاستعارت له اللابة ، كما

يقال: زحب الفناء واسع الجنب . (٧) أى يعرك الأذى بجنبه: أى يحتمله. وفي هذه الخطبة تحريف شديد

في الأصل وقد أصلحته كما يتبين بالمراجعة . (٨) الرجيع: كل مردد .

فيه ، وإن طلحة والزبير نقضاً ببيعة عليّ على غير حدث ، ثم لم يرضيا حتى نصباً له الحرب ، وألبأ^(١) عليه الناس ، وأخرج أم المؤمنين عائشة من حجابٍ ضربه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم عليها ، فلقبهما فأعذر في الدعاء ، وخشى البغي ، وحمل الناس على ما يعرفون ، فهذا عيان^(٢) ما غاب عنكم ، وإن سألتهم الزيادة زدناكم .

(الإمامة والسياسة ١ : ٦٩)

١٨٩ — خطبة جرير بن عبد الله البجلي

وقام جرير بن عبد الله البجليّ خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« أيتها الناس : هذا كتاب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، وهو المأمون على الدين والدنيا ، وكان من أمره وأمر عدوه ما قد سمعتم ، والحمد لله على أفضيئته ، وقد بايعه السابقون الأولون ، من المهاجرين والأنصار ، والتابعون بإحسان ، ولو جعل الله هذا الأمر شورى بين المسلمين لكان عليّ أحقّ بها ، ألا وإن البقاء في الجماعة ، والفناء في الفرقة ، وعليّ حاملكم ما استقمتم له ، فإن منتم أقام منكم . »
قال الناس : سمعاً وطاعة ، ورضانا رضاً من بعدنا .

(الإمامة والسياسة ١ : ٦٩)

١٩٠ — خطبة زياد بن كعب

وكتب الإمام عليّ كرم الله وجهه ، إلى الأشعث بن قيس — وكان عاملاً بأذربيجان ، استعمله عليها عثمان — بمثل ما كتب به إلى جرير بن عبد الله ، ووجه بالكتاب مع زياد بن كعب ، فلما قرأ الأشعث كتاب عليّ ، قام زياد بن كعب خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

(١) حرصاً . (٢) مصدر عابن الشيء : إذا رآه بعينه .

« أيها الناس : إنه من لم يكفه القليل ، لم يكفه الكثير ، وإن أمر عثمان لم ينفع فيه العيان ، ولم يشف منه الخبر ، غير أن من سمعه ليس كمن عاينه ، وإن المهاجرين والأنصار بايعوا علياً راضين به ، وإن طلحة والزبير نقضا بيعة علي غير حدث ، وأخرجوا أم المؤمنين علي غير رضا ، فسار إليهم ولم ينلهم ، فتركهم وما في نفسه منهم حاجة فأورثه الله الأرض ، وجعل له عاقبة المتقين » . (الإمامة والسياسة ١ : ٧٠)

١٩١ - خطبة الأشعث بن قيس

فقام الأشعث بن قيس فقال :

« أيها الناس : إن عثمان رحمه الله ولاني أذريجان ، وهلك وهي في يدي ، وقد بايع الناس علياً ، وطاعتنا له لازمة ، وقد كان من أمره وأمر عدوه ما قد بلغكم ، وهو المأمون على ما غاب عنا وعنكم من ذلك » . (الإمامة والسياسة ١ : ٧٠)

١٩٢ - خطبة جرير بن عبد الله البجلي

وبعث علياً إلى معاوية مع جرير بن عبد الله البجلي بكتاب يدعو إلى بيعته ، فلما قرأ الكتاب قام جرير فخطب فقال :

« الحمد لله المحمود بالعوائد ، المأمول فيه الزوائد ، المرتجى منه الثواب ، المستعان على النوائب ، أحمده وأستعينه في الأمور التي تحيّر دونها الألباب ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، كل شيء هالك إلا وجهه ، له الحكم وإليه ترجعون ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بعد فترة من الرسل الماضية ، والقرون الخالية ، فبلغ الرسالة ، ونصح للامة ، وأدّى الحق الذي استودعه الله وأمره بأدائه إلى أمته ، صلى الله عليه وآله ، من رسول ومبتعث ومنتخب وعلى آله .

أيها الناس إن أمر عثمان قد أعيان من شهده ، فكيف بمن غاب عنه ، وإن الناس بايعوا عليا غير واثق ولا متور ، وكان طلحة والزبير ممن بايعاه ، ثم نكثنا بيعته على غير حدث ، ألا وإن هذا الدين لا يحتمل الفتن ، وقد كانت بالبصرة أمس روعة مُلمة ، إن يشفع البلاء بمثلها فلا بقاء للناس ، وقد بايعت الأمة عليا ، ولو ملكنا والله الأمور لم نختر لها غيره ، فادخل معاوية فيما دخل فيه الناس ، فإن قلت استعملني عثمان ثم لم يعزاني فإن هذا قول لو جاز لم يقيم لله دين ، وكان لكل امرئ ما في يديه ، ولكن الله جعل للأخ من الولاية حق الأول ، وجعل الأمور موطأة ينسخ بعضها بعضها . ثم قعد .
(شرح ابن أبي الحديد ١ : ٢٤٨)

١٩٣ — خطبة معاوية

فقال معاوية : أنظر وتنظر وأستطلع رأي أهل الشام ، فمضت أيام ، وأمر معاوية مناديا ينادي : الصلاة جامعة ، فلما اجتمع الناس صعد المنبر ثم قال :
« الحمد لله الذي جعل الدعائم للإسلام أركاناً ، والشرائع للإيمان برهانا ، يتوقد قبسه في الأرض المقدسة ، جعلها الله محل الأنبياء والصالحين من عباده ، فأحلهم أرض الشام ، ورضيهم لها ، لما سبق في مكنون علمه من طاعتهم ومناصحتهم خلفاءه والقوام بأمره ، والذابين عن دينه وحرمانه ، ثم جعلهم لهذه الأمة نظاما ، وفي سبيل الخيرات أعلاما ، يردع الله بهم الناكثين ، ويجمع بهم ألفة المؤمنين ، والله نستعين على ما تشعب من أمر المسلمين بعد الالتئام ، وتباعد بعد القرب .

اللهم انصرنا على أقوام يوقظون نائمنا ، ويخيفون آمننا ، ويريدون إراقة دماننا ، وإخافة سبلنا ، وقد علم الله أننا لا نريد لهم عقابا ، ولا نهتك لهم حجابا ، ولا نوطئهم زلقا ، غير أن الله الحميد كسانا من الكرامة ثوبالبن نزع طوعا ، ما جاوب الصدى ، وسقط الندى ، وعرف الهدى ، حملهم على ذلك البغى والحسد ، فنستعين بالله عليهم .

« أيها الناس قد علمتم أني خليفة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وأمير المؤمنين عثمان
ابن عفان عليكم ، وأنى لم أقم رجلا منكم على خزاية قط ، وأنى وليّ عثمان وقد قتل
مظلوما ، والله تعالى يقول « وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ
فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا » وأنا أحب أن تعلموني ذات أنفسكم في قتل عثمان .

فقام أهل الشام بأجمعهم فأجابوا إلى الطلب بدم عثمان وبايعوه على ذلك ، وأوثقوا له
على أن يبذلوا بين يديه أموالهم وأنفسهم حتى يدركوا بثأره أو تلاحق أرواحهم بالله .
(شرح ابن أبي الحديد ١ : ٢٤٨)

فتنة معاوية

استطلاع الإمام عليّ كرم الله وجهه آراء أصحابه

وقد أراد المسير إلى الشام

لما أراد الإمام عليّ كرم الله وجهه المسير إلى الشام ، دعا من كان معه من المهاجرين والأنصار فجمعهم .

١٩٤ - خطبة الإمام عليّ

ثم حمد الله وأثنى عليه ، وقال :

« أما بعد : فإنكم مَيَّامِينُ الرَّأْيِ ، مَرَّاجِيحُ الْحَلْمِ ، مُبَارِكُوا الْأَمْرَ ، مَقَاوِيلُ بِالْحَقِّ ، وقد عزمنا على المسير إلى عدونا وعدوكم ، فأشيروا علينا برأيكم . »

١٩٥ - خطبة هاشم بن عتبة

فقام هاشم بن عتبة بن أبي وقاص ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال :

« أما بعد - يا أمير المؤمنين - فأنا بالقوم جِدُّ خَبِيرٍ ، هُمْ لَكَ وَأَشْيَاعُكَ أَعْدَاءٌ ، وَهَمْ لِمَنْ يَطْلُبُ حَرْثَ^(١) الدُّنْيَا أَوْلِيَاءٌ ، وَهَمْ مَقَاتِلُوكَ وَمَجَادِلُوكَ ، لَا يُبْتَقُونَ جُهْدًا ، مُشَاحَّةً^(٢) عَلَى الدُّنْيَا ، وَضِنًا^(٣) بِمَا فِي أَيْدِيهِمْ مِنْهَا ، لَيْسَ لَهُمْ إِزْبَةٌ^(٤) غَيْرَهَا ،

(١) أى متاعها . (٢) بخلا عليها وحرصا . (٣) ضن ضنا : بالكرم وضمناة بالفتح : بخل .

(٤) الإربة : الأرب .

إِلَّا مَا يَخْدَعُونَ بِهِ الْجَهَّالَ ، مِنْ طَلَبِ دَمِ ابْنِ عَفَّانَ ، كَذَبُوا لَيْسُوا لِدَمِهِ يَنْفِرُونَ^(١) .
ولكن الدنيا يطلبون ، انهض بنا إليهم ، فإن أجابوا إلى الحق فليس بعد الحق إلا الضلال ،
وإن أبوا إلا الشقاق ، فذاك ظني بهم ، والله ما أراهم يبايعون ، وقد بقي فيهم أحد ممن
يُطَاعُ إِذَا نَهَى ، وَلَا يَسْمَعُ إِذَا أَمَرَ .

١٩٦ - خطبة عمار بن ياسر

وقام عمار بن ياسر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال :
« يا أمير المؤمنين ، إن استطعت أن لا تقيم يوماً واحداً فافعل ، اشخص بنا قبل
استعمار^(٢) نَارِ الْفَجْرَةِ ، واجتماع رأيهم على الصدود والفرقة ، وادعهم إلى حظهم ورؤسدهم ،
فإن قبلوا سعدوا ، وإن أبوا إلا حربنا ، فوالله إن سفك دماهم ، والجِدِّ في جهادهم ،
لقربة عند الله ، وكرامة منه » .

١٩٧ - خطبة قيس بن سعد بن عبادة

ثم قام قيس بن سعد بن عبادة ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« يا أمير المؤمنين : انكش^(٣) بنا إلى عدونا ولا تعرِّج ، فوالله لجهادهم أحبُّ إلى
من جهاد الترك والروم ، لإدهانهم^(٤) في دين الله ، واستذلالهم أولياء الله من أصحاب محمد
صلى الله عليه وآله ، من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان ، إذا غَضِبُوا عَلَى رَجُلٍ
حَبَسُوهُ وَضَرَبُوهُ وَحَرَمُوهُ وَسَيَّرُوهُ^(٥) ، وَقَفَيْتُنَا لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ حَلَالٌ ، وَنَحْنُ لَهُمْ فِيهَا
يَزْعَمُونَ قَطِينٌ^(٦) » .

(١) نفر للأمر : ذهب له . (٢) أى اشتغال . (٣) انكش وتكش : أسرع .
(٤) الإدهان : المداينة والغش . (٥) المراد أبعده . (٦) القطين : الرقيق والخدم .

فقال أشياخ الأنصار ، منهم خزيمة بن ثابت وأبو أيوب وغيرها : لم تقدمت أشياخ قومك ، وبدأتهم بالكلام يا قيس ، فقال : أما إني عارف بفضلكم ، معظم لشأنكم ، ولكنني وجدت في نفسي الضغن الذي في صدوركم ، جاش حين ذكرت الأحزاب ، فقال بعضهم لبعض : ليقم رجل منكم ، فليُجِبَ أمير المؤمنين عليه السلام عن جماعتكم .

١٩٨ - خطبة سهل بن حنيف

فقام سهل بن حنيف ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« يا أمير المؤمنين : نحن سلم لمن سالت ، وحرب لمن حاربت ، ورأينا رأيك ، ونحن يمينك ، وقد رأينا أن تقوم في أهل الكوفة ، فتأمرهم بالشخص ، وتُخبرهم بما صنع لهم في ذلك من الفضل ، فإنهم أهل البلد ، وهم الناس ، فإن استقاموا لك ، استقام لك الذي تريد وتطلب ، فأما نحن فليس عليك خلاف منا ، متى دعوتنا أجبتك ، ومتى أمرتنا أطعناك . »

١٩٩ - خطبة الامام علي

وقام الإمام علي خطيباً على منبره ، يحرص الناس ويأمرهم بالمسير إلى صفين ، لقتال أهل الشام ، فقال :

« سيروا إلى أعداء الله ، سيروا إلى أعداء القرآن والسنة ، سيروا إلى بقية الأحزاب ^(١) وقتلة المهاجرين والأنصار . »

(١) يشير إلى الأحزاب التي تألبت وتظاهرت على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قريش ، وغطفان ، وبنو مرة ، وبنو أشجع ، وبنو سليم ، وبنو أسد في غزوة الأحزاب - غزوة الخندق - التي كانت سنة خمس للهجرة ، وكانت عدة الجميع عشرة آلاف مقاتل وقائدهم العام أبو سفيان .

فقام رجل من بني فزارة فقال له : أتريد أن تسير بنا إلى إخواننا من أهل الشام
نقتلهم كُلاً ، كما سرت بنا إلى إخواننا من أهل البصرة فقتلتهم كُلاً ؟ ها الله^(١)
إذن لا نفعل ذلك ، فقام الأشر فقال : من هذا المارق ؟ فهرب الفزاري ، واشتد الناس
على أثره ، فلحق في مكان من السوق ، تباع فيه البراذين^(٢) ، فوطئوه بأرجلهم ،
وضربوه بأيديهم ونصال سيوفهم ، حتى قُتل ، فأتى علي عليه السلام ، فقيل له :
يا أمير المؤمنين قُتل الرجل ، قال : ومن قتله ؟ قالوا : قتله همدان ومعهم شوب^(٣)
من الناس ، فقال : قتل عمية^(٤) لا يدرى من قتله ، دبت من بيت مال المسلمين ،
فقام الأشر فقال :

٢٠٠ - خطبة الأشر النخعي

« يا أمير المؤمنين لا يهدنك ما رأيت ، ولا يؤلنك من نصرنا ما سمعت من
مقالة هذا الشقي الخائن ، إن جميع من ترى من الناس شيعتك ، لا يرغبون بأنفسهم
عن نفسك ، ولا يحبون البقاء بعدك ، فإن شئت فسِر بنا إلى عدوك ، فوالله ما ينجو من
الموت من خافه ، ولا يعطى البقاء من أحبه ، وإنا لعلى بيدنة من ربنا ، وإن أنفسنا
لن تموت حتى يأتي أجلها ، وكيف لا نقاتل قومًا هم كما وصف أمير المؤمنين ، وقد
وثبت عصاة منهم على طائفة من المسلمين بالأمس ، وباعوا خلاقهم^(٥) بعرض من
الدنيا يسير . »

فقال علي : الطريق مُشترَك ، والناس في الحق سواء ، ومن اجتهد رأيه في نصيحة
العامة ، فقد قضى ما عليه « ثم نزل فدخل منزله . »

(١) هي ها التنبيه ، وهي تدخل على اسم الله في القسم عند حذف الحرف ، تقول : ها الله بقطع

الهمزة ووصلها ، وكلاهما مع إثبات ألف « ها » وحذفها . (٢) البراذين : الدواب ، جمع برذون .

(٣) خليط . (٤) قتل عميا بكسر العين والميم مشددة مع تشديد الياء : لم يدر من قتله . (٥) الخلاق :

التصيب الوافر من الخير .

٢٠١ - مقال من ثبطوه عن المسير

ولما أمر الإمام بالمسير إلى الشام ، دخل عليه عبد الله بن المُعْتَمِر المَدْبَسِي وَحَنَظَلَةَ ابن الرِّبِيع التَّمِيمِي ، في رجال كثير من غَطَفَانَ وبنِي تَمِيم ، فقال له حنظلة :

« يا أمير المؤمنين : إنا قد مشينا إليك في نصيحة فاقبلها ، وَرَأَيْنَا لَكَ رَأْيًا فَلَا تَرُدُّنَا عَلَيْنَا ، فَإِنَا نَنْظُرُ نَا لَكَ وَلَمَنْ مَعَكَ ، أَقِيمْ وَكَاتِبِ هَذَا الرَّجُلَ ، وَلَا تَعْجَلْ إِلَى قِتَالِ أَهْلِ الشَّامِ ، فَإِنَا وَاللَّهِ مَا نَدْرِي وَلَا تَدْرِي لِمَنْ تَكُونُ الْغَلْبَةُ إِذَا التَّقِيمُ ، وَلَا عَلَى مَنْ تَكُونُ الدَّيْبَةُ ^(١) » .

وقال ابن المعتم مثل قوله ، وتكلم القوم الذين دخلوا معها بمثل كلامهما .

٢٠٢ - رد الإمام عليهم

فحمد علي عليه السلام الله وأثنى ، ثم قال :

« أما بعد : فإن الله وارثُ العِبَادِ والبِلَادِ ، وَرَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ والأَرْضِينَ السَّبْعِ ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ، يُوْتِي الْمَلِكَ مِنْ يَشَاءَ ، وَيَنْزِعُ الْمَلِكَ مِنْ يَشَاءَ ، وَيُعِزُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَيُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، أَمَا الدَّيْبَةُ ، فَإِنَّهَا عَلَى الضَّالِّينَ الْعَاصِينَ ، ظَفِرُوا أَوْ ظَفِرَ بِهِمْ ، وَإِنَّمَا اللَّهُ إِنِّي لِأَسْمَعُ كَلَامَ قَوْمٍ مَا أَرَاهُمْ يَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا ، وَلَا يُنْكِرُونَ مُنْكَرًا » .

فقام إليه معقل بن قيس الرِّيَاحِي فقال :

« يا أمير المؤمنين : إن هؤلاء والله ما آثروك بنصح ، ولا دخلوا عليك إلا بغش ، فاحذرهم ، فإنهم أدنى العدو » .

(١) الدبيرة بسكون الباء وفتحها: الهزيمة في القتال .

وقال له مالك بن حبيب : « إنه بلغني يا أمير المؤمنين أن حنظلة هذا يكتب معاوية ، فادفعه إلينا نحبسّه ، حتى تَنْقِضِي غزاتك وتتصرف » .
وقام من بني عبس قائدُ بنُ بكير ، وعيَّاش بن ربيعة ، فقالا :
« يا أمير المؤمنين ، إن صاحبنا عبد الله بن المعتم قد بلغنا أنه يكتب معاوية ، فاحبسّه أو مَكَّنَّا مِنْ حَبْسِهِ ، حتى تَنْقِضِي غزاتك ثم تتصرف » .
فقالا : « هذا جزاء لمن نظر لكم ، وأشار عليكم بالرأى فيما بينكم وبين عدوكم ؟ »
فقال لهما عليٌّ عليه السلام : « الله بيني وبينكم وإليه أكلُكم ، وبه أَسْتَظْهِرُ عليكم ، اذهبوا حيث شئتم ^(١) » .

٢٠٣ - خطبة عدى بن حاتم الطائي

وقام عدِيُّ بن حاتم الطائي ، بين يدي عليٍّ عليه السلام ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وقال :

« يا أمير المؤمنين ، ما قلتَ إلا بعلم ، ولا دَعَوْتُ إلا إلى حق ، ولا أمرت إلا بِرُشْدٍ ، ولكن إذا رأيت أن تستأني ^(٢) هؤلاء القوم وتسند بهم ، حتى تأتيهم كتبك ، وتقدّم عليهم رُسُلك ، فعمت ، فإن يقبلوا يُصِيبُوا رُشْدَهُمْ ، والعافية أوسعُ لنا ولهم ، وإن يتمادوا في الشقاق ، ولا يَنْزِعُوا عن العَيِّ ، نَسِرْ إليهم ، وقد قدّمنا إليهم العذر ، ودعوناهم إلى مافي أيدينا من الحق ، فوالله لهم من الحق أبعدُ ، وعلى الله أهون

(١) هذا ، وقد خرجا إلى معاوية في رجال من قومهما ، ولكنهما لم يقاتلا معه واعتزلا الفريقين جميعا .

(٢) تنتظر .

من قوم قاتلناهم أُمسِ بناحية البصرة ، لَمَّا دعوناهم إلى الحق فتركوه ، ناوخناهم بَرَاكَاءَ القتال^(١) ، حتى بلغنا منهم ما نحب ، وبلغ الله منهم رضاه .

٢٠٤ — خطبة زيد بن حصين الطائي

فقام زيد بن حُصَيْن الطائي — وكان من أصحاب البرانس المجتهدين — فقال :

« الحمد لله حتى يَرْضَى ، ولا إله إلا الله رَبُّنَا ، أما بعد : فوالله إن كنا في شك في قتال من خالفنا ، ولا تَصْلُحُ لنا النِّيَّةُ في قتالهم حتى نستديمهم ونستأنئهم ، فما الأعمال إلا تَبَابٌ^(٢) ، ولا السعي إلا في ضلال ، والله تعالى يقول : (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) إننا والله ما ارتبنا طَرْفَةَ عين فيمن يتبعونه ، فكيف بأتباعه القاسية قلوبهم ، القليل من الإسلام حَظُّهم ، أعوان الظلمة ، وأصحاب الجورِ والعدوان ؟ ليسوا من المهاجرين ولا الأنصار ، ولا التابعين بإحسان .

فقام رجل من طيِّ فقال : « يا زَيْدُ بنَ حِصِين ، أكلامُ سيدنا عدى بن حاتم يَهْجَنُ^(٣) ؟ » فقال زيد : « ما أتم بأعْرَفَ بحق عَدِيٍّ مني ، ولا كنى لا أدع القول بالحق وإن سَخَطَ الناس .

٢٠٥ — خطبة أبي زينب بن عوف

ودخل أبو زينب بن عوف على الإمام علي فقال :

« يا أمير المؤمنين ، لئن كنا على الحق لأنت أهدانا سبيلا ، وأعظمتنا في الخير نصيباً ، ولئن كنا على ضلال إنك لأنقلتنا ظهراً^(٤) ، وأعظمتنا وزراً ، قد أمرتنا بالسير

(١) براكاء القتال وبروكاء: موضع اصطدام القوم، وناوخناهم مفاعلة، من أناخ الإبل: إذا أبركها،

والمعنى التقينا وإياهم في ساحة القتال. (٢) خسران. (٣) يقبح. (٤) لأنه حينئذ يكون أكثرهم ذنوباً.

إلى هذا العدو ، وقد قطعنا ما بيننا وبينهم من الوِلاية ، وأظهرنا لهم العداوة ، نريد بذلك ما يعلم الله تعالى من طاعتك ، أليس الذي نحن عليه هو الحق المبين ، والذي عليه عدونا هو الحُوب^(١) الكبير ؟ » .

فقال عليه السلام : « بلى ، شهدت أنك إن مضيت معنا ناصراً لدعوتنا ، صحيح النية في نصرنا ، قد قطعت منهم الولاية ، وأظهرت لهم العداوة ، كما زعمت ، فإنك ولى الله تسبّح في رضوانه ، وترزّك في طاعته ، فأبشّر أبا زينب » وقال له عمار بن ياسر : « أثبت أبا زينب ، ولا تشكّ في الأحزاب أعداء الله ورسوله » فقال أبو زينب : « ما أحبُّ أن لى شاهدين من هذه الأمة ، شهدا لى عما سألت من هذا الأمر الذى أهمني مكانكما » .

٢٠٦ - خطبة يزيد بن قيس الأرحبيّ

ودخل يزيد بن قيس الأرحبيّ^(٢) على على عليه السلام فقال :
« يا أمير المؤمنين : نحن أولو جهاز^(٣) وعدّة ، وأكثرُ الناس أهلَ قوة ، ومن ليس به ضعف ولا علة ، فمرُّ مُناديك فلينادِ الناس يخرجوا إلى معسكرهم بالخيلة ، فإن أخوا الحرب ليس بالسُّوم ولا النَّثوم ، ولا آمن إذا أمكنتهُ الفُرصُ أجلمها ، واستشار فيها ، ولا آمن يؤخر عمل الحرب اليومَ لغدٍ ، وبعد غدٍ » .

٢٠٧ - خطبة زياد بن النضر

فقال زياد بن النضر :

« لقد نصح لك يزيد بن قيس يا أمير المؤمنين ، وقال : ما يعرف ، فتوكل »

(١) الحوب بالفتح والنم : الإثم . (٢) نسبة إلى أرحب : وهى قبيلة من همدان .

(٣) جهاز المسافر والدروس والميت (بالكسر والفتح) ما يحتاجون إليه .

على الله وثق به ، واشخص بنا إلى هذا العدو راشداً معاناً ، فإن بُرد الله بهم خيراً لا يتركوك ، رغبةً عنك إلى من ليس له مثلُ سابقتك وقدمك ، وإلا يُنبِئوا وَيَقْبَلُوا ، وأبوا إلا حربناً نجد حربهم علينا هيئتنا ، ونرحو أن يعصرَهم الله مصارع إخوانهم ثم^(١) بالأمس .

٢٠٨ - خطبة عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي

ثم قام عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي فقال :

« يا أمير المؤمنين ، إن القوم لو كانوا ، الله يريدون ، والله يعملون ، ما خالفونا ، ولكن القوم إما يقاتلوننا فراراً من الأسوة^(٢) ، وحُباً للأثرة^(٣) ، ووضناً بسلطانهم ، وكرهاً لفراق دنياهم التي في أيديهم ، وعلى إحن^(٤) في نفوسهم ، وعداوةٍ يجدونها في صدورهم ، لوقائع أوقعتها يا أمير المؤمنين بهم قديمة ، قتلت فيها آباءهم وأعوانهم » ثم التفت إلى الناس فقال : « كيف يبائع معاوية علياً ، وقد قتل أخاه حنظلة ، وخاله الوليد ، وجدّه عتبة ، في موقف واحد^(٥) والله ما أظنهم يفعلون ، ولن يستقيموا لكم دون أن تُقصف فيهم قنأ المران^(٦) ، وتقطع على هامهم^(٧) السيوف ، وتشر حواجبهم بعمد الحديد ، وتكون أمور جمة بين الفريقين . »

(١) هناك ، يريد البصرة . (٢) الأسوة بالضم والكسر : القدوة : أي فرارا من أن يكونوا تابعين لك مسودين وأن تكون لهم إماما وسيدا . (٣) استأثر على أصحابه : اختار لنفسه أشياء حسنة ، والاسم الأثرة . (٤) جمع إحنة ، وهي الحقد والعداوة . أي ويقاتلوننا على إحن : أي من أجلها . (٥) هو جده لأمه عتبة بن أبي ربيعة ، وقد قتلهم على يوم بدر . وفي كتاب بعث به الإمام إلى معاوية يقول : « فأنا أبو حسن قاتل جدك وخالك وأخيك شدخنا يوم بدر وذلك السيف معي » . (٦) القنا : الرماح جمع قناة ، والمران : الرماح الصلبة اللدنة الواحدة مرانة ، وشجر ، والإضافة على المعنى الأول على حد قوله تعالى (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ) - إن فسر العرم بالمطر الشديد - (وفسر أيضا بالأحباس والسدود تبنى في الأودية ، وبالجرذ ، وبواد جاء السيل من قبله) وعلى المعنى الثاني : أي القنا المتخذة من الشجر . (٧) الهام جمع هامة : وهي الرأس .

٢٩ - أدب الامام علي ، وكرم خلقه

وخرج حُجْر بن عَدِيّ ، وعمرو بن الحَمِق ، يُظهِرَان البراءة من أهل الشام ، فأرسل عليّ عليه السلام إليهما أن كُفِّمَا عما يبلغني عنكما ، فأتياه فقالا : « يا أمير المؤمنين : ألسنا مُحَقِّقَيْن ؟ » قال : بلى ، قالا : « أو ليسوا مُبْطِلَيْن ؟ » قال : بلى ، قالا : « فَلِمَ مَنَعْتَنَا من شتمهم ؟ » قال :

« كَرِهْتُ لَكُمْ أَنْ تَكُونُوا لِعَانِينَ شَتَامِينَ ، تَشْتُمُونَ وتَبْرَهُونَ ، ولكن لو وصفتم مساوئ أعمالهم فقلتم : من سيرتهم كذا وكذا ، ومن أعمالهم كذا وكذا ، كان أصوبَ في القول ، وأبلغ في العُذْر ، وقلتم مكان لعنكم إياهم ، وبراءتكم منهم : اللهم احقن دماءهم ودماءنا ، وأصلح ذات بينهم وبيننا ، واهدهم من ضلالهم ، حتى يعرف الحقَّ منهم مَنْ جَهَلَهُ ، ويرعوى عن الغي والعدوان منهم مَنْ لَهَجَ بِهِ ، لكان أَحَبَّ إِلَيَّ ، وخيراً لكم . »

فقالا : يا أمير المؤمنين ، نقبل عظمتك ، ونتأدب بأدبك .

٢١٠ - مقال عمرو بن الحمق

وقال له عمرو بن الحَمِق يومئذ :

« والله يا أمير المؤمنين ، إني ما أحببتك ولا بايعتك على قرابة بيني وبينك ، ولا إرادة مال تُؤْتِينِيهِ ، ولا التماس سلطان ترفع ذِكْرِي بِهِ ، ولكنني أحببتك بخصال خمسٍ ، إنك ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله ، ووصيه ، وأبو الذرية التي بقيت فيما من رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأسبق الناس إلى الإسلام ، وأعظم المهاجرين منهمما

في الجهاد ، ولو أني كُفِّتُ نَقْلَ الجبالِ الرَّوَاسِي ، ونزَحَ البحورِ الطَّوَامِي ^(١) حتى يَأْتِيَ عَلِيَّ يَوْمِي فِي أَمْرٍ أَقْوَى بِهِ وَرَأْيِكَ وَأَهْمِنُ عَدُوَّكَ ، مَا رَأَيْتُ أَنِي قَدِ أَدَيْتُ فِيهِ كَلَّ الَّذِي يَحِقُّ عَلَيَّ مِنْ حَقِّكَ .

فقال عليُّ عليه السلام : « اللهم نور قلبه بالتقى ، واهداه إلى صراطك المستقيم ، ليت أن في جندي مائة مثلك » فقال حجر : إذن والله يا أمير المؤمنين صح جنديك ، وقل فيهم من يفتشك .

٢١١ - مقال حجر بن عدى

وقام حجر بن عدى فقال :

« يا أمير المؤمنين نحن بنو الحرب ، وأهلها الذين نُلَقِّبُهُمُ ^(٢) وَنُنْتَجِبُهُمُ ، قَدْ ضَارَسْتَنَا ^(٣) وضارسناها ، ولنا أعوانٌ وعشيرةٌ ذاتُ عددٍ ، ورأى مجرَّبٌ ، وبأسٌ محمودٌ ، وأزبَّتْنَا ، منقادةٌ لك بالسمع والطاعة ، فإن شرفت شرفنا ، وإن غربت غربنا ، وما أمرتنا به من أمر فعلنا . »

فقال عليُّ عليه السلام : أكلُّ قومك يرعى مثل رأيك ؟ قال : ما رأيتُ منهم إلا حسناً ، وهذه يدي عنهم بالسمع والطاعة وحسن الإجابة ، فقال له عليُّ عليه السلام خيراً .

٢١٢ - مقال هاشم بن عتبة

وقال زياد بن النضر الحارثي لعبد الله بن بُدَيْل الخزاعي :

« إن يومنا ليوم عَصَبَصَبٍ ^(٤) ، ما يبصر عليه إلا كلُّ مُشْبَعِ القلب ، صادق النية

(١) جمع طام ، من طمى البحر : إذا امتلأ . (٢) أصله من ألقي الفحل الناقة . (٣) ضرسته

الحرب تضريسا : جريته وأحكته ، وضارس الأمور : جربها وعرفها . (٤) أى شديد .

رابط الجأش ، وإيم الله ما أظن ذلك اليوم يُبقي منهم ولا منا إلا الرُّذَالُ^(١) » فقال عبد الله بن بديل : أنا والله أظن ذلك ، فبلغ كلامهما علياً عليه السلام ، فقال لهما : « ليكن هذا الكلام مخزوناً في صدوركما ، لا تُظهِراه ، ولا يسمعه منكما سامع ، إن الله كتب القتل على قوم والموت على آخرين ، وكل آتية مَنِيَّتُهُ كما كتب الله له ، فطوبى للمجاهدين في سبيله ، والمقتولين في طاعته » فلما سمع هاشم بن عتبة ما قالاه أتى علياً عليه السلام فقال :

« سر بنا يا أمير المؤمنين ، إلى هؤلاء القوم القاسية قلوبهم ، الذين نبدوا كتاب الله وراء ظهورهم ، وعملوا في عباد الله ، بغير رضا الله ، فأحلوا حرامه ، وحرّموا حلاله ، واستهوى^(٢) بهم الشيطان ، ووعدهم الأباطيل ، ومنّاهم الأمانى ، حتى أزاغهم عن الهدى ، وقصدَ بهم قصدَ الرّدى ، وحبّب إليهم الدنيا ، فهم يقاتلون على دنياهم رغبةً فيها ، كرهبتنا في الآخرة ، وانتجازِ موعد ربنا ، وأنت يا أمير المؤمنين أقرب الناس من رسول الله صلى الله عليه وآله رحماً ، وأفضل الناس سابقةً وقدما ، وهم يا أمير المؤمنين يعلمون منك مثل الذى نعلم ، ولكن كُتِبَ عليهم الشقاء ، ومالت بهم الأهواء ، وكانوا ظالمين . فأيدينا مبسوطة لك بالسمع والطاعة ، وقلوبنا منشحة لك ببذل النصيحة ، وأنفسنا تنصرك على من خالفك ، وتولى الأمر دونك ، جذلةً ، والله ما أحب أن لى ما على الأرض فما أقلت^(٣) ، ولا ما تحت السماء فما أظلت ، وأنى وائيت عدوّك ، وعاديت ولياً لك » .

فقال على عليه السلام : « اللهم ارزقه الشهادة في سبيلك والموافقة لنبيك » .

(١) اللذون : الخسيس ، أو الردىء من كل شيء . (٢) استهواه : استماله والفعل متعد ومفعوله هنا

مخزون : أى استهوى الشيطان أتباعهم بهم — فالباية للسببية . (٣) أى حملت .

٢١٣ - خطبة الامام عليّ

ثم إن علياً عليه السلام صعد المنبر، فخطب الناس ودعاهم إلى الجهاد، فبدأ بحمد الله والثناء عليه، ثم قال:

« إن الله قد أكرمكم بدينه، وخلقكم لعبادته، فانصبوا أنفسكم في أداء حقه، وتنجّزوا موعوده، واعلموا أن الله جعل أمراًس^(١) الإسلام متينةً، وعُراه وثيقةً، ثم جعل الطاعة حظّ الأنفس ورضا الرب، وغنيمةً الأكياس^(٢) عند تفريط العجزة، وقد حملت أمر أسودها وأحمرها، ولا قوة إلا بالله، ونحن سائرون إن شاء الله إلى من سفّه^(٣)، نفسه وتناول ما ليس له، وما لا يدركه، معارضةً وجنده، الفئة الطاغية الباغية، بقودهم إبليس، ويَبْرِق لهم ببارق تسويفه، ويدلّهم^(٤) بغروره، وأنتم أعلم الناس بالحلل والحرام، فاستغنوا بما علمتم، واحذروا ما حذركم الله من الشيطان، وارغبوا فيما عنده من الأجر والكرامة، واعلموا أن المسلوب من سلب دينه وأمانته، والمغرور من آثر الضلالة على الهدى، فلا أعرفن أحداً منكم تقاعس^(٥) عني، وقال في غيري كفاية، فإن الذود إلى الذودِ إيل^(٦): * وَمَنْ لَا يَذُدُ عَنِ حَوْضِهِ يَتَهَدَّمْ *

ثم إنى أمركم بالشدة في الأمر، والجهاد في سبيل الله، وأن لا تفتأوا مسلماً، وانتظروا النصر العاجل من الله، إن شاء الله.»

(١) جمع مرس بفتحيتين، ومرس جمع مرسة بفتحيتين أيضاً: وهو الجبل. (٢) جمع كياس: وهو ضد الأحق. (٣) أصله سفهت نفسه، فلما حول الفعل إلى الرجل انتصب ما بعده بوقوع الفعل عليه لأنه صار في معنى سفه نفسه بالتشديد، ومثله: رشد أمره وبطر عيشه. (٤) أى يحطهم عن منزلتهم. قال تمالى: (قد لاهماً بغرور) (٥) تأخر وتقاعد. (٦) الذود: ثلاثة أبعرة إلى العشرة أو خمسة عشر أو عشرين أو ثلاثين وهو مثل: أى إذا جمعت القليل مع القليل صار كثيراً، فإلى بمعنى مع.

٢١٤ - خطبة الحسن بن عليّ

ثم قام بعده ابنه الحسن رضى الله عنه فقال :

« الحمد لله لا إله غيره ، ولا شريك له ، ثم قال : إن مما عظم الله عليكم من حقه وأسبغ عليكم من نعمه ، ما لا يحصى ذكْرُهُ ، ولا يُؤدّي شكرُهُ ، ولا يبلغه قول ولا صفة ، ونحن إنما غضبنا لله ورسولكم ، إنه لم يجتمع قوم قطّ على أمرٍ واحد إلا اشتد أمرهم ، واستحكمت عقدهم ، فاحتشدوا في قتل عدوكم معاوية وجنوده ، ولا تتخاذلوا ، فإن الخذلان يقطع نياط القلوب^(١) ، وإن الإقدام على الأسنّة نخوة وعصنة ، لم يتمنع قوم قطّ إلا رفع الله عنهم العلة ، وكفاهم جوائح الذلة ، وهداهم إلى معالم الملة ، ثم أنشد :

والصلح تأخذ منه ما رضيت به والحرب يكفيك من أنفاسها جرع

٢١٥ - خطبة الحسين بن عليّ

ثم قام الحسين رضى الله عنه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« يا أهل الكوفة : أنتم الأحبة الكرماء ، والشّعار^(٢) دون الدثار ، جدّوا في إطفاء ما وثر^(٣) بينكم ، وتسهيل ما توغرّ عليكم ، ألا إن الحرب شرها وريع^(٤) ، وطعمها

(١) عرق غليظ نيط به القلب إلى الوتين ، جمه أنوطة . « والوتين : عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه

جمه أوتنة » . (٢) الشعار : ما يلبس على شعر الجسد ، والدثار : ما فوق الشعار من الثياب .

(٣) الوتر والثرة : الثأر ، وتره يره ، وورره حقه : نقصه إياه ، ووثره : أدركه بمكرهه .

(٤) الريع : الكاف . أى إن شرها عظيم يدهو الناس إلى أن يكفوا عن خوض غمارها .

فظيع ، فمن أخذ لها أُهْبَتَهَا ، واستعد لها عُدَّتَهَا ، ولم يَأَلَمْ كَلُومَهَا^(١) قبل حلولها ، فذاك صاحبها ، ومن عاجلها قبل أوان فرصتها ، واستبصار سعيه فيها ، فذاك قَمِنَ^(٢) أن لا ينفع قومه ، وأن يهلك نفسه ، نسأل الله بقوته أن يدعكم بالقيئة^(٣) « ثم نزل .
(شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٢٧٨)

٢١٦ - خطبة عبد الله بن عباس

وكتب على إلى ابن عباس بالبصرة .

« أما بعد فاشخص إلى بمن قبلك من المسلمين والمؤمنين ، وذكركم بلائي عندهم ، وعفوى عنهم في الحرب ، وأعلمهم الذي لم في ذلك من الفضل والسلام » .

فلما وصل كتابه إلى ابن عباس قام في الناس فقرأ عليهم الكتاب وحمد الله وأثنى عليه ، وقال :

« أيها الناس : استمدوا للشخص إلى إمامكم ، وانفروا خفافاً وثقالاً ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم ، فإنكم تقاتلون المجلنين القاسطين ، الذين لا يقرءون القرآن ولا يعرفون حكم الكتاب ، ولا يدينون دين الحق ، مع أمير المؤمنين وابن عم رسول الله ، الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والصادع بالحق ، والقيم بالهدى ، والحاكم بحكم الكتاب ، الذي لا يرتشى في الحكم ، ولا يدهن الفجار ولا تأخذه في الله لومة لائم » .
(شرح ابن أبي الحديد ١ : ٢٨٣)

(١) كلوم : جمع كلم ، وهو الجرح . (٢) جدير وحقيق . (٣) القيئة : بفتح الفاء وكسرهما ،

والقوء : الغنيمة ، أي نبال الله أن يقويكم بما تمنون من عدوك .

٢١٧ - خطبة معاوية

ولما نزل على النخيلة متوجها إلى الشام ، وبلغ معاوية خبره ، وهو يومئذ بدمشق قد ألبس منبر دمشق قيص عثمان مخضبا بالدم وحول المنبر سبعون ألف شيخ يبكون حوله لا تجف دموعهم على عثمان خطبهم وقال :

« يا أهل الشام قد كنتم تكذبونني في علي ، وقد استبان لكم أمره ، والله ما قتل خليفتم غيري ، وهو أمر بقتله ، وألب الناس عليه ، وآوى قتلته ، وهم جنده وأنصاره وأعوانه ، وقد خرج بهم قاصدا بلادكم ودياركم لإبادتكم .

يا أهل الشام ، الله الله في دم عثمان فأنا وليه وأحق من طلب بدمه ، وقد جعل الله لولي المقتول ظلما سلطانا ، فانصروا خليفتم المظلوم ، فقد صنع القوم ما تعلمون ، قتلوه ظلما وبغيا ، وقد أمر الله تعالى بقتال الفئة الباغية حتى تفيء إلى أمر الله » ، ثم نزل .
فأعطوه الطاعة وانقادوا له وجمع إليه أطرافه واستعد للقاء علي .

(شرح ابن أبي الحديد ١ : ٢٨٦)

وفد عليّ على معاوية

بعد أن نزل الإمام عليّ كرم الله وجهه بصفين ، دعا بشير بن عمرو بن محصن الأنصاري ، وسعيد بن قيس الهمداني ، وشبث بن ربعي التيمي ، فقال : ائتوا هذا الرجل ، فادعوه إلى الله ، وإلى الطاعة والجماعة ، فقال له شبث بن ربعي : يا أمير المؤمنين : ألا تُطمع في سلطان توليه إياه ، ومنزلة يكون له بها أثرٌ عندك إن هو بايعك ؟ فقال عليّ : ائتوه فالتوه واحتجوا عليه ، وانظروا ما رأيته ؟ - وهذا في أول ذي الحجة سنة ٣٦ هـ - فأتوه ، ودخلوا عليه .

٢١٨ - خطبة بشير بن عمرو

فحمد الله أبو عمرة بشير بن عمرو ، وأثنى عليه وقال :

« يا معاوية : إن الدنيا عنك زائلة ، وإنك راجع إلى الآخرة ، وإن الله عز وجل محاسبك بعملك ، وجازيك بما قدمت يداك ، وإني أنشدك الله عز وجل أن تفرّق جماعة هذه الأمة ، وأن تسفك دماءها بينها . »

فقطع عليه الكلام ، وقال : هلا أوصيت بذلك صاحبك ؟ فقال أبو عمرة :

« إن صاحبي ليس مثلك ، إن صاحبي أحق البرية كلها بهذا الأمر ، في الفضل ، والدين ، والسابقة في الإسلام ، والقراية من الرّسول صلى الله عليه وسلم ، قال : فيقول ماذا ؟ قال : بأمرك بتقوى الله عز وجل ، وإجابة ابن عمك إلى ما يدعوك إليه من الحق ، فإنه أسلم لك في دنياك ، وخير لك في عاقبة أمرك . »

قال معاوية : وَنُظِلَ دَمُ عُمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ۱ لَا وَاللَّهِ لَا أَفْعَلُ ذَلِكَ أَبَدًا ، فَذَهَبَ
سَعِيدُ بْنُ قَيْسٍ يَتَكَلَّمُ ، فَبَادَرَهُ شَيْبَةُ بْنُ رَبِيعٍ ، فَتَكَلَّمَ :

٢١٩ - خطبة شيبث بن ربيعي

فحمد الله ، وأثنى عليه ، وقال :

« يا معاوية ، إني قد فهمت ما رددت على ابنِ مُحَصَّنٍ ، إنه والله لا ينبغي علينا ما نغزو
وما نطلب ، إنك لم تجد شيئاً تستغوي به الناس ، وتستميل به أهواءهم ، وتستخلص به
طاعتهم ، إلا قولك : « قَتِلَ إِمَامُكُمْ مَظْلُومًا ، فَنَحْنُ نَطْلُبُ بَدْمَهُ » فاستجاب لك سفهاء
طغام ، وقد علمنا أن قد أبطأت عنه بالنصر ، وأحببت له القتل ، لهذه المنزلة التي أصبحت
تطلب . ورُبَّ مَتَمَنَى أَمْرٍ وَطَالِبِهِ ، اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَحُولُ دُونَهُ بِقُدْرَتِهِ ، وَرَبِّمَا أَوْقَى الْمُتَمَنَى
أَمْنِيَّتَهُ ، وَفَوْقَ أَمْنِيَّتِهِ ، وَوَالِدِهِ مَالِكٍ فِي وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا خَيْرٌ ، لَنْ أَخْطَأْتَ مَا تَرْجُو ، إِنَّكَ
لَشَرُّ الْعَرَبِ حَالًا فِي ذَلِكَ ، وَلَنْ أَصِيبْتَ مَا تَمْتَنَى لَا تَصِيبُهُ حَتَّى تَسْتَحِقَّ مِنْ رَبِّكَ صُلِيًّا^(١)
النار ، فاتق الله يا معاوية ، ودع ما أنت عليه ، ولا تنازع الأمر أهله »

٢٢٠ - خطبة معاوية

فحمد الله معاوية وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فَإِنِ أَوْلَ مَا عَرَفْتُ فِيهِ سَفْهَكَ ، وَخِفَةَ حِلْمِكَ ، قَطَعْتُكَ عَلَى هَذَا الْحَسِيبِ
الشريف سيِّدِ قَوْمِهِ مَنْطِقَهُ ، ثُمَّ عُنَيْتَ بَعْدُ فِيمَا لَا عِلْمَ لَكَ بِهِ ، فَقَدْ كَذَبْتَ وَلَوْ مِتَّ^(٢) ،

(١) صل النار : كرضي ، وصل بها صلياً بكسر الصاد وضمتها ، قاله حرها .

(٢) لامة لوما : عذله ، وألامه ولومه للمبالغة .

أيها الأعرابي الجلف^(١) الجافي ، في كل ما ذكرت ووصفت ، انصرفوا من عندي ، فإنه ليس بيني وبينكم إلا السيف .

وغضب وخرج القوم وشبث يقول : أفعلينا تهوّل بالسيف ؟ أقسم بالله ليعجلنّ بها إليك ، فأتوا علياً ، وأخبروه بالذي كان من قوله ، فأخذ علي بأمر الرجل ذا الشرف فيخرج معه جماعة ، ويخرج إليه من أصحاب معاوية آخر معه جماعة ، فيقتتلان في خيلهما ورجلها ، ثم ينصرفان ، وكانوا يكرهون أن يلقوا بجمع أهل العراق أهل الشام ، لما يتخوفون أن يكون في ذلك الاستئصال والمهلك .

(تاريخ الطبري • ٥ : ٢٤٢)

وفد على إبي معاوية أيضا

ولما دخلت سنة ٣٧ هـ توادعا على ترك الحرب في الحرم إلى انقضائه ، طمعا في الصلح واختلفت فيما بينهما الرسل في ذلك دون جدوى ، فبعث على عدي بن حاتم ، ويزيد ابن قيس ، وشبث بن ربعي ، وزياد بن خصفة إلى معاوية .

٢٢١ - خطبة عدي بن حاتم

فلما دخلوا حمد الله عدي بن حاتم ، ثم قال :

« أما بعد : فإننا أتيناك ندعوك إلى أمر يجمع الله عز وجل به كلتنا وأمتنا ، ويحقي به الدماء ، ويؤمن به السبل ، ويصلح به ذات البين ، إن ابن عمك سيد المسلمين ، أفضلها سابقا ، وأحسنها في الإسلام أثرا ، وقد استجمع له الناس ، وقد أرشدهم الله عز وجل بالذي رأوا ، فلم يبق أحد غيرك وغير من معك ، فانت يا معاوية ، لا يصيبك الله وأصحابك بيوم مثل يوم الجمل . »

٢٢٢ - جواب معاوية

فقال معاوية : « كأنك إنما جئت متهددا ، لم تأت مصلحا هيات يا عدي ، كلاً والله ، إنى لأبئ حرب^(١) ما يقع^(٢) لي بالشنان ، أما والله إنك لمن المجلبين على

(١) هو جده . (٢) القعقة : تحريك النوى اليابس الصلب مع صوت ، والشنان : جمع شن

بالفتح ، وهو القرية البالية ، وإذا تمقع بالشنان للإبل ففرت ، وهو مثل يضرب لمن لا يروعه ما لاحقيقة له .

ابن عفان رضى الله عنه ، وإني لأرجو أن تكون ممن بَقِيتُ^(١) الله عز وجل به ، هيمأت يا عدِيُّ بن حاتم ، قد حَلَبْتُ بالساعد الأشد^(٢) .

فقال له شَبْت بن ربيع وزياد بن خَصَفَة - وتنازعا جواباً واحداً -

« أتيناك فيما يصلحنا وإياك ، فأقبلت تضرب لنا الأمثال ، دع مالا يُنتفع به من القول والفعل ، وأجبتنا فيما يعمنا وإياك نفعه » .

٢٢٣ - خطبة يزيد بن قيس

وتسكلم يزيد بن قيس فقال :

« إنا لم نأتك إلا لنبلغك ما بُعثنا به إليك ، ولِنُؤدِّي عنك ما سمعنا منك ، ونحن على ذلك - لن ندع أن ننصح لك ، وأن نذكر ما ظننا أن لنا عليك به حُجَّة ، وأنتك راجع به إلى الالفة والجماعة ، إن صاحبنا من قد عرفت وعرف المسلمون فضله ، ولا أظنه يخفى عليك ، إن أهل الدين والفضل لن يعدلوا بعلِي ، ولن يُميلوا^(٣) بينك وبينه فاتق الله يا معاوية ، ولا تخالف علياً ، فإننا والله ما رأينا رجلاً قطُّ أعملَ بالتقوى ، ولا أزهَدَ في الدنيا ، ولا أجمعَ لحِصَالِ الخَيْرِ كلها منه » .

٢٢٤ - خطبة معاوية

فحمد الله معاوية وأثنى عليه ثم قال :

« أما بعد : فإنكم دعوتم إلى الطاعة والجماعة ، فأما الجماعة التي دعوتم إليها فعننا هي ،

(١) أى يقتله . (٢) يعنى بذلك قوة استعداده للقتال وتأهبه له . (٣) التميل بين الشيئين ،

كالترجيح بينهما .

وَأَمَّا الطاعة لصاحبكم فإننا لا نراها ، إن صاحبكم قَتَلَ خليفتنا ، وفرَّق جماعتنا ، وآوَى ثَأْرَنَا^(١) وَقَتَلْتَنَا ، وَصَاحِبُكُمْ يزعم أنه لم يقتله ، فنحن لا نرد ذلك عليه ، أَرَأَيْتُمْ قَتَلَةَ صاحبنا ، أَلَسْتُمْ تعلمون أنهم أصحابُ صاحبكم ؟ فَلْيَذْفَعُوهُم إِلَيْنَا فَلْنَقْتُلِهِمْ بِهِ ، ثم نحن نجيبكم إلى الطاعة والجماعة .

فقال له شبت : أيسرك يا معاوية أنك أُمَكِنْتَ من عَمَّار^(٢) تقتله ؟ فقال معاوية :

(١) الثَّأْرُ : قاتل حميمك . (٢) هو عمار بن ياسر رضى الله عنه ، أحد السابقين الأولين ، وقد عذبه المشركون في بدء الدعوة الإسلامية فاحتمل العذاب ، وكان يعذب هو وأخوه وأبوه وأمه بالنار ، فرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « صبرا آل ياسر فوعدكم الجنة . اللهم اغفر لآل ياسر » ومراد شبت بهذا القول إحراج معاوية . لقوله عليه الصلاة والسلام لعمار : « تقتلك الفئة الباغية » : أى إنك يا معاوية إن قتلت عمارا - وكان من أصحاب علي - كنت من الفئة الباغية . وتفصيل الخبر في ذلك ما روته أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، قالت : « لما بنى رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجده بالمدينة أمر باللبن يضرب وما يحتاج إليه ، ثم قام فوضع رداءه فلما رأى ذلك المهاجرون والأنصار وضعوا أرديتهم وأكسياتهم يرتجزون ويقولون ويعملون .

لئن عمدنا والنبي يعمل ذاك إذن لعمل مضلل

قالت : وكان عثمان بن عفان رجلا نظيفنا متظفنا ، فكان يحمل اللبنة ويجأى بها عن ثوبه ، فإذا وضعها نفض كفيه ، ونظر إلى ثوبه ، فإذا أصابه شيء من التراب نفضه فنظر إليه على رضى الله عنه فأشدد :

لا يستوى من يعمر المساجدا يدأب فيها راکما وساجدا
وقائما طورا وطورا قاعدا ومن يرى عن التراب حائدا

فسمعا عمار بن ياسر فجعل يرتجزها وهو لا يدري من يعنى ، فسمعه عثمان فقال : يا بن سمية (وسمية أمه) ما أعرفنى بمن تعرض ، ومعه جريدة ، فقال لتكفن أو لأعترضن بها وجهك ، فسمعه النبي وهو جالس في ظل حائط فقال : « عمار جلدة ما بين عيني وأنفى » فن بلغ ذلك منه فقد بلغ منى ، وأشار بيده فوضعها بين عينيه فكف الناس عن ذلك ، وقالوا لعمار : إن رسول الله قد غضب فيك ، ونخاف أن ينزل فينا قرآن ، فقال : أنا أرضيه كما غضب ، فأقبل عليه فقال : يا رسول الله مالى ولأصحابك ؟ قال : مالك ولهم ؟ قال يريدون قتلى ، يحملون ابنة ويحملون على لينتين ، فأخذ به وطاف به في المسجد وجعل يمسح وجهه من التراب ويقول « يا بن سمية لا يقتلك أصحابي ، ولكن تقتلك الفئة الباغية » فلما قتل بصفين ، وروى هذا الحديث عبد الله ابن عمرو بن العاص ، قال معاوية : هم قتلوه ، لأنهم أخرجوه إلى القتل ، فلما بلغ ذلك عليا قال : ونحن قتلنا أيضا حزة لأننا أخرجناه (العقد الفريد ٢ : ٢٣٧) .

وما يمنعني من ذلك ؟ والله لو أمكنت من ابن سُمَيَّة ما قتلتهُ بعثمان رضي الله عنه ولكن كنتُ قَاتِلَهُ بِنَاتِلِ مولى عثمان ، فقال شدبث :

« وَإِلَهَ الْأَرْضِ وَإِلَهَ السَّمَاءِ ، مَا عَدَاتُ مَعْتَدِلًا ^(١) ، لَا وَالَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، لَا تَصِلُ إِلَى عَمَّارٍ ، حَتَّى تَنْدُرَ ^(٢) الْهَامُّ عَنْ كَوَاهِلِ الْأَقْوَامِ ، وَتَضِيقَ الْأَرْضُ الْقَضَاءَ عَلَيْكَ بِرُحْبَاهَا ^(٣) » فقال له معاوية : « إنه لو قد كان ذلك كانت الأرضُ عليك أضيقَ » وتفرَّقَ القوم عن معاوية ، فلما انصرفوا بعث معاوية إلى زياد بن خصفة التميمي فضلا به .
فحمد الله وأثنى عليه ، وقال :

« أَمَا بَعْدَ يَا أَخَا رِبِيعَةَ ، فَإِنِ عَلِيًّا فَطَعَ أَرْحَامَنَا ، وَأَوْى قَتَلَةَ صَاحِبِنَا ، وَإِنِّي أَسْأَلُكَ النَّصْرَ بِأَسْرَتِكَ وَعَشِيرَتِكَ ، ثُمَّ لَكَ عَهْدُ اللَّهِ جَلًّا وَعِزًّا وَمِيثَاقُهُ أَنَّ أَوْلِيكَ إِذَا ظَهَرَتْ ^(٤) أَيْ الْمَصْرِينَ أَحْبَبْتَ ، قَالَ زِيَادُ : فَلَمَّا قَضَى مَعَاوِيَةَ كَلَامَهُ حَدَّثَ اللَّهُ عِزًّا وَجَلًّا وَأَثْنَيْتَ عَلَيْهِ ثُمَّ قُلْتَ : « أَمَا بَعْدَ فَإِنِّي عَلَى بَيْئَةِ مَنْ رَبِّي ، وَبِمَا أَنْعَمَ عَلَيَّ ، فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا ^(٥) لِلْمَجْرَمِينَ » ثُمَّ قُلْتَ .

(تاريخ الطبري ٦ : ٢)

(١) أى إنك إذا عدات عمارة بناتل مولى عثمان : أى سويت بينهما لم تكن معتدلا فى حكلك .

(٢) ندر الشيء كنعصر ندورا : سقط من جوف شيء أو من بين أشياء فظهر . والهام الرموس : جمع هامة .

(٣) الرحب بالضم : الاتساع . (٤) أى غلبت وانتصرت . (٥) معيننا وناصرا .

وفد معاوية إلى عليّ

ومث معاوية إلى عليّ حبيب بن مسلمة الفهري ، وشرحبيل بن السمط ، ومغن ابن يزيد بن الأخنس ، فدخلوا عليه .

٢٢٥ - خطبة حبيب بن مسلمة

فحمد الله حبيب وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد فإن عثمان بن عفان رضى الله عنه كان خليفة مَهْدِيًّا ، يعمل بكتاب الله عزّ وجلّ ، وَيُنِيب إلى أمر الله تعالى ، فاستنقلم حياتَه ، واستبطأتم وفاته ، فعدّوتم عليه ، فقتلتموه رضى الله عنه ، فادفع إلينا قتلة عثمان - إن زعمت أنك لم تقتله - نقتلهم به ، ثم اعتزل أمر الناس ، فيكون أمرهم شورى بينهم ، يُؤلّي الناس أمرهم من أجمع عليه رأيهم . »

فقال له عليّ بن أبى طالب : « وما أنت لا أم لك والعزل ، وهذا الأمر ؟ اسكت ، فإنك لست هناك ، ولا بأهل له » فقام وقال له : « والله لترينى بحيث تكروه » ، فقال عليّ : « وما أنت ولو أجنبت بخيالك ورجلك ؟ لا أبقى الله عليك إن أبقيت علىّ ، أحقره^(١) وسوءاً ، أذهب فصوبّ وصعد ما بدا لك . وقال شرحبيل بن السمط :

(١) فى كتب اللغة : حقره حقرا بفتح الحاء وحقرية بضمها وتشديد الياء ولم أجد كلمة « حقرة » وأرى أنها مثل هزأة وضحكة ، يقال رجل هزأة بضم الهاء وسكون الزاى أى يهزأ به وضحكة كذلك أى يضحك منه ، فالمعنى أنكون حقرة أى حقيرا وتسوءنى سوءا .

إني إن كنتك فلمعري ما كلامي إلا مثل كلام صاحبي قبل ، فهل عندك جواب غير الذي أجبت به ؟ فقال علي : نعم لك ولصاحبك جواب غير الذي أجبت به .

٢٢٦ - خطبة علي بن أبي طالب

فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، فإن الله جل ثناؤه بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق ، فأخذ به من الضلالة ، وانتاش^(١) به من الهلكة ، وجمع به من الفرقة ، ثم قبضه الله إليه ، وقد أدى ما عليه ، صلى الله عليه وسلم ، ثم استخلف الناس أبا بكر رضي الله عنه ، واستخلف أبو بكر عمر رضي الله عنه ، فأحسننا السيرة ، وعدلنا في الأمة ، وقد وجدنا^(٢) عليهما أن توليا علينا ، ونحن آل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فغفرنا ذلك لهما ، وولى عثمان رضي الله عنه فعمل بأشياء عابها الناس عليه ، فساروا إليه فقتلوه ، ثم أتاني الناس وأنا معتزل أمورهم ، فقالوا لي : بايع ، فأبيت عليهم ، فقالوا لي : بايع ، فإن الأمة لا ترضى إلا بك ، وإنا نخاف إن لم تفعل أن يفترق الناس ، فبايعتهم ، فلم يرعني إلا شقاق رجلين قد بايعاني^(٣) ، وخلاف معاوية الذي لم يجعل الله عز وجل له سابقة في الدين ، ولا سلف صدق في الإسلام ، طليق^(٤) بن طليق ، حزب^(٥) من هذه الأحزاب ، لم يزل لله عز وجل ، ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وللمسلمين عدواً ، هو وأبوه ، حتى دخلا في الإسلام كارهين ،

(١) انتشل وأخرج . (٢) وجد عليه : غضب . (٣) يعني طلحة والزبير وما كان منهما من

الخلاف عليه ، وانضمامهما إلى السيدة عائشة . (٤) الطلقاء : هم الذين عفا عنهم النبي عليه الصلاة

والسلام بعد فتح مكة ، فقال لهم : اذهبوا فأنتم الطلقاء . (٥) حزب بدل من طليق الثاني : أي ابن حزب

من هذه الأحزاب التي تألبت وتظاهرت على حربه صلى الله عليه وسلم من قريش ، وغطفان ، وبنى مرة ،

وبنى أشجع ، وبنى سليم ، وبنى أسد (في غزوة الأحزاب ، وهي غزوة الخندق سنة ٥ هـ) وكانت عدة

لجميع عشرة آلاف مقاتل ، وقادهم العام أبو سفيان .

فلا غرو^(١) إلا خِلافكم معه ، وانقيادكم له ، وَتَدْعُونَ آلَ نَبِيِّكُمْ صلى الله عليه وسلم ، الذين لا ينبغي لكم شِقَاقَهُمْ ولا خِلافَهُمْ ، ولا أَنْ تَمْدِلُوا بِهِمْ مِنَ النَّاسِ أَحَدًا ، أَلَا إِنِّي أَدْعُوكُمْ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ صلى الله عليه وسلم ، وَإِمَاتَةِ الْبَاطِلِ ، وَإِحْيَاءِ مَعَالِمِ الدِّينِ ، أَقُولُ قَوْلِي هَذَا ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ ، وَلِكُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ ، وَمُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ .

فقالا : « اشهد أن عثمان رضى الله عنه قُتل مظلوماً » فقال لهما : « لا أقول إنه قُتل مظلوماً ، ولا إنه قتل ظالماً » . قالوا : « فمن لم يزعم أن عثمان قتل مظلوماً ، فنحن منه برآء » ثم قاما فانصرفا ، فقال على : « إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى ، وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ، وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ، إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ، فَهُمْ مُسْلِمُونَ » .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٤)

(١) فلا غرو : أى لا عجب ، وقوله إلا خِلافكم معه : أى خِلافكم علىّ معه ، أو هو « خِلافكم معه » بالحاء : أى مخالفتكم له ، ومناصرتكم إياه .

التحريض على القتال من قبل معاوية

٢٢٧ - خطبة عمرو بن العاص (المتوفى سنة ٤٣ هـ)

لما بلغ معاوية أن الإمام علياً (كرم الله وجهه) يجهز الجيوش لقتاله ، دعا عمرو ابن العاص ، فاستشاره ، فقال : « أما إذ بلغك أنه يسير فسر بنفسك ، ولا تغيب عنه رأيك ومكيدتك » . قال : « أما إذأ يا أبا عبد الله لجهز الناس » . فجاء عمرو فخصص الناس ، وضعف علياً وأصحابه ، وقال :

« إن أهل العراق قد فرقوا جمعهم ، وأوهنوا شوكتهم ، وقفلوا حدم ، ثم إن أهل البصرة مخالفون لعليّ ، قد وترهم وقتلهم ، وقد تفانت صنابيرهم وصناديد أهل الكوفة يوم الجمل ، وإنما سار في شِرْذِمَةٍ قَلِيلَةٍ ، منهم من قد قَتَلَ خليفَتكم ، فالله الله في حكم أن تُضَيِّعُوهُ ، وفي دمكم أن تُطْلُوهُ » .
(تاريخ الطبري ٥ : ٢٣٦)

٢٢٨ - خطبة أخرى لعمرو بن العاص

وخطب عمرو بن العاص قبل الوقفة العظمى بصفين ، يحرص أهل الشام « وقد كان منحنيًا على قوس » فقال :

« الحمد لله العظيم في شأنه ، القوي في سلطانه ، العلي في مكانه ، الواضح في برهانه ، أحمده على حُسن البلاء ، وتظاهر النعماء ، في كل رزية من بلاء^(١) ، أو شدة أو رخاء ،

(١) البلاء : يكون محنة ، ويكون منحة .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، ثم إنا نحتسب عند الله ربّ العالمين ما أصبح في أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، من اشتعال نيرانها ، واضطراب حبلها ، ووقوع بأسها بينها ، فإننا لله وإنا إليه راجعون ، والحمد لله ربّ العالمين .

أَوَلَا تَعْلَمُونَ أَنَّ صَلَاتَنَا وَصَلَاتَهُمْ ، وَصِيَامَنَا وَصِيَامَهُمْ ، وَحُجَّتَنَا وَحُجَّتَهُمْ ، وَقِبْلَتَنَا وَقِبْلَتَهُمْ ، وَدِينَنَا وَدِينَهُمْ وَاحِدٌ ؟ وَلَكِنِ الْأَهْوَاءُ مُخْتَلِفَةٌ ، اللَّهُمَّ أَصْلِحْ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِمَا أَصْلَحْتَ بِهِ أَوْلَهَا ، وَاحْفَظْ فِيهَا بَيْنَنَا ، مَعَ أَنَّ الْقَوْمَ قَدْ وَطِنُوا بِلَادَكُمْ ، وَبَقَوْا عَلَيْكُمْ ، فَجِدُّوا فِي قِتَالِ عَدُوِّكُمْ ، وَاسْتَعِينُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ ، وَحَافِظُوا عَلَى حُرْمَاتِكُمْ ^(١) » ثم جلس .
(شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٥٠٤)

٢٢٩ - خطبة معاوية بن أبي سفيان يحرر أهل الشام

وقام معاوية في أهل الشام خطيباً ، فقال :

« أَيُّهَا النَّاسُ : أُعِيرُونَا جَمَاعَتَكُمْ وَأَنْفُسَكُمْ ^(٢) ، لَا تَقْتُلُوا ^(٣) ، وَلَا تَتَخَاذَلُوا ^(٤) ، فَإِنَّ الْيَوْمَ يَوْمٌ أخطار ، وَيَوْمٌ حَقِيقَةٌ وَحِفَاطٌ ^(٥) ، إِنَّكُمْ لَعَلَى حَقٍّ ، وَبِأَيْدِيكُمْ حُجَّةٌ ، إِنَّمَا تَقَاتِلُونَ مِنْ نَكَثِ الْبَيْعَةِ ، وَسَفْكَ الدَّمِ الْحَرَامِ ، فَلَيْسَ لَهُ مِنَ السَّمَاءِ عَازِرٌ ، قَدَّمُوا أَصْحَابَ السَّلَاحِ الْمُسْتَلِيمَةِ ^(٦) ، وَأَخْرَجُوا الْحَاسِرَ ^(٧) ، وَاحْتَلَوْا بِأَجْمَعِكُمْ ، فَقَدْ بَلَغَ الْحَقُّ مَقْطَعَهُ ، وَإِنَّمَا هُوَ ظَالِمٌ وَمُظْلَمٌ » .
(شرح ابن أبي الحديد ١ : ٤٨١)

(١) جمع حرمة ، وهي ما لا يجمل انتهاكها . (٢) أي جودوا بروسكم ، ولا تبخلوا بنفوسكم على القتل .
(٣) في الأصل « لا تقتلوا » على أن القتل مجزوم بلا الناهية ، وأراه محرفاً ، وإنما هو « لا تقتلوا » مجزوم في جواب الأمر ، أي إن تسخروا ببذل روسكم ونفوسكم وتقاتلوا مستبسلين تنجوا من القتل .
(٤) في الأصل « ولا تتجادلوا » وأراه مصحفاً عن « ولا تتخاذلوا » أي لتعاونوا ، ولا يتخذل بعضكم بعضاً .
(٥) أي يوم محافظة على الأرواح والأعراض والأموال ودفاع عنها . (٦) استلام : لبس اللأمة ، وهي الدرع . (٧) الحاسر : من لا مغفر له ، ولا درع ، أو لا جنة له .

٣٣٠ - خطبة ذى الكلاع الحميرى^(١)

وطلب معاوية إلى ذى الكلاع الحميرى أن يخطب الناس ، ويحرضهم على قتال على رضى الله عنه ومن معه من أهل العراق ، فعقد فرسه « وكان من أعظم أصحاب معاوية خطراً^(٢) » وخطب الناس فقال :

« الحمد لله حمداً كثيراً ، نامياً واضحاً مُنيراً ، بُكَرَةً وأصيلاً ، أحمده وأستعينه ، وأومن به ، وأتوكل عليه ، وكفى بالله وكيلاً ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالعرفان إماماً ، وبالهدى ودين الحق ، حين ظهرت المعاصى ، وَدَرَسَتْ^(٣) الطاعة ، وامتلات الأرض جوراً وضلالة ، واضطربت الدنيا نيراناً وفتنة ، وَوَرَك^(٤) عدو الله إبليس على أن يكون قد عبّد في أكنافها ، واستولى على جميع أهلها ، فكان محمد صلى الله عليه وآله هو الذى أطفأ الله به نيرانها ، ونزع به أوتادها ، وأوهن به قوى إبليس ، وآيسه مما كان قد طمع فيه من ظفّره بهم ، وأظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون .

ثم كان من قضاء الله أن ضمّ بيننا وبين أهل ديننا بصيِّفين ، وإنا لنعلم أن فيهم قوماً ، قد كانت لهم مع رسول الله صلى الله عليه وآله سابقة ذات شأنٍ وخطرٍ عظيم ، ولكنى ضربت الأمر ظهراً وبطناً ، فلم أرى يسعنى أن يهدّر دم عثمان ، صهر نبينا صلى الله عليه وآله ، الذى جهّز جيش العُسرة^(٥) ، وألحق فى مُصلّى رسول الله صلى الله عليه وآله بيتاً ،

(١) هو ذو الكلاع الأصفر سميفع بن ناكور بن عمرو بن يعفر بن ذى الكلاع الأكبر يزيد بن النعمان وهما من أدواء اليمن . (٢) أى شأنًا وقدرا . (٣) اتحت . (٤) ورك على الأمر وروكا: قدر .

(٥) وذلك أنه فى غزوة تبوك - وكانت سنة تسع للهجرة - أنفق فى تجهيز المقاتلة من المسلمين عشرة آلاف دينار ، وأعطى ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها (والأحلاس جمع جلس بالكسر : وهو كساء على ظهر البعير تحت البرذعة . والأقتاب جمع قتب بالتحريك : وهو ما يوضع على سنام البعير) وخسين فرسا ، فقال =

وَبْنِي سِقَايَةَ^(١) ، وَبَايَعَ لَهُ نَبِيُّ اللَّهِ بِيَدِهِ الْيَمِينِي عَلَى الْيَسْرَى^(٢) ، وَاخْتَصَمَهُ بِكَرِيمَتِيهِ أُمُّ كَلْثُومٍ وَرُقِيَّةَ^(٣) ، فَإِنْ كَانَ قَدْ أَذْنَبَ ذَنْبًا ، فَقَدْ أَذْنَبَ مِنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ ، قَدْ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِنَبِيِّهِ : (لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ) وَقَتَلَ مُوسَى نَفْسًا^(٤) ، ثُمَّ اسْتَغْفَرَ اللَّهُ

= عليه الصلاة والسلام : « اللهم ارض عن عثمان ، فأني راض عنه » وكان ذلك في زمن عمرة الناس وجذب البلاد ، وشدة الحر ، قال تعالى : « لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ » أي وقتها ، وهي حالهم في تلك الغزوة ، ذكروا أن الرجلين كانا يقتسمان تمرًا ، وأن العشرة كانوا يعتقبون البعير الواحد . (١) وذلك أنه اشترى بئر رومة (بضم الراء : بئر بالمدينة) ثم تصدق بها على المسلمين ، فكان رشاؤه فيها كرشاه أحدهم ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : « من حفر بئر رومة فله الجنة » وأشرف عثمان رضي الله عنه على الثوار حين حصروه ومنعوا الماء عنه ، فقال : أنشدكم الله ، هل علمتم أني اشتريت رومة من مالي يستعذب بها ، فجعلت رشائي منها كرشاه رجل من المسلمين ؟ قيل : نعم ، قال : فما يعني أن أشرب منها حتى أفطر على ماء البحر ؟ ثم قال : أنشدكم الله هل علمتم أني اشتريت كذا وكذا من الأرض ، فزدته في المسجد ؟ قيل : نعم ، قال : فهل علمتم أحدا من الناس منع أن يصل في قبلي ؟ ثم قال : أنشدكم الله ، هل سمعتم نبي الله صلى الله عليه وسلم يذكر كذا وكذا - أشياء في شأنه ، فجعل الناس يقولون : مهلا عن أمير المؤمنين .

(٢) وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قصد إلى مكة في غزوة الحديبية (سنة ست للهجرة) بعث عثمان بن عفان إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه إنما جاء زائرا للبيت ومعظما لحرمة ، فخرج عثمان إلى مكة وبلغ الرسالة ، واحتبسته قريش عندها ، فشاع عند المسلمين أن عثمان قد قتل ، فقال عليه الصلاة والسلام : لا تبرح حتى نناجز القوم ، ودعا المسلمين إلى البيعة على الموت فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة ، وبايع عليه الصلاة والسلام لعثمان ، فضرب بيده اليمنى على يده اليسرى وقال : هذه يد عثمان .

(٣) تزوج عثمان السيدة رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فلما ماتت جزع عثمان عليها وقال يارسول الله انقطع صهري منك ، قال : إن صهرك مني لا ينقطع ، وقد أمرني جبريل أن أزوجك أختها بأمر الله : السيدة أم كلثوم .

(٤) وذلك أنه في إبان نشأته بمصر دخل مدينة منف ذات مرة ، فوجد فيها رجلين يقتتلان قبليا يسخر إسرائيليا ليحمل حطبا إلى مطبخ فرعون ، فاستغاثه الإسرائيلي ، فقال موسى للقبلي : خل سبيله ، فقال له لقد هممت أن أحله عليك ، فوكزه موسى (أي ضربه بجمع كفه) وكان شديد القوة والبطش فقتله ، ولم يكن يقصد قتله (وذكروا أنه كان إذ ذاك ابن اثني عشرة سنة) وقد اعتم لذلك خوفا من عقاب الله . =

فغفر له ، وقد أذنب نوح^(١) ، ثم استغفر الله فغفر له ، وقد أذنب أبوكم آدم^(٢) ، ثم استغفر الله فغفر له ، ولم يعر أحدكم من الذنوب ، وإنا لنعلم . قد كانت لابن أبي طالب سابقة حسنة مع رسول الله صلى الله عليه وآله ، فإن لم يكن مالا^(٣) على قتل عثمان فقد

= ومن اقتصاص فرعون واستغفر الله فغفر له ، وفي ذلك يقول الله تعالى : « وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ ، هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ ، وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ ، فَاسْتَعَاثَ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ ، فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ ، قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ، قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » (سورة القصص) وقال تعالى : « وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ » (سورة طه)

(١) يشير إلى ما كان من نوح عليه السلام بشأن ابنه كنعان حين حدث الطوفان ، قال تعالى : « وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ ، وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ ، يَا بُنَيَّ أَرَأَيْتَ إِنْ كُنَّ مَعَ الْكَافِرِينَ ، قَالَ سَآوَى إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ، قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ، وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ » إلى أن قال : « وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي (أى وقد وعدتني بنجاتهم) وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ، قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنِّي أَعْظَمُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ، قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ، وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ » (سورة هود) .

(٢) وذلك أنه إذ أسكنه الله هو وزوجه حواء الجنة وأباح لهما أن يأكلا من حيث شاءا ، نهاه أن يقرب شجرة عينها له ، فوسوس له إبليس أن يأكل منها فطاعه : وفي ذلك يقول الله تعالى : « وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ، فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا ، وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِ أَيْمِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ » . «سورة الأعراف» . (٣) ناصر وشايح .

خذله ، وإنه لأخوه في دينه ، وابنُ عمه^(١) ، وسلفه^(٢) ، وابنُ عمته^(٣) ، ثم قد أقبلوا من عراقتهم حتى نزلوا شامكم وبلادكم وبيضتكم^(٤) ، وإنما عامتهم بين قاتل وخاذل ، فاستعينوا بالله واصبروا ، فلقد ابتليتم أيتها الأمة ، ولقد رأيت في منامى في ليلتي هذه ، لكأننا وأهل العراقِ أعتورنا^(٥) مُضحفاً نضربه بسيوفنا ، ونحن في ذلك جميعاً ننادى : وَيَحْكُمُ اللهُ ! ومع أنا والله لانفارق العرصة^(٦) حتى نموت ، فعليكم بتقوى الله ، وليكن الثباتُ لله ، فإني سمعت عمر بن الخطاب يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « إِنَّمَا يُبْعَثُ الْمُقْتَلُونَ عَلَى الثَّبَاتِ » أفرغ الله علينا وعليكم الصبر ، وأعزنا لنا ولكم النصر ، وكان لنا ولكم في كل أمر ، وأستغفر الله لي ولكم .

(شرح ابن أبي الحديد ١ : ٤٨٤)

٢٣١ - خطبة يزيد بن أسد البجلي

وقام يزيد بن أسد البجلي في أهل الشام يخطب الناس بصفين ، وعليه قبلاء من خزرج وعمامة سوداء ، آخذاً بقائم سيفه ، واضعاً نصل السيف في الأرض متوكئاً عليه ، فقال :

« الحمد لله الواحد الفرد ، ذي الطول^(٧) والجلال ، العزيز الجبار ، الحكيم الغفار ، الكبير المتعال ، ذي العطاء والفعال^(٨) ، والسخاء والنوال ، والبهاء والجمال ، والمنان

(١) عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وعلى بن أبي طالب بن عبد المطلب ابن هاشم بن عبد مناف . (٢) السلف (بفتح فكسر وبكسر فسكون) من الرجل : زوج أخت امرأته وقد علمت أن عثمان تزوج السيدة رقية أخت السيدة فاطمة زوج الإمام علي . (٣) أم عثمان هي أروى بنت كرز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس ، وأمها البيضاء أم حكيم بنت عبد المطلب بن هاشم عمه النبي صلى الله عليه وسلم . (٤) البيضة : ساحة القوم . (٥) اعتوروا الشيء : تداواوه . (٦) العرصة : كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء . (٧) الطول : الفضل والقدرة والغنى . (٨) الفعال : اسم الفعل الحسن ، والكرم .

والإفضال ، مالكِ اليوم الذي لا يَبِيعَ فيه^(١) ولا خِلال^(٢) ، أحمده على حسن البلاء ،
وتظَاهرُ النعماء ، وفي كل حال من شدّة أو رخاء ، أحمده على نِعَمِهِ التّوامِّ ، وآلائه
العِظام ، حمداً يستنير بالليل والنهار ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، كلمة
النّجاة في الحياة الدنيا وعند الوفاة ، وفيها الخلاص يوم القِصاص ، وأشهد أن محمداً عبده
ورسوله النبي المصطفى ، وإمام الرّحمة والهدى ، صلى الله عليه وآله .

ثم كان من قضاء الله أن جَمَعَنَا وأهلَ ديننا في هذه الرّثعة من الأرض ، والله يعلم أني
كنت كارها لذلك ، ولكنهم لم يُبَلِّغُونَا رِيقَنَا ، ولم يتركونا نرتادُ لأنفسنا ، وننظر لمعادِنَا ،
حتى نزلوا بين أظهرنا ، وفي حريمنا وَبَيضَتْنَا^(٣) ، وقد علمنا أن في القوم أحلاماً
وطعاماً^(٤) ، ولسنا نأمن طغامهم على ذراريّنا ونسائنا ، ولقد كنا نحب أن لا نقاتل أهل ديننا ،
فأخرجونا حتى صارت الأمور إلى أن قاتلناهم عدا حَمِيَّةً^(٥) ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ،
والحمد لله رب العالمين .

أما والذي بعث محمداً بالرسالة لو ددتُ أني مِتُّ منذ سنة ، ولكن الله إذا أراد أمراً
لم يستطع العبادُ رَدَّهُ ، فذستعين بالله العظيم ، وأستغفر الله لي ولسكم .

(شرح ابن أبي الحديد ١ : ٤٨٥ والأغانى ١٩ : ٥٥)

(١) لا يبيع فيه فيبتاع المقصر ما يتدارك به تقصيره ، أو يفدى به نفسه . (٢) الحلال والمخالطة مصدر
خال : المصادقة ، أي ولا مخالطة فيه فيشفق لك خليلك . (٣) البيضة : ساحة القوم . (٤) الحلم
بالكسر : الأناة والعقل ، وهو حلم والجمع حلماء وأحلام ، والطعام : أوغاد الناس . (٥) الحمية :
الأنفة (وفي الأصل غدا ، وأرى صوابه عدا أي أعداء) .

التحريض على القتال

من قبل الإمام عليّ أيضاً

٢٣٢ - خطبة الإمام علي

وخطب الإمام عليّ - كرم الله وجهه أصحابه ، متوكلنا على قوسه ، وقد جمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله عنده فهم يُلُونَهُ - كأنه أحبّ أن يعلم الناس أن الصحابة متوافرون معه - فحمد الله وأثنى عليه ، وقال :

« أما بعد : فَإِنَّ الْخِيَلَاءَ ^(١) مِنَ التَّجْبِيرِ ، وَإِنَّ النَّخْوَةَ ^(٢) مِنَ التَّكْبُرِ ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ عَدُوٌّ حَاضِرٌ ، يَبْعِدُكُمْ الْبَاطِلَ . أَلَا إِنَّ الْمُسْلِمَ أَخُو الْمُسْلِمِ ، فَلَا تَنَابَذُوا ، وَلَا تَتَّخِذُوا ، أَلَا إِنَّ شَرَائِعَ الدِّينِ وَاحِدَةٌ ، وَسُبُّهُ قَاصِدَةٌ ^(٣) ، مِنْ أَخْذِهَا الْحَقُّ ^(٤) ، وَمَنْ فَارَقَهَا مَحِقٌّ ^(٥) ، وَمَنْ تَرَكَهَا صَرَقٌ ^(٦) ، لَيْسَ الْمُسْلِمُ بِالْخَائِنِ إِذَا أَوْثَمُنَ ، وَلَا بِالْمُخْلَفِ إِذَا وَعَدَ ، وَلَا بِالْكَذَّابِ إِذَا نَطَقَ ، نَحْنُ أَهْلُ بَيْتِ الرَّحْمَةِ ، وَقَوْلُنَا الصِّدْقُ ، وَفِعْلُنَا الْفَضْلُ ، وَمَنَا خَاتِمَ النَّبِيِّينَ ، وَفِينَا قَادَةَ الْإِسْلَامِ ، وَفِينَا حَمَلَةَ الْكِتَابِ ، أَلَا إِنَّا نَدْعُوكُمْ إِلَى اللَّهِ ، وَإِلَى رَسُولِهِ ، وَإِلَى جِهَادِ عَدُوهِ ، وَالشَّدَّةِ فِي أَمْرِهِ ، وَابْتِغَاءِ مَرْضَاتِهِ ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، وَحُجِّ الْبَيْتِ ، وَصِيَامِ شَهْرِ رَمَضَانَ ، وَتَوْفِيرِ النَّفْسِ عَلَى أَهْلِهِ . أَلَا وَإِنَّ مِنْ أَعْجَبِ

(١) الخيلاء : الكبر . (٢) النخوة : الافتخار والتعظم . (٣) القصد : استقامة الطريق .

(٤) أي أدرك رضا الله وثوابه . (٥) محقه : محامه ، ومحق الله الشيء ذهب ببركته . (٦) أي

خرج من الدين ، وأصله من مرق السهم من الرمية مروقا : إذا خرج من الجانب الآخر .

العجائب أن معاوية بن أبي سفيان الأمويّ ، وعمرو بن العاص السهميّ ، أصبحا
يُحرّضان الناس على طلب الدين بزعمهما ، ولقد علمت أني لم أخالف رسول الله صلى الله
عليه وآله قطّ ، ولم أعصه في أمر ، أقيه بنفسي في المواطن التي يَنكُصُ^(١) فيها الأبطال
وترُعد فيها الفرائصُ^(٢) ، بنجدة أكرمني الله سبحانه بها وله الحمدُ ، ولقد قبضَ
رسول الله صلى الله عليه وآله ، وإن رأسه لفي حجرِي ، ولقد ولّيت غسله بيدي وخذِي
تقلبه الملائكة المقرَّبون معي ، وإيم الله ما اختلفت أمة قط بعد نبيا ، إلا ظهر
أهلُ باطلها على أهل حقها إلا ما شاء الله . (شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٨١)

٢٣٣ - خطبة أخرى له

وروي أن الإمام عليًا قال في هذه الليلة : حتى متى لا تناهض القوم بأجمعنا ؟ فقام
في الناس فقال :

« الحمد لله الذي لا يُبرمُ ما نَقَضَ ، ولا يُنقضُ ما أبرم ، لو شاء ما اختلف اثنان من
هذه الأمة ، ولا من خلقه ، ولا تنازع البشر في شيء من أمره ، ولا جحد المفضول
ذا الفضل فضله ، وقد ساقتنا وهؤلاء القوم الأقدارُ ، حتى لفت بيننا في هذا الموضع ،
ونحن من ربنا بمرءى ومسمع ، ولو شاء لعجل النعمة ، ولكان منه النصر ، حتى يكذب
الله الظالم ، ويعلم المحق أين مصيره ، ولكنه جعل الدنيا دار الأعمال ، والآخرة دار الجزاء
والقرار ، « لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا ، وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى » ألا إنكم
لأقو العدو غدًا إن شاء الله ، فأطيلوا الليلة القيامة ، وأكثروا تلاوة القرآن ، واسألوا الله
الصبر والنصر ، والقوهم بالحد والحزم ، وكونوا صادقين .

(شرح ابن أبي الحديد م ١ ص ٤٨١ وتاريخ الطبري ٦ : ٧)

(١) نكص عن الأمر : أحجم عنه .

(٢) جمع فريصة ، وهي لحمة بين الجنب والكتف لاتزال ترعد .

٢٣٤ - ومن كلام له كرم الله وجهه

كان يقوله لأصحابه في بعض أيام صفين

« معاشِرَ المسلمين : اسْتَشْعِرُوا ^(١) الْخَشْيَةَ ، وَتَجَلَّبَبُوا السَّكِينَةَ ، وَعَضُّوا عَلَى النَّوَاجِدِ ^(٢) ، فَإِنَّهُ أَنْبَى السِّيُوفِ عَنِ الْهَامِ ^(٣) ، وَأَكْمَلُوا اللَّأْمَةَ ^(٤) ، وَقَلَقُوا السِّيُوفَ فِي أَعْمَادِهَا ، قَبْلَ سَلْمِهَا ^(٥) ، وَالْحَطُّوا الْخَزَرَ ^(٦) ، وَاطْعَنُوا الشَّرَرَ ^(٧) ، وَنَافَحُوا بِالظُّبَا ^(٨) ، وَصَلُّوا السِّيُوفَ بِالْخَطَا ، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ بَعِينٌ ^(٩) اللَّهُ ، وَمَعَ ابْنِ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، فَعَاوَدُوا الْكُرَّ ، وَاسْتَحْيُوا مِنَ الْفَرِّ ، فَإِنَّهُ عَارٌّ فِي الْأَعْقَابِ ، وَنَارٌ يَوْمَ الْحِسَابِ ، وَطَبِيبٌ عَنِ أَنْفُسِكُمْ نَفْسًا ، وَامشُوا إِلَى الْمَوْتِ مَشْيًا سَجْدًا ^(١٠) ، وَعَلَيْكُمْ بِهَذَا السَّوَادِ ^(١١) الْأَعْظَمِ ، وَالرَّوِاقِ الْمُطَنَّبِ ^(١٢) ، فَاضْرَبُوا ثَبَجَهُ ^(١٣) ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ كَامِنٌ فِي كِسْرِهِ ^(١٤) ، قَدْ قَدَّمَ لِلْوَثْبَةِ يَدَا ، وَأَخَّرَ لِلنَّكُوصِ رِجْلَا ، فَصَمَدًا صَمَدًا ^(١٥) ، حَتَّى يَنْجَلِيَ لَكُمْ عَمُودُ الْحَقِّ ، وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ ، وَاللَّهُ مَعَكُمْ ، وَلَنْ يَتَرَكَ ^(١٦) أَعْمَالَكُمْ .

(نهج البلاغة ١ : ٥٧)

- (١) استشعر : لبس الشعار وهو ما يلبس البدن من الثياب . وتجلبب : لبس الجلباب ، والمراد : لازموا الخشية والسكينة . (٢) النواجد جمع ناجذ : أقصى الأضراس ، ويعرض المرء نواجذه حين يشتد غيظه ، والمراد : استجمعوا كل قوتكم . (٣) فإنه : الضمير فيه يعود على المصدر المفهوم من الفعل السابق : أنى فإن الغرض على النواجد أنبى للسيوف ، أى أدعى إلى نبوها عن رهوسكم ، نيا السيف عن الضريبة : كل ، والهام : الرهوس جمع هامة . (٤) اللأمة : الدرع ، ويجوز أن يعبر بالألأمة عن جميع أدوات الحرب ، يريد أكلوا السلاح . (٥) مخافة أن تستعصى عن الخروج وقت سلها . (٦) الخزر : النظر في أحد الشقين ، وتلك أمانة الغضب . (٧) الطعن في الجوانب يمينا وشمالا . (٨) نافحوا : كافحوا وضاربوا ، والظبا : جمع ظبة ، وهى حد السيف . (٩) أى ملحوظون بها . (١٠) اللين : السهل . (١١) العدد الكثير . يعنى جمهور أهل الشام . (١٢) الرواق : بكسر الراء وضمها الفسطاط ، يريد به مضرب معاوية المطنب ، أى المشدود بالأطناب (جمع طناب يضمين ، وهو الحبل) وكان معاوية في مضرب عليه قبة عالية وحوله صناديد أهل الشام . (١٣) أى وسطه . (١٤) جانبه . (١٥) الصمد : القصد ، صمده من باب نصر قصده . (١٦) لن ينقصكم منها شيئا .

٢٣٥ - خطبة أخرى للإمام

وخطب الإمام على ذلك اليوم أيضاً ، فقال :

« أيها الناس : إن الله تعالى ذِكرُهُ ، قد دلّكم على تجارة تُنْجِيكُمْ من العذاب ، وتُشْفِي^(١) بكم على الخير ، إيمانِ بالله ورسوله ، وجهادٍ في سبيله ، وجعل ثوابَهُ مغفرة الذنوب ، وَمَسَاكِينَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ، وَرِضْوَانٍ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرَ ، وأخبركم بالذي يجب فقال : (إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا ، كَانَتْهُمْ بُنْيَانٌ مَرصُوصٌ) فسوّوا صفوفكم كالبنين المرصوص ، وقدموا الدارع ، وأخروا الحاسر ، وعَضُّوا على الأضراس ، فإنه أنبيء السيف عن الهام ، وأربط للجأش ، وأسكن للقلوب ، وأميتوا الأصوات ، فإنه أطرده للفشل ، وأولى بالوقار ، والتوّوا في أطراف الرّماح ، فإنه أمّور^(٢) للأسنّة ، ورايتكم فلا تميلوها ، ولا تزيلوها ، ولا تجعلوها إلا بأيدي شجعانكم ، المانعي الذّمار^(٣) ، والصّبر عند نزول الحقائق ، أهل الحفاظ الذين يخفرون^(٤) برايتكم ويكنفونها يضرّبون خلفها وأمّامها ، ولا يضيّعونها ، أجزاء كلّ امرئ مسلم قرّنه^(٥) ، وواسى أخاه بنفسه ، ولم يكلّ قرّنه إلى أخيه ، فيجمع عليه قرّنه وقرن أخيه ، فيكسب بذلك اللأئمة ، ويأتي به دناءة ، أتى هذا ، وكيف يكون هذا ؟ هذا يقاتل اثنين ، وهذا ممسكٌ يده ، قد خلّى قرّنه إلى أخيه هارباً منه ، أو قائماً ينظر إليه ؟ من يفعل هذا مقتله الله ، فلا تعرّضوا لمقت الله ، فإنما مردّدكم إلى الله ، قال الله تعالى لقوم عابهم : (لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ ، وَإِذَنْ لَا تَمْتِعُونَ إِلَّا

(١) أشق عليه : أشرف . (٢) اسم تفضيل من مار ، سهم مائر أي خفيف نافذ داخل في الأجسام .

(٣) مايلزمك حفظه وحايته . (٤) خفّره وبه وعليه يخفر بكسر الفاء وضمها : أجاره ومنعه وآمته .

(٥) القرن : كفتوك في الشجاعة (أو عام) وأجزأه : أغناه وكفاه .

تقليلاً) وإيم الله إن فررتم من سيف الله العاجلة ، لا تسلمون من سيف الآخرة ، استعينوا بالصدق والصبر ، فإنه بعد الصبر يُنزل النصر .

(شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٨٣ وتاريخ الطبري ٦ : ٩)

٣٣٦ - خطبة للإمام عليّ

وسرّ الإمام عليّ كرم الله وجهه على جماعة من أهل الشام ، فيها الوليد بن عُقبة وهم يشتمونه ، فخبّر بذلك ، فوقف فيمن يليهم من أصحابه ، فقال :

« انهدوا^(١) إليهم ، عليكم السكينة والوقار ، وقار الإسلام وسيمى الصالحين ، فوالله لأقرب قوم من الجهل فائدهم ومؤذنيهم^(٢) معاوية وابن النابغة^(٣) وأبو الأعور السلمي ، وابن أبي معيط ، شارب الخمر ، المجلود حدا في الإسلام ، وهم أولى من يقومون فينقصوني ويحذّبوني^(٤) ، وقبل اليوم ماقاتلوني ، وأنا إذ ذاك أدعوهم إلى الإسلام ، وهم يدعونني إلى عبادة الأصنام ، الحمد لله ، قديماً عاداني الفاسقون ، فعبدتهم^(٥) الله ، ألم يفتخوا^(٦) ؟ إن هذا هو الخطب الجليل ، إن فسّلتنا كانوا غير مرّضيين ، وعلى الإسلام وأهله متخوفين ، خدعوا شطر هذه الأمة ، وأشربوا قلوبهم حبّ الفتنة ، واستمالوا أهواءهم بالإفك والبهتان ، قد نصبوا لنا الحرب في إطفاء نور الله عز وجل ، اللهم فافضّ خدّمتهم^(٧) ،

(١) نهّد الرجل : نهض ، ونهّد لعدوه : صمّد له . (٢) الأذنين والمؤذنين : الزعيم . (٣) هو عمرو بن العاص ، والنابغة : لقب أمه سلمى بنت حرمة . (٤) الجذب بالتسكين : العيب . (٥) ذلهم : المعبد : المذل من الطريق وغيره . (٦) الفتح بالسكون : القهر ، والغلبة والتذليل كالفتح (وفى الأصل : « ألم يفتخوا » وهو تصحيف) . (٧) يقال فضّ الله خدمتهم أى فرق جماعتهم ، الخدمة بالتحريك سير غليظ مضمور مثل الحلقة يشد في رسغ البعير ، ثم يشد إليه سرائح النعل (أى سيورها : جمع سريحة) فإذا انفضت الخدمة انحلت السرائح وسقطت النعل ، فضرب ذلك مثلاً لذهاب ما كانوا عليه وتفرقه ، وشبه اجتماع أمرهم واتساقه بالحلقة المستديرة .

وشتت كلمتهم ، وأبسلهم^(١) بخطاياهم ، فإنه لا يذل من واليت ، ولا يعز من عاديته ،
(تاريخ الطبرى ٦ : ٢٤)

٢٣٧ - خطبة أخرى له

وسرّ بأهل راية ، فرآهم لا يزولون عن موقفهم ، فخرّض عليهم الناس - وذكّر
أنهم غسان - فقال :

« إن هؤلاء لن يزولوا عن موقفهم دون طعن ذرّك^(٢) ، يُخرجُ منهم النَّسَمَ^(٣) ،
وضرب يُفلق منه الهام^(٤) . ويطيح^(٥) العظام ، وتسقط منه المعاصم^(٦) والأكف .
وحتى يصدع جباههم بِعُمْدِ الحديد ، وتنتشر حواجبهم على الصدور والأذقان ، أين أهلُ
الصبر ، وطلّابُ الأجر ؟ » .
(تاريخ الطبرى ٦ : ٢٥)

٢٣٨ - خطبة عبد الله بن عباس

وخطب عبد الله بن عباس أهل العراق بصفين ، فقال :

« الحمد لله ربّ العالمين ، الذى دحا^(١) تحتنا سبعا ، وسمك^(٢) فوقنا سبعا ، وخلق فيما
بينهن خلقا ، وأنزل لنا منهن رزقا ، ثم جعل لكل شيء قدرا ، يَبْلَى وَيَفْنَى ، غير وجهه
الحى القيوم ، الذى يحيا ويبقى .

(١) أبسله : أسلمه للهلكة ، أى أهلكهم . (٢) جمع نسمة ، وهى نفس الروح (بفتح الفاء)
ثم سميت بها النفس (بالسكون) . (٣) جمع هامة ، وهى الرأس . (٤) يصح أن يكون مضارع
طيح بالتشديد : طيح بثوبه : رمى به فى مضيعة ، وطيح الشيء : ضيعه ، وأن يكون مضارع أطاح : أطاح
شعره أسقطه ، والشيء أفتاه وأذهب ، وأن يكون مضارع طاح : طاح يطيح ويطوح هلك ، أو أشرف على
الملاك وذهب وسقط وتاه فى الأرض . (٥) جمع معصم بكسر الميم ، وهو موضع السوار أو اليد .
(٦) دحا الله الأرض يدحوها ويدحاها : بسطها . (٧) أى رفع .

إن الله تعالى بعث أنبياءَ ورُسُلًا ، فجعلهم حُجَجًا على عباده عُدْرًا وَنَذْرًا^(١) ، لا يُطَاعُ إلا بعلمه وإذنه ، يَمُنُّ بالطاعة على من يشاء من عباده ، ثم يُثيب عليها ، وَيُعصَى بعلم منه ، فيعفو ويغفر بحلمه ، لا يُقدَّر قدره ، ولا يُبَلِّغُ شيء مكاتَه ، أحصى كل شيء عدداً ، وأحاط بكل شيء علماً ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، إمام الهدى والنبي المصطفى .

وقد ساقنا قَدْرُ اللهِ إلى ما تَرَوْنَ ، حتى كان مما اضطرب من حبل هذه الأمة ، وانتشر من أمرها ، أن معاوية بن أبي سفيان وجد من طَعَامِ الناس أعواناً على ابن عمِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وَصِهْرِهِ ، وأوَّلِ ذَكَرٍ صَلَّى معه ، بَدْرِي^(٢) قد شهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله كلَّ مَشَاهِدِهِ التي فيها الفضل ، ومعاوية مُشْرِكٌ كان يعبد الأصنام ، والذي ملك الملك وحده ، وبان به وكان أهله ، لقد قاتل على بن أبي طالب عليه السلام مع رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يقول : صدق الله ورسوله ، ومعاوية يقول : كذب الله ورسوله : فعليكم بتقوى الله ، وَالجِدِّ والحزم والصبر ، والله إنا لنعلم إنكم لَعَلَى حق ، وإن القوم لعلى باطل ، فلا يكوننَّ أولى بالجِدِّ على باطلهم منكم في حقكم ، وإنا لنعلم أن الله سيعذبهم بأيديكم أو بأيدي غيركم ، اللهم أعِنَّا ولا تخذُلْنَا ، وانصرنا على عدونا ، ولا تحلِّ عُنَا ، وافتح بيننا وبين قومنا بالحق ، وأنت خير الفاتحين .

(شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٥٠٤)

(١) هما مصدران : عُدْره يعُدْره عُدْرًا بضم فسكون وبضمين وأنذره إنذاراً ونذراً بضم فسكون

وبضمتين : أو جمعان : العُدْر بضمتين جمع عُدْر وهو العاذر ، والنذر بضمتين جمع نذير وهو المنذر .

(٢) أى حضر غزوة بدر الكبرى التي نشبت بين رسول الله عليه الصلاة والسلام وبين مشركي قريش

في السنة الثانية للهجرة .

٢٣٩ - خطبة عبد الله بن بديل الخزاعي

وقام عبد الله بن بديل الخزاعي في أصحابه فخطبهم ، فقال :

« إن معاوية ادعى ما ليس له ، ونازع الأمر أهله ، ومن ليس مثله ، وجادل بالباطل ،
ليُدْحِضَ^(١) به الحق ، وصال عليكم بالأعراب والأحزاب ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الضلالة ، وزرع في
قلوبهم حبَّ الفتنة ، وَلَبَسَ^(٢) عليهم الأمور ، وزادهم رِجْسًا^(٣) إلى رِجْسِهِمْ ، وأنتم
والله على نور وبرهان ، قاتلوا الطغاة الجفاة ، قاتلوه ولا تخشوه ، وكيف تخشونهم ؟
وفي أيديكم كتابٌ من ربكم ظاهرٌ مبين ، قوله سبحانه : (أَتَخْشَوْنَ اللَّهَ فَأَلَّهُ أَحَقُّ أَنْ
تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ
وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ) لقد قاتلهم مع النبي صلى الله عليه وآله ، والله مأمٌ في هذه
بأزكى ولا أتقى ولا أبر ، انهضوا إلى عدو الله وعدوكم ، بارك الله عليكم .

(شرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٨٣ وتاريخ الطبري ٦ : ٩)

٢٤٠ - خطبة أبي الهيثم بن التيهان

وكان أبو الهيثم بن التيهان يسوي صفوف أهل العراق ، ويقول :

« يامعشر أهل العراق ، إنه ليس بينكم وبين الفتح في العاجل ، والجنة في الآجل .
إلا ساعة من النهار ، فأرْسُوا أقدامكم ، وسوُّوا صفوفكم ، أعيرُوا ربكم جاجتكم ،
واستعينوا بالله إلهكم ، وجاهدوا عدو الله وعدوكم ، وقاتلوهم قتلهم الله وأبادهم . واضربوا
فإنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ . »

(شرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٨٤)

(١) دحضت الحججة : بطلت ، وأدحضتها : أبطلتها . (٢) التلبيس : التخليط .

(٣) الرجس : القدر والمأثم ، وكل ما استقدر من العمل ، والعمل المؤدى إلى العذاب .

٢٤١ - خطبة للإمام عليّ

وخطب عليّ عليه السلام بصفتين أيضاً فقال :

« الحمد لله على نعمه الفاضلة على جميع من خلق من البرّ والفاجر ، وعلى حُججه البالغة على خلقه من أطاعه منهم ومن عصاه ، إن يرْحَمَ فبفضله ومنه ، وإنْ عَذَّبَ فيما كَسَبَتْ أيديهم ، وإن الله ليس بظلامٍ للعبيد . أُحْمَدُهُ على حسن البلاء ، وتظاهر النعماء ، وأستعينه على ما نابنا من أمر الدنيا والآخرة ، وأتوكل عليه ، وكفى بالله وكيلاً . ثم إنى أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ، ارتضاه لذلك وكان أهله ، واصطفاه لتبليغ رسالته وجعله رحمة منه على خلقه . فكان علمه فيه رءوفاً رحيماً ، أكرم خلق الله حسباً ، وأجملهم منظراً ، وأسخاهم نفساً ، وأبرهم لوالده ، وأوصلهم لرحم ، وأفضلهم علماً ، وأثقلهم حِملاً ، وأوفاهم لعهد ، وآمنهم على عقد ، لم يتعلق عليه مسلم ولا كافر بمظلمة قط ، بل كان يُظلم فيغفر ويُقدِرُ فيصْفَحُ ، حتى مضى صلى الله عليه وآله مطيعاً لله ، صابراً على ما أصابه ، مجاهداً في الله حقَّ جهاده ، حتى أتاه اليقين صلى الله عليه وآله ، فكان ذهابه أعظم المصيبة على أهل الأرض البرّ والفاجر ، ثم ترك فيكم كتاب الله يأمركم بطاعة الله ، وينهاكم عن معصيته .

وقد عهد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عهداً ، فلست أحيدهُ عنه ، وقد حضرتم عدوكم ، وعلمتم أن رئيسهم منافق يدعوهم إلى النار ، وابن عمّ نبيكم معكم وبين أظهركم يدعوكم إلى الجنة ، وإلى طاعة ربكم ، والعمل بسنة نبيكم ، ولا سواء^(١) من صلى قبل كلِّ ذكر ، لا يسبقني بصلاة مع رسول الله أحد . وأنا من أهل بدر ، ومعاوية طليق ،

(١) أى ولا مثل من صلى .

والله إنا على الحق ، وإلهم على الباطل ، فلا يَجْتَمِعَنَّ على باطلهم ، وتفرقوا عن حَقِّكم ،
حتى يغلب باطلهم حَقِّكم ، قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ، فإن لم تفعلوا يعذبهم بأيدي
غيركم . (شرح ابن أبي الحديد م ١ ص ٥٠٣)

٢٤٢ - خطبة سعيد بن قيس

وقام سعيد بن قيس يخطب أصحابه بِقُنَاصِرِينَ^(١) ، فقال :

« الحمد لله الذي هدانا لدينه ، وأورثنا كتابه ، وامتنَّ علينا بنبيه ، فجعله رحمة
للعالمين ، وسيد المرسلين ، وقائد المؤمنين ، وختامًا للنبيين ، وحجة الله العظيم ، على الماضين
والغابرين ، ثم كان مما قضى الله وقدره - وله الحمد على ما أحببنا وكرهنا - أن ضَمَّنَا
وعدونا بِقُنَاصِرِينَ ، فلا يَحْمَلُ بنا اليومَ الحِياصُ^(٢) ، وليس هذا بأوان انصراف ،
ولات حين مناص^(٣) ، وقد خصنا الله بمنه برحمة لا نستطيع أداء شكرها ، ولا تقدير^(٤)
قدرها ، إن أصحاب محمد صلى الله عليه وآله المُصْطَفِينَ الأَخْيَارَ معنا وفي حَيْرَتنا ، فوالله

(١) قال صاحب اللسان والقاموس : قنصرين موضع بالشام ، ولم يذكره ياقوت في معجمه .

(٢) حاص منه يحيص حيصا ومحيصا ومحاصا عدل وحاد ، والحياص والحياصة : مفاعلة من الحيص
أى العدول وأهرب . قال صاحب اللسان : وفي حديث مطرف (بتشديد الراء المكسورة) أنه خرج من
الطاعون فقبل له في ذلك ، فقال : « هو الموت نحايصه ولا بد منه » « قال أبو عبيد معناه : نروغ عنه »
وليس بين العبد والموت مفاعلة ، وإنما المعنى أن الرجل في فرط حرصه على الفرار من الموت كأنه يباريه
ويغالبه ، فأخرجه على المفاعلة لكونها موضوعة لإفادة المبالاة والمغالبة بالفعل ، كقوله تعالى :
« يُجَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ » فيقول معنى نحايصه إلى قولك نحصر على الفرار منه اه .

(٣) النوص والمناص : التأخر والفرار ، ناص عن قرنه ينوص : فر وراغ . أى وليس الوقت وقت
تأخر وفرار . (٤) قدر الشيء قدره من التقدير وبابه ضرب ونصر « وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ »
أى ما عظموه حق تعظيمه .

الذي هو بالعباد بصير ، أن لو كان قائدنا رجلاً مخدوعاً ، إلا أن معنا من البدرين سبعين رجلاً ، لكان ينبغي لنا أن تحسن بصائرنا ، وتطيب أنفسنا ، فكيف وإنما رئيسنا ابن عم نبينا ، بدرى صدق ، صلى صغيراً ، وجاهد مع نبيكم صلى الله عليه وسلم كثيراً ، ومعاوية طليق من وثاق^(١) الأسارى ، إلا أنه أخو جفاعة ، فأوردهم النار ، وأورثهم العار ، والله محل بهم الذل والصغار^(٢) ، ألا إنكم ستلقون عدوكم غداً ، فعليكم بتقوى الله من الجِدِّ وَالْحَزْمِ وَالصِّدْقِ وَالصَّبْرِ ، فإن الله مع الصابرين ، ألا إنكم تفوزون بقتلهم ، ويشقون بقتلكم ، والله لا يقتل رجل منكم رجلاً منهم إلا أدخل الله القاتل جنات عدن وأدخل المقتول ناراً نازلياً ، لا تفتروا عنهم وهم فيها مبلسون^(٣) ، عصمنا الله وإياكم بما عصم به أوليائه ، وجعلنا وإياكم ممن أطاعه واتقاه ، وأستغفر الله العظيم لى ولكم والمؤمنين .

(شرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٨٣)

٢٤٣ — خطبة يزيد بن قيس الأرحبي

وحرص يزيد بن قيس الأرحبي أهل العراق بصفين ، فقال :

« إن المسلم من سلم دينه ورأيه ، وإن هؤلاء القوم والله ما إن يقاتلوننا على إقامة دين رأونا ضيعناه ، ولا على إحياء حق رأونا أبتناه ، ولا يقاتلوننا إلا على هذه الدنيا ، ليكونوا فيها جبابرة وملوكاً ، ولو ظهرُوا عليكم - لا أراهم الله ظهوراً ولا سروراً - إذن

(١) الوثاق بالفتح ويكسر : ما يشد به ، وأوثقه فى الوثاق شدة «فشدوا الوثاق»

(٢) الذل والضم . (٣) من أبلس : إذا يثس وتخير .

لوكم مثل سَعِيدٍ^(١) والوليد^(٢) وعبد الله بن عامر^(٣) السفية ، يحدث أحدهم في مجلسه بذيبت وذيت^(٤) ، ويأخذ مال الله ، ويقول لا إثمَ عليّ فيه ، كأنما أُعطي ثرائه من أبيه . كيف ؟ إنما هو مال الله ، أفاده علينا بأسياننا ورماحنا ، قاتلوا : عبَادَ الله : القومَ الظالمين . الحاكمين بغير ما أنزل الله ، ولا تأخذُكم فيهم لومةُ لائم . إنهم إن يظهروا عليكم ، يُفسدوا عليكم دينكم ودنياكم . وهم من قد عرفتم وجرّبتم . والله ما أرادوا باجتماعهم عليكم إلا شراً ، وأستغفر الله العظيم لى وليكم .

(تاريخ الطبرى ٦ : ١٠ ؛ شرح ابن أبي الحديد ١ : ض ٤٨٥)

٢٤٤ - خطبة هاشم بن عتبة المرقال

وشدّ هاشمُ بن عُبَيْبِ المِرْقَالِ^(٥) فى عصابة من أصحابه على أهل الشام مراراً ،

(١) هو سعيد بن العاص بن سعيد بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ؛ قتل أبوه العاص يوم بدر كافراً ؛ قتله على بن أبي طالب ؛ وقد استعمل عثمان بن عفان سعيداً على الكوفة بعد الوليد بن عتبة ابن أوى معيط ، وولاه معاوية فى خلافته المدينة ، فكان يوليه إذا عزل مروان بن الحكم عن المدينة ويولى مروان إذا عزله . (٢) هو الوليد بن عتبة بن أبى معيط أبان بن أبى عمرو ذكوان بن أمية ابن عبد شمس بن عبد مناف ، وهو أخو عثمان بن عفان لأمه (أمه أروى بنت كرز بن ربيعة بن حبيب ابن عبد شمس) وولاه عثمان الكوفة بعد سعد بن أبى وقاص ، ثم عزله حين اتهم بشرب الخمر ، واستعمل بعده سعيد بن العاص . (٣) هو عبد الله بن عامر بن كرز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف ، وهو ابن خال عثمان بن عفان ، استعمله عثمان على البصرة بعد أبى موسى الأشعري ، وولاه أيضاً بلاد فارس بعد عثمان بن أبى العاص ، ولم يزل والياً على البصرة إلى أن قتل عثمان ، وقد وولاه معاوية البصرة ثلاث سنين . (٤) ذيت وذيت مثلثة الآخر : أى كيت وكيت . (٥) هو هاشم بن عتبة ابن أبى وقاص مالك بن وهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، وهو ابن أخى سعد بن أبى وقاص ، واقب بالمرقال لأن علياً رضى الله عنه أعطاه الراية بصفين ، فكان يرقل بها أى يسرع ، وهو الذى افتتح جلولاء من بلاد الفرس ، وكانت جلولاء تسمى فتح الفتح ، وفقت عينه يوم اليرموك بالشام ، وقتل فى وقعة صفين ، قطعت رجله يومئذ ، فجعل يقاتل من دنا منه وهو بارك .

فليس من وجهٍ يَحْمِلُ عليه ، إلا صَبَرَ له ، وقَاتَلَ فيه قتالاً شديداً . فقال لأصحابه :
« لا يَهُوْا لَنَاصِحِكُمْ مَاتَرُونَ من صَبْرِهِمْ . فوالله مَاتَرُونَ فيهِم إلا حَمِيَّةَ العَرَبِ ، وصَبْرَهَا
تحت رَايَاتِهَا ، وعند مَرَا كِزْهَا ، وإِنَّهُمْ لَعَلَى الضلال ، وإِنَّكُمْ لَعلى الحَقِّ ، يَاقوم اصْبِرُوا
وصابروا واجتمعوا ، وامشوا بنا إلى عدونا ، عَلَى تَوَدِّعِ رُؤْيَدَا ، ثم اثْبُتُوا وتناصروا ،
واذكروا الله ، ولا يسأل رجلٌ أخاه ، ولا تُكثِرُوا الالتفات ، واصمُدُوا^(١) صمدَهم ،
وجاهدوا محتسبين ، حتى يحكم الله بيننا وبينهم وهو خير الحاكمين . »

(تاريخ الطبري ٦ : ٢٣)

٢٤٥ - خطبة عمار بن ياسر

وقام عمار بن ياسر يوم صفين ، فقال :

« انهضوا معي : عباد الله : إلى قوم يزعمون أنهم يطلبون بدمِ ظالمٍ ، إنما قتله
الصلحون المنكرون للعُدوان ، الأمرون بالإحسان ، فقال هؤلاء الذين لا يبالون إذا سلمت
لهم دنياهم ، ولو دَرَسَ^(٢) هذا الدين ، لِمَ قتلتموه ؟ فقلنا : لأحْدائِهِ ، فقالوا : إنه لم
يُحْدِثْ شيئاً ، وذلك لأنه مَكَّيٌّ من الدنيا ، فهم يأكلونها ويرعونها ، ولا يبالون
لو انهدمت الجبال ، والله ما أظنهم يطلبون بدم ، ولكن القوم ذاقوا الدنيا ، فاستحلَّوها
واستمرَّموها^(٣) ، واعلموا أن صاحب الحق لو وَلِيَهُمْ لِحَالٍ بينهم وبين ما يأكلون
ويرعون منها ، إن القوم لم يكن لهم سَابِقَةٌ في الإسلام ، يستحقون بها الطاعة والولاية ،
فخذعوا أتباعهم بأن قالوا : قُتِلَ إمامنا مظلوماً : ليكونوا بذلك جبابرة وملوكا ، تلك

(١) أي اقصدوا جهنم . (٢) أي احمى . (٣) استمرأ الطعام : وجده مريثاً أي هنيئاً

مكيدة قد بلغوا بها ما ترَوْن ، ولولاها ما تابِعهم من الناس رَجُلٌ ، اللهم إن تَنصُرْنَا ،
فطالما نَصَرْت ، وأن تجعل لهم الأمر فادْخِرْ لهم بما أحدثوا لِعبادك العذاب الأليم .
(شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٥٠٤ ، وتاريخ الطبري ٦ : ٢١ والكامل لابن الأثير ٣ : ١٢٣)

٢٤٦ - خطبة الأشعث بن قيس

وخطب الأشعث بن قيس أصحابه من كنفدة ليلة الهريز بصفين فقال :

« الحمد لله أحمده وأستعينه ، وأؤمن به ، وأتوكل عليه ، وأستنصره وأستغفره ،
وأستجير به ، وأستهديه وأستشير به ، وأستشهد به ، فإنه من هداه الله فلا مُضِلَّ له ، ومن
يضل الله فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً
عبده ورسوله ، صلى الله عليه وآله ثم قال :

قد رأيتم يا معشر المسلمين ما قد كان في يومكم هذا الماضي ، وما قد فني فيه من
العرب ، فوالله لقد بلغت من السن ما شاء الله أن أبلغ ، فما رأيتم مثل هذا اليوم قط ،
ألا فليبلغ الشاهد الغائب أنا نحن إن تواقفنا غداً إنه لفنيت العرب ، وضيعت الحرمات ،
أما والله ما أقول هذه المقالة جزعا من الحرب ، ولكني رجل مسن أخاف هلى النساء
والذراري غداً إذا فنينا .

اللهم إنك تعلم أني قد نظرت لقومي ولأهل ديني فلم آل ، وما توفيقى إلا بالله ،
عليه توكلت وإليه أنيب ، والرأي يخطئ ويصيب ، وإذا قضى الله أمراً أمضاه على
ما أحب العباد أو كرهوا .

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم .

فانطلقت عيون معاوية إليه بخطبة الأشعث فاغتمتها وبنى عليها تدييره .

(شرح ابن أبي الحديد م ١ : ١٨٥)

٢٤٧ - خطبة الأشر النخعي

وقام الأشر يخطب الناس بقناصيرين ، وهو يومئذ على فرس أدم مثل حلاك^(١)
الغراب ، فقال :

« الحمد لله الذي خلق السموات العلى ، الرحمن على العرش استوى ، له ما فى
السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ، أحمده على حسن البلاء ، وتظاهر
النعماء ، حمداً كثيراً ، بكرةً وأصيلاً ، من هداه الله فقد اهتدى ، ومن يضل فقد
غوى ، أرسل محمداً بالصواب والهدى ، فأظهره على الدين كله ولو كره المشركون ،
صلى الله عليه وآله .

ثم قد كان مما قضى الله سبحانه وقدر ، أن ساقتنا المقادير إلى أهل هذه البلدة من
الأرض ، فلقت بيننا وبين عدو الله وعدونا ، فنحن بحمد الله ونعمه ومَنه وفضله ، قريرة
أعيننا ، طيبة أنفسنا ، نرجو بقتالهم حسن الثواب ، والأمن من العقاب ، معنا ابن عم
نبينا ، وسيف من سيوف الله ، على بن أبى طالب ، صلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
لم يسبقه إلى الصلاة ذكر ، حتى كان شيخاً لم يكن له صبوة^(٢) ، ولا نبوة^(٣) ،
ولا هفوة ، ولا سقطه ، فقيه فى دين الله تعالى ، عالم بمجدود الله ، ذورأى أصيل ، وصبر
جميل ، وعفاف قديم ، فاتقوا الله وعليكم بالحزم والجد ، واعلموا أنكم على الحق ، وأن
القوم على الباطل ، إنما تقاتلون معاوية وأنتم مع البدرين قريب من مائة بدرى ، سوى
من حولكم من أصحاب محمد ، أكثر ما معكم رايات قد كانت مع رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، ومعاوية مع رايات قد كانت مع المشركين على رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

(١) الحلك : شدة السواد ، وفى الأصل : « حثل » وهو تحريف . (٢) الصبوة : جهلة الفتوة

(٣) نبا السهم عن الهدف : قصر ولم يصبه ، والمراد أنه لا يعرف عنه تقصير فى الدين ولا وهن .

فمن يَشْكُ في قتال هؤلاء ؟ إلا مَيِّت القلب ، أنتم على إحدى الحسنيين ، إما الفتح ، وإما الشهادة ، عصمنا الله وإياكم بما عصم به من أطاعه واتقاه ، وألهمنا وإياكم طاعته وتقواه ، وأستغفر الله لي ولكم . (شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٨٤) .

٢٤٨ - خطبة الأشتر في المنهزمين من الميمنة

ولما أهرزمت ميمنة العراق ، قال له عليّ : يا مالك ، قال : كَبَيْتِكَ ، قال : أنت هؤلاء القوم فقل لهم : « أين فراركم من الموت الذي لن تُعْجِزُوهُ ، إلى الحياة التي لن تبقى لكم » فضى فاستقبل الناس منهزمين ، فقال لهم هذه الكلمات ، وقال : إلى أيها الناس ، أنا مالك بن الحارث ، أنا مالك بن الحارث ، ثم ظنّ أنه بالأشتر أعرف في الناس ، فقال : أنا الأشتر ، إلى أيها الناس ، فأقبلت إليه طائفة ، وذهبت عنه طائفة ، فنادى : أيها الناس ، عَضِضْتُمْ بِيَهِنٍ ^(١) آبَائِكُمْ ، ما أقبح ما قاتم منذ اليوم ! أيها الناس : أخلِصُوا إلى مَذْحِجَا ^(٢) ، فأقبلت إليه مذحج فقال :

« عَضِضْتُمْ بِصَتْمٍ ^(٣) الجندل ، ما أرضيتم ربكم ، ولا نصحتم له في عدوكم ، وكيف بذلك وأنتم أبناء الحروب ، وأصحاب الغارات ، وفتيان الصبّاح ^(٤) ، وفرسان الطراد ، وحُتُوفُ الأقران ، ومذحج الطعمان ، الذين لم يكونوا يُسَبِّحُونَ بثأرهم ، ولا تُطَلُّ دماؤهم ، ولا يُعْرَفُونَ في مَوْطِنٍ بِخَسْفٍ ^(٥) ، وأنتم حدّ أهل مصركم ، وأعزّ حتى في قومكم ، وما تفعلوا في هذا اليوم ، فإنه مآثور بعد اليوم ، فاتقوا مآثور الأحاديث في غد ، وأصدّقوا عدوكم اللقاء ، فإن الله مع الصادقين ، والذي نفس مالك بيده ما من هؤلاء (وأشار بيده

(١) الهن : اسم يكنى به عن الفرّج . (٢) كان الأشتر من النخع (بالتحريك) ، وهي قبيلة

كبيرة من مذحج باليمن . (٣) الصم : جمع صتمة (كفرصة) ، وهي الصخرة الصلبة كالصتيمة .

(٤) الغارة . (٥) الخسف : الذل .

إلى أهل الشام) رَجُلٌ عَلَى مِثَالِ جَنَاحِ بَعُوضَةٍ مِنْ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أَنْتُمْ مَا أَحْسَنْتُمْ الْقِرَاعَ^(١) ، اجْلُؤُوا سَوَادَ وَجْهِ ، يَرْجِعُ فِي وَجْهِ دُمِي ، عَلَيْكُمْ بِهَذَا السَّوَادِ الْأَعْظَمِ ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَوْ قَدْ فَضَّهَ ، تَبِعَهُ مِنْ بَجَائِبِهِ كَمَا يَتَّبِعُ مُؤَخَّرَ السَّبِيلِ مُقَدِّمَهُ .
قالوا أخذ بنا حيث أحببت .

(تاريخ الطبري ٦ : ١١ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٨٧)

٢٤٩ - خطبة أخرى له فيهم

وروي أنه لما اجتمع إليه عظيم من كان انهزم عن الميمنة حرّضهم ثم قال :

« عَضُّوا عَلَى النَّوْاجِدِ مِنَ الْأَضْرَاسِ ، وَاسْتَقْبَلُوا الْقَوْمَ بِهَامِكُمْ ، وَشُدُّوا عَلَيْهِمْ شِدَّةَ قَوْمِ مَوْتُورِينَ^(٢) ، نَارًا بِأَبَائِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ ، حِنَاقًا عَلَى عَدُوِّهِمْ ، قَدْ وَطَنُوا عَلَى الْمَوْتِ أَنْفُسَهُمْ ، كَيْلًا يُسَبِّقُوا بَوْتَرَ ، وَلَا يُلْحَقُوا فِي الدُّنْيَا عَارًا ، وَآيِمُ اللَّهِ مَا وَتَرَ قَوْمٌ قَطُّ بِشَيْءٍ أَشَدَّ عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْ يُوتَرُوا دِينَهُمْ ، وَإِنْ هُوَ لَاءَ الْقَوْمِ لَا يِقَاتِلُونَكُمْ إِلَّا عَنْ دِينِكُمْ ، لِيَمِيتُوا الشُّنَّةَ وَيُحْيُوا الْبِدْعَةَ ، وَيَعِيدُوكُمْ فِي ضَلَالَةٍ قَدْ أَخْرَجَكُمْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْهَا بِحَسَنِ الْبَصِيرَةِ ، فَطَيَّبُوا عِبَادَ اللَّهِ أَنْفُسًا بِدِمَائِكُمْ دُونَ دِينِكُمْ ، فَإِنْ ثَوَابِكُمْ عَلَى اللَّهِ ، وَاللَّهُ عِنْدَهُ جَنَّاتُ النَّعِيمِ وَإِنْ الْفِرَارُ مِنَ الزَّحْفِ فِيهِ السَّابُّ لِلْعِزِّ ، وَالغَلْبَةُ عَلَى الْفَيْءِ ، وَذَلَّ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتُ ، وَعَارُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَسَخَطَ اللَّهُ وَالْإِيمَ عِقَابَهُ . »

(تاريخ الطبري ٦ : ١٢ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٨٧)

(١) المقارعة والمناضلة . (٢) وتره : إذا أصابه بوتر ، وهو الثار .

٢٥٠ - خطبة على فيهم وقد عادوا إلى مواقفهم

ولما رأى الإمام كرم الله وجهه ميمنته قد عادت إلى مواقفها ومصافئها ، وكشفت
من بإزائها من عدوها ، حتى ضاربوم في مواقفهم ومرا كزهم ، أقبل حتى انتهى إليهم
فقال :

« إني قد رأيت جَوَلتكم وانحيازكم عن صفوفكم ، يَحُوزكم الطُّفَاةُ الجُفَاةُ ،
وأعرابُ أهل الشام ، وأنتم لهَامِيمٌ ^(١) العرب ، والسَّنَامُ الأعظم ، وعُمَار الليل بتلاوة
القرآن ، وأهل دعوة الحق إذضل الخاطئون ، فلولا إقبالكم بعد إدباركم . وكرُّكم بعد انحيازكم
وجب عليكم ما وجب على المُوَلَّى يومَ الزحفِ دُبْرَهُ ، وكنتم من الهالكين ، ولكن
هَوْنٌ وَجَدِي ، وَشَفَى بعضَ أحاح ^(٢) نفسى ، أئى رأيتكم بِأخْرَةِ ^(٣) حُزْتُموم كما
حازوك ، وأزْتُموم عن مصافِّكم كما أزالوك ، تَحْشُونَهُمْ ^(٤) بالسيوف تركب أولاهم
أخراهم كالإبل المطرودة الهيم ^(٥) ، فالآن فاصبروا نزلت عليكم السكينة ، وثبتكم الله
عزًّا وجلًّا باليقين ، وليعلم المنهزم أنه مُسْخِطٌ رَبَّهُ ، وَمُوبِقٌ ^(٦) نفسه ، إن فى الفرار
مَوْجِدَةٌ ^(٧) الله عزًّا وجلًّا عليه ، وَالذَّلُّ اللّازم له ، والعارَ الباقى ، واعتصارَ الفىء من يده ،
وفساد العيش عليه ، وإن الفارَّ لا يزيد الفرار فى عمره ، ولا يُرضى ربه ، فموت المرء مُحَقَّقًا
قبل إتيان هذه الخصال ، خير من الرضا بِالتَّلْبَسِ بِهَا وَالإِصْرَارِ عَلَيْهِ . »

(تاريخ الطبرى ١٣٠٦ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٨٨)

(١) اللهم ، والهميم (بكسر اللام والميم فيما) : السابق الجواد من الخيل والناس .
(٢) الأحاح : الفيظ وحرارة الغم . (٣) يقال جاء أخرة وبأخرة محركتين وقد يضم أولهما
أى آخرًا . (٤) من الحس بالفتح : وهو القتل والاستئصال . (٥) العطاش : جمع أهيم وهيماء
(والهيام بالضم : أشد العطش) . (٦) مهلك . (٧) أى غضبه .

٢٥١ - خطبة خالد بن معمر

ولما ولى الإمام خالد بن معمر راية ربيعة ، وحمل عليها أهل الشام حملة شديدة ، وانهزم ناس من قومه ، صاح بمن انهزم ، وقال يومئذ :

« يا معشر ربيعة : إن الله عز وجل قد أتى بكل رجل منكم من مَنبِئِهِ ، وَمَسَقَطِ رأسه ، فجمعكم في هذا المكان جمعا لم يجمعكم مثله مُنْذُ نَشَرَ كُمْ فِي الْأَرْضِ ، فَإِنْ تَمَسِكُوا أَيْدِيكُمْ وَتَنَكَّلُوا^(١) عَنْ عَدُوِّكُمْ ، وَتَزُولُوا عَنْ مَصَافِّكُمْ ، لَا يَرْضَى اللَّهُ فِعْلَكُمْ وَلَا تَعْدَمُوا مِنَ النَّاسِ مَعِيًّا يَقُولُ : فَضَحْتَ رِبِيعَةَ الْأَذَمَارِ^(٢) ، وَحَاصَتِ^(٣) عَنِ الْقِتَالِ ، وَأُنْتِ مِنْ قَبْلِهَا الْعَرَبُ ، فَإِذَا كَمْ أَنْ تَتَشَاءَ بِكُمْ الْعَرَبُ وَالْمَسْلُومُونَ الْيَوْمَ ، وَإِنْ كُمْ إِنْ تَمَضَوْا مُتَقَبِلِينَ مُتَدِمِينَ ، وَتَصَبَرُوا مُحْتَسِبِينَ ، فَإِنْ الْإِقْدَامَ لَكُمْ عَادَةً ، وَالصَّبْرَ مِنْكُمْ سَجِيَّةً ، وَاصْبِرُوا وَنَيْتُكُمْ أَنْ تُؤْجَرُوا ، فَإِنْ ثَوَابَ مَنْ نَوَى مَا عِنْدَ اللَّهِ شَرَفُ الدُّنْيَا وَكَرَامَةُ الْآخِرَةِ ، وَلَنْ يَضِيْعَ اللَّهُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا » .

(تاريخ الطبري ٦ : ١٩ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٩٦)

٢٥٢ - خطبة عقبة بن حديد النمرى

وقال عُقْبَةُ بْنُ حَدِيدِ النَّمَرِيِّ يَوْمَ صَفِينِ لِأَهْلِهِ وَأَصْحَابِهِ :

« أَلَا إِنْ مَرَّ عَى الدُّنْيَا قَدْ أَصْبَحَ هَشِيمًا^(٤) ، وَأَصْبَحَ شَجْرُهَا خَضِيدًا^(٥) ، وَجَدِيدُهَا سَيْلًا^(٦) ، وَحُلُوُّهَا مَرَّةَ الْمَذَاقِ ، أَلَا وَإِنِّي أَنْبِئُكُمْ نَبَأَ امْرِئٍ صَادِقٍ : إِنْ قَدْ سَمِيتِ الدُّنْيَا

(١) أى تنكصوا وتجنبوا . (٢) ماتجب حمايته وحفظه . (٣) هربت وفرت .

(٤) الهشيم من النبات : اليابس المنكسر . (٥) مقطوعا ، خضده : كضربه ، فهو خضيد ومخضود .

(٦) السيل : الخلق من الثياب .

وعزفت^(١) نفسي عنها ، وقد كنت أتمنى الشهادة ، وأعرض لها في كل جيش وغارة ، فأبى الله عز وجل إلا أن يُبلغني هذا اليوم ، إلا وإني متعرض لها من ساعتى هذه ، قد طمعتُ ألا أحرمتها ، فما تنتظرون ، عباد الله ، بجهاد من عادى الله ، أخوفا من الموت القادم عليكم ، الذاهب بأنفسكم لا محالة ؟ أو من ضربة كفت بالسيف ؟ أنستبدلون الدنيا بالنظر في وجه الله عز وجل ، ومرافقة النبيين والصدّيقين ، والشهداء والصالحين في دار القرار ؟ ما هذا بالرأى السيد ! » .

ثم مضى فقال : « يا إخوتى إني قد بعث هذه الدار بالتي أمامها ، وهذا وجهى إليها . لا تُبرح وجوهكم ، ولا يقطع الله عز وجل رجاءكم » فتبعه إخوته وقالوا : « لا نطلب رزق الدنيا بعدك ، فقبح الله العيش بعدك : اللهم إنا نحتسب أنفسنا عندك » فاستقدموا فقاتلوا حتى قتلوا .
(تاريخ الطبرى ٦ : ١٥ ، شرح ابن أبي الحديد م ١ ص ٤٩٠)

٢٥٣ — خطبة خنثر بن عبيدة بن خالد

وكان من « محارب » رجل يقال له خنثر بن عبيدة بن خالد ، وكان من أشجع الناس ، فلما قتلت الناس يوم صفين ، جعل يرى أصحابه منهزمين ، فأخذ ينادى :

« يا معشر قيس ، أطاعة الشيطان آثر^(٢) عندكم من طاعة الرحمن ؟ ألا إن الفرار فيه معصية الله سبحانه وسخطه ، وإن الصبر فيه طاعة الله عز وجل ورضوانه ، أفتختارون سخط الله تعالى على رضوانه ، ومعصيته على طاعته ؟ ألا إنما الراحة بعد الموت لمن مات محاسباً نفسه ، ثم قال :

(١) انصرفت . (٢) أفضل .

لَا وَالَّتِ نَفْسُ امْرِئٍ وَتَى الدُّبُرُ^(١) أنا الذى لا ينثنى ولا يفر
وَلَا يُرَى مع المَعَاذِيلِ الغُدْرُ^(٢)

(تاريخ الطبرى ٦ : ١٨ ، شرح ابن الحديد م ١ : ص ٤٩٥)

٢٥٤ - تحريض معاوية أيضا

وخطب معاوية الناس بصفين فقال :

« الحمد لله الذى دنا فى علوه ، ودنأ فى دنوته ، وظهر وبطن ، وارتفع فوق
كل ذى منظر ، هو الأول والآخِر ، والظاهر والباطن ، يقضى فيفصل ، ويقدر فيغفر ،
ويفعل ما يشاء ، إذا أراد أمرا أمضاه ، وإذا عزم على شيء قضاه ، لا بوأمير^(٣) أحداً
فيما يملك ، ولا يُسأل عمّا يفعل وهم يسألون ، والحمد لله رب العالمين على ما أحببنا
وكرهنا . »

وقد كان فيما قضاه الله أن ساقتنا المقادير إلى هذه البقعة من الأرض ، ولقت بيننا
وبين أهل العراق ، فنحن من الله بمنظر ، وقد قال الله سبحانه وتعالى : « وَلَوْ شَاءَ اللهُ
مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ » انظروا يا أهل الشام ، إنكم غداً تلقون
أهل العراق ، فكونوا على إحدى ثلاث خصال : إما أن تكونوا طلبتم ما عند الله
فى قتال قوم بقوا عليكم ، فأقبلوا من بلادهم حتى نزلوا فى بيضتكم^(٤) ، وإما أن
تكونوا قوماً تطلبون بدم خليفتمك وصهر نبيكم ، وإما أن تكونوا قوماً تذبون عن
نساءكم وأبنائكم ، فعليكم بتقوى الله والصبر الجميل ، واسألوا الله لنا والكم النصر ،
وأن يفتح بيننا وبين قومنا بالحق ، وهو خير الفاتحين . »

(شرح ابن أبي الحديد م ١١ ص ٤٩٧)

(١) وأل : طلب النجاة ، وخلص . (٢) المعازيل : جمع معزال بكسر الميم ، وهو
الضعيف الأحمق (ومن لا سلاح معه ، ومن يمتاز أهل الميسر لوما) ، والغدر : جمع غدور مبالغة
من غادر . (٣) أى لا يشاور . (٤) ساحتكم .

٢٥٥ - ماخاطب به النعمان بن بشير قيس بن سعد

في وقعة صفين

وقف النعمان بن بشير الأنصاري بين الصّفين بصّفين فقال :

« يَا قَيْسُ بْنُ سَعْدٍ ، أَمَا أَنْصَفَكُمْ مِنْ دَعَاكُمْ إِلَى مَارِضِي لِنَفْسِهِ ؟ إِنْكُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ ، أَخْطَأْتُمْ فِي خِذْلِ عُمَانَ يَوْمَ الدَّارِ ، وَقَتَلْتُمْ أَنْصَارَهُ يَوْمَ الْجَمَلِ ، وَإِقْحَامَكُمْ ^(١) عَلَى أَهْلِ الشَّامِ بِصَفِينِ ، فَلَوْ كُنْتُمْ إِذْ خِذَلْتُمْ عُمَانَ خِذَلْتُمْ عَلِيًّا ، كَانَ هَذَا بَهَذَا ، وَلَكِنْ كُنْتُمْ خِذَلْتُمْ حَقًّا ، وَنَصَرْتُمْ بَاطِلًا ، ثُمَّ لَمْ تَرْضُوا أَنْ تَكُونُوا كَالنَّاسِ ، شَعَلْتُمْ ^(٢) الْحَرْبَ ، وَدَعَوْتُمْ إِلَى الْبِرَازِ ، فَقَدْ وَاللَّهِ وَجِدْتُمْ رِجَالَ الْحَرْبِ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ سَرِيعًا إِلَى بِرَازِكُمْ ، غَيْرَ أَنْكَاسٍ ^(٣) عَنْ حَرْبِكُمْ ؛ ثُمَّ لَمْ يَنْزِلْ بَعْلِي أَمْرٌ قَطُّ إِلَّا هَوَّيْتُمْ عَلَيْهِ الْمَصِيبَةَ ، وَوَعَدْتُمُوهُ الظَّفَرَ ، وَقَدْ وَاللَّهِ أَخْلَفْتُمُوهُ ، وَهَانَ عَلَيْنَا بِأَسْمِكُمْ ، وَمَا كُنْتُمْ لِتُخْلُوا بِهَ أَنْفُسِكُمْ مِنْ شِدَّتِكُمْ فِي الْحَرْبِ ، وَقَدَّرْتُمْ عَلَى عَدُوِّكُمْ ، وَقَدْ أَصْبَحْتُمْ أَذِلَّةً عَلَى أَهْلِ الشَّامِ ، لَا يَرَوْنَ حَرْبَكُمْ شَيْئًا ، وَأَنْتُمْ أَكْثَرُ مِنْهُمْ عِدْدًا وَمَدَدًا ، وَقَدْ وَاللَّهِ كَانُوا بِكُمْ بِالْقِلَّةِ ، فَكَيْفَ لَوْ كَانُوا مِثْلَكُمْ فِي السَّكْرَةِ ، وَاللَّهِ لَا تَزَالُونَ أَذِلَّةً فِي الْحَرْبِ بِمَدَاهَا أَبَدًا ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَعَكُمْ أَهْلُ الشَّامِ ، وَقَدْ أَخَذْتَ الْحَرْبَ مِنْكُمْ مَا قَدَرَأَيْتُمْ ، وَنَحْنُ أَحْسَنُ بَقِيَّةً ، وَأَقْرَبُ إِلَى الظَّفْرِ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي الْبَقِيَّةِ » فَضَحَكَ قَيْسٌ وَقَالَ :

(١) قحم في الأمر : رمى بنفسه فيه من غير روية ، وأقحمت الفرس النهر : أدخلته فيه فانقحم واقتحم . (٢) شعل النار ، وأشعلها : ألهبها . (٣) أنكاس : جمع نكس (بالكسر) ، وهو الضعيف المقصر .

٢٥٦ - جواب قيس بن سعد

« والله ما كنت أراك يا نعمان تجترى على هذا المقام ، أما المنصف الحق فلا ينصح أخاه من غش نفسه ، وأنت والله الغاش لنفسه ، المبطل فيما نصح غيره ، أما ذكر عثمان فإن كان الإيجاز يكفيك فخذ ، قتل عثمان من لست خيراً منه ، وخذله من هو خير منك . وأما أصحاب الجمل فقاتلناهم على النكث . وأما معاوية ، فلو اجتمعت العرب على بيعته لقاتلهم الأنصار . وأما قولك إنا لسنا كأناس ، فنحن في هذه الحرب كما كنا مع رسول الله ، نلقى السيوف بوجوهنا ، والرماح بنحورنا ، حتى جاء الحق ، وظهر أمر الله وهم كارهون ، ولكن انظر يا نعمان هل ترى مع معاوية إلا طليقاً أعرابياً ، أو يمانياً مستدرجاً^(١) ، وانظر أين المهاجرون والأنصار والتابعون بإحسان ، الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه ، ثم انظر هل ترى مع معاوية غيرك وصويحبيك^(٢) ، ولستما والله بدرين ولا عقبين^(٣) ، ولا لكما سابقة في الإسلام ، ولا آية في القرآن . »

(الإمامة والسياسة ١ : ٨٣)

(١) استدرجه : خدعه وأذناه . (٢) أراه يعني به عمرو بن العاص ، وقد كان أكبر أعوان

معاوية ونصرائه ، عاقده على نصرته ، على أن يجعل له مصر طعمة . (٣) أى لا يمن حضروا وقعة بدر

مع الرسول صلى الله عليه وسلم ولا يمن بايعوه في العقبة .

خطب الشيعيات في وقعة صفين

٢٥٧ - خطبة عكرشة بنت الأطرش

دخلت عكرشة بنت الأطرش على معاوية متوكئة على عكاز ، فسلمت عليه بالخلافة ثم جلست ، فقال لها معاوية : الآن يا عكرشة صرت عندك أمير المؤمنين ؟ قالت نعم ، إذ لا على شيء ، قال : ألسنت المتقلدة حائل السيوف بصفين ، وأنت واقفة بين الصفين تقولين :

« أيها الناس : عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ، إن الجنة لا يبرح حل من أوطانها ، ولا يهزم من سكنها ، ولا يموت من دخلها ، فابتاعوها بدار لا يدوم نعيمها ولا تنصرم همومها ، وكونوا قوماً مستبصرين في دينهم ، مستظهيرين^(١) بالصبر على طلب حقهم ، إن معاوية دلف^(٢) إليكم بعجم العرب ، غلف^(٣) القلوب ، لا يفقهون الإيمان ، ولا يدرون الحكمة ، دعاهم بالدنيا فأجابوه ، واستدعاهم إلى الباطل فلبّوه ، فأنه الله عباد الله في دين الله ، إياكم والتواكل فإن ذلك ينقض عرى الإسلام ، ويطفى نور الحق ، هذه بدر الصغرى ، والعقبة^(٤) الأخرى ، يا معشر المهاجرين والأنصار ،

(١) مستعينين . (٢) دلف : مشى مشى المقيد ، وفي التعبير به إيماء إلى ضعف معاوية ووهن قوته .

(٣) جمع أغلف وقلب أغلف كأنما غشى بغلاف فهو لا يعى . (٤) تشير إلى بيعة العقبة (الأولى

والثانية) حين بايع المسلمون الأولون من الأنصار النبي صلى الله عليه وسلم بالعقبة على نصرته : أي إن

هذه الموقعة دفاع عن الإسلام ونصرة له كذلك .

امضوا على بصيرتكم ، واصبروا على عزيمتكم ، فكأنى بكم غدا ، وقد لقيتم أهل الشام
كالحجر الناهقة ، تصقع^(١) صقع البعير .

فكأنى أراك على عصاك هذه ، وقد انكفاً عليك العسكران ، يقولون هذه عكرشة
بنت الأطرش بن رواحة ، فإن كدت لتفليين أهل الشام لولا قدر الله ، وكان أمر الله
قدراً مقدوراً ، فما حملك على ذلك ؟ قالت : يا أمير المؤمنين يقول الله جل ذكره :
« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءَ إِن تَبَدَّلَ لَكُمْ نَسْوُهُمْ » الآية . وإن الليب
إذا كره أمراً لا يحب إعادته ، قال صدقت ، فاذكري حاجتك ، قالت : إنه كانت
صدقاتنا تؤخذ من أغنيائنا ، فترد على فقرائنا ، وإنا قد فقدنا ذلك ، فما يجبرنا كسير
ولا ينعش لنا فقير ، فإن كان ذلك عن رأيك ، فمئلك تنبه من الغفلة ، وراجع التوبة ،
وإن كان عن غير رأيك ، فما مثلك من استعمان بالحوثة ، ولا استعمل الظلمة ، قال معاوية :
يا هذه إنه ينوبنا من أمور رعيتنا أمور تنبثق^(٢) ، وبحور تنفهيق^(٣) ، قالت :
ياسبحان الله ! والله ما فرض الله لنا حقاً ، فجعل فيه ضرراً على غيرنا ، وهو علام الغيوب .
قال معاوية : يا أهل العراق ، نبهكم على بن أبي طالب ، فلم تطاقوا ، ثم أمر برد صدقاتهم
فيهم ، وإنصافهم .
(العقد. الفريد ٢ : ١٣١ ، وصحيح الأعمش ١ : ٢٥٣)

٢٥٨ - خطبة أم الخير بنت الحريش

كتب معاوية إلى واليه بالكوفة أن يحمل إليه أم الخير بنت الحريش بن سراقه
البارقي برحلها ، وأعلمه أنه مجازيه بالخير خيراً ، وبالشر شرّاً بقولها فيه ، فلما ورد عليه

(١) الصقع : رفع الصوت ، صقع بصوته : رفعه . وفي صحيح الأعمش تصقع قصع البعير . من قصع

الجمال بجرته ردها إلى جوفه . (٢) انبثق : انفجر ، وانبثق السيل عليهم : أقبل ولم يحتسبوه .

(٣) تتسع .

كتابه ، ركب إليها ، فأقرأها كتابه ، فقالت : أما أنا فغير زائفة عن طاعة ، ولا معتلة
بكذب ، ولقد كنت أحب لقاء أمير المؤمنين ، لأمر تختلج في صدري . فلما شيعها ،
وأراد مفارقتها ، قال لها : يا أم الخير إن أمير المؤمنين كتب إليّ أنه مجازيني بقولك في
بالخير خيراً ، وبالشرّ شرّاً ، فإلى عندك ؟ قالت : يا هذا ، لا يُطعمك برك بي ، أن أسرك
بباطل ، ولا يؤيسك معرفتي بك ، أن أقول فيك غير الحق ، فسارت خير مسير ، حتى
قدمت على معاوية ، فأنزلها مع الحرّم ، ثم أدخلها في اليوم الرابع وعنده جلساؤه ، فقالت :
السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ا فقال لها : وعليك السلام يا أم الخير ؟
بحقّ ما دعوتني بهذا الاسم ؟ قالت : مه يا أمير المؤمنين ، فإن بديةة^(١) السلطان
مدحضة^(٢) لما يجب علمه ، ولكل أحل كتاب ، قال : صدقت ، فكيف حالك يا خالة
وكيف كنت في مسيرك ؟ قالت : لم أزل يا أمير المؤمنين في خير وعافية ، حتى صرت إليك ،
فأنا في مجلس أنيق ، عند ملك رقيق . قال معاوية : بحسن نيتي ظفرت بكم . قالت
يا أمير المؤمنين : يعيدك الله من دحض^(٣) المقال ، وما تُردى عاقبته ، قال : ليس هذا
أردنا ، أخبرينا كيف كان كلامك إذ قتل عمار بن ياسر ؟ قالت : لم أكن والله زورته^(٤)
قبل ، ولا رويته بعد ، وإنما كانت كلمات نقشها لساني عند الصدمة ، فإن أحببت أن
أحدث لك مقلا غير ذلك فعلت ، فالتفت معاوية إلى جلسائه ، فقال : أيكم يحفظ
كلامها ؟ فقال رجل منهم : أنا أحفظ بعض كلامها يا أمير المؤمنين . قال : هات ؟ قال : كأنى
بها بين بردين زبيريين^(٥) كشيبي النسبج ، وهي على جبل أزمك^(٦) ، وببيدها سوط
منتشر الضفيرة ، وهي كالفحل يهدر^(٧) في شقشقة تقول :

(١) البديةة : أول كل شيء وما يفجأ منه . (٢) المدحضة : المزلّة . (٣) دحضت الحجة
دحضا من باب نفع : بطلت ورجله زلقت ، ومكان دحض زلق . (٤) زور الشيء : حسنه وقومه وهذبه .
(٥) الزبير : ما يعلو الثوب الجديد كالذي تراه في القطيفة . وفي رواية أخرى : عليها برد زبيدي نسبة
إلى زبيد (بفتح الزاي) بلد باليمن . (٦) من الرمكة : بالضم ، وهي لون الرماد . (٧) يصوت .
والشقشة : شيء كالرثة يخرج للبعير من فيه إذا هاج .

« يا أيها الناس : اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ، إن الله قد أوضح لكم الحق ، وأبان الدليل ، وبين السبيل ، ورفع العلم ، ولم يدعكم في عمياء مُدْهَمَةً ، فأين تريدون رحمكم الله ؟ أفراراً عن أمير المؤمنين ، أم فراراً من الزحف ، أم رغبة عن الإسلام ، أم ارتداداً عن الحق ؟ أما سمعتم الله جل ثناؤه يقول : (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ) ثم رفعت رأسها إلى السماء وهي تقول : اللهم قد عيّل الصبر ، وضعف اليقين ، وانتشرت الرغبة ، وييدك يارب أزمة القلوب ، فاجمع الكلمة على التقوى ، وألف القلوب على الهدى ، واردد الحق إلى أهله . هلموا رحمكم الله إلى الإمام العادل ، والرضى التقي ، والصديق الأكبر ، إنها إْحَنٌ (١) بدرية ، وأحقاد جاهلية ، وضغائن أْحْدِيَةٌ (٢) وثب بها معاوية حين الغفلة ، ليدرك نارات بنى عبد شمس ، ثم قالت : (قَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّكُمْ يُنْتَهُونَ) صبراً يامعشر المهاجرين والأنصار ، قاتلوا على بصيرة من ربكم ، وثبات من دينكم ، فكأنى بكم غدا ، وقد لقيتم أهل الشام كحُمُرٍ مستنفرة فرّت من قَسْوَرَةٍ (٣) ، لا تدرى أين يُسَلِّكُ بها من فجاج الأرض ، باعوا الآخرة بالدنيا ، واشتروا الضلالة بالهدى ، وعمّا قليل ليصبحنّ نادمين ، حين تحل بهم الندامة ، فيطلبون الإقالة ، ولات حين مناص ، إنه من ضلّ الله عن الحق وقع في الباطل . ألا إن أولياء الله استقصروا عمر الدنيا فرفضوها ، واستطابوا الآخرة فسَمَوْا لها ؛ فالله الله أيها الناس ، قبل أن تبطلَ الحقوق ، وتمطلَ الحدود ، وتقوى كلمة الشيطان ، فإلى أين تريدون رحمكم الله عن ابن عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصهره ، وأبي سبّطيه ، خلق من طينته ، وتفرع من نَبْتِهِ (٤) ،

(١) جمع إحنة : وهي الضغينة والحقد ، تؤمى إلى ما كان من قتل على يوم بدر أخوا معاوية (حنظلة ابن أبي سفيان) وجده لأمه (عتبة بن ربيعة) وخاله (الوليد بن عتبة) . (٢) تشير إلى ما حدث من هتد زوج أبي سفيان (أم معاوية) في غزوة أحد ، إذ بقرت بطن حمزة عم النبي صلى الله عليه وسلم بعد قتله وأخذت كبده لتأكلها فلا كتبها ثم أرسلتها . (٣) الأسد والرماة من الصيادين ، والواحد قسور . (٤) التيمة في الأصل واحدة النبع : شجر القسي والسهام .

وجعله باب دينه ، وأبان بينضه المنافقين . وهاهو ذا مُفلق الهام ، ومكسر الأصنام ، صلى
والناس مشركون ، وأطاع والناس كارهون ، فلم يزل في ذلك حتى قتل مبارزى بدر ،
وأفنى أهل أحد ، وهزم الأحزاب ، وقتل الله به أهل خيبر ، وفرق به جمع هوازن ؛
فيا لها من وقائع زرعت في قلوب قوم نفاقاً ، وَرِدَّةً وشقاقاً ، وزادت المؤمنين إيماناً ؛
قد اجتهدت في القول ، وبالغت في النصيحة ، وبالله التوفيق . والسلام عليكم
ورحمة الله .

فقال معاوية : يا أم الخير ، ما أردت بهذا الكلام إلا قتلى ، ولو قتلتك ما حرّجت^(١)
في ذلك . قالت : والله ما يسوءني يابن هند أن يجرى قتلى على يدي من يسعدني الله بشقائه .
قال : هيهات يا كثيرة الفضول ! ما تقولين في عثمان بن عفان رحمه الله ؟ قالت : وما عسيت
أن أقول في عثمان ؟ استخلفه الناس وهم به راضون ، وقتلوه وهم له كارهون . قال معاوية :
يا أم الخير هذا ثناؤك الذي تُثنين ؟ قالت لكن الله يشهد ، وكفى بالله شهيداً ، ما أردت
بعثمان نقصاً . ولقد كان سباقاً إلى الخيرات ، وإنه لرفيع الدرجة غداً . قال : فما تقولين في
طلحة بن عبيد الله ؟ قالت : وما عسى أن أقول في طلحة ؟ اغتيل من مأمنه ، وأتى من
حيث لم يحذر . وقد وعده رسول الله صلى الله عليه وسلم الجنة . قال : فما تقولين في الزبير ؟
قالت : وما أقول في ابن عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم وحواريه^(٢) . وقد شهد له
رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة . وأنا أسألك بحق الله يامعاوية (فإن قريشاً تحدثت
أنك أحلمها) أن تعفيني من هذه المسائل ، وتسالني عما شئت من غيرها . قال : نعم
وَنَعْمَةٌ^(٣) عَيْنٍ ، قد أعفيتك منها ، ثم أمر لها بجائزة رفيعة ، وردها مكرمة .

(العقد الفريد ١ : ١٣٢ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٤١ . وصحيح الأعمش ١ : ٢٤٨)

(١) أئمت . (٢) الحوارى : الناصر ، أو ناصر الأنبياء . (٣) أى أفضل ذلك إنعاماً لعينك

٢٥٩ - خطبة الزرقاء بنت عدى الهمدانية

وذُكرت الزرقاء بنت عدى بن قيس الهمدانية عند معاوية يوماً ، فقال جلسائه :
أيكم يحفظ كلامها ؟ قال بعضهم : نحن نحفظه يا أمير المؤمنين . قال : فأشيروا عليّ في
أمرها ، فأشار بعضهم بقتلها ، فقال : بئس الرأي ، أيحسب بمنلى أن يقتل امرأة ثم كتب إلى
عامله بالكوفة أن يوفدها إليه مع ثقة من ذوى محارمها ، وعدة من فرسان قومها ، وأن يهد
لها وطاء^(١) ليناً ، ويسترها بستر خفيف^(٢) ، ويوسع لها في النفقة ، فأرسل إليها ، فأقرأها
الكتاب ، فقالت : إن كان أمير المؤمنين جعل الخيار إلىّ فإني لا آتية ، وإن كان حتمّ فالطاعة
أولى فحملها وأحسن جهازها ، على ما أمر به . فلما دخلت على معاوية . قال : مرحباً بك وأهلاً!
قدّمت خير مقدّم قدمه وافد ، كيف حالك ؟ قالت : بخير يا أمير المؤمنين ، أدام الله لك النعمة .
قال : كيف كنت في مسيرك ؟ قالت : ربيبة بيت ، أو طفلاً ممهداً . قال : بذلك أمرناهم ،
أتدرين فيم بعثت إليك ؟ قالت : وأنى لي بعلم ما لم أعلم ؟ قال : ألسنت الراكبة الجمل الأحمر ،
والواقفة بين الصفيين بصفيين ، تحضين على القتال ، وتوقدين الحرب ؟ فما حملك على ذلك ؟
قالت : يا أمير المؤمنين ، مات الرأس وبُتر الذنب ، ولن يعود ما ذهب ، والدهر ذو غير^(٣)
ومن تفكر أبصر ، والأمر يحدث بمره الأمر ، قال لها معاوية : أتخفظين كلامك يومئذ ؟
قالت : لا والله لا أحفظه ، ولقد أنسيته . قال : لكنني أحفظه ، لله أبوك حين تقولين :
« أسها الناس : ارعوا وارجعوا ، إنكم قد أصبحتم في فتنة غشتكم جلابيب الظلم ،
وجارت بكم عن قصد المعجّة^(٤) . فيا لها فتنة عمياء صماء بكاء لا تسمع لنا عقها ، ولا تنساق

(١) الفراش . (٢) أصله من خصف النعل يخصفها كضرب : ظاهر بعضها على بعض وخرزها وهي .

نعل خفيف ، وكل ما طورق بعضه على بعض فقد خصف . (٣) أحداث ، جمع فيرة بالكسر أو مفرد ،

وجمعه أغيار . (٤) جادة الطريق .

لقائدها ، إن المصباح لا يضيء في الشمس ، ولا تنير الكواكب مع القمر ، ولا يقطع الحديد إلا الحديد . ألا من استرشدنا أرشدناه ، ومن سألنا أخبرناه . أيها الناس : إن الحق كان يطلب ضالته فأصابها ، فصبراً يامعشر المهاجرين والأنصار على العَصَصِ ، فكان قد اندمل شَعْبُ الشَّتَاتِ ، والتأمت كلمة الحق ، ودمغ الحق الظلمة ، فلا يجهن أحد فيقول : كيف وأنى ؟ ليقضى الله أمراً كان مفعولاً . ألا وإن خِضاب النساء الحناء ، وخِضاب الرجال الدماء ، ولهذا اليوم ما بعده . والصبر خير في الأمور عواقباً :

إيها^(١) في الحرب قُدُماً ، غير نا كصين ، ولا متشا كسين .

ثم قال لها : والله يازرقاء لقد شَرِكْتِ علياً في كلِّ دم سفكته . قلت : أحسن الله بشارتك ، وأدام سلامتكَ ! فثلك بَشْرٌ بخير وسرٍّ جليسه . قال : أويسرك ذلك ؟ قالت نعم . والله لقد سُرِرْتِ بآخِئِر ! فأنى لى بتصديق الفعل ! فضحك معاوية ، وقال : والله لوفاؤكم له بعد موته أعجب من حِكْمِ له في حياته ، اذ كرى حاجتك . قالت : يا أمير المؤمنين آليت على نفسى ألا أسأل أميراً أعنت عليه أبداً ، ومثلك أعطى عن غير مسألة ، وجاد عن غير طلبة . قال : صدقتِ ، وأمر لها وللاذين جاءوا معها بجوائز وكُسا .

(المقد الفريد ١ : ١٣٠ ، وصبح الأعشى ١ : ٢٥٢)

(١) إيها : كلمة زجر بمعنى حسبك (وإيه بالكسر منونة وغير منونة كلمة استزادة واستنطاق) والقدم :

المضى أمام ، وهو يمشى القدم : إذا مضى في الحرب ، ورجل قدم : أى شجاع . وفي الحديث « طوبى لعبد مغبر

قدم في سبيل الله » القدم : الإقدام ، أقدم على قرنه إقداماً وقتلماً : تقدم عليه بجرأة صدر .

اختلاف أهل العراق في الموادعة

وذكروا أنه لما اشتد الأمر ، واستمرَّ القتال ، قال رأسٌ من أهل العراق لعلی : إن هذه الحرب قد أكلتنا ، وأذهبت الرجال ، والرأى الموادعة . وقال بعضهم : لا ، بل نقاتلهم اليوم على ما قاتلناهم عليه أمس ، وكانت الجماعة قد رضيت الموادعة ، وجنحت إلى الصلح والمسألة ، فقام علی خطيباً ، فقال :

٢٦٠ - خطبة الامام علی كرم الله وجهه

« أيها الناس : إنه لم أزل من أمرى على ما أحب ، حتى فدحتكم الحرب ، وقد والله أخذت منكم وتركت ، وهى لعدوكم أنهك ، وقد كنت بالأمس أميراً ، فأصبحت اليوم مأموراً ، وكنت ناهياً ، فأصبحت اليوم منهيّاً ، فليس لى أن أحملك على ما سكرهون . »

٢٦١ - خطبة كردوس بن هانى

وقام كردوس بن هانى ، فقال .

« إنه والله ما تولينا معاوية منذ تبرأنا منه ، ولا تبرأنا من علی منذ توليناه ، وإن قتلنا لشهيد ، وإن حينا لفائز ، وإن عليّاً على بينة من ربه ، وما أجاب القوم إلا إنصافاً ، وكل محق مُنصف ، فمن سلّم له نجاً ، ومن خالفه هوى . »

٢٦٢ - خطبة سفيان بن ثور

وقام سفيان بن ثور ، فقال :

« أيها الناس : إنا دعونا أهل الشام إلى كتاب الله ، فردوه علينا فقاتلناهم ، وإنهم دعونا إلى كتاب الله ، فإن رددناه عليهم ، حلّ لهم منا ما حلّ لنا منهم ، ولسنا نخاف أن يحيف الله علينا ورسوله ، وإن علينا لبس بالراجع الناكص ، وهو اليوم على ما كان عليه أمس ، وقد أكلتنا هذه الحرب ، ولا نرى البقاء إلا في المواءعة » .

٢٦٣ - خطبة حريث بن جابر

ثم قام حُرَيْثُ بن جابر فقال :

« إن علينا لو كان خلوًا من هذا الأمر لكان المرجع إليه ، فكيف وهو قائده وسائقه ، وإنه والله ما قيل من القوم اليوم إلا الأمر الذي دعاكم إليه أمس ، ولو رده عليهم كنتم له أعيب ، ولا يلجِدُ في هذا الأمر إلا راجع على عَتَبَيْهِ ، أو مُسْتَدْرَج مَغْرور ، وما بيننا وبين من طعن علينا إلا السيف » .

٢٦٤ - خطبة خالد بن معمر

ثم قام خالد بن معمر فقال :

« يا أمير المؤمنين : إنا والله ما أخرجنا هذا المقام أن يكون أحد أولى به منا ، ولكن قلنا أحب الأمور إلينا ما كُفِينَا مَثُونَتَهُ ، فأما إذ استغفينا ، فإننا لا نرى البقاء إلا فيما دعاك القوم إليه اليوم ، إن رأيت ذلك ، وإن لم تره فرأيك أفضل » .

٢٦٥ - خطبة الحصين بن المنذر

ثم قام الحصين بن المنذر وكان أحدث القوم سنًا ، فقال :
« إنما بُنيَ هذا الدين على التسليم ، فلا تدفعوه بالقياس ، ولا تهديموه بالشبهة ،
وإنا والله لو أنا لا نقبل من الأمور إلا ما نعرف ، لأصبح الحق في الدنيا قليلًا ،
ولو تركزنا وما نهوى ، لأصبح الباطل في أيدينا كثيرًا ، وإن لنا راعياً قد حمدنا
وزده وصدّره ، وهو المأمون على ما قال وفعل ، فإن قال لا . قلنا لا ، وإن قال نعم ،
قلنا نعم » .

٢٦٦ - خطبة عثمان بن حنيف

ثم قام عثمان بن حنيف ، وكان من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان عاملاً
لعلى على البصرة وله فضل ، فقال :

« أيها الناس : أتهموا رأيكم ، فقد والله كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم
بالحدَيْبِيَّة يوم أبي جندل^(١) ، وإنا لنريد القتال إنكاراً للصلح حتى ردّنا عنه رسول الله

(١) هو أبو جندل بن سهيل بن عمرو . وقصته : أنه لما كانت غزوة الحديبية (سنة ست للهجرة)
بعثت قريش من قبلها سهيل بن عمرو ليكلم الرسول صلى الله عليه وسلم في المصالحة ، وقد جرى بينهما
الصلح وكتبت صحيفته ، وكان من شروطه ، وضع الحرب عن الناس عشر سنين يكف بعضهم عن بعض على
أن من أقى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشاً من مع محمد لم يردوه عليه ، فبينما
رسول الله صلى الله عليه وسلم يكتب الكتاب هو وسهيل إذ جاء أبو جندل بن سهيل يرسف في الحديد قد انفلت
إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد كان المسلمون حين خرجوا لا يشكون في الفتح لرؤيا رآها
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع دخل عليهم من ذلك أمر عظيم ،
ولما رأى سهيل ابنه أبا جندل قام إليه فضرب وجهه وأخذ بثلبيه « بفتح التاء : ما في موضع اللب
(أى النحر) من الثياب » ثم قال : يا محمد قد لجت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا ، قال صدقت ، -

صلى الله عليه وسلم، وإن أهل الشام دعونا إلى كتاب الله اضطراراً، فأجبناهم إليه إعداراً،
فلسنا والقوم سواء، إنا والله ما عدلنا الحى بالحى، ولا القليل بالقتيل، ولا الشامى بالعراقى،
ولا معاوية بعلى، وإنه لأمر منعه غير نافع، وإعطاؤه غير ضائر، وقد كَلَّتْ البصائر التى
كنا نقاتل بها، وقد حمل الشكُّ اليقين الذى كنا نشول إليه، وذهب الحياء الذى كنا
نمارى به، فاستظلوا فى هذا الفى^(١)، واسكنوا فى هذه العافية، فإن قلم نقاتل على ما كنا
نقاتل عليه أمس، فهيات هيات ذهب والله قياس أمس وجاء غد.

= فجعل يثره بتليبيه ويجره ليرده إلى قريش، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يامعشر المسلمين أورد
إلى المشركين يفتنونى فى دىنى؟ فزاد الناس إلى ما بهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا أبا جندل
اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم
صلحا، وأعطيناكم على ذلك وأعطونا عهد الله وإنا لا نغدر بهم، ووثب عمر بن الخطاب مع أبى جندل يمشى
إلى جنبه ويقول: اصبر يا أبا جندل فإنما هم المشركون. وإنما دم أحدهم دم كلب. ويدنى قائم السيف منه.
قال عمر: رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه ففضن الرجل بأبيه ونفذت القضية.

فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أتاه أبو بصير عتبة بن أسيد وكان من حبس بمكة، فبعثت
قريش فى أثره رجلين يطلبان تسليمه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا أبا بصير إنا قد أعطينا القوم
ما قد علمت، ولا يصلح لنا فى ديننا الغدر، وإن الله جاعل لك ولن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا.
فانطلق إلى قومك. قال: يارسول الله أتردنى إلى المشركين يفتنونى فى دىنى؟ قال: يا أبا بصير انطلق،
فانطلق معهما حتى إذا كان فى بعض الطريق عدا على أحدهما فقتله وهرب الآخر، ورجع أبو بصير إلى
المدينة، فقال: يارسول الله وقت ذمتك، وأدى الله عنك، أسلمتنى ورددتنى إليهم ثم أنجانى الله منهم،
وخرج أبو بصير إلى ساحل البحر بطريق قريش التى كانوا يأخذون عليها إلى الشام، وخرج المسلمون
الذين كانوا حبسوا بمكة إليه، وانفلت إليه أبو جندل بن سهيل، فاجتمع إليه قريب من سبعين رجلا منهم
وضيقوا على قريش، لا يظفرون بأحد منهم إلا قتلوه، ولا تمر بهم غير إلا اقتطعوها، حتى كتبت قريش
إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسأله بأرحامها إلا آواهم، فلا حاجة لهم بهم، فأواهم رسول الله صلى
الله عليه وسلم، فقدموا عليه المدينة. (١) الفى: ما كان شمسا فينسخه الظل.

٢٦٧ - خطبة عدى بن حاتم

ثم قام عدى بن حاتم فقال :

« أيها الناس : إنه والله لو غيرُ عليّ دعانا إلى قتال أهل الصلاة ما أجبناه ، ولا وقع بأمر قط إلا ومعه من الله برهان ، وفي يديه من الله سبب ، وإنه وقفَ عن عثمان بشبهة ، وقاتل أهل الجمل على النكث ، وأهل الشام على البغي ، فانظروا في أموركم وأمره ، فإن كان له عليكم فضل فليس لكم مثله . فسلموا له وإلا فنازعوا عليه ، والله لئن كان إلى العلم بالكتاب والسنة إنه لأعلم الناس بهما ، ولئن كان إلى الإسلام إنه لأخو نبيِّ الله والرأسُ في الإسلام ، ولئن كان إلى الزهد والعبادة إنه لأظهر الناس زهداً ، وأنهم لهم عبادة ، ولئن كان إلى العقول والنجاة^(١) إنه لأشد الناس عقلاً ، وأكرمهم نحيظة ، ولئن كان إلى الشرف والنجدة إنه لأعظم الناس شرفاً ونجدة ، ولئن كان إلى الرضا لقد رضى عنه المهاجرون والأنصار في شُورى عمر رضى الله عنهم ، وبايعوه بعد عثمان ونصروه على أصحاب الجمل وأهل الشام ، فما الفضل الذي قرَّكم إلى الهدى ، وما النقص الذي قرَّبه إلى الضلال ؟ والله لو اجتمعتم جميعاً على أمر واحد ، لأتاح الله له من يقاتل لأمر ماض ، كتاب سابق . »

فاعترف أهل صفين لعدى بن حاتم بعد هذا المقام ، ورجع كلٌّ من تشب على عليّ رضى الله عنه .

(١) النحيظة : الطبيعة .

٢٦٨ - خطبة عبد الله بن حجل

ثم قام عبد الله بن حجل ، فقال :

« يا أمير المؤمنين ، إنك أمرتنا يوم الجمل بأمر مختلفة ، كانت عندنا أمراً واحداً ، قبلناها بالتسليم ، وهذه مثل تلك الأمور ، ونحن أولئك أصحابك ، وقد أكثر الناس في هذه القضية ، وإيم الله ما المكثر المنكر بأعلم بها من المقل المعترف ، وقد أخذت الحرب بأنفسنا ، فلم يبق إلا رجاء ضعيف ، فإن تجب القوم إلى مادعوك إليه ، فأنت أولنا إيماناً ، وآخرنا بنبي الله عهداً ، وهذه سيوفنا على أعناقنا ، وقلوبنا بين جوانحنا ، وقد أعطيناك بغيرتنا ، وشرحنا بالطاعة صدورنا ، ونفذت في جهاد عدوك بصيرتنا ، فأنت الوالي المطاع ، ونحن الرعية الاتباع . أنت أعلمنا بربنا ، وأقربنا بنبينا ، وخيرنا في ديننا ، وأعظمنا حقاً فينا ، فسدد رأيك ، وتبعك ، واستخبر الله تعالى في أمرك ، واعزم عليه برأيك ، فأنت الوالي المطاع » .

فسرّ على كرم الله وجهه بقوله ، وأثنى خيراً .

٢٦٩ - خطبة صعصعة بن صوحان

ثم قام صعصعة بن صوحان فقال :

« يا أمير المؤمنين : إنا سبقنا الناس إليك ، يوم قدوم طلحة والزبير عليك ، فدعانا حكيم^(١) إلى نصرة عاملك عثمان بن حنيف^(٢) فأجبناه ، فقاتل عدوك ، حتى أصيب في قوم من بني عبد قيس عبدوا الله حتى كانت أكتفهم مثل أكف الإبل ، وجباههم مثل

(١) هو حكيم بن حبل . (٢) كان عامل على البصرة ، وقد نشب القتال بينه وبين أصحاب

عائشة حين قدموا البصرة .

رُكِبَ المَعَزُ ، فَأَسْرَ الحَى ، وَسُلِبَ القَتِيلُ ، فَكُنَّا أولَ قَتِيلٍ وَأَسِيرٍ ، ثُمَّ رَأَيْتُ بِلَادَنَا
بِصْفِينِ ، وَقَدِ كَلَّتِ البِصَاطُ ، وَذَهَبَ الصَّبْرُ ، وَبَقِيَ الحَقُّ مَوْفُورًا ، وَأَنْتَ بِالنَّعْجِ بِهَذَا حَاجَتَكَ
وَالأَمْرَ إِلَيْكَ مَا أَرَاكَ اللهُ فَمَرُّنَا بِهِ .

٢٧٠ - خطبة المنذر بن الجارود

ثم قام المنذر بن الجارود فقال :

« يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنِّي أَرَى أَمْرًا لَا يَدِينُ لَهُ الشَّامُ إِلَّا بِهَلَاكِ العِرَاقِ ، وَلَا يَدِينُ لَهُ
العِرَاقُ إِلَّا بِهَلَاكِ الشَّامِ ، وَلَقَدْ كُنَّا نَرَى أَنَّ مَا زَادَنَا نَقْصَهُمْ ، وَمَا نَقَصْنَا أَضْرَمَهُمْ ، فَإِذَا فِي
ذَلِكَ أَمْرَانِ ، فَإِنْ رَأَيْتَ غَيْرَهُ (١) فَفِينَا وَاللَّهِ مَا يُقَالُ بِهِ الحَدُّ (٢) وَيُرَدُّ بِهِ الكَلْبُ (٣) ،
وَلَيْسَ لَنَا مَعَكَ إِيرَادٌ وَلَا صَدْرٌ . »

٢٧١ - خطبة الأحنف بن قيس

ثم قام الأحنف بن قيس ، فقال :

« يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : إِنَّ النَّاسَ بَيْنَ مَاضٍ وَوَاقِفٍ ، وَقَائِلٍ وَسَاكِتٍ ، وَكُلٌّ فِي
مَوْضِعِهِ حَسَنٌ ، وَإِنَّهُ لَوْ نَسَّكَلَ الآخِرُ عَنِ الأَوَّلِ لَمْ يَقُلْ شَيْئًا ، إِلَّا أَنْ يَقُولَ اليَوْمَ
مَا قَدْ قِيلَ أَمْسَ ، وَلَكِنَّهُ حَقٌّ يُقْضَى ، وَلَمْ نَقَاتِلِ القَوْمَ لَنَا وَلَا لَكَ ، إِنَّمَا قَاتَلْنَا اللَّهَ ، فَإِنْ
حَالَ أَمْرُ اللَّهِ دُونَنَا وَدُونَكَ فَاقْبَلْهُ ، فَإِنَّكَ أَوْلَى بِالْحَقِّ ، وَأَحَقُّنَا بِالتَّوْفِيقِ ، وَلَا أَرَى
إِلَّا القِتَالَ »

(١) أى فإن رأيت غير رأيت « وهو الذى عبر عنه بقوله : إنى أرى أمرا . . . الخ » وفى الأصل

« غيرك » وأراه محرفا . (٢) أى ففينا من البأس ما يفتل به حد الأعداء وقوتهم . (٣) الكلب : داء

يشبه الجنون يأخذ الكلاب فتعقر الناس ويعتري الناس أيضا من عضها ، وقد استعاره هنا لطمع الأعداء

فيهم وغارتهم عليهم .

٢٧٢ - خطبة عمير بن عطار

ثم قام عمير بن عطار ، فقال :

« يا أمير المؤمنين : إن طلحة والزبير وعائشة كانوا أحب الناس إلى معاوية ، وكانت البصرة أقرب إلينا من الشام ، وكان القوم الذين وثبوا عليك من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خيراً من الذين وثبوا عليك من أصحاب معاوية اليوم ، فوالله ما منعنا ذلك من قتل المحارب ، وعَيبِ الواقف ، فقاتلِ القوم ، إنّا معك . »

٢٧٣ - خطبة علي بن أبي طالب

ثم قام علي خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : إنه قد بلغ بكم وبعدوكم ما قد رأيتم ، ولم يبق منهم إلا آخر نفس ، وإن الأمور إذا أقبلت اعتُبر آخرها بأولها ، وقد صبر لكم القوم على غير دين حتى بلغوا منكم ما بلغوا ، وأنا غادٍ عليهم بنفسى بالعداة ، فأحباكمهم بسبني هذا إلى الله . »

وأشار عمرو بن العاص على معاوية أن يدعو علياً إلى تحكيم كتاب الله ، فأصبح أصحاب معاوية ، وقد رفعوا المصاحف على الرماح ، وقلدها أعناق الخيل يقولون : « هذا كتاب الله عز وجل بيننا وبينكم » .

٢٧٤ - مقال عدى بن حاتم

فقام عدى بن حاتم ، فقال :

« يا أمير المؤمنين : إن أهل الباطل ، لا تُعَوَّقُ أهل الحق ، وقد جزع القوم حين تاهبت للقتال بنفسك ، وليس بعد الجزع إلا ما تحب ، ناجز القوم . »

٢٧٥ - مقال الأشتر النخعي

ثم قام الأشتر فقال :

« يا أمير المؤمنين ، ما أجبناك لدنيا . إن معاوية لا خلف له من رجاله ، ولا يكن بمحمد الله الخلف لك ، ولو كان له مثل رجالك ، لم يكن له مثل صبرك ، ولا نصرتك ، فافرح^(١) الحديد بالحديد ، واستعين بالله . »

٢٧٦ - مقال عمرو بن الحمق

ثم قام عمرو بن الحمق فقال :

« يا أمير المؤمنين ، ما أجبناك لدنيا ، ولا نصرناك على باطل ، ما أجبناك إلا الله تعالى وما نصرناك إلا للحق ، ولو دعانا غيرك إلى ما دعوتنا إليه ، لكثرت فيه اللجاج ، وطالت له النجوى^(٢) ، وقد بلغ الحق مقطعه ، وليس لنا معك رأى . »

٢٧٧ - مقال الأشعث بن قيس

ثم قام الأشعث بن قيس فقال :

« يا أمير المؤمنين ، إننا لك اليوم على ما كنا عليه أمس ، ولست أدري كيف يكون غداً ، وما القوم الذين كلوك بأحد لأهل العراق مني ، ولا بأوتر^(٣) لأهل الشام مني ، فأجب القوم إلى كتاب الله ، فإنك أحق به منهم ، وقد أحب الله البقيا . »

(١) أى شق سلاحهم ومزقه بسلاحك . (٢) المصاراة . (٣) أى ولا أشد وترا . من

وتره إذا أدركه بمكره .

٢٧٨ - مقال عبد الرحمن بن الحارث

ثم قام عبد الرحمن بن حارث فقال :

« يا أمير المؤمنين ، امض لأمر الله ولا يَسْتَخِفِّنْكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ، أَحْكَمْ بَعْدَ حَكْمِ
وَأَمْرٍ بَعْدَ أَمْرٍ ؟ مَضَتْ دِمَاؤُنَا وَدِمَاؤُهُمْ ، وَمَضَى حَكْمُ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَالِيهِمْ . »

٢٧٩ - مقال عمار بن ياسر

فلما أظهر عليٌّ أنه قد قبل التحكيم قام عمار بن ياسر فقال :

« يا أمير المؤمنين ، أما والله لقد أخرجها إليك معاوية بيضاء ، من أقرَّ بها هلك ،
ومن أنكرها ملك ، مالك يا أبا الحسن ، شككتنا في ديننا ، ورددتنا على أعقابنا ، بعد
مائة ألف قُتِلُوا مِنَّا وَمِنْهُمْ ، أَفَلَا كَانَ هَذَا قَبْلَ السَّيْفِ ، وَقَبْلَ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ وَعَائِشَةَ قَدْ
دَعَوْكَ إِلَى ذَلِكَ فَأَبَيْتَ ، وَزَعَمْتَ أَنَّكَ أَوْلَى بِالْحَقِّ ، وَأَنْ مَا خَالَفْنَا مِنْهُمْ ضَالٌّ حَلَالٌ الدَّمِ
وَقَدْ حَكَّمَ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذَا الْحَالِ مَا قَدْ سَمِعْتَ ، فَإِنْ كَانَ الْقَوْمُ كُفَرَاءً مُشْرِكِينَ ، فَلَيْسَ لَنَا
أَنْ نَرْفَعَ السَّيْفَ عَنْهُمْ حَتَّى يَفِيئُوا ^(١) إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ، وَإِنْ كَانُوا أَهْلَ فِتْنَةٍ فَلَيْسَ لَنَا أَنْ
نَرْفَعَ السَّيْفَ عَنْهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ، وَاللَّهُ مَا أَسْلَمُوا ،
وَلَا أَدَّوْا الْجِزْيَةَ ، وَلَا فَاوَأُوا إِلَى أَمْرِ اللَّهِ وَلَا طَفَّئَتْ ^(٢) الْفِتْنَةُ » فقال عليٌّ : والله إني لهذا
الأمر كاره .

ثم كثرت اللجاج والجدال في الأمر ، وجعل عليٌّ يبين لهم أنها خدعة ومكيدة يراد بها

(١) يرجعوا . (٢) أي انطفأت .

توهين قوتهم ، وتشتيت جمعهم ، وهم لا يستمعون لقواه ، ولا يذعنون لنصحه ، وأقبل الأشعث بن قيس في ناس كثير من أهل اليمن، فقالوا لعلّي : « لا تردّ ما دعاك القوم إليه ، قد أنصفك القوم ، والله لئن لم تقبل هذا منهم لا وفاء معك ، ولا نرمي معك بسهم ولا حجر ، ولا نقف معك موقفاً » .

وغلا أنصار التحكيم في تطرفهم فقالوا « يا عليّ - أجب إلى كتاب الله إذ دعيت إليه ، وإلا ندفعك برؤمك إلى القوم ، أو نفعل كما فعلنا بابن عفان » فلم يربداً من الإذعان وقبول التحكيم .

(الإمامة والسياسة ١ : ٨٩)

التحكيم بين عليّ ومعاوية

٢٨٠ - كلام عبد الله بن عباس لأبي موسى الأشعري

ولما أجمع أهل العراق على طلب أبي موسى الأشعري وأحضره للتحكيم على كُرُوهِ من عليّ عليه السلام ، أتاه عبد الله بن العباس ، وعنده وجوه الناس وأشرفهم ، فقال له : « أبا موسى : إن الناس لم يرضوا بك ، ولم يجتمعوا عليك ، لفضل لا تُشَارِكُ فيه ، وما أكثر أشباهك من المهاجرين والأنصار المتقدمين قبلك ، ولكن أهل العراق أبوا إلا أن يكون الحكمُ يَمَانِيَا ، وراوا أن معظم أهل الشام يمانٍ ، وأيمُ الله إني لأظن ذلك شرًّا لك ولنا ، فإنه قد ضُمَّ إليك داهيةُ العرب ، وليس في معاوية خَلَّةٌ^(١) يستحق بها الخلافة ، فإن تَقَدَّفَ بِحَقِّكَ على باطله ، تُدْرِكُ حاجتك منه ، وإن يطمعُ باطلُهُ في حَقِّكَ يُدْرِكُ حاجته منك ، واعلم يا أبا موسى أن معاوية طليقُ الإسلام ، وأن أباه رأس الأحزاب ، وأنه يدَّعي الخلافة من غير مشورة ولا بَيْعَةٍ ، فإن زعم لك أن عمر وعثمان استعملاه ، فلقد صدق ، استعمله عمر وهو الوالي عليه بمنزلة الطبيب يَحْمِيهِ ما يشتهي ، وَيُوجِرُهُ^(٢) ما يكره ، ثم استعمله عثمان برأى عمر ، وما أكثر من استعملوا ممن لم يدَّعِ الخِلافةَ ، واعلم أن لعمر ومع كل شيء يسُرُّكَ خَبَأٌ^(٣) يسوءك ، ومهما نسيت فلا تنس أن عليًّا

(١) خصلة . (٢) وجره الدواء (كوعده) وأوجره إياه : جعله في فيه ، وأوجره الرمح :

طعنه ، وأوجره : أسمه ما يكره . (٣) الخبء : ما خبي .

بايعه القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان ، وأنها بيعة هُدَى ، وأنه لم يقاتل إلا العاصين والفاكثين .

فقال أبو موسى : « رحمك الله والله مالي إمام غير عليّ ، وإني لواقف عند ما رأى ، وإن حق الله أحبُّ إليّ من رضا معاوية وأهل الشام ، وما أنت وأنا إلا بالله . »
(شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١٩٥)

٢٨١ - وصية شريح بن هاني لأبي موسى الأشعري

ولما أراد أبو موسى المسير ، قام إليه شريح بن هاني الحارثي ، فأخذ بيده وقال :
« يا أبا موسى : إنك قد نصبتَ لأمر عظيم لا يُجبرُ صدَّعهُ ، ولا تستَقالُ فلتتهُ ،
ومهما تَقُلْ من شيءٍ لك أو عليك ، يَثْبُتُ حَقُّهُ ، وَيُرَى صِحَّتُهُ وإن كَانَ باطلاً ،
وإنه لا بقاء لأهل العراق إن ملكهم معاوية ، ولا بأسَ على أهل الشام إن ملكهم عليّ ،
وقد كانت منك تَشْيِيطَةٌ^(١) أيام الكوفة والجل ، فإن تَشَفَّعَهَا بِمَاهَا يَكُن الظن بك يقيناً ،
والرجاء منك يأساً ، ثم قال :

أبا موسى : رُميتَ بِشَرِّ خَصْمٍ فلا تُضِعِ العراقَ (فَدَتُكَ نَفْسِي)
وَأَعْطِ الْحَقَّ شَامَهُمْ وَخَذَهُ فإنَّ اليومَ في مَهَلٍ كَأَمْسِ
وَإِنْ غَدًا يَجِيءُ بِمَا عَلَيْهِ كَذَاكَ الدَّهْرُ مِنْ سَعْدٍ وَنَحْسِ
وَلَا يَخْدَعُكَ عَمْرُو ، إِنْ عَمْرَأً عَدُوُّ اللَّهِ مَطْلَعُ كُلِّ شَمْسِ
لَهُ خُدْعٌ يَحَارُ الْعَقْلَ مِنْهَا مُمَوَّهَةٌ مَزْخَرَةٌ بِلَبْسِ

(١) أي تعويق .

فلا تجمل معاوية بن حرب كشيخ في الحوادث غير نكس^(١)
هداه الله للإسلام فردا سوى عرس^(٢) النبي، وأى عرس؟

فقال أبو موسى : « ما ينبغي لقوم أنهموني أن يرسلوني لأدفع عنهم باطلا ، أو أجر^٣
إليهم حقاً » . (شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١٩٥ ، والإمامة والسياسة ١ : ٩٩)

٢٨٢ - وصية الأحنف بن قيس لأبي موسى الأشعري

ولما حُكِّم أبو موسى الأشعري أتاه الأحنف بن قيس ، فقال له :

« يا أبا موسى ، إن هذا مسير له ما بعده ، من عز الدنيا أو ذلها آخر الدهر ،
ادع القوم إلى طاعة علي ، فإن أبوا فادعهم أن يختار أهل الشام من قريش العراق من
أحبوا ، ويختار أهل العراق من قريش الشام من أحبوا ، وإياك إذا لقيت ابن العاص
أن تصافحه بنية ، وأن يُقعدك على صدر المجلس فإنها خديعة ، وأن يضمك وإياه بيت ،
فيمكن لك فيه الرجال ، ودعه فليتكلم ، لتكون عليه بالخيار ، فالبادي مستغلق^(٣) ،
والحبيب ناطق » .

فأعمل أبو موسى إلا بخلاف ما قال الأحنف ، وأشار به ، فكان من الأمر ما كان ،
فلقبه الأحنف بعد ذلك ، فقال له : « أدخل وألله قدميك في خف واحدة » .

(نهاية الأرب ٧ : ٢٣٩ ، الإمامة والسياسة ١ : ٩٩ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١٩٦)

(١) كشيخ : يريد به الإمام عليا ، والنكس : الضعيف والمقصر عن غاية الكرم . (٢) أى

زوجه ، يريد السيدة خديجة رضي الله عنها ، وأى عرس : أى وأى عرس هي . استفهام المراد به
التمظيم . (٣) أصله من قولهم : استغلقني في بيعه : لم يجعل لي خيارا في رده : أى أن البادي ليس له
الخيار في رد ما قال .

٢٨٣ - وصية معاوية لعمر و بن العاص

وقال معاوية لعمر و :

« إن أهل العراق أكرهوا علياً على أبي موسى ، وأنا وأهل الشام راضون عنك ، وأرجو في دفع هذه الحرب قوة لأهل الشام ، وفرقة لأهل العراق ، وإمداداً لأهل اليمن ، وقد ضمُّمٌ إليك رجل طويل اللسان ، قصير الرأي ، وله على ذلك دين وفضل ، فدعه يقول فأذا هو قال فاصمت ، واعلم أن حسن الرأي زيادةٌ في العقل ، إن خوفك العراق فخوفه بالشام ، وإن خوفك مصر فخوفه باليمن ، وإن خوفك علياً ، فخوفه بمعاوية ، وإن أتاك بالجميل فأته بالجميل . »

٢٨٤ - رد عمر و بن العاص عليه

فقال عمر و :

« يا أمير المؤمنين . أقلل الاهتمام بما قبلي ، وأرج الله تعالى فيما وجهتني له ، إنك من أمرك على مثل حدِّ السيف ، لم تنل في حربك ما رجوت ، ولم تأمن ما خفت ، ونحن نرجو أن يصنع الله تعالى لك خيراً ، وقد ذكرت لأبي موسى ديناً ، وإن الدين منصور ، رأيت إن ذكر علياً وجاءنا بالإسلام والهجرة واجتماع الناس عليه ما أقول ؟ » .

٢٨٥ - مقال شرحييل بن السمط لعمر و

ولما ودَّعه شُرْحِييل بن السَّمْط قال له :

« يا عمرو إنك رجل قريش، وإن معاوية لم يبعثك إلا لعله أنك لا تُؤتَى من عجز ولا مكيدة، وقد علمت أن وطأة هذا الأمر لك ولصاحبك، فكن عند ظننا بك ». .
(شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١٩٦، والإمامة والسياسة ١ : ١٠٠)

٢٨٦ - خطبة أبي موسى الأشعري

ولما التقى الحكمان أبو موسى الأشعري وعمرو بن العاص يدُومة الجندل، ودار بينهما من الحوار ما دار، أقبلوا إلى الناس وهم مجتمعون، فتقدم أبو موسى، فحمد الله عز وجل وأثنى عليه، ثم قال :

« أيها الناس، إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة، فلم نرَ أصلحَ لأمرها، ولا أَلَمَ لِشَعْبِهَا من أمرٍ قد أجمع رأياً ورأى عمرو عليه، وهو أن نخلع علياً ومعاوية، وتستقبل هذه الأمة هذا الأمر، فيؤتوا منهم من أحبوا عليهم، وإني قد خلعت علياً ومعاوية، فاستقبلوا أمركم، وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلاً^(١) ». ثم تنحى .

(١) وفي رواية ابن قتيبة في الإمامة والسياسة : « وإني رأيت وعمرا أن نخلع علياً ومعاوية ونجعلها لعبد الله بن عمر، فإنه لم يبسط في هذه الحرب يداً ولا لساناً » وفي رواية المسمودي في مروج الذهب : « وقد خلعت علياً كما خلعت عمامتي هذه (وأهوى إلى عمامته فخلعها) واستخلفنا رجلاً قد صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه، وصحب أبوه النبي صلى الله عليه وسلم، فبرز في سابقته، وهو عبد الله بن عمر وأطراه ورغب الناس فيه » .

٢٨٧ - خطبة عمرو بن العاص

وأقبل عمرو بن العاص فقام مقامه ، فحمد الله وأثنى عليه وقال :
« إن هذا قد قال ما سمعتم ، وخلع صاحبه ، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه ، وأثبت
صاحبي معاوية ، فإنه وليّ عثمان بن عفان رضى الله عنه ، والطالب بدمه ، وأحق
الناس بمقامه » .

فقال أبو موسى : « مالك - لا وفقك الله - غدرت وفجرت ! إنما مثلك كمثل
الكلب إن تحمّل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث^(١) » قال عمرو : « إنما مثلك
كمثل الحمار يحمل أسفارا » .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٤٠ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١٩٨ ،

والإمامة والسياسة ١ : ١٠١ ومروج الذهب ٢ : ٢٢)

٢٨٨ - خطبة الامام على بعد التحكيم

وخطب الإمام على كرم الله وجهه بعد فشل التحكيم فقال :
« الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح^(٢) ، والحدّث^(٣) الجليل ، وأشهد أن
لا إله إلا الله وحده لا شريك له ليس معه إله غيره ، وأن محمداً عبده ورسوله ، صلى الله عليه
 وآله . أما بعد فإن معصية الناصح الشفيق العالم الجرب ، تورث الحسرة ، وتُعقب
 الندامة ، وقد كنت أمرتكم فى هذه الحكومة أمرى ، ونحلت لكم مخزون رأى ، لو كان

(١) لهث الكلب كقطع : أخرج لسانه من العطش أو التعب ، وكذا الرجل إذا أعبأ . (٢) من

فدحه الدين : أى أثقله . (٣) الحادث .

يُطَاعُ لِقَصِيرٍ^(١) أَمْرٌ ، فَأَيُّتِمُ عَلَى إِبَاءِ الْمُخَالِفِينَ الْجَفَاءَةَ ، وَالْمُنَابِذِينَ الْعُصَاةَ ، حَتَّى ارْتَابَ
النَّاصِحُ بِنُصْحِهِ ، وَضَنَّ الزَّائِدُ بِقَدْحِهِ ، فَكَنتَ وَإِيَاكُمْ كَمَا قَالَ أَخُوهُوَازِنُ^(٢) :

أَمَرْتَكُمْ أَمْرِي بِمَنْعِ رَجُلٍ اللَّوِيِّ فَلَمْ تَسْتَبِينُوا النَّصِيحَ إِلَّا ضَعَيْتُمُ الْغَدَّ

أَلَا إِنَّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ اللَّذَيْنِ اخْتَرْتُمُوهُمَا حَكَمَيْنِ قَدْ نَبَذَا حُكْمَ الْقُرْآنِ وَرَاءَ ظَهْرِيهِمَا ،
وَأَحْيَا مَا أَمَاتَ الْقُرْآنُ ، وَاتَّبَعَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا هَوَاهُ ، بَغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ ، فَكَمَا بَغِيرِ
حُجَّةٍ بَيِّنَةٍ ، وَلَا سُنَّةٍ مَاضِيَةٍ ، وَاخْتَلَفَا فِي حُكْمِهِمَا وَكَلَاهُمَا لَمْ يَرْشُدُوا ، فَبَرِيءُ اللَّهِ مِنْهُمَا
وَرَسُولُهُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ . اسْتَعِدُّوا وَتَأَهَّبُوا لِلْمَسِيرِ إِلَى الشَّامِ .

(نهج البلاغة ١ : ٤٤ ، وتاريخ الطبري ٦ : ٤٣ ، والإمامة والسياسة ١ : ١٠٥)

٢٨٩ - خطبة الحسن بن علي

وقال الإمام علي : قم يا حسن فتكلم في أمر هذين الرجلين أبي موسى وعمرو ، فقام
الحسن فتكلم فقال :

« أَيُّهَا النَّاسُ ، قَدْ أَكْثَرْتُمْ فِي أَمْرِ أَبِي مُوسَى وَعَمْرُو ، وَإِنَّمَا بُعِثْنَا لِيُحْكَمَ بِالْقُرْآنِ
دُونَ الْهَوَى ، فَحَكَمْنَا بِالْهَوَى دُونَ الْقُرْآنِ ، فَمَنْ كَانَ هَكَذَا لَمْ يَكُنْ حَكَمًا ، وَلَكِنَّهُ
مُحْكَمٌ عَلَيْهِ ، وَقَدْ كَانَ مِنْ خَطَا أَبِي مُوسَى أَنْ جَعَلَهَا لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍ ، فَأَخْطَأَ فِي ثَلَاثِ
خِصَالٍ : خَالَفَ (يَعْنِي أَبَا مُوسَى) أَبَاهُ عَمْرًا إِذْ لَمْ يَرِضْهُ لَهَا ، وَلَمْ يَرَهُ أَهْلًا لَهَا ، وَكَانَ أَبُوهُ
أَعْلَمُ بِهِ مِنْ غَيْرِهِ ، وَلَا أَدْخَلَهُ فِي الشُّورَى إِلَّا عَلِيٌّ أَنَّهُ لَا شَيْءَ لَهُ فِيهَا ، شَرْطًا مُشْرُوطًا مِنْ

(١) قصير : هو مولى جذيمة الأبرش ، وكان قد أشار على سيده أن لا يأمن الزبراء ملكة الجزيرة ،

وقد دعت إليها ليتزوجها ، فخالفه وقصد إليها ، فقال قصير « لا يطاع لقصير أمر » فذهبت مثلاً .

(٢) هو دريد بن الصمة .

عمر على أهل الشورى ، فهذه واحدة . وثانية : لم يجتمع عليه المهاجرون والأنصار ، الذين يَعتقدونَ الإمامة ، ويحكمون على الناس . وثالثة : لم يستأمر الرجل في نفسه ، ولا عَلمَ ما عنده من ردّ أو قبول « ثم جلس .

٢٩٠ — خطبة عيد الله بن عباس (توفي سنة ٦٨ هـ)

ثم قال على لعبد الله بن عباس : قم فتكلم ، فقام عبد الله بن عباس وقال :
« أيها الناس : إن للحق أناساً أصابوه بالتوفيق والرضا ، والناس بين راض به ، وراغب عنه ؛ وإنما سار أبو موسى بهدى إلى ضلال ، وسار عمرو بضلال إلى هدى ، فلما التفتيا رجع أبو موسى عن هداه ، ومضى عمرو على ضلاله ، فوالله لو كانا حكماً عليه بالقرآن لقد حكما عليه ، ولئن كانا حكماً بهواهما على القرآن ، واثن مسكاً بما سارا به ، لقد سار أبو موسى وعلى لإمامه ، وسار عمرو ومعاوية لإمامه » ثم جلس .

٢٩١ — خطبة عبد الله بن جعفر

فقال على لعبد الله بن جعفر : قم فتكلم ، فقام وقال :
« أيها الناس : هذا أمر كان النظر فيه لعلى ، والرضا فيه إلى غيره ، جئتم بأبي موسى فقلتم قد رضينا هذا فارض به ، وإيم الله ما أصاحا بما فعلا الشأم ، ولا أفسدا العراق ، ولا أماتا حقّ على ، ولا أحيبا باطل معاوية ، ولا يذهب الحقّ قلّة رأى ، ولا نفخة شيطان ، وإنا لعلّى اليوم كما كنا أمس عليه » ثم جلس . (الإمامة والسياسة ١ : ١٠٢)

٢٩٢ - خطبة علي

ولما نزل على النخيلة وأيس من الخوارج ، قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :
« أما بعد : فإنه من ترك الجهاد في الله ، وادّهن في أمره ، كان على شفا هلكة ،
إلا أن يتداركه الله بنعمة ، فاتقوا الله ، وقاتلوا من حادّ الله ، وحاول أن يُدفي نور الله ،
قاتلوا الخاطئين الضالين القاسطين المجرمين الذين ليسوا بقراء للقرآن ، ولا فقهاء في الدين ،
ولا علماء في التأويل ، ولا لهذا الأمر بأهل في سابقة الإسلام ، والله لو وُلّوا عليكم لعملوا
فيكم بأعمال كسرى وهرقل ، تيسروا وتهيئوا المسير إلى عدوكم من أهل المغرب . وقد بعثنا
إلى إخوانكم من أهل البصرة ليقدموا عليكم ، فإذا قدموا فاجتمعتم شخصنا إن شاء الله ،
ولا حول ولا قوة إلا بالله » . (تاريخ الطبري ٦ : ٤٤)

٢٩٣ - خطبة عبد الله بن عباس

وكتب عليّ إلى عبد الله بن عباس : « أما بعد : فإننا قد خرجنا إلى معسكرنا بالنخيلة ،
وقد أجمعنا على المسير إلى عدونا من أهل المغرب ، فأشخص بالناس حين يأتيك رسولي ،
وأقم حتى يأتيك أمري والسلام » .
فلما قدم عليه الكتاب قرأه على الناس ، وأمرهم بالشخص مع الأحنف بن قيس ،
فشخص معه منهم ألف وخمسمائة رجل ، فاستقلهم عبد الله بن عباس ، فقام في الناس
فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أما بعد يأهل البصرة فإنه جاءني أمر أمير المؤمنين يأمرني بإشخاصكم ، فأمرتكم
بالنفير إليه مع الأحنف بن قيس ، ولم يشخص معه منكم إلا ألف وخمسمائة ، وأنتم ستون
ألفا سوى أبنائكم وعبدانكم ومواليكم ألا انفروا مع جارية بن قدامة السعدي ،

ولا يجعلن رجل على نفسه سبيلا ، فإنى مَوْقع بكل من وجدته متخلفا عن مكتبه ، عاصياً لإمامه . وقد أمرت أبا الأسود الدؤلى بحشركم ، فلا يلم رجل جمل السبيل على نفسه إلا نفسه » (تاريخ الطبرى ٦ : ٤٤) .

٢٩٤ - خطبة على

فخرج جارية فمسكر ، وخرج أبو الأسود فحشر الناس ، فاجتمع إلى جارية ألف وسبعائة ، ثم أقبل حتى وافاه على بالنخيلة ، فلم يزل بالنخيلة حتى وافاه هذان الجيشان من البصرة ثلاثة آلاف ومائتا رجل ، فجمع إليه رءوس أهل الكوفة ورءوس الأسباع ورءوس القبائل ووجوه الناس .

فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « يا أهل الكوفة ، أنتم إخوانى وأنصارى وأعوانى على الحق ، وصحابتى على جهاد عدوى المُجَلِّين ، بكم أضربُ المُدْبِرَ ، وأرجو تمام طاعة المقبل ، وقد بعثت إلى أهل البصرة فاستنفرتهم إليكم ، فلم يأتنى منهم إلا ثلاثة آلاف ومائتا رجل ، فأعينونى بمناجحة جليّة خلية من الغش ، إنكم . . . (١) تخرجننا إلى صفين ، بل استجمعوا بأجمعكم ، وإنى أسألكم أن يكتب لى رئيس كل قوم مافى عشيرته من المقاتلة وأبناء المقاتلة الذين أدركوا القتال وعبدان عشيرته ومواليهم ، ثم يرفع ذلك إلينا » .

فقام سعيد بن قيس الهمداني فقال : يا أمير المؤمنين سمعاً وطاعة ووداً ونصيحة ، أنا أول الناس جاء بما سألتَ وبما طلبتَ ، وقام معقل بن قيس الرّياحى فقال له نحواً من ذلك ، وقام حدى بن حاتم وزياد بن خصفة وحجر بن عدى وأشراف الناس والقبائل فقالوا مثل ذلك ، ثم إن الرءوس كتبوا من فيهم ثم رفعوهم إليه . (تاريخ الطبرى ٤ : ٤٥)

(١) فراغ فى الأصل .

٢٩٥ - خطبة علي

وكتب عليّ إلى سعد بن مسعود الثقفي ، وهو عامله على المدائن : « أما بعد فأني قد بعثت إليك زياد بن خصيفة فأشخص معه من قبلك من مقاتلة أهل الكوفة ، وعجل ذلك إن شاء الله ، ولا قوة إلا بالله »

وبلغ عليا أن الناس يقولون : لو سار بنا إلى هذه الحروب فبدأنا بهم ، فإذا فرغنا منهم وجهنا من وجهنا ذلك إلى المحلين . فقام في الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد فإنه قد بلغني قولكم : لو أن أمير المؤمنين سار بنا إلى هذه الخارجة التي خرجت عليه ، فبدأنا بهم ، فإذا فرغنا منهم وجهنا إلى المحلين .

وأن غير هذه الخارجة أهم إلينا منهم ، فدعوا ذكركم ، وسيروا إلى قوم يقاتلونكم كما يكونوا جبارين ملوكا ، ويتخذوا عباد الله خولا^(١) » .

فتنادى الناس من كل جانب : سر بنا يا أمير المؤمنين حيث أحببت ، وقام إليه صيفي ابن فسيل الشيباني فقال : يا أمير المؤمنين ، نحن حزبك وأنصارك ، نعادي من عاديت ، ونشايع من أناب إلى طاعتك ، فسر بنا إلى عدوك من كانوا وأينما كانوا ، فإنك إن شاء الله لن تؤتى من قلة عدد ، ولا ضعف نية أتباع .

وقام إليه محرز بن شهاب التميمي من بني سعد فقال : يا أمير المؤمنين : شيعتك كقلب رجل واحد في الإجماع على بصرك ، والجد في جهاد عدوك ، فأبشر بالنصر ، وسر بنا إلى أي الفريقين أحببت ، فإننا شيعتك الذين نرجو في طاعتك ، وجهاد من خالفك صالح الثواب ، ونحاف في خذلانك والتخلف عنك شدة الوبال (تاريخ الطبري ٦ : ٤٥)

٢٩٦ - خطبة معاوية

ولما فشل التحكيم بايع أهل الشام معاوية بالخلافة ، واختلف الناس بالعراق على عليّ
فما كان لمعاوية همّ إلا مصر ، فدعا أصحابه ليستشيرهم في أمرها ، وكان فيهم عمرو بن العاص
فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أما بعد فقد رأيتم كيف صنع الله بكم في حربكم عدوّكم ، جاءوكم وهم لا ترؤن إلا
أنهم سيقبضون ببيضتكم^(١) ، ويخربون بلادكم ، ما كانوا يرون إلا أنكم في أيديهم ، فردم
الله بغيظهم لم ينالوا خيراً مما أحبوا ، وحاكناهم إلى الله فحكم لنا عليهم ، ثم جمع لنا كلمتنا
وأصلح ذات بيننا ، وجعلهم أعداء متفرقين يشهد بعضهم على بعض بالكفر ، ويسفك
بعضهم دم بعض ، والله إنى لأرجو أن يتم لنا هذا الأمر ، وقد رأيت أن نحاول أهل مصر
فكيف ترون ارتئاءنا لها ؟ » .

وكان عمرو بن العاص قد صالح معاوية حين بايعه على قتال علي بن أبي طالب ، على أن
له مصر طعمةً مابقي ، فقال لمعاوية : فإنى أشير عليك كيف تصنع : أرى أن تبعث جيشاً
كثيفاً عليهم رجل حازم صارم تامنه وتثق به ، فيأتي مصر حتى يدخلها . . . فسيره إليها .
(تاريخ الطبرى ٦ : ٥٦)

٢٩٧ - وصية معاوية لعمرو بن العاص

وجهز معاوية عمرو بن العاص ، وبعثه في ستة آلاف رجل ، وخرج وودّعه ، وقال
له عند وداعه إياه :

(١) البيضة : حوزة كل شيء .

« أوصيك يا عمرو بتقوى الله والرفق ، فإنه يُمنُّ ، وبالمهل والتؤدة ، فإن العجلة من الشيطان ، وبأن تقبل ممن أقبل ، وأن تعفو عن أدبر ، فإن قيل فيها ونعمت ، وإن أبي فإن السطوة بعد المعذرة أبلغ في الحجة ، وأحسن في العاقبة ، وادع الناس إلى الصلح والجماعة ، فإذا أنت ظهرت فليكن أنصارك آثرَ الناس عندك ، وكلَّ الناس فأولُ حُسنا . »

(تاريخ الطبرى ٦ : ٥٧)

٢٩٨ - خطبة محمد بن أبي بكر

وقدم محمد بن أبي بكر مصر واليا عليها من قبل على بن أبي طالب (سنة ٣٦ هـ) فقام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« الحمد لله الذى هدانا وإياكم لما اختلف فيه من الحق ، وبصّرنا وإياكم كثيرا بما عصى عنه الجاهلون ، ألا إن أمير المؤمنين ولأنى أموركم ، وعهد إلى ما قد سمعتم ، وأوصانى بكنيتم منه مشافهة ، ولن آلوكم خيرا ما استطعت ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب . فإن يكن ما ترون من إمارتى وأعمالى طاعةً لله وتقوى ، فاحمدوا الله عز وجل على ما كان من ذلك ، فإنه هو الهادى . وإن رأيتم عاملا لى عمل غير الحق زائفا ، فارقوه إلى وعابونى فيه ، فإنى بذلك أسعد ، وأنتم بذلك جديرون ، وفقنا الله وإياكم لصلح الأعمال برحمته . »

(تاريخ الطبرى ٥ : ٢٣٢)

٢٩٩ - خطبة محمد بن أبي بكر

وأقبل عمرو بن العاص حتى قصد مصر ، فقام محمد بن أبي بكر فى الناس ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله ثم قال :

« أما بعد معاشر المسلمين والمؤمنين ، فإن القوم الذين كانوا ينتهبون الحرمه ،

وينعشون الضلالة ، ويشبون نار الفتنة ، ويتسلطون بالجبرية ، قد نصبوا لكم العداوة ،
وساروا إليكم بالجنود .

عباد الله فمن أراد الجنة والمغفرة ، فليخرج إلى هؤلاء القوم ، فليجاهدكم في الله .
انتدبوا إلى هؤلاء رحمكم الله مع كنانة بن بشر « ثم انتهى الأمر بقتل محمد بن أبي بكر .
(تاريخ الطبري ٦ : ٥٩)

٣٠٠ - خطبة لعلي وقد استصرخه محمد بن أبي بكر

ولما سير معاوية عمرو بن العاص إلى مصر (سنة ٣٨ هـ) - وكان عليها محمد بن أبي بكر
من قبل علي - بعث ابن أبي بكر إلى علي يستصرخه ، فقام علي في الناس ، فحمد الله وأثنى
عليه ، وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم ثم قال :

« أما بعد ، فإن هذا صريح محمد بن أبي بكر ، وإخوانكم من أهل مصر ، قد سار
إليهم ابن النابغة ، عدو الله ، وولى من عادى الله ، فلا يكونن أهل الضلال إلى باطلهم
والركون إلى سبيل الطاغوت ، أشدّ اجتماعاً منكم على حقكم هذا ، فإنهم قد بدءوكم
وإخوانكم بالغزو ، فاعجلوا إليهم بالمواساة والنصر .

عباد الله : إن مصر أعظم من الشام ، أكثر خيراً ، وخير أهلاً ، فلا تغلبوا على
مصر ، فإن بقاء مصر في أيديكم عزّ لكم ، وكنت لعدوكم ، اخرجوا إلى الجردة بين
الحيرة والكوفة ، فوالفوني بها هناك غدا إن شاء الله .

(تاريخ الطبري ٦ : ٦١ وشرح ابن أبي الحديد م ٢ : ٣٤)

٣٠١ - خطبة عليّ حين بلغه مقتل محمد بن أبي بكر

ولما بلغ عليا مقتل محمد بن أبي بكر ، حزن عليه حتى رُئى ذلك في وجهه وتبين فيه وقام في الناس خطيبا ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على رسوله صلى الله عليه وسلم وقال :
« ألا إن مصر قد افتتحها الفَجْرَة أولو الجور والظلم ، الذين صدّوا عن سبيل الله ، وبغوا الإسلام عوجا ، ألا وإن محمد بن أبي بكر قد استشهد رحمة الله ، فعند الله نحتسبه ، أما والله إن كان - ما علمت - لِمَن ينتظر القضاء ، ويعمل للجزاء ، ويبغض شكل الفاجر ، ويجب هدى المؤمن .

إني والله ما ألوم نفسي على التقصير ، وإني لمقاساة الحرب نجد^(١) خبير ، وإني لأقدم على الأمر وأعرف وجه الحزم ، وأقوم فيكم بالرأى المصيب ، فأستصرخكم معلنا ، وأناديكم نداء المستغيث مغرّبا ، فلا تسمعون لي قولا ، ولا تطيعون لي أمرا ، حتى تصير بي الأمور إلى عواقب المساءة ، فأنتم القوم لا يدرك بكم الثأر ، ولا ينقض بكم الأوتار ، دعوتكم إلى غياث إخوانكم منذ بضع وخمسين ليلة ، فتجر جرتم جرجرة^(٢) الجمل الأشدق ، وثاقلتم إلى الأرض ثناقل من ليس له نية في جهاد العدو ، ولا اكتساب الأجر ، ثم خرج إلى منكم جنيد متذائب^(٣) كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ، فأف لكم » ثم نزل :
(تاريخ الطبري ٦ : ٦٢)

(١) النجد : الشجاع الماضي فيما يعجز غيره . (٢) الجرجرة : صوت ردد البعير في حنجرته ،

وأكثر ما يكون ذلك عند الإعياء والتعب . (٣) جنيد : تصغير جند ، متذائب : مضطرب . من قولهم : تذاببت الريح أي اضطرب هبوبها ، ومنه سمي الذئب ذئبا لاضطراب مشيته .

فتنة الخوارج

٣٠٢ - مناظرة عبد الله بن عباس لهم

لما رجع الإمام على كرم الله وجهه من صفين إلى الكوفة - بعد كتابة صحيفة التحكيم بينه وبين معاوية - اعتزله جماعة من أصحابه ممن رأوا التحكيم ضللا ، ونزلوا حروراء^(١) في اثني عشر ألفا ، وأمروا على القتال شبت بن ربعي ، وعلى الصلاة عبد الله بن الكواء ، فبعث إليهم على عبد الله بن عباس ، فقال : لا تعجل إلى جوابهم وخصومتهم حتى آتيك ، فخرج إليهم حتى أتاهم ، فأقبلوا يكلمونه ، فلم يصبر حتى راجعهم فقال :

« ما نَقِمْتُمْ مِنَ الْحَكَمِينَ ؟ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : « إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا »^(٢) فكيف بأمة محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت الخوارج : قلنا أما ما جعل حكمه إلى الناس وأمر بالنظر فيه والإصلاح له ، فهو إليهم كما أمر به ، وما حكم فأمضاه فليس للعباد أن ينظروا فيه ، حكم في الزاني مائة جلدة ، وفي السارق بقطع يده ، فليس للعباد أن ينظروا في هذا ، قال ابن عباس : فإن الله عز وجل يقول : « يَحْكُمُ بِهِ

(١) بظاهر الكوفة .

(٢) الآية في الصلح بين الزوجين (وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا ، إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا)

ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ^(١)» فقالوا له : « أَوَ تَجْعَلُ الْحَكْمَ فِي الصَّيْدِ ، وَالْحَدِيثَ يَكُونُ بَيْنَ الْمَرَاةِ وَزَوْجِهَا كَالْحَكْمِ فِي دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ ؟ » وقالت الخوارج قلناله : فهذه الآية بيننا وبينك ، أَعَدْلٌ عِنْدَكَ ابْنُ الْعَاصِ وَهُوَ بِالْأَمْسِ يِقَاتِلُنَا ، وَيَسْفِكُ دِمَاءَنَا ؟ فَإِنْ كَانَ عَدْلًا فَلَسْنَا بَعْدُولَ ، وَنَحْنُ أَهْلُ حَرْبِهِ ، وَقَدْ حَكَّمْتُمْ فِي أَمْرِ اللَّهِ الرَّجَالَ ، وَقَدْ أَمْضَى اللَّهُ عِزًّا وَجَلًّا حُكْمَهُ فِي مَعَاوِيَةَ وَحِزْبِهِ أَنْ يُقْتَلُوا أَوْ يَرْجَعُوا^(٢) ، وَقَبْلَ ذَلِكَ مَا دَعَوْنَاهُمْ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ عِزًّا وَجَلًّا فَأَبَوْهُ ، ثُمَّ كَتَبْتُمْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ كِتَابًا ، وَجَعَلْتُمْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ الْمَوَادِعَةَ وَالِاسْتَفَاضَةَ^(٣) وَقَدْ قَطَعَ اللَّهُ عِزًّا وَجَلًّا الْإِسْتَفَاضَةَ وَالْمَوَادِعَةَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَهْلِ الْحَرْبِ مِنْذُ نَزَلَتْ بَرَاءَةُ ، إِلَّا مِنْ أَقْرَبِ الْجُزْيَةِ .

(تاريخ الطبري ٦ : ٣٦ ، والكامل للمبرد ٢ : ١٢٠)

٣٠٣ - مناظرة الامام علي لهم

ثم خرج إليهم علي حتى انتهى إليهم وهم يخاصمون ابن عباس ، فقال : انته عن كلامهم ألم أنهلك رحمتك الله ؟

(١) الآية في حكم قاتل الصيد وهو محرم (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ، وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ بِحُكْمِ اللَّهِ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ) .

(٢) يشيرون إلى قوله تعالى (إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ، ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ، وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ، إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

(٣) استفاض المكان استفاضة : اتسع ، وهي هنا مرادفة للموادعة .

ثم تكلم فحمد الله عزَّ وجلَّ وأثنى عليه ثم قال :

« اللهم إن هذا مقام من أفلج^(١) فيه كان أولى بالفلج يوم القيامة ، ومن نطق فيه وأوعث^(٢) فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا ، ثم قال لهم : من زعيمكم ؟ قالوا : ابن الكواء ، قال علي : فما أخرجكم علينا؟ قالوا حكومتكم يوم صفين . قال : أنشدكم بالله أتعلون أنهم حيث رفعوا المصاحف ، فقلتم نجيبهم إلى كتاب الله ، قلت لكم إني أعلم بالقوم منكم ، إنهم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ، إني صحبتهم وعرفتهم أطفالا ورجالا ، فكانوا شرًّا أطفال وشرًّا رجال ، امضوا على حكم وصدقكم ، فإنما رفع القوم هذه المصاحف خديعة وإدهانا^(٣) ومكيدة ، فرددتم علي رأبي ، وقلتم لا بل نقبل منهم ، فقلت لكم اذكروا قولي لكم ومعصيتكم إياي ، فلما أبيتهم إلا الكتاب ، اشترطتُ على الحكمين أن يجييا ما أحيا القرآن ، وأن يُميئا ما أمات القرآن ، فإن حكما بحكم القرآن ، فليس لنا أن نخالف حكما يُحكّم بما في القرآن ، وإن أيبا فنحن من حكمهما برآء . قالوا له : فخبّرنا أترأه عدلا تحكيم الرجال في الدماء ؟ فقال : إنا لسنا حكّما الرجال ، إنما حكمنا القرآن وهذا القرآن إنما هو خط مسطور بين دفتين لا ينطق ، إنما يتكلم به الرجال . قالوا : فخبّرنا عن الأجل لم جعلتهُ فيما بينك وبينهم ؟ قال : ليعلم الجاهل ، ويتثبت العالم ، ولعل الله عزَّ وجلَّ يصلح في هذه الهدنة هذه الأمة ، ادخلوا مصركم رحمكم الله ، فدخلوا من عند آخرهم . »

(تاريخ الطبري ٦ : ٣٧ ، الكامل للمبرد ٢ : ١٢٨)

(١) الفلج والإفلاج : الظفر والفوز . (٢) أوعث : وقع في الوعث (الوعث بالسكون : المكان

السهل الدهس تنيب فيه الأقدام والطريق المسر) . (٣) الإدهان : الغش .

٣٠٤ - صورة أخرى

وروى صاحب العقد المناظرة بين عليّ وبين الخوارج بصورة أخرى وها كها :
« قالوا إن عليّاً لما اختلف عليه أهل النهروان والقرى وأصحاب البرانس ، ونزلوا قرية يقال لها حروراء - وذلك بعد وقعة الجمل - رجع إليهم عليّ بن أبي طالب ، فقال لهم : يا هؤلاء من زعيمكم ! قالوا : ابن الكواء ، قال : فليبرز إليّ ، فخرج إليه ابن الكواء ، فقال له عليّ : يا ابن الكواء ، ما أخرجكم علينا بعد رضاكم بالحكمين ، ومُقامكم بالكوفة؟ قال : قاتلت بنا عدوا لا نشكُّ في جهاده ، فزعمت أن قتلانا في الجنة ، وقتلهم في النار ، فبينما نحن كذلك إذ أرسلت منافقا ، وحكمت كافراً ، وكان من شكك في أمر الله أن قلت للقوم حين دعوتهم : كتاب الله بيني وبينكم ، فإن قضى عليّ ببايعتكم ، وإن قضى عليكم بايعتموني ، فلولا شكك لم تفعل هذا ، والحق في يدك . قال عليّ : يا ابن الكواء ، إنما الجواب بعد الفراغ ، أفرغت فأجيبك؟ قال : نعم ، قال عليّ : أما قتالك معي عدوا لا نشكُّ في جهاده فصدقت ، ولو شككت فيهم لم أقاتلهم ، وأما قتلانا وقتلهم ، فقد قال الله في ذلك ما يُستغنى به عن قولي ، وأما إرسال المنافق وتحكمي الكافر ، فأنت أرسلت أبا موسى مُبرّساً ، ومعاوية حَكَمَ عمرًا ، أتيت بأبي موسى مبرّساً ، فقلت : لا نرضى إلا أبا موسى ، فهلا قام إليّ رجل منكم فقال : يا علي لا تُعطي هذه الدنيّة فإنها ضلالة؟ وأما قولي لمعاوية : إن جرّني إليك كتابُ الله تبعتك ، وإن جرّك إليّ تبعتنى . زعمت أني لم أعط ذلك إلا من شك ، فقد علمت أن أوثق ما في يديك هذا الأمر ، فحدثني ويحك عن اليهودي والنصراني ومُشركي العرب ، أأهم أقرب إلى كتاب الله أم معاوية وأهل الشام؟ قال : بل معاوية وأهل الشام أقرب ، قال عليّ : أفرسول الله صلى الله عليه وسلم كان أوثق بما في يديه من كتاب الله أو أنا؟ قال : بل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : أفرأيت الله تبارك وتعالى حين يقول : (قُلْ فَأَنُؤَا

بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) . أَمَا كَانَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يُوْتَىٰ بِكِتَابٍ هُوَ أَهْدَىٰ مِمَّا فِي يَدَيْهِ ؟ قَالَ : بَلَىٰ ، قَالَ : فَلِمَ أَعْطَىٰ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْقَوْمَ مَا أَعْطَاهُمْ ؟ قَالَ : إِنْصَافًا وَحُجَّةً ، قَالَ : فَإِنِّي أَعْطَيْتُ الْقَوْمَ مَا أَعْطَاهُمْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ ابْنُ الْكَوَّاءِ : فَإِنِّي أَخْطَأْتُ . هَذِهِ وَاحِدَةٌ . زِدْنِي ، قَالَ عَلِيٌّ : فَمَا أَعْظَمُ مَا نَقَمْتُمْ عَلَيَّ ؟ قَالَ : تَحْكِيمَ الْحَكِيمِينَ ، نَظَرْنَا فِي أَمْرِنَا ، فَوَجَدْنَا تَحْكِيمَهُمَا شَكَا وَتَبْذِيرًا ، قَالَ عَلِيٌّ : فَتَىٰ سُمِّيَ أَبُو مُوسَىٰ حَكَمًا ، حِينَ أُرْسِلَ ، أَوْ حِينَ حَكَمَ ؟ قَالَ : حِينَ أُرْسِلَ ، قَالَ : أَلَيْسَ قَدْ سَارَ وَهُوَ مُسْلِمٌ ، وَأَنْتَ تَرْجُو أَنْ يَحْكُمَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ عَلِيٌّ : فَلَا أَرَى الضَّلَالَ فِي إِرْسَالِهِ ، فَقَالَ ابْنُ الْكَوَّاءِ ، سُمِّيَ حَكَمًا حِينَ حَكَمَ ، قَالَ : نَعَمْ إِذْنًا فإِرْسَالَهُ كَانَ عَدْلًا ، أَرَأَيْتَ يَا ابْنَ الْكَوَّاءِ لَوْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ مُؤْمِنًا إِلَىٰ قَوْمٍ مُشْرِكِينَ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ ، فَارْتَدَّ عَلَىٰ عَقْبِهِ كَافِرًا ، كَانَ يَبْصُرُ نَبِيَّ اللَّهِ شَيْئًا ؟ قَالَ : لَا ، قَالَ عَلِيٌّ : فَمَا كَانَ ذَنْبِي إِنْ كَانَ أَبُو مُوسَىٰ ضَلَّ ، هَلْ رَضِيتُ حُكْمَهُ حِينَ حَكَمَ ، أَوْ قَوْلَهُ إِذْ قَالَ ؟ قَالَ ابْنُ الْكَوَّاءِ : لَا ، وَلَكِنَّكَ جَعَلْتَ مُسْلِمًا وَكَافِرًا يَحْكُمَانِ فِي كِتَابِ اللَّهِ ، قَالَ عَلِيٌّ : وَيَلِكُ يَا ابْنَ الْكَوَّاءِ ! هَلْ بَعَثَ عَمْرًا غَيْرُ مُعَاوِيَةَ ؟ وَكَيْفَ أَحْكَمُهُ وَحَكَمُهُ عَلَىٰ ضَرْبِ عُنُقِي ، إِنَّمَا رَضِيَ بِهِ صَاحِبُهُ ، كَمَا رَضِيتَ أَنْتَ بِصَاحِبِكَ ، وَقَدْ يَجْتَمِعُ الْمُؤْمِنُونَ وَالْكَافِرُ بِحِكْمَانِ فِي أَمْرِ اللَّهِ ، أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ رَجُلًا مُؤْمِنًا تَزَوَّجَ يَهُودِيَّةً أَوْ نَصْرَانِيَّةً ، فَخَافَا شِقَاقَ بَيْنَهُمَا ، فَفَزِعَ النَّاسَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ ، وَفِي كِتَابِهِ : (فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ ، وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا) فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ ، أَوْ رَجُلٌ مِنَ النَّصَارَى ، وَرَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، الَّذِينَ يَجُوزُ لَهُمَا أَنْ يَحْكَمَا فِي كِتَابِ اللَّهِ فَحَكَمَا . قَالَ ابْنُ الْكَوَّاءِ : وَهَذِهِ أَيْضًا ، أَمَهَلْنَا حَتَّىٰ نَنْظُرَ ، فَانصَرَفَ عَنْهُمْ عَلِيٌّ .

فَقَالَ لَهُ صَعْصَعَةُ بْنُ صُوحَانَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَتَذُنُّ لِي فِي كَلَامِ الْقَوْمِ ، قَالَ : نَعَمْ مَا لَمْ تَبْسُطْ يَدًا ، فَنادَى صَعْصَعَةُ ابْنَ الْكَوَّاءِ ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ فَقَالَ : أَنْشُدْكَ اللَّهَ يَا مَعْشَرَ

الخارجين أن لا تكونوا عارًا على من يغزوا لغيره^(١) ، وأن لا تخرجوا بأرض تسمون بها بعد اليوم ، ولا تستعجلوا ضلال العام خشية ضلال عام قابل ، فقال له ابن الكواء : إن صاحبك لقينا بأسرٍ ، قولك فيه صغيرٌ فأمسك .

قالوا إن عليًا خرج بعد ذلك إليهم ، فخرج إليه ابن الكواء ، فقال له عليّ : يا ابن الكواء : إنه من أذنب في هذا الدين ذنبًا يكون في الإسلام حَدَثًا ، استتَبَنَاهُ من ذلك الذنب بعينه ، وإن توبتكَ أن تعرف هُدى ما خرجت منه ، وضلال ما دخلت فيه . قال ابن الكواء : إننا لا ننكر أنا قد فُتِنَّا ، فقال له عبد الله بن عمرو بن جُرْمُوز : أدركنا والله هذه الآية (الم ، أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ) - وكان عبد الله من قراء أهل حروراء ، فرجعوا فصَلَّوا خلفَ عليّ الظهرَ ، وانصرفوا معه إلى الكوفة ، ثم اختلفوا بعد ذلك في رجعتهم ولام بعضهم بعضًا ، ثم خرجوا على عليّ ، فقتلهم بالنَّهروان . (المقد الفريد ٢ : ٢٤٠)

٣٠٥ - مناظرة ابن عباس لهم

فلما استقروا بالكوفة أشاعوا أن عليًا رجع عن التحكيم ، وتاب منه ، وراه ضلالا ، فأتى الأشعث بن قيس عليًا ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الناس قد تحدثوا أنك رأيت الحكومة ضلالا ، والإقامة عليها كفرًا وتبت ، فخطب عليّ الناس فقال : « من زعم أنى رجعت عن الحكومة فقد كذب ، ومن رآها ضلالا فهو أضلُّ منها ، فخرجت الخوارج من المسجد فحكمت ، فقيل لعلي إنهم خارجون ، فقال : لا أقاتلهم حتى يقاتلوني ، وسيفعلون ، فوجه إليهم عبد الله بن العباس .

فلما سار إليهم رحبوا به وأكرموه ، فرأى منهم جباها قرحت لطول السجود ،

(١) أى لغير منفعتة الشخصية بل لئلا شعث المسلمين وجمع كلمتهم يعنى عليا وأصحابه .

وأيديا كَشَفْنَات^(١) الإبل ، وعليهم قُمْصٌ مَرْحَضَةٌ^(٢) وهم مشمرون . قالوا : ما جاء بك يا بن عباس ؟ قال : جئتكم من عند صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمه ، وأعلمنا بربه وسنة نبيه ، ومن عند المهاجرين والأنصار ، فقالوا : إنا أتينا عظيمًا حين حكمتنا الرجال في دين الله ، فإن تاب كما تبنا ، ونهض لمجاهدة عدونا رجعنا ، فقال ابن عباس : نشدتكم الله إلا ما صدقتم أنفسكم . أما علمتم أن الله أمركم بتحكيم الرجال في أرب تساوي ربع درهم تصاد في الحرم ، وفي شقاق امرأة ورجلها ، فقالوا : اللهم نعم ، قال : فأنشدكم الله هل علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمسك عن القتال ، للهدنة بينه وبين الجُدَيْدِيَّةِ^(٣) ، قالوا : نعم ولكن علينا محاربتنا من خلافة المسلمين ، قال ابن عباس : أذلك يزيلها عنه ؟ وقد محاربتنا رسول الله صلى الله عليه وسلم اسمه من النبوة ، قال سهيل^(٤) بن عمرو : لو علمت أنك رسول الله ما حاربتك ، فقال للكاتب^(٥) : اكتب محمد بن عبد الله وقد أخذ على الحكمين أن لا يجورا ، فعلى أولى من معاوية وغيره ، قالوا : إن معاوية يدعى مثل دعوى علي . قال : فأيهما رأيتموه أولى فقولوه ، قالوا : صدقت ، قال ابن عباس : ومتى جار الحكمان فلا طاعة لهما ، ولا قبول لقولهما .

فاتبعه منهم ألقان وبقى أربعة آلاف ، فلم يزالوا على ذلك حتى اجتمعوا على البيعة

(للمقد الفريد ١ : ٢١٢)

لعبد الله بن وهب الراسبي .

(١) ثفنة البعير : ركبته . (٢) قمص جمع قميص ، ورحض الثوب : غسله .

(٣) أي وبين أهل الحديبية . والحديبية بئر قرب مكة ، وكانت غزوة الحديبية سنة ست هجرية .

(٤) النائب عن قريش في عقد الصلح مع المسلمين . (٥) وكان علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .

٣٠٦ - خطبة يزيد بن عاصم المحاربي

وخرج الإمام عليّ كرم الله وجهه ذات يوم يخطب ، فإنه لفي خطبته ، إذ حكمت^(١) المحكمة في جوانب المسجد ، فقال عليّ : الله أكبر ، كلمة حق يراد بها باطل : إن سكتوا عمّناهم ، وإن تكلموا حجّجنّاهم ، وإن خرجوا علينا قاتلناهم ، فوثب يزيد ابن عاصم المحاربي فقال :

« الحمد لله غير مؤدّع^(٢) ربّنا ولا مستغنى عنه ، اللهم إنا نعوذ بك من إعطاء الدنيّة^(٣) في ديننا ، فإن إعطاء الدنية في الدين إذهان^(٤) في أمر الله عز وجل ، وذل راجع بأهله إلى سخط الله ، يا عليّ أباقتل تُخوّفنا ؟ أما والله إنى لأرجو أن تضربكم بها عما قليل غير مصفحات^(٥) ، ثم لتعلمنّ أيننا أولى بها صليّاً^(٦) . »

ثم خرج بهم هو وإخوة له ثلاثة هورابهم ، فأصيبوا مع الخوارج بالنهر ، وأصيب أحدهم بعد ذلك بالثخيلة .
(تاريخ الطبرى ٦ : ٤١)

٣٠٧ - خطبة عبد الله بن وهب الراسبي

ولما بعث الإمام عليّ أبا موسى الأشعري لإفاد الحكومة ، لقيت الخوارج بعضها بعضاً ، فاجتمعوا في منزل عبد الله بن وهب الراسبي ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

(١) أى قالوا لا حكم إلا الله ، ويسمى الخوارج المحكمة : أى الذين يمتنعون التحكيم . (٢) أى غير متروك ولا مقطوع : أى حدا دائماً . (٣) يريد بها قبول التحكيم . (٤) الإذهان والمداهنة : إظهار غير ما يضر . (٥) أى تضربكم بجدها لا بعرضها ، ضربه بالسيف مصفحاً : أى بعرضه . (٦) صلى النار وبها صلياً : قاسى حرها .

« أما بعد : فوالله ما ينبغي لقوم يؤمنون بالرحمن ، ويُنبئون إلى حكم القرآن ، أن تكون هذه الدنيا - التي الرضا بها والركون إليها ، والإيثار إياها عناءاً وتباراً^(١) - آتراً عندهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والقول بالحق ، وإن من^(٢) وضرراً ، فإنه من يُمنَّ وَيُضَرَّ في هذه الدنيا ، فإن ثوابه يوم القيامة رضوانُ الله عزَّ وجلَّ ، والخلودُ في جناته ، فاخرجوا بنا إخواننا من هذه القرية الظالم أهلها ، إلى بعض كُور^(٣) الجبال ، أو إلى بعض هذه المدائن ، منكرين لهذه البدع المضلة » .

٣٠٨ - خطبة حرقوص بن زهير السعدي

فقام حُرْقُوصُ بن زُهَيْرِ السَّعْدِيِّ فقال :

« إن المتاع بهذه الدنيا قليل ، وإن الفراق لها وشيك^(٤) ، فلا تدعونكم زينتها ، وبهجتها إلى المقام بها ، ولا تَلَفِتَنَّكُمْ عن طلب الحق ، وإنكار الظلم ، فإنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ » .

٣٠٩ - خطبة حمزة بن سنان الأسدي

فقام حمزة بن سنان الأسدي فقال :

« يا قوم إن الرأي ما قد رأيتم ، والحق ما قد ذكرتم ، فولوا أمركم رجلاً منكم فإنه لا بد لكم من عماد وسناد ، وراية تحفون بها ، وترجعون إليها » .
فعرضها على زيد بن حصين الطائي فأبى ، وعلى حرقوص بن زهير فأبى ، وعلى

(١) هلاك . (٢) أى قطع وهجر . (٣) جمع كورة بالضم ، وهى المدينة والصقع .

(٤) سريع .

حمزة بن سنان ، وشريح بن أوفى العبسي فأبيا ، وعلى عبد الله بن وهب فقال : « هاتوها ، أما والله لا آخذها رغبة في الدنيا ، ولا أدعها قرآناً^(١) من الموت » فبايعوه (لمشرخلون من شوال سنة ٢٧ هـ) .

٣١٠ - خطبة شريح بن أوفى العبسي^(٢)

ثم اجتمعوا في منزل شريح بن أوفى العبسي ، فقام شريح فقال .

« إن الله أخذ عهودنا ومواثيقنا على الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والقول بالحق ، والجهاد في تقويم السبيل ، وقد قال عز وجل لنبيه عليه الصلاة والسلام : « يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ، وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ » وقال : « وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ » فاشهدوا على أهل دَعْوَتِنَا أَنْ قَدِ اتَّبَعُوا الْهَوَى ، وَنَبَذُوا حُكْمَ الْقُرْآنِ ، وَجَارُوا فِي الْحُكْمِ وَالْعَمَلِ ، وَأَنْ جَاهَدُوا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فَرَضَ ، وَأَقْسَمَ بِالَّذِي تَعْمَلُونَ^(٣) لَهُ الْوَجْوهَ ، وَتَخْشَعُ دُونَهُ الْأَبْصَارَ ، لَوْلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ ظَلَى تَغْيِيرَ الْمُنْكَرِ ، وَقِتَالَ الْقَاسِطِينَ^(٤) مُسَاعِدًا ، لِقَاتِلَتِهِمْ وَحَدَى فَرْدًا حَتَّى أَلْقَى اللَّهَ رَبِّي ، فِيرَى أَنِي قَدْ غَيَّرْتُ (إِرَادَةَ رِضْوَانِهِ) بِلِسَانِي ، يَا إِخْوَانِنَا ، اضْرِبُوا جِبَاهَهُمْ وَوُجُوهُهُمْ بِالسَّيْفِ ، حَتَّى يُطَاعَ الرَّحْمَنُ عَزًّا وَجَلًّا ، فَإِنْ

(١) جزعا وخوفا . (٢) قال ابن قتيبة في الإمامة والسياسة : « ثم اجتمعوا في منزل زفر بن

حصين الطائي ، فقالوا : إن الله أخذ عهودنا ومواثيقنا . . . إلى آخر الخطبة ، ولم يذكر قائلها .

وذكر الطبري في تاريخه : أنهم اجتمعوا في منزل شريح بن أوفى العبسي ، وذكر الفقرات الأخيرة من هذه

الخطبة وعزاها إلى شريح . (٣) تذل وتخضع . (٤) الجائرين .

يُطْعَ اللهُ كما أردتم أثابكم ثواب المطيعين له الأمرين بأمره ، وإن قُتِلْتُمْ فأى شيء أعظم من المسير إلى رضوان الله وجنته ؟ واعلموا أن هؤلاء القوم خرجوا لإِقْصَاءِ حُكْمِ الضلالة ، فأخرجوا بنا إلى بلد نَتَّعِدُ فيه الاجتماع من مكاننا هذا ، فإنكم قد أصبحتم بنعمة ربكم وأنتم أهل الحق بين الخلق ، إذ قلتم بالحق ، وَصَدَّقْتُمْ لقول الصدق ، فأخرجوا بنا إلى « اللدائن^(١) » نسكنها فنأخذ بأبوابها ، ونُخْرِجُ منها سكانها ، ونبعث إلى إخواننا من أهل البصرة ، فيقدمون علينا .

٣١١ - مقال زيد بن حصين الطائي

فقال زيد بن حُصَيْنِ الطائي :

« إنكم إن خرجتم مجتمعين أتبعتم ، ولكن اخرجوا وُحْدَانًا مُسْتَخْفِينَ ، فأما اللدائن ، فإن بها قوماً يمنعونكم منها ، ويمنعونها منكم ، ولكن اكتبوا إلى إخوانكم من أهل البصرة ، فأعلموهم بخروجكم ، وسيروا حتى تنزلوا جسر النهروان^(٢) » .

قالوا : هذا هو الرأي ، فاجتمعوا على ذلك ، وكتبوا به إليهم .

(تاريخ الطبري ٥ : ٤٢ ، والإمامة والسياسة ١ : ١٠٤)

(١) على نهر دجلة شرقا . (٢) النهروان : بليدة بالقرب من بغداد ، نحو أربعة فراسخ .

٣١٢ - خطبة عليّ في تخويف أهل النهروان

فلما نزلوا بالنّهروان ، وأتوا بها ما أتوا من الأحداث^(١) ، أتاهم الإمام عليّ - كرم الله وجهه ، فوقف عليهم فقال :

« أيتها العصابة التي أخرجها عداوة المراء واللجاجة ، وصدّها عن الحق الهوى ، وطمّح بها النزق^(٢) وأصبحت في اللبس والخطب العظيم ، إني نذير لكم أن تُضبحوا تُفنيكم الأمة غداً صرغى بأثناء^(٣) هذا النهر ، وبأهضام^(٤) هذا الغائط^(٥) ، كلّ غير بينة من ربكم ، ولا سلطان مبین معكم ، وقد طوّحت بكم الدار ، واختبلكم^(٦) المقدار .

ألم تعلموا أني نهيتكم عن الحكومة ، وأخبرتكم أن طلب القوم إياها منكم دهن^(٧) ومكيدة لكم ؟ ونبأتكم أن القوم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ، وأنّي أعرفُ بهم منكم ؟

(١) من ذلك أنهم لقوا عبد الله بن خباب بن الارت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعه امرأته وهي حبلى تمّ (أى دنا ولادها) فقالوا : ما تقول في أبي بكر وعمر ؟ فأثنى عليهما خيراً ، قالوا : ماتقول في عثمان في أول خلافته وفي آخرها ؟ قال : إنه كان محقاً في أولها وفي آخرها ، قالوا : فاقول في علي قبل التحكيم وبعده ؟ قال : إنه أعلم بالله منكم وأشدّ توقياً على دينه وأنفذ بصيرة ، فقالوا : إنك تتبع الهوى ، وتوالى الرجال على أسماؤها لاعلى أفعالها ، ثمّ قربوه إلى شاطئ النهر فذبحوه ، وسال دمه في الماء ، وبقروا بطن امرأته ، وقتلوا ثلاث نسوة من طييء ، وقتلوا أم سنان الصيداوية ، وأصابوا مسلماً ونصرانياً ، فقتلوا المسلم وأوصوا بالنصراني خيراً ، وقالوا : احفظوا ذمة نبيكم ، وأرسل إليهم على رسولا ينظر فيما بلغه عنهم فقتلوه ، فبعث إليهم أن ادفعوا إلينا قتلة إخواننا منكم نقتلهم بهم ، ثمّ أنا تارككم وكاف عنكم حتى أتى أهل الشام ، فلعل الله يقلب قلوبكم ويردكم إلى خير ما أنتم عليه من أمركم ، فبعثوا إليه ، فقالوا كلنا قتلهم ، وكلنا نستحل دماءهم ودماهم . (٢) الطيش . (٣) جمع ثنى بالكسر : أى منعطفاته . (٤) جمع هضم (بالفتح ويكسر) وهو المظمن من الأرض . (٥) الغائط : المظمن الواسع من الأرض . (٦) أوقعكم في الحبابة . (٧) دهن الرجل : إذا نافق .

(عرفهم أطفالا ورجالا ، فهم أهل المكر والغدر) وأنكم إن فارقم رأيي جانبتم الحزم ؟
فمصيتموني وأكرهتموني حتى حكمت ، فلما أن فعلتُ شرطتُ واستوثقتُ ، فأخذت
على الحكيم أن يُحيي ما أحيا القرآن ، وأن يميت ما أمات القرآن ، فاختلفنا وخالفنا حكم
الكتاب والسنة ، وعملاً بالهوى ، فنَبَذْنَا أمرها ، ونحن على أمرنا الأول ، فما الذي بكم ،
ومن أين أتيتم ؟ » .

قالوا : إنا حكمنا ، فلما حكمنا أئمتنا ، وكنا بذلك كافرين ، وقد تبنا ، فإن تبت
كما تبنا ، فنحن منك ومعك ، وإن آبيت فأختزلنا ، فإننا منا بذوك على سواء^(١) إن الله
لا يحب الخائنين .

فقال عليّ : « أصابكم حاصب^(٢) ، ولا بقي منكم وابر^(٣) » ، أبعد إيماني
برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهجرتي معه ، وجهادي في سبيل الله ، أشهد على نفسي
بالكفر ؟ لقد ضللت إذن وما أنا من المهتدين ، فأوبوا شر مآب^(٤) ، وارجعوا
على أثر الأعقاب^(٥) أما إنكم ستلقون بعدي ذلاً شاملاً ، وسيفًا قاطعاً ، وأثرة^(٦)
يتخذها الظالمون فيكم سنة .

(١) هو من قوله تعالى (وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ
اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ) ومعناه إذا هادنت قوما فعلمت منهم النقض للعهد ، فلا توقع بهم سابقا إلى
النقض حتى تعلمهم أنك نقضت العهد ، فتكونوا في علم النقض مستوين لئلا يتهموك بالغدر ،
ثم أوقع بهم . (٢) الحاصب : الريح الشديدة تثير الحصباء (الخصي) ، وحصبه : رماه
بالحصباء . (٣) أي أحد . وروى آبر ، وهو الذي يأبر النخل أي يصلحه . وروى آثر ، وهو
الذي يأثر الحديث أي يرويه ويحكيه . وروى آبز ، وهو الواثب . (٤) أي ارجعوا شر مرجع .
(٥) الأعقاب جمع عقب (بكسر القاف) : وهو مؤخر القدم ، وهو مأخوذ من قوله تعالى :
« وَنُرِدُّ عَلَى الْأَعْقَابِ بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهُ » يدعو عليهم بانمكاس حالهم وارتهادهم وعودهم من العز
إلى الذل . (٦) أي استبدادا عليكم بالنوى والغنائم .

٣١٣ - صورة أخرى

وفي رواية أخرى أن علياً قال لأهل النهر :

« يا هؤلاء : إن أنفسكم قد سَوَّلت لكم فراق هذه الحكومة ، التي أنتم ابتدأتموها
وسألتموها^(١) وأنا لها كاره ، وأنباتكم أن القوم سَأَلُواكموها مكيدة ودَهْنًا ، فأبيتم ظليَّ
إبَاءَ المخالفين المُنَابِذين ، وعدلتم عنى عدول النكِّدَاءِ^(٢) العاصين ، حتى صرفتُ رأبي
إلى رأيكم ، وأنتم والله معاشرُ أخفاءِ الهامِ^(٣) ، سُفَهَاءِ الأحلام ، فلم آتِ (لا أبا لكم)
بِجُرْأٍ^(٤) ، ولا أردت بكم ضُرًّا ، والله ما خَبَلْتكم^(٥) عن أموركم ، ولا أخفيت شيئًا
من هذا الأمر عنكم ؛ ولا أوطأتكم عُشْوَةً^(٦) ، ولا دنيت^(٧) لكم الضَّرَّاءَ ، وإن
كان أمرنا لأمر المسلمين ظاهرًا ، فأجمع رأئُ مَلَيْتِكُمْ على أن اختاروا رجلين ، فأخذنا
عليهما أن يحكما بما في القرآن ولا يَفْهَمُوا ، فتأهأ^(٨) وتركا الحق وهما يُبْصِرانه ، وكان
الجور هوأها (وقد سبق استيئاننا عليهما في الحكم بالعدل) والصدُّ للحق بسوء رأيهما
وجورِ حكمهما ، والثقةُ في أيدينا لأنفسنا حين خلفنا سبيل الحق ، وأتينا بما لا يُعْرَفُ ،
فبيئنا لنا بماذا تستحلون قتالنا ، والخروجَ من جماعتنا ؟ أن اختار الناسُ رجلين^(٩) أحلَّ
لكم أن تضعوا أسيافكم على عواتقكم ، ثم تستعرضوا الناسَ تضربون رقابهم ، وتسفكون

(١) المراد : سألتوني أن أجيب إليها . (٢) رجل نكد (بكسر الكاف وفتحها وسكونها)

وأنكد أي عسر ، وقوم أنكاد ومناكيد ، ولم أر في كتب اللغة جمعه على نكداء . (٣) أخفاء : جمع

خفيف ، والهام : الرؤوس ، وهو كناية عن قلة العقل . (٤) البجر ، بالضم والفتح : الشر والأمر

العظيم ، ويروى حراما . (٥) منعتكم وحبستكم . (٦) العشوة مثلثة : ركوب الأمر على غير

بيان ، وبالفتح الظلمة ، ويقال : أوطأته عشوة ، أي غررته وحملته على أن يركب أمرا غير مستبين الرشد ،

فربما كان فيه عطبه . (٧) دناء وأدناه : قربه . (٨) ضلا . (٩) همزة الاستفهام

مقدرة قبل أن : أي هل اختيار الناس رجلين أحل لكم ذلك ؟

دماءهم ؟ إن هذا هو الخسران المبين ، والله لو قُتِلتم على هذا دجاجة لَعَظَمَ عند الله قتلها ، فكيف بالنفس التي قتلها عند الله حرام ؟ » .

فتنادوا لا تخاطبوهم ولا تكلموهم ، وَهَيَّئُوا لِلْقَاءِ الرَّبِّ ، الرَّوَاحَ الرَّوَاحَ إِلَى الْجَنَّةِ ، فزحف عليهم على أفانهم ، وقتل ابن وهب في المعركة ، ولم يُبْقِ منهم إلا عشرة (وكان ذلك سنة ٣٧ ، وقيل سنة ٣٨ هـ) .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٤٧ ، والإمامة والسياسة ١ : ١٠٩ ونهج البلاغة ١ : ٤٤ - ٥٤)

٣١٤ - خطبة المستورد بن علفَة

واجتمع بعد وقعة النهروان بالنخيلة جماعة من الخوارج ، ممن فارق عبد الله ابن وهب ، ومن لجأ إلى راية أبي أيوب^(١) ، ومن كان أقام بالكوفة فقال : لا أقاتل علياً ولا أقاتل معه ، فتواصوا فيما بينهم وتعاضدوا وتأسفوا على خذلانهم أصحابهم ، فقام منهم قائم يقال له المستورد بن علفَة من بني سعد بن زيد مناة ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه ثم قال : « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتانا بالعدل تحفيق رايته ، معلناً مقالته ، مبلغاً عن ربه ، ناصحاً لأُمَّته ، حتى قبضه الله مُحَيَّرًا مختاراً ، ثم قام الصديق فصَدَّقَ عن نبيه ، وقال من ارتدَّ عن دين ربه ، وذكر أن الله عز وجل قرَن الصلاة بالزكاة ، فرأى أن تعطيل إحداهما طَعْنٌ على الأخرى ، لا بل على جميع منازل الدين ، ثم

(١) وذلك أن الإمام قيل أن يزحف عليهم في وقعة النهروان نصب لهم راية أمان مع أبي أيوب

الأنصاري ، فناداهم أبو أيوب : « من جاء هذه الراية منكم من لم يقتل ولم يستمرض فهو آمن . ومن انصرف منكم إلى الكوفة أو إلى المدائن ، وخرج من هذه الجماعة فهو آمن ، إنه لا حاجة لنا بعد أن نصيب قتلة إخواننا منكم في سفك دمائكم » .

تقبضه الله إليه موفوراً ، ثم قام الفاروق ففرق بين الحق والباطل ، مسوياً بين الناس في إعطائه ، لا مؤثراً لأقاربه ، ولا مُحَكِّماً في دين ربه ، وهأنتم تعلمون ما حدث ، والله يقول : « وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا » فكلُّ أجاب وباع^(١) .

(الكامل للمبرد ٢ : ١٥٤)

(١) وقد وجه إليهم الإمام علي ، عبد الله بن عباس داعياً فأبوا ، فسار إليهم فطحنهم جميعاً لم يفلت

منهم إلا خمسة منهم المستورد .

خور أصحاب الإمام

وتقاعسهم عن نصرته

٣١٥ - خطبة عبد الله بن عباس في أهل البصرة

ورأى الإمام على كرم الله وجهه بعد فشل التحكيم أن يمضى لمناجزة معاوية وأهل الشام ، فكتب إلى عبد الله بن عباس - وكان على البصرة - أن يُشخص^(١) إليه مَنْ قبله من الناس . فأمرهم ابن عباس بالشخوص مع الأحنف بن قيس ، فَشَخَّصَ معه ألف وخمسمائة رجل ، فاستقلهم ابن عباس ، فقام خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« يا أهل البصرة: قد جاءني كتاب أمير المؤمنين يأمرني بإشخاصكم ، فأمرتكم بالمسير إليه مع الأحنف بن قيس ، فلم يُشَخَّصْ إليهم منكم إلا ألف وخمسمائة ، وأنتم في الديوان^(٢) »

(١) شخص كنع شخصاً : خرج من موضع إلى غيره ، وأشخصته أنا .

(٢) الديوان : الكتاب الذي يكتب فيه أسماء الجيش وأهل العطاء ، وهو فارسي معرب . قال القلقشندي في صبح الأعشى ١ : ٩٠ « وقد حكى الماوردي في الأحكام السلطانية في سبب تسميته بذلك وجهين : أحدهما أن كسرى ذات يوم اطلع على كتاب ديوانه في مكان لهم ، وهم يحسبون مع أنفسهم فقال « ديوانه » أي مجازين فسمى موضعهم بهذا الاسم ولزمه من حينئذ ، ثم حذفت الهاء من آخره لكثرة الاستعمال تخفيفاً فقيل ديوان ، والثاني : أن الديوان بالفارسية اسم للشياطين ، وسمى الكتاب بذلك لخدقهم بالأمور ، ووقوفهم على الجلى منها والخفى » اهـ ، ومنه ترى أن الديوان كان يطلق في الفارسية على موضع الكتاب الحاسين وعلى جماعة الكتاب ، وقد أطلق في العربية على جريدة الحساب ، ثم أطلق على الحساب ، ثم على موضع الحساب ، =

ستون ألفاً ، سوى أبنائكم وعبيدناكم^(١) ومواليكم ، ألا فانفروا^(٢) ،
ولا يجعل امرؤ على نفسه سبيلاً ، فإنى موقع بكل من وجدته تخلف عن دعوته ،
عاصياً لإمامه ، حزناً يُقربُ ندماً ، وقد أمرت أبا الأسود بحشدكم ، فلا يلُم امرؤ
جعل السبيل على نفسه إلا نفسه » .

(الإمامة والسياسة ١ : ١٠٦ ، تاريخ الطبرى ٦ : ٤٤)

٣١٦ - خطبة الإمام وقد أراد الانصراف من النهروان

ولما أراد الإمام الانصراف من النهروان ، قام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :
« أما بعد ، فإن الله قد أحسن بلاءكم وأعز نصركم ، فتوجهوا من فوركم هذا إلى
معاوية وأشياعه القاسطين ، الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ، « واشتروا به ثمناً
قليلاً » ف « يشتروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون » .

٣١٧ - مقال الأشعث بن قيس

فقال الأشعث بن قيس فقال :

« يا أمير المؤمنين : نَفِدَتْ نِبَالُنَا ، وَكَلَّتْ سِيوفُنَا ، وَنَصَلَتْ^(٣) أَسِنَّةُ رِمَاحِنَا وَعَادَ

= ثم على طائفة الكتاب ، وكان ذلك عهد فى عصر الدولة العباسية ، وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه أول
من دون الدواوين فى العرب سنة ٢٣ أى رتب الجرائد للعمال ورجال الجيش فيها أسماؤهم ومراتبهم فى النسب
وأرزاقهم (انظر تاريخ الطبرى ٥ : ٢٣) . (١) جمع عبد . (٢) نفر إلى الشيء :
أمرع إليه . (٣) سقطت .

أكثرها قصداً^(١) فأرجع بنا إلى مصرنا ، فلنستمدد بأحسن عدتنا ، ولعل أمير المؤمنين يزيد في عددنا مثل من هلك منا ، فإنه أقوى لنا على عدونا .

فأقبل على الناس حتى نزل بالنخيلة^(٢) ، ثم دخل الكوفة .

(الامامة والسياسة ١ : ١١٠ ، وتاريخ الطبري ٦ : ٥١ ، ومروج الذهب ٢ : ٣٨ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١٧٩) .

٣١٨ - خطبة الإمام بالكوفة بعد قدومه من حرب الخوارج

يستنفر الناس لقتال معاوية

وخطب الناس بالكوفة بعد قدومه من حرب الخوارج فقال :

« أيها الناس استعدوا لقتال عدوِّ ، في جهادهم القربة إلى الله عز وجل ، ودرك الوسيلة عنده ، قوم حيارى عن الحق لا يبصرونه ، مؤزعين^(٣) بالجور والظلم لا يعدلون به ، جفاة عن الكتاب ، نكب^(٤) عن الدين ، يعمهون^(٥) في الطغيان ويتسكعون^(٦) في عمرة الضلال ، ف « أعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط^(٧) الخيل - وتوكلوا على الله ، وكفى بالله وكيلاً .

(١) رمح قصد ، وقصيد ، وأقصاد : أى متكبر . (٢) وعسكر بها حين نزلها ، وأمر

الناس أن يلزموا معه معسكرهم ، ويوطنوا على الجهاد أنفسهم ، وأن يقللوا من زيارة أبنائهم ونسائهم حتى يسيروا إلى عدوهم من أهل الشام . فجعلوا يتسللون ويدخلون الكوفة ، حتى تركوه وما معه إلا نفر من وجوه الناس يسير ، وبقى المعسكر خالياً ، فلا من دخل الكوفة خرج إليه ، ولا من أقام معه صبر ، فلما رأى ذلك دخل الكوفة . (٣) أوزعه بالشئ : أغراه فأوزع به بالضم . (٤) من نكب عن الطريق : أى عدل ومال . (٥) من العمه (محركة) : وهو التحير والتردد في الضلال .

(٦) تسكع : مشى مشياً متمسكاً ، وتحير . (٧) اسم للخيل التي تربط في سبيل الله ، فعال بمعنى مفعول أو مصدر سمي به كالمرابطة أو جمع رباط فيل بمعنى مفعول .

فما نَفَرُوا ولا تَيْسَّرُوا ، فتركهم أياماً حتى إذا أيس من أن يفعلوا دعا رؤساءهم
ووجههم ، فسألهم عن رأيهم ، وما الذي يُنظِّرم^(١) ، فمنهم المعتلّ ، ومنهم المتكرِّه ،
وأقلهم مَنْ نَشِطَ ، فقام فيهم خطيباً فقال :

(شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١٧٩ ، والامامة والسياسة ١ : ١١٠ ، وتاريخ الطبرى ٦ : ٥١)

٣١٩ - خطبة له أيضاً في استنفارهم لقتال معاوية

« عبادَ الله : مالكم إذا أمرتكم أن تَنْفِرُوا في سبيل الله اثناقلتم^(٢) إلى الأرض !
أَرْضِيئِمُ بالحياة الدنيا من الآخرة بدلاً ، وبالذل والهوان من العز خَلْفًا ؟ أَوَكَلِمَا نَدَبتكم
إلى الجهاد دارت أعينكم ، كأنكم من الموت في سَكْرَةٍ ، وكأن قلوبكم مَأْلُوسَةٌ^(٣) فأنتم
لا تعقلون ، وكأن أبصاركم كُمَةٌ^(٤) فأنتم لا تَبْصِرُونَ ؛ اللهُ أنتم ! ما أنتم إلا أسودُ
الشَّرَى^(٥) في الدَّعَةِ^(٦) ، وتعالَبُ رَوَاغَةٌ حين تُدْعَوْنَ إلى البأس ! ما أنتم لي بثقوة
سَجِيسَ اللَّيَالِي^(٧) ، ما أنتم برَكَبٍ يُصَالُ بكم ، ولا ذِي عِزٍّ يُعْتَصَمُ إليه ، لعمركم اللهُ لبئس
حُشَّاشٌ^(٨) الحرب أنتم ، إنكم تُسْكَادُونَ ولا تَكِيدُونَ ، وتُنْتَقِصُ أطرافكم
ولا تتحاشون^(٩) ، ولا يُنَامُ عنكم وأنتم في غفلةٍ ساهون ، إن أخا الحرب اليقظانُ
ذو العقل ، وبات لذلِّ مَنْ وَاذَعَ ، وَغَلَبَ المتخاذلون ، والمغلوب مقهور ومسلوب ،
ثم قال :

(١) يؤخرهم . (٢) ثناقلتم . (٣) من الألس : كشمس ، وهو الجنون واختلاط العقل ،

ألس (كعفى) فهو مألوس . (٤) كفه : جمع أكه من كفه بصره (كفرح) اعترته ظلمة تطمس عليه .

(٥) الشرى : موضع تنسب إليه الأسد ، قيل هو شرى الفرات وناحيته وبه غياض وآجام ومأسدة .

(٦) أى في وقت الدعة والحفض . (٧) يقال : لا آتيك سجيس الليالي : أى أبدا .

(٨) جمع حاش اسم فاعل ، من حش النار : أى أوقدها . (٩) أى ولا تبعدون عن ذلك وتتلافونه

بالدفاع عنها ، من حاشية الشيء وهى ناحيته كما تقول تنحى عنه : أى تباعد عنه من الناحية .

« أما بعد : فإن لي عليكم حقاً ، وإن لكم عليّ حقاً ، فأما حقكم عليّ فالنصيحة لكم ما صحبتمكم ، وتوفير فيشكم عليكم ، وتعليمكم كيلا تجهلوا ، وتأديبكم كيما تعلموا ، وأما حقّي عليكم ، فالوفاء بالبيعة والنصح لي في الغيب والمشهد ، والإجابة حين أدعوكم ، والطاعة حين أمركم ، فإن يريد الله بكم خيراً تنزعوا عما أكره ، وترجعوا إلى ما أحب ، تنالوا ما تطلبون ، وتدرکوا ما تأملون »

(تاريخ الطبري ٦ : ٥١ ، الإمامة والسياسة ١ : ١١٠)

وروي الشريف الرضي هذه الخطبة في نهج البلاغة بصورة أخرى وهي :

٣٢٠ - صورة أخرى

« أف لكم ، لقد سميت عتابكم ، أرصيتهم بالحياة الدنيا من الآخرة عوضاً ، وبالذل من العز خلفاً ؟ إذا دعوتكم إلى جهاد عدوكم دارت أعينكم ، كأنكم من الموت في غمزة^(١) ، ومن الذهول في سكرة ، يرتج^(٢) عليكم حوارى فتعمهون ! فكان قلوبكم ما لؤسة فأنتم لاتعلمون ! ما أنتم لي بثقة سجيس الليالي ، وما أنتم بركن يمال بكم^(٣) ، ولا زوافير^(٤) عز يفتقر إليكم ، ما أنتم إلا كابل ضل رعائها ، فكما جمعت من جانب انتشرت من آخر ، لبئس لعمر الله سقر^(٥) نار الحرب أنتم ، تُكادون ولا تكيدون ، وتنتقص أطرافكم فلا تمتعضون^(٦) ، لا ينام عنكم وأنتم في غفلة ساهون ، غلب والله المتخاذلون ، وإيم الله إني لأظن بكم أن لو حيس^(٧) الوغى ،

(١) الغمزة : الشدة . (٢) يفتقر : والحوار : المحاور . (٣) أي يستند إليكم ويمال على

العدو بقوتكم . (٤) جمع زافرة ، والزافرة من البناء : ركنه ، ومن الرجل : عشيرته .

(٥) من سقر النار والحرب : كنع أو قلدها مصدر بمعنى اسم الفاعل ، أو هو جمع ساعر ، كقولهم : قوم

كظلم للغيظ جمع كاظم . (٦) أي فلا تغضبون . (٧) اشتد ، وكذا استحر ، وأصل الوغى :

الصوت والجلبة ، ثم سميت الحرب وغى لما فيها من الأصوات والجلبة .

وَاسْتَحَرَّ الْمَوْتَ ، قَدْ انْفَرَجَتْ عَنْ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ ، انْفِرَاجَ الرَّأْسِ ^(١) ، وَاللَّهُ إِنْ أَمَرَأَ
يُمْكِنُ عَدْوَهُ مِنْ نَفْسِهِ يَعْزُقُ ^(٢) لِحْمَهُ ، وَيَهْشِمُ عِظَمَهُ ، وَيَقْرِئُ ^(٣) جِلْدَهُ ، لِعَظِيمِ
عَجْزِهِ ، ضَعِيفٌ مَا ضَمَّتْ عَلَيْهِ جَوَانِحُ صَدْرِهِ ، أَنْتَ فَكُنْ ذَلِكَ إِنْ شِئْتَ ^(٤) فَأَمَّا أَنَا :
فَوَاللَّهِ دُونَ أَنْ أُعْطِيَ ذَلِكَ ضَرْبٌ بِالمَشْرِفِيَّةِ ^(٥) تَطِيرُ مِنْهُ فَرَّاشٌ ^(٦) الهَامِ ، وَتَطْيِیحُ
السَّوَاعِدُ وَالْأَقْدَامُ ، وَيَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدِّ ذَلِكَ مَا يَشَاءُ .

أَيُّهَا النَّاسُ : إِنْ لِي عَلَيْكُمْ حَقًّا ، وَلَكُمْ عَلَيَّ حَقٌّ ، فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَيَّ فَالنَّصِيحَةُ لَكُمْ
وَتَوْفِيرُ فَيْئَتِكُمْ عَلَيَّ ، وَتَعْلِيمُكُمْ كَيْلًا تَجْهَلُوا ، وَتَأْدِيبُكُمْ كَيْمَا تَعْلَمُوا ، وَأَمَّا حَقِّي عَلَيْكُمْ فَالْوَفَاءُ
بِالْبَيْعَةِ ، وَالنَّصِيحَةُ فِي المَشْهَدِ وَالمَغِيبِ ، وَالإِجَابَةُ حِينَ أَدْعُوكُمْ ، وَالمَطَاعَةُ حِينَ أَمْرُكُمْ .
(نهج البلاغة ١ : ٤٢)

وزاد ابن قتيبة في الإمامة والسياسة :

« وَاللَّهُ يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ ، مَا أَظُنُّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ إِلَّا ظَاهِرِينَ ^(٧) عَلَيْكُمْ ،
فَقَالُوا : أَيْعَلِمُ تَقُولُ ذَلِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ » فَقَالَ :

« نَعَمْ وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ ، إِنْ أَرَى أُمُورَهُمْ قَدْ عَلَتْ ، وَأَرَى أُمُورَهُمْ
قَدْ خَبَتْ ^(٨) ، وَأَرَاهُمْ جَادِّينَ فِي بَاطِلِهِمْ ، وَأَرَاهُمْ وَانِينَ ^(٩) فِي حَقِّكُمْ ، وَأَرَاهُمْ مَجْتَمِعِينَ ،
وَأَرَاهُمْ مُتَفَرِّقِينَ ، وَأَرَاهُمْ لِصَاحِبِهِمْ مَعَاوِيَةَ مَطِيعِينَ ، وَأَرَاهُمْ لِي عَاصِينَ ، أَمَّا وَاللَّهِ لَئِنْ
ظَهَرُوا عَلَيْكُمْ بَعْدِي ، لَتَجِدُنَّهُمْ أَرْبَابَ سُوءٍ ، كَأَنَّهُمْ وَاللَّهِ عَنْ قَرِيبٍ قَدْ شَارَكُوكُمْ

(١) أى انفراجا لا الثام بعده . (٢) عرق العظم عرقا . أكل ما عليه من اللحم ، كتمزقه .

(٣) يمزق . (٤) الخطاب عام لكل من أمكن عدوه من نفسه . (٥) السيوف ، نسبة إلى

مشارف الشام ، وهى قرى من أرض العرب تدنو من الريف . (٦) عظامها الرقيقة .

(٧) متصيرين . (٨) من خبت النار ، أى سكنت وانطفأت . (٩) من ونى : إذا فتر

في بلادكم ، وحملوا إلى بلادهم منكم ، وكأني أنظر إليكم تكشون^(١) كشيش الضباب ،
لا تأخذون لله حقاً ، ولا تمنعون له حرمة ، وكأني أنظر إليهم يقتلون صلحاءكم ، ويخيفون
علماءكم ، وكأني أنظر إليكم يبحر موانعكم ويحجبونكم ، ويدنون الناس دونكم ، فلو قد رأيتم
الحرمان ، ولقيتم الذل والهوان ، ووقع السيف ، ونزل الخوف ، لنديتم وتحسرتم على
تفريطكم في جهاد عدوكم ، وتذكرتم ما أنتم فيه من الخفض والعافية ، حين لا ينفعكم
التذكار .

٣٢١ - خطبة أبي أيوب الأنصاري

ثم قام أبو أيوب الأنصاري فقال :

« إن أمير المؤمنين - أكرمه الله - قد أسمع من كانت له أذن واعية ، وقلب حفيظ
إن الله قد أكرمكم به كرامة ما قبلتموها حق قبولها ، حيث نزل بين أظهركم ابن عم
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخير المسلمين وأفضلهم وسيدهم بعده ، يُفقهكم في الدين
ويدعوكم إلى جهاد المُجِلِّين ، فوالله لكانكم صُمٌّ لا تسمعون ، وقلوبكم غُفٌّ^(٢) مطبوعٌ
عليها ، فلا تستجيبون . عباد الله أليس إنما عهدكم بالجور والعدوان أمس ، وقد شمل
العباد وشاع في الإسلام ، فذو حق محرومٌ مشتمومٌ عرضُه ، ومضروب ظهرُه ، وملطوم
وجهه ، وموطوء بطنه ، ومُلَّتْ بالعرء^(٣) ، فلما جاءكم أمير المؤمنين صدع بالحق ، ونشر
العدل ، وعمل بالكتاب ، فاشكروا نعمة الله عليكم ، ولا تتولوا مجرمين ، ولا تكونوا
كالذين قالوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ، اشحذوا السيوف ، وجددوا آلة الحرب ،
واستعدوا للجهاد ، فإذا دُعِيتُمْ فأجيبوا ، وإذا أمرتُمْ فأطيعوا ، تكونوا بذلك من
الصادقين . »

(الإمامة والسياسة ١ : ١١٢)

(١) كش الضب كشيشا : صوت . (٢) جمع أغلف ، وقلب أغلف كأنما غشى غلافا فهو

لا يبي . (٣) العراء : الفضاء لا يستتر فيه بشيء .

٣٢٢ - خطبة الامام وقد أغار النعمان بن بشير على عين التمر

وفي سنة ٣٩ هـ فرق معاوية جيوشه في أطراف عليّ ، فبعث النعمان بن بشير الأنصاري في ألفين ، فاتوا عين التمر^(١) فأغاروا عليها ، وبها عامل عليّ في ثلثمائة ، فكتب إلى عليّ يستمده ، فأمر الناس أن ينهضوا إليه فتناقلوا ، فصعد المنبر فتشهد ثم قال :

« يا أهل الكوفة : كلما سمعتم بمذسیر^(٢) من مناسر أهل الشام أظلكم ، انجحر^(٣) كل امرئ منكم في بيته ، وأغلق بابه ، انجحر الضب في جحره ، والضبج في وجارها^(٤) ، المنور من غر رموه ، ولئن فاز بكم فاز بالسهم الأخيب ، لا أحرار عند النداء ، ولا إخوان ثقة عند النجاء^(٥) ، إنا لله وإنا إليه راجعون ! ماذا منيت به منكم ؟ عني لا تبصرون ، وبكم لا تنطقون ، وضم لا تستمعون ! إنا لله وإنا إليه راجعون ! » .
(تاريخ الطبري ٦ : ٧٧)

وروى الشريف الرضي في نهج البلاغة هذه الخطبة بصورة أخرى وهي :

٣٢٣ - صورة أخرى

منيت^(٦) بمن لا يطيع إذا أمرت ، ولا يجيب إذا دعوت ! لا أبالكم ، ما تنتظرون بنصركم ربكم ؟ أما دين يجمعكم ، ولا حمية تحمىكم^(٧) ؟ أفوم فيكم مستصرخاً ، وأناديكم متغوئاً^(٨) ، فلا تسمعون لي قولاً ، ولا تطيعون لي أمراً ، حتى تكشف الأمور

(١) بلد على الفرات شمال الكوفة . (٢) المنسر : قطعة من الجيش تمر قدام الجيش الكبير .

(٣) من انجحر الضب : أي دخل جحره . (٤) الوجار بالكسر والفتح : جحر الضبع وغيرها .

(٥) النجاء : السرعة في السير ، نجوت بجاء أي أمرعت وسبقت ، وقالوا : النجاء النجاء ، والنجاء النجا

فدوا وقصروا . (٦) بليت . (٧) تفضيكم . (٨) قائلًا وأغوئاه .

عن عواقب المساءة؟ فما يُدركُ بكم ثأر، ولا يُبلغُ بكم مَرَام؟ دَعَوْتُكُمْ إِلَى نَصْرِ إِخْوَانِكُمْ، فَجَرَّجَرْتُمْ^(١) جَرَّجَرَةَ الْجَلِّ الْأَسْرِّ^(٢) وَتَنَاقَلْتُمْ تَنَاقُلَ النَّضْوِ^(٣) الْأُدْبَرِ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَىٰ مِنْكُمْ جُنَيْدٌ مُتَدَائِبٌ^(٤) ضَعِيفٌ، كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ». (نهج البلاغة ١ : ٤٦)

٣٢٤ - خطبة الامام وقد أغار الضحاک بن قيس على الحيرة^(٥)

ووجه معاوية الضحاک بن قيس فأغار على الحيرة وغنم أموال أهلها، وبلغ ذلك علياً فاستصرخ الناس، فتقاعدوا عنه، فقام فيهم خطيباً فقال:

«أيها الناسُ المجتمعَةُ أبدانهم، المختلفةُ أهواؤهم، كلامُكم يوهي الصمَّ^(٦) الصَّلَابَ، وفعلُكم يُطْمِعُ فيكم الأعداءَ، تقولون في المجالسِ كَيْتَ وَكَيْتَ^(٧)، فإذا جاء القتالُ قلمَ حَيْدِي حَيَادٍ^(٨)، ماعزَّتْ دعوةٌ من دعاكم، ولا استراح قلب من قاساكم، أعاليلٌ بأضاليلٍ^(٩)، دفاعَ ذِي الدِّينِ المَطُولِ^(١٠)، هيهات لا يمنع الضميرَ الذليلُ، ولا يدرك

-
- (١) الجرجرة: صوت يردده البعير في حنجرتة، وأكثر ما يكون ذلك عند الإعياء والتعب.
- (٢) المصاب بداء السرر (بالتحريك)، وهو وجع في الكركرة (رحى زور البعير).
- (٣) النضو: البعير المهزول، والأدبر: المديبور أي المجروح. (٤) جنيد: تصغير جند، ومتدائب: أي مضطرب من قولهم: ذذابت الريح، أي اضطرب هبوبها، ومنه سمي الذئب ذئبا لاضطراب مشيته. (٥) شمالي الكوفة. (٦) يوهي: يشق ويخرق، والصم: جمع أصم، وهو الحجر الصلب المصمت. (٧) بفتح آخرهما ويكسر: أي كذا وكذا. (٨) حيدى حياذ: كلمة يقولها الهارب الفار، من حاد حيدانا بمعنى مال وانحرف، أي ابعدى وتنحى عن أيها الحرب، وهي نظيرة قولهم (فيحي فياح) أي اتسعى. (٩) الأضاليل: جمع أضلولة بالضم، وهي الضلال، وفي كتب اللغة: العلالة «(بالضم) والتعلة (كتحية)، والعلة (بالفتح) ما يتعمل به» ولم أجد فيها كلمة أعاليل ولا مفردتها ولا بد أن تكون جمع أضلولة بالضم: كأضاليل وأعاجيب والأعيب... الخ. والمعنى إن أقوالكم هذه تعمل بأباطيل لاجدوى لها. (١٠) مبالغة في ماطل.

الحقُّ إلا بِالْجِدِّ ، أَيْ دار بعد داركم تمنعون ؟ ومع أى إمام بعدى تقاتلون ؟ المغرور والله من غررتموه ، ومن فاز بكم فقد فاز والله بالسهم الأخييب ، ومن رمى بكم فقد رمى بأفوق ناصِل^(١) ، أصبحتُ والله لا أصدق قولاكم ، ولا أطمع فى نصركم ، ولا أوعِد العدو بكم ، ما بالكم ؟ ما دراؤكم ؟ ما طِبُّكم ؟ القومُ رجالُ أمثالكم ! أقولاً بغير علم ، وغفلة من غير ورع ، وطعماً فى غير حق ! .

وزاد ابن قُتَيْبَةَ فى الإمامة والسياسة :

« فرَّقَ اللهُ بينى وبينكم ، وأعقبنى بكم من خيرٍ لى منكم ، وأعقبكم بعدى من شرِّ لكم منى ؛ أما إنكم ستلقون بعدى ذلاً شاملاً ، وسيقاً قاتلاً ، وأثرةً يتخذها الظالمون بعدى فيكم سنةً ، تفرِّقُ جماعتكم ، وتُبكي عيونكم ، وتُدخل الفقر بيوتكم ، تَمَنُّونَ والله عندها أن لورايتمونى ونصرتمونى ، وستعرفون ما أقول لكم عمَّا قليل .

استنفرتكم فلم تَنْفِرُوا ! ونصحتُ لكم فلم تقبلوا ! وأسمعتكم فلم تَعُوا ، فأنتم شهود كأغياب ، وضُمُّ ذور أَسْمَاعٍ ، أتلو عليكم الحكمة ، وأعظكم بالموعظة النافعة ، وأحشكم على جهاد المُحَلِّين^(٢) ، الظَّالِمَةِ الباغين ، فما آتى على آخر قولى ، حتى أراكم متفرقين ، وإذا تركتكم عدتم إلى مجالسكم حَلَقاً^(٣) عَزِينَ^(٤) ، تضربون الأمثال ، وتَنَاشِدُونَ الأشعار ، تَرَبَّتْ^(٥) أيديكم ، وقد نسيتم الحرب واستعدادها ، وأصبحت قلوبكم فارغة عن ذكرها ، وشغلتموها بالأباطيل والأضاليل .

(نهج البلاغة ١ : ٣٩ ، والإمامة والسياسة ٢ : ١١١ ، والبيان والتبيين ٢ : ٢٦)

(١) سهم أفوق مكسور الفوق (بضم الفاء) والفوق : مدخل الوتر من السهم ، والناصل : العارى عن النصل . (٢) أى الذين خرجوا على إمامهم واستحلوا قتاله . (٣) الحلق : محرقة جمع حلقة (بسكون اللام) وحلقة القوم : الذين يجتمعون مستديرين . (٤) جمع عزة (بالكسر) : وهى الطائفة من الناس . (٥) دعاء عليهم : أى خسرتهم ولا أصبتم خيرا ، وأصله من ترب الرجل : أى افتقر كأنه لصق بالتراب .

٣٢٥ - خطبة الإمام

وقد أغار سفيان بن عوف الغامدي على الأنبار

ووجه معاوية سُفيان بن عَوْف الغامدي في جيش ، فأغاروا على الأنبار^(١) وقتلوا عامل عليّ عليها وهو حَسَّان بن حسان البكري ، واحتملوا ما كان في الأنبار من الأموال وأموال أهلها ، وانتهى الخبر إلى عليّ فخرج مُغضِباً حتى أتى النخيلة ، واتبعه الناس فرقياً رِبَاوَةً^(٢) من الأرض ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

« أما بعد : فإن الجهاد باب من أبواب الجنة ، فتحه الله لخاصّة أوليائه ، وهو لبأسُ التقوى ، ودرع الله الحصينة ، وجنته^(٣) الوثيقة ، فمن تركه رغبةً عنه ، ألبسه الله ثوبَ الذلِّ ، وشمله البلاء ، ودَيْثُ^(٤) الصَّغَارِ وَالْقَمَاءِ^(٥) ، وَضُرِبَ على قلبه بالإسهاب^(٦) ، وأدبِلَ^(٧) الحقُّ منه بتضييع الجهاد ، وسيم الخسف^(٨) ، ومُنْعَ النِّصْفِ^(٩) ، ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً ، سرّاً وإعلاناً ، وقلت لكم اغزؤهم من قبل أن يغزؤكم ، فوالله ما غزى قوم قطُّ في عُقْرِ^(١٠) دارهم إلا ذلُّوا ، فنخذاكم

(١) بلد على الفرات . (٢) الربوة والرباوة مثلتين : ما ارتفع من الأرض . (٣) وقايته . (٤) ذل ، وأصله من داث الشيء من باب باع : لان وسهل ومنه الديوث ، وهو الرجل الذي لاغيرة له على أهله ، والصغار : الذل . (٥) قأ : كجمع وكرم ، قاعة : ذل وصغر . (٦) هكذا في رواية ابن أبي الحديد ، من أسهب بالضم : أي ذهب عقله ، وفي نهج البلاغة : (طبع الشام) بالأسداد . (٧) من أداله الله من عدوه : أي نصره عليه ، والباء في قوله « بتضييع الجهاد » للسببية . (٨) أي أولي الذل والضم ، وفي رواية المبرد « ويسمى الخسف » بالإضافة ، والسمي : العلامة . قال المبرد : هكذا حدثونا وأظنه سم الخسف ، من قول الله عز وجل « يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ » (٩) النصف بالكسر ويثلاث ، والنصف والنصفة محركين الإنصاف . (١٠) وسطها وأصلها .

وتوا كلمت وتقل عليكم قولى ، واتخذتموه وراءكم ظهرياً ، حتى شنت^(١) عليكم الغارات ،
 ومُلكت عليكم الأوطان ، هذا أخو غامد^(٢) قد وردت خيله الأنبار ، وقتل حسان
 ابن حسان البكرى ، ورجالاً منهم كثيراً ونساء ، وأزال خيلكم عن مسالحها^(٣) .
 والذي نفسى بيده ، لقد بلغنى أنه كان يُدخِل على المرأة المسلمة ، والأخرى
 المعاهدة^(٤) ، فينتزعُ حجلها^(٥) وقابها^(٦) ، وقلائدها ورعُها^(٧) ، ما تمتنع منه إلا
 بالاسترجاع^(٨) والاسترحام ، ثم انصرفوا وافرین^(٩) ، مانال رجلا منهم كلم^(١٠) ، ولا أريق
 لهم دم ؛ فلو أن امرأ مسلماً مات من دون هذا أسفاً ، ما كان عندى فيه ملوماً ، بل كان
 به عندى جديراً .

يا عَجَباً كلَّ العَجَبِ ا عَجَبٌ يُمِيت القلب ، وَيَشْفَلُ الفهم ، وَيُكْثِرُ الأحزان !
 من تَصَافَرِ^(١١) هؤلاء القوم على باطلهم ، وفشلكم عن حَقِّكم ، حتى أصبحتم غَرَضاً^(١٢)
 تُرْمَوْنَ ولا تَرْمُونَ ، وَيُفَارُ عليكم ولا تُغَيِّرُونَ ، وَيُعْصِي اللهُ عزَّ وجلَّ فيكم وترضون ،
 إذا قلت لكم اغزوم في الشتاء ، قلت هذا أوان قرِّ^(١٣) وصِرَ ، وإن قلت لكم اغزوم

(١) شن الغارة عليهم : صبها من كل وجه ، من شن الماء على رأسه إذا صب .
 (٢) يريد سفيان بن عوف الغامدى قائد الحملة على الأنبار . (٣) جمع مسلحة بالفتح : وهى الفجر .
 (٤) المعاهدة : ذات العهد ، وهى الذمية . (٥) الحجل بالكسر والفتح : الخللخال ؛ وسمى القيد
 حجلاً لأنه يكون مكان الخللخال . (٦) القلب : سوار المرأة . (٧) الرعثة بالفتح : القروط ،
 والجمع رعاث بالكسر ، وجمع الجمع رعث بضمين . (٨) قول : إنا لله وإنا إليه راجعون .
 (٩) أى تامين ، وفى رواية المبرد : « موفورين » أى لم ينل أحدا منهم بأن يرزأ فى بدن ولا مال .
 (١٠) جرح . (١١) تعاون وتناصر . (١٢) وفى رواية نهج البلاغة : « فقبحا لكم وترحا
 حين صرتم غرضاً يرمى » وزادت رواية الجاحظ بعد ذلك : « وفيثا ينهب » والترج : محرقة الهنم ،
 والغرض : الهدف . (١٣) القر مثلكة القاف : البرد ، والصر : شدة البرد . وفى النهج : « وإذا
 أمرتكم بالسير إليهم فى الشتاء ، قلت هذه صبارة القر ، أهملنا : ينسلخ عنا البرد » وصبارة الشتاء بتشديد
 الراء : شدة برده .

في الصيف ، قلم هذه حجارة^(١) القَيْظ ، أَنْظِرْنَا^(٢) يَنْصَرِمِ الحر عنا ، فإذا كُنْتُمْ من الحرِّ
والبرد تفرُّون ، فأنتم والله من السيف أفرُّ ! يا أشباه الرِّجال ولا رجال ، وَيَا طَعَامَ^(٣)
الأحلام ! وَيَا عقول رَبَّاتِ الحِجَالِ^(٤) ، لَوَدِدْتُ أَنِي لم أركم ولم أعرفكم ، مَعْرِفَةٌ والله
جَرَّتْ ندمًا ، وأعقبت سَدَمًا^(٥) ! قاتلِكم الله ! لقد ملأتم قلبي قَيْحًا^(٦) ، وشحنتم
صدرى غَيْظًا ، وَجَرَ عُمُوْنِي نُبَّ التَّهْمَامِ أَنْفَاسًا^(٧) ، وأفسدتم علي رأبي بالعصيان
والخِذْلَان ، حتى لقد قالت قریش : إن ابن أبي طالب رجل شجاع ، ولكن لا رَأى له
في الحرب الله دَرُّهُم^(٨) ! ومن ذا يكون أعلم بها مني ، أو أشدَّ لها مِرَاسًا ؟ فوالله لقد
نهضت فيها وما بلغت العشرين ، ولقد نَيْفَتْ^(٩) اليوم على الستين ، ولكن لا رَأى لمن
لا يُطَاع (يقولها ثلاثًا) .

فقام إليه رجل ومعه أخوه^(١٠) فقال :

« يا أمير المؤمنين أنا وأحى هذا ، كما قال الله تعالى : (رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي

(١) شدة الحر . (٢) أي أمهلنا حتى ينسلخ الحر ، وفي رواية النهج « أمهلنا يسبخ
عنا الحر » بتشديد الباء المفتوحة : أي يخف ويسكن ، وكل من خفف عنه شيء فقد سبخ عنه ، ومنه
قولهم : اللهم سبخ عني الحمى : أي خففها . (٣) أوغاد الناس ومن لا عقل له ولا معرفة عنده .
والأحلام العقول : جمع حلم بالكسر ، ويجمع أيضا على حلوم ، وفي رواية النهج : « حلوم الأبطال » .
(٤) الحجال : جمع حجلة بالتحريك ، وهي القبة ، وموضع يزين بالستور والثياب للعروس - كناية
عن النساء . (٥) السدم : الهم ، أو مع ندم ، أو غيظ مع حزن . (٦) القيج : ما يكون في
القرحة من صديدها ، وشحنتم : ملأتم ، وفي رواية الكامل : « ولقد ملأتم جوفى غيظا » .
(٧) النغب : جمع نغبة بالفتح والضم ، وهي الجرعة ، والتهمام : الهم ، وأنفاسا أي جرعة بعد جرعة ،
يقال : اكرع في الإناء نفسين أو ثلاثة . (٨) لله دره : أي عمله ، والدر أيضا : اللبن ، أي لله
الذى الذى رضعه ، وهو تعجب أريد به التهمك ، وفي رواية النهج : « لله أبوهم » ! (٩) نيفت : زدت
ورواية النهج : « وهأنذا قد ذرفت على الستين » أي زدت أيضا . (١٠) الرجل وأخوه : يعرفان
بابني عفيف من الأنصار .

وَأَخِي) فَمَرُّنَا بِأَمْرِكَ ، فَوَاللَّهِ لَنَنْذَتَهُنَّ إِلَيْهِ ، وَلَوْ حَالَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ جَبْرُ الْغَضَا^(١) ، وَشَوْكِ الْقِتَادِ^(٢) « فِدَعَا لَهَا بِخَيْرٍ ، ثُمَّ قَالَ لَهَا : « وَأَيْنَ تَقَعَانِ مِمَّا أُرِيدُ ؟ » ثُمَّ نَزَلَ .

(نهج البلاغة ١ : ٣٥ ، الكامل للمبرد ١ : ١١ ، البيان والتبيين ٢ : ٢٥ ، والأغاف ١٥ : ٤٣)

٣٢٦ - خطبة للحسن بن علي في يوم الجمعة

اعتزل الإمام علي كرم الله وجهه يوماً ، فأمر ابنه الحسن رضي الله عنه أن يصلي بالناس يوم الجمعة ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« إِنْ اللَّهُ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا إِلَّا اخْتَارَ لَهُ نَفْسًا وَرَهْطًا وَبَيْتًا ، فَوَالَّذِي بَعَثَ مُحَمَّدًا بِالْحَقِّ ، لَا يَنْتَقِصُ مِنْ حَقِّنَا أَهْلَ الْبَيْتِ أَحَدٌ ، إِلَّا نَقَصَهُ اللَّهُ مِنْ عَمَلِهِ مِثْلَهُ ، وَلَا يَكُونُ عَلَيْنَا دَوْلَةٌ إِلَّا وَتَكُونُ لَنَا الْعَاقِبَةُ ، وَكَتَلَعُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ . »

(مروج الذهب ٢ : ٥٣)

٣٢٧ - خطبة معاوية وقد بلغه هلاك الأشتر

ولما نَمَى إِلَى مَعَاوِيَةَ هَلَاكُ الْأَشْتَرِ النَّخَعِيِّ^(٣) ، قَامَ فِي النَّاسِ خُطْبِيًّا ، فَحَمَدَ اللَّهَ وَأَثْنَى

عَلَيْهِ ، وَقَالَ :

(١) شجر جمره يبق طويلاً . (٢) شجر صلب له شوك كالإبر .

(٣) هو مالك بن الحارث بن عبد يغوث النخعي توفي سنة ٣٨ هـ . روى المؤرخون أنه مات مسموماً سمه معاوية ، وذلك أن الإمام علياً كان قد ولي على مصر محمد بن أبي بكر ففسدت عليه ، وخرجت عليه بها خوارج ، فبعث إليها الأشتر وأتت معاوية عيونه فأخبروه بولاية الأشتر ، فغظم ذلك عليه ، وقد كان طمع في مصر ، فعلم أنه إن قدمها كان أشد عليه من ابن أبي بكر ، فبعث إلى الجايستار (رجل من أهل الخراج) ، فقال له : إن الأشتر قد ولي مصر ، فإن أنت كفيئته لم آخذ منك خراجاً مابقيت ، (وقيل قال له أترك خراجك عشرين سنة) فاحتل له بما قدرت عليه ، وخرج الأشتر من العراق إلى مصر ، فلما انتهى =

« أما بعد : فإنه كانت لعلى بن أبى طالب يدان يمينان ، قُطِعَتِ إحداهما يوم صفرين
(يعنى عمار بن ياسر) ، وقُطِعَتِ الأخرى اليوم (يعنى الأشتر) . »

(تاريخ الطبرى ٦ : ٥٤)

= إلى القلزم استقبله الجايستار ، فقال : هذا منزل وهذا طعام وعلف ، وأنا رجل من أهل الخراج ، فنزل به
الأشتر ، وسأل الدهقان : أى الطعام والشراب أحب إليه ؟ قيل العسل ، فأهدى له عسلا قد جعل فيه سما
وقال : إن من شأنه كذا وكذا ، فتناول منه شربة ، فا استقرت فى جوفه حتى تلف ، وأتى من كان معه
على الدهقان ومن معه ، فبلغ ذلك عليا ، فقال : « لليدين والقمم » وبلغ معاوية ، فقال : « إن لله جنودا
منها العسل » .

فتنة البصرة

تسيير معاوية عبد الله بن عامر الحضرمي إليها ومقتله

لما قُتل محمد بن أبي بكر بمصر وظهر معاوية عليها (سنة ٣٨ هـ) دعا عبد الله ابن عامر الحضرمي ، فقال له : « سِرْ إِلَى البصرة فَإِنَّ جُلَّ أَهْلِهَا يرون رأينا في عثمان ، وَيُعْظِمُونَ قَتْلَهُ ، وَقَدْ قُتِلُوا فِي الطلَب بِدَمِهِ ، فَهَمَّ مَوْتُورُونَ حَنْقُونَ لِمَا أَصَابَهُمْ ، وَذُؤُوا لَوْ يَجِدُونَ مِنْ يَدْعُوهُمْ وَيَجْمَعُهُمْ ، وَيَنْهَضُ بِهِمْ فِي الطلَب بِدَمِ عُثْمَانَ ، وَدَفَعَ إِلَيْهِ كِتَابًا ، وَأَمْرَهُ إِذَا قَدِمَ أَنْ يَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ ^(١) ، فَضَى حَتَّى نَزَلَ البصرة فِي بَنِي تَمِيمٍ ، فَسَمِعَ بِقُدُومِهِ أَهْلَ البصرة ، فَجَاءَهُ كُلُّ مَنْ يَرَى رَأْيَ عُثْمَانَ ، فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ رِءُوسُ أَهْلِهَا .

(١) وكان الذي سدد لمعاوية رأيه في تمريج ابن الحضرمي كتاب كتبه إليه عباس بن صهار العبدى ، وفيه : « أما بعد : فقد بلغنا وقعتك بأهل مصر الذين بغوا على إمامهم ، وقتلوا خليفتهم طمعا وبغيا ، فقررت بذلك العميون ، وشفيت بذلك النفوس ، وبردت أفئدة أقوام كانوا لقتل عثمان كارهين ، ولعدوه مفارقين ، ولسكم موالين ، وبك راضين ، فإن رأيت أن تبعث إلينا أميرا طيبا ذكيا ذا عفاف ودين إلى الطلَب بِدَمِ عُثْمَانَ فَعَلْتَ ، فَإِنِّي لَا إِخَالَ النَّاسِ إِلَّا مَجْمَعِينَ عَلَيْكَ ، وَإِنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ غَائِبٌ عَنِ الْمَصْرِ وَالسَّلَامِ » فكتب إليه معاوية « أما بعد : فقد قرأت كتابك ، فعرفت نصيحتك ، وقبلت مشورتك . رحمك الله وسددك ، اثبت هداك الله على رأيك الرشيد ، فكأنك بالرجل الذي سألت قد أتاك ، وكأنك بالجيش قد أطل عليك ، فمررت وحييت والسلام » .

٣٢٨ - خطبة عبد الله بن عامر الحضرمي

فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد أيها الناس : فإن إمامكم إمام الهدى عثمان بن عفان ، قتله علي بن أبي طالب ظلماً ، فطلبتم بدمه ، وقاتلتم من قتله ، فجزاكم الله من أهل مصر خيراً ، وقد أصيب منكم الملائ الأختيار ، وقد جاءكم الله بإخوان لكم ، لهم بأسٌ يُتقى ، وعددٌ لا يُحصى ، فلقوا عدوكم الذين قتلوكم ، فبلغوا الغاية التي أرادوا صابرين ، ورجعوا وقد نالوا ما طلبوا ، فالتوم^(١) وساعدوهم ، وتذكروا ثأركم ، لتشفوا صدوركم من عدوكم . »

٣٢٩ - خطبة الضحاک بن عبد الله الهلالي

فقام إليه الضحاک بن عبد الله الهلالي فقال :

« فَبِحَ اللَّهِ مَا جِئْتَنَا بِهِ ، وَمَا دَعَوْتَنَا إِلَيْهِ ، جِئْتَنَا وَاللَّهِ بِمِثْلِ مَا جَاءَ بِهِ صَاحِبَاكَ : طَلْحَةَ وَالزَّيْرَ ، أَتْيَانَا وَقَدْ بَايَعْنَا عَلِيًّا وَاجْتَمَعْنَا لَهُ ، فَكَلَّمْتَنَا وَاحِدَةً ، وَنَحْنُ عَلَى سَبِيلِ مُسْتَقِيمٍ ، فَدَعَوَانَا إِلَى الْفُرْقَةِ ، وَقَامَا فِينَا بِزُخْرُفِ الْقَوْلِ ، حَتَّى ضَرَبْنَا بَعْضُنَا بِبَعْضٍ عُدْوَانًا وَظُلْمًا ، فَاقْتَتَلْنَا عَلَى ذَلِكَ ، وَآيَمَ اللَّهُ مَا سَلِمْنَا مِنْ عَظِيمٍ وَبَالٍ ذَلِكَ ، وَنَحْنُ الْآنَ مُجْمِعُونَ عَلَى بَيْعَةِ هَذَا الْعَبْدِ الصَّالِحِ ، الَّذِي أَقَالَ الْعَثْرَةَ ، وَعَفَا عَنِ الْمَسِيءِ ، وَأَخَذَ بَيْعَةَ غَائِبْنَا وَشَاهَدْنَا ، أَفْتَأْمُرْنَا الْآنَ أَنْ نَخْتَلِعَ أَسْيَافَنَا مِنْ أَعْمَادِهَا ، ثُمَّ يَضْرِبَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ، لِيَكُونَ مَعَاوِيَةَ أَمِيرًا ، وَتَكُونَ لَهُ وَزِيرًا ، وَنَعْدِلَ بِهَذَا الْأَمْرِ عَنْ عَلِيٍّ ؟ وَاللَّهِ لَيَوْمٌ مِنْ

(١) ساعدوهم .

أيام علي مع رسول الله صلى الله عليه وآله ، خيرٌ من بلاء معاوية وآل معاوية ، لو بقوا في الدنيا ، ما الدنيا باقية^(١) .

فقام عبد الله بن حازم السلمى ، فقال للضحاك : « اسكت فلست بأهل أن تتكلم في أمر العامة » ثم أقبل على ابن الحضرمي ، فقال : « نحن يدك وأنصارك . والقول ما قلت ، وقد فهمنا عنك ، فادعنا أنى شئت » فقال الضحاك لابن حازم : « يا ابن السوداء^(٢) ، والله لا يعزُّ من نصرت ، ولا يذلُّ بخذلانك من خذلت » فنشأتما .

٣٣٠ - خطبة عبد الرحمن بن عمير القرشي

فقام عبد الرحمن بن عمير بن عثمان القرشي التيمي فقال :

« عباد الله : إنا لم ندعكم إلى الاختلاف والفرقة ، ولا نريد أن تقتتلوا وتتنازوا^(٣) ولكنا إنما ندعوكم إلى أن تجمعوا كلمتكم ، وتوازرُوا إخوانكم الذين هم على رأيكم ، وأن تلهثوا شعثكم ، وتصلحوا ذات بينكم ، فهلاً مهلاً رحمكم الله ، استمعوا لهذا الكتاب ، وأطيعوا الذي يقرأ عليكم . »

فلما قرئ عليهم الكتاب ، قال معظمهم : « سمعنا وأطعنا » وقال الأحنف بن قيس : « أما أنا فلا ناقة لي في هذا ولا جمل^(٤) » ، واعتزل أمرهم ذلك ، وقال عمرو بن مرحوم من عبد القيس : « أيها الناس ، الزموا طاعتكم ، ولا تنكثوا ببيعتكم ، فتقع

(١) ما : ظرفية ، أى مادامت الدنيا باقية . (٢) وكانت أمه سوداء حبشية يقال لها عجل .

(٣) التناز : محركة اللقب ، والتناز : التعار والتداعي بالألقاب . (٤) أصل المثل للحارث

ابن صباد البكري حين قتل جساس بن مرة كلييا ، وهاجت الحرب بين بكر وتغلب (حرب البسوس) وكان الحارث قد اعتزلهما ، والقصة مشهورة .

بكم واقعة ، وتصيبكم قارعة^(١) ، ولا يكن بعدها لكم بقية ، ألا إني قد نصحت لكم ولكن لا تحبثون الناصحين .

* * *

ثم إن الناس أقبلوا إلى ابن الحضرمي وكثرت به - وكان الأمير بالبصرة يومئذ زياد ابن أبيه استخلفه عبد الله بن عباس وقدم الكوفة على عليّ عليه السلام يعزيه عن محمد ابن أبي بكر - فأفزع ذلك زيادا وهاله ، وخطى قصر الإمارة ، واستجار بالأزد فأجاروه ، وكتب إلى ابن عباس بالأمر ، وطلب إليه أن يرفع ذلك إلى أمير المؤمنين ، ليرى فيه رأيه ، وغلب ابن الحضرمي على ما يليه من البصرة وجباها ، وأجمعت الأزد على زياد ، وأعدوا له منبراً وسريراً وشراطاً .

٣٣١ - خطبة زياد بن أبيه

فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« يا معشر الأزد : إنكم كنتم أعدائي ، فأصبحتم أوليائي وأولى الناس بي ، وإني لو كنت في بني تميم ، وابن الحضرمي فيكم ، لم أطعم فيه أبداً ، وأنتم دوني ، فلا يطعم ابن الحضرمي فيّ وأنتم دوني ، وليس ابن آكلة الأكباد - في بقية الأحزاب وأولياء الشيطان - بأدنى إلى الغلبة من أمير المؤمنين في المهاجرين والأنصار ، وقد أصبحت فيكم مضموناً ، وأمانة مؤداة ، وقد رأينا وقتكم يوم الجمل ، فاصبروا مع الحق صبركم مع الباطل ، فإنكم لا تتمدون إلا على النجدة ، ولا تعتذرون على الجبن . »

٣٣٢ - خطبة شيان الأزدي

فقام شيان الأزدي - ولم يكن شهد يوم الجمل وكان غائباً - فقال :

« يا معشر الأزد : ما أبقت عواقب الجمل عليكم إلا سوء الذكر ، وقد كنتم أمنس على عليّ عليه السلام ، فكونوا اليوم له ، واعلموا أن إسلامكم^(١) له ذلّ ، وَخِذْلَانِكُمْ إياه عار ، وأنتم حتى مضاركم الصبر ، وعاقبتكم الوفاء ، فإن سار القوم بصاحبهم فَسِيرُوا بصاحبكم ، وإن استمدّوا معاوية فاستمدّوا عليّاً عليه السلام ، وإن وادعوكم فوادعوكم . »

٣٣٣ - خطبة صبرة بن شيان

ثم قام صبرة ابنه ، فقال :

« يا معشر الأزد : إنا قلنا يوم الجمل نمنع مصرّنا ، ونطيع أمنّا ، ونطلب دم خليفتنا المظلوم ، فجددنا في القتال ، وأقمنا بعد انهزام الناس ، حتى قُتِلَ منا مَنْ لا خير فينا بعده ، وهذا زياد جاركم اليوم ، والجار مضمون ، ولسنا نخاف من عليّ ما نخاف من معاوية ، فَهَبُوا لنا أنفسكم ، وامنعوا جاركم ، أو فأبلغوه مأمّنه . »
فالت الأزد : إنما نحن لكم تبع فأجبروه .

٣٣٤ - خطبة الإمام علي

واستنفر عليّ بنى تميم أياماً لينهض منهم إلى البصرة مَنْ يكفيه أمر ابن الحضرمي ، ويردّ عادية بنى تميم الذين أجاروه بها ، فلم يجبه أحد فخطبهم وقال :

(١) أسله : خذله .

« أليس من العجب أن ينصرني الأزدي^(١) ، وَتَحَذُلْنِي مُضَرٌ ؟ وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ تَقَاعُدُ تَمِيمِ الْكُوفَةِ بِي ، وَخِلَافُ تَمِيمِ الْبَصْرَةَ عَلَيَّ ، وَأَنْ أَسْتَجِدَّ بِطَائِفَةٍ مِنْهَا تَشْخَصَ إِلَى إِخْوَانِهَا فَتَدْعُوهُمْ إِلَى الرَّشَادِ ، فَإِنْ أَجَابَتْ وَإِلَّا فَلَمْنَا بَذَّةُ وَالْحَرْبِ ، فَكَأَنِّي أَخَاطَبُ صَمًّا بِكُمَا ، لَا يَفْقَهُونَ حِوَارًا ، وَلَا يُجِيبُونَ نِدَاءً ، كُلُّ هَذَا جُبْنًا عَنِ الْبَأْسِ ، وَحُبًّا لِلْحَيَاةِ ، لَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ نَقْتُلُ آبَاءَنَا وَأَبْنَاؤَنَا ، وَإِخْوَانَنَا وَأَعْمَامَنَا^(٢) ، مَا يَزِيدُنَا ذَلِكَ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ، وَمُضِيًّا عَلَى الْأَمِّ^(٣) ، وَصَبْرًا عَلَى مَضَضِ الْأَمِّ ، وَجِدًّا فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ ، وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ مِنَّا وَالْآخِرُ مِنْ عَدُونَا يَتَعَاوَلَانِ^(٤) تَصَاوُلَ الْفَحْلَيْنِ يَتَخَالَسَانِ^(٥) أَنْفُسَهُمَا ، أَيُّهُمَا يَسْقِي صَاحِبَهُ كَأْسَ الْمَنُونِ ، فَرَّةٌ لَنَا مِنْ عَدُونَا ، وَمَرَّةٌ لِعَدُونَا مِنَّا ، فَلَمَّا رَأَى اللَّهُ صِدْقَنَا أَنْزَلَ بِعَدُونَا الْكَبْتَ^(٦) ، وَأَنْزَلَ عَلَيْنَا النَّصْرَ ، حَتَّى اسْتَقَرَّ الْإِسْلَامُ مُلْقِيًّا جِرَانَهُ^(٧) ، وَمَتَّبَعُونَا أَوْطَانَهُ ، وَلَعَمْرِي لَوْ كُنَّا نَأْتِي مَا أَتَيْتُمْ ، مَا قَامَ لِلدِّينِ عَمُودٌ ، وَلَا اخْضَرَّ لِلْإِيمَانِ عُودٌ ، وَإِيْمَ اللَّهُ لَتَحْتَلِبُنَّهَا دَمًا^(٨) ، وَلَتُنْبَعِبُنَّهَا نَدْمًا .

فَقَامَ إِلَيْهِ أَعْيُنُ بْنُ ضُبَيْعَةَ الْمُجَاشِعِيُّ^(٩) فَقَالَ :

« أَنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ أَكْفِيكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هَذَا الْخَطْبَ ، وَأَتَكْفَلُ لَكَ بِقَتْلِ ابْنِ الْحَضْرَمِيِّ ، أَوْ إِخْرَاجِهِ عَنِ الْبَصْرَةِ » فَأَمَرَهُ بِالْتَهِيؤِ لِلشَّخْصِ ، فَشَخَصَ إِلَى الْبَصْرَةِ .

(١) هم من العرب اليمانيين . (٢) قتلهم الأقارب في ذات الله كثير ، قتل على عليه السلام الجهم الغفير من بني عبد مناف وبني عبد الدار في يوم بدر وأحد وهم عشيرته وبنو عمه ، وقتل عمر بن الخطاب يوم بدر خاله العاص بن هاشم بن المغيرة ، وقتل حمزة بن عبد المطلب شعبة بن ربيعة يوم بدر وهو ابن عمه ، ومثل ذلك كثير مذكور في كتب السيرة . (٣) لقم الطريق : الجادة الواضحة منها . (٤) التصاول : أن يصول كل من القرنين على صاحبه . (٥) التخالس : التسالب ، أي يبغى كل أن يسلب روح الآخر . (٦) الإذلال . (٧) جران البعير : مقدم عنقه ، وهو كناية عن التمكن كالبعير يلتقي جرائه على الأرض . (٨) يقال لمن أسرف في الأمر : تحتلبن دما ، وأصلها الناقة يفرط في حلبها فيحلب الحالب الدم . (٩) مجاشع بن دارم : أبو قبيلة من تميم ، وأعين بن ضبيعة ، هو الذي عقر الجمل الذي كانت عليه مائثة يوم الجمل .

٣٣٥ - خطبة أعين بن ضبيعة

فلما قدما دخل على زياد ، وهو بالأزد مقيم فأخبره بأمره ، ثم خرج فأتى رحله ، فجمع إليه رجالا من قومه ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« يا قوم : على ماذا تقتلون أنفسكم ، وتهرقون دماءكم ، على الباطل مع السفهاء الأشرار ؟ وإني والله ما جئتكم حتى عبّيت إليكم الجنود ، فإن تنيبوا إلى الحق يُقبل منكم وَيُكَفَّ عنكم ، وإن أبيتم فهو والله استئصالكم وبواركم . »

فقالوا بل نسمع ونطيع ، فنهض بهم إلى جماعة ابن الحضرمي ، فخرجوا إليه مع ابن الحضرمي وواقفهم عامة يومه يناشدهم الله ويقول : « يا قوم لا تنكثوا بيعتكم ، ولا تخالفوا إمامكم ، ولا تجملوا على أنفسكم سبيلا ، فقد رأيتم وجرّبتم كيف صنع الله بكم عند نكثكمُ ببيعتم وخلافكم . »

فكفوا عنه وهم في ذلك يشتمونه وينالون منه فانصرف عنهم ، فلما أوى إلى رحله تبعه عشرة نفر يظن الناس أنهم خوارج فقتلوه ، وكتب زياد إلى الإمام بذلك ، فأشخص إليهم جارية بن قدامة .

٣٣٦ - خطبة جارية بن قدامة

فلما دخل البصرة بدأ بزياد ، فاجاه ساعة وساءله ، ثم خرج من عنده ، فقام في الأزد فقال :

« جزاكم الله من حَيٍّ خيرا ، ما أعظم غناءكم^(١) ، وأحسن بلاءكم ، وأطوعكم

(١) أي كفايتكم ونفعكم .

لأميركم ، لقد عرفتم الحق إذ ضيَّعَهُ من أنكره ، ودعوتهم إلى الهدى إذ تركه من لم يعرفه «
ثم قرأ عليهم كتاب عليّ عليه السلام ، فقام صبرة بن شيان ، فقال : « سمعنا وأطعنا ،
ونحن لمن حارب أمير المؤمنين حرب ، ولمن سالم سلم ، إن كفت يا جارية قومك بقومك
فذاك ، وإن أحببت أن ننصرك نصرناك » وقام وجوه الناس فتكلموا بمثل ذلك ، فلم
يأذن لأحد منهم أن يسير معه ، ومضى نحو بني تميم .

٣٣٧ - خطبة زياد

فقام زياد في الأزدي فقال :

« يا معشر الأزدي : إن هؤلاء كانوا أمس سلما ، فأصبحوا اليوم حربا ، وإنكم
كنتم حربا فأصبحتم سلما ، وإنى والله ما اخترتكم إلا على التجربة ، ولا أقت فيكم إلا
على الأمل ، فما رضيتم أن أجرتوني ، حتى نصبتُم لي منبرا وسريرا ، وجعلتم لي شرطا
وأعوانا ، ومناديا وجمعة ، فما فقدتُ بحضرتكم شيئا إلا هذا الدرهم لا أجيبه اليوم ، فإن لم
أجبه اليوم أجبه غدا إن شاء الله ، واعلموا أن حربكم اليوم معاوية أيسرُ عليكم في الدنيا
والدين من حربكم أمس عليا ، وقد قدّم عايكم جارية بن قدامة ، وإنما أرسله عليّ ليصدع
أمر قومه ، والله ما هو بالأمير المطاع ، ولو أدرك أمته في قومه لرجع إلى أمير المؤمنين ، وكان
لي تبعًا ، وأنتم الهامة العظمى ، والجمرة الحامية ، فقدّموه إلى قومه ، فإن اضطرُّ إلى
نصركم ، فسيروا إليه إن رأيتم ذلك » .

٣٣٨ - خطبة أبي صبرة شيان

فقام أبو صبرة شيان فقال :

« يا زياد ، إني والله لو شهدت قومي يوم الجمل رجوت ألا يقاتلوا علياً ، وقد مضى الأمر بما فيه ، وهو يوم بيوم ، وأمر بأمر ، والله إلى الجزاء بالإحسان أسرع منه إلى الجزاء بالسّيء ، والتوبة مع الحق ، والعفو مع الندم ، ولو كانت هذه فتنةً لدعونا القوم إلى إبطال الدماء ، واستئناف الأمور ، ولكنها جماعةٌ ، دماؤها حرام ، وجروحها قصاصٌ ونحن معك نحبُّ ما أحببت . »

فمجب زياد من كلامه ، وقال : « ما أظنُّ في الناس مثل هذا » .

٣٣٩ - خطبة صبرة بن شيان

ثم قام صبرة ابنه فقال :

« إنا والله ما أُصِبتنا بمصيبة في دين ولا دنيا ، كما أُصِبتنا أمسِ يوم الجمل ، وإنا نلتمن اليوم أن يُمَحَّصَ^(١) ذلك بطاعة الله وطاعة أمير المؤمنين . وأما أنت يا زياد ، فوالله ما أدركت أملك فينا ، ولا أذرَ كنّا أملنا فيك ، دون ردك إلى دارك ، ونحن رادوك إليها غداً إن شاء الله تعالى ، فإذا فعلنا فلا يكن أحد أولى بك منا ، فإنك إلا تفعل لم تأت ما يُشبهك ، وإنا والله نخاف من حرب عليّ في الآخرة ، ما لا نخاف من حرب معاوية في الدنيا ، فقدّم هواك ، وأخر هوانا ، فنحن معك وطوعك » .

(١) من محص الذهب بالنار كقطع : أخلصه ما يشوبه .

٣٤٠ - خطبة خنفر الحماني

ثم قام خنفر الحماني فقال :

« أيها الأمير : إنك لو رضيت منا بما ترضى به من غيرنا ، لم نرضَ ذلك لأنفسنا ، سررنا إلى القوم إن شئت ، وإيم الله مالقينا يوماً قطّ إلا اكتفينا بمفوننا^(١) دون جُهدنا ، إلا ما كان أمس . »

أما جارية فإنه كَلَمَ قومه فلم يجيبوه ، وخرج إليه منهم أوباش فناوشوه بعد أن شتموه ، فأرسل إلى زياد والأزد يستصرخهم ، فسارت الأزد بزياد ، وخرج إليهم ابن الحضرمي وعلى خيله عبد الله بن حازم السلمي ، فاقتتلوا ساعة ، فما لبثوا بنى تميم أن هزموا ، وحصروا ابن الحضرمي في إحدى دور البصرة ، في عِدَّة من أصحابه ، وحرق جارية الدار عليهم ، فهلك ابن الحضرمي في سبعين رجلاً ، وسارت الأزد بزياد حتى أوطنوه قصر الإمارة ومعه بيت المال ، وقالوا له : هل بقي علينا من جوارك شيء ؟ قال : لا ، فانصرفوا عنه ، وكتب زياد بذلك إلى أمير المؤمنين عليه السلام .

(شرح ابن أبي الحديد م : ١ ص ٣٤٨ ، ونهج البلاغة ١ : ٥٣)

٣٤١ - صعصعة بن صوحان ومعاوية

أرسل على كرم الله وجهه إلى معاوية بالشام كتاباً صُحِبَهُ صَعْصَعَةُ بْنُ صُوحَانَ ، فسار به حتى أتى دمشق ، فأتى باب معاوية ، فقال لِأَذِنِهِ ، اسْتَأْذِنَ لِرَسُولِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ - وَبِالْبَابِ جَمَاعَةٌ مِنْ بَنِي أُمِيَّةٍ - فَأَخَذَتْهُ النَّعَالُ وَالْأَيْدِي ، لقوله « أمير المؤمنين » ، وكثرت عليه الجلبة ، فاتصل ذلك بمعاوية ، فأذن له ، فدخل عليه ،

(١) المفو : الزيادة .

فقال : السلام عليك يا بن أبي سفيان ، هذا كتاب أمير المؤمنين ، فقال معاوية : أما إنه لو كانت الرسل تُقتلُ في جاهلية أو إسلام لقتلتك ، ثم اعترضه معاوية في الكلام ، وأراد أن يستخبره ، ليعرف طبعاً أو تكلفاً ، فقال له ممن الرجل ؟ قال من نزار ، قال وما كان نزار ؟ قال كان إذا غزا انكش^(١) ، وإذا لقي افترش^(٢) ، وإذا انصرف احترش^(٣) ، قال فمن أيّ أولاده أنت ؟ قال من ربيعة ، قال وما كان ربيعة ؟ قال : كان يطيل النجّاد^(٤) ، ويعول العباد ، ويضرب ببقاع الأرض العماد ، قال فمن أيّ أولاده أنت ؟ قال من جديلة ، قال وما كان جديلة ؟ قال كان في الحرب سيفاً قاطعاً ، وفي المكرّمات غيثاً نافعاً ، وفي اللقاء لهباً ساطعاً ، قال فمن أيّ أولاده أنت ؟ قال من عبد القيس ، قال وما كان عبد القيس ؟ قال كان حسنًا أبيض^(٥) وهاباً ، يقدم لضيفه ما وجد ، ولا يسأل عما فند ، كثير المرق ، طيب العرق ، يقوم للناس مقام الغيث من السماء ، قال ويحك يا بن صوحان ! فما تركت لهذا الحيّ من قريش مجداً ولا فخراً ؟ قال بلى والله يا بن أبي سفيان ؟ تركت لهم ما لا يصلح إلا لهم ، تركت لهم الأحمر والأبيض والأصفر^(٦) ، والسريّر والمنبّر^(٧) ، والملك إلى المحشّر . ففرح معاوية ، وظن أن كلامه يشتمل على قريش كلها ، قال : صدقت يا بن صوحان ، إن ذلك لكذلك ، فعرف صمصمة ما أراد ، فقال : ليس لك ولا لقومك في ذلك إصدار ولا إيراد^(٨) ، بعدتم عن أنف^(٩) المرعى ، وعلوتم عن عذب الماء ، قال ولم ذلك ؟ ويحك يا بن صوحان ! فقال الويل لأهل النار ،

(١) انكش وتكش : أسرع ، والكميش : الرجل السريع . (٢) افترش فلانا : غلبه وصرعه .

(٣) احترش الشيء : جمعه وكسبه . (٤) حائل السيف ، وهو كناية عن طول القامة .

(٥) أي أبيض اللون كناية عن أنه حر لارقيق ، أو أبيض العرض نقيه . (٦) الأحمر : الذهب ،

والأبيض : الفضة (والسيف أيضا) والأصفر : الذهب . كناية عن الغنى والثروة (وقد كان لقريش

في الجاهلية مركز تجارى هام) . (٧) كناية عن الملك والمقدرة الخطابية . (٨) أورد إبله الماء

وأصدرها : ردها وأرجعها . (٩) روضة أنف : لم ترع .

ذلك لبني هاشم ، قال قم ، فأخرجوه . فقال صعصعة : الوعد ببني وبينك لا الوعيد ، من أراد المناجزة ، يقبل المناجزة^(١) ، فقال معاوية لشيء ما سوّده قومه ، ودِدت أنى من صلبه ، ثم التفت إلى بني أمية فقال : هكذا فلتكن الرجال !
(صبح الأعشى ١ : ٢٥٤ ، ومروج الذهب ٢ : ٧٧)

٣٤٢ - صورة أخرى

وروى أبو علي القالى هذا الخبر فى الأمالى بصورة أخرى ، قال :
« دخل صعصعة بن صوحان على معاوية أول ما دخل عليه - وقد كان يبُلغ معاوية عنه فقال معاوية : بمن الرجل ؟ فقال رجل من نزار ، قال وما نزار ؟ قال : كان إذا غزا انحوش^(٢) ، وإذا انصرف انكش ، وإذا لقي افترش ، قال : فمن أىّ ولده أنت ؟ قال : من ربيعة ، قال : وما ربيعة ؟ قال كان يغزو بالخيال ، ويغير بالليل ، ويجود بالنيل ، قال : فمن أىّ ولده أنت ؟ قال : من أمهر^(٣) ، قال : وما أمهر ؟ قال : كان إذا طلب أفضى^(٤) ، وإذا أدرك أرضى ، وإذا آب أنضى^(٥) قال : فمن أىّ ولده أنت ؟ قال : من جديلة قال : وما جديلة ؟ قال : كان يطيل النجاد ، ويمد الجياد ، ويحيد الجياد ، قال : فمن أىّ ولده أنت ؟ قال : من دُعِمى ، قال : وما دُعِمى ؟ قال : كان ناراً ساطعاً ، وشرّاً قاطعاً ، وخيراً نافعاً ، قال : فمن أىّ ولده أنت ؟ قال : من أفضى

(١) وفى مروج الذهب : « من أراد المشاجرة قبل المخاورة » والوارد فى الأمثال : « المناجزة قبل المناجزة » أى المسالمة قبل المعالجة فى القتال ، يضرب لمن يطلب الصلح بعد القتال . (٢) لم أجد هذه الكلمة فى كتب اللغة ، وأرى أنها محرفة عن (احترش) كما ورد فى رواية صبح الأعشى ، وإن اختلفت تأليف الجمل فى الروايتين . (٣) وفى نسخة : « من أسد ، قال وما أسد ؟ » . (٤) أفضى إلى الشيء : وصل إليه . (٥) أنضى بعيره : هزله ، وأنضى الثوب : أبلاه .

قَالَ : وَمَا أَفْصَى ؟ قَالَ كَانَ يَنْزِلُ الْقَارَاتِ ^(١) ، وَيَكْثُرُ الْفَارَاتِ ، وَيَجْمَعُ الْجَارَاتِ ، قَالَ :
 فَمِنْ أَىِّ وَلَدِهِ أَنْتَ ؟ قَالَ : مِنْ عَبْدِ الْقَيْسِ قَالَ : وَمَا عَبْدُ الْقَيْسِ ؟ قَالَ : أَبْطَالٌ ذَادَةٌ ^(٢) ،
 جَحَاجِحَةٌ ^(٣) سَادَةٌ ، صِنَادِيدُ قَادَةٍ ، قَالَ : فَمِنْ أَىِّ وَلَدِهِ أَنْتَ ؟ قَالَ : مِنْ أَفْصَى ، قَالَ : وَمَا
 أَفْصَى ؟ قَالَ : كَانَتْ رِمَاحُهُمْ مُشْرَدَةً ^(٤) وَقُدُورُهُمْ مُتْرَعَةً ^(٥) ، وَجِفَانُهُمْ مُفْرَعَةً ، قَالَ :
 فَمِنْ أَىِّ وَلَدِهِ أَنْتَ ؟ قَالَ : مِنْ أَسْكَيزٍ ، قَالَ : وَمَا لَسْكَيزٍ ؟ قَالَ : كَانَ يَبَاشِرُ الْقِتَالَ ،
 وَيَعَانِقُ الْأَبْطَالَ ، وَيُبَدِّدُ الْأَمْوَالَ ، قَالَ : فَمِنْ أَىِّ وَلَدِهِ أَنْتَ ؟ قَالَ : مِنْ عَجَلٍ ، قَالَ :
 وَمَا عَجَلٌ ؟ قَالَ : اللَّيْثُ الضَّرَاغِمَةُ ^(٦) ، الْمَلُوكُ الْقَمَاقِمَةُ ^(٧) ، الْقُرُومُ الْقَشَاعِمَةُ ^(٨) ، قَالَ :
 فَمِنْ أَىِّ وَلَدِهِ أَنْتَ ؟ قَالَ : مِنْ كَعْبٍ ، قَالَ : وَمَا كَعْبٍ ؟ قَالَ : كَانَ يُسَمَّرُ ^(٩) الْحَرْبَ ،
 وَيُجِيدُ الضَّرْبَ ، وَيَكْشِفُ الْكَرْبَ ، قَالَ : فَمِنْ أَىِّ وَلَدِهِ أَنْتَ ؟ قَالَ : مِنْ مَالِكٍ ،
 قَالَ : وَمَا مَالِكٍ ؟ قَالَ : هُوَ الْهُبَامُ لِلْهُمَامِ ، وَالْقَمَقَامُ لِلْقَمَقَامِ ، فَقَالَ مَعَاوِيَةُ . مَا تَرَكْتَ لِهَذَا
 الْحَىِّ مِنْ قَرِيشٍ شَيْئًا ، قَالَ : بَلْ تَرَكْتُ أَكْثَرَهُ وَأَحَبَّهُ ، قَالَ : وَمَاهُو ؟ قَالَ : تَرَكْتُ لَهُمُ
 الْوَبْرَ وَالْمَدْرَ ^(١٠) وَالْأَبْيَضَ وَالْأَصْفَرَ ، وَالصَّفَا وَالْمَشْعَرَ ^(١١) ، وَالْقُبَةَ وَالْمَفْخَرَ ، وَالسَّرِيرَ
 وَالْمَنْبَرَ ، وَالْمَلِكَ إِلَى الْمَحْشَرِ ، قَالَ : أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ كَانَ يَسُوعِنِي أَنْ أَرَاكَ أَسِيرًا قَالَ : وَأَنَا
 وَاللَّهِ لَقَدْ كَانَ يَسُوعِنِي أَنْ أَرَاكَ أَمِيرًا ، ثُمَّ خَرَجَ فَبَعَثَ إِلَيْهِ ، فَرَدَّهُ ، وَوَصَلَهُ وَأَكْرَمَهُ .
 (الأمال ٢ : ٢٣٠)

* * *

- (١) القارات : جمع قارة ، وهى الجبيل الصغير . (٢) جمع ذائد ، وهو المدافع .
 (٣) جمع جججج : وهو السيد ، كالجججج . (٤) مسددة . (٥) مملوءة .
 (٦) جمع ضرغام ، وهو الأسد . (٧) جمع ققام بالفتح ويضم ، وهو السيد .
 (٨) القروم ، جمع قرم : كشم ، وهو السيد ، والقشاعة : جمع قشع ، كجقمق ، وهو الرجل
 المسن (كناية عن كثرة التجربة) والأسد . (٩) سمر الحرب : كنع ، وسعرها : أوقدها .
 (١٠) كناية عن البادية ، والمدر : المدن والحضر . (١١) شعار الحج بالكسر : مناسكه وعلاماته ،
 والشعيرة والشعارة بالفتح ، والمشمع موضعها ، والمشمع الحرام : بالمزدلفة .

وروى المسعودى فى مروج الذهب قال :

« قال معاوية يوماً وعنده صعصعة ، وكان قدِمَ عليه بكتاب علىّ ، وعنده وجوه الناس : « الأرض لله ، وأنا خليفة الله ، فما أخذُ من مال الله فهو لى ، وما تركت منه كان جائراً لى » فقال صعصعة :

مَنَّيكَ نَفْسُكَ مَالاً يَكُونُ جَهْلًا ، مُعَاوِيَ لَّا تَأْتَمُّ.

فقال معاوية : يا صعصعة تملّمت الكلام ، قال : العلم بالتعلم ، ومن لا يعلم يجهل ، قال معاوية : ما أحوجك إلى أن أذيقك وبأل أمرِك ، قال : ليس ذلك بيدك ، ذلك بيد الذى لا يؤخرُ نفساً إذا جاء أجلها ، قال : ومن يحول بينى وبينك ؟ قال : الذى يحول بين المرء وقلبه ، قال معاوية : اتسع بطنك للكلام كما اتسع بطن البعير للشعير ، قال : اتسع بطن من لا يشبع^(١) ، ودعا عليه من لا يجمع^(٢) .

(مروج الذهب ٢ : ٧٩)

(١) يعرض بمعاوية إذ كان مبطانا (أى أكولا) وكان أيضا بطينا (أى عظيم البطن) ، وقد قال فيه سيدنا على فى وقعة صفين :

أضربهم ولا أرى معاوية الجاحظ العين العظيم الحاوية
(والحاوية ماتحوى من الأمعاء أى العظيم البطن) .

(٢) دعا عليه : معطوف على لايشبع : أى اتسع بطن من دعا عليه من لايجمع ، والمراد بمن لايجمع النبى عليه الصلاة والسلام ، وقد دعا على معاوية بانهم وعدم الشيع ، ومعنى لايجمع أى لايجمع الدنيا ولايجح إليها ، وهو تعريض آخر بمعاوية . أما دعاء رسول الله عليه فقد روى ابن الأثير فى أسد الغابة - ٤ : ٣٨٦ - قال : « عن ابن عباس رضى الله عنه قال : « كنت ألعب مع الصبيان فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتواريت خلف باب ، قال فجاء ، فحطاني حطاة - والخطو : تحريك الشيء مزعزا - وقال اذهب فادع لى معاوية ، قال فجيئت فقلت هو يأكل ، ثم قال : اذهب فادع لى معاوية ، قال : فجيئت فقلت هو يأكل ، فقال : لأشبع الله بطنه » أخرج مسلم هذا الحديث بعينه لمعاوية .

٣٤٣ - تمة في الحكم^(١)

من كلام أبي بكر الصديق رضى الله عنه :

« إن الله قرَنَ وعده بوعيده ليكون العبدُ راغباً راهباً . ليست مع العزاء مُصِيبَةٌ . الموت أهون مما بعده وأشد مما قبله . ثلاث من كُنَّ فيه كن عليه : البَنَى ، والنكث ، والمكر . ذلَّ قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة ، لا يكونن قولك لغوا في عفو ولا عقوبة . إذا فاتك خير فأدركه ، وإن أدركك شرٌّ فاسبقه . إن عليك من الله عيوناً تراك . احرص على الموت توهب لك الحياة - قاله لخالد بن الوليد حين بعثه إلى أهل الرِّدَّة - رحم الله امرأً أعان أخاه بنفسه . أطوع الناس لله أشدهم بغضاً لمعصيته . إن الله يرى من باطنك ما يرى من ظاهرك ، إن أولى الناس بالله أشدهم تولياً له . لا تجعل شرك مع علانيتك ، فيمرِّج^(٢) أمرك ، خير انخلصاتين لك أبغضهما إليك . صنائع المعروف تقي مصارع السوء . »

ومن كلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه :

« من كتم سره كان الخيار في يده . أشقى الولاة من شقيت به رعيته . اتقوا من تبغضه قلوبكم . أعقل الناس أعذرهم للناس . لا تؤجل عمل يومك لغدك . من لم يعرف الشرَّ كان جديراً أن يقع فيه . ما الخمرُ صيرفاً بأذهب للعقول من الطمع . قلما أدبر شيء فأقبل . مرُّ ذوى القربات أن يتزاوروا ولا يتجاوروا ، تخمض عن الدنيا عينك وولَّ عنها قلبك . وإياك أن تهلكك كما أهلكت من كان قبلك ، فقد رأيت مصارعها ،

(١) فى كتب الحديث الشريف مأثور أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وجوامع كلمه ، وفى نهج

البلاغة ، وشرح ابن أبى الحديد عليه وغيرهما كثير من حكم الإمام على كرم الله وجهه فاقرأها هناك .

(٢) يفسد ويختلط .

وعاينت سوء آثارها على أهلها ، وكيف عرى من كست ، وجاع من أطعمت ، ومات من أحييت . احتفظ من النعمة احتفاظك من المصيبة ، فوالله لى أخوفهما عندي عليك أن تستدرجك وتخدعك . الدنيا أمل مخترم وأجل منتقص ، وبلاغ إلى دار غيرها ، وسير إلى الموت ليس فيه تعريج ، فرحم الله امرأ فكر في أمره ، ونصح لنفسه ، وراقب ربه واستقال ذنبه . إياكم والبطانة فإنها مكسلة عن الصلاة ، مفسدة للجوف ، مؤدية إلى السقم . رحم الله امرأ أهدى إلى عيوبى ، أفلح من حفظ من الطمع والفضب والهوى نفسه .

ومن كلام عثمان رضى الله عنه :

« ما يزع^(١) الله بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن . يكفيك من الحاسد أنه يغم وقت سرورك . أنتم إلى إمام فعمال أحوج منكم إلى إمام قوال - قاله يوم صعد المنبر فأرتج عليه . »

ومن كلام ابن عباس رضى الله عنه :

« صاحب المعروف لا يقع ، فإن وقع وجد متكا . الحُرمان خير من الامتنان . مِلاك أمرم الدين ، وزينتكم العلم ، وحصون أعراضكم الأدب ، وعزكم الحلم . وجليتكم الوفاء . القراية تقطع . والمعروف يكفر . ولم ير كالمودة . لا تمار سفيها ولا حليما . فإن السفيه يؤذيكم . والحليم يقديك^(٢) . واعمل عمل من يعلم أنه مجزى بالحسنات . مأخوذ بالسيئات . »

ومن كلام ابن مسعود رضى الله عنه :

« ما ألدخان على النار بأدل من الصاحب على الصاحب ، الدنيا كلها غموم ، فما كان منها فى سرور فهو ربح . »

ومن كلام المغيرة بن شعبه :

« إن المعرفة لتتفع عند الكلب العقور ، والجمال الصئول^(١) ، فكيف بالرجل الكريم ا » .

ومن كلام أبي الدرداء :

« الشؤد اصطناع العشيرة ، واحتمال الجريرة ، والشرف كف الأذى ، وبذل الندى ، والغنى قلة التمني ، والفقر شره النفس » .

ومن كلام أبي ذر :

« إن لك في مالك شريكين : الحذنان^(٢) والوارث ، فإن قدرت ألا تكون أخس الشركاء حظا فاقبل » . (مجمع الأمثال للميداني ٢ : ٢٧٦ ، ونهاية الأرب ٣ : ٤)

(١) صؤل الجميل : واثب الناس أو حمار يقتلهم ويمدو عليهم . (٢) حذنان الدهر :

نوبه وأحدائه .

سقطت هذه الخطب سهوا في أثناء الطبع
فأوردناها في آخر الجزء وما هي ذى :

خطب الوفود

بين يدي عمر بن الخطاب

لما قدمت الوفود على عمر بن الخطاب رضى الله عنه قام هلال بن بشر^(١) فقال :

٤٤٤ - خطبة هلال بن بشر

« يا أمير المؤمنين : إنا غرمة من خلفنا من قومنا ، وسادة من وراءنا من أهل مصرنا
وإنك إن تصرّفتنا بالزيادة في أعطياتنا ، والفرائض لعميالاتنا ، يزدّد بذلك الشريف
تأميلا ، وتكفّر لهم أبا ووصولا ، وإن تكن مع ما نتمّت به^(٢) من وسائلك ، ونُدلي به
من أسبابك ، كالجدل^(٣) ، لا يجلّ ولا يرهّج^(٤) ، نرجع بأنوف مصلومة^(٤) ، وجدود

(١) في البيان والتبيين: ابن وكيع . (٢) نتوسل به . (٣) في البيان والتبيين « كالجد »
وفي نهاية الأرب « كالجدل » ولا معنى لهما هنا ، وأرى أن صوابه « كالجدل » بحاء مفتوحة ودال مكسورة ،
وصف من الجدل بفتحتين : وهو الذى أشرف أحد عاتقيه على الآخر ، أو المائل العنق من خلقة أو وجع لا يملك
أن يقيمه . وارتحل البعير ورحله : حط عليه الرجل ، وإذا كان البعير حدلا فهو لا يرتحل لعدم توازن
العدلين عليه ، وكذا لا يجلّ من مبركه ليرتحل فهو إذن لا يستخدم ولا ينتفع به ، فالمنى أنك إن لم تعطنا تكن
كالبعير الجدول العديم الجدوى . (٤) المقطوعة من أصلها .

عائرة، فَمِحْنَا^(١) وأهالينا بِسَجَلٍ مُتْرَعٍ^(٢) من سِجَالِكَ المترعة .

٣٤٥ - خطبة زيد بن جبلة

وقام زيد بن جبلة فقال :

« يا أمير المؤمنين ، سَوِّدَ الشَّرِيفَ ، وأكرم الحسيب ، وازرع عندنا من أياديك ما تَسُدُّ به الخِصَاصَةَ ، وتطرُد به الفاقة ، فَإِنَا بِقُفِّ^(٣) من الأرض يابس الأكناف ، مُقَشَّرِ الذَّرْوَةِ ، لَا مُتَّجِرَ وَلَا زَرْعَ ، وإنا من العرب اليوم إذ أتيناك بمراى ومسمع . »

٣٤٦ - خطبة الأحنف بن قيس

فقام الأحنف فقال :

« يا أمير المؤمنين إن مفاتيح الخير بيد الله ، والحرصُ قانِدُ الحِرْمَانِ ، فاتق الله فيما لا يُغْنِي عنكَ يوم القيامة قِيلاً ولا قِالاً ، واجمل بينك وبين رعيتك من العدل والإنصاف شيئاً يكفيك وفادة الوفود ، واستماعة الممتاح^(٤) ، فإن كل امرئ يجمع في وعائه إلا الأقل ممن عسى أن تقتمحه الأعين فلا يُوفدُ إليك . »

(نهاية الأرب ٧ : ٢٣٩ ، والبيان والتبيين ٢ : ٧١)

(١) الميخ : الإعطاء . (٢) المترع : الدلو العظيمة مملوءة (مذكر) ومترع : مملوء . (٣) ما ارتفع

من الأرض كالقفة . (٤) استماعة : سأله العطاء . والامتياح : الإعطاء .

٣٤٧ - خطبة الأحنف بن قيس

بين يدي عمر بن الخطاب

قدم الأحنف بن قيس التميمي على عمر بن الخطاب رضى الله عنه في أهل البصرة وأهل الكوفة ، فتكلموا عنده في أنفسهم ، وما ينوب كل واحد منهم ، وتكلم الأحنف فقال :

« يا أمير المؤمنين : إن مفاتيح الخير، بيد الله ، وقد أتتك وفود أهل العراق ، وإن إخواننا من أهل الكوفة والشام ومصر نزلوا منازل الأمم الخالية ، والملوك الجبابرة ، ومنازل كسرى وقيصر وبنى الأصفر ، فهم من المياه العذبة ، والجنان المُنْصَبَةِ في مثل حَوْلَاء السَّلَى^(١) و حَدَقَةِ البعير العاسقة^(٢) ، تأتيتهم ثمارهم غَضَّة قبل أن تتغير ، وإنا معشر أهل البصرة نزلنا أرضاً سَبَخَةٌ هشاشة ، زِعَّة نَشَاشَةٌ^(٣) ، طَرَفٌ في فلاة ، وطَرَفٌ في ملح أجاج^(٤) ، جانبٌ منها منابت القصب ، وجانبٌ سَبَخَةٌ نَشَاشَةٌ لا يجف ترابها ، ولا ينبت مرعاها ، تأتينا منافعها في مثل مَرَىء النعام ، يخرج الرجل الضعيف منا يَسْتَعْدِب^(٥) الماء من فرسخين ، وتخرج المرأة بمثل ذلك ، تُرَنَّق^(٦) ولدها ترنيق العنز تخاف عليه العدو والسبع ، دارنا فِئمة^(٧) ، ووظيفتنا ضيقة ، وعددنا كثير ، وأشرفنا قليل ، وأهل البلاء فينا كثير ، ودرهمنا كبير ، وقفيزنا^(٨) صغير ، وقد وسع الله علينا وزادنا

(١) الحولاء : جلدة خضراء مملوءة ماء تخرج مع الولد فيها أغراس وخطوط حمراء وخضراء ونزلوا

في مثل حولاء الناقة . يريدون الحصب وكثرة الماء والخضرة ، والسلى جلدة فيها الولد (من الناس والمواشي) .

(٢) السوداء . (٣) هشاشة : يسيل ماؤها . سبخة ناشاة : لا يجف ترابها ولا ينبت مرعاها ، والسبخة

يفتح الباء وسكونها أرض ذات نز وملح . (٤) ملح مر . (٥) استعذب : استقى عذبا .

(٦) الترنيق : إدامة النظر . (٧) مثلة (أى بسا كنيها) . (٨) مكيال .

فهرس

الجزء الأول

من جمهرة خطب العرب

الباب الأول

الخطب في العصر الجاهلي

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
إصلاح مرثد الخير بين سبيع بن الحارث وبين ميثم بن ثوب		٩
مقال مرثد الخير .	١	١٠
« سبيع بن الحارث .	٢	١١
« ميثم بن ثوب .	٣	١١
« مرثد الخير .	٤	١٢
طريف بن العاصي والحارث بن ذبيسان يتفاخران عند بعض مقاول حمير .	٥	١٣
وفود العرب يعزون سلامة ذا قانش بابن له مات		١٧
خطبة الملبب بن عوف .	٦	١٧
« جمادة بن أفلاح .	٧	١٨

الخطبة أو الرواية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
تساؤل عامر بن الظرب وحممة بن رافع عند أحد ملوك حمير .	٨	١٨
خطبة عامر بن الظرب العدواني وقد خطبت ابنته :	٩	١٩
حديث بعض مقاول حمير مع ابنيه ومادار بينه وبينهما من المساءلة حين كبرت سنه .	١٠	٢٠
إحدى ملكات اليمن وخطبوها .	١١	٢٥
رواد مندحج يصفون ما ارتادوا من المراعى .	١٢	٢٦
مادار من الحديث بين المنذر بن النعمان الأكبر وبين عامر بن جوين الطائى .	١٣	٢٧
قيس بن رفاعه والحارث بن أبى شمر الغسانى .	١٤	٣٢
قيس بن خفاف البرجمى وحاتم طي .	١٥	٣٢
مقال قبيصة بن نعيم لامرى القيس بن حجر .	١٦	٣٤
رد امرى القيس عليه .	١٧	٣٦
خطبة هانى بن قبيصة الشيبانى .	١٨	٣٧
خطبة عمرو بن كلثوم .	١٩	٣٧
أ كثم بن صيفى يعزى عمرو بن هند عن أخيه .	٢٠	٣٧
خطبة قس بن ساعدة الإيادى .	٢١	٣٨
قس بن ساعدة عند قيصر .	٢٢	٣٩
خطبة المأمون الحارثى .	٢٣	٣٩
بين مهلهل بن ربيعة ومرة بن ذهل بن شيبان .	٢٤	٤٠
مناقرة علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل العامريين .	٢٥	٤١
أشراف العرب بين يدى كسرى		٤٦
مقال حذيفة بن بدر الفزارى .	٢٦	٤٦
مقال الأشعث الكندى .	٢٧	٤٧
مقال بسطام الشيبانى .	٢٨	٤٧
مقال حاجب بن زرارة .	٢٩	٤٨
مقال قيس بن عاصم السعدى .	٣٠	٤٩

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
وفود العرب على كسرى		٥٠
خطبة النعمان بن المنذر .	٣١	٥١
خطبة أكم بن صيفي .	٣٢	٥٦
خطبة حاجب بن زرارة .	٣٣	٥٧
خطبة الحارث بن عباد .	٣٤	٥٧
خطبة عمرو بن الشريد .	٣٥	٥٩
خطبة خالد بن جعفر الكلابي .	٣٦	٦٠
خطبة علقمة بن علاثة العامري .	٣٧	٦٠
خطبة قيس بن مسعود الشيباني .	٣٨	٦١
خطبة عامر بن الطفيل العامري .	٣٩	٦٢
خطبة عمرو بن معد يكرب الزبيدي .	٤٠	٦٣
خطبة الحارث بن ظالم المري .	٤١	٦٣
مخالس بن مزاحم وقاصر بن سلمة عند النعمان بن المنذر .	٤٢	٦٤
ضمرة بن ضمرة عند النعمان بن المنذر .	٤٣	٦٦
ليبد بن ربيعة يصف بقلة .	٤٤	٦٧
كلمات هند بنت النخس الأيادية .	٤٥	٦٨
خطبة كعب بن لؤي .	٤٦	٧٣
خطبة هاشم بن عبد مناف .	٤٧	٧٤
خطبة هاشم بن عبد مناف في قريش وخزاعة .	٤٨	٧٥
خطبة عبد المطلب بن هاشم .	٤٩	٧٦
خطبة أبي طالب في زواج الرسول صلى الله عليه وسلم بالسيدة خديجة	٥٠	٧٧
خطب الكهان		٧٨
الكاهن الخزاعي ينفر هاشم بن عبد مناف على أمية بن عبد شمس .	٥١	٧٨
عوف بن ربيعة الأسدي يتكهن بمقتل حجر بن الحارث .	٥٢	٧٩
كاهن بني الحارث بن كعب يحذرهم غزو بني تميم .	٥٣	٨٠

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
أحد كهان اليمن يفصل في أمر هند بنت عتبة .	٥٤	٨١
خمسة نفر من طي يمتحنون سواد بن قارب الدوسي .	٥٥	٨٢
حديث مصاد بن مذعور القيني .	٥٦	٨٦
حديث خنافر بن التوعم الحميري مع رثيه شصار .	٥٧	٨٨
شافع بن كليب الصديقي يتكهن بظهور النبي صلى الله عليه وسلم	٥٨	٩٠
سطيح الذئبي يعبر رؤيا ربيعة بن نصر اللخمي :	٥٩	٩١
شق أنمار يعبر رؤيا ربيعة بن نصر أيضا .	٦٠	٩٣
وفود عبد المسيح بن بقميلة على سطيح :	٦١	٩٤
شق وسطيح ينبئان بأصل ثقيف .	٦٢	٩٧
تنافر عبد المطلب بن هاشم والثقفين إلى عزي سلمة الكاهن :	٦٣	٩٨
منافرة عبد المطلب بن هاشم وحرب بن أمية .	٦٤	١٠٠
ما أمر به عبد المطلب بن هاشم ، في منامه من حفر زمزم :	٦٥	١٠٩
خطب الكواهن		١٠٣
الشعفاء الكاهنة تصف سبعة إنحوة .	٦٦	١٠٣
طريقة الحير تتكهن بسيل العرم وخراب سد مأرب .	٦٧	١٠٥
حديث زبراء الكاهنة مع بني رثام بن قضاة .	٦٨	١١٠
كاهنة ذى الخليفة تتكهن بما في بطن رقية بنت جشم .	٦٩	١١٢
رأى سلمى الهمدانية في حريم المرادى .	٧٠	١١٣
تنافر العجفاء بنت علقمة وصواحباتها إلى الكاهنة السعدية :	٧١	١١٤
عقيراء الكاهنة تعبر رؤيا مرثد بن عبد كلال .	٧٢	١١٥
الوصايا		١١٩
وصية أوس بن حارثة لابنه مالك .	٧٣	١١٩
وصية ذى الإصبع العدواني لابنه أسيد .	٧٤	١٢٠
وصية عمرو بن كلثوم لبنيه .	٧٥	١٢١

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
وصية الحرث بن كعب لبنيه .	٧٦	١٢٢
وصية عامر بن الظرب لقومه .	٧٧	١٢٣
وصية دويد بن زيد لبنيه .	٧٨	١٢٤
وصية زهير بن جناب الكلبي .	٧٩	١٢٦
وصية النعمان بن ثواب العبدي لبنيه .	٨٠	١٢٦
وصية قيس بن زهير لبني النمر بن قاسط .	٨١	١٢٧
وصية حصن بن حذيفة لبنيه .	٨٢	١٢٩
وصية لأكثم بن صيفي .	٨٣	١٣٠
وصية أكثم بن صيفي لطيء .	٨٤	١٣٣
وصية أكثم بن صيفي لبنيه ورهطه .	٨٥	١٣٤
نصيحة أكثم بن صيفي لقومه .	٨٦	١٣٥
أمثال أكثم بن صيفي وبرز جهم الفارسي .	٨٧	١٣٦
نصيحة الجمانة بنت قيس بن زهير لجدها الربيع بن زياد .	٨٨	١٤١
وصف عصام الكندية أم إياس بنت عوف بن محم الشيباني .	٨٩	١٤٢
وصية أمامة بنت الحرث لابنتها أم إياس .	٩٠	١٤٥

الباب الثاني

الخطب والوصايا

في عصر صدر الإسلام

خطب النبي صلى الله عليه وسلم وما يتبعها		١٤٧
أول خطبة خطبها بمكة حين دعا قومه .	١	١٤٧
أول خطبة خطبها بالمدينة .	٢	١٤٨
خطبته في أول جمعة جمعها بالمدينة .	٣	١٤٨

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
خطبة له يوم أحد .	٤	١٤٩
خطبته بالخيف .	٥	١٥١
خطبة له عليه الصلاة والسلام .	٦	١٥١
خطبة له عليه الصلاة والسلام .	٧	١٥٢
خطبة له عليه الصلاة والسلام .	٨	١٥٢
خطبة له عليه الصلاة والسلام .	٩	١٥٣
خطبة له عليه الصلاة والسلام .	١٠	١٥٣
خطبته يوم فتح مكة .	١١	١٥٤
خطبته في الاستسقاء .	١٢	١٥٤
خطبته في حجة الوداع .	١٣	١٥٥
خطبته في مرض موته .	١٤	١٥٨
خطبة أكرم بن صيفي يدعو قومه إلى الإسلام .	١٥	١٥٩
وصية أبي طالب لوجوه قريش عند موته .	١٦	١٦١
خطب الوفود بين يديه صلى الله عليه وسلم		١٦٣
خطبة عطار بن حاجب بن زرار بن يدي النبي صلى الله عليه وسلم .	١٧	١٦٣
خطبة ثابت بن قيس بن الشماس .	١٨	١٦٣
عمرو بن الأهمم والزبرقان بن بدر بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم .	١٩	١٦٤
خطبة طهفة بن أبي زهير النهدي بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم .	٢٠	١٦٥
رده صلى الله عليه وسلم .	٢١	١٦٦
خطبة ظبيان بن حداد بين يديه صلى الله عليه وسلم .	٢٢	١٦٧
خطبة مالك بن نمط بين يديه صلى الله عليه وسلم .	٢٣	١٦٨
سفانة بنت حاتم بين يديه صلى الله عليه وسلم .	٢٤	١٦٩
وصية دريد بن الصمة .	٢٥	١٧٠
وصية عمير بن حبيب الصحابي لبنيه .	٢٦	١٧١
وصية قيس بن عاصم المنقري لبنيه .	٢٧	١٧١

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
خطب يوم السقيفة		١٧٣
خطبة سعد بن عبادة .	٢٨	١٧٣
خطبة أبي بكر رضى الله عنه .	٢٩	١٧٤
نص آخر لخطبة أبي بكر يوم السقيفة .	٣٠	١٧٥
خطبة الحباب بن المنذر .	٣١	١٧٦
خطبة عمر بن الخطاب رضى الله عنه .	٣٢	١٧٦
خطبة أخرى للحباب بن المنذر .	٣٣	١٧٧
خطبة بشير بن سعد .	٣٤	١٧٧
خطب أبي بكر الصديق ووصاياه		١٧٩
خطبته يوم قبض الرسول صلى الله عليه وسلم .	٣٥	١٧٩
خطبته بعد البيعة .	٣٦	١٨٠
خطبة أخرى له بعد البيعة .	٣٧	١٨١
خطبة أخرى .	٣٨	١٨٢
خطبة له .	٣٩	١٨٣
خطبة له .	٤٠	١٨٤
خطبة له .	٤١	١٨٥
خطبة له فى الأنصار .	٤٢	١٨٦
وصيته لأسامة بن زيد .	٤٣	١٨٧
وصيته لعمر بن العاص والوليد بن عقبة .	٤٤	١٨٧
خطب الفتوح فى عهد أبى بكر		١٨٨
وصيته لخالد بن الوليد .	٤٥	١٨٨
خطبة خالد بن الوليد	٤٦	١٨٨
خطبة لأبى بكر فى نذب الناس لفتح الشام .	٤٧	١٨٩
فتح الشام — خطبة أبى بكر .	٤٨	١٩٠

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
خطبة عمر	٤٩	١٩٠
خطبة عبد الرحمن بن عوف	٥٠	١٩١
خطبة أبي بكر	٥١	١٩٢
خطبة خالد بن سعيد بن العاص	٥٢	١٩٢
خطبة ذى الكلاع .	٥٣	١٩٣
وصية خالد بن سعيد بن العاص لأبي بكر .	٥٤	١٩٤
وصية أبي بكر لخالد بن سعيد بن العاص .	٥٥	١٩٥
وصية أبي بكر لعمر بن العاص .	٥٦	١٩٥
وصية أخرى .	٥٧	١٩٦
وصية أبي بكر ليزيد بن أبي سفيان .	٥٨	١٩٦
وصية أخرى ليزيد بن أبي سفيان .	٥٩	١٩٧
دعاء أبي بكر .	٦٠	١٩٩
وصيته لشرحبيل بن حسنة .	٦١	١٩٩
وصيته لأبي عبيدة بن الجراح .	٦٢	٢٠٠
وصيته لأبي عبيدة بن الجراح أيضا .	٦٣	٢٠٠
خطبة أبي بكر .	٦٤	٢٠١
وصية أبي بكر لهاشم بن عتبة .	٦٥	٢٠١
خطبة خالد بن الوليد يوم اليرموك .	٦٦	٢٠٢
خطبة أبي عبيدة في وقعة اليرموك .	٦٧	٢٠٣
قصص معاذ بن جبل .	٦٨	٢٠٤
خطبة عمرو بن العاص .	٦٩	٢٠٤
خطبة أبي سفيان بن حرب .	٧٠	٢٠٥
وصية أبي بكر لعمر رضى الله عنهما عند موته .	٧١	٢٠٥
كلامه لعبد الرحمن بن عوف في علته التي مات فيها .	٧٢	٢٠٦
خطبة السيدة عائشة في الانتصار لأبيها .	٧٣	٢٠٧
رثاؤها لأبيها	٧٤	٢١٠

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
خطب عمر بن الخطاب رضى الله عنه		٢١١
خطبته حين ولى الخلافة .	٧٥	٢١١
خطبة أخرى .	٧٦	٢١١
خطبة له .	٧٧	٢١٢
خطبة له .	٧٨	٢١٢
خطبة أخرى .	٧٩	٢١٣
خطبة له .	٨٠	٢١٤
خطبة له .	٨١	٢١٥
خطبة له .	٨٢	٢١٧
خطبة له .	٨٣	٢١٧
خطبة له .	٨٤	٢١٨
خطبة له .	٨٥	٢١٨
خطبته عام الرمادة .	٨٦	٢٢٠
خطبته وقد بلغه أن قوما يفضلونه على أبي بكر .	٨٧	٢٢١
خطب الفتوح في عهد عمر في فتح فارس		٢٢٢
خطبة المثني بن حارثة الشيباني .	٨٨	٢٢٢
خطبة عمر .	٨٩	٢٢٢
خطبة له وقد شيع جيش سعد بن أبي وقاص .	٩١	٢٢٣
وصيته لسعد بن أبي وقاص .	٩٢	٢٢٤
وصيته لسعد بن أبي وقاص أيضا .	٩٣	٢٢٤
وصية أخرى كتبها إلى سعد بن أبي وقاص .	٩٤	٢٢٥
وصيته للمجاهدين .	٩٥	٢٢٧
وصية عمر ليعلى بن أمية في إجلاء أهل نجران .	٩٦	٢٢٨
خطبة لعمر .	٩٧	٢٢٨
خطبة جرير بن عبد الله البجلي .	٩٨	٢٢٩

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
خطبة سعد بن أبي وقاص يوم أرمات .	٩٩	٢٢٩
خطبة عاصم بن عمرو .	١٠٠	٢٣٠
خطبة طليحة بن خويلد الأسدي .	١٠١	٢٣٠
الخنساء تحرض أولادها على القتال .	١٠٢	٢٣١
خطبة عتبة بن غزوان .	١٠٣	٢٣٢
خطبة لسعد بن أبي وقاص .	١٠٤	٢٣٣
خطبة عمر .	١٠٥	٢٣٣
خطبة لعلى .	١٠٦	٢٣٤
خطبة طلحة بن عبيد الله .	١٠٧	٢٣٥
خطبة عثمان بن عفان .	١٠٨	٢٣٥
خطبة على بن أبي طالب .	١٠٩	٢٣٦
خطبة النعمان بن مقرن .	١١٠	٢٣٧
خطب رجال من الفاتحين		٢٣٩
بين يدي يزيدجرد ملك الفرس وقواده		
خطبة النعمان بن مقرن .	١١١	٢٣٩
خطبة المغيرة بن زرارة .	١١٢	٢٤٠
مقال ربعي بن عامر عند رستم قائد جيش الفرس .	١١٣	٢٤٢
خطبة المغيرة بن شعبه في حضرة رستم .	١١٤	٢٤٢
خطبة المغيرة بن شعبه في حضرة بندار .	١١٥	٢٤٣
خطبة عمر .	١١٦	٢٤٤
خطبة عثمان بن أبي العاص في فتح الشام .	١١٧	٢٤٤
بين الروم ومعاذ بن جبل .	١١٨	٢٤٦
بين أبي عبيدة ورسول الروم .	١١٩	٢٤٩
بين باهان وخالد بن الوليد .	١٢٠	٢٥٠

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
جواب خالد	١٢١	٢٥٢
خطبة عمرو بن العاص .	١٢٢	٢٥٤
خطبة عمر .	١٢٣	٢٥٥
خطبة عمر .	١٢٤	٢٥٥
خطبة عمر .	١٢٥	٢٥٦
خطبة عمر .	١٢٦	٢٥٦
وصية أبي عبيدة للمسلمين وقد أصابه طاعون عمواس .	١٢٧	٢٥٧
خطبة معاذ بن جبل .	١٢٨	٢٥٨
رثاء معاذ بن جبل لأبي عبيدة .	١٢٩	٢٥٨
ابن العاص ومعاذ والطاعون .	١٣٠	٢٥٩
وصية لمعاذ بن جبل .	١٣١	٢٥٩
وصية لمعاذ بن جبل أيضا .	١٣٢	٢٦٠
خطبة عبادة بن الصامت .	١٣٣	٢٦١
خطبة شداد بن أوس .	١٣٤	٢٦١
خطبة أبي الدرداء .	١٣٥	٢٦٢
خطبة يزيد بن أبي سفيان .	١٣٦	٢٦٢
وصية العباس بن عبد المطلب .	١٣٧	٢٦٣
وصية عمر للخليفة من بعده .	١٣٨	٢٦٣
خطب يوم الشورى		٢٦٦
خطبة عبد الرحمن بن عوف .	١٣٩	٢٦٦
خطبة عثمان بن عفان .	١٤٠	٢٦٧
خطبة الزبير بن العوام .	١٤١	٢٦٧
خطبة سعد بن أبي وقاص .	١٤٢	٢٦٨
خطبة علي بن أبي طالب .	١٤٣	٢٦٩

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
خطب عثمان بن عفان رضى الله عنه		٢٧٠
خطبته حين بايعه أهل الشورى .	١٤٤	٢٧٠
خطبته بعد البيعة .	١٤٥	٢٧١
خطبة أخرى .	١٤٦	٢٧١
خطبة لعثمان .	١٤٧	٢٧١
خطبة لعثمان .	١٤٨	٢٧٢
خطبته حين نقم عليه الناس .	١٤٩	٢٧٣
خطبته التي نزع فيها وأعطى الناس من نفسه التوبة .	١٥٠	٢٧٤
خطبته في الرد على الثوار .	١٥١	٢٧٥
خطبته وقد اشتد عليه الحصار .	١٥٢	٢٧٦
آخر خطبة خطبها عثمان .	١٥٣	٢٧٦
خطبة الوليد بن عقبة .	١٥٤	٢٧٧
خطبة سعيد بن العاص حين قدم الكوفة واليا عليها .	١٥٥	٢٧٨
خطبة عبد الله بن الزبير حين قدم بفتح إفريقية .	١٥٦	٢٧٨
خطبة عبد الله بن مسعود .	١٥٧	٢٨٠
أبو زيد الطائي يصف الأسد .	١٥٨	٢٨١
خلافة الإمام علي كرم الله وجهه		٢٨٥
وصية علي لقيس بن سعد .	١٥٩	٢٨٥
خطبة لقيس بن سعد .	١٦٠	٢٨٥
فتنة أصحاب الجمل		٢٨٦
خطبة طلحة .	١٦١	٢٨٦
خطبة السيدة عائشة بالمربد .	١٦٢	٢٨٦
خطبة لعلي .	١٦٣	٢٨٧
خطبة لعلي .	١٦٤	٢٨٨

الخطبة او الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
خطبة اعلی .	١٦٥	٢٨٩
خطبة عدی بن خاتم .	١٦٦	٢٨٩
خطبة زفر بن زید :	١٦٧	٢٩٠
خطبة علی بالریدة :	١٦٨	٢٩١
خطبة سعید بن عبید الطائی .	١٦٩	٢٩٢
خطبة الحسن بن علی .	١٧٠	٢٩٣
خطبة الحسن بن علی .	١٧١	٢٩٣
خطبة عمار بن یاسر .	١٧٢	٢٩٤
خطبة أبی موسی الأشعری .	١٧٣	٢٩٥
صورة أخرى .	١٧٤	٢٩٦
صورة أخرى .	١٧٥	٢٩٧
خطبة زید بن صوحان .	١٧٦	٢٩٧
خطبة القعقاع بن عمرو .	١٧٧	٢٩٨
خطبة سیحان بن صوحان .	١٧٨	٢٩٨
خطبة الحسن بن علی .	١٧٩	٢٩٩
وفادة القعقاع بن عمرو إلى أصحاب الجمل .	١٨٠	٢٩٩
خطبة علی بن أبی طالب .	١٨١	٣٠١
خطبة علی بن أبی طالب .	١٨٢	٣٠٢
خطبة علی .	١٨٣	٣٠٣
خطبة الأشتر .	١٨٤	٣٠٤
خطبة السيدة عائشة .	١٨٥	٣٠٥
خطبة علی .	١٨٦	٣٠٥
خطبة السيدة عائشة يوم الجمل .	١٨٧	٣٠٦
خطبة زفر بن قیس .	١٨٨	٣٠٧
خطبة جریر بن عبد الله البجلي .	١٨٩	٣٠٨

رقم الصفحة	رقم الخطبة	الخطبة أو الوصية
٣٠٨	١٩٠	خطبة زياد بن كعب .
٣٠٩	١٩١	خطبة الأشعث بن قيس .
٣٠٩	١٩٢	خطبة جرير بن عبد الله البجلي .
٣١٠	١٩٣	خطبة معاوية .
٣١٢		فتنة معاوية
		استطلاع الإمام عليّ كرم الله وجهه آراء أصحابه
		وقد أراد المسير إلى الشام
٣١٢	١٩٤	خطبة الإمام علي .
٣١٢	١٩٥	خطبة هاشم بن عتبة .
٣١٣	١٩٦	خطبة عمار بن ياسر .
٣١٣	١٩٧	خطبة قيس بن سعد بن عبادة .
٣١٤	١٩٨	خطبة سهل بن حنيف .
٣١٤	١٩٩	خطبة الإمام علي .
٣١٥	٢٠٠	خطبة الأشتر النخعي .
٣١٦	٢٠١	مقال من ثبطوه عن المسير .
٣١٦	٢٠٢	رد الإمام عليهم .
٣١٧	٢٠٣	خطبة عدى بن حاتم الطائي .
٣١٨	٢٠٤	خطبة زيد بن حصين الطائي .
٣١٨	٢٠٥	خطبة أبي زينب بن عرف .
٣١٩	٢٠٦	خطبة زيد بن قيس الأرحبي .
٣١٩	٢٠٧	خطبة زياد بن النضر .
٣٢٠	٢٠٨	خطبة عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي .
٣٢١	٢٠٩	أدب الإمام علي وكرم خلقه .
٣٢١	٢١٠	مقال عمرو بن الحمق .

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
مقال حجر بن عدى .	٢١١	٣٢٢
مقال هاشم بن عتبة .	٢١٢	٣٢٢
خطبة الإمام على .	٢١٣	٣٢٤
خطبة الحسن بن على .	٢١٤	٣٢٥
خطبة الحسين بن على .	٢١٥	٣٢٥
خطبة عبدالله بن عباس .	٢١٦	٣٢٦
خطبة معاوية .	٢١٧	٣٢٧
وفد علىّ على معاوية		٣٢٨
خطبة بشير بن عمرو .	٢١٨	٣٢٨
خطبة شعث بن ربيع .	٢١٩	٣٢٩
خطبة معاوية .	٢٢٠	٣٢٩
وفد علىّ على معاوية .		٣٣١
خطبة عدى بن حاتم .	٢٢١	٣٣١
جواب معاوية .	٢٢٢	٣٣١
خطبة يزيد بن قيس .	٢٢٣	٣٣٢
خطبة معاوية .	٢٢٤	٣٣٢
وفد معاوية إلى على		٣٣٥
خطبة حبيب بن مسلمة .	٢٢٥	٣٣٥
خطبة على بن أبي طالب .	٢٢٦	٣٣٦
التحريض على القتال من قبل معاوية		٣٣٨
خطبة عمرو بن العاص .	٢٢٧	٣٣٨
خطبة أخرى .	٢٢٨	٣٣٨
خطبة معاوية يحرص أهل الشام .	٢٢٩	٣٣٩
خطبة ذى الكلاع الحميرى .	٢٣٠	٣٤٠
خطبة يزيد بن أسد البجلي .	٢٣١	٣٤٣

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
التحريض على القتال من قبل الإمام على		٣٤٥
خطبة الإمام على .	٢٣٢	٣٤٥
خطبة أخرى له .	٢٣٣	٣٤٦
ومن كلام له كان يقوله لأصحابه في بعض أيام صفين .	٢٣٤	٣٤٧
خطبة أخرى للإمام على .	٢٣٥	٣٤٨
خطبة للإمام على .	٢٣٦	٣٤٩
خطبة أخرى له .	٢٣٧	٣٥٠
خطبة عبد الله بن عباس .	٢٣٨	٣٥٠
خطبة عبد الله بن بديل الخزاعي .	٢٣٩	٣٥٢
خطبة أبي الهيثم بن التيهان .	٢٤٠	٣٥٢
خطبة للإمام على .	٢٤١	٣٥٣
خطبة سعيد بن قيس .	٢٤٢	٣٥٤
خطبة يزيد بن قيس الأرحبي .	٢٤٣	٣٥٥
خطبة هاشم بن عتبة المرقال .	٢٤٤	٣٥٦
خطبة عمار بن ياسر .	٢٤٥	٣٥٧
خطبة الأشعث بن قيس .	٢٤٦	٣٥٨
خطبة الأشتر النخعي .	٢٤٧	٣٥٩
خطبة الأشتر النخعي في المهزمين من النيممة .	٢٤٨	٣٦٠
خطبة أخرى له فيهم .	٢٤٩	٣٦١
خطبة على فيهم وقد عادوا إلى موافقهم .	٢٥٠	٣٦٢
خطبة خالد بن معمر .	٢٥١	٣٦٣
خطبة عقبة بن حديد النمرى .	٢٥٢	٣٦٣
خطبة خنثر بن عبيدة بن خالد .	٢٥٣	٣٦٤
تحريض معاوية أيضا :	٢٥٤	٣٦٥
ماخطب به النعمان بن بشير قيس بن سعد في وقعة صفين .	٢٥٥	٣٦٦

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
جواب قيس بن سعد .	٢٥٦	٣٦٧
خطب الشيعيات في وقعة صفين		٣٦٨
خطبة عكرشة بنت الأطرش .	٢٥٧	٣٦٨
خطبة أم الخير بنت الحريش .	٢٥٨	٢٦٩
خطبة الزرقاء بنت عدى الهمدانية .	٢٥٩	٢٧٣
اختلاف أهل العراق في الموادة		٣٧٥
خطبة الإمام علي .	٢٦٠	٣٧٥
خطبة كردوس بن هاني .	٢٦١	٣٧٥
خطبة سفيان بن ثور .	٢٦٢	٢٧٦
خطبة جريث بن جابر .	٢٦٣	٣٧٦
خطبة خالد بن معمر .	٢٦٤	٣٧٦
خطبة الحصين بن المنذر .	٢٦٥	٣٧٧
خطبة عثمان بن حنيف .	٢٦٦	٣٧٧
خطبة عدى بن حاتم .	٢٦٧	٢٧٩
خطبة عبدالله بن حجل .	٢٦٨	٣٨٠
خطبة صعصعة بن صوحان .	٢٦٩	٣٨٠
خطبة المنذر بن الجارود .	٢٧٠	٢٨١
خطبة الأحنف بن قيس .	٢٧١	٢٨١
خطبة عمير بن عطار .	٢٧٢	٢٨٢
خطبة علي بن أبي طالب .	٢٧٣	٣٨٢
مقال عدى بن حاتم .	٢٧٤	٣٨٢
مقال الأشتر النخعي .	٢٧٥	٣٨٣
مقال عمرو بن الحمق .	٢٧٦	٣٨٣
مقال الأشعث بن قيس .	٢٧٧	٣٨٣
مقال عبد الرحمن بن الحارث .	٢٧٨	٣٨٤
مقال عمار بن ياسر .	٢٧٩	٣٨٤

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
التحكيم بين عليّ ومعاوية		٣٨٦
كلام عبد الله بن عباس لأبي موسى الأشعري .	٢٨٠	٣٨٦
وصية شريح بن هاني لأبي موسى الأشعري .	٢٨١	٣٨٧
وصية الأحنف بن قيس لأبي موسى الأشعري .	٢٨٢	٣٨٨
وصية معاوية لعمر بن العاص .	٢٨٣	٣٨٩
رد عمرو بن العاص عليه .	٢٨٤	٣٨٩
مقال شرح جليل بن السمط لعمر بن العاص .	٢٨٥	٣٩٠
خطبة أبي موسى الأشعري .	٢٨٦	٣٩٠
خطبة عمرو بن العاص .	٢٨٧	٣٩١
خطبة الإمام بعد التحكيم .	٢٨٨	٣٩١
خطبة الحسن بن علي .	٢٨٩	٣٩٢
خطبة عبد الله بن عباس .	٢٩٠	٣٩٣
خطبة عبد الله بن جعفر .	٢٩١	٣٩٣
خطبة علي .	٢٩٢	٣٩٤
خطبة عبد الله بن عباس .	٢٩٣	٣٩٤
خطبة علي .	٢٩٤	٣٩٥
خطبة علي .	٢٩٥	٣٩٦
خطبة معاوية .	٢٩٦	٣٩٧
وصية معاوية لعمر بن العاص .	٢٩٧	٣٩٧
خطبة محمد بن أبي بكر .	٢٩٨	٣٩٨
خطبة محمد بن أبي بكر .	٢٩٩	٣٩٨
خطبة علي وقد استصرخه محمد بن أبي بكر .	٣٠٠	٣٩٩
خطبة علي وقد بلغه مقتل محمد بن أبي بكر .	٣٠١	٤٠٠

رقم الصفحة	رقم الخطبة	الخطبة أو الوصية
٤٠١		فتنة الخوارج
٤٠١	٣٠٢	مناظرة عبد الله بن عباس لهم .
٤٠٢	٣٠٣	مناظرة الإمام على لهم .
٤٠٤	٣٠٤	صورة أخرى .
٤٠٦	٣٠٥	مناظرة ابن عباس لهم .
٤٠٨	٣٠٦	خطبة يزيد بن عاصم المخاربي .
٤٠٨	٣٠٧	خطبة عبد الله بن وهب الراسبي .
٤٠٩	٣٠٨	خطبة حرقوص بن زهير السعدي .
٤٠٩	٣٠٩	خطبة حمزة بن سنان الأسدي .
٤١٠	٣١٠	خطبة شريح بن أوفى .
٤١١	٣١١	مقال زيد بن حصين الطائي .
٤١٢	٣١٢	خطبة على في تخويف أهل النهروان .
٤١٤	٣١٣	صورة أخرى .
٤١٥	٣١٤	خطبة المستورد بن علفة .
٤١٧		خور أصحاب الإمام وتقااسهم عن نصرته
٤١٧	٣١٥	خطبة عبد الله بن عباس في أهل البصرة .
٤١٨	٣١٦	خطبة الإمام وقد أراد الانصراف من النهروان .
٤١٨	٢١٧	مقال الأشعث بن قيس .
٤١٩	٣١٨	خطبة الإمام على بالكوفة بعد قدومه من حرب الخوارج يستنفر الناس لقتال معاوية .
٤٢٠	٣١٩	خطبة له أيضا في استنفارهم لقتال معاوية .
٤٢١	٣٢٠	صورة أخرى .
٤٢٣	٣٢١	خطبة أبي أيوب الأنصاري .
٤٢٤	٣٢٢	خطبة الإمام وقد أغار النعمان بن بشير على عين التمر .
٤٢٤	٣٢٣	صورة أخرى .

رقم الصفحة	رقم الخطبة	الخطبة أو الوصية
٤٢٥	٢٢٤	خطبة الإمام وقد أثار الضحاك بن قيس على الحيرة .
٤٢٧	٣٢٥	خطبة الإمام وقد أثار سفيان بن عوف الغامدي على الأنبار .
٤٣٠	٣٢٦	خطبة للحسن بن علي في يوم الجمعة .
٤٣٠	٣٢٧	خطبة معاوية وقد بلغه هلاك الأشتر .
٤٣٢		فتنة البصرة
٤٣٣	٣٢٨	خطبة عبد الله بن عامر الحضرمي .
٤٣٣	٣٢٩	خطبة الضحاك بن عبد الله الهلالي .
٤٣٤	٣٣٠	خطبة عبد الرحمن بن عمير القرشي .
٤٣٥	٣٣١	خطبة زياد بن أبيه .
٤٢٦	٣٣٢	خطبة شيان الأزدي .
٤٣٦	٣٣٣	خطبة صبرة بن شيمان .
٤٢٦	٣٣٤	خطبة الإمام علي .
٤٣٨	٣٢٥	خطبة أعين بن ضبيعة .
٤٣٨	٣٣٦	خطبة جارية بن قدامة .
٤٣٩	٣٢٧	خطبة زياد .
٤٤٠	٣٣٨	خطبة أبي صبرة شيمان .
٤٤٠	٢٣٩	خطبة صبرة بن شيمان .
٤٤١	٢٤٠	خطبة خنفر الحماني .
٤٤١	٣٤١	صعصعة بن صوحان ومعاوية .
٤٤٣	٣٤٢	صورة أخرى .
٤٤٦	٣٤٣	تتمة في الحكم .
٤٤٩		خطب الوفرد بين يدي عمر بن الخطاب
٤٤٩	٣٤٤	خطبة هلال بن بشره .
٤٤٩	٣٤٥	خطبة زيد بن جبلة .
٤٥٠	٣٤٦	خطبة الأحنف بن قيس .
٤٥٠	٣٤٧	خطبة الأحنف بن قيس .

فهرس أعلام الخطباء

مرتب بترتيب الحروف الهجائية

مع إتباع اسم كل خطيب بأرقام الصفحات التي وردت فيها خطبه

الأحنف بن قيس : ٣٨١ - ٣٨٨ - ٤٥٠	(١)
الأشتر النخعي : ٣٠٤ - ٣١٥ - ٣٥٩	أبو أيوب الأنصاري : ٤٢٣
٣٦٠ - ٢٦١ - ٣٨٣	أبو بكر الصديق رضي الله عنه : ١٧٤
الأشعث بن قيس الكندي : ٤٧ - ٣٠٩	١٧٥ - ١٧٩ - ١٨٠ - ١٨١
٣٥٨ - ٣٨٣ - ٤١٨	١٨٢ - ١٨٣ - ١٨٤ - ١٨٥
أعين بن ضبيعة : ٤٣٨	١٨٦ - ١٨٧ - ١٨٨ - ١٨٩
أكثم بن صيفي : ٣٧ - ٥٦ - ١٣٠	١٩٠ - ١٩٢ - ١٩٥ - ١٩٦
١٣٣ - ١٣٤ - ١٣٥ - ١٢٦	١٩٧ - ١٩٩ - ٢٠٠ - ٢٠١
١٥٩	٢٠٥ - ٢٠٦
أمامة بنت الحرث : ١٤٥	أبو زيد الطائي : ٢٨١
أم الخير بنت الحريش : ٢٦٩	أبو الدرداء : ٢٦٢
امرؤ القيس : ٣٦	أبو زينب بن عوف : ٣١٨
أوس بن حارثة : ١١٩	أبو سفيان : ٢٠٥
(ب)	أبو طالب بن عبدالمطلب : ٧٧ - ١٦١
بسطام الشيباني : ٤٧	أبو عبيدة بن الجراح : ٢٠٣ - ٢٤٩
بشير بن سعد : ١٧٧	٢٥٧
بشير بن عمرو : ٣٢٨	أبو موسى الأشعري : ٢٩٥ - ٢٩٦
	٢٩٧ - ٢٩٠
	أبو الهيثم بن التيهان : ٣٥٢

(خ)

خالد بن جعفر الكلابي : ٦٠
خالد بن سعيد بن العاص : ١٩٢ - ١٩٤
خالد بن معمر : ٣٦٣ - ٣٧٦
خالد بن الوليد : ١٨٨ - ٢٠٢ - ٢٥٠ -
٢٥٢

خنافر بن التوعم : ٨٨
خنثر بن عبيدة : - ٣٦٤
الخنساء : ٢٣١
خنفر الحماني : ٤٤١

(د)

دريد بن الصمة : ١٧٠
دويد بن زيد : ١٢٤

(ذ)

ذوالأصبع العدواني : ١٢٠
ذوالكلاع الحميري : ١٩٣ - ٣٤٠

(ر)

ربعي بن عامر : ٢٤٢

(ز)

زبراء الكاهنة : ١١٠
الزبير بن العوام : ٢٦٧
الزرقاء بنت عدى : ٣٧٣
زفر بن زيد : ٢٩٠
زفر بن قيس : ٣٠٧
زهير بن جندب الكلبي : ١٢٦
زياد بن أبيه : ٤٣٥ - ٤٣٩
زياد بن كعب : ٣٠٨
زياد بن النضر : ٣١٩

(ث)

ثابت بن قيس بن الشماس : ١٦٣

(ج)

جارية بن قدامة : ٤٣٨
جرير بن عبيد الله البجلي : ٢٢٩ -
٣٠٨ - ٣٠٩

جماعة بن أفلح : ١٨
الجمانة بنت قيس : ١٤١

(ح)

حاجب بن زرارة : ٤٨ - ٥٧

الحارث بن ذبيان : ١٣ - ١٦

الحارث بن ظالم المرى : ٦٣

الحارث بن عباد : ٥٧

الحارث بن كعب : ١٢٢

الحباب بن المنذر : ١٧٦

حبيب بن مسلمة : ٢٣٥

حجر بن عدى : ٣٢٢

حذيفة بن بدر الفزاري : ٤٦

حرب بن أمية : ١٠٠

حرقوص بن زهير : ٤٠٩

حريث بن جابر : ٣٧٦

الحسن بن علي : ٢٩٣ - ٢٩٩ - ٣٢٥ -

٣٩٢ - ٤٣٠

الحسين بن علي : ٣٢٥

حصن بن حذيفة : ١٢٩

الحصين بن المنذر : ٣٧٧

خمزة بن سنان : ٤٠٩

حممة بن رافع الدومي : ١٨

(ص)

صبيرة بن شيمان ٤٣٦ - ٤٤٠
صعصعة بن صوحان : ٣٨٠ - ٤٤١ -
٤٤٣

(ض)

الضحالك بن عبدالله الهلالي : ٤٣٣
ضمرة بن ضمرة : ٦٦

(ط)

طريف بن العاصي : ١٣ - ١٦
طريفة الكاهنة : ١٠٥
طلحة بن عبيد الله : ٢٣٥ - ٢٨٦
طليحة بن خويلد الأسدي : ٢٣٠
طهفة بن أبي زهير النهدي : ١٦٥

(ظ)

ظبيان بن حداد : ١٦٧

(ع)

عائشة رضي الله عنها : ٢٠٧ - ٢١٠ -
٢٨٦ - ٣٠٥ - ٣٠٦
عاصم بن عمرو : ٢٣٠
عامر بن جوين : ٢٧
عامر بن الطفيل : ٤١ - ٦٢
عامر بن الظرب : ١٨ - ١٩ - ١٢٣
عبادة بن الصامت : ٢٦١
العباس بن عبدالمطلب : ٢٦٣
عبدالرحمن بن الحرث : ٣٨٤
عبدالرحمن بن عمير : ٤٣٤
عبدالرحمن بن عوف : ١٩١ - ٢٦٦

زيد بن جبلة : ٤٤٩

زيد بن حصين الطائي : ٣١٨ - ٤١١
زيد بن صوحان : ٢٩٧

(س)

سبيع بن الحرث : ١١
سطيح الذئبي : ٩١ - ٩٤ - ٩٧
سعد بن أبي وقاص : ٢٢٩ - ٢٣٣ -
٢٦٨

سعد بن عبادة : ١٧٣
سعيد بن العاص : ٢٧٨
سعيد بن عبيد الطائي : ٢٩٢
سعيد بن قيس : ٣٥٤
سفانة بنت حاتم : ١٦٩
سفيان بن ثور : ٣٧٦
سلمى الهمدانية : ١١٣
سهل بن حنيف : ٣١٤
سواد بن قارب : ٨٢
سيحان بن صوحان : ٢٩٨

(ش)

شافع بن كليب الصديقي : ٩٠
شيث بن ربيع : ٣٢٩
شداد بن أوس : ٢٦١
شرحبيل بن السمط : ٣٩٠
شريح بن أوفى : ٤١٠
شريح بن هاني : ٣٨٧
الشعثاء الكاهنة : ١٠٣
شق أنمار : ٩٣ - ٩٧
شيمان الأزدي : ٤٣٦ - ٤٤٠

علي بن أبي طالب كرم الله وجهه :

٢٢٤ - ٢٣٦ - ٢٦٩ - ٢٨٥ -

٢٨٧ - ٢٨٨ - ٢٨٩ - ٢٩١ -

٣٠١ - ٣٠٢ - ٣٠٣ - ٣٠٥ -

٣١٢ - ٣١٤ - ٣١٦ - ٣٢٤ -

٣٣٦ - ٣٤٥ - ٣٤٦ - ٣٤٧ -

٣٤٨ - ٣٤٩ - ٣٥٠ - ٣٥٣ -

٣٦٢ - ٣٧٥ - ٣٨٢ - ٣٩١ -

٣٩٤ - ٢٩٥ - ٣٩٦ - ٣٩٩ -

٤٠٠ - ٤٠٢ - ٤٠٤ - ٤١٢ -

٤١٤ - ٤١٨ - ٤١٩ - ٤٢٠ -

٤٢١ - ٤١٤ - ٤٠٥ - ٤٢٧ -

٤٣٦

عمار بن ياسر : ٢٩٤ - ٣١٣ - ٣٥٧ -

٣٨٤

عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ١٧٦ -

١٩٠ - ٢١١ - ٢١٢ - ٢١٣ -

٢١٤ - ٢١٥ - ٢١٧ - ٢١٨ -

٢٢٠ - ٢٢١ - ٢٢٢ - ٢٢٣ -

٢٢٤ - ٢١٥ - ١٢٧ - ٢٢٨ -

٢٢٣ - ٢٤٤ - ٢٥٥ - ٢٥٦ -

٢٦١

عمرو بن الأهمم : ١٦٤

عمرو بن الحمق : ٣٢١ - ٣٨٣

عمرو بن الشريد : ٥٩

عمرو بن العاص : ٢٠٤ - ٢٤٤ -

٣٣٩ - ٣٨٩ - ٣٩١

عمرو بن كلثوم : ٣٧ - ١٢١

عمرو بن معد يكرب الزبيدي : ٦٣

عبد الله بن بديل بن ورقاء : ٢٢٠ -

٣٥٢

عبد الله بن جعفر : ٣٩٣

عبد الله بن حجل : ٣٨٠

عبد الله بن الزبير : ٢٧٨

عبد الله بن عامر الحضرمي : ٤٣٣

عبد الله بن عباس : ٣٢٦ - ٢٥٠ -

٣٨٧ - ٣٩٣ - ٣٩٤ - ٤٠١ -

٤٠٦ - ٤١٧

عبد الله بن مسعود : ٢٨٠

عبد الله بن وهب : ٤٠٨

عبد المطلب بن هاشم : ٧٦ - ١٠٠ -

١٠١

عتبة بن غزوان : ٢٣٢

عثمان بن أبي العاص : ٢٤٤

عثمان بن حنيف : ٣٧٧

عثمان بن عفان رضي الله عنه : ٢٣٥ -

٢٦٧ - ٢٧٠ - ٢٧١ - ٢٧٢ -

٢٧٣ - ٢٧٤ - ٢٧٥ - ٢٧٦ -

عجفاء بنت علقمة : ١١٤

عدي بن حاتم : ٢٨٩ - ٣١٧ - ٣٣١ -

٣٧٩ - ٣٨٢

غزى سلمة : ٩٨

عصام الكندي : ١٤٢

عطارد بن حاجب بن زرارة : ١٦٣

عقيراء الكاهنة : ١١٥

عقبة بن حديد النعمري : ٣٦٣

عكرشة بنت الأطرش : ٣٦٨

علقمة بن علاثة : ٤١ - ٦٠

— سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم : ١٤٧ —

— ١٤٨ — ١٤٩ — ١٥١ — ١٥٢ —

— ١٥٣ — ١٥٤ — ١٥٥ — ١٥٨ —

١٦٦

مخالس بن مزاحم : ٦٤

مرة بن ذهل : ٤٠

مرثد الخير : ١٠ — ١٢

المستورد بن علفة : ٤١٥

مصاد بن مدعور القينى : ٨٦

— معاذ بن جبل : ٢٠٤ — ٢٤٦ — ٢٥٨ —

٢٥٩ — ٢٦٠

— معاوية بن أبي سفيان : ٣١٠ — ٣٢٧ —

— ٣٢٩ — ٣٣١ — ٣٣٩ — ٣٦٥ —

٣٨٩ — ٣٩٧ — ٤٣٠

المغيرة بن زرارة : ٢٤٠

المغيرة بن شعبة : ٢٤٢ — ٢٤٣

المليب بن عوف : ١٧

المنذر بن الجارود : ٣٨١

مهلهل بن ربيعة : ٤٠

ميثم بن مثوب : ١١

(ن)

النعمان بن بشير : ٣٦٦

النعمان بن ثواب العبدى : ١٢٦

النعمان بن مقرن : ٢٣٧ — ٢٣٩

النعمان بن المنذر : ٥١

نفيل بن عبد العزى :

عمير بن حبيب : ١٧١

عمير بن عطار : ٣٨٢

عوف بن ربيعة الأسدى : ٧٩

(ق)

قاصر بن سلمة : ٦٤

قبيصة بن نعيم : ٣٤

قس بن ساعدة : ٣٨ — ٣٩

الققعقاع بن عمرو : ٢٩٨ — ٢٩٩

قيس بن خفاف البرجمى : ٣٢

قيس بن رفاعة : ٣٢

قيس بن زهير : ١٢٧

— قيس بن سعد بن عبادة : ٢٨٥ — ٣١٣ —

٣٦٧

قيس بن عاصم السعدى : ٤٩

قيس بن عاصم المنقرى : ١٧١

قيس بن مسعود الشيبانى : ٦١

(ك)

كاهن بنى الحارث بن كعب : ٨٠

كاهن ذو الخلصة : ١١٢

الكاهن الخزاعى : ٧٨

الكاهن البنى : ٨١

كردوس بن هاني : ٣٧٥

كعب بن لؤى : ٧٣

(ل)

لبيد بن ربيعة : ٦٧

(م)

المأمون الحارثى : ٣٩

مالك بن نمط : ١٦٨

المثنى بن حارثة الشيبانى : ٢٢٢

محمد بن أبي بكر : ٣٩٨

(و)

الوليد بن عقبة : ٢٧٧

(ى)

يزيد بن أبي سفيان : ٢٦٢

يزيد بن أسد البجلي : ٣٤٣

يزيد بن عاصم المحاربي : ٤٠٨

يزيد بن قيس : ٣١٩ - ٣٣٢ - ٣٥٥

(هـ)

هاشم بن عبد مناف : ٧٤ - ٧٥

هاشم بن عتبة : ٣١٢ : ٣٢٢ - ٣٥٦

هاني بن قبيصة الشيباني : ٣٧

هلال بن بشر : ٤٤٩

هند بنت الحس الإيادية : ٦٨

لجوه خط العرب

في عصور العرب في الزاهرة

الجزء الثاني

العصر الأموي

تأليف

أحمد زكي صفيوت

وكيل كلية دار العلوم جامعة القاهرة سابقا

المكتبة العلمية

ببورت-لبنان

تصدير

الطبعة الأولى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أبدأ بحمدك اللهم على ما أوليتني من جزيل تفضلك ، ومزيد تطولك ، وأصلى وأسلم على رسولك الأمين ، سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

وبعد : فهاهو ذا « الجزء الثانى - من جمهرة خطب العرب » أصدره حاويا ما وصل إلينا من خطب العصر الأموى ووصاياه ، وما دار بمجالس الخلفاء والأمرء والرؤساء من حوار ومجاوبة ، وهو كما ستراه أحفل أجزاء الكتاب الثلاثة ، وأغزرها مادة ، لتوافردواعى الخطابية فى هذا العصر ، ونفاق سوقها .

وقد نهجت فيه نهجى فى سالفه ، من التوفيق بين الروايات ، وتحرير الألفاظ وضبطها وشرحها ، والتعليق عليها بما يميظ اللثام عن خفايا مراميتها ، وغوايض مغازيها ، فحما بحمده تعالى وافيا مرضيا ، والله نسأل أن يكلائنا برعايته ، وأن يمن علينا بالتوفيق للعمل الصالح ، إنه خير مرتجى ، فنعم المولى ونعم النصير .

أحمد زكى صفوت

حرف بالقاهرة فى
رجب سنة ١٣٥٢ هـ
نوفمبر سنة ١٩٣٣ م

فهرس

مآخذ الخطب في هذا الجزء

- الأمالى : لأبى على القالى : الجزء الأول - الثانى - ذيل الأمالى
- الأغانى : لأبى الفرج الأصبهانى : « الثانى - السابع - الثالث عشر -
- : الخامس عشر - السابع عشر - الثامن
- : عشر - العشرون - الحادى والعشرون
- صبح الأعشى : لأبى العباس القلقشندى : الجزء الأول - التاسع
- نهاية الأرب : لشهاب الدين النويرى : « الخامس - السابع
- عيون الأخبار : لابن قتيبة الدينورى : المجلد الثانى
- الكامل : لأبى العباس المبرد : الجزء الأول - الثانى
- المقد الفريد : لابن عبد ربه : « الأول - الثانى - الثالث
- زهر الآداب : لأبى إسحق الحضرى : « الأول - الثانى - الثالث
- البيان والتبيين : للجاحظ : « الأول - الثانى - الثالث
- نهج البلاغة : لشريف الرضى : « الأول
- شرح نهج البلاغة : لابن أبى الحديد : المجلد الأول - الثانى - الثالث - الرابع
- أمالى السيد المرتضى : الجزء الأول
- جمهرة الأمثال ، لأبى هلال العسكري : « الأول

- مجمع الأمثال : لأبي الفضل الميداني : الجزء الأول - الثاني
- تاريخ الأمم والملوك : لابن جرير الطبري : « السادس - السابع - الثامن - التاسع
- تاريخ الكامل : لابن الأثير : « الثالث - الرابع
- مروج الذهب : للمسعودي : « الثاني
- الإمامة والسياسة : لابن قتيبة : « الأول - الثاني
- معجم البلدان : لياقوت الحموي : « الثالث
- أسد الغابة في معرفة الصحابة : لابن الأثير : « الثالث
- النجوم الزاهرة ، في ملوك مصر والقاهرة : « الأول
- لابن تغرى بردى :
- وفيات الأعيان : لابن خلكان : « الأول - الثاني
- معاهد التنصيص : لعبد الرحيم العباسي : « الأول
- نفح الطيب ، للمقرئ : « الأول
- بلوغ الأرب : للسيد محمود شكري الأومى : « الثالث
- مواسم الأدب : للسيد جعفر بن السيد : « الثاني
- محمد البيهقي العلوي

سيرة عمر بن عبد العزيز : لأبي الفرج بن الجوزي

« « « « : لابن عبد الحكم

شرح العميون : شرح رسالة ابن زيدون : لابن نباتة المصري

أنباء نجباء الأنبياء : لابن ظفر المكي

الحسن البصري : لابن الجوزي

الفخرى : لابن طباطبا

بلاغت النساء : لابن أبي طاهر طيفور

دستور معالم الحكم : للقضاى

إعجاز القرآن : لأبي بكر الباقلانى

المُنية والأمل : لأحمد بن يحيى المرتضى

مفتاح الأفكار : للشيخ أحمد مفتاح



الباب الثالث

الخطبة والوصايا

في

العصر الأموي

الخطبة

خطبة بني هاشم وشيعتهم وما يتصل بها

١ - خطبة الحسن بن علي بعد وفاة أبيه^(١)

خطب الحسن بن علي رضي الله عنهما بعد وفاة أبيه فنماه فقال :

« لقد قتلتم الليلة رجلا في ليلة فيها نزل القرآن ، وفيها رُفِعَ عيسى بن مريم عليه السلام ، وفيها قتل يوشع بن نون ، فتي موسى عليهما السلام ، والله ما سبقه أحدٌ كان

(١) في الكامل لابن الأثير (٣ : ١٩٧) أن الحسن بن علي توفى سنة ٤٩ هـ وفي ابن أبي الحديد (م) ٤ :

ص ٤) أنه توفى سنة ٥٠ هـ وفي الإمامة والسياسة (١ : ١٢٧) أنه توفى سنة ٥١ .

قبله ، ولا يُذركه أحد يكون بعده ، والله إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليبيعه في السرية^(١) ، وجبريل عن يمينه ، وميكائيل عن يساره ، والله ماترك صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم من عطائه ، أراد أن يبتاع بها خادماً لأهله ، ثم خنفته العبرة فبكى ، وبكى الناس معه ، ثم قال :

« أيها الناس : من عرفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن محمد رسول الله صلى الله عليه وآله ، أنا ابن البشير ، أنا ابن النذير ، أنا ابن الداعي إلى الله بإذنه والسراج المنير ، أنا من أهل البيت ، الذين أذهب الله عنهم الرجس^(٢) وطهرهم تطهيراً ، والذين افترض الله مودتهم في كتابه إذ يقول : (وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا) ، فاقترافُ الحسنة مودتنا أهل البيت . »

فلما انتهى إلى هذا الموضع من الخطبة ، قام عبيد الله بن العباس بين يديه ، فدعا الناس إلى بيعته ، فاستجابوا وقالوا ما أحبه إلينا وأحقه بالخلافة ! فبايعوه ثم نزل من المنبر .

(تاريخ الطبري ٦ : ٩١ ، وشرح ابن أبي الحديد ٤ : ١١ ، والمقد الفريد ٢ : ٦)

(١) السرية من خمسة أنفس إلى ثلثمائة أو أربعمائة . (٢) الرجس : القدر والمأثم ، وكل ما استقدر

من العمل ، والعمل المؤدى إلى العذاب .

تعبئته الجيوش لقتال معاوية

سار معاوية بجيوشه قاصداً إلى العراق ، وبلغ الحسن خبره ، ومسيره نحوه ، فأمر بالتهيؤ للمسير ، ونادى المنادى : الصلاة جامعة ، فأقبل الناس يثوبون ويجمعون ، فخرج الحسن ، وصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

٢ - خطبة الحسن بن عليّ في الحثّ على الجهاد

« أما بعد : فإن الله كتب الجهاد على خلقه ، وسماه كُرْهًا ^(١) ، ثم قال لأهل الجهاد من المؤمنين : « أَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » فلستم أيها الناس نائلين ما تحبون إلا بالصبر على ما تكرهون . بلغني أن معاوية بلغه أنا كنا أزهنا على السير إليه ، فتحرك لذلك ، أخرجوا رحمكم الله إلى معسكركم بِالْخَيْلَةِ ، حتى ننظر وننظروا ، ونرى وترَوْا » - وإنه في كلامه ليتخوف خذلان الناس له - فسكتوا ، فأتكلم منهم أحد ، ولا أجابه بحرف ، فلما رأى ذلك عدى بن حاتم ، قام فقال :

٣ - مقال عدى بن حاتم

« أنا ابن حاتم ، سبحان الله ! ما أتبع هذا المقام ! لا تُجيبون إمامكم ، وابن بنت نبيكم ! أين خطباء مُضَرَ الذين أَلْسِنَتْهُمْ كَالْمَخَارِيقِ فِي الدَّعَاةِ ^(٢) ، فَإِذَا جَدَّ الْجِدُّ

(١) يشير إلى قوله تعالى « كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالَ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ » .

(٢) جمع مخراق بالكسر : السيف (وهو أيضا المنديل يلف ليضرب به) وفي الدعاة : أى وقت الدعة :

أى الخفض والسلم .

فرواغون كالنعاب ، أما تخافون مقت الله ! ولا عيبتها وعارها (١) .

ثم استقبل الحسن بوجهه فقال : « أصاب الله بك المرشد ، وجنبتك المكاره ، ووقفك لما تحمد وروده وصدوره ، قد سمعنا مقاتلك ، وانتهينا إلى أمرك ، وسمعنا لك ، وأطعناك فيما قلت وما رأيت ، وهذا وجهي إلى معسكري ، فمن أحب أن يوافقيني فليوافق » ثم مضى لوجهه ، إلى النخيلة .

وقام ثلاثة آخرون من أصحاب الحسن ، فأنبوا الناس ولاموم وحرزوم ، وكلوا الحسن يمثل كلام عدى بن حاتم ، فقال لهم : صدقتم رحمكم الله ، ما زلت أعرفكم بصدق النية والوفاء والقبول والمودة الصحيحة ، فجزاكم الله خيراً ، ثم نزل ، وخرج الناس فمسكروا ونشطوا للخروج ، وسار الحسن في عسكر عظيم ، وعدة حسنة .

(شرح ابن أبي الحديد م : ٤ : ص ١٤)

ع - خطبة الحسن وقد جنح إلى مصالحة معاوية

ثم نزل الحسن ساباط (٢) ، فلما أصبح نادى في الناس : الصلاة جامعة ، فاجتمعوا ، فصعد المنبر ، فخطبهم فقال :

« الحمد لله كلما حمده حامد ، وأشهد أن لا إله إلا الله كلما شهد له شاهد ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، أرسله بالحق ، وأتمنه على الوحي ، صلى الله عليه وآله ، أما بعد ، فوالله إنى لأرجو أن أكون قد أصبحت بحمد الله ومنه ، وأنا أنصح خلقه خلقة ، وما أصبحت بمنملاً على مسلم ضعيفاً ، ولا مريداً له بسوء ولا غائلة (٣) ، إلا وإن ما تكرهون في الجماعة خير لكم مما تحبون في الفرقة ، إلا وإنى ناظر لكم خيراً من نظركم

(١) أي عار فعاتكم هذه : وهي تقاعسهم عن إجابة الحسن إلى مدعاهم إليه ، وفي الأصل : «وعارتها»

وأراه محرفاً إذ العارة هي العارية ولا معنى لها هنا . (٢) ساباط كسرى بالمداين .

(٣) الغائلة : الشر والفساد وللداهية .

لأنفسكم ، فلا تخالفوا أمرى ، ولا تردوا على رأي ، غفر الله لى ولكم ، وأرشدنى وإياكم لما فيه محبته ورضاه إن شاء الله » ثم نزل .

فنظر الناس بعضهم إلى بعض ، وقالوا ما ترونه يريد بما قال ؟ قالوا : نظنه يريد أن يصلح معاوية ويكل الأمر إليه ، كفر والله الرجل ، ثم شدوا على أسطاطه فأنهبوه ، حتى أخذوا مُصَلَّاه من تحته ، وشد عليه بعضهم ، فنزع سطره^(١) عن عاتقه ، فبقي جالسا متقلدا سيفا غير رداء ، فدعا بفرسه فركبه ، وأحدق به طوائف من خاصته وشيعته ، ومنعوا منه من أراده ، ولاموه وضعفوه لما تكلم .

فلما مرّ في مُظَلِّم^(٢) ساباط ، قام إليه رجل من بني أسد يقال له جراح بن سنان ، ويده مِعْوَل^(٣) ، فأخذ بلبجام فرسه وقال : الله أكبر يا حسن ! أشرك أبوك ، ثم أشرك أنت ! وطعنه بالمعول ، فوقعت في فخذه فشقته ، حتى بلغت أربيته^(٤) ، وسقط الحسن إلى الأرض بعد أن ضرب الذى طعنه بسيف كان بيده واعتنقه فخرأ جميعا إلى الأرض . (شرح ابن أبي الحديد م : ٤ : ص ١٤)

٥ - خطبته يبرر مصالحته لمعاوية

لما رأى الحسن رضى الله عنه تفرق الأمر عنه ، بعث إلى معاوية يطلب الصلح ، فبعث معاوية إليه رسولين ، قدما عليه بالمدائن ، فأعطياه ما أراد ، وصالحاه على أن يأخذ من بيت مال الكوفة خمسة آلاف ألف - فى أشياء اشترطها - ثم قام الحسن فى أهل العراق فقال :

« يا أهل العراق ، إنه سخطى بنفسى عنكم ثلاثا : قتلتكم أبى ، وطعنكم إياى ، وانتهابكم متاعى » . (تاريخ الطبرى ٦ : ٩٢ ، ومروج الذهب ٢ : ٥٣)

(١) رداء من خز مربع ذو أعلام . (٢) مظلم مضاف إلى ساباط التى قرب المدائن وموضع هناك .

(٣) المعول : القأس العظيمة التى ينقر بها الصخر . (٤) الأربية : أصل الفخذ .

٦ - خطبته في الصلح بينه وبين معاوية

وقدم معاوية الكوفة لإنفاذ الصلح بينه وبين الحسن (سنة ٤١ هـ) ، وكان عمرو ابن العاص حين اجتمعوا بالكوفة ، قد كلم معاوية ، وأمره أن يأمر الحسن أن يقوم ويخطب الناس ، فكره ذلك معاوية ، وقال ما تريد إلى أن أخطب الناس ؟ فقال عمرو : لكنني أريد أن يبدو عيئه للناس^(١) ، فلم يزل عمرو بمعاوية حتى أطاعه ، فخرج معاوية فخطب الناس ، ثم نادى الحسن ، فقال : قم يا حسن فكلم الناس ، فتشهد في بديهة أمر لم يرو فيهِ ، ثم قال :

« أما بعد أيها الناس : فإن الله قد هدى أولكم بأولنا ، وحقن دماءكم بأخرنا ، وكانت لي في رقابكم بيعة ، تحاربون من حاربت ، وتسالمون من سالمت ، وقد سالمت معاوية وبايعته فبايعوه ، وإن لهذا الأمر مدة ، والدنيا دُول ، وإن الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم : (وَإِنَّ أَدْرَى أَعْلَهُ فِتْنَةً لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ) وأشار إلى معاوية ، فلما قالها قال معاوية اجلس ، فلم يزل ضرمًا^(٢) على عمرو ، وقال هذا من رأيك » ولحق الحسن بالمدينة .

(تاريخ الطبري ٦ : ٩٣ ، ومروج الذهب ٢ : ٥٣ ، والإمامة والسياسة ١ : ١٢٠)

وأنباء نجباء الأنبياء ص ٥٦ وتاريخ ابن عساکر ٤ : ٢٢٤)

٧ - خطبة له بعد الصلح

روى المدائني قال : سأل معاوية الحسن بن علي رضي الله عنه بعد الصلح أن يخطب الناس ، فامتنع ، فناشده أن يفعل ، فوضع له كرسي فجلس عليه ، ثم قال :

(١) روى أبو الفرج الأصبهاني أنه كان في لسان الحسن ثقل كالثأفة (شرح ابن أبي الحديد ٤ ص ١١) .

(٢) ضرم عليه كفرح : احتدم غضبا فهو ضرم .

« الحمد لله الذي توحد في ملكه ، وتفرد في ربوبيته ، يؤتي الملك من يشاء ، وينزعه عن من يشاء ، والحمد لله أكرم بنا مؤمنكم ، وأخرج من الشرك أولكم ، وحقق دماء آخركم ، قبلاؤنا عندهم قديما وحديثا أحسن البلاء ^(١) ، إن شكرتم أو كفرتم . أيها الناس : إن ربَّ عليّ كان أعلم عليّ حين قبضه إليه ، ولقد اختصه بفضل لم تعتدوا مثله ، ولم تجدوا مثل سابقته ، فهيات هيات ، طالما قلبتم له الأمور حتى أعلاه الله عليكم ، وهو صاحبكم وعدوكم في بدر وأخوانها ، جرّعكم رنقا ^(٢) ، وسقاكم علقا ^(٣) ، وأذل رقابكم ، وأشرقكم بريقكم ، فليست يلمون عليّ بفضله ، وإيم الله لا ترى أمة محمد خفصا ما كانت سادتهم وقادتهم بني أمية ، ولقد وجه الله إليكم فتنة إن تصدروا عنها حتى تهلكوا ، اطاعتكم طواغيتكم ^(٤) ، وانضوائكم ^(٥) إلى شياطينكم ، فعند الله أحسب ما مضى ، وما ينتظر من سوء دعوتكم ، وحيث ^(٦) حكمكم ، ثم قال :

« يا أهل الكوفة لقد فارقتكم بالأمس سهم من مرامي الله ، صائب على أعداء الله ، نكال على فجّار قريش ، لم يزل آخذاً يحناجرها ، جانما على أنفاسها ، ليس باللمومة في أمر الله ، ولا بالسروة لمال الله ، ولا بالفروقة ^(٧) في حرب أعداء الله ، أعطى الكتاب خواتمه وعزائمه ، دعاه فأجابه ، وقاده فاتبعه ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، فصولات الله عليه ورحمته » ثم نزل .

نقال معاوية : أخطأ عجل أو كاد ، وأصاب مثبت أو كاد ، ما إذا أردت من

(شرح ابن أبي الحديد م : ٤ : ص ١٠)

خطبة الحسن ؟

(١) البلاء يكون منحة ويكون محنة ، وهو هنا بالمعنى الأول .

(٢) ماء رنق : كعدل وكنف وجبل كدر . (٣) العلق : الدم ودويبية في الماء تمص الدم .

(٤) الطواغيت : جمع طاغوت ، وهو الشيطان وكل رأس ضلال . (٥) انضمامكم .

(٦) الحيف : الظلم : (٧) الفروق والفروقة : شديد الفزع .

٨ - خطبة معاوية في أهل الكوفة

وروى المدائني قال : خرج على معاوية قومٌ من الخوارج بعد دخوله الكوفة وصلاح الحسن رضى الله عنه ، فأرسل معاوية إلى الحسن يسأله أن يخرج ، فيقاتل الخوارج ، فقال الحسن : سبحان الله ! تركتُ قتالك - وهولى حلال - لصلاح الأمة وألفتهم ، أفترانى أقاتل معك ؟ فخطب معاوية أهل الكوفة فقال :

« يا أهل الكوفة ، أنراني ، قاتلتكم على الصلاة والزكاة والحج . وقد علمت أنكم تصلون وتزكون وتحججون ، ولكنى قاتلتكم لأنامر عليكم وعلى رقابكم ، وقد آتاني الله ذلك وأنتم كارهون ، ألا إن كل مال أودم أصيب في هذه الفتنة فطلول ، وكل شرط شَرَطْتَهُ فتحت قدمي هاتين ، ولا يُصلح الناس إلا ثلاث : إخراج العطاء عند محله ، وإفقال^(١) الجنود لوقتها ، وغزو العدو في داره ، فإنه إن لم تغزؤهم غزؤكم » ثم نزل .
(شرح ابن أبي الحديد م ٤ ص ٦)

٩ - رد الحسن بن عليّ على معاوية حين نال منه ومن أبيه

وخطب معاوية بالكوفة حين دخلها ، والحسن والحسين رضى الله عنهما جالسان تحت المنبر ، فذكر عليّاً عليه السلام ، فقال منه ثم نال من الحسن ، فقام الحسين ايرد عليه ، فأخذه الحسن بيده فأجلسه ، ثم قام فقال :

« أيها الذاكر عليّاً : أنا الحسن ، وأبي عليّ ، وأنت معاوية ، وأبوك صخر ، وأمي فاطمة ، وأمك هند ، وجدّي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجدك عُتَيْبَةُ بن ربيعة ،

وجدتني خديجة ، وجدتك قتيلة ، فلعن الله أختلنا ذكراً ، والأمننا حسباً ، وشرنا قديماً
وحديثاً ، وأقدمنا كفوفاً ونفاقاً »

فقال طوائف من أهل المسجد آمين . (شرح ابن أبي الحديد م ٤ ص ١٦)

١٠ - خطبة سليمان بن صرد في استنكار الصلح

وذكروا أنه لما تمت البيعة لمعاوية بالعراق ، وانصرف راجعاً إلى الشام ، أتى سليمان
ابن صرد - وكان غائباً عن الكوفة ، وكان سيد أهل العراق ورأسهم - فدخل على الحسن
فقال : السلام عليك يا مُذِلَّ المؤمنين ، فقال وعليك السلام ، اجلس لله أبوك ، فجلس
سليمان ، ثم قال :

« أما بعد : فإن تَعَجُّبَنَا لا يَنْقُضِي مِنْ بَيْعَتِكَ مَعَاوِيَةَ وَمَعَكَ مِائَةٌ أَلْفٍ مِقَاتِلٍ مِنْ
أَهْلِ الْعِرَاقِ ، وَكُلِّهِمْ يَأْخُذُ الْعَطَاءَ ، مَعَ مِثْلِهِمْ مِنْ أِبْنَائِهِمْ وَمَوَالِيهِمْ ، سِوَى شِيعَتِكَ مِنْ
أَهْلِ الْبَصْرَةِ وَأَهْلِ الْحِجَازِ ، ثُمَّ لَمْ تَأْخُذْ لِنَفْسِكَ بَقِيَّةَ فِي الْعَهْدِ ، وَلَا حَظًّا مِنَ الْقَضِيَّةِ ،
فَلَوْ كُنْتَ إِذْ فَعَلْتَ مَا فَعَلْتَ ، وَأَعْطَاكَ مَا أَعْطَاكَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ مِنَ الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ ، كُنْتَ
كُتِبْتَ عَلَيْكَ بِذَلِكَ كِتَابًا ، وَأَشْهَدْتَ عَلَيْهِ شَهَادًا مِنْ أَهْلِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ، أَنَّ هَذَا
الْأَمْرَ لَكَ مِنْ بَعْدِهِ ، كَانَ الْأَمْرُ عَلَيْنَا أَيْسَرَ ، وَلَكِنَّهُ أَعْطَاكَ هَذَا ، فَضَيْتَ بِهِ مِنْ قَوْلِهِ ،
ثُمَّ قَالَ ، وَزَعَمَ عَلَى رِعْوَسِ النَّاسِ مَا قَدْ سَمِعْتَ : إِنِّي كُنْتُ شَرَطْتُ لِقَوْمٍ شَرْطًا ،
وَوَعَدْتُهُمْ عِدَاتٍ ، وَمَنْيَتُهُمْ أَمَانِي ، إِرَادَةَ إِطْفَاءِ نَارِ الْحَرْبِ ، وَمُدَارَاةَ لِهَذِهِ الْفِتْنَةِ ،
إِذْ جَمَعَ اللَّهُ لَنَا كَلِمَتَنَا وَالْفِتْنَةَ ، فَإِنْ كُلُّ مَا هُنَاكَ نَحْتُ قَدَمِيَّ هَاتَيْنِ ، وَوَاللَّهِ مَا عَنَى بِذَلِكَ
إِلَّا نَقُضَ مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ فَأُعِدَّ الْحَرْبَ جَذَعَةً^(١) ، وَأُذِنَ لِي أَشْخَصَ إِلَى الْكُوفَةِ ،

(١) هي في الأصل خدعة ، وصوابها جذعة : أي فتية .

فأخرج عامله منها ، وأظهر فيها خلمه ، وَأَنْبِذَ إِلَيْهِ ^(١) عَلَى سَوَاءٍ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي
كَيْدَ الْخَائِنِينَ .

ثم سكت ، فتكلم كل من حضر مجلسه بمثل مقالته ، وكلامه يقول : ابعث سليمان
ابن سرد وابعثنا معه ، ثم الحقنا إذا علمت أنا قد أشخصنا عامله ، وأظهرنا خلمه .

(الإمامة والسياسة ١ : ١٢٠)

١١ - خطبة الحسن يردّ على مستنكري الصلح

فتكلم الحسن فحمد الله ثم قال :

« أما بعد فإنكم شيعتنا وأهل هودتنا ، ومن تعرفه بالنصيحة والاستقامة لنا ، وقد
فهمت ما ذكرتكم ، ولو كنت بالحزم في أمر الدنيا ، والدنيا أعمل وَأَنْصَبُ ، ما كان
معاوية بأبأس مني وأشدّ شكيمّة ، ولكن رأيت غير ما رأيتم ، لكنني أشهد الله
وإياكم أني لم أريد بما رأيتم إلا حَقْنَ دِمَائِكُمْ ، وإصلاح ذات بينكم ، فاتقوا الله ،
وارضوا بقضاء الله ، وصلحوا لأمر الله ، والزموا بيوتكم ، وكفوا أيديكم ، حتى يستريح يركب
أو يُستراح من فاجر ، مع أن أبي كان يحدثني أن معاوية سَيَلِيَ الأمر ، فوالله لو سرنا إليه
بالجبال والشجر ما شككت أنه سيظهر ^(٢) ، إن الله لا معقب لحكمه ، ولا رادّ لقضائه ،
وأما قولك يا مُذِلُّ الْمُؤْمِنِينَ ، فوالله لأن تَذَلُّوا وتُعَاوَرُوا أَحَبُّ إِلَيَّ من أن تَعَزُّوا وتُقْتَلُوا ،
فإن رَدَّ اللَّهُ عَلَيْنَا حَقَّنَا فِي عَافِيَةٍ ، قَبَلْنَا وَسَأَلْنَا اللَّهَ الْعَوْنَ عَلَى أَمْرِهِ ، وإن سَرَفَهُ عَنَّا رَضِينَا
وسَأَلْنَا اللَّهَ أَنْ يَبَارِكَ فِي صَرْفِهِ عَنَّا ، فليكن كل رجل منكم جَلِيسًا ^(٣) من أحلاس بيته ،

(١) معناه إذا هادنت قوما ، تعلمت منهم النقص المهدي ، فلا توقع بهم سابقا إلى النقص ، حتى تعلمهم
أنك نقصت المهدي ، فتكونوا في علم النقص مستوين ، ثم أوقع بهم . (٢) يغلب .

(٣) المجلس : بساط البيت ، وفلان جلس من أحلاس البيت : الذي لا يبرح البيت ، وفي الحديث : « في الفتنة
كن جلوسا من أحلاس بيتك حتى تأتيك يد خاطئة ، أو منية قاضية » أي لا تبرح .

مادام معاوية حياً ، فإن يَهْلِكِ ونحن وأنتم أحياء ، سألنا الله العزيمه على رشدنا ، والمعونه على أمرنا ، وأن لا يَكَلِّبنا إلى أنفسنا ، فإن الله مع الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ .

(الإمامة والسياسة ١ : ١٢٠)

١٢ - خطبة له في عهد خلافته

ومن خطبه رضى الله عنه في آياته في بعض مقاماته أنه قال :

« نحن حزب الله المفلحون ، وَعِترَةٌ^(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم الأقربون . وأهل بيته الطاهرون الطيبون ، وأحد الثقلين^(٢) اللذين خلقهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والثاني كتاب الله ، فيه تفصيل كل شيء ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والموال عليه في كل شيء ، لا يُخَطِّئُنَا تَأْوِيلُهُ ، بل نتيقن حقائقه ، فأطيعونا ، فأطاعتنا مفروضة ، إذ كانت بطاعة الله والرسول وأولى الأمر مقرونة^(٣) : (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ) (وَتَوَرَّوْهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلَّهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ) ، وأحذركم الإصغاء لهتاف الشيطان ، إنه لكم عدو مبين ، فتكونون كأولياته الذين قال لهم : (لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ ، وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ ، فَلَمَّا تَرَآتِ الْفِتْيَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ ، وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي

(١) العترة : رهط الرجل وعشيرته الأذنون . (٢) الثقل : كل شيء نفيس مصون ، وفي الحديث « إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي » .

(٣) يشير إلى قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) .

أَرَى مَالًا تَرَوْنَ) فَيُتَّقُونَ للرماح أُرُا^(١) ، والسيوف جَزَرًا^(٢) ، وَاللِّمْدُ^(٣) حَظًا ،
والسهم غَرَضًا ، ثم : (لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ
فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا) . (مروج الذهب ٢ : ٥٣)

١٣ - خطبة أخرى له

ومن خطبه رضي الله عنه :

« اعلموا أن الحلم زين ، والوقار مودة ، والصلة نعمة ، والإكثار صلف^(٤) ،
والمجالة سفة ، والسفة ضعف ، والقلق ورطة ، ومجالسة أهل الدناءة شين ، ومخالطة
أهل الفسوق ريبة » . (صبح الأعشى ١ : ٢١٥)

(١) الأزر: جمع إزار، وهو الملحفة وكل ماوارك وسترك: أي فتكونون أجرية للرماح تغيب في أبدانكم
وتستر ، أو هو الأزر بفتح فسكون وهو الظهر : أي تركيب الرماح وتعاونكم ، والمراد تطعنون وتضربون بها
والأول أوجه . (٢) أي قطعاً . (٣) عمد بفتححتين ، وعمد بضمثين : جمع عمود ، وهي من
الآلات التي كانت تستعمل في القتال . (٤) الصلف : التكلم بما يكرهه صاحبك والتمدح بما ليس عندك ،
أو مجاوزة قدر الظرف والادعاء فوق ذلك تكبراً .

مخاصمة ومهاجاة

بين الحسن بن عليّ ، وبين عمرو بن العاص ، والوليد بن عقبة ،
وعتبة بن أبي سفيان ، والمغيرة بن شعبة ، بحضرة معاوية

قال ابن أبي الحديد : روى الزبير بن بكار في كتاب المفاخرات قال :

« اجتمع عند معاوية عمرو بن العاص ، والوليد بن عقبة بن أبي معيط ، وعتبة بن
أبي سفيان ، والمغيرة بن شعبة ، وقد كان بلغهم عن الحسن بن عليّ عليه السلام
قوارص^(١) ، وبلغه عنهم مثل ذلك ، فقالوا يا أمير المؤمنين : إن الحسن قد أحيا أباه
وذكره ، وقال فصّدق ، وأمر فأطيع ، وخفقت^(٢) له الفعّال ، وإن ذلك لرافعه إلى ما هو
أعظم منه ، ولا يزال يبئنا عنه ما يسودنا . قال معاوية : فما تريدون ؟ قالوا : ابعث إليه
فليحضر لنسبه ونسب أباه ونعيه ونوبخه ، ونخبره أن أباه قتل عثمان وتقرّره بذلك ،
ولا يستطيع أن يغيّر علينا شيئاً من ذلك . قال معاوية : إني لا أرى ذلك ولا أفعله ، قالوا :
عزّمتنا عليك يا أمير المؤمنين لتفعلنّ ، فقال : وبحكم لا تفعلوا ، فوالله ما رأيت قط جالساً
عندي إلا خفت مقامه وعيبه لي ، قالوا ابعث إليه على كل حال . قال : إن بعثت إليه
لأنصفته منكم ، فقال عمرو بن العاص : أتخشى أن يأتي باطله على حقنا ، أو يرُبي قوله
على قولنا ؟ قال معاوية : أما إني إن بعثت إليه لآمرته أن يتكلم بأسانه ككَلِّه . قالوا :
مره بذلك ، قال : أما إذا عصيتهموني وبعثتم إليه وأبتم إلا ذلك ، فلا تَمَرَّضُوا^(٣) له

(١) القوارص من الكلام : التي تنفصك وتؤلك . (٢) الخفق : صوت النعل .

(٣) تمرض : ضعف في أمره .

في القول ، واعلموا أنهم أهل بيت لا يعيبهم العائب ، ولا يلصق بهم العار ، ولكن
اقذفوه بحجره ؛ تقولون له إن أباك قتل عثمان ، وَكَرِهَ خِلاَفَةَ الْخُلَفَاءِ مِنْ قَبْلِهِ ؛ فبعث إليه
معاوية ، فجاءه رسوله . فقال : إن أمير المؤمنين يدعوك . قال : من عنده ؟ فسأله . فقال
الحسن عليه السلام ما لهم ؟ خَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ ، وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ
لَا يَشْعُرُونَ ، ثم قال : إِبْجَارِيَّةُ ابْنِي ثِيَابِي ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شُرُورِهِمْ ، وَأَدْرَأُ^(١)
بِكَ فِي تَحْوَرِهِمْ ، وَأَسْتَعِينُ بِكَ عَلَيْهِمْ ، فَكَيْفِيهِمْ كَيْفَ شِئْتُمْ ، وَأَنْتَى شِئْتُمْ ، يَحْوَلُ مِنْكَ
وَقُوَّةٌ ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ ، ثم قام ، فلما دخل على معاوية أعظمه وأكرمه ، وأجلسه إلى
جانبيه ، وقد ارتاد^(٢) القوم ، وَخَطَرُوا^(٣) خَطَرَ انْ فَحُولِ ، بِنِيَابِ فِي أَنْفُسِهِمْ وَعُلُوقًا ،
ثم قال : يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ، إِنْ هَؤُلَاءِ بَعَثُوا إِلَيْكَ وَعَصَوْنِي . فقال الحسن عليه السلام : سبحان
الله ! الدار دارك ، والإذن فيها إليك ؛ والله إن كنت أجبتهم إلى ما أرادوا وما في أنفسهم
إِنِّي لَأَسْتَحْيِي لَكَ مِنَ الْفُحْشِ ، وَإِنْ كَانُوا غَلَبُوكَ عَلَى رَأْيِكَ إِنِّي لَأَسْتَحْيِي لَكَ مِنَ الضَّعْفِ ،
فَأَيُّهُمَا تَقْرٍ وَأَيُّهُمَا تُنْكَرُ ؟ أما إنى لو علمت بمكانهم جئت معي يمثلهم من بني عبدالمطلب ،
ومالى أن أكون مستوحشا منك أو منهم ؟ إن ولي الله وهو يتولى الصالحين ؛ فقال
معاوية : يا هذا إنى كرهت أن أدعوك ، ولكن هؤلاء حملوني على ذلك مع كراهتى له ،
وإن لك منهم النصف^(٤) ومنى ، وإنما دعوناك لنعرضك أن عثمان أتيل مظلوما ، وأن أباك
قتله ، فاستمع منهم ثم أجبهم ، ولا تمنعك وحدتك واجتماعهم أن تتكلم بكل لسانك ،
فتكلم عمرو بن العاص :

(١) أدفع . (٢) الارتداد : الذهاب والمجيء . (٣) خطر الرجل في مشيته : رفع يديه
ووضعها واهتز وتبختر ، وخطر بسيفه ورمحه : رفعه سرعة ووضعته أخرى خطرانا (بالتحريك) وخطر الفحل
بذنبه : ضرب به يمينا وشمالا . (٤) الإنصاف والعدل .

١٤ - مقال عمرو بن العاص

حمد الله وصلى على رسوله صلى الله عليه وسلم ثم ذكر علياً عليه السلام ، فلم يترك شيئاً يعيبه به إلا قاله ، وقال إنه شتم أبا بكر ، وكره خلافته ، وامتنع من بيعته ، ثم بايعه مُكْرَهًا ، وشرك في دم عمر ، وقتل عثمان ظلماً ، وادّعى من الخلافة ما ليس له . ثم ذكر الفتنة يعيّر بها ، وأضاف إليه مساوى ، وقال : إنكم يا بني عبد المطلب لم يكن الله ليعطيكم الملك ، على قتلكم الخلفاء ، واستحلالكم ما حرم الله من الدماء ، وحرصكم على الملك ، وإتيانكم ما لا يحل ؛ ثم إنك يا حسن تحدث نفسك أن الخلافة صائرة إليك ، وليس عندك عقل ذلك ولا ليه ، كيف ترى الله سبحانه سلبك عقلك ، وتركك أحق قریش ، يُسخر منك ، ويهزأ بك ، وذلك لسوء عمل أبيك ؛ وإنما دعوناك لنسبنا وأباك ؛ فأما أبوك فقد تفرد الله به ، وكفانا أمره ، وأما أنت فإنك في أيدينا ، نختار فيك الخصال ، ولو قتلناك ما كان علينا إثم من الله ، ولا عيب من الناس ؛ فهل تستطيع أن ترد علينا وتكذبنا ؟ فإن كنت ترى أننا كذّابنا في شيء فاردده علينا فيما قلنا ، وإلا فاعلم أنك وأباك ظالمان .

١٥ - مقال الوليد بن عقبة بن أبي معيط

ثم تكلم الوليد بن عقبة بن أبي معيط فقال :

« يا بني هاشم : إنكم كنتم أخوال عثمان ، فنعم الولدُ كان لكم ، فعرف حَقكم ، وكنتم أصهاره ، فنعم الصهرُ كان لكم يُكرمكم ، فكنتم أول من حسده ، فقتله أبوك ظلماً ، لا عذر له ولا حجة ، فكيف ترون الله طلب بدمه ، وأنزلكم منزلتكم ، والله إن بنى أمية خير لبني هاشم من بنى هاشم لبني أمية ، وإن معاوية خير لك من نفسك . »

١٦ - مقال عتبة بن أبي سفيان

ثم تكلم عتبة بن أبي سفيان فقال :

« يا حَسَنُ : كان أبوك شرَّ قريشٍ لقريشٍ ، لِسَفِكِهِ ادمائِها ، وقطعِهِ لأرحامِها ، طويلَ السيفِ واللسانِ ، يقتل الحى وَيَعيب الميتِ ، وإنك ممن قَتَلَ عثمانَ ونحن قاتلوك به . وأما رجاؤك الخِلافةَ فلست في زَندِها^(١) قادِحاً ، ولا في ميزانِها راجِحاً ، وإنكم يا بني هاشم قتلتم عثمانَ ، وإن في الحق أن نقتلك وأخاك به ، فأما أبوك فقد كفانا الله أمره ، وأقاد^(٢) منه ، وأما أنت فوالله ما علينا لو قتلناك بعثمانٍ إنم ولا عُدوان . »

١٧ - مقال المغيرة بن شعبة

ثم تكلم المغيرة بن شعبة ، فشمّ علياً وقال : والله ما أعيبه في قضيةٍ بخونٍ ، ولا في حكمٍ يميل ، ولكنه قتل عثمانَ ، ثم سكتوا .

١٨ - رد الحسن بن علي عليهم

فتكلم الحسن بن عليّ عليه السلام ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على رسوله صلى الله عليه وآله ، ثم قال :

« أما بعد يا معاوية ، فما هؤلاء شتموني ، ولكنك شتمتني ، فُحْشاً أَلْفَقَهُ ، وسوءَ رأى عُرِفَتْ به ، وَخُلُقاً سَيِّئاً ثَبَّتَ عليه ، وبغياً علينا ، عداوةً منك لمحمد وأهله ، ولكن اسمع يا معاوية واسمعوا ، فَلأقولن فيك وفيهم ما هو دون ما فيكم ، أنشدكم الله أيها الرهط ، أتعلمون أن الذي شتمتموه منذ اليوم صلى القبلتين^(٣) كاتيهما ، وأنت يا معاوية

(١) للزند : العود الذي يقندح به النار . (٢) أقاد القاتل بالقتيل : قتله به .

(٣) كان صلى الله عليه وسلم يستقبل الكعبة وهو بمكة ، فلما هاجر إلى المدينة أمر أن يستقبل بيت

المقدس تألفاً لليهود ، فصلى إليه ستة أو سبعة عشر شهراً ثم حول .

جهما كافر ، تراها ضلالة وتعبد اللات والعزى^(١) غواية ، وأنشدكم الله هل تعلمون أنه بايع البيعتين كليهما بيعة الفتح^(٢) وبيعة الرضوان^(٣) ، وأنت يامعاوية يا حداهما كافر ، وبالأخرى ناكث ، وأنشدكم الله هل تعلمون أنه أول الناس إيماناً ، وأنت يامعاوية وأباك من المؤلفة قلوبهم ، تسرثون الكفر وتظهرون الإسلام ، وتستالون بالأموال ، وأنشدكم الله ألسن تعلمون أنه كان صاحب راية رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بدر ، وأن راية المشركين كانت مع معاوية ومع أبيه ؟ ثم لقيكم يوم أحد ويوم الأحزاب ومعه راية رسول الله صلى الله عليه وآله ، ومعك ومع أبيك راية الشرك ، وفي كل ذلك يفتح الله له ، ويفلج^(٤) حجته ، وينصر دعوته ، ويصدق حديثه ، ورسول الله صلى الله عليه وآله في تلك المواطن كلها عنه راض ، وعليك وعلى أبيك ساخط ؛ وأنشدك الله يامعاوية أتذكر يوماً جاء أبوك على جبل أحر ، وأنت تسوقه ، وأخوك عتبة هذا يقوده ، فرآكم رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال : « اللهم العن الراكب والقائد والسائق » أتنسى يامعاوية الشعر الذي كتبه إلى أبيك - لما هم أن يسلم - تنهاه عن ذلك :

يَا صَخْرُ لَا تَسْلِهِنَّ يَوْمًا فَتَفْضَحَنَّا بَعْدَ الَّذِينَ بِيَدْرِ أَصْبَحُوا مِرْقًا^(٥)
خَالِي وَعَمِّي وَعَمُّ الْأُمَّ ثَالِثَهُمْ وَحَنْظَلُ الْخَيْرِ قَدْ أَهْدَى لَنَا الْأَرْقَا^(٦)

(١) اللات : صنم ثقيف بالطائف ، والعزى : أكبر صنم لقريش ، وكان بيطن نخلة .

(٢) روى الطبري في تاريخه - بعد أن أورد خبر فتحه صلى الله عليه وسلم مكة سنة ثمان للهجرة ، وخطبته حين وقف على باب الكعبة - قال : « ثم اجتمع الناس بمكة لبيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس لهم - فيما بلغني - على الصفا ، وعمر بن الخطاب تحت رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذ على الناس ، فبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا ، وكذلك كانت بيعة لمن بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الناس على الإسلام ، فلما فرغ رسول الله من بيعة الرجال بايع النساء ، واجتمع إليه نساء من نساء قريش فيهن هند بنت عتبة « أم معاوية » . . . إلى آخر القصة - تاريخ الطبري ٣ : ١٢١ - وكان معاوية من أسلم بعد الفتح .

(٣) بيعة الرضوان كانت سنة ست هجرية في غزوة الحديبية حين دعا الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين

للببيعة على القتال فبايعوه على الموت تحت شجرة هناك سميت بعد بشجرة الرضوان . (٤) ينصر .

(٥) المزق : جمع مزقة بالكسر ، وهي القطعة من الثوب وغيره . (٦) أي لشدة الحزن والأسى .

لَا تَزِيغَنَّ إِلَىٰ أَمْرٍ تُكَلِّفُنَا وَالرَّاقِصَاتِ بِهِ فِي مَكَّةَ الْخُرَقَا^(١)
فَالْمَوْتُ أَهْوَنُ مِنْ تَوَلِّ الْعُدَاةِ لَقَدْ حَدَّ ابْنُ حَرْبٍ عَنِ الْعَزْمِيِّ إِذَا فَرِقَا^(٢)

والله لما أخفيتُ من أمرِك ، أ كبر بما أبديتُ ؛ وأنشدكم الله أيها الرهط أتعملون أن
علياً حرّم للشهوات على نفسه بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ، فأنزل فيه :
(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرَّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ) . وأن رسول الله صلى الله
عليه وآله بعث أ كبر أصحابه إلى بني قريظة ، فنزلوا من حصنهم فهزموا ، فبعث علياً
بالرأية ؛ فاستنزلهم على حكم الله وحكم رسوله ، وفعل في خيرٍ مثلهما ، ثم قال : يامعاوية
أظنك لا تعلم أني أعلم مادعا به عليك رسول الله صلى الله عليه وآله ، لما أراد أن يكتب
كتاباً إلى بني جذيمة^(٣) فبعث إليك ونهّمك^(٤) إلى أن تموت ، وأنتم أيها الرهط .

(١) الخرق محرّكة: ألا يحسن الرجل العمل والتصرف في الأمور ، والحمق . (٢) فرق : فزع .

(٣) في الأصل « خزيمة » ، وهو تحريف ، وهم بني جذيمة بن عامر بن عبد مناة بن كنانة ، وقد بعث
إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد حين افتتح مكة داعياً ، ولم يمهته مقاتلاً ، فلما رآه القوم
أخذوا السلاح ، فقال خالد : ضعوا السلاح ، فإن الناس قد أسلموا ، فلما وضعوه أمر بهم خالد عند ذلك
فكتفوا ، ثم عرضهم على السيف فقتل من قتل منهم - وكان بنو جذيمة قد أصابوا في الجاهلية عوف بن عبد
عوف أبا عبد الرحمن بن عوف ، والفاكه بن المغيرة عم خالد ، وكانا أقبلا تاجرين من اليمن حتى إذا نزلا
بهم تلوها وأخذوا أموالهما فلما انتهى الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رفع يديه إلى السماء ثم قال :
اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد ، ثم دعا علي بن أبي طالب ، فقال : يا علي اخرج إلى هؤلاء القوم
فانظر في أمرهم ، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك ، فخرج علي حتى جاءهم ومعه مال قد بعثه رسول الله صلى
الله عليه وسلم به فودى لهم الدماء ، وما أصيب من الأموال ، حتى إنه ليدي ييلفة الكلب ، (والميلفة بالكسر :
الإناء بلغ فيه الكلب) حتى إذا لم يبق شيء من دم أو مال إلا وداه بقيت معه بقية من المال ، قال لهم : هل
بقي لكم دم أو مال لم يود إليكم ؟ قالوا لا ، قال : فإني أعطيتكم هذه البقية من هذا المال احتياطاً لرسول الله صلى
الله عليه وسلم بما لا يعلم ولا تعلمون ففعل ، ثم رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر ، فقال
أصببت وأحسنيت ، ثم استقبل القبلة قائماً شاهراً يديه ، وهو يقول : اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد
ابن الوليد ، ثلاث مرات . (٤) الذي في كتب اللغة : « نهّمه : زجره ، وحذفه بالخصى وغيره »
ومراده هنا أنه دعا عليه بالنهم وعدم الشيع ، وقد تقدم الكلام عليه .

نشدتكم الله ألا تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وآله لعن أبا سفيان في سبعة مواطن
لا تستطيعون ردّها؟ أولها يوم لقي رسول الله صلى الله عليه وآله خارجاً من مكة إلى
الطائف يدعو تقيفاً إلى الدين؛ فوقع به، وسبه وصفه وشتمه وكذّبه وتوعده، وهم أن
يبطّش به، فلعنه الله ورسوله وصرّف عنه، والثانية يوم العير^(١) إذ مرّ صلواتها رسول الله
صلى الله عليه وآله وهي جائية من الشام، فطردها أبو سفيان وساحل^(٢) بها، فلم يظفر
المسلمون بها، ولعنه رسول الله صلى الله عليه وآله ودعا عليه، فكانت رقعة بدر لأجلها.
والثالثة يوم أحد حيث وقف تحت الجبل ورسول الله صلى الله عليه وآله في أعلاه، وهو
ينادي أغل هبل^(٣) مراراً فلعنه رسول الله صلى الله عليه وآله عشر مرّات ولعنه المسلمون.
والرابعة يوم جاء بالأحزاب وغطفان واليهود، فلعنه رسول الله صلى الله عليه وآله وابتهل.
والخامسة يوم جاء أبو سفيان في فريش، فصدوا رسول الله صلى الله عليه وآله عن المسجد
والهدنى معكوفاً أن يبلغ محله^(٤) ذلك يوم الحدّيبية. فلعن رسول الله صلى الله عليه
وآله أبا سفيان، ولعن القادة والأتباع، وقال ملعونون كلهم وليس فيهم من يؤمن.
فقيل يا رسول الله أفما يرضى الإسلام لأحد منهم فكيف باللعنة؟ فقال: لا تصيب اللعنة
أحداً من الأتباع. وأما القادة فلا يفلح منهم أحد^(٥). والسادسة يوم الجمل الأحمر.
والسابعة يوم وقفوا رسول الله صلى الله عليه وآله في العقبة ليستنقروا ناقته وكانوا
اثني عشر رجلاً منهم أبو سفيان، فهذا لك يامعاوية.

وأما أنت يابن العاص، فإن أمرك مشترك، وضعتك أمك مجهولاً من عهر^(٦)

(١) العير: الإبل تحمل الميرة: (٢) أتى بها ساحل البحر. (٣) أي اطل وانتصر ياهبل:

وهو صنم كان في الكعبة. (٤) والهدنى معكوف على رسول الله صلى الله عليه وسلم، والهدنى ما يهدى
إلى مكة، ومعكوفاً أي محبوساً وهو حال. أن يبلغ محله أي مكانه الذي ينحرف فيه عادة وهو الحرم.

(٥) لا يتعارض مع هذا أن أبا سفيان أفلح بعد وأسلم، إذا التقى فيه بلا، وليس التقى بلن.

(٦) فجور: ذكروا أن النابتة أم عمرو بن العاص كانت أمة الرجل من عنزة (بالتحريك) نسبيت:

فاشترها عبد الله بن جدهان التيمي بمكة، فكانت بغياً، ثم اعتقها، فوقع عليها أبو لهب بن عبد المطلب، =

وسِفَاحٍ فتعدا كم فيك أربعة من قریش . فغلب عليك جزاها . الأهم حسباً ، وأخبثهم منصِباً . ثم قام أبوك فقال : أنا شانى محمد الأبتَر^(١) . فأنزل الله فيه ما أنزل ، وقاتلت رسول الله صلى الله عليه وآله في جميع المشاهد . وهجوته وآذيته بمكة ، وكذته كيدك كله . وكنت من أشد الناس له تكذيباً وعداوة . ثم خرجت تريد النجاشي مع أصحاب السفينة لتأتى بجعفر وأصحابه إلى أهل مكة^(٢) . فلما أخطأك ما رجوت ، ورجعك الله خائباً وأكذبك وأشيا ، جعلت حسدك على صاحبك عمارة بن الوليد ، فوشيت به إلى النجاشي حسداً لما ارتكب من حليلته^(٣) ، ففضحك الله وفضح صاحبك . فأنت عدو بني هاشم

= وأمىة بن خلف الجمحي ، وهشام بن المغيرة المخزومي ، وأبوسفيان بن حرب ، والعاص بن وائل السهمي في طهر واحد ، فولدت عمرا ، فادعاه كلهم ، فحكمت أمه فيه ، فقالت هو من العاص بن وائل ، وذلك لأن العاص كان يتفق عليها كثيراً ، قالوا : وكان أشبه بأبي سفيان ، وفي ذلك يقول أبو سفيان بن الحارث ابن عبد المطلب في عمرو بن العاص :

أبوك أبو سفيان لاشك قد بدت لنا فيك منه بينات الشمائل

ويقال إنه جعل لرجل ألف درهم على أن يسأل عمرا وهو على المنبر : من أمه ؟ فسأله فقال : أمي سلمى بنت حرملة تلقب بالنايعة من بني عنزة أصابها رماح العرب فبيعت بمكاذ ، فاشتراها الفاكه بن المغيرة ، ثم اشتراها منه عبد الله بن جدعان ، ثم صارت إلى العاص بن وائل فولدت فأنجبت ، فإن كان جعل لك شيء فخذ . (ورأي فيما روى من نسب عمرو بن العاص أن الإسلام يجب ما قبله) .

(١) الشانى المبخض ويسهل : وذلك أن العاص بن وائل سمي النبي صلى الله عليه وسلم أبتَر عند موت ابنه القاسم ، فنزل فيه « إِنَّ شَانِيكَ هُوَ الْأَبْتَرُ » أي المنقطع عن كل خير ، الذي لا يفوز بالذكر الحسن بعد موته ، وأما أنت يا محمد فسيبقى حسن ذكرك ، وآثار فضلك إلى يوم القيامة فهو الأبتَر لأنت .

(٢) يشير إلى هجرة الحبشة الثانية ، وقد هاجر إليها من المسلمين نحو ثلاثة وثمانين رجلاً وثمان عشرة امرأة ، وكان من الرجال جعفر بن أبي طالب ، ولما رأت قریش ذلك أرسلت في أثرهم عمرو بن العاص ، وعمارة بن الوليد ، بهدايا إلى النجاشي وبطارقته ، ليسلم المسلمين ، فرجعا خائبين ، وأبي النجاشي أن يخفر ذمته .

(٣) وذلك أن عمرا وعمارة ركبا البحر إلى الحبشة كما قدمنا - وكان عمارة جميلاً وسيماً تهواه النساء ، وكان مع عمرو بن العاص امرأته - فلما صاروا في البحر ليالٍ أصابا من خمر معهما ، فانتشى عمارة فقال لامرأة عمرو قبلني ، فقال لها عمرو قبل ابن عمك ، فقبلته ، فهويها عمارة ، وجعل يراودها عن نفسها ، =

في الجاهلية والإسلام . ثم إنك تعلم ، وكل هؤلاء الرهط يعلمون أنك هجوت رسول الله صلى الله عليه وآله بسبعين بيتا من الشعر . فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : اللهم إني لا أقول الشعر ولا ينبغي لي . اللهم العنه بكل حرف ألف لعنة . فعليك إذن من الله ما لا يُحصَى من اللعن ، وأما ما ذكرت من أمر عثمان فأنت سمّرت^(٢) عليه الدنيا نارا ، ثم لحقت بفلسطين ، فلما أتاك قتله قلت : « أنا أبو عبد الله إذا تكأنت قرحة أدميتها » ثم حبست نفسك إلى معاوية ، وبعث دينك بدنياه ، فلسنا نلومك على بغض ، ولا تعاتبك على ود ، وباللّٰه ما نصرت عثمان حيا ولا غضبت له مقتولا ، ويحك يا ابن العاص ! ألسن القائل في بني هاشم لما خرجت من مكة إلى النجاشي :

تقول ابنتي : أين هذا الرحيل ؟ وما السيرُ مني مُستنكر

= فاستنعت منه ، ثم إن عمرا جلس على منجاف السفينة يقول « منجاف السفينة هو سكاها الذي تعدل به » فدفعه عمارة في البحر ، فلما وقع عمرو سيج حتى أخذ بمنجاف السفينة ، ووضف عمرو عليه في نفسه ، وعلم أنه كان أراد قتله ومضيا حتى نزلا الحبشة ، فلما اطمأنا بها لم يلبث عمارة أن دب لامرأة النجاشي فأدخلته ، فاختطف إليها ، وجعل إذا رجع من مدخله ذلك يخبر عمرا بما كان من أمره ، فيقول عمرو : لا أصدقك أنك قدرت على هذا ، إن شأن هذه المرأة أرفع من ذلك ، فلما أكثر عليه عمارة بما كان يخبره ، ورأى عمرو من حاله وهيبته ومبيته عندها حتى يأتي إليه مع السحر ما عرف به ذلك ، قال له إن كنت صادقا فقل لها فلتدهنك يدهن النجاشي الذي لا يدهن به غيره ، فإني أعرفه وأتق بشيء منه حتى أصدقك ، قال : أفعل ، فسأها ذلك فدهنته منه وأعطته شيئا في فارورة ، فقال عمرو أشهد أنك قد صدقت لقد أصبت شيئا ما أصاب أحد من العرب مثله قط ، امرأة الملك ! ماسمعا بمثل هذا ، ثم سكت عنه حتى اطمأن ودخل على النجاشي فأعلمه شأن عمارة وقدم إليه الدهن ، فلما أثبت أمره دعا بعمارة ، ودعا نسوة آخر فجردوه من ثيابه ثم أمرهن يتفخن في إحليله ثم خلى سبيله فخرج هاربا .

(١) سمع النار : كنع أوقدها . وكان عمرو أول خلائة عثمان واليا على مصر - منذ خلافة عمر ابن الخطاب - ثم إن عثمان ولي عبد الله بن سعد بن أبي سرح - وهو أخو عثمان من الرضاع - خراج مصر ، وولى عمرو بن العاص على الجند فلم يتفقا ، فجمع العبد الله الخراج والجند وعزل عمرا ، فلما قدم عمرو المدينة جعل يظن على عثمان ويؤاب عليه ، وخرج عمرو بعدئذ حتى انتهى إلى أرض اه بفلسطين ، فكان يقول : أنا أبو عبد الله إذا حككت قرحة نكأها ، والله إن كنت لأتق الراعي فأحرضه عليه (نكأ القرحة : نشرها قبل أن تبرا فنديت) .

قلت : ذرّيتي فإني امرؤ أريد النجاشي في جعفر
لأَكْوِبَهُ عنده كَيْبَةٌ أُفِيمُ بها تَخْوَةَ الأَصْعَرِ (١)
وَشَانِي أَحَدًا مِنْ بَيْنِهِمْ وَأَقُولُهُمْ فِيهِ بِالْمُنْكَرِ
وَأَجْرِي إِلَى عُتْبَةَ جَاهِدًا وَلَوْ كَانَ كَالذَّهَبِ الأَحْمَرِ (٢)
ولا أنثنى عن بني هاشم وما أسنطمت في الغيب والمحضر
فإن قيل العتب منى له وإلا لَوَبَّتْ له سُفْرَى (٣)

فهذا جوابك . هل سمعته ؟

وأما أنت يا وليد ، فوالله ما ألومك على بغض عليّ ، وقد جلدك ثمانين في الخمر (٤) م
وقتل أباك بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله صَبْرًا (٥) ، وأنت الذي سماه الله الفاسق

(١) الأصعر محرّكة : الميل في الخد ، صعر : كفرح فهو أصعر ، وصعر خذه تصعيرا : أماله
من الكبر . (٢) كان من بين المهاجرين ، من المسلمين إلى الحبشة عتبة بن غزوان ، وهو من بني
نوفل بن عبد مناف ، وعتبة بن مسعود (وهو أخو عبد الله بن مسعود) من هذيل من حلفائهم ، وأظنه
يعنى عتبة بن غزوان ، وقوله : ولو كان كالذهب الأحمر : أى في صعوبة الوصول إليه .
(٣) المشفر للبعير : كالشفة للإنسان ، وقد يستعمل في الناس . (٤) وذلك أن عثمان رضي الله عنه
بعد أن عزل سعد بن أبي وقاص من إمارة الكوفة ، ولّى عليها الوليد بن عقبة - وهو أخوه لأمه - ورووا أنه
شرب الخمر بالكوفة وسكر حتى دخل عليه ، وأخذ خاتمه من أصبمه وهو لا يعلم وأنه تكلم في الصلاة والتفت
إلى من يقتدون به فيها وهو سكران وقال لهم : أزيدكم ؟ قالوا لا نذ نضينا صلواتنا ، وشهد الشهود عليه
بذلك عند عثمان في وجهه فأدخله بيته وأراد أن يحمده فجمل إذا بعث إليه رجلا من قريش ليضربه ناشده الوليد
ألا يقطع رحمه ، فلما رأى على ذلك أخذ السوط ودخل عليه فجلده به .

(٥) القتل صبْرًا : أن يحبس الرجل ويرى حتى يموت ، وكان عقبة بن أبي معيط شديد الإيذاء الرسول
الله صلى الله عليه وسلم عظيم الاستهزاء به . صنع مرة ولحمة ودعا إليها كبراء قريش وفيهم رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، فقال عليه الصلاة والسلام : والله لا آكل من طعامك حتى تؤمن بالله ، فتشهد ، فبلغ ذلك أبي
ابن خلف الجمحي ، وكان صديقا له ، فقال ماشيء بلغني عنك ؟ قال لا شيء . دخل منزلي رجل شريف ،
فأبى أن يأكل طعامي حتى أشهد له ، فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يطعم فتشهدت له ، قال أبي : وجهي من
وجهك حرام إن لقيت محمدا فلم تطأ عنقه ، وتبزق في وجهه ، وتلطم عينه ، فلما رأى عقبة رسول الله

وسمى علياً المؤمن ، حيث تفاخرتما ، فقلت له اسكت يا علي ، أنا أشجع منك جناناً ، وأطول منك لساناً . فقال لك علي اسكت يا وليد ، أنا مؤمن وأنت فاسق . فأنزل الله تعالى في موافقة قوله : (أَفَنَ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ) ثم أنزل فيك على موافقة قوله أيضا (إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا ^(١)) ويحك يا وليد ؟ مهما نسيت فلا تنس قول الشاعر فيك وفيه :

أنزل الله (والكتاب عزيز) في علي وفي الوليد قرآنا ^(٢)

فَتَبَيَّنُوا الوليد إذ ذاك فسقاً وعلي مَبُوءاً إيماناً ^(٣)

ليس من كان مؤمناً (عَمَرَكَ اللَّهُ) كمن كان فاسقاً خوفاً

سوف يدعى الوليد بعد قليل وعلي إلى الحساب عياناً

فعلى يُجْزَى بِذَلِكَ جناناً ووليد يجزى بذلك هواناً

رب جدّ العقبة بن أبان لابس في بلادنا تَبَاناً ^(٤)

= صلى الله عليه وسلم فعل به ذلك ، فأنزل الله فيه (وَيَوْمَ يَعْصُ الْأَعْلَامُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا) وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يصلي في حجر الكعبة فأقبل عقبة فوضع ثوبه فعنق رسول الله صلى الله عليه وسلم فخنقه خنقاً شديداً ، فأقبل أبو بكر فأخذ بمنكبه ودفعه عن الرسول ، وقال : (اتَّقَتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ) وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ) فلما كانت نزوة بدر كان عقبة من أسراها وقد نثله عليه الصلاة والسلام وهو راجع .

(١) وذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام كان قد بعث الوليد بن عقبة إلى بني المصطلق لأخذ الصدقات - وكان بينه وبينهم ترة في الجاهلية - فلما سمعوا به استقبلوه فحسبهم مقاتليه فرجع ، وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنهم قد ارتدوا ومنعوا الزكاة ، أنهم يقتلهم ، فأتوه متكررين ما قاله عنهم ، فنزلت الآية : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ) . (٢) سهل من « قرآنا » . (٣) فتبوا : سهل من « تبوا » .

(٤) أبان : هو والد أبيه عقبة ، فهو الوليد بن عقبة بن أبي معيط أبان بن أبي عمرو ذكوان بن أمية ابن عبد شمس ، والبيان : سراويل صغير مقدار شبر يستر العورة المغلظة فقط يكون الدلاحين .

وما أنت وقريش ا ، إنما أنت عِجْج من أهل صفورية^(١) ، وأقسم بالله لأنت أكبر
في الميلاد وأسن عن تدهى إليه .

وأما أنت يا عتبة ، فوالله ما أنت بِحَصِيفٍ^(٢) فأجيبك ، ولا عاقلٍ فأحاورك
وأعاتبك ، وما عندك خيرٌ يرجى ، ولا شرٌّ يُتَّقَى ، وما عقلك وعقل أمتك إلا سواء ،
وما يضر علياً لو سببته على رهوس الأَشْهاد ؟ وأما وعيدك إياي بالقتل ، فهلا قتلت
اللَّحْيَانِيَّ إذ وجدته على فراشك ؟ أما تستحي من قول نصر بن حجاج فيك :

يا لَلرَّجَالِ وَحَادِثِ الْأَزْمَانِ وَلِسَبَّةِ تُخْزِي أَبَا سُفْيَانَ^(٣)

نُبِّئْتُ عُتْبَةَ خَانَهُ فِي عَرْسِهِ حِنْسٌ لَثِيمِ الْأَصْلِ مِنَ لِحْيَانِ^(٤)

وبعد هذا ما أربأ بنفسى عن ذكره لفحشه ، فكيف يخاف أحدٌ سيفك ؟ ولم
تقتل فاضحك . وكيف ألومك على بغض على ، وقد قتل خالك الوليد مبارزة يوم بدر ،
وشرك حمزة في قتل جدك عتبة ، وأوحذك من أخيك حنظلة في مقام واحد .

وأما أنت يا مغيرة ، فلم تكن بخليق أن تقع في هذا وشبهه ، وإنما مثلك مثل
البعوضة إذ قالت للنخلة : « استمسكي بإني طائرة عنك » فقالت النخلة : وهل علمت بك
واقعة على ، فأعلم بك طائرة عنى ؟ والله ما نشعر بعداوتك إيانا ، ولا اغتمنا إذ علمنا بها
ولا يشق علينا كلامك ، وإن حد الله في الزنا ثابت عليك ولقد درأ عمر عنك حقاً ،
الله سألته عنه . ولقد سألت رسول الله صلى الله عليه وآله : هل ينظر الرجل إلى المرأة
يريد أن يتزوجها ؟ فقال : لا بأس بذلك يا مغيرة ما لم ينو الزنا ، لعلمه بأنك زان . وأما

(١) صفورية : بلد بالأردن (بضم الهمزة والذال وتشديد النون) ، والعلاج : الرجل من كفار المعجم .
وذلك أن جده ذكوان كان يلقب بالصفورى . ذكر جماعة من النسابين أن ذكوان هذا كان .ولى لامية بن
عبد شمس فتيناه وكناه أبا عمرو ، فبنوه موال وليسوا من بنى أمية لصلبه (شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١٥٤) .
(٢) حصف : ككرم استحکم عقاه فهو حصيف . (٣) السبة : العار . (٤) عرس الرجل :
امراته : وبنو لحيان : حى من هذيل ، وهو لحيان بن هذيل بن بدرية .

تَحْرُكُ عَلَيْنَا بِالْإِمَارَةِ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمْرُنَا (١) مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فَنَدَمْنَا مَا تَدْمِيرًا) .

ثم قام الحسن فنفض ثوبه فانصرف ؛ فتملق عمرو بن العاص بثوبه وقال : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ شَهِدْتَ قَوْلَهُ نِيَّ وَقَذَفَهُ أُنِّي بِالزَّانَا ، وَأَنَا سَطَّابٌ لَهُ يَحْدُ الْقَذْفِ .

فقال معاوية : خلّ عنه ، لا جزاك الله خيرا ، فتركة ، فقال معاوية : قد أنبأتكم أنه ممن لا تطاق عارضته ، ونهيتكم أن تسبّوه فعصيتموني ، والله ما قام حتى أظلم على البيت ، قوموا عني ؟ فلقد فضحك الله وأخزاكم بترككم الحزم ، وعدولكم عن رأى الناصح المشفق ، والله المستعان . (شرح ابن أبي الحديد م ٢ ص ١٠١)

١٩ - رثاء محمد بن الحنفية لأخيه الحسن

لما مات الحسن بن عليّ رضي الله عنهما ، أدخله قبره الحسين ومحمد بن الحنفية (٢) وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم ، ثم وقف محمد على قبره ، وقد اغرورقت عيناه ، وقال :

« رَحِمَكَ اللَّهُ يَا مُحَمَّدُ فَلَمَّ عَزَّتْ حَيَاتُكَ لَقَدْ هَدَّتْ وَفَاتُكَ ، وَلِنِعْمِ الرُّوحُ رُوحٌ تَضَمَّنَهُ يَدُكَ ، وَلِنِعْمِ الْجَسَدُ جَسَدٌ تَضَمَّنَهُ كَفَنُكَ ، وَلِنِعْمِ الْكَفَنُ كَفَنٌ تَضَمَّنَهُ لِحَدُّكَ ، وَكَيْفَ لَا تَكُونُ كَذَلِكَ ، وَأَنْتَ سَلِيلُ الْمَدْيِ ، وَخَامِسُ أَصْحَابِ الْكِسَاءِ (٣) ؛ وَخَلْفٌ

(١) أى كثرتنا ، أمره : كنعصره ، وأمره : كثره ، (وفى قراءة : أمرنا) أو المعنى أمرناهم بالطاعة ففسقوا وعصوا ، وقد يكون من الإمارة أى جعلناهم أمراء . (٢) هو محمد بن علي بن أبي طالب : والحنفية أمه ، وهى امرأة من بنى حنيفة بن الجهم وتسمى خولة بنت جعفر ، وتوفى سنة ٨١ ، وقيل سنة ٨٢ ، وقيل سنة ٧٢ ، وقيل سنة ٧٣ . (٣) الكساء : هو كساء آل محمد صلى الله عليه وسلم الذى يضافون إليه ، فيقال : « آل الكساء » وهم النبى عليه الصلاة والسلام ، وعلى ، وفاطمة ، والحسن ، والحسين رضي الله عنهم ، قال ديك الجن :

أهل التقوى ، وجدك النبي المصطفى ، وأبوك علي المرتضى ، وأمك فاطمة الزهراء ،

= وقال أبو عثمان الخالدى :

أعاذل إن كساء التقي كسانه حبي لأهل الكساء

ومن قصة هذا الكساء ما روت الرواة من أن وفدا من نصارى نجران قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم فكان ماجرى بينهم وبينه أن قالوا : يا محمد لم نعيب عيسى وتسميه عبدا ؟ فقال : أجل عبد الله ورسوله وروحه وكلته ألقاها إلى مريم ، قالوا : فأرنا مثله ، يحيى الموقى ويبرى الأكمة والأبرص ويخلق من الطين كهيئة الطير ، وبايعنا على أنه ابن الله ونحن نبايعك على أنك رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : معاذ الله أن يكون الله ولد أو شريك ، فآزوا ويحاجونه ويلاحونه حتى أنزل الله : (فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ) أى فى عيسى (مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ) فقال لهم : إن الله أمرني إن لم تقبلوا الحججة أن أباهلكم - والمباهلة الملاعبة - فقالوا يا أبا القاسم : بل ترجع ننظر في أمرنا ثم نأتيك ، فلما رجعوا قالوا للعاقب وكان ذا رأيهم « وهو أحد رؤسائهم . قال ياقوت في معجمه : ووفد على النبي صلى الله عليه وسلم وفد نجران وفيهم السيد واسمه وهب ، والعاقب واسمه عبد المسيح ، والأسقف وهو أبو حارثة ، وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم مباہلتهم فامتنعوا . . الخ » يا عبد المسيح ماترى ؟ فقال « والله لقد عرفتم بامعشر النصارى أن محمدا نبي مرسل ، واقدم جاءكم بالكلام الحق في أمر صاحبكم « أى عيسى » والله ما باهل قوم نبيا قط ، فعاش كبيرهم ولا نبت صغيرهم ، ولئن فعلم لكان الاستئصال ، فإن أبيتم إلا الإصرار على دينكم ، والإقامة على ما أنتم عليه ، نوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم » وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج وعليه سوط من شعر أسود « والمرط بالكسر كساء من صوف أو خز » وقد احتضن الحسين ، وأخذ بيد الحسن ، وفاطمة تمشى خلفه ، وعلى رضى الله عنه خلفها ، وهو يقول « إذا دعوت فأمنوا » فقال أسقف نجران : « يا معشر النصارى إنى لارى وجوها أو سألوا الله أن يزيل جبلا من مكانه لأزاله لها ، فلا تباهلوا تهلكوا ، ولا يبق على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة » ثم قالوا يا أبا القاسم رأينا أن لا نباهلك وأن نترك على دينك » فقال عليه الصلاة والسلام : « فإذا أبيتم المباہلة فأسلموا ، بكن السلم بالمسلمين وعليكم ما هل المسلمين » فأبوا ، فقال : فإنى أنا جزكم القتال ، فقالوا : ما لنا يحرب العرب طاعة ، ولكن نصلحك على أن لا تنزونا ولا تردنا عن ديننا ، على أن نؤدى إليك في كل عام أنى حلة ، ألفا في صفر وألفا في رجب ، وثلاثين درهما عادية من حديد ، فصالحهم على ذلك ، وقال : « والذي نفسى بيده ، إن الهلاك قد ندى على أهل نجران ولو لاعتوا لمسحوا قرده وخنازيره ، ولا ضطرم عليهم الوادى نارا ، ولا تستأصل الله نجران وأهله ، حتى الطير على رهوس الشجر ، ولما حال الحول على النصارى كلهم حتى يهلكوا ، وروى »

وعمك جعفر^(١) الطيار في جنة المأوى ، وغذتكَ أكَفَ الحق ، ورُبِّيت في حجرِ
الإسلام ، ورضعت ثدى الإيمان ، قَطِبتَ حيا وميتاً ، فلئن كانت الأنفس غيرَ طيبةٍ
لفراقك ، إنها غير شاكرةٍ أن قد خيرَ لك^(٢) ، وإنك وأخاك لسيدا شبابِ أهلِ الجنة ،
فعليك أبا محمد منا السلام .

(زهر الآداب ١ : ٦٩ ، ومروج الذهب ٢ : ٥١ ، والعقد الفريد ٢ : ٧)

= أنه عليه الصلاة والسلام لما خرج في المرط الأسود جاء الحسن فأدخله ، ثم جاء الحسين فأدخله ، ثم فاطمة ،
ثم على رضى الله عنهم ، ثم قال : (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ
وَيُطَهِّرَ كُمْ تَطْهِيرًا) فمن ذلك الوقت سُمي الخمسة أصحاب الكساء (انظر كتاب ثمار القلوب في
المضاف والمنسوب للشعالي ص ٤٨٣ وتفسير الفخر الرازي مفاتيح الغيب ٢ : ٦٩٩) .

(١) هو جعفر بن أبي طالب ، وقد استشهد في غزوة مؤتة سنة ثمان للهجرة ، وكان يقول حين أخذ
الراية من زيد بن حارثة الذي استشهد قبله في هذه الغزوة :

ياحبذا الجنة واقترابها طيبة وباردا شراها

ولقب بالطيار لما روى عن عكرمة عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « دخلت الجنة
البارحة ، فرأيت جعفرًا يطير مع الملائكة وجناحاه مضرجان بالدم » - راجع الروض الأنف شرح السيرة
الأنبوية لابن هشام ٢ : ٢٥٨ . - (٢) خار الله لك في الأمر . : جعل لك فيه الخير .

مقتل الحسين بن علي

رضى الله عنه

تأبيه عن بيعة يزيد وخروجه إلى مكة

لما ولي الخلافة يزيد بن معاوية (في هلال رجب سنة ٥٦٠) كتب إلى أمير المدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان أن يأخذ الحسين ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر بالبيعة أخذاً شديداً ليست فيه رخصة^(١) ، فبعث الوليد إلى الحسين رضي الله عنه ونعى له معاوية ودعاه إلى البيعة ، فقال الحسين : « إن مثلي لا يعطى بيعته سراً ، ولا أراك تجزئ بها مني سراً ، دون أن تُظهرها على رؤوس الناس علانيةً ، فإذا خرجت إلى الناس فدعوتهم إلى البيعة دعوتنا مع الناس ، فكان أمراً واحداً » فقال له الوليد - وكان يحب العافية - « فانصرف على اسم الله حتى تأتيننا مع جماعة الناس » .

فلما كان من الغد بعث الرجال إلى الحسين عند المساء ، فقال : « أَصْبِحُوا ثم ترون ونرى » فكفوا عنه تلك الليلة ولم يُكِحُوا عليه ، فخرج الحسين من تحت ليلته (ليومين بقيان رجب سنة ٥٦٠) ومعه بنوه وإخوته وبنو أخيه وجُلُّ أهل بيته إلا محمد بن الحنفية فإنه قال له :

(١) الرخصة : التسهيل .

٢٠ - نصيحة محمد بن الحنفية للحسين رضى الله عنهما

« يا أخى : أنت أحب الناس إلى ، وأعزهم على ، ولست أدخر النصيحة لأحد من الخلق أحق بها منك ، تنح بِنَبِيِّكَ ^(١) عن يزيد بن معاوية ، وعن الأمصار ما استطعت ، ثم ابعث رُسُلَكَ إلى الناس فادعهم إلى نفسك ، فإن بايعوا لك حَمَدَتَ اللهُ على ذلك ، وإن أجمع الناس على غيرك لم يَنْقُصِ اللهُ بِذَلِكَ دِينَكَ ولا عَقْلَكَ ، ولا يُذْهِبُ بِهٍ مَرُوءَتَكَ ، ولا فضلك ، إني أخاف أن تدخل مصرًا من هذه الأمصار ، وتأتى جماعة من الناس ، فيختلفوا بينهم ، فمنهم طائفة معك ، وأخرى عليك ، فيقتتلوا ، فتكون لأوّل الأُسُنَّةِ ، فإذا خيرُ هذه الأمة كلها نفسًا وأبا وأما أضيعها دَمًا ، وأذلها أهلاً . »

قال له الحسين : « فإني ذاهب يا أخى » . قال : « فانزل مكة ، فإن اطمانت بك الدار فسبيل ذلك ، وإن نبت ^(٢) بك لحقت بالرمال ، وشعف ^(٣) الجبال ، وخرجت من بلد إلى بلد ، حتى تنظر إلام يصير أمر الناس ، وتعرف عند ذلك الرأى ، فإنك أصوب ما يكون رأيا ، وأحزمه عملا ، حتى تستقبل الأمور استقبالا ، ولا تكون الأمور عليك أبداً أشكل منها حين تستدبرها استدباراً . »

قال : « يا أخى قد نصحت فأشفقت ، فأرجو أن يكون رأيك سديداً مؤقفاً . »
وسار إلى مكة ، فأتاه أهل الكوفة ورسلمهم ، إنا قد حبسنا أنفسنا عليك ،
ولسنا نحضر الجمعة مع الوالى فاقدم علينا ^(٤) - وكان النعمان بن بشير الأنصارى
على الكوفة -

(١) تبعة جمع تابع . (٢) ضاقت . (٣) الشعف : جمع شعفة محركة ، وهى رأس الجبل .

(٤) اجتمعت الشيعة بالكوفة فى منزل سليمان بن سرد ، فذكروا هلاك معاوية فحمدوا الله عليه ، فقال

سليمان : « إن معاوية قد هلك ، وإن حسيناً قد تقبض على القوم ببيته ، وقد خرج إلى مكة ، وأنتم شيعته وشيعة أبيه ، فإن كنتم تعلمون أنكم ناصروه ومجاهدو عدوه فاكتبوا إليه و إن خفتم الوهل (بالتحريك) =

بعثه مسلم بن عقيل إلى الكوفة

فبعث الحسين إلى ابن عمه مسلم بن عقيل ، فقال له :

« سر إلى الكوفة فانظر ما كتبوا به إلى » ، فإن كان حقاً خرجنا إليهم ، فخرج مسلم إلى الكوفة ، ونزل دار المختار بن أبي عبيد ، وأقبلت الشيعة تختلف إليه ، فقرأ عليهم كتاب الحسين فأخذوا يبكون .

= الضعف والفرع والفشل) فلا تغزوا الرجل من نفسه» قالوا « لا ، بل نقاتل عدوه ونقتل أنفسنا دونه » قال : فاكتبوا إليه ، فكتبوا إليه : بسم الله الرحمن الرحيم ، حسين بن علي من سلجان بن سرد ، والمسيب بن نجبة ، ورفاعة ابن شداد ، وحبيب بن مظاهر وشيعة من المؤمنين والمسلمين من أهل الكوفة ، سلام عليك ، فإننا نحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد : فالحمد لله الذي قسم عدوك الجبار العنيد الذي انتزى (وثب) على هذه الأمة فابتزها أمرها ، وخصبها فيئها ، وتأمر عليها بغير رضا منها ، ثم قتل خيارها ، واستبقى شرارها ، وجعل مال الله دولة بين جبارتها وأغنيائها ، فبعدا له كما بعدت ثمود ، إنه ليس علينا إمام ، فأقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الحق ، والنعمان بن بشير في قصر الإمارة ، لسنا نجتمع معه في الجمعة ، ولا نخرج معه إلى عيد ، ولو قد بلغنا أنك قد أقيمت إلينا أخرجناه ، حتى نلحقه بالشام إن شاء الله والسلام ورحمة الله عليك » وكتبوا إليه أيضا : « بسم الله الرحمن الرحيم ، حسين بن علي من شيعة من المؤمنين والمسلمين ، أما بعد : فحيلا (أى أقبل) فإن الناس ينتظرونك ، ولا رأى لهم في غيرك ، فالعجل العجل والسلام عليك » وكتبوا : « أما بعد : فقد اخضر الجنب ، وأينعت الثمار ، وطمت الجمام ، (الجمام : بالكسر جمع جم بالفتح ، وهو معظم الماء وطمى الماء : علا ، وطم : غمر) فإذا شئت فاقدم على جندك مجند ، والسلام عليك » فكتب إليهم : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من حسين بن علي إلى الملا من المؤمنين والمسلمين ، أما بعد : فإن هانئا وسعيدا (وهما هاني بن هاني وسعيد بن عبد الله) قدما على بكتبكم ، وكانا آخر من قدم على من رسلكم ، وقد فهمت كل الذي اقتصصتم وذكرتم ، ومقالة جلسكم إنه ليس علينا إمام ، فأقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الهدى والحق ، وقد بعثت إليكم أخى وابن عمى وثقتى من أهل بيتى ، وأمرته أن يكتب إلي بجالسكم وأمركم ورأيكم ، فإن كتب إلي أنه قد أجمع رأى ملتكم وذوى الفضل والحجا منكم على مثل ما قدمت على به رسلكم وقرأت في كتبكم ، أقدم عليكم وشيكا إن شاء الله ، فلمعرى ما الإمام إلا العامل بالكتاب والآخذ بالقسط والدائن بالحق والحابس نفسه على ذات الله والسلام » .

٢١ - خطبة عابس بن أبي شبيب الشاكري

فقام عابس بن أبي شبيب الشاكري ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« أما بعد ، فإنني لا أخبرك عن الناس ، ولا أعلم ما في أنفسهم ، وما أغرؤك منهم ،
والله أحَدُّكَ عما أنا موطنٌ نفسي عليه ، والله لأجيبَنَّكُمْ إذا دعوتهم ، ولأقاتِلَنَّ معكم
عدوَّكم ، ولأضربن بسيفي دونكم حتى ألقى الله ، لا أريد بذلك إلا ما عند الله .
فقام حبيب بن مظاهر الفقمسي فقال :

« رحمك الله قد قضيت ما في نفسك بواجزٍ من قولك » ثم قال : « وأنا والله الذي
لا إله إلا هو على مثل ما هذا عليه » وقال غيرها مثل قولها .

فبلغ ذلك النعمان بن بشير ، فخرج فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

٢٢ - خطبة النعمان بن بشير

« أما بعد ، فاتقوا الله عبادَ الله ، ولا تسارعوا إلى الفتنة والفرقة ، فإن فيهما يَهْلِكُ
الرجال ، وتُسْفِكُ الدماء ، وتُنْصَبُ الأموال - وكان حليما ناسكا يحب العافية - قال :
إني لا أقاتل من لم يقاتلني ، ولا أئيبُ على من لا يئيبُ عليَّ ، ولا أشاتمكم ، ولا أتحرشُ
بكم ، ولا آخذ بالفرقة^(١) ولا الظنَّةَ ولا التُّهْمَةَ ، ولكنكم ، إن أهديتم صَفْحَتَكُمْ^(٢) لي
وَنَكَثْتُمْ بيعتكم ، وخالفتم إمامكم ، فوالله الذي لا إله غيره لأضربنكم بسيفي ما تَبَتَّ
قائمه في يدي ولو لم يكن لي منكم ناصر ، أما إني أرجو أن يكون من يَعْرِفُ الحقَّ
منكم أكثر ممن يُرْذِيه الباطلُ » .

فقام إليه عبد الله بن مسلم بن سعيد الحضرمي حليف بني أمية ، فقال :

(١) الفرقة : التهمة ، وقرنه بالشيء : اتهامه .
(٢) أي جاهرتموني بالعداوة .

« إنه لا يُصلِح ما ترى إلا القَشْمُ ^(١) ، إن هذا الذي أنت عليه فيما بينك وبين عدوك رأى المُستضعفين » فقال : « أن أكون من المُستضعفين في طاعة الله أحبُّ إليَّ من أن أكون من الأَعزِّين في معصية الله » ثم نزل .

وكتب عبد الله بن مسلم وغيره إلى يزيد أن يبعث إلى الكوفة رجلاً قويا غير النعمان ، فبعث إلى عبيد الله بن زياد - وكان على البصرة - وضمَّ إليه الكوفة ، فسار إليها ، فلما نزل القصر نودي الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس فخرج إليهم .

٢٣ - خطبة عبيد الله بن زياد

فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، فإن أمير المؤمنين (أصلحه الله) ولآتي مصركم وتفرِّكم ^(٢) ، وأمرني بإنصاف مظلومكم ، وإعطاء محرومكم ، وبالإحسان إلى سامعكم ومطيعكم ، وبالشدّة على مُريبكم وعاصيكم ، وأنا مُتَّبِعٌ فيكم أمره ، ومُنْفَذٌ فيكم عهده ، فأنا لحسنكم ومطيعكم كالوالد الأبِّ ، وسوْطِي وسيفي على من ترك أمري ، وخالف عهدي ، فليُبقِ امرؤ على نفسه ، الصدق يُذني عنك لا الوعيد . »

ثم نزل فأخذ العُرْفَاء ^(٣) والناس أخذاً شديداً ، وبلغ ذلك مسلم بن عقيل ، فخرج من دار المختار ، حتى انتهى إلى دار هاني بن عروة المرآدي لا بُدَّأ به ، ونمى خبره إلى ابن زياد ، فبعث إلى هاني فجاءه ، فأمره أن يأتيه بمسلم ، فقال : لا والله لا أجيئك به أبداً أنا أجيئك بضيفي تقتله ! وطال بينهما اللجاج في ذلك ، فضربه ابن زياد بالقضيب ، فلم يزل يضرب أنفه وجبينه وخرده ، حتى كسر أنفه ، وسَّيَلَ الدماء على ثيابه ، ونثر لحم خديه وجبينه على لحيته ، حتى كسر القضيب ، ثم أمر بحبسه .

(١) القشم : الظلم ، والمراد الشدة . (٢) الثغر : موضع المخافة من فروع البلدان .

(٣) جمع عريف ، وهو رئيس القوم سمي لأنه عرف بذلك أو التقيب وهو دون الرئيس .

٢٤ - خطبة أخرى له

ولما ضرب عبيد الله هاتماً وحبسه ، خَشِيَ أَنْ يَثِيبَ النَّاسَ بِهِ ، فَخَرَجَ فَصَعِدَ الْمَنِيرَ
وَمَعَهُ أَشْرَافُ النَّاسِ وَشُرَطُهُ وَحَشَمَهُ ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :
« أَمَا بَعْدَ ، أَيُّهَا النَّاسُ : فَاعْتَصِمُوا بِطَاعَةِ اللَّهِ وَطَاعَةِ أُمَّتِكُمْ ، وَلَا تَخْتَلِفُوا ، وَلَا
تَفْرَقُوا ، فَتَهْلِكُوا وَتَذَلُّوا وَتُقْتَلُوا ، وَتُجْفَوُا وَتُحْرَمُوا ، إِنْ أَخَاكَ مِنْ صَدَقِكَ ، وَقَدْ
أَعْذَرَ مِنْ أَنْذَرٍ » .

وبلغ مسلم بن عقيل خبر ضرب هاني وحبسه ، فأمر أن ينادى في أصحابه وكان قد
بايعه من أهل الكوفة ثمانية عشر ألفاً ، وأقبل نحو القصر ، فتحرز فيه ابن زياد
وغلق الأبواب ، وبعث إلى الأشراف فجمعهم إليه ، ثم قال : « أشرُّ فِئَةٍ عَلَى النَّاسِ ،
فَتَنُّوا أَهْلَ الطَّاعَةِ الزِّيَادَةَ وَالْكَرَامَةَ ، وَخَوَّفُوا أَهْلَ الْمَعْصِيَةِ الْحِرْمَانَ وَالْمَعْقُوبَةَ ، وَأَعْلَمُوهُمْ
فُصُولَ ^(١) الْجَنُودِ مِنَ الشَّامِ إِلَيْهِمْ » .

٢٥ - خطبة كثير بن شهاب

فتكلم كثير بن شهاب أول الناس فقال :
« أَيُّهَا النَّاسُ : احْتَقُوا بِأَهَالِيكُمْ ، وَلَا تَعَجَّلُوا الشَّرَّ ، وَلَا تُعَرِّضُوا أَنْفُسَكُمْ لِلْقَتْلِ ،
فَإِنَّ هَذِهِ جُنُودَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ يَزِيدَ قَدْ أَقْبَلَتْ ، وَقَدْ أَعْطَى اللَّهُ الْأَمِيرَ عَهْدًا لَنْ تَمْتَمَ ^(٢)
عَلَى حَرْبِهِ ، وَلَمْ تَنْصَرَفُوا مِنْ عَشِيَّتِكُمْ أَنْ يَحْرِمَ ذُرِّيَّتَكُمْ الْعَطَاءَ ، وَيَفْرِقَ مِقَاتِلَتَكُمْ
فِي مَغَازِي أَهْلِ الشَّامِ عَلَى غَيْرِ طَمَعٍ ، وَأَنْ يَأْخُذَ الْبَرِيءَ بِالسَّقِيمِ ، وَالشَّاهِدَ بِالْغَائِبِ ،
حَتَّى لَا يَبْقَى لَهُ فِيكُمْ بَقِيَّةٌ مِنْ أَهْلِ الْمَعْصِيَةِ إِلَّا أَذَاتُهَا وَبَالَ مَا جَرَّتْ ^(٣) أَيْدِيهَا » .

(١) فصل من البلد فصولاً : خرج منه . (٢) يقال : تمت على الأمر ، أى استمرت عليه .

(٣) جر جريرة : اجترم جريمة .

وتكلم الأشراف بنحو من كلام هذا، فلما سمع الناس مقالهم أخذوا يتفرقون وينصرفون عن ابن عقيل، حتى أمسى وما معه إلا ثلاثون نفساً، فخرج متوجهاً نحو أبواب كِنْدَةَ، فبلغ الأبواب ومعه منهم عشرة، ثم خرج من الباب وإذا ليس معه إنسان، فمضى على وجهه في أزقة الكوفة، حتى انتهى إلى باب عجوز فسألها أن تؤويه فأوته في دارها.

٣٦ - خطبة عبيد الله بن زياد

ولما انقضت جموع ابن عقيل، خرج عبيد الله بن زياد إلى المسجد، وأمر فنودي « أَلَا بَرِئْتِ الذِّمَّةَ مِنْ رَجُلٍ صَلَّى الْعَمَّةَ ^(١) إِلَّا فِي الْمَسْجِدِ »، فلم يكن إلا ساعة حتى امتلأ من الناس، فصلى بهم، ثم قام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

« أما بعد: فإن ابن عقيل السفية الجاهل، قد أتى ما قد رأيت من الخلاف والشقاق، فبرئت ذمة الله من رجل وجدناه في داره، ومن جاء به فله ديبته، اتقوا الله عباد الله، والزموا طاعتكم وبيعتكم، ولا تجعلوا على أنفسكم سبيلاً.

يا حُصَيْنَ بْنَ نَمَيْرٍ ^(٢)، ثَكِلَتْكَ ^(٣) أُمُّكَ إِنْ صَاحَ ^(٤) بِابِ سِكَّةٍ مِنْ سَكِّ الْكُوفَةِ، أَوْ خَرَجَ هَذَا الرَّجُلُ وَلَمْ تَأْتِنِي بِهِ، وَقَدْ سَلَّطْتُكَ عَلَى دُورِ أَهْلِ الْكُوفَةِ، فَابْعَثْ مُرَاصِدَةً عَلَى أَفْوَاهِ السَّكِّ، وَأَصْبِحْ غَدًا وَأَسْتَبِرِ الدُّورَ ^(٥)، وَجُسْ خِلَالَهَا، حَتَّى تَأْتِنِي بِهَذَا الرَّجُلِ » ثم نزل.

وأصبح ابن تلك العجوز التي آوت مسلماً، فدل على مكانه، فبعث ابن زياد محمد ابن الأشعث في ستين أو سبعين رجلاً فأتى به، وأمر به، فأصعد إلى أعلى القصر، وضرب

(١) العتمة: وقت صلاة العشاء. (٢) وكان حل شرط ابن زياد. (٣) ثكله: فقده.

(٤) صاحه يصوحه فانصاح: أى شقه فانشق، والمراد: فتح باب سكة وهرب.

(٥) سبر المرح وغيره واستبره: امتحن غوره.

عنقه ، فهوى رأسه إلى الأرض ، وأتبع جسده رأسه ، ثم أمر بهانى بن عروة ، فأخرج
إلى السوق ، فضربت عنقه .

وكان مسلم حيث تحول إلى دار هانى ، كتب إلى الحسين : « إني قد بايعني من
أهل الكوفة ثمانية عشر ألفاً ، فمَجَّل الإقبال حين يأتيك كتابي ، فإن الناس كلهم معك
ليس لهم في آل معاوية رأى ولا هوى » .

فسار الحسين من مكة (في ٨ من ذى الحجة سنة ٦٠ هـ) متوجهاً إلى الكوفة ،
وهو لا يعلم بحال مسلم .

خروج الحسين إلى الكوفة

٢٧ - نصيحة ابن عباس له

ولما أجمع الحسين بن عليّ رضي الله عنه المسيرَ إلى الكوفة ، أتاه عبد الله ابن عباس ، فقال : « يابن عمّ إنك قد أرجف الناس أنك سائر إلى العراق ، فبين لي ما أنت صانع ؟ » قال : « إني قد أجمعت المسير في أحد يومَي هذين إن شاء الله تعالى » ، فقال له ابن عباس : « فإني أعيذك بالله من ذلك ، أخبرني - رحمك الله - أتسير إلى قوم قد قتلوا أميرهم ، وضبطوا بلادهم ، ونفوا عدوهم ؟ فإن كانوا قد فعلوا ذلك فسير إليهم ، وإن كانوا إنما دعوك إليهم ، وأميرهم عليهم ، قاهر لهم ، وعماله تجبي بلادهم ، فإنهم إنما دعوك إلى الحرب والقتال ، ولا آمنُ عليك أن يغرؤك ويكذبوك ويخالفوك ويخذلوك ، وأن يستنقروا إليك ، فيكونوا أشدّ الناس عليك » فقال له حسين : « وإني أستخير الله وأُنظرُ ما يكون . »

فخرج ابن عباس من عنده ، وأتاه ابن الزبير ، فحدثه ساعة ثم قال :

« ما أدري ما ترّكنّا هؤلاء القومَ وكفنا عنهم ، ونحن أبناء المهاجرين . وولايةُ هذا الأمرِ دونهم ، خبّرني ما تريد أن تصنع ؟ » فقال الحسين : والله لقد حدثت نفسي بإتيان الكوفة : ولقد كتب إليّ شيعةي بها وأشرافُ أهلها ، وأستخير الله » فقال له ابن الزبير : « أما لو كان لي بها مثلُ شيعةك ما عدلتُ بها » ثم إنه خشي أن يتهمه فقال : « أما إنك لو أقيمتَ بالحجاز ، ثم أردتَ هذا الأمرَ ها هنا ما أخواف عليك إن شاء الله » ثم قام فخرج من عنده . فقال الحسين : « ها ، إن هذا ليس شيءٌ ، يؤتاهُ من الدنيا أحبُّ إليه من أن

أخرج من الحجاز إلى العراق ، وقد علم أنه ليس له من الأمر معنى شيء ، وأن الناس لم يعدلوه^(١) بي ، فَوَدَّ أني خرجت منها لَتَتَخَلَّوْا له .

فلما كان من العشي أو من الغد ، أنى الحسينَ عبدُ الله بن العباس . فقال :

« يا بن عم ، إني أتصبرُ ولا أصبر ، إني أتخوفُ عليك في هذه الوجه الهلاك والاستئصال ، إن أهل العراق قومٌ غُدُرٌ^(٢) ، فلا تقربَ بهم ، أقم بهذا البلد ، فإنك سيد أهل الحجاز ، فإن كان أهل العراق يريدونك كما زعموا ، فاكتب إليهم فليَنفُوا عدوهم ، ثم اقدم عليهم ، فإن أبيتَ إلا أن تخرج ، فسيرَ إلى اليمن ، فإن بها حصونًا وشعابًا^(٣) وهي أرض عريضة طويلة ، ولأبيك بها شيعة ، وأنت عن الناس في عزلة ، فتكتب إلى الناس وترسل ، وتبثُ دُعَانَكَ ، فإني أرجو أن يأتيك عند ذلك الذي تحبُّ في عافية .

فقال له الحسين : « يا بن عم ، إني والله لأعلم أنك ناصح مُشفق ولكني قد أزمعت وأجمعت^(٤) على المسير » فقال له ابن عباس : « فإن كنت سائرا ، فلا تسيرُ بنسائك وصبيتك ، فوالله إني لخائف أن تقتل كما قُتِلَ عثمان ، ونساؤه وولده ينظرون إليه » ثم قال ابن عباس : « لقد أقررت عينَ ابن الزبير بتخليتك إياه والحجاز ، والخروج منها ، وهو اليوم لا ينظر إليه أحد معك^(٥) ، والله الذي لا إله إلا هو ، لو أعلم أنك إذا أخذتُ بشعرك وناصيتك حتى يجتمع عليّ وعليك الناس أطعتني ، لَفَعَلْتُ ذلك » ثم خرج ابن عباس من عنده ، فمرَّ بعبد الله بن الزبير . فقال : قررت عينك يا بن الزبير ، ثم قال :

(١) أي لم يسووه . (٢) جمع غدور كصبور .

(٣) الشعب بالكسر : الطريق في الجبل ، وما انفرج بين جبلين .

(٤) يقال : أجمعت السفر ، وأجمعت عليه ، وأزمعت السفر وعليه عزمته وعليه عليه هي .

(٥) أي مع وجودك .

يَاكَ مِنْ قَبْرَةٍ بِمَعْمَرٍ خَلَاكَ الْجَوْفِ بِيضِي وَأَصْفِرِي
وَتَقْرِي مَا شِئْتُ أَنْ تُنْقَرِي^(١)

هذا حسين يخرج إلى العراق ، وعليك بالحجاز .

٢٨ - نصيحة أبي بكر بن عبد الرحمن المخزومي له

ودخل أبو بكر عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام^(٢) على الحسين رضى الله عنه . فقال :

« يا ابن عمِّ ، إنَّ الرِّحِمَ يُظَاثِرُنِي^(٣) عليك . ولا أدري كيف أنا في النصيحة لك ، فقال : يا أبا بكر ، ما أنت بمن يُسْتَفْشَشُ فقال أبو بكر :

« كان أبوك أشدَّ بأساً ، والناس له أرْجَى ، ومنه أَسْمَعُ ، وعليه أجمع ، فسار إلى معاوية ، والناس مجتمعون عليه - إلا أهل الشام - وهو أعزُّ منه ، فخذلوه وتناقلوا عنه حرصاً على الدنيا وضناً بها ، فجزَّعوه الغيظ وخالفوه ، حتى صار إلى ما صار إليه من كرامة الله ورضوانه ، ثم صنعوا بأخيك بعد أبيك ما صنعوا ، وقد شهدت ذلك كله ورأيتهُ . ثم

(١) القبرة واحد القبر : ضرب من الطير ، ويقال القنبراء : بضم القاف والباء ، والجمع قنابر . قال صاحب القاموس : ولا تفل قبرة (كقنفذة) أو هي لنية ، وقال صاحب اللسان والصحاح : « والعامَّة تقول : القنبرة وقد جاء ذلك في الرجز » وروى شاهداً عليه أنشده أبو عبيدة . والمعمر : المنزل الكثير الماء والكلاء ، وهو مثل . وأول من قاله طرفة بن العبد ، وذلك أنه كان مع عمه في سفر وهو صبي ، فنزلوا على ماء ، فذهب طرفة بفخيز له ، فنصبه للقنابر وبقي عامة يوه فلم يصد شيئاً ، ثم حمل فخه ورجع إلى عمه ، وتحملوا من ذلك المكان ، فرأى القنابر يلقطن ماثرهن من الحب ، فقال ذلك ، يضرب في الحاجة يتمكن منها صاحبها .

(٢) هو أبو بكر عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشي .

(٣) الرِّحِم : القرابة ، ويظاثرني : يعطفني . يقال : ظأرتني فلان على أمر كذا ، وظأرتني :

أنت تريد أن تسير إلى الدين عدّوا على أبيك وأخيك ، تقاتل بهم أهل الشام وأهل العراق ، ومن هو أعدُّ منك وأقوى ، والناس منه أخوف ، وله أرجى ، فلو بلغهم مسيرك إليهم لاستطغوا الناس بالأموال ، وهم عبيد الدنيا ، فيقاتلك من قد وعدك أن ينصرك ، ويخذُلك من أنت أحبُّ إليه ممن ينصره ، فاذا ذكر الله في نفسك .

فقال الحسين : « جزاك الله خيرا يا بن عم ، فقد أجهدك رأيك ، ومهما يقض الله يكن » فقال : « وعند الله نحمدس أبا عبد الله » .

٢٩ - خطبة عبيد الله بن زياد

ولما نى إلى عبيد الله بن زياد خبر الكتاب الذى كتبه الحسين رضى الله عنه إلى أشرف البصرة يستنصرهم سعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :
« أما بعد فوالله ما تُقرن بى الصعبة ، ولا يقمقع لى بالشنان^(١) ، وإنى لنيكل^(٢) لمن عادانى ، وسُمُّ لمن حاربنى ، أنصف القارة^(٣) من رامها .

يا أهل البصرة: إن أمير المؤمنين ولانى الكوفة، وأنا غاد إليها الغداة ؛ وقد استخلفت عليكم عثمان بن زياد بن أى سفيان ، وإياكم والخلاف والإرجاف ، فوالذى لا إله غيره لئن بلغنى عن رجل منكم خلاف ، لأقتلنه وعريفه ووليه ، ولأخذن الأذن بالأقصى حتى تستمعوا لى ، ولا يكون فيكم مخالف ولا مُشاق .

أنا ابن زياد ، أشبهته من بين من وطى الحصى ، ولم ينتزعنى شبه خال ولا ابن عم .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٢٠٠)

(١) القمقمة : تحريك الشيء اليابس الصلب مع صوت ، والشنان : جمع شن بالفتح ، وهو القرية البالية ، وإذا قمقع بالشنان للابل نفرت . وهو مثل يضرب لمن لا يروعه مالا حقيقة له .

(٢) يقال إنه لنكل شره : أى ينكل به أعداؤه . (٣) القارة : قبيلة ، وهم قوم رماة .

٣٠ خطبة للحسين رضى الله عنه

ولما بلغ عبيد الله بن زياد أمير الكوفة إقبال الحسين بعث الحُصَيْن بن نُعَيْر التميمي، فأمره أن ينزل القادسية، وأن يضع المسالِح^(١)، وقدم الحُرَّ بن يزيد التميمي بين يديه، في ألف فارس من القادسية، فيستقبل حسينا، وكان الحسين قد سبقه إلى ذى حُسم ونزل به، فسار إليه الحُرُّ حتى وقف هو وخيله مُقابله في حر الظَّهيرة، وحضرت صلاة الظهر؛ فخرج الحسين، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

« أيها الناس: إنها مَعْدِرَةٌ إلى الله عز وجل وإليكم، إني لم آتِكم حتى أتتني كتبكم، وقدِمَت عَلَيَّ رُسُلُكم أن أقدم علينا، فإنه ليس لنا إمام، لعل الله يجمعنا بك على الهدى، فإن كنتم على ذلك فقد جئتمكم، فإن تُعْطُونِي ما أطمئنُ إليه من عهدكم وموائيقكم أَقْدَمَ مِصْرَكم، وإن لم تفعلوا وكنتم لمقدمي كارهين، انصرفت عنكم إلى المسكان الذي أقبلت منه إليكم » فسكتوا عنه، ثم أقيمت الصلاة. فقال الحسين للحُر: أتريد أن تصلى بأصحابك؟ قال: لا بل تصلى أنت، ونصلي بصلاتك، فصلى بهم الحسين.

٣١ -- خطبة أخرى له

فلما كان وقت العصر، أمر الحسين أن يتهيأوا للرحيل، ثم إنه خرج فأمر مناديه فنادى بالعصر، وصلى ثم سلم، وانصرف إلى القوم بوجهه، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

« أما بعد: أيها الناس فإنكم إن تفقوا وتعرفوا الحق لأهله، يكن أرضى الله،

(١) المسالِح: جمع مسلحة بالفتح، وهي القوم ذور السلاح.

ونحن أهل البيت أولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدّعين ما ليس لهم، والسائرين فيكم بالجورِ والعدوان ، وإن أنتم كرهتمونا وجهلتم حقنا ، وكان رأيكم غير ما أتتني كتبكم ، وقدمت به على رسلكم انصرفت عنكم .

فقال له الحر : إنا والله ما ندرى ما هذه الكتب التي تذكر ؟ فأخرج له الحسين خرّجين مملوءين صُحُفًا ، فنشرها بين أيديهم ، ثم سار الحسين في أصحابه والحرّ يسايره .

٣٢ - خطبة أخرى له

وقام الحسين رضى الله عنه بذى حُسم ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :
« إنه قد نزل من الأمر ما قد ترّون ، وإن الدنيا قد تغيّرت وتنكّرت ، وأدبّر معروفها ، واستمرت^(١) جدًّا ، فلم يبق منها إلا صُبابة كصُبابة الإناء ، وخسيس عيش كالمرعى الوَيْيل ، ألا ترّون أن الحق لا يعملُ به ، وأنّ الباطل لا يُتناهى عنه ، ليرغب المؤمن في لقاء الله مُحِقًا ، فإنى لا أرى الموت إلا شهادة ، ولا الحياة مع الظالمين إلا برّما^(٢) . »

٣٣ - خطبة زهير بن القين البجلي

فقام زُهَيْرُ بنِ القَيْنِ البَجَلِيّ ، فقال لأصحابه : تَكَلَّمُونَ أمْ أُنْكَلِمَ ؟ قالوا : لا ، بل تكلم ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

(١) في كتب اللغة : « مر الشيء يمر بضم الميم وفتحها مرارة وأمر » ولم أر فيها بناء « استمر » ولا بناء منه على أن الهمزة والسين والتاء للصيرورة: أى صارت مرة ، وتظيره استحجر الطين ، واستحصن المهر (صار حصانًا) واستعرب القوم . وفي الأمثال : « إن البغاث بأرضنا يستنسر » « كان عنزا فاستتيس » « قد استنوق الجمل » . (٢) البرم : السامة والشجر ، برم به كفرح .

« قد سمعنا (هداك الله) يا ابن رسول الله مقاتلك ، والله لو كانت الدنيا لنا باقية ،
وكنا فيها مُخَلَّدِينَ ، إلا أن فراقها في نصرك ومواساتك ، لآثرنا الخروج معك على الإقامة
فيها » فدعا له الحسين ، ثم قال له خيراً .

٣٤ - خطبة للحسين أيضاً

وخطب الحسين أصحابه وأصحاب الحرِّ بالبيضة ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :
« أيها الناس ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من رأى سلطاناً جائراً
مُستَحِلًّا لِحُرْمِ اللهِ ، ناكثاً لعهده الله ، مخالفاً لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
يعمل في عباد الله بالإثم والمُذْرَبِ ، فلم يُغَيِّرْ عليه بفعل ولا قول ، كان حقاً على الله أن
يُدْخِلَهُ مَدْخَلَهُ » ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان ، وتركوا طاعة الرحمن ، وأظهروا
الفساد ، وعطلوا الحدود ، واستأثروا بالنفء ، وأحلوا حرام الله ، وحرّموا حلاله ، وأنا
أحق من غير ، وقد أنتنى كتبكم ، وقدِمْتُ على رسلكم ببيعتمكم أنكم لا تُسَلِمُونِي^(١)
ولا تُخَذِلُونِي ، فإن تَمَمْتُمْ على بيعتكم تُصَيِّبُوا رُشْدَكُمْ ، وأنا الحسين بن عليّ ، وابن فاطمة
بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نفسى مع أنفسكم ، وأهلى مع أهليكم ، فلكم فيّ
أُسْوَةٌ ، وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدكم ، وخلعتم بيعتى من أعناقكم ، فلعمرى ما هى لكم
بُنُكْرٌ^(٢) ؛ لقد فعلتموها بأبى وأخى وابن عمى مسلم ، والمغرور من اغتربكم ، فخطبكم
أخطأتم ، ونصبتكم ضيعتم ، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه ، وسيغنى الله عنكم .
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . »

(١) أسلمه : خذله .

(٢) النكر بضم وبضتين : المنكر .

٣٥ - خطبته ليلة قتله

وسير إليه ابن زياد عمر بن سعد بن أبي وقاص في أربعة آلاف ، فعدل الحسين إلى كربة بلاء ، وكانت بينهما مقابلات غير مجدبة^(١) . فهض عمر إليه عشية الخميس (٩ من المحرم سنة ٦١ هـ) فجمع الحسين أصحابه عند قرب المساء فقال :

« أثنى على الله تبارك وتعالى أحسن الثناء ، وأحمدُه على السراء والضراء ، اللهم إني أحمدك على أن أكرمتمنا بالنبوة ، وعلمتمنا القرآن ، وفقمتمنا في الدين ، وجعلت لنا أسماعا وأبصارا وأفئدة ، ولم تجعلنا من المشركين .

أما بعد : فإني لا أعلم أصحاباً أولى ولا خيراً من أصحابي ، ولا أهل بيت أبر ولا أوصل من أهل بيتي ، فجزاكم الله عنى جميعاً خيراً إلا وإني أظن يومنا من هؤلاء الأعداء غداً . إلا وإني قد رأيت لكم ، فانطلقوا جميعاً في حل ، ليس عليكم من ذمام ، هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جلاً ، ثم ليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي ، ثم تفرقوا في سوادكم ومدائنكم ، حتى يفرج الله ، فإن القوم إنما يطلبونني ، ولو قد أصابوني لهموا عن طلب غيري » .

(١) التقى عمر بن سعد والحسين مرارا ثلاثا أو أربعاً ، وكتب عمر بعدها إلى عبيد الله بن زياد : « أما بعد : فإن الله قد أطفأ النائرة ، وجمع الكلمة ، وأصلح أمر هذه الأمة ، هذا حسين قد أعطاني أن يرجع إلى المكان الذي مته أتى ، أو أن نسيره إلى أي ثغر من ثغور المسلمين شئتنا ، فيكون رجلاً من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم ، أو أن يأتي يزيد أمير المؤمنين فيضع يده في يده فيرى فيما بينه وبينه رأيه ، وفي هذا لكم رضا وللأمة صلاح » فلما قرأ عبيد الله الكتاب قال : هذا كتاب رجل ناصح لأمره مشفق على قومه نعم قد قبلت ، ولكن شمر بن ذي الجوشن ثناه عن القبول ، فكتب إلى عمر بن سعد كتاباً يقول فيه : « أما بعد ، فإني لم أبعثك إلى حسين لتكف عنه ، ولا لتطاوله ، ولا لتنتيه السلامة والبقاء ، ولا لتتقدم له عندي شافعا ، انظر فإن نزل حسين وأصحابه على الحكم واستسلموا فابعث بهم إلى سلما ، وإن أبوا فازحف إليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم ، فإنهم لذلك مستحقون ، فإن قتل حسين فأوط الحليل صدره وظهره فإنه عاق مشاق قاطع ظلوم » .

٣٦ - رد أهل بيته عليه

فقال له أهل بيته: « لِمَ نَفَعَلُ؟ إِنَّبَقَى بَعْدَكَ؟ لَأَرَانَا اللهُ ذَلِكَ أَبَدًا » فقال الحسين: « يا بنى عَقِيلِ حَسْبِكُمْ مِنَ الْقَتْلِ بِمَسْلَمٍ ، اذْهَبُوا قَدْ أَذِنْتُ لَكُمْ » قالوا: « فما يقول الناس؟ يقولون إنا تركنا شيخنا وسيدنا وبنى عمومتنا خير الأعمام ، ولم نَرْمِ معهم بسهم ، ولم نَطْعَن معهم بِرُمُوحٍ ، ولم نَضْرِبْ معهم بِسَيْفٍ ، ولا نَدْرِي ما صَنَعُوا ، لا والله لا نَفْعَلُ ، ولكن تَفْدِيكَ أَنْفُسَنَا وَأَمْوَالَنَا وَأَهْلوانا ، ونقاتل معك حتى نَرِدَ ، وورِدك ، فقبح الله العيش بعدك . »

٣٧ رد أصحابه

وقام إليه مسلم بن عَوْسَجَةَ الأَسَدِي فقال:

« أَنَحْنُ نُحَلِّي عَنْكَ وَلَمَّا نَعْذِرُ إِلَى اللهِ فِي أَداءِ حَقِّكَ؟ أَمَا وَاللهِ حَتَّى أَكْسِرَ فِي صَدُورِهِمْ رِجْحِي ، وَأَضْرِبَهُمْ بِسَيْفِي مَا ثَبَتَ قَائِمُهُ فِي يَدِي ، وَلَا أَفَارِقُكَ ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مَعِيَ سِلَاحٌ أَقَاتَلُهُمْ بِهِ ، لَقَذَفْتُهُمْ بِالْحِجَارَةِ دُونَكَ حَتَّى أَمُوتَ مَعَكَ . »

وقال سعد بن عبد الله الحنفي: « وَاللهِ لَا نُحَلِّيكَ حَتَّى يَعْلَمَ اللهُ أَنَّا قَدْ حَفِظْنَا غَيْبَةَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيكَ ، وَاللهِ لَوْ عَلِمْتُ أَنِّي أُقْتَلُ ، ثُمَّ أَحْيَا ، ثُمَّ أُحْرَقُ حَيًّا ، ثُمَّ أُذَرَّ ، يُفْعَلُ ذَلِكَ بِي سَبْعِينَ مَرَّةً ، مَا فَارَقْتُكَ حَتَّى أَلْتَقِيَ حِمَامِي دُونَكَ ، فَكَيْفَ لَا أَفْعَلُ ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا هِيَ قِتْلَةٌ وَاحِدَةٌ ، ثُمَّ هِيَ الْكِرَامَةُ الَّتِي لَا انْقِضَاءَ لَهَا أَبَدًا . »

وقال زهير بن القين: « وَاللهِ لَوْ دِدْتُ أَنِّي قُتِلْتُ ، ثُمَّ نُشِرْتُ ^(١) ، ثُمَّ قُتِلْتُ حَتَّى أَقْتَلَ كَذَا أَلْفَ قِتْلَةٍ ، وَأَنَّ اللهُ يَدْفَعُ بِذَلِكَ الْقَتْلَ عَنْ نَفْسِكَ ، وَعَنْ أَنْفُسِ هَؤُلَاءِ الْفَتِيَّةِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ . »

(١) حييت بعد موتي .

وتكلم جماعة أصحابه بكلام يُشبه بعضه بعضاً في وجه واحد ، فقالوا : « والله لا نفارقك ولكن أنفسنا لك الفداء ، نقيمك بنحورنا وجباهنا وأيدينا ، فإذا نحن قُبلنا كُفنا وفينا ، وقضينا ما علينا » .

٣٨ - خطبته غداة يوم قتله

وخطب الحسين غداة اليوم الذي استشهد فيه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :
« يا عباد الله ، اتقوا الله ، وكونوا من الدنيا على حذر ، فإن الدنيا لو بقيت على أحد ،
أو بقي عليها أحد ، لكانت الأنبياء أحقّ بالبقاء ، وأولى بالرضاء ، وأرضى بالقضاء ،
غير أن الله تعالى خلق الدنيا للعناء ، فجددوها بالبر ، ونعيمها مُضَجَّل ، وسرورها
مُكْفَهَر ، والمنزل تَلَعَة ^(١) ، والدار قُلْعَة ^(٢) ، فَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ،
وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » .

٣٩ - دعاؤه وقد صبحته الخيل

ولما صبحته الخيل رفع يديه فقال :
« اللهم أنت ثِقَتِي فِي كُلِّ كَرْبٍ ، وَرَجَائِي فِي كُلِّ شِدَّةٍ ، وَأَنْتَ لِي فِي كُلِّ أَمْرٍ
نَزَلَ بِي ثِقَةٌ وَعُدَّةٌ ، كَمْ مِنْ هَمٍّ يَضْعَفُ فِيهِ الْفُؤَادُ ، وَتَقَلُّ فِيهِ الْحِيلَةُ ، وَيَحْتَذُلُ فِيهِ
الصِّدْقُ ، وَيَشْمَتُ فِيهِ الْعَدُوُّ ، أَنْزَلْتَهُ بِكَ ، وَشَكَوْتُهُ إِلَيْكَ ، رَغْبَةً مِنْكَ إِلَيْكَ
عَنْ سِوَاكَ ، فَفَرَّجْتَهُ وَكَشَفْتَهُ ، فَأَنْتَ وَلِيٌّ كُلِّ نِعْمَةٍ ، وَصَاحِبُ كُلِّ حَسَنَةٍ ،
وَمُنْتَهَى كُلِّ رَغْبَةٍ » .

(١) التلعة : مجرى الماء من أهل الوادي إلى بطون الأرض ، والنزول بالتلعة مخوف ، لأن من نزلها فهو على خطر إن جاء السيل جرفه . (٢) الدنيا دار قلعة : أى انقلاع ، وهو على قلعة أى رحلة ، ومنزلها منزل قلعة أى ليس بمستوطن ، أو لا يملكه أو لا يدرى متى تتحول عنه .

٤ - خطبته وقد دنا منه القوم

ولما دنا منه القوم دعا براحلته فركبها ، ثم نادى بأعلى صوته :

« أيها الناس : اسمعوا قولي ، ولا تُعجلوني حتى أعظكم ، بما لحقَّ لكم عليّ ، وحتى أعتذر إليكم من مقدّمى عليكم ، فإن قبيلتم عذري ، وصدّقتم قولي ، وأعطيتموني النصف ، كنتم بذلك أسعد ، ولم يكن لكم عليّ سبيل ، وإن لم تقبلوا مني العذر ، ولم تعطوا النصف من أنفسكم . فأجمعوا أمركم وشركاءكم ، ثم لا يكن أمركم عليكم غمّة ، ثم أفضوا إليّ ولا تنظرون - إن ويليّ الله الذي نزل الكتاب وهو يتولّى الصالحين » .

فلما سمع أخواته كلامه هذا صحن وبكين وبكى بدياته ، فارتفعت أصواتهن ، فأرسل إليهن أخاه العباس بن عليّ وعليّاً ابنه ، وقال لهما : أشكيتاهنّ ، فلعمرى لبيكُنّ بكاهن

٤١ - خطبة أخرى

فلما سكتن حمد الله وأثنى عليه ، وذكر الله بما هو أهله ، وصلى على محمد صلى الله عليه وعلى ملائكته وأنبيائه ، ثم قال :

« أما بعد : فانسبوني فانظروا من أنا ؟ ثم ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها ، فانظروا هل يحلّ لكم قتلي ، وانتهاك حرمتي ؟ ألسنتُ ابن بنت نبيكم صلى الله عليه وسلم وابن وصيّه ، وابن عمّه ! وأول المؤمنين بالله ، والمصدّق لرسوله بما جاء به من عند الله ؟ أو ليس حمزة سيّد الشهداء عمّ أبي ؟ أو ليس جعفر الشهيد الطيّار ذوالجناحين عمي ؟ أو لم يبلغكم قولٌ مستفيض فيكم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي ولأخي :

هذان سيدا شباب أهل الجنة؟ فإن صدقتموني بما أقول - وهو الحق - والله ما تعمّدت كذباً مذ علمت أن الله يمقت عليه أهله ، وَيَضُرُّهُ بِهِ مِنْ اخْتَلَفِهِ ، وإن كذبتموني فإن فيكم من إن سألتموه عن ذلك أخبركم . سلوا جابر بن عبد الله الأنصاري ، أو أبا سعيد الخدري أو سهل بن سعد الساعدي ، أو زيد بن أرقم ، أو أنس بن مالك ، يخبروكم أنهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله صلى الله عليه وسلم لي ولأخى ، أضافي هذا حاجزٌ لكم عن سفك دمي ؟ » .

ثم قال : « فإن كنتم في شك من هذا القول ، أفشكون أثراً^(١) ما أنى ابن بنت نبيكم؟ فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غيري منكم ، ولا من غيركم ، أنا ابن بنت نبيكم خاصة ، أخبروني أتطلبونني بقتيل منكم قتلته ، أو مال لكم استهلكته ؟ أو بقصاص من جراحة ؟ »

فأخذوا لا يكلمونه ، فنأدى ياشبث بن ربعي ، وياحجار بن أبحر ، وياقيس بن الأشعث ، ويازيد بن الحارث ، ألم تكتبوا إلى أن قد أينعت الثمار ، واخضر الجنب ، وطمت الجمام ، وإنما تقدّم على جندك مجتد ، فأقبل ؟ قالوا لم نفعل ، فقال : سبحان الله بلى ، والله لقد فعلتم ، ثم قال : « أيها الناس : إذ كرهتموني فدعوني أنصرف عنكم إلى مآمني من الأرض » . فقال له قيس بن الأشعث : أولاً تنزل على حكم بني عمك ؟ فإنهم لن يرؤوك إلا مانحاً ، ولن يصل إليك منهم مكروه . فقال له الحسين : « أنت أخوأخيك ، أريد أن يطلبك بنو هاشم بأكثر من دم مسلم بن عقيل ؟ لا والله لأعطيهم بيدي إعطاء الدليل ، ولا أقر إقرار العبيد ، عباد الله ، إني عذتُ برَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُونِ ، أَعُوذُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ » ، فأقبلوا يزحفون نحوه .

(١) أثراً منصوب على نزع الخافض ، أي أفشكون في أثر ، وما زائدة ، وأنى ابن بنت نبيكم

٤٢ - خطبة زهير بن القين

فلما زحفوا قبله خرج إليهم زهير بن القين على فرس له ذنوب^(١) شاك^(٢) في السلاح فقال :

« يا أهل الكوفة ، نذاري لكم من عذاب الله نذاري ، إن حقا على المسلم نصيحة أخيه المسلم ، ونحن حتى الآن إخوة ، وعلى دين واحد ، وملة واحدة ، ما لم يقع بيننا وبينكم السيف ، وأنتم للنصيحة منا أهل ، فإذا وقع السيف انقطعت العصمة^(٣) ، وكنا أمة وأنتم أمة ، إن الله قد ابتلانا وإياكم بذرية نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، لينظر ما نحن وأنتم عاملون ، إنا ندهوكم إلى نصرهم ، وخذلان الطاغية عبيد الله بن زياد ، فإنكم لا تذر كون منهما إلا بسوء ، عُمرَ سلطانهما كله ، لَيْسْمُ لَانَ أَعْيُنِكُمْ^(٤) ، ويقطعان أيديكم وأرجلكم وَيُمَثِّلَانِ بَكُمْ ، ويرفعانكم على جذوع النخل ، ويقتلان أمثالكم وقراءكم ؛ أمثال حُجْرِ بْنِ عَدِيٍّ^(٥) وأصحابه ، وهاني بن عروة وأشباهه . »

(١) الذنوب : الفرس الوافر الذنب . (٢) يقال رجل شاك السلاح وشاك في السلاح (بتشديد الكاف فيهما) وهو اللابس السلاح التام ، من شك في السلاح أى دخل ، شك فيه (كرد) شكنا أى لبسه تماما فلم يدع منه شيئا ، ويقال : رجل شائك السلاح ، وشاكي السلاح ، وشاك في السلاح (كراض) وهو ذو الشوكة والحد في سلاحه ، والشائك : من شك الرجل يشاك شوكا (كنام نوما) أى ظهرت شوكته وحدته - والشوكة : حدة السلاح - والشاكي مقلوب من شائك ، ويقال أيضا رجل شاك السلاح (بضم الكاف) فإن أردت معنى فاعل قلت شاك (كراض) وإن أردت معنى فعل (كفرح) قلت شاك (بضم الكاف) وهو مثل جرف هار (كراض) وهار (كنار) كما يقال رجل مال وفال (بالضم) من المال والنوال وإنما هو مائل ونائل . (٣) العصمة : القلادة ، أى تفرقت وحدتنا ، وانفرد عقد جماعتنا .

(٤) سمل عينه : فقأها بحديدة محماة .

(٥) هو حجر بن عدى بن جبلة الكندي من كبراء الشيعة بالكوفة ، وذلك أن زياد بن أبيه لما جمعت له الكوفة والبصرة بلغه أن حجرا يجتمع إليه الشيعة ويظهرون لمن معاوية والبراءة منه ، فكتب إلى معاوية في أمره فكتب إليه معاوية أن شده في الحديد ثم أحمله إلى ، فشده في الحديد وحمل إلى معاوية ، وأشهد عليه شهودا =

فَسَبُّوهُ وَأَثَرُوا عَلَى عبيدِ اللَّهِ بنِ زيادٍ ، ودَعَوَاهُ ، وقالوا : والله لا نبرح حتى نقتلَ صاحبك ومن معه ، أو نبعث به وبأصحابه إلى الأمير عبيد الله سَلِمًا .

فقال لهم : « عباد الله ، إن ولد فاطمة رضوان الله عليها أحقُّ بالود والنصر من ابنِ سُمَيَّةَ ، فإن لم تنصروهم ، فأعيذكُم بالله أن تقتلوهم ، فخلُّوا بين هذا الرجل وبين ابنِ عمه يزيدَ بن معاوية ، فلمعمرى إن يزيدَ آيِرَضَى من طاعتكم بدون قتل الحسين » .

فرماه شمرُ بن ذى الجَوْشَنِ بسهم وقال : « اسكت ، أسكت الله نَأْمَتَكَ (١) ، أبرمتنا بكثرة كلامك » فقال له زهير : « يا ابنِ البَوَّالِ على عَقَبِيهِ ، ما إِيَّاكَ أَخاطب ، إنما أنت بهيمة ، والله ما أظنك تُحْكِمُ من كتاب الله آيتين ، فأبشِرْ بالخزى يوم القيامة والعذاب الأليم » فقال له شمر : « إن الله قاتلك وصاحبك عن ساعة » قال : « أفبالموت تخوِّفنى ؟ فوالله لَمَمَّوتَ معه أحبُّ إلى من الخلد معكم » .

ثم أقبل على الناس رافعاً صوته فقال : « عباد الله ، لا يَغُرُّنكم من دينكم هذا الجلف الجاني وأشباهه ، فوالله لا تنال شفاعَةَ محمد صلى الله عليه وسلم قومًا هَرَأَوْا دماءَ ذرِّيَّته وأهل بيته ، وقتلوا من نصرهم ، وذَبَّ عن حريمهم » .

فناداه رجل فقال له : « إن أبا عبد الله يقول : « أَقْبِلْ ، فلمعمرى إن كان مؤمن آل فرعون نصح لقومه ، وأبلاغ في الدعاء ، لقد نصحت لهؤلاء ، وأبلغت لو نفع النصح والإبلاغ » .

= أنه خلع الطافة ، وفارق الجماعة ؛ ولعن الخليفة ، ودما إلى الحرب والفتنة ، وجمع إليه الجموع يدعو إلى نكث البيعة وخلع معاوية ، وزعم أن هذا الأمر لا يصلح إلا في آل أبي طالب ، وحمل معه كبار أصحابه ، فكانوا أربعة عشر رجلا ، فلما قدموا على معاوية شفع في بعضهم فخلى سبيلهم ، وقال رسول معاوية للباقيين إذا قد أمرنا أن نعرض عليكم البراءة من علي واللعن له ، فإن فعلتم تركناكم ، وإن أبيتم قتلناكم ، فأبرهوا من هذا الرجل نخل سبيلكم ، فأبوا وقالوا بل نتولاه وننتبرأ من تبرأ منه ، فقتلوا وقتل حجر وستة معه ، وكان ذلك سنة ٥١ هـ . (١) النامة : الصوت .

٤٣ - خطبة الحر بن يزيد

ولما زحف عمر بن سعد قال له الحر بن يزيد : « أصلحك الله : مقاتل أنت هذا الرجل ؟ قال : « إى والله قتالا أيسرُهُ أن تسقط الرءوس ، وتطيح الأيدي » قال : « أفما لكم فى واحدة من الخصال التى عرض عليكم رضا ؟ » قال عمر : « أما والله لو كان الأمر إلىّ لفعلت ، ولكن أميرك قد أبى ذلك » .

ثم ضرب الحر فرسه ، ولحق بالحسين عليه السلام وأنحاز إليه ، واستقدم أمام أصحابه ثم قال :

« أيها القوم : ألا تقبلون من حسين خِصْلَةً من هذه الخصال التى عرض عليكم ، فيعافىكم الله من حر به وقتاله ؟ قالوا : هذا الأمير عمر بن سعد فكلمه ، فكلمه بمثل ما كلمه به من قبل ، وبمثل ما كلم به أصحابه » فقال عمر : « قد حصت لو وجدت إلى ذلك سبيلاً فعلت » .

فقال : « يا أهل الكوفة : لِأُمَّمُكُمُ الْهَيْبَلُ وَالْعَبْرُ^(١) إذ دعوتهموه ، حتى إذا أنا كم أسلمتهموه^(٢) ، وزعمتم أنكم قاتلو أنفسكم دونه ، ثم عدوتم عليه لتقتلوه ، أمسكتكم بنفسي ، وأخذتم بكظمي^(٣) ، وأحطتم به من كل جانب . فندعتهموه التوجه فى بلاد الله العريضة ، حتى يأمن ويأمن أهل بيته ، وأصبح فى أيديكم كالأسير لا يملك لنفسه نفعا ، ولا يدفع ضرا ، وحللتهموه^(٤) ونساءه^(٥) وأصبيبتهم^(٥) وأصحابه عن ماء الفرات الجارى ،

(١) الهبل : الشكل ، هبلته أمه : كفرح ثكلته وفقدته ، والعبر والمبر (كسبب وقفل) سخنة فى العين تبيها ، عبرت العين كفرح جرى دمعها ، يقال لأمه الهبل ، ولأمه العبر ، والعبر : دعاء عليه .
(٢) حللتهموه . (٣) الكظم : مخرج النفس . (٤) حلاؤه عن الماء تحليثا وتحلته : طرده ومنعه .
(٥) مصفر صبية على غير قياس .

الذى يشربه اليهودى والمجوسى والنصرانى ، وتمرغ فيه خنازيرُ السواد وكلابه ، وهام
قد صرعهم العطش ، بشما خلقتُم محمداً فى ذريته ، لأسقاكم الله يوم الظام إن لم تتوبوا ،
وتنزِعوا عما أنتم عليه ، من يومكم هذا ، فى ساعتكم هذه .

ثم نشب القتال بين الفريقين ، واستمات أصحاب الحسين فى القتال حتى فنوا ، وقتل
الحسين رضوان الله عليه . قتله سنان بن أنس (وكان قتله بالطف^(٦) يوم عاشوراء
سنة ٤٠ هـ) وأمر ابن سعد أصحابه أن يوطئوا خيالهم الحسين ، فوطئوه بخيلهم ، ثم حمل
النساء ورأسه إلى يزيد بن معاوية بدمشق .

(تاريخ الطبرى ٦ : ١٨٨ إلى ٢٧٠ ، ومروج الذهب ٢ : ٨٦ ، وزهر الآداب ١ : ٧١) .

(٦) الطف : أرض من ضاحية الكوفة فى طريق البرية ، وقال عبد الله بن الأحمر من قصيدة :

فأضحى « حسين » لرماح دريئة	وغودر مسلوباً لدى الطف ثاويها
فياليتنى إذ ذاك كنت شهده	فضاربت عنه الشانين الأعدايا
سقى الله قبراً ضمن المجد والتقى	بغربية الطف الغمام الغواديا

طلب التوابين بدم الحسين

رضى الله عنه

وفي سنة خمس وستين تحركت الشيعة بالكوفة ، واتعدوا الاجتماع بالتخيلة للمسير إلى أهل الشام لطلب بدم الحسين بن علي رضي الله عنهما ، وذلك أنهم بعد مقتله تلاقوا بالتلاوم والتندم ، ورأوا أنهم قد أخطئوا خطأ كبيراً بدعائهم إياه إلى النصرة وتركهم إجابته ، ومقتله إلى جانبهم لم ينصروه ، ورأوا أنه لا يُغسل عارهم والإثم عنهم في مقتله إلا بقتل من قتله أو القتل فيه وتابوا مما قرط منهم في ذلك « فسموا التوابين » وفزعوا بالكوفة إلى خمسة نفر من رؤوس الشيعة : إلى سليمان بن صرد الخزاعي ، وكانت له صحبة مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وإلى المسيب بن نجبة الفزاري ، وإلى عبدالله بن سعد ابن نفيّل الأزدي ، وإلى عبد الله بن وال التيمي ، وإلى رفاعة بن شداد البجلي ، ثم إن هؤلاء النفر اجتمعوا في منزل سليمان بن صرد ، ومعهم أناس من الشيعة وخيارهم ووجوههم ، فبدأ المسيب بن نجبة بالكلام فتكلم :

٤٤ - خطبة المسيب بن نجبة الفزاري

حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :
« أما بعد فإننا قد ابتلينا بطول العمر ، والتعرض لأنواع الفتن ، فنرغب إلى ربنا
الآن يجعلنا ممن يقول له غدا : (أَوْلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ
النَّذِيرُ) فإن أمير المؤمنين قال : « العمر الذي أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة »
وليس فينا رجل إلا وقد بلغه ، وقد كنا مُغْرَمِينَ بتزكية أنفسنا ، وتقر يظ شيعتنا ، حتى

بلا الله أختيارنا ، فوجدنا كاذبين في موطين من مواطن ابن ابنة نبينا صلى الله عليه وسلم ، وقد بلغتنا قبل ذلك كتبه ، وقدمت علينا رسله ، وأعذر إلينا يسألنا نصره عودا وبدءا ، وعلانية وسرا ، فبخلنا عنه بأنفسنا ، حتى قتل إلى جانبنا ، لانحن نصرناه بأيدينا ولا جادأنا عنه بالسنتنا ، ولا قويناه بأموالنا ، ولا طلبنا له النصره إلى عشائرتنا ؛ فما عذرنا إلى ربنا ، وعند لقاء نبينا صلى الله عليه وسلم ؛ وقد قتل فينا ولده وحيبيه وذريته ونسله ، لا والله لا عذر درن أن تقتلوا قاتله والمولين عليه ، أو تقتلوا في طلب ذلك ؛ فعسى ربنا أن يرضى عنا عند ذلك ؛ وما أنا بعد لقائه لعقوبته بآمن ، أيها القوم ولوا عليكم رجلا منكم ، فإنه لا بد لكم من أمير تفزعون إليه ، ورأية تحفون بها ، أقول قولى هذا ، وأستغفر الله لى ولكم .

فبدر^(١) القوم رفاة بن شداد بعد المسيب الكلام .

٤٥ - خطبة رفاة بن شداد

فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :
« أما بعد : فإن الله قد هدك لأصوب القول ، ودعوت إلى أرشد الأمور ، بدأت بحمد الله والثناء عليه ، والصلاة على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ودعوت إلى جهاد الفاسقين وإلى التوبة من الذنب العظيم ، فسموع منك ، مستجاب لك ، مقبول قولك : قلت ولوا أمركم رجلا منكم تفزعون إليه ، وتحفون برايته ، وذلك رأى ، قد رأينا مثل الذى رأيت ، فإن تكن أنت ذلك الرجل تكن عندنا مرضيا ، وفينا متنصحا ، وفي جماعتنا محبا ، وإن رأيت (ورأى أصحابنا ذلك) ولينا هذا الأمر شيخ الشيعة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذا السابقة والقدم سليمان بن صرد ، الحمود فى بأسه ودينه ، والموثوق بحزمه ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم . »

ثم تكلم عبد الله بن والٍ ، وعبد الله بن سعد ، فحمدَا ربهما وأثنيا عليه ، وتكلمَا
بنحوٍ من كلام رفاة بن شداد ، فذكرَا المسيب بن نجبة بفضله ، وذكرَا سليمان
ابن سرد بسابقته ورضاهما بتوليته ، فقال المسيب بن نجبة : « أصبتم ووقتم ، وأنا أرى
مثل الذي رأيتم ، فولوا أمركم سليمان بن سرد » .

٤٦ - خطبة سليمان بن سرد

قال حميد بن مسلم : والله إني لشاهد بهذا اليوم يوم وآوا سليمان بن سرد^(١) وأنا
يومئذ لأكثر من مائة رجل من فرسان الشيعة ووجوههم في داره ، قال : فتكلم سليمان
فشدد ، وما زال يردد ذلك القول في كل جمعة حتى حفظته ، بدأ فقال :

« أثنى على الله خيراً ، وأحمد آلاءه وبلاءه ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً
رسول الله ، أما بعد : فإني والله لخائف ألا يكون آخرنا إلى هذا الدهر (الذي نكدت
فيه المعيشة ، وعظمت فيه الرزية ، وشمل فيه الجورُ أُولي الفضل من هذه الشيعة) لما هو
خيرٌ ، إنا كنا نمدُّ أعناقنا إلى قدوم آل نبينا ، ومُنْتَمِيهِم النصر ، ونحْمُثُهُم على القدوم ؛
فلما قدِموا ونَدِينَا وَعَجَزْنَا وَأَذَهْنَا وَتَرَبَّصْنَا وانتظرنا ما يكون حتى قُتِلَ فِينَا وَلَدِينَا
وَلَدُ نَبِينَا وَسُلَالَتِهِ وَعُصَارَتِهِ وَبَضْعُهُ^(٢) من لحمه ودمه ، إذ جعل يستصرخُ ويسأل
النَّصَفَ^(٣) فلا يُعْطَاهُ ، انخذه الفاسقون غَرَضاً لِلنَّبْلِ ، وَدَرِيَّةً^(٤) للرماح ، حتى أقصدوه^(٥)
وَعَدَّوْا عَلَيْهِ فسلبوه ، ألا انهضوا فقد سخِطَ ربكم ، ولا ترجعوا إلى الحلائل^(٦) والأبناء
حتى يرضى الله ، والله ما أظنه راضياً دون أن تُتَاجَزُوا من قتله أو تُبَيِّرُوا^(٧) ، ألا لاتهابوا

(١) وقد سمي أمير التوابين . (٢) البضعة بالفتح وقد تكسر : القطعة من اللحم .

(٣) الإنصاف . (٤) مسهل عن دريئة ، والدريئة : الحلقة يتعلم الطعن والرمى عليها .

(٥) أقصد السهم : أصاب فقتل مكانه ، وأقصد فلانا : طعنه فلم يخطئه .

(٦) جمع حليلة : وهي الزوجة . (٧) بار يبور بوارا : هلك . وأباره أهلكه ، لى تهلکوا أنفسكم .

الموت ، فوالله ما هابه امرؤ قط إلا ذل ، كونوا كالأولى من بنى إسرائيل إذ قال لهم نبيهم « إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلك خير لكم عند بارئكم » فما فعل القوم ؟ جنوا على الركب والله ، ومدوا الأعناق ، ورضوا بالقضاء حتى حين علموا أنه لا ينجيهم من عظيم الذنب إلا الصبر على القتل ، فكيف بكم لو قد دُعيتم إلى مثل ما دعى القوم إليه ؟ اشحدوا السيوف ، وركبوا الأسنة « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ^(١) » حتى تدعوا وتستنقروا .

٤٧ - خطبة خالد بن سعد بن نفيل

فقام خالد بن سعد بن نفيل فقال : « أما أنا فوالله لو أعلم أن قتلى نفسي يُخزجني من ذنبي ، ويرضى عني ربي لقتلتها ، ولكن هذا أمر به قوم كانوا قبلنا ونهيننا عنه ، فأشهد الله ومن حضر من المسلمين أن كل ما أصبحت أملكه سوى سلاحى الذى أقاتل به عدوى صدقة على المسلمين أقوىهم به على قتال القاسطين ^(٢) » .

وقام أبو المعتمر حنش بن ربيعة الكنانى ، فقال : « وأنا أشهدكم على مثل ذلك » فقال سليمان بن صرد : « حسبكم ، من أراد من هذا شيئاً فليأت بالله عبد الله بن وال التيمى تيم بكر بن وائل ، فإذا اجتمع عنده كل ما تريدون إخراجه من أموالكم ، جهزنا به ذوى الخلة ^(٣) والمسكنة من أشياءكم » .

(١) اسم للخيل التى تربط فى سبيل الله فعال بمعنى مفعول ، أو مصدر سمي به كالمرباطة ، أو جمع رباط

فعليل بمعنى مفعول . (٢) الجائرين ، قسط كجلس قسوطا : جار وعدل عن الحق .

(٣) الخلة : الحاجة والفقير ، وفى المثل : « الخلة تدعو إلى السلة » بفتح السين أى إلى الاستلال والسرقة .

٤٨ - خطبة سعد بن حذيفة بن اليمان

وكتب سليمان بن صرد إلى سعد بن حذيفة بن اليمان بالمدائن كتاباً يستنهض فيه همم إخوانه هنالك ، ويدعوهم أن يجثوا ويستمدوا ، وضرب لهم غرة ربيع الآخر سنة ٦٥ أجلا يلقونه فيه ، والنخيلة موطناً يوافونه إليه ، فبعث سعد إلى من كان بالمدائن من الشيعة ، فقرأ عليهم كتاب سليمان بن صرد ، ثم إنه حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد فإنكم قد كنتم مجتمعين مُزْمَعين على نصر الحسين ، وقتالِ عدوه ، فلم يُفجأكم أولٌ من قتله ، والله مُثيبكم على حُسن النية ، وما أجمعتم عليه من النصر أحسن المثوبة ، وقد بعث إليكم إخوانكم يستنجدونكم ويستمدونكم ، ويدعونكم إلى الحق وإلى ما ترجون لكم به عند الله أفضل الأجر والحظ ، فإذا ترون ؟ وماذا تقولون ؟ » .

فقال القوم بأجمعهم : « نجيبهم ونقاتل معهم ، ورأينا في ذلك مثل رأيهم » .

٤٩ - خطبة عبد الله بن الحنظل الطائي

فقام عبد الله بن الحنظل الطائي فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أما بعد فإننا قد أجبنا إخواننا إلى مادعونا إليه ، وقد رأينا مثل الذي قد رأوا ، فسرّخني إليهم في الخيل » .

فقال له : « رويدا لاتعجل ، استعدوا للعدو ، وأعدوا له الحرب ، ثم سير وتسيرون »

وكتب سعد إلى ابن صرد بإجابة دعوته ، وأنهم في انتظار أمره .

٥٠ - خطبة عبيد الله بن عبد الله المري

وحدث رجل من مُزَيِّنَة قال : « ما رأيت من هذه الأمة أحداً كان أبغ من عبيد الله بن عبد الله المُرِّيِّ في منطوق ولا عِظَة ، وكان من دُعاة أهل المصر زمان سليمان ابن صرد ، وكان إذا اجتمعت إليه جماعة من الناس فوعظهم ، بدأ بحمد الله والثناء عليه والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم يقول :

أما بعد : فإن الله اصطفى محمداً صلى الله عليه وسلم على خلقه بنبوته ، وخصه بالفضل كله ، وأعزكم باتباعه ، وأكرمكم بالإيمان به ، فحقن به دماءكم المسفوكة ، وآمن به سبلكم المَخُوفَة : « وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا^(١) حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ ، فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » فهل خلق ربكم في الأولين والآخريين أعظم حقاً على هذه الأمة من نبيها ؟ وهل ذرية أحد من النبيين والمرسلين أو غيرهم أعظم حقاً على هذه الأمة من ذرية رسولها ؟ لا والله ما كان ولا يكون ، لله أنتم ! ألم تروا وبياناتكم ما أُجْتَرِمَ^(٢) إلى ابن بنت نبيكم ؟ أما رأيتم إلى انتهاك القوم حرمة ، واستضعافهم وخذلته ، وترميلهم^(٣) إياه بالدم ، ونجر أريهموه على الأرض ؟ لم يراقبوا فيه ربهم ولا قرابته من الرسول صلى الله عليه وسلم ! اتخذوه للنبل غرضاً ، وغادروه للضباع جزراً^(٤) ، فله عيناً من رأى مثله ! والله حسين بن علي ! ماذا غادروا به ؟ ذا صدق وصبر ، وذا أمانة ونجدة وحزم ، ابن أول المسلمين إسلاماً ، وابن بنت رسول رب العالمين ، قَلَّتْ حُمَاتُهُ ، وكثرت عُدَاتُهُ^(٥) حوله ، فقتله عدوه وخذله وليه ، فويل للقاتل ، وملامة للخاذل ، إن الله لم يجعل لقاتله حجةً ، ولا لخاذله معذرةً ، إلا أن يُذَاحِجَ الله في التوبة ، فيجاهد القاتلين ، وينابذ القاسطين ، فعسى الله عند ذلك أن يقبل التوبة وَيُقْبِلَ الْعَثْرَةَ

(١) الشفا : حرف كل شيء . (٢) ارتكب واقترب . (٣) رملة : لطمه بالدم .

(٤) قطما . (٥) العداة : جمع عاد ، وهو العدو .

إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه والطلب بدماء أهل بيته ، وإلى جهاد المُحِلين
والمارقين ، فإن قُتِلنا فما عند الله خير للأبرار ، وإن ظَهَرنا رددنا هذا الأمر إلى أهل
بيت نبينا .

قال : « وكان يعيد هذا الكلام علينا في كل يوم حتى حفظه عامتنا » .

* * *

وكان الشيعة بالكوفة منذ قتل الحسين رضى الله عنه (سنة ٦١ هـ) يَجِدُونَ في جمع
آلة الحرب والاستعداد للقتال ودعاء الناس في السر من الشيعة وغيرها إلى الطلب بدمه
حتى كثرت تبعمهم ، وكان الناس إلى اتباعهم بعد هلاك يزيد بن معاوية (في ٤ ربيع الأول
سنة ٦٤ هـ) أسرع منهم قبل ذلك .

وقدم المختار بن أبى عبيد الثقفى الكوفة في النصف من رمضان سنة ٦٤ ، وقد
اجتمعت رهوس الشيعة ووجوهها مع سليمان بن سرد ، فليس يَعْدِلونه به ، فكان
المختار إذا دعاهم إلى نفسه وإلى الطلب بدم الحسين ، قالت له الشيعة : « هذا سليمان
ابن سرد شيخ الشيعة قد انقادوا له واجتمعوا عليه » فأخذ يقول للشيعة : « إني قد
جئتكم من قبيل المهدي محمد بن على (ابن الحنفية) مؤمناً مأموناً ، مُنْتَجِباً^(١)
ووزيراً » فزال بهم حتى انشعبت إليه طائفة تُعْظِمُهُ وتُجِيبُهُ وتنتظر أمره ، وعُظُمُ
الشيعة مع سليمان بن سرد .

وقدم عبد الله بن يزيد الأنصارى من قبيل عبد الله بن الزبير أميراً على الكوفة على
حربها وتفرها ، وقدم معه إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد الله التيمي أميراً على خراجها
(وذلك بعد مقدّم المختار بثمانية أيام) وكان سليمان بن سرد وأصحابه يريدون أن يَثْبُتُوا
بالكوفة ، ونمى إلى عبد الله بن يزيد اعتزام الشيعة الخروج ، فخرج حتى صعد المنبر ثم
قام في الناس .

(١) المنتجب : المختار .

٥١ - خطبة عبد الله بن يزيد الأنصاري

فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، فقد بلغني أن طائفة من أهل هذا المصر أرادوا أن يخرجوا علينا ، فسألت عن الذي دعاهم إلى ذلك ما هو ؟ فقيل لي زعموا أنهم يطلبون بدم الحسين بن علي ، فرحم الله هؤلاء القوم ، قد والله دُلِّتُ على أماكنهم ، وأمرت بأخذهم ، وقيل ابدأهم قبل أن يبدؤوك ، فأبيت ذلك ، فقلت إن قاتلوني قاتلتهم ، وإن تركوني لم أطلبهم ، وعلام يقاتلونني ؟ فوالله ما أنا قتلت حسيناً ولا أنا من قاتله ، واقد أصبتُ بمقتله رحمة الله عليه ، فإن هؤلاء القوم آمنون ، فليخرجوا ولينتشروا ظاهرين ، لِيَسِيرُوا إلى من قاتل الحسين فقد أقبل إليهم ، وأنا لهم على قاتله ظهير^(١) ، هذا ابن زياد قاتلُ الحسين وقاتلُ خياركم وأمائلكم ، قد توجه إليكم عهدُ العاهد به^(٢) على مسيرة ليلةٍ من جسر منبج^(٣) ، فقتاله والاستعداد له أولى وأرشد من أن تجعلوا بأسكم بينكم ، فيقتل بعضكم بعضاً ، ويسفك بعضكم دماء بعض ، فيأقماكم ذلك العدو غداً وقد رَقَقْتُمْ^(٤) ، وتلك والله أمنيَّةُ عدوكم ، وإنه قد أقبل إليكم أعدى خلقِ الله لكم ، مَنْ وَاوَىٰ عَلَيْكُمْ هو وأبوه سبع سنين ، لَا يُقْلِعَانِ عن قتل أهل العفاف والدين ، هو الذي قتلكم ، وَمِنْ قِبَلِهِ أُتِيتُمْ ، والذي

(١) معين . (٢) وذلك أن عبيد الله بن زياد لما هاجت الفتنة بالبصرة بعد وفاة معاوية الثاني

(سنة ٦٤ هـ) لحق بالشام ، وكان مروان بن الحكم قد أراد أن يبايع ابن الزبير لما رأى من إطباق الناس على مبايعته وإجابته له ، وبلغ ابن زياد ذلك ، فقال له : استحيت لك مما تريد ، أنت كبير قریش وسيدها تصنع ماتصنعه ! وشد من عزيمته حتى نهض في طلب الخلافة وتمت له فبويع بها ، فلما استوثقت له الشام بالطاعة بعث جيشاً إلى العراق عليه ابن زياد ، وجعل له حين وجهه إلى العراق ماغلب عليه ، وأمره أن ينهب الكوفة إذا هو ظفر بأهلها ثلاثاً . (٣) بين حلب والفرات . (٤) ضعفتم .

قتل من تشأرون بدمه قد جاءكم ، فاستقبلوه بحمدكم وشوكتكم ، واجعلوها به ولا تجعلوها بأنفسكم ، إني لم آلكم نصحا^(١) ، جمع الله لنا كلمتنا ، وأصلح لنا أمتنا .

٥٢ - خطبة إبراهيم بن محمد بن طلحة^(٢)

فقال إبراهيم بن محمد بن طلحة :

« أيها الناس : لا يغرّ نكم من السيف والغشم^(٣) مقالة هذا المداهن الموادع ؛ والله لئن خرج علينا خارج لقتلناه ، ولئن استيقننا أن قوما يريدون الخروج علينا ، لناخذن الوالد بولده ، والمولود بوالده ، ولناخذن الحميم^(٤) بالحميم ، والعريف^(٥) بما في عرافته ، حتى يدينوا للحق ، ويذلوا للطاعة . »

٥٣ - رد المسيب بن نجبة

فوثب إليه المسيب بن نجبة فقطع عليه منطقه ، ثم قال :

« يا بن الناكثين^(٦) : أنت تهددنا بسيفك وغشمك ؟ أنت والله أذل من ذلك ، إنا لانلومك على بغضنا وقد قتلنا أباك^(٧) وجدك ، والله إني لأرجو أن لا يخرجك الله من بين ظهراني أهل المصر حتى يثلثوا بك جدك وأباك ، وأما أنت أيها الأمير ، فقد

(١) أي لم أفصر في نصحكم . (٢) مات سنة عشر ومائة عن أربع وسبعين سنة ، وكان يسمى أسد قريش .

(٣) الظلم ، والمراد هنا القوة والأخذ بالشدّة . (٤) حميمك : قريبك الذي تهتم لأمره .

(٥) العريف : رئيس القوم ، سمي لأنه عرف بذلك ، أو للتقيب ، وهو دون الرئيس ، عرف

ككرم وضرب عرانة صار عريفا . (٦) يشير إلى ما كان من جده طلحة بن عبيد الله إذ بايع الإمام

علياً ثم فكث بيعته ، وقد اعتذر عن ذلك بأنه بايع والسيف على عنقه . (٧) قتل محمد بن طلحة يوم

الجمل مع أبيه ومر به على ، فقال هذا رجل قتله بره بأبيه وطاعته .

قلت قولا سديدا ، انى والله لأظن من يريد هذا الأمر^(١) ، مستنصحا لك ،
وقابلا قولك .

فقال إبراهيم بن محمد بن طلحة : « إى والله ليقتنن وقد أذهن ثم أعلن » .

٥٤ - رد عبد الله بن وال التيمى

فقام إليه عبد الله بن وال التيمى ، فقال :

« ما اعتراضك يا أخا بنى تيم بن مرة فيما بيننا وبين أميرنا؟ فوالله ما أنت علينا بأمير ،
ولالك علينا سلطان وإنما أنت أمير الجزية ، فأقبل على خراجك ، فلعمرو الله لئن كنت
مفسدا ، ما أفسد أمر هذه الأمة إلا والدك وجدك الناكثان ، فكانت بهما اليدان^(٢)
وكانت عليهما دائرة السوء » .

ثم أقبل المسيب بن نجبة ، وعبد الله بن وال على عبد الله بن يزيد فقالا :

« أما رأيك أيها الأمير فوالله إنا نرجو أن تكون به عند العامة محمودا ، وأن تكون
عند الذى عنيت واعتريت مقبولا » .

ثم نزل عبد الله بن يزيد ودخل .

فلما استهل هلال ربيع الآخر سنة ٦٥ شخص ساجان بن صرد فى وجوه أصحابه ،
وقد كان واعد أصحابه عامة للخروج فى تلك الليلة للمسكر بالنخيلة ، وأقام بها ثلاثا يبعث
ثقاته من أصحابه إلى من تخلف عنه يذكروهم الله وما أعطوه من أنفسهم ، فقام إليه المسيب
ابن نجبة ، فقال : « رحمك الله إنه لا ينفعك الكاره ، ولا يقاتل معك إلا من أخرجته

(١) أى الطلب بدم الحسين رضى الله عنه . (٢) تقول العرب : كانت به اليدان ، أى فعل الله به

مايقوله لى ، ومرقوم من الخوارج يقوم من أصحاب على وهم يدعون عليهم ، فقالوا : بكم اليدان أى حاق
بكم ما تدعون به وتبسطون أيديكم .

النية ، فلا تنتظرن أحدا ، واكش^(١) في أمرك « قال : « فإنك والله لنعمًا رأيت » فقام سليمان بن سرد في الناس متوكئًا على قوس له عر بية فقال :

٥٥ - خطبة سليمان بن سرد

« أيها الناس : من كان إنما أخرجه إرادة وجه الله وثواب الآخرة ، فذلك منا ونحن منه ، فرحة الله عليه حيا وميتًا . ومن كان إنما يريد الدنيا وحزنها^(٢) ، فوالله ما أتى فيئًا نسيئته ، ولا غنيمة نغمها ، ما خلا رضوان الله رب العالمين ، وما معنا من ذهب ولا فضة ، ولا خز ولا حرير ، وما هو إلا سيوفنا في عواتقنا ، ورماحنا في أكفنا ، وزاد قدر البلغة^(٣) إلى لقاء عدونا ، فمن كان غير هذا ينوى فلا يصحبنا » .

٥٦ - خطبة صخير بن حذيفة بن هلال

فقام صخير بن حذيفة بن هلال بن مالك المزني فقال :

« آتاك الله رشدك ، ولقأك حجتك ، والله الذي لا إله غيره مالنا خير في حجة من الدنيا همته ونيتة . أيها الناس : إنما أخرجتنا التوبة من ذنبننا والطلب بدم ابن ابنة نبينا صلى الله عليه وسلم ، ليس معنا دينار ولا درهم ، إنما تقدم على حد السيوف وأطراف الرماح » فتنادى الناس من كل جانب : « إنا لانطلب الدنيا وليس لها خرجنا » .

٥٧ - ما أشار به عبد الله بن سعد

وكان الرأي بادي الأمر أن يسيروا إلى عبيد الله بن زياد ، فقال له عبد الله بن سعد ، وعنده رموس أصحابه جلوس حوله :

(١) أسرع ، كش ككرم كاشة فهو كش (كشهم) وكيش ، أي سريع .

(٢) أي كسبها ومتاعها . (٣) ما يبلغ به .

« إني قد رأيت رأياً ، إن يكن صواباً فالله وفق ، وإن يكن ليس بصواب فمن قبلي ، فإني ما آلوكم ونفسي نصحاً ، خطأً كان أم صواباً ، إنما خرجنا نطلب بدم الحسين وقتلة الحسين كلهم بالكوفة ، منهم عمر بن سعد بن أبي وقاص ، ورهوس الأرباع^(١) وأشراف القبائل ، فأتى نذهب هاهنا ونَدع الأقتال والأوتار^(٢) ؟ » .

قال سليمان بن سرد : فماذا ترون ؟ فقالوا : « والله لقد جاء برأى ، وإن ما ذكر لكما ذكر ، والله ما نلتقى من قتلة الحسين - إن نحن مضينا نحو الشام - غير ابن زياد ، وما طلبنا إلا هاهنا بالمصر » .

٥٨ - رأى ابن سرد

قال سليمان بن سرد : « لكن أنا ما أرى ذلك لكم ، إن الذي قتل صاحبكم ، وعبي الجنود إليه ، وقال لا أمان له عندي دون أن يستسلم فأَمْضِي فيه حكى ، هذا الفاسق ابن الفاسق ، ابن مَرْجَانة ، عبيد الله بن زياد ، فسيروا إلى عدوكم على اسم الله ، فإن يُظْهِرَكُمُ اللهُ عليه ، رجونا أن يكون مَنْ بعده أهون شوكةً منه ، ورجونا أن يدين لكم مَنْ وراءكم من أهل مصركم في عافية ، فتنظرون إلى كل من شَرِك في دم الحسين فتقاتلونه ولا تَفْشِمُوا^(٣) ، وإن تُسْتَشْهِدُوا فإنما قاتلتم المُحِبِّينَ ، وما عند الله خيرٌ للأبرار والصدِّيقين ، إني لأحب أن تجعلوا حدكم وشوكتكم بأول المُحِبِّينَ القاسطين ، والله

(١) كانت الكوفة مقسمة أربعة أقسام لكل ربع رئيس : ربع تميم وهمدان ، وربع ربيعة وكندة ، وربع مذحج وأسد ، وربع أهل المدينة ، (وتقسيم المدينة أرباعاً لا يزال إلى اليوم في بعض بلاد القطر المصري ، وقد كانت مدينة القاهرة قبل اليوم مقسمة ثمانية أقسام كل قسم ثمن ، وصحفته العامة فقالوا « ثمن » ، وأطلق عليه بالتركية قره قول (كراكون) ويحسن أن يستعمل له كلمة مخفر « ككتب »

(٢) الأقتال : جمع قتل بالكسر ، وهو العدو والمقاتل ، والأوتار : جمع وتر ، الجناية والثأر ، أى وقدح

أعادنا وذوى ثاراتنا . (٣) غشمه : كضرب ظلمه .

لو قاتلتم غداً أهل مصركم ، ما عدتم رجل أن يرى رجلاً قد قتل أخاه وأباه وحميمه ،
أو رجلاً لم يكن يريد قتله ، فاستخبروا الله وسيروا « فنهياً الناس لاشخوص .

وبلغ عبد الله بن يزيد ، وإبراهيم بن محمد بن طلحة خروج ابن سرد وأصحابه
غراًياً أن يأتيهم ، فخرجوا إليهم في جماعة من أصحابهما ، فلما انتهيا إلى ابن سرد دخلا عليه .

٥٩ — خطبة عبد الله بن يزيد

فحمد الله عبد الله بن يزيد ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« إن المسلم أخو المسلم ، لا يخنونه ولا يعشُّهُ ، وأنتم إخواننا وأهل بلدنا ، وأحبُّ أهل
مصرٍ خلقه الله إلينا ، فلا تفجّمونا بأنفسكم ، ولا تستبدوا علينا برأيكم ، ولا تنقصوا عددنا
بمخروجكم من جماعتنا ، أقيموا معنا حتى نتيسر وننهياً ، فإذا علمنا أن عدونا قد شارف
بلدنا ، خرجنا إليهم بجماعتنا فقاتلناهم » .

وتكلم إبراهيم بن محمد بنحو من هذا الكلام .

٦٠ — خطبة سليمان بن سرد

فحمد الله سليمان بن سرد وأثنى عليه ، ثم قال لها :

« إنى قد علمت أنكما قد محضتما^(١) في النصيحة ، واجتهدتما في المشورة ، فنحن بالله
وله ، وقد خرجنا لأمر ، ونحن نسأل الله العزيمة على الرشد ، والتسديد لأصوبه ، ولا ترانا
إلا شاخصين ، إن شاء الله ذلك » .

فقال عبد الله بن يزيد : « فأقيموا حتى نعبئ معكم جيشاً كثيفاً فتلقوا عدوكم

(١) محضه الورد ومحضه : أخلصه .

بِكَتْفِ^(١) ، وَجَمَعَ وَحَدَّ « فقال له سليمان : « تنصرفون ونرى فيما بيننا ، وسيأتيكم إن شاء الله رأى » .

وانصرف عبد الله بن يزيد ، وإبراهيم بن محمد إلى الكوفة ، وأجمع القوم على الشخصوص ، واستقبال ابن زياد .

٦١ - خطبة أخرى له

ثم إن سليمان بن صرد قام في الناس خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« أما بعد أيها الناس ، فإن الله قد علم ما تنوون ، وما خرجتم تطالبون ، وإن للدنيا تجاراً ، والآخرة تجاراً ؛ فأما تاجر الآخرة فساع إلىها متنصب^(٢) بتطلّابها ، لا يشتري بها ثمنًا ، لا يرعى إلا قائمًا وقاعدًا ، وراكعًا وساجدًا ، لا يطلب ذهبًا ولا فضة ، ولا دينًا ولا لذة ؛ وأما تاجر الدنيا ، فكيب عليها ، راتع فيها ، لا يبتغي بها بدلاً ، فمليكم (يرحمكم الله) في وجهكم هذا بطول الصلاة في جوف الليل ، وبذكر الله كثيراً على كل حال ، وتقرّبوا إلى الله جل ذكره بكل خير قدّرتم عليه ، حتى تلقوا هذا العدو ، والمجمل القاسط فتجاهدوه ، فإنكم لن تتوسلوا إلى ربكم بشيء هو أعظم عنده ثوابًا من الجهاد والصلاة ، فإن الجهاد سنّام العمل ، جعلنا الله وإياكم من العباد الصالحين المجاهدين الصابرين على اللأواء^(٣) وإنا مُدْجُون^(٤) الليلة من منزلنا هذا إن شاء الله فأدّجوا »

فأدّج عشية الجمعة لخمس مضين من ربيع الآخر سنة ٦٥ للهجرة ، وما زال يسير حتى انتهى إلى عين الوردة^(٥) فنزل في غر بيها .

(١) الكتف : الجماعة . (٢) أى قد نصب نفسه طالباً لها ، نصب الشيء : رفقه فانصب وتنصب .

(٣) الشدة . (٤) أدّج : سار من أول الليل ، فإن سار من آخره فادّج بالتشديد .

(٥) هى رأس العين : بلد في وسط الجزيرة .

٦٢ - خطبة أخرى

وأقبل أهل الشام في عساكرهم ، حتى كانوا منها على مسيرة يوم وليلة . قال عبد الله ابن غزبية ، فقام فينا سليمان فحمد الله فأطال ، وأثنى عليه فأطنب ، ثم ذكر السماء والأرض ، والجبال والبحار وما فيهن من الآيات ، وذكر آلاء الله ونعمه ، وذكر الدنيا فزهّد فيها ، وذكر الآخرة فرغب فيها ، فذكر من هذا ما لم أخصه ، ولم أقدر على حفظه ، ثم قال :

« أما بعد فقد أتاكم الله بعدوكم الذي دأبتم في المسير إليه آباء^(١) الليل والنهار ، تريدون فيما تظهرون التوبة النصوح ، ولقاء الله مُمذرين ، فقد جاءوكم بل جثتموم أنتم في دارهم وحيزهم ، فإذا لقيتموم فاصدقوهم ، واصبروا إن الله مع الصابرين ، ولا يوليهم امرؤ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّقًا^(٢) لِقِتَالِ أَوْ مُتَحَيِّزًا^(٣) إِلَى فِئْتِهِ ، لَا تَقْتُلُوا مُدْبِرًا ، وَلَا تُجْهِزُوا عَلَى جَرِيحٍ ، وَلَا تَقْتُلُوا أَسِيرًا مِنْ أَهْلِ دَعْوَتِكُمْ^(٤) إِلَّا أَنْ يِقَاتِلَكُمْ بِمَدِّ أَنْ تَأْسُرُوهُ ، أَوْ يَكُونَ مِنْ قِتْلَةِ إِخْوَانِنَا بِالطَّفِّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّهِمْ ، فَإِنْ هَذِهِ كَانَتْ سِيرَةَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ فِي أَهْلِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ » .

ودارت رحى الحرب بينهم وبين جيوش عبید الله بن زياد واستشهد في المعركة سليمان بن سرد ، بعد أن قتل من القوم مقتلة عظيمة ، وقتل أيضًا من رهوس أصحابه : المسيب بن نجبة ، وعبد الله بن سعد بن زبيل ، وعبد الله بن والٍ ، فلما رأى من بقي

(١) آباء الليل : ساعاته واحدها إلى (كبابي) أو إلى (كحمل) أو إنو كذلك .

(٢) أي منعطفًا يريد الكر بعد الفر وتفرير العدو ، فإنه من مكابد الحرب .

(٣) أي منحازًا إلى جماعة على القرب ليستنجد بهم .

(٤) ملتكم .

من التوابعين أن لا طاقة لهم بمن يزايمهم من أهل الشام انحازوا عنهم وارتحلوا ، وعليهم
رفاعة بن شداد البجلي .

(وكان ذلك في ربيع الآخر سنة ٦٥ هـ)^(١) .

٦٣ - خطبة عبد الملك بن مروان

وأنى عبد الملك بن مروان بيشارة الفتح ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« أما بعد : فإن الله قد أهلك من رموس أهل العراق مُلقح^(٢) فتنة ، ورأس
ضلالة ، سليمان بن مُرد ، ألا وإن السيوف تركت رأس المسيب بن نجبة خذاري^(٣) ،
ألا وقد قتل من رموسهم رأسين عظيمين ضالين مُضايين : عبد الله بن سعد أخا الأزد ،
وعبد الله بن وائل أخا بكر بن وائل ، فلم يبق بعد هؤلاء أحدٌ عنده دفاع ولا امتناع » .
(تاريخ الطبرى ٧ : ٤٧ - ٨٣ ، ومروج الذهب ٢ : ١١٠)

(١) وقال المسعودى فى مروج الذهب : « وقيل إن وقعة الوردة كانت فى سنة ٦٦ هـ » .

(٢) أصله : من ألحق النخلة ، وألحق الفحل الناقة ، والريح الشجر . (٣) تركت للسيوف رأسه

خذاري^(٣) : أى قطعاً كل قطعة كالخذروف ، والخذروف : كمصفور شئ يدوره الصبى بخيط فى يديه فيسمع

له دوى (النحلة) .

طلب المختار بن أبي عبيد الثقفي

بدم الحسين رضى الله عنه

٦٤ - خطبته حين قدم الكوفة

وقدم المختار بن أبي عبيد الثقفي^(١) الكوفة في النصف من رمضان سنة ٦٤ هـ ،
فأتاه بعض الشيعة ليلاً ، فسأهـم عن أمر الناس ، وعن حال الشيعة ، فقالوا له : إن الشيعة
قد اجتمعت لسليمان بن صرد الخزاعي ، وإنه إن يلبث إلا يسيراً حتى يخرج .
فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

(١) هو المختار بن أبي عبيد بن مسعود الثقفي ، وقد قدمنا في الجزء الأول أن أول ما عمل به عمر بن الخطاب
رضى الله عنه حين ولي الخلافة أن ندب الناس مع المشي بن حارثة الشيباني لقتال أهل فارس ، وجعل يتدبهم
ثلاثة أيام ، فلا يتدب أحد إلى فارس ، فلما كان اليوم الرابع عاد فتدب الناس ، فكان أول منتدب أبو عبيد
ابن مسعود والد المختار ، ولم يكن المختار في تشيعة لآل علي بالمخلص ، وكانت الشيعة تنقم عليه ما كان منه
في أمر الحسن بن علي رضي الله عنه يوم طعن في مظلم ساباط وحمل إلى المدائن - وكان عم المختار ، وهو سعد
ابن مسعود عاملاً على المدائن - فقال له المختار : هل لك في الغنى والشرف ؟ قال : وما ذاك ؟ قال : توثق
الحسن وتسامن به إلى معاوية ، فقال له سعد : عليك لعنة الله ، أثب على ابن بنت رسول الله صلى الله عليه
وسلم فأوثقه ! بنس الرجل أنت ، ولما قدم مسلم بن عقيل الكوفة من قبل الحسين رضى الله تعالى عنه نزل دار
المختار فبايعه المختار فيمن بايعه من أهل الكوفة ، وناصره ودعا إليه ، ثم ظفر ابن زياد بمسلم وقتله ، وأمر
بالمختار فسجن ، وبعث المختار إلى عبد الله بن عمر بالمدينة ، يسأله أن يشفع له عند يزيد بن معاوية - وكانت
صفية أخت المختار تحت عبد الله بن عمر - فكتب ابن عمر إلى يزيد يسأله أن يخلي سبيله ، فشفعه فيه ، وخلي
ابن زياد سبيله وأخرجه من الكوفة ، فقدم الحجاز وبايع ابن الزبير ، وقال معه حين حاصر مكة جيش
يزيد - وكان تحت إمرة الحصين بن نمير السكوني - وأقام مع ابن الزبير بعد مهلك يزيد حتى قدم الكوفة
في منتصف رمضان سنة ٦٤ .

« أما بعد : فإن المهدي بن الوصي ، محمد بن علي ، بعثني إليكم أميناً ووزيراً ،
وَمُنْتَجِباً وأميراً ، وأمرني بقتال المُلْحِدِينَ ، والطلب بدماء أهل بيته ، والدفع
عن الضعفاء » .

وأقبل يبعث إلى الشيعة ، فيقول لهم : « إني قد جئتكم من قِبَلِ وَلِيِّ الْأَمْرِ ،
وَمَعْدِنِ الْفَضْلِ ، وَوَصِيِّ الْوَصِيِّ ، وَالْإِمَامِ الْمَهْدِيِّ ، بِأَمْرِ فِيهِ الشِّفَاءُ ، وَكُشْفُ الْغِطَاءِ ،
وَقَتْلُ الْأَعْدَاءِ ، وَتَمَامُ النِّعْمَاءِ . إن سليمان بن صرد يرحمنا الله وإياه ، إنما هو عَشْمَةٌ ^(١)
من الْعَشَمِ ، وَحِفْشٌ ^(٢) بِالْ ، ليس بذي تجربة للأُمُور ، ولا له علمٌ بالحروب ، إنما
يريد أن يخرجكم فيقتل نفسه ويقتلكم ، إني إنما أعملُ على مِثَالِ قَدِّمْتَلِّ لِي ، وأمر
قد بُيِّنَ لِي ، فيه عزٌّ وليكم ، وَقَتْلُ عَدُوِّكُمْ ، وَشِفَاءُ صُدُورِكُمْ ، فَاسْمَعُوا مِنِّي قَوْلِي ،
وَأَطِيعُوا أَمْرِي ، ثُمَّ أَبْشِرُوا وَتَبَاشَرُوا ، فَإِنِّي لَكُمْ بِكُلِّ مَا تَأْمَلُونَ خَيْرٌ زَعِيمٌ » .

فما زال بهذا القول ونحوه ، حتى استمال طائفة من الشيعة ، وَعَظُمَتْهُمْ يَوْمَئِذٍ مَعَ
سليمان بن صرد ، فلما خرج ابن صرد نحو الجزيرة ، خاف عبد الله بن يزيد الأنصاري
— أمير الكوفة من قبل ابن الزبير — أن يثب المختار عليه ، فزجَّه في السجن .

(تاريخ الطبري ٧ : ٦٤)

٦٥ — ما كان يردده على زائريه في سجنه

وكان يردُّد على زائريه في سجنه هذا القول :

« أَمَا وَرَبِّ الْبِحَارِ ، وَالْفَخِيلِ وَالْأَشْجَارِ ، وَالْمَهَامَةِ ^(٣) وَالْقِفَارِ ، وَالْمَلَائِكَةِ الْأَبْرَارِ ،

(١) العشمة : الشيخ القافي للذكر والأنثى أو المتقارب الخطو المنحنى الظهر ، وكان عمر بن صرد حين
قتل ٩٣ سنة . (٢) الحفش : الشيء البالي ، والجوالق العظيم البالي ، وما كان من أسقاط الآنية كالقوارير
وغيرها ، وأحفاش البيت : رذال متاعه .

(٣) المهامة : جمع مهمه كجعفر ، وهو البلد المقفر ، والمفازة البعيدة .

والمُصْطَفَيْنِ الْأَخْيَارِ ، لَأَقْتُلَنَّ كُلَّ جَبَّارٍ ، بكلِّ لَدْنٍ خَطَّارٍ^(١) ، وَمُهَنْدٍ بَيَّارٍ^(٢) ،
في جموع من الأنصار ، ليسوا بِمَيْلٍ أُغْمَارٍ^(٣) ، ولا بِعُزْلٍ^(٤) أَشْرَارٍ ، حتى إذا أقتُ
عمودَ الدين ، وَرَأَبْتُ شَعْبَ^(٥) صَدْعِ الْمُسْلِمِينَ ، وَشَفَيْتُ غَلِيلَ صَدُورِ الْمُؤْمِنِينَ ،
وأدركتِ بئارَ النَّبِيِّينَ ، لم يكْبُرْ عَلَيَّ زوالُ الدُّنْيَا ، ولم أُحْفَلْ بِالموتِ إذا أتى .

ثم خلى عبد الله بن يزيد سبيله ، بشفاعة عبد الله بن عمر فيه ، واختلفت إليه
الشيعة بعد خروجه من السجن ، واجتمعت عليه ، واتفق رأيها على الرضا به ، ولم يزل
أصحابه يكثرون ، وأمره يقوى ويشدد ، حتى عزل ابن الزبير عبد الله بن يزيد عن الكوفة
وولى عليها عبد الله بن مطيع العدوي . (تاريخ الطبري ٧ : ٦٥)

٦٦ - خطبة عبد الله بن مطيع العدوي حين قدم الكوفة

وقَدِمَ عبد الله بن مطيع العدوي الكوفة (لخمس بقين من رمضان سنة ٦٥) فصعد
المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال :

« أما بعد : فإن أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير بعثني على مِصْرِكُمْ وَتُغُورِكُمْ ،
وَأَمَرَنِي بِجَبَايَةِ فَيْئِكُمْ ، وَأَنْ لَا أُحِجِلَ فَضْلَ^(١) فَيْئِكُمْ عَنْكُمْ إِلَّا بِرِضَا مِنْكُمْ ، وَوَصِيحَةَ
عمر بن الخطاب التي أوصى بها عند وفاته^(٢) ، وبسيرة عثمان بن عفان التي سار بها
في المسلمين ، فاتقوا الله واستقيموا ولا تختلفوا ، وخذوا على أيدي سفهائكم ، وإلا تفعلوا

(١) الرمح اللدن : اللين ؛ وذلك صفة جودة فيه لأن اللدن لا يقصف ، وقد لدن ككرم لدافة ولدونة ،
والرمح الخطار : أي المهتز ، خطر كضرب خطرانا . (٢) المهند : السيف المطبوع من حديد الهند ،
والبئار : القطاع . (٣) ميل : جمع أميل ، وهو الجبان ، ومن يميل على السرج في جانب ، ومن
لا ترس معه أولا سيف أو لارمح ، والأغمار : جمع غمر (مثلث ويحرك) من لم يجرب الأمور .
(٤) العزل : جمع أعزل ، وهو من لا سلاح معه . (٥) الشعب : الصدع أي الشق ، ومن
معانيه الإفساد ، وهو المراد هنا ، ورأب الصدع : أصلحه . (٦) الفضل : الزيادة .
(٧) انظر وصيته للخليفة من بعده . ج ١ : ص ٢٦٣ .

فَلَوْمُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَلْمِزُونِي ، فَوَاللَّهِ لَأُوقِعَنَّ بِالسَّقِيمِ الْعَاصِي ، وَلَا تُقِيمَنَّ دَرَأًا^(١)
الْأَصْعَرَ^(٢) الْمُرْتَاب .

٦٧ - رد السائب بن مالك الأشعري عليه

فقام إليه السائب بن مالك الأشعري - وهو من رموس أصحاب المختار -

فقال :

« أما أمرُ ابن الزبير إياك ألاّ تحملَ فضلَ فيئنا عنا إلا برضانا ، فإننا نُشهدك
أنا لا نرضى أن تحملَ فضلَ فيئنا عنا ، وأن لا يُقسَمَ إلا فينا ، وأن لا يُسارَ فينا إلا بسيرة
عليّ بن أبي طالب ، التي سار بها في بلادنا هذه ، حتى هلك رحمةُ الله عليه ، ولا حاجة
لنا في سيرة عثمان في فيئنا ولا في أنفسنا ، فإنها إنما كانت أثرَةً وَهَوَى ، ولا في سيرة
عمر بن الخطاب في فيئنا ، وإن كانت أهونَ السيرتين علينا ضرراً ، وقد كان لا يألُو
الناسَ خَيْرًا » .

فقال يزيد بن أنس الأسدي : صدق السائب بن مالك وَبَرٌّ ، رأينا مثلُ رأيه ،
وَقَوْلُنَا مثلُ قوله ، فقال ابن مطيع : نسير فيكم بكل سيرة أحببتموها وَهَوَيْتموها ،
ثم نزل . فقال يزيد بن أنس : ذهبتَ بفضلها ياسائب ، لا يعمدُك المسلمون !

(تاريخ الطبري ٧ : ٩٥)

(١) الدرأ : الميل والعوج في القناة ونحوها . (٢) الصعر محرّكة : ميل في العنق وانقلاب

في الوجه إلى أحد الشقين ، صعر كفرح فهو أصعر ، وربما كان الإنسان أصعر خلقة ، وصعر خده بالتشديد :
أماله عن الناس إعراضاً وتكبراً .

٦٨ - خطبة عبد الرحمن بن شريح

وبعث المختار إلى أصحابه ، فأخذ يجمعهم في الدور حوله ، وأراد أن يثب بالكوفة في المحرم ، فجاء رجل منهم يقال له عبد الرحمن بن شريح ، فلقى جماعة من إخوانه ، واجتمعوا في منزل أحدهم ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، فإن المختار يريد أن يخرج بنا ، وقد بايعناه ، ولا ندرى أُرسله إلينا ابن الحنفية أم لا ؟ فانهضوا بنا إلى ابن الحنفية فلنخبره بما قدم علينا به ، وبما دعانا إليه ، فإن رخص لنا في اتباعه اتبعناه ، وإن نهانا عنه اجتنبناه ، فوالله ما ينبغي أن يكون شيء من أمر الدنيا آثرَ عندنا من سلامة ديننا . »

فقالوا له : أرشدك الله ، فقد أصبتَ وَوَفَّقْتَ ، أخرج بنا إذا شئت ، فأجمع رأيهم على أن يخرجوا إليه ، فلما قدموا عليه بدأ عبد الرحمن بن شريح ، فتكلم :

(تاريخ الطبري ٧ : ٩٦)

٦٩ - خطبة أخرى له

حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإنكم أهلُ بيتِ خَصَّكُمْ اللهُ بالفضيلة ، وشرَّفكم بالنبوة ، وعَظَّمْ حَقَّكُمْ على هذه الأمة ، فلا يَجْهَلُ حَقَّكُمْ إلا مغبونُ الرأي ، مخسوسُ النَّصِيبِ ، قد أصبتم بحسينِ رحمة الله عليه ، عَظُمَتْ مصيبةُ ! ما قد خصكم بها ، فقد عمَّ بها المسلمون ، وقد قَدِمَ علينا المختار بن أبي عبيد ، يزعم لنا أنه قد جاءنا من تلقائكم ، وقد دعانا إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، والطلب بدماء أهل البيت ، والدفع عن الضعفاء فبايعناه على ذلك ، ثم إنا رأينا أن نأتيك فنذكر لك ما دعانا إليه ، وَنَدَبْنَا له ، فإن أمرتنا باتباعه اتبعناه ، وإن نهيتنا عنه اجتنبناه . »

ثم تكلموا واحداً واحداً بنحو مما تكلم به صاحبهم وهو يسمع حتى إذا فرغوا -

(تاريخ الطبري ٧ : ٩٦)

٧٠ - خطبة محمد بن الحنفية

حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

« أما بعد : فأما ما ذكرتم مما خصصنا الله به من فضل ، فإن الله يؤتية من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم ، فله الحمد ، وأما ما ذكرتم من مصيبتنا بحسين ، فإن ذلك كان في الذكر الحكيم^(١) ، وهي منحة^(٢) كتبت عليه ، وكرامة أهداها الله له ، رفعَ بما كان منها درجات قومٍ عنده ، ووضعَ بها آخرين ، وكان أمر الله مفعولاً ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً ، وأما ما ذكرتم من دعاء من دعاكم إلى الطلب بدمائنا ، فوالله لو ددت أن الله انتصر لنا من عدونا بمن شاء من خلقه ، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم . »

فخرجوا من عنده ، وهم يقولون : قد أذن لنا ، قد قال : « لوددت أن الله انتصر لنا من عدونا بمن شاء من خلقه » ولو كره لقال : « لاتفعلوا » .

(تاريخ الطبري ٧ : ٩٧)

٧١ - خطبة المختار

وبلغ المختار مخرجهم فشق ذلك عليه ، وخشى أن يأتوه بأمر يُخذل الشيعة عنه ، فكان يقول :

« إن نُفَيْرًا منكم ارتابوا ، وتحيرُوا وخابوا ، فإن هم أصابوا ، أقبِلوا وأنابوا ، وإن هم

(١) يريد أنه سبق به قضاء الله تعالى . (٢) الملحمة : الرقعة العظيمة القتلى .

كَبُورًا وَهَابُوا ، وَاعْتَرَضُوا وَانْجَابُوا^(١) ، فَقَدْ تَبَّرُوا^(٢) وَخَابُوا^(٣) » وَأَقْبَلَ الْقَوْمَ فَدَخَلُوا عَلَى الْمُخْتَارِ ، فَقَالَ لَهُمْ : مَا وَرَاءَكُمْ ؟ قَدْ فُتِنْتُمْ وَارْتَبْتُمْ ، فَقَالُوا لَهُ : قَدْ أَمَرْنَا بِنَصْرَتِكَ ، فَقَالَ : اللَّهُ أَكْبَرُ ! أَنَا أَبُو إِسْحَاقَ ! اجْمَعُوا إِلَى الشَّيْعَةِ ، فَجَمَعَ لَهُ مِنْهُمْ مَنْ كَانَ مِنْهُ قَرِيبًا فَقَالَ :

« يَا مَعْشَرَ الشَّيْعَةِ : إِنْ نَفَرْنَا مِنْكُمْ أَحْبَبْنَا أَنْ يَعْلَمُوا مِصْدَاقَ مَا جِئْتُ بِهِ ، فَارْحَلُوا إِلَى إِمَامِ الْهُدَى ، وَالنَّجِيبِ الْمُرْتَضَى ، ابْنِ خَيْرٍ مِنْ طَشَى^(٤) وَمَشَى ، حَاشَا لِلنَّبِيِّ الْمُجْتَبَى^(٥) فَسَأَلُوهُ عَمَّا قَدِمْتُ بِهِ عَلَيْكُمْ ، فَنَبَّأَهُمْ أَنِّي وَزِيرُهُ وَظَهِيرُهُ ، وَرَسُولُهُ وَخَلِيلُهُ ، وَأَمْرُكُمْ بِانْبِئَانِي وَطَاعَتِي فِيمَا دَعَوْتُكُمْ إِلَيْهِ ، مِنْ قِتَالِ الْمُحَلِّينَ ، وَالطَّلَبِ بِدِمَاءِ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ الْمُصْطَفَيْنَ . »
(تاريخ الطبري ٧ : ٩٧)

٧٢ - خطبة عبد الرحمن بن شريح

فقام عبد الرحمن بن شريح فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أَمَا بَعْدُ : يَا مَعْشَرَ الشَّيْعَةِ فَإِنَا قَدْ كُنَّا أَحْبَبْنَا أَنْ نَسْتَثْبِتَ لَأَنْفُسِنَا خَاصَّةً ، وَلِجَمِيعِ إِخْوَانِنَا عَامَةً ، فَقَدِمْنَا عَلَى الْمُهْدِيِّ بْنِ عَلِيٍّ ، فَسَأَلْنَاهُ عَنْ حَرْبِنَا هَذِهِ ، وَعَمَّا دَعَانَا إِلَيْهِ الْمُخْتَارُ مِنْهَا ، فَأَمَرْنَا بِمُظَاهَرَتِهِ وَمَوَازَرَتِهِ ، وَإِجَابَتِهِ إِلَى مَا دَعَانَا إِلَيْهِ ، فَأَقْبَلْنَا طَيِّبَةً أَنْفُسُنَا

(١) انجابت السحابة : انكشفت ، والمعنى : وإن هم انسلخوا منا وانشقوا علينا .

(٢) تَبَّرَ ، كَقَعْدِ ثَبُورًا : هَلَكَ . (٣) خَابَ : أَمَّ ، وَالْحُوبُ بِالْفَتْحِ وَالضَّمِّ : الْإِثْمُ ، وَفِي الْأَصْلِ خَابُوا ، وَأَرَى أَنْ تَكُونَ بِالْحَاءِ لِتَقْدَمَ كَلِمَةُ خَابُوا فِي أَوَّلِ قَوْلِهِ .

(٤) هَكَذَا فِي الْأَصْلِ ، وَلَمْ أَجِدْ كَلِمَةَ « طَشَى » فِي كِتَابِ اللُّغَةِ ، وَفِي لِسَانِ الْعَرَبِ « تَطَشَى الْمَرِيضُ بِرِيٍّ » .
وَلَيْسَتْ مَنَاسِبَةٌ هُنَا ، وَأَرَى أَنَّ الْعِبَارَةَ « ابْنِ خَيْرٍ مِنْ مَشَى وَطَشَى » بِتَأْخِيرِ طَشَى ، وَأَنَّهُ إِتْبَاعٌ لِفِعْلٍ قَبْلَهُ انْتَقِيَتْ وَتَوَكَّدَتْ ، وَهُوَ كَثِيرٌ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ ، كَقَوْلِهِمْ : حَسَنٌ بَسْنٌ ، وَهَفَرِيْتُ نَفَرِيْتُ ، وَعَطَشَانٌ نَطَشَانٌ وَشَحِيحٌ بِحِيحٍ ، وَكَثِيرٌ بِثِيرٍ ، وَحِيَاكَ اللَّهُ وَبِيَاكَ - وَإِنْ قِيلَ إِنَّ الْإِتْبَاعَ لَا يَكَادُ يَكُونُ بِالْوَاوِ - أَقْرَأُ بَابَ الْإِتْبَاعِ فِي الْمِزْهَرِ لِلْسَيُوطِيِّ (١ : ٢٤٤) وَفِي الْأَمَالِيِّ (٢ : ٢١١) . (٥) الْمُخْتَارُ .

منشحة صدرنا ، قد أذهب الله منها الشك وَالغِلَّ وَالرَّيْبَ ، واستقامت لنا بصيرتنا
في قتالنا عدونا ، فليباغ ذلك شاهدكم غائبكم ، واستعدوا وتأهبوا » ثم جلس .
وقاموا رجالاً فرجلاً فتكلموا بنحو من كلامه ، فاستجملت له الشيعة وحَدِثت^(١) عليه .
(تاريخ الطبري ٧ : ٩٧)

٧٣ - خطبة المختار في دار إبراهيم بن الأشتر

ومضى المختار في بضعة عشر رجلاً من وجوه أصحابه إلى دار إبراهيم بن الأشتر^(٢)
يدعوه أن يناصره ، فاستأذن عليه فأذن له ، وألقى لأصحابه وسائِد فجلسوا عليها ،
وجلس المختار معه على فراشه ، فقال المختار :

« الحمد لله ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وصلى الله على محمد والسلام عليه ، أما بعد :
فإن هذا كتاب إليك من المهدي محمد بن أمير المؤمنين الوصي ، وهو خيرُ أهل الأرض
اليومَ ، وابنُ خير أهل الأرض كلها قبل اليوم ، بعد أنبياء الله ورسله ، وهو يسألك أن
تنصرنا وتوازرنا ، فإن فعلت اغتبطتَ ، وإن لم تفعل فهذا الكتاب حجة عليك ،
وسيفي الله المهدي محمداً وأولياءه عنك^(٣) » فبايعه إبراهيم .

(١) عطف . (٢) وكان أصحاب المختار قد دعوه أن ينضم إلى زمرةهم فقال : إني قد أحببتكم
إلى مادعوتكموني إليه على أن تولوني الأمر ، فقاوا هذا المختار قد جأنا من قبل المهدي ، وهو الرسول والمأمور
بالقتال وقد أمرنا بطاعته ، فسكت عنهم ابن الأشتر ، وانصرفوا إلى المختار فأخبروه بما رد عليهم .
(٣) ثم دفع إليه الكتاب ففرض خاتمه وقرأه ، فإذا هو « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد المهدي إلى
إبراهيم بن مالك الأشتر ، سلام عليك ، فإن أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد : فإنني قد بعثت
إليكم بوزيري ، وأميين ، ونجيبين الذي ارتضيتهم لنفسي ، وقد أمرته بقتال عدوي ، والطلب بدماء أهل بيتي ،
فأنهض معه بنفسك وعشيرتك ومن أطاعك ، فإنك إن نصرته وأجبت دعوتي ، وساعدت وزيري كانت لك
عندي بذلك فضيلة ، ولك بذلك أمانة الخيل ، وكل جيش غاز ، وكل مصر ومنبر وثغر ظهرت عليه فيما بين
الكوفة وأقصى بلاد أهل الشام ، على الوفاء بذلك على عهد الله ، فإن فعلت ذلك نلت به عند الله أفضل ، =
(٦ - جمهرة خطب العرب - ثان)

وجعل المختار وأصحابه يديرون أمورهم حتى اجتمع رأيهم على أن يخرجوا ليلة الخميس لأربع عشرة من ربيع الأول سنة ٦٦ ، فثاروا بالكوفة ، ونشِب القتال بينهم وبين جند ابن مطيع . (تاريخ الطبري ٧ : ٩٨)

٧٤ - خطبة يزيد بن أنس الأسدي

ولما حلت خيل ابن مطيع على أصحاب المختار خطبهم يزيد بن أنس الأسدي محرّضاً، فقال :
« يا معشر الشيعة : قد كنتم تقتلون وتقطع أيديكم وأرجلكم ، وتَسْمَل أعينكم ، وترفمون على جذوع النخل ، في حُبِّ أهل بيت نبيكم ، وأنتم مقيمون في بيوتكم وطاعة عدركم ، فما ظنكم بهؤلاء القوم إن ظهرُوا عليكم اليوم ؟ إذن والله لا يدعون منكم عينا تَطْرِف^(١) ، وليقتلنكم صَبْرًا^(٢) ، وَآتَرُونَ^(٣) منهم في أولادكم وأزواجكم وأموالكم ما الموت خير منه ، والله لا ينجيكم منه إلا الصدق والصبر والظعن الصائب في أعينهم ، والضرب الدَرَآك على هامهم ، فتيسرُوا للشدة ، وتهيئوا للحملة ، فإذا حركت رايتي مرتين فاحلوا » . (تاريخ الطبري ٧ : ١٠٤)

٧٥ - خطبة عبد الله بن مطيع

وحمل أصحاب المختار على جند ابن مطيع فكشفوهم وهزموهم ، فخرج ابن مطيع فقام في الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

الكرامة ، وإن أبيت هلكت هلاكاً لا تستقبله أبداً ، والسلام عليك » فلما قضى إبراهيم قراءة الكتاب ، قال : قد كتب إل ابن الحنفية وقد كتبت إليه قبل اليوم ، فا كان يكتب إلي إلا بإسمة واسم أبيه ، قال له المختار : إنه ذلك زمان وهذا زمان ، قال إبراهيم : فمن يعلم أن هذا كتاب ابن الحنفية إلى ؟ فشهد من معه بأنه كتاب ابن الحنفية إليه ، فقال إبراهيم : أبسط يدك أبايك فبسط المختار يده فبايعه إبراهيم .

(١) طرف البصر (كضرب) تحرك ، وطرف بصره (كضرب أيضا) أطبق أحد جفنيه على الآخر .

(٢) قتل صبورا : هو أن يحبس ويرى حتى يموت .

« أيها الناس : إن من أعجب العجب عَجَزَكم عن عصابة منكم ، قليلٍ عددها ،
خبِيثِ دِينِهَا ، ضَالَّةٍ مُضِلَّةٍ ، اخرجوا إليهم ، فامنعوا منهم حرِّبكم ، وقتلواهم عن مصركم ،
وامنعوا منهم فيكم ، وإلا ليشارككن في فيكم من لا حق له فيه ، والله لقد بلغني
أن فيهم خمسمائة رجل من محرِّبكم عليهم أمير منهم ، وإنما ذهابُ عزِّكم وسلطانكم ،
وتغيُّرُ دينكم حين يكثرون » . ثم نزل . (تاريخ الطبري ٧ : ١٠٦)

٧٦ - تحريض ابن الأشر في أصحابه

واستنفر ابن مطيع الناس لقتال المختار وصدَّه ، وأقبل إبراهيم بن الأشر في أصحابه
فقال لهم :

« قرَّبوا خيولكم بعضها إلى بعض ، ثم امشوا إليهم مُضِلِّين^(١) السيوف ،
ولا يهولنكم أن يقال : جاءكم شَبْتُ بن رَبِيعٍ ، وآلُ عُثَيْبَةَ بن النَّهَّاسِ ، وآلُ الْأَشْعَثِ ،
وآلُ يَزِيدِ بنِ الْحَارِثِ ، وآلُ فُلَانٍ - فسمي بيوتاتٍ من بيوتات أهل الكوفة - ثم قال :
إن هؤلاء لو قد وجدوا بهم حر السيوف قد انصفقوا^(٢) عن ابن مطيع انصفاق المِعْرِي
عن الذئب » ثم قال لأصحابه شدوا عليهم ، فبدأ لكم عى وخالى .

فما لبثهم أن هزموهم ، فركب بعضهم بعضاً ، ومضى بأصحابه في آثارهم حتى دخلوا
السوق والمسجد ، وحصروا ابن مطيع ثلاثاً . (تاريخ الطبري ٧ : ١٠٧)

٧٧ - خطبة ابن مطيع وهو محصور

فلما اشتد الحصار على ابن مطيع وأصحابه ، أشار عليه شَبْتُ بن رَبِيعٍ أن يخرج
من القصر لا يشعر به أحد ، حتى ينزل منزلاً بالكوفة عند من يستنصحه ، ويثق به ،
ولا يعلمُ بمكانه إلى أن يخرج فيلحق بصاحبه (ابن الزبير) .

(١) أصلت السيوف : جرده من غمده . (٢) انصفاق : انصرف .

وفي مساء اليوم الثالث دعا ابن مطيع أصحابه فذكر الله بما هو أهله ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم وقال :

« أما بعد : فقد علمت الذين صنعوا هذا منكم من هُم ، وقد علمت إنما هم أراذلكم وسفهاؤكم وطغائكم وأخسائؤكم ، ماءدا الرجل أو الرجلين ، وأن أشرافكم ، وأهل الفضل منكم لم يزالوا سامعين مطيعين مناصحين ، وأنا مبلغ ذلك صاحبي ، ومعلمه طاعتكم وجهادكم عدوه ، حتى كان الله الغالب على أمره ، وقد كان من رأيكم وما أشرتكم به على ما قد علمتم ، وقد رأيت أن أخرج الساعة » .

فقال له شبت : « جزاك الله من أمير خيراً ، فقد والله عفتت عن أموالنا ، وأكرمت أشرافنا ، ونصحت لصاحبك ، وقضيت الذي عليك ، والله ما كنا لنفارقك أبداً ، إلا ونحن منك في إذن » فقال : جزاكم الله خيراً ، ثم خرج ، وخلي القصر ، وفتح أصحابه الباب ، فقالوا : يا ابن الأشر ، آمنون نحن ؟ قال : أنتم آمنون ، فخرجوا فبايعوا المختار .
(تاريخ الطبري ٧ : ١٠٨)

٧٨ - خطبة المختار بعد هرب ابن مطيع

وجاء المختار حتى دخل القصر فبات به ، وأصبح أشراف الناس في المسجد وعلى باب القصر ، وخرج المختار ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، فقال :

« الحمد لله الذي وعد وليه النصر ، وعدوه الخسر ، وجهله فيه إلى آخر الدهر ، وعداً مفعولاً ، وقضاء مقضياً ، وقد خاب من افتري ، أيها الناس : إنه رُفعت لنا راية ، ومُدَّت لنا غاية ، فقبل لنا في الراية أن ارفعوها ولا تَضَمُّوها ، وفي الغاية أن أجروا إليها ولا تعدوها ، فسمعنا دعوة الداعي ، ومقالة الواعي ، فكم من ناعٍ وناعيةٍ ، لِقَتلى

في الواعية^(١) وبعثنا لمن طفي ، وأدبر وعصى ، وكذب وتولى ، ألا فادخلوا أيها الناس فبايعوا بيعة هدى ، فلا والذي جعل السماء سقفاً مكفوفاً^(٢) ، والأرض فجأجا^(٣) سُبلاً ، ما بايعتم بعد بيعة علي بن أبي طالب وآل علي أهدى منها .

ثم نزل ، ودخل عليه أشرف الناس ، فبسط يده وابتدريه الناس فبايعوه ، وجعل يقول : تبايعوني على كتاب الله وسنة نبيه ، والطلب بدماء أهل البيت ، وجهاد المؤمنين ، والدفع عن الضعفاء ، وقتال من قاتلنا ، وسلم من سلمنا ، والوفاء ببيعتنا ، لأنقيالكم ولا نستقيلكم « فإذا قال الرجل نعم : بايعه .

ثم وثب المختار بمن كان بالكوفة من قتلة الحسين رضى الله عنه والمشايخ علي قتلهم ، فقتل من قدر عليه منهم ، وهرب من الكوفة بعضهم فلم يقدر عليه ، وكان ممن قتلهم عمر بن سعد بن أبي وقاص وابنه ، وبعث برأسيهما إلى محمد بن الحنفية .

(تاريخ الطبري ٧ : ١٠٨)

٧٩ - خطبة المختار وقد استنصره ابن الحنفية

ولما كتب محمد بن الحنفية رضى الله عنه إلى المختار يعلمه بما ناله هو ومن معه من ابن الزبير من سجنهم وتوعدهم بالقتل والتحريق بالنار إن لم يبايعوا له^(٤) نادى المختار في الناس ، وقرأ عليهم الكتاب وقال :

(١) الواعية : الصراخ على الميت ونعيه (ولا فعل له) والمعنى : كم من ناع وناعية لأناس قتلوا بسبب نعيمهم وصراخهم على من قتل من الحسين وأصحابه ، فهو يستثيرهم لطلب الثأر من أعدائهم الذين لم يكفهم ما اقترفوه من قتل الحسين وشيعته ، بل ضموا إلى جرمهم أن قتلوا من نعى هؤلاء الشهداء وبكاهم .

(٢) الكفة بالكسر ويضم : حباله الصائده ، وكل مستدر . (٣) الفجج : جمع فج ، وهو الطريق الواضح الواسع . (٤) وذلك أن محمد بن الحنفية كان قد أبى أن يبايع ابن الزبير إذ ذكره البيعة لمن لم تجتمع عليه الأمة - وكان ابن الزبير يبغضه ويحسده على أيده وقوته - فحبسه مع أربعة عشر رجلاً من

« هذا كتاب مَهْدِيٌّكُمْ ، وصريح^(١) أهل بيت نبيكم ، وقد تُرِكُوا مَحْظُورًا^(٢) عليهم كما يُحْظَرُ على الغنم ، ينتظرون القتل والتحريق بالنار ، في آناء الليل وتارات^(٣) النهار ، ولست أبا إسحاق إن لم أنصرهم نصرًا مُؤَزَّرًا^(٤) ، وإن لم أسرِّب إليهم الخيل في إثر الخيل ، كالسَّيْلِ يتلوه السيل ، حتى يَحُلَّ بابن الكاهلية^(٥) الويلُ » .

(تاريخ الطبري ٧ : ١٣٦)

بنى هاشم في سجن عارم وقال : لتبايمن أو لأحرقنكم ، وأعطى الله عهدا إن لم يبايعوا أن ينفذ فيهم ماتوعدم به ، وضرب لهم في ذلك أجلا . فكتب ابن الحنفية إلى المختار مستصرخا ، فوجه إليه جماعة من أصحابه ، وكانوا يسرون الليل ويكنون النهار ، حتى انتهوا إلى مكة ، وقد أعد ابن الزبير الحطب ليحرقهم ، وكان قد بقي من الأجل يومان . فكسروا سجن عارم واستخرجوا منه ابن الحنفية ومن معه ، وقالوا له : دخل بيننا وبين عدو الله ابن الزبير ، فقال لهم : إني لا أستحل القتال في حرم الله ، وخرج هو وأصحابه إلى شعب على .

(١) الصريح : الخالص من كل شيء . (٢) حظر الشيء وعليه (كقتل) منعه وحجر ، ويقال لما حظر به على الغنم وغيرها لينمها ويحفظها حظيرة . (٣) جمع تارة ، وهي هنا الحين . (٤) نصر مؤزر : أي بالغ شديد من التأزير وهو التقوية .

(٥) ابن الكاهلية ، هو عبد الله بن الزبير ، والكاهلية أم أبي جده ، فهو عبد الله بن الزبير بن العوام ابن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب ، والكاهلية أم خويلد بن أسد ، واسمها زهرة بنت عمرو ابن خنثر بن ربيعة بن هلال من بني كاهل بن أسد بن خزيمه ، وروى أن عبد الله بن فضالة بن شريك الوالبي الأسدي - من بني أسد بن خزيمه - أتى ابن الزبير فقال له : « نفدت نفقتي ، ونقبت راحلتي (نقب الحلف كفرح : رق) قال : أحضرها فأحضرها ، فقال : أقبل بها أدبر بها ففعل ، فقال : « أرقعها بسبت ، واخصفها بهلب ، وأمجدها يبرد خفها ، وسر البردين تصح » (والسبت كحمل كل جلد مدبوغ . والهلب كقفل : الشعر أو ماغلظ منه أو شعر الذئب أو شعر الخنزير الذي يخرز به ، والبردان بفتح الباء وسكون الراء ، والأبردان : الغداة والعشى) فقال ابن فضالة : إني أتيتك مستحملا ، ولم آتتك مستوصفا ، فلئن الله ناقة حملتني إليك (مستحملا أي طالبا أن تحملني على ناقة أخرى تمطينها) قال ابن الزبير : « إن وراكبها » (وإن هنا حرف جواب بمعنى نعم كأنه إقرار بما قال ، ومثله قول ابن قيس الرقيات :

ويقلن شيب قد علا لك وقد كبرت فقلت إنه)

فأنصرف عنه ابن فضالة ، وقال فيه شعرا منه قوله :

٨٠ - خطبته وقد شيع ابن الأشتر لقتال عميد الله بن زياد^(١)

وخرج يشيع^(٢) إبراهيم بن الأشتر حين شخص لقتال عميد الله بن زياد^(٣) فقال للناس:

أقول لفلتي شدوا ركابي أجاوز بطن مكة في سواد
فالي حين أقطع ذات صرق إلى ابن السكاهلية من مهاد

فقال ابن الزبير لما بلغه هذا الشعر : « علم أنها شر أمهات فميرفي بها وهي خير عماته » - انظر الأغاني « ١ : ٨ » وشرح ابن أبي الحديد « م ٤ : ص ٤٩٥ » ومجمع الأمثال للميداني (١ : ٧٥) وفيه « فلما بلغ الشعر ابن الزبير قال : لو علم لي أما لأأم من عمته لسنني بها » وهذه المناسبة تقول : إن ابن الزبير كان شديد البخل وكان ذلك من أعظم أسباب إخفاقه وانفضاض الناس من حوله ، روي أنه كان يطعم جنده تمرًا ويأمرهم بالحرب فإذا فروا من وقع السيوف لامهم وقال لهم : أكلتم تمرى ، وعصيتم أمرى ، فقال بعضهم : ألم تر عبد الله والله غالب على أمره يبغى الخلافة بالتمر

وكسر بعض جنده خمسة أرماح في صدور أصحاب الحجاج ، وكلما كسر رمحا أعطاه رمحا ، فشق عليه ذلك ، وقال : خمسة أرماح ! لا يمحتمل بيت مال المسلمين هذا . وجاءه أعرابي سائل فرده ، فقال له : لقد أحرقت الرمضاء قدى ، فقال : بل عليهما يبردا ، (ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٨٧) وقدم عليه معن بن أوس بمكة ، فأنزله دار الضيفان - وكان ينزلها الغرباء وأبناء السبيل والضيغان - فأقام يومه لم يطعم شيئا ، حتى إذا كان الليل جاءهم ابن الزبير بتيس هرم هزيل ، فقال : كلوا من هذا ولهم نيف وسبعون رجلا ، فغضب معن وخرج من عنده ، فأتى ابن عباس فقراه وحمله وكساه ، ثم أتى عبد الله بن جعفر فأعطاه حتى أرضاه ، وأقام عنده ثلاثا حتى رحل ، فقال معن في ذلك :

رمانا أبو بكر (وقد طال يومنا) بتيس من الشاه الحجازي أعر
وقال : اطعموا منه « ونحن ثلاثة وسبعون إنسانا » فيالقوم مخبر !
فقلنا له : لا تقربا ، فأماننا جفان ابن عباس العلاء وابن جعفر
وكن آمننا وارفق بتيسك إنه له أعنز ينزو عليها ، وأبشر

« الأغاني ج ١٠ : ص ١٥٧ » .

وقال عبد الملك بن مروان : « ما أعلم مكان أحد أقوى على هذا الأمر مني ، وإن ابن الزبير لطويل

الصلاة كثير الصيام ، ولكن ليجلته لا يصلح أن يكون سائسا » « تاريخ الطبري ج ٨ : ص ٥٨ » .

(١) قدمنا لك أن مروان بن الحكم لما تمت له البيعة بعث إلى العراق جيشا عليه عميد الله بن زياد ،

وعلمت ما كان من أمره وأمر التوابين من الشيعة بعين الوردية من أرض الجزيرة ثم التقى به ابن الأشتر على شاطئ نهر خازر من أرض الموصل . (٢) وقد خرج يشيعه ماشيا ، فقال له إبراهيم : اركب يا أبا إسحاق ، فقال : إني أحب أن تغبر قدمي في نصرته آل محمد صلى الله عليه وسلم فشيعة فرسخين .

(٣) وكان قد دفع إلى قوم من خاصته حماما بيضا ضخاما ، وقال : إن رأيتم الأمر لنا فدعواها ، وإن

« إن استقمتم فبصر الله ، وإن حصتم حيصة^(١) فإني أجد في مُحكم الكتاب ،
وفي اليقين والصواب ، أن الله مؤيدٌكم بملائكة غضابٍ ، تأتي في صور الحمام دُؤبين^(٢)
السحاب . » (الكامل للبرد ٢ : ١٦٩)

٨١ - خطبته وقد سار إليه مصعب بن الزبير

ولما بلغ المختار مسير مصعب بن الزبير إليه من البصرة^(٣) ، قام في أصحابه فحمد الله
وأثنى عليه ، ثم قال :

« يا أهل الكوفة ، يا أهل الدين ، وأعوان الحق ، وأنصار الضعيف ، وشيعة
الرسول ، وآل الرسول ، إن فراركم الدين بَغَوْا عليكم أتوا أشباههم من الفاسقين
فاستغَوْهم عليكم ، لِيَمَّصَح^(٤) الحق ، وَيَنْتَمَشِ الباطلُ ، وَيُقْتَلَ أولياء الله ، والله
لو تهلكون ما عبد الله في الأرض إلا بالقرني^(٥) على الله ، واللحن لأهل بيت نبيه ،

= رأيت الأمر علينا فأرسلوها ، فلما اتفقوا كانت على أصحاب إبراهيم الدائرة في أول النهار ، فأرسل أصحاب
المختار الطير ، فمصايح الناس : الملائكة ! فتراجعوا واقتتل الناس حتى اختلط الضلام ، وأمرع القتل في
أصحاب ابن زياد ثم انكشفوا ، ووضع السيف فيهم حتى أفنوا ، وقال ابن الأثير : لقد ضربت رجلا على
شاطئ هذا النهر ، فرجع إلى سيق فوجدت منه رائحة المسك ، ورأيت إقداما وجراة فصرعته ، فذهبت يده
قبل المشرق ورجلاه قبل المغرب : فانظروه فالتسوه فإذا هو عبيد الله بن زياد ، وكان مقتله سنة ٨٦٧ .

(١) حاص يحيص حيصا : عدل وهرب . (٢) مصغر دون : أي قريبا منه .

(٣) وكان أخوه عبد الله بن الزبير بعثه عليها (سنة ٦٧ هـ) بعد عزل القبايع عنها (والقبايع كشجاع
هو الحرث بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي أخو عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة الشاعر) فقدم على مصعب
شيث بن ربيع ، وجاءه أشراف الناس من أهل الكوفة ، وأخبروه بما اجتمعوا له وبما أصيبوا به ، ووثوب
عبيدهم ومواليهم ، وشكوا إليه وسألوه النصر لهم ، والسير إلى المختار معهم .

(٤) مصح كنع : ذهب وانقطع ، والثوب أخلق ، والنبات ولي لون زهره : والظل قصر .

(٥) فرى الكذب كرمى : اختلقه كافتراه .

أَتَدَبُوا^(١) مع أحرر بن شَمَيْط : فإنكم لو قد لقيتموهم لقد قتلتموهم إن شاء الله قتل عاد^(٢)
ولمزم .

وتزاحف الجنندان ، وامهزم أصحاب المختار ، وقتل (في رمضان سنة ٦٧)^(٣) .
(تاريخ الطبرى ٧ : ١٤٨)

(١) انتدب إليه : أسرع . (٢) أى أبدتموهم كما ياد هؤلاء .

(٣) قال أبو العباس المبرد فى الكامل (٢ : ١٦٧) وكان المختار لا يوقف له على مذهب كان خارجيا ، ثم صار زبيريا ، ثم صار رافضيا فى ظاهره ، وكان يدعى أنه يلهم ضربا من السجاعة لأمر تكون ثم يحتال فيوقعها ، فيقول للناس : هذا من عند الله عز وجل ، فن ذلك قوله ذات يوم : « لَتَنْزِيلٌ مِنَ السَّمَاءِ نَارٌ ذَهَبَاءُ ، فَلَتَحْرِقَنَّ « دار أسماء » فذكر ذلك لأسماء بن خارجة ، فقال : أو قد سجع أبو إسحق ؟ هو والله محرق دارى ، فتركه والدار وهرب من الكوفة ، وقال فى بعض سجمه : « أَمَا وَالَّذِى شَرَعَ الْأَدْيَانَ ، وَجَنَّبَ الْأَوْثَانَ ، وَكَرَّهَ الْعَصِيَانَ ، لِأَفْتُلْنَ أُرْدُ عَمَانَ ، وَجُلَّ قَيْسِ عَيْلَانَ ، وَتَمَيَّا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ، حَاشَا النَّجِيبِ ظَبْيَانَ » فكان ظبيان النجيب يقول : « لم أزل فى عمر المختار أنقلب آمنًا » .

وقال ابن عبد ربه فى العقد الفريد (٢ : ٢٦٥) : « ثم إن المختار لما قتل ابن مرجانة ، وعمر ابن سعد جعل يتتبع قتلة الحسين بن على ومن خذله فقتلهم أجمعين ، فلما أفتاهم دانت له العراق ، ولم يكن صادق النية ، ولا صحيح المذهب ، وإنما أراد أن يستأصل الناس ، فلما أدرك بغيته أظهر للناس قبح نيته ، فادعى أن جبريل ينزل عليه ، ويأتيه بالوحى من الله ، وكتب إلى أهل البصرة « بلغنى أنكم تكذبونى وتكذبون رسلى ، وقد كذبت الأنبياء من قبل ، ولست بخير من كثير منهم » فلما انتشر ذلك عنه كتب أهل الكوفة إلى ابن الزبير (يعنى مصعبا) وهو بالبصرة فخرج إليه ، وبرز إليه المختار فأسلمه إبراهيم بن الأشتر ووجوه أهل الكوفة ، فقتله مصعب وقتل أصحابه » .

وقال الشهرستاني فى الملل والنحل (١ : ١٥٣) : « ومن مذهب المختار أنه يجوز البدء على الله تعالى ، والبدء له معان ، البدء فى العلم وهو أن يظهر له خلاف ما علم ، والبدء فى الإرادة وهو أن يظهر له صواب على خلاف ما أراد وحكم ، والبدء فى الأمر وهو أن يأمر بشئ ثم يأمر بعبه بخلاف ذلك ، وإنما صار المختار إلى اختيار القول بالبدء ، لأنه كان يدعى علم ما يحدث من الأحوال ، إما بوحى يوحى إليه ، وإما برسالة من قبل الإمام (ابن الحنفية) ، فكان إذا وعد أصحابه بكون شئ وحدوث حادثة ، فإن وافق كونه قوله جعله =

٨٢ - خطبة محمد بن الحنفية

يرد على عبد الله بن الزبير وقد تنقص الإمام

خطب ابن الزبير فقال من الإمام على كرم الله وجهه ، فباغ ذلك ابنه محمد ابن الحنفية رضى الله عنه ، فأقبل حتى وضع له كرسى قدامه ، فعلاه وقال :

« يا معشر قريش ، شامت الوجوه ^(١) ، أين تقصص على وأنتم حضور ؟ إن علينا كان سمها صادقا ، أحد مرأى الله على أعدائه ، يقتلهم لكفرهم ، ويهونهم ^(٢) ما كلمهم ، فثقل عليهم ، فرموا بصرفة الأباطيل ^(٣) ، وإنا معشر له على نهج ^(٤) من أمره بنو الحسبة ^(٥) من الأنصار ، فإن تكن لنا الأيام دولة نذر عظامهم ، ونحسر ^(٦)

دايلا على صدق دعواه ، وإن لم يوافق قال قد بدا لربكم ، وقد تبرأ ابن الحنفية منه حين وصل إليه أنه قد لبس على الناس بأنه من دعائه ورجائه ، وتبرأ من الضلالات التي ابتدعها من التأويلات الفاسدة ، والمخاريق الموهبة ، فن مخاريقه أنه كان عنده كرسى قديم قد غشاه بالديباج وزينه بأنواع الزينة وقال : هذا من ذخائر أمير المؤمنين على عليه السلام ، وهو عندنا بمنزلة التابوت لبني إسرائيل ، فكان إذا حارب خصومه يضعه في براح الصف ، ويقول : قاتلوا ولستم الظفر والنصرة ، وهذا الكرسى محله فيكم محل التابوت في بني إسرائيل وفيه السكينة والبقية ، والملائكة من فوقكم ينزلون مددا لکم أحسنا من قوله تعالى : « وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » ويقال إنه اشتراه بدرهمين من نجار - انظر قصته في تاريخ الطبرى (٧ : ١٤٠) .

(١) شاه وجهه : قبيح . (٢) هوعه ما أكل : قياه إياه . (٣) مؤنث صرف ، والصرف : الخالص من كل شيء ، وهو من إضافة الصفة إلى الموصوف ، والأباطيل : جمع أبطولة بضم الهمزة أو إبطالة بكسرهما أو هو جمع باطل على غير قياس . (٤) النهج : الطريق الواضح .

(٥) الحسبة : الاحتساب (طلب الأجر) في الأعمال الصالحات ، وعند المكروهات هو البدار إلى طلب الأجر وتحصيله بالتسليم والصبر ، أو باستعمال أنواع البر والقيام بها على الوجه المرصوم فيها طلبا للثواب المرجو بها . (٦) حصره كحصر وضرب : كشفه .

عن أجسادهم ، والأبدان يومئذ بالية : وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ .
فعاد ابن الزبير إلى خطبته وقال : « عذرت بنى الفواطم يتسكلمون ، فما بال
بنى الحنفية ؟ » فقال محمد : « يابن أم رومان^(١) ، ومالي لا أتكلم ؟ أليست فاطمة
بنت محمد حليّة^(٢) أبي وأمّ إخوتي ؟ أليست فاطمة^(٣) بنت أسد بن هاشم جدّتي ؟
أليست فاطمة^(٤) بنت عمرو بن عائذ جدة أبي ؟ أما والله لولا خديجة بنت خويلد^(٥)
ما تركت في بنى أسد عظماً إلا هشمته ، وإن نالتني فيه المصائب صبرت .

(مروج الذهب ٢ : ١٠٢)

٨٣ - عبد الله بن عباس و معاوية

ودخل عبد الله بن عباس على معاوية وعنده وجوه قريش ، فلما سلم وجلس ،
قال له معاوية : « إني أريد أن أسألك عن مسائل » قال : « سل عما بدالك » قال :
« ماتقول في أبي بكر ؟ » قال : « رحم الله أبا بكر ، كان والله للقرآن تالياً ، وعن
المنكر ناهياً ، وبذنبه عارفاً ، ومن الله خائفاً ، وعن الشبهات زاجراً ، وبالمعروف آمراً ،
وبالليل قائماً ، وبالنهار صائماً ، فاق أصحابه ورعاً وكفافاً^(٦) ، وسادهم زهداً وعفافاً ،
فغضب الله على من أبغضه وطعن عليه » قال معاوية : « إيهما^(٧) يابن عباس ، فما تقول
في عمر بن الخطاب ؟ » قال : « رحم الله أبا حفص عمر ، كان والله حليف الإسلام ،

(١) أم رومان بنت عامر هي زوج أبي بكر رضي الله عنه وأم السيدة عائشة . (٢) زوجته .

(٣) هي فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف أم الإمام علي كرم الله وجهه ، وقد أسلمت بعد عشر

من المسلمين فكانت الحادي عشر ، وهي أول امرأة بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم من النساء .

(٤) هي فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم أم أبي طالب ، وهي أم عبد الله والد سيدنا محمد

صلى الله عليه وسلم . (٥) هي زوج النبي صلى الله عليه وسلم وعمة الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد .

(٦) أي رضا بالكفاف ، والكفاف من الرزق : ما كف عن الناس وأغنى . (٧) أمر بالسكوت

ومأوى الأيتام ، ومنتهى الإحسان ، ومحلّ الإيمان ، وَكَهْفٌ^(١) الضعفاء ، وَمَعْقِلُ
الْحَنَفَاءِ^(٢) ، قام بحق الله عزّ وجلّ صابراً مُحْتَسِباً^(٣) ، حتى أوضح الدين ، وفتح البلاد
وَأَمَّنَ الْعِبَادَ ، فأعقب الله على من يَنْقُصُهُ اللعنة إلى يوم الدين . قال : « فما تقول
في عثمان ؟ » قال : « رحم الله أبا عمرو كان والله أكرم الجعْدَةِ^(٤) ، وأفضل البرّة ،
هَجَّاداً^(٥) بالأسحار ، كثير الدموع عند ذكر النار ، نهأضاً عند كل مَكْرُمة ، سَبَّاقاً
إلى كلِّ مَنَحَةٍ ، حَيِّياً أَيْباً وَفِيّاً ، صاحب جيش المُسْرَةِ^(٦) ، وَخَتَنَ^(٧) رسول الله
صلى الله عليه وآله ، فأعقب الله على من يلعنه لعنة اللاعنين ، إلى يوم الدين » قال :
« فما تقول في عليّ ؟ » قال : « رضى الله عن أبي الحسن ، كان والله علم الهدى ، وَكَهْفُ
التُّقَى ، وَنَحْمِلُ الْحِجَابِ^(٨) ، وَبِحْر اللندى ، وَطُود النُّهَى^(٩) ، وَكَهْفُ الْعَلَا ، لِلْوَرَى داعياً
إلى المَحَجَّةِ^(١٠) ، متمسكاً بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ، خير من آمن واتقى ، وأفضل من تقمّصَ
وارتدى ، وَأَبْرَ من انتعل وَسَمَى^(١١) ، وأفصح من تنفّس وقرا ، وأكثر من شهِدَ
النَّبِجَوَى - سوى الأنبياء والنبي المصطفى - صاحب القبليتين ، فهل يوازيه أحد ؟
وأبو السَّبْطَيْنِ^(١٢) فهل يقارنه بشر ، وزوج خير النِّسْوَانِ^(١٣) ، فهل يفوقه قَاطِنُ بِلَدٍ ؟
لِلْأَسُودِ قَتَالٌ ، وفي الحروب خَتَالٌ^(١٤) ، لم تر عيني مثله ولن ترى ، فعلى من انتقصه

(١) الكهف: الملجأ، وكذا المعقل. (٢) جمع حنيف، وهو الصحيح الميل إلى الإسلام الثابت عليه .
(٣) احتسب بكذا أجرا عند الله : اعتده ينوي به وجه الله . (٤) الكرام ، يقال للكرم :
جمع بفتح فسكون ، فأما إذا قيل فلان جمع اليمين أو جمع الأنازل فهو البخيل ، وربما لم يذكروا معه اليد .
(٥) الهجاء والهجود : بفتح الهاء ، والمتجدد : المصل بالليل . (٦) تقدم شرحه في خطبة ذى
الكلع الحميرى . راجع الجزء الأول ص ٣٤٠ . (٧) أى صهره وقد تزوج السيدة رقية والسيدة
أم كلثوم ابنتى رسول الله صلى الله عليه وسلم . (٨) المحمل فى الأصل : شقان على اللبير يحمل فيهما
العديلان ، والحجا : العقل والفتنة . (٩) الطود : الجبل ، والنهى العقل . (١٠) الطريق الواضح .
(١١) فى الأصل «واسما» وهو تحريف . (١٢) الحسن والحسين رضى الله عنهما، وهما سبطا رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، (والسبط ولد الولد) . (١٣) السيدة فاطمة رضى الله عنها .
(١٤) خداع ، من الختل : وهو الخداع ، والمراد أنه ذو بصير بالحروب .

لعنة الله والعباد ، إلى يوم القنَاد (١) » قال : « إيهباً يابن عباس ، لقد أكرت في ابن عمك » قال : « فما تقول في أبيك العباس ؟ » قال : « رحم الله العباسَ أبا الفضل ، كان صنو (٢) نبي الله صلى الله عليه وسلم ، وقرة عين صفي الله ، سيد الأعمام ، له أخلاق آباؤه الأجواد ، وأحلام أجداده الأجداد ، تباعدت الأسباب في فضيلته ، صاحب البيت والسقاية والمشاعر (٣) والتلاوة ، ولم لا يكون كذلك ، وقد ساسه أكرم من دب (٤) » فقال معاوية : « يابن عباس ، أنا أعلم أنك كَلِمَانِي (٥) أهل بيتك » قال : « ولم لا أكون كذلك ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم فقِّههُ في الدين ، وَعَلِّمهُ التَّوْبِيلَ . »

ثم قال ابن عباس بعد هذا الكلام : « يا معاوية ، إن الله جل ثناؤه ، وتقدست أسماؤه ، خصَّ محمداً صلى الله عليه وسلم بصحابة آثروه على الأنفس والأموال ، وبذلوا النفوس دونه في كل حال ، ووصفهم الله في كتابه فقال : (رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمُ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ، سِيَاهُكُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ) ، قاموا بمعالم الدين ، وناصحوا الاجتهاد للمسلمين ، حتى تهذبت طرقة ، وقويت أسبابه ، وظهرت آلاء (٦) الله ، واستقرَّ دينه ، ووضحت أعلامه ، وأذل الله بهم الشرك ، وأزال رُوحه ، ومحا دُأَمَهُ ، وصارت كلمة الله هي العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ، فصلوات الله ورحمته وبركاته على تلك النفوس الزاكية ، والأرواح الطاهرة للعالية ، فقد كانوا في الحياة لله أولياء ، وكانوا بعد الموت أحياء أحماء ، رحلوا إلى الآخرة قبل أن يصلوا إليها ، وخرجوا من الدنيا وهم بعد فيها ، فقطع عليه معاوية الكلام ، وقال : إيهباً يابن عباس ، حديثاً في غير هذا .

(مروج الذهب ٢ : ٨٤)

(١) يوم القيامة . (٢) الأصل فيه أنه إذا خرج نخلتان أو ثلاث من أصل واحد ، فكل واحدة منهن صنو والاثنتان صنوان والجمع صنوان برفع النون . (٣) شعار الحج بالكسر : مناسكه وعلاماته ، والشعيرة والشعارة بالفتح ، والمشعر : موضعها ، والمشعر الحرام بالمزدلفة . (٤) في الأصل : « من دب » أي مثني والمعنى عليه صحيح ، والسكنى أرجح أنه « من أدب » لقوله « وقد ساسه » . (٥) رجل كلماني بسكون اللام وفتحها وكلماني بكسرتين مشدد اللام ، وبكسرتين مشدد الميم وتكلام بكسر فسكون وتشد لامهما : جيد الكلام فصيح . (٦) الآلاء : النعم جمع إلى (يفتح أوله وكسره) وألو (يفتح أوله) وإلى (يفتح ثانيه وفتح أوله أو كسره) .

عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا

اجتمعت قريش الشام والحجاز عند معاوية ، وفيهم عبد الله بن عباس ، وكان جريئاً على معاوية حَقَّاراً له^(١) ، فبلغه عنه بعض ما غمّه ، فقال معاوية :

٨٤ - مقال معاوية

رحم الله أبا سفيان والعباس ، كأننا صَفِيَّين^(٢) دون الناس ، حَفِظْتُ الميث في الحى ، والحى في الميث ، استعملك على يابن عباس على البصرة ، واستعمل عبید الله أخاك على اليمن ، واستعمل أخاك^(٣) على المدينة ، فلما كان من الأمر ما كان ، هَنَأْتُمْ^(٤) ما فى أيديكم ، ولم أ كَشِفْكُمْ عما وَعَت غرائركم^(٥) ، وقلت آخذ اليوم وأعطى غداً مثله ، وعلمت أن بدء الأوم يضر بماقبة الكرم ، ولو شئت لأخذت بمحلاقيمكم وقِيَّانكم ما أ كَلَّم ، لا يزال يبلغنى عنكم ما تبرك له الإبل ، وذنوبكم إلينا أكثر من ذنوبنا إليكم ، خذتم عثمان بالمدينة ، وقتلتم أنصاره يوم الجمل ، وحاربتمونى بِصِفِّين ، ولعمري لَبَنُو تَيْم وَعَدِي^(٦) أعظم ذنوباً منا إليكم ، إذ صرفوا عنكم هذا الأمر ، وسئوا فيكم هذه السنة ، فحتى متى أغضى الجفون على القذى^(٧) ، وأسحب الذبول على الأذى ، وأقول لعل الله وعسى ! ما تقول يابن عباس ؟

(١) أى كثير التحقير له . (٢) الصنى : الحبيب المصافى . (٣) لما جاء عليا الخبير عن طلحة والزبير وعائشة أمر على المدينة تمام بن العباس ، وبعث إلى مكة ثم بن العباس (ثم كعمر) وخرج إليهم . (٤) هنأه كمنع وضرب : أطعمه وأعطاه . (٥) جمع غرارة بالكسر وهى الجوالق (السؤال) . (٦) يعنى بنى تيم أبابكر الصديق (وهو من تيم بن مرة بن كعب بن لؤى) ويعنى بنى على عمر ابن الخطاب (وهو من على بن كعب بن لؤى) . (٧) القلى : ما يقع فى العين والشراب .

٨٥ - مقال ابن عباس

فتكلم ابن عباس فقال :

رحم الله أبانا وأباك ، كنا صفيين متفاوضين^(١) ، لم يكن لأبي من مال إلا ما فضلَ لأبيك ، وكان أبوك كذلك لأبي ، ولكن من هنا أباك بإخاء أبي أكثر من هنا أبي بإخاء أبيك ، نصر أبي أباك في الجاهلية ، وحقن دمه في الإسلام^(٢) ، وأما استعمال عليّ إيانا فلنفسه دون هواه ، وقد استعملت أنت رجلا لهواك لانفesk ، منهم ابن الحضرمي على البصرة فقتل ، وبسر بن أرطاة على اليمن فخان ، وحبيب بن صرة على الحجاز قرود ، والضحاك بن قيس الفهري على الكوفة فخصب ، ولو طلبت ما عندنا وقينا أعرافنا ، وليس الذي يبيلغك عنا بأعظم من الذي يبيلغنا عنك ، ولو وضع أصغر ذنوبكم إلينا على مائة حسنة لمحقها ، ولو وضع أدنى عذرتنا إليكم على مائة سيئة لحسبها ، وأما خذلنا عثمان فلوزمنا نصره لنصرناه ، وأما قتلنا أنصاره يوم الجمل ، فعلى خروجهم مما دخلوا فيه ، وأما حر بنا إياك بصفين ، فعلى تركك الحق وادعائك الباطل ، وإما إغراؤك إيانا بتيم وعدى فلو أردناها ما غلبونا عليها « وسكت . (المقد الفريد ٢: ١١٠)

عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا

٨٦ - مقال معاوية لابن عباس

أقبل معاوية يوما على ابن عباس ، فقال :

« لو وليتمونا ما أنتم إلينا ما أتينا إليكم من الترحيب والتقريب وإعطائكم الجزيل ، وإكرامكم على القليل ، وصبري على ما صبرت عليه منكم ، إني لا أريد أمراً إلا أظمأتم

(١) للتفاوض : الاشتراك في كل شيء. والمساواة . (٢) يشير إلى ما كان من العباس إذ شفع عند

النبي عليه الصلاة والسلام في أبي سفيان يوم فتح مكة .

صَدْرَهُ^(١) ، ولا آتى معروفًا إلا صفرتم خَطَرَهُ^(٢) ، وأعطيتكم العطية فيها قضاء حقوقكم ، فتأخذونها متكارهين عليها ، تقولون قد نقص الحق دون الأمل ، فأى أمل بعد ألف ألف أعطيها الرجل منكم ، ثم أكون أسرًا بإعطائها منه بأخذها؟ والله إن اتخذت لكم فى مالى ، وذللّت لكم فى عرضى ، أرى اتخذاعى كرما ، وذلى حلقًا ، ولو وليتمونا رضينا منكم بالانتصاف ، ولا نسألكم أسوالكم لعلنا بحالكم وحالنا ، ويكون أبغضها إلينا أحبها إليكم أن نغفبكم .

٨٧ - مقال ابن عباس

فقال ابن عباس :

« لو ولينا أحسنًا المواساة ، وامتننا بالأثرة^(٣) ، ثم لم نغشيم^(٤) الحى ، ولم نغشم الميت^(٥) ، فلستم بأجود منا كفاً ، ولا أكرم أنفساً ، ولا أصون لأعراض المروءة ، ونحن والله أعطى للآخرة منكم للدنيا ، وأعطى فى الحق منكم فى الباطل ، وأعطى على التقوى منكم على الهوى ، والقسم بالسوية والعدل فى الرعية يأتیان على المنى والأمل ، ما أرضاكم منّا بالكفاف ، فلو رضيت منّا لم نرض بأنفسنا به لكم ، والكفاف رضا من لاحق له ، فلا تبخلونا^(٦) حتى تسألونا ، ولا تملقظونا حتى تذوقونا . »

(المقد الفريد ٢ : ١١١)

(١) يقال ورد الماء ليستقى ثم صدر عنه : أى رجع صدرًا « بسكون الدال » وصدورا والاسم منه الصدر « بفتح الحين » أى أصدرتم ورددتم وارده ظمان لاريان ، يريد أنهم دائبون على مخالفته فى كل أمر ، يرون ضد رأيه . (٢) قدره وشأنه . (٣) استأثر على أصحابه : اختار لنفسه أشياء حسنة والاسم الأثرة ، والمعنى وامتننا أى وتفضلنا وأنعمنا بما نستأثر به . (٤) غشمه غشما : ظلمه . (٥) يمرض به فى سبه طليا على المنابر . (٦) لآرمونا بالبخل (بخله بالتشديد : رماه بالبخل ، وأبخله : وجده بخيلا) .

عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا

٨٨ - مقال معاوية لبني هاشم

اجتمع بنو هاشم عند معاوية فأقبل عليهم فقال :

« يا بني هاشم : والله إن خيري لكم لمنوح ، وإن بابي لكم لمفتوح ، فلا يقطع خيري عنكم علةٌ ، ولا يُوَصِّدُ^(١) بابي دونكم مسألةٌ ، ولما نظرت في أمري وأمركم رأيت أمرا مختلفا ، إنكم لترون أنكم أحق بما في يدي مني ، وإذا أعطيتكم عطية فيها قضاء حقكم قلم أعطانا دون حقنا ، وقصر بنا عن قدرنا ، فصرتُ كالمسلوب ، والمسلوب لا حمد له ، وهذا مع إنصاف قائلكم ، وإسعاف سائلكم . »

٨٩ - مقال ابن عباس

فأقبل عليه ابن عباس فقال :

« والله ما منحتنا شيئا حتى سألتناه ، ولا فتحت لنا بابا حتى قرعناه ، ولئن قطعت عنا خيرك ، لله أوسع منك ، ولئن أغلقت دوننا بابك لنكفن أنفسنا عنك ، وأما هذا المال فليس لك منه إلا ما لرجل من المسلمين ، ولنا في كتاب الله حقان : حق في الغنيمة وحق في النية . فالغنيمة : ما غلبنا عليه . والنية : ما اجتبيناه ، ولولا حقنا في هذا المال لم يأتك منازير ، يحمله خوفٌ ولا حافر ، أ كفاك أم أزيدك ؟ قال : كفاني فإنك لا تُعزُّ^(٢) ، ولا تُشجُّ^(٣) . » (العقد الفريد ٢ : ١١١)

(١) أي ولا يفلق وفي الأصل « ولا يوجد » وهو تحريف .

(٢) لا تعز أي لا تغلب ، عزه يعزه (كنصره) عزاء (بالفتح) غلبه وفي الأصل « لا تعز » وهو مصحف .

(٣) شج رأسه : جرحه ، والمراد لا تغلب ولا تهزم .

عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا

٩٠ - مقال معاوية

وقال يوماً معاوية وعنده ابن عباس : « إذا جاءت بنو هاشم ^(١) بقديها وحديثها ، وجاءت بنو أمية ^(٢) بأحلامها وسياستها ، وبنو أسد ^(٣) بن عبد العزى بوافدها وديانتها ، وبنو عبد الدار ^(٤) بحججابتها ولوائها ، وبنو مخزوم ^(٥) بأموالها وأفعالها ، وبنو تيم ^(٦) بصديقتها وجوادها ، وبنو عدى ^(٧) بفاروقها ومتفكرها ، وبنو سهم ^(٨) بأرائها ودهائها وبنو جمح ^(٩) بشرفها وأنوفها ^(١٠) ، وبنو عامر بن لؤى بفارسها وقريعتها ^(١١) ، فمن ذا يُجمل مضمارها ، ويجرى إلى غايتها ، ماتقول يا ابن عباس ؟ » .

(١) بنو هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة الخ . (٢) بنو أمية بن عبد شمس ابن عبد مناف . (٣) بنو أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب . (٤) بنو عبد الدار بن قصي ، والحجاية : سداثة البيت الشريف ؛ أي تولى مفاتيحه وخدمته ، واللواء راية يلونها على رمح ويتصبونها علامة للمسكر إذا توجهوا إلى محاربة عدو فيجتمعون تحتها ويقاتلون عندها ، وكان قصي بن كلاب قد ولي البيت الحرام وأمر مكة والحكم بها ، وأبنتى دارا بها وهى دار الندوة : وكانت قريش لا تقضى أمرا إلا فيها ، وقد ولد له عبد الدار ، وعبد مناف ، وعبد العزى ، وعبد ، فلما كبر قصي ورق ، قال لابنه عبد الدار - وهو أكبر ولده ، وكان فيما يزعمون ضعيفا ، وكان عبد مناف قد شرف في زمان أبيه ، وذهب كل مذهب وعبد العزى ، وعبد - « أما والله لألحقنك بالقوم وإن كانوا قد شرفوا عليك ، لا يدخل رجل منهم للكعبة حتى تكون أنت تفتحها ، ولا يعقد لقريش لواء الحربهم إلا أنت بيدك ، ولا يشرب رجل بمكة ماء إلا من سقايتك ، ولا يأكل أحد من أهل الموسم طعاما إلا من طعامك ، ولا تقطع قريش أمورها إلا في دارك ، فأعطاه داره دار الندوة ، وأعطاه الحجاية واللواء والندوة والسقاية والرفادة ، (وكانت الرفادة خرجا تخرجه قريش في كل موسم من أموالها إلى قصي به ، فيصنع طعاما للحاج يأكله من لم يكن له سعة ولا زاد من يحضر الموسم) . (٥) بنو مخزوم بن يثقلة (بالتحريك) بن مرة بن كعب بن لؤى .

(٦) بنو تيم بن مرة بن كعب بن لؤى . (٧) بنو عدى بن كعب بن لؤى . (٨) بنو سهم ابن هصيص (كزبير) بن كعب بن لؤى ، ومنهم عمرو بن العاص السهمي . (٩) بنو جمح بن هصيص ابن كعب . (١٠) جمع أنف : وهو السيد . (١١) القرية : المقارع .

٩١ - مقال ابن عباس

قال : « أقول ليس حتى يَفْخَرُونَ بأمرٍ إلا وإلى جنبهم من يشرّكهم إلا قُرَيْشًا ، فإنهم يَفخَرُونَ بالنبوة التي لا يشاركون فيها ، ولا يُساوَوْنَ بها ، ولا يُدفعون عنها ، وأشهد أن الله لم يجعل محمدًا من قريش إلا وقريش خير البرية ، ولم يجعله في بني عبد المطلب إلا وهم خير بني هاشم ، يريد أن يفخر عليكم إلا بما تفخرون به ، إن بنا فُتِحَ الأمرُ وبنا يُحْتَم ، ولك مُلْكٌ مُعَجَّل ، ولنا ملكٌ مُوَجَّل ، فإن يكن ملككم قبل ملكنا ، فليس بعد ملكنا ملك ، لأننا أهل العاقبة ، والعاقبة للمتقين » .

(المقد الفريد ٢ : ١١٢)

٩٢ - عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا

لما بلغ معاوية نعى الحسن بن عليّ رضي الله عنه أظهر الفرح والسرور ، حتى سجد وسجد من كان معه ، فبلغ ذلك عبد الله بن عباس ، وكان بالشام يومئذ ، فدخل على معاوية ، فلما جلس قال معاوية : يا بن عباس هلك الحسن بن عليّ ، ولم يظهر حزنا ؛ فقال ابن عباس :

« نعم هلك ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، ترجيماً مُكْرَرًا ، وقد بلغتني الذي أظهرت من الفرح والسرور لوفاته ، أما والله ما سدّ جسده حفرتك ، ولا زاد نقصان أجله في عمرك ، ولقد مات وهو خير منك ، ولئن أُصِيبْنَا به لقد أُصِيبْنَا بمن كان خيراً منه ، جدّه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخير الله مصيبتته ، وخالف علينا من بعده أحسن الخلافة .

فقال له معاوية : كم كانت سنّه ؟ قال : مولده أشهر من أن تُتعرّف سنّه ا قال : أحسبه ترك أولادا صغاراً ؟ قال : كلنا كان صغيراً فكبير . ولئن اختار الله لأبي محمد

ما عنده وقبضه إلى رحمة ، لقد أبقى الله أبا عبد الله (يعني الحسين) ، وفي مثله الخلف الصالح ، ثم شهِق وبكى ، وبكى من حضر في المجلس ، وبكى معاوية .

(الإمامة والسياسة ١ : ١٢٧ ، ومروج الذهب ٢ : ٥٢ والبيان والتبيين ٣ : ٢٢١)

٩٣ - عبد الله بن عباس وعتبة بن أبي سفيان

قال عتبة بن أبي سفيان لابن عباس : « ما منع أمير المؤمنين أن يبعثك مكان أبي موسى يوم الحكمين ؟ » قال : « منعهُ والله من ذلك حاجز القدر ، وقصر المدة ، ومحنة الابتلاء ، أما والله لو بعثني مكانه لاعترضت له في مدارج نفسه ، ناقضاً لما أبرم ، ومبرماً لما نقض ، أسف^(١) إذا طار ، وأطير إذا أسف ، ولكن مضى قدر ، وبقي أسف ومع يومنا غد ، والآخرة خير لأمر المؤمنين من الأولى . »

(إعجاز القرآن ١٢٢ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١٩٥ ، وآمال المرتضى ١ : ٢٠٧) .

(١) أسف للطائر : دنا من الأرض في طيرانه .

مخاصمة

بين عبد الله بن عباس وبين معاوية وأصحابه

قال ابن أبي الحديد : « روى المدائني قال : وقد عبد الله بن عباس على معاوية مرة ، فقال معاوية لابنه يزيد . وزباد بن سُمَيَّة . وعُتْبَةَ بن أبي سفيان . ومروان بن الحكم . وعمر بن العاص . والمغيرة بن شعبة . وسعيد بن العاص . وعبد الرحمن بن أم الحكم : إنه قد طال العهد بعبد الله بن عباس . وما كان شَجَرَ^(١) بيننا وبينه وبين ابن عمه ، ولقد كان نصبه للتحكيم فدُفِعَ عنه^(٢) ، فخرَّ كوه على الكلام لنبليح حقيقة صفتة ، ونقِفَ على كُنه معرفته ، ونعرف ما صرف عنا من شَبَا^(٣) حده . ووُورِي عنا من دهاء رأيه ، فربما وُصِفَ المرء بغير ما هو فيه . وأعطى من النعت والاسم مالا يستحقه . ثم أرسل إلى عبد الله بن عباس . فلما دخل واستقر به المجلس . ابتداء ابن أبي سفيان فقال : يا بن عباس مامن عليا أن يوجه بك حكما ؟

٩٤ - جواب ابن عباس

فقال : « أما والله لو فعل لقرنَ عمرًا بصَفْبَةٍ من الإبل ، يُوجِع كَتْفِيهِ مِرَاسُهَا^(٤) ولأذهلت عقله ، وأجرَضْتُهُ بِرِيقِهِ^(٥) ، وقدَحْتُ في سُوَيْدَاءِ قلبه ، فلم يُبْرِمَ أمرًا ،

(١) شجر بينهم الأمر : تنازعا فيه . (٢) لما رأى على إصرار من قبلوا التحكيم من قومه وتشبههم

بقبوله أشار عليهم أن يختاروا ابن عباس أو الأشتر النخعي حكما من قبلهم فأبوا إلا أبا موسى الأشعري .

(٣) الشبا : جمع شباة ، وهي حد كل شيء . (٤) أي علاجها وقيادتها . (٥) جرض بريقه

كفرح ابتلعه بالجهد على هم ، وأجرضه بريقه : أغضه .

ولم ينفض تراباً إلا كنت منه بمرأى ومسمع ، فإن نكته أرمت^(١) قواه ، وإن أرمه
فصمت^(٢) عراه ، بغرب^(٣) مِقْوَلٍ لَا يُفْلُ حَدُّهُ ، وأصالة رَأَى كَمُتَّاحٍ^(٤) الأجل
لاوزر منه ، أضدع^(٥) به أديمه ، وأفل^(٦) به شبا حدّه ، وأشحد به عزائم المعتز^(٧) ،
وأزيح به شبه الشاكين .

٩٥ - مقال عمرو بن العاص

فقال عمرو بن العاص : « هذا والله يا أمير المؤمنين نجوم^(١) أول الشر ، وأقول
آخر الخير ، وفي حسمه قطع مادته ، فبادرته بالحملة ، وانتهز منه الفرصة ، واردع بالتنكيل
به غيره ، وشرّد به من خلفه » .

٩٦ - جواب ابن عباس

فقال ابن عباس : « يابن القابغة ، ضلّ والله عقلك ، وسفه حلمك ، ونطق الشيطان
على لسانك ، هلاّ توليت ذلك بنفسك يوم صفين حين دُعيت نزال^(١) وتكافح
الأبطال ، وكثرت الجراح ، وتقصفت الرماح ، وبرزت إلى أمير المؤمنين مصاولاً ،
فأنكفأ نحوك بالسيف حاملاً ، فلما رأيت الكواثر^(٢) من الموت ، أعددت حيلة السلامة

(١) أرم الحبل : فنتله شديداً . (٢) حلت . (٣) الغرب : حد كل شيء ، والمقول : اللسان .

(٤) من إضافة الصفة للموصوف أي كالأجل المتاح : أي المقدر . والوزر : الملجأ . (٥) أشق ، والأديم :

الجلد ، وهو كناية عن غلبته إياه وانتصاره عليه . (٦) في الأصل « المتقيز » وقد بحث في كتب اللغة

عن مادة « قيز » فلم أجد هذه المادة ، فقلبت الكلمة على الأوجه التي يظن أنها محرقة عنها ، ورجح لدى أنها

محرقة عن « المعتز » من اعتز : أي تنحى وانفرد ، يريد الذين تنحوا عن الفتنة والنزاع بين علي ومعاوية

وكانوا محايدين . (٧) ظهور (مصدر نجم) . (٨) نزال : اسم فعل بمعنى انزل . أي حين قال

الأبطال بعضهم لبعض نزال . (٩) جمع كوثر ، وهو الكثير من كل شيء والنهر .

قبل لقائه ، والانكفاء عنه بعد إجابة دعائه ، فنحنته رجاء النجاة عورتك ، وكشفت له خوفَ بأسه سوءتك ، حذراً أن يصطلمك^(١) بسطوته ، أو يلبثمك بمحملته ، ثم أشرت على معاوية كالناصح له بمبارزته ، وحسنت له التمرض لمكافحته ، رجاء أن تكفي مثونته ، وتعدّم صورته ، فعمل غلّ صدرك ، وما انحمت عليه من التفاق أضلمك ، وعرف مقرّ سهمك في غرضك ، فاكفّف غرّب لسانك ، واقمّع عوراء^(٢) لفظك ، فإنك بين أسد خادر^(٣) ، وبحرٍ زاخر ، إن تبرزت للأسد افترسك ، وإن عُمت في البحر قَمَسَك^(٤) .

٩٧ - مقال مروان بن الحكم^(٥)

قال مروان بن الحكم : « يا بن عباس إنك لتتصرف^(٦) بنا بك ، وتُورى نارك ، كأنك ترجو الغلبة ، وتؤمّل العاقبة ، ولولا حلم أمير المؤمنين عنكم ، لتناولكم بأقصر أنامله ، فأوردكم منهلاً بعيداً صدره^(٧) ، ولامرئى لئن سطا بكم ليأخذن بعض حقه منكم ، ولئن عفا عن جرائمكم لقد يما ما نَسِب إلى ذلك » .

(١) اصطلمه : استأصله . (٢) العوراء : الكلمة أو الفعلة القبيحة . (٣) الخدر : أجمة الأسد ومنه قيل أسد خادر . (٤) غمسك وأغرقتك . (٥) هو مروان بن الحكم بن أبي العاص ابن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، ولد بمكة سنة اثنتين للهجرة ، واستعمله معاوية على المدينة ومكة والطائف ، وولى الخلافة بعد موت معاوية الثاني سنة ٥٦٤ هـ ومات بالشام في ٣ رمضان سنة ٦٥ ، وكانت ولايته تسعة أشهر وثمانية عشر يوماً . (٦) صرفت البكرة تصرف كضرب صريفاً : صوتت عند الاستقاء ، وهو أيضاً صرير الباب وناب البعير . (٧) الصدر : الرجوع .

٩٨ - جواب ابن عباس

فقال ابن عباس : « وإنك لتقول ذلك يا عدو الله ، وطريد رسول الله ^(١) صلى الله عليه وسلم ، والمباح دمه ^(٢) ، والداخل بين عثمان ورعيته بما حماهم على قطع أوداجه ^(٣) ، وركوب أئباجه ^(٤) ، أما والله لو طلب معاوية ثأره لأخذك به ، ولو نظر في أمر عثمان لوجدك أوله وآخره ، وأما قولك لي : إنك لتصرف بنا بك ، وتورى نارك ، فسل معاوية

(١) يريد « ويا طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أبيك » أو « ويا ابن طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم » فإن الحق أن طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أبوه الحكم بن أبي العاص ، وذلك أنه قدم المدينة بعد الفتح - وكان قد أسلم يوم الفتح - فأخرجه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف ، وقال : « لاتساكني في بلد أبدا » أوقيته فيه ، قيل : كان يتسمع سر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويطلع عليه من باب بيته ، وإنه هو الذي أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفقأ عينه بمدري في يده لما اطلع عليه من الباب ، وقيل كان يحكي رسول الله صلى الله عليه وسلم في مشيته وبعض حركاته - وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتكفأ في مشيته - فالتفت يوما فرآه وهو يتخلج في مشيته ، فقال « كن كذلك » فلم يزل يرتعش في مشيته من يومئذ ، وطرده رسول الله صلى الله عليه وسلم ولعنه وأبعده حتى صار مشهورا بأنه طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يزل متغيا حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما ولي أبو بكر الخلافة قيل له في الحكم ليرده إلى المدينة ، فقال : « ما كنت لأحل عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم » وكذلك عمر ، فلما ولي عثمان الخلافة - والحكم عمه - رده ، وقال : « كنت قد شفعت فيه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعدني برده » وقد توفى في خلافة عثمان . أما مروان فلم ير النبي عليه الصلاة والسلام ، لأنه خرج إلى الطائف طفلا لا يعقل لما نفي النبي أباه - وقد ولد بمكة سنة اثنتين للهجرة - وقيل إنه ولد بالطائف إبان نفي أبيه بها . (٢) أى في فتنة عثمان ، وذلك أن الثوار بعد أن هدا الإمام على ثأرتهم خرجوا عن المدينة ، ولسكنهم في أثناء رجوعهم ضبطوا غلام عثمان ، ومعه كتاب إلى عامل مصر يأمره فيه بقتلهم ، فعادوا إلى المدينة ثانية وكانوا يعتقدون أن مروان هو الذي كتب ذلك للكتاب ، وقد سألوا عثمان أن يسلم إليهم مروان فأبى أن يسلمه وخشى عليه القتل . (٣) جمع ودج (محرمة) وهو عرق الأخدع الذي يقطعه الذابح ، فلا يبقى معه حياة . (٤) جمع ثبيج (محرمة) وهو ما بين الكاهل إلى الظهر .

وعمرًا يخبرك ليلة المرير^(١) كيف ثباتنا للمثلثات^(٢) ، واستخفافنا بالمعضلات ، وصدق جيلادنا عند المصاروة ، وصبرنا على اللأواء^(٣) والمطاولاة ، ومصاحفتنا مجباهنا السيوف المرهفة^(٤) ، ومباشرتنا بنحورنا حدّ الأسنّة ، هل خننا^(٥) عن كرائم تلك المواقف ؟ أم لم نبذل مهجنا^(٦) للمتالف ؟ وليس لك إذ ذاك فيها مقام محمود ، ولا يوم مشهود ، ولا أثر معدود ، وإيهما شهدا ما لو شهدت لأقلّك ، فارتبع على ظلمك^(٧) ، ولا تتعرض لما ليس لك ، فإنك كالمغروز في صند^(٨) ، لا يهبط برجل ، ولا يرقأ^(٩) اليد .

٩٩ - مقال زياد

فقال زياد : « يابن عباس : إني لأعلم ، ما منع حسنًا وحسينًا من الوفود معك على أمير المؤمنين إلا ماسوات لها أنفسهما ، وغرهما به من هو عند البأساء بسألهما^(١٠) ، وإيم الله لو وليتهما لأدأبا^(١١) في الرحلة إلى أمير المؤمنين أنفسهما ، ولقل بمكانهما كبشهما . »

١٠٠ - جواب ابن عباس

فقال ابن عباس : « إذن والله يقصر دونهما بأعك ، ويضيق بهما ذراعك ، ولو رمت ذلك لوجدت من دونهما فئة صدقا صبرا^(١٢) على البلاء ، لا يخيمون عن اللقاء ،

-
- (١) هي ليلة العاشر من صفر سنة ٣٧ ، وفيها حمل جيش عليّ على جيش معاوية في وقعة صفين حملة عنيفة ، واقتتلوا تلك الليلة كلها حتى الصباح ، وأوشك جيش عليّ أن تكون له الغلبة .
(٢) جمع مثلة (كفرقة) من مثلت بالقتيل : إذا نكلت به . (٣) اللأواء : الشدة .
(٤) المرققة . (٥) خام عنه يخيم : جبن ونكص . (٦) جمع مهجة ، وهي الدم أو الروح .
(٧) ريع كنع : وقف وانتظر وتحبس ، وظلع ظلما كنع : غمز في مشيه ، وارتبع على ظلمك أي أنك ضعيف فاته عمالا تطيقه واسكت على ما فيك من عيب . (٨) الصند : القيد ، وفي الأصل « كالمغروز في صند » وأراه « كالمقرون في صند » . (٩) أي يصمد ويعلو : رقأ في الدرجة صمد : يقال رقأت ورقيت (كرضيت) وترك الهزمة أكثر . (١٠) أسلمه : خذله . (١١) أجهدا وأتعبا .
(١٢) أي ذات صدق وصبر على البلاء أو هو « صدقا صبرا » بضمين جمع صدوق وصبور .

فَلَعَزَّ كُوكَ بِكَلَامِ كَلِمِهِ^(١) وَوَطِنُوكَ بِمَنَاسِمِهِمْ^(٢) وَأَوْجَرُوكَ^(٣) مَشَقَّ رِمَاحِهِمْ ، وَشِفَارَ^(٤) سِيوفِهِمْ ، وَوَحَزَّ أَسِنَّتَهُمْ ، حَتَّى تَشْهَدَ بِسُوءِ مَا أَتَيْتَ ، وَتَنْبِيْنِ ضِيَاعِ الْحَزْمِ فِيمَا جَنَيْتَ ، فَحَذَارِ حَذَارٍ مِنْ سُوءِ النِّيَّةِ ، فَإِنَّهَا تَرُدُّ الْأُمْنِيَّةَ ، وَتَكُونُ سَبِيْبًا لِفَسَادِ هَذَيْنِ الْحَيِّينَ بَعْدَ صَلَاحِهِمَا ، وَسَعِيًّا فِي اخْتِلَافِهِمَا بَعْدَ ائْتِلَافِهِمَا ، حَيْثُ لَا يَضُرُّهَا إِبْسَاسُكَ^(٥) ، وَلَا يُغْنِي عَنْهُمَا إِبْنَسَاكَ .

١٠١ - مقال عبد الرحمن بن أم الحكم

قال عبد الرحمن بن أم الحكم :

« اللَّهُ دَرُّ ابْنِ مُلْجَمٍ^(٦) ، فَقَدْ بَلَغَ الْأَمَلَ ، وَأَمَّنَ الْوَجَلَ ، وَأَحَدَ الشَّفْرَةَ ، وَأَلَانَ الْمُهْرَةَ ، وَأَدْرَكَ النَّارَ ، وَنَقَى الْعَارَ ، وَفَازَ بِالْمَنْزِلَةِ الْعَلِيَا ، وَرَقَى الدَّرَجَةَ الْقُصْوَى . »

١٠٢ - جواب ابن عباس

قال ابن عباس :

« أَمَّا وَاللَّهِ لَقَدْ كَرَعَ^(٧) كَأْسَ حَتْفِهِ بِيَدِهِ ، وَعَجَّلَ اللَّهُ إِلَى النَّارِ بَرُوحَهُ وَلَوْ أَبَدَى لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ صَفْحَتَهُ ، نَحَالَطَهُ الْفَحْلُ الْقَطِيمُ^(٨) ، وَالسَّيْفُ الْخَلْدِيمُ ، وَلَا لَمَقَةَ صَابَا^(٩) ، وَسَقَاهُ سِمَامًا^(١٠) ، وَأَلْحَقَهُ بِالْوَلِيدِ وَعُتْبَةَ وَحَنْظَلَةَ^(١١) ، فَكَلِمَهُمْ كَانَ أَشَدَّ مِنْهُ شَكِيمَةً^(١٢) ،

(١) جمع كلكل وهو الصدر . (٢) جمع منسم (كجلس) وهو خف البعير .

(٣) أوجره الرمح : طعنه به في فيه ، والمشق : سرعة في الطعن والضرب أو هو بمعنى مفعول ، قضيب

عشوق : أي طويل دقيق . (٤) جمع شفرة : وهي حد السيف . (٥) الإبساس : التلطف بالناقة

وقت حلبها ، بأن يقال لها بس بس (يفتح فسكون) تسكينها لها . (٦) هو عبد الرحمن بن ملجم المرادى

لعمته الله قاتل الإمام علي . (٧) كرع في الماء : تناوله بفيه من موضعه . (٨) قطم الفحل كفرح

فهو قطم : اشبهى الضراب . (٩) عصارة شجر مرمر . (١٠) جمع سم مثلث للسمن .

(١١) الوليد بن عتبة : خال معاوية ، وعتبة بن ربيعة : جده لأمه ، وحنظلة بن أبي سفيان أخوه ،

وقد قتلهم على يوم بدر . (١٢) الشكيمة : الأنفة ، وهو شديد الشكيمة : أي أنف أبي لا يتقاد .

وأَمْضَى عَزِيمَةً ، فَفَرَى بِالسَّيْفِ هَامَةً^(١) ، وَرَمَلَهُمْ^(٢) بِدِمَائِهِمْ ، وَقَرَى الذَّنَابَ
أَشْلَاءَ^(٣) ، وَفَرَقَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَحِبَّائِهِمْ ، أَوْلَيْكَ حَصَبٌ^(٤) جَهَنَّمُ لَهَا وَارْدُونَ ، فَهَلْ
تُحْسُ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا^(٥) ؟ وَلَا غَرْوًا إِنْ خُتِلَ ، وَلَا وَصْمَةً إِنْ قُتِلَ ،
فَإِنَّا لَكَمَا قَالَ دُرَيْدُ بْنُ الصَّمَّةِ :

فَإِنَّا لَللَّحْمِ السَّيْفِ غَيْرَ مُكْرَهٍ وَنَلْجِمُهُ طَوْرًا وَلَيْسَ بَدَى نُكْرًا^(٦)
يُغَارُ عَلَيْنَا وَاتْرِينُ فَيْشْتَيْفَى بِنَا إِنْ أَصْبْنَا أَوْ نُغْيِرْ عَلَى وَتَرٍ^(٧)

١٠٣ - مقال المغيرة بن شعبة

فقال المغيرة بن شعبة :

« أما والله لقد أشرتُ على عليّ بالنصيحة ، فأثر رأيه ، ومضى على غلوائه^(٨) ،
فكانت العاقبة عليه لا له ، وإني لأحسب أن خلفه يقتدون بمنهجه . »

١٠٤ - جواب ابن عباس

فقال ابن عباس :

« كان والله أمير المؤمنين عليه السلام أعلمَ بوجوه الرأي ، ومعاقِدِ الحزم ، وتصريف
الأمور ، من أن يقبل مشورتك فيما نهى الله عنه ، وعنّف عليه ، قال سبحانه وتعالى :

(١) هام : جمع هامة ، وهي الرأس . (٢) رمل الثوب : لطنه بالدم ، ويجوز أن يكون وزملهم
أى لفهم بدمائهم (على المجاز) . (٣) أشلاء : جمع شلو ، وهو العضو ، وقرى الضيف قرى
(بالكسر) : أضافه . (٤) الحطب ، وما يرى به في النار . (٥) الصوت الخفى .

(٦) ألحمه : أطعمه اللحم . (٧) الوتر : الثأر ، وقد وتره يتره . (٨) الغلواء : الغلوة ،
وذلك أن المغيرة جاء عليا بعد مقتل عثمان ، وقال له : إن النصيح رخيص وأنت بقية الناس وأنا لك ناصح ،
وأنا أشير عليك أن ترد عمال عثمان عامك هذا ، فاكتب إليهم باثباتهم على أعمالهم ، فإذا بايموا لك ، واطمأن =

« لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ^(١) اللَّهَ وَرَسُولَهُ ،
وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ » ولقد وقفك على ذكر مبين
وآية متلوّة ، قوله تعالى : « وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا » . وهل كان يسوغ له
أن يُحَكِّمَ في دماء المسلمين ، ووفىء المؤمنين ، من ليس بأمون عنده ، ولا موقوف به
في نفسه ؟ هيهات هيهات ، هو أعلم بفرض الله وسنة رسوله أن يبطن خلاف ما يظهر
إلا للتقية^(٢) ، ولات حين تقيّة ، مع وضوح الحق ، وثبوت الجنان ، وكثرة الأنصار ،
بعضى كالسيف المصلّت^(٣) في أمر الله ، مؤثراً لطاعة ربه والتقوى ، على آراء
أهل الدنيا .

١٠٥ - مقال يزيد بن معاوية

فقال يزيد بن معاوية :

« يا بن عباس ، إنك لتتطق بلسان طليق^(٤) ، يني عن مكنون قلب حرق^(٥) ،
فاطو على ما أنت عليه كشحاً^(٦) ، فقد محاضوه حقنا ظلمة باطلكم » .

== أمرك عزلت من أحببت ، وأقررت من أحببت ، فقال له : والله لا أداهن في ديني ، ولا أعطى الرياء في
أمرى ، قال : فإن أبيت فانزع من شئت وأترك معاوية فإن له جراءة وهو في أهل الشام مسموع منه ، ولك
حجة في إثباته فقد كان عمر ولاء الشام كلها ، فقال له : لا والله لا أستعمل معاوية يومين أبداً . (وقد كان
ابن عباس يرى إثبات معاوية حتى يبائع ، وقال لعل : فإن بايع لك فعل أن أقلعه من منزله ، فقال على :
لا والله لا أعطيه إلا السيف) . (١) حاده : غاضبه وعاداه وخالفه . (٢) التقية : المحافظة على
الذفس أو العرض أو المال من شر الأعداء إذا كانت العداوة بسبب الدين . (٣) المسلول .

(٤) لسان طليق : (بسكون اللام وكسرهما) ذلق . (٥) الحرق : المحروق وفي الحديث « الحرق
شهيد » وفي رواية « الحريق » أى الذى يقع في حرق النار (بفتحتين) فيلتهب ، والحرق محرقة : النار ولهبها ،
وفي الحديث « الحرق والفرق والشرق شهادة » وحرق شعره كفرح : تقطع ونسل . (٦) الكشح : ما بين
الخاصرة إلى الضلع الخلف ، وطوى كشحه على الأمر أضمره وستره .

١٠٦ - جواب ابن عباس

فقال ابن عباس :

« مهلا يزيدُ ، فوالله ما صفت القلوب لكم ، منذ تكدرت بالعداوة عليكم ، ولا دنت بالحجة إليكم ، مذ نأت بالبغضاء عنكم ، ولا رضيت اليوم منكم ، ما سخطت بالأمس من أفعالكم ، وإن تدل^(١) الأيامُ نستقصِ ما شذَّ عنا ، ونسترجع ما ابتز^(٢) منا ، كيلاً بكيل ، ووزناً بوزن ، وإن تكن الأخرى ، فكفى بالله ولياً لنا ، ووكيلاً على المعتدين علينا » .

١٠٧ - مقال معاوية

فقال معاوية :

« إن في نفسي منكم لحزازاتٍ يابني هاشم ، وإني خلّيق أن أدرك فيكم النار ، وأني العار ، فإن دماءنا قبلكم ، وظلامتنا فيكم » .

١٠٨ - جواب ابن عباس

فقال ابن عباس :

« والله إن رمت ذلك يامعاوية كتثيرنَّ عليك أسداً مُخدرَةً^(٣) ، وأفاعى مُطْرِقةً ، لا يفتو^(٤)ها كثرة السلاح ، ولا تعضها نكابة الجراح ، يضعون أسياهم على عواتقهم ،

(١) أداله الله من عدوه : نصره عليه . (٢) ماسلب . (٣) أخدر الأسد : لزم الأجمة ،

وأخدر للعرين الأسد : ستره فهو مخدر (بكسر الدال وفتحها) . (٤) فتأ الغضب كنع : سكنه وكسره ، والقدر سكن غليانها .

يضربون قُدَمَا قُدَمَا من ناوأم^(١) ، يهون عليهم نُباح الكلاب ، وعُواء الذئاب ، لا يُفَاتون بوترٍ ، ولا يُسْبِقون إلى كريم ذكر ، قد وطنوا على الموت أنفسهم ، وسمت بهم إلى العلياء همهم ، كما قالت الأزدية :

قومٌ إذا شهدوا الهياج فلا ضربٌ بينهم ولا زجرٌ^(٢)
وكانهم آسادٌ غيبةً قد غرثت وابلٌ مُتونها القطر^(٣)

فلتكوننَّ منهم بحيث أعددت ليلة الهرير للهرب فرسك ، وكان أكبر همك سلامة حُشاشة^(٤) نفسك ، ولولا طعام^(٥) من أهل الشام وقوك بأنفسهم ، وبدلوا دونك مهجهم ، حتى إذا ذاقوا وخز الشفّار ، وأيقنوا بجلول الدمار ، رفعوا المصاحف مستجبرين بها ، وعائدين بعصمتها ، لسكنت شلوا مطروحا بالعراء^(٦) ، تسقى عليك رياحا^(٧) ، ويعتورك ذئابها ، وما أقول هذا أريد صرّفك عن عزيزتك ، ولا إزالتك عن معقود نيتك ، لكن الرّحم التي تعطف عليك ، والأوامر^(٨) التي توجب صرف النصيحة إليك .
فقال معاوية : « لله درك يا بن عباس ، ما تكشف الأيام منك إلا عن سيف صقيل ، ورأى أصيل ا و بالله لو لم يلد هاشم غيرك ، لما نقص عددكم ، ولو لم يكن لأهلك سواك لكان الله قد كثرهم » ! ثم نهض فقام ابن عباس وانصرف .

(شرح ابن أبي الحديد م ٢ : ص ١٠٥)

(١) القدم : الشجاع والمضى أمام أمام ، وناوأم : عاداهم . (٢) نهيه عن الأمر : كفه وزجره .
(٣) الغيبة : بالكسر الأجمة ، والغيبة بالفتح : الأشجار الملتفة في الجبال وفي السهل بلا ماء ، فإذا كانت بماء فهي غيبة ، وعرث : كفرح جاع فهو غرثان . (٤) الحشاشة : بقية الروح في المريض والجريح .
(٥) الطعام : أوغاد للناس . (٦) العراء : الفضاء لا يستتر فيه شيء . (٧) سفت الريح : التراب تسفيه : ذرته ، أو حملته .
(٨) في الأصل « والأوامر » وهو تحريف .

عبد الله بن عباس وعمرو بن العاص

قام عمرو بن العاص في موسم من مواسم العرب ، فأطرى معاوية بن أبي سفيان وبنى أمية ، وتناول بنى هاشم ، وذكر مَشَاهِدَهُ بِصِفَيْنِ ، واجتمعت قریش فأقبل عبد الله ابن عباس على عمرو فقال :

١٠٩ - مقال ابن عباس

« يا عمرو إنك بعت دينك من معاوية ، وأعطيته ما بيدك ، وَمَنَّاكَ ما بيد غيره ، فكان الذي أخذ منك أكثر من الذي أعطاك ، والذي أخذت منه دون الذي أعطيته ، وكلُّ راضٍ بما أخذ وأعطى^(١) ، فلما صارت مصر في يدك كدَّرها عليك بالعرل والتنغيص^(٢) ، حتى لو كانت نفسك في يدك ألقىتها إليه ، وذكرت يومك مع أبي موسى ،

(١) وذلك أن عمرا لما لحق بمعاوية بعد أن بلغه مقتل عثمان سأله معاوية أن يتبعه ، قال عمرو فاكتب

لي مصر وكورها طعمة فكتب له ، وقال عمرو في ذلك :

معاوي لا أعطيك ديني ولم أنزل به منك دنيا فانظرن كيف تصنع

فإن تعطى مصرا فأربح صفقة أخذت بها شيئا يضر وينفع

ثم إنه بعثه سنة ٣٨ في جيش لغزو مصر ، وكان عليها محمد بن أبي بكر من قبل الإمام علي فهزمه وقتله ، وصارت مصر في حوزة معاوية فولاه عليها أميرا . (٢) روى ابن سعد في كتاب الطبقات الكبير

(ج ٤ : ص ٥) قال :

« لما صار الأمر في يدي معاوية استكثر طعمة مصر امرو ما عاش ، ورأى عمرو أن الأمر كله قد صلح به وببديره وعنائه وسميه فيه ، وظن أن معاوية سيزيده للشأم مع مصر ، فلم يفعل معاوية ، فتنكر عمرو لمعاوية فاختلفا وتغالظا . وتميز الناس ، وظنوا أنه لا يجتمع أمرهما ، فدخل بينهما معاوية بن حديج وأصلح أمرهما ، =

فلا أراك فخرت إلا بالقدر ، ولا مننت إلا بالفجور والنس ، وذكرت مشاهدك بصفين ،
فوالله ما ثقلت علينا يومئذ وطأتك ، ولا نكثنا^(١) فيها حربك ، ولقد كشفت فيها
عورتك ، وإن كنت فيها لطوبل اللسان ، قصير السنان ، آخر الخليل إذا أقبلت ، وأولها
إذا أدبرت ، لك يدان : يد لا تبسطها إلى خير ، وأخرى لا تقبضها عن شر ، ولسان غرور
ووجهان : وجه موحش ، ووجه مؤنس ، ولعمري إن من باع دينه بدنيا غيره لحري أن
يطول حزنه على ما باع واشترى ، لك بيان وفيك خطل ، ولك رأى وفيك نكد ، ولك
قدر وفيك حسد ، وأصغر عيب فيك أعظم عيب في غيرك .

١١٠ - رد ابن العاص

فأجابه عمرو بن العاص : والله ما في قریش أنقل على مسألة ، ولا أمرًا جوابًا منك ،
ولو استطعت ألا أجيبك لفعلت ، غير أني لم أبع ديني من معاوية ، ولكن بعث الله
نفسى ، ولم أنس نصيبي من الدنيا ، وأما ما أخذت من معاوية وأعطيته فإنه لا تعلم العوان
الخمرة^(٢) . وأما ما أتى إلى معاوية في مصر فإن ذلك لم يغيرني له ، وأما خفة وطأني
عليكم بصفين ، فلما استنقلمت حياتي واستبطأتم وقاتي . وأما الجبن فقد علمت قریش أني
أول من يبارز ، وآخر من ينازل . وأما طول لساني ، فإنى كما قال هشام بن الوليد لعثمان
ابن عفان رضى الله عنه :

= وكتب بينهما كتابا ، وشرط فيه شروطا لمعاوية ، وعمرو خاصة ، وللناس عليه ، وأن لعمر بن العاص ولاية مصر
سبع سنين ، وعلى أن على عمرو السمع والطاعة لمعاوية ، وتوثاقا وتماهدا على ذلك ، وأشهدا طليهما به شهودا ،
ثم مضى عمرو بن العاص على مصر واليا عليها ، وذلك في آخر سنة تسع وثلاثين ، فوالله ما مكث بها إلا سنتين
أو ثلاثا حتى مات . (١) نكى العدو نكبة: قتل وجرح . (٢) في المثل « إن العوان لا تعلم الخمرة »
والعوان من النساء التي كان لها زوج ، والخمرة اسم من الاختار ، واختمرت المرأة ، لبست الحمار بكسر الحاء
(الطرحة) يضرب للرجل المجرب .

لسانى طويل فاحترس من شدّاته عليك ، وسيفى من لسانى أطول^(١)
 وأما وجهى ولسانى ، فإنى ألقى كلّ ذى قدر بقدره ، وأرعى كلّ ناهج بحجره ،
 فمن عرف قدره كفى نفسه ، ومن جهل قدره كفىته نفسه ، ولعمري ما لأحدٍ من
 قريش مثل قدرك ما خلا معاوية ، فا ينفعنى ذلك عندك ، وأنشأ عمرو يقول :

بنى هاشمٍ مالى أراكم كأنكم بنى اليوم جهالٌ ؟ وليس بكم جهل
 ألم تعلموا أنى جسور على الوغى سريعٌ إلى الداعى إذا كثر القتل
 وأول من يدعو « نزالٍ » طبيعةً جبلتُ عليها ، والطَّبَّاع هو الجبل^(٢)
 وأنى فصلتُ الأمر بعد اشتباهه بدومةً إذ أعيأ على الحكم الفصل^(٣)
 وأنى لا أعيأ بأمر أريده وأنى إذا عجت بكاركم فحل^(٤)

(المقد الفريد ٢ : ١١٢ ، وشرح بن أبي الحديد ١ : ص ١٩٦ والبيان والتبيين ٢ : ١٥٩)

١١١ - عبد الله بن عباس وعمرو بن العاص أيضاً

حج عمرو بن العاص فرّ بعبد الله بن عباس ، ففسده مكانه وما رأى من هيبة
 الناس له ، وموقعه من قلوبهم ، فقال له يابن عباس : « مالك إذا رأيتنى وليتنتى
 القصرة^(٥) ، وكان بين عينيك دبيرة^(٦) ، وإذا كنت فى ملاء من الناس كنت

(١) الشداة : الحدة ، والشدا والشدا بالبدال والذال : حد كل شيء . (٢) أى نازلونى أيها الأقران ،
 والطباع : الطبيعة والسجية جبل عليها الإنسان ، والجبل : مصدر جبل . (٣) هى دومة الجندل التى اجتمع
 فيها الحكمان عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري . (٤) البكار : جمع بكرة (بالفتح) وهى الناقة
 الفتية ، وعجت : أى صاحت ورفعت صوتها . (٥) القصرة : أصل العنق فى مركبه فى الكاهل ، ويقال
 لعنق الإنسان كله قصره ، والمعنى وليتنتى عنقك إعراضاً عنى . (٦) الدبيرة : بسكون الباء وفتحها الهزيمة
 فى القتال : وهو اسم من الإديبار والمراد بها هنا الإفضاء وعدم الإقبال .

الهُوَاهَاةُ^(١) الهمزة ؟ فقال ابن عباس : « لأنك من اللثام الفَجْرَة ، وقريش الكرام
الْبَرَّة ، لا ينطقون بباطل جهلوه ، ولا يكتُمون حقاً علموه ، وهم أعظم الناس أعلاماً ،
وأرفع الناس أعلاماً . دخلت في قریش ولست منها ، فأنت الساقط بين فراشين ،
لا في بني هاشم رَحْلُكَ ، ولا في بني عبد شمس راحلتك ، فأنت الأثيم الزنيم^(٢) الضالّ
المُضِلُّ ، حملك معاوية على رقاب الناس ، فأنت تسطو بحمله ، وتسمو بكرمه » فقال عمرو :
أما والله إنى لسرور بك ، فهل ينفعني عندك ؟ قال ابن عباس : حيث مال الحق ملنا ،
وحيث سلك قَصْدَنَا .
(المقد للفريد ٢ : ١١٢)

١١٢ — عمرو بن العاص وابن عباس

قال عمرو بن العاص لعبد الله بن عباس :

« إن هذا الأمر الذي نحن وأنتم فيه ليس بأول أمر قاده البلاء ، وقد بلغ الأمر
منا ومنكم ما ترى ، وما أبقت لنا هذه الحرب حياء ولا صبورا ، ولسنا نقول : ليت الحرب
عادت ، ولكننا نقول : ليتها لم تكن كانت ، فانظر فيما بقي بغير ما مضى ، فإنك رأس
هذا الأمر بعد علي ، وإنما هو أمير مطاع ، ومأمور مطيع ، ومشاور مأمون ، وأنت هو .
(البيان والتبيين ٢ : ١٥٨)

١١٣ — مفاخرة عبد الله بن الزبير وعبد الله بن عباس

تزوج عبد الله بن الزبير أم عمرو بنت منظور بن زبَّان الفزَّارية ، فلما دخل بها قال
لها تلك الليلة : أتدريين من معك في حَجَلَتِكَ^(٣) ؟ قالت : نعم ، عبد الله بن الزبير بن

(١) قال صاحب اللسان : وفي حديث عمرو بن العاص : « كنت الهوَاهَاةُ الهمزة » الهوَاهَاةُ : الأحمق ،
وقال أيضا : « رجل هوَاهَاةٌ وهوَاهَاةٌ وهوَاهَاةٌ بفتح الأول ضعيف الفؤاد جبان ، ورجل هوَاهَاةٌ بضم الأول
جبان أيضا . (٢) الزنيم : المستلحق في قوم ليس منهم والدعي . (٣) الحجلة : كالكبة ، وموضع يزين
بالثياب والستور للعروس .

العوام بن حويلد بن أسد بن عبد العزى . قال : ليس غير هذا ؟ قالت : فما الذى تريد ؟ قال : معك من أصبح فى قريش بمنزلة الرأس من الجسد ، لا بل بمنزلة العينين من الرأس . قالت : أما والله لو أن بعض بنى عبد مناف حضرَكَ ، لقال لك خلاف قولك ، فغضب وقال : الطعام والشراب على حرام حتى أحضرَكَ الهاشميين وغيرهم من بنى عبد مناف ، فلا يستطيعون لذلك إنكاراً ، قالت : إن أطعتهنى لم تفعل ، وأنت أعلم وشأنك ، فخرج إلى المسجد فرأى حلقة فيها قوم من قريش ، منهم : عبد الله بن العباس ، وعبد الله ابن الحصى بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف ، فقال لهم ابن الزبير : أحب أن تنطلقوا معى إلى منزلى ، فقام القوم بأجمعهم ، حتى وقفوا على باب بيته ، فقال ابن الزبير : يا هذه اطرحى عليك سترك ، فلما أخذوا مجالسهم دعا بالمائدة فتغدى^(١) القوم ، فلما فرغوا قال لهم : إنما جمعتمكم لحديث ردته على صاحبة الستر ، وزعمت أنه لو كان بعض بنى عبد مناف حضرنى لما أقر لى بما قلت ، وقد حضرتم جميعاً ، وأنت يا بن عباس ماتقول ؟ إني أخبرتها أن معها فى خدرها من أصبح فى قريش بمنزلة الرأس من الجسد ، لا بل بمنزلة العينين من الرأس ، فردت على مقالتي .

فقال ابن عباس : أراك قصدت قصدى ، فإن شئت أن أقول قلت ، وإن شئت أن أكف كفت . قال : بل قل وما عسى أن تقول ؟ أأست تعلم أن أبى الزبير حوارى^(٢) رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وأن أمى أسماء بنت أبى بكر الصديق ذات النطاقين^(٣) ؟

(١) تغدى : أكل أول النهار ، والغداء : الطعام الذى يؤكل أول النهار ضد العشاء ، (وسمى السحور غداء ، لأنه للصائم بمنزلة الغداء للمفطر) . (٢) الحوارى : الناصر أو ناصر الأنبياء . قال عليه الصلاة والسلام : « الزبير بن العوام ابن عمى ، وحوارى من أمى » . (٣) كان يقال لأسماء بنت أبى بكر رضى الله عنها ذات النطاقين ، قيل : لأنها كانت تطارق نطاقاً على نطاق (طارق بين ثوبين : طابق) وقيل : إنه كان لها نطاقان تلبس أحدهما ، وتحمل فى الآخر الزاد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر رضى الله عنه وهما فى الغار . قال الأزهري : وهذا أصح القولين ، وقيل : إنها شقت نطاقها نصفين ، فاستعملت أحدهما وجعلت الآخر شداداً لزيدهما . وجاء فى المقدم الفرید (ج ٢ ص ٢٧٠) أن الحجاج لما حصر ابن الزبير =

وأن عمتي خديجة سيدة نساء العالمين ؟ وأن صفيّة عمّة رسول الله صلى الله عليه وسلم جدتي^(١) ؟ وأن عائشة أم المؤمنين خالتي ، فهل تستطيع لهذا إنكاراً ؟

قال ابن عباس : لا ، ولقد ذكرتَ شرفاً شريفاً ، وفخراً فاخراً ، غير أنك تفاخر من يفخره فخرتَ ، وبفضله سموت . قال : وكيف ذلك ؟ قال : لأنك لم تذكر فخراً إلا برسول الله صلى الله عليه وآله ، وأنا أولى بالفخر به منك . قال ابن الزبير : لو شدتُ لفخرتُ عليك بما كان قبل النبوة . قال ابن عباس : قد أنصف القارة من راماها^(٢) ، نشدتكم الله أيها الحاضرون ، أعبدُ المطلب أشرفُ أم خوَيْلده في قريش ؟ قالوا : عبد المطلب . قال : أفهاشم كان أشرف فيها أم أسد ؟ قالوا : بل هاشم . قال : أفعبد مناف أشرف أم عبد العزّي ؟ قالوا : عبد مناف ، فقال ابن عباس :

تَنَافَرُنِي يَا بَنَ الزُّبَيْرِ ! وَقَدْ قَضَى عَلَيْكَ رَسُولُ اللَّهِ لِقَوْلِ هَازِلٍ

= بمكة ناداه ويك يا بن ذات النطاقين ، اقبل الأمان ، وادخل في طاعة أمير المؤمنين ، فدخل على أمه أسماء ، فقال لها : سمعت رحك الله ما يقول القوم ، وما يدعونني إليه من الأمان ؟ قالت : سمعتم لعنهم الله ! فا أجهلهم ! وأعجب منهم إذ يعيرونك بذات النطاقين ، ولو علموا ذلك لسكان ذلك أعظم فخره عندهم ، قال : وما ذلك يا أمّاه ؟ قالت : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره مع أبي بكر (وروى عن عائشة رضي الله عنها أنه خرج معه مهاجرين كما جاء في لسان العرب) فهيات لها سفرة ، فطلبها شيئاً بربطانها به فا وجداه ، فقطعت من مئزري لذلك ما احتاجا إليه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما إن لك به نطاقين في الجنة ، وفي القاموس المحيط : لأنها شقت نطاقها ليلة خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الغار ، فجعلت واحدة لسفرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والأخرى عصاما لتقريبته . (١) هي جدته لأبيه .

(٢) القارة : قبيلة ، وهم قوم رماة . ويزعمون أن رجلين التقيا ، أحدهما قارى ، فقال القارى : إن شئت صارعتك ، وإن شئت سابقتك ، وإن شئت راميتك ، فقال الآخر : قد اخترت المراماة ، فقال القارى : قد أنصفتني ، وأنشأ يقول :

قد أنصف القارة من راماها إنا إذا مانفة تلقاها
تد أولاه ا على أخراها

تم انترج له بسهم ، فشك به فواده .

ولو غيرنا يابن الزبير فخرته وَلَكِنَّا سَامِيَتِ شَمْسَ الْأَصَائِلِ^(١)
قضى لنا رسول الله صلى الله عليه وآله بالفضل في قوله : « ما افتردت فرقتان إلا
كنتُ في خَيْرِهما » فقد فارقناك من بعد قُصَى^(٢) بن كِلاب ، أفنحن في فرقة الخير أم لا ؟
إن قلتَ نعم خَصِمْتَ ، وإن قلتَ لا كَفَرْتَ ، فضحك بعض القوم ، فقال ابن الزبير :
أما والله لولا نحرُّمُك^(٣) بطعامنا يابن عباس لأعرقت^(٤) جبينك قبل أن تقوم من
مجلسك . قال ابن عباس : وَلِمَ أْبِاطِلُ ؟ فالباطل لا يغلب الحق ، أم بحق ؟ فالحق
لا يخشى من الباطل .

فقال المرأة من وراء الستر : إني والله لقد نهيتك عن هذا المجلس فأبى إلا ما ترون ،
فقال ابن عباس : مه أيتها المرأة ، اقنعي ببِعْلِكَ ، فما أعظمَ الخطرَ ، وما أكرمَ الخيرَ ،
فأخذ القوم بيد ابن عباس وكان قد عمي ، فقالوا : انهض أيها الرجل فقد أفحمتك غير
مرة ، فهض وقال :

ألا يا قومنا ارتحلوا وسيروا فلو ترك القَطَا لنعفأ ونأما^(٥)

فقال ابن الزبير : يا صاحب القطا أقبلِ هلي^(٦) ، فما كنتَ لتدعني حتى أقول :
وَأَيْمُ اللَّهِ لَقَدْ عَرَفَ الْأَقْوَامُ أَنِي سَابِقُ غَيْرِ مَسْبُوقٍ ، وابن حَوَارِيٍّ وَصِدِّيقٍ ، مُتَّبِعِجٍ^(٧)
في الشرف الأنيق ، خيرٌ من طَلِيقٍ^(٨) وابن طليق ، فقال ابن عباس : رُسِفْتَ

(١) الأصائل : جمع أصيل ، وهو المشى « ما بعد صلاة العصر إلى الغروب » . (٢) كان من أولاده
عبد العزيز بن قصي (ومن سلالة ابن الزبير) وعبد مناف بن قصي (ومن سلالة بنو هاشم) . (٣) تحرم منه
بحرمة : تمنع وتحصى بدمته . (٤) أي لذكرت لك من المساوي ما يهرق له جبينك ويندى خجلا .

(٥) غفا وأغنى : نام نومة خفيفة . (٦) من تبجح به : إذا افتخروا وتعظموا ، وأرجح أنه «متبجح»
من تبجح : أي تمكن في المقام والحلول . (٧) يمرض بأبيه العباس بن عبد المطلب ، وكان خرج مع
المشركين في غزوة بدر الكبرى ووقع أسيرا ، وقد أطلقه عليه الصلاة والسلام بعد أن أخذ منه الفدية « وروى
أنه لما طلب منه الفداء قال : علام يؤخذ مني الفداء ، وكنت مسلما ؟ ولكن القوم استكروهوني ، فقال له صلى الله
عليه وسلم : الله أعلم بما تقول إن يك حقا ، فإن الله يجزيك ، ولكن ظاهر أمرك أنك كنت علينا » .

بِحُرَّتِكَ^(١) فلم تُبْقِ شيئاً ، هذا الكلام مردود ، من امرئ حَسُودٍ ، فإن كنت سابقاً فإلى من سبقت ؟ وإن كنت فاحراً فبمن فخرت ، وإن كنت أدركت هذا الفخر بأسرتك دون أسرتنا ، فالفخر لك علينا . وإن كنت إنما أدركته بأمرتنا فالفخر لنا عليك ، وَالكَثْكَثُ^(٢) في فكك ويديك ، وأما ما ذكرت من الطليق ، فوالله لقد ابتلي فصبراً ، وأنعم عليه فشكر ، وإن كان والله لوفياً كريماً ، غير ناقض بيعة بعد توكيدها ، ولا مُسَلِّمِ كِتَابَةٍ بعد التأمر عليها^(٣) ، فقال ابن الزبير : أتعيّر الزبير بالجبين ؟ والله إنك لتعلم منه خلاف ذلك ، قال ابن عباس : والله إنى لا أعلم إلا أنه فرّ وما كره ، وحارب فما صبر ، وباع فما تمّم ، وقطع الرحيم ، وأنكر الفضل ، ورام ما ليس له بأهل^(٤) :

وأدرك منها بعض ما كان يرتجى وقصر عن جرّي الكرام وبكداً
وما كان إلا كالمجبن أمامه عتاقٌ ، فجاراه العتاق فأجهداً^(٥)

فقال ابن الزبير : لم يبق يابني هاشم غير المشائمة والمضاربة ، فقال عبد الله بن الحصين

(١) الجرة بالضم والفتح : عصا تربط إلى حباله ، تغيب في التراب للظبي بصطادها ، فيها وتر ، فإذا هطلت يده في الحباله انعمدت الأوتار في يده ، فإذا وثب ليقلت فد يده ، ضرب بتلك العصا يده الأخرى ورجله فكسرها ، ورسغ البعير : شد رسغ يديه بخيط . والمعنى وقعت في حبالتك ، وعاد ما فخرت به حجة عليك لا لك ، وفي الأصل « رسعت » بالعين ، ولا يستقيم المعنى بذلك (يقال : رسع الصبي كنع : شد في يده أو رجله خرزا للنع العين ، ورسعت أعضاؤه : فسدت واسترخت) وربما كان الأصل « رصعت » بجرتك « من رصمه بالرمح إذا طعنه طعناً شديداً غيب السنان كله فيه ، أي طعنت بسهمك وارتدت إليك حجتك ، ومعناه كالأول . (٢) الكثكث (بفتح الكافين وكسرهما) : التراب وفتات الحجارة . (٣) يعرض بالزبير وقد بايع الإمام ثم نكث بيعته ، وخرج لقتاله مع أصحاب الجمل ثم اعتزلهم . (٤) أي رام الخلافة ، وقد قال للإمام حين حاوره قبل نشوب وقعة الجمل : « لا أراك لهذا الأمر أهلاً ولا أولى به منا » . (٥) فرس هجين : إذا لم يكن عتيقاً ، وفرس عتيق : أي كريم والجمع عتاق ، وفي الأصل « عتاق » بالنون ، وهو تصحيف .

ابن الحرث : أقمناه عنك يا بن الزبير ، وتأبى إلا منازعته ؟ والله لو نازعته من ساعتك إلى انقضاء عمرك ، ما كنت إلا كالسَّغَبِ (١) الظَّمَانِ ، يفتح فاه يستزيد من الرِّيحِ ، فلا يَشْبَعُ من سَغَبِ (٢) ، ولا يَرَوِي مِنْ عَطَشِ ، فقل إن شئت أو فدَّعْ ، وانصرف القوم .
(شرح ابن أبي الحديد م ٢ : ٥٠١)

ابن عباس وابن الزبير في مجلس مروان بن الحكم

وكان يوضع إلى جانب سرير مروان بن الحكم - وهو يومئذ أمير المدينة - سرير آخر أصغر من سيرره ، فيجلس عليه عبد الله بن عباس إذا دخل ، وتوضع الوسائد فيما سوى ذلك ، فأذن مروان يوماً للناس ، وإذا سرير آخر قد أُحْدِثَ تَجَاهَ (٣) سرير مروان ، فأقبل ابن عباس فجلس على سيرره ، وجاء عبد الله بن الزبير فجلس على السرير المُحْدَثِ ، وسكت مروان والقوم ، فإذا يد ابن الزبير تتحرك ، فعلم أنه يريد أن ينطق ، ثم نطق فقال :

١١٤ - مقال ابن الزبير

« إن ناساً يزعمون أن بيعة أبي بكر كانت غلطاً وقلتة ومُعَالِبَةً ، ألا إن شأن أبي بكر أعظم من أن يقال فيه هذا ، يزعمون أنه لولا ما وقع لكان الأمر لهم وفيهم ، والله ما كان من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أحدٌ أثبت إيماناً ، ولا أعظم سابقيةً من أبي بكر ، فمن قال غير ذلك فعليه لعنة الله ، فأين هم حين عقَدَ أبو بكر لعمر فلم يكن إلا ما قال ، ثم أتى عمر حظهم في حظوظ ، وجدّم في جدود ، فقسمت تلك الحظوظ ،

(١) الجائع . (٢) جوع . (٣) تجاهه ووجهه مثلثين : تلقاه وجهه .

فأخر الله سنهم ، وأدحض جدّهم ، وولي الأمر عليهم من كان أحقّ به ^(١) منهم ، فخرجوا عليه خروج الصوص على التاجر خارجاً من القرية ، فأصابوا منه غيرة ^(٢) فقتلوه ، ثم قتلهم الله به كل قتيلة ، وصاروا مطرودين تحت بطون الكواكب .

١١٥ - مقال ابن عباس

فقال ابن عباس : « على رسلك ^(٣) أيها القاتل في أبي بكر وعمر والخلافة ، أما والله ما نالا ولا نال أحد منهما شيئاً ، إلا وصاحبنا خيرٌ من نالا ، وما أنكرنا تقدم من تقدّم لعيب عيناه عليه ، ولو تقدم صاحبنا لكان أهلاً وفوق الأهل ، ولولا أنك إنما تذكر حظّ غيرك ، وشرف امرئ سواك لكلمتك ، ولكن ما أنت وما لاحظ لك فيه ؟ اقتصر على حظك ، ودع تبنّا لتيم ، وعدياً لعدى ^(٤) وأمّية لأمية ، ولو كئني تئني أو عدوى أو أموى ، لكلمته وأخبرته خبر حاضر عن حاضر ، لا خبر غائب عن غائب ، ولكن ما أنت وما ليس عليك ، فإن يكن في أسد بن عبد العزّي شيء فهو لك ، أما والله لنحن أقرب بك عهداً ، وأبيض بك يداً ، وأوفر عندك نعمة ، ممن أمسيت تظن أنك تصل به علينا ، وما أخلق ثوب صفيّة بهد ، والله المستعان على ما تصفون . »

(شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ٤٩٠)

١١٦ - خطبة عبد الله بن عباس

يردّ على عبد الله بن الزبير وقد حاب بنى هاشم

لما كاشف عبد الله بن الزبير بنى هاشم ، وأظهر بغضهم وعائبهم ، وهم بما هم به في أمرهم ، ولم يذكر رسول الله صلى الله عليه وآله في خطبه ، لا يوم الجمعة ولا غيرها ،

(١) يشير إلى اختيار عمر رضي الله عنه أصحاب الشورى الستة ، وفيهم الإمام على كرم الله وجهه ، وما كان من مبايعة عثمان رضي الله عنه بالخلافة . (٢) غفلة . (٣) الرسل : الرفق والنزوة . (٤) تيم ردهط أبي بكر الصديق ، وعدى ردهط عمر الفاروق .

عانيه على ذلك قوم من خاصته ، وتشاءموا بذلك منه ، وخافوا عاقبته ، فقال : « والله ما تركت ذلك علانيةً إلا وأنا أقوله سرًّا وأكثر منه ، لكنني رأيت بنى هاشم إذا سمعوا ذكره ، أشراً أبوا^(١) واحترت ألوانهم ، وطالت رقابهم ، والله ما كنت لآتي لهم سروراً وأنا أقدر عليه ، والله لقد هممت أن أحظر لهم حظيرةً ، ثم أضرمها عليهم ناراً ، فإني لا أقتل منهم إلا آثماً كفتاراً سحاراً ، لا أنماهم الله ، ولا بارك عليهم ! بيت سوء لا أول لهم ولا آخر ، والله ما ترك نبي الله فيهم خيراً ، استفرغ^(٢) نبي الله صدقهم ، فهم أكذب الناس ، فقام إليه محمد بن سعد بن أبي وقاص فقال : « وفقك الله يا أمير المؤمنين ! أنا أول من أعانك في أمرهم » . فقام عبد الله بن صفوان بن أمية الجمحي فقال : والله ما قلت صواباً ، ولا هممت برشد ، أرهط رسول الله صلى الله عليه وآله تعيب ، وإياهم تقتل ، والعرب حولك ؟ والله لو قتلت عدتهم أهل بيت من الترك مسلمين ، ما سوغه الله لك ، والله لو لم ينصرهم الناس منك لنصرهم الله بنصره ، فقال : اجلس أبا صفوان فلست بناموس^(٣) ، فبلغ الخبر عبد الله بن العباس ، فخرج مخضباً ومعه ابنه ، حتى أتى المسجد ، فقصد قصد المنبر .

فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على رسول الله صلى الله عليه وآله ، ثم قال :

« أيها الناس : إن ابن الزبير يزعم أن لا أول لرسول الله صلى الله عليه وآله ولا آخر ! فيأعجبا كل العجب ، لافترائه وتكذبه^(٤) ! والله إن أول من أخذ الإيلاف^(٥)

(١) اشرب إليه : مد عنقه لينظر أو ارتفع . (٢) في الأصل « استفرغ » وهو تحريف . يقال

استفرغ فلان مجهوده : إذا لم يبق من جهده وطاقته شيئاً ، والمراد أنه حوى ما فيهم من صدق فلم يبق لهم منه شيء ، فهم أكذب الناس (كذا !) . (٣) الناموس : الحاذق ، وهو أيضاً صاحب السر المطلع على

باطن أمرك . (٤) تكذب : تكلف الكذب . (٥) روى أبو علي القالي في أماليه قال :

« كانت قريش تجاراً ، وكانت تجارتهم لا تتحدو مكة ، وإنما تقدم عليهم الأعاجم

بالساع ، فيشترونها منهم ، ثم يتبايعونها بينهم ويبيعونها على من حولهم من العرب ، فكانوا =

وَحَمَى عِيْرَاتٍ^(١) قَرِيْشٍ لَهَاثِيْمٌ ، وَإِنْ أَوْلَ مِنْ سَقَى بِمَكَّةَ عَذْبًا ، وَجَعَلَ بَابَ الْكَعْبَةِ

= كذلك ، حتى ركب هاشم بن عبد مناف إلى الشام ، فنزل بقيصر ، فكان يذبح كل يوم شاة ، ويصنع جَمَنة ثريد ، ويجمع من حوله فيأكلون ، وكان هاشم من أجهل الناس وأتمهم ، فذكر ذلك لقيصر ، فقيل له : هاهنا رجل من قريش يهشم الخبز ثم يصب عليه المرق ويُفَرِّغ عليه اللحم — وإنما كانت العجم تصب المرق في الصحاح ثم تأتدم بالخبز — فدعا به قيصر ، فلما رآه وكلمه أعجيب به ، فكان يبعث إليه في كل يوم ، فيدخل عليه ويحادثه ، فلما رأى نفسه تمكن عنده ، قال له : « أيها الملك إن قومي تجار العرب ، فإن رأيت أن تكتب لي كتابا تؤمن تجارتهم فيقدموا عليك بما يستطرون من آدم الحجاز وثيابه فتباع عندهم فهو أرخص عليكم » فكتب له كتاب أمان لمن يقدم منهم ، فأقبل هاشم بذلك الكتاب ، فجعل كلما مر بحى من العرب بطريق الشام أخذ من أشرفهم إيلافا — والإيلاف أن يأمنوا عندهم في أرضهم بغير حلف ، إنما هو أمان الطريق — وعلى أن قريشا تحمل إليهم بضائع ، فيكفونهم حُمْلانها ، ويؤدون إليهم رعوس أموالهم وربحهم ، فأصلح هاشم ذلك الإيلاف بينهم وبين أهل الشام حتى قدم مكة ، فأتاهم بأعظم شيء أتوا به بركة ، فخرجوا بتجارة عظيمة ، وخرج هاشم معهم يوزهم ؛ يُؤرفهم إيلافهم الذي أخذ لهم من العرب ، حتى أوردتهم الشام ، وأحلهم قراها ، ومات في ذلك السفر بَغْزَةَ ، وخرج المطلب بن عبد مناف إلى اليمن ، فأخذ من ملوكهم عهدا لمن تجر إليهم من قريش ، وأخذ الإيلاف كفعل هاشم ، وكان المطلب أكبر ولد عبد مناف ، وكان يسمى الفَيْض ، وهلك برَدْمَان من اليمن ، وخرج عبد شمس بن عبد مناف إلى الحبشة فأخذ إيلافاً كفعل هاشم والمطلب ، وهلك عبد شمس بمكة فقبره بالحَجُّون ، وخرج نوفل بن عبد مناف ، وكان أصغر ولد أبيه ، فأخذ عهدا من كسرى لتجار قريش ، وإيلافاً ممن مر به من العرب ، ثم قدم مكة ورجع إلى العراق فمات بسَلْمَان ، واتسعت قريش في التجارة في الجاهلية وكثرت أموالها ، فبنو عبد مناف أعظم قريش على قريش منة في الجاهلية والإسلام » — ذيل الأملالي ص ٢٠٤ .

(١) العير بالكسر الإبل تحمل الميرة : بلا واحد من لفظها ، أو كل ما متير عليه إبلا كانت أو حيرا أو

يفالا وجمه كمنيات ويسكن .

ذَهَبًا ، لَعَبْدُ الْمَطْلَبِ ^(١) وَاقْتَدَ نَشَاتٌ نَاشِتَانَا مَعَ نَاشِئَةِ قُرَيْشٍ ، وَإِنْ كُنَّا لَقَاتِلَهُمْ ^(٢) إِذَا قَالُوا ، وَخَطْبَاءَهُمْ إِذَا خَطَبَوْا ، وَمَا عُدَّ مَجْدٌ كَمَجْدِ أَوْلَانَا ، وَلَا كَانَ فِي قُرَيْشٍ مَجْدٌ لَمِيرِنَا ، لِأَنَّهَا فِي كُفْرٍ مَاحِقٍ ، وَدِينٍ فَاسِقٍ ، وَضِلَّةٍ وَضَلَالَةٍ ^(٣) فِي عَشْوَاءٍ ^(٤) عَمِيَاءٍ ، حَتَّى اخْتَارَ اللَّهُ تَعَالَى لَهَا نُورًا ، وَبَعَثَ لَهَا سِرَاجًا ، فَانْتَجَبَهُ ^(٥) طَيِّبًا مِنْ طَيِّبِينَ ، لَا يُسَبُّ بِمَسَبَّةٍ ، وَلَا يُبْنَى عَلَيْهِ غَائِلَةٌ ، فَكَانَ أَحَدَنَا وَوَلَدَنَا وَعَمَنَا وَابْنَ عَمَنَا ، ثُمَّ إِنَّ أَسْبَقَ السَّابِقِينَ إِلَيْهِ ، مَنَا وَابْنَ عَمَنَا ^(٦) ، ثُمَّ تَلَاهُ فِي السَّبْقِ أَهْلُنَا وَلَحْمَتُنَا ^(٧) وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ ، ثُمَّ إِنْ نَخِيرَ النَّاسَ بَعْدَهُ أَكْرَمَهُمْ أَدَبًا ، وَأَشْرَفَهُمْ حَسَبًا ، وَأَقْرَبَهُمْ مِنْهُ رَحِمًا .

وَاعْجَبًا كُلَّ الْعَجَبِ لابن الزبير! يعيب بنى هاشم ، وإنما شرف هو وأبوه وجدّه بمصاهرتهم ، أما والله إنه لمصلوب قريش ، ومتى كان العوام بن خويلد يطعم في صفية بنت عبد المطلب ؟ قيل للبغل : من أبوك يا بغل ؟ فقال : خالي القرس « ثم نزل .

(شرح ابن أبي الحديد م ٣ : ص ٤٨٩)

١١٧ - خطبة ابن الزبير يتنقص ابن عباس

وخطب ابن الزبير بمكة على المنبر ، وابن عباس جالس مع الناس تحت المنبر ، فقال : « إن هاهنا رجلاً قد أعمى الله قلبه كما أعمى بصره ، يزعم أن مُتَمَعَةَ النِّسَاءِ حلالٌ من

(١) قال الطبري : « وعبد المطلب هو الذي كشف عن زمزم بئر إسماعيل بن إبراهيم ، واستخرج ما كان فيها مدفوناً ، وذلك غزالان من ذهب كانت جرهم دفنتهما فيما ذكر حين أخرجت من مكة وأسياف قلعية « ومرج القلعة محرقة : موضع بالبادية إليه تنسب السيوف « وأدراع ، فجعل الأسياف باباً للكعبة ، وضرب في الباب الغزالين صفائح من ذهب ، فكان أول ذهب حليته فيما قيل الكعبة « تاريخ الطبري ٢ : ١٧٩ »

(٢) القالة جمع قائل . (٣) الضلة والضلالة : ضد الهدى . (٤) أى فى جهالة وفتنة عشواء ، من العشى (كعصا) وهو سوء البصر بالليل والنهار ، وقيل ذهب البصر . عشى يعشى (كفرح) فهو أعشى وهى عشواء (والعشواء أيضاً الناقة التى لا تبصر أمامها فهى تخبط بيدها كل شئ ، لأنها ترفع رأسها فلا تتمهد مواقع أخفافها) . (٥) انتجبه : اختاره . (٦) يعنى الإمام عليا كرم الله وجهه .

(٧) اللحمة : القرابة .

الله ورسوله ، وَيُفْتِي فِي الْقَمَلَةِ وَالنَّمَلَةِ ، وقد احتمل بيت مال البصرة^(١) بالأمس ، وترك المسلمين بها يرتضخون^(٢) النوى ، وكيف أُلومُهُ في ذلك : وقد قاتل أم المؤمنين وَحَوَارِيَّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَمَنْ وَقَاهُ بِيَدِهِ^(٣) .

(١) ذكر بعض المؤرخين أن ابن عباس كان من أحب الناس إلى عمر ، وكان يقدمه على أكابر الصحابة ولم يستعمله قط ، فقال له يوما : كدت أستعملك ، ولكن أخشى أن تستحل للقاء على التأويل ، فلما صار الأمر إلى على استعماله على البصرة ، فاستحل النوى على تأويل قوله تعالى « وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِي الْقُرْبَى » ، واستحله لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالوا : ومر ابن عباس على أبي الأسود الدؤلي فقال : لو كنت من البهائم لكنت جملا ، ولو كنت راعيا ما بلغت من المرعى ولا أحسنت مهنته في المشي ، فكتب أبو الأسود إلى على كتابا يقول فيه : « إن ابن عمك قد أكل ماتحت يديه بغير علمك ، فلم يسغى كتبائك ذلك ، فانظر رحمك الله فيما هنالك » فكتب على إلى ابن عباس « أن ارفع إلى حسابك » فرد عليه ابن عباس : « إن كل الذي بلغك باطل » . فكتب إليه على : « إنه لا يسغى تركك ، حتى تعلمنى ما أخذت من الجزية ، من أين أخذته ، وما وضعت منها ، أين وضعت » فلما رأى أن عليا غير مقلع عنه كتب إليه « ابعث إلى عمك من أحببت ، فإني ظاعن منه » ورحل عن البصرة ، وقد حمل ما كان في بيت مالها حتى قدم الحجاز فنزل مكة ، وتبودات الكتب بين على وبينه ثانية ، وكانت خاتمتها أن كتب إليه ابن عباس : « والله إن لم تدعى من أساطيرك لأحملته إلى معاوية يقاتلك به » فكف عنه على ، - انظر المقدم الفريد ج ٢ : ص ٢٤٢ ، وتاريخ الطبرى ٦ : ٨١ ، ونهج البلاغة ج ٢ : ٤٦ - .

وقال آخرون : إن ابن عباس مافارق عليا ولا باينه ، ولم يزل أميرا على البصرة إلى أن قتل على وبعد مقتل على حتى صالح الحسن معاوية ، ثم خرج حينئذ إلى مكة ، وليس هذا موضع بحث تلك المسألة - انظر كلمة عنها في شرح ابن أبي الحديد ج ١٦ ص ٦٤ ، وأمالى السيد المرتضى ج ١ ص ١٢٣ . (٢) رضح النوى (كنع وضرب) كسره ، وفي لسان العرب : « فظلوا يرتضخون أى يكسرون الخبز فياً كلونه ويتناولونه » ولم أجد في كتب اللغة « يرتضخ » بهذا المعنى ، وإنما الذى جاء « وهو يرتضخ لسكنة عجمية إذا نشأ معهم ثم صار إلى العرب ، فهو ينزع إلى المعجم فى النفاذه ولو اجتهد » وقول ابن الزبير كناية عن شدة القحط والفاقة . (٣) كان طلحة بن عبيد الله ممن ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وحامى عنه فى وقعة أحد وقد انهزم المسلمون ، ووقاه بيده من سيوف المشركين ، وقد رمى بسهم فى يده فبيست ، وقال عليه الصلاة والسلام يومئذ « اليوم أوجب طلحة الجنة » .

١٢٨ - رد ابن عباس عليه

فقال ابن عباس لقائده سعيد بن جبير مولى بنى أسد بن خزيمه - وكان ابن عباس قد كف بصره - استقبل بي وجه ابن الزبير وارفع من صدرى ، فاستقبل به قائده وجه ابن الزبير وأقام قامته ، فحصر عن ذراعيه ، ثم قال : « يا بن الزبير :

قد أنصف القارة من رامها إننا إذا مافية نلقاها
زد أولها على آخرها حتى تصير حرضا دعوها^(١)

يا بن الزبير : أما العمى ، فإن الله تعالى يقول : « فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ » ، وأما فتياى فى القملة والنملة ، فإن فيها حكمتين لاتعلمهما أنت ولا أصحابك ، وأما تحلى المال ، فإنه كان ما لا جبيناه ، فأعطينا كل ذى حق حقه ، وبقيت بقية هى دون حقتنا فى كتاب الله ، فأخذناها بحقتنا ، وأما المتمة فسل أمك أسماء إذ نزلت عن بردى عوسجة ، وأما قتالنا أم المؤمنين ، فبنا سميت أم المؤمنين ، لا بك ولا بأبيك ، فانطلق أبوك وخالك^(٢) إلى حجاب مده الله عليها ، فهتكاه عنها ، ثم اتخذها فتنه يقاتلان دونها ، وصانا حلائلها فى بيوتها ، فما أنصفا الله ولا محمدا من أنفسهما أن أبرزنا زوجة نبيه وصانا حلائلها ، وأما قتالنا إياكم ، فإننا لقيناكم زحفا ، فإن كنا كفارا فقد كفرتم بفراركم منا ، وإن كنا مؤمنين فقد كفرتم بقتالكم إيانا ، وإيم الله لولا مكان صفية فيكم ، ومكان خديجة فينا ، لما تركت لبني أسد بن عبد المزى عظما إلا كسرته .

(١) الحرض : التساد فى المذهب والعقل والبدن . (٢) يعنى طلحة وهو ابن عم جده أبى بكر

الصدىق ، فهو طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عبيد الله بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب ابن لؤى ، وأبو بكر هو عبد الله بن أبى قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب . . . الخ ، وإنما جعله خاله باعتبار القرابة النسوية .

فلما عاد ابن الزبير إلى أمه سألتها عن بُرْدَى عَوْسَجَةَ ، فقالت : ألم أنك عن ابن عباس ، وعن بنى هاشم ؟ فإنهم كُفُّوا^(١) الجواب إذا بُدِّهوا^(٢) . فقال : بلى وعصيتك ، فقالت : يا بُنى احذر هذا الأعمى الذى ما أطاقتة الإنس والجن ، واعلم أن عنده فضائح قريش ومخازيها بأسرها ، فإياك وإياه آخر الدهر .

ورواية صاحب العقد : « أن ابن عباس قال لعكرمة : أقم وجهى نحوه يا عكرمة ، ثم قال :

إِنْ يَأْخُذَ اللَّهُ مِنْ عَيْنَيْ نَوْرِهِمَا فَنِي فَوَادِي وَعَقْلِي مِنْهُمَا نَوْرٌ

وأما قولك يا ابن الزبير : إني قاتلت أم المؤمنين ، فأنت أخرجتها وأبوك وخالك ، وبنا سميت أم المؤمنين ، فكنا لها خير بنين ، فتجاوز الله عنها ، وقاتلت أنت وأبوك علياً ، فإن كان على مؤمناً فقد ضللتكم بقولكم المؤمنين ، وإن كان كافراً فقد بؤتكم بسخط من الله بفراركم من الزحف . وأما المتعة فإنى سمعت على بن أبي طالب يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم رخص فيها فأفتيت بها ، ثم سمعته ينهى عنها فنهيت عنها^(٣) .

(١) كعم البعير كنع : شد فاء لثلا يعرض أو يأكل ، والكمام ككتاب : ما يجعل على فاه ، والجمع كعم ككتب . والمعنى أنهم ذور أجوية مسكتة مخرسة تلجم أفواه مناظرهم .

(٢) بدده بأمر كمنه : استقبله به أو بدأه به . (٣) جاء في المصباح المنير : « المتعة اسم الفتح ،

ومنه متعة الحج ، ومتعة النكاح ، ومتعة الطلاق ، ونكاح المتعة هو المؤقت في العقد ، وقال في العباب : كان الرجل يشارط المرأة شرطاً على شيء إلى أجل معلوم ، ويعطيها ذلك فيستعمل بذلك فرجها ، ثم يخل سبيلها من

غير تزويج ولا طلاق ، وقيل في قوله تعالى « فَمَا اسْتَمْتَمْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ »

المراد نكاح المتعة ، والجمهور على تحريم نكاح المتعة ، وقالوا معنى قوله : « فَمَا اسْتَمْتَمْتُمْ » فانكحتم على

الشريعة التي في قوله تعالى : « أَنْ تَدْبَتُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ » أى عاقدين

النكاح ، واستمتمت بكذا وتمتمت : انتفعت ، ومنه تمتع بالعمرة إلى الحج : إذا أحرم بالعمرة في أشهر

الحج وبعد تمامها يحرم بالحج فإنه بالفراغ من أعمالها يحل له ما كان حرم عليه ، فن ثم يسمى متمتعا « اه . =

وأولِ حَجْمَرٍ^(١) سَطَعَ فِي الْمُتَمَّةِ حَجْمَرِ آلِ الزَّبِيرِ^(٢) .

(شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ٤٨٩ ، والمقد الفريد ٢ : ٢٦٩ - ١١٣ ، ومروج الذهب ٢ : ١٠٣)

١١٩ - عبد الله بن جعفر (المتوفى سنة ٨٠ هـ) وعمرو بن العاص

قال ابن أبي الحديد : روى المدائني قال :

« بينا معاوية يوماً جالساً وعنده عمرو بن العاصِ إذ قال الأذن : قد جاء عبد الله ابن جعفر بن أبي طالب . فقال عمرو : والله لأسوأته اليوم ، فقال معاوية : لا تفعل يا أبا عبد الله ، فإنك لا تنتصف منه ، ولعلك أن تظهر لنا من منقبتِه^(٣) ما هو خفي عنا ، ومالا نحب أن نعلمه منه ، وغشبيهم عبد الله بن جعفر ، فأدناه معاوية وقرَّبه ، فقال عمرو إلى بعض جلساء معاوية ، فقال من على عليه السلام جهارا غير سائرٍ له وثلبته ثلبيبا^(٤) قبيحا ، فامتنع^(٥) لون عبد الله ، واعتراه أفكَل^(٦) ، حتى أُرعدت خصائله^(٧) ثم نزل عن السرير كالفتنيق^(٨) ، فقال عمرو : مه يا أبا جعفر ، فقال له عبد الله : مه لا أم لك ، ثم قال :

أظن اللحمَ دلَّ على قومي وقد يتجهل الرجل الحليم

= وجاء في التفسير : « وقيل نزلت الآية في المتعة التي كانت ثلاثة أيام حين فتحت مكة ثم نسخت لما روى أنه عليه الصلاة والسلام أباحها ، ثم أصبح يقول : « يأبها الناس إني كنت أمرتكم بالاستمتاع من هذه النساء ، ألا إن الله حرم ذلك إلى يوم القيامة » وهي النكاح الموقت بوقت معلوم سمي بها ، إذ الغرض منه مجرد الاستمتاع بالمرأة وتمتعها بما تعطى ، وجوزها ابن عباس رضي الله عنهما ثم رجع عنه . »

(١) الحجمر : العود ، واستحجر بالحجر : تبخر بالعود . (٢) قال المسعودي في مروج الذهب :

« وقد تنازع الناس في ذلك ، فمنهم من رأى أنه عني متعة النساء ، ومنهم من رأى أنه أراد متعة الحج ، لأن الزبير تزوج أسماء بكرا في الإسلام ، وزوجه أبو بكر معلنا ، فكيف تكون متعة النساء ؟ » .

(٣) المنقبة : المفخرة . (٤) ثلبه : عابه . (٥) تغير لونه . (٦) الأفكل : الرعدة .

(٧) جمع خصيلة : وهي لحم الفخذين والعضدين والذراعين ، أو كل عصبة فيها لحم غليظ .

(٨) الفتنيق : الفحل المسكرم لا يؤذى لكرامته على أهله ولا يركب .

ثم حَسَرَ عن ذراعيه ، وقال :

« يامعاوية حَتَامَ تَتَجَرَّعُ غَيْظَكَ ، وَإِلَى كَمِ الصَّبْرِ عَلَى مَكْرُوهِ قَوْلِكَ ، وَسَيِّءُ أَدَبِكَ ، وَذَمِيمُ أَخْلَاقِكَ ، هَيْبَتُكَ الْهَيْبُولُ (١) ، أَمَا يَزْجُرُكَ ذِمَامُ (٢) الْجَالِيسَةِ عَنِ الْقَدْحِ (٣) لَجَلِيسِكَ إِذَا لَمْ تَكُنْ لَكَ حُرْمَةٌ مِنْ دِينِكَ تَهَاكَ عَمَا لَا يَجُوزُ لَكَ ، وَاللَّهِ لَوْ عَطَفْتُكَ أَوْ اصْرَمْتُ (٤) الْأَرْحَامَ ، أَوْ حَامَيْتُ عَلَى سَهْمِكَ مِنَ الْإِسْلَامِ ، مَا أَرَعَيْتَ بَنِي الْإِمَاءِ الْمُتَكِّ (٥) ، وَالْعَبِيدِ السُّكِّ (٦) أَعْرَاضَ قَوْمِكَ ، وَمَا يَجْهَلُ مَوْضِعَ الصَّفْوَةِ (٧) إِلَّا أَهْلُ الْجَفْوَةِ ، وَإِنَّكَ لَتَتَعَرَّفُ وَشَائِجَ (٨) قَرِيْشٍ ، وَصَفْوَةَ غَرَائِزِهَا ، فَلَا يَدْعُوَنَّكَ تَصْوِيبَ مَا فَرَطَ مِنْ خَطِّكَ فِي سَفْكَ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ ، وَمَحَارَبَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، إِلَى التَّمَادِي فِيمَا قَدْ وَضَحَ لَكَ الصَّوَابُ فِي خِلَافِهِ ، فَاقْصِدْ لِمَنْهَجِ الْحَقِّ فَقَدْ طَالَ عَمَهُكَ (٩) عَنِ سَبِيلِ الرُّشْدِ ، وَخَبَطَكَ فِي دَيْبُجُورِ (١٠) ظِلْمَةِ الْغِيِّ ، فَإِنَّ أَيْتَ أَنْ لَا تَتَابَعْنَا فِي قَبِيحِ اخْتِيَارِكَ لِنَفْسِكَ ، فَأَعْفِنَا عَنِ سُوءِ الْقَالَةِ (١١) فِينَا ، إِذَا ضَمَّنَا وَإِيَّاكَ النَّدِيَّ (١٢) ، وَشَأْنُكَ وَمَا تَرِيدُ إِذَا خَلَوْتَ ، وَاللَّهِ حَسِيْبِكَ ، فَوَاللَّهِ لَوْلَا مَا جَعَلَ اللَّهُ لَنَا فِي يَدَيْكَ لِمَا أَتَيْنَاكَ ، ثُمَّ قَالَ : إِنْ كَلَفْتَنِي مَا لَمْ أُطِقْ ، سَاءَ مَا سَتَرَ مِنِّي مِنْ خَلْقٍ . »

(١) هَيْبَتُهُ أُمُّهُ : ثِقَلَتُهُ ، وَالْهَيْبُولُ : الْمَرْأَةُ لَا يَعْشِشُ لَهَا وَلَدٌ . (٢) الذِّمَامُ : الْحُرْمَةُ . (٣) قَدْحُهُ وَأَقْدَعُهُ : رَمَاهُ بِالْفَحْشِ وَسُوءِ الْقَوْلِ . (٤) جَمْعُ آصْرَةٍ ، وَهِيَ الْقَرَابَةُ وَحَبْلٌ صَغِيرٌ يَشْدُبُهُ أَسْفَلَ الْحَبَاءِ . (٥) الْمُتَكِّ : جَمْعُ مَتَكَاهُ (كَمَحْرَاهُ) وَهِيَ الْبِظْرَاءُ وَالْمَفْضَاةُ وَالَّتِي لَا تَمْسُكُ الْبُولَ . (٦) السُّكُّ جَمْعُ أَسْكَ مِنْ السُّكِّ (مَحْرَكَةٌ) ، وَهُوَ صَفْرُ الْأُذُنِ وَنِزْوَقُهَا بِالرَّأْسِ ، أَوْ صَفْرُ فَوْفِ الْأُذُنِ وَضِيقُ الصِّبَاخِ . (٧) أَيُّ صَفْوَةِ الْقَوْمِ وَسَادَتِهِمْ . (٨) فِي الْأَصْلِ « وَشَائِكُ » وَقَدْ بَحِثْتُ فِي مَادَّةِ « وَشِكُ » فَوَجَدْتُ فِيهَا « وَالْوَشِيكَ السَّرِيْعُ وَالْقَرِيبُ ، وَامْرَأَةٌ وَشِيكٌ : أَيُّ سَرِيْعَةٌ » فَلَوْ جَعَلْنَا وَشَائِكُ جَمْعَ وَشِيكَةٍ « أَوْ وَشِيكٌ عَلَى التَّأْنِيثِ » لَمْ يَسْتَقِمْ مَعْنَى الْعِبَارَةِ ، وَأَرَاهُ مَحْرَفًا عَنِ « وَشَائِجِ » بِالْجِيمِ . جَمْعُ وَشِيجَةٍ ، وَهِيَ عِرْقُ الشَّجَرَةِ ، فَغَنَى وَشَائِجِ قَرِيْشٍ أَصُولُهَا وَعِرْوَقُهَا « وَالْعِرْقُ أَصْلُ كُلِّ شَيْءٍ » أَيُّ وَإِنَّكَ يَامَعَاوِيَةَ لَتَعْرِفُ أَصُولَ قَرِيْشٍ لِلْكَرِيمَةِ الزَّارِكِيَّةِ الَّتِي تَأْتِي الضَّمِيمَ وَلَا تَحْتَمِلُ الثَّلْبَ وَالْإِهَانَةَ « وَالْوَشِيحُ أَيْضًا شَجَرُ الرَّمَاحِ » وَنَظِيرُ هَذَا لِلتَّمْبِيرِ قَوْلُ الْفَرَزْدَقِ « مُشْتَقَّةٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ نُبَيْتُهُ » - وَالتَّبَعُ : شَجَرٌ تَتَّخِذُ مِنْهُ الْقَمِيَّ وَالسَّهْمَ . (٩) الْعَمَةُ مَحْرَكَةٌ : التَّرَدُّدُ فِي الضَّلَالِ . (١٠) الدَّيْبُجُورُ : الظَّلَامُ . (١١) الْقَوْلُ فِي الْحَيْرِ ، وَالْقَالَ وَالْقَيْلُ وَالْقَالَةُ فِي النَّوْرِ . (١٢) النَّادِي .

فقال معاوية : يا أبا جعفر نغبر الخطأ ، أقسمت عليك لتتجلسن^١ ، لمن الله من أخرج
حَبَّ صدرك من وَجَارِه^(١) ، محمول لك ما قلت ، ولك عندنا ما أملت ، فلو لم يكن
مَحْتِدِك^(٢) ومنصيبك لكان خُلُقك وَخُلُقك شافعين لك إلينا ، وأنت ابن ذى الجناحين
وسيد بنى هاشم ، فقال عبد الله : كلا بل سيد بنى هاشم حسن وحسين لا ينازعهما
في ذلك أحد ، فقال : أبا جعفر أقسمت عليك لما ذكرت حاجة لك إلا قضيتها كأنه
ما كانت ، ولو ذهبت بجميع ما أملك ، فقال : أما في هذا في المجلس فلا ، ثم انصرف ،
فأتبعه معاوية بصره فقال : والله لكانه رسول الله صلى الله عليه وآله مشيه وخُلُقُه وخُلُقُه ،
وإنه لمن مِشْكاته^(٣) ، لو ددت أنه أخى بنفيس ما أملك .

ثم التفت إلى عمرو فقال : أبا عبد الله ما تراه منعه من الكلام معك ؟ قال : ما لا
خفاء به عنك . قال : أظنك تقول : إنه هاب جوابك ؟ لا والله ولكنك ازدراك واستحقرك
ولم يرك للكلام أهلاً ، أما رأيت إقباله علىّ دونك ، ذاهباً بنفسه عنك ؟ فقال عمرو :
فهل لك أن تسمع ما أعددت له لجوابه ؟ قال معاوية : أرغب إليك أبا عبد الله ، فلات حين
جواب فيما يرى اليوم ؛ ونهض معاوية وتفرق الناس .

(شرح ابن أبي الحديد م ٢ : ص ١٠٤)

١٢٠ - الحسن بن عليّ وعمرو بن العاص

وَوَفَدَ الحسن بن عليّ رضى الله عنه على معاوية ، فقال عمرو بن العاص لمعاوية :
يا أمير المؤمنين إن الحسن رجل أفه^(٤) ، فلو حملته على المنبر فتكلم وسمع الناس كلامه
عابوه وسقط من عيونهم ففعل ، فصعد على المنبر وتكلم فأحسن ، ثم قال : أيها الناس لو

(١) جحره . (٢) أصلك . (٣) المشكاة : الكوة التي ليست بنافذة .

(٤) أفه : وصف من الفهاة ، وهى العى ، وفعله ففه كفرح ، وقياس الوصف منه أفه على أفعل لأنه

يدل على خلقه « عيب » كمور وعمى وعرج ، واسكن الذى فى كتب اللغة : فه كعذب وفهيه وفهفه .

طلبتم ابنا لنبيكم ما بين جابر من إلى جابلق^(١) لم تجدوه غيرى وغير أخى : (وَإِنْ أَدْرَى
لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ) فساء ذلك عمرا ، وأراد أن يقطع كلامه ، فقال له :
أبا محمد ، هل تنعمت الرطب^(٢) ؟ فقال : « أَجَلٌ تُلْقِيهِ الشَّمَالُ ، وَتُخْرِجُهُ الْجَنُوبُ ،
وَيُنْضِجُهُ بَرْدُ اللَّيْلِ ، بَحْرٌ النَّهَارِ^(٣) » قال : أبا محمد ، هل تنعمت الخراة^(٤) ؟ قال :
« نَعَمْ ، تُبْعِدُ الْمَشَى فِي الْأَرْضِ الصَّحَّاحِ^(٥) ، حَتَّى تَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ ، وَلَا تَسْتَقْبِلُ
الْقِبْلَةَ ، وَلَا تَسْتَيْدِرُّهَا ، وَلَا تَسْتَنْجِ بِالرَّوْثَةِ ، وَلَا الْعِظَمِ ، وَلَا تَبُلُّ فِي الْمَاءِ الرَّاكَدِ »
وأخذ في كلامه .

(المقد الفريد ٢ : ١١٥ ، وعيون الأخبار م ٢ : ١٧٢ ، ومعجم البلدان ٣ : ٢٢)

١٢١ - الحسن بن علي ومروان بن الحكم

بينما معاوية بن أبي سفيان جالس في أصحابه إذ قيل له : الحسن بالباب ، فقال
معاوية : إن دخل أفسد علينا ما نحن فيه ، فقال له مروان بن الحكم : ائذن له ، فإني أسأله
ماليس عنده فيه جواب ، قال معاوية : لا تفعل ، فإنهم قوم قد ألهموا الكلام وأذن له ،
فلما دخل وجلس ، قال له مروان : أسرع الشيب إلى شاربك يا حسن ، ويقال إن ذلك
من الخرق^(٦) ، فقال الحسن : ليس كما بلغك ، ولكننا معشر بني هاشم ، أفواها عذبة

(١) جابر : مدينة بأقصى المشرق ، وجابلق : مدينة بأقصى المغرب ، وضبطها ياقوت في معجمه
بسكون اللام ، وفي القاموس ولسان العرب بفتحها ، قال ياقوت : « وفي رواية : جابلص » وضبطها
صاحب اللسان بفتح اللام . وفي القاموس بفتح اللام أو سكونها : بلد بالمغرب ليس وراءه أنسى ، وفي العقد
الفريد : « لو طلبتم أبناء أبيكم ما بين لابتيها » ولا بتا المدينة : حرتان تكتشفانها . (٢) يسأله هذا
وما بعده تعجزا له . (٣) وفي العقد : « وتنضجه الشمس ، ويصبغه القمر » . (٤) خرى كسمع
خراة بفتح الخاء وكسرها : سلاح . (٥) الصحاح : ما استوى من الأرض . وفي العقد الفريد
« للصحاح » وهو تحريف . (٦) الخرق كسبب : الحق ، وألا يحسن الرجل العمل والتصرف في الأمور
والاسم الخرق كقفل .

شِفَاهُهَا ، فَنَسَاؤُنَا يُقْبَلُنَ عَلَيْنَا بِأَنْفَاسِهِنَّ وَقُبُلِهِنَّ ، وَأَنْتُمْ مَعشَرَ بَنِي أُمَيَّةَ فَيَكُمُ بَحْرٌ (١) شَدِيدٌ ، فَنَسَاؤُكُمْ يَصْرِفُنْ أَفْوَاهَهُنَّ وَأَنْفَاسَهُنَّ عَنْكُمْ إِلَى أَسْدَانِكُمْ ، فَإِنَّمَا يَشِيبُ مِنْكُمْ مَوْضِعُ الْمَذَارِ (٢) مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ . قَالَ سُرَوَانُ : إِنْ فَيَكُمُ يَا بَنِي هَاشِمٍ خَصَلَةٌ سَوْءٌ . قَالَ : وَمَا هِيَ ؟ قَالَ : الْعُلْمَةُ (٣) . قَالَ : أَجَلٌ ، نُزِعَتِ الْعُلْمَةُ مِنْ نِسَائِنَا ، وَوُضِعَتْ فِي رِجَالِنَا وَنُزِعَتِ الْعُلْمَةُ مِنْ رِجَالِكُمْ ، وَوُضِعَتْ فِي نِسَائِكُمْ ، فَمَا قَامَ لِأُمَوِيَّةٍ إِلَّا هَاشِمِيٌّ ؛ فَغَضِبَ عَاوِيَةُ وَقَالَ : قَدْ كُنْتُ أَخْبَرْتُكُمْ ، فَأَبَيْتُمْ حَتَّى سَمِعْتُمْ مَا أَظْلَمَ عَلَيْكُمْ بَيْنَكُمْ ، وَأَفْسَدَ عَلَيْكُمْ مَجْلِسَكُمْ » (العقد الفريد ٢ : ١١٥)

١٢٢ — عقيل بن أبي طالب و معاوية

وَكَانَ عَقِيلُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ قَدْ خَرَجَ إِلَى مَعَاوِيَةَ مُغَاضِبًا لِأَخِيهِ الْإِمَامِ عَلِيِّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ (٤) ، فَأَكْرَمَهُ مَعَاوِيَةُ ، وَقَرَّبَهُ إِلَيْهِ ، وَقَضَى حَوَائِجَهُ ، وَقَضَى عَنْهُ دَيْنَهُ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ : « وَاللَّهِ إِنْ عَلِيًّا غَيْرُ حَافِظٍ لَكَ ، قَطَعَ قَرَابَتَكَ ، وَمَا وَصَلَكَ ، وَلَا اصْطَنَعَكَ » قَالَ لَهُ عَقِيلٌ : « وَاللَّهِ لَقَدْ أَجْزَلَ الْعَطِيَّةَ وَأَعْظَمَهَا ، وَوَصَلَ الْقَرَابَةَ وَحَفِظَهَا ، وَحَسَّنَ ظَنَّهُ بِاللَّهِ إِذْ سَاءَ بِهِ ظَنُّكَ ، وَحَفِظَ أَمَانَتَهُ ، وَأَصْلَحَ رَعِيَّتَهُ ، إِذْ خُنِمَ وَأَفْسَدَتْمْ وَجُرْتُمْ ، فَا كَفَفَ لِأَبَالِكَ فَإِنَّهُ عَمَّا تَقُولُ بِمَعْرُورٍ » .

وَقَالَ لَهُ مَعَاوِيَةُ يَوْمًا : « أبا يزيد ، أَنَا لَكَ خَيْرٌ مِنْ أَخِيكَ عَلِيٌّ » قَالَ « صَدَقْتَ ، إِنْ

(١) البحر : اللتين في الفم وغيره . (٢) العذار : جانبها اللحية .

(٣) العُلْمَةُ : شدة الشهوة كالشبق بالتحريك . (٤) وكان قد قدم عليه بالكوفة ، فسأله أن

يقضى عنه دينه ، قال : وكم دينك ؟ قال : أربعون ألفا ، قال : ما هي عندي ، ولكن اصبر حتى يخرج

عطائي فإنه أربعة آلاف فأدفعه إليك ، قال : بيوت المال بيدك وأنت تسوفني بمطائك ؟ قال : أتأمرني أن أدفع

إليك أموال المسلمين وقد ائتمنوني عليها ؟ قال : فإني آت معاوية ، فأذن له فقدم عليه « انظر أسد الغابة ٣ :

٤٢٣ والفخرى ص ٧٦ » اقرأ أيضا كلمة في هذا الصدد في شرح ابن أبي الحديد ٣ : ٨٢ وفي ترجمة علي

ابن أبي طالب للمؤلف ص ٨٣ .

أخى آثرَ دينه على دنياه ، وأنت آثرت دنياك على دينك ، فأنت خير لي من أخى ،
وأخى خير لنفسه منك^(١) .

وقال له مرة : « أنت معنا يا أبا يزيد » قال : « ويوم بدر قد كنت معكم ! » .
وقال له يوما : إن علياً قد قطعك ووصلتكَ ، ولا يُرضيني منك إلا أن تلعنه على
على المنبر . قال : أفعلُ ، فأصعد فصعد ، ثم قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : « أيها الناس
إن أمير المؤمنين معاوية أمرني أن ألعنَ عليَ بنَ أبي طالب فاعنؤوه ، فعليه لعنةُ اللهِ
والملائكةِ والناسِ أجمعين » ثم نزل ، فقال له معاوية : إنك لم تبين - أبا يزيد - من
لعنتَ بي وببي . قال : والله لا زدتُ حرفاً ولا نقصتُ آخر ، والكلام إلى
نية المتكلم .

ودخل عقيل على معاوية وقد كف بصره ، فأجلسه على سريره ، ثم قال له :
« أنتم معشرَ بني هاشم تُصابون في أبصاركم » قال : « وأنتم معشرَ بني أمية تصابون
في بصائركم » .

وقال له يوماً : ما أبينَ الشَّبَقَ في رجالكم يا بني هاشم اقال : لكنه في نساءكم
أبينُ يا بني أمية .

وقال معاوية يوماً : « يا أهل الشام ، هل سمعتم قول الله تبارك وتعالى في كتابه : (تَبَّتْ
يَدَا أَبِي لَهَبٍ^(٢) وَتَبَّ) ؟ قالوا : نعم ، قال : فإن أبا لهب عمه ، فقال عقيل : فهل سمعتم
قول الله عز وجل : (وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ^(٣)) قالوا : نعم ، قال : فإنها عمته ، ثم

(١) وفي البيان والتبيين أن معاوية قال : هذا أبو يزيد ، لولا أنه علم أني خير له من أخيه لما أقام
عندنا وتركه ، فقال له عقيل : « أخى خير لي في ديني ، وأنت خير لي في دنياي » . (٢) هو أبو لهب
ابن عبد المطلب عم الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكان شديد الإيذاء له ، يرى القدر على بابه .

(٣) هي أم جميل بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان ، وقيل لها حمالة الحطب ، لأنها كانت تحمل
الشوك والسعدان وتلقيه في طريق النبي عليه الصلاة والسلام إيذاه له وكانت جارته ، أو هو النخعة إذ كانت
تسعى عليه بالتمائم وتوقد بذلك نار الخصومة ، أو حطب جهنم ، فإنها كانت تحمل الأوزار بمعاداته ، وتحمل
زوجها على إيذائه .

قال « يا معاوية ، إذا دخات النار ، فاعدل ذات اليسار ، فإنك ستجد عمي أبا لُهب ، مقرشا
عمتك حمالة الحطب ، فانظر أيهما خير ؟ »

وقال له معاوية يوما : والله إن فيكم لخصلة ما تمجبنى يا بنى هاشم . قال : وما هي ؟
قال : لين فيكم . قال : لين ماذا ؟ قال : هو ذاك . قال إيانا تُعير يا معاوية ؟ أجل والله
إن فينا لئينا من غير ضعف ، وعزا من غير جبروت ، وأما أنتم يا بنى أمية ، فإن لينكم
عذر ، وعزكم كفر . قال معاوية : ما كل هذا أردنا يا أبا يزيد .

وقال معاوية لعقيل : لم جفوتنا يا أبا يزيد ؟ فأنشأ يقول :

إني امرؤ مني التكرم شيمة إذا صاحبي يوما على الهون أضيرا
ثم قال « وايم الله يا معاوية ، لئن كانت الدنيا مهديتكم مهادها ، وأظلتكم
بحدافير^(١) أهلها ، ومدت عليكم أطناب سلطانها ، ما ذاك بالذي يزيدك مني رغبة ،
ولا تخشعا رهبة » قال معاوية : « لقد نعتيها أبا يزيد نعتا هسن لها قلبي ، وإني لأرجو أن
أن يكون الله تبارك وتعالى مارداًني برداء ملكها ، وخباني بفضيلة عيشها ، إلا لكرامة
أدخرها لي ، وقد كان داود خليفة ، وسليمان ملكا ، وإنما هو المثال يُحتذى عليه ،
والأمور أشباه ، وايم الله يا أبا يزيد ، لقد أصبحت علينا كريماً ، وإلينا حبيبا ،
وما أصبحت أضير لك إساءة . »

(المقدم الفريد ٢ : ١١٠ - ١١٩ ، البيان والتبيين ٢ : ١٧٤)

(١) الحدافير : جمع حذفور أو حذفار (كمصفور وقرطاس) وهو الجانب .

١٢٣ - خطبة السيدة أم كلثوم بنت علي في أهل الكوفة

بعد مقتل الحسين عليهم السلام

لما قُتل الحسين بن عليّ عليهما السلام ، وأدخِلَ النَّسْوَةَ من كَرَبَاءَ إلى الكوفة جعلت نساؤها يلتدمن^(١) ، ويهتكن الجيوبَ عليه ، فرفع عليّ بن الحسين عليهما السلام رأسه ، وقال بصوت ضئيل - وقد نَحَلَ^(٢) من المرض - يا أهل الكوفة إنكم تكون علينا ، فمن قتلنا غيركم ؟ وأومات أم كلثوم بنت عليّ عليهما السلام إلى الناس أن اسكتوا ، فلما سكنت الأنفاس ، وهذأت الأجراس^(٣) ، قالت .

« أبدأ بحمد الله ، والصلاة والسلام على أبيه^(٤) ، أما بعد : يا أهل الكوفة يا أهل الختر^(٥) والخذل ، لا ، فلا رقات^(٦) العبرة ، ولا هذات الرنة^(٧) ، إنما مثلكم كمثل التي نقضت غزها من بعد قوة أنكاثا^(٨) ، تتخذون أيمانكم دخلا^(٩) بينكم ، ألا وهل فيكم إلا الصلف^(١٠) والشنف^(١١) ، وملق^(١٢) الإمام ، وغز الأعداء ، وهل أنتم

(١) لدمت المرأة (كضرب) ، والتدمت : لطمت وضربت صدرها في النياحة ، ويهتكن :

يمزقن ، والجيوب جمع جيب : وهو طوق القميص . (٢) كنع وعلم ونصر وكرم .

(٣) الأجراس جمع جرس كشمس : وهو الصوت . (٤) تريد جدها رسول الله صلى الله عليه

وسلم ، وفي رواية : « والصلاة على جدى سيد المرسلين » . (٥) الغدر والخديعة ، أو أفبح الغدر .

(٦) رقا الدمع : جف وسكن ، والعبرة : الدفعة قبل أن تفيض . (٧) الرنة : الصوت .

(٨) أنكاثا : جمع نكت كعمل ، وهو مانقض لينزل ثانية - حال من غزها ، أو مفعول ثان لنقضت

لأنه بمعنى صيرت - وقيل هي ربطة بنت سعد بن تيم القرشية ، وكانت خرقاء تغزل طول يومها ثم تنقضه .

(٩) الدخل : ما يدخل في الشيء وليس منه ، وما داخل من فساد في عقل أو جسم ، والغدر

والمكر والخديعة . (١٠) الصلف : التمدح بما ليس عندك ، أو مجاوزة قدر الظرف والادعاء فوق

ذلك تكبرا . (١١) الشنف : النظر بمؤخر العين ، أو النظر إلى الشيء كالمعترض عليه ، أو كالمتعجب

منه ، أو كالسكاره له ، وشنف له كفرح فرحا : أبفضه وتنكره . (١٢) ملق الجارية : مجامعتها ،

أو هو ملق بالتحريك ، والملق : التلق .

إلا كَمَرَعَى عَلَى دِمْنَةٍ (١) ، وَكَفِضَةَ عَلَى مَلْحُودَةٍ (٢) ، أَلَا سَاءَ مَا قَدَّمْتِ أَنْفُسَكُمُ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ، وَفِي الْعَذَابِ أَنْتُمْ خَالِدُونَ ، أَتَبْكُونَ ؟ إِي وَاللَّهِ فَبُكُّوا ، وَإِنَّا نَكْمُ وَاللَّهِ أَخْرِيَاءَ (٣) بِالْبُكَاءِ ، فَابْكُوا كَثِيرًا ، وَاضْحَكُوا قَلِيلًا ، فَلَقَدْ فَرَّزْتُمْ بَعَارَهَا وَشَنَارَهَا (٤) وَلَنْ تُرْحَضُوا (٥) بِغَسَلٍ بَعْدَهَا أَبَدًا ، وَأَنْتُمْ تُرْحَضُونَ قَتْلَ سَلِيلِ خَاتَمِ النَّبُوَّةِ ، وَمَعْدِنِ الرِّسَالَةِ ، وَسَيِّدِ شَبَّانِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَمَفَارِ حُجَّتِكُمْ ، وَمِذْرَةِ (٦) حُجَّتِكُمْ ، وَمُفْرَخِ (٧) نَازِلَتِكُمْ ، فَتَعَسَّأَ وَنُكَّسَا (٨) ، لَقَدْ خَابَ السَّمِيُّ ، وَخَسِرَتِ الصَّفِيفَةُ (٩) ، وَبُؤْتُمْ (١٠) بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ، وَضُرِبَتْ عَلَيْكُمْ الدَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا (١١) ، تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ، وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ ، وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (١٢) ؛ أَتَدْرُونَ أَيَّ كَيْدٍ لِرَسُولِ اللَّهِ فَرَيْتُمْ ، وَأَيَّ كَرِيمَةٍ لَهُ أَبْرَزْتُمْ ، وَأَيَّ دَمٍ لَهُ سَفَّكْتُمْ ؟ لَقَدْ جِئْتُمْ بِهَا شَوْهَاءَ خَرَقَاءَ (١٣) ، شَرَّهَا طِلَاعُ (١٤) الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ ؛ أَمْ جِئْتُمْ أَنْ قَطَرَتِ السَّمَاءُ دَمًا ، وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ؛ فَلَا سَمْتَحَفَنُكُمْ الْمَهْلُ ، فَإِنَّهُ لَا تَحْفِزُهُ الْمُبَادِرَةُ (١٥) ، وَلَا يُخَافُ عَلَيْهِ فَوْتُ النَّارِ ، كَلَّا ، إِنْ رَبُّكَ لَنَا لِهَامِ الْمُرْصَادِ (١٦) « ثُمَّ

(١) الديمة : آثار الدار بعد الرحيل عنها من البعر والرماد وغيرها ، أخذت هذا القول من قول

جدها عليه الصلاة والسلام : « إياكم وخضراء الدمن » وهي المرأة الحسناء في منبت السوء .

(٢) ملحودة : مدفونة في لحدها ، تريد أنهم لا ينتفع بهم . (٣) جدبرون .

(٤) الشنار : أقيح العيب . (٥) رحضه كنهه وأرحضه : غسله . (٦) دره عن القوم

كنع : إذا تكلم عنه ودفع فهو مدره . (٧) أي مذهب ومزيل ، يقال : « أفرخ روعك » - على الأمر

وبضم الراء من روعك - أي اسكن وأمن ، والروع : القلب . (٨) التمس : الهلاك ، ونكسه نكسا :

قلبه على رأسه ، والنكس بالضم عود المرض بعد النقه ، ويقال : تعسا له ونكسا ، بضم النون وقد

يفتح ازدواجًا . (٩) البيعة . (١٠) رجعت . (١١) أي فظيما منكرا . (١٢) يتشققن ،

وتخر : تسقط ، هدا : أي تهد هدا . (١٣) بها أي بفعلتكم هذه ، وخرقاء من الخرق : وهو الأيحين

الرجل العمل والتصرف في الأمور . (١٤) طلاع الشيء : ملؤه . (١٥) أي لا تدفعه إلى العقوبة

المبادرة إلى الذنب ، والضمير لله تعالى . (١٦) المرصاد : الطريق والمكان يرصد فيه العدو ، ورصده :

رقبه ، أي يرصد أعمال العباد فلا يقوته منها شيء .

ولت عنهم ، فظلّ الناس حيارى ، وقد ردّوا أيديهم إلى أفواههم . وقال شيخ كبير من
بنى جُفَيّ - وقد اخضلت (١) لحيته من دموع عينيه .

كهُوَاهُمُ خَيْرُ الْكُهُولِ وَنَسْلُهُمْ إِذَا عُدَّ ، نَسْلٌ لَا يَبُورُ وَلَا يَخْزَى

(بلاغات النساء ص ٢٧)

١٢٤ - خطبة السيدة زينب بنت عليّ عليهما السلام

بين يدي يزيد

ولما وجه عبّيد الله بن زياد آل الحسين عليه السلام إلى يزيد بدمشق ، ومثّلوا بين
يديه أسر برأس الحسين فأبرز في طست ، فجعل ينكت ثناياه بقضيب في يده ، وهو
يقول من أبيات (٢) :

ليت أشياخي يبدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل (٣)
لأهلوا وأستهلوا فرحاً ثم قالوا : يا يزيد لا تشل (٤)
فجزيداهم ببدر مثلها وأقنا ميل بدر فاعتدل (٥)

فقالَت زينب بنت عليّ عليهما السلام : صدق الله ورسوله يا يزيد ! (ثم كان
عاقبة الذين أساءوا الشؤمى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون) أظننت
يا يزيد أنه حين أخذ علينا بأطراف الأرض وأكناف السماء فأصبحنا نساك كما يساق

(١) ابتلت . (٢) تمثل يزيد بهذه الأبيات وهو لعبد الله بن الزبير ، قالها في غزوة أحد ، وهو
يومئذ مشرك ، وكان يهجو المسلمين ، ويحرض عليهم كفار قريش في شعره ، ثم أسلم بعد فتح مكة .
(٣) كانت الغلبة يوم بدر للمسلمين ويوم أحد للمشركين ، والأسل : الرماح والنبل ، والخزرج : قبيلة
من الأنصار . (٤) كل من رفع صوته فقد أهل إهلالاً واستهلالاً ، وشلت يده تشل كتعب يتعب ،
وأشلت وشلت مبنيين للمجهول : يبست وهي جملة دعائية ، يقال في الدعاء : « لا تشل يدك ولا تكلل » -
والبيت من قول يزيد - . (٥) لاتنس ما قدمناه لك من أن علياً كرم الله وجهه كان قد وتر آل أبي سفيان
ببدر ، فقتل حنظلة بن أبي سفيان أخا معاوية ، والوليد بن عتبة خاله ، وعتبة بن ربيعة جده لأمه .

الأسارى ، أن بناهوانا على الله ، وبك عليه كرامة ؟ وأن هذا لعظيم خطرك ؟
 فشمخت بأنفك ، ونظرت في عطفيك^(١) ، جذلان فرحاً ، حين رأيت الدنيا مستوسقة
 لك ، والأمور متسقة^(٢) عليك ، وقد أمهلت ونفست^(٣) ، وهو قول الله تبارك وتعالى :
 (وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْمَأْ نُمِلِي (٤) لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ ، إِنَّمَا نُمِلِي لَهُمْ
 لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ) أمين العدل ، يابن الطلقاء تخديرك^(٥) نساءك وإماءك
 وسوتك بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم قد هتكت ستورهن ، وأضحلت^(٦)
 صوتهن ، مكثبات تخدي^(٧) بين الأباغر ، ويخدو^(٨) بهن الأعادي ، من بلد إلى
 بلد ، لا يراقبن ولا يؤوين ، يتشوقهن^(٩) القريب والبعيد ، ليس معهن ولي^(١٠) من
 رجالهن . وكيف يستنبطاً في يفضتنا من نظر إلينا بالشنف^(١١) والشنان ، والإحن
 والأضغان ؟ أتقول « ليت أشياخي بيدر شهدوا » غير متأثم ولا مستعظم ؟ وأنت تنكت
 ثنيايا أبى عبد الله بمخصرتك^(١٢) ، ولم لاتكون كذلك وقد نكأت^(١٣) القرحة ،
 واستأصات الشافة^(١٤) ، يهراقك دماء ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونجوم

(١) أى جانبك ، وهو كناية عن إعجابه بنفسه . (٢) من استوسقت الإبل : أى اجتمعت ،
 ومتسقة : منتظمة . (٣) أى فسح لك فى أمرك ، من نفس الله كربتته : فرجها . (٤) نميل .
 (٥) صوتهن فى خلودهن . (٦) أبجحته ، صحل صوته كنفج : بج .
 (٧) خدى البعير والفرس كجرى : أسرع وزج بقوائمه ، أو هو ضرب من سيرهما .
 (٨) يسوق . (٩) يتناول وينظر إليهن ويشرف عليهن . (١٠) قريب أو نصير .
 (١١) سبق تفسيره ، وفى الأصل « بالشنق » وهو تحريف (والشنق : أن تكف البعير بزمامه حتى
 تلتق ذفراه بقادمة الرجل ، والذفرى بكسر الذاى : العظم الشاخص خلف الأذن) ، والشنان : الكراهية ،
 والإحن : الأحقاد . (١٢) المخصرة : ما يأخذها الملك يشير به إذا خاطب . (١٣) نكأ القرحة
 كنع : قشرها قبل أن تبرا فنديت ، كناية عن نبشه عما كاد ينسى من العداوة بين بنى هاشم وبنى أمية .
 (١٤) الشافة : قرحة تخرج فى أسفل القدم فتكوى فتذهب ، واستأصل الله شافته : أذهب كما تذهب
 تلك القرحة .

الأرض من آل عبد المطلب ، وَلَتَرِدَنَّ عَلَى اللَّهِ وَشِيكًا (١) مَوْرِدَهُمْ ، وَلتُودَنَّ أَنْكَ عَمِيَّتٍ وَبَكِيَّتٍ وَأَنْكَ لَمْ تَقُلْ : « فَاسْتَهْلُوا وَأَهْلُوا فَرِحًا » اللَّهُمَّ خذْ بِحَقِّنَا ، وَانْتَقِمْ لَنَا مِنْ ظَلَمَانَا . وَاللَّهُ مَا قَرَّبْتَ إِلَّا فِي جِلْدِكَ . وَلَا حَزَزْتَ إِلَّا فِي لِحْمِكَ ، وَسَتَرْدُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِرَنَحِكَ (٢) . وَعَتَرْتُهُ وَأُحْمَتُهُ فِي حَظِيرَةِ الْقُدُسِ (٣) يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ شَمَلَهُمْ مَلْعُومِينَ مِنَ الشَّعَثِ (٤) . وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَانًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) وَسَيَعْلَمُ مِنْ بَوَّأِكَ (٥) وَمَكَّنِكَ مِنْ رِقَابِ الْمُؤْمِنِينَ - إِذَا كَانَ الْحُكْمَ اللَّهُ ، وَالْخِصْمَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَجَوَارِحُكَ شَاهِدَةٌ عَلَيْكَ فَبَيْدَسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا - أَهْكُمْ شَرًّا مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ، مَعَ أَنِّي وَاللَّهُ يَاعِدُوكَ اللَّهُ وَابْنَ عَدُوِّهِ ، أَسْتَصْفِرُ قَدْرَكَ ، وَأَسْتَعِظُ تَقْرِيعَكَ (٦) ، غَيْرَ أَنَّ الْعَيُونَ عَيْبِي وَالصُّدُورَ حَزِي (٧) ، وَمَا يَجْزِي ذَلِكَ أَوْ يُغْنِي عَنَّا ؛ وَقَدْ قَتَلَ الْحُسَيْنَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَحِزْبُ الشَّيْطَانِ (٨) يَقْرَبُنَا إِلَى حِزْبِ السَّفَهَاءِ (٩) ، لِيُعْطُوهُمْ أَمْوَالَ اللَّهِ عَلَى انْتِهَاكَ مُحَارَمِ اللَّهِ ، فَهَذِهِ الْأَيْدِي تَنْطِفُ (١٠) مِنْ دِمَائِنَا ، وَهَذِهِ الْأَفْوَاهُ تَحْتَابُ (١١) مِنْ لِحُومِنَا ، وَتِلْكَ الْجُنُثُ الزُّوَاكِي يِعْتَامُهَا عَسَلَانِ الْفَلَوَاتِ (١٢) ، فَلَمَّا اتَّخَذْنَا مَغْنَمًا لِنَتَّخِذَنَّ مَغْرَمًا ، حِينَ لَا تَجِدُ إِلَّا مَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ ، تَسْتَصْرِخُ (١٣) : يَا بَنَ صِرْجَانَةَ ، وَاسْتَصْرِخُ بِكَ ، وَتَقَعَاوِي وَأَتْبَاعِكَ

(١) سريعاً . (٢) الرغم : اللذ . (٣) العترة : رطط الرجل وعشيرته الأذنون ، واللحمة : القرابة ، والقدس : الطهر ، - أي في الجنة - . (٤) التفرق .
 (٥) أي أحلك في كرسى الخلافة وهو معاوية . (٦) التقرير : التأنيب . (٧) عين هبرى : جرت عبرتها ، والصدر حرى : شديدة الحرارة ، كناية عن شدة الحزن . (٨) تريد عبدة الله بنو زياد ورجاله .
 (٩) أي إلى يزيد وشيعته . (١٠) نطف الماء كنعصر وضرب : سال ، ونطف كفرح ، وعنى : تلتطخ بغييب . (١١) تحلب العرق : سال وتحلب بدنه عرقاً : سال عرقه . (١٢) الزواكي : جمع زاكية من زكا إذا صلح وتنعم ، واعتام : أخذ العيمة بالكسر وهي خيار المال ، وعسل الذئب عسلانا بكجري جريانا : أعنق وأسرع ، والعاسل : الذئب وجمعه كركع وقوارس ، والمراد هنا معنى الجمع لا المصدر : أي ذؤبان الفلوات ، ولم أجد في كتب اللغة لعاسل جمعا غير هذين ، إلا أن يراد بالمصدر الوصف .
 (١٣) تستغيث .

عند الميزان ؛ وقد وجدت أفضل زادٍ زودك معاوية فتلك ذرية محمد صلى الله عليه وسلم ،
فوالله ما اتقيت^(١) غير الله ، ولا شكواى إلا إلى الله ، فكيدك كيدك ، واسع سمعك ،
وناصب جهدك^(٢) . فوالله لا يُرخص عنك عارُ ما أتيت إلينا أبدا ، والحمد لله الذى ختم
بالسعادة والمغفرة اسادات شهبان الجنان ، فأوجب لهم الجنة . أسأل الله أن يرفع لهم
الدرجات ، وأن يوجب لهم المزيد من فضله ، فإنه ولىٌ قدير .

(بلاغات النساء ص ٢٥)

١٢٥ - رثاء الحسين لأخيه الحسن عليهما السلام

وقال الحسين بن علىّ عند قبر أخيه الحسن عليهما السلام :
« رَحِمَكَ اللهُ أبا محمد ، إن كنت لتناصرُ الحقَّ مَظَانَهُ^(٣) ، وتؤثرُ اللهُ عند
تداحضِ^(٤) الباطلِ فى مَوَاطِنِ التَّقِيَّةِ بِحُسْنِ الروية ، وتَسْتَشِفُّ^(٥) جليلَ مَعَاظِمِ الدنيا
بعينِ لها حاقرةٌ ، وتُفِيضُ عليها يدا طاهرةَ الأطراف ، نقيَّةَ الأَسِرَةِ^(٦) ، وتردَعُ بِادِرَةِ
غَرَبِ أعدائك بأيسرِ المئونة عليك . ولا غَرَوَ وأنت ابنُ سُلالةِ النبوة ، ورضيعُ لِيانِ
الحكمة . فإلى رُوحِ وَرَيْحَانِ وَجَنَّةِ نَعِيمٍ . أعظمَ اللهُ لنا ولكم الأجر عليه ، ووهب
لنا ولكم السَّلوةَ وَحُسْنَ الأَسَى^(٧) عنه » (عيون الأخبار م ٢ : ص ٣١٤)

(١) أى لا أخاف إلا الله . (٢) ناصبه العداوة : أظهرها له .

(٣) فى الأصل « لتناصر » بالياء وأراه بالنون ، وقوله « مظانه » أى فى مظانه ، أو هو بدل .

(٤) هى تفاعل من الدحض ، دحض برجله كمنع : فحص بها ، ودحضت رجله : زلقت ، والمعنى :

عند تقاطع الباطل ومغالبة بعضه بعضا . (٥) استشفه : نظر ما وراءه . (٦) الأسرة جمع سرار

ككتاب : الخطوط التى تبدو فى ظاهر اليد والجهة . (٧) الأسى بضم الهمزة وكمرها جمع أسوة بالضم

والكسر أيضا : ما يتعزى به .

١٢٦ — عبد الله بن هاشم بن عتبة وعمرو بن العاص

في مجاس معاوية

روى المسعودى في مروج الذهب قال :

« لما قُتِلَ على كرم الله وجهه ، كان في نفس معاوية من يوم صفين على هاشم ابن عتبة بن أوى وقاص المرتضى وولده عبد الله بن هاشم إحنٌ ؛ فلما استعمل معاوية زيادا على العراق ، كتب إليه : « أما بعد : فانظر عبد الله بن هاشم بن عتبة فشُدَّ يده إلى عنقه ، ثم ابعث به إلى » فحمله زياد من البصرة مُقَيَّدًا مَغْلُولًا إلى دِمَشْق ، وقد كان زياد طرّقه بالليل في منزله بالبصرة ، فدخل إلى معاوية ، وعنده عمرو بن العاص ، فقال معاوية لعمر بن العاص : هل تعرف هذا ؟ قال : لا . قال : هذا الذى يقول أبوه يوم صفين ^(١) :

إِنى شَرَيْتُ النفسَ لما اعتلَا وأ كثرَ اللومَ وما أَقَلَّا ^(٢)

أعورُ يَبِينى أَهلهُ محلاً قد عالجَ الحياةَ حتى تَلَّا ^(٣)

لا بد أن يُفَلَّ أو يُفَلَّا يَتَلَّهُم بذي الكعوبِ تَلَّا ^(٤)

لاخير عندي في كريم ولى

(١) وذلك أن عمار بن ياسر جاء إلى هاشم بن عتبة (وكان هاشم أعور فقنت عينه يوم اليرموك بالشام) فقال : يا هاشم ، أعورا وجبنا ! لاخير في أعور لا يغشى البأس ، اركب يا هاشم ، فركب ومضى معه وهو يرتجز : إنى شريت النفس . . الخ وعمار يقول : تقدم يا هاشم ، الجنة تحت ظلال السيوف ، والموت تحت أطراف الأسل ، وقد فتحت أبواب السماء ، وتزينت الحور العين ، اليوم أتى الأحبة محمدا وحزبه .

(٢) شريت النفس : أى بعثتها في سبيل الله ، واعتله : تجنى عليه (أى ادعى ذنباً لم يفعله) ، وقاطله ضمير عمار بن ياسر ، فعنى لما اعتل أى لما رماني عمار بالجبن . (٣) يبنى أهله محلاً : أى يبنى محل أهله أى يطلب مصير أهله الذين استشهدوا في سبيل الله فسكنوا جنات الخلد ، فهو يبنى لقاءهم والاجتماع بهم هناك .

(٤) يقل : يهزم ويغلب ، وتله صرعه ، أو ألقاه على عنقه وخذه (وفى الأصل : أسلمهم بذي الكعوب سلا وهو تحريف ، إذ رواية الطبرى ، وابن الأثير يتلهم بالتاء ، وأهو صحيح على معنى : أسل أرواحهم وانزعها) ، وذو الكعوب : الرمح ، وكعوب الرمح : النواشر في أطراف الأنايب .

فقال عمرو متمثلاً :

وقد يَنْبُتُ الرَّعَى عَلَى دِمَنِ النَّزَى وَتَبْقَى حَزَازَاتُ النُّفُوسِ كَمَا هِيَ^(١)
 « دونك يا أمير المؤمنين الضبُّ الضبُّ »^(٢) ، فَشَخْبُ أوداجه^(٣) على أسباجه^(٤) ،
 ولا تردّه إلى أهل العراق ، فإنه لا يبصر على النفاق ، وهم أهل غدرٍ وشقاق ، وحزبُ
 إبليسَ ليومِ هيجانه ، وإن له هوى سيؤديه^(٥) ، ورأيًا سيُظنيه^(٦) ، وبطانةً ستقويه ،
 « وَجَزَاءَ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا » .

(١) الدمن : جمع دمنة ، وهي ما اسود من آثار الدار بالبحر والرماد وغيرهما ، وهذا البيت
 لزفر بن الحارث السكلابي من قصيدة قالها ، وقد قتل ابنه يوم وقعة مرج راهط ، التي نشبت بعد
 موت معاوية الثاني بين مروان بن الحكم وبين من خالف على الأموية ودعا إلى الزبيرية من الضحاك بن قيس
 الفهري وأتباعه ، ومنهم زفر السكلابي ، وقد دارت عليهم الدائرة ، وقتل الضحاك « انظر تاريخ الطبري ،
 ومروج الذهب ، والعقد الفريد » . (٢) الضب : حيوان برى يشبه الورل ، وهو يتلون ألوانا بحر
 الشمس كما تتلون الحرياء ، وقد ضرب به المثل فقالوا : « أخذ من ضب » ، وذلك أنهم كانوا يصيدونه ،
 فيأقي الحارث (حرش الضب واحترشه : صاده) ويحرك يده على باب جحره ليظنه حية فيخرج ذنبه ليضربها
 فيأخذه ، ولكن الضب شديد الحذر فإنه يمد بذنبه باب جحره ليضرب به حية أو شيئاً آخر إن جاءه ،
 فيجىء المحترش ، فإن كان الضب مجرباً أخرج ذنبه إلى نصف الجحر ، فإن دخل عليه شيء ضربه وإلا بقى في
 جحره ، فهذا هو خدعه - يعنون به شدة حذره - وقيل إن معناه أن جحره قلما يخلو من عقرب ، لما بينها
 من الألفة والاستماعة بها على المحترش ، فإذا أدخل المحترش يديه لدغته وأنشدوا :

وأخذ من ضب إذا جاء حارث أعد له عند الذنابة عقرباً

ويقولون : « فلان سخب ضب » (والسخب بالفتح وبكسر المخادع) فيشبهون الحقد الكامن في قلبه
 الذي يسرى ضرره ، بجذع الضب في جحره (ومن أمثاله فيه أيضاً) « أعق من ضب » - يريدون الأنثى ،
 ومقوتها أنها تأكل أولادها ، وذلك أن الضبة إذا ياضت حرست بيضها من كل ما قدرت عليه من ورل وحية
 وغير ذلك ، فإذا نعت أولادها ، وخرجت من البيض . ظنتها شيئاً يريد بيضها ، فوثبت عليها تقتلها ،
 فلا ينجو منها إلا الشريد - وقالوا : « أعقد من ذنب الضب » ذكروا أن فيه إحدى وعشرين عقدة
 - « وأجبن من ضب » ، « وأبلد من ضب » ، « وأحيا من ضب » - أي أطول عمرا .

(٣) الأوداج جمع ودج بالتحريك : عرق في العنق ، وشخبت أوداج القتل دما من بابي قتل ونفع :
 جرت ، وشخب اللبن وكل مائع : در وسال ، وشخبته أنا يتعدى ولا يتعدى . (٤) الأسباج جمع
 سبجة « كفرصة » وسبجة القميص : لبنته - بنيقته . (٥) أي وإن له ميلا إلى آل علي سبيلك .
 (٦) طفئ : جاوز القدر وارتفع وغلا في الكفر وأسرف في المعاصي والظلم .

فقال عبد الله : « يا عمرو إن أقتل فرجل أسلمه^(١) قومهُ ، وأدركه يومهُ ، أفلا كان هذا منك إذ تحميد عن القتال ، ونحن ندعوك إلى النزال ، وأنت تلوذ بشمال النطاف^(٢) ، وعقائق الرصاف^(٣) ، كالأمة السوداء ، والنعجة القوداء^(٤) لا تدفع يدَ لأمس . »

فقال عمرو : « أما والله لقد وقعت في لهاذيم^(٥) شدقم الأقران ذي لبيد ، ولا أحسبك منفلتاً من مخالب أمير المؤمنين . »

فقال عبد الله : « أما والله يا ابن العاص ، إنك لبطر في الرخاء ، جبان عند اللقاء ، غشوم^(٦) إذا ولت ، هيب إذا لقيت ، تهدير^(٧) كما يهدير العود المنكوس ، المقيد بين بحرَى الشول ، لا يستهجل في المدة ، ولا يرهبجي في الشدة ، أفلا كان هذا منك ، إذ غمرك أقوام لم يعنفوا صفاراً ، ولم يمزقوا كباراً . لهم أيدٍ شداد ، وألسنة حداد ،

(١) خذله . (٢) النطاف جمع نطفة (كقرصة) وهى الماء الصافى ، قل أو أكثر ، وفى الحديث « قطعنا إليهم هذه النطفة » أى البحر وماده ، وفى حديث على : « وليلها عند النطاف والأعشاب » يعنى الإبل والماشية . يريد أنها إذا وردت على المياه والنشب يدهها لترد وترعى . (٣) الرصفة بالتحريك الحجارة التى يرصف بعضها إلى بعض فى مسيل فيجتمع فيها ماء المطر ، والعقائق : الغدران . يقال لكل مسيل شقه ماء السيل فأنهره ووسعه عقيق ، والجمع أعقة وعقائق ، وقيل العقائق هى الرمال الحمر . (٤) مؤنث الأعود : وهو الذلول المنقاد . (٥) جمع لهزم كجعفر : وهو القاطع من الأسته ، والشدقم : الأسد ، والواسع الشدق ، وشدقم للأقران أى أسد مبتلع للأقران ، واللبد جمع لبدة بالكسر ، ولبدقم الأسد : ماتلبد من شعره على منكبيه ، وكنيته « ذو لبدة » ويكنى أيضاً أبا الأبطال ، وأبا شبل ، وأبا العباس ، وأبا الحارث ، وأبا حفص ، وأبا الزعفران . (٦) ظلوم ، غشمه كضربه غشما ظلمه .

(٧) هدر البعير وهدر بالتشديد : صوت ، وفى المثل « كالمهدر فى العنة » والعنة بضم العين وتشديد التون : الحظيرة . يضرب لمن يصيح ويحلب ولا ينفذ قوله ولا فعله ، كالبعير يحبس فى الحظيرة ممنوعاً من الضراب وهو يهدر ، والعود : المسن من الإبل ، والمنكوس : الذى عاوده المرض بعد النقه ، والشول جمع شائلة ، وهى من الإبل ما أتى عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر فجفت لبنها .

يَدْعَمُونَ الْعَوْجَ^(١) ، وَيُذْهِبُونَ الْحَرَجَ^(٢) ، يُكْثِرُونَ الْقَلِيلَ ، وَيَشْفُونَ الْغَلِيلَ ،
وَيُعِزُّونَ الذَّلِيلَ ؟

فقال عمرو : « أما والله لقد رأيت أباك يومئذ تخفق^(٣) أحشاؤه ، وتبقي^(٤) أمعاؤه
وتضطرب أصلاؤه^(٥) ، كأنما انطبق عليه ضميد^(٦) » .

فقال عبد الله : « يا عمرو ، إنا قد بلوناك ومقاتلك ، فوجدنا لسانك كذوباً غادراً ،
خلوت بأقوام لا يعرفونك ، وجند لا يسأمونك ، ولو رمت المنطق في غير أهل الشام ،
لجَحَظَ^(٧) إليه عقلك ، ولتلاجح لسانك ، ولاضطرب فخذاك اضطراب القعود^(٨) الذي
أثقله حمله » .

فقال معاوية : « ليهيأ^(٩) عنكما ، وأمر بإطلاق عبد الله ، فقال عمرو لمعاوية :

وكان من التوفيق قتلُ ابن هاشم	أمرتك أمراً حازماً فمصيبتني
أعان علياً يوم حز الغلاصم ^(١٠)	أليس أبوه (يامعاوية) الذي
بصفين أمثالُ البحور الخضارم ^(١١)	فلم ينثنني حتى جرت من دمانا
ويوشك أن تفرغ به سن نادم ^(١٢)	وهذا ابنه ، والمره يشبه سنخه

(١) العوج : بالفتح ، في كل ما كان منتصباً مثل الإنسان والمصا والعود وشبهه ، والعوج :
بالكسر ، ما كان في بساط أو أرض أو معاش أو دين ، وقيل بالفتح مصدر وبالكسر اسم منه ، ودعمه
(كنهه) مال فأقامه . (٢) حرج صدره كفرح حرجاً : ضاق . (٣) اضطرب .

(٤) تخرج ، بق الثبت بقوقاً : طلع . (٥) جمع صلا بالفتح : وهو وسط الظهر من الإنسان ومن
كل ذي أربع ، وقيل هو ما انحدر من الوركين . (٦) ضمد جرحه : شده بالضاد والضامة (بالكسر)
أي للمصابة ، والجمع ضمد ككتب . (٧) من جحظت العين جحوظاً : إذا برزت مقلتها ، والمراد
اضطرب عقلك وشرد ولم يسلس لك قياد التفكير . (٨) القعود من الإبل : الذي يقتعده الراعي في كل حاجة .
(٩) أمر بالسكوت . (١٠) الغلاصم : جمع غلصمة يفتح العين والصاد ، وهي رأس الخلقوم
— الموضع الثاني في الخلق — أو أصل اللسان . (١١) الخضارم جمع خضرم بكسر الخاء والراء : البحر
العظيم . وإثبات الياء في ينثنني مع الجازم لغة أو للضرورة أو إشباع والحرف الأصل محذوف للجازم .

(١٢) فرغ فلان سنه : حرقه ندماً (حرق نابه — كنصر وضرب — سحقه حتى سمع له صريف)
وسكن الفعل للضرورة ، والسنخ : الأصل من كل شئ ، (وي الأصل شيخه وهو تصحيف) .

فقال عبد الله بحبيبه :

مُعَاوِيَ : إِنَّ الْمَرْءَ عَمْرًا أَبَتْ لَهُ ضَعِيفَةٌ صَدْرٍ غِشْمًا غَيْرُ نَائِمٍ
يَرَى لَكَ قَتْلِي (يَا بَنَ هِنْدِ) وَإِنَّمَا يَرَى مَا يَرَى عَمْرٌ وَ مُلُوكُ الْأَعَاجِمِ
عَلَى أَنَّهُمْ لَا يَقْتُلُونَ أَسِيرَهُمْ إِذَا مُنِعَتْ مِنْهُ عَهْدُ الْمُسَالِمِ
وَقَدْ كَانَ مِنَّا يَوْمَ صِفِّينَ نَعْرَةً عَلَيْكَ جَنَاهَا هَاشِمٌ وَابْنُ هَاشِمٍ ^(١)
قَضَى مَا انْقَضَى مِنْهَا ، وَإِسِ الَّذِي مَضَى وَلَا مَا جَرَى إِلَّا كَأَضْفَاثِ حَالِمٍ ^(٢)
فَإِنْ تَعَفُّ عَنِّي تَعَفُّ عَن ذِي قَرَابَةٍ وَإِنْ تَرَ قَتْلِي تَسْتَحِلُّ مَحَارِمِي ^(٣)

فقال معاوية :

أَرَى الْعَفْوَ عَن عَلِيًّا قَرِيشَ وَسَيْلَةَ إِلَى اللَّهِ فِي الْيَوْمِ الْعَصِيبِ الْقَمَاطِرِ ^(٤)
وَإِسْتَأْرَى قَتْلَ الْعُدَاةِ ابْنِ هَاشِمٍ بِإِدْرَاكِ ثَأْرِي فِي لُؤْيٍ وَعَامِرٍ ^(٥)
بَلِ الْعَفْوَ عَنْهُ بَعْدَ مَا بَانَ جُرْمُهُ وَزَأَتْ بِهِ إِحْدَى الْجُدُودِ الْعَوَاتِرِ
فَكَانَ أَبُوهُ يَوْمَ صِفِّينَ جَحْرَةً عَلَيْنَا فَأَرَدْتَهُ رِمَاحُ نَهَابِرٍ ^(٦)

(١) نمر القوم كنعن : هاجوا واجتمعوا في الحرب ، ونمر الرجل خائف ، وفي الأصل « نقرة » وهو

تصحييف . (٢) قضى : مات وذهب ، وأضفاث حالم : رؤيا لا يصح تأويلها لاختلاطها .

(٣) كان عبد الله بن هاشم من أقرباء معاوية ، إذ هو ابن هاشم بن عتبة بن أبي وقاص مالك بن وهيب

ابن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، ومعاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف

ابن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي ، فهو يجتمع مع معاوية في جده كلاب . (٤) يوم عصيب :

شديد ، ويوم قاطر وقطيرير : شديد أيضا . (٥) العداة جمع عاد : وهو العدو ، ولؤي هو الجد التاسع لمعاوية

وهو عبد الله بن هاشم (والجد الثامن للنبي عليه الصلاة والسلام) وعامر : هو عامر بن لؤي .

(٦) النهابر : المهالك جمع نهبرة بضم النون والباء وكذا النهابر جمع نهبرة .

١٢٧ - عبد الله بن هاشم في مجلس معاوية

وحضر عبد الله بن هاشم ذات يوم مجلس معاوية ، فقال معاوية :
« مَنْ يَخْبِرُنِي عَنِ الْجُودِ وَالنَّجْدَةِ وَالْمُرُوءَةِ ؟ » فقال عبد الله : يا أمير المؤمنين ،
أما الجود : فابتذالُ المال ، والعطيةُ قبل السؤال : وأما النجدة : فالجراءة على الإقدام ،
والصبر عند ازورار الأقدام^(١) . وأما المروءة فالصلاح في الدين ، والإصلاح للحال ،
والمحاماة عن الجار . (مروج الذهب ٢ : ٥٧)

قيس بن سعد بن عبادة ومعاوية

ودخل قيس بن سعد بن عبادة بعد وفاة عليّ ووقوع الصلح ، في جماعة من الأنصار
على معاوية ، فقال لهم معاوية :

١٢٨ - مقال معاوية

« يا معشر الأنصار ، بِمَ تَطْلُبُونَ مَا قَبِلِي ؟ فوالله لقد كنتم قليلا معي ، كثيرا
مع عليّ ، ولقد فَلَائِمٌ حَدَّثِي يَوْمَ صِفِينِ ، حَتَّى رَأَيْتِ الْمُنَايَا تَنْظِي^(٢) فِي أَسْنَتِكُمْ ،
وَهَجَوْتُمُونِي فِي أَسْلَافِي بِأَشَدِّ مِنْ وَقْعِ الْأَسِنَّةِ ، حَتَّى إِذَا أَقَامَ اللَّهُ مِنْهَا مَا حَاوَلْتُمْ مَيْلَهُ ،
قَلْتُمْ ارْزَعْ فَيُنَا وَصِيَّةَ رَسُولِ اللَّهِ^(٣) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، هَيْهَاتَ يَا أَبِي الْحَقِيمِ الْفَدْرَةَ . »

(١) أي عند انحرافها وتزلزلها . (٢) تنظي : أي تلهب . (٣) وقد وصي عليه الصلاة

والسلام بأن يحسن إلى محسنهم ، ويتجاوز عن مسيئتهم .

١٢٩ - رد قيس بن سعد

فقال قيس : « نطلب ما قبلك بالإسلام الكافي به الله ، لا بما نمتُّ به إليك من الأحزاب . وأما عداوتنا لك فلو شئت كففناها عنك . وأما هجاؤنا إياك فقول يزول باطله ، ويثبت حقه . وأما استقامة الأمر فعلى كرهه كان منا . وأما قلنا حدك يوم صفين فإننا كنا مع رجل نرى طاعته لله طاعةً ، وأما وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم بنا ، فمن آمن به رعاها بعده . وأما قولك يا أبا الحقيير العذرة ، فليس دون الله يد تحجزك منا يا معاوية . »

فقال معاوية يمؤه : « ارفعوا حواججكم »

(مروج الذهب ٢ : ٦٣ ، والمقد الفريد ٢ : ١٢١)

١٣٠ - معاوية وصعصعة بن صوحان وعبد الله بن الكواء

روى المسعودى فى مروج الذهب قال :

حبس معاوية صفصعة بن صوحان العبدى ، وعبد الله بن الكواء الأيـشـىـ كـرىـ ورجالاً من أصحاب عليّ ، مع رجال من قريش ، فدخل عليهم معاوية يوماً ، فقال : « نشدتكم بالله إلا ما قلتم حقاً وصدقا ، أى الخلفاء رأيتموني ؟ فقال ابن الكواء : « لولا أنك عزمت علينا ما قلنا ، لأنك جبار عنيد ، لا تراقب الله فى قتل الأخيار ، ولكننا نقول : إنك - ما علمنا - واسع الدنيا ضيق الآخرة^(١) ، قريب الثرى بعيد المرعى^(٢) ، تجعل الظلمات نوراً ، والنور ظلمات . » فقال معاوية : « إن الله أكرم هذا الأمر

(١) أى إنك ذو حظ وافر فى الدنيا وليس لك من ثواب الآخرة من نصيب .

(٢) قريب الثرى : قريب الحلول فى الثرى : أى قريب الأجل ، وبعيد المرعى : كناية عن أنه بعيد

الأمل . والمعنى أنك واسع الآمال بعيد مرعى الأمانى ، مع يقينك أن الاحتمال عن هذه الدار وشيك .

بأهل الشام ، الذابئين عن بيضته ، التاركين لحارمه ، ولم يكونوا كأمثال أهل العراق ،
المنتهكين لحارم الله ، والمُجَلِّين ما حرّم الله ، والمُحَرِّمين ما أحل الله . فقال عبد الله
ابن الكواء : « يابن أبي سفيان ، إن لكل كلام جوابا ، ونحن نخاف جَبْرُوتَكَ ، فإن
كنت تُطلقُ ألسنتنا ذَبَبْنَا عن أهل العراق ، بألسنة حِدَاد ، لا يأخذها في الله لومة لأم
وإلا فإننا صابرون حتى يحكم الله ويضعنا على فَرَجِهِ » . قال : « والله لا يُطلقُ
لك لسان » .

ثم تسكلم صعصعة فقال : « تكلمت يابن أبي سفيان فَأَبْلَغْت ، ولم تقصّر عما
أردت ، وليس الأمر على ما ذكرت ، أتى يكون الخليفةَ مَنْ مَلَكَ النَّاسَ قَهْرًا ،
ودانهم ^(١) كِبْرًا ، واستولى بأسباب الباطل كذبا ومكرًا ؟ أما والله مالك في يوم بدر
مَضْرَب ولا مَرْمَى ^(٢) ، وما كنت فيه إلا كما قال القائل : « لَأَحْيِي وَلَا سِيرِي » ،
ولقد كنت أنت وأبوك في العير والنفير ^(٣) ممن أجلب على رسول الله صلى الله عليه وسلم
وإنما أنت طليق ابن طليق ^(٤) ، أطلقكما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنى
تصلح الخلافة لطيّق ؟ » ، فقال معاوية : « لولا أنى أرجع إلى قول أبي طالب
حيث يقول :

(١) دانه : ملكه وأذله واستعبده . (٢) أى مالك ضرب ولا رمى . (٣) العير : الإبل تحمل

الميرة ، والمراد بها هنا عير قريش التي كان يقودها أبو سفيان بن حرب - وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم
قد تحين انصرافها من الشام - فلما دنا أبو سفيان من المدينة ، وعرف أن عيون رسول الله صلى الله عليه وسلم
ترصده ساحل بعيه (أى بها الساحل) وترك بدرا يسارا ، وقد كان يبعث إلى قريش حين فصل من الشام
يخبرهم بما يخافه من محمد ، فأقبلت قريش من مكة ، فأرسل إليهم أبو سفيان يخبرهم أنه قد أحرز العير (أى
حصنها) ويأمرهم بالرجوع ، فأبت قريش أن ترجع ، ورجعت بنو زهرة وعدلوا إلى الساحل منصرفين إلى
مكة فصادفهم أبو سفيان فقال : يابني زهرة لافى العير ولا فى النفير (فذهبت مثلا) قالوا أنت أرسلت إلى
قريش أن ترجع ، ومضت قريش إلى بدر فقاتلهم النبى وأظفره الله بهم ، والنفير : القوم يستنفرون للحرب
وهم هنا مشركو مكة الذين خرجوا يستنقذون العير ، وكان رئيسهم عتبة بن ربيعة بن عبد شمس جد معاوية لأمه .
(٤) الطلقاء : هم الذين عفا عنهم النبى صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة ، فقال لهم اذهبوا فانتم الطلقاء .

قَابِلَتْ جِهَلَهُمْ حِلْمًا وَمَغْفِرَةً وَالْعَفْوُ عَنْ قُدْرَةٍ ضَرْبٌ مِنَ الْكِرَامِ
لَقَاتِلِكُمْ « (مروج الذهب ٢ : ٧٨)

١٣١ - صعصعة بن صوحان ومعاوية

ودخل صعصعة بن صوحان على معاوية ، فقال له :

« يا بن صوحان ، أنت ذو معرفة بالعرب وبجملها ، فأخبرني عن أهل البصرة ،
ولياك والحل على قوم لقوم » قال : « البصرة واسطة^(١) العرب ، ومُنْتَهَى الشرف
والسُودَد ، وهم أهل الخِطَط^(٢) في أول الدهر وآخره ، وقد دارت بهم سرّوات^(٣)
العرب كدَوْرَان الرّحى على قُطْبِهَا » ، قال : فأخبرني عن أهل الكوفة ، قال :
« قُبَّةُ الْإِسْلَام ، وَذِرْوَةُ الْكَلَام ، وَمَصَانُ ذَوِي الْأَعْلَام - إِلَّا أَنْ بَهَا أَجْلَافًا^(٤)
تَمْنَعُ ذَوِي الْأَمْرِ الطَّاعَةَ ، وَتَخْرِجُهُمْ عَنِ الْجَمَاعَةِ - وَتَلِكُ أَخْلَاقُ ذَوِي الْهَيْئَةِ وَالْقِنَاعَةِ » .
قال : فأخبرني عن أهل الحجاز ، قال : « أَسْرَعُ النَّاسِ إِلَى فِتْنَةٍ ، وَأَضْعَفُهُمْ عَنْهَا ،
وَأَقْلَهُمْ غِنَاءً^(٥) فيها ، غير أن لهم ذبابتاً في الدين ، وَتَمْسُكًا بِعُرْوَةِ الْيَقِينِ ، يَتَّبِعُونَ
الْأَيْمَةَ الْأَبْرَارِ ، وَيَخْلَعُونَ الْفَسَقَةَ الْفُجَّارَ » فقال معاوية : مَنْ الْبِرَّةَ وَالْفَسَقَةَ ؟ فقال :
« يَا بِنَ أَبِي سُفْيَانَ ، تَرَكَ الْخِدَاعَ ، مَنْ كَشَفَ الْقِنَاعَ ، عَلَى وَأَصْحَابِهِ مِنَ الْأَيْمَةِ
الْأَبْرَارِ ، وَأَنْتَ وَأَصْحَابُكَ مِنْ أَوْلَائِكَ » ثم أحب معاوية أن يمضي صعصعة في كلامه ،
بعد أن بان فيه الغضب ، فقال : أخبرني عن القبة الحمراء في ديار مضر^(٦) ، قال :

(١) هو على التشبيه بواسطة العقد : وهي الجوهرة الفاخرة التي تجعل وسطه . (٢) الخطط جمع خطة
بالكسر : وهي الأرض تنزل من غير أن ينزلها نازل قبل ذلك ، ومنه خطط الكوفة والبصرة . وقد خطها
لنفسه واختطها : وهو أن يعلم عليها علامة بالخط ليعلم أنه قد احتازها . (٣) السرو بالفتح : المروية
في شرف ، سرو فهو مري وجمعه أسرباء وسرواء كفضلاء والمرأة بالفتح اسم جمع وجمعه سروات .
(٤) جمع جلف بالكسر : وهو الرجل الجاني . (٥) غناء : كفاية . (٦) ذكروا أن نزار
ابن معد لما حضرته الوفاة جمع بنيه : مضر وإبادة ، وربيمة ، وأمارة ، فقال : يا بني ، هذه القبة الحمراء =

« أَسَدٌ مُضَرٌّ بَسْلَاءَ بَيْنَ غَيْلَيْنِ ^(١) ، إِذَا أُرْسَلَتْهَا افْتَرَسَتْ ، وَإِذَا تَرَكَتَهَا احْتَرَسَتْ » .
 فقال معاوية: « هنالك يابن صوحان ، العز الراسي ، فهل في قومك مثل هذا ؟ قال :
 هذا لأهله دونك يابن أبي سفيان ، ومن أحب قومًا حُشِرَ معهم » قال : فأخبرني عن ديار ربيعة ،
 وَلَا يَسْتَخْفِنُكَ الْجَهْلُ ، وَسَابِقَةُ الْحِمِيَّةِ بِالْتَعَصُّبِ لِقَوْمِكَ ^(٢) ، قال : « والله ما أنا عنهم براض ،
 وليكني أقول فيهم وعليهم ، هم والله أعلام الليل ، وأذئاب في الدين والميل ، لن تُغَلَّبَ
 رايتهما إِذَا رُشِّحَتْ ، خَوَارِجُ الدِّينِ ، بَرَاذِخُ اليقين ، من نصروه فَلَجَّ ^(٣) ، ومن خذلوه
 زَاجِجٌ ^(٤) » . قال : فأخبرني عن مضر ، قال : « كِنَانَةُ ^(٥) العرب ، وَمَعْدِنُ العز والحسب ،
 يَقْدَفُ البحر بها آذِيَةً ^(٦) ، وَالْبَرْزُ رَدِيَّةٌ » ثم أمسك معاوية ، فقال له صعصعة : سَلْ
 يامعاوية ، وإلا أخبرتك بما تعجيد عنه ، قال : وما ذاك يابن صوحان ؟ قال : « أهل
 الشام » قال : « فأخبرني عنهم » ، قال : « أطوع الناس لخلق ، وأعصاهم لخلق ، عُصَاةُ
 الجِبَّارِ ، وَخَلْفَةُ ^(٧) الأشرار ، فعليهم الدمار ، ولهم سوء الدار » . فقال معاوية : « والله

= - وكانت من آدم - لمضر - وهذا الفرس الأدهم والحياه الأسود لربيعة ، وهذه الخادم - وكانت شمطاء
 - لإياد ، وهذه البدره (بالفتح : كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم أو سبعة آلاف دينار) والمجلس
 لأنمار يجلس فيه ، فإن أشكل عليكم كيف تفتسمون ، فأتوا الأفعى الجرهمي ، ومنزله بنجران ، فتشاجروا
 في ميراثه ، فاختصموا إلى الأفعى الجرهمي ، وهو حكم العرب ، فقصوا عليه قصتهم ، وأخبروه بما أوصى
 به أبوه فقال : ما أشبه القبة الحمراء من مال فهو لمضر ، فذهب بالدنانير والإبل الحمر ، فسمى مضر الحمراء
 لذلك ، وقال : وأما صاحب الفرس الأدهم والحياه الأسود ، فله كل شيء أسود ، فصارت لربيعة الخيل
 الدهم ، فقيل لربيعة الفرس ، وما أشبه الخادم للشمطاء فهو لإياد ، فصارت له المشية للبلق من الخيلق والنقد
 (الخيلق : يفتح الحاء والباء وتشديد اللام : غم صغار لا تكبر ، أو قصار المعز ودمامها ، والنقد كسبب :
 جنس من الغنم قبيح الشكل) فسمى إياد الشمطاء ، وقضى لأنمار بالدرهم وبما فضل : فسمى أنمار الفضل
 فصدروا من عنده على ذلك . - مجمع الأمثال ١ : ١٠٠ . (١) بسلاء جمع باسل : وهو الأمد والشجاع
 والغيل بالكسر ويفتح : الشجر الكثير الملتف والأجمة . (٢) وكان صعصعة من بني عبس القيس
 ابن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار . (٣) فلج على خصمه : ظفر وفاز . (٤) زلق وزل .
 (٥) الكنانة في الأصل : جعبة السهام . (٦) الآذى : الموج . (٧) الخلفة في الأصل :
 ماعلق خلف الراكب ، والمراد بها هنا أتباع .

يابن صوحان ، إنك لحامل مُدّيتك منذ أزمان (١) « إلا أن حلم ابن أبي سفيان يردُّ عنك .
فقال صعصعة : « بل أمر الله وقدرته ، إن أمر الله كان قدراً مقدوراً » .

(مروج الذهب ٢ : ٧٨)

١٣٢ - صعصعة بن صوحان وعبد الله بن عباس

وروى المسعودى فى مروج الذهب أيضاً ، قال :

« عن مصقلة بن هُبيرة الشيبانى قال : سمعت صعصعة بن صوحان وقد سأله ابنُ
عباس : ما السُّوددُ (٢) فيكم ؟ فقال : إطعامُ الطعام ، وإين الكلام ، وبذلُ النّوال ،
وكفُّ المرءِ نفسه عن السؤال ، والتودُّدُ للصغير والكبير ، وأن يكون الناس عندك
شَرَعا (٣) . قال : فما المرُوءة ؟ قال : « أخوان اجتمعا ، فإن لقياً قهراً ، (وإن كان) (٤)
حارسُهما قليل ، وصاحبهما جليل ، محتاجان (٥) إلى صيانة ، مع نزاهةٍ وديانة » . قال : فهل
تحفظُ فى ذلك شعراً ؟ قال : نعم ، أما سمعت قول مرّة بن ذهل بن شيبان حيث يقول :
إن السُّيادةَ والمرُوءةَ علقاً حيثُ السماءُ من السماءِ الأعزلِ (٦)
وإذا تقابلَ مجربانِ لغايةِ عثرِ الهجينِ وأسلمته الأرجلُ (٧)
ويجى الصريحُ مع العتاقِ معوداً قربَ الجيادِ فلم يجئهُ الأفكلُ (٨)

(١) كناية عن مجاهرته بالعداوة . (٢) السودد بفتح الدال غير مهموز ، والسودد بضم الدال

مهموزا والسيادة والسودد . (٣) شرعا بسكون الراء وفتحها أى سواء . (٤) أى أنهما قوتان

عظيمتان لصاحبهما ، تقهران مايلتقا من الشدائد والصعاب . وقوله « وإن كان » أى وإن كان مالقبياه عظيما ،

ولعله زيادة من خطأ النساخ أو الطباع . (٥) فى الأصل « لحاجان » وهو تحريف .

(٦) السماء كان الأعزل والرامي : نجمان نيران ، وسمى أعزل لأنه لاشئ بين يديه من السكواكب

كالأعزل الذى لاسلاح معه كما كان مع الرامي . (٧) فرس هجين : إذا لم يكن عتيقا كريما ، وأسلمته : خذلته .

(٨) لم يجئه الأفكل : أى لم تصبه الرعدة « ويلاحظ أن فى هذا الشعر عيبا من عيوب القافية وهو الإقواء ،

لأن حركة الروى فى البيت الأول كسر ، وفى الثانى والثالث ضم ، وقد وقع فى شعر النابغة الذبياني ، وحسان

ابن ثابت ، وبشر بن أبى خازم . . . » .

في أبيات . فقال له ابن عباس : لو أن رجلاً ضرب آباط^(١) إبله ، مُشْرِفًا وَمُغْرَبًا
لِفَائِدَةِ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ مَا عَنَّفْتُهُ ، إنا منك يا ابن صُوحان لَهَلَى عِلْمٍ وَحِلْمٍ وَاسْتِنْبَاطٍ مَا قَدَّ عَفَا^(٢)
من أخبار العرب ، فن الحليم فيكم ؟ قال : « مَنْ مَلَكَ غَضَبَهُ فُلِمَّ يَفْعَلُ ، وَسُعِيَ إِلَيْهِ بِحَقِّ
أَوْ بَاطِلٍ فَلِمَّ يَقْبَلُ ، وَوَجَدَ قَاتِلَ أَبِيهِ وَأَخِيهِ ، فَصَفَحَ وَلَمْ يَقْتُلْ ، ذَلِكَ الْحَلِيمُ يَا بِن
عباس » . قال : فهل تجد ذلك فيكم كثيراً ؟ قال : « ولا قليلاً ، وإنما وصفت لك أقواماً
لا تجدهم إلا خاشعين راهبين ، لِلَّهِ مُرِيدِينَ ، يُبْنِلُونَ وَلَا يَنْالُونَ ، فَأَمَّا الْآخِرُونَ فَأِيْنِهِمْ
سَبَقَ جَهْلُهُمْ حِلْمَهُمْ ، وَلَا يَبَالِي أَحَدُهُمْ (إِذَا ظَفِرَ بِيَغِيْتِهِ) حِينَ الْحَفِيظَةِ^(٣) مَنْ كَانَ ،
بعد أن يدرك زعمه ، ويقضى بغيته ، ولو وتره أبوه لَقَتَلَ أَبَاهُ ، أو أخوه لَقَتَلَ أَخَاهُ ،
أما سمعت إلى قول رِيَّانُ بنِ عَمْرِو بنِ رِيَّانٍ ، وذلك أن عمرًا أباه قتله مالكُ بنِ كُوْمَةَ ،
فَأَقَامَ رِيَّانُ زَمَانًا ثُمَّ غَزَا مَالِسَا ، فَأَتَاهُ فِي مَائِي فَارِسٍ صَبَاحًا ، وَهُوَ فِي أَرْبَعِينَ بَيْتًا ،
فَقَتَلَهُ وَقَتَلَ أَصْحَابَهُ وَقَتَلَ عَمَّهُ فِيمَنْ قَتَلَ ، — وَيُقَالُ بَلْ كَانَ أَخَاهُ — وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ جَاوِرَهُمْ ،
فَقَتَلَ لِرِيَّانِ فِي ذَلِكَ : قَتَلْتُ صَاحِبِنَا ، فَقَالَ :

فَلَوْ أُمِّي ثَقِفْتُ بِحَيْثُ كَانُوا لَبَلَّ ثِيَابَهَا عَاقٌ صَبِيْبٌ^(٤)
وَلَوْ كَانَتْ أُمِّيَّةُ أُخْتِ عَمْرُو بِهَذَا الْمَاءِ ، ظَلَّ لَهَا نَحِيْبٌ
شَهَرْتُ السَّيْفَ فِي الْأَذْنَيْنِ مِني وَلَمْ تَعْطِفْ أَوْاصِرَنَا قُلُوبٌ^(٥)

فقال ابن عباس : فن الفارس فيكم ؟ حَدَّ لِي حَدًّا أَسْمَهُ مِنْكَ ، فَإِنَّكَ تَضَعُ الْأَشْيَاءَ
مَوَاضِعَهَا يَا بِن صُوحان ، قال : « الْفَارِسُ مَنْ قَصُرَ أَجَلُهُ فِي نَفْسِهِ ، وَضَعَمَ^(٦) عَلَى أَمَلِهِ
بِضِرْمِهِ ، وَكَانَتْ الْحَرْبُ أَهْوَنَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْسِهِ ، ذَلِكَ الْفَارِسُ إِذَا وَقَدَّتْ^(٧) الْحَرْبُ ،

(١) آباط جمع إبط كحمل وإبل : باطن المنكب . (٢) درس واحي . (٣) الحمية والغضب .

(٤) ثقفه كسمه : صادفه ، والعلق : الدم ، أو الشديد الحمرة ، وصيب : أى مصيوب .

(٥) أواصر جمع أصرة : وهى القرابة ، وحبل صغير يشد به أسفل الجباء . (٦) ضغمه كنع : ضعه .

(٧) وقدت النار (كوعد) تزقدت .

واشتدت بالأنفس الكروب ، وتداعوا للنزال ، وتزاحفوا للقتال ، وتخالسوا المهج^(١) ،
واقتمحوا بالسيوف اللجج ، قال : أحسنت والله يابن صوحان ، إنك لسليل أقوام
كرام ، خطباء فصحاء ، ما ورثت هذا عن كلاله^(٢) ، زدني ، قال : نعم ، الفارس
كثير الحدر ، مدير النظر ، يلتفت بقلبه ، ولا يدبر خرزات صلبه^(٣) . قال : أحسنت
والله يابن صوحان الوصف ، فهل في مثل هذه الصفة من شعر ؟ قال : نعم ، زهير بن
جناب الكأبي^(٤) يرثي ابنه عمراً حيث يقول :

فَارِسٌ تُكَلَّلُ الصَّحَابَةُ مِنْهُ بِجُسَامٍ يَمُرُّ مَرَّ الْحَرِيقِ^(٥)
لَا تَرَاهُ لَدَى الْوَعَى فِي مَجَالٍ يُغْفِلُ الصَّرْبَ لَا ، وَلَا فِي مَضِيقٍ
مَنْ يَرَاهُ يَخْلُهُ فِي الْحَرْبِ يَوْمًا أَنَّهُ أَخْرَقَ مُضَلُّ الطَّرِيقِ^(٦)

في أبيات ، فقال له ابن عباس : فأين أخواك منك يابن صوحان ؟ صنفهما لأعرف
ورثكم ، قال : أما زيد فكما قال أخو غني^(٧) :

(١) المهج جمع مهجة : وهى الروح ، وتخالسوها تبادلوا اختلاسها واستلابها .

(٢) تقول العرب : لم يرثه كلاله أى لم يرثه عن عرض بل عن قرب واستحقاق ، قال الفرزدق :

ورثم فناة الملك غير كلاله عن ابني مناف عبد شمس وهاتم

والكلاله : ما لم يكن من النسب لحماً ، وبنو العم الأباعد ، وحكى عن أعرابي أنه قال : مالى كثير ويرثني

كلاله متراخ نسبهم ، وكل وارث ليس بوالد للميت ولا ولد له فهو كلاله موروثه . (٣) أى فقرات

ظهوره . (٤) شاعر جاهلي ، وهو أحد المعمرين . (٥) كلاله : حفظه وحرسه .

(٦) الأخرق : الأحمق ، أما قوله في أول البيت « من يراه » فهو مثل : « ألم يأتيك والأنبياء تنمى »

ومثل : « كأن لم ترى قبلى أسيراً يمانياً » . الخ ، وقد قال النحويون في ذلك إن إثبات حرف الملة مع

الجازم لغة ، وقيل ضرورة ، وقيل هو حرف إشباع ، والحرف الأصل محذوف للجازم . وعندى أنه ربما

كان الأصل « من رآه » وعليه فلا محذور ، مع استقامة وزن البيت . (٧) هو كعب بن سعد الفهري

(شاعر جاهلي) والأبيات المذكورة من قصيدة له يرثي بها أخاه أبا المغوار وأولها :

نقول سليمان ما لجسمك شاحبا كأنك يحملك الطعام طيب

(انظرها في الأمالى ٢ : ١٥٠ ، والعقد الفريد ٢ : ١٩) .

فَتَى لَا يَبْدَى أَنْ يَكُونَ بوجهه (إذا نال خلات الكرام) شحوب^(١)
 إذا ما تراءاه الرجالُ تحفظوا فلم ينطقوا الموراء وهو قريب^(٢)
 حليفُ الندى ، يدعو الندى فيجيبه قريبا ، ويدعوه الندى فيجيب^(٣)
 يبيتُ الندى (يا أم عمرو) ضجيعه إذا لم يكن في المنقيات حلوب^(٤)
 كأن بيوت الحى (مالم يكن بها) بسابس ما يُلْفَى بهن غريب^(٥)
 في أبيات ، كان والله يابن عباس ، عظيم المرؤة^(٦) ، شريف الأخوة ، جليل
 الخطر ، بعيد الأثر ، كعيش^(٧) المرؤة ، أليف الندوة^(٨) ، سايم جوانح الصدر ، قليل
 وسوس الدهر ، ذا كرا لله طر في النهار وزلفا^(٩) من الليل ، الجوع والشبع عنده
 سيان ، لا ينافس في الدنيا ، وأقل أصحابه من ينافس فيها ، يطيل السكرت ، ويحفظ الكلام ،
 وإن نطق نطق بعقام^(١٠) يهزب منه الدعار^(١١) الأشرار ، ويألفه الأحرار الأخيار .
 قال ابن عباس : « ما ظنك برجل من أهل الجنة ، رحم الله زيدا ، فأين كان عبد الله
 منه ؟ » ، قال : كان عبد الله سيدا شجاعا ، مؤلفا^(١٢) مطاعا ، خيرة وساع^(١٣) ، وشرة

- (١) خلات جمع خلة بالفتح : وهى الخصلة ، وشعب لونه كجمع ونصر وكرم وعنى شحوبا : تغير من هزال أو جوع أو سفر . (٢) الموراء : الكلمة القبيحة . (٣) الندى : الجود .
 (٤) المنقيات : ذوات النقى (بالسكر) وهو الشحم ، ناقة منقية أى سمينة .
 (٥) بسابس جمع بسبس كجعفر : وهو القفر الخالى (وفى الأصل بسائس وهو تصحيف) .
 (٦) مسهل عن المرؤة . (٧) يقال رجل كعيش الإزار : أى مشمر جاد ، ورجل كعيش : عزوم
 ماض سريع فى أموره . (٨) الندوة والنادى والمنتدى والندى : مجلس القوم ومتحدثهم ، وفى الأصل « البدوة » وأراه مصحفا ، أو هو فملة من البدو وهو الظهور ، أى ذو مظهر حسن يؤلف ولا يبعج .
 (٩) جمع زلفة بالضم : وهى الطائفة من الليل . (١٠) داه عقام : لا يبرأ ، أى نطق بقوارص من
 الكلم جارحة مؤلمة لادواء لها . (١١) جمع داعر وصف من الدعارة بفتح الدال وكسرهما : وهى الخبيث
 والفسق . (١٢) ألفتة وآلفتة : أنست به فهو مألوف ومؤلف . (١٣) على التشبيه بالفرس
 الوساع : وهو الجواد الواسع الخطو والذرع ، والدفاع : السيل العظيم ، والشئ العظيم يدفع به مثله
 « وفرس دفاع كشداد . إذا تدافع جريه » .

هُفَاع ، قَلْبِي النَّجِيزَةَ^(١) ، أَحْوَذِي^(٢) الْغَرِيزَةَ ، لَا يَنْهَنِي^(٣) مِنْهُنَّ عَمَّا أَرَادَهُ ،
وَلَا يَرْكَبُ مِنَ الْأَمْرِ إِلَّا عِتَادَهُ^(٤) ، سِمَامُ عِدَا^(٥) ، وَبَاذِلُ قَرِي^(٦) ، صَعْبُ الْمَقَادَةِ ،
جَزَلُ الرَّفَادَةِ^(٧) ، أَخُو إِخْوَانَ ، وَفَتَى فِتْيَانَ ، وَهُوَ كَمَا قَالَ الْبُرْجُمُجِيُّ عَامِرُ بْنُ سَنَانَ :
سِمَامُ عِدَا ، بِالنَّبِيلِ يَقْتُلُ مَنْ رَمَى وَبِالسَّيْفِ وَالرُّمْحِ الرَّدِّيْنِيَّ يَشْعَبُ^(٨)
مَهِيْبٌ مُفِيدٌ لِلنَّوَالِ مُعَوَّدٌ بِفِعْلِ النَّدَى وَالْمَكْرُمَاتِ مُجْرَبٌ
فِي أَبِياتٍ ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ : أَنْتَ يَا بَنَ صُوحَانَ بَاقِرٌ^(٩) عِلْمُ الْعَرَبِ .

(مروج الذهب ٢ : ٨٠)

١٣٣ - صَعْصَعَةُ بَنِ صُوحَانَ وَرَجُلٌ مِنْ بَنِي فِزَارَةَ

وَوَقَفَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي فِزَارَةَ عَلَى صَعْصَعَةَ ، فَأَسَمَهُ كَلَامًا (مِنْهُ) :

« بَسَطْتَ لِسَانَكَ يَا بَنَ صُوحَانَ عَلَى النَّاسِ فَتَهَيَّبُوكَ ، أَمَا لَنْ شِئْتُ لِأَكُونَنَّ لَكَ
إِصَاقًا^(١٠) ، فَلَا تَنْطِقْ إِلَّا جَدَدْتُ^(١١) لِسَانَكَ بِأَذْرَبِ^(١٢) مِنْ ظُبَّةِ السَّيْفِ ، بَعْضُ قَوِي ،
وَلِسَانٌ عَلِيٌّ ، ثُمَّ لَا يَكُونُ لَكَ فِي ذَلِكَ حَلٌّ وَلَا تَرْحَالُ » فَقَالَ صَعْصَعَةُ : « لَوْ أَجِدُ

- (١) القلب : محض كل شيء ، والنخيزة : الطليعة ، أي خالص الطليعة صانفيا . (٢) الأحوذى :
الخصيف الحاذق ، والمشمير للأمرور القاهر لها لايشذ عليه شيء . (٣) نهنه : كفه وزجوه .
(٤) العتاد : العدة . (٥) سمام جمع سم مثلث السنين ، والعدا بالكسر والضم اسم جمع عدو أي
هوللاءعداء سم قاتل . (٦) قري الضيف (كري) قري : أضافه ، والقري أيضا : ماقرى به الضيف .
(٧) رفته (كضربه) أعطاه ووصله ، والرفادة في الأصل خرج كانت تخرجه قريش في كل موسم من
أموالها فيصنع به طعام للحجاج ، والمراد بها هنا العطية . (٨) الرديني نسبة إلى ردينة امرأة سمير ،
وكانا يقومان الرماح بخط هجر ، ويشعب : أي يمزق ويصدع . (٩) أصل البقر : أفتتح والشق
والتوسعة ، وكان يقال لمحمد بن علي زين العابدين بن الحسين رضي الله عنهم محمد الباقر ؛ لأنه بقى العلم وعرف
أصله واستنبط فرعه . (١٠) الإصاق : ما يلصق به . والمعنى لأكون لك ملامصقا ملازما .
(١١) جد الشيء من باب رد : قطعه . (١٢) أذرب : أحد ، من ذرب كفرح صار حديثا ماضيا ،
والظبة : حد السيف .

غَرَضًا^(١) منك لميت ، بل أرى شَبَعًا ، ولا إخال مِثَالًا إلا كَسْرَابٍ^(٢) بَقِيعةٍ ،
يَحْسِبُهُ الظَّمَانُ ماءً ، حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ، أَمَا لَوْ كُنْتَ كَفْتُمَا لَمِيتُ
حَصَاثِكَ^(٣) بأذرب من ذَلِقِ^(٤) السنانِ ، ولرشفتكُ بنبالٍ ، تردعُك عن النَّضالِ ،
وَلخَطَمَتُكَ بِخِطَامِ^(٥) ، يَخْزِمُ مِنْكَ مَوْضِعَ الزَّمَامِ^(٦) . فأتصل الكلام بابن عباس ،
فاستضحك^(٧) من الفزاري ، وقال : « أَمَا لَوْ كَلَّفَ أَخُو فَزَارَةَ نَفْسَهُ نَقْلَ الصَّخُورِ مِنْ
جَبَلِ شَمَامٍ^(٨) إِلَى الهضابِ ، لكان أهونَ عليه من منازعة أخى عبد القيس ، نأبَ
أبوه ، ما أجهد ! يستجهد أخا عبد القيس وَقَوَاهُ المَرِيرَةَ^(٩) ! ثم تمثل :

صَبَّتْ عَلَيْهِ وَلَمْ تَنْصَبْ مِنْ أَمَمٍ . إِنْ الشَّقَاءَ عَلَى الأَشْقَيْنِ مَصْبُوبٌ^(١٠)

(مروج الذهب ٢ : ٨٢)

١٣٤ - رجل من آل صوحان يمجبه^(١١) عبد الملك بن مروان

وهو يخطب

وخطب عبد الملك بن مروان ، فلما بلغ الغِلظة^(١٢) ، قام إليه رجل من آل صوحان ،
فقال : « مهلا مهلا يا بنى مروان ، تأمرون ولا تأتمرون ، وتنهون ولا تنهون ، وتعظون

(١) الغرض : الهدف . (٢) المراب : ما يرى نصف النهار كأنه ماء ، والقيعة جمع قاع : وهو أرض
سهلة مطمئنة قد انفرجت عنها الجبال والآكام ، ويجمع أيضا على قيع (بالكسر) وقيعان وأقواع وأقوع .
(٣) الحصائل جمع حصيلة ، يقال حصل الشيء تحصيلًا والامم الحصيللة ، قال لبيد :

وكل امرئ يومًا سيعلم غيبه إذا حصلت عند الإله الحصائل

والمعنى : ارميت ما حصلت من العلم والمعرفة . (٤) ذلق السنان واللسان كقروح : ذرب فهو ذلق
وأذلق ، وذلق السنان من إضافة الصفة إلى الموصوف . (٥) الخطام : كل ما وضع في أنف البعير ليقناده
به ، وخطمه بالخطام جملة على أنفه ، أو جرت أنفه ليضع عليه الخطام ، وخطمه بالكلام قهره ومنعه حتى لا ينبس .
(٦) خزم البعير : جعل في جانب منخره الخزامة (ككتابة) والزمم : مايزم به . (٧) استضحك
الرجل وتضحك بمعنى . (٨) جبل بالعالية . (٩) أى القوية ، يقال رجل مرير أى قوى
ذومرة « والمره بالكسر القوة » . (١٠) الأمام : القرب . (١١) وجهه كقطعه : لقيه بما يكره .
(١٢) وربما كان صوابها « العظة » أى مقام العظة والنصح بدليل قوله « وتعظون ولا تنهون » .

ولا تتعظون . أفنتدى بسيرتكم في أنفسكم ، أم نطيع أمركم بألسنتكم ؟ فإن قلم اقتدوا بسيرتنا ، فأنى وكيف ؟ وما الحجّة ؟ وما المصيرُ من الله ؟ أفنتدى بسيرة الظلمة الفسقة ، الجورة الخونة ، الذين أخذوا مال الله دُولاً^(١) ، وعبيده خَوَلاً^(٢) ؟ وإن قلم اسمعوا نصيحتنا ، وأطيعوا أمرنا ، فكيف ينصح لغيره مَنْ يَغشُ نفسه ؟ أم كيف تجب الطاعة لمن لم تثبت عند الله عدّالته ؟ وإن قلم خذوا الحكمة من حيث وجدتموها ، واقبلوا العظة ممن سمعتموها . فعلام ولينا كم أمرنا ، وحكمتنا كم في دماننا وأموالنا ؟ أما علمتم أن فينا من هو أنطق منكم باللغات ، وأفصح بالمعظات ؟ فتخلوا عنها^(٣) ، وأطلقوا عقابها ، وخلوا سبيلها ، يَنْتَدِب^(٤) إليها آل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذين شرّ دتموم في البلاد ، ومرزتموم في كل واد ، بل تثبت في أيديكم لانهضاء المدة ، وبلوغ المهلة ، وعظم المحنة ، إن لكل قائم قدرا لا يعدوه ، ويوما لا يخطوه ، وكتاباً بعده يتلوه : (لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا) (وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ) ثم التمس الرجل فلم يوجد (نهاية الأرب ٧ : ٢٤٩)

١٣٥ - وصف عقيل بن أبي طالب

آل صوحان

قال معاوية لعقيل بن أبي طالب : « مَبْرُؤُ لِي أَصْحَابِ عَلِيٍّ وَابْدَأُ بِآلِ صُوحَانَ ، فَإِنَّهُمْ مَخَارِيقُ الْكَلَامِ^(٥) » . قال :

(١) جمع دولة بالضم : أى جعلوه متداولاً بينهم . (٢) الخول : ما أعطاك الله تعالى من النعم (محرّكة) والمبيد والإمام وغيرهم من الحاشية للواحد والجميع والذكر والأنثى ، ويقال للواحد خائل . (٣) أى من الخلافة . (٤) انتدب إليه : أسرع . (٥) مخاريق جمع مخراق بالكسر : وهو السيف ، والسيد والمتصرف فى الأمور الذى لا يقع فى أمر إلا خرج منه (والثور البرى يسمى مخراقاً لأن السكّاب تطلبه فيفلت منها ، وقلان مخراق حربى أى صاحب حروب يخف فيها) .

« أَمَا صَمَّصَةً فَعَظِيمُ الشَّانِ ، عَضْبُ اللِّسَانِ ^(١) ، قَائِدُ فُرْسَانَ ، قَاتِلُ أَقْرَانَ ،
يَرْتُقُ ^(٢) مَا فَتَقَ ، وَيَفْتِقُ مَا رَتَقَ ، قَلِيلُ النَّظِيرِ . وَأَمَّا زَيْدٌ وَعَبْدُ اللَّهِ فَإِنَّهُمَا نَهْرَانِ جَارِيَانِ
يَصُبُّ فِيهِمَا الْخَلِجَانِ ^(٣) ، وَيُنْعَاكُ بِهِمَا الْبُلْدَانِ ، رَجُلًا جَدًّا لَأَعِيبَ مَعَهُ ، وَأَمَّا بَنُو صُوحَانَ
فَكَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

إِذَا نَزَلَ الْعَدُوُّ فَإِنِ عِنْدِي أُسُودًا تَخْلِسُ الْأَسَدَ النَّفُوسَا ^(٤)

(مروج الذهب ٢ : ٧٥)

١٣٦ — وصية محمد الباقر ^(٥) لعمر بن عبد العزيز

دخل أبو جعفر محمد الباقر ، بن عليّ زين العابدين ، بن الحسين عليهم السلام ، على
عمر بن عبد العزيز رضی الله عنه فقال : يا أبا جعفر أوصني ، قال :

« أُوصِيكَ أَنْ تَتَّخِذَ صَغِيرَ الْمُسْلِمِينَ وَلَدًا ، وَأَوْسَطَهُمْ أَخًا ، وَكَبِيرَهُمْ أَبًا ، فَارْحَمَ
وَلَدَكَ ، وَصِلْ أَخَاكَ ، وَبِرَّ أَبَاكَ ، وَإِذَا صَنَعْتَ مَعْرُوفًا فَرَبَّهُ ^(٦) . »

(الأمالي ٢ : ٢١٢)

(١) العضب : القاطع . (٢) للرتق : ضد الفتق . (٣) الخليج : نهر في شق من النهر الأعظم .

(٤) خلس الشيء كضرب خلسا : استلبه . (٥) توفي سنة ١١٣ هـ . (٦) أي أدمه ، يقال

رب بالمسكان وأرب : أقام به ودام .

خطب الزبير بين وما يتصل بها^(١)

خطب عبد الله بن الزبير (قتل سنة ٧٣ هـ)

عبد الله بن الزبير ومعاوية

دخل الحسين بن عليّ رضي الله عنه يوماً على معاوية ، ومعه مولى له يقال له ذكوان وعند معاوية جماعة من قریش ، فيهم ابن الزبير ، فرحب معاوية بالحسين ، وأجلسه على سريره وقال : ترى هذا القاعد (يعني ابن الزبير) فإنه ليُدركه الحسد لبني عبد مناف^(٢) فقال ابن الزبير لمعاوية : قد عرفنا فضل الحسين وقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكن إن شئت أعلمتك فضل الزبير على أبيك أبي سفيان فقلتُ ، فتكلم ذكوان مولى الحسين بن عليّ ، فقال :

(١) تقدم لك في باب خطب بني هاشم وشيبتهم ، خطب أمراء الكوفة من قبل ابن الزبير - انظر خطب عبد الله بن يزيد ، وإبراهيم بن محمد بن طلحة ، وعبد الله بن مطيع في ص ٦٥ - ٧٠ - ٧٦ - ٨٢ - ٦٦ - ٨٣ . (٢) عبد مناف جد يجمع بني هاشم وبني أمية ، فالرسول عليه الصلاة والسلام هو محمد ابن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، ومعاوية هو معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وأما عبد الله بن الزبير ، فن بن أسد أبوه الزبير بن العوام بن خلويد بن أسد بن عبد العزى ابن قصي .

١٣٧ - مقال ذكوان

« يابن الزبير : إن مولاى ما ينعهُ من الكلام إلا أن يكون طلق اللسان ، رابط الجنان ، فإن نطقَ نطق بعلم ، وإن صمّت صمّت بحلم ، غير أنه كفتّ الكلام ، وسبق إلى السّنام ، فأقرت بفضله الكرام ، وأنا الذى أقول :

فيمَ الكلامِ لسابقٍ في غايةٍ والناس بين مُقَصِّرٍ ومُبَلِّدٍ (١)
إن الذى يَجْرِي ليدركَ شأوه يُنمى لِغَيْرِ مُسَوِّدٍ وَمُسَدِّدٍ (٢)
هل كيف يُدرك نورَ بَدْرِ ساطعٍ خيرِ الأنامِ وَفَرَعِ آلِ مُحَمَّدٍ

فقال معاوية : صدق قولك يا ذكوان ، أ كثر الله فى موالى الكرام مثلك ، فقال ابن الزبير : إن أبا عبد الله (٣) سكت وتكلم مولاة ، ولو تكلم لأجبناه ، أو لكففنا عن جوابه إجلالاً له . ولا جواب لهذا العبد . قال ذكوان : هذا العبد خير منك . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مولى القوم منهم » ، فأنا مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنت ابن العوام بن خويلدة ، فنحن أكرم ولآء ، وأحسن فعلا . قال ابن الزبير : إني است أحب هذا ، فهات ما عندك .

١٣٨ - مقال معاوية

فقال معاوية :

« قاتلك الله يابن الزبير ! ما أعياك (٤) وأبغاك ! أتفخرُ بين يدي أمير المؤمنين وأبي عبد الله ! إنك أنت المتعدى لطورك ، الذى لا تعرف قدرك ، فقس شبرك بفترك (٥) »

(١) بلد تبليدا : لم يتجه لشيء ، والفرس : لم يسبق ، والسحابة لم تمطر .

(٢) الشأو : الغاية ، وينمى : ينسب . (٣) كنية الحسين . (٤) ما أعجزك .

(٥) الفتر : ما بين الإبهام وطرف السبابة .

ثم تعرّف كيف تقع بين عرّانين^(١) بنى عبد مناف ، أما والله إنّ دَفَعْتَ في بحور
بنى هاشم وبنى عبد شمس ، لَتَقَطَعَنَّكَ بأمواجها ، ثم لتوهين^(٢) بك في أجاجها ، فإبقاؤك
في البحور إذا غمرتك ، وفي الأمواج إذا بهرتك^(٣) ؟ هنالك تعرّف نفسك ، وتندم على
ما كان من جرأتك ، وَتَمَسَّى^(٤) ما أصبحت إليه من أمان ، وقد حيل بين العير
والنزوان^(٥) . فأطرق ابن الزبير ملياً ، ثم رفع رأسه ، فالتفت إلى من حوله ، ثم قال :

١٣٩ — مقال ابن الزبير

« أسألکم بالله : أتعلمون أن أبي حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن أباه
أبا سفيان حارب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وأن أمي أسماء بنت أبي بكر الصديق ،

(١) جمع عرّنين بكسر العين : وهو السيد الشريف (وفي الأصل : الأنف أو ماصلب من عظمه) .
(٢) أوهاه : أسقطه ، والأجاج : الملح المر . (٣) بهره بهرا (بالفتح) : غلبه .
(٤) مساه تمسية : قال له كيف أمسيت أو مساك الله بخير ، والمراد : وتودع ماكنت فيه من أمان
نادما أسفا عليه ، وربما كان الأصل « وتمنى » بخذف إحدى التاءن أي وتمنى ، أو الأصل « ويتمسى » من
تمسى : إذا تقطع أي يمحي ويندثر ما كنت فيه من أمان . (٥) العير : الحمار وغلب على الوحشى ،
والنزوان : الوثوب . وهو مثل يضرب للقوى تخور قواه ، وأول من قاله صخر بن عمرو أخو الخنساء ،
وذلك أنه غزا بني أسد ، فاكتسح إبلهم ، فجاءهم الصريخ فركبوا ، فالتقوا ، فظن أبو ثور الأسدى صخرأ
طعنة في جنبه ، وجوى منها فرض حولا حتى مله أهله ، فسمع امرأة تقول لامرأته سلمى : كيف بملك ؟
فقالت : لاحى فيرجو ، ولا ميت فينمى ، لقد لقينا منه الأمرين ، وفي رواية أخرى : فرض زمانا حتى ملته
امرأته ، وكان يكرمها فر بها رجل وهي قائمة ، وكانت جميلة ، فقال لها : يباع الكفل ؟ فقالت : نعم عما
قليل ، وكان ذلك يسمعه صخر ، فقال : أما والله إنّ قدرت لأقدمتك قبلي ، ثم قال لها : ناوليني السيف
أنظر إليه ، هل تقله يدي ؟ فناولته ، فإذا هو لا يقبله ، فقال :

أرى أم صخر لا تملى عيادتي وملت سليمان مضجعي ومكاني
فأى امرئ ساوى بأمر حليمة فلا عاش إلا في شقا وهوان
أهم بأمر الخزم لو أستطيعه وقد حيل بين العير والنزوان

فلما طال به البلاء ، وقد نثنت قطعة من جنبه في موضع الطعنة ، قيل له لو قطعها لرجونا أن تبرأ ، فقال
شأنكم ، وأشفق عليه قوم فهو فأنى ، فأخذوا شفرة فقطعوها فأت .

وأمة هند آكلة الأكباد؟ وجدّي الصديق، وجده المشدوخ^(١) بيدر، ورأس الكفر وعمتي خديجة ذات الخطر^(٢) والحسب، وعمته أم جميل حمالة الخطب؟ وجدّتي صفية^(٣) وجدته حمّامة^(٤)؟ وزوج عمتي خير ولد آدم محمد صلى الله عليه وسلم، وزوج عمته شر ولد آدم أبو لهب، سيصلى نارا ذات لهب؟ وخالتي عائشة أم المؤمنين، وخالته أشقى الأشقيين؟ وأنا عبد الله، وهو معاوية.

- (١) هو جد معاوية لأمه عتبة بن ربيعة قتل على يوم بدر، والمشدوخ: المكسور: أى المقتول.
 (٢) القدر، أو المنزلة وهى السيدة خديجة بنت خويلد الأسدية عمه أبيه، وزوج الرسول عليه الصلاة والسلام.
 (٣) هى صفية بنت عبد المطلب أم الزبير وعمه الرسول عليه الصلاة والسلام.
 (٤) روى ابن أبي الحديد (م ١ : ص ١٥٧) قال :

« لما ارتحل عقيل بن أبي طالب عن علي عليه السلام أتى معاوية، فكان في مجلسه يوما وجلساء معاوية حوله، فقال: يا أبا يزيد: أخبرني عن عسكري وعسكر أخيك، فقد وردت عليهما، قال: «أخبرك: مررت والله بعسكر أخى، فإذا ليل قليل رسول الله صلى الله عليه وآله ونهار كنهار رسول الله صلى الله عليه وآله، إلا أن رسول الله صلى الله عليه وآله ليس في القوم، مارأيت إلا مصليا، ولا سمعت إلا قارئا، ومررت بعسكرك فاستقبلني قوم من المنافقين، من نفر برسول الله صلى الله عليه وآله ليلة العقبة» ثم قال: من هذا عن يمينك يا معاوية؟ قال: هذا عمرو بن العاص، قال: هذا الذى اختصم فيه ستة نفر، فغلب عليه جزار قریش، فن الآخر؟ قال الضمحاك بن قيس الفهرى: قال: أما والله لقد كان أبوه جيد الأخذ لسب التيوس «وكان يبيع عسب الفحول في الجاهلية، والسب كعذب: الكراه الذى يؤخذ على ضرب الفحل، أو ضرابه، أو ماؤه، وعسب الرجل كضرب: أعطاه الكراه على الضراب، وفي الحديث: «نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن عسب الفحل فإن إغارة الفحل مندوب إليها» فن هذا الآخر؟ قال أبو موسى الأشعري، قال: هذا ابن السراقفة، فلما رأى معاوية أنه قد أغضب جلساءه، علم أنه إن استخبره عن نفسه قال فيه سوءا، فأحب أن يسأله ليقول فيه ما يعلمه من سوء، فيذهب بذلك غضب جلسائه، قال: يا أبا يزيد فما تقول في؟ قال: دعني من هذا، قال لتقوان، قال أتعرف حمّامة؟ قال: ومن حمّامة يا أبا يزيد؟ قال: قد أخبرتك، ثم قام فضى، فأرسل معاوية إلى النسابة فدعاه، فقال: من حمّامة؟ قال: ولى الأمان؟ قال نعم، قال حمّامة جدتك أم أبي سفيان كانت بغيا في الجاهلية صاحبة راية، فقال معاوية لجلسائه: قد ساويتكم وزدت عليكم. فلا تغضبوا.»

١٤٠ - مقال معاوية

فقال له معاوية :

« وَيْحَكَ يَا بَنَ الزَّبِيرِ ! كَيْفَ تَصِفُ نَفْسَكَ بِمَا وَصَفْتَهَا ، وَاللَّهِ مَا لَكَ فِي الْقَدِيمِ مِنْ رِيَاةٍ ، وَلَا فِي الْحَدِيثِ مِنْ سِيَاسَةٍ ، وَاقْدُ قَدْ نَاكَ وَسُدْنَاكَ : قَدِيمًا وَحَدِيثًا ، لَا تَسْتَطِيعُ لَذَلِكَ إِنْكَارًا ، وَلَا عَنْهُ فِرَارًا ، وَإِنْ هُوَ لَأَلْحُضُورُ كَيْفَ لَمْ يَمُنْ أَنْ قَرِيشًا قَدْ اجْتَمَعَتْ يَوْمَ الْفِجَارِ^(١) عَلَى رِيَاةِ حَرْبِ بَنِ أُمَيَّةٍ ، وَأَنْ أَبَاكَ وَأَسْرَتَكَ نَحْتُ رَايَتِهِ ، رَاضُونَ بِإِمَارَتِهِ ، غَيْرُ مُفَكِّرِينَ لِفَضْلِهِ ، وَلَا طَامِعِينَ فِي عِزِّهِ ، إِنْ أَمَرَ أَطَاعُوا ، وَإِنْ قَالَ أَنْصَتُوا ، فَانزِلْ فِينَا الْقِيَادَةَ ، وَعِزَّ الْوَلَايَةِ ، حَتَّى يَبْعَثَ اللَّهُ عِزًّا وَجَلَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ،

(١) حرب الفجار : هي حرب هاجت بين قريش وكنانة ، وبين هوازن (من قيس عيلان) وسببها أن النعمان بن المنذر ملك الحيرة كان يبعث إلى سوق عكاظ في كل عام لطيمة (واللطيمة كصحيفة : العير التي تحمل الطيب والبز للتجارة) لتباع له هناك ، ويشترى له بثمان ذلك آدم من آدم الطائف ، وكان يرسل تلك اللطيمة في جوار رجل من أشراف العرب ، فلما جهز اللطيمة كان عنده جماعة من العرب فيهم للبراض بن قيس - وهو من بني كنانة ، والبراض كشداد - وعروة الرحال بن عتبة - وهو من بني هوازن والرحال كشداد أيضا - فقال ، من يجيرها ؟ قال البراض : أنا أجيرها على بني كنانة يعني قومه ، فقال له النعمان : ما أريد إلا من يجيرها على أهل نجد وتهامة ، فقال له عروة الرحال : أنا أجيرها لك على أهل الشيع والقيصوم من أهل نجد وتهامة ، فقال البراض : أعلى بني كنانة يجيرها يا عروة ؟ قال : وعلى الناس كلهم ، فدفعها النعمان إلى عروة ، فخرج بها ، وتبعه البراض ، وتربص به وقتله ، فهاجت الحرب بين كنانة وهوازن ، وعاونت قريش كنانة ، وكان على كل قبيلة من قريش وكنانة سيدها ، والقائد العام للجميع حرب بن أمية والد أبي سفيان ، وقد قتل في هذه الحرب العوام بن خويلد والد الزبير ، وقد حضرها النبي صلى الله عليه وسلم وله من العمر أربع عشرة سنة ، وقيل خمس عشرة ، وقيل عشرون ، والفجار بمعنى المفاجرة كالقتال بمعنى المقاتلة ، سميت قريش هذه الحرب فجارا ، لأنها كانت في الأشهر الحرم فقالوا : قد فجرنا إذ قاتلنا فيها أي فسقتنا ، وقيل إنها لم تكن في الشهر الحرام وإنما سببها كان في الشهر الحرام ، وهو قتل البراض لعروة الرحال ، هذا هو الفجار الرابع وهو الأكبر ، وكان قبله ثلاثة أفجرة أخرى - انظر للسيرة الحلبية ١ : ١٢٢ ، والعقد الفريد ٣ : ٩١ ، وسيرة ابن هشام ١ : ١١٦ ، وجمع الأمثال ٢ : ٢٦٠ - .

فانتخبه من خير خلقه ، من أمرتني لا أمرتك ، وبنى أبى لا بنى أبيك ، فجحدته قريش أشد الجحود ، وأنكرته أشد الإنكار ، وجاهدته أشد الجهاد ، إلا من عصم الله من قريش ، فما ساد قريشاً وقادهم إلا أبو سفيان بن حرب ، فكانت الفتتان تلتقيان ، ورئيس الهدى منا ، ورئيس الضلالة منا ، فمهديثكم تحت راية مهدينا ، وضالكم تحت راية ضالنا ، فنحن الأرباب ، وأنتم الأذئاب ، حتى خلص الله أبا سفيان بن حرب بفضله من عظيم شركه ، وعصمه بالإسلام ، من عبادة الأصنام ، فكان في الجاهلية عظيماً شأنه ، وفي الإسلام معروفاً مكانه ، ولقد أعطى يوم الفتح مالم يُعطَ أحد من آبائك ، وإن مُنادى رسول الله صلى الله عليه وسلم نادى : من دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، وكانت داره حرماً ، لا دارك ولا دار أبيك ؛ وأما هند فكانت امرأة من قريش ، في الجاهلية عظيمة الخطر ، وفي الإسلام كريمة الخير ، وأما جدك الصديق فبتصديق عبد مناف سُمي صديقاً ، لا بتصديق عبد العزى ، وأما ما ذكرت من جدى المشدوخ بيدر ، فلعمري لقد دعا إلى البراز هو وأخوه وابنه ، فلو بزت إليه أنت وأبوك ما بارزوك ، ولا رأوكم لهم أ كفاء ، كما قد طلب ذلك غيركم ، فلم يقبلوهم ، حتى برز إليهم أ كفاؤهم من بنى أبيهم ، ففضى الله منايهم بأيديهم ، فنحن قتلنا ، ونحن قتلنا ، وما أنت وذاك ؟ وأما عمك أم المؤمنين فبنا شرفت ، وسميت أم المؤمنين ، وخالتك عائشة مثل ذلك ، وأما صفية فهي أذنتك من الظل ، ولولا هي لسكنت ضاحياً^(١) ، وأما ما ذكرت من ابن عمك وخال أبيك^(٢) سيد الشهداء ، فكذلك كانوا رحمهم الله ، وفخرهم وإرثهم لى دونك ، ولا فخر لك فيهم ولا إرث بينك وبينهم .

(١) ضحا كسمى ورضى : أصابته الشمس ، والظل : العز والمنعة ، أى أن شرفهم جاء من مصاهرة

للعوام لبني هاشم ، وزواجه بصفية بنت عبد المطلب . (٢) ابن عمه : هو عبد الله بن عبد الرحمن

ابن العوام ، وقد قتل يوم الدار ، وخال أبيه هو حمزة بن عبد المطلب ، وقتل يوم أحد .

وأما قولك أنا عبد الله وهو معاوية ، فقد علمت قريش أئبنا أجود في الإزم^(١) ، وأحزم في القدم ، وأمنع للجحرم ، لا والله ما أراك منبها حتى تروم من بني عبد مناف ما رام أبوك ، فقد طالعهم الذحول^(٢) ، وقدم إليهم الخيول ، وخدمهم أم المؤمنين ، ولم تراقبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ مددتم على نسائكم السجوف^(٣) ، وأبرزتم زوجته للحتوف ، ومقارعة السيوف ، فلما التقى الجمعان نكص أبوك هارباً ، فلم ينجبه ذلك أن طحنه أبو الحسين بكنكله طحن الحصيد^(٤) ، بأيدي العبيد ، وأما أنت فأقلت بعد أن حشيتك^(٥) برائيدنه ، ونالتك مخالبيه ، وإيم الله ليقوم منك بنو عبد مناف بثقافها^(٦) أو لتصبحن منها صباح أيبك بوادي السباع^(٧) ، وما كان أبوك المدهن حده^(٨) ، ولكنه كما قال الشاعر :

تناول سرحان فريسة ضيفم فقضضه بالكف منه وخطما^(٩)

(المقد الفريد ٢ : ١١٣)

١٤١ — عبد الله بن الزبير ومعاوية أيضاً

دخل عبد الله بن الزبير على معاوية فقال :

« يا أمير المؤمنين ، لا تدعن مروان يرمى جواهر قريش بمشاقصه^(١٠) ، ويضرب صفاتهم بمعوله ، أما والله لولا مكانك ، لكان أخف على رقابنا من قراشة ، وأقل

(١) الأزمة (بالفتح ويحرك) الشدة ، وجمعها إزم (كشمس وعنب) . (٢) جمع ذحل (بالفتح) وهو النار ، والمداوة ، والحقد : أي كاشفهم بذلك . (٣) جمع سجع (بالفتح ويكسر) الستر . (٤) الحصيد : الزرع المحصود . (٥) خشه : خدشه . (٦) الثقاف : ماتسوى به الراح . (٧) مقتل أبيه الزبير . (٨) حده : بأسه ، والمدهن : المغشوش ، من أدهن أي غش ، والمعنى أنه كان شديد البأس لم تشب بسالته شائبة خور واسكنه . . الخ « وفي الأصل « المدهن حده » بالخاء وأراه مصحفاً . (٩) السرحان : الذئب ، والضيفم : الأسد ، وقضضه فتقضض : كسره ودقه ، والقضض : صوت كسر العظام . وفي الأصل فقضضه بالفاء ، وهو تصحيف . (١٠) المشاقص : جمع مشقص كبير ، وهو النصل الطويل ، أو سهم فيه ذلك يرمى به الوحش .

في أنفسنا من خَشَاشَةٍ^(١) ، وإيْمُ اللهِ لَنْ مَلَكَ أَعْيَنَهُ خَيْلٌ تَنْقَادُ لَهُ ، لَأَتْرُكِبَنَّ مِنْهُ طَبَقًا^(٢) تخافه . فقال معاوية : « إن يطلب مروان هذا الأمر ، فقد طَمِعَ فِيهِ مِنْهُ هُوَ دُونَهُ ، وَإِنْ يَتْرُكُهُ يَتْرُكُهُ لِمَنْ فَوْقَهُ ، وَمَا أَرَأَيْتُمْ بِمُنْتَهَيْنَ حَتَّى يَبْعَثَ اللهُ عَلَيْكُمْ مِنْ لَا يَعْطِفُ عَلَيْكُمْ بِقَرَابَةٍ ، وَلَا يَذُكُّكُمْ عِنْدَ مُلْكَةٍ ، يَسُومُكُمْ خَسْفًا^(٣) ، وَيَسُوقُكُمْ عَسْفًا^(٤) . »
 فقال ابن الزبير : « إِذْنُ وَاللهِ يُطَلَّقُ عِقَالُ الْحَرْبِ بِكَتَائِبِ تَمُورٍ^(٥) كَرَجُلِ الْجِرَادِ ، حَافَاتُهَا الْأَسْلُ ، لِهَادِيٍّ كَدَوِيٍّ الرِّيحِ ، تَتَّبِعُ غِطْرِيْفًا^(٦) مِنْ قَرِيْشٍ ، لَمْ تَكُنْ أُمَّهُ رَاعِيَةً ثَلَاثَةَ^(٧) . » فقال معاوية : « أَنَا ابْنُ هِنْدٍ ، أَطَلَقْتُ عِقَالَ الْحَرْبِ ، فَأَكَلْتُ ذِرْوَةَ السَّنَامِ ، وَشَرِبْتُ عُنْفُوَانَ الْمَكْرَعِ^(٨) ، وَلَيْسَ اللَّأَكْلُ بَعْدِي إِلَّا الْفَلَاذَةُ^(٩) ، وَلَا لِلشَّارِبِ إِلَّا الرَّنْقُ^(١٠) . » فسكت ابن الزبير .

(شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ص ٤٩٣ ، والمقد الفريد ٢ : ١١٥ ، والبيان والتبيين ٢ : ٤٤)

١٤٢ - عبد الله بن الزبير ومعاوية وعمر بن العاص

قَدِمَ عَبْدُ اللهِ بْنِ الزَّبِيرِ عَلَى مَعَاوِيَةَ وَافِدًا ، فَرَحَّبَ بِهِ وَأَدْنَاهُ ، حَتَّى أَجْلَسَهُ عَلَى سَرِيرِهِ ، ثُمَّ قَالَ : حَاجَتُكَ أَبَا خُبَيْبٍ^(١١) ؟ فَسَأَلَهُ أَشْيَاءَ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : سَلْ غَيْرَ مَا سَأَلْتَ قَالَ :

« نَعَمْ ، الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ تَرُدُّ عَلَيْهِمْ فَيُتْمِنُونَ ، وَتَحْفَظُ وَصِيَّةَ نَبِيِّ اللهِ فِيهِمْ ، تَقْبَلُ

(١) الخشاشة : واحدة الخشاش بتثنية الخشاء ، وهي حشرات الأرض والمصافير ونحوها (وفي الأصل

خشاشة وهو تصحيف) . (٢) الطبق : الخال ومنه قوله تعالى : « لَأَتْرُكِبَنَّ مِنْهُ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ »

(٣) أي يوليكم ذلا . (٤) العسف : الظلم ، وسلوك الطريق على غير هداية .

(٥) تمور : تضطرب . (٦) الغطريف : السيد الشريف . (٧) التلة : جماعة الغنم

أو الكثير منها . (٨) عنفوان الشيء : أوله أو أول بهجته ، والمسكرع : المورد ، مفعول من كرع

في الماء أو في الإناث . (٩) الفلذة : اللقطة من اللحم . (١٠) ماء رنق كمدل وكتف وجبل : كدره .

(١١) هي كنية ابن الزبير كني بابه خبيب ، وكان أسن ولده ، ويكنى أيضا أبا بكر .

من مُحْسِنِهِمْ ، وتجاوز عن مُسِيئِهِمْ » فقال معاوية : « هيهات هيهات ؟ لا والله ما تأمن
 النعجة الذئب وقد أكل أليتها (١) » . فقال ابن الزبير : « مهلا يا معاوية ، فإن الشاة
 لتدِرُّ (٢) للعالب ، وإن المذبة في يده ، وإن الرجل الأريب ليصانع ولده الذي خرج من
 صلبه ، وما تدور الرحاء إلا بقطبها (٣) ، ولا تصنح القوس إلا بعجبها (٤) » فقال : « يا أبا
 خبيئ ، لقد أجزرت الطروقة قبل هباب الفحل (٥) ، هيهات ! وهى لا تصطك لحياها
 اصطكاك القروم السوامى (٦) » . فقال ابن الزبير : « العطن بعد العل ، والعل بعد
 النهل (٧) ولا بد للرحاء من الثفال (٨) ثم نهض ابن الزبير ، فلما كان العشاء أخذت قریش
 مجالسها ، وخرج معاوية على بنى أمية ، فوجد عمرو بن العاص فيهم ، فقال : ويحكم
 يا بنى أمية ! أفيمكم من يكفينى ابن الزبير ؟ فقال عمرو : أنا أ كفيك يا أمير المؤمنين قال :
 ما أظنك تفعل ، قال : « بلى ، والله لأزبدن (٩) وجهه ، ولأخرسن لسانه ، ولأردته
 ألين من خميلة (١٠) » . فقال : دونك فأعرض له إذا دخل ، فدخل ابن الزبير - وكان قد
 بلغه كلام معاوية وعمرو - فجلس نصب عيني عمرو ، فتحدثوا ساعة ، ثم قال عمرو :
 وإنى لنار ما يطاق اصطلاؤها لدى كلام معضل متفاقم (١١)
 فأطرق ابن الزبير ساعة ينكت في الأرض ، ثم رفع رأسه وقال :

(١) الألية : ماركب العجز من شحم ولحم . (٢) در اللبن وغيره من بابي ضرب وقتل ، ودرت
 الناقة بلبنها أدوته . (٣) قطب الرحاء : ماتدور عليه ، والرحاء مدود الرحاء . (٤) العجب : مؤخر
 كل شيء . (٥) ناقة طروقة الفحل : بلغت أن يضرها الفحل ، وأجره رسنه : جملة يجره ، وهب
 الفحل من الإبل وغيرها هبابا وهيبيا : أراد السفاد . (٦) تصطك : تضطرب . والقروم : جمع قرم
 بالفتح وهو الفحل ، والسوامى جمع سام : وصف من سما الفحل سماوة : تطاول على شوله « والشول كركع
 جمع شائل وهى الناقة تشول بذنبها للقاح » . (٧) العطن : مبرك الإبل حول الحوض ، والعل والعل :
 الشرب الثانى ، والنهل : الشرب الأول . (٨) الثفال : جلد أو نحوه يبسط تحت الرحى ليقع عليه الطحين .
 (٩) أى لأصيرنه أربد ، من الربدة بالضم : وهى لون إلى القبرة . (١٠) الخميلة : القطيفة ،
 وفى الأصل : « ولأوردنه » وهو تحريف . (١١) تفاقم الأمر : عظم .

وإني لبحرٌ ما يُسَامَى عِبَابُهُ متى يَلْقَ بِحَرَى نَارِكَ مُحَمَّد

فقال عمرو: والله يا ابن الزبير إنك ما علمت أمَّ جَلْبِيبِ جَلَابِيبِ الفتنه، مُتَأَزَّرٌ بِوَصَائِلِ (١) التَّيِّه، تتعاطى الذَّرَى الشاهقة، والمعالي الباسقة، وما أنت من قريش في لُبَابِ جَوْهَرِهَا ولا مُؤَنِقِ (٢) حَسَبِهَا. فقال ابن الزبير: «أما ما ذكرت من تعاطى الذرى. فإنه طال بي إليها وسما ما لا يطول بك مثله، أنف حَمِيٍّ، وقلب ذَكِيٍّ، وصارم مَشْرِفِيٍّ، في تَلِيدِ فَارِعِ (٣)، وِطْرِيْفِ مانع، إذ قعد بك انتفاخ سَحْرِكِ (٤)، وَوَجِيبِ (٥) قلبك، وأما ما ذكرت من أنى لست من قريش في لُبَابِ جَوْهَرِهَا، ومؤنق حسبها، فقد حضرتني وإياك الأ كفاء، العالمون بي وبك، فأجعلهم بيني وبينك. فقال القوم: قد أنصفك يا عمرو. قال: فد فعلت. فقال ابن الزبير: «أما إذ أمكنني الله منك فلا رُبْدَنٍّ وَجْهَكَ. ولا أُخْرِسَنٍّ لِسَانَكَ، ولترجعن في هذه الليلة، وكان الذي بين منكبيك مشدود إلى عروق أخذ عيكَ (٦)، ثم قال: أقسمتُ عليكم يا معاشر قريش، أنا أفضلُ في دين الإسلام أم عمرو؟ فقالوا: اللهم أنت، قال: فأبى أفضل أم أبوه؟ قالوا: أبوك حواريُّ رسول الله صلى الله عليه وآله وابن عمته، قال: فأبى أفضل أم أمه؟ قالوا: أمك أسماء بنت أبي بكر الصديق، وذات النطّاقين، قال: فعمتي أفضل أم عمته؟ قالوا: عمك سلمى بنته العوام صاحبة رسول الله صلى الله عليه وآله أفضل من عمته، قال: فخالتي أفضل أم خالته؟ قالوا: خالتك عائشة أم المؤمنين، قال: جدتي أفضل أم جدته؟ قالوا: جدتك صفية بنت عبد المطلب عمه رسول الله صلى الله عليه وآله، قال: جدتي أفضل أم جده؟ قالوا: جدك أبو بكر الخليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال:

قَضَتِ الْعَطَارِفُ مِنْ قَرِيْشٍ بَيْنَنَا فَاصْبِرْ لِفَضْلِ خِصَامِهَا وَقَضَائِهَا

(١) الوصائل: جمع وصيلة، وهي ثوب مخطط يمان. (٢) أدقنى الشيء إينافا: أعجبنى، فهو

مؤنق وأنيق: أى حسن معجب. (٣) فارع عال. (٤) السحر ويحرك ويضم: الرنة، وانتفخ سحره:

عدا طوره وجاوز قدره. (٥) خفقان واضطراب. (٦) الأخدعان: عرقان في موضع الحجامة.

وإذا جريت فلا تجار مبرزا بذ الجياد على احتفال جراثها^(١)
أما والله ابن العاص . لو أن الذي أمرك بهذا واجهني بمثله لقصرتُ إليه من سمي
بصره ، ولتركته يتلجلج لسانه ، وتضطرم النار في جوفه ، ولقد استعان منك بغير وافي ،
ولجأ إلى غير كافي ، ثم قام فخرج .

(شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ص ٤٩٣)

١٤٣ - خطبة ابن الزبير لما قتل الحسين عليه السلام

لما قتل الحسين عليه السلام ، قام عبد الله بن الزبير في أهل مكة ، وعظّم مقتله ،
وعاب على أهل الكوفة خاصّةً ، ولام أهل العراق عامّةً ، فقال بعد أن حمد الله وأثنى
عليه ، وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم :

« إن أهل العراق غدُرٌ فُجِرَ إلا قليلا ، وإن أهل الكوفة شِرّار أهل العراق ،
وإنهم دعّوا حسينا لينصروه ويؤاؤوه عليهم ، فلما قدّم عليهم ثاروا إليه ، فقالوا له : إما
أن تضع يدك في أيدينا ، فنبت بك إلى ابن زياد بن سمية سائما ، فيمضى فيك حكمه ،
وإما أن تحارب ، فرأى والله أنه هو وأصحابه قليل في كثير - وإن كان الله عز وجل لم
يطلع على الغيب أحدا - أنه مقتول ، ولكنه اختار الميتة الكريمة على الحياة الذميمة ،
فرحم الله حسينا ، وأخزي قاتل حسين . لعمرى لقد كان من خلافهم إياه وعصيانهم
ما كان في مثله واعظ وناو عنهم ، ولكنه ما حمم^(٢) نازل ، وإذا أراد الله أمرا
لن يدفع .

أبعد الحسين نظمين إلى هؤلاء القوم ، ونصدّق قولهم ، ونقبل لهم عهدا ؟
لا ، ولا نراهم لذلك أهلا ، أما والله لقد قتلوه ، طويلا بالليل قيامه ، كثيرا في النهار

(١) برز تبرزا : فاق أصحابه . وبذ : فاق وغلب ، واحتفل القوم : اجتمعوا ، والجراء والمجاراة :

(٢) ما قدر .

مصدر جارى .

صيامه ، أحقّ بما هم فيه منهم ، وأولى به في الدين والفضل ، أما والله ما كان يبدّل بالقرآن الغِنَاءَ ، ولا بالبكاء من خشية الله الحُدَاءَ ، ولا بالصيام شربَ الحرام ، ولا بالمجالس في حلق الذكر الرُكُضَ في تَطْلَابِ الصيد (يعرض يزيد) فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا^(١) .

فثار إليه أصحابه ، فقالوا له : أيها الرجل أظهِرْ بيعتك ، فإنه لم يبق أحد ، إذ هلك حسين ينازحك هذا الأمر ، وقد كان يبايع الناس سرا ، ويظهر أنه عائذ بالبيت .
(تاريخ الطبري ٦ : ٢٧٣)

١٤٤ - مناظرة ابن الزبير للخوارج

اجتمعت الخوارج حين ثار عبد الله بن الزبير بمكة (سنة ٦٤) وسار إليه مسلم ابن عقبة المُرِّي في جيش من أهل الشام ، بعد أن غزا المدينة ، وكان منه في وقعة الحرّة ما كان ، فقال لهم نافع بن الأزرق : اخرجوا بنا نأت البيت ، ونلق هذا الرجل ، فإن يكن على رأينا جاهدنا معه العدو ، وإن يكن على غير رأينا دافعنا عن البيت ما استطعنا ، ونظرنا بعد ذلك في أمورنا ، فخرجوا حتى قدموا على عبد الله بن الزبير ، فسرّ بمقدمهم ونبأهم أنه على رأيهم ، وأعظام الرضا من غير توقف ولا تفتيش ، فقاتلوا معه حتى مات يزيد بن معاوية ، وانصرف أهل الشام عن مكة .

ثم إن القوم اتقى بعضهم بعضاً فقالوا : إن هذا الذي صنعتم أمس بغير رأى ولا صواب من الأمر ، تقاتلون مع رجل لاتدرون لعله ليس على رأيكم ، وإنما كان أمس يقاتلكم هو وأبوه ، ينادى بالثارات عثمان ، ندخل إليه فننظر ما عنده ، فإن قدم أبا بكر

(١) أي شرا وخسرانا ، وكل شر عند العرب غي ، وكل خير رشاد ، وقيل هو على حذف مضاف

أي جزاء غي كقولته تعالى : « وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا » ، والأثام : الإثم ، أي يلحق جزاء إثمه (والأثام أيضا جزاء الإثم) .

وعمر ، وبرى من عثمان وعلى ، وكفر أباه وطلحة بايعناه ، وإن تكن الأخرى ،
ظهر لنا ما عنده ، فتشاغلنا بما يُجدي علينا .

فدخلوا كلّي ابن الزبير وهو مُبتذل^(١) ، وأصحابه متفرقون عنه ، فقالوا : إنا جئناك
لتخبرنا رأيك ، فإن كنت كلّي الصواب بايعناك ، وإن كنت كلّي غيره دعوناك إلى
الحق ، ما تقول في الشيخين ؟ قال : خيراً . قالوا : فما تقول في عثمان الذي أحى^(٢) الحمى ،
وآوى الطريد^(٣) ، وأظهر لأهل مصر شيئاً وكتب بخلافه ، وأوطأ آل أبي معيط^(٤)
رقاب الناس ، وآثرهم ببنى المسلمين ، وفي الذي بعده ، الذي حَكَمَ في دين الله الرجال ،
وأقام كلّي ذلك غير تائب ولا نادم ، وفي أبيك وصاحبه ، وقد بايعا علياً وهو إمام عادل
مرضى لم يظهر منه كفر ، ثم نكنا بمرَض من أعراض الدنيا ، وأخرجنا عائشة تقاتل ،
وقد أمرها الله وصواحبها أن يقرن^(٥) في بيوتهن ، وكان لك في ذلك ما يدعوك إلى التوبة
فإن أنت قلت كما نقول فلك الزلّاني^(٦) عند الله والنصر كلّي أيدينا ، ونسأل الله لك التوفيق
وإن أبيت إلا نصر رأيك الأول ، وتصويب أبيك وصاحبه ، والتحقيق بعثمان والتولّي
في السفين الست التي أحلت دمه ، ونقضت أحكامه ، وأفسدت إمامته ، خذلك الله

(١) المبتذل : لابس البذلة (بالسكر) أو المبتذلة : وهي الثوب الخلق ومالا يصاب من الثياب .

(٢) أحى المكان : جعله حي لا يقرب ، وكان من المطاعن التي وجهت إلى عثمان رضي الله عنه أنه حي
الحمى عن المسلمين مع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعلهم سواء في الماء والكأ ، ولما سئل في ذلك قال
إنما فعلت ذلك لإبيل الصدقة ، وقد أطلقته الآن ، وأنا أستغفر الله . وروى الواقدي أن عثمان كان يحمي
الربذة والشرف والبقيع . فكان لا يدخل الحمى بعير له ولا فرس ولا لبني أمية حتى كان آخر الزمان ، فكان
يحمي الشرف لإبله وكانت ألف بعير وإبيل الحكم بن أبي العاص ، ويحمي الربذة لإبيل الصدقة . ويحمي البقيع
لخيل المسلمين وخيله وخيل بني أمية . شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٢٣٥

(٣) هو الحكم بن أبي العاص - انظر ص ١٠٤ . (٤) من ولاهم عثمان الوليد بن عقبة بن أبي معيط
ولاه الكوفة ، وهو أخو عثمان لأمه . (٥) من قر بالمكان يقر (بالسكر والفتح) قراراً أي استقر .
أصله يقررن حذف الأولى من الراعين ونقلت حركتها إلى القاف . (٦) الزلّانة والزلّاني : القرية والمنزلة .

وانتصر منك بأيدينا ، فقال ابن الزبير : « إن الله أمر (وله العزة والقدرة) في مخاطبة
أَكْفَرِ الْكَافِرِينَ ، وَأَعْتَى الْعُتَاةَ ، بِأَرْأَفَ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ ، فَقَالَ لِمُوسَى وَأَخِيهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِمَا : « أَذْهَبًا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ، فَقَوْلًا لَهُ قَوْلًا أَيْمًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ
أَوْ يَخْشَى » وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَا تُؤْذُوا الْأَحْيَاءَ بِسَبِّ الْمَوْتَى » .
فنهى عن سبِّ أبي جهل من أجل عِكْرِمَةَ ابْنِهِ ، وَأَبُو جَهْلٍ عَدُوُّ اللَّهِ وَعَدُوُّ الرَّسُولِ ،
وَالْمَقِيمُ عَلَى الشَّرْكِ ، وَالْجَادُّ فِي الْحَارِبَةِ ، وَالتَّبَغُّضُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ
الهِجْرَةِ ، وَالْحَارِبُ لَهُ بَعْدَهَا ، وَكُنِيَ بِالشَّرْكِ ذَنْبًا ! وَقَدْ كَانَ يُغْنِيكُمْ عَنْ هَذَا الْقَوْلِ
الَّذِي سَمِيتُمْ فِيهِ طَلْحَةَ وَأَبِي أَنْ تَقُولُوا : أَتَبْرَأُ مِنَ الظَّالِمِينَ ؟ « فَإِنْ كَانَا مِنْهُمْ دَخَلَا
فِي عُمَارِ (١) الْمُسْلِمِينَ ، وَإِنْ لَمْ يَكُونَا مِنْهُمْ لَمْ تُحْفَظُونِي (٢) بِسَبِّ أَبِي وَصَاحِبِهِ ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ
أَنَّ اللَّهَ جَلٌّ وَعَزٌّ قَالَ لِلْمُؤْمِنِ فِي أَبِيهِ : « وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ
بِهِ عِلْمٌ ، فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا » ، وَقَالَ جَلٌّ ثَنَاؤُهُ : « وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا »
وَهَذَا الَّذِي دَعَوْتُمْ إِلَيْهِ أَمْرٌ لَهُ مَا بَعْدَهُ ، وَلَيْسَ يُقْنِعُكُمْ إِلَّا التَّوْقِيفُ وَالتَّصْرِيحُ (٣) ،
وَلِعَمْرِي إِنْ ذَلِكَ لِأُخْرَى بَقِطَعَ الْحَجِجِ ، وَأَوْضَحَ لِنَهَاجِ الْحَقِّ ، وَأَوْلَى أَنْ يَعْرِفَ كُلُّ
صَاحِبِهِ مِنْ عَدُوِّهِ ، فَرُوحُوا (٤) إِلَى مَنْ عَشَيْتُمْ هَذِهِ ، أَكْشِفْ لَكُمْ مَا أَنَا عَلَيْهِ
إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

فَلَمَّا كَانَ الْعِشِيُّ رَاحُوا إِلَيْهِ ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ وَقَدْ لَبَسَ سِلَاحَهُ ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ نَجْدَةٌ (٥)
قَالَ : هَذَا خُرُوجُ مَنَايِدِ (٦) لَكُمْ ، فَجَلَسَ عَلَى رَفِيعٍ مِنَ الْأَرْضِ ، فَحَمِدَ اللَّهَ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ،
وَصَلَّى عَلَى نَبِيِّهِ ، ثُمَّ ذَكَرَ أَبَا بَكْرٍ وَعَمْرَ أَحْسَنَ ذَكَرًا ، ثُمَّ ذَكَرَ عُمَانَ فِي السَّنِينَ الْأَوَائِلِ
مِنْ خِلَافَتِهِ ، ثُمَّ وَصَلَهُنَ بِالسَّنِينَ الَّتِي أَنْكَرُوا سِيرَتَهُ فِيهَا ، فَجَعَلَهَا كَالْمَاضِيَةِ ، وَخَبَّرَ أَنَّهُ

(١) بِالضَّمِّ وَيَفْتَحُ جَمَاعَتَهُمْ . (٢) تَفْضِيوُنِي . (٣) تَبْيِينُ الْأَمْرِ .

(٤) الرَّوَّاحُ : الْعِشِيُّ ، وَرَاحَ إِلَى الْقَوْمِ : ذَهَبَ إِلَيْهِمْ رَوَّاحًا . (٥) هُوَ نَجْدَةُ بَنِ عَمْرِو بْنِ الْحَنْظَلِيِّ مِنَ

كِبَارِ زَعَمَائِهِمْ . (٦) قَابِذَةٌ : كَاشِفَةٌ بِالْمَدَارَةِ .

آرى الحكيم بن أبى العاص بإذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذكر الحِجَى وما كان فيه من الصلاح ، وأن القوم استعتبوه من أمور ، وكان له أن يفعلها أولاً مُصِيباً ، ثم أعقبهم بعد ذلك محسناً ، وأن أهل مصر لما أتوه بكتاب ذكروا أنه منه ، بعد أن ضمن لهم العُتْبَى (١) ثم كتبت لهم ذلك الكتاب بقتلهم ، فدفعوا الكتاب إليه ، حلف بالله أنه لم يكتبه ، ولم يأمر به ، وقد أمر الله عز وجل بقبول اليمين ممن ليس له مثل سابقته ، مع ما اجتمع له من صهر رسول الله ، ومكانه من الإمامة ، وأن بيعة الرضوان تحت الشجرة إنما كانت بسببه (٢) ، وعثمان الرجل الذى لزمته يمين ، لو حلف عليها لحلف على حق ، فافتداها بمائة ألف ولم يحلف ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من حلف بالله فليصدق ، ومن حلف له بالله فليرض » . فعثمان أمير المؤمنين كصاحبيه ، وأنا ولى وليه ، وعدو عدوه ، وأبى وصاحبه صاحب رسول الله ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عن الله عز وجل يوم أحد ، لما قُطعت إصبع طلحة : « سَبَقْتُهُ إِلَى الْجَنَّةِ » ، وقال : « أَوْجَبَ طَلْحَةَ (٣) » ، وكان الصديق إذا ذكر يوم أحد قال : « ذاك يوم كله أو جُله لطلحة » . والزبير حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفوته ، وقد ذكر أنهما فى الجنة ، فقال جل وعز : « لَمَّا رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ » . وما أخبرنا بعد أنه سَخِطَ عليهم ، فإن يكن ما سَعَوْا فيه حقاً ، فأهل ذلك هم ، وإن يكن زلة فى عفو الله تمحيصها ، وفيما وفقهم له من السابقة مع نبيهم صلى الله عليه وسلم ، ومهما ذكرتوها فقد بدأتكم بأمم عائشة رضى الله عنها ، فإن أبى آب

(١) العتبي : الرضا . (٢) وذلك أن الرسول عليه الصلاة والسلام فى غزوة الحديبية اختار عثمان ابن عفان رسولا من قبله إلى قريش ، يعلمهم بمقصده ، وأنه أتى مكة معتمراً ، فقالوا : إن محمداً لا يدخلها علينا عنوة أبداً ، ثم إنهم حبسوه . فشاع عند المسلمين أنه قتل . فقال عليه الصلاة والسلام حينئذ سمع بذلك : لا تبرح حتى نناجزهم الحرب . ودعا المسلمين إلى البيعة على القتال فبايعوه هناك تحت شجرة سميت بعد شجرة الرضوان . (٣) الموجبة من الحسنات التى توجب الجنة . وأوجب : أتى بها .

أن تكون له أمّا نبذ اسم الإيمان عنه ، وقد قال الله جلّ ذكره ، وقوله الحق :
« النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ » . فنظر بعضهم إلى بعض ،
ثم انصرفوا عنه .

(الكامل للمبرد ٢ : ١٧٣ ، والعقد الفريد ١ : ٢١٢ ، وتاريخ الطبري ٧ : ٥٥)

١٤٥ — أبو صخر الهذلي وعبد الله بن الزبير

وروى أبو الفرج الأصبهاني قال :

لما ظهر ابن الزبير بالحجاز ، وغلب عليها بعد موت يزيد بن معاوية ، وتشاغل
بنو أمية بالحرب بينهم ، في مَرَجٍ راهط وغيره ، دخل عليه أبو صخر الهذلي في هُدَيْلٍ ،
وقد جاءوه ليقبضوا عطاءهم ، وكان عارفاً بهوآه في بني أمية ، فتمعه عطاءه ، فقال : عَلَامَ
تمنعني حقالي ؟ وأنا امرؤ مسلم ما أحدثت في الإسلام حَدَثًا ، ولا أخرجت من طاعةٍ بدأ .
قال : عليك بني أمية ، فاطلب عندهم عَطَاءَكَ . قال :

« إِنْ أَجَدَمَ سِبَاطًا (١) أ كُفَّهُمْ ، سَمِحَةَ أَنفُسُهُمْ ، بُدْلَاءَ لِأَمْوَالِهِمْ ، وَهَابِينَ
لِمُجْتَدِيهِمْ (٢) كَرِيمَةَ أَعْرَاقِهِمْ ، شَرِيفَةَ أَصُولِهِمْ ، زَاكِيَةَ فِرْعَوْنِهِمْ ، قَرِيبًا مِنْ
رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَسَبُهُمْ وَسَبَبُهُمْ ، لَيْسُوا إِذَا نَسَبُوا بِأَذْنَابٍ وَلَا وَشَائِظٍ (٣)
وَلَا أَتْبَاعٍ ، وَلَا هَمَّ فِي قَرِيشٍ كَفَقَعَةِ الْقَاعِ (٤) ، لَهْمُ السُّودِّ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَاللَّكُّ فِي الْإِسْلَامِ
لَا كُنْ لَا يُعَدُّ فِي عَيْرِهَا وَلَا نَفِيرِهَا (٥) ، وَلَا حَكَمَ آبَاؤُهُ فِي نَفِيرِهَا وَلَا قَطْمِيرِهَا (٦) لَيْسَ

(١) رجل سبط اليمين : سخي (وسبط كشمس) . (٢) المجتدي : طالب الجدوى ، وهي العطية .

(٣) وشائظ جمع وشيظة ، يقال : هم وشيظة في قومهم أي حشو فيهم ، وفي الأصل : « وسائظ »

وهو تصحيف . (٤) الفقع (بالفتح والكسر) البيضاء الرخوة من الكمأة وجمعه فقعة كعنبية ، والقاع :

أرض سهلة مطشنة ، قد انفرجت عنها الجبال والآكام . ويضرب المثل بالفقع في الذل ، لأنه لا يمتنع على

من اجتنائه ، أو لأنه يوطأ بالأرجل . (٥) أخذنا من المثل وهو « لا في العير ولا في النفير » وأول من

قاله أبو سفيان بن حرب ، يضرب للرجل : يحط أمره ، ويصفر قدره . وقد تقدم شرحه .

(٦) النفير : النكتة في ظهر النواة ، والقطمير : القشرة الرقيقة بين النواة والنورة .

من أحلافِها (١) المطيبين ، ولا من ساداتها المَطْعِمِينَ ، ولا من جُودائها (٢) الوهايين ، ولا من هاشمها المنتخبين ، ولا عبد شمسها المسوِّدين ، وكيف نقاتل الرءوس بالأذنان ، وأين النَّصلُ من الجفن (٣) والسِّنَّان من الرُّجِّج (٤) ، والدُّنَابِي (٥) من القُدَامَى (٦) وكيف يُفَضِّلُ الشَّحِيحُ عَلَى الجَوَادِ ، والسُّوقَةُ عَلَى المَلَكِ ؛ والجَامِعُ بِخُلَاعِ عَلَى المَطْعِمِ فَضْلاً ؟ » .

فغضب ابن الزبير حتى ارتعدت فرائصه (٧) ، وعَرِقَ جبينه ، واهتز من قرنه إلى قدمه ، وامتقع لونه ، ثم قال له : يا بن البوالة على عقبيها ، ويا جِلْف (٨) ، يا جاهل . أما والله لولا الحُرُمَات الثلاث : حرمة الإسلام ، وحرمة الحرم ، وحرمة الشهر الحرام . لأخذت الذي فيه عيناك ، ثم أسر به إلى سجن « عارم » فحبس به مدة ، ثم استوهبته هذيل ، ومن له من قريش خُمُولَةٌ في هذيل ، فأطلقه بعد سنة . وأقسم ألا يعطيه عطاء مع المسلمين أبدا .

فلما وليَ عبد الملك ، أمر له بما فاتته من العطاء ، ومثله صِلَةٌ من ماله وكسائه وحمله .
(الأغانى ٢١ : ٩٤)

١٤٦ — خطبته وقد قدم عليه وفد العراق

قدِمَ وفد من العراق على عبد الله بن الزبير ، فأَتَوْهُ في المسجد الحرام في يوم الجمعة ، فسألوا عليه . فسألهم عن مصعب أخيه ، وعن سيرته فيهم . فقالوا : أحسن الناس سيرةً ،

(١) الأحلاف في قريش ست قبائل : عبد الدار ، وكعب ، وجمح ، وسهم ، ونخزوم ، وعدي ، لأنهم لما أراد بنو عبد مناف أخذ ما في أيدي عبد الدار من الحجابة والسقاية ، وأبت عبد الدار ، عقد كل قوم على أمرهم حلفاً مؤكداً على أن لا يتخاذلوا ، فأخرجت عبد مناف جفنة مملوءة طيباً ، فوضعتها لأحلافهم وهم أسد ، وزهرة ، وتيم عند الكعبة ، فغمسوا أيديهم فيها وتعاقدوا ، وتعاقدت بنو عبد الدار وحلفاؤها حلفاً آخر مؤكداً فسموا الأحلاف ، وقوله المطيبين : لغمس أيديهم في الطيب . (٢) جوداء: جمع جواد ، وهو السخى ، ويجمع أيضاً على أجواد وأجارود . (٣) غمد السيف . (٤) الحديدية في أسفل الرمح . (٥) الذنب . (٦) أربع أو عشر ريشات في مقدم الجناح . (٧) جمع فريضة ، وهى اللحمة بين الجنب والسكرتف . (٨) الجلف : الرجل الجاني .

وأقضاه بحق ، وأعدّله في حكم ، فصلى عبد الله بالناس الجمعة ، ثم صعد المنبر ، فحمد الله ،
وأثنى عليه . ثم قال :

قد جرّبوني ثم جرّبوني من غلّوتين ومن المثّين (١)

حتى إذا شابوا وشيّبوني خلّوا عنّاني ثم سيّبوني (٢)

أيها الناس : « إني قد سألت هذا الوفد من أهل العراق ، عن عاملهم مصعب بن
الزبير ، فأحسنوا الثناء عليه ، وذكروا عنه ما أحب . ألا إن مصعباً أطبى (٣) القلوب ،
حتى مات عدل به ، والأهواء حتى مات تحول عنه ، واستمال الألسن بثنائها ؛ والقلوب بنصحتها .
والنفوس بمحببتها . فهو المحبوب في خاصته . المحمود في عامته . بما أطلق الله به لسانه من
الخير . وبسط يده من البذل » . ثم نزل .

(شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ص ٤٩٢ ؛ والأمالى ١ : ٢٨٦)

١٤٧ - خطبته لما بلغه قتل مصعب

لما قتل عبد الملك بن مرّوان مُصعب بن الزبير (سنة ٧١ هـ) وانتهى خبر مقتله
إلى عبد الله بن الزبير ، أضرب عن ذكره أيّاماً ، حتى تحدّث به إمّاء مكة في الطريق ،
ثم صعد المنبر فجلس عليه ملياً لا يتكلم ، والكأبة على وجهه ، وجبينه يترشح عرقاً . فقال
رجل من قریش لرجل إلى جانبه : ماله لا يتكلم ، أترأه يهاب المنطق ؟ فوالله إنه للبيب
الخطباء . قال : لعله يريد أن يذكر مقتل مصعب سيد العرب ، فيشتد ذلك عليه ، وغير
مألوم ، ثم تكلم فقال :

« الحمد لله الذي له الخلق والأمر ، ومُلِك الدنيا والآخرة ، يُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ يَشَاءُ ،
وَيَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ يَشَاءُ ، وَيُعْزِزُ مَنْ يَشَاءُ ، وَيُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ . أما بعد : فإنه لم يُعْزِرْ اللهُ

(١) الغلوة: الغاية ، وهي رمية سهم أبعد ما يقدر عليه ، ويقال هي قدر ثلثائة ذراع إلى أربعمائة .

(٢) تركوني . (٣) اطبى : استمال .

مَنْ كَانَ الْبَاطِلُ مَعَهُ ، وَإِنْ كَانَ مَعَهُ الْأَنْفَامُ طُرًّا^(١) ، وَلَمْ يُدِزِلْ مَنْ كَانَ الْحَقُّ مَعَهُ وَإِنْ كَانَ مُفْرَدًا ضَعِيفًا ؛ أَلَا وَإِنَّهُ قَدْ أَتَانَا خَبْرٌ مِنَ الْعِرَاقِ ، بِلَدِّ الْغَدْرِ وَالشَّقَاقِ ، فَسَاءَنَا وَسَرَّانَا ، أَتَانَا أَنْ مَصْعَبًا قَتَلَ رَحْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَمَغْفِرَتُهُ ؛ فَأَمَّا الَّذِي أَحْزَنَنَا مِنْ ذَلِكَ ، فَإِنْ لِفِرَاقِ الْحَجِيمِ لِدَعَّةٍ وَلَوْعَةٍ يَجِدُهَا حَمِيمُهُ عِنْدَ الْمَصِيبَةِ ، ثُمَّ يَرْعَوِي مِنْ بَعْدِ ذَوَالرَّأْيِ وَالِدِينَ إِلَى جَمِيلِ الصَّبْرِ ، وَكَرِيمِ الْعَزَاءِ . وَأَمَّا الَّذِي سَرَّانَا مِنْهُ فَإِنَّا قَدْ عَلِمْنَا أَنْ قَتَلَهُ شَهَادَةً لَهُ ، وَأَنَّهُ عَزٌّ وَجَلٌّ جَاعِلٌ لَنَا وَلَهُ فِي ذَلِكَ الْخَيْرَةَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

أَسْلَمَهُ الطَّغَامُ^(٢) ، الصَّمُّ الْآذَانَ ، أَهْلَ الْعِرَاقِ ، إِسْلَامَ النِّعَمِ الْمُخَطَّمَةِ^(٣) ، وَبَاعُوهُ بِأَقْلٍ مِنَ الثَّمَنِ الَّذِي كَانُوا يَأْخُذُونَ مِنْهُ ، فَإِنْ يُقْتَلُ فَقَدْ قُتِلَ أَبُوهُ وَعَمُّهُ وَأَخُوهُ^(٤) ، وَكَانُوا الْخِيَارَ الصَّالِحِينَ ، إِنَّا وَاللَّهِ لَأَمُوتُ حَتْفَ آنَافِنَا^(٥) ، وَلَسْكَنَ قَعَصًا^(٦) بِالرَّمَاحِ ،

(١) جميعا . (٢) الأوغاد . (٣) خطم البعير بالخطام : جملة على أنفه ، والخطام كسكتاب : ما وضع في أنف البعير ليقْتاد به . (٤) بعد أن اعتزل الزبير بن العوام أصحاب الجمل ، انصرف إلى وادي السباع ، وقد تبعه عمرو بن جرموز فقتله في الصلاة ، ويعنى بعمه عبدالرحمن بن العوام بن خويلد ، وقد استشهد يوم اليرموك ، وفي رواية « وابن عمه » ويعنى به عبد الله بن عبد الرحمن بن العوام ، وقد قتل يوم الدار « انظر أسد الغاية ٣ : ٢١٣ » .

وأما أخوه فهو المنذر بن الزبير ، وذلك أن جيش يزيد بعد أن أوقع بأهل المدينة في وقعة الحرة كاتفقنا ، سار إلى مكة لغزو ابن الزبير ، فقال لأخيه المنذر : ما لهذا الأمر ولدفع هؤلاء القوم غيري وغيرك — وكان أخوه المنذر من شهد الحرة . ثم لحق به — فجرد إليهم أخاه في الناس ، فقاتلهم ساعة قتالا شديدا ، ثم إن رجلا من أهل الشام دعا المنذر إلى المبارزة ، فخرج إليه ، فضرب كل واحد منهما صاحبه ضربة خرس صاحبه لها ميتا . وكان مقتله سنة ٦٤ هـ — تاريخ الطبري ٧ : ١٤ — . (٥) الحتف : الموت ، ويقال مات حتف أنفه : أي على فراشه من غير قتل ، ولا ضرب ، ولا غرق ، ولا حرق ، وخص الأنف لأنه لأنه أراد أن روحه تخرج من أنفه بتتابع نفسه ، أو لأنهم كانوا يتخيّلون أن المريض تخرج روحه من أنفه ، والجريح من جراحته . (٦) القمص : الموت الوحي (أي السريع كفتى) ومات قعصا : أصابته ضربة ، أو رمية فأت مكانه ، وفي الكامل ، وعيون الأخبار : « إنا والله ماموت حبيبا » وزاد الكامل « كهيئة آل أبي العاص » والحبيح محرّكة : انفخاط بطن البعير من أكل لحاء العرفج (كجمفر) ، وربما قتله ذلك ، يعرض بين مروان لكثرة أكلهم وإسرافهم في ملاذ الدنيا ، وأنهم يموتون بالتحمة .

وموتاً تحت ظلال السيوف ، وليس كما يموت بنومروان ، والله ما قُتل منهم رجل في زحف في جاهلية ولا إسلام قط ؛ إلا وإنما الدنيا عارية من الملك القهار الذي لا يزول سلطانه ، ولا يبديد ملكه ، فإن تُقبل الدنيا على لم آخذها أخذ الأشر البيطر^(١) ، وإن تُدبر عنى لم أبك عليها بكاء الخرق المهين^(٢) . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .
ثم نزل .

(الأغانى ١٧ : ١٦٦ ، شرح ابن أبي الحديد م ١ ص ٣٢٠ - م ٤ ص ٤٩٢ ، والعقد الفريد ٢ : ص ١٥٠ و ٢٦٨ ، وتاريخ الطبرى ٧ : ١٩٠ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٠ ، وتهذيب الكامل ١ : ١٨ ، ومروج الذهب ٢ : ١٢٣)

١٤٨ - خطبة أخرى له

وقال الجاحظ : لما جاءه قتل أخيه مصعب ، قام خطيباً بعد خطبته الأولى ، فقال :
« إن مصعباً قدّم أيزره ، وأخر خيرَه ، وتشاغل بنسكاح فلانة وفلانة^(٣) ، وترك حَلْبَةَ^(٤)
أهل الشام ؛ حتى غَشِيَتْه فى داره ، وأئن هلك مُضْمَب إن فى آل الزبير خلفاً منه » .
(البيان والتبيين ٢ : ٤٧)

١٤٩ - خطبته وقد بلغه قتل عمرو والأشقر

وروى الجاحظ أيضاً أنه لما بلغه قتل عبد الملك بن مروان عمرو بن سعيد الأشقر ،
قام خطيباً فقال :

(١) الأشر : البيطر . (٢) من الخرق محرّكة وهو الدهش من خوف أو حياء ، أو أن يهت فأنحا عينيه ينظر ، والمهين : الحقير ، ويروى : « بكاء الحرف المهتر » والخرف : من فسد عقله من الكبر ، والمهتر : من ذهب عقله من كبر ، أو مرض ، أو حزن ، من الهتر بالضم ، وقد أهتر فهو مهتر (بضم الميم وفتح التاء) : شاذ وقد قيل أهتر بالبناء للمجهول (٣) كان تحت عقيباتا قریش عائشة بنت طلحة ، وسكينة بنت الحسين . (٤) الحلبه : خيل تجتمع للسباق من كل أوب للنصرة .

« إن أبا ذبَّان ^(١) ، قَتَلَ لَطِيمَ الشَّيْطَانِ ^(٢) ، كَذَلِكَ نُوتِي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا
بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » .
(البيان والتبيين ٢ : ٤٧)

١٥٠ - عبد الله بن الزبير وأمه أسماء بنت أبي بكر

دخل ابن الزبير على أمه أسماء بنت أبي بكر ، في اليوم الذي قتل فيه ، وقد رأى من
الناس ما رأى من خذلانهم ، فقال :

يا أمّه : خَذَلَنِي النَّاسَ حَتَّى وَلَدِي ^(٣) وَأَهْلِي ، فَلَمْ يَبْقَ مَعِيَ إِلَّا الْيَسِيرُ مِنْ لَيْسَ عِنْدَهُ
مِنَ الدَّفْعِ أَكْثَرُ مِنْ صَبْرِ سَاعَةٍ ، وَالْقَوْمُ يُعْطُونَنِي مَا أُرِدْتُ مِنَ الدُّنْيَا ، فَمَا رَأَيْكَ ؟
فَقَالَتْ : أَنْتَ وَاللَّهِ يَا بَنِي أَعْلَمُ بِنَفْسِكَ ، إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّكَ عَلَى حَقٍّ وَإِلَيْهِ تَدْعُو فَامضْ لَهُ ،
فَقَدْ قُتِلَ عَلَيْهِ أَصْحَابُكَ ، وَلَا تَمَكِّنْ مِنْ رَقَبَتِكَ يَتَلَمَّبُ بِهَا غُلَامَانِ بَنِي أُمِيَّةَ ، وَإِنْ كُنْتَ
إِنَّمَا أُرِدْتَ الدُّنْيَا ، فَبئسَ العَبْدُ أَنْتَ ، أَهْلَكَتَ نَفْسَكَ ، وَأَهْلَكَتَ مَنْ قُتِلَ مَعَكَ ،
وَإِنْ قُلْتَ كُنْتُ عَلَى حَقٍّ ، فَلَمَّا وَهَنَ أَصْحَابِي ضَعُفْتُ ، فَهَذَا لَيْسَ فِعْلُ الْأَحْرَارِ وَلَا أَهْلِ
الدِّينِ ، وَكَمْ خُلُودُكَ فِي الدُّنْيَا ؟ الْقَتْلُ أَحْسَنُ ، وَاللَّهُ لَضَرْبَةٌ بِالسَّيْفِ فِي عِزٍّ ، أَحَبُّ إِلَيَّ
مِنْ ضَرْبَةٍ بِسَوْطٍ فِي ذَلٍّ ، قَالَ : إِنْ أَخَافُ إِنْ قَتَلُونِي أَنْ يُمَثِّلُوا بِي ، قَالَتْ : يَا بَنِي إِنْ
الشَّاةُ لَا يَضُرُّهَا سَلْخُهَا بَعْدَ ذُبْحِهَا .

فَدَنَا مِنْهَا وَقَبِلَ رَأْسَهَا ، وَقَالَ : هَذَا وَاللَّهِ رَأْيِي ، وَالَّذِي قَمْتُ بِهِ دَاعِيًا إِلَى يَوْمِي هَذَا ،

(١) الذبَّان : الذباب ، والعرب تكنو الأبحر « أبا دباب » وبعضهم يكتبه « أبا ذبان » وقد غلب ذلك

على عبد الملك بن مروان ، لفساد كان في فمه ، وقيل لأن لثته كانت تدمي فيقع عليها الذباب .

(٢) هو عمرو بن سعيد الأشدق ، سمي بذلك لميل كان في فمه ، فقيل له من أجله : « لطيم الشيطان »

قال الوزير الكاتب ابن هيدون في مراثيته المشهورة لدولة بني الأنطس بالأنطس التي مطلعها :

« الدهر يفجع بعد العين بالآثر فا البكاء على الأشباح والصور »

ولم تدع لأبي الذبان قاضيهِ ليس اللطيم لها عمرو بمنتصر

(٣) وكان قد خرج إلى الحجاج ابنه حمزة وخييب فأخذها منه لأنفسهما أمانا .

ما رَكَنْتُ إِلَى الدُّنْيَا ، وَلَا أَحْبَبْتُ الْحَيَاةَ فِيهَا ، وَمَا دَعَانِي إِلَى الْخُرُوجِ إِلَّا الْغَضَبُ اللهُ
أَنْ تُسْتَحَلَّ حُرْمَتُهُ ، وَلَكِنِّي أَحْبَبْتُ أَنْ أَعْلَمَ رَأْيِكَ ، فَزِدْتَنِي بِصِيرَةٍ مَعَ بَصِيرَتِي ،
فَانظُرِي يَا أُمُّهُ ، فَإِنِّي مَقْتُولٌ مِنْ يَوْمِي هَذَا ، فَلَا يَشْتَدُّ حَزَنُكَ ، وَسَلِّمِي لِأَمْرِ اللهِ ، فَإِن
ابْنِكَ لَمْ يَتَعَمَّدْ إِتْيَانُ مُنْكَرٍ ، وَلَا عَمَلًا بِفَاحِشَةٍ ، وَلَمْ يَجْزُ فِي حُكْمِ اللهِ ، وَلَمْ يَغْدِرْ فِي أَمَانٍ ،
وَلَمْ يَتَعَمَّدْ ظَلْمَ مُسْلِمٍ وَلَا مَعَاهِدٍ ، وَلَمْ يَبْلُغْنِي ظَلْمٌ عَنْ عَمَالِي فَرَضِيَتْ بِهِ ، بَلْ أَنْكَرْتَهُ ،
وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ آثَرَ عِنْدِي مِنْ رِضَا رَبِّي ، اللَّهُمَّ إِنِّي لَا أَقُولُ هَذَا تَزَكِيَةً مِنِّي لِنَفْسِي
— أَنْتَ أَعْلَمُ بِي — وَلَكِنْ أَقُولُهُ تَعَزِيَةً لِأُمِّي لِتَسْأَلُوْا عَنِّي ، فَقَالَتْ أُمُّهُ : إِنِّي لِأَرْجُو مِنْ اللهِ
أَنْ يَكُونَ عَزَائِي فِيكَ حَسَنًا إِنْ تَقَدَّمْتَنِي ، وَإِنْ تَقَدَّمْتِكَ فِي نَفْسِي حَرَجٌ حَتَّى أَنْظُرَ لِأُمِّ
بَصِيرَ أَمْرِكَ . قَالَ : يَا أُمُّهُ جِزَاكَ اللهُ خَيْرًا ! فَلَا تَدْعِي الدُّعَاءَ لِي قَبْلُ وَبَعْدُ ، فَقَالَتْ :
لَا أَدْعُهُ أَبَدًا ، فَمَنْ قُتِلَ عَلَى بَاطِلٍ فَقَدْ قُتِلَ عَلَى حَقٍّ ، ثُمَّ قَالَتْ : « اللَّهُمَّ ارْحَمْ طَوْلَ
ذَلِكَ الْقِيَامِ فِي اللَّيْلِ الطَّوِيلِ ، وَذَلِكَ النَّجِيبِ وَالظَّمْأِ فِي هَوَاجِرِ الْمَدِينَةِ وَمَكَّةَ ، وَبِرَّهَ بِأَبِيهِ
وَبِي ، اللَّهُمَّ قَدْ سَلَّمْتَهُ لِأَمْرِكَ فِيهِ ، وَرَضِيَتْ بِمَا قَضَيْتَ ، فَأُثْبِنِي فِي عِبَادَةِ اللهِ ثَوَابِ الصَّابِرِينَ
الشَّاكِرِينَ » . ثُمَّ وَدَّعَهَا وَخَرَجَ .

(تاريخ الطبري ٧ : ٢٠٢ ، والفخرى ١١١ ، والمقد الفريد ٢ : ٢٧١ ، وبلاغات النساء ص ١٣٠)

١٥١ — خطبته يوم قتله

وخرج من عندها فصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنْ الْمَوْتَ قَدْ تَفَشَّأَ كَمَا سَحَابُهُ ، وَأَحْدَقَ بِكُمْ رَبَابُهُ ^(١) ، واجتمع بعد
تفرُّقٍ ، وَارْجَحَنَّ بَعْدَ تَمَشُّقٍ ^(٢) ، وَرَجَسَ ^(٣) نَحْوَكُمْ رَعْدُهُ ، وَهُوَ مُفْرِغٌ عَلَيْكُمْ وَدَقَّهُ ^(٤) »

(١) الرباب : السحاب الأبيض . (٢) ارجحن : مال من ثقله واهتز ، وتمشق ثوبه : تمزق .

(٣) رجست السماء : رعدت شديدا وتمخضت . (٤) الودق : المطر .

وقائِدِ إليكم البلايا ، تتبعها المنايا ، فاجملوا السيوف لها غَرَضًا ، واستمعينوا عليها بالصبر .
وتمثل بأبيات ، ثم افتحم يقاتل وهو يقول :

قد جدَّ أصحابك ضربَ الأعناقِ وقامت الحربُ لها على ساقٍ^(١)

(العقد الفريد ٢ : ٢٧١)

١٥٢ - خطبة أخرى

وروى الطبرى قال :

لما كان يوم الثلاثاء صَدِيحَةَ سَبْعِ عَشْرَةَ من جمادى الأولى سنة ٧٣ هـ وقد أخذ
الحجاج على ابن الزبير بالأبواب ، صلى بأصحابه الفجر ، ثم قام فحمد الله وأثنى عليه ،
ثم قال :

« يا آل الزبير : لو طَبَّتم لى نفسًا عن أنفسكم ، كنَّا أهل بيتٍ من العرب
اضْطَلَمْنَا^(٢) فى الله ، لم تُصَبِّنا زَبَاءَ بَيْتِهِ^(٣) ، أما بعد يا آل الزبير : فلا يَرُغِمُكُمْ وقع
السيوف ، فإنى لم أحضُرْ مَوْطِنًا قَطُّ إلا أَرْتُدُّنْتُمْ^(٤) فيه من القتل ، وما أجد من دواء
جراحها أشدَّ مما أجد من ألمِ وَقْعِها ، صُونُوا سيوفكم كما تصونون وجوهكم ؛ لا أعلم امرأ
كسر سيفه ، واستبقى نفسه ، فإن الرجل إذا ذهب سلاحه فهو كالمرأة أعزلٌ ، غُضُّوا
أبصاركم عن البارقة^(٥) ، وليدشغل كل امرئ قِرْنَه ، ولا يُلْهِيَنَّكُمْ السُّؤالُ عنى ، ولا
تقولنَّ : أين عبد الله بن الزبير ، ألا من كان سائلًا عنى فإنى فى الرِّعيلِ^(٦) الأول :

أبى لابن سلمى أنه غيرُ خالدٍ مُلَاقِ المنايا أى صَرَفِ تَيْمَمًا

(١) هو من مشطور السريع الموقوف . (٢) أى استوصلنا . (٣) الزباء من الدواهي :

الشديدة ، ويقال لأفعله ألبتة ، وبته ، اسكل أمر لارجعة فيه . (٤) ارتث (مينيا للمجهول) حمل

من المعركة رثيثا أى جريحا وبه رمق . (٥) البارقة : السيوف . (٦) الرعيل : القطعة من الخيل

القليلة ، أو مقدمتها .

فلستُ بمبتاعِ الحياةِ بسبِّةٍ ولا مُرتقىٍ من خشيةِ الموتِ سلماً
احملوا على بركةِ الله » ثم قاتل حتى أُتخِنَ بالجراحاتِ وقتل .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٠٤)

١٥٣ - خطبة مصعب بن الزبير

بعث عبد الله بن الزبير أخاه مُصعباً والياً على البصرة سنة ٦٧ هـ ، فصعد المنبر ،
فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« بسم الله الرحمن الرحيم طسم . تلك آياتُ الكتابِ المبينِ . تَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ
نَبِيِّ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ ، وَجَعَلَ
أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ ، يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ ، وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ، إِنَّهُ
كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ » وأشار بيده نحو الشام « وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا
فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ » وأشار بيده نحو الحجاز « وَنُمْكِّنَ لَهُمْ
فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ » وأشار بيده
نحو العراق .

(البيان والتبيين ٢ : ١٥٩ ، والمعقد الفريد ٢ : ١٥٨ ، وتاريخ الطبرى ٧ : ١٤٦)

خطب الأمويين

خطباء البيت الأموي

خطب معاوية (توفي سنة ٥٦٠ هـ)

١٥٤ - خطبته بالمدينة عام الجماعة

قدم معاوية المدينة عام الجماعة (سنة ٤١ هـ) فتلقاء رجال قريش ، فقالوا : الحمد لله الذي أعز نصرك ، وأعلى كعبك ، فما رد عليهم شيئاً حتى صعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد فإني والله ما وائيتها بمحبة علمتها منكم ، ولا مسرة بولائتي ، ولكني جاللتكم بسيفي هذا مجالدةً ، ولقد رُضت^(١) لكم نفسي على عمل ابن أبي قحافة ، وأردتها على عمل عمر ، فنفرت من ذلك نفاراً شديداً ، وأردتها على سُنَيَاتِ^(٢) عثمان ، فأبت عليّ ، فسلكت بها طريقاً لي ولكم فيه منفعة : مؤاكلة حسنة ومشاركة جميلة ، فإن لم تجدونني خيركم ، فإني خير لكم ولأية^(٣) ، والله لا أحمل السيف على من لا سيف له ، وإن لم يكن منكم إلا ما يستشفى به القائل بلسانه ، فقد جعلت ذلك له دبر^(٤) أذني ،

(١) من راض المهر: إذا ذلله . (٢) سنية مصغر سنة ، والمراد حكم عثمان .

(٣) جعل كلامك دبر أذنه : لم يصغ إليه ، ولم يعرج عليه .

وتحت قدحى ، وإن لم تجدونى أقوم بحقكم كله ، فاقبلوا منى بعضه ، فإن أتاكم منى خير فاقبلوه ، فإن السيل إذا جاد يُثرى ، وإذا قل أغنى ، وإياكم والفتنة ، فإنها تُفسد المعيشة وتكدر النعمة « ثم نزل .

(المقد للفريد ٢ : ١٣٩)

١٥٥ - خطبة أخرى له بالمدينة

وخطب فحمد الله وأثنى عليه ، ثم صلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال :
« أما بعد ، أيها الناس ، إنا قدمنا عليكم ، وإنما قدمنا على صديق مستبشر .
أو على عدو مستتر ، وناس بين ذلك ينظرون وينتظرون . فإن أعطوا منها رضوا وإن لم
يُعطوا منها إذا هم يسخطون ، ولست واسعاً كل الناس ، فإن كانت تحمّدة ، فلا بد من
مذمة ، فلو ما هونا إذا ذكر غفر ، وإياكم والتي إن أخفيت أو بقت ، وإن ذكرت
أوثقت « ثم نزل .

(المقد للفريد ٢ : ١٤٠)

١٥٦ - خطبة له بالمدينة

وصعد منبر المدينة فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« يا أهل المدينة ، إني لست أحب أن تكونوا خلقاً كخلق العراق ، يعيبون الشيء
وهم فيه ، كل امرئ منهم شيعة نفسه ، فاقبلونا بما فينا ، فإن ما وراءنا شر لكم ، وإن
معروف زماننا هذا منكر زمان قد مضى ، ومنكر زماننا معروف زمان لم يأت ،
ولو قد أتى فالرتق خير من الفتق ، وفي كلِّ بلاغ ، ولا مقام على الرزية » .

(المقد للفريد ٢ : ١٤٠)

١٥٧ - خطبته حين ولي المغيرة بن شعبه الكوفة

ولما ولى معاوية المغيرة بن شعبه الكوفة في جمادى سنة ٤٠ هـ دعاه ، فحمد الله ،
وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإنّ لذي الحلم قبل اليوم ما تُقرَعُ العصا^(١) ، وسدّ قال المتلمّس :

لذي الحلم قبل اليوم ما تُقرَعُ العصا وما علم الإنسان إلا ليقلماً

وقد يُجزى^(٢) الحكيمُ بغير التعلّم ، وقد أردتُ إيصاءك بأشياء كثيرة ، فأنا
تاركها اعتماداً على بصرك بما يُرضيني ، ويُساعد سلطاني ، وتصالح به رعيّتي ، ولست تاركاً
إيصاءك بحصّة : لا تتحمّ^(٣) عن شتمّ عليّ وذمّه ، والترحمّ على عثمان ، والاستغفار له ،
والعيب على أصحاب عليّ ، والإفصاء لهم ، وترك الاستماع منهم ، وبإطراء شيعة عثمان
رضوان الله عليه ، والإدناء لهم ، والاستماع منهم . »

فقال المغيرة : « قد جرّبتُ وجرّبتُ ، وعملتُ قبلك لغيرك ، فلم يُذمّمَ بي دَفْعٌ
ولا رَفْعٌ ، ولا وَضْعٌ ، فستَبَلُّوا^(٤) فتحمّد ، أو تذمّم » قال : « بل نحمّد إن شاء الله . »

(تاريخ الطبري ٦ : ١٤١)

(١) من أمثال العرب المشهورة : « إن العصا قرعت لذي الحلم » وهو مثل يضرب لمن إذا نبه انتبه ،
وأول من قرعت له العصا عامر بن الظرب العدواني ؛ وقيل هو قيس بن خالد ، وقيل ربيعة بن مخاشن ،
وقيل عمرو بن حمة الدوسي ، وقيل عمرو بن مالك . ذكروا أن عامر بن الظرب كان أحد حكام العرب
المأهورين : لا تمدّ ، بفهمه فهما ، ولا بجكّه حكما ، فلما طعن في السن أنكر من عقله شيئاً ، فقال لبيته :
إنه قد كبرت سني ، وعرض لي سهو ، فإذا رأيتوني خرجت من كلامي ، وأخذت في غيره ، فافرعوا لي
المجن بالعصا ، وقال المتلمس يريده :

لذي الحلم قبل اليوم ما تقرع العصا البيت .

(٢) يجزى مسهل عن يجزى أي يفنى ، يقال : أجزأت عنك مجزاً فلان : أي أغنيت عنك مغناه .

(٣) احتنى وتحمى : امتنع . (٤) أي تختبر .

١٥٨ - خطبة له في يوم صائف

وخطب الجمعة في يوم صائف شديد الحر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

« إن الله عز وجل خلقكم فلم ينسكم ، ووعظكم فلم يهملكم ، فقال : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » . قوموا إلى صلاتكم
(العقد المفريد ٢ : ١٤٠)

١٥٩ - آخر خطبة له

صعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قبض على لحيته ، وقال :

« أيها الناس : إني من زرع قد استحصد^(١) ، وقد طالت عليكم إمرتي ، حتى مللتكم ومللتموني ، وتمنيت فراقكم وتمنيت فراقى ، وإنه لا يأتيكم بعدى إلا من هو شر منى ، كما لم يأتيكم قبلى إلا من كان خيرا منى ، وإنه من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، اللهم إني قد أحببت لقاءك ، فأحبب لقاءى » ثم نزل ، فاصعد المنبر حتى مات^(٢) .
(الأمال ٢ : ٣١٥ ، وتهذيب الكامل ١ : ١٦)

١٦٠ - خطبته وقد حضرته الوفاة

ولما حضرت معاوية الوفاة قال لمولى له : من بالباب ؟ قال : نفر من قريش يتباشرون بموتك ، قال : ويحك ؟ ولم ؟ قال : لا أدري . قال فوالله ما لهم بعدى إلا الذى يسوءهم وأذن للناس فدخلوا ، فحمد الله وأثنى عليه ، وأوجز ثم قال :

(١) استحصد الزرع وأحصد : حان أن يحصد . (٢) سيرد عليك بقية خطبه بعد فى موضعها .

« أيها الناس : إنا قد أصبحنا في دهر عنود^(١) ، وزمن شديد^(٢) يُعدّ فيه الحسن مسيئاً ، ويزداد فيه الظالم عُتوّاً ، لاننتفع بما علمناه ، ولا نسأل عما جهلناه ، ولا نتخوف قارعة^(٣) حتى تحلّ بنا؛ فالناس على أربعة أصناف : منهم من لا يمنعه من الفساد في الأرض إلا مهانة نفسه ، وكلال حدّه ، ونَضِيض وَفْرِهِ^(٤) ومنهم المصلّت^(٥) لسيفه ، المُجَابِ بِخَيْلِهِ وَرَجَلِهِ ، المعلن بشرّه ، قد أشراط نفسه ، وأوبق دينه ، لُحْطَام يَنْهَزُهُ^(٦) ، أَوْ مِقْتَب^(٧) يَقُودُهُ ، أَوْ مَنِير يَفْرَعُهُ^(٨) ، ولبيئس المتعجّر أن تراها لنفسك ثمنًا ، ومالك عند الله عوضاً ، ومنهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة ، ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا ، قد طامن من شخصه ، وقارب من خطّوه ، وشتر من ثوبه ، وزخرف نفسه للأمانة ، واتخذ ستر الله ذريعة للمعصية ، ومنهم من قد أقعده عن طلب الملك ضئولة نفسه ، وانقطاع سببه ، فقصرت به الحال عن أمله . فتحلى باسم القناعة . وتزيّن بلباس الزهاد . وليس من ذلك في مراح ولا مندى ، وبقي رجال غَضَّ أَبْصَارَهُمْ ذِكْرُ الْمَرْجِعِ ، وَأَرَأَقُ دُمُوعِهِمْ خَوْفُ الْمَحْشَرِ ، فهم بين شريد نافر ، وخائف منقمع^(٩) ، وساكنت مكعوم^(١٠) ، وداع مخلص ، وموجع تَبْكَلَانِ ، قد أخلمتهم التَّقِيَّةُ^(١١) ، وشملتهم الذلّة ، فهم بحر أجاج^(١٢) ، أفواهم ضامرة^(١٣) ، وقلوبهم قرحة ، قد وَعَظَوْا حَتَّى مَلَّوْا ، وَقُهِرُوا حَتَّى ذَلُّوْا ، وَقَتَلُوا

(١) جائر . من عند عن الطريق كنصر وسمع وكرم عنودا : إذا مال . (٢) وفي نهج البلاغة : وزمن كنود وهو الكفور . (٣) الداهية التي تقرع أي تصيب . (٤) أي قلة ماله . (٥) أصلت السيف : سله . (٦) هيأها وأعدّها (من الشرط (محرّكة) وهو العلامة) أي هيأها للفساد في الأرض . وأوبقه : أهلكه . والحطام : المال . وأصله ما تكسر من اليبس . (٧) المقتب من الخليل : بين الثلاثين إلى الأربعين أو زهاء ثلاثمائة . (٨) يملوه . (٩) مقهور . (١٠) من كعم البعير كنعج : شد فاه لئلا يعض أو يأكل ، وفي البيان والتبيين معكوم ، من عكم المتاع ومكّه : شده بثوب . (١١) التقية : المداراة . (١٢) الأجاج : الملح . (١٣) ساكنة من ضمير كنصر وضرب : سكت ولم يتكلم . والبعير أمسك جبرته في فيه ولم يجتر .

حتى قتلوا ، فلتكن الدنيا في أعينكم أصغر من حُمالة القرظ^(١) وقراضة الجلمين ،
واتعظوا بمن كان قبلكم ، قبل أن يتعظ بكم من بعدكم ، فافرضوها ذميمة فإنها قد رفضت
من كان أشغف بها منكم .

(البيان والتبيين ٢ : ٢٨ ، والمعقد الفريد ٢ : ١٤١ : ونهج البلاغة ١ : ٤٠ : وإعجاز القرآن ٢١٣)

١٦١ - وصيته لابنه يزيد

لما حضرت معاوية الوفاة ، ويزيدُ غائبٌ ، دعا معاوية مُسلم بن عُقبة المرثي ،
والضحاك بن قيس الفهري ، فقال : أبلغا عني يزيد وقولا له :
« يا بني ، إني قد كفيتك الشدة والترحال ، ووطأت لك الأمور ، وذلت لك الأعداء
وأخضعت لك رِقابَ العرب ، وجمعت لك مالم يجمعه أحدٌ ، فانظر أهل الحجاز ، فإنهم
أصلك وعِترتك^(٢) ، فمن أتاك منهم فأكرمه ، ومن قعد عنك فتمهده ، وانظر أهل العراق ،
فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملا فافعل ، فإن عزل عاملٍ أهونُ عليك من سل
مائة ألف سيف ، ثم لا تدرى علامَ أنت عليه منهم ؟ ثم انظر أهل الشام ، فاجعلهم
الشعار^(٣) دون الدثار ، فإن رآبك من عدوك ريبٌ ، فارمهم^(٤) بهم ، فإن

(١) القرظ : ورق السلم أو ثمر السنط يدبغ به ، والجلم : مقراض يجزبه الصوف . والقراضة :
ما يسقط منه عند الجز .

قال الجاحظ : « وفي هذه الخطبة أبقاك الله ضرور من العجب . منها أن هذا الكلام لا يشبه السبب
الذي من أجله دعاهم معاوية . ومنها أن هذا المذهب - في تصنيف الناس ، وفي الإخبار عنهم ، وعما هم عليه
من القهر والإذلال ، ومن التقية والخوف - أشبه بكلام علي وبمعانيه ، وبجمله منه بحال معاوية . ومنها أن لم
يجد معاوية في حال من الحالات يسلك في كلامه مسلك الزهاد ، ولا يذهب مذاهب العباد ، وإنما نكتب لكم
وتنخب بما سمعناه ، والله أعلم بأصحاب الأخبار وبكثير منهم . »

ونسبها الشريف الرضي إلى الإمام علي ، وقال هي من كلامه الذي لا يشك فيه .

(٢) عترة الرجل : عشيرته الأذنون . (٣) الشعار : الثوب يليس على شعر الجسد ، والدثار :

الذي يابس فوق الشعار . (٤) الرمي للعدو ، وهو للواحد والجمع ، والذكر والأنثى ، وقد يثنى
ويجمع ويؤنث .

أظفرك الله بهم ، فاردد أهل الشام إلى بلادهم ، ولا يُقيموا في غير بلادهم ، فيتأدبوا
بغير أدبهم .

وإني لست أخاف عليك أن ينازعك هذا الأمر إلا أربعة نفر من قريش :
الحسين بن عليّ ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الرحمن بن أبي بكر .
فأما عبد الله بن عمر فرجل قد وَقَدَهُ^(١) الورع ، وإذا لم يبق أحدٌ غيرهُ بايعك ؛
وأما الحسين بن عليّ فإنه رجل خفيف ، وأرجو أن يكفَيْكَ الله بمن قَتَلَ أباه وخذل
أخاه ، ولا أظن أهل العراق تاركيه حتى يُخرجوه فإن خرج وظفرت به ، فاصفح عنه ،
فإن له رَجْمًا^(٢) مأساةً ، وحقًا عظيمًا ، وقرابة من محمد صلوات الله عليه وسلامه ؛ وأما
ابن أبي بكر ، فإن رأى أصحابه صنعوا شيئًا صنع مثلهم ، ليست له همةٌ إلا في النساء
واللهو ؛ وأما ابن الزبير ، فإنه خَبَّ ضَبَّ^(٣) ، فإن ظفرت به فقطعهُ إِرْبًا إِرْبًا^(٤) .
« أو قال » وأما الذي يَجِيئُ لك جُنُومُ الأسد ، ويراوغك مراوغة الثعلب ، فإن أمكنته
فُرصة وثب ، فذاك ابن الزبير ، فإن هو وثب عليك ، فظفرت به فقطعهُ إِرْبًا إِرْبًا ،
واحقن دماء قومك ما استطعت .

(البيان والتبيين ٢ : ٦٦ وتاريخ الطبري ٦ : ١٧٩ ، العقد الفريد ٢ : ١٤١ - ٢٤٩ الفخرى ص ١٠٢)

(١) وقده : صرعه وغلبه ، وتركه عليلاً كأوقده . (٢) قرابة . (٣) انظر تفسيرها
في صفحة ١٤١ . (٤) أي عضوا عضوا .

خطب يزيد بن معاوية (توفي سنة ٦٤ هـ)

١٦٢ - خطبته بعد موت معاوية

« الحمد لله الذي ما شاء صنع : من شاء أعطى ، ومن شاء منع ، ومن شاء خفض ومن شاء رفع . إن أمير المؤمنين كان حَبِلاً من حبال الله ، مدّه ما شاء أن يمدّه . ثم قطعه حين أراد أن يقطعه ، وكان دون مَنْ قَبَلَهُ ، وخيراً ممن يَأْتِي بعده . ولا أزكّيه عند ربه وقد صار إليه . فإن يعفُ فبرحمته . وإن يعاقبه فبذنبه . وقد وليت بعده الأمر . ولست أعتذر من جهل ، ولا أشتمل^(١) بطلب علم ، وعلى رسلكم ، إذا كره الله شيئاً غيره ، وإذا أحب شيئاً يسره . »

(العقد الفريد ٢ : ١٤٢ - ٢٥٠ ، ومروج الذهب ٢ : ٩٣ ، عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٣٨)

١٦٣ - خطبة أخرى له

« الحمد لله أحده وأستعينه ، وأومن به ، وأتوكل عليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضلّ له ، ومن يضللّ فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله اصطفاه لوحيه ، واختاره لرسالته ، بكتاب فضله وفضله ، وأعزه وأكرمه ، ونصره وحفظه ، ضرب فيه الأمثال ، وحلل فيه الحلال ، وحرّم فيه الحرام ، وشرع فيه الدين إعداراً وإنذاراً ، لئلا يكون

(١) في العقد الفريد : ولا آسى على طلب علم ، ولا أنى عن طلب علم .

للناس على الله حجةً بعد الرسل ، ويكون بلاغاً لقوم عابدين^(١) . أوصيكم عباد الله بتقوى الله العظيم الذي ابتدأ الأمور بعلمه ، وإليه يصير معادها ، وانقطاع مدتها ، وتصرف دارها ، ثم إنى أحذركم الدنيا ، فإنها حلوة خضرة^(٢) ، حُفَّت بالشهوات ، وراقت بالقليل ، وأينعت بالفانى ، وتحببت بالعاجل ، لا يدوم نعيمها ، ولا تؤمن فجيعتها ، أكلة غواية غرارة ، لا تبقى على حال ، ولا يبقى لها حال . إن تعدوا الدنيا إذا تنهت إلى أمنيّة أهل الرغبة فيها والرضا بها أن تكون كما قال الله عز وجل : (وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا) نسأل الله ربنا وإلهنا وخالقنا ومولانا أن يجعلنا وإياكم من فزيع يومئذ آمنين ، إن أحسن الحديث وأبلغ الموعظة كتاب الله ، يقول الله : (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم : (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ^(٣) ، حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) . (العقد الفريد ٢ : ١٤٢)

١٦٤ - خطبة معاوية بن يزيد^(٤) (توفي سنة ٦٤)

أمر معاوية بن يزيد بن معاوية بعد ولايته ، فنودي بالشأم : الصلاة جامعة ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

أما بعد : فإنى قد نظرت فى أمركم فضعت عنه ، فابتغيت لكم رجلا مثل عمر ابن الخطاب رحمة الله عليه حين فزع إليه أبو بكر فلم أجده ، فابتغيت لكم ستة فى الشورى

(١) أى همهم العبادة . (٢) ناضرة . (٣) أى عنتم (مشقتكم) .

(٤) استخلف فى شهر ربيع الأول سنة ٥٦٤ ، ولم يلبث فى الخلافة إلا ثلاثة أشهر وقيل أربعين يوما .

مثل ستة عمر فلم أجد لها ، فأنتم أولى بأمركم ، فاختراروا له من أحببتهم ، فما كنت لأتزوّدَها
ميتاً ، وما استمتعت بها حياً .

ثم دخل منزله ولم يخرج إلى الناس ، وتغيّب حتى مات ^(١) .

(تاريخ الطبري ٧ : ٣٤ ، والفخرى ص ١٠٧ ، ومروج الذهب ٢ : ٩٧)

١٦٥ - وصية مروان بن الحكم لابنه عبد العزيز

ولما انصرف مروان بن الحكم من مصر إلى الشام استعمل عبد العزيز ابنه على
مصر ، وقال له حين ودعه :

« أرسل حكيماً ولا توصه ، أي بني انظر إلى عمالك فإن كان لهم عندك حق غدوة
فلا تؤخره إلى عشية ، وإن كان لهم عشية فلا تؤخره إلى غدوة ، وأعطهم حقوقهم عند
محلها ، تستوجب بذلك الطاعة منهم . وإياك أن يظهر لرعيّتك منك كذب ، فإنهم إن
ظهر لهم منك كذب لم يصدقوك في الحق ، واستشر جلساءك وأهل العلم ، فإن لم يستبين
لك فاكتب إلى يأتك رأي فيه إن شاء الله تعالى ، وإن كان بك غضب على أحد من
رعيّتك فلا تؤاخذ به عند سورة الغضب ، واحبس عنه عقوبتك حتى يسكن غضبك ،
ثم يكون منك ما يكون وأنت ساكن الغضب منطقيّ الجمره ، فإن أول من جعل السجن
كان حليماً ذا أناة ، ثم انظر إلى أهل الحسب والدين والروءة فليكونوا أصحابك وجلساءك ،
ثم اعرف منازلهم منك على غيرهم ، على غير استرسال ولا انقباض ، أقول هذا وأستخلف
الله عليك » . (للعقد الفريد ١ : ٤٩)

(١) قيل دس إليه فسق سما ، وقال بعضهم طمن ، وتوفى وهو ابن ثلاث عشرة سنة وثمانية عشر يوماً :

وقيل ابن إحدى وعشرين سنة .

خطب عبد الملك بن مروان (توفي سنة ٥٨٦ هـ)

١٦٦ - خطبته بمكة

خطب بمكة فقال في خطبته :

« أيها الناس : إني والله ما أنا بالخليفة المستضعف (يريد عثمان بن عفان) ولا بالخليفة المدهن (يريد معاوية بن أبي سفيان) ولا بالخليفة المأفون^(١) (يريد يزيد بن معاوية) فن قال برأسه كذا ، قلنا له بسيفنا كذا » . ثم نزل^(٢) .

(العقد الفريد ٢ : ١٤٢ و ٢٦٣ والبيان والتبيين ٢ : ٨٥)

١٦٧ - خطبة له موجزة

وخطب على المنبر فقال :

« أيها الناس إن الله حدّ حدوداً ، وفرض فروضاً ، فإزتم تزدادون في الذنب ، ونزداد في العقوبة ، حتى اجتمعنا نحن وأنتم عند السيف » . (العقد الفريد ٢ : ٢٦٣)

(١) المأفون : الضعيف الرأي والعقل . (٢) قال أبو إسحق النظام : « أما والله لولا نسبك من

هذا المستضعف وسببك من هذا المدهن لكنت منها أبعد من العيوق (بفتح العين وتشديد الياء نجم أحمر مضى . يتلو الثريا) والله ما أخذتها بوراثة ، ولا سابقة ، ولا قرابة ، ولا بدعوى شورى ، ولا بوصية » .

١٦٨ - خطبته حين قتل عمرا الأشدق بن سعيد بن العاص^(١)

« ارمُوا بأبصاركم نحو أهل المعصية ، واجملوا سلفكم لمن ذبَّ منكم عظة ، ولا تكونوا أغفلاً^(٢) من حسن الاعتبار ، فتنزل بكم جائحة^(٣) السَّطَوَات ، وتجوس خلالكم بوادرُ النِّقَمَات ، وتطأ رقابكم بثقلها العقوبة ، فتجعلكم هَدَّارُفَاتًا^(٤) ، وتشتمل عليكم بطون الأرض أمواتًا ، فإياي من قول قائل ، وَرَشَقَةٌ جاهل ، فإنما بيني وبينكم أن أسمع النِّعْوَةَ^(٥) ، فأصمُّ تصمُّمِ الحُسامِ المطرور^(٦) ، وأصول صِيَالِ الحَنْقِ الموتور^(٧) ، وإنما هي المصاحفة والمكافئة ، بظبَّات السيوف وأسنة الرماح ، والمعاودة لكم بسوء الصَّبَّاح ، فتأب تأب ، وهَدَلِ خائب^(٨) ، والتوب مقبول ، والإحسان مبدول ،

(١) وذلك أنه لما كانت الفتنة بعد موت معاوية الثاني ، وانحاز الضحاك بن قيس الفهري عن مروان ابن الحكم ، واستمال الناس ودعا إلى ابن الزبير ، التقى مروان وعمرو بن سعيد الأشدق (وهو عمرو بن سعيد ابن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف) فقال الأشدق لمروان : هل لك فيما أقوله لك ؟ فهو خير لي ولك ، فقال مروان : وما هو ؟ قال : ادعو الناس إليك وآخذها لك على أن تكون لي من بعدك . فقال مروان : لا بل بعد خالد بن يزيد بن معاوية ، فرضى الأشدق بذلك ودعا الناس إلىبيعة مروان فأجابوا ، وبايع مروان بعده لخالد بن يزيد ، ولعمرو بن سعيد بعد خالد ، ثم مات مروان وخلفه ابنه عبد الملك ، ولما اعتزم عبد الملك أن يخرج إلى العراق اقتتل مصعب بن الزبير بنفسه . قال له عمرو : إنك تخرج إلى العراق ، وقد كان أبوك وعدني هذا الأمر من بعده ، وعلى ذلك جاهدت معه ، وقد كان من بلائي معه ألم يخف عليك ، فاجعل لي هذا الأمر من بعدك ، فلم يجبه عبد الملك إلى شيء ، فلما كان من دمشق على ثلاث مراحل أغلق عمرو بن سعيد دمشق وخالف عليه ، فرجع إلى دمشق وحاصرها حتى صالح عمرو ابن سعيد على أنه الخليفة بعده ففتح له ، ثم إن عبد الملك احتال له حتى قتله سنة ٦٩ .

(٢) غبر : بقی ، وأغفال جمع غفل كقفل . (٣) الجوح والاجتياح : الإهلاك والاستئصال .

(٤) الهامد : البالي من كل شيء ، والرفات : الحطام . (٥) النعوة والنعمة : أول الخبر قبل

أن تستثبته . (٦) المشحوذ ، من الطر : وهو تحديد السكین وغيرها . (٧) صاحب الوتر :

وهو الثار . (٨) هدله يهدله كضربه : أرخاه ، وهدل المشفر كفرح : استرخى أي ضعف الخائب

وخار ، ولعله حائب من الحوب بفتح الحاء وضدها وهو الإثم . حاب بكذا أثم جوابا أي ضعف الأثم المذنب .

لمن عرف رُشدَه ، وأبصر حظه ، فانظروا لأنفسكم ، وأقبلوا على حظوظكم ، وإيكن أهل الطاعة يداً على أهل الجهل من سفهائكم ، واستديبوا النعمة التي ابتدأتكم برغيد عيشها ، ونفيس زينتها ، فإنكم من ذلك بين فضيائين : عاجل الخَفَضِ والدَّعة ، وآجل الجزاء والمثوبة ، عصمكم الله من الشيطان وفتنته ونزغهِ^(١) ، وأمدكم بحسن معونته وحفظه ، انهضوا رحمكم الله إلى قبض أعطيائكم ، غير مقطوعة عنكم ، ولا مكدرّة عليكم .

(صبح الأعشى ١ : ٢١٨)

١٦٩ - خطبته لما دخل الكوفة بعد قتل مصعب بن الزبير^(٢)

لما قتل عبد الملك مُصعب بن الزبير سنة ٧١ هـ دخل الكوفة فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال :

« أيها الناس إن الحرب صعبة مُرّة ، وإن السِّلَمَ أَمْنٌ ومَسَرّةٌ ، وقد زبَنَتْنَا الحرب وزبَنَّاها^(٣) فعرفناها وألفناها ، فنحن بنوها وهي أمنا . أيها الناس فاستقيموا على سُبُل الهدى ، ودَعُوا الأهواء المُردية ، وتجنبوا فراق جماعات المسلمين ، ولا تكلفونا أعمال المهاجرين الأولين وأنتم لاتعملون أعمالهم ، ولا أظنكم تزدادون بعد الموعظة إلا شراً ، ولن تزداد بعد الإعذار إليكم والحجة عليكم إلا عقوبةً ، فمن شاء منكم أن يعود بعدُ لثُلها فليعدْ ، فإنما مثلى ومثلكم كما قال قيس بن رِفاعَةَ الأنصاري :

من يَصِلَ ناري بلا ذنب ولا تِرّةٍ يَصِلَ بنارِ كَرِيمٍ غير غَدَّارٍ^(٤)
أنا النذير لكم مني مجاهرةً كي لا ألام على نهى وإنذار

(١) نزغ بينهم : أفسد وأغرى . (٢) نسب القلقشندي هذه الخطبة إلى معاوية وذكر أنه خطبها بصفيين (صبح الأعشى ١ : ٢١٥) وعزاها القالي في الأملالي إلى عبد الملك بن مروان وهو ما ترجحه لما يدل عليه سياق الخطبة . (٣) أي دفعتنا ودفعناها ، والزين : الدفع ، ومنه اشتقاق الزبانية (جمع زبانية أو زبني بكسر الزاي وسكون الباء) لأنهم يدفعون أهل النار إلى النار ومنه أيضاً حرب زبون بفتح الزاي . (٤) الترة والوتر : النار .

فإن عَصَيْتُمْ مَقَالِي الْيَوْمَ فَاعْتَرِفُوا أن سوف تلقون خِزْيًا ظاهر العار
لَتَرْجِعُنَّ أَحَادِيثًا مُلَعَّنَةً لَهُوَ الْمُقِيمُ وَهُوَ الْمُدْجُ السَّارِي (١)
من كان في نفسه حَوَاجًا يَطْلُبُهَا عندي فَإِنِّي لَهُ رَهْنٌ بِأَصْحَارِ (٢)
أَقِيمِ عَوَجَتَهُ إِن كَانَ ذَا عِوَجٍ كما يَقُومُ قِدْحَ النَّبْعةِ الْبَارِي (٣)
وصاحب الوِثْرِ لَيْسَ الدَّهْرَ مَدْرَكَهُ عندي ، وإني لَدْرَاكٌ بِأَوْتَارِ
(الأمالي ١ : ١٢)

١٧٠ - خطبته عام حجه

وحج عبد الملك في بعض أعوامه ، فأمر للناس بالعطاء ، فخرجت بَدْرَةٌ (٤) مكتوب عليها من الصدقة ، فأبى أهل المدينة قبولها ، وقالوا : إنما كان عطاؤنا من الفىء ، فقال عبد الملك وهو على المنبر :

« يا معشر قريش ، مَثَلْنَا وَمِثْلَكُمْ أن أخوين في الجاهلية خرجا مسافرين ، فنزلا في ظل شجرة تحت صَفَاة (٥) ، فلما دنا الرِّوَّاحُ خرجت إليهما من تحت الصفاة حية تحمل دينارًا ، فألقته إليهما ، فقالا : إن هذا لَمِنْ كَنْزٍ ، فأقاما عليها ثلاثة أيام ، كل يوم تخرج إليهما دينارًا ، فقال أحدهما لصاحبه : إلى متى ننتظر هذه الحية ؟ ألا نقتلها ونحفر هذا الكنز فنأخذه ، فهناه أخوه ، وقال : ما تدرى لملك تعطب ولا تدرك المال ، فأبى عليه

(١) أدلج : سار من أول الليل ، فان سار من آخره فقد ادلج بالتشديد ، والسارى : الذى يسير بالليل .
(٢) الحوجاء : الحاجة . وقوله بأصحار : أى لا أستتر عنه ، ولا أمتنع فى الأماكن الحصينة ، من أصحر القوم : برزوا إلى الصحراء . (٣) العوج بالفتح فى كل ما كان منتصبًا مثل الإنسان والعصا والعود وشبهه ، والعوج بالكسر : ما كان فى بساط أو أرض أو معاش أو دين ، قيل بالفتح مصدر وبالكسر اسم منه ، والقدح : السهم قبل أن يراش وينصل جمعه قذاح ، والنبة واحدة النبع وهو شجر القسي والسهم .
(٤) البيرة : كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم أو سبعة آلاف دينار . (٥) الصفاة : الحجر الصلد الضخم .

وأخذ فأساً معه ، ورصد الحية حتى خرجت ، فضربها ضربة جرحت رأسها ولم تقمها .
فنارت الحية قتلته . ورجعت إلى جحرها . فقام أخوه فدفنه وأقام حتى إذا كان من الغد
خرجت الحية معصوباً رأسها ، ليس معها شيء . فقال لها : يا هذه إني والله ما رضيت
ما أصابك ، ولقد نهيت أخى عن ذلك ، فهل لك أن نجعل الله بيننا أن لا تضربني
ولا أضرك وترجعين إلى ما كنت عليه ؟ قالت الحية : لا ، قال : ولم ذلك ؟ قالت :
إني لأعلم أن نفسك لا تطيب لى أبداً وأنت ترى قبر أخيك ، ونفسي لا تطيب لك أبداً
وأنا أذكر هذه الشجيرة^(١) ، وأنشدهم شعر النابغة :

فقلت أرى قبراً تراه مُقابلي وضربة فأس فوق رأسي فاغره

فيا معشر قريش وليكم عمر بن الخطاب ، فسكان فظاً غليظاً مضيقاً عليكم ، فسمعتم
له وأطعتم ، ثم وليكم عثمان فسكان سهلاً ، فعدوتم عليه فقتلتموه ، وبعثنا عليكم
« مُسلماً »^(٢) يوم الحرّة فقتلناكم ، فنحن نعلم يا معشر قريش أنكم لا تحبوننا أبداً ، وأنتم
تذكرون يوم الحرّة ، ونحن لا نحبكم أبداً ونحن نذكر قتل عثمان .

(مروج الذهب ٢ : ١٢٩)

١٧١ - خطبته وقد علم بخروج ابن الأشعث

ولما ورد إليه كتاب الحجاج يذنبه بخروج ابن الأشعث خرج إلى الناس فقام فيهم
فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

(١) راجع مجمع الأمثال للميداني ٢ : ٦١ في المثل : « كيف أعارذك وهذا أثر فاسك » .

(٢) هو مسلم بن عقبة المري صاحب وقعة الحرّة . وذلك أن أهل المدينة كانوا كرهوا خلافة يزيد
ابن معاوية وخطموه وحصروا من كان بها من بني أمية وأخافوهم ، فوجه إليها مسلم بن عقبة فحاصرها من
جهة الحرّة ، « موضع بظاهر المدينة » ودخلها ، ودعا الناس للبيعة على أنهم خول يزيد يحكم في دماهم وأموالهم
وأهلهم ماشاء ، وقد أباح المدينة ثلاثاً : فقتل ، ونهب ، وسبى قيل إن الرجل من أهل المدينة بعد ذلك كان
إذا زوج ابنته لا يضمن بكارتها ، ويقول لعلها افتضت في وقعة الحرّة . « وكانت في ذى الحجة من سنة ٦٣ هـ » .

« إن أهل العراق طال عليهم عمري ، فاستمعوا لِقَدْرِي ، اللهم سلط عليهم سيوف
أهل الشام حتى يبلغوا رضاك ، فإذا بلغوا رضاك لم يجاوزوا إلى سخطك » ثم نزل .
(تاريخ الطبري ٨ : ١٠)

١٧٢ - وصيته لبعض أمرائه

وأوصى عبد الملك أميراً سيّره إلى أرض الروم ، فقال :
« أنت تاجر الله لعباده ، فكن كالمضارب الكيس الذي إن وجد ربحاً أتجر ،
وإلا تحفظ برأس المال ، ولا تطلب الغنيمة حتى تُحرز السلامة ، وكن من احتيالك
على عدوك أشدّ حذراً من احتيالك عدوك عليك » .
(العقد الفريد ١ : ٤١)

١٧٣ - وصيته للشعبي

وروي المسعودي في مروج الذهب قال :
ولما أفضى الأمر إلى عبد الملك بن مروان ، تآقت نفسه إلى محادثة الرجال والأشراف
في أخبار الناس ، فلم يجد من يصلح لمنادته غير الشعبي ، فلما أُحْمِل إليه ونادمه ،
قال له :

« يا شعبي ، لا تساعِدْني على ما قبُح ، ولا ترُدْ عليّ الخطأ في مجلسي ، ولا تسكِّفني
جواب التشميت^(١) والتهنئة ، ولا جواب السؤال والتعزية ، ودع عنك (كيف أصبح
الأمير ، وكيف أمسى) . وكلني بقدر ما أستطعمك ، واجعل بدل المدح لي صواب
الاستماع مني ، واعلم أن صواب الاستماع أكثر من صواب القول ، وإذا سمعني أتحدث
فلا يفوتك منه شيء ، وأرني فهمك من طرفك وسممك ، ولا تجهد نفسك في نظري^(٢) »

(١) التشميت : الدعاء للماتس . (٢) في الأصل « في نظرية صوابي » وأراه محرفاً ، والنظر : الانتظار .

صوابي . ولا تستدع بذلك الزيادة في كلامي ، فإن أسوأ الناس حالا من استكد^١ الملوك بالباطل ، وإن أسوأ الناس حالا منهم من استخف محقهم ، واعلم يا شعبي أن أقل من هذا يذهب بسالف الإحسان ، ويُسقط حق الحرمة . فإن الصمت في موضعه ربما كان أبلغ من النطق في موضعه وعند إصايقه وفرصته .

(مروج الذهب ٢ : ١٠٩)

١٧٤ - وصيته لأخيه عبد العزيز بن مروان

وأوصى عبد الملك بن مروان أخاه عبد العزيز حين ولاء مصر فقال :

« ابسط بِشْرِكَ ، وألن كنفك . وآثر الرفق في الأمور ، فإنه أبلغ بك . وانظر حاجبك ، فليكن من خير أهلك ، فإنه وجهك ولسانك ، ولا يَفْقَنَ أحد ببابك إلا أعلمك مكانه ، لتكون أنت الذي تَأْذَنُ له أو تُرُدُّه ، وإذا خرجت إلى مجلسك فابدأ بالسلام ، يأنسوا بك ، وتثبت في قلوبهم محبتك ، وإذا انتهى إليك مُشْكِلٌ ، فاستظهر عليه بالمشاورة ، فإنها تفتح مغاليق^(١) الأمور ، وإذا سخطت على أحد فأخّر عقوبته ، فإنك على العقوبة بعد التوقف عنه أقدرُ منك على رُدِّها بعد إمضائها .

(للفخرى : ١١٣)

١٧٥ - وصيته لولده عند وفاته

نظر عبد الملك إلى ابنه الوليد وهو يبكي عليه عند رأسه ، فقال :

« يا هذا أحنين الحمامة ؟ إذا أنا ميتٌ فشمّر واتزر ، والبسن جلد نمر ، وضع سيفك على عاتقك ، فن أبدى ذات نفسه لك ، فاضرب عنقه ، ومن سكت مات بدائه ،

(١) جمع مغلاق بكسر الميم : وهو مايفلق به الباب .

ثم أقبل عبد الملك يذم الدنيا ، فقال : « إن طويلك لقصير ، وإن كثيرك لقليل ، وإن كنا منك لفي غرور » . ثم أقبل على جميع ولده فقال : « أوصيكم بتقوى الله ، فإنها عصمة باقية ، وجنة واقية ، فالتقوى خير زاد ، وأفضل في المعاد ، وهي أحسن كهف ، وليعطف الكبير منكم على الصغير ، وليعرف الصغير حق الكبير ، مع سلامة الصدور ، والأخذ بجميل الأمور . وإياكم والبنى والتحاسد ، فهما هلاك الملوك الماضون ، وذوو العز المكين يا بنى : أخوكم مسألة نابكم الذى تفرّون^(١) عنه ، ومجئكم^(٢) الذى تستجئون به ، اصدروا عن رأيه ، وأكرموا الحجّاج فإنه الذى وطأ أسكن هذا الأمر ، كونوا أولادا أبراراً ، وفي الحروب أحراراً ، وللمعروف مناراً ، وعليكم السلام » .
(مروج الذهب ٢ : ١٥٤)

١٧٦ - خطبة للوليد بن عبد الملك بعد دفن أبيه (توفى سنة ٩٦ هـ)

لما رجع الوليد من دفن عبد الملك لم يدخل منزله حتى دخل المسجد ، ونادى فى الناس بالصلاة جامعة ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« أيها الناس إنه لا مؤخر لما قدّم الله ، ولا مقدّم لما أخر الله ، وقد كان من قضاء الله وسابق علمه ، وما كتب على أنبيائه ، وحملة عرشه من الموت موت ولى هذه الأمة ، ونحن نرجو أن يصير إلى منازل الأبرار ، الذى كان عليه من الشدة على المرّيب ، واللين على أهل الفضل والدين ، مع ما أقام من منار الإسلام وأعلامه ، وحجّ هذا البيت ، وغزو هذه الثغور ، وشن الغارات على أعداء الله فلم يكن فيها عاجزاً . ولا وانياً ، ولا مفرطاً ، فعليكم أيها الناس بالطاعة ، ولزوم الجماعة ، فإن الشيطان مع النّدى ، وهو من الجماعة أبعد ، واعلموا أنه من أبدى لنا ذات نفسه ضربنا الذى فيه عيناه ، ومن سكت مات بدائه » . ثم نزل .
(المعقد الفريد ٢ : ١٤٢ ، وتاريخ الطبرى ٨ : ٥٩)

(١) فرّ الدابة : كشف عن أسنانها لينظر ماسنها . (٢) المجن : الترس .

١٧٧ - خطبة لسليمان بن عبد الملك (توفي سنة ٩٩ هـ)

« الحمد لله . ألا إن الدنيا دار غرور ، ومنزل باطل ، تُضحك باكيًا ، وتُبسكي ضاحكًا ، وتخيف آمنًا ، وتؤمن خائفًا ، وتُفقر مثرًا ، وتُثري مُقترا^(١) مَيَّالَةَ غرارة ، كعابة بأهلها . عباد الله ، فاتخذوا كتاب الله إمامًا ، وارتضوا به حكمًا ، واجعلوه لكم قائدًا ، فإنه ناسخ لما كان قبله ، ولم يَنسخه كتاب بعده . واعلموا عباد الله أن هذا القرآن يجلو كيد الشيطان ، كما يجلو ضوء الصبح إذا تنفس ظلام الليل إذا عَسَسَ^(٢) . »

(العقده الفريد ٢ : ١٤٣ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٧ ، والبيان والتبيين ١ : ١٦٦)

(١) من أقر ، أى افتقر . (٢) تنفس الصبح : أسفر ، وعسس الليل : أقبل ظلامه (أو أدبر) .

خطب عمر بن عبد العزيز (توفي سنة ٥١٠ هـ)

١٧٨ - أولى خطبه

قال العُتبيّ: أول خطبة خطبها عمر بن عبد العزيز رحمه الله قوله :
« أيها الناس ، أصالحوا سرائركم ، تصالح لكم علائقكم ، وأصالحوا آخرتكم ،
تصلح دنياكم ، وإن امراً ليس بينه وبين آدم أب حتى يُعرق في الموت » .
(العقد الفريد ٢ : ١٤٣ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢١٧)

١٧٩ - خطبة له بالمدينة

وفي سنة ٨٧ هـ وتلى الوايد عمر بن عبد العزيز المدينة فلما قدمها صلى الظهر ودعا عشرة
من فقهاءها ، فدخلوا عليه فجلسوا فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال :
« إني إنما دعوتكم لأمر تؤجرون عليه ، وتكونون فيه أعوانا على الحق ، ما أريد
أن أقطع أمراً إلا برأيكم أو برأي من حضر منكم ، فإن رأيتم أحدا يتعدى أو بلغكم
عن عامل لي ظلاماً فأحرّج^(١) الله على من بلغه ذلك إلا بلغني » .
فخرجوا يحزون خيراً .

(تاريخ الطبري ٨ : ٦١)

(١) التحريج . التضييق ، أي فأشدد عليه بالله .

١٨٠ - خطبة أخرى

وروى المسمودي في مروج الذهب ، أنه لما أفضى إليه الأمر ، كان أول خطبة
خطب الناس بها أن قال :

« أيها الناس ، إنما نحن من أصول قد مضت فروعها ، فما بقاء فرع بعد أصله ؟
وإنما الناس في هذه الدنيا أغراض تنتضل^(١) فيهم المنايا ، وهم فيها نُصَب المصائب ، مع
كل جرعة شَرَق^(٢) ، وفي كل أكلة غَصَص ، لا ينالون نعمة إلا بفراق أخرى ،
ولا يُعَمَّر مُعَمَّرٌ منكم يوماً من عمره إلا يَهْدَم آخر من أجله » .

وأورد القالي في الأمالي هذه الخطبة بصورة أطول ، وهي :

« ما الجزع مما لا بدّ منه ، وما الطمع فيما لا بُرْجَى ، وما الحيلة فيما سيزول ؟ وإنما
الشيء من أصله ، فقد مضت قبلها أصول نحن فروعها ، فما بقاء فرع بعد أصله ؟ وإنما الناس
في الدنيا أغراض تنتضل فيهم المنايا ، وهم فيها نَهَب للمصائب ، مع كل جرعة شَرَق ،
وفي كل أكلة غَصَص ، لا ينالون نعمة إلا بفراق أخرى ، ولا يعمرُّ مُعَمَّرٌ يوماً من عمره
إلا يهدم آخر من أجله ، وأنتم أعوان الختوف على أنفسكم ، فأين المهزَّب مما هو كائن ؟
وإنما نتقلب في قدرة الطالب ، فما أصغر المصيبة اليوم ، مع عظيم الفائدة غداً ، وأكبر
خيبة الخائب فيه ، والسلام » .

(مروج الذهب ٢ : ١٦٨ ، والأمالي ٢ : ١٠٢ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢١٣)

(١) جمع غرض : وهو الهدف ، وانتضلت : تناضلت وتبارت في الرمي .

(٢) شَرَق بريقه : غصص .

١٨١ - خطبة أخرى

وروى أنه لما دَفَنَ سليمان بن عبد الملك ، وخرج من قبره ، سَمِعَ للأَرْضِ رَجَّةً ، فقال : ما هذه ؟ فقيل : هذه مَرَاكِبُ الخِلافةِ يا أمير المؤمنين ، قُرِّبَتْ إليك لتركبها ، فقال : مَالِي وَلَهَا ؟ مَحْوُهَا عَنِي ، قُرِّبُوا إِلَيَّ بِغَلَّتِي ، فقربت إليه فركبها . وجاءه صاحب الشُّرْطَةِ يسير بين يديه بالحربة ، فقال : تنحَّ عني ، مالي ولك ؟ إنما أنا رجل من المسلمين ، فسار وسار معه الناس ، حتى دخل المسجد ، فصعد المنبر ، واجتمع إليه الناس ، فقال :

« أيها الناس : إني قد ابتليتُ بهذا الأمر عن غير رأيٍ كان مني فيه ، ولا طلبه له ، ولا مشورة من المسلمين ، وإني قد خلعت مافي أعناقكم من بَيْعَتِي ، فاختاروا لأنفسكم . »

فصاح الناس صيحةً واحدةً : قد اخترناك يا أمير المؤمنين ، ورضينا بك ، فل أمرنا باليمن والبركة ، فلما رأى الأصوات قد هدأت ، ورضى به الناس جميعاً ، حمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال :

« أوصيكم بتقوى الله ، فإن تقوى الله خَلَفَ من كل شيء ، وليس من تقوى الله عزَّ وجلَّ خَلَفٌ ، واعملوا لآخرتكم ، فإنه من عملٍ لآخرته كفاء الله تبارك وتعالى أمرَ دنياه وأصلحوا سرائركم ، يُصلح الله الكريم علائبتكم ، وأكثرُوا ذكرَ الموت وأحسنوا الاستعدادَ قبل أن ينزل بكم ، فإنه هادِمُ اللذات ، وإن من لا يذكر من آبائِهِ فيما بينهُ وبين آدم عليه السلام أباً حَيًّا لمُعْرِقٍ في الموت ، وإن هذه الأمة لم تختلف في ربها عزَّ وجلَّ ، ولا في نبيها صلى الله عليه وسلم ، ولا في كتابها ، وإنما اختلفوا في الدينار والدرهم ، وإني والله لا أُعْطِي أحداً باطلاً ، ولا أُمْنَعُ أحداً حقاً ، إني لست

بخازن ، ولكنى أضع حيث أمرت . أيها الناس : إنه قد كان قبلى ولاة تجتزون^(١) مودتهم ، بأن تدفموا بذلك ظلمهم عنكم ، ألا لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، من أطاع الله وجبت طاعته ، ومن عصى الله فلا طاعة له ، أطيعونى ما أأمرت الله فىكم ، فإذا عصيت الله فلا طاعة لى عليكم . أقول قولى هذا ، وأستغفر الله العظيم لى ولكم »

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ٥٣ - ٢٠١ ، ولاين عبد الحكيم ص ٣٩)

١٨٢ - خطبة أخرى

وروى أنه لما ولى الخلافة صعد المنبر ، وكان أول خطبة خطبها : حمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« يا أيها الناس من صحبنا فليصحبنا بخمس ، وإلا فلا يقربنا : يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها ، ويؤمننا على الخير بجهده ، ويدلنا من الخير على ما لا نهتدى إليه ، ولا يفتابن عندنا الرعية ، ولا يعترض فيما لا يعنيه » .

فانقش عنه الشعراء والخطباء ، وثبت الفقهاء والزهاد ، وقالوا : ما سمعنا أن يفارق هذا الرجل ، حتى يخالف قوله فعله .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ١٩٦)

١٨٣ - خطبة أخرى

وصعد المنبر : حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، أيها الناس ، إنه ليس بعد نبيكم صلى الله عليه وسلم نبي ، وليس بعد الكتاب الذى أنزل عليه كتاب ، فما أحل الله على لسان نبيه فهو حلال إلى يوم القيامة

وما حرّم الله على لسان نبيه فهو حرام إلى يوم القيامة ، ألا إني لست بقاضٍ ، ولكني منفذٌ لله ، ولست بمبتدعٍ ، ولكني متّبعٌ ، ألا إنه ليس لأحد أن يطاعَ في معصية الله عز وجل ، ألا إني لست بخيركم ، وإنما أنا رجل منكم ، غير أن الله جعلني أثقلكم حجلاً . يا أيها الناس : إن أفضل العبادة أداء الفرائض ، واجتناب المحارم . أقول قولي هذا ، وأستغفر الله العظيم لي ولكم .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٥٦ ، وص ١٩٨ ، ولابن عبد الحكم ص ٣٨ ، ومروج الذهب ٢ : ١٦٨)

١٨٤ - خطبة أخرى

وخطب فقال :

« أيها الناس ، إنكم ميتون ، ثم إنكم مبعوثون ، ثم إنكم محاسبون ، فلعمرى لئن كنتم صادقين لقد قصرتم ، وإن كنتم كاذبين لقد هلكتم . يا أيها الناس ، إنه من يقدّر له رزق برأس جبل ، أو بحضيب أرض ياتيه ، فأجملوا في الطلب » :

(إعجاز القرآن ص ١٢٤ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ١٩٨)

١٨٥ - خطبة أخرى

وخطب فقال :

« إن الدنيا ليست بدار قرار ، دارٌ كتب الله عليها الفناء ، وكتب على أهلها منها الظنن ، فكم عامرٍ مؤثّقٍ عما قليلٍ يخرب ، وكم مُقيمٍ مُعتَبِطٍ عما قليلٍ يظعن ، فأحسنوا رحمكم الله منها الرحلة ، بأحسن ما يحضركم من النقلة : وتزوّدوا فإن خير زادٍ التقوى . إنما الدنيا كفيءٍ ظلّالٍ قلص^(١) فذهب ، بينما ابن آدم في الدنيا منافس ، وبها قرير عين ،

(١) الكيء : ما كان شمساً فينسخه الظل ، وقلص الظل كضرب : انقبض .

إذ دعاه الله بقدره ورماه بيوم حَتْفِهِ ، فسَلَبَهُ آثَارَهُ وديارَهُ ودنياه ، وصيّرَ لِقَوْمِ آخِرِينَ
مَصَانِعَهُ وَمَغْنَمَهُ^(١) ، إن الدنيا لا تسرّ بقدر ما تُضُرُّ ، إنها تسرّ قليلاً ، وتجرّ حزناً طويلاً .
(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ١٩٧ وص ٢٢١)

١٨٦ - خطبة له يوم عيد

وخطب يوم عيد ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم تلا ثلاث آيات من كتاب الله عز وجل
ثم قال :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنِّي وَجَدْتُ هَذَا الْقَلْبَ لَا يَمُورُ عَنْهُ إِلَّا اللِّسَانُ ، وَلَعَمْرِي
- وَإِن لِّعَمْرِي مَنَى لِحَقًّا^(٢) - لَوَدِدْتُ أَنَّهُ لَبَسَ مِنَ النَّاسِ عَبْدَ ابْتِئَالِي بِسَعَةٍ ، إِلَّا نَظَرَ
قَطِيعًا مِنْ مَالِهِ ، يَجْمَعُهُ فِي الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ، وَالْيَتَامَى وَالْأَرَامِلِ ، بَدَأْتُ أَنَا بِنَفْسِي
وَأَهْلِ بَيْتِي ، ثُمَّ كَانَ النَّاسُ بَعْدُ » .

ثم كان آخر كلمة تكلم بها حين نزل : « لَوْلَا سُنَّةُ أَحِبِّيئِهَا ، أَوْ بَدِيعَةُ أُمَّتِهَا ،
لَمْ أَبَالِ أَنْ لَا أَبْقَى فِي الدُّنْيَا إِلَّا قُورَاقًا^(٣) » . (سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢٠١)

١٨٧ - خطبة له

وخطب فقال :

« أَمَا بَعْدُ : أَيُّهَا النَّاسُ ، فَلَا يَطُورُ أَنْ عَلَيْكُمْ الْأَمَدُ ، وَلَا يَبْعُدُنَّ عَنْكُمْ الْقِيَامَةُ ،
فَإِنْ مِنْ زَافَتٍ^(٤) بِهِ مَنِيئُهُ ، فَقَدْ قَامَتِ قِيَامَتُهُ ، لَا يَسْتَيْتَبُ مِنْ سَيِّئِي ، وَلَا يَزِيدُ فِي حَسَنِي ،

(١) المصانع : المباني من القصور والحصون ، والمغنى : المنزل . (٢) العمر بالفتح والضم :
الحياة ، والتزموا المفتوح في القسم خاصة تخفيفاً ، لكثرة استعماله فيه . (٣) الفواق كغراب ويفتح :
ما بين الخلبين من الوقت ، أو ما بين فتح يدك وقبضها على الضرع . (٤) من زافت الحماسة : إذا نشرت
حناحها وذنبها وسحبها على الأرض ، وفي رواية : « وائته » .

ألا لاسلامه لامرئ في خلاف السنة ، ولا طاعة لخلق في معصية الله ، ألا وإنكم
تعدّون الهارب من ظلم إمامه عاصياً ، ألا وإن أولاهما بالمعصية الإمام الظالم ، ألا وإنى
أعالج أمراً لا يعين عليه إلا الله ، قد فني عليه الكبير ، وكبر عليه الصغير ، ونصّح عليه
الأعجمي ، وهاجر عليه الأعرابي ، حتى حسبوه ديناً ، لا يرون الحقّ غيره . ثم قال :
« إنه لحبيب إلى أن أوفّر أموالكم وأعراضكم إلا بحقّها ، ولا قوّة إلا بالله » .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ٤٠ ، ولابن الجوزي ص ٢٠٤)

١٨٨ - خطبة أخرى

وصعد ذات يوم المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« أيها الناس ، إنما يراد الطيب للوجع الشديد ، ألا فلا وجع أشدّ من الجهل ،
ولا داء أخصّ من الذنوب ، ولا خوف أخوف من الموت » . ثم نزل .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢٠٧)

١٨٩ - خطبة أخرى

وصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« أما بعد : فإن هؤلاء القوم قد كانوا أعطونا عطايا^(١) ، والله ما كان لهم أن
يعطوناها ، وما كان لنا أن نقبّلها ، وإن ذلك قد صار إلى ، ليس على فيهِ
دون الله محاسب ، ألا وإنى قد ردّتها ، وبدأت بنفسى وأهل بيتي » اقرأ يا مزاحم
- وكان مولاه -

وقد جرى قبل ذلك بسقط فيه تلك الكتب ، فقرأ مزاحم كتاباً منها ، ثم ناوله

(١) يريد آباءه وما ورثوه إياه .

إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ دَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ
الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ، وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ .

(المقد الفريد ٢ : ٢٧٩)

١٩٣ - خطبة له

وخطب فقال :

« إن لكل سَفَرٍ زاداً لا محالة ، فتزودوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة ، وكونوا
كمن عين ما أعد الله له من ثوابه وعقابه ، فرَغِبُوا وَرَهَبُوا ، ولا يطولنَّ عليكم الأمد ،
فتنقسو قلوبكم ، وتفقدوا لمدومكم ، فإنه والله ما بسِطَ أمل من لا يدري لعله لا يُصبح
بعد إمسائه ، ولا يُنمِّي بعد إصباحه ، وربما كانت بين ذلك خَطَفَاتُ المنايا ، فكم رأينا
ورأيتم من كان بالدنيا مغترّاً ، فأصبح في حبال خطوبها ومناياها أسيراً ، وإنما تقرُّ عين^(١)
من وثق بالنجاة من عذاب الله ، وإنما يفرح من أمن من أهوال يوم القيامة ، فأما من لا يبرأ
من كَلَمٍ إلا أصابه جارح من ناحية أخرى ، فكيف يفرح ؟ أعوذ بالله أن أمرُّكم
بما أنهى عنه نفسه ، فَمَخَسَرَ صَفْقَتِي ، وتظهر عورتى ، وتبدو مسكنتى ، في يوم يبدو
فيه الغنى والفقير ، والموازن منصوبة ، والجوارح ناطقة ، فلقد عُنيتم بأمر لو عُنيت به
النجوم لانكدرت ، ولو عُنيت به الجبال لذابت ، أو الأرض لانفطرت ، أما تعلمون
أنه ليس بين الجنة والنار منزلة ، وأنكم صائرُونَ إلى إحداهما ؟ » .

(شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٧٠ ، والمقد الفريد ٢ : ١٤٣ ،

وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ١٩٦)

(١) قرت عينه : بردت وانقطع بكاؤها ، أو رأت ما كانت متشوقة إليه .

١٩٤ - خطبة له

وروى أنه قال :

« من وصل أخاه بنصيحة له في دينه ، ونظر له في صلاح دنياه ، فقد أحسن صلته ، وأدى واجب حقه ، فاتقوا الله فإنها نصيحة لكم في دينكم ، فاقبلوها ، وموعظة مُنْجِيَّة في العواقب ، فالزموها ، الرزق مقسوم ، فلن يعدو^(١) المؤمن ما قَسِمَ له ، فأجِلُوا في الطلب ، فإن في القُنُوع^(٢) سَعَةً وُبُلْغَةً ، وكَمَافَأً ، إن أجل الدنيا في أعناقكم ، وجهنم أمامكم ، وما ترون ذاهب ، وما مضى فكان لم يكن وكلُّ أمواتٍ عن قريب ، وقد رأيتم حالات الميت وهو يسوق^(٣) ، وبعد فراغه وقد ذاق الموت ، والقوم حوله يقولون قد فرغ رحمه الله ، وعابنتم تعجيل إخراجهِ ، وقِسْمَةَ تَرَاثِهِ ، ووجهه مفقود ، وذكرة منسى ، وبابه مهجور كأن لم يخالط إخوان الحفاظ^(٤) ، ولم يعمر الديار ، فاتقوا هول يوم لا يُحْقَرُ فِيهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي الْمَوَازِينِ . »

(تاريخ الطبري ٨ : ١٤٠ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ٢٠٥)

١٩٥ - خطبة له

وقال : « من عمل على غير علم كان ما يُفْسِدُ أكثر مما يُصْلِحُ ، ومن لم يعدد كلامه من عمله كثرت ذنوبه ، والرضا قليل ، ومُعَوَّلُ الْمُؤْمِنِ الصبر ، وما أنعم الله على عبد نعمة ثم انتزها منه ، فأعاضه بما انتزع منه الصبر ، إلا كان ما أعاضه خيراً مما انتزع منه ، ثم قرأ هذه الآية : « إِنَّمَا يُؤْتِي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ . »

(تاريخ الطبري ٨ : ١٤١ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢١٣)

(١) وفي رواية : « فلن يعدر » ، أغدره وغادره : تركه . (٢) القنوع : الرضا بالقسم

(وهو أيضا السؤال والتذلل) . (٣) ساق المريض : شرع في نزع الروح .

(٤) أى المحافظة على وده .

١٩٦ - خطبة له

وحدث شبيب بن شيبية ، عن أبي عبد الملك قال : كنت من حرس الخلفاء قبل عمر ، فكنا نقوم لهم ، ونبدوهم بالسلام ، فخرج علينا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه في يوم عيد ، وعليه قميص كتان ، وعمامة على قانسوة لاطئة^(١) ، فثلنا بين يديه ، وسلمنا عليه ، فقال : مه أنتم جماعة وأنا واحد ، السلام على ، والرد عليكم ، وسلم فرددنا ، وقربت له دابته فأعرض عنها ، ومشى ومشينا ، حتى صعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

« وَدِدْتُ أَنْ أَغْنِيَاءَ النَّاسِ اجْتَمَعُوا ، فَرَدُّوا عَلَيَّ قَفْرًا ، حَتَّى نَسْتَوِي نَحْنُ بِهِمْ ، وَأَكُونُ أَنَا أَوْلَهُمْ » ، ثم قال : « مَالِي وَلِلدُّنْيَا ؟ أَمْ مَالِي وَلِهَا ؟ وَتَكَلِّمُ فَارِقًا : حَتَّى يَكِي النَّاسَ جَمِيعًا ، يَمِينًا وَشِمَالًا » ، ثم قطع كلامه ونزل ، فدنا منه رجاء بن حيوة ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، كلمت الناس بما أرق قلوبهم وأبكام ، ثم قطعته أحوج ما كانوا إليه ، فقال : يا رجاء إنى أكره المباهاة .
(العقد الفريد ٢ : ١٤٣)

١٩٧ - آخر خطبة له

وخطب بخصاصة^(٢) خطبة لم يخطب بعدها حتى مات رحمه الله تعالى ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّكُمْ لَمْ تُخْلَقُوا عَبَثًا ، وَلَمْ تُتْرَكُوا سُدىً ، وَإِنْ لَكُمْ مَعَادًا يَحْكُمُ اللَّهُ فِيهِ بَيْنَكُمْ ، فَخَابَ وَخَسِرَ مَنْ خَرَجَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ، وَحُرِّمَ الْجَنَّةُ الَّتِي عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْأَمَانَ غَدًا لِمَنْ خَافَ رَبَّهُ ، وَبَاعَ قَلِيلًا بكَثِيرٍ

(١) لاطئة : لازقة . (٢) خصاصة : بلد بالشام من عمل حلب .

وقائياً بباقي ، ألا ترون أنكم في أسلاب^(١) المهالكين ، وسيخلفها من بعدكم الباقيون ، كذلك حتى تُردُّوا إلى خير الوارثين ، ثم أنتم في كل يوم تشيِّمون غادياً ورائحاً إلى الله ، قد قضى نَجْبُه^(٢) وبلغ أجله ، ثم تعيَّبونه في صدع^(٣) من الأرض ، ثم تدَّعون غير مؤسِّد ولا مُمَهِّد ، قد خلع الأسباب ، وفارق الأحباب ، ووَّاجه الحساب ، مرتَهناً بعمله ، غنيا عما ترك ، فقيراً إلى ما قدَّم ، وإيمُ الله إني لأقول لكم هذه المقالة وما أعلم عند أحد منكم من الذنوب أكثر مما عندي ، فأستغفر الله لي ولكم ، وما تبلغنا عن أحد منكم حاجة يتسع لها ما عندنا إلا سدَّذناها ، ولا أحد منكم إلا ودِدت أن يده مع يدي ، ولحُتِي^(٤) الذين يَلُونِي ، حتى يستوى عيشنا وعيشكم ، وإيمُ الله إني لو أردت غير هذا من عيش أو غَضارة^(٥) لسكان اللسان مني ناطقاً ذلولاً ، عالماً بأسبابه ، لسكنه مضى من الله كتاب ناطق وسنة عادلة ، دل فيها على طاعته ، ونهى فيها عن معصيته ، ثم بكى ، فتلقى دموع عينيه بطرف ردائه ، ثم نزل ، فلم يرَ على تلك الأعواد حتى قبضه الله .

(البيان والتبيين ٢ : ٦٠ ، والعقد الفريد ٢ : ١٤٤ ، وتاريخ الطبري ٨ : ١٤٠ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٧٠ ، والأغانى ٨ : ١٥٢ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٦ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢٢٢ ، ولابن عبد الحكم ص ٤١ و ١٣٦)

١٩٨ - خطبة أخرى

وروى أن آخر خطبة خطبها رحمه الله : حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« أيها الناس . الحقوا ببلادكم ، فإني أنساكم عندي ، وأذكركم ببلادكم ، ألا وإني قد استعملت عليكم رجلاً ، لا أقولُ مُم خيَّارُكم ، ولكنهم خير ممن هم شرُّ منهم ، ألا فن ظلمه عامِلُهُ بِمَظْلَمَةٍ فلا إذن له على^(٦) ، ألا وإني منعتُ نفسي وأهل بيتي هذا

(١) جمع سلب بالتحريك : وهو مايسلب . (٢) للنجب : الأجل ، والحاجة ، والنذر .
(٣) شق . (٤) اللحمة : القرابة . (٥) الغضارة : النعمة ، والسعة ، والحصب .
(٦) أي يدخل على بلا إذن ، لا يحول بيني وبينه حاجب .

المالَ ، فإن ضننت به عليكم إني إذن لضمنين ، والله لولا أن أنعش^(١) سنة ، أو أسير بحق ، ما أحببت أن أعيش فواقاً .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢١٠ ، ولابن عبد الحكم ص ٣٩)

١٩٩ - كلامه في مرضه الذي مات فيه

ودخل عليه مسئلة بن عبد الملك في المرضة التي مات فيها ، فقال له : يا أمير المؤمنين « إنك قطمت أفواه ولدك عن هذا المال ، وتركتهم عائلة^(٢) ، ولا بد من شيء يصلحهم ، فلو أوصيت بهم إلى أو إلى نظرائك من أهل بيتك ، لكفيتك مئونتهم إن شاء الله » فقال عمر : أجلسوني . فأجلسوه ، فقال :

« الحمد لله ، أبا الله تخوفني يا مسئلة ! أما ما ذكرت من أني قطمت أفواه ولدي عن هذا المال ، وتركتهم عائلة ، فإني لم أمنهم حقاً هو لهم ، ولم أعظم حقاً هو لغيرهم ؛ وأما ما سألت من الوصاية إليك ، أو إلى نظرائك من أهل بيتي ، فإن وصيتي بهم إلى الله الذي نزل الكتاب ، وهو يتوكل الصالحين ، وإنما بنو عمر أحد رجلين : رجل اتقى الله ، فجعل الله له من أمره بسراً ، ورزقه من حيث لا يحتسب . ورجل غير وفجر ، فلا يكون عمر أول من أعانه على ارتكابه ، ادعوا إلى بني ، فدعواهم ، وهم يومئذ اثنا عشر غلاماً ، فجعل يصعد بصره فيهم ويصوبه ، حتى اغرورقت عيناه بالدمع ، ثم قال : « بنفسى فتية تركتهم ولا مال لهم ! يا بني : إني قد تركتكم من الله بخير ، إنكم لا تمرون على مسلم ولا معاهد إلا ولكم عليه حق واجب إن شاء الله ، يا بني مئيت^(٣) رأيت بين أن تفتقروا في الدنيا ، وبين أن يدخل أبوك النار ، فكان

(١) نمشه كنع وأنمشه : رفعه . (٢) فقراء جمع عائل من عال يعيل عيلة (بفتح العين) أي انقصر .

(٣) التميل بين الشقين كالترجيح بينهما ، تقول العرب : إني لأميل بين ذينك الأمرين ، وأمايل بينهما

أن تفتقروا إلى آخر الأبد خيراً من دخول أبيكم يوماً واحداً في النار ، قوموا يا بنيَّ
عصمكم الله ورزقكم . قالوا : فما احتاج أحد من أولاد عمر ولا افتقر .

(العقد الفريد ٢ : ٢٨٠ ، سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢٨٠)

٢٠٠ - مناظرة عمر بن عبد العزيز للخوارج

خرج سنة مائة بالجزيرة شوذب الخارجي - واسمه بسطام من بني يشكر -
فكتب إليه عمر بن عبد العزيز : بلغني أنك خرجت غضباً لله ورسوله ، ولست أولى بذلك
منى فهمم إلى أن أظرك ، فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس ، وإن كان
في يدك ، نظرنا في أمرك ، فكتب بسطام إلى عمر : قد أنصفت ، وقد بعثت إليك
رجلين يدارسانك وينظرانك ، وأرسل إلى عمر مولى لبني شيبان حبشيًا اسمه عاصم ،
ورجلا من بني يشكر ، فقدمما على عمر بمخاضيرة ، فأخبر بمكانهما ، فقال : فتشوا
لا يكن معهما حديد وأدخولهما ، فلما دخلا قالا : السلام عليك ثم جلسا ، فقال لهما عمر :
أخبراني ما الذي أخرجكم من جحيمكم هذا ؟ وما نقيم علينا ؟ فقال عاصم : ما نقمنا سيرتك ،
إنك انتحرتي العدل والإحسان ، فأخبرنا عن قيامك بهذا الأمر ، أعن رضا من الناس
ومشورة ، أم ابتزتم أمرهم ؟ فقال عمر : ما سألتهم الولاية عليهم ، ولا غلبتهم عليها ،
وعهد إلى رجل كان قبلي ، فقامت ولم ينكره على أحد ، ولم يكرهه غيركم ، وأنتم ترون
الرضا بكل من عدل وأنصف ، من كان من الناس ، فأتركوني ذلك الرجل ، فإن خالفت
الحق ورغبت عنه فلا طاعة لي عليكم ، فقالا : بيننا وبينك أمر ، إن أنت أعطيتنا
فنحن منك وأنت منا ، وإن منعتنا فليست منا ولسنا منك ، فقال عمر : وما هو ؟
قالا : رأيناك خالفت أعمال أهل بيتك ، وسميتها مظالم ، وسلكت غير سبيلهم ، فإن
زعمت أنك على هدى وهم على ضلال ، فآلعتهم وتبرأ منهم ، فهذا الذي يجمع بيننا وبينك
أو يفرق ، فكلم عمر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« إني قد علمت أنكم لم تخرجوا تخرجكم هذا لطلب دنيا ومتاعها ، ولكنكم أردتم الآخرة ، فأخطأتم سبيلها ، إن الله عز وجل لم يبعث رسوله صلى الله عليه وسلم لعلنا نقال إبراهيم : « فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » وقال الله عز وجل : « أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ ائْتَدَتْهُ » : وقد سميت أعمالهم ظلماً ، وكفى بذلك ذماً ونقصاً ، وليس لعن أهل الذنوب فريضة لا بد منها ، فإن قلم إنها فريضة فأخبرني متى لعنت فرعون ؟ قال : ما أذكر متى لعنته . قال : أفيسعك أن لا تلعن فرعون وهو أخبث الخلق وشرهم ، ولا يسعني أن لا ألعن أهل بيتي وهم مصلون صائمون ؟ قال : أما هم كفار بظلمهم ؟ قال : لا ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الناس إلى الإيمان ، فكان من أقر به وبشرائه قبل منه ، فإن أحدث حديثاً أقيم عليه الحد ، فقال الخارجي : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الناس إلى توحيد الله والإقرار بما نزل من عنده . قال عمر : فليس أحد منهم يقول لا أعمل بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن القوم أسرفوا على أنفسهم ، هل علم منهم أنه محرم عليهم ، ولكن غلب عليهم الشقاء . قال عاصم : فأبرأ ممن خالف عملك ، ورد أحكامهم ، قال عمر : أخبراني عن أبي بكر وعمر : أليس من أسلافكما ومن تتوليان ، وتشهدان لهما بالنجاة ؟ قالا : اللهم نعم . قال : فهل علمتا أن أبا بكر حين قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فارتدت العرب ، قاتلهم فسفك الدماء ، وأخذ الأموال ، وسبى الدراري ؟ قالا : نعم . قال : فهل علمت أن عمر قام بعد أبي بكر ، فرد تلك السبايا إلى عشائرها بفدية ؟ قالا : نعم ، قال : فهل برى عمر من أبي بكر ، أو تبرهون أنتم من أحد منهما ؟ قالا : لا . قال : فأخبراني عن أهل النهروان أليسوا من صالحى أسلافكم ومن تشهدون لهم بالنجاة ؟ قالا : بلى . قال : فهل تعلمون أن أهل الكوفة حين خرجوا كفوا أيديهم فلم يسفكوا دمًا ، ولم يخيفوا آمنًا ، ولم يأخذوا مالا ؟ قالا : نعم . قال : فهل علمت أن أهل البصرة حين خرجوا مع مسعر بن قديك ، استعرضوا الناس يقتلونهم ، ولقوا عبد الله بن خباب

ابن الأرت : صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقتلوه وقتلوا جاريته ؟ ثم صبّحوا
حيّاً من أحياء العرب فاستعرضوهم ، فقتلوا الرجال والنساء والأطفال حتى جعلوا يلقون
الصبيان في قدور الأقط^(١) وهي تفور ؟ قال : قد كان ذلك . قال : فهل يرى
أهل البصرة من أهل الكوفة ، وأهل الكوفة من أهل البصرة ؟ قال : لا . قال : فهل
تبرهون أنتم من إحدى الطائفتين ؟ قال : لا . قال : أرايتم الدين واحداً أم اثنين ؟ قال
بل واحداً . قال : فهل يسمع فيه شيء يعجز عنى ؟ قال : لا . قال : فكيف يسمع أن
توايتم أبا بكر وعمر ، وتولى أحدهما صاحبه ، وتوليتم أهل البصرة وأهل الكوفة ، وتولى
بعضهم بعضاً ، وقد اختلفوا في أعظم الأشياء ، في الدماء والفروج والأموال ، ولا يسمنى
فيما زعمتم إلا لمن أهل بيتي والتبرؤ منهم ؟ وَيُنْحِكُمْ ! إنكم قوم جهال ، أردتم أسراً
فأخطأتموه ، فأنتم ترُدُّون على الناس ما قبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويأمن
عندكم من خاف عنده ، ويخاف عندكم من آمن عنده . قال : ما نحن كذلك . قال عمر :
بل سوف تُقِرُّون بذلك الآن ، هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بُعِثَ إلى
الناس وهم عبدة أوثان ، فدعاهم إلى خلع الأوثان ، وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً
رسول الله ، فمن فعل ذلك حقن دمه ، وأحرز ماله ، ووجبت حرمة ، وكانت له أسوة
المسلمين ؟ قال : نعم . قال : أفلمستم أنتم تلقون من يخلع الأوثان ، ويشهد أن لا إله
إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فتستحلون دمه وماله ، وتلقون من ترك ذلك وأباه من
اليهود والنصارى وسائر الأديان فيأمن عندكم وتحرّمون دمه ؟ فقال الإشكرى : أرايت
رجلاً وليّ قوماً وأموالهم فعدل فيها ، ثم صيرها بعده إلى رجل غير مأمون ، أترأه أدى
الحق الذي يلزمه الله عزّ وجلّ ؟ أوترأه قد سلم ؟ قال عمر : لا . قال : أفلمستم هذا الأمر
إلى يزيد^(٢) من بعدك وأنت تعرف أنه لا يقوم فيه بالحق ؟ قال : إنما ولاء غيري ،

(١) الأقط بفتح الهمزة وكسرهما : شيء يتخذ من المخيض الغنمى .

(٢) هو يزيد بن عبد الملك ، وقد ولي الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز (سنة ١٠١ - سنة ١٠٥ هـ) .

والمسلمون أولى بما يكون منهم فيه بعدى . قال : أفترى ذلك من صنع من ولأه حقاً ؟
فبكى عمر وقال : أنظرَ انى^(١) ثلاثاً فخرجنا من عنده ثم عادا إليه ، فقال عاصم : أشهد
أنك على حق ، فقال عمر للشكرى : ما تقول أنت ؟ قال : ما أحسن ما وصفت ،
ولكن لا أفتات على المسلمين بأمر ، أعرض عليهم ما قلت وأعلم حججهم . فأما عاصم
فأقام عند عمر ، فأمر له عمر بالعطاء ، فتوفى بعد خمسة عشر يوماً ، فكان عمر يقول :
أهلكنى أمر يزيد وخصيمت فيه ، فاستغفر الله ، فخاف بنو أمية أن يخرج ما بأيديهم
من الأموال ، وأن يخلع يزيد من ولاية العهد ، فوضعوا على عمر من سقاه سمّاً ، فلم يلبث
بعد ذلك إلا ثلاثاً ، حتى مرض ومات .

(الكامل لابن الأثير ٥ : ١٧ ، ومروج الذهب ٢ : ١٧١ ، والمعقد الفريد ١ : ٢١٦ ، وتاريخ
الطبرى ٨ : ١٣١ ، سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ١٣٠ ، ولابن الجوزى ٧٧)

٢٠١ - تأييد ابنه عبد الملك

ولما دفن عمر بن عبد العزيز ابنه عبد الملك ، وسوى عليه قبره بالأرض ، وجعلوا
على قبره خشبتين من زيتون ، إحداهما عند رأسه ، والأخرى عند رجليه ، استوى عمر
قائماً ، وأحاط به الناس ، فقال .

« رحمك الله يا بنى ، فقد كنت برّاً بأبيك ، والله ما زلتُ مذ وهبك الله لى بك
مسروراً ، ولا والله ما كنت قط أشدّ سروراً بك ، ولا أرجى لحظى من الله فيك ،
منذ وضعتك فى الموضع الذى صيرك الله إليه ، فغفر الله لك ذنبك ، وجازاك بأحسن
عملك ، وتجاوز عن سيئاتك ، ورحم الله كل شافع يشفع لك بخير ، من شاهد أو غائب ،
رضينا بقضاء الله ، وسلمنا لأمره ، والحمد لله رب العالمين » .

(البيان والتبيين ٢ : ١٨٢ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ٢٦٤)

٢٠٢ - خطبة يزيد بن الوليد حين قتل الوليد بن يزيد^(١)

حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : والله ما خرجت أشراً ولا بطراً ، ولا حرصاً على الدنيا ، ولا رغبة في الملك ، وما لي إطراء نفسي ، وإني لظالم لما إن لم يرحمني الله ، ولكن خرجت غضبا لله ودينه ، داعياً إلى الله ، وإلى سنة نبيه ، لما هُدمت معاً لم الهدى ، وأطفي نور أهل التقوى ، وظهر الجبار العنيد^(٢) ، المستحجل لكل حرمة ، والراكب لكل بدعة ، الكافر بيوم الحساب ، وإنه لابن عمي في النسب ، وكفيي^(٣) في الحسب ، فلما رأيت ذلك استخرت الله في أمره ، وسألته ألا يكلني إلى نفسي ، ودعوت إلى ذلك من أجنبي من أهل ولايتي ، حتى أراح الله منه العباد ، وطهر منه البلاد ، بحوله وقوته ، لا بحولي وقوتي .

أيها الناس : إن لكم عليّ ألا أضع حجراً على حجر ، ولا لبننة على لبننة ، ولا أكرى^(٤) نهراً ، ولا أكنز مالا ، ولا أعطيهِ زوجاً ، ولا ولداً ، ولا أنقله من بلد إلى

(١) قتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك لليلتين بقيتا من جهادى الآخرة سنة ١٢٦ هـ ، وكان قبل الخلافة منهكاً في اللهو ، وشرب الخمر ، وانتهاك حرمان الله ، فلما أفضت إليه الخلافة ، لم يزد إلا انغماساً في اللذات ، واستهتاراً بالمعاصي ، ذلك إلى ما ارتكبه من إغصاب أكابر أهله ، والإساءة إليهم ، وتنفيرهم ، فاجتمعوا عليه مع أعيان رعيته ، وهجموا عليه وقتلوه ، وكان المتولى لذلك يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، وقد ولي الخلافة بعده ، وتوفى هلال ذى الحجة سنة ١٢٦ . (٢) يشير إلى ما حدث من الوليد بن يزيد من أنه استفتح فألا في المصحف فخرج « وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ » ، فنصبه غرضاً للشباب وأقبل يرميه حتى مزقه ، وهو يقول :

أتوعد كل جبار عنيد فهأنذاك جيسار عنيد
إذا لا قيت ربك يوم حشر فقل يارب مزقني الوليد

(٣) كفيته وكفوّه بضم الكاف وكفأوه بكسرهما : مثله . (٤) كرى النهر : استحدث حفره .

بلد ، حتى أسد فقر ذلك البلد وخصاصة^(١) أهله ، فإن فضلَ فضلٌ ، نقلته إلى البلد الذي يليه ، ولا أُجرمكم^(٢) في بعوثكم ، فأفتنكم وأفتن أهليكم ، ولا أغلق بابي دونكم ، فياً كل قوبكم ضعيفكم ، ولا أحمل على أهل جزيتكم ما اجليهم به عن بلادهم ، وأقطع به نسلهم ، ولكم على إذرار العطاء في كل سنة ، والرزق في كل شهر ، حتى يستوى بكم الحال ، فيكون أفضلكم كأدناكم ، فإن أنا وفيت لكم ، فعليكم السمع والطاعة ، وحسن المؤازرة والمكانفة^(٣) ، وإن لم أف لكم ، فعليكم أن تحلموني إلا أن تستتيبوني ، فإن أنا تبت قبلكم مني ، وإن عرفتم أحداً يقوم مقامى ، ممن يُعرف بالصلاح ، يُعطيتكم من نفسه مثل الذى أعطيتكم ، فأردتم أن تبايعوه ، فأنا أول من بايعه ، ودخل في طاعته .

أيها الناس : إنه لا طاعة للخلق في معصية الخالق ، ولا وفاء له بنقض عهد ، إنما الطاعة طاعة الله فأطيعوه بطاعة الله ما أطاع ، فإذا عصى الله ودعا إلى المعصية فهو أهل أن يعصى ويقتل ، أقول قولى هذا ، وأستغفر الله العظيم لى ولكم .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٨ ، والمعقد الفريد ٢ : ١٤٤ - ٢٩١ ، البيان والتبيين ٢ : ٦٩ ،
الفخرى ص ١٢٠ وتاريخ الطبرى ٩ : ٢٦)

٢٠٣ وصية يزيد بن معاوية لسلم بن زياد حين ولاه

لما ولى يزيد بن معاوية سلم بن زياد بن أبيه على خراسان قال له :
« إن أباك كفى أخاه (بمعنى معاوية) عظيماً ، وقد استكفيتك صغيراً ، فلا تتكبر على عذر منى لك ، فقد اتسكت على كفاية منك ، وإياك منى قبل أن أقول إياى منك ، فإن الظن إذا أخاف منك أخلف منى فيك ، وأنت فى أدنى حظك فاطلب أقصاه ، وقد أتعبك أبوك ، فلا تُريح نفسك ، وكن لنفسك تكن لك ، واذكر فى يومك أحاديث غدك تسعد إن شاء الله تعالى . »
(البيان والتبيين ٢ : ٧٦)

(١) الفقر والحاجة . (٢) جمر الجيش : حبسهم فى أرض العدو ولم يقفلهم . (٣) المعاونة .

خطب عتبة بن أبي سفيان^(١) (توفي سنة ٤٤ هـ)

٢٠٤ - خطبة له في تهديد أهل مصر

بلغ عتبة بن أبي سفيان عن أهل مصر شيء فأغضبه ، فقام فيهم ، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

« يا أهل مصر ، إياكم أن تكونوا لل سيف حصيداً^(٢) ، فإن الله فيكم ذبيحاً لعثمان ، أرجوان يوليني نسكته ، إن الله جمعكم بأمر المؤمنين بعد الفرقة ، فأعطى كل ذي حق حقه ، وكان والله أذكركم إذا ذكر بحُطّة ، وأصفحكم بعد المقدرة عن حقه ، نعمة من الله فيكم ، ونعمة^(٣) منه عليكم ، وقد بلغنا عنكم نجماً^(٤) قول ، أظهره تقدّم عفو منا ، فلا تصيروا إلى وحشة الباطل بعد أنس الحق ، بإحياء الفتنة وإماتة السنن ، فأطأكم الله وطأة ، لا رَمَق^(٥) معها ، حتى تُفكروا مني ما كنتم تعرفون ، وتستخشفوا ما كنتم تستلينون ، وأنا أشهد عليكم الذي يعلمُ خائنة الأعين^(٦) ، وما يُخفي الصدور .
(العقد الفريد ٢ : ١٥٨)

(١) ولاة أخوه معاوية مصر بعد وفاة عمرو بن العاص (وقد مات عمرو في شوال سنة ٤٣) وأقام عتبة والياً على مصر سنة واحدة وشهراً واحداً ، وتوفي في ذي الحجة سنة ٤٤ (هكذا في كتاب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة) وفي أسد الغابة في معرفة الصحابة : « أنه توفي سنة ٤٤ وقيل سنة ٤٣ » ، ولكني قرأت في تاريخ الطبري أن عتبة حج بالناس سنة ٤٦ ، وقال أيضاً في حوادث سنة ٤٧ « واختلفوا فيمن حج بالناس في هذه السنة ، فقال الواقدي : أقام الحج في هذه السنة عتبة بن أبي سفيان . وقال غيره : بل الذي حج في هذه السنة عتبسة بن أبي سفيان » . (٢) أصله الزرع المحصود . (٣) هكذا في الأصل وقد يكون « ومنة » . (٤) من نجم الشيء : إذا ظهر وطأ . (٥) الرمق : بقية الحياة . (٦) بمسارقتها النظر إلى المحرم .

٢٠٥ - خطبة له في تقرير بعهم وتهديدهم

وخطب أيضاً وقد بلغه عن أهل مصر أمور فقال :

« يا حاملي الأمم أنوفٍ رُكِّبت بين أعين ، إنما قَلَّمت أظفاري عنكم ، لِمَيلين مَسَّى إياكم ، وسألتكم صلاحكم لكم ، إذ كان فسادكم راجعاً عليكم ، فأما إذا أبيتُم إلا الطعن على الأمراء ، والعقب على السلف والخلفاء ، فوالله لأقطعن بطون السَّيَاط على ظهوركم ، فإن حسمت مُسْتَشْرِي^(١) دائكم ، وإلا فالسيف من ورائكم ، فكم من عظة لنا قد صَمَّت عنها آذانكم ، وزجرة مناقد مجتتها قلوبكم ، ولست أبخل عليكم بالعقوبة إذا جدتم علينا بالمعصية ، ولا مؤيِّساً لكم من المراجعة إلى الحسنی ، إن صرتم إلى التي هي أبر وأتقى . » (صبح الأعيى ١ : ٢١٦ ؛ والمقد للفريد ٢ : ١٥٩ ، والأمالى ١ : ٢٤٥)

٢٠٦ - خطبة له فيهم وقد أرجفوا بموت معاوية

واحتبست كتب معاوية حتى أرجف أهل مصر بموته ، ثم ورد كتابه بسلامته ،

فصعد عتبة المنبر ، والكتاب في يده فقال :

« يا أهل مصر : قد طالت معانبتنا إياكم بأطراف الرماح وظببات السيوف ، حتى صرنا شَجِيَّ في لهوانكم ، ما تَسِيغنا^(٢) حلوكم ، وأقذاء في أعينكم ، ما تطرف^(٣) عليها جفونكم ، ألحين أشدَّت عُرَى الحق عليكم عقداً ، واسترخت عقَد الباطل منكم حلاً ، أرجفتم بالخليفة ، وأردتم توهين^(٤) السلطان ، وخضتم الحق إلى الباطل ، وأقدم عهدكم به

(١) استشرى الداء : عظم وتفاقم . (٢) هو ما اعترض في الخلق من عظم أو نحوه ، واللهوات

جمع لهاة : وهي اللحم المشرقة على الخلق ، وأساغه : ابتلعه . (٣) جمع قنى : وهو ما يقع في العين

والشراب ، وطرف بصره : أطبق أحد جفنيه على الآخر ، وطرف بعينه : حرك جفניה . (٤) إضعاف .

حديث ؟ فارتجوا أنفسكم إذ خسرتكم دينكم ، فهذا كتاب أمير المؤمنين بالخبر السار عنه ،
والعهد القريب منه ، واعلموا أن سلطاننا على أبدانكم دون قلوبكم ، فأصلحوا لنا ما ظهر ،
نكلكم إلى الله فيما بطن ، وأظهروا خيراً ، وإن أمرتكم شراً ، فإنكم حاصدون ما أنتم
زارعون ، وعلى الله نتوكل وبه نستعين .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٣٩ ، والمقد الفريد ٢ : ١٥٩)

٢٠٧ - خطبته فيهم وقد منعوا الخراج

وخطبهم وكانوا قد منعوا الخراج فقال :

« يا أهل مصر ، قد كنتم تعتذرون لبعض المنع منكم ، ببعض الجوز عليكم ، فقد
وليتكم من يقول ويفعل ، ويفعل ويقول ، فإن رددتم ترادكم^(١) بيده ، وإن استصعبتم
ترادكم بسيفه ، ثم رجا في الآخرة ما أمل في الأولى ، إن البيعة متتابعة ، فلنا عليكم السمع
والطاعة ، ولكم علينا العدل ، فأئنا نهدر فلازمة له عند صاحبه ، والله ما انطلقت بها
ألسنتنا حتى عُقدت عليها قلوبنا ، ولا طلبناها منكم حتى بذلناها لكم نأجزاً بناجز^(٢) ،
ومن حذر كمن بشر ، فنادوه سمعاً وطاعة ، فناداهم عدلاً عدلاً . (المقد الفريد ٢ : ١٥٩)

٢٠٨ - خطبته فيهم إذ طعنوا على الولاية

وقدم كتاب معاوية إلى عتبة بمصر أن قبلك قوماً يطعنون على الولاية ويميّون
السلف ، فخطبهم فقال :

« يا أهل مصر : خفّ على ألسنتكم مدحُ الحق ولا تفعلونه ، وذم الباطل وأنتم

(١) يقال : ترادا البيع : من الرد والفسخ ، ومراده : ردكم . (٢) الناجز والنجيز : الحاضر ،

ومن أمثالهم : ناجزا بناجز ، أى حاضرًا بحاضر ، كقولك يدا بيد ، وعاجلا بماجل ، وقالوا أيمكة
الساعة ناجزا بناجز : أى معجلا .

تأتونه ، كالحجار يحمل أسفاراً ، أثقله حملها ، ولم ينفعه علمها ، وإيمُ الله لا أداوى أدواءكم
بالسيف ما صلحتم على السوط ، ولا أبلغ السوط ما كفتنى الدرّة ، ولا أبطئ عن الأولى
ما لم تسرعوا إلى الأخرى ، فالزموا ما أمركم الله به تستوجبوا ما فرض الله لكم علينا ،
وإياكم وقال ويقول ، قبل أن يقال فعل ويفعل ، وكونوا خير قوس سهماً بهذا اليوم الذى
ما قبله عقاب ، ولا بعده عقاب

(العقد الفريد ٢ : ١٦٠ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٢٣٩ ، وأسد الغابة فى معرفة الصحابة ٣ : ٣٦١)

٢٠٩ - خطبته بمكة

وحج عتبة سنة إحدى وأربعين ، والناس قريبٌ عهدم بالفتنة ، فصلى بمكة
الجمعة ، ثم قال :

« أيها الناس ، إنا قد ولينا هذا المقام الذى يضاعف فيه للمحسن الأجر ، وعلى المسيء
فيه الوزر ، ونحن على طريق ما قصدنا له ، فلا تمدوا الأعناق إلى غيرنا ، فإنها تنقطع من
دوننا ، ورب متمنٍ حثفه فى أمنيته ، فاقبلونا ما قبلنا العافية فيكم ، وقبلناها منكم ،
وإياكم ولوآ ، فإن لوآ قد أتعبت من كان قبلكم ، ولن تريح من بعدكم ، وأنا أسأل الله
أن يعين كلاً على كل » .

فصاح به أعرابى : أيها الخليفة ، فقال : لستُ به ولم تبعِد ، فقال : يا أخاه ، فقال :
سمعتُ فقل ، فقال : « تالله لأن تُحسبوا وقد أسأنا خير من أن تسيئوا وقد أحسننا ، فإن
كان الإحسان لكم دوننا ، فما أحقكم باستتمامه ، وإن كان منا فإولاكم بمكافأتنا ،
رجل من بنى عامر بن صعصعة يلقاكم بالعمومة ، ويقرب إليكم بالحنوثة ، وقد كثر
عياله^(١) ، ووطئه زمانه ، وبه فقر ، وفيه أجر ، وعنده شكر » فقال عتبة : « أستغفر الله

(١) العيال جمع ميل كجيد : وهو من يلزم الإنفاق عليه .

منكم ، وأستعينه عليكم ، وقد أمرنا لك بفنك ، فليت إسرَاعنا إليك يقوم بإطائنا
عنك .

(الآمال ١ : ٢٤٠ ، والمقد الفريد ٢ : ١٥٩ - ٨١ ، والبيان والتبيين ٣ : ٢٣٠)

٢١٠ - خطبته في علمته التي مات فيها

ولما اشتكى شكاياه التي مات فيها تحامل إلى المنبر فقال :

« يا أهل مصر لا غنى عن الرب ، ولا مهزب من ذنب ، إنه قد تقدّمت مني إليكم
عقوبات كنت أرجو يومئذ الأجر فيها ، وأنا أخاف اليوم الوزر منها ، فليتنى لا أكون
اخترت دنياي على معادي ، فأصلحتكم بفسادي ، وأنا أستغفر الله منكم ، وأتوب إليه
فيكم ، فقد خفت ما كنت أرجو نفعاً عليه ، ورجوت ما كنت أخاف اغتيالاً به ،
وقد شقّ من هلك بين رحمة الله وعفوه ، والسلام عليكم سلام من لا ترّونه عائداً
إليكم » ، فلم يعد .
(المقدم الفريد ٢ : ١٥٩)

٢١١ وصيته لمؤدب ولده

وقال لعبد الصمد مؤدّب ولده :

« ليكن أول ما تبدأ به من إصلاح بني إصلاح نفسك ، فإن أعينهم معقودة بعينك ،
فالحسن عندهم ما استحسنتم ، والقبيح عندهم ما استقبحت ، وعلمهم كتاب الله ،
ولا تُكرههم عليه فيملوه ، ولا تتركهم منه فيهجروه ، ثم روّهم من الشعر أعفّه ، ومن
الحديث أشرفه ، ولا تخرجهم من علم إلى غيره حتى يحكوه ، فإن ازدحام الكلام
في السمع مَضَلَّةٌ للفهم ، ونهدّهم بي ، وأدّبهم دوني ، وكن لهم كالطبيب الذي لا يعجل
بالدواء قبل معرفة الداء ، وجنّبهم محادثة النساء ، وروّهم سير الحكماء ، واستزدني

بزيادتك إياهم أزدك ، وإياك أن تتكلم كلّي عذر مني لك ، فقد اتكلت كلّي كفاية منك ، وزد في تأديبهم أزدك في برّي إن شاء الله تعالى » .

(البيان والتبيين ٢ : ٣٥ ، والنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ١ : ١٣٩)

٢١٢ - وصية سعيد بن العاص^(١) لابنيه

لما وُلد لسعيد بن العاص ابنه عمرو وترعرع^(٢) ، تفرّس فيه النجابة ، وكان يفضلّه على ولده ، فجمع بنيّه ، وكانوا يومئذ أكثر من خمسة عشر رجلاً ، ولم يدعُ عمراً معهم ، وقال :

« يَا بَنِيَّ ، قد عرفتم خِبرَةَ الوالد بولده ، وإن أخاكم عمراً ، لذو هِمَّةٍ وَاَعِدَّةٍ^(٣) ، يسمو جدّه ، ويبعد صِيتَه^(٤) ، وتشدّ شِكِيمَتَه^(٥) ، وإني آمركم إن نزل بي من الموت مالا تحييص عنه ، أن تظاهروه وتوازيروه وتُعزّروه ، فإنكم إن فعاتم ذلك يتألف بكم الكرام ، وَيَخْسَأُ^(٦) عنكم اللثام ، وَيُلْبِسُكُمْ عِزّاً لَا تُنْمِجُهُ^(٧) الأيام » .

فقالوا جميعاً : « إنك توثره علينا ، وتحاييه دوننا » فقال : « سأريكم ما ستره

-
- (١) هو سعيد بن العاص بن سعيد بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وقد تقدم لك أن عثمان استعمله على الكوفة بعد الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، وولاه معاوية المدينة ، فكان يوليه إذا عزل مروان ابن الحكم عن المدينة ويولي مروان إذا عزله ، ومات سنة ٥٧ وقيل سنة ٥٨ وقيل سنة ٥٩ هـ .
- (٢) شب وانتقل عن حد الصغر . (٣) من قولهم شجرة واحدة : إذا ظهر لرائيها أن قدحان إثمارها ، وأرض واحدة : إذا رجي خيرها من الثبت ، وظهر لرائيها أن قد قرب إمكان المرعى بها ، وفرس واحد : يعدك جرياً بعد جرى ، وسحاب واحد كأنه وعد بالمطر ، ويوم واحد يعد بالحر أو بالبرد أوله .
- (٤) الصيت (بالكسر) والصات والصوت (بالفتح) : الذكر الحسن . (٥) الشكيمة : الأنفة ، وفي اللجام : الحديدية المعترضة في فم الفرس . وهو مثل يضرب للصرامة في الأمور والمضاء فيها .
- (٦) أي يبعد ويطرده . من خسأ الكلب كنع : طرده ، وخسأ هو بنفسه : بعد . (٧) أي لا تبليه .
- أنهج الثوب ونهجه (كنهه) : أخلقه وأبلاه ، ونهج الثوب مثلثة الهاء ، وأنهج : بلى .

البنى عنكم» ، وصرّفهم ، ثم أمهلهم حتى ظن أن قد ذهلوا عما كان ، وراهق^(١) عمرو البلوغ ، واستدعاهم دون عمرو ، فلما حضروا قال : « يا بني ، ألم تروا إلى أخيك عمرو ؟ فإنه لا يزال يُلحِف^(٢) في مسألتى مالى ، فأحشُ عَيْلَه^(٣) لصغره ، وَأَحْسَبُهُ^(٤) بالشىء دون الشىء من مالى ، إلى أن استثببتُ أن أمه بأغْيَتِهِ^(٥) على ذلك ، فزجرتها فلم تكف ، وهذا نخرجه الآن من عندى ، جاء يسألنى الصمصامة^(٦) ، كأن لا ولد لى غيرهُ ، وقد عزمت على أن أقسم مالى فيكم دونه ، لتعلم أمه من يكيد ، فقالوا كلهم : يا أبانا هذا عملك بإيثارك له علينا ، واختصاصك إياه دوننا ، فقال : « يا بني ، والله ما آثرته دونكم بشىء من مالى قط ، ولا كان ما قلته لكم إلا اختلاقاً تساهلت فيه ، لما أمّلته من صلاح أمركم » ، ثم قال لهم : ادخلوا المِخْدَع^(٧) ، فدخلوا المِخْدَع ، ثم أرسل إلى عمرو فأحضره ، فلما حضر قال :

(١) راهق الغلام : قارب الحلم (بضمين) . (٢) يلح . (٣) العيل والميلة : الافتقار والفاقة ، وأحش : أى أطلع وأحور ، من حش الحشيش (كرد) : قطعه ، وحش فلانا : أصلح من حاله ، (وفى الأصل فأحسن بالنون أى أجمل فقره حسنا وأزيل قبحه بمطائى إياه والأول أحسن) .
(٤) حسبه (بالتشديد) وأحسبه : أطعمه وسقاه حتى شبع وروى . (٥) بغاه الشىء : أعانه على طلبه (ولا مانع أن يكون الأصل « أن أمه باعثته على ذلك ») . (٦) الصمصامة : سيف عمرو بن معد يكرب الزبيدى ، وكان قد صار إلى سعيد بن العاص . وذلك أن خالد بن الوليد لما غزا بنى زبيد حين ارتدوا ، وكان خالد بن سعيد بن العاص « عم سعيد المذكور » من جملة أمرائه ، أوقع بهم وأسر ريحانة أخت عمرو ابن معد يكرب ، ففداها خالد وأثابه عمرو الصمصامة ، ولم يزل ذلك السيف عند آل سعيد بن العاص حتى اشتراه منهم الخليفة المهدي العباسى بخمسين ألف درهم ، ووهبه المهدي لابنه الهادي فدعا به بعد ماولى الخلافة فوضعه بين يديه وأذن للشعراء ، فلما دخلوا أمرهم أن يقولوا فى السيف شعرا ، فبدهم ابن يامين البصرى ، فأعطاه الهادي السيف والجائزة ، ففرقها على الشعراء ، وقال : دخلتم معى ، وحرمت من أجلي ، وفى السيف عوض ، ثم بعث إليه الهادي ، فاشتري منه السيف بخمسين ألفا ، ثم وصل إلى المتوكل فدفعه إلى غلامه باغزا التركي ، فقتله به ، ومن عند باغزا انقطع خبره . « اقرأ خبر الصمصامة فى شرح العيون ، ص ٣١٢ ، والأغانى ١٤ : ٢٦ ، وأنباء نجباء الأبناء ص ١٠٣ ومروج الذهب ٢ : ٢٦٢ » . (٧) المِخْدَع بضم الميم وكسرهما : الخزانة - بيت صغير يحرز فيه الشىء - .

« يا بني : إني عليك حَديب^(١) مشفق ، لصغر سنك ، ونفاسة^(٢) إخوتك على مكانك مني ، وإني لا آمن بِنَفِيَةِ الأجل ، ولي كنز ادّخرته لك دون إخوتك ، وهأنا مُطاعك عليه ، فاكنتم أمره . »

فقال : « يا أبت ، طال عُمرُك ، وَعَلَا أَمْرُك ، إني لأرجو أن يُحسن الله عنك اللدّاع ، ويُطيل بك الإمتاع . فأما ما ذكرته من شأن الكنز ، فما يُعجبني أن أقطم دون إخوتي أمرا ، وأزرع في صدورهم غمرا^(٣) . »

فقال : « انصرف يا بني ، فإداك أبوك ، فوالله مالي من كنز ، ولكنني أردت أن أُبلو رأيك في إخوتك وبنى أبيك » فانطلق عمرو ، وخرج إخوته من المدع ، فاعتذروا إلى أبيهم ، وأعطوه مَوْتِقَهُم على اتباع مشورته . (أنباء نجباء الأبناء ص ١٠٠)

(١) متعطف شقيق . (٢) نفس عليه بخير (كفرح) حسد ، ونفس عليه الشيء نفاسة :

لم يره أهلا له . (٣) الغمر محرّكة والغمر بكسر الغين : الحقد والضغن .

خطب عمرو بن سعيد الأشدق^(١)

(قتل سنة ٦٩ هـ)

٢١٣ - خطبة له بالمدينة

قدم عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق المدينة أميرًا ، فخرج إلى منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقعده عليه وَغَمَّضَ عَيْنَيْهِ وَعَلِيهِ جُبَّةٌ خَزَقَرِمَزٍ^(٢) ، وَمُطْرَفٌ^(٣) خَزَقَرِمَزٍ ، وعمامة خزقرمز ، فجعل أهل المدينة ينظرون إلى ثيابه إعجابًا بها ، ففتح عينيه ، فإذا الناس ينظرون إليه ، فقال :

« ما بالكم يا أهل المدينة ترفعون إلى أبصاركم ، كأنكم تريدون أن تضربونا بسيوفكم ؟ أغرّكم أنكم فطتم ما فعلتم ففعلونا عنكم ، أما إنه لو أُثْبِتُمْ^(٤) بالأولى ما كانت الثانية ، أغرّكم أنكم قتلتم عثمان ، فوافقتم ثأرنا^(٥) منارفيقًا ، قد فني غضبه وبقى حلمه ، اغتتموا أنفسكم ، فقد والله ملكناكم بالشباب المقبل البعيد الأمل ، الطويل

(١) لقب بالأشدق لفصاحته ، والأشدق في الأصل : من عظمت أشداقه (جمع شدق بالكسر ويفتح وهو جانب الفم) مشتق من الشدق (يفتحون وهو سعة الشدق) وكانوا يتشادقون في الكلام ويمتدحون في الخطيب سعة الفم والشدين ، وقالوا خطيب أشدق : أى بليغ ، وقال شاعرهم في عمرو بن سعيد هذا :

تشادق حتى مال بالقول شدقه وكل خطيب لا أبالك أشدق

وقال آخرون : بل كان أفقم مائل الذقن « والفقم بالتحريك : تقدم الثنايا العليا فلا تقع على السفلى » وقد ولى لماوية مكة ولايته يزيد مكة والمدينة ، وكان له الفضل في نيل مروان بن الحكم الخلافة ، وقد قدمنا لك خبر مقتله . (٢) القرمز : صبيغ أحمر . (٣) المطرف : رداء من خز مريع ذو أعلام . (٤) الثواب : الجزاء . (٥) الثائر : الآخذ بالثار ، ووافقتم : أى وجدتم .

الأجل ، حين فرغ من الصفر ، ودخل في الكبر ، حلیم حديد^(١) ، لئن شديد ، رقيق
كثيف ، رقيق عفيف ، حين اشتد عظمه ، واعتدل جسمه ، ورمى الدهر ببصره ،
واستقبله بأشربه ، فهو إن عَضَّ نَهَس^(٢) ، وإن سطا فرَس^(٣) ، لا يُقَلِّلُ له الحصى ،
ولا تُقَرِّعُ له العصا^(٤) ، ولا يمشی السَّمْهَى^(٥) ، فما قى بعد ذلك إلا ثلاث سنين
وثمانية أشهر حتى قصمه الله .
(العقد الفريد ٢ : ١٥٧)

٢١٤ - خطبة له بمكة

واستعمل سعيد بن العاص - وهو وال على المدينة - ابنه عمرو بن سعيد والياً على
مكة ، فلما قدم لم يلقه قرشي ولا أموي إلا أن يكون الحارث بن نوفل ، فلما لقيه قال له :
يا حار ، ما الذي منع قومك أن يلقوني كما لقيتني ؟ قال : ما منهم من ذلك إلا ما استقبلتني
به ، والله ما كنتيتني ، ولا أتمت اسمي ، وإنما أنكأ عن التشذُّر^(٦) على أكفائك ،
فإن ذلك لا يرفعك عليهم ، ولا يضمهم لك ، قال : والله ما أسأت الموعظة ، ولا أتهمك
على النصيحة ، وإن الذي رأيت مني تَخَلَّقَ^(٧) ، فلما دخل مكة قام على المنبر ، فحمد الله ،
وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، معشر أهل مكة ، فإننا سکنناها غبطةً ، وخرجنا عنها رغبةً ، ولذلك
كننا إذ ارفعت لنا الآهوتة^(٨) بعد الآهوتة أخذنا أسنناها ، ونزلنا أعلاها ، ثم شَرِحَ^(٩) أمر

(١) رجل حديد يكون في اللسان والفهم والفضب ، وحد عليه : غضب . (٢) نهس اللحم : أخذه
بمقدم أسنانه ونثفه . (٣) فرس فريسته : دق عنقها . (٤) يشير إلى المثل المشهور « إن العصا
قرعت لذى الحلم » وقد سبق شرحه في ص ١٨٤ . (٥) السهمي والسهمي : الباطل والكذب ،
يقال : ذهب في السهمي أي في الباطل : وجري فلان السهمي : أي جرى إلى غير أمر يعرفه .
(٦) تشذر : توعد وتهدد وتغضب وتسرع إلى الأمر والمراد هنا التكبر . (٧) الخلق : البالي
والمراد أنه لا يعود إليه . (٨) الآهوتة بالضم والفتح : العطية أو أفضل العطايا وأجزؤها .
(٩) من الشرح بالتحريك : وهو انشقاق القوس . قوس شريح : فيها شق ، والمراد حدث ونجم .

بين أمرين ، فقتلنا وقتلنا ، فوالله ما نزعنا ولا نزع عنا ، حتى شرب الدم دماً ، وأكل اللحم لحماً ، وقرع العظم عظماً ، فوالى رسول الله صلى الله عليه وسلم برسالة الله إياه ، واختياره له ، ثم ولى أبو بكر لسابقته وفضله ، ثم ولى عمر ، ثم أُجِبت قِدَاحٌ نَزِغْنَ من شِعَابِ^(١) جَوْلَةَ سَعَةٍ ، ففاز بِحَظِيَّتِهَا^(٢) أصلُهَا وأعتقها ، فكنا بمض قِدَاحِهَا ، ثم شَرَجَ أمر بين أمرين فقتلنا وقتلنا ، فوالله ما نزعنا ولا نزع عنا ، حتى شرب الدم دماً ، وأكل اللحم لحماً ، وقرع العظم عظماً ، وعاد الحرام حلالاً ، وأُسكِت كلُّ ذى حِسٍّ عن ضربٍ مُهْتَدٍ ، عَرَّ كَأَ عَرَّ كَأَ ، وَعَسَفَا عَسَفَا ، وَخَزَا وَنَهَسَا ، حتى طابوا عن حقنا نفساً ، والله ما أعطوه عن هَوَادَةٍ ، ولا رضوا فيه بالقضاء ، أصبحوا يقولون : حَقَّنَا غُلِبْنَا عَلَيْهِ ، فجزيناه هذا بهذا ، وهذا فى هذا . يَأْهَلُ مَكَّةَ : أَنْفَسَكُمْ أَنْفَسَكُمْ ، وَسُفَهَاءَكُمْ سُفَهَاءَكُمْ ، فَإِنْ مَعَى سَوَاطِنَ نَكَالًا ، وَسَيْفًا وَبَالًا^(٣) ، وكلُّ مَنْصُوبٍ عَلَى أَهْلِهِ ، ثم نزل .

(العقد الفريد ٢ : ١٥٧)

٢١٥ — ملاحاة الوليد بن عقبة معه فى مجلس معاوية

تلاحي^(٤) الوليد بن عقبة ، وعمرو بن سعيد بن العاص فى مجلس معاوية ، فتكلم الوليد فقال له عمرو : كَذَبْتَ أَوْ كَذِبْتَ^(٥) ، فقال له الوليد : اسكت يا طليق اللسان ، منزوع الحياء ، وبأ الأم أهل بيته ، فلمعمرى لقد بلغ بك البخل الغاية الشائنة المذلة لأهلها ، فسأت خلافتك لبخلك ، فننعت الحقوق ، ولزمت العقوق ، فأنت غير مشيد البنيان ، ولا رفيع المكان ، فقال له عمرو : والله إن قریشاً لتعلم أنى غير حُلُو المذآفة ، ولا لذيذ

(١) الشباب جمع شعبة بالنضم : وهى ما بين الفصنين وطرف النصف . يشير إلى أصحاب الشورى السعة .

(٢) الحظي : ذو الخطوة أى المكائة . (٣) أى سوطاً ذا نكال . وسيفاً ذا وبال .

(٤) تنازع . (٥) كذب الرجل : أخبر بالكذب .

الْمَلَائِكَةِ^(١) ، وإني لك أشجعاً^(٢) في الخلق ، وأقد علمت أني ساكن الليل ، داهية
النهار ، لا أتبع الأفياء ، ولا أنتهي إلى غير أبي ، ولا يُجهل حسبي ، حامٍ لحقائق
الدِّمار^(٣) ، غير هيّوب عند الوعيد ، ولا خائف رِعْدِيد^(٤) ، فلم تُعَيِّر بالبخل وقد جُبلت
عليه ، فلمعري لقد أورتك الضرورة لؤماً ، والبخل فُحْشًا ، فقطعت رِحْمَكَ ، وجُرْتُ
في قضيتك ، وأضعت حق من وِليْت أمره ، فليست تُرْجى للعظائم ، ولا تعرف بالمكارم ، ولا
تستعِف عن المحارم ، لم تقدر على التوقير ، ولم يُحْكَمْ منك التدبير ، فأفْحَم الْوَالِيدُ؛ فقال معاوية:
— وساء ذلك — كَفًّا لأبأ لكما ، لا يرتفع بكما القول إلى مالا تريد ، ثم أنشأ
عمرُو يقول :

وَلِيدُ إِذَا مَا كُنْتُ فِي الْقَوْمِ جَالِسًا فَكُنْ سَاكِنًا مِنْكَ الْوَقَارُ عَلَى بَالٍ
وَلَا يَبْدُرَنَّ الدَّهْرَ مِنْ فَيْكَ مَنْطِقٌ بَلَا نَظَرَ قَدْ كَانَ مِنْكَ وَإِغْفَالٌ^(٥)
(الأمالي ٢ : ٤٠)

٢١٦ - خطبته حين غلب على دمشق

ولما غلب على دِمَشْق ، صعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« أيها الناس : إنه لم يقم أحد من قريش قبلي على هذا المنبر ، إلا زعم أن له جنة
ونارا ، يُدْخِلُ الْجَنَّةَ مَنْ أَطَاعَهُ ، وَالنَّارَ مَنْ عَصَاهُ ، وإني أخبركم أن الجنة والنار
بيد الله ؛ وأنه ليس إلى من ذلك شيء ، غير أن لكم عليّ حُسنَ المؤاساة والعطفية . »
(تاريخ الطبري ٧ : ١٧٦)

(١) اللوك : أهون المضع أو مضع صلب . (٢) ما اعترض في الخلق من عظم ونحوه .

(٣) مانجب حمايته . (٤) جبان . (٥) ييدر : يفرط ويسبق .

٢١٧ - خالد بن يزيد وعبد الملك بن مروان

روى أن عبد الله بن يزيد بن معاوية جاء إلى أخيه خالد بن يزيد في أيام عبد الملك فقال : لقد هممت اليوم يا أخي أن أفتك بالوليد بن عبد الملك ، فقال له خالد : بئس والله ما هممت به في ابن أمير المؤمنين ، وولي عهد المسلمين ، فما ذاك ؟ قال : إن خيلي مرت به فعبيت بها وأصغرتني ، فقال له خالد : أنا أكفيك ، فدخل على عبد الملك ، والوليد عنده ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الوليد ابن أمير المؤمنين ، وولي عهد المسلمين ، مرت به خيل ابن عمه عبد الله بن يزيد فعبيت بها وأصغره ، وكان عبد الملك مطرقاً فرفع رأسه وقال :

(إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ، وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ، وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ) فقال خالد : (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا ، فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ ، فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا) . فقال عبد الملك : أفي عبد الله تكلمني ؟ والله لقد دخل أمس عليّ فما أقام لسانه لحنًا ، فقال خالد : أفعل الوليد تعول يا أمير المؤمنين ؟ قال عبد الملك : إن كان الوليد يلحن ، فإن أخاه سليمان ، فقال خالد : وإن كان عبد الله يلحن ، فإن أخاه خالد ، فالتفت الوليد إلى خالد ، وقال له : اسكت ويحك يا خالد ! فوالله ما تعدد في العير ولا في النفير ، فقال خالد : اسمع يا أمير المؤمنين : ثم التفت إلى الوليد فقال له : ويحك : فمن صاحب العير والنفير غير جدّي أبي سفيان صاحب العير ، وجدّي عتبة صاحب النفير^(١) ؟ ولكن لو قلت : غنيمات وحبيلات والطائف ، ورحم الله عثمان لقلنا صدقت^(٢) .

(شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١١١ ، وتهذيب الكامل ١ : ٣٠٢ وجمع الأمثال ٢ : ١١٥)

(١) انظر ص ١٤٧ . (٢) وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما طرد الحكم بن أبي العاص «جد عبد الملك» إلى الطائف - انظر ص ١٠٤ - أقام بها ، فكان يرعى غنيمات اتخذها يشرب من لبنها ، ويأوى إلى حبيلة «مصغر حيلة كفرصة : وهي الكرمة» وقوله رحم الله عثمان : أي لرده إياه ، وقد أبى أبو بكر وعمر أن يرداه .

٢١٨ — خالد بن عبد الله بن أسيد^(١) وعبد الملك بن مروان

جلس يوماً عبد الملك بن مروان ، وعند رأسه خالد بن عبد الله بن أسيد ، وعند رجليه أمية بن عبد الله بن أسيد ، وأدخات عايه الأموال التي جاءت من قبيل الحجاج ، حتى وضعت بين يديه فقال :

« هذا والله التوفير ، وهذه الأمانة ، لا ما فعل هذا ، (وأشار إلى خالد) استعملته على العراق ، فاستعمل كل مُلِطٍ^(٢) فاسق ، فأدوا إليه العشرة واحداً ، وأدى إلى من العشرة واحداً ، واستعملت هذا كلّي خراسان (وأشار إلى أمية^(٣)) فأهدى إلى برذونين حطمين^(٤) ، فإن استعملتكم ضيّعتم ، وإن عزلتكم قلم استخف بنا ، وقطع أرحامنا . »

فقال خالد بن عبد الله : « استعملتني كلّي العراق ، وأهل رجلا ، سامع مطيع مناصح ، وعدو مبغض مكاشح^(٥) ، فأما السامع المطيع المناصح فإنما جزيناه ، ايزداد ودّاً إلى وده ؛ وأما المبغض المكاشح ، فإننا داريناه ضيفه ، وسألنا حقه ، وكثرنا لك المودة في صدور رعيك ، وإن هذا جبي الأموال ، وزرع لك البغضاء في قلوب الرجال ، فيوشك أن تنبت البغضاء فلا أموال ولا رجال . »

فلما خرج ابن الأشعث قال عبد الملك : « هذا والله ما قال خالد . »

(العقد الفريد ٢ : ١١٧)

(١) هو خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وقد ولاه عبد الملك بن مروان بعد قتل مصعب بن الزبير على البصرة وأعمالها سنة ٧١ هـ ، وعزله عنها سنة ٧٤ وولاها أخاه بشر بن مروان ، وكان على ولاية الكوفة ، فصارت ولايتها وولاية الكوفة إليه . (٢) لط حقه وأطه : جحده . (٣) هو أمية بن عبد الله أخو خالد هذا ، ولاه عبد الملك على خراسان ، حتى كانت سنة ٧٨ فعزله ، وجمع سلطانه للحجاج ، فبعث المهلب بن أبي صفرة إليها . (٤) فرس حطم ككتف : إذا هزل وأسف وضعف وتهدم . (٥) الكاشح : الذي يضمرك العداوة ، كشح له بالعداوة وكاشحه بمعنى .

٢١٩ - نصيحة لعمر بن عتبة بن أبي سفيان

ورأى عمرو بن عتبة بن أبي سفيان رجلاً يشتم رجلاً ، وآخر يسمع منه ، فقال للمستمع :

« نَزَّهَ سَمْعُكَ عَنِ اسْتِمَاعِ الْخَنَا ، كَمَا تَنَزَّهَ لِسَانُكَ عَنِ الْكَلَامِ بِهِ ، فَإِنَّ السَّمْعَ شَرِيكَ الْقَاتِلِ ، وَإِنَّمَا نَظَرٌ إِلَى شَرٍّ مِثْلِي وَعَائِيهِ فَأَفْرَغَهُ فِي وَعَائِكَ ، وَلَوْ رُدَّتْ كَلِمَةُ جَاهِلٍ فِي فِيهِ ، لَسَعِدَ رَأْدُهَا ، كَمَا شَقِيَ قَاتِلُهَا » . (البيان والتبيين ٢ : ١٦٠)

٢٢٠ - تأديب معاوية لجلسائه

أَذِنَ مَعَاوِيَةَ لِلْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ - وَقَدْ وَافَى مَعَاوِيَةَ مُحَمَّدُ بْنُ الْأَشْعَثِ - فَقَدَّمَهُ عَلَيْهِ ، فَوَجَدَ^(١) مِنْ ذَلِكَ مُحَمَّدُ بْنُ الْأَشْعَثِ ، وَأَذِنَ لَهُ فَدْخَلَ فَجَلَسَ بَيْنَ مَعَاوِيَةَ وَالْأَحْنَفِ ، فَقَالَ مَعَاوِيَةَ :

« إِنَّا وَاللَّهِ مَا أَدْنَانَا لَكَ قَبْلَكَ ، إِلَّا لِيَجْلِسَ إِلَيْنَا دُونَكَ ، وَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا يَرْفَعُ نَفْسَهُ فَوْقَ قَدْرِهِ ، إِلَّا مِنْ ذِلَّةٍ يَجِدُهَا ، وَقَدْ فَعَلْتَ فِعْلَ مَنْ أَحْسَنَ مِنْ نَفْسِهِ ذِلًّا وَضَعَةً ، وَإِنَّا كَمَا تَمَلِّكَ أُمُورُكُمْ ، تَمَلِّكَ تَأْدِيبُكُمْ ، فَأَرِيدُوا مِنَّا مَا نُرِيدُ مِنْكُمْ ، فَإِنَّهُ أُبْتِغَى لَكُمْ ، وَإِلَّا قَصَرْنَا كَمَا كَرِهْنَا ، فَكَانَ أَشَدَّ عَلَيْكُمْ وَأَعْنَفَ بِكُمْ » . (البيان والتبيين ٣ : ٢٢٠)

٢٢١ - كلام معاوية وقد سقطت ثنيتاه

وَمَا سَقَطَتْ ثَنِيَّتَا مَعَاوِيَةَ لَفَّ وَجْهَهُ بِعِمَامَةٍ ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى النَّاسِ ، فَقَالَ :

« لَنْ أُبْتَلِيَتْ لَقَدْ ابْتُلِيَ الصَّالِحُونَ قَبْلِي ، وَإِنِّي لِأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مِنْهُمْ . وَلَنْ

(١) وجد : غضب .

عُوقِبْتُ لَقَدْ عَوقِبَ الخاطئون قبلي ، وما آمَنَ أن أكون منهم . ولئن سَقَطَ عُضْوَانِ مِنِّي ،
لَمَا بَقِيَ أَكْثَرُ . ولو آتَى على نَفْسِي لَمَا كان لي عَلَيْهِ خِيَارٌ تَبَارَكَ وتعالى ، فَرَحِمَ اللهُ
عَبْدًا دَعَا بِالْعَافِيَةِ ، فَوَالله لئن كان عَتَبَ عَلَيَّ بِعَظْمِ خَاصَّتِكُمْ ، لَقَدْ كُنْتُ حَدِيْبًا^(١)
عَلَى عَامَّتِكُمْ .

(البيان والتبيين ٣ : ٢٢١)

٢٢٢ - تقرير عبد الملك بن مروان لأحد عماله

وروى الجاحظ قال :

« قال أبو الحسن : كان عبد الملك بن مروان شديد اليقظة ، كثير التعاهد لولائه ،
فبلغه أن عاملاً من عماله قبل هدية ، فأمر بإشخاصه إليه ، فلما دخل عليه قال : « أقبِلت
هدية منذ وليتك ؟ » قال : « يا أمير المؤمنين ، بلادك عامرة ، وخراجك موفور ،
ورعييتك على أفضل حال » قال : « أجِبْ فيما سألتك عنه ، أقبِلت هدية منذ وليتك ؟
قال : نعم ، قال : لئن كنت قبِلت ولم تعوِّض إنك للاثم ، ولئن أنلت مهديك لا من
مالك ، أو استكفيتَه ما لم يكن يُستكفاه ، إنك لجائر خائن ، ولئن كان مذهبك أن
تعوِّض المهديَ إليك من مالك ، وقبِلت ما أتهمك به عند من استكفأك ، وبَسَطَ لسان
عائبك ، وأطمع فيك أهلَ عملاك لجاهل ، وما فيمن أتى أمرًا لم يَخْلُ فيه من دناءة ،
أو خيانة ، أو جهل ، مُضْطَنَع ، نَحْيَاهُ عن عمله . »

(البيان والتبيين ٣ : ٢٣٠)

طلب معاوية البيعة ليزيد

لما كانت سنة ثلاث وخمسين ، أظهر معاوية عهداً مُفتعلاً ، فقرأه على الناس فيه عقد الولاية ليزيد بعده ، فلم يزل يرُوضُ الناس لبيعته سبع سنين ، ويشاور ، ويعطى الأقارب ، ويدانى الأبعاد ، حتى استوثق له من أكثر الناس .

فقال لعبد الله بن الزبير : « ما ترى في بيعة يزيد ؟ » قال : « يا أمير المؤمنين ، إني أناديك ولا أناجيك^(١) ، إن أخاك من صدقك ، فانظر قبل أن تتقدم ، وتفكر قبل أن تندم ، فإن النظر قبل التقدم ، والتفكر قبل التندم » فضحك معاوية وقال : « ثعلبٌ رَوَّاع ! تعلمت السجاعة^(٢) عند الكبر ، في دون ما سَجَعْتَ به على ابن أخيك ما يكفيك » . ثم التفت إلى الأحنف بن قيس ، فقال : « ما ترى في بيعة يزيد ؟ » قال : « نخافكم إن صدقناكم ، ونخافُ الله إن كذبنا » .

فلما كانت سنة خمس وخمسين كتب معاوية إلى سائر الأمصار أن يقدوا عليه ، فوفد عليه من كل مصر قوم^(٣) ، وكان فيمن وفد عليه من المدينة محمد بن عمرو بن حزم ، فخلا به معاوية ، وقال له : « ما ترى في بيعة يزيد ؟ » ، فقال : « يا أمير المؤمنين ما أصبح اليوم على الأرض أحدٌ هو أحبُّ إلىّ رشداً من نفسك سوى نفسي ، وإن يزيد أصبح غنياً في المال ، وَسَطاً في الحسب ، وإن الله سائلٌ كلُّ راجعٍ عن رعيته ، فاتق الله ،

(١) ناجيته : ساررتة . (٢) وفي العقد « الشجاعة » وهو تصحيف ، ولم أجد « سجاعة » في كتب اللغة ، وإنما الذي فيها هو « سجع » كشمس مصدر سجع كقطع ، وأرى أنها سجاعة ككتابة ، وقد ورد في كلام المبرد : « فإن المختار كان يدعى أنه يلهم ضرباً من السجاعة لأمر تكون . . . الخ » .
(٣) هكذا ورد في العقد الفريد ، وفي مروج الذهب : أن وفود تلك الوفود كان سنة تسع وخمسين ، والمفهوم مما ورد في الإمامة والسياسة أن وفودها كان قبل سنة ٥٠ ، وفي حياة الحسن بن علي رضي الله عنه كما يتبين لك مما سيرد بعد (وقد توفي الحسن سنة ٤٩ ، أو سنة ٥٠ أو سنة ٥١) .

وانظر من تولّى أمرَ أمة محمد « فأخذ معاويةَ بهر^(١) حتى تنفّس الصعداء^(٢) ، وذلك في يوم شاتٍ ، ثم قال : « يا محمد : إنك امرؤ ناصح ، قلت برأيك ، ولم يكن عليك إلا ذاك . قال معاوية : إنه لم يبق إلا ابني وأبناؤهم ، فابني أحبُّ إليّ من أبناهم ، اخرج عني » .

ثم دعا الضحاک بن قيس الفهريّ ، فقال له : إذا جلستُ على المنبر ، وفرغت من بعض موعظتي وكلامي ، فاستأذني للقيام ، فإذا أذنت لك فاحمد الله تعالى . واذكر يزيد . وقل فيه الذي يحقّ له من حسن الثناء عليه . ثم ادعني إلى توليته من بعدى . فإني قد رأيت وأجمعتُ على توليته . فأسألُ الله في ذلك وفي غيره الخيرة^(٣) وحسن القضاء . ثم دعا عبد الرحمن بن عثمان النخعيّ ، وعبد الله بن مسعدة الفزاريّ ، وثور بن معن السلميّ ، وعبد الله بن عصام الأشعريّ ، فأمرهم أن يقوموا إذا فرغ الضحاک ، وأن يصدقوا قوله ، ويدعوه إلى يزيد .

وجلس معاوية في أصحابه ، وأذن للوفود فدخلوا عليه ، فخطبهم ، فلما فرغ من بعض موعظته ، وهؤلاء المنفر في المجلس قد قدموا للكلام - قام الضحاک بن قيس فاستأذن فأذن له .

٢٣٣ - خطبة الضحاک بن قيس الفهري

حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أصلح الله أمير المؤمنين وأمتع به ، إننا قد بلّونا^(٤) الجماعة والألفة ، فوجدناها أحقنَ للدماء ، وآمنَ للسُّبل ، وخيراً في العاقبة والآجلة ، ولا خير لنا أن نُترك سُدى ،

(١) البهر بالفتح : العجب (٢) تنفس طويل . (٣) أى أسأله أن يختار لنا الأفضل ؛ خارته

على غيره خيرة بكسر التاء مع سكون الياء وفتحها : فضله وخار الله له في الأمر : جعل له فيه الخير .

(٤) خبرنا .

والأيام عَوَجٌ^(١) رواجع ، وَالْأَنْفُسُ يُعْذَى عَلَيْهَا وَيُرَاحُ ، وَاللَّهُ يَقُولُ : (كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ) . ولسنا ندري ما يختلف به الْعَصْرَانِ^(٢) ، وَأَنْتَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَيِّتٌ ، كَمَا مَاتَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِنْ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ وَخُلَفَائِهِ ؛ نَسَأَلُ اللَّهَ تَعَالَى بِكَ الْمَتَاعَ ، وَقَدْ رَأَيْنَا مِنْ دَعَاةِ يَزِيدِ بْنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَحُسْنِ مَذْهَبِهِ ، وَقَصْدِ^(٣) سِيرَتِهِ ، وَبُيْنِ نَقِيْبَتِهِ^(٤) ، مَعَ مَا قَسَمَ اللَّهُ لَهُ مِنَ الْحُبِّ فِي الْمُسْلِمِينَ ، وَالشَّبَّهِ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فِي عَقْلِهِ وَسِيَاسَتِهِ وَشِيمَتِهِ الْمَرْضِيَّةِ ، مَا دَعَانَا إِلَى الرِّضَا بِهِ فِي أُمُورِنَا ، وَالقَنُوعِ بِهِ فِي الْوَالِيَةِ عَلَيْنَا ، فَلْيُؤَلِّهِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - أَكْرَمَهُ اللَّهُ - عَهْدَهُ ، وَلِيَجْعَلْهُ لَنَا مَلْجَأً وَمَفْزَعًا بَعْدَهُ ، نَأْوِي إِلَيْهِ إِنْ كَانَ كَوْنٌ^(٥) ، فَإِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ أَحَقُّ بِهَا مِنْهُ ، فَاعْزِمْ عَلَى ذَلِكَ ، عَزَمَ اللَّهُ لَكَ فِي رَشْدِكَ ، وَوَفَّقَكَ فِي أُمُورِنَا .

٢٢٤ - خطبة عبد الرحمن بن عثمان الثقفي

ثم قام عبد الرحمن بن عثمان الثَّقَفِيُّ ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« أَصْلَحَ اللَّهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنْ أَدَّ أَصْبَحْنَا فِي زَمَانٍ مُخْتَلِفَةٍ أَهْوَاؤُهُ ، قَدْ أَحْدَوْدَبَتْ عَلَيْنَا سَيِّسَاؤُهُ^(٦) ، وَأَقْطَوْطَبَتْ^(٧) عَلَيْنَا أَدْوَاؤُهُ ، وَأَنَاخَتْ عَلَيْنَا أَنْبَاؤُهُ ، وَنَحْنُ نُشِيرُ

(١) بمعنى رواجع جمع عائجة امم فاعل من عاج إذا رجع : أي أن الأيام تعوج على الإنسان فتسلبه ما أعطى من الحياة ومتع العيش . (٢) العصر : اليوم واليلة والعشى إلى احمرار الشمس والغداة .

(٣) القصد : استقامة الطريق . (٤) النقيبة : النفس ، وهي أيضا العقل ، والمشورة ، ونفاذ الرأي ، والطبيعة . (٥) أي إن حدث حدث . (٦) السيساء : منتظم فقار الظهر ،

وحمله على سيساء الحق أي على حده ، والدرب تضربه مثلا لشدة الأمر ، قال الشاعر :

لقد حملت قيس بن عيلان حربنا
على يابن السيساء محذوب الظهر

يقول : حملناهم على مركب صعب كسيساء الحمار ، أي حملناهم على ما لا يثبت على مثله .

(٧) اقطوطب : افعول من قطب ، وقب القوم : اجتمعوا ، وقطب بين عينيه : جمع ، والمراد :

اجتمعت وتراكت علينا أدواؤه ، ولم أجد كلمة « اقطوطب » في كتب اللغة ، وإنما الذي فيها « اقطوطى » أي قارب في مشيه إمراعا .

عليك بالرشاد ، وندعوك إلى السداد ، وأنت يا أمير المؤمنين أحسننا نظراً ، وأثبتنا^(١) بصراً ، ويزيد ابن أمير المؤمنين قد عرفنا سيرته ، وبلونا علانيته ، ورضينا ولايته ، وزادنا بذلك انبساطاً ، وبه اغتباطاً^(٢) ، مع ما منحه الله من الشبه بأمير المؤمنين ، والمحبة في المسلمين ، فاهزم على ذلك ، ولا تضيق به ذرعاً^(٣) ، فالله تعالى يُقيم به الأود^(٤) ، ويردع به الألد^(٥) ، ويؤمن به السبل ، ويجمع به الشمل ، ويعظم به الأجر ، ويحسن به الذخر . ثم جلس .

٢٢٥ - خطبة ثور بن معن السلمي

فقام ثور بن معن السلمي ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
 « أصلح الله أمير المؤمنين ، إنا قد أصبحنا في زمان ، صاحبه مشاغب^(٦) ، وظله ذاهب^(٧) ، مكتوب علينا فيه الشقاء والسعادة ، وأنت يا أمير المؤمنين ميّت ، نسأل الله بك المتاع ، ويزيد ابن أمير المؤمنين أقدمنا شرفاً ، وأبدلنا عرفاً^(٨) ، وقد دعانا إلى الرضا به ، والقنوع بولايته ، والحرص عليه ، والاختيار له ، ما قد عرفنا من صدق لسانه ووفائه ، وحسن بلائه . فاجعله لنا بمدك خلفاً ، فإنه أوسعنا كنفاً^(٩) ، وأقدمنا سلفاً ، وهو رثق لما فتيق ، وزمام لما شعث^(١٠) ، ونكال لمن فارق ونافق ، وسلم لمن واظب . وحافظ للحق . أسأل الله لأمير المؤمنين أفضل البقاء والسعادة ، والخيرة فيما أراد ، والتوطن في البلاد ، وصلاح أمر جميع العباد .
 ثم جلس .

(١) لعله « وأثبناه » . (٢) بسط فلانا فانبسط : سره والافتباط : المسرة . (٣) ضاق بالأمر

ذمماً : ضعفت طاقته ولم يجد من المكروه فيه مخلصاً . (٤) الاعوجاج . (٥) الالاء : الخصم

الشحج الذي لا يريغ إلى الحق . (٦) صاحبه يعني به معاوية ، أي يشاغبه المشاغبون ، اسم معول من

الشغب : وهو تهيج الشر . (٧) كناية عن دنو أجله . (٨) المعروف . (٩) الكنف :

الظل والجانب . (١٠) شعث الأمر ، كفرح شعثاً : انتشر وتفرق .

٢٢٦ - خطبة عبد الله بن عصام الأشعري

فقام عبد الله بن عصام ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« أصلح الله أمير المؤمنين ، وأمتع به ، إنا قد أصبحنا في دنيا مُنْقَضِيَةٍ ، وأهواء
منجذمة ^(١) ، نخاف حدها ، وننتظر جدها ، شديد مُنْحَدَرُهَا ، كثير وعمرها ، شاحخة
مراقبها ^(٢) ، ثابتة مراتبها ، صعبة مراكبها ، فالموت يا أمير المؤمنين وراءك ووراء العباد
لا يخلد في الدنيا أحد ، ولا يبقى لنا أمد ^(٣) ، وأنت يا أمير المؤمنين مسئول عن رعيتك ،
وماخوذ بولايتك ، وأنت أنظر الجماعة ، وأطى عيناً بحسن الرأي لأهل الطاعة ، وقد
هديت ليزيد في أكل الأمور ، وأفضلها رأياً ، وأجمعها رِضاً ، فاقطع بيزيد قالة ^(٤)
الكلام ، ونخوة ^(٥) المبطل ، وشعث المنافق ، واكبت ^(٦) به الباذخ ^(٧) المعادي ،
فإن ذلك ألمٌ للشعث ، وأسهل للوعث ^(٨) ، فاعزم على ذلك ، ولا تتراعى
بك الظنون . »

٢٢٧ - خطبة عبد الله بن مسعدة الفزاري

ثم قام عبد الله بن مسعدة الفزاري ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« أصلح الله أمير المؤمنين ، وأمتع به ، إن الله قد آثرك بخلافته ، واختصك
بكرامته ، وجعلك عِصمةً لأوليائه ، وذا نكايته لأعدائه ، فأصبحت بأئمة جديلاً ،

(١) جذمه فانجذم : قطعه . (٢) المراقب : جمع مرقب (كجعفر) المكان المشرف ،
يقف عليه الرقيب . (٣) الأمد : الغاية والمنتهى . (٤) قالة : جمع قائل ، أو مصدر قال
كالقول ، والقائل ، والقييل . (٥) السكير والمنظمة . (٦) كبتته : صرعه وأخزاه ، وردالعدو
بغيبته ، وأذله . (٧) بذخ كفرح ونصر : تكبر وعلا ، وشرف باذخ : عال . (٨) وعث الطريق
حن بابي تعب وقرب : إذا شق على السالك ، فهو وعث (يسكون المين وكسرهما) .

وَلَمَّا حَمَلَكُ مُحْتَمِلًا ، يَكشِفُ اللهُ تَعَالَى بِكَ الْعَمَى ^(١) ، وَيَهْدِي بِكَ الْعِدَا ، وَيَزِيدُ
ابْنَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَحْسَنُ لِلنَّاسِ بِرِعِيَّتِكَ رَأْفَةً ، وَأَحَقَّهُمْ بِالْخِلَافَةِ بَعْدَكَ ، قَدْ سَاسَ الْأُمُورَ
وَأَحْكَمْتَهُ الدَّهْرُ ، لَيْسَ بِالصَّغِيرِ الْفَهْمِ ^(٢) ، وَلَا بِالْكَبِيرِ السَّفِيهِ ، قَدْ احْتَجَنَ ^(٣) الْمَكَارِمَ
وَارْتَجَى لِحْلِ الْعِظَائِمِ ، وَأَشَدَّ النَّاسِ فِي الْعَدُوِّ نَكَايَةً ، وَأَحْسَنَهُمْ صُنْعًا فِي الْوَلَايَةِ ،
وَأَنْتَ أَغْنَى بِأَمْرِكَ ، وَأَحْفَظُ لَوْصِيَّتِكَ ، وَأَحْرَزُ أَنْفُسَكَ ، أَسْأَلُ اللهُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْعَافِيَةَ
فِي غَيْرِ جَهْدٍ ^(٤) ، وَالنِّعْمَةَ فِي غَيْرِ تَغْيِيرٍ .

٢٢٨ - خطبة عمرو بن سعيد الأشدق

فَقَالَ مَعَاوِيَةَ لِعَمْرُو بْنِ سَعِيدِ الْأَشْدُقِ : قُمْ يَا أَبَا أُمِيَّةَ ، فَقَامَ فَحَمَدَ اللهُ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ،

ثُمَّ قَالَ :

« أَمَا بَعْدُ : فَإِنَّ يَزِيدَ بْنَ مَعَاوِيَةَ أَمَلٌ تَأْمُلُونَهُ ، وَأَجَلٌ تَأْمَنُونَهُ ، طَوِيلُ الْبَاعِ ،
رَحْبُ الدَّرَاعِ ، إِنْ اسْتَضَفْتُمْ إِلَى حِلْمِهِ وَسِعْتُمْ ، وَإِنْ أَحْتَجَجْتُمْ إِلَى رَأْيِهِ أُرْشِدْتُمْ ، وَإِنْ
افْتَقَرْتُمْ إِلَى ذَاتِ يَدِهِ أَغْنَاكُمْ ، جَدَعٌ ^(٥) قَارِحٌ ^(٦) ، سُوْبِقٌ فَسَبَقَ ، وَمَوْجِدٌ فَمَجَدَ ،
وَقُورِعٌ ففَازَ سَهْمَهُ ، فَهُوَ خَلْفُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَا خَلْفَ مِنْهُ . فَقَالَ لَهُ مَعَاوِيَةُ :
« اجْلِسْ أَبَا أُمِيَّةَ . فَلَقَدْ أَوْسَعْتَ وَأَحْسَنْتَ » .

قَالَ مَعَاوِيَةُ : « أَوْ كَلِّكُمْ قَدْ أَجْمَعُ عَلَى هَذَا رَأْيَهُ ؟ » فَقَالُوا : « كَلْنَا قَدْ أَجْمَعُ »

(١) العمى هنا : ذهاب بصر القلب . (٢) الفهم والفاء : العمى ، فهو كفرح فهامة .

(٣) احتجن المال : ضمه واحتواه . (٤) المشقة . (٥) الجدع : الشاب الحدث .

(٦) أي شديد مجرب ، وهو في الأصل وصف للفرس ، فرح الفرس قروحا : إذا ألقى أقصى أسنانه

() وله أربع أسنان يتحول من بعضها إلى بعض ، يكون جذعا - وذلك إذا كان في السنة الثانية -

ثم ثنيا « بفتح فكسر مع تشديد الياء » - في السنة الثالثة - ثم رباعيا « بفتح أوله وثانيه وتخفيف الياء » - إذا

سقطت رباعيته ، ونبت مكانها سن وذلك إذا استتم الرابعة - ثم قارحا - إذا سقطت السن التي تلي رباعيته

ونبت مكانها نابه ، وهو قارحه الذي صار به قارحا ، وليس بعد القروح سقوط سن ، ولانبات سن ، وذلك

إذا استتم الخامسة ودخل في السادسة) .

رأيه على ما ذكرنا . قال : « فأين الأحنف ؟ » فأجابه ، قال : « ألا تتكلم ؟ »
فقال الأحنف .

٢٢٩ - خطبة الأحنف بن قيس

حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أصلح الله أمير المؤمنين ، إن الناس قد أمسوا في مُنكرِ زمانٍ قد سَلَفَ ،
ومعروفِ زمانٍ مُؤْتَمَنٍ ^(١) ، ويزيد ابن أمير المؤمنين نِعَمَ أَخْلَافٍ ، فَإِنْ تَوَلَّاهُ عَهْدَكَ ،
فمن غيرِ كِبَرٍ مُقْنٍ ، أو مَرَضٍ مُضْنٍ ، وقد حَلَبَتِ الدَّهْرُ ^(٢) ، وَجَرَّابَتِ الْأُمُورَ ،
فَاعْرِفْ مَنْ تَسْنِدُ إِلَيْهِ عَهْدَكَ ، ومن توليه الأمر من بعدك ، وَاَعْصِ رَأْيَ مَنْ يَأْمُرُكَ ،
ولا يَقْدِرُ لَكَ ، ويشير عليك ولا ينظر لك ، وأنت أنظرُ للجماعة ، وأعلم باستقامة الطاعة ،
مع أن أهل الحجاز وأهل العراق لا يرضون بهـذا ، ولا يبايعون ليزيد ما كان
الحسن ^(٣) حيا . »

٢٣٠ - خطبة الضحاک بن قيس

فغضب الضحاک بن قيس ، فقام الثانية ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أصلح الله أمير المؤمنين ، إن أهل النفاق من أهل العراق ، مَرُوءَتُهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ
الشقاقُ ، وَالْفَتْنُ فِي دِينِهِمْ الْفِرَاقُ ، يَرَوْنَ الْحَقَّ عَلَى أَهْوَائِهِمْ ^(٤) ، كَأَنَّمَا يَنْظُرُونَ

(١) مستأنف . (٢) هكذا في مروج الذهب . وفي الإمامة والسياسة : « وقد حلبت الدهر اشطره »

وأصله من حلب شطرى الناقة (يفتح الشين) ولها شطران : قادمان وآخران (بكسر الخاء) والشطركل
خلفين من أخلائها ، والخلف (بكسر الخاء) لها كالضرع للبقرة ، وهو مثل يضرب للمجرب ، وأشطره يدل
من الدهر منصوب . (٣) هذا وما ورد في كلام الضحاک والأحنف بعد ، يدل على أن تلك الخطب كانت

في حياة الحسن بن علي كما أشرنا إليه قبل . (٤) أي على أغراضهم وميوهم .

بأقفاهم . اختالوا جهلا وبطرا . لا يرقبون من الله راقبة ، ولا يخافون وبأل عاقبة ،
اتخذوا إبليس لهم رباً ، واتخذهم إبليس حزبا . فمن يقاربوه لا يسرّوه ، ومن يفارقوه
لا يضرّوه . فادفع رأيهم يا أمير المؤمنين في نحورهم ، وكلامهم في صدورهم ، ما للحسن
وذوى الحسن في سلطان الله الذي استخلف به معاوية في أرضه ؟ هيهات لا تورث
الخلافة عن كلاله . ولا يحجب غير الذّكر العصبية . فوطنوا أنفسكم بأهل العراق
على المناصحة لإمامكم . وكناب نبيكم^(١) وصهره^(٢) ، يسلم لكم العاجل ، وترجّحوا
من الآجل .

٢٣١ - خطبة الأحنف بن قيس

ثم قام الأحنف بن قيس ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« يا أمير المؤمنين : إنا قد فررنا^(٣) عنك قريشاً ، فوجدناك أكرمها زندياً ،
وأشدها عقداً ، وأوقاها عهداً ، وقد علمت أنك لم تفتح العراق عنوة^(٤) ، ولم تظهر عليها
قمصاً^(٥) ، ولكنك أعطيت الحسن بن عليّ من عهد الله ما قد علمت ، ليكون له الأمر
من بعدك ، فإن تفّ فانت أهل الوفاء ، وإن تغدّر^(٦) تعلم والله أن وراء الحسن خيولاً
جياداً ، وأذرعاً شداداً ، وسيوفاً حداداً ، إن تدن له شبراً من غدّر ، تجدّ وراءه باعاً
من نصر ، وإنك تعلم أن أهل العراق ما أحبوك منذ أبغضوك ، ولا أبغضوا علينا وحسناً
منذ أحبوها ، وما نزل عليهم في ذلك خبر من السماء ، وإن السيوف التي شهِرُوها عليك
مع عليّ يوم صفين لعلّى عواتقهم ، والقلوب التي أبغضوك بها ، لبين جوانحهم ، وإيم الله
إن الحسن لأحبُّ إلى أهل العراق من عليّ . »

(١) وكان معاوية من كتاب الوحي . (٢) وكانت أخته أم حبيبة بنت أبي سفيان زوج
النبي عليه الصلاة والسلام . (٣) فر الدابة : كشف عن أسنانها لينظر ما سنها ، وفر عن الأمر : بحث عنه .
(٤) فتح البلد عنوة : أي قهراً . (٥) مات قمصاً : أصابته ضربة أو رمية فات مكانه .
(٦) غدّره وغدّر به كغصّر وضرب وسمع .

٢٣٢ - خطبة عبد الرحمن بن عثمان الثقفي

ثم قام عبد الرحمن بن عثمان الثقفي ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« أصلح الله أمير المؤمنين ، إن رأى الناس مختلف ، وكثير منهم منحرف ،
لا يدعون أحداً إلى رشاد ، ولا يُجيبون داعياً إلى سداد ، يجانبون لرأى الخلفاء ، مخالفون
لهم في السنة والقضاء ، وقد وقفت ليزيد في أحسن القضية ، وأرضاهما ليحمل الرعية ،
فإذا خار الله لك فاعزم ، ثم اقطع قالة الكلام ، فإن يزيد أعظمنا حِلماً وعلماً ، وأوسعنا
كَنَفاً ، وخيرنا سلفاً ، قد أحكمته التجارب ، وقصدت به سبيل المذاهب ، فلا يصرفنك
عن بيعته صارف ، ولا يَقِفَنَّ بك دونها واقف ، ممن هو شاسع^(١) عاصٍ ، يَنُوصُ^(٢)
للفتنه كل مناص ، لسانه ملتوي ، وفي صدره داء دوي ، إن قال فشرُّ قائل ، وإن
سكت فداء غائل^(٣) ، قد عرفنا مَنْ هم أولئك ، وما هم عليه لك ، من المجانبية للتوفيق ،
والتكلف للتفريق ، فاجلُ بيعته عنا العمة ، واجمع به شمل الأمة ، ولا تحِد عنه
إذ هُديت له ، ولا تَنبُش عنه إذ وُقِّت له ، فإن ذلك الرأى لنا ولك ، والحق علينا
وعليك . أسأل الله العون وحسن العاقبة لنا ولك بمنته . »

٢٣٣ - خطبة معاوية

فقام معاوية ، فقال :

« أيها الناس : إن لإبليس من الناس إخواناً وخُلَائناً ، بهم يَسْتَعِدُّ ، وإياهم يستعين
وعلَى ألسنتهم ينطق ، إن رجوا طمعاً أو جَفَوا^(٤) وإن استغنى عنهم أَرَجَفُوا^(٥) ،

(١) من شجع المنزل كنع : بحد . (٢) ناص مناصا : تحرك . (٣) من غاله : أى أهلكه .

(٤) أسرعوا ، وجف البعير والفرس وجيفا : عدا ، وأوجفته : إذا أعدته ، قال تعالى :

« فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ » أى ما أعلمتم .

(٥) أرجف القوم : خاضوا فى أخبار الفتن ونحوها ، قال تعالى : « وَالْمُرَّجَفُونَ فِي الْمَدِينَةِ » .

ثُمَّ يُلْقِحُونَ^(١) الْفِتْنَ بِالْفُجُورِ ، وَيَشَقُّونَ لَهَا حَطَبَ النِّفَاقِ ، عِيَابُونَ مَرْتَابُونَ ، إِنْ لَوْوَا
عُرْوَةَ أَمْرِ حَنِفُوا ، وَإِنْ دُعُوا إِلَى غِيٍّ أَسْرَفُوا ، وَلَيْسُوا أَوْلَئِكَ بِمُنْتَهِينَ وَلَا بِمُقْلَعِينَ وَلَا
مَتَّعِظِينَ ، حَتَّى تُصِيبَهُمْ صَوَاعِقُ^(٢) خَزْيٍ وَبَيْلٍ ، وَتَحُلَّ بِهِمْ قَوَارِعُ^(٣) أَمْرِ جَلِيلٍ ،
تَجْتَثُ^(٤) أَصُولَهُمْ كَأَجْتِنَاثِ أَصُولِ الْفَقْعِ ، فَأَوْلَى لِأَوْلَاكَ ثُمَّ أَوْلَى ، فَإِنَّا قَدْ قَدَّمْنَا
وَأَنْذَرْنَا ، إِنْ أَغْنَى التَّقَدُّمُ شَيْئًا أَوْ نَفَعُ النُّذْرُ^(٥) .

٢٣٤ - خطبة يزيد بن المقنع

ثم قام يزيد بن المقنع ، فقال :

« أمير المؤمنين هذا - وأشار إلى معاوية - ، فإن هلك فهذا - وأشار إلى
يزيد - ، فمن أبي فهذا - وأشار إلى سيفه - ، فقال معاوية : اجلس فإنك
سيد الخطباء .

٢٣٥ - خطبة الأحنف

ثم تكلم الأحنف بن قيس ، فقال :

« يا أمير المؤمنين : أنت أعلمنا بيزيد في ليله ونهاره ، وسره وعلايقته ، ومدخله
ونخرجه ، فإن كنت تعلمه لله رضا ولهذه الأمة ، فلا تشاور الناس فيه ، وإن كنت تعلم

(١) في الأصل « يلحقون » وهو تحريف ، وصوابه : « يلقحون » من ألحح الناقة والنخلة .

(٢) جمع صاعقة : وهي الموت وكل عذاب مهلك . وأرض وبيلة : وخيمة المرتع .

(٣) جمع قارعة ، وهي الداهية الفاجئة . قال تعالى : « وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ

بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةً » . (٤) تقتلع ، والفتح بالفتح ويكسر : البيضاء الرخوة من الكأمة .

(٥) النذر : الإنذار . قال تعالى : « فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي » أي إنذارى . وفي الإمامة

والسياسة عقب هذه الخطبة : « فدعا معاوية للضحك فولاه الكوفة ، ودعا عبد الرحمن فولاه الجزيرة » .

منه غير ذلك ، فلا تزوذه الدنيا وأنت صائر إلى الآخرة ، فإنه ليس لك من الآخرة إلا ما طاب ، واعلم أنه لا حجة لك عند الله إن قدمت يزيد على الحسن والحسين ، وأنت تعلم من هاهنا ، وإلى ما هما ، وإنما علينا أن نقول : « سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ، غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ » .

قال صاحب العقد : فتفرق الناس ، ولم يذكروا إلا كلام الأحنف ، ثم بايع الناس ليزيد بن معاوية ، فقال رجل وقد دُعِيَ إلى البيعة « اللهم إني أعوذ بك من شر معاوية » فقال له معاوية : « تعوذ من شر نفسك ، فإنه أشد عليك وبايع » فقال : « إني أبايع وأنا كاره للبيعة » ، فقال له معاوية : بايع أيها الرجل فإن الله يقول : « فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْمَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا » .

أما ابن قتيبة فيقول :

قالوا : فاستخار الله معاوية ، وأعرض عن ذكر البيعة ، حتى قدم المدينة سنة خمس ، فلتقاء الناس ، فلما استقر في منزله أرسل إلى عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وأمر حاجبه ألا يأذن لأحد من الناس حتى يخرج هؤلاء النفر ، فلما جلسوا تكلم معاوية فقال :

٢٣٦ - خطبة معاوية

« الحمد لله الذي أمرنا بحمده ، ووعدنا عليه ثوابه ، نحمده كثيراً ، كما أنعم علينا كثيراً ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أما بعد : فإنني قد كبير سنّي ، ووهن عظمي ، وقرب أجلي ، وأوشكت أن أدعى فأجيب ، وقد رأيت أن استخلف عليكم بعدى يزيد ، ورأيت لكم رضاً ، وأنتم عبادلة قريش وخيارها وأبناء خيارها ، ولم يمنعني أن أحضر حسناً وحسيناً إلا أنهما أولاد أبيهما ، على حسن رأي فيهما ، وشديد محبتي لهما ، فرُدُّوا على أمير المؤمنين خيراً ، يرحمكم الله » .

٢٣٧ - خطبة عبد الله بن عباس

فتكلم عبد الله بن عباس فقال :

« الحمد لله الذي ألهمنا أن نحمده ، واستوجب علينا الشكرَ على آلائه ، وحسن
بلائه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وصلى الله
على محمد وآل محمد . أما بعد : فإنك قد تكلمتَ فأنصتْنا . وقاتَ فسمعنا ، وإن الله جل
ثناؤه ، وتقدستَ أسماؤه ، اختار محمداً صلى الله عليه وسلم لرسالته ، واختاره لوحيه ، وشرفه
على خلقه ، فأشرفُ الناس من شرف به ، وأولاهم بالأمرِ أخصهم به ، وإنما على الأمة
التسليم لنبينا إذ اختاره الله لها ، فإنه إنما اختار محمداً بعلمه ، وهو العالم الخبير ، وأستغفر الله
لي ولكم . »

٢٣٨ - خطبة عبد الله بن جعفر

فقام عبد الله بن جعفر فقال :

« الحمد لله أهل الحمد ومُنْتَهَاهُ ، نحمده على إلهامنا حمده ، ونرغب إليه في تأدية حقه ،
وأشهد أن لا إله إلا الله واحداً صمداً^(١) ، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، وأن محمداً عبده
ورسوله صلى الله عليه وسلم . أما بعد : فإن هذه أخلافة إن أخذ فيها بالقرآن : فد « أولو
الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله » وإن أخذ فيها بسنة رسول الله ، فأولو
رسول الله ، وإن أخذ بسنة الشيخين أبي بكر وعمر ، فأئى الناس أفضل وأكمل وأحق
بهذا الأمر من آل الرسول ؟ وإيم الله لو وُلوه بعد نبينهم ، لوضعوا الأمر موضعه ، لحقه
وصدقه ، ولأطيع الله ، وعصى الشيطان ، وما اختلف في الأمة سيفان ، فاتق الله
يا معاوية ، فإنك قد صرت راعياً ونحن رعية ، فانظر لرعيته ، فإنك مَسْمُول عنها غداً ،

(١) الصمد : السيد لأنه يصمد إليه في الحوائج : أى يقصد ، صمده من باب نصر : قصده .

وأما ما ذكرت من ابني عمي ، وتركك أن تُحْضِرَها ، فوالله ما أصبتَ الحق ، ولا يجوز لك ذلك إلا بهما ، وإنك لتعلم أنهما معدت العلم والكرم ، فقل أودع ، وأستغفر الله لي ولكم .

٢٣٩ - خطبة عبد الله بن الزبير

فتكلم عبد الله بن الزبير فقال :

« الحمد لله الذي عرفنا دينه ، وأكرمنا برسوله ، أحمده على ما أبلى وأولى ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ؛ أما بعد : فإن هذه الخلافة لقريش خاصة ، تتناولها بما أثرها السنية ، وأفعالها المرضية ، مع شرف الآباء ، وكرم الأبناء ، فاتق الله يا معاوية ، وأنصف من نفسك ، فإن هذا عبد الله بن عباس ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا عبد الله بن جعفر ذي الجناحين ، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنا عبد الله بن الزبير ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعليّ خلف حسناً وحسيناً ، وأنت تعلم من هما ، وما هما ، فاتق الله يا معاوية ، وأنت الحاكم بيننا وبين نفسك . »

٢٤٠ - خطبة عبد الله بن عمر (المتوفى سنة ٧٤ هـ)

فتكلم عبد الله بن عمر فقال :

الحمد لله الذي أكرمنا بدينه ، وشرفنا بنبيه صلى الله عليه وسلم ؛ أما بعد : فإن هذه الخلافة ليست بهرقلية ، ولا قيصرية ، ولا كسروية ، يتوارثها الأبناء عن الآباء ، ولو كان كذلك كنت القائم بها بعد أبي ، فوالله ما أدخلني مع الستة من أصحاب الشورى ، إلا على أن الخلافة ليست شرطاً مشروطاً ، وإنما هي في قریش خاصة ، لمن كان لها أهلاً ، ممن ارتضاه المسلمون لأنفسهم ، من كان أتقى وأرضى ، فإن كنت تريد الفتيان من قریش ، فاعمرى إن يزيد من فتيانها ، واعلم أنه لا يُغني عنك من الله شيئاً .

٢٤١ - خطبة معاوية

فتكلم معاوية فقال :

« قد قلتُ وقلتم ، وإنه قد ذهبت الآباء وبقيت الأبناء ، فابني أحبُّ إليَّ من أبنائهم ، مع أن ابني إن قاولتموه ^(١) وجد مقالا ، وإنما كان هذا الأمر لبني عبد مناف ، لأنهم أهل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتلى الناسُ أبا بكر وعمر ، من غير معدن الملك ولا الخلافة ، غير أنهما سارا بسيرة جميلة ، ثم رجع الملك إلى بني عبد مناف ، فلا يزال فيهم إلى يوم القيامة ، وقد أخرجك الله يا بن الزبير وأنت يا بن عمر منها . فأما ابنا عمي هذان فليسا بخارجين من الرأي إن شاء الله » ثم أمر بالرحلة وأعرض عن ذكر البيعة ليزيد ، ولم يقطع عنهم شيئا من صلاتهم وأعطياتهم ^(٢) ، ثم انصرف راجعا إلى الشام ، وسكت عن البيعة ، فلم يمرض لها إلى سنة إحدى وخمسين .

* * *

قال ابن قتيبة : ثم لم يلبث معاوية بعد وفاة الحسن رحمه الله (سنة ٥١) إلا يسيرا حتى بايع ليزيد بالشام ، وكتب ببيعته إلى الآفاق ، وكان عامله على المدينة مروان بن الحكم فكتب إليه بذلك ، وأمره أن يجمع مَنْ قَبْلَهُ من قريش وغيرهم من أهل المدينة ، ثم يبايعوا ليزيد ، فلما قرأ كتاب معاوية أبي من ذلك وأبته قريش ، وكتب إلى معاوية : إن قومك قد أبوا إجابتك إلى بيعتك ابنتك ، فأرني رأيك ، فكتب إليه يأمره أن يعتزل عمله ، ويخبره أنه قد وتى المدينة سعيد بن العاص ، فخرج مروان مغاضبا في أهل بيته وأحواله من بني كنانة حتى أتى دمشق ، ودخل على معاوية ، فسلم عليه بالخلافة ، ثم قال :

(١) قاول : فاعل من القول ، كجاءت وخاطب وكالم . (٢) أعطيات : جمع أعطية ، وهو جمع عطاء .

٢٤٢ - خطبة مروان بن الحكم

« إن الله عظيمٌ حَظْرُهُ ، لا يَقْدِرُ ^(١) قَادِرٌ قَدْرُهُ ، خَلَقَ مِنْ خَلْقِهِ عِبَادًا ، جعلهم
لِدَعَائِهِمْ دِينَهُ أَوْ تَادًا . هم رُقْبَاؤُهُ عَلَى الْبِلَادِ ، وَخَلْفَاؤُهُ عَلَى الْعِبَادِ ، أُسْفَرَ ^(٢) بِهِم الظلم ،
وَأَلَّفَ بِهِم الدِّينَ ، وَشَدَّدَ بِهِم الْيَقِينَ ، وَمَنْحَحَ بِهِم الظَّفَرَ ، وَوَضَعَ بِهِم من استكبر ،
فَكَانَ مَنْ قَبْلَكَ مِنْ خَلْفَانِنَا ، يَعْرِفُونَ ذَلِكَ فِي سَالِفِ زَمَانِنَا ، وَكُنَّا نَسْكُونُ لَهُمْ عَلَى
الطَّاعَةِ إِخْوَانًا ، وَعَلَى مَنْ خَالَفَ عَنْهَا أَعْوَانًا ، يُشَدُّ بِنَا الْعَصْدُ ، وَيُقَامُ بِنَا الْأَوْدُ ، وَنُسْتَشَارُ
فِي الْقَضِيَّةِ ، وَنُسْتَأْمَرُ ^(٣) فِي أَمْرِ الرَّعِيَّةِ ، وَقَدْ أَصْبَحْنَا الْيَوْمَ فِي أُمُورٍ مُسْتَحِيرَةٍ ^(٤) ، ذَاتِ
وَجْوهٍ مُسْتَدِيرَةٍ ، تَفْتَحُ بِأَرْزَمَةِ الضَّلَالِ ، وَتُحْلِسُ ^(٥) بِأَسْوَأِ الرِّحَالِ ، يُؤْكَلُ جَزُورُهَا ^(٦) ،
وَتَمْتَقُّ أَحْلَابُهَا ^(٧) ، فَمَالْنَا لِانْتِمَارِ فِي رِضَاعِهَا ، وَنَحْنُ فِطَامُهَا وَأَوْلَادُ فِطَامِهَا ، وَأَيْمُ اللهُ لَوْلَا
عَهْدُ مَوْكِدَةٍ ، وَمَوَاقِيقُ مُعَقَّدَةٍ ^(٨) ، لَأَقْتُ أَوْدَ وَلِيَّيْهَا ، فَأَقِمِ الْأَمْرَ يَا بَنَ أَبِي سَفِيَانَ ، وَاعْدِلْ
عَنْ تَأْمِيرِكَ الصَّبِيَانَ ، وَأَعْلَمْ أَنَّ لَكَ فِي قَوْمِكَ نَظْرَاءَ ، وَأَنَّ لَهُمْ عَلَى مَنَاوَأَتِكَ وَزَرَءَ .
فَغَضِبَ مَعَاوِيَةَ مِنْ كَلَامِهِ غَضَبًا شَدِيدًا ، ثُمَّ كَظَمَ غَيْظَهُ بِحِلْبِهِ ، وَأَخَذَ بِيَدِ مَرْوَانَ ،
ثُمَّ قَالَ :

- (١) قدره من بابي نصر وضرب وقدره تقديرا: عظمه، قال تعالى: «وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ»
أى ما عظموه حق تعظيمه . (٢) سفر الصبح وأسفر: أضاء وأشرق ، أو هو متعد من سفرت الحرب
أى ولت ، وسفرت المرأة كشفت عن وجهها ، فالمعنى كشف بهم الظلم . (٣) الاستئثار: المشاورة .
(٤) فى الأصل «مستخيرة» أى مستخير صاحبها ، من استخار الله فى أمره : طلب أن يجعل له فيه الخير ،
وأرى أنها « مستحيرة » بالحاء : أى مستخير صاحبها أى متخير ، من استحار : إذا نظر إلى الشيء ، فغشى عليه
ولم يهتد لسبيله ، ويؤيد هذا قوله بعد « ذات وجوه مستديرة » أى مستغلقة مبهمة ليست مستقيمة .
(٥) جلس البعير كضربه : فشاها بجلس (بكسر الحاء) وهو كساء على ظهر البعير تحت البرذعة « وفى
الأصل » وتجلس بأسوأ الرجال « بيمين وهو تصحيف » . (٦) الجزور : البعير ، أو خاص بالناقة
المجزورة . (٧) امتق الفصيل ما فى الضرع ثربه كله ، والأحلاب جمع حلب (بفتحبتين) وهو اللبن المحلوب .
(٨) اسم مفعول من عقد بالتشديد مضعف عقد الحبل والبيع والمهد : إذا شده .

٢٤٣ - خطبة معاوية

« إن الله قد جعل لكل شيء أصلاً ، وجعل لكل خير أهلاً ، ثم جعلك في الكرم مني محتجداً^(١) ، والعزيم مني والدأ ، اخترت من قُرُوم^(٢) قادة ، ثم استللت سيّد سادة ، فأنت ابن يبايع الكرم ، فمرّ حباً بك وأهلاً من ابن عم ، ذكرت خلفاء مفقودين ، شهداء صديّين ، كانوا كما نعمت ، وكنت لهم كما ذكرت ، وقد أصبحنا في أمور مستحيرة ، ذات وجوه مستديرة ، وبك والله يا ابن العم نرجو استقامة أودها ، وذلوله^(٣) صمويتها ، وسفور ظلمتها ، حتى يتطأطأ^(٤) جسيمها ، ويركب بك عظيمها ، فأنت نظير أمير المؤمنين ، وعدته في كل شديدة وعضده ، والثاني بعد وليّ عهده ، فقد وليتكم قومك ، وأعظمت في الخراج سهمك ، وأنا مجيز وفدك ، ومحسن رفدك^(٥) ، وعلى أمير المؤمنين غذاك ، والنزول عند رضاك^(٦) » .

٢٤٤ - مروان وعبد الرحمن بن أبي بكر

وروى أن مروان لما ورد عليه كتاب معاوية ، قرأه على أهل المدينة وقال :
« إن أمير المؤمنين قد كبر سنه ، ودقّ عظمه ، وقد خاف أن يأتيه أمر الله تعالى ، فيدع الناس كالغنم لاراعى لها ، وقد أحب أن يُعَلِّمَ علماً ، ويقيم إماماً » ، فقالوا : وفق الله أمير المؤمنين وسدده ، ليفعل ، فكتب بذلك إلى معاوية ، فكتب إليه أن سمّ يزيد ،

(١) المحتد : الأصل . (٢) جمع قرم بالفتح : وهو السيد . (٣) هكذا في الأصل ، وفي

كتب اللغة : « الذل بالكسر والضم اللين وهو ضد الصعوبة ، ذلك فهو ذلول ، يكون في الإنسان والداية » .

(٤) طأطأ رأسه : خفضه فتطأطأ . (٥) الرفد : العطاء والصلة . (٦) قال المسعودي :

« وجعله ولي عهد يزيد : وردّه إلى المدينة ، ثم إنه عزله عنها ، وولاه الوليد بن عتبة بن أبي سفيان ، ولم يف لمرران بما جعل له من ولاية عهد يزيد » ، وقال ابن قتيبة : « فكان أول مارزق ألف دينار في كل هلال ، وفرض له في أهل بيته مائة مائة » .

فقرأ الكتاب عليهم وسمى يزيد ، وخطبهم فخصمهم على الطاعة ، وحذرهم الفتنة ، ودعاهم إلى بيعة يزيد وقال : سنة أبي بكر الهادية المهديّة ، فقام عبد الرحمن بن أبي بكر ، فقال : « كذبت والله يا مروان ، وكذب معاوية معك ، إن أبا بكر ترك الأهل والعشيرة ، وبايع لرجل من بني عدى رضى دينه وأمانته ، واختاره لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، لا يكون ذلك ، لا تُحدثوا علينا سنة الروم ، كلما مات هرقل قام مكانه هرقل ، فقال مروان : « أيها الناس : إن هذا المتكلم هو الذى أنزل الله فيه : « وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أَفِ لَسَمَا أَتَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي ^(١) » ، فقال له عبد الرحمن :

(١) أخرج : أبعث ، قال صاحب الأمالي : « فسمعت ذلك عائشة رضى الله عنها فقالت : الابن الصديق يقول هذا ؟ استرونى فستروها ، فقالت : كذبت والله يا مروان إن ذلك لرجل معروف نسبه » ، وقال المفسرون فى هذه الآية : « والمراد (بالذى قال) الجنس القائل ذلك القول ، وعن الحسن : هو فى الكافر العاق لوالديه ، المكذب بالبعث ، وعن قتادة : نعمت عبد سوء : عاق لوالديه ، فاجر لربه ، وقيل نزلت فى عبد الرحمن بن أبي بكر قبل إسلامه ، وقد دعاه أبوه أبو بكر وأمه أم رومان إلى الإسلام ، فأفء بهما ، وقال : ابعثوا إلى جدعان بن عمرو ، وعثمان بن عمرو - وهما من أجداده - حتى أسألهما عما يقول محمد ، ويشهد ببطلانه أن المراد بالذى قال جنس القائلين ذلك ، وأن قوله : « الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ » هم أصحاب النار ، وعبد الرحمن كان من أفاضل المسلمين وسرواتهم . وعن عائشة رضى الله عنها إنسكار نزولها فيه ، وحين كتب معاوية إلى مروان أن يبايع الناس ليزيد ، قال عبد الرحمن : لقد جتم بها هرقلية ، أتبايعون لأبنائكم ؟ فقال مروان : يا أيها الناس هو الذى قال الله فيه « والذى قال لوالديه . . . الآية » فسمعت عائشة فغضبت ، وقالت : « والله ما هو به ، ولو شئت أن أسميه لسميته ، أما أنت يا مروان ، فأشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن أباك وأنت فى صلبه ، فأنت فضض من لعنة الله » اه . (وقولها فضض كجبل ويروى كعتق وغراب أى قطعة منها) .

وجاء فى السيرة الحلبية (١ : ٢ : ٣) : « عن الواقدي ، استأذن الحكم بن أبي العاص على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعرف صوته ، فقال : « ائذنوا له لعنة الله ومن يخرج من صلبه إلا المؤمن من منهم - وقليل ما هم - ذوو مكر وخديعة ، يعطون الدنيا ، وما لهم فى الآخرة من خلاق » ، وكان لا يواد لأحد واد بالمدينة إلا أقر به النبى صلى الله عليه وسلم ، فأقر إليه بمروان لما ولد ، فقال : « هو الوزغ بن الوزغ ، الملعون بن الملعون » وعن جبير بن مطعم : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فر الحكم بن أبي العاص ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « ويل لأمتى بما فى صلب هذا » .

« يابن الزرقاء^(١) ، أفينا تناول القرآن ؟ » وتكلم الحسين بن عليّ وعبد الله بن الزبير ،
وعبد الله بن عمر ، وأنكروا بيعة يزيد ، وتفرق الناس ، فكتب مروان إلى معاوية بذلك .
قال ابن قتيبة : فقدم معاوية المدينة حاجاً ، ثم أرسل إلى الحسين بن عليّ وعبد الله
ابن عباس فحضرا ، وابتدأ معاوية فقال :

٢٤٥ - خطبة معاوية

« أما بعد : فالحمد لله وليّ النعم ، ومُنزل النعم ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، المتعالى عما
يقول الملحّدون علواً كبيراً ، وأن محمداً عبده المخصّص المبعوث إلى الجن والإنس كافةً ،
ليُنذِرهم بقرآن : « لا يأتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ » ،
فَأَدَّى عَنْ اللَّهِ ، وَصَدَعَ^(٢) بأمره ، وصبر على الأذى في جنبه ، حتى أوضح دين الله ،
وأعزّ أوليائه ، وقمع المشركين ، وظهر أمر الله وهم كارهون ، ففضى صلوات الله عليه ،
وقد ترك من الدنيا ما بذل له ، واختار منها الترك لما سُخِّر له ، زهادة واختياراً لله ، وأنفة
واقتراراً على الصبر ، وبغياً لما يدوم ويبقى ، وهذه صفة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم
خلفه رجالان محفوظان ، وثالثٌ مشكوك ، وبين ذلك خووضٌ طالما عالجناه ، مشاهدة

وجاء في أسد الغابة في ترجمته : « ذكره عبد الرحمن بن حسان بن ثابت ، في هجائه لعبد الرحمن
ابن الحكم ، فقال :

إن اللعين أبوك فارم عظامه إن ترم ترم مخلجاً مجنوناً

وقد روى في لعنه وفيه أحاديث كثيرة لاجابة إلى ذكرها ، إلا أن الأمر المقطوع به أن النبي صلى الله
عليه وسلم ، مع حلمه وإغضائه على ما يكره ، مافعل به ذلك إلا لأمر عظيم ، وجاء في الفخرى ص ١٠٨
« ورويت أحاديث وأخبار في لعنة الحكم بن أبي العاص ، ولعنة من في صلبه ، وضمفها قوم » .

(١) في الفخرى ص ١٠٨ « وكان من أراد ذم مروان وعيبيه يقول له يابن الزرقاء » قالوا : وكانت
الزرقاء جدتهم من ذوات الرايات التي يستدل بها على بيوت البغايا في الجاهلية ، فلذلك كانوا يذمون بها .

(٢) قوله تعالى : « فَأَصْدَعَ بِمَا تُؤْمَرُ » أى شق جماعاتهم ، بالتوحيد أو اجهر بالقرآن ، أو أظهر
أو احكم بالحق وافصل بالأمر ، أو اقصد بما تؤمر ، أو افرق به بين الحق والباطل .

وَمَكَافَئَةً ، وَمَعَابِنَةً وَسَمَاعًا ، وَمَا أَعْلَمُ مِنْهُ فَوْقَ مَا تَعْلَمَانِ ، وَقَدْ كَانَ مِنْ أَمْرِ يَزِيدَ مَا سَبَقْتُمْ
إِلَيْهِ وَإِلَى نَجْوَى بَزْءِهِ ، وَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ مَا أَحْوَلُ بِهِ مِنْ أَمْرِ الرَّعِيَّةِ ، مِنْ سَدِّ الْخَلَلِ ، وَلَمْ يَصْدَعْ
بِوَلَايَةِ يَزِيدَ ، بِمَا أَيْقَظَ الْعَيْنَ ، وَأُخِّدَ الْفِعْلَ ، هَذَا مَعْنَايَ فِي يَزِيدَ ، وَفِيكَافَ فُضْلُ الْقِرَابَةِ ،
وَحِظْوَةُ الْعَسَلِ ، وَكُلُّ الرُّوَّةِ ، وَقَدْ أَصَبْتُ مِنْ ذَلِكَ عِنْدَ يَزِيدَ عَلَى الْمُنَازَرَةِ وَالْمُقَابَلَةِ ،
مَا أَعْيَانِي مِثْلَهُ عِنْدَكَ ، وَعِنْدَ غَيْرِكَ ، مَعَ عَلَيْهِ بِالسَّنَةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ ، وَالْحِلْمِ الَّذِي يَرْجَحُ
بِالصَّمِّ^(١) الصَّلَابَ ، وَقَدْ عَلِمْتُمَا أَنَّ الرَّسُولَ الْمُحْفَظَ بِبَعْضَةِ الرَّسَالَةِ ، قَدَّمَ عَلَى الصَّدِيقِ
وَالْفَارُوقِ ، وَمَنْ دُونَهُمَا مِنْ أَكْبَرِ الصَّحَابَةِ ، وَأَوَائِلِ الْمُهَاجِرِينَ ، يَوْمَ غَزْوَةِ ذَاتِ
السَّلَاسِلِ^(٢) ، مَنْ لَمْ يَقَارِبِ الْقَوْمَ ، وَلَمْ يَمَانِدْهُمْ^(٣) ، بِرَتْبَةٍ فِي قِرَابَةِ مَوْصُولَةٍ ، وَلَا سُنَّةِ
مَذْكُورَةٍ ، فَقَادِمِ الرَّجُلُ بِأَمْرِهِ ، وَجَمَعَ بِهِمْ صَلَاتَهُمْ ، وَحَفِظَ عَلَيْهِمْ فَيْئَهُمْ ، وَقَالَ وَلَمْ
يُقَلِّمْ مَعَهُ ، وَفِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ، فَهَلَّا بَنَى عَبْدَ الْمَطْلَبِ ، فَإِنَّا
وَأَنْتُمْ شَعْبًا نَفْعٌ وَجِدٌّ ، وَمَا زِلْتُمْ أَرْجُو الْإِنْصَافَ فِي اجْتِمَاعِكُمَا ، فَمَا يَقُولُ الْقَائِلُ إِلَّا
بِقَبُولِكُمَا ، فَرُدَّا عَلَى ذِي رَحِمٍ مُسْتَمْتَبٍ ، مَا يَحْمَدُ بِهِ الْبَصِيرَةَ فِي عِتَابِكُمَا ، وَأَسْتَغْفِرُ
اللَّهَ لِي وَلِسَاكُمَا .

فَتَيْسَّرُ ابْنُ عَبَّاسٍ لِلْكَلَامِ ، وَنَصَبَ يَدَهُ لِلْمُخَاطَبَةِ ، فَأَشَارَ إِلَيْهِ الْحُسَيْنُ وَقَالَ : عَلَى
رِسَالِكَ ، فَأَنَا الْمُرَادُ ، وَنَصِيبِي فِي النَّهْمَةِ أَوْفَرُ ، فَأَمْسَكَ ابْنُ عَبَّاسٍ ، فَقَامَ الْحُسَيْنُ :

(١) الصم جمع أصم : وهو الحجر الصلب المصمت . (٢) غزوة ذات السلاسل ، وهي وراء وادي
القرى من أرض بني عذرة : غزاها سرية عمرو بن العاص سنة ثمان للهجرة ، وكان رسول الله صلى الله عليه
وسلم بعثه يستنفر العرب إلى الشام ، فلما كان على ماء بأرض جذام ، يقال له السلسل - وبذلك سميت تلك الغزوة
غزوة ذات السلاسل - خاف فبعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستمده ، فبعث إليه رسول الله أبا عبيدة
ابن الجراح في المهاجرين الأولين ، فيهم أبو بكر وعمر ، وقال لأبي عبيدة حين وجهه : لا تختلفا ، فخرج
أبو عبيدة ، حتى إذا قدم عليه ، قال له عمرو : إنما جئت مدد لي ، قال أبو عبيدة : لا ، ولكني هل ما أنا
عليه ، وأنت هل ما أنت عليه - وكان أبو عبيدة رجلا لنا سهلا ، هينا عليه أمر الدنيا - فقال له عمرو : بل
أنت مدد لي ، فقال له أبو عبيدة : يا عمرو ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي : لا تختلفا ، وإنك إن
عصيتني أظعتك ، قال : فإني الأمير عليك ، وأنت مدد لي ، قال : فدوئك . فصلي عمرو بالناس .
(٣) المعاندة : المفارقة ، أي ولم يمتز عليهم برتبة .

٢٤٦ - خطبة الحسين

فحمد الله ، وصلى على الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

« أما بعد يا معاوية ، فلن يُؤدِّيَ القائلُ - وإن أظنَّبَ - في صفة الرسول صلى الله عليه وسلم من جميعِ جزءا ، قد فهمتُ ما ألبستُ^(١) به الخلفَ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من إيجازِ الصفة ، والتنكُّبِ عن استبلاغِ البيعة ، وهيهات هيهات يا معاوية ! فضحَّ الصبحُ فحُمةِ الدُّحى ، وسَهَرَتِ^(٢) الشمسُ أنوارَ السُّرُجِ ، ولقد فضلتَ حتى أفرطتَ ، واستأثرتَ حتى أجهفتَ ، ومنعتَ حتى بجلتَ ، وجرتَ حتى جاوزتَ ، ما بذلتَ لذي حقٍّ من أئمِّ حقِّه بنصيبٍ ، حتى أخذَ الشيطانُ حظَّه الأوفرَ ، ونصيبه الأكلَ ، وفهمتَ ما ذكرته عن يزيد ، من اكتماله وسياسته لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، تريد أن توهم الناسَ في يزيد ، كأنك تصِفُ بحجوباً ، أو تنعَتُ غائباً ، أو تُخبر عما كان مما احتويتهُ بعلمِ خاصِّ ، وقد دلَّ يزيدُ من نفسه على موقعِ رأيه ، فخذ ليزيدَ فيما أخذَ به من استقرائهِ^(٣) الكلابَ للمهارشة^(٤) عند التحارش ، والحمامَ الشُّبِقَ لأُتْرَاقِينَ ، والقَيْنَاتِ^(٥) ذواتِ المَازِفِ ، وضروبِ المَلاهي ، نجده ناصراً ، ودع عنك ما تحاول ، فما أغناكَ أن تلقَى الله بوزرِ هذا الخلقِ بأكثر مما أنت لاقِيه ، فوالله ما برحتَ تقدِّمُ باطلاً في جورٍ ، وحنقاً في ظلمٍ ، حتى ملأتَ الأُسْقِيَةَ ، وما بينك وبين الموتِ إلا غمضةٌ ، فتقدِّمُ على عملٍ محفوظٍ . في يومِ مشهودٍ ، ولاتِ حينِ مناصٍ ، ورأيتُكَ عرَّضتَ بنا بعد هذا الأمرِ ، ومَنَعْتَنَا عن آبائنا تُرَاقِياً ، ولقد - لعمرُ الله - أورثنا الرسولَ عليه الصلاة والسلام

(١) ألبسه : غطاء . (٢) يقال بهر القمر كنع : غلب ضوءه ضوء الكواكب ، والسرَّج جمع

سراج : وهو المصباح . (٣) استقرأه الأشياء : تتبع أفرادها . (٤) المهارشة : تخریش

بعضها على بعض . (٥) جمع قينة : وهي الجارية المغنية أو أعم ، والممازف : الآلات التي يضرب بها

كالعود ، جمع معزف كمنبر .

ولادة ، وجئت لنا بما حَجَجْتُمْ به القَائِمَ عند موت الرسول عليه الصلاة والسلام ، فأذعن للحجة بذلك ، وردّه الإيمان إلى النِّصْف ، فركبتم الأغاليلَ ، وفعلتم الأفاعيلَ ، وقتلتم كَأَن يكون ، حتى أتاك الأمر يا معاويةُ ، من طريقٍ كَأَن قَصَدُهَا لغيرك ، فهَنَّاكَ^(١) ، فاعتبروا يا أولى الأبصار ، وَذَكَرْتَ قِيَادَةَ الرَّجُلِ الْقَوْمَ بِمَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَتَأْمِيرَهُ لَهُ ، وَقَدْ كَانَ ذَلِكَ ، وَلَعَمْرُؤِ بْنِ الْعَاصِ يَوْمَئِذٍ فَضِيلَةٌ ، بِصُحْبَةِ الرَّسُولِ وَبَيْعَتِهِ لَهُ وَمَا صَارَ لِعَمْرِ وَيَوْمَئِذٍ حَتَّى أَنْفَ الْقَوْمِ إِمْرَتَهُ ، وَكَرِهُوا تَقْدِيمَهُ وَعَدُّوا عَلَيْهِ أَعْمَالَهُ . فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَا جَرَمَ^(٢) مَعِشَرِ الْمُهَاجِرِينَ ، لَا يَفْعَلُ عَلَيْكُمْ بَعْدَ الْيَوْمِ غَيْرِي » . فَكَيْفَ يُجْتَنَجُ بِالْمَنْسُوحِ مِنْ فِعْلِ الرَّسُولِ ، فِي أَوْكَدِ الْأَحْوَالِ ، وَأَوْلَاهَا بِالْمُجْتَمَعِ عَلَيْهِ مِنَ الصَّوَابِ ؟ أَمْ كَيْفَ صَاحَبَتْ بِصَاحِبٍ تَابِعًا ، وَحَوْلَاكَ مَنْ لَا يُؤْمِنُ فِي صَحْبَتِهِ ، وَلَا يُعْتَمَدُ فِي دِينِهِ وَقَرَابَتِهِ ، وَتَتَخَطَّاهُمْ إِلَى مُسْرِفٍ مَفْتُونٍ ؟ تَرِيدُ أَنْ تُلْبِسَ النَّاسَ شُبُهَةً ، يَسْعَدُ بِهَا الْبَاقِي فِي دُنْيَاهُ ، وَتَشْتَقِي بِهَا فِي آخِرَتِكَ ، إِنْ هَذَا لَهُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ .

فنظر معاوية إلى ابن عباس ، فقال : ما هذا يا ابن عباس ، ولما عندك أذهى وأمر ! فقال ابن عباس : لعمرُ الله ، إنها لذريرة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأحد أصحاب الكِسَاءِ^(٣) ، ومن البيت المُطَهَّرِ ، فإله عما تريد ، فإن لك في الناس مَقْنَعًا ، حتى يحكم الله بأمره ، وهو خير الحاكمين ، فقال معاوية : أَعُوذُ^(٤) الْحَلِيمِ التَّحَلُّمِ ، وَخَيْرِهِ التَّحَلُّمِ عَنِ الْأَهْلِ . انصرفا في حفظ الله .

ثم أرسل معاوية إلى عبد الرحمن بن أبي بكر ، وإلى عبد الله بن عمر ، وإلى عبد الله ابن الزبير ، فجلسوا .

(١) مهمل عن هنا ، يقال هنا الطعام : إذا ساغ ولد ، أي فهينتا لك مانلت من الخلافة .
(٢) لا جرم : قال للفراء « هي كلمة كانت في الأصل بمنزلة لا بد ولا محالة ، فجرت على ذلك وكثرت حتى تحولت إلى معنى القسم ، وصارت بمنزلة حقا ، فلذلك يجاب عنها باللام كما يجاب بها عن القسم ، ألا تراهم يقولون : « لا جرم لآتينك » . (٣) انظر ص ٣٢ . (٤) أعوذ : أنفع ، والعائدة : المنفعة .

٢٤٧ - خطبة معاوية

حمد الله ، وأثنى عليه معاوية ، ثم قال :

« يا عبد الله بن عمر : قد كنتَ تحدّثنا أنك لا تحب أن تبيتَ ليلةً وليس في عنقك بيعةُ جماعةٍ ، وأنَّ لك الدنيا وما فيها . وإني أحذرك أن تشقَّ عصا المسلمين ، وتسعى في تفریق مملكتهم^(١) ، وأن تسفك دماءهم ، وإن أمرَ يزيد قد كان قضاءً من القضاء ، وليس للعباد خيرة من أمرهم ، وقد وكّد الناسُ بيعتهم في أعناقهم . وأعطوا على ذلك عهدهم موأثيقهم » . ثم سكت .

٢٤٨ - خطبة عبد الله بن عمر

فتكلم عبد الله بن عمر ، حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : يا معاوية ، لقد كان قبلك خلفاء ، وكان لهم بنون ، ليس ابنك بخير من أبنائهم ، فلم يرَوا في أبنائهم ما رأيتَ في ابنك ، فلم يُحَابُوا في هذا الأمر أحدًا ، ولكن اختاروا لهذه الأمة حيث دَلَّهم ، وأنت تحدّرتني أن أشقَّ عصا المسلمين ، وأفرّق ملامهم ، وأسفك دماءهم ، ولم أكن لأفعل ذلك إن شاء الله ، ولكن إن استقام الناسُ ، فسأدخلُ في صالح ما تدخل فيه أمة محمد » .

فقال معاوية : يرحمك الله ، ليس عندك خلاف ، ثم قال معاوية لعبد الرحمن ابن أبي بكر نحو ما قاله لعبد الله بن عمر ، فقال له عبد الرحمن : إنك والله لو ددنا أن نكلك إلى الله فيما جسّرت عليه من أمر يزيد ، والذي نفسى بيده لتجعلنّها سُورَى ، أو لأعيدنّها جذعةً ، ثم قام ليخرج ، فتعلق معاوية بطرف رداءه ، ثم قال : هلي رسلك

(١) اللأ : الجماعة .

اللهم اكفنيه بما شئت ، لا تظهرن لأهل الشام ، فإني أخشى عليكم منهم ، ثم قال لابن الزبير نحو ما قاله لابن عمر ، ثم قال له : أنت ثعلب رَوَّاع ، كلما خرجت من جُحْر ابجَحْرْت^(١) في آخر ، أنت أَلْبَت^(٢) هذين الرجلين ، وأخرجتهما إلى ما خرجا إليه . فقال ابن الزبير : أتريد أن تباع ليزيد ؟ أرايت إن بايعناه أبكما نُطِيع ؟ أنطِيعك أم نطِيعه ، إن كنت مَلَّاتِ الخِلافةَ فاخرج منها ، وباع ليزيد ، فنحن نبايعه ، فكثرت كلامه وكلام ابن الزبير ، حتى قال له معاوية في بعض كلامه : والله ما أراك إلا قاتلاً نفسك ، وأكأنني بك قد تخبَّطت في الحبالِ . ثم أمرهم بالانصراف ، واحتجب عن الناس ثلاثة أيام لا يخرج ، ثم خرج فأمر المنادي أن ينادي في الناس ، أن يجتمعوا لأمر جامع . فاجتمع الناس في المسجد ، وقعد هؤلاء حول المنبر .

٢٤٩ — خطبة معاوية

حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم ذكر يزيد وفضله وقراءته للقرآن ، ثم قال :
« يا أهل المدينة ، لقد هممتُ ببيعة يزيد ، وما تركتُ قرية ولا مَدْرَةَ^(٣) إلا بعثتُ إليها ببيعته ، فبايع الناس جميعاً وسلموا ، وأخرتُ المدينة ببيعته ، وقلتُ : بِيَضْتُهُ^(٤) ، وأصله ومن لا أخافهم عليه ، وكان الذين أبوا البيعة ، منهم من كان أجدر أن يصله . والله لو علمتُ مكان أحد هو خير للمسلمين من يزيد لبايعت له » .
فقال الحسين فقال : « والله لقد تركتُ مَنْ هو خيرٌ منه أباً وأماً ونفساً ! فقال معاوية « كأنك تريد نفسك ؟ » فقال الحسين : « نعم . أصلحك الله » ! فقال معاوية : « إذن أخبرك ، أما قولك : خيرٌ منه أما ، فالعمرى أمك خيرٌ من أمه ، ولو لم يكن إلا أنها امرأة من قریش ، لكان نساء قریش أفضلهن . فكيف وهي ابنة رسول الله صلى

(١) أى دخلت ، جحر الضب كنع : دخل الجحر ، وجحر فلان الضب : أدخله فيه ، فانجحر .

(٢) التأيب : التحريض والإفساد . (٣) المدرة : المدينة . (٤) جماعته وأصله .

الله عليه وسلم ثم فاطمة في دينها وسابقتها؟ فأمكن لعمر الله خير من أمه^(١) . وأما أبوك فقد حاكم أباه إلى الله ، ففضى لأبيه على أبيك » . فقال الحسين : « حَسْبُكَ جَهْلُكَ . آتَرَ العَاجِلَ عَلَى الآجِلِ » . فقال معاوية : « وأما ما ذكرت من أنك خير من يزيد نفساً ، فيزيدُ والله خير لأمة محمد منك » . فقال الحسين : « هذا هو الإفك والزور ! يزيدُ شاربُ الخمر . ومشتريُ اللهو خيرٌ مني ! » فقال معاوية : « مهلاً عن شتم ابن عمك . فإنك لو ذكرت عنده بسوء لم يَشْتُمَكَ » ، ثم التفت معاوية إلى الناس . وقال : « أيها الناس : قد علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قَبِضَ ولم يستخلف أحداً ، فرأى المسلمون أن يستخلفوا أبا بكر ، وكان أنت بيعته بيعة هُدَى ، فعمل بكتاب الله وسنة نبيه ، فلما حضرته الوفاة رأى أن يستخلف عمر ، فعمل عمر بكتاب الله وسنة نبيه ، فلما حضرته الوفاة رأى أن يجعلها شورى بين ستة نفر اختارهم من المسلمين ، فصنع أبو بكر ما لم يصنعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصنع عمر ما لم يصنعه أبو بكر ، كل ذلك يصنعونه نظراً للمسلمين ، فلذلك رأيت أن أبايع ليزيد ، لِمَا وقع الناس فيه من الاختلاف . ونظراً لهم بين الإنصاف » .

* * *

وروى من طريق آخر : أن معاوية لما خرج إلى المدينة ودنا منها ، استقبله أهلها ، فيهم : عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، والحسين بن علي ، وعبد الرحمن بن أبي بكر ؛ فأقبل علي عبد الرحمن بن أبي بكر ، فسبّه وقال : « لا مرحباً بك ولا أهلاً » ؛ فلما دخل الحسين عليه قال : « لا مرحباً بك ولا أهلاً ، بَدَنَةٌ^(٢) يتفرق دَمُها والله مُهَرِّيقُه » ؛ فلما دخل ابن الزبير قال : « لا مرحباً بك ولا أهلاً ، ضَبٌّ تَلْمَعَةٌ^(٣) ، مُدْخَلُ رَأْسِهِ تَحْتَ ذَنَبِهِ » ؛ فلما دخل عبد الله بن عمر قال : « لا مرحباً بك ولا أهلاً ، وسبّه » ، فقال :

(١) وأم يزيد هي ميسون بنت بحدل الكلبية . (٢) البدنة : من الإبل والبقر كالأضحية من الغنم

تهدي إلى مكة ، للذكر والأنثى . (٣) التلمعة : ما ارتفع من الأرض وما انهبط منها .

« إني لست بأهل لهذه المقالة » قال : « بلى ، وليا هو شرّ منها » فدخل معاوية المدينة وأقام بها ، وخرج هؤلاء الرّهط معتمرين ، فلما كان وقت الحجّ خرج معاوية حاجًا ، فأقبل بعضهم على بعض ، فقالوا : امله قد ندم ، فأقبلوا يستقبلونه ، فلما دخل ابن عمر ، قال : « مرحبًا بصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن الفاروق ، هاتوا لأبي عبد الرحمن دابة » ، وقال لابن أبي بكر : « مرحبًا بشيخ قریش وسيدها وابن الصديق ، هاتوا له دابة » ، وقال لابن الزبير : « مرحبًا يا ابن حوّارى رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته ، هاتوا له دابة » ، وقال للحسين : « مرحبًا يا ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسيد شباب المسلمين ، قرّبوا لأبي عبد الله دابة ، وجعلت أطفاه^(١) تدخل عليهم ظاهرة يراها الناس ، ويحسّن إذنتهم وشفاعتهم وحملهم على الدواب ، وخرج حتى أتى مكة ، ففضى حجه ، ولما أراد الشخصوص أمر بأثقاله فقدمت ، وأمر بالمنبر فقرّب من الكعبة ، ثم أرسل إليهم ، فاجتمعوا ، وقال بعضهم لبعض : من يكلمه ؟ فأقبلوا على الحسين فأبى ، فقالوا لابن الزبير : هات ، فأنت صاحبنا . قال : على أن تعطوني عهد الله أن لا أقول شيئًا إلا تابعتموني عليه . قالوا : لك ذلك ، فأخذ عهدهم رجال رجالا ، فدخلوا عليه ، فرحبّ بهم ، وقال : قد علمتم نظري لكم ، وتعطفى عليكم ، وصليت أرحامكم ، ويزيد أخوكم وابن عمكم ، وإنما أردت أن أقدمه باسم الخلافة ، وتكونوا أنتم تأمرون وتنهون ، فسكتوا ، فقال : أجيئوني ، فسكتوا ، فقال : أجيئوني ، فسكتوا ، فقال : لابن الزبير : هات فأنت صاحبهم قال :

٢٥٠ — خطبة عبد الله بن الزبير

« نحيّرك بين إحدى ثلاث ، أيها أخذت فهي لك رغبة ، وفيها خيار ؛ إن شئت فاصنع فيما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قبضه الله ولم يستخلف أحدًا ، فرأى

(١) الألفاظ : جمع لطفة بالتحريك ، وهي الهدية .

المسلمون أن يستخلفوا أبا بكر ، فدفع هذا الأمر حتى يختار الناس لأنفسهم ، وإن شئت فما صنع أبو بكر ، عهد إلى رجل من قاصية قريش وترك من ولده ومن رهطه الأذنين من كان لها أهلا ، وإن شئت ، فما صنع عمر ، جعلها شورى في ستة نفر من قريش يختارون رجلا منهم ، وترك ولده وأهل بيته ، وفيهم من لو وليها لكان لها أهلا .

فقال معاوية : هل غير هذا ؟ قال : لا ، ثم قال للآخرين : ما عندكم ؟ قالوا : نحن على ما قال ابن الزبير ، فقال معاوية : « إني أتقدم إليكم ، وقد أعذر من أنذر ، إني قائم فقاتل مقالة ، فإياكم أن تعترضوا عليّ حتى أنتمها ، فإن صدقت فعليّ صدقتي ، وإن كذبت فعليّ كذبي ، وأقسم بالله لئن ردّ عليّ رجل منكم كلمة في مقامى هذا ، لا ترجع إليه كلمته ، حتى يضرب رأسه ، فلا ينظر امرؤ منكم إلا إلى نفسه ، ولا يُبقي إلا عليها ، وأمر أن يقوم على رأس كل رجل منهم رجلان بسيفيهما ، فإن تكلم بكلمة يردّ بها عليه قواه قتلاه ، وخرج وأخرجهم معه ، حتى رقي المنبر ، وحف به أهل الشام ، واجتمع الناس ، فقام خطيباً فقال :

٢٥١ - خطبة معاوية

قال بعد حمد الله ، والثناء عليه : إنا وجدنا أحاديث الناس ذات عوار^(١) ، قالوا إن حسيناً ، وابن أبي بكر ، وابن عمر ، وابن الزبير لم يبايعوا ليزيد ، وهؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم ، لا نبرم أمراً دونهم ، ولا نقضى أمراً إلا عن مشورتهم ، وإني دعوتهم فوجدتهم سامعين مطيعين ، فبايعوا وسلموا وأطاعوا .

فقال أهل الشام : وما يعظم من أمر هؤلاء ؟ أيذن لنا فنضرب أعناقهم ، لا نرضى حتى يبايعوا علانية ، فقال معاوية : سبحان الله ! ما أسرع الناس إلى قريش بالشر ،

(١) العوار : مثلثة : العيب .

وأحلى دماءهم عندهم ، أنصتوا فلا أسمع هذه المقالة من أحد ، ودعا الناس إلى البيعة فبايعوا
ثم قرّبت رواحله ، فركب ومضى ، فقال الناس للحسين وأصحابه : قلم لا نبايع ، فلما
دُعيتم وأرضيتم بايعتم . قالوا : لم نفعل . قالوا : بلى قد فعلتم وبايعتم ، أفلا أنكرتم ؟
قالوا : خفنا القتل وكادكم بنا وكادنا بكم .

(العقد الفريد ٢ : ٢٤٧ - ١٥٧ ، الإمامة والسياسة ١ : ١٢١ ، ومروج الذهب ٢ : ٦٩ ،
والأمالي ٢ : ٧٣ ، وذيل الأمالي ص ١٧٧ ، وعيون الأخبار م ٢ ص ٢١٠ ، ١ : ٩٥ ،
والبيان والتبيين ١ : ١٦٣ - ١٦٤) .

تهنئة وتعزية

٢٥٢ - خطبة عبد الله بن همام السلولى

لما توفي معاوية واستخلف يزيد ابنه (سنة ٦٠) اجتمع الناس على بابه ، ولم يقدرُوا
على الجمع بين تهنئة وتعزية ، حتى أتى عبد الله بن همام السلولى فدخل عليه فقال :
« يا أمير المؤمنين ، آجرك الله على الرزية ، وبارك لك في العطية ، وأعانك على الرعية ،
فانقد رزئت عظيماً ، وأعطيت جسيماً ، فاشكر الله على ما أعطيت ، واصبر له على ما رزيت
فقد فقدت خليفة الله ، ومُنحتَ خلافة الله ، ففارقت جليلاً ، ووُهبَتَ جزيلاً ، إذ قضى
معاوية نَحْبَهُ ، فغفر الله ذنبه ، ووُلِّيتَ الرياسة ، فأعطيت السياسة ، فأورَدَكَ اللهُ موارد
السُرور ، ورفقك لصالح الأمور ، وأشد :

فاصبر يزيدُ فقد فارقتَ ذائِقَةً واشكر حِباءَ الذى بالملك أصفاك^(١)
لا رزءَ أصبح فى الأقوام نعلمه كما رزيتَ ، ولا عُنْبِي كعقبا كما
أصبحت وإلى أمر الناس كأنهم فأنت ترعاهُ والله يرعاه كما
وفى معاويةَ الباقي لفا خلفٌ إذا نُعِيتَ ، ولا نسمعُ بمنعاً كما^(٢)

« وعبد الله بن همام هو أول من فتح الباب فى الجمع بين تهنئة وتعزية ، فوجه

الناس ، كما روى من غير وجه . »

(زهر الآداب ١ : ٦١ ، ونهاية الأرب ٥ : ٢١٥ ، وتهذيب الكامل ١ : ١٦ ، والمقد الفريد

٢ : ١٤١ - ٣٥ - ٢٥٠ ، ومروج الذهب ٢ : ٩٣ ، والبيان والتبيين ٢ : ٦٦) .

(١) أصفاه : آثره . (٢) هو أبو ايلي معاوية بن يزيد .

٢٥٣ - خطبة عطاء بن أبي صيفي الثقفي

وروى المسعودي أن يزيد بعد موت أبيه أذن للناس ، فدخلوا عليه لا يدرون أيهنثونه أم يعزونه ، فقام عطاء بن أبي صَيْفِيّ ، فقال :

« السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، أصبحت وقد رُزئت خليفة الله وأعطيت خلافة الله ، ومُنحت هبة الله ، وقد قضى معاوية نحبه ، ففقر الله له ذنبه ، وأعطيت بعده الرياسة ، ووليت السياسة ، فأحتسب^(١) عند الله أعظم الرزية ، وأحمدَه على أفضل العطية » .

(مروج الذهب ٢ : ٩٣ ، والبيان والتبيين ٢ : ١٠٢ ، تهذيب الكامل ١ : ١٦ ،

وصبح الأعشى ٩ : ٢٧٨ ، (والعقد الفريد ٢ : ٣٥)

٢٥٤ - خطبة عبد الله بن مازن

ثم قام عبد الله بن مازن ، فقال :

« السلام عليك يا أمير المؤمنين ، رُزئت خير الآباء وُسُميت خير الأسماء ، ومُنحت أفضل الأشياء ، فهناك الله بالعطية ، وأعانك على الرعية ، فقد أصبحت قریش مَفجوعةً يبعُدُ ساستها ، مسرورة بما أحسن الله إليها من الخلافة بك ، وَالْعُقْبَى من بعده ، ثم أنشأ يقول :

الله أعطاك التي لا فوقها وقد أراد المُلجِدون عَوْقها
عَمك فيأبى الله إلا سَوْقها إليك ، حتى قَلدُوك طَوْقها

ثم قام عبد الله بن همام فخطب خطبته السالفة . (مروج الذهب ٢ : ٩٣)

(١) احتسب به اجرا عند الله : اعتمده ينوى به وجه الله (واحتسب ابنه إذا مات كبيرا ، فإن مات

صغيرا قيل افتطرطه) .

٢٥٥ - خطبة غيلان بن مسلمة الثقفي

وروى الجاحظ : أنه لما توفي عبد الملك ، وجلس ابنه الوليد دخل عليه الناس وهم

لا يدرون أيهنثونه أم يعزونه ، فأقبل غيلان بن مسلمة الثقفي ، فسلم عليه ، ثم قال :

« يا أمير المؤمنين ، أصبحت قد رزئتَ خيرَ الآباء ، وسميتَ خيرَ الأسماء ، وأُعطيتَ

أفضلَ الأشياء ، فمظمَ اللهُ لك على الرزية الصبر ، وأعطاك في ذلك نوافل^(١) الأجر ،

وأعانك على حسن الولاية والشكر ، ثم قضى عبد الملك^(٢) بجزير القضية ، وأنزله

بأشرف المنازل المرضية ، وأعانك من بعده على الرعية » . (البيان والتبيين ٢ : ١٠٣)

(١) النافلة في الصلاة وغيرها : الزيادة . (٢) أي قضى على عبد الملك باسقاط الجار .

خطب ولاة الأمويين وقوادهم

خطب زياد بن أبيه المتوفى سنة ٥٣

٢٥٦ - خطبته بفارس وقد كتب إليه معاوية يتهدده

كان الإمام عليّ عليه السلام ولّى زياداً فارس - أو بعض أعمال فارس - فضبطها
ضبطاً صالحاً ، وجبّ خراجها وحماها ، فلما قتل الإمام بقي زياد في عمله ، وخاف معاوية
جانبه ، وعلم صعوبة ناحيته ، وأشفق من عمالاته الحسن بن عليّ ، عليه السلام ، فكتب
إليه يتهدده^(١) ، فغضب زياد غضباً شديداً ، وجمع الناس ، وصعد المنبر ، فحمد الله ،
ثم قال :

« العجبُ من ابنِ آكلةِ الأَكبادِ^(٢) ، وقائلةِ أسدِ الله ، ومُظهِرِ الخِلافِ ، ومُسَرِّ
النفاقِ ، ورئيسِ الأحزابِ ، ومن أنفق ماله في إطفاء نور الله ، كتب إلى يرعد ويبرق^(٣) »

(١) وما ورد في كتابه إليه قوله : « أمس عبد ، واليوم أمير ! خطة ما ارتقاها مثلك يا ابن سمية ، وإذا
لثامك كتابي هذا ، فخذ الناس بالطاعة والبيعة ، وأمرع الإجابة ، فإنك إن تفعل فدمك حقت ، ونفسك
تداركت ، وإلا اختطفتك بأضعف ريش ، ونلتك بأهون سمي ، وأقسم قسما مبرورا أن لا أوق بك إلا في
زمارة ، تمشي حافيا من أرض فارس إلى الشام ، حتى أقمك في السرق ، وأبيمك عبدا ، وأردك إلى حيث
كنت فيه وخرجت منه . » (٢) هي هند أم معاوية ، وذلك أنها بعد انتهاء غزوة أحد بقرت بطن حمزة
ابن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم ، وأخذت كبده لتأكلها ، فلا كتبها ثم أرسلتها ، وكان قد قتله
وحشى مولى جبير بن مطعم ، دعاه سيده وقال له اخرج مع الناس ، فإن أنت قتلت حمزة بعمى طعمية فأنت حر .
(٣) رعد الرجل وبرق (كنصر) وأرعد وأبرق : تهدد وتوعد .

عن سحابة جَفَلٍ^(١) لا ماء فيها ، وعمّا قليل تصيرها الرياح قزعا^(٢) ، والذي يدلّني على ضعفه تهّدده قبل القدرة ، أفن إشفاق على تَنْذِرٍ وتُعْذِرٍ ؟ كلا ، ولكن ذهب إلى غير مذهب ، وقَعَمَعَ^(٣) لمن روى بين صواعق تِهَامَةَ^(٤) ، كيف أرهبه وبينى وبينه ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله ، وابنُ ابنِ عمه في مائة ألف من المهاجرين والأنصار؟ والله لو أذن لي فيه أو ندبني إليه ، لأرَيْتَهُ الكواكب نهارًا ، ولأَسْعَطَنَهُ^(٥) ماء الخردل دونه ، الكلامُ اليوم ، والجمع غداً ، والمشورة بعد ذلك إن شاء الله « ثم نزل .
(شرح ابن أبي الحديد م ٤ ص ٦٨ ، وتاريخ الطبرى ٦ : ٩٧)

٢٥٧ - خطبته وقد بعث معاوية إليه المهيرة بن شعبة يستقدمه

وكتب إلى معاوية يردّ عليه ردّا شديد اللهجة^(٦) ، فغمّ ذلك معاوية وأحزنه ، وأوفد إليه المهيرة بن شعبة بكتاب يتلطّف به فيه ويستدنيه منه ، ويستلحقه بنسب أبيه

(١) الجفل : السحاب هراق مائه ومضى . (٢) القزع : قطع من السحاب رقيقة .
(٣) القعقعة : صوت الرعد ، وتحريك الشيء اليابس الصلب مع صوت ٤ ومنه « مايقمع له بالشنان »
وسياق تفسيره في خطبة الحجاج . (٤) روى : ارتوى ، والمراد نشأ وترعرع بينها ، ولعله (ربى) وذكروا أنه لما نصب الحجاج المجانيق لقتال عبد الله بن الزبير ، أظلمت سحابة فأرعدت وأبرقت وأرسلت للصواعق ، ففرح الناس وأمسكوا عن القتال ، فقام فيهم الحجاج ، فقال : « أيها الناس لا يهولنكم هذا فإني أنا الحجاج بن يوسف ، وقد أصحرت لربي ، فلو ركبتنا عظيما لحال بيننا وبينه ، ولكنها جبال تامة لم تزل الصواعق تنزل بها » . (٥) سعطه الدواء كتمه ونصره وأسعطه إياه : أدخله في أفقه .
(٦) ونص كتابه إليه : « أما بعد ، فقد وصل إلى كتابك يامعاوية ، وفهمت ما فيه ، فوجدتك كالغريق يغطيه الموج فيتشبث بالطحلب ، ويتعلق بأرجل الضفادع طمعا في الحياة ، إنما يكفر للتمم ويستدعى النقم من حاد الله ورسوله ، وسمى في الأرض فسادا . فأما سبك لي فلولا حلم يمهاني عنك ، وخوفى أن أدعى سفيا لأثرت لك مخازي لا يفسلها الماء . وأما تميرك لي بسمية ، فإن كنت ابن سمية فأنت ابن حماتة . وأما عملك أنك تخططنى بأضعف ريش وتتناولنى بأهون سمي ، فهل رأيت بازيا يفزعه صغير القنابر؟ أم هل سمعت بذئب أكله خروف؟ فامض الآن لطيتك ، واجهد جهدك ، فلت أزل إلا بحيث تكره ، ولا أجتهد إلا فيما يسوءك ، وستعلم أيانا الخاضع لصاحبه ، الظالم إليه والسلام » .

أبي سفيان^(١) ، وجعل المغيرة يترفق به ، وينصح له أن يصل حبله بحبله ، ولا يقطع رَحْمَهُ ، فترت زياد يومين أو ثلاثة يروى في أمره ، ثم جمع الناس ، فصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : ادفنوا البلاء ما اندفع عنكم ، وارغبوا إلى الله في دوام العافية لكم ، فقد نظرتُ في أمور الناس منذُ قتل عثمان ، وفكرتُ فيهم فوجدتهم كالأضاحي . في كل عيدٍ يُذبحون ، واقد أفنى هذان اليومان : يوم الجمل وصفين ما يُذيف على مائة ألف ، كلُّهم يزعمُ أنه طالبُ حقٍّ ، وتابعُ إمامٍ ، وعلى بصيرةٍ من أمره ، فإن كان الأمر هكذا ، فالقاتلُ والمقتولُ في الجنة ، كلاً : ليس كذلك ولكن أشكل الأمر ، والتبسَ على القوم ، وإني لخائفٌ أن يرجع الأمر كما بدأ ، فكيف لامرئٍ بسلامة دينه ، وقد نظرتُ في أمر الناس ، فوجدتُ أحمدَ العاقبتين العافية ، وسأعملُ في أموركم ما تحمدون عاقبته ومغيبته ، فقد حمدت طاعتكم إن شاء الله » ثم نزل .

وكتب إلى معاوية يستوثق منه^(٢) ، فأعطاها معاوية جميع ما سأله ، وكتب إليه بخط يده ما وثق به ، فدخل إليه الشام ، فقر به وأدناه ، وأقره على ولايته ، ثم استعمله على العراق .
(شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ٦٩)

(١) وكانت ديباجة كتابه إليه : « من أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان إلى زياد بن أبي سفيان » وفيه يقول : « وحملك سوء ظنك بي ، وبفضك لي هل أن عتقت قرابتي ، وقطعت رحمتي ، وبتت نسبي وحرمتي ، كأنك لست أخي ، وليس صخر بن حرب أباك وأبي ! » وفي آخره يقول : « فإن أحببت جانبي ووثقت بي ، فإمزة بإمرة ؛ وإن كرهت جانبي ، ولم تثق بقولي ، ففعل جميل ، لاعلى ولالي والسلام » .

(٢) وفي كتابه يقول : « إن كنت كتبت كتابك هذا عن عقد صحيح ، ونية حسنة ، وأردت بذلك برا فستزرع في قلبي مودة وقبولا ، وإن كنت إنما أردت مكيدة ومكرا وفساد نية ، فإن النفس تأتي ما فيه العطب ، ولقد قتت يوم قرأت كتابك مقاما يعيا به الخطيب المدره ، فتركت من حضر ، لأهل ورد ، ولا صدر ، كالمتحيرين بمهمه ضل بهم الدليل ، وأنا على أمثال ذلك قدير » .

٢٥٨ - خطبته وقد استلحقه معاوية

ولما أراد معاوية استلحاق زياد ، وقد قدم عليه الشام ، جمع الناس وصعد المنبر ، وأصعد زيادا معه ، فأجلسه بين يديه على المِرْقَاة^(١) التي تحت مرقاته ، وحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : إني قد عرّفت نَسَبَنَا أهل البيت في زياد ، فن كان عنده شهادة فليقم بها » ، فقام ناس ، فشهدوا أنه ابن أبي سفيان ، وأنهم سمعوا ما أقر به قبل موته^(٢) ، فلما انقضى كلام معاوية ومناشدته ، قام زياد وأنصت الناس ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

(١) المِرْقَاة بفتح الميم وتكسر : الدرجة . (٢) فقام أبو مريم السلولى - وكان خارا في الجاحلية فقال : أشهد يا أمير المؤمنين أن أبا سفيان : قدم علينا بالطائف ، فأتاني ، فاشتريت له لحما ونجرا وطعاما ، فلما أكل قال : يا أبا مريم ، أصيب لي بغيا ، فخرجت فأتيت سمية ، فقلت لها : إن أبا سفيان من قد عرفت شرفه وجوده وقد أمرني أن أصيب له بغيا ، فهل لك ؟ فقالت : نعم يجيء الآن عبيد بغنمه - وكان راعيا - فإذا تعشى ووضع رأسه أتيته ، فرجعت إلى أبي سفيان فقلت لم أجد إلا جارية الحرث بن كلدة سمية ، فقال : ائنتي بها على ذفرها وقذرها ، فقال له زياد : مهلا يا أبا مريم ، إنما بعثت شاهدا ، ولم تبعث شاهدا ، فقال أبو مريم : لو كنتم أعفيتموني لكان أحب إلى ، وإنما شهدت بما عاينت ورأيت ، والله لقد أخذ بكم درعها ، وأغلقت الباب عليهما ، فلم ألبث أن خرج على يمسح جبينه ، فقلت : مه يا أبا سفيان ، فقال : ما أصبت مثلها يا أبا مريم لولا استرخاه من ثديها ، وذفر في إبطها - والذفر بالتحريك ويسكن : النتن ، والذفر بالتحريك : كلى ريح ذكية من طيب أو نتن أو يخص برائحة الإبط المنتنة - وكانت أمه سمية قد وهبها أبو الخير بن عمرو السكندى للحارث بن كلدة - وكان طبيبا يعالجه - فولدت له على فراشه نافعا ، ثم ولدت أبا بكرة ، فأنكر لوفه ، وقيل له إن جاريتك بغى ، فانتقى من أبي بكرة ومن نافع ، وزوجها عبيدا وكان عبدا لابنته ، فولدت على فراشه زيادا .

وذكروا أن عمر بن الخطاب كان قد بعث زيادا في إصلاح فساد واقع باليمن ، فلما رجع من وجهه خطب عند عمر خطبة لم يسمع بمثلها ، وهو غلام حدث ، وأبو سفيان حاضر ، وعلى عليه السلام ، وعمرو ابن العاص ، فقال عمرو : لله أبو هذا الغلام لو كان قرشيا لساق العرب بعصاه ، فقال أبو سفيان : أما والله -

« أيها الناس : هذا أمرٌ لم أشهدْ أوَّلَه ، ولا عِلْمَ لِي بِآخِرِهِ ، وقد قال أمير المؤمنين ما بلغكم ، وشهدت الشهود بما سمعتم ، فالحمد لله الذي رفع مِنَّا ما وضع الناس ، وحفظ مِنَّا ما ضيَّعوا ، فأما عبيدٌ فإنما هو والد مَبْرُور ، أو ربيبٌ^(١) مشكور » ثم نزل .

(شرح ابن أبي الحديد ٤ : ص ٧٠ ، والعقد الفريد ٢ : ١٥١ ، ٣ : ٣ ،

ومروج الذهب ٢ : ٥٦ ، وذيل الأمل ١٨٩)

٢٥٩ - خطبته حين ولي البصرة (وهي البتراء)

وقدم زياد البصرة « غرة جمادى الأولى سنة ٤٥ هـ » واليا معاوية بن أبي سفيان ، وضم إليه خراسان وسجستان ، والفستق بالبصرة كثير فاشي ظاهر ، فخطب خطبة ببراء لمحمد الله فيها ، وقيل بل قال :

« الحمد لله على إفضاله وإحسانه ، ونسأله المزيد من نعمه وإكرامه . اللهم كما زدتنا نعمًا فألهمنا شكرًا » أما بعدُ : فإن الجهالة الجاهلاء^(٢) ، والضلالة العمياء ، والنبي الموقى بأهله على النار ، ما فيه سهاؤكم ، ويشتمل عليه حُلماؤكم^(٣) ، من الأمور العظام ، ينبت فيها الصغير ، ولا يتحاشى عنها الكبير ، كأنكم لم تقرءوا كتاب الله ، ولم تسمعوا

= إنه لقرشي ، ولو عرفته لعرفت أنه خير من أهلك ، فقال : ومن أبوه ؟ قال : أنا والله وضعت في رحم أمه ، قال : فهلا تسلحته ، قال : أخاف هذا العير الجالس أن يخرق على إهابي .

ومن كتاب لعل عليه السلام إلى زياد ، وقد بلغه أن معاوية كتب إليه يريد خديمته باستلحاقه : « وقد كان من أبي سفيان في زمن عمر بن الخطاب فلتة من حديث النفس ، ونزعة من نزغات الشيطان لا يثبت بها نسب ، ولا يستحق بها إرث » فلما قرأ زياد الكتاب قال : شهد بها ورب الكعبة ، ولم تنزل في نفسه حتى ادعاه معاوية ، وكان يقال له : زياد بن عبيد ، وزياد بن أبيه ، وزياد بن سمية ، وزياد بن أمه ، ولما استلحق قال له أكثر الناس : زياد بن أبي سفيان ، قال الطبري : « وفي سنة ٤٤ استلحق معاوية نسب زياد بن سمية بأبيه أبي سفيان فيما قيل » . (١) الربيب هنا : زوج الأم . (٢) هذا الوصف توكيد للمبالغة ، ومثله : وتد وائد ، وهمج هامج ، وإيلة ليلاء ، ويوم أيوم (أي شديد ، أو آخر يوم في الشهر) . (٣) عقلاؤكم .

ما أعدَّ اللهُ من الثواب الكريم لأهل طاعته ، والعباد الأليم لأهل معصيته ، في الزمن
السَّرمَدِيّ^(١) الذي لا يزول ، أتكونون كمن طرَفَتْ^(٢) عينيه الدنيا ، وسَدَّتْ مسامعَه
الشهواتُ ، واختارَ الفانية على الباقية ، ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدَثَ الذي
لم تُنسَبُوا إليه ، مِنْ تَرَ كسَم الضعيفَ يُقَهَّر ويؤخذ ماله ، هذه المواخير^(٣) المنصوبة ،
والضعيفة المسلوقة في النهار المبصر ، والعدد غير قليل ، ألم يكن منكم نهاةٌ ، تمنع الغواة^(٤)
عن دَاج^(٥) الليل ، وغارة النهار ؟ قرَّتم القرابة ، وباعدتم الدين ! تعذرون بغير العذر ،
وتغضون على المختلس ، كلُّ امرئٍ منكم يذُب^(٦) عن سفيهه ، صَنِيعَ من لا يخاف
عاقبةً ولا يرجو معادًا ، ما أنتم بالعلماء ، ولقد اتبعتم السفهاء ، فلم يزل بكم ما تروون
من قيامكم دونهم ، حتى انتهكوا حرْم^(٧) الإسلام ، ثم أطرقوا وراءكم ، كَنُوسًا
في مكانسِ الرِّيب^(٨) ، حرامٌ على الطعام والشراب ، حتى أسويها بالأرض هدمًا واحراقًا .
إني رأيت آخرَ هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله ، لين في غير ضعف ،

(١) الدائم . (٢) طرف عينه : أصابها بشيء فدمعت ، وطرف بصره : أطبق أحد جفنيه
على الآخر ، وطرفه عنه كضربه : صرفه ورده . (٣) جمع ماخور : وهو بيت الريبة معرب
أر عربي من مخرت السفينة لتردد الناس إليه . (٤) جمع ناه ، وغواة جمع غاو .
(٥) السير من أول الليل ، وقد أذلجوا ، فإن ساروا من آخره فاذلجوا بالتشديد .
(٦) يدفع . (٧) جمع حرمة ، وهي ما لا يحل انتهاكه . روى الشعبي قال : « لما خطب زياد
خطبته البتراء بالبصرة ونزل ، سمع تلك الليلة أصوات الناس يتحارسون ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : إن البلد
مفتون ، وإن المرأة من أهل المصر لتأخذها الفتيان الفساق ، فيقال لها : نادى ثلاثة أصوات ، فإن أجابك
أحد ، وإلا فلا لوم علينا فيما نصنع ! » . (٨) كنوس جمع كانس : أي مستتر كقعود وجلوس جمع قاعد
وجالس ، وأصله من كنس الظبي كضرب : دخل في كناهه (ككتاب) وهو مستتره من للشجر ، وجمع
كانس أيضا على كنس (كرمع) ومنه الجوارى الكنس (وهي الخنس) وهي الكواكب السيارة ، أو للنجوم
الخمسة : زحل ، والمشتري ، والمريخ ، والزهرة ، وعطارد . لأنها تكنس في المغيب كالظباء في الكنس
(ككتب) ، أو هي كل النجوم لأنها تبدو ليلا وتختفي نهارا (وخنوسها أنها تغيب كما يخنس الشيطان إذا ذكر
الله عز وجل) ومكانس الريب : مكانها المستورة جمع مكنس كجلس .

وشدة في غير عنف ، وإني أقسم بالله لآخذنّ الولي^(١) بالمولى ، والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمُدبر ، والمطيع بالعامي ، والصحيح منكم في نفسه بالسقيم ، حتى يلقى الرجل منكم أخاه ، فيقول : « أبحُ سعدُ فقد هلك سعيد^(٢) » أو تستقيم لي قناتكم^(٣) ، إن كذبة المنبر بَلَقَاهُ^(٤) مشهورة ، فإذا تعلقم على بكذبة فقد حلت لكم مصيبتى^(٥) ، فإذا سمعتموها مني فاغتمزوها^(٥) في ، واعلموا أن عندي أمثالها ، من نَقِبَ منكم عليه فأنا ضامن لما ذَهَبَ منه^(٦) فَيَأْتِي ودَلَجَ الليل ، فإني لا أوتى بِمُدْجٍ إِلَّا سَفَكْتُ دمه ، وقد أجلتكم في ذلك بمقدار ما يأت الخبر الكوفة ويرجع إليكم^(٧) ، وإلأى ودَعَوَى الجاهلية^(٨) ، فإني لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعْتُ لسانه ، وقد أحدثتم أحداً لم تكن ، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبةً ، فمن غرَّق قومًا غرقناه ، ومن أحرق قومًا أحرقناه ، ومن نَقِبَ

- (١) الولي : السيد ، والمولى هنا : العبد . (٢) سعد وسعيد هما ابنا ضبة بن أد خرجا في طلب إبل لأبيهما ، فوجدها سعد فردها وقتل سعيد ، فكان ضبة إذا رأى سوادا تحت الليل قال : سعد أم سعيد ؟ .
- (٣) من البلق بالتحريك : وهو ارتفاع التحجيل في الفرس إلى الفخذين (والتحجيل : بياض في قوائم الفرس) ، والفرس البلقاء مشهورة لتمييزها عما سواها ببلقها . (٤) في الطبري « قال الشعبي : فوالله ما تعلقنا عليه بكذبة ، ولا وعدنا خيرا ولا شرا إلا أنفذه » . (٥) عدوها من عيوني ، واغتمزه : طعن عليه .
- (٦) في الطبري : « وكان زياد أول من شد أمر السلطان ، وأكد الملك لمعاوية ، وألزم الناس الطاعة ، وتقدم في العقوبة ، وجرّد السيف ، وأخذ بالظنة ، وعاقب على الشبهة ، وخافه الناس في سلطانه خوفا شديدا ، حتى أمن الناس بعضهم بعضا ، حتى كان الشيء يسقط من الرجل أو المرأة ، فلا يعرض له أحد ، حتى يأتيه صاحبه ، فيأخذه ، وتبيت المرأة فلا تغلق عليها بابها ، وسام الناس سياسة لم ير مثلها ، وهابه الناس هيبة لم يهابوها أحدا قبله ، وكان يقول : « لو ضاع حبل بيني وبين خراسان علمت من أخذه » .
- (٧) في الطبري : « استعمل زياد على شرطته عبد الله بن حصن ، فأهمل الناس حتى بلغ الخبر الكوفة وهاد إليه وصول الخبر إلى الكوفة ، وكان يؤخر العشاء حتى يكون آخر من يصلي ، ثم يصلي ، يأمر رجلا يقرأ سورة البقرة ومثلها ، يرتل القرآن ، فإذا فرغ أهمل بقدر ما يرى أن إنسانا يبلغ الخريبة (كجنيثة موضع بالبصرة يسمى البصيرة الصغرى) ثم يأمر صاحب شرطته بالخروج فيخرج ، ولا يرى إنسانا إلا قتله فأخذ ليلة أعرابيا ، فأتى به زيادا ، فقال : هل سمعت النداء ؟ قال : لا والله ، قدمت بحلوبة لي ، وغشيتني الليل فاضطررتها إلى موضع ، فأنت لأصبح ، ولا علم لي بما كان من الأمير ، قال : أظنك والله صادقا ، ولكن في قتلك صلاح هذه الأمة ، ثم أمر به فضربت عنقه » . (٨) قولهم : يالفلان ، والغرض مناصرة العصبية .

بَيْتًا نَقَبْنَا عَنْ قَلْبِهِ ، وَمَنْ نَبَشَ قَبْرًا دَفَنَاهُ حَيًّا فِيهِ ، فَكَفُّوا عَنِّي أَيْدِيكُمْ وَالسِّنِّكُمْ ،
أَكْفُفْ عَنكُمْ يَدِي وَلِسَانِي ، وَلَا تَظْهَرْ مِنْ أَحَدٍ مِنْكُمْ رِيْبَةً بَخْلَافٍ ^(١) مَا عَلَيْهِ عَامَّتْكُمْ
إِلَّا ضَرَبْتُ عُنُقَهُ ، وَقَدْ كَانَتْ بَيْنِي وَبَيْنَ أَقْوَامٍ إِحْنٌ ^(٢) ، فَجَعَلْتُ ذَلِكَ دَبْرًا أَذْنِي ^(٣)
وَتَحْتِ قَدَمِي ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُحْسِنًا فَلْيَزِدْ إِحْسَانًا ، وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُسِيئًا فَلْيَنْزِعْ
عَنْ إِسَاءَتِهِ ، إِي لَوْ عَلِمْتُ أَنَّ أَحَدَكُمْ قَدْ قَتَلَ السُّلَّ مِنْ بُغْضِي لَمْ أَكْشِفْ لَهُ قِنَاعًا ، وَلَمْ
أَهْتِكْ لَهُ سِتْرًا ، حَتَّى يُبْدِيَ لِي صَفْحَتَهُ ^(٤) ، فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ لَمْ أَنَاظِرْهُ ، فَاسْتَأْنَفُوا أُمُورَكُمْ ،
وَأَعِينُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، فَرُبَّ مُبْتَلِّسٍ بَقَدُومِنَا سَيِّسِرٌ ، وَمَسْرُورٍ بَقَدُومِنَا سَيِّبَتْسٌ .

أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّا أَصْبَحْنَا لَكُمْ سَاسَةً ، وَعَنُوكُمْ ذَادَةً ، نَسُوسُكُمْ بِسُلْطَانِ اللَّهِ الَّذِي
أَعْطَانَا ، وَنَذُودُ عَنْكُمْ بِقِيَّةِ اللَّهِ الَّذِي خَوَّلَنَا ^(٥) ، فَلَنَا عَلَيْكُمْ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِيمَا أَحْبَبْنَا ،
وَلَكُمْ عَلَيْنَا الْعَدْلُ فِيمَا وَلَيْنَا ، فَاسْتَوْجِبُوا عَدْلَنَا وَفِيئَنَا بِمَنَاصِحَتِكُمْ لَنَا ، وَاعْلَمُوا أَنِّي مَهْمَا
قَصَّرْتُ عَنْهُ ، فَلَنْ أَقْصُرَ عَنْ ثَلَاثٍ : لَسْتُ مُحْتَجِّبًا عَنْ طَالِبِ حَاجَةٍ مِنْكُمْ وَلَوْ أَنَّنِي طَارِقًا
بَلِيلٌ ، وَلَا حَابِسًا عَطَاءً وَلَا رِزْقًا عَنْ إِبَائِهِ ^(٦) ، وَلَا مُجَمَّرًا ^(٧) لَكُمْ بَعْمًا ، فَادْعُوا اللَّهَ
بِالصَّلَاحِ لِأُمَّتِكُمْ ، فَإِنَّهُمْ سَاسَتُكُمْ الْمُوَدَّبُونَ لَكُمْ ، وَكَهْفُكُمْ الَّذِي إِلَيْهِ تَأْوُونَ ، وَمَتَى
يَصْلَحُوا تَصْلَحُوا ، وَلَا تُشْرِبُوا قُلُوبَكُمْ بِغَضَبِهِمْ ، فَيَشْتَدُّ لَذَلِكَ غَيْظُكُمْ ، وَيَطُولَ لَهُ
حَزْنُكُمْ ، وَلَا تَذُرُّوهُ لَه حَاجَتِكُمْ ، مَعَ أَنَّهُ لَوْ اسْتُجِيبَ لَكُمْ فِيهِمْ لَكَانَ شَرًّا
لَكُمْ . أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَعْينَ كَلَّا عَلَى كُلِّ ، وَإِذَا رَأَيْتُمُونِي أَنْفِذْ فِيكُمْ الْأَمْرَ ، فَأَنْفِذُوهُ عَلَى

(١) أى تخالف ما اجتمع عليه عامة القوم . (٢) جمع إحنة : وهى الحقد والضغينة .

(٣) أى خلف أذن ، وقد اقتبسها من كلام معاوية كما مر بك . (٤) أى يجاهرني بالعداوة .

(٥) ملكنا . والقىء : ما كان شمساً فينسخه الظل ، والخراج ، أى تدفع عنكم بظل الله ونعمته التى

وهيئا ، أو تدفع عنكم بما صار فى أيدينا من أموال الخراج . (٦) وقته وموعده . (٧) جمر الجند :

حبسهم فى أرض العدو ولم يقللهم .

أذلاله^(١) ، وإيم الله إن لي فيكم لصرفي كثيرة ، فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرفي . »

فقام إليه عبد الله بن الأهمم فقال : « أشهدُ أيها الأمير لقد أوتيت الحكمة وفصل الخطاب » ، فقال له : « كذبت ذلك نبي الله داود صلوات الله عليه » فقام الأحنف ابن قيس ، فقال : « إنما الثناء بعد البلاء ، والحمد بعد العطاء ، وإنا لن نُذني حتى نبتلي » فقال له زياد : صدقت ، فقام أبو بلال مِرْدَاس^(٢) ابن أدية وهو يهنس ويقول : أنبأنا الله بغير ما قلت . قال الله تعالى : « وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ، أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى » وأنت تزعم أنك تأخذ البريء بالسقيم ، والمطيع بالعاصي والمقبل بالمدير ، فسمعها زياد ، فقال : « إنا لا نبغ ما نريد فيك وفي أصحابك حتى نخوض إليكم الباطل خوفاً » .

(البيان والتبيين ٢ : ٢٩ ، والعقد الفريد ٢ : ١٥٠ ، وصبح الأعشى ١ : ٢١٦ ،
وتاريخ الطبري ٦ : ١٢٤ ، والكامل لابن الأثير ٣ : ٢٢٦ ، وشرح ابن أبي الحديد
م ٤ : ص ٥٧ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤١ ، وذيل الأمالي ١٨٨)

٢٦٠ - خطبته بالكوفة وقد ضمت إليه

ولما مات المغيرة بن شعبه أمير الكوفة سنة ٥٥ هـ ، ضم معاوية الكوفة إلى زياد ، فكان أول من جُمِعَ له الكوفة والبصرة^(٣) ، فاستخلف على البصرة ، وشخص إلى الكوفة فأتاها ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« إن هذا الأمر أتاني وأنا بالبصرة ، فأردت أن أشخص إليكم في ألفين من شرطة

(١) أي وجوهه وطرقه جمع ذل بالكسر . وذل الطريق : محبته ، وأمور الله جارية على أذلالها أي مجاريها .

(٢) وهو من رؤساء الخوارج . (٣) وكان يقيم ستة أشهر بالكوفة ، وستة أشهر بالبصرة .

البصرة ، ثم ذكرتُ أنكم أهل حق ، وأن حَقَّكم طالماً دَفَع الباطل ، فأتيتكم في أهل بيتي ، فالمدَّله الذي رَفَع مني ما وضع الناس ، وحَفِظ مني ما ضَيَّعوا ، حتى فرغ من الخطبة^(١) .

(تاريخ الطبري ٦ : ١٣١)

٢٦١ - خطبة أخرى له بالكوفة

وروى الطبري أيضا قال :

« فَجِئْت الكوفة والبصرة لزيد بن أبي سفيان ، فأقبل حتى دخل القصر بالكوفة ثم صعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإننا قد جربنا وجرَّبنا ، وسُننا وساتنا السائسون ، فوجدنا هذا الأمر لا يصلح آخره إلا بما صلح أوله ، بالطاعة اللينة المشبهة ميرثها بملانيتها ، وغيب أهلها بشاهدهم ، وقلوبهم بألسنتهم ، ووجدنا الناس لا يصلحهم إلا ابن في غير ضعف ، وشدة في غير عنف ، وإني والله لا أقوم فيكم بأمر إلا أمضيته على أذلاله ، وليس من كذبة الشاهد عليها من الله والناس أكبر من كذبة إمام على المنبر ، ثم ذكر عثمان وأصحابه فقرَّظهم ، وذكر قبيلته ولعنهم » .

(تاريخ الطبري ٦ : ١٤٢)

٢٦٢ - خطبته بالكوفة يتهدد الشيعة

وكان زيد قد ولى الكوفة عمرو بن الحرِيث ، ورجع إلى البصرة ، فبلغه أن حُجْر بن عديَّ يجتمع إليه شيعة عليّ ، ويظهرون لعن معاوية والبراءة منه ، وأنهم

(١) قال الطبري : فحصب على المنبر ، (أى رمى بالحصاب وهو الحصى) فجلس حتى أمسكوا ، ثم دعا قوما من خاصته ، وأمرهم فأخذوا أبواب المسجد ، ثم قال : ليأخذ كل رجل منكم جليسه ، ولا يقوان لأدري من جليسي ، ثم أمر بكرسي فوضع له على باب المسجد ، فدعاهم أربعة أربعة ، يخلفون بالله مامنا من حصيك ، فن حلف خلاه ، ومن لم يخلف حبسه وعزله ، حتى صار إلى ثلاثين ، ويقال بل كانوا ثمانين فقطع أيديهم على المكان .

حَصَبُوا عمرو بن الحرِيث ، فَشَخَّصَ إِلَى الكَوْفَةِ ، حَتَّى دَخَلَهَا ، فَأَتَى القَصْرَ ، ثُمَّ خَرَجَ
فَصَعِدَ المنبرَ ، وَعَلَيْهِ قَبَاءٌ سُنْدُسٌ ، وَمُطْرَفٌ خَزٌّ أَخْضَرٌ ، قَدْ فَرَّقَ شَعْرَهُ ،
وَحَجَرَ جَالِسٍ فِي المَسْجِدِ حَوْلَهُ أَصْحَابُهُ أَكْثَرَ مَا كَانُوا ، فَحَمِدَ اللهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ،
ثُمَّ قَالَ :

« أَمَا بَعْدَ : فَإِنَّ غَيْبَ البَغِيِّ وَالْفَيْءَ وَخَيْمٌ ، إِنَّ هَؤُلَاءِ جَمُّوا ^(١) فَأَشْرُوا ، وَأَمِنُونِي
فَاجْتَرُوا عَلَيَّ ، وَإِيْمُ اللهِ لَنْ لَمْ تَسْتَقِيمُوا لِأَدَاوِينِكُمْ بِدَوَائِكُمْ ، وَقَالَ : مَا أَنَا بِشَيْءٍ إِنْ لَمْ
أَمْنَعُ بِأَحَاةٍ ^(٢) الكَوْفَةَ مِنْ حُجْرٍ ، وَأَدَعُهُ نِكَالًا لِمَنْ بَعْدَهُ ، وَوَيْلُ أُمَّكَ يَا حَجْرَ ،
سَقَطَ العِشَاءُ بِكَ عَلَى سِرْحَانٍ ^(٣) . »
(تاريخ الطبري ٦ : ١٤٣)

٢٦٣ - خطبة أخرى له

وخطب زياد فقال :

« استوصُوا بثلاثة منكم خيراً : الشريف والعالم والشيخ ، فوالله لا يأتيني شيخ
بشبابٍ قد استخفَّ به إلا أوجمته ، ولا يأتيني عالمٌ بجاهلٍ استخفَّ به إلا نكلتُ به ،
ولا يأتيني شريفٌ بوضيعٍ استخفَّ به إلا انتقمته له منه . »

(البيان والتبيين ٢ : ٧٣ ، والمقد الفريد ٢ : ١٥١ : شرح ابن أبي الحديد ٤ ص ٧٤)

٢٦٤ - خطبة أخرى

وخطب على المنبر فقال :

« أيها الناس : لا ينعكم سواه ما تعلمون منا أن تلتنعوا بأحسن ما تسمعون منا ،

فإن الشاعر يقول :

(١) من جم الماء جموما : كثر واجتمع . (٢) الباحة : الساحة . (٣) هو مثل : وأصله

أن رجلا خرج يلتمس العشاء ، فوقع على ذئب فأكله . يضرب في طلب الحاجة يؤدي بصاحبها إلى التلف .

اعمل بقولي وإن قصرتُ في عملي ينفعك قولي ولا بضرك تصيري

٢٦٥ - وصية لزياد

وروى الجاحظ عن عمرو بن عبَّيد أنه قال : كتب عبد الملك بن مروان وصية زيادٍ بيده ، وأمر الناس بحفظها وتدبر معانيها وهي :

« إن الله عز وجل جعل لعباده عقولا ، عاقبهم بها على معصيته ، وأثابهم بها على طاعته ، قالناس بين مُحسنٍ بنعمة الله عليه ، ومُسيءٍ بخذلان الله إياه ، والله النعمةُ على المحسن ، والحجةُ على المسيء ، فما أولى مَنْ نَمَّتْ عليه النعمةُ في نفسه ورأى العبرةَ في غيره بأن يضع الدنيا بحيثُ وضعها الله ، فيعطى ما عليه منها ، ولا يتكثر بما ليس له منها ، فإن الدنيا دار فناء ، ولا سبيل إلى بقائها ، ولا بد من لقاء الله ، فأحذركم الله الذي حذركم نفسه ، وأوصيكم بتعجيل ما أخرته العجزةُ ، قبل أن تصيروا إلى الدار التي صاروا إليها ، فلا تقدرون على توبة ، وليس لكم منها أوبة ، وأنا أستخلف الله عليكم ، وأستخلفه منكم . »

قال الجاحظ : وقد روى هذا الكلام عن الحجاج ، وزيادٌ أحق به منه .

(البيان والتبيين ١ : ٢٠٦)

٢٦٦ - ما كان يقوله لمن ولاه عملا

وكان زياد إذا ولى رجلا عملا قال له :

« خذ عهدك ، وسِرْ إلى عمالك ، واعلم أنك مصروفٌ رأسَ سنَّتِكَ ، وأنتك تصير إلى أربع خِلال ، فاختر لنفسك . إنا إن وجدناك أمينا ضعيفا ، استبدلنا بك لضعفك ، وسلمتُك من معرتنا أمانتُك ، وإن وجدناك قويا خائنا استهنا بقوتك ، وأوجعنا ظهرك

وَتَقَلْنَا غُرْمَكَ ، وَإِنْ جَمَعْتَ عَلَيْنَا الْجُرْمِينَ ، جَمَعْنَا عَلَيْكَ الْمَضْرَبَيْنِ ، وَإِنْ وَجَدْنَاكَ أَمِينًا قَوِيًّا ، زِدْنَا فِي عَمَلِكَ ، وَرَفَعْنَا ذِكْرَكَ ، وَكَثَّرْنَا مَالَكَ ، وَأَوْطَأْنَا عَقَبِكَ » .

(الأمالي : ٢ : ٨٢)

٢٦٧ - خطبة الضحاك بن قيس الفهري بالكوفة^(١)

(قتل سنة ٦٤ هـ)

وخطب الضحاك بن قيس الفهري على منبر الكوفة - وقد كان بلغه أن قوما من أهلها يشتمون عثمان ويبرءون منه ، فقال :

« بلغني أن رجلا منكم ضالًّا يشتمون أئمة الهدى ، ويعيبون أسلافنا الصالحين ، أما والذي ليس له ندي ولا شريك ، لئن لم تنتهوا عما يبلغني عنكم ، لأضعن فيكم سيف زياد ، ثم لا تجدونني ضعيف السورة^(٢) ، ولا كليل الشفرة^(٣) ، أما إني لصاحبكم الذي أغرت على بلادكم^(٤) : فكنتم أول من غزاها في الإسلام ، وشرب من ماء الثعلبية

(١) ولاة معاوية الكوفة سنة ٥٥ إلى سنة ٥٨ ثم جعله على شرطته ، ولما مات معاوية الثاني بايحه أهل دمشق على أن يصلح لهم ، ويقوم لهم أمرهم ، حتى يجتمع أمر الأمة ، وكان يهوى هوى ابن الزبير ، ويعنعه من إظهار ذلك أن بني أمية كانوا بحضرته ، وكان يعمل في ذلك سرا ، ثم نشبت الحرب بينه وبين مروان بن الحكم في مرج راهط ، وداوت الدائرة على جيش الضحاك وقتل منتصف ذي الحجة سنة ٦٤ هـ .

(٢) سورة السلطان : سطوته واعتدائه . (٣) الشفرة : حد السيف ، وكليل : غير قاطع .

(٤) وكان ذلك سنة ٣٩ هـ ، دعاه معاوية ، وقال : سر حتى تمر بناحية الكوفة ، وترتفع عنها ما استطعت ، فن وجدته من الأعراب في طاعة على فأغر عليه ، وإن وجدت له مسلحة أو خيلا فأغر عليها ، فسرحة فيما بين ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف ، فأقبل الضحاك فنهب الأموال ، وقتل من لقي من الأعراب ومر بالثعلبية فأغار على مسالح على وأخذ أمتعتهم ، ومضى حتى انتهى إلى القطقانة ، فأق عمرو ابن عميس بن مسعود - وهو ابن أخي عبد الله بن مسعود - وكان في خيل لعل ، وأمامه أهله ، وهو يريد الحج ، فقتله وقتل ناسا من أصحابه ، فلما بلغ ذلك عليا سرح حجر بن عدي الكندي في أربعة آلاف ، فلم يزل مزا في أثر الضحاك حتى لقيه بناحية تدمر فواقه ، فاقتتلوا ساعة ، فقتل من أصحاب الضحاك تسعة عشر رجلا ، وقتل من أصحاب حجر رجلا ، وحجز الليل بينهم ، فهرب الضحاك وأصحابه . فلما أصبحوا لم يجدوا لهم أثرا - شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١٥٤ ، وتاريخ الطبري ٦ : ٧٨ - .

ومن شاطئ الفرات ، أعاقب من شئت ، وأعفو نعمن شئت ، لقد ذعرتُ المخدّراتِ
في خُدورهن ، وإن كانت المرأةُ ليبيكي ابنها فلا تُرهبه ولا تُسكّته إلا بذكر اسمي ،
فاتقوا الله يا أهلَ العراق ، أنا الضحّاك بن قيس ، أنا أبو أنيس ، أنا قاتل عمرو
ابن عميس .

فقام إليه عبد الرحمن بن عبيد ، فقال : « صدق الأمير ، وأحسن القول ! ما أعرفنا
والله بما ذكرت ! ولقد لقيناك بغربيّ تدّمّر فوجدناك شجاعاً مجرباً صبوراً ^(١) ! »
ثم جلس ، وقال : أيفخر علينا بما صنّع ببلادنا أول ما قدّم ؟ وإيم الله لأذكرّنه أبغض
مواطنه إليه ، فسكت الضحّاك قليلاً ، وكأنه خزي واستحيا ، ثم قال : نعم ، كان
ذلك اليوم بأخرة ^(٢) - بكلام ثقيل - ثم نزل . (شرح ابن أبي الحديد ١ : ١٥٥)

٢٦٨ - خطبته عند موت معاوية

ولما مات معاوية (سنة ٦٠ هـ) خرج الضحّاك بن قيس الفهري - وكان صاحب
شروطه - حتى صعد المنبر ، وأكفان معاوية على يديه تلوح ، فحمد الله ، وأثنى
عليه ، ثم قال :

« إن معاوية كان عمود العرب ، وحَدّ العرب ، قطع الله عزّ وجلّ به الفتنة ،
وملكه على العباد ، وفتح به البلاد ، ألا إنه قد مات ، فهذه أكفانه ، فنحن
مُدْرَجوه فيها ومُدْخِلوه قبره ، ومُحَلُّون بينه وبين عمله ، ثم هو في البرزخ ^(٣) إلى
يوم القيامة ، فمن كان منكم يريد أن يشهده فليحضره عند الأولى ^(٤) . »

(تاريخ الطبري ٦ : ١٨٢ ، والعقد الفريد ٢ : ٢٥٠)

(١) هذا المتقول تهكم به كما ترى . (٢) يقال : جاء أخرة وبأخرة بالتحريك : أي آخر كل شيء .

(٣) البرزخ : ما بين الدنيا والآخرة ، من وقت الموت إلى البعث ، فن مات فقد دخل البرزخ .

(٤) وفي العقد « فن أراد حضوره صلاة الظهر فليحضره » .

٢٦٩ — خطبة النعمان بن بشير بالكوفة^(١)

(قتل سنة ٦٤ هـ)

خطب النعمان بن بشير على منبر الكوفة ، فقال :

« يا أهل الكوفة : إني والله ما وجدت مثلي ومثلكم إلا الضبيع والثعلب ، أتيا الضبَّ في جُجره ، فقالا : أبا الحسل^(٢) . قال : أجبتكما . قالا : جئناك نختم . قال : في بيته يؤتَى الحكم . قالت الضبيع : فتحت عيني . قال : ففعل النساء فعلت . قالت : فلقطتُ تمرَةً . قال : حلوا اجتنبت . قالت : فاخطفها ثُمالة^(٣) . قال : لنفسه بغي الخير . قالت : فلطمته لطمَةً . قال : حقاً قضيت . قالت ؛ فلطمني أخرى . قال : كان حراً فانتصر . قالت : فاقض الآن بيننا . قال : حدِّث حديثين امرأةً ، فإن لم تفهم فأربعة^(٤) . » (المعقد الفريد ١ : ٢٦٩ — ٢ : ١٥٨ ، ومجمع الأمثال للميداني ٢ : ١٣)

(١) ولي الكوفة وحصص معاوية ويزيد ، وكان هواه معهما ، وميله إليهما ، فلما مات معاوية بن يزيد دعا الناس إلى بيعة عبدالله بن الزبير بالشام ، وكان أوله من مخالف من أمراء الأجناد — وكان والياً على حصص — وانضم إلى الضحاك بن قيس الفهري ، أمده بجيش من أهل حصص عليه شرحبيل بن ذي الكلاع ونشبت الحرب بين الضحاك وبين مروان بن الحكم في مرج راهط ، ودارت الدائرة على جيش الضحاك وقتل كما قدمنا ، فلما بلغ الخبر النعمان بن بشير خرج عن حصص هارياً ليلاً ومعه امرأته وولده وثقله ، فسار ليته بجماء متحيراً لا يدرى أين يأخذ ، فأنجبه خالد بن عدى الكلاعي فيمن خف معه من أهل حصص ، فلاحقه وقتله ويمث برأسه إلى مروان ، وكان قتله في ذي الحجة سنة ٥٦٤ هـ . (٢) أبو حسل وأبو حسيل : كنية الضب ، وفي مجمع الأمثال أن المتخاصمين : الأرنب والثعلب . (٣) ثُعالة : أمم الثعلب الذكر والأنثى . (٤) وقد ذهبت أقوال الضب كلها أمثالا . قال الميداني في شرح المثل الأخير (١ : ١٣٠) : « أي زد » وأراد بالحديثين حديثاً واحداً تكرر مرتين ، فكأنك حدثتها بحديثين . والمعنى كرر لها الحديث لأنها أضعف فهما ، فإن لم تفهم فاجعلهما أربعة ، وقال أبو سعيد : فإن لم تفهم بعد الأربعة فالربعة (والمربعة ككنسة : المصا) ويروي ، فأربع « أمر من ربع كفتح » أي كف ، تضرب في سوء السمع والإجابة .

٢٧٠ - خطبة عبيد الله بن زياد بن أبيه بين يدي معاوية

(قتل سنة ٦٧ هـ)

قدم عبيد الله بن زياد على معاوية بعد هلاك زياد ، فجعل يتصدى منه بخلوة ، ليسبر من رأيه ما كره أن يشرك في علمه ، فاستأذن عليه بعد انصداع الطلاب ، واشتغال الخاصة ، وافتراق العامة ، وهو يوم معاوية الذي كان يخلو فيه بنفسه ، ففطن معاوية لما أراد ، فبعث إلى ابنه يزيد وإلى مروان بن الحكم وإلى سعيد بن العاص ، وعبد الرحمن ابن الحكم ، وعمرو بن العاص ، فلما أخذوا مجالسهم أذن له ، فسلم ووقف واجماً يتصفح وجوه القوم . ثم قال :

« صريح العقوق مكاتمة الأذنين ، لا خير في اختصاص وإن وفر ، أحمد الله إليكم على الآلاء^(١) ، وأستعينه على اللأواء^(٢) ، وأستهديه من عمى مجهد ، وأستعينه على عدو مرصد^(٣) ، وأشهد أن لا إله إلا الله المنقذ بالأمين الصادق من شفا جرف^(٤) هار^(٥) ، ومن بد غار^(٥) ، وصلوات الله على الزكي نبي الرحمة ، ونذير الأمة ، وقائد الهدى ، أما بعد يا أمير المؤمنين : فقد عسف بنا ظن فرع^(٦) ، وقذع^(٧) صدع ، حتى طمس السحيق^(٨) ، ويئس الرفيق ، ودب الوشاة بموت زياد ، فكلمهم مستحقر^(٩)

(١) النعم . (٢) الشدة . (٣) أرصدت له : أعددت .

(٤) الشفا : حرف كل شيء ، والحرف كعتق وقفل : ما تجرفته السيول وأكلته من الأرض ، وهار

الجرف : انصدع ولم يسقط فهو هار كقاص ، وهو مقلوب من هار ، فإذا سقط فقد انهار وتهور .

(٥) البد : التعب ، والغارى : الملازم الشامل ، من غرا السمن قلبه لثق به وغطاه .

(٦) فرع بين القوم وفرق بمعنى واحد : أى أن هذا الظن فرق بيننا وبينك فجافيتنا .

(٧) هى فى الأصل « فرع » وأراها محرفة عن قذع وهى التى تناسب المقام . قذعه قذعا (بالسكون)

رماه بالفحش وسوء القول كأقذعه ، والقذع محركة : الخنا والفحش والقذر ، وصدع : شقق وفرق : أى أن مارمانا

به الوشاة لديك من سوء القول فرق بيننا وبينك . (٨) البعيد . (٩) فى الأصل هكذا بمعنى محتقر ،

أى محتقر لنا لمعاداته إيانا ، وأنه لايبالى بمعادتنا لما نأبنا من الضعف بموت زياد ، وربما كان « متحفظ للعداوة »

أى متوثب مستوفز أو « مسحقر للعداوة » من اسحقر : إذا مضى ممرعا .

للعداوة ، وقد قاص الآزره^(١) ، وشمر عن عطفه^(٢) ليقول : مضي زياد بما استلحق به ، ودل على الأناة^(٣) من مستلحقه ، فليت أمير المؤمنين سلم في دعته^(٤) ، وأسلم^(٥) زياداً في ضيعته ، فكان تراب^(٦) عامته ، وأحد رعيتيه ، فلا تشخص^(٧) إليه عين ناظر ، ولا إصبع مشير ، ولا تندلق^(٨) عليه السن كلفته حياً ، ونبشته ميتاً ؛ فإن تكن يا أمير المؤمنين حابيت زيادا بأول رفات ، ودعوة أموات ، فقد حاباك زياد بجد هصور ، وعزم جسور ، حتى لانت شكائم الشرس ، وذات صعبة الأشوس^(٩) ، وبذل لك يا أمير المؤمنين يمينه ويساره ، تأخذ بهما المبيع ، وتقه بهما البديع ، حتى مضى والله يغفر له ، فإن يكن أخذ بحق أنزله منازل الأقربين ، فإن لنا بعده ما كان له ، بدالة الرحيم ، وقرابة الحميم ، فما لنا يا أمير المؤمنين نمشي الضراء^(١٠) ، ونشتف النضار^(١١) ؟ ولك من خيرنا أكله ، وعليك من حوبنا^(١٢) أثقله ، وقد شهد القوم ، وما ساءنى قربهم ليقتروا حقاً ، وبردوا باطلا ، فإن للحق مناراً واضحاً . وسبيلاً قصداً^(١٣) . فقل يا أمير

- (١) الآزره والأزر بضمين : جمع إزار ، وهو الملحفه . (٢) العطف : الرداء ، وجمعه عطف بضمين ، وأعطفه ، وكذا الممطف بالكسر ، وهو مثل إزار ، ومئزر ، ولحاف ، وملحف .
- (٣) في الأصل « الأنية » وأراه محرفاً عن « الأناة » وهي الحلم . (٤) الدعة : الخفض .
- (٥) أسلمه : خذله ، أي فليته ترك زيادا ضائع النسب مغهوراً ولم يستلحقه .
- (٦) التراب : من ولد معك : أي فكان تراباً لأحد عامة الناس ، ولم يكن تراباً لك فلا يقدر له قدر .
- (٧) أي فلا ترتفع . (٨) اندلق السيل : اندفع ، والسيف أنسل بلا سل ، أو شق جفته فخرج منه ، وكلمته : جرحته وأذته . (٩) وصف من الشوس بالتحريك ، وهو النظر بمؤخر العين تكبراً ، أو تغيظاً .
- (١٠) الضراء : الشجر الملتف في الوادي ، يقال تواری الصيد منه في ضراء ، وفلان يمشي الضراء : إذا مشى مستخفياً فيما يورى من الشجر . (١١) اشتف ما في الإناء : شربه كله ، والنضار : الذهب أو الفضة ، والمراد : نمنع منه ، ولا نمكن من أخذه ، أي بحال بيتنا وبين الولاية .
- (١٢) الحوب بضم الحاء وفتحها : الإثم ، أي وعليك من آثامنا التي ارتكبتها في سبيل تأييد سلطانك أثقلها . وفي بعض النسخ : « من جوابنا » أي من جوابنا حين يسألنا المولى عما أتينا من أخذ الناس بالعسف والإرهاق لتمكين مالك (١٣) القصد : استقامة الطريق .

المؤمنين بأى أمر يك شئت ، فما نازر^(١) إلى غير جحرنا ، ولا نستكثر بهير حقتنا ،
وأستغفر الله لى ولكم .

٢٧١ — رد معاوية على ابن زياد

فنظر معاوية فى وجوه القوم كالمتعجب ، فتصنعهم بدهظه رجلا رجلا وهو مبتسم ،
ثم أتجه تلقاءه ، وعقد حبوته^(٢) ، وحمر عن يده ، وجعل يؤمى بها ، ثم قال معاوية :
« الحمد لله على ما نحن فيه ، فكل خير منه . وأشهد أن لا إله إلا الله ، فكل
شئ خاضع له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، دل على نفسه بما بان عن عجز الخلق أن
يأتوا بمثله ؛ فهو خاتم النبیین ، ومصدق المرسلین ، وحجة رب العالمین ، صلوات الله
عليه وبركاته ؛ أما بعد : فرُب خير مستور ، وشر مذکور ، وما هو إلا السهم الأخبب
لمن طار به ، والحظ المرغب لمن فاز به ، فيهما التفاضل وفيهما التعان ، وقد صفقت^(٣)
يداي فى أيبك صفقة ذى الخلة من رواضع الفضلان ، عامل اصطناعى^(٤) له بالكفر
بما أوليته ، فما رميت به إلا اتصل^(٥) ، ولا انتضيته^(٦) إلا غلق جفنه ، ولزت^(٧)
لسعته ، ولا قلت إلا عاند ، ولا قت إلا قعد ، حتى اخترمه^(٨) الموت ، وقد أوقع
بجتره^(٩) ، ودل على حقه ، وقد كنت رأيت فى أيبك رأيا حضره الخطل ، والتبس
به الزلل ، فأخذ منى بحظ الغفلة ، وما أبرئى نفسى ، إن النفس لأمارة بالسوء ،

(١) من أرزت الحية : أى لاذت بجحرها ورجعت إليه . (٢) احتبى بالثوب : اشتمل ، أو جمع
بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها ، والاسم : الحبوة ، وحمر : كشف . (٣) صفق له بالبيع ،
وصفق يده ، وعلى يده صفقا وشفقة : ضرب يده على يده ، وذلك عند وجوب البيع . والفصلان جمع فصيل :
وهو ولد الناقة إذ انفصل عن أمه ، والخلة : الحاجة . (٤) اصطنعه لنفسه : اختاره لخاصة أمر استكفاه إياه .
(٥) اتصل السهم : سقط نصله . (٦) انتضى السيف : استله ، والجفن : غمد السيف .
(٧) لزه : طمنه . (٨) أهلكه . (٩) الختر : الغدر والخديعة ، أو أقبح الغدر ، وأوقع به : أهلكه .

فَا بَرِحَتْ هَنَاتٌ^(١) أَيْبِكَ تَحْطَبُ فِي حَبْلِ الْقَطِيعَةِ ، حَتَّى انْتَكثَ^(٢) الْمُبْرَمُ ، وَانْحَلَّ عَقْدُ الْوَدَادِ ، فَيَا لَهَا تَوْبَةٌ تُوْتِنَفُ^(٣) مِنْ حَوْبَةِ أَوْرَثَتْ نَدْمًا ، أَسْمَعَ بِهَا الْهَاتِفُ ، وَشَاعَتْ لِلشَّامِتِ ، فَلْيَهْمَنَّا^(٤) الْوَاثِمَ مَا بِهِ احْتَقَرَ ، وَأَرَاكَ تَحْمَدُ مِنْ أَيْبِكَ جِدًّا وَجُسُورًا^(٥) هُمَا وَفِيَا بِهِ عَلَى شَرَفِ التَّقَحُّمِ^(٦) ، وَغَبَطِ النِّعْمَةَ ، فَدَعَهُمَا فَقَدْ أَذْكَرْتَنَا مِنْهُ مَا زَهَدْنَا فِيكَ مِنْ بَعْدِهِ ، وَبِهِمَا مَشِيَتْ الضَّرَاءُ ، وَاشْتَقَفْتَ النَّضَارَ ، فَاهْبِ ، إِلَيْكَ ، فَانْتَ نَجَلُ الدَّغَلِ^(٧) ، وَنَثْرُ النَّغْلِ^(٨) ، وَالْأَجْرُ شَرٌّ .

٢٧٢ — مقال يزيد بن معاوية

فَقَالَ يَزِيدُ : « يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ لِلشَّاهِدِ غَيْرَ حُكْمِ الْغَائِبِ ، وَقَدْ حَضَرَكَ زِيَادُ ، وَلَهُ مَوَاطِنٌ مَعْدُودَةٌ بِخَيْرٍ ، لَا يُفْسِدُهَا التَّظَنِّيُّ^(٩) ، وَلَا تَغْيِيرُهَا التَّهَمُّ ، وَأَهْلُوهُ أَهْلُوكَ التَّحْقُوقَ بِكَ ، وَتَوَسَّطُوا شَأْنَكَ ، فَسَافَرْتُ بِهِ الرَّكْبَانَ ، وَسَمِعْتُ بِهِ أَهْلَ الْبُلْدَانِ ، حَتَّى اعْتَقَدَهُ الْجَاهِلُ ، وَشَكَ فِيهِ الْعَالِمُ ، فَلَا تَتَحَجَّرَ^(١٠) يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا قَدْ اتَّسَعَ ، وَكَثُرَتْ فِيهِ الشَّهَادَاتُ ، وَأَعَانِكَ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ .

فَانْحَرَفَ مَعَاوِيَةَ إِلَى مَنْ مَعَهُ ، فَقَالَ : هَذَا وَقَدْ^(١١) نَفْسُهُ بِيَبِعْتَهُ ، وَطَعَنَ فِي إِمْرَتِهِ ، يَعْلَمُ ذَلِكَ كَمَا عَلِمَهُ ، يَا لَلرَّجَالِ مِنْ آلِ أَبِي سَفْيَانَ ! لَقَدْ حَاكَمُوا وَبَدَّهْمُ^(١٢) يَزِيدُ وَحَدَّهُ ،

(١) أعماله وسيناته جمع هنة . (٢) انحل وانقص . (٣) توتنف : تستأنف ، والحوية : الإثم والذنب . (٤) من هنا الطعام : أى ساغ ولد ، والواشم فاعل من الوشم ، وشم يده : إذا غرزاها بإبرة ثم ذر عليها التليج ، والمراد به هنا المعادى - والوشيمة : العداوة - أى فهيننا لأعدائه الذين حقروه وقالوا من عرضه ، فهو أهل لما قيل فيه : « يرد معاوية بذلك على قول عبيد الله قبل « ولا تندلق عليه ألسن كلمته حيا ، ونبشته ميتا » . (٥) الجسور : الجسارة . (٦) تقحمت به دابته : نذت به وربما طوحت به فى وهدة أو وقصت به ، والقحمة كغرفة : الورطة والمهلكة ، والمراد التعرض للهلاك .

(٧) الدخيل والفساد . (٨) نغل الأديم فغلا : فسد فى الدباغ ، والجرح فسد . (٩) التظنى : إعمال الظن ، وأصله التظنن . (١٠) أى فلا تضيق . تحجر عليه : ضيق ، وتحجر ماوسعه الله : حرمه وضيقه ، وفى الحديث : « لقد تحجرت واسعا » أى ضيقت ماوسعه الله ، وفى الأصل « فلا يتحجر » وهو تصحيف . (١١) فى الأصل « وقد » ولعله وقد ، يقال وقد : أى غلبه وسكنه . (١٢) فاقهم .

ثم نظر إلى عبيد الله ، فقال : يا بن أخي ، إني لأعرفُ بك من أبيك ، وكأني بك في غمرة لا يخطؤها^(١) السابح ، فالزم ابن عمك ، فإن لما قال حقاً ، فخرجوا ولزم عبيد الله يزيد يرد مجلسه ، ويظأ عقبه أياماً ، حتى رمى به معاوية إلى البصرة واليا عليها^(٢) .
(العقد الفريد ٢ : ١٤٠)

٢٧٣ - وصية المهلب بن أبي صفرة لابنائه عند موته^(٣)

روى الطبري قال :

لما كان المهلب بن أبي صفرة بزاعول من رزو الروذ (من خراسان) أصابته الشوصة^(٤) (وقوم يقولون الشوكة^(٥)) فدعا حبيبياً ومن حضره من ولده ، ودعا بسهام فحزمت ، وقال : أترونيكم كاسريها مجتمعة ؟ قالوا : لا . قال : أفترونيكم كاسريها متفرقة ؟ قالوا : نعم . قال : فهكذا الجماعة ، فأوصيكم بتقوى الله وصلاة الرّحم ، فإن صلة الرّحم تُنسي^(٦) في الأجل ، وتُثري المال ، وتُكثّر العدد ، وأنها كم عن القطيعة ، فإن القطيعة تُعقب النار ، وتورث الذلة والقلّة ، تبادّلوا وتواصلوا تحابوا ، وأجمعوا أمرهم ولا تختلفوا ، وتبارّوا تجتمع أموركم ، إن بني الأم يختلفون ، فكيف بيني العلات^(٧) ؟ وعليكم بالطاعة والجماعة ، ولتكن فيكم أفضل من قولكم ، فإنني أحب للرجل أن يكون لعمله فضل على لسانه ، واتقوا الجواب ، وزلة اللسان ، فإن الرجل تنزل قدمه فينتمش من زلته ، وبزل لسانه فيهلك ، اغرفوا لمن يغشاكم حقه ، فكفي بغدو

(١) في الأصل « لا يخطرها » وأراه « لا يخطوها » . (٢) قال الطبري : « ولي معاوية عبيدالله

ابن زياد البصرة سنة ٥٥ هـ » . (٣) سترد خطبه إن شاء الله في باب « خطب الخوارج وما يتصل بها »

وذكر الطبري أنه توفي سنة ٨٢ هـ ، وابن خلدكان أنه توفي سنة ٨٣ هـ ، وكان الحجاج قد ولاه بعد فراغه من

حرب الأزارقة على خراسان ، فوردها واليا عليها سنة ٧٩ هـ ولم يزل واليا عليها حتى أدركته الوفاة هناك .

(٤) الشوصة بالفتح وقد تضم الشين : وجع في البطن . (٥) الشوكة : حمرة تعلق الجسد .

(٦) تؤخر وتطيل . (٧) بنو العلات : بنو أمهات شتى من رجل واحد .

الرجل ورواحه إليكم تذكرة له ، وآثروا الجود على البخل ، وأحبوا العرب ، واصطنعوا العرب ، فإن الرجل من العرب تعدّه العدة فيموت دونك ، فكيف الصنعة عنده ؟ وعليكم في الحرب بالأناة والمكيدة ، فإنها أنفع في الحرب من الشجاعة ، وإذا كان اللقاء نزل القضاء ، فإن أخذ رجل بالحزم فظهر على عدوه ، قيل : أتى الأمر من وجهه ، ثم ظفر فحميد ، وإن لم يظفر بعد الأناة ، قيل : ما فرط ولا ضيع ، ولكن القضاء غالب ، وعليكم بقراءة القرآن ، وتعليم السنن وأدب الصالحين . وإياكم والخفة وكثرة الكلام في مجالسكم ، وقد استخلفت عليكم يزيد ، وجمعت حبيبا على الجند ، حتى يقدم بهم على يزيد ، فلا تخالفوا يزيد . فقال له المفضل : لو لم تقدمه لقد مناه .

(تاريخ الطبري ٨ : ١٩ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٤٩ ، والبيان والتبيين ٢ : ٩٨)

* * *

وعهد إلى ولده يزيد ، فكان من جملة ما قال له :

« يا بُنَيَّ ، استعقل الحاجب ، واستظرف الكاتب ، فإن حاجب الرجل وجهه ، وكاتبه لسانه » ، وكان يقول لبنيه : « يا بُنَيَّ أحسن ثيابكم ما كان على غيركم » . ومن كلماته المأثورة قوله : « الحياة خير من الموت ، والثناء الحسن خير من الحياة ، ولو أعطيت ما لم يعطه أحد لأحببت أن تكون لي أذنٌ أسمع بها ما يقال في غدأ إذا ميت » ، وقوله : « عجبت لمن يشتري العبيد بماله ولا يشتري الأحرار بإفضاله » .

(وفيات الأعيان ٢ : ١٤٦ ، وشرح العمون ١٣٧)

خطب الحجاج بن يوسف الثقفي

(المتوفى سنة ٩٥ هـ)

٢٧٤ - خطبته بمكة بعد مقتل ابن الزبير (سنة ٧٣ هـ)

لما قتل الحجاجُ عبد الله بن الزبير ، ارتجّت مكة بالبكاء ، فصعد المنبر ، فقال :
« ألا إن ابن الزبير كان من أخبار^(١) هذه الأمة ، حتى رغب في الخلافة ونازع
فيها ، وخلع طاعة الله ، واستكّن بحرم الله ، ولو كان شيء مانعاً للأصاة ، لمنع آدم
حرمة الجنة ، لأن الله تعالى خلقه بيده ، وأسجد له ملائكته ، وأباحه جنته ، فلما
عصاه أخرجه منها بخطيئته ، وآدم على الله أكرم من ابن الزبير ، والجنة أعظم حرمة
من الكعبة » .
(سرح العيون ص ١٢٢ وتاريخ ابن عساكر ٤ : ٥٠)

٢٧٥ - خطبته بعد قتل ابن الزبير

وصعد الحجاج بعد قتله ابن الزبير متلبّياً ، فخط اللّثام عنه ثم قال :
« موج ليل التطم ، وانجلي بضوء صبّحه ، ي أهل الحجاز ، كيف رأيتموني ؟
ألم أكشف ظلمة الجور ، وطخية^(٢) الباطل بنور الحق ؟ والله لقد وطئكم الحجاج
وطاة مشفق ، وعطفة رحم ، ووصل قرابة ، فأياكم أن تزلوا عن سنن أئمتناكم عليه ،

(١) جمع حبر : بفتح الحاء وكسرها ، وهو للعالم أو الصالح . (٢) الطخية : الظلمة ، ويثلك .

فأقطعَ عنكم ما وصلتهُ لكم ، بالصارِمِ البتار ، وأقيم من أودِكم ما يقيم المثقفُ من أودِ^(١) القنّاءِ بالنار « ثم نزل وهو يقول :

أخو الحرب إن عضتْ به الحربُ عضَّها وإن شمرتْ عن ساقها الحربُ شمرّا

(مواسم الأدب ٢ : ١٢٣)

٢٧٦ - خطبته حين ولي العراق^(٢) (سنة ٧٥ هـ)

حدثَ عبد الملك بن عمير الليثي قال :

بينما نحن في المسجد الجامع بالكوفة ، وأهل الكوفة يومئذ ذور حال حسنة ، يخرج الرجل منهم في العشرة والعشرين من مواليه ، إذ أتى آتٍ ، فقال : هذا الحجاج قد قدّم أميراً على العراق ، فإذا به قد دخل المسجد مُتَمَنِّئاً بِعِمَامَةِ قَد غَطَّى بِهَا أَكْثَرَ وَجْهِهِ مَقْلَدًا سَيْفًا ، مُتَنَكِّبًا^(٣) قوسًا ، يومئذ المذبر ، فقام الناس نحوه حتى صعد المذبر ، فكث ساعة لا يتكلم ، فقال الناس بعضهم لبعض : قُبِّحَ اللهُ بِبَنِي أُمِيَّة ، حيث تستعمل مثل هذا على العراق ! حتى قال عمير بن ضاريُّ البُرْجُمِيّ : أَلَا أَحْضِبُهُ لَكُمْ ؟ فقالوا : أمهل حتى ننظر^(٤) ، فلما رأى عيون الناس إليه ، حَسَرَ اللثام عن فيه ، ونهض ، فقال :

« أَنَا ابْنُ جَلَا وَطَلَّاعُ الثَّنَايَا مَتَى أَضْعِرُ الْعِمَامَةَ تَعْرِفُونِي^(٥) »

(٣) مقوم الرماح ، والأود : الاعوجاج .

(٢) ويروى : أنه خرج يريد العراق واليا عليها في اثني عشر راجعا على النجائب ، حتى دخل الكوفة فجاء حين انتشر النهار ، فبدأ بالمسجد فدخله ، ثم صعد المذبر فقال : على بالناس ، فحسبوه وأصحابه خوارج فهموا به .

(٣) تنكب قوسه : القاهاعل متكبه . (٤) قال ابن نباتة « فلما سمعوا هذه الخطبة - وكان بعضهم

قد أخذ حصى أراد أن يحصبه به - تساقط من أيديهم حزنا ورعبا » . (٥) البيت لسحيم بن وثيل

الرياحي ، قاله الحجاج متمثلا ، وقوله « أنا ابن جلا » أي الواضح الأمر المنكشفه ؛ وقيل ابن جلا الصبح ،

لأنه يجلو الظلمة . وهو مثل يضرب للمشهور المتعالم ، أي أنا الظاهر الذي لا يخفى وكل أحد يعرفني ، ولم يتنون جلا

لأنه أراد الفعل ، فحكى على ما كان عليه قبل التسمية كقول الشاعر :

وَاللَّهِ مَا زِيدُ بِنَامِ صَاحِبِهِ وَلَا مَحَالِطِ الْإِيَّانِ جَانِبِهِ

وتقديره أنا ابن الذي يقال له جلا الأمور وكشفها . وقال بعضهم : ابن جلا - وابن أجلى - رجل =

ثم قال: يا أهل الكوفة، أما والله إنى لأحجلُ الشرَّ بحمله، وأحذوه بنعله، وأجزيه
بمثله، وإنى لأرى أبصاراً طامحة، وأعناقاً متطاولة، وروساً قد أينعت وحن
قطائفها، وإنى لصاحبها، وكأنى أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى تتفرق،
ثم قال:

هذا أوان الشدِّ فاشتدَّى زيمٌ قد لَفَّها الليلُ بسواقِ حطَمٍ
ليس براعى إبِلٍ ولا غنمٍ ولا بجزارٍ على ظَهْرٍ وضمٍّ (١)
ثم قال: قد لَفَّها الليلُ بعَصَلِيٍّ أزوعَ خراجٍ من الدَّوِيِّ
مُهَاجِرٍ ليس بأعرابيٍّ (٢)

ثم قال: قد شمَّرت عن ساقها فشدُّوا وجَدَّتِ الحربُ بكم فجدُّوا
والقوسُ فيها وترٌ عرُدٌ مثل ذراعِ البكرِ أو أشدُّ
لا بُدَّ مما ليس منه بُدٌّ (٣)

= بعينه، قال في اللسان: « وكان ابن جلا هذا صاحب فتك يطلع في الغارات من ثنية الجبل على أهلها » والثنايا جمع ثنية: وهى الطريق في الجبل، أراد به أنه جلد يطلع الثنايا في ارتفاعها وصعوبتها، والعمامة: المغفر

والبيضة قال ثعلب: العمامة تلبس في الحرب وتوضع في السلم. (١) الشعر لرويشد بن رميض العبهرى والشد: العدو، وزيم: اسم فرس أو ناقة، وقيل اسم للحرب، والحطام، والحطمة: الراعى الظلوم للماشية يهشم بعضها ببعض، فلا يبقى من السير شيئا، وقد ضرب المثل برعاة الغنم في الحمق فقيل: « أحق من راعى ضأن ثمانين » قال الجاحظ في البيان والتبيين ١: ١٣٩ « فأما استحماق رعاة الغنم في الجملة فكيف يكون ذلك صوابا؟ وقد رعى الغنم عدة من جلة الأنبياء عليهم السلام » والوضم: كل ما قطع عليه اللحم.

(٢) العصلبي: الشديد القوى، والأروع: الذكى، أو من يعجبك بشجاعته، والدو والدوية والدواوية ويخفف: الفلاة المتسعة التي تسمع لها دويا بالليل « وإنما ذلك الدوى من أخفاف الإبل، تنفسح أصواتها فيها، وتقول جهلة الأعراب: إن ذلك عزيز الجن » أى خراج من كل غنم شديدة، وهجر الرجل: خرج من البدو إلى المدن، والأعرابي بطبيعته غر ساذج ليس في تجربته كأهل المدن.

وسيرد عليك إن شاء الله في الجزء الثالث في خطبة أبي بكر بن عبد الله بالمدينة:

« إنى لست أتأويا أعلم، ولا بدويا أفهم ».

(٣) جد به الأمر: اشتد، وعرُد: أى شديد، والبكر: الفتى من الإبل، ولا بد من كذا: أى لا يحيد عنه.

إلى والله بأهل العراق ، وَمَعْدِنَ الشَّقَاقِ وَالنَّفَاقِ ، وَمَسَاوِي الأَخْلَاقِ ، مَا يُقَفِّعُ
 لِي بِالشَّنَانِ ^(١) ، وَلَا يُفَعِّزُ جَانِبِي كَتَفَمَازِ التِّينِ ، وَلَقَدْ فَرِرْتُ ^(٢) عَنْ ذِكَاةٍ ، وَفَقَّشْتُ
 عَنْ تَجْرِبَةٍ ، وَجَرَيْتُ إِلَى الغَايَةِ القُضْوَى ، وَإِنْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - أَطَالَ اللهُ بَقَاءَهُ - نَرَى
 كِنَانَتَهُ ^(٣) ، بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَمَجَّجَ ^(٤) عَيْدَانَهَا ، فَوَجَدَنِي أَمْرَهَا عُوداً ، وَأَصْلَبَهَا مَكْسِرًا ^(٥)
 فَمَا كَمِ بِي ، لِأَنْكُمْ طَالَمَا أَوْضَعْتُمْ ^(٦) فِي الفِتَنِ ، وَاضْطَجَعْتُمْ فِي مَرَاقِدِ الضَّلَالِ ، وَسَنَنْتُمْ
 سُنَنَ الغَيِّ ، أَمَا وَاللَّهِ لِأَلْحَوْ نِكْمِ ^(٧) أَحْوَرَ العَصَا ، وَلَا أَقْرَعَكُمْ قَرْعَ المَرْوَةِ ^(٨) ،
 وَلَا عُصْبَتَكُمْ عَصَبَ السَّلْمَةِ ^(٩) ، وَلَا أَضْرِبُكُمْ ضَرْبَ غَرَائِبِ الإِبِلِ ^(١٠) ، فَإِنَّكُمْ لِكَاھِلِ
 قَرْيَةٍ كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً ، يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، فَكَفَرَتْ
 بِأَنْعُمِ اللهِ ، فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الجُوعِ وَالتَّخْوَفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ، وَإِنِّي وَاللَّهِ
 لَا أَعِدُّ إِلَّا وَفِيَّتِ ، وَلَا أُمُّ إِلَّا أَمْضِيْتُ ، وَلَا أَخْلُقُ إِلَّا قَرِيْتُ ^(١١) ، فَإِيَّايَ وَهَذِهِ
 الشَّفَعَاءُ ، وَالزَّرَافَاتِ ^(١٢) وَالجَمَاعَاتِ ، وَقَالَ وَقِيلَا ^(١٣) ، وَمَا تَقُولُ ؟ وَفِيمَ أَنْتُمْ وَذَلِكَ ؟

(١) القمقعة : تحريك الشيء اليابس الصلب مع صوت مثل السلاح وغيره ، والشنان : جمع شن بالفتح ، وهو القرية البالية ، وهم يحركونها إذا أرادوا حث الإبل على السير لتفزع قتمرع : مثل يضرب لمن لا يروعه مالا حقيقة له ، وقد تمثل به معاوية من قبله . (٢) فر الدابة : نتج حنكها وكشف أسنانها لينظر سنها ، وفر عن الأمر : بحث عنه . (٣) الكنانة : جمعة السهام . وفي رواية : « كب كنانته » أي قلبها . (٤) عجم العود : عصبه اعرف صلابته من خوره . (٥) وفي رواية « وأصلها عودا » . (٦) أوضع أيضاها : أسرع في سيره كوضع . (٧) لحا العصا : قشر ، وفي رواية : « لحو العود » . (٨) المرو : حجارة بيض براقه توری النار .

(٩) السلمة : شجر كثير الشوك . قال الجاحظ في البيان والتبيين « لأن الأشجار تعصب أعضانها ، ثم تحبب بالعصى اسقوط الورق وهشم العيدان » (٣ : ٢١) . (١٠) قال الجاحظ أيضا : (٣ : ٢٧) « وهي تضرب عند الحرب ، وعند الخلاط ، وعند الحوض أشد الضرب » وقال الحارث بن صخر :
 بضرب يزيل الهام عن سكناته كما زيد عن ماء الحياض الغرائب

(١١) أخلق : أقدري ، وفريت : قطعت . (١٢) الشفعا جمع شفيح ، وكانوا يجتمعون إلى السلطان فيشفعون في أصحاب الجرائم ، فنهاهم عن ذلك ، والزرافات جمع زرافة بفتح الزاي وضبها : الجماعة من الناس . (١٣) القول في الخبر ، والقال ، والقيلا ، والقالة في الشر .

أما والله لَتَسْتَقِيمَنَّ عَلَى طَرِيقِ الْحَقِّ ، أَوْ لَأَدْعَنَّ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْكُمْ شُغْلًا فِي جَسَدِهِ ،
وَإِنِ امِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَمَرَنِي بِإِعْطَائِكُمْ أَعْطَيْتِكُمْ^(١) ، وَأَنْ أَوْجِعَكُمْ لِحَارِبَةِ عَدُوِّكُمْ مَعَ
الْمُهْتَبِ بْنِ أَبِي صُفْرَةَ^(٢) ، وَإِنِّي أَقْسَمُ بِاللَّهِ لَا أَجِدُ رَجُلًا تَخْلَفُ بَعْدَ أَخْذِ عَطَائِهِ بِثَلَاثَةِ
أَيَّامٍ إِلَّا سَفَكَتُ دَمَهُ ، وَأَنْهَيْتُ^(٣) مَالَهُ ، وَهَدَمْتُ مَنْزِلَهُ .

(الكامل للمبرد ١ : ١٨١ ، والبيان والتبيين ٢ : ١٦٤ ، والمعقد الفريد ٢ : ١٥٣ - ٣ : ٧ ،
وتاريخ الطبري ٧ : ٢١٠ ، وصحيح الأعتى ١ : ٢١٨ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٤ ،
ومروج الذهب ٢ : ١٣٢ ، ومعاهد التنصيص ١ : ١١٥ ، والكامل لابن الأثير ٤ : ١٥٦ ،
وسرح العيون ١١٦ ، وتاريخ ابن عساكر ٤ : ٥٣) .

٢٧٧ - خطبته وقد سمع تكبيرا في السوق

فلما كان اليوم الثالث خرج من القصر ، فَسَمِعَ تَكْبِيرًا فِي السُّوقِ ، فَرَأَاهُ ذَلِكَ ،
فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه ، ثم قال :
« يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ ، يَا أَهْلَ الشَّقَاقِ وَالنَّفَاقِ ، وَمَسَاوِي الْأَخْلَاقِ ، وَبَنِي اللَّكِيْمَةِ^(٤) ،
وَعَبِيدَ الْعَصَا ، وَأَوْلَادَ الْإِمَاءِ ، وَالْفَقْعَ بِالْقَرَقَرِ^(٥) ، إِنِّي سَمِعْتُ تَكْبِيرًا لَا يُرَادُ اللَّهُ بِهِ ،
وَإِنَّمَا يُرَادُ بِهِ الشَّيْطَانُ^(٦) ، أَلَا إِنَّهَا عَجَاجَةٌ تَحْتَمُّهَا قَصْفٌ^(٧) ، وَإِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ مَا قَالِ
عَمْرُو بْنُ بَرَّاقٍ الْهَمْدَانِيُّ :

وَكَنتُ إِذَا قَوْمٌ غَزَوْنِي غَزَوْهُمْ فَهَلْ أَنَا فِي ذَايَا لَهْمَدَانَ ظَالِمٌ !

-
- (١) أعطيات جمع عطية ، وهي جمع عطاء . (٢) قائد الجيوش الذي حارب الخوارج الأزارقة ،
وقل شوكتهم ، وسيأتي . (٣) جعلته نهباً يغار عليه .
(٤) اللثيمة . (٥) القرقر : أرض مطمئنة لينة ، والفقع ويكمر : البيضاء الرخوة من
الكهانة ، ويقال للذليل : هو أذل من فقح بقرقر ، لأنه لا يمتنع على من اجتناؤه ؛ أو لأنه يوطأ بالأرجل .
(٦) وفي رواية : « إِنِّي سَمِعْتُ تَكْبِيرًا لَيْسَ بِالتَّكْبِيرِ الَّذِي يُرَادُ اللَّهُ بِهِ فِي التَّرْغِيبِ ، وَلَكِنَّهُ التَّكْبِيرُ
الَّذِي يُرَادُ بِهِ التَّرْهِيْبُ » . (٧) العجاج : الغبار ، والقصف : شدة الريح .

متى تجمع القلب الذكي وصارماً وانفماً حمياً تجتنبك المظالم
أما والله لا تقرّ عَصَاً عَصَاً إلا جعلتها كأمس الدّابر^(١) .

(البيان والتبيين ٢ : ٦٩ - ١ : ٢٠٩ ، والعقد الفريد ٢ : ١٥٢ ، وإعجاز القرآن ١٢٤ ،
وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١١٤ ، وتاريخ الطبري ٧ : ٢١٢ ، وتهذيب الكامل ١ : ١٩)

٢٧٨ — خطبته وقد قدم البصرة

وخطب لما قدم البصرة يتهدد أهل العراق ويتوعدهم فقال :

« أيها الناس : من أعياه داؤه ، فمِنْدَى دَوَاؤُهُ ، ومن استطال أجله ، فعَلَى أن أعجّلَه ،
ومن ثقل عليه رأسه ، وضعتُ عنه ثِقْلَه ، ومن استطال ماضِي عُمره . قَصَّرْتُ عليه باقيه ،
إن للشيطان طَيْفاً ، وللسلطان سَيْفاً ، فن سَعِمْتُ سريرته ، صَحَّتْ عُقُوبَتُهُ ، ومن وضعه
ذنبه ، رفعه صَنْبُهُ ، ومن لم تَسَعَهُ العافية ، لم تَضِقْ عنه الهَلَكَةُ ، ومن سبقتَه بِادِرَةٍ فَمَهْ ،
سبق بدنه بسَفْكِ دمه ، إني أنذِرُ ثم لا أنظر^(٢) ، وأحذِرُ ثم لا أعذِرُ ، وأتوعد
ثم لا أعفو ، إنما أفسدكم ترنيق^(٣) ولآتكم ، ومن استرخى لآبِيهِ^(٤) ، ساء أدبه ، إن
الحزم والعزم سلباني سَوَطِي^(٥) ، وأبدلاني به سيفي ، فقائمُه في يدي ، ونجاده^(٦) في عُنْقِي ،
وذبابُه^(٧) قِلَادَةُ لمن عصاني ، والله لا أمرُ أحدكم أن يخرج من باب من أبواب المسجد ،
فيخرج من الباب الذي يليه ، إلا ضربت عنقه » .

(نهاية الأرب ٧ : ٢٤٤ صبح الأعشى ١ : ٢٢٠ وشرح العيون ١٢٢)

(١) وفي رواية الطبري خاصة : « ألا يربع رجل منكم على ظلمه ، ويحسن حقن دمه ، ويبصر
موضع قدمه ، فأقسم بالله لأوشك أن أوقع بكم وقعة تكون نكالا لما قبلها ، وأدبا لما بعدها » —
يربع (كيمنع) يقف وينتظر ، والظلم (كشمس) : الغمز في المشي ، ويقال : أربع على ظلمك ، أي إنك
ضعيف ، فأنته عما لا تطيقه . (٢) أنظره : أهله . (٣) الترنيق : الضعف في الأمر (وفي البدن والبصر أيضاً) .
(٤) اللب : ما يشد في صدر الدابة ليمنع استئخار الرحل ، والمراد أن الهوادة واللين تفسد أدب الرعية .
(٥) هكذا في نهاية الأرب ، وفي صبح الأعشى : « سكننا في وسطى » والأول أصح ، أي أنه رأى من
الحزم والعزم : المبالغة في استعمال الشدة والقوة في التأديب ، فطرح السوط ، واستبدل به ما هو أشد
منه وهو السيف . (٦) النجاد : علاقة السيف . (٧) ذباب السيف : حده .

٢٧٩ - خطبته بعد وقعة دير الجماجم^(١)

وخطب أهل العراق بعد وقعة دير الجماجم فقال :

« يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ اسْتَبَطَنَكُمْ ، فَخَالَطَ اللَّحْمَ وَالْدَّمَ وَالْقَهْصَبَ ،
وَالْمَسَامِيعَ وَالْأَطْرَافَ ، وَالْأَعْضَاءَ^(٢) وَالشَّقَافَ^(٣) ، ثُمَّ أَفْضَى إِلَى الْإِخَاخِ^(٤) وَالْأَصْمَاحِ ،
ثُمَّ ارْتَفَعَ فَعَشَّشَ ، ثُمَّ بَاضَ وَفَرَّخَ ، فَحَسَّاسَكُمْ نِفَاقًا وَشِقَاقًا ، وَأَشْعَرَكُمْ خِلَافًا ، أَخَذْتُمُوهُ
دَلِيلًا تَتَّبِعُونَهُ ، وَقَائِدًا تُطِيعُونَهُ ، وَمُؤَامِرًا^(٥) تَسْتَشِيرُونَهُ ، فَكَيْفَ تَنْفَعُكُمْ تَجْرِبَةٌ ،
أَوْ تَعْظُمُكُمْ وَقْعَةٌ ، أَوْ يَحْجِزُكُمْ إِسْلَامٌ ، أَوْ يَنْفَعُكُمْ بَيَانٌ ؟ أَلَسْتُمْ أَصْحَابِي بِالْأَهْوَازِ^(٦) ؟

(١) وقعة دير الجماجم : هي وقعة نشبت بين الحجاج وبين عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث قرب الكوفة سنة ٨٣ هـ هزم فيها ابن الأشعث . وذلك أن عبيد الله بن أبي بكره عامل الحجاج على سجستان كان قد غزا رتبيل ملك الترك ، وأوغل في بلاده فأصيبيوا ، وهلك أكثرهم ، فوجه الحجاج إلى رتبيل بن الأشعث على رأس جيش عظيم لمحاربتة ، فسار إليه وامتلك بعض بلاده ، وكان يرى أن يتدرج في الفتح ، فينتقصهم في كل عام طائفة من أرضهم ، ولايتوغل في بلادهم لكيلا يعرض جيشه للدمار والهلكة ، وكتب إلى الحجاج بذلك فأبى عليه الحجاج ، وكتب إليه يصف رأيه ويأمره بالوغل في أرضهم وإلا عزله ، وكان من جراء ذلك أن بايع الجند ابن الأشعث على خلع الحجاج وقتاله ثم خلع عبد الملك بن مروان ، وسار ابن الأشعث بهم من سجستان إلى العراق ، وتجهز الحجاج للقائه ، فسار بأهل الشام حتى نزل تسمر (مدينة بالأهواز) فانهزمت مقدمته ، فرجع إلى البصرة حتى نزل الزاوية (موضع قرب البصرة) ودارت رحى الحرب بين الفريقين فهزم أهل العراق أهل الشام . فجثا الحجاج على ركبتيه وانتضى نحو شهر من سيفه ، واستعد للقاء الموت كريمة فقويت بذلك قلوب جنده واستبسلا حتى كان لهم النصر . وانهزم ابن الأشعث ، فأقبل نحو الكوفة ، حتى هزم هزيمة منكرة بدير الجماجم وتبدد أمره ، وفر إلى فارس حتى نزل مدينة بست ؛ فسمع رتبيل بمقدمه فأنزله عنده وأكرمه فكتب الحجاج إلى رتبيل يأمره أن يبعث إليه بابن الأشعث ويتوعده إن لم يفعل ، فأراد رتبيل أن يرسله إليه ، فقتل ابن الأشعث نفسه بأن أتى نفسه من فوق قصر ، فأت فاحتز رتبيل رأسه ، وبعث به إلى الحجاج سنة ٨٥ هـ . (٢) في العقد الفريد (والأعضاء) . (٣) الشفاف : غلاف للقلب أو حبيته . (٤) رواية نهاية الأرب « الماخاخ » وهو الوارد في كتب اللغة : مخ يجمع على مخاخ ومخخة (كعنية) ، أما سائر المصادر التي روت هذه الخطبة ؛ فتربوها (الأخاخ) ، وهو ما لم أره في كتب اللغة . وقد روت جميع المصادر « الأصماخ » بهذا للنص ، والذي في كتب اللغة : « الصماخ من الأذن : الخرق الباطن الذي يفضى إلى الرأس جمعه أصمخة وصماخ ، ومثل الصماخ الأصموخ كعصفور ، وجمعه أصمايخ ، فصواب الكلمة « الصمايخ » أو « الأصمايخ » . (٥) أمره في كذا مؤامرة : شاوره . (٦) يشير إلى وقعة « تسمر »

حيث رُمِّمَ المِكر، وسَمِيَتِ بِالقَدَر، واستَجَمَعَتِ للكُفْر، وظَنِمَتِ أَنَّ اللهَ يَخْذُلُ دينَهُ
وَخِلافَتَهُ، وأنا أرميكم بطرفي، وأنتم تتسللون لَوِإِذَا^(١)، وتنهزمون سِرَاعاً؟ ثم يوم
الزَّأوية، وما يوم الزَّأوية ابها كان فَشَلِكُمْ وتنازَعُكُمْ وتخاذلكم، وَبَرَاءةَ الله منكم،
وَنُكُوصَ وَلِيَّتِكُمْ عنكم، إِذْ وَلَّيْتُمْ كالأبل الشوارد إلى أوطانها، النوازع إلى
أعطانها^(٢)، لا يسأل المرء عن أخيه، ولا يَلُوى^(٣) الشَّيخَ على بنيه، حتى عَضَّكُمْ^(٤)
السلاح، وقصمتكم الرماح، ثم يوم دِيرِ الجاجم، وما يوم دِيرِ الجاجم ابها كانت
المعارك والملاحم^(٥)، بضربِ يُزِيلُ الهام^(٦)، عن مَقِيلِهِ^(٧)، وَيُذْهِلُ الخليل عن خَلِيلِهِ،
يأهل العراق، وَالْكَفَرَاتِ بعد الفَجَرَاتِ، وَالْقَدَرَاتِ بعد الْخَطَرَاتِ^(٨)، وَالنَّزَوَاتِ^(٩)
بعد النزوات، إِنْ بَعَثْتُمْ إلى ثغوركم غَلَّامٌ^(١٠) وَخُنْتُمْ، وَإِنْ أَمِنْتُمْ أَرْجَفْتُمْ، وَإِنْ
خَفْتُمْ نَافَقْتُمْ، لا تذكرون حَسَنَةً، ولا تشكرون نِعْمَةً، هل استخفكم ناكث،
أو استغفواكم غار، أو استنصركم ظالم، أو استعضدكم^(١١) خالِع، إلتابعتموه وآويتموه،
ونصرتموه وزكيتموه؟ يأهل العراق، هل شَغِبَ شاغب، أو نَعَبَ ناعب، أو زفر
زافر إلا كنتم أتباعه وأنصاره؟ يأهل العراق: ألم تنهكُم المِواعِظُ، ألم تزجرُكم
الوقائع؟» .

ثم التفت إلى أهل الشام وهم حول المنبر، فقال: «يأهل الشام، إنما أنا لكم
كالظلم^(١٢) الرامح عن فراخه، يَنْفِي عنها المدر^(١٣)، ويباعد عنها الحجر، وَيُكَيِّسُهَا

(١) أي يلوذ بعضهم ببعض : لاوذ لوإذا وملاوذة . (٢) أعطان جمع عطن كسبب : مبرك الإبل
حول الحوض كالمعطن ، ونوازع : أي مشتاقة . (٣) لايلوى على أحد ؛ أي لايقف ولا ينتظر .

(٤) في نهاية الأرب « عظكم » بالطاء : عظته الحرب كعضته بالضاد .

(٥) جمع ملحمة وهي الوقمة العظيمة القتل . (٦) جمع هامة ، وهي الرأس .

(٧) موضعه ، أي الأعناق ، قال الشاعر :

بضرب بالسيوف رهوس قوم أزلنا هامهن عن المقيبل

(٨) جمع خثرة ، والخثرة كشمس : القدر والحديعة أو أقبیح القدر . (٩) جمع نزوة ، من نزا

نزوانا : أي وثب . (١٠) غل كنصر غلولا : خان . (١١) استعضده : سأله أن يعضده .

(١٢) ذكر النعام ، والرامح : أي المدافع ، من رمحه : أي طعنه بالرمح . (١٣) قطع الطين اليابس .

من المطر ، ويحميها من الضباب^(١) ، ويحرسها من الدّئاب ، يأهل الشام ؛ أنتم الجنة والرّداء ، وأنتم العدة والحذاء .

(البيان والتبيين ٢ : ٧١ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٤٥ ، والمقد الفريد ٢ : ١٥٢ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ١١٤ ، وروج الذهب ٢ : ١٣٥ - وتاريخ ابن عما كر ٤ : ٥٥) .

٢٨٠ - خطبة أخرى له في أهل الكوفة وأهل الشام

وخطب فقال :

« يأهل الكوفة ، إن الفتنة تُلَقَّحُ بالنجوى^(٢) ، وتُذْتَجُ بالشكوى ، وتخصد بالسيف ؛ أما والله إن أبغضتموني لاتضروني ، وإن أحببتموني لاتنفعوني ، وما أنا بالمستوحش لعداوتكم ، ولا المستريح إلى مودتكم ، زعمتم أني ساحر ، وقد قال الله تعالى : « وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ » . وقد أفلحت ، وزعمتم أني أعلم الاسم الأكبر ، فلم تقاتلون من يعلم ما لا تعلمون ؟ » .

ثم التفت إلى أهل الشام فقال : « لَأَزْوَاجُكُمْ أَطِيبُ مِنَ الْمَسْكِ ، وَلَا بِنَاؤُكُمْ آانسُ بِالْقَلْبِ مِنَ الْوَلْدِ ، وَمَا أَنْتُمْ إِلَّا كَمَا قَالَ أَخُو بَنِي ذُبْيَانَ :

إِذَا حَاوَلْتَ فِي أَسَدٍ فُجُورًا فَإِنِّي لَسْتُ مِنْكَ وَاسْتَمَنِي

مُحْمُودٌ دِرْعَى الَّتِي اسْتَلَّامْتُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ النَّسَارِ وَمَعِي مَجْنِي^(٣)

ثم قال : « بل أنتم يأهل الشام كما قال الله سبحانه : « وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا

الرَّسُلِينَ ، إِنَّهُمْ لَكُمُ الْمَنْصُورُونَ ، وَإِنَّ جُنَدَنَا لَكُمُ الْغَالِبُونَ » ثم نزل .

(شرح ابن أبي الحديد ١ : ص ١١٥)

٢٨١ - خطبة له بالبصرة

وخطب بالبصرة ، فقال :

قال الله تعالى : « فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَقْتُمْ » ، فهذه لله ، وفيها متوبة^(٤) ، وقال :

(١) جمع ضب ، وهو حيوان كالوزغة والحرباء . (٢) النجوى : المسارة . (٣) استلام : ليس

للأمة ، وهي الدرع ، النصار : ماء لبني عامر له يوم ، والمجن : الترس . (٤) ثواب .

« وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا » ، وهذه لعبد الله ، وخليفة الله ، وحبيب الله ، عبد الملك بن مروان ؛
أما والله لو أمرت الناس أن يأخذوا في باب واحد ، فأخذوا في باب غيره ^(١) ، لكانت
دماؤهم لي حلالا من الله ، ولو قتل ربيعة ومصر لكان لي حلالا .
« عذيري ^(٢) من أهل هذه الحميراء ، يرعى أحدهم بالحجر إلى السماء ويقول :
يكون إلى أن يقع هذا خير ^(٣) ، والله لأجعلنهم كالرسم ^(٤) الدائر ، وكالأمس الغابر ،
عذيري من عبد هذيل يقرأ القرآن كأنه رَجَز الأعراب ، أما والله لو أدركته لضربت
عقه - يعني عبد الله بن مسعود ^(٥) - ، عذيري من سليمان بن داود ، يقول لربه :
« رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي » كان والله - فيما علمت -
عبداً حسوداً بخيلاً » .
(مروج الذهب ٢ : ١٤٣ والعقد الفريد ٢ : ١٥٢)

٢٨٢ - خطبة أخرى له بالبصرة

حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« إن الله كفانا مَثُونَةَ الدنيا ، وأمرنا بطلب الآخرة ، فليتهُ كفانا مَثُونَةَ الآخرة
وأمرنا بطلب الدنيا ، مالي أرى علماءكم يذهبون ، وجهالكُم لا يتعلمون ، وشركم
لا يتوبون ؟ مالي أراكم تحرصون على ما كُفيتُم ، وتضيعون ما به أمرتم ؟ إن العلم يوشك
أن يُرْفَع ، ورَفَعَهُ ذهابُ العلماء ؛ ألا وإني أعلم بشركم من البيطار بالفرس ، الذين
لا يقرءون القرآن إلا هَجْرًا ^(٦) ، ولا يأتون الصلاة إلا دُبْرًا ^(٧) ؛ ألا وإن الدنيا عَرْضٌ
حاضر ، يأكل منها البرُّ والفاجر ، ألا وإن الآخرة أجل مستأخر ، يحكم فيها ملك قادر

(١) وفي مروج الذهب : « لو أمر الناس أن يدخلوا في هذا الشعب ، فدخلوا في غيره » والشعب
بالكسر : مسيل الماء في بطن الأرض ؛ والطريق في الجبل . (٢) العذير : العاذر والتصير ؛ والحال التي
تحاولها تعذر عليها . (٣) وفي مروج الذهب : يلقى أحدهم الحجر إلى الأرض ويقول : إلى
أن يبلغها يكون فرج الله » . (٤) الرسم : الأثر ، أو بقية . والدائر : الدارس المحو .
(٥) هو من بني هذيل . (٦) أي هجرا له وتركها ، ومعناه أنهم لا يقرءونه ، ولا يتلونونه .
(٧) الدبر من كل شيء : عقبه ومترخره ، أي ولا يأتون الصلاة إلا في آخر وقتها .

أَلَا فاعملوا وأنتم من الله على حذر ، واعلموا أنكم مُلاقوه لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا
بِمَا عَمِلُوا ، وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ، أَلَا وَإِن الْخَيْرَ كُلَّهُ بِحَدَافِيرِهِ فِي الْجَنَّةِ ،
أَلَا وَإِن الشَّرَّ كُلَّهُ بِحَدَافِيرِهِ فِي النَّارِ ، أَلَا وَإِن مَن يَعْمَلُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَن يَعْمَلُ
مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلِكُمْ ^(١) .

(العقد الفريد ٢ : ١٥٣)

٢٨٣ - خطبته في أهل العراق يصارحهم بالكراهية

وخطب أهل العراق ، فقال :

« يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ : إِنِّي لَمْ أَجِدْ دَوَاءَ أَدْوَى لَدَائِكُمْ ، مِنْ هَذِهِ الْمَغَازِي وَالْبَعُوثِ ،
لَوْلَا طَيْبُ لَيْلَةِ الْإِيَابِ ، وَفَرَحَةُ الْقَفَلِ ^(٢) ، فَإِنَّهَا تُعْقِبُ رَاحَةً ، وَإِنِّي لَا أُرِيدُ أَنْ أَرَى
الْفَرَحَ عِنْدَكُمْ ، وَلَا الرَّاحَةَ بِكُمْ ، وَمَا أَرَأَيْتُمْ إِلَّا كَارِهِينَ لِمَقَالَتِي ، وَأَنَا وَاللَّهِ لَرُؤْيَتِكُمْ
أَكْرَهُ ، وَلَوْلَا مَا أُرِيدُ مِنْ تَنْفِيذِ طَاعَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِيكُمْ ، مَا حَمَلْتُ نَفْسِي مِقَاسَاتِكُمْ ،
وَالصَّبْرَ عَلَى النَّظَرِ إِلَيْكُمْ ، وَاللَّهِ أَسْأَلُ حَسْنَ الْعَوْنِ عَلَيْكُمْ » ، ثُمَّ نَزَلَ .

(العقد الفريد ٢ : ١٥٣)

٢٨٤ - خطبة أخرى

وخطب أهل العراق ، فقال :

« يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ ، بَلَّغْنِي أَنْكُمْ تَرَوُونَ عَنْ نَبِيِّكُمْ أَنَّهُ قَالَ : « مَنْ مَلَكَ عَلَى عَشْرِ رِقَابٍ
مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، جِيءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَغْلُوبَةً يَدَاهُ إِلَى عُنُقِهِ ، حَتَّى يَفْكَهُ الْعَدْلُ ، أَوْ يُؤَبِّقَهُ
الْجُورُ » . وَإِيْمُ اللَّهِ إِنِّي لِأَحَبُّ إِلَيْ أَنْ أُحْشَرَ مَعَ أَبِي بَكْرٍ وَعَمْرٍ مَغْلُوبًا ، مِنْ أَنْ أُحْشَرَ
مَعَكُمْ مُطْلَقًا » .

(العقد الفريد ٣ : ١٧)

(١) وذكر صاحب العقد أيضا هذه الخطبة من قوله : « أَلَا وَإِن الدُّنْيَا عَرْضٌ حَاضِرٌ » إِلَى آخِرِهِ

وهذا إلى شداد بن أوس الطائي . انظر العقد الفريد ٢ : ١٥٨ . (٢) الرجوع .

٢٨٥ - خطبته لما مات عبد الملك بن مروان

ولما مات عبد الملك بن مروان ، قام فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« أيها الناس ، إن الله تبارك وتعالى نعى نبيكم صلى الله عليه وسلم إلى نفسه فقال :
« إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ » ، وقال : « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ
الرُّسُلُ ، أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ أَلْقَلْبَتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ » . فمات رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، ومات الخلفاء الراشدون المهتدون المهديون ، منهم أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان
الشهيد المظلوم ، ثم تبعهم معاوية ، ثم وليكم البازل^(١) الذي جربته الأمور ،
وأحكمته التجارب ، مع الفقه وقراءة القرآن ، والمروءة الظاهرة ، واللين لأهل الحق ، والوطء
لأهل الزيغ ، فكان رابعاً من الولاة المهديين الراشدين ، فاختر الله له ما عنده ، وألحقه
بهم ، وعهد إلى شبهه في العقل والمروءة والحزم والجلد والقيام بأمر الله وخلافته ،
فاسموا له وأطيعوه .

أيها الناس ، إياكم والزيغ ، فإن الزيغ لا يحمق إلا بأهله ، ورأيتم سيرتي فيكم ،
وعرفت خلافكم وطيبكم ، على معرفتي بكم ، ولو علمت أن أحداً أقوى عليكم مني ،
أو أعرف بكم ما وليتكم ؛ فإياي وإياكم ، من تكلم قتلناه ، ومن سكت مات بدائه غمماً »
ثم نزل .
(العقد الفريد ٢ : ١٥٤)

٢٨٦ - خطبته حين أراد الحج

وأراد الحج أن يحج ، فاستخلف محمداً ولده على أهل العراق ، ثم خطب فقال :
« يا أهل العراق ، يا أهل الشقاق والنفاق ، إني أريد الحج ، وقد استخلفت عليكم
ابني محمداً ، هذا وما كنتم له بأهل ، وأوصيته فيكم بخلاف ما أوصى به رسول الله

(١) الرجل الكامل في تجرته .

صلى الله عليه وسلم في الأنصار، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصى أن يُقبل من مُحْسِنِهِمْ، وأن يُتَجَاوَزَ عن مُسِيئِهِمْ، وإني أمرته ألا يقبل من محسنكم، ولا يتجاوز عن مسيئكم؛ ألا وإنكم ستقولون بعدى مقالة ما يمنعكم من إظهارها إلا مخافتى : ألا وإنكم ستقولون بعدى : لا أحسن الله له الصحابة ، ألا وإني مُعَجَّلٌ لكم الإجابة : لا أحسن الله الخِلافةَ عليكم « ثم نزل .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٥ ، والعقد الفريد ٢ : ١٥٣ - ٣ : ١٨ ، والبيان والتبيين ١ : ٢٠٦ ، ومروج الذهب ٢ : ١٤٤ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١١٤)

٢٨٧ - خطبته لما أصيب بولده محمد وأخيه محمد في يوم واحد

قال صاحب العقد : فلما كان غداة الجمعة مات محمد بن الحجاج ، فلما كان بالعشي أتاه بريد من اليمن بوفاة محمد أخيه ، ففرح أهل العراق ، وقالوا : انقطع ظهر الحجاج وهيض^(١) جناحه ، فخرج فصعد المنبر ، ثم خطب الناس ، فقال : « أيها الناس : محمدان في يوم واحد ! أما والله ما كنت أحب أنهما معي في الحياة الدنيا ، لما أرجو من ثواب الله لهما في الآخرة ، وإيم الله ليوشكن^(٢) الباقي مني ومنكم أن يفتني ، والجديد أن يبلى ، والحى مني ومنكم أن يموت ، وأن تُدال^(٣) الأرض منّا كما أدلنا منها ، فتأكل من لحومنا ، وتشرب من دمائنا ، كما مشينا على ظهرها ، وأكلنا من ثمارها ، وشربنا من ماؤها ، ثم نكون كما قال الله تعالى : « وَنَفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ^(٤) » ثم تمثل بهذين البيتين :

(١) هاض العظم : كسره بعد الجبور . (٢) أداله الله منه : نصره عليه .

(٣) الصور : القرن ينفخ فيه ، وقيل إنه تمثيل لانبعاث الموق بانبعاث الجيش إذا نفخ في البوق ، وقيل : هو جمع صورة مثل بسرة وبسر (والبسر بالضم : التمر قبل إرطابه) أى نفخ في صور الموق الأرواح . وقرأ الحسن : « يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ » . والأجداث جمع جدث كسبب وهو القبر ، ونسل كضرب ونصر : أسرع .

عَزَائِي نَبِيُّ اللَّهِ مِنْ كُلِّ مَيِّتٍ وَحَسْبِي ثَوَابُ اللَّهِ مِنْ كُلِّ هَالِكٍ
إِذَا مَا تَقِيْتُ اللَّهَ عَنِي رَاضِيًا فَإِنَّ سِرُّورَ النَّفْسِ فِيهَا هُنَالِكَ
(المقد الفريد ٢ : ١٥٤ - ٣ : ١٨ ، وشرح العيون ص ١٢٢)

٢٨٨ - خطبته وقد أرجف أهل العراق بموته

ومرض الحجاج ففرح أهل العراق ، وأرجفوا بموته ، فلما بلغه تحامل حتى صعد
المنبر فقال :

« إن طائفة من أهل للعراق ، أهل الشقاق والنفاق ، نَزَغَ ^(١) الشيطان بينهم فقالوا :
مات الحجاج ، ومات الحجاج فَمَهْ؟ وهل يرجو الحجاج الخيرَ إلا بعد الموت؟ والله ما يسرني
ألا أموتَ ، وأن لي الدنيا وما فيها ، وما رأيت الله رَضِيََ بالتخليد إلا لأهون خلقه عليه
إبليس ، قال : أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ، قال : إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ، ولقد دعا الله
العبد الصالح ، فقال : « رَبِّ اغْفِرْ لِي ، وَهَبْ لِي مُدْكَ لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي »
فأعطاه ذلك إلا البقاء ، فما عسى أن يكون أيها الرجل؟ وكلسكم ذلك الرجل ، كأني
والله بكل حيٍّ منكم ميتاً ، وبكل رطبٍ يابساً ، وَنُقِلَ في ثياب أ كفانه إلى ثلاثة أذرع
طولا ، في ذراع عرضاً ، وأكلت الأرض لحمه ، وَمَصَّتْ صَدِيدَهُ ، وانصرف الحبيب
من ولده يقسم الخبيث من ماله ، إن الذين يعقلون يعملون ما أقول » ، ثم نزل .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٤ ، والعقد الفريد ٢ : ١٥٤ ، ٣ : ١٧ ، وشرح العيون ١٢٢ ،

ومروج الذهب ٢ : ١٤٢ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١١٥)

خطبه الوعظية

- ٢٨٩ -

وخطب الحجاج يوماً فقال :

« أيها الناس ، قد أصبحتم في أجلٍ مَنْقُوصٍ ، وعملٍ محفوظٍ ، رَبٌّ دَائِبٌ مُضِيعٌ ، وساعٍ لغيرِهِ ، والموتُ في أعناقكم ، والنفارُ بين أيديكم ، والجنةُ أمامكم ، خذوا من أنفسكم لأنفسكم ، ومن غناكم لفقركم ، ومما في أيديكم لِمَا بين أيديكم ، فَكأن ما قد مضى من الدنيا لم يكن ، وكأن الأموات لم يكونوا أحياءً ، وكل ما ترَوْنَه فإنه ذاهب ، هذه شمسٌ عادٍ وثمود وقرونٍ كثيرة بين ذلك ، هذه الشمس التي طلعت على القبأبعة والأكاسيرة ، وخزائنهم السائرة بين أيديهم ، وقصورهم المشيدة ، ثم طلعت على قبورهم ، أين الملوك الأولون ، أين الجبابرة المتكبرون ؟ المحاسبُ الله ، والصراطُ منصوب ، وجهنم تزفر^(١) وتتوقد ، وأهل الجنة ينعمون ، في روضةٍ يُحَبَّرُونَ^(٢) ، جعلنا الله وإياكم من الذين إذا ذكروا بآياتِ رَبِّهِمْ لم يَحْزَنُوا عَلَيْهَا ضَمًّا وَعُمِيَانًا . »

فكان الحسن البصرى رحمه الله يقول : « ألا تعجبون من هذا الفاجر ؟ يَرْتَقِي عَتَبَاتِ الدبر ، فيتمكلم بكلام الأنبياء ، وينزل فيفتك فتك الجبارين ، يوافق الله في قوله ويخالفه في فعله . »

(شرح ابن أبي الحديد م ١ ص ١٥٠)

(١) زفرت النار كضرب : سمع لتوقدها صوت . (٢) أحبره : سره . والحبور : السرور .

وقال مالك بن دينار: غدوت إلى الجمعة، فجلست قريباً من المنبر، فصعد الحجاج، ثم قال:

«أمرؤ حاسب نفسه، امرؤ راقب ربه، امرؤ زور^(١) عمله، امرؤ فـكّر فيما يقرؤه غداً في صحيفته، ويراه في ميزانه، امرؤ كان عند همه امرأ، وعند هواه زاجراً، امرؤ أخذ بعنان قلبه، كما يأخذ الرجل بخيطام جملة، فإن قاده إلى حق تبعه، وإن قاده إلى معصية الله كفه، إننا والله ما خلقنا للفناء، وإنما خلقنا للبقاء، وإنما انتقل من دار إلى دار.»

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٥٢١ ، العقد الفريد ٢ : ١٥٢ ، والبيان والتبيين ٢ : ٨٨ ، شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١٥٠)

وخطب يوماً، فقال:

أيها الناس، أقدعوا^(٢) هذه الأنفس، فإنها أسأل^(٣) شيء إذا أعطيت، وأعصى^(٤) شيء إذا سئلت، فرحم الله امرأ جعل لنفسه خطاماً وزماماً فقأها بخيطامها إلى طاعة الله، وعطفها بزمامها عن معصية الله، فإني رأيت الصبر عن محارم الله، أيسر من الصبر على عذاب الله^(٥).

(شرح ابن أبي الحديد م : ص ١٥٠ ، وشرح العيون ١٢١ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٧ ، والبيان والتبيين ١ : ٢٠٦ ، وتهذيب الكمال ١ : ١٩)

(١) زوره : حسنه . (٢) قدمه كتمه وأقده : كفه وكبحه . (٣) وفي عيون الأخبار : «أيها الناس ، احفظوا فروجكم ، وخذوا الأنفس بضميرها ، فإنها أسوك شيء وأسوك : أضعف ، من ساك الرجل سواكاً : سار سيراً ضعيفاً . (٤) وفي رواية «وأعطي شيء» وهو تحريف . (٥) قال ابن أبي الحديد : «وأكثر الناس يروون هذا الكلام عن علي عليه السلام .»

وخطب فقال :

« اللهم أرني الغيَّ غيًّا فأجتنبه ، وأرني الهدى هُدًى فاتَّبِعَه ، ولا تكلني إلى نفسي فأضِلُّ ضللاً بعيداً ، والله ما أحبُّ أن ماضى من الدنيا لي بعماتي هذه ، ولما بقي منها أشبهُ بما مضى من الماء بالماء . »

(العقد الفريد ٢ : ١٥٢ ، والبيان والتبيين ٢ : ٦٩ ، ١ : ٢٠٦ ، وشرح ابن أبي الحديد

١ م : ص ١٥٠ ، وشرح العمون ص ١٢٢)

ومن كلامه :

« إنَّ امرأ أتت عليه ساعةٌ من عمره ، لم يَدْرُ كَر فيها ربه ، ويستغفر ربه من ذنبه ، ويفكر في معاده ، لجدِّدُ أن يطول حزنه ، ويتضاعف أسفه ، إن الله كتب على الدنيا الفناء ، وعلى الآخرة البقاء ، فلا بقاء لما كتب عليه الفناء ، ولا فناء لما كتب عليه البقاء ، فلا يغرُّنكم شَاهِدٌ^(١) الدنيا ، من غائب الآخرة ، واقهروا طول الأمل ، بقِصَر الأجل^(٢) . »

(شرح ابن الحديد ١ م : ص ١٥٠ ، ومروج الذهب ٢ : ١٤٨ ، والبيان والتبيين :

٢ : ٩٩ ، شرح العمون ١٢١ ، وتهذيب الكامل ١ : ١٩)

(١) أي حاضرهما . (٢) قال الشعبي : سمعت الحجاج يقول بكلام ما سبقه إليه أحد ، سمعته يقول : « إن الله عز وجل كتب على الدنيا الفناء . . الخ » ، وروى الجاحظ عن أبي عبد الله الثقفى عن عمه قال : سمعت الحسن البصرى يقول : لقد وقفتى كلمة سمعتها من الحجاج ، قلت : وإن كلام الحجاج ليقتلك؟ قال : نعم ، سمعته على هذه الأحواد يقول : « إن امرأ ذهبت ساعة من عمره في غير ما خلق له لخرى أن تطول عليها حسرتة . »

خطب قتيبة بن مسلم الباهلي (قتل سنة ٥٩٦ هـ)

٢٩٤ - خطبته يحث على الجهاد وقد تهيأ لغزو « طخارستان »

قدم قتيبة بن مسلم الباهلي خراسان والياً عليها من قبل الحجاج^(١) سنة ٨٦ هـ ، فلما تهيأ لغزو أخرون وشومان - وهما من بلاد طخارستان^(٢) - خطب الناس وحشهم على الجهاد فقال :

« إن الله أحلَّكم هذا المَحَلَّ لِيُعِزَّ دِينَهُ ، وَيَذُبَّ بِكُمْ عَنِ الْحُرْمَاتِ ، وَيَزِيدَ بِكُمْ الْمَالَ اسْتِفَاضَةً ، وَالْعَدُوَّ وَقْتًا^(٣) ووعد نبيه صلى الله عليه وسلم النصر بحديث صادق ، وكتاب ناطق ، فقال : (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) ووعد المجاهدين في سبيله أحسن الثواب ، وأعظم الذخر عنده ، فقال : (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ^(٤) فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ، وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) ، ثم أخبر عن قتل في سبيله أنه حتى مرزوق ، فقال : « وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ

(١) ولي قتيبة خراسان بعد يزيد بن المهلب ، وغزا بلاد ماوراء النهر ، وافتتح بخارى ، وسمرقند ،

وخوارزم ، ووصل في فتوحه إلى كاشغر من بلاد الصين ، وقتل سنة ٥٩٦ هـ . (٢) ناحية كبيرة

شرق خراسان على نهر جيحون ، وقد ضبطها ابن خلكان هكذا - انظر وفيات الأعيان ١ : ٩٠ في ترجمة

بشار بن برد - وضبطها ياقوت في معجم البلدان بفتح الطاء . (٣) وقه : قهره وأذله . (٤) مجاعة .

قَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاكُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرَزَقُونَ) فتنجزوا موعودَ ربكم ،
ووطنوا أنفسكم على أقصى أثر ، وأمضى ألم ، وإياكم والهويني .

(تاريخ الطبري ٨ : ٥٩)

٢٩٥ - خطبته وقد تهباً لغزو بلاد السغد

ولما صالح قتيبة أهل خوارزم ، وسار إلى السغد^(١) سنة ٩٣ هـ خطب

الناس ، فقال :

« إن الله قد فتح لكم هذه البلدة في وقت الغزو فيه تمكن ، وهذه السغد
شاغرة^(٢) برجالها ، قد نقضوا العهد الذي كان بيننا ، ومنعونا ما كنا صالحنا عليه
طرخون ، وصنعوا به ما بلفسكم ، وقال الله تعالى : (قَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى
نَفْسِهِ) ، فسيروا على بركة الله ، فإني أرجو أن يكون خوارزم والسغد كالنضير^(٣)
وقريظة^(٤) ، وقال الله تعالى : (وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا » .

(تاريخ الطبري ٨ : ٨٥)

(١) وكان قتيبة حين فتح بخارى سنة ٩٠ هـ ، وأوقع بأهلها ، هابه أهل السغد « وهي بين نهري سيحون
وجيحون ، وكانت قصبها سمرقند ، وهي بالسين ، وربما قيلت بالصاد » وأناه طرخون ملك السغد ، وسأله
الصلح على فدية يؤديها إليه ، فأجابه قتيبة إلى ما طلب وصلحه ، ثم نقضوا عهودهم . (٢) شجر الكلب
كنح : رفع إحدى رجليه ليبول . (٣) بنو النضير : حى من يهود خيبر ، وكان بينهم وبين رسول
الله صلى الله عليه وسلم عهد يأمن بها كل فريق الآخر ، ولكنهم لم يفوا بها حسدا منهم وبغيا ، فبينما رسول الله
صلى الله عليه وسلم وبعض أصحابه في ديارهم ، إذا انتم جماعة منهم على قتله بأن يلقى عليه أحدهم صخرة من علو ،
فاطلع عليه الصلاة والسلام على قصدهم ، فرجع ، ثم أرسل إليهم يأمرهم بالجلاد ، لما تقدم منهم من الغدر ،
فهبثوا الرحيل ، فأرسل إليهم إخوانهم المنافقون يقولون : لا تخرجوا من دياركم ونحن معكم ، فسار عليه الصلاة
والسلام لقتالهم ، وتحصن بنو النضير في حصونهم ، وظنوا أنها ما نعمتهم من الله ؛ فحاصروهم ست ليال ؛ ثم أمر بقطع نخيلهم
كى يسلموا ، فغذف الله في قلوبهم الرعب ؛ فسأوه أن يجلبهم ويكف عن دماهم ؛ وأن لهم ما حملت الإبل من
أموالهم إلا آلة الحرب ففعل ؛ وصار اليهود يخربون بيوتهم بأيديهم ؛ لئلا يسكنها المسلمون .

(٤) كان يهود بني قريظة يساكنون المسلمين في المدينة ؛ فأنهزوا فرصة اشتغال المسلمين بصد جموع
الأحزاب - في غزوة الخندق - ونقضوا عهودهم معهم ؛ وذلك أن حسي بن أخطب سيد بني النضير الذين =

٢٩٦ - خطبته وقد سارت إليه جيوش الشاش وفرغانة

وأنى قتيبة السغد فحصرها شهراً ، وخاف أهلها طول الحصار ، فكتبوا إلى ملك الشاش وفرغانة^(١) « إنا نحن دونكم فيما بينكم وبين العرب ، فإن وُصِلَ إلينا كنتم أضعفَ وأذلَّ ، فهما كان عندكم من قوة فابذُلوها ، فجمعوا جموعهم ، وولّوا عليهم ابناً لخاقان^(٢) ، وساروا وقد أجمعوا أن يديتوا عسكر قتيبة ، ونهى ذلك إليه ، فانتخب أهل النجدة والبأس ووجوه الناس ، وخطبهم فقال :

« إن عدوكم قد رأوا بلاءً^(٣) الله عندهم ، وتأيسده إياكم في مُزاحفتكم ومكائرتكم^(٤) ، كل ذلك يُفليجكم^(٥) الله عليهم ، فأجمعوا على أن يحالوا غيرتكم وبياتكم ، واختاروا دهاقينهم^(٦) وملوكهم ، وأنتم دهاقين العرب وفرسانهم ، وقد

عجلوا من ديارهم ؛ توجه إلى كعب بن أسد القرظي ؛ فحسن له نقض العهد ؛ ولم يزل به حتى أجابه لقتال المسلمين ؛ فاشتد وجل المسلمين ؛ وزلوا زازالا شديدا ؛ وأرسل الله على الأعداء ريحا باردة في ليلة مظلمة وجنودا لم يروها ، فأجمعوا أمرهم على الرحيل قبل أن يصبح الصباح ؛ وكفى الله المؤمنين شر الأحزاب ، ولم يعتم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن سار إلى بني قريظة ، فتحصنوا بحصونهم ؛ وحاصرهم المسلمون نجما وعشرين ليلة ؛ فلما ضاقوا بالحصار ذرعا ؛ طلبوا أن ينزلوا على منازل عايه بنو النضير ؛ من الجلاء بالأموال وترك السلاح ، فأبى الرسول إلا أن ينزلوا على حكمه ففعلوا ؛ فتواثبت الأوس فقالوا : يا رسول الله ؛ إنهم كانوا موالينا دون الخزرج ؛ وقد فعلت في موالى إخواننا بالأمس ماقد علمت - وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بني قريظة قد حاصر بني قينقاع ؛ وكانوا حلفاء الخزرج ؛ فنزلوا على حكمه ؛ فسأله إياهم عبد الله بن أبي بن سلول فوهبهم له - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا معشر الأوس ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ قالوا : بلى ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فذاك إلى سعد بن معاذ - وكان جريحا من سهم أصيب به في غزوة الخندق - وأرسل من يأتي به ؛ فقال : إني أحكم فيهم أن تقتل الرجال ؛ وتقسّم الأموال ؛ وتسبى النساء والذراري ، فقال عليه الصلاة والسلام : فقد حكمت فيهم بحكم الله ياسعد ؛ ثم أمر بتنفيذ الحكم ؛ فنفذ فيهم . (١) الشاش وفرغانة : كورتان وراء نهر سيحون متاخمتان للصين .

(٢) خاقان : اسم لكل ملك من ملوك الترك ؛ وقد حَقَنوه على أنفسهم : أى رأسوه (بالتشديد) .

(٣) أى نعمته . (٤) كثروهم فكثروهم : غالبوهم فغلبوهم . (٥) أى ينصرم عليهم ؛

ويظفرم بهم . (٦) جمع دهقان بكسر الدال وضمها : زعيم فلاحى المعجم ، ورئيس الإقليم . معرب .

فَضَلَّكُمْ اللهُ بِدِينِهِ ، فَأَبْلُوا^(١) اللهُ بِلَاءَهُ حَسَنًا تَسْتَوْجِبُونَ بِهِ الثَّوَابَ ، مَعَ الذَّبِّ عَنْ أَحْسَابِكُمْ .
(تاريخ الطبري ٨ : ٨٧)

٢٩٧ - خطبه حين دعا إلى خلع سليمان بن عبد الملك

وقام بخراسان حين خَلَعَ سليمان بن عبد الملك^(٢) ، ودعا الناس إلى خلعهم فقال للناس :
« إني قد جمعتكم من عين التَّمَرِ^(٣) ، وَفَيْضِ الْبَحْرِ ، فَضَمَمْتُ الْأَخَ إِلَى أَخِيهِ ،
وَالوَلَدَ إِلَى أَبِيهِ ، وَقَسَمْتُ بَيْنَكُمْ فِيمَتِّكُمْ ، وَأَجْرِيَتْ عَلَيْكُمْ أُعْطِيَاتِكُمْ غَيْرَ مُكَدَّرَةٍ
وَلَا مُؤَخَّرَةٍ ، وَقَدْ جَرَّ بَتَمِ الْوُلَاةِ قَبْلِي ، أَنَا كُمْ أُمِّيَّةٌ^(٤) ، فَكُتِبَ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ :
إِنَّ حَرَّاجَ خِرَاسَانَ لَا يَقُومُ^(٥) بِمَطْبَخِي ، ثُمَّ جَاءَكُمْ أَبُو سَعِيدٍ^(٦) فَدَوَّمَ^(٧) بِكُمْ ثَلَاثَ
سِنِينَ ، لَا تَدْرُونَ أَمِى طَاعَةٌ أَنْتُمْ أَمْ فِي مَعْصِيَةٍ ؛ لَمْ يَجِبْ فَيْثًا ، وَلَمْ يَنْكَأْ^(٨) عَدُوًّا ،
ثُمَّ جَاءَكُمْ بَنُوهُ بَعْدَهُ ، يَزِيدُ فُلُحٌ تَبَارَى إِلَيْهِ النِّسَاءَ ، وَإِنَّمَا خَلِيفَتُكُمْ يَزِيدُ بْنُ ثُرَوَانَ
هَبْنَقَةُ الْقَيْسِيَّةِ^(٩) » فَلَمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ فَمَضَى ، فَقَالَ :

(١) الإِبْلَاءُ : الإِنْعَامُ وَالْإِحْسَانُ ، يُقَالُ : أَبْلَيْتُ عِنْدَهُ بِلَاءً حَسَنًا ، وَأَبْلَاهُ اللهُ بِلَاءً حَسَنًا ، وَأَبْلَيْتُهُ
مَعْرُوفًا . وَالْمَعْنَى : فَاصْدُقُوا الْقِتَالَ ، وَقَدِمُوا مَعْرُوفًا تَبْغُونَ بِهِ ثَوَابَ اللهِ . (٢) وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ الْوَلِيدَ
ابْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ أَرَادَ أَنْ يَجْعَلَ ابْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَوَلِيَّ عَهْدِهِ ، وَدَسَّ فِي ذَلِكَ إِلَى الْقَوَادِ وَالشُّعْرَاءِ ، فَبَايَعَهُ عَلَى خُلْعِ
سُلَيْمَانَ الْحِجَاجِ وَقَتِييَةَ ، ثُمَّ مَاتَ الْوَلِيدُ وَقَامَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ ، فَخَافَهُ قَتِييَةُ وَخَشِيَ أَنْ يُوَلِّيَ سُلَيْمَانَ يَزِيدَ
ابْنَ الْمَهْلَبِ خِرَاسَانَ . (٣) بَلَدٌ عَلَى الْفَرَاتِ قَرِبَ الْكُوفَةِ . (٤) هُوَ أُمِّيَّةٌ بِنْتُ عَبْدِ اللهِ بْنِ خَالِدِ
ابْنِ أَسِيدِ بْنِ أَبِي الْعَاصِ بْنِ أُمِيَّةِ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ ، وَكَانَ عَامِلًا عَلَيْهَا لِعَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ حَتَّى كَانَتْ سَنَةَ ٧٨
فَعَزَلَهُ وَجَمَعَ سُلْطَانَهُ لِلْحِجَاجِ فَبِعَثَ الْمَهْلَبُ إِلَيْهَا . (٥) فِي الْأَصْلِ « لَا يَقِيمُ » وَهُوَ تَحْرِيفٌ أَوْ « لَا يَقِيمُ
مَطْبَخِي » . (٦) أَبُو سَعِيدٍ : كُنْيَةُ الْمَهْلَبِ بْنِ أَبِي صَفْرَةَ . (٧) مِنْ دَوَّمَتِ الْكَلَابَ : أَيِ أَمَعَنْتِ
فِي الْمَسِيرِ : وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى « فِدُوخٌ بِكُمْ الْبِلَادِ » وَسَتَأْتِي . (٨) نِكَأَ الْعَدُوَّ وَنِكَأَهُ نِكَأَةٌ : قَتْلٌ وَجِرْحٌ .
(٩) هُوَ يَزِيدُ بْنُ ثُرَوَانَ هَبْنَقَةُ ذُو الْوَدْعَاتِ ، وَيَكْنَى أَبَا نَافِعٍ أَحَدُ بَنِي قَيْسِ بْنِ ثَعْلَبَةَ . يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ
فِي الْحَقِّ فَيُقَالُ : « أَحَقُّ مِنْ هَبْنَقَةَ » وَهُوَ نَوَادِرٌ فِي الْحَقِّ . مِنْهَا أَنَّهُ جَمَلَ فِي عُنُقِهِ قِلَادَةً مِنْ وَدَعٍ وَعِظَامٍ وَخَرْفٍ
وَهُوَ ذُو لِحْيَةٍ طَوِيلَةٍ ، فَسُتِلَ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ : لِأَعْرِفَ بِهَا نَفْسِي ، وَتِلَا أَضِلُّ ، فَبَاتَ ذَاتَ لَيْلَةٍ ، وَأَخَذَ أَخُوهُ =

« لَا أَعَزَّ اللَّهُ مِنْ نَصْرْتُمْ ، وَاللَّهُ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى عَزِّ مَا كَسْرْتُمْ قَرْنَهَا ، يَا أَهْلَ السَّافِلَةِ ، وَلَا أَقُولُ أَهْلَ الْعَالِيَةِ . يَا أَوْبَاشَ ^(١) الصَّدَقَةَ ، جَمَعْتُمْ كَمَا تَجْمَعُ إِبِلَ الصَّدَقَةِ مِنْ كُلِّ أَوْبٍ ^(٢) . يَا مَعْشَرَ بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ ، يَا أَهْلَ النَّفْخِ ^(٣) وَالْكَذْبِ وَالْبَخْلِ ، يَا أَيُّ يَوْمَيْكُمْ تَفْخَرُونَ : بِيَوْمِ حَرِّكُمْ ، أَمْ بِيَوْمِ سَلِّكُمْ ؟ فَوَاللَّهِ لَأَنَا أَعَزُّ مِنْكُمْ يَا أَصْحَابَ مُسَيْلِمَةَ . يَا بَنِي ذَمِيمٍ ، وَلَا أَقُولُ نَمِيمٍ . يَا أَهْلَ الْخَوَرِ ^(٤) وَالْقَصْفِ ^(٥) وَالْقَدْرِ ، كُنْتُمْ تُسَمُّونَ الْقَدْرَ فِي الْجَاهِلِيَةِ « كَيْسَانَ ^(٦) » يَا أَصْحَابَ سَجَّاحٍ ^(٧) ، يَا مَعْشَرَ عَبْدِ الْقَيْسِ الْقُسَاةَ ، تَبَدَلْتُمْ بِأَبْرِ النَّخْلِ ^(٨) أَعِنَّةَ الْخَيْلِ ، يَا مَعْشَرَ الْأَزْدِ ، تَبَدَلْتُمْ بِقُلُوسِ ^(٩) السُّفْنِ ، أَعِنَّةَ الْخَيْلِ وَالْحَصْنِ ^(١٠) ، إِنْ هَذَا لِبِدْعَةٍ فِي الْإِسْلَامِ ، وَالْأَعْرَابِ ، وَمَا الْأَعْرَابُ ؟ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْأَعْرَابِ ، يَا كُفَّاسَةَ الْمَصْرِينِ ، جَمَعْتُمْ مِنْ مَنَابِتِ الشَّيْخِ وَالْقَيْصُومِ ^(١١) ،

= قَلادته فتقلدها ، فلما أصبح ، ورأى القلادة في عنق أخيه ، قال يا أخي: أنت أنا فن أنا؟ ومنها : أنه ضل له بعير ، فجعل ينادى : من وجد بعيري فهو له ، فقيل له فلم تنشده ؟ قال : فأين حلاوة الوجدان ؟ ومنها : أنه اختصمت الطفاوة وبنو راسب في رجل ادعاه هؤلاء وهؤلاء ، ثم قالوا : رضينا بأول من يطلع علينا ، فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم هبنقة ، فقصوا عليه قصتهم ، فقال : الحكم عندي في ذلك أن يذهب به إلى نهر للبصرة ، فيلقى فيه ، فإن كان راسبيا راسب فيه ، وإن كان طفاويا طفا ، فقال الرجل : لا أريد أن أكون من أحد هذين الحيين .

وقول قتيبة : « إنما خليفتمكم هبنقة » ذلك لأن هبنقة كان يحسن إلى السماء من إبله ، فيرعها في العشب وينحى المهازيل ؛ فقيل له : ويحك ! ماتصنع ؟ فقال : إنما أكرم ما أكرم الله ، وأهين ما أهان الله ، وكذلك كان سليمان يعطى الأغنياء ، ولا يعطى الفقراء ويقول : « أصلح ما أصلح الله ، وأفسد ما أفسد الله » - انظر مجمع الأمثال ١ : ١٤٦ ، والبيان والتبيين ١ : ١٢٦ - . (١) الأوباش : السفلة ، جمع وبش كسبب . (٢) الطريق والجهة . (٣) الفخر والكبر . (٤) الضعف . (٥) اللهو .

(٦) كيسان : علم للقدر . (٧) هي سجاح بنت الحارث ادعت النبوة بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجزيرة في بني تغلب . (٨) أبر النخل أبر : أصلحه . (٩) القلوس جمع قلس كشمس : وهو حبل ضخم من ليف أو خوص أو غيرهما من قلوس سفن البحر . (١٠) جمع حصان .

ومنابت القليل^(١) ، تركبون البقر والحمر في جزيرة ابن كاوان^(٢) ، حتى إذا جمعتمكم كما يجتمع قزع الخريف^(٣) قاتم : كيت وكيت ، أما والله إني لأبن أبيه^(٤) وأخو أخيه ، أما والله لأعصبنكم عصب السلة ، إن حول الصليان الزمزمة^(٥) ، بأهل خراسان ، هل تدرون من وليكم ؟ وليكم يزيد بن ثروان ، كأني بأمر مزجاء^(٦) ، وحكم قد جاءكم ، فقلبكم على فيئكم وأطلاككم ، إن هاهنا ناراً ، ارموها أرم معكم ، ارموا غرضكم الأفضى ، قد استخيف عليكم أبو نافع ذو الودعات ، إن الشام أب مكفور ، حتى متى ينطح أهل الشام بأفئيتكم وظلال دياركم ؟ بأهل خراسان انسبونني تجدونني عراق الأم ، عراق الأب ، عراق المولد ، عراق الهوى والرأي والدين ، وقد أصبحتم اليوم فيما ترؤن من الأمن والعافية ، قد فتح الله لكم البلاد ، وآمن سبيلكم ، فالظعينة^(٧) تخرج من مرو إلى بلخ بغير جوار ، فاحمدوا الله على النعمة ، وسلوه الشكر والمزيد . ثم نزل .

(تاريخ الطبري ٨ : ١٠٥)

وورد كلام قتيبة في هذا الصدد في العقد الفريد ، والبيان والتبيين في ثلاث خطب

هذا نصها :

(١) نبت له حب أسود حسن الشم . (٢) هي جزيرة في الخليج الفارسي بين عمان والبحرين .
(٣) القزع : كل شيء يكون قطعاً متفرقة (ومنه قيل لقطع السحاب في السماء قزع) وخرفت النار أخرفها كنعر : اجتنيتها ، والنمر مخروف وخريف ، وفي كلام سيدنا علي رضي الله عنه « كما يجتمع قزع الخريف » .
(٤) أي ابن أبي . (٥) الصليان : نبت من أفضل المرعى ينجلى (يجز) للخيل التي لا تفارق الحى ، والزمزمة : صوت خفي لا يكاد يفهم ، يعني صوت الفرس (بالتحريك) إذا رآه ، وأصلها صوت المجوس عند أكلهم - يتراطنون على الأكل ، وهم صوت لا يستعملون لساناً ، ولا شفة ، لكنته صوت تديره في خياشيمها وحلوقها ، فيفهم بعضها عن بعض - وهو مثل يضرب للرجل يحوم حول الشيء ولا يظهر مرامه . والمعنى في المثل : أن ماتسمع من الأصوات والجلب ، لطلب ما يؤكل ويتمتع به . قال الميداني : وروى « حول الصليان الزمزمة » الصليان جمع صليب ، والزمزمة : صوت عابديها . (٦) هو مزجاء للمطى أي كثير الإزجاء لها ، زجاها وأزجاها : ساقها ودفعها : والمراد أنه قاس ظلوم . (٧) الظعينة : المرأة مادامت في الهودج .

قام بخراسان حين خلع سليمان بن عبد الملك ، فصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ،
ثم قال :

« أتدرون من تبايعون ؟ إنما تبايعون يزيد بن ثروان - يعنى هبنة القيسي -
كأني بأمر مزاج ، وحكم قد أتاكم ، يحكم في أموالكم ودمائكم وفروجكم وأبشاركم^(١)
ثم قال : الأعراب وما الأعراب ؟ لعنة الله على الأعراب ، جمعتم كما يجمع قرع الخريف^(٢)
من منابت الشيح والقيصوم ، ومنابت القليل ، وجزيرة ابن كاوان ، تركبون البقر ،
وتأكلون الهبيد^(٣) ، فحملتكم على الخيل ، وأبستكم السلاح ، حتى منع الله بكم البلاد ،
وأفاء بكم الفداء » قالوا : سرنا بأمرك . قال : غرؤوا غيري .

(العقد الفريد ٢ : ١٥٥ ، والبيان والتبيين ٢ : ١٠١)

وخطب مرة أخرى ، فقال :

« يا أهل العراق ، ألسنتُ أعلم الناس بكم ؟ أما هذا الحى من أهل العالية ، فنعم
الصدقة ، وأما هذا الحى من بكر بن وائل فمليحة^(٤) بظراء ، لا تجمع رجليها ، وأما هذا
الحى عبد القيس فما ضرب العير بذنبيه ، وأما هذا الحى من الأزد ، فملوج^(٥) خلق الله
وأناطه^(٦) ، وإني لله لو ملكتُ أمر الناس لنقشتُ أيديهم ، وأما هذا الحى من تميم ،
فإنهم كانوا يسمون القدر في الجاهلية كيسان » .

(العقد الفريد ٢ : ١٥٥ ، والبيان والتبيين ٢ : ٦٧)

(١) أبشار جمع بشر : وهو جمع بشرة ، وهى ظاهر الجلد . (٢) فى العقد الفريد : « كما يجمع
مرخ الخريف » وفى البيان والتبيين والطبرى « قرع الخريف » والصواب ما ذكرنا . (٣) الحنظل .
(٤) مؤنث المليج : وهو حمار الوحش السمين القوى . وأمه بظراء : طويلة البظر كشمس ، وهو ما بين
شفرى الرحم . (٥) جمع طليج (بالكسر) وهو الرجل من كفار المعجم . (٦) حيل من الناس
كانوا ينزلون سواد العراق ثم استعمل فى أخلاط الناس وعوامهم .

وخطب مرة أخرى ، فقال :

« يَا أَهْلَ خِرَاسَانَ ، قَدْ جَرَّبْتُمُ الْوَلَاةَ قَبْلِي ، أَنَا كُمْ أُمِيَّةٌ ، فَكَانَ كَاسِمُهُ أُمِيَّةَ الرَّأْيِ ، وَأُمِيَّةَ الدِّينِ ، فَكَتَبْتُ إِلَى خَلِيفَتِهِ : إِنْ خَرَجَ خِرَاسَانَ وَسِجِسْتَانَ ، لَوْ كَانَ فِي مَطْبِخِهِ لَمْ يَكْفِهِ ، ثُمَّ أَنَا كُمْ بَعْدَهُ أَبُو سَعِيدٍ ، فَدَوَّخَ بِكُمْ الْبِلَادَ ، لَا تَدْرُونَ أَمَّا طَاعَةُ اللَّهِ أَنْتُمْ أُمَّ فِي مَعْصِيَتِهِ ، ثُمَّ لَمْ يَجِبْ فِيمَنَّا ، وَلَمْ يَنْكَأْ عَدُوًّا ، ثُمَّ أَنَا كُمْ بَنُوهُ بَعْدَهُ ، مِثْلَ أَطْبَاءِ^(١) الْكَلْبَةِ ، مِنْهُمْ ابْنُ الرَّحْمَةِ^(٢) ، حِصَانٌ يَضْرِبُ فِي عَائَةِ^(٣) ، وَلَقَدْ كَانَ أَبُوهُ يَخَافُهُ عَلَى أُمَّهَاتِ أَوْلَادِهِ ، ثُمَّ أَصْبَحْتُمْ وَقَدْ فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ الْبِلَادَ ، وَأَمَّنْ لَكُمْ السُّبُلَ ، حَتَّى إِنْ الظَّمِينَةَ لَتَخْرُجَ مِنْ مَرَوْ إِلَى سَمَرْقَنْدَ فِي غَيْرِ جَوَارٍ .

(المقد الفريد ٢ : ١٥٥ ، والبيان والتبيين ٢ : ٦٧)

(١) جمع طبي كقفل . والطبي : لذات الخف والظلف كالشدي للمرأة . (٢) يريد به يزيد

ابن المهلب . (٣) العانة : الأتان ، والقطع من حر الوحش ، والمراد بها النساء .

٣٠١ - كلمات حكيمة لقتيبة بن مسلم

وَحَرَجَتْ خَارِجَةً بِحُزَّاسَانٍ ، فَقِيلَ لِقُتَيْبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ : لَوْ وَجَّهْتَ إِلَيْهِمْ وَكَيْعَ بْنَ أَبِي سُودٍ ^(١) ، قَالَ : - وَكَانَ وَكَيْعٌ رَجُلًا عَظِيمَ السِّكْرِ ، فِي أَنْفِهِ خُنْزُورَانَةٌ ^(٢) ، وَفِي رَأْسِهِ نَعْرَةٌ ^(٣) - وَإِنَّمَا أَنْفُهُ فِي أَسْلُوبٍ ^(٤) ، وَمِنْ عَظْمٍ كَبِيرِهِ اشْتَدَّ عُجْبُهُ ، وَمَنْ أَعْجَبَ بِرَأْيِهِ لَمْ يُشَاوِرْ كَفِيئًا ، وَلَمْ يُؤْمِرْ ^(٥) نَصِيحًا . وَمَنْ تَفَرَّدَ بِالنَّظَرِ لَمْ يَكْمُلْ لَهُ الصَّوَابُ ، وَمَنْ تَبَجَّجَ ^(٦) بِالْأَنْفَرَادِ ، وَفَخَّرَ بِالْإِسْتِبْدَادِ ، كَانَ مِنَ الصَّوَابِ بَعِيدًا ، وَمَنْ اخْتَلَدَ لَانِ قَرِيْبًا ، وَاخْطَأَ مَعَ الْجَمَاعَةِ ، خَيْرٌ مِنَ الصَّوَابِ مَعَ الْفِرْقَةِ ، وَإِنْ كَانَتِ الْجَمَاعَةُ لَا تَخْطِي ، وَالْفِرْقَةُ لَا تُصِيبُ ، وَمَنْ تَكَبَّرَ عَلَى عَدُوِّهِ حَقَّرَهُ ، وَإِذَا حَقَّرَهُ تَهَانُ بِأَمْرِهِ ، وَمَنْ تَهَانَ بِخَصْمِهِ ، وَوَثِقَ بِفَضْلِ قُوَّتِهِ قَلَّ أَحْتِرَاسُهُ ، وَمَنْ قَلَّ أَحْتِرَاسُهُ كَثُرَ عَثَارُهُ ، وَمَا رَأَيْتَ عَظِيمَ السِّكْرِ صَاحِبَ حَرْبٍ ، إِلَّا كَانَ مَنكُوبًا ، فَلَا وَاللَّهِ حَتَّى يَكُونَ عَدُوُّهُ عِنْدَهُ ، وَخَصْمُهُ فِيْمَا تَغْلِبُ

(١) هو وكيع بن أبي سود التيمي، أحد الأبطال البواسل، كان مع قتيبة في فتح بخارى، وأبلى في القتال بلاء محموداً - انظر خبره في الطبري ٨ : ٦٨ - وولاه الناس أمرهم حين ثاروا بقتيبة وقتلوه .

(٢) الخنزوان ، والخنزوانة ، والخنزوانية : السكبر ، يقال : هو ذو خنزوانات .

(٣) النعرة : الخيلاء والسكبر . (٤) الأسلوب : الشموخ في الأنف ، ويقال : إن أنفه لنى

أسلوب إذا كان متكبراً ، قاله الراجز :

أنوفهم ملفخر في أسلوب وشمر الأستاه في الجيوب

(وهو في معنى المثل المشهور : أنف في السماء واست في الماء ، والجيوب كصبور : الأرض ، والأستاه

جمع ستة كشمس وسبب وهو الاست ، وقوله : ملفخر أصله : من الفخر ، ونظيره قول جميل بثينة :

وما أنس ملاً شيئاً لأنس قولها (وقد قربت نصوى) أمصرتريد؟

أى من الأشياء ، وقول قطري بن الفجاءة :

غداة طفت علماء بكر بن وائل وعجنا صدور الخيل نحو تميم

أى على الماء . (٥) الكفى : الكافي ، ويؤامر : يشاور . (٦) تبجج به : افتخر وتباهى .

عليه ، أسمع من فرَس ، وأبصر من عُقاب ، وأهدى من قِطَاة ، وأحذر من عَقَق (١) ،
وأشد إقداماً من الأسد ، وأوثب من الفَهْد ، وأحقد من جمل ، وأروغ من ثعلب ،
وأغدر من ذئب ، وأسخى من لَافِظَة (٢) ، وأشع من صبي ، وأجمع من ذرة (٣) ،
وأحرس من كلب ، وأصبر من ضَب ، فإن النفس تسمح من العناية على قدر الحاجة ،
وتتحفظ على قدر الخوف ، وتطلب على قدر الطمع ، وتطمع على قدر السبب .

(جمهرة الأمثال ١ : ١١٧)

ومن كلماته البليغة قوله حين قدم خراسان :

« من كان في يديه شيء من مال عبد الله بن خازم (٤) فليذبهذه ، وإن كان في فيه
فليلفظه ، وإن كان في صدره فلينفثه » فمجب الناس من حسن ما فصل وقسم .

(البيان والتبيين ٢ : ٥٤)

(١) العقق : نوع من الغربان ، وهو ذو لونين : أبيض وأسود طويل الذنب ، يشبه صوته العين
والقاف - ولذا سمي عققاً - وقيل لأنه يعق فراخه ، فيتركهم بلا طعام ، وجميع الغربان يفعل ذلك - وقد
ضربوا به المثل في الحذر ، فقالوا : « أحذر من عقق » - انظر جمهرة الأمثال - كما قالوا : « أحذر من
غراب » وقالوا أيضاً : « ألص من عقق » لأن في طبعه شدة الاختطاف لما يراه من الحلي - وقالوا : « أحق
من عقق » لأنه كالنميمة التي تضيع بيضها وأفراخها ، وتشتغل ببيض غيرها ، وإياها عنى هدية بقوله :

كتاركة يبيضها بالدرء ومليسة يبيض أخرى جناحا

انظر حياة الحيوان الكبرى للدميري ٢ : ٢٠٩ ، وجمع الأمثال .

(٢) رواه الميداني : « أسمع من لافظة » وقال : قد اختلفوا فيها ، فقال بعضهم : هي المنز التي تشل
للحلب - أشلى دابته : أراها المخلاة لتأنيه ، وأشلاها : دعاها للحلب - فتجىء لافظة بجرتها فرحا بالحلب .
وقال بعضهم : هي الحمامة لأنها تخرج ماني بطنها لفرخها ، وقال بعضهم : هي الديوك ، لأنه يأخذ الحبة بمنقاره
فلا يأكلها ، ولكن يلقبها إلى الدجاجة ، والهاء فيها المبالغة هاهنا ، وقال بعضهم : هي الرحى لأنها تلقظ
ما تطحنه أي تقلد ، وقال بعضهم : هي البحر لأنه يلفظ بالذرة ، قال الشاعر :

تجود فتجزل قبل السؤال وكفك أسمع من لافظة

(٣) الذر : صغار النمل ، وفي كلام عمر بن عبد العزيز : قاتل الله زيادا جمع لهم (أي لأهل العراق)

كما تجمع الذرة ، وحاطهم كما تحوط الأم البرة » ، وقال الشاعر :

تجمع للوارث جمعاً كما تجمع في قريتها الذر .

(٤) وكان من أمره أنه لما مات يزيد بن معاوية ، ومعاوية بن يزيد ، وثب أهل خراسان بمعاملهم

فأخرجوهم ، وغلب كل قوم على ناحية ، ووقعت الفتنة ، وغلب عبد الله بن خازم على خراسان ، ثم كتب إليه =

٣٠٢ - خطبة طارق بن زياد في فتح الأندلس

لما دانت بلاد المغرب لموسى بن نصير - وكان والياً عليها من قبل الوايد بن عبد الملك - طمّح بصره إلى فتح بلاد الأندلس ، فبعث مَوْلَاهُ طارق بن زياد على جيش جُله من البربر سنة ٩٢ هـ فعبّر بهم البحر ، ونمى خبره إلى لُدْرِيْق ملك القوط ، فأقبل لمحاربتهم بجيش جرّار ، وخاف طارق أن يستحوذ الرعب على جنده لفلّتهم ، فأحرق السفن التي أفلّتهم ، حتى يقطع من قلوبهم كل أمل في العودة ، وقام فيهم ، لحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم حثهم على الجهاد ، ورغبهم في الشهادة ، فقال :

« أيها الناس ، أين المفر؟ المحرّ من ورائكم ، والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق^(١) والصبر ، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيّع من الأيتام في مادب^(٢) اللّثم ، وقد استقبلكم عدوكم بحيشه ، وأسلحته وأقواته مَوْفُورَةٌ ، وأنتم لا وزر^(٣) لكم إلا سيوفكم ، ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم ، وإن امتدّت بكم الأيام على افتقاركم ، ولم تُنجزوا لكم أمراً ، ذهبت رِيحُكم ، وتموّصت القلوب من رُعبها منكم الجرأة عليكم ، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم ، بمناجزة^(٤) هذا الطاغية ، فقد ألتت به إليكم مدينته الحصينة ، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن ، إن سمّحتم لأنفسكم بالموت ، وإني لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة^(٥) ،

= عبد الملك بن مروان بعد مقتل عبد الله بن الزبير - وقيل قبله - يدعو إلى الدخول في طاعته على أن يطمعه خراسان عشر سنين ، فأبى وحلف ألا يعطيه طاعة أبداً ، وكان ابن خازم يقاتل بجزيرة بن ورفاء الصريمي بأبر شهر ، وخليفته على مرو بكير بن وشاح ، فكتب عبد الملك إلى بكير بمهده على خراسان ، ووعده ومناه ، فدعا إلى عبد الملك ، وأجابته أهل مرو ، وبلغ ابن خازم فخاف أن يأتيه بكير ، فيجتمع عليه أهل مرو وأهل أبر شهر ، فترك بجزيرة وأقبل إلى مرو ، فاتبه بجزيرة فلحقه ، ودارت بينهما الحرب فقتل ابن خازم في المعركة - انظر تاريخ الطبري ٧ : ص ٤٤ ، وص ١٩٦ . (١) أي الصدق في القتال ، والصدق : الشدة ، يقال صدقه القتال . (٢) جمع مادبة بالفتح والضم : وهي طعام صنع لدعوة أو عرس . (٣) لاملجاً . (٤) أي مبارزته . (٥) النجوة : ما ارتفع من الأرض .

ولا حَمَلْتُمْ عَلَى خَطَاةٍ أَرْخَصُ مَتَاعٍ فِيهَا النَّفُوسُ ، أَرْبَابًا^(١) فِيهَا بِنَفْسِي ، وَاَعْلَمُوا
أَنْكُمْ إِنْ صَبَرْتُمْ عَلَى الْأَشَقِّ قَلِيلًا ، اسْتَمْتَعْتُمْ بِالْأَرْزَاقِ الْأَلَدِّ طَوِيلًا ، فَلَا تَرْتَوِّبُوا بِأَنْفُسِكُمْ
عَنْ نَفْسِي ، فِيمَا حَفَّكُمْ فِيهِ أَوْفَرُ مِنْ حَظِي .

وَقَدْ بَانَكُمْ مَا أَنْشَأَتْ هَذِهِ الْجَزِيرَةُ مِنَ الْخُورِ^(٢) الْحِسَانِ ، مِنْ بَنَاتِ الْيُونَانِ ،
الرَّافِلَاتِ^(٣) فِي الدَّرِّ وَالْمَرْجَانِ ، وَالْحُمْلَلِ الْمَسْجُوجَةِ بِالْعَقِيَّانِ^(٤) ، الْمَقْصُورَاتِ^(٥)
فِي قُصُورِ الْمُلُوكِ ذُوِي التَّيْجَانِ ، وَقَدْ انْتَخَبْتُمْ الْوَالِيدَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ أَمِيرًا لِلْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْأَبْطَالِ
عُزْبَانًا^(٦) ، وَرَضِيَكُمْ لِلْمُلُوكِ هَذِهِ الْجَزِيرَةَ أَصْهَارًا^(٧) وَأَخْتَانًا^(٨) ، ثِقَّةً مِنْهُ بَارْتِيَا حَكْمَ
لِلطَّمَانِ ، وَإِسْمَا حَكْمَ^(٩) بِمَجَالِدَةِ الْأَبْطَالِ وَالْفَرَسَانِ ، لِيَكُونَ حَفْظُهُ مِنْكُمْ ثَوَابَ اللَّهِ عَلَى
إِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ ، وَإِظْهَارِ دِينِهِ بِهَذِهِ الْجَزِيرَةِ ، وَلِيَكُونَ مَقْنَمُهَا خَالِصًا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ ، وَمِنْ
دُونِ الْمُؤْمِنِينَ سِوَاكُمْ ، وَاللَّهُ تَعَالَى وَوَلِيُّ إِنْجَادِكُمْ عَلَى مَا يَكُونُ لَكُمْ ذِكْرًا فِي الدَّارِينَ .

وَاَعْلَمُوا أَنِّي أُولُ مَجِيبٍ إِلَى مَا دَعَوْتَكُمْ إِلَيْهِ ، وَأَنِّي عِنْدَ مُلْتَقَى الْجَمْعِينَ ، حَامِلٌ
بِنَفْسِي عَلَى طَاقِيَةِ الْقَوْمِ لِدَرْبِيقِ ، فَقَاتِلْهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، فَاحْلُوا مَعِيَ ، فَإِنْ هَلَكْتُ بَعْدَهُ ،
فَقَدْ كُنْتُمْ أَمْرَهُ ، وَلَنْ يُعْمُوزَ كُمْ بَطَلٌ عَاقِلٌ تُسْنِدُونَ أُمُورَكُمْ إِلَيْهِ ، وَإِنْ هَلَكْتُ قَبْلَ
وَصُولِي إِلَيْهِ ، فَاخْلُقُونِي فِي عَزِيمَتِي هَذِهِ ، وَاحْلُوا بِأَنْفُسِكُمْ عَلَيْهِ ، وَارْتَفِعُوا الْمُهَيْمِ مِنْ فَتْحِ
هَذِهِ الْجَزِيرَةِ بِقَتْلِهِ ، فَإِنَّهُمْ يُخَذَّلُونَ .

(نَفْحُ الطَّيِّبِ ١ : ١١٢ ، وَوَفِيَّاتِ الْأَمِيَانِ ٢ : ١٣٥)

(١) رَبًّا بِنَفْسِهِ : عَلَاهَا وَارْتَفَعَ ، أَيْ أَنْتَحَى عَنْ مِشَارِكَتِكُمْ . (٢) جَمْعُ حُورَاءَ ، مِنْ الْخُورِ
بِالتَّحْرِيكِ : وَهُوَ شِدَّةُ سُودِ الْعَيْنِ وَيَبَاضُهَا . (٣) رَفَلَتْ : جَرَتْ ذَيْلُهَا وَتَبَخَّرَتْ ، أَوْ خَطَرَتْ بِيَدِهَا .
(٤) الذَّهَبُ . (٥) الْمَخْدِرَاتُ : الْمَخْبُوءَاتُ (٦) جَمْعُ عَزِيمٍ . وَالْعَزِيمُ وَالْعَزْبُ وَالْأَعَزْبُ :
مِنْ لَازِجَةِ لَه . (٧) جَمْعُ صَهْرٍ : كَحَمَلٍ ، وَهُوَ زَوْجُ بِنْتِ الرَّجُلِ وَزَوْجُ أُخْتِهِ . (٨) جَمْعُ
خَتْنٍ كَسَبَبٍ ، وَهُوَ الصَّهْرُ ، أَوْ كُلُّ مَنْ كَانَ مِنْ قَبْلِ الْمَرْأَةِ كَالْأَبِ وَالْأَخِ . (٩) سَمِحٌ وَأَسْمِحٌ : جَادٌ وَكَرِيمٌ .

٣٠٣ - نص آخر لخطبة طارق

وروى ابن قتيبة هذه الخطبة في الإمامة والسياسة بصورة أخرى ، قال :
لما بلغ طارقاً دُنُوَّ لَدْرِيقِ ، قام في أصحابه ، حمد الله ، ثم حض الناس على الجهاد ،
وَرَغِبَهُمْ فِي الشَّهَادَةِ ، وَبَسَطَ لَهُمْ فِي آمَالِهِمْ ، ثُمَّ قَالَ :

« أَيُّهَا النَّاسُ : أَيْنَ الْمَرْءُ ؟ الْبَحْرُ مِنْ وَرَائِكُمْ ، وَالْعَدُوُّ أَمَامَكُمْ ، فَلَيْسَ ثَمَّ وَاللَّهِ
إِلَّا الصَّدَقُ وَالصَّبْرُ ، فَإِنَّهُمَا لَا يُفْلِحَانِ ، وَهُمَا جَنْدَانِ مَنْصُورَانِ ، وَلَا تَضُرُّهُمَا قِلَّةٌ ،
وَلَا تَنْفَعُ مَعَ الْخَوَرِ وَالْكَسَلِ وَالْفَشَلِ وَالْاِخْتِلَافِ وَالْعُجْبِ كَثْرَةٌ ، أَيُّهَا النَّاسُ :
مَا فَعَلْتَ مِنْ شَيْءٍ فَأَفْعَلُوا مِثْلَهُ ، إِنْ حَمَلْتُ فَأَحْمِلُوا ، وَإِنْ وَقَفْتُ فَاقِفُوا ، ثُمَّ كُونُوا كَهَيْئَةِ
رَجُلٍ وَاحِدٍ فِي الْقِتَالِ ، أَلَا وَإِنِّي عَامِدٌ إِلَى طَاغِيَتِهِمْ ، بِحَيْثُ لَا أَتَهَيَّبُهُ حَتَّى أَخَالِطَهُ ،
وَأُقَاتِلُ دُونَهُ ، فَإِنْ قُتِلْتُ فَلَا تَهِنُوا ^(١) وَلَا تَحْزِنُوا ، وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ
رِيحُكُمْ . وَتَوَلَّوْا الدُّبْرَ أَعْدُوَكُمْ ، فَتَبَدَّدُوا بَيْنَ قَتِيلٍ وَأَسِيرٍ . وَإِيَّاكُمْ إِيَّاكُمْ أَنْ تَرْضَوْا
بِالدَّيْنَةِ ، وَلَا تَعْطُوا بِأَيْدِيكُمْ ، وَارْغَبُوا فِي مَا يُجَلُّ لَكُمْ مِنَ الْكِرَامَةِ وَالرَّاحَةِ ، مِنَ الْمَهْنَةِ
وَالذَّلَّةِ ، وَمَا قَدْ حَلَّ لَكُمْ مِنْ ثَوَابِ الشَّهَادَةِ ، فَإِنَّكُمْ إِنْ تَقَلَّوْا ^(٢) (وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَمُعِيذُكُمْ)
تَبَوَّءُوا بِالْخُسْرَانِ الْمُبِينِ ، وَسُوءِ الْحَدِيثِ غَدًا بَيْنَ مَنْ عَرَفَكُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَهَآنَذَا حَامِلٌ
حَتَّى أَغْشَاهُ ، فَأَحْمِلُوا بِحِمْلَتِي . »

(الإمامة والسياسة ٢ : ٥٣)

٣٠٤ - خطبة عثمان بن حيان المري بالمدينة

وولى الوليد بن عبد الملك عثمان بن حيان المري المدينة سنة ٥٩٤ هـ ، وقد خطب
على المنبر ، فقال بعد حمد الله :

« أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّا وَجَدْنَاكُمْ أَهْلَ غَيْشٍ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فِي قَدِيمِ الدَّهْرِ وَحَدِيثِهِ ،

(١) فلا تضعفوا . (٢) إن تغلبوا وتهزموا .

وقد ضوى^(١) إليكم من يزيدكم خبالاً : أهل العراق ، هم أهل الشقاق والنفاق ، هم والله هُشُّ النفاق ، وببيضته التي تفلقت عنه ، والله ما جرّبت عراقياً قط إلا وجدت أفضلهم عند نفسه ، الذي يقول في آل أبي طالب ما يقول ، وما هم لهم بشيعة ، وإنهم لأعداء لهم ولغيرهم ، واسكن لما يريد الله من سفك دماهم ، فإني والله لا أوتى بأحدٍ آوى أحداً منهم أو أكرّاه منزلاً ، أو أنزله ، إلا هدمت منزله ، وأنزلت به ما هو أهله^(٢) .

ثم إن البلدان لما مصرّها عمر بن الخطاب ، وهو مجتهد على ما يصلح رعيته ، جعل يمر عليه من يريد الجهاد ، فيستشيره : الشام أحب إليك أم العراق ؟ فيقول : الشام أحب إليّ .

إني رأيت العراق داءً عضالاً ، وبها فرّخ الشيطان ، والله لقد أعضلوا بي^(٣) ، وإني لأراني سأفرّقهم في البلدان ، ثم أقول : لو فرقهم لأفسدوا من دخلوا عليه بجذلٍ وحجاجٍ ، وكيف ؟ ولم ؟ وسرعدهً وجيف^(٤) في الفتنة ، فإذا خبروا عند السيوف ، لم يُخبر منهم طائل^(٥) ، لم يصلحوا على عثمان ، فلما قتل منهم الأمرين^(٦) ، وكانوا أول الناس فتقاً هذا الفتق العظيم ، ونقضوا عراً الإسلام عروةً عروةً ، وأنفلوا^(٧) البلدان ، والله إني لأتقرب إلى الله بكل ما أفعل بهم لما أعرف من رأيهم ومذاهبهم ، ثم وليهم أمير المؤمنين معاوية ، فداحجهم^(٨) فلم يصلحوا عليه ، وولاهم رجل الناس^(٩) جلدًا ،

(١) ضوى كرمى : انضم ولبأ ، والخبال : الفساد . (٢) ولم يترك بالمدينة أحداً من أهل العراق ، تاجراً ولا غير تاجر ، وأمر بهم أن يخرجوا ، وحبس بعضهم وهاجهم ، ثم بعث بهم في جوامع إلى الحجّاج بن يوسف . (٣) عضل به الأمر وأعضل : اشتد ، وأعضله أيضاً . (٤) وجف يجف وجيفا : اضطرب . والوجيف : ضرب من سير الخيل والإبل . (٥) الطائل والطائلة والطول : الفضل والقدرة . (٦) الأمران : الفقر والهرم ، وهو كناية عن اشتداد الأمر . (٧) أفسدوا : من نغل الأديم كفرح : فسد في الدباغ ، وأنغله : أفسده . (٨) المداحجة مثل المداجاة وداحجه عليه : واقفه . (٩) يريد الحجّاج بن يوسف .

فَبَسَطَ عَلَيْهِمُ السَّيْفَ وَأَخَافَهُمْ ، فَاسْتَقَامُوا لَهُ ، أَحْبَبُوا أَوْ كَرَهُوا ، وَذَلِكَ أَنَّهُ خَبَّرَهُمْ وَعَرَّفَهُمْ .

أيها الناس : إنا والله ما رأينا شِعَاراً قَطُّ مِثْلَ الْأَمْنِ ، وَلَا رَأَيْنَا حِلْساً^(١) قَطُّ شَرّاً مِنْ الْخُوفِ ، فَالزَّمُوا الطَّاعَةَ ، فَإِنْ عِنْدِي بِأَهْلِ الْمَدِينَةِ خَبْرَةٌ مِنْ الْإِخْلَافِ ، وَاللَّهِ مَا أَنْتُمْ بِأَصْحَابِ قِتَالٍ ، فَكُونُوا مِنْ أَحْلَاسِ بَيْوتِكُمْ ، وَعَضُّوا عَلَى النَّوَاجِذِ ، فَإِنِّي قَدْ بَعَثْتُ فِي مَجَالِسِكُمْ مَنْ يَسْمَعُ فَيُبَلِّغُنِي عَنْكُمْ ، إِنَّكُمْ فِي فُضُولِ كَلَامٍ غَيْرِهِ الزَّمُّ لَكُمْ ، فَادْعُوا عَيْبَ الْوُلَاةِ ، فَإِنَّ الْأَمْرَ إِنَّمَا يُنْقَضُ شَيْئاً شَيْئاً حَتَّى تَكُونَ الْفِتْنَةُ ، وَإِنَّ الْفِتْنَةَ مِنَ الْبَلَاءِ ، وَالْفِتْنُ تَذْهَبُ بِالدِّينِ وَبِالْمَالِ وَالْوَالِدِ .
(تاريخ الطبري ٨ : ٩٢)

٣٠٥ - وصية يزيد بن المهلب لابنه مخلد (قتل سنة ١٠٢ هـ)

وَمَا وَلى يَزِيدُ بْنُ الْمُهَلَّبِ خُرَاسَانَ فِي عَهْدِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، فَفَتِحَ جُرْجَانَ^(٢) وَطَبْرَسْتَانَ^(٣) (سنة ٩٨) ، وَقَدْ أَوْصَى ابْنَهُ مَخْلُودًا حِينَ اسْتَخْلَفَهُ عَلَى جُرْجَانَ ، فَقَالَ :

« يَا بُنَيَّ ، إِنِّي قَدْ اسْتَخْلَفْتُكَ عَلَى هَذِهِ الْبِلَادِ ، فَانظُرْ هَذَا الْحَيَّ مِنَ الْيَمِينِ ، فَكَانَ لَهُمْ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

إِذَا كُنْتَ مُرْتَادَ الرِّجَالِ لِنَفْعِهِمْ .

فَرِشٌ وَأَصْطَنِعُ عِنْدَ الدِّينِ بِهِمْ تَرْمِي^(٤)

وَانظُرْ هَذَا الْحَيَّ مِنَ الرَّبِيعَةِ ، فَإِنَّهُمْ شِيَعَتُكَ وَأَنْصَارُكَ ، فَاقْضِ حَقَّوَقِهِمْ ، وَانظُرْ هَذَا

(١) الخلس : بساط البيت ، وكساء على ظهر البعير تحت رحله ، والمراد: ما رأينا مركبا شرا من الخوف ، وفلان جلس من أحلاس البيت : للذي لا يبرح البيت . (٢) في الجنوب الشرق من بحر قزوين . (٣) جنوبي بحر قزوين . (٤) راش السهم يرشه : ألزق عليه الريش ، وراش الصديق : أطعمه وسماه وكساه وأصلح حاله ونفقه ، واصطنع عنده صنيعته : اتخذها ، والبيت لأبي ذؤاد الإيادي .

الحى من تميم ، فامطرهم^(١) ، ولا تُزّه^(٢) لهم ، ولا تُدنيهم فيطمعوا ، ولا تُقهرهم فيقطعوا ، وانظر هذا الحى من قيس ، فإنهم أكفاه قومك فى الجاهلية ، ومُناصِفُوم المنابر فى الإسلام ، ورضاهم منك البشر .

يا بنى : إن لأبيك صنائعَ فلا تُفسدِها ، فإنه كفى بالمرءَ نقصاً أن يهدم ما بقى أبوه ، وإياك والدماء فإنها لا بقیةَ معها ، وإياك وشمّ الأعراض ، فإن الحرّ لا يُرضيه عن عِرضه عِوضٌ ، وإياك وضربَ الأَبشارِ ، فإنه عارٌ باقى ، ووثرٌ مطلوب ، واستعمل على النجدة والفضل دون الهوى ، ولا تعزل إلا عن عجز أو خيانة ، ولا يمنعك من اصطناع الرجل أن يكون غيرك قد سبقك إليه ، فإنك إنما تصطنع الرجال لفضلها ، وليكن صنيعك عند من يكافئك عنه ، احمل الناس على أحسن أدبك يكفوك أنفسهم ، وإذا كتبت كتاباً فأكثرِ النظر فيه ، وليكن رسولك فيما بينى وبينك من يفقه عنى وعنك ، فإن كتاب الرجل موضعُ عقله ، ورسوله موضعُ سرِّه ، وأستودعك الله ، فلا بدّ للودع أن يسكت ، والمشيّع أن يرجع ، وما عفاً من المنطق ، وقلّ من الخطيئة أحبُّ إلى أبيك ، وكذلك سلك هذا المسلك المحمود .

(شرح ابن الحديد م ٤ : ص ١٥٥ ، وبلوغ الأرب ٣ : ١٧٣)

(١) مطرتهم السماء : أصابتهم بالمطر ، ومطرهم بخير : أصابهم وما مطر منه خيراً - وبخير .. :

أى ما أصابه منه خير .

(٢) للزهو : الكبر والعبه ، زهى كفى ، وكذا قليلة .

٣٠٦ - نصيحة عمر بن هبيرة لبعض بنيه

وقال عمر بن هبيرة^(١) يؤدّب بعض بنيه :

« لاتكوننَّ أول مُشير ، وإياك والهوى والرأى الفطير^(٢) ، وتجنب ارتجال الكلام ، ولا تُشر على مستبدّ ، ولا على وَغد ، ولا على متلّون ، ولا على لجّوج ، وخَفِ الله في موافقة هوى المستشار ، فإن التماس موافقته لؤم ، وسوء الاستماع منه خيانة » .

وقال : « من كثر كلامه كثر سقطه ، ومن ساء خلقه قلَّ صديقه » .

(البيان والتبيين ٢ : ٩٨)

(١) هو عمر بن هبيرة الفزاري ، وكان عاملا على الجزيرة لعمر بن عبد العزيز ، وولى العراق (وأضيفت إليه خراسان) ليزيد بن عبد الملك . (٢) كل شيء أعجلته عن إدراكه فهو فطير - والمعجب الفطير : ضد الحمير : أى الذى لم يختمر - « وكان عبد الله بن وهب الراسبي أمير الخوارج يقول : نعوذ بالله من الرأى الدبرى - والدبرى بالتحريك وتسكن الباء : الذى يعرض من بعد وقوع الشيء - ولا تفل دبرى يضمّتين فإنه من لحن المحدثين » .

خطب خالد بن عبد الله القسري^(١)

(توفي سنة ٥١٢٦ هـ)

٣٠٧ - خطبته بمكة يدعو إلى الطاعة ولزوم الجماعة

خطب خالد بن عبد الله القسري بمكة ، فقال :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّكُمْ بِأَعْظَمِ بِلَادِ اللَّهِ حُرْمَةً ، وَهِيَ الَّتِي اخْتَارَ اللَّهُ مِنَ الْبِلَادِ أَنْ يَوَضَعَ بِهَا بَيْتَهُ ، ثُمَّ كَتَبَ عَلَى عِبَادِهِ حِجَّتَهُ ، مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ، أَيُّهَا النَّاسُ : فَعَلَيْكُمْ بِالطَّاعَةِ ، وَلِزُومِ الْجَمَاعَةِ ، وَإِيَّاكُمْ وَالشُّبُهَاتِ ، فَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أُوتِيَ بِأَحَدٍ يَطْعَنُ عَلَى إِمَامِهِ إِلَّا صَلَّيْتُهُ فِي الْحَرَمِ ، إِنْ لَمْ يَجْعَلْ خِلَافَةً مِنْهُ بِالْمَوْضِعِ الَّذِي جَعَلَهَا ، فَسَلِّمُوا وَأَطِيعُوا ، وَلَا تَقُولُوا كَيْتَ وَكَيْتَ ، إِنَّهُ لَا رَأْيَ فِيمَا كَتَبَ بِهِ الْخَلِيفَةُ أَوْ رَأَاهُ إِلَّا إِمَّاؤُهُ ، وَاعْلَمُوا أَنَّهُ بَلَّغَنِي أَنْ قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْخِلَافِ يَقْدَمُونَ عَلَيْكُمْ ، وَيَقِيمُونَ فِي بِلَادِكُمْ ، فَإِيَّاكُمْ أَنْ تُنْزِلُوا أَحَدًا مِنْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ زَائِعٌ عَنِ الْجَمَاعَةِ ، فَإِنِّي لَا أَجِدُ أَحَدًا مِنْهُمْ فِي مَنْزِلٍ أَحَدٍ مِنْكُمْ إِلَّا هَدَمْتُ مَنْزِلَهُ ، فَانظُرُوا مَنْ تَنْزِلُونَ فِي مَنَازِلِكُمْ ، وَعَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ وَالطَّاعَةِ ، فَإِنَّ الْفُرْقَةَ هِيَ الْبَلَاءُ الْعَظِيمُ » .

وَسَمِعَ يَوْمًا يَقُولُ : « وَاللَّهِ لَوْ أَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ الْوَحْشَ الَّتِي تَأْمَنُ فِي الْحَرَمِ لَوْ نَطَقَتْ

(١) ولاء الوليد بن عبد الملك مكة سنة ٨٩ هـ ، وولي المراقبين في عهد هشام بن عبد الملك ، وكانت أمه

غصنرانية ، قالوا وكان يهتم في دينه ، وهو من خطباء العرب الممدودين المشهورين بالفصاحة والبلاغة ، توفي

سنة ٥١٢٦ هـ .

لم نُقَرِّ بالطاعة ، لأخرجتها من الحرم ، إنه لا يسكن حَرَمَ اللهِ وَأَمْنَهُ مخالف للجماعة
زار^(١) عليهم .
(تاريخ الطبري ٨ : ٨٠)

٣٠٨ - خطبة أخرى يشيد فيها بفضل الوليد

ومن غلوه أنه خطب على منبر مكة ، فقال :

« أيها الناس ، أيهما أعظم ؟ أخليفة الرجل على أهله ، أم رسوله إليهم ؟ والله لو لم
تعلموا فضل الخليفة إلا أن إبراهيم خليل الرحمن استسقى ربه ، فسقاه مائحا أجابا ، واستسقاه
الخليفة فسقاه عذبا فَرَاتًا^(٢) » يعني بئرًا حفرها الوليد بن عبد الملك بالثنديتين : ثَنِيَّة
طَوَى ، وثنية الحَجُون^(٣) ، فسكان يُنقل ماؤها ، فيوضع في حوض من آدم إلى جنب
زمزم ، ليعرف فضله على زمزم »

(تاريخ الطبري ٨ : ٦٧ ، وشرح للعيون ص ٢٠٥ والأغاني ١٩ : ٦٠)

٣٠٩ - خطبته بمكة في الحجاج

وصعد خالد المنبر في يوم الجمعة - وهو على مكة - فذكر الحجاج - فحمد طاعته ،
وأثنى عليه خيرا ، فلما كان في الجمعة الثانية ورد عليه كتاب سليمان بن عبد الملك ، يأمره
فيه بِشْتَمِ الحجاج ونشر عيوبه ، وإظهار البراءة منه . فصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى
عليه ، ثم قال :

« إن إبليس كان مَلَكًا من الملائكة ، وكان يُظهِر من طاعة الله ما كانت
الملائكة تَرى له به فضلا ، وكان الله قد علم من غِشِّهِ وَخُبْنِهِ ما خفي على ملائكته ،

(١) زرى عليه : عابه . (٢) ماء أجاج : ملح مر ، والقرات : الماء العذب جدا .

(٣) ذو طوى مثلث الطاه وينون : موضع قرب مكة ، والحجون : جبل مشرف بمكة . وفي شرح

العيون أنه قال : « قد جئتكم بماء العاذية ، لاتشبه ماء أم الخنافس » يعني زمزم .

فلما أراد الله فضيحتة أسره بالسجود لآدم ، فظهر لهم ما كان يُخفيه عنهم ، فلمنوه ، وإن
الحجاج كان يُظهر من طاعة أمير المؤمنين ما كنا نرى له به فضلا ، وكان الله قد أطلع
أمير المؤمنين من غشه وخبثه على ما خفي علينا ، فلما أراد الله فضيحتة أجرى ذلك على
يدي أمير المؤمنين ، فلمنه ، فآلمنوه لعنه الله « ثم نزل .

(المقد الفريد ٢ : ١٥٨ - ٣ : ١١)

٣١٠ - خطبة له في الحث على مكارم الأخلاق

وقام على المنبر بواسطة ، فحمد الله ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :
« أيها الناس ، نافسوا في المكارم ، وسارعوا إلى المغائم ، وأشتروا الحمد بالجود ،
ولا تكسبوا بالمطل ذمًا ، ولا تعتدوا بالمعروف ما لم تعجلوه ، ومهما يكن لأحد منكم
عند أحد نعمة فلم يبلغ شكرها ، فالله أحسن لها جزاء ، وأجزلُ عليها عطاء . واعلموا أن
حوائج الناس إليكم ، نعمة من الله عليكم ، فلا تملأوا النعم فتحوّلوا نعمة . واعلموا أن
أفضل المال ما أكسب أجرا ، وأورث ذكرا ، ولو رأيتم المعروف رجلا رأيتموه حسنا
جميلا يسر الناظرين ، ولو رأيتم البخل رجلا رأيتموه مشوها قبيحا تنفر عنه القلوب ،
وتغضي عنه الأبصار .

أيها الناس ، إن أجود الناس من أعطى من لا يرؤوه ، وأعظم الناس عفوًا من
عفا عن قدره ، وأوصل الناس من وصل من قطمه ، ومن لم يطب حرته ، لم يترك^(١)
نبتة ، والأصول عن مغارسها تنمو ، وبأصولها تسمو . أقول قولي هذا وأستغفر الله
لي وإيكم . (صبح الأضنى ١ : ٢٢٣ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٥٥ ، وسرح العيون ص ٢٥٥)

٣١١ - خطبة له يوم عيد

حصب فذكر الله وَجَلَّالَهُ ، ثم قال :

« كنت كذلك ما شئت أن تكون ، لا يعلم كيف أنت إلا أنت ، ثم ارتأيت أن تَخْلُقَ الخَلْقَ ، فإذا جئت به من عجائب صنْعِكَ ؟ والكبيرُ والصغيرُ مِنْ خَلْقِكَ ، والظاهرُ والباطنُ مِنْ ذَرِّكَ ، من صنوف أفواجه^(١) ، وأفراده وأزواجه ، كيف أدجت^(٢) قوائِمَ الذَّرَّةِ والبَعُوضَةِ ، إلى ما هو أعظم من ذلك ، من الأشباح ، التي امتزجت بالأرواح . »

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٦)

٣١٢ - قوله وقد سقطت جرادة على ثوبه

وكان خالد إذا تكلم يظن الناس أنه يصنع الكلام ، لعدو به لفظه ، وبلاغة منطقه ، فبينما هو يخاطب يوماً إذ سقطت جرادة على ثوبه ، فقال :

« سبحان من الجرادة من خلقه ، أدمج قوائِمَها ، وطوِّفها جناحَها ، ووَوَّشَى^(٣) جلدَها ، وسلَّطها على ما هو أعظم منها . »

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٧ ، والعقد الفريد ٢ : ١٦٣)

٣١٣ - خطبة يوسف بن عمر الثقفي^(٤) (قتل سنة ١٢٧ هـ)

قام خطيباً ، فقال :

اتقوا الله عباد الله ، فكم من مؤمِّلٍ أملاً لا يبُلُغُهُ ، وجامعٍ مآلاً لا يأكله ، ومانعٍ عما سوف يتركه ، وائله من باطلٍ جَمَعَهُ ، ومن حقٍّ مَنَعَهُ ، أصابه حراماً ، وأورثه

(١) جمع فوج كشمس ، وهو الجماعة . (٢) من أدمج الحبل : أحكم قتلته في رقة .

(٣) نقش ونعم وزين . (٤) هو ابن ابن عم الحجاج ، وولاه هشام بن عبد الملك حين سنة ١٠٦ هـ

م وولاه العراق سنة ١٢٠ هـ بعد عزل خالد بن عبد الله القسري ، وقتل سنة ١٢٧ هـ .

عَدُوًّا ، فاحتمل إضره^(١) ، وباء بوزره ، وورد على ربه آسِفًا لاهِفًا ، قد خَسِرَ الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين .

(المقدم الفريد ٢ : ١٥٨ ، والبيان والتبيين ٢ : ٧١ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٥٥)

٣١٤ - خطبة يوسف بن عمر

ولما قتل يوسف بن عمر زيد بن علي سنة ١٢٢ هـ أقبل حتى دخل الكوفة فصعد المنبر فقال :

« يا أهل المدرة الخبيثة : إني والله ما تقرن بي الصعبة ، ولا يقمع لي بالشنان ، ولا أخوف بالذئب ، هيئات ! حُبِيتُ بالساعد الأشد .

أبشروا أهل الكوفة بالصغار والهوان ، لا أعطاء لكم عندنا ولا رزق ، ولقد هممت أن أخرب بلادكم ودوركم ، وأحرمكم أموالكم ، أما والله ما علوت منبري إلا أسمعكم ما تكرهون عليه ، فإنكم أهل بغي وخلاف ، ما منكم إلا من حارب الله ورسوله إلا حَكِيم بن شريك المحاربي ، ولقد سألت أمير المؤمنين أن يأذن لي فيكم ، ولو أذن لقتلت مقاتلتكم وسبيت ذراريكم .

(تاريخ الطبري ٨ : ٢٧٨)

خطب الفتن والأحداث

فتنة المدينة ووقعة الحرّة

٣١٥ - خطبة عبد الله بن حنظلة الأنصاري

وقد علم بقدم جيش الشام إلى المدينة (قتل سنة ٦٣ هـ)

لما كره أهل المدينة خلافة يزيد بن معاوية ، وبايعوا عبد الله بن حنظلة الأنصاري على خلعِهِ ، وَوَثَبُوا عَلَى مَنْ كَانَ بِالْمَدِينَةِ مِنْ بَنِي أُمِيَّةٍ وَحَصْرُومٍ وَأَخَافُومٍ ، وَجَّهَ إِلَيْهِمْ يَزِيدُ جَيْشًا مِنْ أَهْلِ الشَّامِ بِقِيَادَةِ مُسْلِمِ بْنِ عُقْبَةَ الْمُرِّيِّ ، وَنَمَى إِلَيْهِمْ خَيْرٌ مَقْدَمِهِ عَلَيْهِمْ ، فَجَمَعَهُمْ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ حَنْظَلَةَ ، فَقَالَ : « تَبَايَعُونَنِي عَلَى الْمَوْتِ ، وَإِلَّا فَلَا حَاجَةَ فِي بَيْعَتِكُمْ » فَبَايَعُوهُ عَلَى الْمَوْتِ ، ثُمَّ صَعِدَ الْمَنْبِرَ : فَحَمِدَ اللَّهَ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :

« أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّمَا خَرَجْتُمْ غَضَبًا لِدِينِكُمْ ، فَأَبْلُوا إِلَى اللَّهِ بِلَاءً حَسَنًا ، لِيُوجِبَ لَكُمْ بِهِ الْجَنَّةَ وَمَغْفِرَتَهُ ، وَيُحِلَّ بِكُمْ رِضْوَانَهُ ، وَاسْتَعِدُّوا بِأَحْسَنِ عُدَّتِكُمْ ، وَتَاهَبُوا بِأَكْلِ أَهْبَتِكُمْ ، فَقَدْ أُخْبِرْتُ أَنَّ الْقَوْمَ نَزَلُوا بِدِي خُشْبٍ ^(١) وَمَعَهُمْ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ ، وَاللَّهُ إِنْ شَاءَ مُهْلِكُهُ بِنَقْضِهِ الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ عِنْدَ مَنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ^(٢) . »

(١) ذو خشب : واد على مسيرة ليلة من المدينة . (٢) وذلك أن أهل المدينة كانوا قد أخرجوا مروان بن الحكم وكبراء بني أمية عن المدينة ، وحلفوهم عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن نقوا جيش يزيد ليردونهم عنهم إن استطاعوا ، فإن لم يستطيعوا مضوا إلى الشام ، ولم يرجعوا معهم ، فحلفوا لهم على ذلك .

فتصامح الناس ، وجعلوا ينالون منه ويسبونه ، فقال لهم : « إن الشتم ليس بشيء ،
تصدقهم اللقأء ، والله ما صدق قوم قط إلا نصروا » ، ثم رفع يديه إلى السماء ، وقال :
« اللهم إنا بك واثقون ، وعليك متوكلون ، وإليك ألقانا ظهورنا » ثم نزل .
(الإمامة والسياسة ١ : ١٥٤)

٣١٦ - خطبة مسلم بن عقبة يؤنب أهل الشام

وأقبل مسلم بجيشه إلى المدينة ، فحاصرها من جهة الحجر^(١) ، ودعا أهلها إلى الطاعة
وسراجعة الحق ، وأجلهم ثلاثاً فلم يذعنوا لقوله ، ونشبت الحرب بين الفريقين ، وحملت
خيل ابن حنظلة على أهل الشام فانكشفوا ، وقُتِل صاحب رايتهم ، فأخذ مسلم
الراية ، ونادى :

« يا أهل الشام ، أهدا القتالُ قتال قوم يريدون أن يدفعوا به عن دينهم ؟ وأن
يعزوا به نصر إمامهم ؟ قبح الله قتالكم منذ اليوم ، ما أوجعه لقلبي ، وأغيطه لنفسي !
أما والله ما جزاؤكم عليه إلا أن تحرموا اللقأء ، وأن تُجمرُوا في أقاصي الثغور ، شدوا مع
هذه الراية ، ترخ^(٢) الله وجوهكم إن لم تعتبيوا^(٣) » . (تاريخ الطبري ٧ : ٩)

٣١٧ - خطبة مسلم يحرضهم

ثم إن خيل مسلم ورجاله أقبلت نحو ابن حنظلة ورجاله حتى دنوا منه ، وأخذ مسلم
يسير في أهل الشام ويحرضهم ، ويقول :

« يا أهل الشام ، إنكم لستم بأفضل العرب في أحسابها ولا أنسابها ، ولا أكثرها

(١) الحرة : أرض بظاهر المدينة بها حجارة سود كبيرة . (٢) ترخ كفرح فرحا : حزن ،
وترحه تترجحا : أحزنه . (٣) أعتبه : أعطاه العتبي (كقرب) وهي الرضا ، أي إن لم ترضوني
بصدقكم القتال .

عَدَدًا ، ولا أوسعها بلدًا ، ولم يَخْصُصْكُمْ اللهُ بِالَّذِي خَصَّكُمْ بِهِ مِنَ النِّصْرِ عَلَى عَدُوِّكُمْ ، وَحُسْنِ الْمَنْزِلَةِ عِنْدَ أُمَّتِكُمْ ، إِلَّا بِطَاعَتِكُمْ وَاسْتِقَامَتِكُمْ ، وَإِنْ هُوَ لَاءَ الْقَوْمِ وَأَشْبَاهَهُمْ مِنَ الْعَرَبِ غَيْرُوا ، فَغَيَّرَ اللهُ بِهِمْ ، فَتَمَّوْا^(١) عَلَى أَحْسَنِ مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الطَّاعَةِ ، يُتِمِّمُ اللهُ لَكُمْ أَحْسَنَ مَا يُنِيلُكُمْ مِنَ النِّصْرِ وَالْفُلْجِ^(٢) . « (تاريخ الطبري ٧ : ٩)

٣١٨ - خطبة ابن حنظلة يحرّض أصحابه

وقام عبد الله بن حنظلة في أصحابه حين رآهم قد أقبلوا يمشون تحت راياتهم ، فقال : « يَا هُوَ لَاءَ : إِنْ عَدُوِّكُمْ قَدْ أَصَابُوا وَجَهَ الْقِتَالِ الَّذِي كَانَ يَنْبَغِي أَنْ تَقَاتِلُوهُمْ بِهِ ، وَإِنِّي قَدْ ظَنَنْتُ أَلَّا تَلْبِثُوا إِلَّا سَاعَةً ، حَتَّى يَفْصِلَ اللهُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ ، إِمَّا لَكُمْ وَإِمَّا عَلَيْكُمْ ، أَمَا لَأَنْتُمْ أَهْلُ الْبَصِيرَةِ وَدَارِ الْهَجْرَةِ ! وَاللَّهِ مَا أَظُنُّ رَبَّكُمْ أَصْبَحَ عَنْ أَهْلِ بَلَدٍ مِنْ بُلْدَانِ الْمُسْلِمِينَ بِأَرْضِي مِنْهُ عَنْكُمْ ، وَلَا عَلَى أَهْلِ بَلَدٍ مِنْ بُلْدَانِ الْعَرَبِ بِأَسْخَطَ مِنْهُ عَلَى هُوَ لَاءَ الْقَوْمِ الَّذِينَ يِقَاتِلُونَكُمْ ، إِنْ لَكُلِّ امْرَأٍ مِنْكُمْ مَيْتَةٌ هُوَ مَيْتٌ بِهَا ، وَاللَّهِ مَا مَنَ مَيْتَةٌ بِأَفْضَلَ مِنْ مَيْتَةِ الشَّهَادَةِ ، وَقَدْ سَأَهَا اللهُ إِلَيْكُمْ ، فَاعْتَمِدُوا ، فَوَاللَّهِ مَا كَلِمًا أَرْدَتُهَا وَجَدْتُمُوهَا . »

ودارت الدائرة على أهل المدينة ، وقتل ابن حنظلة فيمن قتل ، ودخل مسلم المدينة^(٣) وكانت وقعة الحرّة في ذي الحجة سنة ٦٣ هـ . (تاريخ الطبري ٧ : ١٠)

(١) تم على الأمر وتم عليه كضرب : أى استمر عليه . (٢) الفلج : الظفر والنعر .

(٣) انظر ص ١٩٥ هـ

اضطراب الأمر بعد موت يزيد

٣١٩ - خطبة عبيد الله بن زياد بن أبيه

قام عبيد الله بن زياد بن أبيه خطيباً بعد موت يزيد بن معاوية - وهو يومئذ أمير العراق - فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« يا أهل البصرة ، انسيبوني ، فوالله ما مهاجرُ أبي إلا إليكم ، وما مؤلدي إلا فيكم ، وما أنا إلا رجل منكم ، ولقد وليتكم وما أحصى ديوانُ مقاتلتكم إلا سبعين ألف مقاتل ، ولقد أحصى اليومَ ديوانُ مقاتلتكم ثمانين ألفاً ، وما أحصى ديوانُ عمالكم إلا تسعين ألفاً ، واقد أحصى اليومَ مائةً وأربعين ألفاً^(١) ، وما تركتُ لكم ذا ظنة^(٢) أخافه عليكم ، إلا وهو في سجنكم هذا ، وإن أمير المؤمنين : يزيد بن معاوية قد توفى وقد اختلف أهل الشام ، وأنتم اليومَ أكثرُ الناس عدداً ، وأعرضه فناءً ، وأغناه عن الناس ، وأوسعهُ بلاداً ، فاختراروا لأنفسكم رجلاً ترتضونه لدينكم وجماعتكم ، يُجاهد عدوكم ، وَيُنصِفُ مظلومكم من ظالمكم ، وَيَكْفُ سُفهاءكم ، وَيَجْبي لكم فيئتكم ، وَيَقْسِمُهُ فيما بينكم ، فأنا أول راضٍ من رَضيتموه وتابِع ، فإن اجتمع أهل الشام على رجل ترتضونه ، دخلتم فيما دخل فيه المسلمون ، وإن كرهتم ذلك كتمتم على جدِيلتكم^(٣) »

(١) وفي البيان والتبيين : « والله لقد وليتكم أبي وماقاتلتكم إلا أربعون ألفاً ، فبلغ بها ثمانين ألفاً ، وما ذريتكم إلا ثمانون ألفاً ، وقد بلغ بها عشرين ومائة ألف ، وأنتم أوسع الناس بلاداً ، وأكثره جنوداً وأبعد مقاداً ، وأغنى الناس عن الناس . . . الخ . . . » (٢) الظنة : الهمة . (٣) الجديلة : الطريقة ، يقال : مازال على جديلة واحدة ، أي على حال واحدة ، وطريقة واحدة .

حتى تَمَطُّوا حاجتكم ، فما بكم إلى أحد من أهل البُلْدان حاجةً ، وما يستغنى
الناس عنكم .

فقامت خطباء أهل البصرة ، فقالوا : قد سمعنا مَقَالَتَكَ أَيُّهَا الأمير ، وإنا والله ما نعلم
أحداً أقوى عليها منك ، فَهَلُمَّ فَلْتُبَايَعِكَ ، فقال : لا حاجة لي في ذلك ، فاختاروا
لأنفسكم ، فأبوا عليه ، وأبى عليهم ، حتى كرَّروا ذلك عليه ثلاث مرات ، فلما أبوا
بَسَطَ يده فبايعوه .

فلما خرجوا من عنده جعلوا يمسحون أكتفهم بالحيطان وباب الدار ، ويقولون :
ظن ابن مَرْجَانَةَ أَنَا نُؤَايِيهِ أَمْرُنَا فِي الْفُرْقَةِ ! وأقام عبيد الله أميراً غيرَ كثير ، حتى جعل
سلطانه يَضْعُفُ ، ويأمر بالأمر فلا يُقْضَى ، وَيَرَى الرَّأْيَ فَيُرَدُّ عَلَيْهِ ، ويأمر بحبس
الخطيئ فَيُجَال بين أعوانه وبينه .

(تاريخ الطبري ٧ : ١٨ ، والبيان والتبيين ٢ : ٦٥ ، ومروج الذهب ٢ : ١٠٥)

٣٣٠ - خطبة أخرى له

وبلغه أن سَلَمَةَ بن ذُوَيْبٍ يدعو الناس إلى ابن الزبير ، فأمر فَنُودِيَ : الصلاةُ
جامعةً ، فتجمع الناس ، فأنشأ عبيد الله يَقْصُّ أول أمره وأمرهم ، وما قد كان دعاهم
إلى من يرتضونه ، فببايعه معهم ، وقال : « وإنكم أبئتم غيري ، وإنه بلغني أنكم مسختم
أكتفكم بالحيطان وباب الدار ، وقلتم ما قلتم ، وإني أمر بالأمر فلا يُنْفَذُ ، وَيُرَدُّ عَلَى
رَأْيِي ، وَتَحْوُلُ الْقَبَائِلُ بَيْنَ أَعْوَانِي وَطَلْبَتِي ^(١) ، ثم هذا سَلَمَةَ بن ذُوَيْبٍ يدعو إلى الخلاف
عليكم ، إرادة أن يُفَرِّقَ جماعتكم ، ويضربَ بَعْضُكُمْ جِبَاهَةَ بَعْضٍ بالسيف . »

فقال الأحنف بن قيس والناس جميعاً نحن نأتيك بِسَلَمَةَ ، فَأَتَوْهُ فَإِذَا جَمَعَهُ قَدْ كُتِفَ
وإذا الْفَتْقُ قَدْ آتَسَعَ طَى الرَّاتِقِ ، وامتنع عليهم ، فقعدهوا عن ابن زياد فلم يأتوه .

(١) طلبتك : ما طلبته .

وروى أنه قال في خطبته : « يا أهل البصرة ، والله لقد لبسنا الخنزير^(١) ولئيمنا^(٢) والذين من الثياب ، حتى لقد أجمنا^(٣) ذلك ، وأجمته جلودنا ، فما بنا إلى أن نُعقِبَ الحديد ؟ يا أهل البصرة ، والله لو اجتمعتم على ذنبٍ غيرِ لئيمِكسرُوه ما كسرتموه » .
(تاريخ الطبري ٧ : ٢٠)

٣٣١ - خطبة عمرو بن حريث

ولما بايع أهل البصرة عبيد الله بن زياد - وكان خليفته على الكوفة عمرو ابن حريث - بعث وافدين من قبله إلى الكوفة : عمرو بن مسمع ، وسعد بن القرعاء^(٣) التميمي ، ليعلم أهل الكوفة ما صنع أهل البصرة ، ويسألونهم البيعة لابن زياد ، حتى يصطليح الناس ، فجمع الناس عمرو بن حريث ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« إن هذين الرجلين قد أتياكم من قبل أميركم ، يدعوانكم إلى أمر يجمع الله به كلتكم ، ويصليح به ذات بينكم ، فاسمعوا منهما ، واقبلوا عنهما ، فإنهما برشدٍ ما أتياكم » .

٣٣٢ - خطبة عمرو بن مسمع

فقام عمرو بن مسمع ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وذكر أهل البصرة ، واجتماع رأيهم على تأمير عبيد الله بن زياد ، حتى يرى الناس رأيهم ، فيمن يولون عليهم وقال :

« قد جئناكم لنجمع أمرنا وأمركم ، فيكون أميرنا وأميركم واحدا ، فإنما الكوفة من البصرة ، والبصرة من الكوفة » .

(١) اللئيم : برد يعني . (٢) أجمه : أراحه ، وأصله من أجم الفرس : ركبته فلم يركبه فعقه

من تعبته ، والجمام بالفتح : الراحة . (٣) القرعاء في الأصل : الروضة في وسطها نور أبيض .

وقام ابن القرهاء ، فتكلم نحوًا من كلام صاحبه ، فقام يزيد بن الحارث الشيباني
فحصبهما أول الناس ، ثم حصبهما الناس بعد ، ثم قال : أنحن نبيع لابن مرّجانة ؟
لا ولا كرامة ! ورجع الوفد إلى البصرة ، فأعلم الناس الخبر ، فقالوا : أهل الكوفة
يخلمونه ، وأنتم تؤلّونه وتبايعونه ؟ فوثب به الناس ، فاستجار بمسعود بن عمرو الأزدي
فأجاره ومنعه ، ثم خرج إلى الشام في خفارة رجال من الأزدي وبكر بن وائل .

(تاريخ الطبري ٧ : ٣٠)

٣٣٣ - خطبة الأحنف بن قيس

واستخلف ابن زياد مسعود بن عمرو الأزدي على البصرة ، فقالت بنو تميم وقيس :
لا نولى إلا رجالاً ترضاه جماعتنا ، فقال مسعود : قد استخلفني ، فلا أدع ذلك أبداً ،
وبينا هو على المنبر يبائع من أتاه ، إذ رماه رجل من الخوارج فقتله ، فخرجت الأزدي
إلى الخوارج ، فقتلوا منهم وجرّحوا ، وطردوهم عن البصرة ، وجاءهم الناس ، فقالوا لهم :
تعلمون أن بني تميم يزعمون أنهم قتلوا مسعود بن عمرو ؟ فبعثت الأزدي تسأل عن ذلك ،
فإذا أناس منهم يقولونه ، فاجتمعت الأزدي عند ذلك ، وازدلفوا إلى بني تميم ، وخرجت
مع بني تميم قيس ، وخرج مع الأزدي بكر بن وائل ، فالتقى القوم ، واقتتلوا أشد القتال ،
فقتل من الفريقين قتلى كثيرة ، فقالت لهم بنو تميم : الله الله يا معشر الأزدي في دماننا
ودمائكم ، بيننا وبينكم القرآن ، ومن شتم من أهل الإسلام ، فإن كانت لكم علينا
بيئة أنا قتلنا صاحبكم ، فاختاروا أفضل رجل فينا ، فاقتلوه بصاحبكم ، وإن لم تكن
لكم بيعة ، فإننا نحلف بالله ما قتلنا ولا أمرنا ، ولا نعلم لصاحبكم قاتلاً ، وإن لم
تريدوا ذلك ، فنحن ندي صاحبكم بمائة ألف درهم ، فاصطلحوا ، فاتاهم الأحنف
ابن قيس ، فقال :

« يا معشر الأزدي : أنتم جبرئتنا في الدار ، وإخوتنا عند القتال ، وقد أتيناكم

في رحالكم ، لإطفاء حشيدتكم^(١) ، وَسَلَّ سَخِيمَتِكُمْ^(٢) ، وَلِكُمُ الْحُكْمُ مُرْسَلًا^(٣) ،
فقولوا ، على أعلامنا وأموالنا ، فإنه لا يَتَعَاطَمُنَا^(٤) ذهاب شيء من أموالنا كان فيه
صلاح بيئنا » ، فقالوا : أَتَدُونُ صَاحِبِنَا عَشْرَ دِيَّاتٍ ؟ قال : هي لكم ، فانصرف الناس
واصطلحوا^(٥) .

وروى الجاحظ وابن عبد ربه هذه الخطبة بصورة أخرى ، وها هي ذى :

قال بعد حمد الله والثناء عليه : « يا معشر الأزدِ وَرَبِيعَةَ ، أنتم إخواننا في الدين
وشركاؤنا في الصَّهرِ ، وأشقاؤنا في النَّسبِ ، وجيراننا في الدارِ ، ويدُّنا على العدو ،
وَاللَّهِ لَأَزُدُّ البصرةَ أَحَبُّ إلينا من تميمِ الكوفةِ ، وَلَأَزُدُّ الكوفةَ أَحَبُّ إلينا من تميمِ
الشَّامِ ، فَإِنِ اسْتَشْرَفَ شَنَا نَكْمِ^(٦) ، وَأَبَى حَسَدُ صُدُورِكُمْ ، ففِي أَمْوَالِنَا ، وَسَعَةِ
أَحْلَامِنَا ، لَنَا وَلكُمْ سَعَةٌ . »

(تاريخ الطبري ٨ : ٣١ ، والبيان والتبيين ٢ : ٦٨ ، والمعقد الفريد ٢ : ١٥٧)

(١) أى ناركم الموقدة . من حش النار : أوقدها ، فهى فعيلة بمعنى مفعولة (وإن كانت لم ترد فى كتب
اللغة بهذا المعنى ، لكن القياس لا يمنعها ، والوارد : الحشيشة طاقة السكاذ) . (٢) للسخيمة : الحقد .
(٣) أى مطلقا كما تشاءون . (٤) تعاطمه : عظم عليه . (٥) واجتمع أهل البصرة على
أن يجعلوا عليهم منهم أميرا يصل بهم حتى يجتمع الناس على إمام ، فجعلوا عبد الملك بن عبد الله بن عامر شهرا
ثم جعلوا عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب - وهو بية - فصل بهم شهرين ، ثم قدم
عليهم عمر بن عبيد الله بن معمر من قبل ابن الزبير ، فكث شهرا ، ثم قدم الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة
المعروف بالقياس ، ثم مصعب بن الزبير ، أما أهل الكوفة فإنهم لما ردوا وفد البصرة ولوا عليهم عامر
ابن مسعود القرظي ، ثم قدم عليهم عبد الله بن يزيد الأنصاري من قبل ابن الزبير . كما تقدم .
(٦) استشرف : انتصب ، أى زاد واستحکم ، والشتان : البغض والكراهية .

٣٣٤ - خطبة روح بن زنباع الجذامى بالمدينة^(١)

لما تمى هلاك يزيد بن معاوية إلى الحُصَيْن بن نَمِير - وهو على حرب ابن الزبير

(١) هو روح بن زنباع سيد جذام - إحدى قبائل اليمن - وقد خلفه مسلم بن عقبة المري ، على المدينة بعد فراغه من قتال أهلها - في وقعة الحرّة - وشخصه إلى مكة لقتال ابن الزبير - وقد نزل الموت بمسلم في الطريق ، وولى أمر الجيش الحُصَيْن بن نَمِير - ولما كانت الفتنة بعد موت معاوية الثاني ، دعا حسان بن مالك ابن بحدل الكلبي - وكان على فلسطين والأردن - روح بن زنباع فاستخلفه على فلسطين ، ونزل هو والأردن فوثب نائل بن قيس الجذامى على روح ، فأخرجه من فلسطين ، وبايع لابن الزبير . « الطبرى ج ٧ : ص ١٣ و ٣٤ ، والأغانى ١٧ : ١١١ » ، وكان لروح اليد الطولى في ظفر مروان بن الحكم بالخلافة ، قال صاحب العقد « ج ٢ : ص ٢٥٩ » لما مات معاوية بن يزيد بايع أهل الشام كلهم ابن الزبير إلا أهل الأردن ، وبايع أهل مصر أيضا ابن الزبير ، واستخلف ابن الزبير الضحاك بن قيس الفهري على أهل الشام ، فلما رأى ذلك رجال بنى أمية وناس من أشرف الشام وجوهم منهم روح بن زنباع وغيره ، قال بعضهم لبعض : إن الملك كان فينا أهل الشام ، فانتقل عنا إلى الحجاز لا ترضى بذلك ، هل لكم أن تأخذوا رجلا منا فينظر في هذا الأمر ؟ فقال : استخبروا الله ، فأتوا عمرو بن سعيد بن العاص ، فقالوا له : ارفع رأسك لهذا الأمر ، فأروه حدثا ، فجاءوا إلى خالد بن يزيد بن معاوية ، فقالوا له : ارفع رأسك لهذا الأمر ، فأروه حدثا حريصا على هذا الأمر ، فلما خرجوا من عنده قالوا : هذا حديث فأتوا مروان بن الحكم ، فقالوا : يا أبا عبد الملك ارفع رأسك لهذا الأمر ، فقال : استخبروا الله ، وأسأله أن يختار لامة محمد صلى الله عليه وسلم خيرا وأعلها ، فقال له روح بن زنباع : إن معى أربعمائة من جذام ، فأنا أمرهم أن يتقدموا في المسجد غدا ، ومر أنت ابنتك عبد العزيز أن يخاطب الناس ويدعوهم إليك ، فإذا فعل ذلك تنادوا من جانب المسجد : صدقت صدقت ! فينظن الناس أن أمرهم واحد ، فلما اجتمع الناس قام عبد العزيز فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« ما أحد أولى بهذا الأمر من مروان ، كبير قریش وسيدها ، والذي نفسى بيده

لقد شاب شعر ذراعيه من الكبر » فقال الجذاميون : صدقت صدقت ! فقال خالد بن يزيد : أمر دبر بلبل ! فبايعوا مروان بن الحكم اه. ومن أجل ذلك كان روح أثيرا عند عبد الملك بن مروان « كما يقول المبرد في الكامل ٢ : ١٢٢ » ، ويقول ابن قتيبة في سرح العميون ص ١١٣ : « وكان روح بمنزلة نائب عبد الملك » ويقول صاحب العقد : « وكان روح بن زنباع وزير عبد الملك » - ٢ : ٧٠ ، ٣ : ٦ - قال ابن طباطبا في الفخرى ص ١٣٦ : « والوزارة لم تتمهد قواعدها ؛ وتتقرر قوانينها إلا في دولة بنى العباس =

بمكة - انصرف بجيشه إلى الشام ، فلما صاروا إلى المدينة ، جعل أهلها يَهْتَفُونَ^(١) بهم ، ويتوعدونهم ، ويذكرون قتلاهم بالحرة ، فلما أكثروا من ذلك وخافوا الفتنة وهيجها ، صعد رُوْح بن زِنْبَاع الجُدَامِي على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم - وكان في ذلك الجيش - فقال :

« يا أهل المدينة : ما هذا الإيعاد^(٢) الذي توعدوننا ؟ إنا والله مادعونكم إلى « كَلْب » لمبايعة رجل منهم ، ولا إلى رجل من « بَلَقَيْن »^(٣) ولا إلى رجل من « أَيْخَم » أو « جُدَام » ولا غيرهم من العرب ، ولكن دعوناكم إلى هذا الحَيِّ من قريش - يعنى بنى أمية - ثم إلى طاعة يزيد بن معاوية ، وعلى طاعته قاتلناكم ، فإيأنا توعدون ؟ أما والله إنا لأبناء الطعن والطاعون ، وَفَضَلَاتُ الْمَوْتِ وَالْمَنُونِ ، فاشتم^(٤) ، ومضى القوم إلى الشام .

(مروج الذهب ٢ : ١٠٤ ، والبيان والتبيين ١ : ٢٠٨)

= فأما قبل ذلك ، فلم تكن مقننة القواعد ولا مقررة القوانين ، بل كان لكل واحد من الملوك أتباع وحاشية فإذا حدث أمر استشار نوى الحجب والآراء الصائبة ، فكل منهم يجرى مجرى وزير ، فلما ملك بنو العباس تقررَت قوانين الوزارة ، وسمى الوزير وزيرا ، وكان قبل ذلك يسمى كاتباً أو مشيراً ، وأول وزير وزر لأول خليفة عباسى حفص بن سليمان أبو سلمة الخلال وزير السفاح . (١) يصيحون .

(٢) يقال : وعده خيرا وبه ، ووعدته شرا وبه - ومن هذا قوله تعالى :

« النَّارُ وَعَدَهَا اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبَدَسَ الْمَاصِرُ » فإذا اسقطوا الخير والشر ، قالوا في

الخير وعد وفي الشر أوعده ، وقالوا أوعده خيرا وشرا بالألف أيضا ، وأدخلوا الباء مع الألف في الشر خاصة ، فقالوا أوعده بالسجن ونحوه . (٣) أصله بنو القين كما قالوا : بلحارث في بنى الحارث ، وبلعنبر في بنى العنبر . قال المبرد في السكامل ٢ : ١٨٣ « وكذلك كل اسم من أسماء القبائل تظهر فيه لام المعرفة ، فإنهم يجيزون معه حذف النون التي في قولك (بنو) لقرب مخرج النون من اللام ، وذلك قولك فلان من بلحارث وبلعنبر وبلهجم » أى بنى المهجم كزبير . (٤) وروى الجاحظ أن روحا خطب هذه الخطبة يدعو إلى بيعة يزيد بن معاوية ، وفي آخرها يقول : « وعندنا إن أجبتكم وأطعتم من المعونة والفائدة ماشتم » .

٣٢٥ - خطبته يؤيد مبايعة مروان بن الحكم بالخلافة

ولما اجتمع الرأى على البيعة لمروان بن الحكم ، قام رَوْح بن زِنْبَاع ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : إنكم تذكرون عبد الله بن مَهر بن الخطاب ، وصُحْبَتَهُ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وَقَدَمَهُ في الإسلام ، وهو كما تذكرون ، ولكن ابن عمر رجل ضعيف ، وليس بصاحبِ أمةٍ محمد الضعيف ؛ وأما ما يذكر الناس من عبد الله ابن الزبير ، وَيَدْعُونَ إليه من أمره ، فهو والله كما يذكرون ، إنه لَأَبْنُ الزبيرِ : حَوَارِيٌّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وَأَبْنُ أسماء بنت أبي بكر الصِّدِّيق ذات النِّطَاقَيْن ، وهو بعدُ كما تذكرون في قدمه وفضله ، ولكن ابن الزبير منافق ، قد خلع خليفَتَيْن : يزيد وابنه معاوية بن يزيد ، وَسَفَكَ الدماء ، وشقَّ عَصَا المسلمين ، وليس صاحبَ امرأة محمد صلى الله عليه وسلم المنافق ؛ وأما مروان بن الحكم ، فوالله ما كان في الإسلام صَدْعٌ قَطُّ ، إلا كان مروان ممن يَشْتَبُ (١) ذلك الصَّدْع ، وهو الذي قاتل عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان يوم الدار (٢) ، والذي قاتل على بن أبي طالب يوم الجمل ، وإنا نرى للناس أن يُبايعوا الكبير ، ويستشَبِّوا (٣) الصغير - يعني بالكبير مروان بن الحكم ، وبالصغير خالد بن يزيد بن معاوية - . »

فأجمع رأى الناس على البيعة لمروان . ثم لخالد بن يزيد من بعده ، ثم لعمر بن

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٨ .)

سعید بن العاص من بعد خالد .

(١) يصلح . (٢) يوم تسور الثوار عليه داره وقتلوه . (٣) يتمنونه حتى يشب .

٣٣٦ - خطبة الغضبان بن القبعثرى يحض على قتل الحجاج

لما هلك بشر بن مروان ، ووالي الحجاج العراق ، بلغ ذلك أهل العراق ، فقام الغضبان بن القبعثرى الشيباني بالمسجد الجامع بالكوفة خطيباً ، حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« يا أهل العراق ، ويا أهل الكوفة ، إن عبد الملك قد ولى عليكم من لا يقبل من محسنكم ، ولا يتجاوز عن مسيئكم ، الظالم العشوم^(١) الحجاج ، ألا وإن لكم من عبد الملك منزلة ، بما كان منكم من خذلان مصعب^(٢) وقتله ، فاعترضوا هذا الخبيث في الطريق فاقتلوه ، فإن ذلك لا يعدُّ منكم خُلماً ، فإنه متى يعمل على متن منبركم ، وصد سريركم ، وقاعة قصركم ، ثم قتلتموه عدُّ خُلماً ، فأطيعوني وتغدوا به ، قبل أن يتعشى بكم . »

فقال له أهل الكوفة : « جِئْتَ يَا غَضْبَانُ ، بل ننتظر سيرته ، فإن رأينا منكراً غيرناه » قال : ستمهون ، فلما قدم الحجاج الكوفة بلغته مقالته ، فأمر به ، فأقام في حبسه ثلاث سنين .

(مروج الذهب ٢ : ١٤٦)

(١) الظلوم . (٢) وذلك أن مصعب بن الزبير لما كان على العراق حج سنة ٧١ ، فقدم على أخيه عبد الله بن الزبير ، ومعه وجوه أهل العراق ، وسأله أن يعطيهم ، فأبى وقبض يده ، فلما حرّمهم ابن الزبير ماعنده فسدت قلوبهم ، فراسلوا عبيد الملك بن مروان ، حتى خرج إلى مصعب وقاتله ، فاهرو إلا أن التقوا حتى حولوا وجوههم ، وصاروا إلى عبد الملك ، وبقى مصعب في شردمة قليلة ، فجاءه عبيد الله ابن ظبيان - وكان مع مصعب - فقال : ابن الناس أيها الأمير ؟ فقال : قد غدرتم يا أهل العراق ! فرفع عبيد الله السيف ليضرب مصعباً ، فبدره مصعب فضربه بالسيف على البيضة ، فنشب السيف في البيضة ، فجاء غلام لعبيد الله بن ظبيان فضرب مصعباً بالسيف فقتله ، ثم جاء عبيد الله برأسه إلى عبد الملك بن مروان ، فلما نظر إلى رأس مصعب خر ساجداً ، قال عبيد الله بن ظبيان - وكان من فتاك العرب - ما ندمت على شيء قط ندى على عبد الملك بن مروان ، إذ أتيت برأس مصعب فخر ساجداً ، أن لا أكون ضربت عنقه ، فأكون قد قتلت ملكي العرب في يوم واحد .

٣٢٧ - خطبة مطرف بن المغيرة بن شعبة

وقدم مُطَرِّفُ بن المغيرة بن شعبة المدائن فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :
« أيها الناس : إن الأمير الحجاج أصلحه الله قد ولاني عليكم ، وأمرني بالحكم
بالحق ، والعدل في السيرة ، فإن عملتُ بما أمرني به ، فأنا أسعد الناس ، وإن لم أفعل
فنفسي أوبقتُ ، وحظَّ نفسي ضيقتُ ، ألا إني جالس لكم العصرين فارفعوا إليّ
حوائجكم ، وأشيروا عليّ بما يصالحكم ويصلح بلادكم ، فإنني لن آلوكم خيرا ما استطعت »
ثم نزل .
(تاريخ الطبري ٧ : ٢٥٩)

٣٢٨ - خطبة مطرف بن المغيرة بن شعبة

وفي سنة ٧٧ هـ خرج المطرف بن المغيرة بن شعبة على الحجاج وخلع عبد الملك بن
مروان - وكان الحجاج قد استعمله على المدائن - وجمع إليه رؤوس أصحابه فذكر الله
بما هو أهله وصلى على رسوله ثم قال لهم :
« أما بعد - فإن الله كتب الجهاد على خلقه ، وأمر بالعدل والإحسان ، وقال فيما أنزل
علينا (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِنِّمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ
شَدِيدُ الْعِقَابِ) وإني أشهد الله أني قد خلعت عبد الملك بن مروان والحجاج بن يوسف ،
فمن أحب منكم صحبتي وكان على مثل رأيي فليتابعني ، فإن له الأسوة وحسن الصحبة ،
ومن أبي فليذهب حيث شاء ، فإنني لست أحب أن يتبعني من ليست له نية في جهاد
أهل الجور ، أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه وإلى قتال الظلمة ، فإذا جمع الله لنا أمرنا
كان هذا الأمر شوري بين المسلمين ، يرتضون لأنفسهم من أحبوا » .
(تاريخ الطبري ٧ : ٢٦٢)

٣٢٩ - خطبة سعيد بن المجالد

خرج الجَزَل بن سعيد في طلب الخوارج الشيبية وأقبل حتى انتهى إلى النهران فأدركوه فلزمه عسكره وخذق عليه، وجاء إليه سعيد بن المجالد حتى دخل عسكر أهل الكوفة أميراً فقام فيهم خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« يا أهل الكوفة ، إنكم قد عجزتم ووهنتم وأغضبتكم عليكم أميركم ، أنتم في طلب هذه الأعراب العجف منذ شهرين وهم قد خربوا بلادكم ، وكسروا خراجكم ، وأنتم حاذرون في جوف هذه الخنادق لا تزايدونها ، إلا أن يبلغكم أنهم قد ارتحلوا عنكم ونزلوا بلاداً سوى بلادكم ، اخرجوا على اسم الله إليهم » فخرج وأخرج الناس معه .

(تاريخ الطبري ٧ : ٢٢٩)

فتنة ابن الأشعث

جهز الحجاج عشرين ألف رجل من أهل الكوفة ، وعشرين ألف رجل من أهل البصرة ، لمحاربة رُتَيْبِلِ مَلِكِ التُّرْكِ^(١) ، وبعث عليهم عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ابن قيس الكندي ، فخرج بهم حتى قَدِمَ سِجِسْتَانَ (سنة ٥٨٠ هـ) فجمع أهلها حين قَدِمَها وخطبهم فقال :

٣٣٠ - خطبة ابن الأشعث بسجستان

صَدَدَ المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس ، إن الأمير الحجاج ولأني تفرَّكم ، وأمرني بجهادٍ عدوِّكم الذي استباح بلادكم ، وأباد خياركم ، فأياكم أن يتخلف منكم رجلٌ فيجِلَّ بنفسه العُقُوبَةَ ، اخرجوا إلى مُعَسِّكركم فمسكروا به مع الناس » . (تاريخ الطبري ٨ : ٤)

* * *

٣٣١ - خطبته يعرض على الجند رأى الحجاج

فلما حاز من أرض رُتَيْبِلِ أرضاً عظيمة ، وملاً يديه من الغنائم والأسلاب ، حبس الناس عن الوُغُولِ في أرضه ، وقال : نكتفي بما أصدناه العام من بلادهم ، حتى نجيبها ونعرفها ويجتري المسلمون على طرقها ، ثم نتعاطى في العام المقبل ما وراءها ، ثم لم نزل

(١) انظر ص ٢٩٣ .

ننتقصهم في كل عام طائفة من أرضهم ، ثم لا تُزِيل بلادهم حتى يهلكهم الله ، وكتب إلى الحجاج بذلك . فورد عليه كتاب الحجاج يضمُّ رأيه ، ويأمره بالوغول في أرضهم ، ويتهدده بالعزل إن لم يفعل ، فدعا ابن الأشعث الناس إليه .

فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس ، إني لكم ناصح ، واصلاحكم مُحِب ، واسم - في كل ما يُحيط بكم نفعه - ناظرٌ ، وقد كان من رأيي فيما بينكم وبين عدوكم رأيٌ ، أُسْتَشِرْتُ فيه ذوى أحلامكم ، وأولى التجربة للحرب منكم ، فرضوه لكم رأياً . ورأوه لكم في العاجل والآجل صلاحاً ، وقد كتبتُ إلى أميركم الحجاج ، فجاءني منه كتاب يعجزني ويضعفني ويأمرني بتعجيل الوغول بكم في أرض العدو ، وهي البلاد التي هلك إخوانكم فيها بالأمس ، وإنما أنا رجل منكم ، أمضى إذا مضيتم ، وآبى إذا أبيتكم . »

فتار إليه الناس ، فقالوا : لا ، بل نأبى على عدو الله ، ولا نسمع له ولا نطيع .

(تاريخ الطبري ٨ : ٨)

٣٣٢ - خطبة عامر بن وائلة الكِنَانِي

فقام عامر بن وائلة الكِنَانِي - وكان أول متكلم يومئذ ، وكان شاعراً خطيباً -

فقال بعد أن حمد الله ، وأثنى عليه :

« أما بعد : فإن الحجاج وألله ما يرى بكم إلا مارأى القاتل الأول ، إذ قال لأخيه :

« احمل عبدك على الفرس ، فإن هلك هلك ، وإن نجا فلك . » إن الحجاج والله ما يبالي

أن يُخاطر بكم ، فيقحمكم بلاداً كثيرة الأهوب^(١) والأصوب^(٢) ، فإن ظفرتم فغنمتم

(١) الأهوب جمع لب كحمل ، وهو مهواة ما بين كل جبلين ، أو الصدع في الجبل ، أو الشعب

الصغير فيه (والشعب كحمل : الطريق في الجبل) . (٢) جمع لصب كحمل أيضاً ، وهو الشعب الصغير

في الجبل أضيق من الذهب وأوسع من الشعب .

أكل البلاد ، وحاز المال ، وكان ذلك زيادةً في سلطانه ، وإنت ظفرِ عدوكم كنتم أنتم الأعداء البغضاء الذين لا يبالي عنهم ، ولا يُبقي عليهم ، اخلعوا عدو الله الحجاج ، وبايعوا عبد الرحمن ، فإنى أشهدكم أنى أول خالع .

فنادى الناس من كل جانب : فملنا فعلنا ، قد خلعتنا عدو الله .

(تاريخ الطبرى ٨ : ٨)

٣٣٣ - خطبة عبد المؤمن بن شبت بن ربيع

وقام عبد المؤمن بن شبت بن ربيع التميمى ثانياً ، فقال :

« عباد الله ، إنكم إن أطعتم الحجاج ، جعل هذه البلاد بلادكم ما بقيتم ، وجرمكم تجمير فرعون الجنود ، فإنه بلغنى أنه أول من جرّ البعوث ، ولن تعابنوا الأحبة فيما أرى أو يموت أكثركم ، بايعوا أميركم ، وانصرفوا إلى عدوكم ، فانفوه عن بلادكم » ، فوثب الناس إلى عبد الرحمن فبايعوه .

(تاريخ الطبرى ٨ : ٨)

٣٣٤ - خطبة ابن الأشعث بالمربد

ولما كانت الحرب بينه وبين الحجاج بالمربد^(١) خطب الناس ، فقال :

« أيها الناس : إنه لم يبق من عدوكم إلا كما يبق من ذنب الوزغة^(٢) تضرب به عيقاً وشمالاً ، فما تلبث إلا أن تموت^(٣) » .

(البيان والتبيين ٢ : ٨٧ ، وتهذيب الكامل ١ : ٢١)

(١) موضع بالبصرة . (٢) الوزغة : سام أبرص ، سميت بها لخفتها وسرعة حركتها .

(٣) قال الجاحظ : فر به رجل من بني قشير فقال : « قبح الله هذا ورأيه » يأمر أصحابه بقلة الاحراس

ويعدهم الأضاليل ، ويمتهم الباطل » وناس كثير يرون أن ابن الأشعث هو المحسن دون القشيري .

٣٣٥ — خطبته حين أراد عبد الملك أن يترضى أهل العراق

ولما نزل ابن الأشعث بدير الجاجم ، واجتمع أهل الكوفة ، وأهل البصرة ، وأهل
النفور والمسالح^(١) بدير الجاجم والقراء من أهل المصرين ، واجتمعوا جميعاً على حرب
الحجاج ، جهم عليه بغضهم وكرهيتهم له - وهم إذ ذاك مائة ألف مقاتل ، ممن يأخذ
العطاء ، ومعهم مثلهم من مواليتهم ، واشتد القتال بين الفريقين ، بعث عبد الملك بن
سروان ابنه عبد الله وأخاه محمداً ، وأمرهما أن يعرضا على أهل العراق نزع الحجاج عنهم ،
وأن يجرى عليهم أعطياتهم ، كما تجرى على أهل الشام ، وأن ينزل ابن الأشعث أى بلد
من العراق شاء ، يكون عليه والياً مادام حياً ، وكان عبد الملك والياً ، فعرضاً ذلك على
أهل العراق ، فقالوا : نرجع المشيئة ، فاجتمعوا عند ابن الأشعث ، فلم يبق قائداً ، ولا رأس
قوم ، ولا فارس إلا أماء .

فحمد الله ابن الأشعث ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فقد أعطيتم أسراً ، انتهزكم اليوم إياه فرصة ، ولا آمن أن يكون
على ذى الرأي غداً حصرة ، وإنكم اليوم على النصف ، وإن كانوا اعتدوا بالزاوية ،
فأنتم تعتدون عليهم بيوم تستر ، فاقبلوا ما عرضوا عليكم ، وأنتم أعزاه أفوياء ، والقوم
لكم هائبون ، وأنتم لهم منتقصون ، فلا والله لا زلت عليهم أجرئاء ، ولا زلت عندكم
أعزاء ، إن أنتم قبلتم أبدأ ما بقيتم . »

فوثب الناس من كل جانب ، فقالوا : إن الله قد أهلكهم ، فأصبحوا في الأزل^(٢)
والضنك والمجاعة والقلة والذلة ، ونحن ذوو العدد الكثير ، والسعر الرفيع ، والمادة القريبة
لا والله لا نقبل ، فأعادوا خلع عبد الملك ثانية ، وكان ما كان مما أسلفنا لك ذكره .

(تاريخ الطبرى ٨ : ١٥)

(١) جمع مسلحة بالفتح ، وهى الثغر . (٢) الضيق والشدة .

٣٣٦ - عامر الشعبي والحجاج

وكان عامر الشعبي^(١) من خرج مع ابن الأشعث ؛ فلما أتى الحجاج بأشرى الجمجم ، أتى فيهم بالشعبي مؤثماً - وكان قد تقدم كتاب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج في أشرى الجمجم أن يعرضهم على السيف ، فمن أقر منهم بالكفر في خروجهم علينا فيخلى سبيله ، ومن زعم أنه مؤمن فيضرب عنقه - قال الشعبي : فلما جئت باب القصر لقيني يزيد بن أبي مسلم كاتبه ، فقال : إنا لله يا شعبي ! لما بين دفتيك من العلم ، وليس اليوم بيوم شفاة . قلت له : فما الخرج ؟ قال : بؤ^(٢) للأمر بالشرك والنفاق على نفسك ، وبالحرى أن تنجو ، ثم لقيني محمد بن الحجاج ، فقال لي مثل مقالة يزيد ، فلما دخلت على الحجاج قال لي : وأنت يا شعبي ممن ألب علينا مع ابن الأشعث ؟ اشهد على نفسك بالكفر . قلت : « أصلح الله الأمير ، نبأ بنا المنزل^(٣) ، وأجذب بنا الجناب ، وأستحسنا^(٤) الخوف ، واكتحلنا السمهر ، وضق المسالك ، وخبطتنا فننة لم نكن فيها بررة أتقاء ، ولا فجرة أفواة » قال : صدقت والله ما بررتم بخروجكم علينا ولا قويتم ، خلوا سبيل الشيخ .

(مروج الذهب ٢ : ١٤٤ ، والمعقد الفريد ١ : ١٥١ - ٣ : ١٢)

٣٣٧ - أيوب بن القريّة والحجاج

وكان الحجاج قد بعث أيوب بن القريّة^(٥) رسولا إلى ابن الأشعث ، حين خلع الطاعة بسجستان ، فلما دخل عليه ، قال له ، أتعومن خطيباً ، ولتخلعن عبد الملك ،

(١) هو أبو عمرو بن شراحيل (يفتح الشين) الشعبي (نسبة إلى شعب ، وهو بطن من همدان) وهو كوفي تابعي جليل القدر وافر العلم ، توفي سنة ١٠٥ هـ ، وكانت أمه من سبى جلولاء .

(٢) ارجع . (٣) نيا منزله به : لم يوافقه . (٤) أى لم يفارقنا .

(٥) هو أبو سليمان أيوب بن زيد الهلالي ، والقريّة جدته ، وكان أعرابيا أميا معدودا من جملة خطباء

العرب المشهورين بالفصاحة والبلاغة .

وَتَسَبَّنَ الْحِجَاجَ ، أَوْ لِأَضْرَبَنَّ عُنُقَكَ ، قَالَ : أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ ! قَالَ : هُوَ مَا أَقُولُ لَكَ ، فَقَامَ وَخَطَبَ وَخَلَعَ عَبْدَ الْمَلِكِ ، وَشَتَمَ الْحِجَاجَ ، وَأَقَامَ هُنَالِكَ ، فَلَمَّا انصرفت ابن الأشعث مهزوماً ، كتب الحجاج إلى عماله بالرقي وَأُصْبَهَانَ وَمَا بِلَيْهِمَا ، بِأَمْرِهِمْ أَلَّا يَمْرُقَ بِهِمْ أَحَدٌ مِنْ قَبْلِ ابْنِ الْأَشْعَثِ إِلَّا بَعَثُوا بِهِ أُسِيرًا إِلَيْهِ ، وَأَخَذَ ابْنُ الْقَوَيْتِ فِيمَنْ أَخَذَ .

فلما أدخل على الحجاج ، قال : أَخْبِرْنِي عَمَّا أَسْأَلُكَ ؟ قَالَ : سَلْنِي عَمَّا شِئْتَ ، قَالَ : أَخْبِرْنِي عَنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ ، قَالَ : أَعْلَمُ النَّاسَ بِحَقِّهِ وَبِاطِلِهِ ، قَالَ : فَأَهْلُ الْحِجَازِ ، قَالَ : أَسْرَعُ النَّاسِ إِلَى فِتْنَةٍ ، وَأَعْجَزُهُمْ فِيهَا ، قَالَ : فَأَهْلُ الشَّامِ ، قَالَ : أَطْوَعُ النَّاسَ لِمُخْلَفَائِهِمْ ، قَالَ : فَأَهْلُ مِصْرَ ، قَالَ : عَبِيدٌ لِمَنْ غَلَبَ ، قَالَ : فَأَهْلُ الْبَحْرَيْنِ ، قَالَ : نَبِطٌ ^(١) اسْتَعْرَبُوا ، قَالَ : فَأَهْلُ عُحْمَانَ ، قَالَ : عَرَبٌ اسْتَنْبَطُوا ، قَالَ : فَأَهْلُ الْمَوْصِلِ ، قَالَ : أَشْجَعُ فُرسَانَ ، وَأَقْتَبَلُ لِلْأَقْرَانِ ، قَالَ : فَأَهْلُ الْبَلَيْنِ ، قَالَ : أَهْلُ سَمْعِ وَطَاعَةِ ، وَلِزُومِ لِلْجَمَاعَةِ ، قَالَ : فَأَهْلُ الْبَيْمَةِ ، قَالَ : أَهْلُ جَفَاءَ ، وَاخْتِلَافِ أَهْوَاءَ ، وَأَصْبَرُ عِنْدَ الْإِقَاءِ ، قَالَ : فَأَهْلُ فَارِسَ ، قَالَ : أَهْلُ بَأْسٍ شَدِيدٍ ، وَشَرٍّ عَتِيدٍ ، وَرِيفٍ ^(٢) كَبِيرٍ ، وَقَرِيٍّ يَسِيرٍ ، قَالَ : أَخْبِرْنِي عَنِ الْعَرَبِ ، قَالَ : سَنَانِي ، قَالَ : قَرِيشٌ ، قَالَ : أَعْظَمُهَا أَخْلَابًا ، وَأَكْرَمُهَا مَقَامًا ، قَالَ : فَبَنُو عَاصِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ ، قَالَ : أَطْوَلُهَا رِمَاحًا ، وَأَكْرَمُهَا صَبَاحًا ، قَالَ : فَبَنُو سُلَيْمٍ ، قَالَ : أَعْظَمُهَا مَجَالِسَ ، وَأَكْرَمُهَا مَحَابِسَ ^(٣) ، قَالَ : فَتَقْيِيفُ ، قَالَ : أَكْرَمُهَا جِدُّودًا ، وَأَكْثَرُهَا وَفُودًا ، قَالَ : فَبَنُو زُبَيْدٍ ، قَالَ : أَلْزَمُهَا لِلرَّايَاتِ ، وَأَدْرَكُهَا لِلنَّارِ ^(٤) ، قَالَ : فَفَقْضَاعَةُ ، قَالَ : أَعْظَمُهَا أَخْطَارًا ، وَأَكْرَمُهَا نِجَارًا ^(٥) ، وَأَبْعَدُهَا آثَارًا ، قَالَ : فَالْأَنْصَارُ ، قَالَ : أَثْبَتُهَا مَقَامًا ، وَأَحْسَنُهَا إِسْلَامًا ، وَأَكْرَمُهَا أَيَّامًا ، قَالَ : فَتَمِيمٌ ، قَالَ : أَظْهَرُهَا جَلْدًا ، وَأَنْرَاهَا عَدْدًا ،

(١) النبط : جيل من الناس ، كانوا ينزلون سواد العراق . (٢) الريف : أرض فيها زرع وخصب .

(٣) المحابيس : جمع محبس كقعد ، وهو الشجاعة . (٤) الترات جمع ترة : وهي النار .

(٥) النجار : الأصل .

قال : فَبَكَر بن وائل ، قال : أثبتُّها صفوفا ، وأحدُّها سيوفا ، قال : فعبد القَيْس ، قال :
 أسبقُها إلى الغايات ، وأصبرُها تحت الرّايات ، قال : فبنو أسد ، قال : أهل عدَد وِجَد ،
 وَعُسْر وَنَكَد ، قال : فَلَخْم ، قال : مُلُوكٌ ، وفيهم نُوكٌ^(١) ، قال : فَجُذام ، قال :
 يُوَقِدُونَ الحربَ وَيَسْعَرُونَهَا^(٢) ، وَيُلْقِحُونَهَا ثمَّ يَمْرُونَهَا^(٣) ، قال : فبنو الحارث قال :
 رُعاةٌ للقديم ، ومُحَاةٌ عن الحرّيم ، قال : فَمَعَك ، قال : نُيُوثٌ جاهِدَةٌ ، في قُلُوبٍ فاسدة ،
 قال : فَتَغْلِب ، قال : يَصْدُقُونَ - إذا لَقُوا - ضَرْبًا ، وَيَسْعَرُونَ للأعداء حربًا ، قال :
 فغَسَّان ، قال : أكرمُ العربِ أحسابا ، وأثبتُّها أنسابا ، قال : فأبى العرب في الجاهلية
 كانت أَمْنَعَ من أن تُضَامَ ؟ قال قريش ، كانوا أهل رَهْوَةٍ^(٤) لا يُسْتَطَاعُ ارتقاؤها ،
 وَهَضْبَةٌ لا يُرامُ انتزاؤها^(٥) ، في بلدة حَمَى اللهُ ذِمَارَها ، ومنع جارها ، قال : فأخبرني عن
 ماثر العرب في الجاهلية ، قال : كانت العرب تقول : حَيَّرَ أرباب المُلُك ، وَكِنْدَةَ أرباب
 الملوك ، وَمَذْحِجَ أهل الطَّعْمان ، وَهَمْدَانَ أَحْلَاس^(٦) الخليل ، والأزد آساد الناس ، قال :
 فأخبرني عن الأَرْضين ، قال : ساني ، قال : الهند ، قال : بحرُها دُرٌّ ، وجبلُها ياقوت ،
 وشجرُها عُود ، وورقُها عِطْرٌ ، وأهلُها طَغَامٌ ، كَتَمَطِعُ الحمام^(٧) ، قال : فَخُرَّاسان ، قال :
 ماؤها جامد ، وعدوها جاحد ، قال : فَعَمَّان ، قال : حَرَّها شديد ، وصيدها عَتِيد ، قال :
 فالبحرين ، قال : كُنْفاةٌ بين المِصرين ، قال : فاليمين ، قال : أصل العرب ، وأهل
 البُيُوتات وَالْحَسَب ، قال : فمِسْكَةٌ ، قال : رجالُها علماء جُفَاءَةٌ ، ونساؤها كِساءٌ عُرَاةٌ ،
 قال : فالمدينة ، قال : رَسَخَ العلم فيها ، وظهر منها ، قال : فالبصرة ، قال : شتاؤها جليد ،

(١) الذوك بالضم والفتح : الحلق . (٢) سحر الحرب كنع ، وأسعرها : أوقدها .

(٣) مري الناقة كرمي : مسح ضرعها لتدر . (٤) الرهوة : المسكان المرتفع (والمنخفض

أيضا ، ضد) . (٥) أي اعتلاؤها نزا نزوا ونزوانا : وثب ، وانتزى : افتعل من النزوء ، وفي حديث

وائل بن حجر : « إن هذا انتزى على أرضي فأخذها » . (٦) كناية عن إدامتهم ركوبها .

(٧) الطغام : أوغاد الناس ورذال الطير ، والقطع بالكسر : اسم ما قطع من الشيء ، ويقال : ثوب

قطع وأقطع أي مقطوع ، أو هو قطع بالضم جمع قطع .

وحرها شديد ، وماؤها ملح ، وحر بها صلح ، قال : فالكوفة ، قال : ارتفعت عن حرّ البحر ، وسفّلت عن برّد الشام ، فطاب ليلها ، وكثر خيرها ، قال : فواسط ، قال : جنة ، بين حماة وكنة ، قال : وما حماها وكنتها^(١) ؟ قال : البصرة والكوفة يحسّدانها ، وما ضرّها ، ودجلة والزّاب^(٢) يتجاربان بإفاضة الخير عليها ، قال : فالشّام ، قال : عروس ، بين نسوة جلوس ، قال : نكحتك أمك ابن القرية ، لولا اتّباعك لأهل العراق ! وقد كنت أنهلك عنهم أن تتبعهم ، فتأخذ من نفاقهم ، ثم دعا بالسيف ، وأوماً إلى السيف أن أمسك ، فقال ابن القرية : ثلاث كلمات أصلح الله الأمير كأنهن ركبٌ وقوف ، يَكْنُ مَثَلًا بعدى ، قال : هات ، قال : لسكل جواد كِبوة ، ولسكل صاريم نبوة ، ولسكل حلیم هفوة ، قال الحجاج : ليس هذا وقت المزاح ، يا غلام أوجب جرحه ، فضرب عنقه .

وقيل إنه لما أراد قتله قال له : العرب تزعم أن لسكل شيء آفة ، قال : صدقت العرب ، أصلح الله الأمير ، قال : فما آفة الحلم ؟ قال : الغضب ، قال : فما آفة العقل ؟ قال : العُجب ، قال : فما آفة العلم ؟ قال : النسيان ، قال : فما آفة السخاء ؟ قال : المنّ عند البلاء^(٣) ، قال : فما آفة الكرام ؟ قال : مجاورة اللئام ، قال : فما آفة الشجاعة ؟ قال : البغى ، قال : فما آفة العبادة ؟ قال : الفترّة ، قال : فما آفة الذّهن ؟ قال : حديث النفس ، قال : فما آفة الحديث ؟ قال : الكذب ، قال : فما آفة المال ؟ قال : سوء التدبير ، قال : فما آفة الكامل من الرجال ؟ قال : العدم ، قال : فما آفة الحجاج بن يوسف ؟ قال : أصلح الله الأمير ، لا آفة لمن كرم حسبه ، وطاب نسبه ، وزكا فرعه ، قال : امتلأت شقاقا ، وأظهرت ففأقا ، اضر بوا عنقه ، فلما رآه قتيلا ندم ، وكان قتله سنة ٨٤ هـ .

* * *

(١) الكنة : امرأة الابن أو الأخ . (٢) الزاب الأسفل ، والزاب الأعلى : نهران يصبان في دجلة .

(٣) الإبلاء : الإنعام والإحسان بلوت الرجل ، وأبليت عنده بلاء حسنا ، وأبلاه الله بلاء حسنا .

وفي رواية أخرى أنه لما دخل على الحجاج ، قال له : يا ابن القرية ، ما أعددت لهذا الموقف ؟ قال : « أصلح الله الأمير ، ثلاثة حروف ، كأنهن ركبٌ وقوف ، دنيا وآخرة ومعروف ، قال : اخرج مما قلت ، قال : « أفعل » ، أما الدنيا فإل حاضر ، يأكل منه البر والفاجر ، وأما الآخرة فميزان عادل ، ومشهد ليس فيه باطل ، وأما المعروف فإن كان عليّ اعترفتُ وإن كان لي اعترفتُ^(١) » قال : أما لي فاعترف بالسيف إذا وقع بك ، قال : « أصلح الله الأمير ، أقلني عثرتي وأسفني ربي ، فإنه لا بد للجواد من كبوة ، وللسيف من نبوة ، وللحليم من هفوة^(٢) ؟ قال : كلا والله حتى أوردك جهنم ، ألسنت القائل برستقباذ : تغدوا الجدى قبل أن يتعشاكم ؟ قال : فأرخني فإني أجد حرها ، قال : قدّمه يا حرسى فاضرب عنقه ، فلما نظر إليه يتشجط^(٣) في دمه ، قال : لو كنا تركنا ابن القرية ، حتى نسمع من كلامه ! ثم أمر به فأخرج فرمى به^(٤) .

(وفيات الأعيان ١ : ٨٣ ، والبيان والتبيين ١ : ١٨٩ ، وتاريخ الطبري ٨ : ٣٧)

٣٣٨ - كلمة لابن القرية

وقال ابن القرية : الناس ثلاثة : عاقل ، وأحمق ، وفاجر : فالعاقل : الدين شريعته والحلم طبيعته ، والرأي الحسن سجيته ، إن سئل أجاب ، وإن نطق أصاب ، وإن سمع العلم وعى ، وإن حدث روى ؛ وأما الأحمق : فإن تسكلم عجل ، وإن حدث وهل^(٥) ، وإن استنزل عن رأيه نزل ، فإن حبل على القبيح حل ؛ وأما الفاجر فإن ائتمنته خانك ، وإن حدثته شأنك ، وإن وثقت به لم برعك ، وإن استكتم لم يكتم ، وإن علم لم يعلم ، وإن حدث لم يفهم ، وإن فقه لم يفقه .

(زهر الآداب ٢ : ٨٦)

(١) أي وأعطيت الناس منه . (٢) وفي رواية : « فإنه ليس جواد إلا له كبوة ، ولا شجاع إلا له هبوة » والهبوة : الغبرة . (٣) يضطرب . (٤) وروى أبو الفرج الأصبهاني أنه قيل : « ثلاثة لم يكونوا قط ، ولا عرفوا : ابن أبي العقب صاحب قسيمة الملاحم ، وابن القرية ، ومجنون بن عامر » انظر الأغانى ج ١ ص ١٦٣ . (٥) ضعف وفرع .

فتنة يزيد بن المهلب

٣٣٩ - أيوب بن سليمان بن عبد الملك يسأل عمه الوليد

أن يؤمن يزيد بن المهلب^(١)

لما قرَّ يزيدُ بنُ المهلبِ من سجنِ الحجاجِ وعذابه (سنة ٩٠ هـ في خلافة الوليد ابن عبد الملك) نزل على أخيه سليمان متهوِّذاً به ، وكتب سليمان إلى الوليد يطلب له الأمان ، فكتب إليه يُقسم أنه لا يؤمنه حتى يبعث به إليه ، فأرسل ابنه أيوب معه ، وكتب معه كتاباً ، فلما دخل به على عمه ، قال :

« يا أمير المؤمنين نفسي فِدَاؤُكَ ، لَا تُخَيِّرْ^(٢) ذِمَّةَ أَبِي ، وَأَنْتَ أَحَقُّ مَنْ مَنَعَهَا ،

(١) وخبر ذلك أن الحجاج كان وفد على عبد الملك ، فر في منصرفه بدير فنزله ، فقيل له : إن في هذا الدير شيخاً من أهل الكتب عالماً ، فدعا به وسأله : أعلم ما لي من يليه بعدى ؟ قال : رجل يقال له يزيد ، فوق في نفسه أنه يزيد بن المهلب ، إذ كان لا يرى من هو أهل لذلك سواء ، وكان يكرهه لما يرى فيه من النجاسة ، ويخشى منه ، وكان قد ولاء خراسان بعد وفاة أبيه سنة ٨٢ ، فكتب إلى عبد الملك يذم يزيد وآل المهلب ، ويتهمهم بأنهم زبيريّة الهوى ، ويخوفه غدرهم ، وما زال به حتى أجابه إلى ما سأله ، فعزل يزيد سنة ٨٥ ، وولى مكانه قتيبة بن مسلم ، وفي سنة ٨٧ حبس الحجاج يزيد وإخوته وعذبهم وأغرمهم ، وكان يزيد يصبر صبراً حسناً ، وكان الحجاج يغيظه ذلك ، فقيل له : إنه رمى بنشابة ، فثبت نصلها في ساقه ، فهو لا يمسه شيء إلا صاح ، فأمر أن يمدب وبدق ساقه (أى تغمز شديداً) فلما فعل به ذلك صاح - وأخته هند بنت المهلب عند الحجاج - فلما سمعت صياح أخيها صاحت وناحت فطلقها ، ثم إن يزيد وإخوته أعملوا الخيلة في الفرار من سجن الحجاج (سنة ٩٠) ولحقوا بسليمان بن عبد الملك مستجيرين به ، وكتب الحجاج إلى الوليد : إن آل المهلب خانوا مال الله ، وهربوا مني ، ولحقوا بسليمان ، واستشفع سليمان أخاه الوليد ، وما زال به حتى شفعه فيه ، فلما ولى الخلافة سليمان سنة ٩٦ ولى يزيد أمر العراق ، ثم ولاء خراسان سنة ٩٧ . (٢) خفر به كضرب ، وأخفره : نقض عهدته وغدره .

ولا تقطع منا رجاء من رجاء السلامة في جوارنا ، لمكاننا منك ، ولا تُذِلَّ
من رجاء العز في الانقطاع إلينا لعزنا بك «
(تاريخ الطبري ٨ : ٧٣)

٣٤٠ - خطبة يزيد بين يدي الوليد

وتكلم يزيد ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ،
ثم قال :

« يا أمير المؤمنين ، إن بلاءكم عندنا أحسن البلاء ، فمن ينس ذلك فلنسنا ناسيه ،
ومن يكفر فلنسنا كافر به ، وقد كان من بلائنا أهل البيت في طاعتكم ، والطعن
في أعين أعدائكم ، في المواطن العظام ، في المشارق والمغرب ، ما إن المنة علينا
فيها عظيمة . »

(تاريخ الطبري ٨ : ٧٤)

فأتمه الوليد وكف عنه .

٣٤١ - خطبة مخلد بن يزيد بن المهلب بين يدي

عمر بن عبد العزيز

ولما حبس عمر بن عبد العزيز يزيد بن المهلب^(١) ، أقبل ابنه مخلد من خراسان ،
ودخل على الخليفة ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

(١) وسبب ذلك : أن يزيد بن المهلب لما فتح جرجان وطبرستان سنة ٩٨ ، كتب بالفتح إلى سليمان
ابن عبد الملك ، وفي كتابه يقول : « وقد صار عندي من خمس مآفأه الله على المسلمين ، بعد أن صار إلى كل
ذي حق حقه من الزه والغنيمة ، ستة آلاف ألف ، وأنا حامل ذلك إلى أمير المؤمنين إن شاء الله » وقد قال
له كاتبه المغيرة بن أبي قررة : لا تكتب بتسمية مال ، فإنك من ذلك بين أمرين ، إما استكثره فأمرك بحمله ،
وإما سخت نفسه لك به فسوغك فتكلفت الهدية ، فلا يأتيه من قبلك شيء إلا استقله ، فكأن بك قد استغرقت
ما سميت ، ولم يقع منه موقعا ، ويبقى المال الأبي سميت مخلدا عندهم عليك في دواوينهم ، فإن ولي وال بعده =

« إن الله يا أمير المؤمنين صنع لهذه الأمة بولايتك عليها ، فلا نكن أشقى الناس بولايتك ، عَلَامَ تَحْبِسُ هذا الشيخ ؟ أنا أتحمل ما عليه ، فَصَالِحِي على ما إياه تسأل » فقال عمر : لآ ، إَلَآ أن تحمل جميع ما نسأله إياه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن كانت لك بَيْدَةٌ فخذ بها ، وإن لم تكن بَيْدَةٌ فَصَدَّقْ مقالة يزيد ، وإلا فاستحلفه ، فإن لم يفعل فصالحه ، فقال له عمر : ما أجد إلا أَخَذَهُ بجميع المال .

(تاريخ الطبرى ٨ : ١٢٢)

= أخذك به ، وإن ولى من يتحمل عليك لم يرض منك بأضعافه ؛ فلا تمض كتابك ، ولكن اكتب بالفتح ، وسله القدوم ، فتشافه بما أحببت مشافهة وتقصير ، فإنك إن تقصر عما أحببت أخرى من أن تكثر ، فأبى يزيد وأمضى الكتاب ، فلما ولى عمر بن عبد العزيز (سنة ٩٩) - وكان عمر يبغض يزيد وأهل بيته ، ويقول : هؤلاء جبايرة ولا أحب مثلهم - دعا يزيد وسأله عن تلك الأموال التي كتب بها إلى سليمان بن عبد الملك ، فقال : كنت من سليمان بالمسكان الذي قد رأيت ، وإنما كتبت إلى سليمان لأسمع الناس به (والتسميع : إزالة الخمول بنشر الذكر) ، وقد علمت أن سليمان لم يكن ليأخذنى بشيء سمعت به ، ولا بأمر أكرهه ، فقال له : ما أجد فى أمرك إلا حبسك ، فاتق الله ، وأد ما قبلك ، فإنها حقوق المسلمين ، ولا يسعنى تركها ، ولم يزل يزيد فى محبسه ، حتى بلغه مرض عمر ، فأخذ يعمل للهرب مخافة يزيد بن عبد الملك ، لأنه كان قد عذب أصحابه آل أبي عقيل (إذ كانت أم الحجاج بنت محمد بن يوسف أختى الحجاج بن يوسف ، عند يزيد بن عبد الملك ، فولدت له ابنه الوايد) وكان يزيد بن عبد الملك قد عاهد الله أن أمكنه الله من يزيد بن المهلب ، ايقطن منه طابقا (بفتح الباء وكسرهما أى عضوا) فحشى ذلك فهرب من السجن سنة ١٠١ ، ومات عمر وأفضت الخلافة إلى يزيد بن عبد الملك ولحق ابن المهلب بالبصرة ، فغلب عليها ، وأخذ عامل يزيد بن عبد الملك عليها (وهو عدى بن أرطاة الفرزاري) فحبسه وخلع يزيد ، فسير إليه الخليفة العباس بن الوليد بن عبد الملك ، وسلمته ابن عبد الملك لحربه فقتل ابن المهلب فى أثناء المعركة سنة ١٠٢ هـ .

٣٤٢ - خطبة يزيد بن المهلب يحرض أصحابه على القتال

وقد سير يزيد بن عبد الملك العباس بن الوليد بن عبد الملك

ومسألة بن عبد الملك لقتاله

قام في أصحابه فحرضهم ورجبهم في القتال ، فكان فيما قال :

« إن هؤلاء القوم لن يردم عن غيبتهم إلا الطعن في عيونهم ، والضرب بالمشرفية^(١) على هامهم ثم قل : إنه قد ذكر لي أن هذه الجرادة الصفراء - يعني مسألة بن عبد الملك - وعافر ناقة ثمود^(٢) - يعني العباس بن الوليد - (وكان العباس أزرق^(٣) أحمر ، كانت أمه رومية) والله لقد كان سليمان أراد أن ينفيه ، حتى كلمته فيه ، فأفره على نسبه ، فبلغني أنه ليس ههنا إلا التماسي في الأرض ، والله لو جاءوا بأهل الأرض جميعاً ، وليس إلا أنا ، ما برحت العرصة^(٤) حتى تكون لي أولهم » ، قالوا : نخاف أن تعنيننا^(٥)

(١) المشرفية : سيوف منسوبة إلى مشارف الشام ، وهي قرى من أرض العرب تدنومن الريف ، والهام : جمع هامة ، وهي الرأس .

(٢) هو قدار (كشجاع) بن سالف ، ويلقب بأحمر ، قال زهير في وصف الحرب :

فَتَنْتَجِحُ لَكُمْ غِلْمَانُ أَشْأَمَ كُلِّهِمْ كَأَحْمَرَ عَادٍ نَمَّ تَرْضِعُ فَتَنْظُمُ

(قال الأصمعي : أخطأ زهير في هذا ، لأن عافر الناقة ليس من عاد ، وإنما هو من ثمود ، وقال المبرد :

لا غلط ، لأن ثمود يقال لهم عاد الآخرة ، ويقال لقوم هود عاد الأولى) ويضرب به المثل في الشوم ، فيقال :

« أشأم من أحمر عاد » لأن الله أهلك بفعله ثمود ، وذلك أنهم قالوا للنبيهم صالح حين دعاهم إلى الإيمان :

يا صالح إن كنت صادقاً فأظهر لنا من هذه الصخرة ناقة ، وصفوها له ، فأخرجها الله بإذنه من الصخرة

(إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَبِقْهُمْ وَاصْطَبِرْ) . فآمن بعضهم عند ظهور هذه الآية ؛

ثم قال لهم : (هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ، وَلَا تَمْشَوْهَا بِسُوءِ

فِيأْخُذْكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ، فَعَقَرُوهَا فَاصْبِحُوا نَادِمِينَ ، فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ) .

(والشرب : النصيب من الماء) . (٣) أي أزرق العينين . (٤) العرصة : كل بقعة بين

الدور واسعة ليس فيها بناء . (٥) عناء : أتعبه .

كما عَنَّانا عبد الرحمن بن محمد^(١) ، قال : إن عبد الرحمن فَضِّحَ الذَّمَّارَ^(٢) وَفَضَّحَ حَسَبَهُ ،
وَهَلْ كَانَ يَعْدُو أَجْلَهُ ؟ ، ثم نزل . (تاريخ الطبري ٨ : ١٥٢)

٣٤٣ - خطبة أخرى له

ورويت له خطبة أخرى في هذا الغرض ، وها كها :
عن خالد بن صفوان قال : خَطَبَنَا يزيد بن المهلب بواسِطَ ، حمد الله ، وأثنى عليه ،
وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :
« أيها الناس : إني أسمع قول الرَّعَاعِ ، قد جاء العباس ، قد جاء مَسْلَمَةٌ ، قد جاء
أهل الشام ! وما أهل الشام إلا تسعة أسياف ، منها سبعةٌ معي ، واثنان على ، وما مسلمة
إلا جرادة صفراء ، وأما العباس فنسطوس^(٣) بن نسطوس ، أنا كم في بَرَابِرَةِ
وَصَقَالِبَةٍ^(٤) وَجَرَامِقَةٍ وَجَرَّاجِمَةٍ^(٥) ، وأقباط وأنباط^(٦) ، وأخلاق من الناس ؛ إنما أقبل
إليكم الفلاحون والأوباش كأشلاء^(٧) اللحم ، والله ما أقوا قَطُّ حَدًّا كحَدِّكم . ولا حديدًا
كحديدكم ، أعيروني سواعِدَكم ساعةً من نهارٍ تَصْفِقُونَ بها خراطيمهم^(٨) ، فإنما هي فُدُوءٌ
أورَوْحَةٍ ، حتى يحكم الله بيننا ، وهو خير الحاكمين . »

(البيان والتبيين ١ : ١٦٠ ، العقد الفريد ٢ : ١٥٥ ، ومروج الذهب ٢ : ١٧٧)

(١) هو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث السالف الذكر . (٢) مايلزمك حفظه وحمايته .
(٣) هو في العقد ، ومروج الذهب بالباء ، وفي البيان والتبيين بالنون ، وليس من ألفاظ العربية ،
وأقول : هو إما علم رومي ، فهو يشير إلى أصل العباس بن الوليد إذ كانت أمه رومية ، أو محرف عن
« نسطوري بن نسطوري » أي نصراني نسطوري من النساطرة إحدى فرق المسيحية نسبة إلى نسطوريوس
صاحب المذهب ، وكان أسقفًا بالقسطنطينية . توفي حول سنة ٤٥٠ م . (٤) البرابرة : جيل بالمغرب ؛
والصقالبة : جيل بلادهم تتاخم بلاد الخزر « شمالي بحر الخزر ، وهو بحر قزوين » أي جنوبي روسيا .
(٥) الجرامقة : قوم من المعجم صاروا بالموصل في أوائل الإسلام ، والجراجمة : قوم من المعجم بالجزيرة ،
أو نبط الشام . (٦) أنباط : جمع نبط كجيل وقد تقدم . (٧) أشلاء : جمع شلو كحمل ، وهو العضو
وكل مسلوخ أكل منه شيء ، وبقيت منه بقية . (٨) صفقه بالسيف : ضربه ، والخراطيم : جمع خرطوم ،
وهو الأنف .

٣٤٤ - خطبة أخرى له

وقال مقاتل : سمعت يزيد بن المهلب يخطب بواسط ، فقال :

« يا أهل العراق ، يا أهل السَّبْقِ وَالسَّبَاقِ ، ومكارم الأخلاق ، إن أهل الشام في أفواههم لُقْمَةٌ دَسِيمَةٌ ، قد رَتَبْتُمْ^(١) لها الأشداقُ ، وقاوا لها على ساقٍ ، وهم غيرُ تاركِها لكم بِالْمِرَاءِ وَالْجِدَالِ ، فَالْبَسُوا لهم جُلُودَ الثَّمُورِ^(٢) » .

(البيان والتبيين ١ : ٢١٨)

٣٤٥ - خطبة الحسن البصرى يثبظ الناس عن يزيد بن المهلب

وكان مروان بن المهلب وهو بالبصرة ، يحث الناس على حرب أهل الشام ، ويسرّحهم إلى يزيد ، وكان الحسن البصرى يُثَبِّظُ الناس عنه ، وكان يقول في تلك الأيام :

« أيها الناس : الزموا رحالكم ، وكفّوا أيديكم ، واتقوا الله مولاكم ، ولا يَقْتُلْ بعضكم بعضاً على دُنْيَا زَائِلَةٍ ، وطمعٍ فيها يسير ، ليس لأهلها ببقٍ ، وليس الله عنهم فيما كتسبوا براضٍ ، إنه لم يكن فتنةً إلاّ كان أكثر أهلها الخطباء والشعراء والسفهاء ، وأهل التَّيِّهِ وَالخِيَلَاءِ ، وليس يسلم منها إلاّ الجَهُولُ الخَفِيُّ ، والمعروف التَّقِيُّ ، فمن كان منكم خفياً فليَتَزَمِ الحَقَّ ، وليحسب نفسه عما يتنازع الناس فيه من الدنيا ، فكما والله بمعرفة الله إياه بالخير شرفاً ، وكفى له به من الدنيا خلفاً ؛ ومن كان منكم معروفًا شريفاً ، فترك ما يتنافس فيه نُظْرَاؤُهُ من الدنيا - إِرَادَةَ الله بذلك - فواهاً لهذا ، ما أسعدّه وأرشدّه ، وأَعْظَمَ أَجْرَهُ ، وأهدى سبيله ا فهذا غدا - يعني يوم القيامة - القَرِيرُ عَيْنًا ، الكَرِيمُ عند الله مآبًا » .

(تاريخ الطبرى ٨ : ١٥٣)

(١) رتبت : أى ثبتت ولم تتحرك « وذلك لامتلاء الأفواه » . (٢) أى تنكروا لهم ، واستعدوا لمناضلتهم .

٣٤٦ - خطبة مروان بن المهلب

فلما بلغ ذلك مروان بن المهلب ، قام خطيباً كما يقوم ، فأمر الناس بالجد والاحتشاد
ثم قال لهم :

« قد بلغني أن هذا الشيخ الضال المرأى - ولم يُسمَّه - يثبط الناس ، والله لو أن
جاره نزع من حُصِّ داره قَصَبَة ، أَظَلَّ يَرْعُفُ^(١) أَنْفَهُ ، أَيْنُكِرُ عَلَيْنَا ، ودلى أهل
مصرنا ، أن نطلب خيرنا ، وأن نُنْكِرَ مَظْلِمَتِنَا ؟ أَمَا وَاللَّهِ لِيَكْفَنَنَّ عَنْ ذِكْرِنَا ، وعن
جمعه إِلَيْنَا سُقَاطُ الْأُبُلَّةِ^(٢) ، وَعُلُوجُ فُرَاتِ الْبَصْرَةِ ، قوما ليسوا من أنفسنا ، ولا من
جرت عليه النعمة من أحدٍ منا ، أو لَا نُحْيِيَنَّ عَلَيْهِ مِبْرَدًا خَشِينًا . »

فلما بلغ ذلك الحسن ، قال : والله ما أكرهه أن يُكْرِمَنِي اللهُ بهواه ، فقال ناس
من أصحابه : لو أردك ثم شئت لمنعتك ، فقال لهم : قد خالفتكم إذنٌ إلى ما نهيتكم عنه ،
أمرٌ كم ألا يقتل بعضكم بعضاً مع غيري ، وأدعوكم إلى أن يقتل بعضكم بعضاً دوني ؟
فبلغ ذلك مروان بن المهلب ، فاشتدَّ عليهم وأخافهم ، وطلبهم حتى تفرقوا ، ولم يدع
الحسن كلامه ذلك ، وكفَّ عنه مروان .

(تاريخ الطبري ٨ : ٥١٣)

(١) رصف : خرج من أنفه الدم . (٢) جمع ساقط : وهو الثيم في حسبه ونفسه ، والأبلة :

موضع بالبصرة .

خطب الأحنف بن قيس التميمي^(١)

٣٤٧ - الأحنف ومعاوية

كان الأحنف بن قيس ، قد شهد مع الإمام عليّ ، كرم الله وجهه ، وقعة صفين ، فلما استقرّ الأمر لمعاوية ، دخل عليه يوماً ، فقال له معاوية : « والله يا أحنف ما أذكرك يوم صفين إلا كانت حَزَاةٌ^(٢) في قلبي إلى يوم القيامة » .

فقال له الأحنف :

« يا أمير المؤمنين لم ترُدُّ الأمور على أعقابها ؟ أما والله إن القلوب التي أبغضناك بها لبين جوارحنا ، والسيوف التي قاتلناك بها لعلى عواتقنا ، ولئن مددت بشبر من غدَر ، لمدنَّ باعا من ختر^(٣) ، ولئن شئت لمدستصفين كدَر قلوبنا بصفو حاكمك » ، قال معاوية : فإني أفعل . ثم قام وخرج ، وكانت أخت معاوية من وراء حجاب تسمع كلامه ، فقالت : يا أمير المؤمنين : من هذا الذي يتهدد ويتوعد ؟ قال : هذا الذي إذا غضب ، غضب انغضبه مائة ألف من بني تميم ، لا يدرون فيم غضب .

(وفيات الأعيان لابن خلكان ١ : ٢٣٠ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٣٧ ، والعقد الفريد ٢ : ١١٨)

(١) هو أبو بجر الضحاك بن قيس سيد بني تميم ، والمضروب به المثل في الحلم ، وهو من سادات التابعين ؛ أدرك عهد النبي صلى الله عليه وسلم ولم يصحبه ؛ وشهد بعض فتوح خراسان في زمن عمر وعثمان رضي الله عنهما ؛ وشهد مع علي رضي الله عنه وقعة صفين ؛ ولم يشهد وقعة الجمل مع أحد الفريقين ؛ وبقى إلى زمن مصعب بن الزبير ؛ فخرج معه إلى الكوفة ؛ فمات بها سنة ٦٧ هـ (وقيل له الأحنف ؛ لأنه كان أحنف الرجل - مائلها - يطأ على وحشها) . (٢) الحزاة : وجع في القلب من غيظ ونحوه . (٣) الباع : قدر مد اليدين ، والخر : أقبح العذر .

٣٤٨ - الأحنف ومعاوية أيضا

جلس معاوية يوما ، وعنده وُجوه الناس وفيهم الأحنفُ ، فدخل رجل من أهل الشام ، فقام خطيباً ، فكان آخرَ كلامه أن لعنَ علياً رضي الله عنه ، فأطرق الناس وتكلم الأحنف ، فقال :

« يا أمير المؤمنين : إن هذا القائل ما قال آئفاً ، لو علم أن رضاك في لعن المرسلين لعنهم ، فاتق الله ، ودع علياً ، فقد آتى الله ، وأُفرد في حُفرتِه ، وخَلَا بعمله ، وكان والله - ما علمنا - المبرزَ بِسيفه^(١) ، الطاهرَ في خلقه ، الميمونَ النَّقيبة^(٢) العظيمَ المصيبة . »

قال معاوية : « يا أحنف ، لقد أغضيتَ العينَ على القذى ، وقلتَ بغير ما ترى ، وإيتمَّ اللهُ لتصعدنَّ المنبرَ فلتلعننَّه طائماً أو كارهاً » فقال الأحنف : « إن تُعفني فهو خير ، وإن تجبرني على ذلك ، فوالله لا تجرى به شفتاي » ، فقال معاوية : قم فاصعد . قال : « أما والله لا نَصَفَنَّكَ في القول والفعل » ، قال معاوية : وما أنت قائلٌ إن أنصفتني ؟ » ، قال : « أصددُ فأحمد الله ، وأثنى عليه وأصلى على نبيه ، ثم أقول : « أيها الناس : إن معاوية أمرني أن ألعنَ علياً ، ألا وإن علياً ومعاوية اختلفا وافتتلا ، وادَّعى كل واحد أنه مَبغِيٌّ عليه وعلى فِئته ، فإذا دعوتُ فأمنوا رحِمَ اللهُ » ! ثم أقول : اللهم العن أنت وملائكتك وأنبيائك وجميع خلقك الباغِيَّ منهما على صاحبه ، وَالْفِئَةَ الباغية على المَبغِيِّ عليها ، اللهم العنهم لعناً كبيراً ، آمنوا ، رحِمَ اللهُ » ، يا معاوية لا أزيد على هذا ، ولا أنقص منه حرفاً ، ولو كان فيه ذهابُ نفسي . فقال معاوية : « إذن نُعَفِّيك يا أبا بحر . »

(نهاية الأرب ٧ : ٢٣٧ ، والمقد الفريد ٢ : ١١٨)

(١) الشق: الجانب ، ورواية المقد « المبرز سيفه » وبرز تبريزا : فاق أصحابه فضلاً أو شجاعة .

(٢) النقيبة : النفس .

٣٤٩ - قوله في مدح الولد

ودخل الأحنف على معاوية ، ويزيدُ بين يديه ، وهو ينظر إليه إعجاباً به ، فقال :
يا أبا بحر ما تقول في الولد ؟ فعلم ما أراد ، فقال : « يا أمير المؤمنين ، هم عمادُ ظهورنا ،
وتمرُّ قلوبنا ، وقرّةُ أعيننا^(١) ، بهم نصول على أعدائنا ، وهم الخلفُ منا لمن بعدنا ،
فكن لهم أرضاً ذليلةً ، وسماءَ ظليمةً ، إن سألوك فأعطهم ، وإن استعتبوك فأعتبهم^(٢) ،
لا تمنعهم ريفك^(٣) ، فيمّلوا قرْبَكَ ، ويكرهوا حيانتك ، ويستبطنوا وفانك » .
فقال : لله درك يا أبا بحر ! هم كما وصفت .
(الأمال ٢ : ٤٣)

٣٥٠ - شفاعته لدى مصعب بن الزبير

وأتى مصعب بن الزبير بكلمه في قوم حبسهم ، فقال : « أصلح الله الأمير ،
إن كانوا حُبِسُوا في باطل ، فألحقْ يُخْرِجهم ، وإن كانوا حُبِسُوا في حق ، فالعفو
يَسْعَهُمْ » ، فخلّاهم^(٤) .
(نهاية الأرب ٧ : ٢٣٨)

٣٥١ - نصيحته لقومه

وقال بخراسان : « يا بني تميم تحابُّوا تجتمعْ كلمتكم ، وتبأذلوا تعتدلْ أموركم ،
وابدءوا بجهاد بطونكم وفرُّوجكم ، يَصْلُحْ لكم دينكم ، ولا تغلُّوا^(٥) يسلمْ لكم
جِهَادُكم » .
(نهاية الأرب ٧ : ٢٣٩ ، والبيان والتبيين ٢ : ٤٦)

(١) تورت عينه : بردت ، وانقطع بكاؤها ، أو رأت ما كانت متشوقة إليه . (٢) استعبته :
طلب إليه العتبي (أي الرضا) وأعتبه : أعطاه العتبي . (٣) الرفد : العطاء . (٤) وفي وفيات
الاهميان لابن خلسكان ١ : ٢٤٤ ، أن هذا القول لشعبي كلم به عمر بن هبيرة الفزاري أمير العراق .
(٥) أي لا تخونوا .

٣٥٢ - خطبته في قوم كانوا عنده

وحدّث رجل من بني تميم قال : حضرت مجلس الأحنف بن قيس ، وعنده قوم مجتمعون في أمر لهم ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« إن الكرم يمنع الحرم ^(١) ، ما أقرب النعمة من أهل البغي ، لا خير في لذة تعقب ندما ، لن يهلك من قصد ^(٢) ، ولن يفتقر من زهد ، رب هزل قد عاد جدياً ، من أمن الزمان خانه ، ومن تعظم عليه أهانه ، دعوا المزاح ، فإنه يورث ^(٣) الضغائن ، وخير القول ما صدقه الفعل ، احتملوا لمن أدل ^(٤) عليكم ، واقبلوا عذر من اعتذر إليكم . أطع أخاك وإن عصاك ، وصله وإن جفاك ، أنصف من نفسك قبل أن ينتصف منك ، وإياكم ومشاورة النساء ، واعلم أن كفر النعمة لؤم ، وصحبة الجاهل شؤم ، ومن الكرم الوفاء بالدمم ، ما أقبح القطيعة بعد الصلة ، والجفاء بعد اللطف ^(٥) ، والعداوة بعد الود ! لا تكونن على الإساءة أقوى منك على الإحسان ، ولا إلى البخل أسرع منك إلى البذل ، واعلم أن لك من دنياك ما أصلحت به مشواك ^(٦) ، فأنفق في حق ، ولا تكونن خازناً لغيرك ، وإذا كان الغدر في الناس موجوداً ، فالثقة بكل أحد عجز ، اعرف الحق لمن عرفه لك ، واعلم أن قطيعة الجاهل تمديل صلة العاقل . »

(الأمل : ٢ : ٢٢)

(١) الحرم : جمع حرمة بالضم ، وهي ما لا يحل انتهاكه . (٢) القصد والاقتصاد : ضد الإفراط .

(٣) التارث : إيقاد النار . (٤) تدلل . (٥) اللطف : اسم من اللطف بالضم .

(٦) آخرتك .

٣٥٣ - كلمات حكيمة للأخنف

قال : في ثلاث خصال ما أقولهن إلا ليعتبر مُعتبر : ما دخلت بين اثنين قَطُّ حتى
يُدْخِلَانِي بينهما ، ولا أتيت باب أحد من هؤلاء - يعني الملوك - مالم أدع إليه ،
وما حللت حُبُوتِي^(١) إلى ما يقوم الناس إليه . وقال : « ألا أدلكم على المحمّدة
بلا مرزنة^(٢) ؟ الخلق السّجّيح^(٣) والكف عن القبيح ، ألا أخبركم بأذو الداء ؟ الخلق
الدنيّ ، واللسان البذيّ » ، وقال : « ما خان شريف ، ولا كذب عاقل ، ولا اغتاب
مؤمن » . وقال : « ما ادخرت الآباء للأبناء ، ولا أبقت الموتى للأحياء ، أفضل من
اصطناع معروف عند ذوى الأحساب والآداب » ، وقال : « كثرة الضحك تذهب الهيبة ،
وكثرة المزاح تذهب المروءة ، ومن لزم شيئاً عُرف به » . وسمع رجلاً يقول : ما أبالي
أمدحت أم ذممت . فقال له : « لقد استرحت من حيث تعب الكرام » ، وقال :
« جنبوا مجلسنا ذكر الطعام والنساء ، فإنى لا بغض الرجل يكون وصافاً لفرجه وبطنه ،
وإن المرءة أن يترك الرجل الطعام وهو يشتميه » . وكان يقول : إذا عجب الناس من
حلمه : « إنى لأجد ما تجدون ولكنى صبور » . وكان يقول : « وجدت الحلم أنصر لي
من الرجال » . وقال : « الكذب لا حيلة له ، والحسود لا راحة له ، والبخيل لا مروءة له ،
والمول لا وفاء له ، ولا يسود سبب الأخلاق ، ومن المرءة إذا كان الرجل بخيلاً أن يكتم
ذلك ويتجمل » . وقال : « أربع من كُنَّ فيه كان كاملاً ، ومن تعلق بمحصلة منهن
كان من صالحى قومه : دين يُرشدّه ، أو عقل يُسدّده ، أو حسَب يَصُونه ، أو حياء
يَقْنَاهُ^(٤) » . وقال : « المؤمن بين أربع : مؤمن يحسده ، ومنافق يُبغضه ، وكافر يجاهده ،

(١) احتبى الرجل : جمع بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها ، والاسم : الحبوّة بالفتح ويضم .

(٢) رزاه مرزنة : أصاب منه خيرا ، والشئ نقصه : أى دون أن تغرموا فى سبيلها مالا .

(٣) اللين السهل . (٤) قنى الحياء كرضى ورمى : لزمه كأقنى .

وشيطان يفتنه ؛ وأربع ليس أقل ممنه : اليقين ، والعدل ، ودرهم حلال ، وأخ في الله »
 وقال : « لأن أدعى من بعيد ، أحب إلى من أن أقصى من قريب » . وكان يقول :
 « إياك وصدَرَ المجلس ، وإن صدرك صاحبه ، فإنه مجلس قلمة^(١) » . وقال : « من لم
 يصبر على كلمة سمع كلمات » . وقال : « رب غيظ تجرعته مخافة ما هو أشد منه » . وقال :
 « من كثر كلامه كثرت سقطه ، ومن طال صمته كثرت سلامته » . وقال : « ثلاث
 لا أناة فيهن عندي » . قيل : « وما هن يا أبا بجر ؟ » . قال : « المبادرة بالعمل الصالح ،
 وإخراج ميتك ، وأن تترك الكفء أيمك^(٢) » . وكان يقول : « لأفنى تحكك
 في ناحية بيتي ، أحب إلى من أتم رددت عنها كفتنا » .

(وفيات الأعيان ١ : ٢٣١ ، وجمع الأمثال للميداني ١ : ١٤٨ ، والأمالى

١ : ٢٣٦ ، والبيان والتبيين ٢ : ص ٣٧ ، ٥٨ ، ١٠١ ، ١٠٤ ، ١٠٥)

٣٥٤ - صفية بنت هشام المنقرية تؤبن الأحنف

وروى أنه لما حلت جنازة الأحنف ، ودلّي في قبره ، أقبلت ابنة عمه صفية بنت
 هشام المنقرية على نجيب لها مختصرة^(٣) ، فوقفت على قبره ، فقالت :
 « لله درك من مجنّ في جنن^(٤) ، ومُدْرَج^(٥) في كفن ! إنا لله وإنا إليه راجعون !

(١) مجلس قلمة : يحتاج صاحبه إلى أن يقوم مرة بعد مرة . (٢) الأيم : من لزوج ، لها بكرا

أو ثيبا . قال الجاحظ : وكان يقال : « ما بعد الصواب إلا الخطأ ؛ وما بعد ممنه من الأكفاء ، إلا بذلن
 للسفلة والفوغاه » . (٣) النجيب : الجمل السريع الخفيف في السير القوي ؛ واختصر : أمسك المختصرة
 « والمختصرة ككنسة : عصا يسكها الخطيب يشير بها إذا خطب » ، وتخصر بالقضيب أيضا : أمسكه .

وفي رواية الجاحظ : « وقامت فرغانة بنت أوس بن حجر على قبر الأحنف بن قيس وهي على راحلة

فقال . . . » ؛ وفي رواية أبي علي القالي : « جاءت امرأة من قومه من بني منقر عليها قبول من النساء ؛
 فوقفت على قبره فقالت . . . » — والقبول بالفتح ويضم : الحسن — . (٤) من أجنه : إذا ستره ؛

والجنن : جمع جنة كقبة ، وهي الوقاية ؛ والجنن كسبب : القبر والسكفن . (٥) مطوى .

نسأل الله الذي جَعَمْنَا بِمَوْتِكَ ، وابتلانا بِفَقْدِكَ ، أن يُوسِعَ لك في قبرك ، وأن يَغْفِرَ
لك يوم حَشْرِكَ ، وأن يجعل سبيل الخير سبيلك ، ودليل الرِشَادِ دليلك ، ثم أَقْبَلْتَ
بوجهها على الناس ، فقالت : « مَعَشَرَ النَّاسِ ، إن أولياء الله في بلادِهِ ، تُهَوِّدُ على عبادِهِ ،
وإننا قائلون حَقًّا ، وَمُتَّعُونَ صِدْقًا ، وهو أهل الحَسَنِ الثَّنَاءِ ، وطيب الدعاء ؛ أما والذي
كنتَ من أَجَلِهِ في عِدَّةٍ ، ومن المِضْمَارِ^(١) إلى غَايَةٍ ، ومن الحَيَاةِ إلى نَهَايَةٍ ، الذي رفع
عَمَلَكَ ، عند انقضاء أَجَلِكَ ، لقد عِشْتَ حَمِيدًا مَوْدُودًا ، ولقد مُتَّ فَقِيدًا سَعِيدًا ، وإن
كنتَ لَعَظِيمِ السَّلْمِ ، فَاضِلِ الحِلْمِ ، صَحِيحِ الأَدِيمِ^(٢) ، مَنِيْعِ الحَرِيمِ ، وَارِي الزَّنَادِ ،
رَفِيْعِ العِمَادِ ، وإن كنتَ في المحافل لَشَرِيفًا ، وعلى الأرامِلِ لَعَطُوفًا ، وفي العَشِيرَةِ
مُسَوِّدًا ، وإلى الخلفاء مَوْفِدًا ، ولقد كانوا لقولك مستمعين ، ولرأيتك مُتَّبَعِينَ » .
ثم انصرفت . (ذيل الأمالى ص ٢٨ ، وبلغات النساء ص ٥٥ ، والبيان والتبيين ٢ : ١٦٠)

(١) في الأمالى : « ومن الضمان » ؛ وفي بلغات النساء : « ومن الضمان » وأرى أن صوابه « ومن

المضمار » لقوله بعد : « إلى غاية » . (٢) الأديم : الجلد ؛ والمراد صحيح العرض .

خطب الوفود

وما ألقى بحضرة الخلفاء والأمراء والرؤساء

الوافدون على معاوية

٣٥٥ - وفود الأحنف بن قيس والنمر بن قطبة على معاوية

دخل الأحنف بن قيس على معاوية وافداً لأهل البصرة ، ودخل معه النمر بن قطبة ، وعلى النمر عبادة قطوانية^(١) ، وعلى الأحنف مدرعة^(٢) صوف وشملة^(٣) ، فلما مثلاً بين يدي معاوية اقتحمتهما^(٤) عينه ، فقال النمر : يا أمير المؤمنين إن العبادة لا تكلمك ، وإنما يكلمك من فيها ، فأومأ إليه فجلس ، ثم أقبل على الأحنف ، فقال : ثم مه ؟ فقال : « يا أمير المؤمنين ، أهل البصرة عدد يسير ، وعظم كسير ، مع تقابع من المحول^(٥) ، واتصال من الذحول^(٦) ، فالكثير فيها قد أطرق ، والمقل قد أملق ، وبلغ منه المخنق ، فإن رأى أمير المؤمنين أن ينعش الفقير ، ويجبر الكسير ، ويسهل العسير ، ويصفح عن الذحول ، ويدأوى المحول ، ويأمر بالعطاء ، ليكشف البلاء ، ويزيل الأواء^(٧) ، وإن السيد من يعم ولا يخص ، ومن يدعو الجفلى^(٨) ولا يدعو النقرى ، إن أحسن إليه شكر ،

(١) نسبة إلى قطوان : موضع بالكوفة منه الأكسية . (٢) المدرعة : ثوب ولا يكون

إلا من صوف . (٣) الشملة : كساء دون القטיפفة يشتمل به . (٤) ازدرتهما .

(٥) جمع محل كشمس : وهو القحط والجذب . (٦) جمع ذحل كشمس أيضاً : وهو الثأر .

(٧) الشدة . (٨) الدعوة العامة ، والنقرى : الدعوة الخاصة .

وإن أسيء إليه غفر ، ثم يكون من وراء ذلك لرعيته عماداً ، يدفع عنهم الملأت ،
ويكشف عنهم المضلات ، فقال له معاوية : ها هنا يا أبا بجر ، ثم تلا : (وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ
فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ^(١)) . (زهر الآداب ١ : ٥٧)

٣٥٦ — وفد أهل العراق على معاوية وفيهم الأحنف

ولما قدّم وفد أهل العراق على معاوية ، وفيهم الأحنف ، خرج الآذن ،
فقال : إن أمير المؤمنين يعزّم عليكم ألا يتكلم أحد إلا لنفسه ، فلما وصلوا إليه
قال الأحنف :

« لولا عزمة أمير المؤمنين لأخبرته أن دافة ^(٢) دفت ، ونازلة نزلت ، ونائبة نابت ،
ونابئة نبتت ، وكلهم بهم حاجة إلى معروف أمير المؤمنين وبرّه » ، فقال : حسبك
يا أبا بجر فقد كفيت الغائب والشاهد .

(نهاية الأرب ٧ : ٢٣٧ ، والبيان والتبيين ٢ : ٤٣)

وفد أهل العراق على معاوية ومعهم زياد وفيهم الأحنف

وفد أهل العراق على معاوية ، ومعهم زياد بن أبيه ، وفيهم الأحنف بن قيس ،
فقال زياد :

٣٥٧ — خطبة زياد

« يا أمير المؤمنين : أشخصت إليك أقواماً الرغبة ، وأقعدت عنك آخرين العذر ،
فقد جعل الله تعالى في سعة فضلك ما يجبر به المتخلف ، ويكافأ به الشاخص » .

(١) أى فى معناه وفجواه . (٢) الدافة : الجماعة من الناس تقبل من بلد إلى بلد ، يقال : دفت
علينا من بنى فلان دافة ، والدافة أيضاً : قوم من الأعراب يريدون المصر ، والدافة : الجيش يدفون نحو العدو
أى يدبون .

٣٥٨ - خطبة معاوية

فقال معاوية : « مَرَّحِبًا بِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ ، أَمَا وَاللَّهِ لَأَنْ فَرَّقْتُ بَيْنَكُمْ الدَّعْوَةَ ، لَقَدْ جَمَعْتُمْ الرَّحِمَ ، إِنْ اللَّهُ اخْتَارَكُمْ مِنَ النَّاسِ لِيَخْتَارَنَا مِنْكُمْ ، ثُمَّ حَفِظَ عَلَيْكُمْ نَسَبَكُمْ بِأَنْ تَخْتَارَ لَكُمْ بِلَادًا يُجْتَازُ عَلَيْهَا الْمَنَازِلُ ، حَتَّى صَفَّكُمْ مِنَ الْأُمَمِ كَمَا تُصَفَّى الْفِضَّةُ الْبَيْضَاءُ مِنْ خَبَثِهَا ، فَصُونُوا أَخْلَاقَكُمْ ، وَلَا تُدَنِّسُوا أَنْسَابَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ ، فَإِنَّ الْحَسَنَ مِنْكُمْ أَحْسَنُ لِقَرَبِكُمْ مِنْهُ ، وَالْقَبِيحُ مِنْكُمْ أَقْبَحُ لِبَعْدِكُمْ عَنْهُ . »

٣٥٩ - خطبة الأحنف بن قيس

فقال الأحنف : « وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا نَعَدَمُ مِنْكُمْ قَائِلًا جَزِيلًا ^(١) ، وَرَأِيًا أَصِيلًا ، وَوَعْدًا جَمِيلًا ، وَإِنْ أَخَاكَ زِيَادًا لَمُتَّبِعٍ آثَارَكَ فِينَا ، فَسْتَمْتَعِ اللَّهُ بِالْأَمِيرِ وَالْمَأْمُورِ ، فَإِنَّكُمْ كَمَا قَالَ زُهَيْرٌ - فَإِنَّهُ أَلْقَى عَلَى الْمَدَاحِينَ فُصُولَ الْقَوْلِ - :

وَمَا يَكُ مِنْ خَيْرٍ أَتَوْهُ فَإِنَّمَا تَوَارَثَهُ آبَاءَهُ آبَائِهِمْ قَبْلُ
وَهَلْ يُنْبِتُ الْخَطِيءَ إِلَّا وَشِيجُهُ وَتُغْرَسُ إِلَّا فِي مَنَابِتِهَا النَّخْلُ ^(٢) »

(زهر الآداب ١ : ٥٨)

٣٦٠ - وفد العراق على معاوية وفيهم دغفل النسابة

قدم وفد العراق على معاوية ، وفيهم دغفل ^(٣) ، فقال له معاوية : يَا دَغْفَلَ أَخْبِرْنِي عَنْ ابْنِي نِزَارٍ : رِبِيعَةٌ وَمُضَرٌّ ، أَيُّهُمَا كَانَ أَعَزَّ جَاهِلِيَّةً وَعَالَمِيَّةً ؟ فقال : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مُضَرٌّ بِنِزَارٍ كَانَ أَعَزَّ جَاهِلِيَّةً وَعَالَمِيَّةً . قال معاوية : وَأَيُّ مُضَرٍّ كَانَ أَعَزَّ ؟ قال :

(١) الجزيل : العاقل الأصيل الرأي . (٢) الخطي : الرمح ، نسبة إلى الخط : مرفأ السفن بالبحرين تنسب إليه الرماح لأنها تباع به لأنه منبها ، والشيج : شجر الرماح جمع وشيجة . (٣) هو دغفل ابن حنظلة النسابة من بني شيبان .

بنو النَّضْر بن كِنانة ، كانوا أكثر العرب أجداداً ، وأرفعهم عماداً وأعظمهم رَماداً .
قال : فأىُّ بنى كِنانة كان بعدهم أعزُّ ؟ قال : بنو مالك بن كِنانة ، كانوا يَعْلُون من
سَامهم ، ويكفُون من نَاوَاهم ، ويصدُقون من عَادَاهم . قال : فمن بعدهم ؟ قال :
بنو الحَرِث بن عبد مَناة بن كِنانة ، كانوا أعزَّ بنيه وأمنعهم ، وأجودهم وأنعمهم . قال :
ثم من بعدهم ؟ قال : بنو بكر بن عبد مَناة ، كان بأسهم مرهوباً ، وعدوهم منكوباً ،
وثأرهم مطلوباً . قال : فأخبرني عن مالك بن عبد مَناة بن كِنانة ، وعن مُرَّة وعاصم
ابن عبد مَناة . قال : كانوا أشرفاً كراماً ، وليس للقوم أكفاء ولا نظراء . قال :
فأخبرني عن بنى أسد ؟ قال : كانوا يُطعمون السَّديف^(١) ، ويُكرمون الضيوف ،
ويضربون في الرُّحوف^(٢) ، قال : فأخبرني عن هُذَيل ، قال : كانوا قليلاً أكياس^(٣) ،
أهل مَنعة وبأس ، ينتصفون من الناس ، قال : فأخبرني عن بنى ضَبَّة ؟ قال : كانوا
جَمرة من جَمرات العرب الأربع^(٤) ، لا بُصطَلَى بنارهم ، ولا يُفَاتون بشارهم ، قال :
فأخبرني عن مُزينة ، قال : كانوا في الجاهلية أهل مَنعة ، وفي الإسلام أهل دَعَة . قال :
فأخبرني عن تميم ، قال : كانوا أعزَّ العرب قديماً ، وأكثرها عظيماً ، وأمنعها حرِيماً ،
قال : فأخبرني عن قيس ، قال : كانوا لا يفرحون إذا أُدِيلوا^(٥) ، ولا يجزَعون إذا اُبْتُلوا ،
ولا يَبْخُلون إذا سُئِلوا ، قال : فأخبرني عن أشرفهم في الجاهلية ، قال : غَطَفان بن سعد
وعاصم بن صَمْعَةَ وسَلِيم بن منصور ؛ فأما غَطَفان فكانوا كراماً سادةً ، وللخَميس^(٦)

(١) شحم السنام . (٢) مصدر زحف أو جمع زحف كشمس وهو الجيش يزحفون إلى العدو .

(٣) جمع كيس : وهو الماقل . (٤) قال صاحب العقد : « جمرات العرب ، هم

بنو نَمير بن عامر بن صَمْعَةَ ، وبنو الحارث بن كعب ، وبنو ضَبَّة بن أد بن طابِجَة ، وبنو عيس
ابن بغيض ، وإنما قيل لهذه القبائل جمرات ، لأنها تجمعت في أنفسها ، ولم يدخلوا معهم غيرهم ، والتجمير :

التجميع ، ومنه قيل : جمرة العقبة لاجتماع الحصى فيها ، ومنه قيل : لانتجروا المسلمين فتفتنوهم ، وتفتنوا
نساءهم ، يعني لانتجموهم في المغازي . . الخ - العقد ٥٧ : ٢ . (٥) أداله الله من عدوه : نصره عليه .

(٦) الخميس : الجيش . سمي بذلك لأنه خمس فرق : المقدمة ، والقلب ، والميمنة ، والميسرة .

قادة ، وعن البيض ذَاذَة^(١) ؛ وأما بنو عاصم فكثيرٌ سادتهم ، مخشيةٌ سَطَوَتهم ،
 ظاهرةٌ نَجَدَتهم ؛ وأما بنو سليم فكانوا يُدركون النار ، ويمنعون الجار ، ويُعظَمون^(٢)
 النار ، قال : فأخبرني عن قومك بكر بن وائل واصلدقني ، قال : كانوا أهلَ عزّ قاهر ،
 وشرف ظاهر ، ومجد فاخر ، قال : فأخبرني عن إخوانهم تغلب ، قال : كانوا أسودًا
 تُرهب ، وسِمَامًا^(٣) لا تُقرب ، وأبطلًا لا تُكذب ، قال : فأخبرني كم أدبوا عليكم
 في قتلكم كليليًّا ؟ قال : أربعين سنة ، لانتصف منهم في موطن تلقاهم فيه ، حتى كان
 يوم التحاليق ، يوم الحرث بن عباد بعد قتله ابنه مجير ، وكان أرسله في الصلح بين القوم
 فقتله مهلهل ، وقال : بؤ بشيع^(٤) نعل كليب ، فقال الغلام : إن رضيت بهذا بنو بكر
 رضيت ، فبلغ الحرث ، فقال : نعم القليل قتيلا إن أصاح الله به بين بكر وتغلب وباء
 بكليب ، فليل له : إنما قال مهلهل ما قال (الكلمة^(٥)) ، فتشمر الحرث للحرب ،
 وأمرنا بحلقتي رءوسنا أجمعين ، وهو يوم التحاليق ، وله خبر طويل ، وقال :

قربًا مرَّبط النعامِ مني لَقِحَت حَرْبٌ وَاثِلٍ عَن حِيَالٍ^(٦)
 لَمْ أَكُنْ مِنْ جُنَاتِهَا - عَلِمَ اللَّهُ - وَإِنِّي بِمَجْرَّهَا الْيَوْمَ صَالِي
 قَرَّبًا مَرَّ بَطِ النِّعَامَةِ مِنْهُ إِن يَبِيعَ الْكِرَامَ بِالشَّعِّ غَالِي

فأدبنا عليهم يومئذ ، فلم نزل منهم ممتنعين إلى يومنا هذا . قال : فن ذهب يذكر
 ذلك اليوم ؟ قال : الحرث بن عباد ، أسر مهلهلاً في ذلك اليوم ، وقال له : دأني على
 مهلهل بن ربيعة ، قال : مالي إن دللتك عليه ؟ قال : أطلقك ، قال : على الوفاء ؟ قال :
 نعم ، قال له : أنا مهلهل ، قال : وَيَحْك ! دأني على كفاء كريم ، قال : امرؤ القيس^(٧)

(١) البيضة : حوزة كل شيء وساحة القوم ، وبيضة الدار : وسطها .

(٢) كناية عن الكرم . (٣) جمع سم مثلث السين . (٤) الشع : سير يشد به النعل .

(٥) هي قوله (بؤ بشيع نعل كليب) . (٦) النعام : اسم فرسه ، ولقحت الناقة : قبلت اللقاح

وحالت حبالاً : لم تلقح سنة ، أو سنتين ، أو سنوات . (٧) هو امرؤ القيس بن أبان التغلبي .

وأشار بيده إليه عن قُرب ، فأطلقه الحرث ، وانطلق إلى امرئ القيس فقتله ، وبكر كلها صبرت وأبكت فحسُنَ بلاؤها ، إلا ما كان من ابني لُجَيْم : حَذِيفَةَ وَعِجْلَ ، وَيَشْكُرَ ابن بكر ، فإن سعد بن مالك بن ضُبَيْعَةَ جدَّ طَرْفَةَ بن العبد ، هجَّام في ذلك اليوم ، فقال :

إِنَّ لُجَيْمًا عَجَزَتْ كُلُّهَا أَنْ يُرْفِدُونِي فَارْسًا وَاحِدًا^(١)
وَيَشْكُرُ الْعَامَ عَلَى خَيْرِهَا لَمْ يَسْمَعْ النَّاسَ لَهُمْ حَامِدًا^(٢)
وقال فيهم أيضًا :

يَا بُؤْسَ لِلْحَرْبِ الَّتِي وَضَعْتَ أَرَاهِطًا فَاسْتَرَا حُوا^(٣)
إِنَّا وَإِخْوَتَنَا غَدًا كَثَمُودَ حِجْرٍ يَوْمَ طَاحُوا^(٤)
بِالْمَشْرِقِيِّ لَأَنْفِ رَ وَلَا نُبَاحُ وَلَنْ تُبَاحُوا^(٥)
مَنْ صَدَّ عَنْ نِيرَانِهَا فَأَنَا ابْنُ قَيْسٍ لَا بَرَّاحُ^(٦)
فقال معاوية : أنت والله يا دغفل أعلم الناس قاطبةً بأخبار العرب .

(ذيل الأمل ٢٦)

(١) الإرفاد : الإعانة والإعطاء . (٢) الختر : الغدر أو أقيجه . (٣) أراهط : جمع لرهط . (٤) الحجر : واد بين المدينة والشام : مساكن ثمود قوم صالح . (٥) مشارف الشام : قرى من أرض العرب تدنو من الريف منها السيوف المشرفية . وفي ذيل الأمل « ولا نباح ولن نباحوا » بالنون وقد أصلحته « ولن تباحوا » بالتاء على الالتفات من التكلم إلى الخطاب ، أي ولن تباحوا يا قوم مادمننا لكم حاة ، وقال مصحح الأمل : « ولن نباحوا » كذا في الأصل ، ولعل هنا تحريفًا ، ووجه الكلام « كن يباح » . (٦) قولهم لا براح كقولهم لا ريب ، ويجوز رفعه فتكون لا بمنزلة ليس .

٣٦١ - دغفل وجماعة من الأنصار

ووقف جماعة من الأنصار على دَغْفَل بعد ما كف ، فسلموا عليه ، فقال :
مَنْ الْقَوْمُ ؟ قالوا : سَادَةُ الْيَمِينِ ، فقال : « أَمِنْ أَهْلِ مَجْدِهَا الْقَدِيمِ ، وَشَرَفِهَا الْعَمِيمِ ،
كِنْدَةَ ؟ قالوا : لا ، قال : « فَأَنْتُمْ الطَّوَالِ قَصَبَا ، الْمُتَحَصِّنُونَ نَسَبًا ، بَنُو عَبْدِ الْمَدَانِ ؟ »
قالوا : لا ، قال : « فَأَنْتُمْ أَقْوَدُهَا لِلزُّحُوفِ ، وَأَخْرُقُهَا لِلصَّفُوفِ ، وَأَضْرِبُهَا بِالسِّيُوفِ ،
رَهْطُ عَمْرِو بْنِ مَعْدِيكَرِبٍ ؟ » قالوا : لا ، قال : « فَأَنْتُمْ أَحْضَرُهَا قَرَاءً ^(١) ، وَأَطْيَبُهَا
فِنَاءً ، وَأَشْدُّهَا لِقَاءً ، رَهْطُ حَاتِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ؟ » قالوا : لا ، قال : فَأَنْتُمْ الْغَارِسُونَ لِلنَّخْلِ ،
وَالْمَطْعَمُونَ فِي الْمَجَلِّ ^(٢) ، وَالْقَائِلُونَ بِالْعَدْلِ ، الْآنَصَارُ ؟ » قالوا : نعم .
(الأمل : ٢ : ٢٨٧)

٣٦٢ - وفد أهل العراق على معاوية وفيهم صعصعة بن صوحان

قال عبد الملك بن مروان يوماً لجلسائه : خَبَّرُونِي عَنْ حَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ ، فِيهِمْ
أَشَدُّ النَّاسِ ، وَأَسَخَى النَّاسِ ، وَأَخْطَبُ النَّاسِ ، وَأَطْوَعُ النَّاسِ فِي قَوْمِهِ ، وَأَحْلَمَ النَّاسِ ،
وَأَحْضَرَمَ جَوَابًا .

قالوا : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا نَعْرِفُ هَذِهِ الْقَبِيلَةَ ، وَلَكِنْ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تَكُونَ فِي قُرَيْشٍ ،
قال : لا ، قالوا : فِي جَيْبٍ وَمَلُوكِهَا ، قال : لا ، قالوا : فِي مَضَرَ ، قال : لا ، قال مَصْقَلَةَ
ابن رُقَيْة الْعَبْدِيِّ : فِي إِذْنٍ فِي رَيْبَعَةٍ ، وَنَحْنُ هُمْ ، قال : نعم ، قال جُلَسَاؤُهُ : مَا نَعْرِفُ
هَذَا فِي عَبْدِ الْقَيْسِ إِلَّا أَنْ تَخْبِرَنَا بِهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قال : نعم .
أَمَّا أَشَدُّ النَّاسِ ، فَحَكِيمُ بْنُ جَبَلٍ ، كَانَ مَعَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -

(١) قرى الضيف كرى قرى بالكسر ، والقصر : وقراء بالفتح والمد : أضافه .

(٢) الجبل : الجذب والشدة .

فَقَطَّعَتْ سَاقَهُ ، فَضَمَّهَا إِلَيْهِ ، حَتَّى مَرَّ بِهِ الَّذِي قَطَعَهَا ، فَرَمَاهَا بِهَا فَجَدَّلَهُ ^(١) عَنِ دَابَّتِهِ ، ثُمَّ جَثَا إِلَيْهِ فَقَتَلَهُ وَاتَّكَأَ عَلَيْهِ ، فَرَّ بِهِ النَّاسُ ، فَقَالُوا لَهُ : يَا حَكِيمُ ، مَنْ قَطَعَ سَاقَكَ ؟ قَالَ : وَسَادِي ^(٢) هَذَا ، وَأَنْشَأُ يَقُولُ :

يَا سَاقُ لَا تُرَاعِي إِنْ مَعِيَ ذِرَاعِي أَتَّحِي بِهَا كُرَاعِي ^(٣)

وَأَمَّا أَسْحَى النَّاسِ فَعَبْدُ اللَّهِ بْنِ سُوَّارٍ ، اسْتَعْمَلَهُ مَعَاوِيَةَ عَلَى السَّنْدِ ، فَسَارَ إِلَيْهَا فِي أَرْبَعَةِ آلَافٍ مِنَ الْجُنْدِ ، وَكَانَتْ تَوْقَدُ مَعَهُ نَارَ حَيْثُمَا سَارَ ، فَيُطْعِمُ النَّاسَ ، فَبَيْنَمَا هُوَ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ أَبْصَرَ نَارًا ، فَقَالَ : مَا هَذِهِ ؟ قَالُوا : أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ، اعْتَلَّ بِبَعْضِ أَصْحَابِنَا ، فَاشْتَهَى خَبِيصًا ^(٤) ، فَعَمِلْنَا لَهُ ، فَأَمَرَ خَبَّازَهُ أَلَّا يُطْعِمَ النَّاسَ إِلَّا الْخَبِيصَ ، حَتَّى صَاحُوا وَقَالُوا : أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ، رُدُّنَا إِلَى الْخَبِزِ وَاللَّحْمِ ، فَسَمَّيْ مُطْعِمَ الْخَبِيصِ .

وَأَمَّا أَطْوَعُ النَّاسِ فِي قَوْمِهِ ، فَالْجَارُودُ بْنُ بَشْرِ بْنِ الْعَلَاءِ ، فَإِنَّهُ لَمَّا قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَارْتَدَّتْ الْعَرَبُ ، خَطَبَ قَوْمَهُ ، فَقَالَ :

« أَيُّهَا النَّاسُ : إِنْ كَانَ مُحَمَّدٌ قَدِمَ مَاتَ ، فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ ، فَاسْتَمْسِكُوا بِدِينِكُمْ ، فَنَزَّاهُ فِي هَذِهِ الرَّدَّةِ دِينَارًا أَوْ دَرَاهِمًا أَوْ بَعِيرًا أَوْ شَاةً ، فَلَهُ عَلَيَّ مِثْلَاهُ » فَمَا خَالَفَهُ مِنْهُمْ رَجُلٌ .

وَأَمَّا أَحْضَرُ النَّاسِ جَوَابًا ، فَصَعَصَعَةُ بْنُ صُوحَانَ ، دَخَلَ عَلَى مَعَاوِيَةَ فِي وَفْدِ أَهْلِ الْعِرَاقِ ، فَقَالَ مَعَاوِيَةُ : مَرَّ حَبَابًا بِكُمْ يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ ، قَدِمْتُمْ أَرْضَ اللَّهِ الْمَقْدَسَةَ ، مِنْهَا الْمَنْشَرُ ، وَإِلَيْهَا الْمَحْشَرُ ، قَدِمْتُمْ عَلَى خَيْرِ أَمِيرٍ يَبْرَأُ كَبِيرِكُمْ ، وَيَرْحَمُ صَغِيرِكُمْ ، وَلَوْ أَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ وُلِدُوا أَبِي سَفِيَانَ لَكَانُوا حُلَمَاءَ عَقْلَاءَ ، فَأَشَارَ النَّاسُ إِلَى صَعَصَعَةَ فَقَامَ :

فَحَمَدَ اللَّهَ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، وَصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ قَالَ :

(١) جدله : صرعه على الجدالة (كسحابة) وهي الأرض . (٢) الوساد : المتكأ ، والمخذة

كأوسادة ويثلث . (٣) لا تراعى : لا تفزعى ، والكراع : جماعة الخيل . (٤) الخبيص :

نقي اللقيح يخلط بالعسل ، والخبيصة : أخص منه ، وخبيص الخنوا كضرب ، وخبيصها : بالتشديد خلطها وعملها .

« أما قولك يا معاوية : إنا قدّمنا الأرض المقدّسة ، فلمعمرى ، ما الأرضُ تقدّسَ
الناسَ ، ولا يقدّسُ الفاسَ إلا أعمالهم ، وأما قولك : منها المنّشر ، وإليها المَحْشَر ،
فلمعمرى ، ما ينفع قريبها ، ولا يضرُّ بُعدها مؤمننا ، وأما قولك : لو أن الناسَ كلهم ولدُ
أبي سفيان لكانوا حُلَماء عِقاء ، فقد ولدَهم خيرٌ من أبي سفيان آدمُ صلوات الله عليه ،
فمنهم الخليم والسفيه ، والجاهل والعالم . »

وأما أحلم الناس ، فإن ولد عبد القيس قدّموا على النبي صلى الله عليه وسلم بصدقاتهم
وفيهم الأشج^(١) ، ففرّقتها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أول عطاء فرّقه في أصحابه ،
ثم قال : يا أشج أدن منى ، فدنا منه ، فقال : « إن فيك خلتين يجبهما الله : الأناة ،
والحلم » وكفى برسول الله صلى الله عليه وسلم شاهداً ، ويقال : إن الأشج لم يَغضب قط^(٢) .
(المقد الفريد ٢ : ٥٦)

٣٦٣ - وفود العرب ومعاوية

عن عمرو بن عُقبة بن أبي سفيان ، قال :
عَقِمَت النساءُ أن يَلِدْنَ مثل عمى ! شهيدته يوماً ، وقد قدِمَت عليه وفود العرب ،
فقضى حوائجهم ، وأحسنَ جوائزهم ، فلما دخلوا عليه ابشكروه ، سبقهم إلى الشكر ، فقال لهم :
« جزاكم الله يا معشر العرب عن قريش أفضلَ الجزاء ، بتقدّمكم إليهم في الحرب ،
وتقديمكم لهم في السِّلم ، وحقنكم دماءهم بسفكها منكم ، أما والله لا يؤثر عليكم غيركم
منهم حازمٌ كريم ، ولا يرغبُ عنكم منهم إلا عاجزٌ لثيم ، شجرةٌ قامت على ساق ،
فتفرّع أعلاها ، واجتمع أصلها ، عَضَدَ اللهُ مَنْ عَضَدَهَا ، فيألفها كلمةٌ لو اجتمعت ! وأيدٍ
لو ائتلفت ! ولكن كيف بإصلاح ما يريد الله إفساده ؟ » . (المقد الفريد ٢ : ٤١)

(١) هو عبد الله بن عوف الأشج .

(٢) هذا المقال يزيد على العنوان الذى عنوانه به ، وقد أردت من ذلك استيفاء حديث عبد الملك .

٣٦٤ — وفود عبد العزيز بن زُرارة على معاوية

وفد عبد العزيز^(١) بن زُرارة على معاوية ، وهو سيد أهل الكوفة ، فلما أُذِن له وقف بين يديه ، وقال :

« يا أمير المؤمنين : لم أزل أهُزُّ ذَوَائِبَ^(٢) الرَّحَالِ إِلَيْكَ ، إذ لم أجد مُعَوَّلًا إِلَّا عَلَيْكَ ، أَمْتِطِي اللَّيْلَ بَعْدَ النَّهَارِ ، وَأَمِيمَ^(٣) الْمَجَاهِلِ بِالْآثَارِ ، يَقُودُنِي إِلَيْكَ أَمَلٌ ، وَتَسُوقُنِي بَلْوَى ، وَالْمَجْتَهِدُ يُعَذِّرُ ، وَإِذْ بَلَغْتُكَ فَقَطَّنِي^(٤) » ، فقال معاوية : أَحْطَطُّ عَنْ رَاحِلَتِكَ رَاحِلَهَا .

وروى الجاحظ هذا القول بصورة أخرى ، فقال :

« ولما وصل عبد العزيز بن زُرارة إلى معاوية قال : « يا أمير المؤمنين ، لم أزل أَسْتَدِيلُ بِالْمَعْرُوفِ عَلَيْكَ ، وَأَمْتِطِي النَّهَارَ إِلَيْكَ ، فَإِذَا أَلْوَى^(٥) بِي اللَّيْلُ ، فَقَبَّضَ الْبَصَرَ ، وَعَقَى الْأَثَرَ ، أَقَامَ بَدَنِي ، وَسَافَرَ أَمَلِي ، وَالنَّفْسُ تَلُومٌ ، وَالْاجْتِهَادُ يَعْذِرُ ، وَإِذْ بَلَغْتُكَ فَقَطَّنِي » .

وخرج عبد العزيز بن زُرارة مع يزيد بن معاوية إلى الصَّائِفَةِ^(٦) ، فهلك هناك ، فكتب يزيد إلى أبيه معاوية بذلك ، فقال معاوية لزُرارة : أتاني اليوم نَعْيُ سَيِّدِ شَبَابِ الْعَرَبِ ، قَالَ زُرَارَةُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هُوَ ابْنِي أَوْ ابْنُكَ ؟ قَالَ : بَلْ ابْنُكَ ، قَالَ : لِلْمَوْتِ مَا تَلِدُ الْوَالِدَةَ .

(العقد للفريد ١ : ١١٨ ، وصباح الأعشى ١ : ٢٥٧ ، والبيان والتبيين ٢ : ٣٧ ، والأمال ١ : ٢٠١)

(١) في صباح الأعشى « عبد العزى » وفي الأمال : « قال رجل لعبد الملك بن مروان . . . الخ » .

(٢) جمع ذَوَابَّة : وهي الجلدة المعلقة على آخرة الرجل ، وفي صباح الأعشى « ذوائب الرجاء » .

(٣) وسمه بسمه : علمه بعلامة . (٤) فحسبى . (٥) المراد جن على ، وأحدثت في ظلمته ،

يقال : أَلْوَى بِهِ : ذهب به ، وألوت به العنقاء : طارت به ، وألوى بما في الإناء : استأثر به .

(٦) الصائفة : غزوة الروم ، لأنهم كانوا يفزون صيفا لسكان البرد والثلج .

٣٦٥ - وفود زيد بن منية على معاوية

قدم زيد بن منية على معاوية من البصرة ، (وهو أخو يعلى بن منية^(١) صاحب
جمل عائشة ، ومتولى تلك الحروب ، ورأس أهل البصرة ، وكان عتبة بن أبي سفيان
قد تزوج ابنة يعلى بن منية) ، فلما دخل على معاوية شكاه إليه ديناً لزمه ، فقال : يا كعبُ
أعطه ثلاثين ألفاً ، فلما ولى قال : وليوم الجمل ثلاثين ألفاً أخرى ، ثم قال له : ائتني
بصهرك ، (يعنى عتبة ، وكان يومئذ عامل مصر) فقدم عليه مصر ، فقال :

« إني سرت إليك شهرين أخوضُ فيهما المتآلفَ ، ألبسُ أزديةَ الليل مرةً ،
وأخوضُ في لججِ السراب^(٢) أخرى ، موقراً^(٣) من حُسن الظن بك ، وهارباً من
دهرٍ فطم^(٤) ، ودين لزم^(٥) ، بعد غنى جدعنا به أنوفَ الحاسدين ، فلم أجد إلا إليك
مهرباً ، وعليك موعلاً » ، فقال عتبة : « مرحباً بك وأهلاً ، إن الدهر أعاركم غنى ،
وخاطبكم بنا ، ثم استرد ما أمكنه أخذه ، وقد أبقى لكم منا مالا ضيقة^(٦) معه ، وأنا
واضع يدي ويدك بيد الله » ، فأعطاه ستين ألفاً كما أعطاه معاوية .

(العقد الفريد ١ : ١١٨ ، وصبح الأعشى ١ : ٢٥٧)

(١) في صبح الأعشى والعقد «منبه» بالباء وهو تصحيف والصواب «منية» وهو اسم أمه ، واسم أبيه أمية ،
والتصحيف من تاريخ الكامل لابن الأثير . وكان يعلى عاملاً لعثمان رضي الله عنه على اليمن ، فلما ولي على رضي الله عنه
الخلافة عزله ، وولى على اليمن حبيد الله بن عباس ، فانصرف يعلى إلى مكة ومعه مال كثير ، وانضم إلى السيدة
عائشة رضي الله عنها في قتال علي في وقعة الجمل . (٢) المراب : ما تراه نصف النهار كأنه ماء .

(٣) محملاً من الوقر بالكسر : وهو الحمل الثقيل أو أعم ، وأوقر الدابة إيقاراً .

(٤) يروى بالفاء والقاف ، فطمه وقطمه : قطعه ، وضبط في صبح الأعشى بالقاف ، وبالطاء

المكسورة وصف من قطع كقرح : اشتهى اللحم أو غيره . (٥) وفي صبح الأعشى : « ودين أزم »
وأزم كضرب وقرح : عض بالفم كله شديداً . (٦) الضيقة : الفقر وسوء الحال ، ويفتح .

٣٦٦ - وفود ضرار بن حمزة الصدائي على معاوية

دخل ضرار بن حمزة الصدائي^(١) (وكان من خواص علي كرم الله وجهه) على معاوية وافداً ، فقال له : يا ضرار ، صف لي علياً ، قال : أعفني يا أمير المؤمنين ، قال : لتصفنه ، قال : « أما إذ لا بد من وصفه ، فكان والله بعيد المدى^(٢) ، شديد القوى ، يقول فضلاً ، ويحكم عدلاً ، يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل ووحشته ، وكان والله غزير العبرة ، طويل الفكرة ، يُقلب كفه ، ويخاطب نفسه ، يُعجبه من اللباس ما قصر ، ومن الطعام ما خشن ، كان فينا كأحدنا ، يُجيبنا إذا سألناه ، ويُنبئنا إذا استنبأناه ، ونحن مع تقربه إيانا ، وقربه منا ، لا نكاد نكلمه لهيئته ، ولا نبتدئه لعظمته ، يُعظم أهل الدين ، ويحب المساكين ؛ لا يطمع القوي في باطله ، ولا يبئس الضعيف من عدله . وأشهد لقد رأيت في بعض مواقفه ، وقد أرخى الليل سدوره^(٣) ، وغارت نجومه ، وقد مثل في محرابه قابضاً على لحيته ، يتململ تململ السليم^(٤) ، ويبكي بكاء الحزين ، ويقول : يا دنيا غرّيتي غيري ، ألي تعرّضت ، أم إلى تشوّفت ؟ هيهات هيهات ! قد باينتك ثلاثاً لارجعة فيها ، فعمرك قصير ، وخطرك^(٥) حقيق ، آه من قلة الزاد ، وبعث السفر ، ووحشة الطريق ! » فبكى معاوية وقال : رحم الله أبا الحسن ، فلقد كان كذلك ، فكيف حزنك عليه يا ضرار ؟ قال : حزن من ذبح واحداً في حجرها .

(الأمالي ٢ : ١٤٩ ، ومروج الذهب ٢ : ٤٧ ، وشرح ابن

أبي الحديد م ٤ : ص ٢٧٦ ، وزهر الآداب ١ : ٤٧)

(١) صداء كغراب : حى باليمين . (٢) الغاية . (٣) السدول : جمع سدل بالضم والسكمر ،

وهو الستر . (٤) السليم : الملدوغ ، وسمى بذلك تفاضلاً له بالسلامة ، كما تسمى البيداء مفازة :

تفاضلاً بالفوز . (٥) الخطر : القدر .

الوافدات على معاوية

٣٦٧ - وفود سودة بنت عمارة على معاوية

وَفَدَّتْ سَوْدَةُ بِنْتُ عِمَارَةَ بْنِ الْأَشْتَرِ الْهَمْدَانِيَّةَ ، عَلَى مَعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سَفْيَانَ ، فَاسْتَأْذَنَتْ عَلَيْهِ فَأَذِنَ لَهَا ، فَلَمَّا دَخَلَتْ عَلَيْهِ سَلَّمَتْ ، فَقَالَ لَهَا : كَيْفَ أَنْتِ يَا بِنْتَ الْأَشْتَرِ ؟
قَالَتْ : بِخَيْرٍ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ لَهَا : أَنْتِ الْقَائِلَةُ لِأَخِيكَ يَوْمَ صَفِينِ ؟ :

شَمَّرْتُ كَفَعِلَ أَبِيكَ يَا بِنْتَ عِمَارَةَ يَوْمَ الطَّعْنِ وَمُلْتَقَى الْأَفْرَانِ
وَأَنْصُرُ عَلِيًّا وَالْحُسَيْنَ وَرَهْطَهُ وَأَقْصِدُ لِهِنْدٍ وَأَبْنِهَا سِهَوَانَ
إِنَّ الْإِمَامَ أَخُو النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ عِلْمَ الْهَدَى وَمَنَارَةَ الْإِيمَانِ
فَقَدَّ الْجَيْشُ وَسِرَّ أَمَامَ لَوَائِهِ قُدُمًا بِأَبْيَضٍ صَارِمٍ وَسِنَانٍ^(١)

قالت : إى والله ، ما مثلى من رَغِبٍ عن الحق ، أو اعتذر بالكذب ، قال لها :
فَمَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ ؟ قَالَتْ : حُبُّ عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَاتِّبَاعُ الْحَقِّ ، قَالَ : فَوَاللَّهِ مَا أَرَى
عَلَيْكَ مِنْ أَثَرِ عَلَى شَيْئًا ، قَالَتْ : أَنْشُدْكَ اللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِعَادَةَ مَا مَضَى ، وَتَذْكَارَ
مَا قَدْ نَسِيَ ، قَالَ : هِيَ هَاتِ مَا مِثْلُ مَقَامِ أَخِيكَ يُنْسَى ، وَمَا لَقِيتُ مِنْ أَحَدٍ مَا لَقِيتُ
مِنْ قَوْمِكَ وَأَخِيكَ ، قَالَتْ : صَدَقْتَ وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، مَا كَانَ أَخِي خَفِيَّ الْمَقَامِ ،
ذَلِيلَ الْمَكَانِ ، وَلَكِنْ كَمَا قَالَتِ الْخَنَسَاءُ :

وَإِنَّ صَخْرًا لَتَأْتِيَهُ الْهَدَاةُ بِهِ كَأَنَّهُ عِلْمٌ فِي رَأْسِهِ نَارٌ^(٢)

(١) القدم : الشجاع ؛ وفى بلاغات النساء : « فقه الختوف وسر أمام لوائه » .

(٢) العلم : الجبل .

قال : صدقتِ ، لقد كان كذلك ، فقالت : مات الرأس وَبُتِرَ الذَّنْبُ ، وبالله
 أسأل أمير المؤمنين إغفائي مما استعفيتُ منه ، قال : قد فعلتُ ، فقولى حاجتك ،
 قالت : يا أمير المؤمنين ، إنك أصبحت للناس سيِّداً ، ولأموورهم مُتَقَلِّداً ، والله سَأَلْتُكَ
 عن أمرنا وما افترض عليك من حَقِّنا ، ولا تزال تُقدم علينا من يَنْهَضُ بِعِزِّكَ ، وَيَبْسُطُ
 سُلْطَانَكَ ، فيحصدُنا حِصَادَ السَّنْبُلِ ، ويدوسنا دِياسَ^(١) البقر ، وَيَسُومُنَا^(٢) الخسيسة ،
 وَيَسْلُبُنَا الْجَلِيلَةَ ، هذا ابن أُرْطَاةَ^(٣) قَدِيمَ بِلَادِي ، وقتل رجالي ، وأخذ مالي ، ولولا الطاعةُ
 لكان فينا عِزٌّ وَمَنْعَةٌ ، فإِذَا عَزَلْتَهُ عَنَّا فَشَكَرْنَاكَ ، وإِذَا لَا فَعَرَفْنَاكَ ، فقال معاوية :
 إِيَّايَ تَهْدُدِينِ بِقَوْمِكَ ؟ والله لقد هممت أن أُحْمِكَ على قَتَبِ^(٤) أشرس فأردك إليه ،
 يُنْفِذُ فِيكَ حِكْمَهُ ، فأطرقت تبكي ، ثم أنشأت تقول :

صَلَّى الْإِلَهُ عَلَى رُوحِ تَضَمَّنَهُ قَبْرٌ فَأَصْبَحَ فِيهِ الْعَدْلُ مَدْفُونًا
 قَدْ حَالَفَ الْحَقَّ لَا يَبْغِي بِهِ ثَمَنًا فَصَارَ بِالْحَقِّ وَالْإِيمَانِ مَقْرُونًا

قال : ومن ذلك ؟ قالت : على بن أبي طالب ، رحمه الله تعالى ، قال : وما صنع بك
 حتى صار عندك كذلك ؟ قالت : أتيتته يوماً في رجل ولاءَ صَدَقَاتِنَا ، فكان بيننا وبينه
 ما بين الغثِ^(٥) والسَّمِينِ ، فوجدته قائماً يُصَلِّي ، فانفتل من الصلاة ، ثم قال برأفةٍ

(١) الدوس والدياس والدياسة : الوطء بالرجل . (٢) يكلفنا . (٣) هو بسر بن أُرطاة ،
 وقيل ابن أبي أُرطاة ، وكان معاوية في أيام على سيره إلى الحجاز واليمن ليقتل شيعة على ويأخذ البيعة له ، فسار
 إلى المدينة ، ففعل بها أفعالا شنيعة ، وسار إلى اليمن ؛ وكان عليها عبيد الله بن العباس من قبل على ، فهرب
 عبيد الله فزها بسر ، وذبح عبد الرحمن وقتل ابني عبيد الله وهما صغيران بين يدي أمهما عائشة بنت عبد المطلب ؛
 فأصابها من ذلك حزن عظيم ؛ فأنشأت تقول :

يا من أحسن بنى الذين هما كالدرتين تشظى عنهما الصدف
 يا من أحسن بنى الذين هما سمى وقلبي ؛ فقلبي اليوم مختلف
 يا من أحسن بنى الذين هما مخ العظام ؛ فمخى اليوم مزدهف

(٤) القتب : الإكاف الصغير على قدر سنام البعير ، والمراد به هنا البعير لوصفه بالأشرس ففيه مجاز ؛
 أو الأشرس : الحشن الغليظ . (٥) الغث : المهزول .

وتمطف : ألك حاجة ؟ فأخبرته خبر الرجل ، فيسكى ثم رفع يديه إلى السماء ، فقال : اللهم إنك أنت الشاهد علىّ وعليهم ، إني لم أمرهم بظلم خذتك ، ولا ترك حقك ، ثم أخرج من جيبه قطعة من جراب ، فكتب فيها :

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ^(١) ، وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ، وَلَا تَعْتُوا ^(٢) فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ، بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ، إِذَا أَنَا كِتَابِي هَذَا فَاحْتَفِظْ بِمَا فِي يَدِكَ مِنْ عَمَلِنَا ، حَتَّى يَأْتِيَ مِنْ يَقْبِضُهُ مِنْكَ وَالسَّلَامُ . »

فأخذته منه والله ما خزّمه بخزّام ، ولا ختمه بختم ^(٣) فقرأته ، فقال معاوية : اكتبوا لها بالإنصاف لها ، والعدل عليها ، فقالت : ألي خاصة ، أم لقومى عامّة ؟ قال : وما أنتِ وغيركِ ؟ قالت : هي والله إذن الفحشاء واللوم ، إن لم يكن عدلا شاملا ، وإلا يسعنى ما يسع قومى ، قال : هيهات ! لمظكم ^(٤) ابن أبي طالب الجرأة على السلطان فبطيئا ما تفتطمون ، وغرّكم قوله :

فَلَوْ كُنْتُ بَوَّابًا عَلَى بَابِ جَنَّةٍ لَقُلْتُ لِهَمْدَانَ أَدْخُلُوا بِسَلَامٍ

وقوله :

نَادَيْتُ هَمْدَانَ وَالْأَبْوَابُ مُغْلَقَةٌ وَمِثْلُ هَمْدَانَ سَنَى فَتَحَةَ الْبَابِ ^(٥)

كَأَلْهِنْدُوَانِي لَمْ تُفَلِّ مَضَارِبُهُ وَجْهٌ جَمِيلٌ وَقَلْبٌ غَيْرٌ وَجَابٍ ^(٦)

اكتبوا لها ولقومها . (المقدم الفريد ١ : ١٢٩ ، وبلاغات النساء ص ٣٥)

(١) القسط : العدل . (٢) عشا يمشو عشا : أفسد . (٣) الخزام جمع خزيمة بالكسر ، وهي في الأصل : حلقة تجمل في أحد جانبي منخري البعير ، وخزيمة النمل : سير رقيق يخزم بين الشراكين . الختم : الطين يختم به على الشيء ، (والخاتم : ما يوضع على الطينة) . (٤) التلمظ : التذوق ، وأن يحرك الإنسان لسانه في فمه بعد الأكل ، ينتبع به بقية من الطعام بين أسنانه ، ويخرجه فيسمع به شفتيه ، واسم ما بقى في الفم اللماظة بالضم ، ويقال : لظ فلانا (بالتشديد) لماظته : أى شينا يتلمظه ، ولظنه من حقه شينا : أعطاه (والعامة تبدل الظاء ضادا) . (٥) سناه تسنية : سهله وفتحته . (٦) سيف هندرافى بكسر الهاء ، ويجوز ضمها إتباعا للدال منسرب إلى الهند ، ووجاب من وجب القلب وجيبا إذا خفق .

٣٦٨ - وفود أم سنان بنت خيشمة على معاوية

حبس مروان بن الحكم ، وهو والى المدينة ، في خلافة معاوية ، غلاما من بنى ليث في جناية جناها ، فأتته جدة الغلام ، وهي أم سنان بنت خَيْشَمَةَ^(١) اللذحيَّة ، فكلمته في الغلام فأغلظ لها مروان ، فخرجت إلى معاوية ، فدخلت عليه فانتسبت فعرَّفها ، فقال لها : مَرَحَبًا بك يا بنت خَيْشَمَةَ ، ما أقدمك أرضنا ، وقد عهدتُك تَشْتَمِينَنَا^(٢) وتَحْضِنُ عَلَيْنَا عدونا ؟ قالت : إن ابني عبد مناف أخلاقا طاهرة ، وأعلاما ظاهرة ، وأحلاما وافرة ، لا يجهلون بعد علم ، ولا يسهفون بعد حلم ، ولا ينتقمون بعد عفو ، وإن أولى الناس باتِّباع ما سنَّ آباؤهُ لآنت ، قال : صدقت ، نحن كذلك ، فكيف قولك ؟

عَزَبَ الرَّفَادُ ، قَمَقَمْتِي لَا تَرَفُدُ وَاللَّيْلُ يُضْدِرُّ بِالْمُومِ وَيُورِدُ^(٣)
 يَا آلَ مَذْحِجٍ ، لَا مُقَامَ ، فَشَمِّرُوا إِنَّ الْعَدُوَّ لِيَّالٍ أَحْمَدَ يَقْصِدُ
 هَذَا عَلَى كَالْمَلَالِ تَحْفَهُ وَسَطَ السَّمَاءِ مِنَ الْكَوَاكِبِ أَسْمَدُ^(٤)
 خَيْرُ الْخَلَائِقِ وَابْنُ عَمِّ مُحَمَّدٍ إِنَّ يَهْدِيكُمْ بِالنُّورِ مِنْهُ تَهْتَدُوا
 مَا زَالَ مُذْ شَهِدَ الْحُرُوبَ مُظْفَرًا وَالنَّصْرُ فَوْقَ لَوَائِهِ مَا يُفْقَدُ
 قالت : قد كان ذلك يا أمير المؤمنين ، وأرجو أن تكون لنا خلفا بعده ، فقال
 رجل من جلسائه : كيف يا أمير المؤمنين ؟ وهي القائلة :

إِنَّمَا هَلَكْتَ أبا الحسين فلم تزل بالحق تُعرِّف هاديا مهديا
 فاذهب ، عليك صلاة ربك مادعت فوق الغصون حمامة قمريا^(٥)

(١) في صبح الأعشى « جشمية » ، وهو تحريف : وتحريره : ما ذكرنا . (٢) وفي بلاغات النساء : « تشنين قربي » أي تبغضين . (٣) عزب : بعد . (٤) سعد النجوم عشرة : سعد بلع (بضم ففتح) وسعد الأخبية ، وسعد الذابح ، وسعد السمود ، وهذه الأربعة من منازل القمر ، وسعد ناشرة ، وسعد الملك ، وسعد البهام ككتتاب ، وسعد الهمام كشجاع ، وسعد البارح ، وسعد مضر . وهذه الستة ليست من المنازل . (٥) ضرب من الحمام والجمع قارى .

قد كنت بعد محمد خلفاً كما أوصى إليك بنا ، فكنت وفيّاً
واليوم لا خلفٌ يوَمِّلُ بعده هيهات نأملُ بعده إنسيّاً

قالت : يا أمير المؤمنين لسان نطق ، وقول صدق ، واثن تحقق فيك ما ظننا ،
لحظك الأوفر ، وألله ما أورثك الشنآن^(١) في قلوب المسلمين إلا هؤلاء ، فأدحض
مقاتلهم ، وأبعد منزلتهم ، فإنك إن فعلت ذلك تزدد من الله قرباً ، ومن المؤمنين
حباً ، قال : وإنك لتقولين ذلك ؟ قالت : ياسبحان الله ، والله ما مثلك من مدح
يباطل ، ولا اعتذر إليه بكذب ، وإنك لتعلم ذلك من رأينا ، وضمير قلوبنا ، كان والله
على أحب إلينا منك ، وأنت أحب إلينا من غيرك قال : بمن ؟ قالت : من مروان
ابن الحكم وسعيد بن العاص . قال : وبم استحققت ذلك عندك ؟ قالت بسعة حملك ،
وكريم عقوك ، قال : وإنهما يطمئنان في ذلك ؟ قالت : هما والله لك من الرأي على مثل
ما كنت عليه لعثمان بن عفان رحمه الله تعالى^(٢) . قال : والله لقد قاربت ، فما حاجتك ؟
قالت : يا أمير المؤمنين إن مروان تبذرك^(٣) بالمدينة تبذرك من لا يريد منها البراح ،
لا يحكم بعدل . ولا يقضي بسنة ، يتتبع عثرات المسلمين ، ويكشف عورات المؤمنين ،
حبس ابن ابني ، فأتيته ، فقال : كيت وكيت ، فألقمته أحسن من الحجر ، وألقمته
أمر من الصبر ، ثم رجعت إلى نفسي باللائمة ، وقلت : لم لا أصرف ذلك إلى من هو
أولى بالعموم منه ، فأتيتك يا أمير المؤمنين لتكون في أمري ناظراً ، وعليه ممدياً^(٤) ،
قال : صدقت ، لا أسألك عن ذنبه ولا عن القيام بحجته ، اكتبوا لها بإطلاقه . قالت :
يا أمير المؤمنين ، وأنى لي بالرجعة ، وقد نفذ زادي ، وكلت راحتي ، فأمر لها براحة
موظاة ، وخمسة آلاف درهم .

(العقد الفريد ١ : ١٣١ ، وصحيح الأعمش ١ : ٢٥٧ ، وبلاغات النساء ص ٦٧)

(١) البغض . (٢) تريد أنهما يأملان الخلافة بعدك كما كنت تأملها بعد عثمان . (٣) تبذرك
به : أقام . (٤) أهداه عليه : نصره ، وأعاناه ، وقواه .

٣٦٩ - وفود بكاره الهلالية على معاوية

استأذنت بكاره الهلالية على معاوية بن أبي سفيان ، فأذن لها وهو يومئذ بالمدينة ،
فدخلت عليه ، وكانت امرأة قد أسنت ، وعشى^(١) بصرها ، وضعت قوتها ، ترعش
بين خادمين لها ، فسلمت وجلست فردا عليها معاوية السلام ، وقال : كيف أنت
يا خالة ؟ فقالت : بخير يا أمير المؤمنين ، قال : غيرك الدهر ، قالت : كذلك هو
ذو غير^(٢) ، من عاش كبير ، ومن مات قير ، قال عمرو بن العاص : هي والله القائلة
يا أمير المؤمنين :

يا زيدُ دونك فأحتفر من دارنا سيفا حُسامًا في التراب دفينًا
قد كنتُ أذخره ليوم كربيه فاليوم أبرزه الزمان مَصُونًا
قال مروان : وهي والله القائلة يا أمير المؤمنين :

أرى ابن همدٍ للخلافة مالكا هيهات ، ذاك - وإن أراد - بعيدُ
مَننتك نفسك في الخلاء ضلالة أغراك عمرو للشقا وسعيدُ
قال سعيد بن العاص هي والله القائلة :

قد كنت أطمع أن أموت ولا أرى فوق المنابر من أمية خاطبا
فألهُ آخر مُدَّتني فتطاوت حتى رأيت من الزمان عجائبا
في كل يوم للزمان خطيبهم بين الجميع لآل أحمد عابئا

ثم سكت القوم ، فقالت بكاره : نبحتني كلابك يا أمير المؤمنين واعتورتني ،
فقصُرِ مَجْنِي^(٣) ، وكثرَ عَجْبِي ، وَعَشِي بَصْرِي ، وَأَنَا وَاللَّهِ قَائِلَةٌ مَا قَالُوا ، لا أدفعُ ذلك
بتكذيب ، وما خفي عليك مني أكثر ، فامضِ لشأنك ، فلا خيرَ في العيش بعد

(١) ضعف . (٢) ذو أحداث . (٣) تناوبتني وتداولتني ، والمجنى : اللصا المعطوفة الرأس .

أمير المؤمنين ، فضحك معاوية وقال : ليس يمنعنا ذلك من برك ، اذكرى حاجتك ،
قالت : أما الآن فلا .

وقيل : إنه قد قضى حوائجها وردّها إلى بلادها .

(العقد الفريد ١ : ١٣٠ / ، وبلاغات النساء ص ٣٩)

٣٧٠ - وفود أروى بنت الحارث بن عبد المطلب على معاوية

دخلت أروى بنت الحارث بن عبد المطلب على معاوية وهي عجوز كبير ، فلما رآها
معاوية قال : مرحباً بك وأهلاً يا عمّة ، فكيف كنت بعدنا ؟ فقالت : « يا ابن أخي ،
لقد كفرت يدّ النعمة ، وأسأت لابن عمك الصّحبة ، وتسميت بغير اسمك ، وأخذت
غير حقك ، من غير بلاء كان منك ولا من آبائك ، ولا سابقة في الإسلام ، ولقد كفرتم
بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، فأتعسّ الله منكم الجُدود^(١) ، وأضرع^(٢) منكم
الخدود ، وردّ الحق إلى أهله ، ولو كره المشركون ، وكانت كلمتنا هي العليا ، ونبينا
صلى الله عليه وسلم هو المنصور ، فوليتم علينا من بعده - وتحتجون بقرابتكم من رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، أقرب إليه منكم ، وأولى بهذا الأمر - فكنا فيكم بمنزلة بنى إسرائيل
في آل فرعون ، وكان على بن أبي طالب رحمه الله بعد نبينا صلى الله عليه وسلّم بمنزلة
هرون من موسى^(٣) ، فغايّدنا الجنة ، وغايّكم النار » .

فقال لها عمرو بن العاص : كفى أيتها العجوز الضالة ، وأقصري من قولك ، وغصّي

(١) جمع جد : وهو الحظ . (٢) أذل ، وفي بلاغات النساء « وأصر » . (٣) ورواية
بلاغات النساء : « فكنا أهل البيت أمظم الناس في الدين حظا ، وفصيها وقدرنا ، حتى قبض الله نبيه صلى
الله عليه وسلم ، مغفورا ذنبه ، مرفوعا درجته ، شريفا عند الله مرضيا ، فصرنا أهل البيت منكم بمنزلة قوم
موسى من آل فرعون ، يذبحون أبناءهم ، ويستحيون نساءهم ، وصار ابن عم سيد المرسلين فيكم بعد نبينا
بمنزلة هرون من موسى حيث يقول : « يَا بَنَ أُمَّمَ إِنَّ الْفَوْمَ اسْتَضَعْفُونِي ، وَكَادُوا يَقْتُلُونِي »
ولم يجمع بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم شمل ، ولم يسهل لنا وعر .

من طرفك، قالت : ومن أنت ، لا أم لك ؟ قال : عمرو بن العاص ، قالت : يا ابن اللخناء^(١) النابغة تتكلم ، وأمك كانت أشهر امرأة تغنى بمكة ، وآخذهن لأجرة ! اربع على ظلمك ، واعن بشأن نفسك ، فوالله ما أنت من قريش في اللباب من حسبها ، ولا كريم منصبيها ، ولقد ادعاك خمسة^(٢) نفر من قريش ، كلهم يزعم أنه أبوك ، فسئلت أمك عنهم ، فقالت : كلهم أتاني ، فانظروا أشبههم به ، فألحقوه به ، ففلب عليك شبه العاص ابن وائل ، فليحت به ، ولقد رأيت أمك أيام منى بمكة مع كل عبد عاهر^(٣) ، فأتم بهم فإنك بهم أشبه .

فقال مروان : كفى أيتها العجوز ، وأقصرى لما جئت له ، سأخ بصرك مع ذهاب عقلك ، فلا تجوز شهادتك ، فقالت : وأنت أيضاً يا ابن الزرقاء تتكلم ؟ فوالله لأنت إلى سفيان بن الحارث بن كلدة أشبه منك بالحكم ، وإنك لشبهه في زُرقة عينيك ، وحجرة شعرك ، مع قصر قامته ، وظاهر دمامته^(٤) ، ولقد رأيت الحكم مآذ^(٥) القامة ، ظاهر الإمة^(٦) ، سببط^(٧) الشعر ، وما بيدكما قرابة إلا كقرابة الفرس الضامر من الأتان المقرب^(٨) ، فاسأل أمك تخبرك بشأن أبيك إن صدقت ، ثم التفتت إلى معاوية ، فقالت : والله ما جرأ على هؤلاء غيرك ، وإن أمك للقاتلة يوم أحد في قتل حمزة رحمة الله عليه :
نحن جزينما كم بيوم بدرٍ والحربُ بعد الحرب ذاتُ سَعْرٍ^(٩)
ما كان عن عتبة لي من صبرٍ أبي وعمي وأخي وصهري^(١٠)

(١) رجل ألحن وأمة اللحناء : لم يحننا ، ولحن السقاء ، وغيره كفرح : أنتن ، والجوزة فسدت ، ومن شتم العرب « يابن اللخناء » كأنهم يقولون يادفئ الأصل ، أو يائيم الأم ، والنابغة أم عمرو ، وقد تقدمت - انظر ص ٢٥ . (٢) وفي بلاغات النساء « ستة » . (٣) فاجر . (٤) الدمامة : التبيح . (٥) مبتدأ . (٦) الإمة بالسكرويضم : الشأن والنعمة والهيفة . (٧) طويلة . (٨) الأتان : الحمارة ، والمقرب التي قرب ولادها فيكون بطنها كبيراً . (٩) السعْر بالفتح مصدر سعْر الحرب : أي أوقدها ، وبالضم : الجنون . (١٠) قتلوا أربعتهم يوم بدر : أبوها عتبة بن ربيعة بن عبد شمس - قيل اشترك في قتله علي ، وحمزة ، وعبيدة بن الحرث بن عبد المطلب - وعمها شيبة بن ربيعة - قتله حمزة - وأخوها الوليد بن عتبة - قتله علي - وابن زوجها حنظلة بن أبي سفيان - وليست هند أمه ، قيل اشترك في قتله حمزة ، وعلي ، وزيد بن حارثة .

شَفَيْتَ (وَخَشِي) غَلِيلَ صَدْرِي شَفَيْتَ نَفْسِي وَقَضَيْتَ نَذْرِي (١)
فَشُكْرُ وَخَشِي عَلَى دَهْرِي حَتَّى تَرَمَّ أُعْطِي فِي قَبْرِي (٢)

فأجبتها :

يَابَتْ جِبَارِ عَظِيمِ الْكُفْرِ خَزَيْتِ فِي بَدْرِ وَغَيْرِ بَدْرِ
صَبَّحَكَ اللَّهُ قُبَيْلَ الْفَجْرِ بِالْمَاشِيِّينَ الطَّوَالَ الزُّهْرِ (٣)
بِكُلِّ قَطَاعِ حُسَامٍ يَفْرِي حَمَزَةَ لَيْثِي ، وَعَلَى صَقْرِي

فقال معاوية لمروان وعمرو : ويلكما ! أنتماء ضمتاني لها ، وأسمة تاني ما أكره ،
ثم قال لها : يا عمة أقصدي قصد حاجتك ، ودعي عنك أساطير للنساء ، قالت :
تأمر لي بألني دينار ، وألني دينار ، وألني دينار ، قال : ما تصنعين يا عمة بألني دينار ؟
قالت : أشتري بها عينا خر خارة (٤) في أرض خوارة (٥) ، تكون لولد الحارث بن
عبد المطلب ، قال : نعم الموضع وضعتها ، فما تصنعين بألني دينار ؟ قالت : أزوج بها
فتيان عبد المطلب من أكفائهم ، قال : نعم الموضع وضعتها ، فما تصنعين بألني دينار ؟
قالت : أستعين بها على عسر المدينة ، وزيارة بيت الله الحرام ، قال : نعم الموضع
وضعتها ، هي لك نعم وكرامة (٦) ، ثم قال : أما والله لو كان علي ما أمر لك بها ،
قالت : صدقت ، إن عليا أدى الأمانة ، وعمل بأمر الله ، وأخذ به ، وأنت ضيعت
أمانتك ، وخنت الله في ماله ، فأعطيت مال الله من لا يستحقه ، وقد فرض الله في كتابه
الحقوق لأهلها وبينها ، فلم تأخذ بها ، ودعانا (أي علي) إلى أخذ حقتنا ، الذي فرض

(١) وخشي : غلام جبير بن مطعم قاتل حمزة يوم أحد . (٢) رم العظم كضرب وأرم : بل فهو رميم .

(٣) الزهر : الحسان البيض الوجوه . (٤) الخرخار : الماء الجاري ، أي عين ماء جارية .

(٥) المراد أرض سهلة تصلح للزراعة ، من قولهم : خوار العنان ، أي سهل المعطف ، كثير الجري .

(٦) يقال : نعم عين ونعمة ونعام ونعيم بفتحهن ، ونعمي ونعامي ونعام ونعم ونعمة بضمهن ، ونعمة

ونعام بكسرهما : أي أفعل ذلك إنعاما لعينك وإكراما .

الله لنا فشفل بجر بك عن وضع الأمور مواضعها ، وما سألتك من مالك شيئا فتعمن به ،
 إنما سألتك من حقنا ، ولا نرى أخذ شيء غير حقنا ، أتذكر علينا ؟ فض الله فاك^(١) ،
 وأجهد بلاءك ، ثم علا بكاؤها وجعلت تندب علينا ، فأمر لها بستة آلاف دينار ، وقال
 لها : يا عمه : أنفق هذه فيما تحبين ، فإذا احتجبت فأكتبني إلى ابن أخيك يحنن صدك^(٢)
 ومعونتك ، إن شاء الله . (العقد الفريد ١ : ١٣٤ ، بلاغات النساء ص ٣٢)

٣٧١ - أم البراء بنت صفوان ومعاوية

استأذنت أم البراء بنت صفوان على معاوية فأذن لها ، فدخلت عليه وعليها ثلاثة
 دروع^(٣) (برود) تسحبها ذراعا ، قد لائت^(٤) على رأسها كوزا كالمنسف ،
 فسلمت وجلست ، فقال لها معاوية : كيف أنت يا ابنة صفوان ؟ قالت : بخير
 يا أمير المؤمنين ، قال : كيف حالك ؟ قالت ضمعت بعد جلد ، وكسيت بعد نشاط ،
 قال : شتان بينك اليوم وحين تقواين :

يا زيدُ دونك صارما ذا روثي عَضِبَ المَهْزَةَ لَيْسَ بِالخَوَارِ^(٥)
 أُسْرِجُ جَوادِكَ مُسْرِعًا وَمُسْمِرًا للحرب غير مُعَرِّدٍ لِفِرَارِ^(٦)
 أُجِبُ الإِمَامَ وَذُبُّ نَحْتِ لَوَائِهِ وَالقَّ لِلقَدْوِ بِبِصَارِمِ بَقَارِ
 يَا لَيْتَنِي أَصْبَحْتُ لَسْتُ قَمِيدَةً فَأَذُبُّ عَنْهُ عَسَاكِرَ الفُجَارِ

قالت : قد كان ذلك ، ومثلك من عفا ، والله تعالى يقول : « عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ ،
 وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ » قال : هيهات ، أما والله لو عاد لعدت ، وإكفنه

(١) تدعو عليه : أى نثر الله أسنانك . (٢) الصغد : العطاء . (٣) درع المرأة : قيصها
 (مذكر) ودرع الحديد مؤنث وقد يذكر . (٤) اللوث : عصب العمامة ، والكور : لوث العمامة
 وإدارتها ، والمنسف : ما ينفض به الحب ، شيء طويل منصوب الصدر أعلاه مرتفع . (٥) العضب :
 السيف القاطع ، والخوار من خار : إذا ضعف وكل . (٦) عرد تعريدا ، وعرد كسمع : هرب .

اخْتَرِمَ^(١) مِنْكَ ، قَالَتْ : أَجَلٌ ، وَاللَّهِ إِنِّي لَعَلِي بَيْتَةٌ مِنْ رَبِّي ، وَهَدَى مِنْ أَمْرِي ،
قَالَ : كَيْفَ كَانَ قَوْلُكَ حِينَ قَتَلْتَهُ ؟ قَالَتْ : أَنْسَيْتُهُ ، قَالَ بَعْضُ جَلَسَائِهِ : هُوَ وَاللَّهِ
حِينَ تَقُولُ :

يَا لَرَّجَالٍ لِعُظْمِ هَوْلٍ مُصِيبَةٍ فَدَحَتْ ، فَلَيْسَ مُصَابُهَُا بِالْحَائِلِ^(٢)
الشمس كاسفةً ألقِدِ إمامنا خير الخلائق والإمام العادل
يا خيرَ مَنْ رَكِبَ المَطِيَّ وَمَنْ مَشَى فوق الترابِ الخفيفِ أو ناعِلِ
حاشا النبيَّ لقد هدَدت قُوءاءنا فالحق أصبح خاضعاً للباطل^(٣)

فَقَالَ مَعَاوِيَةَ : قَاتِلِكِ اللهُ ! فَمَا تَرَكْتِ مَقَالًا لِقَائِلِ ، إِذْ كَرَى حَاجَتِكَ ، قَالَتْ :
أَمَا الْآنَ فَلَآ ، وَقَامَتْ فَعَثَرَتْ ، فَقَالَتْ : تَمَسَّ شَأْنِي عَلَى^(٤) ، فَقَالَ : زَعَمْتِ أَنْ لَأَ ،
قَالَتْ هُوَ كَمَا عَلِمْتَ ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ بَعَثَ إِلَيْهَا بِجَائِزَةٍ ، وَقَالَ : إِذَا ضَيَعَتْ الْحِلْمُ
فَمَنْ يَحْفَظُهُ ؟
(صبح الأعمى ١ : ٢٦١ بلاغات للنساء ص ٧٨)

٣٧٢ - دارمية الحجونية ومعاوية

وَحَبَّجَ مَعَاوِيَةَ سَنَةً مِنْ سِنِّيهِ ، فَسَأَلَ عَنْ امْرَأَةٍ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ كَانَتْ تَنْزِلُ
بِالْحَجُونَ^(٥) ، يُقَالُ لَهَا دَارِمِيَّةُ الْحَجُونِيَّةُ ، وَكَانَتْ سُودَاءَ كَثِيرَةَ اللَّحْمِ ، فَأَخْبَرَ بِسَلَامَتِهَا ،
فَبَعَثَ إِلَيْهَا فُجِيءًا بِهَا ، فَقَالَ : مَا حَالُكَ يَا بِنْتَ حَامٍ ؟ فَقَالَتْ : لَسْتُ لِحَامٍ إِنْ عِبْتَنِي ،
إِنَّمَا أَنَا امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ ، ثُمَّ مِنْ بَنِي أَبِيكَ ، قَالَ : مَدَقْتِ ، أَنْتِ بِنْتُ لِمَ بَعَثْتِ
إِلَيْكَ ؟ قَالَتْ : لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ ، قَالَ : بَعَثْتِ إِلَيْكَ لِأَسْأَلَكَ : عَلَامَ أَحْبَبْتِ عَلِيًّا
وَأَبْغَضْتِنِي ، وَوَالَيْتِهِ وَعَادِيَتِنِي ؟ قَالَتْ : أَوْ تُعْفِينِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ قَالَ : لَا أُعْفِيكَ ،

(١) هلك . (٢) المتحول : المتغير . (٣) جمع القوة قوى ، وإنما قالت قواء بالمد للضرورة .

(٤) أى مبنضه . (٥) الحجون : جبل بمحلة مكة .

قالت : « أما إذ أبيت فإني أحببتُ علياً على عدله في الرعية ، وقسمه بالسوية ، وأبفضتكَ على قتال من هو أولى منك بالأمر ، وطلبتكَ^(١) ما ليس لك بحق ؛ وواليتُ علياً على ما عقده رسول الله صلى الله عليه وسلم من الولاء^(٢) ، وعلى حبة المساكين ، وإعظامه لأهل الدين ؛ وعاديتك على سفكك الدماء ، وشقك العصا ، وجورك في القضاء ، وحكك بالهوى »

قال : فلذلك انتفخ بطنك ، وعظمُ ثدياك ، ورَبَّتْ عَجِيْزَتِكَ ، قالت : يا هذا بهند^(٣) والله كان يُضربُ المثل في ذلك لآبي ، قال معاوية : يا هذه اربعي^(٤) ، فإننا لم نقل إلا خيراً ، إنه إذا انتفخ بطنُ المرأة تمَّ خنقُ ولدها ، وإذا عظمُ ثدياها ترَوَّى^(٥) رضيعها وإذا عظمت عَجِيْزَتُهَا رَزُنَ مجاسها ، فرجعت وسكنتُ ، فقال لها : يا هذه هل رأيت علياً ؟ قالت : إى والله لقد رأيتهُ ، قال : فكيف رأيتهُ ؟ قالت : رأيتهُ والله لم يفتنهُ الملكُ الذي فتنتك ، ولم تشغله النعمة التي شغلتك ، قال : فهل سمعتِ كلامه ؟ قالت : نعم والله فكان يجلو القلوب من العمى ، كما يجلو الزيتُ الطَّسْتُ من الصدأ ، قال . صدقت ، فهل لك من حاجة ؟ قالت . أو تفعل إذا سألتك ؟ قال . نعم ، قالت . تعطيني مائة ناقة حراء فيها فحلها وراعياها ، قال : تصنعين بها ماذا ؟ قالت : أغذو بالبانها الصغار ، وأستحيي بها الكبار ، وأكتسب بها المسك ، وأصلح بها بين العشائر ، قال : فإن أعطيتك ذلك ، فهل أحلّ عندك محلّ عليّ بن أبي طالب ؟ قالت : ما ولا كصداء^(٦) ،

(١) الطلبة : الطلب . (٢) تشير إلى قوله : « اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه » .

(٣) هي أمه هند بنت عتبة . (٤) ربع : وقف وانتظر وتحبس . (٥) ارتوى .

(٦) صداء : عين لم يكن عندهم ماء أعذب من مائها . ويروى عن ابنة هانيء بن قبيصة : أنه لما قتل لقيط بن زرارة (من دارم) تزوجها رجل من أهلها ، فكان لا يزال يراها تذكر لقيطا ، فقال لها ذات مرة : ما استحسنيت من لقيط ؟ قالت : كل أموره حسن ، ولكنني أحدثك أنه خرج إلى الصيد مرة وقد ابتنى بي ، فرجع إلى ، وبقيصه نضح من دماء صيد ، والمسك يذوق من أعطافه ، ورائحة الشراب من فيه ، فضمني ضمة ، وشمنى شمة ، فليتني مت ثمة ، ففعل زوجها مثل ذلك ثم ضمها ، وقال لها : أين أنا من لقيط ؟ قالت : ما ولا كصداء .

وَمَرَعِي وَلَا كَالسَّعْدَانِ^(١) ، وَفَتَى وَلَا كَالِكَلِيبِ^(٢) ، سُبْحَانَ اللَّهِ أَوْ دُونَهُ ، فَأَنْشَأَ مَعَاوِيَةَ يَقُولُ :

إِذَا لَمْ أَعُدْ بِالْحِلْمِ مِنْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي بَعْدِي يُؤَمِّلُ لِلْحِلْمِ
خُدَيْيَهَا هَنِيئًا ، رَأَى كَرِي فَعَلَ مَا جِدَّ جَزَاكَ عَلَى حَرْبِ الْعِدَاوَةِ بِالسَّلْمِ
ثُمَّ قَالَ : أَمَا وَاللَّهِ لَوْ كَانَتْ عَلَيَّ حَيًّا مَا أَعْطَاكَ مِنْهَا شَيْئًا ، قَالَتْ : لَا وَاللَّهِ
وَلَا وَبَرَّةٍ وَاحِدَةً مِنْ مَالِ الْمُسْلِمِينَ .

(العقد الفريد ١ : ١٣٢ وصحيح الأعمش ١ : ٢٥٩ وبلغات النساء ص ٦٧)

٣٧٣ - شداد بن أوس ومعاوية

وَأَمْرَ مَعَاوِيَةَ شَدَّادِ بْنِ أَوْسِ الطَّائِيِّ أَنْ يَدْنُقَ عَلَيًّا ، فَقَامَ فَقَالَ :
« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي افْتَرَضَ طَاعَتَهُ عَلَى عِبَادِهِ ، وَجَعَلَ رِضَاهُ عِنْدَ أَهْلِ التَّقْوَى آثَرَ مِنْ
رِضَا خَلْقِهِ ، عَلَى ذَلِكَ مَضَى أَوْلَاهُمْ ، وَعَلَيْهِ يَمُضِي آخِرُهُمْ ، أَيُّهَا النَّاسُ : إِنْ الْآخِرَةُ
وَعَدُّ صَادِقٍ ، يَحْكُمُ فِيهَا مَلِكٌ قَادِرٌ ، وَإِنْ الدُّنْيَا عَرَضٌ حَاضِرٌ ، يَأْكُلُ مِنْهَا الْبَرُّ
وَالفَاجِرُ ، وَإِنْ السَّامِعُ الْمُطِيعُ لِلَّهِ لَاحِجَّةٌ عَلَيْهِ ، وَإِنْ السَّامِعُ الْعَاصِيَّ لِلَّهِ لَاحِجَّةٌ لَهُ .
وَإِنْ اللَّهُ إِذَا أَرَادَ بِالْعِبَادِ صِلَاحًا عَمِلَ عَلَيْهِمْ صُلْحًا وَهُمْ ، وَقَضَى بَيْنَهُمْ فِقْهًا وَهُمْ ، وَمَلَكَ
الْمَالِ سُمْحًا وَهُمْ ، وَإِذَا أَرَادَ بِهِمْ شَرًّا ، عَمِلَ عَلَيْهِمْ سُفْهًا وَهُمْ ، وَقَضَى فِيهِمْ جَهْلًا وَهُمْ ،

(١) السعدان : نبت ذو شوك ، وهو من أفضل مراعى الإبل ، ولا تحسن على نبت حسنها عليه ، وأوله من قال ذلك الخنساء بنت عمرو بن الشريد ، وذلك أنها أقبلت من الموسم ؛ فوجدت الناس مجتمعين على هند بنت عتبة بن ربيعة ؛ فخرجت عنها وهي تنشدهم مرثى في أهل بيتها ؛ فلما دنت منها قالت : على من تبكين ؟ قالت : أبسكى سادة مضوا ؛ قالت : فأشدني بعض ما قلت ؛ فأشدتها ، فقالت الخنساء : مرعى ولا كالسعدان ثم أنشدتها مارثت به أخاها صخرًا . وقيل إن المثل لامرأة من طيباء كان تزوجها امرؤ القيس بن حجر الكندي وكان مفركا (بفتح الراء تيفضه النساء) فقال لها : أين أنا من زوجك الأول ؟ فقالت : مرعى ولا كالسعدان . (٢) قاله متمم بن نويرة في أخيه مالك لما قتل في الردة . والأمثال الثلاثة تضرب للشئ يفضل على أقرانه .

وملك المال مُبْخَلَاؤُهُمْ ، وَإِنْ مِنْ صَلَاحِ الْوَلَاةِ أَنْ يَصْلُجَ قُرْنَاؤُهَا ، وَنَصَحَ لَكَ يَا مَعَاوِيَةَ مَنْ أَسْخَطَكَ بِالْحَقِّ ، وَغَشَّكَ مِنْ أَرْضَاكَ بِالْبَاطِلِ .

قال : اجلس رحمك الله قد أمرنا لك بمال ، قل : « إن كان من مالك الذي تعهدت بجمعه مخافة تبعته ، فأصبته حلالا ، وأنفقته إفضالا ، فنعم ، وإن كان مما شارك فيه المسلمون ، فاحتجنته^(١) دونهم ، فأصبته افترافا ، وأنفقته إسرافا ، فإن الله يقول في كتابه : « إِنَّ الْمُبْدِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ » .

(البيان والتبيين ٣ : ٢٢٠)

* * *

وروى أن معاوية قال له : « يا شداد ، أنا أفضل ، أم علي ؟ وأيننا أحب إليك ؟ » ، فقال : « عليّ أقدم هجرةً ، وأكثر مع رسول الله إلى الخير سابقهً ، وأشجع منك قلبا ، وأسلم منك نفسا ، وأما الحب ، فقد مضى عليّ ، فأنت اليوم عند الناس أرجى منه » .

(ميون الأخبار م ٢ : ص ٢١١)

٣٧٤ - معاوية ورجل من أهل سبأ

وقال معاوية لرجل من أهل سبأ : « ما كان أجمل قومك ، حين ملكوا عليهم امرأة » ، فقال : « بل قومك أجمل ، قالوا حين دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحق ، وأراهم البيئات : « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنْ السَّمَاءِ أَوْ اثْنِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » ، ألا قالوا : « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَاهْدِنَا لَهُ ! » .

(البيان والتبيين ٣ : ٢٢٠)

(١) احتجن المال : ضمه واحتواه .

٣٧٥ - حديث معاوية مع عبد الله بن عبد الحاجر بن عبد المدان

سأل معاوية بعد الاستقامة^(١) عبد الله بن عبد الحاجر بن عبد المدان فقال له :

كيف علمك بقومك ؟ قال : كعلمي بنفسي ، قال : ما تقول في مراد ؟ قال : مذكر الأوتار ، وحماة الذمار ، ومحرزوا الخطار^(٢) ، قال : فما تقول في النخم ؟ قال : مانعو السرب^(٣) ، ومُسعِرُو الحرب ، وكاشِفُو الكرب ، قال : وما تقول في بني الحرث ؟ ابن كعب ؟ قال : فرأجو اللسكك ، وفرسان العراك ، ولزأز الضسكك ، تراك^(٤) تراك ، قال : فما تقول في سغد المشيرة ؟ قال : مانعو الضيم ، وبأنو الرميم ، وشافو الغيم^(٥) قال : ما تقول في جعفي ؟ قال : فرسان الصباح^(٦) ، ومعلمو الرماح ، ومُبارِزو الرياح ، قال : ما تقول في بني زبيد قال : كماء أنجاد^(٧) ، سادات أمجاد ، وقر عند الزياد^(٨) صبر عند الطراد ، قال : ما تقول في جنب ؟ قال : كفاة يمعون عن الحریم ، ويفرجون عن الكظيم^(٩) ، قال : فما تقول في صداء ؟ قال : سمام الأعداء ،

(١) أى بعد استقامة الأمر له : عام الجماعة . (٢) جميع وتر : وهو الثار ؛ والذمار : ما يلزمك حفظه وحمايته ؛ والخطار : جمع خطر بالتحريك ، وهو السبق يتراهن عليه . (٣) السرب : مارص من المال . (٤) اللسكك : الزحام ؛ ومثلها الضسكك ؛ ولززه كرده : شده وألصقه واللزاز ككتاب : خشبة يلز بها الباب ؛ وفلان لزاز العظام : أى يلز بها ويقرن ليدلها ومنه قول لبيد :

إننا إذا التقت المجامع لم يزل منا لزاز عظيمة جشسامها

وتراك : اسم فعل بمعنى اترك ، والأمر هنا للتعظيم ، أى دِع هؤلاء ولا تتحدث بشأنهم ، فإنهم فى أسمى مكان . (٥) الریم : الدرجة والفضل والزيادة ، والغيم : العطش . (٦) الغارة .

(٧) ضبط فى الأمالى بفتح الزاى ، وهو خطأ ، زبيد كزبير : بطن من مذحج ، رهط عمرو بن معديكرب وكأمير : بلد باليمن ، وكناة جمع كى : وهو الشجاع أو لابس السلاح ، والأنجاد جمع نجد كشهم وكشف ورجل : الشجاع الماضى فيما يعجز غيره . (٨) قر جمع وقور ، وصبر جمع صبور ، والزياد والذود : اندفع . (٩) الكظيم والمكظوم : المكروب .

وَمَسَاعِيرُ الْمَيْجَاءِ^(١) ، قال : فما تقول في رَهَاءٍ ؟ قال : يَنْهِنُونَ^(٢) عادية الفوارس ،
وَيَرِدُونَ الموتَ وَرَدَّ الْخَوَامِسَ^(٣) قال : أنت أعلم بقومك .

(الأمالي ١ : ١٦٠)

٣٧٦ - حديث الخيار بن أوفى النهدي مع معاوية

دخل الخيار بن أوفى النهدي على معاوية ، فقال له : يا خيار كيف تجدك ،
وما صنع بك الدهر ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، صدع الدهر قناتي ، وأثكلني لداتي^(٤)
وأوهى عمادي ، وشيب سوادى ، وأسرع فى تِلَادِي^(٥) ، ولقد عشتُ زمناً أُضِي
الكَعَابَ^(٦) ، وأسُرَّ الأصحاب ، وأُجِيدُ الضَّرَابَ^(٧) ، فبان ذلك عني ، ودنا الموت مني ،
وأنشأ يقول :

غَبَرْتُ زَمَانًا يَرْتَبُ الْقَرْنَ جَانِي كَأَنِّي شَتِيمٌ بَاسِلُ الْقَلْبِ خَادِرُ^(٨)
يَخَافُ عِدْوِي صَوْلَتِي وَيَهَابُنِي وَيُكْرِمُنِي قِرْنِي وَجَارِي الْجَاوِرُ
وَتُضِي الْكَعَابَ لِمَتِي وَشِمَائِلِي كَأَنِّي غَضْنٌ نَاعِمُ النَّبْتِ نَاضِرُ^(٩)
فَبَانَ شَبَابِي وَاعْتَرَتْنِي رَثِيَّةٌ كَأَنِّي قَنَاةٌ أَطْرَتْهَا الْمَاطِرُ^(١٠)
أَدِبٌ إِذَا رُمْتُ الْقِيَامَ كَأَنِّي لَدَى الْمَشْيِ قَرْمٌ قَيْدُهُ مُتَقَاصِرُ^(١١)
وَقَصُرُ الْفَتَى شَيْبٌ وَمَوْتٌ كِلَاهِمَا لَهُ سَائِقٌ يَسْعَى بِذَاكَ وَنَاطِرُ
وَكَيْفَ يَلْدُ الْعَشُّ مَنْ لَيْسَ زَائِلًا رَهِينَ أُمُورٍ لَيْسَ فِيهَا مَصَادِرُ

(١) الميجاء : الحرب ، وهو مسعر حرب (كدرهم) أى موقد نارها . (٢) يكفون .

(٣) الخمس بالكسر : أن ترعى الإبل ثلاثة أيام ، وترد الرابع ، وهى إبل خوامس .

(٤) اللدة : من ولد معك . (٥) التلاد : المال القديم .

(٦) كعب ثدى الجارية : نهد ، وهى كاهب وكعاب . (٧) ضرب الفحل ضرباً با : فكح .

(٨) القرن : كفؤك فى الشجاعة أو هام . والشقيم : الأسد للمايس ، والخدر : أجمة الأسد . ومته

أسد خادر . (٩) اللمة : الشعر المجاوز شحمة الأذن . (١٠) الرثية : وجع المفاصل واليدين

والرجلين . والاطر والتايطير : عطف الشيء ، وتاطر الرمح : تثنى واعوج . (١١) القرم : الفحل .

فقال معاوية : أحسنت القول ! واعلم أن لها مصادر ، فنسأل الله أن يجعلنا من
الصادرين بخير ، فقد أوردنا أنفسنا موارد نرغب إلى الله أن يُصدرنا عنها وهو راض .
(الأمال ٢ : ٩٤)

٣٧٧ - حديث عرابة بن أوس بن حارثة مع معاوية

قال معاوية لعرابة بن أوس بن حارثة الأنصاري : بأي شيء سئدت قومك يا عرابة ؟
قال : أخبرك يا معاوية بأني كنت لهم كما كان حاتم لقومه . قال : وكيف كان ؟
فأنشدته :

وأصبحتُ في أمرِ العشيرةِ كلها كذبي الحلمُ برُضَى ما يقول ويُعرف
وذاك لأنني لأعادي مَرَاتِمَهُم ولا عن أخي ضراً لهم أتفكف^(١)
وإني لأعطي سائلي ، ولرئماً أكلفُ ما لا أستطيع فأكلفُ
وإني لمذمومٌ إذا قيل : حاتم نبا نبوةً ، إن الكريم يُعنف
ووالله إني لأعفو عن سفيهم ، وأحلمُ عن جاهلهم ، وأسعى في حوائجهم ، وأعطي
سائلهم ، فمن فعل فعلى فهو مثلي ، ومن فعل أحسن من فعلى فهو أفضل مني ،
ومن قَصَّر عن فعلى فأنا خير منه ، فقال معاوية : لقد صدق الشماخ حيث
يقول فيك :

رأيت عرابة الأوسى يسمو إلى الخيرات منقطع القرين
إذا ماراية رُفِعَت لمجدٍ تلقاها عرابة باليمن
(الأمال ١ : ٢٧٧)

(١) أي استغنى عنه وأنتف .

٣٧٨ - سعيد بن عثمان بن عفان و معاوية

دخل سعيد بن عثمان بن عفان رضى الله عنه على معاوية ، وابنه يزيد إلى جانبه ، فقال له : « ائتمنك أبى واصطنعك ، حتى بئمتك باصطناعه إياك المدى الذى لا يُجَارَى ، والغاية التى لا تُسَامَى ، فما جازيت أبى بالآلته ، حتى قدّمت هذا ظلى » ، وجمعت له الأمر دونى - وأوماً إلى يزيد - والله لأبى خير من أبيه ، وأمى خير من أمه ، ولأنا خير منه « ، فقال معاوية : « أمّا ما ذكرت يا بن أخى من تواتر آلائكم على » ، وتظاهر نعمائكم لدى ، فقد كان ذلك ، ووجب على المسكافاة والمجازاة ، وكان شكرى إياه أن طلبتُ بدمه ، حتى كابدتُ أهوال البلاء ، وغشيتُ عساكر المنايا ، إلى أن شُفيتُ حَزَازَاتُ الصدور ، ونجّمتُ تلك الأمور ، واستُ لنفسى باللائم فى التشمير ، ولا الزارى ^(١) عليها فى التقصير ، وذكرتُ أن أباك خير من أبى هذا - وأشار بيده إلى يزيد - فصدقت ، لعمر الله لعثمانُ خير من معاوية ، أكرم كريماً وأفضل قديماً ، وأقرب إلى محمد صلى الله عليه وسلم رجحاً ، وذكرتُ أن أمك خير من أمه ، فلعمري إن امرأة من قريش خير من امرأة من بنى كلب ، وذكرتُ أنك خير من يزيد ، فوالله يا بن أخى ما يسرنى أن القُوطة ^(٢) عليها رجال مثلُ يزيد .

فقال له يزيد : « مه يا أمير المؤمنين ، ابنُ أخيك استعمل الدالة عليك ، واستعتبك لنفسه ، واستزاد منك فزده ، وأجملُ له فى ردك ، وأجملُ على نفسك وواه خراسان بشفاعتى ، وأعنه بمال يُظهر به مَوروثه » ، فولاه معاوية خراسان ، وأجازه بمائة ألف درهم فكان ذلك أعجب ما ظهر من حلم يزيد .

(صبح الأعشى ١ : ٢٥٦ والإمامة والسياسة ١ : ١٢٩)

٣٧٩ - مصقلة بن هبيرة ومعاوية

مرض معاوية مرضاً شديداً ، فأرجف به مصقلة بن هبيرة ، وساعده قوم على ذلك ثم تماثل^(١) ، وهم في إرجافهم ، فحمل زياد مصقلة إلى معاوية ، وكتب إليه أنه يجمع مرآقا من مرآق العراق ، فيرجفون بأمر المؤمنين ، وقد حملته إليه ليرى رأيه فيه ، فقدم مصقلة ، وجلس معاوية للناس ، فلما دخل عليه ، قال : ادن مني ، فدنا منه ، فأخذ بيده فجذبه فسقط مصقلة ، فقال معاوية :

أنتي الحوادثُ من خليك مثل جندلة الراجم^(٢)

صُلِباً إذا خار الرجا لُ أبل ممتنع الشكائم^(٣)

قد رامني الأعداء قبلك فامتنت من المظالم

فقال مصقلة : « يا أمير المؤمنين ، قد أبقى الله منك ما هو أعظم من ذلك بطشا وحلماً راجحاً ، وكلاً ومرعى لأويائك ، وسما نافعاً لأعدائك ، كانت الجاهلية فكان أبوك سيد المشركين ، وأصبح الناس مسلمين وأنت أمير المؤمنين » وقام ، فوصله معاوية ، وأذن له في الانصراف إلى الكوفة ، فقبل له : كيف تركت معاوية ؟ فقال : زعمت أنه كبير وضعف ، والله لقد غمزني غمزة كاد يحطمني ، وجذبني جذبة كاد يكسر عضواً مني .

(زهر الآداب ١ : ٥٧ والأمال ٢ : ٣١٥)

٣٨٠ - روح بن زنباع ومعاوية

وولى معاوية روح بن زنباع ، فعتب عليه في جنابة ، فكتب إليه بالقدوم ، فلما قدم أمر بضربه بالسياط ، فلما أقيم ليضرب قال : « نشدتك الله يا أمير المؤمنين أن تهدم مني ركناً أنت بنيته ، أو أن تضع مني خسيصة أنت رفعتها أو تُشمت بي عدوا أنت

(١) تماثل العليل : قارب البرء . (٢) الجندل : الحجارة ، والواحدة جندلة .

(٣) الأبل : الممتنع ، والألد : الجدل ، والشكائم جمع شكيمة : وهي من اللجام الحديدية المعترضة

في فم الفرس ، وفلان شديد الشكيمة : أنف أبي لاينقاد .

وَقْتَهُ ^(١) ، وَأَسْأَلُكَ بِاللَّهِ إِلَّا أَتَى حَلْمُكَ وَعَفْوُكَ دُونَ إِفْسَادِ صِنَائِيكَ » ، فَقَالَ مَعَاوِيَةَ :
« إِذَا اللَّهُ سَنَى عَقْدَ أَمْرٍ تَيْسَّرًا » خَلُّوا سَبِيلَهُ .

(الأمل : ٢ : ٢٥٩ ، وزهر الآداب ٢ : ١٩٤)

٣٨١ - مَخَاصِمُ أَبِي الْأَسْوَدِ الدَّوْلِيِّ وَامْرَأَتِهِ بَيْنَ نَدَى زِيَادِ بْنِ أَبِيهِ

جَرَى بَيْنَ أَبِي الْأَسْوَدِ الدَّوْلِيِّ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ كَلَامٌ ، فِي ابْنِ كَانَ طَامِنَهُ ، وَأَرَادَ أَخْذَهُ مِنْهَا ، فَسَارَ إِلَى زِيَادٍ وَهُوَ إِلَى الْبَصْرَةِ .

فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ : « أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ، هَذَا ابْنِي ، كَانَ بَطْنِي وَعِوَاءَهُ ، وَحِجْرِي فِنَاءَهُ ، وَتَدْنِي سِقَاءَهُ ^(٢) ، أَكَلُوهُ ^(٣) إِذَا نَامَ ، وَأَحْفَظْهُ إِذَا قَامَ ، فَلَمْ أَزَلْ بِذَلِكَ سَبْعَةَ أَعْوَامَ ، حَتَّى إِذَا اسْتَوْفَى فِصَالَهُ ^(٤) ، وَكَمَلَتْ خِصَالَهُ ، وَاسْتَوَكَمْتُ ^(٥) أَوْصَالَهُ ، وَأَمَلْتُ نَفْعَهُ ، وَرَجَوْتُ دَفْعَهُ ، أَرَادَ أَنْ يَأْخُذَهُ مِنِّي كَرَهًا ^(٦) ، فَأَدِنِي ^(٧) أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، فَقَدَرَامَ قَهْرِي ، وَأَرَادَ قَسْرِي ^(٨) . »

فَقَالَ أَبُو الْأَسْوَدِ : « أَصْلَحَكَ اللَّهُ ، هَذَا ابْنِي حَمَلْتُهُ قَبْلَ أَنْ تَحْمِلَهُ ، وَوَضَعْتُهُ قَبْلَ أَنْ تَضَعَهُ ، وَأَنَا أَقُومُ عَلَيْهِ فِي أَدْبِهِ ، وَأَنْظُرُ فِي أَوْدِهِ ، وَأَمْنَحُهُ عَلِيَّ ، وَأَلْهِمُهُ حِلْمِي ، حَتَّى يَكْمُلَ عَقْلُهُ ، وَيَسْتَحْكَمَ قَتْلُهُ . »

فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ : « صَدَقَ أَصْلَحَكَ اللَّهُ ، حَمَلَهُ خِفَاءً ^(٩) ، وَحَمَلْتُهُ ثِقَلًا ، وَوَضَعْتُهُ شَهْوَةً ، وَوَضَعْتُهُ كَرَهًا . »

فَقَالَ لَهُ زِيَادٌ : أَرَدْتُ عَلَى الْمَرْأَةِ وَلَدَهَا ، فَهِيَ أَحَقُّ بِهَ مِنْكَ ، وَدَعْنِي مِنْ سَجْمِكَ

أَوْ قَالَ : « إِنَّهَا امْرَأَةٌ عَاقِلَةٌ يَا أَبَا الْأَسْوَدِ ، فَادْفَعْ ابْنَهَا إِلَيْهَا ، فَأَخْلِقْ أَنْ تُحْسِنَ أَدْبَهُ . »

(الأمل : ٢ : ١٤ ، وأمال السيد المرتضى ١ : ٢١٤)

(١) وقته : قهره وأذله . وفي زهر الآداب : « كبتة » . (٢) السقاء : جلد السمخلة يكون للماء واللبن . (٣) أرحاه . (٤) فطامه . (٥) اشتدت ومثنت . (٦) الإياء والمشقة بالفتح والضم ، أو بالفتح : ما أكرهك غيرك عليه ، وبالضم ما أكرهت نفسك عليه . (٧) آداه على قتلان : آداه وأعان . (٨) الإكراه . (٩) الخف : الخفيف .

٣٨٢ - صورة أخرى

وروى أحمد بن أبي طاهر طيفور هذا الخبر بصورة أطول وهاكها :

قال أبو محمد القشيري : كان أبو الأسود الدؤلي من أكبر الناس عند معاوية بن أبي سفيان ، وأقربهم مجلساً ، وكان لا ينطق إلا بعقل ، ولا يتكلم إلا بعد فهم ، فبينما هو ذات يوم جالس ، وعنده وجوه قريش وأشراف العرب ، إذ أقبلت امرأة أبي الأسود الدؤلي ، حتى حاذت معاوية ، وقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ؛ إن الله جعلك خليفة في البلاد ، ورقيباً على العباد ، يُسْتَسْقَى بك المطرُ ، وَيُسْتَنْبَتُ بك الشجر ، وتؤلف بك الأهواء ، ويأمن بك الخائف ، ويرُدع بك الجانف^(١) ، فأنت الخليفة المصطفى ، والإمام المرتضى ، فاسأل الله لك النعمة في غير تغيير ، والعافية من غير تعذير^(٢) . قد أجباني إليك يا أمير المؤمنين أمرٌ ضاق عليّ فيه المنهَجُ ، وتفاقم عليّ منه المخرج ، لأمر كرهت عازره^(٣) ، كما خشيت إظهاره ، فليُنصِبني أمير المؤمنين من الخصم ، فإني أعوذ بعقوته^(٤) من العار الويل ، والأمر الجليل ، الذي يشتدُّ على الحرائر ، ذوات البعول الأجار^(٥) ، فقال لها معاوية : ومن بعلك هذا الذي تصفين من أمره المنكر ، ومن فعله المشهر^(٦) ؟ فقالت : هو أبو الأسود الدؤلي ، فالتفت إليه فقال : يا أبا الأسود : ما تقول هذه المرأة ؟ فقال أبو الأسود : هي تقول من الحق بعضاً ، ولن يستطيع أحدٌ عليها نقصاً ؛ أما ما ذكرت من طلاقها فهو حق ، وأنا أخبر أمير المؤمنين عنه بالصدق ، والله يا أمير المؤمنين ما طلقها عن ريبسة

(١) المائل : الجائر . (٢) أي من غير نقص ، من عذر في الأمر تعديراً : إذا قصر ولم يجتهد

(أو من غير تشويه ، من عذر الشيء : لطمه بالعذرة كفرحة) . (٣) تسكنى بذلك من طلاقها .

(٤) العقوة : ماحول الدار . (٥) البعول والبعوات : جمع بعل وهو الزوج ، والأجار : جمع

أجر ، أفضل تفضيل من جار . (٦) شهره كنعنه ، وشهره بالتشديد : أظهره في شئمة .

ظهرت ، ولا لآى هفوة حضرت ، ولكنى كرهت شمائلها ، فقطعتُ عنى حباثلها ، فقال معاوية : وأى شمائلها يا أبا الأسود كرهت ؟ قال : يا أمير المؤمنين : إنك مهيبها على بجواب عتيد^(١) ، ولسان شديد ، فقال معاوية : لا بدُّ لك من محاورتها ، فاردد عليها قولها عند مراجعتها ، فقال أبو الأسود : « يا أمير المؤمنين ، إنها كثيرة الصخب ، دائمة الذرب^(٢) ، مهينة للأهل ، مؤذية للبعل ، مُسيئة إلى الجار ، مُظهرة للعار ، إن رأيت خيرا كتمته ، وإن رأيت شرا أذاعته » ، فقالت : « والله لولا مكانُ أمير المؤمنين ، وحضورُ من حضره من المسلمين ، لرددتُ عليك بوادِر كلامك ، بنوافذ أقرعُ بها كلَّ سهامك^(٣) ، وإن كان لا يجمل بالمرأة الحرة أن تشتمَ بَعْلًا ، ولأن تُظهر لأحدٍ جهلا » ، فقال معاوية : عزمتُ عليك لما أُجبتِه ، فقالت : « يا أمير المؤمنين ، ما علمته إلا سئولا جهولا ، مُلِحًا بخيلا^(٤) ، إن قال فشرُّ قائل ، وإن سكت فذود غائل^(٥) ، ليث حين يأمن ، وثعلب حين يخاف ، شحيح حين يُضاف^(٦) ، إن ذكر الجود انقمع^(٧) ، لما بعرف من قصرِ رشائه^(٨) ، ولو لم آبائه ، ضيفه جائع ، وجاره ضائع ، لا يحفظ جارًا ولا يحمي ذمارًا ، ولا يُدرك نارًا ، أكرم الناس عليه من أهانه ، وأهونهم عليه من أكرمه » ، فقال معاوية : سبحان الله لما تآنى به هذه المرأة من السجع ! فقال

(١) حاضر مهياً . (٢) الصخب : شدة الصوت ، والذرب : حدة اللسان وبذاءته .

(٣) البوادِر : جمع بادرة ، وهى ما يبدو من حدتك فى الغضب من قول أو فعل ، بنوافذ أى بجمع

ذافذة ماضية ، وكل السيف وغيره فهو كل وكليل : لم يقطع . (٤) وكان أبو الأسود معروفًا بالبخل .

ومن طريف ما يروى عنه أن رجلاً قال له : « أنت والله ظرف لفظ ، وظرف علم ، ووعاء حلم ، غير أنك

بخيل » فقال : « وماخير ظرف لا يمسك مافيه ؟ » وسلم عليه أعرابي يوماً ، فقال أبو الأسود : كلمة مقولة ،

فقال له : أتأذن فى الدخول ؟ قال : وراءك أوسع لك ، قال : فهل عندك شيء ؟ قال : نعم ، قال : أطمعنى ،

قال : عيالى أحق منك ، قال : مارأيت ألام متك ! قال : نسيت نفسك . « أمالى المرتضى ١ : ٢١٤ » .

(٥) دغائل : جمع دغيلة كسفينة . والدغيلة والدغل بالتحريك : دخل فى الأمر مفسد .

(٦) ضافه يضيفه : زل عايه ضيفا . (٧) انقمع : دخل البيت مستخفياً .

(٨) الرشاء فى الأصل : الخيل .

أبو الأسود : أصلح الله أمير المؤمنين ، إنها مطلقة ، ومن أكثر كلاماً من مطلقة ؟ فقال لها معاوية : إذا كان رَوَاحاً^(١) فتعالى أفضل بينك وبينه بالقضاء .

فلما كان الرواح جاءت ومعهما ابناها قد احتضنته ، فلما رآها أبو الأسود قام إليها لينتزع ابنه منها ، فقال له معاوية : يا أبا الأسود ، لا تعجل المرأة أن تنطق بحجتها ، قال : يا أمير المؤمنين ، أنا أحق بحمل ابني منها ، فقال له معاوية : يا أبا الأسود دعها تفل ، فقال : « يا أمير المؤمنين ، حملته قبل أن تحمله ، ووضعت قبل أن تضعه » ، فقالت : « صدق والله يا أمير المؤمنين : حمله خفاً ، وحملته ثقلاً ، ووضعه شهوة ووضعت كرهاً ، إن بطني لو عاؤه ، وإن ثديي أسقاؤه ، وإن حجري لفناؤه ، فقال معاوية : سبحان الله لما تأتين به ! فقال أبو الأسود : إنها تقول الأبيات من الشعر فتجيدها ، فقال معاوية : إنها قد غلبتك في الكلام ، فتكلفت لها أبياتاً لملك تغلبها ، فأنشأ أبو الأسود يقول :

مَرَحَبًا بِالتي تجورُ علينا ثم سهلاً بالحامل المحمول
أغلت بابها على وقالت : إن خير النساء ذات البعول
شغلت نفسها على فراغاً هل سمعتم بالفارغ المشغول ؟

فأجابته وهي تقول :

ليس من قال بالصواب وبالحق كمن جار عن منار السبيل
كان ثديي سقاه حين يضحى ثم حجري فناؤه بالأصيل
لست أبغى بواحدى بابن حرب بدلاً ما علمته والخليل^(٢)

فأجابها معاوية :

ليس من غذاه حيناً صغيراً وسقاه من ثديه بخذول

(١) أى إذا كان الوقت رواحاً ، والرواح : العشى . (٢) أى أقسم بخليل الله وهو سيدنا محمد

هِيَ أَوْلَى بِهِ وَأَقْرَبُ رُحْمًا مِنْ أَبِيهِ بِالْوَحْيِ وَالتَّنْزِيلِ (١)
أُمُّهُ مَا حَنَّتْ عَلَيْهِ وَقَامَتْ هِيَ أَوْلَى بِحَمَلِ هَذَا الضَّمِيلِ (٢)

فقضى لها معاوية عليه ، واحتملت ابنها وانصرفت . (بلاغات النساء ص ٥٣)

٣٨٣ - وفد أهل البصرة إلى عبد الله بن الزبير

لما قَدِمَ الأحنف في وجوه أهل البصرة ، إلى عبد الله بن الزبير ، تكلم أبو حاضر الأسيدي - وكان خطيبًا جميلًا - فقال له عبد الله بن الزبير : اسكت فوالله لو دِدْتُ أَنْ لِي بِكُلِّ عَشْرَةٍ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الشَّامِ ، صَرَفَ الدِّينَارَ بِالدَّرْهِمِ ، قَالَ : « يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : إِنْ لَدَا وَلاكَ مَثَلًا ، أَفَتَأْذُنُ فِي ذِكْرِهِ ؟ » قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : « مَثَلْنَا وَمَثَلِكَ وَمِثْلُ أَهْلِ الشَّامِ قَوْلَ الْأَعَشِيِّ حَيْثُ يَقُولُ :

عُلِّقَتْهَا عَرَضًا وَعُلِّقْتَ رَجُلًا غَيْرِي وَعُلِّقَ أُخْرَى غَيْرَهَا الرَّجُلُ (٣)

أَحَبُّكَ أَهْلُ الْعِرَاقِ ، وَأَحْبَبْتَ أَهْلَ الشَّامِ ، وَأَحَبُّ أَهْلِ الشَّامِ عَبْدَ الْمَلِكِ

ابن مروان . (البيان والتبيين ١ : ١٦٤)

٣٨٤ - كلام خطيب الأزدي بين يدي عبد الملك بن مروان

بعث الحجاج خطباءً من الأحاس (٤) إلى عبد الملك بن مروان ، فتكلموا ، فلما انتهى الكلام إلى خطيب الأزدي ، قام فقال :

قَدْ عَلِمَتِ الْعَرَبُ أَنَّا حَيٌّ فِعَالٌ ، وَلَسْنَا بِحَيٍّ مَقَالٌ ، وَأَنَا نَجْزِي بِفِعْلِنَا عِنْدَ أَحْسَنِ

(١) الرحم: الرحمة والرفقة والتعطف . (٢) في الأصل : « أم ما حنت عليه . . . » وهو تحريف ، إذ يخل وزن البيت . (٣) علق فلان امرأة (بالبناء للمجهول مشددا) : أحبا . (٤) الحمس كقفل : الأمكنة الصلبة جمع أحس ، ولقب به قريش ، وكنانة ، وجديلة ، ومن تابعهم في الجاهلية اتحمسهم في دينهم ، أو لانتجائهم بالهمساء وهي الكعبة ، وأحساس العرب : من أمهاتهم من قريش ، وكانوا يتشددون في دينهم ، وكانوا شجعان العرب لا يطاقون .

قولهم ، إن السيوف لتعرف أ كُفْنَا ، وإن الموت لَيْسَتْ مَذِيبُ أرواحنا ، وقد علمت الحربُ
الرَّبُون ، أَنَا نَقْرَعُ بِجَاحِهَا ، وَنَحْيِبُ صَرَاحَهَا^(١) ، ثم جلس^(٢) .

(الأمال ٢ : ٢٥٩)

٣٨٥ - سؤال عبد الملك للحجاج وما أجاب به

ودخل العجّاج^(٣) على عبد الملك بن مروان ، فقال : يا عجّاجُ : بلغني أنك لا تقدر
على الهجاء ، فقال : يا أمير المؤمنين ، مَنْ قَدَّرَ على تشييد الأبنية ، أممكته إخرابُ
الأخبية ، قال : فما يمنعك من ذلك ؟ قال : إن لنا عزًّا يمنعنا من أن نُظَلَمَ ، وإن لنا
حِلْمًا يمنعنا من أن نُظَلِمَ ، فعَلَّامَ الهجاء ؟ فقال : آكَلَمَاتُكَ أشعْرُ من شعرك ! فأنتى لك
عِزٌّ يمنعك من أن تُظَلِمَ ؟ قال : الأدب البارع ، والفهم الفاصع ، قال : فما الحِلْمُ الذى
يمنعك من أن تُظَلِمَ ؟ قال : الأدب المُسْتَظَرَفُ ، والطبع التَّالِدُ ، قال : يا عجّاج لقد
أصبحتَ حكيمًا . قال : وما يمنعني وأنا نبجى^(٤) أمير المؤمنين ؟ .

(الأمال ٢ : ٤٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٢٦٤)

٣٨٦ - وفود الحجاج بإبراهيم بن محمد بن طلحة

على عبد الملك بن مروان

لما ولى الحجاج بن يوسف الحرّمين بعد قتله ابن الزبير ، استخَصَّ إبراهيم بن محمد
ابن طلحة ، فقرّبه وعظم منزلته ، فلم تزل تلك حاله عنده ، حتى خرج إلى عبد الملك بن
مروان ، فخرج معه مُعَادِلًا ، لا يقصّر له فى برِّ وإعظام ، حتى حضر به عبد الملك ، فلما

(١) الصرى : بقية اللبن . (٢) وفي رواية الجاحظ : « قالوا : ولما قدمت خطباء زار عند معاوية ، فذهبت فى الخطب

كل مذهب ، قام صبرة بن شيمان فقال : « يا أمير المؤمنين : إنا حتى فعال ، ولسنا حتى مقال ، ونحن نبلغ
بفمنا أكثر من مقال غيرنا (البيان والتبيين ١ : ١٦٤) ، وروى المبرد فى الكامل هذا القول عن صبرة
أيضا - انظر تهذيب الكامل ١ : ١٦ - ، وقد تقدم لك أن صبرة بن شيمان من الأزد - انظر الجزء
الأول ص ٤٣٦ . (٣) هو العجّاج بن ربيعة راجز مجيد مشهور ، مات سنة ٥٩٠ هـ . (٤) مسار .

دخل عليه لم يبدأ بشيء بعد السلام ، إلا أن قال له : « قَدِمْتُ عَلَيْكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِرَجُلِ الْحِجَازِ ، لَمْ أَدْعُ لَهُ بِهَا نَظِيرًا فِي الْفَضْلِ وَالْأَدَبِ ، وَالْمُرُوَّةِ ، وَحَسَنِ الْمَذْهَبِ ، مَعَ قَرَابَةِ الرَّحِمِ ، وَوَجُوبِ الْحَقِّ ، وَعِظَمِ قَدْرِ الْأَبَوَّةِ ، وَمَا بَلَوْتُ مِنْهُ فِي الطَّاعَةِ وَالنَّصِيحَةِ ، وَحُسْنِ الْمُوَازَرَةِ . وَهُوَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ طَلْحَةَ ، وَقَدْ أَحْضَرْتَهُ بِأَبَيْكَ ، لِيَسْتَهْلُ عَلَيْهِ إِذْنَكَ ، وَتَعْرِفَ لَهُ مَا عَرَفْتَكَ » . فَقَالَ : أَذْكَرْتَنَا رَحِمًا قَرِيبَةً ، وَحَقًّا وَاجِبًا ، يَا غَلَامُ : إِذْنِي لِإِبْرَاهِيمِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ طَلْحَةَ ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ أَدْنَاهُ عَبْدُ الْمَلِكِ حَتَّى أَجْلَسَهُ عَلَى فِرَاشِهِ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : يَا بَنَ طَلْحَةَ ، إِنَّ أَبَا مُحَمَّدٍ (الْحِجَاجِ) ذَكَرْنَا مَا لَمْ نَعْرِفْكَ بِهِ مِنَ الْفَضْلِ وَالْأَدَبِ ، وَالْمُرُوَّةِ ، وَحَسَنِ الْمَذْهَبِ ، مَعَ قَرَابَةِ الرَّحِمِ ، وَوَجُوبِ الْحَقِّ ، وَعِظَمِ قَدْرِ الْأَبَوَّةِ ، وَمَا بَلَاهُ مِنْكَ فِي الطَّاعَةِ وَالنَّصِيحَةِ ، وَحَسَنِ الْمُوَازَرَةِ ، فَلَا تَدْعَنَ حَاجَةً فِي خَاصَّةِ نَفْسِكَ وَعَامَتِكَ إِلَّا ذَكَرْتَهَا . فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّ أَوَّلَ الْحَوَائِجِ ، وَأَحَقَّ مَا أُقَدِّمُ بَيْنَ يَدَيِ الْأُمُورِ ، مَا كَانَ اللَّهُ فِيهِ رِضًا ، وَلِحَقِّ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَدَاءً ، وَلِأَنَّكَ فِيهِ وَجَلَاءُ الْمُسْلِمِينَ نَصِيحَةً ، وَعِنْدِي نَصِيحَةٌ لَا أَجِدُ بُدًّا مِنْ ذِكْرِهَا ، وَلَا أَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا وَأَنَا خَالٍ ، فَأَخْلِنِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ تَرِدُ عَلَيْكَ نَصِيحَتِي ، قَالَ : أَدُونَ أَبِي مُحَمَّدٍ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، دُونَ أَبِي مُحَمَّدٍ ، قَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ : لِلْحِجَاجِ قَم- ، فَلَمَّا خَطَرُفَ ^(١) السُّتْرَ أَقْبَلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ، فَقَالَ : يَا بَنَ طَلْحَةَ قُلْ نَصِيحَتِكَ ، قَالَ : يَا اللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَقَدْ عَاهَدْتَنِي إِلَى الْحِجَاجِ فِي تَغَطُّرُسِهِ وَتَمَجْرُفِهِ ، وَبُؤْدَهُ مِنَ الْحَقِّ ، وَقُرْبِهِ مِنَ الْبَاطِلِ ، فَوَالِيتِهِ الْحَرَمِينَ ، وَهَامَا مَا هَا وَبِهِمَا مَنْ بِيهَا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، وَالْمَوَالِي الْأَخْيَارِ ، يَسُومُهُمُ الْخَسْفُ ^(٢) وَيَحْكُمُ فِيهِمْ بِغَيْرِ السُّنَّةِ ، بَعْدَ الَّذِي كَانَ مِنْ سَفْكَ دِمَائِهِمْ ، وَمَا انْتَهَيْتُكَ مِنْ حُرْمَتِهِمْ ، وَيَطَّوْمُ بِطَغَامِ أَهْلِ الشَّامِ ، وَرَعَاعِ لَأَرْوِيَّةَ لَهُمْ فِي إِقَامَةِ حَقِّ ، وَلَا فِي إِزَاحَةِ بَاطِلٍ ، ثُمَّ تَظُنُّ أَنَّ ذَلِكَ يَنْجِيكَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ؟ فَكَيْفَ بِكَ إِذَا جَاءَكَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَدًا لِلْخِصُومَةِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَعَالَى ؟ أَمَا وَاللَّهِ إِنَّكَ لَنْ تَنْجُو هُنَاكَ إِلَّا بِحُجَّةٍ تَضْمَنُ لَكَ

(١) المراد أرغى ، من خطرَف جلد المرأة : إذا استرخى . (٢) يوليهم اللذ .

النجاة ، فارتبَع على نفسك أو دَع ، وكان عبد الملك مُتَسَكِّمًا ، فاستوى جالسًا ، وقال :
كذبتَ وَمِنْت (١) فيما جئت به ! واقدر ظن بك الحجاج ظنًا لم نجده فيك ، وقد يُظَن
الخيرُ بغير أهله ، قم فأت المأسن الحاسد ! قال : فقامت والله ما أبصر شيئًا ، فلما خطر ف
الستر الحَقني لاحق ، فقال للحاجب : امنع هذا من الخروج ، وأذن للحجاج ، فدخل
فلبث مَلِيًّا ، ولا أشكُ أنهما في أمرى ، ثم خرج الإذن لى ، فدخلت ، فلما كشف لى
الستر ، إذا أنا بالحجاج خارج ، فاعتنقنى ، وقَبِل ما بين عينيَّ ، وقال : أما إذا جرى الله
المتواخيئين خيرًا بفضل تواصلهما ، فجزاك الله عنى أفضلَ الجزاء ، فوالله لئن سلمتُ لك
لأرفعنَّ ناظرىك ، ولأعلننَّ كَمبِكَ ، ولأتبعنَّ الرجال غبارَ قدميكَ ، قال : فقلت
فى نفسى إنه ليسخر لى ، فلما وصلت إلى عبد الملك أدناى حتى أدناى مجلسى الأول ،
ثم قال : يابن طلحة : هل علمت الحجاج بما جرى أو شاركك أحد فى نصيحتك ؟
فقلت : لا والله ، ولا أعلم أحدًا أظهرَ يَدًا عندى من الحجاج ، ولو كنت محاييًّا أحدًا
بدينى لكان هو ، ولكنى آثرتُ الله ورسوله والمسلمين ، قال : قد علمت أنك لم ترد
الدنيا ، ولو أردتها لكانت لك فى الحجاج ، ولكن أردت الله والدار الآخرة ، وقد عزلته
عن الحرمين لما كرهت من ولايته عليهما ، وأعلمته أنك استنزلتني له عنهما استقلالًا
لهما ، ووليته العرافين وما هنالك من الأمور ، التى لا يذُحِضها إلا مثله ، وإنما قلت له ذلك
ليؤدى ما يلزمه من ذمامك ، فإنك غير ذام لصحبته مع يدك عنده ، فخرجت مع الحجاج
وأكرمنى أضعاف إكرامه . (المقد الفريد ١ : ١٢١ ، وشرح العيون ص ١١٩)

(١) مان مينا : كذب .

٣٨٧ - قدوم الحجاج مع أشرف المصرين على عبد الملك

لما فرغ الحجاج من دير الجماجم ، وقَدِم على عبد الملك ومعه أشرف أهل المِصرين - البصرة والكوفة - أدخلهم عليه ، فبينما هم عنده ، إذ تذاكروا البلدان ؛ فقال محمد بن ابن عمير بن عطارد : « أصلح الله الأمير ، إن الكوفة أرض ارتفعت عن البصرة وحرَّها وعمَّقها^(١) ، وسَفَّت عن الشام ووَبَّأها ، وجاورها الفِراتُ ، فَعَدَّب ماؤها ، وطاب ثمرها » ، فقال خالد بن صفوان الأهمى : « أصلح الله الأمير ، نحن أوسعُ منهم بريةً ، وأسرعُ منهم في السرية^(٢) ، وأكثرُ منهم قنْدًا^(٣) ، وعاجًا ، وساجًا^(٤) ، وناسًا^(٥) ، ماؤنا صَفْو ، وخيرُنا عَفْو ، لا يخرج من عندنا إلا قائدٌ وسائقٌ وناعقٌ^(٦) » ، فقال الحجاج : « أصلح الله أمير المؤمنين ! إنى بالبلدين خبير ، وقد وطَّئتهما جميعاً » ، فقال له : قل فانت عندنا مُصدِّق ، فقال : « أمَّا البصرة فمَجُوزٌ شَبَطَاء ، دَفْرَاء ، بَحْرَاء ، أوتيتُ من كل حَلِيٍّ وزينة ؛ وأما الكوفة ، فشابةٌ حسناء جميلة ، لاحتلَى لها ولازينة » .
فقال عبد الملك : فضلت الكوفة على البصرة .
(مروج الذهب ٢ : ١٤٨)

* * *

وروى الجاحظ قال :

قال خالد بن صفوان^(٧) - وسُئِل عن الكوفة والبصرة - : « نحن مَنَابِتُنا قَصَبٌ ، وأنهارنا عَجَبٌ ، وسمائنا رُطَبٌ^(٨) ، وأرضنا ذهبٌ » .

(١) الغمق : ركوب الندى الأرض ، أرض غمقة كفرحة : ذات ذنب وثقل ، أو قريبة من المياه ، وفي الأصل : « وعمقها » وهو تصحيف (٢) السرية : من خمسة أنفص إلى ثلثائة ، أو أربعمائة ، والمراد في النهوض للقتال . (٣) القند : غسل قصب السكر . (٤) الساج : خشب أسود رزين يجلب من الهند ، ولا تكاد الأرض قبله ، وهو يشبه الأبنوس . (٥) في الأصل : « وبناسا » بالياء ، وأراه بالنون . (٦) يريد بالسائق : الأمير ، وبالناعق : الخطيب . (٧) أى يصف البصرة ، وكذا ما بعده . (٨) السماء : كل ما علاك ، يشير إلى كثرة النخيل في مشان البصرة ، « مشان كسحاب : قرية قريبة منها » ، وأن التمر لكثرتة ووفرته يظلمهم .

وقال الأحنف : « نحن أبعد منكم سرّية ، وأعظم منكم تجرّية^(١) ، وأكثر منكم ذرّية ، وأغذى منكم برّية » .
وقال أبو بكر الهذلي : « نحن أكثر منكم ساجاً ، وطاجاً ، ودبيجاً ، وخراجاً ، ونهراً عجّاجاً^(٢) » .
(البيان والتبيين ٢ : ٤٦)

٣٨٨ - وفود مالك بن بشير على الحجاج بقتل الأزارقة

لما هزم المهلب بن أبي صفرة قطري بن الفجاءة : صاحب الأزارقة . بعث إلى مالك بن بشير ، فقال له : إني مؤفدك إلى الحجاج ، فسير ، فإنما هو رجل مثلك ، وبعث إليه بجائزة فردها ، وقال : إنما الجائزة بمد الاستحقاق وتوجه ، فلما دخل على الحجاج قال له : ما اسمك ؟ قال : مالك بن بشير ، قال : مُلك وبشارة ! كيف تركت المهلب ؟ قال : أدرك ما أمل ، وأمن من خاف ، قال : كيف هو لجنده ؟ قال : والد رءوف ، قال : فكيف رضام عنه ؟ قال : وسيمهم بالفضل ، وأقنهم بالعدل ، قال : فكيف تصنعون إذا لقيتم عدوكم ؟ قال : نلقاهم بجدنا فنقطع فيهم ، ويلقوننا بجدهم فيطمعون فينا ، قال : كذلك الجد إذا لقي الجدّ قال : فما حال قطري ؟ قال : كادنا ببعض ما كيدناه . قال : فما منعكم من اتباعه ؟ قال : رأينا المقام من ورائه خيراً من اتباعه ، قال : فأخبرني عن ولد المهلب ، قال : أعباء القتال بالليل ، حمة السرح^(٣) بالنهار ، قال : أيهم أفضل ؟ قال ذلك إلى أيهم ، قال : لتقولن ، قال : هم كحلقة مضروبة لا يعترف طرفاًها ، قال : أقسمت عليك هل روأت^(٤) في هذا الكلام ؟ قال : ما أطلع الله على غيبه أحداً ، فقال الحجاج لجلسائه : هذا والله الكلام المطبوع ، لا الكلام المصنوع .

(المقد الفريد ١ : ١٢٢ ، ومروج الذهب ٢ : ١٤٨)

(١) نجر كنصر تجرا وتجارة : اتجر ، وأرى أن « تجرية » مصدر صناعي لتجر يريد أن أهل البصرة أعظم راطول باءا من أهل الكوفة في التجارة - لأن البصرة ثغر على الخليج للفارسي ، فهي متصلة ببلاد الهند والشرق . (٢) المعجاج : الصياح من كل ذي صوت . (٣) السرح في الأصل : المال السائم . (٤) روأت في الأمر : نظر فيه وتمقبه ، ولم يمجل بجواب .

٣٨٩ - وفود كعب الأشقرى على الحجاج

أوفد المهلب بن أبي صفرة كعب بن معدان الأشقرى - ومعه مروة بن تليد الأزدي - إلى الحجاج بعد هزيمة الأزارقة، وقتل أميرهم عبد ربّه الصغير، فلما دخلا عليه بدر كعب فأنشده قصيدته التي مطلعها :

يا حَفْصُ: إني عَدَايَ عِندَكُمُ السَّفَرُ . وقد سَرِيتُ فَاذَى عَيْنِي السَّهَرُ

فقال له الحجاج: أشاعر أم خطيب؟ قال: كلاهما، ثم أقبل عليه، فقال له: أخبرني عن بني المهلب، قال: «المغيرة فارسهم وسيدهم، نار ذاكية^(١)، وصعدة^(٢) عالية، وكفى بيزيد فارساً شجاعاً، ليث غاب، وبحر جمّ عباب، وجوادهم وسخيم قببصة، ليث المغار^(٣)، وحامى الدمار، ولا يستحي الشجاع أن يفرّ من مدرك، فكيف لا يفر من الموت الحاضر، والأسد الخادر؟ وعبد الملك سمّ ناقع، وسيف قاطع، وحبیب الموت الزعاق، إنما هو طود شامخ، وفخر باذخ^(٤)، وأبو عيينة البطل الهمام، والسيف الحسام، وكفالك بالمفضّل نجدة، ليث هدار، وبحر موار^(٥)، ومحمد ليث غاب، وحسام ضرباب، قال: فكيف كانوا فيكم؟ قال: كانوا حماة السرح نهاراً، فإذا أليوا^(٦) فقرسان البيات، قال: فأبيهم كان أنجد؟ قال: كانوا كالحلقة المفرغة: لا يدرى أين طرفها، قال: فكيف كان لكم المهلب وكنتم له؟ قال: كان لنا منه شفقة الوالد، وله منّا برّ الولد، قال: فكيف جماعة الناس؟ قال: طي أحسن حال، أدركوا مارجوا، وأمنوا مما خافوا، وأرضاهم العذل، وأغنهم النفل^(٧)، قال: فكيف كنتم أنتم وعدوكم؟ قال: كنا إذا أخذنا عقوناً، وإذا أخذوا يئسنا منهم،

(١) ذكت النار: اشتد لهبها. (٢) الصعدة: القناة المستوية تثبت كذلك. (٣) أغار على

للعدو إغارة ومغارا. (٤) الطود: الجبل، وباذخ: عال. (٥) مار: ماج واضطرب.

(٦) أليوا وألأوا: دخلوا في الليل. (٧) الغنيمة والهبّة.

وإذا اجتهدوا واجتهدنا طمعنا فيهم ، فقال الحجاج : إن العاقبة للمتقين ، قال : كيف أفلتكم قطري ؟ قال : كيدناه ببعض ما كادنا به ، فصرنا منه إلى الذي نحب ، قال : فهلا اتبعتموه ؟ قال : كان الحدة عندنا آثر من الفل^(١) ، قال : أكنت أعددت لي هذا الجواب ؟ قال : لا يعلم الغيب إلا الله ، فقال : هكذا تكون والله الرجال ، المهلب كان أعلم بك حيث وجهك ، وأمر له بعشرة آلاف درهم ، وحمله على فرس ، وأوفده على عبد الملك بن مروان ، فأمر له بعشرة آلاف أخرى .

(الكامل للمبرد ٢ : ٢٣٢ ، والأغانى ١٣ : ٥٥ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ ص ٤٠٥ ، وزهر

الأدب ٣ : ٩٢)

٣٩٠ - سليك بن سلكة والحجاج

دخل على الحجاج سليك بن سلكة^(٢) ، فقال :

« أصلح الله الأمير ! أعزني سمعك ، واغضض عني بصرك ، واكفف عني حزبك ؛ فإن سمعت خطأ أو زللاً فدونك والمعقوبة ، فقال : قل ، فقال : عصى عاص من عرض العشيرة ، فحلقت على اسمي ، وهدمت داري ، وحرمت عطائي ، قال : هيات ، أما سمعت قول الشاعر :

جانيك من يجني عليك وربما تعدى الصحاح مبارك الجرب^(٣)
ولرب مأخوذ بذنب عشيره ونجا المقارف صاحب الذنب

(١) القوم المنهزمون . (٢) هو غير سليك بن سلكة الذي ضرب به المثل في العذر ، فقيل : « أعدى من السليك » ، فإن سليكا العداء جاهلي ، (وهو سليك بن عمرو التميمي ، والسلكة أمه ، وهي أمة سوداء ، وكان أحد صحابيك العرب واصوصهم العدائين الذين لا يلحقون ، ولا تتعلق بهم الخيل إذا عدوا ، وهم : السليك ابن السلكة ، والشنفرى ، وتأبط شرا ، وعمرو بن براق ، ونفيل بن براق) ، قال صاحب القاموس في مادة غرب : « وأغربة العرب سودانهم ، والأغربة في الجاهلية : عنزة ، وخفاف بن ندبة ، وأبو عمير بن الحباب ، وسليك بن السلكة ، وهشام بن عقبة بن أبي معيط ، إلا أنه مخضرم قد ولي في الإسلام ... الخ » ، وقال ابن نباتة في سرح العميون « وهو جاهلي قديم » - انظر ترجمته في سرح العميون ص ٨٠ والأغانى ١٨ : ١٣٣ - . (٣) في الأصل « جانيك من يجني عليك وقد » على أن العروض حذاء كالضرب وهو صحيح ، ولكن رأيت العروض في البيت الذي يليه تامة ، فوضعت « وربما » بدل « وقد » للمشكلة بين العروضين .

قال أصلح الله الأمير، سمعتُ الله قال غير هذا، قال: وما ذلك؟ قال: قال: «يا أيها العزيز: إنَّ له أبا شيخاً كبيراً، فخذُ أحدنا مكانه، إنا نراك من المؤمنين قال: معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذا اظالمون.»

قال الحجاج: «على» بيزيد بن أبي مسلم^(١)، فأتى به فمَثَلَ بين يديه، فقال: فكك لهذا عن اسمه، واصكك^(٢) له ببطائه، وابن له منزله، ومر مناديا ينادي في الناس، صدق الله، وكذب الشاعر.

(العقد الفريد ٣ : ٦)

٣٩١ - جامع المحاربي والحجاج

شكا الحجاج سوء طاعة أهل العراق. وتنعم مذهبهم، وتسخط طريقتهم، فقال له جامع المحاربي - وكان شيخاً صالحاً خطيباً لسنياً - : «أما إنهم لو أحبوك لأطاعوك، على أنهم ما شئتوك لنسبك، ولا لبلدك، ولا لذات نفسك، فدع ما يبعدهم منك، إلى ما يقربهم إليك، والتمس العافية من دونك، تُعطها من فوقك، وليكن إيقاعك بعد وعيدك، ووَعِيدُك بعد وعدك. قال الحجاج: «إني والله ما أرى أن أردَّ بنى اللكبة إلى طاعتي إلا بالسيف»، فقال «أيها الأمير، إن السيف إذا لاقى السيف ذهب الخيار»، فقال الحجاج: «الخيارُ يومئذ لله»، قال: «أجل، ولكن لا تدري لمن يجمله الله»، فغضب الحجاج وقال: «يا هتاه^(٣) إنك من محارب»، فقال جامع:

والحربُ سُمِينَا، وكان محارباً إذا ما القنا أمسى من الطعن أحمرًا

(١) كاتب الحجاج. (٢) صكك له كقتل: كتب له صكاً، وهو الكتاب الذي يكتب في المعاملات: (الشيك).
(٣) هن: كلمة يكنى بها عن اسم الإنسان، فإذا ناديت مذكراً بغير التصريح باسمه قلت: ياهن أقبل، وقد تزداد الألف والهاء في آخره في النداء خاصة، فيقال ياهناه أقبل، أي يافلان، وهذه الهاء تصير تاء في الوصل، وتضم على تقدير أنها آخر الاسم وتسكمر لاجتماع الساكنين.

فقال الحجاج: « والله لَهَمَمْتُ أَنْ أَخْلَعُ لِسَانَكَ ، فَأَضْرِبَ بِهِ وَجْهَكَ » ، فقال جامع : « إِنْ صَدَّقْنَاكَ أَغْضَبْنَاكَ ، وَإِنْ غَشَّشْنَاكَ أَغْضَبْنَا اللَّهَ ، فَفَضَّبُ الْأَمِيرُ أَهْوَنَ عَلَيْنَا مِنْ غَضَبِ اللَّهِ » قَالَ : أَجَلٌ ، وَسَكَنٌ ، وَشَغِلٌ الْحِجَابُ بِيَمَضِ الْأَمْرِ ، فَاَنْسَلُ جَامِعٌ ، فَرَّ بَيْنَ صَفُوفِ خَيْلِ الشَّامِ ، حَتَّى جَاوَزَ إِلَى خَيْلِ أَهْلِ الْعِرَاقِ - وَكَانَ الْحِجَابُ لَا يَخْطِطُهُمْ فَأَبْصَرَ كِتَابَةَ^(١) فِيهَا جِئَاءٌ مِنْ بَكْرِ الْعِرَاقِ ، وَتَمِيمِ الْعِرَاقِ ، وَأَزْدِ الْعِرَاقِ ، وَقَيْسِ الْعِرَاقِ ، فَلَمَّا رَأَوْهُ أَشْرَأَبُوا إِلَيْهِ ، وَبَلَّغَهُمْ خُرُوجَهُ ، فَقَالُوا لَهُ : مَا عِنْدَكَ ؟ دَافِعَ اللَّهُ لَنَا عَنْ نَفْسِكَ ، فَقَالَ : وَيْحَكُمْ ! عُثِّوهُ بِالخَلْعِ كَمَا يَفْعَمُّكُمْ بِالْعِدَاوَةِ ، وَدَعُّوا التَّمَادِيَّ مَا عَادَاكُمْ ، فَإِذَا ظَفِرْتُمْ بِهِ تَرَاجَعْتُمْ وَتَمَاقَبْتُمْ ، أَيُّهَا التَّمِيمِيُّ : هُوَ أَعْدَى لَكَ مِنَ الْأَزْدِيِّ ، وَأَيُّهَا الْقَيْسِيُّ : هُوَ أَعْدَى لَكَ مِنَ التَّغَلَبِيِّ ، وَهَلْ ظَفِرَ بَيْنَ نَاوَاهِ مِنْكُمْ إِلَّا بَيْنَ بَقِيٍّ مَعَهُ مِنْكُمْ ؟ » وَهَرَبَ جَامِعٌ مِنْ قَوْرِهِ ذَلِكَ إِلَى الشَّامِ ، فَاسْتَجَارَ نَزُقَ بْنَ الْحَارِثِ .

(البيان والتبيين ٢ : ٦٨ ، والمقد الفريد ٢ : ١٥١ - ١ : ١٥٢ ،

وعيون الأخبار ٢ ص : ٢١٢ ، وزهر الآداب ٣ : ٢٣٠)

٣٩٢ - ليلى الأخيلية والحجاج

بَنُ مَوْلى اَمْنَبَسَةَ بنِ سَعِيدِ بنِ العاصي قال :

كنت أدخل مع عنبسة بن سعيد بن العاصي إذا دخل على الحجاج ، فدخل يوماً ، فدخلت إليهما ، وليس عند الحجاج أحد إلا عنبسة ، فأعدني ، فجاء الحجاج بطبق فيه رطب ، فأخذ الخادم منه شيئاً فجاءني به ، ثم جىء بطبق آخر ، حتى كثرت الأطباق ، وجعل لا يأتون بشيء إلا جاءني منه بشيء ، حتى ظننت أن ما بين يدي أكثر مما عندهما ، ثم جاء الحاجب فقال : امرأة بالباب ، فقال له الحجاج : أدخلها ، فدخلت ، فلما رآها الحجاج طأطأ رأسه ، حتى ظننت أن ذقنه قد أصاب الأرض ، فجاءت حتى قدمت

(١) الكبيكة : الجماعة .

بين يديه ، فنظرتُ فإذا امرأةٌ قد أسدت ، حسنة الخلق ، ومعها جاريتان لها ، وإذا هي
 لَيْلَى الأَخْيَلِيَّةُ ، فسألها الحجاج عن نسبها ، فانتسبت له ، فقال لها : يا ليلي ، ما أتى بك ؟
 فقالت : « إخلافُ النجوم ^(١) ، وقلةُ الغيوم ، وكَلْبُ البَرْدِ ^(٢) ، وشدةُ الجهد ،
 وكنتَ لنا بعد الله الرَّفْدُ ^(٣) » فقال لها : صِفِي لنا الفِجَاجَ ^(٤) ، فقالت : « الفِجَاجُ مُعْبَرَةٌ
 والأرضُ مُقَشَّعَةٌ ، وَالْمَبْرُكُ ^(٥) مُعْتَلٌّ ، وذو العِيَالِ مُخْتَلٌّ ^(٦) ، وَالْمَالِكُ لِلْقُلِّ ^(٧) ،
 وَالنَّاسُ مُسْتَنْتُونَ ^(٨) ، رَحْمَةُ اللهِ يَرْجُونَ ، أَصَابَتْنَا سِنُونُ مَجْحَفَةٌ مُبَلِّطَةٌ ^(٩) ، لَمْ تَدْعُ لَنَا
 هُبْعًا وَلَا رَبْعًا ^(١٠) ، وَلَا عَافِطَةً وَلَا نَافِطَةً ^(١١) ، أَذْهَبَتِ الأَمْوَالُ ، وَمَزَقَتِ الرِّجَالُ ،
 وَأَهْلَكَتِ العِيَالُ » ، ثم قالت : إني قلتُ في الأمير قولاً ، قال : هاتِي ، فَأَنْشَأْتُ تقول :

أَحْجَاجٌ لَا يُفَلِّلُ سِلَاحُكَ ، إِنَّمَا السَّمَانِيَا بِكَفِّ اللهِ حَيْثُ تَرَاهَا ^(١٢)

أحجاج لا تعطى العصاة مناهم ولا الله يعطي للعصاة مناهم

إذا هبط الحجاج أرضاً مريضةً تتبّع أقصى دأبها فشفاها

شفاها من الداء المضال الذي بها غلامٌ إذا هزّ القناة سقاها

سقاها فرّواها بِشُرْبِ سِجَالِهِ دماء رجالٍ حيثُ مال حشأها ^(١٣)

(١) أي أخلفت النجوم التي يكون بها المطر ، فلم تأت بمطر . (٢) كلب البرد : شدته ، وأصل
 الكلب : السمار (بالضم) الذي يصيب الكلاب والذئاب . (٣) الرفد (بالفتح) : المعونة ، مصدر
 رفده كضربه : أعانه وأعطاه ، وبالسكسر : المعطاء والصلوة . (٤) الفججاج جمع فجج : بالفتح ، وهو
 الطريق الواسع بين جبلين . (٥) أرادت به الإبل الباركة فيه . (٦) مختل : محتاج من الخلة
 بالفتح وهي الحاجة . (٧) للقل : أي هالك من أجل القلة . (٨) أي مقحطون ، والسنة : القحط .
 (٩) مجحفة : قاشرة ، ومبليطة : ملزقة باليلاط ، والبلاط : الأرض الملساء ، والحجارة التي تفرش
 في الدار ، وأبطل الرجل فهو مبطل : إذا نزق بالأرض . (١٠) الهبع : الفصيل ينتج في الصيف
 (في آخر النتاج) والربع : الفصيل ينتج في الربيع (وهو أول النتاج) . (١١) العافطة : الضائفة
 (النعجة) ، من العفط ، وهو الضرط ، عفطت كضرب : ضرطت ، فهي عافطة ، والعفط أيضاً : نثير
 للضأن ، تنثر بأنوفها كما ينثر الحمار ، والنافطة العنز ، من النفظ ، نفظت العنز كضرب نثرت بأنفها ،
 أو عطست ، فهي نافطة ، أو لأنها تنفط بيوها أي تدفعه دفعا ، أو النافطة إتباع لعافطة ، أو العافطة الأمة
 للرعاية ، والنافطة الشاة . (١٢) السلاح مذكر ويؤنث كما في هذا البيت . (١٣) السجال : جمع
 سجل كشمس ، وهو الدلو العظيمة .

إِذَا سَمِعَ الْحِجَّاجُ رِزًّا كَتَيْبَةً أَعَدَّ لَهَا قَبْلَ النَّزُولِ قِرَاهَا^(١)
أَعَدَّ لَهَا مَسْمُومَةً فَارْسِيَّةً بِأَيْدِي رِجَالٍ يَجْلِبُونَ صَرَاهَا^(٢)
فَمَا وَوَلَدَ الْأَبْكَارُ وَالْعُونُ مِثْلَهُ بِبَحْرِ وَلَا أَرْضٍ يَجِفُّ نَرَاهَا^(٣)

قال : فلما قالت هذا البيت ، قال الحجاج : قاتلها الله ! والله ما أصاب صفتي شاعر
مذ دخلت العراق غيرها ، ثم التفت إلى عنبسة بن سعيد ، فقال : والله إنى لأعد للأمر
عسى أن لا يكون أبداً ، ثم التفت إليها فقال : حسبك ! قالت : إنى قد قلت أكثر
من هذا . قال : حسبك ويحك ! حسبك ، ثم قال : يا غلام اذهب إلى فلان فقل له :
اقطع لسانها ، فذهب بها ، فقال له : يقول لك الأمير : اقطع لسانها ، فأمر بإحضار
الحجّام ، فالتفت إليه ، فقالت : ثكلتك أمك ! أما سمعت ما قال ؟ إنما أمرك أن تقطع
لساني بالصلّة ، فبعث إليه يستثديه ، فاستشاط الحجاج غضباً ، وهمّ بقطع لسانه ، وقال :
أرُدّها ، فلما دخلت عليه ، قالت : كاد وأمانة الله يقطع مقولى ! ثم أنشأت تقول :
حَجَّاجُ أَنْتَ الَّذِي مَا فَوْقَهُ أَحَدٌ إِلَّا الْخَلِيفَةُ وَالْمُسْتَفْزَرُ الصَّمَدُ^(٤)
حَجَّاجُ أَنْتَ شِهَابُ الْحَرْبِ إِنْ لَقِحت وَأَنْتَ لِلنَّاسِ نُورٌ فِي الدُّجَى يَقْدُ^(٥)

ثم أقبل الحجاج على جلسائه ، فقال : أتدرون من هذه ؟ قالوا : لا والله أيها الأمير ،
إلا أننا لم نَرَ قط أفصح لساناً ، ولا أحسن محاورّة ، ولا أملح وجهاً ، ولا أحرص شعراً
منها ، فقال : هذه لبلى الأخريلية ، التي ماتت توبة الخفاجي من حبها ، ثم التفت إليها
فقال : أنشدينا يا لبلى بعض ما قال فيك توبة ، قالت : نعم أيها الأمير هو الذي يقول :

وَهَلْ تَبْكِينَ لَيْلِي إِذَا مِتُّ قَبْلَهَا وَقَامَ عَلَى قَبْرِى النِّسَاءُ النَّوَائِحُ ؟

(١) الرز : الصوت تسمعه من بعيد . (٢) الصرى : بقية اللبن . (٣) العون جمع عوان .

كسحاب ، وهى التى كان لها زوج . (٤) الصمد : الذى يصمد أى يقصد فى قضاء الحوائج .

(٥) لفتحت : أصله من لفتحت الناقة أى قبلت اللقاح ، والشهاب : شعلة من نار ساطعة ، ويقعد يتوقد .

كما لو أصاب الموت ليلي بكيتها
وأغبط من ليلي بما لا أناله
ولو أن ليلي الأخيالية سلمت
لسلمت تسليم البشاشة أو زقا
وجاد لها دمع من العين سافح^(١)
بلى ، كل ماقرت به العين طامح
على ، ودوني جنسدل وصفاح^(٢)
إليها صددي من جانب القبر صاح^(٣)

فقال : زيدينا من شعره يا ليلي ، قالت : هو الذي يقول :

حامة بطن الواد بين ترنمي
أبيني لنا ، لا زال ريشك ناعما
وكنت إذا ما زرت ليلي تبرقت
وقد رابني منها صدود رأيت
وأشرف بالقور اليفاع لعني
يقول رجال : لا يضيرك نأياها
بلى ، قد يضير العين أن تكثر البكا
وقد زعمت ليلي بأني فاجر
سقاك من الغر الغوادي مطيرها^(٤)
ولا زات في خضراء غضض نصيرها
فقد رآني منها الغداة سفورها
وإعراضها عن حاجتي وبسورها^(٥)
أرى نار ليلي أو يراني بصيرها^(٦)
بلى ، كل ماشف النفوس يضيرها
ويمنع منها نومها وسرورها
لنفسى تقاها ، أو عليها فجورها

فقال الحجاج : يا ليلي ، ما الذي رآه من سفورك ؟ فقالت : أياها الأمير ، كان
يلم بي كثيراً ، فأرسل إلي يوماً : إني آتيك ، وقطن الحى ، فأرصدوا له ، فلما أتاني
سقرت عن وجهي ، فعلم أن ذلك لشر ، فلم يزد على التسليم والرجوع ، فقال : لله درك !

(١) سافح : منصب . (٢) الجندل : الحجارة ، والصفائح : حجارة القبر العراض .

(٣) زقا : صاح ، والصدى - وهو الهامة - طائر يخرج من رأس المقتول ، تزعم الأعراب أن
روح القتيل تخرج ، فتصير هامة إذا لم يدرك بثأره ، فتصيح على قبره : اسقوني اسقوني حتى يثأر به ، وهذا
مثل يراد به تحريض ولي القتيل على طلب دمه ، فجملة جهلة الأعراب حقيقة . (٤) الغوادي : جمع غادية ،
وهي السحابة تنشأ غدوة . (٥) بسر كدخل : عبس وكلع . (٦) القور : جمع قارة ، وهي الجبيل
الصغير ، المنقطع عن الجبان ، واليفاع : التل .

نهل رأيت منه شيئاً تكرهينه ؟ فقالت : لا والله الذي أسأله أن يصلحك ، إنه قال مرة
قولاً ظننت أنه قد خضع لبعض الأمر ، فأنشأت أقول :

وذى حاجة قلنا له لا تبخ بها فليس إليها ما حيت سبيل
لنا صاحب لا ينبغي أن نخوته وأنت لأخرى صاحب و خليل
فلا والله الذي أسأله أن يصلحك ، مارأيت منه شيئاً ، حتى فرق الموت بيني وبينه ،
قال : ثم مه ؟ قالت : ثم لم يلبث أن خرج في غزاة له ، فأوصى ابن عم له ، إذا أتيت
الحاضر من بنى عبادة فناد بأعلى صوتك :
عفا الله عنها ، هل أبيتن ليلة من الدهر لا يسرى إلى خيالها ؟
وأنا أقول :

وعنه عفا ربى وأحسن حاله فعزت علينا حاجة لا ينالها
قال : ثم مه ؟ قالت : ثم لم يلبث أن مات ، فأتانا نعيه ، فقال : أنشدنا بعض
مرائك فيه ، فأنشدت :

لتبك العذاري من خفاجة نسوة بماء شئون العبرة المتحدر^(١)
قال لها : فأنشدنا ، فأنشدته :

كان فتى الفتيان توبة لم ينسخ قلائص يفحصن الحصى بالكرأكر^(٢)
فلما فرغت من القصيدة ، قال محسن الفقسي : - وكان من جلساء الحجاج -

(١) الشئون : جمع شأن ، وهو مجرى الدمع إلى العين . وكتب مصحح الأمانى قال : « قوله المتحدر
كذا في النسخ ، وكتب بهامش بعضها لعله المتحادر بالألف قبل الدال ، لتستقيم القافية ، وفي هامش بعض
النسخ بعد البيت الآتى :

فتى لا تخطاه الرفاق ولا يرى لقدر عيالاً دون جار مجاور » اهـ

(٢) القلائص جمع قلوص كصبور ، وهى الناقة الشابة ، أو الباقية على السير ، يفحصن : يقلبن ،
من فحص المطر التراب تلبه ، وفحص القطا التراب : اتخذ فيه أفضوا وهو مجثمه ، والكرأكر : جمع كركرة
بالسكسر ، وهى زور البهيم .

من الذي تقول هذه هذا فيه؟ فوالله إني لأظنها كاذبة، فنظرت إليه، ثم قالت: أيها الأمير إن هذا القائل لورأى توبة أسره أن لا تكون في داره عذراه إلا هي حامل منه، فقال الحجاج: هذا وأبيك الجواب، وقد كنت عنه غنياً، ثم قال لها: سئلي يا إيلي تُعطيني، قالت: أعط، ففعلت أعطى فأحسن، قال: لك عشرون، قالت: زد ففعلت زد فأجمل، قال: لك أربعون، قالت: زد، ففعلت زد فأكمل، قال: لك ثمانون، قالت: زد، ففعلت زد فتمم، قال: لك مائة، واعلم أنها غم، قالت: معاذ الله أيها الأمير، أنت أجود جوداً، وأجهد مجداً، وأوزى زنداً، من أن تجعلها غمًا، قال: فما هي؟ وينحك يا إيلي؟ قالت: مائة من الإبل برعاتها، فأمر لها بها، ثم قال: ألك حاجة بعدها؟ قالت: تدفع إلى النافذة الجمدي، قال: قد فعلت، وقد كانت تهجوه ويهجوها، فبلغ النافذة ذلك، فخرج هارباً عائداً بعبد الملك، فاتبعته إلى الشام، فهرب إلى قتيبة بن مسلم بخراسان، فاتبعته على البريد بكتاب الحجاج إلى قتيبة، فمات بقومس^(١)، ويقال بمخلوان.

(الأمالي ١ : ٨٦ ، وزهر الآداب ٣ : ٢٦٥)

٣٩٣ الغضبان بن القبعثري والحجاج

ورد على الحجاج كتاب من عبد الملك، يأمره أن يبعث إليه بثلاثين جارية، عشرين من النجائب، وعشرين من قعد النكاح، وعشرين من ذوات الأحلام، فلما نظر إلى الكتاب لم يدر ما وصفه من الجوارى، فعرضه على أصحابه فلم يعرفوه، فقال له بعضهم: أصلح الله الأمير، ينبغي أن يعرف هذا من كان في أوليته بدويًا، فله معرفة أهل البدو، ثم غزا فله معرفة أهل الغزو، ثم شرب الشراب، فله بداه أهل الشراب، قال: وأين هذا؟ قيل: في حبسك، قال: ومن هو؟ قيل للغضبان الشيباني، فأحضر

(١) قومس: صقع كبير بين خراسان وبلاد الجبل.

فلما مثل بين يديه ، قال : أنت القائل لأهل الكوفة يتغدّون بي قبل أن أتعشى بهم^(١) ؟
 قال : أصلح الله الأمير : ما نفعت من قالها ، ولا ضرت من قيلت فيه ، قال : إن
 أمير المؤمنين كتب إلى كتاباً لم أدر ما فيه ، فهل عندك شيء منه ؟ قال : يُقرأ على ،
 فقرأ عليه ، فقال : هذا بين ، قال : وما هو ؟ قال : « أمّا التَّجِييبَةُ مِنَ النِّسَاءِ : فَالَّتِي
 عَظُمَتْ هَامَتُهَا ، وَطَالَ عُنُقُهَا ، وَبَعُدَ مَا بَيْنَ مَنْكَبَيْهَا وَتَدْبِيهَا ، وَاتَّسَعَتْ رَاحَتُهَا ،
 وَنَحْنَتْ رُكْبَتَاهَا ، فَهَذِهِ إِذَا جَاءَتْ بِالْوَلَدِ جَاءَتْ بِهِ كَاللَّيْثِ ؛ وَأَمَّا قَمَدُ النِّكَاحِ ، فَهِيَ
 ذَوَاتُ الْأَعْجَازِ ، مُنْكَسِرَاتُ الثُّدِيِّ ، كَثِيرَاتُ اللَّحْمِ يَقْرُبُ بَعْضُهُنَّ مِنْ بَعْضٍ ،
 فَأُولَئِكَ يَشْرِيَنَّ الْقَرَمُ^(٢) وَيُرْوِيَنَّ الظَّمَانَ ؛ وَأَمَّا ذَوَاتُ الْأَحْلَامِ ، فَبِنَاتُ خَمْسٍ وَثَلَاثِينَ
 إِلَى الْأَرْبَعِينَ^(٣) .

قال الحجاج : أخبرني بشر النساء ، قال : أصلح الله الأمير : شرهن الصغيرة
 النقبية^(٤) ، الحديدية الرُكْبَةِ ، السريعة الوثبة ، الواسطة^(٥) في نساء الحى ، التي إذا
 غضبت غضب لها مائة ، وإذا سمعت كلمة قالت لا والله لا أنتهى حتى أقرها قرارها ،
 التي في بطنها جارية ، ويتبعها جارية ، وفي حجرها جارية ، قال الحجاج : على هذه
 لعنة الله ، ثم قال : ويحك ، فأخبرني بخير النساء ، قال : خيرهن القريبة القامة من السماء
 الكثيرة الأخذ من الأرض ، الودود الودود ، التي في بطنها غلام ، وفي حجرها غلام ،
 ويتبعها غلام ، قال : ويحك فأخبرني بشر الرجال ، قال : شرهم السنوط الربوط^(٦) ،
 المحمود في حرّم الحى ، الذي إذا سقط لإحداهن دلو في بئر انحط عليه حتى يخرج ،

(١) انظر خطبته في ص ٣٣٧ . (٢) القرم محرّكة : شدة شهوة اللحم ، وكثر حتى قيل في الشوق

إلى الحبيب . (٣) هنا سطر أسقطناه ؛ فلينظره في الأصل من شاء . (٤) الوجه .

(٥) وسطهم (كوعد) : جلس وسطهم ، كوسطهم . (٦) السنوط : الذى لاشعر فى وجهه

ألبتة « الكوسج » كجعفر ، وفى الأصل « السبوط » بالباء ، ولم أجده فى كتب اللغة ، وإنما الذى فيها من
 هذه المادة : « أسبط بالأرض : لصق » فالوصف منه « مسبط » ومعناه على هذا : الكسل المتقاعد عن السعى ،
 والربوط ، يريد به الملازم لبيته الذى لا يخرج منه للتصرف والعمل كآذنه قد ربط نفسه فيه .

فمن زينه الخير ، ويقلن عاقى الله فلاناً ، قال : على هذا لعنة الله ، فأخبرني بخير الرجال ؟
قال : خيرهم الذى يقول فيه الشماخ التغلبى :

فتى ليس بالراضى بأذنى معيشة ولا فى بيوت الحى بالمتولج^(١)
فتى يملأ الشيزى ويروى سنانه ويضرب فى رأس الكمى المدجج^(٢)
فقال له : حسبك ، كم حبسنا عطاءك ؟ قال : ثلاث سنين ، فأمر له بها

وخلّى سبيله . (مروج الذهب ٢ : ١٤٧)

٣٩٤ - ابن القرية يعدد مساوى المزاح

وقال الحجاج بن يوسف لابن القرية : ما زالت الحكماء تذكره المزاح وتنهى عنه ،
فقال : « المزاح من أدنى منزلته إلى أقصاها عشرة أبواب : المزاح أدله فرح وآجره
ترح ، المزاح نقائص السفهاء كالشعر نقائص الشعراء ، والمزاح يؤغر صدر الصديق ،
وينفر الرفيق ، والمزاح يبدي السرائر ، لأنه يظهر المعابر ، والمزاح يسقط المروءة ، ويبدي
الحنفا ، لم يجر المزاح خيراً وكثيراً ما جرّ شراً ، الغالب بالمزاح واتر ، والمغلوب به تأثر ،
والمزاح يجلب الشتم صغيره ، والحرب كغيره ، وليس بعد الحرب إلا عفو بعد قدرة » ،
فقال الحجاج : « حسبك ، الموت خير من عفوٍ معه قدرة » .

(زهر الآداب ٢ : ٨٥)

(١) الداخل .

(٢) الشيزى : خشب أسود تتخذ منه القصاع ، يكنى عن كرمه ، والمدجج : الشاك فى السلاح .

٣٩٥ - يزيد بن أبي مسلم وسليمان بن عبد الملك

لَمَّا وُلِّيَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ ، أَتَى بِيَزِيدَ بْنَ أَبِي مُسْلِمٍ : مَوْلَى الْحِجَابِ ، فِي جَامِعَةِ (١) ، وَكَانَ رَجُلًا دَمِيمًا تَقْتَحِمُهُ (٢) الْعَيْنُ ، فَلَمَّا رَأَاهُ سُلَيْمَانُ قَالَ : لَعْنُ اللَّهِ اسْمِرًا أَجْرَكَ رَسَنَكَ (٣) ، وَوَلَّى مِثْلَكَ ، فَقَالَ : « يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّكَ رَأَيْتَنِي وَالْأَمْرَ عَنِّي مُدْبِرًا ، وَلَوْ رَأَيْتَنِي وَالْأَمْرَ عَلَيَّ مُقْبِلًا ، لَأَسْتَعْظَمْتَ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَعْصَمْتَ ، وَلَا اسْتَجَلَلْتَ مَا اسْتَحْقَرْتَ ، فَقَالَ لَهُ سُلَيْمَانُ : « أَيْنَ تَرَى الْحِجَابَ ، أَبْهَوِي فِي النَّارِ ، أَمْ قَدْ اسْتَقَرَّ فِي قَعْرِهَا ؟ » ، فَقَالَ : « يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : لَا تَقُلْ هَذَا ، إِنَّ الْحِجَابَ قَمَعَ لَكُمْ الْأَعْدَاءَ ، وَوَطَأَ لَكُمْ الْمَنَابِرَ ، وَزَرَعَ لَكُمْ الْهَيْبَةَ فِي قُلُوبِ النَّاسِ ، وَبَعْدُ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنِ يَمِينِ أَبِيكَ ، وَشِمَالِ أَخِيكَ الْوَلِيدِ ، فَضَعَهُ مِنَ النَّارِ حَيْثُ شِئْتَ » ، فَصَاحَ سُلَيْمَانُ : أَخْرِجْ إِلَى لَعْنَةِ اللَّهِ ، نِمِ التَّفْتُ إِلَى جِلْسَانِهِ ، فَقَالَ : قَبِّحَهُ اللَّهُ مَا كَانَ أَحْسَنَ تَرْتِيبِهِ لِنَفْسِهِ وَلِصَاحِبِهِ ، وَلَقَدْ أَحْسَنَ الْمَكَاافَاةَ ، أَطْلَقُوا سَبِيلَهُ .

(أمال السيد المرتضى ١ : ٢١٥ ، وللمقد الفريد ١ : ١٥٠ ،

ومروج الذهب ٢ : ١٦٤ ، والبيان والتبيين ١ : ٢١٠)

(١) الجامعة : القيد . (٢) تزدرية . (٣) الرسن : الحبل ، وأجره رسنه : تركه يصنع ما شاء ، يعنى الحجاج ، وكان سليمان يكتب إلى الحجاج في أيام أخيه الوليد بن عبد الملك كتباً فلا ينظر له فيها ، فحقد عليه ، وكتب إليه كتاباً شديد الهمجة ، وفيه يقول « وأيم الله لئن أمكنتني الله منك لأدوسنك دوسة تلين منها فرائصك ، ولأجعلنك شريداً في الجبال ، تلوذ بأطراف الشمال » ويقول : فرويلك حتى تنظر كيف يكون مصيرك إن كانت بي وبك مدة أتعلم بها « فرد عليه الحجاج بكتاب يقول فيه : « ولعمري إنك لصبيس حديث السن تعذر بقلة عقلك ، وحدائث سنك ، ويرقب فيك غيرك » ويقول : « جمعت أموراً دلاك فيها الشيطان على أسوأ أمرك ، فكان الجفاء من خليقتك ، والحدق من طبيعتك ، وأقبل الشيطان بك وأدبر . . . الخ » انظر المقدم الفريد ج ٣ ص ١٦ ، وقد مات الحجاج قبل أن يتولى سليمان الخلافة بسنة .

٣٩٦ - وفود العراق على سليمان بن عبد الملك

وقدمت وفود العراق على سليمان بن عبد الملك بعد ما استخلف ، فأمرهم بشتم الحجاج ، فقاموا يشتمونه ، فقال بعضهم : « إن عدو الله الحجاج كان عبداً زبّاباً^(١) ، قنور بن قنور^(٢) ، لا نسب له في العرب » قال سليمان : أي شتم هذا ! إن عدو الله

(١) بائع زبيب ، قيل إنه كان يبيع الزبيب بالطائف ، وذكروا أنه كان أول أمره يعلم الصبيان مع أبيه بالطائف - ويسمى كليبا - وفيه يقول الشاعر :

أينسى كليب زمان الهزال وتعليمه سورة الكور ؟
رغيف له فلك دائر وآخر كالقمر الأزهر

« يشير إلى خبز المعلمين ، فإنه مختلف في الصغر والكبر على قدر بيوت الصبيان » ويقول آخر :

فلولا بتومروان كان ابن يوسف كما كان عبداً من عبيد إيد
زمان هو العبد المقر بذله يروح صبيان القرى ويغادي

« راحهم وروحهم : ذهب إليهم رواحا » ، ثم صار دباغاً كما يدل على ذلك هجاء كعب الأشقرى له ، وذلك أن المهلب بن أبي صفرة لما أطال قتال الأزارقة ، كتب إليه الحجاج يستبطه ويضعفه ويمجزه في تأخير مناجزتهم ، فقال المهلب لرسوله : قل له : إن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب ، فإن كنت نصبتني لحرب هؤلاء القوم على أن أديرها كما أرى ، فإن امكنتني الفرصة انهرتها ، وإن لم تمكني فأنا أدبر ذلك بما يصلحه ، وإن أردت مني أن أعمل برأيك وأنت غائب ، فإن كان صواباً فلك ، وإن كان خطأ فملي ، فابحث من رأيك مكاناً » وقام كعب الأشقرى إلى المهلب ، فأنشده بحضرة رسول الحجاج أبياتا منها :

إن ابن يوسف غره من غزوكم خفض المقام بجانب الأمصار
لو شاهد الصفين حين تلاقيا ضاقت عليه رحبية الأقطار
ورأى معارضة الدباغ غنيمة أزمان كان محالف الإقتار

فبلغت أبياته الحجاج ، فكتب إلى المهلب يأمره بإشخاص كعب الأشقرى إليه ، فأعلم المهلب كعباً بذلك ، وأوفده إلى عبد الملك من ليلته ، وكتب إليه يستوهبه منه ، فقدم كعب على عبد الملك واستنشهده ؛ فأعجبه ما سمع منه ، فأوفده إلى الحجاج ، وكتب إليه يقيم عليه أن يدفع عنه ، فلما دخل عليه قال : إيه يا كعب ، « ورأى معارضة الدباغ غنيمة » ! فقال له : أيها الأمير ، والله لقد وددت في بعض ما شاهدته في تلك الحروب وأزماتها ، وما يوردناه المهلب من خطرنا ، أن أنجو منها ، وأكون حججاً ، أو حائكاً ، فقال له الحجاج : أولى لك ، لولا قسم أمير المؤمنين لما نفعك ما أسمع ، فالحق بصاحبك ، وبعض الرواة ينكر هذا القول ، ويقول : هذه من أكاذيب الشعراء : - انظر الأغاني ج ١٣ ص ٥٧ ، وشرح البيهقي ص ١١٢ ، والعقد الفرید ٣ : ٦ . (٢) القنور : الشرس الصعب من كل شيء ، وكسنور : العبد .

الحجاج كتب إلى : « إنما أنت نقطة من مداد ، فإن رأيت في ما رأى أبوك وأخوك كنت لك كما كنت لهما ، وإلا فأنا الحجاج وأنت النقطة ، فإن شئت محوتك ، وإن شئت أهدتُك » فالعنوه لعنه الله ، فأقبل الناس يلعنونه ، فقام ابن أبي بُرْدَة بن أبي موسى الأشعري فقال : « يا أمير المؤمنين ، إنا نخبرك عن عدو الله بِمِلم » قال : هات ، قال : « كان عدو الله يتزينُ تزِينُ المومِسة^(١) ، ويصعد المنبر فيتكلم بكلام الأخيار ، فإذا نزل عمل عمل الفراعنة ، وأكذب في حديثه من الدجال » ، فقال سليمان لرجاء بن حيوة : « هذا وأبيك الشتم ، لا ما تأتي به السفلة^(٢) » . (البيان والتبيين ١ : ٢١١)

٣٩٧ - كلام أبي حازم لسليمان بن عبد الملك

حج سليمان بن عبد الملك ، فلما قدم المدينة للزيارة بعث إلى أبي حازم الأعرج ، وعنده ابن شهاب ، فلما دخل قال : تكلم يا أبا حازم . قال : فيم أتكلم يا أمير المؤمنين؟ قال : في المخرج من هذا الأمر . قال : يسير إن أنت فعلته . قال : وما ذاك؟ قال : لا تأخذ الأشياء إلا من حلتها ، ولا تضعها إلا في أهلها . قال : ومن يقوى على ذلك؟ قال : من قلده الله من أمر الرعية ما قلدهك ، قال : عظمى أبا حازم . قال : اعلم أن هذا الأمر لم يصر إليك إلا بموت من كان قبلك ، وهو خارج من يديك بمثل ما صار إليك . قال : يا أبا حازم أشر على ، قال إنما أنت سوق ، فما نفق^(٣) عندك حبل إليك من خير أو شر ، فاختر أيهما شئت . قال : مالك لا تأتينا؟ قال : وما أصنع بإيمانك يا أمير المؤمنين؟ إن أدنيتني فتنتني ، وإن أقصيتني أخزيتني ، وليس عندك ما أرجوك له ، ولا عندي

(١) امرأة مومس ومومسة : فاجرة ، أو مجاهرة بالفجور « من الومس كوهد : وهو احتكاك الشيء بالشيء .

حتى ينجرده ؛ وأومست : أمكنت من الومس » . (٢) سفلة الناس كنفمة وفرحة : أسافلهم وغوغاؤهم .

(٣) راج .

ما أخافك عليه : قال : فارفع إلينا حاجتك . قال : قد رفعتها إلى من هو أقدر منك عليها ،
فما أعطاني منها قِبَلْتُ ، وما منعتني منها رَضِيتُ .

(العقد الفريد ١ : ٣٠٦ ، والبيان والتبيين ٣ : ٧٢)

٣٩٨ - أبو حازم وسليمان بن عبد الملك أيضاً

ودخل عليه أبو حازم الأعرج ، فقال : يا أبا حازم ما لذا نكره الموت ؟ فقال :
لأنكم عمّرتُم دُنْيَاكُمْ ، وأخرتُم آخِرَتَكُمْ ، فأنتم تَكْرَهُونَ التُّنْقَلَةَ مِنَ الْعُمَرَانِ إِلَى
الْخِرَابِ ، قال : فأخبرني ، كيف القُدوم على الله ؟ قال : أما الْمُحْسِنُ فَكَالْغَائِبِ يَأْتِي
أَهْلَهُ مَسْرُورًا ؟ وأما المَسِيءُ فَكَالْعَبْدِ الْآبِقِ ^(١) يَأْتِي مَوْلَاهُ مَحْزُونًا ، قال : فأى الأعمال
أفضل ؟ قال : أداء الفرائض مع اجتناب المحارم ، قال : فأى القول أعدل ؟ قال : كلمة
حق عند من تخافُ وترجو ، قال : فأى الناس أعقل ؟ قال : مَنْ عَمِلَ بِطَاعَةِ اللَّهِ ، قال :
فأى الناس أجهل ؟ قال : من باع آخِرَتَهُ بِدُنْيَا غَيْرِهِ ، قال : عِظْنِي وَأَوْجِزْ ، قال :
يا أمير المؤمنين ، نَزَّهُ رَبُّكَ ، وَعَظَّمَهُ أَنْ يَرَاكَ حَيْثُ نَهَاكَ ، أَوْ يَفْقِدَكَ حَيْثُ أَمَرَكَ ،
فبكى سليمان بكاءً شديداً ، فقال له بعض جاسائِهِ : أسرفتَ وَيْحَكَ عَلَى أمير المؤمنين ،
فقال له أبو حازم : أسكت فإن الله عزَّ وجلَّ أخذ الميثاقَ عَلَى الْعُلَمَاءِ لِيُبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ
وَلَا يَكْتُمُونَهُ ، ثم خرج فلما صار إلى منزله بعث إليه سليمان بمال ، فردّه وقال للرسول :
قل له : وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا أَرْضَاهُ لَكَ ، فَكَيْفَ أَرْضَاهُ لِنَفْسِي ؟

(مروج الذهب ٢ : ١٦٤ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ١٤٧)

٣٩٩ - وفد أهل الحجاز عند عمر بن عبد العزيز

لما استخلف عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، قدّم عليه وفود أهل كل بلد ، فتقدم إليه وفد أهل الحجاز ، فاشربهم من غلام للسلام ، فقال عمر : مهلاً يا غلام ، ليبتكلم من هو أسنُّ منك ، فقال الغلام : مهلاً يا أمير المؤمنين ، إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه ، فإذا منح الله العبد لساناً لافظاً ، وقلباً حافظاً ، فقد استجد له الحليّة ، ولو كان التقدم بالسنّ لكان في هذه الأمة من هو أحق بمجلسك منك ، فقال عمر : صدقت ، تكلم ، فهذا السحر الحلال ، فقال : يا أمير المؤمنين ، نحن وفد التهنئة لا وفد المرزبة^(١) ، قدّمنا إليك من بلدنا ، نحمد الله الذى منّ بك علينا ، لم يُخرجنا إليك رغبةً ولا رهبةً ، لأننا قد أمنا في أيامك ما خفنا وأدركنا ما طلبنا ، فقال : عظنا يا غلام وأوجز ، قال : نعم يا أمير المؤمنين ، إن أناساً غرّم حِلْمُ الله عنهم ، وطولُ أمليهم ، وحسنُ ثناء الناس عليهم ، فلا يغرّك حِلْمُ الله عنك ، وطولُ أملاك ، وحسنُ ثناء الناس عليك ، فنزل قدّمك ، فنظر عمر في سن الغلام ، فإذا هو قد أتت عليه بضع عشرة سنة^(٢) ، فأنشأ عمر يقول :

تعلم فليس المرء يولد عالماً وليس أخو علم كمن هو جاهل
وإن كبير القوم لا علم عنده صغيرٌ إذا التفت عليه المحافل

(مروج الذهب ٢ : ١٦٩ ، وزهر الآداب ١ : ٩)

(١) رزاه ماله كجعل وعلم : أصاب منه شيئاً ، ورزاه مرزبة : أصاب منه خيراً ، أى لساناً وافدين للمعطاء .

(٢) وفي زهر الآداب : « فسأل عمر عن سن الغلام فقيل عشر سنين » .

٤٠٠ — خالد بن صفوان يعزى عمر بن عبد العزيز ويهنئه

وعزى خالد بن صفوان عمر بن عبد العزيز وهنأه بالخلافة ، فقال :
« الحمد لله الذى منّ على الخلق بك ، والحمد لله الذى جعل موتكم رحمة ، وخلافتكم
عِصمة ، ومصائبكم أسوة ، وجعلكم قدوة »
(زهر الآداب ٣ : ٣٤٧)

٤٠١ — خطبة عبد الله بن الأهم

دخل عبد الله بن الأهم على عمر بن عبد العزيز - رحمه الله تعالى - مع العامة ، فلم
يفجأ عمر إلا وهو مائل بين يديه يتكلم ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، فإن الله خلق الخلق ، غنياً عن طاعتهم ، آمناً من معصيتهم ، والناس
يومئذٍ فى المنازل والرأى مختلفون ، والعرب بشرٌ تلك المنازل ، أهل الوتر وأهل المدرة
تحتأز دونهم طيبات الدنيا ورَفَاغَةَ^(١) عيشتها ، مَيِّتِهِمْ فى النار ، وحبهم أعمى ، مع
ما لا يُحصى من المرغوب عنه ، والمزهود فيه ، فلما أراد الله أن يَنْشُرَ فيهم رحمة ، بعث
إليهم رسولا منهم « عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » ،
فلم ينعهم ذلك أن جَرَّحُوهُ فى جسمه ، ولقبوه فى اسمه^(٢) ، ومعه كتاب من الله لا يَرَحُلُ
إلا بأمره ولا ينزل إلا بإذنه ، واضطروه إلى بطن غار ، فلما أمر بالعزيمة أسفر لأمر الله
لونهُ ، فأفْلَجَ^(٣) الله حُجَّتَهُ ، وأعلى كلمته ، وأظهر دعوته ، ففارق الدنيا نقيّاً تقياً ،
صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم قام بعده أبو بكر رضى الله تعالى عنه ، فسلك سُنَّتَهُ وأخذ سبيله ،
وارتدت العرب فلم يقبل منهم بعد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إلا الذى كان قابلاً منهم ،

(١) الرفافة والرفافية : سعة للعيش والخصب . (٢) فوصفوه بأنه ساحر ، وكذاب ،

وكاهن ، وشامر . (٣) نصر .

فانتضى السيوف من أعقادها ، وأوقد النيران من شعلها ، ثم ركب بأهل الحق أهل الباطل ، فلم يَبْرَحْ يَفْصِلُ أوصالهم ، ويسقي الأرض دماءهم ، حتى أَدْخَاهُمْ فِي الَّذِي خَرَجُوا مِنْهُ ، وَقَرَّرَهُم بِالَّذِي نَفَرُوا مِنْهُ ، وَقَدْ كَانَ أَصَابَ مِنْ مَالِ اللَّهِ بَكْرًا^(١) يَرْتَوِي عَلَيْهِ ، وَحَبَشِيَّةً تُرَضِّعُ وَلَدًا لَهُ ، فَرَأَى ذَلِكَ غَضَّةً عِنْدَ مَوْتِهِ فِي حَلْقِهِ ، فَأَدَّى ذَلِكَ إِلَى الْخَلِيفَةِ مِنْ بَعْدِهِ ، وَبَرِيءٌ إِلَيْهِمْ مِنْهُ ، وَفَارَقَ الدُّنْيَا نَقِيًّا تَقِيًّا ، عَلَى مِنْهَاجِ صَاحِبِهِ ، رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ . ثُمَّ قَامَ مِنْ بَعْدِهِ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ ، فَحَصَرَ الْأَمْصَارَ ، وَخَاطَطَ الشَّدَّةَ بِاللَّيْنِ ، فَحَسَرَ عَنِ ذِرَاعِيهِ ، وَشَمَّرَ عَنِ سَاقِيهِ ، وَأَعَدَّ الْأُمُورَ أَقْرَانَهَا^(٢) ، وَلِلْحَرْبِ آتَمَهَا ، فَلَمَّا أَصَابَهُ قِنٌّ^(٣) الْمَغِيرَةَ بْنِ شُعْبَةَ ، أَسْرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ بِسْأَلِ النَّاسِ : هَلْ يُثَبِّتُونَ قَاتِلَهُ ؟ فَلَمَّا قِيلَ لَهُ قِنٌّ الْمَغِيرَةَ ، اسْتَهْلَ^(٤) بِحَمْدِ اللَّهِ أَنْ لَا يَكُونَ أَصَابُهُ ذَوْحًا فِي النَّفْسِ ، فَيَسْتَحِلُّ دَمَهُ بِمَا اسْتَحِلَّ مِنْ حَقِّهِ ، وَقَدْ كَانَ أَصَابَ مِنْ مَالِ اللَّهِ بَعْضًا وَثَمَانِينَ أَلْفًا ، فَكَسَرَ بِهَا رِبَاعَهُ^(٥) ، وَكَرِهَ بِهَا كَفَالَةَ أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ ، فَأَدَّى ذَلِكَ إِلَى الْخَلِيفَةِ مِنْ بَعْدِهِ ، وَفَارَقَ الدُّنْيَا نَقِيًّا تَقِيًّا عَلَى مِنْهَاجِ صَاحِبِهِ ، رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا ، ثُمَّ إِنَّا وَاللَّهِ مَا اجْتَمَعْنَا بَعْدَهَا إِلَّا عَلَى ظَلَمٍ^(٦) ، ثُمَّ إِنَّكَ يَا عُمَرَ ابْنَ الدُّنْيَا ، وَلَدْتُكَ مَلُوكًا ، وَأَلْقَمْتُكَ ثَدْيًا ، فَلَمَّا وَوَلِيَتْهَا أَلْقَمَتْهَا حَيْثُ أَقَامَهَا اللَّهُ ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَلَّابَكَ حَوْثَبًا^(٧) ، وَكَشَفَ بِكَ كُرْبَتَهَا ، امْضِ وَلَا تَلْتَفِتْ ، فَإِنَّهُ لَا يَدِلُّ عَلَى الْحَقِّ شَيْءٌ ، وَلَا يَعِزُّ عَلَى الْبَاطِلِ شَيْءٌ ، أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلِكُمْ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ، وَلَمَّا أَنْ قَالَ : « ثُمَّ إِنَّا وَاللَّهِ مَا اجْتَمَعْنَا بَعْدَهَا إِلَّا عَلَى ظَلَمٍ » سَكَتَ النَّاسُ كُلُّهُمْ إِلَّا هَشَامًا فَإِنَّهُ قَالَ : « كَذَبْتَ » .

(البيان والتبيين ٢ : ٥٩ . والعقد الفريد ٢ : ١٤٣ . وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ١٠٩ . وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ١٣٦) .

(١) الفقى من الإبل . (٢) أسبابها التي تقاد بها ، جمع قرن كسبب ، وهو الخيل يجمع به البعيران .

(٣) القن : عبد ملك هو وأبوه ، أو الذى ولد عندك ولا تستطيع إخراجه عنك (٤) صاح .

(٥) الرباع جمع ربع كشمس : وهو الدار . (٦) جمع ظالم : وهو المتهم والمائل ، وأصله من ظلم

البعير كنع : غمز في مشيه . (٧) الحوية : الهم والحاجة .

٤٠٢ — مقام محمد بن كعب القرظي بين يدي عمر بن عبد العزيز

قام محمد بن كعب القرظي بين يدي عمر بن عبد العزيز، فقال :

« إنما الدنيا سوقٌ من الأسواق ، فمنها خرج الناس بما ينفعهم وبما يضرهم ، وكم من قوم قد غرهم مثل الذي أصبحنا فيه ، حتى أتاهم الموت فاستوعبهم ، فخرجوا من الدنيا مُرَمِلِينَ^(١) ، لم يأخذوا المأجور من الآخرة عُدَّةً ، ولا لِمَا كَرِهُوا جَنَّةً ، واقنسم ما جمعوا من لم يخدمهم ، وصاروا إلى من لا يعذرهم ، فانظر الذي تحب أن يكون معك إذا قدمت ، فقدمه بين يديك حتى تخرج إليه ، وانظر الذي تكره أن يكون معك إذا قدمت ، فابتغ به البَدَل ، حيث يجوز البَدَل ، ولا تذهبن إلى سِلعة قد بارت على غيرك ، ترجو جوازها عنك . يا أمير المؤمنين ، افتح الأبواب ، وسهّل الحِجَاب ، وانصر المظلوم ، وَرُدّ الظالم . »

(عيون الأخبار م ٢ ص ٣٤٣ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ١٣٤)

٤٠٣ — وفد أهل الحجاز على هشام بن عبد الملك

وفد أهل الحجاز من قريش على هشام بن عبد الملك بن مروان ، وفيهم محمد ابن أبي الجهم^(٢) بن حذيفة العدوي ، وكان أعظمهم قدراً ، وأكبرهم سناً ، وأفضلهم رأياً وحِلماً ، فقام متوكئاً على عصا ، فقال :

أصلح الله أمير المؤمنين ، إن خطباء قريش قد قالت فيك فأطنبت ، وأنذت عليك فأحسنت ، ووالله ما بلغ قائلهم قدرك ، ولا أحصى مُشيدهم فضلك ، أفأذن لي في الكلام؟ قال: تكلم، قال: أفأؤجز أم أطنب؟ قال: بل أؤجز، قال: « تولاك الله أمير المؤمنين

(١) أرمل : نفذ زاده وانقر . (٢) في الأمالى « إسماعيل بن أبي الجهم » .

بالحسنى ، وزينتك بالتقوى ، وجمع لك خير الآخرة والأولى ، إن لى حوائج أفأذكرها؟
 قال : هاتها ، قال : كبرت سني ، وضعفت قواي ، واشتدت حاجتي ، فإن رأى
 أمير المؤمنين أن يجبر كسرى ، وينفي فقري ، قال : يابن أبي الجهم ، وما الذي يجبر
 كسرك ، وينفي فقرك ؟ قال : ألف دينار ، وألف دينار ، وألف دينار ، فأطرق هشام
 طويلاً ، ثم قال : هيهات يا بن أبي الجهم ، بيت المال لا يحتمل ما سألت ! فقال : أما
 إن الأمر لو واحد ، ولسكن الله آتراك لجلسك ، فإن تعطينا فحقتنا أدبت ، وإن تمنعنا نسأل
 الذي بيده ما حوت ، إن الله جعل العطاء محبة ، والمنع مبقضة ، ولأن أحبُّ
 إلى من أن أبغضك ، قال : فألف دينار لماذا ؟ قال : أفضى بها ديناً قد حم^(١) قضاؤه ،
 وقد حنى^(٢) حمله ، وأرهفتي^(٣) أهله ، قال : نعم المسلك أسلكتها ، ديناً قضيت ، وأمانة
 أدبت ، وألف دينار لماذا ؟ قال : أزوج بها من أدرك من ولدي ، فأشد بهم عضدي
 ويكثر بهم مددي قال : ولا بأس أغضضت طرفاً ، وحصنت فرجاً ، وأمرت^(٤)
 نسلاً ، وألف دينار لماذا ؟ قال : اشتري بها أرضاً يعيش بها ولدي ، وأستعين بفضلها
 على نواب دهرى ، وتسكون ذخرًا لمن بعدى ، قال : ولا بأس ، أردت ذخراً ،
 ورجوت أجراً ، ووصلت رجماً ، قد أمرنا لك بما سألت ، قال : فالحمد لله على ذلك ،
 وجزاك الله يا أمير المؤمنين والرحم خيراً ، وخرج ، فقال هشام : تالله ما رأيت رجلاً
 أظف في سؤال ، ولا أرفق في مقال من هذا ، هكذا فليكن القرشي ، وإنا لعرف
 الحق إذا نزل ، ونكره الإسراف والبخل ، وما نعطى تبذيراً ، ولا نمنع تقثيراً ،
 وما نحن إلا خزان الله في بلاده ، وأمناؤه على عباده ، فإن أذن أعطينا ، وإذا منع أبدينا ؛
 ولو كان كل قائل يصدق ، وكل سائل يستحق ، ما جبهنا^(٥) قائلنا ، ولا ردنا سائلاً ،
 فنسأل الذي بيده ما استحفظنا أن يجريه على أيدينا ، فإنه يمسط الرزق لمن يشاء

(١) حم الأمر : قضى وقدر . (٢) أثقلني . (٣) الإرهاق : أن تحمل الإنسان على

حالايطية . (٤) كثرت . (٥) جبهه كمنعه : اقيه بما يكره .

وَيَقْدِرُ^(١) ، إِنَّهُ كَانَ بِمِعَادِهِ خَيْرًا بَصِيرًا ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، لقد تكلمت فأبلغت ، وما بلغ في كلامه ما قصصت ، فقال : إنه مبتدى ، وليس المبتدى كالمقتدى .

(صبح الأعشى ١ : ٢٦٤ ، والأمال ١ : ١٤٧ ، والمقد الفريد ٢ : ٢٨٥)

٤٠٤ - مقام خالد بن صفوان بين يدي هشام

قال خالد بن صفوان : وفدت على هشام فوجدته قد بدأ يشرب الأدهن ، وذلك في عام باكرٍ وسميّه ، وتتابع وليّه^(٢) ، وأخذت الأرض زخرفها ، فهي كالزرابي^(٣) المبتوثة ، والقباطي^(٤) المنشورة ، وثرأها كالكافور ، لو وضعت به بضعة^(٥) لم تُترب^(٦) ، وقد ضربت له سُرَادِقَاتِ حَبَرٍ^(٧) ، بعث بها إليه يوسف بن عمر من اليمن ، تتلأأ كالعقمان^(٨) ، فأرسل إليّ ، فدخلت عليه ، ولم أنزل واقفاً ، ثم نظر إليّ كالمستنطق لي ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، أتمّ الله عليك نعمه ، ودفع عنك نقمه ، وجعل ما قلّدتك من هذا الأمر رُشداً ، وعاقبة ما يتول إليه حمداً ، وأخلصه لك بالثقي ، وكثره لك بالئما ، ولا كدّر عليك منه ما صفاً ، ولا خالط سُروَرَه بالردى ، فلقد أصبحت للمؤمنين ثقةً ومُستَراحاً ، إليك يقصدون في مظالمهم ، ويفزعون في أمورهم ، هذا مقام زبّن الله به ذِكْرِي ، وأطاب به شَرِي^(٩) ، إذ أراني وجه أمير المؤمنين ، ولا أرى لمقامي هذا شيئاً هو أفضل من أن أنبّه أمير المؤمنين أفضل نعمة الله عليه ، ليحمد الله على ما أعطاه ،

(١) يقبض ويضيق . (٢) الوسمى : مطر الربيع الأول ، سمي بذلك لأنه يسم الأرض ، والولي :

المطر بعد الوسمى . (٣) جمع زربي بالكسر ويضم : الغارق والبسط ، أو كل ما بسط واتكى عليه

(والغارق : الوسائد الصغيرة) . (٤) قباطي بضم الأول مع تشديد الآخر ، وقباطي بفتح الأول

مع تخفيف الآخر جمع قبطية بالضم على غير قياس ، وقد تكسر : ثياب كتان بيض رفاق كانت تعمل في مصر .

(٥) البضعة وقد تكسر : القطعة من اللحم . (٦) أثره وتربه : جعل عليه التراب .

(٧) حبر جمع حبرة كعنبية : ضرب من برود اليمن . (٨) العقمان : الذهب .

(٩) النشر : الرائحة الطيبة .

ولا شيء، أحضر من حديث سلف الملك من ملوك المعجم، إن أذن لي فيه حديثه به، قال: هات، قلت: «كأن رجل من ملوك الأعاجم جمع له فتاه^(١) السن، وصحة الطباع، وسعة الملك، وكثرة المال، وذلك بالخوزنقي، فأشرف يوماً، فنظر ما حوله، فقال لمن حضره: هل علمتم أحداً أوتي مثل الذي أوتيت؟ فقال رجل من بقايا حملة الحجّة: إن أذنت لي تسكمت. فقال: قل، فقال: أرأيت ما جمع لك، شيء هو لك، لم يزل ولا يزول، أم هو شيء كان لمن قبلك زال عنه، وصار إليك، وكذلك يزول عنك؟ قال: لا. بل شيء كان لمن قبلي، فزال عنه، وصار إليّ، وكذلك يزول عنى، قال: فمُترت بشيء تذهب لذته، وتبقى تبعته، تكون فيه قليلاً، وتُرهن به طويلاً؟ فسكى وقال: أين المهرّب؟ قال: إلى أحد أمرين: إما أن تُقيم في ملكك، فتعمل فيه بطاعة ربك، وإما أن تُلقى عليك أمساحاً^(٢)، ثم تلحق بجبل، تعبد فيه ربك. حتى يأتي عليك أجلك، قال: فإني إذا فعلت ذلك؟ قال: حياة لا تموت، وشباب لا يهرم، وصحة لا تسقم، وملاك جديد لا يبلى، قال: فإذا كان السحر فافرع على بابي، فإني مختار أحد الرأيين، فإن اخترت ما أنا فيه، كنت وزيراً لا يعصى، وإن اخترت فلوات الأرض وقفر البلاد، كنت رقيقاً لا يخالف، ففرع عليه عند السحر بابه، فإذا هو قد وضع تاجه، وخلع أطماره، ولبس أمساحه، وتهياً للسياحة، فلزما والله الجبل، حتى أتاهما أجلهما»، وأنشده قول عدي بن زيد:

وتفكر رب الخوزنقي إذا أصبح يوماً وللهدي تفكير
سرّه حاله وكثرة ما يملك والبحر معرضاً والسدير^(٣)
فارعوى قلبه، فقال: وما غبطة حتى إلى الممات بصير؟^(٤)

فسكى هشام وقام ودخل، فقال لي حاجبه: لقد كسبت نفسك شراً، دعاك أمير المؤمنين.

(١) الفتاه كماء: الشباب. (٢) الأمساح جمع مسح كحمل: وهو الكساء من شعر كثوب الرهبان.

(٣) معرضاً: من أعرض الشيء إذا ظهر وبرز. (٤) الغبطة: المسرة.

لتحدثه وتلهيه ، وقد عرفت علمه ، فما زدت على أن نعتت إليه نفسه ، فأقت أياً أتوقع
للشر ، ثم أتاني حاجبه ، فقال : قد أمر لك بجائزة ، وأذن لك في الانصراف .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٣٤١ ؛ الأغاني ٢ : ٢٣)

٤٠٥ — خالد بن صفوان يصف جريراً والفرزدق والأخطل

قال هشام بن عبد الملك لشيبه بن عقال - وعنده جرير والفرزدق والأخطل ، وهو
يومئذ أمير - ألا تخبرني عن هؤلاء الذين قد مزقوا أعراضهم ، وهتكوا أستارهم ،
وأغروا بين عشائهم ، في غير خير ولا بر ولا نفع ، أيهم أشعر ؟ فقال شيبه : « أما جرير
فيفرف من بحر ، وأما الفرزدق فينبحت من صخر ، وأما الأخطل فيجيد المدح والفخر » ،
فقال هشام : ما فسرت لنا شيئاً نحصله ، فقال : ما عندي غير ما قلت . فقال لخالد بن صفوان :
صفهم لنا يا بن الأهم ، فقال :

« أما أعظمهم فخراً ، وأبدم ذكرأ ، وأحسنهم عُذراً ، وأسيرهم مثلاً ، وأقلهم
غزلاً ، وأحلام عيلاً ، الطامي إذا زخر ، والحامي إذا زار^(١) ، والسامي إذا خطر ، الذي
إن هدر قال ، وإن خطر سال ، الفصيح اللسان ، الطويل العنان ، فالفرزدق ؛ وأما أحسنهم
نعتاً ، وأمدحهم بيتاً ، وأقلهم فونتاً ، الذي إن هجا وضع ، وإن مدح رفع ، فالأخطل ؛
وأما أغزرهم بحراً ، وأرقهم شعراً ، وأهتكم لعدوه ستراً ، الأغر الأبلق ، الذي إن
طلب لم يسبق ، وإن طلب لم يباحق ، فجرير ، وكلهم ذكي الفؤاد ، رفيع العماد ،
وإرى الزناد » .

فقال له مسلمة بن عبد الملك : ما سمعنا بمثلك يا خالد في الأولين ، ولا رأينا في الآخرين ،
وأشهد أنك أحسنهم وصدقاً ، واليهم عطفاً ، وأعفهم مقالا ، وأكرمهم فعلا » .

فقال خالد : « أتم الله عليكم نعمه ، وأجزل لديكم قسمه ، وأنس بكم الغربة ،

(١) وفي رواية زهر الآداب : « إذا ذمر » .

وفرج بكم الكربة ، وأنت والله ما علمتُ أيها الأمير كريمُ الغراس ، عالم بالناس ، جواد في المحل^(١) ، بسام في البذل ، حليم عند الطيش ، في ذروة قریش ، وأبواب عبد شمس ، ويومك خيرٌ من أمس .

فضحك هشام وقال : « ما رأيتُ كتحاصك يابن صفوان في مدح هؤلاء ووصفهم ، حتى أرضيتهم جميعاً ، وسَلِمْتُ منهم » .

(الأغاني ٧ : ٦٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٢٦٣)

٤٠٦ - خالد بن صفوان وبلال بن أبي بردة

قال أبو المنذر هشام بن محمد السائب الكلبي : كان بلال بن أبي بردة^(٢) جليداً حين أبتلي ، أحضره يوسف بن عمر في قيوده ، لبعض الأمر ، وهم بالحيرة ، فقام خالد بن صفوان ، فقال ليوسف : « أيها الأمير ، إن عدوَّ الله بلالاً ضربني وحبسني ، ولم أفارق جماعةً ، ولا خلعتُ يداً من طاعة » ، ثم التفت إلى بلال فقال : « الحمد لله الذي أزال سلطانك ، وهدأ أركانك ، وأزال جمالك ، وغير حالك ، فوالله لقد كنتُ شديدَ الحجاب ، مستخفياً بالشريف ، مظهرًا للمصديقية^(٣) » .

فقال بلال : « يا خالد ، إنما استطلت عليّ بثلاث ، هن معك عليّ ، الأميرُ مُقبِلٌ عليك ، وهو عنى مُعرضٌ ؛ وأنت مُطلقٌ ، وأنا مأسورٌ ؛ وأنت في طينتك وأنا غريبٌ » ، فأخذه .

وكان سبب ضرب بلال خالداً في ولايته ، أن بلالاً مرَّ بخالد في موكبٍ عظيمٍ ، فقال خالد : صحابةُ صيفٍ عن قليلٍ تقشع^(٤) ، فسمعه بلال ، فقال : والله لا تقشعُ أو يصيبك منها شؤبوب^(٥) بردٍ ، وأمر بضربه وحبسه .

(زهر الآداب ٣ : ١٩٠)

(١) القحط والجذب . (٢) هو بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري .

(٣) وكان أصله من العرب اليمانيين . (٤) تنكشفت وتفرقت . (٥) الشؤبوب : الدفعة من المطر .

٤٠٧ - خطبة الكميث بن زيد بين يدي هشام يستعطفه

روى صاحب المقدم قال :

كان الكميث بن زيد الأسدي يمدح بني هاشم ويعرض ببني أمية ، فطلبه هشام ، فهرب منه عشرين سنة^(١) ، لا يستقر به القرار ، من خوف هشام ، وكان مسأمة بن عبد الملك له على هشام حاجة في كل يوم يقضيها له ، ولا يرده فيها ، فلما خرج مسأمة يوماً إلى بعض صيوده ، أتى الناس يسألون عليه ، وأناه الكميث بن زيد فيمن أتى ، فقال : السلام عليك ورحمة الله وبركاته ، أما بعد :

قِفْ بالديارِ وقُوفَ زائرٍ وتأنٍ ، إنك غيرُ صاغِرٍ^(٢)

حتى انتهى إلى قوله :

يا مَسْلَمَ بنَ أبي الوليدِ لِمِيتٍ إن شئتَ نأثيرٍ^(٣)
عَلِمَتْ حِبَالِي مِنْ حَبَا لِكَ ذِمَّةَ الجارِ الجارِ
فالآنَ صِرْتُ إلى أُمَيَّةَ ، والأُمُورُ إلى المصائرِ
والآنَ كُنتُ به المصِيبَ كهُتَدٍ ، بالأُمسِ حائرٍ

فقال مسأمة : سبحان الله ! من هذا الهندي^(٤) الجاحب^(٥) ، الذي أقبل من أخريات الناس ، فبدأ بالسلام ، ثم أمأ بعد ، ثم الشعر ؟ قيل له : هذا الكميث بن زيد ، فأعجب به لفصاحته وبلاغته ، فسأله مسأمة عن خبره ، وما كان فيه طول غيبته ، فذكر له سُخْطَ أمير المؤمنين عليه ، فضمن له مسأمة أمانه ، وتوجه به حتى أدخله على هشام - وهشام لا يعرفه - فقال الكميث : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ،

(١) يلاحظ أن مدة خلافة هشام كانت عشرين سنة من سنة ١٠٥ - إلى سنة ١٢٥ هـ . (٢) صاغر : ذليل .

(٣) نشره وأنشره : أحياء . (٤) رجل هندي : من أهل الهند ، (وهو هنا على التشبيه) .

(٥) الجاحب : الشيخ الكبير ، والضمخ الأجلح ، (والأجلح : الذي انحسر الشعر من جانبي رأسه) .

الحمد لله ، قال هشام : نعم . الحمد لله ، ما هذا ؟ قال الكهيت : مبقدي الحمد ومبقده ،
الذي خصّ بالحمد نفسه ، وأمر به ملائكته ، جعله فاتحة كتابه ، ومنتهى شكره ،
وكلام أهل جنّته ، أحمدَه حمدَ من عِلْمٍ يقيماً ، وأبصر مُستبديناً ، وأشهد له بما شهد به
لنفسه « قائماً بالقسط^(١) » وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده العربيّ ،
ورسوله الأيّ ، أرسله والناس في هفوات حيرة ، ومدلهمات ظلمة ، عند استمرار أبهة^(٢)
الضلال ، فبلغ عن الله ما أمر به ، ونصح لأمته ، وجاهد في سبيله ، وعبد ربه ، حتى
أتاه اليقين ، صلى الله عليه وسلم .

ثم إنى يا أمير المؤمنين ، نهت في حيرة ، وحزت في سكرة ، اذلام^(٣) بي خطرها ،
وأهاب^(٤) بي داعيها ، وأجابني غايبها ، فاقطوطيت^(٥) إلى الضلالة ، وتسكمت^(٦)
في الظلمة والجهالة ، جأراً عن الحق ، قادلاً بغير صدق ، فهذا مقام العائذ^(٧) ، ومنطق
التائب ، ومُبصِّر الهدى بعد طول العمى ، يا أمير المؤمنين كم من عارٍ أفلتم عثرته ،
ومجترم^(٨) عفوتم عن جرّمه .

فقال له هشام - وأيقن أنه الكهيت - وَيَنحَكَ ! مَنْ سَنَّا لَكَ الْغَوَايَةَ ، وَأَهَابَ بِكَ
فِي الْعَمَايَةِ^(٩) ؟ قال : الذي أخرج أبي آدم من الجنة : فذسبي ولم يجد له عزماً ،
وأمر المؤمنين كريح رحمة أثار سحاباً مقترقاً ، فلنقت^(١٠) بمضه إلى بعض ، حتى التحم
فاستحك هذر^(١١) رَعْدَه ، وتألّو برقه ، فنزل الأرض فرويت ، واخضلت^(١٢)

(١) العدل . (٢) الأبهة : العظمة والبهجة والكبر . (٣) اذلام الليل : ادطم أي اسود
وأظلم ، وفي الأصل « اذلام » وهو تصحيف . (٤) أي دعاني ؛ وفي الأصل « وأهب » وهو تحريف ؛
(ويقال أيضاً هببت به أي دعوته لينزو) . (٥) اقطوطى : قارب في مشيه إسراراً .
(٦) تسكع : مشى مشياً متعسفا لا يدرى أين يأخذ من بلاد الله ، وتحير . (٧) اللاجى : المستجير .
(٨) جرم فلان وأجرم واجترم : أذنب . (٩) العماية : الغواية . (١٠) من لفق الثوب
كضرب : ضم شقة إلى أخرى فخطاهما . (١١) من هذر البعير كضرب هذرا وهديرا : صوت ؛ وفي
الأصل « هدار » وهو تحريف . (١٢) ابتلت .

واخضرت ، وأسقيت ، فروى ظمآنها ، وامتلاً عطشانها ، فكذلك نعدك أنت
يا أمير المؤمنين ، أضاء الله بك الظلمة الداجية^(١) بعد العموس^(٢) فيها ، وحقن بك
دماء قوم أشعر خوفك قلوبهم^(٣) ، فهم يبكون لما يعلمون من حزمك وبصيرتك ،
وقد علموا أنك الحرب وابن الحرب إذا احمرت الحدق ، وعضت المغافر^(٤) بالهأم ،
عزاً بأسك ، واستربط جأشك^(٥) ، مسعار هتان ، وكاف^(٦) بصير بالأعداء ، مغرى
الخيال بالنكراء^(٧) ، مستغن برايه عن رأى ذرى الألباب ، برأى أريب ، وحلم مصيب
فأطال الله لأمير المؤمنين البقاء ، ونم عليه النعماء ، ودفع به الأعداء ، فرضى عنه هشام
وأمر له بجائزة .

وروى صاحب الأغاني خطبة الكميت^(٨) فقال :

(١) المظلمة . (٢) في الأصل : « الغموس » بالغين ؛ وهو تجريف ، والصواب « العموس »
من عمس ككرم وفرح عماسة وعموسا : اشتد واسود وأظلم . (٣) أشعر الخوف واهم قلبى :
لزق به ، وكل ما ألزقته بشيء : أشعرته به . (٤) المغفر ككبر ، وبهاء ؛ وككتابة : زرد من الدرع
يلبس تحت القلنسوة ؛ أو حلق يتقنع به بالمتسلح . (٥) أى صار رابطاً من ربط جأشه رباطة
(بالكمير) اشتد قلبه . (٦) فلان مسعر حرب ومسعار : أى موقد نار الحرب ، ومطار هتان :
هطال ، ووكاف كذلك ، وهما كناية عن الجود .

(٧) النكراء : الأمر الشديد . (٨) وكان سبب غضب هشام على الكميت : أن حكيم بن عباس
الكلبي كان ولما بهجاه مضر والكميت مضرى - فكانت شعراء مضر تهجوه ويحبههم ، وكان الكميت يقول
هو والله أشعر منكم ، قالوا فأجب الرجل ، قال إن خالد بن عبد الله القسرى - والى العراق وهو يبنى - محسن
إلى ، فلا أقدر أن أرد عليه ، قالوا فاسمع بأذنك ما يقول فى بنات عمك وبنات خالك من الهجاء ،
وأنشده ذلك فحمى الكميت لمشيرته ؛ فقال قصيدته الملهية ؛ وبلغ ذلك خالداً فقال والله لأقتلنه ، ثم اشترى
ثلاثين جارية بأغل ثمن ؛ وتخيرهن نهاية فى حسن الوجوه والكمال والأدب ؛ فرواهن الهاشميات - وهى
قصائد قها الكميت فى مدح بنى هاشم ، وكان معروفًا بالتشيع لهم مشهوراً بذلك ، وتمت هذه القصائد من جيد
شعره وبختاره وهى مطبوعة مشهورة - ودسهن مع نخاس إلى هشام بن عبد الملك ، فاشترهن جميعاً ، فلما أنس
بهن استنطقهن ، فرأى فصاحة وأدباً ، فاستقرأهن القرآن فقرأن واستنشدن الشعر ، فأنشدهن قصائد
الكميت الهاشميات ؛ فقال : ويلسكن ! من قائل هذا الشعر ؟ قلن الكميت بن زيد الأسدى ، قال وفى أى بلد =

حمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على نبيه ثم قال : « أما بعد : فإنني كنت أتدهدي في غمرة^(١) ، وأعوم في بحر غواية ، أخنى على خطيها ، واستفزني وهلهما^(٢) ، فتحيرت في الضلالة ، وتسكمت في الجهالة ، مهرعا عن الحق ، جائرا عن القصد ، أقول الباطل ضللا ، وأفوه بالبهتان وبألا ، وهذا مقام العائذ ، مُبصر الهدى ، ورافض العماية ، فأغسل عنى يا أمير المؤمنين الخوبة^(٣) بالتوبة ، واصفح عن الزلة ، واعف عن الجريمة^(٤) » ، ثم قال :

كم قال قائلكم لعا لك ، عند عثرته لِعَاثِر^(٥)
وغفرتمُ لذوى الذنوب من الأكابر والأصاغر

= هو ؟ قلن : في العراق ثم في السكوفة . فكتب إلى خالد عامله بالعراق : ابعث إلى برأس الكميت ، فبعث إليه خالد في الليل ، فأخذه وأودعه السجن ، وعزم لينفذ أمر الخليفة فيه ، وأعمل الكميت الحيلة في الفرار ، فبعث إلى زوجته حبي (بضم ففتح الباء المشددة) فلما دخلت عليه لبس ثيابها ، وتلقب ثيابها ، وأقامها مكانه ، وخرج متكررا ، وظل متواريا مدة ، حتى إذا أيقن أن الطلب قد خف عنه ، خرج ليلا في جماعة من بني أسد ، وما زال يسير حتى بلغ الشام ؛ واستجار بمسلمة بن عبد الملك ، فأجاره واحتال له في عفو الخليفة عنه ، فقال له : إن معاوية بن هشام مات قريبا ؛ وقد جزع عليه جزعا شديدا ، فإذا كان الليل فاضرب رواقك على قبره ، وأنا أبعث إليك بنيه يكونون معك في الرواق ، فإذا دعا بك تقدمت إليهم أن يربطوا ثيابهم بشيائك ، ويقولوا : هذا استجار بقبر أبينا ، ونحن أحق من أجاره ؛ فأصبح هشام على عادته متطعنا من قصره إلى القبر ، فقال : من هذا ؟ فقالوا : لعله مستجير بالقبر ؛ فقال : يجاز من كان إلا الكميت فإنه لاجوار له ، فقبيل : فإنه الكميت ، قال : يحضر أعنف إحضار ، فلما دعى به ربط الصبيان ثيابهم بشيابه ، فلما نظر هشام إليهم اغرورقت عيناه واستعبر ، وهم يقولون : يا أمير المؤمنين استجار بقبر أبينا ، وقد مات ومات حفظه من الدنيا ، فاجعله هبة له ولنا ؛ ولاتفضحنا فيمن استجار به ، فسكى هشام حتى انتحب ؛ ثم أقبل على الكميت ؛ فقال له : يا كيت : أنت القائل كذا وكذا - ما أورده في هاشمياته؟ فقال : لا والله ؛ ولا أتان من أتى الحجاز وحشية ؛ ثم خطب بين يديه يستعطفه ، فعفا عنه وأجازه ، وتوفى الكميت سنة ١٢٦ هـ .

(١) دهدى الحجر فتدهنى : دحرجه ، كدهده ، والغمرة : الانهماك في الباطل ، والشدة .

(٢) الوهل : الضمف والفرع . (٣) الخوبة : الإثم . (٤) الجريمة ككلمة : الجريمة .

(٥) يقال للعاثر : لعالك ، وهو دعاء له بأن ينتعش .

أَبْنِي أُمِّيَّةَ : إِنَّكُمْ أَهْلُ الْوَسَائِلِ وَالْأَوَامِرِ
 نَقِيَّتِي لِكُلِّ مُلْمَأَةٍ وَعَشِيرَتِي دُونَ الْعَشَائِرِ
 أَنْتُمْ مَعَادِنُ الْخِلَافَةِ كَأَبْرَأَ مِنْ بَعْدِ كَأَبْرَأَ
 بِالنِّسْبَةِ الْمُقْتَابِعِينَ خَلَائِقًا وَبِخَيْرِ عَاشِرٍ (١)
 وَإِلَى الْقِيَامَةِ لَا تَزَالُ لِشَافِعٍ مِنْكُمْ وَوَاتِرٍ

ثم قطع الإنشاد ، وعاد إلى خطبته فقال : « إغضاه أمير المؤمنين وسماحته وصباحته (٢) ،
 ومناطق المنهجين بحبله ، مَنْ لَا يُحَلُّ حُبُّوهُ لِإِسَاءَةِ الْمَذْنِبِينَ ، فَضْلًا عَنْ اسْتِشْاطَةِ غَضْبِهِ
 بِجَهْلِ الْجَاهِلِينَ ، فَقَالَ لَهُ : وَيَلَكَ يَا كَمِيْتُ ! مِنْ زَيْنَ لَكَ الْغَوَايَةِ ، وَدَلَاكَ فِي الْعَمَايَةِ ؟
 قَالَ : الَّذِي أَخْرَجَ أَبَانَا مِنَ الْجَنَّةِ ، وَأَنْسَاهُ الْعَهْدَ ، فَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْمًا » فرضى عنه ، وأمر
 له بجائزة . (المقدم الفريد ١ : ١٥٤ ، والأغانى ١٥ : ١١٣)

٤٠٨ - محاسبة عدى بن أرطاة لامرأته عند شريح القاضي

دخل عدى بن أرطاة على شريح (٣) القاضي يخاصم امرأته له ، فقال : السلام عليكم ،
 قال : وعليكم ، قال : استمع مني ، قال : قل أسمع ، قال : إني رجل من أهل الشام ،
 قال : من مكان سحيق ، قال : وإني قدِمْتُ إلى بلدكم هذا ، قال : خير مقدم ، قال :
 وإني تزوجت امرأة ، قال : بالرِّفَاءِ (٤) والبنين ، قال : وإنها ولدت غلامًا ، قال :
 لِيَهْنِكَ الْفَارَسُ ، قال : وقد كنتُ شرطتُ لها صداقها ، قال : الشرط أملكُ ، قال :

(١) هشام بن عبد الملك هو عاشر خلفاء بني أمية . (٢) الصباحة : الجمال ، صبح ككرم فهو صبيح .

(٣) هو أبو أمية شريح بن الحارث السكندى ، كان من كبار التابعين ، وأدرك الجاهلية ، واستقضى

عمر بن الخطاب على الكوفة ، وقد أقام قاضيًا نحسًا وسبعين سنة ، وكان أعلم الناس بالقضاء ، ذا فطنة

وفكاه ، ومعرفة ، وعقل ، وإصابة ، توفي سنة ٨٧ هـ ، وهو ابن مائة سنة ، وقيل ابن مائة وعشرين .

(٤) أى بالالتئام وجمع الشمل ، رفاً الثوب كنع : لأم خرقه ، وضم بعضه إلى بعض .

وقد أردت الخروج بها إلى بلدي ، قال : الرجل أحقُّ بأهله ، قال : فاقضِ بيننا . قال :
قد فعلت ، قال : فعلى مَنْ حكمتَ ؟ قال : على ابن أمك ، قال : بشهادة مَنْ ؟ قال بشهادة
ابن أختِ خالتك . (البيان والتبيين ٣ : ٢٢٤ ، ووفيات الأعيان ١ : ٢٢٤)

٤٠٩ - كلمة لعمر و بن عتبة بن أبي سفيان

وقد تشاحُّ بنو هاشم ، و بنو أمية في ميراث بينهم
عن سفيان بن عمرو بن عتبة بن أبي سفيان قال : وقع ميراث بين بني هاشم وبين
بني أمية ، تشاحُّوا فيه ، وتضايقوا ، فلما تفرقوا أقبل علينا أبو ناعمر ، فقال :
« يا بني : إن لقريشَ درَجًا نزلَ عنها أقدامُ الرجال ، وأعمالًا تخشع لها رقابُ
الأموال ، وغاياتٍ تقصر عنها الجيادُ المسومة ^(١) ، وألسنًا تسكِلُ عنها الشفار المشحودة
ولو اختلفت الدنيا ما تزيذت إلا بهم ، ولو كانت لهم ضافت بِسمة أخلاقهم ، ثم إنه
ليخيَّل إلى أنَّ منهم ناسًا تخلَّقوا بأخلاق العوامِّ ، فصار لهم رفق في اللوِّم ، وخرق ^(٢)
في الحرِّص ، ولوا مكنهم لقاسموا الطير في أرزاقها ، إن خافوا مكرهاً تعجلوا له
الفقر ، وإن عجَّلت لهم نعمة أخرَّوا عليها الشكر ، أو لئكَ انضاء ^(٣) الفِكر ، وعجزة
حالة الشكر » . (الأما ٢ : ٢٣٨ ، والعقد الفريد ٢ : ٤٠)

(١) الخيل المسومة : المرسله وعليها ركبائها ، أو المعلمة ، أى التى جعل عليها سومة (بالضم) أى سمة
وعلامه ، أو المرعية . (٢) كقفل وسبب : ضد الرفق ، وأن لا يحسن الرجل العمل والتصرف فى الأمور .
(٣) جمع نضوك حمل : وهو المهزول .

٤١٠ - خطبة دينار

وكان سماك بن عبيد العيسى في حصار نهاوند (سنة ٢١ هـ) أسر رجلا من أهلها
يسمى دينار فأتى - حذيفة بن اليمان فصالحه على الخراج - فنسبت إليه ماء .

وكان يواصل سماكا ويهدى له ويوافى الكوفة كلما كان عمله إلى عامل الكوفة
فقدم الكوفة في إمارة معاوية فقام في الناس بالكوفة فقال :

« يا معشر أهل الكوفة ، أنتم أول ما مررتم بقاء ، كنتم خيار الناس ، فعمرتم بذلك
زمان عمر و عثمان ؛ ثم تغيرتم وفشت فيكم خصال أربع : بخل وخب^(١) وغدر وضيق ،
ولم يكن فيكم واحدة منهن ، فرمقتكم فإذا ذلك في مولدكم ، فعلت من أين أنتم ،
فإذا الخب من قبل النبط ، والبخل من قبل فارس ، والغدر من قبل خراسان ، والضيق
من قبل الأهواز » .

(تاريخ الطبري ٤ : ٢٤٥)

٤١١ - رجل يمدح خالد بن عبد الله القسري

وقال رجل لخالد بن عبد الله القسري : « والله إنك لتبذل ما جَلَّ ، وتَجْبُر ما انْفَلَّ ،
وتُكثِر ما بَقِلَّ ، ففضلك بديع ، ورأيك جميع ، تحفظ ما شذَّ ، وتؤلف ما ندَّ » .

(زهر الآداب ٣ : ١٦٧)

(١) الخب : الخداع .

خطب الخوارج وما يتصل بها

٤١٢ - خطبة حيان بن ظبيان السلمي

روى ابن جرير الطبري في تاريخه قال :

كَانَ حَيَّانُ بْنُ ظَبْيَانَ السُّلَمِيُّ يَرَى رَأْيَ الْخَوَارِجِ - وَكَانَ مِمَّنْ ارْتَثَ^(١) يَوْمَ النَّهْرَوَانَ ، فَعَفَا عَنْهُ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فِي الْأَرْبَعَاءَةِ الَّذِينَ كَانُوا عَفَا عَنْهُمْ ، مِنَ الْمُرْتَثِينَ يَوْمَ النَّهْرِ - فَكَانَ فِي أَهْلِهِ وَعَشِيرَتِهِ : فَلَبِثَ شَهْرًا أَوْ نَحْوَهُ ، ثُمَّ إِنَّهُ خَرَجَ إِلَى الرَّيِّ ، فِي رَجَالٍ كَانُوا يَرَوْنَ ذَلِكَ الرَّأْيَ ، فَلَمْ يَزَالُوا مُقِيمِينَ بِالرَّيِّ حَتَّى بَلَغَهُمْ قَتْلُ عَلِيٍّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ ، فَدَعَا أَصْحَابَهُ أَوْلِيَاءَهُ ، وَكَانُوا بِضِعْمَةِ عَشْرٍ رَجُلًا ، فَأَتَوْهُ ، فَحَمَدَ اللَّهُ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :

« أَيُّهَا الْإِخْوَانُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ : إِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ أَخَاكُمْ ابْنَ مُلْجَمٍ أَخَا مُرَادٍ قَعَدَ لِقَتْلِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عِنْدَ أَغْبَاشٍ^(٢) الصَّبِيحِ ، مُقَابِلَ الشُّدَّةِ^(٣) الَّتِي فِي الْمَسْجِدِ مَسْجِدِ الْجُمُعَةِ ، فَلَمْ يَبْرَحْ رَاكِدًا يَنْتَظِرُ خُرُوجَهُ ، حَتَّى خَرَجَ عَلَيْهِ حِينَ أَقَامَ الْمُقِيمُ الصَّلَاةَ : صَلَاةَ الصَّبِيحِ ، فَشَدَّ عَلَيْهِ ، فَضْرَبَ رَأْسَهُ بِالسَّيْفِ ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا لِيَلَتَيْنِ حَتَّى مَاتَ » .
فَقَالَ سَالِمُ بْنُ رَبِيعَةَ الْعَبْسِيُّ : لَا يَقْطَعِ اللَّهُ يَمِينًا عَلَّتْ قَدَّالَهُ^(٤) بِالسَّيْفِ ، فَأَخَذَ الْقَوْمُ بِحَمْدِ اللَّهِ عَلَى قَتْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَلَا رَضَى عَنْهُمْ وَلَا رَحِمَهُمْ ، ثُمَّ إِنَّ حَيَّانَ بْنَ ظَبْيَانَ قَالَ لِأَصْحَابِهِ :

(١) ارتث : حمل من المعركة رثيثا ، أى جرحا وبه رمق . (٢) أغباش جمع غباش بالتحريك :

وهو ظلمة آخر الليل . (٣) الشدة : باب الدار ، وهى هنا ما يبقى من الطاق المسدود .

(٤) القدال : جماع مؤخر الرأس .

« إنه والله ما يَبْقَى على الدهر باقٍ ، وما يلبثُ الليالي والأيامُ ، والسَّنونَ والشهورُ على ابن آدمَ ، حتى تُذْبِقَهُ الموتَ ، فيفارقَ الإخوانَ الصالحينَ ، ويدعَ الدنيا التي لا يبكي عليها إلا العَجْزَةُ ، ولم تزل ضارَّةً لمن كانت له هَمًّا وشَجَنًا^(١) ، فانصرفوا بنا رَحِمَكُم اللهُ إلى مِصْرِنَا ، فَلَمَّاتِ إخواننا ، فلندعُهم إلى الأمرِ بالمعروفِ ، والنهي عن المنكرِ ، وإلى جهادِ الأحزابِ ، فإنه لا عُذْرَ لنا في القعودِ ، وولاتنا ظالِمَةٌ ، وَسِنَّةُ الهُدَى متروكةٌ ، وَثَأْرُنَا^(٢) الذين قَتَلُوا إخواننا في المجالسِ آمِنونَ ، فإن يُظْفِرِنا اللهُ بهم نَعْمِدُ بَعْدُ إلى التي هي أهدى وأرضى وأقومُ ، وَيَشْفِي اللهُ بذلكِ صُدُورَ قَوْمِ مُؤْمِنِينَ ، وإن نَقْتُلُ فإن في مفارقةِ الظالمينَ راحةً لنا ، ولنا بأسلافنا أسوةٌ » .

فقالوا له : كُلُّنا قاتِلٌ ما ذكرتَ ، وحامدٌ رأيتُ الذي رأيتَ ، فرِذِّبنا المِصْرَ ، فإننا معك راضونٌ بهُداك وأمرك ، فخرجَ وخرجوا معه مقبلينَ إلى الكوفةِ ، حتى نزلها ، فلم يزل بها حتى قدمَ معاويةُ ، وبعثَ المغيرةَ بنَ شُعْبَةَ والياً على الكوفةِ .

(تاريخ الطبري ٦ : ٩٩)

(٢) الثأر : قاتل حميتك .

(١) الشجن : الهم والحزن .

ائتمار الخوارج

ثم إن الخوارج في أيام المغيرة فزِعوا إلى ثلاثة نفرٍ منهم : المستورد بن علفقة التيمي ، وحيان بن ظبيان السلمي ، ومعاذ بن جوبن بن حصين الطائي ، فاجتمعوا في منزل حيان بن ظبيان ، فتشاوروا فيمن يؤثرون عليهم ، فقال لهم المستورد :

٤١٣ - مقال المستورد بن علفقة

« يا أيها المسلمون والمؤمنون ، أراكم الله ما تحببون ، وعزل عنكم ما تكرهون ، ولوا عليكم من أحببتم ، فوالذي يعلم خائنة الأعين^(١) وما يخفي الصدور ، ما أبالي من كان الوالي على منكم ، وما شرف الدنيا تريد ، وما إلى البقاء فيها من سبيل ، وما تريد إلا الخلود في دار الخلود . »

٤١٤ - مقال حيان بن ظبيان

فقال حيان بن ظبيان : « أما أنا فلا حاجة لي فيها ، وأنا بك وبكل امرئ من إخواني راض ، فانظروا من شتمت منكم فسؤوه ، فانا أول من يبايعه . »

(١) بمسارقتها النظر إلى المحرم .

٤١٥ - مقال معاذ بن جوين

فقال لهم معاذ بن جوين : « إذا قاتما أنما هذا ، وأنما سيدا المسلمين ، وَدَوَا أنسابهم ، في صلاحكما ودينكما وَقَدْرُكَا ، فمن يرأس المسلمين ؟ وليس كلكم يصلح لهذا الأمر ، وإنما ينبغي أن يبلي على المسلمين - إذا كانوا سواء في الفضل - أبصرهم بالحرب ، وأفقهم في الدين ، وأشدّهم اضطلاماً^(١) بما تحل ، وأنما بحمد الله ممن يُرضى لهذا الأمر ، فليتولّه أحدكما » :

قالا : فتولّه أنت : فقد رضييناك ، فأنت - والحمد لله - الكامل في دينك ورأيك ، فقال لهما : أنما أسنّ مني ، فليتولّه أحدكما ، فقال حينئذ جماعة من حضر : قد رضيينا بكم أيها الثلاثة ، فولوا أيكم أحببتم ، وكانت خاتمة ذلك النقاش أن بايعوا المستورد ، واتعدوا أن يتجهزوا ويتيسروا ويستعدوا ، ثم يخرجوا هلال شعبان سنة ٤٣ هـ .
(تاريخ الطبري ٦ : ١٠٠)

٤١٦ - خطبة المغيرة بن شعبه أمير الكوفة

يحذر أهلها من إيواء الخوارج ونصرتهم
وَتَمَى إلى المغيرة بن شعبه أن الخوارج خارجة عليه ، فقام في الناس ، فحمد الله ،
وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، فقد علمتم أيها الناس أني لم أزل أحبّ لجماعتكم العافية ، وأكفّ عنكم الأذى ، وإني والله لقد خشيتُ أن يكون ذلك أدبَ سوءِ إسفهائكم ، فأما الخلفاء الأتقياء فلا ، وإيمُ الله لقد خشيتُ أن لا أجدُ بدءاً من أن يُعصّب الحليم التقي ، بذنب

(١) أي قوة على حمله .

السفيه الجاهل ، فكفوا أيها الناس سفهاءكم ، قبل أن يشمل البلاء عوامكم ، وقد ذكر لي أن رجلاً منكم يريدون أن يظهروا في مصر بالشقاق والخلاف ، وأيم الله لا يخرجون في حَيٍّ من أحياء العرب في هذا المصر إلا أبدنهم ، وجماعتهم تكالاً لمن بعدهم ، فنظر قوم لأنفسهم قبل الندم ، فقد قت هذا المقام إرادة الحجّة والإعذار .

ثم نزل ، وبعث إلى رؤساء الناس فدعاهم ، ثم قال لهم :

« إنه قد كان من الأمر ما قد علمتم ، وقد قلت ما قد سمعتم ، فليكنفني كل امرئ من الرؤساء قومه ، وإلا فوالذي لا إله غيره لأتحوانّ عما كنتم تعرفون ، إلى ما تنكرون وعما تحبون إلى ما تكرهون ، فلا يلم لأيم إلا نفسه ، وقد أعذر من أنذر .

فخرجت الرؤساء إلى عشاثرهم ، فناشدوم الله والإسلام إلا دأوم على من يرون أنه يريد أن يهيج فتنة ، أو يبارق جماعة ، وجاء صعصعة بن صوحان ، فقام في عيد القيس ، فقال :

١٧ - خطبة صعصعة بن صوحان

« يا معشر عباد الله : إن الله - وله الحمد كثيراً - لما قسم الفضل بين المسلمين خصكم منه بأحسن القسم ، فأجبتكم إلى دين الله ، الذي اختاره الله لنفسه ، وارتضاه للملائكة ورسله ، ثم أقمتم عليه حتى قبض الله رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم اختلف الناس بعده ، فثبتت طائفة ، وارتدت طائفة ، وأذهنت طائفة ، وتربصت طائفة ، فلزمت دين الله إيماناً به وبرسوله ، وقاتلم المرتدين ، حتى قام الدين ، وأهلك الله الظالمين ، فلم يزل الله يزيدكم بذلك خيراً في كل شيء ، وطلّى كل حال ، حتى اختلفت الأمة بينها ، فقالت طائفة : نريد طلحة والزبير وعائشة ، وقالت طائفة : نريد أهل المغرب^(١) ، وقالت

(١) أي معاوية ، وكان والياً على الشام ، وهى بالنسبة للعراق في المغرب .

طائفة : نريد عبد الله بن وهب اراسي : راسب الأزد ، وقتلتم أنتم : لا نريد إلا أهل البيت ، الذين ابتدأنا الله من قبائلهم بالكرامة ، تسديداً من الله لكم وتوفيقاً ، فلم تزلوا على الحق لازمين له ، آخذين به ، حتى أهلك الله بكم ، وبين كان على مثل هداكم ورأيكم ، انا كئيب يوم الجمل ، والمارقين يوم النهروان (وسكت عن ذكر أهل الشام لأن السلطان كان حينئذ سلطانهم) ، ولا قوم أعدى لله وأسىكم ، ولأهل بيت نبيكم ، ولجاعة المسلمين ، من هذه المارقة الخاطئة ، الذين فارقوا إمامنا ^(١) . واستحلوا دماءنا ، وشهدوا علينا بالكفر ، فإياكم أن تؤؤوهم في دؤوركم ، أو تكتنوا عليهم ، فإنه ليس ينبغي لحي من أحياء العرب أن يكون أعدى لهذه المارقة منكم ، وقد والله ذكركم لي أن بعضهم في جانب من الحي ، وأنا باحث عن ذلك وسائل ، فإن كان حكي لي ذلك حقاً ، تقربت إلى الله تعالى بدمائهم ، فإن دماءهم خلال ، ثم قال : يا معشر عبد القيس : إن ولاتنا هؤلاء هم أعرف شيء بكم وبرأيكم ، فلا تجعلوا لهم عليكم سبيلاً ، فإنهم أسرع شيء إليكم وإلى أمثالكم .

وأقبل أصحاب المستورد يأتونه ، فليس منهم رجل إلا يُخبره بما قام به المغيرة بن شعبه في الناس ، وبما جاءهم رؤساؤهم وقاموا فيهم ، وقالوا له : اخرج بنا فوالله ما نأمن أن نؤخذ في عثائرنا ، فخرج بهم من الكوفة ، ووجه المغيرة لقتالهم معقل بن قيس ارياحي فلما علم المستورد تمسير معقل إليه جمع أصحابه .

(تاريخ الطبري ٦ : ١٠٦)

٤١٨ - خطبة المستورد

حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإن هذا الخريف معقل بن قيس قد وُجّه إليكم ، وهو من السَّبئية^(١) المهترئين الكاذبين ، وهو لله ولحكم عدو ، فأشيروا على برايمكم . فقال له بعضهم : والله ما خرجنا نريد إلا الله ، وجهاد من عادى الله ، وقد جاءونا فأين نذهب عنهم ؟ بل نقيم حتى يحكم الله بيننا وبينهم وهو خير الحاكمين ، وقالت طائفة أخرى : بل نعتزل ونتحجى ، ندعو الناس ونحتج عليهم بالدعاء .

فقال : « يا معشر المسلمين : إني والله ما خرجت التمس الدنيا ، ولا ذكراها ، ولا فقخرها ، ولا البقاء ، وما أحبُّ آتٍ لي بخذافيرها ، وأضعاف ما يتفانس فيه منها ، بقبال^(٢) نقلي ، وما خرجت إلا التماس الشهادة ، وأن يهتديني الله إلى الكرامة ، بهوان بعض أهل الضلالة ؛ وإني قد نظرت فيما استشرتكم فيه ، فرأيت أن لا أقيم لهم حتى يتقدموا عليّ ، وهم حامون متوافرون ، ولكن رأيت أن أسير حتى أمعن ، فإنهم إذا بلغهم ذلك خرجوا في طلبنا ، فتقطعوا وتبددوا ، فعلى تلك الحال ينبغي لنا قتالهم ، فاخرجوا بنا على اسم الله عز وجل . »

(١) السبئية : أتباع عبد الله بن سبأ ، وهو يهودى من صنعاء ، أسلم زمن عثمان ثم تنقل في بلدان المسلمين يحاول ضلالهم ، وغلا في علي ، وزعم أنه نبي . ثم غلا فيه حتى زعم أنه إله ، ودعا إلى ذلك قوما من غواة الكوفة وأتى قوم منهم إلى علي فقالوا له : أنت هو ، قال : ومن هو ؟ قالوا : أنت الله ، فاستعظم الأمر ، وأمر بنار فأججت في حفرتين ، وأحرقهم بها ، فجعلوا يقولون وهم يرمون في النار : الآن صح عندنا أنه الله ، لأنه لا يعذب بالنار إلا الله ، ثم إن عليا خاف من إحراق الباقين منهم شماعة أهل الشام ، وخاف اختلاف أصحابه عليه ، فنتى ابن سبأ إلى ساباط المدائن ، فلما بلغه مقتل علي قال : لو أتيتمونا بدماعه سبعين مرة ماصدقنا موته ، وزعم أن المقتول لم يكن عليا ، وإنما كان شيطانا تصور للناس في صورة علي ، وأن عليا صعد إلى السماء كما صعد إليها عيسى بن مريم ، ومن ابن سبأ انشعبت أصناف الغلاة . (٢) قبالة العمل : زمام بين الأصبع الوسطى والى تليها .

فخرجوا فمضوا على شاطئ دجلة ، فمبروه ومضوا في أرض جُوخَى ، حتى بلغوا
المذار فأقاموا فيها ، وأقبل معقل بن قيس ، فأقام بالمدائن ثلاثاً ، ثم جمع أصحابه ، فقال :
(تاريخ الطبري ٦ : ١١٠)

٤١٩ - خطبة معقل بن قيس

« إن هؤلاء المارقة الضلال إنما خرجوا فذهبوا على وجوههم ، إرادة أن تتمجلوا
في آثارهم ، فتنقطعوا وتتبددوا ، ولا تلحقوا بهم إلا وقد تعبتهم ونصبتهم^(١) ، وإنه ليس شيء
يدخل عليكم من ذلك إلا وقد يدخل عليهم مثله » فخرج في آثارهم حتى لحقهم بالمذار مقيمين .
ودارت بينهما رحى الحرب بشدة ، ودعا المستورد معقلاً للمبارزة فتبارزا ، وطعنه
المستورد حتى خرج سنان الرمح من ظهره ، وضربه معقل بالسيف حتى خالط سيفه
أمّ الدماغ ، فوقع ميتاً ، وقتل معقل ، وشداً أصحابه على الخوارج ، فما لبثوا أن قتلوهم .
(تاريخ الطبري ٦ : ١١١)

٤٢٠ - كلمات حكيمة للمستورد

كان المستورد يقول : إذا أفضيتُ بسيرى إلى صديقي فأفشاه لم أئمه ، لأنى كنت
أولى بحفظه ، ويقول : لا تنفس إلى أحدٍ سرّاً وإن كان مخلصاً إلا على جهة المشاورة ،
ويقول : كن أحرص على حفظ سِرِّ صاحبك ، منك على حقن دمك ، ويقول : أوّل
ما يدُلُّ عليه عائبُ الناس معرفته بالعيوب . ولا يعيب إلا يعيب ، ويقول : المال غير
باق عليك ، فاشتر من الحمد ما يبقى عليك ، ويقول : بذلُ المال في حقه استدعاه
للمزيد من الجواد^(٢) ، وكان يُكثِرُ أن يقول : لو ملكتُ الأرض بحذاقيرها ،
ثم دُعيت إلى أن أستفيد بها خطيئة ما فعلت .

(الكامل للمبرد ٢ : ١٥٥ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ ص ٤٥٣)

اثمار الخوارج ثانية

٤٢١ - خطبة حيان بن ظبيان

فلما كانت سنة ٥٨ هـ ، جمع حَيَّان بن ظبيان السَّامِيُّ أصحابه إليه ، ثم إنه حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال لهم :
« أما بعد ، فإن الله عزَّ وجلَّ كتب علينا الجهاد ، فَمِنَّا مَنْ قَضَى نَجْبَهُ ^(١) ، وَمِنَّا مَنْ يَنْتَظِرُ ، وأولئك الأبرارُ الفائزون بفضلاهم ، ومن يكن منَّا مَنْ يَنْتَظِرُ فهو من سَلَفنا القاضينَ نَجْبَهُم ، السابقين بإحسان ، فمن كان منكم يريد الله وثوابه ، فَلْيَسْلُكْ سَبِيلَ أصحابه وإخوانه ، يُؤْتِهِ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ ، وَاللَّهُ مَعَ الْمُحْسِنِينَ »

٤٢٢ - خطبة معاذ بن جوين

قال مُعَاذ بن جُوَيْن الطَّائِي : « يَا أَهْلَ الإِسْلَام : إنا والله لو علمنا أننا إذا تركنا جِهَادَ الظَّالِمَةِ ، وَإِنْكَارَ الجُورِ ، كان لنا به عند الله عُذْرٌ ، لسكان تركه أيسرَ علينا وأخفَ من ركوبه ، ولسكننا قد علمنا واستيقنا أنه لا عُذْرَ لنا ، وقد جعل لنا القلوبَ والأسماعَ ، حتى نُنْكِرَ الظلمَ ، ونغيّرَ الجورَ ، ونجاهدَ الظالمينَ » . ثم قال ابسط يدك نبايعك ، فبايعه ، وبايعه القوم ، فضرروا على يد حَيَّان فبايعوه ، وذلك في إمارة عبد الرحمن بن عبد الله بن عثمان التَّمَقِي ^(٢) .

(١) النجب : الأجل والنذر . (٢) وهو ابن أم الحكم أخت معاوية بن أبي سفيان .

ثم إن القوم اجتمعوا بعد ذلك بأيام إلى منزل مُمّاذ بن جوين ، فقال لهم حيان :
عباد الله ، أشيروا برأيكم ، أين تأسرونني أن أخرج ؟ فقال مُمّاذ : إني أرى أن تسير بنا
إلى حُلوان^(١) حتى ننزلها ، فإنها كورة بين السهل والجبل ، وبين المِصر والثَّغر
- يعني بالثَّغر ارمى - فمن كان يرى رأينا من أهل المِصر والثَّغر والجبال والسَّواد^(٢)
لحق بنا .

٤٢٣ - رد حيان بن ظبيان

فقال له حيان : « عَدُوُّكَ مُمّاجِلْتُ قَبْلَ اجْتِمَاعِ النَّاسِ إِلَيْكَ ، لِعَمْرِي لَا يَتْرُكُونَكَ
حَتَّى يَجْتَمِعُوا إِلَيْكَ ، وَلَكِنْ قَدْ رَأَيْتَ أَنْ أُخْرَجَ مَعَكُمْ فِي جَانِبِ الْكُوفَةِ وَالسَّبَخَةِ ،
أَوْ زُرَّارَةَ^(٣) وَالْحَبْرَةَ ، ثُمَّ نَقَاتَهُمْ حَتَّى نَلْحَقَ بِرَبِّهَا ، وَإِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكُمْ لَا تَقْدِرُونَ
- وَأَنْتُمْ دُونَ الْمِائَةِ رَجُلٍ - أَنْ تَهْزِمُوا عَدُوَّكُمْ ، وَلَا أَنْ يَشْتَدَّ نَكَابَتُكُمْ فِيهِمْ ، وَلَكِنْ
مَتَى عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ قَدْ أَجْهَدْتُمْ أَنْفُسَكُمْ فِي جِهَادِ عَدُوِّكُمْ وَعَدُوَّكُمْ ، كَانَ لَكُمْ بِهِ الْعُذْرُ ،
وَأَخْرَجْتُمْ مِنَ الْإِيمَانِ » قَالُوا : رَأَيْنَا رَأْيَكَ .

٤٢٤ - مقال عتريس بن عرقوب

فقال لهم عتريس بن عرقوب : ولكن لا أرى رأى جماعتكم ، فانظروا في رأى
لكم ، إني لا إخالكم تجهلون معرفتى بالحرب ، وتجربتي للأموار ، قالوا له : أجن ،
أنت كما ذكرت ، فما رأيك ؟ قال : ما أرى أن تخرجوا على الناس بالمِصر ، إنكم قليل
في كثير ، والله ما تزيدون على أن تحزروم^(٤) أنفسكم ، وتقرؤوا أعينهم بقتلكم ،
وليس هكذا تكون المكايدة ، إذا آثرتم أن تخرجوا على قومكم ، فكيدوا عدوكم

(١) بلد بفارس . (٢) أي سواد العراق . (٣) محلة بالكوفة . (٤) أي تملكوهم .

ما يضرهم» قالوا : فما رأى ؟ قال : تسيرون إلى الكورة التي أشار بنزولها معاذ ابن جوبين ، بمعنى حُلوان ، أو تسيرون بنا إلى عين التَّمْر ، فنقيم بها ، فإذا سمع بنا إخواننا أتونا من كل جانب وأوب^(١) .

٤٢٥ - رد حيان

فقال له حيان : « إياك والله لو سيرت بنا أنت وجميع أصحابك نحو أحد هذين الوجهين ، ما اطمانتم به حتى يباحق بكم خيول أهل مصر ، فأنتي تشفون أنفسكم ؟ فوالله ما عدتكم بالكثيرة ، التي ينبغي أن تطمعوا معها بالنصر في الدنيا على الظالمين المعتدين ، فاخرجوا بجانب من مصركم هذا ، فقاتلوا عن أمر الله من خالف طاعة الله ، ولا ترَبَّصُوا ولا تنظروا ، فإنكم إنما تبادرون بذلك إلى الجنة ، وتخرجون أنفسكم بذلك من الفتنة » قالوا : أما إذا كان لا بد لنا ، فإننا لن نخالفك ، فاخرج حيث أحببت .

٤٢٦ - خطبة حيان

ثم إن أصحاب حيان بن ظبيان اجتمعوا إليه ، فقال لهم : يا قوم : إن الله قد جمعكم تخيير ، وعلى خير ، والله الذي لا إله غيره ، ما سررت بشيء قط في الدنيا بعد ما أسلمت سروري لمخرجي هذا على الظلمة الأئمة ، فوالله ما أحب أن الدنيا يحذاقيرها لي ، وأن الله حرمني في مخرجي هذا الشهادة ، وإني قد رأيت أن نخرج حتى نزل جانب دار جرير فإذا خرج إليكم الأجزاء ناجزتموم .

فقال عتريس بن عرقوب : أما أن نقاتلهم في جوف مصر ، فإنه يقاتلنا الرجال ،

(١) الأوب : الطريق والجهة .

وتصعد النساء والصدّيقان والإمام فيرموننا بالحجارة ، فقال لهم رجل منهم : انزلوا بنا
إذن من وراء المصر الجسر - وهو موضع زُرارة ، وإنما بنيت زُرارة بعد ذلك إلا أبيتنا
يسيرة كانت منها قبل ذلك - فقال لهم معاذ بن جوين : لا . بل سيروا بنا فلننزل
بانتقياً^(١) ، فما أسرع ما يأتكم عدوكم ، فإذا كان ذلك استقبلنا القوم بوجوهنا ،
وجعلنا البيوت في ظهورها ، فقاتلناهم من وجة واحد ، فخرجوا ، فبعث إليهم جيش ،
فقتلوا جميعاً .
(تاريخ الطبري ٦ : ١٧٢)

٤٢٧ - خطبة مسلم بن عبيس

حين خرج لقتال الأزارقة

لما ملك نافع بن الأزرق - زعيم الأزارقة^(٢) - بلاد الأهواز ، وفشا عماله في السواد
ارتاع لذلك أهل البصرة ، فاجتمعوا إلى الأحنف بن قيس ، فشكروا ذلك إليه ، وقالوا :
ليس بيننا وبين العدو إلا ايلتان ، وسيرتهم ماترى ، فقال الأحنف : إن فعلهم
في مصركم إن ظفروا به كفعلهم في سوادكم ، فجدّوا في جهاد عدوكم ، فاجتمع إليه
عشرة آلاف ، فأتى عبد الله بن الحرث بن نوفل أمير البصرة ، فسأله أن يؤمر عليهم
فاختار لهم مسلم بن عبيس ، وكان ديناً شجاعاً ، فأمره عليهم وشيخه .

(١) بانتقياً: ناحية من نواحي الكوفة . (٢) قدمنا لك في «مناظرة عبد الله بن الزبير للخوارج» أن
الخوارج كانوا قد مضوا إلى مكة سنة ٦٤ ليمنعوا الحرم من جيش يزيد ، وناصروا ابن الزبير ،
وقاتلوا معه ، ثم ناظروه : فلم يرقهم ماسموا منه ، فتنفروا عنه ، وصارت طائفة كبيرة منهم إلى
البصرة ، وبايعوا نافع بن الأزرق الحنفي ، وسموه أمير المؤمنين ، وخرج بهم إلى الأهواز ،
فغلبوا عليها وعلى ماوراءها من أرض فارس وكرمان ، ونسبوا إليه فقبل لهم : الأزارقة ، وهذه الفرقة من
أشد فرق الخوارج بأساء وأصلبها عوداً ، وأكثرها عدداً وأحفظها حوادث وأنباء .

فلما نفذ من جسر البصرة أقبل على الناس فقال : « إني ما خرجت لامتيار^(١)
ذهب ولا فضة ، وإني لأحارب قوماً إن ظفرت بهم فما وراءهم إلا سيوفهم ورمحهم ،
فمن كان شأنه الجهادَ فلينهض ، ومن أحب الحياة فليرجع » .

فلما صاروا « بدؤلاب » خرج إليهم نافع ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وقتل في المعركة

(الكامل للمبرد ٢ : ١٨٠)

ابن عبيس وابن الأزرق سنة ٦٥ هـ :

(١) أى جلب ، وأصله من امتار لأهله : جلب لهم الميرة بالكسر ، وهى الطعام .

خطب المهلب بن أبي صفرة

٤٢٨ - خطبته في حث جنده على قتال الأزارقة

وَكَانَ الْمُهَلَّبُ بْنُ أَبِي صُفْرَةَ - وَهُوَ عَلَى قِتَالِ الْأَزَارِقَةِ - يَأْمُرُ أَصْحَابَهُ بِالْتَحَرُّزِ وَيَخَوِّفُهُمُ النَّبِيَّاتَ ، وَإِنْ بَعُدَ مِنْهُمْ الْعَدُوُّ ، وَيَقُولُ : « احذروا أن تُكادوا كما تُكيدون ، ولا تقولوا هَزَمْنَا وَعَلَيْنَا . فَإِنَّ الْقَوْمَ خَائِفُونَ وَجِلُونَ ، وَالضَّرُورَةُ تُفْتَحُ بَابَ الْحِيلَةِ ، ثُمَّ قَامَ فِيهِمْ خَطِيْبًا فَقَالَ : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّكُمْ قَدْ عَرَفْتُمْ مَذْهَبَ هَؤُلَاءِ الْخَوَارِجِ ، وَأَنْهُمْ إِنْ قَدَرُوا عَلَيْكُمْ فَتَنَوُكُمْ فِي دِينِكُمْ ، وَسَفَكُوا دِمَاءَكُمْ فَقَاتِلُوهُمْ عَلَى مَا قَاتَلَ عَلَيْهِ أَوْلَاهُمْ عَلَى بَنِي أَبِي طَالِبٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، فَقَدْ لَقِيَهُمْ قَبْلَكُمْ الصَّابِرُ الْمُحْتَسِبُ مُسْلِمُ بْنُ عُبَيْسٍ ، وَالْعَجَلُ الْمَفْرُطُ عُثْمَانُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ ^(١) ، وَالْمَعْصِيُّ الْمُخَالَفُ

(١) هو أخو عمر بن عبيد الله بن معمر للذي ولاه ابن الزبير البصرة (تولاها بعد عبد الله بن الحارث ابن نوفل) . وولى عثمان محاربة الأزارقة بعد مسلم بن عبيس ، فخرج إليهم في اثني عشر ألفا ، فلما عبروا إليهم دجيلا نهض إليهم الخوارج - وذلك قبيل الظهر - فقال عثمان بن عبيد الله لحارثة بن بدر : أما الخوارج إلا ما أرى ؟ فقال له حارثة : حسبك بهؤلاء ، فقال : لا جرم ، والله لا أتعدى حتى أناجزهم ، فقال له حارثة : إن هؤلاء لا يقاتلون بالتعسف ، فأبق على نفسك وجندك ، فقال : أبيتهم أهل العراق إلا جينا ؛ وأنت يا حارثة ما علمك بالحرب ؟ أنت والله بغير هذا أعلم (يعرض له بالشراب) فغضب حارثة فاعتزل وحاربهم عثمان يومه إلى أن غابت الشمس ، فأجلت الحرب عنه قتيلًا ، وانهمز الناس ، وولى حربهم بعده حارثة بن بدر فهزموه أيضا ، فهرب يركض حتى أتى دجيلا ؛ فركب سفينة هو وجماعة من أصحابه ، وأتاه رجل من بني تميم ، وعليه سلاحه ، والخوارج وراءه ، نصاح به : يا حارث ليس مثلي ضيع ، فقال للملاح : قرب ، فقرب إلى جرف ، فطفر بسلاحه في السفينة ، فساخت بالقوم جميعا ، فاتوا غرقا ، وتوجه الخوارج نحو البصرة ، فضج الناس ، وخافوهم خوفا شديدا ، واختاروا لقتالهم المهلب بن أبي صفرة ، فولاه القباع (وهو الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي والى البصرة من قبل ابن الزبير بعد عمر بن عبيد الله) .

حارثة بن بدر ، قَتَلُوا جَمِيعًا رَقَتَلُوا ، فَأَلْفَوْهُمْ بِجِدِّ وَحَدِّ فَإِنَّمَا هُمْ مَهْنَتُكُمْ^(١) وَعَبِيدُكُمْ ،
وَعَارٌ عَلَيْكُمْ ، وَنَقْصٌ فِي أَحْسَابِكُمْ وَأَدْيَانِكُمْ أَنْ يَغْلِبَكُمْ هَؤُلَاءُ عَلَى فَيْثِكُمْ ، وَيَطْشُوا حَرِيحَكُمْ .
(الكامل للمبرد ٢ : ١٨٩ ؛ وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٢٨٥)

٤٢٩ - خطبة أخرى له في جنده

وخطب أصحابه ، وقد مال الخوارج بأجمعهم على العسكر ، وانهزم الناس
بسؤلأف فقال :

« وَأَللَّهِ مَا بَكُمُ مِنْ قِلَّةٍ ، وَمَا ذَهَبَ عَنْكُمْ إِلَّا أَهْلُ الْجَبَنِ وَالضَّمْفِ ، وَالطَّمَعِ وَالطَّبَعِ^(٢) »
فَإِنْ يَمَسَّنْكُمْ قَرْحٌ^(٣) فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ ، فَسِيرُوا إِلَى عَدُوِّكُمْ عَلَى بَرَكَاتِ اللَّهِ .
(الكامل للمبرد ٢ : ١٩١ ؛ وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٣٨٦)

٤٣٠ - نص آخر

وروى الطبري خطبة المهلب في أصحابه يوم هزموا فقال :

ثم إن الخوارج شدت على الناس بأجمعها شدة منكرة ، فأجفل الناس ، وانصأوا^(٤)
منهزمين ، لا تلوي^(٥) أم على ولد ، حتى بلغ البصرة هزيمة الناس ، وخافوا السبأ^(٦) ،
وأمرع المهلب حتى سبهم إلى مكان يَفَاعُ^(٧) ، في جانب عن سَنَنَ المنهزمين ، ثم إنه
نادى الناس : إلى إلى عباد الله ، فتاب إليه جماعة من قومه ، فاجتمع إليه منهم
نحو من ثلاثة آلاف ، فلما نظر إلى من قد اجتمع رَضِيَ جماعتهم ، فحمد الله ، وأثنى
عليه ، ثم قال :

(١) جمع ما هن ، وهو العبد والخدم . (٢) الشين والعيب . (٣) القرح ويضم : عض السلاح
ونحوه مما يخرج بالبدن ، أو بالفتح : الآثار ، وبالضم : الألم . (٤) انصاع : انفتل واجما ممرعا .
(٥) مر لايلوي على أحد : أي لايقف ولاينتظر . (٦) السبى . (٧) اليفاع : ما ارتفع
من الأرض .

« أما بعد : فإن الله ربنا يَكِلُ الجمع الكثير إلى أنفسهم فيَهْزَمون ، ويُنزِل النصر على الجمع اليسير فيَظْهَرُونَ ، ولعمري ما بكم الآن من قِلَّة ، إني لجماعةكم لراض ، وإنكم لأنتم أهل الصبر وفرسان أهل المِضر ، وما أحبُّ أن أحداً ممن انهزم معكم ، فإنهم لو كانوا فيكم ما زادوكم إلا خَبالاً^(١) ، عزَّمت على كل امرئ منكم لما أخذ عشرة أحجار^(٢) ، ثم امشوا بنا نحو عسكرهم ، فإنهم الآن آمنون ، وقد خرجت خيابهم في طلب إخوانكم ، فوالله إني لأرجو ألا ترجع إليهم خيابهم ، حتى تستبيحوا عسكرهم ، وتقتلوا أميرهم » .

(تاريخ الطبري ٧ : ٨٨)

٤٣١ — خطبته في جنده وقد استخلف عليهم ابنه المغيرة

ولما كتب إليه مُصعب بن الزبير أن أقدم على ، واستخلف ابنك المغيرة ، جمع الناس فقال لهم : « إني قد استخلفت عليكم المغيرة ، وهو أبو صغيركم : رِقَّة ورحمة ، وابن كبيركم : طاعة وبراً وتبجيلاً ، وأخو مثله : مؤاسةً ومناحةً ، فلتَحْسُنْ له طاعتكم ، وتبيلن له جانبكم ، فوالله ما أردت صواباً قط إلا سَبَقني إليه » ثم مضى إلى مصعب .

(الكامل للمبرد ٢ : ١٩٨ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٤٩ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٣٨٩)

(١) فسادا . (٢) وفي الكامل للمبرد : وقال المهلب لأصحابه : أعدوا نحال فيها حجارة ، وارموا بها في وقت الفيلة ، فإنها تصد الفارس ، وتصرع الراجل ، وقال رجل من الخوارج :
أتانا بأحجار ليقتلنا بها وهل تقتل الأبطال وبمك بالحجر؟

٤٣٢ - خطبة الزبير بن علي في الأزارقة

وكان نافع بن الأزرق قبل قتله استخلف عبيد الله بن بشير بن الماحوز السليطي ،
وقتل ابن الماحوز يوم سبلى وسلبرى^(١) ، فاجتمعت الخوارج بأرجان ، فبايعوا
الزبير بن علي السليطي ، فرأى فيهم انكساراً شديداً ، وضعفاً بيئياً ، فقال لهم : اجتمعوا .
فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم أقبل عليهم فقال :
« إن البلاء للمؤمنين تمحيصاً وأجرٌ ، وهو على الكافرين عقوبة وخزى ،
وإن يُصَبَّ منكم أمير المؤمنين ، فما صار إليه خيرٌ مما خلفَ ، وقد أصبتم منهم مسلم
ابن عبيس ، وريبعاً الأجدم^(٢) ، والحجاج بن باب ، وحارثة بن بدر ، وأشجيتم
المهلب ، وقتلتم أخاه المَعَارِك^(٣) ، والله يقول لإخوانكم من المؤمنين « إِنْ يَمَسُّكُمْ
قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ ، وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ » فيوم سبلى
كان لكم بلاء وتمحيصاً ، ويوم سولاف^(٤) كان لهم عقوبة ونكالا ، فلا تُغَابِنَّ على
الشكر في حينه ، والصبر في وقته ، وثقروا بأنكم المستخلفون في الأرض ، والعاقبه للمتقين .
(الكامل للمبرد ٢ : ١٩٦ ، وشرح ابن الحديد ١ : ص ٢٨٨)

(١) مجموع اللفظين موضع واحد بالأهواز قرب جند يسابور ، وقعت فيها وقعة بين الخوارج والمهلب ،
وقتل فيها ابن الماحوز رئيس الخوارج ، وفي ذلك يقول رجل منهم :

بسلى وسلبرى مصارع فتية كرام وجرحى لم توسد خدودها

(٢) كان مسلم بن عبيس تقدم إلى أصحابه « يوم دولاب » فقال : إن أصبت فأمركم الربيع بن عمرو
الأجدم ، فلما أصيب ابن عبيس أخذ الربيع الراية ، فلم يزل يقاتلهم نيفا وعشرين يوماً حتى قتل ، ثم أخذها
الحجاج بن باب الحميري ، فلم يزل يقاتلهم زهاء شهر حتى قتل أيضاً ، التقى هو وعمران بن الحارث الراسبي
فاختلفا ضربتين ، فسقطا ميتين . (٣) وكان ابن الماحوز وجه بعض جيشه إلى نهر تبرى ؛ وبها المعارك
ابن أبي صفرة ، فقتلوه وصابوه ، فبنى الخبر إلى المهلب ، فوجه ابنه المغيرة ، فدخل نهر تبرى ، فاستنزله
ودفنه ، وسكن الناس ، واستخلف بها ورجع إلى أبيه . (٤) وفي ذلك اليوم يقول رجل من الخوارج :
وكان تركنا يوم سولاف منهم أسارى وقتل في الجحيم مصيرها

٤٣٣ - خطبة عتاب بن ورقاء الرياحي وقد طال عليه الحصار

وانحط الزبير بن عليّ بن عليّ أصفهاني^(١) ، فحصر بها عتاب بن ورقاء الرياحي سبعة أشهر ، وعتابٌ يحاربه في بعضهن ، فلما طال به الحصار ، وأصابه الجهد الشديد ، دعا أصحابه ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : أيها الناس ما تنتظرون وقد أصابكم من الجهد ما قد ترون ؟ فوالله إن^(٢) بقي مع هذا الحصار إلا أن يموت أحدكم على فراشه ، فيجىء أخوه فيدفنه إن استطاع ، وبالحرى أن يضعف عن ذلك ، ثم يموت هو ، فلا يجد من يدفنه ولا يصلي عليه ، فاتقوا الله ، فوالله ما أنتم بالقليل الذين تهون شوكتهم على عدوهم ، وإن فيكم لفرسان أهل المصر ، وإنكم لصلحاء من أنتم منه ، ولقد حاربتموهم مراراً فانتصفتهم منهم أخرجوا بنا إلى هؤلاء القوم ، وبكم حياة وقوة ، قبل أن لا يستطيع رجل منكم أن يمشى إلى عدوه من الجهد ، وقبل أن لا يستطيع رجل أن يمتنع من امرأة لو جاءتة ، فقاتل رجلٌ عن نفسه وصبراً وصدق ، فوالله إنى لأرجو إن صدقتموم أن يُظفركم الله بهم ، وأن يُظهِركم عليهم .

فلما أصبح الغد صلى بهم الصبح ، ثم خرج إلى الخوارج ، وهم غارثون ، فلم يشعروا بهم حتى غشّوهم ، فقاتلهم بجِدٍّ لم ير الخوارج منهم مثله ، فمَقَرُوا منهم خلقاً ، وقتلوا رئيسهم الزبير بن عليّ ، وانهزمت الخوارج .

ثم أدار الخوارج أمرهم بينهم ، فولّوا عليهم قَطْرِيّ بن الفجاءة المازنيّ وبايعوه (تاديخ الطبري ٧ : ١٦٦ ، والكامل للبرد ٢ : ٢٠٢ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٣٩١)

(١) أصبهان : بفتح الهزرة والباء ، وقد تسكر هزتها ، وقد تبدل باؤها فاء .

(٢) إن هنا فافية .

٤٣٤ - نصيحة عرهم العدوى لخالد بن عبد الله

ولما بعث خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد^(١) أخاه عبد العزيز لقتال الأزارقة^(٢) قام إليه عرهم أخو بني العدوية ، فقال :

« أصلح الله الأمير ، إن هذا الحي من تميم تَطِطُّ^(٣) بقر يش منهم رَحِمٌ دَاسَةٌ مَاسَةٌ ، وإن الأزارقة ذؤبان العرب وسباعها ، وليس صاحبهم إلا المباكر المناكير ، المجرَّب^(٤) المجرَّب ، الذي أرضعته الحرب بلبانها ، وجرسته^(٥) وضرسته ، وذلك أخو الأزدي المهلب بن أبي صفرة ، والله إن غَدَّكَ أَحَبُّ إلينا من سَمِينِه ، ولكني أخاف عدوات الدهر وغدره ، وليس المجرَّب كمن لا يُعَلِّم ، ولا الناصح المشفق ، كالغاش المتهم » ، قال له خالد : اسكت ، ما أنت وذا ؟ وقد هزمت الأزارقة عبد العزيز ، وأحدوا امرأته^(٦) وفرَّ عنها .

(ذيل الأمان ص ٣٣)

(١) كان والى البصرة وأعمالها من قبل عبد الملك بن مروان من سنة ٧١ إلى سنة ٧٤ (انظر ص ٢٣٣) .
(٢) قال أبو العباس المبرد في الكامل (٢ : ٢٠٧) : « ومضى قطرى إلى كرمان ، فانصرف خالد إلى البصرة ، فأقام قطرى بكرمان أشهرا ، ثم عد لفارس ، وخرج خالد إلى الأهواز ، وندب للناس رجلا فجعلوا يطلبون المهلب ، فقال خالد : « ذهب المهلب بحظ هذا المصر ، إنى قد وليت أخى قتال الأزارقة » فولى أخاه عبد العزيز ، واستخلف المهلب على الأهواز في ثلاثمائة ، ومضى عبد العزيز في ثلاثين ألفا ، فجعل عبد العزيز يقول في طريقه : « يزعم أهل البصرة أن هذا الأمر لا يتم إلا بالمهلب فسيعلمون ! » إلى أن قال : فناهضهم عبد العزيز ، فواقفوه ساعة ثم انهزموا عنه مكيدة فاتبعهم ، فقال له الناس : لا تتبعهم فإننا على غير تعبئة فأبى ، فلم يزل في آثارهم حتى اتتحموا عقبه ، فافتحمها وراهم ، والناس يهنونه ويأبى وكان لهم في بطن العقبة كمين ، فلما صاروا وراهم خرج عليهم الكمين ، وانحاز عبد العزيز ، واتبعهم الخوارج يقتلونهم كيف شاءوا » . (٣) أصله من أط الرحل أطيلا : صوت .

(٤) من حرب السنان : حدده . (٥) التجريس : التحكيم والتجربة ، وضرسته الحرب تضريسا : جريته وأحكته أيضا . (٦) وكان عبد العزيز قد خرج بامرأته أم حفص بنت المنذر بن الجارود ، فسمي الخوارج النساء يومئذ وكانت أم حفص عن سبعين ، قال ابن عبد ربه في العقد للفريد (٢ : ٧٥) : « فأقاموها =

٤٣٥ -- خطبة قطري بن الفجاءة^(١)

وصعد قطريُّ بن الفجاءة منبر الأزارقة ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإني أحذركم الدنيا ، فإنها حلوة خضرة^(٢) ، حُفَّت^(٣) بالشهوات ، وراقت^(٤) بالقليل ، وَتَحَبَّبَتْ بالعاجلة^(٥) ، وَحَلَيْت^(٦) بالآمال ، وتزيّنت بالغرور ، لا تدوم حَبْرَتُهَا^(٧) ، ولا تُؤْمَنُ فِجَعَتُهَا ، غَرَّارة ضَرَّارة ، خَوَّانة غَدَّارة ، وَحائِلة^(٨) زائِلة ، وَنافِدة^(٩) بائِدة ، أَسْكَالة غَوَّالة^(١٠) ، بَدَّالة نَمَّالة ، لا تَعْدُو إِذا هِيَ تَنَاهَتْ إِلى أَمْنِيَّةِ أَهلِ الرِّغْبَةِ فيها ، والرِّضا عنها ، أن تَسْكون كما قال اللهُ تَعَالَى : « كَمَاءٌ أَنْزَلْنَاهُ مِنْ

= في السرق حاسرة بادية المحاسن ، فاعترضوها وقلبوها ، وكانت من أكمل الناس كمالا وحسنا ، فتزايدت فيها العرب والموالي ، حتى بلغوها تسعين ألفا ، فأقبل رجل من الخوارج من عبد القيس من خلفها ، فضرب عنقها ، فأخذوه ورفعوه إلى قطري بن الفجاءة ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، إن هذا استهلك تسعين ألفا من بيت المال ، وقتل أمة من إمام المؤمنين : فقال له : ماتقول ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، إني رأيت هؤلاء قد تنازعوا عليها ؛ حتى ارتفعت الأصوات ؛ واحمرت الخدق ؛ فلم يبق إلا الخبط بالسيوف ؛ فرأيت أن تسعين ألفا في جنب ما خشيت من الفتنة بين المسلمين هيئة ، فقال قطري : خلوا عنه ، عين من عيون الله أصابتها « اه .

(١) أورد الشريف الرضي رحمه الله هذه الخطبة في نهج البلاغة ؛ وعزاها إلى الإمام علي كرم الله وجهه وكذلك القضاعي في دستور معالم الحكم ؛ وقال ابن أبي الحديد في شرحه (م ٢ : ص ٢٤٢) : « وهذه الخطبة ذكرها شيخنا أبو عثمان الجاحظ في البيان والتبيين ؛ ورواها لقطري بن الفجاءة ؛ والناس يروونها لأمير المؤمنين عليه السلام ، وقد رأيتها في كتاب الموفيق لأبي عبيد الله المرزباني ، مروية لأمير المؤمنين عليه السلام وهي بكلام أمير المؤمنين أشبه وليس يبعد عندي أن يكون قطري قد خطب بها بعد أن أخذها عن بعض أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام ، فإن الخوارج كانوا أصحابه وأنصاره ، وقد اتى قطري أكثرهم .

(٢) أي ناضرة ، من خضر الزرع كفرح ، فهو أخضر وخضر وهو من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم — انظر خطبته في الجزء الأول ص ١٥١ : (٣) أي أطافت بها الشهوات . (٤) أعجبت أهلها بمتاع قليل ليس بدائم . (٥) أي وتحببت إليهم بالذلة العاجلة ، (والنفس مولعة بحب العاجل) .

(٦) حلّيت المرأة فهي حال وحالية كتحلّت . وفي رواية : « وتحلّت » . (٧) الخبرة : المرور . وفي رواية : « لاتقوم نضرتها » ؛ لاتقوم : لاتثبت . والنضرة : النعمة والغنى والحسن .

(٨) أي متحولة متغيرة من حال يحول . وفي رواية « خائلة » أي محاددة . (٩) أي هالكة فانية من نفد ينفد كفرح . (١٠) أي مهلكة من غاله يفوله .

السَّمَاءَ ، فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ ، فَأَصْبَحَ هَشِيمًا^(١) تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ ، وَكَانَ اللَّهُ حَلِيًّا
 كُلُّ شَيْءٍ مُتَقَدِّرًا ، مع أن امرأ لم يكن منها في حَبْرَةٍ ، إِلَّا أَعْقَبَتْهُ بِعِذَابِهَا عِبْرَةٌ ،
 وَلَمْ يَلْقَ مِنْ سَرَّائِهَا بَطْنًا ، إِلَّا مَنَحَتْهُ مِنْ ضَرَّائِهَا ظَهْرًا^(٢) ، وَلَمْ تَطُلَّهُ غَيْثَةٌ^(٣) رِخَاءً ،
 إِلَّا هَطَلَتْ^(٤) عَلَيْهِ مَزْنَةٌ بِلَاءً ، وَحَرِيٌّ إِذَا أَصْبَحَتْ لَهُ مَنَصْرَةٌ ، أَنْ تُنْسِيَ لَهُ خَاذِلَةً
 مَتَسَكِّرَةً ، وَإِنْ جَانِبٌ مِنْهَا اعْدُوذِبَ وَاحْتَلَوَى^(٥) ، أَمْرًا عَلَيْهِ مِنْهَا جَانِبٌ وَأَوْبَى^(٦) ،
 وَإِنْ آتَتْ امْرَأً مِنْ غَضَارَتِهَا^(٧) وَرَفَاهَتِهَا نِعْمًا ، أَرْهَقَتْهُ مِنْ نَوَائِبِهَا تَعَبًا ، وَلَمْ يُنْسِ
 امْرُؤٌ مِنْهَا فِي جَنَاحِ أَمْنٍ ، إِلَّا أَصْبَحَ مِنْهَا عَلَى قَوَادِمٍ^(٨) خَوْفًا ، غَرَارَةٌ غُرُورٌ مَا فِيهَا ،
 فَانِيَةٌ ، فَإِنْ مَا عَلَيْهَا ، لَا خَيْرَ فِي شَيْءٍ مِنْ زَادِهَا إِلَّا التَّقْوَى ، مِنْ أَقَلِّ مِنْهَا اسْتَكْرَمَ مَا يُؤْتَمَنُ ،
 وَمِنْ اسْتَكْرَمَ مِنْهَا اسْتَكْرَمَ مَا يُؤْبَقُ^(٩) ، وَبُطِيلٌ حَزْنُهُ ، وَبَيْبَسِي هَيْبَتُهُ ، كَمْ وَائِقٍ بِهَا قَدْ
 فَجَعَمَتْهُ ، وَذِي طَمَأْنِينَةٍ إِلَيْهَا قَدْ صَرَعَتْهُ^(١٠) ، وَذِي اخْتِيَالٍ^(١١) فِيهَا قَدْ خَدَعَتْهُ ، وَكَمْ مِنْ

- (١) الهشيم : ماتشم وتحطم ، وتذروه : أى تطيهه . (٢) كنى بالبطن والظهر عن إقبالها عليه وإدبارها عنه لأن الملاق لك بالصدر ملاق بالوجه ، فهو مقبل عليك ، والمعطيك ظهره مدبر عنك .
 (٣) طله السحاب يطله : إذا أمطره مطرا قليلا ، وربما كانت « غيثة » مصحفة عن « غيبة » والغيبة بفتح الغين : المطرة غير الكثيرة ، وفي رواية « ديمة » والديمة بالكسر : مطر يدوم في سكون بلا رعد وبرق .
 (٤) هطلت السماء كجلس هطلا : تتابع مطرها ، وفي رواية : « هتنت » هتنت السماء كجلس أيضا هتتا : انصبت ، أو هو فوق الهطل ، والمزنة : السحابة أو ذات الماء .
 (٥) أى صار عذبا حلوا . (٦) أمر : صار مرا وأوبى : مسهل عن أوبأ ، أى صار وببها ، وبنت الأرض كفرح وكرم وعنى ، وأوبأت : صارت كثيرة الوباء ، وهو الطاهون أو كل مرض عام . (٧) الضارة : النعمة والسعة والخصب ، وأرهقه : حمله على ما لا يطيقه ، وفي رواية : « لا ينال امرؤ من غضارتها رغبا » والرغب بالتحريك ما ترغب فيه ، وفي رواية : « فإن آتت امرأ من غصونها ورقا » ، وفي رواية : « وإن لبس امرؤ من غضارتها ورفاهيتها نعمة ، أرهقته من نوائبها غما » .
 (٨) القوادم : أربع أو عشر ريشات في مقدم الجناح ، الواحدة قادة ، وخص الخوف بالقوادم لأنها مقاديم الريش ، والراكب عليها بمرض تسقوط قريب . (٩) بها-كه . (١٠) وفي رواية : « وذى حكم ننته إليها قد صرعته » . (١١) الاختيال : الكبر والمعجب ، والأهبة : العظمة ، والبهجة والكبر والنخوة .

ذِي أُهْبَةٍ فِيهَا قَدْ صَيَّرْتَهُ حَقِيرًا ، وَذِي نَخْوَةٍ قَدْ رَدَّتَهُ ذَلِيلًا ، وَكَمْ مِنْ ذِي تَاجٍ قَدْ كَبَّتَهُ ^(١) لِلْيَدِينِ وَالْفَمِ ، سُلْطَانَهَا دُولٌ ، وَعَيْشُهَا رَنْقٌ وَعَذْبُهَا أُجَاجٌ ، وَحُلُوهَا صَبِيرٌ ، وَغِذَاؤُهَا سِمَامٌ ^(٢) وَأَسْبَابُهَا رِمَامٌ ^(٣) ، وَقِطَاعُهَا سَلَعٌ ^(٤) ، حَبِّهَا بَعْرَاضٌ مَوْتٌ ، وَصَحِيحُهَا بَعْرَاضٌ سُقْمٌ ، وَمَنْعِيهَا بَعْرَاضٌ اهْتِضَامٌ ، مَلِيكُهَا مَسْلُوبٌ ، وَعَزِيْزُهَا مَغْلُوبٌ ، وَسَلِيْمُهَا مَسْكُوبٌ ، وَجَامِعُهَا مَحْرُوبٌ ^(٥) ، مَعَ أَنْ وِرَاءَ ذَلِكَ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ ، وَهَوَلِ الْمَطْلَعِ ، وَالْوَقُوفِ بَيْنَ يَدِي الْحَكْمِ الْعَدْلِ « لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحَاهُوا بِمَا عَمَلُوا ، وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى » .

الستم في مساكن من كان أطول منكم أعماراً ، وأوضح منكم آراءً ، وأعدَّ عديداً ، وأكثف جنوداً ، وأعدت عتاداً ^(٦) ، وأطول عماداً ، تُعبدوا ^(٧) للدنيا أيَّ تعبدوا ، وآثروها أيَّ إيثارا وظعنوا عنها بالكفره والصغارا فهل بلغكم أن الدنيا سمحت لهم نفساً بقدية ، أو أغنت عنهم فيما قد أهلكنهم بخطب ^(٨) ؟ بل قد أرهقتهم بالفوادح ^(٩) ، ورضضعتهم بالنوائب ، وعقرتهم بالمصائب ^(١٠) ، وقد رأيتهم تنكروها

(١) صرعه وقلبه . (٢) رنق الماء كفرح ونصر : كدر ، فهو رنق كعدل وكثف وجبل ، وأجاج : ملح مر ، وسمام جمع سم مثلث السين . (٣) أسباب جمع سبب : وهو الحبل ، ورمام : بالية ، حبل أرمام ، ورمام : أي بال . (٤) السلع : شجر مر ، أو سم : أو ضرب من الصبر ، أو بقلة خبيثة الطعم . (٥) مسلوب : من حربه حرباً كطابه ملبا : سلب ماله فهو محروب وحريب ، وفي رواية : « وجارها محروب » . (٦) العتاد : العدة ، وقد عتد ككرم عتادا فهو عتيد : أي حاضر مهياً معد ، وفي رواية : « وأعدت عنودا » من عند عن الطريق كنصر وسمع وكرم عنودا : أي مال ، وفي رواية : « وأشد عقودا » . (٧) أي استعبدتهم الدنيا ، تعبده : اتخذ عيدا . (٨) أي بشأن وأمر . (٩) الفوادح : النوائب المثقلة ، من فدهه الدين إذا أثقله ، وفي رواية : « الفوادح » والقوادح جمع قادح : وهو أكال يقع في الشجر والأسنان ، وفي رواية : « وأرهقتهم » أي جعلتهم في الودق بفتح الهاء وتسكينها : وهو حبل كالطول . (١٠) وفي رواية : « وعقرتهم بالفجائع » وفي رواية « وعقرتهم للمناخر ، ووطنهم بالمناسم » ، عقرتهم للمناخر : ألصقت أنوفهم بالعقر (كسبب ويسكن) وهو الأتراب والمناخر جمع منخر بفتح الميم والخاء ، وبكسرهما ، وبضمهما وكجلس : الأنف ، والمناسم جمع منم كجلس وهو خف البعير .

لمن دَانَ^(١) لها ، وأخَلَدَ إليها ، حين ظعنوا عنها لفراق الأبد ، إلى آخر المُسْنَدِ^(٢) ، هل زوَدَتْهم إِلَّا السَّعْبُ^(٣) ، وأحلتهم إِلَّا الضنك ، أو نُورَتْ لهم إِلَّا الظُّلْمَةُ ، أو أعقبهم إِلَّا الندامة ؟ أفهذه تُؤثِرُونَ ، أم على هذه تَحْرِصُونَ ، أم إليها تَطْمَثُونَ ؟ يقول الله جل ذكره : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ، أولئك الَّذِينَ آتَسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » فبئست الدار لمن لم يتَّهَمها ، ولم يكن فيها على وَجَلٍ منها .

فاعلموا - وأنتم تملعون - أنكم تاركوها لا بُدَّ ، فإنما هي كما وصفها الله باللَّعِبِ واللَّهْوِ وقد قال الله تعالى : « أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ، وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ ، وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ^(٤) » ، واتعظوا فيها بالَّذِينَ قالوا : « مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ؟ » ، حُلُّوا إلى قبورهم فلا يُدْعَوْنَ رُكْبَانًا ، وأنزلوا الأجداث فلا يُدْعَوْنَ^(٥) ضِيْفَانًا ، وَجُعِلَ لهم من الصَّرْبِجِ أَكْفَانٌ ، ومن التراب أَكْفَانٌ ، ومن الرِّفَاتِ جِيرَانٌ^(٦) ، فهم حَيْرَةٌ لَا يُجِبُّونَ دَاعِيًا ، وَلَا يَمْنَعُونَ ضِيْفًا ، وَلَا يَبَالُونَ مَنْدَبَةً^(٧) ، إن أَخْصَبُوا^(٨) لم يَفْرَحُوا ، وإن قَحِطُوا^(٩) لم يَقْنَطُوا ، جمع وهم آحاد ، وِجِيرَةٌ وهم أبياد ، متناهون لا يزورون ولا يُزَارُونَ ، حُلَمَاءٌ قد ذهب أضعافهم ، وَجُهْلَاءٌ

(١) أى خضع لها وذل ، وفي رواية : « لمن رادها » أى طلبها : رودا ، وأخلد إليها : مال .

(٢) المُسْنَدُ : الدهر ، وفي رواية : إلى آخر الأمد . (٣) الجوع ، وفي رواية :

« الشقاء » والذنك : الضيق . (٤) نزلت في عاد قوم هود ، الريح : المرتفع من الأرض ، آية :

أى أبنية وقصورا يفتخرون بها ، ويمبثون بالفقراء ، وبتطاواون عليهم من أجلها ، والمصانع : المباني من القصور والحصون . (٥) وفي رواية « فلا يرفعون » أى فلا يرفعهم أحد . (٦) الأكتان جمع

كن بالكسر : وهو وقاء كل شيء وسره . والضريح : القبر أو الشق وسطه ، وفي رواية : « وجعل لهم من

الصفيح أجنان » والأجنان جمع جنن كسبب : وهو القبر ، والصفيح : الحجارة المراض ، والرقات :

العظام البالية . (٧) المندبة : الندب على الميت . (٨) وفي رواية : « إن جيدوا » من جادهم الغيث إذا

أمطروا . (٩) قحط الناس كسع ، وقحطوا وأقحطوا مبنيين للمجهول (قليتان) ، وبكل روى .

قد ماتت أحقادهم ، لا يُخَشَى فَجْهَهُمْ ، وَلَا يُرْجَى دَفْعُهُمْ ، وكما قال الله تعالى :
« فَتِلْكَ مَسَاكِينُهُمْ لَمْ تَسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ، وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ » ،
استبدلوا بظهر الأرض بطنًا ، وبالسعة ضيقًا ، وبالأهل غربة ، وبالنور ظلمة ، ففارقوها
كما دخلوها ، حُفَاةَ عُرَاةٍ فَرَادَى ، غير أن ظلمنوا بأعمالهم إلى الحياء الدائمة ، وإلى
خلود الأبد ، يقول الله تعالى : « كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ »
فاحذروا ما حذركم الله ، وانتفعوا بمواعظه ، واعتصموا بحبله ، عَصَمْنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ بِطَاعَتِهِ
ورزقنا وإياكم أداء حقه .

(البيان والتبيين ١ : ٦٣ . وصيغ الأعراس ١ : ٢٢٣ . والعقد الفريد
٢ : ١٦٠ . وعيون الأخبار م ٢ : ص ٢٥٠ . ونهاية الأرب ٧ :
٢٥٠ . ونهج البلاغة ١ : ١٢٢ . دستور معالم الحكم ص ٥١)

٤٣٦ - خطبة عبد ربه الصغير

ولما دبت عقارب الخِلاف بين الأزارقة ، وامت بهم يد الشقاق ، خلموا قَطْرَى
ابن الفجاءة ، وَوَلَّوْا عَبْدَ رَبِّهِ الصَّغِيرَ ، فانفصل إلى عبد ربه أكثر من ^(١) الشَّطْرُ ،
ونشبت الحرب بينه وبين المهلب ، فأجَلَّتِ الوقعة عنه قتيلا ، وقد جمع أصحابه في الليلة
التي قتل في صَبِيحَتِهَا ، فقال :

« يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ : إِنْ قَطْرِيَا وَعُبَيْدَةَ ^(٢) هَرَبَا طَلَبَ الْبَقَاءَ ، وَلَا سَبِيلَ إِلَيْهِ ،
فَالْقَوَا عَدُوَّكُمْ ، فَإِنْ غَلِبَكُمْ عَلَى الْحَيَاةِ ، فَلَا يَغْلِبُنَاكُمْ عَلَى الْمَوْتِ ، فَتَلَقُوا الرَّمَاحَ بِنَحْوِكُمْ
وَالسِّيُوفَ بِوُجُوهِكُمْ ، وَهَبُوا أَنْفُسَكُمْ لِلَّهِ فِي الدُّنْيَا ، يَهَيِّئْهَا لَكُمْ فِي الْآخِرَةِ » .
(الكامل للمبرد ٢ : ٢٣١ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٠٥)

(١) أما قطري فقد ارتحل ومن معه إلى طبرستان فوجه الحجاج إليه جيشا عليه سفيان بن الأبرد
فقاتلوه ، وتفرق عنه أصحابه وقتل سنة ٧٨ هـ ، ويقتله انتهت حروب الأزارقة . (٢) هو عبيدة
ابن هلال اليشكري من كهراء الأزارقة .

٤٣٧ - خطبة صالح بن مسرّح^(١)

وروى الطبري في تاريخه قال :

كان صالح بن مُسَرَّح يري رأى الصُفْرِيَّة^(٢) ، وكان رجلاً ناسكاً مُخْبِتاً^(٣) ، مصفراً الوجه ، صاحب عبادة ، وكان بَدَاراً^(٤) وأرض المَوْصِل والجزيرة ، له أصحاب يُقرئهم القرآن ، ويفقههم وَيَقْصُّ عليهم ، وكان قصصه :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ، ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْمِدُونَ ، اللَّهُ إِنَّا لَنَعْدِلُ بِكَ ، وَلَا نَخْفِدُ^(٥) إِلَّا إِلَيْكَ ، وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاكَ ، لَكَ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، وَمَنْتَ النِّفْعَ وَالضَّرَّ ، وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ، وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ الَّذِي اصْطَفَيْتَهُ ، وَرَسُولُكَ الَّذِي اخْتَرْتَهُ وَارْتَضَيْتَهُ لِتَبْلِيغِ رِسَالَاتِكَ ، وَنَصِيحَةِ عِبَادِكَ ، وَنَشْهَدُ أَنَّهُ قَدْ بَلَغَ الرِّسَالَةَ ، وَنَصَحَ الْأُمَّةَ ، وَدَعَا إِلَى الْحَقِّ ، وَقَامَ بِالْقِسْطِ ، وَنَصَرَ الدِّينَ ، وَجَاهَدَ الْمُشْرِكِينَ ، حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

أُرْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ ، وَالزَّهْدِ فِي الدُّنْيَا ، وَالرَّغْبَةِ فِي الْآخِرَةِ ، وَكَثْرَةِ ذِكْرِ الْمَوْتِ ، وَفِرَاقِ الْفَاسِقِينَ ، وَحُبِّ الْمُؤْمِنِينَ ، فَإِنَّ الزَّهَادَةَ فِي الدُّنْيَا تَرْغَبُ الْعَبْدَ فِيمَا عِنْدَ اللَّهِ ،

(١) هو صالح بن مسرّح أحد بني امرئ القيس ، وهو زعيم فرقة من الخوارج الصفرية ، تسمى : « الصالحية » نسبة إليه : وقد خرج على بني أمية سنة ٧٦ هـ ، فبعث إليه محمد بن مروان أمير الجزيرة جيشاً بقيادة عدى بن عدى بن عميرة فهزمه صالح ونزل عسكره وحوى مافيه ، وبعث محمد بن مروان إليهم جيشاً آخر فقاتلهم ، فخرجوا من أرض الجزيرة إلى الموصل ، فسرح إليهم الحجاج جيشاً يقوده الحارث بن عميرة فحاربهم وقتل في المعركة صالح . (٢) الصفرية : فرقة من الفرق الرئيسية الخوارج ، وهم أصحاب زياد بن الأصغر ، وقيل نسبوا إلى عبد الله بن صفار ، وقيل لأنهم نهكهم العبادة أو خللهم من الدين وليس هذا موضع تفصيل عقائدهم . (٣) أخيت لله : خشع وتواضع . (٤) دارا : بلد بين نصيبين ومزديين من أرض الجزيرة . (٥) حفد كضرب : خف وأسرع .

وتفرغ بَدَنه لاطاعة الله ، وإن كثرة ذكر الموت تخيف العَبْدَ من ربه ، حتى يَجَارَ (١) إليه وَيَسْتَكِينُ له ، وإن فِرَاقَ الفاسقين حَقٌّ على المؤمنين ، قال الله في كتابه : « وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا ، وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ، إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ » ، وإن حب المؤمنين لالسَّبِّ الَّذِي يُنَالُ به كرامة الله ورحمته وجنته ، جعلنا الله وإياكم من الصادقين الصابرين ، ألا إن من نعمة الله على المؤمنين أن بعث فيهم رسولاً من أنفسهم ، فملهم الكتاب والحكمة وزكاهم وطهرهم ، وفقهم في دينهم ، وكان بالمؤمنين رءوفاً رحيماً ، حتى قبضه الله ، صلوات الله عليه ، ثم ولي الأمر من بعده النبيّ الصديق ، على الرضا من المسلمين ، فافتدى بهديته ، واستن بسنته ، حتى لحق بالله رحمه الله ، واستخلف عمرَ فولاه الله أمر هذه الرعية ، فعمل بكتاب الله ، وأحيا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يُخنق في الحق على جرته (٢) ، ولم يخف في الله لومة لائم ، حتى لحق به رحمة الله عليه ، وولى من بعده عثمان ، فاستأثر بالنبي ، وعطل الحدود ، وجار في الحكم ، واستذل المؤمن ، وعزَّر المحرم ، فسار إليه المسلمون فقتلوه ، فبرئ الله منه ورسوله وصالح المؤمنين ، وولي أمر الناس من بعده عليّ ابن أبي طالب ، فلم ينشَب أن حكم في أمر الله الرجال ، وشك في أهل الضلال ، وركن (٣) وأذهن ، فنجح من عليّ وأشياعه برأى ، فتيسر وأرحمهم الله لجهاد هذه الأحزاب المتحزبة ، وأئمة الضلال الظلمة ، وللخروج من دار الفناء إلى دار البقاء ، واللحاق بإخواننا المؤمنين الموقنين الذين باعوا الدنيا بالآخرة ، وأنفقوا أموالهم التماس رضوان الله في العاقبة ، ولا تجزَعوا من القتل في الله ، فإن القتل أيسرُ من الموت ، والموت نازل بكم - غير ما ترجم الظنون - ففرق بينكم وبين آبائكم وأبنائكم وحلائدكم ودنياكم ،

(١) جأر إليه كنع : رفع صوته بالدعاء ، وتضرع واستغاث . (٢) أحق الصلب : لاق

بالطن . والجرة : ما يخرج البعير من جوفه ويمضغه ، كفى بذلك عن عدم إضاره الحقد والاذل .

(٣) ركن إليه : مال .

وإن اشتد ذلك كرهكم وحزركم ، ألا فبيعوا الله أنفسكم طائعين وأموالكم تدخلوا
الجنة آمنين ، وتعاونقوا الحور العين ، جعلنا الله وإياكم من الشاكرين الذاكرين ،
الذين يهدون بالحق وبه يعدلون .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢١٧ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٠٩)

٤٣٨ - خطبة أخرى له

وروى الطبرى أيضاً قال :

« ببنا أصحاب صالح يختلفون إليهم ، إذ قال لهم ذات يوم : ما أدرى ما تنتظرون ؟
وحتى متى أنتم مُقيمون ؟ هذا الجور قد فشا ، وهذا العدل قد عمأ ، ولا تزداد هذه
الولاية على الناس إلا غلوا وعتوا ، وتباعدا عن الحق ، وجرأة على الرب ، فاستعدوا ،
وابعثوا إلى إخوانكم الذين يريدون من إنكار الباطل والدعاء إلى الحق ، مثل الذى
تريدون ، فيأتوك فنلتقى ، وننظر فيما نحن صانعون ، وفى أى وقت إن خرجنا نحن
خارجون . »

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢١٨ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٠٩)

٤٣٩ - خطبة أخرى

وقال لأصحابه ليلة خرج : « اتقوا الله عباد الله ، ولا تعجلوا إلى قتال أحد من
الناس إلا أن يكونوا قوماً يريدونكم وينصبون^(١) لكم ، فإنكم إنما خرجتم غضباً
لله ، حيث انتهكت محارمه ؟ وعشى فى الأرض ، فسفكت الدماء بغير حِلها ، وأخذت
الأموال بغير حقها ، فلا تعبيراً على قوم أعمالاً تم عملوا بها ، فإن كل ما أنتم عاملون ،

(١) أى يبادونكم .

أنتم عنه مسئولون ، وإن عَظَمَكم رَجَالُهُ ، وهذه دوابُّ لمحمد بن مروان في هذا الرُستاق^(١) ، فابدهوا بها فشدُّوا عليها ، فاحلوا أَرْجُلَكم ، وتَقَوُّوا بها على عدوكم .
(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٢ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤١٠)

٤٤٠ - خطبة زائدة بن قدامة

وخلَّف على رياسة الخوارج الصُّفورية بعد مقتل صالح بن مُسَرِّح أحد أصحابه ، وهو شبيب بن يزيد الشيباني ، فكتب الحجاج لقتاله الكتائب ، وكان أميرها في بعض الوَقعات زائدة بن قدامة ، وجاء شبيب حتى وقف مُقَابِلَ القوم ، فخرج زائدة يسير بين اليمين والميسرة ، يحرِّضُ الناس ويقول :
« عبادَ الله ، إنكم الطيبون الكثيرون ، وقد نزل بكم الخبيثون القليلون ، فاصبروا جُعِلَتْ لكم الفداء إنها حلتان أو ثلاث ، ثم هو النصر ليس دونه شيء ، ألا ترونهم والله لا يكونون مائتي رجل ؟ إنما هم أكلة رأس ، وهم السُّراق المُرَّاق ، إنما جاءوكم ليهربوا دماءكم ، ويأخذوا فيئسكم ، فلا يكونوا على أخذه أقوى منكم على منعه ، وهم قليل وأنتم كثير ، وهم أهل فرقة ، وأنتم أهل جماعة ، غَضُّوا الأبصار ، واستقبلوهم بالأسنة ، ولا تحمِلوا عليهم حتى أمرَكم » ، فما برح يقاتلهم مُقَابِلًا غير مُدْبِر ، حتى قتل .
(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٣٥ ، شرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤١٥)

٤٤١ - خطبة الحجاج بن يوسف

ولما هزم شبيب الجيش الذى كان الحجاج وجهه إليه مع عبد الرحمن بن محمد ابن الأشعث ، أقبل نحو المدائن ، وبلغ ذلك الحجاج ، فقام فى الناس ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

(١) الرستاق . يستعمل فى الناحية التى هى طرف الإقليم ، (معرب) .

« أيها الناس : والله لَتُبْقَاتِلَنَّ عن بلادكم وعن فيئكم ، أو لَأَبْعَثَنَّ إلى قومٍ هم أطوع وأسمع ، وأصبر على اللأواء والغیظ منكم ، فيقاتلون عدوكم ، ويأكلون فيئكم - یعنی جند الشام - . »

فقام إليه الناس من كل جانب ، فقالوا : نحن نقاتلهم ، ونُعْتَب الأير ، فليندُ بنا الأمير إليهم ، فإننا حيث سره .

(تاريخ الطبری ٧ : ٢٤٢ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤١٨)

٤٢٢ - خطبة أخرى للحجاج

وبعث الحجاج إلى عتّاب بن ورقاء ليأتيه - وكان مع المهلب - ووجهه في جيش لقتال شبيب ، وخطب الناس حين وجهه فقال :

« يا أهل الكوفة اخرجوا مع عتّاب بن ورقاء بأجمعكم ، لا أرخص لأحد من الناس في الإقامة إلا رجلاً قد وليئناه من أعمالنا ، إلا إن للصابر المجاهد الكرامة والأثرة ، ألا وإن لنا كل الهارب الهوان والجفوة ، والذي لا إله غيره لئن فعلتم في هذا الموطن ، كفعلكم في الموطن التي كانت ، لأولينكم كنفاً خشناً ، ولأعزكم بكلكل ثقيل » ، ثم نزل .

(تاريخ الطبری ٧ : ٢٤٥)

٤٤٣ - خطبة شبيب بن يزيد الشيباني

وعرض شبيب أصحابه بالمدائن فكانوا ألف رجل ، فخطبهم ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« يا معشر المسلمين : إن الله قد كان ينصركم عليهم وأنتم مائة ومائتان ، وأكثر من ذلك قليلاً ، وأنقص منه قليلاً ، وأنتم اليوم مئون ومئون ، إلا إنني مضى الظهر ، ثم سأربكم إن شاء الله » .

(تاريخ الطبری ٧ : ٢٤٦ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤١٩)

٤٤٤ - خطبة عتاب بن ورقاء

ولما تواقف الفريقان للقتال ، جعل عتاب يسير فيما بين الميمنة إلى اليسرة ، يمرّ بأهل رابية رابية ، فيحثهم على تقوى الله ويأمرهم بالصبر ، ويقص عليهم قصصاً كثيراً منه قوله : « يا أهل الإسلام : إن أعظم الناس نصيباً في الجنة الشهداء ، وليس الله لأحد من خلقه بأحد منه للصابرين ، ألا ترون أنه يقول : « وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » ، فمن حمد الله فعله فما أعظم درجته ، وليس الله لأحد أمقت منه لأهل البغي ، ألا ترون أن عدوكم هذا يستعرض المسلمين بسيفه ؟ لا يرون إلا أن ذلك لهم قرينة عند الله ، فهم شرار أهل الأرض ، وكلاب أهل النار » .

فلم يجبه أحد ، فقال : أين القصاص بقصون على الناس ويحرضونهم ؟ فلم يتكلم أحد ، فقال : أين من يروى شعر عنتره فيحرك الناس ؟ فلم يجبه أحد ، ولا رد عليه كلمة ، فقال : إنا لله ا والله الكأني بكم وقد فررتم عن عتاب بن ورقاء ، وتركتموه تشفي في استهـ الرياح ، وحمل عليه شبيب فتفرق عنه كثير من أصحابه وخذلوه ، وثبت في عصابة قليلة صبرت معه ، وقاتل حتى قتل .

(تاريخ الطبري ٧ : ٢٤٦ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ ص ٤٢٠)

٤٤٥ - خطبة الحجاج

ولما رأى الحجاج تجز أهل الكوفة عن قتال شبيب في مواطن كثيرة ، في كل ما يقتل أمرأهم ، ويفل جنودهم ، كتب إلى عبد الملك يستمده ، فبعث إليه سفيان بن الأبرد الكلابي ، في أربعة آلاف ، وحبيب بن عبد الرحمن الحكمي من مذحج في ألفين ، ودخلا فيمن معهما من أهل الشام الكوفة ، فشدوا للحجاج ظهره ، فاستغنى بهما عن أهل الكوفة ، فقام على منبرها ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : يا أهل الكوفة ، فلا أعزَّ اللهُ من أراد بكم العزَّ ، ولا نصر من أراد بكم النصر ، أخرجوا عنا ، ولا تشهدوا معنا قتال عدونا ، ألقوا بالحجارة ، فانزلوا مع اليهود والنصارى ، ولا تقاتلوا معنا إلا من كان لنا عاملا ، ومن لم يكن شهيد قتال عتَّاب ابن ورقاء^(١) . » (تاريخ الطبرى ٧ : ٢٤٨ ، وشرح ابن أبي الحديد ١٢ م : ص ٤٢٠)

٤٤٦ - خطبة عبد الله بن يحيى الإباضى^(٢)

لما استولى عبد الله بن يحيى الكندى على بلاد اليمن سنة ١٢٩ ، خطب الناس ، فحمد الله جلَّ وعزَّ ، وأثنى عليه ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ووعظ وذكر وحذر ، ثم قال :

« إنا ندعوكم إلى كتاب الله تعالى ، وسنة نبيه ، وإجابة من دعا إليهما ، الإسلام ديننا ، ومحمد نبيُّنا ، والكعبة قبلتنا ، والقرآن إمامنا ، رضيُّنا بالحلال حلالا ، لا نبغى به بدِلا ، ولا نشتري به تمنا قليلا ، وحرَّمتنا الحرام ونبتذناه وراء ظهورنا ، ولا حول

(١) ولم تن همة شبيب عن القتال ، وقد هاجم الكوفة ودخلها ، ونهض الحجاج لمداغته ، فشئت جموعه فانصرف عن الكوفة ، وأنبه الحجاج جيشا عليه سفيان بن الأبرد فالتقى على جسر دجيل ، وحى بينهما وطيس القتال حتى جن الليل ، فقال شبيب لأصحابه : اعبروا معاشر المسلمين ، فإذا أصبحنا باكرناهم ، فعبروا أمامه وزل حافر فرسه عن حرف السفينة ، فسقط في الماء ، وكان ملاكه سنة ٥٧٧ (٢) هو عبد الله بن يحيى الكندى ، وكان من حضر موت ، وكان مجتهدا عابدا من رؤساء الخوارج الإباضية : (والإباضية فرقة من فرق الخوارج الرئيسية تنسب إلى زعيمها عبد الله بن إباض - بكرم الهمة -) وقد خرج ابن يحيى باليمن في أيام مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، إذ رأى جورا ظاهرا وعصفا شديدا ، وسيرة في الناس قبيحة فقال لأصحابه إنه لا يحل لنا المقام على ما ترى ولا الصبر عليه . وكتب إلى جماعة من الإباضية بالبصرة وغيرها يشاورهم في الخروج فوافقوه ، وشخص إليه أبو حمزة المختار بن عوف الأزدي ، وبلغ بن عقبة المسعودى في رجال من الإباضية فحرضوه على الخروج ، وكثر جمعه وسماه طالب الحق ، وتوجه إلى صنعاء سنة ١٢٩ (وكان حامل مروان على صنعاء القاسم بن عمر) فجرت بينه وبين ابن يحيى حروب ومناوشات كانت النصره فيها لابن يحيى ، فدخل صنعاء ، وأحرز ما فيها من الخزائن والأموال .

ولا قوّة إلا بالله ، وإلى الله المشتكى ، وعليه المومل ، من زنى فهو كافر ، ومن سرق فهو كافر ، ومن شرب الخمر فهو كافر ، ومن شك في أنه كافر فهو كافر ، ندعوكم إلى فرائض بينات ، وآيات مُحْكَمَات ، وآثارٍ مُقْتَدِي بها ، ونشهد أن الله صادق فيما وَعَدَ ، هَدَلٌ فيما حَكَمَ ، وندعو إلى توحيد الرب ، واليقين بالوعيد والوعد ، وأداء الفرائض ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والولاية لأهل ولاية الله ، والمداورة لأعداء الله .

أيها الناس : إن من رحمة الله أن جعل في كلِّ فِتْرَةٍ بقايا من أهل العلم ، يدعون من ضلَّ عن الهدى ، ويصبرون على الألم في جنب الله تعالى ، يُقْتَلُونَ على الحق في سالف الدهور شهداء ، فما نسيهم ربُّهم ، وما كان ربُّك نسيًّا . أوصيكم بتقوى الله ، وحسن القيام على ما وكلكم الله بالقيام به ، فأبلووا الله بلاءً حسنًا في أمره وذكره ، أقول قولي هذا ، وأستغفر الله لي وإيَّكم .

(الأغانى ٢٠ : ٩٨ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٥٥)

خطب أبي حمزة الشاري

٤٤٧ - خطبته حين دخل المدينة

ولما دخل أبو حمزة المدينة^(١) سنة ١٣٠ ، رقى المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وقال :
« يا أهل المدينة : سأناكم عن ولانكم هؤلاء ، فأسأتم - لعمري الله - فيهم القول ،
قلتم والله ما فيهم الذي يعلم ، أخذوا المال من غير حِلِّه ، فوضعوه في غير حَقِّه ، وجاروا
في الحكم ، فحكوا بغير ما أنزل الله ، واستأثروا بغيرنا ، فجعلوه دولةً بين الأغنياء

(١) بعد أن استولى عبدالله بن يحيى على اليمن سنة ١٢٩ ، أقام بصنعاء أشهراً يحسن السيرة في الناس ويلين
جانبه لهم ، ويكف الأذى عنهم فسكنر جمعه وأتته الشراة من كل جانب (والشراة كقضاة جمع شاركماض
وهم الخوارج ، من شرى يشري كرمى : أى باع ، سموا بذلك لقولهم : شرينا أنفسنا في طاعة الله : أى بعناها
ووهبتها ، أخذنا من قولاته تعالى :

« وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ أُبْتِغَاءً مَرَضًا أَلَلِه » أو لقولهم : شرينا الآخرة بالدنيا ،
أى اشتريناها) فلما كان وقت الحج وجه ابن يحيى أبا حمزة « وهو المختار بن عوف الأزدي ثم السلمى من
أهل البصرة » إلى مكة ، فأقبل إليها يوم التروية « وهو ثامن ذى الحجة » وعليها وعلى المدينة عبد الواحد
ابن سليمان بن عبد الملك ، فكره عبد الواحد قتالهم ، ثم خلى مكة لهم ، فدخلها أبو حمزة بغير قتال ، ومضى
عبد الواحد إلى المدينة ، فجهز جيشاً لقتالهم أمر عليه عبد العزيز بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان ،
فسار حتى نزل قديداً « وقديد كزبير » وبلغ أبا حمزة إقبال أهل المدينة إليه ، فاستخلف على مكة ، وشخص
إليهم ، وبعث إليهم يسألهم أن يكفوا عنهم ، ويقول لهم : خلوا سبيلنا إلى الشام لنسير إلى من ظلمكم ،
وجار في الحكم عليكم ، ولا تجعلوا حدنا بكم ، فإننا لانريد قتالكم ، فشتهم أهل المدينة وقالوا : يا أعداء
الله : نحن نخليكم وندعكم تفسدون في الأرض ؟ فقال الخوارج : يا أعداء الله نحن نفسد في الأرض ؟ إنما
خرجنا لنكف أهل الفساد ، ونقاتل من قاتلنا ، واستأثر بالنيء ، فانظروا لأنفسكم ، واخلموا من لم يجعل الله
له طاعة ، فإنه لاطاعة لمن عصى الله ، فادخلوا في السلم ، وعاونوا أهل الحق ، فأبوا عليهم ، ونشب القتال
بينهم ، فهزمهم أبو حمزة هزيمة لم يبق بعدها منهم باقية ، وقد بلغت قتلى قديد ألفين ومائتين وثلاثين رجلاً ،
منهم من قریش أربعمائة وخمسون ، ودخل أبو حمزة المدينة لثلاث عشرة بقية من صفر سنة ١٣٠ هـ ، وهرب
عبد الواحد بن سليمان إلى الشام .

منهم ، وجعلوا مقاسمنا وحتوقنا في مهور النساء ، وفرُّوج الإمام^(١) ، فقلنا لكم : تعالوا نحن وأنتم إلى هؤلاء الذين ظلمونا وظلموكم ، وجاروا في الحكم ، فحكروا بغير ما أنزل الله فنناشدهم الله أن يتنحَّوا عنا وعنكم ، ليختار المسلمون لأنفسهم ، فقلتم : لا يفعلون ، فقلنا لكم : تعالوا نحن وأنتم نقاتلهم ، فإن نظهر نحن وأنتم نأتِ بمن يُقيم فينا وفيكم كتابَ الله وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، فقلتم : لا نقوى على ذلك ، فقلنا لكم : فخلوا بيننا وبينهم ، فإن نظفر نعدل في أحكامكم ، ونجديكم على سنة نبيكم صلى الله عليه وسلم ، ونقسم فيكم بينكم ، فأبيتم وقاتلتمونا دونهم ، فقاتلناكم وقتلناكم ، فأبعدكم الله وأسحقكم .

(تاريخ الطبري ٩ : ١٠٧ ، والأغانى ٢٠ : ١٠٣ ، وشرح
ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٥٨ ، والعقد الفريد ٢ : ١٦٢)

٤٤٨ - خطبة أخرى له

وروى أنه لما دخل المدينة قام فخطب ، فقال في خطبته :
« يا أهل المدينة مررتُ بكم في زمن الأحول هشام بن عبد الملك ، وقد أصابتكم عاهة بئسكم ، وكتبتم إليهِ تسألونه أن يضع خراجكم عنكم ، فكتب إليكم بوضعه عن قوم من ذوى اليسار منكم ، فزاد الغنى غنى ، وزاد الفقير فقراً ، فقلتم : جزاك الله خيراً ، فلا جزاكم الله خيراً ، ولا جزاه خيراً » .

(تاريخ الطبري ٩ : ١٠٨ ، والأغانى ٢٠ : ١٠٣ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٥٨)

(١) وفي رواية : « وسألناكم ، هل يقتلون بالظن ؟ فقلتم : نعم ، وسألناكم : هل يستحلون المال الحرام

والفرج الحرام ؟ فقلتم : نعم » .

٤٤٩ - خطبته وقد بلغه أن أهل المدينة يعيبون صحابه^(١)

وبلغ أبا حمزة أن أهل المدينة يعيبون أصحابه ، لخدانة أسنانهم ، وخفة أحلامهم ، فصعد المنبر ، وعليه كساء غليظ ، وهو متكئٌ قوساً عربية ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم وآله ، ثم قال :

« يا أهل المدينة ، قد بلغتني مقاتلکم لأصحابي ، ولولا معرفتي بضعف رأيكم وقلة عقولكم ، لأحسنتُ أدبكم ، ونجّمتُ إياكم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنزل عليه الكتاب ، وبيّن له فيه السنن ، وشرّح له فيه الشرائع ، وبيّن له فيه ما يأتي وما يذّر ، فلم يكن يتقدم إلا بأمر الله ، ولا يُخجّم إلا عن أمر الله ، حتى قبضه الله إليه صلى الله عليه وسلم ، وقد أدى الذي عليه ، وعلم المسلمين معالم دينهم ، ولم يدعهم من أمرهم في شبهة ، ودلى أبا بكر صلاتهم ، فولاه المسلمون أمر دينهم ، حين ولّاه رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر دينهم ، فعمل بالكتاب والسنة ، وقاتل أهل الردّة ، وشمّر في أمر الله ، حتى قبضه الله إليه ، والأمة عنه راضون رحمة الله عليه ومغفرته ، ثم ولي بعده عمر بن الخطاب فسار بسيرة صاحبه ، وعمل بالكتاب والسنة ، وجنّد الأجناد ، ومصّر الأمصار ، وجبى النّفء ، وفرّض الأعطية ، وشمّر عن ساقه ، وحسّر عن ذراعه ، وجلّد في الخمر ثمانين ، وجمع الناس في شهر رمضان^(٢) ، وغزا العدو في بلادهم ، وفتح المدائن والحصون ، حتى قبضه الله إليه ، والأمة عنه راضون ، رحمة الله عليه ورضوانه ومغفرته ، ثم ولي من بعده عثمان بن عفان ، فسار ستّ سنين بسيرة صاحبيه - وكان دونهما - ثم سار في الست الأواخر بما أحبّط به الأوائل ، واضطرب جبل الدين بعدها ، فطلبها^(٣) كل امرئ

(١) روى الجاحظ أن هذه الخطبة كانت بمكة ، وذكر أن اسم أبي حمزة « يحيى بن المختار » .

(٢) أي لصلاة القيام ، وفي رواية : « وقام في شهر رمضان » .

(٣) أي الخلافة ، يشير إلى تطلع طلحة والزبير إليها ، وطمع معاوية فيها .

لنفسه ، وأسَرَ كل رجل منهم سريرةً أبداها الله عنه ، حق مضوا على ذلك ، ثم ولي
 على بن أبي طالب ، فلم يبلغ من الحق قصداً ، ولم يرفع له متناً ، ثم مضى لسبيله :
 ثم ولي معاوية بن أبي سفيان أمين رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن لعينه^(١) ،
 وجلب من الأعراب ، وبقية من الأحزاب ، مؤلف طليق . فسفك الدم الحرام ، واتخذ
 عباد الله خولا^(٢) ، ومال الله دولا^(٣) ، وبغى دينه عوجاً ودغلاً^(٤) ، وأحل الفرج
 الحرام ، وعمل بما يشبهه ، حتى مضى لسبيله ، فالعنوه لعنه الله ، ثم ولي بعده ابنه يزيد ،
 يزيد الخمر ، ويزيد الصقور ، ويزيد الفهود ، ويزيد الصيود ، ويزيد القروود^(٥) ،

(١) انظر ص ٢٣ و ٢٤ . (٢) عبيدا . (٣) جمع دولة بالضم: أى متداولاً بين عشيرته
 دون سائر المسلمين . (٤) الدغل : الفساد كالدخل . (٥) روى المسمودي فى مروج الذهب -
 ج ٢ : ص ٩٤ - قال :

« وكان يزيد صاحب طرب ، وجوارح ، وكلاب ، وقرود ، وفهود ؛ ومنادمة على الشراب ؛ وجلس
 ذات يوم على شرابه ، وعن يمينه ابن زياد - وذلك بعد قتل الحسين - فأقبل على ساقيه ، فقال :

اسقى شربة تروى مشائى ثم صل فاسق مثلها ابن زياد
 صاحب السر والأمانة عندي ولتسديد مغنى وجهادى

(والمشائى كغراب : النفس والطبيعة) ، ثم أمر المغنين فغنوا ، وغلب على أصحاب يزيد وعماله ما كان
 يعمله من الفسوق ، وفى أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة ، واستعملت الملاهى ، وأظهر الناس شرب الشراب ،
 وكان له قرد يكنى بأبي قيس ؛ يحضره مجلس منادته ؛ ويطرح له متكأ ، وكان قرداً خبيثاً ، وكان يحمله
 على أذنان وحشية ؛ قد ريفت وذلك لذلك بمرج ولجام ، ويسابق بها الخيل يوم الحلبة ، فجاء فى بعض الأيام
 سابقاً فتناول القصبة ؛ ودخل الحجره قبل الخيل ، وعلى أبى قيس قباء من الحرير الأحمر والأصفر مشهر
 (مخطط) وعلى رأسه قلنسوة من الحرير ذات ألوان بشقائق (أى مصبغة بمثل الشقائق) وعلى الأذنان سرج من
 الحرير الأحمر منقوش ملمع بأنواع من الألوان فقال فى ذلك بعض شعراء الشام فى ذلك اليوم :

تمسك أبا قيس بفضل عنائها فليس عليها إن سقطت ضيان
 ألا من رأى القرد الذى سبقت به جياذ أمير المؤمنين أذنان !

وروى ابن طباطبا فى الفخرى ص ٤٩ قال : « كان يزيد بن معاوية أشد الناس كلفاً بالصيد لا يزال لاهياً
 به ، وكان يلبس كلاب الصيد الأساور من الذهب ، والجلال المنسوجة منه « الجلال بالسكمر جمع جل بالضم
 والفتح : ما تلبسه الدابة لتصان به » ويهب السكل كلب عبداً يخدمه ، قيل إن عبيد الله بن زياد أخذ من بعض =

للفاسق في بطنه ، المأبون^(١) في فرجه ، يخالف القرآن ، واتبع الكهّان ، ونادم القرد ، وعمل بما يشبهه ، حتى مضى على ذلك لعنه الله ، وفعل به وفعل ، ثم ولي مروان بن الحكم ، طرّد يدّ أمين رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله وابن لعينه ، فاسق في بطنه وفرجه ، فالعنوه والعنوا آباءه . ثم تداولها بنو مروان بعده ، أهل بيت اللعنة ، طرّدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله ، وقوم من الطلقاء ، ليسوا من المهاجرين والأنصار ، ولا التابعين بإحسان ، فأكلوا مال الله أكلاً ، وآعبوا بدين الله لعباً ، واتخذوا عباد الله عبيداً ، يورث ذلك الأكبر منهم الأصغر ، فيا لها أمة ! ما أضيعها وأضعفها ! والحمد لله رب العالمين ، ثم مضوا على ذلك من سيء أعمالهم ، واستخفوا بهم بكتاب الله تعالى ، قد نبذوه وراء ظهورهم لعنهم الله ، فالعنوه كما يستحقون ، وقد ولي منهم عمر بن عبد العزيز ، فبلغ ولم يسكّد وعجز عن الذي أظهره حتى مضى لسبيله - ولم يذكره بخير ولا شر - .

ثم ولي يزيد بن عبد الملك ، غلام ضعيف سفيه ، غير مأمون على شيء من أمور المسلمين ، لم يبلغ أشده^(٢) ، ولم يؤنس رشدّه ، وقد قال الله عزّ وجلّ : « فَإِنْ آتَسَّمْهُ »

= أهل الكوفة أربعمئة ألف دينار جباية وجملها في خزائن بيت المال ، فرحل ذلك الرجل من الكوفة ، وقصد دمشق ليشكو حاله إلى يزيد ، وكانت دمشق في تلك الأيام سرير الملك - فلما وصل إلى ظاهر دمشق سأل عن يزيد فعرفوه أنه في الصيد ، فكره أن يدخل دمشق ، وليس يزيد حاضراً فيها ، فضرب تخيمه ظاهر المدينة ، وأقام به ينتظر هود يزيد من الصيد ، فبينما هو في بعض الأيام جالس في خيمته ، لم يشعر إلا بكلبة قد دخلت عليه ، وفي قوائمها الأساور من الذهب ، وعليها جل يساوي مبلغاً كبيراً ، وقد بلغ منها العطش والتعب ، وكادت تموت ، فعلم أنها ليزيد وأنها قد شذت منه ، فقام إليها وقدم لها ماء وتمهدها بنفسه ، فاشعر إلا بشاب حسن الصورة على فرس جميل ، وعليه زى الملوك ، وقد علتة غبرة ، فقام إليه ، وسلم عليه ، فقال له أرأيت كلبة عابرة هذا الموضع ؟ فقال : نعم يا مولانا ، هاهي في الخيمة ، قد شربت ماء واستراحت وقد كانت على غاية من العطش والتعب ، فلما سمع يزيد كلامه نزل ودخل الخيمة ، ونظر إلى الكلبة وقد استراحت ، فجذب بجملها ليخرج ، فشكا الرجل إليه حاله وعرفه مأخذ منه ابن زياد ، فطلب دواة وكتب إليه برد ماله وخطمة سنية ، وأخذ الكلبة وخرج ، فرد الرجل من ساعته إلى الكوفة ، ولم يدخل دمشق .

(١) أبنه بشيء كنصر وضرب : أتهمه ، فهو مأبون ، بخير أو شر ، فإن أطلقت فقلت مأبون فهو للشر والأبنة كعمدة : العيب . (٢) بلغ أشده : أي قوته ، وهو ما بين ثمانى عشرة إلى ثلاثين سنة ، وقد اختلف المؤرخون في مقدار سن يزيد ، فقيل إنه توفي وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، وقيل ابن سبع وثلاثين ، وكانت ولايته أربع سنين وشهراً ، والمراد أنه لم يبلغ أشده لسفهه وعكوفه على اللذات والشهوات .

مِنْهُمْ رُشْدًا فَأَذْفَمُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ^(١) ، فأمرُ أمة محمد في أحكامها وفروجها ودمائها
 أعظم عند الله من مال اليتيم ، وإن كان عند الله عظيما ، غلام مأبون في بطنه وفرجه ،
 يشرب الحرام ، ويأكل الحرام ، ويلبس الحرام ، يلبس بُرْدَيْنِ قد حيكتهما ، وقومتا
 على أهلها بألف دينار ، وأكثر وأقل ، قد أخذت^(٢) من غير حِلِّها ، وصُرِفَتْ في غير
 وجهها ، بعد أن ضُربت فيها الأُبشَارُ^(٣) ، وَحُلِقَتْ فِيهَا الْأَشْعَارُ ، وهتكت فيها الأستار ،
 واستُحِلَّ ما لم يُحِلَّ اللهُ لعبد صالح ، ولا نبي مرسل ، ثم يُجْلِسُ حِجَابَةً عن يمينه ،
 وسَلَامَةً عن شماله ، تغنيانه بزمامير الشيطان ، ويشرب الخمر الصراح المحرمة نصا بعينها ،
 حتى إذا أخذت منه مأخذها ، وخالطت رُوحَهُ ولحمه ودمه ، وغلبت سَوْرَتَهَا على عقله ،
 مَرَّقَ حُلَيْنِيهِ ، ثم التفت إليهما فقال : أتأذنان لي أن أطير^(٤) ؟ نعم ، فطرز إلى لعنة الله ،
 وحريق ناره ، وأليم عذابه ، طرز إلى حيث لا يردك الله .

(١) الآية الكريمة في اليتامى ، وأولها : « وَأَبْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ

أَسْتَمْتُمْ . . . » . (٢) أى الدنانير . (٣) فيها : أى في تحصيلها . والأبشار : جمع بشر ، وهو
 جمع بشرة : ظاهر الجلد ، والمراد ضرب الناس في جباية الأموال . (٤) ذكر ذلك ابن طباطبائي الفخرى
 ص ١١٧ قال : « كان يزيد بن عبد الملك خليف بنى أمية شغف بجاريتين أمم إحداهما سلامة ، والأخرى حيابة
 فقطع معهما زمانه ، قالوا : فغنت يوما حيابة :

بين التراق واللهاة حرارة
 مانطمئن ولا تسوغ فتبرد

فأهوى يزيد أيطير ، فقالت : يا أمير المؤمنين لنا فيك حاجة ، فقال : والله لأطيرن ، قالت : فملى
 من تدع الأمة ؟ قال : عليك وقبل يدها ، فخرج بعض خدمه وهو يقول : « سخنت عينك فا أسخنك »
 وروى أبو الفرج الأصبهاني في الأغاني « ج ١٣ ص ١٤٨ » قال : « كانت حيابة مولدة من مولدات المدينة ،
 حلوة جميلة الوجه ظريفة حسنة الغناء ؛ وقد قال يزيد بن عبد الملك : ماتقر عيني بما أوتيت من الخلافة حتى
 أشتري سلامة وحيابة ، فأرسل فاشترينا له ، فلما اجتمعتا عنده قال : أنا الآن كما قال القائل :

فأنقت عصاها واستقر بها النوى
 كما قر عينا بالإياب المسافر

وذكروا أن مسلمة بن عبد الملك أقبل على يزيه يلووه في الإلحاح على الغناء والشراب ، وقال له : إنك
 وليت بمقب عمر بن عبد العزيز وعدله ، وقد تشاغلته هذه الأمة من النظر في الأمور ، والوفود ببابك ، =

ثم ذكر بنى أمية وأعمالهم وسيرهم فقال: « أصابوا إمرة ضائعة ، وقوماً طعاماً جهلاً ، لا يقومون لله بحق ، ولا يفرقون بين الضلالة والهدى ، ويرون أن بنى أمية أرباب لهم ، فأسكوا الأسر ، وتسلطوا فيه تسلط رُبُوبِيَّة ، بطشهم بطش الجبارة ، يحكمون بالهوى ، ويقتلون على الغضب ، ويأخذون بالظنَّة ، ويعطّون الحدود بالشفاعات ، ويأمنون الخوثة ، ويُقصون ذوى الأمانة ، ويأخذون الفريضة من غير موضعها ، ويضعونها في غير أهلها ، وقد بين الله أهلها ، فجعلهم ثمانية أصناف ، فقال : « إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمَوْلَاتِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرَّقَابِ ، وَالْعَارِمِينَ

= وأصحاب الظلمات يصيحون ، وأنت غافل عنهم ، فقال : صدقت والله وأعتبه ، وهم بترك الشراب ، ولم يدخل على حباية أياما ، فدست حباية إلى الأحوص أن يقول أبياتا في ذلك ، وقالت له : إن رددته عن رأيه ، فلك ألف دينار ، فقال :

ألا لآلتله اليوم أن يتبلدا	فقد غلب الحزون أن يتجلدا
بكيت الصبا جهدى فن شاء لآمنى	ومن شاء آمنى فى البكاء وأسعدا
وإنى وإن فندت فى طلب الفنى	لأعلم أنى لست فى الحب أوحدا
إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى	فكن حجرا من يابس الصخر جلندا
فا العيش إلا ماثلذ وتشهى	وإن لام فيه ذو الشنان وفندا

ومكث يزيد جمعة لا يرى حباية ، ولا يدعو بها ، فلما كان يوم الجمعة ، قالت لبعض جواربها : إذا خرج أمير المؤمنين إلى الصلاة فأعلمينى ، فلما أراد الخروج أعلمتها ، فطلقتها وانعود فى يدها ، فغنت البيت الأول ، فغطى وجهه ، وقال : مه لاتفعل ، ثم غنت : فا العيش إلا ماثلذ وتشهى : فعدل إليها ، وقال : صدقت والله ، فقمح الله من لآمنى فىك ، يا غلام . مرسلة أن يصل بالناس ، وأقام معها يشرب وتغنيه ، وعاود ما كان فيه ، ثم قال لها : من يقول هذا الشعر ؟ قالت : الأحوص ، فأحضره ثم أنشده قصيدة مدحه فيها ، فقال له : ارفع حوائجك ، فكتب إليه فى نحو أربعين ألف درهم من دين وغيره ، فأمر له بها ، انظر أيضا تاريخ الطبرى ٨ : ١٧٩ ، ومروج الذهب ج ٢ : ص ١٧٥ ، وما ذكره المسعودى : أن حباية امتلت فأقام يزيد أياما لا يظهر للناس ، ثم ماتت ، فأقام أياما لا يدفنها حتى جيفت فقيل له : إن الناس يتحدثون بجزمك وإن الخلافة تجل عن ذلك ، فدفنها وأقام على قبرها ، فقال :

فإن تسل عنك النفس أو تدع الهوى • فبالياس تساو النفس لا بالتجلد

ثم أقام بعدها أياما قلائل ومات .

وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ^(١) « فَأَقْبَلَ صِنْفٌ تَأْسَعُ لَيْسَ مِنْهَا ، فَأَخَذَ كُلُّهَا : تَلَكُمُ
الْفِرْقَةُ الْحَاكِمَةُ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ، فَالْمَعْنُومُ لَهُمْ اللَّهُ .

وأما إخواننا من هذه الشيعة - وليسوا بإخواننا في الدين ، لكنني سمعت الله
عزَّ وجلَّ قال في كتابه : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَجَعَلْنَاكُمْ
شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا » فإنها فرقة تظاهرت بكتاب الله ، وأعلنت الفرية على الله ،
لا يرجعون إلى نظرٍ نافذٍ في القرآن ، ولا عقلٍ بالغٍ في الفقه ، ولا تفتيشٍ عن حقيقة
الصواب ، قد قلدوا أمورهم أهواءهم ، وجعلوا دينهم العصبية لحزب لزومه ، وأطاعوه
في جميع ما يقوله لهم ، غيياً كان أو رشداً ، ضلالةً أو هدى ، ينتظرون الدُّول في رجعة
الموتى^(٢) ، وبؤمِنون بالبعث قبل الساعة ، ويدَّعون علمَ الغيب لمخلوق ، لا يعلم أحدهم
ما في بيته ، بل لا يعلم ما ينطوي عليه ثوبه ، أو يحويه جسمه ، يفتقرون المعاصي على أهلها
ويعملون إذا ولّوا بها ، يُصِرُّون على الفتنة ولا يعرفون المخرج منها ؛ جُفَاءً في دينهم ،

(١) الصدقات : الزكاة . العاملين عليها : الساعين في تحصيلها وجمعها . والمؤلفة قلوبهم : الذين
أسلموا وفيهم ضعيفة في الإسلام ، فتستألف قلوبهم . وفي الرقاب : أى وفي فك رقاب المكاتبين ، فيعاونون
بشيء منها . والغارمين : أى المدَّين لأنفسهم في غير معصية ، ومن غير إسراف إذا لم يكن لهم وفاء .
(٢) كان بعض الشيعة يعتقدون في أنهم الذين ماتوا ، أنهم أحياء لم يموتوا ، إلا أنهم غائبون عن
أعين الناس ؛ فالشيعة الكيسانية يقولون إن محمد بن الحنفية رضى الله عنه لم يموت ، وإنه في جبل رضوى
(بالحجاز) بين أسد ونمر يحفظانه ، وعنده عينان نضاختان تجريان بماء وعسل ، وإنه يعود بعد الغيبة فيملأ
الأرض عدلاً كما ملئت جوراً ، وفيه يقول كثير من أبيات :

يغيب ولا يرى فيهم زمانا برضوى عنده غسل وماء

انظر الملل والنحل للشهرستاني ١ : ١٥٥ والفصل لابن حزم ٤ : ١٣٧ والفرق بين الفرق ص ٢٨
والاثنا عشرية « وهى إحدى فرقتى الشيعة الإمامية ، سموا بذلك لوقوفهم عند الإمام الثاني عشر وهو محمد
ابن الحسن العسكري ، ويلقبونه بالمهدى المنتظر » يزعمون أنه دخل في سرداب بسر من رأى ، وغاب هناك ،
وأنه يخرج في آخر الزمان فيملأ الأرض عدلاً وهم ينتظرونه - ويسمونه المنتظر لذلك - ويقفون في كل ليلة
بهد صلاة المغرب بباب هذا السرداب وقد قدموا مركبا فيفتقون باسمه ، ويدعونه للخروج ، حتى تشتبك
النجوم ، ثم ينفضون ويرجئون الأمر إلى الليلة الآتية - انظر مقدمة ابن خلدون ص ٢٢٠ - .

قليلة عقولهم^(١) ، قد قلدوا أهل بيت من العرب دينهم ، وزعموا أن مؤالاتهم لهم تُغنيهم عن الأعمال الصالحة ، وتُنجيهم من عقاب الأعمال السيئة ، قاتلهم الله أنى يُؤفكون^(٢) .

فأى هؤلاء الفرق يأهل المدينة تتبعون ، أم بأى مذاهبهم تقتدون ؟ وقد بلغنى أنكم تنتقصون أصحابي ! قلتم هم شباب أحداث ، وأعراب جفاة ، ويحكم بأهل المدينة ! وهل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله المذكورون والخير إلا شبابا أحداثا ؟ أما والله إنى لعالم بتتابعكم فيما يضركم في معادكم ، ولولا اشتغالي بغيركم عنكم ما تركت الأخذ فوق أيديكم شباباً والله مُكْتَمِلُونَ^(٣) في شبابهم ، غَضِيضَةٌ عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلهم ، أنضاه^(٤) عبادة ، وأطلاحُ مَهَرٍ^(٥) ، باعوا أنفسهم غداً ، بأنفس لا تموت أبداً ، قد نظر الله إليهم في جوف الليل ، منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن ، كلما مرّ أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقاً إليها ، وإذا مرّ بآية من ذكر النار شهق شهقةً ، كأن زفير جهنم بين أذنيه ، قد أكلت الأرض رُكَبَهُمْ وأيديهم وأنوفهم وجباههم ، ووصلوا كلال^(٦) الليل بكلال النهار ، مُصْفَرَّة أوانهم ، ناحلة أجسامهم ، من طول القيام ، وكثرة الصيام ، مستقلون لذلك في جنب الله ، مُؤَفُونَ بعهد الله ، مُنْجَزُونَ لوعده الله ، حتى إذا رأوا سهام العدو وقد فوّقت^(٧) ، ورماحهم وقد أشرعت^(٨) ، وسيوفهم وقد انتضيت^(٩) ، وبرفت الكتيبة ورعدت بصواعق الموت ، استخفوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله ، ولم يستخفوا بوعيد الله لوعيد

(١) وفي البيان والتبيين « جفاة عن القرآن ؛ أتباع كهان » . (٢) أفكته عنه كضرب : صرفه وقلب رأيه . (٣) أى قد أحرزوا رزانة الكهول وسداد رأيهم . (٤) جمع نضو كحمل ، وهو المهزول . (٥) جمع طلع وهو كنضو وزفا ومعنى . (٦) الكلال : التعب والإعياء . (٧) فوق السهم : جعل له فوقاً (بالضم) وهو موضع الوتر من السهم ؛ أى أعدت للرمى . (٨) سددت . (٩) استملت .

الكتيبة ، ولَقُوا شَبَابًا^(١) الأُسِنَّة ، وشائِك السهام ، وظُباتِ السيوف بنحورهم ،
ووجوههم وصدورهم ، ففضى الشاب منهم قُدُماً ، حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه ،
واختضبت محاسن وجهه بالدماء ، وعُفِّر^(٢) جبينه بالترى ، وانحطت عليه طير السماء ،
وتمرقته سباع الأرض ، فطوبى لهم وحسن مآب ، فكم من عين في منقار طائر طالما بكى
بها صاحبها في جوف الليل من خوف الله ، وكم من يد قد أُبينت عن ساعدها ، طالما
اعتمد عليها صاحبها راكعاً وساجداً ، وكم من وجع رقيق ، وجبين عتيق^(٣) ، قد فلق
بعمد الحديد ، ثم بكى ، وقال : آه ، آه على فراق الإخوان ، رحمة الله على تلك الأبدان ،
وأدخل أرواحهم الجنان . . الأغانى ٢٠ : ١٠٥ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٥٩ ،
والبيان والتبيين ٢ : ٦١ ، والمقد الفريد ٢ : ١٦١ .

٤٥٠ - خطبة أخرى

ورق المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« أُرْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَطَاعَتِهِ ، وَالْعَمَلِ بِكِتَابِهِ ، وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ،
وَصَلَاةِ الرَّحْمِ ، وَتَعْظِيمِ مَا صَغُرَتْ الْجَبَابِرَةُ مِنْ حَقِّ اللَّهِ ، وَتَصْغِيرِ مَا عَظُمَتْ مِنَ الْبَاطِلِ ،
وَإِمَانَةِ مَا أَحْيَوْا مِنَ الْجَوْرِ ، وَإِحْيَاءِ مَا أَمَاتُوا مِنَ الْحَقِّ ، وَأَنْ يُطَاعَ اللَّهُ ، وَيُبْغَضَ
الْعِبَادُ فِي طَاعَتِهِ ، فَالطَّاعَةُ لِلَّهِ وَالْأَهْلِ طَاعَةُ اللَّهِ ، وَالطَّاعَةُ لِلْخَلْقِ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ ، نَدْعُو
إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ، وَالْقِسْمِ بِالسُّوْبَةِ ، وَالْعَدْلِ فِي أَرْعِيَةِ ، وَوَضْعِ الْأَخْمَاسِ فِي
مَوَاضِعِهَا الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ^(٤) بِهَا ، تَعْلَمُونَ يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ أَنَّا لَمْ نَخْرُجْ مِنْ دِيَارِنَا وَأَمْوَالِنَا أَشْرَأَ

(١) جمع شبابة : وهي حد كل شيء ؛ والظبات : جمع ظبية ؛ وهي حد السيف . (٢) أصابه العفر :

وهو التراب . (٣) كريم .

(٤) قال الله تعالى : « وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ ، فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ

وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ . »

وَلَا بَطْرًا ، وَلَا عَبَثًا ، وَلَا هَوًا ، وَلَا لِدَوْلَةِ مُلْكٍ نَزِيدَ أَنْ نَخْوَضَ فِيهِ ، وَلَا لِثَارِ قَدِيمِ نَيْلٍ مَنَا
وَلَكِنَّا مَا رَأَيْنَا مَصَابِيحَ الْحَقِّ قَدْ أُطْفِئَتْ ، وَمَعَالِمَ الْعَدْلِ قَدْ عُطِّلَتْ ، وَكَثُرَ الْإِدْعَاءُ فِي
الِدِينِ وَعَمِلَ بِالْهَوَى ، وَعُغِنَتِ الْقَائِلُ بِالْحَقِّ ، وَقُتِلَ الْقَائِمُ بِالْقِسْطِ ، ضَاقَتْ عَلَيْنَا الْأَرْضُ
بِمَا رَحِبَتْ ، وَسَمِعْنَا دَاعِيًا ^(١) يَدْعُو إِلَى طَاعَةِ الرَّحْمَنِ ، وَحُكْمِ الْقُرْآنِ ، فَأَجَبْنَا دَاعِيَ اللَّهِ
وَمَنْ لَا يُجِيبُ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ ^(٢) فِي الْأَرْضِ ، فَأَقْبَلْنَا مِنْ قَبَائِلِ شَتَّى ،
النَّفَرِ ^(٣) مَنَا عَلَى بَعِيرٍ وَاحِدٍ ، عَلَيْهِ زَادُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ ، يَتَعَاوَرُونَ لِحَافًا وَاحِدًا ، قَالِيُونَ
مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ ، فَأَوَانَا اللَّهُ وَأَيَّدَنَا بِنَصْرِهِ ، وَأَصْبَحْنَا وَاللَّهِ جَمِيعًا بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ،
وَهَلَّى الدِّينَ أَعْوَانًا ، ثُمَّ لَقِينَا رِجَالَكُمْ بِقَدِيدٍ ، فَدَعَوْتَهُمْ إِلَى طَاعَةِ الرَّحْمَنِ ، وَحُكْمِ الْقُرْآنِ ،
وَدَعَوْتَنَا إِلَى طَاعَةِ الشَّيْطَانِ ، وَحُكْمِ مَرْوَانَ وَآلِ مَرْوَانَ ، فَشَتَّانَ لِعَمْرٍُ اللَّهِ مَا بَيْنَ النَّبِيِّ
وَالرَّشْدِ إِثْمَ أَفْبَلُوا يُهْرَعُونَ وَزَرْقُونَ ^(٤) ، قَدْ ضَرَبَ الشَّيْطَانُ بَجِرَانَهُ ^(٥) ، وَغَلَّتْ بِدِمَائِهِمْ
مَرَاجِلُهُ ، وَصَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ ، وَأَقْبَلَ أَنْصَارَ اللَّهِ عَصَابًا وَكُتَابًا ، بِكُلِّ مَهْمَدٍ
ذِي رَوْنَقٍ ، فَدَارَتْ رِحَانًا وَاسْتَدَارَتْ رِحَامًا بِضَرْبِ يَرْتَابٍ مِنْهُ الْمُبْطَلُونَ .

وَأَنْتُمْ يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ إِنْ تَنْصَرُوا مَرْوَانَ وَآلَ مَرْوَانَ يُسْحِتْكُمْ ^(٦) اللَّهُ بِمَذَابٍ مِنْ
عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا ، وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ، يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ إِنْ أَوْلَيْتُمْ خَيْرَ أَوْلٍ ،
وَأَخْرَجْتُمْ شَرًّا آخَرَ ، يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ : النَّاسُ مَنَا وَنَحْنُ مِنْهُمْ ، إِلَّا مُشْرِكًا عَابِدًا وَثَنًا ، أَوْ كَافِرًا
مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، أَوْ إِمَامًا جَائِرًا أَوْ شَادَا عَلَى عَضُدِهِ ، يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ : مَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ
تَعَالَى كَلَّفَ نَفْسًا فَوْقَ طَاقَتِهَا ، أَوْ سَأَلَهَا مَا لَمْ يُؤْتِهَا ، فَهُوَ اللَّهُ عَدُوٌّ وَلَنَا حَرْبٌ ^(٧) .

(تاريخ الطبري ٩ : ١٠٨) ، الأغاني ٢٠ : ١٠٤ ، وشرح

ابن أبي الحديد م ١ ص ٤٥٨ ، والمقد الفريد ٢ : ١٦١)

(١) يريد عبد الله بن يحيى الكندي . (٢) أي لا يعجز الله بالهرب منه فيفوته .

(٣) النفر : جماعة الرجال من ثلاثة إلى عشرة . (٤) زف الظلم وغيره كضرب زفا وزفيها

وزفوقا ، وأزف : أسرع . (٥) جران البعير : مقدم عنقه من مذبحه إلى منحره : أي استولى عليهم .

(٦) أسحت : استأصله . (٧) روى أنه قال عقب ذلك : « يا أهل المدينة أخبروني عن ثمانية

أسهم فرضها الله تعالى في كتابه على القوي ، على حبه للضعيف ، فجاء تاسع ، ليس له منها ولا سهم واحد ، =

٤٥١ - خطبة له في سب أهل المدينة وتقريرهم

وخطب المدينة ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« يا أهل المدينة : مالي رأيت رسم الدين فيكم بقيًا ، وآثاره دارسة ، لا تقبلون عظته ولا تفقهون من أهله حجة ، قد بايت فيكم حديثه ، وانطمست عنكم سنته ، ترون معروفه منكرا ، والمنكر من غيره معروفًا ، إذا انكشفت لكم العبر ، وأوضحت لكم النذر^(١) ، عميت عنها أبصاركم ، وصممت عنها أسماعكم ، ساهين في غمرة ، لاهين في غفلة ، تنبسط قلوبكم للباطل إذا نشر ، وتنقبص عن الحق إذا ذكر ، مستوحشة من العلم ، مستأنسة بالجهل ، كلما وقعت عليها موعظة زادتها عن الحق نفورًا ، تحملون قلوبًا في صدوركم كاللحجارة أو أشد قسوة من الحجارة ، أو لم تلبس لسكتاب الله الذي لو أنزل على جبل لرأيته خاشعًا متصددًا من خشية الله ، يا أهل المدينة ، ما تُنبي عنكم صحة أبدانكم إذا سقمت قلوبكم ، إن الله قد جعل لكل شيء سننًا غالبًا ينقاد له ، ويطيع أمره . وجعل القلوب غالبًا على الأبدان ، فإذا مالت القلوب ميلاً ، كانت الأبدان لها تبعًا ، وإن القلوب لا تلبس أهلها إلا بصحتها ، ولا يصححها إلا المعرفة بالله ، وقوة النية ، ونفاذ البصيرة ، ولو استشعرت تقوى الله قلوبكم ، لاستعملت في طاعة الله أبدانكم ، يا أهل المدينة : داركم دار الهجرة ، ومثوى رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نبت به داره ، وضاق به قراره ، وآذاه الأعداء وتجهمت^(٢) له ، فنقله الله إليكم ، بل إلى قوم لعمري لم يكونوا أمثالكم ، متوازيين مع الحق على الباطن ، مختارين الآجل على العاجل ، يصبرون للصبراء رجاء ثوابها ، فنصروا الله ، وجاءوا في سبيله ، وآووا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونصروه ، واتبعوا النور

= فأخذ جميعها لنفسه مكابرا محاربا لربه ، ما تقولون فيه وفيمن عاونه على فعله ؟ يا أهل المدينة بلغني أنكم

تنتقصون أصحابي ... الخ » وقد حدثته هنا لوروده في الخطبة السالفة .

(١) النذر : جمع نذير ، وهو المنذر . (٢) تجهمت وتجهم له : استقبله بوجه كريمة .

الَّذِي أَنْزَلَ مَعَهُ ، وَآثَرُوا اللَّهَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ^(١) . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى
لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَفْجَاءً وَمِنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاجِحُونَ » ، وَأَنْتُمْ
أَبْنَاؤُهُمْ وَمَنْ بَقِيَ مِنْ خَلْفِهِمْ ، تَتْرَكُونَ أَنْ تَقْتَدُوا بِهِمْ ، أَوْ تَأْخُذُوا بِسُنَّتِهِمْ ، تُغْمَى الْقُلُوبُ ،
صُمُّ الْأَذَانِ ، اتَّبَعْتُمْ الْهَوَى ، فَأَزْدَاكُمْ عَنِ الْهُدَى وَأَسْهَأَكُمْ ، فَلَا مَوَاعِظُ الْقُرْآنَ تَزْجُرْكُمْ
فَتَزْجُرُونَ ، وَلَا تَعْظَمُكُمْ فَتَعْتَبِرُونَ ، وَلَا تُوقِظُكُمْ فَتَسْتَيْقِظُونَ ، لَبِئْسَ الْخَلَافَ أَنْتُمْ مِنْ
قَوْمٍ مَضَوْا قَبْلَكُمْ ، مَسِيرَتُمْ بِسِيرَتِهِمْ ، وَلَا حَفِظْتُمْ وَصِيَّتَهُمْ ، وَلَا احْتَذَيْتُمْ مِثْلَهُمْ ، لَوْ شِئْتَ
عَنْهُمْ قَبُورُهُمْ ، فَعَرَضْتَ عَلَيْهِمْ أَعْمَالَكُمْ ، لَعَجِبُوا كَيْفَ صُفِرَ الْعَذَابُ عَنْكُمْ !
(الأغاني ٢٠ : ١٠٥ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٥٨)

* * *

وجاء في رواية العقد الفريد :

« يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ : أَوْلَاكُمْ خَيْرٌ أَوَّلٌ ، وَآخِرُكُمْ شَرٌّ آخِرٌ ، إِنْكُمْ أَطَقْتُمْ قُرَاءَةَ كِتَابِ
وَقْفِهَا . كُمْ فَآخِثَانُوكُمْ ^(٢) عَنْ كِتَابِ غَيْرِ ذِي عَوَجٍ ، بِتَأْدِيلِ الْجَاهِلِينَ ، وَانْتِحَالِ الْمُبْطِلِينَ ،
فَأَصْبَحْتُمْ عَنِ الْحَقِّ نَاقِبِينَ ^(٣) ، أَمْوَاتًا غَيْرَ أَحْيَاءَ وَمَا تَشْعُرُونَ ، يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ : يَا أَبْنَاءَ
الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمُ بِإِحْسَانٍ ، مَا أَصْحَحَّ أَوْلَادَكُمْ ، وَأَسَقَمَ فِرْعَاقَكُمْ إِنْ كَانَ
أَبَاؤُكُمْ أَهْلَ الْيَقِينِ ، وَأَهْلَ الْمَعْرِفَةِ بِالدِّينِ ، وَالْبَصَائِرِ النَّافِذَةِ ، وَالْقُلُوبِ الْوَاعِيَةِ ، وَأَنْتُمْ
أَهْلُ الضَّلَالَةِ وَالْجَهْلَةِ ، اسْتَعْبَدْتُمْ الدُّنْيَا فَأَدَلَّتْكُمْ ، وَالْأَمَانِيَّ فَأَضَلَّتْكُمْ فَتَنَحَّ اللَّهُ لَكُمْ
بَابَ الدِّينِ فَسَدَّدْتُمُوهُ ، وَأَغْلَقَ عَنْكُمْ بَابَ الدُّنْيَا فَفَتَحْتُمُوهُ ، سِرَاعٌ إِلَى الْعِقَّةِ ، بِطَأْءِ
عَنِ الشُّنَّةِ ، مُعْنَى عَنِ الْبِرْهَانِ ، صُمٌّ عَنِ الْعِرْفَانِ ، عَمِيْدُ الطَّمَعِ ، حُلْفَاءُ الْجَزَعِ ، نِعْمَ
مَا وَرَّثَكُمْ آبَاؤُكُمْ لَوْ حَفِظْتُمُوهُ ، وَبِئْسَ مَا تَوَرَّثُونَ أَبْنَاءَكُمْ إِنْ تَمَسَّكُوا بِهِ ، نَصَرَ اللَّهُ
آبَاءَكُمْ عَلَى الْحَقِّ ، وَخَذَلَكُمْ عَلَى الْبَاطِلِ ، كَانَ عِدَدُ آبَائِكُمْ قَلِيلًا طَيِّبًا ، وَعِدَدُكُمْ كَثِيرًا

خبيث ، اتبعتم الهوى ، فأزداكم ، والاهو فأسهاكم ، ومواعظُ القرآن تزجركم
فلا تزددجرون ، وتعبركم^(١) فلا تعتبرون «
(المقد الفريد ٢ : ١٦١)

٤٥٢ - خطبة أخرى

وخطب فقال : « أما بعد ، فإنك في ناثي فتنة^(٢) ، وقائد ضلالة ، قد طال
جثومها ، واشتد عليك غمومها ، وتلوّنت^(٣) مصايدُ عدو الله فيها ، وما نصب من
الشرك لأهل الغفلة عمّا في عواقبها^(٤) ، فلن يهدّ عمودها ، ولن ينزع أوتادها ،
إلا الذي بيده ملك الأشياء ، وهو الله الرحمن الرحيم ، ألا وإن الله بقايا من عباده
لم يتحيروا في ظلمها ، ولم يشايعوا أهلها على شهها ، مصابيح النور في أفواههم تزهو ،
وألسنتهم بجحجج الكتاب تنطق ، ركبوا منهج السبيل ، وقاموا على العلم^(٥) الأعظم ،
هم خصماء الشيطان الرجيم ، بهم يصلح الله البلاد ، ويدفع عن العباد ، فطوبى لهم
وللمستصبحين^(٦) بنورهم ، وأسأل الله أن يجعلنا منهم^(٧) . »

(المقد الفريد ٢ : ١٦٢)

-
- (١) المراد : تعظّمكم ، من العبارة ؛ ولم أجده في كتب اللغة بهذا المعنى ، وإنما الذي فيها : « عبر
الدرهم : وزنها » . (٢) من إضافة الصفة للموصوف أي في فتنة ناشئة ، أي حية شابة .
(٣) تعددت وصارت ذات ألوان : أي نصب العذر لنا المصايد ، ودبر المكاييد للإيقاع بنا .
(٤) أي ولسنا منهم . (٥) العلم : الجبل ، والمراد أنهم لا يستخفون في دعوتهم .
(٦) أي المستصبيين . (٧) ذكر الجاحظ هذه الخطبة ، وقال : ذهب عنى إسنادها ؛ وهي لأبي
حمزة كما في العقد الفريد .

٤٥٣ — خطبته حين خرج من المدينة

وخطب حين خرج من المدينة ، لقتال جيش مروان ^(١) فقال :
« يا أهل المدينة : إنا خارجون لحرب مروان ، فإن نظهر نعدل في أحكامكم ،
ونحمدكم على سنة نبيكم ، ونقسم بينكم فيكم ، وإن يكن ما تمنون لنا : فسيعلم
الذين ظلموا أيُّ منقلب ينقلبون » .

(تاريخ الطبري ٩ : ١١٠ ، والأغانى ٢٠ : ١١٠ وشرح ابن الحديد ١ : ص ٤٦١)

٤٥٤ — عمران بن حطان والحجاج

ولما ظفر الحجاج بعمران ^(٢) بن حطان الشَّارِي . قال : اضربوا عنق ابن الفاجرة ،
فقال عمران : لبئس ما أدبك أهلك يا حجاج ! كيف أميتت أن أجيبك بمثل
ما لقيتني به ؟ أبعث الموت منزلة أصانمك عليها ؟ فأطرق الحجاج استجباءً وقال : خلوا عنه ،
فخرج إلى أصحابه ، فقالوا : والله ما أطلقك إلا الله ، فارجع إلى حربته معنا ،
فقال : هيهات ! غلَّ يداً مُطلقهاً ، وأسرَ رقيةً مُعتقها .

(زهر الآداب ٣ : ١٧٨)

(١) وذلك أن مروان بن محمد جهز جيشاً من أهل الشام ، واستعمل عليهم عبد الملك بن محمد بن عطية ،
وأمره أن يمضي فيقاتلهم ، فإن هو ظفر بهم مضى حتى يبلغ اليمن ، ويقاقل عبد الله بن يحيى ، فصار إليهم ،
وخرج أبو حزة للاقائه ، فقاتلهم ابن عطية حتى قتلهم ، وقتل أبا حزة ، وبعث برأسه إلى مروان ، وصلبه
هو وكبار أصحابه (سنة ١٣٠) ولم يزالوا مصلبين حتى أفضى الأمر إلى بني العباس ، ثم سار ابن عطية إلى
اليمن ، فقاتل عبد الله بن يحيى وقتله ، وبعث برأسه إلى مروان .

(٢) كان رأس القعد من الخوارج الصفرية وخطيبهم وشاعرهم .

الخطب الوعظية والوصايا

٤٥٥ - خطبة سبحان بن زفر الوائلي^(١) (توفي سنة ٥٥٤ هـ)

خطب فقال :

« إن الدنيا دارُ بلاغ ، والآخرة دار قرّار ، أيها الناس : فخذوا من دار تمرّكم لدار مقرّكم ، ولا تهتكوا أسراركم عند من لا تخفى عليه أسراركم ، وأخرجوا من الدنيا قلوبكم ، قبل أن تخرج منها أبدانكم ، ففيها حَيِّيمٌ وغيرها خَلِقْتُمْ ، إن الرجل إذا هلك ، قال الناس : ما ترك ؟ ر قالت الملائكة ما قدّم لله ؟ قدّموا بعضاً يكون لكم ، ولا تخلّفوا كُلاًّ يكون عليكم . »

(سرح العيون ص ٩٥)

(١) هو سبحان بن زفر الوائلي ، وقد ضرب به المثل في المصاححة والبيان ، فقيل : « أخطب من سبحان وائل » ومع ذلك لم يؤثر عنه إلا هذه الخطبة الموجزة ، على أنها ترمز إلى الإمام علي - انظر نهج البلاغة ١ . ٢٦٠ - وذكر المبرد في الكامل عن الأصمعي أن أعرابياً خطبها بالبادية - تهذيب الكامل ١ : ٢٨ - وكذا ذكر أبو علي القالي - في الأمل ١ : ٢٥٨ - وابن عبد ربه - في العقد الفريد ٢ : ١٦٤ - وأبو الفضل الميداني - في مجمع الأمثال ١ : ٣١٨ ، وابن قتيبة في عيون الأخبار ٢ : ص ٢٥٣ - والخصري - في زهر الآداب ٢ : ٤ - قال ابن أبي الحديد : « وأكثر الناس على أن هذا الكلام لأمير المؤمنين علي عليه السلام ، ويجوز أن يكون الأعرابي حفظه ، فأورده كما يورد الناس كلام غيرهم » - م ٣ : ص ٢ . وقد روى ابن نباتة في سرح العيون أنه قدم على معاوية وقد من خراسان ، فبهم سعيد بن عثمان بن عفان ، فطلب سبحان فلم يوجد في منزله ، فاقتضب من ناحية اقتضاباً ، وأدخل عليه ، فتكلم منذ صلاة الظهر إلى أن قامت صلاة العصر ، ماتنحج ، ولا سئل ، ولا توقّف ، ولا ابتداء في معنى ، فخرج منه ، وقد بقي عليه منه شيء ، فزال تلك حاله حتى أشار معاوية بيده ؛ فأشار إليه سبحان أن لا تقطع كلامي ، فقال معاوية : الصلاة ، قال : هي أملك : نحن في صلاة وتحميد ، ووعد ووعيد ، فقال معاوية : أنت أخطب العرب ، فقال سبحان : « والمجم والجن والإنس » اه ، ولعل هذه الإطالة هي التي عاقت الرواة عن حفظ ما يقول .

٤٥٦ — خطبة معاوية

وخطب معاوية بدمشق ، فقال :

أيها الناس : سافروا بأبصاركم في كَرِّ الجديدين^(١) ، ثم ارجعوا كليله عن بلوغ
الأمَل ، فإن الماضي عِظَةٌ للباقي ، ولا تجعلوا الفرورَ سبيلَ المعجز عن الجدِّ ، فَتَنْقَطِعَ
حجتكم في مَوْقِفِ اللهِ سائِلِكُمْ فيه ، ومحاسِبِكُمْ فيما أسلفتم ، أيها الناس : أمْسِ شَاهِدٌ
فاحذروه ، واليوم مؤدَّبٌ فاعْرِفُوهُ ، وغداً رسولٌ فأكْرِموهُ .

(مواسم الأدب ٢ : ١١٦)

٤٥٧ — خطبة عبد الملك بن مروان

وخطب عبد الملك بن مروان ، فقال :

« أيها الناس : اعملوا لله رغبةً ورهبةً ، فإنكم نبات نِباتِ نِعْمَتِهِ ، وَحَصِيدِ نِعْمَتِهِ ،
ولا تفرس لكم الآمالُ ، إلا ما تجتنيه الآجالُ ، وأقلُّوا الرغبة فيما يورث العطبَ ،
فكل ما تزرعه العاجلةُ ، تقلمه الآجلةُ ، واحذروا الجديدين ، فوما يكرُّ أن عليكم ،
إن عُقْبِي من نَقَى لِحُوقِ بَيْنِ مَضَى ، وعلى أثرٍ من سَلَفٍ ، يمضى من خَلْفٍ ،
فَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى » .

(مواسم الأدب ٢ : ١١٨)

٤٥٨ — خطبة لعمر بن عبد العزيز^(١)

قال أبو العباس المبرد: حَدَّثْتُ فِي بَعْضِ الْأَسَانِيدِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ قَالَ فِي خُطْبَةٍ لَهُ :

« أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّمَا الدُّنْيَا أَمَلٌ مُخْتَرَمٌ ، وَأَجَلٌ مُنْتَقِصٌ ، وَبَلَاغٌ إِلَى دَارٍ غَيْرِهَا ، وَسَيْرٌ إِلَى الْمَوْتِ لَيْسَ فِيهِ تَعْرِيجٌ ، فَرِحِمَ اللَّهُ أَمْرًا فَكَّرَ فِي أَمْرِهِ ، وَنَصَحَ لِنَفْسِهِ ، وَرَأَى رَبَّهُ ، وَاسْتَعَالَ ذَنْبَهُ ، وَنَوَّرَ قَلْبَهُ ، أَيُّهَا النَّاسُ : إِنْ أَبَاكُمْ قَدْ أُخْرِجَ مِنَ الْجَنَّةِ بِذَنْبٍ وَاحِدٍ ، وَإِنْ رَبُّكُمْ وَعَدَ عَلَى التَّوْبَةِ ، فَلْيَكُنْ أَحَدُكُمْ مِنْ ذُنُوبِهِ عَلَى وَجَلٍ ، وَمَنْ رَبَّهُ عَلَى أَمَلٍ . »

(تهذيب السكامل ١ : ٢٧)

(١) هذه الخطبة تختلف في قائلها أيضا ، فقه مزاحا المبرد إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كما ترى وروى الميداني في مجمع الأمثال (٢ : ٢٧٧) الشطر الأول منها ، وعزاه إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

كلام الحسن البصرى

(المتوفى سنة ١١٠ هـ)

٤٥٩ - خطبة له

قال الحسن البصرى رحمه الله ^(١) :

« يابن آدم : بيع دنياك بأخرتك ترَبِّحُهُمَا جَمِيعًا ، ولا تبيع آخرتك بدنياك فتَحَسَّرَها جَمِيعًا . يابن آدم : إذا رأيت الناس في الخير فنافسهم فيه ، وإذا رأيتهم في الشرِّ فلا تَغِيْطهم عليه ، الثَّوَاءُ ^(٢) هاهنا قليل ، والبقاء هناك طويل ، أمَّتكم آخر الأمم ، وأنتم آخر أممكم ، وقد أسرع بخياركم ، فإذا تنتظرون ؟ المعاينة ؟ فكان قد، هيهات هيهات ! ذهبت الدنيا بحالها ^(٣) ، وبقيت الأعمال قلائد في أعناق بني آدم . فيالها موعظة لو وافقت من القلوب حياة ! أما إنه والله لا أمة بعد أممكم ، ولا نبي بعد نبيكم ، ولا كتاب بعد كتابكم ، أنتم تسوقون الناس والساعة تسوقكم ، وإنما يُنْتَظَر بأولكم أن يَلْحَقَهُ آخِرُكُمْ ، من رأى محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم فقد رآه غادياً ورائحاً ، لم يضع آيينه على لبنة ، ولا فصبة على قصبة ، رُفِعَ له عَلمٌ فشمَّرَ إليه ^(٤) ، فالوَحَاءُ الوَحَاءُ ^(٥) .

(١) هو أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن يasar البصرى ، من سادات التابعين ، وأورع العباد والمتسكين

وإمام أهل العلم والرأى فى عصره ، وأستاذ واصل بن عطاء شيخ المعتزلة . (٢) الإقامة .

(٣) أى بزمنها الحالى ، من حليت المرأة كرضى فهى حال وحالية : لبست الحل ، والمعنى ذهبت

بزخرفها الذى تزيفت به للناس فأضللتهم وأغوتهم ، وهى فى نسخة : « بحال بالها » وفى أخرى : « بحال بالها »

وهو تحريف . (٤) وفى نسخة : « فمما إليه » . (٥) الوحى ويهد : للعجلة والإسراع .

وَالنَّجَاءَ النِّجَاءَ ، عَلَامَ تَعْرَجُونَ ؟ أَرَأَيْتُمْ وَرَبَّ الْكُفَّةِ أَقْدَأُ سُرْعَ بِنْيَارِكُمْ : وَأَنْتُمْ كُلُّ يَوْمٍ تَرُدُّونَ ^(١) ، فَمَاذَا تَنْتَظِرُونَ ؟ إِنْ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَعَثَ مُحَمَّدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى عِلْمٍ مِنْهُ ، اخْتَارَهُ لِنَفْسِهِ ، وَبَعَثَهُ بِرِسَالَتِهِ ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابَهُ ، وَكَانَ صَهْوَتَهُ مِنْ خَلْقِهِ ، وَرَسُولُهُ إِلَى عِبَادِهِ ، ثُمَّ وَضَعَهُ مِنَ الدُّنْيَا مَوْضِعًا يَنْظُرُ إِلَيْهِ أَهْلُ الْأَرْضِ ^(٢) ، وَآتَاهَا مِنْهَا قُوَّةً وَبُلْغَةً ، ثُمَّ قَالَ : « لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ . فَرِغِبْ أَقْوَامٌ عَنْ عَيْشِهِ ، وَسَخَطُوا مَا رَضِيَ لَهُ رَبُّهُ ، فَأَبَدَهُمُ اللَّهُ وَأَسْحَقَهُمْ ^(٣) .

يَابْنَ آدَمَ : طَلَّ الْأَرْضَ بِقَدَمِكَ ، فَإِنِهَا عَنْ قَابِلِ قَبْرِكَ ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ لَمْ تَزَلْ فِي هَذِهِ عَمْرِكَ مُنْذُ سَقَطْتَ مِنْ بَطْنِ أُمَّكَ . رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا نَظَرَ فَنَفَسَكَ ، وَتَفَسَّرَ فَاعْتَبَرَ ، وَأَبْصَرَ فَصَبَرَ ، فَقَدْ أَبْصَرَ أَقْوَامٌ وَلَمْ يَصْبِرُوا ، فَذَهَبَ الْجَزَعُ بِقُلُوبِهِمْ ، وَلَمْ يُذَكِّرُوا مَا طَلَّبُوا ، وَلَمْ يَرْجِعُوا إِلَى مَا فَارَقُوا .

يَابْنَ آدَمَ : إِذْ كَرَّ قَوْلُهُ : « وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ ^(٤) فِي عُنُقِهِ ، وَنُخْرِجُهُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ، اقْرَأْ كِتَابَكَ ، كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا . عَدَلَ وَاللَّهِ عَلَيْكَ مَنْ جَعَلَكَ حَسِيبَ نَفْسِكَ ، خَذُوا صِفَا الدُّنْيَا ، وَذَرُّوا كَدْرَهَا ، فَلَيْسَ الصَّفْوُ مَا عَادَ كَدْرًا ، وَلَا الْكَدْرُ مَا عَادَ صَفْوًا ، دَعُوا مَا يُرِيْبِكُمْ إِلَى مَا لَا يَرِيْبِكُمْ ، ظَهَرَ الْجَفَاءُ وَقَلَّتِ الْعُلَمَاءُ ، وَعَقَّتِ ^(٥) الشُّنَّةُ ، وَشَاعَتِ الْبِدْعَةُ ، لَقَدْ صَحِبَتْ أَقْوَامًا مَا كَانَتْ حَسِبْتُهُمْ إِلَّا قُرَّةَ الْعَيْنِ ، وَجِلَاءَ الصَّدُورِ ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ أَقْوَامًا كَانُوا - مِنْ حَسَنَاتِهِمْ أَنْ تُرَدَّ عَلَيْهِمْ - أَشْفَقَ ^(٦) مِنْكُمْ - مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ أَنْ تُعَذِّبُوا عَلَيْهَا - ، وَكَانُوا فِيهَا أَحْلَى اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا أَرْهَدَ مِنْكُمْ فِيهَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مِنْهَا ، مَا لِي أَسْمَعُ حَسِيبًا ، وَلَا أَرَى

(١) أى تصيرون أردالا جمع رذل : وهو اللدون الحسيس . (٢) أى موضعا ساميا .

(٣) أى أبدهم ، وفى نسخة : « وسحقهم » أى أهلكهم . (٤) أى عمله يحمله فى عنقه ،

والتعبير به لما كانوا يتيمينون ويتشاهمون بالطائر السائح والبارح ، استعير لما هو سبب الخير والشر .

(٥) محيت . (٦) أخوف .

أُنَيْسًا ، ذهب الناس وبقى النِّسْناس^(١) ، لو تكاشفتُم ما تدافنتُم ، تهاديتُم الأَطْباقَ ، ولم تهادوا النَّصَائِحَ ، قال ابن الخطَّاب : « رَحِمَ اللهُ أَمْرًا أَهْدَى إِلَيْنَا مَسَاوِينَنَا » أعدُّوا الجواب ، فإنَّكم مسؤلون ، المؤمن من لم يأخذ دينه عن رأيه ، ولكنه أخذ من قبل ربه ، إن هذا الحق قد جهَّد أهله ، وحال بينهم وبين شهواتهم ، وما يصبر عليه إلا من عرَّف فضله ، ورجا عاقبته ، فن حَمِد الدنيا ذمَّ الآخرة ، وليس بكره لقاء الله إلا مُقِيمٌ هلى سخطه .

يا بن آدم : الإيمان ليس بالتحلَّى ولا بالتمنَّى ، ولكنه ما وقرَّ في القلوب ، وصدَّقه العمل .

(البيان والتبيين ٣ : ٦٨ وعيون الأخبار م ٢ ص ٣٤٤ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٦٩)

٤٦٠ - خطبة أخرى

وكان إذا قرأ : « أَلْهَأَكُمُ التَّكَاثُرُ^(٢) » قال :
عمَّ ألهأكم ؟ عن دار الخلود ، وحنة لا تبيد^(٣) ، هذا والله فضح القوم ، وهتك السُّتر ، وأبدى العوار^(٤) ، تُنفق مثل دينك في شهواتك سرِّفاً ، وتمنع في حق الله درهما ! ستعلم يا الكع^(٥) ، الناس ثلاثة : مؤمن ، وكافر ، ومنافق ؛ فأما المؤمن : فقد أجه الخوف وقومه ذِكْرُ العَرَضِ ؛ وأما الكافر : فقد قعته السيف ، وشرده الخوف ، فأدعن بِالْجِزْيَةِ ، وسمح بالضريبة ؛ وأما المنافق : ففي الحِجْرَاتِ والطَّرُقَاتِ ، يُسِرُّون غير ما يعلنون ، ويضمرون غير ما يظهرون ، فاعتبروا إنكارهم ربهم ، بأعمالهم الخبيثة ، وبلك ؟ قتلت رأيه ، ثم تمنى عليه جنته ؟ .

(البيان والتبيين ٣ - ٦٩)

(١) في حديث أبي هريرة رضى الله عنه : « ذهب الناس وبقى النسناس » قول : فالنسناس ؟ قال : « الذين يتشبهون بالناس ، وليسوا من الناس » ولهم في تفسير النسناس كلام كثير ، منه : أنهم خلق على صورة الناس خالفهم في أشياء ، وليسوا منهم .

(٢) التباهى بالكثرة . (٣) لا تنفى . (٤) العوار مثلث المعين : العيب .

(٥) الكع : اللئيم والاحق .

٤٦١ - خطبة أخرى

وكان يقول : « رحم الله رجلاً خلأ بكتاب الله ، فمعرض عليه نفسه ، فإن وافقه حمد ربه ، وسأله الزيادة من فضله ، وإن خالفه أعتب وأناب ، وراجع من قريب ، رحم الله رجلاً وعظ أخاه وأهله فقال : « يَا أَهْلِي : صَلَاتِكُمْ صَلَاتِكُمْ ، زَكَاتِكُمْ زَكَاتِكُمْ ، جِيرَانِكُمْ جِيرَانِكُمْ ، إِخْوَانِكُمْ إِخْوَانِكُمْ ، مَسَاكِينِكُمْ مَسَاكِينِكُمْ ، لِمَلِ اللَّهُ بِرُحْمِكُمْ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَتَى عَلَى عَبْدٍ مِنْ عِبَادِهِ ، فَقَالَ : « وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ ، وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا » . يَا بَنَ آدَمَ : كَيْفَ تَكُونُ مَسْلُكًا وَلَمْ يَسْلَمْ مِنْكَ جَارُكَ ، وَكَيْفَ تَكُونُ مُؤْمِنًا وَلَمْ يَأْمَنْكَ النَّاسُ ؟ » .

(البيان والتبيين ٣ : ٦٩)

٤٦٢ - خطبة أخرى

وكان يقول : « لا يستحق أحد حقيقة الإيمان ، حتى لا يعيب الناس بعبء هو فيه ولا يأمر بإصلاح عيوبهم ، حتى يبدأ بإصلاح ذلك من نفسه ، فإنه إذا فعل ذلك لم يصحح عيبًا إلا وجد في نفسه عيبًا آخر ينبغي له أن يصلحَه ، فإذا فعل ذلك شغل بخاصة نفسه عن عيب غيره ، وإنك ناظر إلى عملك بوزن خيره وشره ، فلا تحقرن شيئًا من الخير وإن صغر فإنك إذا رأيت مترك مكانه ، ولا تحقرن شيئًا من الشر وإن صغر فإنك إذا رأيت ساءك مكانه » .

(البيان والتبيين ٣ : ٧٠)

٤٦٣ - خطبة أخرى

وكان يقول : « رَحِمَ اللهُ عَبْدًا كَسَبَ طَيِّبًا ، وَأَنْفَقَ قَصْدًا ، وَقَدَّمَ فَضْلًا ، وَجَهَّوْا هَذِهِ الْفُضُولَ ^(١) حَيْثُ وَجَّهَهَا اللهُ ، وَضَعُوهَا حَيْثُ أَمَرَ اللهُ ، فَإِنْ مِنْكُمْ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَأْخُذُونَ مِنَ الدُّنْيَا بِلَاغَتِهِمْ ، وَيُؤْتِرُونَ بِالْفُضْلِ ، أَلَا إِنَّ هَذَا الْمَوْتُ قَدْ أَضْرَبَ بِالدُّنْيَا فَفَضَحَهَا ، فَلَا وَاللَّهِ مَا وَجَدَ ذُرْبًا فِيهَا فَرَحًا ، فَإِيَّاكُمْ وَهَذِهِ السَّبِيلُ الْمَتَفَرِّقَةُ ، الَّتِي جَمَعَهَا الضَّلَالَةُ ، وَمِمَّاعِدَاهَا النَّارُ ، أَدْرَكْتُ مِنْ صَدْرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ قَوْمًا كَانُوا إِذَا جَنَّهُمُ اللَّيْلُ فَقِيَامَ عَلَى أَطْرَافِهِمْ ، يَفْتَرِشُونَ خُدُودَهُمْ ، تَجْرِي دِمُوعُهُمْ عَلَى خُدُودِهِمْ ، يَنْجُؤْنَ مَوْلَاهُمْ فِي فِكَكَ رِقَابِهِمْ ، إِذَا عَمِلُوا الْحَسَنَةَ سَرَّتْهُمْ ، وَسَأَلُوا اللَّهَ أَنْ يَقْبَلَهَا مِنْهُمْ ، وَإِذَا عَمِلُوا سَيِّئَةً سَاءَتْهُمْ ، وَسَأَلُوا اللَّهَ أَنْ يَغْفِرَ مَا لَمْ يَغْفِرْهَا لَهُمْ ، يَا بَنِي آدَمَ : إِنْ كَانَ لَا يُغْنِيكَ مَا يَكْفِيكَ ، فَلَيْسَ هَاهُنَا شَيْءٌ يُغْنِيكَ ، وَإِنْ كَانَ يُغْنِيكَ مَا يَكْفِيكَ ، فَالْقَائِلُ مِنَ الدُّنْيَا يَكْفِيكَ ، يَا بَنِي آدَمَ : لَا تَعْمَلْ شَيْئًا مِنَ الْحَقِّ رِيَاءً ، وَلَا تَتْرُكْ حَيَاءً . »

(للبيان والتبيين ٣ : ٧٠)

٤٦٤ - خطبة أخرى

وكان يقول : « إِنْ الْعُلَمَاءُ كَانُوا قَدْ اسْتَفْتَوْا بَعْلَهُمْ عَنِ أَهْلِ الدُّنْيَا ، وَكَانُوا يَقْضُونَ بَعْلَهُمْ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا ، مَا لَا يَقْضِي أَهْلُ الدُّنْيَا بِدُنْيَاهُمْ فِيهَا ، وَكَانَ أَهْلُ الدُّنْيَا يَبْذُلُونَ دُنْيَاهُمْ لِأَهْلِ الْعِلْمِ رَغْبَةً فِي عِلْمِهِمْ ، فَأَصْبَحَ لِلْيَوْمِ أَهْلُ الْعِلْمِ يَبْذُلُونَ عِلْمَهُمْ لِأَهْلِ الدُّنْيَا رَغْبَةً فِي دُنْيَاهُمْ ، فَرَغِبَ أَهْلُ الدُّنْيَا بِدُنْيَاهُمْ عَنْهُمْ ، وَزَهَدُوا فِي عِلْمِهِمْ ، لَمَّا رَأَوْا مِنْ سُوءِ مَوْضِعِهِمْ عِنْدَهُمْ ، وَكَانَ يَقُولُ : لَا أَذْهَبُ إِلَى مَنْ يُوَارِي

(١) جمع فضل : وهو الزيادة من المال وغيره .

غنى غناه ، وببدي لي فقره ، ويغلق دوني بابه ، ويمعني ما عنده ، وأدع
من يفتح لي بابه ، وببدي لي غناه ، ويدعوني إلى ما عنده .

(البيان والتبيين ٣ : ٧٠)

٤٦٥ - خطبة أخرى

وكان يقول : « يا بن آدم ، لا غنى بك عن نصيبك من الدنيا ، وأنت إلى نصيبك
من الآخرة أفقر ، مؤمن مهمم ، وعليج اغتم ، وأعرابي لافقه له ، ومنافق مكذب ،
ودنياوي^(١) مترف ، نطق بهم ناعق فاتبعوه ، فرأش نار^(٢) ، وذبان طمع ، والذي نفس
الحسن بيده ، ما أصبح في هذه القرية مؤمن إلا أصبح مهموما حزينا ، وليس لمؤمن
راحة دون لقاء الله ، الناس ما داموا في عافية مستورون ، فإذا نزل بلاء صاروا إلى
حقائهم ، فصار المؤمن إلى إيمانه ، والمنافق إلى نفاقه ، أي قوم : إن نعمة الله عليكم
أفضل من أعمالكم ، فسارعوا إلى ربكم ، فإنه ليس لمؤمن راحة دون الجنة ،
ولا يزال العبد بخير ما كان له واعظ من نفسه ، وكانت الحاسبة من هم » .

(البيان والتبيين ٣ : ٧٠)

٤٦٦ - خطبة أخرى

وقال في يوم فطر - وقد رأى الناس رهيبتهم - : إن الله تبارك وتعالى جعل رمضان
مضماراً لخلق ، يستيقون فيه بطاعته إلى مرضاته ، فسبق أقوام ففازوا ، وتخلف آخرون
فخابوا ، فاعجب من الضاحك اللاعب ، في اليوم الذي يفوز فيه المحسنون ، ويخسر فيه
المبطلون ، أما والله أن لو كشف الغطاء ، أشغل محسن بإحسانه ، ومسيء بإساءته ،
عن ترجيل^(٣) شعر ، أو تجديد ثوب .

(البيان والتبيين ٣ : ٧١ ، وتهذيب الكامل ١ : ٢٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٢٠٣)

(١) نسبة إلى دنيا . (٢) أي هم كالفراس يهاقت على النار يحسبها نافعة له فتحرقه .

(٣) وفي رواية الكامل لمبرد : « ترطيل بالطاء ، والترطيل : تليين الشعر بالدهن وتمكيره وإرخاؤه وإرساله .

٤٦٧ - مقام الحسن البصرى عند عمر بن هبيرة

لما ولى عمر بن هبيرة الفزارى العراق - وذلك فى أيام يزيد بن عبد الملك - استدعى الحسن البصرى ، ومحمد بن سيرين ، والشَّعْبِيّ ، سنة ثلاث ومائة ، فقال لهم : إن يزيد خليفة الله ، استخلفه على عبادته ، وأخذ عنهم الميثاق بطاعته ، وأخذ عهدنا بالسمع والطاعة ، وقد ولّانى ما ترّون ، فيكتب إلى بالأمر من أمره ، أعرف فى تنفيذه الملكة ، فأخاف إن أطمعته غصب الله ، وإن عصيته لم آمن سَطَوْتَهُ ، فما ترّون ؟ فقال ابن سيرين والشَّعْبِيّ قولاً فيه تقيّة ، وكان ابن هبيرة لا يستشفي دن أن يسمع قول الحسن ، فقال : قل ما عندك يا أبا سعيد ، فقال : « يا ابن هبيرة : خَفِ الله فى يزيد ولا تخَفْ يزيد فى الله ، إن الله يمنك من يزيد ، وإن يزيد لا يمنك من الله ، وأوشك أن يبعث إليك ملكاً ، فيزيك عن سريرك ، ويخرجك من سعة قصرك ، إلى ضيق قبرك ، ثم لا ينجيك إلا عملك ، يا ابن هبيرة : إن تمص الله ، فإنما جعل الله هذا السلطان ناصراً لدين الله وعباده ، فلا تركب دين الله وعباده بساطان الله ، فإنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » .

وفى رواية أخرى قال : « أقول والله إنه يؤشك أن يزل بك ملك من ملائكة الله فظ غليظ ، لا يمضي الله ما أمره ، فيخرجك من سعة قصرك ، إلى ضيق قرك ، فلا يُغْنِي عنك ابن عبد الملك شيئاً ، وإنى لأرجو أن الله عز وجل سيصمك من يزيد ، وإن يزيد لا يمنك من الله ، فاتق الله أيها الأمير ، فإنك لا تأمن أن ينظر الله إليك ، وأنت على أقبح ما تكون عليه من طاعة يزيد ، نظرة يمتك بها ، فيمليق عنك باب الرحمة ، واعلم أنى أخوفك ما خوفك الله سبحانه حين يقول : « ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ » وإذا كنت مع الله عز وجل فى طاعته كماك بَوَاتِقٍ ^(١) يزيد ، وإن كنت مع يزيد على معصية الله وكلك الله إلى يزيد حين لا يُغْنِي عنك شيئاً » .

فبكى عمر بن هبيرة بكاء شديداً ، ثم أجازهم ، وأضعف جائزة الحسن ، فقال الشعبي لابن سيرين : سَفَسْنَا (١) له فَسَفَسْنَا لنا .

(وفيات الأعيان ١ : ١٢٨ ، الحسن البصرى لابن الجوزى ص ٥٢ ، مروج الذهب ٢ : ١٧٨ ، عيون الأخبار م ٢ : ص ٣٤٣ ، شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ص ٥٩ ، أمال السيد المرتضى ١ : ١١٠)

٤٦٨ — مقام الحسن عند النضر بن عمرو

وأحضر النضر بن عمرو - وكان والياً على البصرة - الحسن البصرى يوماً ، فقال : يا أبا سعيد إن الله عز وجل : خالق الدنيا وما فيها من رِياضها (٢) ، وبهجتها ، وزينتها لعباده ، وقال عز وجل : « كَلُوا وَأَشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ » ، وقال عز من قائل : « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ، قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » فقال الحسن :

« أيها الرجل : اتق الله في نفسك ، وإياك والأمانى التي ترجحت (٣) فيها فتهلك ، إن أحداً لم يُعطَ خيراً من خير الدنيا ، ولا من خير الآخرة بأمنيته ، وإنما هي داران ، من عمل في هذه أدرك تلك ، ونال في هذه ما قُدِّرَ له منها ، ومن أهمل نفسه خسرهما جميعاً ، إن الله سبحانه اختار محمداً صلى الله عليه وسلم لنفسه ، وبعثه برسالته ورحمته ، وجعله رسولا إلى كافة خلقه ، وأنزل عليه كتاباً مهيمناً ، وحدَّ له في الدنيا حدوداً ، وجعل له فيها أجلاً ، ثم قال عز وجل : « لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ » وأمرنا أن نأخذ بأمره ، ونهتدى بهديه ، وأن نسلك طريقته ، ونعمل بسنته ، فما بلغنا إليه فبفضله ورحمته ، وما قصرنا عنه فعطينا أن نستعين ونستغفر ، فذلك باب نخرجنا به فأما الأمانى فلا خير فيها ، ولا في أحدٍ من أهلها » :

(١) سفسف عمله : لم يبالغ في إحكامه . (٢) الرياش : اللباس الفاخر والمال والخشب والمعاش .

(٣) أي ملت إليها ، من ترجمت به الأرجوحة : مالت .

فقال النضر : والله يا أبا سعيد إنا على ما فينا لننحب ربنا ، فقال الحسن :
 « لقد قال ذلك قوم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله تعالى عليه :
 « قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ » فجعل سبحانه أتباعه صلى الله
 عليه وسلم علما للمحبة ، وأكذب من خالف ذلك ، فاتق الله أيها الرجل في نفسك ،
 وإيم الله لقد رأيت أقباما كانوا قبلك في مكانك ، يعلون المنابر ، وتهتز لهم المراكب
 ويجرثون الديول بطراً ورياء الناس ، يبنون المدر^(١) ، ووثرون الأثر^(٢) ، ويتنافسون
 في الثياب ، أخرجوا من سلطانهم ، وسلبوا ما جمعوا من دنياهم ، وقدموا على ربهم ،
 ونزلوا على أعمالهم ، فالويل لهم يوم التغابن^(٣) ، ويا ويحهم - يوم يفر المرء من أخيه
 وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ، لكل أمرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » .
 (الحسن البصرى لابن الجوزى ص ٥٠)

٤٦٩ - مقام آخر له عند النضر

ودخل عليه يوما آخر فقال :

« أيها الأمير أيذك الله ، إن أخك من نصحك في دينك ، وبصرك عيوبك ،
 وهداك إلى مرشدك ، وإن عدوك من غرك ومناك ، أيها الأمير اتق الله فإنك أصبحت
 مخالفا للقوم في الهدى والسيرة ، والعلانية والسريرة ، وأنت مع ذلك تقني الأمانى ،
 وترجع في طلب العذر ، والناس أصلحك لله طابان ، فطالب دنيا ، وطالب
 آخرة ، وإيم الله لقد أدرك طالب الآخرة واستراح ، وتعب الآخر واخترم^(٤) ،

(١) المدر : قطع الطين اليابسة ؛ والمراد يبنون القصور . (٢) استأثر على أصحابه : اختار

لنفسه أشياء حسنة واستبد بها ، والاسم : الأثرة بالتحريك ، والأثرة بالضم والسكر ، والجمع أثر
 كفرصة وفرص . (٣) غبته في البيع يغبته ، والتغابن : أن يفين بعض القوم بعضا ، وسمى يوم القيامة

يوم التغابن لأن أهل الجنة تغيب أهل النار بأخذ منازلهم في الجنة لو آمنوا . (٤) هلك .

فاحذر أيها الأمير أن تشقى بطلب الفاني ، وترك الباقي ، فتكون من النادمين ، واعلم أن حكما قال :

أين الملوك التي عن حظها غفلت حتى سفاها بكأس الموت ساقبها
نموذ بالله من الحور بعد الكور^(١) ، ومن الضلالة بعد الهدى ، لقد حدثت أيها الأمير
عن بعض الصالحين أنه كان يقول : « كفى بالمرء خيانة أن يكون للخونة أمينا ، وعلى
أعمالهم معينا » . (الحسن البصرى لابن الجوزى ص ٥١)

٤٧٠ - مقال الحسن حين رأى دار الحجاج التي بناها بواسط

وروى أن الحجاج بنى داراً بواسط^(٢) ، وأحضر الحسن ليراها ، فلما دخلها قال :
« الحمد لله : إن الملوك يروون لأنفسهم عزاً ، وأنا آتري فيهم كل يوم عبراً ، بعمد
أحدهم إلى قصر فبيده ، وإلى فرش فينجدده^(٣) ، وإلى ملابس ومراكب فيجسّسها ،
ثم يحفّ به ذباب طمع ، وفراش نار ، وأصحاب سوء ، فيقول : أنظروا ما صنعت ! فقد
رأينا أيها الغرور ، فكان ماذا يا أفسق الفاسقين ؟ أما أهل السموات فقد مقتوك ،
وأما أهل الأرض فقد لعنوك ، بنيت دار الغناء ، وخرّبت دار البقاء ، وغرّرت في دار
الغرور ، أتدلل في دار الجبود ، ثم خرج وهو يقول : إن الله سبحانه أخذ عهده على
العلماء ، كيديذبه للناس ولا يكتمونه » .

وبلغ الحجاج ما قال ، فاشتد غضبه ، وجمع أهل الشام ، فقال : يا أهل الشام أبيتتمني
عبد من عبيد أهل البصرة وأنتم حضور فلا تنكرون ! ثم أمر بإحضاره فجاء وهو
يحرك شفّتيه بما لم يُسمع ، حتى دخل على الحجاج ، فقال : يا أبا سعيد ، أما كان لإمارتي
عليك حق ، حين قلت ما قلت ؟ فقال : يرحمك الله أيها الأمير ، إن من خوّك حتى

(١) الحور : النقصان ، والكور : الزيادة ، وهو حديث شريف : « نموذ بالله من الحور بعد الكور » أي من النقصان بعد الزيادة ؛ وقيل : من فساد أمورنا بعد صلاحها : وأصله من كور العمامة وهو لفها وجمعها . (٢) واسط : مدينة بالعراق من الجنوب بين دجلة والفرات ، بناها الحجاج ومات بها . (٣) التنجيد : التزيين ، ولتنجاد : الذي يعالج الفرش والوسائد ويخيطهما .

تبلغ أمانك أرفق بك وأحب فيك من أمانك حتى تبلغ الخوف، وما أردت الذي سبق
إلى وهمك ، والأمران بيدك : العفو والعقوبة ، فاقبل الأولى بك ، وعلى الله فتوكل ،
وهو حسبنا ونعم الوكيل ، فاستحيا الحاج منه ، واعتذر إليه وأكرمه وحباه
وفي رواية أخرى : « فلما دخل ، قال له الحاج : ها هنا ، فأجلسه قريبا منه ،
وقال : ما تقول في عليّ وعثمان ؟ قال : أقول قول من هو خيرٌ مني عند من هو شرٌّ منك ،
قال فرعون لموسى : « فَأَبالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ؟ قال : عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَبْضِلُ
رَبِّي وَلَا يَنْسَى » عَلِمُ عَلَى وَعُثْمَانُ عِنْدَ اللَّهِ قال : أنت سيد العلماء يا أبا سعيد ، ودعا
بغالية^(١) وعَلَّفَ بها لحيته ، فلما خرج تبعه الحاجب فقال له : ما الذي كنت قلت حين
دخلت عليه ؟ قال : قلتُ : « يا عُدَّتِي عِنْدَ كُرْبَتِي ، ويا صاحِبِي عِنْدَ شِدَّتِي ، ويا رِئِي
نِعْمَتِي ، ويا إلهِي وإلهَ آبائِي إبراهيم وإسحق ويعقوب ، ارزقني مودته ، واصرف
عني أذاه » ففعل ربي عز وجل .

ز الحسن البصري لابن الجوزي ص ٥٣ ، والمنية والأمل لابن يحيى المرتضى ص ١٤ ،

وأمال السيد المرتضى ١ : ١١٢)

٤٧١ - صفة الإمام العادل^(٢)

لما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب إلى الحسن أن يكتب إليه بصفة الإمام
العادل ، فكتب إليه الحسن رحمه الله :

« اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قوام كل ماثل ، وقصد^(٣) كل
جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصفة^(٤) كل مظلوم ، ومفزع كل
ملهوف ، والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالراعي الشفيق على إبله ، الرفيق الذي يرتاد

(١) طيب . (٢) أوردت هذا الكتاب هنا ، والكتابتين التاليتين له لانتظامها في سلك الوصايا .

(٣) هداية ورشاد . (٤) اسم من الإنصاف .

لها طيب الرعى ، ويذودها عن سرائع الهلكة ، ويحميها من السباع ، ويكفها من
أذى الحر والثور^(١) ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحاني على ولده ، يسمي لهم
صغراً ، ويملهم كباراً ، يكتسب لهم في حياته ، ويذخر لهم بعد مماته ، والإمام العدل
يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة ، البرّة الرفيقة بولدها ، حملته كرهاً ، ووضعت كرهاً ،
وربته طفلاً ، تسهر بسهره ، وتسكن بسكونه ، ترضعه تارةً ، وتقطمه أخرى ،
وتفرح بهافيته ، وتغتم بشكايته ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين وصي اليتامى ، وخازن
المساكين ، يرّبي صغيرهم ، ويمون كبيرهم ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالقلب بين
الجوانح ، تصلح الجوانح بصلاحه ، وتفسد بفساده ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين هو
القائم بين الله وبين عباده ، يسمع كلام الله ويستمعهم ، وينظر إلى الله ويربهم ، وينقاد
إلى الله ويقودهم ، فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله كعبد اتقنه سيده ،
واستحفظه ماله وعياله ، فبدد المال ، وشرّد العيال ، فأفقر أهله ، وفرّق ماله . واعلم
يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش ، فكيف إذا
أتاها من يلبسها ؟ وأن الله أنزل القصاص حياةً لعباده ، فكيف إذا قتلتهم من يقتص
لهم ؟ واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده ، وقلة أشياعك عنده ، وأنصارك عليه ،
فتزود له ، ولما بعده من الفزع الأكبر . واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلاً غير منزلك
الذي أنت فيه ، يطول فيه ثوابك ، ويفارقك أحبابك ، يُلهونك في قعره فريداً
وحيداً ، فتزود له ما يصحبك يوم يفرّ المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته
وبنيه ، واذكر يا أمير المؤمنين إذا بُعِثَ ما في القبور ، وحصل ما في الصدور ، فالأسرار
ظاهرة ، والكتاب لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها ، فالآن يا أمير المؤمنين
وأنت في مهل ، قبل حلول الأجل ، وانقطاع الأمل ، لا تحكم يا أمير المؤمنين في عباد

(١) مثلث القاف : البرد .

الله بحكم الجاهلين ، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين ، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين
فإنهم لا يَرْتَقِبُونَ في مؤمنٍ إلا^(١) ولا ذِمَّةً ، فتنبؤ ، بأوزارك ، وأوزارٍ مع أوزارك ،
وتحميلٍ أثقالك ، وأثقالاً مع أثقالك ، ولا يفرّتك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك ،
ويأكلون الطيبات في دنياهم بإذهاب طيباتك في آخرتك . لا تنظر إلى قدرتك اليوم ،
ولكن انظر إلى قدرتك غداً ، وأنت مأسور في حبال الموت ، وموقوف بين يدي
الله في مجّمع من الملائكة والنبیین والمرسلين ، وقد عنّت^(٢) الوجوه للحَيِّ الميْثُوم ،
إني يا أمير المؤمنين وإن لم أبلغ بمعظي ما بانغه أولو الشهي من قبلي ، فلم آلك^(٣) شفقةً
ونصْحًا ، وأنزل كتابي إليك كدأوى حبيبته ، يسقيه الأدوية الكريهة ، لما يرجوه
في ذلك من العافية والصحة ، والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته »

(العقد الفريد ١ : ١٢ ، الحسن البصري لابن الجوزي ص ٥٦)

٤٧٢ - موعظته لعمر بن عبد العزيز

وكتب إليه عمر بن عبد العزيز رحمه الله : اكتب إلى يا أبا سعيد بموعظة فأوجز ،
فكتب إليه :

« أما بعد يا أمير المؤمنين : فكأن الذي كان لم يكن ، وكان الذي هو كائن قد
نزل ، واعلم يا أمير المؤمنين أن الصبر ، وإن أذاقك تعجيل مرارته ، فلنعم ما أعقبك
من طيب حللوته ، وحسن عاقبته ، وأن الموى ، وإن أذاقك طعم حللوته ، فلبئس
ما أعقبك من مرارته ، وسوء عاقبته ، واعلم يا أمير المؤمنين أن الفائز من حرص على
السلامة في دار الإقامة ، وفاز بالرحمة فأدخل الجنة » .

(الحسن البصري لابن الجوزي ص ٥٤)

(١) عهدا . (٢) خضعت وذلت . (٣) لم أقصر .

٤٧٣ - موعظته لعمر بن عبد العزيز أيضا

وَ كَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ : ا كْتُبْ إِلَيَّ يَا أَبَا سَعِيدٍ بِذِمَّةِ الدُّنْيَا ،
فَكَتَبَ إِلَيْهِ :

«أما بعد يا أمير المؤمنين : فإن الدنيا دار ظنن^(١) وانتقال ، وليست بدار إقامةٍ على حال ، وإنما أنزل إليها آدمُ عقوبةً ، فاحذرْها فإن الراغب فيها تارك ، والغنى فيها فقير ، والسعيد من أهلها من لم يتعرض لها ، إنها إذا اختبرها اللبيب الحاذق ، وجدها تذل من أعزها ، وتفرق من جمعها ، فهي كالسَّمِّ يأكله من لا يعرفه ، ويرغب فيه من يجهله ، وفيه وألله حَتْفُهُ ؛ فكن فيها يا أمير المؤمنين كالمدامى جراحه ، يحتمى قليلا ، مخافة ما يكره طويلا ، الصبرُ على لَأْوَأْهَا^(٢) ، أيسر من احتمال بلائها ، واللبيب من حذرْها ولم يفتر بزینتها ، فإنها غدارة خيالة^(٣) خداعة ، قد تعرضت بآمالها ، وتزينت لخطابها ، فهي كالعروس ، العيونُ إليها ناظرة ، والقلوب عليها واله^(٤) ، وهي - والذي بعث محمداً بالحق - لأزواجها قاتلة ، فاتق يا أمير المؤمنين صرعها ، واحذر عثرتها ، فالرخاء فيها موصول بالشدة والبلاء ، والبقاء موداً إلى الهدى والفناء .

واعلم يا أمير المؤمنين ، أن أمانيتها كاذبة ، وآمالها باطلة ، وصَفْوُها كدر ، وعيشها نكد ، وتاركها موقق ، والتمسك بها هالك غرق ، والظن اللبيب من خاف ما خوفه الله وحذر ما حذر ، وقدر من دار الفناء إلى دار البقاء ، فعند الموت يأتيه اليقين ؛ الدنيا والله يا أمير المؤمنين دار عقوبة ، لها يجمع من لا عقل له ، وبها يفتر من لا علم عنده ، والحازم اللبيب من كان فيها كالمدامى جراحه ، يصبر على مرارة الدواء ، لما يرجو من

(٢) شنتها .

(١) ارتحال .

(٤) من الوله بالتحريك : وهو ذهاب العقل من شدة الوجد .

(٣) خداعة .

للعافية ، وَيَخَافُ مِنْ سُوءِ عَاقِبَةِ الدَّارِ ، وَاللَّدُنْيَا وَيَأْتِيهِ اللهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ حُلْمٌ ، وَالْآخِرَةَ
يَقْظَنُ ، وَالْمُتَوَسِّطُ بَيْنَهُمَا الْمَوْتُ ، وَالْعِبَادُ فِي أَصْنَافِ أَحْلَامٍ ، وَإِنِّي قَائِلٌ لَكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
مَا قَالَ الْحَكِيمُ :

فَإِنْ تَنَجَّ مِنْهَا تَنَجَّ مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ وَإِلَّا فَاِنِّي لَا إِخْلَاكَ نَاجِيًا .
ولما وصل كتابه إلى عمر ، بكى وانتحب حتى رحمه من كان عنده ، وقال :
يرحم الله الحسن ، فإنه لا يزال يوقظنا من الرقدة ، وينبئنا من الغفلة ، والله هو من
مُسْفِقٍ مَا أَنْصَحَهُ | وَوَاعِظٍ مَا أصدقَهُ وَأفصحَهُ |

(الحسن البصرى لابن الجوزى ص ٥٤ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ١٢١)

٤٧٤ - كلمات حكيمة للحسن البصرى

وقال : احذر من نقل إليك حديث غيرك ، فإنه سينقل إلى غيرك حديثك .
أيها الناس : إنكم لا تفألون ما تحببون إلا بترك ما تشتهون ، ولا تدركون ما تأملون
إلا بالصبر على ما تكرهون . الصبر صبران : صبر عند المصيبة ، وصبر عن المعصية ،
فمن قدر على ذلك فقد نال أفضل الصبرين . أفضل الجهاد جهاد المولى . لا تكن ممن
يجمع علم العلماء وحكم الحكماء ، ويمجى في الحق مجرى الشههاء . من خاف الله أخاف
الله سبحانه منه كل شيء ، ومن خاف الناس أخافه الله من كل شيء . لولا ثلاثة
ما طأ ابن آدم رأسه : الموت ، والمرض ، والفقر ، وإنه بعد ذلك لوثاب . احذروا
العابد الجاهل ، والعالم الفاسق ، فإن فيهما فتنة لكل مفتون . ترك الخطيئة أهون
من معالجة التوبة . لا تكن شاة الراعى أعقل منك ، تزجرها الصبيحة ، وتطردها
الإشارة . المؤمن تلقاه الزمان بعد الزمان ، بأمر واحد ، ووجه واحد ، ونصيحة واحدة ،
وإنما يتبدل المناق ليستأكل كل قوم . المؤمن صدق قوله فعله ، وسرّه علانيته ،
ومشهدّه مخفيته . لا يزال العبد بخير ما كان له واعظ من نفسه ، وكانت الفكرة من عمله

والذِكْرُ من شأنه ، والمحاسبة من همته ، ولا يزال بشرته ما استعمل التسوية ، واتبع
الهوى ، وأكثر الغفلة ، ورجح في الأمانى . الحق مُرٌّ لا يصبر عليه إلا من عرف حُسنَ
العاقبة ، ومن رجا الثواب خاف العقاب حادِثوا هذه القلوب ، فإنها سريعة الدثور^(١) ،
واقْدَعُوا^(٢) هذه النفوس ، فإنها طُلْمَعَةٌ^(٣) ، وإنكم إلا تَزَعُوها^(٤) تنزع بكم إلى شرِّ
غاية . يابن آدم : نهارك ضيفك ، فأحسن إليه ، فإنك إن أحسنت إليه ارتحل بحمدك ،
وإن أسأت إليه ارتحل بئذمك ، وكذلك ليالك إنما أنت أيها الإنسان عدَدٌ ، فإذا مضى
لك يوم فقد مضى بعضك . وقيل له يا أبا سعيد : من أشدُّ الناس صُراخاً يوم القيامة ؟
فقال : رجل رُزِقَ نعمةً فاستعان بها على معصية الله . وكان يقول : لو قمت الليل حتى
ينفخني ظهرك ، وصُمت النهار حتى يسقم جسمك ، لم ينفعك ذلك إلا بورع صادق .
وسمع رجلاً يُكثر الكلام ، فقال : يابن أخى أمسك عليك لسانك . فقد قيل : ما شئ
أحقَّ بسجِّنٍ من لسان . وكان يقول : لو لم يكن من شؤم الشراب إلا أنه جاء إلى أحب
خلق الله إلى الله فأفسده ، لكان ينبغي للعاقل أن يتركه (يعنى العقل) ويقول :
ما أطل أحد الأمل إلا أساء العمل ، وما أساء العمل إلا ذل .

وقال : « يا عجباً لِقومٍ قد أمرُوا بالزاد ، وأوذِنوا بالرحيل ، وأقام أولهم على آخرهم ،
فليت شعرى ! ما الذى ينتظرون ؟ » وقال : اجمل الدنيا كالقنطرة : تجوز عليها ،
ولا تعمرها ، وقال : ليس العجب بمن عطب كيف عطب ، إنما العجب بمن نجا
كيف نجا ، وقال : « من أخلاق المؤمنين قوة في دين ، وحرص على العلم ، وقناعة في فقر ،
ورحمة للجهود ، وإعطاء في حق ، وبر في استقامة ، وفقه في يقين ، وكسب في حلال . »
(الحسن البصرى لابن الجوزى في مواضع متفرقة ، والبيان والتبيين ٣ : ٧٦ - ٨٣ ، أمالى السيد المرتضى
١ : ١١٠-١١١ . وتهذيب الكامل ١ : ٢٩ . وزهر الآداب ١ : ١٧٨ ، ٢ : ٢٠٥)

(١) دثور القلوب : انحاء الذكر منها . (٢) كفوها واكبحوها . (٣) نفس طلعة :
تكثر التطلع إلى الشيء ، وفي رواية : « فإنها طامحة » . (٤) وزعه كوضع : كفه ، وفي رواية :
« ممنوعها » .

٤٧٥ - خطبة واصل بن عطاء^(١) المنزوعة الرأ

الحمد لله القديم بلا غاية ، والباقي بلا نهاية ، الذي علا في دُنُوّه ، ودنا في عُلوّه ،
فلا يحويه زمان ، ولا يُحيط به مكان ، ولا يُشوده^(٢) حِفْظ ما خلق ، ولم يُخلقه على مثالٍ
سبق ، بل أنشأ ابتداعا ، وَعَدَّله اصطناعا ، فأحسن كل شيء خلقه ، وتمم مشيئته ،
وأوضح حكيمته ، فدل على ألوهيته ، فسبحانه لَامُعَقَّب^(٣) الحَكَمه ، ولا دافع لقضائه ،
تواضع كل شيء لعظمته ، وذل كل شيء لسلطانه ، ووسع كل شيء فضله ، لا يعزُب
عنه مثقال حبة ، وهو السميع العليم ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده ، إلهًا تقدَّست
أسماءه ، وعظمت آلاؤه ، وعلا عن صفات كل مخلوق ، وتنزه عن شبيهه كل مصنوع ،
فلا تبلغه الأوهام ، ولا تُحيط به العقول ولا الأذهان ، يُعصَى فيعلم ، وَيُدْعَى فيسمع ،
ويقبل التوبة من عباده ، وَيَعْفُو عن السيئات ، وَيَعْلَم ما تفتلون ، وأشهد شهادة حق ،
وقول صدق ، بإخلاص نية ، ورحمة طوية ، أن محمد بن عبد الله عبده ونبيه ، وخالصته^(٤)
وصفيته ، ابتعثه إلى خلقه بالبينّة والهدى ودين الحق ، فبأنح مَأْلُكته^(٥) ، ونصح لأمته ،
وجاهد في سبيل الله ، لا نأخذه في الحق لومة لائم ، ولا يصدّه عنه زعم زاعم ، ماضيا
على سنته ، مؤفيا على قصده ، حتى أتاه اليقين ، فصلى الله على محمد ، وعلى آل محمد

(١) هو أبو حذيفة واصل بن عطاء شيخ المعتزليين ، وأحد الأئمة المعكلمين ، وكان يلقب
بالراء ، فيجعلها غينا ، فاستطاع بمهارته أن يخلص منها كلامه ، خطب يوما عند عبد الله بن عمر بن عبد العزيز
والى العراق سنة ١٢٦ شبيب بن شيبة ، وخالد بن صفوان ، والفضل بن عيسى ، ثم قفاهم واصل ، فارتجل
هذه الخطبة وعراها من حرف الرأ ، وأبدع في القول :

فضل عبد الله خطبة واصل وضوعف في قسم الصلوات له الشك

(والشك بالضم : العطاء) وتوفى واصل سنة ١٣١ هـ . (٢) ينقله ، آده أودا (كنصر) بلغ
منه المجهود . (٣) لا راد له . (٤) هذا الشيء خالصة لك : أى خاصة . (٥) المألكة : بضم
اللام وتفتح : الرسالة .

أفضل وأزكى ، وأتم وأنى ، وأجل وأطى صلاة صلاحها على صفوة أنبيائه ، وغالضه ملائكته ، وأضماف ذلك ، إنه حميد مجيد .

أوصيكم عباد الله مع نفسى بتقوى الله ، والعمل بطاعته ، والمجانبة لمعصيته ، وأحضكم على ما يذنبكم منه ، ويؤلفكم لديه ، فإن تقوى الله أفضل زاد ، وأحسن عاقبة فى معاد ، ولا تلهينكم الحياة الدنيا بزينةا وخدعها ، وفواتن لذاتها ، وشهوات آمالها ، فإنها متاع قليل ، ومدة إلى حين ، وكل شئ منها يزول ، فكم عاينتم من أعاجيبها ، وكم نصبت لكم من حبالها ، وأهلكت من جنح إليها ، واعتمد عليها ، أذاقتهم خلوا ، ومزجت لهم سما ، ابن الملوك الذين بنوا المداين ، وشيدوا المصانع ، وأوثقوا الأبواب ، وكانفوا الحجاب ، وأعدوا الجياد ، وملاكوا البلاد ، واستخدموا التلاد ، قبضتهم بحماها^(١) ، وطحنهم بكلسكلها^(٢) ، وعضتهم بأنيابها ، وعاضتهم من السمعة ضيقا ، ومن العزة ذلا ، ومن الحياة فناء ، فسكنوا اللحد ، وأكلهم اللود ، وأصبحوا لا ترى إلا مسا كفههم ، ولا تجد إلا معالمهم ، ولا تحس منهم من أحد ، ولا تسمع لهم غبسا ، فتزودوا عافا كم الله ، فإن أفضل الزاد التقوى ، واتقوا الله يا أولي الألباب لعلكم تفلحون ، جعلنا الله وإياكم بمن ينتفع بمواعظه ، ويعمل لحظه وسعادته ، ومن يستمع القول فيتبع أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولو الألباب إن أحسن قصص المؤمنين ، وأبلغ مواعظ المتقين ، كتاب الله ، الزكية آياته ، الواضحة بيناته ، فإذا نلى عليكم فأنصتوا له ، وأنصتوا لعلكم تفلحون ، أعوذ بالله القوى ، من الشيطان الغوى ، إن الله هو السميع العليم ، قل هو الله أحد ، الله الصمد لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد ، ثم قال :

(١) الحمل : شقان على البعير يحمل فيها العنبلان ، والمراد أحتوت عليهم .

(٢) الكلكل : الصدر .

نفعنا الله وإياكم بالكتاب الحكيم ، وَالوحي المبين ، وَأَعَاذَنَا وَإِيَّاكُمْ مِنَ الْعَذَابِ
الْأَلِيمِ ، وَأَدْخَلَنَا وَإِيَّاكُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ .
(مفتاح الأفكار ص ٢٧٠)

٤٧٦ - وصية عبد الملك بن مروان لبني أمية

وقال عبد الملك بن مروان : « يا بني أمية : ابدلوا ندًاكم ، وَكُفُّوا أَذَاكُمْ ،
وَاعْفُوا إِذَا قَدَّرْتُمْ ، وَلَا تَبْخُلُوا إِذَا سُئِلْتُمْ ، فَإِنْ خَيْرَ الْمَالِ مَا أَفَادَ حِمْدًا ، أَوْ نَفَى ذَمًّا ،
وَلَا يَقْوَانَّ أَحَدُكُمْ : اِبْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ ، فَإِنَّمَا النَّاسُ عِيَالُ اللَّهِ ، قَدْ تَسَكَّلَ اللَّهُ
بَارِزَاتِهِمْ ، فَمَنْ وَسَّعَ أَخْلَفَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَمَنْ ضَيَّقَ ضَيَّقَ اللَّهُ عَلَيْهِ .
(الأمال ٢ : ٢٢)

٤٧٧ - وصية عبد الله بن شداد لابنه^(١)

لما حضرت عبد الله بن شداد الوفاة ، دعا ابنًا له يقال له محمد ، فقال :
« يَا بُنَيَّ ، إِنِّي أَرَى دَاعِيَ الْمَوْتِ لَا يُقْلِعُ ، وَأَرَى مِنْ مَعْصِي لَا يَرْجِعُ ، وَمَنْ بَقِيَ
فَإِلَيْهِ يَنْزِعُ^(٢) ، وَإِنِّي مُوصِيكَ بِوَصِيَّةٍ فَاحْفَظْهَا ، عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللَّهِ الْعَظِيمِ ، وَلْيَكُنْ
أَوْلَى الْأُمُورِ بِكَ شُكْرُ اللَّهِ ، وَحُسْنُ النِّيَّةِ فِي السَّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ ، فَإِنَّ الشُّكْرَ يَزِدُّكَ ،
وَالتَّقْوَى خَيْرُ زَادٍ ، وَكَانَ كَمَا قَالَ الْخَطِيبُ :

وَلَسْتُ أَرَى السَّمَادَةَ جَمَعَ مَالٍ وَلَكِنَّ التَّقِيَّ هُوَ السَّعِيدُ
وَتَقْوَى اللَّهِ خَيْرُ الزَّادِ ذُخْرًا وَعِنْدَ اللَّهِ لِلْآتِقِ مَزِيدُ
وَمَا لَا بُدَّ أَنْ يَأْتِيَ قَرِيبٌ وَلَكِنَّ الَّذِي يَعْصِي بَعِيدُ

(١) هو عبد الله بن شداد بن الهادي ، واسمه أسامة الليثي ، خرج مع القراء في فتنة ابن الأشعث على
الحجاج ، قيل : إنه غرق بدجيل ، وقيل : هلك هو وعبد الرحمن بن أبي ليلى في الجماجم ، افتحم بهما
فرسهما الماء فذهبا . (٢) يشتهق .

ثم قال : أئى بُنَى ، لاتزهدن في معروف ، فإن الدهر ذو صُرُوف ، والآيام
ذات نواب ، على الشاهد والغائب ، فكم من راغب أصبح مطلوباً مالهديه ، واعلم
أن الزمان ذو ألوان ، وَمَنْ يَصْحَبَ الزمانَ يَرِ الهوان ، وَكُنْ أئى بُنَى كما قال
أبو الأسود الدؤلى :

وَعُدُّ من الرحمن فَضْلاً وَنِعْمةً عليك ، إذا ما جاء للعُرْفِ طالبٌ^(١)
وإن امرأ لا يَرْتَجى الخيرُ عنده يكن هَيِّئاً ثِقْلاً على مَنْ يَصاحبُ
فلا تمنعَنَّ ذا حاجةٍ جاء طالباً فإنك لا تَدْرِى متى أنت راغبٌ
رأيتُ التوا هذا الزمانَ بأهله وبينهم فيه تكونُ النوابُ^(٢)

ثم قال : أئى بنى ، كن جواداً بالمال في موضع الحق ، بخيلاً بالأسرار عن جميع
الخلق ، فإن أحمدَ جود المرء الإنفاقُ في وجه البرِّ ، وإن أحمدَ بخلُ الحرِّ الضنُّ^(٣)
بمكتوم السرِّ ، وكن كما قال قيس بن الخطيم الأنصارى :

أجودُ بمكنون التلاد ، وإئنى بسرِّك عمن سألنى لَضَنِينٌ^(٤)
إذا جازز الإئنين سرٌّ فإنه بذثٌ ، وتكثير الحديثِ قَيْنٌ^(٥)
وعندى له يوماً إذا ما ائتمنتنى مكانٌ بسوداء الفؤادِ مَكِينٌ^(٦)

ثم قال : أئى بنى ، وإن غلبت يوماً على المال ، فلا تدع الحيلة على حال ، فإن
الكريم يحتال ، والدئى عيالٌ^(٧) ، وكن أحسن ما تكون في الظاهر حالاً ، أقلُّ

(١) العرف : المعروف . (٢) التوا أصله التواء قصره لضرورة الشعر ، التوى به الزمان : اعوج .

(٣) الضمن بالكسر والضمانة بالفتح : البخل . (٤) سال يسال من باب خاف لغة في سأل

المهدوز ، وليس مسهلاً للوزن كما ظن بعضهم .

(٥) نث الحديث : أفشاه ، وقين : جدير ، وقطع همزة الإئنين للضرورة .

(٦) سوداء الفؤاد ؛ وسويداؤه ، وسواده ، وأسوده : حبه . (٧) العيال جمع عيل كجيد :

وهو ما يلزم الإنفاق عليه ، ويكون اسماً للواحد (كما استعمله هنا) .

ما تكون في الباطن مالا ، فإن الكريم من كرمته طيبته ، وظهرت عند الإنقاد^(١)
نعمته ، وكن كما قال ابن خذاق العبدي^(٢) :

وَجَدْتُ أَبِي قَدْ أَوْرَثَهُ أَبُوهُ خِلَالًا قَدْ تَمَدُّ مِنْ الْمَعَالِي^(٣)
فَأَكْرَمُ مَا تَكُونُ عَلَيَّ نَفْسِي إِذَا مَا قَلَّ فِي الْأَزْمَاتِ مَالِي
فَتَحَسَّنُ سِيرَتِي وَأَصُونُ عِرْضِي وَيَجْمَلُ عِنْدَ أَهْلِ الرَّأْيِ حَالِي
وَإِنْ نِلْتُ الْغِنَى لَمْ أَغْلُ فِيهِ وَلَمْ أَخْصُصْ بِجَفَوَاتِي الْمَوَالِي^(٤)

ثم قال : أي بني ، وإن سمعت كلمة من حاسد ، فكن كأنك لست بالشاهد ،
فإنك إن أمضيتها حيا لها^(٥) ، رجع العيب على من قالها ، وكان يقال : الأريب العاقل ،
هو الفطن المتعافل ، وكن كما قال حاتم الطائي :

وَمَا مِنْ شَيْبَتِي شَتْمُ ابْنِ عَمِّي وَمَا أَنَا مُخْلِيفٌ مِنْ يَرْتَجِمِينِي
وَكَكَلِمَةِ حَاسِدٍ فِي غَيْرِ جُرْمٍ سَمِعْتُ فَقُلْتُ مَرَّتِي فَأَنْفَذِينِي^(٦)
فَمَا بُوها عَلَيَّ وَلَمْ تَسُوْنِي وَلَمْ يَعْرِقْ لَهَا يَوْمًا حَبِينِي
وَذَوَالْوَيْنِ يَلْقَانِي طَلِيقًا وَلَيْسَ إِذَا تَعَيَّبَ يَا تَلِينِي^(٧)
سَمِعْتُ بِعَيْنِهِ فَصَفَحْتُ عَنْهُ مُحَاطَةً عَلَيَّ حَسْبِي وَدِينِي

ثم قال : أي بني ، لا تؤاخذ امرأ حتى تعائره ، وتتهقده موارده ومصايدره ، فإذا استطعت
العشرة ، ورضيت الخبرة^(٨) ، فواخه على إقالة العثرة ؛ والمواساة في العسرة ، وكن كما
قال المقنن الكندي :

أَبْلُ الرِّجَالِ إِذَا أُرِدْتَ إِخَاءَهُمْ وَتَوَسَّمْ فِيمَا لَهُمْ وَتَفَقَّدْ

(١) الفقر . (٢) هو يزيد بن خذاق شاعر قديم . (٣) بنقل حركة الهمزة من أورثه إلى
الذال من قد . (٤) الموالى جمع مولى : وهو هنا القريب . (٥) قعد حياله وبجياه : بإزائه ،
أي إن تركتها تجرى في مجراها . (٦) نفذهم : جازهم . (٧) ائتل : قصر ، أي لا يقتصر في نهش
عرضي . (٨) الخبر والخبرة بكسر الخاء فيهما ، ويضمان : العلم بالشيء كالإختبار .

فَإِذَا ظَنَرْتِ بَدَى الْأَبَابَةُ وَالْمَتَقَى فِيهِ الْيَدَيْنِ (قَرِيرَعَيْنِ) نَاشِدُ (١)
وَإِذَا رَأَيْتِ (وَلَا تَحَالَةَ) زَلَّةً فَوَلِي أَخِيكَ بِفَضْلِ حِلْمِكَ فَارْزُدِي

ثم قال: أي بني، إذا أحببت فلا تُفْرِطِ، وإذا أبغضت فلا تُشْطِطِ (٢)، فإنه قد كان
يقال: أَحْبَبْتُ حَبِيبَكَ هَوْنًا مَّا، عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْمًا مَّا، وَأَبْغَضْتُ بَغِيضَكَ
هَوْنًا مَّا، عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْمًا مَّا، وكن كما قال هُدْبَةُ بْنُ الْخَشْرَمِ الْعُدْرِيُّ:
وَكُنْ مَعْقِلًا لِلْحِلْمِ وَأَصْفَحْ عَنِ الْخُلْفَا فَإِنَّكَ رَأَى مَا حَيِّتَ وَسَامِعٌ (٣)
وَأَحْبَبْ إِذَا أَحْبَبْتَ حَبًّا مُقَارِبًا فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي مَتَى أَنْتِ نَازِعٌ (٤)
وَأَبْغِضْ إِذَا أَبْغَضْتَ بَغِيضًا مُقَارِبًا فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي مَتَى أَنْتِ رَاجِعٌ
وعليك بصُحْبَةِ الْأَخْيَارِ، وَصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَإِيَّاكَ وَصِحْبَةَ الْأَشْرَارِ، فَإِنَّهُ عَارٌ، وَكُنْ كَمَا
قَالَ الشَّاعِرُ:

أُحْسِبُ الْأَخْيَارَ وَارْتَبُ فِيهِمْ رَبٌّ مَنْ صَاحِبَتَهُ مِثْلُ الْجَرَبِ
وَدَعِ النَّاسَ فَلَا تَشْتُمُهُمْ وَإِذَا شَأَمْتَ فَاشْتِمِي ذَا حَسَبِ
إِنَّ مَنْ شَأَمَ وَغَدَا كَالَّذِي يَشْتَرِي الصُّفْرَ بِأَعْيَانِ الذَّهَبِ (٥)
وَاصْدُقِ النَّاسَ إِذَا حَدَّثْتَهُمْ وَدَعِ النَّاسَ فَمَنْ شَاءَ كَذَبِ

(الأمالي ٢ : ٢٠٤ ، والبيان والتبيين ٢ : ٥٧ ، ١٣٨)

(١) لب من باب تمب ؛ وفي لغة كقرب مع الفتح في المضارع لبابة ؛ أي صار إذا لب بانضم
وهو المعقل . (٢) شط في حكمة . وأشط : جار . (٣) المعقل : اللجأ ، والخنا : الفحش .
(٤) نزع عن الشيء : انتهى عنه . (٥) الصفر كقفل ، وكسر الصاد لغة : النحاس .

٤٧٨ - وصية أسماء بن خارجة لابنته^(١)

زَوْجِ اسْمَاءَ بْنِ خَارِجَةَ الْفَزَارِيَّ بِنْتَهُ هِنْدًا مِنْ الْحِجَاجِ بْنِ يَوْسُفَ ، فَلَمَّا كَانَتْ لَيْلَةً
أَرَادَ الْبِنَاءَ بِهَا ، قَالَ لَهَا اسْمَاءُ : « يَا بِنْدِيَّةُ ، إِنْ الْأُمَمَاتِ يُوَدَّبْنَ الْبِنَاتِ ، وَإِنْ أُمَّكَ
هَلَكْتَ وَأَنْتِ صَغِيرَةٌ ، فَعَلَيْكَ بِأَطْيَبِ الطَّيِّبِ الْمَاءِ ، وَأَحْسَنِ الْحَسَنِ الْكُحْلِ ، وَإِيَّاكَ
وَكَثْرَةَ الْمَعَاتِبَةِ ، فَإِنَّهَا قَطِيعَةٌ لَوَدَّ ، وَإِيَّاكَ وَالغَيْرَةَ ، فَإِنَّهَا يَفْتَاخُ الطَّلَاقِ ، وَكَوْنِي لَزَوْجِكَ
أُمَّةً ، يَكُنْ لَكَ عَبْدًا ، وَاعْلَمِي أَنِّي الْقَائِلُ لِأُمَّكَ :

خَدَى الْعَفْوَ مِنِّي تَسْتَدْبِرِي مَوَدَّتِي وَلَا تَنْطِقِي فِي سَوْرَتِي حِينَ أَعْضَبُ^(٢)
وَلَا تَنْقُرِي بِنِي نَقْرَةَ اللَّثْفِ مَرَّةً فَإِنَّكَ لَا تَدْرِينَ كَيْفَ الْمَغْيِبُ
فَإِنِّي وَجَدْتُ الْحَبَّ وَالصَّدْرَ وَالْأَذَى إِذَا اجْتَمَعَا لَمْ يَلْبِثِ الْحَبُّ يَذْهَبُ

(الأغاني ١٨ : ١٢٨ ، والبيان والتبيين ٢ : ٤٥)

٤٧٩ - رجل ينصح لهشام بن عبد الملك

وَخَرَجَ الزُّهْرِيُّ يَوْمًا مِنْ عِنْدِ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، فَقَالَ : مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ ،
وَلَا سَمِعْتُ كَأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ ، تَكَلَّمَ بِهِنَ رَجُلٌ عِنْدَ هِشَامِ ، دَخَلَ عَلَيْهِ فَقَالَ :
« يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، احْفَظْ عَنِّي أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ ، فَبَيْنَ صِلَاحِ مُدِّكَ ، وَاسْتِقَامَةِ
رِعْيَتِكَ . قَالَ : وَمَا هُنَّ ؟ قَالَ : « لَا تَعِدْ عِدَّةً لَا تَتَّقُ مِنْ نَفْسِكَ إِنْجَازَهَا ، وَلَا يَغْرُبَنَّكَ
الْمُرْتَقَى وَإِنْ كَانَ سَهْلًا إِذَا كَانَ الْمُتَحَدَّرُ وَغَرًّا ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأَعْمَالَ جِزَاءٌ ، فَاتَّقِ
الْعَوَاقِبَ ، وَأَنَّ لِلْأُمُورِ بَفَتَاتٍ ، فَسَكُنْ طَى حَذَرٍ . »

قال عيسى بن داب : فحدثت بهذا الحديث الهدي ، وفي يده لعمرة قد رفعها إلى فيه ،

(١) أورد الجاحظ هذه الوصية بصورة أوجز ، وذكر أنها وصية عبد الله بن جعفر لابنته

(٢) السورة : الحدة .

فأمسكها ، وقال : وَيَحْكُ اِأَعِدْ هَلِي ، فقلت : يا أمير المؤمنين أَسِغْ^(١) لقمتك ، فقال :
حديثك أعجب إلي .
(زهر الآداب ٣ : ١٨٠)

٤٨٠ - وصية عبد الحميد بن يحيى الكاتب للكتاب

كتب عبد الحميد بن يحيى الكاتب^(٢) رسالة إلى الكتاب بوصيهم فيها ، قال :
« أما بعدُ حَفِظْكُمْ اللهُ يَا أَهْلَ صِنَاعَةِ الْكِتَابَةِ ، وَحَاطِكُمْ وَوَقِّكُمْ وَأَرْشِدْكُمْ ، فَإِنَّ
اللهَ عَزَّ وَجَلَّ جَمَلَ الدَّاسِ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ ، صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ ، وَمَنْ بَعْدَ
الْمُلُوكِ الْمَكْرُمِينَ أَصْنَافًا ، وَإِنْ كَانُوا فِي الْحَقِيقَةِ سَوَاءً ، وَصَرَّفْتَهُمْ فِي صُنُوفِ الصَّنَاعَاتِ ،
وَضُرُوبِ الْمَحَارِلَاتِ ، إِلَى أَسْبَابِ مَعَايِشِهِمْ ، وَأَبْوَابِ أَرْزَاقِهِمْ ، فَجَعَلَكُمْ مَعَشَرَ الْكُتَّابِ
فِي أَشْرَفِ الْجِهَاتِ ، أَهْلَ الْأَدَبِ وَالْمُرُوءَةِ وَالْعَمِّ وَالرَّوَايَةِ ، بِكُمْ تَنْتَظِمُ لِلخَلِيفَةِ مَحَاسِنُهَا ،
وَتَسْتَقِيمُ أُمُورُهَا ، وَبِنَصَائِحِكُمْ يُصْلِحُ اللهُ لِلخَلْقِ سُلْطَانَهُمْ ، وَتَعْمُرُ بِلَادَهُمْ ، لَا يَسْتَفْنِي
الْمَلِكُ عَنْكُمْ ، وَلَا يُوْجَدُ كَافٍ إِلَّا مِنْكُمْ ، فَوْقَكُمْ مِنَ الْمُلُوكِ مَوْقِعَ أَسْمَاعِهِمُ الَّتِي
بِهَا يَسْمَعُونَ ، وَأَبْصَارِهِمُ الَّتِي بِهَا يُبْصِرُونَ ، وَالسُّنْتَهُمُ الَّتِي بِهَا يَنْطِقُونَ ، وَأَيْدِيَهُمُ الَّتِي
بِهَا يَبْطِشُونَ ، فَأَمَّتْكُمْ اللهُ بِمَا خَصَّكُمْ مِنْ فَضْلِ صِنَاعَتِكُمْ ، وَلَا نَزَعَ عَنْكُمْ مَا أَضْفَاءَ^(٣)
مِنَ النِّعْمَةِ عَلَيْكُمْ .

وليس أحد أحوج إلى اجتماع خلال الخير المحمودة ، وخصال الفضل المذكورة
المعدودة منكم أيها الكتاب ، إذا كنتم على ما يأتي في هذا الكتاب من صفتكم ، فإن
الكاتب يحتاج من نفسه ، ويحتاج منه صاحبه الذي يثقُ به في مهمات أموره ، أن
يكون حليماً في موضع الحلم ، فهاياً في موضع الحكيم ، مقداماً في موضع الإقدام ، مخجماً
في موضع الإحجام ، مؤثراً للعقاف ، والعدل والإنصاف ، كقولاً للأسرار ، وفيها عند

(١) ابتلع . (٢) هو عبد الحميد بن يحيى العامري ، كاتب دولة مروان بن محمد آخر خلفاء

الأمويين ، قتله السفاح سنة ١٢٢ هـ . (٣) أسبغ .

الشدائد ، علما بما يأتي من الفوازل ، يضع الأمور مواضعها ، والطوارق أما كتبها ، قد نظر في كل فن من فنون العلم فأحكمه ، فإن لم يُحْكَمْه ، أخذ منه بمقدار يكتفي به ، يعرف بغريزة عقله ، وحسن أدبه ، وفضل تجربته ما يرد عليه قبل وروده ، وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره ، فيمُدُّ لكل أمر عُدَّتَه وعَتَادَه^(١) ، ويهيئ لكل وجه هيئته وعادته ، فتدْفَسُوا ، يا معشر الكتاب ، في صنوف الآداب ، وتفقهوا في الدين ، وابدعوا بعلم كتاب الله عزَّ وجلَّ والفرائض ، ثم العربية ، فإنها ثقاف^(٢) ألسنتكم ، ثم أجيّدوا الخطَّ ، فإنه حليّة كتبكم ، وارووا الأشعار ، واعرفوا غريبها ومعانيها ، وأيام العرب والعجم ، وأحاديثها وسيرها ، فإن ذلك مُعين لكم على ما تسمو إليه هممكم ، ولا تضيّعوا النظر في الحساب ، فإنه قوام كتاب الخراج ، وارغبوا بأنفسكم عن المطامع سَنِيهَا^(٣) ، ودنييها ، وسفاسف^(٤) الأمور ومحقيرها ، فإنها مدلّة للرقاب ، مفسدة للكتاب ، ونزّهوا صناعتكم عن الدفءات ، وأزبشوا^(٥) بأنفسكم عن السعاية والنميمة ، وما فيه أهل الجهالات ، وإياكم والكِبَر والصَلَفَ والعظمة ، فإنها عداوة مجتلبة من غير إحنة ، وتحابثوا في الله عزَّ وجلَّ في صناعتكم ، وتواصوا عليها بالذي هو أليق بأهل الفضل والمدل والنبل من سلفكم

وإن نبأ الزمان برجل منكم فاعظفوا عليه وواسوه ، حتى يرجع إليه حاله ، ويثوب^(٦) إليه أمره ، وإن أقدم أحدكم الكِبَر عن مكاتبه ولقاء إخوانه ، فزوروه وعظّموه وشارروه ، واستظهروا^(٧) بفضل تجربته ، وقدم معرفته ، وليكن الرجل منكم على من اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته إليه ، أحفظ منه على ولده وأخيه ، فإن عرّضت في الشغل محمّدة ، فلا يضيفها إلا إلى صاحبه ، وإن عرّضت مدّمة ، فليحملها

(١) للعتاد : العدة . (٢) الثقاف في الأصل : ماتسوى به الرماح . (٣) ربيعها .

(٤) الرديء من كل شيء . (٥) ربأ : علا وارتفع . (٦) يرجع . (٧) تقووا .

هو من دونه ، وليحذر السَّفْطَةَ والزَّلَّةَ ، والمَلَلُ عند تغير الحال ، فإن العيب إليكم معشر الكتاب ، أسرعُ منه إلى الفِرَاءِ ، وهو لكم أفسدُ منه لها .

فقد علمتم أن الرجل منكم إذا صحبه الرجل ، يبذل له من نفسه ما يجب له عليه من حقه ، فواجبٌ عليه أن يعتقد له من وقائه ، وشكره ، واحتماله ، وصبره ، ونصيحته ، وكتبان سره ، وتدبير أسره ، ما هو حَزَاةُ لحقه ، ويصدق ذلك بفعله عند الحاجة إليه ، والاضطرار إلى ما لديه .

فاستشروا إذا كنتم - وفقكم الله من أنفسكم - في حالة الرخاء والشدة والحرمان والمواساة والإحسان ، والسراء والعسراء ، فنفعت الشئمة هذه لمن وُسم بها من أهل هذه الصناعة الشريفة ، فإذا وُلِّيَ الرجل منكم ، أو صيّر إليه من أمر خلق الله وعياله أمرٌ ، فليراقب الله عز وجل ، وليؤثر طاعته ، وليكن على الضمير رفيقاً ، وللمظلوم منصفاً ، فإن الخلق عيال الله ، وأحبهم إليه أرفقهم بعياله ، ثم ليكن بالعدل حاكماً ، وللأشراف مُكْرِمًا ، وللفقراء موقراً ، وللبلاد عامراً ، وللرعية متألِّفاً ، وعن إيذائهم متخفياً ، وليكن في مجلسه متواضعاً حليماً ، وفي سيجلات خراجهِ واستقضاء حقوقهِ رفيقاً ، وإذا صحب أحدكم رجلاً فليختبر خلافته ، فإذا عرف حسنها وقبيحها ، أعانه على ما يوافقهِ من الحسن ، واحتمل لصرْفهِ عما يهواه من القبيح ، بأطف حيلة ، وأجمل وسيلة ، وقد علمتم أن سائس المهيمة إذا كان بصيراً بسياستها ، التمس معرفة أخلاقها ، فإن كانت رَمُوحاً^(١) لم يهيجها إذا ركبها ، وإن كانت شَبُوباً^(٢) انقأها من قبيل يديها ، وإن خاف منها شُرُوداً توقأها من ناحية رأسها ، وإن كانت حرُّوناً قمع برفق هواها في طريقها ، فإن استمرت عطفها يسيراً ، فيسلس له قيادها ، وفي هذا الوصف من السياسة دلائل لمن ساس الناس وعاملهم ، وخدمهم وداخلهم .

والكاتب بفضل أدبه ، وشريف صنعتِهِ ، ولطيف حيلته ، ومعاملته لمن يحاوره

(١) رجع الفرس كنعج : رفته . (٢) شب الفرس كضرب ونعر : رفع يديه .

من الناس وينظره ، ويفهم عنه أو يخاف سطوته ، أولى بالرفق بصاحبه ومُداراته وتقويم
ؤده ، من سائس البهيمة التي لا تُحير^(١) جواباً ، ولا تعرف صواباً ، ولا تفهم خطاباً ،
إلا بقدر ما يُصيرها إليه صاحبها الراكب عليها ؛ ألا فأمعنوا رحمكم الله في النظر ،
وأعملوا فيه ما أمكنكم من الروية والفكر ، تأمنوا بإذن الله ممن صحبموه النُومة ،
والاستئفال والجفوة ، ويصير^(٢) منكم إلى الموافقة ، وتصيروا منه إلى المؤاخاة والشفقة ،
إن شاء الله تعالى .

ولا يجازنَّ الرجل منكم - في هيئة مجلسه ، وملبسه ، ومرز كبه ، ومطعمه ،
ومشربه ، وبنائه^(٣) وخدمه وغير ذلك من فنون أمره - قدرَ حقه ، فإنكم - مع ما فضلكم
الله به من شرف صنعكم - خدمةً لا تُحْمَلون في خدمتكم على التقصير ، وحفظة
لا تُحتمل منكم أعمال التضييع والتبذير ، واستعينوا على هفائكم بالقصد في كل ما ذكرته
لكم ، وقصصته عليكم ، واحذروا مَقَالِفَ السرف ، وسوء عاقبة الترف ، فإنهما
يُعمقان الفقر ، ويُذِلان الرقاب ، وَيَفْصَحان أهلها ، ولا سيما الكناب ، وأرباب
الآداب ، والأُمور أشباهُ ، وبعضها دليل على بعض ، فاستدلوا على مؤانفت^(٤) أعمالكم
بما سبقت إليه تجربتكم ، ثم اسلكوا من مسالك التدبير أروحها حُجَّةً ، وأصدقها حُجَّةً
وأحدها عاقبة .

واعلموا أن للتدبير آفةً مُتأفةً ، وهي الوصف الشاغل لصاحبه عن إنفاذ عمله ورؤيته ،
فليقصد الرجل منكم في مجلسه قصد الكافي من منطقهِ ، وليوجز في ابتدائه وجوابه ،
وليأخذ بمجامع حُججه ، فإن ذلك مصلحة لفعله ، ومدفمة للتشاغل عن إكثاره ،

(١) لا ترد . (٢) تأمنوا ؛ مجزوم في جواب الأمر ، أو بعبارة أخرى جواب لشرط محذوف مع
فعل الشرط أي إن تعملوا . . . تأمنوا ؛ ومن ثم يجوز في « ويصير » ثلاثة أوجه الجزم ، والنصب
والرفع كما هو مشهور . فقول بعضهم : « ولعل ثبوت الياء قبل الراء من زيادة الناسخ » مردود .
(٣) بنى على أهله ، وبها بناء ، وابتنى : زفها . (٤) مبتدأ .

وَلِيَضْرَعَ إِلَى اللَّهِ فِي صَلَاةِ تَوْفِيْقِهِ ، وَإِمْدَادِهِ بِتَسْدِيدِهِ مَخَافَةَ وَقُوعِهِ فِي الْغَلَطِ الْمُضِرِّ بِيَدَيْهِ وَعَقْلِهِ وَأَدْبِهِ ، فَإِنَّهُ إِنْ ظَنَّ مِنْكُمْ ظَانَ ، أَوْ قَالَ قَائِلٌ : إِنْ الَّذِي بَرَزَ مِنْ جَمِيلِ صِنْعَتِهِ ، وَقُوَّةِ حَرَكَتِهِ ، إِنَّمَا هُوَ بِفَضْلِ حَيْلَتِهِ ، وَحَسَنِ تَدْبِيرِهِ ، فَقَدْ تَعَرَّضَ بظَنِّهِ أَوْ مَقَالَتِهِ إِلَى أَنْ يَكِلَهُ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ إِلَى نَفْسِهِ ، فَيَصِيرَ مِنْهَا إِلَى غَيْرِ كَافٍ ، وَذَلِكَ عَلَى مَنْ تَأَمَّلَهُ غَيْرُ خَافٍ .

وَلَا يَقُولُ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِنَّهُ أَبْصَرَ بِالْأُمُورِ ، وَأَحْمَلُ لِعِبَاءِ التَّدْبِيرِ مِنْ مُرَافِقِهِ فِي صِنَاعَتِهِ وَمُصَاحِبِهِ فِي خِدْمَتِهِ ، فَإِنَّ أَعْقَلَ الرَّجُلَيْنِ عِنْدَ ذَوِي الْأَلْبَابِ مَنْ رَمَى بِالْعُجْبِ وَرَاءَ ظَهْرِهِ وَرَأَى أَنْ صَاحِبَهُ أَعْقَلَ مِنْهُ ، وَأَحْمَدُ فِي طَرِيقَتِهِ ، وَعَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ أَنْ يَعْرِفَ فَضْلَ نِعْمِ اللَّهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ ، مِنْ غَيْرِ اغْتِرَارٍ بِرَأْيِهِ ، وَلَا تَزَكِيَّةٍ لِنَفْسِهِ ، وَلَا تَسْكَاتٍ عَلَى أَخِيهِ أَوْ نَظِيرِهِ ، وَصَاحِبِهِ وَعَشِيرِهِ ، وَحَمْدُ اللَّهِ وَاجِبٌ عَلَى الْجَمِيعِ ، وَذَلِكَ بِالتَّوَاضُعِ لِعَظَمَتِهِ وَالتَّدَلُّلِ لِعِزَّتِهِ ، وَالتَّحَدُّثِ بِنِعْمَتِهِ .

وَأَنَا أَقُولُ فِي كِتَابِي هَذَا مَا سَبَقَ بِهِ الْمَثَلُ : « مَنْ يَلْزِمِ النَّصِيْحَةَ ^(١) يَلْزِمَهُ الْعَمَلُ » وَهُوَ جَوْهَرُ هَذَا الْكِتَابِ وَغُرَّةُ كَلَامِهِ ، بَعْدَ الَّذِي فِيهِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ ؛ فَلِذَلِكَ جَعَلْتُهُ آخِرَهُ ، وَتَمَّمْتُهُ بِهِ ، تَوَلَّى اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ يَا مَعْشَرَ الطُّلَبَةِ وَالْكِتَبَةِ ، بِمَا يَقُولِي بِهِ مَنْ سَبَقَ عَلَّمَهُ بِإِسْعَادِهِ وَإِرْشَادِهِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ إِلَيْهِ وَيَبْدُهُ ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .
(صَبِيحُ الْأَعْمَى ١ : ٨٥)

(١) فِي نَسْخَةِ : « الصَّحَّة » ، وَذَكَرَ الْجَاهِظُ فِي الْبَيَانِ وَالتَّبْيِينِ (٢ : ٤٦) أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ مِنْ كَلَامِ

الْأَحْنَفِ السَّائِرِ فِي أَيْدِي النَّاسِ .

الصراع بين الأموية والعباسية

٤٨١ - خطبة قحطبة بن شبيب الطائي^(١)

لما دخل أبو مسلم الخراساني زعيم الدعوة العباسية مدينة مرو سنة ١٣٠ هـ هرب منها نصر بن سيار - أمير خراسان من قبيل مروان بن محمد الأموي - ثم سار إلى نبتة ابن حنظلة : عامل جرجان^(٢) ، فوجه أبو مسلم قحطبة بن شبيب في جيش لقتاله^(٣) ، وقدم قحطبة ، فنزل بإزاء نبتة ، وأهل الشام في عدة لم ير الناس مثلها ، فلما آرم أهل خراسان هابوم ، حتى تكلموا بذلك وأظهروه ، وبلغ قحطبة ، فقام فيهم خطيباً ، فقال :

« يا أهل خراسان : هذه البلاد كانت لأبائكم الأولين ، وكانوا ينصرون على عدوم لعدلم وحسن سيرتهم ، حتى بدّلوا وظلموا ، فسخط الله عز وجل عليهم ، فانتزع سلطانهم وسأط عليهم أذلّ أمة ، كانت في الأرض عندهم ، فغلبوم على بلادهم ، واستنكحوا نساءهم ، واسترقّوا أولادهم ، فكانوا بذلك يحكمون بالعدل ، ويوفون بالهد ، وينصرون

(١) هو أحد النقباء الاثني عشر الذين اختارهم محمد بن علي بن عبد الله بن عباس من السبعين الذين كانوا استجابوا له حين بعث رسوله إلى خراسان سنة ١٠٣ ، أو ١٠٤ ، وكان قدم على أبي مسلم خراسان منصرفاً من عند إبراهيم الإمام ، ومعه لواؤه الذي عقده له إبراهيم .

(٢) من قبيل يزيد بن عمر بن هبيرة أمير العراق . (٣) وكان قحطبة قبل ذلك قد تبعاً لقتال تميم بن نصر بن سيار ثم زحف إليه فاقتلوا قتالا شديداً ، وقتل تميم بن نصر في المعركة ، وقتل معه مقتلة عظيمة واستبيح عسكرهم ، ثم توجه إلى نيسابور ، وكان نصر بن سيار نزل بها ، فبلغه ذلك ، فارتحل هاربا ، وفرق عنه أصحابه ، فسار إلى نبتة بن حنظلة بجرجان ، ونزل في آخر أمره ساوة بين همدان والري ، فمات بها كذا .

المظلوم ، ثم بدّلوا وغيّروا وجاروا في الحكم ، وأخافوا أهل البرِّ والتقوى من عِترَةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأطكم عليهم ، لينتقم منهم بكم ، ليكونوا أشد عقوبةً ، لأنكم طلبتموم بالثأر ، وقد عهد إليّ الإمام^(١) أنكم تلقونهم في مثل هذه العِدَّة ، فينصرم الله عز وجل عليهم ، فتَهزموهم وتقتلونهم .

وقد قرى على قحطبة كتاب أبي مسلم : « من أبي مسلم إلى قحطبة ، بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد : فناهض عدوك ، فإن الله عز وجل ناصرك ، فإذا ظهرت عليهم ، فأنحن في القتل » فالتقوا في مستهل ذي الحِجَّة سنة ١٣٠ هـ في يوم الجمعة ، فقال قحطبة :

٤٨٢ - خطبة أخرى له

« يا أهل خراسان : إن هذا يوم قد فضّله الله تبارك وتعالى على سائر الأيام ، والعمل فيه مضاعفٌ ، وهذا شهر عظيم ، فيه عيد من أعظم أعيادكم عند الله عز وجل ، وقد أخبرنا الإمام أنكم تنصرون في هذا اليوم من هذا الشهر على عدوكم ، فالقوه بجد واحتساب ، فإن الله مع الصابرين » ثم ناهضهم فاقتتلوا وصبر بعضهم لبعض ، فانهزم أهل الشام ، وقتل منهم عشرة آلاف ، وقتل نباتة ، وبعث قحطبة برأسه ورأس ابنه حَيَّة إلى أبي مسلم .

(تاريخ الطبري ٩ : ١٠٦)

(١) هو إبراهيم الإمام بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، وكان نصر بن سيار حين أظهر أبو مسلم الدعوة العباسية في خراسان وقويت شوكته . كتب إلى مروان يعلمه بحال أبي مسلم ومن معه ، وأن الذي تدعو الدعوة إليه هو إبراهيم الإمام ، فأرسل مروان إلى عامل اللقاء (في أطراف الشام) أن يسير إلى الحميمة (كجھينة) حيث يقم إبراهيم فيشده وثاقا ، فحمل إلى مروان فحبسه في حران ثم قتله في سجنه ، ولما قبض على إبراهيم الإمام خاف أخواه السفاح والمنصور وجماعة من أقاربهم ، فهربوا إلى الكوفة ، فأخل لهم أبو سلمة الخلال دارا بالكوفة ، وكنم أمرهم حتى وصل أبو مسلم بالجنود من خراسان إلى الكوفة ، ودخل على بني العباس ، وسلم على السفاح بالخلافة ، وبويح بها سنة ١٣٢ هـ .

استدراك على الجزء الأول

سقطت هذه الخطبة سهوا في أثناء الطبع فأوردناها هنا

خطبة السيدة عائشة حين أنبتت بقتل عثمان

كانت السيدة عائشة خرجت إلى مكة للحج وعثمان محصور ، ثم خرجت من مكة ريد المدينة ، فلما كانت بسرف أنبتت بقتل عثمان ، فانصرفت إلى مكة فقصدت الحِجْرَ فسرت فيه ، واجتمع إليها الناس فقالت :

« أيها الناس : إن الفوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة اجتمعوا على هذا الرجل القتل ظلما بالأمس ، ونقموا عليه استعمال من حدثت سنه ، وقد استعمل أمثالهم قبله ، ومواضع من الحمى حماها لهم ، فتابعهم ونزع لهم عنها ، فلما لم يجدوا حجة ولا عذرا بادروا بالمُدوان ، فسفكوا الدم الحرام ، واستحلوا البلد الحرام ، والشهر الحرام ، وأخذوا المال الحرام ، والله لإصبع من عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم ، والله لو أن الذي اعتدوا به عليه كان ذنبا نخلص منه كما يخلص الذهب من خبثه ، أو الثوب من درنه ، إذ ماصوه^(١) كما يماص الثوب بالماء . (الكامل لابن الأثير ٣ : ١٠٢)

(١) الموص : غسل لين ولذلك باليد .

سقط من هامش ص (٣٠) ما يأتي :

جاء في مقال الحسن بن هل رضى الله عنهما للمغيرة بن شعبة ص ٣٠ : « وإن حد الله في الزنا ثابت عليك ، ولقد درأ عمر عنك حقا الله سائله عنه . » وخبر ذلك أن المغيرة بن شعبة كان عاملا على البصرة لعمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فاتهم أبو بكره - أخو زياد - هو ونفر معه بأنه زنى بأُم جميل بنت الأرقم ، وكتبوا بذلك إلى عمر ، فمزل المغيرة وولى مكانه أبا موسى الأشعري - وكان ذلك سنة ١٧ هـ - وارتحل المغيرة وأبو بكره ومن معه حتى قدموا على عمر ، فجمع بينهم وبين المغيرة ، وقد أقسم بين يدي عمر أنه مأتى إلا امرأته ، وكان الشهود عليه : أبا بكره ، وشبل بن معبد البجلي ، ونافع بن كلفة ؛ وزيادا ، فبدأ عمر بأبي بكره ، فشهد عليه أنه زنى بأُم جميل ، وشهد شبل ونافع بمثل ذلك ، ولم يشهد زياد بمثل شهادتهم ، إذ سأله هل تعرف المرأة ؟ قال : لا ، ولكن أشبهها ، فنحاه وأمر بالثلاثة فجلدوا الحد ، وقرأ : « فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ » فقال المغيرة : اشغى من الأعباء فقال : أسكت ، أسكت الله نأمتك ، أما والله لو تمت الشهادة لرحمتك بأحبارك .

انتهى الجزء الثانى

ويليه

الجزء الثالث وأوله : الباب الرابع فى خطب ووصايا

العصر العباسى الأول

فهرس

الجزء الثاني

من جمهرة خطب العرب

الباب الثالث

الخطب والوصايا في العصر الأموي

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
خطب بني هاشم وشيعتهم وما يتصل بها	٧	
خطب الحسن بن علي رضي الله عنه		
خطبة الحسن بن علي بعد وفاة أبيه	٧	١
تعبئة الجيوش لقتال معاوية		
خطبة الحسن بن علي في الحث على الجهاد	٩	٢
مقال عدى بن حاتم	٩	٣
خطبة الحسن وقد جنح إلى مصالحة معاوية	١٠	٤
خطبته يبرر مصالحته لمعاوية	١١	٥
خطبته في الصلح بينه وبين معاوية	١٢	٦
خطبة له بعد الصلح	١٢	٧
خطبة لمعاوية في أهل الكوفة	١٤	٨
رد الحسن بن علي على معاوية حين نال منه ومن أبيه	١٤	٩
خطبة سليمان بن صرد في استنكار الصلح	١٥	١٠
خطبة الحسن يرد على مستنكري الصلح	١٦	١١

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم للصفحة
خطبة له في عهد خلافته	١٢	١٧
» أخرى له	١٣	١٨
مخاصمة ومهاجاة		١٩
بين الحسن بن عليّ ، وبين عمرو بن العاص ، والوليد ابن عقبة ، وعتبة بن أبي سفيان ، والمغيرة بن شعبة ، بحضرة معاوية		
مقال عمرو بن العاص	١٤	٢١
» الوليد بن عقبة بن أبي معيط	١٥	٢١
» عتبة بن أبي سفيان	١٦	٢٢
» المغيرة بن شعبة	١٧	٢٢
رد الحسن بن عليّ عليهم	١٨	٢٢
—————		
رثاء محمد بن الحنفية لأخيه الحسن رضى الله عنهما	١٩	٣١
مقتل الحسين بن عليّ رضى الله عنه		
تأبيه عن بيعة يزيد وخروجه إلى مكة		
نصيحة محمد بن الحنفية للحسين رضى الله عنهما	٢٠	٣٥
بعثة مسلم بن عقيل إلى الكوفة		
خطبة عابس بن أبي شبيب الشاكري	٢١	٣٧
» النعمان بن بشير	٢٢	٣٧
» عبيد الله بن زياد	٢٣	٣٨
» أخرى له	٢٤	٣٩
» كثير بن شهاب	٢٥	٣٩
» عبيد الله بن زياد	٢٦	٤٠

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
خروج الحسين رضى الله عنه إلى الكوفة		
نصيحة ابن عباس له	٢٧	٤٢
» أبي بكر بن عبد الرحمن المخزومي اه	٢٨	٤٤
خطبة عبيد الله بن زياد	٢٩	٤٥
» للحسين رضى الله عنه	٣٠	٤٦
» أخرى له	٣١	٤٦
» » »	٣٢	٤٧
» زهير بن القين البجلي	٣٣	٤٧
» للحسين أيضاً	٣٤	٤٨
خطبته ليلة قتله	٣٥	٤٩
رد أهل بيته عليه	٣٦	٥٠
» أصحابه	٣٧	٥٠
خطبته غداة يوم قتله	٣٨	٥١
دعاؤه وقد صبحته الخليل	٣٩	٥١
خطبته وقد دنا منه القوم	٤٠	٥٢
خطبة أخرى	٤١	٥٢
» زهير بن القين	٤٢	٥٤
» الحر بن يزيد	٤٣	٥٦

طلب التوابين بدم الحسين رضى الله عنه

خطبة المسيب بن نجبة الفزارى	٤٤	٥٨
خطبة رفاعة بن شداد	٤٥	٥٩
» سليمان بن صرد	٤٦	٦٠
» خالد بن سعد بن نفيل	٤٧	٦١
» سعد بن حذيفة بن اليمان	٤٨	٦٣

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
خطبة عبد الله بن الحنظل الطائي	٤٩	٦٢
» عبيد الله بن عبد الله المرسي	٥٠	٦٣
» عبد الله بن يزيد الأنصاري	٥١	٦٥
» إبراهيم بن محمد بن طلحة	٥٢	٦٦
رد المسيب بن نجبة .	٥٣	٦٦
رد عبد الله بن وال التيمي	٥٤	٦٧
خطبة سليمان بن صرد	٥٥	٦٨
» صخير بن حذيفة بن هلال	٥٦	٦٨
ما أشار به عبد الله بن سعد	٥٧	٦٨
رأى ابن صرد	٥٨	٦٩
خطبة عبد الله بن يزيد	٥٩	٧٠
» سليمان بن صرد	٦٠	٧٠
» أخرى له	٦١	٧١
» »	٦٢	٧٢
» عبد الملك بن مروان	٦٣	٧٣
طلب المختار بن أبي عبيد الثقفي بدم الحسين رضي الله عنه		٧٤
خطبته حين قدم الكوفة	٦٤	٧٤
ما كان يردده على زائريه في سجنه	٦٥	٧٥
خطبة عبد الله بن مطيع العدوي حين قدم الكوفة	٦٦	٧٦
رد السائب بن مالك	٦٧	٧٧
خطبة عبد الرحمن بن شريح	٦٨	٧٨
» أخرى له	٦٩	٧٨
» محمد بن الحنفية	٧٠	٧٩
» المختار	٧١	٧٩

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
خطبة عبد الرحمن بن شريح	٨٠	٧٢
» المختار في دار إبراهيم بن الأشتر	٨١	٧٣
» يزيد بن أنس الأسدي	٨٢	٧٤
» عبد الله بن مطيع	٨٢	٧٥
تحريض ابن الأشتر أصحابه	٨٣	٧٦
خطبة ابن مطيع وهو محصور	٨٣	٧٧
» المختار بعد هرب ابن مطيع	٨٤	٧٨
» » وقد استنصره ابن الحنفية	٨٥	٧٩
» » وقد شيع ابن الأشتر لقتال عبيد الله بن زياد	٨٧	٨٠
خطبته وقد سار إليه مصعب بن الزبير	٨٨	٨١
—		
خطبة محمد بن الحنفية يرد على عبد الله بن الزبير وقد تنقص الإمام -	٩٠	٨٢
عبد الله بن عباس ومعاوية	٩١	٨٣
عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا		
مقال معاوية	٩٤	٨٤
» ابن عباس	٩٥	٨٥
عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا		
مقال معاوية لابن عباس	٩٥	٨٦
» ابن عباس	٩٦	٨٧
عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا		
مقال معاوية لبنى هاشم	٩٧	٨٨
» ابن عباس	٩٧	٨٩

رقم الصفحة رقم الخطبة
الخطبة أو الوصية
عبد الله بن عباس ومعاوية أيضاً

مقال معاوية	٩٠	٩٨
و ابن عباس	٩١	٩٩
عبد الله بن عباس ومعاوية أيضاً	٩٢	٩٩
عبد الله بن عباس وعتبة بن أبي سفيان	٩٣	١٠٠
مخاصمة بين عبد الله بن عباس وبين معاوية وأصحابه		

جواب ابن عباس	٩٤	١٠١
مقال عمرو بن العاص	٩٥	١٠٢
جواب ابن عباس	٩٦	١٠٢
مقال مروان بن الحكم	٩٧	١٠٣
جواب ابن عباس	٩٨	١٠٤
مقال زياد	٩٩	١٠٥
جواب ابن عباس	١٠٠	١٠٥
مقال عبد الرحمن بن أم الحكم	١٠١	١٠٦
جواب ابن عباس	١٠٢	١٠٦
مقال المغيرة بن شعبة	١٠٣	١٠٧
جواب ابن عباس	١٠٤	١٠٧
مقال يزيد بن معاوية	١٠٥	١٠٨
جواب ابن عباس	١٠٦	١٠٩
مقال معاوية	١٠٧	١٠٩
جواب ابن عباس	١٠٨	١٠٩

عبد الله بن عباس ، وعمرو بن العاص

مقال ابن عباس	١٠٩	١١١
---------------	-----	-----

الخطبة أو اللوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
رد ابن العاص	١١٠	١١٢
عبد الله بن عباس وعمرو بن العاص أيضا	١١١	١١٣
عمرو بن العاص وابن عباس	١١٢	١١٤
مفاخرة عبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عباس	١١٣	١١٤
ابن عباس وابن الزبير في مجلس مروان بن الحكم		
مقال ابن الزبير	١١٤	١١٩
» » عباس	١١٥	١٢٠
—————		
خطبة عبد الله بن عباس يرد على ابن الزبير وقد عاب بني هاشم	١١٦	١٢٠
» ابن الزبير ينتقص ابن عباس	١١٧	١٢٣
رد ابن عباس عليه	١١٨	١٢٥
عبد الله بن جعفر ، وعمرو بن العاص	١١٩	١٢٧
الحسن بن علي ، وعمرو بن العاص	١٢٠	١٢٩
الحسن بن علي ، ومروان بن الحكم	١٢١	١٣٠
عقيل بن أبي طالب ومعاوية	١٢٢	١٣١
خطبة السيدة أم كلثوم بنت علي في أهل الكوفة بعد مقتل الحسين عليهم السلام	١٢٣	١٣٤
خطبة السيدة زينب بنت علي عليهما السلام بين يدي يزيد	١٢٤	١٣٦
رثاء الحسين لأخيه الحسن عليهما السلام	١٢٥	١٣٩
عبد الله بن هاشم بن عتبة وعمرو بن العاص في مجلس معاوية	١٢٦	١٤٠
عبد الله بن هاشم في مجلس معاوية	١٢٧	١٤٥
قيس بن سعد بن عبادة ومعاوية		
مقال معاوية	١٢٨	١٤٥
رد قيس بن سعد	١٢٩	١٤٦

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
معاوية وصعصعة بن صوحان وعبد الله بن الكواء	١٤٦	١٣٠
صعصعة بن صوحان ومعاوية	١٤٨	١٣١
» » » وعبد الله بن عباس	١٥٠	١٣٢
» » » ورجل من بني فزارة	١٥٤	١٣٣
رجل من آل صوحان يحبه عبد الملك بن مروان وهو يخطب	١٥٥	١٣٤
وصف عقيل بن أبي طالب لآل صوحان	١٥٦	١٣٥
وصية محمد الباقر لعمر بن عبد العزيز	١٥٧	١٣٦

خطب الزبيريين وما يتصل بها

خطب عبد الله بن الزبير

عبد الله بن الزبير ومعاوية

مقال ذكوان مولى الحسين	١٥٩	١٣٧
» معاوية	١٥٩	١٣٨
» ابن الزبير	١٦٠	١٣٩
» معاوية	١٦٢	١٤٠

عبد الله بن الزبير ومعاوية أيضاً	١٦٤	١٤١
عبد الله بن الزبير ومعاوية وعمرو بن العاص	١٦٥	١٤٢
خطبة ابن الزبير لما قتل الحسين عليه السلام	١٦٨	١٤٣
مناظرة ابن الزبير للخوارج	١٦٩	١٤٤
أبو صخر الهذلي وعبد الله بن الزبير	١٧٣	١٤٥
خطبته وقد قدم عليه أهل العراق	١٧٤	١٤٦
» لما بلغه قتل مصعب	١٧٥	١٤٧
خطبة أخرى له	١٧٧	١٤٨
خطبته وقد بلغه قتل عمرو الأشدق	١٧٧	١٤٩

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
عبد الله بن الزبير وأمه أسماء بنت أبي بكر	١٧٨	١٥٠
خطبته يوم قتله	١٧٩	١٥١
خطبة أخرى	١٨٠	١٥٢
» مصعب بن الزبير	١٨١	١٥٣

خطب الأمويين

خطباء البيت الأموي

خطب معاوية

خطبته بالمدينة عام الجماعة	١٨٢	١٥٤
خطبة أخرى له بالمدينة	١٨٣	١٥٥
» له بالمدينة	١٨٣	١٥٦
خطبته حين ولي المغيرة بن شعبة الكوفة	١٨٤	١٥٧
خطبة له في يوم صائف	١٨٥	١٥٨
آخر خطبة له	١٨٥	١٥٩
خطبته وقد حضرته الوفاة	١٨٥	١٦٠
وصيته لابنه يزيد	١٨٧	١٦١

خطب يزيد بن معاوية

خطبته بعد موت معاوية	١٨٩	١٦٢
خطبة أخرى له	١٨٩	١٦٣
» معاوية بن يزيد	١٩٠	١٦٤
وصية مروان بن الحكم لابنه عبد العزيز	١٩١	١٦٥

خطب عبد الملك بن مروان

خطبته بمكة	١٩٢	١٦٦
------------	-----	-----

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
خطبة له موجزة	١٩٢	١٦٧
خطبته حين قتل عمرو الأشدق بن سعيد بن العاص	١٩٣	١٦٨
» لما دخل الكوفة بعد قتل مصعب بن الزبير	١٩٤	١٦٩
» عام حجه	١٩٥	١٧٠
» وقد علم بخروج ابن الأشعث	١٩٦	١٧١
وصيته لبعض أمرائه	١٩٧	١٧٢
» للشعبي	١٩٧	١٧٣
» لأخيه عبد العزيز بن مروان	١٩٨	١٧٤
» لولده عند وفاته	١٩٨	١٧٥
—————		
خطبة للوليد بن عبد الملك	١٩٩	١٧٦
» لسليمان بن عبد الملك	٢٠٠	١٧٧
خطب عمر بن عبد العزيز		
أولى خطبه	٢٠١	١٧٨
خطبة له بالمدينة	٢٠١	١٧٩
خطبة أخرى	٢٠٢	١٨٠
خطبة أخرى	٢٠٣	١٨١
» »	٢٠٤	١٨٢
» »	٢٠٤	١٨٣
» »	٢٠٥	١٨٤
» »	٢٠٥	١٨٥
» له يوم عيد	٢٠٦	١٨٦
» أخرى	٢٠٦	١٨٧
» »	٢٠٧	١٨٨

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
خطبة أخرى	١٨٩	٢٠٧
» »	١٩٠	٢٠٨
» »	١٩١	٢٠٨
» »	١٩٢	٢٠٨
» »	١٩٣	٢٠٩
» »	١٩٤	٢١٠
» »	١٩٥	٢١٠
» »	١٩٦	٢١١
آخر خطبة له	١٩٧	٢١١
نص آخر	١٩٨	٢١٢
كلامه في مرضه الذي مات فيه	١٩٩	٢١٣
مناظرة عمر بن عبد العزيز للخوارج	٢٠٠	٢١٤
تأيينه ابنه عبد الملك	٢٠١	٢١٧
—————		
خطبة يزيد بن الوليد حين قتل الوليد بن يزيد	٢٠٢	٢١٨
وصية يزيد بن معاوية لسلم بن زياد حين ولاه	٢٠٣	٢١٩
خطب عتبة بن أبي سفيان		
خطبة له في تهديد أهل مصر	٢٠٤	٢٢٠
» » في تقريرهم وتهديدهم	٢٠٥	٢٢١
» » فيهم وقد أرجفوا بموت معاوية	٢٠٦	٢٢١
خطبته فيهم وقد منعوا الخراج	٢٠٧	٢٢٢
» فيهم إذ طعنوا على الولاية	٢٠٨	٢٢٢
» بمكة	٢٠٩	٢٢٣
» في علقته التي مات فيها	٢١٠	٢٢٤
وصيته لمؤدب ولده	٢١١	٢٢٤

رقم الصفحة رقم الخطبة الخطبة أو الوصية

وصية سعيد بن العاص لبنيه ٢١٢ ٢٢٥

خطب عمرو بن سعيد الأشدق

خطبة له بالمدينة ٢١٣ ٢٢٨

» » بمكة ٢١٤ ٢٢٩

ملاحاة الوليد بن عقبة معه في مجلس معاوية ٢١٥ ٢٣٠

خطبته حين غلب على دمشق ٢١٦ ٢٣١

خالد بن يزيد وعبد الملك بن مروان ٢١٧ ٢٣٢

خالد بن عبد الله بن أسيد وعبد الملك بن مروان ٢١٨ ٢٣٣

نصيحة لعمر بن عتبة بن أبي سفيان ٢١٩ ٢٣٤

تأديب معاوية لجلسائه ٢٢٠ ٢٣٤

كلام معاوية وقد سقطت ثنيتاه ٢٢١ ٢٣٤

تقريع عبد الملك بن مروان لأحد عماله ٢٢٢ ٢٣٥

طلب معاوية البيعة ليزيد

خطبة الضحاك بن قيس الفهري ٢٢٣ ٢٣٧

» عبد الرحمن بن عثمان الثقفي ٢٢٤ ٢٣٨

» ثور بن معن السلمى ٢٢٥ ٢٣٩

» عبد الله بن عصام الأشعري ٢٢٦ ٢٤٠

» عبد الله بن مسعدة الفزاري ٢٢٧ ٢٤٠

» عمرو بن سعيد الأشدق ٢٢٨ ٢٤١

» الأحنف بن قيس ٢٢٩ ٢٤٢

» الضحاك بن قيس ٢٣٠ ٢٤٢

» الأحنف بن قيس ٢٣١ ٢٤٣

» عبد الرحمن بن عثمان الثقفي ٢٣٢ ٢٤٤

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
خطبه معاوية	٢٤٤	٢٣٣
يزيد بن المقنع	٢٤٥	» ٢٣٤
الأحنف	٢٤٥	» ٢٣٥
معاوية	٢٤٦	» ٢٣٦
عبد الله بن عباس	٢٤٧	» ٢٣٧
عبد الله بن جعفر	٢٤٧	» ٢٣٨
عبد الله بن الزبير	٢٤٨	» ٢٢٩
عبد الله بن عمر	٢٤٨	» ٢٤٠
معاوية	٢٤٩	» ٢٤١
مروان بن الحكم	٢٥٠	» ٢٤٢
معاوية	٢٥١	» ٢٤٣
مروان وعبد الرحمن بن أبي بكر	٢٥١	٢٤٤
خطبة معاوية	٢٥٣	٢٤٥
الحسين	٢٥٥	» ٢٤٦
معاوية	٢٥٧	» ٢٤٧
عبد الله بن عمر	٢٥٧	» ٢٤٨
معاوية	٢٥٨	» ٢٤٩
عبد الله بن الزبير	٢٦٠	» ٢٥٠
معاوية	٢٦١	» ٢٥١

تهنئة وتعزية

خطبة عبد الله بن همام السلولى	٢٦٣	٢٥٢
عطاء بن أبي سفيان الثقفى	٢٦٤	» ٢٥٣
عبد الله بن مازن	٢٦٤	» ٢٥٤
غيلان بن مسلمة الثقفى	٢٦٥	» ٢٥٥

الخطبة أو الوصية

رقم الصفحة رقم الخطبة

خطب ولاية الأمويين وقوادهم

خطب زياد بن أبيه

خطبته بفارس وقد كتب إليه معاوية يتهدده	٢٥٦	٢٦٦
وقد بعث معاوية إليه المغيرة بن شعبه يستقدمه	» ٢٥٧	٢٦٧
وقد استلحقه معاوية	» ٢٥٨	٢٦٩
حين ولي البصرة (وهي البتراء)	» ٢٥٩	٢٧٠
بالكوفة وقد ضمت إليه	» ٢٦٠	٢٧٤
خطبة أخرى له بالكوفة	٢٦١	٢٧٥
خطبته بالكوفة يتهدد الشيعة	٢٦٢	٢٧٥
خطبة أخرى له	٢٦٣	٢٧٦
» »	٢٦٤	٢٧٦
وصية لزياد	٢٦٥	٢٧٧
ما كان يقوله لمن ولاه عملا	٢٦٦	٢٧٧
خطبة الضحاك بن قيس الفهري بالكوفة	٢٦٧	٢٧٨
خطبته عند موت معاوية	٢٦٨	٢٧٩
خطبة النعمان بن بشير بالكوفة	٢٦٩	٢٨٠
عبيد الله بن زياد بن أبيه بين يدي معاوية	» ٢٧٠	٢٨١
رد معاوية على ابن زياد	٢٧١	٢٨٣
مقال يزيد بن معاوية	٢٧٢	٢٨٤
وصية المهلب بن أبي صفرة لأبنائه	٢٧٣	٢٨٥

خطب الحجاج بن يوسف الثقفي

خطبة بمكة بعد مقتل ابن الزبير	٢٧٤	٢٨٧
خطبته بعد قتل ابن الزبير	٢٧٥	٢٨٧

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
خطبته حين ولي العراق	٢٨٨	٢٧٦
» وقد سمع تكبيراً في السوق	٢٩١	٢٧٧
» وقد قدم البصرة	٢٩٢	٢٧٨
» بعد وقعة دير الجماجم	٢٩٣	٢٧٩
خطبة أخرى له في أهل الكوفة وأهل الشام	٢٩٥	٢٨٠
» له بالبصرة	٢٩٥	٢٨١
» أخرى له بالبصرة	٢٩٦	٢٨٢
خطبته في أهل العراق يصارحهم بالكراهية	٢٩٧	٢٨٣
خطبة أخرى	٢٩٧	٢٨٤
خطبته لما مات عبد الملك بن مروان	٢٩٨	٢٨٥
» حين أُرِاد الحج	٢٩٨	٢٨٦
» لما أصيب بولده وأخيه محمد في يوم واحد	٢٩٩	٢٨٧
» وقد أرجف أهل العراق بموته	٣٠٠	٢٨٨
خطبة له في الوعظ	٣٠١	٢٨٩
» أخرى	٣٠٢	٢٩٠
» »	٣٠٢	٢٩١
» »	٣٠٣	٢٩٢
» »	٣٠٣	٢٩٣

خطب قتيبة بن مسلم الباهلي

خطبته يحث على الجهاد وقد تهباً لغزو طخارستان	٣٠٤	٢٩٤
» وقد تهباً لغزو بلاد السغد	٣٠٥	٢٩٥
» وقد سارت إليه جيوش الشاش وفرغانة	٣٩٦	٣٩٦
» حين دعا إلى خلع سليمان بن عبد الملك	٣٠٧	٢٩٧
خطبة أخرى	٣١٠	٢٩٨

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
خطبة أخرى	٢٩٩	٣١٠
» »	٣٠٠	٣١١
كلمات حكيمة لقتيبة بن مسلم	٣٠١	٣١٢
<hr/>		
خطبة طارق بن زياد في فتح الأندلس	٣٠٢	٣١٤
نص آخر لخطبة طارق	٣٠٣	٣١٦
خطبة عثمان بن حيان المرثي	٣٠٤	٣١٦
وصية يزيد بن المهلب لابنه مخلد	٣٠٥	٣١٨
نصيحة عمر بن هبيرة لبعض بني	٣٠٦	٣٢٠
<hr/>		
خطب خالد بن عبد الله القسري		
خطبته بمكة بدعو إلى الطاعة ولزوم الجماعة	٣٠٧	٣٢١
خطبة أخرى يشيد فيها بفضل الوليد	٣٠٨	٣٢٢
خطبته بمكة في الحججاج	٣٠٩	٣٢٢
» في الحث على مكارم الأخلاق	٣١٠	٣٢٣
» يوم عيد	٣١١	٣٢٤
قوله وقد سقطت جرادة على ثوبه	٣١٢	٣٢٤
<hr/>		
خطبة يوسف بن عمر الثقفي	٣١٣	٣٢٤
خطبة له	٣١٤	٣٢٥
<hr/>		
خطب الفتن والأحداث		
فتنة المدينة ووقعة الحرة		
خطبة عبد الله بن حنظلة الأنصاري	٣١٥	٣٢٦
» مسلم بن عقبة يؤنب أهل الشام	٣١٦	٣٢٧
» مسلم يحرضهم	٣١٧	٣٢٧

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
خطبة ابن حنظلة يحرص أصحابه	٣٢٨	٣٢٨
اضطراب الأمر بعد موت يزيد		
خطبة عبيد الله بن زياد بن أبيه	٣١٩	٣٢٩
» أخرى له	٣٢٠	٣٣٠
» عمرو بن حريث	٣٢١	٣٣١
» عمرو بن مسمع	٣٢٢	٣٣١
خطبة الأحنف بن قيس	٣٢٣	٣٣٢
» روح بن زنباع الجذامي بالمدينة	٣٢٤	٣٣٤
خطبته يؤيد مبايعة مروان بن الحكم بالخلافة	٣٢٥	٣٣٦
—————		
خطبة الغضبان بن القبعثري يحض على قتل الحجاج	٣٣٦	٣٣٧
خطبة مطرف بن المغيرة بن شعبة	٣٢٧	٣٣٨
» » »	٣٢٨	٣٣٨
خطبة سعيد بن المجالد	٣٢٩	٣٣٩
فقنة ابن الأشعث		
خطبة ابن الأشعث بسجستان	٣٣٠	٣٤٠
خطبته يعرض على الجند رأى الحجاج	٣٣١	٣٤٠
خطبة عامر بن واثلة السكناني	٣٣٢	٣٤١
» عبد المؤمن بن شيبث بن ربيع	٣٣٣	٣٤٢
» ابن الأشعث بالمربد	٣٣٤	٣٤٢
خطبته حين أراد عبد الملك أن يترضى أهل العراق	٣٣٥	٣٤٣
عامر الشعبي والحجاج	٣٣٦	٣٤٤
أيوب بن القرية والحجاج	٣٣٧	٣٤٤
كلمة لابن القرية	٣٣٨	٣٤٨

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
فتنة يزيد بن المهلب		
خطبة أيوب بن سليمان بن عبد الملك	٣٣٩	٣٤٩
يزيد بين يدي الوليد »	٣٤٠	٣٥٠
مخلد بن يزيد بن المهلب بين يدي عمر بن عبد العزيز »	٣٤١	٣٥٠
يزيد بن المهلب يحرص أصحابه على القتال »	٣٤٢	٣٥٢
أخرى له »	٣٤٣	٣٥٣
» » »	٣٤٤	٣٥٤
الحسن البصرى يثبط الناس عن يزيد بن المهلب »	٣٤٥	٣٥٤
مروان بن المهلب »	٣٤٦	٣٥٥

خطب الأحنف بن قيس التميمي

الأحنف ومعاوية	٣٤٧	٣٥٦
» » أيضاً	٣٤٨	٣٥٧
قوله في مدح الوالد	٣٤٩	٣٥٨
شفاعته لدى مصعب بن الزبير	٣٥٠	٣٥٨
نصيحته لقومه	٣٥١	٣٥٨
خطبته في قوم كانوا عنده	٣٥٢	٣٥٩
كلمات حكيمة للأحنف	٣٥٣	٣٦٠
صفية بنت هشام المنقرية تؤ بن الأحنف	٣٥٤	٣٦١

خطب الوفود

وما ألقى بحضرة الخلفاء والأمراء والرؤساء

الوافدون على معاوية

وفود الأحنف بن قيس والنمر بن قطبة على معاوية	٣٥٥	٣٦٣
وفد أهل العراق على معاوية ، وفيهم الأحنف	٣٥٦	٣٦٤

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
خطبة زياد	٣٦٤	٣٥٧
» معاوية	٣٦٥	٣٥٨
» الأحنف بن قيس	٣٦٥	٣٥٩
وفد العراق على معاوية وفيهم دغفل النسابة	٣٦٥	٣٦٠
دغفل وجماعة من الأنصار	٣٦٩	٣٦١
وفد أهل العراق على معاوية وفيهم صعصعة بن صوحان	٣٦٩	٣٦٢
وفود العرب ومعاوية	٣٧١	٣٦٣
» عبد العزيز بن زرارة على معاوية	٣٧٢	٣٦٤
» زيد بن منية على معاوية	٣٧٣	٣٦٥
» ضرار بن حمزة الصدائي على معاوية	٣٧٤	٣٦٦

الوافدات على معاوية

وفود سودة بنت عمارة على معاوية	٣٧٥	٣٦٧
» أم سنان بنت خيثمة على معاوية	٣٧٨	٣٦٨
» بكارة الهلالية على معاوية	٣٨٠	٣٦٩
» أروى بنت الحارث بن عبد المطلب على معاوية	٣٨١	٣٧٠
أم البراء بنت صفوان ومعاوية	٣٨٤	٣٧١
دارمية الحجونية ومعاوية	٣٨٥	٣٧٢
—————		
شداد بن أوس ومعاوية	٣٨٧	٣٧٣
معاوية ورجل من أهل سبأ	٣٨٨	٣٧٤
حديث معاوية مع عبد الله بن عبد الحجر بن عبد المدان	٣٨٩	٣٧٥
حديث الخيار بن أوفى النهدي مع معاوية	٣٩٠	٣٧٦
حديث عرابة بن أوس بن حارثة مع معاوية	٣٩١	٣٧٧
سعيد بن عثمان بن عفان ومعاوية	٣٩٢	٣٧٨

الخطبة أو التوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
مصقلة بن هبيرة ومعاوية	٣٧٩	٣٩٣
روح بن زنباع ومعاوية	٣٨٠	٣٩٣
مخاضة أبي الأسود الدؤلى وامراته بين يدي زياد بن أبيه	٣٨١	٣٩٤
صورة أخرى	٣٨٢	٣٩٥
وفد أهل البصرة إلى عبد الله بن الزبير	٣٨٣	٣٩٨
كلام خطيب الأزدي بين يدي عبد الملك بن مروان	٣٨٤	٣٩٨
سؤال عبد الملك للحجاج وما أجابه به	٣٨٥	٣٩٩
وفود الحجاج بإبراهيم بن محمد بن طلحة على عبد الملك بن مروان	٣٨٦	٣٩٩
قدوم الحجاج مع أشرف المصريين على عبد الملك	٣٨٧	٤٠٢
وفود مالك بن بشير على الحجاج بقتل الأزارقة	٣٨٨	٤٠٣
» كعب الأشقرى على الحجاج	٣٨٩	٤٠٤
سليمان بن سلعة والحجاج	٣٩٠	٤٠٥
جامع الحارثي والحجاج	٣٩١	٤٠٦
ليلي الأخيلى والحجاج	٣٩٢	٤٠٧
الغضبان بن القبعثرى والحجاج	٣٩٣	٤١٢
ابن القرية يعدد مساوى المزاح	٣٩٤	٤١٤
يزيد بن مسلم وسليمان بن عبد الملك	٣٩٥	٤١٥
وفود العراق على سليمان بن عبد الملك	٣٩٦	٤١٦
كلام أبي حازم لسليمان بن عبد الملك	٣٩٧	٤١٧
أبو حازم وسليمان بن عبد الملك أيضا	٣٩٨	٤١٨
وفد أهل الحجاز عند عمر بن عبد العزيز	٣٩٩	٤١٩
خالد بن صفوان يعزى عمر بن عبد العزيز ويهنئه	٤٠٠	٤٢٠
خطبة عبد الله بن الأهم	٤٠١	٤٢٠
مقام محمد بن كعب القرظى بين يدي عمر بن عبد العزيز	٤٠٢	٤٢٢
وفد أهل الحجاز على هشام بن عبد الملك	٤٠٣	٤٢٢

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
مقام خالد بن صفوان بين يدي هشام	٤٠٤	٤٢٤
خالد بن صفوان يصف جريرا والفرزدق والأخطل	٤٠٥	٤٢٦
خالد بن صفوان وبلال بن أبي بردة	٤٠٦	٤٢٧
خطبة الكميث بن زيد بين يدي هشام يستعطفه	٤٠٧	٤٢٨
مخاضة عدى بن أرطاة لا مرأته عند شريح القاضي	٤٠٨	٤٣٢
كلمة لعمر بن عتبة بن أبي سفيان	٤٠٩	٤٣٣
خطبة دينار	٤١٠	٤٣٤
رجل يمدح خالد بن عبد الله القسري	٤١١	٤٣٤
خطب الخوارج وما يتصل بها		٤٣٥
خطبة حيان بن ظبيان السلمى	٤١٢	٤٣٥
اثمار الخوارج		٤٣٧
مقال المستورد بن علفة	٤١٣	٤٣٧
» حيان بن ظبيان	٤١٤	٤٣٧
» معاذ بن جوين	٤١٥	٤٣٨
خطبة المغيرة بن شعبة	٤١٦	٤٣٨
» صعصعة بن صوحان	٤١٧	٤٣٩
» المستورد بن علفة	٤١٨	٤٤١
» معقل بن قيس الرياحى	٤١٩	٤٤٢
كلمات حكيمة للمستورد	٤٢٠	٤٤٢
اثمار الخوارج ثانية		٤٤٣
خطبة حيان بن ظبيان	٤٢١	٤٤٣
» معاذ بن جوين	٤٢٢	٤٤٣

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
رد حيان بن ظبيان	٤٤٤	٤٢٣
مقال عتريس بن عرقوب	٤٤٤	٤٢٤
رد حيان	٤٤٥	٤٢٥
خطبة حيان	٤٤٥	٤٢٦
» مسلم بن عبيس حين خرج لقتال الأزارقة	٤٤٦	٤٢٧
خطب للمهلب بن أبي صفرة		٢٤٨
خطبته في حث جنده على قتال الأزارقة	٤٤٨	٤٢٨
خطبة أخرى له في جنده	٤٤٩	٤٢٩
نص آخر	٤٤٩	٤٣٠
خطبته في جنده وقد استخلف عليهم ابنه المغيرة	٤٥٠	٤٣١
خطبة الزبير بن علي في الأزارقة	٤٥١	٤٣٢
» عتاب بن ورقاء الرياحي وقد طال عليه الحصار	٤٥٢	٤٣٣
نصيحة عرهم العدو لخالد بن عبد الله	٤٥٣	٤٣٤
خطبة قطري بن الفجاءة	٤٥٤	٤٣٥
» عبد ربه الصغير	٤٥٨	٤٣٦
» صالح بن مسرح	٤٥٩	٤٣٧
» أخرى له	٤٦٠	٤٣٨
» »	٤٦١	٤٣٩
» زائدة بن قدامة	٤٦٢	٤٤٠
» الحجاج بن يوسف	٤٦٢	٤٤١
» أخرى للحجاج	٤٦٣	٤٤٢
» شبيب بن يزيد الشيباني	٤٦٣	٤٤٣
» عتاب بن ورقاء	٤٦٤	٤٤٤
» الحجاج	٤٦٤	٤٤٥

رقم الصفحة رقم الخطبة الخطبة أو الوصية

٤٦٥ ٤٤٦ خطبة عبد الله بن يحيى الإباضى

خطب أبي حمزة الشارى

٤٦٧	٤٤٧	خطبته حين دخل المدينة
٤٦٨	٤٤٨	خطبة أخرى له
٤٦٩	٤٤٩	خطبته وقد بلغه أن أهل المدينة يعيرون أصحابه
٤٧٦	٤٥٠	خطبة أخرى
٤٧٨	٤٥١	خطبته فى سب أهل المدينة وتقريرهم
٤٨٠	٤٥٢	خطبة أخرى
٤٨١	٤٥٣	خطبته حين خرج من المدينة
٤٨١	٤٥٤	عمران بن خطان والحجاج

الخطب الوعظية والوصايا

٤٨٢	٤٥٥	خطبة سحبان بن زفر الوائلى
٤٨٣	٤٥٦	» معاوية
٤٨٣	٤٥٧	» عبد الملك بن مروان
٤٨٤	٤٥٨	» لعمر بن عبد العزيز

كلام الحسن البصرى

٤٨٥	٤٥٩	خطبة له
٤٨٧	٤٦٠	» أخرى
٤٨٨	٤٦١	» »
٤٨٨	٤٦٢	» »
٤٨٩	٤٦٣	» »
٤٨٩	٤٦٤	» »
٤٩٠	٤٦٥	» »

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
خطبة أخرى	٤٦٦	٤٩٠
مقام الحسن البصرى عند عمر بن هبيرة	٤٦٧	٤٩١
مقام الحسن البصرى عند النضر بن عمرو	٤٦٨	٤٩٢
مقام آخر له عند النضر	٤٦٩	٤٩٣
مقال الحسن حين رأى دار الحجاج التى بناها بواسط	٤٧٠	٤٩٤
صفة الإمام العادل	٤٧١	٤٩٥
موعظته لعمر بن عبد العزيز	٤٧٢	٤٩٧
موعظة لعمر بن عبد العزيز أيضاً	٤٧٣	٤٩٨
كلمات حكيمة للحسن البصرى	٤٧٤	٤٩٩
خطبة واصل بن عطاء	٤٧٥	٥٠١
وصية عبد الملك بن مروان لبنى أمية	٤٧٦	٥٠٣
» عبد الله بن شداد لابنه	٤٧٧	٥٠٣
» أسماء بن خارجة لابنته	٤٧٨	٥٠٧
رجل ينصح هشام بن عبد الملك	٤٧٩	٥٠٧
وصية عبد الحميد بن يحيى الكاتب للكتاب	٤٨٠	٥٠٨

الصراع بين الأموية والعباسية

خطبة قحطبة بن شبيب الطائى	٤٨١	٥٠٩
» أخرى له	٤٨٢	٥١٠

استدراك على الجزء الأول

خطبة السيدة عائشة حين أنبثت بقتل عثمان	٤٨٣	٥١١
--	-----	-----

فهرس أعلام الخطباء

مرتب بترتيب الحروف الهجائية

مع إتباع اسم كل خطيب بأرقام الصفحات التي وردت فيها خطبه

أم البراء بنت صفوان : ٣٨٤	(١)
أم سنان بنت خيثمة : ٣٧٨	إبراهيم بن الأشتر : ٨٣
السيدة أم كلثوم بنت علي رضي الله عنها ١٣٤١	إبراهيم بن محمد بن طلحة : ٦٦ - ٣٩٩
أيوب بن سليمان بن عبد الملك : ٣٤٩	أبو الأسود الدؤلي : ٣٩٤
أيوب بن القرية : ٣٤٤ - ٣٤٨ - ٤٤٤	أبو بكر بن عبد الرحمن : ٤٤
(ب)	أبو بكر الهذلي : ٤٠٢
بكاره الهلالية : ٣٨٠	أبو حازم الأعرج : ٤١٧ - ٤١٨
بلال بن أبي بردة : ٤١٦	أبو حاضر الأسدي : ٣٩٨
(ث)	أبو حمزة الشاري : ٤٦٧ - ٤٦٨ -
ثور بن معن السلمى : ٢٣٩	٤٦٩ - ٤٧٦ - ٤٧٨ - ٤٨٠ -
(ج)	٤٨١
جامع الحاربي : ٤٠٦	أبو صخر الهذلي : ١٧٣
(ح)	الأحنف بن قيس : ٢٤٢ - ٢٤٣ -
الحجاج بن يوسف الثقفي : ٢٨٧ - ٢٨٨ -	٢٤٥ - ٣٣٢ - ٣٥٦ - ٣٥٧ -
٢٩١ - ٢٩٢ - ٢٩٣ - ٢٩٥ -	٣٥٨ - ٣٥٩ - ٣٦٠ - ٣٦٣ -
٢٩٦ - ٢٩٧ - ٢٩٨ - ٢٩٩ -	٣٦٤
٣٠٠ - ٣٠١ - ٣٠٢ - ٣٠٣ -	أروى بنت الحارث بن عبد المطلب : ٣٨١
٤٠٢ - ٤٦٢ - ٤٦٣ - ٤٦٤ -	أسماء بن خارجة : ٥٠٧

الحر بن يزيد : ٥٦

الحسن البصرى : ٤٨٥ — ٤٨٧ —

٤٨٨ — ٤٨٩ — ٤٩٠ — ٤٩١ —

٤٩٢ — ٤٩٣ — ٤٩٤ — ٤٩٥ — ٤٩٧

— ٤٩٨ — ٤٩٩

الحسن بن علي رضي الله عنه : ٧ — ٦ —

١٠ — ١١ — ١٢ — ١٤ — ١٦ — ١٧ —

١٨ — ٢٢ — ١٢٩ — ١٣٠ —

الحسين بن علي رضي الله عنه : ٤٥ —

٤٦ — ٤٧ — ٤٨ — ٤٩ — ٥١ —

٥٢ — ١٣٩ — ٢٥٥ —

حيان بن ظبيان : ٤٣٥ — ٤٣٦ — ٤٤٣ —

٤٤٤ — ٤٤٥

(خ)

خالد بن سعد بن نثيل : ٦١

خالد بن صفوان ٤٠١ — ٤٠٢ — ٤٢٠ —

— ٤٢٤ — ٤٢٦ — ٤٢٧ —

خالد بن عبد الله بن أسيد : ٢٣٣

خالد بن عبد الله القسرى : ٣٢١ —

٣٢٢ — ٣٢٣ — ٣٢٤

خالد بن يزيد : ٢٣٢

الخيار بن أوفى النهدي : ٣٩٠

(د)

دارمية الحجونية : ٣٨٥

دغفل بن حنظلة : ٣٦٥ — ٣٦٩

دينار : ٤٣٤

(ذ)

ذكوان : ١٥٩

(ر)

رفاعة بن شداد : ٥٩

روح بن زنباع : ٣٣٤ — ٣٣٦ — ٣٩٣ —

(ز)

زائدة بن قدامة : ٤٦٢

الزبير بن علي : ٤٥١

زهير بن القين البجلي : ٤٧ — ٥٤ —

زياد بن أبيه ١٠٥ — ٢٦٦ — ٢٦٧ — ٢٦٩ —

٢٧٠ — ٢٧٤ — ٢٧٥ — ٢٧٦ — ٣٦٤ —

زيد بن منية : ٣٧٣

السيدة زينب بنت علي رضي الله عنها :

١٣٦

(س)

السائب بن مالك : ٧٧

سحبان بن زفر : ٤٨٢

سعد بن حذيفة بن اليمان : ٦٢

سعيد بن العاص : ٢٢٥

سعيد بن عثمان بن عفان : ٣٩٢

سعيد بن المحالد : ٣٣٩

سليك بن السلوك : ٤٠٥

سليمان بن صرد : ١٥ — ٦٠ — ٦٨ —

٦٩ — ٧٠ — ٧١ — ٧٢ —

سليمان بن عبد الملك : ٢٠٠

سودة بنت عمارة : ٣٧٥

(ش)

شبيب بن يزيد الشيباني : ٤٦٣

- عبد العزيز بن زرارة : ٣٧٢
عبد العزيز بن مروان : ٤٢٠
عبد الله بن الأهمم : ٤٢٠
عبد الله بن جعفر : ١٢٧ - ٢٤٧
عبد الله بن الحنظل : ٦٢
عبد الله بن حنظلة الأنصاري : ٣٢٦ -
٣٢٨
عبد الله بن الزبير : ١١٤ - ١١٩ -
١٢٣ - ١٦٠ - ١٦٤ - ١٦٥
١٦٨ - ١٦٩ - ١٧٣ - ١٧٤
١٧٥ - ١٧٧ - ١٧٨ - ١٧٩
١٨٠ - ٢٤٨ - ٢٦٠
عبد الله بن سعد : ٦٨
عبد الله بن شداد : ٥٠٣
عبد الله بن عباس : ٤٢ - ٩١ - ٩٥ -
٩٩ - ١٠٠ - ١٠١ - ١٠٢
١٠٤ - ١٠٥ - ١٠٦ - ١٠٧
١٠٩ - ١١١ - ١١٣ - ١١٤
١٢٠ - ١٢٥ - ٢٤٧
عبد الله بن عبد الحجر : ٣٨٩
عبد الله بن عصام : ٢٤٠
عبد الله بن عمر : ٢٤٨ - ٢٥٧
عبد الله بن الكواء : ١٤٦
عبد الله بن مازن : ٢٦٤
عبد الله بن مسعدة : ٢٤٠
عبد الله بن مطيع : ٧٦ - ٨٢ - ٨٣

- شداد بن أوس الطائي : ٣٨٧
شريح القاضي : ٤٣٣
(ص)
صالح بن مسرح : ٤٥٩ - ٤٦١
صخير بن حذيفة بن هلال : ٦٨
صعصعة بن صوحان : ١٤٦ - ١٤٨ -
١٥٠ - ١٥٤ - ٣٦٩ - ٤٣٩
صفية بنت هشام المنقرية : ٣٦١
(ض)
الضحاك بن قيس : ٢٣٧ - ٢٤٢ -
٢٧٨ - ٢٧٩
ضرار بن حمزة الصدائي : ٣٧٤
(ط)
طارق بن زياد : ٣١٤ - ٣١٦
(ع)
السيدة عائشة رضي الله عنها : ٥١١
عابس بن أبي شبيب : ٣٧
عامر الشعبي : ٣٤٤
عامر بن وائلة الكنانى : ٣٤١
عبد الحميد بن يحيى : ٥٠٨
عبد ربه الصغير : ٤٥٨
عبد الرحمن بن أبي بكر : ٢٥١
عبد الرحمن بن أم الحكم : ١٠٦
عبد الرحمن بن شريح : ٧٨
عبد الرحمن بن عثمان : ٢٣٨ - ٢٤٤
عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث : ٣٤٠ -
٣٤٢ - ٣٤٣

عمر بن عبد العزيز : ٢٠١ - ٢٠٢ -
٢٠٣ - ٢٠٤ - ٢٠٥ - ٢٠٦ -
٢٠٧ - ٢٠٨ - ٢٠٩ - ٢١٠ -
٢١١ - ٢١٢ - ٢١٣ - ٢١٤ -
٢١٧ - ٤٨٤

عمر بن هبيرة : ٣٢٠

عمرو بن حريث : ٣٣١

عمرو بن سعيد الأشدق : ٢٢٨ - ٢٢٩ -
٢٣٠ - ٢٣١ - ٢٤١

عمرو بن العاص : ٢١ - ١٠٢ - ١١٢ -
١١٣ - ١١٤ - ١٤٠ - ١٦٥

عمرو بن عتبة بن أبي سفيان : ٢٣٤ - ٤٣٣

عمرو بن مسمع : ٣٣١

عمران بن حطان : ٤٨١

(غ)

الغضبان بن القبعثري : ٣٣٧ - ٤١٢

غيلان بن مسلمة الثقفي : ٢٦٥

(ق)

قتيبة بن مسلم : ٣٠٤ - ٣٠٥ - ٣٠٦ -

٣٠٧ - ٣١٠ - ٣١١ - ٣١٢

قحطبة بن شبيب الطائي : ٥٠٩ - ٥١٠

قطري بن الفجاءة : ٤٥٤

قيس بن سعد بن عبادة : ١٤٦

(ك)

كثير بن شهاب : ٣٩

كعب بن معدان الأشقري : ٤٠٤

عبد الله بن هاشم : ١٤٠ - ١٤٥

عبد الله بن همام السلولي : ٢٦٣

عبد الله بن وال التيمي : ٦٧

عبد الله بن يحيى الأباضي : ٤٦٥

عبد الله بن يزيد الأنصاري : ٦٥ - ٧٠

عبد المؤمن بن شبت بن ربيعي : ٣٤٢

عبد الملك بن مروان : ٧٣ - ١٩٢ -

١٩٣ - ١٩٤ - ١٩٥ - ١٩٦ -

١٩٧ - ١٩٨ - ٢٣٥ - ٤٨٣ -

٥٠٣

عبيد الله بن زياد بن أبيه : ٣٨ - ٣٩ -

٤٠ - ٤٥ - ٢٨١ - ٣٢٩

عبيد الله بن عبد الله المري : ٦٣

عتاب بن ورقاء الرياحي : ٤٥٢ - ٤٦٤

عتبة بن أبي سفيان : ٢٢ - ٢٢٠ -

٢٢١ - ٢٢٢ - ٢٢٣ - ٢٢٤

عفريس بن عرقوب : ٤٤٤

عثمان بن حيان المري : ٣١٦

العجاج بن رؤبة : ٣٩٩

عدى بن حاتم : ٩

عدى بن أرطاة : ٤٣٢

عرابة بن أوس بن حارثة : ٣٩١

عرهم العدوي : ٤٥٣

عطاء بن أبي صيفي : ٢٦٤

عقيل بن أبي طالب : ١٣١ - ١٥٦

عمر بن عبد الرحمن : ٤٥

١٨٧ - ١٨٤ - ١٨٣ - ١٨٢

٢٤٩ - ٢٤٦ - ٢٤٤ - ٢٣٤

٢٥٨ - ٢٥٧ - ٢٥٣ - ٢٥١

٣٧١ - ٣٦٥ - ٣٨٢ - ٢٦١

٤٨٣ - ٣٨٨

معاوية بن يزيد : ١٩٠

معقل بن قيس : ٤٤٢

المغيرة بن شعبة : ٢٢ - ١٠٧ - ٤٣٨

المهلب بن أبي صفرة : ٢٨٥ - ٤٤٨ -

٤٤٩ - ٤٥٠

(ن)

النعمان بن بشير : ٣٧ - ٢٨٠ -

(و)

واصل بن عطاء : ٥٠١ -

الوليد بن عبد الملك : ١٩٩ -

الوليد بن عقبة : ٢١ - ٢٣٠ -

(ي)

يزيد بن أبي مسلم : ٤١٥ -

يزيد بن أنس الأسدي : ٨٢ -

يزيد بن معاوية : ١٠٨ - ١٨٩ - ٢١٩ - ٢٨٤ -

يزيد بن المقنع : ٢٤٥ -

يزيد بن المهلب : ٣١٨ - ٣٥٠ - ٣٥٢ -

٥٣٣ - ٣٥٤

يزيد بن الوليد : ٢١٨ -

يوسف بن عمر الثقفي : ٣٢٤ - ٣٢٥ -

تم فهرس أعلام الخطباء

الكعب بن زيد الأسدي : ٤٢٨ -

(ل)

ليلي الأخيلية : ٤٠٧ -

(م)

مالك بن بشير : ٤٠٣ -

محمد بن أبي الجهم العدوي : ٤٢٣ -

محمد الباقر : ١٥٧ -

محمد بن الحنفية : ٣١ - ٣٥ - ٩٠ -

محمد بن عمير بن عطار : ٤٠١ -

محمد بن كعب القرظي : ٤٢٣ -

المختار بن أبي عبيد الثقفي : ٧٤ - ٧٥ -

٨١ - ٨٤ - ٨٥ - ٨٧ - ٨٨ -

مخالد بن يزيد بن المهلب : ٣٥٠ -

مروان بن الحكم : ١٠٣ - ١٩١ - ٢٥٠ -

مروان بن المهلب : ٣٥٥ -

المستورد بن علفة : ٤٣٧ - ٤٤٤ - ٤٤٢ -

مسلم بن عبيس : ٤٤٦ -

مسلم بن عقبة : ٣٢٧ -

المسيب بن نجبة : ٥٨ - ٦٦ -

مصعب بن الزبير : ١٨١ -

مصقلة بن هبيرة : ٢٩٣ -

مطرف بن المغيرة : ٣٣٨ -

معاذ بن جوين : ٤٣٨ - ٤٤٣ -

معاوية بن أبي سفيان : ١٤ - ٩٤ - ٩٥ -

٩٧ - ٩٨ - ١٠٩ - ١٤٥ - ١٤٦ -

١٥٩ - ١٦٢ - ١٦٤ - ١٦٥ -

لغة العرب

في عصور العرب الزاهرة

الجزء الثالث

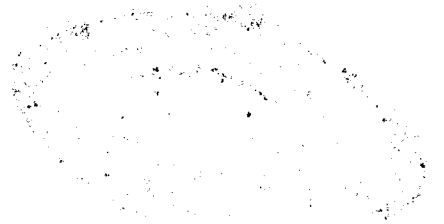
العصر العباسي الأول
ويليه ذيل الجهرة

تأليف

أحمد زكي صفيوت

وكيل كلية دار العلوم جامعة القاهرة سابقا

المكتبة العلمية
بيروت - لبنان



تصدير

الطبعة الأولى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أحمدك اللهم وقتني إلى إتمام ما بدأت، فلك الشكر والمنة في البدء والنهاية، وأصلى وأسلم على خاتم رسلك، سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم.
وبعد: فهذا ثالث الأجزاء من « جهرة خطب الغرب » في خطب العصر العباسي الأول، وهو على نسق سابقه ضبطا وتحريرا، وشرحا وتعليقا، ويليه ذيل الجهرة، في خمسة أبواب من الخطب:

الباب الأول: في خطب الأندلسيين والمغاربة.

« الثاني: في خطب ووصايا مجهول عصرها أو قائلها.

« الثالث: في نثر الأعراب.

« الرابع: في خطب النكاح.

« الخامس: في خطب من أرتج عليهم، ونوادير طريفة لبعض الخطباء.

وبذا تم ما قصدت إلى جمعه في هذا المؤلف، وإني أتبذل إلى المولى القدير أن يحقق ما رجوته من استفادة قارئيه به، وأن يسد خطانا جميعا إلى سبيل الرشاد، إنه الكبير المتعال؟

أحمد زكي صفوت

حرر بالقاهرة في { في القعدة سنة ١٣٥٢ هـ
مارس سنة ١٩٣٤ م

فهرس

مآخذ الخطب في هذا الجزء

- الأمالى : لأبي عليّ القالى : الجزء الأول - الثانى - ذيل الأمالى
الأغانى : لأبي الفرج الأصبهانى : « التاسع
صبح الأعشى : لأبي العباس القلقشندى : « الأول - التاسع
بهاية الأرب : لشهاب الدين النويرى : « السادس
عيون الأخبار : لابن قتيبة الدينورى : المجلد الثانى
الكامل : لأبي العباس المبرد : الجزء الأول
العقد الفريد : لابن عبد ربه : « الأول - الثانى - الثالث
زهر الآداب : لأبي إسحق الحضرى : « الأول - الثانى - الثالث
البيان والتبيين : للجاحظ : « الأول - الثانى - الثالث
شرح نهج البلاغة : لابن أبى الحديد : المجلد الأول - الثانى
أمالى السيد المرتضى : « الأول - الرابع
مجمع الأمثال : لأبي الفضل الميدانى : « الأول
تاريخ الأمم والملوك : لابن جرير الطبرى : « التاسع - العاشر
تاريخ الكامل : لابن الأثير : « السادس
مروج الذهب : للمسعودى : « الثانى
وفيات الأعيان : لابن خلكان : « الأول - الثانى

مواسم الأدب: للسيد جعفر البيهقي العلوي : الجزء الثاني

الصناعتين : لأبي هلال العسكري

مقدمة ابن خلدون

المنية والأمل : لأحمد بن يحيى المرتضى



الباب الرابع

الخطبة والوصايا

في

العصر العباسي الأول

١ - خطبة أبي العباس السفاح وقد بويع بالخلافة

(توفي سنة ١٣٦ هـ)

صعد أبو العباس^(١) السّفاح المنبر حين بويع له بالخلافة، فقام في أعلاه، وصعد
عنه داود بن عليّ فقام دونه، وتكلم أبو العباس، فقال:

« الحمد لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه تَكْرِمَةً، وَشَرَفَهُ وَعَظَّمَهُ، واختاره لنا
وأيدّه بنا، وجعلنا أهله وَكَهْفَهُ^(٢) وَحِصْنَهُ، والقوّام به، والذابّين عنه، والناصرين له،
وألزّمتنا كلمة التّقوى، وجعلنا أحقّ بها وأهلها، وخصّنا برحِم رسول الله صلى الله

(١) هو أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس أول الخلفاء العباسيين، بويع

بالحلافة سنة ١٣٢ هـ.

(٢) الكهف: الوزر والملجأ.

عليه وسلم وقرابته ، وأنشأنا من آباءه ، وأبنتنا من شجرته ، واشتقنا من نَبْعَتِهِ^(١) ،
جعلنا من أنفسنا عزيزاً عليه ما عَيننا^(٢) ، حَرِيصاً عَلَيْنَا ، بِالْمُؤْمِنِينَ رَمُوقاً رَحِيماً ،
ووضعنا من الإسلام وأهله بالموضع الرفيع ، وأنزل بذلك على أهل الإسلام كتاباً يُتلى
عليهم ، فقال عزّ من قائل فيما أنزل من مُحْكَمِ الْقُرْآنِ : « إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ
عَنكُمُ الرِّجْسَ^(٣) أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً » وقال : « قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ
أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى » ، وقال « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ » وقال : « مَا آفَاءُ^(٤)
اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى » ، وقال :
« وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى » فأعلمهم
جل ثناؤه فضلنا ، وأوجب عليهم حقنا ومودتنا ، وأجزل من النِّعَةِ^(٥) والغنيمة نصيبنا ،
تَكْرِمَةً لَنَا ، وَفَضْلاً عَلَيْنَا ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .

وزعمت السَّبْيِيَّةُ الضَّلَالُ أَنْ غَيْرَنَا^(٦) أَحَقُّ بِالرِّيَاسَةِ وَالْخِلَافَةِ مِنَّا ، فَشَاهَتْ^(٧)
وُجُوهُهُمْ ! بِمَ وَلِمَ أَيُّهَا النَّاسُ ؟ وَبِنَا هَدَى اللَّهُ النَّاسَ بَعْدَ ضَلَالَتِهِمْ ، وَبَصَّرَهُمْ بَعْدَ
جَهَالَتِهِمْ ، وَأَنْقَذَهُمْ بَعْدَ هَلَاكَتِهِمْ ، وَأَظْهَرَ بِنَا الْحَقَّ ، وَأَدْحَضَ بِنَا الْبَاطِلَ ، وَأَصْلَحَ بِنَا
مَنْهُمْ مَا كَانَ فَاسِدًا ، وَرَفَعَ بِنَا الْخَسِيسَةَ ، وَأَتَمَّ بِنَا النَّقِيبَةَ ، وَجَمَعَ الْفُرْقَةَ ، حَتَّى عَادَ النَّاسُ
بَعْدَ الْعِدَاوَةِ أَهْلَ تَعَاظُفٍ وَبِرٍّ ، وَمَوَاسَاةٍ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ ، وَإِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ
فِي آخِرَتِهِمْ ، فَفَتَحَ اللَّهُ ذَلِكَ مِنَّةً وَمِنْحَةً لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَلَمَّا قَبِضَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ قَامَ
بِذَلِكَ الْأَمْرِ مِنْ بَعْدِهِ أَصْحَابُهُ ، وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ، فَخَوَّوْا مَوَارِيثَ الْأُمَمِ ، فَعَدَلُوا فِيهَا ،

(١) النبع في الأصل : شجر للفسي والسهام . (٢) العنت بالتحريك : دخول المشقة على الإنيان .

(٣) القدر ، وكل ما استقدر من العمل . (٤) ما أعاده عليه أى صبره له .

(٥) الغنيمة . (٦) يريد العلويين .

(٧) شاه وجهه شوها بالفتح : قبح .

وَوَضَعُوا مَوَاضِعَهَا ، وَأَعْطَوْهَا أَهْلَهَا ، وَخَرَجُوا خِصَاصًا^(١) مِنْهَا ، ثُمَّ وَثَبَ بَنُو حَرْبٍ وَمَرْوَانَ فَايْتَزَوْهَا وَتَدَاوَلُوهَا بَيْنَهُمْ ، فَجَارُوا فِيهَا ، وَاسْتَأْثَرُوا بِهَا ، وَظَلَمُوا أَهْلَهَا ، فَأَمَلَى^(٢) اللَّهُ لَهُمْ حِينًا حَتَّى آسَفُوهُ^(٣) ، فَلَمَّا آسَفُوهُ انْتَقَمَ مِنْهُمْ بِأَيْدِينَا ، وَرَدَّ عَلَيْنَا حَقَّنَا ، وَتَدَارَكَ بَنَاءَ أُمَّتِنَا ، وَوَلَّى نَصْرَنَا وَالْقِيَامَ بِأَمْرِنَا ، لِيُؤْمِنَنَّ بِنَاءَ عَلِيٍّ الَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا فِي الْأَرْضِ ، وَخَتَمَ بِنَاءَ كَمَا افْتَتَحَ بِنَاءَ ، وَإِنِّي لِأَرْجُو إِلَّا يَأْتِيَكُمُ الْجَوْرُ مِنْ حَيْثُ أَنَا كَمُ الْخَيْرِ ، وَلَا الْفَسَادُ مِنْ حَيْثُ جَاءَ كَمُ الصَّلَاحِ ، وَمَا تَوْفِيقُنَا أَهْلَ الْبَيْتِ إِلَّا بِاللَّهِ .

يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ ، أَنْتُمْ كَحَلِّ مَحَبَّتِنَا ، وَمَنْزِلِ مَوَدَّتِنَا ، أَنْتُمْ الَّذِينَ لَمْ تَتَغَيَّرُوا عَنْ ذَلِكَ ، وَلَمْ يَنْتَبِهْكُمْ عَنْ ذَلِكَ تَحَامُلُ أَهْلِ الْجَوْرِ عَلَيْكُمْ ، حَتَّى أَدْرَكْتُمْ زَمَانَنَا ، وَأَنَا كَمُ اللَّهِ بِدَوْلَتِنَا ، فَأَنْتُمْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِنَاءَ ، وَأَكْرَمُهُمْ عَلَيْنَا ، وَقَدْ زِدْتُمْ فِي أُعْطِيَاتِكُمْ مِائَةَ دَرَاهِمٍ ، فَاسْتَعْدُوا ، فَإِنَّا السَّقَّاحُ الْمُبِيحُ ، وَالنَّائِثُ الْمُبِيرُ^(٤) .

وَكَانَ مَوْعُوكَا فَاشْتَدَّ بِهِ الْوَعْكَ^(٥) ، فَجَلَسَ عَلَى الْمَنْبَرِ ، وَصَعِدَ دَاوُدُ بْنُ عَلِيٍّ ، فَقَامَ دُونَهُ عَلَى مَرَاتِقِي^(٦) الْمَنْبَرِ ، فَقَالَ :

(تَارِيخُ الطَّبَرِيِّ ٩ : ١٢٥ ، وَشَرْحُ ابْنِ أَبِي الْحَدِيدِ ٢ : ص ٢١٢)

٢ - خُطْبَةُ دَاوُدَ بْنِ عَلِيٍّ

« الْحَمْدُ لِلَّهِ ، شُكْرًا شُكْرًا شُكْرًا ، الَّذِي أَهْلَكَ عَدُونَنَا ، وَأَصَارَ إِلَيْنَا مِيرَاثَنَا مِنْ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أَيُّهَا النَّاسُ : الْآنَ أَقْشَعَتْ^(٧) حَنَادِسُ الدُّنْيَا ، وَأَنْكَشَفَ

(١) جِيَاعًا جَمَعَ خَيْصٌ مِنْ خَمْسِ الْبَطْنِ مِثْلَةُ الْمِيمِ أَيْ خَلَا ، وَالْمُخْبِصَةُ : الْحِجَابَةُ ، وَهُوَ خَيْصَانٌ بِالْفِصْمِ ، وَخَيْصٌ الْحِشَاءُ : خِصَامُ الْبَطْنِ . (٢) أَمَلَى : أَمَلَهُمْ . (٣) آسَفُوهُ : أَغْضَبُوهُ . (٤) أَبَارَهُ : أَهْلَكَهُ . (٥) الْوَعْكَ : أَذَى الْحَمَى وَوَجَعُهَا ، وَالْمِنْ شِدَّةُ الْتَمَبِ . (٦) جَمَعَ مِرْقَاةً بِفَتْحِ الْمِيمِ وَكَسْرِهَا . (٧) قَشَعَتْ الرِّيحُ السَّحَابَ : كَشَفَتْهُ كَأَقْشَعْتَهُ فَتَوَشَّعَ وَأَنْقَشَعَ وَتَقَشَّعَ ، وَالْحَنَادِسُ جَمْعُ حَنْدَسٍ بِكَسْرِ الْحَاءِ وَالذَّالِ وَهُوَ الطَّلْمَةُ .

عُطَاؤُهَا ، وَأَشْرَقَتْ أَرْضُهَا وَسَمَاوُهَا ، وَطَلَعَتِ الشَّمْسُ مِنْ مَطْلَعِهَا وَبَزَغَ الْقَمَرُ مِنْ مَبْزَغِهِ ، وَأَخَذَ الْقَوْسَ بَارِيهَا ، وَعَادَ السَّهْمَ إِلَى النَّزْعَةِ^(١) . وَرَجَعَ الْحَقُّ إِلَى نِصَابِهِ^(٢) ، فِي أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ ، أَهْلِ الرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ بِكُمْ وَالْعَطْفِ عَلَيْكُمْ .

أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّا وَاللَّهِ مَا خَرَجْنَا فِي طَلَبِ هَذَا الْأَمْرِ لِنُكَبِّرَ لُجَيْنًا ، وَلَا عَقِيَانًا^(٣) ، وَلَا نَحْفِرَ نَهْرًا ، وَلَا نَبْنِي قَصْرًا ، وَإِنَّمَا أَخْرَجْنَا الْأَنْفَةَ مِنْ ابْتِزَازِهِمْ حَقًّا ، وَالغَضَبُ لِبَنِي عَمْنَا ، وَمَا كَرَّتْنَا^(٤) مِنْ أُمُورِكُمْ ، وَبَهَظْنَا مِنْ شَتُونِكُمْ ، وَلَقَدْ كَانَتْ أُمُورِكُمْ تَرْمِيضًا^(٥) وَنَحْنُ عَلَى فُرْشِنَا ، وَيَشْتَدُّ عَلَيْنَا سَوْءُ سِيرَةِ بَنِي أُمِيَّةٍ فِيكُمْ ، وَخَرَقْتُمْ بِكُمْ ، وَاسْتَدْلَأْتُمْ لَكُمْ ، وَاسْتَثَارْتُمْ بِفَيْئِكُمْ وَصَدَقَاتِكُمْ وَمَغَانِمِكُمْ عَلَيْكُمْ ، لَكُمْ ذِمَّةُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَذِمَّةُ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَذِمَّةُ الْعَبَّاسِ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنْ نَحْكُمَ فِيكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ، وَنَعْمَلُ فِيكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ ، وَنَسِيرَ فِي الْعَامَّةِ مِنْكُمْ وَالْخَاصَّةِ بِسِيرَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، تَبًّا تَبًّا لِبَنِي حَرْبِ بْنِ أُمِيَّةٍ وَبَنِي سَهْوَانَ ، آثَرُوا فِي مَدِينَتِهِمْ وَعَصَرْتُمْ الْعَاجِلَةَ عَلَى الْأَجَلَةِ ، وَالِدَارَ الْفَانِيَةَ عَلَى الدَّارِ الْبَاقِيَةِ ، فَرَكِبُوا الْأَثَامَ ، وَظَلَمُوا الْأَنْأَمَ ، وَانْتَهَكُوا الْمَحَارِمَ ، وَغَشَوْا الْجَرَائِمَ ، وَجَارُوا فِي سِيرَتِهِمْ فِي الْعِبَادِ ، وَسُتَّتِهِمْ فِي الْبِلَادِ ، الَّتِي بَهَا اسْتَلَذُوا تَسْرُؤَ بِلِ الْأَوْزَارِ ، وَتَجَلَّبَبَ الْأَبْصَارَ^(٦) ، وَمَرَّحُوا فِي أَعْيُنِ الْعَاصِي ، وَرَكَضُوا فِي مِيَادِينِ الْغَيِّ ، جَهْلًا بِاسْتِدْرَاجِ اللَّهِ ، وَأَمْنًا لِمَكْرِ اللَّهِ ، فَأَتَاهُمْ بِأَسْرِ اللَّهِ بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ، فَأَصْبَحُوا أَحَادِيثَ ، وَمَزَقُوا كُلَّ مُمَزَّقٍ ، فُقِعِدُوا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ، وَأَدَالْنَا^(٧) اللَّهُ مِنْ مَرْوَانَ ، وَقَدْ غَرَّهَ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ، أُرْسِلَ لِعَدُوِّ اللَّهِ فِي عِنَانِهِ ، حَتَّى عَثَرَ فِي فَضْلِ خِطَامِهِ ، فَظَنَّ عَدُوُّ اللَّهِ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ، فَنَادَى حِزْبَهُ ، وَجَمَعَ مَكَائِدَهُ ، وَرَمَى بِكِتَابِيهِ ، فَوَجَدَ أَمَامَهُ وَوَرَاءَهُ ، وَعَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ ، مِنْ مَكْرِ اللَّهِ وَبِأَسِهِ

(١) جمع نازع : وهو الرأى يشد الوتر إليه ليضع فيه السهم ، وصار الأمر إلى النزعة أي قام بإصلاحه أهل الأمانة ، وعاد السهم إلى النزعة : رجع الحق إلى أهله . (٢) أصله . (٣) ذهباً . (٤) كثرته الغم كضرب ونصر : اشتد عليه كما كثرته . (٥) أرمضه : أوجمه وأحرقه ، وأرمض الحر القوم : اشتد عليهم فأذاهم . (٦) جمع إصر كحمل وهو الذئب . (٧) نصرنا عليه .

ونعمته ، ما أمت باطله ، ومَحَقَّ ضلاله ، وجعل دائرة السوء به ، وأحيا شرفنا وعزنا ، وردَّ إلينا حقنا وإزمتنا .

أيها الناس ، إن أمير المؤمنين - نصره الله نصراً عزيزاً - إنما عاد إلى المنبر بعد الصلاة ، أنه كره^(١) أن يخلط بكلام الجمعة غيره ، وإنما قطعهُ عن استتمام الكلام بعد أن استخفَّر^(٢) فيه شدة الوعك ، وادعوا الله لأمر المؤمنين بالعافية ، فقد أبدلكم الله بمروان عدوِّ الرحمن ، وخليفة الشيطان ، المتبع للسفلة الذين أفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ، بإبدال الدين ، وانتهاك حريم المسلمين ، الشاب^(٣) للتكهل التسهل ، المقتدى بسلفه الأبرار الأخيار ، الذين أصلحوا الأرض بعد فسادها بمعالم الهدى ، ومناهج التقوى » - فجعَّ الناس له بللداً - ثم قال :

« يا أهل الكوفة : إنا والله مازلنا مظلومين مقهورين على حقنا ، حتى أتاح الله لنا شيعتنا أهل خراسان ، فأحيا بهم حقنا ، وأفلج^(٤) بهم حجتنا ، وأظهر بهم دولتنا ، وأراكم الله ما كنتم به تنتظرون ، وإليه تتشوقون ، فأظهر فيكم الخليفة من هاشم وبيض به وجوهكم ، وأدالكم على أهل الشام ، ونقل إليكم السلطان وعز الإسلام ، ومنَّ عليكم بإمام منحه العدالة ، وأعطاه حسن الإيالة^(٥) ، فخذوا ما آتاكم الله بشكر ، والزموا طاعتنا ، ولا تتخذعوا عن أنفسكم ، فإن الأمر أمركم ، فإن لكل أهل بيت مصراً ، وإنكم مصرنا ، ألا وإنه ما صعد منبركم هذا خائفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد - وأشار بيده إلى أبي العباس - فاعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج منا ، حتى نسلمه إلى عيسى بن مريم صلى الله عليه ، والحمد لله رب العالمين على ما أبلانا وأولانا » .

(تاريخ الطارى ٩ : ١٢٦ ، وشرح ابن أبي الهيثم ٢ : ص ٢١٢)

(١) أى لأنه كره . (٢) استخفَّر الخطيب : اتسع في كلامه . (٣) كانت سنة حين ولَّى الخلافة ٢٨ سنة إذ ولد سنة ١٠٤ هـ . (٤) نصر . (٥) آل الملك رعيته إيالا : ساسهم ، وآل على القوم إيالا وإيالة : ولي .

٣ - خطبة داود بن علي - وقد أرتج على السفاح

وروى أنه لما قام أبو العباس في أول خلافته على المنبر، قام بوجه كورقة المصحف فاستحيا فلم يتكلم، فمض داود بن علي حتى صعد المنبر، فقال المنصور: فقلت في نفسي: شيخنا وكبيرنا ويدعو إلى نفسه، فلا يختلف عليه اثنان، فانتضيت سيفي، وغطيته بثوبي^(١)، وقلت: إن فعل ناجزته، فلما رقي عتبا استقبال الناس بوجه دون أبي العباس، ثم قال: «أيها الناس، إن أمير المؤمنين يكره أن يتقدم قوله فعله، ولأثر الفاعل أجدي عليكم من تشويق^(٢) المقال، وحسبكم بكتاب الله مُمْتَثَلًا^(٣) فيكم، وابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم خليفة عليكم، والله - قسما بربا لا أريد به إلا الله - ما قام هذا المقام أحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أحق به من علي بن أبي طالب، وأمير المؤمنين هذا، فليظن ظانكم، وليتهمس هامسكم» قال أبو جعفر: ثم نزل، وشمت^(٤) سيفي.

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٥٢، وشرح ابن أبي الحديد م ٢ : ص ٢١٣، ومواسم الأدب ٢ : ١١٤)

٤ - خطبة أخرى له

وروى السيد المرتضى في أماليه قال :

أراد أبو العباس السفاح يوماً أن يتكلم بأمر من الأمور بعد ما أفضت الخلافة إليه - وكان فيه حياة مفترط - فأرتج عليه، فقال داود بن علي بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

«أيها الناس، إن أمير المؤمنين الذي قلده الله سياسة رعيته، عُقِل من لسانه،

(١) في عيون الأخبار : « وغطيت ثوبي » وهو تحريف . (٢) شق الكلام : أخرجه أحسن

مخرج . (٣) امثال طريقته : تبها فلم يعددا . (٤) شام سيفه يشيمه : غمده (واستله أيضاً : ضد) .

عند ما يُعهد من بيانه ، ولكل مرتقٍ ^(١) بهز ، حتى تنفسه العادات ، فأبشروا
بنعمة الله في صلاح دينكم ، ورغد عيشكم . (أهل البيت المرتضى ٤ : ١٩)

٥ - خطبة أخرى للسفاح بالكوفة

وخطب السفاح في الجمعة الثانية بالكوفة ، فقال :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ » والله لا أعِدكم شيئاً إلا وفيت بالوعد
والوعد ، ولأعلمن اللين حتى لا تنفع إلا الشدة ، ولأغمدن السيف إلا في إقامة حد ،
أو بلوغ حق ، ولأعطينكم حتى أرى العطية ضياعاً ، إن أهل بيت اللعنة والشجرة ^(٢)
الملعون في القرآن ، كانوا لكم أعداء ، لا يرجعون معكم من حالة إلا إلى ما هو أشد منها ،
ولا يلبى عليكم منهم وال إلا تمنية من كان قبله ، وإن كان لاخير في جميعهم ، منعوكم
الصلاة في أوقاتها ، وطالبوكم بأدائها في غير وقتها ، وأخذوا المقيل بالمدبر ^(٣) ، والجار
بالجار ، وسلطوا شراركم على خياركم ، فقد سحق الله جورهم ، وأزهق باطلهم ، بأهل
بيت نبيكم ، فما تؤخر لكم عطاء ، ولا نضيع لأحد منكم حقاً ، ولا نجمركم في بئس ،
ولا نخاطر بكم في قتال ، ولا نبذلكم دون أنفسنا ، والله على ما نقول وكيل بالوفاء
والاجتهاد ، وعليكم بالسمع والطاعة » ثم نزل . (شرح ابن أبي الحديد م ٢ : ص ٢١٢)

٦ - خطبة السفاح بالشام حين قتل مروان

ولما قتل مروان بن محمد - آخر خلفاء بني أمية - خطب السفاح ، فقال :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا ، وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ، جَهَنَّمَ

(١) البهر : انقطاع النفس من الإعياء . (٢) هي شجرة الزقوم التي تنبت في أصل الجحيم ،

جعلها الله فتنة للشركين إذ قالوا : إن النار تحرق الشجر فكيف تنبت .

(٣) انظر قول زياد بن أبيه في خطبته البراء الجزء الثالث ص ٢٧٢ .

يَصَلُّونَهَا وَيَبْسُ الْقَرَارُ» نَكَصَ بِكُمْ يَا هَل الشَّامِ آلُ حُرْبٍ وَآلُ مِروانَ، يَتَسَكَّمُونَ^(١) بِكُمْ الظُّلْمَ، وَيَتَهَوَّرُونَ بِكُمْ مَدَاحِضَ^(٢) الزَّلَقِ، يَطْشُونَ بِكُمْ حَرَمَ اللَّهِ^(٣) وَحَرَمَ رَسُولِهِ^(٤)، مَاذَا يَقُولُ زَعَمَاؤُكُمْ غَدًا؟ يَقُولُونَ: «رَبَّنَا هُوَ لَاءُ أَضَلُّونَا فَأَتَيْنَهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ» إِذْنٌ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: «لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ» أَمَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَدْ اتَّخَفَ^(٥) بِكُمْ التَّوْبَةَ، وَاعْتَفَرَ لَكُمْ الزَّلَّةَ، وَبَسَطَ لَكُمْ الْإِقَالََةَ^(٦)، وَعَادَ بِفَضْلِهِ عَلَى نَقْصِكُمْ، وَبَحَلَهُ عَلَى جِهَالِكُمْ، فَلْيُفْرِخْ رُوعَكُمْ^(٧)، وَلتَطْمَئِنَّ بِهِ دَارِكُمْ، وَلْيُقْطَعْ مَصَارِعُ أَوَائِلِكُمْ، «فَتِلْكَ بَيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا». (العقده للفريد ٢ : ١٤٥)

٧ - خطبة عيسى بن علي حين قتل مروان

وخطب عيسى بن علي - عم السفاح - لما قتل مروان، فقال:

«الحمد لله الذي لا يفوته من طلب، ولا يعجزه من حرب، خدعت والله الأشقر نفسه، إذ ظن أن الله ممهله، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون، فحق مني، وإلى مني؟ أما والله لقد كرهتهم العبدان^(٨) التي افترعوها، وأمسكت السماء درها^(٩)، والأرض ريقها^(١٠)، وقعل الضرع^(١١)، وجفز الفنيق^(١٢)، وأسمل^(١٣)

(١) تسكع: مثنى مشيا متعسفا. (٢) جمع مدحضة: وهي المنزلة. (٣) يشير إلى ما كان

عن مقاتلة الحجاج عبد الله بن الزبير بمكة، ورويه السكبة بالمنجنيق في عهد عبد الملك بن مروان

(٤) يشير إلى وقعة الحرة وما أحدثه جيش مسلم بن عقبة المري بالمدينة على عهد يزيد بن معاوية.

(٥) استأنف وابتدأ. (٦) أقال عثرته: رفعه من سقوطه. (٧) الروح: بالقم القلب،

أو موضع الفزع منه والروح بالفتح: الفزع، وأفرغت البيضة: خرج للفريخ منها، أي لهخرج الروح عن روحكم وتهدموا وتطمنتوا.

(٨) أي أعواد المنابر، وافترعوها: أي علوها. (٩) مطرها. (١٠) الريح: الغمام

والزهاوة. (١١) قعل: يبس جلده على عظمه. (١٢) الفنيق: الفحل المسكرم لا يؤدي لكرامته

على أهله ولا يركب، والجفز: كشمس السرعة في المشي، ولم تذكر كتب اللغة ضبط فعله، وجاء في اللسان:

«الجفز: سرعة المشي يمانية، حكاهما ابن دزيد، قال: ولا أهدى ما صحبتها»، وفي رواية مواسم الأدب:

«وجفل فنيق الشرك». (١٣) أسمل للثوب وسمل، كدخل وكرم: أخلق.

جِلْبَابُ الدِّينِ ، وَأَبْطَلتِ الْحُبُودَ ، وَأَهْدَرَتِ السَّمَاءَ ، وَكَانَ رَبُّكَ بِالْمَرْصَادِ ، فَدَمْدَمَ ^(١) عَلَيْنِهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ، وَلَا يَخَافُ عُقَابَهَا ، وَمَلَّكْنَا اللهُ أَمْرَكُمْ عِبَادَ اللهِ ، لِيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ، فَالشُّكْرُ الشُّكْرُ ، فَإِنَّهُ مِنْ حِوَالِي الْمَزِيدِ ، أَعَاذَنَا اللهُ وَإِلَّا كُنَّا مِنْ مُضِلَّاتِ الْأَهْوَاءِ ، وَبَغْتَاتِ الْفِتَنِ ، فَإِنَّمَا نَحْنُ بِهِ وَهْلَةٌ .

(شرح ابن أبي الحديد م ٢ : ص ٢١٣ ، ومواضع الأدب ٢ : ١١٥)

٨ - خطبة داود بن علي بمكة ^(٢)

وخطب داود بن علي الناس بمكة في أول موسم ملكه بنو العباس ، فقال :
« شَكَرًا شُكْرًا ، إِنَّا وَاللَّهِ مَا خَرَجْنَا لِنَخْفِرَ فِيكُمْ نَهْرًا ، وَلَا لِنَبْنِي فِيكُمْ قَصْرًا ، أَظَنَّ عَدُوُّ اللهِ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ، أَنْ رُوِيَ ^(٣) لَهُ مِنْ خِطَابِهِ ، حَتَّى عَثَرَ فِي فَضْلِ زَمَامِهِ ؟ فَالآنَ حَيْثُ أَخَذَ الْقَوْسَ بَارِيهَا ، وَعَادَتِ النَّبْلُ إِلَى النَّزْعَةِ ، وَرَجَعَ الْمَلِكُ فِي نِصَابِهِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ النَّبِيِّ وَالرَّحْمَةِ - وَاللَّهِ لَقَدْ كُنَّا نَتَوَجَّعُ لَكُمْ وَنَحْنُ فِي فُرُشِنَا - أَمِنْ الْأَسْوَدِ وَالْأَحْمَرِ ^(٤) ، لَكُمْ ذِمَّةُ اللهِ ، لَكُمْ ذِمَّةُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لَكُمْ ذِمَّةُ الْعَبَّاسِ ، لَا وَرَبِّ هَذِهِ الْبَيْتَةِ - وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى الْكَعْبَةِ - لَا نَهِيجُ مِنْكُمْ أَحَدًا . »

(تهذيب الكامل ١ : ١٨ ، والعقد الفريد ٢ : ١٤٧ ، والبيان والتهيين

١ : ١٨٠ ، وابن أبي الحديد ٢ : ٢١٣ ، ومواضع الأدب ٢ : ١١٤)

(١) دمدم للقوم ، ودمدم عليهم : طعمهم فأهلكهم ، فسواها : أي الذممة ، أي مهم بهم فلم يفلت منهم أحد . (٢) ولاء أبو العباس السكوفة وسوادها ، ثم ولاء المدينة ومكة واليمن والمامة سنة ١٣٢ وولاء إمارة الحاج في هذه السنة ، ومات بالمدينة في ربيع الأول سنة ١٣٣ هـ (الطبري ج ٩ ص ١٤٧) (٣) أي لأن روي له ، ظن أن لن نقدر عليه . (٤) الحمراء : العجم لأن الذئاب على ألوانهم البيضاء والحمررة .

٩ - خطبته بالمدينة

قال : « أيها الناس : حَتَّامٌ يَهْتِفُ بِكُمْ صَرِيحُكُمْ ^(١) ؟ أما أن يرادكم أن يهَبَّ من نومه ؟ كَلَّا بَلْ رَانَ ^(٢) عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ، أَعْرَأَكُمُ الْإِهْمَالُ حَتَّى حَسِبْتُمُوهُ الْإِهْمَالُ ؟ هِيَاتُ مِنْكُمْ وَكَيْفَ بِكُمْ ، وَالسُّوْطُ كُنْفِي ، وَالسَّيْفُ مُشَهَّرٌ ^(٣) ! حَتَّى يُبَيِّدَ قَبِيلَةً فَقَبِيلَةً وَبَعْضَ كُلِّ مُتَّقِفٍ بِالْهَامِ ^(٤) وَيُقَيِّنَ رَبَّاتِ الْخُدُورِ حَوَاسِرًا ^(٥) يَسْخُنَ عُرْضَ فَوَائِبِ الْأَيْتَامِ ^(٥) (العقد الفريد ٢ : ١٤٦)

١٠ - خطبة أخرى له ^(٦)

وخطب فقال : « أحرز لسان رأسه ، اتعظ امرؤ بغيره ، اعتبر عاقل قبل أن يعتبر به ، فأمسك الفضل من قوله ، وقدم الفضل من عمله » ثم أخذ بقاء سيفه ، فقال : « إن بكم داء هذا دواؤه ، وأنا زعيم لكم بشفائه ، وما بعد الوعيد إلا الإيقاع » . (عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٥٢ ، ومواسم الأدب ٢ : ١١٤)

(١) الصريح : المستفث (والمغث أيضا) (٢) غلب . (٣) شهر سيفه كنع ، وشهره بالثدي : انتضاه فرغه على الناس . (٤) قنقيف الرماح : نسوتها . (٥) قوله ويقين : أي الرماح ، والضمير يعود على (كل منقف) . حواسر : جمع حاسر وهي كل مكشوفة الرأس والذراعين (٦) هذه الخطبة أوردها ابن قتيبة ، ووزاها إلى داود بن علي ، ونسبها صاحب العقد إلى المنصور ، وأنه قالها لما قتل الأمويين (راجع العقد ج ٧ : ص ١٤٥) .

ونسبها كما أوردها : « أحرز لسان رأسه ، انتبه امرؤ لحظته ، نظر امرؤ في يومه لغده ، فشى القصد ، وقال الفضل ، وجانب الحجر » ، ثم أخذ بقاء سيفه ، فقال : « أيها الناس : إن بكم داء هذا دواؤه ، وأنا زعيم لكم بشفائه ، فليعتبر عبد قبل أن يُعتبر به ، فإنما بعد الوعيد الانقطاع ، و« إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ » . والمهر : الفصح من الكلام .

١١ - خطبته وقد بلغه أن قوماً أظهروا شكاة بني العباس

وبلغه أن قوماً أظهروا شكاة بني العباس، فافترع المنبر، وحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

«أَعَدَّرًا يَا أَهْلَ الْخَمْرِ^(١) وَالتَّبْدِيلِ؟ أَلَمْ يَرُدَّعْكُمْ الْفَتْحُ الْمَبِينُ^(٢)، عَنِ الْخَوْضِ فِي ذَمِّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ؟ كَلَّا وَاللَّهِ حَتَّى تَحْمِلُوا أَوْزَارَكُمْ وَأَوْزَارَ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِكُمْ، كَيْفَ قَامَتْ شِفَاهُكُمْ بِالشُّكْوَى لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ؟ بَعْدَ أَنْ حَانَتْ آجَالُكُمْ فَأَرْجَاهَا، وَانْبَعَثَتْ دِمَاؤُكُمْ فَحَقَّنَهَا، الْآنَ يَا مَنَابِتَ الدَّمَنِ، مَشْتِمِ الضَّرَاءِ^(٣)، وَدَبَّيْتُمْ الْخَمْرَ^(٤)، أَمَا وَمُحَمَّدٍ وَالْعَبَّاسِ إِنْ عُدْتُمْ لِمِثْلِ مَا بَدَأْتُمْ، لِأَخْضُدِنَاكُمْ بِطُغْيَاتِ السُّيُوفِ، ثُمَّ يُبْنِي رَبُّنَا عَنْكُمْ، وَنَسْتَبْدِلُ غَيْرَكُمْ، ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ.

مهلاً يَارَوَايَا^(٥) الْإِرْجَافِ، وَأَبْنَاءِ النِّفَاقِ، عَنِ الْخَوْضِ فِيمَا كُفَيْتُمْ، وَالتَّخَطُّي إِلَى مَا حُدِّرْتُمْ، قَبْلَ أَنْ تَتَلَفَ نَفُوسٌ، وَيَقْلَّ عَدَدٌ، وَيَذَلَّ عِزٌّ، وَمَا أَنْتُمْ وَتِلْكَ؟ أَلَمْ تَجِدُوا مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا مِنْ إِبْرَاهِيمَ الْمُسْتَضْعَفِينَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا؟ بَلَى وَالْحِجْرِ وَالْحِجْرِ^(٦)، وَلَكِنَّهُ حَسَدٌ مُضْمَرٌ، وَحَسَكٌ^(٧) فِي الصَّدُورِ، فَرَغْنَا لِلْمَعَاطِسِ^(٨)، وَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ^(٩)».

(مواضع الأدب ٢ : ١١٤)

(١) الخمر: القدر، أو أتيحه. (٢) في الأصل: ألم ير علم الفتح المبين من الخوض في ذم أمير المؤمنين وهو تحريف. (٣) الضراء: الشجر الملتف في الوادي، يقال: توارى الصيد منه في ضراء، وفلان يمشي الضراء: إذا مشى مستخفياً فيما يوارى من الشجر. (٤) في الأصل: ودببتم الحمراء وهو تحريف، وصوابه ما ذكرنا، والخمر بالتحريك: كل ما وراك من شجر أو بناء أو غيره، وخمر كقروح: توارى، ومن أمثالهم: «يدب له الضراء، ويمشي له الحمرة» وهو مثل يضرب للرجل يخلط صاحبه. (٥) الروايات جمع رأوية: وهي الزيادة فيها الماء. (٦) الحجر: حجر الكعبة، وهو ما حواه الحطيم المدارب بالكعبة من جانب الشمال. (٧) الحسك: الحقد والعداوة. (٨) المعاطس جمع معطس كجلس ومقعد وهو الأنف، والرغم: الذل. (٩) وروى صاحب العقد

١٢ - خطبته وقد أرتج عليه

وخطب داود بن عليّ ، فحمد الله جل وعز ، وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما قال : أما بعد ، امتنع عليه الكلام ، ثم قال :

« أما بعد ، فقد يَجِدُ الْمُعْسِرُ ، وَيُعْسِرُ الْمُوسِرُ ، وَيُقَلُّ الْحَدِيدُ ، وَيَقْطَعُ الْكَلِيلُ ، وَإِنَّمَا الْكَلَامُ بَعْدَ الْإِحْقَامِ ، كَالْإِشْرَاقِ بَعْدَ الْإِظْلَامِ ، وَقَدْ يَعْزُبُ الْبَيَانُ ، وَيُقَمِّمُ الصَّوَابُ ، وَإِنَّمَا اللِّسَانُ ، مُضْغَةٌ مِنَ الْإِنْسَانِ ، يَفْتُرُ بِفُتُورِهِ إِذَا نَكَلَ ، وَيُثَوِّبُ بِانْبِطَاطِهِ إِذَا ارْتَجَلَ ؛ أَلَا وَإِنَّا لَا نَنْطِقُ بَطَرًا ، وَلَا نَسْكُتُ حَصْرًا ، بَلْ نَسْكُتُ مُعْتَبِرِينَ ، وَنَنْطِقُ مُرْشِدِينَ ، وَنَحْنُ بَعْدُ أُمَّرَاءُ الْقَوْلِ ، فَيُنَا وَشَجَّتْ ^(١) أَعْرَاقُهُ ، وَعَلَيْنَا عَطَفَتْ أَعْصَانُهُ ، وَلَنَا تَهَدَّلَتْ ثَمَرَتُهُ ، فَتَنْخِيرُ مِنْهُ مَا اخْلَوْلَى وَعَدْبُ ، وَنَطْرَحُ مِنْهُ مَا امْلَوْلَحَ وَخَبَثُ ، وَمَنْ بَعْدَ مَقَامِنَا هَذَا مَقَامٌ ، وَبَعْدَ أَيَامِنَا أَيَّامٌ ، يُعْرِفُ فِيهَا فَضْلُ الْبَيَانِ ، وَفَضْلُ الْخُطَابِ وَاللَّهُ أَفْضَلُ مُسْتَعَانَ » ثم نزل ^(٢) .

(كتاب الصناعتين ص ٢١ ، وأمال السيد المرتضى ٤ : ١٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٢٨٥)

بعض هذه الخطبة وعزاها إلى أبي جعفر المنصور ، فقال : « خطب المنصور حين خروجه إلى الشام فقال :

شِشْنَةُ أَعْرِفَهَا مِنْ أَخْزَمِ مَنْ يَلْقَى أَبْطَالَ الرَّجَالِ يُكَلِّمُ

مهلا مهلا روايا الإرجاف ، وكهوف النفاق . . . إلى آخر الخطبة ، راجع العقد للفريد ٢ : ١٤٥ - والشيشنة : الطبيعة والعادة ، وهو مثل لأبي أخزم الطائي ، وكان له ابن يقال له أخزم ، وكان عاقا ، فات وترك بنين ، فوثبوا يوما على جدتهم أبي أخزم فأدموه فقال :

إن بني ضرجونى بالدم شيشنة أعرفها من أخزم

أى إن هؤلاء أشبهوا أباهم في العقوق : يضرب في قرب الشبه ، ويكلم : يجرح .

(١) وشجت العروق والأعصان كوعه وشجا ووشيجا : اشتبكت ، والواشجة : للرحم المشتبكة .

(٢) وروى الحصرى في زهر الآداب بعض هذا القول وعزاها إلى عبد الملك بن صالح ، وروى السيد

المرتضى في أماليه قال :

« صعد أبو العباس السفاح المنبر ، فأرتج عليه فقال : « أيها الناس ، إن اللسان ، بضعة

(٢ - جهرة خطب العرب - ثالث)

١٣ - خطبة صالح بن علي

وخطب صالح بن علي^(١) عم السفاح ، فقال :

يا أعضاء النفاق ، وعُبد الضلالة ، أغرَّكم لين أساسي ، وطولُ إيناسي ؟ حتى ظن
جاهلكم أن ذلك لفُلُولِ حَدِّ ، وفتورِ جِدِّ ، وخَوَرِ^(٢) قنائة ، كذبتِ الظنونُ ، إنها
العِترَةُ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ، فإِذْ قَدْ اسْتَوْلَيْتُمُ الْعَافِيَةَ ، فَعَنْدِي فِطَامٌ وَفِكَاكٌ ، وَسَيْفٌ يَبْقُدُ
الهُامَ ، وَإِنِّي أَقُولُ :

أغرَّكم أني بأكرم شيمة رفيق ، وأني بالفواحش أخرق ؟
ومثلي إذا لم يُجزَّ أحسن سعيه تكلم نغاه فيها فتطق
لعمري لقد فاحشنتني فغلبتني هنيئا مريئا أنت بالفحش أرفق

(العقد الفريد ٢ : ١٤٦)

١٤ - خطبة سديف بن ميمون

وروى صاحب العقد قال :

لما قَدِمَ العَمْرُ بنُ يَزِيدَ بنِ عبدِ المَلِكِ علي أبي العباس السَّفَّاحِ في ثمانين رجلا من

من الإنسان ، يكلُّ إذا كَلَّ ، وينفِصِحُ بانفِصاحه إذا فِصِحَ ، ونحنُ أمراءُ الكلامِ ، مذا
تفرعت فروعه ، وعلينا تهديت غصونه ، ألا وإنا لا نتكلم هذرا ، ولا نسكت إلا
معتبرين » ثم نزل ، فبلغ ذلك أبا جعفر ، فقال : « لله هو لو خطب بمثل ما اعتذر ،
لكان من أخطب الناس » ، وهذا الكلام يروي لداود بن علي هـ .

والبيضة بفتح الباء وقد تسكمر : للقطعة من اللحم ، والهدر بالتحريك : سقط الكلام وبسكون الهمزة
مصدر هذر في منطقه كضرب ونصر .

(١) هو صالح بن علي بن عبد الله بن عباس عم السفاح ، وقد وُلد السفاح مصر سنة ١٣٢ ثم فلسطين ،
ثم وُلد مصر ثانية سنة ١٣٦ ، حتى قدم الخبر بموت السفاح في ذي الحجة سنة ١٣٦ ، فأثَّره المنصور على
عمل مصر ثم خرج إلى فلسطين ، ومات وهو عامل حصن بقنسرين . (٢) ضعف .

بنى أمية ، ووضعت لهم الكراسي ، ووضعت لهم تمازق^(١) ، وأجلسوا عليها ، وأجلس الغمراء مع نفسه في الصلوة ، ثم أذن لشيعته فدخلوا ودخل فيهم سديف بن ميثون^(٢) ، وكان متوشحاً سيفاً ، متنكباً قوساً ، وكان طويلاً آدم^(٣) ، فقام خطيباً .

فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أيزعم الضلال بما حبطت^(٤) أعمالهم أن غير آل محمد أولى بالخلافة ؟ فلم وبم أيها الناس ؟ لكم الفضل بالصحابة ، دون حق ذوى القرابة ، الشركاء في النسب ، الأكفأء في الحسب ، الخاصة في الحياة ، الوفاة^(٥) عند الوفاة ، مع ضربهم على الدين جاهلكم ، وإطعامهم في الأولى جائعكم ، فكم قصم الله بهم من جبار باغ ، وفاسق ظالم ، لم يُسمع بمثل العباس ، لم تخضع له أمة بواجب حق ، أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أبيه ، وجلدة ما بين عينيه^(٦) ، أمينه ليلة العقبة^(٧) ورسوله إلى أهل مكة ، وحاميه يوم حنين^(٨) ، لا يراد له رأياً ، ولا يخالف له قسماً ، إنكم والله معاشر قريش ما اخترتم لأنفسكم من حيث ما اختاره الله لكم ، تسمى^(٩) مرة ، وعدوى^(١٠) مرة ، وكنتم بين ظهراني قوم قد آثروا العاجل على الآجل ، والفاني على الباقي ، وجعلوا الصدقات في الشهوات ، والفناء في اللذات والفناء ، والمفانيم ،

(١) تمازق جمع نمرقة كقنفذة : وهي الوسادة الصغيرة . (٢) مولد أبي العباس السفاح .

(٣) وصف من الأدمة ، وهي كالسفرة وزنا ومعنى . (٤) فسدت . (٥) الوفاة جمع

واف . (٦) خطب الوليد بن عبد الملك فقال : وإن أمير المؤمنين عبد الملك كان يقول : وإن

الحجاج جلدة ما بين عيني ه إلا وإنه جلدة وجهي كله ه - البيان والتبيين ١ : ١٦٠ و ٣ : ٢١ - .

(٧) يوم مبايعة الأنصار لرسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ، وكانوا ثلاثة وسبعين رجلاً معهم امرأتان

وليس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا عمه العباس - وهو على دين قومه - ولكنه رأى أنه يحضر

أمر ابن أخيه ليحرق له . (٨) كان العباس ممن ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة

حنين ، حين انهزم المسلمون أول الموقعة ، وكان أخذاً بلجام بغلته . (٩) يريد أبا بكر الصديق

رضي الله عنه ، وهو من تيم بن مرة بن كعب بن لؤي . (١٠) يريد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وهو

من هدي بن كعب بن لؤي .

في الحرام ، إذا ذُكروا بالله لم يذُكروا ، وإذا قدّموا بالحق أدبُروا ، فذلك زمانهم ،
وبذلك كان يعملُ شيطانهم^(١) .

(العقد القرية: ٢ : ٢٠١)

١٥ - خطبة أبي مسلم الخراساني

وروى ابن أبي الحديد قال :

وخطب أبو مسلم بالمدينة في السنة التي حج فيها في خلافة السفاح^(٢) ، فقال :

« الحمد لله الذي حمد نفسه ، واختار الإسلام ديناً لعباده ، ثم أوحى إلى محمد رسول الله صلى الله عليه وآله من ذلك ما أوحى ، واختاره من خلقه ، نفسه من أنفسهم ، وبيته من بيوتهم ، ثم أنزل عليه في كتابه الناطق الذي حفظه بعلمه ، وأشهد ملائكته على حقه ، قوله : « إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا » ، ثم جعل الحق بعد محمد صلى الله عليه وآله في أهل بيته ، فصبر من صبر منهم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله على الألواء^(٣) ، والشدة ، وأغصى على الاستبداد والآثرة ، ثم إن قوماً من أهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله ، جاهدوا على ملة نبيه وسنته بعد عصر من الزمان ، من عمل بطاعة الشيطان ، وعداوة الرحمن ، بين ظهراني قوم آمنوا العاجل على الآجل ، والفاني على الباقي ، إن رُتق جور فتقوه ، أو فُتق حق رتقوه ، أهل سُخُورٍ وَمَاخُورٍ ، وطَنَابِيرٍ^(٤) وَمَزَامِيرٍ ، إن ذُكِّروا لم يذُكروا ، أو قُدِّموا إلى الحق أدبُروا وجعلوا الصدقات ، في الشُّبُهَاتِ ، والمغانم في الحرام ، والنبي في النقي ، هكذا كان زمانهم ، وبه كان يعمل سلطانهم ، وزعموا أن غير آل محمد أولى بالأمر منهم ، فلمَ وجمَ أيها الناس ؟ ألكم الفضل بالصَّحَابَةِ ، دون ذوى القرابة ، الشركاء

(١) فقر هذه الخطبة مروية في خطبة أبي مسلم الخراساني الآتية بعدها ، ولكني آثرت إيراد الروايتين

جميعاً كما وردتا . (٢) وذلك في سنة ١٣٦ هـ . (٣) الشدة .

(٤) طنابير : جمع طنبور كمنصور ، وهو الذي يذهب به .

في النسب ، وَالْوَرَثَةَ فِي السَّلْبِ ^(١) ، مع ضربهم على الدين جاهلكم ، وإطعامهم في الجذب جائعكم ، والله ما اخترتم من حيث اختار الله لنفسه ساعة قط ، وما زلتم بعد نبيه تخنارون تيمياً مرة ، وَعَدَوِيًّا مرة ، وَأَمْوِيًّا مرة ، وَأَسَدِيًّا ^(٢) مرة ، وَسُفْيَانِيًّا مرة ، وَمَرْوَانِيًّا مرة ، حتى جاءكم من لا تعرفون اسمه ولا بيته ^(٣) يضربكم بسيفه ، فأعطيتموها عَنوةً ، وأتم صاغرون ؛ ألا إن آل محمد أئمة الهدى ، ومَنَارُ سبيل النقي ، القادة الذادة السادة ، بنو عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وَمُنزَلِ جبريل بالتنزيل ، كم قَصَمَ الله

(١) ما يسلب ، والمراد ورثته في الخلافة . (٢) هو عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد ابن أسد . (٣) قال ابن أبي الحديد : « يعني نفسه لأنه لم يكن معلوم للنسب ، وقد اختلف فيه أبو مولد أم عربي » وقال ابن خلكان في (وفيات الأعيان ١ : ٢٨٠) في ترجمته : « أبو مسلم عبد الرحمن ابن مسلم وقيل عثمان الخراساني القائم بالدعوة العباسية ، وقيل هو إبراهيم بن عثمان بن يسار بن سدوس بن جودرن من ولد بزرجهر بن لهبختكان الفارسي ، وقد اختلف للناس في نسبه ، فقيل إنه من العرب ، وقيل إنه من العجم ، وقيل من الأكراد ، وفي ذلك يقول أبو دلامة :

أبا مجرم ما غير الله نعمة على عبده حتى يغيرها العبد

أق دولة المنصور حاوات غدره ألا إن أهل الدهر آباءؤك الكرد

وقال ابن طباطبائي الفخري ص ١٢٢ : « أما نسبه ففيه اختلاف كثير ، فقيل : هو حر من ولد بزرجهر ، وأنه ولد بأصفهان ، ونشأ بالسكوفة ، فاتصل بإبراهيم الإمام بن محمد بن علي بن عبد الله ابن عباس فقير اسمه وكناهه بلقب مسلم ، وثقفه وفقهه ، حتى كان منه ما كان . وقيل هو عبد تنقل في الرق ، حتى وصل إلى إبراهيم الإمام ، فلما رآه أعجبه سمته ومقله ، فابغاه من مولاه وثقفه وفقهه ، وصار يرسله إلى شيعة وأصحاب دعوته بخراسان ، وما زال على ذلك حتى كان من الأمر ما كان .

وأما هوفاته لما قويت شوكته أدهى أنه ابن سليط بن عبد الله بن عباس ، وكان لعبد الله بن عباس جارية فوقع عليها مرة ، ثم اعتزلها مدة فاستنكحها عبداً فوطئها ، فولدت منه غلاماً سمته سليطاً ، ثم ألصقته بعبد الله بن عباس ، وأنكره عبد الله ولم يعترف به ، ونشأ سليط ، وهو أكره الخلق إلى عبد الله بن عباس ، فلما مات عبد الله نازع سليط ورثته في ميراثه ، وأعجب ذلك بني أمية ليهتفوا من علي بن عبد الله ابن عباس ، فأعانوه وأوصوا قاضي دمشق في الباطن ، قال إليه في الحكم وحكم له بالميراث ، فادعى أبو مسلم حين قويت شوكته أنه من ولد سليط هذا .

وذكر ابن خلكان أن المنصور قال له قبل قتله ، وقد عدد له مساوي وقعت عنه : « نزهتم أنك ابن سليط بن عبد الله بن العباس ! لقد ارتقيت لا أم لك مرتقى صعباً ! » .

بهم من جبّار طاغ ، وفاسق باغ ، شقيد الله بهم المدى ، وجلى بهم القمى ، لم يُسمع بمثل العباس ، وكيف لا تخضع له الأمم لواجب حقّ الحرمة ؟ أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أبيه ، وإحدى يديه ، وجِلْدَة بين عينيه ، أمينه يوم العقبة ، وناصره بمكة^(١) ، ورسوله إلى أهلها ، وحاميه يوم حنين ، عند ملتقى الفئتين ، لا يخالف له رسماً ، ولا يفصى له حكماً ، الشافع يوم نيق العقاب^(٢) ، إلى رسول الله صلى الله عليه وآله في الأحزاب ، ها إن في هذا أيها الناس لعبرة لأولى الأبصار .

(شرح ابن أبي الحديد م : ٢ : ٢١٥)

١٦ - خالد بن صفوان وأخوال السفاح

روى الجاحظ قال :

كان خالد بن صفوان الأهمسيّ من سَمَّار أبي العباس السّفاح ، وأهل المنزلة عنده ، فقخر عليه ناس من بدحارث^(٣) ، وأكثروا في القول ، فقال أبو العباس : لم لاتكلم يا خالد ؟ فقال : « أخوال^(٤) أمير المؤمنين وعصبته » قال : « فأنتم أعمام أمير المؤمنين وعصبته » قال خالد : وما عسى أن أقول لقوم ، كانوا بين ناسج بُرْد ، ودابغ جِلْد ،

(١) يشير إلى ما كان من العباس في غزوة أحد ، وذلك أن جيش المشركين خرج من مكة لمحاربة الرسول صلى الله عليه وسلم حتى نزلوا مقابل المدينة ، وبلغ الخبر الرسول من كتاب يمث به إليه عمه العباس الذي لم يخرج معهم في هذه الحرب محتجاً بما أصابه يوم بدر ، وكان بمكة يكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبار المشركين (وقيل إنه كان قد أسلم قبل الهجرة ، وكاف يكم إسلامه) .

(٢) موضع بين مكة والمدينة . وذلك أن العباس شفع فيه يوم فتح مكة في أبي سفيان ، وفي أهل مكة فمعا النبي صلى الله عليه وسلم عنهم .

(٣) انظر الجزء الثاني ٢٣٥ . (٤) كانت أم السفاح من بني الحارث ، وهي ريطة بنت عبيد الله بن عبد الله بن المدان بن النديان الحارثي ، والذا كان يقال له ابن الحارثية .

وسائس قرود ، وراكب عرذ^(١) ، كَلَّ عليهم هُدُود^(٢) ، وغرقتهم فأرة^(٣) ،
وملكتهم امرأة^(٤) ؟ » .
(البيان والتبيين ١ : ١٨٤)

* * *

وروى الحضري في زهر الآداب قال :

« دخل خالد بن صفوان على أبي العباس السفاح ، وعنده أخواله من بني الحارث
ابن كعب ، فقال : ما تقول في أخوالي ؟ فقال : « هم هامة^(٥) الشرف ، وعرين^(٦)
الكرم ، وعرس الجود ، إن فيهم خصالا ما اجتمعت في غيرهم من قومهم ، لأنهم
أطولهم لِمَا^(٧) ، وأكرم شيئا ، وأطيبهم طعما^(٨) ، وأوفاهم ذمما ، وأبعدهم همما ،
الجمرة في الحرب ، والرؤفد^(٩) في الجذب ، والرأس في كل خطب ، وغيرهم
يمزلة العجب^(١٠) » .

فقال : وصفت أبا صفوان فأحسنت ، فزاد أخواله في الفخر ، فغضب أبو العباس

(١) العرذ : الحمار .

(٢) يشير إلى حديث المحدث مع سليمان عليه السلام في قوله تعالى : « وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ
لَا أَرَى الْهُدُودَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ، لَأَعَدِّبَنَّه عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي
بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ، فَكَتَّ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ مَحْطُ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ
بِنَبَأٍ يَقِينٍ ، إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ، وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ،
وَجَدْتُمَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَزَيَّنَّ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ
عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَمْتَدُونُ . . . الآيات » .

(٣) يشير إلى ما يزعجه المؤرخون من أن سيل العرم للذي غرقتهم كان سببه قرض الجرذ لسد مأرب

انظر الجزء الأول ص ١٠٥ . (٤) هي بليقوس (بالكسر) ملكة سبأ .

(٥) الهامة : رأس كل شيء . (٦) العرين : الأنف ، أو ما صلب من عظمه ، ومن كل شيء

أوله . (٧) في الأصل « أما » وأراه محرفا ، وصوابه « لما » والتم جمع لمة بالكسر ، وهي الشعر الجاوز

شحمة الأذن . (٨) الطعم : الطعام . (٩) الرؤفد : المطاء والصلبة . (١٠) العجب : أصل

الذنب ، ومؤخر كل شيء .

لأعمامه ، فقال : افخر يا خالد على أخوال أمير المؤمنين ، قال : وأنت من أعمامه ، قال :

« كيف أفاخر قوماً بين ناسج بُرد ، وسائس قرد ، ودابغ جلد ، وراكب عرد ، دلّ عليهم هُدهد ، وغرقهم جُرذ ، وملسكتهم امرأة ؟ » ، فأشرق وجه أبي العباس .
(زهر الآداب ٣ : ١٣٠ ، ٣٤٦)

١٧ — خالد بن صفوان ورجل من بني عبد الدار

وفاخر خالد بن صفوان رجلاً من بني عبد الدار الذين يسكنون اليمامة ، فقال له العبدري : من أنت ؟ قال : أنا خالد بن صفوان بن الأهم ، فقال له العبدري : أنت خالد « كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ ^(١) » وأنت ابن صفوان ، وقال الله تعالى : « كَمَثَلِ صَفْوَانَ عَلَيْهِ تُرَابٌ ^(٢) » ، وأنت ابن الأهم ، والصحيح خير من الأهم ^(٣) ، فقال له خالد ابن صفوان : يا أخا بني عبد الدار ، أتتكلم ؟ وقد هَشَمْتَكَ هاشم ، وأمَّتكَ ^(٤) بنو أمية ، وخزَمْتَكَ بنو مخزوم ، وجمحتك بنو جَمَح ^(٥) ؟ فأنت عبْد دارهم ^(٦) تفتح إذا دخلوا ، وتُغلق إذا خرجوا » فقام العبدري محموراً .

(أمالي السيد المرتضى ١ : ٢١٥ ، والبيان والتبيين ١ : ١٨٢)

(١) وتيام الآية الكريمة : « وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ » .

(٢) صفوان جمع صفوانة : وهي الحجر الصلد الضخم كالصفواء والصفاة ، والآية الكريمة :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانَ عَلَيْهِ تُرَابٌ ، فَأَصَابَهُ وَابِلٌ ، فَفَرَكَهُ صَدًّا ، لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ » .

(٣) هم كفرج : انكسرت ثناياه من أصولها فهو أهم . (٤) قادتك (٥) انظر

الجزء الثاني ص ٩٨ . (٦) وكانت الحجابة في بني عبد الدار ، انظر الجزء الثاني ص ٩٨ أيضاً .

١٨ - خالد بن صفوان يرثي صديقاله

وقال الجاحظ : قيل لرجل - أراه خالد بن صفوان^(١) - مات صديق لك ، فقال :
« رحمة الله عليه ، لقد كان يملأ العينَ جمالا ، والأذنَ بيانا ، ولقد كان يُرَجَى
فلا يَخْشَى ، ويُفْشَى فلا يَفْشَى ، وَيُعْطَى فلا يُعْطَى ، قليلاً لَدَى - الشَّرِّ حضوره ، سليماً
للصديق ضميره » .
(البيان والتبيين ٣ : ٢٣١ ، والأمال ٢ : ١٧٤)

١٩ - خالد بن صفوان يمدح رجلا

وذكر خالد رجلا ، فقال :

« كان والله بديع المنطق ، دَلِقَ^(٢) الجزأة ، جَزَل الألفاظ ، عربيّ اللسان ، ثابت
العقدة ، رقيق الحواشي ، خفيف الشفتين ، بَلِيلَ الريق ، رَحْبَ الشرف ، قليل
الحركات ، خَفِيَ الإشارات ، حُلُوَ الشمائل ، حَسَنَ الطلاوة^(٣) ، حَيِّياً جَرِيئاً ، قَتُولاً
صَمُوتاً ، يُفْلِحُ الحزبَ^(٤) ، وَيُصِيبُ المفاصلَ ، لم يكن بالمعذر^(٥) في منطقهِ ، ولا بالزَمِنِ^(٦)
في مَرُوءتِهِ ، ولا بالخرق^(٧) في خليقته ، متبوعاً غير تابع ، كأنه عَلم في رأسه نار » .
(زهر الآداب ٣ : ١٦٧)

٢٠ - كلمات بليغة لخالد بن صفوان

وقال خالد بن صفوان لبعض الولاة : « قَدِمْتَ فَأَعْطَيْتَ كَلًّا بِقِسْطِهِ مِنْ وَجْهِكَ

-
- (١) ورواية القالي : عن الأصمعي قال خالد بن صفوان لفتى بين يديه : رحم الله أباك . . . الخ .
(٢) مأخوذ من « سيف دلق » أي سهل الخروج من غده ، ويقال : اندلق العيل أي اندنع ،
واندلق للسيف : أي شق جفنه فخرج منه . (٣) الطلاوة مثلثة : القبول . (٤) الحز : للقطع .
(٥) عذر في الأمر تعذيراً ، إذا قصر ولم يجتهد . (٦) أي المعيب ، والزمانة كسحابة : العاهة ،
زمن كفرح فهو زمن وزمين . (٧) الخرق : الذي لا يحسن للعمل والتصرف في الأمور .

يوكرامتك^(١) ، حتى كأنك من كلِّ أحد ، وحتى كأنك لست من أحد .

(الأمثلة ١ : ٢١٦ ، وزهر الآداب ٣ : ٣٤٧ ، ١٦٧)

وقال شبيب بن شيبية لخالد بن صفوان : « مَنْ أَحَبَّ إِخْوَانَكَ إِلَيْكَ ؟ » قال :

« مَنْ سَدَّ خَلِّي ، وَغَفَرَ زَلِّي ، وَقَبِلَ عَلَيَّ . » (الأمثلة ١ : ١٩٨)

وذكر شبيب عنده مرة ، فقال : « ليس له صديق في السر ، ولا عدو في العلانية . »

قال الجاحظ : « وهذا كلام ليس يعرف قدره إلا الراسخون في هذه الصناعة . »

(البيان والتبيين ١ : ١٨٤ ، وزهر الآداب ٣ : ٢٠٩)

وقال خالد : « ما الإنسان ، لولا اللسان ، إلا صورة ممثلة ، أو بهيمة مُمَهَّمَة » ،

وقال « أتقوا مجانبيق^(٢) الضُّعفاء » يريد الدعاء . (البيان والتبيين ١ : ١٩٠)

وذكر المزاح بحضرة خالد بن صفوان ، فقال : « يُنَشِّقُ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ مِثْلَ الْخُرْدِ لَ ،

يُفْرِغُ عَلَيْهِ مِثْلَ الْمَرْجَلِ ، وَيَرْمِيهِ بِمِثْلِ الْجُنْدَلِ ، ثُمَّ يَقُولُ : إِنَّمَا كُنْتُ أَمْزَحُ ! » .

(زهر الآداب ٥٢ : ٨)

٢١ - عمارة بن حمزة والسفاح

وقال حمارة بن حمزة لأبي العباس السفاح - وقد أمر له بجواز نفيسة وكنوة وصيلة ،

وأدنى مجلسه :

« وَصَلَّكَ اللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَبَرَكَ ، فَوَاللَّهِ لَأَنْ أَرَدْنَا شُكْرَكَ عَلَى كُنْهِ^(٣) »

صَلَّتِكَ ، إِنْ الشُّكْرَ لِيَقْصُرَ عَنْ نِعْمَتِكَ ، كَمَا قَصُرْنَا عَنْ مَنَزَلَتِكَ ، ثُمَّ إِنْ اللَّهُ تَعَالَى

جَعَلَ لَكَ فَضْلًا عَلَيْنَا ، بِالتَّقْصِيرِ مِنَّا ، وَلَمْ تَحْرِمْْنَا الزِّيَادَةَ مِنْكَ لِنَقْصِ^(٤) شُكْرَنَا .

(زهر الآداب ٣ : ٣٤٦)

(١) وفي رواية زهر الآداب : « من نظرك ومجلسك في صوتك ومدك » .

(٢) جمع منجنيق يفتح الميم وكسرهما : آلة ترمى بها الحجارة . (٣) كنه الشيء : حقيقته .

(٤) في الأصل : « لبعض » وأراه محرفا .

خطب أبي جعفر المنصور (توفي سنة ٥١٥هـ)

٢٢ - خطبه بمكة

خطب أبو جعفر المنصور بمكة ، فقال :

« أيها الناس : إنما أنا سلطان الله في أرضه ، أسوسكم بتوفيقه ، وتسديده وتأيدته ، وحارسه على ماله ، أعمل فيه بمشيئته وإرادته ، وأعطيه بإذنه ، فقد جعلني الله عليه قفلاً ، إن شاء أن يفتحني فتحنى لإعطائكم ، وقسم أرزاقكم ، فإن شاء أن يقفلني عليها أقفلني ، فارغبوا إلى الله وسلوه في هذا اليوم الشريف الذي وهب لكم من فضله ما أعلمكم به إذ يقول : « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا » أن يوفقني للرشاد والصواب ، وأن يلهمني الرأفة بكم والإحسان إليكم ، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم » .

(العقد للفريد ٢ : ١٤٥ ، وعيون الأخبار ٢ ص ٢٥١ ، تاريخ الطبري ٩ : ٢١)

٢٣ - خطبه بمكة بعد بناء بغداد

وحج بعد بناء بغداد فقام خطيباً بمكة ، فكان مما حفظ من كلامه^(١) : « وَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ^(٢) مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ، أَمْرٌ مُبْرَمٌ ، وَقَوْلٌ عَدْلٌ ، وَقَضَاءٌ فَضْلٌ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَفْلَجَ^(٣) حُجَّتَهُ ، وَبُعَدَّ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ،

(١) عز صاحب العقد هذه الخطبة إلى سليمان بن علي (انظر ج ٢ ص ١٤٥) ، وكذا صاحب مواهب

الأدب (انظر ج ٢ : ص ١١٥) . (٢) قبل المراد بالزبور جنس الكتب المنزلة ، وبالذكر العوج

المحفوظ . (٣) نصر .

الذين اتخذوا الكعبة غرَضًا ، وَالْفِيءَ إِرْثًا ، وَجَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ^(١) ، لَقَدْ حَقَّ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ، فكم ترى من برِّ مُعْطَلَةٍ^(٢) وَقَصْرِ مَشِيدٍ ، أمهلهم الله حتى بدلوا السنة ، واضطهدوا العترة^(٣) وَعَعَدُوا^(٤) واعتدوا واستكبروا ، وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ، ثم أخذهم فهل تحس منهم من أحدٍ أو تسمع لهم ركزاً؟^(٥) .
(تاريخ الطبري ٩ : ٣١١ ، والكمال لابن الأثير ٦ : ١٢)

٢٤ - خطبته بمدينة السلام

وخطب بمدينة السلام « بغداد » فقال :
« يا عباد الله ، لا تظالموا ، فإنها مظلمة يوم القيامة ، والله لولا يدُ خاطئة ، وظلمُ ظالم ، لمشيتُ بين أظهركم في أسواقكم ، ولو علمتُ مكانَ من هو أحقُّ بهذا الأمر مني لأتيتُهُ حتى أدفعهُ إليه » .
(تاريخ الطبري ٩ : ٣١٠)

٢٥ - خطبته وقد أخذ عبد الله بن حسن وأهل بيته

ولما أخذ عبد الله بن حسن^(٦) وإخوته ، والنفر الذين كانوا معه من أهل بيته ، صعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم صلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

(١) الذفة : المفارقة والقطعة والجمع عضون ، وجعل المشركون القرآن عِضِينَ أي فرقا : فرقا فيه القول ، فجعلوه كذبا وسحرا وكهانة وشعرا ، فهم قد (عضوه) بالانشديد أعضاء أي جزءه أجزاء ، وهو يريد هنا الأمويين يشير إلى أنهم عطلوا بعض أوامر القرآن بما أقوه من الأعمال من رمي الكعبة ، واضطهاد أهل البيت الخ . (٢) متروكة لا يستق منها هلاك أهلها ، ومشيد : مرفوع أو مطلى بالثيد (بالكسر) وهو ما طلى به الحائط من جص ونحوه ، أي معطل خال من ساكنيه أيضا . (٣) العترة نسل الرجل ورهطه وعشيرته الأذنون . (٤) عند (مثلث اللنون) من الطريق : مال (٥) الصوت الخفى (٦) هو عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وقد حنه المنصور هو وأهل بيته ، من المدينة إلى العراق سنة ١٤٤ هـ ، وأقام في غيايات السجون حتى ماتوا بسجن الكوفة ، وكان يخوف أن يغالبه على الخلافة محمد بن عبد الله هذا (وهو محمد الملقب بالنفس الزكية) وقد خرج عليه بالمدينة فوجه المنصور جيشا لقتاله فقتل سنة ١٤٥ هـ ، وخرج أخوه إبراهيم حل المنصور بالبصرة فقتل أيضا في مله السنة .

« يا أهل خراسان : أتم شيعتنا وأنصارنا ، وأهل دولتنا ، ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا من هو خيرٌ منا ، وإن أهل بيتي هؤلاء من ولد علي بن أبي طالب ، تركناهم والله الذي لا إله إلا هو والخلافة ، فلم تعرض لهم فيها بقليل ولا كثير ، فقام فيها علي بن أبي طالب ، فتلطخ ، وحكم عليه الحكيم ، فافتقرت عنه الأمة ، واختافت عليه الكلمة ، ثم وثبت عليه شيعته وأنصاره وأصحابه ، وبطانتته وثقاته فقتلوه ، ثم قام من بعده الحسن بن علي ، فوالله ما كان فيها برجل ، قد عرضت عليه الأموال فقبلها ، فدرس إليه معاوية : إني أحعلك ولي عهدي من بعدى ، فخذعه فانسخ له مما كان فيه ، وسلمه إليه ، فأقبل على النساء يتزوج في كل يوم واحدة فيطلقها غداً ، فلم يزل على ذلك حتى مات علي فراشه ، ثم قام من بعده الحسين بن علي ، فخذعه أهل العراق وأهل الكوفة أهل الشقاق والنفاق ، والإغراق في الفتن ، أهل هذه المدرة السوداء وأشار إلى الكوفة فوالله ما همي بحرب فأحاربها ولا سيلم فأسلمها ، فرّق الله بيني وبينها ، فخذلوه وأسلموه حتى قتل ، ثم قام من بعده زيد بن علي ، فخذعه أهل الكوفة وغرّوه ، فلما أخرجوه^(١) وأظهروه أسلموه وقد كان أتى محمد بن علي^(٢) ، فناشده في الخروج ، وسأله ألا يقبل أقاويل أهل الكوفة ، وقال له : إنا نجد في بعض علمنا أن بعض أهل بيتنا يصلب بالكوفة ، وأنا أخاف أن تكون ذلك المصلوب ، وناشده عمي داود بن علي ، وحذره غدر أهل الكوفة ، فلم يقبل وتم^(٣) على خروجه ، فقتل وصلب بالكناسة^(٤) ثم وثب علينا بنو أمية ، فأماوا شرفنا ، وأذهبوا عزنا ، والله ما كانت لهم عندنا ترّة^(٥) يطلبونها ، وما كان ذلك كله إلا فيهم ، وبسبب خروجهم عليهم ، فنّفونا من البلاد فصيرنا مرة بالطائف . ومرة بالشام ، ومرة بالشرارة^(٦) ، حتى ابتعثكم الله لنا شيعة

(١) وقد خرج في خلافة هشام بن عبد الملك ، فقاتله يونس بن عمر الثقفي والى العراق ، وقتل وصلب

سنة ٨١٢١ . (٢) يريه أباه محمد بن علي بن عبد الله بن عباس .

(٣) تم حل الأمر : استمر عليه . (٤) موضع بقرب الكوفة .

(٥) ثار . (٦) موضع بين دمشق والمدية (الكرك الآن) .

وأنصارا، فأحيا شرفنا وعزنا بكم أهل خراسان، ودمغ بحكم أهل الباطل، وأظهر حقنا، وأصار إلينا ميراثنا عن نبينا صلى الله عليه وسلم، فقرر الحق مقرره، وأظهر مناره، وأعز أنصاره، وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين، فلما استقرت الأمور فينا على قرارها من فضل الله فيها وحكمه العادل لنا، وثبوا علينا ظلما وحسدا منهم لنا، وبغيا لما فضلنا الله به عليهم، وأكرمنا به من خلافته، وميراث نبيه صلى الله عليه وسلم :

جَهْلًا عَلَىٰ وَجِبْنَا عَنْ عَدُوهُمْ كَيْسَتْ انْخَلَّتَانِ الْجَهْلُ وَالْجُبْنُ

فإني والله يا أهل خراسان ما أتيت من هذا الأمر ما أتيت بجهالة، بلغني عنهم بعض السقم والتعثر^(١)، وقد دسست لهم رجالا، فقلت: قم يا فلان، قم يا فلان، فخذ معك من المال كذا، وحدوت لهم مثلا يعملون عليه، فخرجوا حتى أتوهم بالمدينة، فدسوا إليهم تلك الأموال، فوالله ما بقي منهم شيخ ولا شاب، ولا صغير ولا كبير، إلا بايعهم بيعة استحللت بها دماءهم وأموالهم، وحلت لي عند ذلك بنقضهم بيعتي، وطلبهم الفتنة، والتماسهم الخروج على، فلا يرون أني أتيت ذلك على غير يقين، ثم نزل وهو يتلو على درج المنبر هذه الآية « وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ، إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ » .

(تاريخ الطبري ٩ : ٢١٢ ، ومروج الذهب ٢ : ٢٤١)

٢٦ - خطبته حين خروج محمد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن

ولما خرج محمد وإبراهيم ابنا عبد الله، شن^(١) المنصور عليه درعه، وتقلد سيفه، وصعد المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه ثم قال :

مَالِي أَكْفَكِفُ عَنْ سَعْدٍ وَتَشْتُمُنِي؟ وَلَوْ شَتَّمْتُ بَنِي سَعْدٍ لَقَدْ سَكَنُوا

(١) الأصل فيه : تمرمه : تمرقه ونزع ما عليه من اللحم . (٢) شن عليه درعه : صبها .

جَهْلًا عَلَيْنَا وَجُبْنَا عَنْ عَدُوهُمْ كَبِئْسَتِ الْخَلْتَانِ الْجَهْلُ وَالْجُبْنُ
أَمَّا وَاللَّهِ لَقَدْ مَجَزُوا عَمَّا قَنَابَهُ ، فَمَا عَضَدُوا الْكَافِي ، وَمَا شَكَرُوا الْمُنْعَم ، فَإِذَا
حَاولُوا أَشْرَبَ رَنْقًا عَلَى غَصَصٍ ، وَأَبَيْتُ مِنْهُمْ عَلَى مَضَضٍ ، كَلَّا وَاللَّهِ لَا أَصِلُ ذَا رَحِمٍ
حَاولَ قَطِيعَتِهَا ، وَلَنْ لَمْ يَرْضَ بِالْمَفْوِ لِيَطَابَنَّ مَا لَمْ يَوْجِدَ عِنْدِي ، فَلْيُتَبَقِ نَوْ نَفْسٍ
عَلَى نَفْسِهِ ، قَبْلَ أَنْ تَمُتِي ، فَلَا يُبْكِي عَلَيْهِ . (مواسم الأدب ٢ : ١١٩)

٢٧ - خطبته وقد قتل أبا مسلم الخراساني

وخطب بالمدائن عند قتل أبي مسلم الخراساني^(١) ، فقال :
« أيها الناس : لا تخزجوا من أنس الطاعة إلى وحشة المعصية ، ولا تسرثوا غشَّ
الآئمة ، فإنه لم يسرَّ أحد قطُّ منكراً إلا ظهرت في آثار يده ، وفللت لسانه ،
وصفحات وجهه ، وأبداها الله لإمامه ، بإعزاز دينه ، وإعلاء حقه ، إنا لن نبخسكم
حقوقكم ، ولن نبخس الدين حقه عليكم ، إنه من نازعنا عروة هذا القميص أجزرناه
خبي هذا الغنم ، وإن أبا مسلم بايعنا وبايع الناس لنا ، على أنه من نكث بنا فقد
أباح دمه ، ثم نكث بنا ، فحكمتنا عليه لأنفسنا حكمه على غيره لنا ، ولم تمنعنا
رعاية الحق له ، من إقامة الحق عليه . »

(تاريخ الطبري ٩ : ٤١٣ ، ومجمع الأمثال ١ : ٣١٨ ، ومواسم الأدب ٢ : ١٢٠ وغرر
المصانص الواضحة ٧٦) .

(١) قتل أبو مسلم سنة ١٣٧ ، وذلك أن المنصور كان قد أرسله لحرب عمه عبد الله بن علي - وكان
قد خرج عليه بالشام كما سيأتي - فلما ظفر أبو مسلم ، وغنم جميع ما كان في صكر عبد الله ، وأنهزم عبد الله
إلى البصرة ، أرسل المنصور بعض خدمه للحفاظ على ماني المعسكر من الأموال ، فغضب أبو مسلم ، وقال :
أمين على الدماء ، خائن في الأموال ! وشتم المنصور ، وعزم على الخلاف ، وأن يتوجه إلى خراسان ،
فجعل المنصور يتلطف به حتى استفدمه إليه وقتله .

٢٨ - خطبة أخرى

وخطب فقال :

« أيها الناس ، لا تنفروا أطرافَ النعمة بقلة الشكر ، فتحلَّ بِكم النِّقمة ، ولا تستروا غِشَّ الأئمة ، فإن أحداً لا يستر مُنكراً إلا ظهر في فلتات لسانه ، وَصَفَحَات وجهه ، وَطَوَّاع نظره ، وإنا لا نجعل حقوقكم ماعرفتم حَقَّنا ، ولا ننسى الإحسان إليكم ما ذكركم فضلنا ، ومن نازعنا هذا القميصَ أوطأنا أم رأسه خبء^(١) هذا الغمَد . والسلام » .

(موسم الأدب ٢ : ١٢٠)

٢٩ - قوله وقد قوطع في خطبته

وخطب يوم الجمعة . فقال :

« الحمد لله أحمدُه . وأستعينه . وأؤمن به . وأتوكل عليه . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له : أيها الناس . اتقوا الله . فقام إليه رجل . فقال : أذكرك من ذكرتنا به يا أمير المؤمنين . فقطع الخطبة . ثم قال : « سمعاً سمعاً لمن فهم عن الله . وذكرك به . وأعوذ بالله أن أكون جباراً عنيداً . وأن تأخذني العِزَّة بالإثم . لقد ضللتُ إذنً ومآناً من المهتدين . وأنت أيها القائل . فوالله ما أردت بها وجه الله . ولسكنك حاولت أن يقال : قام فقال . فعوقب فصبر . وأهون بها ! ويلك لو هممت^(٢) ! فاهتبلها^(٣) إذ غفرت . وإياك وإياكم معشر الناس أختها فإن الحكمة علينا نزلت . ومن عندنا فصلت . فردوا الأمر إلى أهله . ثوردوه موارده . وتصدروه مصادره . ثم عاد في خطبته . فكأنه يقرؤها من كفه . فقال : وأشهد أن محمداً عبده ورسوله »

(تاريخ الطبري ٩ : ٣١١ ، والعقد الفريد ٢ : ١٤٥ ، وميون الأخبار ٢ : ص ٢٣٦ ، والكمال لابن الأثير ٦ : ١٢ ، وصبح الأعشى ١ : ٢٦٢) .

(١) الحب . : ما خبى . (٢) أى لو هممت بعقابك . (٣) اغتمها .

٣٠ - المنصور يصف خلفاء بني أمية

واجتمع عند المنصور أيام خلافته جماعة من ولد أبيه . منهم عيسى بن موسى والعباس بن محمد وغيرهما . فتذاكروا خلفاء بني أمية . والسبب الذي به سَابُوا عزَّهم . فقال المنصور :

« كان عبد الملك جَبَّاراً لا يُبالي ما صنع . وكان الوليد لَحَّاناً مجنوناً . وكان سليمان هَمَّتَهُ بَطْنُهُ وفرَّجُهُ . وكان عمر أَعورَ بين عُمَيان . وكان هشام رجلَ القوم . ولم يزل بنو أمية ضابطين لما مُهَّد لهم من السلطان ، يَحُوطونه ويصونونه ويحفظونه . ويمجِّسون ما وهب الله لهم منه ، مع تسنُّمهم معالي الأمور ، ورَفِضهم أدانيها ، حتى أفضى أمرهم إلى أحداثٍ مُتَرَفِّين من أبنائهم ، فغمَطوا^(١) النعمة ، ولم يشكروا العافية ، وأسَاءوا الرعاية . فابتدأت النِّقمةُ منهم ، باستدراج الله إياهم ، آمنين مكره ، مُطَّرحين صيانة الخِلافة ، مستخفين بحق الرياسة ، ضعيفين عن رسوم السياسة ، فسلبهم الله العِزَّةَ ، والبسهم الذلَّةَ ، وأزال عنهم النعمة » . (شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٢١٥)

٣١ - المنصور يصف عبد الرحمن الداخل

وقال المنصور يوماً لأصحابه : أخبروني عن صَقْر قريش ، مَنْ هو ؟ قالوا : أمير المؤمنين ، الذي راض^(٢) المُلكَ ، وسَكَّن الزلازل ، وحَسَم الأعداء . قال : ما صنعتُم شيئاً . قالوا : فمعاوية . قال : ولا هذا . قالوا : فعبد الملك بن مروان . قال : ولا هذا ، قالوا : فمن يا أمير المؤمنين ؟ قال عبد الرحمن بن معاوية^(٣) ، الذي عبَّر

(١) غمط النعمة : بطرها وحقرها .

(٢) ذلل . (٣) هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان المعروف بالداخل

مؤسس دولة بني أمية بالأتدلس وسياق .

البحر ، وقطع القفر ، ودخل بلداً أعجمياً مُفرداً ، فصّر الأمصار ، وجنّد الأجناد ، ودوّن
الدواوين ، وأقام مُلكاً بعد انقطاعه ، بحسن تدييره ، وشدة شِكيمته . إن معاوية
نهض بِمَرَكَبٍ حَمَلَهُ عَلَيْهِ عُمرُ وَعِثْمَانُ ، وَذَلَّالَهُ صَعْبُهُ ، وَعَبْدُ الْمَلِكِ بِبَيْعَةٍ تَقَدَّمَ لَهُ
عَقْدُهَا ، وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِطَلَبِ غَيْرِهِ وَاجْتِمَاعِ شِيعَتِهِ ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ مُنْفَرِدٌ بِنَفْسِهِ ، مُؤَيَّدٌ
بِرَأْيِهِ ، مُسْتَصْحِبٌ لِعِزْمِهِ .

(العقه الفريده ٢ : ٢٠٢)

وصايا المنصور لابنه المهدي

٣٢ - وصية له

قال المنصور لابنه المهدي : « يا بُنَيَّ لا تُبْرِمَ أسراً حتى تفكر فيه ، فإن فكرة العاقل مرآة ، تربيه حسناته وسيئاته . واعلم أن الخليفة لا يصلحه إلا التقوى ، والساطان لا يصلحه إلا الطاعة ، والرعية لا يصلحها إلا العدل ، وأولى الناس بالعمو أقدروهم على العقوبة ، وأتقص الناس عقلاً من ظلم من هو دونه » .

(نهاية الأرب ٦ : ٤١ ، والمعقد الفريد ١ : ١٤)

٣٣ - وصية أخرى له

ووصاه فقال له : « إني لم أدع شيئاً إلا قد تقدمت إليك فيه ، وسأوصيك بمخصل والله ما أظنك تفعل واحدة منها - وكان له سقط فيه دفاتر عمله ، وعابه قفل لا يأمن على فتحه ومفتاحه أحداً ، يضر مفتاحه في كتم قيصه - فقال للمهدي : انظر هذا السقط فاحتفظ به ، فإن فيه علم آباءك ما كان وما هو كأن إلى يوم القيامة ، فإن أحرزك أمره فانظر في الدفاتر الأكبر ، فإن أصبت فيه ما تريد ، وإلا فالثاني والثالث حتى بلغ سبعة ، فإن ثقل عليك فالكراسة الصغيرة ، فإنك واجد فيها ما تريد ، وما أظنك تفعل ، وانظر هذه المدينة فاياك أن تستبدل بها ، فإنها بيتك وعزك ، قد جمعت لك فيها من الأموال ، ما إن كسر عليك الخراج عشر سنين ، كان عندك كفاية لأرزاق الجند والنفقات ، وعطاء الذرية ، ومصحة الثغور ، فاحتفظ بها فإنك لاتزال عزيزاً مادام

بيت مالك عامراً ، وما أظنك تفعل . وأوصيك بأهل بيتك ، أن تُظهِرِ كرامتهم
وتُقدِّمهم ، وتُكثر الإحسان إليهم ، وتعظِّم أمرهم ، وتوطئ الناس أعتابهم ، وتولِّيهم
المنابر ، فإن عزك عزهم ، وذكركم لك ، وما أظنك تفعل ، وانظر مواليك فأحسن إليهم
وقربهم ، واستكثر منهم ، فإنهم مادتك لشدة إن نزلت بك ، وما أظنك تفعل .
وأوصيك بأهل خراسان خيراً ، فإنهم أنصارك وشيعتك الذين بدّلوا أموالهم في دولتك ،
ودمائم دونك ، ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم ، أن تُحسن إليهم ، وتتجاوز عن
مسيئتهم ، وتكافئهم على ما كان منهم ، وتخلّف من مات منهم في أهله وولده ،
وما أظنك تفعل ، وإياك أن تبني مدينة الشرقية ، فإنك لا تتم بناءها ، وما أظنك تفعل ،
وإياك أن تستعين برجل من بني سليم ، وأظنك ستفعل ، وإياك أن تدخل النساء
في مشورتك في أمرك ، وأظنك ستفعل .

(تاريخ الطبري ٩ : ٣١٩)

٣٤ - وصية أخرى له

ووصى المهدي أيضاً ، فقال : « اتق الله فيما أعهد إليك من أمور المسلمين بعدى ،
يجعل لك فيما كرتك وحزرك مخرجاً ، ويرزقك السلامة وحسن العاقبة من حيث
لا تحتسب ، احفظ يا بني محمداً صلى الله عليه وسلم في أمته ، يحفظ الله عليك أمورك ،
وإياك والدم الحرام ، فإنه حُوب^(١) عند الله عظيم ، وعار في الدنيا لازم مقيم ، والزم
الحلال ، فإن فيه ثوابك في الآجل ، وصلاحك في العاجل ، وأقم الحدود ، ولا تعتد
فيها فتبور^(٢) ، فإن الله لو علم أن شيئاً أصاح لدينه ، وأزجر عن معاصيه من الحدود ،
لأمر به في كتابه ، واعلم أنه من شدة غضب الله لسلطانه أمر في كتابه بتضعيف العذاب
والعقاب على من سعى في الأرض فساداً ، مع ما ذخر له عنده من العذاب العظيم ، فقال :

« إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا ، أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ ، أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ، ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ، وَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ » ، فالسلطان يا بنى حبل الله المتين ، وعُروته الوثقى ، ودين الله القيم ، فاحفظه وحطه ، وحصنه وذب عنه ، وأوقع بالملحدين فيه ، واطمئع المارقين منه ، واقتل الخارجين عنه بالعقاب لهم ، والمثلات^(١) بهم ، ولا تجاوز ما أمر الله به في مُحكم القرآن ، واحكم بالعدل ولا تُشَطِّطْ ، فإن ذلك أقطع للشغب ، وأحسم للعدو ، وأنجم في الدواء ، وَعِفَّ عن النِّيء ، فليس بك إليه حاجة مع ما أخلفه لك ، وافتتح عملك بصلة الرَّحِمِ وبرِّ القرابة ، وإيالك والآثرة ، والتبذير لأموال الرعية ، وَاشْحَنَ^(٢) الثغور ، وَاضْبِطِ الأطراف ، وَأَمِّنِ السُّبُلَ وَخُصَّ الواسطة^(٣) ووسَّعِ المعاش ، وسكِّنِ العامة ، وأدخلِ المرافق عليهم ، واصرف المكاره عنهم ، وأعدِّ الأموال واخزنها . وإيالك والتبذير ، فإن النوائب غير مأمونة ، والحوادث غير مضمونة ، وهى من شيم الزمان ، وأعدِّ الرجال والكرَاع^(٤) والجند ما استطعت . وَإِيَاكَ وتأخيرَ عمل اليوم إلى غد ، فتدارك عليك الأمور وتَضِيْع ، جِدِّ في إحكام الأمور النازلات لأوقاتها أوَّلاً فأولاً ، واجتهد وشمِّرْ فيها ، وأعدِّ رجالاً بالليل لمعرفة ما يكون بالنهار ، ورجالاً بالنهار لمعرفة ما يكون بالليل ، وباشِرِ الأمور بنفسك ولا تَضَجِرْ ، ولا تَكْسَلْ ، ولا تَفْشَلْ ، واستعمل حسن الظن بربك ، وَأَسِيءِ الظن بعمالك وكتَّابك ، وخذ نفسك بالتيقظ ، وتفقد من يبيت على بابك ، وسهِّلِ إذْنَك للناس ، وانظر في أمر النَّزَاعِ إِلَيْكَ ، ووكِّلْ بهم عيناً غير نائمة ، ونفساً غير لاهية ، ولا تَنَمَّ ، فَإِنَّ أَبَاكَ لَمْ يَنَمْ مِنْذُ وِلَايَةِ الخِلافةِ ، وَلَا دَخَلَ عَيْنَهُ غَمُضٌ إِلَّا وَقَلْبُهُ مُسْتَيْقِظٌ ، هذه وصيتي إليك ، وَاللَّهِ خَافِيَتِي عَلَيْكَ . .

(تاريخ الطبرى ٩ : ٢٢٠)

(١) جمع مثلة : وهى العقوبة . (٢) أى الامتلاء بالمداومة . (٣) التروطة

(٤) الكراع : اسم يجمع الخيل .

٣٥ - خطبة النفس الزكية حين خرج على المنصور

لما خرج محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب الملقب بالنفس الزكية^(١) على المنصور ، قام على منبر المدينة ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : إنه قد كان من أمر هذا الطاغية أبي جعفر من بنائه القبة الخضراء ، التي بناها معاندةً لله في ملكه ، وتصغيره الكعبة الحرام ، وإنما أخذ الله فرعون حين قال : « أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى » . وإن أحقَّ الناس بالقيام في هذا الدين أبناء المهاجرين الأولين ، والأنصار المومنين ، اللهم إنهم قد أحلوا حرامك ، وحرّموا حلالك وعمّلوا بغير كتابك ، وغيّروا عهد نبيك صلى الله عليه وسلم ، وآمنوا من أخفت ، وأخافوا من آمنت ، فأحصهم عدداً ، وأقتلهم بدداً^(٢) ، ولا تبق على الأرض منهم أحداً » .

(ذيل لأماله ص ١٢١)

(١) كان بنو هاشم - الطالبيون والعباسيون - قد اجتمعوا أخريات العصر الأموي ، وتذاكروا حلم وما هم عليه من الاضطهاد ، وما قد آل إليه أمر بني أمية من الاضطراب ، وانفقوا على أن يدعوا الناس إليهم سرا ، ثم قالوا لا بد لنا من رئيس نياحه ، فاتفقوا على مبايعة النفس الزكية ، وكان من صادات بني هاشم ورجالهم فضلا وشرقا وعلما ، وشاء القدر أن يظهر العباسيون بالخلافة ، فوليا السراح ثم المنصور ، ولم يكن المنصور هم منذ تبوأ عرشها سوى طلب النفس الزكية ليقتنه ، وأغراه بذلك أن الناس كانوا شديدي الميل إليه ، وكانوا يعتقدون فيه الفضل والشرف والرياسة ، فطلبه المنصور هو وأخاه إبراهيم من أبيهما عبد الله بن الحسن ، فقال لا علم لي بهما - وكانا قد تغيبا خوفا منه - فلما أطال عليه ، قال : كم تطول ؟ واقه لو كانا تحت ندى ، لما رفعتما عنهما ، سبحان الله ! آتاك بولدي لتقتلها ! فقبض عليه ، وعلى أهله من بني الحسن وحسبهم في سجن الكوفة حتى ماتوا فيه كما تقدم ، ولم يزل النفس الزكية مقفورا منذ أفضت الدولة إلى بني العباس خوفا منه على نفسه ، فلما علم بما جرى لوالده واقومه ظهر بالمدينة وأظهر أمره ، وتبعه أعيان المدينة ، ثم غلب عليها ، وعزل عنها أميرها ، ورتب عايبها عاملا وقاضيا ، فوجه المنصور لقتاله جيشا بقيادة ابن أخيه عيسى بن موسى ، فحكمت الغلبة لسكر المنصور ، وقتل النفس الزكية ، وحمل رأسه إلى المنصور سنة ١٤٥ هـ . (٢) متبديين : متفرقين .

٣٦ - وصية عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي

لابنه محمد (أو إبراهيم)

ووصى عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ابنه محمداً النفس الزكية

(أو إبراهيم) ، فقال :

« أَي بُنَيَّ ، إِنِّي مُؤَدِّ حَقِّ اللَّهِ فِي تَأْدِيبِكَ ، فَأَدِّ إِلَيَّ حَقَّ اللَّهِ فِي الْاِسْتِغَاثَةِ مِنِّي ،
أَي بُنَيَّ كُفِّ الْأَذَى ، وَارْفُضِ الْبِذَاءَ ^(١) ، وَاسْتَعِزْ عَلَى الْكَلَامِ بِطَوْلِ الْفِكْرِ ،
فِي الْمَوَاطِنِ الَّتِي تَدْعُوكَ فِيهَا نَفْسُكَ إِلَى الْكَلَامِ ، فَإِنَّ لِلْقَوْلِ سَاعَاتٍ يَضُرُّ فِيهَا الْخَطَأُ ،
وَلَا يَنْفَعُ فِيهَا الصَّوَابُ . وَاحْذَرْ مَشُورَةَ الْجَاهِلِ وَإِنْ كَانَ نَاصِحًا ، كَمَا تَحْذَرُ مَشُورَةَ
الْعَاقِلِ إِذَا كَانَ غَاشًّا ، لِأَنَّهُ يُرَدِّدُكَ بِمَشُورَتِهِ . وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ رَأْيَكَ إِذَا احْتَجَّتْ إِلَيْهِ
وَجَدْتَهُ نَاطِمًا ، وَوَجَدْتَ هَوَاكَ يَقْظَانَ ، فَإِيَّاكَ أَنْ تَسْتَبِدَّ بِرَأْيِكَ ، فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ هَوَاكَ ،
وَلَا تَفْعَلْ فِعْلًا إِلَّا وَأَنْتَ عَلَى يَقِينٍ أَنْ عَاقِبَتَهُ لَا تُرَدِّدُكَ ، وَأَنْ نَتِيجَتَهُ لَا تَجْنِي عَلَيْكَ »

(زهر الأديب ١ : ٩٢ ، والبيان والتبيين ١ : ١٨٠ ، ٢ : ٨٨)

٣٧ - قول عبد الله بن الحسن وقد قتل ابنه محمد

ولما قتل المنصور ابنه محمداً - وكان عبد الله في السجن - بعث برأسه إليه

مع الربيع حاجبه ، فوضع بين يديه ، فقال :

رَحِمَكَ اللَّهُ أبا القاسم ، فقد كنت من « الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ
الْمِيثَاقَ . وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ، وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ، وَيَخَافُونَ

سُوءَ الْحِسَابِ » ، ثم تمثل :

(١) البذاء : السفه والإنحاشور في المنطق .

فَتَى كَانَ يَحْمِيهِ عَنِ الذَّلِّ سَيْفُهُ وَيَكْفِيهِ سَوَاءَاتِ الْأُمُورِ اجْتِنَابُهَا
ثم التفت إلى الربيع ، فقال له : « قل لصاحبك قد مضى من بؤسنا مدة ، ومن
نعيمك مثأما ، والموعِدُ اللهُ تعالى » قال الربيع : فما رأيتُ المنصور قطُّ أ كثرَ
انكساراً منه حين أبلغته الرسالة . (زهر الآداب ١ : ٩٥)

٣٨ - امرأة محمد بن عبد الله والمنصور

ولما قتل المنصور محمد بن عبد الله ، اعترضته امرأة معها صبيان ، فقالت :
« يا أمير المؤمنين ، أنا امرأة محمد بن عبد الله ، وهذان ابناه ، أيتهمماً سيفك ،
وأضرعهما^(١) خوفك ، فناشدتُك اللهُ يا أمير المؤمنين أن تصرَّ لها خدك ، فينأى
عنهما رِفْدُك ، أو لتعْظِمْك عليهما شَوَابِكُ النسب ، وأواصر^(٢) الرَّحِمِ » .
فالتفت إلى الربيع ، فقال : أَرُدُّ عليهما ضياع أيهما ، ثم قال : كذا والله أَحِبُّ
أن تكون نساء بني هاشم . (زهر الآداب ١ : ٩٦)

٣٩ - جعفر الصادق والمنصور

وكان أهل المدينة لما ظهر محمد بن عبد الله ، أجمعوا على حرب المنصور ونصر محمد ،
فلما ظهر المنصور أحضر جعفرًا الصادق^(٣) بن محمد الباقر ، فقال له : قد رأيتَ إطباق
أهل المدينة على حربي ، وقد رأيتُ أن أبعثَ إليهم من يعوّر^(٤) ويحمر^(٥) نخْلهم ،
فقال له جعفر : « يا أمير المؤمنين ، إن سليمان أُعْطِيَ فَشَكَرَ ، وإن أيوب ابْتُلِيَ فَصَبَرَ ،

(١) أذلما . (٢) أواصر جمع آصرة ، والآصرة : حبل صغير يشد به أسفل الخباء (وهي
أيضاً الرحم والقراية) . (٣) هو أبو عبد الله جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين
ابن الحسين عليه السلام وتوفي سنة ١٤٨ . (٤) في الأصل « ينور » وأراه محرفاً ، وقد أصلحته
« يعوّر » يقال : عور البئر أي طمها وسد عيونها التي ينبع منها الماء . (٥) بحر النخل : قطع جواره .

وإن يوسف قدر فغفر ، فاقتدِ بأيّهم شئتَ ، وقد جعلك الله من نسل الذين يعفون
ويصفحون » ، فقال أبو جعفر : إنَّ أحداً لا يعلمنا الحلم ، ولا يعرفنا العلم ، وإنما قلتُ
هَمَّمتُ ، ولم ترني فعلتُ ، وإنك لتعلم أن قدرتي عليهم تمنعني من الإساءة إليهم .
(زهر الآداب ١ : ٩٦)

* * *

وروى صاحب العقد قال :

لما حج المنصور مرَّ بالمدينة ، فقال للربيع الحارثي : عليّ بجعفر بن محمد ، قتلتني الله
إن لم أقتله ، فمطّل به ، ثم ألحَّ عليه ، فحضر ، فلما كُشِفَ الستر بينه وبينه ، ومثّل
بين يديه ، همس جعفر بِشَفْتِيهِ ، ثم تقرب وسلّم ، فقال : « لاسلمَّ الله عليك يا عدوَّ الله ،
تعمل على النوائلِ في ملكي ؟ قتاني الله إن لم أقتلك » . قال : « يا أمير المؤمنين ،
إن سليمان صلى الله على محمد وعليه أُعطيَ فشكر ، وإن أيوبَ ابْتُلِيَ فصَبَرَ ، وإن يوسفَ
ظَلِمَ فغَفَرَ ، وأنت على إرثٍ منهم ، وأحقُّ من تأسى بهم » ، فنكس أبو جعفر رأسه مَلِيًّا
وجعفر واقف ، ثم رفع رأسه ، وقال : « إلىَّ أبا عبد الله فأنت القريب القَرَابَةِ ، وذو الرحم
الواشجة ^(١) ، السليمُ الناحية ، القليلُ الغائلة » ، ثم صاحفهُ بيمينه ، وعانقه بشماله ، وأجلسهُ
معه على فراشه ، وانحرف له عن بعضه ، وأقبل عليه بوجهه يحادثه ويسأله ، ثم قال :
باربيع ، عجلْ لأبي عبد الله كُسوته وجأزته وإذنه . (المقد الفريد ١ : ١٤٥)

٤٠ - صفح المنصور عن سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب

ولما داهن سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب في شأن إبراهيم بن عبد الله^(١) ،
وصار إلى المنصور ، أمر الربيع بن خنيس سواده ، والوقوف به على رؤوس اليمانية
في المقصورة يوم الجمعة ، ثم قال : قل لهم :

« يقول لكم أمير المؤمنين قد عرفتم ما كان من إحساني إليه ، وحسن بلائي ،
وقديم نعمتي عليه ، والذي حاول من الفتنة ، ورام من البغي ، وأراد من شق العصا
ومعاونة الأعداء ، وإراقة الدماء ، وإنه قد استحق بهذا من فعله ، أليم العقاب ، وعظيم
العذاب ، وقد رأى أمير المؤمنين إتمام بلائه الجميل لديه ، ورب^(٢) نعمائه السابقة عنده
لما يتعرفه أمير المؤمنين من حسن عائدة الله عليه ، وما يؤمله من الخير العاجل والآجل ،
عند العفو عن ظلم ، والصفح عن أساء ، وقد وهب أمير المؤمنين مسيئهم لمحسنهم ،
وغادرهم لو فيهم » .
(البيان والتبيين ٣ : ١٨٥)

٤١ - استعطاف أهل الشام أبا جعفر المنصور

ولما انهزم عبد الله بن علي^(٣) من الشام قديم على المنصور وقد منهم ، فقام عدّة
منهم ، فتكلموا ، ثم قام الحارث بن عبد الرحمن الغفاري ، فقال : « يا أمير المؤمنين

(١) هو إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، أخو النفس الزكية ،
وقد خرج على المنصور بالبصرة ، فوجه إليه المنصور ابن أخيه عيسى بن موسى بعد رجوعه من قتال
النفس الزكية فقاتله وقتل إبراهيم في المركة سنة ١٤٥ هـ .

(٢) رب الشيء : جمعه وزاده ، ورب الصبي : ربه حتى أدرك .

(٣) هو عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس عم المنصور ، وكان قد خرج عليه بالشام ، وقال : إن
السفاح قال لي إن ظهرت على مروان الحمدي - وكان السفاح أرسله لقتال مروان بالشام - فأنت ولي العهد
بمصر ، وشهد له جماعة بذلك . فأرسل المنصور أبا مسلم الخراساني لهارثته فهزمه ، وهرب عبد الله إلى
البصرة ، وذل على أخيه سليمان بن علي ، فشفع فيه سليمان إلى المنصور فأمنه ، فلما جاء إليه حبسه ومات
في حبسه ، وقيل إنه بنى له بيتا ، وجعل في أساسه ملحاً ، ثم أجرى الماء فيه ، فدمق البيت عليه فمات .

إنا لسنا وفد مباحة ، وإنما نحن وفد توبة ، وإنا ابتلينا بفتنة استخفت كريماً ، واستفزت حليماً ، ونحن بما قدمنا مُعترفون ، ومما سلف منا مُعتذرون ، فإن تُعاقبنا فيما أجرمنا . وإن تعفُ عنا فبفضلك علينا . فاصفح عنا إذ ما كنت . وأمنن إذ قدرت . وأحسن إذ ظفرت ، فطالما أحسنت إلى من أساء منا ، فقال المنصور : قد فعلت . ثم قال للحرسى : هذا خطيبهم ، وأمر برد ضياعه عليهم بالفوطة^(١) .

(المقد الفردي ١ : ١٤٤ : وتاريخ العبري ٩ : ٣٠٧ ، وزهر الآداب ٣ : ٨٨)

٤٢ - استعطاف أهل الشام أبا جعفر المنصور أيضاً

وقال عثمان بن خزيم للمنصور ، حين عفا عن أهل الشام في إجلابهم^(٢) مع عبد الله بن عليّ عمه : « يا أمير المؤمنين ، لقد أعطيت فشكرت وابتليت فصبرت ، وقدرت فعفوت » .

وقال آخر : « يا أمير المؤمنين ، الانتقام عدلٌ ، والتجاوز فضل ، والمتفضل قد جاوز حدَّ النصف ، فنحن نعيذ أمير المؤمنين بالله أن يرضى لنفسه بأوكس^(٣) النصيبين ، دون أن يبلغ أرفع الدرجتين » .

وقال آخر : « من انتقم فقد شفى غيظ نفسه ، وأخذ أتصى حقه ، وإذا انتقت فقد انتقت^(٤) ، وإذا عفوت تطولت^(٥) . ومن أخذ حقه ، وشفى غيظه ، لم يجب شكره ، ولم يُذكر في العالمين فضله . وكظم الغيظ حلم ، والحلم صبر ، والشقى طرف من العجز^(٦) ، ومن رضى ألا يكون بين حاله وبين حال الظالم إلا ستر رقيق ،

(١) كورة دشق .

(٢) في الأصل « إجلابهم » وهو تحريف ، والصواب « إجلابهم » أي في فتنتهم وهياجهم من الجلبة بالبحرياء وهي الصباح . (٣) من الوكس كوعد : وهو النقصان .

(٤) أي انتقص حقلك بخروجنا عليك ، فحق لك الانتقام منا لأخذ حقلك .

(٥) تطول عليه : استمر وتفضل . (٦) وفي زهر الآداب : « من الجزع » .

وحجابٌ ضعيف ، لم يجزم في تفضيل الحلم ، وفي الاستيثاق من ترك دواعي الظلم ، ولم تر أهل النهى . والمنسويين إلى الحجاً والتقى ، مدحوا الحكماء بشدة العقاب . وقد ذكروهم بحسن الصَّحح ، وبكثرة الاعتقار ، وشدة التغافل . وبعد ، فالمعاقب مستعد^(١) لعداوة أولياء المذنب ، والعاقب مستدع لشكرهم . آمِنٌ من مكافأتهم^(٢) أيام قُدْرَتهم ، ولأن يُثني عليك باتساع الصدر ، خير من يُثني عليك بضيق الصدر^(٣) ، على أن إقالتك عثرة عباد الله ، مُوجبٌ لإقالتك عثرتك من رب عباد الله . وعفوك عنهم موصول بعفو الله عنك ، وعقابك لهم موصول بعقاب الله لك . قال الله عزَّ وجلَّ : « خذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ » .

(البيان والتبيين ٢ : ٥٥ ، وزهر الآداب ٢ : ٨٨)

٤٣ - أبو جعفر المنصور والربيع

وقال سعيد بن مُسلم بن قُتَيْبَةَ : دعا المنصور بالربيع^(٤) ، فقال : سَلْنِي مَا تَرِيدُ ، فَقَدْ سَكَتَ حَتَّى نَطَقْتَ ، وَخَفَفْتَ حَتَّى ثَقَلْتَ . وَذَلَّلْتَ حَتَّى أَكْثَرْتَ ، فَقَالَ : « وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، مَا أَرْهَبَ بُحْلَكَ وَلَا أَسْتَقْصِرُ عُمْرَكَ . وَلَا أَسْتَصْغِرُ فَضْلَكَ ، وَلَا أَعْثِمُ مَالَكَ ، وَإِنْ يَوْمِي بِفَضْلِكَ عَلَى أَحْسَنُ مِنْ أَمْسِي ، وَغَدُوكَ فِي تَأْمِيلِي أَحْسَنُ مِنْ يَوْمِي . وَلَوْ جَازَ أَنْ يَشْكُرَكَ مِثْلِي بِغَيْرِ الْخِدْمَةِ وَالنَّاصِحَةِ لَمَا سَبَقَنِي لَذَلِكَ أَحَدٌ » قَالَ : صَدَقْتَ ، عَلِيٌّ بِهَذَا مِنْكَ أَحَلَّكَ هَذَا الْحُلَّ ، فَسَلْنِي مَا شِئْتَ ، قَالَ : أَسْأَلُكَ أَنْ تَقْرُبَ عَبْدَكَ « الْفَضْلَ »^(٥) « وَتُوَثِّرَهُ وَتُحِبَّهُ ، قَالَ : يَا رَبِّيعُ ، إِنْ الْحُبَّ لَيْسَ بِمَالٍ يُوهَبُ

(١) وفي زهر الآداب : « مستودع » . (٢) مجازاتهم .

(٣) وفي زهر الآداب : « خير من أن توصف بضيقة » .

(٤) هو أبو الفضل الربيع بن يونس ، وزير المنصور ، وكان مهيباً فصيحاً كافياً حازماً فطناً ، ولم يزل وزيراً للمنصور إلى أن مات المنصور . وقام الربيع بأخذ البيعة للمهدي ، ثم سعى به أعدؤه إلى الهادي ، فقتله سنة ١٧٠ هـ . (٥) هو ابنه الفضل بن الربيع ، وقد وزر الرشيد بعد البرامكة ، وابنه الأمين كما سألني .

ولا رتبة تُبَدَّل ، وإنما تُوَكِّدُه الأسبابُ ، قال : فاجعل لي طريقاً إليه ، بالتفضل عليه ، قال : صدقت . وقد وَصَلْتُهُ بألفِ درهم ، ولم أصل بها أحداً غير عُموْمِي ، لتعلم ماله عندي . فيكون منه ما يستدعي به محبتي ، قال : فكيف سألت له المحبةَ ياربيع ؟ قال : لأنها مفتاح كل خير ، ومغلاق كل شرٍّ ، تُسْتَرَّبها عندك عيوبه ، وتصيرُ حَسَنَاتٍ ذُنُوبُهُ . قال : صدقت . (زهر الآداب ٢ : ١٦٣)

٤٤ - مقام عمرو بن عبيد بين يدي المنصور

دخل عمرو^(١) بن عبيد على المنصور بعد ما بايع للهدي ، فقال له : يا أبا عثمان ، هذا ابن أمير المؤمنين ، وولي عهد المسلمين ، فقال له عمرو : يا أمير المؤمنين ، أراك قد وطَّدت لهُ الأور ، وهي تصير إليه . وأنت عنهُ مسؤل ، فاستعبر المنصور ، وقال له : عِظْني يا عمرو ، قال : « يا أمير المؤمنين : إن الله أعطاك الدنيا بأسرها ، فاشتر نفسك منها ببعضها ، وإن هذا الذي في يدك ، لو بقي في يد غيرك لم يصل إليك . فأحذر ليلةً تمخَّضُ عن يوم لا ليلة بعده ، فوجم أبو جعفر من قوله ، فقال لهُ الربيع : يا عمرو غممت أمير المؤمنين ، فقال عمرو : إن هذا صحبك عشرين سنةً ، لم يرَ لك عليه أن ينصحك يوماً واحداً . وما عمل وراء بابك بشيء من كتاب الله ولا سنة نبيه ، قال أبو جعفر : فما أصنع ؟ قد قلت لك ، خاتمي في يدك ، فتعال وأصحابك فاكفني ، قال عمرو : أدعنا بعد ذلك ، تسخُ أنفسنا بعونك ، ببارك ألف مَظْلِمَة ، أَرُدُّ منها شيئاً نعلم أنك صادق . »

(مروج الذهب ٢ : ٢٣٤ ، وحيون الأخبار م ٢ : ص ٣٣٧ ، ووفيات الأعيان

١ : ٣٨٤ ، والقد الفرهد ١ : ٣٠٦ ، وشرح ابن أبي الحديد ١م : ص ١٤٨)

٤٥ - مقام رجل من الزهاد بين يدي المنصور

بينما المنصور يطوف ليلاً إذ سمع قائلاً يقول : اللهم إني أشكو إليك ظهورَ البغى والفساد في الأرض ، وما يحُول بين الحق وأهله من الطمع ، فخرج المنصور ، فجلس ناحيةً من المسجد ، وأرسل إلى الرجل يدعوه ، فصلى الرجل ركعتين ، واستلم الركن . وأقبل مع الرسول ، فلم عاينه بالخلافة ، فقال المنصور : ما الذي سمعتك تذكر من ظهور البغى والفساد في الأرض ؟ وما الذي يحُول بين الحق وأهله من الطمع ؟ فوالله لقد حشوت مسامعي ما أرمضني^(١) ، قال : يا أمير المؤمنين إن أمنتني على نفسي ، أنباتك بالأمور من أصولها . وإلا احتجرتُ منك . واقتصرت على نفسي ، ففيها لي شاغلٌ ، فقال : أنت آمنٌ على نفسك فقل ، فقال : يا أمير المؤمنين إن الذي دخله الطمع ، حتى حال بينه وبين ما ظهر من البغى والفساد لأنت ، قال : ويحك ، وكيف يدخلني الطمع ، والصفراء والبيضاء^(٢) في قبضتي ، والحلو والحامض عندي ؟ قال : وهل دخل أحداً من الطمع ما دخلك ؟ إن الله تبارك وتعالى استرعاك المسلمين وأموالهم ، فأغفلت أمورهم ، واهتممت بجمع أموالهم ، وجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجص والآجر . وأبواباً من الحديد . وحجبةً معهم السلاح ، ثم سجنك فيها عنهم ، وبعثت عمالك في جباية الأموال وجمعها ، وقويتهم بالرجال والسلاح والكراع ، وأمرت بالألّا يدخل عاينك من الناس إلا فلان وفلان ، نفرمت سميتهم ، ولم تأمر بإيصال المظلوم ولا المهوف ، ولا الجائع العارى ، ولا الضعيف الفقير ، ولا أحد إلا وله في هذا المال حق ، فلما رآك هؤلاء نفر الذين استخلصتهم لنفسك ، وآثرتهم على رعيتك ، وأمرت ألا يُجربوا عنك ، تجبى الأموال وتجمعها ولا تقسمها ، قالوا : هذا

(١) أوجعتني وآلمني . (٢) الصفراء والبيضاء : الدنانير والدراهم .

قد خان الله ، فما بالنا لانخونه وقد سَجَنَ لنا نفسه ؟ فَأَتَمَّرُوا بِالْأَيُّمِ مِنْ عِلْمِ
أَخْبَارِ النَّاسِ شَيْءٌ إِلَّا مَا أَرَادُوا ، وَلَا يُخْرِجُ لَكَ عَامِلٌ ، فَيُخَالِفُ أَمْرَهُمْ إِلَّا قَصَبُوهُ (١)
عِنْدَكَ وَنَفْوَهُ ، حَتَّى تَسْقُطَ مَنَزِلَتُهُ ، وَيَصْفُرُ قَدْرُهُ ، فَلَمَّا انْتَشَرَ ذَلِكَ عِنْدَكَ وَعِنْدَهُمْ ،
أَعْظَمَهُمُ النَّاسَ وَهَابُوهُمْ ، فَكَانَ أَوَّلُ مَنْ صَانَعَهُمْ عَمَّا لَكَ بِالْهُدَايَا وَالْأَمْوَالِ ، لِيَقْوُوا بِهَا
عَلَى ذَلْمِ رِعْيَتِكَ ، ثُمَّ فَعَلَ ذَلِكَ ذَوُو الْقُدْرَةِ وَالثَّرْوَةِ مِنْ رِعْيَتِكَ ، لِيُنَالُوا بِهِ ظِلْمَ مَنْ دُونِهِمْ
فَامْتَلَأَتْ بِلَادُ اللَّهِ بِالطَّامِعِ بَغْيِيًا وَفَسَادًا ، وَصَارَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ شُرَكَاءَكَ فِي سُلْطَانِكَ ،
وَأَنْتَ غَافِلٌ ، فَإِنْ جَاءَ مَتَظَلِّمٌ حَيْلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ دُخُولِ مَدِينَتِكَ ، فَإِنْ أَرَادَ رَفْعَ قِصَّتِهِ إِلَيْكَ
عِنْدَ ظَهْرِكَ ، وَجَدَكَ قَدْ نَهَيْتَ عَنْ ذَلِكَ ، وَأَوْقَفْتَ لِلنَّاسِ رِجَالًا يَنْظُرُونَ فِي مَظَالِمِهِمْ ،
فَإِنْ جَاءَكَ ذَلِكَ الرَّجُلُ ، فَبَاعِ بِطَانَتِكَ خَبْرَهُ ، سَأَلُوا صَاحِبَ الْمَظَالِمِ أَلَا يَرْفَعُ مَظَالِمَتَهُ
إِلَيْكَ ، فَإِنَّ الْمَتَظَلِّمَ مِنْهُ لَهُ بِهِمْ حُرْمَةٌ ، فَأَجَابَهُمْ خَوْفًا مِنْهُمْ ، فَلَا يَزَالُ الْمَظْلُومُ يَخْتَلِفُ إِلَيْهِ ،
وَيُلَوِّذُ بِهِ ، وَيَشْكُو وَيَسْتَعِينُ ، وَهُوَ يَدْفَعُهُ وَيَعْتَلِّ عَلَيْهِ ، فَإِذَا أُجْهِدَ وَأُخْرِجَ وَظَهَرَتْ ،
صَرَخَ بَيْنَ يَدَيْكَ ، فَضْرِبْ ضَرْبًا مُبْرِحًا لِيَكُونَ نَكَالًا لغيره ، وَأَنْتَ تَنْظُرُ فَلَا
تُنْكِرُ ، فَمَا بَقَاءُ الْإِسْلَامِ عَلَى هَذَا ؟ وَقَدْ كُنْتُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أُسَافِرُ إِلَى الصِّينِ
فَقَدِمْتُهَا مَرَّةً ، وَقَدْ أَصِيبَ مَا كُفِّرُ بِسَمْعِهِ ، فَبَكَى يَوْمًا بِكَاءٍ شَدِيدًا ، فَخَتَّ جَسَاؤُهُ
عَلَى الصَّبْرِ ، فَقَالَ : أَمَا إِنِّي لَسْتُ أَبْكِي لِلْبَلِيَّةِ النَّازِلَةِ بِي ، وَلَكِنِّي أَبْكِي لِمَظْلُومٍ بِالْبَابِ
يَصْرُخُ ، وَلَا أَسْمَعُ صَوْتَهُ ، ثُمَّ قَالَ : أَمَا إِذَا ذَهَبَ سَمْعِي ، فَإِنْ بَصْرِي لَمْ يَذْهَبْ ، نَادُوا
فِي النَّاسِ أَلَا يَا بَسَّ ثَوْبًا أَحْمَرَ إِلَّا مَتَظَلِّمٌ ، ثُمَّ كَانَ يَرْكَبُ الْفَيْلَ طَرْفَى نَهَارِهِ ، وَيَنْظُرُ
هَلْ يَرَى مَظْلُومًا ؟ فَهَذَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مُشْرِكٌ بِاللَّهِ ، غَابَتْ رَأْفَتُهُ بِالْمُشْرِكِينَ شُحَّ نَفْسِهِ ،
وَأَنْتَ مُؤْمِنٌ بِاللَّهِ ، ثُمَّ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّهِ ، لَا تَغْلِبُ رَأْفَتَكَ بِالْمُسْلِمِينَ عَلَى شُحِّ نَفْسِكَ ؟
فَإِنْ كُنْتَ إِذَا تَجَمَّعَ الْمَالُ لَوْلَدِكَ ، فَقَدْ أَرَاكَ اللَّهُ عِبْرًا فِي الطِّفْلِ ، يَسْقُطُ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ ،

(١) عابوه وشتموه ، وفق للعقد الفريد : « خونوه » .

وما له على الأرض مالٌ، وما من مال إلا ودونه يد شحيحة تحويه، فما يزال الله يَلطُفُ بذلك الطفل، حتى تعظم رغبة الناس إليه، ولست بالذى تعطى، بل الله يعطى من يشاء ما شاء، وإن قلتَ إنما أجمع المال لتشديد السلطان، فقد أراك الله عبْرًا في بنى أمية، ما أغنى عنهم ما جمعوا من الذهب والفضة، وأعدّوا من الرجال والسلاح والكراع، حتى أراد الله بهم ما أراد، وإن قلتَ إنما أجمع لطلب غاية هي أجسم من الغاية التي أنا فيها فوالله ما فوق ما أنت فيه إلا منزلةٌ، لا تُدرِكُ إلا بخلاف ما أنت عليه يا أمير المؤمنين، هل تعاقب من عصاك بأشد من التتل؟ قال المنصور: لا، قال: فكيف تصنع بالملك الذى خوّلكَ مُلكَ الدنيا، وهو لا يعاقب من عصاه بالقتل؟ ولكن بالخلود فى العذاب الأليم، قد رأى ما قد عُقدَ عليه قلبك، وَعَمِلتَه جوارحك، ونظر إليه بصرك، واجترحتَه^(١) يداك، ومشتَ إليه رجلاك، هل يُغنى عنك ما شحّحتَ عليه من مُلكِ الدنيا إذا انتزعه من يدك، ودعاك إلى الحساب؟ فبكى المنصور وقال: يا ليتنى لم أُخلَق، ويحك! فكيف أحتال لنفسى؟ قال: يا أمير المؤمنين، إن للناس أعلامًا يَفزَعون إليهم فى دينهم، ويرضون بهم، فاجعَلهم بِطانتك يرشدوك، وشاورهم فى أمرك يسدّدوك، قال: قد بعثت إليهم فهربوا منى، قال: خافوا أن تحمِلهم على طريقتك، ولكن افتح بابك، وسهّل حجّابك، وانصر المظلوم، واقمع الظالم، وخذ النىء والصدقات مما حل وطاب، واقسمه بالحق والعدل على أهله، وأنا الضامن عنهم أن يأتوك ويُسدّدوك على صلاح الأمة»، وجاء المؤذنون، فسلموا عليه، فصلى وغاد إلى مجلسه، وَطَلِبَ

الرجل فلم يوجد . (عبون الأخبار م ٢ : ص ٣٢٢ ، والمعتمد للفريد ١ : ٢٠٤)

٤٦ - مقام الأوزاعي بين يدي المنصور

قال الأوزاعي^(١) : دخلت على المنصور ، فقال لي : ما الذي بطأ بك عنى ؟ قلت : يا أمير المؤمنين ، وما الذي تريد منى ؟ فقال : الاقتباس منك ، قلت : أنظر ماتقول ، فإن « مكحولاً^(٢) » حدثني عن عطية بن بشير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من بلغه عن الله نصيحة في دينه ، فهي رحمة من الله سيقت إليه ، فإن قبلها من الله بشكر ، وإلا كانت حجة من الله عليه ، ليزداد إثمًا ، ويزداد عليه غضبًا ، وإن بلغه شيء من الحق فرضى فله الرضا ، وإن سخط فله السخط ، وهن كرهه فقد كرهه الله لأن الله هو الحق المبين » فلا تجهلنَّ ، قال : وكيف أجعل ؟ قال : تسمع ولا تعمل بما تسمع ، قال الأوزاعي : فسلَّ على الربيع السيف ، وقال : تقول لأمير المؤمنين هذا ؟ فاتهره المنصور وقال : أمسك ، ثم كلمه الأوزاعي ، وكان في كلامه أن قال :

« إنك قد أصبحت من هذه الخلافة بالذي أصبحت به ، والله سأثلك عن صغيرها وكبيرها ، وفتيها ونقيرها^(٣) ، ولقد حدثني عروة بن رويم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما من راعٍ يبيتُ غاشًا لرعيته إلا حرم الله عليه رائحة الجنة » فحقيق على الوالى أن يكون لرعيته ناظرًا ، ولما استطاع من عوراتهم ساترًا ، وبالقيسُ

(١) هو عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي ، إمام أهل الشام ، ولم يكن بها أعلم منه . ولد بيمليك سنة ٥٨٨ هـ وتوفى سنة ١٥٧ هـ ببيروت . والأوزاعي : نسبة إلى أوزاع ، وهي بطن من ذى الكلاع من اليمن ، وقيل : بطن من همدان ، وقيل الأوزاع : قرية بدمشق ، ولم يكن عبد الرحمن منهم ، وإنما زل فيهم : فنسب إليهم ، وهو من سبى اليمن .

(٢) هو مكحول بن عبد الله الشامي ، معلم الأوزاعي ، وكان من سبى كابل ، وقع إلى سعيد بن العاص ، فوجهه لامرأة من هذيل فأعتقه ، قال الزهري : العلماء أربعة : سعيد بن المسيب بالمدينة ، والشعبي بالكوفة ، والحسن البصرى بالبصرة ، ومكحول بالشام ، ولم يكن في زمنه أبصر منه بالفتيا ، وسمع أنس بن مالك وغيره ، وكان مقامه بدمشق ، وتوفى سنة ١١٨ هـ .

(٣) الفتيل : السحاة التي في شق النوة ، والنقيير : النقرة التي في ظهر النواة .

فما بينهم قائماً ، لا يتخوفُ مُحْسِنُهُمْ مِنْهُ رَهَقاً^(١) ، ولا مُسِيئُهُمْ عُدْوَاناً ، فقد كانت بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم جريدة يستاك بها ، ويردع عنه المناققين ، فاتاه جبريل فقال : « يا محمد ، ما هذه الجريدةُ بيدك ! اذفِها لاتملاً قلوبهم رُعباً » فكيف من سفك دماءهم ، وشققَ أبقارهم ، وأنهب^(٢) أموالهم ؟ يا أمير المؤمنين : إن المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، دعا إلى القصاص من نفسه بمخْدَشٍ خَدَشَهُ أعرابيا لم يتعمده ، فهبط جبريل ، فقال : « يا محمد ، إن الله لم يبعثك جباراً تكسِرُ قرون أمتك » واعلم أن كل ما في يدك لا يتعدِلُ شربة من شراب الجنة ، ولا ثمرة من ثمارها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَقَابُ^(٣) قوسٍ أحدم من الجنة ، أو قُدَّةٌ^(٤) خيرٌ له من الدنيا بأسرها » إن الدنيا تنقطع ويَزول نعيمها ، ولو بقى الملك لِنَ قَبْلِكَ لم يصل إليك يا أمير المؤمنين ، ولو أن ثوبا من ثياب أهل النار عُلق بين السماء والأرض لآذاهم ، فكيف من يتقمصه ؟ ولو أن ذنوبا^(٥) من صديد أهل النار صُبَّ على ماء الأرض لآجنته^(٦) ، فكيف بمن يتجرعه ؟ ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وُضعت على جبل لذاب ، فكيف من سُلِكَ^(٧) فيها ، ويرُدُّ فضاها على عاتقه ؟ وقد قال عمر بن الخطاب : « لا يقوم أمر الناس إلا حَصِيفٌ^(٨) العُقْدَةُ ، بعيد الغرّة^(٩) لا يطلع الناس منه على عورة ، ولا يُحْنِقُ في الحق على جِرّة^(١٠) ، ولا تأخذه في الله لومة لأُم » .

واعلم أن السلطان أربعة : أمير يظلف^(١١) نفسه وعماله ، فذلك له أجرُ المجاهد في سبيل الله ، وصلاته سبعون ألف صلاة ، ويدُ الله بالرحمة على رأسه تُرْفرف ، وأمير رتَع ورَتَعُ عماله ، فذلك يحْمِلُ أثقاله وأثقالا مع أثقاله ، وأمير يظلف نفسه ،

(١) ظلما . (٢) جعلها نهباً يغار عليه . (٣) القاب : ما بين المقبض والسية (وسية قفوس كعدة : ما عطف من طرفيها) . (٤) رهش السهم . (٥) الذنوب : الدلو . (٦) جملة أجنا أي متغير القلم والون . (٧) قبه . (٨) حصف الرجل ككرم : استحلم عقله فهو حصيف ، وأحصف الحبل : أحكم فتله . (٩) الغفلة . (١٠) أحقق : حقه حقاً لا ينحل ، وأحقق الصلب : لزق بالطن ، والجرة ما يقبض به الهمير فيأكله ثانية ، والمراد أنه لا يضر الحقد والحق . (١١) يكف .

ورتع عماله ، فذاك الذي باع آخرته بدنيا غيره ، وأمير يرتع ويظلفُ عماله ، فذاك شر الأكياس .

واعلم يا أمير المؤمنين أنك قد ابتليت بأمر عظيم ، عُرض على السموات والأرض والجبال ، فأبين أن يحملنه وأشفقن منه ، وقد جاء عن جدك في تفسير قول الله عز وجل : « لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا » أن الصغيرة التبسم ، والكبيرة الضحك ، وقال : فما ظنكم بالكلام وما حملته الأيدي ؟ فأعيدك بالله أن يُخَيَّلَ إليك أن قرابتك برسول الله صلى الله عليه وسلم تنفع مع المخالفة لأمره ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا صفيةُ عمَّةَ محمد ، ويا فاطمةُ بنتَ محمد ، استوهباً أنفسكما من الله ، إني لا أغني عنكما من الله شيئاً ، وكان جدك الأكبر سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم إمارة ، فقال : « أي عم ، نفس تُحْيِيهَا ، خير لك من إمارة لا تُحْيِيهَا » نظرًا لعمَّة ، وشفقةً عليه أن يبلى فيجور عن سنته جناح بموضة ، فلا يستطيع له نفعاً ، ولا عنه دفعا ، هذه نصيحتي إن قبلتها فلنفسك كحملت ، وإن ردَدتها فنفسك نخست ، والله الموفق للخير والمعين عليه ، قال : بلى ، تقبلها ونشكر عليها ، وبالله نستعين .

(الهدى الفريد ١ : ٦٠٥ ، وعميون الأخبار م ٢ : ص ٢٣٨)

٤٧ - نصيحة يزيد بن عمر بن هبيرة المنصور

ودخل يزيد بن عمر بن هبيرة^(١) على أمير المؤمنين المنصور ، فقال : يا أمير المؤمنين : توسع توسعاً قرشياً ، ولا تضيق ضيقاً حجازياً .

ويروى أنه دخل يوماً ، فقال له المنصور حدثنا ، فقال : « يا أمير المؤمنين :

(١) ولي قنسرين لوليد بن يزيد بن هبيرة ، وجمع له مروان بن محمد ولاية البصرة والكوفة ، وكان آخر من جمع له المراقان من الولاة ، ولما استظهرت عليه جيوش خراسان ، وهزمت صكره لحق بمدينة واسط ، فتحصن بها . ولما بويج السفاح بالخلافة وجه أخاه أبا جعفر المنصور لقتاله ، فحصره بواسط شهوراً ، ثم أنه وانتج البلد صلحاً ، ثم قتل .

إن سلطانكم حديث ، وإمارتكم جديدة ، فأذيقوا الناس حلاوة عدلها ، وجنبوهم مرارة جورها ، فوالله يا أمير المؤمنين ، لقد كَحَصَتْ^(١) لك النصيحة « ثم نهض فنهض معه سبعمائة من قيس ، فأنار^(٢) المنصور بصره ، ثم قال : لا يعزُّ مُلْكٌ يكون فيه مثلُ هذا ! .

(تهذيب الكامل ١ : ٢٨)

٤٨ - معن بن زائدة والمنصور

ودخل معن^(٣) بن زائدة الشيباني على أبي جعفر المنصور وقد أسنَّ ، فقارب في خطوه ، فقال له المنصور : لقد كبرت سنُّك يا معن ، قال : في طاعتك يا أمير المؤمنين ، قال : وإنك لجلد ، قال : على أعدائك يا أمير المؤمنين ، قال : وإن فيك كَبَقِيَّة ، قال : هي لك يا أمير المؤمنين ، قال : فأى الدولتين أحبُّ إليك ، هذه أم دولة بني أمية ؟ قال : ذلك إليك يا أمير المؤمنين ، إن زاد برك على برهم كانت دولتك أحب إلى .

(البيان والتهيين ٣ : ٢٢٩ ، ووفيات الأعيان ٢ : ١٠٩ ، وزهر الآداب ٣ : ١٦١)

٤٩ - معن بن زائدة وأحد زواره

ودخل رجل على معن بن زائدة ، فقال : ما هذه الغيبة ؟ فقال : « أيها الأمير ، ما غاب عن العين من يذكره القلب وما زال شوقى إلى الأمير شديداً ، وهو دون

(١) أخلصت . (٢) أنارَه البصر : أنبهه إياه ، وحلده إليه النظر .

(٣) كان جواداً شجاعاً جزيلاً العطاء كثير المعروف ، وكان في أيام بني أمية منتقلاً في الولايات ، منقطعاً إلى يزيد بن عمر بن هبيرة الغزاري أمير المرافين ، فلما انتقلت الدولة إلى بني العباس ، وحاصر المنصور يزيد بمدينة واسط كما قدمنا ، أبلى يوماً معن مع يزيد بلاء حسناً ، فلما قتل يزيد خاف معن من أبي جعفر المنصور ، فاستقر عنه مدة ، ولم يزل مستتراً حتى كان يوم الهاشمية ، وذلك أن جماعة من أهل خراسان ناروا على المنصور ، وجرت مقتلة عظيمة بينهم وبين أصحاب المنصور بالهاشمية - وهي مدينة بناها السفاح بالقرب من الكوفة - وكان معن متوارياً بالقرب منهم ، فخرج متنكراً معتمياً متلباً ، وتقدم إلى القوم ، وقاتل قدام المنصور قتالاً أبان فيه من نجدة وشهامة وفرقهم ، فلما أفرج عن المنصور ، قال له : من أنت ويحك ؟ -

ما يَجِبُ لَهُ ، وذكري له كثيراً وهو دون قدره ، ولكن جفوة الحجاب ، ووقته
بشر الغلمان ، منعاني من الإكثار » ، فأمر بتسهيل حجابيه ، وأجزل صلته .

(زهر الآداب ٣ : ١٦١)

٥ - المنصور وأحد الأعراب

ودخل أعرابي على المنصور فتكلم ، فأعجب بكلامه ، فقال له : سل حاجتك ،
فقال : يَبْقِيكَ اللهُ ، وَيَزِيدُ فِي سُلْطَانِكَ ، فقال : سل حاجتك ، فليس في كل وقت
تؤمّر بذاك ، قال : « وليم يا أمير المؤمنين ، فوالله ما أستقصرُ عمرك ، ولا أخاف
بُحْثِكَ ، ولا أغتم مالك ، وإن سؤالك لشرف ، وإن عطاءك لزين ، وما بامرئ
بذل وجهه إليك نقص ولا شين » . فأحسن جائزته وأكرمه .

(الصناعات من ٤١ ، العقد الفريد : ١٣٩)

٥١ - أعرابية تعزى المنصور وتهنئه

وروى القلقشندي قال : تعرّضت أعرابية للمنصور في طريق مكة بعد وفاة
أبي العباس السفاح ، فقالت :

« يا أمير المؤمنين ، احتسب الصبر ، وقدم الشكر ، فقد أجزل الله لك الثواب
في الحالين ، وأعظم عليك المنّة في الحادتين ، سلبك خليفة الله ، وأفادك خليفة الله ،
فسلم فيما سلبك ، واشكر فيما منحك ، وتجاوز الله عن أمير المؤمنين ، وخار لك
فيما ملكك من أمر الدنيا والدين » .

— فقال : أنا طلبتك يا أمير المؤمنين من بن زائدة ، فأنت المنصور وأكرمه ، وصار من خواصه ، وول
سجستان في أواخر أمره ، فلما كانت سنة ١٥١ اندس قوم من الخوارج بين صناع كانوا يعملون في داره
بمدينة همت ، فقتلوه وهو يحتجم ، وتبعهم ابن أخيه يزيد بن يزيد بن زائدة ، فقتلهم بأسرهم .

وروى الجاحظ قال : عَزَّتْ امرأة المنصور عن أبي العباس مقدّمه من مكة ، قالت :
« أعظم الله أجرك ، فلا مصيبة أجلُّ من مصيبتك ، ولا عِوَضَ أعظم من خلافتك » .
(صبح الأعشى ٩ : ٢٧٨ ، والبيان والذبيح ٢ : ٥٥)

٥٢ - خطبة محمد بن سليمان^(١) يوم الجمعة

(وكان لا يفرها)

الحمد لله ، أحمدُه وأستعينه وأستغفره ، وأومن به ، وأتوكل عليه ، وأشهد
أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى
ودين الحق ، ليُظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، من يعتصم بالله ورسوله ،
قد اعتصم بالعرْوة الوثقى ، وسعد في الأولى والآخرة ، « وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا وَخَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ، أسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن يُطِيعه
وَيُطِيع رسوله ، ويتبع رضوانه ، ويتجنب سُخطه ، فإنما نحن له وبه . أوصيكم عباد الله
بتقوى الله ، وأحسكم على طاعة الله ، وأرضى لكم ما عند الله ، فإن تقوى الله أفضل
ما تحاثَّ الناس عليه ، وتداعوا إليه ، وتواصوا به ، فاتقوا الله ما استطعتم ، وَلَا تَمُوتُنَّ
إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » .
(البيان والتهجين ٢ : ٦٥)

٥٣ - وصية مسلم بن قتيبة

وقال مسلم بن قتيبة^(٢) : « لاتطابن حاجتك إلى واحد من ثلاثة : لاتطلبها
إلى الكذاب ، فإنه يُقربها وهي بعيدة ، ويبعدُها وهي قريبة ؛ ولا تطالبها إلى الأحمق ،

(١) هو محمد بن سليمان بن عبد الله بن عباس ، وكان عامل البصرة في خلافة أبي جعفر المنصور
وتوفي سنة ١٧٣ في خلافة الرشيد .

(٢) استشاره المنصور في قتل أبي مسلم ، فقال : ماترى في أمره ؟ قال : « لو كان فيهما آلهة »

إلا الله لفسدتا » فقال : حسبك يا بن قتيبة ، لقد أودعتها أدنا واعية (رفيات الأعيان ١ : ٢٨٢) .

فإنه يريد أن ينفَعَكَ وهو يُضْرِكُ ؛ ولا تطلبها إلى رجل له عند قوم ما كَلَّةٌ ، فإنه يجعل حاجتك وقاءً لحاجته .

(الأمال ٢ : ١٩٠)

٥٤ - خطبة المهدي (توفي سنة ١٦٩ هـ)

الحمد لله الذي ارتضى الحمد لنفسه ، ورضى به من خلقه ، أحمدَه على آلائه^(١) ، وأجده لبلائه^(٢) ، وأستعينه ، وأومن به ، وأتوكل عليه توكلَ راضٍ بقضائه ، وصابر لبلائه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده المصطفى ، ونبيه المُجْتَبَى^(٣) ، ورسوله إلى خلقه وأمينه على وحيه ، أرسله بعد انقطاع الرجاء ، وطُمُوس^(٤) العِلْمِ ، واقتراب من الساعة ، إلى أمة جاهلية ، مختلفة أُمِّيَّة ، أهل عداوة وتضاغن ، وفرقة وتباين ، قد استهوتهم شياطينهم ، وغاب عليهم قرناؤهم^(٥) ، فاستشعروا الردى ، وسلكوا العمى ، يبشر من أطاعه بالجنة وكريم ثوابها ، وينذر من عصاه بالنار وأليم عقابها ، « لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْنَتِنَا وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَن بَيْنَتِنَا ، وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ » .

أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، فإن الاقتصار عليها سلامة ، والترك لها ندامة ، وأحثكم على إجلال عظمته ، وتوقير كبريائه وقدرته ، والالتفاء إلى ما يقرب من رحمة وينجى من سخطه ، ويُنَالُ به مآلديه ، من كريم الثواب ، وجزيل المآب ، فاجتنبوا ما خوفكم الله من شديد العقاب ، وأليم العذاب ، ووعيد الحساب ، يوم توقوفون بين يدي الجبار ، وتعرضون فيه على النار « يَوْمَ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ؛ يَوْمَ يُفَرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ، لِكُلِّ أُمَّرٍ

(١) نعمه ، والمفرد إلى كحمل وشمس ، وألركشمس ، وإلى كمصا وإلى كرضاء .

(٢) البلاء : يكون منحة ، ويكون محنة . (٣) المختار . (٤) الدروس والاختاء .

(٥) للقرين : المصاحب ، والشيطان : المقررون بالإيمان : لا يفارقه .

مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ؛ يَوْمَ لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا ، وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ
وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ؛ يَوْمَ لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ ، وَلَا مَوْلُودٌ
هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا ، إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، فَلَا تَغْرِبَنَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وَلَا
يَغْرِبَنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ » ، فإن الدنيا دار غرور ، وبلاء وشرور ، واضمحلال وزوال ،
وتقلب وانتقال ، قد أفنت من كان قبلكم ، وهي عائدة عليكم وعلى من بعدكم ،
من ركن إليها صرعته ، ومن وثق بها خائته ، ومن أملاها ^(١) كذبتة ، ومن رجاها
خذلتة ، عزها ذل ، وغناها فقر ، والسعيد من تركها ، والشقي فيها من آثرها ،
والمغبون فيها من باع حظها من دار آخرته بها ، فالله عباد الله ، والتوبة مقبولة ،
والرحمة مبسوطة ، وبادروا بالأعمال الزكية ^(٢) ، في هذه الأيام الخالية ، قبل أن يؤخذ
بالكظم ^(٣) ، وتندموا فلا تنالون الندم ، في يوم حسرة وتأسف ، وكآبة وتلهف ،
يوم ليس كالأيام ، وموقف ضنك المقام . إن أحسن الحديث وأبلغ الموعظة كتاب الله ،
يقول الله تبارك وتعالى : « وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ
تُرْهَمُونَ » . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم ، أَلْهَأَكُمُ الشَّكَاكِرُ
حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ - إلى آخر السورة - أوصيكم عباد الله بما أوصاكم الله به ،
وأنها كم عما نهاكم عنه ، وأرضى لكم طاعة الله ، وأستغفر الله لي ولكم .

(المقدم الفريد ٢ : ١٤٦)

(١) أهله أملا وأمله بالتخفيف والتشديد . (٢) زكاء يزكو : نما وصلاح .

(٣) الكظم : الخلق أو القم ، أو مخرج النفس ، أى قبل الموت .

مشاورة المهدي لأهل بيته

في حرب خراسان

روى ابن عبد ربه قال :

« هذا ما تراجع فيه المهدي ووزراؤه ، وما دار بينهم من تدبير الرأي في حرب خراسان ، أيام تحاملت عليهم العمال وأغنفت ، فحملتهم الدالة وما تقدم لهم من المكانة ، على أن نكثوا ببيعتهم ، ونقضوا موثقتهم ، وطرودوا العمال ، والتوا بما عليهم من الخراج ، وحمل المهدي ما يجب من مصالحهم ، ويكره من عننتهم ، على أن أقل عثرتهم ، واغفر زلتهم ، واحتمل دآلتهم ، تطوؤا بالفضل ، واتساعاً بالعمو ، وأخذاً بالحجة ، ورفقاً بالسياسة ، ولذلك لم يزل مدحله الله أعباء الخلافة ، وقلده أمور الرعية ، رقيقاً بمدار سلطانه ، بصيراً بأهل زمانه ، باسطاً للمعدلة في رعيته ، تسكن إلى كنفه ، وتأنس بعموه ، وثق بحلمه . فإذا وقعت الأقضية اللازمة ، والحقوق الواجبة . فليس عنده هوادة ، ولا إغضاء ، ولا مداهنة ، أثره للحق ، وقياماً بالعدل ، وأخذاً بالحزم ؛ فدعا أهل خراسان الاغترار بحلمه ، والثقة بعموه ، أن كسروا الخراج ، وطرهوا العمال وسألوا ما ليس لهم من الحق ، ثم خاطوا احتجاجاً باعتذار ، وخصومة بإقرار ، وتنصلاً باعتلال ؛ فلما انتهى ذلك إلى المهدي ، خرج إلى مجلس خلأئه ، وبعث إلى نفر من لحمته^(١) ووزرائه ، فأعلمهم الحال ، واستنصحهم للرعية ، ثم أمر الموالى^(٢) بالابتداء ، وقال للعباس^(٣) بن محمد : أي عم تعقب قولنا ، وكن حكماً بيننا ، وأرسل إلى ولديه

(١) الحمرة : القرابة . (٢) جمع سوله ، وهو هنا القريب كابن العم ونحوه .

(٣) هو العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس أخو المنصور .

موسى وهرون ، فأحضرهما الأمر ، وشاركهما فى رأى ، وأمر محمد بن الليث بحفظ مراجعتهم ، وإثبات مقاتهم فى كتاب .

٥٥ - مقال سلام صاحب المظالم

قال سلام صاحب المظالم :

« أيها المهدي : إن فى كل أمر غايةً ، ولكل قوم صناعةً ، استفرغت رأيهم ، واستفرقت أشغالهم ، واستنفدت أعمارهم ، وذهبوا بها ، وذهبت بهم ، وعرفوا بها ، وعرفت بهم ، ولهذه الأمور التى جعلتنا فيها غايةً ، وطلبت معونتنا عليها أقوام من أبناء الحرب وساسة الأمور ، وقادة الجنود ، وفرسان الهزاهز^(١) ، وإخوان التجارب ، وأبطال الوقائع ، الذين رشحتهم سجالها^(٢) ، وقيأتهم ظلالها ، وعصتهم شدائدُها ، وقرمتهم نواجذها^(٣) ، فلو عجمت ما قبلهم ، وكشفت ما عندهم ، لو جدت نظائر تؤيد أمرك ، وتجارِبَ توافق نظرك ، وأحاديث تقوى قلبك . فأما نحن معاشر عمالك . وأصحاب دواوينك . فحسن بنا ، وكثير منا أن نقوم بثقل ما حملتنا من عملك ، واستودعتنا من أمانتك ، وشغلنا به من إمضاء عدلك ، وإنفاذ حُكْمك ، وإظهار حقك . »

فأجابه المهدي : « إن فى كل قوم حكمةً . ولكل زمان سياسة . وفى كل حال تدبير . يبطل الآخر الأول . ونحن أعلم بزماننا ، وتدبير ساطاننا . »

قال نعم : أيها المهدي : أنت متسع الرأى ، وثيق العقدة ، قوى المنة^(٤) ، بليغ الفطنة ، معصوم النية ، محذور الروية ، مؤيد البديهة ، موفق العزيمة ، معان بالظفر ، مهدي إلى الخير . إن هممت فى عزمك مواقع الظن ، وإن اجتمعت صدع فعلك

(١) الهزيمة والهزاهز : تحريك البلايا والحروب الناس . (٢) جمع سجل كشمس : وهو الدلو

المظيمة مملوءة . (٣) فرم الطعام : أكله ، والنواجذ : أنفوس الأضراس . (٤) القوة .

ملتبس الشك . فاعزم يَهْدِ اللهُ إلى الصواب قلبك . وقل يُنطق اللهُ بالحق لسانك .
فلئن جنودك جَعَّة . وخزائنك عامرة . ونفسك سخية . وأمرك نافذ .

فأجابه المهدي : « المشاورة والمناظرة بابا رحمة ومفتاحا بركة . لا يَهْلِكُ عليهما
رأى ، ولا يَتَفَيْلُ ^(١) معهما حزم ، فأشيروا برأيكم ، وقولوا بما يَحْضُرُكم ، فإنى من
ورائكم ، وتوفيقُ اللهُ من وراء ذلك » .

٥٦ - مقال الربيع بن يونس ^(٢)

وقال الربيع :

أيها المهدي : إن تصاريفَ وجوه الرأى كثيرة . وإن الإشارة ببعض معاريض
القول يسيرة . ولكن خراسان أرض بعيدة المسافة . متراخية الشُّقَّة ^(٣) . متفارقة الشُّبُل
فإذا ارتأيت من مُحْكَمِ التدبير . ومُبْرَمِ التقدير . ولُبابِ الصواب ، رأيا قد أحكمهُ
نظرك ، وَقَلْبُهُ تديرك . فإيس وراءه مذهب طاعن . ولا دونه معلق لخصومة عائب .
ثم خَبَّتِ البُرْدُ ^(٤) به ، وانطوت الرُّسُلُ عليه ، كان ناخرى أن لا يصل إليهم مُحْكَمُهُ .
إلا وقد حدث منهم ما يَنْقُضُهُ . فما أيسر أن ترجع إليك الرسل . وتَرِدَ عليك الكتب
بحقائق أخبارهم ، وشوارد آثارهم ، ومصادر أمورهم ، فتُحَدِّثُ رأياً غيره ، وتبتدع
تديراً سواه ، وقد انفرجت الخلق ، وتحللت العقد ، واسترخى الحجاب ^(٥) ، وامتد
الزمان . ثم كَعِمَ موقع الآخرة كمصدر الأولى . ولكن الرأى أيها المهدي وفقك الله .
أن تصرف إجابة النظر ، وتقايب الفكر فيما جمعتنا له ، واستشترتنا فيه من التدبير
لحربهم ، والحيل في أمرهم ، إلى الطالب لرجل ذى دين فاضل ، وعقل كامل ، وورع

(١) قال رأيه وتفيل : أخطأ وضعف . (٢) وزر لأبي جعفر المنصور وقتله الهادي سنة ١٧٠ هـ

(٣) البعد والسفر البعيد . (٤) جمع بريه : وهو الرسول ، وخبت : أسرعت .

(٥) الحجاب : ما تشده المرأة في وسطها .

واسع . ليس موصوفاً بهوى في سواك ، ولا متهماً في أثره عليك ، ولا ظنيناً^(١) على دُخلة^(٢) مكروهة . ولا منسوباً إلى بدعة محذورة . فيقدح في ملكك ، ويريض^(٣) الأمور لفيرك ، ثم تستند إليه أمورهم . وتفوض إليه حربهم ، وتأمره في عهدك ووصيتك إياه . بلزوم أمرك ما لزمه الحزم . وخلاف نهيك إذا خالفه الرأي ، عند استحالة الأمور ، واشتداد الأحوال التي ينقض أمر الغائب عنها ، ويثبت رأى الشاهد لها ، فإنه إذا فعل ذلك ، فوائب أمرهم من قريب ، وسقط عنه ما يأتي من بعيد ، تمت الحيلة ، وقويت المكيدة . ونفذ العمل . وأحد النظر إن شاء الله .

٥٧ - مقال الفضل بن العباس

قال الفضل بن العباس :

« أيها المهدي : إن وليّ الأمور ، وسائس الحروب ، ربما نحى جنوده ، وفرق أمواله في غير ماضيق أمر حزبه^(٤) ، ولا ضفطة حال اضطرته ، فيقعد عند الحاجة إليها ، وبعد التفرقة لها ، عديماً منها . فاقداً لها . لا يثق بقوة ، ولا يصول بعدة ، ولا يفزع إلى ثقة . فالرأى لك أيها المهدي وفقك الله ، أن تُغني خزائنك من الإنفاق للأموال ، وجنودك من مكابدة الأسفار ، ومقارعة الأخطار ، وتغزير القتال ، ولا تُسرِع للقوم في الإجابة إلى ما يطالبون ، والعطاء لما يسألون ، فيفسد عليك أدبهم ، وتجري من رعيتك غيرهم ، ولكن اغزهم بالحيلة ، وقاتلهم بالمكيدة ، وصارعهم بالدين ، وخاتلهم^(٥) بالرفق ، وأبرق^(٦) لهم بالقول ، وأرعد نحوهم بالفعل ، وابعث البعوث ،

(١) متهما . (٢) دخلة الرجل مشقة ، ودخيلته : نيهه ومدبه .

(٣) في كتب اللغة : راضه وروضه : ذله ، وأراض الأرض جعلها رياضاً . (٤) اشتد عليه .

(٥) خادهم . (٦) رعد وبرق ، وأرعد وأبرق : تهدد وتوعده .

وجنّد الجنود ، وكتب الكتاب ، واعقد الألوية ، وانصب الرايات ، وأظهر أنك
موجهٌ إليهم الجيوش مع أحنق قوادك عليهم ، وأسوّمهم أثراً فيهم ، ثم ادسّ الرسل ،
وابنث الكتب ، وضع بعضهم على طمعٍ من وعدك ، وبعضاً على خوفٍ من وعيدك ،
وأوقد بذلك وأشباهه نيران التحاسد فيهم ، واغرس أشجار التنافس بينهم ، حتى تملأ
القلوبُ من الوحشة ، وتنطوي الصدورُ على البغضة ، ويدخل كلاً من كلِّ الحذرِ
والهيبه ، فإن مرّام الظفر بالغيلة ، والقتال بالحيلة ، والمناسبة^(١) بالكتب ، والمكايده
بالرسل ، والمقارعة بالكلام اللطيف المدخل في القلوب ، القوى الموقع من النفوس ،
المعقود بالحجج ، الموصول بالحيل ، المبنى على اللين الذي يستميل القلوب ، ويسترق
العقول والآراء ، ويستميل الأهواء ، ويستدعي المواتاة^(٢) ، أنفذ من القتال بطبات
السيوف ، وأسنة الرماح ، كما أن الوالى الذى يستنزل طاعة رعيته بالحيل . ويفرق كلمة عدوه
بالمكايده ، أحكم عملاً ، وألطف منظرأ ، وأحسن سياسة من الذى لا ينال ذلك
إلا بالقتال ، والإتلاف للأموال . والتفريز وإلخطار^(٣) . وليعلم المهدي أنه إن وجه
لقتالهم رجال لم يسير لقتالهم إلا بجنود كثيفة ، تخرج عن حال شديدة ، وتقدم على
أسفار ضيقة ، وأموال متفرقة ، وقود غشّة ، إن اتّمنهم استنفدوا ماله ، وإن
استنصحهم كانوا عليه لاله .

قال المهدي : « هذا رأى قد أسفر نوره ، وأبرق ضوؤه ، وتمثل صوابه للعيون ،
وبجسد حقه في القلوب ، ولكن فوق كلِّ ذى علم عليم » ، ثم نظر إلى ابنه على ،
فقال : ما تقول ؟

٥٨ - مقال علي بن المهدي

قال علي بن المهدي :

« أيها المهدي : إن أهل خراسان لم يَخْلَعُوا عن طاعتك ، ولم يَنْصِبُوا من دونك أحداً ، يَقْدَحُ في تغيير ملكك ، وَيُريِضُ الأمور لفساد دولتك ، ولو فعلوا لكان الخُطْبُ أيسرَ ، والشأن أصغرَ ، والحال أدلَّ ، لأن الله مع حقه الذي لا يَخْذُلُهُ ، وعند موَعَدِهِ الذي لا يُخْلِفُهُ ، ولكنهم قوم من رعيتك ، وطائفة من شيعتك ، الذين جعلك الله عليهم والياً ، وجعل العدل بينك وبينهم حاكماً ، طلبوا حقاً ، وسألوا إنصافاً ، فإن أجبتَ إلى دعوتهم ، ونفستَ عنهم قبل أن يتلاحم منهم حال ، ويحدث من عندهم فتق ، أظمتَ أمر الرب ، وأطفأتَ نائرة الحرب ، ووفرتَ خزائن المال ، وطرحتَ تقريرَ القتال ، وحملَ الناسُ حَمْلَ ذلك على طبيعة جودك ، وسجية حلك ، وإسجاح^(١) خايقتك ، ومعدلة نظرك ، فأمنتَ أن تُنسبَ إلى ضعف ، وأن يكون ذلك فيما بقي دُرْبَةً ، وإن منعتهم ما طلبوا ، ولم تُجِبهم إلى ما سألوا ، اعتدلتَ بك وبهم الحالُ ، وساويتهم في ميدان الخُطَاب ، فما أربُ المهدي أن يعمدَ إلى طائفة من رعيتِهِ ، مقرّين بمملكته ، مُدْعين بطاعته ، لا يُخْرِجون أنفسهم عن قدرته ، ولا يُيرثونها من عبوديته ، فيملكهم أنفسهم ، ويخلع نفسه عنهم ، ويقف على الحيل معهم ، ثم يجازيهم السوء في حدِّ المقارعة وميضار المخاطرة . أريد المهدي - وفقه الله - الأموال؟ فلمعمرى لا ينالها ولا يظفر بها إلا بإتفاق أكثر منها مما يطلب منهم ، وأضعاف ما يدعى قباهم ، ولو نالها فحُمِلت إليه ، ووُضِعَتْ بمخزائها^(٢) بين يديه

(١) الإسجاح : حسن العفو .

(٢) جمع خريطة : وهي وعاء من آدم وفضه به مرج على ما فيه .

ثم تجافى لهم عنها ، وطال عليهم بها ، لكان إليه مما يُنسب ، وبه يُعرف ، من الجود الذي طبعه الله عليه ، وجعل قُرَّةَ عينه ، ونَهْمَةً^(١) نفسه فيه ، فإن قال المهدي : هذا رأى مستقيم سديد ، في أهل الخراج الذين شكوا ظلم عمالنا ، وتحامل ولاتنا ؛ فأما الجنود الذين نقضوا موثيق العهود ، وأنظمتوا لسان الإرجاف ، وفتحوا باب المعصية ، وكسروا قيد الفتنة ، فقد ينبغي لهم أن أجمعهم نكالا لغيرهم ، عِظة لسواهم ، فيعلم المهدي أنه لو أتى بهم مغلولين في الحديد ، مُقَرَّنين^(٢) في الأصفاد^(٣) ، ثم اتسع لِحِقْنِ دمائهم عفوه ، ولإقالة عثرتهم صَنْحُهُ ، واستبقاهم لما هم فيه من حربته ، أو لمن يإزائهم من عدوه ، كما كان بدعاً من رأيه ، ولا مستنكراً من نظاره ، لقد علمت العرب أنه أعظم الخلفاء والملوك عفواً ، وأشدّها وقعاً ، وأصدقها صولة ، وأنه لا يتعاضده^(٤) عفواً ، ولا يتكأده^(٥) صفحاً ، وإن عظم الذنب ، وجل الخطب ، فالرأى للمهدي وفقه الله تعالى أن يحل عُقدة الفيظ ، بالرجاء لحسن ثواب الله في العفو عنهم ، وأن يذكر أولى حالاتهم ، وَضِيْعَةَ عِيالاتهم ، برّاء بهم ، وتوسّعاً لهم ، فإنهم إخوان دولته ، وأركان دعوته ، وأساس حقه الذين بعزتهم يصول ، وبِحُجَّتِهِمْ يقول ، وإنا مثلهم فيما دخلوا فيه من مَسَاخِطِهِ ، وتعرّضوا له من معاصيه ، وانطأوا فيه عن إجابته ، ومثله في قلة ما غير ذلك من رأيه فيهم ، أو ثقل من حاله لهم ، أو تغير من نعمته بهم ، كمثل رجائين أخوين متناصرين متوازرين ، أصاب أحدهما خبلٌ عارض ، وهُمُ حادث . فنهص إلى أخيه بالأذى ، وتحامل عليه بالكره ، فلم يزد أخوه إلا رقةً له ، ولطفاً به ، واحتياجاً لمداواة مرضه ، ومراجعة حاله ، عطفاً عليه ، وبرّاً به ، ومَرَاحَةً له .

(١) النهمة : الحاجة وبلوغ الشهوة في الشيء .

(٢) مقيدين . (٣) الأصفاد : القيود ؛ جمع صفة كسب .

(٤) تعاضده الأمر ؛ عظم عليه . (٥) تكأده الأمر ؛ شق عليه .

فقال المهدي : أما على فقد نوى سَمَتَ الأليان^(١) ، وَفَضَّ القلوبِ في أهل خراسان ،
ولكلِّ نَبِيٍّ مُسْتَقَرٌّ ، فقال : ما ترى يا أبا محمد يعني موسى ابنه (المهدي) .

٥٩ - مقال موسى بن المهدي

فقال موسى :

« أيها المهدي : لَا تَسْكُنْ إلى حلاوة مايجرى من القول على ألسنتهم ، وأنت
ترى الدماء تسيل من خَلَلِ فِعالهم ، الحالُ من القوم ينادى بِمَضْمَرَةٍ شر ، وَخَفِيَّةٍ حَقْد ،
قد جعلوا المآذيرَ عليها سِتْرًا ، وَاتَّخَذُوا العِلَلَّ من دونها حِجَابًا ، رجاء أن يدافعوا
الأيامَ بالتأخير ، والأُمُورَ بالتطويل ، فيكسِرُوا حِيَلَ المهدي فيهم ، وَيُفَنِّوْا جنودَهُ
عنهم ، حتى يتلاحم أمرهم ، وتتلاحق مادتهم ، وتستفحل حربهم ، وتستمر الأُمُور بهم
والمهدي من قولهم في حالِ غِرَّةٍ ، وَلِبَاسِ أَمَنَةٍ ، قد فَتَرَ لها ، وَأَنَسَ بها ، وسكن إليها .
ولولا ما اجتمعت به قلوبهم ، وَبَرَدَتْ عليه جلودهم من الناصبة بالقتال ، والإضرار
للقرع ، عن داعية ضلال ، أو شيطان فساد ، لَرَهَبُوا عواقب أخبار الولاية ، وَغَبَّ
بسكون الأُمُور ، فایشدُّ المهدي وَفَقَهُ اللهُ أزرَهُ^(٢) لهم ، ويكتب كتابه نحوهم ،
وَيَضَعُ الأمر على أشد ما يحضره فيهم ، وليوقن أنه لا يعطيهم خُطَّةَ يريد بها صلاحهم ،
إلا كانت دُرْبَةٌ إلى فسادهم ، وقوة على معصيتهم ، وداعية إلى عودتهم ، وسبباً لفساد
مَنْ بِحَضْرَتِهِ من الجنود ، ومن ببابه من الوفود الذين إن أقرَّهم وتلك العادة ، وأجرام
على ذلك الأرب ، لم يبرح في فَتَقِ حادِث ، وخلافٍ حاضر ، لا يصلح عليه دين ،
ولا تستقيم به دنيا ، وإن طالب تغييره بعد استحكام العادة ، واستمرار الدُرْبَةِ ، لم يصل

(١) الأليان : الملاينة . مصدر لآين ، والسمت : الطريق .

(٢) للقوة والظهور .

إلى ذلك إلا بالعقوبة المُرطبة . والمثونة الشديدة . والرأى للمهدى وفقه الله أن لا يُقبل
عثرتهم . ولا يقبل مَعذرتهم . حتى تطأهم الجيوشُ . وتأخذهم السيوفُ . ويستَحِرُّ^(١)
بهم القتلُ . ويُحْدِقُ بهم الموت . ويحيط بهم البلاء . وَيُطَبِّقُ عليهم الذل . فإن فعل
المهدى بهم ذلك . كان مَقْطَعَةً لكل عادة سوء فيهم . وهزيمة لكل بادرة شرٍّ منهم .
واحتمالُ المهدى في مَثُونَةِ غزوتهم هذه . تضع عنه غزواتٍ كثيرة . ونفقاتٍ عظيمة .
فقال المهدى : « قد قال القوم . فاحكم يا أبا الفضل » .

٦٠ - مقال العباس بن محمد

فقال العباس بن محمد :

« أيها المهدى : أما الموالى فأخذوا بفروع الرأى ، وسلكوا جنّبات الصواب ،
وتعدّوا أموراً قصّر بنظرهم عنها ، أئنه لم تأت تجارِبُهُم عليها . وأما الفضل فأشار
بالأموال ألا تُنْفَقَ ، والجنودِ ألا تُفَرَّقَ ، وبأن لا يُعْطَى القوم ما طلبوا ، ولا يُبْذَل
لهم ما سألوا . وجاء بأمر يبيّن ذلك استصفاً لأمرهم ، واستبانةً بحربهم . وإنما يبيحُ
جسياتِ الأمورِ صغارها .

وأما على فأشار باللين وإفراط الرُفْق . وإذا جرّد الوالى لمن غمط أمره وسفه
حقه ، اللين بحتاً ، والخير محضاً . لم يخلطهما بشدةٍ تعطف القلوب عن لينة . ولا بشرّاً
يحبسهم إلى خيره . فقد ملكهم الخلع لعدوهم . ووسّع لهم الفرجة لثني أعناقهم .
فإن أجابوا دعوته . وقبلوا لينة من غير خوف اضطهرهم ولا شدة . فنزوة^(٢) في رءوسهم
يستدعون بها البلاء إلى أنفسهم . ويستصرخون بها رأى المهدى فيهم . وإن لم يقبلوا
دعوته . ويسرعوا لإجابته باللين المَحْض ، والخير الصّراح . فذلك ما عليه الغان بهم ،
والرأى فيهم ، وما قد يشبه أن يكون من مثلهم . لأن الله تعالى خاق الجنة . وجعل فيها

(٢) وثبة إل الشر .

(١) يشهد .

من النعيم المقيم . والملك الكبير . مالا يَحْطُرُ على قلب بشر . ولا تُدْرِكُه الفِكر .
ولا تعلمه نفس ، ثم دعا الناس إليها ، ورغَّبهم فيها . فلولا أنه خلق ناراً جعلها لهم رحمةً
يسوقهم بها إلى الجنة لما أجابوا ولا قبلوا .

وأما موسى فأشار بأن يُعْصَبوا بشدة لا لينَ فيها . وأن يُرَمَوْا بشرًّا لا خيرَ معه
وإذا أضرَّ الوالي لمن فارق طاعته . وخالف جماعته . الخوفَ مُفْرَداً . والشرَّ مجرّداً .
وليس معها طمع . ولا لينٌ يثنيهم . اشتدت الأمور بهم . وانقطعت الحال منهم
إلى أحد أمرين . إما أن تدخلهم الحَمِيَّةُ من الشدة . والأنفَةُ من الذلة . والامتعاظ
من القهر . فيدعوهم ذلك إلى التَّأدي في الخلاف . والاستبسال في القتال . والاستسلام
للموت . وإما أن ينقادوا بالكُرْه . ويُذعنوا بالقهر على بَغْضَةٍ لازمة . وعداوة باقية .
تورث النفاق . وتُعقِبُ الشقاق . فإذا أمكنتهم فرصةٌ أو ثابتٌ^(١) لهم قدرة . أو قويت
لهم حال . عاد أمرهم إلى أصعبَ وأغلظَ وأشدَّ مما كان .

وقال في قول أبي الفضل : أيها المهدي أ كفى دليل . وأوضح برهان . وأبين
خبر بأن قد أجمع رأيه . وحزُم نظره على الإرشاد ببعثة الجيوش إليهم . وتوجيه
البعوث نحوهم . مع إعطائهم ما سألوا من الحق . وإجابتهم إلى ما سألوه من العدل .
قال المهدي : ذلك رأى .

٦١ - مقال هرون بن المهدي

قال هرون :

« خلطت الشدة أيها المهدي باللين . فصارت الشدة أمرًا فِطامًا لما تنكره .
وعاد اللين أهدى قائد إلى ما تحب . ولكن أرى غير ذلك » .
قال المهدي : « لقد قلت قولاً بديعاً . وخالفت فيه أهل بيتك جميعاً . والمرء

مُؤْتَمَنٌ بِمَا قَالَ . وَظَنِينَ بِمَا ادَّعَى . حَتَّى يَأْتِيَ بَيِّنَةٌ عَادِلَةٌ . وَحُجَّةٌ ظَاهِرَةٌ . فَاخْرَجَ
عَمَّا قُلْتَ « قَالَ هَرُونَ : « أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ . إِنَّ الْحَرْبَ خَدَعَةٌ ^(١) . وَالْأَعَاجِمُ قَوْمٌ مَكْرَةٌ .
وَرَبَّمَا اعْتَدَلْتَ الْحَالَ بِهِمْ . وَاتَّفَقْتَ الْأَهْوَاءَ مِنْهُمْ . فَسَكَانَ بَاطِنُ مَا يُسْرُونَ عَلَى ظَاهِرِ
مَا يُعْلِنُونَ . وَرَبَّمَا افْتَرَقْتَ الْحَالَانِ . وَخَالَفَ الْقَلْبَ الْإِسَانَ . فَانْطَوَى الْقَلْبُ عَلَى مَحْجُوبَةٍ
تُبْطِنُ . وَاسْتَسْرَّ بِمَدْخُولَةٍ لَا تَعْلَنُ . وَالطَّيِّبُ الرَّفِيقُ بَطِيءٌ . الْبَصِيرُ بِأَمْرِهِ . الْعَالِمُ بِمُقَدَّمِ
يَدِهِ . وَمَوْضِعُ مَيْسَمِهِ ^(٢) لَا يَتَعْجَلُ بِالدَّوَاءِ . حَتَّى يَقَعَ عَلَى مَعْرِفَةِ الدَّاءِ . فَالرَّأْيُ لِلْمَهْدِيِّ
- وَقَفَهُ اللَّهُ - أَنْ يَفِرَّ ^(٣) بَاطِنُ أَمْرِهِمْ فَرَّ الْمُسِنَّةُ . وَيَمَخَّضُ ظَاهِرُ حَالِهِمْ مَخْضَ السَّقَاءِ .
بِمَتَابَعَةِ الْكُتُبِ . وَمِظَاهِرَةِ الرُّسُلِ . وَمَوَالَاةِ الْعِيُونَ . حَتَّى تَهْتَكَ حُجُبَ عِيُونِهِمْ .
وَتَسْكَشِفُ أَغْطِيَةَ أُمُورِهِمْ . فَإِنَّ انْفِرَجَتِ الْحَالَ وَأَفْضَتِ الْأُمُورَ بِهِ إِلَى تَغْيِيرِ حَالِ .
أَوْ دَاعِيَةِ ضَلَالٍ اشْتَمَلَتِ الْأَهْوَاءَ عَلَيْهِ . وَانْقَادَ الرِّجَالَ إِلَيْهِ . وَامْتَدَّتِ الْأَعْنَاقُ نَحْوَهُ
بِدِينٍ يَعْتَقِدُونَهُ . وَإِثْمٌ يَسْتَحْلُونَهُ . عَصَبَهُمْ بِشِدَّةٍ لَا لَيْنَ فِيهَا . وَرِمَاهُمْ بِعَقُوبَةٍ لَا عَفْوَ مَعَهَا .
وَإِنْ انْفِرَجَتِ الْعِيُونَ . وَاهْتَصِرَتِ السُّتُورُ . وَرُفِعَتِ الْحُجُبُ . وَالْحَالَ فِيهِمْ مَرِيعةٌ ^(٤) .
وَالْأُمُورُ بِهِمْ مَعْتَدَلَةٌ . فِي أَرْزَاقٍ يَطْلُبُونَهَا . وَأَعْمَالٍ يُنْكَرُونَهَا . وَظُلَامَاتٍ يَدْعُونَهَا .
وَحَقُوقٍ يَسْأَلُونَهَا . بِمَاتَّةٍ سَابَقْتَهُمْ . وَدَالَّةٍ مَنَاصِحْتَهُمْ . فَالرَّأْيُ لِلْمَهْدِيِّ - وَقَفَهُ اللَّهُ -
أَنْ يَتَسَعَ لَهُمْ بِمَا طَلَبُوا . وَيَتَجَافَى لَهُمْ عَمَّا كَرِهُوا . وَيَشْعَبُ ^(٥) مِنْ أَمْرِهِمْ مَا صَدَعُوا .
وَيَرْتُقُّ مِنْ فَتْقِهِمْ مَا قَطَعُوا . وَيُوَلِّي عَلَيْهِمْ مَنْ أَحْبَبُوا . وَيَدَاوِي بِذَلِكَ مَرَضَ قُلُوبِهِمْ
وَفَسَادَ أُمُورِهِمْ . فَإِنَّمَا الْمَهْدِيُّ وَأُمَّتُهُ . وَسَوَادُ أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ . بِمَنْزِلَةِ الطَّيِّبِ الرَّفِيقِ .
وَالْوَالِدِ الشَّفِيقِ . وَالرَّاعِيِ الْجَرِّبِ الَّذِي يَحْتَمِلُ لِمَرَابِضِ غَنَمِهِ . وَضُؤَالَ رَعِيَّتِهِ . حَتَّى
يُبْرِئُ الْمَرِيضَةَ مِنْ دَاءِ عِلَّتِهَا . وَيُرَدِّدُ الصَّحِيحَةَ إِلَى أُنْسٍ جَمَاعَتِهَا . ثُمَّ إِنَّ خِرَاسَانَ بِمَخَاصِئِ

(١) خدعة بسكون الدال وتثنية الخاء، وبضم الخاء وفتح الدال، أى تنفخ بخدعة .

(٢) الميسم : المسكوة . (٣) فر الدابة : كشف عن أسنانها ليصرف عنها .

(٤) مرع الوادى ككرم مراعاة : انصب بكثرة السكلا فهو مريع . (٥) تصلح .

الذين لهم دالة محمولة . وماتة مقبولة . ووسيلة معروفة . وحقوق واجبة . لأنهم أيدي دولته . وسيوف دعوته . وأنصار حقه . وأعوان عدله . فليس من شأن المهدي الاضطغان عليهم . ولا المؤاخذة لهم . ولا التوغر^(١) بهم . ولا المكافأة بإساءتهم . لأن مبادرة حسم الأمور ضعيفة قبل أن تقوى ، ومحاولة قطع الأصول ضئيلة قبل أن تغلظ ، أحزم في الرأي وأصح في التدبير من التأخير لها والتهاون بها حتى يلتئم قليلها بكثيرها ، وتجتمع أطرافها إلى جمهورها .

قال المهدي : « ما زال هرون يقع وقع الحياء^(٢) حتى خرج خروج القدح من الماء وانسلَّ انسلال السيف فيما ادعى فدعوا ما سبق موسى فيه أنه هو الرأي ، وثني بعده هرون ، ولكن من لأعنة الخيل وسياسة الحرب وقيادة الناس إن أمعن بهم اللجاج وأفرطت بهم الدالة ؟ » .

٦٣ - مقال صالح بن علي^(٣)

قال صالح :

« لسنا نبلغ أيها المهدي بدوام البحث وطول الفكر أدنى فِراسة رأيك وبعض لحظات نظرك ، وليس ينفض عنك من بيوتات العرب ورجالات المعجم ، ذو دين فاضل ورأي كامل ، وتدبير قوى ، تقلده حربك ، وتستودعه جندك ، ممن يحتمل الأمانة العظيمة ويضطلع بالأعباء الثقيلة وأنت بحمد الله ميمون النقية^(٤) ، مبارك العزيمة ، مخبور التجارب ، محمود العواقب معصوم العزم ، فليس يقع اختيارك ولا يقف نظرك على أحد توليه أمرك ، وتُسند إليه تفرك ، إلا أراك الله ماتحب ، وجمع لك منه ما تريد . »

(١) توغر الرجل : تشدد . (٢) المطر .

(٣) هو صالح بن علي بن عبد الله بن عباس . (٤) النفس والطبيعة .

قال المهدي : « إني لأرجو ذلك لتقديم عادة الله فيه وحسن معونته عليه ولكن أحب الموافقة على الرأي ، والاعتبار للمشاورة في الأمر المهم » .

٦٣ - مقال محمد بن الليث

قال محمد بن الليث :

« أهل خراسان أيها المهدي قوم ذوو عِزَّةٍ وَمَنَّةٍ ، وشياطينُ خَدَاعَةٍ ، زُرُوعِ الْحَمِيَّةِ فِيهِمْ نَابِتَةٌ ، وملابس الأَنَفَةِ عَلَيْهِمْ ظَاهِرَةٌ ، فالرُويَّةُ عَنْهُمْ عَازِبَةٌ وَالْعَجَلَةُ فِيهِمْ حَاضِرَةٌ ، تسبق سيولهم مَطْرَهُمْ ، وسيوفهم عَذَابُهُمْ ، لأنهم بين سِفْلَةٍ لا يعدو مبلغُ عقولهم منظرَ عيونهم ، وبين رؤساء لا يُلْجَمُونَ إلا بشدة ولا يُفْطَمُونَ إلا بالمرِّ ، وإن وليَّ المهدي عليهم وضيعاً لم تنقذْ له العظاء ، وإن وليَّ أمرهم شريفاً تحامل على الضعفاء وإن آخر المهدي أمرهم ، ودافع حربهم ، حتى يُصِيبَ لِنَفْسِهِ مِنْ حَشَمِهِ وَمَوَالِيهِ أَوْ بَنِي عَمِّهِ أَوْ بَنِي أَبِيهِ نَاصِحًا ، يتفق عليه أمرهم ، وثِقَةً تَجْتَمِعُ لَهُ أُمَّلَاؤُهُمْ^(١) بلا أَنَفَةٍ تَلْزَمُهُمْ . ولا حَمِيَّةٍ تَدْخُلُهُمْ ، ولا مَصِيبَةٍ تَنْفَرُهُمْ ، تنفست الأيام بهم ، وتراخت الحال بأمرهم . فدخل بذلك من الفساد الكبير ، والضياع العظيم ، مالا يتلافاه صاحب هذه الصفة وإن جَدَّ ، ولا يستصلحه وإن جَهَّدَ ، إلا بعد دهر طويل ، وشرَّ كبير ، وليس المهدي سَوْفَةً فَاطِمًا عَادَاتِهِمْ ، ولا قَارِعًا صَفَاتِهِمْ^(٢) ، بمثل أحد رجلين لا ثالث لهما ، ولا عِدْلٌ^(٣) في ذلك بهما ، أحدهما لسان ناطق موصول بسمعك ، ويدٌ ممثلة لعينك ، وصخرةٌ لا تُزْعَزَعُ ، وبُهْمَةٌ^(٤) لا تُدْنَى ، وبازِلٌ^(٥) لا يُفْرَعُهُ صَوْتُ الْجُلْجُلِ ، نَقِيٌّ الْعِرْضِ ، نَزِيهٌ النَّفْسِ ، جَلِيلٌ الْخَطَرِ^(٦) اتَّضَعْتَ الدُّنْيَا عَنْ قَدْرِهِ ، وَسَمَا نَحْوِ الْآخِرَةِ

(١) جمع ملاكسبب : وهو الجماعة . (٢) الصفاة : الحجر الصلد للضخم . (٣) العدل : للتقدير .

(٤) البهمة : الصخرة ، والشجاع الذي لا يهتدى من أين يؤتى . (٥) البازل : الجهل في السنة

التاسعة ، والرجل الكامل في تجربته . (٦) القدر .

بِهِمَّتِهِ ، وَجَمَلَ الْفَرَضَ الْأَقْصَى لِعَيْنِهِ نُضْبًا ، وَالْفَرَضَ الْأَدْنَى لِقَدَمِهِ مَوْطِنًا ، فَلَيْسَ يَقْبَلُ عَمَلًا ، وَلَا يَتَعَدَى أَمَلًا ، وَهُوَ رَأْسُ مَوَالِيكَ ، وَأَنْصَحُ بَنِي أَبِيكَ ، رَجُلٌ قَدْ غُذِيَ بِلَطِيفِ كِرَامَتِكَ ، وَنَبَتَ فِي ظِلِّ دَوْلَتِكَ ، وَنَشَأَ عَلَى قَوَائِمِ أَدَبِكَ ، فَإِنْ قَلَّدَتْهُ أَمْرَهُمْ وَحَمَلَتْهُ تِقَلَّتْهُمْ ، وَأَسْنَدَتْ إِلَيْهِ تَفَرَّغَهُمْ ، كَانَ قُفْلًا فَتَحَهُ أَمْرُكَ ، وَبَابًا أَغْلَقَهُ نَهْيُكَ . فَجَعَلَ الْعَدْلَ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ أَمِيرًا ، وَالْإِنْصَافَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ حَاكِمًا ، وَإِذَا أَحْكَمَ الْمَنْصَفَةَ . وَمَلَكَ الْمَعْدَلَةَ ، فَأَعْطَاهُمْ مَا لَهُمْ ، وَأَخَذَ مِنْهُمْ مَا عَلَيْهِمْ ، غَرَسَ لَكَ فِي الَّذِي بَيْنَ صَدُورِهِمْ وَأَسْكَنَ لَكَ فِي الشُّوَيْدَاءِ ، دَاخِلَ قُلُوبِهِمْ ، طَاعَةً رَاسِخَةً الْعُرُوقَ ، بَاسِقَةً الْفُرُوعَ ، مِتَابِلَةً فِي حَوَاشِي عَوَائِمِهِمْ ، مِتْمَكِنَةً مِنْ قُلُوبِ خَوَاصِّهِمْ ، فَلَا يَبْقَى فِيهِمْ رَيْبٌ إِلَّا نَفْوُهُ وَلَا يَلْزَمُهُمْ حَقٌّ إِلَّا أَدْوَاهُ ، وَهَذَا أَحَدُهُمَا ، وَالْآخَرُ عُوْدٌ مِنْ غَيْضَتِكَ ^(١) ، وَتَبَعَةٌ مِنْ أُرُومَتِكَ ، فَتِي السِّنِّ ، كَهْلُ الْحِلْمِ ، رَاجِحُ الْعَقْلِ ، مَحْمُودُ الصَّرَامَةِ ، مَأْمُونُ الْخِلَافِ . يَجْرُدُ فِيهِمْ سَيْفُهُ ، وَيَسُطُّ عَلَيْهِمْ خَيْرُهُ ، يَقْدِرُ مَا يَسْتَحِقُّونَ ، وَعَلَى حَسَبِ مَا يَسْتَوْجِبُونَ وَهُوَ فَلَانُ أَيَّهَا الْمَهْدِيُّ ، فَسَلَّطَهُ - أَعَزَّكَ اللَّهُ - عَلَيْهِمْ ، وَوَجَّهَهُ بِالْجِيُوشِ إِلَيْهِمْ ، وَلَا تَمْنَعُكَ ضَرَاةٌ ^(٢) سِنِّهِ ، وَحَدَاثَةٌ مَوْلِدِهِ ، فَإِنَّ الْحِلْمَ وَالثَّقَةَ مَعَ الْحَدَاثَةِ ، خَيْرٌ مِنَ الشُّكِّ وَالْجَهْلِ مَعَ الْكُهُولَةِ ، وَإِنَّمَا أَحْدَانُكُمْ أَهْلُ الْبَيْتِ فِيمَا طَبَعَكُمْ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَاخْتَصَّكُمْ بِهِ مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ ، وَمِحَامِدِ الْفِعَالِ ، وَمَحَاسِنِ الْأُمُورِ ، وَصَوَابِ التَّدْبِيرِ ، وَصَرَامَةِ الْأَنْفُسِ ، كَفِرَاحِ عِتَاقِ الطَّيْرِ ، الْمُحْكِمَةَ لِأَخْذِ الصَّيْدِ بِلَا تَدْرِيْبٍ ، وَالْعَارِفَةَ لَوَجُوهِ النَّفْعِ بِلَا تَأْدِيْبٍ . فَالْحِلْمُ وَالْعِلْمُ ، وَالْعَزْمُ وَالْحَزْمُ ، وَالْجُودُ وَالتَّوَدُّةُ ، وَالرَّفْقُ ، ثَابِتٌ فِي صَدُورِكُمْ ، مَزْرُوعٌ فِي قُلُوبِكُمْ ، مُسْتَحْكِمٌ لَكُمْ ، مُتَكَامِلٌ عِنْدَكُمْ بِطَبَائِعِ لَازِمَةٍ ، وَغَرَائِزِ ثَابِتَةٍ .

(١) الْغَيْضَةُ : الْأَجْمَةُ وَجَمْعُ الشَّجَرِ فِي مَفِيضِ مَاءٍ . (٢) الْمَرَادُ حَدَاثَةٌ

٦٤ — مقال معاوية بن عبد الله

قال معاوية بن عبد الله :

« أفتاء^(١) أهل بيتك أيها المهدي في الحلم على ما ذكر ، وأهل خراسان في حال عز على ما وصف ، ولكن إن ولي المهدي عليهم رجلا ليس بقديم الذكر في الجنود . ولا بنبيه الصوت في الحروب ، ولا بطويل التجربة للأمور ، ولا بمعروف السياسة للجيوش ، والهيبة في الأعداء دخل ذلك أمران عظيمان ، وخطر ان مهولان ، أحدهما أن الأعداء يفتمزونها منه ، ويحتقرونها فيه ، ويحتثون بها عليه ، في النهوض به . والمقارعة له ، والخلاف عليه ، قبل ما حين الاختبار لأمره ، والتكشف لحاله ، والعلم بطباعه ؛ والأمر الآخر أن الجنود التي يقود ، والجيوش التي يسوس ، إذا لم يختبروا منه البأس والنجدة ، ولم يعرفوه بالصوت^(٢) والهيبة ، انكسرت شجاعتهم ، وماتت مجدهم واستأخرت طاعتهم ، إلى حين اختبارهم ، ووقوع معرفتهم ، وربما وقع البوار قبل الاختبار . وبياب المهدي - وفقه الله - رجل مهيب نبيه حنيك^(٣) صيئت ، له نسب زالك . وصوت عال ، قد قاد الجيوش وساس الحروب ، وتآلف أهل خراسان ، واجتمعوا عليه بالبيعة ، ووثقوا به كل الثقة ، فلو ولّاه المهدي أمرهم ، لسكفاه الله شرهم . »

قال المهدي : « جانبت قصد الرمية ، وأبيت إلا عصبية إذ رأى الخلدت

من أهل بيتنا ، كراى عشرة حلاء من غيرنا . ولكن أين تركتم ولي العهد ؟ » .

قالوا : « لم يمنعنا من ذكره إلا كونه شبيه جده ، ونسيج وحده^(٤) . ومن الدين

وأهله . بحيث يقصر القول عن أدنى فضله ، ولكن وجدنا الله عز وجل حجب عن

(١) جمع فقه كيتيم وأيتام . (٢) الصوت والصلوات والصلوات : الذكرا الحسن . (٣) محنك .

(٤) هو نسيج وحده : لا نظير له منفرد بمخالص محمودة لا يشركه فيها غيره . كما أن الثوب النفيس

لا ينسج على منواله غيره ، أي لا يشرك بينه وبين غيره في اللبس .

خلقه ، وسرّ دون عباده ، علم ماختلف به الأيام ، ومعرفة مايجرى عليه القادير من حوادث الأمور ، وربّ المنون^(١) المُخْتَرِمَةَ لِحَوَالِي الْقُرُونِ ، وَمَوَاضِي الْمُلُوكِ فَكْرِهِنَا سُوعَهُ^(٢) عن حَمَلَةِ الْمَلِكِ ، وَدَارِ السُّلْطَانِ ، وَمَقَرِّ الْإِمَامَةِ وَالْوِلَايَةِ ، وَمَوْضِعِ الْمَدَائِنِ وَالْخِرَازِنِ ، وَمَسْتَقَرِّ الْجُنُودِ ، وَمَعْدِنِ الْجُودِ ، وَجَمْعِ الْأَمْوَالِ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ قُطْبًا لِمَدَارِ الْمَلِكِ ، وَمِصِيدَةَ لِقُلُوبِ النَّاسِ ، وَمَثَابَةَ لِإِخْوَانِ الطَّمَعِ ، وَثَوَارِ الْفِتَنِ ، وَدَوَاعِي الْبِدْعِ . وَفُرْسَانَ الضَّلَالِ ، وَأَبْنَاءَ الْمَوْتِ ، وَقَلْنَا إِنْ وَجَّهَ الْمَهْدَى وَلِيًّا عَهْدَهُ ، لَخِذْتُ فِي جِيُوشِهِ وَجُنُودِهِ ، مَا قَدْ حَدِثَ بِجُنُودِ الرِّسْلِ مِنْ قَبْلِهِ ، لَمْ يَسْتَطِعِ الْمَهْدَى أَنْ يُعَقِّبَهُمْ بغيرِهِ ، إِلَّا أَنْ يَنْهَضَ إِلَيْهِمْ بِنَفْسِهِ ، وَهَذَا خَطَرٌ عَظِيمٌ ، وَهَوْلٌ شَدِيدٌ ، إِنْ تَنَفَّسَتْ الْأَيَّامُ بِمَقَامِهِ . وَاسْتَدَارَتْ الْحَالُ بِإِمَامِهِ ، حَتَّى يَقَعُ عِوَضٌ لَا يَسْتَفْنِي عَنْهُ ، أَوْ يَحْدُثُ أَمْرٌ لَا بُدَّ مِنْهُ . صَارَ مَا بَعْدَهُ مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ هَوًى وَأَجَلُ خَطَرًا ، لَهُ تَبَعًا ، وَبِهِ مُتَصَلًا .

٦٥ - مقال المهدي

قال المهدي :

« اَلْخَطْبُ أَيْسَرُ مِمَّا تَذْهَبُونَ إِلَيْهِ ، وَعَلَى غَيْرِ مَا تَصِفُونَ الْأَمْرَ عَلَيْهِ ، نَحْنُ أَهْلُ الْبَيْتِ نَجْرِي مِنْ أَسْبَابِ الْقَضَايَا ، وَمَوَاقِعِ الْأُمُورِ ، عَلَى سَابِقِ مِنَ الْعِلْمِ ، وَبِحَتْمٍ مِنَ الْأَمْرِ ، قَدْ أَنْبَأَتْ بِهِ الْكُتُبُ ، وَتَنْبَأَتْ عَلَيْهِ الرِّسْلُ ، وَقَدْ تَنَاهَى ذَلِكَ بِأَجْمَعِ إِلَيْنَا . وَتَسْكَامِلُ بِحَدَافِيرِهِ^(٣) عِنْدَنَا ، فِيهِ نَدْبَرُ ، وَعَلَى اللَّهِ تَتَوَكَّلُ ، إِنَّهُ لَا بُدَّ لَوْلَى عَهْدِي . وَوَلِيَّ عَهْدِي عَقْبِي بَعْدِي أَنْ يَقُودَ إِلَى خِرَاسَانَ الْبِعُوثِ ، وَيَتَوَجَّهُ نَحْوَهَا بِالْجُنُودِ ؛ أَمَّا الْأَوَّلُ فَإِنَّهُ يُقَدِّمُ إِلَيْهِمْ رِسْلَهُ ، وَيُعْمَلُ فِيهِمْ حِيَلَهُ . ثُمَّ يُخْرِجُ نَشِيطًا إِلَيْهِمْ حَقِيقًا

(١) المنون النية (مؤنث) والمختربة : المهلكة ، والحوالي جمع خالية : وهي الماضية .

(٢) شع كنع شععا وشسوعا : بعد فهو شامع وشسوع .

(٣) جمع حدفور كصنفور أو حدفار كقرطاس : وهو الجانب .

عليهم . يريد أن لا يدع أحداً من إخوان الفتن ، ودواعي البدع ، وفرسان الضلال .
إلا توطأه بحرّ القتل ، وألبسه قناع القهر . وقلده طوق الذل ، ولا أحداً من الذين
عملوا في قصّ جناح الفتنة ، وإخماد نار البدعة ، ونصرة ولاة الحق ، إلا أجرى عليهم
ديم فضله ، وجداول نهله ، فإذا خرج مُزَمِعاً به ، مُجْمِعاً عليه ، لم يسر إلا قليلاً حتى
يأتيه أن قد عملت حيله ، وكذحت كتبه ، ونفدت مكايده ، فهذأت نافرة القلوب .
ووقعت طائرة الأهواء ، واجتمع عليه المختلفون بالرضا ، فيميل نظراً لهم ، وبراً بهم .
وتعطفاً عليهم ، إلى عدو قد أخاف سبيلهم وقطع طريقهم ، ومنع حجاجهم بيت الله
الحرام ، وساب تجارهم رزق الله الحلال ؛ وأما الآخر فإنه يوجه إليهم ، ثم تعتقد له
الحجة عليهم بإعطاء ما يطالبون ، وببذل ما يسألون ، فإذا سمحت الفرق بقراباتها له .
وجنح أهل النواحي بأعناقهم نحوه ، فأصفت إليه الأفئدة ، واجتمعت له الكلمة .
وقدمت عليه الوفود ، قصد لأول ناحية بحفت^(١) بطاعتها ، وألقت بأزمته ، فألبسها
جناح نعمته ، وأنزلها ظلّ كرامته وخصها بعظيم حباه^(٢) ، ثم عم الجماعة بالمعدلة .
وتعطف عليهم بالرحمة ، فلا تبقى فيهم ناحية دانية ، ولا فرقة قاصية ، إلا دخلت عليها
بركته ، ووصلت إليها منفعة ، فأغنى فقيرها ، وجبر كسيرها ، ورفع وضعها . وزاد
رفيعها ، ما خلا ناحيتين ، ناحية يغاب عليها الشقاء ، وتستميلهم الأهواء ، فتستخف
بدعوته ، وتبطن عن إجابته ، وتتناقل عن حقه ، فتكون آخر من يبعث ، وأبطأ من
يوجه ، فيصطلي عليها موجدة ، ويتغنى لها علة ، لا يلبث يجد^(٣) بحق يلزمهم ، وأمر
يجب عليهم ، فتستلحمهم الجيوش ، وتأكلهم السيوف ، ويستحرق بهم القتل ، ويحيط
بهم الأمر ، ويُفنيهم التتبع ، حتى يُخرّب البلاد ويؤتم الأولاد ، وناحية لا يسط
لهم أماناً ، ولا يقبل لهم عهداً ، ولا يجعل لهم ذمة ، لأنهم أول من فتح باب الفرقة .

(١) بفتح بالحق بخوعاً : أقر به وخضع له . (٢) مطانه . (٣) يفض .

وتدرّع جلباب الفتنة ، وربضَ في شقِّ العَصَا ، ولكنه يُقتل أعلامهم ، ويأسر قوادهم
ويطلب هُرَّابهم ، في لُجَج البحار ، وقُلَل الجبال ، وَحَمِيل^(١) الأودية ، ويطون الأرض .
تقتيلاً وتغليلاً وتنكيلاً ، حتى يدع الدنيا خراباً ، والنساء أياًمى ، وهذا أمر لانعرف له
في كتبنا وقتاً ، ولا نصحح منه غير ما قلنا تفسيراً ؛ وأما موسى ولي عهدي ، فهذا
أَوَانُ تَوَجُّهه إلى خراسان ، وحلولة بجرَّجان ، وما قضى الله له من الشخوص إليها .
والمقام فيها ، خير للمسلمين مَفَبَةً ، وله ياذن الله عاقبة من المقام بحيث يُغمر في لُجَج
بحورنا ، ومدافع سيولنا ، ومجامع أمواجنا ، فيتصاغر عظيم فضله ، ويتذاب^(٢)
مشرق نوره ، ويتقلل كثير ما هو كائن منه ، فمن يصحبه من الوزراء ، ويختار له
من الناس ؟ » .

٦٦ - مقال محمد بن الليث

قال محمد بن الليث :

« أيها المهدي : إن وليَّ عهدك أصبح لأمتك ، وأهل مملكك ، علمًا قد تثنت نحوه
أعناقها ، ومدت سمته أبصارها . وقد كان لقرب داره منك ، ومحل جواره لك ،
عُطْل^(٣) الحال ، عُقل الأمر ، واسع العذر . فأما إذا انفرد بنفسه . وخلا بنظره .
وصار إلى تدييره . فإن من شأن العامة أن تنفقد مخارج رأيه . وتستنصت لمواقع آثاره
وتسأل عن حوادث أحواله ، في برّه ومرحمته . وإقساطه^(٤) ومعدلته ، وتدييره
وسياسته ، ووزرائه وأصحابه . ثم يكون ماسبق إليهم أغاب الأشياء عليهم ، وأملك
الأمور بهم ، وألزمها لقلوبهم ، وأشدّها استمالةً لرأيهم ، وعطفاً لأهوائهم . فلا يفتأ
المهدي - وفقه الله - ناظرًا له فيما يقوى عمده مملكته ، ويسدّد أركان ولايته ،

(١) الحمل : بطن المسيل . (٢) يضطرب .

(٣) عطل (كلرح) من المال والأدب : خلا فهو عطل كمنفل وعتق . (٤) عدله .

ويستجمع رضا أمته بأمر هو أزين لحاله . وأظهر لجماله ، وأفضل منبته لأمره ، وأجل موقعا في قلوب رعيته ، وأحمد حالا في نفوس أهل ملته . ولا أدفع مع ذلك باستجماع الأهواء له . وأبلغ في استعطاف القلوب عليه ، من مريحة تظهر من فعله . ومعدلة تنتشر عن أثره . ومحبة للخير وأهله ، وأن يختار المهدي - وفقه الله - من خيار أهل كل بلدة . وفقهاء أهل كل مصر ، أقواما تسكن العامة إليهم إذا ذكروا ، وتأنس الرعية بهم إذا وُصفوا . ثم تسهل لهم عمارة سبل الإحسان ، وفتح باب المعروف . كما قد كان فتح له ، وسهل عليه .

قال المهدي : صدقت ونصحت . ثم بعث في ابنه موسى ، فقال :

٦٧ - مقال المهدي

« أي بُني . إنك قد أصبحت لسمت وجوه العامة نصبا ، ولثني أعطاف الرعية غاية ، فحسنتك شاملة . وإساءتك نائية ، وأمرك ظاهر ، فعليك بتقوى الله وطاعته . فاحتمل سُخط الناس فيهما ، ولا تطلب رضاهم بخلافهما ، فإن الله عز وجل كافيك من أسخطه عليك إيثارك رضاه . وليس بكافيك من يسخطه عليك إيثارك رضا من سواه . ثم اعلم أن الله تعالى في كل زمان فترة من رسله . وبقايا من صفوة خلقه ، وخبايا لنصرة حقه ، يجدد حبل الإسلام بدعواهم ، ويشيد أركان الدين بنصرتهم ، ويتخذ لأولياء دينه أنصارا ، وعلى إقامة عدله أعوانا . يسدون الخلل ، ويُقيمون الليل ، ويدفعون عن الأرض الفساد ، وإن أهل خراسان أصبحوا أيدي دولتنا ، وسيوف دعوتنا ، الذين نستدفع الكاره بطاعتهم ، ونستصرف نزول العظام بمناصحتهم . ونُدافع ريب الزمان بعزائمهم ، ونتراحم ركن الدهر ببصائرهم ، وهم عماد الأرض إذا أرجف كنفها ، وخوف الأعداء إذا برزت صفحتها ، وحصون الرعية إذا تضايقت الحال بها ، قد مضت لهم وقائع صادقات ، ومواطن صالحات ، أخذت نيران

الفِتْنِ ، وَقَسَمْتَ دَوَائِيَّ الْبِدْعِ . وَأَذَلَّتْ رِقَابَ الْجَبَّارِينَ ، وَلَمْ يَنْفَكُوا كَذَلِكَ مَا جَرَّوْا
مَعَ رِيحِ دَوْلَتِنَا ، وَأَقَامُوا فِي ظِلِّ دَعْوَتِنَا ، وَاعْتَصَمُوا بِحَبْلِ طَاعَتِنَا ، الَّتِي أَعَزَّ اللَّهُ بِهَا
ذِلَّتَهُمْ ، وَرَفَعَ بِهَا ضَعْفَهُمْ ، وَجَعَلَهُمْ بِهَا أَرْبَابًا فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ ، وَمَلُوكًا عَلَى رِقَابِ الْعَالَمِينَ
بَعْدَ لِبَاسِ الذِّلِّ ، وَقِنَاعِ الْخَوْفِ ، وَإِطْبَاقِ الْبَلَاءِ ، وَمُحَالَفَةِ الْأَسَى ، وَجَهْدِ الْبَأْسِ
وَالضَّرِّ . فَظَاهِرٌ عَلَيْهِمْ لِبَاسَ كِرَامَتِكَ ، وَأَنْزَلَهُمْ فِي حَدَائِقِ نِعْمَتِكَ ، ثُمَّ اعْرِفْ لَهُمْ
حَقَّ طَاعَتِهِمْ ، وَوَسِيلَةَ دَلَّتِهِمْ ، وَمَا تَبَّ سَابِقَتِهِمْ ، وَحُرْمَةَ مَنَاصِحَتِهِمْ ، بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ ،
وَالْتَوْسِيعَةِ عَلَيْهِمْ ، وَالْإِثَابَةِ لِحُسْنِهِمْ ، وَالْإِقَالَةَ لِسَيِّئِهِمْ .

أَيُّ بَنِي ، ثُمَّ عَلَيْكَ الْعَامَّةَ . فَاسْتَدْعِ رِضَاهَا بِالْعَدْلِ عَلَيْهَا ، وَاسْتَجْلِبْ مَوَدَّتَهَا
بِالْإِنصَافِ لَهَا ، وَتَحَسَّنْ بِذَلِكَ لِرَبِّكَ ، وَتَوَثَّقْ بِهِ فِي عَيْنِ رِعْيَتِكَ ، وَاجْعَلْ عُجْمَالَ الْعُدْرِ
وَوُؤَالَاتِ الْحَجَجِ مُقَدِّمَةً بَيْنَ يَدَيْ عَمَلِكَ ، وَنَصِيفَةَ مَنكَ لِرِعْيَتِكَ ، وَذَلِكَ أَنْ تَأْمُرَ قَاضِيَ
كُلِّ بَلَدٍ ، وَخِيَارَ أَهْلِ كُلِّ مِصْرٍ ، أَنْ يَخْتَارُوا لِأَنْفُسِهِمْ رِجَالًا تَوَلِيَهُ أَمْرَهُمْ ، وَتَجْعَلَ
الْعَدْلَ حَاكِمًا بَيْنَهُمْ ، فَإِنْ أَحْسَنَ نُحِدَتَ ، وَإِنْ أَسَاءَ عُذِرْتَ . هُوَلاءُ عَمَّالِ
الْعُدْرِ ، وَوُؤَالَاتِ الْحَجَجِ ، فَلَا يَسْقُطَنَّ عَلَيْكَ مَا فِي ذَلِكَ إِذَا انْتَشَرَ فِي الْآفَاقِ ، وَسَبَقَ إِلَى
الْأَسْمَاعِ مِنْ انْعِقَادِ أَلْسِنَةِ الْمُرْجِفِينَ ، وَكَبَتْ قُلُوبَ الْحَاسِدِينَ ، وَإِطْفَاءَ نِيرَانِ الْحُرُوبِ ،
وَسَلَامَةَ عَوَاقِبِ الْأُمُورِ ، وَلَا يَنْفَكَنَّ فِي ظِلِّ كِرَامَتِكَ نَازِلًا ، وَبِعُرَا حَبْلِكَ مُتَعَلِّقًا ،
رِجَالَانِ : أَحَدُهُمَا كَرِيمَةٌ مِنْ كِرَامَتِ رِجَالَاتِ الْعَرَبِ ، وَأَعْلَامُ بِيُوتَاتِ الشَّرْفِ ، لَهُ أَدَبٌ
فَاضِلٌ ، وَحِلْمٌ رَاجِحٌ ، وَدِينٌ صَحِيحٌ ، وَالْآخِرُ لَهُ دِينٌ غَيْرُ مَغْمُوزٍ ، وَمَوْضِعٌ غَيْرُ مَدْخُولٍ ،
بَصِيرٌ بِتَقْلِيْبِ الْكَلَامِ ، وَتَصْرِيفِ الرَّأْيِ ، وَأَنْجَاءِ الْعَرَبِ ، وَوَضْعِ الْكُتُبِ ، عَالِمٌ
بِحَالَاتِ الْحُرُوبِ ، وَتَصَارِيفِ الْخُطُوبِ ، يَضَعُ آدَابًا نَافِعَةً ، وَآثَارًا بَاقِيَةً ، مِنْ مَحَاسِنِكَ
وَتَحْسِينِ أَمْرِكَ ، وَتَحْلِيَةِ ذِكْرِكَ ، فَتَسْتَشِيرُهُ فِي حَرْبِكَ ، وَتَدْخُلُهُ فِي أَمْرِكَ ، فَرَجُلٌ
أَصَبَتْهُ كَذَلِكَ ، فَهُوَ يَاوِي إِلَى مَحَلَّتِي ، وَيُرْعَى فِي خُضْرَةِ جَنَانِي ، وَلَا تَدْعُ أَنْ تَخْتَارَ
لَكَ مِنْ فَهَاءِ الْبُلْدَانِ ، وَخِيَارِ الْأَمْصَارِ ، أَقْوَامًا يَكُونُونَ جِيرَانِكَ وَنُصْرًا ، وَأَهْلًا

مشاورتك فيما تُورد ، وأصحاب مناظرتك فيما تُصدر ، فسرّ على بركة الله ، أصحّبك الله من عونه وتوفيقه دليلاً يَهْدِي إلى الصواب قلبك ، وهادياً يُنطق بالخير لسانك .
وكتب في شهر ربيع الآخر سنة سبعين ومائة ببغداد^(١) .
(العقد الفريد ١ : ٥٧)

٦٨ - ابن عتبة يعزى المهدي ويهنته

لما توفّي المنصور دخل ابن عتبة^(٢) مع الخطباء على المهديّ ، فسلمّ فقال :
« آجر الله أمير المؤمنين على أمير المؤمنين قبله ، وبارك الله لأمر المؤمنين فيما خلقه له أمير المؤمنين بعده ، فما مصيبةٌ أعظم من فقد أمير المؤمنين ، ولا عُقبي أفضل من وراثته مقام أمير المؤمنين ، فأقبل يا أمير المؤمنين من الله أفضل العطية ، واحتسب عند الله أفضل الرزية » .
(البيان والبيان ٢ : ١٠٣ ، والعقد الفريد ٢ : ٢٥)

٦٩ - يعقوب بن داود يستعطف المهدي

لما سَخِط المهدي على وزيره يعقوب بن داود^(٣) أحضره ، فقال : يا يعقوب ، قال : كَبَيْك يا أمير المؤمنين ، تَلْبِيَةَ مَكْرُوبٍ لِمَوْجِدَتِكَ ، شَرِقَ بَغُصَّتِكَ ، قال :

(١) ملاحظة : أقول : وهذا يناق ما ورد في التاريخ : إذ المعروف أن المهدي توفّي في المحرم سنة ١٦٩ وأمه الهادي ، الذي توفّي في ربيع الأول سنة ١٧٠ ، فكيف يكون تاريخ كتابة هذه المشاورة هو ربيع الآخر سنة ١٧٠ أي بعد وفاة المهدي والهادي ، مع أنه ذكر في سياق خبرها أن المهدي أمر محمد بن الليث بحفظ مراجعهم ، وإثبات مقالاتهم في كتاب ، أي أنها كتبت في المجلس الذي حدثت فيه المشاورة . ولما ورد في التاريخ أيضاً أن الهادي خرج إل جرجان سنة ١٦٦ و ١٦٧ (راجع تاريخ الطبري ج ١٠ ص ٧ - ٨) اللهم إلا أن يقال إنها كتبت في مجلس المشاورة ، وبقيت محفوظة لدى كاتبها ، حتى نشرت للناس في ربيع الآخر سنة ١٧٠ أي أن ذلك التاريخ هو تاريخ كتابتها لإعلانها للجمهور ، عل أننا نتشكك فيها من وجهة أخرى ، وذلك لما نراه عليها من مـحة للكتابة الفنية المنصقة .
(٢) وفي العقد الفريد « أبو العيناء المحدث » .
(٣) وكان المهدي قد فوض إليه الأمور كلها ، وسلم إليه الدواوين ، وقدمه على جميع الناس ، ثم سَخِط عليه . وسبب ذلك أنه دفع إليه رجلاً من العلويين ، وقال له : أحب أن تكفي أمره ، فلما صار للعلوي -

« ألم أرفع قدرك وأنت حامل ، وأسيرٌ ذكرك وأنت هامل ، وألبسك من نعم الله تعالى ونعمي ما لم أجدُ عندك طاقةً لحمله ، ولا قياماً بشكره ؟ فكيف رأيت الله تعالى أظهر^(١) عليك ، وردَّ كيدك إليك ! » .

قال : « يا أمير المؤمنين ، إن كنت قلت هذا بتيقن وعلم فإني معترف ، وإن كان بسعاية الباغين ، ونمائم المعاندين ، فأنت أعلمُ بأكثرها ، وأنا عائذٌ بكرمك ، وعميم شرفك » .

فقال : لولا الحنث^(٢) في دمك لألبستك قميصاً لاتشد عليه أزراراً ، ثم أمر به إلى السجن ، فتولى وهو يقول : « الوفاء يا أمير المؤمنين كرم ، والمودة رحيم ، وما على العفو ندم ، وأنت بالعفو جدير ، وبالحماسن خَلِيق » ، فأقام في السجن إلى أن أخرجه الرشيد . (زهر الآداب ٣ : ٢٠٧)

٧٠ - رجل من أهل خراسان يخطب محضرة المهدي

وقدِم على المهدي رجل من أهل خراسان ، فقال : « أطال الله بقاء أمير المؤمنين ، إنا قوم تائبنا عن العرب ، وشغلتنا الحروبُ عن الخطب ، وأمير المؤمنين يعلم طاعتنا ، وما فيه مصلحتنا ، فيكتفي منا باليسير عن الكثير ، ويقتصر على مافي الضمير ، دون التفسير » ، فقال المهدي : أنت أخطب من سمعته . (الصناعتين ص ٤٠)

١ - ويده ، قال له : يا يعقوب تلق الله بدمي ، وأنا ابن علي بن أبي طالب ، وابن فاطمة رضي الله عنها ، وليس لي إليك ذنب ؟ فرق له ، ودخل سبيله ، ونهى الخبر إلى المهدي ، فأرسل في طلب العلوي حتى ظفر به ، واستدعى يعقوب ، فقال : ما فعلت بالعلوي ؟ قال : قد أراح الله منه أمير المؤمنين ، قال : مات ؟ قال : نعم ، فاستحلفه ، فحلف له « فأخرج إليه العلوي ، فلم يجر جواباً ، فأمر بهجسه في بئر مظلمة ، ومازاله محبوساً حتى عفا عنه الرشيد وتوفي سنة ١٨٦ هـ . (١) أي أعان عليك .

(٢) في الأصل « الحسب » وأرى أنها محرقة عن « الحنث » وهو الذنب العظيم والإثم .

٧١ - مقام صالح بن عبد الجليل بين يدي المهدي

دخل صالح بن عبد الجليل على المهدي ، فسأله أن يأذن له في الكلام ، فقال : تكلم فقال :

« إنه لما سهل علينا ما توعدّ على غيرنا من الوصول إليك ، قمنا مقام الأداء عنهم وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بإظهار ما في أعناقنا من فريضة الأمر والنهي ، عند انقطاع عذر الكتمان ، ولا سيما حين اتّسمت بميسم التواضع ، ووعدت الله وحملته كتابه إثارة الحق على ما سواه ، فجمعنا وإياك مشهد من مشاهد التخصيص ، ليتم مؤدبنا على موعود الأداء عنهم ، وقابلنا على موعود القبول ، أو يزيدنا تمحيص الله إيانا في اختلاف السر والعلانية ، ويحلينا حلية الكذابين ، فقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : « من حجب الله عنه العلم ، عذبه على الجهل ، وأشد منه عذاباً من أقبل إليه العلم وأدبر عنه ، ومن أهدى الله إليه علماً فلم يعمل به ، فقد رغب عن هدية الله وقصر بها » ، فأقبل ما أهدى الله إليك من أسنتنا ، قبول تحقيق وعمل لا قبول سُمعة ورياء ، فإنه لا يعدمك منا إعلام لما تجهل ، أو مواطأة على ما تعلم ، أو تذكير لك من غفلة ، فقد وطن الله عز وجل نبيه عليه الصلاة والسلام على نزولها ، تعزية عما فات ، وتمحصيناً من التماذي ، ودلالة على المخرج ، فقال : « وَإِنَّمَا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ، إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » وَأَطْلِعَ اللَّهُ عَلَى قَابِكَ ، بما بنور الله به القلوب ، من إثارة الحق ، ومنابذة الأهواء فإنك إن لم تفعل ذلك ير أترك وأتر الله عليك فيه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

٧٢ - عظة شبيب بن شيبه للمهدى

وقال شبيب بن شيبه^(١) للمهدى : « يا أمير المؤمنين ، إن الله إذ قَسَمَ الأقسام في الدنيا ، جعل لك أسنانها وأعلاها ، فلا ترض لنفسك من الآخرة ، إلا مثل ما رضى لك به من الدنيا ، فأوصيك بتقوى الله ، فعليكم نزلت ، ومنكم أخذت ، وإليكم تُرَدُّ » .
(العقد الفريد ١ : ٣٠٧)

٧٣ - خطبته في تعزية المهدي بابفته

لما ماتت البانوقة بنت المهدي ، جَزَع عليها جزعاً لم يُسمع بمثله ، فجلس للناس يعزونه ، وأمر ألا يُحجَب عنه أحد ، فأكثر الناس في التعازي ، واجتهدوا في البلاغة ، وفي الناس من ينتقد هذا عليهم من أهل العلم والأدب ، فأجمعوا على أنهم لم يسمعوا تعزية أوجز ، ولا أبلغ ، من تعزية شبيب بن شيبه ، فإنه قال :
« أعطاك الله يا أمير المؤمنين على ما رزيت أجراً ، وأعقبك صبراً ، ولا أجهد الله بلاءك بنقمة ، ولا نزع منك نعمة ، ثوابُ الله خيرٌ لك منها ، ورحمة الله خير لها منك وأحقُّ ما صُبرَ عليه مالا سبيل إلى رده^(١) » .
(تاريخ الطبري ١٠ : ٢١)

٧٤ - خطبة أخرى له في مدح الخليفة

قيل لبعض الخلفاء إن شبيب بن شيبه يستعمل الكلام ويستعدله ، فلو أمرته أن يصعد المنبر فجأة لرجوت أن يفتضح ، فأمر رسولا فأخذ بيده إلى المسجد فلم يفارقه حتى صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم حق الصلاة عليه ، ثم قال :

(١) هو شبيب بن شيبه بن عبد الله بن عمرو بن الأهم المنقري التميمي وهو ابن عم خالد بن صفوان .
توفي في حدود سنة ١٧٠ هـ .
(٢) روى صاحب العقد أن شيبيا عزي بهذا المقال المنصور على أخته أبي العباس (العقد الفريد ٢ : ٣٥) .

« ألا إن لأمير المؤمنين أشباها أربعة: الأسد الخادر^(١) ، والبحر الزاخر ، والقمر
الياهر ، والربيع الناضر ؛ فأما الأسد الخادر : فأشبه منه صولته وَمَضَاهُ ؛ وأما البحر
الزاخر : فأشبه منه جوده وعطاءه ؛ وأما القمر الباهر : فأشبه منه نوره وَضِيَاءَهُ ؛
وأما الربيع الناضر : فأشبه منه حسنه وبهاءه ، ثم نزل وأنشأ يقول :

وموقفٍ مثل حدِّ السيف قتُّ به أحمي الذمار وترميني به الحدق^(٢)
فما زلقت ، وما ألقيت كاذبةً إذا الرجال على أمثاله زلقوا

(المعقذ الفريد ٢ : ١٥٨ ، ١ : ١٣٨ ، زهر الآداب ٣ : ٢٠٩)

٧٥ - كلمات لشيب بن شيبه

وقال شيب : « اطلب الأدب ، فإنه دليل على المرأة ، وزيادة في العقل ،
وصاحب في العربة ، وصلة في المجلس » .

وقال له هدى يوماً : « أراك الله في بنيك ، ما أرى أباك فيك ، وأرى الله بنيك
فيك ، ما أراك في أبيك » .
(البيان والتبيين ١ : ١٩٠)

وخرج من دار الخلافة يوماً ، فقال له قائل : كيف رأيت الناس ؟ قال : « رأيت
الداخل راجياً ، والخارج راضياً » .

(البيان والتبيين ١ : ١٩٠ ، وزهر الآداب ٣ : ١٢٩)

٧٦ - خطبة يوسف بن القاسم بن صبيح الكاتب

يوم ولي الرشيد الخلافة

روى الطبري قال : لما كانت الليلة التي توفي فيها موسى الهادي ، أخرج هرمة
ابن أعين هرون الرشيد ليلاً ، فأقعدته للخلافة ، فدعا هرون يحيى بن خالد بن برمك

(١) الخدر : أجرة الأسد ومنه يقال أسد خادر ، وأخدر الأسد : لزم الأجرة . وأخدر العين الأسد :
ستره فهو نخدر بكسر الدال وفتحها . (٢) الذمار : مانج حيايته .

- وكان محبوساً - وقد كان عزم موسى على قتله ، وقتل هرون الرشيد في تلك الليلة^(١) فحضر يحيى ، وتقلد الوزارة ، ووجه إلى يوسف بن القاسم بن صبيح الكاتب ، فأحضره وأمره بإنشاء الكتب ، فلما كان غداة تلك الليلة وحضر القواد ، قام يوسف ابن القاسم ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

« إن الله بِمَنِّهِ وَلَطْفِهِ ، مَنْ عَالِمٌ مَعَاشِرَ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّهِ ، بَيْتِ الْخِلاَفَةِ ، وَمَعْدِنِ الرِّسَالَةِ ، وَإِيَّاكُمْ أَهْلَ الطَّاعَةِ مِنْ أَنْصَارِ الدَّوْلَةِ وَأَعْوَانِ الدَّعْوَةِ ، مِنْ نِعْمِهِ الَّتِي لَا تَحْصَى بِالْعَدَدِ ، وَلَا تَنْقِضِي مَدَى الْأَبَدِ ، وَأَيَادِيهِ النَّامَةِ ، أَنْ جَمَعَ الْفَتْكُمْ ، وَأَعْلَى أَمْرِكُمْ ، وَشَدَّ عَضُدَكُمْ ، وَأَوْهَنَ عَدُوَكُمْ ، وَأَظْهَرَ كَلِمَةَ الْحَقِّ ، وَكُنْتُمْ أَوْلَى بِهَا وَأَهْلَهَا ، فَأَعَزَّكُمْ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ، فَكُنْتُمْ أَنْصَارَ دِينِ اللَّهِ الْمُرْتَضَى ، وَالذَّابِّينَ بِسَيْفِهِ الْمُنْتَضَى ، عَنْ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، إِيَّاكُمْ اسْتَنْقَضَهُمْ مِنْ أَيْدِي الظَّلَمَةِ أُمَّةِ الْجُورِ ، وَالنَّاقِضِينَ عَهْدَ اللَّهِ ، وَالسَّافِكِينَ الدَّمَ الْحَرَامَ ، وَالْآكِلِينَ النَّفْيَ وَالْمُسْتَأَثِرِينَ بِهِ ، فَاذْكُرُوا مَا أَعْطَاكُمْ اللَّهُ مِنْ هَذِهِ النِّعْمَةِ ، وَاحذَرُوا أَنْ تَغْيُرُوا فَيَغْيُرَ بِكُمْ ، وَإِنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ اسْتَأْثَرَ بِخَلِيفَتِهِ مُوسَى الْهَادِي الْإِمَامَ ، فَقبضَهُ إِلَيْهِ ، وَوَلَّى بَعْدَهُ رَشِيدًا مَرْضِيًّا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِكُمْ رَهْوَفًا رَحِيمًا ، مِنْ مَحْسَنِكُمْ قَبُولًا ، وَعَلَى مَسِيئِكُمْ بِالْعَفْوِ عَطُوفًا ، وَهُوَ - أَمْتُهُ اللَّهُ بِالنِّعْمَةِ ، وَحَفِظَ لَهُ مَا اسْتَرَعَاهُ إِيَّاهُ مِنْ أَمْرِ الْأُمَّةِ ، وَتَوَلَّاهُ بِمَا تَوَلَّى بِهِ أَوْلِيَاءَهُ وَأَهْلَ طَاعَتِهِ - يَعِدُّكُمْ مِنْ نَفْسِهِ الرَّأْفَةَ بِكُمْ ، وَالرَّحْمَةَ لَكُمْ ، وَقَسَمَ أَعْطِيَاتِكُمْ فَيْكُمْ عِنْدَ اسْتِحْقَاقِكُمْ ، وَيَبْذُلُ لَكُمْ مِنَ الْجَائِزَةِ ، مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى الْخُلَفَاءِ ، مِمَّا فِي بَيْوتِ الْمَالِ مَا يَنْبَغُ عَنْ رِزْقِ كَذَا وَكَذَا شَهْرًا ، غَيْرَ مُقَاسِّ لَكُمْ بِذَلِكَ فِيمَا تَسْتَقْبِلُونَ مِنْ أَعْطِيَاتِكُمْ وَحَامِلًا بَاقِيَ ذَلِكَ لِلدَّفْعِ عَنْ حَرِيمِكُمْ ، وَمَا لَعَلَّ أَنْ يَحْدُثَ فِي النُّوَاحِي وَالْأَقْطَارِ مِنْ

(١) وكان الهادي يريد أن يجعل الخلافة في ابنه جعفر ، ويخلف أخاه هارون. وسمى إلى الهادي يحيى ابن خالد ، وقيل له إنه ليس عليك من هرون خلاف ، وإنما يفسده يحيى بن خالد ، فأغضب ذلك موسى الهادي على يحيى وأمر به بيه .

العصاة المارقين ، إلى بيوت الأموال ، حتى تعود الأموال إلى جوامها^(١) وكثرتها ،
والحال التي كانت عليها ، فاحمدوا الله وجددوا شكراً يُوجب لكم المزيد من
إحسانه إليكم ، بما جدّد لكم من رأى أمير المؤمنين ، وتفضل به عليكم ، أيده الله
بطاعته ، وارغبوا إلى الله له في البقاء ، ولكم به في إدامة النعماء ، لعلكم ترحمون ،
وأعطوا صفة أيمانكم ، وقوموا إلى بيعتكم ، حاطكم الله وحاط عليكم ، وأصلح بكم
وعلى أيديكم ، وتولاكم ولاية عباده الصالحين . (تاريخ الطبري ١٠ : ٤٨)

٧٧ - خطبة هرون الرشيد (توفي سنة ١٩٣ هـ)

« الحمد لله حمده على نعمه ، ونستعينه على طاعته ، ونستنصره على أعدائه ،
ونؤمن به حقاً ، ونتوكل عليه ، مفرّضين إليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، بعثه على فترة من الرسل ، ودروس^(٢)
من العلم ، وإدبار من الدنيا ، وإقبال من الآخرة ، بشيراً بالنعيم المقيم ، ونذيراً بين
يدى عذاب أليم ، فبلغ الرسالة ، ونصح الأمة ، وجاهد في الله ، فأدى عن الله وعده
ووعيده ، حتى أتاه اليقين ، فعلى النبي من الله صلاة ورحمة وسلام .

أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، فإن في التقوى تكفير السيئات ، وتضعيف
الحسنات ، وفوزاً بالجنة ، ونجاة من النار ، وأحذركم يوماً تشخص^(٣) فيه الأبصار ،
وتعلن فيه الأسرار ، يوم البعث ، ويوم التغابن^(٤) ، ويوم التلاق ، ويوم التناد ،
يوم لا يستغتب من سيئته ، ولا يزداد من حسنة ، يوم الآزفة^(٥) ، إذ القلوب لدى
المنابر كاطمين ، ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ، يعلم خائنة الأعين^(٦)

(١) كثرتها . (٢) دروس : احماء . (٣) شخص بعصره كنعن : فتح عينيه ، وجعل لاه طرف .

(٤) يوم القيامة ، وسمى بذلك لأن أهل الجنة تغيب فيه أهل النار بأخذ منازلهم في الجنة أو آمنوا .

(٥) الآزفة ، من أرف كفرح : دنا وقرب . (٦) بمسارتها للنظر إلى الحرم .

وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ، وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ
وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ .

عباد الله : إنكم لم تُخلَقُوا عبثًا ، ولن تُتْرَكَوا سُدَى ، حصَّنوا إيمانكم بالأمانة ،
ودينكم بالورع ، وصلاتكم بالزكاة ، فقد جاء في الخبر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
« لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له ، ولا صلاة لمن لا زكاة له » .
إنكم سَفَرٌ^(١) مجتازون ، وأتم عن قريب تنقلون من دار فناء إلى دار بقاء ، فسارعوا
إلى المغفرة بالتوبة ، وإلى الرحمة بالتقوى ، وإلى الهدى بالأمانة ، فإن الله تعالى ذكره
أوجب رحمته للمتقين ، ومغفرته للتائبين ، وهداه للمُنِيبين . قال الله عز وجل وقوله
الحق : « وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ، فَاسَأْ كُتُبَهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ » ،
وقال : « وَإِنِّي لَفَقَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى » وإياكم والأمانى ،
فقد غرَّت وأرذت^(٢) ، وأوبقت كثيرا ، حتى أ كذبتهم منايهم ، فتناوشوا^(٣)
التوبة من مكان بعيد ، وحيل بينهم وبين ما يشتهون ، فأخبركم ربكم عن المثلث فيهم
وصرف الآيات ، وضرب الأمثال ، فرغب بالوعد ، وقدم إليكم الوعيد ، وقد رأيتم
وقائعهم بالقرون الخوالي جيلًا فجيلًا ، وعهدتم الآباء والأبناء والأحبة والعشائر ،
باختطاف الموت إياهم من بيوتكم ، ومن بين أظهركم ، لاتدفعون عنهم ، ولا تحولون
دونهم ، فزالت عنهم الدنيا ، وانقطعت بهم الأسباب ، فأسلمتهم إلى أعمالهم عند
المواقف والحساب والعقاب ، « لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا ، وَيَجْزِيَ الَّذِينَ
أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى » . إن أحسن الحديث وأبلغ الموعظة كتاب الله ؛ يقول الله عز وجل
« وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » أعوذ بالله من
الشیطان الرجيم إنه هو السميع العليم ، بسم الله الرحمن الرحيم : قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ .

الله الصّدُّ . لَمْ يَلِدْ . وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ . أَمْرُكُمْ بِمَا أَمَرَكم اللهُ بِهِ ،
وَأَنهَاكُمْ عَمَّا نَهَاكُمْ عَنْهُ ، وَأَسْتَغْفِرُ اللهُ لِي وَلَكُمْ . (المقدّم الفريد ٢ : ١٤٧)

٧٨ - وصية الرشيد لمؤدب ولده الأمين

وَوَصَى الرَّشِيدُ مُؤَدِّبَ وَلَدِهِ الْأَمِينِ ، فَقَالَ :

« يَا أَحْمَرَ^(١) ، إِنْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ دَفَعَ إِلَيْكَ مُهْجَةً نَفْسِهِ ، وَثَمَرَةَ قَلْبِهِ ، فَصَيِّرْ
يَدَكَ عَلَيْهِ مَبْسُوطَةً ، وَطَاعَتَهُ لَكَ وَاجِبَةً ، فَكُنْ لَهُ بِحَيْثُ وَضَعَكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ،
أَقْرَبَهُ الْقُرْآنَ ، وَعَرَفَهُ الْأَخْبَارَ ، وَرَوَّهَ الْأَشْعَارَ ، وَعَلَّمَهُ السَّنَنَ ، وَبَصَّرَهُ بِمَوَاقِعِ الْكَلَامِ
وَبَدَائِهِ ، وَامْنَعَهُ مِنَ الضَّحِكِ إِلَّا فِي أَوْقَاتِهِ ، وَخُذْهُ بِتَعْظِيمِ مَشَائِخِ بَنِي هَاشِمٍ إِذَا دَخَلُوا
عَلَيْهِ ، وَرَفَعِ مَجَالِسِ الْقَوَادِ إِذَا حَضَرُوا مَجَاسِمَهُ ، وَلَا تَمَرَّنَنَّ بِكَ سَاعَةً إِلَّا وَأَنْتَ مَغْتَمٌّ
فَائِدَةً تُفِيدُهُ إِيَّاهَا ، مِنْ غَيْرِ أَنْ تُحْزِنَهُ ، فَتُمِيتَ ذِهْنَهُ ، وَلَا تُتَمَعِّنَنَّ فِي مَسَاحَتِهِ ، فَيَسْتَحِلِّيَ
الْفِرَاقَ وَيَأْلَفَهُ ، وَقَوْمَهُ مَا اسْتَطَعْتَ بِالْقُرْبِ وَالْمَلَايِنَةِ ، فَإِنَّ أَبَاهَا فَعَلِيكَ بِالشَّدَةِ وَالْعِلَظَةِ » .

(مقدمة ابن خلدون ص ٦٣٢)

٧٩ - خطبة لجعفر بن يحيى البرمكي (قتل سنة ١٨٧ هـ)

وَهَاجَتِ الْعَصْبِيَّةُ بِالشَّامِ بَيْنَ أَهْلِهَا فِي عَهْدِ الرَّشِيدِ (سنة ١٨٠ هـ) وَتَفَاقَمَ أَمْرُهَا ،
فَانْتَمَّ لِذَلِكَ الرَّشِيدِ ، وَعَقَدَ لَجَعْفَرَ بْنَ يَحْيَى عَلَى الشَّامِ ، وَقَالَ لَهُ : إِمَّا أَنْ تُخْرِجَ أَنْتَ
أَوْ أُخْرِجَ أَنَا ، فَقَالَ لَهُ جَعْفَرٌ : بَلْ أَقْبِيكَ بِنَفْسِي ، فَشَخَّصَ فِي جِلَّةِ الْقَوَادِ وَالْكَرَاعِ
وَالسَّلَاحِ ، فَأَتَاهُمْ فَأُصْلِحَ بَيْنَهُمْ ، وَقَتَلَ زَوَاقِلَهُمْ^(٢) وَالمْتَلِصَّةَ مِنْهُمْ ، وَلَمْ يَدْعُ بِهَا رَحْمًا
وَلَا فِرْسًا ، فَعَادُوا إِلَى الْأَمْنِ وَالمَطْمَأْنِينَةِ ، وَأَطْفَأَ تِلْكَ النَّارَ .

(١) هو هل بن المبارك الأحمر صاحب الكسائي، وكان يؤدب الأمين، وكان مشهوراً بالنحو واتساع

اللفظ ، ومات سنة ٢٠٦ ، أو سنة ٢٠٧ . انظر ترجمته في «نزهة الألبان في طبقات الأدباء» ص ١٢٥ .

(٢) الزواقيل : القصوص .

فَلَمَّا قَدِمَ عَلَى الرَّشِيدِ دَخَلَ عَلَيْهِ ، فَقَبَّلَ يَدَيْهِ وَرَجَلَيْهِ ، ثُمَّ مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَقَالَ :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِي آانسَ وَحَشَتِي ، وَأَجَابَ دَعْوَتِي ، وَرَحِمَ تَضَرُّعِي ، وَأَنَسًا^(١) فِي أَجْلِي ، حَتَّى أَرَانِي وَجْهَ سَيِّدِي ، وَأَكْرَمَنِي بِقُرْبِهِ ، وَأَمَتَّنَّ عَلَى بَتَقْبِيلِ يَدَيْهِ ، وَرَدَّنِي إِلَى خِدْمَتِهِ ، فَوَاللَّهِ إِنْ كُنْتُ لِأَذْكَرَ غَيْبَتِي عَنْهُ ، وَنَحْرَجِي وَالْمَقَادِيرَ الَّتِي أَرْجَعْتَنِي ، فَأَعْلَمُ أَنَّهَا كَانَتْ بِمَعَاصِي لِحَقَّتِي ، وَخَطَايَا أَحَاطَتْ بِي ، وَلَوْ طَالَ مُقَامِي عَنْكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ - لَخِفْتُ أَنْ يَذْهَبَ عَقْلِي ، إِشْفَاقًا عَلَى قُرْبِكَ ، وَأَسْفَاً عَلَى فِرَاقِكَ ، وَأَنْ يَعْجَلَ بِي عَنْ إِذْنِكَ الْإِشْتِيَاقُ إِلَى رُؤْيَتِكَ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَصَمَنِي فِي حَالِ الْغَيْبَةِ ، وَأَمْتَعَنِي بِالْعَافِيَةِ ، وَعَرَفَنِي بِالْإِجَابَةِ ، وَمَسَّكَنِي بِالطَّاعَةِ ، وَحَالَ بَيْنِي وَبَيْنَ اسْتِعْمَالِ الْعِصْيَةِ ، فَلَمْ أَشْخَصْ إِلَّا عَنْ رَأْيِكَ ، وَلَمْ أَقْدَمْ إِلَّا عَنْ إِذْنِكَ وَأَمْرِكَ ، وَلَمْ يَحْتَرِمْنِي أَجَلٌ دُونَكَ ، وَاللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - فَلَا أَعْظَمَ مِنَ الْيَمِينِ بِاللَّهِ - لَقَدْ عَايَنْتُ مَا لَوْ تَعَرَّضَ لِي الدُّنْيَا كُلُّهَا ، لَاخْتَرْتُ عَلَيْهَا قُرْبَكَ ، وَلَمَّا رَأَيْتَهَا عِوَضًا مِنَ الْمَقَامِ مَعَكَ » .

ثم قال له بعقب هذا الكلام في هذا المقام :

« إِنْ اللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَمْ يَزَلْ يُبَيِّلِكَ^(٢) فِي خِلَافَتِكَ ، بِقَدْرِ مَا يَعْلَمُ مِنْ نِيَّتِكَ ، وَيُرِيكَ فِي رِعْيَتِكَ غَايَةَ أَمْنِيَّتِكَ ، فَيُصَلِّحُ لَكَ جَمَاعَتَهُمْ ، وَيَجْمَعُ أَلْفَتَهُمْ ، وَيَلْمُ شَعَثَهُمْ ، حِفْظًا لَكَ فِيهِمْ ، وَرَحْمَةً لَهُمْ ، وَإِنَّمَا هَذَا لِتَمَسَّكَ بِطَاعَتِكَ ، وَالْإِعْتِصَامَ بِحَبْلِ مَرَضَاتِكَ ، وَاللَّهُ الْحَمِيدُ عَلَى ذَلِكَ وَهُوَ مُسْتَحَقُّهُ . وَفَارَقْتُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَهْلَ كُورِ الشَّامِ وَهُمْ مُنْقَادُونَ لِأَمْرِكَ ، نَادِمُونَ عَلَى مَا فَرَّطَ مِنْ مَعْصِيَتِهِمْ لَكَ ، مَتَمَسِّكُونَ بِحَبْلِكَ ، نَازِلُونَ عَلَى حُكْمِكَ ، طَالِبُونَ لِعَفْوِكَ ، وَآثِقُونَ بِحِلْمِكَ ، مُؤْمِنُونَ بِفَضْلِكَ ، آمِنُونَ بِإِدْرَتِكَ ، حَالِهِمْ فِي اتِّتْلَافِهِمْ كَحَالِهِمْ كَانَتْ فِي اخْتِلَافِهِمْ ، وَحَالِهِمْ فِي أَلْفَتِهِمْ كَحَالِهِمْ

كانت في امتناعهم ، وَعَفُو أمير المؤمنين عنهم ، وَتَعَمُّدُهُ^(١) لهم ، سابقٌ لمعذرتهم ،
 وَصَلَةُ أمير المؤمنين لهم ، وَعَظْفُهُ عليهم ، متقدِّمٌ عنده لسألتهم ، وَإِيْمَ اللهُ يا أمير المؤمنين
 لِئِنْ كُنْتُ قد شَخَّصْتُ عنهم ، وَقَدْ أَخَذَ اللهُ شِرَارَهُمْ ، وَأَطْفَأَ نارَهُمْ ، وَنَفَى مُرَاقِبَهُمْ^(٢) ،
 وَأَصْلَحَ دَهْمَهُمْ^(٣) ، وَأَوْلَانِي الْجَمِيلَ فِيهِمْ ، وَرَزَقَنِي الْإِنْتِصَارَ مِنْهُمْ ، فَمَا ذَلِكَ كُلُّهُ :
 إِلَّا بِرِكَتِكَ وَبِعَيْنِكَ وَرِيحِكَ^(٤) ، وَدَوَامِ دَوْلَتِكَ السَّعِيدَةِ الْيَمُونَةِ الدَّائِمَةِ ، وَتَخَوُّفِهِمْ
 مِنْكَ ، وَرَجَائِهِمْ لَكَ . وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا تَقَدَّمْتُ إِلَيْهِمْ إِلَّا بِوَصِيَّتِكَ ، وَمَا عَامَلْتَهُمْ
 إِلَّا بِأَمْرِكَ ، وَلَا سِرْتُ فِيهِمْ إِلَّا عَلَى حَدِّ مَا مَثَلْتَهُ لِي وَرَسَمْتَهُ ، وَوَقَّفْتَنِي عَلَيْهِ ، وَوَاللَّهِ
 مَا اتَّقَادُوا إِلَّا لِإِدْعَاؤِكَ ، وَتَوَحُّدِ^(٥) اللهِ بِالصُّنْعِ لَكَ ، وَتَخَوُّفِهِمْ مِنْ سَطْوَتِكَ . وَمَا كَانَ
 الَّذِي كَانَ مِنِّي ، وَإِنْ كُنْتُ قد بذلتُ جهدي ، وَبَلَغْتُ مجهودي ، قَاضِيًا بَعْضَ حَقِّكَ
 عَلَيَّ ، بَلْ مَا أَزْدَادَتْ نِعْمَتُكَ عَلَيَّ عِظْمًا ، إِلَّا أَزْدَدْتُ عَنْ شُكْرِكَ مَجْزَأً وَضَعْفًا ،
 وَمَا خَلَقَ اللهُ أَحَدًا مِنْ رِعِيَّتِكَ ، أَبْعَدَ مِنْ أَنْ يُطِيعَ نَفْسَهُ فِي قِضَاءِ حَقِّكَ مِنِّي ،
 وَمَا ذَلِكَ إِلَّا أَنْ أكونَ بِأَذَلِّ مُهْجَتِي فِي طَاعَتِكَ ، وَكُلُّ مَا يَقْرُبُ إِلَيَّ مُوَافَقَتِكَ ،
 وَلَكِنِّي أَعْرِفُ مِنْ أَيْدِيكَ عِنْدِي مَا لَا أَعْرِفُ مِثْلَهَا عِنْدَ غَيْرِي ، فَكَيْفَ بِشُكْرِي !
 وَقَدْ أَصْبَحْتُ وَاحِدَ أَهْلِ دَهْرِي ، فَمَا صَنَعْتَهُ فِيَّ ؟ وَبِي ؟ أَمْ كَيْفَ بِشُكْرِي ! وَإِنَّمَا
 أَقْوَى عَلَى شُكْرِكَ يَا كَرَامَكَ إِيَّايَ ؟ ، وَكَيْفَ بِشُكْرِي ! وَلَوْ جَعَلَ اللهُ شُكْرِي
 فِي إِحْصَاءِ مَا أَوْلَيْتَنِي ، لَمْ يَأْتِ عَلَى ذَلِكَ عَدْدِي ؟ وَكَيْفَ بِشُكْرِي ! وَأَنْتَ كَهْفِي دُونَ
 كُلِّ كَهْفٍ لِي ؟ وَكَيْفَ بِشُكْرِي ! وَأَنْتَ لَا تَرْضَى لِي مَا أَرْضَاهُ لِي ؟ وَكَيْفَ بِشُكْرِي !
 وَأَنْتَ تَجِدُّدٌ مِنْ نِعْمَتِكَ عِنْدِي مَا يَسْتَفْرِقُ كُلَّ مَا سَلَفَ عِنْدَكَ لِي ؟ أَمْ كَيْفَ بِشُكْرِي !
 وَأَنْتَ تُدْسِنِي مَا تَقْدِمُ مِنْ إِحْسَانِكَ إِلَيَّ ، بِمَا تُجَدِّدُهُ لِي ؟ أَمْ كَيْفَ بِشُكْرِي ؟ وَأَنْتَ

(١) تَعَمُّدُهُ اللهُ بِرَحْمَتِهِ : غَمْرُهُ بِهَا . (٢) جَمْعُ مَارِقٍ : وَهُوَ الْخَارِجُ الْخَائِدُ .

(٣) الدَّهْمَاءُ : جَمَاعَةُ النَّاسِ . (٤) قَوْلِكَ .

(٥) تَوَحُّدُهُ اللهُ تَعَالَى بِعِصْمَتِهِ : عِصْمَتُهُ لَمْ يَكُلَّهُ إِلَّا غَيْرُهُ .

تَقَدَّمَنِي بِطَوْلِكَ عَلَى جَمِيعِ أَكْفَائِي؟ أَمْ كَيْفَ بِشُكْرِي! وَأَنْتَ وَلِيِّي؟ أَمْ كَيْفَ بِشُكْرِي! وَأَنْتَ الْمَكْرَمُ لِي؟ وَأَنَا أَسْأَلُ اللَّهَ الَّذِي رَزَقَنِي ذَلِكَ مِنْكَ مِنْ غَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ لَهُ إِذْ كَانَ الشُّكْرَ مَقْضُوراً عَنْ بُلُوغِ تَأْدِيَةِ بَعْضِهِ ، بَلْ دُونَ شِقْصٍ^(١) مِنْ عَشْرِ عَشِيرِهِ - أَنْ يَتَوَلَّى مَكَافَأَتَكَ عَنِّي ، بِمَا هُوَ أَوْسَعُ لَهُ وَأَقْدَرُ عَلَيْهِ ، وَأَنْ يَقْضِيَ عَنِّي حَقَّكَ ، وَجَلِيلَ مِنتِكَ ، فَإِنَّ ذَلِكَ بِيَدِهِ ، وَهُوَ الْقَادِرُ عَلَيْهِ . (تاريخ الطبري ١٠ : ٦٦)

٨٠ - استعطاف أم جعفر بن يحيى للرشيد

روى صاحب العقد قال :

« كَانَتْ أُمُّ جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى^(٢) - وَهِيَ فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدِ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ قَحْطَبَةَ - أَرْضَعَتْ الرَّشِيدَ مَعَ جَعْفَرٍ ، لِأَنَّهُ كَانَ رُبِّيَّ فِي حِجْرِهَا ، وَغُدِّيَ بِرِسْلِهَا^(٣) ، لِأَنَّ أُمَّهُ مَاتَتْ عَنْ مَهْدِهِ ، فَكَانَ الرَّشِيدُ يَشَاوِرُهَا مُظْهِراً لِإِكْرَامِهَا ، وَالتَّبَرُّكَ بِرَأْيِهَا ، وَكَانَ آتِي وَهُوَ فِي كِفَالَتِهَا أَنْ لَا يَحْجُبُهَا ، وَلَا اسْتَشْفَعَتْهُ لِأَحَدٍ إِلَّا شَفَعَهَا ، وَآلَتْ عَلَيْهِ أُمُّ جَعْفَرٍ أَنْ لَا دَخَلَتْ عَلَيْهِ إِلَّا مَأْذُوناً لَهَا ، وَلَا شَفَعَتْ لِأَحَدٍ مَقْتَرِفٍ ذَنْباً ، فَكَمَ أُسِيرٌ فَكَتَّ وَمُبْتَهَمٌ عِنْدَهُ فَتَحَّتْ ، وَمَسْتَعْلِقٌ مِنْهُ فَرَجَّتْ ، وَاحْتَجَبَ الرَّشِيدُ بَعْدَ قُدُومِهِ^(٤) ، فَطَلَبَتْ الْإِذْنَ عَلَيْهِ مِنْ دَارِ الْبَاقُونَةِ ، وَمَتَّتْ^(٥) بَوْسَائِلَهَا إِلَيْهِ ، فَلَمْ يَأْذَنْ لَهَا ، وَلَا أَمَرَ بِشَيْءٍ فِيهَا ، فَلَمَّا طَالَ ذَلِكَ بِهَا خَرَجَتْ كَاشِفَةً وَجْهَهَا ، وَاضِعَةً لِثَامِهَا ، مُحْتَفِيَةً^(٦) فِي مَشِيئِهَا ، حَتَّى صَارَتْ بِيَابِ قَصْرِ الرَّشِيدِ ، فَدَخَلَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ الْفَضْلِ الْحَاجِبُ ،

(١) الشقص : السهم والنصيب ، والعشير : جزء من عشرة كالمعشار والعشر .

(٢) كان البرامكة قد استأثروا بشئون الدولة وأموالها ، وغلَبوا الرشيد على سلطانه ، ولم يكن له معهم تصرف في ملكه ، ولم يبق له من الخلافة إلا رسمها وصورتها - وحديثهم في ذلك طويل ، ليس هاهنا موضعه - فعزم على نكبتهم ، حتى انتهز فرصة رجوعه معهم من الحج سنة ١٨٧ ، فقتل جعفر الهلالي في طريقه ، وقبض على يحيى وابنه الفضل وبقية البرامكة ، وحبسهم في سجن الزنادقة إلى أن ماتوا فيه ، واستصنى أولادهم وضياعهم . (٣) الرسل : اللبن .

(٤) أي من الحج . (٥) توسلت . (٦) احتق : مشى حافياً .

فقال : ظنُّر^(١) أمير المؤمنين بالباب ، في حالة تقلبِ شماتة الحاسد ، إلى شفقة أم الواحد ؛ فقال الرشيد : وَيحك يا عبد الملك ! أو ساعية ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين حافية . قال : أَدْخِلْهَا يا عبد الملك ، فَرُبَّ كَبِدٍ غَدَّتْهَا ، وَكُرْبَةٌ فَرَجَّتْهَا ، وَعَوْرَةٌ سَتَرَتْهَا ، فدخلت ، فلما نظر الرشيد إليها داخلةً محتفيةً ، قام محتفياً حتى تلقاها بين عمد المجلس وأكبَّ على تقبيل رأسها ، ومواضع تديبها ، ثم أجلسها معه ، فقالت : يا أمير المؤمنين أَيْعَدُو عَلَيْنَا الزمان ، وَيَجْهِنُونَا خَوْفًا لِكَ الْأَعْوَانِ ، وَيُخَرِّدُكَ^(٢) بِنَا الْبُهْتَانِ ، وَقَدْ رَبَّيْتِكَ فِي حِجْرِي ، وَأَخَذْتَ بِرِضَاعِكَ الْأَمَانَ مِنْ عَدُوِّي وَدَهْرِي ؟ فقال لها : وما ذلك يا أم الرشيد ، قالت : ظنُّرك يحيي ، وأبوك بعد أبيك ، ولا أصفه بأكثر مما عرفه به أمير المؤمنين ، من نصيحتته ، وإشفاقه عليه ، وتعرضه للاحتف في شأن موسى أخيه^(٣) ، قال لها : يا أم الرشيد ، أمرٌ سَبَقَ ، وقضاء حُمِّ^(٤) ، وغضبٌ من الله نفذ ، قالت : يا أمير المؤمنين « يَمْجُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ^(٥) » قال : صدقت فهذا مما لم يَمْجُهُ اللهُ ، فقالت : الغيب محبوب عن النبيين ، فكيف عنك يا أمير المؤمنين ؟ فأطرق الرشيد مَلِيًّا ، ثم قال :

(١) الظنر : العاطفة على ولد غيرها ، المرصعة له ، في الناس وغيرهم ، لذكر وللأنثى .
 (٢) يفضلك . (٣) قدمنا أن الهادي كان اعترم خلع أخيه الرشيد من ولاية المهدي ، واستخلاف ابنه جعفر ، وقد سعى إلى الهادي بيحيى بن خالد ، وأنه يفسد عليه أخاه الرشيد ، فحبسه وهم بقتله . ويروي أنه قال للهادي في خلع الرشيد لما كلمه فيه : « يا أمير المؤمنين ، إنك إن حملت الناس على نكث الأيمان ، هانت عليهم أيمانهم ، وإن تركتهم على بيعة أخيك ، ثم بايعت لجعفر من بعده كان ذلك أوكد لبيته » فقال : صدقت ونصحت ، ولما في هذا تدبير ، ولما أمر بحبسه رفع إليه يحيى رقعة : إن عندي نصيحة ، فدعا به ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أخلني ، فأخلاه ، فقال : « يا أمير المؤمنين ، أرايت إن كان الأمر - أسأل الله ألا تبقه ، وأن يقدمنا قبله - أظن أن الناس يسلمون الخلافة لجعفر ، وهو لم يبلغ الحلم ، ویرضون به لصلاتهم وحجهم وغزورهم ؟ قال : والله ما أظن ذلك ، قال : يا أمير المؤمنين ، أفتأمن أن يسموا إليها أهلك ، وجنتهم مثل فلان وفلان ، ويطمع فيها غيرهم ، فتخرج من ولد أبيك ؟ فقال له : نهيتني يا يحيى ، وقال له : لو أن هذا الأمر لم يعقد لأخيك ؟ أما كان ينبغي أن تعقده له ؟ فكيف بأن تحله عنه ، وقد عقده المهدي له ؟ ولكن أرى أن تقر هذا الأمر يا أمير المؤمنين على حاله ، فإذا بلغ جعفر وبلغ الله به ، أتيتته بالرشيد فخلع نفسه ، وكان أول من يبایمه ويعطيه صفقة يده ، قيل فقيل الهادي قوله ورأيه وأمر بإطلاقه . (٤) حم : قدر . (٥) أم الكتاب : أصله ، أو اللوح المحفوظ .

وإذا المنية أنشبت أظفارها أقيمت كل تميمه لاتنفع^(١)

فقلت بغير روية : ما أنا ليحيى بتميمة يا أمير المؤمنين ، وقد قال الأول^(٢) :

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ذخراً يكون كصالح الأعمال

هذا بعد قول الله عز وجل « وَالكَافِرِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ

الْحَسَنِينَ » . فأطرق هرون ملياً ، ثم قال : يا أم الرشيد أقول :

إذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تكذب إليه بوجهٍ آخر الدهر تقبلُ

فقلت : يا أمير المؤمنين وأقول :

ستقطع في الدنيا إذا ما قطعتنى يمينك فانظر أي كف تبدل^(٣)

قال هرون : رضيت ، قالت : فهبه لي يا أمير المؤمنين ، فقد قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم : « من ترك شيئاً لله ، لم يُؤجده^(٤) الله لفقده » فأكب هرون ملياً ،

ثم رفع رأسه يقول : « لله الأمر من قبل ومن بعد » قالت : يا أمير المؤمنين

« وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ » .

واذكر يا أمير المؤمنين أليتك^(٥) ما استشفعت إلا شفعتني . قال : واذا كرى

يا أم الرشيد أليتك أن لاشفعت لمقترف ذنباً ، فلما رأته صرّح بمنعها ، ولاذ^(٦) عن

مطلبها ، أخرجت حُفّاً من زمرودة^(٧) خضراء ، فوضعت بين يديه ، فقال الرشيد : ما هذا ؟

ففتحت عنه قفلاً من ذهب ؛ فأخرجت منه خفضته^(٨) وذوائبه وثناياه ، قد غمست

جميع ذلك في المسك ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، أسدشفع إليك ، وأستعين بالله عليك ،

(١) التمام جمع تميمه : وهي العوذة التي تعلق على الصبي دفعا للعين ، أو المرض والبيت لأبي ذؤيب الهذلي .

(٢) هو الأخطل . (٣) هذا البيت والذي تبلىه من قصيدة لمن بن أرس المزني مطلعها :

لمعرك ما أدري ، وإني لأوجل على أننا تعدو المنية أول ؟

(٤) أي يحزنه . (٥) الآية : القسم . (٦) أي لم يجبه . (٧) الزمرد والزمرد بالبدال

والذال . (٨) خفض الجارية كضرب خفضاً ، وهو كالحتان للغلام ، وقيل : خفض الصبي خسته ،

فاستعمل في الرجل ، والأهرف أن الخفض للمرأة والحتان للصبي ، يقال لجارية خفضت ، ولغلام حتن .

وبما صار معي من كريم جسدك ، وطيب جوارحك ، ليحيي عبدك ، فأخذ هرون ذلك
فلثمه ، ثم استعبر وبكى بكاء شديداً ، وبكى أهل المجلس ، ومرّ البشير إلى يحيى ، وهو
لا يظن إلا أن البكاء رحمة له ، ورجوع عنه ، فلما أفاق رمى جميع ذلك في الحق ،
وقال لها : لَحَسَنٌ مَا حَفِظْتَ الْوَدِيعَةَ ، قالت : وأهلٌ للمكافأة أنت يا أمير المؤمنين ،
فسكت وأقبل الحق ، ودفعه إليها ، وقال : « إِنَّ اللَّهَ يَا مُرُومُ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ
إِلَىٰ أَهْلِهَا » قالت : والله يقول : « وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ »
ويقول : « وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ » ، ثم قال : وما ذلك يا أم الرشيد ؟ قالت :
أو ما أقسمت لي به ألا تحجبني ولا تتمهنني^(١) ؟ قال : أحب يا أم الرشيد أن نشتره
محكمةً فيه . قالت : أنصفت يا أمير المؤمنين ، وقد فعلتُ غيرَ مُستقيمةٍ لك ، ولا راجعةٍ
عنك . قال : بكم ؟ قالت : برضائك عنم لم يُسَخِّطك ، قال : يا أم الرشيد أمالي عليك
من الحق مثل الذي لهم ؟ قالت : بلى يا أمير المؤمنين ، أنت أعزُّ عليّ ، وهم أحبُّ إليّ .
قال : فتحكمني في تمنيّةٍ بغيرهم ، قالت : بلى قد وهبتكّه ، وجعلتك في حلٍّ منه ،
وقامت عنه ، وبقي مَبْهُوتاً ما يُحْبِرُ^(٢) لفظةً » .
(العقد الفريد ٣ : ٢٢)

٨١ - خطبة يزيد بن يزيد الشيباني

لما رضى الرشيد عن يزيد بن يزيد^(٣) أذن له بالدخول عليه ، فلما مثل بين يديه
قال : « يا أمير المؤمنين ، الحمد لله الذي سهّل لي سبيلَ الكرامة بِلِقَائِكَ ، وردَّ عليّ »

(١) امتننه : ابتهله .

(٢) يحبر : يرد . (٣) وذلك أن الوليد بن طريف الشاذلي خرج في عهد الرشيد بالجزيرة ، واشتدت
شوكته وكثر تبعه سنة ١٧٩ ، فوجه إليه الرشيد يزيد بن يزيد الشيباني ، فجعل يخالته وبما كره ، وكانت
البرامكة منحرفة عن يزيد ، فأغروا به الرشيد ، وقالوا : إنما يتجافى عنه للرحم (لأنه شيباني مثله) وإلا فشوكة
الوليد يسيرة وهو يواعد ، وينتظر ما يكون من أمره ، فوجه إليه الرشيد كتاب مغضب ، يقول فيه : « لو وجهت
بأحد الخدم لقام بأكثر مما تقوم به ولكنك مداهن متعصب ، وأمير المؤمنين يقسم بالله أن أخرت مناجزة

النعمة بوجه الرضا منك ، وكشف عنى ضبابة الكرب بإفضالك ، وجزاك الله
يا أمير المؤمنين في حال سُخْطِكَ جزاءَ المحسنين المراقبين ، وفي حال رضاك جزاءَ المنعمين
المتنِّين المتطوِّلين ، فقد جعلك الله - وله الحمد - تَنْبَتٌ^(١) تَحْرُجًا عند الغضب ، وتمنُّ
تَطْوِلاً بالنعم ، وتستبقى المعروف عند الصنائع^(٢) تفضلاً بالعفو .

(العقد الفريد ١ : ١٤١ ، وتاريخ الطبري ١٠ : ١١٧ وزهر للأدب ٢ : ٢٨٧)

٨٢ - خطبة عبد الملك بن صالح^(٣) (توفي سنة ١٩٦ هـ)

أعوذ بالله السميع العليم ، من الشيطان الرجيم : « أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى
قُلُوبٍ أَقْفَالًا هَا » ؟ يا أهل الشام ، إن الله وصف إخوانكم في الدين ، وأشباهكم في الأجسام
فحذَّره نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم ، فقال : « وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ،
وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهِمْ خَشَبٌ مُسْتَدَدٌ ، يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ،
هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرَهُمْ ، قَاتِلَهُمُ اللَّهُ أَتَى يُؤَفِّكُونَ » ؟ فقَاتِلْكُمْ اللهُ أَتَى تُصْرَفُونَ ؟
جُثٌّ مَائِلَةٌ ، وَقُلُوبٌ طَائِرَةٌ ، تُشْبَهُونَ^(٤) الْفِتْنَ ، وَتَوَلَّوْنَ الدُّبُرَ ، إِلَّا عَنِ حَرَمِ اللهِ
فَإِنَّهُ دَرِيئَتُكُمْ^(٥) ، وَحَرَمَ رَسُولِهِ ، فَإِنَّهُ مَغْزَاكُمْ ، أَمَا وَحُرْمَةُ النَّبُوَّةِ وَالْخِلَافَةِ لَتَنْفِرُنَّ
خِيفًا وَثِقَالًا ، أَوْ لِأَوْسَعِنَكُمْ إِرْغَامًا وَنَكَالًا . » (العقد الفريد ٢ : ١٤٦)

الوايد ، ابوجهن إليك من يحمل رأسك إلى أمير المؤمنين . ثم حمل يزيد على الوليد فقتله وبعث برأسه إلى
الرشيد ، فلما انصرف يزيد بالظفر ، حجب برأى البرامكة ، وأظهر الرشيد السخط عليه ، فقال : وحق
أمير المؤمنين لأصيفن وأشتون على فرسى أو أدخل ، فارتفع الخبر بذلك فأذن له فدخل ، فلما رآه للرشيد
ضحك وسر ، وأقبل يصيح مرحباً بالأعرابي ، حتى دخل وأجلس وأكرم وعرف بلاؤه ونقاء صدره
(راجع أخباره في الأغاني ١١ : ٨ ، وابن خلكان ٢ : ٢٨٣ ، والطبري ١٠ : ٦٥) .

(١) وفي رواية الطبري « تنيب » . (٢) وفي الطبري : « وقعوا عن المني » .

(٣) هو عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس ، ولي للرشيد بلاد الجزيرة والشام وغيرها .

(٤) توفدون . (٥) الدريجة : الحلقة يتعلم الطمن والرمي عليها .

٨٣ - عبد الملك بن صالح يعزى الرشيد ويهنته

ودخل عبد الملك بن صالح دار الرشيد ، فقال له الحاجب : إن أمير المؤمنين قد أصيب الليلة بآبن له ، ووُلد له آخر ، فلما دخل عليه قال : « سَرَّكَ اللهُ يا أمير المؤمنين فيما ساءَكَ ، ولا ساءَكَ فيما سَرَّكَ ، وجعل هذه بهذه ، مَثُوبَةٌ على الصبر ، وَجَزَاءٌ على الشكر » .
(المقد الفريد ٢ : ٢٥)

٨٤ - غضب الرشيد على عبد الملك بن صالح

وَنَصَبَ^(١) له ابنه « عبد الرحمن » وكتبه « قامة » فسعيأ به إلى الرشيد ، وقال له : إنه يطلب الخلافة ، ويطمع فيها ، فأخذه وحبسه عند الفضل بن الربيع ، وذكروا أنه أدخل على الرشيد حين سَخِطَ عليه ، فقال له الرشيد : أ كُفِرًا بالنعمة ، وَجُحُودًا لَجَلِيلِ الْمِنَّةِ وَالتَّكْرِمَةِ ؟ فقال : « يا أمير المؤمنين ، لقد بُوتُ^(٢) إِذْنًا بالندم ، وتعرضتُ لاستحلال النِّقَمِ ، وما ذاك إلا بغيُّ حاسدٍ ، نافسني فيك مودة القرابة ، وتقديم الولاية ، إنك يا أمير المؤمنين خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمته ، وأمينه على عترته ، لك عليها فرضُ الطاعة وأداء النصيحة ، ولها عليك العُدْلُ في حُكْمِهَا ، والتثبتُ في حَادِثِهَا ، والغفُورَانِ لذنوبها » ، فقال له الرشيد : « أتَضَعُ لِي من لسانك ، وترفع لِي من جنانك ؟ هذا كاتِبُكَ قامة ، يُخْبِرُ بِغِلِّكَ وفساد نيتك ، فاسْمَعْ كلامه » ، فقال عبد الملك : « أعطاك ما ليس في عَقْدِهِ^(٣) ، ولعله لا يقدر أن يَعْضَنِي^(٤) ولا يَبْهَتَنِي بما لم يَعْرِفِهِ مني » ، وَأَحْضِرْ قامة ، فقال له الرشيد : تكلم غير هائبٍ ولا خائفٍ ، قال : « أقول إنه عازم على الغدر بك والخلاف عليك » ،

(١) عاداه . (٢) رجعت . (٣) أى ما يمتلكه .

(٤) عضه كنع : كذب ونم ، وعضه فلانا : بهته وقال فيه ما لم يكن .

فقال عبد الملك: أهو كذلك يا قامة؟ قال قامة: نعم، لقد أردت ختل^(١) أمير المؤمنين، فقال عبد الملك: وكيف لا يكذب عليّ من خلني، وهو يبّهتني في وجهي؟ فقال له الرشيد: « وهذا ابنك عبد الرحمن يخبرني بمعتوك، وفساد نيتك، ولو أردت أن أحتج عليك بحجة لم أجد أعدل من هذين لك، فبمّ تدفعهما عنك؟ »، فقال عبد الملك: « هو مأمور، أو عاق مجبور، فإن كان مأموراً: فمعتور، وإن كان عاقاً: ففاجر كفور، أخبر الله عزّ وجلّ بعداوته، وحذّر منه بقوله: « إِنَّ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ »، فهض الرشيد وهو يقول: « أمّا أمرك فقد وضح، ولكني لا أعجل حتى أعلم الذي يرضي الله فيك، فإنه الحكم بيني وبينك »، فقال عبد الملك: « رضيت بالله حكماً، وبأمر المؤمنين حاكماً، فإني أعلم أنه يؤثّر كتاب الله على هواه وأمر الله على رضاه ».

فلما كان بعد ذلك جلس مجلساً آخر، فسلم لما دخل، فلم يردّ عليه، فقال عبد الملك: ليس هذا يوماً أحتج فيه، ولا أجازب منازعاً وخصماً. قال: ولم؟ قال: لأن أوّله جرى على غير السنّة، فأنا أخاف آخره، قال: وما ذلك؟ قال: لم تردّ عليّ السلام، أنصف نصفة العوام، قال: السلام عليكم اقتداءً بالسنّة، وإيثاراً للعدل، واستعمالاً للتحية، ثم التفت نحو سليمان بن أبي جعفر فقال: وهو يخاطب بكلامه عبد الملك:

أريد حياته ويريد قتلي عذيرك من خليلك من مراد
ثم قال: « أما والله لكانني أنظر إلى شوئوبها قد همع^(٢)، وعارضها^(٣) قد لآع،

(١) ختله: خدمه. (٢) الشؤبوب: اللقمة من المطر، وهمع: سال وانصب.

(٣) العارض: السحاب المفترض في الأفق، والضمير للفتنة المفهومة من سياق الحديث.

وكأني بالوعيد قد أوزى ناراً تَسْطَعُ ، فأقْلَعُ عن بَرَاجِمِ^(١) بِلَا مَعَاصِمِ ، ورءوسٍ
بِلَا غَلَاصِمِ^(٢) فَمَهْلًا مَهْلًا ، فَبِيِ وَاللَّهِ سَهْلٌ لَكُمْ الْوَعْرُ ، وَصَفَا لَكُمْ الْكَدِرُ ، وَأَلْقَتْ
إِلَيْكُمْ الْأُمُورُ أَثْنَاءَ^(٣) أَرْمَتَهَا ، فَنَذَارِ لَكُمْ نَذَارِ قَبْلَ حُلُولِ دَاهِيَةِ خَبُوطِ بِالْيَدِ ،
لَبُوطِ^(٤) بِالرَّجْلِ . فقال عبد الملك : « اتق الله يا أمير المؤمنين فيما ولأك ، وفي رعيته
التي استرعاك ، ولا تجعل الكفر مكان الشكر ، ولا العقاب موضع الثواب ، فقد
نَحَلْتُ النِّصِيحَةَ ، وَنَحَضْتُ^(٥) لَكَ الطَّاعَةَ ، وَشَدَّدْتُ أَوَاخِي^(٦) مَلَكًا بِأَثْقَلِ مِنْ
رُكْنِي يَلْمَمُ^(٧) ، وَتَرَكْتُ عَدُوَّكَ مُشْتَفِلًا^(٨) ، فَاللَّهُ اللَّهُ فِي ذِي رَحْمِكَ أَنْ تَقْطَعَهُ
- بعد أن بَلَّغْتَهُ^(٩) - بِظَنِّ أَفْصَحِ الْكِتَابِ لِي بَعْضِهِ^(١٠) ، أَوْ بِيغْيِ بَاغٍ يَنْهَسُ^(١١)
اللَّحْمَ ، وَيَالِغُ^(١٢) الدَّمَّ ، فَقَدْ وَاللَّهِ سَهَّلْتَ لَكَ الْوَعْرَ ، وَذَلَّلْتَ لَكَ الْأُمُورَ ، وَجَمَعْتَ
عَلَى طَاعَتِكَ الْقُلُوبَ فِي الصُّدُورِ ، فَكَمِ مِنْ لَيْلِ تِمَامٍ^(١٣) فِيكَ كَابِدَتُهُ ، وَمَقَامِ ضَيْقِ
لَكَ قُمْتُهُ ، كُنْتُ فِيهِ كَمَا قَالَ أَخُو بَنِي جَعْفَرِ بْنِ كَلَّابِ :

ومقامِ ضَيْقِ فَرَجْتَهُ بَيْنَانِي وَلِسَانِي وَجَدَلِي

لو يقوم الفيلُ أو فيَّالهُ زَلَّ عن مثل مقامي وزحل^(١٤)

فقال له الرشيد : « أما والله لولا الإبقاء على بني هاشم لضربت عنقك » .

-
- (١) جمع برجة كقنفذة : وهي مفاصل الأصابع ، أو ظهر القصب من الأصابع ، والمعاصم جمع معصم
ككبر : وهو موضع السوار أو اليد . (٢) جمع غلصة بالفتح وهي رأس الحلقوم وهو الموضع الذي
في الحلق . (٣) أثناء الشيء ومثانيه طاقاته . واحدهما ثني كحفل ومثناة بفتح الميم وكسرها .
(٤) لبط به الأرض ضرب ، ولبط البعير كضرب : خبط بيده وهو يهدو .
(٥) أخلصت . (٦) جمع أخية وتشديد : هرة تربط إلى وقد مدقوق وتشد فيها الدابة ، وأخيت
للدابة فأخية : صنعت لها أخية وربطتها بها . (٧) يلدم أو ألمم أو يرمم : ميقات اليمن : جبل حل
مرحلتين من مكة . (٨) وفي رواية العقد : « وتركت عدوك سيلا تتعاوره الأقدام » .
(٩) بليت فلانا : لزمته . (١٠) لعضه بسكون الضاد وفتحها : الكذب والتميمة . (١١) نهس اللحم
كنع وسمع : أخذه بمقدم أسنانه ونهشه . (١٢) ولغ الكلب في الإفاه ومنه وبه يبلغ كيبب ويبالغ :
شرب ما فيه بأطراف لسانه ، أو أدخل لسانه فيه فحركه . (١٣) ليل التمام : أطول ليال الشتاء .
(١٤) زحل عن مقامه : زال كقزحول .

ولم يزل عبد الملك محبوباً حتى تُوفِّي الرشيد ، فأطلقه محمد الأمين وعقد له
على الشام (١) .

(تاريخ الطبري ١٠ : ٨٩ ، والمقد الفريدي ١ : ١٤٣ ،
والكمال لابن الأثير ٦ : ٧٢ ، وزهر الآداب ٢ : ٢٨٣)

٨٥ - قوله بعد خروجه من السجن

ولما خرج من السجن وذَكَر الرشيد وفعَلَه به قال :

« وَاللَّهِ إِنْ الْمُلْكَ لَشَيْءٌ مَانَوَيْتُهُ ، وَلَا تَمَنَيْتُهُ ، وَلَا نَصَبْتُ لَهُ وَلَا أَرَدْتُهُ ، وَلَوْ
أَرَدْتُهُ لَكَانَ إِلَيَّ أَسْرَعَ مِنَ الْمَاءِ إِلَى الْخُدُورِ (٢) ، وَمِنَ النَّارِ إِلَى يَسَسِ الْعَرْفَجِ (٣) ،
وَإِنِّي لَأُخَوِّذُ بِمَا لَمْ أَجْنِ ، وَمَسْئُولٌ عَمَّا لَا أَعْرِفُ ، وَلَكِنَّهُ حِينَ رَأَى لِلْمَلِكِ قَمِينًا (٤) ،
وَالْخِلَافَةَ حَاطِرًا (٥) ، وَرَأَى لِي يَدًا تَنَاهَا إِذَا مَدَّتْ ، وَتَبْلَغُنِي إِذَا بَسَطَتْ ، وَنَفْسًا
تَكْمَلُ لِحِصَالِهَا ، وَتَسْتَحِقُّهَا بِفِعَالِهَا ، وَإِنْ كُنْتُ لَمْ أَخْتَرْ تِلْكَ الْخِلَاصَ ، وَلَمْ أَصْطَنِعْ
تِلْكَ الْفِعَالَ ، وَلَمْ أَتَرَشَّحْ لَهَا فِي السَّرِّ ، وَلَا أَشْرْتُ إِلَيْهَا فِي الْجَهْرِ ، وَرَأَاهَا تَحْنُ إِلَى
حَنِينِ الْوَالِدَةِ الْوَالِهَةِ ، وَتَمِيلُ إِلَى مَيْلِ الْهَلُوكِ (٦) ، وَخَافَ أَنْ تَرْغَبَ إِلَى خَيْرٍ مَرْغَبَ ،
وَتَنْزِعَ إِلَى أَحْصَبٍ مَنزِعَ ، عَاقِبِي عِقَابَ مَنْ سَهَرَ فِي طَلِبِهَا ، وَجَهَدَ فِي التَّمَسُّكِ بِهَا ،
فَإِنْ كَانَ إِنَّمَا حَبَسَنِي عَلَى أَنْ أُصْلِحَ لَهَا وَتَصْلِحَ لِي ، وَأَلِيقُ بِهَا وَتَلِيقُ بِي ، فَلَيْسَ
ذَلِكَ بِذَنْبٍ جَنَيْتُهُ فَأَتُوبُ مِنْهُ ، وَلَا تَطَاوَلْتُ لَهُ فَأَحْطُ نَفْسِي عَنْهُ ، وَإِنْ زَعَمَ أَنَّهُ
لَا صَرْفَ لِعِقَابِهِ ، وَلَا نَجَاةَ مِنْ عَذَابِهِ ، إِلَّا بَأَنْ أُخْرَجَ لَهُ مِنْ جِدِّ الْعِلْمِ وَالْحِلْمِ وَالْحَزْمِ ،
فَكَمَا لَا يَسْتَطِيعُ الْمُضْيَاعُ أَنْ يَكُونَ مُصْلِحًا ، كَذَلِكَ لَا يَسْتَطِيعُ الْعَاقِلُ أَنْ يَكُونَ جَاهِلًا ،

(١) وقد جعل الأمين عهد الله وميثاقه : لئن قتل وهو حي لا يعطى المأمون طاعة أبدا ، فات قتل
عقل الأمين ، فدفن في دار من دور الإمارة ، فلما خرج المأمون يريد الروم أرسل إلى ابن له حوله أباك
من داري ، فنهشت عظامه وحولت . (٢) المكان المنحدر . (٣) شجر . (٤) جديرا .

(٥) عظيم القدر . (٦) الفاجرة المتساقطة على الرجال .

وسواء عليه أعاقبني على علمي وحلمي، أم عاقبني على نسبي وسني، وسواء عليه عاقبني على جمالي، أم عاقبني على محبة الناس لي، ولو أردتها لأعجلته عن التفكير، وشغلته عن التدبير، ولما كان فيها من الخطب إلا اليسير». (المقد. الفريد ١ : ١١٢)

٨٦ - وصية عبد الملك بن صالح لابنه

أوصى عبد الملك بن صالح ابنه فقال :

« أَيُّ بَنِي أَحْلَمُ ، فَإِنْ مِنْ حَلْمٍ سَادَ ، وَمَنْ تَهَمَّ ازْدَادَ ، وَالْقَى أَهْلَ الْخَيْرِ فَإِنْ لِقَاءَهُمْ عِمَارَةٌ لِلْقُلُوبِ ، وَلَا تَجْمَعُ بِكَ مَطِيَّةَ اللَّجَاجِ ، وَفَيْتِكَ مَنْ أَعْتَبَكَ ^(١) ، وَالصَّاحِبُ الْمُنَاسِبُ لَكَ ، وَالصَّبْرُ عَلَى الْمَسْكُورِ يَعِصِمُ الْقَلْبَ ، الْمُرَاحُ يورث الضَّغَائِنَ ، وَحَسَنُ التَّدْبِيرِ مَعَ الْكِفَافِ خَيْرٌ مِنْ الْكَثِيرِ مَعَ الْإِسْرَافِ ، وَالِاِقْتِصَادُ يُنَمِّرُ ^(٢) الْقَلِيلَ ، وَالِإِسْرَافُ يُبِيرُ ^(٣) الْكَثِيرَ ، وَنِعْمَ الْخَطُّ الْقِنَاعَةُ ، وَشَرُّ مَا صَحِبَ الْمَرْءَ الْحَسَدُ ، وَمَا كُلُّ عَوْرَةٍ تُصَابُ ، وَرَبَّمَا أَبْصَرَ الْعَمِيُّ رُشْدَهُ ، وَأَخْطَأَ الْبَصِيرُ قَصْدَهُ ، وَالْيَأْسُ خَيْرٌ مِنَ الطَّلَبِ إِلَى النَّاسِ ، وَالْعِفَّةُ مَعَ الْحِرْفَةِ ^(٤) خَيْرٌ مِنَ الْغِنَى مَعَ الْفَجُورِ ، أَرْفَقَ فِي الطَّلَبِ وَأَجْمَلَ فِي الْمَكْسَبِ ، فَإِنَّهُ رَبُّ طَلَبٍ ، قَدْ جَرَّ إِلَى حَرْبٍ ^(٥) ، لَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ يَنْجِحُ ^(٦) ، وَلَا كُلُّ مَلِيحٍ يَمْتَحِجُ ، وَالغَبُونُ مِنْ غَيْبِنِ نَصِيْبِهِ مِنَ اللَّهِ ، عَاتَبُ مِنْ رَجَوْتَ عُنْبَاهُ ، وَفَاكِهَةٌ مِنْ أَمْنَتِ بِلَوَاهِ ، لَا تَكُنْ مِضْحَاكًا مِنْ غَيْرِ عَجَبٍ ، وَلَا مَسَاءً إِلَى غَيْرِ أَرْبٍ ، وَمَنْ نَأَى عَنِ الْحَقِّ أَضَاقَ مَذْهَبَهُ ، وَمَنْ اِقْتَصَرَ عَلَى حَالِهِ كَانَ أَنْعَمَ لِبَالِهِ ، لَا يَكْبُرَنَّ عَلَيْكَ ظَلْمٌ مِنْ ظَلَمِكَ ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا سَعَى فِي مَضْرَتِهِ وَنَفَعَكَ ، وَعَوَّودَ نَفْسِكَ السَّمَّاحَ ، وَتَخَيَّرَ لَهَا مِنْ كُلِّ خُلُقٍ أَحْسَنَهُ ، فَإِنْ الْخَيْرُ عَادَةٌ ، وَالشَّرُّ بِلَاجَةِ ، وَالصَّدُودُ آيَةُ الْمَقْتِ ، وَالتَّعَلُّلُ آيَةُ الْبَخْلِ ، وَمَنْ أَلْفَقَهُ كِتْمَانُ السَّرِّ ، وَلِقَاحُ الْمَعْرِفَةِ

(١) أعتبه : أعطاه النبي أي الرضا . (٢) ينمى ويكثر . (٣) يهلك .

(٤) الهرمان . (٥) حربه حربا كطلبه : طلب ماله . (٦) أنجح : صار ذا نجح .

(٧) - جبهة خطب العرب - ثالث)

دراسة العلم ، وطولُ التجارب زيادة في العقل ، والقناعة راحة الأبدان ، والشرف التقوى ، والبلاغة معرفة رتق الكلام وفتقه ، بالعقل تُستخرج الحكمة ، وبالعلم يستخرج غور العقل ، ومن شمر في الأمور ، ركب البحور ، شر القول ما نقض بعضه بعضا ، ومن سعى بالنيمة حذره البعيد ، وممته القريب . من أطال النظر بإرادة تامة أدرك الغاية ، ومن تواني في نفسه ضاع . من أسرف في الأمور انتشرت عليه ، ومن اقتصد اجتمعت له ، والأجاجة تورث الضياع للأمور ، غبُّ الأدب أحمد من ابتدائه ، مبادرة الفهم تورث النسيان ، سوء الاستماع يعقبُ العي ، لا تُحدِّث من لا يُقبل بوجهه عليك ، ولا تُنصت لمن لا ينمي^(١) بحديثه إليك . البلادة للرجل هجنة ، قلَّ مالكُ إلا استأثر ، وقلَّ عاجز إلا تأخر ، الإحجام عن الأمور يُورث العجز ، والإقدام عليها يورث اجتلاب الحظ ، سوء الطعمة^(٢) يُفسد العِرض ، ويُخلق الوجه ، ويمحق الدين ، الهية قرين الحرمان ، والجسارة قرين الظفر ، وفَيْك من أنصفك ، وأخوك من عاتبك ، وشريكك من وفى لك ، وصفيك من آثرك ، أعدى الأعداء العقوق ، اتباع الشهوة يُورث الندامة ، وفوتُ الفرصة يورث الحسرة ، جميع أركان الأدب التأثي للرفق ، أكرم نفسك عن كل دنية ، وإن ساقنتك إلى الرغائب ، فإنك لا تجد بما تبدل من دينك ونفسك عوضا ، لا تساعد^(٣) النساء فيملائنك ، واستبق من نفسك بقية ، فإمهن أن يرين أنك ذو اقتدار ، خيرٌ من أن يطلعن منك على انكسار ، لا تملك المرأة الشفاعة لغيرها ، فتميل من شفعت لها عليك معها ، أى بنى ، إني قد اخترت لك الوصية ، ومحضتك النصيحة ، وأدبت الحق إلى الله في تأديك ، فلا تُفعلن الأخذ بأحسنها ، والعمل بها ، والله موفقك .

(البيان والتبيين ٣ : ٢٢٢)

(١) نعى الحديث ونمأه بالتشديد : رفته . (٢) الطعمة : وجه المكسب . (٣) لملها ولا تقاعد .

٨٧ - وصية أخرى له

عن يزيد بن عقال قال :

وصى عبد الملك بن صالح ابنه وهو أمير سرية ، ونحن ببلاد الروم فقال له :
« أنت تاجرُ الله لعباده ، فكن كالمضارب الكيس ، الذي إن وجد ربما تجر ،
وإلا احتفظ برأس المال ، ولا تطالب الغنيمة حتى تحوز السلامة ، وكن من اجتياك
على عدوك ، أشدَّ خوفاً من احتيال عدوك عليك^(١) . » (البيان والتبيين ٢ : ٥٤)

٨٨ - كلمات حكيمة لابن السماك

وقال محمد بن صباح - المعروف بابن السماك^(٢) - :

« خيرُ الإخوان أقلهم مصانعةً في النصيحة ، وخير الأعمال أحلاها عاقبةً ، وخير
الثناء ما كان على أفواه الأخيار ، وأشرفُ السلطان ما لم يخالطه البطر ، وأغنى الأغنياء
من لم يكن للحرص أسيراً ، وخير الإخوان من لم يخاصم ، وخير الأخلاق أعونها
على الورع ، وإنما يُختبرُ ذلَّ الرجال عند الفاقة والحاجة . »

(زهر الآداب ٢ : ٢٠٥)

٨٩ - ابن السماك والرشيد

وذكر محمد بن هرون عن أبيه قال : حضرت الرشيد ، وقال لهُ الفضل بن الربيع :
يا أمير المؤمنين قد أحضرتُ ابنَ السماك كما أمرتني ، قال : أدخِله ، فدخل ، فقال لهُ :

(١) أوردت هذه الوصية في الجزء الثاني ص ١٨٥ معزوة إلى عبد الملك بن مروان كما أوردتها صاحب
العقد ، ويؤيد ذلك ما رواه الطبري - ج ٨ : ٣٧ - إذ يقول : « وفي سنة ٨٤ كانت غزوة عبد الله بن
عبد الملك بن مروان للروم ، ففتح فيها المصيصة - كسفيئة - وعزاها الجاحظ إلى عبد الملك بن صالح كما ترى
في هذه الرواية . (٢) كان زاهداً عابداً حسن الكلام صاحب مواظ ، وهو كوفي ، قدم بغداد زمن
الرشيد فبكت بها مدة ، ثم رجع إلى الكوفة فمات بها سنة ١٨٣ هـ . »

عِظْنِي ، قال : يا أمير المؤمنين : اتق الله وحده لا شريك له ، واعلم أنك واقفٌ غداً بين يدي الله ربك ، ثم مصروفٌ إلى إحدى منزلتين ، لا ثالثة لهما : جنة أو نار ، فبكى هرون حتى اخضت (١) لحيته ، فأقبل الفضل على ابن السماك ، فقال : سبحان الله ! وهل يتخالج أحداً شكٌّ في أن أمير المؤمنين مصروفٌ إلى الجنة إن شاء الله ؟ لقيامه بحق الله ، وعدله في عباده ، وفضله ، فلم يحفل بذلك ابن السماك من قوله ، ولم يلتفت إليه وأقبل على أمير المؤمنين ، فقال : يا أمير المؤمنين إن هذا - يعني الفضل بن الربيع - ليس والله معك ولا عندك في ذلك اليوم ، فاتق الله وانظر لنفسك ، فبكى هرون حتى أشفتنا عليه ، وأحم الفضل بن الربيع ، فلم ينطق بحرف حتى خرجنا .

قال : ودخل ابن السماك على الرشيد يوماً ، فبينما هو عنده إذ استسقى ماء ، فأتى بِقُلَّةٍ من ماء ، فلما أهوى بها إلى فيه ليشربها ، قال له ابن السماك : على رسلك (٢) يا أمير المؤمنين : بقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لو منعت هذه الشربة ، بكم كنت تشتريها ؟ قال : بنصف ملكي ، قال : اشرب هنالك الله ، فلما شربها ، قال له : أسألك بقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لو منعت خروجها من بدنك ، بماذا كنت تشتريها ، قال : بجميع ملكي ، قال ابن السماك : إن ملكاً قيمته شربة ماء جديرٌ ألا يُنافس فيه ، فبكى هرون ، فأشار الفضل بن الربيع إلى ابن السماك بالانصراف فانصرف .

(١) تاريخ الطبري ١٠ : ١١٩ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ١٤٩)

الفتنة بين الأمين والمأمون

وفد الأمين إلى المأمون

لما عزم محمد الأمين على خلع أخيه عبد الله المأمون من ولاية العهد^(١)، كتب إليه كتاباً يستقدمه، ويحبب أن يكون بقرّبه - وكان المأمون على خراسان - ودفع الكتاب إلى العباس بن موسى، وإلى عيسى بن جعفر، وإلى محمد بن عيسى بن نهيك، وإلى صالح صاحب المصلى، وأمرهم أن يتوجهوا به إلى المأمون، وألاً يدعوا وجهاً من اللين والرّفق إلا بلغوه، وسهّلوا الأمر عليه، (وذلك سنة ١٩٤ هـ) فتوجهوا بكتابه، فلما وصلوا إلى المأمون أذن لهم، فدفعوا إليه الكتاب، ثم تكلم العباس بن موسى:

٩٠ - خطبة العباس بن موسى

حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أيها الأمير: إن أخاك قد تحمّل من الخلافة ثقلاً عظيماً، ومن النظر في أمور الناس عبثاً جليلاً، وقد صدقت نيته في الخير، فأعوزته الوزراء والأعوان والكفّاة على العدل، وقليل ما يأنس بأهل بيته، وأنت أخوه

(١) ذكروا أن الفضل بن الربيع وزير الأمين، كان قد خاف المأمون، لما فعله عند موت الرشيد بطوس من إحضار جميع ما كان في عسكره إلى الأمين، بعد أن كان الرشيد قد أشهد به للمأمون، وعلم أن الخلافة إن أفضت إلى المأمون يوماً وهو حي لم يبق عايبه، فحسن للأمين خلع المأمون والبيعة لابنه موسى - ولم يكن ذلك من رأى الأمين ولا عزمه - واتفق مع الفضل جماعة على ذلك، قال الأمين إلى أقوالهم، ثم إنه استشار عقلاء أصحابه، فنهوه عن ذلك وحذروه عاقبة البغي ونكث للمهود، وقالوا له: لا تجرى للقواد حل النكث للأيمان وعمل الخلع فيخلعوك، فلم يلتفت إليهم، ومال إلى رأى الفضل بن الربيع، وشرع فخدع المأمون باستدعائه إلى بغداد، فلم يخذع وكتب يعترف.

وشقيقه^(١) وقد فرغ إليك في أموره ، وأمّلك للموازرة والكافّة^(٢) ، ولسنا نستبطئك في برّه ، اتهاماً لنصرك له ، ولا نمضك على طاعة ، تخوّفاً لخلافك عليه ، وفي قدومك عليه أنس عظيم ، وصّلاح لدولته وسُلطانته ، فأجِبْ أيها الأمير دعوة أخيك ، وآثر طاعته ، وأَعِنّه على ما استعانك عليه في أمره ، فإن في ذلك قضاء الحق ، وصِلّة الرحم ، وصّلاح الدولة ، وعِزّ الخلافة ، عزم الله للأمير على الرشد في أموره ، وجعل له الخيرة والصّلاح في عواقب رأيه .

٩١ - خطبة عيسى بن جعفر

وتكلم عيسى بن جعفر بن أبي جعفر ، فقال :

« إن الإكثار على الأمير - الله ، الله - في القول خرق ، والافتصار في تعريفه ما يجب من حق أمير المؤمنين تقصير ، وقد غاب الأمير - أكرمه الله - عن أمير المؤمنين ، ولم يستغن عن قربه من شهيد غيره من أهل بيته ، ولا يجد عنده غنى ، ولا يجد منه خلفاً ، ولا عوّضاً ، والأمير أولى من برّ أخاه ، وأطاع إمامه ، فليعمل الأمير فيما كتب به إليه أمير المؤمنين بما هو أَرْضَى وأقرب من موافقة أمير المؤمنين ومحبتهم ، فإن القدوم عليه فضلٌ وحظٌ عظيم ، والإبطاء عنه وَكْفٌ^(٣) في الدين ، وضرر ومكروه على المسلمين . »

٩٢ - خطبة محمد بن عيسى بن نهيك

وتكلم محمد بن عيسى بن نهيك ، فقال :

« أيها الأمير إنا لانزيدك بالإكثار والتطويل فيما أنت عليه من المعرفة بحق أمير المؤمنين ، ولا نشحّد نيتك بالأساطير وألحطّب فيما يلزمك من النظر والعناية

(١) أمه أم ولد يقال لها مراجل .

(٢) المعاونة . (٣) الكوف الميل والجور والعيب . الإثم .

بأمر المسلمين ، وقد أعوز أمير المؤمنين الكفاة والنصحاء بحضرتة ، وتناولك فزعاً إليك في المعونة والتقوية له على أمره ، فإن نُجِبَ أمير المؤمنين فما دعاك إليه ، فنعمة عظيمة يتلافى بها رعيتك وأهل بيتك ، وإن تقعد يُفِنَ اللهُ أمير المؤمنين عنك ، ولن يضعه ذلك مما هو عليه من البرِّ بك ، والاعتماد على طاعتك ونصيحتك .

٩٣ - خطبة صالح صاحب المصلي

وتكلم صالح صاحب المصلي ، فقال :

« أيها الأمير : إن الخلافة ثقيلة ، والأعوان قليل ، ومن يَكِيدُ هذه الدولة ، وينطوي على غشها ، والمعاندة لأوليائها ، من أهل الخلف والمعصية كثير ، وأنت أخو أمير المؤمنين وشقيقه ؟ وصلاحُ الأمور وفسادها راجعٌ عليك وعليه ، إذ أنت وليُّ عهده ، والمشارك في سطاته وولاياته ، وقد تناولك أمير المؤمنين بكتابه ، ووثق بمعاونتك على ما استعانك عليه من أموره ، وفي إجابتك إياه إلى القنوم عليه صلاح عظيم في الخلافة ، وأنسٌ وسكونٌ لأهل الملة والذمة ، وفقَّ اللهُ الأمير في أموره ، وقضى له بالذي هو أحب إليه وأنفع له » .

٩٤ - خطبة المأمون

فحمد الله المأمون ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« قد عرفتموني من حق أمير المؤمنين - أكرمه الله - مالا أنكره ، ودعوتموني من الموازنة والمعونة إلى ما أوثره ولا أدفعه ، وأنا لطاعة أمير المؤمنين مقدم ، والمسارة إلى ماسرّه ووافقّه حريصٌ ، وفي الروية تبيانُ الرأي ، وفي إعمال الرأي نُصحُ الاعتزام والأمر الذي دعاني إليه أمير المؤمنين أمرٌ لا أتأخر عنه تثبطاً ومدافعةً ، ولا أتقدم عليه

اعتسافاً وَعَجَلَةً ، وَأَنَا فِي ثَفَرٍ^(٢) مِنْ ثُغُورِ الْمُسْلِمِينَ ، كَلِبٌ عَدُوٌّ ، شَدِيدٌ شَوْكَةٌ ، وَإِنْ أَهَمَّتْ أَمْرَهُ لَمْ أَمَنْ دُخُولَ الضَّرْرِ وَالسُّكْرُوهِ عَلَى الْجُنُودِ وَالرَّعِيَةِ ، وَإِنْ أَقَمْتُ عَلَيْهِ لَمْ أَمَنْ قُوَّةَ مَا أَحَبَّ مِنْ مَعُونَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَوَازِرَتِهِ وَإِثَارِ طَاعَتِهِ ، فَانصَرِفُوا حَتَّى أَنْظُرَ فِي أَمْرِي ، وَيُصِحَّ الرَّأْيُ فِيمَا أَعْتَزِمُ عَلَيْهِ مِنْ مَسِيرِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

ثم بعث معهم بكتاب إلى الأمين ، يسأله أن يُعْفِيَهُ مِنَ الشُّخُوصِ إِلَيْهِ ، وَأَنْ يُقَرِّهَ عَلَى عَمَلِهِ ، إِذْ يَرَى أَنَّ ذَلِكَ أَعْظَمُ غَنَاءً عَلَى الْمُسْلِمِينَ . (تاريخ الطبري ١٠ : ١٤٦)

٩٥ - وصية السيدة زبيدة لعلی بن عيسى بن ماهان

وَنَمَى الشَّرَّ بَيْنَ الْأَخْوِيَّةِ ، وَاسْتَطَارَ شَرُّهُ ، وَبَعَثَ الْأَمِينَ جَيْشًا كَثِيفًا بِقِيَادَةِ عَلِيِّ بْنِ عَيْسَى بْنِ مَاهَانَ لِحَرْبِ الْمَأْمُونِ ، وَأَعَدَّ الْمَأْمُونُ لِلِقَائِهِ جَيْشًا بِقِيَادَةِ طَاهِرِ بْنِ الْحُسَيْنِ فَلَمَّا أَرَادَ عَلِيُّ الشُّخُوصَ إِلَى خِرَاسَانَ ، رَكِبَ إِلَى بَابِ السَّيِّدَةِ زُبَيْدَةَ^(٣) وَالِدَةَ الْأَمِينَ فَوَدَّعَهَا ، فَقَالَتْ لَهُ :

« يَا عَلِيُّ ، إِنْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَإِنْ كَانَ وَلَدِي ، إِلَيْهِ تَنَاهَتْ شَفَقَتِي ، وَعَلَيْهِ تَكَامَلَ حِذْرِي ، فَإِنِّي عَلَى عَبْدِ اللَّهِ مُنْعَطِفَةٌ مُشْفِقَةٌ لِمَا يَحْدُثُ عَلَيْهِ مِنْ مَكْرُوهٍ وَأَذَى ، وَإِنَّمَا ابْنِي مَلِكٌ نَافِسٌ أَخَاهُ فِي سُلْطَانِهِ ، وَغَارَاهُ^(٤) عَلَى مَا فِي يَدِهِ ، وَالسُّكْرِيمُ يَوْمًا كُلُّ لَحْمَةٍ ، وَوَيْمِيَّتُهُ غَيْرُهُ ، فَاعْرِفْ لِعَبْدِ اللَّهِ حَقَّ وَالِدِهِ وَأَخُوَّتِهِ ، وَلَا تَجِبْهُ^(٥) بِالْكَلَامِ ، فَإِنَّكَ لَسْتَ نَظِيرَهُ ، وَلَا تَقْتَسِرُهُ^(٦) اقْتِسَارَ الْعَبِيدِ ، وَلَا تُرْهِنْهُ بِقَيْدٍ وَلَا غُلٍّ^(٧) ، وَلَا تَمْنَعُ مِنْهُ جَارِيَةً وَلَا خَادِمًا ، وَلَا تَعَنَّفْ عَلَيْهِ فِي السَّيْرِ ، وَلَا تَسَاوِرْهُ فِي الْمَسِيرِ ، وَلَا تَرْكَبْ قَبْلَهُ ،

(١) الثغر: موضع الخفافة من فروع البلدان. (٢) هي السيدة زبيدة أم جعفر بنت جعفر بن المنصور وليس في خلفاء بني العباس من أمه وأبوه هاشميان سواه.

(٣) في الأصل : « غاره » وأراه محرفاً عن « غاراه » ، غاريتُه مغارة وغراء : لاجبته .

(٤) جبهه كتمه : لقيه بما يكره . (٥) قسره واقترسه : قهره .

(٦) أرهته : أضغفه ، وفي الفخرى : « ولا تومته » وأرته : أضغفه أيضاً ، وللنيل : القيد .

ولا تستقلّ على دابتك حتى تأخذ برِكابه ، وإن شتمك فاحتمل منه ، وإن سفّه عليك فلا ترادّه .

ثم دفعت إليه قيداً من فضّة ، وقالت : إن صار في يدك فقيده بهذا القيد ، فقال لها : سأقبل أمرك ، وأعمل في ذلك بطاعتك .

(تاريخ الطبرى ١٠ : ١٤٩ ، والفخرى ص ١٩٥)

٩٦ - وصية الأمين لابن ماهان

وخرج على بن عيسى بن ماهان من بغداد (في ٧ من شعبان سنة ١٩٥ هـ) وخرج معه الأمين يشيعه ، وأقبل يوصيه ، فقال :

« أمنعُ جُندك من العَبَثِ بالرعية ، والغارة على أهل القرى ، وقطعِ الشجر ، واتهاك النساء ، وولّ الرىّ يحيى بن على^(١) ، واضمّم إليه جنداً كثيفاً ، ومُره ليدفعُ إلى جنده أرزاقهم مما يحيى . من خراجها ، وولّ كل كورة ترحل عنها رجلاً من أصحابك ، ومن خرج إليك من جند أهل خراسان ووجوهها فأظهره إكرامه ، وأحسنْ جائزته ، ولا تعاقبْ أخاً بأخيه ، وضع عن أهل خراسان ربع الخراج ، ولا تأمن أحداً رماك بسهم ، أو طعن في أصحابك برمح ، ولا تأذن لعبد الله في المُقام أكثر من ثلاثة أيام ، من اليوم الذى تظهر فيه عليه ، فإذا أشخصته ، فليكن مع أوثق أصحابك عندك ، فإن غرّه الشيطان فناصبتك ، فاحرص على أن تأسره أسراً ، وإن هرب منك إلى بعض كور خراسان ، فتولّ إليه المسير بنفسك ، أفهمت كل ما أوصيك به ؟ » .

قال : نعم ، أصاح الله أمير المؤمنين ، قال : سر على بركة الله وعونه .

(تاريخ الطبرى ١٠ : ١٥٠)

(١) هو يحيى بن على بن مهدي بن ماهان .

٩٧ - استهانة ابن ماهان بأمر طاهر بن الحسين

وخرج ابن ماهان ، فلما جاز حُلوان ، لَقِيَنَّهُ القوافل من خُرَاسان ، فكان يسألها عن الأخبار ، فيقال له : إن طاهراً مقيم بالرَّيِّ ، يَعْرِضُ أصحابه ، وَيُرِمُّ^(١) آلتَهُ ، فيضحك ثم يقول :

« وما طاهر ؟ فوالله ما هو إلا شوكة من أغصاني ، أو شرارة من نارى ، وما مثلُ طاهر يتولَّى على الجيوش ، ويلتقى الحروب » ، ثم التفت إلى أصحابه فقال : « والله ما بينكم وبين أن ينقص انقصاصَ الشجر من الريح العاصف ، إلا أن يبلغه عُبورُنا عَقَبَةَ^(٢) هَمْدَانَ ، فإن السَّخَالَ^(٣) لا تقوى على نِطاحِ الكِباش ، والثعالب لا صبرَ لها على لقاء الأسد ، فإن يُقيم طاهر بموضعه يكن أول معرَّضٍ لِطَبَّاتِ^(٤) السيوف وأسنَّة الرماح . وسار حتى صار في أول بلاد الرىِّ ، وأتاه صاحب مقدَّمته وقال : « لو كنت - أبقى الله الأمير - أذ كَيْتَ العيون ، وبعثت الطلائع ، وارتدَّت موضِعاً تُعسِّكِرُ فيه ، وتتخذ خندقاً لأصحابك يأمنون به ، كان ذلك أبلغَ فى الرأى ، وآنسَ للجند » .

قال : « لا ، ليس مثلُ طاهر يستعدُّ له بالمكايد والتحفُّظ ، إن حال طاهر تثول إلى أحد أمرين ، إما أن يتحصَّن بالرِّىِّ ، قِيَبَتَهُ^(٥) أهلها ، فيكفونا مَثُونَتَهُ ، أو يُخَلِّبُها وَيُدْبِرُ راجعاً لو قُرِبَتْ خيولنا وعساكرنا منه » .

وأتاه يحيى بن على ، فقال : « اجمع متفرِّقَ العسكر ، واحذر على جندك البيات ، ولا تسرح الخيل إلا ومعهما كُفٌّ^(٦) من القوم ، فإن العساكر لا تُسأسُ بالتوانى ،

(١) يصلح . (٢) العقبة : مرق صعب من الجبال . (٣) السخال جمع سخلة بالفتح : وهو ولد الغم ذكراً أو أنثى . (٤) الطبات جمع طبة : وهى حد الصيف . (٥) قِيَبَتَهُ كنهه : أخذه بغتة . قال تعالى : « بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ » ، وفى مروج الذهب : « يشب به » . (٦) الكشف : الجماعة .

والحروب لا تدبرّ بالاغترار ، والثقة أن تحترز ، ولا تقل : المحاربُ لي طاهر ، فالشرارة الخفيّة ربما صارت ضِراماً^(١) ، والثلثة من السيل ربما اغترّبها وتُهون ، فصارت بحراً عظيماً ، وقد قرّبت عساكرنا من طاهر ، فلو كان رأيه الهرب لم يتأخر إلى يومه هذا . قال : اسكت ، فإن طاهراً ليس في هذا الموضع الذي ترى ، وإنما يتحفّظ الرجال إذا لقيت أقرانها ، وتستمدّ إذا كان المناوي^(٢) لها أكتفاءها ونظراءها .

(فاربخ الطاهري ١٠ : ١٥٠ ، ومروج الذهب ٢ : ٢٩٩)

٩٨ - حزم طاهر وقوة عزمه

وعسكر طاهر على خمسة فراسخ من الرسيّ ، وأتاه محمد بن العلاء ، فقال : « أيها الأمير ، إن جندك قد هابوا هذا الجيش ، وامتلات قلوبهم خوفاً ورعباً منه^(٣) ، فلو أمّنت بمكانك ، ودافعت القتال إلى أن يشأمهم^(٤) أصحابك ، ويأنسوا بهم ، ويعرفوا وجه المأخذ في قتالهم » ، فقال :

« لا ، إني لأوتى من قلة تجرّبة وحزم ، إن أصحابي قليل ، والقوم عظيم سوادهم ، كثير عددهم ، فإن دافعت القتال ، وأخرت المناجزة ، لم آمن أن يطلّعوا على قلتنا وعورتنا ، وأن يستميلوا من معي برغبة أو رهبة ، فينفر عني أكثر أصحابي ، ويخذلني أهل الحفاظ والصبر ، ولكن ألف الرجال بالرجال ، وألحم^(٥) الخيل بالخييل ، وأعتمد على الطاعة والوفاء ، وأصبر صبراً محتسب للخير ، حريص على الفوز بفضل الشهادة ، فإن

(١) الضرام : اشتعال النار في الحلفاء وغيرها ، ودقائق الحطب الذي يسرع اشتعال النار فيه .

(٢) المعادي .

(٣) وكانت عدة عسكر ابن ماهان حسين ألفاً ، وذكر بعض أهل بغداد أنهم لم يروا عسكراً كان أكثر رجالاً وأفره كراماً ، وأظهر سلاحاً ، وأنم عدة ، وأكل هيئة من عسكره ، وروى أن طاهراً كان في أقل من أربعة آلاف . (٤) شاماً وتشاماً : شم أحدهما الآخر ، والمعنى اقترباً .

(٥) أي أقرن الخيل بالخييل ، من قولهم : ألحمت الحرب فالتحمت ، والملاحم يضم الميم ويفتح الحاء : المالصق بالقوم ، ولاحم الشيء بالشيء : ألصقه به .

يَرْزُقُ اللهُ الظفرَ وَالْفَلَجَ^(١) ، فَذَلِكَ الَّذِي نَرِيدُ وَرَجُو ، وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَى فَلَسْتَ
أَوَّلَ مَنْ قَاتَلَ قَتْلًا ، وَمَا عِنْدَ اللهِ أَجْزَلُ وَأَفْضَلُ . (تاريخ الطبري ١٠ : ١٥١)

٩٩ — طاهر يشد عزيمة جنده

وَكَتَبَ طَاهِرُ بْنُ الْحُسَيْنِ كِتَابِيَهُ ، وَكَرَدَسَ كَرَادِيْسَهُ^(٢) ، وَسَوَّى صَفْوَفَهُ ،
وَجَمَلَ يَمْرًا بِقَائِدٍ قَائِدًا ، وَجَمَاعَةَ جَمَاعَةً ، فَيَقُولُ :

« يَا أَوْلِيَاءَ اللهِ ، وَأَهْلَ الْوَفَاءِ وَالشُّكْرِ ، إِنْكُمْ لَسْتُمْ كَهَوْلَاءِ الَّذِينَ تَرَوْنَ مِنْ
أَهْلِ النَّكْتِ وَالغَدْرِ ، إِنْ هَوْلَاءُ ضَيَّعُوا مَا حَفِظْتُمْ ، وَصَفَّرُوا مَا عَظَّمْتُمْ ، وَنَكثُوا
الْإِيمَانَ الَّتِي رَعَيْتُمْ ، وَإِنَّمَا يَطْلُبُونَ الْبَاطِلَ ، وَيَقَاتِلُونَ عَلَى الْغَدْرِ وَالْجَهْلِ ، أَصْحَابُ سَلْبٍ
وَنَهَبٍ ، فَلَوْ قَدَغَضْتُمْ الْأَبْصَارَ ، وَأَثْبَتْتُمُ الْأَقْدَامَ ، قَدْ أَنْجَزَ اللهُ وَعْدَهُ ، وَفَتَحَ عَلَيْكُمْ أَبْوَابَ
عِزِّهِ وَنَصْرِهِ ، فَجَالِدُوا طَوَاغِيَتِ الْفِتْنَةِ ، وَيَعَاسِبِ النَّارِ^(٣) عَنْ دِينِكُمْ ، وَدَافِعُوا بِحَقِّكُمْ
بِاطِلَهُمْ ، فَإِنَّمَا هِيَ سَاعَةٌ وَاحِدَةٌ ، حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَكُمْ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ . »

وَنَشِبَ الْقِتَالُ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ ، وَدَارَتِ الدَّائِرَةُ عَلَى جَيْشِ ابْنِ مَاهَانَ وَقَتِلَ^(٤) .
وَوَجَّهَ الْأَمِينَ بَعْدَ ذَلِكَ لِحَرْبِ طَاهِرٍ جَيْشًا بِقِيَادَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جَبَلَةَ ، فَهَزَمَ
وَقَتَلَ أَيْضًا . (تاريخ الطبري ١٠ : ١٥٢)

(١) الفوز الظفر .

(٢) الكرادييس جمع كردوسة بالضم : وهي القطعة العظيمة من الخيل وكردس الخيل جعلها كتيبة كتيبة .

(٣) الطواغيت جمع طاغوت : وهو الشيطان وكل رأس ضلال ، واليعاسيب جمع يعسوب : وهو الرئيس

الكبير . (٤) روى أن نعي على بن عيسى ورد إلى الأمين وهو على الشط يصيد السمك ، فقال للنبي

أخبره : وبلك دهني ، فإن كوثرًا قد اصطاد سمكتين ، وأنا ما اصطدت شيئًا بهد — وكان كوثر خادمًا

خصياله وكان يحبه .

١٠٠ - وصف الفضل بن الربيع غفلة الأمين

ونذب أسد بن يزيد بن مزيد لقتال طاهر

وبعث الفضل بن الربيع بعد مقتل عبد الرحمن بن جبلة إلى أسد بن يزيد بن مزيد ، قال : فأتيته ، فلما دخلت عليه وجدته قاعداً في صحن داره ، وفي يده رُقعة قد قرأها ، واحمرّت عيناه ، واشتد غضبه ، وهو يقول :

« ينام نوم الظربان^(١) ، وينتبه انتباه الذئب ، همته بطنه ، ولذته فرجه ، لا يفكر في زوال نعمته ، ولا يُروى في إمضاء رأى ولا مكيدة ، قد ألهاه كأسه ، وشغله قدحُه ، فهو يجرى في لهوه ، والأيام تُسرع^(٢) في هلاكه ، قد شمرَّ عبدُ الله له عن ساقه ، وفوق له أصيب^(٣) أسهمه ، يرميه على بعد الدار بالحنف النافذ ، والموت القاصد^(٤) ، قد عبّى له المنايا على مُتون الخليل ، وناط^(٥) له البلاء في أسنة الرماح ، وشفار السيوف . ثم استرجع وتمثل بأبيات للبعيث^(٦) ، ثم التفت إلى فقال :

« يا أبا الحارث ، إنا وإياك لنجرى إلى غاية ، إن قصّرنا عنها ذمنا ، وإن اجتهدنا في بلوغها انقطعنا ، وإنما نحن شعب من أصل ، إن قوى قويننا ، وإن ضعف ضعفنا ، إن هذا قد ألقى بيده إلقاء الأمة الوكفاء^(٧) ، يشاور النساء ، ويعتمد على الرؤيا . وقد أمكن أهل اللهو والخسارة من سمعه ، فهم يعدّونه الظفرَ ، ويمثّونه عُقب^(٨) الأيام ،

(١) الظربان : دويبة فوق جرو الكلب متنتة الريح كثيرة الفسوخ ، يضرب بها المثل فيقال : « أفسى من ظربان » . (٢) في الأصل « تضرع » وأراه محرفاً . (٣) أصيب : أفل من صاحب السهم يصيب صبيها : أي أصاب ، وصم صيوب كصبور . (٤) القاصد أي الكاسر ، من القصد بالفتح : هو الكسر بأنى وجه كان ، أو بالنصف ، كالتقسيد ، يقال تصد الخمة وتصدّها : كسرها وفصلها فتقسمت . (٥) هلق . (٦) هو مخدّاش بن بشر الحاشمي ، أحد شعراء الدولة الأموية ، وكان يهاجى جريراً . (٧) وصف من الركن بالتحريك : وهو الإثم والعيب والنقص ، وكف كفرح إذا أثم ، وفي رواية للطبري « للوكماء » بالعين ، وهي الحفقاء . (٨) العقب كقفل وعنق : العاقبة .

والملاك أسرع إليه من السيل إلى قيعان^(١) الرمل ، وقد خَشِيتُ وألله أن يهلكَ بهلاكه ، ونعطبَ بعطبه .

وأنت فارس العرب وابن فارسها ، وقد فزِعَ إليك في لقاء هذا الرجل (طاهر) ، وأطعمه فيما قبلك أمران ؛ أما أحدهما فصِدْقُ طاعتك ، وفضلُ نصيحتك ؛ والثاني يُمنُ نَقِيبَتِكَ^(٢) ، وشدة بأسك ، وقد أمرني بإزاحة عِلَّتِكَ ، وبسَطِ يدك فيما أحببت ، غير أن الاقتصاد رأس النصيحة ، ومفتاح اليُمنِ وَالْبَرَكةِ ، فَأَنْجِزِ حوائجك ، ومَجَلِّ المبادرة إلى عدوك ، فإني أرجو أن يُوليك اللهُ شرفَ الفتح ، وَيَلِمَّ بك شَعَثُ هذه الخِلافةِ والدولة .
فأجاب بالسمع والطاعة ، غير أنه طلب مطالب لم تَرُقْ في عين الأمين فغضب عليه ، وأمر بِسَجْنِهِ .
(تاريخ الطبري ١٠ : ١٥٨ وزهر الآداب ٢ : ١٥٨)

١٠١ - وصية الأمين لأحمد بن مزيد

ثم ندب عمه أحمد بن مزيد ، فلما أراد الشخوص دخل على الأمين ، فقال : أوصني أكرم الله أمير المؤمنين ، فقال :

« أوصيك بِخِصَالِ عِدَّةٍ ، إِيَّاكَ وَالْبَغْيَ فَإِنَّهُ عِقَالٌ^(٣) النصر ، ولا تقدّم رجلاً إلا باستخارة ، ولا تشهرَ سيفاً إلا بعد إعدار ، ومهما قدّرت عليه بالين ، فلا تتعدّه إلى الخرق والشّره ، وأحسن صحابةً من معك من الجنود ، وطالعني بأخبارك في كل يوم ، ولا تخاطر بنفسك في طلب الزُّلْفَةِ^(٤) عندي ، ولا تستقها فيما تخوّف رجوعه على ، وكن لعبد الله أخاً مضافاً ، وقريناً برّاً ، وأحسن مجامعته ، وصحبته ومعاشرته ، ولا تخذله إن استنصرك ، ولا تبطئ عنه إذا استصرحك ، ولتكن أيديكما^(٥) واحدة ، وكلتكما متفقة . »

(١) القيعان جمع قاع : وهو أرض مطبنة سهلة قد انفرجت عنها الجهال والآكام .

(٢) النقيبة : النفس والطبيعة . (٣) العقال في الأصل : الحبل الذي تقيد به الدابة .

(٤) الزلفة والزلني : القرية . (٥) أي أنت وعبد الله بن حميد بن قحطبة .

وتوجه أحمد بن مزيد في عشرين ألفاً من الأعراب ، وعبد الله بن حميد بن قحطبة في عشرين ألفاً من الأبناء ، حتى نزلا خانقين - قريباً من حلوان - ولم يزل طاهر يَحْتال في وقوع الاختلاف والشغب بينهم ، حتى اختلفوا ، وانتفض أمرهم ، وقاتل بعضهم بعضاً ، فأخَلُوا خانقين ورجعوا عنها ، دون أن يَلْقُوا طاهراً .

(تاريخ الطبري ١٠ : ١٥٩)

١٠٢ - مقال عبد الملك بن صالح للأمين

وكان عبد الملك بن صالح يشكر للأمين تخليّة سيّاه ، ويوجب بذلك على نفسه طاعته ونصيحته ، فلما قوى طاهر ، واستعلى أمره ، وهزم من هزم من قواد الأمين وجيوشه ، دخل عبد الملك على الأمين ، فقال :

« يا أمير المؤمنين : إني أرى الناس قد طَمِعُوا فيك ، وأهل العسكرين قد اعتمدوا ذلك ، وقد بذلت سماحتك ، فإن تَمَّتْ على أمرك أفسدتهم وأبطرتهم ، وإن كَفَفْتَ أمرك عن العطاء والبذل أسخّطتهم وأغضبتهم ، وليس تملك الجنود بالإمساك ، ولا يبقى ثبوتُ الأموال على الإنفاق والسرف ، ومع هذا فإن جنك قد رَعَبْتَهُم الهزائم ونهَكْتَهُم ، وأضعفتهم الحرب والوقائع ، وامتلات قلوبهم هيبَةً لعدوهم ، ونكولاً^(١) عن لقاءهم ومناهضتهم ، فإن سيرتهم إلى طاهر ، غلبَ بقليل من معه كثيرهم ، وهزم بقوة نيته ضعف نضائهم ونياتهم ، وأهل الشام قوم قد ضرّستهم^(٢) الحروب ، وأدّبتهم الشدائد ، وجلّهم متقاداً إلى ، مسارعاً إلى طاعتي ، فإن وجهي أمير المؤمنين أخذت له منهم جنداً يعظم نكايتهم في عدوه ، ويؤيد الله بهم أوليائه وأهل طاعته . »

فقال الأمين : « فإني مؤليك أمرهم ، ومقويك بما سألت من مال وعدّة ، فجعّل

(٢) جربتهم واحكمتهم .

(١) جبنوا وخوفوا .

الشخص إلى ما هنالك ، فاعمل عملاً يظهر أثره ، وَيُحَمَّدُ بركته ، برأيك ونظرك فيه
إن شاء الله ، فولاه الشام والجزيرة .

(تاريخ الطبري ١٠ : ١٦٦ ، والكامل لابن الأثير ٦ : ١٠٣)

١٠٣ - الشعب في جيش عبد الملك بن صالح

وسار عبد الملك بن صالح ، فلما قَدِمَ الرَّقَّةَ^(١) ، كتب إلى رؤساء أجناد الشام ووجوه
الجزيرة ، فلم يبق أحد ممن يُرْجَى ، ويذكر بأسه وِعْنَائِهِ إلا وَعَدَهُ ، وبسط له في أمله
وأمنيته ، فقدموا عليه رئيساً بعد رئيس ، وجماعة بعد جماعة ، فكان لا يدخل عليه أحد
إلا أجازه ، وخلع عليه وحمله ، فأتاه أهل الشام ، الزَّوْاقِيلُ والأعراب من كل فج ،
وَاجْتَمَعُوا عنده حتى كَثُرُوا ، بَيِّدَ أَنَّهُ سَبَتِ نارَ الفتنَةِ بين جند أهل خراسان وبين
الزَّوْاقِيلِ^(٢) ، وَأَفْضَى الأمرُ إلى تلاحمهم وَاقتتالهم ، ثم قام رجل من أهل حِمْصَ ، فقال :
« يَا أهل حِمْصَ ، الهَرَبُ أهونُ من العَطَبِ ، والموتُ أهونُ من الذلِّ ، إنكم بعدتم
عن بلادكم ، وخرجتم من أقاليمكم ، ترجون الكثرة بعد القلة ، والعزة بعد الذلَّة ؛ ألا وفي
الشرِّ وقتم ، وإلى حومة الموت أنْحَتُمْ ، إن الناياب في شوارب المسوِّدة^(٣) وقلانسهم ،
النفيرَ النفيرَ^(٤) قبل أن ينقطع السبيل ، وينزل الأمرُ الجليل ، ويفوت المطلب ، ويعسر
المذهب ، ويبعد العمل ، ويقرب الأجل . »

وقام رجل من كلب ، فقال :

« يَا معشر كلب ، إنها الراية السوداء ، والله ما ولت ولا عدلت ، ولا ذلَّ

(١) بله على القرات . (٢) وسببها أن بعض جند أهل خراسان نظر إلى دابة كانت قد أخذت منه

في إحدى اللقعات تحت بعض الزواقيل ، فتملق بها ، فجرى الأمر بينهما إلى أن اختلفا ، واجتمعت جماعة
من الزواقيل والجنود فتلاحرا ، وأمان كل فريق منهم صاحبه ، ثم اتسع نطلق الفتنه فانشقت وحدة الجيش .

(٣) كانت الجنود الخراسانية التي تقاتل الامويين في سبيل نشر الدعوة العباسية يحملون الرايات السود

فصموا من أجل ذلك المسودة . (٤) نفر إلى الأمر كضرب نفيرا : أسرع إليه .

نصرها ، ولا ضُف ولتِها ، وإنكم لتعرفون مواقعَ سيوف أهل خراسان في رقابكم ، وآثار أسنتهم في صدوركم ، اعتزلوا الشرق قبل أن يعظم ، وتخطوه قبل أن يضطرم ، شأمكم ، داركم داركم ، الموت الفلستيني خير من العيش الجزري ، ألا وإني راجع فمن أراد الانصراف فلينصرف معي .

ثم سار وسار معه عامة أهل الشام ، وأقبلت الزواويل حتى أضرموا ما كان يُجمع من الأعلاف بالنار ، (وكان ذلك في سنة ١٩٦ هـ) . (تاريخ الطبري ١٠ : ١٦٢)

١٠٤ - خطبة الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان

يدعو إلى خلع الأمين

ومات عبد الملك بن صالح بالرقّة ، وكان معه الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان ، فأقبل الجند من الجزيرة إلى بغداد ، فتلقاه أهلها بالكرامة والتعظيم ، وضربوا له القباب ، واستقبله القواد والرؤساء والأشراف ، ثم اجتمع إليه الناس فقام فيهم فقال :
« يا معشر الأبناء ، إن خلافة الله لا تُجأوز بالبطر ، ونعمه لا تستصحب بالتجبر والتكبر ، وإن محمداً يريد أن يُوتغ^(١) أديانكم ، وينكث ببيعتمكم ، ويفرق جمعكم ، وينقل عزكم إلى غيركم ، وهو صاحب الزواويل بالأمس ، وباللّه إن طالت به مدة ، وراجمه من أمره قوّة ، ليرجعن وبال ذلك عليكم ، وليعرفن ضرره ومكروهه في دولتكم ودعوتكم ، فاقطعوا أثره قبل أن يقطع آثاركم ، وضعوا عزّه قبل أن يضع عزكم ، فواللّه لا ينصره منكم ناصرٌ إلا خذل ، ولا يمنعه مانعٌ إلا قتل ، وما عند الله لأحد هَوادةٌ ، ولا يراقب على الاستخفاف بمهوده ، وألحنت بأيمانه .

وخلع الحسين بن علي محمداً الأمين وحبسه^(٢) ، وأخذ البيعة لعبد الله المأمون .
(تاريخ الطبري ١٠ : ١٦٣)

(١) أوتغ دينه بالإثم : أفسده ، وأوتقه الله : أهلكه .

(٢) وكان حبس الحسين بن علي في قصر أبي جعفر يرمين .

١٠٥ - خطبة محمد بن أبي خالد

في فض الناس عن اتباع الحسين بن علي بن عيسى

فلما أصبح الناس من الغد ، طلبوا من الحسين بن علي الأرزاق ، وماج الناس بعضهم في بعض ، وقام محمد بن أبي خالد ، فقال :

« أيها الناس ، والله ما أدري ، بأي سبب يتأمر الحسين بن علي علينا ، ويتولى هذا الأمر دوننا؟ ما هو بأكبرنا سناً ، ولا أكرمنا حسَباً ، ولا أعظمنا منزلةً ، وإن فينا من لا يَرْضَى بالدنيّة ، ولا يُقاد بالخذاعة ، وإني أوّلكم ، نقض عهده ، وأظهر التغيير عليه ، والإنكار لفعله ، فمن كان رأيه رأبي ، فليعتزل معي . »

(تاريخ الطبري ١٠ : ١٦٤)

١٠٦ - إطلاق الأمين من سجنه وورده إلى مجلس الخلافة

وقام أسد الحرّبيّ ، فقال : « يا معشر الحرّبية ، هذا يومٌ له ما بعده ، إنكم قد إنتمتُمْ وَطال نومكم ، وتأخرتم فقدم عليكم غيرُكم ، وقد ذهب أقوامٌ بذِكر خلع محمد وأسرِهِ فاذهبوا بذِكر فِكه وإطلاقه . »

فأقبل شيخ كبير من أبناء الكِفاية على فرس ، فصاح بالناس : اسكتوا ، فسكتوا ، فقال :

« أيها الناس ، هل تعتدّون على محمد بقطع منه لأرزاقكم؟ قالوا : لا ، قال : فهل قصّر بأحد منكم ، أو من رؤسائكم وكبرائكم؟ قالوا : ما علمنا ، قال : فهل عزل أحداً من قوادكم؟ قالوا : معاذ الله أن يكون فعل ذلك ، قال : فما بالكم خذلتوه ، وأعنتم عدوه على اضطهاده وأسرهِ؟ أمّا والله ما قتل قومٌ خليفتمهم قطُّ ، إلا سلط الله عليهم السيفَ القاتل ، وألحقت الجارِف ، انهضوا إلى خليفتم وادفعوا عنه ، وقاتلوا من أراد خلعهُ والفتك به . »

فهبضوا معه وقاتلوا الحسين بن عليّ وأصحابه قتالاً شديداً ، وأكثروا في أصحابه الجراح ، وأسروا الحسين ، ودخل أسد الحربى على محمد فكسر قيوده وأقعده في مجلس الخلافة .

وأتى الأمين بالحسين بن عليّ ، فلامه على خلافه وقال له : ألم أقدم أباك على الناس ، وأولّه أعنة الخيل ، وأملاً يده من الأموال ، وأشرف أقداركم في أهل خراسان ، وأرفع منازلكم على غيركم من القواد؟ قال : بلى ، قال : فما الذى استحققت به منك أن تخلع طاعتي ، وتوَلِّب الناس عليّ ، وتندبهم إلى قتالى؟ قال : الثقة بعفو أمير المؤمنين وحسن الظن بصفحه وتفضله ، قال : فإن أمير المؤمنين ، قد فعل ذلك بك ، وولاك الطلب بئارك ، ومن قُتِل من أهل بيتك ، ثم دعا له بخلعة ، فخلعها عليه ، وحمله على مراكب ، وأمره بالمسير إلى حلوان ، وخرج الحسين ، فهرب في نفر من خدمه ومواليه ، فنادى محمد في الناس ، فركبوا في طلبه فأدركوه وقتلوه . (تاريخ الطبرى ١٠ : ١٦٤)

١٠٧ - خطبة داود بن عيسى يدعو إلى خلع الأمين

وقام داود بن عيسى^(١) والى مكة والمدينة - وكان خطيباً فصيحاً جهير الصوت - يدعو إلى خلع الأمين ومبايعة المأمون ، فقال :

(١) هو داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، وكان الأمين حين أفضت الخلافة إليه بعث به والياً على مكة والمدينة ، فأقام والياً عليهما حتى دخلت سنة ١٩٦ ، فسكتب الأمين إلى داود بن عيسى بأمره بخلع عبد الله المأمون ، والبيعة لابنه موسى ، وبعث إلى الكتائب الذين كان الرشيد كتبهما وعلقهما في السكبة ، فأخذهما ، فلما فعل ذلك جمع داود حجة السكبة والقرشيين والفقهاء ، ومن كان شهد على ما في الكتائب من اليهود - وكان داود أحدهم - فقال داود : قد علمتم ما أخذ علينا وعليكم الرشيد من العهد والميثاق ، عند بيت الله الحرام ، حين بايعنا لابنيه لتكوين مع المظلوم منهما على الظلم ، ومع المبغى عليه حل الباغى ، ومع المغدور به حل الغادر ، فقد رأينا ورأيتم أن محمداً (الأمين) قد بدأ بالظلم والبغي والغدر على أخويه عبد الله المأمون ، والقاسم المؤتمن ، وخلعهما ، وبايع لابنه المظلوم رضيع صغير لم يقطع ، واستخرج الشرهين من السكبة عاصياً ، فحرقهما بالنار ، وقد رأيت خلعهم ، وأن أبايك لعبد الله المأمون بالخلافة ، إذ كان مظلوماً مبغياً عليه ، فقال له أهل مكة : رأينا تبع لرأيك ، ونحن خالعو معك ، فجمع الناس ، وخطبهم هذه الخطبة .

« الحمد لله مالك الملك ، يُؤتي الملكَ من يشاء ، وَيَنْزِعُ الملكَ من يشاء ، وَيُعْزِزُ من يشاء ، وَيُذِلُّ من يشاء ، بيده الخيرُ ، وهو على كل شيء قدير ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، قائماً بالقسط ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالدين ، وختم به النبيين ، وجعله رحمةً للعالمين ، صلى الله عليه في الأولين والآخرين .

أما بعد ، يا أهل مكة ، فأتتم الأصلُ والفرع ، والعشيرة والأُسرة ، والشركاء في النعمة ، إلى بلدكم يَفِدُ وَفَدَ اللهُ^(١) ، وإلى قبلكم يَأْتُمُّ المسلمون ، وقد عَلِمْتُمْ ما أخذ عليكم الرشيد هرون ، رحمة الله عليه وصلاته ، حين بايع لابنيه محمد وعبد الله بين أظهركم من العهد والميثاق ، لَتَنْصُرُنَّ المظلومَ منهما على الظالم ، والمبغى عليه على الباغى ، والمغدورَ به على الغادر ، ألا وقد علمتم وعلمنا أن محمد بن هرون قد بدأ بالظلم والمبغى ، والغدر ، وخالف الشروط التي أعطاهَا من نفسه في بطن البيت الحرام ، وقد حلَّ لنا ولكم خلعه من الخلافة وتصييرها إلى المظلومِ المبغى عليه ، المغدور به ، ألا وإني أُشهدكم أني قد خلعت محمد بن هرون من الخلافة ، كما خلعت قلنسوتي هذه من رأسي وخلعت قلنسوته عن رأسه ، فرمى بها إلى بعض الخدم تحته ، وكانت من بُرُودِ حَبْرَةَ^(٢) مسلسلة حمراء ، وأتى بقلنسوة سوداء هاشمية فلَبِسَهَا - ثم قال : قد بايعت لعبد الله المأمون أمير المؤمنين بالخلافة ، ألا فقوموا إلى البيعة لخلافتكم ، فصعد جماعة من الوجوه إليه إلى المنبر رجل فرجل ، فبايعه لعبد الله المأمون بالخلافة وخلع محمداً .

(تاريخ الطبري ١٠ : ١٧٠)

(١) أي لتأدية فريضة الحج . (٢) برود حبرة : ضرب من البرود البانوية ، يقال : برد حبرة مثل عنبة على الوصف والإضافة ، وبرود حبرة ، وليس حبرة موضعاً أو شيئاً معلوماً ، إنما هو وثى كقولك : ثوب قرمز ، والقرمز : صبغة .

١٠٨ - خطبة الأمين وقد تولى الأمر عنه

ولما رأى الأمين الأمر قد تولى عنه ، وأنصاره يتسللون فيخرجون إلى طاهر ، أمر بإحضار كل من كان معه في المدينة من القواد والجند ، فأشرف عليهم وقال :
« الحمد لله الذي يرفع ويضع ، ويعطي ويمنع ، ويقبض وَيَسْطُ ، وإليه المصير ، أحده على نوائب الزمان ، وخِذْلان الأعوان ، وتشتت الرجال ، وذهاب الأموال ، وحُلُول النوائب ، وتوفد المصائب ، حمداً يدخر لي به أجزل الجزاء ، وَيَرْفِدُنِي ^(١) أحسن العزاء ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، كما شهد لنفسه ، وشهدت له ملائكته ، وأن محمداً عبده الأمين ، ورسوله إلى المسلمين صلى الله عليه وسلم ، أمين رب العالمين .

أما بعد : يامعشر الأبناء ، وأهل السَّبْقِ إلى الهدى ، فقد علمتم غفلي كانت أيام الفضل بن الربيع وزير عليٍّ ومشير ، فمادت ^(٢) به الأيام بما كزمني به من الندامة في الخاصة والعامة ، إلى أن نبهتموني فانتبهت ، واستعنتموني في جميع ما كرهتم من نفسي وفيكم ، فبذلت لكم ما حواه ملكي ، ونالته مقدرتي مما جمعه ووَرِثته عن آبائي فقودت ^(٣) من لم يجز ، واستكفيت من لم يكف ، واجتهدت - عِلمَ الله - في طلب رضاكم بكل ما قَدِرت عليه ، واجتهدتم - عِلمَ الله - في مساءتي في كل يوم ما قَدِرت عليه ، من ذلك توجيهي إليكم علي بن عيسى شيخكم وكبيركم ، وأهل الرأفة بكم ، والتحنن عليكم ، فكان منكم ما يطول ذِكرُه ، ففقرتُ الذنب ، وأحسنت واحتملت وعزيتُ نفسي عند معرفتي بشذوذ الظفر ، وحرصى على مقامكم مَسْلحة ^(٤) جُلوان مع ابن كبير صاحب دعوتكم ، وَمَنْ عَلَى يَدِي أَيْه ^(٥) كان نحرکم ، وبه تمت طاعتكم

(١) رفته وأرفده : أعطاه . (٢) طاولته وأمهله . (٣) أي انخلته قائداً .

(٤) المسلحة : القوم ذور سلاح .

(٥) يعني جد عبد الله بن حميد بن قسطنطين ، وهو قسطنطين بن شبيب الطائي ، أحد الدعاة العباسية والقواد

الذين قاتلوا الجيوش الأموية - انظر الجزء الثاني ص ٥١٣

عبد الله بن حميد بن قحطبة ، فصرتم من التائب عليه إلى مالا طاقة له به ، ولا صبراً عليه ، يقودكم رجل منكم وأنتم عشرون ألفاً إلى غامين ، وعلى سيدكم متوثبين ، مع سعيد الفرد ، سامعين له مطيعين ، ثم وثبتم مع الحسين عليّ ، فخلعتموني وشتمتموني ، وأنتهبتموني وحسبتموني وقيدتموني ، وأشياء منعتموني من ذكرها ، حقد قلوبكم ، وتلكي^(١) طاعتكم أكبر وأكثر ، فالحمد لله حمد من أسلم لأمره ، ورضي بقدره ، والسلام .

وكانت عاقبة أمره أن قتل سنة ١٩٨ هـ وحمل رأسه إلى المأمون بخراسان .

(تاريخ الطبري ١٠ : ٢٠٥ ، ومروج الذهب ٢ : ٢٠٥)

١٠٩ - استعطاف الفضل بن الربيع للمأمون

وقال المأمون للفضل بن الربيع^(٢) لما ظفر به : « يا فضل ، أكان من حقّ عليك وحقّ آباي ونعمهم عند أبيك وعندك أن تثلّبني^(٣) وتسنّني وتخرّض علي دمي ؟ أحبّ أن أفعل بك ما فعلته بي ؟ » .

فقال : « يا أمير المؤمنين ، إن عذري يُحقدك إذا كان واضحاً جميلاً ، فكيف إذا حفته^(٤) العيوب ، وقبحته الذنوب ، فلا يضيق عني من عفوك ما وسع غيري منك فأنت كما قال الشاعر^(٥) فيك :

صَفُوحٌ عَنِ الْأَجْرَامِ حَتَّى كَأَنَّهُ مِنْ الْعَفْوِ لَمْ يَعْرِفْ مِنَ النَّاسِ مُجْرِمًا
وَلَيْسَ يُبَالِي أَنْ يَكُونَ بِهِ الْأَذَى إِذَا مَا الْأَذَى لَمْ يَفْشَ بِالْكَرْهِ مُسْلِمًا
(زهر الآداب ٢ : ١٦٣)

(١) مهمل عن تليكو . (٢) توفي سنة ٢٠٨ . (٣) ثلّبه كضربه : لامة وعابه .

(٤) هكذا في الأصل ، وربما كان « أخفته » لقوله قبل : « إذا كان واضحاً » .

(٥) هو الحسن بن رجا بن أبي الضحاك .

١١٠ - خطبة طاهر بن الحسين بغداد بعد مقتل الأمين

ودخل طاهر بن الحسين بغداد يوم الجمعة بعد مقتل الأمين ، فصلى بالناس وخطبهم خطبة بليغة ، وقد حضره من بني هاشم والقواد وغيرهم جماعة كثيرة قال :

« الحمد لله مالك الملك ، يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، بيده الخير ، وهو على كل شيء قدير ، لا يصلح عمل المفسدين ، ولا يهدي كيد الخائنين ، إن ظهور غلبتنا لم يكن من أيدينا ولا كيدنا ، بل اختار الله للخلافة ، إذ جعلها عمادا لدينه ، وقواما لعباده ، وضبط الأطراف ، وسد الثغور ، وإعداد العدة ، وجمع النعم ، وإنفاذ الحكم ، ونشر العدل ، وإحياء السنة بعد إذبال البطالات ، والتلذذ بموبق الشهوات ، والمخيل إلى الدنيا مستحسن لداعي غرورها ، محتلب درة^(١) نعمها ، ألف لزهرة روضتها ، كلف برونق بهجتها ، وقد رأيت من وفاء موعود الله عز وجل لمن بغى عليه ، وما أحل به من بأسه ونقمته ، لما نكب^(٢) عن عهده ، وارتكب معصيته ، وخالف أمره ، وغيره ناهية ، وعظته مؤدبة ، فتمسكوا بدقائق عصم^(٣) الطاعة ، وأسلكوا مناحي سبيل الجماعة ، واحذروا مصارع أهل الخلاف والمعصية ، الذين قدحوا زناد الفتنة ، وصدعوا شعب الألفة ، فأعقبهم الله خسار الدنيا والآخرة . »

(تاريخ الطبري ١٠ : ٢٠٦ ، وللمقد افريد ٢ : ١٥٥)

(١) الدرّة : اللين .

(٢) عدل .

(٣) جمع عصام ككتاب ، وعصام القرية : رباطها وسيرها الذي تحمل به .

خطب المأمون (توفي سنة ٥٢١٨هـ)

١١١ - خطبته وقد ورد عليه نعي الرشيد

خطب الناس بمرو حين ورد عليه نعي الرشيد ، فقال :

« إن ثمرة الصبر الأجر ، وثمره الجزع الوزر ، والتسليم لأمر الله عز وجل ، فائدة جلية ، وتجارة مريحة ، فالموت حوض مورود ، وكأس مشروب ، وقد أتى على خليفتم ما أتى على نبيكم صلى الله عليه وسلم ، فإننا لله وإنا إليه راجعون ، فما كان إلا عبداً دعي فأجاب ، وأمر فاطاع ، وقد سداً أمير المؤمنين ثلته ، وقام مقامه ، وفي أعناقكم من العهد ما قد عرفتم ، فأحسنوا العزاء على إمامكم الماضي ، واغتنبوا بالنعماء والوفاء في خليفتم الباقي ، يأهل الدنيا : الموت نازل ، والأجل طالب ، وأمس واعظ ، واليوم مغتتم ، وغد منتظر » .

١١٢ - خطبته وقد سلم الناس عليه بالخلافة

ولما بلغه بخراسان قتل أخيه ، وأقبل الناس للتسليم عليه بالخلافة ، صعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على نبيه ، ثم قال :

« أيها الناس : إني جعلتُ الله على نفسي ، إن أسترعاني أموركم أن أطيعه فيكم ، ولا أسفك دماً عمداً لا تحله حدوده ، وتسفكه فرائضه ، ولا آخذ لأحد مالا ، ولا أثاثاً ، ولا نحلة^(١) تحرم على ، ولا أحكم بهواي ، في غضبي ولا رضاي ، إلا ما كان

(١) نحلة : أعطاه والاسم النحلة .

في الله وله ، جعلتُ كلَّه لله عهداً مُرَّ كُداً ، وميثاقاً مُشدَّداً ، إني أفي رغبةً في زيادته
إيأيَ في نعمتي ، ورهبةً من مسألتِهِ إيأيَ عن حقِّه وخلقه ، فإنَّ غيَّرتُ أو بدلتُ كنتُ
للغيرِ مستأهلاً ، وللنكالِ مُعرَّضاً ، وأعوذُ بالله من سَخَطِهِ ، وأرغبُ إليه في المَعونة على
طاعته ، وأنَّ يُحوِّلَ بيني وبين معصيته .

١١٣ - خطبته يوم الجمعة

الحمد لله مستخلص الحمد لنفسه ، ومستوجبهِ على خلقه ، أحمدُه وأستعينه ، وأومن
به ، وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده
ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهرَهُ على الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ،
أوصيكم عباد الله بتقوى الله وَحَدَهُ ، والعملِ لما عنده ، والتنجزِ لوعده ، والخوفِ
لوعيده ، فإنه لا يَسْلَمُ إلا من اتقاه ورجاه ، وعمل له وأرضاه ، فاتقوا الله
عباد الله ، وبادروا آجالكم بأعمالكم ، وابتاعوا ما يبقى بما يزول عنكم ، وترحلوا فقد
جُدَّ بكم ، واستعدُّوا للموت فقد أظلمكم ، وَكُونُوا قَوْمًا صِيح بِهِم فانتبهوا ، وعلموا أن
الدنيا ليست لهم بدارٍ فاستبدلوا ، فإن الله لم يخلقكم عبثاً ، ولم يترككم سُدىً ، وما بين
أحدكم وبين الجنة والنار إلا الموتُ أن ينزل به ، وإن غايةَ تنقُصها اللحظةُ ، وتهدمها
الساعةُ الواحدةُ ، لجديرة بقصر المدة ، وإن غائباً يَحْدُوه (١) الجديدان : الليل والنهار
لحريٍّ بسرعة الأوبة ، وإن قادمًا يحلُّ بالفوز أو بالشقوة لمستحقٍّ لأفضل العُدَّة ، فاتق
عبدُ ربِّه ، ونصح نفسه ، وقدم توبته ، وغلب شهوته ، فإنَّ أجله مستورٌ عنه ، وأمله
خادع له ، والشيطان موكل به ، يزين له المعصية ليركبها ، ويمنيه التوبة ليسوفها ، حتى
تهجم عليه منيته ، أغفل ما يكونُ عنها ، فيألها حسرةً على ذي غفلة ، أن يكون عمره
عليه حجةً ، أو تؤدِّيهِ أيامه إلى شقوة ، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن لا تُبطرُه نعمة ،

وَلَا تَقْصُرْ بِهِ عَنْ طَاعَتِهِ غَفْلَةً ، وَلَا تَحُلِّ بِهُ بَعْدَ الْمَوْتِ فَرْعَةً . إِنَّهُ سَمِيعُ الدَّعَاءِ ، وَبَيْدُهُ الْخَيْرُ ، وَإِنَّهُ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ » . (عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٥٣ ، والمعتمد الفريد ٢ : ١٤٨)

١١٤ - خطبته يوم الأضحى

قال بعد التكبير والتحميد : إن يومكم هذا يوم أبان الله فضله ، وأوجب تشریفه ، وعظم حرمة ، ووفق له من خلقه صفوته ، وأبلى فيه خليله ، وفدى فيه من الذبح نبيه ، وجعله خاتم الأيام المعلومات من العشر ، ومتقدم الأيام المعدودات من النفر^(١) ، يوم حرام ، من أيام عظام ، في شهر حرام ، يوم الحج الأكبر ، يوم دعا الله إلى مشهده ، ونزل القرآن بتعظيمه ، قال الله جل وعز : « وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ، لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ، فَكُلُوا مِنْهَا ، وَأَطِعُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ، ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ ، وَلِيُوفُوا نُدُورَهُمْ ، وَلِيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ، ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ، وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ^(٢) » .

فتقربوا إلى الله في هذا اليوم بذيأحكم ، وعظّموا شعائر الله ، واجعلوها من طيب أموالكم ، وبصحة التقوى من قلوبكم ، فإنه يقول : « لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَائُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ^(٣) » ، ثم التكبير والتحميد والصلاة على النبي والوصية

(١) يوم النفر : اليوم الذي ينفر فيه الناس من منى ، وهو بعد يوم للقر (يوم القر بالفتح : اليوم الذي بعد يوم النحر ، لأن الناس يقرون في منازلهم) .

(٢) رجلا : أى مشاة ، جمع راجل كقيام وقيام ، - وعلى كل ضامر : أى وركبانا على كل ضامر ، أى بغير مهزول ، يأتين : أى للضوامر ، صفة لضاير حلاهل المعنى ، من كل فج عميق : أى طريق بعيد ، ليشهدوا مَنَافِعَ لَهُمْ : دينية ودنيوية ، في أيام معلومة : هى عشر ذى الحجة ، وقيل : أيام النحر ، من بهيمة الأنعام : الإبل والبقرة والغنم التى تنحر الضحايا ، ثم ليقضوا تفثهم : أى يزيلوا أوساخهم وشعثهم من نحو قص الأظفار ، وحلق العانة ، وغير ذلك . (٣) أى يرفع إليه منكم العمل الصالح .

بالتقوى ، ثم قال بعد ذكر الجنة والنار ، عَظُمَ قَدْرُ الدَّارَيْنِ ، وارتفع جزاء العَمَلَيْنِ ^(١) ،
وطالت مدة الفريقين ، اللهُ اللهُ ، فوالله إنه أَلْجِدُّ لَأَلَّعِبِ ، وإنه الحقُّ لا الكذب ،
وما هو إلا الموت والبعث ، والميزان والحساب والقصاص والصراف ، ثم العقاب
والثواب ، فمن نجا يومئذ فقد فاز ، ومن هوى يومئذ فقد خاب ، الخير كله في الجنة ،
والشر كله في النار . (عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٥٤ ، والمعقد الفريد ٢ : ١٤٨)

١١٥ - خطبته يوم الفطر

قال بعد التكبير والتحميد : إن يومكم هذا يوم عيد وسنة ، وابتهاال ورغبة ، يومٌ
ختم الله به صيام شهر رمضان ، وافتتح به حج بيته الحرام ، فجعله خاتمة الشهر ، وأول
أيام شهور الحج ، وجعله مُعَقَّباً لمفروض صومكم ، ومُتَنَفَّلَ قِيَامِكُمْ ، أَحَلَّ فِيهِ الطَّعَامَ
لَكُمْ ، وَحَرَّمَ فِيهِ الصِّيَامَ عَلَيْكُمْ ، فاطلبوا إلى الله حوائجكم ، واستغفروه لتفريطكم ،
فإنه يقال : « لا كبير مع استغفار ، ولا صغير مع إصرار » ثم التكبير والتحميد ،
وذكر النبي عليه الصلاة والسلام ، والوصية بالتقوى ، ثم قال : فاتقوا الله عباد الله ،
وبادروا الأمر الذي أعتدل فيه يقينكم ، ولم يَحْتَضِرْ ^(٢) الشكُّ فيه أحداً منكم ، وهو
الموت المكتوب عليكم ، فإنه لا تُسْتَقَالُ بعده عثرةٌ ، وَلَا تُحْطَرُ قبله توبةٌ ، واعلموا
أنه لا شيء قبله إلا دونه ، ولا شيء بعده إلا فوقه ، ولا يُعِينُ على جزعه وَعَلَزَهُ ^(٣)
وَكَرَبَهُ . ولا يعين على القبر وظلمته ، وَضِيقِهِ وَوَحْشَتِهِ ، وَهَوْلِ مَطَاعِهِ وَمَسْأَلَةِ مَلَائِكَتِهِ ،
إلا العمل الصالح الذي أمر الله به ، فمن زلت عند الموت قدمه ، فقد ظهرت ندامته ،
وفاتته استقالته ، ودعا من الرجعة إلى مالا يُجَابُ إليه ، وبذل من الفدية مالا يُقْبَلُ منه ،
فالله الله عباد الله ، وكونوا قوماً سألوا الرجعة فأعطوها ، إذ مُنِعَهَا الَّذِينَ طَلَبُوهَا ،

(١) أى عمل الخير وعمل الشر .

(٢) يحضر .

(٣) العلز : ما يصيب المريض عند حشجة الموت من رعدة واضطراب .

فإنه ليس يتمنى المتقدمون قبلكم إلا هذا المهل المبسوط لكم ، واحذروا ما حذركم الله ،
 واتقوا اليوم الذي يجمعكم الله فيه لوضع موازينكم ، ونشر صحفكم الحافظة لأعمالكم ،
 فالينظر عبداً ما يضع في ميزانه مما يتقل به ، وما يميل^(١) في صحيفته الحافظة لما عليه وله ،
 فقد حكي الله لكم ما قال المفرطون عندها ، إذ طال إعراضهم عنها ، قال : « وَوُضِعَ
 الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا ، مَا لِهَذَا الْكِتَابِ
 لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ
 أَحَدًا » ، وقال : « وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ^(٢) لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ،
 وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ » ، ولست أنها كم عن
 الدنيا بأعظم مما نهتكم الدنيا عن نفسها ، فإن كل ما بها ينهى عنها ، وكل ما فيها يدعو
 إلى غيرها ، وأعظم مما رأته أعينكم من معائبها ذم كتاب الله لها ، ونهى الله عنها ،
 فإنه يقول : « فَلَا تَغُرَّنَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ » ، وقال :
 « إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ . . . الآية » ، فانتفعوا بمعرفتكم بها ، وبإخبار الله عنها ،
 واعلموا أن قوماً من عباد الله أدركتهم عصمة الله فحذروا مصارعها ، وجانبوا خدائنها ،
 وآثروا طاعة الله فيها ، فأدركوا الجنة بما تركوا منها .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٥٥ ؛ والمعقد الفريد ٢ : ١٤٨)

١١٦ - خطبة ابن طباطبا العلوي

وخطب محمد^(٣) بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم طباطباً بن الحسن بن الحسن بن
 علي بن أبي طالب ، حين انتهب قائد جيوشه أبو السرايا السريُّ ابن منصور قصر
 العباس بن موسى بن عيسى ، فقال :

(١) يميل . (٢) القسط : العدل : مصدر وصف به للمبالغة أو ذوات القسط .
 (٣) خرج بالكوفة لعشر خلوف من جمادى الآخرة سنة ١٩٩ هـ يدعو إلى الرضى من آل محمد ، والعمل
 بالكتاب والسنة ، وكان القيم بأمره في تدبير الحرب ، وقيادة جيوشه أبا السرايا السري بن منصور وكان سبب
 خروجه صرف المأمون طاهر بن الحسين عما كان إليه من أعمال البلدان التي افتتحها ، وتوجهه إلى ذلك الحسن =

« أما بعدُ : فإنه لا يزال يبئلفني أن القائل منكم يقول : إن بنى العباس قِيْلَ لنا ، ونخوضُ في دماءهم ، ونزترعُ في أموالهم ، ويُقبلُ قولنا فيهم ، وتصدق دعوانا عليهم ، حُكْمٌ بلا علم ، وعزْمٌ بلا رويّة ! عَجَبًا لمن يُطلقُ بذلك لسانه ، ويحدّثُ به نفسه ! أبكتاب الله تعالى حَكَمَ ، أم لِسُنَّةِ نبيه صلى الله عليه وسلم أتبع ؟ أفي مَنبِي (١) معه طَمِعَ ، أم بَسَطَ يدي له بالجود أمَلَّ ؟ هيهات ! فازدوا الحق بما نوى ، وأخطأ ذوا الباطل بما تمني ، حقُّ كل ذي حقٍّ في يده ، وكلُّ مُدَّعٍ على حجة ، وَيَلُ لِمَنْ اغتصب حقًّا ، وادعى باطلا ، أفلح مَنْ رَضِيَ بحكم الله ، وخاف من أرغم الحقُّ أنفه ، العَدْلُ أَوْلَى بِالْأَثَرَةِ وَإِنْ رَغِمَ الْجَاهِلُونَ ، حُقَّ لِمَنْ أَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ أَنْ يَجْتَنِبَ الْمُنْكَرَ ، ومن سلك سبيل العدل أن يصير على مرارة الحق ، كل نفس تسمو إلى همتها ، وَنِعْمَ الصَّاحِبُ الْقِنَاعَةُ .

أيها الناس ، إن أكرم العبادة الوَرَعَ ، وأفضل الزاد التقوى ، واعملوا في دنياكم ، وتزودوا الآخرة ، اتقوا الله حقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ، وإياكم والعصبية وَحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ، فإنهما يمحقان الدين ، ويورثان النفاق ، ولا تعاونا على الإثمِ وَالْعُدْوَانِ ، يصلح لكم دينكم ، وتحسن المقالة فيكم - الحق أبلغُ ، والسبيل منهج ، وَالْبَاطِلُ لَجَاجٌ (٢) ، وَالنَّاسُ مُخْتَلِفُونَ ، وَلِكُلِّ فِي الْحَقِّ سَعَةٌ ، من حاربنا حاربناه ،

= ابن سهل ، فلما فعل ذلك تحدث الناس بالعراق أن الفضل بن سهل قد غاب على المأمون ، وأنه قد أنزل قصرًا حجب فيه عن أهل بيته ، ووجوه قواده من الخاصة والعامة ، وأنه يهرم الأمور على هواه ، ويستبد بالرائي دونه ، فغضب لذلك بالعراق من كان بها من بني هاشم ، ووجوه الناس ، وأنفوا من غلبة الفضل على المأمون ، واجتروا على الحسن بن سهل بذلك ، وهاجت الفتن في الأمصار ، فكان أول من خرج بالكوفة ابن طباطبا المذكور ، فوجه إليه الحسن بن سهل زهير بن المديب في عشرة آلاف فواقعهم فهزموه واستباحوا عسكره ، فلما كان من غد اليوم الذي كانت فيه الوقعة (وذلك يوم الخميس ليلة خلت من رجب سنة ١٩٩) مات ابن طباطبا فجأة ، وذكر أن أبا السرايا سمع ، وذلك أن ابن طباطبا لما أحرز ما من عسكر زهير منه أبا السرايا ، وحظره عليه ، وكان الناس له مطيعين ، فلم أبو السرايا أنه لا أمر له معه فسمه .

(١) في الأصل : « أفي مثل » و« تحريف ، والصواب ما ذكرته .

(٢) أبلغ : أي واضح بين . والمنهج الطريق الواضح ، والباطل الخلق : أي يتردد دفيه صاحبه فلا يصيب مخرجا .

وَمَنْ سَأَلْنَا سَأَلْنَا ، وَالنَّاسَ جَمِيعًا آمِنُونَ إِلَّا رَجُلًا نَصَبَ لَنَا نَفْسَهُ ، وَأَعَانَ عَلَيْنَا بِمَالِهِ ،
وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَقُولَ : وَرَجُلٌ قَالَ فِينَا يَتَنَاوَلُ مِنْ أَعْرَاضِنَا : لَقُلْتُ ، وَكُنِي ، حَسْبُ كُلِّ
أَمْرٍ مَا يَصْنَعُهُ ، وَسَيُكْفِي الظَّالِمُونَ » . (مواضع الأدب ٢ : ١١٣)

١١٧ - استعطاف إبراهيم بن المهدي المأمون

لما ظفر المأمون بعنه إبراهيم بن المهدي^(١) أمر بإدخاله عليه ، فجىء بإبراهيم
يَحْبِلُ^(٢) في قيوده ، فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، فقال له
المأمون : لا سلم الله عليك ، ولا حفظك ، ولا رعاك ، ولا كلاك^(٣) يا إبراهيم ، فقال
له إبراهيم : على رسلك^(٤) يا أمير المؤمنين ، ولي^(٥) الثأر محكم في القصاص ، والعفو
أقرب للتعوي ، ومن مد له الاعتذار في الأمل ، هجمت به الأناة على التالف^(٦) وقد
أصبح ذنبي فوق كل ذنب ، كما أن عفوك فوق كل^(٧) عفو ، فإن تعاقب فبحقك ،
وإن تعف فبفضلك » ، ثم قال :

ذَنبِي إِلَيْكَ عَظِيمٌ وَأَنْتَ أَعْظَمُ مِنْهُ
نَحْذُ بِحَقِّكَ أَوْ لَا فَاصْفَحْ بِفَضْلِكَ عَنْهُ
إِنْ لَمْ أَكُنْ فِي فَعَالِي مِنَ الْكِرَامِ فَكُنْ

فأطرق المأمون ملياً ، ثم رفع رأسه فقال : إني شاورت أبا إسحق^(٨) والعباس

(١) كان المأمون قد عهد بالخلافة لعل الرضا بن موسى الكاظم ، فلما سمع العباسيون ببغداد (وكان المأمون
يمرو حاضرة خراسان) ما فعله المأمون من نقل الخلافة من البيت العباسي إلى البيت العلوي ، أنكروا منه ذلك ،
وخلعوه من الخلافة ، وبايعوا عمه إبراهيم بن المهدي سنة ٢٠١ هـ ، ولما علم المأمون بذلك جد في المسير إلى بغداد ،
وهرب عمه إبراهيم وتواري .

(٢) حبيل المقيد كضرب ونصر : رفع رجلا ، وتريث في مشيه على رجله .

(٣) كلاءه : حرسه . (٤) المهمل والثؤدة . (٥) صاحبه .

(٦) وفي رواية : « ومن تناوله الاعتذار بما مد له من أسباب الرخاء ، أمن عادية الدهر » .

(٧) وفي رواية : « وقد أصبحت فوق كل ذنب ، كما أصبح كل ذنب عفو دونك » وفي أخرى :

« وقد جعلك الله فوق كل ذنب ، كما جعل كل ذنب دونك » .

(٨) أبو إسحق هو المعتصم أخو المأمون ، والعباس هو ابن المأمون .

في قتلك فأشارا علىَّ به ، قال : فما قلتَ لهما يا أمير المؤمنين ؟ قال : قلتُ لهما : بدأنا له بإحسان ، ونحن نستأمره فيه ، فإن غيرَ فالله يغير ما به ، قال : أمّا أن يكونا قد نصحاك في عِظَم قدر الملك ، وما جرّت عليه عادةُ السياسة فقد فعلا ، ولكن أبيت أن تستجلب النصر إلا من حيثُ عودك الله ، ثم استعبر با كياً ، فقال له المأمون : ما يُكيك ؟ قال : جَدَلًا ، إذ كان ذنبي إلى من هذه صِفته في الإنعام ، ثم قال : يا أمير المؤمنين إنه وإن كان جرّمي يبلغ سَفْكَ دمي ، فإلم أمير المؤمنين وتفضله يُبلغاني عفوَه ، ولى بعدها شفاعَةُ الإقرار بالذنب ، وَحُرْمَةُ الأبِ بعد الأب ، قال المأمون : « القدرةُ تذهب الحفيظة^(١) ، والندم تَوْبَةٌ ، وعفوُ الله بينهما ، وهو أكبر ما يحاول ، يا إبراهيم : لقد حَبَبْتُ إلى العفو ، حتى خِفْتُ أن لا أُوجَرَ عليه ، أما لو عَلِمَ الناس ما لنا في العفو من اللَذَّة ، لتقربوا إلينا بالجنايات ، لا لتثريب^(٢) عليك ، يَغْفِرُ اللهُ لك ، ولو لم يكن في حق نسبك ما يبلغ الصفح عن زَلَّتْكَ ، لبلَّغك ما أمَّلتَ حسنُ توصلك ، ولطيف تنصُّلك » ، ثم أمر بردَّ ماله وضياعه ، فقال :

رَدَدْتُ مَالِي ، وَلَمْ تَبْخُلْ عَلَيَّ بِهِ وَقَبِلَ رَدِّكَ مَالِي قَدْ حَقَّقْتَ دَمِي
فَأَبْتُ مِنْكَ - وَمَا كَفَأْتُهَا - بِيَدِ هَا الْحَيَاتَانِ مِنْ وَفْرٍ وَمِنْ عَدَمِ^(٣)
وَقَامَ عِلْمُكَ بِي فَاحْتَجَّ عِنْدَكَ لِي مَقَامَ شَاهِدٍ عَدَلٍ غَيْرِ مُتَّهِمِ
فَلَوْ بَدَأْتُ دَمِي أَبْغِي رِضَاكَ بِهِ وَالْمَالُ ، حَتَّى أَسْأَلَ النُّعْلَ مِنْ قَدَمِي
مَا كَانَ ذَاكَ سِوَى عَارِيَةٍ رَجَعْتُ إِلَيْكَ ، لَوْ لَمْ تَهَبَّهَا كُنْتُ لَمْ تُكَلِّمْ

(الأغانى ٩ : ٥٧ ، والمقد الفرديد ١ : ١٤٢ ، الأمل ١ : ٢٠٢ ، وزهر الأديب ٣ : ١٩١)

(١) الحفيظة : الغضب ، وفي رواية الأغانى أن هذه الجملة من قول إبراهيم بن المهدي .

(٢) البد : النعمة .

(٣) لا لوم .

١١٨ - إبراهيم بن المهدي وبختيشوع الطيب

تنزع إبراهيم بن المهدي هو وبختيشوع الطيب بين يدي أحمد بن دؤاد القاضي ،
في مجلس الحكم ، في عقار بناحية السواد^(١) ، فزرى عليه^(٢) ابن المهدي ، وأغلظ له
بين يدي أحمد بن دؤاد ، فأحفظه^(٣) ذلك ، فقال : يا إبراهيم إذا نازعت أحدنا في مجلس
الحكم ، فلا أعلن أنك رفعت عليه صوتاً ، ولا أشرت بيد ، وليكن قصدك أمماً^(٤) ،
وطريقك نهجاً^(٥) ، وريحك ساكنة ، وكلامك معتدلاً ، ووف مجالس الحكومة
حقوقها ، من التوقير والتعظيم والاستكانة والتوجه إلى الواجب ، فإن ذلك أشبه بك
وأشكل لمذهبك في محنتك^(٦) ، وعظيم خطر^(٧) ، ولا تعجل ، فرب محلة
تهب ريثاً^(٨) ، والله يعصمك من الزلل ، وخطل القول والعمل ، ويتم نعمته عليك
كما أتمها على أبويك من قبل ، إن ربك حكيم عليم .

قال إبراهيم : « أصلحك الله أمرت بسداد ، وحضضت على رشاد ، ولست
بعائد إلى ما يثلم^(٩) مرؤتي عندك ، ويسقطني من عينك ، ويخرجني من مقدار
الواجب إلى الاعتذار ، فهأنأ معتذراً إليك من هذه البادرة ، اعتذاراً مقرراً بذنبه ، باخج
بجرمه^(١٠) ، فإن الغضب لا يزال يستقرني بمواده ، فيردني مثلك بحلمه ، وتلك عادة الله
عندنا منك ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وقد وهبت حق من هذا العقار لبختيشوع ،
فليت ذلك اليوم يعول^(١١) بأرش^(١٢) الجناية ، ولم يتلف مال أفاد موعظة ، وبالله التوفيق .

(العقد الفريد ١ : ٢٧ ، وزهر الآداب ١ : ٢٣٢)

(١) سواد العراق ، والعقار : كل ملك ثابت له أصل كالدار والنخل ، والجمع عقارات .
(٢) عابه . (٣) أغضبه . (٤) الأمم : القصد الوسط . (٥) واضحاً .
(٦) أصلك . (٧) قدرك . (٨) إبطاء . (٩) يميب وينقص . (١٠) مقر .
(١١) يزيد ويرجع . (١٢) الأرض : الهدية .

١١٩ - استعطاف إسحاق بن العباس المأمون

وقال المأمون لإسحاق بن العباس : « لَاتَحْسَبْنِي أَغْفَلْتُ إِجْلَابِكَ مَعَ ابْنِ الْمَهْدِيِّ ، وَتَأْيِيدِكَ لِرَأْيِهِ ، وَإِقَادَكَ لِنَارِهِ ، قَالَ : « يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَرَحِمِي أَمْسٌ مِنْ أَرْحَامِهِمْ وَقَدْ قَالَ لَهُمْ كَمَا قَالَ يُوسُفُ لِإِخْوَتِهِ : « لَاتَثْرِبَنَّ^(١) عَلَيْنَا يَوْمَ يُنْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ » ، وَأَنْتَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَحَقُّ وَارِثٌ لِهَذِهِ الْمَنَّةِ ، وَمُمْتَلِئْ^(٢) خِلَالَ الْعَفْوِ وَالْفَضْلِ » .

قال : هيهات ! تلك أجرام جاهلية عفا عنها الإسلام ، وجُرمك جرم في إسلامك ، وفي دار خلافتك . قال : « يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَوَاللَّهِ لَلْمُسْلِمِ أَحَقُّ بِإِقَالَةِ الْعَثْرَةِ ، وَغُفْرَانِ الزَّلَّةِ مِنَ الْكَافِرِ ، هَذَا كِتَابُ اللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : « وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ، الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » فَهِيَ لِلنَّاسِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ سُنَّةٌ دَخَلَ فِيهَا الْمُسْلِمُ وَالْكَافِرُ ، وَالشَّرِيفُ وَالْمَشْرُوفُ » قَالَ : صَدَقْتَ ، اجْلِسْ ، وَرَبِّتْ بِكَ زِنَادِي ، وَلَا بَرِحْتُ أَرَى مِنْ أَهْلِكَ أَمْثَالَكَ . (العقد الفريد ١ : ١٤٢ ، وزهر الآداب ٢ : ١٩٣)

١٢٠ - أحد وجوه بغداد يمدح المأمون حين دخلها

لما دخل المأمون بغداد ، تلقاه وجوه أهلها ، فقال له رجل منهم : « يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي مَقْدَمِكَ ، وَزَادَ فِي نِعْمَتِكَ ، وَشَكَرَكَ عَنِ رِعِيَّتِكَ ، تَقَدَّمَتْ مِنْ قَبْلِكَ ، وَأَتَعَبْتَ مَنْ بَعْدَكَ^(٣) ، وَأَيَسَّتْ أَنْ يُعَايِنَ مِثْلَكَ ، أَمَا فِيمَا مَضَى فَلَا نَعْرِفُهُ ،

(١) لا لوم . (٢) استغل طريقته : تبعها فلم يعدها .

(٣) إذ أنه يجهد أن يلحق بك فلا يستطيع .

وأما فيما بقي فلا نرجوه ، فنحن جميعاً ندعوك ، ونثني عليك ، خصب لنا جنابك ،
وعذب ثوابك ، وحسنت نظرتك ، وكرّمت مقدرتك ، جبرت الفقير ، وفككت
الأسير ، فإنك يا أمير المؤمنين كما قال الأول :

مازلت في البذل والنوال وإطلاقِ إيمانٍ بجرمه غلق^(١)
حتى تمنى البراء أنهم عندك أسرى في القيد والحلق^(٢)

(المعقد الفريد ١ : ١٣٧)

١٢١ - أحد أهل الكوفة يمدح المأمون

وقدم وفد من الكوفة إلى بغداد ، فوقفوا للمأمون فأعرض عنهم ، فقال شيخ
منهم : « يا أمير المؤمنين : يدك أحق يد بتقبيل ، لعلوها في الكارم ، وبعدها من
المآثم ، وأنت يوسني العفو في قلة التثريب ، من أراك بسوء جعله الله حصيد سيفك ،
وطريد خوفك ، وذليل دولتك » ، فقال ياعمرو : نعم الخطيب خطيبهم ، أقض حوائجهم .
(مروج الذهب ٢ : ٢١٩)

١٢٢ - محمد بن عبد الملك بن صالح بين يدي المأمون

ودخل محمد بن عبد الملك بن صالح على المأمون حين قبض ضياعهم ، فقال :
« يا أمير المؤمنين ، محمد بن عبد الملك بين يديك ، ربيب دولتك ، وسليل نعمتك ،
وغضن من أغصان دوحتك^(٣) ، أتأذن في الكلام ؟ قال نعم ، قال : « أستمح الله
حياطة ديننا ودنيانا ، ورعاية أدنانا وأقصانا ببقائك ، ونسأله أن يزيد في عمرك من
أعمارنا ، وفي أثرك من آثارنا ، ويقيك الأذى بأسماعنا وأبصارنا ، هذا مقام العائذ
بفضلك ، الهارب إلى كنفك وظلك ، الفقير إلى رحمتك وعدلك » ، ثم تكلم في حاجته ،
فرضاها .
(المعقد الفريد ١ : ١٤٦)

(١) العاقب : الأسير ، والغلق : أصله من غلق للرهن إذا استحققه المرتهن ، وذلك إذا لم يفتكك في الوقت

المفروض . (٢) البراء ككرام جمع برى .

(٣) الدرحة : الشجرة العظيمة .

١٢٣ - الحسن بن سهل يمدح المأمون

وقال الحسن بن سهل^(١) يوماً للمأمون :

« الحمد لله يا أمير المؤمنين على جزيل ما آتاك ، وَسَنِيَّ ما أعطاك ، إذ قَسَمَ لك
الخِلافةَ ، ووهب لك معها الحِجَّةَ ، وَمَكَّنَكَ بالسلطان ، وَحَلَّاهُ لك بالعدل ، وَأَيَّدَكَ
بالظفر ، وَشَفَعَهُ لك بالعمو ، وَأَوْجِبَ لك السعادةَ ، وَقَرَّنَهَا بالسيادةَ ، فمن فُسِّحَ^(٢) له
في مثل عطية الله لك ؟ أم مَنْ ألبسه الله تعالى مِنْ زينة الموابه ما أَلْبَسَكَ ؟ أم من ترادفتْ
نعمةُ الله تعالى عليه ترادفها عليك ؟ أم هل حاولها أحدٌ وارتبَّطها بمثل محاولتك ؟ أم أي
حاجة بَقِيَتْ لرعيته لم يجدوها عندك ؟ أم أي قيمٍ للإسلام انتهى إلى عنايتك وَدَرَجَتِكَ ؟
تعالى الله تعالى ، ما أعظم ما مَحَصَّ القَرْنُ الذي أنت ناصِرُهُ ، وسبحان الله ! أيُّ نعمة
طَبَّقَتْ^(٣) الأرض بك إن أدَّى شكرها إلى بارئها والمنعم على العباد بها ؟ إن الله تعالى
خلق السماء في فَلَكَها ضياءً يستنير بها جميع الخلائق ، فكل جوهر زها حسنة ونوره ،
فهل لَيْسَتْهُ زِينَتُهُ إلا بما اتصل به من نورك ؟ وكذلك كل وَليٍّ من أوليائك ، سَعِدَ
بأفعاله في دولتك ، وَحَسُنَتْ صنائعه عند رعيته ، فَإِنما نالها بما أَيَّدَتْهُ مِنْ رَأْيِكَ
وتدبيرك ، وَأَسْعَدَتْهُ مِنْ حَسَنِكَ وتقويمك » .

(زهر الآداب ٣ : ٢٠٠)

١٢٤ - يحيى بن أكرم يمدح المأمون

وقال المأمون ليحيى بن أكرم^(٤) : صف لي حالي عند الناس ، فقال :

« يا أمير المؤمنين ، قد انقادت لك الأمورُ بأزمَّتِها ، ومَلَكَتْكَ الأمةُ فُضُولَ

(١) وزر للمأمون بعد أخيه الفضل بن سهل ، وتزوج المأمون ابنته بوران ؛ وتوفي سنة ٢٣٦ هـ .

(٢) أي وسع . (٣) ملأت وامت ، والاستفهام للتعظيم .

(٤) من ولد أكرم بن صفيق التميمي ، وكان فقيها عالما بالفقه بصيراً بالأحكام ؛ وقد غلب على المأمون ؛

حق لم يعقد له أحد من الناس جيماً ؛ وقلده قضاء القضاة ، وتدبير أهل مملكته ؛ فكانت الوزراء لا تعمل

في تدبير الملك شيئاً إلا بعد مطالعة يحيى بن أكرم ؛ وتوفي سنة ٢٤٦ هـ ؛ وعمره ٨٢ سنة .

أَعْنَتَهَا ، بِالرَّغْبَةِ إِلَيْكَ ، وَالْحُبَّةَ لَكَ ، وَالرَّفْقَ مِنْكَ ، وَالْعِيَاذَ بِكَ ، بِمَدْلِكَ فِيهِمْ ، وَمِنْكَ عَلَيْهِمْ ، حَتَّى لَقَدْ أَنْسَيْتَهُمْ سَلْفَكَ ، وَأَبْسْتَهُمْ مِنْ خَلْفِكَ ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَمَعَنَا بِكَ بَعْدَ التَّقَاعِ ، وَوَفَعَنَا فِي دَوْلَتِكَ بَعْدَ التَّوَاضِعِ .

قَالَ : يَا بَحِي ، أَتَحْبِرُ أَمْ ارْتَجِلُ ؟ قَالَ : قُلْتُ : وَهَلْ يَمْتَنِعُ فِيكَ وَصْفٌ ، أَوْ يَتَعَذَّرُ عَلَى مَا دَحَكَ قَوْلٌ ، أَوْ يُفَحِّمُ فِيكَ شَاعِرٌ ، أَوْ يَتَلَجَّلِحُ فِيكَ خَطِيبٌ ؟
(الصناعتين ص ٤٠)

١٣٥ - أَحَدُ بَنِي هَاشِمٍ وَالْمَأْمُونُ

أَذْنِبَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ ذَنْبًا ، فَعَنَّفَهُ الْمَأْمُونُ ، فَقَالَ :
« يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ كَانَتْ لَهُ مِثْلُ دَأْتِي ، وَلَبِسَ ثَوْبَ حُرْمَتِي ، وَمَتَّ بِمِثْلِ قِرَابَتِي ، غُفِرَ لَهُ فَوْقَ زَلَّتِي » فَأَعْجَبَ الْمَأْمُونُ كَلَامَهُ وَصَفَحَ عَنْهُ .
(الأمالي ٢ : ١٣٦ ؛ وزهر الآداب ٣ : ٨٩)

١٣٦ - رَجُلٌ يَتَظَلَّمُ إِلَى الْمَأْمُونِ

وَتَظَلَّمَ رَجُلٌ إِلَى الْمَأْمُونِ مِنْ عَامِلٍ لَهُ فَقَالَ :
« يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، مَا تَرَكَ لِي فِضَّةً إِلَّا فَضَّهَا ، وَلَا ذَهَبًا إِلَّا ذَهَبَ بِهِ ، وَلَا عِلَّةً إِلَّا غَلَّهَا^(١) ، وَلَا ضَيْعَةً إِلَّا أَضَاعَهَا ، وَلَا عِلْقًا^(٢) إِلَّا عَلِقَهُ ، وَلَا عَرَضًا إِلَّا عَرَضَ لَهُ ، وَلَا مَاشِيَةً إِلَّا أَمْتَشَّهَا^(٣) ، وَلَا جَلِيلًا إِلَّا أَجْلَاهُ ، وَلَا دَقِيقًا إِلَّا دَقَّهَ » ، فَعَجِبَ مِنْ فَصَاحَتِهِ وَقَضَى حَاجَتَهُ .
(زهر الآداب ٢ : ١٣٧)

(١) المراد احتيازها ؛ والأصل فيه غله ؛ أى وضع في عنقه أو يده الغل (بالضم) وهو القيد .

(٢) العلق : لنفس من كل شيء ؛ وعلق به كفرح أحبه أو هو «علقه» مشدداً ، بيئاً للمجهول ؛ علق امرأة :

أى أحبها . (٣) امتش ما في الضرع ؛ أخذ جميعه .

١٢٧ - عمرو بن سعيد والمأمون

وقال عمرو بن سعيد بن سلم : كانت عليّ نوبةً أنوبها في حرس المأمون ، فكنت في نوبتي ليلةً ، فخرج متفقداً من حضر ، فمرفته ولم يعرفني ، فقال : من أنت ؟ قلت : عمرو ، عمرك الله ، ابن سعيد ، أسعدك الله ، ابن سلم ، سلمك الله ، فقال : أنت تسكولوا منذ الليلة ؟ قلت : الله يكلوك قبلي ، وهو خير حافظاً وهو أرحم الراحمين ، فقال المأمون :

إن أخاك الصدق من يسعى معك ومن يضر نفسه لينفعك
ومن إذا صرف الزمان صدعك بدد شمل نفسه ليجمعك
(زمر الآداب ٢ : ١٢٧)

١٢٨ - الحسن بن رجاء والمأمون

دخل المأمون بعض الدواوين ، فرأى غلاماً جميلاً على أذنه قلم ، فقال : من أنت يا غلام ؟ فقال :

« أنا يا أمير المؤمنين ، الناشئ في دولتك ، المتقلب في نعمتك ، المؤمل لخدمتك ، خادمك وابن خادمك : الحسن بن رجاء » ، فقال : أحسنت يا غلام ، وبالإحسان في البديهة تفاضلت العقول ، وأمر برفع مرتبته .
(زمر الآداب ٢ : ١٧٣)

١٢٩ - سعيد بن مسلم والمأمون

وقال سعيد بن مسلم بن قتيبة للمأمون :
« لو لم أشكر الله تعالى إلا على حسن ما أبلاني من أمير المؤمنين ، من قصده إلى بحديثه ، وإشارته إلى بطرفه ، لقد كان في ذلك أعظم الرخصة ، وأرفع ما توجب الحُرمة » .

فقال : « يفعل أمير المؤمنين ذلك ، لأن أمير المؤمنين يجد عندك من حسن الإفهام إذا حدثت ، وحسن الفهم إذا حدثت ، ما لم يجده عند أحد من مضي ، ولا يظن أنه يجد عند أحد ممن بقي ، فإنك لتستقصي حديثي ، وتقف عند مقاطع كلامي ، وتخبر بما كنت أغفلته منه . »
(زهر الأدب ١ : ١٧٣)

١٣٠ - أبو زهمان يعظ سعيد بن مسلم

وقال سعيد بن مسلم : كنت والياً بأزمينية ، ففبر^(١) أبو زهمان القلاني على بابي أياماً ، فلما وصل إلى مثل بين يدي قائماً بين السماطين^(٢) وقال :
« والله إني لأعرف أقواماً لو علموا أن سفّ التراب يُقيم من أود^(٣) أصلابهم ، لجملوه مُسكّة^(٤) لازماً فيهم ، إيثاراً للتنزه عن عيش رقيق الحواشي ، أما والله إني لبعيد الوثبة ، بطيء العطفة ، إنه والله ما يثني عليك إلا مثل ما يصرّفني عنك ولأن أكون مُقلّاً مقرّباً ، أحبُّ إلى من أن أكون مُكثراً مُبعداً ، والله ما نسأل عملاً لانضبطه ، ولا مالاً إلا نحن أكثر منه ، وهذا الأمر الذي صار إليك في يدك ، كان في يد غيرك ، فأمسوا والله حديثاً ، إن خيراً نخير ، وإن شراً فشر ، فتحبّب إلى عباد الله بحسن البشر ، ولين الجانب ، فإن حبّ عباد الله موصول بحبّ الله ، وبفضهم موصول بفيض الله ، لأنهم شهداء الله على خلقه ، ورؤبواؤه على من اعوجّ عن سبيله . »
(البيان والخبير ٢ : ١٠٥)

١٣١ - وصية طاهر بن الحسين

لابنه عبد الله لما ولّاه المأمون الرقة ومصر وما بينهما^(٥) سنة ٢٠٦ هـ .
« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد : فعليك بتقوى الله وحده لا شريك له ،

(١) مكث . (٢) السماطان من الناس : الجانبان ؛ يقال : مشى بين السماطين .

(٣) اعوجاج . (٤) المسكّة : ما يمسك الأبدان من الغذاء والشراب أو ما يبلغ به منهما .

(٥) أتبعنا هذا الكتاب هنا لأنه في عداد الوصايا .

وخشيته ومراقبته ومزايلة سُخْطِهِ وحفظِ رعيته ، والزَمَ ما ألبسك الله من العافية
بالذكر لمعادك ، وما أنت صائر إليه ، وموقوف عليه ، ومستول عنه ، والعمل في ذلك
كله بما يعصمك الله ، وينجيك يوم القيامة من عذابه ، وأليم عقابه ، فإن الله قد أحسن
إليك ، وأوجب عليك الرأفة بمن استرعاك أمرهم من عباده ، وأزمتك العدل عليهم ،
والقيام بحقه وحدوده فيهم ، والذب^(١) عنهم ، والدفع عن حريمهم وبيضتهم^(٢) ،
والحقن لدمائهم ، والأمن لسبيلهم^(٣) ، وإدخال الراحة عليهم في معاشهم ، ومؤاخذك
بما فرض عليك من ذلك ، وموقفك عليه ، ومسائلك عنه ، ومُثيبك عليه بما قدمت
وأخرت ، ففرغ لذلك فكرك وعقلك وبصرك ورؤيتك ، ولا يذهلك^(٤) عنه ذاهل ،
ولا يشغلك^(٥) عنه شاغل ، فإنه رأس أمرك ، وملاك شأنك ، وأول ما يوفقك الله به
لرشدك ، وليكن أول ما تُلزم به نفسك ، وتنسب إليه فعالك ، المواظبة على ما افترض
الله عليك من الصلوات الخمس ، والجماعة عليها بالناس قبلك في مواقيتها على سننها ،
في إسباغ^(٦) الوضوء لها ، وافتتاح ذكر الله فيها ، وترتّل^(٧) في قراءتك ، وتمكن
في ركوعك وسجودك وتشهدك ، وتصدق فيها لربك نيتك ، واحضض عليها جماعة
من معك وتحت يدك ، وأدأب عليها فإنها كما قال الله : تأمر بالمعروف وتنهى عن
الفحشاء والمنكر ، ثم أتبع ذلك الأخذ بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمثابرة
على خلائقه ، واقتفاء آثار السلف الصالح من بعده ، وإذا ورد عليك أمر فاستعن عليه
باستخارة^(٨) الله وتقواه ، ولزوم ما أنزل الله في كتابه من أمره ونهيه ، وحلاله وحرامه
واتمام ما جاءت به الآثار عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قم فيه بما يحق لله عليك ،

(١) الدفع . (٢) البيضة : حوزة كل شيء .

(٣) وفي مقدمة ابن خلدون : لسربهم ؛ والمرب : النفس

(٤) ذهلت عن الشيء (كفتح) غفلت وقه يعلى بنفسه . يقال ذهلت ؛ والأكثر أن يعنى بالهزلة ؛

فيقال : أذهلت فلان عن الشيء . (٥) شغله من باب فتح وأشغله لغة جيدة أو قليلة أو رديئة .

(٦) أسبغ الوضوء : وفي كل عضو حقه . (٧) تمهل ولا تعجل .

(٨) استخار الله : طلب منه الخيرة .

ولا تَمَلِّ عن العدل فيما أحببت أو كرهت ، لِتَقْرِبَ من الناس أو يبعيد ، وآثِرِ الفقهَ وأهله ، والدينَ وَحَلَّتْهُ ، وكتابَ الله والعاملين به ، فإن أفضل ما تَزِينُ به المرءَ الفقه في دين الله ، والطلب له ، والحث عليه ، والمعرفة بما يتقرَّب به إلى الله ، فإنه الدليل على الخير كله ، والقائد له ، والأمر به ، والناهي عن المعاصي والموبقات كلها ، وبها مع توفيق الله تزداد العباد معرفة بالله عزَّ وجلَّ ، وإجلالاً له ، وَدَرَكًا للدرجات العُلَا في المَعَاد ، مع ما في ظهوره للناس من التوقير لأمرك ، والهيبة لسلطانك ، والأنسَة بك ، والثقة بعدلك ، وعليك بالاعتقاد في الأمور كلها ، فليس شيء أبين نفعاً ، ولا أحضَرَ أمناً ، ولا أَجْمَعَ فضلاً من القصد ، والقصد داعية إلى الرشد ، والرشد دليل على التوفيق ، والتوفيق قائد إلى السعادة ، وَقِوَامِ الدين والسننِ الهادية بالاعتقاد ، فأثره في دنياك كلها ، ولا تقصِّر في طاب الآخرة والأجرِ والأعمال الصالحة ، والسنن المعروفة ، ومعالم الرشد ، فلا غاية للاستكثار من البرِّ والسعي له ، إذا كان يُطَلَبُ به وجه الله ومرضاةُ ومرافقة أوليائه في دار كرامته ، واعلم أن القصد في شأن الدنيا يُورث العزَّ ويحصِّن من الذنوب ، وإنك لن تحوِّط^(١) نفسك ومن يليك ، ولا تستصلح أمورك بأفضل منه ، فأته واهتد به تتم أمورك ، وتزدُ مقدرتك ، وتصلح خاصتك وعامتك ، وأحسن الظن بالله عزَّ وجلَّ تستقم لك رعيتك ، والتمس الوسيلة إليه في الأمور كلها ، تستدِم به النعمة عليك ، ولا تتهم أحداً من الناس فيما توليه من عملك قبل أن تكشف أمره ، فإن إيقاع التهم بالبرِّاء ، والظنون السيئة بهم مأثم ، واجعل من شأنك حُسنَ الظن بأصحابك ، واطرد عنك سوء الظن بهم ، وارفضه فيهم ، يُعينك ذلك على اصطناعهم^(٢) ورياضتهم ، ولا يجدنَّ عدو الله الشيطانُ في أمرك مَفْخَرًا ، فإنه إنما يكتفى بالقليل من وهنك^(٣) ، فيدخل عليك من الغم في سوء الظن ما ينغصك لذادة عيشك ، واعلم أنك

(١) تصون . (٢) اصطنعك لغمي : اخترتك لخاصة أمر استكفيك إياه .

(٣) الوهن يسكون الماء وفتحها ، الضعف .

تجد مُحسِنَ الظنِ قوَّةَ وِراحةٍ ، وَتُكفَى به ما أُحِببتَ كفايَته من أُمورِكَ ، وَتَدعُو به
الناسَ إلى محبَّتِكَ ، وَالاستقامةَ في الأُمورِ كُلِّها لَكَ ، وَلا يَمْنَعُكَ حُسْنُ الظنِّ بِأصحابِكَ
وَالرأفةَ بِرعيَّتِكَ ، أَنْ تَسْتَعْمَلَ المسألةَ وَالبَحْثَ عَن أُمورِكَ ، وَالمباشرةَ لأُمورِ الأُولياءِ ،
وَالحِياطةَ للرعيةِ ، وَالنظرَ فيما يُقيمها وَيُصلِحُها ، بل لَتَكُن المباشرةُ لأُمورِ الأُولياءِ ،
وَالحِياطةُ للرعيةِ ، وَالنظرُ في حوائِجِهِمْ وَحَلُّ مَتُونَتِهِمْ ، آثَرَ عِنْدَكَ مِمَّا سِوَى ذَلِكَ ،
فإنَّهُ أَقوَمُ لِلدينِ ، وَأَحيا لِلسنةِ ، وَأَخْلَصُ نيتِكَ في جَميعِ هذا ، وَتَقَرَّدَ بِتَقويمِ نَفْسِكَ
تَقَرَّدَ مَنْ يَعلَمُ أَنَّهُ مَسْئولٌ عَمَّا صَنَعَ ، وَمَجزِيٌّ بِما أَحسَنَ ، وَما خُوذَ بِما أَساءَ ، فإنَّ اللهَ
جَعَلَ الدينَ حِرْزاً وَعِزاً ، وَرَفَعَ مَنْ اتَّبَعَهُ وَعَزَّزَهُ ، فَاسْلُكْ بَيْنَ تَسوِسِهِ وَتَرعاهِ نَهْجَ الدينِ
وَطريقةَ الهدى ، وَأَقيمِ حُدودَ اللهِ في أَصحابِ الجِرائِمِ على قَدَرِ مَنازِلِهِمْ وَما اسْتَحَقُّوهُ ،
وَلا تَعطِّلْ ذَلِكَ وَلا تَهانِ بِهِ ، وَلا تُؤخِّرْ عِقوبةَ أَهلِ العِقوبةِ ، فإنَّ في تَفْرِيطِكَ في ذَلِكَ
لَمَّا يُفْسِدُ عَلَيْكَ حَسَنَ ظَنِّكَ ، وَاعزِمِ على أَمْرِكَ في ذَلِكَ بِالسَّنَنِ المَعروفَةِ ، وَجانبِ
الشُّبُهَةِ وَالبِدعاتِ ، يَسَلِّمُ لَكَ دينَكَ ، وَتَقِمُ لَكَ مِروءَتُكَ ، وَإِذا عاهدتَ عَهْداً فَفِ بِهِ ،
وَإِذا وَعَدتَ الخَيْرَ فَأَجِّزْهُ ، وَاقبِلِ الحِسنَةَ وَادْفَعِ بِها ، وَأَغْمِضْ عَن عيبِ كُلِّ ذِي عيبِ
مِن رعيَّتِكَ ، وَاشدِّدِ لسانَكَ عَن قولِ الكَذِبِ وَالزُّورِ ، وَأَبغِضْ أَهلَهُ ، وَأَقْصِرْ أَهلَ
النِّميمةِ ، فإنَّ أَوَّلَ فسادِ أَمْرِكَ في عاجِلِ الأُمورِ وَآجِلِها تَقريبُ الكَذوبِ وَالجِراةِ على
الكَذِبِ ، لأنَّ الكَذِبَ رَأْسُ المَآثِمِ ، وَالزُّورَ وَالنِّميمةَ خاتِمَتُها ، لأنَّ النِّميمةَ لا يَسَلِّمُ
صاحبُها ، وَقائِلُها لا يَسَلِّمُ لَهُ صاحِبُ ، وَلا يَسْتَقِيمُ لِطِيعِها أَمْرٌ ، وَأَحِبِّ أَهلِ الصِّدقِ وَالصَّلاحِ
وَاعزِّ الأَشْرافَ بِالْحَقِّ ، وَواصِلِ الضَّعفاءَ وَوَصِلِ الرِّحْمَ ، وَابْتَغِ بِذلِكَ وَجَهَ اللهُ وَعِزَّةَ
أَمْرِهِ ، وَالتَّمسِ فِيهِ ثِوابَهُ وَالدارَ الآخِرَةَ ، وَاجتَنِبِ سِوَى الأَهْواءِ وَالجِوَرِ ، وَاصْرِفْ
عَنها رَأْيَكَ ، وَأَظْهِرْ بَراءَتَكَ مِن ذَلِكَ لِرعيَّتِكَ ، وَأَنعَمِ بِالعَدْلِ في سِياسَتِهِمْ ، وَقمِ بِالْحَقِّ
فِيهِمْ ، وَبِالمَعرِفَةِ التي تَنتهى بِكَ إلى سَبيلِ الهدى ، وَامْلِكْ نَفْسَكَ عِنْدَ الغَضَبِ ، وَآثِرْ

الوقار والحلم ، وإيّاك والحدّة والطيشَ والفروز فيما أنت بسبيله ، وإيّاك أن تقول :
إني مُسَلِّطٌ أفعل ما أشاء ، فإن ذلك سريع بك إلى نقص الرأى ، وقلة اليقين بالله وحده
لاشريك له ، وأخلص الله النية فيه واليقين به ، واعلم أن الملّك الله ، يُعْطِيهِ من يشاء ،
وينزِعُهُ ممن يشاء ، ولن تجد تغبّر النعمة وحلول النعمة إلى أحد ، أسرع منه إلى حَمَلَةِ
النعمة من أصحاب السلطان ، والبسوط لهم في الدولة ، إذا كفروا بنعم الله وإحسانه ،
واستطالوا بما آتاهم الله من فضله ، ودع عنك شره نفسك ، ولتكن ذخرك وكنوزك
التي تدّخر وتكزّب البرّ والتقوى والمعدّة ، واستصلاح الرعية وعمارة بلادهم ، والتفدّد
لأمورهم والحفظ لِدَهْمَائِهِمْ^(١) وَالْإِغَاثَةَ للمهوفهم ، واعلم أن الأموال إذا كثرت وذُخِرَتْ
في الخزائن لا تُشْمِرُ ، وإذا كانت في إصلاح الرعية وإعطاء حقوقهم ، وكف المثونة
عنهم ، نَمَت وَرَبَّتْ وصلحت به العامة ، وتزينت به الولاة ، وطاب به الزمان ، واعتقد
فيه العز والمنعة ، فليكن كنز خزائنك تفريق الأموال في عمارة الإسلام وأهله ، ووفرّ
منه على أولياء أمير المؤمنين قبلك حقوقهم ، وأوف رعيّتك من ذلك حصصهم ،
وتعهد ما يصلح أمورهم ومعايشهم ، فإنك إذا فعلت ذلك قرّرت النعمة عليك ،
واستوجبت المزيد من الله ، وكنت بذلك على جباية خراجك ، وجمع أموال رعيّتك
وعملك أقدر ، وكان الجمع لما شملهم من عدلك وإحسانك أسس لطاعتهم ، وأطيب
نفساً لكل ما أردت ، فاجهد نفسك فيما حددت لك في هذا الباب ، ولتعظم حسبتك فيه
فإنما يبقى من المال ما أنفق في سبيل حقه ، واعرف للشاكرين شكرهم وأثبهم عليه ،
وإيّاك أن تُنْسِيكَ الدنيا وغرورها هول الآخرة ، فتهاون بما يحق عليك ، فإن التهاون
يوجب التفريط ، والتفريط يورث البوار ، وليكن عملك لله وفيه تبارك وتعالى وارج
الثواب ، فإن الله قد أسبغ عليك نعمته في الدنيا ، وأظهر لديك فضله ، فاعتصم بالشكر
وعليه فاعتمد ، يزِدك الله خيراً وإحساناً ، فإن الله يُثيب بقدر شكر الشاكرين ،

(١) للامام : جماعة الناس « روق المقدمة : والحفظ لدهمهم » .

وسيرة المحسنين ، وَقَصَى الْحَقَّ فِيمَا حَمَلَ مِنَ النِّعَمِ ، وَأَلْبَسَ مِنَ الْعَافِيَةِ وَالْكَرَامَةِ ،
وَلَا تَحْقِرَنَّ ذَنْبًا ، وَلَا تَمَلُّنَّ حَاسِدًا ، وَلَا تَرْحَنَ فَاجِرًا ، وَلَا تَصِلَنَّ كَفُورًا ، وَلَا
تَدَاهِنَنَّ عَدُوًّا ، وَلَا تَصَدَّقَنَّ نَمَامًا ، وَلَا تَأْمَنَنَّ غَدَارًا ، وَلَا تَوَالِيَنَّ فَاسِقًا ، وَلَا تَتَّبِعَنَّ
غُلُوبًا ، وَلَا تَحْمَدَنَّ مُرَائِيًا ، وَلَا تَحْقِرَنَّ إِنْسَانًا ، وَلَا تَرُدَّنَّ سَائِلًا قَعِيرًا ، وَلَا تَجْبِينَ (١)
بَاطِلًا ، وَلَا تَلَا حِظْنَ مَضْحَكًا ، وَلَا تُخْلِفَنَّ وَعْدًا ، وَلَا تَزْهَوَنَّ نَجْرًا ، وَلَا تُظْهِرَنَّ غَضِبًا ،
وَلَا تَأْتِيَنَّ بَدْحًا (٢) ، وَلَا تَمْشِيَنَّ مَرَحًا ، وَلَا تَرْكَبَنَّ سَفَهًا (٣) ، وَلَا تَقْرُطَنَّ فِي طَلَبِ
الْآخِرَةِ ، وَلَا تَرْفَعَنَّ لِلنَّامِ عَيْنًا ، وَلَا تُفْضِضَنَّ عَنِ الظَّالِمِ رَهْبَةً مِنْهُ أَوْ مَخَافَةً ، وَلَا تَطْلُبَنَّ
ثَوَابَ الْآخِرَةِ بِالدُّنْيَا ، وَأَكْثِرْ مَشَاوِرَةَ الْفُقَهَاءِ ، وَاسْتَعْمَلْ نَفْسَكَ بِالْحِلْمِ ، وَخُذْ عَنِ
أَهْلِ التَّجَارِبِ ، وَذَوِي الْعَقْلِ وَالرَّأْيِ وَالْحِكْمَةِ ، وَلَا تُدْخِلَنَّ فِي مَشُورَتِكَ أَهْلَ الدَّقَةِ (٤) ،
وَالْبُخْلِ ، وَلَا تَسْمَعَنَّ لَهُمْ قَوْلًا ، فَإِنْ ضَرَرَهُمْ أَكْثَرَ مِنْ مَنْفَعَتِهِمْ ، وَليْسَ شَيْءٌ أَسْرَعَ
فَسَادًا لِمَا اسْتَقْبَلَتْ فِي أَمْرِ رَعِيَّتِكَ مِنَ الشُّحِّ ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ إِذَا كُنْتَ حَرِيصًا كُنْتَ
كَثِيرَ الْأَخْذِ قَلِيلَ الْعَطِيَةِ ، وَإِذَا كُنْتَ كَذَلِكَ لَمْ يَسْتَقِمْ لَكَ أَمْرُكَ إِلَّا قَلِيلًا ، فَإِنْ
رَعِيَّتِكَ إِنَّمَا تَعْتَقِدُ عَلَى مَحَبَّتِكَ ، بِالْكَفِّ عَنِ أَمْوَالِهِمْ وَتَرْكِ الْجُورِ عَنْهُمْ ، وَيَلْبُومُ صَفَاءَ
أَوْلِيائِكَ لَكَ ، بِالْإِفْضَالِ عَلَيْهِمْ وَحَسَنِ الْعَطِيَةِ لَهُمْ ، فَاجْتَنِبِ الشُّحَّ . وَاعْلَمْ أَنَّهُ أَوْلُ
مَاعِصِي بِهِ الْإِنْسَانُ رَبَّهُ ، وَأَنَّ الْعَاصِيَ بِمَنْزِلَةِ خَزْيٍ ، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ :
« وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » ، فَسَهِّلْ طَرِيقَ الْجُودِ بِالْحَقِّ ، وَاجْعَلْ
لِلْمُسْلِمِينَ كُلِّهِمْ مِنْ نَيْتِكَ حِظًّا وَنَصِيبًا ، وَأَيُّقِنَنَّ أَنَّ الْجُودَ مِنْ أَفْضَلِ أَعْمَالِ الْعِبَادِ ، فَأَعِدِّدْهُ
لِنَفْسِكَ خُلُقًا ، وَارْضَ بِهِ عَمَلًا وَمَذْهَبًا ، وَتَفَقَّدْ أُمُورَ الْجَنَّةِ فِي دَوَائِبِهِمْ وَمَكَانَتِهِمْ ،
وَأُدْرِرْ عَلَيْهِمْ أَرْزَاقَهُمْ ، وَوَسِّعْ عَلَيْهِمْ فِي مَعَايِشِهِمْ ، لِيُذْهِبَ بِذَلِكَ اللَّهُ فَاقْتَهُمْ ، وَيَقُومَ
لَكَ أَمْرُهُمْ ، وَيَزِيدَ بِهِ قُلُوبَهُمْ فِي طَاعَتِكَ وَأَمْرِكَ خُلُوصًا وَانْشِرَاحًا ، وَحَسْبُ ذِي سُلْطَانِ

(١) وفي المقدمة : « وَلَا تَحْسَبَنَّ بَاطِلًا . »

(٢) الكِبْر : الكِبْر . وفي المقدمة : « وَلَا تَرْكَبَنَّ سَفَهًا . »

(٤) وفي المقدمة : « وَأَهْلُ الدَّقَةِ . »

من السعادة أن يكون على جنده ورعيته رحمةً في عدله ، وحيطة^(١) وإنصافه ، وعنايته
وشفقته ، وبره وتوسعته ، فزایل مكرهه أحد البابين باستشعار تكلمة الباب الآخر ،
ولزوم العمل به ، تلقَ إن شاء الله نجاحاً وصلاً وفلاحاً ، واعلم أن القضاء من الله
بالمكان الذي ليس به شيء من الأمور ، لأنه ميزان الله الذي يعتدل عليه الأحوال
في الأرض ، وبإقامة العدل في القضاء والعمل تصلح الرعية ، وتأمين السبل ، وينتصف
المظلوم ، ويأخذ الناس حقوقهم ، وتحسن العيشة ، ويؤدّي حق الطاعة ، ويرزق الله
العافية والسلامة ، ويقوم الدين ، وتجري السنن والشرائع ، وعلى مجاريها يتنجز الحق
والعدل في القضاء ، واشتد في أمر الله ، وتورع عن النطف^(٢) ، وامض لإقامة الحدود
وأقلل العجلة ، وابعد من الضجر والقلق ، واقنع بالقسم ، ولتسكن ريحك ، ويقر جلك
وانتفع بتجربتك ، وانتبه في صمتك ، وأسدد^(٣) في منطقتك ، وأنصف الخصم ، وقف
عند الشبهة ، وأبلغ في الحجة ، ولا يأخذك في أحد من رعيته محاباةً ولا محاماةً^(٤)
ولا لوم لأئم ، وثبت وتأن ورأب ، وانظر وتدبر ، وتفكر واعتبر ، وتواضع لربك
وارأف^(٥) بجميع الرعية ، وسلط الحق على نفسك ، ولا تسرعن إلى سفك دم (فإن الدماء
من الله بمكان عظيم) انتها كآ لها بغير حقها ، وانظر هذا الخراج الذي قد استقامت عليه
الرعية ، وجعله الله للاسلام عزاً ورفعة ، ولأهل سعة ومنعة ، ولعدوه وعدوهم كبتاً^(٦)
وغيظاً ، ولأهل الكفر من معاديبهم ذلاً وصغاراً ، فوزعه بين أصحابه بالحق والعدل
والتسوية والعموم فيه ، ولا ترفعن منه شيئاً عن شريف لشرفه ، ولا عن غني لفناه ،
ولا عن كاتب لك ، ولا أحد من خاصتك ، ولا تأخذن منه فوق الاحتمال له ، ولا
تكلفن أمراً فيه شطط ، واحمل الناس كلهم على مر الحق ، فإن ذلك أجمع لألفتهم ،

(١) في المقدمة : « رطيتة » .

(٢) النطف : العيب والشر والفساد . (٣) صد يصد كضرب : صار سديداً .

(٤) في المقدمة : « ولا محاملة » . (٥) من باب كرم وقطع وطرب .

(٦) كبت : صرعه وأخزاه ؛ ورد المدور بفتح وأذاه .

وأزِم لرضا العامة ، واعلم أنك جِئْتَ بولايتك خازناً وحافظاً وراعياً ، وإنما سُمِّيَ
أهل عملك رعيتك ، لأنك راعيهم وقيّمهم ، تأخذ منها ما أعطوك من غنوم ومقدرتهم
وتنفقه في قوام أمرهم وصلاحهم وتقويم أودمهم ، فاستعمل عليهم في كور عملك ذوى
الرأى والتدبير والتجربة والخبرة بالعمل ، والعلم بالسياسة والعباف ، ووسّع عليهم
في الرزق ، فإن ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلدت وأُسندَ إليك ، ولا يسغلكك
عنه شاغل ، ولا يصرفك عنه صارف ، فإنك متى آثرتَه وقتت فيه بالواجب ،
استدعيت به زيادة النعمة من ربك وحسن الأحدثوة في عملك ، واحتترزت النصحة
من رعيتك ، وأعنت على الصلاح ، فدرت الخيرات ببلدك ، وفشت العارة بناحيتك ،
وظهر الخصب في كورك ، فكثرت خراجك ، وتوفرت أموالك ، وقويت بذلك على
ارتباط جنديك ، وإرضاء العامة بإفاضة العطاء فيهم من نفسك ، وكنت محمود السياسة ،
مرضى العدل في ذلك عند عدوك ، وكنت في أمورك كلها ذا عدل وقوة وآلة وعدة ،
فنافس في هذا ولا تقدم عليه شيئاً ، تحمد مغبة أمرك إن شاء الله ، واجعل في كل كورة
من عملك أميناً يخبرك أخبار عمالك ، ويكتب إليك بسيرتهم وأعمالهم ، حتى كأنك
مع كل عامل في عمله ، معين لأمره كله ، وإن أردت أن تأمره بأمر ، فانظر في عواقب
ما أردت من ذلك ، فإن رأيت السلامة فيه والعافية ، ورجوت فيه حسن الدفاع والنصح
والصنع فأمنه ، وإلا فتوقف عنه ، وراجع أهل البصر والعلم ، ثم خذ فيه عُدته ، فإنه
ربما نظر الرجل في أمر من أمره قد واتاه على ما يهوى فقواه^(١) ذلك وأعجبه ، وإن لم
ينظر في عواقبه أهلكه ونقض عليه أمره ، فاستعمل الحزم في كل ما أردت ، وباشره
بعد عون الله بالقوة ، وأكثر استخارة ربك في جميع أمورك ، وافرغ من عمل يومك
ولا تؤخره لغدك ، وأكثر مباشرته بنفسك ، فإن لغد أموراً وحوادث تلهيك عن
عمل يومك الذى أخرت ، واعلم أن اليوم إذا مضى ذهب بما فيه ، فإذا أخرت عمله

(١) في المقدمة : « وقد أتاه على ما يهوى فأغواه ذلك » .

اجتمع عليك أمر يومين ، فَشَفَّاكَ ذلك حتى تُعْرَضَ عنه ، فإذا أمضيت لسلك يوم عمله أرحتَ نفسك وبدنك ، وأحكمتَ أمور سلطانك ، وانظر أحرار الناس وذوى الشرف منهم ، ثم استيقن صفاء طَوْبِيَتِهِمْ ، وتهذيب مودتهم لك ، ومظاهرتهم بالنصح والمخالصة على أمرك ، فاستخلصهم وأحسن إليهم ، وتعاهدْ أَهْلَ البيوتات ممن دخلت عليهم الحاجة ، فاحتملِ مَثُوتِهِمْ ، وأصلح حالهم ، حتى لا يجدوا تَخَلَّتَهُمْ ^(١) مَسًّا ، وأفرد نفسك بالنظر في أمور الفقراء والمساكين ، ومن لا يقدر على رفع مَظْلَمَتِهِ إِلَيْكَ ، والمحتقر الذى لاعلم له بطلب حقه ، فاسأل عنه أحقَّ مسألة ، ووكلْ بأمثاله أهل الصلاح من رعيتك ، ومُرِّمْ برفع حوائجهم وحالاتهم إليك ، لتنظر فيها بما يُصْلِحُ الله به أمرهم ، وتعاهد ذوى البأساء ويتامهم وأراملهم ، واجعل لهم أرزاقاً من بيت المال ، اقتداءً بأمر المؤمنين - أعزه الله - فى العطف عليهم والصلة لهم ، لِيُصْلِحَ اللهُ بذلك عيشتهم ، ويرزقك به بركةً وزيادةً ، وَأَجْرٍ لِلأَصْرَاءِ من بيت المال ، وَقَدِّمِ حِمْلَةَ القرآن منهم والحافظين لأكثره فى الجراية ^(٢) على غيرهم ، وانصب لِمَرْضَى المسلمين دُوراً تُؤْوِيهِمْ ، وَقَوَّاماً يَرْفُقُونَ بِهِمْ ، وأطباء يعالجون أسقامهم ، وَأَسْعِفُهُمْ بشهواتهم ، مالم يؤدَّ ذلك إلى سرف فى بيت المال ، واعلم أن الناس إذا أعطوا حقوقهم وأفضلَ أمانيتهم ، لم يُرْضِهِمْ ذلك ، ولم تُطِبْ أنفسهم دون رفع حوائجهم إلى وُلاتِهِمْ ، طمعاً فى نيل الزيادة وفضل الرفق منهم ، وربما بَرِمَ ^(٣) المتصفح لأموال الناس ، لسكثرة ما يرد عليه ، وَيَشْفَلُ فكره وذهنه منها ما يناله به مؤونة ومشقة ، وليس من يرغب فى العدل ، وَيَعْرِفُ محاسن أموره فى العاجل ، وفضل ثواب الآجل ، كالذى يستقبل ما يقربه إلى الله ، ويلتمس رحمته به وأكثر الإذن للناس عليك ، وَأَبْرَزَ لهم وجهك ، وسكن لهم أحراسك ، واخفِضَ لهم جناحك ، وأظهر لهم بِشْرَكَ ، وَلِيْنْ لهم فى المسألة والنطق ، واعطِفْ عليهم بجودك وفضلك ، وإذا أعطيت فأعطِ بسماحةٍ وطيب نفس ، والتمس الصنيفة والأجر غير مكدِّر ولا مغان

(٣) ضجرومل .

(٢) فى المقدمة : « فى الجرائد » .

(١) الخلة : الحاجة .

فإن العظيمة على ذلك تجارة مربحة إن شاء الله ، واعتبر بما ترى من أمور الدنيا ومن مضى
من قبلك من أهل السلطان والرياسة في القرون الخالية والأمم البائدة ، ثم اعتصم
في أحوالك كلها بأمر الله ، والوقوف عند محبته ، والعمل بشريعته وسنته ، وإقامة دينه
وكتابه ، واجتنب ما فارق ذلك وخالفه ودعا إلى سخط الله ، واعرف ما تجمع عمالك
من الأموال ، وما ينفقون منها ، ولا تجمع حراما ، ولا تُنفق إسرافاً ، وأكثر مجالسة
العلماء ومشاورتهم ومخالطتهم ، وليكن هواك اتباع السنن وإقامتها ، وإيثار مكارم
الأمر ومعاليها ، وليكن أكرم دُخلائك وخاصتك عليك ، من إذا رأى عيباً فيك
لم يمنع هيبتك من إنهاء ذلك إليك في سر ، وإعلامك مافيه من النقص ، فإن أولئك
أنصح أوليائك ، ومظاهريك لك ، وانظر عمالك الذين محضرتك وكتابتك ، فوقت
لكل رجل منهم في كل يوم وقتاً يدخل عليك فيه بكتبه ومؤامراته وما عنده من
حوائج عمالك ، وأمر كورك ورعيتك ، ثم فرغ لما يورده عليك من ذلك سمعك
وبصرك وفهمك وعقلك ، وكرّر النظر إليه والتدبير له ، فما كان موافقاً للحزم والحق
فأمضه ، واستخِر الله فيه ، وما كان مخالفاً لذلك فاصرفه إلى التثبت فيه والمسألة عنه ،
ولا تمنن على رعيتك ولا على غيرهم بمعروف تأتيه إليهم ، ولا تقبل من أحد منهم
إلا الوفاء والاستقامة والعون في أمور أمير المؤمنين ، ولا تضعن المعروف إلا على ذلك
وتفهم كتابي إليك ، وأكثر النظر فيه والعمل به ، واستعن بالله على جميع أمورك
واستخِره فإن الله مع الصلاح وأهله ، وليكن أعظم سيرتك وأفضل رعيتك ، ما كان
لله رضا ، ولدينه نظاماً ، ولأهله عزاً وتمكيناً ، وللذمة والملة عدلاً وصلاحاً ، وأنا أسأل
الله أن يصلح عونك وتوفيقك ورشدك وكلاءتك ، وأن ينزل عليك فضله ورحمته
بتمام فضله عليك وكرامته لك ، حتى يجعلك أفضل أمثالك نصيباً ، وأوفرهم حظاً ،
وأسنهم ذكراً وأمراً ، وأن يهلك عدوك ومن ناوأك وبنى عليك ، ويرزقك من

رعبتك العافية ، ويحجزُ الشيطان عنك ووساوسه ، حتى يستعلى أمرُك بالمرز والقوة والتوفيق ، إنه قريب مجيب .

وذكروا أن طاهراً لما عهد إلى ابنه عبد الله هذا العهد ، تنازعهُ الناس وكتبوه وتدارسوه ، وشاع أمره حتى بلغ المأمون ، فدعا به وقرئ عليه ، فقال : ما بقي أبو الطيب (يعنى طاهراً) شيئاً من أمر الدين والدنيا والتدبير والرأى والسياسة ، وإصلاح الملك والرعية ، وحفظ البيضة ، وطاعة الخلفاء ، وتقويم الخلافة إلا وقد أحكمه وأوصى به وتقدم ، وأمر أن يكتب بذلك إلى جميع العمال في نواحي الأعمال .
(تاريخ الطبري ١٠ : ٢٥٨ ، ومقدمة ابن خلدون ص ٢٢٩)

١٣٢ — خطبة عبد الله بن طاهر

خطب عبد الله بن طاهر الناس ، وقد تيسر لقتال الخوارج^(١) فقال :

« إنكم فئة الله المجاهدون عن حقه ، الذائبون عن دينه ، الذائدون عن محارمه ، الداعون إلى ما أمر به ، من الاعتصام بحبله ، والطاعة لوألاة أمره ، الذين جعلهم رعاة الدين ، ونظام^(٢) المسلمين ، فاستنجزوا موعود الله ونصره ، بمجاهدة عدوه ، وأهل معصيته ، الذين أشرو^(٣) وتمردوا ، وشقوا العصا ، وفارقوا الجماعة ، ومرقوا من الدين ، وسعوا في الأرض فساداً ، فإنه يقول تبارك وتعالى : « إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ

(١) الوارد في كتاب « الفرق بين الفرق » أن المأمون بعث طاهر بن الحسين لقتال حمزة بن أكرك - هكذا فيه ، وفي الملل والنحل حمزة بن أدرك بالبدال - وهو زعيم فرقة الحمزية إحدى فرق الخوارج المجارفة ، وقد عاث في سجستان وخراسان ومكران وقوهستان وكرمان ، وهزم الجيوش الكثيرة ، وكان ظهوره في أيام هرون الرشيد سنة ١٧٩ ، وبقى الناس في فئنته إلى أن مضى صدر من أيام خلافة المأمون ، فلما تمكن المأمون من الخلافة كتب إليه كتابها استدعاه فيه إلى طاعته ، فإزداد إلا اعتوا ، فبعث لقتاله طاهر بن الحسين ، فدارت بينه وبين حمزة حروب قتل فيها من الفريقين مقدار ثلاثين ألفاً ، أكثرهم من أتباع حمزة ، وانهمز حمزة إلى كرمان ، ثم استدعى المأمون طاهراً من خراسان ، فطعم فيها حمزة ، وأقبل يبيشه من كرمان ، فخرج إليه عبد الرحمن النمساوي في مشرين ألفاً فهزموه ، وقتلوا الألوف من أصحابه ، وانقلت منهم حمزة جريحاً ، ومات في هزيمته .
— انظر ص ٧٩ —

(٢) النظام : السلك ينظم فيه ، وملاك الأمر . (٣) بطروا .

وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ» ، فليكن الصبر مَعْقِلِكُمُ الَّذِي إِلَيْهِ تَلْجَأُونَ^(١) ، وَعُدَّتْكُمْ الَّتِي بِهَا تَسْتَظْهِرُونَ ، فَإِنَّهُ الْوَزْرُ الْمُنِيعُ ، الَّذِي دَلَّكُمْ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَالْجَنَّةُ^(٢) الْحَصِينَةُ الَّتِي أَمْرُكُمْ اللَّهُ بِلِبَاسِهَا . غَضُّوا أَبْصَارَكُمْ ، وَاخْفَتُوا أَصْوَاتَكُمْ فِي مَصَافِّكُمْ ، وَامْضُوا قُدُمًا عَلَى بَصَائِرِكُمْ ، فَارْغِبُوا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ، وَالِاسْتِعَانَةَ بِهِ كَمَا أَمْرُكُمْ اللَّهُ ، فَإِنَّهُ يَقُولُ : « إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَأَثْبِتُوا وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » أَيَدِكُمْ اللَّهُ بِعِزِّ الصَّبْرِ ، وَوَلِيكُمْ بِالْحَيَاةِ وَالنَّصْرِ .

(العقد الفردي ٢٤ : ١٥٥)

١٣٣ - العباس بن المأمون والمعتمد (المتوفى سنة ٢٢٧ هـ)

قال العباس بن المأمون: لما أفضت الخلافة إلى المعتمد دخلت ، فقال : هذا مجلس كنت أكرهه الناس لجلوسى فيه ، فقلت : « يا أمير المؤمنين ، أنت تغفو عما تيقنته ، فكيف تعاقب على ما توهمت؟ » ، فقال : « لو أردت عقابك ، لتركت عتابك » .

(زهر الآداب ٣ : ٩١)

١٣٤ - استعطاف تميم بن جميل للمعتمد

كان تميم بن جميل السدوسي قد خرج بشاطىء الفرات ، واجتمع إليه كثير من الأعراب ، فعظم أمره ، وبعد ذكره ، فكتب المعتمد إلى مالك بن طوق في النهوض إليه ، فبدد جمعه ، فظفر به ، فحمله مؤثقا إلى المعتمد ، قال أحمد بن أبي دؤاد : ما رأينا رجلاً عين الموت ، فما هاله ، ولا أذهله عما كان يجب عليه أن يفعله إلا تميم بن جميل ، فإنه أوفى به الرسولُ باب أمير المؤمنين المعتمد ، في يوم الموكب ، حين يجلس للعامة ، ودخل عليه ، فلما مثل بين يديه ، دعا بالنطع^(٣) والسيف فأخضرا ، فجعل تميم بن جميل ينظر إليهما ولا يقول شيئاً ، وجعل المعتمد يصعد النظر فيسه ويصوبه ، وكان جسماً

(١) الملجأ والمعتمد ؛ وكذا الوزر . (٢) كل ما يق .

(٣) النطع كحمل رشمس وسبب وحب : بساط من الأديم .

وسياً^(١) ، ورأى أن يستنطقه لينظر أين جناؤه ولسانه من منظره ، فقال : يا تميم إن كان لك عذرة فأت به ، أو حجة فأدل بها ، فقال : أما إذ قد أذن لي أمير المؤمنين فإني أقول :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ، وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ » جبر بك صدع الدين ، ولم يك شعث المسلمين ، وأوضح بك سبل الحق ، وأخذ بك شهاب الباطل ، يا أمير المؤمنين إن الذنوب تُحْرِسُ الألسنة الفصيحة ، وتُعَيِّ الأفتدة الصحيحة ، ولقد عظمت الجريمة ، وانقطعت الحجّة ، وكبر الذنب ، وساء الظن ، ولم يبق إلا عفوك أو انتقامك ، وأرجو أن يكون أقربهما مني ، وأسرعهما إليّ ، أولاهما بامتنانك ، وأشبههما بخلافتك ، ثم أنشأ يقول :

أرَى الموتَ بينَ السيفِ والنَّطعِ كَأَمْنًا	يلاحظني من حيثما أتلفتُ
وَأَكْبَرُ ظَنِّي أَنَّكَ الْيَوْمَ قَاتِلِي	وأى أمرى مما قضى الله يُفَلِّتُ ؟
وَمَنْ ذَا الَّذِي يُدْلِي بِعِذْرٍ وَحُجَّةٍ	وسيف المنايا بين عَيْنَيْهِ مُصَلَّتْ ؟ ^(٢)
يَعِزُّ عَلَى الْأَوْسِ بْنِ تَغْلِبَ مَوْقِفٌ	يُسَلُّ عَلَى السيفِ فِيهِ وَأَسَكْتُ
وَمَا جَزَعَنِي مِنْ أَنْ أَمُوتَ وَإِنِّي	لَأَعْلَمُ أَنَّ الْمَوْتَ شَيْءٌ مَوْقَتْ
وَلَكِنْ خَلْفِي صَبِيَّةٌ قَدْ تَرَكْتَهُمْ	وَأَكْبَادُهُمْ مِنْ حَسْرَةٍ تَنْفَتَّتْ
كَأَنِّي أَرَاهُمْ حِينَ أَنْعَى إِلَيْهِمْ	وَقَدْ نَحَّشُوا تِلْكَ الْوُجُوهُ وَصَوَّتُوا ^(٣)
فَإِنْ عَشْتُ عَاشُوا خَافِضِينَ بِغَبِطَةٍ	أَذُودُ الرَّدَى عَنْهُمْ وَإِنْ مِتُّ مَوَّتُوا ^(٤)
فَكَمْ قَاتِلٍ لَا يُبْعِدُ اللَّهُ رُوحَهُ	وَأَخْرَجَ جَدْلَانِ يُسْرُ وَيَسْمَتُ

(١) جيلة . (٢) مسلول . (٣) نحش وجهه كنصر وضرب : خدشه ولطمه وضربه .
(٤) كثر فيهم الموت .

فتبسم المعتصم وقال : « كاد والله يا تميم أن يسبق السيف العذل^(١) ، أذهب فقد غفرت لك الصبوة^(٢) ، ووهبتك للصبية » ، ثم أمر بفك قيوده وخلع عليه ، وعقد له بشاطئ الفرات .
(العقد الفريد ١ : ١٤٥ ، زهر الآداب ٣ : ٨٩)

١٣٥ - بين يدي سليمان بن وهب وزير المهدي بالله

ولما ولى المهدي بالله^(٣) بن الواثق بن المعتصم سليمان بن وهب وزارته ، قام إليه رجل من ذوى حرمة ، فقال : « أعز الله الوزير ، أنا خادمك ، المؤمل لدولتك ، السعيد بأيامك ، المنظور القلب على ودك ، المنشور اللسان بمدحك ، المرتهن بشكر نعمتك » .
(زهر الآداب ٣ : ١٩٧)

١٣٦ - أحمد بن أبي دواد والواثق (المتوفى سنة ٢٣٣ هـ)

دخل أحمد بن أبي دواد^(٤) على الواثق فقال : ما زال اليوم قوم في ثلبك ونقصك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ليكل أمرى منهم ما أكتسب من الإنم ، واللى تولى كبره^(٥) منهم له عذاب عظيم ، والله ولى جزائه ، وعقاب أمير المؤمنين من ورآئه ،

(١) العذل كشمس وسبب : الوم ؛ وهو مثل ؛ وأول من قاله ضبة بن أد بن طابخة ؛ وكان له ابنان يقال لأحدهما سمه ؛ وللآخر سعيد ؛ فنقرت إبل لضبة تحت البل ؛ فوجه ابنه فطلبها ففترقا ؛ فوجدها سمه فردها ؛ ومضى سعيد في طلبها ؛ فلقى الحرث بن كعب ؛ وكان على الغلام بردان ؛ فسأله الحرث إياها فأبى عليه فقتله وأخذ برديه ؛ فكان ضبة إذا أمسى فرأى تحت الليل سوادا . قال : أسمع أم سعيد ؟ فكث ضبة بذلك ماشاء الله أن يمكث ؛ ثم إنه حج فوافى عكاظ ؛ فلقى بها الحرث بن كعب ؛ ورأى عليه بردى ابنه سعيد ففر فوهما ، فقال له : هل أنت نجبري ما هذان البردان اللذان عليك ؟ قال بل ؛ لقيت غلاما ؛ هما عليه فسأته إياها ؛ فأبى على فقتله ؛ وأخذت برديه هذين ؛ فقال ضبة : بسيفك هذا ؟ قال نعم ؛ فقال : فأعطينه أنظر إليه فأبى أظنه صارما ؛ فأعطاه الحرث سيفه ؛ فلما أخذه من يده هزه وقال : الحديث ذو شجون ؛ ثم ضربه به حتى قتله ؛ فقيل له يا ضبة : أفي الشهر الحرام ؟ فقال : سبق السيف العذل . (٢) جهلة الفتوة . (٣) نول الخلافة سنة ٢٥٥ إلى سنة ٢٥٦ هـ

(٤) هو القاضي أبو عبد الله أحمد بن أبي دواد من كبار أئمة المعتزلة ، ونصراء الاعتزال ، كان مقربا من المأمون أثيرا عنده ، ولما ولي المعتصم الخلافة جعله قاضي القضاة ؛ وعزل يحيى بن أكثم ، وخصص به أحمد ، حتى كان لا يفعل فعلا باطنا ولا ظاهرا إلا برأيه ، ولما مات المعتصم ، وتولى بعده ابنه الواثق بالله حدث حال ابن أبي دواد عنده ، ثم فُلج في أول خلافة المتوكل ، ففقد ولده محمداً القضاة مكانه ، وتوفي سنة ٢٤٠ هـ . (٥) أى معظمه ، وفي قراءة كبره . بضم الكاف .

وما ذلَّ يا أمير المؤمنين من أنت ناصرُه ، وما صاق من كنت جاراً له ، فما قلت لهم
يا أمير المؤمنين ؟ قال : قلت يا أبا عبد الله :

وَسَعَى إِلَى بَعِيبِ عَزَّةَ مَعَشَرُهُ جَعَلَ الْإِلَهَ خِدْوَدَهُنَ نِعَاَهَا

(زهر الآداب ٣ : ٢٠٨ ، والعقد الفريد ١ : ١٤١)

١٣٧ — ابن أبي دواد والواثق أيضاً

وقال الواثق يوماً لابن أبي دواد تضحجراً بكثرة حوائجه : قد أخليتُ بيوتَ
الأموالِ بطَلِبَاتِكَ لِلأَذِينِ بِكَ ، والمتوسلينِ إليك ، فقال :

« يا أمير المؤمنين ، نتأجُّ شكرها متصلةً بك ، وذخاؤها موصولة لك ، ومالي
من ذلك إلا عِشْقُ اتصالِ الألسنِ بخلود المدح » ، فقال : « والله لا منعناك ما يزيد
في عشقتك ، ويقوى في همتك فينا ولنا » ، وأمر فأخرج له خمسةً وثلاثين ألف درهم .
(زهر الآداب ٢ : ٣١٠)

١٣٨ — ابن أبي دواد وابن الزيات

وكان بين القاضي أحمد بن أبي دواد وبين الوزير محمد بن عبد الملك الزيات^(١) منافسة
وشحناء ، حتى منع الوزير شخصاً كان يصحب القاضي ، ويختص بقضاء حوائجه ، من
الترداد إليه ، فبلغ ذلك القاضي ، فجا إلى الوزير فقال له :

« والله ما أجيئك متكثرأً بك من قلة ، ولا متعزراً بك من ذلة ، ولكن
أمير المؤمنين رتبك مرتبة أوجبَّت لقاءك ، فإن لقيناك فله ، وإن تأخرنا عنك فلك^(٢) » .
(رفيات الأعيان ١ : ٢٥)

(١) وزر للمعتصم ، وللواثق من بعده ، ثم نسكه المتوكل كما سألني .

(٢) وكان الواثق قد أمر ألا يرى أحد من الناس ابن الزيات ، إلا قام له ، فكان ابن أبي دواد إذا

رآه قام واستقبل للقبلة يصل .

١٣٩ - الجاحظ وابن أبي دؤاد

وكان الجاحظ مختصاً بمحمد بن عبد الملك الزيات ، منحرفاً عن أحمد بن أبي دؤاد ، فلما نكس ابن الزيات^(١) ، حُجِل الجاحظ مقيداً من البصرة ، وفي عنقه سلسلة ، وعليه قميص سَمَل^(٢) ، فلما دخل على القاضي أحمد قال له : « والله ما أعلمك إلا متناسياً للنعمة ، كفوراً للصنعة ، معدّناً للمساوي ، وما فتنتني باستصلاحك ، ولكن الأيام لا تصلح منك ، لفساد طويبتك ، ورداءة دَخِيبتك ، وسوء اختيارك ، وغالب طباعك » . فقال الجاحظ : « خَفَّضُ عليك - أَيْدِكَ اللهُ - فوالله لأن يكون لك الأمر على ، خيرٌ من أن يكون لي عليك ، ولأن أسيءَ وَتُحْسِنَ ، أحسنُ في الأُحْدُوثة عليك ، من أن أحسن وتسيء ، ولأن تعفوني في حال قدرتك ، أجمل بك من الانتقام مني » . فقال أحمد : والله ما علمتُك إلا كثير تزويق الكلام ، فخلَّ عنه الغُلَّ والقيد ، وأحسن إليه ، وصدَّره في المجلس . (زهر الآداب ٢ : ١٠٦ ، والمنية والأمل ص ٣٩)

(١) كان في نفس المتوكل من ابن الزيات شيء كثير ، وذلك أنه لما مات الواثق (وهو أخو المتوكل) . أشار ابن الزيات بتولية ولد الواثق ، وأشار ابن أبي دؤاد بتولية المتوكل ، وقام في ذلك وقعد حتى عمه بيده وألبسه البردة ، وقبله بين عينيه ، وكان المتوكل في أيام الواثق يدخل على ابن الزيات فيتجهمه ويفلظ له في الكلام - يتقرب بذلك إلى الواثق - فحقد المتوكل ذلك عليه ، فلما ولي الخلافة ، أمهله أربعين يوماً حتى يطمئن إليه ، ثم قبض عليه وسجنه ، واستصغى أمواله ، وكان ابن الزيات إبان وزارته قد اتخذ تنوراً من حديد ، وأطراف مساميره إلى داخل ، وهي قائمة مثل رموس المسال ، يمدب فيه من يستحقون العقوبة وكان إذا قال أحدهم ارحمني أيها الوزير . قال له : الرحمة خور في الطبيعة ، فلما اعتقله المتوكل أمر بإدخاله في التنور : وقيدته بخمسة عشر رطلا من الحديد ، فقال : يا أمير المؤمنين ارحمني ، فقال له : الرحمة خور في الطبيعة ، وبق في العذاب أربعين يوماً حتى مات سنة ٢٣٣ هـ .

(٢) السمل : الخلق من الشباب .

١٤٠ - أبو العيناء وابن أبي دؤاد

وقال أبو العيناء لابن أبي دؤاد : إن قوماً من أهل البصرة قدِموا إلى « سُرَّ مَنْ رَأَى » يَدَا عَلِيٍّ ، فقال : « يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ » ، فقلت : إن لهم مكرراً ، فقال : « وَلَا يَحِقُّ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ » ، فقلت : إنهم كثير ، قال : « كَمْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٌ غَلَبَتْ فِتْنَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ » .

(زهر الآداب ٢ : ٣١٠ ، والعقد الفريد ١ : ١٤١)

تم الجزء الثالث

ويليه

ذيل الجمهرة

فهرس

الجزء الثالث

من جمهرة خطب العرب

الباب الرابع

الخطب والوصايا في العصر العباسي الأول

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم للمفحة
خطبة أبي العباس السفاح وقد بويع بالخلافة	١	١
» داود بن عليّ	٢	٣
» داود بن عليّ وقد أرتج على السفاح	٣	١١
» أخرى له	٤	١١
» للسفاح بالكوفة	٥	١٢
» السفاح بالشام حين قتل مروان	٦	١٢
» عيسى بن عليّ	٧	١٣
» داود بن عليّ بمكة	٨	١٤
خطبته بالمدينة	٩	١٥
خطبة أخرى له	١٠	١٥
خطبته وقد بلغه أن قوما أظهروا شكاة بني العباس	١١	١٦
» وقد أرتج عليه	١٢	١٧
خطبة صالح بن عليّ	١٣	١٨
» سديف بن ميمون	١٤	١٨
» أبي مسلم الخراساني	١٥	٢٠
خالد بن صفوان وأخوال السفاح	١٦	٢٣
» » » ورجل من بني عبد الدار	١٧	٢٤

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
خالد بن صفوان يرثي صديقا له	١٨	٢٥
» » » يمدح رجلا	١٩	٢٥
كلمات بليغة لخالد بن صفوان	٢٠	٢٥
عمارة بن حمزة والسفاح	٢١	٢٦
خطب أبي جعفر المنصور		٢٧
خطبته بمكة	٢٢	٢٧
» بعد بناء بغداد	٢٣	٢٧
خطبته بمدينة السلام	٢٤	٢٨
» وقد أخذ عبد الله بن الحسن وأهل بيته	٢٥	٢٨
» حين خروج محمد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن	٢٦	٣٠
» وقد قتل أبا مسلم الخراساني	٢٧	٣١
خطبة أخرى	٢٨	٣
قوله وقد قوطع في خطبته	٢٩	٣٢
المنصور يصف خلفاء بني أمية	٣٠	٣٣
» عبد الرحمن الداخل	٣١	٣٣
وصايا المنصور لانه المهدي		٣٥
وصية له	٣٢	٣٥
» أخرى له	٣٣	٣٦
» » »	٣٤	٣٦
خطبة النفس الزكية حين خرج على المنصور	٣٥	٣٨
وصية عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي لابنه	٣٦	٣٩
قوله وقد قتل ابنه محمد	٣٧	٣٩
امرأة محمد بن عبد الله والمنصور	٣٨	٤٠
جعفر الصادق والمنصور	٣٩	٤٠
صفح المنصور عن سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب	٤٠	٤٢
استعطاف أهل الشام أبا جعفر المنصور	٤١	٤٢

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
استعطاف أهل الشام المنصور أيضاً	٤٣	٤٢
أبو جعفر المنصور والربيع	٤٤	٤٣
مقام عمرو بن عبيد بين يدي المنصور	٤٥	٤٤
« رجل من الزهاد » « »	٤٦	٤٥
« الأوزاعي بين يدي المنصور	٤٩	٤٦
نصيحة يزيد بن عمر بن هبيرة المنصور	٥١	٤٧
معن بن زائدة والمنصور	٥٢	٤٨
« « « وأحد زوآره	٥٢	٤٩
المنصور وأحد الأعراب	٥٣	٥٠
أعرابية تغزى المنصور وتهنته	٥٣	٥١
خطبة محمد بن سايمان	٥٤	٥٢
وصية مسلم بن قتيبة	٥٤	٥٣
خطبة المهدي	٥٥	٥٤
مشاورة المهدي لأهل بيته في حرب حراسان	٥٧	
مقال سلام صاحب المظالم	٥٨	٥٥
« الربيع بن يونس	٥٩	٥٦
« الفضل بن العباس	٦٠	٥٧
مقال علي بن المهدي	٦٢	٥٨
« موسى بن المهدي	٦٤	٥٩
« العباس بن محمد	٦٥	٦٠
« هرون بن المهدي	٦٦	٦١
« صالح بن علي	٦٨	٦٢
« محمد بن الليث	٦٩	٦٣
« معاوية بن عبد الله	٧٤	٦٤
« المهدي	٧٢	٦٥
« محمد بن الليث	٧٤	٦٦
« المهدي	٧٥	٦٧

الخطبة أو الرصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
ابن عتبة يعزى المهدي وبهنته	٧٧	٦٨
يعقوب بن داود يستعطف المهدي	٧٧	٦٩
رجل من أهل خراسان يخطب بحضور المهدي	٧٨	٧٠
مقام صالح بن عبد الجليل بين يدي المهدي	٧٩	٧١
عظة شبيب بن شذبة للمهدي	٨٠	٧٢
خطبته في تعزية المهدي بابنته	٨٠	٧٣
خطبة أخرى له في مدح الخليفة	٨٠	٧٤
كلمات لشبيب بن شذبة	٨١	٧٥
خطبة يوسف بن القاسم بن صبيح الكاتب يوم ولي الرشيد بالخلافة	٨١	٧٦
خطبة هرون الرشيد	٨٣	٧٧
وصية الرشيد لمؤدب ولده الأمين	٨٥	٧٨
خطبة لجعفر بن يحيى البرمكي	٨٥	٧٩
استعطف أم جعفر بن يحيى للرشيد	٨٨	٨٠
خطبة يزيد بن مزيد الشيباني	٩١	٨١
» عبد الملك بن صالح	٩٢	٨٢
عبد الملك بن صالح يعزى الرشيد وبهنته	٩٣	٨٣
غضب الرشيد على عبد الملك بن صالح	٩٣	٨٤
قوله بعد خروجه من السجن	٩٦	٨٥
وصية عبد الملك بن صالح لابنه	٩٧	٨٦
» أخرى له	٩٩	٨٧
كلمات حكيمه لابن السماك	٩٩	٨٨
ابن السماك والرشيد	٩٩	٨٩
الفتنة بين الأمين والمأمون	١٠١	
وفد الأمين إلى المأمون		
خطبة العباس بن موسى	١٠١	٩٠
» عيسى بن جعفر	١٠٢	٩١
» محمد بن عيسى بن نهبك	١٠٢	٩٢

المخطبة أو الوصية	رقم المخطبة	رقم الصفحة
خطبة صالح صاحب المصلى	٩٣	١٠٣
« المأمون »	٩٤	١٠٣
—————		
وصية السيدة زبيدة لعلی بن عيسى بن ماهان	٩٥	١٠٤
« الأمين لابن ماهان »	٩٦	١٠٥
استهانة ابن ماهان بأمر طاهر بن الحسين	٩٧	١٠٦
حزم طاهر وقوة عزمه	٩٨	١٠٧
طاهر يشد عزيمة جنده	٩٩	١٠٨
وصف الفضل بن الربيع غفلة الأمين	١٠٠	١٠٩
وصية الأمين لأحمد بن مزيد	١٠١	١١٠
مقال عبد الملك بن صالح للأمين	١٠٢	١١١
الشغب في جيش عبد الملك بن صالح	١٠٣	١١٢
خطبة الحسين بن علی بن عيسى بن ماهان يدعو إلى خلع الأمين	١٠٤	١١٣
« محمد بن أبي خالد »	١٠٥	١١٤
إطلاق الأمين من سجنه ورده إلى مجلس الخلافة	١٠٦	١١٤
خطبة داود بن عيسى يدعو إلى خلع الأمين	١٠٧	١١٥
« الأمين وقد تولى الأمر عنه »	١٠٨	١١٧
استعطاف الفضل بن الربيع للمأمون	١٠٩	١١٨
خطبة طاهر بن الحسين ببغداد بعد مقتل الأمين	١١٠	١١٩
—————		
خطب المأمون		١٢٠
خطبته وقد ورد عليه نعي الرشيد	١١١	١٢٠
« وقد سلم الناس عليه بالخلافة »	١١٢	١٢٠
« يوم الجمعة »	١١٣	١٢١
« يوم الأضحى »	١١٤	١٢٢
« يوم الفطر »	١١٥	١٢٣
—————		
خطبة ابن طباطبا العاوى	١١٦	١٢٤
استعطاف إبراهيم بن المهدي للمأمون	١١٧	١٢٦

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
إبراهيم المهدي ومجيشوع الطيب	١١٨	١٢٨
استعطاف إسحاق بن العباس المأمون	١١٩	١٢٩
أحد وجوه بغداد يمدح المأمون حين دخها	١٢٠	١٢٩
أحد أهل الكوفة يمدح المأمون	١٢١	١٣٠
محمد بن عبد الملك بن صالح بين يدي المأمون	١٢٢	١٣٠
الحسن بن سهل يمدح المأمون	١٢٣	١٣١
يحيى بن أكرم يمدح المأمون	١٢٤	١٣١
أحد بني هاشم والمأمون	١٢٥	١٣٢
رجل يتظلم إلى المأمون	١٢٦	١٣٢
عمرو بن سعيد والمأمون	١٢٧	١٣٣
الحسن بن رجاء والمأمون	١٢٨	١٣٣
سعيد بن مسلم والمأمون	١٢٩	١٣٣
أبو زهران يعظ سعيد بن مسلم	١٣٠	١٣٤
وصية طاهر بن الحسين لابنه عبد الله لما ولاه المأمون الرقة ومصر وما بينهما	١٣١	١٣٤
خطبة عبد الله بن طاهر	١٣٢	١٤٤
العباس بن المأمون والمعتصم	١٣٣	١٤٥
استعطاف تميم بن جميل للمعتصم	١٣٤	١٤٥
بين يدي سليمان بن وهب وزير المهدي بالله	١٣٥	١٤٧
أحمد بن أبي دواد والوائق	١٣٦	١٤٧
ابن أبي دواد والوائق أيضاً	١٣٧	١٤٨
ابن أبي دواد وابن الزيات	١٣٨	١٤٨
الجاحظ وابن أبي دواد	١٣٩	١٤٩
أبو العيناء وابن أبي دواد	١٤٠	١٥٠

فهرس أعلام الخطباء

مرتب بترتيب الحروف الهجائية

مع إتباع اسم كل خطيب بأرقام الصفحات التي وردت فيها خطبه

(ح)	(ا)
الحارث بن عبد الرحمن : ٤٢	ابراهيم بن المهدي : ١٢٥ - ١٢٧
الحسن بن رجاء : ١٣٣	ابن السماك : ٩٩
الحسن بن سهل : ١٣١	ابن طباطبا العلوي : ١٢٤
الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان : ١١٣	ابن عتبة : ٧٧
(خ)	أبو جعفر المنصور : ٢٧ - ٢٧ - ٣٠ -
خالد بن صفوان : ٢٢ - ٢٤ - ٢٥	٣١ - ٣٢ - ٢٩ - ٣٣ - ٢٣ - ٤٢
(د)	أبو زهمان العلافى : ١٣٤
داود بن علي :	أبو العباس السفاح : ١٣ - ١٤ - ١
٨ - ١١ - ١١ - ١٢ - ١٤ - ١٥ - ١٥	أبو مسلم الخراساني : ٢٠
داود بن عيسى : ١١٥	أحمد بن أبي دواد : ١٤٧ - ١٤٨ - ١٤٩
(ر)	إسحاق بن العباس : ١٢٨
الربيع بن يونس : ٤٤ - ٥٩	أم جعفر بن يحيى : ٨٨
(ز)	الأمين : ١٠٥ - ١١٠ - ١١٥
السيدة زبيدة : ١٠٤	الأوزاعي : ٤٩
(س)	(ت)
سديف بن ميمون : ٨	نميم بن جميل : ١٤٥
سعيد بن مسلم : ١٣٣	(ج)
سلام (صاحب المظالم) : ٥٥	الجاحظ : ١٤٩
(ش)	جعفر الصادق : ٤٠
شبيب بن شيبة : ٨٠ - ٨١	جعفر بن يحيى البرهكي : ٨٥

الفضل بن العباس ٦٠

(م)

المأمون : ١٠٣ - ١٢٠ - ١٢١ - ١٢٢ - ١٢٣

محمد بن أبي خالد : ١١٤

محمد بن سليمان : ٥٤

محمد بن عبد الملك بن صالح : ١٣٠

محمد بن عيسى بن نهيك : ١٠٢

محمد بن الليث : ٦٩ - ٧٤

مسلم بن قتيبة : ٥٤

معاوية بن عبد الله : ٧٤

معن بن زائدة : ٥٢

المهدى : ٥٥ - ٧٢ - ٧٥

(ن)

النفوس الزكية : ٣٨

(هـ)

الهادي : ٦٤

هرون الرشيد : ٦٦ - ٨٣ - ٨٥

(ي)

يحيى بن أكثم : ١٣١

يزيد بن عمر بن هبيرة : ٥١

يزيد بن مزيد الشيباني : ٩١

يعقوب بن داود : ٧٧

يوسف بن القاسم بن صبيح : ٨١

- تم فهرس أعلام خطب العرب -

(ص)

صالح (صاحب المصلي) : ١٠٣

صالح بن عبد الجليل : ٧٩

صالح بن علي : ١٨ - ٦٨

(ط)

طاهر بن الحسين :

١٠٧ - ١٠٨ - ١١٩ - ١٣٤

(ع)

العباس بن المأمون : ١٤٥

العباس بن محمد : ٦٥

العباس بن موسى : ١٠١

عبد الله بن الحسن : ٣٩

عبد الله بن طاهر : ١٤٤

عبد الملك بن صالح :

٩٢ - ٩٣ - ٩٦ - ٩٧ - ١١١

عثمان بن خزيم : ٤٣

علي بن عيسى بن ماهان : ١٠٦

علي بن المهدي : ٦٢

عمارة بن حمزة : ٢٦

عمرو بن سعيد : ١٣٣

عمرو بن عبيد : ٤٥

عيسى بن جعفر : ١٠٢

عيسى بن علي : ١٣

(ف)

الفضل بن الربيع : ١٠٩ - ١١٨

كتاب

جمهرة خط العرب

في عصور العرب الزاهرة

ويحوى خمسة أبواب

الباب الأول : في خطب الأندلسيين والمغاربة .

» الثاني : في خطب ووصايا مجهول عصرها أو قائلها .

» الثالث : في نثر الأعراب .

» الرابع : في خطب النكاح .

» الخامس : في خطب من أرتج عليهم ونوادير طريفة لبعض الخطباء

فهرس المآخذ

- فتح الطيب ، للمقرى : الجزء الأول - الثانى - الرابع
- مطمح الأنس ، للفتح بن خاقان :
- المعجب ، فى تلخيص أخبار المغرب :
- لمجى الدين بن على الراشى
- الإحاطة : فى أخبار غرناطة ،
- لسان الدين بن الخطيب :
- الأمالى : لأبى على القالى : الجزء الأول - الثانى - ذيل الأمالى
- الأغانى : لأبى الفرج الأصبهانى : « الثالث عشر - السابع عشر
- صبح الأعشى : لأبى العباس القلقشندى : « الأول
- نهاية الأرب : لشهاب الدين النويرى : « السابع
- عيون الأخبار : لابن قتيبة الدينورى : المجلد الثانى
- الكامل : لأبى العباس المبرد : الجزء الأول
- العقد الفريد : لابن عبد ربه : « الأول - الثانى - الثالث
- زهر الآداب : لأبى إسحق الحضرى : « الأول - الثانى - الثالث
- البيان والتبيين : للجاحظ : « الأول - الثانى - الثالث
- أمالى السيد المرتضى : « الرابع
- مجمع الأمثال : لأبى الفضل الميدانى : « الأول - الثانى
- تاريخ الأمم والملوك : لابن جرير الطبرى : « السابع - الثامن
- مروج الذهب : للمسعودى : الجزء الثانى

- : الصناعتين : لأبي هلال العسكري
- : بلاغات النساء : لابن أبي طاهر طيفور
- : سرح العميون : لابن نباتة المصري
- : سيرة عمر بن عبد العزيز : لابن الجوزي
- مواسم الأدب للسيد جعفر البيهقي العلوي : الجزء الثاني
- بلوغ الأرب : للسيد محمود شكري الألوسي : « الثالث
- مفتاح الأفكار : للشيخ أحمد مفتاح

الباب الأول

في

خطب الأندلسيين والمغاربية

١ - خطبة عبد الرحمن الداخل (المتوفى سنة ١٧١ هـ)

يوم حربه مع يوسف الفهري صاحب الأندلس

لما اشتد الكرب بين يدي عبد الرحمن الداخل ^(١) ، يوم حربه مع يوسف الفهري ^(٢) صاحب الأندلس ، ورأى شدة مفاواة أصحابه قال :

« هذا اليوم هو أس ما يُبني عليه ، إِمَّا ذلّ الدهر ، وإِمَّا عزّ الدهر ، فاصبرُوا ساعةً فيما لا تشتهون ، ترَبِّحُوا بها بقيةَ أعماركم فيما تشتهون » .

ولما أُنحى أصحابه على أصحاب الفهري بالقتل يوم هزيمتهم على قوطبة قال :

(١) هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان المعروف بالداخل ، وذلك أنه لما أصاب دولتهم بالشرق ما أصابها ، وتبع السفاح من بقى من بني أمية بالقتل والإهلاك ، فرجع عبد الرحمن إلى الأندلس ، واستطاع بهمته أن يؤسس هناك دولة أورثها عقبه حقة من الدهر ، وهي دولة بني أمية في المغرب من سنة ١٢٨ إلى سنة ٥٤٢٢ ، وكانت عاصمة ملكها قرطبة ، وهي مدينة على نهر الوادي الكبير .

(٢) يوسف الفهري هو ابن عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع بن الفقيروان ، وأمير معاوية على أفريقية والمغرب ، وكانت ولاية يوسف الفهري الأندلس سنة ١٢٩ فذانت له تسع سنين وتسعة أشهر ، وعنه انتقل سلطانها إلى بني أمية .

« لا تستأصلوا شأفة^(١) أعداء ترجون صداقتهم ، واستبقوهم لأشدّ عداوة منهم » - يشير إلى استبقائهم ، ليُستعان بهم على أعداء الدين - . (نفع الطيب ٢ : ٧٠)

٢ - عبد الرحمن الداخل ورجل من جند قنسرين

ولما أذعن يوسف صاحب الأندلس لعبد الرحمن ، واستقر ملكه ، استحضر الوفود إلى قرطبة ، فانتالوا^(٢) عليه ، ووالى القعود لهم في قصره عدة أيام ، في مجالس يكلم فيها رؤساءهم ووجوههم ، بكلامٍ سرّهم ، وطيب نفوسهم . وفي بعض مجالسهم هذه مثل بين يديه رجل من جند قنسرين^(٣) يستجديه ، فقال له :

« يابن الخلائف الراشدين ، والسادة الأكرمين ، إليك فررتُ ، وبك عُدْتُ ، من زمن ظلوم ، ودهرٍ غشوم ، قلل المال ، وكثر العيال ، وشعث^(٤) الحال ، فصيرَ إلى ندادك المال ، وأنت وليُّ الحمدِ والمجدِ ، والمرجوِّ للرفد^(٥) . »
فقال له عبد الرحمن مسرعاً :

« قد سمعنا مقاتلك ، وقصينا حاجتك ، وأمرنا ببعوثك على دهرك ، على كرهنا لسوء مقامك ، فلا تعودن ولا سواك لثله ، من إراقة ماء وجهك بتصريح المسألة ، والإلحاف في الطلبة^(٦) ، وإذا ألمّ بك خطبٌ ، أو حزَبك^(٧) أمرٌ ، فارفعه إلينا في رُقعة لا تعدوك ، كما نستر عليك خلّتك ، ونكفُّ شمات العدو عنك ، بعد رفعك لها إلى مالِكِك ومالِكنا - - عزَّ وجهه - بإخلاص الدعاء ، وصدق النية . »

(١) الشأفة : قرحة تخرج في أسفل القدم فتكوى فتذهب ، أو إذا قطعت مات صاحبها ، والأصل ، واستأصل الله شأفته : أذهب كما تذهب تلك القرحة ، أو معناه أزاله من أصله .

(٢) انتال : انصب ، أي تهابوا وتوافدوا عليه . (٣) بالشام .

(٤) شعث الأمر : نشره وفرقه . (٥) الرفد : العطاء والصلة .

(٦) للطلبة : الطلب . (٧) أي اشتد عليك ، والخلة الحاجة .

وأمر له بجائزة حسنة ، وخرج الناس يتعجبون من حسن منطقته ، وبراعة أدبه ،
وكفّ فيما بعدُ ذوو الحاجات عن مقابله بها شفاهاً في مجلسه . (نفع الطيب ٢ : ٦٨)

٣ — عبد الرحمن الداخل ورجل من جنده يهنئه بفتح سر قسطة

ولما فتح عبد الرحمن الداخل سر قسطة^(١) ، وَحَصَلَ في يده ثأرُها الحسين
الأنصاري ، وانتهى نصره فيها إلى غايةِ أمله ، أقبل خواصه يهنئونه ، فجرى بينهم أحدُ
من لا يؤوبه به من الجند ، فهنأه بصوت عال ، فقال له عبد الرحمن :

« وَاللَّهِ لَوْلَا أَنْ هَذَا الْيَوْمَ يَوْمٌ أُسْبِغَ عَلَيَّ فِيهِ النِّعْمَةُ مَنْ هُوَ فَوْقِي ، فَأَوْجِبَ عَلَيَّ
ذَلِكَ أَنْ أَنْعِمَ فِيهِ عَلَيَّ مَنْ هُوَ دُونِي ، لِأَصْلَيْتِكَ مَا تَعَرَّضْتَ لَهُ مِنْ سُوءِ النَّكَالِ ، مَنْ
نَكُونُ ؟ حَتَّى تُقْبِلَ مُهْنِئاً رَافِعاً صَوْتِكَ ، غَيْرَ مُتَجَلِّجٍ وَلَا مُتَهَيِّبٍ لِمَكَانِ الْإِمَارَةِ ،
وَلَا عَارِفٍ بِقِيمَتِهَا ، حَتَّى كَأَنَّكَ تَخَاطَبُ أَبَاكَ أَوْ أَخَاكَ ! وَإِنَّ جِهْلَكَ لِيَحْمِلَكَ عَلَى الْعَوْدِ
لِثَلَاثًا ، فَلَا تَجِدُ مِثْلَ هَذَا الشَّافِعِ فِي مِثْلِهَا مِنْ عَقُوبَةٍ . »

فقال : « ولعل فتوحات الأمير يقترن اتصالها باتصال جلي وذنوبي ، فتشفع لي مق
أتيت بمثل هذه الزلة ، لا أعدمنيه الله تعالى . »

فهلل وجه الأمير ، وقال : ليس هذا باعتذار جاهل ، ثم قال : نهنونا على أنفسكم
إذا لم تجدوا من ينهنأ عليها ، ورفع مرتبته وزاد في عطائه . (نفع الطيب ٢ : ٧٠)

٤ — تاديب عبد الرحمن الأوسط لابنه المنذر

كان المنذر ابن الأمير عبد الرحمن الأوسط^(٢) سيء الخلق في أول أمره ، كثير الإصغاء
إلى أقوال الوشاة ، مُفْرِطُ الْقَلْقِ مِمَّا يُقَالُ فِي جَانِبِهِ ، مُعَاقِباً عَلَى ذَلِكَ مَنْ يَقْدِرُ عَلَى مُعَاقِبَتِهِ ،

(١) مدينة على نهر إبرة . (٢) هو عبد الرحمن الأوسط (الثاني) ابن الحكم بن هشام بن
عبد الرحمن الداخل ، حكم الأندلس من سنة ٢٠٦ إلى سنة ٢٣٨ هـ .

مكثر التشكى ممن لا يقدر عليه لوالده الأمير عبد الرحمن ، فطال ذلك على الأمير ، فأمر
ثقةً من ثقاته أن يبنى بجبل منقطع عن العمران بناءً يُسكن فيه ابنه ، وألاً يدع أحداً
من أصحابه يزوره ، فلما استقر المنذر في ذلك المكان ، وبقي وحده ، ونظر إلى ما سلبه
من الملك ، ضجر وقال للثقة : عسى أن يصلني غلمانى وأصحابى آتس بهم ! فقال له :
إن الأمير أمر ألا يصلك أحد ، وأن تبقى وحدك ، لتستريح مما يرفع لك أصحابك من
الوشاية ، فعلم أن الأمير قصد بذلك محنته وتأديبه ، فكتب إليه يشكو استيحاشه^(١)
بمكانه ، فلما وقف الأمير على رقعته ، وعلم أن الأدب بلغ به حقه استدعاه ، فقال له :

« وصلت رقعتك ، تشكو ما أصابك من توحش الانفراد ، في ذلك الموضع ،
وترغب أن تأنس بخولاك^(٢) وعبيدك وأصحابك ، وإن كان لك ذنب يترتب عليه أن
تطول سكنناك في ذلك المكان ، وما فعلت ذلك عقاباً لك ، وإنما رأيناك تُكثر
الضجر والتشكى من القال والقييل ، فأردنا راحتك بأن نحجب عنك سماع كلام من
يرفع لك وينم ، حتى تستريح منهم . »

فقال له : « سماع ما كنت أضجر منه ، أخف على من التوحد والتوحش ،
والتخلي مما أنا فيه من الرفاهية والأمر والنهي . »

فقال له : « فإذا قد عرفت وتأدبت ، فارجع إلى ما اعتدته ، وعول على أن تسمع
كأنك لم تسمع ، وترى كأنك لم تر ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لو تكاشفتهم
ما تدافتهم » ، واعلم أنك أقرب الناس إلى ، وأحبهم في ، وبعد هذا فما يخلو صدرك
في وقت من الأوقات عن إنكار على ، وسخط لما أفعله في جانبك ، أو جانب غيرك ،

(١) ونص للكتاب : « إني قد توحشت في هذا الموضع توحشا ما عليه من مزيد ، وهدمت فيه من
كنت آتس إليه ، وأصبحت مسلوب المز ، فقيد الأمر والنهي ، فإن كان ذلك عقاباً للذنب كبير ارتكبه ،
وعلمه مولاي ولم أعلمه ، فإني صابر على تأديبه ، ضارع إليه في عفوه وصفحته . »

وإن أمير المؤمنين وفعله الكادمر ، لا عار بما فعل الدهر .

(٢) الخول : مثال الخدم والحشم وزنا ومعنى .

مما لو أطلعني الله تعالى عليه لساءني ، لكن الحمد لله الذي حَفِظَ ما بين القلوب بِسِتْرِ بعضها عن بعض ، فيما يجول فيها ، وإنك لذو هِمَّةٍ وَمَطْمَحٍ ، ومن يكن هكذا يَصْبِرُ وَيُبْغِضُ وَيَحْمِلُ ، وَيُبَدِّلُ بالعقاب الثوابَ ، ويصيرُ الأعداء من قبيل الأصدقاء ، ويصبر من الشخص على ما يسوء ، فقد يرى منه بعد ذلك ما يَسُرُّ ، ولقد يخفُّ علىَّ اليومَ مَنْ قاسيتُ من فعله وقوله ما لو قطعتم عضواً عضواً لما ارتكبه مني ، ماشفتُ منهم غيظي ، ولكن رأيت الإغضاء والاحتمال ، لاسيما عند الاقتدار أولى ، ونظرت إلى جميع مَنْ حولي ممن يُحْسِنُ وَيُسِيءُ ، فوجدت القلوب متقاربةً بعضها من بعض ، ونظرت إلى المسيء يعود محسناً ، والمحسن يعود مسيئاً ، وصرتُ أندم على من سبق له مني عقاب ، ولا أندم على من سبق له مني ثواب ؛ فالزَمَ يا بني معالي الأمور ، وإن جماعها في التفاضل ، ومن لا يتفاضل لا يسلم له صاحب ، ولا يُقَرَّبُ منه جانبٌ ، ولا ينال ما ترقى إليه همته ، ولا يظفر بأمله ، ولا يجد مُعيناً حين يحتاج إليه .

فقبل المنذر يده وانصرف ، ولم يزل يأخذ نفسه بما أوصاه والده ، حتى تخلق بالخلق الجميل ، وبلغ ما أوصاه به أبوه ورفع قدره .
(نفع الطيب ٢ : ٢٢٧)

هـ - عبد الرحمن الأوسط وابنه المنذر أيضا

وقال له أبوه يوماً : إن فيك لتيها مُفَرِّطاً ، فقال له : حُقَّ لفرع أنت أصله أن يعلو ، فقال له : يا بني ، إن العيون تَمُجُّ التِّيَّاءَ ، والقلوب تَنْفِرُ عنه ، فقال : يا أبي ، لي من العزِّ والنسب وعلوِّ المكان والسلطان ما يجِلُّ^(١) عن ذلك ، وإني لم أر العيون إلا مُقْبِلَةً علىَّ ، ولا الأسماع إلا مُصْفِيَةٌ إلىَّ ، وإن لهذا السلطان رَوْناً يُرِيقه التبذل ، وعلوُّا يَحْفِضُهُ الانبساط ، ولا يصونه ويشرفه إلا التِّيَّاءُ والانتقباض^(٢) ، وإن هؤلاء الأندال ،

(١) في الأصل : « يجمل » ، وأرى صوابه : « يجل »

(٢) جرى وذلك هل سنن أي مسلم الحراساني ، وكان يقول لقواده إذا أخرجهم : « لا تسكلموا

الناس إلا رمزاً ، ولا تلاحظوهم إلا شزراً ، فتعل صدورهم من هيبتكم » - انظر المقدم الفرید ٢ : ٢٩٩ -

لهم ميزان يَسْبُرُونَ^(١) به الرجل منا ، فإن رأوة راجحاً ، عرفوا له قدر رجاته ،
وإن رأوه ناقصاً عاملوه بنقصه ، وصيروا تواضعه صيفراً ، وتخفضه خسة » ، قال له أبوه :
الله أنت ! فابق وما رأيت .
(نفع الطيب ٢ : ٢٢٩)

٦ - يعقوب بن عبد الرحمن الأوسط وأحد خدامه

ومدح بعض الشعراء يعقوب بن عبد الرحمن الأوسط ، فأمر له بمال جزيل ، فلما
كان مثل ذلك الوقت ، جاءه بمدح آخر ، فقال أحد خدام يعقوب : هذا اللئيم له دينٌ
عندنا يقتضيه ! فقال الأمير :

« يا هذا ، إن كان الله تعالى خلقك مجبولاً على كرهه رب الصنائع ، فاجر على
ما جيلت عليه في نفسك ، ولا تكن كالأجرب يُعدي غيره ، وإن هذا رجل قصدنا
قبل ، فكان منا ما أشير^(٢) به ، وحمله على العودة ، وقد ظن فينا خيراً ، فلا تخيب
ظنه ، والحديث أبداً يحفظ القديم ، وقد جاءنا على جهة التهنئة بالعمر ، ونحن نسأل الله
تعالى أن يطيل عمرنا ، حتى يكثر ترّداده ، ويُديم نعمنا حتى نجد ما نُنعِم به عليه ،
ويحفظ علينا مرؤوتنا ، حتى يعيننا على التجمّل معه ، ولا يُبلينا بجليس مثلك ، يقبض
أيدينا عن إسداء الأيادي » .

وأمر للشاعر بما كان أمر له به قبل ، وأوصاه بالعود عند حلول ذلك الأوان
مادام العمر .
(نفع الطيب ٢ : ٢٣٠)

(١) السبر . امتحان غور الجرح .
(٢) أشير : مرح .

٧ - وفاة الوزير ابن غانم لصديقه الوزير هاشم بن عبد العزيز

واعذاره عنه لدى الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط

كان الوزير الوليد بن عبد الرحمن بن غانم صديقاً للوزير هاشم بن عبد العزيز ،
ثابتاً على مودته ، فلما قضى الله على هاشم بالأسر ، أجرى السلطان محمد بن عبد الرحمن
الأموي^(١) ذكره في جماعة من خدامه ، والوليد حاضر ، فنسبه إلى الطيش والعجلة
والاستبداد برأيه ، فلم يكن فيهم من اعتذر عنه غير الوليد ، فقال :

« أصاح الله تعالى الأمير ، إنه لم يكن على هاشم التخير في الأمور ، ولا الخروج
عن المقدور ، بل قد استعمل جهده ، واستفرغ نصحته ، وقضى حق الإقدام ، ولم يكن
ملاك النصر بيده ، فخذله من وثق به ، ونكل عنه من كان معه ، فلم يرحح قدمه
عن موطن حفاظه ، حتى ملك مقبلاً غير مُدبر ، مُبلياً غير فِشِل ، فجوزى خيراً
عن نفسه وسلطانه ، فإنه لا طريق للامام عليه ، وليس عليه ما جنته الحرب العُشوم .
وأيضاً فإنه ما قصد أن يجود بنفسه إلا رِضاً للأمير ، واجتناباً لسُخطه ، فإذا كان
ما اعتمد فيه الرضا جالب التقصير ، فذلك معدود في سوء الحظ » .

فأعجب الأمير كلامه ، وشكر له وفاءه ، وأقصر عن تنفيذ هاشم ، وسعى

(نفع الطيب ٢ : ٢٣٠)

في تخلصه .

(١) هو الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط ، حكم الأندلس من سنة ٢٣٨ إلى سنة ٢٧٢ هـ ، وكان غزاه لأهل الشرك والحلاف ، وربما أوغل في بلاد العنوسة أشهر أو أكثر يحرق وينسف ، وله في المدو رومة وادي سايط ، وهي من أمهات الوقائع لم يعرف مثلها في الأندلس قبلها .

٨ - خطبة منذر بن سعيد البلوطي^(١) المتوفى سنة ٣٥٥ هـ

في الاحتفال بقدم رسل ملك الروم

روى المؤرخون أن الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله^(٢) ، بلغ من عزّة الملك ، ورفعة السلطان بالأندلس ، أن كانت ملوك الروم والإفرنجية تزدلف إليه ، تطلب مهادنته ، وتهدى إليه أنفس الذخائر ، ومن جلتهم قسطنطين بن ليون صاحب القسطنطينية ، فقد رغب في موادعته ، وبعث إليه سنة ٣٣٨ هـ وفداً من قبله بهدية له ، فتأهب الناصر لورودهم ، واحتفل بقدمهم احتفالاً رائعاً ، أحب أن يقوم فيه الخطباء والشعراء بين يديه ، لتذكّر جلالة ملكه ، وعظيم سلطانه ، ونصف ماتهماً من توطيد الخلافة في دولته ، وتقدم إلى الأمير الحكيم ابنه ووليّ عهده ، بإعداد من يقوم بذلك من الخطباء ، فأمر الحكيم صنيعة الفقيه محمد بن عبد البرّ بالتأهب لذلك ، وكان يدعى من القدرة على تأليف الكلام ما ليس في وسع غيره ، وحضر المجلس السلطاني ، فلما قام يحاول التكلم ، بهرّه هولُ المقام ، وأبهة الخلافة ، فلم يهتد إلى لقطة ، بل غشي عليه وسقط إلى الأرض ، فقيل لأبي عليّ القالي - صاحب الأملى ، وهو حينئذ ضيف الخليفة الوافد عليه من العراق - : قم فارقع هذا الوهي^(٣) ، فقام فحمد الله ، وأثنى عليه بما هو أهله ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم انقطع به القول ، فوقف ساكناً متفكراً

(١) ولد سنة ٢٦٥ هـ ، وتوفى سنة ٣٥٥ هـ ، وكان خطيباً بليغاً عالماً بالجدل حاذقاً فيه ، شديد المعارضة حاضر الجواب عتيده ، ثابت الحجة ، ولي بقرطبة قضاء الجماعة - المبرر عنه في المشرق بقضاء القضاة - لعبد الرحمن الناصر ، ثم لابنه الحكم المستنصر ، ستة عشر عاماً من سنة ٣٣٩ إلى سنة ٣٥٥ ، لم يحفظ عليه فيها جور في قضية ، ولا قسم بغير سوية ، ولا ميل لهوى .

(٢) هو عبد الرحمن الثالث ابن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الثاني ابن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ، حكم الأندلس من سنة ٣٠٠ هـ إلى سنة ٣٥٠ هـ ، وهو أول من تسمى من أمراء بني أمية بالأندلس بأمر المؤمنين عندما لاثت أمر الخلافة بالمشرق ، وغلب موالى الترك على بني العباس ، وبلغه أن المقتدر قتله مولاة مؤنس المظفر سنة ٣١٧ هـ . (٣) الوهي : الشق في الشيء .

في كلام يدخل به إلى ذكر ما أريد منه ، فلما رأى ذلك منذر بن سعيد البلوطي
- وكان ممن حضر في زُمرَة الفقهاء - قام من ذاته بدرجة من مِرقاته ، فوصل افتتاح
أبي عليٍّ لأول خطبته بكلام كان يسُحّه سَحًا ، كأنما كان يحفظه قبل ذلك بمدة :
فقال :

« أما بعد حمد الله ، والثناء عليه ، والتَّعدَاد لآلائِهِ ، والشكر لِتَعْمَانِهِ ، والصلاة
والسلام على محمد صَفِيَّهِ وخاتمِ أنبيائه ، فإن لكل حادثةٍ مَقَامًا ، ولكل مقام مقال ،
وليس بعد الحقِّ إلا الضلال ، وإني قد قمتُ في مقام كريم ، بين يَدَيِّ مَلِكٍ عظيم ،
فَأصْعُقُوا^(١) إلى معشرِ المَلَأِ بأسماعكم ، وَأَتَقِنُوا عَنِّي^(٢) بأفئدتكم ، إن من الحق أن
يقال لِلْحَقِّ صدقتَ ، وَلِلْمُبْطِلِ كَذَبْتَ ، وإن الجليل تعالى في سمائه ، وَتَقَدَّسَ
في صفاته وأسمائه ، أمر كَلِيمَهُ موسى صلى الله على نبينا وعليه وعلى جميع أنبيائه ،
أن يذكر قومه بأيام الله جل وعز عندهم ، وفيه وفي رسول الله صلى الله عليه وسلم
أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ، وَإِنِّي أَذْكَرُّكُمْ أَيَّامَ اللَّهِ عِنْدَكُمْ ، وَتَلَاْفِيهِ لَكُمْ مَخْلَافَةٌ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ،
الَّتِي لَمَّتْ شَعَثُكُمْ ، وَأَمَنْتَ سِرْبَكُمْ^(٣) ، ورفعت قوتكم ، بعد أن كنتم قليلا فكثركم
ومستضعفين فقواكم ، وَمُسْتَدْلِينَ فنصركم ، وَلَآءَ اللَّهِ رِعَايَتَكُمْ ، وَأَسْنَدَ إِلَيْهِ إِمَامَتَكُمْ ،
أَيَّامَ ضَرَبَتْ الْفِتْنَةُ سُرَادِقَهَا عَلَى الْآفَاقِ ، وَأَحَاطَتْ بِكُمْ شُعْلُ النِّفَاقِ ، حَتَّى صَرْتُمْ
فِي مِثْلِ حَدَقَةِ الْبَعِيرِ ، مِنْ ضَيْقِ الْحَالِ ، وَنَكَدَ الْعَيْشِ وَالتَّغْيِيرِ ، فَاسْتَبَدَلْتُمْ بِمَخْلَافَتِهِ مِنْ
الشَّدَةِ الرِّخَاءِ^(٤) ، وَانْتَقَلْتُمْ بِبَيْعِنِ سِيَاسَتِهِ إِلَى تَهْمِيدِ كَنْفِ الْعَافِيَةِ بَعْدَ اسْتِطْوَانِ الْبَلَاءِ .

أُنشِدُكُمْ بِاللَّهِ مَعَاشِرَ الْمَلَأِ ، أَلَمْ تَكُنْ الدَّمَاءُ مَسْفُوكَةً فَحَقَّنَهَا ، وَالسُّبُلَ مَخُوفَةً فَأَمَّنَهَا

(١) الذي في كتب اللغة : أصغى إليه سمعه : أماله ، وأصغى إليه : مال بسمعه نحوه . ولعل زيادة

الهاء في « بأسماعكم » من النسخ لامن الخطيب .

(٢) هكذا في نفع الطيب ، وفي مطبخ الأنفوس : « ومنوا على بأفئدتكم » .

(٣) السرب : النفس .

(٤) في الأصل « فاستبدلتم بمخلافته من الشدة بالرخاء » والصواب ما ذكرنا :

والأموال منتهبة فأحرزها وحصنها؟ ألم تكن البلاد خراباً فعمرها، وثغور المسلمين مهتزمة لمخاها ونصرها؟ فاذكروا آلاء الله عليكم بخلافته، وتلافيه جمع كلمتكم بعد افتراقها بإمامته، حتى أذهب الله عنكم غيظكم، وشق صدركم، وصيرتم يداً على عدوكم، بعد أن كان بأسكم بينكم.

فأنشدكم الله، ألم تكن خلافته قفل الفتنة بعد انطلاقها من عقابها؟ ألم يتلاف صلاح الأمور بنفسه بعد اضطراب أحوالها؟ ولم يكِلْ ذلك إلى القواد والأجناد، حتى باشره بالقوة والمهجة والأولاد، واعتزل النسوان، وهجر الأوطان، ورفض الدعة، وهي محبوبة، وترك الركون إلى الراحة، وهي مطلوبة بطوية صحيحة، وعزيمة صريحة، وبصيرة ثابتة، نافذة ثاقبة، وريح هابئة غالبة، ونصرة من الله واقعة واجبة، وسلطان قاهر، وجد ظاهر، وسيف منصور، تحت عدل مشهور، متحملاً للنصب، مستقلاً لما ناله في جانب الله من التعب، حتى لانت الأحوال بعد شدتها، وانكسرت شوكة الفتنة عند حدتها، ولم يبق لها غارب إلا جبهه^(١)، ولا نجم^(٢) لأهلها قرن إلا جدّه، فأصبحت بنعمة الله إخواناً، ويلم أمير المؤمنين لشعثكم على أعدائه أعواناً، حتى تواترت لديكم الفتوحات، وفتح الله عليكم بخلافته أبواب الخيرات والبركات، وصارت وفود الروم وافدة عليه وعليكم، وآمال الأقبصين والأدنين مستخدمة إليه وإليكم، يأتون من كل فج عميق، وبلد سحيق^(٣)، لأخذ حبل^(٤) بيته وبينكم جملة وتفصيلاً، ليَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا، ولن يخلف الله وعده، ولهذا الأمر ما بعده، وتلك أسباب ظاهرة بادية، تدل على أحوال باطنة خافية، دليلها قائم، وجفنها غير نائم « وَعَدَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ

(١) للغارب: الكادل، أو ما بين السنام والعنق، وجهه: قطعه.

(٢) في الأصل: «نجم»، وهو تحريف، والصواب «نجم» أي ظهر وطلع، وجهه: قطعه.

(٣) سحيق: بعيد. (٤) أي معاهدة بيته وبينكم.

في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلهم من بعد خوفهم أمناً ، وليس في تصديق ما وعد الله ارتياب ، ولكل نبياً مستقراً ، ولكل أجل كتاب . فاحمدوا الله أيها الناس على آلائه ، واسألوه للزيد من نعمائه ، فقد أصبحتم بين^(١) خلافة أمير المؤمنين - أيده الله بالعصمة والسادات ، وألهمه خالص التوفيق إلى سبيل الرشاد - أحسن الناس حالاً ، وأنعمهم بالآل ، وأعزهم قراراً ، وأمنهم داراً ، وأكثفهم جمعاً ، وأجلهم صنفاً ، لاتهاجون ولا تذادون ، وأتم بحمد الله على أعدائكم ظاهرون ، فاستعينوا على صلاح أحوالكم بالمناسبة لإمامكم والتزام الطاعة لخليفتمكم وابن عم نبيكم صلى الله عليه وسلم ، فإن من نزع يده من الطاعة ، وسعى في تفريق الجماعة ، ومرق من الدين ، فقد خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين .

وقد علمتم أن في التعاقب بعصمتها ، والتمسك بعزوتها ، حفظ الأموال ، وحقق الدماء ، وصلاح الخاصة والدّهماء^(٢) ، وأن بدوام^(٣) الطاعة تُقام الحدود ، وتوفى العهود ، وبها وصيت الأرحام ، ووضحت الأحكام ، وبها سدّ الله الخلل ، وأمن السبل ، ووطأ الأكساف ، ورفع الاختلاف ، وبها طاب لكم القرار ، واطمأنت بكم الدار ، فاعتصموا بما أمركم الله بالاعتصام به ، فإنه تبارك وتعالى يقول : « وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ » ، وقد علمتم ما أحاط بكم في جزيرتكم هذه من ضروب المشركين ، وصنوف الملحدين الساعين في شق عصاكم ، وتفريق مملكتكم ، الآخذين في محاذلة دينكم ، وهتك حرمتكم ، وتوهين دعوة نبيكم ، صلوات الله وسلامه عليه ، وعلى جميع النبيين والمرسلين ، أقول قولي هذا وأختم بالحمد لله رب العالمين ، مستغفراً الله الغفور الرحيم ، فهو خير الغافرين .

(١) هكذا في نفع الطيب ، ومطبخ الأنفس ، ولعل صوابه : « أصبحتم بخلافة أمير المؤمنين » .

(٢) الدهماء : جماعة الناس . (٣) في الأصل : « بقوام » ، وأظنه : « بدوام » .

وخرج الناس يتحدثون عن حسن مقامه ، وثبات جنانه ، وبلاغة لسانه ، وكان
الناصر أشدهم تعجباً منه ، فولاه الصلاة والخطابة في المسجد الجامع بالزهراء ، ثم توفى
محمد بن عيسى القاضي ، فولاه قضاء الجماعة بقرطبة ، وأقره على الصلاة بالزهراء .
(نفع الطيب ١ : ١٧٢ ، ومطح الأنفس ص ٤٢)

٩ - خطبة أخرى له

وخطب منذر بن سعيد يوماً - وأراد التواضع - فكان من فصول خطبته ،
أن قال :

« حتى متى ، وإلى متى ، أعِظْ ولا أتعِظْ ، وأزجرُ ولا أنزجرُ ، أدلَّ الطريق
إلى المستدلين ، وأبقي مقيماً مع الخائرين ! كلا ، إن هذا هو البلاء المبين ! إن هي
إلا ففنتك تُضِلُّ بها مَنْ تشاء ، وتَهْدِي مَنْ تشاء ، أَنْتَ وَوَلِيَّتُنَا فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ،
وَأَنْتَ خَيْرُ الْعَافِرِينَ . اللهم فرغني لما خلقتني له ، ولا تشغلني بما تكفلت لي به ،
ولا تحرمني وأنا أسألك ، ولا تعذبني وأنا أستغفرك ، يا أرحم الراحمين » .
(نفع الطيب ١ : ٢٢٢)

١٠ - أحد حساد الرمادي الشاعر والمنصور بن أبي عامر (المتوفى سنة ٣٩٤ هـ)

وقال المنصور بن أبي عامر المَعافِرِيُّ^(١) يوماً لأبي عمر يوسف الرمادي الشاعر :

(١) هو المنصور أبو عامر محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك
المعافري . دخل جده عبد الملك الأندلس مع طارق ، وكان عظيماً في قومه ، وله في الفتح أثر ، وكان
الحكم بن الناصر قد استوزر ابن أبي عامر ، وفوض إليه أموره ، وترقت حاله عنده ، ثم توفى الحكم
سنة ٣٩٦ هـ ، وولي بعده ابنه هشام ، وكانت سنة تسع سنين ، فحدث ابن أبي عامر نفسه بالطلب عليه
لتصرف سنة وتم له ما أمل ، فتغلب عليه ، وترهب على سرير الملك ، وأمر أن يجبا بئحة المنوك ، وتسمى

كيف ترى حالك معي؟ فقال: «فوق قدرى، ودون قدرك»^(١)، فأطرق المنصور كالغضبان، فأنسل الرمادى وخرج وقد ندم على ما بدر منه، وجعل يقول: أخطأت! لا والله، ما يُفليح مع الملوك من يعاملهم بالحق، ما كان ضررتنى لو قلت له: إني بلغت السماء، وتمنقتُ بالجوزاء! وأنشد:

متى يأت هذا الموت لا يُلفِ حاجةً
لِنَفْسِي إلا قد قضيتُ قضاءها

وكان في المجلس من يحسده على مكانه من المنصور، فوجد فرصة فقال:

«وَصَلَّ اللهُ لِمَوْلَانَا الظَّفَرَ والسَّعْدَ ، إِنَّ هَذَا الصَّنْفَ صَنَفَ زُورٍ وَهَذَا يَانَ ،
لَا يَشْكُرُونَ نِعْمَةَ ، وَلَا يَرْعَوْنَ إِلَّا^(٢) وَلَا ذِمَّةً ، كَلَابٌ مِّنْ غَلَبٍ ، وَأَصْحَابُ مَن
أَخْصَبَ ، وَأَعْدَاءُ مِنْ أُجْدَبَ ، وَحَسْبُكَ مِنْهُمْ أَنْ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ يَقُولُ فِيهِمْ : «وَالشُّعْرَاءُ
يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ »
والابتعاد منهم أولى من الاقتراب ، وقد قيل فيهم : ما ظنك بقوم الصدق يستحسن
إلا منهم ؟ » .

* * *

فرقع المنصور رأسه - وكان محامي أهل الأدب والشعر - وقد اسودَّ وجهه ، وظهر
فيه الغضب المفرط ، ثم قال :

« ما بال أقوام يُشِيرُونَ في شيء لم يُسْتَشَارُوا فيه ، ويسيثون الأدب بالحكم
فيما لا يدرون ، أيرضى أم يُسخط ؟ وأنت أيها المبتعث للشرّ دون أن يُبعث ، قد علمنا
غرضك ، في أهل الأدب والشعر عامّةً ، وَحَسَدُكَ لَهُمْ ، لأن الناس كما قال القائل :

بالحاجب المنصور ، ونفذت الكتب والمحاطبات والأوامر باسمه ، وأمر بالدعاء له على المنابر باسمه عقب الدعاء
للخليفة ، ولم يبق لهشام من رسوم الخلافة أكثر من الدعاء له على المنابر ، وكتابة اسمه في السكة والطرر ،
وملك المنصور أعظم ما كان ملكاً سنة ٣٩٤ هـ لسبع وعشرين سنة من ملكه .

(١) يريد « ودون ما ينبغي أن يعطيه مثلك مثلي » .

(٢) الإل : العهد .

من رأى الناس له فضلاً عليهم حسدوه

وَعَرَفْنَا غَرَضَكَ فِي هَذَا الرَّجُلِ خَاصَّةً ، وَلَسْنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ نَبْلِّغُ أَحَدًا غَرَضَهُ فِي أَحَدٍ ،
وَلَوْ بَلَّغْنَاكُمْ بَلَّغْنَا فِي جَانِبِكُمْ ، وَإِنَّكَ ضَرَبْتَ فِي حَدِيدٍ بَارِدٍ ^(١) ، وَأَخْطَأْتَ وَجْهَ الصَّوَابِ ،
فَزِدْتَ بِذَلِكَ إِحْتِقَارًا وَصَغَارًا ، وَإِنِّي مَا أَطْرَقْتُ مِنْ كَلَامِ الرَّمَادِيِّ إِسْكَارًا عَلَيْهِ ، بَلْ
رَأَيْتُ كَلَامًا يَجِلُّ عَنِ الْأَقْدَارِ الْجَلِيلَةِ ، وَتَعَجَّبْتُ مِنْ تَهْدِيئِهِ لِهَ بَسْرَةِ ، وَاسْتَنْبَاطِهِ لِهَ عَلَى
قَلْبِهِ مِنَ الْإِحْسَانِ الْفَاسِرِ ، مَا لَا يَسْتَنْبِطُهُ غَيْرُهُ بِالْكَثِيرِ ، وَاللَّهُ لَوْ حَكَمْتُهُ فِي بَيْوتِ الْأَمْوَالِ ،
لَرَأَيْتُ أَنَّهَا لَا تَرْجَحُ مَا تَكَلَّمُ بِهِ قَابَهُ ، ذَرَّةً . وَإِيَّاكُمْ أَنْ يَعُودَ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَى الْكَلَامِ
فِي شَخْصٍ ، قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَ مَعَهُ فِيهِ ، وَلَا تَحْكُمُوا عَلَيْنَا فِي أَوْلِيَانَا ، وَلَوْ أَبْصِرْتُمْ مَنَا
التَّغْيِيرَ عَلَيْهِمْ ، فَإِنَّا لَا نَتَغَيَّرُ عَلَيْهِمْ بَعْضًا لَهُمْ ، وَانْحِرَافًا عَنْهُمْ ، بَلْ تَأْدِيبًا وَإِسْكَارًا ، فَإِنَّا
مَنْ نَزِيدُ إِعَادَهُ لَمْ نُظْهِرْ لَهُ التَّغْيِيرَ ، بَلْ نُنْبِذُهُ مَرَّةً وَاحِدَةً ، فَإِنِ التَّغْيِيرُ إِنَّمَا يَكُونُ لِمَنْ
يُرَادُ اسْتِبْقَاؤُهُ ، وَلَوْ كُنْتُ مَائِلَ السَّمْعِ لِكُلِّ أَحَدٍ مِنْكُمْ فِي صَاحِبِهِ ، لَتَفَرَّقْتُمْ فِي أَيْدِي
سَبَابٍ ^(٢) ، وَجُودَيْتُمْ أَنَا مَجَانِبَةَ الْأَجْرِبِ ، وَإِنِّي قَدْ أَطَّلَعْتُكُمْ عَلَى مَا فِي ضَمِيرِي ، فَلَا تَعْدِلُوا
عَنْ مَرْضَاتِي ، فَتَجَنَّبُوا سُخْطِي بِمَا جَنَيْتُمُوهُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ .

* * *

ثم أمر أن يُردَّ الرمادي ، وقال له : أعِدْ عَلَيَّ كَلَامَكَ ، فارتاع ، فقال : الأمرُ
على خلاف ما قدرت ، الثوابُ أولى بكلامك من العقاب ، فسكن لتأنيسه ، وأعاد
ما تكلم به .

فقال المنصور : « بلَّغْنَا أَنَّ النُّعْمَانَ بْنَ الْمُنْذِرِ حَسَبًا فَمِنَ النَّابِغَةِ بِالدَّرِّ ، لِكَلَامِهِ

(١) من أمثال العرب : « تضرب : في حديد بارد » وهو مثل يضرب لمن طمع في غير مطعم .
(٢) من أمثالهم أيضاً : « ذهبوا أيدي سبأ ، وتفرقوا أيدي سبأ ، وأيادي سبأ » ، واليد : الطريق
أي فرقتهم طرقهم التي سلكوها كما تفرق أهل سبأ في مذاهب مختلفة . ضرب المثل بهم ، لأنه لما غرق مكائهم ،
وفهبت جناتهم ، تيددوا في البلاد — انظر للقصة في الجزء الأول صفحة ١٠٨ — وقد بناو أيدي سبأ ،
وأيادي سبأ على السكون لسكون مركبها تركيب خمسة عشر .

استملحه منه ، وقد أمرنا لك بما لا يقصُر عن ذلك ، ما هو أنوهُ وأحسن عائِدَةً ،
وكتب له بمالٍ وَخِلَعٍ وموضع يعيش منه ، ثم ردد رأسه إلى التكلم في شأن الرمادي
- وقد كان يفوص في الأرض لو وجد ، لشدة ما حلَّ به مما رأى وسمع - وقال :
« وَالْعَجَبُ مِنْ قَوْمٍ يَقُولُونَ : الْابْتِعَادُ مِنَ الشُّعْرَاءِ أَوْلَى مِنَ الْاقْتِرَابِ ، نَعَمْ ، ذَلِكَ لِمَنْ
لَيْسَ لَهُ مَفَاخِرٌ ، يُرِيدُ تَخْلِيدَهَا ، وَلَا أَيَادٍ يَرْغَبُ فِي نَشْرِهَا ، فَأَيْنَ الَّذِينَ قِيلَ فِيهِمْ :
عَلَى مُكْتَرِبِهِمْ رِزْقٌ مَنْ يَعْتَرِبُهُمْ وَعِنْدَ الْمُقَامِينَ السَّمَاةُ وَالْبَدَلُ^(١) »
وَأَيْنَ الَّذِي قِيلَ فِيهِ :

إِنَّمَا الدُّنْيَا أَبُو دُلْفٍ بَيْنَ مَبْدَاهِ وَحُتْضَرِهِ
فَإِذَا وَلَّى أَبُو دُلْفٍ وَوَلَّتْ الدُّنْيَا عَلَى أَثَرِهِ^(٢)

أَمَا كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ أَكْرَمُ مَنْ قِيلَ فِيهِ هَذَا الْقَوْلُ ؟ بَلَى ، وَلَكِنْ صُحْبَةُ
الشُّعْرَاءِ وَالْإِحْسَانُ إِلَيْهِمْ ، أَحْيَتْ غَايِرَ ذِكْرِهِمْ ، وَخَصَّتْهُمْ بِمَفَاخِرِ عَصْرِهِمْ ، وَغَيْرِهِمْ
لَمْ تَخْلُدِ الْأَمْدَاحُ^(٣) مَا تَرَاهُمْ ، فَدَثَّرَ ذِكْرَهُمْ ، وَدَرَسَ تَفْخَرَهُمْ .
(نفع الطيب ٢ : ٢٢٦)

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى من قصيدة في مدح آل هرم بن سنان .

(٢) البيتان لعلى بن جبلة الأنباري الملقب بالمكوك من قصيدة قالها في مدح أبي دلف القاسم بن عيسى
المجلى - وكان جواداً مدحاً وفيها يقول :

كُلُّ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنْ عَرَبٍ بَيْنَ بَادِيَةِ إِلِهِ حَضْرِهِ
مُعْتَبِرٌ مِنْهُ مَكْرَمَةٌ يَكْتَسِبُهَا يَوْمَ مَفْتَحْرِهِ

وهذا البيتان الأخيران أحفظاً عليه المأمون ، فطلبه حتى ظفر به ، فسل لسانه من قفاه ، ويقال : بل هرب
ولم يزل متوارباً منه حتى مات ، قال صاحب الأغاني : وهذا هو الصحيح من القولين ، والآخر شاذ .

(٣) لم أجد هذا الجمع في كتب اللغة ، وإنما الذي فيها : المدحة بالكسر والمدح بالضم :
ما يمدح به ، والجمع مدح كمنب ومدائح وأمداح .

١١ - ابن اللبانة الشاعر وعز الدولة بن المعتصم بن صمادح

لما مات المعتصم بن صمادح^(١) ملك المرية ركب البحر ابنه وولى عهده الواثق عز الدولة ، وفارق الملك كما أوصاه والده المعتصم .

قال أبو بكر بن اللبانة الشاعر : ما علمت حقيقة جور الدهر ، حتى اجتمعت ببجاية^(٢) مع عز الدولة بن المعتصم ، فإني رأيت منه خيراً من يُجتمَع به ، كأنه لم يخلقه الله تعالى إلا للملك والرياسة ، وإحياء الفضائل ، ونظرت إلى همته تنم من تحت حمله ، كما ينم فرند^(٣) السيف وكرمه من تحت الصدا ، مع حفظه لفنون الأدب والتواريخ ، وحسن أسماعه وإسماعه ورقة طباعه ، ولطافة ذهنه ، ولقد ذكرته لأحد من صحبته من الأدباء في ذلك المكان ، ووصفته بهذه الصفات ، فتشوق إلى الاجتماع به ، ورغب إلى أن أستأذنه في ذلك ، فلما أعلمت عز الدولة قال :

« يا أبا بكر ، إنك لتعلم أننا اليوم في حمول وضيق ، لا يتسع لنا معهما ، ولا يحمل بنا الاجتماع مع أحد ، لا سيما مع ذى أدب ونباهة ، يلقانا بعين الرحمة ، ويזורنا بمنة التفضل في زيارتنا ، ونكابِد من ألقاظ توجِّعه ، وألحاظ تفجِّعه ، ما يجدد لنا همًّا قد بلى ، ويحبي كمداً قد فني ، وما لنا قدرة على أن نجود عليه بما يرضى عن همنا ، فغدعنا كأننا في قبر ، نتدرِّع لسهام الدهر ، بدرِّع الصبر ، وأما أنت فقد اختلطت بنا اختلاط اللحم بالدم ، وامتزجت امتزاج الماء بالخم ، فكأننا لم نكشِف حالنا لسوانا ، ولا أظهرنا ما بنا لغيرنا ، فلا نحمل غيرك بحملك » .

(١) هو أحد ملوك الطوائف بالأندلس ، وكان صاحب المرية « بلد بالأندلس على الساحل الجنوبي » ، وكان منافساً للمعتصم بن هبادة صاحب إشبيلية . ماتوا له ، وقد سعى به لدى أمير المرابطين يوسف بن تاشفين وأفسد ما بينهما ، وكان ابن عباد قد استنصر بابن تاشفين لصد غارة الإسبان ، فعبّر بجيشه من مراكش إلى الأندلس ، وأهل بلاد حسناً في قتالهم حتى دارت عليهم الدائرة في وقعة الزلاقة ، ثم مال على ملوك الطوائف ، فاكتمح هولم ، ودانت له الأندلس . (٢) بجاية : بلد بالمغرب على ساحل بلاد الجزائر . (٣) جوهرة .

قال ابن اللبابة : فلأ والله سمى بلاغةً لاتصدُر إلا عن سداد ، ونفس أبية متمكنة من أعنة البيان ، وانصرفت متمثلاً :

لسانُ الفتى نصفٌ ، ونِصفُ فؤادهُ فلم يبقَ إلا صورةُ اللحم والدمِ
وكانت ترى من صامتٍ لك مُعجِبٍ زيادتهُ أو نقصُهُ في التكلم^(١)
(نفع للطيب ٢ : ٢٢٨)

١٢ - دفاع ابن الفخار عن القاضي الوحيدى

بحضرة ابن تاشفين

لما تألب بنو حسون على القاضي أبى محمد عبد الله الوحيدى قاضى مالقة^(٢) ، انبرى للدفاع عنه العالم الأصولى أبو عبد الله بن الفخار ، فقصده إلى حضرة الإمامة «مرًا كُش» ، وقام فى مجلس أمير المسلمين ، يوسف بن تاشفين ، وقد غصَّ بأربابه ، فقال :

« إنه لمقام كريم ، نبدأ فيه بحمد الله على الذنوب منه ، ونصلي على خيرة أنبيائه ، محمد الهادى إلى الصراط المستقيم ، وعلى آله وصحابة نجوم الليل البهيم^(٣) ، أما بعد ، فإننا نحمد الله الذى اصطفاك للمؤمنين أميراً ، وجعلك للدين الحنيفي نصيراً وظهيراً ، ونفزع إليك مما دهمنا^(٤) فى حماك ، ونبتئ إليك ما لحقنا من الضيم ، ونحن تحت ظل علاك ، ويأبى الله أن يدهم من احتفى بأمر المسلمين ، ويصاب بضم من أدرع بحصنه الحصين ، شكوى قمت بها بين يديك ، فى حق أمرك الذى عضده^(٥) مؤيده ، لتسمع منها ما تختبره برأيك وتنقده ، وإن قاضيك ابن الوحيدى الذى قدمته فى مالقة للأحكام ، ورضيت

(١) البيتان لزهير بن أبى سلمى من معلقته . (٢) باد بالأندلس على الساحل الجنوبي .

(٣) الأسود . (٤) دهمه كسبح ومنع : غشيه .

(٥) عضده كنعصره : أصاب عضده ، والمراد بمؤيده بنو حسون ، والمعنى : إن بنى حسون - وكانوا أحق بتأييد أمرك وتوطيده - قد أوهنوه وأوهوه بتمرضهم لأحكام القاضي ، والظن فيها ، أو معضه : نصره ، فالمراد بمؤيده للقاضي الوحيدى ، والمعنى على ذلك ، إن القاضي للقائم بأمرك يدأب على نصره ، وتثبيت دعائمه ، بانتهاجه طريق الحق فى حكمه ، ولو غضب من جراء ذلك فربح من الرعية .

بعده فيمن بها من الخاصة والعموم ، لم يزل يدلّ على حسن اختيارك بحسن سيرته ،
وَيُرْضَى اللهُ تَعَالَى وَيُرْضَى النَّاسَ بِظَاهِرِهِ وَسِرِّيَّتِهِ ، مَا عَلِمْنَا عَلَيْكَ مِنْ سُوءٍ ، وَلَا
دَرَيْنَا لَهُ مَوْقِفٍ خِزْيٍ ، وَلَمْ يَزَلْ جَارِيًا عَلَى مَا يُرْضَى اللهُ تَعَالَى وَيَرْضِيكَ وَيَرْضِينَا ، إِلَى
أَنْ تَعْرَضْتَ بِنُورِ حُسْنِ اللَّطْفِ فِي أَحْكَامِهِ ، وَالْهُدَى مِنْ أَعْلَامِهِ ، وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنْ اهْتِضَامَ
الْمَقْدَمِ رَاجِعٌ عَلَى الْمَقْدَمِ ، بَلْ جَمَّحُوا فِي جَلَّاحِهِمْ ، فَعَمَّوْا وَصَمَّوْا ، وَفَعَلُوا وَأَمْضَوْا مَا بِهِ
هُمُّوْا ، وَإِلَى السُّحْبِ يَرْفَعُ الْكُفَّ مِنْ قَدْ جَفَّ عَنْهُ مَسِيلُ عَيْنٍ وَنَهْرٍ .

فلا سمعه بلاغة أعقبت نصره ونصر صاحبه . (نفع للطيب ٢: ٢٤٠)

١٣ - موعظة ابن أبي رندقة الطرطوشي المتوفى سنة ٥٢٠ هـ

للأفضل بن أمير الجيوش

دخل ابن أبي رندقة الطرطوشي^(١) مرة على الأفضل^(٢) بن أمير الجيوش

فوعظه ، وقال له :

« إن الأمر الذي أصبحت فيه من الملك ، إنما صار إليك بموت من كان قبلك ،
وهو خارجٌ عن يدك ، بمثل ما صار إليك ، فاتق الله فيما خوّلك من هذه الأمة ، فإن الله
عزَّ وجلَّ سألُك عن النَّقِيرِ وَالْقَطْمِيرِ وَالْفَتِيلِ^(٣) ، واعلم أن الله عزَّ وجلَّ آتَى سليمان بن داود

(١) هو الفقيه العالم أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب النهري الطرطوشي
(بضم الطاءين ، وقد تفتح الطاء الأولى ، نسبة إلى طرطوشة من بلاد الأندلس) ويعرف بابن أبي رندقة
وكان زاهداً حابداً متورعاً متقلاً من الدنيا قوالاً للحق ، رحل إلى المشرق ، ودخل بغداد والبصرة ،
وسكن الشام مدة ، ودرس بها ، وكان الأفضل بن أمير الجيوش يكرهه ، فلما ولي بعده المأمون بن البطائحى
أكرم الطرطوشي إكراماً كثيراً ، وله ألف الشيخ «سراج الملوك» وتوفى بالاسكندرية سنة ٥٢٠ هـ .

(٢) هو الوزير الأفضل بن بدر الجمالي أمير الجيوش المشهور ، وكان أبوه بدر الجمالي حاكم صكا ، فأرسل
إليه الخليفة الفاطمي المحتصر يسأله القدوم إلى مصر لإصلاح أحوالها المضطربة إذ ذلك ، فقدم إليها ، وقوله
شئونها ، وأقام معوجها ، وصارت له فيها الكلمة النافذة ، ثم لابنه الأفضل .

(٣) النقير : النقرة التي في ظهر النواة ، والقطمير : القشرة الرقيقة التي بين النواة والنقرة ، والفتيل :

ما يكون في شق النواة .

ملك الدنيا بحدافيرها ، فسخر له الإنس والجن والشياطين والطير والوحوش والبهائم ،
وسخر له الريح تجرى بأمره رخاء^(١) حيث أصاب ، ورفع عنه حساب ذلك أجمع ،
فقال عز من قائل : « هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ^(٢) أَوْ اْمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » ، فاعداً ذلك
نعمة كما عددتوها ، ولا حسيها كرامة كما حسبتوها ، بل خاف أن يكون استدراجاً
من الله عز وجل فقال : « هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي ، لِيَبْلُوَنِي^(٣) أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ » ،
فافتتح الباب ، وسهل الحجاب ، وانصر المظلوم . (نفع الطب ١ : ٢٦٤)

١٤ - خطبة ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين

(المتوفى سنة ٥٣٤ هـ)

استدعى محمد بن عبد الله بن تومرت^(٤) مؤسس دولة الموحدين أصحابه ، قبل
موته بأيام يسيرة ، وقد أراد أن يستخلف عليهم عبد المؤمن بن علي ، فلما حضروا
بين يديه قام :

(١) الرخاء : الريح الينة . (٢) أي فأعط منه من شئت . (٣) بلاه : اختبره .

(٤) هو محمد بن عبد الله بن تومرت من جبل السوس في أقصى بلاد المغرب ، ولد سنة ٤٨٥ هـ ،
ورحل إلى المشرق سنة ٥٠١ هـ في طلب العلم ، وانتهى إلى بغداد ، وقيل إنه أتى أبا حامد الغزالي ، ثم
رجع إلى المغرب ، وقامت دعوته في أول الأمر في صورة أمر بالمعروف ، ناه عن المنكر ، فاتبعه بعض
القوم ، وخرج هو وأصحابه إلى السوس ، وشرع في التدريس والدعاء إلى الخير : وما زال يستميل
القلوب حتى كثرت شيعته ، ثم جعل يذكر المهدي ويشوق إليه ، وجمع الأحاديث التي جاءت فيه ، فلما قرر
في نفوسهم فضيلة المهدي ، ادعى ذلك لنفسه ، وتسمى بالمهدي ، ورفع نسه إلى النبي صلى الله عليه وسلم
وادعى أنه من نسل الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، وصرح بدعوى العصمة لنفسه وأنه المهدي
المعصوم ، وروى في ذلك أحاديث كثيرة حتى استقر عندهم أنه المهدي ، فبايعوه على ذلك ، ولما كانت
سنة ٥١٧ هـ جهز جيشاً عظيماً - وكانت مراکش تحت إمرة المرابطين - فقال : اتصدروا هؤلاء المارقين
الميدلين الذين تسمر بالمرابطين ، فادعوهم إلى إمانته المنكر ، وإحياء المعروف ، وإزالة البدع ، والإقرار
بالإمام المهدي المعصوم ، فإن أجابوكم فهم إخوانكم ، لهم ما لكم وعليهم ما عليكم ، وإن لم يفعلوا فقاتلهم
فقد أباحت لكم السنة قتالهم ، وأمر على الجيش عبد المؤمن بن علي ، فخرجوا إلى مراکش فلقبهم المرابطون
قريباً منها بجيش ضخم أميرهم الزبير بن علي بن يوسف بن قاشفين ، فدعوهم إلى ما أمرهم به ابن تومرت
فردوا عليهم أسوأ رد ، ثم التقت القشتان ، فانهزم أصحاب ابن تومرت وقتل منهم خلق كثير ، فلما رجع
القوم إلى ابن تومرت جعل يهون عليهم أمر الهزيمة ، ويقرر في نفوسهم أن قتلاهم شهداء ، لأنهم ذابون -

فحمِد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، وصلى على محمد نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم
أنشأ يترضى عن الخلفاء الراشدين ، رضوان الله عليهم ، ويذكر ما كانوا عليه من
الثبات في دينهم ، والعزيمة في أمرهم ، وأن أحدهم كان لا تأخذه في الله لومة لأثم ،
وذكر من حدَّ عمر رضى الله عنه ابنه في الخمر ، وتصميمه على الحق ، في أشباه هذه
الفصول ، ثم قال :

فانقرضت هذه العصابة ، نصرَّ الله وجوهها ، وشكر لها سعيها ، وجزاها خيراً عن
أمة نبيها ، وخبطت الناس فتنة تركت الحليم حيران ، والعالم متجاهلاً بمداهاً ، فلم
ينتفع العلماء بعلمهم ، بل قصدوا به الملوك ، واجتلبوا به الدنيا ، وأمالوا وجوه الناس
إليهم ، في أشباه لهذا القول ، إلى هلمَّ جرأ .

ثم إن الله سبحانه - وله الحمد - منَّ عليكم - أيها الطائفة - بتأييده ، وخصَّكم
من بين أهل هذا العصر بحقيقة توحيده ، وقيِّض^(١) لكم من^(٢) ألقاكم ضللاً لا لاهتدون ،
وعُمياً لا تبصرون ، لا تعرفون معروفاً ، ولا تُنكرُونَ منكراً ، قد فشت فيكم البدع ،
واستهوتكم الأباطيل ، وزين لكم الشيطان أضاليل وترهات^(٣) ، أنزَّه لساني عن
النطق بها ، وأرَباً^(٤) بلفظي عن ذكرها ، فهذا كم الله به بعد الضلالة ، وبصركم بعد
العمى ، وجمعكم بعد الفرقة ، وأعزَّكم بعد الذلَّة ، ورفع عنكم سلطان هؤلاء المارقين^(٥) ،
وسبَّورثكم أرضهم وديارهم ، ذلك بما كسبته أيديهم ، وأضمرت قلوبهم ، وما ربك
بظلامٍ للعبيد .

- عن دين الله ، فزادهم ذلك بصيرة في أمرهم ، وحرصاً على لقاء عدوهم ، وجعلوا يشنون الغارات على نواحي
مراكش ويقتلون ويسبون ولا يبقون على أحد من قدروا عليه ، وكثر الداخلون في طاعتهم ، ولم يزل
أصحابه ظاهرين ، وأحوال المرابطين تحتل ، وانتقاض دولتهم يتزايد ، إلى أن توفي ابن مومرت سنة ٥٣٤ هـ
بعد أن أسس الأمور ، وأحكم التدبير ، وقام بأمر المرحدين من بعده عبد المؤمن بن علي . وقد استوثق له
الأمر بموت علي بن يوسف بن تاشفين ملك المرابطين سنة ٥٣٧ هـ .

- (١) أتاح لكم وسبب وهياً . (٢) يعنى نفسه . (٣) جمع ترمة : وهى الباطل .
(٤) أرتفع . (٥) يريد المرابطين .

فجددوا لله سبحانه خالص نياتكم ، وأرووه من الشكر قولاً وفعلاً ما يزكي به
سميكم ، ويتقبل أعمالكم ، وينشر أمركم ، واحذروا الفرقة واختلاف الكلمة ، وشتات
الآراء ، وكونوا يداً واحدةً على علومكم ، فإنكم إن فعلتم ذلك ، هابكم الناس ،
وأسرعوا إلى طاعتكم ، وكثر أتباعكم ، وأظهر الله الحق على أيديكم ، وإلاً تفعلوا
شملكم الذل ، وعمَّكم الصغار^(١) واحترتكم العامة ، فتخطفكم الخاصة ، وعليكم
في جميع أموركم بمزج الرأفة بالغلظة ، واللين بالنعف ، واعلموا مع هذا أنه لا يصلح
أمر آخر هذه الأمة ، إلا على الذي صلح عليه أمر أولها .

وقد اخترنا لكم رجلاً منكم ، وجملناه أميراً عليكم ، هذا بعد أن بلوَّناه^(٢) في جميع
أحواله ، من ليله ونهاره ، ومدخله ومخرجه ، واختبرنا سيرته وعلانيته ، فرأيناه في ذلك كله
ثباتاً^(٣) في دينه ، متبصراً في أمره ، وإني لأرجو أن لا يخلف الظن فيه ، وهذا المشار
إليه هو : « عبد المؤمن » ، فاسمعوا له وأطيعوا ما دام سامعاً مطيعاً لربه ، فان بدَّل
أو نكص على عقبه ، أو ارتاب في أمره ، ففي الموحدين - أعزهم الله - بركة وخير
كثير ، والأمر أمر الله يقلده من شاء من عباده .

فبايع القوم عبد المؤمن ، ودعا لهم ابن تومرت .

(المعجب ، في تاريخ أخبار المغرب ص ١٠٨)

١٥ - مقال لسان الدين بن الخطيب (المتوفى سنة ٧٧٦ هـ)

في الحَضِّ على الجهاد

وقال لسان الدين بن الخطيب^(١) في الحَضِّ عَلَى الجهاد^(٢) :

« أيها الناس - رَحِمَكُمُ اللهُ تَعَالَى - :

إخوانكم المسلمون بالأندلس قد دَهَمَ العدوُّ - قَصَمَهُ اللهُ تَعَالَى - سَاحَتَهُمْ ،
ورَامَ الكُفْرُ - خَذَلَهُ اللهُ تَعَالَى - استبَاحَتَهُمْ ، وَزَحَفَتِ أَحْزَابُ الطَّوَاغِيَتِ إِلَيْهِمْ ،
وَمَدَّ الصَّلِيبُ ذِرَاعَيْهِ عَلَيْهِمْ ، وَأَيْدِيكُمْ - بِيْزَةِ اللهِ تَعَالَى - أَقْوَى ، وَأَتَمَّ الْمُؤْمِنُونَ
أَهْلُ الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ، وَهُوَ دِينُكُمْ فَانصُرُوهُ ، وَجِوَارُكُمْ الْقَرِيبُ فَلَا تُخْفَرُوهُ^(٣) ، وَسَبِيلُ
الرَّشْدِ قَدْ وَضَحَ فَلْتَبْصُرُوهُ ، الْجِهَادَ الْجِهَادَ قَدْ تَعَيَّنَ ، الْجَارَ الْجَارَ قَدْ قَرَّرَ الشَّرْعُ
حَقَّهُ وَبَيَّنَّ ، اللهُ اللهُ فِي الْإِسْلَامِ ، اللهُ اللهُ فِي أُمَّةِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، اللهُ اللهُ
فِي الْمَسَاجِدِ الْمَعْمُورَةِ بِذِكْرِ اللهِ ، اللهُ اللهُ فِي وَطَنِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ ، قَدْ اسْتَغَاثَ بِكُمْ
الَّذِينَ فَأَغِيثُوهُ ، قَدْ تَأَكَّدَ عَهْدَ اللهِ وَحَاشَاكُمْ أَنْ تَنْكُثُوهُ ، أَعْيِنُوا إِخْوَانَكُمْ بِمَا أَمَكَنَ
مِنَ الْإِعَانَةِ ، أَعَانَكُمْ اللهُ تَعَالَى عِنْدَ الشَّدَائِدِ ، جَدِّدُوا عَوَائِدَ الْخَيْرِ ، يَصِلِ اللهُ تَعَالَى

(١) هو لسان الدين محمد بن عبد الله بن سعيد المشهور بابن الخطيب خاتمة أدباء الأندلس ، ولد بقرنطة سنة ٧١٣ ، وكان أول أمره في عداد كتاب السلطان أبي الهجاج يوسف أحد ملوك بني الأحمر ، ثم اصطفاه وجعله وزيره ، وفوض إليه شؤون مملكته ، ولما مات أبو الهجاج ، وخلفه ابنه محمد أقره عاد للوزارة ، ثم وثب إسماعيل أخو السلطان على مملكته ، فاضطر أن يفادته إلى المغرب مع وزيره لسان الدين ، فلما تحسنت الأحوال عاد محمد إلى مملكته ، وبقى مدة كتب له فيها ابن زمرك أحد تلاميذ لسان الدين ثم عاد لسان الدين إلى قرنطة ، وحل مكانه من سلطانه ، فألحظ ذلك نار الحسد في ابن زمرك وأذصاره ، فسعوا به إليه حتى أحفظوه عليه ، فهرب إلى المغرب - وكان في حوزة بني مرين ، وهم من البربر - حكموا المغرب بعد الموحدون من سنة ٦٦٨ إلى سنة ٨٩٠ هـ - فأكرمه سلطان المغرب عبد العزيز ، وخطب ابن الأحمر في أهله وولده ، فبعثهم إليه إلى أن مات (عبد العزيز) ، وثار أحد أمراء بني مرين على ابن عبد العزيز ، وساعده ملك بني الأحمر بشرط تسليمه ابن الخطيب ، وتم له أمره ، وقبض عليه ، وسجن بفاس ، ونوغل في كلمات له في كتابه « الحجة » وأقضى الفقهاء بقتله ، فدفن عليه من خنقه في سجنه سنة ٧٧٦ .

(٢) وكان سلطانه محمد بن أبي الهجاج أسفره إلى ملوك بني مرين يستنجدهم على الإسبان .

(٣) أسفره : غدر به ونقض عهده .

لكم جميل العوائد، صلوا رَحِمَ الْكَلِمَةِ^(١) وَأَسُوا بِأَنْفُسِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ تِلْكَ الطَّوَائِفُ الْمُسْلِمَةُ، كِتَابُ اللَّهِ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ، وَالسِّنَةُ الْآيَاتُ تُنَادِيكُمْ، وَسُنَّةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَائِمَةٌ فِيكُمْ، وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ يَقُولُ فِيهِ: «يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنَجِّيكُمْ»، وَمَا صَحَّ عَنْهُ قَوْلُهُ: «مَنْ أُغْبِرَّتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَرَّمَهَا اللَّهُ عَلَى النَّارِ» «لَا يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَدُخَانُ جَهَنَّمَ»، «مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا» أَدْرِكُوا رَمَقَ الدِّينِ قَبْلَ أَنْ يَفُوتَ، بَادِرُوا عَلِيلَ الْإِسْلَامِ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ، احْفَظُوا وَجُوهَكُمْ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى يَوْمَ يَسْأَلُكُمْ عَنْ عِبَادِهِ، جَاهِدُوا فِي اللَّهِ بِاللِّسَنِ وَالْأَقْوَالِ حَقَّ جِهَادِهِ:

مَآذَا يَكُونُ جَوَابُكُمْ لِنَبِيِّكُمْ وَطَرِيقُ هَذَا الْعُذْرِ غَيْرُ مُمَهَّدٍ
إِنْ قَالَ: لِمَ فَرَطْتُمْ فِي أُمَّتِي وَتَرَكْتُمُوهُمْ لِلْعُدُوِّ الْمُعْتَدِي؟
تَاللَّهِ لَوْ أَنَّ الْعَقُوبَةَ لَمْ تُخَفَّ لَكُنْفَى الْحَيَا مِنْ وَجْهِ ذَاكَ السَّيِّدِ

اللَّهُمَّ اعْطِفْ عَلَيْنَا قُلُوبَ الْعِبَادِ، اللَّهُمَّ بَثِّ لَنَا الْحَيَّةَ فِي الْبِلَادِ، اللَّهُمَّ دَافِعَ عَنِ الْحَرِيمِ وَالضَّعِيفِ وَالْأَوْلَادِ، اللَّهُمَّ انصُرْنَا عَلَى أَعْدَائِكَ، بِأَحْبَابِكَ وَأَوْلِيَائِكَ، يَا خَيْرَ النَّاصِرِينَ، اللَّهُمَّ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا، وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

(انفع الطيب : : ٣)

١٦- مَا خَاطَبَ بِهِ لِسَانَ الدِّينِ تَرْبَةَ السَّلْطَانِ الْكَبِيرِ أَبِي الْحَسَنِ الْمُرِينِي

وَخَاطَبَ لِسَانَ الدِّينِ بْنِ الْخَطِيبِ تَرْبَةَ السَّلْطَانِ الْكَبِيرِ أَبِي الْحَسَنِ الْمُرِينِي
لَمَّا قَصَدَهَا عَقِبَ مَا شَرَعَ فِي جِوَارِهِ، فَقَالَ:

«السَّلَامُ عَلَيْكَ نَمَّ السَّلَامُ، أَيُّهَا الْمَوْلَى الْمُهَيَّبُ، الَّذِي عَرَفَ فَضْلَهُ الْإِسْلَامُ،
وَأَوْجَبَتْ حَقَّهُ الْعُلَمَاءُ الْأَعْلَامُ، وَخَفَقَتْ بِعِزِّ نَصْرِهِ الْأَعْلَامُ، وَتَنَافَسَتْ فِي إِنْفَازِ أَمْرِهِ

وهيه السيوفُ والأفلامُ ، السلام عليك أيها المولى الذى قَسَمَ زمانه بين حُكْمٍ فَصْلٍ وإمضاءِ نَصْلِ ، وإحرازِ خَصْلِ^(١) ، وعبادةٍ قامت من اليقين على أصل ، السلام عليك يامقرّر الصدقاتِ الجارية ، ومُشْبِعِ البطونِ الجائعة ، وكاسِيِ الظهورِ العارية ، وقادِحِ زِنادِ العزائمِ الوازية ، ومكْتَبِ الكتائبِ الغازية ، فى سبيلِ الله تعالى والسَّرَايَا^(٢) السارية ، السلام عليك يا حُبَّةَ الصبر والتسليم ، ومتلقَى أمرِ الله تعالى بأخلقِ المرضِي والقلبِ السليم ، ومفوضِ الأمرِ فى الشدائدِ إلى السميعِ العليم ، ومُعْمِلِ البنانِ الطاهرِ فى اِكْتِتَابِ الذِكرِ الحكيمِ ، كَرَّمَ اللهُ تعالى تُرْبَتَكَ وَقَدَّسَهَا ، وطَيَّبَ رُوحَكَ الزَكِيَّةَ وَأَنَسَهَا ، فلقد كنت للدهرِ جَمَالاً ، وللإسلامِ مِمَالاً^(٣) ، وللمستجيرِ مُجِيراً ، وللمظلومِ وليّاً ونصيراً ، لقد كنت للمحاربِ صَدْرًا ، وفى المواقبِ بَدْرًا ، وللموهابِ بَحْرًا ، وعلى العبادِ والبلادِ ظِلًّا ظليلاً وَسِتْرًا ، لقد فَرَعْتَ^(٤) أعلامَ عِزِّكَ الثنايا ، وأجزلتْ همتك للملوكِ الأرضِ الهدايا ، كأنك لم تَعْرِضِ الجنودَ ، ولم تنشرِ البُنودَ^(٥) ، ولم تبسطِ العدلَ المحدودَ ، ولم تُوجدِ الجودَ ، ولم تزيّنِ الرُكعَ السُّجودَ ، فتوسّدتِ الثرى ، وأطلتِ الكَرَمَى ، وشربتِ الكأسَ التى يشربها الوَرَى ، وأصبحتِ ضارِعَ^(٦) الخدّة ، كليلِ الخدّة ، سالكاً سَنَنَ الأبِ والجدّة ، لم تجدِ بعد انصرامِ أجلك ، إلا صالحَ عملك ، ولا صَحِبْتَ لقبرك ، إلا رابِحَ تَجْرِكَ^(٧) ، وما أسلفتَ من رضاك وَصَبْرِكَ ، فنسألُ الله تعالى أن يؤنّسَ اغترابَكَ ، ويجودَ بسحابِ الرحمةِ تُرابَكَ ، وينفعك بصدقِ اليقين ، ويجعلك من الأئمةِ المتّقين ، وَيُعْلِيْ دَرَجَتَكَ فى عَلِيّين^(٨) ، ويجعلك مع الذين أنعم اللهُ عليهم من النبيين والصدّيقين .

(١) الخصل: الغاية فى النضال . (٢) السرايا: جمع سرية وهى من خمسة أنفس إلى ثمانية أو أربعانة .

(٣) النمال: الغياث الذى يقوم بأمر قومه .

(٤) فرعت: علت ، والثنايا: جمع نذبة كهودية ، وهى العقبة ، أو الجبل ، أو الطريقة فيه .

(٥) البنود جمع بند كشمس : وهو العلم الكبير .

(٦) ذليل . (٧) تاجر تجراً وتجارة .

(٨) اسم لأهل الجنة ، أو هو كتاب جامع لأعمال الخير .

وَأَيُّهِنَّكَ أَنْ صَبَّرَ اللَّهُ تَعَالَى مَلَكَكَ مِنْ بَعْدِكَ ، إِلَى نَيْرِ سَعْدِكَ ، وَبَارِقِ رَعْدِكَ ،
وَمُنْجِزِ وَعْدِكَ ، أَرْضَى وَلَدِكَ ، وَرَيْحَانَةَ خَلْدِكَ ^(١) ، وَشِقَّةَ ^(٢) نَفْسِكَ ، وَالسَّرْحَةَ الْمُبَارَكَةَ
مِنْ غَرَسِكَ ، وَنُورِ شَمْسِكَ ، وَمَوْصِلِ عَمَلِكَ الْبَرِّ إِلَى رَمْسِكَ ، فَقَدْ ظَهَرَ عَلَيْهِ أَثَرُ دَعْوَاتِكَ
فِي خَلَوَاتِكَ ، وَأَعْقَابِ صَلَوَاتِكَ ، فَكَلِمَتُكَ - وَالنَّيَّةُ لِلَّهِ تَعَالَى - بَاقِيَةٌ ، وَحَسَنَتُكَ إِلَى مَحَلِّ
الْقَبُولِ رَاقِيَةٌ ، يَرَعَى بِكَ الْوَسِيلَةَ ، وَيَتِمُّ مَقَاصِدَكَ الْجَمِيلَةَ ، أَعَانَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِبِرْكَةِ رِضَاكَ
عَلَى مَا قَلَّدَهُ ، وَعَمَّرَ بِتَقْوَاهُ يَوْمَهُ وَغَدَهُ ، وَأَبْعَدَ فِي السَّعْدِ أَمَدَهُ ، وَأَطْلَقَ بِالْخَيْرِ يَدَهُ ،
وَجَعَلَ الْمَلَائِكَةَ أَنْصَارَهُ وَالْأَقْدَارَ عُدَدَهُ .

وَإِنِّي أَيُّهَا الْمَوْلَى الْكَرِيمُ ، الْبَرُّ الرَّحِيمُ ، لَمَّا اشْتَرَانِي ، وَرَاشِي ^(٣) وَبَرَّانِي ،
وَتَعَبَّدَنِي بِإِحْسَانِهِ ، وَاسْتَعْمَلَ فِي اسْتِخْلَاصِي خَطَّ بِنَانِهِ ، وَوَصِيَّةَ لِسَانِهِ ، لَمْ أَجِدْ مَكَافَأَةً
إِلَّا التَّقَرُّبَ إِلَيْكَ وَإِلَيْهِ بِرِثَائِكَ ، وَإِغْرَاءَ لِسَانِي بِتَخْلِيدِ عَلَيَاتِكَ ، وَتَغْفِيرِ الْوَجْهَةِ
فِي حَرَمِكَ ، وَالْإِشَادَةَ بَعْدَ الْمَاتِ بِمَجْدِكَ وَكَرَمِكَ ، فَفَتَحْتَ الْبَابَ فِي هَذَا الْغَرَضِ ،
إِلَى الْقِيَامِ بِحَقِّكَ الْمَقْتَرَضِ ، الَّذِي لَوْلَاهُ لَاتَّصَلَتِ الْغَفْلَةُ عَنْ أَدَائِهِ وَتَمَادَّتْ ، فَمَا يَبَسَّتِ
الْأَلْسُنُ وَلَا كَادَتْ ، مُتَحَيِّرًا بِالسَّبْقِ ، إِلَى أَدَاءِ هَذَا الْحَقِّ ، بَادِنًا بِزِيَارَةِ قَبْرِكَ الَّذِي هُوَ
رِحْلَةُ الْغَرْبِ ، مَا نَوَيْتَهُ مِنْ رِحْلَةِ الشَّرْقِ ، وَمَا أَعْرَضْتَ عَنْهُ فَأَقْطَعَهُ أَثَرُ مَوَاقِعِ الْإِسْتِحْسَانِ
وَقَدْ جَمَعَ بَيْنَ الشُّكْرِ وَالتَّنْوِيهِ وَالْإِحْسَانِ ، وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ يَجْعَلُهُ عَمَلًا مَقْبُولًا ، وَيَبْلُغُ فِيهِ
مِنَ الْقَبُولِ مَأْمُولًا ، وَيَتَعَمَّدُ مِنْ ضَاجِعَتِهِ مِنْ سَلَفِكَ الْكَرَامِ بِالْغَفْرَةِ الصَّيْبَةِ ، وَالتَّحِيَّاتِ
الطَّيِّبَةِ ، فَنِعْمَ الْمَلُوكُ الْكِبَارُ ، وَالْخُلَفَاءُ الْأَبْرَارُ ، وَالْأُمَّةُ الْأَخْيَارُ ، الَّذِينَ كَرُمَتْ مِنْهُمْ
السَّيْرُ وَحَسُنَتْ الْأَخْبَارُ ، وَسَعِدَ بِعِزَّمَاتِهِمُ الْجَاهِدِيَّةِ الْمُؤْمِنُونَ وَشَقِيَ الْكُفَّارُ ، وَصَلَوَاتُ
اللَّهِ تَعَالَى عَوْدًا وَبَدَأً عَلَى الرَّسُولِ الَّذِي اصْطَفَاهُ وَاخْتَارَهُ فَهُوَ الْمُصْطَفَى الْمُخْتَارُ ، وَعَلَى آلِهِ
وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ هُمْ السَّادَةُ الْأَبْرَارُ ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا .

(نفع الطيب : ٤ : ١٣٥)

(١) الخلد : النفس والقلب . (٢) الشقة : نصف الشيء إذا شق ، والسرحة : الشجرة المطيعة .

(٣) راش السهم : الزرق عليه الريش ، وراش الصديق : أطعمه وسقاه وكساه وأصلح حاله .

١٧ - وصية لسان الدين بن الخطيب لأولاده

« الحمد لله الذي لا يروِّعُهُ الحِمَامُ المَرَّقُوبُ ، إِذَا شِمَّ ^(١) نَجْمُهُ المَقُوبُ ، وَلَا يَبْنِفْتُهُ الأَجَلُ المَكْتُوبُ ، وَلَا يَفْجَؤُهُ الفِرَاقُ للعتوب ، مُلْهِمِ الهُدَى الذي تَطْمِئُنُّ بِهِ القُلُوبُ ، وَمَوْضِحِ السَّبِيلِ المَطْلُوبِ ، وَجَاعِلِ النَصِيحَةِ العَرِيحَةِ مِنْ قِسْمِ الوَجُوبِ ، لَاسِمًا لِلوَلِيِّ المَحْبُوبِ ، وَالوَلَدِ المَنْسُوبِ ، القَائِلِ فِي الكِتَابِ المُعْجِزِ الأَسْلُوبِ : « أُمُّ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ^(٢) » ، « وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ ^(٣) » ، وَالصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدِ رَسُولِهِ ، أَكْرَمِ مَنْ زُرَّتْ عَلَى نُورِهِ جُيُوبُ الغُيُوبِ ، وَأَشْرَفِ مَنْ خُلِعَتْ عَلَيْهِ حَالُ المَهَابَةِ وَالعِصْمَةِ ، فَلَا تَقْتَحِمُهُ العِيُونَ ، وَلَا تَصِيهُ العِيُوبُ ^(٤) ، وَالرِّضَاعِ عَنِ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ المُنَابِرِينَ عَلَى لِسَانِ ^(٥) الاستِقَامَةِ بِالهُوَى المَغْلُوبِ ، وَالأَمَلِ المَسْلُوبِ ، وَالاقتداءِ المَوْصَلِ إِلَى المَرْغُوبِ ، وَالعِزِّ وَالأَمْنِ مِنَ اللُّغُوبِ ^(٦) ، وَبَعْدَ : فَإِنِّي لِمَتَاعِلَانِي المَشِيبِ بِقِمَّتِهِ ^(٧) ، وَقَادِنِي السَّكْبَرِ بِرُمَّتِهِ ^(٨) ، وَآدَّ كَرَّتُ الشَّبَابِ

(١) من شام للبرق : نظر إليه أين يقصد ، وأين يطر .

(٢) وتام الآية الكريمة :

« إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ المَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ » .

(٣) وتام الآية الكريمة : « إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْمِ ، قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العَالَمِينَ ،

وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ » .

(٤) تزدرية وتحتقره ، ووصمه : عابه . (٥) اللسان : الرسالة .

(٦) الغيوب : أشد الإحياء . (٧) الغنة : أعلى كل شيء .

(٨) الرمة بالضم ويكسر : قطعة من جبل .

بعد أمته^(١)، أسفيت لما أضعت، وندمت بعد الفطام على مارضعت، وتأكد
وجوب نصحي لمن لزمني رعيه، وتعلق بعيني سعيه، وأمات أن تتعدى إلى ثمره
استقامته، وأنا رهين فوات، وفي برزخ أموات، ويأمن العثور في الطريق التي اقتضت
عثاري، إن سلك - وعسى ألا يكون ذلك - على آثاري، فقلت أخطب الثلاثة
الولد، وثمرات الخلد^(٢) بعد الضراعة إلى الله تعالى في توفيقهم، وإيضاح طريقهم،
وجمع تفريقهم، وأن يمن علىّ منهم بحسن الخلف، والتلافي من قبل التالف، وأن
يرزق خلفهم التمسك بهدي السلف، فهو ولي ذلك، واهادي إلى خير المسالك:
اعلوا هداكم الله تعالى الذي بأنواره تهتدي الضلال، وبرضاه ترفع الأغلال،
وبالتماس قربه يحصل الكمال، إذا ذهب المال، وأخلفت الآمال، وتبرأت من يمينها
الشمال، أنى مودعكم وإن سألني الردى، ومفارقكم وإن طال المدى، وما عداء بما
بدا، فكيف وأدوات السفر تجمع، ومنادى الرحيل يسمع، ولا أقل للحبيب المودع،
من وصية محتضر، وعجالة مقتصر، ورثيمة^(٣) تقعد في خنصر، ونصيحة تكون
نشيدة وإيع مبصر، تتكفل لكم بحسن العواقب من بعدى، وتوضح لكم من
الشفقة والحنو قصدي، حسبما تضمن وعد الله من قبل وعدي، فهي أربكم الذي
لا يتغير وقفه، ولا ينالكم الكروه مارف عليكم سقفه، وكأني بشبابكم قد شاخ،
وبراحلكم قد أناخ، وبناشطكم قد كسل، واستبدل الصاب^(٤) من العسل،
ونصول^(٥) الشيب ترؤع بأسل، لا بل السام^(٦) من كل حدب قد نسل، والمعاد

(١) الأمة هنا: الحين، اقتبسه من قوله تعالى: « وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ » .

(٢) الخلد: القلب والنفوس .

(٣) الرثيمة: خيط يمقده في الأصبع لتذكير .

(٤) الصاب: عصارة شجر مر . (٥) النصول جمع نصل: وهو حديدة الرمح والسيف .

والأسل: الرماح . (٦) السام: الموت: والحطب: ما ارتفع من الأرض، ونسل كضرب: أسرع
والمعاد: المرجع .

اللحْدُ وَلَا تَسَلْ ، فبالأس كنتم فِراخ حِجْر^(١) ، واليوم أبناء عسكرِ حِجْر ، وغداً
 شيوخ مَضِيعةٍ وَهَجْر ، والقبورُ فَاغرةٌ^(٢) ، والنفوس عن المآلوفات صاغرة ، والدنيا
 بأهلها ساخرة ، والأولى تَعْقُبُهَا الآخرة ، والحازم من لم يُتَعَطَّ به في أمر ، وقال :
 « بيدي لا بيدِ عمرو^(٣) » ، فآقتنوها من وصية ، ومَرَامٍ^(٤) في النصح قَصِيَّة ، خُصُوا
 بها أولادكم إذا عَقَلُوا ، ليجدوا زادها إذا انتقلوا ، وحَسْبِي وحسبكم اللهُ الذي لم يخلق
 الخلقَ هَمَلًا ، ولكن لِيَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ، ولا رَضِيَ الدنيا منزلاً ، ولا لَطَفَ
 بمن أصبح عن فئة الخير مُنْعَزِلًا ، ولتَلَقَّوْا تَلَقِينًا وتعلموا علماً يقينًا ، أنكم لن تجدوا
 بعد أن أنفردَ بذنبي ، وَيَفْتَرِشَ الترابَ جنبي ، وَيَسُحَّ انسكابي ، وتهرول عن المصلى
 ركابي ، أحرص مني على سعادةٍ إليكم تُجَلَّب ، أو غاية كمال بسببكم تُرْتَاد وتُطَلَّب ،
 حتى لا يكون في الدين والدنيا أَوْزَف^(٥) منكم ظِلًّا ، ولا أشرف مَحَلًّا ، ولا أغْبَط
 هَمَلًا وَعَلًّا^(٦) ، وأقل ما يوجب ذلك عليكم أن تُصِيخُوا^(٧) إلى قولي الآذان ، وتستلمحُوا

(١) أي كالفراخ في حبر أمها وحضنها ، والحجر : الكثير من كل شيء ، وجيش حجر : كثير جدا .

(٢) أي فائحة أفواها للموت .

(٣) هو مثل قاتله الزباء ملكة الجزيرة ، وذلك أنها كانت دعت جذيمة الأبرش ملك ماعل شاطيء

الفرات إلى زواجها . فلما استقر عندها قتله فأرأى بابها - وكان جذيمة قد قتله - فاحتال مولاه تصير الثأر
 منها ، نجدع أنفه وأثر آثاراً يظهره ، ثم خرج إلى الزباء ، وأظهر أن عمرو بن عدى - ابن أخت جذيمة -
 فعل ذلك به ، وأنه زعم أنه مكر بخاله جذيمة وغيره من الزباء ، فلما استرسلت إليه ووثقت به ، زين لها
 أن تبثه إلى العراق ليحمل إليها من طرائفها وثيابها وطيبها ، وأنها ستصيب في ذلك أرباحاً عظيماً ، فأذنت
 له وقدم العراق ، وأتى الحيرة متنكراً ، وزوده عمرو بصنوف البز والأمتعة ، ورجع إلى الزباء ، فأعجبها
 ما رأت وسرها ، وازدادت به ثقة ، وجهازته ثانية ، فسار حتى قدم على عمرو فجهزه وعاد إليها ، ثم عاد
 الثالثة وجمع ثقات رجال عمرو ، وحملهم في الغرائر على الجمال ، وسار إلى الزباء ، ودخلت الإبل المدينة
 وكانت الزباء قد حذرت عمراً ، واتخذت نفقاً إلى حصن لها في داخل مدينتها ، وقالت : إن فجأني أمر
 دخلت النفق إلى حصن - ودل قصير عمراً على باب النفق ، فلما خرجت الرجال من الغرائر صاحروا بأهل
 المدينة ووضعوا فيهم السلاح ، وقام عمرو على باب النفق ، وأقبلت الزباء تريد النفق ، فأبصرت عمراً ففرقت
 بالصورة التي صورت لها - فصت خاتمها وكان فيه اسم ، وقالت : « بيدي لا بيد عمرو » فذهبت مثلاً ،
 وتلقاها عمرو فجلها بالسيف وقتلها ، وأصاب ما أصاب من المدينة وأهلها ، وانكفاً راجعاً إلى العراق .

(٤) مرام جمع مرمي ، وقصية بعيدة .

(٥) ورف الظل : اتسع وطال وامتد . (٦) النهل : الشرب الأول ، والعمل والعلل : الشرب

(٧) أصاخ له استمع .

الثاني أو الشرب بعد الشرب ثبأه .

صُبْحَ نُصْحِي فَقَدْ بَانَ ، وَسَاعَيْدِ عَلَيْكُمْ وَصِيَّةُ لُقْمَانَ ، أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ :
 « وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ : يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ، إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ -
 يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ
 إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ . وَلَا تُصَعِّرْ^(١) خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا
 إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ، وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ، وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ
 أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ » وَأَعِيدُ وَصِيَّةَ خَلِيلِ اللَّهِ وَإِسْرَائِيلَ حُكْمَ^(٢)
 مَا تَضَمَّنَهُ حُكْمَ نَزِيلِهِ « يَا بُنَيَّ إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ
 مُسْلِمُونَ » والدين الذي ارتضاه واصطفاه ، وأكمله ووفاه ، وقرّره مُصْطَفَاهُ ، من قبل
 أن يتوفاه ، إذا أُعْمِلَ فيه انتقاد ، فهو عمل واعتقاد ، وكلاهما مُقَرَّرٌ ، ومستمدٌّ من
 عقل أو نقل محرر ، والعقل متقدّم ، وبنאוّه مع رَفْضِ أخيه متهدّم ، فالله واحد أحد ،
 فَرْدٌ صَمَدٌ^(٣) ، ليس له والد ولا ولد ، تنزّه عن الزمان والمكان ، وَسَبَقَ وجوده
 وجودَ الأكوان ، خَالِقُ الخلق وما يعملون ، الذي لا يُسْأَلُ عن شيء وهم يُسْأَلُونَ ، الحى
 العليم المدبّر القدير ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ، أرسل الرسل رحمةً
 لتدعو الناس إلى النجاة من الشقاء ، وتوجّه الحُجَّةَ في مصيرهم إلى دار البقاء ، مؤيِّدَةً
 بالمعجزات التي لا تُنصَفُ أنوارها بالاختفاء ، ولا يجوز على تواترِها دعوى الانتفاء ،
 ثم حتم ديوانهم بنبيّ ملئت المرعية الهمل ، الشاهدة على الملل ، فتلخّصت الطاعة ،
 وتعيّنت الأمرّة المُطاعة ، ولم يَبْقَ بعده إلا ارتقابُ الساعة ، ثم إن الله تعالى قبضه
 إذ كان بشراً ، وترك دينه يُضَمُّ من الأمة نَشْرًا^(٤) ، فمن تبعه لحق به ، ومن تركه
 نُوطٌ^(٥) عنه في منسبه ، وكانت نجاته على قدر سببه ، روى عنه عليه الصلاة والسلام

(١) صعر خده : أماله كبيراً .

(٢) إسرائيليه : يعقوب عليه السلام ، والحكم : الحكمة ، وهو بدل من وصية .

(٣) الصمد : السيد ، لأنه يصمد أى يقصد فى قضاء الحوائج . (٤) النشر : المنتشر ، ومنه :

« اللهم اضمم نشرى » . (٥) أى أبعد منه وطرد ، يقال ناطت النار : أى بعدت .

أنه قال : « تركتُ فيكم ما إن تمسَّكُمُ به لم تَضِلُّوا بعدي ، كتابَ الله وسُنَّتِي ، فَعَضُّوا عليهما بالنواجذ ^(١) » .

فاعملوا يا بَنِي بُوَصِيَّةٍ من ناصح جاهد ، وَمُشْفِقِ شَفَقَةِ والد ، واستشعروا حُبَّهُ الذي توافرت دواعيه ، وَعُوا مَرَّ اشِدِّ هَدْيِهِ ، فَيَا فَوْزَ وَعَايِهِ ! وَصِلُوا السَّبَبَ بسببه ، وَآمِنُوا بكلِّ ما جاء به ، مُجْمَلًا أو مُفَصَّلًا عَلَى حَسَبِهِ ، وَأَوْجِبُوا التَّجَلَّةَ لِصَحْبِهِ ، الذين اختارهم الله تعالى لصحبته ، واجعلوا محبتكم إياهم من توابع محبته ، واشملوهم بالتوقير ، وَفَضِّلُوا منهم أُولَى الفضل الشهير ، وتبرَّءوا من العصبية التي لم يدعكم إليها داعٍ ، ولا تع التَّشَاجِرَ بينهم أذنُ وَاعٍ ، فهو عنوان السَّدَادِ ، وعلامة سلامة الاعتقاد ، ثم اسحبوا فضل تعظيمهم على فقهاء المِلَّةِ ، وأتمتها الجِلَّةُ ^(٢) ، فهم صَفَلَةٌ نُصُوبُهُمْ ، وفروعٌ ناشئة من أصولهم ، وَوَرَثَتَهُمْ وورثة رسولهم ، واعلموا أنني قطعت في البحث زماني ، وجعلتُ النظر شاني ، منذ براني الله تعالى وأنشاني ، مع نُبُلٍ ^(٣) يعترف به الشاني ، وإدراكٍ يسلمه العقل الإنساني ، فلم أجد خابِطَ وَرَقٍ ، ولا مصيَّبَ عَرَقٍ ، ولا نازِعَ خِطَامٍ ، ولا متكلِّفَ فِطَامٍ ، ولا مقتحِمَ بَحْرِ طَامٍ ، إلا وغيائته التي يقصدها قد نضلتها الشريعة وسبقتها ، وَفَرَعَتْ ^(٤) نَنِيَّتَهَا وَارْتَقَّتْهَا ، فعليكم بالالتزام جادتها ^(٥) السَّابِلَةَ ، ومصاحبة رَفَقَتِهَا الكاملة ، والاهتداء بأقمارها غير الآفلة ، والله تعالى يقول ، وهو أصدق القائلين : « وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ » ، وقد علَّتْ شَرَائِعُهُ ، وراعَ الشُّكُوكَ رَائِعُهُ ، فلا تستنزلكم الدنيا عن الدين ، وابدلوا دونه النفوسِ فَعَلَ المهتدين ، فلن ينفع متاعٌ بعد الخلود في النار أبد الآبدين ، ولا يضرُّ مفقود مع الفوز بالسعادة والله أصدق الواعدين ، ومتاع الحياة الدنيا أخسُّ ما وَرِثَ الأولاد عن الوالدين ، اللهم قد بَلَغْتُ فأنت خير الشاهدين ، فاحذروا المعاطب التي توجب في الشقاء الخلود ، وتستدعي شَوْهَ الوجوه وَنُضْجَ الجلود ، واستعيذوا برضا الله من سُخْطِهِ ، وَاِرْبَثُوا بنفوسكم عن غَمَطِهِ ، وارضعوا آمالكم عن القنوعِ بِغُرُورٍ قد خدع

(١) أقصى الأضراس . (٢) جمع جليل . (٣) النبيل : الذكاء والنجابة ، والشاني : المبغض .

(٤) فرعه : علاه ، والذنية : العقبة ، أو الجبل أو الطريقة فيه أو إليه .

(٥) الجادة : الطريق الواضح ، والسابلة من الطرق المسلوكة .

أسلافكم ، ولا تحمدوا على جيفة العرّض الزائل ائتلافكم ، واقنعوا منه بما تيسّر ،
ولا تأسّوا^(١) على ما فات وتعدّر ، فإنما هي دُجَنَةٌ^(٢) ينسخها الصّباح ، وصَفْقَةٌ يتعاقبها
الخسار أو الرّباح ، ودونكم عقيدة الإيمان فشُدُّوا بالنواجذ عليها ، وكفّفوا الشّبه أن
تدنو إليها ، واعلموا أن الإخلال بشيء من ذلك خرق لا يرفّوه^(٣) عمل ، وكلُّ ماسوى
الراعى همل ، وما بعد الرأس في صلاح الجسم أمل ، وتمسّكوا بكتاب الله تعالى حفظاً
وتلاوة ، واجعلوا حمله على حمل التكليف علاوة ، وتفكروا في آياته ومعانيه ، وامتلئوا
أوامره ونواهيه ولا تتأولوه ولا تغلّوا فيه ، وأشرّبوا قلوبكم حبّ من أنزل على قلبه ،
وأكثرُوا من بواعث حبه ، وصونوا شعائر الله صون المحترم ، واحفظوا القواعد التي
ينبنى عليها الإسلام حتى لا ينخرم ، الله الله في الصلاة ذريعة التّجلّي ، وخاصّة الملة ،
وحافنة الدم ، وغنى للمستأجر المستخدم ، وأمّ العبادة ، وحافطة اسم المراقبة لعالم الغيب
والشّهادة ، والناهية عن الفحشاء والمنكر ، إن عرّض الشيطان عرّضها ، ووطأ للنفس
الأمارّة سماءها وأرضها ، والوسيلة إلى بلّ الجوانح ببرود الذكر ، وإيصال تحفة الله إلى
مريض الفكر ، وضامنة حسن العشرة من الجار ، وداعية للمسألة من الفجار ، والواسمة
بسمة السلامة ، والشّاهدة للعبد برفع الملامة ، وغسول^(٤) الطبع إذا شانه طبع ، والخير
الذي يكلّ ماسواه له تبع ، فاصبروا النفس على وظائفها ، بين بدء وإعادة ، فالخير عادة ،
ولا تفضّلوا عليها الأشغال البدنيّة ، وتؤثروا على العليّة الدنيّة ، فإن أوقات المعينة
بالانفلات تنبّس^(٥) ، والفلك بها من أجلكم لا يُحبّس ، وإذا قورنت بالشواغل
فلها الجاه الأصيل ، والحكم الذي لا يغيّره الغدوّ ولا الأصيل ، والوظائف بعد أدائها
لا تقوت ، وأين حقّ من يموت من حقّ الحى الذي لا يموت ؟ وأحكّموا أوضاعها
إذا أقمتموها ، وأتبعوها النوافل ما أظقتموها ، فبالإتقان تفاضلت الأعمال ، وبالمرعاة

(١) ولا تحزنوا . (٢) الدجنة: الظلمة . (٣) رفا الثوب كنع: لام خرقه، وضم بعضه إلى بعض.

(٤) الغسول كصبور وتنور: الماء يغتسل به، وفي الأصل «غاسول» وهو تحريف، والطبع الشين والغيب .

(٥) أى تذهب وتضيع ، يقال: انبَسَ الرجل إذا ذهب ، وفي الأصل «تبس» وأراه محرفاً .

استحقت الكمال ، ولا شكرَ مع الإهمال ، ولا ربحَ مع إضاعة رأس المال ، وذلك أحرى بإقامة الفرض ، وأدعى إلى مساعدة البعض البعض .

والطهارة التي هي في تحصيلها سبب مؤصل ، وشرط لمشروطه محصل ، فاستوفوها ، والأعضاء نظفوها ، ومياهاها بغير أوصافها الحميدة فلا تصفوها ، والحجول والغرر^(١) فأطيلوها ، والنيات في كل ذلك فلا تهملوها ، فالبناء بأساسه ، والسيف بمراسه ، واعلموا أن هذه الوظيفة من صلاة وطهور ، وذكر مجهور وغير مجهور ، تستغرق الأوقات ، وتنازع شتى الخواطر المفرقات ، فلا يضبطها إلا من ضبط نفسه بعقال ، واستعاض صدأه بصقال^(٢) ، وإن تراخى قهقر^(٣) الباع ، وسرقتة الطباع ، وكان لما سواها أضيع . فشمل الضياع ، والزكاة أختها الحبيبة . ولدتها القرية . مفتاح السعادة بالعرض الزائل . وشكران المسئول على الضد من درجة السائل . وحق الله تعالى في مال من أغناه . لمن أجهده في المعاش وعناه^(٤) من غير استحقاق ملء يده وإخلاء يد أخيه . ولا علة إلا القدر الذي يُخفيه . وما لم ينله حظ الله تعالى فلا خير فيه ، فاسمحوا بتفريقها للحاضر لإخراجها . في اختيار عراضها ونتاجها . واستحيوا من الله تعالى أن تبخلوا عليه ببعض ما بدّل . وخالفوا الشيطان كلما عدل . واذكروا خروجكم إلى الوجود لا تملكون ، ولا تدرّون أين تسلكون . فوهب وأقدر . وأورد بفضلِهِ

(١) الحجول : جمع حجل بالكسر والفتح وهو الخخال ، والمراد بها هنا الأطراف ، وبإطالها استيعاب غسلها ، والغرر جمع غرة بالضم وهي الوجه ، والمراد بتطويلها في الوضوء : غسل مقدم الرأس مع للوجه ، وغسل صفحة العنق ، وجملة المعنى : أنه يأمر بإسباغ الوضوء ، وفي الحديث الشريف : « أُمَّتِي الْغُرُّ الْمُحَجَّلُونَ » والغر جمع الأغر من الغرة ، وهي بياض في جهة الفرس فوق الدرهم ، يقال : فرس أغر وغراء ، والمجمل : للفرس الذي يرتفع البياض في قوائمه في موضع القيد ، أي بياض مواضع الوضوء من الوجه الأيدي والأقدام ، استعمار أثر الوضوء في الوجه واليدين والرجلين من البياض الذي يكون في وجه الفرس ويديه ورجليه .

(٢) صواب العبارة « واستعاض بصدنه صقالا » يقل استبدل الشيء بغيره : إذا أخذه مكانه (ومنه ترى أن الباء داخل على المعرك) واعتاضه منه واستعاضه (والباء كن) .
(٣) قهقر وقهقرى : رجع القهقرى . (٤) أنعبه .

وأصدر . ليرتب بكرمه الوسائل ، أو يقيم الحجج والدلائل . فابتغوا إليه الوسيلة بماله
وَاعْتَنِمُوا رِضَاهُ بِبَعْضِ نَوَالِهِ . وصيام رمضان عبادة السرِّ المقربة إلى الله زُلْفَى .
المحوضة^(١) لمن يعلم السرَّ وأخفى . مؤكدة بصيام الجوارح عن الآثام . والقيام
ببرِّ القيام ، والاجتهاد ، وإيثار الشهاد ، على المهاد ، وإن وسع الاعتكاف فهو من سننه المرعية ،
ولو احقه الشرعية ، فبذلك تحسّن الوجوه ، وتحصل من الرقة على ما ترجوه ، وتذهب
قسوة الطباع ، ويمتد في ميدان الوسائل الباع ، والحج مع الاستطاعة الركن الواجب ،
والفرض على العين لا يحجبه الحاجب ، وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم قدره فيما
فرض عن ربه وسنّه ، وقال : « ليس له جزاء عند الله إلا الجنة » ويلحق بذلك الجهاد
في سبيل الله تعالى إن كانت لكم قوة عليه ، وغنى لديه ، فكونوا ممن يسمع نفيده
ويطيعه ، وإن عجزتم فأعينوا من يستطيعه . هذه عمدة الإسلام وفروضة ، وتقود مهرة
وعروضه ، حافظوا عليها تعيشوا مبرورين ، وعلى من يناوئكم ظاهرين^(٢) ، وتلقوا الله
لامبدلين ولا مغيّرين ، ولا تضيعوا حقوق الله فتهلكوا مع الخاسرين .

واعلموا أن بالعلم تستعمل وظائف هذه الألقاب ، وتجلّى محاسنها من بعد الانتقاب^(٣)
فعلیکم بالعلم النافع دليلا بين يدي السامع ، فالعلم مفتاح هذا الباب ، والموصل إلى اللباب ،
والله عز وجل يقول : « قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ،
إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ » والعلم وسيلة النفوس الشريفة إلى المطالب المنيفة ،
وشرطه الخشية لله تعالى والخيفة ، وخاصة المال الأعلى ، وصفة الله في كتبه التي تتلى ،
والسبيل في الآخرة إلى السعادة ، وفي الدنيا إلى النجاة^(٤) عادة ، والدخر الذي قلبه
يشفع ، وكثيره ينفع ، لا يغلبه الغاصب ، ولا يسلبه العدو المناصب ، ولا يبتزه الدهر
إذا نال ، ولا يستأثر به البحر إذا هال ، من لم ينله فهو ذليل ، وإن كثرت آماله ،

(١) الخالصة . (٢) معاديبكم ، وظاهرين : غالبين . (٣) أي بعد الاختفاء ،

من انتعقت الرأة : لبست الثياب . (٤) نحلة : أعطاه ، والاسم النحلة .

وقليل ، وإن جمَّ ماله ، وإن كان وقته قد فات اكتسابكم ، وَتَحَطَّى حِسَابِكُمْ ،
فالتسوه لبنيكم ، واستدرِكُوا منه ما خرج عن أيديكم ، وأحلوهم على جمعِهِ وَدَرَسِهِ ،
واجعلوا طباعهم تُرَى لِعَرْسِهِ ، واستسهلوا ما ينالهم من تَعَبٍ مِنْ جَرَاهُ ^(١) وَسَهَرِهِ
يهجر له الجفنُ كَرَاهٍ ، تَعَقِدُوا لهم ولاية عزٍّ لا تُعزَلُ ، وَتُحِلُّوهم مَثَابَةَ رِفْعَةٍ لا يُحِطُّ
فَارِعُها ولا يُسْتَنْزَلُ ، واختاروا العلوم التي يتعقَّبُها الوقت ، فلا ينالها في غيرهِ ^(٢) المقت ،
وخير العلوم علوم الشريعة ، وما نَجَمَ بِمَنَابِتِهَا المَرِيعة ^(٣) ، من علوم لسان لا تستغزق
الأعمارَ فصولُها ، ولا يضايق ثمراتِ المَعَادِ حصولُها ، فإنها هي آلات لغيرِ ، وأسباب
إلى خير منها وخير ، فمن كان قابلاً للازدياد ، وألْفَى فهمه ذا انقياد ، فايخصَّ تجويد
القرآن بتقديمه ، ثم حَفِظَ الحديث ومعرفة صحيحه من سقيمه ، ثم الشروع في أصول الفقه
فهو العلم العظيم المِنَّة ، المَهْدِي كنوز الكتاب والسُّنَّة ، ثم المسائل المنقولة عن العلماء
الجِلَّة ، والتدرج في طرق النظر بصحح الأدلَّة ، وهذه هي الغاية القصوى في المِلَّة ،
ومن قَصُر إدراكه عن هذا المَرْمَى ، وتقاعدَ عن التي هي أسمى ، فَلَيَزُو الحديثَ
بعد تجويد الكتاب وإحكامه ، وليقرأ المسائل الفقهية على مذهب إمامه ، وإياكم
والعلوم القديمة ، والفنون المهجورة الذميمة ، فأكثرها لا يُفيد إلا تشكيكاً ، ورأياً
ركيكاً ، ولا يُثمر في العاجلة إلا اقتحامَ العيون ، وتطريق الظنون ، وتطويق الاحتقار
وَسِمَةَ الصَّغار ، وُخمول الأقدار ، وانحسَف من بعد الأبدار ، وجادَّة الشريعة أُعْرِقَ
في الاعتدال ، وأوفق من قطع العمر في الجدال ، هذا ابن رُشد ^(٤) قاضي المصر ومُفتيه

(١) يقال : فملت ذلك من جراه ومن جرائه بالتشديد ويخففان ، ومن جريرته : أي من أجله ،
والكبرى : النعيم . (٢) غير الدهر : أحداثه المغيرة ، والضمير فيه يعود على الوقت . (٣) المخصومة .
(٤) هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد ، أعظم فلاسفة الأندلس وأطبائها ، ولد سنة ٥٢٠ هـ
ودرس علوم الدين والفلسفة والطب ، وانصل بيوسف بن عبد المؤمن زعيم الموحدين ، وشرح له فلسفة
أرسطو ، وقد ولاء قضاه إشبيلية ؛ ثم استدعاه إلى المراكش ، وجعله طبيبه الخاص ، ثم جعله قاضي القضاة
بقرطبة ، ولما ولي بعده ابنه المنصور بالله علت مكانة ابن رشد عنده ، فأثار ذلك حسد خصومه ، فكادوا
له عند السلطان وأتهموه أنه يمجده القرآن ، وينشط الفلسفة وعلوم الأرائل بدلا من علوم الدين ، وينصر =

وملتبسُ الرشد ومُؤليه ، عادت عليه بالسَّخطة الشنيعة ، وهو إمام الشريعة ، فلا سبيل إلى اقتحامها ، والتورُّط في ازدحامها ، ولا تخلُّطوا جامكم^(١) بجامها ، إلا ما كان من حساب ومِساحة ، وما يعود بِجَدْوَى فلاحه ، وعلاج يرجع على النفس والجسم براحة ، وما سوى ذلك فمحجور ، وَضَرَمَ^(٢) مَسْجُور ، وممقوت مهجور ، وأمرُوا بالمعروف أمراً رقيقاً ، وانهُوا عن المنكر نهياً حَرِيّاً بالاعتدال حَقِيقاً ، وَاعْبَطُوا مَنْ كَانَ مِنْ سِنَةِ الْعَفْلةِ مُفِيقاً ، واجتنبُوا ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ حَتَّى لَا تُسَلِّكُوا مِنْهُ طَرِيقاً ، وأطيعوا أمر من وِلاهُ اللهُ تعالى من أموركم أمراً ، ولا تَقْرَبُوا مِنَ الْفِتْنَةِ جَعْرًا ، ولا تُدْخِلُوا فِي الْخِلَافِ زَيْدًا وَلَا عَمْرًا ، وعليكم بالصدق فهو شِعَارُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَهْمٌ مَا أَضْرَى^(٣) عَلَيْهِ الْآبَاءُ ألسنة البنين ، وأكرم منسوب إلى مذهبه ، وَمَنْ أَكْثَرَ مِنْ شَيْءٍ عُرِفَ بِهِ ، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَهُوَ الْعَوْرَةُ الَّتِي لَا تُؤَارَى ، وَالسَّوْءَةَ الَّتِي لَا يُرْتَابُ فِي عَارِهَا وَلَا يُتَبَارَى . وأقل عقوبات الكذاب ، بين يَدَيَّ مَا أَعَدَّ اللهُ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ ، أَنْ لَا يُقْبَلَ صِدْقُهُ إِذَا صَدَّقَ ، وَلَا يَمُوتَ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ بِالْحَقِّ نَطَقَ ، وعليكم بالأمانة فالخيانة لُومٌ ، وفي وجه الديانة كُومٌ^(٤) ، ومن الشريعة التي لَا يُعْذَرُ بِجَهْلِهَا ، أداء الأمانات إلى أهلها ، وحافظُوا عَلَى الْحِشْمَةِ وَالصِّيَانَةِ ، وَلَا تَجْزُوا مَنْ أَقْرَضَكُمْ دِينَ الْخِيَانَةِ ، وَلَا تَوْجِدُوا لِلْعَدْرِ قَبُولًا وَلَا تَقْرُوا عَلَيْهِ طَبْعًا مَجْبُولًا ، وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنْ الْعَهْدُ كَانَ مَسْئُولًا ، وَلَا تَسْتَأْثِرُوا بِكَتْرِ وَلَا خَزْنٍ ، وَلَا تَذْهَبُوا لِغَيْرِ مَنَاصِحِ الْمُسْلِمِينَ فِي سَهْلٍ وَلَا حَزْنٍ ، وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ فِي كَيْلٍ أَوْ وَزْنٍ ، وَاللَّهُ اللهُ أَنْ تُعِينُوا فِي سَفْكِ الدَّمَاءِ وَلَوْ بِالْإِشَارَةِ أَوْ الْكَلَامِ ، أَوْ مَا يَرْجِعُ إِلَى وَظِيفَةِ الْأَقْلَامِ ، واعلموا أَنَّ الْإِنْسَانَ فِي فُسْحَةِ مَمْتَدَّةٍ ،

ملهب القدماء في القول بأوهية بعض الكواكب : فنزله المنصور من قضاء قرطبة ، ثم عفا عنه ، واستدعاه إلى مراكن ، ولم يطل مقامه بها ، فات سنة ٥٩٥ هـ ، وقد ترجم أكثر كتبه إلى اللغات الأجنبية ، وعليها عول الأوربيون في نهضتهم الحديثة .

(١) الجام : إناه من فضة . (٢) جمع ضرمة بالتحريك : وهي الجمره والنار ، وصجر النور : أحماه

(٣) ضرى بالشئ : كتب : اعتاده وأولع به ، ويعدى بالهز والتضمين ، فيقال : أضريته وضريته :

أي أغريته به . (٤) الكلوم جمع كلم بالفتح وهو الجرح .

وَسُبِّلِ اللَّهِ تَعَالَى غَيْرِ مُنْسَدَّةٍ ، مَا لَمْ يَنْبِذْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِأَمَانِهِ ، وَيَمَسَّ الدَّمَ الحَرَامَ بِيَدِ
أَوْ لِسَانِهِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ : الَّذِي هَدَى بِهِ سَنًّا قَوِيماً ، وَجَلَّى مِنَ الجَهْلِ
وَالضَّلَالِ لَيْلًا بَهِيماً : « وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا .
وَعَظِيبَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَعَظِيمٌ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيماً » . واجتناب الزنا وما تعلق به ،
مِنْ أَخْلَاقٍ مَنْ كَرُمَتْ طِبَاعُهُ ، وامتد في سبيل السعادة بأعه ، لو لم تلتق نورَ الله
الذي لم يَهْدِ شِعَاعُهُ ، فَالْحَلَالُ لَمْ تَضِقْ عَنْ الشَّهَوَاتِ أَنْوَاعُهُ ، وَلَا عُدِمَ إِقْنَاعُهُ ،
وَمَنْ غَلَبَتْ غَرَائِزُ جَهْلِهِ . فليُنظَرُ : هل يجب أن يُزَنَى بأهله؟ والله قد أعدَّ للزاني
عَذَابًا وَبِيلاً . وَقَالَ : « وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا » .
والمحرم الكبائر . ومفتاح الجرائم والجرائر^(١) . والله لم يجعله الله في الحياة شرطاً .
والمحرم قد أغنى عنه بالحلل الذي سَوَّغَ وَأَعْطَى . وقد تركها في الجاهلية أقوام لم يرضوا
لعقولهم بالفساد . ولا لنفوسهم بالمضرة في مرضاة الأجساد . والله تعالى قد جعلها
رِجْسًا مُحَرَّمًا عَلَى الْعِبَادِ : وَقَرَّنَهَا بِالْأَنْصَابِ وَالْأَزْلَامِ فِي مُبَايَنَةِ السَّدَادِ^(٢) . وَلَا تَقْرَبُوا
الرَّبَّاءَ . فَإِنَّهُ مِنْ مَنَاهِي الدِّينِ . وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ : « وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَاءِ إِنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ » . وَقَالَ : « فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِمَحْرَبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ » فِي الْكِتَابِ
الْمِيِّنِ . وَلَا تَأْكُلُوا مَالَ أَحَدٍ بِغَيْرِ حَقٍّ يُبِيحُهُ . وَانزِعُوا الطَّعْمَ^(٣) عَنْ ذَلِكَ حَتَّى
تَذْهَبَ رِيحُهُ . وَاتَّمَسُوا الْحَلَالَ يَسْعَى فِيهِ أَحَدُكُمْ عَلَى قَدَمِهِ . وَلَا يَكِلْ خِيَارَهُ
إِلَّا لِلتَّقَى مِنْ خَدَمِهِ . وَلَا تَلَجُّنُوا إِلَى الْمُتَشَابِهِ إِلَّا عِنْدَ عَدَمِهِ . فَهُوَ فِي السُّلُوكِ إِلَى اللَّهِ
تَعَالَى أَصْلٌ مُشْرُوطٌ . وَالْحَافِظُ عَلَيْهِ مَغْبُوطٌ . وَإِيَّاكُمْ وَالظُّلْمَ . فَالظالم ممقوت بكل لسان

(١) الحرائر جمع جريرة : وهي الجريمة .

(٢) يشير إلى قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ

وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » .

(٣) الطعم : الشهوة .

مُجَاهِرِ اللَّهِ تَعَالَى بِصَرِيحِ الْمُصَيَّانِ ، « وَالظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » كما ورد في الصَّحاحِ الحَسَنِ ، والنِّمِةُ فسادٌ وشتاتٌ ، لا يَبْقَى عَلَيْهِ مُتَاتٌ ^(١) ، وفي الحديث : « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَاتٌ ^(٢) » وَأَطْرَحُوا الحَسَدَ ، فمَاسَدَ حَسُودٍ ، وإيَّاكُمْ وَالنِّبْيَةَ فباب الخَيْرِ مَعَهَا مَسُودٌ ، والبخلُ ، فمَارِئِي البَخِيلِ وَهُوَ مودودٌ ، وإيَّاكُمْ وَمَا يُعْتَذَرُ مِنْهُ ، فمَوَاقِعَ الخَزْيِ لَا تُسْتَقَالُ عَثْرَاتُهَا ، وَمَظَنَّاتُ الفَضَائِحِ لَا تُؤْمَنُ عَمَرَاتُهَا ، وَتَفْقَدُوا أَنْفُسَكُمْ مَعَ السَّاعَاتِ وَأَنْفُسُوا السَّلَامَ فِي الطَّرُقَاتِ وَالجَمَاعَاتِ ، وَرَقُّوا عَلَى ذَوِي الزَّمَانَاتِ ^(٣) وَالْعَاهَاتِ ، وَتَاجِرُوا مَعَ اللَّهِ بِالصَّدَقَةِ يُرَى بِحُكْمِ فِي البِضَاعَاتِ ، وَعَوَّلُوا عَلَيْهِ وَحَدَّهُ فِي الشَّدَائِدِ ، وَاذْكُرُوا الْمَسَاكِينَ إِذَا نَصَبْتُمُ الْمَوَائِدَ ، وَتَقَرَّبُوا إِلَيْهِ بِالْيَسِيرِ مِنْ مَالِهِ . وَاعْلَمُوا أَنَّ الخَلْقَ عِيَالُ اللَّهِ ، وَأَحَبُّ الخَلْقِ إِلَيْهِ الْمُحْتَاطُ لِعِيَالِهِ ، وَارْعُوا حَقُوقَ الجَارِ ، وَاذْكُرُوا مَا وَرَدَ فِي ذَلِكَ مِنَ الآثَارِ ، وَتَعَاهَدُوا أَوْلَى الأَرْحَامِ ، وَالوَشَائِحِ ^(٤) البَادِيَةَ الِاتِّحَامِ ، وَاحْذَرُوا شَهَادَةَ الزُّورِ : فَإِنَّهَا تَقْطَعُ الظُّهْرَ ، وَتُفْسِدُ السَّرَّ وَالجَهْرَ ، وَالرُّشَا ، فَإِنَّهَا تَحْطُّ الأَقْدَارَ ، وَتَسْتَدْعِي المَذَلَّةَ وَالصَّغَارَ ، وَلَا تَسَاحُجُوا فِي لُغْبَةِ قَمَرٍ ^(٥) ، وَلَا تَشَارِكُوا أَهْلَ البَطَالَةِ فِي أَمْرِ ، وَصُونُوا المَوَاعِيدَ مِنَ الإِخْلَافِ ، وَالْأَيْمَانَ مِنْ حِنْثِ الأَوْغَادِ وَالْأَجْلَافِ ، وَحَقُوقَ اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الأَزْهَرَاءِ وَالِاعْتِسَافِ ، وَلَا تَلَهَّجُوا بِالأَمَالِ المِجَافِ ^(٦) وَلَا تَكَلَّفُوا بِالكَهَانَةِ وَالِارْجَافِ ، وَاجْعَلُوا العَمْرَ بَيْنَ مَعَاشٍ وَمَعَادٍ ، وَخُصُوصِيَّةَ وَابْتِعَادٍ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ بِالمِرْصَادِ ، وَأَنَّ الخَلْقَ بَيْنَ زَرْعٍ وَحَصَادٍ ، وَأَقْلُوا بِغَيْرِ الحَالَةِ البَاقِيَةِ المَمُومِ ، وَاحْذَرُوا القَوَاطِعَ عَنِ السَّعَادَةِ كَمَا تُحْذِرُ السُّومَ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الخَيْرَ أَوْ الشَّرَّ فِي الدُّنْيَا مُحَالٌ أَنْ يَدُومَ ، وَقَابِلُوا بِالصَّبْرِ أَذِيَّةَ المُؤْذِنِ ، وَلَا تَعَارِضُوا مَقَالَاتِ الظَّالِمِينَ ، فَاللَّهُ لَنْ يُغَيَّ عَلَى خَيْرِ النَّاصِرِينَ ، وَلَا تَسْتَعْظَمُوا

(١) التقات : ما يمت به أي يتوسل .

(٢) القنات : الغمام .

(٣) الزمانه : العاهة .

(٤) الوشائج جمع وشيجة : وهي اذئباك القرابية .

(٥) قمره : غلبه في لعب القمار .

(٦) المِجَاف جمع عِجَاف : وهو المهزولة .

حوادث الأيام كما نزلت ، ولا تَضِجُوا للأمراض إذا أَعْضَلَتْ ، فكلُّ مُنْقَرِضٍ حقير ، وكلُّ مُنْقَاضٍ وإن طال قصير ، وانتظروا الفرج ، وانتشقوا من جناب الله تعالى الأرج^(١) ، وأوسعوا بالرجاء الجوائح ، واجنحوا إلى الخوف من الله تعالى فطوبى لعبدٍ إليه جانح ، وتضرعوا إلى الله تعالى بالدعاء ، والجنوا إليه في البأساء والضراء ، وقابلوا نعم الله تعالى بالشكر الذي يقيد به الشارد ، وَيَقْذِبُ الوارد ، وَأَسْهِمُوا^(٢) منها للمساكين وأفضلوا عليهم ، وعينوا الحظوظ منها لديهم ؛ فمن الآثار : « يا عائشة أحسني جوار نعم الله ، فإنها قلَّه أزلت عن قوم فعادت إليهم » ، ولا تطفوا في النعم وتقصروا عن شكرها ، وتغلبكم^(٣) الجهالة بسكرها ، وتوهموا أن سعيكم جلبها ، وجدكم حلتها ، فالله خير الرازقين ، والعاقبة للمتقين ، ولا فعل إلا لله إذا نظر بعين اليقين ، والله الله لا تنسوا الفضل بينكم ، ولا تذهبوا بذهابه زينكم ، وليلتزم كل منكم لأخيه ، ما يشتد به توأخيه ، بما أمكنه من إخلاص وبر ، ومراعاة في علانية وسر ، وللإنسان مزية لا تُجْهَل ، وحق لا يُهْمَل ، وأظهروا التعاضد والتناصر ، واصلوا التعاهد والتزاور ، تُرْغَمُوا بذلك الأعداء ، وتستكثروا الأوداء ، ولا تتنأفسوا في الحظوظ السخيفة ، ولا تتهاوشوا تهاوش السباع على الجيفة . واعلموا أن المعروف يكدر بالامتنان ، وطاعة النساء شر ما أفسد بين الإخوان ، فإذا أسديتم معروفاً فلا تذكروه ، وإذا برز قبيح فاستروه ، وإذا أعظم النساء أمراً فاحقره ، والله الله لا تنسوا مقارضة سجلي^(٤) ، وبرثوا أهل مودتي من أجلي ، ومن رزق منكم مالا بهذا الوطن القليق المهاد ، الذي لا يصلح لغير الجهاد ، فلا يستهلكه أجمع في العقار ، فيصبح عرضة للمذلة والاحتقار ، وساعياً لنفسه - إن تغلب العدو على بلده -

(١) الأرج : توهج ريح الطيب . (٢) أسهموا : أعطاه سبباً .

(٣) في الأصل : « وتغلبكم » ، وأراه محرفاً عن « وتغلبكم » .

(٤) السجل : النصيب . والمعنى : إنكم مدينون لي بما قدمت لكم من معروف ، فلا تنسوا أن تردوه

في الافتضاح والافتقار ، ومعوقاً عن الانتقال ، أمام النوب الثقل ، وإذا كان رزق
العبد على المولى ، فالإجمال في الطلب أولى ، وازهدوا جهدكم في مصاحبة أهل الدنيا
نخيرها لا يقوم بشرها ، ونفعها لا يقوم بضرها ، وأعقاب من تقدم شاهدة ، والتواريخ
لهذه الدعوى عاضدة ، ومن يبلى بها منكم فليستظهر بسعة الاحتمال ، والتقلل من
المال ، وليحذر معاودة الرجال ، ومزلات الأدلال ، وفساد الخيال ، ومداخلة العيال ،
وإفشاء السر ، وسكر الاغترار ، فإنه دأب الغر ، وليصن الديانة ، ويؤثر الصمت
ويلازم الأمانة ، ويسر من رضا الله على أوضح الطرق ، ومهما اشتبه عليه
أمران قصد أقربهما إلى الحق ، وليقف في التماس أسباب الجلال دون الكمال غير
النقصان ، والزعازع تسالم اللدن^(١) اللطيف من الأغصان ، وإياكم وطلب الولايات
رغبة واستجلاباً ، واستظهاراً على الخطوب وغلاباً ، فذلك ضرر بالمروءات والأقدار ،
داع إلى الفضيحة والعار ، ومن امتحن بها منكم اختياراً ، أو جبر عليه إكراهاً
وإشاراً ، فليتلق وظائفها بسعة صدره ، ويبدل من الخير فيها ما يشهد أن قدرها دون
قدره ، فالولايات فتنة ومحنة ، وأسرى وإحنة ، وهي بين إخطاء سعادة . وإخلال
بعبادة وتوقع عزل . وإدالة^(٢) بإزاء بيع جدّ بهزل ، ومزلة قدم ، واستتباع ندم .
ومآل العمر كله موت ومعاد ، واقتراب من الله وابتعاد . جعلكم الله ممن نفعه بالتبصير
والتنبيه ومن لا ينقطع بسببه عمل أبيه . هذه - أسعدكم الله - وصيتي التي أصدرتها .
وتجارتى التي لربحكم أدرتها . فتلقوها بالقبول لنصحها . والاهتداء بضوء صبحها .
وبقدر ما أمضيت من فروعها . واستغشيت من دروعها . اقتنيت من المناقب الفاخرة .
وحصلت على سعادة الدنيا والآخرة . وبقدر ما أضعم لآلها النفيسة القيم . استكثرتم
من بواعث الندم . ومهما ستمم إطالتيها . واستغزرتم مقاتلتها ، فاعلموا أن تقوى الله
فذلك^(٣) الحساب ، وضابط هذا الباب . كان الله خليفتي عليكم في كل حال . فالدنيا

(١) اللدن : اللبن .

(٢) الإدالة : الغلبة .

(٣) فذلك حسابه كدحرج : أهاه وفرغ منه ، محترمة من قوله إذا أجل حسابه : فذلك كذا وكذا .

مُنَاحِ ارْتِمَالٍ ، وَتَأْمِيلِ الْإِقَامَةِ فَرَضِ مُحَالٍ . فَالْوَعْدُ لِلِالْتِقَاءِ دَارِ الْبَقَاءِ . جَعَلَ اللَّهُ مِنْ وَرَاءِ خُطَّتِهِ الْبِحَاثَةَ ، وَنَفَقَ بِضَائِعِهَا الْمُرْجَاةَ^(١) . بِلَطَائِفِهِ الْمُرْتَجَاةَ . وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ مِنْ حَبِيبِكُمُ الْمَوْدَعِ . وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ يُبَلِّغُهُ^(٢) حَيْثُ شَاءَ مِنْ شَمَلٍ مُتَصَدِّعٍ . وَاللَّهُمَّ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْخَطِيبِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ . (نفع الطيب ٤ : ٤١٩)

١٨ - خطبة وعظية له

وَصَدَرَ عَنْهُ عَلَى لِسَانٍ وَعَظٌ :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ الْوَلِيِّ الْحَمِيدِ . الْمُبْدِيِّ الْمَعِيدِ . الْبَعِيدِ فِي قُرْبِهِ مِنَ الْعَبِيدِ . الْقَرِيبِ فِي بَعْدِهِ . وَهُوَ أَقْرَبُ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ^(٣) . مُحْيِي رُبُوعِ الْعَارِفِينَ بِتَحِيَّاتِ حَيَاةِ التَّوْحِيدِ . وَمُفْنِي نَفُوسِ الزَّاهِدِينَ بِكَنْوُزِ احْتِقَارِ الْاِفْتِقَارِ إِلَى الْعَرَضِ الزَّهِيدِ . وَمُخْلَصِ خَوَاطِرِ الْمُحَقِّقِينَ مِنْ سَجُونِ دُجُونِ^(٤) التَّقْيِيدِ . إِلَى فُسْحِ التَّجْرِيدِ . نَحْمَدُهُ وَلَهُ الْحَمْدُ الْمُنْتَظِمَةُ دُرْرُهُ فِي سُلُوكِ الدَّوَامِ . وَسُمُوطِ^(٥) التَّأْيِيدِ . حَمْدٌ مِنْ نِزْوَةِ أَحْكَامِ وَحْدَانِيَّتِهِ . وَأَعْلَامِ فَرْدَانِيَّتِهِ ، عَنْ مَرَابِطِ التَّقْيِيدِ ، وَتَحَابُطِ الطَّبَعِ الْبَلِيدِ ، وَنَشْكُرُهُ شُكْرَ مَنْ افْتَسَحَ بِشُكْرِهِ أَبْوَابَ الْمَزِيدِ ، وَنَشْهَدُ أَنَّهُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ شَهَادَةً تَنْخَطِي بِهَا مَعَالِمَ الْخَلْقِ ، إِلَى حَضْرَةِ الْحَقِّ ، عَلَى كَيْدِ التَّفَرِيدِ ، وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ قِلَادَةُ الْجِيدِ الْمَجِيدِ ، وَهَلَالُ الْعِيدِ ، وَفَذَلِكَ الْحَسَابُ وَبَيْتُ الْقَصِيدِ ، الْخُصُوصُ بِمَنْشُورِ الْإِدْلَالِ^(٦) ، وَإِقْطَاعِ الْكَمَالِ ، بَيْنَ مَقَامِ الْمُرَادِ وَمَقَامِ الْمُرِيدِ ، الَّذِي جَعَلَهُ السَّبَبَ الْأَوْصَلَ فِي نَجَاةِ النَّاجِي وَسَعَادَةِ السَّعِيدِ ، وَخَاطِبِ الْخَلَائِقِ عَلَى لِسَانِهِ الصَّادِقِ بِحُجَّتِي الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ ، فَكَانَ مِمَّا أَوْحَى بِهِ إِلَيْهِ ، وَأَنْزَلَ الْمَلَكُ بِهِ عَلَيْهِ ، مِنَ الذِّكْرِ الْحَمِيدِ ، لِيَأْخُذَ

(١) بضاعة مرجاة : رديئة أو قليلة يردّها ويدفعها من رآها رغبة عنها ، ونفق السلة تنفيقا :

روجها . (٢) لأم الجرح والصدع كقطع ، والأمة : سده .

(٣) مرقى والمنق . (٤) أي ظلام التقييد ، والدجون جمع دجن بالفتح : وهو لباس الغيم الأرض

واقطار السماء . (٥) سموط جمع سمط بالكسر : وهو خيط للنظم . (٦) أدل عليه : وثق بمحبته .

بِالْحِجْرِ^(١) وَالْأَطْوَاقِ مِنَ الْعَذَابِ الشَّدِيدِ: « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمُ مَا تَوْسُوْنَ بِهِ نَفْسُهُ . وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ . إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ قَعِيدٌ . مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ . وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ . وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ . وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ : لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ » ، صلى الله عليه وعلى آله صلاة تقوم ببعض حقه الأکید ، وَتَسْرَى إِلَى تَرْبَتِهِ الزَّكِيَّةِ مِنْ ظُهُورِ الْمَوَاجِدِ الْجَائِيَةِ عَلَى الْبَرِيدِ :

قعدتُ لتذكير ، ولو كنتُ منصفاً لذكرتُ نفسى فى أحوجُ للذكرى
إذا لم يكن منى لفسى واعظُ فياليت شعرى كيف أفل فى الأخرى؟
آه ، أى وعظ بعد وعظ الله تعالى يا أحبابنا يسمع ، وفى ماذا - وقد تبين الرشدُ
من الغى - يُطعم؟ يامن يُعطى ويمنع ، إذا لم تُقم الصنعة فماذا نصنع؟ أجمعنا بقلوبنا
يامن يُفرق ويجمع ، ولين حديدها بنار خشيتك ، فقد استعاذ نبىك صلى الله عليه وسلم
من قلب لا يخشع ، ومن عين لا تدمع : اعلموا رحمكم الله أن الحكمة ضالة المؤمن يأخذها
من الأقوال والأحوال ، ومن الجراد والحيوان ، وما أملاه الملوآن^(٢) ، فإن الحق نور
لا يضره أن صدر من الحامل ، ولا يقصر بمحموله احتقار الحامل ، وأتم تدرؤن أنكم
فى أطوار سفر لا تستقر لها دون الغاية رحلة ، ولا تتأنى معها إقامة ولا مهلة ، من
الأصلاب إلى الأرحام إلى الوجود ، إلى القبور إلى الشُّور إلى إحدى دارى البقاء ،
أفى الله شك؟ فلو أبصرتم مسافراً فى البرية بينى ويفرش ، ويمهد ويعرش ، ألم تكونوا
تضحكون من جهله ، وتعجبون من ركاكة عقله؟ ووالله ما أموالكم ولا أولادكم ،
وشواغلكم عن الله ، التى فيها اجتهادكم ، إلا بقاء سفر^(٣) فى فقر ، أو إعراس

(١) الحجز جمع حجرة كفرصة : وهى مفقذ الإزار ، ومن المراد بيل موضع للثبته .

(٢) الملوآن : الليل والنهار .

(٣) السفر : جماعة المسافرين .

في ليلة نَفَر^(١) ، كأنكم بها مُطْرَحَةٌ تَقْبُرُ فِيهَا الْمَوَاشِي ، وتنبؤ العيونُ عن خبرها المتلاشي « إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ » ما بعد المَقِيلِ إِلَّا الرَّحِيلَ ، ولا بعد الرحيل إِلَّا المنزِلُ الكَرِيمُ ، أو المنزل الوَبِيلُ ، وإنكم تَسْتَقْبِلُونَ أهوالاً ، سَكَرَاتُ الْمَوْتِ بَوَاكِرُ حَسَابِهَا ، وَعَتَبُ أَبْوَابِهَا ، فلو كَشَفَ الْغَطَاءَ عَنْ ذَرَّةٍ مِنْهَا لَدَهَلَتِ الْعُقُولُ وَطَاشَتِ الْأَلْبَابُ ، وما كلُّ حَقِيقَةٍ يَشْرَحُهَا الْكَلَامُ ، « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ » أفلا أعددتُم لهذه الْوَرُطَةِ حِيَلَةً ، وأظهرتم للاهتمام بها مَخِيلَةً^(٢) ! أتعويلاً على عفوه مع المقاطعة؟ وهو القاتل في مقام التهديد : « إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ » ، أأمناً من مكره مع المنابذة؟ « وَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ » أطمعاً في رحمته مع المخالفة؟ وهو يقول : « فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ » ، أُمشاقَةً وَمَعَانِدَةً؟ « وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ » ، أشكاً في الله؟ فتعالوا نُعيد الحساب ، وَتَقَرَّرِ الْعَقْدُ ، وَتَتَصِفْ بِدَعْوَةِ الْحَقِّ (أَوْ غَيْرِهَا) مِنْ الْيَوْمِ ، يُفْقَدُ عَقْدُ الْعَقَائِدِ عِنْدَ التَّسَاهُلِ بِالوعيد^(٣) ، فالعاصي يُدْمِي الْأَصْبَعَ الْوَجِيعَةَ ، والعارف يَضْمُدُّ لَهَا مَبْدَأَ الْعَصَبِ :

هكذا هكذا يكون التعامى هكذا هكذا يكون الغرور

« يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ » وما عدا مما بدا ، ورسولكم الحريص عليكم الرؤوف الرحيم يقول لكم : « الْكَيْسُ مِنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ ؛ وَالْأَحْمَقُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا ، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ الْأَمَانِي » فعلام بعد هذا المعوّل ، وماذا يتأوّل؟ اتقوا الله تعالى في نفوسكم وانصحوها واغتنموا فُرْصَ الْحَيَاةِ وَارْتَجُّوْهَا ، « أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتًا عَلَى مَا فَرَّطْتُ

(١) أعرس القوم وعرسوا : نزلوا في آخر الليل للاستراحة ، ونفر الحاج من مكة كضرب نفرأ

ونفروا .

(٢) الخيلة : الظن . (٣) أى أن المرء إذا لم يحسب لوعيد الله حساباً ، واستقرسل في انقراض المعاصي

والموبقات ، أفضى به ذلك إلى زلزلة العقيدة ، ولو أنه كان خالص الإيمان لارعوى عما نهى عنه .

فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لِمَنِ السَّخِرِينَ ، وتنادى أخرى : « هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ؟ » ، وتستغيث أخرى : « يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ » ، وتقول أخرى : « رَبِّ أَرْجِعُونِي » ، فَرَحِمَ اللَّهُ مَنْ نَظَرَ لِنَفْسِهِ ، قَبْلَ غُرُوبِ شَمْسِهِ وَقَدَّمَ لِنَفْسِهِ مِنْ أَمْسِهِ ، وَعَلِمَ أَنَّ الْحَيَاةَ تَجْرُؤُ إِلَى الْمَوْتِ ، وَالغَفْلَةَ تَقُودُ إِلَى الْفَوْتِ ، وَالصَّحَّةَ مَرَكَبَ الْأَمْلِ ، وَالشَّبِيهَةَ سَفِينَةَ تَقَطَّعَ إِلَى سَاحِلِ الْمَهْرَمِ .

وإن شاء قال بعد الخطبة :

« إخواني ، ما هذا التواني ؟ والكلفُ بالوجود الغاني ، عن الدائم الباقي ، والدهر يقطع الأمانى ، وهادمُ اللذات قد شرع في نقض المباني ، ألا معتبر في عالم هذه المعاني ، ألا مرتحل عن مغايب هذه المغاني ^(١) ؟

أَلَا أُذُنٌ تُصْفِي إِلَى سَمِيعَةٍ أَحَدَّثَهَا بِالصَّدْقِ مَا صَنَعَ الْمَوْتُ
مَدَدْتُ لَكُمْ صَوْتِي فَأَوَّاهُ حَسْرَةً عَلَى مَا بَدَأَ مِنْكُمْ فَلَمْ يُسْمَعْ الصَّوْتُ
هُوَ الْقَدَرُ الْآتِي عَلَى كُلِّ أُمَّةٍ فَتَوَبُوا سِرَّاعًا قَبْلَ أَنْ يَقَعَ الْفَوْتُ

يَا كَلِفًا بِمَا لَا يَدُومُ ، يَا مَفْتُونًا بِغُرُورِ الْوُجُودِ الْمَعْدُومِ ، يَا صَرِيحَ جِدَارِ الْأَجْلِ الْمَهْدُومِ ، يَا مُشْتَفِلًا بَيْنِيانِ الطَّرِيقِ قَدْ ظَهَرَ الْمُنَاخُ وَقَرَّبَ الْقُدُومَ ، يَا غَرِيقًا فِي بَحَارِ الْأَمْلِ بِأَعْسَاكَ تَعُومُ ! يَا مُعَلَّلَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ، وَتَمَحَّجَ السَّرَابِ ^(٢) ، لَا بَدَّ أَنْ تَهْجُرَ الْمَشْرُوبَ وَتَتْرَكَ الْمَطْعُومَ ، دَخَلَ سَارِقُ الْأَجْلِ بَيْتَ عَمْرٍكَ فَسَلَبَ النِّشَاطَ وَأَنْتَ تَنْظُرُ ، وَطَوَى الْبَسَاطَ وَأَنْتَ تُكْرَبُ ^(٣) ، وَاقْتَلَعَ جَوَاهِرَ الْجَوَارِحِ ، وَقَدْ وَقَعَ بِكَ النَّهْبُ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ يَجْعَلَ الْوَسَادَةَ عَلَى أَنْفِكَ وَيَقْعُدَ :

لَوْ خُفِّفَ الْوُجْدُ عَنِّي دَعَوْتُ طَالِبَ ثَارِي

« كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا » ، كَيْفَ التَّرَاخِي وَالْفَوْتُ مَعَ الْأَنْفَاسِ يُنْتَظَرُ ،

(١) المغاني : جمع مغنى وهو المنزل .

(٢) السراب : ما يرى وسط النهار كأنه ماء . (٣) كرهه لذيذ كمنصر : اشتد عليه .

كيف الأمان وهاجم الموت لا يُبقي ولا يذر ، كيف الركون إلى الطمع الفاضح
وقد صحَّ الخبر؟ من فكر في كرب الخمار^(١) تنفّست عنده لذة النييد ، من أحسَّ
بلفظ^(٢) الحريق فوق جدّاره ، لم يُصغِر بصوته لِنفمة العود ، من تيقنَ بذلَّ العُرلة ،
هان عليه ترك الولاية .

ما قامَ خيرُكَ يا زمانُ بشره أُولَى لنا ما قلَّ منك وما كفى
أوحى الله سبحانه إلى موسى صلوات الله وسلامه عليه : أنْ ضَعْ يَدَكَ عَلَى مَتْنِ نُورٍ
فَبِعَدَدِ مَا حَادَتْهُ مِنْ شَعْرِهِ تَعِيشَ سَنِينَ ، فقال: يا رب وبعد ذلك؟ قال : تموت ، قال :
يا رب فالآن .

رأى الأمرَ يُفِضِي إِلَى آخِرٍ فَصَيَّرَ آخِرَهُ أَوَّلًا
إِذَا شَعَرْتَ نَفْسَكَ بِالْمِيلِ إِلَى شَيْءٍ فَأَعْرِضْ عَلَيْهَا غُصَّةَ فِرَاقِهِ « لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ
عَنْ بَيْتِنَا ، وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيْتِنَا » فالفروح به هو المحزون عليه ، أين الأحباب
مَرُّوا؟ فياليت شعري أين استقروا؟ استكانوا والله واضطُّروا ، واستغاثوا مَنْ
سَبَقَكَ^(٣) بأولياهم ففرُّوا ، وليتهم إذ لم ينفعوا ما ضرُّوا ، فالنازل من بعدهم خالية
خاوية ، والعروش ذابلة زاوية ، والعظام من بعد التفاصيل متشابهة متساوية ، والمساكن
تندُّب في أطلالها الذئابُ العاوية .

صَحْتُ بِالرَّبِّعِ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَيْتَ شِعْرِي أَيْنَ يَمْضِي الْغَرِيبُ؟
وَبِحَنْبِ الدَّارِ قَبْرٌ جَدِيدٌ مِنْهُ يَسْتَسْقِي الْمَكَانُ الْجَدِيدُ
غَاضٌ قَلْبِي فِيهِ عِنْدَ التَّحَايِ قَلتُ : هَذَا الْقَبْرِ فِيهِ الْحَبِيبُ^(٤)
لَا تَسَلْ عَن رَجَعْتِي كَيْفَ كَانَتْ إِنَّ يَوْمَ الْبَيْنِ يَوْمَ عَصِيبُ

(١) الخمار: صهاع الخمر وأذاها . (٢) أي يرميه . (٣) هكذا في الأصل ، وكان يمكن أن
يقول : « واستغاث من سبقك بأولياهم » إلا أن يخرج على أن « من » مبتدأ مؤخر كما في قوله تعالى :
« نُحْمٌ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ » وقوله : « وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا » أو « من »
بدل من واو الجماعة . (٤) لمحوه والمهه والتمحه : إذا أبصره بنظر خفيف .

باقتراب الموت عللتُ نفسي بعد إلفي ، كلُّ آتٍ قريبٌ
أين المعمّر الخالد ، أين الولد أين الوالد ، أين الطارف أين التالد ، أين المجادل
أين المُجالِد ؟ « هلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْرَأًا ؟ » (١) وجوه علاهِنَّ
الترّي ، وصحائفُ تفضّ ، وأعمال على الله تُعرض ، بحثُ الزّهّاد والعُباد ، والعارفون
والأوتاد ، والأنبياء الذين يهْدِي بهم العباد ، عن سبب الشقاء الذي لا سعادة بعده ،
فلم يجدوا إلا البُعد عن الله تعالى ، وسببه حُبُّ الدنيا ، « لن تجتمع أمّتي
على ضلالة » .

هَجَرْتُ حَبَائِي مِنْ أَجْلِ لَيْلِي فَمَا لِي بَعْدَ لَيْلِي مِنْ حَبِيبٍ
وَمَاذَا أُرْتَجِي مِنْ وَصْلِ لَيْلِي سَتَجْزِي بِالْقَطِيعَةِ عَنْ قَرِيبٍ
وقالوا : ما أوردَ النفسَ الموارِد ، وَفَتَحَ عَلَيْهَا بَابَ الحُتْفِ إِلَّا الأمل ، كما
قَوْمَهَا مَثَاقِفُ الحُدُود ، فَتَحَ لَهَا أركانَ الرِّخْصِ . كما عَقَدَتْ صومَ العزيمَةِ ،
أهداها طَرْفَ الغُرُورِ فِي أَطْبَاقٍ « حَتَّى وَإِذَا وَلَكِنْ وَرُبَّمَا » فأفْرَطَ القابُ فِي تَقْلِيمِهَا
حتى أَفْطَرَ :

مَا أَوْبَقَ الأَنْفَسَ إِلَّا الأَمَلُ وَهُوَ غَرُورٌ مَا عَلَيْهِ عَمَلُ
يَفْرُضُ مِنْهُ الشَّخْصُ وَهَمًّا مَالَهُ حَالٌ ، وَلَا ماضٍ ، وَلَا مُسْتَقْبَلُ
مَا فَوْقَ وَجْهِ الأَرْضِ نَفْسٌ حَيَّةٌ إِلَّا قَدْ انْقَضَ عَلَيْهَا الأَجَلُ
لَوْ أَنَّهُمْ مِنْ غَيْرِهَا قَدْ كَوَّنُوا لَأَمْتَلَأَ السَّهْلُ بِهِمْ وَالجَبَلُ
مَا نَمَّ إِلَّا لَقَمٌ قَدْ هَيَّئَتْ للموت ، وَهُوَ الأَكِلُ المُسْتَعْجِلُ
وَالوَعْدُ حَقٌّ ، وَالوَرَى فِي غَفْلَةٍ قَدْ خُودِعُوا بِعَاجِلٍ وَضَلُّوا
أين الذين شَيَّدُوا واغْتَرَسُوا وَمَهَّدُوا وافْتَرَشُوا وَظَلَّلُوا ؟

أين ذوو الراحة زادت حسرة
لم تدفع الأحبابُ عنهم غيرَ أن
الله في نفسك أولى من له
لا تتركها في عمى وخبيرة
حقر لها الفاني، وحاول زهداها
وفد إلى الله بها مضطرة
هو الفناء، والبقاء بعده
يا قرّة العين ويا حسرتها
إذ جنبوا إلى الثرى وانتقلوا^(١)
بكوا على فراقهم وأعولوا
ذخرت نصحا وعتابا يقبل^(٢)
عن هول ما بين يديها تفغل
وشوقها إلى الذي تستقبل
حتى ترى السير عليها يسهل^(٣)
والله عن حكته لا يسأل
يوم يوفى الناس ما قد عملوا

ياطرُد^(٤) الخالفة، إنكم مُدرّكون، قاستبقوا باب التوبة، فإن ربّ تلك الدار
يُخبر ولا يُجار عليه « فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا هَدَاكُمْ »، ياطفيئية الهمة،
دُشوا أنفسكم بزمر التائبين، وقد دُعوا إلى الله دعوة الحبيب، فإن لم يكن أكل فلا
أقلّ من طيب الوليمة، قال بعض العارفين: إذا عقد التائبون الصلح مع الله تعالى،
انتشرت رعايا الطاعة في عمالة الأعمال، « وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا . وَوُضِعَ
الْكِتَابُ » معاني هذا المجلس والله نسيم سحر، إذ استنشقه نخمور الغفلة أفاق،
سَعُوط^(٥) هذا الوعظ ينقض^(٦) إن شاء الله زكمة البطالة، إن الذي أنزل الداء أنزل الدواء،
إِكسير^(٧) هذا الكتاب يلقب بحكمة جابر^(٨)، القلوب المنكسرة عين من كان له قلب

(١) جنبه : دفعه . (٢) أى اتق الله في نفسك التي هي أولى . . . الخ .

(٣) فذ : أمر من وفد أى اقدم . (٤) الطريدة : ما طردت من صيد أو غيره .

(٥) فى الأصل « سوط » وأراه محرفا عن « سعوط » كما يدل عليه سياق الكلام ، والسعوط : الدواء .

يصب فى الأنف . (٦) فى الأصل « يبخض » وأراه « ينقض » أى يذهب .

(٧) الإكسير : الكيمياء .

(٨) يريد جابر بن حيان . قال ابن القفطى فى تاريخ الحكماء فى ترجمته « هو جابر بن حيان الصوفى

الكوفى ، وكان متقدما فى العلوم الطبيعية ، وفى صناعة الكيمياء . . . الخ » وذكره ابن زيدون فى

رسالته الهزلية ، فقال : « وأظهرت جابر بن حيان حل سر الكيمياء » قال ابن نباتة فى شرح للعيون :

« وأما جابر بن حيان المذكور فلا أعرف له ترجمة صحيحة فى كتاب يعتمد عليه ، وهذا دليل على قول -

« إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ » إلهي دُلْنَا من حَيْرَةٍ يَضِلُّ فِيهَا - إِلَّا إِنْ هَدَيْتَ - الدليلُ ، وَأَجْرِنَا من غَمْرَةٍ ^(١) وكيف - إِلَّا بِإِغَائِثِكَ - السبيلُ ، نفوسٌ صَدَى من مَرِّ الأَزْمَانِ مِنْهَا الصَّقِيلُ ، وَنَبَأٌ بِمُجْنُوبِهَا عَنِ الحَقِّ المَقِيلُ - وَأَذَانٌ أَنهَضَهَا القَوْلَ الثَقِيلُ ، وَعَثْرَاتٌ لَا يَقْبَلُهَا إِلَّا أَنْتَ يَا مُقِيلَ العَثْرَاتِ يَا مُقِيلَ ، أَنْتَ حَسْبُنَا ونَعْمَ ^(٢) الوكيلُ . (نفع الطيب ٤ : ٨٥)

١٩ - وصية موسى بن سعيد العنسي ^(٣) لابنه

قال أبو الحسن علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد العنسي :
لما أردت النهوض من ثغر الإسكندرية إلى القاهرة ، أول وصولي إلى الإسكندرية
رأى أبي أن يكتب لي وصية أجعلها إماماً في الغربية ، فبقى فيها أياماً إلى أن كتبتها
عنه ، وهي هذه :

أودِعَكَ الرَّحْمَنَ فِي غُرْبَتِكَ مُرْتَقِبًا رُحْمَاهُ فِي أَوْبَتِكَ

= أكثر الناس إته اسم موضوع وضعه المصنفون في هذا الفن ، وزعموا أنه كان في زمن جعفر الصادق ،
وأنه إذا قل في كتبه : قال لي سيدي ، وسمعت من سيدي ، فإنه يعني به جعفر الصادق ، وقد قدمنا لك
أن جعفر الصادق توفي سنة ١٤٨ هـ .

(١) الغمرة : الشدة . (٢) أورد المقرئ في نفع الطيب لسان الدين عقب ذلك كلاماً آخر في الوعد
وهو على نمط ما أوردناه لك فانظره هناك إن شئت .

(٣) هو الكاتب الشهير أبو عمران موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد العنسي ، من سلالة
عمار بن ياسر رضي الله تعالى عنه ، وقد نوه به ابن هود ملك الأندلس ، وولاد الجزيرة الخضراء ، وهو
من رحل من علماء الأندلس إلى المشرق ، وتوفي بالإسكندرية سنة ٦٤٠ هـ عن ٦٧ عاماً . وكان أبوه
محمد وزيراً جليلاً بعيد الصيت ، عالي الذكر ، رفيع الهمة ، كثير الأموال ، وكان ذا حظوة لدى الموحدين ،
وولي لهم أعمالاً كثيرة بمراكش وإشبيلية وقرنطة ، واتصلت ولايته على أعمال قرنطة ، وكان من
شيوخها وأعيانها .

وكان جده عبد الملك بن سعيد صاحب قلعة بني سعيد تحت طاعة علي بن يوسف بن تاشفين ملك البربر ،
إلى أن استبد بها سنة ٥٣٩ هـ .

وابنه أبو الحسن علي هو متم كتاب : « المغرب في أخبار المغرب » ، وكان السبب في تأليفه هو
جده عبد الملك بن سعيد ، ثم عمه ابنه محمد بن عبد الملك ، ثم عمه ما بقى منه ابنه موسى بن محمد ،
ثم أربى على الجميع في إتمامه علي بن موسى ، وقد ذكر في خطبته أنه بدأ فيه من سنة ٥٣٠ هـ ،
ومنتهاه إلى غرة سنة ٦٤١ هـ ، وكان مولد أبي الحسن بقرنطة سنة ٦١٠ هـ ، ووفاته بموتن سنة ٦٨٥ هـ .

وما اختياري كان طَوْعَ النَّوَى
 فلا تَطْلُ حَبْلَ النَّوَى ، إنني
 من كان مفتوناً بأبنائه
 فاختصر التوديعَ أَخْذاً ، فما
 واجعل وصاتي نُصَبَ عَيْنٍ ، ولا
 خلاصة العمر التي حُنَّكَتْ
 فلتجاريب أمورٍ إذا
 فلا تَسْمَ عن وعيها ساعةً
 وكل ما كابدته في النَّوَى
 فليس يُدْرِي أصلُ ذِي غُرْبَةٍ
 وكل ما يُفْضِي لِعُدْرِ فلا
 ولا تجالس مَنْ فشا جهله
 ولا تجادلُ أبداً حاسِداً
 وامنِ الهويئِي مُظْهِراً عِفَّةً
 أفشِ التحياتِ إلى أهلها
 وأنطق بحيثُ العِيِ مستقبِحٌ
 ولا تزلُ مُجْتَمِعاً طالِباً
 وكلما أبصرتها أمكنتُ
 وِجْ عَلَى رِزْقِكَ مِنْ بَابِهِ
 لكنني أُجْرِي على بُغْيَتِكَ^(١)
 والله أَشْتاقُ إلى طَلْعَتِكَ
 فَإِنِّي أَمَعَنْتُ في خَبْرَتِكَ
 لي ناظِرٌ يَقْوَى على فُرْقَتِكَ
 تَبْرَحُ مَدَى الأيامِ من فِكْرَتِكَ
 في ساعةٍ زُفَّتْ إلى فِطْنَتِكَ^(٢)
 طالعتها تَشْحَدُ من غفلتك
 فإنها عَوْنٌ إلى يَقْظَتِكَ^(٣)
 إياك أن يكسِرَ من هِمَّتِكَ
 وإنما تُعرَفُ من شِيَمَتِكَ
 تجعله في الغربة من إرْبَتِكَ^(٤)
 وأقصدُ لِمَنْ يَرغبُ في صِنْعَتِكَ
 فإنه أَدْعِي إلى هَيْبَتِكَ
 وأبغِ رِضا الأعينِ عن هَيْبَتِكَ
 وَنَبِّهِ النَّاسَ على رُبَّتِكَ
 وأصمتُ بحيثُ الخَيْرِ في سَكْتَتِكَ
 من دهرِكَ الفُرْصَةَ في وَثْبَتِكَ
 ثِبْ وَاثِقاً باللهِ في مَكْنَتِكَ^(٥)
 وأقصدُ له ما عِشْتُ في بُكْرَتِكَ

(١) النوى : اللبم . (٢) حنكت : أحكت . (٣) الليقظة بالعريك وسكنه للشعر .

(٤) الإربة : الحاجة .

(٥) المكنة بفتح فكسر : التمكن والقدرة ، وسكنه للشعر .

وَأَيْسٌ مِنَ الْوَدِّ لَدَيْ حَاسِدٍ .
وَوَفَّرَ الْجَهْدَ ، فَمَنْ قَصَدَهُ
وَوَفَّ كَلًّا حَقَّهُ ، وَلَتَكُنْ
وَلَا تَكُنْ تَحْقِرُ ذَا رُتْبَةٍ
وَحَيْثَا خِيَّمَتْ فَأَقْصِدْ إِلَى
وَلِلرَّزَايَا وَثْبَةٌ ، مَا هَا
وَلَا تَقُلْ : (أَسْلَمَ لِي وَحَدَّثِي)
وَالْتَزِمِ الْأَحْوَالَ وَزَنًّا وَلَا
وَلتَجْعَلِ الْعَقْلَ مَحْكَمًا ، وَخَذْ
وَاعْتَبِرِ النَّاسَ بِالْفَاظِهِمْ
بَعْدَ اخْتِبَارِ مَنْكَ يَقْضِي بِمَا
كَمْ مِنْ صَدِيقٍ مُظْهِرٍ نُصِيحَةٍ
إِيَّاكَ أَنْ تَقْرَبَهُ ، إِنَّهُ
وَاقْنَعْ إِذَا مَا لَمْ تَجِدْ مَطْمَعًا
وَأَنْتُمْ نَمُوَ النَّبْتُ قَدْ زَارَهُ
وَإِنْ نَبَا دَهْرٌ فَوَطَّنْ لَهُ
فَكُلْ ذِي أَمْرٍ لَهُ دَوْلَةٌ
وَلَا تُضَيِّعْ زَمَنًا مُمَكِّنًا
وَالشَّرَّ مَهْمَا أُسْطَعَتْ لَا تَأْتَهُ

ضِدُّ ، وَنَافِسُهُ عَلَى خُطَّتِكَ (١)
قَصْدُكَ لَا تَعْتَبِهِ فِي بَغْضَتِكَ
تَكْسِيرٌ عِنْدَ الْفَخْرِ مِنْ حَدَّثِكَ
فَإِنَّهُ أَنْفَعُ فِي غُرْبَتِكَ
صُحْبَةٌ مِنْ تَرْجُوهُ فِي نُصْرَتِكَ
إِلَّا الَّذِي تَذَخَّرُ مِنْ عُدَّتِكَ
فَقَدْ تَقَاسَى الذَّلَّ فِي وَحَدَّتِكَ
تَرْجِعْ إِلَى مَا قَامَ فِي شَهْوَتِكَ
كَلًّا بِمَا يَظْهَرُ فِي نَقْدَتِكَ
وَأُضْحَبٌ أَخَايَرُ غِبُّ فِي صُحْبَتِكَ
يُحْسِنُ فِي الْآخِذِ مِنْ خِلْطَتِكَ (٢)
وَفِي كَرِهِهِ وَقَفَّ عَلَى عَشْرَتِكَ
عَوْنٌ مَعَ الدَّهْرِ عَلَى كَرْبَتِكَ
وَاطْمَعٌ إِذَا أُنْعِشْتَ مِنْ عُسْرَتِكَ
غِيبُ النَّدَى ، وَأَسْمٌ إِلَى قَدْرَتِكَ
جَبَاشِكُ ، وَانظُرْهُ إِلَى مَدَّتِكَ
فَوَفَّ مَا وَافَاكَ فِي دَوْلَتِكَ
تَذَكَرُهُ يَذُكِي لَطْفِي حَسْرَتِكَ
فَإِنَّهُ حَوَزٌ عَلَى مَهْجَتِكَ (٣)

* * *

- (١) فِي الْأَصْلِ « وَأَيْسٌ مِنَ الْوَدِّ . . . » وَقَدْ أَصْلَحْتَهُ وَأَيْسَرَهُ « وَبِهِ يَسْتَقِيمُ الْمَعْنَى .
(٢) الْخِلَاطَةُ مِثْلُ الْعَثْرَةِ وَزَنَا وَمَعْنَى ، وَالخِلَاطَةُ بِالضَّمِّ : اسْمٌ مِنَ الْإِخْتِلَاطِ ، مِثْلُ الْفَرْقَةِ مِنَ الْإِفْتِرَاقِ .
(٣) حَازَهُ حَوَزًا : جَمَعَهُ وَضَمَّهُ وَامْتَلَكَهُ كَمَا حَازَهُ أَحْتِيَازًا ، وَالْمَعْنَى : أَنَّكَ إِنْ أَنْبَيْتَ الشَّرَّ اسْتَحْوَذَ عَلَى

نَفْسِكَ وَتَمَلَّكَكَ .

يا بُنَيَّ الذي لا ناصح له مثلى ، ولا منصوح لي مثله ، قد قدمت لك في هذا النظم ما إن أخطرتَه بخاطرك في كل أوان ، رجوتُ لك حسن العاقبة إن شاء الله تعالى ، وإن أخفَّ منه للحفظ ، وأغلقَ بالفكر ، وأحقَّ بالتقدم قول الأول :

يَزِينُ الغريبَ إذا ما اغتربَ ثلاثٌ ، فمنهن : حُسْنُ الأدبِ

وثانيةٌ : حُسْنُ أخلاقِهِ وثالثةٌ : إجتِنابُ الرِّيبِ

وإذا اعتبرتَ هذه الثلاثة ، ولزمتَها في العربة ، رأيتها جامعة نافعة ، لا يَلْحَقُكُ

إن شاء الله مع استعمالها نَدَمٌ ، ولا يفارقك برٌّ ولا كَرَمٌ ، والله دَرُّ القائل :

يَعُدُّ رَفِيعَ القومِ مَنْ كان عاقِلاً وإن لم يكن في قومه بحسبِ

إذا حلَّ أرضاً عاشَ فيها بعقله وما عاقِلٌ في بلدةٍ بِغريبِ

وما قصرَ القائل حيث قال :

وَاصْبِرْ عَلَى خُلُقِ مَنْ تُعَاشِرُهُ وَدَارِهِ ، فالليبيُّ مَنْ دَارَى

وَاتَّخَذِ النَّاسَ كُلَّهُمْ مَكَانًا وَمَثَلِ الأَرْضِ كُلَّهَا دَارًا

وَأَصْغَرَ يَا بُنَيَّ إِلَى البَيْتِ الذي هو يَتِيمَةُ الدهرِ^(١) ، وَسَلَّمَ الكرمَ والصبرَ :

وَلَوْ أَنَّ أوطانَ الديارِ نَبَتَ بِكُمْ لَسَكَنْتُمْ الأخلاقَ والأداباً^(٢)

إذ حُسْنُ الخُلُقِ أَكْرَمُ نَزِيلٍ ، والأدبُ أَرْحَبُ مَنْزِلٍ ، ولتكن كما قال بعضهم

في أدبٍ متغربٍ : « وكان كلما طرأ^(٣) على ملك ، فكأنه معه ولد ، وإليه قصد ،

غيرَ مُستريبٍ بدهره ، ولا مُنسكرٍ شيئاً من أمره » ، وإذا دعاك قلبك إلى صحبة مَنْ

أخذ بمجامعِ هواه^(٤) ، فاجعل التكلفَ له سُلماً ، وهُبَّ في روضِ أخلاقه هبوبَ النسيمِ ،

وَحُلَّ بِطَرَفِهِ حُلُولَ الوَسَنِ^(٥) وأنزل بقلبه نزولَ المسرة ، حتى يتمكن لك وداده ،

ويخلصَ فيك اعتقاده ، وطهر من الوقوع فيه لسانك ، وأغلق سمعك ، ولا تُرخص

(١) يقال : درة يتيمة : أي لانظير لها ، وكل شيء مفرد يبرز نظيره فهو يتيم .

(٢) نباه منزله : إذا لم يوافقته . (٣) طرأ عليهم كنع : أتاهم من مكان ، أو خرج عليهم منه فجأة .

(٤) الضمير فيه يعود على قلبك . (٥) الوسن : التماس .

في جانبه لحسود لك منه ، يريد إبعادك عنه لمنفعته ، أو حسود له يَغَارُ لتجمله بصحبتك
وَمَعَ هذا فلا تَغْتَرَّ بطول صحبته ، ولا تتمهّد بدوام رقدته ، فقد ينهيه الزمان ، ويُغَيِّرُ
منه القلبَ واللِّسانَ ، ولذا قيل : « إذا أَحْبَبْتَ فَأَحْبِبْ هَوْنًا مَّا ، ففي الممكن أن يتقلب
الصديق عدوًّا ، والعدو صديقًا » وإنما العاقل من جعل عقله معيارا ، وكان كالمرآة
يَلْتَقَى كلَّ وجه بمثاله ، وجعل نُصب ناظره قول أبي الطيّب :

ولما صار ودّ الناس خيبًا جزيتُ على ابتسام بابتسام^(١)

وفي أمثال العامة : « من سَمَقَ بيوم فقد سَمَقَ بعقل » ، فأخذتُ بأمثلة من جرّب ،
واستمعُ إلى ما خلد الماضون بعد جهدهم وتعبهم من الأقوال ، فإنها خلاصة عمرهم ،
وزُبْدَةُ تجاربهم ، ولا تتكلّ على عقلك ، فإن النظر فيما تعب فيه الناس طول أعمارهم ،
وابتاعوه غالِيًا بتجاربهم ، يُرْبِحُ بحك وبقع عليك رخيصةً ، وإن رأيت من له مروءة
وعقل وتجربة ، فاستفد منه ، ولا تضيع قوله ولا فعله ، فإن فيما تلقاه تلقيحًا لعقلك ،
وحنثًا لك واهتداء .

وإياك أن تعمل بهذا البيت في كلِّ موضع : وَالْحُرُّ يُخَدِّعُ بِالْكَلَامِ الطَّيِّبِ :
فقد قال أحدهم : ما قيل أضرُّ من هذا البيت على أهل التجمل ، وليس كل ما تسمع من
أقوال الشعراء يحسنُ بك أن تتبعه حتى تتدبره ، فإن كان موافقًا لعقلك ، مُصْلِحًا
لحالك ، فراع ذلك عندك : وإلا قَانِيذُهُ نَبَذَ النَوَاةَ ، فليس لكل أحد يُتَبَسَّمُ ، ولا كل
شخص يُكَلِّمُ ، ولا الجود مما يُعَمُّ به ، ولا حُسْنُ الظنِّ وطيب النفس مما يعامل به كل
أحد ، والله درّ القائل :

ومالي لا أوفى البرية قسطها على قدر ما يعطى وَعَقْلِي ميزانُ

وإياك أن تُعْطَى من نفسك إلا بقدر ، فلا تعامل الدُّونَ بمعاملة الكفاء ، ولا

الكفء بمعاملة الأعلى ، ولا تضيع عمرك فيمن يعاملك بالطامع ، وَيُنِيْبِكَ عَلَى مَصْلَحَةِ حَاضِرَةٍ عَاجِلَةٍ ، بِغَائِبَةِ آجَلَةٍ ، وَاسْمِعْ قَوْلَ الْأَوَّلِ :

وَبِعْ آجَلًا مِنْكَ بِالْعَاجِلِ : وَأَقْلِلْ مِنْ زِيَارَةِ النَّاسِ مَا اسْتَطَعْتَ ، وَلَا تَجْفُهُمْ بِالْجَلَّةِ ، وَاسْكُنْ بِكَوْنِ ذَلِكَ بِحَيْثُ لَا يَلْحَقُ مِنْهُ مَلَالٌ وَلَا ضَجَرٌ وَلَا جَفَاءٌ ، وَلَا تَقُلْ أَيْضًا : أَقْعُدُ فِي كِسْرِ بَيْتِي ، وَلَا أَرَى أَحَدًا ، وَأَسْتَرِيحُ مِنَ النَّاسِ ، فَإِنْ ذَلِكَ كَسَلَ دَائِعٍ إِلَى الذِّلِّ وَالْمَهَانَةِ ، وَإِذَا عَلِمَ عَدُوُّكَ أَوْ صَدِيقُكَ مِنْكَ ذَلِكَ ، عَامَلَاكَ بِحَسَبِهِ ، فَازْدِرَاكَ الصَّدِيقُ ، وَجَسَرَ عَلَيْكَ الْعَدُوُّ ، وَإِيَّاكَ أَنْ يَفْرُكَكَ صَاحِبٌ عَنْ أَنْ تَدَّخِرَ غَيْرَهُ لِلزَّمَانِ ، وَتَطْيِعَهُ فِي عِدَاوَةِ سِوَاهُ ، فِي الْمُمْكِنِ أَنْ يَتَغَيَّرَ عَلَيْكَ ، فَتَطْلُبُ إِعَانَةَ غَيْرِهِ ، أَوْ اسْتِغْنَاءَ عَنْهُ ، فَلَا تَجِدُ ذَخِيرَةَ قَدَمَتَيْهَا ، وَكَانَ هُوَ فِي أَوْسَعِ حَالٍ ، وَأَعْلَى رَأْيٍ ، بِمَسَادِرَتِهِ بِحِيلَتِهِ فِي انْقِطَاعِكَ عَنْ غَيْرِهِ ، فَلَوْ اتَّفَقَ لَكَ أَنْ تَصْحَبَ مِنْ كُلِّ صِنَاعَةٍ وَرِيَاةٍ ، مَنْ يَكُونُ لَكَ عُدَّةً ، لَكَانَ ذَلِكَ أَوْلَى وَأَصَوَّبَ ، وَسَانِي فَايَ خَيْرٍ ، طَالِ - وَاللَّهِ - مَا صَحِبْتُ الشَّخْصَ أَكْثَرَ عَمْرِي ، لَا أَعْتَمِدُ عَلَى سِوَاهُ ، وَلَا أَعْتَدُ إِلَّا إِيَّاهُ ، مِنْخَدَعًا بِسَرَّابِهِ ، مُوْتَوِقًا فِي جِبَائِلِ خِطَابِهِ ، إِلَى أَنْ لَا يَحْصُلَ لِي مِنْهُ غَيْرُ الْعَضِّ عَلَى الْبَنَانِ ، وَقَوْلٌ : لَوْ كَانَ وَلَوْ كَانَ ! وَلَا يَحْمِلُنَّكَ أَيْضًا هَذَا الْقَوْلُ أَنْ تَظُنَّه فِي كُلِّ أَحَدٍ ، وَتَعَجَّلَ الْمَكَافَأَةَ ، وَلَيْكُنْ حَسَنَ الظَّنِّ بِمَقْدَارِ مَا ، وَالْفَطِنَ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ مَخَابِلُ الْأَحْوَالِ ، وَفِي الْوُجُوهِ دَلَالَاتٌ وَعَلَامَاتٌ ، وَأَصْغَرَ إِلَى الْقَائِلِ :

لَيْسَ ذَا وَجْهِ مَنْ يَضِيفُ وَلَا يَقْدِرُ سَرِيًّا وَلَا يَدْفَعُ الْأَذَى عَنْ حَرِيمٍ ^(١)
فَمَنْ يَكُنْ لَهُ وَجْهٌ مِثْلُ هَذَا الْوَجْهِ فَوَلِّ وَجْهَكَ عَنْهُ قَبْلَةَ تَرْضَاهَا ، وَلْتَحْرَصْ جُهْدَكَ عَلَى أَنْ لَا تَصْحَبَ أَوْ تَخْدُمَ إِلَّا رَبَّ حِشْمَةٍ وَنِعْمَةٍ ، وَمَنْ نَشَأَ فِي رِفَاهِيَةِ وَمُرُوءَةٍ ، فَإِنَّكَ تَنَامُ مَعَهُ فِي مِهَادِ الْعَافِيَةِ ، وَإِنْ الْجِيَادُ عَلَى أَعْرَاقِهَا ^(٢) تَجْرِي ، وَأَهْلُ الْأَحْصَابِ

(١) ضافه يضيفه : نزل به ضيفاً ، وقرئ للضيف كرمي : أحسن إليه .

(٢) الأعراق : جمع عرق بالكسر وهو الأصل .

والمرءات يتركون منافعهم متى كانت عليهم فيها وَصِيَّةٌ ، وقد قيل في مجلس عبد الملك ابن مروان: أَشْرِبَ مُصْعَبُ الحمر؟ فقال عبد الملك - وهو عدو له محارب له على الملك - : لو عَلِمَ مُصْعَبُ أن الماء يُفسد مُروءته ما شربه ؛ وَالْفَضْلُ مَا شَهِدَتْ بِهِ الأعداء .

يا بنى ، وقد علمت أن الدنيا دار مفارقة وتغير ، وقد قيل : « أَصْحَبُ مَنْ شِئْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ » فمتى فارقت أحداً فعلي حُسْنِي فِي القَوْلِ وَالْفِعْلِ ، فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي : هل أنت راجع إليه ؟ فلذلك قال الأول :

« وَلَمَّا مَضَى سَلْمٌ بِكَيْتٍ عَلَى سَلْمٍ » ، وَإِيَّاكَ وَالْبَيْتَ السَّائِرَ :

وَكَانَتْ إِذَا حَلَلْتَ بَدَارَ قَوْمٍ رَحَلْتَ بِخَزِيَّةٍ وَتَرَكَتَ عَارَا

وَاحْرَصْ عَلَى مَا جَمَعَ قَوْلَ القَائِلِ : « ثَلَاثَةٌ تُبْقِي لَكَ الودَّ فِي صدر أَخِيكَ : أَنْ تَبْدَأَهُ بِالسَّلَامِ ، وَتَوْسَعَ لَهُ فِي المَجْلِسِ ، وَتَدْعُوهُ بِأَحَبِّ الأَسْمَاءِ إِلَيْهِ » ، وَاحْذَرْ كُلَّ مَا بَيْنَهُ لَكَ القَائِلِ : « كُلُّ مَا تَغْرَسُهُ تَجْنِيهِ إِلَّا ابْنَ آدَمَ ، فَإِنَّكَ إِذَا غَرَسْتَهُ يَقْلَعُكَ » وَقَوْلِ الأَخْر : « ابْنَ آدَمَ يَتَمَسَّكُنُ حَتَّى يَتِمَّ كُنُّهُ » وَقَوْلِ الأَخْر : « ابْنَ آدَمَ ذُئِبَ مَعَ الضَّعْفِ ، أَسَدٌ مَعَ القُوَّةِ » .

وَإِيَّاكَ أَنْ تَنْبَتَ عَلَى صُحْبَةِ أَحَدٍ قَبْلَ أَنْ تُطِيلَ اخْتِبَارَهُ ، فَيَحْكِي أَنَّ ابْنَ المَقْعِ خَطَبَ مِنَ الخَلِيلِ صُحْبَتَهُ ، فَجَاوَبَهُ : « إِنْ الصُّحْبَةُ رِقٌّ ، وَلَا أَضْعُرِيَّ فِي يَدِكَ حَتَّى أَعْرِفَ كَيْفَ مَلَكَتُكَ ^(١) » ، وَأَسْتَمَلِ ^(٢) مِنْ عَيْنِ مَنْ تَعَاشَرَهُ ، وَتَفَقَّدْ فِي فَلَتَاتِ الأَلْسِنِ وَصَفْحَاتِ الأَوْجِهَةِ ، وَلَا يَحْمِلِكَ الحَيَاءُ عَلَى السَّكُوتِ عَمَّا يَضُرُّكَ أَنْ لَا تَبَيِّنَهُ ، فَإِنَّ الكَلَامَ سِلَاحَ السَّلْمِ ، وَبِالأُنَيْنِ يُعْرَفُ أَلْمُ الجُرْحِ ، وَاجْعَلْ لِكُلِّ أَمْرٍ أَخَذْتَ فِيهِ غَايَةً تَجْعَلُهَا نِهَايَةً لَكَ .

(١) ملكه ملكة بالتحريك ، وملكها ملك الميم ، وملكة ملك اللام . احتواه قادراً على الاستعداد به .

(٢) من استملته الكتاب : سأله أن يمليه على ، والمعنى : استرشد وتبين من نظرات عينه أحبيب

وَأَكْدُ مَا أَوْصِيكَ بِهِ أَنْ تَطْرَحَ الْأَفْكَارَ ، وَتَسَلِّمَ لِلْأَقْدَارِ .

وَاقْبَلْ مِنَ الدَّهْرِ مَا أَتَاكَ بِهِ مَنْ قَرَّرَ عَيْنًا بَعِيشَهُ نَفْعَهُ

إِذَا الْأَفْكَارَ تَجَلَّبَبَ الِهْمُومُ ، وَتَضَاعَفَ الْغُمُومُ ، وَمِلَازِمَةُ الْقُطُوبِ ، عُنْوَانُ الْمَصَائِبِ
وَالْخُطُوبِ ، يَسْتَرِيبُ بِهِ الصَّاحِبُ ، وَيَسْمَتُ الْعَدُوَّ الْمُجَانِبَ ، وَلَا تَضُرُّ بِالْوَسَاوِسِ إِلَّا
نَفْسَكَ ، لِأَنَّكَ تَنْصَرِبُ بِهَا الدَّهْرَ عَلَيْكَ ، وَنَلَّهَ دَرَّ الْقَائِلِ :

إِذَا مَا كُنْتَ لِلْأَحْزَانِ عَوْنًا عَلَيْكَ مَعَ الزَّمَانِ فَمَنْ تَلُومِ

مَعَ أَنَّهُ لَا يَرُدُّ عَلَيْكَ الْفَائِتَ الْحَزْنَ ، وَلَا يَرْعَوِي بِطُولِ عَتَبِكَ الزَّمْنَ ، وَتَقْدَرُ
شَاهِدَتْ بَغْرَ نَاطَةِ شَخْصًا قَدْ أَلْفَتَهُ الْهَمُومُ ، وَعَشِقَتْهُ الْغُمُومُ ، مِنْ صَفْرِهِ إِلَى كِبَرِهِ ، لَا تَرَاهُ
أَبْدًا خَلِيًّا مِنْ فِكْرِهِ ، حَتَّى لُقِّبَ بِصَدْرِ الْهَمِّ ، وَمَنْ أَعْجَبَ مَا رَأَيْتَهُ مِنْهُ أَنَّهُ يَتَنَكَّدُ
فِي الشَّدَةِ ، وَلَا يَتَعَلَّلُ بِأَنْ يَكُونَ بَعْدَهَا فَرَجٌ ، وَيَتَنَكَّدُ فِي الرِّخَاءِ خَوْفًا مِنْ أَنْ لَا يَدُومَ .
وَيُنْشِدُ : تَوَقَّعْ زَوَالًا إِذَا قِيلَ تَمَّ ، وَيُنْشِدُ : وَعِنْدَ التَّنَاهَى يَقْصُرُ الْمُتَطَاوِلُ .

وَلَهُ مِنَ الْحِكَايَاتِ فِي هَذَا الشَّأْنِ عَجَائِبُ ، وَمِثْلُ هَذَا عَمْرُهُ مَحْضُورٌ يَمُرُّ ضِيَاعًا .

وَمَتَى رَفَعَكَ الزَّمَانُ إِلَى قَوْمٍ يَذُمُّونَ مِنَ الْعِلْمِ مَا تُحْسِنُهُ حَسَدًا لَكَ ، وَقَصْدًا لِتَصْغِيرِ
قَدْرِكَ عِنْدَكَ ، وَتَزْهِيدًا لَكَ فِيهِ ، فَلَا يَحْمِلُكَ ذَلِكَ عَلَى أَنْ تَزْهَدَ فِي عِلْمِكَ ، وَتَرْتَكِبَ إِلَى
الْعِلْمِ الَّذِي مَدْحُودٌ ، فَتَكُونَ مِثْلَ الْغَرَابِ الَّذِي أَعْجَبَهُ مَشْيُ الْحَجَلَةِ (١) فَرَامَ أَنْ يَتَعَلَّمَهُ
فَصَعَبَ عَلَيْهِ ، ثُمَّ أَرَادَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى مَشْيِهِ فَنَسِيَهُ ، فَبَقِيَ مُخْبَلِّبَ الْمَشْيِ ، كَمَا قِيلَ :

إِنَّ الْغَرَابَ (وَكَانَ يَمْشِي مِشْيَةً) فِيمَا مَضَى مِنْ سَالِفِ الْأَجْيَالِ (٢)

حَسَدَ الْقَطَا ، وَأَرَادَ يَمْشِي مِشْيَهَا فَأَصَابَهُ ضَرْبٌ مِنَ الْعُقَالِ (٣)

(١) الحجلة بالتحريك: طائر على قدر الحمام كالقطا أحر المنقار والرجلين، والواحدة حجلة واسم جمعه حجل بكسر فسكون ففتح ولا نظير له سوى ظربي (ومفرده ظربان بفتح فكسر وهو دويبة منتنة الريح)
(٢) هذا البيت ليس مثبتاً في الأصل ، وقد أورده الديري مع البيهقي بمسده في حياة الحيوان
الكبرى ٢ : ٢٤٤ . (٣) العقال : داء في رجل الدابة إذا مشى نطع ساعة ثم انبسط .

فَأُضِلَّ مَشِيَّتَهُ ، وَأَخْطَأَ مَشِيئَتَهَا فَلِذَلِكَ سَمَّوهُ أَبَا مِرٍّ قَالَ (١)
وَلَا يُفْسِدُ خَاطِرُكَ مَنْ جَعَلَ يَدُومَ الزَّمَانِ وَأَهْلَهُ ، وَيَقُولُ : « مَا بَقِيَ فِي الدُّنْيَا
كَرِيمٌ وَلَا فَاضِلٌ ، وَلَا مَكَانٌ يُرْتَاحُ فِيهِ » ، فَإِنَّ الَّذِينَ تَرَاهُمْ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ ، أَكْثَرُ
مَا يَكُونُونَ مِنْ صَحْبِهِ الْحَرَمَانِ ، وَاسْتَحَقَّتْ طَلْعَتَهُ لِلْهَوَانِ ، وَأَبْرَمُوا (٢) عَلَى النَّاسِ
بِالسُّؤَالِ فَمَقْتُوهُمْ ، وَعَجَزُوا عَنْ طَلْبِ الْأُمُورِ مِنْ وَجْهِهَا ، فَاسْتَرَا حُوا إِلَى الْوُقُوعِ
فِي النَّاسِ ، وَإِقَامَةِ الْأَعْدَارِ لِأَنْفُسِهِمْ بِقَطْعِ أَسْبَابِهِمْ ، وَتَعْدِيرِ أُمُورِهِمْ ، وَلَا تُزِيلُ هَذَيْنِ
الْبَيْتَيْنِ مِنْ فِكْرِكَ :

لِنْ إِذَا مَا نِلْتَ عِزًّا فَأَخُو الْعِزِّ يَلِينُ
فَإِذَا نَابَكَ دَهْرٌ فَكَمَا كُنْتَ تَكُونُ

وَقَوْلِ الْآخَرِ :

تِهِ وَارْتَفَعَ إِنْ قِيلَ أَقْتَرُ ، وَانْخَفِضَ إِنْ قِيلَ أُثْرَى (٣)
كَالْفِصْنِ يَسْفُلُ مَا أَكْتَسَى ثَمَرًا ، وَيَعْلُو مَا تَعَرَّى

وَلَا قَوْلِ الْآخَرِ :

الْخَيْرُ يَبْقَى وَإِنْ طَالَ الزَّمَانُ بِهِ وَالشَّرُّ أَخْبَثُ مَا أَوْعَيْتَ مِنْ زَادٍ
وَاعْتَقِدْ فِي النَّاسِ مَا قَالَه الْقَائِلُ :

وَمَنْ يَلْقَ خَيْرًا يَحْمَدِ النَّاسُ أَمْرَهُ وَمَنْ يَلْقَ شَرًّا لَا يَبْعَثُ عَلَى الْغِيِّ لِأَمْرِهِ
وَقَرِيبٌ مِنْهُ قَوْلُ الْقَائِلِ :

بِقَدْرِ الصُّعُودِ يَكُونُ الْمَهْبُوطُ فَإِيَّاكَ وَالرُّتَبَ الْعَالِيَةَ
وَكَانَ فِي مَكَانٍ إِذَا مَا سَقَطَتْ تَقُومُ وَرَجْلَاكَ فِي عَافِيَتِهِ
وَتَحْفَظُ بِمَا تَضَمَّنَهُ قَوْلُ الْآخَرِ :

(١) مِنْ أَرْقَلَتِ الدَّابَّةُ : إِذَا أَسْرَعَتْ . (٢) أَبْرَمَهُ فَبْرَمَ كَفَرَحَ وَتَبْرَمَ : أَمَلَهُ فُلٌّ . (٣) أَقْتَرُ : انْقَصَرَ .
جَاءَ فِي كِتَابِ الْغَنَةِ :

ومن دعا الناس إلى ذمِّه ذمُّوه بالحقِّ وبالباطل

ولله درة القائل :

ما كلُّ ما فوق البسيطة كافياً ، فإذا قنيت فكلَّ شيء كافي
والأمثال يضربها لذي اللبِّ الحكيم ، وذو البصر يمشي على الصراط المستقيم ،
والظن يقنع بالقليل ، ويستدل باليسر ، والله سبحانه خليفني عليك ، لا ربَّ سِوَاهُ .
(نفع الطيب ١ : ٤٩٣)

٢٠ - خطبة ابن الزيات المنزوعة الألف (توفي سنة ٧٢٨ هـ)

وخطب أحمد بن الحسن بن علي بن الزيات^(١) خطبة ألفت الألف من حروفها على
كثرة تردها في الكلام ، وهي :

« حَمِدْتُ رَبِّي جَلًّا مِنْ كَرِيمٍ مَحْمُودٍ ، وَشَكَرْتُهُ عَزًّا مِنْ عَظِيمٍ مَعْبُودٍ ، وَزَهَّهْتُ
عَنْ جَهْلٍ كُلِّ مُلْجِدٍ كَفُورٍ ، وَقَدَّسْتُهُ عَنْ قَوْلِ كُلِّ مُفْسِدٍ غَرُورٍ . كَبِيرٌ لَوْ تَقَوَّمَ
فِي فَهْمٍ لُحْدًا^(١) ، قَدِيرٌ لَوْ تَصَوَّرَ فِي رَسْمٍ لُحْدًا^(٢) ، لَوْ عَرَّتَهُ^(٣) فِكْرَةٌ تَصَوَّرَ لَتَصَوَّرَ
وَلَوْ حَدَّتَهُ فِكْرَةٌ لَتَقَدَّرَ^(٤) ، وَلَوْ فَهِمْتَ لَهُ كَيْفِيَةَ لِبَطْلٍ قَدِمُهُ ، وَلَوْ عَلِمْتَ لَهُ كَيْفِيَةَ
لِخَصَلٍ عَدَمُهُ ، وَلَوْ حَصِرَ فِي ظَرْفٍ لَقَطِعَ بِتَجَسُّمِهِ ، وَلَوْ قَهَرَ وَصَفَ لَصُدِعَ^(٥)
بِتَقْسَمِهِ ، وَلَوْ فَرَضَ لَهُ شَبَحَ لَرَهَقَهُ^(٦) كَيْفٌ . عَظِيمٌ مِنْ غَيْرِ تَرْكِيْبٍ قَطْرٌ ، عَلِيمٌ مِنْ

(١) هو أحمد بن الحسن بن علي بن الزيات الخطيب المتصوف ، من أهل بلخ ما لفة وله سنة ٧٢٩ هـ ،
وتوفي سنة ٧٢٨ هـ . قال فيه لسان الدين بن الخطيب : « كان يفتح مجاله أكثر الأحيان بخطب غريبة ،
يطبق بها مفاصل الأغراض التي يشرح فيها ، وينظم الشعر دائماً في مراجعته ومحاطبته وإجازته من غير
تأن ولا روية ، حتى اعتاده ملكة ، واستعمل في السفارات بين الملوك لدحض المخائيم ، وإصلاح الأمور ،
فكانوا يرجون حقه ، ويلتمسون بركته ودعاه » وله تصانيف ، كثيرة ذكرها ابن الخطيب .

(١) أي لعرف ، من الحد : وهو التعريف . (٢) من التحديد ، أي لصارت له ذات محددة ،
ولو أنه قال : « قديم » بدل « قدير » مناسب أن يقول بعده : « لجد » بالجيم المفتوحة أي لصار
جديداً حادداً . (٣) عرته : أي اهترته وتناولته ، وفي الأصل « عدته » بالذال وأراه محرفاً ،
وتصور أي تمثل في صورة ، يقال : صورته تصور . (٤) لتقدر : أي صار له قدر مجسم ، وفي
الأصل « لتذر » وأراه محرفاً . (٥) صدع به : جهر . (٦) رهقه : غشيه ولحقه .

غير ترتيب فكر، موجود من غير شيء يُسَكِّه، معبود من غير وهم يُدْرِكُه، كريم من غير عوض يُلْحَقُه، حكيم من غير عرض يُلْحَقُه^(١)، قوي من غير سبب يجمعه، على من غير سبب يرفعه، لو وجد له جنس لعرض في قِيُومِيَّتِه^(٢)، ولو ثبت له حسن لنوزع في دَيُومِيَّتِه^(٣).

ومنها: تقدس وعز فعله، ونزاهة عز اسمه وفضله، جل قاهر قدرته، وعز باهر عزته، وعظمت صفته، وكثرت منته، فتق ورتق، وصور وخلق، وقطع ووصل وانصر وخذل، حمدته حمد من عرف ربه، ورهب ذنبه، وصفت حقيقة يقينه قلبه، وزكك^(٤) بصيرة دينه لبه، ربط سلك سلوكه وشده^(٥)، وهدم صرح عتوه وهده، وحرس معقل عقله وحدد، وطرد غرور غرته^(٦) ورذله^(٧)، علم علم تحقيق فنحاحوه، نقر له عز وجل بثبوت ربوبيته وقدمه، ونعتقد صدور كل جوهر وعرض عن جوده وكرمه، ونشهد بتبليغ محمد صلى ربه وسلم عليه، رسوله وخير خلقه، ونعلن بنهوضه في تبين فرضه، وتبليغ شرعه، ضرب قبة شرعه فنسخت كل شرع، وجدد عزيمته فقمع عدوه خير قمع، قوم كل مقوم بقويم سنته، وكريم هديه، وبين لقومه كيف يركون^(٨)، ففازوا بقصده وسديد سعيه، بشر مطيعه فظفر برحمته، وحذر عاصيه فشقق بنقمته.

وبعد: فقد نصحتكم لو كنتم تعقلون، وهديتكم لو كنتم تعلمون، بصرتكم لو كنتم تبصرون، وذكركم لو كنتم تدكرون، ظهرت لكم حقيقة شرككم،

(١) واحقه الأول: أي يناله ويأخذه، ويلحقه الثاني بمعنى يتصف به.

(٢) القيوم: من أسماءه تعالى، أي الذي لا نده له. (٣) الديمومة: الدوام.

(٤) زكت: طهرت.

(٥) في الأصل «وشيد» وأراه محرفاً عن «شد» إذ هي التي تلائم قوله قبلها «وربط».

(٦) الغرة: الغفلة. (٧) رذله وأرذله: عده رذلاً.

(٨) ركن إلى الشيء: ركونا: مال إليه واطمأن، أي بين لهم كيف يركنون إلى الحق والصواب،

وقد كانوا من قبله يعمهون في ضلالهم ويخبطون.

وبرزت لكم حقيقة حشركم ، فكم تركضون في طلق^(١) غفلتكم ، وتففلون عن يوم بعثكم ، وللموت عليكم سيف مسلول ، وحكم عزم غير معلول ، فكيف بكم يوم يؤخذ كل بدننه ، ويخبر بجميع كسبه ، ويفرق بينه وبين صحبه ، ويعدم نصرة حزبه ، ويشغل بهمه وكرهه ، عن صديقه وتربه ، وتُنشر له رُقعة ، وتمين له بُقعة ؟ فرج عبد نظر وهو في مهل لنفسه ، وترسل في رضى عمل جنة لجلول رمسه^(٢) وكسر صنم شهوته ، ليقرّ في محبوبه^(٣) قدسه .

ومنها : فتلبه - ويحك - من سننك ونومك ، وتفكر فيمن هلك من صحبتك وقومك ، هتف بهم من تعلم ، وشبّ عليهم منه حرق^(٤) مظلم ، فخربت بصيحتهم ربوعهم ، وتفرقت لهوله جموعهم ، وذلّ عزيزهم ، وخسى ربيعهم ، وصم سميعهم ، فخرج كل منهم عن قصره ، ورُمي غير مؤسد في قبره ، فهم بين سعيد في روضة مقرب ، وبين شقي في حفرة معذب ، فنستوهب منه عز وجل عصمة من كل خطيئة ، وخصوصية تقى من كل نفس جريئة^(٥) .

(الإحاطة ، في أخبار غرناطة ١ : ١٥٤)

٢١ - خطبة القاضي عياض التي ضمنها سور القرآن

وخطب القاضي أبو الفضل عياض^(٦) خطبة ضمنها سور القرآن ، فقال :
« الحمد لله الذي افتتح بالحمد كلامه ، وبيّن في سورة البقرة أحكامه ، ومدّ

(١) يقال : جرى الفرس طلقاً أو طلقين : أي شوطاً أو شوطين . (٢) الرسم : القبر .

(٣) محبوبه المكان : وسطه . (٤) الحرق : النار ولهبها .

(٥) يلاحظ أن في الخطبة خمس كلمات فيها ألف وهي : قاهر . باهر . عاصيه . ففازوا . فنحنا

(٦) هو القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض ولد سنة ٤٧٦ هـ ، بسبته - بلد بمرآكش على الساحل الشالي ودخل الأندلس طالباً لعلم ، فأخذ بقرطبة عن جماعة ، وجمع من الحديث كثيراً ، وكان له به كبير عناية ، وكان إمام وقته فيه ، وفي النحو واللغة ، واستقضى ببلده سبته ، ثم نقل منها إلى قضاء غرناطة ، وتوفى بمرآكش سنة ٥٤٤ هـ ، قال المقرئ بعد أن أورد هذه الخطبة : « وفي نفسى من نسبتها له شيء ، لأن نفس القاضي في البلاغة أعلى من هذه الخطبة ، والله تعالى أعلم .

في آلِ عِمْرَانَ والنساءِ مائدةَ الأنعامِ لِيُتِمَّ إِنْعامَهُ ، وجعل في الأعرافِ أنفالَ تَوْبَةٍ
يونسَ والرِّكَابِ أحمَدَ آياتِهِ ، بمجاورةِ يوسفَ الصِّدِّيقِ في دارِ الكرامةِ ،
وسبَّحَ الرعدُ بحمده ، وجعل النارَ بَرْدًا وسلامًا على إبراهيمَ ، لِيُؤْمِنَ أَهْلُ الحِجْرِ^(١)
أنه إذا أتى أمرُ اللهِ سبحانه فلا كَهْفَ ولا ما جأ إلا إليه ، ولا يُظلمونَ قَلَامَةً ، وجعل
في حروفِ كَهَيْعَصَ سرًّا مكنونًا ، قدَّم بسببه طهَ صلى اللهُ عليه وسلم على سائرِ الأنبياءِ
ليُظهرَ إجلاله وإِعظامه ، وأوضح الأمرَ حتى حجَّ المؤمنونَ بنورِ الفُرْقانِ ، والشعراءِ
صاروا كالنملِ ذَلًّا وَصَغَارًا لِعِظَمَتِهِ ، وظهرت قِصَصَ العنكبوتِ فآمنَ به الرومُ ،
وأيقنوا أنه كلامُ الحَيِّ القَيُّومِ ، نزلَ به الرُّوحُ الأمينُ على زَيْنِ مَنْ وَافَى يومَ القيامةِ ،
وأوضح لقمانَ الحكمةَ بالأمرِ بالسجودِ لربِّ الأحزابِ ، فسبأَ فاطرُ السمواتِ أهلَ
الطاغوتِ ، وأكسبهم ذلًّا وخِزْيًا وخِسرَةً وندامةً ، وأمدَّ يسَ صلى اللهُ عليه وسلم
بتأييدِ الصَّافَّاتِ^(٢) ، فصادَ الزُّمَرُ يومَ بَدْرِهِ ، وأوقعَ بهم ما أوقعَ صنَادِيدَهُم في القَلِيبِ^(٣)
مكدوس ومكبوب ، حينَ شالَتَ بهم النِّعامةُ^(٤) ، وغفرَ غافِرُ الذنوبِ وقابِلُ التَّوْبِ
للبدريِّينَ رضَى اللهُ عنهم ما تقدم وما تأخر حينَ فُصِّلَتَ كَلِماتُ اللهِ ، فذلَّ من حَقَّتْ عليه
كَلِمَةُ العذابِ وأيسَ من السلامة ، ذلكَ بِأَنَّ أمرَهُم سُورَى بينهم ، وشَفَلَهُم زُخْرُفُ
الآخِرَةِ عن دُخانِ الدنيا ، فحَمُوا أمامَ الأَحْقَافِ^(٥) لقتالِ أعداءِ محمدَ صلى اللهُ عليه وسلم
يمينه وَشِمَالَهُ وخلفه وأمامه ، فأعطوا الفتحَ وَبُوتُوا حُجْرَاتِ الجِنانِ ، وحينَ تَلَّوا :
قَ وَالقُرْآنِ المَجِيدِ ، وتَدَبَّرُوا جوابَ قَسَمِ الذَّارِياتِ^(٦) والطورِ ، لاحَ لهم نَجْمُ الحَقِيقَةِ
وانشَقَّ لهم قمرُ اليقينِ ، فنافروا السَّامةَ ، ذلكَ بأنهم آمنهم الرحمنَ إذا وقعتِ الواقعةُ ،

(١) واد بين المدينة والشام ، وهو منازل حمود .

(٢) الملائكة نصف نفوسها لعبادة . (٣) القليب : البئر .

(٤) شالَت نعامتهم : خفت منازلهم منهم ، أو تفرقت كلمتهم ، أو ذهب عزهم .

(٥) واد باليمن به منازل عاد . (٦) الذاريات : للرياح تذر والتراب وغيره .

واعترف بالضعف لهم الحديدُ ، وهُزِمَ الجادلون ، وأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ،
يُخْرِجُونَ بِيُوتِهِمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ ، حين نافرُوا السلامة .

أحمدَه حمدًا من امتحنته صفوفُ الجموع في نَفَقِ التَّغَابُنِ ، فطلقَ الحُرُمات حين
اعتبرَ الملكَ وعامه ، وقد سمعَ صرِيْفَ القلمِ وكأنه بالحَاقَّةِ^(١) والمعارجَ يمينه وشماله وخلفه
وأمامه ، وقد ناحَ نوحَ الجنِ فتزمل^(٢) وتدثرَ فرَقًا من يوم القيامة ، وأنسَ بمُرْسَلَاتِ
النَّبَا ، فزِعَ العُبُوسَ من تحت كُورِ العمامة ، وظهر له بالانفطارِ التطفيفُ ، فانشقت
بُرُوجُ الطارقِ بتسييحِ الملكِ الأعلى وغشيتَه الشهامة ، فوربَّ الفجرِ والبلدِ والشمسِ
والليلِ والضحى ، لقد انشاحت صدور المتقين ، حين تَلَّوْا سورة التين ، وعَلِقَ الإيْمَانُ
بقلوبهم ، فكلُّ على قدر مقامه يُبين ، ولم يكونوا بمنفكِين دهرهم ، ليلَه ونهارَه
وصيامَه وقيامَه ، إذا ذكروا الزَّلْزَلَةَ رَكَبُوا العاديَاتِ^(٣) ليطفئوا نور القارعة ، ولم
يُلْهِمِ التكاثر حين تلاوا سورة العصر والمهمزة ، وتمثلوا بأصحاب القيل فليعبُدُوا رَبَّ
هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ . أَرَأَيْتَهُمْ كَيْفَ جَعَلُوا عَلَى
رءوسهم من الكُورِ عِمَامَةً ؟ فَالكوثر^(٤) مكتوب لهم ، والكافرون خذلوا ، وهم
نُصِرُوا ، وَعُدِلَ بِهِمْ عَنِ لَهَبِ الطَّامَّةِ ، وبسورة الإخلاص قرئوا وَسَعِدُوا ، وبرب
الْفَلَقِ^(٥) والنَّاسِ ، استعاذوا فأعِينُوا من كل حُزن وهمٍّ وغمٍّ وندامة ، وأشهد أن
لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، شهادةً تُنال بها
منازلُ الكرامة صلى الله تعالى عليه وعلى آله وأصحابه ما غرَّدتْ في الأيِّكِ حَمَامَةٌ .

(نفع العليب ٤ : ٢٩١)

(١) الحاققة : القيامة التي فيها يحق ما أنكروا من البعث والجزاء .

(٢) تزمل بشيابه : تلفف بها ، وكذا تدثر .

(٣) الخليل قدموا في الغزوة ، والقارعة التي تضرع القلوب بأهوالها .

(٤) الكوثر : نهر في الجنة . (٥) الفلق : الصبح .

٢٢ - خطبة سعيد بن أحمد المقرئ التي ضمنها سور القرآن

وخطب سعيد بن أحمد المقرئ^(١) خطبة على هذا النمط نصها :

« الحمد لله الذي افتتح بفاتحة الكتاب سورة البقرة ، ليصطنع من آل عمران رجالا ونساء ، وفضلهم تفضيلا ، ومدد مائدة إنعامه ورزقه ، ليعرف أعراف أطفال كرمه حقه على أهل التوبة ، وجعل ليونس في بطن الحوت سبيلا ، ونجى هوداً من كربته وحزنه ، كما خلاص يوسف من جبه وسجنه ، وسبح الرعد بحمده ويمنه ، واتخذ الله إبراهيم خليلا ، الذي جعل في حجر الحجر من النحل شراباً نوع باختلاف ألوانه ، وأوحى إليه بحفي لطفه سبحانه ، واتخذ منه كهفاً قد شيد بنيانه ، وأرسل روحه إلى مريم فتمثل لها تمثيلا ، وفضل طه على جميع الأنبياء ، فأتى بالحج والكتاب المكنون ، حيث دعا إلى الإسلام قد أفلح المؤمنون ، إذ جعل نور الفرقان دليلا ، وصدق محمداً صلى الله عليه وسلم الذي هجرت الشعراء في صدق نعته ، وشهدت النمل بصدق نعته ، وبيّن قصص الأنبياء في مدة مكثه ، ونسج العنكبوت عليه في الفار سترًا مسدولاً ، وملئت قلوب الروم رعباً من هيئته ، وتعلم لقمان الحكمة من حكيمته ، وهدى أهل السجدة للإيمان بدعوته ، وهزم الأحزاب وسبأهم وأخذهم أخذاً وبيلا ، فأقبحه فاطر السموات والأرض يس ، كما نفذ حكمه في الصافات وبيّن ص صدقه بإظهار المعجزات ، وفرق زمر المشركين ، وصبر على أقوالهم وهجرهم هجرًا جميلاً ، ففقر له غافر الذنب ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وفصلت رقاب المشركين إذ لم يكن أمرهم شورى بينهم ، وزخرف منار الإسلام ، وخفي دخان الشرك ، وخرت المشركون جاثيةً ، كما أنذر أهل الأحقاف فلا يهتدون سبيلا ، وأذل الذين كفروا بشدة القتال ،

(١) هو سعيد بن أحمد المقرئ عم أحمد المقرئ صاحب نفع الطيب .

وجاء الفتح للمؤمنين والنصر العزيز، وحجرت الحجرات الحريز، وبقي القدرة قُتِلَ
الحرّاصون^(١) تفتيلاً، كلم موسى على جبل الطور، فارتقى نجم محمد صلى الله عليه وسلم،
فاقتربت بطاعته مبادئ السرور، وأوقع الرحمن واقعة الصبح على بساط النور،
فتمجّب الحديد من قوته، وكثرة المجادلة في أمته، إلى أن أعيد في الحشر بأحسن مقيلاً
أمتحنه في صفّ الأنبياء وصلّى بهم إماماً، وفي تلك الجمعة ملئت قلوب المنافقين من
التغابن خُسراً وإرغاماً، فطلق وحرّم، تبارك الذي أعطاه الملك، وعلم بالقلم، ورتل
القرآن ترتيلاً، وعن علم الحاقّة كم سأل سائل فسأل الإيمان، ودعا به نوح فنجاه الله تعالى
من الطوفان، وأنت إليه طائفة الجن يستمعون القرآن، فأنزل عليه: « يَا أَيُّهَا الْمُرْمَلُ
فُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا »، فكم من مدثر يوم القيامة شفقة على الإنسان إذا أرسل
مرسّلات الدمع، فعمّ يتساءلون أهل الكتاب، وما تقبل من نازعات المشركين
إذا عبس عليهم مالك وتولّاهم بالعذاب، وكوّرت الشمس وانفطرت السماء،
وكانت الجبال كتيباً مهيباً، فويل للمطّفين « إذا انشقت السماء بالغيام، وطويت
ذات البروج، وطرّق طارق الصّور بالنفخ للقيام، وعزّ اسم ربك الأعلى لغاشية الفجر،
فيومئذ لا بلد ولا شمس ولا ليل طويلاً، فطوبى للمصلين الضحى عند انشراح
صدورهم، إذا عاينوا التين والزيتون وأشجار الجنة، فسجدوا باقراً اسم ربك الذي
خلق هذا النعيم الأكبر لأهل هذه الدار ما أحيوا ليلة القدر، وتبتلوا بتيلاً، ولم يكن
للذين كفروا من أهل الكتاب من أهل الزلزلة من صديق ولا حميم، وتسوقهم
كالعاديات إلى سواء^(٢) الجحيم، وزلزلت بهم قارعة العقاب، وقيل لهم: أَلْهَأَكُمُ
التَّكَاثُرُ، هذا عصر العقاب الأليم، وحشر الهمة وأصحاب الفيل إلى النار فلا يظلمون
فتيلاً، وقالت قريش ما أمتم من هول الحشر، أرأيت الذي يكذب بالدين كيف

طُرِدَ عن الكوثر؟ وَسِيقَ الكافرون إلى النار، وجاء نصر الله والفتح، فَتَبَّتْ بَدَا
أَبِي لَهَبٍ : إِذْ لَا يَجِدُ إِلَى سِوَةِ الإِخْلَاصِ سَبِيلاً ، فَنَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ،
وَنَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي فَسَقَ ،
وَنَتُوبُ إِلَيْهِ وَنَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا . (نفع الطيب ٤ : ٢٩٢)

٢٣ - خطبة الكفعمي التي ضمنها سور القرآن أيضا

وخطب الكفعمي^(١) خطبة على هذا النمط أيضا نصها :

« الحمد لله الذي شرف النبي العربي بالسبع المثاني وخواتيم البقرة من بين الأنام ،
وفضّل آل عمران على الرجال والنساء ، بما وهب لهم من مائدة الأنعام ، ومنحهم
بأعراف الأنفال ، وكتب لهم براءة من الآثام ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له ، الذي نجّى يونس وهوداً ويوسف من قومهم ، برعد الانتقام ، وغدّى
إبراهيم في الحجر بأعاب النحل ذات الإسرار ، فضاهى كهف مريم عليها السلام ،
وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي هو طه الأنبياء ، وحج المؤمنين ، ونور فرقان
الملك العلام ، فالشعراء والنمل بفضلته تُحْبِرُ ، ولقصص العنكبوت الروم تذكّر ،
ولقمان في سجده يشكّر ، والأحزاب كأيدى سبأ تُقَهَّرُ ، وفاطرس لصفاته يُنصَّرُ ،
وصادمقلة زمره تنظر الأعلام ، فآل حمّ بقتال فتحه في حجرات قافه قد ظهّرت ،
وذاريات طوره ونجمه وقره قد عطّرت ، وبالرحمن واقعة حديده يوم المجادلة قد نصّرت
وأبصار معانديه في الحشر يوم الامتحان حسّرت^(٢) ، وصفّ جمعته فائز إذ أجساد
المنافقين بالتغابن استعرت ، وله الطلاق والتحرير ومقام الملك والقلم ، فناهيك به من

(١) قال صاحب نفع الطيب في ترجمته: « هو إبراهيم بن علي بن حسن بن محمد بن صالح نسبة إلى كافر

حما قرية من قرى أعمال صفد كما نقول في النسبة إلى بني عبد اللدار عدي ، وإلى حسن كيفا : حصكوف .

(٢) حسر البصر كضرب : كل فهو حسير .

مقام ، وفي الحاقة ، أَعْلَى اللهُ لَهُ المَعَارِجُ نوح المَطهر ، وخصه من بين الإنس والجن
بِأَيِّهَا المَزْمَلُ ، وَيَأْيَهَا المَدَّثَرُ ، وشفعه في القيامة إذا دموع الإنسان مُرْسَلَاتٌ كالماء
المتفجر ، ووجهه عند نيا النزاعات وقد عبس الوجه كاهلال المنور ، ويوم التكوير
والانفطار وهلاك المطفين وانشاق ذات البروج بشفاعته غير متضجر ، وقد حُرِست
لمولده السماء بالطارق الأعلى ، وتمت غاشية العذاب إلى الفجر على المرّة اللثام ، فهو البلد
الأمين ، وشمس الليل والضحي الخصوص بانسراح الصدر ، والمفضلّ بالتين والزيتون ،
المستخرج من أمشاج^(١) العلق ، الطاهر العليّ القدر ، شجاع البرية يوم الزلزال ،
إذ عاديات القارعة تدوس أهل التكاثر ومشركي العصر ، أهلك الله به الهمة وأصحاب
الفيل إذ مَكَّرُوا بقريش ولم يتواصوا بالحق ولم يتواصوا بالصبر ، الخصوص بالدين
الحنيفي والكوثر السّلسال ، والمؤيد على أهل الجحد بالنصر ، صلى الله عليه وعلى آله
وأصحابه ما تبّت يدا مُعَادِيهِ ، وَنَعَمَ بالتوحيد مُوَالِيهِ ، وما أفصح فلقُ الصبح بين الناس
وامتد الظلام .

(فتح الطيب ٤ : ٢٩٥)

(١) مشج بينهما كضرب : خلط ، والشئ مشيج ، والجمع أمشاج كيتيم وأيتام .

الباب الثاني

في

خطب ووصايا مجهول عصرها أو قائلها

١ - خطبة أبي بكر بن عبد الله بالمدينة

لما ولى أبو بكر بن عبد الله المدينة^(١) وطال مُكثُهُ عليها ، كان يبلغُهُ عن قوم من أهلها أنهم ينالون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإِسْعَافٌ من آخرين لهم على ذلك ، فأمر أهل البيوتات ووجوه الناس في يوم الجمعة أن يقرؤوا من المنبر ، فلما فرغ من خطبة الجمعة قال :

« أيها الناس : إني قائلٌ قولاً ، فمن وعاه وأدّاه فعلى الله جزاؤه ، ومن لم يعبه فلا

(١) لأعرف صاحب هذا الاسم والياً على المدينة، وإنما الذي قرأته في تاريخ الطبري أن أبا بكر بن محمد ابن عمرو بن حزم الأنصاري ولي المدينة من سنة ٩٦ إلى سنة ١٠٠ في خلافة سليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز « انظر تاريخ الطبري ، الجزء الثامن ، حوادث السنين من ٩٦ إلى ١٠٠ » وذكر أيضاً القلقشندي في صبح الأمشى « ج ٤ : ص ٢٩٦ » أن أبا بكر بن محمد هذا ولي المدينة أيام سليمان بن عبد الملك ، والظاهر أنه صاحب هذه الخطبة ، وإني لأستأنس في ذلك بقوله : « وطال مكثه عليها » فقد تولاهما خمس سنين ، وبالغرض الذي قيلت فيه الخطبة ، وأنت تذكر ما كان في العهد الأموي من اتساع دائرة الاختلاف الحزبي ، والفضال السيامي البعيد المدى ، وربما كان « عبد الله » اسماً آخر لأبيه محمد ، تسمى به تواضعاً ، وكان ذلك من عادة السلف الصالح رضوان الله عليهم كثيراً ، انظر مثلاً كتاب عمر في صلح أهل إيليا « هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيليا من الأمان » . (الطبري ٤ : ١٥٩) .

يَعُدُّ مِنْ ذِمَامِهَا^(١) إِنْ قَصَّرْتُمْ عَنْ تَفْصِيلِهِ ، فَلَنْ تَعَجَّزُوا عَنْ تَحْصِيلِهِ ، فَأَرْعُوهُ أَبْصَارَكُمْ ، وَأَوْعُوهُ أَسْمَاعَكُمْ ، وَأَشْعِرُوهُ^(٢) قُلُوبَكُمْ ، فَالْمَوْعِظَةُ حَيَاةٌ ، وَالْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ « وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ^(٣) السَّبِيلِ » ، « وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ » فَأَتُوا الْهَدَى تَهْتَدُوا ، وَاجْتَنِبُوا الْغَىَّ تَرَشَّدُوا ، « وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » ، وَاللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ ، وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ ، أَمْرُكُمْ بِالْجَمَاعَةِ ، وَرَضِيهَا لَكُمْ ، وَنَهَاكُمْ عَنِ الْفُرْقَةِ ، وَسَخَطَهَا مِنْكُمْ ، فِ « مَا تَقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ^(٤) وَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ، وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ، وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ، فَاصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ، وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا^(٥) حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا » ، جَعَلْنَا اللَّهَ وَإِيَّاكُمْ مِنْ تَبِعِ رِضْوَانِهِ ، وَتَجَنَّبِ سَخَطَهُ ، فَإِنَّمَا نَحْنُ بِهِ وَوَلَهُ .

وَإِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْدِينِ ، وَاخْتَارَهُ عَلَى الْعَالَمِينَ ، وَاخْتَارَ لَهُ أَصْحَابًا عَلَى الْحَقِّ ، وَوَزَّرَ أَدْوَانَ الْخَلْقِ اخْتِصَمَ بِهِ ، وَانْتَجَبَهُمْ لَهُ ، فَصَدَّقُوهُ وَنَصَرُوهُ ، وَعَزَّرُوهُ^(٦) وَوَقَّرُوهُ ، فَلَمْ يُقَدِّمُوا إِلَّا بِأَمْرِهِ ، وَلَمْ يُجْجِمُوا إِلَّا عَنْ رَأْيِهِ ، وَكَانُوا أَعْوَانَهُ بِعَهْدِهِ ، وَخُلَفَاءَهُ مِنْ بَعْدِهِ ، فَوصفهم فأحسن صفتهم ، وَذَكَرَهُمْ فَأَثْنَى عَلَيْهِمْ ، فَقَالَ - وَقَوْلُهُ الْحَقُّ - : « مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ، تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ، يَلْتَمِعُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ، سِيَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ . ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ ، وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ^(٧) ، كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطَأَهُ

(١) أى فلا يخرج عن حرمتها ، وتأنيث للضمير في « ذمامها » باعتبار الموعظة أو المقالة .
 (٢) أى الزقوه به . (٣) المقصد : استقامة الطريق ، أى بيان الطريق المستقيم الموصل إلى الحق .
 (٤) التقاة : التقوى ، وجمعها تقى كرتبة ورطب ، وأصلها وقية قلبت واوها المضمومة تاء كما في تودة وتخمة ، والياء ألفاً . (٥) الشفا : حرف كل شيء .
 (٦) التقزير : التنخيم والتعظيم وهو أيضاً أشد الضرب . ضد .
 (٧) أى ذلك مثلهم في الكتاب ، والشط : فراخ الزرع ، فأزره أى فقواه ، فاستوى على سوقه : أى فاستقام على أصواته وسبقاته .

فَازَرَهُ ، فَاسْتَغْلَطَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ ، يُمَجِّبُ الزَّرَّاعَ ، لِيَفِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ، وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا » ، فمن غاظه كفر وخاب، وفَجَرَ وخَسِرَ، وقال الله عزَّ وجلَّ: «لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ، وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ . وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ، وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا ، وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ^(١) ، وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ، وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا ، رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » فمن خالف شريعة الله عليه لهم ، وأمره إياه فيهم ، فلا حقَّ له في الشيء ولا سهم له في الإسلام ، في آي كثيرة من القرآن .

فَمَرَّتْ مَارِقَةٌ مِنَ الدِّينِ ، وَفَارَقُوا الْمُسْلِمِينَ ، وَجَعَلُوهُمْ عَضِينَ^(٢) ، وَتَشَعَّبُوا أَحْزَابًا ، أَشَابَاتٍ وَأَوْشَابًا^(٣) ، فَخَالَفُوا كِتَابَ اللَّهِ فِيهِمْ ، وَثَنَاءَ عَلَيْهِمْ ، وَأَذَوْا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهِمْ ، فَخَابُوا وَخَسَرُوا الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ « ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ » . « أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ؟ » مَالِي أَرَى عِيونًا خُزْرًا^(٤) ، وَرِقَابًا صَعْرًا^(٥) وَبَطُونًا بِحْرًا^(٦) شَجًّا لَا يُسَيِّغُهُ الْمَاءُ^(٧) ، وَدَاءَ لَا يُشْرَبُ فِيهِ الدَّوَاءُ « أَفَنْضِرِبُ عَنْكُمْ الَّذِي كَرَّ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ؟ » كَلَّا وَاللَّهِ ، بَلْ هُوَ الْهِنَاءُ^(٨) وَالطَّلَاءُ ، حَتَّى يَظْهَرَ الْمُعْذِرُ ، وَيَبُوحَ السَّرُّ ، وَيَضْحَحَ الْغَيْبُ ،

(١) يُؤْتِرُونَ : يَفْضَلُونَ وَيَقْدِمُونَ وَالْحَصَاصَةُ : الْحَاجَةُ وَالْفَقْرُ .

(٢) جَمْعُ عَضَةٍ كَعَمْدَةٍ : وَهِيَ الْفُرْقَةُ وَالْقَطْعَةُ . (٣) أَشَابَاتٌ جَمْعُ أَشَابَةٍ : وَهِيَ الْأَخْلَاطُ ، وَأَشْبَهُ

كَضَرْبِهِ : خَلْطُهُ ، وَالْأَوْشَابُ جَمْعُ وَشْبٍ كَحَمَلٍ ، وَالْأَوْبَاشُ جَمْعُ وَبَشٍ كَسَبَبٍ : الْأَخْلَاطُ وَالسَّفَلَةُ .

(٤) جَمْعُ خُزْرَاءٍ مُؤَنَّثٌ أَخْزَرُ وَصَفٌ مِنَ الْخُزْرِ بِالتَّحْرِيكِ ، وَهُوَ النَّظَرُ فِي أَحَدِ الشَّقَمَيْنِ

(٥) الصَّعْرُ بِالتَّحْرِيكِ : مَيْلٌ فِي الْوَجْهِ ، أَوْ فِي أَحَدِ الشَّقَمَيْنِ ، أَوْ دَاءٌ فِي الْبَعِيرِ يَلْوِي عُنُقَهُ مِنْهُ ، صَعْرٌ

كَفَرْحٍ فَهُوَ أَصْعَرُ . (٦) بَحْرٌ بَطْنُهُ كَفَرْحٍ أَيْضًا فَهُوَ أَبْحَرٌ : عَظْمٌ ، وَالْجَمْعُ بَحْرٌ كَحَمْرٍ .

(٧) الشَّجُّ : مَا اعْتَرَضَ فِي الْخَلْقِ مِنْ عَظْمٍ وَنُحْرَةٍ ، لَا يُسَيِّغُهُ : أَيْ لَا يَجْعَلُهُ سَائِقًا سَهْلَ الْمَدْخَلِ فِي الْخَلْقِ .

(٨) الْهِنَاءُ : الْقَطْرَانُ ، يُرِيدُ أَنَّهُ يَمَاجِهُمُ كَمَا تَطَلَّى الْإِبِلُ الْجَرِي بِالْقَطْرَانِ لِمَدَاوَتِهَا .

وَيُسَوِّسُ الْجُنُبَ (١) ، فَإِنَّكُمْ لَمْ تُخَلِّقُوا عَبَثًا ، وَلَمْ تُتْرَكُوا سُدَى ، وَيَحْكُم ! إني لست أتأويًا (٢) أعلم ، وَلَا بَدْوِيًّا أَفْهَم ، قَدْ حَلَبْتُكُمْ أَشْطَرًا (٣) ، وَقَلَّبْتُكُمْ أَبْطُنًا وَأَظْهَرًا ، فَعَرَفْتُمْ أَهْوَاءَكُمْ وَأَهْوَاءَكُمْ ، وَعَلِمْتُمْ أَنَّ قَوْمًا أَظْهَرُوا الْإِسْلَامَ بِالسُّنَنِهِمْ ، وَأَسْرَرُوا الْكُفْرَ فِي قُلُوبِهِمْ ، فَضَرَبُوا بَعْضُ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْضُ ، وَوَلَدُوا الرِّوَايَاتِ فِيهِمْ ، وَضَرَبُوا الْأَمْثَالَ ، وَوَجَدُوا عَلَى ذَلِكَ مِنْ أَهْلِ الْجَهْلِ مِنْ أَبْنَائِهِمْ أَعْوَانًا يَأْذُنُونَ لَهُمْ (٤) ، وَيُصْنَعُونَ إِلَيْهِمْ ، مَهْلًا مَهْلًا قَبْلَ وَقُوعِ الْقَوَارِعِ (٥) ، وَطُولِ الرِّوَايَاتِ ، هَذَا لِهَذَا وَمَعَ هَذَا (٦) ، فَلَسْتُ أَعْتَنُشُ (٧) آئِبًا وَلَا تَائِبًا ، « عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ قَيْنَتْقِمُ اللَّهُ مِنْهُ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ » ، فَأَسِرُّوا خَيْرًا وَأَظْهَرُوا ، وَأَجْهَرُوا بِهِ وَأَخْلَصُوا ، فَطَالَمَا مَشَيْتُمُ الْقَهْقَرَى نَاكِصِينَ ، وَلَيْعَلَّ مِنْ أَدْبَرٍ وَأَصْرًا أَنَّهَا مَوْعِظَةٌ بَيْنَ يَدَيِ نِقْمَةٍ ، وَلَسْتُ أَدْعُوكُمْ إِلَى أَهْوَاءِ تَتَّبَعُ ، وَلَا إِلَى رَأْيٍ يُبْتَدَعُ ، إِنَّمَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الطَّرِيقَةِ الْمُثَلَّى ، الَّتِي فِيهَا خَيْرُ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ، فَمَنْ أَجَابَ فإِلَى رَشْدِهِ ، وَمَنْ عَمِيَ فَعَن قَصْدِهِ ، فَهَلُمَّ إِلَى الشَّرَائِعِ الْجَدَائِعِ (٨) ، وَلَا تَوَلُّوا عَنِ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَا تَسْتَبَدُّوا

(١) بإح السر : ظهر ، وبإح بسره : أظهره ووضع يضح وانفتح واحد ، ويسوس : أي يروض ويدال : مضمف ساسه يسوسه . يقال : سوست له امرأ إذا روضته وذلته ، والجنب : الصعب الذي لا يتقاد . (٢) الأتوي : الغريب عن القوم . (٣) اقتبسه من المثل المشهور : « حلب الدهر أشطره » وللناقة شطران ، قادمان وآخران ، فكل خلفين شطر بفتح الشين — والحلف للناقة كالضرع للبقرة — وأشطره منصوب على البدل ، فكأنه قال : حلب أشطر الدهر ، والمعنى : اختبر الدهر وعرف خيره وشره . (٤) أذن له وإليه كفرح : استمع . (٥) القوارع جمع فازعة : وهي الداهية الفاجئة ، وللروائع جمع رائفة ، وهي المفزعة . (٦) أي هذا الذي أتهدكم به من القوارع والروائع ، لهذا الذي تخوضون فيه ، ومقرون به . (٧) اعتنشه : ظلمه .

(٨) الذي في كتب اللغة : « جداع كسحاب وقطام : السنة الشديدة تجدع بالمال وتذهب به » وهذه الكلمة هي التي يسوغ أن تجمع على جدائع ، ولكنها لا تناسب المقام هنا ، فلعل الأصل « الجوادع » جمع جادعة : وهي القاطمة ، يريد الشرائع الصحيحة الحقة لأنها تقطع الباطل وتزهقه كأنه يقول : اتبعوا الحطة الحاسمة ، أو الجدائع جمع جدوع كمجوز صيغة مبالغة من جادعة ، وفي التعلوق على نهاية الأرب « ولعله الجوامع : أي التي تجمع للناس على اتباعها ، كما يدل عليه ما بعده » .

الذي هو أدنى^(١) بالذي هو خير « بئس للظالمين بدلاً » .

إياكم وبنيات^(٢) الطريق ، فعندها الترنيق والرقيق^(٣) ، وعليكم بالجادة ، فهي أسد^(٤) وأورد ، ودعوا الأمانى فقد أزدت من كان قبلكم ، وليس للإنسان إلا ماسعى ، والله الآخرة والأولى ، و « لا تفتروا على الله كذباً فيسححتكم^(٥) بعذاب وقد خاب من افتري » . « ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب » .

(نهاية الأرب ٧ : ٢٥٦ ؛ وصح الأضنى ١ : ٢٢٠)

٢ - وصية أعمى من الأزدي لشاب يقوده

عن هشام بن محمد بن السائب عن أبيه قال : رأيت ببيشة^(٦) رجلاً من أزدي السراة أعمى ، يقوده شاب جميل ، وهو يقول له : « يا سمي ، لا يعرفك أن فسح الشاب خطوك ، وخلى سربك ، وأزفه وردك^(٧) ، فكأنك بالكبير قد أرب ظوفك ، وأثقل أوقك ، وأوهن طوقك^(٨) ، وأتعب سؤفك ، فهدجت بعد المملجة ، ودججت بعد الدعلجة^(٩) ، فخذ من أيام الترفيه أيام الأزعاج ، ومن ساعات المهملة لساعة

(١) أى أخس وأدون قدراً ، وأصل الدنو : القرب في المكافئ استعير للخسة كما استعير البعد للشرف والرفعة ، أو هو مسهل عن أدنا من الدناة ، وقد قرئ في الآية الكريمة : « أَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ » . (٢) بنوات الطريق : الترهات (جمع ترمة كقبرة وهي الطريق

الصغيرة المتشعبة من الجادة ، أى اسلكوا الطريق العام طريق الجماعة ، ولا تخرجوا في سواه .

(٣) الترنيق : الضعف في الأمر « وى البصر واليدن أيضاً » ، والرقيق : السفه والحمق والخفة ، وركوب الشر والظلم ، وغشيان المحارم . (٤) أفعل ، من السداد . (٥) أسحته : استأصله . (٦) ببيشة : واد بطريق اليمامة . (٧) السرب : الطريق والوجه ، ورفهت الإبل كنع : وردت الماء متى شاءت ، وقد أرفهتها ورفهتها بالتشديد . (٨) أرب العقدة : شدة ، والأربة بالضم : العقدة ، وظاف اليمير بظوفه : إذا دافى بين قينيه ، والقيتان بفتح القاف موضعاً القيد من الوظوف ، والأوق : الثقل ، والظوق : الوسع والطاقة . (٩) الهدجان كخفقان وغراب : مشية الشيخ ، هذج كضرب ، والمملجة : سرعة في المشى ، ودج كضرب دجيجاً ، مرمر اضديماً ، والدعلجة : ضرب من المشى ، والتردد في الدعاب والحجيء ، والدرجة .

الإعجال^(١) ، يابن أخى : إن اغترارك بالشباب ، كالتذاذك بسماير^(٢) الأحلام ، ثم تنقشع فلا تتمسك منها إلا بالحسرة عليها ، ثم تُعزى راحلة الصبا ، وتشرب سلوة^(٣) عن الهوى . واعلم أن أغنى الناس يوم الفقر من قدام ذخيرة ، وأشدهم اغتباطاً يوم الحسرة من أحسن سريرة . » (الأمال : ٢١٦ : ٢١٧)

٣ - وصية رجل لآخر وقد أراد سفراً

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت رجلاً يوصى آخر وأراد سفراً ، فقال : « آثر بعملك معادك ، ولا تدع لشهوتك رشادك ، وليكن عقلك وزيرك الذى يدعوك إلى الهدى ، ويعصمك من الردى ، ألجم هواك عن الفواحش ، وأطلقه فى المكارم ، فإنك تبر بذلك سلفك ، وتزيد شرفك . » (الأمال : ١ : ٢٠٠)

٤ - وصية رجل لابنه وقد أراد الزواج

وقال بعضهم لولده وقد أراد الزواج :

« يا بنى : لا تتخذها حنانة ، ولا أنانة ، ولا منانة^(٤) ، ولا عصابة الدار^(٥) ،

(١) رفه عيشه ككرم فهو رفيه ورافه : مستريح متنعم ، وأرفهه الله ورفهه ترفها ، ومن ساعات المهمة أى الدنيا المهمة : أى التى ستملها وتغادرها ، وربما كانت « المهلة »
(٢) السماير : ما يترامى للإنسان فى نومه من الأباطيل ، وما يتراءاه للسكران فى سكره .
(٣) السلوة : اسم السلوان . قال الأصمى : يقرول الرجل لصاحبه : « سقيني سلوة (بالفتح) وسلوانا (بالضم) أى طيب نفعى عنك ، وذكروا أيضاً أن السلوة والسلوانة : خرزة شفافة تدفن فى الرمل فتسود فيبحث عنها ، ويستأها الإنسان فتسليه .

(٤) الحنانة : التى لها ولد من سواه فهى تحن عليهم . والأنانة : التى مات عنها زوجها ، فهى إذا رأت الزوج الثانى أنت ، وقالت : رحم الله فلانا ، أزوجها الأول . والمنانة : التى لها مال ، فهى تمن على زوجها ، كلما أهوى إلى شىء من مالها . (٥) عصابة الدار : يريد الهجينة ، وعصابة الدار : التى تفتت فى دمنة الدار ، وحوها عشب فى بياض الأرض ، فهى أفخم منه وأضخم ، لأنها غذتها الدمثة ، وذلك (أى العشب) أطيب للأكل رطباً وريساً ، لأنه نبت فى أرض طيبة ، وهذه نبتت فى دمنة ، فهى مبتنة رطبة ، وإذا يبست صارت حثانا (بالضم) وذهب قفها فى الدمثة فلم يمكن جمعه ، وذلك يجمع قفه لأنه فى أرض طيبة (والقف بالضم : ما يبس من البقل ، وسقط على الأرض فى موضع نباته) .

وَلَا كِبَةَ الْقَفَا^(١) . (الأمال ٢ : ٢٦)

٥ - وصية بعض العلماء لابنه

وأوصى بعض العلماء ابنه فقال :

« أوصيك بتقوى الله ، وَلَيْسَعَكَ بَيْتُكَ ، وَاْمَلِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ ، وَابْكْ

على خطيئتك » . (البيان والتبيين ٢ : ١٦١)

٦ - وصية لبعض الحكماء

وقال بعض الحكماء :

« لَا يَكُونَنَّ مِنْكُمْ الْمُحَدِّثُ وَلَا يُنْصَتُ لَهُ ، وَالِدَاخِلُ فِي سِرِّ اثْنَيْنِ لَمْ يُدْخِلَاهُ ،

وَلَا آتَى الدَّعْوَةَ لَمْ يُدْعَ إِلَيْهَا ، وَلَا الْجَالِسُ الْمَجْلِسَ لَا يَسْتَحِقُّهُ ، وَلَا الطَّالِبُ الْفَضْلَ

مِنْ أَيْدِي النَّاسِ ، وَلَا الْمُتَعَرِّضُ لِلْخَيْرِ مِنْ عِنْدِ عَدُوِّهِ ، وَلَا الْمُتَحَمِّقُ فِي الدَّالَّةِ^(٢) . »

(البيان والتبيين ٢ : ٥٨)

٧ - وصية أخرى

وقال بعض الحكماء :

« إِيَّاكَ وَالْعَجَلَةَ ، فَإِنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ تَكْنِيهَا : أُمُّ النَّدَامَةِ » لِأَنَّ صَاحِبَهَا يَقُولُ

قَبْلَ أَنْ يَعْلَمَ ، وَيُجِيبُ قَبْلَ أَنْ يَفْهَمَ ، وَيَعْزِمُ قَبْلَ أَنْ يَفْكُرَ ، وَيَقْطَعُ قَبْلَ أَنْ يُقَدِّرَ ،

وَيَحْمَدُ قَبْلَ أَنْ يُجَرِّبَ ، وَيَذُمُّ قَبْلَ أَنْ يَخْبُرَ ، وَلَنْ يَصْحَبَ هَذِهِ الصِّفَةَ أَحَدٌ إِلَّا صَحِبَ

(زهر الآداب ٣ : ١٩٧)

النَّدَامَةَ ، وَاعْتَزَلَ السَّلَامَةَ . »

(١) كبة القفا : هي التي يأتي زوجها أو ابنها القوم ، فإذا انصرف من عندهم ، قال رجل من جنابه

القوم : قدوافته كان بيني وبين امرأة هذا المولى أرأه أمر .

(٢) الدالة : ما تدل به على حبيبك .

٨ - وصية أخرى

وقال ابن دُرَيْدٍ : أوصى بعض الحكماء رجلاً ، فقال :

« آمُرُكَ بِمُجَاهِدَةِ هَوَاكَ ، فَإِنَّهُ يُقَالُ : إِنَّ الْهَوَى مِفْتَاحُ السَّيِّئَاتِ ، وَخَصِيمُ الْحَسَنَاتِ وَكُلُّ أَهْوَاؤِكَ لَكَ عَدُوٌّ ، وَأَهْوَاؤُهَا ^(١) هَوَى يَكْتُمُكَ فِي نَفْسِهِ ، وَأَعْدَاؤُهَا هَوَى يَمِثُّ لَكَ الْإِثْمَ فِي صُورَةِ التَّقْوَى ، وَلَنْ تَفْصَلَ بَيْنَ هَذِهِ الْخُصُومِ إِذَا تَنَاظَرْتَ لَدَيْكَ إِلَّا بِحِزْمٍ لَا يُشِيبُهُ وَهْنٌ ، وَصِدْقٍ لَا يَطْمَعُ فِيهِ تَكْذِيبٌ ، وَمَضَاءٌ لَا يَقَارِبُهُ التَّنْبِطُ ^(٢) ، وَصَبْرٍ لَا يَفْتَالُهُ جَزَعٌ ، وَرَبِيَّةٍ لَا يَنْقَسِمُهَا التَّضْيِيعُ » .

(زهر الآداب ٣ : ١٢٩)

٩ - عظة لبعض الحكماء

عن الأصمعي قال : بلغني أن بعض الحكماء كان يقول :

« إِنِّي لَأَعْظِمُكُمْ ، وَإِنِّي لَكَثِيرُ الذَّنُوبِ مُسْرِفٌ عَلَى نَفْسِي ، غَيْرُ حَامِدٍ لَهَا ، وَلَا حَامِلِهَا عَلَى الْمَكْرُوهِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، قَدْ بَلَوْتَهَا فَلَمْ أَجِدْ لَهَا شُكْرًا فِي الرَّخَاءِ وَلَا صَبْرًا عَلَى الْبَلَاءِ ، وَلَوْ أَنَّ الْمَرْءَ لَا يَعْظُ أَخَاهُ حَتَّى يُحْكِمَ أَمْرَ نَفْسِهِ ، لَتُرِكَ الْأَمْرُ بِالْخَيْرِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَلَكِنْ مَحَادِثَةُ الْإِخْوَانِ حَيَاةٌ لِلْقُلُوبِ ، وَجِلَاءٌ لِلنَّفُوسِ ، وَتَذَكِيرٌ مِنَ النَّسِيَانِ . وَاعْلَمُوا أَنَّ الدُّنْيَا سُرُورُهَا أَحْزَانٌ ، وَإِقْبَالُهَا إِدْبَارٌ ، وَآخِرُ حَيَاتِهَا الْمَوْتُ ، فَكَمْ مِنْ مُسْتَقْبَلٍ يَوْمًا لَا يَسْتَكْمِلُهُ ، وَمُنْتَظَرٍ غَدًا لَا يَبْلُغُهُ ، وَلَوْ تَنْظُرُونَ إِلَى الْأَجَلِ وَمَسِيرِهِ ، لَأَبْغَضْتُمُ الْأَمَلَ وَغُرُورَهُ » .

(الآمال ٢ : ٥٧)

١٠ - نصيحة لبعض الحكماء

وحذر بعض الحكماء صديقاً له صحبه رجل فقال :

« اخذر فلاناً ، فإنه كثير المسألة ، حسن البحث ، لطيف الاستدراج ، يحفظ أول كلامك على آخره ، ويعتبر ما أخرت بما قدمت ، فلا تظهرن له المخافة ، فيرى أنك قد تحررت . واعلم أن من يقظة الفطنة إظهار الغفلة مع شدة الخذر ، فبائه مباتة الآمن ، وتحفظ منه تحفظ الخائف ، فإن البحث يظهر الخفي الباطن ، وَيُبْدِي الْمُسْتَكِنَ الْكَاْمِنَ » .

(زهر الآداب ٣ : ١٦٤)

١١ - كلمات شتى لبعض الحكماء

عن الأصمعي قال : قال بعض الحكماء :

« من كانت فيه سبع خصال لم يعدم سبباً : من كان جواداً لم يعدم الشرف ، ومن كان ذا وفاء لم يعدم المقة ، ومن كان صدوقاً لم يعدم القبول ، ومن كان شكوراً لم يعدم الزيادة ، ومن كان ذا رعاية للحقوق لم يعدم الشؤدد ، ومن كان منصفاً لم يعدم العافية ، ومن كان متواضعاً لم يعدم الكرامة » .

(الآمال ٢ : ٣٩)

وقيل لبعض الحكماء : كيف ترى الدهر ؟ قال : يُخْلِقُ الْأَبْدَانَ ، وَيُجَدِّدُ الْأَمَالَ ، وَيُقَرِّبُ الْأَجَالَ ، قيل له : فما حال أهله ؟ قال : من ظفر به نصب ، ومن فاته حزن ، قيل : فأى الأصحاب أبر ؟ قال : العمل الصالح ، قيل : فأيهم أضر ؟ قال : النفس والهوى ، قيل : فقيم المخرج ، قال : في قطع الراحة وبذل المجهود .

(الآمال ٢ : ٥٩)

وأخبر عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت رجلاً يقول :
« الحسد ما حقُّ الحسَنَات ، وَالزَّهْوُ جَالِبٌ لِمَقْتِ اللَّهِ وَمَقْتِ الصَّالِحِينَ ، وَالْعُجْبُ
صَارِفٌ عَنِ الْإِزْدِيَادِ مِنَ الْعِلْمِ ، دَاعٍ إِلَى التَّخْمُطِ ^(١) وَالْجَهْلِ ، وَالْبَخْلُ أَدَمُّ الْأَخْلَاقِ ،
وَأَجْلَبُهَا لِسُوءِ الْأَحْدُوثةِ » .
(الأمال : ١ : ٢٠٠)

وقال : قال بعض العرب :
« أَوْلَى النَّاسِ بِالْفَضْلِ أَعْوَدُهُمْ بِفَضْلِهِ ، وَأَعْوَنُ الْأَشْيَاءِ عَلَى تَذَكِّيَةِ الْعَقْلِ التَّعَلُّمُ ،
وَأَدْلُ الْأَشْيَاءِ عَلَى عَقْلِ الْعَاقِلِ حَسَنُ التَّيْدِيرِ » .
(الأمال : ١ : ٢١٧)

وقال الأصمعي : العرب تقول :
« لَا ثَنَاءَ مَعَ الْكِبَرِ ، وَلَا صَدِيقَ لَدَى الْحَسَدِ ، وَلَا شَرَفَ لِسَيِّئِ الْأَدَبِ » .
قال : وكان يقال : « شَرُّ خِصَالِ الْمَلُوكِ الْجُبْنُ عَنِ الْأَعْدَاءِ ، وَالْقَسْوَةُ عَلَى الضَّعْفَاءِ ،
وَالْبَخْلُ عِنْدَ الْإِعْطَاءِ » .
(الأمال : ١ : ٢٠١)

وقال أبو علي القالي ، وأملى علينا أبو عبد الله قال : من كلام العرب ووصاياتها :
« جَالِسُ أَهْلِ الْعِلْمِ ، فَإِنْ جَهِلْتَ عَمَّوْكَ ، وَإِنْ زَلَلْتَ قَوْمَوكَ ، وَإِنْ أَخْطَأْتَ
لَمْ يُفْنِدُوكَ ^(١) ، وَإِنْ صَحَّبتَ زَانُوكَ ، وَإِنْ غَبَّبتَ تَفَقَّدُوكَ . وَلَا تَجَالِسْ أَهْلَ الْجَهْلِ ،
فَإِنَّكَ إِنْ جَهِلْتَ عَنَّوْكَ ، وَإِنْ زَلَلْتَ لَمْ يَقَوْمُوكَ ، وَإِنْ أَخْطَأْتَ لَمْ يَثْبُتُوكَ » .
(الأمال : ٢ : ٧٢)

١٢ — رجل من العرب والحجاج

سأل الحجاج رجلاً من العرب عن عشيرته قال : أي عشيرتك أفضل ؟ قال :
أَتَقَاهُمْ اللَّهُ ، بِالرَّغْبَةِ فِي الْآخِرَةِ ، وَالزَّهْدِ فِي الدُّنْيَا ، قال : فأيهم أسود ؟ قال : أَرَزَنُهُمْ
حِمَامًا حِينَ يُسْتَجْهَلُ ، وَأَسْخَاهُمْ حِينَ يُسْأَلُ ، قال : فأيهم أدهى ؟ قال : من كتم سرَّه

(١) تخمط : تكبر وغضب . (٢) فنده : ضعف رأيه وخطأه .

من أحبّ ، مخافة أن يُشارَه يوماً ، قال : فأيهم أكيس ؟ قال : من يُصلِح ماله
ويقتصد في معيشته ، قال : فأيهم أرفق ؟ قال : من يعطى بشرَ وجهه أصدقاءه ،
ويتلطّف في مسألته ، ويتعاهد حقوق إخوانه ، في إجابة دَعَوَاتِهِمْ ، وعبادة مَرَضَاهُمْ ،
والتسليم عليهم ، والمشى مع جنازتهم ، والنصح لهم بالغيب ، قال : فأيهم أفطن ؟ قال :
من عَرَف ما يوافق الرجال من الحديث حين يجالسهم ، قال : فأيهم أصلب ؟ قال : من اشتدت
عارضته^(١) في اليقين ، وحزَم في التوكل ، ومنع جاره من الظلم . (مجمع الأمثال ٢ : ١٧٨)

١٣ - أحد الوافدين على عمر بن عبد العزيز

ووفد وافد على عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، فقال له : كيف تركت الناس ؟
فقال :

« تركت غنيّهم موفوراً ، وفقيرهم محجوراً ، وظالمهم مقهوراً ، ومظلومهم منصوراً »
فقال : « الحمد لله ، لو لم تتمّ واحدة من هذه الخصال إلا بعضو من أعضائي ،
لكان يسيراً » . (الأمال ٢ : ٢٩)

١٤ - كاتب وأمير

ودخل بعض الكتاب على أمير بعد نكبة نابتة ، فرأى من الأمير بعض الازدراء
فقال له :

« لا يَضَعْنِي عندك سُخُولُ النَّبُوَّةِ ، وزوالُ الثَّرْوَةِ ، فإن السيف العتيق إذا مسّه
كثيرُ الصِّدِّ استغنى بقليل الجلاء ، حتى يعود حدّه ، ويظهر فرّنده ، ولم أصف نفسي
عُجْباً ، لكن شكراً ، قال صلى الله عليه وسلم : أنا أشرف ولد آدم ولا نخر » .
فجهر بالشكر ، وترك الاستطالة بالكبر » . (زهر الآداب ٣ : ٩١)

(١) العارضة ، الجلد والصرامة والسن .

١٥ - وصف الهلباجة

من أمثال العرب : « أعجز من هلباجة » وهو النُّوم الكسلان العُطل^(١) الجاني ، وقد سار في وصف الهلباجة فصل لبعض الأعراب المتفصِّحين ، وفصل آخر لبعض الحضريين ، فأما وصف الأعرابي ، فقد سئل ابن أبي كَبْشَةَ بن القَبَعَتْرَى عنه فقال : « الهلباجة : الضعيف العاجز ، الأخرق الأحمق ، الجِلْف^(٢) الكسلان ، الساقط لامعنى فيه ، ولا غناء^(٣) عنده ، ولا كفاية معه ، ولا عمل لديه . »

وأما وصف الحضري فإن بعض بُلغَاء الأمصار سئل عن الهلباجة فقال :

« هو الذى لا يرعوى لِعَدْلِ العاذل ، ولا يُصغى إلى وعظ الواعظ ، ينظر بعين حسود ، ويُعرض إعراضَ حقود ، إن سأل أخلف^(٤) ، وإن سئل سوف ، وإن حدث حلف ، وإن وعد أخلف ، وإن زجر عفف ، وإن قدر عسف^(٥) ، وإن احتمل أسف^(٦) ، وإن استغنى بطر ، وإن افتقر قنط ، وإن فرح أشر^(٧) ، وإن حزن يثس ، وإن ضحك زار ، وإن بكى جأر^(٨) ، وإن حكم جار ، وإن قدّمته تأخر ، وإن أخرته تقدم ، وإن أعطاك منّ عليك ، وإن أعطيته لم يشكرك ، وإن أسررت إليه خانك ، وإن أسرّ إليك اتهمك ، وإن صار فوقك قهرك ، وإن صار دونك حسدك ، وإن وثقت به خانك ، وإن انبسطت إليه شانك ، وإن أكرمته أهانك ، وإن غاب عنه الصديق سلّاه ، وإن حضره قلّاه^(٩) ، وإن فاتحه لم يُجبه ، وإن أمسك عنه لم يبدأه ، وإن بدأ بالود هجر ، وإن بدأ بالبرّ جفا ، وإن تكلم فضّحه العيى ، وإن عمل قصر به

(١) عطل كفرج : عظم بدنه ، ومن المال والأدب : خلا فهو عطل كقفل وعتق .

(٢) الجاني . (٣) لاغناء : لا كفاية .

(٤) الخ . (٥) ظلم . (٦) من أسف الطائر : دنا من الأرض في طيرانه ، أى لم يستطع

النهوض بما حمل . (٧) أشر : مرح . (٨) صاح واستغاث .

(٩) أبغضه وكرهه غاية الكراهة .

الجهل ، وإن أوْثَمِنَ غَدْرَ ، وإن أجاز أخفر^(١) ، وإن عاهد نكث ، وإن حلف حنث
لَا يَصْدُرُ عَنْهُ الْآمِلُ إِلَّا بِخَبِيئَةٍ ، وَلَا يَضُرُّ إِلَيْهِ حُرٌّ إِلَّا بِمِحْنَةٍ .

قال خلف الأحمر : سألت أعرابياً عن الملباجة ، فقال : « هو الأحق الضخم
القدم^(٢) الأكل الذي والذي . . . ثم جعل يلتقاني بعد ذلك ، ويزيد في التفسير
كل مرة شيئاً ، ثم قال لي بعد حين - وأراد الخروج - هو الذي جمع كل شر » .
(مجمع الأنال ١ : ٢٣٦)

١٦ - بعض البلغاء يصف رجلاً

ووصف بعض البلغاء رجلاً فقال :

« إنه بَسِيطٌ^(٣) الكف ، رَحْبُ الصدر ، مُوْطَأُ الأَكناف ، سَهْلُ الخلق ،
كَرِيمُ الطَّبَاع ، غَيْثٌ مُغَوِّثٌ^(٤) ، وَبِحُرِّ زَجُور ، ضَحُوكُ السن ، بشير الوجه ،
بَادِي القَبُولِ^(٥) غير عبوس ، يَسْتَقْبَلُكَ بِطَلَاةٍ ، وَيُحْيِيكَ بِبِشْرِ ، وَيَسْتَدْبِرُكَ بِكَرَمِ
غَيْثٍ ، وَجَمِيلِ بِشْرِ ، تُبْهَجُكَ طَلَاةٌ ، وَيَرْضِيكَ بِشْرُهُ ، ضَحَّاكٌ عَلَى مَائِدَتِهِ ، عُنْدُ
لُضَيْفَانِهِ ، غير ملاحظ لَأَكِيلِهِ ، بَطِينٌ^(٦) من العقل ، خَمِيصٌ^(٧) من الجهل ، راجح
الحلم ، ثاقب الرأى ، طَيِّبُ الخلق ، مُحْصَنُ الضَّرْبِيَّةِ^(٨) مِعْطَاةٍ غير سأل ، كاسٍ^(٩)
من كل مَكْرُومَةٍ ، عار من كل مَلَأَمَةٍ ، إن سئل بذل ، وإن قال فعل » .
(زهر الآداب ٢ : ٢٠٥)

-
- (١) أخفره وخفربه : نفخه هذه وغدره . (٢) القدم : العيسى عن الكلام في ثقل ورخاوة ،
وقلة فهم ، والغايظ : الأحق الجاق .
(٣) أى مبسوط الكف سخي . (٤) غوث تغويثاً : قال واغوثاه .
(٥) القبول بالفتح وقد يضم : الحسن . (٦) أى يتلى وأصله : عظيم البطن .
(٧) خميص : خال ، وأصله : الجائع . (٨) الضريبة : الطيبة ، ومحسن : عف .
(٩) أى مكسور .

١٧ - خمس جوار من العرب يصفن خيل آبائهن

عن ابن الكلبي عن أبيه قال :

اجتمع خمسُ جَوَارٍ من العرب ، فقلن : هَلُمُّنْ نَصِيفَ خَيْلِ آبَائِنَا .

فقال الأولى :

« فرسُ أبي وَرْدَةَ ، وما وردة ؟ ذات كَفَلٍ مُزْحَلِقٍ ، وَمَتْنٍ أَخْلَقٍ ، وَجَوْفٍ

أَخْوَقٍ ^(١) ، وَنَفْسٍ مَرُوحٍ ، وَعَيْنٍ طَرُوحٍ ، وَرِجْلٍ ضَرُوحٍ ، وَيَدٍ سَبُوحٍ ^(٢) ،
بُدَاهَتَهَا إِهْدَابٌ ، وَعَقْبُهَا غِلَابٌ ^(٣) . »

وقالت الثانية :

« فرسُ أبي اللَّعَابِ ، وما اللَّعَابُ ؟ غَبِيَّةٌ سَحَابٌ ، واضطرامُّ غَابٍ ، مُتْرَصٌ

الأوصال ، أَشْمٌ الْقَذَالُ ، مُلَاحِكُ الْحَالِ ^(٤) ، فَارِسَةٌ مُجِيدٌ ، وَصَيْدُهُ عَتِيدٌ ، إن أقبل
فَطَبِي مَعَّاجٌ ، وإن أدبر فَظَلِيمٌ هَدَّاجٌ ، وإن أَحْضَرَ فَعَلِجٌ هَرَّاجٌ ^(٥) . »

وقالت الثالثة :

« فرسُ أُمِّي حُدَمَةٌ ، وما حُدَمَةٌ ؟ إن أقبلتُ فَمَقْنَأَةٌ مُقَوِّمَةٌ ، وإن أدبرتُ فَأَنْفِيَّةٌ

(١) المزحلق : الملمس الذي كأنه زحلوة (بالضم) وهي آثار تزلج الصبيان من فوق إلى أسفل ، والأخلق : الأملس ، وأخوق : واسع . (٢) مروح : كثيرة المرح ، طروح بعيدة موقع النظر ، ضروح : دفوع ، يريد أنها تضرح الحجارة برجليها إذا عدت ، سبوح : كأنها تسمع في عدوها من سرعتها . (٣) بداهتها : فجاءتها ، والبداة والبديهة واحد ، والإهداب : المرعة ، والعقب : جرى بعد جرى ، وغلاب مصدر ، غالبته مغالبة وغلابا ، كأنها تغالب الجرى .

(٤) الغيبة : الدفعة من المطر . والقاب جمع غابة : وهي الأجمة ، مترص : محكم ، أتربت الشيء : أحكته أشم : مرتفع ، القذال : معقد المدار (والمدار من اللجام ككفاب : ما سأل على خد الفرس) . ملاحك مداخل (بفتح الميم) كأنه دوخل بعضه في بعض ، والحال جمع محالة : وهي فقار الظهر (كسحاب) جمع فقارة وذكر الأصمى أنه رأى فقار فرس ميت ، فإذا ثلاث فقر من عظم واحد ، وكذا تكون العراب فيما ذكروا . (٥) مجيد : صاحب جواد . هتيد : حاضر ، معج في سيره ومعج : إذا أسرع ، والهدج كشمس : المشى للرويد ويكون المرهع . والعلج : حمار الوحش السمين القوي ، وهرج الفرس : كضرب إذا كان كبير الجرى .

مَلَمَّةً ، وَإِنْ أَعْرَضَتْ فَذِئْبَةٌ مُعْجَرِمَةٌ ^(١) ، أُرْسَاغُهَا مُتْرَصَةٌ ، وَفُصُوصُهَا مُمَحَّصَةٌ ،
جَرِيئًا أَنْثَرَارًا ، وَتَقَرِّيُهَا أَنْكَدَارٌ ^(٢) .

وقالت الرابعة :

« فَرَسُ أَبِي خَيْفَقٍ ، وَمَا خَيْفَقُ ؟ ذَاتُ نَاهِقٍ مُعْرَقٍ ، وَشِدْقُ أَشْدَقٍ ، وَأَدِيمٌ
مُمَلَّقٌ ^(٣) ، لَهَا خَلْقٌ أَشْدَفٌ ، وَدَسِيعٌ مُنْفَنَفٌ ، وَتَلِيلٌ مُسِيفٌ ^(٤) وَثَابَةٌ زُلُوجٌ ،
خَيْفَانَةٌ رَهُوجٌ ، تَقَرِّيُهَا إِهْمَاجٌ ، وَحُضْرُهَا ارْتِعَاجٌ ^(٥) . »

وقالت الخامسة :

« فَرَسُ أَبِي هُذُلُولٍ ، وَمَا هُذُلُولُ ؟ طَرِيدُهُ مَحْبُولٌ ، وَطَالِبُهُ مَشْكُولٌ ، رَفِيقٌ
الْمَلَاغِمِ ، أَمِينُ الْمَعَاقِمِ ^(٦) ، عَيْلُ الْمَجْرِمِ ، مَخْدٌ مِرْجَمٌ ^(٧) ، مُنِفُ الْحَارِكِ ، أَشْمٌ

(١) حذمة : فملة من الخدم وهو السرعة أو القطع ، ففناة مقومة تريد أنها دقيقة المتقدم ، وهو مدح
في الإناث ، والألفية : الحجر توضع عليه القدر ، ملهمة : مجتمعة ، تريد أنها مدورة المؤخر ، لأن الأثافي
تختار مدورة ، معجزة بكسر الراء اسم فاعل من المعجزة ، وهي إسراع في مقاربة خطو . قال الشاعر :

أَمَّا إِذَا يَعدُو فَتَعَلَبَ جَرِيَّةً أَوْ ذِئْبٌ عَادِيَةً يَعْجِرِمُ عَجْرَمَهُ

ويقال ناقة معجزة بفتح الراء : أي شديدة . (٢) محصنة : قليلة اللحم قليلة الشعر ! محص الجمل
كفرح ، إذا سقط شعره واهلاس . انثرار : انصباب ، كأنه يثره ثرا ، والتقريب : ضرب من العدو
أو أن يرفع يديه معاً ويضعهما معاً ، وانكدر : أسرع وانقض . وانكدر عليه القوم : انصبوا .

(٣) خيفق : فيمل من الخفق كشمس : وهو السرعة . التناهقان : العظمان الشاخصان في خدى الفرس
معرق : قليل اللحم . أشدق : واسع الشدق . مملق : يملس . (٤) الأشدف : العظيم للشخص .
والشدف محرقة : الشخص . الدسيع : مغرز العنق في الكاهل . مننف : واسع من النفث كجعفر :
وهو الهواء بين السماء والأرض . التليل : العنق . مسيف : كأنه سيف .

(٥) زلوج : سريعة . الزليج والزليجان بالتحريك : السرعة . الخيفانة : الجراة التي فيها نقط سود
تخالف سائر لونها . وإنما قيل للفرس : خيفانة لسرعتها لأن الجراة إذا ظهر فيها تلك للنقط كان أسرع
لطيرانها . رهوج : كثيرة الريح . (والرهج بالتحريك : للغيار) أهج الفرس إهماجا : إذا اجتهد
في عدوه . والحضر : ارتفاع للفرس في عدوه . الارتعاج : كثرة البرق وتتابعه .

(٦) محبول : في حباله . مشكول : موثق في شكل (الشكال كتاب : الحبل تشد به قوائم الدابة)
الملاغم من الإنسان : ماحول النعم . أرادت هاهنا الجحافل (والجحافل جمع جحفة بالفتح بمنزلة الشفة الخيل
البنغال والحمير) والمعاقم ، المنافصل . (٧) عيل : غليظ . والحزم موضع الحزام . مخد : يخذ الأرض
أي يجمع فيها أحاديده (والأحاديده : الشقوق جمع أخدود) . مرجم : يرمي الحجر بالحجر . أو يرمي
الأرض بموافره .

السَّنَابِكُ ، مَجْدُولٌ أَخْصَائِلُ ، سَبَطُ الْفَلَائِلِ^(١) ، غَوْجُ التَّلِيلِ ، صَلْصَالُ الصَّهِيلِ ،
أَدِيمُهُ صَافٍ ، وَسَبِيْبُهُ ضَافٍ^(٢) ، وَعَفْوُهُ كَافٍ . (الأمال : ١٩٠)

١٨ - رجل من العرب يصف مطرا

عن عبد الرحمن عن عمه قال :

سئل رجل من العرب عن مطر كان بعد جَدْبٍ فقال :

« نَشَأَ حَمَلًا^(٣) سُدًّا مَتَقَازِفَ الْأَحْضَانِ ، مَحْمُومِي الْأَرْكَانِ ، لَمَّاعِ الْأَقْرَابِ ،
مُكْفَهَرِ الرَّبَابِ ، تَمَحْنُ رُعودُهُ حَنِينَ اضْطِرَابِ ، وَتُرْمِجُ زَجْرَةَ اللَّيْثِ الْفِضَابِ ،
لِبُوارِقِهِ التَّهَابِ ، وَرِوَاعِدِهِ اضْطِرَابِ ، فَجَاحَتَ^(٤) صَدُورُهُ الشَّعَافَ ، وَرَكِبَتْ
أَمْجَازُهُ الْقِفَافَ ، ثُمَّ أَلْقَى أَعْبَاءَهُ ، وَحَطَّ أَثْقَالَهُ ، فَتَأَلَّقَ وَأَصْعَقَ^(٥) ، وَانْبَجَسَ وَانْبَعَقَ ،
ثُمَّ انْجَمَ فَانْطَلَقَ ، فَغَادَرَ النَّهَاءَ^(٦) مُتْرَعَةً ، وَالغَيْطَانَ مُمْرِعَةً ، حَبَاءً لِلْبِلَادِ ، وَرِزْقًا لِلْعِبَادِ .
(بلوغ الأرب ٣ : ٢٥٠)

(١) منيف : مرتفع ، والحارك : منبت أذى العرف إلى الظهر الذي يأخذ به من يركبه ، والسنايك :
أطراف الحوافر جمع سنيك كقنفة : مجدول : مفتول ، الخصائل : جمع خصيلة وهي كل قطعة من اللحم
مستطيلة أو مجتمعة ، اللليل : الشعر المجتمع ، ويقال للقطعة من الشعر : اللليلة ، سبط : مسترسل .
(٢) الغوج : اللين المعطف ، والصلصلة صوت الحديد ، وكل صوت حاد ، والسبيب : شعر
الناصية : ضاف : سابع .

(٣) الحمل : السحاب الكثير الماء ، والسد : الذي قد سد الأفق ، اجومي : اسود ، والأقرب جمع
قرب كقف وعنق وهو الحاصرة ، والرهباب : السحاب الأبيض . (٤) جاحفه : زاحه ودافاه ،
والشعاف جمع شفة كرقبة : وهي رأس الجبل ، والقفاف جمع قف بالضم وهو ما غلظ من الأرض وارتفع
لم يبلغ أن يكون جبلا . (٥) صمقهم السماء وأصمقهم : ألتقت عليهم صاعقة ، وانجس : انفجر بالماء .
وانبعق السحاب : انبعج بالمطر واندفع ، والانبعاق : أن يندفع عليك شيء فجأة وأنت لا تشمر ، وانجمت
السماء : أسرع مطرها . (٦) النهاء جمع نهى بالكسر والفتح : القدير ، ومترعة : ملوثة ، والغيطان
جمع غائط : وهو المظلم الواسع من الأرض ، ممرعة : مخصبة ، حباء : عطاء .

الباب الثالث

في

نثر الأعراب

قولهم في الوعظ والتوصية

١ - مقام أعرابي بين يدي سليمان بن عبد الملك

قام أعرابي بين يدي سليمان بن عبد الملك ، فقال :

« إني مُكَلِّمٌ يا أمير المؤمنين بكلامٍ فيه بعض الغِلظة ، فاحتمله إن كرهته ، فإن وراءه ما تُحِبُّه إن قبلته » ، قال : هاتِ يا أعرابي : إنا نجود بسعة الاحتمال على من لا نرجو نُصْحَه ، ولا نأمن غِشَّه ، وأرجو أن تكون الناصحَ جَيِّبًا ، المأمونَ غَيِّبًا ، قال : « يا أمير المؤمنين أما إذ أمنت بادرَةَ غضبك ، فأني سأطلق لساني بما خَرِسْتُ عنه الألسن من عِظَتِكَ ، تأديةً لحقِّ الله وحقِّ إمامتك . إنه قد اكتنفتك رجالٌ أساءوا الاختيار لأنفسهم ، فابتاعوا دنياك بدينهم ، ورضاك بسُخْطِ ربهم ، خافوك في الله ، ولم يخافوا الله فيك ، فهم حربٌ للآخرة ، سِلمٌ للدنيا ، فلا تأمنهم على ما اتئمتك الله عليه ، فإنهم لا يألونك^(١) خَبَالًا ، والأمانة تضييعًا ، والأمة عَسْفًا وَخَسْفًا^(٢) ، وأنت مسئول عما اجترحوا^(٣) ، وليسوا مسئولين عما اجترحتَ ، فلا تُصلح دنياهم بفساد آخرتك ، فإن أخسر الناس صَفْقَةً يوم القيامة ، وأعظمهم غَبْنًا من باع آخرته بدنيا غيره »

(١) ألا يألو : قصر وأبطأ ، والخبال : الفساد . (٢) العسف : الظلم ، والخسف : الذل .

(٣) اكتسبوا ، وفي رواية : « اجترموا » .

قال سليمان : « أما أنت يا أعرابي ، فقد سلّت لسانك ، وهو أقطع سيفيك » ، فقال :
« أجل يا أمير المؤمنين لك لا عليك » .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٣٣٧ ، والمعقد الفريد ١ : ٣٠٧ ، ومروج الذهب ٢ : ١٦٤ .
وزهر الآداب ١ : ٢٧٧)

٢ - أعرابي يعظ هشام بن عبد الملك

ودخل أعرابي على هشام بن عبد الملك ، فقال له : عِظْنِي يَا أَعْرَابِي ، فقال :
« كفى بالقرآن واعظاً ، أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ،
بسم الله الرحمن الرحيم : « وَيَلِّ اللَّهُ الْمُطَفِّفِينَ ^(١) الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ
وَإِذَا كَالُوا لَهُمْ أَوْ وَزَنُوا لَهُمْ يُخْسِرُونَ ، أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ،
يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » ، ثم قال « يا أمير المؤمنين ، هذا جزاء من يُطْفَفُ
فِي السَّكِيلِ وَالْمِيزَانِ ، فَمَا ظَنُّكَ بِمَنْ أَخَذَهُ كَلَهٌ ^(٢) ؟ » . (المعقد الفريد ٢ : ٨٤)

٣ - خطبة أعرابي ^(٣)

وولّى جعفر بن سليمان ^(٤) أعرابياً بعض مياهم ^(٥) فخطبهم يوم الجمعة فقال :
« الحمد لله رب العالمين ، والعاية للمتقين ، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين ،
أما بعد : فإن الدنيا دارُ بلاغٍ ^(٦) ، والآخرة دار قرار ، فخذوا لمقرّكم من نمرّكم ،
ولا تهتكوا أستاركم عند من لا تخفى عليه أسراركم ، وأخْرِجُوا مِنَ الدُّنْيَا قُلُوبَكُمْ ،

(١) طفف : نقص الحكيال . (٢) وروى صاحب المعقد أيضاً هذه العبارة (ج ١ ص ٣٠٦)
وذكر أنها لابن السماك وعظ بها الرشيد .

(٣) قديماً في الجزء الثاني ص ٤٨٢ أن هذه الخطبة متنازع فيها ، فهي تعزى تارة إلى الإمام على
كرم الله وجهه ، وأخرى إلى سحبان وائل ، وثالثة إلى أعرابي . (٤) هو ابن عم أبي جعفر
المنصور ، وكان ولياً على المدينة سنة ١٤٦ - ١٥٠ هـ . (٥) في مجمع الأمثال : « عن الأصمعي
قال : حدثني شيخ من أهل العلم قال : شهدت الجمعة بالضرية « ضرية كغنية : قرية بين البصرة ومكة »
وأمرها رجل من الأعراب ، فخرج وخطب ، واف ثيابه على رأسه ، وبه قوس فقال . . . وأورد
هذه الخطبة » ، وفي السكامل للبرد : « قال الأصمعي فيما بلغني خطبتنا أعرابي بالبادية فحمد الله . . . » .
(٦) وفي رواية الميداني ، و« عيون الأخبار » « بلاغ » وفي رواية المعقد « دار نمر والآخرة دار مقر »

قبل أن تخرج منها أبدانكم ، فيها حَيِّيتُمْ ، ولغيرها خَلِقْتُمْ ، اليوم عملٌ بلا حساب ،
وغداً حسابٌ بلا عمل ، إن الرجل إذا هَلَكَ ، قال الناس ما ترك؟ وقالت الملائكة :
ما قَدَّم؟ فله آباؤكم ا قَدَّمُوا بعضاً ، يكون لكم قَرَضاً ، ولا تَخْلَفُوا كُلاً ، يكون
عليكم كُلاً^(١) ، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم ، والحمد لله ، والمصلَّى
عليه محمد ، والمدعوُّ له الخليفة ، ثم إمامكم جعفر بن سليمان ، قوموا إلى صلاتكم .

(الأمان : ١ : ٧٤٨ ، والعقد الفريد : ٢ : ١٦٤ ، وتهذيب الكمال : ١ : ٢٨ وجمع الأمثال
: ١ : ٣١٨ ، وحيون الأخبار م ٢ : ص ٢٥٣ ، وزهر الآداب ٢ : ٤) .

٤ — خطبة أخرى

وخطب أعرابي فقال :

« الحمد لله الحميد المستحمد ، وصلى الله على النبي محمد .

أما بعد : فإن التعمق في ارتجال الخطب لم يكن ، والكلام لا يثنى حتى يُثنى عنه ،
والله تبارك وتعالى لا يدرك واصفٌ كُنَّه صفته ، ولا يبلغ خطيبٌ مُنتهى مدحته ، له
الجدُّ كما مدح نفسه ، فانهمضوا إلى صلاتكم » ثم نزل فصلَّى . (العقد الفريد ٢ : ١٦٤)

٥ — خطبة أخرى

وخطب أعرابي قومه فقال :

« الحمد لله ، وصلى الله على النبي المصطفى وعلى جميع الأنبياء ، ما أقبح بمثلي أن ينهى
عن أمرٍ ويرتكبه ، ويأمر بشيءٍ ويحْتَنِبُه ، وقد قال الأول :

وَدَعَّ مَا لُمْتَ صَاحِبِهِ عَلَيْهِ فَذَمُّهُ أَنْ يَلُومَكَ مَنْ تَلُومُ

ألمنا الله وإياكم تقواه ، والعمل برضاه . (العقد الفريد ٢ : ١٦٤)

٦ — أعرابية توصي ابنها وقد أراد السفر

قال أَبَانُ بن تَغْلِبٍ - وكان عابداً من عبَاد أهل البصرة توفى سنة ٥١٤١ -
شَهِدَتْ أعرابية وهي تَوْصِي ولداً لها يريد سفرأ وهي تقول له :

« أَيْ بُنَى اجاس أَمْنَحَكَ وصيتي ، وبالله توفيقك ، فإن الوصية أجدى ^(١) عليك من كثير عقلك ، أَيْ بُنَى . إياك والنسيمة فإنها تزرع الضغينة ، وتفرق بين المحبين ، وإياك والتعرض للعيوب فتتخذ غرضاً ^(٢) ، وخَلِيقُ أَنْ لَا يَثْبُتَ الغرضُ على كثرة السهام ، وقلما اعتورت ^(٣) السهام غرضاً إلا كَلَمَتْهُ ^(٤) حتى يَهِي ^(٥) ما اشتد من قوته ، وإياك والجودَ بدينك ، والبخلَ بمالك ، وإذا هزرت فأهزُرْ كريماً يابن لهزرتك ، ولا تهزُرْ اللئيم فإنه صخرة لا يتفجر ماؤها ، ومَثَلٌ لنفسك مِثَالٌ ما استحسنت من غيرك فأعملْ به ، وما استقبحتَ من غيرك فاجتنبه ، فإن المرء لا يرى عيبَ نفسه ، ومن كانت مودته بشره ، وخالف ذلك منه فعله ، كان صديقه منه على مثل الريح في تصرفها » ثم أمسكت ، فدنوتُ منها ، فقلت : بالله يا أعرابيةُ إلا زِدْتِني في الوصية ، فقلت : أوقد أعجبك كلام العرب يا عراقى ؟ قلت : نعم ، قالت : والغدرُ أقبح ما تعامل به الناس بينهم ، ومن جمع الحِلْمَ والسَّخَاءَ فقد أجاد الحِلَّةَ ^(٦) : رَيطَها وَسِرَّبالها .

(الأمال : ٢ : ٨١ ، والمعقد للفريد ٢ : ٨٥ ، وبلاغات النداء ص ٥٧ ، والبيان والتبيين ٣ : ٢٢١) .

٧ - أعرابية توصي ابنها

وقالت أعرابية لابنها :

« يا بُنَى ، إن سؤالك الناسَ مافي أيديهم من أشدّ الافتقار إليهم ، ومن افتقرت إليه هُنتَ عليه ، ولا تزال تُحفظ وتُكْرَم ، حتى تسأل وترغب ، فإذا ألحَّت عليك الحاجةُ ، ولزِمك سوءُ الحال ، فأجعل سؤالك إلى من إليه حاجةُ السائل والمسئول ، فإنه يُعطى السائل » .

(المعقد للفريد ٢ : ٨٥)

(١) أنفع (٢) هدفاً . (٣) تداولات . (٤) جرحه، وحطته .

(٥) وهى بهى : ضيف .

(٦) الحلة لا تكون إلا من ثوبين إزار ورداء ، والريطة ؛ الملاحة كلها فسيج واحد وقطعة واحدة ،

والسربال : القميص .

٨ - أعرابي يوصي ابنه

ووصى أعرابي ابنه فقال :

« ابذل المودَّةَ الصادقةَ تستفدُ إخواناً ، وتتخذُ أعواناً ، فإنَّ العداوةَ موجودةٌ عتيِّدةٌ ، والصدقةُ مُستعْرِزَةٌ ^(١) بعيدةٌ ، جنبْ كرامتك اللئام ، فإنهم إن أحسنتَ إليهم لم يشكروا ، وإن نزلتْ شديدة لم يصبروا » . (الأمال ١ : ٢٠١)

٩ - أعرابي ينصح لابنه

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت أعرابياً يقول لابنه :

« لَا يَفْرَنْكَ مَا تَرَى مِنْ خَفْضِ الْعَيْشِ ، وَلَيْنَ الرَّيَاشِ ^(٢) ، وَلَكِنْ فَانظُرْ إِلَى سَوْءِ الظَّنِّ ، وَسَوْءِ المُنْقَلَبِ » . (الأمال ٢ : ٥٩)

١٠ - أعرابي ينصح لابنه

وقال : سمعت أعرابياً يقول لابنه :

« كُنْ لِلْعَاقِلِ المُدْبِرِ أَرْجَى مِنْكَ لِلأَحْمَقِ المُقْبِلِ » ، ثُمَّ أَنشَدَ :
عَدُوُّكَ ذُو الحِلْمِ أَبْقَى عَلَيْكَ وَأَرْعَى مِنَ الوَاقِمِ الأَحْمَقِ ^(٣)
(ذيل الأمال من ٣٤)

١١ - أعرابي ينصح لأخيه

ونصح أعرابي لأخيه ، فقال :

« اعلم أن الناصح لك ، المشفق عليك ، مَنْ طالع لك ما وراء العواقب برويته ونظره ، ومثل لك الأحوال المخوفة عليك ، وخاط الوعر بالسهل من كلامه ومشورته ليكون خوفك كفاءً ^(٤) رجائك ، وشكرك إزاء النعمة عليك ، وأن الغاش لك ،

(١) مستعززة : منقبضة شديدة : (٢) الحصب والمعاش .

(٣) الوامق : الحب . (٤) مكافئاً .

والخاطب^(١) عليك، مَنْ مَدَّ لَكَ فِي الْاِعْتِرَارِ ، وَوَطَّأَ لَكَ مِهَادَ^(٢) الظُّمِّ ، تَابِعاً لِمَرْضَاتِكَ
منقاداً لهواك .
(الامال ١ : ١٩٨)

١٢ - أعرابي يعظ أخاه

ووعظ أعرابي أخاه له أفسد ماله في الشراب ، فقال :
« لا الدهرُ يَعْظُكَ ، وَلا الأَيْلَمُ تُنْذِرُكَ ، وَلا الشَّيْبُ يَزْجُرُكَ ، وَالسَّاعَاتُ تَحْصِي
عَلَيْكَ ، وَالأَنْفَاسُ تُعَدُّ مِنْكَ ، وَالمَنَايَا تُقَادُ إِلَيْكَ ، أَحَبُّ الأُمُورِ إِلَيْكَ ، أُعْوَدُهَا
بِالضَّرَّةِ عَلَيْكَ » .

(العقد الفريد ٢ : ٨٥ ، في الأمال ١ : ١٩٨ ، وزهر الآداب ٣ : ١١٥)

١٣ - أعرابي يعظ صاحبه

وقال أعرابي لصاحبه :
« وَاللَّهِ لَنْ هَمَلَجْتَ^(٣) إِلَى الباطل ، إِنَّكَ لَقَطُوفٌ^(٤) عَنِ الحَقِّ ، وَلَنْ أَبْطَأَ
لَيْسُرَ عَنَّا بِكَ ، وَقد خَسِرَ أَقْوَامٌ وَهم يظنون أَنهم راجحون ، فلا تفرِّتْكَ الدُّنْيَا ، فَإِنَّ
الأخِرَةَ مِنْ ورائِكَ » .

(البيان والتبيين ٢ : ١٥٨ ، والعقد الفريد ٢ : ٨٦)

١٤ - أعرابي يعظ أخاه

وقال أعرابي لأخيه :
« يَا أَخِي : أَنْتَ طَالِبٌ وَمَطْلُوبٌ ، يَطْلُبُكَ مَا لا تَفُوتُهُ ، وَتَطْلُبُ مَا قد كَفَيْتَهُ ،
فَكَأَنَّ ما غابَ عَنكَ ، قد كُشِفَ لَكَ ، وَما أَنْتَ فِيهِ قد نُقِلْتَ عَنْهُ ، فامْهَدْ^(٥) لِنَفْسِكَ ،
وَأَعِدْ ذَلِكَ ، وَخِذْ فِي جِهَازِكَ » .

(العقد الفريد ٢ : ٨٤)

(١) هو خاطب ليل : أي مخلط في كلامه . (٢) المهاد : الفرائس .

(٣) من هاج البرذون : مشى مشية سهلة في سرعة .

(٤) من قطفت الدابة كنصر وخراب : ضاق مشيها ، فهي قطوف .

(٥) أي مهد وأعد .

١٥ — أعرابي يعظ رجلا

وقال أعرابي لرجل :

« أَيْ أَخِي : إِنْ يَسَّارَ النَّفْسِ أَفْضَلُ مِنْ يَسَّارِ الْمَالِ ، فَإِنْ لَمْ تُرْزَقْ غِنَى فَلَاحُ حُرْمٍ تَقْوَى ، فَرُبَّ شَبَعَانَ مِنَ النَّعْمِ ، عُرْيَانَ مِنَ الْكُرْمِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْمُؤْمِنَ عَلَى خَيْرٍ : تَرَحَّبَ بِهِ الْأَرْضُ ، وَتَسْتَبْشِرُ بِهِ السَّمَاءُ ، وَلَنْ يُسَاءَ إِلَيْهِ فِي بَطْنِهَا ، وَقَدْ أَحْسَنَ عَلَى ظَهْرِهَا . »
(المنذ الفريد ٢ : ٨٥)

١٦ — أعرابي يعظ رجلا

وقال الأصمعي : سمعت أعرابياً يعظ رجلا وهو يقول :

« وَيَحْكُ ! إِنْ فَلَانًا وَإِنْ ضَحِكَ إِلَيْكَ ، فَإِنَّهُ يَضْحَكُ مِنْكَ ، وَلَئِنْ أَظْهَرَ الشَّفَقَةَ عَلَيْكَ ، إِنْ عَقَّارَ بِهِ كَلَسَرِي إِلَيْكَ ، فَإِنْ لَمْ تَتَّخِذْهُ عَدُوًّا فِي عِلَانِيَتِكَ ، فَلَا تَجْعَلْهُ صَدِيقًا فِي سِرِّيَتِكَ . »
(زهر الآداب ٣ : ١٦٤)

١٧ — أعرابي يعظ رجلا

وسمع أعرابي رجلا يقع في السلطان ، فقال :

« إِنَّكَ غُفْلٌ لَمْ تَسْمَعْ التَّجَارِبُ ، وَفِي النَّصْحِ لَسَعُ الْعُقَارِبُ ، كَأَنِّي بِالضَّاحِكِ إِلَيْكَ ، وَهُوَ بِالكَ عَلَيْكَ . »
(زهر الآداب ٣ : ١٦٤)

١٨ — كلام أعرابي لابن عمه

وشاور أعرابي ابن عم له ، فأشار عليه برأى ، فقال :

« قَدْ قَلَّتْ بِمَا يَقُولُ بِهِ النَّاصِحُ الشَّفِيقُ الَّذِي يَخَاطُ حُلُوْ كَلَامِهِ بِمُرَّةٍ ، وَحَزَنَهُ بِسَمِّهِ . »
ويحرك الإشفاق منه ما هو ساكن من غيره ، وقد وعيت النصح منه وقيلته ، إذ كان مصدره من عند من لا شك في مودته ، وصافي غيبه ، وما زلت بحمد الله إلى الخير منهجاً واضحاً ، وطريقاً مهيباً^(١) .
(الأمال ٢ : ٨٢)

(١) طريق مهيب : بين واضح .

١٩ - كلمات حكيمة للأعراب

قيل لأعرابي : مالك لا تشرب النبيذ ؟ قال : « لثلاثِ خِلالٍ فيه : لأنه مُتَلَفٌ للمال ، مُذْهَبٌ للعقل ، مُسْقِطٌ للمرُوءة » .

وقال أعرابي : « الدراهم مَيَّاسِمٌ ^(١) ، تَسِيمُ حَمْدًا وَذَمًّا ، فمن حَبَسَهَا كان لها ، ومن أَنْفَقَهَا كانت له ، وما كُلُّ مَنْ أُعْطِيَ مَالًا أُعْطِيَ حَمْدًا ، ولا كُلُّ عَدِيمٍ ذَمِيمٌ » .

وقال أعرابي لأخ له : « يا أخى إنَّ مالك إن لم يكن لك كنت له ، وإن لم تُقْنِه أفنالك ، فكله قبل أن يأكلك » .

وقال أعرابي : « إنَّ الموقَّعَ مَنْ تَرَكَ أَرْقَى الحِالاتِ به ، لِأَصَاحِبِهَا لدينه ، نَظْرًا لِنَفْسِهِ ، إذا لم تنظر نفسه لها » .

وقال أعرابي : « إن الله يُخْلِيفُ ما أتلَفَ الناسُ ، والدهرُ مُتَلِفٌ ما أُخْلَفُوا ، ومَنْ من مَيِّتَةٍ عليها طَلَبَ الحِياةَ ، ومَنْ من حِياةٍ سَبَبُهَا التَّعَرُّضُ للموتِ » .

وقال أعرابي : « إنَّ الأمالَ قَطَعَتْ أَعْنَاقَ الرِّجَالِ ، كالسَّرَّابِ غَرًّا من رآه ، وأخْلَفَ من رجاه » .

وقال أعرابي لصاحب له : « أَصْحَبٌ من يَتَناسَى مَعْرُوفَهُ عَلَيْكَ ، وَيَتَذَكَّرُ حَقُوقَكَ عَلَيْهِ » .

وقال أعرابي : « لا تَسألُ من يَفِرُّ من أن تَسأله ، وَلِئِنْ سَلَّ مَنْ أَمَرَكَ أن تَسأله ، وهو الله تعالى » .

وقال أعرابي : « ما بقاءُ عُمُرٍ تَقْطَعُهُ السَّاعَاتُ ، وسلامةُ بَدَنِ مَعْرَاضٍ لِلآفَاتِ ؟ ولقد عجبتُ من المؤمنِ ! كيف يكره الموتَ ؟ وهو يَنْقُلُهُ إلى الثوابِ الذى أحيا له ليلَه وأظَمَّأ له نهارَه » .

(١) مياسم جمع ميسم بالكسر : وهو المكروءة .

وذُكِرَ أَهْلُ السُّلْطَانِ عِنْدَ أَعْرَابِيٍّ فَقَالَ: «أَمَّا وَاللَّهِ لئن عَزَّوَا فِي الدُّنْيَا بِالْجَوْرِ ، لَقَدْ ذَلَّوْا فِي الْآخِرَةِ بِالْعَدْلِ ، وَلَقَدْ رَضُوا بِقَائِلٍ فَاِنَّ ، عِوَضًا عَنْ كَثِيرٍ بَاقِيٍّ ، وَإِنَّمَا تَزِلُّ الْقَدَمُ حَيْثُ لَا يَنْفَعُ النَّدَمُ » .

وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ : « مِنْ كَانَتْ مَطِيئَتُهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، سَارَا بِهِ وَإِنْ لَمْ يَسِرْ ، وَبَلَّغَا بِهِ وَإِنْ لَمْ يَبْلُغْ » .

وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ : « الزَّهَادَةُ فِي الدُّنْيَا مِفْتَاحُ الرِّغْبَةِ فِي الْآخِرَةِ ، وَالزَّهَادَةُ فِي الْآخِرَةِ مِفْتَاحُ الرِّغْبَةِ فِي الدُّنْيَا » .

وَقِيلَ لِأَعْرَابِيٍّ وَقَدْ مَرَضَ : إِنَّكَ تَمُوتُ ! قَالَ : « وَإِذَا مِتُّ فَإِلَى أَيْنَ يُذْهَبُ بِي ؟ » قَالُوا : « إِلَى اللَّهِ تَعَالَى » ، قَالَ : « فَمَا كَرِهْتِي أَنْ يُذْهَبَ بِي إِلَى مَنْ لَمْ أَوْ الْخَيْرَ إِلَّا مِنْهُ ؟ » .

وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ : « مَنْ خَافَ الْمَوْتَ بَادَرَ الْمَوْتَ ، وَمَنْ لَمْ يُنَحِّ النَّفْسَ عَنِ الشَّهَوَاتِ ، أَسْرَعَتْ بِهِ إِلَى الْهَلَكَاتِ ، وَالْجَنَّةُ وَالنَّارُ أَمَامَكَ » .

وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ : « خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْحَيَاةِ مَا إِذَا فَقَدْتَهُ أَبْغَضْتَ لَهُ الْحَيَاةَ ، وَشَرٌّ مِنَ الْمَوْتِ مَا إِذَا نَزَلَ بِكَ أَحْبَبْتَ لَهُ الْمَوْتَ » .

وَقِيلَ لِأَعْرَابِيٍّ : مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِالرَّحْمَةِ ؟ قَالَ : « الْكَرِيمُ يُسَلِّطُ عَلَيْهِ اللَّئِيمَ ، وَالْعَاقِلُ يُسَلِّطُ عَلَيْهِ الْجَاهِلُ » .

وَقِيلَ لَهُ : أَيُّ الدَّاعِينَ أَحَقُّ بِالْإِجَابَةِ ؟ قَالَ : الْمَظْلُومُ ، وَقِيلَ لَهُ : فَأَيُّ النَّاسِ أَغْنَى عَنِ النَّاسِ ؟ قَالَ : « مَنْ أَفْرَدَ اللَّهُ بِحَاجَتِهِ » .

وَقَالَ الْأَعْمَى : سَمِعْتُ أَعْرَابِيًّا يَقُولُ : « إِذَا أَشْكَلَ عَلَيْكَ أَمْرَانِ ، فَانظُرْ أَيَّهُمَا أَقْرَبُ مِنْ هَوَاكَ نِخَالْفِهِ ، فَإِنَّ أَكْثَرَ مَا يَكُونُ الْخَطَأَ مَعَ مُتَابَعَةِ الْهَوَى » .

وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ : « الشَّرُّ عَاجِلُهُ لَدِيدٌ ، وَآجِلُهُ وَخِيمٌ » .

وقال أعرابي : « من ولد الخير أنتج له فراخاً تطير بأجنحة السرور ، ومن غرس الشر أنبت له نباتاً مرّاً مذاقه ، وقضبائه الفيض ، وثمرته الندم » .

وقال أعرابي : « من كسأء الحياء ثوبه ، حفي على الناس عيبه » وقال : « بس الزاد ، التمدى على العباد » ، وقال : « التاطف بالحيلة ، أنفع من الوسيلة » ، وقال : « من تقل على صديقه ، خف على عدوه ، ومن أسرع إلى الناس بما يكرهون ، قالوا فيه مالا يعلمون » .

وقال أعرابي : « أعجز الناس من قَصَّر في طلب الإخوان ، وأعجز منه من ضيَع من ظفر به منهم » .

وقال أعرابي لابنه : « لا يسرك أن تغلب بالشر ، فإن الغالب بالشر هو المغلوب » .
وقال أعرابي لأخ له : « قد نهيتك أن تربق ماء وجهك عند من لا ماء في وجهه ، فإن حظك من عطيته السؤال » .

وقال أعرابي : « إن حب الخير خير وإن عجزت عنه المقدرة ، وبغض الشر خير وإن فعلت أكثره » .

وقال أعرابي : « والله لولا أن المروءة تَقِيل حَمْلُهَا^(١) ، شديدة مؤتمتها ، ما ترك اللئام للكرام شيئاً » .

واحتضر أعرابي ، فقال له بنوه : عِظْنَا يَا أَبَتِ ، فقال : « عاشروا الناس معاشرة ، إن غبتم حننوا إليكم ، وإن تمم بكموا عليكم » .

ودخل أعرابي على بعض الملوك في شملة^(٢) شعر ، فلما رآه أعرض عنه ، فقال له : « إن الشملة لا تكلمك ، وإنما يكلمك من هو فيها » .

وقال أعرابي : « رُبَّ رجل سيره منشور على لسانه ، وآخر قد التحف عليه قلبه التحاف الجناح على الخوافي » .

(١) الحمل في الأصل : شقان على البعير يحمل فيهما المديلان . (٢) كساء دون القטיפه وشعليه .

وقيل لأعرابي : كيف كتمانك للسر ؟ قال : « ما جوفى له إلا قَبْرٌ » .
ومرّ أعرابيان برجل صلبه بعض الخلفاء ، فقال أحدهما : أُنْبَتَتْهُ الطَّاعَةُ ، وَحَصَدَتْهُ
المعصية ، وقال الآخر : « من طَلَّقَ الدنيا فالآخرة صاحِبته ، ومن فارق الحق
فالجذعُ راحلته » .

وقال أعرابي : « إذا أردت أن تعرف وفاء الرجل ، ودوامَ عهده ، فانظر إلى حنينه
إلى أوطانه ، وشوقه إلى إخوانه ، وبكائه على ما مضى من زمانه » .

وقال أعرابي : « إذا كان الرأى عند من لا يُقبل منه ، والسلاح عند من لا يستعمله ،
والمال عند من لا ينفقه ، ضاعت الأمور » . (العقدة الفريدة ٢ : ٨٥ - ٨٧)

وقال أعرابي : « إن الدنيا تنطق بغير لسان ، فتخبر عما يكون بما قد كان » .

(العقدة الفريدة ٢ : ٨٥)

وقال الأعمى : سمعت أعرابياً يقول : « غَفَلْنَا ولم يَغْفُلِ الدهرُ عنا ، فلم نَعْتِظْ
بغيرنا ، حتى وُعِظَ غيرُنا بنا ، فقد أدركت السعادةَ من تنبّه ، وأدركت الشقاوةَ من
غفل ، وكفى بالتجربة واعظاً » . (زهر الآداب ٢ : ٥)

وقال أعرابي لرجل : « اشكر للمنعيم عليك ، وأنعم على الشاكر لك ، تستوجب
من ربك زيادته ، ومن أخيك مُناصحتَه » . (زهر الآداب ٢ : ٦)

وتذاكر قوم صلّة الرَّحِمِ ، وأعرابيٌّ جالس ، فقال : « مَنْسَأَةٌ^(١) في العمر ، مَرَضَةٌ
للربِّ ، محبّةٌ في الأهل » . (الأمال ١ : ٢١٧)

وقال أعرابي : « لا أعرف ضُرّاً أوْصَلَ إلى نِياطِ القلبِ ، من الحاجة إلى من لم
تَثِقْ بإسعافه ، ولا تَأْمَنُ رَدّه ، وَأَكْلَمُ المصائبِ قَدُّ خايلٍ لا عِوَضَ منه » .

وقيل لأعرابي : أى شيء أمتع ؟ فقال : « مُمَازِحَةُ المُحِبِّ ، ومحادثة الصديق ،
وأمانى تقطع بها أيامك » .

وقال أعرابي : « من لم يرضَ عن صديقه إلا بإيثاره على نفسه ، دام سَخَطُهُ ،
ومن عاتب على كل ذنب كثر عدوه ، ومن لم يؤاخ من الإخوان إلا من لا عيبَ
فيه قلَّ صَدِيقُهُ » . (الأماك ١ : ٢١٨)

عن عبد الرحمن عن عمه قال : قلت لأعرابي ما تقول في المرء ؟ قال : « ما عسى
أن أقول في شيء يُفسد الصداقة القديمة ، وَيَحُلُّ العُقْدَةَ الوثيقة ، أقلُّ ما فيه أن يكون
دُرْبَةً للمغالبة ، والمغالبة من أمتن أسباب الفتنة » . (الأماك ١ : ٢٥٨)

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت أعرابياً يقول : « لا يوجد العَجُول محموداً ،
ولا الغَضُوبُ مسروراً ، ولا المَلُولُ ذا إخوان ، ولا الحرُّ حريصاً ، ولا الشرُّ غنياً » .
وقال : سمعت أعرابياً يقول : « صنُّ عقلك بالحلم ، ومُروءتك بالعتاف ، ونجدتك
بتجانبة الخيلاء ، وخلتكَ^(١) بالإجمال في الطلب » (الأماك ٢ : ٢٢)

وقال : سمعت أعرابياً يقول : « أقبحُ أعمال المقتدرين الانتقام ، وما استنبطَ
الصوابُ بمثل المشاورة ، ولا حُصِّلَت النعم بمثل المواساة ، ولا اكتسبتُ البغضاء
بمثل الكبر » . (الأماك ٢ : ٢٢ ، وزهر الآداب ٢ : ٣)

وقال أعرابي : « خير الإخوان من يُنِيلُ عُرْفًا ، أو يدفعُ ضَرْبًا » .

(الأماك ٢ : ٤١)

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت أعرابياً يقول : « العاقلُ حقيقٌ أن يُسَخِّيَ
بنفسه عن الدنيا ، لعله أن لا ينال أحد فيها شيئاً إلا قلَّ إمتاعه به ، أو كثرَ عناؤه
فيه ، واشتدت مرزئته^(٢) عليه عند فراقه ، وعظمت التَّبعَةُ فيه بعده » .

(الأماك ٢ : ٤١)

وقال أعرابي : « خصلتان من الكرم : إنصاف الناس من نفسك ، ومواساة
الإخوان » . (الأماك ٣ : ٧٣)

(٢) المرزئة والرزء والرزيئة : المصيبة .

(١) الخلة : الفجر

وقال أعرابي : « ما غُبِنْتُ قَطُّ حَتَّى يُغِبَّنَ قَوْمِي » ، قيل : وكيف ذلك ؟ قال :
« لا أفعل شيئاً حتى أشاورهم » . (البيان والتبيين ٣ : ١٦١)

وقال أعرابي لرجل مَطَّلَه في حاجة : « إن مثل الظفر بالحاجة تعجيل اليأس منها ،
إذا عَسُرَ قضاؤها ، وإن الطلب وإن قلَّ ، أعظمُ قدراً من الحاجة وإن عَظُمَتْ ، والمطلُّ
من غير عُسْرٍ آفةُ الجود » . (البيان والتبيين ٣ : ٢٢٢)

وقال أعرابي : « وَعَدَ الكَرِيمُ نَقْدًا وَتَعَجَّلَ ، وَوَعَدَ اللَّيِّمُ مَطْلًا وَتَعَلَّلَ » ..
(البيان والتبيين ٣ : ٢٢١)

وقال أعرابي : « اعتذارٌ من مَنَع ، أَجْمَلُ من وَعَدٍ مَمْطُول » .
(الأمل ٢ : ١٩٨)

وقال أعرابي : « عوْدٌ لسانك الخير ، تسلم من أهل الشر » .
(ذيل الأمل من ٢٩)

وقال أعرابي : « خرجت ليلة حين انحدرت أيدي النجوم ، وشالت^(١) أرجلها ،
فما زلت أصدع الليل حتى انصدع الفجر ، فإذا بجارية كأنها علم ، فعملت أغازلها ، فقالت :
يا هذا : أَمَّا لَكَ نَاهٍ من كَرَمٍ ، إن لم يكن لك زاجرٌ من عقل ؟ قال : والله ما يراني إلا
الكواكب ! قالت : فأين مَكْوُوكِئها ؟ » .

(المقدم الفريد ٢ : ٩٤ ، والبيان والتبيين ٢ : ٥١ ، وزهر الأدب ٢ : ٦)

أجوبة الأعراب

٢٠ - مجاوبة أعرابي للحجاج

خرج الحجاج ذات يوم فأصْحَرَ^(٢) ، وحضر غداؤه ، فقال : اطلبوا من يتغدي
معي ، فطلبوا ، فإذا أعرابي في شملة : فَأَتَى به ، فقال السلام عليكم ، قال : هَلُمَّ أيها
الأعرابي ، قال : قد دعاني من هو أكرم منك فأجبتُه ، قال : ومن هو ؟ قال : دعاني

(١) ارتفعت : من شالت الناقة بذنها وأشالته : رفعته ، فشال هو .

(٢) اصحّر : برز في الصحراء .

الله ربِّي إلى الصوم ، فأنا صائم ، قال : وصومٌ في مثل هذا اليوم الحارّ ؟ قال : صمت
ليومٍ هو أحرُّ منه ، قال : فأفطر اليومَ وصُمُّ غداً ، قال : وَيَضْمَنُ لِي الْأَمِيرُ أَنِّي أُعِيشُ
إِلَى غَدٍ ؟ قال : ليس ذاكِ إليهِ ، قال : فكيف تسألني عاجلاً بأجلٍ ، ليس إليه سبيل ؟
قال : إنه طعام طيب ، قال : والله ما طيبه خَبَازُكَ وَلَا طَبَّآخُكَ ، قال : مَنْ طَيَّبَهُ ؟
قال : العافية ، قال الحجاج : تالله إن رأيت كالليوم ! أخرجوه عنى .

(البيان والنبين ٣ : ٢٣٤ ، والمعقد الفريد ٢ : ٨٧)

٢١ - مسأله الحجاج أعرابيا فصيحاً

وقال الحجاج لأعرابي كلمه فوجده فصيحاً : كيف تركت الناس وراءك ؟ فقال :
« تركتهم - أصاح الله الأمير - حين تفرقوا في الغيطان ، وأخذوا النيران ،
وتشكت النساء ، وعرض الشاء ، ومات الكلبُ » ، فقال الحجاج لجلسائه : « أخصباً
نعت أم جدباً ؟ قالوا : بل جدباً ، قال : بل خصباً ، قوله : تفرقوا في الغيطان ^(١) ،
معناه : أنها أعشبت ، فإبلهم وغنمهم ترعى ، وأخذوا النيران ، معناه : استغنوا باللبن
عن أن يشتروا اللحم إبلهم وغنمهم ويأكلوها ، وتشكت النساء أعضاءهن ، من كثرة
ما يَمْخَضُن ^(٢) الألبان ، وعرض الشاء : استن ^(٣) من كثرة العُشب والمرعى ، ومات
الكلب : لم تمت أغنامهم وإبلهم فياً كل جيفها » . (ذيل الامال ص ٨٧)

٢٢ - مجاوبه أعرابي لعبد الملك بن مروان

ودخل أعرابي على عبد الملك بن مروان ، فقال له : يا أعرابي صف الخمر ، فقال :
شْمُولٌ إِذَا شُجِّتْ ، وفي الكأس مُرَّةٌ لها في عظام الشاربين ديب ^(٤)

(١) جمع غائط : وهو المظلم الواسع من الأرض . (٢) مخض اللبن من باب قطع ونصر وضرب
أخط زبده . (٣) استن : سمن ، سن الإبل كنصر : إذا رهاها فأسمنها .
(٤) الشمول : الخمر أو الباردة منها ، لأنها تشمل برمجها للناس ، أو لأن لها عصفه كعصفه الشمال ،
وشيح الشراب : مزجه .

تُرِيكَ الْقَدَى مِنْ دُونِهَا وَهِيَ دُونَهُ لَوْجَهُ أَخِيهَا فِي الْإِنَاءِ قُطُوبٌ^(١)
فقال : ويحك يا أعرابي ! لقد اتهمك عندي حُسْنُ صِفَتِكَ لَهَا ، قال : « يا أمير
المؤمنين ، وآتهمك عندي معرفتك بحسن صفتي لها » .

(صيون الأخبار م ٢ : ص ٢١٥)

٢٣ — مجاوبة أعرابي لخالد بن عبد الله القسري

وخطب خالد بن عبد الله القسري فقال :

« يا أهل البادية : ما أخشن بلدكم ، وأغلظَ معاشكم ، وأجنى أخلاقكم ،
لا تشهدون الجمعة ، ولا تجالسون علما ، فقام إليه رجل منهم دميم ، فقال :
« أمّا ما ذكرت من خشونة بلدنا ، وغلظ طعامنا ، فهو كذلك ، ولكنكم معشر
أهل الحضرة ، فيكم ثلاث خصال ، هي شرٌّ من كلِّ ما ذكرت » ، قال له خالد :
وما هي ؟ قال : « تنقبون الدور ، وتنبتون القبور ، وتنكحون الذكور » ، قال :
« قبّحك الله ، وقبّح ماجئت به » .

(المقدم القرية ٢ : ١٢٧)

٢٤ — أجوبة شتى

وقدّم أعرابي إلى السلطان ، فقال له : قل الحق ، وإلا أوجعتك ضرباً ،
قال له : « وأنت فأعمل به ، فوالله ما أوعدك الله على تركه ، أعظم مما توعدني به » .
ونظر عثمان إلى أعرابي في شملة ، غائر العينين ، مشرف الحاجبين ، ناتيء الجبهة ،
فقال له : أين ربك ؟ قال : بالمرصاد !

وقيل لأعرابي : إنك تُحسِنُ الشّارة^(٢) ، قال : « ذلك عنوان نعمة الله عندي » .

(١) القدي : ما يقع في الشراب ، قطب كضرب قطباً وقطوبا : زوى ما بين عينيه وكلح ، وأخوها :
هو نبيذ الزبيب ، والمعنى : أن الشارين يفضلونها عليه فيشربونها دونه ، فهو يقطب من أجل ذلك ، وفي
أخيها يقول الشاعر :

دع الخمر يشربها الفواة فإنني رأيت أخاها مغنياً بمكانها
فإلا يكنها أو تكنه فإنه أخوها غنّته أمه بلانها

(٢) الشارة : اللباس والهيئة والزينة .

وقيل لأعرابي : « كيف أنت في دينك ؟ قال : أخرقه بالمعاصي ، وأرقعه بالاستغفار » .

وسئل أعرابي عن القدر فقال : « الناظر في قدر الله كالناظر في عين الشمس ، يعرف ضوءها ، ولا يقف على حدودها » .

وسئل آخر عن القدر ، فقال : « علم اختصمت فيه العقول ، وتناول فيه المختلفون ، وحق علينا أن يرد إلينا ما التبس علينا من حكمه ، إلى ما سبق علينا من علمه » .
(المقدم الفريد ٢ : ٨٦ - ٨٧)

وقيل لأعرابي : من أبلغ الناس ؟ قال : « أحسنهم لفظاً وأسرعهم بديهة » .
وقيل لأعرابي : مالك لاتطيل الهجاء ؟ قال : « يكفيك من القلادة ما أحاط بالعتق » .

وقال معاوية لأعرابية : هل من قرى ؟ قالت : نعم ، قال : وما هو ؟ قالت : « خبز خمير ، ولبن فطير ، وماء نَمير ^(١) » .

وقيل لأعرابي : فيم كنتم ؟ قال : « كنا بين قدر تفور ، وكأس تدور ، وحديث لا يحور ^(٢) » .

وقيل لأعرابي : ما أعددت للبرد ؟ قال : « شدة الرعدة ، وقرْفُصَاء القعدة ، وذرب المعدة ^(٣) » .

وقيل لأعرابي : « ما لك من الولد ؟ قال : قليلٌ خيث » قيل له : ما معناه ؟ قال : « إنه لا أقل من واحد ، ولا أخبث من أنثى » .

وقيل لأعرابي - وقد أدخل ناقته في السوق ليبيعهما - صف لنا ناقتك ، قال :

(١) الخمير : الذي اختر ، وماء نَمير : ناجع ، عذبا كان أو غير عذب .
(٢) أي لا ينقص ، وربما كان لا يحور بالجيم . (٣) القرْفُصَاء : أن يجلس على أليته ، ويلصق فخذه ببطنه ، ويحتبى بيديه يضمهما على ساقيه ، أو يجلس على ركبتيه منكبا ، ويلصق بطنه بفخذه ، ويتأبط كفيه ، والدرَب : الحلة ، والمعدة ككلمة وكسرة .

ما طلبتُ عليها قطُّ إلا أدركتُ ، ولا طلبتُ إلا فُتُّ ، وقيل له : فلم تبعها ؟
قال : لقول الشاعر :

وقد تُخْرِجُ الحاجاتُ يا أمَّ عامرٍ كرائمَ من ربِّ بهنَّ ضنين
وقيل لأعرابي : ما عندكم في البادية طيب ؟ قال : « حُرُّ الوحش لا تحتاج
إلى بيطار » .

وقيل لشريح القاضي : هل كلك أحد قطُّ فلم تُطِقْ له جواباً ؟ قال : ما أعلمه
إلا أن يكون أعرابياً ، خاصم عندي وهو يشير بيديه ، فقلت له : أمسك ، فإن
لسانك أطول من يدك ، قال : « أسامري أنت لا تمس ؟ » (١) .

(العقد الفريد ٢ : ٩٧)

وقيل لأعرابي : أى الألوان أحسن ؟ قال : « قصورٌ بيضٌ ، فى حدائق
خضر » .

وقيل لآخر : أى الألوان أحسن ؟ قال : « بيضة (٢) ، فى روضة ، عن غب
سارية ، والشمس مكبدة » .

(العقد الفريد ٢ : ٩٦)

(١) يشير إلى قوله تعالى : « قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ، قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ
يَبْصُرُوا بِهِ ، فَقبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا ، وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ،
قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ » .

والسامري : هو موسى بن ظفر السامري نسبة إلى قبيلة من بني إسرائيل يقال لها : السامرة ، وكان
من قوم يعبدون البقر ، وقع فى مصر ، فدخل فى بني إسرائيل ، وآمن بموسى ، وكان منافقاً لا يزال فى قلبه
عبادة البقر ، فلما ذهب موسى لمناجاة ربه فتن بني إسرائيل ، وكانوا حين خرجوا من مصر حملوا معهم من
حل القبط التى أخذوها منهم رهائن على ما يقرضونهم من المال - فاتخذ لهم منها حجلاً جسداً له خوار . . .
إلى آخر ما هو معروف فى القصة ، من أثر الرسول : أى من أثر حافر الرسول وهو جبريل ، والأثر :
التراب الذى تحت حافره ، والماس مصدر ماس ، وهو نفى أريه به النهى ، أى لا تمسنى ولا أمسك .

(٢) البيضة : ساحة القوم ومجتمعهم ، والسارية : السحابة تصرى ليلاً ، وكبدت الشمس السماء : صارت
فى كبدتها أى وسطها ، وفى الأصل « مكيدة » بالياء وهو تصحيف .

وخطب أعرابي إلى قوم فقالوا : ما تبذل من الصداق ؟ وارتفع السَّجْفُ^(١)
فرأى شيئاً كرهه فقال : « والله ما عندي نقد ، وإني لأكره أن يكون عليَّ دين » .
(عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٠٠)

وقيل لأعرابية مات ابنها : « ما أحسن عزائك عن ابنك ! » ، قالت :
« إن مصيبتَه آمنتني من المصائب بعده » .

وقال محمد بن حرب الهلالي : قلت لأعرابي : « إني لك لو آدٌ » ، قال : « وإن لك
من قلبي لرائدًا » .
(البيان والتبيين ١ : ١٤٦ ، والبيان والتبيين ٢ : ٩٢)

وقال الأصمعي : رأيت أعرابياً أمامه شاةٌ ، فقلت لمن هذه الشاة ؟ قال :
« هي لله عندي » .
(العقد الفريد ٢ : ٨٦ ، وعيون الأخبار م ٢ ص ٢٠٩)

قولهم في الاستمناح والاستجداء

٢٥ — أعرابي يجتدي عتبة بن أبي سفيان

اعترض أعرابي لعتبة بن أبي سفيان ، وهو على مكة ، فقال : أيها الخليفة ، فقال :
لستُ به ، ولم تُبعِد ، قال : يا أخاه ، قال : أسمعُ فقل ، قال :

« شيخ من بني عامر يتقرَّب إليك بالعمومة ، ويختص بالخُولة ، ويشكو إليك
كثرة العيال ، ووطأة الزمان ، وشدة فقر ، وترادف ضرٌّ ، وعندك ما يسعه ويصرف
عنه بؤسه » قال : « أستغفر الله منك ، وأستعينه عليك ، قد أمرت لك بِغِنَاكَ ،
فليت إسراعنا إليك ، يقوم يابطائنا عنك » .

(البيان والتبيين ٣ : ٢٣٠ ، والعقد الفريد ٢ : ٨١)

٢٦ — أعرابي يجتدى عمر بن عبد العزيز

وأتى أعرابي عمر بن عبد العزيز ، فقال :

« رجل من أهل البادية ، ساقته إليك الحاجة ، وبلغت به الغاية ، والله سأثلك عن مقامي غداً ، فقال عمر : « والله ما سمعتُ كلمة أبليغ من قائل ، ولا أوعظ لمقولٍ له منها » .
(العقد الفريد ٢ : ٨٢ ، والأمال ٢ : ١٧٤ ، والبيان والتبيين ٣ : ٢٣١) .

٢٧ — خطبة أعرابي بين يدي هشام بن عبد الملك

وكانت الأعراب تنتجع هشام بن عبد الملك بأخطب كل عام ، فتقدم إليهم الحاجب يأمرهم بالإيجاز ، فقام أعرابي ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

يا أمير المؤمنين ، إن الله تبارك وتعالى جعل العطاء محبةً ، والمنع مَبغضةً ،
فَلَأَن نَحْبِكَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ نُبْفِضَكَ^(١) ، فأعطاه وأجزل له . (العقد الفريد ٢ : ٨٢)

٢٨ — مقام أعرابي بين يدي هشام

وقام أعرابي بين يدي هشام فقال :

« يا أمير المؤمنين ، أتت على الناس ثلاث سنين ، أمّا الأولى : فَلَجَّتِ^(٢) اللحم ،
وأما الثانية : فَأَكَلَتِ الشَّحْمَ ، وأما الثالثة : فهاضت^(٣) العظم ، وعندكم فضولُ
أموالٍ ، فإن كانت لله فاقسموها بين عباده ، وإن كانت لهم ففيم تحظر^(٤) عنهم ؟
وإن كانت لكم فتصدقوا عليهم بها ، إن الله يجزي المتصدقين ، قال هشام : هل من
حاجة غير هذه يا أعرابي ؟ قال : « ما ضربتُ إليك أ كبادَ الإبل ، أدرعُ الهجير ،
وأخوضُ الدجى لخاصٍّ دون عام » ، فأمر هشام بئمال ، فقُسم بين الناس ، وأمر

(١) يروى هذا لمحمد بن أبي الجهم المدري ، قاله في حضرة هشام أيضاً . انظر الجزء الثاني ص ٤٢٢ .

(٢) من لحا الشجرة : أخذ لحاءها (بالكسر) وهو قشرها . (٣) هاض العظم : كمره بعد

الجبور فهو مهيب ، وفي رواية : « رعام أنق العظم » أي وصل إلى نقيه (بالكسر) ودوخ العظم .

(٤) تحجب وتمنع .

للأعرابي بئال ، فقال « أكلُّ المسلمين له مثل هذا ؟ » قالوا : « لا ، ولا يقوم بذلك بيتُ مال المسلمين » ، قال : « فلا حاجة لي فيما يَبْعَثُ لأئمة الناس على أمير المؤمنين » .
(عيون الأخبار م ٢ : ص ٣٣٨ والعقد الفريد ٢ : ٨٢)

٢٩ - أعرابي يستجدي عبيد الله بن زياد

وقال العُتبيّ : وقف أعرابي بباب عبيدِ الله بن زياد فقال :
« يا أهل الغضارة^(١) ، حَقَبَ^(٢) السَّحَابُ ، وانقشَعَ الرَّبَابُ ، واستأسَدَتِ الذَّنَابُ
وَرُدِمَ التَّمَدُّ^(٣) ، وَقَلَّ الحَفْدُ^(٤) ، ومات الولدُ ، وكنت كثير العفأة^(٥) ، صَخِبَ^(٦)
الشَّقَاةُ ، عَظِيمِ الدَّلَاةِ^(٧) لا اتصال الزمان ، وَغَفَلَ^(٨) الحَدَثَانُ ، حَى حِلَالِ^(٩) ، وعداد
ومال ، فَتَفَرَّقْنَا أَيْدِي سَبَا^(١٠) ، بين فقد الأبناء والآباء وكنت حَسَنَ الشَّارَةِ^(١١) ،
خَصِيبِ الدَّارَةِ^(١٢) سليم الجارة^(١٣) ، وكان محلي حَمَى ، وقومى أُسَى^(١٤) ، وعزى جَدًّا^(١٥)

(١) الغضارة : النعمة والسعة والخصب ، وفي الأصل : الغضاضة وهو تحريف - والغضاضة للذلة والمنقصة - . (٢) حقب المطر وغيره : احتبس ، والرباب : السحاب الأبيض .
(٣) التمدد كشمس وسحب : الماء القليل لامادة له . (٤) الحفد : الأعوان جمع حافد .
(٥) العفأة جمع عاف : وهو الوارد والضيف ، وكل طالب فضل أو رزق .
(٦) وصف من الصخب بالتحريك وهو شدة الصوت ، والشقاة جمع ساق كقراض ، وفي الأصل « صخب السفاه » وأراه محرفاً . (٧) في الأصل : « عظيم للزلات » وأراه محرفاً عن « الدلاة » ، والدلاة كقضاة جمع دال كقراض ، وهو النازع في الدلو المتبق به الماء من البئر . يقال : أدليت الدلو ودأيتها : إذا أرسلتها في البئر . ودأوتها أدلوها فأنا دال ، إذا أخرجتها . (٨) الغفل بالتحريك : الغفلة ، والحدثان : نوب الدر وحوادث ، وفي الأصل : « ولا أعقل الحدثان » وأراه محرفاً ، وربما كان الأصل « ولاغفال الحدثان » بتكرير لام الجر . (٩) الحلة بالكسر : تقوم النالون ، والجمع حلال وحلل ككتاب وعنب ، وتطلق الحلة على البيوت مجازاً تسمية للمحل باسم الحال ، وهي مائة بيت فافوقها .
(١٠) يقال : ذهبوا أيدي سبا ، وتفرقوا أيدي سبا ، وأيادي سبا : أي تيددوا ، شهبوا بأهل سبا لما رزقهم الله في الأرض كل مزق ، فأخذ كل طائفة منهم طريقاً على حدة ، واليد : الطريق . يقال : أخذ المقوم يد بحر ، فقتل للمقوم إذا تفرقوا في جهات مختلفة : ذهبوا أيدي سبا : أي فرقتهم طرقهم التي سلكوها كما تفرق أهل سبأ في مذاهب شتى والنرب لا تهمز سبأ في هذا الموضع ، لأنه كثر في كلامهم فاستثقلوا فيه الهمزة وإن كان أصله مهموزاً ، وقد بنوا أيدي سبا ، وأيادي سبا على السكون لسكونه مركباً تركيب خمسة عشر .

(١١) الشارة : الهيئة والملابس والزينية والجمال . (١٢) الدارة : الدار .

(١٣) الجارة ، من معانيها : الزوجة . (١٤) الأسي جمع أسوة : وهي القدوة .

(١٥) الجدا : العطية ، والمطر الذي لا يعرف أقصاه .

قضى الله - ولا رُجَعَانَ لما قَضَى - بِسَوَافٍ^(١) المال ، وَشَتَاتِ الرجال ، وَتَغْيِيرِ الحَالِ
فَأَعِينُوا مَنْ شَخَّصَهُ شَاهِدُهُ ، وَلِسَانُهُ وَافِدُهُ ، وَفَقْرُهُ سَائِقُهُ وَقَائِدُهُ .
(زهر الآداب ٣ : ٢٠٧)

٣٠ - أعرابية تستجدي عبد الله بن أبي بكرة

ودخلت أعرابية على عبد الله بن أبي بكرة بالبصرة ، فوفقت بين السَّاطِينِ^(٢)
فقال :

« أصلح الله الأمير وأمتع به ، حَدَرْتَنَا إِلَيْكَ سَنَةً اشْتَدَّ بِلاؤُهَا ، وانكشف
غِطَاؤُهَا ، أَقْوَدُ صَبِيَّةً صَغَارًا ، وَآخِرِينَ كِبَارًا ، فِي بِلْدَةِ شَاسِعَةٍ ، تَخْفِضُنَا خَافِضَةً ،
وَتَرْفَعُنَا رَافِعَةً ، لِمِائَاتٍ مِنَ الدَّهْرِ ، بَرَّيْنِ عَظْمِي ، وَأَذْهَبِينَ لِحْمِي ، وَتَرْكَنِي وَالِهَةً ،
أَدُورَ بِالْحَضِيضِ ، وَقَدْ ضَاقَ بِي الْبَلَدُ الْعَرِيضُ ، فَسَأَلْتُ فِي أَحْيَاءِ الْعَرَبِ : مَنْ الْكَامِلَةُ
فَضَائِلُهُ ، الْمُعْطَى سَائِلُهُ ، الْمَكْفِيُّ نَائِلُهُ ؟ فَدَلَّيْتُ عَلَيْكَ - أَصَاحِبُكَ اللَّهُ تَعَالَى - وَأَنَا امْرَأَةٌ
مِنْ هَوَازِنَ ، قَدْ مَاتَ الْوَالِدُ ، وَغَابَ الرَّافِدُ ، وَأَنْتَ بَعْدَ اللَّهِ غِيَاثِي ، وَمُنْتَهَى أَمَلِي ، فَافْعَلْ
بِي إِحْدَى ثَلَاثِ خِصَالٍ : إِمَّا أَنْ تَرُدَّنِي إِلَى بَلَدِي ، أَوْ تُحْسِنَ صَفْدِي^(٣) ، أَوْ تَقِيمَ أَوْدِي
فَقَالَ : بَلْ أَجْمَعُهُنَّ لَكَ ، فَلَمْ يَزَلْ يُجْرِي عَلَيْهَا كَمَا يُجْرِي عَلَى عِيَالِهِ حَتَّى مَاتَتْ .
(زهر الآداب ٣ : ٣٠٦)

* * *

وروى صاحب العقد قال :

قال الأصمعي : ووفقت أعرابية على عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى
عنهما فقالت :

« إني أتيت من أرضٍ شَاسِعَةٍ ، تَخْفِضُنِي خَافِضَةً ، وَتَرْفَعُنِي رَافِعَةً ، فِي بَوَادِي

(١) السواف بالضم وبفتح : مرض الإبل ، وساف المال يسوف ويساف : هلك ، أو وقع فيه السواف .

(٢) الساطان من الناس : الجانبان . (٣) الصند : العطاء .

بَرِّينَ لِحْيٍ ، وَهَيْضَنَ ^(١) عَظْمِي ، وَتَرَكَنِي وَالِهَةَ ، قَدْ ضَاقَ بِي الْبَلَدُ ، بَعْدَ الْأَهْلِ وَالْوَالِدِ ،
 وَكَثْرَةَ مِنَ الْعَدَدِ ، لَا قَرَابَةَ تُؤْوِينِي ، وَلَا عَشِيرَةَ تَحْمِينِي ، فَسَأَلْتُ أَحْيَاءَ الْعَرَبِ ،
 مَنْ الْمُرْتَجَى سَيِّبُهُ ^(٢) ، الْمَأْمُونُ عَيْبُهُ ، الْكَثِيرُ نَائِلُهُ ، الْكَفِيُّ سَائِلُهُ ، فَدَلَّلْتُ عَلَيْكَ ،
 وَأَنَا امْرَأَةٌ مِنْ هَوَازِنَ ، فَقَدْتُ الْوَالِدَ وَالْوَالِدَ ، فَاصْنَعْ فِي أَمْرِي وَاحِدَةً مِنْ ثَلَاثٍ : إِمَّا أَنْ
 تُحْسِنَ صَفَدِي ، وَإِمَّا أَنْ تَقِيمَ أَوْدِي ، وَإِمَّا أَنْ تَرُدَّنِي إِلَى بَلَدِي « : قَالَ : بَلْ أَجْمَعُهُنَّ
 لَكَ ، فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهَا . (العقد الفريد ٢ : ٨٢)

٣١ — أعرابي يستجدي خالد بن عبد الله القسري

وَدَخَلَ أَعْرَابِي عَلَى خَالِدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيِّ ، فَقَالَ :
 « أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ : شَيْخٌ كَبِيرٌ ، حَدَّثَنِي إِلَيْكَ بَارِيَةَ الْعِظَامِ ^(٣) ، وَمُورَثَةَ
 الْأَسْقَامِ ، وَمُطَوَّلَةَ الْأَعْوَامِ ، فَذَهَبَتْ أَمْوَالُهُ ، وَذُعِدَعَتْ ^(٤) آبَالُهُ ، وَتَغَيَّرَتْ أَحْوَالُهُ ،
 فَإِنْ رَأَى الْأَمِيرَ أَنْ يَجْبُرَهُ بِفَضْلِهِ ، وَيَنْعِشُهُ بِسَجْلِهِ ^(٥) ، وَيُرِدَّهُ إِلَى أَهْلِهِ ! » فَقَالَ :
 كُلُّ ذَلِكَ ، وَأَمْرُهُ بِعَشْرَةِ آلَافِ دَرَاهِمٍ . (الأمال ٢ : ٤٩)

٣٢ — أعرابي يستجدي معن بن زائدة

وَقَدِمَ أَعْرَابِي مِنْ بَنِي كِنَانَةَ عَلَى مَعْنِ بْنِ زَائِدَةَ وَهُوَ بِالْمِمْنِ فَقَالَ :
 « إِنِّي وَاللَّهِ مَا أَعْرِفُ سَبَبًا بَعْدَ الْإِسْلَامِ وَالرَّحِمِ ، أَقْوَى مِنْ رِحْلَةٍ مِثْلِي مِنْ أَهْلِ
 السِّنِّ وَالْحَسَبِ إِلَيْكَ مِنْ بِلَادِهِ ، بِلَا سَبَبٍ وَلَا وَسِيلَةٍ ، إِلَّا دَعَاكَ إِلَى الْمَكَارِمِ ،
 وَرَغْبَتِكَ فِي الْمَعْرُوفِ ، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَضَعَنِي مِنْ نَفْسِكَ بِحَيْثُ وَضَعْتَ نَفْسِي مِنْ رَجَائِكَ
 فَافْعَلْ » فَوَصَلَهُ وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ . (العقد الفريد ٢ : ٨٠)

(١) هاض العظم : كسره بعد الجبور . (٢) السبب : العطاء .
 (٣) حدته : ساقته ، وبارية للعظام : أي النكبات التي تبرى العظام ، مورثة : مهيبة ، من التارث
 وهو إيتاد النار .
 (٤) ذععت : فرقت ، وآبال جمع إبل . (٥) السجل في الأصل : الدلو العظيمة مأوأة .

٣٣ - خطبة الأعرابي السائل في المسجد الحرام

عن أبي زيد قال : بَيْنَا أَنَا فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِذْ وَقَفَ عَلَيْنَا أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ :

« يَا مُسْلِمُونَ ، إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ ، وَالصَّلَاةَ عَلَى نَبِيِّهِ ، إِنِّي أَمْرٌ مِنْ أَهْلِ هَذَا الْمِلْطَاطِ
الشَّرْقِيِّ الْمُوَاصِي أَسِيافَ تِهَامَةَ ^(١) ، عَكَفْتُ عَلَى سِنُونِ مَحْشٍ ^(٢) ، فَاجْتَبَيْتِ الذَّرَى ،
وَهَشَمْتُ الْعُرَى ^(٣) ، وَجَمَشْتُ النَّجْمَ ، وَأَعْجَبْتُ الْبَهْمَ ^(٤) ، وَهَمَمْتُ الشَّحْمَ ، وَالتَّجَبَيْتِ
اللَّحْمَ ، وَأَحْجَنْتِ الْعَظْمَ ^(٥) ، وَغَادَرْتُ التَّرَابَ مَوْرًا ، وَالْمَاءَ غَوْرًا ، وَالنَّاسَ أَوْزَاعًا ^(٦) ،
وَالنَّبْطَ قُوعًا ، وَالضَّهْلَ جُزَاعًا ، وَالْمَقَامَ جَعَجَاعًا ^(٧) ، يُصَبِّحُنَا الْهَآوَى ، وَيَطْرُقُنَا
الْعَاوَى ^(٨) ، نَخْرَجْتُ لَا أَتْلَعُ بَوْصِيدَةً ، وَلَا أَنْفَوْتُ هَبِيدَةً ^(٩) ، فَالْبَخَصَاتُ وَقِعَةٌ ،
وَالرُّكْبَاتُ زَلْعَةٌ ، وَالْأَطْرَافُ قَفْعَةٌ ^(١٠) ، وَالْجِسْمُ مُسْلَمٌ ، وَالنَّظَرُ مُدْرَمٌ ^(١١) ، أَعْشُو
فَأَغْطَشُ ، وَأَضْحَى فَأَخْفَشُ ^(١٢) ، أَسْهَلُ ظَالِمًا ، وَأُحْزِنُ رَاكِمًا ^(١٣) فَهَلْ مِنْ أَمْرٍ

(١) المِلطاط : كل شفير نهر أو واد ، والمواصي والمواصل واحد ، يقال تواصي التبت : إذا انصل
بعضه ببعض ، وأسيف جمع سيف بالكسر : وهو ساحل البحر . (٢) مكفت : أقامت ، والسنون
الجدوب ، ومحش جمع محوش كصبور ، وهي التي تمحش (بضم الخاء) السكلا أي تحرقه .
(٣) اجتبت : قطعت واستأصلت ، وهشمت : كسرت ، والعري جمع عروة ، والعروة : القطعة من
للشجر لا يزال باقياً على الجذع ترعاه أمواتهم . (٤) جمشت : احتلقت ، والنجم : ما نجم ولم يستقل
على ساق ، وأعجت : أي جعلها عجايباً ، والمجى : السيء . الغذاء المهزول .
(٥) همت : أذابت ، والعرب تقول : همتك ما أهمتك أي أذابك ما أحزنتك ، والتجبت اللحم : أي
عرقته عن العظم ، وأحجنت العظم : أي عوجته فصيرته كالبحجن . (٦) مار موراً : اضطرب وماج ،
والغور : الفائر ، أوزاع : فرق . (٧) النبط : الماء الذي يستخرج من البئر أول ما تحفر ، والقمعاع
الماء المالح المر : والضهل : القليل من الماء ، والجزاع : أشد المياه مرارة ، والجمعجاع : المكان الذي
لا يطمئن من قعد عليه . (٨) الهاوى : الجراد ، والعاوى : الذئب .

(٩) التلغع : الاشتهال ، والوصيدة : كل نسيجة ، والهبيدة : حب الحنظل يعالج حتى يطيب فيختبز .
(١٠) البخصات جمع بخصة ، وهي لحم باطن القدم ، ووقعة : من قولهم : وقع الرجل كفرح إذا اشتكى
لحم باطن قدمه ، وزلعه : متشققة ، ووقعة ومقعة واحد : وهي التي قد تقبضت ويبست .

(١١) المصلهم : الضامر المتغير ، والمدرهم : الضعيف للبصر الذي قد ضعف بصره من جوع أو مرض .
(١٢) أعشو : أنظر : فأغطش : أصغر غطشاً (بكمرة الطاء) والقطش محرقة : ضعف في البصر ، وضحي
للسمس كفرح وسعى : برز لها ، وأخفش بالتحريك : ضعف البصر خلقة ، أو فساد في الجفون بلا وجع
أو أن يبصر بالليل دون النهار . (١٣) أسهل ظالماً : أي إذا مشيت في السهول ظلمت ، وظلع كنع :
غز في مشيه ، وأحزن راكماً : أي إذا حلوت الحزن ركعت أي كبوت لوجهي .

يَمَيِّرُ^(١) ، أو دَاعِ بَجِيرٍ ؟ وَقَاكُمْ اللَّهُ سَطْوَةَ الْقَادِرِ ، وَمَلَكَةَ الْكَاهِرِ^(٢) ، وَسُوءَ الْمَوَارِدِ ، وَفُضُوحَ الْمَصَادِرِ » ، قَالَ : فَأَعْطَيْتَهُ دِينَاراً وَكَتَبْتَ كَلَامَهُ ، وَاسْتَفْسَرْتَهُ مَا لَمْ أَعْرِفْهُ . (الأمالي ١ : ١١٣)

٣٤ - خطبة الأعرابي السائل في المسجد الجامع بالبصرة

وروى الجاحظ قال :

قال أبو الحسن : سمعت أعرابياً في المسجد الجامع بالبصرة بعد العصر سنة ثلاث وخمسين ومائة : وهو يقول :

« أما يعد : فإننا أبناء سبيل ، وأنضاء^(٣) طريق ، وفل^(٤) سنة ، تصدقوا علينا ، فإنه لا قليل من الأجر ، ولا غني عن الله ، ولا عمل بعد الموت ، أما والله إننا لنقوم هذا المقام ، وفي الصدر حَزَاةٌ^(٥) ، وفي القلب غُصَّةٌ » . (البيان والبيان ٢ : ٤٦)

٣٥ - صورة أخرى

وروى أبو عليّ القالي هذه الخطبة بصورة أخرى ، وهما كها :

عن يونس قال : وقف أعرابي في المسجد الجامع في البصرة فقال :

« قَلَّ النَّيْلُ ، وَنَقَصَ الْكَيْلُ ، وَعَجِفَتِ^(٦) الخَيْلُ ، وَاللَّهُ مَا أَصْبَحْنَا نَنْفَخُ فِي وَضَحِ^(٧) ، وَمَا لَنَا فِي الدِّيْوَانِ وَشِمَّةٌ^(٨) ، وَإِنَّا لِعِيَالٌ جَرَبَةٌ^(٩) ، فَهَلْ مِنْ مُعِينٍ ، أَعَانَهُ اللَّهُ ، يُعِينُ ابْنَ سَبِيلٍ ، وَنِضْوَ طَرِيقٍ ، وَفَلَّ سَنَةً ؟ فَلَاقِلِيلٍ مِنَ الْأَجْرِ ، وَلَا غَنَى عَنِ اللَّهِ ، وَلَا عَمَلَ بَعْدَ الْمَوْتِ » . (الأمالي ٢ : ١٩٧)

(١) المير : العلية ، من قولهم : مارهم بغيرهم ميراً . (٢) الكاهر والقاهر : واحد ، وقد قرأ بعضهم (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَكْهَرْ) .

(٣) أنضاء جمع نضو كقرد : وهو المهزول ، أي قد هزلنا وأضننا ساوك الطريق .

(٤) السنة : الجذب والقحط ، وقوم قل : منهزمون ، والجمع فلول وأفلال ، أي هزمتنا القحط .

(٥) الحزاة : وجع في القلب من غيظ ونحوه . (٦) هزلت . (٧) للوضح : اللبن ، سمي

وضحاً لبياضه . (٨) للوشمة : مثل الوشم في الذراع ، يريد الخط .

(٩) الجربة : الكثير ، أو للعيال يأكلون ولا ينفعون .

٣٦ - صورة أخرى

ورواها صاحب العقد فقال : وقف أعرابي على حلقة يونس فقال :
« الحمد لله ، وأعوذ بالله ، أن أذكر به وأنساه ، إنا أناس قدمنا المدينة ثلاثون رجلاً
لا ندفن ميتاً ولا نتحول من منزل وإن كرهناه ، فرحم الله عبداً تصدق على ابن سبيل ،
ونضو طريق ، وفلّ سنة ، فإنه لا قليل من الأجر ، ولا غنى عن الله ، ولا عمل بعد
الموت ، يقول الله عز وجل : (مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ الله قرضاً حسناً) إن الله
لا يستقرض من عوزٍ ، ولكن ليبلو خيار عباده » . (العقد الفريد ٢ : ٨٢)

٣٧ - أعرابي يستجدي

وقال المدائني : سمعت أعرابياً يسأل وهو يقول :
« رحم الله امرأ لم تتمج أذناه كلامي ، وقدم لنفسه معاذة^(١) من سوء مقامي ، فإن
البلاد مُجْدِبَةٌ ، والدار مُضَيِّعَةٌ ، والحال سيئة^(٢) ، والحياء زاجر ينهي عن كلامكم ،
والعُدْمُ عاذِرٌ يمحني على إخباركم ، والدعاء إحدى الصدقتين ، فرحم الله امرأ أمرَ
بِمَيْرٍ^(٣) ، أو دعا بخير » ، فقال له بعض القوم : مِمَّن الرجل ؟ فقال : « مِمَّن لا تنفعكم
معرفة ، ولا تضرر كم جهالته ، ذلُّ الاكتساب ، يمنع من عز الانتساب » .
(البيان والتبيين ٣ : ٢١٧ ، والعقد الفريد ٢ : ٨١ ، والأمال ١ : ١٣٨)

٣٨ - أعرابي يستجدي

وقال الأصمعي : أصابت الأعراب أعوام جْدْبَةٌ وشدة وجهد ، فدخلت طائفة منهم
البصرة وبين يديهم أعرابي وهو يقول :
« أيها الناس ، إخوانكم في الدين ، وشركاؤكم في الإسلام ، عابرو سبيل ،

(١) المعاذة والمعاذ والعياذ : الالتماء . (٢) وفي الأماله « والحال مستغبة » أي مجيبة .

(٣) مار عياله ميراً : جلب لهم الميرة (بالكسر) وهي الطعام ، وفي العقد : « فرحم الله امرأ ميراً ،

وداعياً بمير » .

وأفلال بُؤس ، وَصَرَعي جَدْب ، تتابعت علينا سِنُون ثلاثة^(١) ، غَبَرَتِ^(٢) النَّعْم ، وأهلكت النَّعْم ، فأكلنا ما بقي من جلودها فوق عظامها ، فلم نزل نعلل بذلك أنفسنا ، وَنَمَنِّي بالغيث قلوبنا ، حتى عاد مُخْنَأَ عِظَامًا ، وَعَادَ إِشْرَاقَنَا ظِلَامًا ، وَأَقْبَانَا إِلَيْكُمْ يَصْرَعَنَا الوَعْر ، وَيُكِنِّنَا^(٣) السَّهْل ، وهذه آثار مصائبنا لأحمة في سَمَاتِنَا ، فرحم الله متصدقاً من كثير ، وَمَوَاسِيًّا من قليل ، فلقد عظمت الحاجة ، وَكَسَفَ البَال ، وبلغ المجهود ، والله يَجْزِي المتصدقين .

٣٩ - أعرابي يستجدي

وقال الأصمعي : كنت في حلقة بالبصرة إذ وقف علينا أعرابي سائلاً ، فقال : « أيها الناس ، إن الفقر يهتك الحجاب ، وَيُبْرِزُ الكَعَاب^(٤) ، وقد حملتنا سِنُون المصائب ، وَنَكَبَات الدهور ، على مركبها الوَعْر ، فواسوا أبا أيتام ، وَنِضْوَ زمان ، وَطَرِيدَ فاققة ، وَطَرِيحَ هلكة ، رحمكم الله . »

٤٠ - أعرابي يستجدي

وقال الأصمعي : وقف أعرابي علينا فقال : « يا قوم : تتابعت علينا سِنُون بتغير وانتقاص ، فما تركت لنا هُبَعًا ولا رُبَعًا^(٥) ، ولا عافطة ، ولا نَافِطَةً^(٥) ، ولا نَافِطَةً ولا رَاغِبَةً ، فأماتت الزرع ، وقتلت الضرع ، وعندكم من مال الله فضلُ نعمة ، فأعينوني من عطية ما آتاكم الله ، وَارحموا أبا أيتام ، وَنِضْوَ زمان ، فلقد خلفت أقوامًا يمرضون ولا يكفنون ميتهم ، ولا ينتقلون من منزل ، وإن كرهوه ، ولقد مشيت حتى انتعلت الدماء ، وَجُعْتُ حتى أكلت الثرى . »

(١) غبره لاطخه بالغيبار : أو هي « غبرت » بالياء . (٢) أي يسترنا . (٣) جارية كعاب : نهد ثديها . (٤) الهبع : الفصيل ينتج في آخر الشتاء ، والربيع : الفصيل ينتج في الربيع ، وهو أول النتاج . (٥) النافطة : النعجة ، من العفط : وهو الضرط ، عفت كضرب : ضرطت فهي عافطة ، والعفط أيضاً : نثير الضأن تنثر بأثوفها كما ينثر الحمار ، والنافطة : العنز ، من النفظ ، نطت العنز كضرب : نثرت بأنفها أو عطست فهي نافطة ، أو لأنها تنفظ ببولها : أي تدفعه دفعاً ، أو النافطة إتباع للعافطة ، أو العافطة : الأمة الراعية ، والنافطة : الشاة .

٤١ - أعرابية تستجدي

وقال الأعمى : وقفت أعرابية فقالت :

« يا قوم سنّة جرّدت ، وأيدٍ جُمدت ، وحال جهّدت ^(١) ، فهل من فاعلٍ لخير ،
وأميرٍ بميرٍ ؟ رَحِمَ اللهُ من رَحِمَ ، فأقرَضَ من لا يظلم . »

(المعقّد الفريد ٢ : ٨٠ - ٨٤)

٤٢ - أعرابي يستجدي

ووقف أعرابي بقوم فقال :

« أشكو إليكم أيها الملائم زماناً ، كَلَحَ في وجهه ، وأناخَ على بَكَكَلِكَلِه ، بعد
نعمة من المال ، وثروة من المآل ، وَغَبَطَةَ من الحال ، اعتورتني جدّاً نداءه ^(٢) ، بِنَبَلِ
مصائبه ، عن قسيّ نوائبه ، فما تركا لي ثاغية ^(٣) أُجْتَدِي ضَرَعَهَا ، ولا رَاغِيَةً أرتجى
نفعها ، فهل فيكم من مُعِينٍ على صَرَفِهِ ، أو مُعَدِّ ^(٤) على حَتَفِهِ ؟ » ، فرد القوم عليه ،
ولم يُبْنِلُوهُ شيئاً ، فأنشأ يقول :

قد ضاع من يأكل من أمثالكم جوداً ، وليس الجودُ من فِعالكم
لا بارك الله لكم في مالكم ولا أراح السوء عن عيالكم

فالفقر خيرٌ من صلاح حالكم

٤٣ - أعرابي يستجدي

وسَمِعَ عَدِيَّ بن حاتم رجلاً من الأعراب وهو يقول :

« يا قوم تصدّقوا على شيخٍ مُعِيلٍ ، وعابرٍ سبيلٍ ، شَهِدَ له ظاهره ، وَسَمِعَ شكواه

(١) جهده المرض كنع : مزله .

(٢) سنة جداء : محلة مجدية ، والجداء من كل حلوبة : الذاهبة اللبن عن حيب ، والحدودة :

القليلة اللبن من غير حيب ، والجمع جدائد وهداد . (٣) اللثاغية : الشاة من اللثغاء بالضم ، وهي صوت

الغنم ، والراغية : اللثاغية ، من الرغاء ، وهو صوت الإبل .

(٤) مدين ، أهدها عليه : نصره وأعلمه وقواه .

خائفه ، بدنه مطلوب ، وثوبه مسلوب » ، فقال له : من أنت ؟ قال : رجل من بني سعد
في دية كزمتي ، قال : فكم هي ؟ قال : مائة بعير ، قال : دونكما في بطن الوادي .
(العقد الفرید ٢ : ٨٢ - ٨٢)

٤٤ - أعرابي يستجدي

ووقف أعرابي على قوم فقال :
« إِنَّا - رَحِمَكُمُ اللَّهُ - أَبْنَاءُ سَبِيلٍ ، وَأَنْضَاءُ طَرِيقٍ وَقَاسِيَةٌ ^(١) ، رَحِمَ اللَّهُ أَمْرًا
أَعْطَى مِنْ سَعَةٍ ، وَوَأَسَى مِنْ كَفَافٍ » .
فأعطاه رجل درهما فقال : « آجْرَكَ اللَّهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَبْتَلِيكَ » .

٤٥ - أعرابي يستجدي

ووقف أعرابي بقوم فقال :
« يَا قَوْمَ : تَتَابَعْتُمْ عَلَيْنَا سِنُونَ جَمَادٍ ^(٢) شِدَادًا ، لَمْ يَكُنْ لِلسَّمَاءِ فِيهَا رَجْعٌ ^(٣) ،
وَلَا لِلْأَرْضِ فِيهَا صَدْعٌ ^(٤) ، فَنَضَبَ الْعِدُّ ^(٥) ، وَنَشَفَ الْوَشْلُ ، وَأَحْمَلَ الْخِصْبُ ،
وَكَلَّحَ الْجَدْبُ ، وَشَفَّ ^(٦) الْمَالُ ، وَكَسَفَ الْبَالُ ، وَشَطَفَ الْمَعِاشُ ، وَذَهَبَ الرَّيَاشُ ،
وَطَرَحْتَنِي الْأَيَّامُ إِلَيْكُمْ غَرِيبَ الدَّارِ ، نَائِيَ الْحَلِّ ، لَيْسَ لِي مَالٌ أَرْجِعُ إِلَيْهِ ، وَلَا
عَشِيرَةٌ أَلْحَقُ بِهَا ، فَارْحَمِ اللَّهُ أَمْرًا رَحِمَ اغْتَرَابِي ، وَجَعَلَ الْمَعْرُوفَ جَوَابِي » .
(العقد الفرید ٢ : ٨٠)

(١) أى وحال قاسية ، وربما كان الأصل « وفل سنة » . (٢) الجهاد : السنة التي لامطر فيها .
(٣) الرجوع : المطر ، لعوده كل حين (٤) أى انشقاق عن النبات ، اقتبسه من الآية الكريمة :
(وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الرَّجْعِ وَالْأَرْضَ ذَاتَ الصَّدْعِ)

(٥) العد : الماء الجاري الذي له مادة لاتنقطع كماء العين ، ونضب الماء : غار ، والوشل : الماء القليل
يتحلب من جبل أو صخرة ، ولا يتصل قطره ، ونشف الماء في الأرض : ذهب ، ونشف الحوض الماء
شربه ، وأحمل : أجرب .

(٦) شف : رقى ، والشطف بالتحريك : يمس العيش وشدته ، والرياش : المال والخصب والمعاش

٤٦ - أعرابية تستجدي

وخرج المهدي يطوف بعد هداة^(١) من الليل ، فَسَمِعَ أعرابية من جانب المسجد ، وهي تقول :

« قوم متظالمون ، نبت^(٢) عنهم العيون ، وفدحتهم الديون ، وععضتهم السنون ، بادت رجالهم ، وذهبت أموالهم ، وكثر عيالهم ، أبناء سبيل ، وأنضاء طريق ، وصية الله ووصية الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، فهل من امرئ يجير ؟ كَلَّاهُ اللهُ فِي سَفَرِهِ ، وَخَلَفَهُ فِي أَهْلِهِ » .

فأمر نصيراً الخادم ، فدفَعَ إليها خمسمائة درهم .

(العقد الفريد ٢ : ٨٠ ، وزهر الآداب ٣ : ٢٤٤)

٤٧ - أعرابي يستجدي

ووقف أعرابي في شهر رمضان على قوم فقال :

« يا قوم : لقد ختمت هذه الفريضة على أفواهنا من صُبحِ أمس ، ومعى بنتان لي ، والله ما علمتُهما تحللتنا بحلال ، فهل رجل كريم يرحم اليوم مقامنا ، ويرد حُشاشتنا^(٣) ؟ مَنْعَهُ اللهُ أَنْ يَقُومَ مَقَامَهُ ، فَإِنَّهُ مَقَامُ ذُلِّ وَعَارٍ وَصَغَارٍ » .

فافترق القوم ولم يعطوه شيئاً ، فالتفت إليهم حتى تأملهم جميعاً ، ثم قال :

« أَشَدُّ وَاللَّهِ عَلَيَّ مِنْ سُوءِ حَالِي وَفَاقَتِي ، تَوْهَمِي فِيكُمْ الْمَوَاسَاةَ ، أَنْتَعَلُوا الطَّرِيقَ ،

(العقد الفريد ٢ : ٨٢)

لَا صَحْبَكُمْ اللهُ ! » .

(١) أي حين هدا الليل ، أو هو أول الليل إلى ثلثه .

(٢) اقتحمتم وازدرتهم ، وفدحتهم : أثقلتهم .

(٣) الحشاشنة : بقية الروح في المريض ، والصفار : الذل .

٤٨ - أعرابي يستجدي

وقام أعرابي ليسأل فقال :

« أين الوجوه الصُّباح^(١) ، والعقول الصُّحاح ، والألسُنُ الفِصَّاح ، والأنساب الصُّراح^(٢) ، والمكارم الرِّياح ، والصدور الفِصَّاح ؟ تُعيذني من مَقَامِي هذا » .
(البيان والتبيين ٣ : ٢٢٢)

٤٩ - أعرابي يستجدي

ودعا أعرابي في طريق مكة فقال :

« هل من عائدٍ بفضْل ، أو مؤاسٍ من كفاف^(٣) ؟ » ، فأُمسِكَ عنه فقال :
« اللهم لا تَكِلْنَا إلى أنفسنا فنعجز ، ولا إلى الناس فنضيع » .
(البيان والتبيين ٣ : ٢٣٤)

٥٠ - أعرابي يستجدي

وقف أعرابي فسأل قوماً فقالوا له : علميك بالصيَّارفة ، قال : هُنَاكَ وَاللَّهِ قَرَارَةُ اللُّؤْم !
(البيان والتبيين ٢ : ٤٨)

٥١ - أعرابي يستجدي

وسأل أعرابي ناساً فقال : « جعل الله حظَّكم في الخير ، ولا جعل حظَّ السائل منكم عِذْرَةً^(٤) صادقة » .
(البيان والتبيين ١ : ٢١٥)

٥٢ - أعرابي يستجدي

وسأل أعرابي ، فقال له صبي من جوف الدار : « بُورِكَ فيك ، فقال : قَبَّحَ اللهُ هذا الفَمَ ، لقد تعلم الشرَّ صغيراً » .
(البيان والتبيين ٣ : ١٣٦)

(١) جمع صبيحة: وهي الجميلة من الصباحة كفضاحة أي الجمال . (٢) جمع صريحة: وهي المحضة الخالصة .
(٣) الكفاف من الرزق : ما كف عن الناس وأغنى . (٤) العذرة : اسم من العذر .

٥٣ - أعرابي يستجدي

ووقف أعرابي على قوم فنعموه ، فقال :

« اللهم اشغَلْنَا بِذِكْرِكَ ، وَأَعِدْنَا مِنْ سُخْطِكَ ، وَأُولِجْنَا إِلَى عَفْوِكَ ، فَقَدْ ضَنَّ خَلْقُكَ بِرِزْقِكَ ، فَلَا تَشْغَلْنَا بِمَا عِنْدَهُمْ عَنْ طَلَبِ مَا عِنْدَكَ ، وَآتِنَا مِنَ الدُّنْيَا الْقُنْمَانَ ^(١) ، وَإِنْ كَانَ كَثِيرًا يُسْخِطِكَ ، فَلَا خَيْرَ فِيهَا يُسْخِطُكَ » .

(البيان والخبير ٣ : ٢٢٤)

٥٤ - أعرابي يستجدي

وقال أبو الحسن : وقف علينا أعرابي فقال :

« أَخِ فِي كِتَابِ اللَّهِ ، وَجَارِ فِي بِلَادِ اللَّهِ ، وَطَالِبُ خَيْرٍ مِنْ رِزْقِ اللَّهِ ، فَهَلْ فِيكُمْ مِنْ مُوَأَسِّ فِي اللَّهِ » .

وسأل أعرابي رجلا ، فاعتلَّ عليه فقال : « إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا ، فَجْعَلْكَ اللَّهُ صَادِقًا » .

(العقد الفريد ٢ : ٨٤)

٥٥ - أعرابي يسأل رجلا حاجة له

أتى أعرابي رجلا (لم تكن بينه وبينه حرمة) في حاجة له ، فقال :

« إِنِّي امْتَنَيْتُ إِلَيْكَ الرَّجَاءَ ، وَسِرَّتْ عَلَيَّ الْأَمَلَ ، وَوَفَدْتُ بِالشُّكْرِ ، وَتَوَسَّلْتُ

بِحَسَنِ الظَّنِّ ، فَحَقَّقْ الْأَمَلَ ، وَأَحْسِنِ الْمُثُوبَةَ ، وَأَكْرِمِ الْقَصْدَ ، وَأَتِمِّمِ الْوَدَّ ،

وَعَجِّلِ الْمُرَادَ » . (العقد الفريد ٢ : ٨٢ ، وزهر الآداب ٣ : ١٦٥)

قولهم في بكاء الموتى

٥٦ - أعرابية تكي ابنها

وَحَجَّتْ أَعْرَابِيَّةٌ وَمَعَهَا ابْنٌ لَهَا فَأُصِيبَتْ بِهِ ، فَلَمَّا دُفِنَ قَامَتْ عَلَى قَبْرِهِ وَهِيَ وَجِعَةٌ

قَالَتْ :

« وَاللَّهِ يَا بُنَيَّ لَقَدْ غَدَوْتُكَ رَضِيْعًا ، وَقَفَدْتُكَ سَرِيْعًا ، وَكَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْحَالِيْنَ مَدَّةٌ أَلْتَدُّ بِعَيْشِكَ فِيهَا ، فَأُصِيبَتْ بَعْدَ النَّضَارَةِ وَالْفَضَارَةِ ^(١) ، وَرَوْتُكَ الْحَيَاةَ ، وَالتَّنَسُّمَ فِي طَيْبِ رَوَائِحِهَا ، تَحْتَ أَطْبَاقِ الثَّرَى جَسَدًا هَامِدًا ، وَرُفَاتًا سَحِيْقًا ، وَصَمِيْدًا جُرْزًا ^(٢) .

أَيُّ بُنَيَّ لَقَدْ سَحَبْتَ الدُّنْيَا عَلَيْكَ أَذْيَالَ الْفَنَاءِ ، وَأَسْكَنْتَكَ دَارَ الْبَلِيِّ ، وَرَمَمْتَنِي بِعَدِكَ نَكْبَةَ الرَّدَى ، أَيُّ بُنَيَّ لَقَدْ أَسْفَرَ لِي عَنْ وَجْهِ الدُّنْيَا صَبَاحٌ دَاجٍ ظَلَامُهُ ^(٣) ،

ثُمَّ قَالَتْ :

أَيُّ رَبِّ ، وَمِنْكَ الْعَدْلُ ، وَمِنْ خَلْقِكَ الْجُورُ ، وَهَبْتَهُ لِي قُرَّةَ عَيْنٍ ، فَلَمْ تَمْتَنِعْنِي بِهِ كَثِيْرًا ، بَلْ سَلَبْتَنِيهِ وَشِيْكَ ^(٤) ، ثُمَّ أَمَرْتَنِي بِالصَّبْرِ ، وَوَعَدْتَنِي عَلَيْهِ الْأَجْرَ ، فَصَدَّقْتُ وَعْدَكَ ، وَرَضِيْتُ قَضَاءَكَ ، فَرَحِمَ اللَّهُ مَنْ تَرَحَّمَ عَلَيَّ مِنْ أَسْتَوْدَعْتُهُ الرَّدْمَ ^(٥) ، وَوَسَدَّتْهُ الثَّرَى ، اللَّهُمَّ ارْحَمْ غُرْبَتَهُ ، وَأَنْسِ وَحْشَتَهُ ، وَأَسْتَرْعُورَتَهُ ، يَوْمَ تَنْكَشِفُ الْمَنَاتُ ^(٦) وَالسَّوْءَاتُ .

(١) النضارة : النعمة والحسن والنفى ، والفضارة أيضاً : النعمة والسمة والخصب :

(٢) أطباق جمع طبق : وهو وجه الأرض ، والرفات : الحطام ، وسحيقاً : مسحوقاً ، والصميد :

التراب ، أو وجه الأرض وأرض جرز : لانبت ، أو أكل نباتها ، أو لم يصعبها .

(٣) أسفر الصبح وسفر كضرب : أضاء وأشرف ، داج : قال الأصمعي : دجا الليل ، إنما هو ألبس

كل شيء ، وليس هو من الظلمة ، قال : ومنه قولهم : دجا الإسلام أى قوى ، وألبس كل شيء .

(٤) سريعاً . (٥) الردم ، السد ، وما يسقط من الجدار المتهدم . (٦) السيئات .

فلما أرادت الرجوع إلى أهلها وقتت على قبره فقالت :

أى بنى : إني قد تزودت لسفري ، فليت شعري ، ما زادك لبعد طريقك ،
ويوم معادك ! اللهم إني أسألك له الرضا برضاي عنه ، ثم قالت :

استودعتك من استودعنيك في أحشائي جنيئاً ، وائكل الوالدات !
مأ أمض^(١) حرارة قلوبهن ، وأفاق مضاجعهن ، وأطول ليلهن ، وأقصر نهارهن ،
وأقل أنسهن ، وأشد وحشتهن ، وأبعدهن من السرور ، وأقربهن من الأحزان .
فلم تزل تقول هذا ونحوه ، حتى أبكت كل من سمعها ، وحدث الله عز وجل ،
وأسترجعت وصات ركعات عند قبره وانطلقت . (زمرة الآداب : ٧)

٥٧ - حديث امرأة سكنت البادية قريباً من قبور أهلها

وروى أبو علي القالي : عن عبد الرحمن عن عمه قال :

« دَفَعْتُ يَوْمًا فِي تَهْمِي بِالْبَادِيَةِ إِلَى وَادٍ خَلَاءَ لَا أُنْسَ بِهِ إِلَّا بَيْتٌ مُعْتَمِرٌ^(٢) ،
بِفَنَائِهِ أَعَزُّ ، وَقَدْ ظَمِئْتُ قَيْمَمَتَهُ ، فَسَلَّمْتُ فَإِذَا عَجُوزٌ قَدْ بَرَزَتْ ، كَأَنَّهَا نِعَامَةٌ
رَاحِمٌ^(٣) ، فَقَالَتْ : هَلْ مِنْ مَاءٍ ؟ فَقَالَتْ : أَوْ لَبَنٍ ، فَقُلْتُ : مَا كَانَتْ يُغِيثِي إِلَّا الْمَاءُ ،
فَإِذَا يَسَّرَ اللَّهُ اللَّبَنَ فَإِنِّي إِلَيْهِ فَقِيرٌ ، فَقَامَتْ إِلَى قَعْبٍ^(٤) فَأَفْرَغَتْ فِيهِ مَاءً ، وَنَظَّفَتْ
غَسَلَهُ ، ثُمَّ جَاءَتْ إِلَى الْأَعْزُ ، فَتَغَبَّرَسْنُ^(٥) حَتَّى احْتَلَبْتُ قُرَابٌ^(٦) مِلءِ الْقَعْبِ ،
ثُمَّ أَفْرَغْتُ عَلَيْهِ مَاءً حَتَّى رِغَا وَطَفَّتْ كُمَالَتَهُ^(١) ، كَأَنَّهَا نِعَامَةٌ بَيْضَاءُ ، ثُمَّ نَاولَتْنِي إِيَّاهُ ،
فَشَرِبْتُ حَتَّى تَجَبَّبْتُ^(٢) رِيًّا واطْمَأْنَنْتُ ، فَقَالَتْ :

(١) مضه الشيء : بلغ من قلبه الحزن به كأنضه .

(٢) منفرد . (٣) الراحم : التي تحضن بيضها ، أرخت الدجاجة على بيضها ورخته ، ورخت عليه

فهى مرخم وراحم . (٤) القعب : قلع إلى الصفر ، ويشبه به الحافر .

(٥) أى احتلبت القعب (كقفل) : وهى بقية اللبن فى الصرع ، وجمعه أغبار .

(٦) قراب وقریب واحد ، مثل كيار وكبير وجمام وجسيم .

(١) المثالة : للرغوة وهى مثلة للراء . (٢) امتلات .

إني أراك معتزلة في هذا الوادي الموحش ، وَالْحِلَّةُ^(١) منك قريب ، فلو انضمت
إلى جنابهم فأنست بهم ! فقالت :

« يابن أخي ، إني لآتسُ بالوَحْشَةِ ، وأستريح إلى الوَحْدَةِ ، ويطمنن قلبي إلى هذا
الوادي الموحش ، فأتذكر من عهدتُ ، فكأنني أخطب أعيانهم ، وأترأى أشباحهم^(٢)
وتتخيل لي أنديّة رجالهم ، وملاعب ولدانهم ، ومندى^(٣) أموالهم ، والله يابن أخي
لقد رأيت هذا الوادي بشع اللديدين^(٤) بأهل أدواح وقباب ، ونعم كالهضاب ،
وخيل كالذئاب ، وفتيان كالرماح ، يبارون الرياح ، ويحمون الصباح^(٥) فأحال عليهم
الجللاء قفاً بغرفة^(٦) فأصبحت الآثار دارة ، والمجآك طامسة ، وكذلك سيرة
الدهر فيمن وثق به . »

ثم قالت : أرم بعينك في هذا الملا المتباطن^(٧) ، فنظرت فإذا قبور نحو أربعين
أو خمسين ، فقالت : ألا ترى تلك الأجداث ؟ قات نعم ، قالت : ما انطوت إلا على
أخ أو ابن أخ ، أو عم أو ابن عم ، فأصبحوا قد ألتأت^(٨) عليهم الأرض ،
وأنا أترب ما غلهم ، انصرف راشداً رحمتك الله .
(الأمك ٢ : ٧)

٥٨ — حديث امرأة مات ابنها بين يديها

عن عبد الرحمن عن عمه قال : دخلتُ على امرأة من العرب بأعلى الأرض
في خباء لها ، وبين يديها بُني لها ، قد نزل به الموت ، فقامت إليه فأغضته وعصبتته
وسجته^(٩) ، ثم قالت :

(١) الحلة : جماعة بيوت الناس والجمع حلال ككتاب . (٢) أشخاص جمع شبح كشمس وسبب .
(٣) الغديّة : أن يورد الرجل إبله ، ثم يرعاها ، ثم يوردها ، ثم يرعاها ، والمندى : المكان الذي
يندى فيه المال . (٤) بشع : ملاك ، اللديان : الحانان ، والدوحة : الشجرة العظيمة .
(٥) الصباح جمع صبيحة : وهي الجميلة من الصباحة كحجابه : الجمال .
(٦) قم البيت قا : كنهه والمقمة : المسكنة ، والقامة : الكناية ، والغرفة الواحدة من
لغرف : وهي ضرب من الشجر . (٧) الملا : الفضاء ، والمتباطن : المتطامن .
(٨) ألتأت أي احتوت عليهم ، وغلهم : أهلكهم . (٩) تسجية الميت : قنطية .

« يابن أخي ، قلت : ما تشائين ؟ قالت : ما أحقّ من ألبسِ النعمة ، وأطيلت له النظرة^(١) ، أن لا يدع التوثق من نفسه ، قبل حلّ عُقدته^(٢) ، والحلولِ بمقوته^(٣) ، وللمحالةِ بينه وبين نفسه » ، قال : وما يقطر من عينها قطرةً صبراً واحتساباً ، ثم نظرت إليه فقالت : والله ما كان مالك لبطنك ، ولا أمرك لعرسك^(٤) ، ثم أنشدت تقول :
رَحِيبُ الذراعِ بالتي لا تشينهُ وإن كانتِ الفحشاءُ ضاقَ بها ذرعاً^(٥)
(الأمال ٢ : ٢٨٢ ، والبيان والتبيين ٣ : ٢٣١)

قولهم في الشكوى

٥٩ - أعرابي يشكو حاله

عن عبد الرحمن عن عمه قال :

« قَدِمَ عَلَيْنَا البصرة رجل من أهل البادية شيخ كبير ، فقصدته فوجدته يَحْضِبُ لحيته ، فقال : ما حاجتك ؟ فقالت : بلغني ما خصّك الله به ، فجئتك أقتبس من علمك ، فقال : أتيتني وأنا أخضب ، وإن الخضاب لمن علامات الكبر ، وطال والله ما غدوتُ على صيد الوحوش ، ومشيتُ أمامَ الجيوش ، واختلتُ بالرداء ، وهوتُ^(٦) بالنساء ، وقررتُ الضيف ، وأرويتُ السيف ، وشربتُ الرّاح ، ونادمتُ الجحجاج^(٧) ، فاليوم قد حنّاني الكبر ، وضعف مني البصر ، وجاء بعد الصفو الكدر ، ثم قبض على لحيته ، وأنشأ يقول :

شَيْبٌ تُغَيِّبُهُ كَيْمًا تَقَرُّ بِهِ كَبَيْعِكَ الثَّوْبَ مطوياً على حَرَقِ
قد كنتُ كالفُصْنِ ترتاح الرِّيحُ له فَصِرْتُ عوداً بلا ماء ولا وَرَقِ

(١) النظرة : الإمهال . (٢) كناية عن الموت .

(٣) العقوة : المحلة ، أي بقبره . (٤) العرس : امرأة الرجل .

(٥) ضاق بالأمر ذرعاً : ضعفت طاقته ، ولم يجد من المسكروه فيه مخلصاً .

(٦) هوت به : فرحت به . (٧) الجحجاج : السيد .

صبراً على الدهر ، إن الدهر ذو غيرِ وأهلُه منه بين الصفو والرتقِ^(١)
(الأمال ٢ : ٩٤)

٦٠ - كلمات شتى في الشكوى

قيل لأعرابية أصيبت بابنها : ما أحسنَ عَزَاءِكِ ! قالت : « إن فَقْدِي إِيَاهُ أَمَّنِي
كُلَّ فَقْدٍ سِوَاهُ ، وإن مَصِيبَتِي بِهِ هَوَّنتَ عَلَيَّ الْمَصَائِبَ بَعْدَهُ » ، ثم أنشأت تقول :

مَنْ شَاءَ بَعْدَكَ فَلَيْمَتْ فَعَلَيْكَ كُنْتُ أَحَازِرُ
لَيْتَ الْمَنَازِلَ وَالذِّيَا رَ حَفَاؤُومَ وَمَقَابِرُ

* * *

وقيل لأعرابي : كيف حزنك على ولدك ؟ قال « ماترك همَّ الغدَاءِ والعِشَاءِ
لِي حُزْنًا » .

* * *

وقيل لأعرابي : ما أنحلَّ جِسْمُكَ ؟ قال : « سِوَاهُ الْغِدَاءِ ، وَجُدُوبَةِ الْمَرْعَى ،
واختلافِ الهمومِ فِي صَدْرِي » ، ثم أنشأ يقول :

الهِمُّ مَالِمٌ تَمَضِيهِ لِسَبِيلِهِ دَاوَا تَضَمَّنَهُ الضَّلُوعُ عَظِيمُ
وَلرَبَّمَا اسْتِيَأَسْتُ ثُمَّ أَقُولُ : لَا إِنْ الذِّي صَمِينِ النَّجَاحِ كَرِيمُ

* * *

وقيل لأعرابي قد أخذ به السنُّ : كيف أصبحت ؟ قال : « أصبحتُ تَقِيدُنِي
الشَّعْرَةُ ، وَأَعَثُرُنِي الْبَعْرَةُ ، قد أقام الدهرُ صَعْرِي ، بعد أن أَمْتُ صَعْرَهُ » .

* * *

وقال أعرابي : « لقد كنتُ أنكرُ البيضاء ، فصيرتُ أنكرُ السوداء ، فيا خير مبدول ، ويا شرَّ بَدَل ! » .

* * *

وذكر أعرابي منزلاً بادَ أهله فقال : « مَنْزِلٌ وَاللَّهِ رَحَلَتْ عَنْهُ رَبَّاتُ الْخُدُورِ ، وَأَقَامَتْ فِيهِ رَوَاحِلُ^(١) الْقُدُورِ ، وَقَدْ اكَتَسَى بِالنَّبَاتِ كَانَمَا أَلْبَسَ الْخُلَلِ ، وَكَانَ أَهْلُهُ يَعْفُونَ^(٢) فِيهِ آثَارَ الرِّيحِ ، وَأَصْبَحَتْ الرِّيحُ تَعْفُو آثَارَهُمْ ، فَالْعَهْدُ قَرِيبٌ ، وَالْمُلْتَقَى بَعِيدٌ » .

* * *

وذكر أعرابي قوماً تغيرت أحوالهم فقال : « أَعْيُنُ وَاللَّهِ كُحِلَّتْ بِالْعَبْرَةِ بَعْدَ الْحَبْرَةِ^(٣) ، وَأَنْفُسٌ لَدِسَتْ الْحَزْنَ بَعْدَ السُّرُورِ » .

* * *

وذكر أعرابي قوماً تغيرت حالهم فقال : « كَانُوا وَاللَّهِ فِي عَيْشٍ رَقِيقِ الْحَوَاشِي ، فَطَوَّاهُ الدَّهْرُ بَعْدَ سَعَةِ ، حَتَّى لَبَسُوا أَيْدِيَهُمْ مِنَ الْقُرِّ^(٤) ، وَلَمْ أَرَ صَاحِبًا أَغْرَّ مِنَ الدُّنْيَا ، وَلَا ظَالِمًا أَغْشَمَ^(٥) مِنَ الْمَوْتِ ، وَمَنْ عَصَفَ عَلَيْهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ أَرْدِيَاهُ^(٦) ، وَمَنْ وَكَّلَ بِهِ الْمَوْتَ أَفْنَاهُ » .

* * *

ووقف أعرابي على دارٍ قد بادَ أهلها فقال : « دَارٌ وَاللَّهِ مُعْتَصِرَةٌ لِلدَّمُوعِ ، حَطَّتْ بِهَا السَّحَابُ أَثْقَالَهَا ، وَجَرَّتْ بِهَا الرِّيحُ أَذْيَالَهَا » .

* * *

(١) الرراحيل جمع راحلة : وهي في الأصل : الناقة الصالحة لأن ترحل ، والمراد هنا الحوامل التي تحمل القُدور ، أي الأثافي . (٢) عفا المنزل : درس ، وعفته الريح ، يتعلمى ويلزم ، وبأيهما عدا ، وعفته للريح أيضاً بالتشديد للمبالغة . (٣) الحبرة : السرور . (٤) القر مثلث القاف : البرد . (٥) أغشم : أظلم . (٦) أهدياه : أهلكاه .

وذكر أعرابي رجلاً تغيرت حاله فقال : « طُوِيَتْ صِحْفَتُهُ ، وَذَهَبَ رِزْقُهُ ، فَالْبَلَاءُ مُسْرِعٌ إِلَيْهِ ، وَالْعَيْشُ عَنْهُ قَابِضٌ كَفِيهِ » .

* * *

وذكر أعرابي رجلاً ضاق عيشه بعد سعة فقال : « كَانَ وَاللَّهِ فِي ظِلِّ عَيْشٍ مَمْدُودٍ ، فَقَدِحَتْ عَلَيْهِ مِنَ الدَّهْرِ زَنْدٌ غَيْرُ كَابِيَةٍ ^(١) » .

(العقد الفريد ٢ : ٧٩ - ٨٠)

* * *

وذكر أعرابي مصيبة نالته ، فقال : « مُصِيبَةٌ وَاللَّهِ تَرَكْتُ سُودَ الرُّعُوسِ بَيْضًا ، وَبَيْضَ الْوُجُوهِ سُودًا ، وَهَوَّنتِ الْمَصَائِبَ بَعْدَهَا » .

(العقد الفريد ٢ : ٧٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٥)

* * *

وذكر أعرابي قطيعة بعض إخوانه فقال : « صَفَرْتُ عِيَابَ ^(٢) الْوُدِّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ بَعْدَ امْتِلَاطِهَا ، وَأَقْفَرْتُ وَجُوهُ كَانَتْ بِمَائِهَا ، فَأَدْبَرْتُ مَا كَانَ مُقْبِلًا ، وَأَقْبَلْتُ مَا كَانَ مَدْبُرًا » .

(العقد الفريد ٢ : ٧٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٤)

* * *

وقيل لأعرابي : ما أذهب شبابك ؟ قال : « مِنْ طَالَ أَمَدُهُ ، وَكَثُرَ وُلْدُهُ ، وَوَدَّفَ عَدَدُهُ ، وَذَهَبَ جِلْدُهُ ذَهَبَ شَبَابُهُ » .

(العقد الفريد ٢ : ٧٩ ، والبيان والعيون ٢ : ٥٧)

* * *

وسئل أعرابي عن سقر أكدى ^(٣) فيه ، فقال : « مَا غَنِمْنَا إِلَّا مَا قَصَرْنَا فِي صَلَاتِنَا ، فَأَمَّا مَا أَكَلْتَهُ الْهَوَاجِرِ ^(٤) ، وَلَقِيْتَهُ مِنَ الْأَبَاعِرِ ، فَأَمْرٌ اسْتَخَفَّنَاهُ لِمَا أَمَلْنَا » .

(١) الزند : الدود الذي يقذف به النار ، وكينا الزند : لم يخرج ناره ، وفي الأصل « زند عين كابية » وهو تحريف . (٢) صفرت : خلت ، وعياب جمع هبة بالفتح : ما يجعل فيه الأياب . (٣) أصله من « حفر فأكدى » أي صادف السكدية - والسكدية كفرصة : الأرض المليظة ، واعسفة العظيمة الشديدة . (٤) الهواجر جمع هاجرة ، وهي شدة الحر .

وقالت امرأة من الأعراب : « أصبحنا ما يرقد لنا فرس ، وما ينام لنا حرس » .
(البيان والخبير ٢ : ٨٢)

* * *

وقال أعرابي « مضى لنا سلفٌ أهل تَوَاصُل ، اعتقدوا^(١) مِنَّنَا ، واتخذوا الأيادي
ذخيرةً لمن بعدهم ، يَرَوْنَ اصطناع المعروف عليهم فَرَضاً لازماً ، وإظهار البرِّ واجباً ، ثم
جاء الزمان بينين ، اتخذوا مِنَنهم بضاعة ، وَبَرَّهم مُرَاجحة^(٢) ، وأياديهم تجارة ، واصطناع
المعروف مُقَارضةً ، كَنَقْدٍ ، خُذْ مِنِّي وَهَاتِ » .

* * *

وقيل لأعرابي في مرضه : ما تشكى ؟ قال : « تمام العِدَّة ، وانقضاء المدة » .

* * *

ونظر أعرابي إلى رجل يشكو ما هو فيه من الضيق والضرِّ فقال : « يا هذا :
أتشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك ؟ » . (العقد الفريد ٢ : ٨٥)

* * *

ووصف أعرابي الدنيا فقال : « هي رَنَقَةٌ^(٣) المشارب ، جَمَّة المصائب ، لا تُمْتَعك
الدهرَ بصاحب » .

* * *

وقال أعرابي :- « حَسْبُكَ من فساد الدنيا أنك ترى أَسِنَّةً^(٤) تُوضَع ، وأخفافاً
تُرْفَع ، والخير يُطَلَب عند غير أهله ، والفقير قد حلَّ غير محله » .

(العقد الفريد ٢ : ٨٦)

* * *

(١) من اعتقد مالا ؛ اقتناه . (٢) راجحه حل الطلعة : أعطاه رجحاً .
(٣) كدرة . (٤) جمع سنام ، والمراد ما كان هالياً .

وقيل لأعرابي : كيف ابنك - وكان به عاقاً - قال : « عذابٌ لا يقاومه الصبر »
وقائدة لا يجب فيها الشكر ، فليتنى قد استودعته القبر » . (المقدم الفريد ٢ : ٩٧)

* * *

عن الأصمعي قال : قيل لأعرابي قديم الحضرة^(١) ، ما أقدمك ؟ قال : « الحين^(٢) ،
الذي يُعطى العين » . (الأمل ١ : ٢٠٢)

* * *

وأصيب أعرابي بابن له ، فقال وقد قيل له أصبر : « أعلَى الله أتجلد ، أم في مصيبتى
أتبلد ؟ والله للجزع من أمره أحبُّ إلى الآن من الصبر ، لأن الجزع استكانة ، والصبر
قساوة ، ولئن لم أجزع من النقص لم أفرح بالزيد » . (زهر الآداب ٣ : ١٦٤)

* * *

وقيل لأعرابي : لم لا تضرب في الأرض ؟ فقال : « ينعني من ذلك ، طفل
بأرك ، ولبس سائك ، ثم إنى لست بعد ذلك واثقاً بنجح طلبتي ، ولا معتقداً قضاء
حاجتي ، ولا راجياً عطف قرابتي ، لأنى أقدم على قوم أطفاهم الشيطان ، واستألمهم
السلطان ، وساعدهم الزمان ، وأسكروهم حدائنة الأسنان » .
(زهر الآداب ٣ : ٢٤٤)

* * *

وقال بعض الأعراب : « نالنا وشي^(٣) ، وخلفه ولي^(٤) ، فالأرض كأنها وشي^(٤) »

(١) الحضرة : خلاف البادية كالحضر بالعجريك . (٢) الهلاك .

(٣) الوسمى : مطر للربيع الأول ، والولي : المطر الذي يأتي بعد المطر .

(٤) الوشي : نقش الثوب ، والعبرى : المنتقع النظير ، نسبة إلى هبقر ، موضع تزعم العرب أنه من

أرض الحن ، ثم نسبوا إليه كل شيء تمجّبوا من حذقه ، أو جودة صنعه .

عَبْقَرِيٌّ ، ثم أتتنا غيومُ جَرَادٍ ، بمناجِلِ حَوَادٍ^(١) ، نَحْرَبَتِ البلادَ ، وأهلكت
العبادَ ، فسبحان من يُهْلِكُ القويَّ الأَكُولَ ، بالضعيف المأكول .

(زهر الآداب ٣ : ٢٤٦)

٦١ - قولهم في العتاب والاعتذار

عاتب أعرابيُّ أباه فقال : « يا أبت ، إن عظيمَ حَقِّكَ عليَّ لا يذهب صغيرَ حَقِّي
عليك ، والذي تَمَّتْ به^(٢) إلى ، أُمَّتٌ مثله إليك ، ولستُ أزعِمُ أَنَا سِوَاهُ ، ولكني
أقول : لا يَحِلُّ لكَ الاعتداء . »

(البيان والتبيين ٣ : ٢٣١ ، زهر الآداب ٣ : ١٠٠)

* * *

وقال أعرابي لصديق استبطأه فَلَامَهُ : « كانت بي إليك زَلَّةٌ يَمْنَعُنِي مِنْ ذِكْرِهَا
مَا أَمَلْتُ مِنْ تَجَاوُزِكَ عَنْهَا ، وليس أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِنْهَا إِلَّا بِالْإِقْلَاعِ عَنْهَا . »

* * *

وقال آخر لابن عمِّ له : « والله ما أَعْرِفُ تَقْصِيرًا فَأُقْلِعُ ، ولا ذَنْبًا فَأَعْتَبُ ،
ولست أقول إنك كذبت ، ولا إني أذنبت . » (زهر الآداب ٣ : ١٦٣)

* * *

وقال آخر لابن عمِّ له : « سأَنْحَطِّي ذَنْبَكَ إِلَى عُنْدِكَ ، وإن كنتُ مِنْ أَحَدِهَا
على يقين ، ومن الآخر على شكٍّ ، ولكن لَيْتِمَ المَعْرُوفُ مِنِّي إِلَيْكَ ، وتقومَ الحُجَّةُ
لي عليك . » (زهر الآداب ٣ : ١٦٤ ، والعقد للفريد ٢ : ٨٥)

وَعَدَلَتْ أَعْرَابِيَّةٌ أَبَاهَا فِي الجُودِ وَإِتْلَافِ مَالِهِ ، فقالت : « حَبَسُ المَالِ ، أَنْفَعُ
لِلْعِيَالِ ، مِنْ بَذْلِ الوَجْهِ فِي السُّؤَالِ ، فقد قَلَّ النِوَالِ ، وكثُرَ البُخَالِ ، وقد أَتَلَفْتَ

(١) المناجل جمع منجل كنبر : حديدة يقضب بها الزرع . وحواد جمع حادة : أى قاطعة ، وفي الأصل
« حراد » وأراه محرفاً . (٢) تنوعل .

الطارف والتلاد ، وبقيت تطابُ ما في أيدي العباد ، ومن لم يحفظ ما ينفعه ، أوشك
أن يسعى فيما يضره . (زهر الآداب ٣ : ٢٤٦)

٦٢ - قولهم في المدح

دخل أعرابي على بعض الملوك فقال : « رأيتني فيما أتعاطى من مدحك ، كالمُخْبِرِ
عن ضوء النهار الباهر ، والقمر الزاهر ، الذي لا يَخْفَى على الناظر ، وأيقنت أني حيثُ
انتهى بي القول ، منسوبٌ إلى العَجْز ، مُقَصِّر عن الغاية ، فانصرفت عن الثناء عليك ،
إلى الدعاء لك ، وَوَكَلْتُ الإخبار عنك ، إلى عِلْم الناس بك » . (الأماال ٢ : ٧٣)

* * *

وأثنى أعرابي على رجل فقال : « إن خيرك لَسَرِيحٌ ^(١) ، وإن منعك لَمُرِيحٌ ، وإن
رِفْدَكَ لَرَبِيحٌ » . (البيان والتبيين ٢ : ١٠٥)

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت أعرابياً من بني كلاب يذكر رجلاً فقال :
« كان والله أفهمُ منه ذا أذُنَيْنِ ، والجوابُ ذا لسانين ، لم أر أحداً كان أرتقى لِحَلَلِ
رأى منه ، ولا أبعَدَ مسافةً رَوِيَّةً ، ومُرَادٌ ^(٢) طَرَفٌ ، إنما يرمى بهمته حيث أشار إليه
للكرم ، وما زال والله يَتَحَسَّى مرارة أخلاق الإخوان ، ويسقيهم عُذُوبَةَ أخلاقه » .
(الأماال ٢ : ١٦ ، والمعقد الفريد ٢ : ٨٩ : زهر الآداب ٢ : ٣)

* * *

وقال : سمعت أعرابياً ذكر رجلاً فقال : « كان والله للإخاء وَضُولا ، وللمال
بَدُولا ، وكان الوفاء بهما عليه كَفَيْلا ، وَمَنْ فَاضَلَهُ كان مَفْضُولا » .

(الأماال ١ : ١١٦ ، والمعقد الفريد ٢ : ٨٩) .

* * *

(١) أى عطاء بلا مطل ولا إبطاء ، ومريح : أى من كنه الطلب .
(٢) ريادة الإبل : اختلافها في المرعى مقبلة ومدبرة ، والموضع مراد ومستراد .

ووصف أعرابي رجلاً فقال : « ذاك والله ممن يَنْفَعُ سِلْمَهُ ، وَيَتَوَاصَفُ حِلْمَهُ ،
ولا يُسْتَمَرُّ^(١) ظُلْمَهُ ، إن قال فعل ، وإن وَلِيَ عدل . »

(البيان والتبيين ٢ : ١٥٨ ، والمقد الفريد ٢ : ٨٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٣)

* * *

وذكر أعرابي قومًا فقال : « أدبهم الحكمة ، وأحكامهم التجارب ، ولم تفرّهم
السلامة النطوية على المهلكة ، وجانبوا التسوية الذي به قطع الناس مسافة آجالهم ،
فَدَلَّتْ ألسنتهم بالوعد ، وانبسبت أيديهم بالإيجاز ، فأحسنوا المقال ، وَشَفَعُوهُ بالفعال . »

(الأمل ٢ : ٢٣ ، والبيان والتبيين ٣ : ٢٣١ ، والمقد الفريد ٢ : ٨٨)

* * *

عن عبد الرحمن عن عمه قال : وصفت أعرابية زوجها بمكارم الأخلاق عند أمها ،
فقلت : « يا أمّه ، من نَشَرَ ثوب الثناء ، فقد أدّى واجبَ الجزاء ، وفي كِتْمَانِ الشكر
جُحُودٌ لِمَا وَجِبَ من الحق ، ودخولٌ في كُفْرِ النعم » ، فقالت لها أمها : « أي بُنيّة :
أطببت الثناء ، وقتت بالجزاء ، ولم تدعى للذم موضعاً ، إني وجدت من عقل ، لم يعجل
بذم ولا ثناء إلا بعد اختبار » ، فقالت : « يا أمّه ، مامدحت حتى اختبرت ،
ولا وصفت حتى عرفت » .

(الأمل ١ : ٢٢٥)

ووصف بعض الأعراب أميراً فقال : « إذا أوعد آخر ، وإذا وعد عجل ،
وعيده عفو ، ووعدته إيجاز » .

(البيان والتبيين ٣ : ٢١٧)

* * *

ونعت أعرابي رجلاً فقال : « كأنّ الألسن والقلوب رِيضَت له ، فما تنعقد إلا على
ودّه ، ولا تنطق إلا بحمده » .

(البيان والتبيين ٣ : ٢٣١ ، والمقد الفريد ٢ : ٨٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٣)

* * *

(١) لا يستمر ، من استمر الطعام ، وجهه مرهناً أي هنيئاً حميد المنبة .

وذكر رجل عند أعرابي فوقع فيه قوم فقال : « أما والله إنه لا كلكم للأدوم
وأعطاكم للمزوم^(١) ، وأكسبكم للمعدوم ، وأعطفكم على المحروم » .
(الأماي ٢ : ١٦ ، والبيان والتبيين ١ : ١٦٢)

* * *

وأعطى رجل أعرابياً فأكثر له ، فقال له الأعرابي : « إن كنت جاوزت قدرى
عند نفسى ، فقد بلغت أملي فيك » .
(الأماي ٢ : ٥٠)

* * *

ومدح أعرابي رجلاً فقال : « كان والله يُعنى^(٢) فى طلب المكارم ، غير
ضالّ فى معارج طرقها ، ولا متشاغل عنها بغيرها » .
(الأماي ٢ : ٥٠ ، والمعقد الفريد ٢ : ٨٩)

* * *

ودخل أعرابي على رجل من الولاة فقال : « أصالح الله الأمير : اجعلنى زماماً
من أزممتك يُجرّبها الأعداء ، فأنى مسعر حرب^(٣) ، ورّكّابُ نُجُبٍ ، شديد على الأعداء
لئن على الأصدقاء ، منظوى الحصيلة^(٤) ، قليل الثميلة^(٥) ، غرّار النّوم ، قد غدّتنى الحرب
بأفأويقها^(٥) ، وحلبتُ الدهرَ أشطّره ، ولا تمنعك منى الدّمامة^(٦) ، فإن من تحتها شهامة » .
(المعقد الفريد ٢ : ٨٩ ، وزهر الآداب ٣ : ١٨٠)

* * *

(١) أى للمال المغروم ، فن لزمه غرم حمله عنه . (٢) أى يذهب وينصب .
(٣) أى موقدها ، والنجب جمع نجيب . (٤) حصل الشيء تحصيلاً : جمعه ، والاسم الحصيلة ،
والمعنى مكنتم السر ، والتميلة فى الأصل : ما يبقى فى بطن الدابة من العلف والماء ، وما يدخره الإنسان من
طعام أو غيره ، وفى حديث عبد الملك قال الحجاج : « وأما بعد فقد وليتكم المرافين ، فسر إليها منظوى
التميلة » والمعنى فسر إليها مخفاً ، والفرار : التلؤلؤ من النون . (٥) الأفأويق جمع أفواق ، وهو جمع
فيقة بالكسر ، والفيقة : اسم اللبن يجمع فى الفرع بين الحلبتين . (٦) الدمامة : قبح المنظر .

ومدح أعرابي رجلاً فقال : « ذاك والله فسيح الأدب ، مستحسب السبب ،
من أى أقطاره أتيته ، تثنى عليه بكرم فعّال ، وحسن مقال » .

(زهر الآداب ٢ : ٦ ، والمعقد الفريد ٢ : ٨٩)

* * *

ومدح أعرابي رجلاً فقال « كان والله يفسل من العار وجوهاً مسوذةً ، ويفتح
من الرأى عيوناً مُسَدَّةً » .

(المعقد الفريد ٢ : ٨٩ ، وزهر الآداب ٣ : ١٦٥)

* * *

وذكر أعرابي قوماً عبّاداً فقال : « تركوا والله النعيم ليتنعموا ، لهم عبراتٌ
متداققة ، وزفرات متتابعة ، لآترام إلا فى وجهٍ وجيه عند الله » .

* * *

وذكر أعرابي قوماً فقال : « مارأيت أسرع إلى داعجٍ بلئيل ، على فرسٍ حسيب ،
وجمل نجيب^(١) ، ثم لا ينتظر الأولُ السابقُ ، الآخرُ اللاحقُ » .

* * *

وذكر أعرابي قوماً فقال : « جعلوا أمواهم مناديلَ أعراضهم ، فالخير بهم زائد ،
والمعروف لهم شاهد ، يعظونها بطيبة أنفسهم إذا طُلبت إليهم ، ويباشرون المعروف
بإشراق الوجوه إذا بُغى لديهم » .

* * *

وذكر أعرابي قوماً فقال : « والله ما أنلوا شيئاً بأطراف أنامهم إلا وطئناه
بأخماس^(٢) أقدامنا ، وإن أقصى همهم لأذنى فعائلنا » .

* * *

(١) النجيب : الحمل السريع الخفيف فى السير .

(٢) جمع أخمص كالأحمر : وهو من باطن القدم ما لم يصب الأرض .

وذكر أعرابي أميراً فقال: « إذا وَلِيَّ لم يُطَابِقْ بين جُؤنَه (١) ، وأرسل العيونَ على عيونَه ، فهو غائب عنهم ، شاهد معهم ، فالحسن راجحٌ ، والمسيء خائفٌ . »

* * *

وذكر أعرابي رجلاً ببراءة المنطق فقال: « كان والله بارعَ المنطق ، جَزَلَ الألفاظ ، عربياً اللسان ، فصيح البيان ، رقيقَ حواشِي الكلام ، بليلاً الرقيق ، قليلَ الحركات ، ساكنَ الإشارات . »

* * *

وذكر أعرابي رجلاً فقال: « رأيت له حِلماً وَأَنَاةً ، يُحدِّثُكَ الحديثَ على مقاطعه ، وَيُنشِدُ الشعرَ على مَدَارِجِهِ (٢) ، فلا تسمع له لَحْناً ولا إِحالةً (٣) . »

* * *

وذكر أعرابي قوماً فقال: « آلتُ (٤) سيوفُهُم أَلَّا تَقْضِي دِيناً عليهم ، ولا تَضِيعَ حقاً لهم ، فما أَخِذْ منهم مردودٌ إليهم ، وما أَخِذُوا متروكٌ لهم . »

* * *

ومدح أعرابي رجلاً فقال: « ما رأيت عيناً قَطُّ أُخْرِقَ لِظُلْمَةِ الليل من عينه ، وَلَحْظَةً أَشْبَهَ بلهيب النار من لَحْظَتِهِ ، له هزَّةٌ كَهزَّةِ السيف إذا طَرَبَ ، وَجُرْأَةٌ كجُرْأَةِ الليث إذا غَضِبَ . »

* * *

ومدح أعرابي رجلاً فقال: « كانت ظُلْمَةٌ ليله كضوء نهاره ، آمراً بارتياح ، وناهياً عن فساد ، كحبيب السوء غير منقاد . »

* * *

(١) أي لم ينم عن شئون رعيته ، والعيون : الجواسيس .
(٢) مدارج جمع مدرج ومدرجة : المذهب والمسلك . (٣) أحال الكلام إحالة : إذا أفسده ، والحال من الكلام : ما عدل به عن وجهه ، وأحال : أتى بالحال وتكلم به . (٤) حلفت .

وذكر أعرابي رجلاً فقال : « اشترى والله عرضَه من الأذى ، فلو كانت الدنيا له قَانَفَتْهَا ، لرَأَى بَعْدَهَا عليه حُقُوقًا ، وكان مِنْهَا جَاً لِلأُمُورِ المُشْكِلَةِ إِذَا تَنَاجَزَ النَّاسُ بِاللَّأَمَةِ » .

• • •

وذكر أعرابي رجلاً فقال : « يُفَوِّقُ ^(١) السَّكْمَةَ عَلَى المعنى ، فتمرقُ مَرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ ، فما أَصَابَ قَتَلَ ، وما أَخْطَأَ أَشْوَى ^(٢) ، وما غَطَّطَ ^(٣) لَهُ مَهْمٌ مِنْذَ تَحْرُكِ لِسَانِهِ فِي فِيهِ » .

وذكر أعرابي أخاه فقال : « كَانَ وَاللَّهِ رَكُوبًا لِلأَهْوَالِ ، غَيْرَ أُلُوفٍ لِلحِجَالِ ^(٤) إِذَا أُرْعِدَ ^(٥) لِقَوْمٍ مِنْ غَيْرِ قُرٍّ ، يَهِينُ نَفْسًا كَرِيمَةً عَلَى قَوْمِهَا ، غَيْرَ مُبْقِيَةٍ لِفَدٍّ مَا فِي يَوْمِهَا » .

• • •

ومدح أعرابي رجلاً فقال : « كَانَ وَاللَّهِ مِنْ شَجَرٍ لَا يُخْلِفُ ثَمَرَهُ ، وَمِنْ بَحْرٍ لَا يُخَافُ كَدْرَهُ » .

• • •

وذكر أعرابي رجلاً فقال : « ذَلِكَ وَاللَّهِ فَتَى رَمَاهُ اللَّهُ بِالتَّخْيِيرِ نَاشِئًا ، فَأَحْسَنَ لِنَفْسِهِ ، وَزَيْنٌ بِهِ نَفْسَهُ » .

• • •

(١) يسد ويصوب ، والرمية : ما يرمى . (٢) أشواه : أصاب شواه ، والشوى كعصا : اليدان والرجلان والأطراف وتحيف الرأس وما كان غير مقتل . (٣) الغنظطة : حكاية صوت القدر في الغليان وما أشبهها ، وقد يكون الأصل « وما غظط » أي ما اضطرب من الغنظطة وهي اضطراب موج البحر .
(٤) الحجال جمع حجلة بالتحريك : اللقبة وموضع يزين بالهباب والسعور للعروس ، والمراد النساء .
(٥) أرعد : أخذته رعدة .

ومدح أعرابي رجلاً فقال : « يُصِمُّ أذنيه عن استماع الخنا ، وَيُخْرِسُ لسانه عن التكلم به ، فهو الماء الشَّريب^(١) ، وَالْمِصْقَعُ الخَطِيبُ » .

* * *

وذكر أعرابي رجلاً فقال : « ذاك رجل سبق إلىَّ معروفه قبل طلبي إليه ، فالعريض وافر ، والوجه بمائه ، وما أَسْتَقِلُّ^(٢) بنعمة إلا أقفلني بأخرى » .

* * *

وذكر أعرابي رجلاً فقال : « ذاك رَضِيعُ الجود والمفطومُ به ، عَقِيمٌ عن الفحشاء ، مُعْتَصِمٌ بالتقوى ، إذا حَذَفْتُ^(٣) الألسن عن الرأي ، حذف بالصواب ، كما يَحْذِفُ الأرنب ، فإن طالت الغاية ، ولم يكن من دونها نهاية ، تَمَهَّلَ أمام القوم سابقاً » .

* * *

وذكر أعرابي رجلاً فقال : « إن جليسه لِطِيبِ عِشْرَتِهِ أطربُ من الإبل على الحذاء ، وَالِثْمَلُ على الفناء » .

* * *

وذكر أعرابي رجلاً فقال : « كان له عِلْمٌ لا يخالطه جهل ، وصدق لا يشوبه كذب ، كأنه الوَبْلُ عند المَحَلِّ^(٤) » .

* * *

وذكر أعرابي رجلاً فقال : « ما رأيتُ أُعْشِقَ للمعروف منه ، وما رأيتُ للنكر أبغضَ لأخذِ بُغْضِهِ له » .

* * *

(١) الشريب والشرب : ما يشرب . المصقع : البليغ ، أو العالى الصوت ، أو من لا يرتج عليه في كلامه ولا يتمتع . (٢) أو وما أهل . وأقفلني : أرجمني وردني . (٣) حذف : رمت . (٤) الجذب .

وقدم أعرابي البادية وقد نال من بنى بَرَمَك ، فقيل له كيف رأيتهم؟ قال :
« رأيتهم وقد أنست بهم النعمة ، كأنها من ثيابهم » .

* * *

وذكر أعرابي رجلا فقال : « مازال يبني المجد ، ويشترى الحمد ، حتى بلغ
منه الجهد » .

* * *

ودخل أعرابي على بعض الملوك فقال : « إن جهلا أن يقول المادح بخلاف
ما يعرف من المدوح ، وإني والله ما رأيت أعشق للمكارم في زمان اللؤم منك ،
وأشد :

مالي أرى أبوابهم مهجورة ؟ وكان بابك يجمع الأسواق
حابوك أم هابوك أم شاموا الندى بيدك فاجتمعوا من الآفاق
إني رأيتك للمكارم عاشقا والمكرمات قليلة العشاق
(العقد الفريد ٢ : ٨٨ - ٩٠)

* * *

وضل أعرابي الطريق ليلا ، فلما طلع القمر اهتدى ، فرفع رأسه إليه فقال :
ما أدري ما أقول؟ أقول : رفعتك الله ؟ فقد رفعتك ، أم أقول : نورك الله ؟ فقد
نورك ، أم أقول : حسنك الله ؟ فقد حسنك ، أم أقول : عمرك الله ؟ فقد عمرك ،
ولكني أقول : جعلني الله فداك .
(العقد الفريد ٢ : ٩٧)

* * *

وذكر أعرابي قومه فقال : « كانوا والله إذا اصطفوا تحت القتام^(١) ، خطرت
بينهم السهام بوفود الحمام ، وإذا تصاخوا بالسيوف ففرت^(٢) المنايا أفواهاها ، قرب

(١) للقتام: الغبار ، والحمام: الموت. ورواية العقد : « كانوا إذا اصطفوا سفرت بينهم السهام »

- سفر بين القوم كضرب ونصر : أصلح . (٢) ففرت : فتحت .

يوم عارم^(١) قد أحسنوا أدبه ، وحرب عبوس قد ضاحكتها أسنتهم ، وخطب شز^(٢) قد ذلوا منا كبه ، ويوم عماس^(٣) قد كشفوا ظلمته بالصر حتى ينجلي ، إنما كانوا البحر الذي لا ينكش^(٤) غماره ، ولا ينهنه تياره .
(الأمل : ١ : ١٢٩ ، والعقد الفريد ٢ : ٨٨ ، وزهر الآداب ٢ : ٤)

* * *

ووصف أعرابي رجلا فقال : « هو أظهر من الماء ، وأرق طباعاً من الهواء ، وأمضى من السيل ، وأهدى من النجم » .
(زهر الآداب ٢ : ٣)

* * *

ووصف أعرابي قومه فقال : « ليوث حرب ، وليوث جذب ، إن قاتلوا أبلوا ، وإن بذلوا أنبوا » .
(زهر الآداب ٢ : ٤)

* * *

وقال الأصمعي : سمعت أعرابياً يقول : « إذا ثبتت الأصول في القلوب ، نطقت الألسنة بالفروع ، والله يعلم أن قلمي لك شاكر ، ولساني ذاكر ، ومحال أن يظهر الود المستقيم ، من الفؤاد السقيم » .
(زهر الآداب ٢ : ١٦٥)

* * *

وسئل أعرابي عن قومه فقال : « يقتلون الفقر ، عند شدة القر^(٥) ، وأرواح^(٦) الشتاء ، وهبوب الجربياء^(٧) ، بأسنمة الجزور ، ومترعات^(٨) القدور ، تحسن وجوههم عند طلب المعروف ، وتعبس عند لمعان السيوف » .

* * *

(١) العرامة بالفتح والعرام بالضم : الشراسة والأذى ، حرم كنصر وضرب وكرم وعلم .
(٢) شز : شديد مقلق . (٣) العماس من الليال : المظلم الشديد ، وأمر لا يقيم له ولا يبتدى لوجهه .
(٤) لا ينكش : لا ينزح ، والغمار جمع غمر كشمس : وهو الماء الكثير ، ونهنه : كفه وزجره . وفي رواية المقد : « إنما قومي البحر ما ألقته لتقم » . ورواية زهر الآداب : « إذا اصطفوا سفرت بينهم الدهام ، وإذا تصافحوا بالسيوف ففرقه الحمام » .
(٥) القر بتثنية اللقاف : البرد . (٦) جمع ربيع كرباح . (٧) ربيع الشمال أو بردها .
(٨) جمع قرة : وهي المملوءة .

ووصف أعرابي قوماً فقال : « لم جُود كرامٍ اتسعت أحوالها ، وبأسُ ليوثٍ
تتبعها أشبالها ، وهم ملوكٍ انفسحت آمالها ، ونخرُ صميم آباء شرفت أحوالها » .
(زمر الآداب ٢ : ١٦٧)

٦٣ - قولهم في الذم

وذكر أعرابي قوماً فقال : « أولئك سلخت أظفارهم بالهجاء ، ودبفت وجوههم
باللؤم ، لباسهم في الدنيا الملامة ، وزادهم إلى الآخرة الندامة » .

• • •

وذكر أعرابي قوماً فقال : « لهم بيوتٌ تُدخَل حَبْوًا ، إلى غير نَمَارِقٍ (١) ،
ولا وسائد ، فُصْحُ الألسن برَدِّ السائل ، جِعَادُ الأَكْفِ عن النَّائِل (٢) » .

• • •

وقال أعرابي : « لقد صَغَرَ فلانا في عيني عِظَمُ الدنيا في عينه ، وكأنما يَرَى السائل
إِذَا أتاه ، مَلَكَ الموتِ إِذَا رآه » .

• • •

وسئل أعرابي عن رجل فقال : « ما ظنكم بِسِكِّيرٍ لا يَفِيقُ ، يَتَّهَمُ الصديق ،
وَيَعِصِي الشفيق ، لا يكون في موضع إِلا حُرِّمَتْ فيه الصلاة ، ولو أَفَلَّتْ كُلُّ سُوءٍ
لم تَضُرِّ إِلا إِلِيهِ ، ولو نزلت لعنة من السماء لم تقع إِلا عليه » .

• • •

(١) النمارق جمع نمرقة (بالضم) : وهي الوسادة الصغيرة . (٢) النائل : العطاء ، وهو جمع اليندين
أو الأنامل (كشمس) : أي بخيل ، وقد جمعوا جمع الشعر على جمع كسكتاب كما في اللسان ، فليكن هذا
مثله ، وقد جاء في الأصل « جمع » بدون ألف ، وأراه محرفاً ، إذ لا يجمع جمع (بالفتح) على جمع بضم
فسكون ، ولا على جمع بضمين .

وذكر أعرابي رجلاً فقال : « إن فلاناً ليعدي بأئمة ، من تسمى باسمه ، ولن خيبي فلرب باقية قد ضاعت في طلب رجل كريم » .

• • •

وذكر أعرابي رجلاً فقال : « تغدو إليه مرآكب الضلالة ، فترجع من عنده ببدور الآثام ، مُعَدِم مما تحب ، مُكثِر مما تكره ، وصاحب سوء قطعة من النار » .

• • •

وقال أعرابي لرجل : « أنت وألله ممن إذا سأل أَلِف ، وإذا سُئِل سوِّف ، وإذا حَدَّث حَلَف ، وإذا وعد أخلف ، تنظر نظر حَسُود ، وتُعْرِض إِعْرَاضَ حَقُود » .

• • •

وسافر أعرابي إلى رجل حرمه ، فقال لما سُئِل عن سفره : « ما رَجَحْنَا فِي سَفَرِنَا إِلَّا مَا قَصَرْنَا مِنْ صَلَاتِنَا ، فَأَمَّا الَّذِي لَقِينَا مِنَ الْهَوَاجِرِ ^(١) ، وَلَقَيْتَ مِنَّا الْأَبَاعِرُ ، فَعُقُوبَةُ لَنَا فِيمَا أَفْسَدْنَا مِنْ حَسَنِ ظَنِّنَا » ، ثم أنشأ يقول :

رَجَعْنَا سَالِمِينَ كَمَا خَرَجْنَا وَمَا خَابَتْ سَرِيَّةُ سَالِمِينَ

• • •

وذكر أعرابي رجلاً فقال : « كان إذا رأني قرَّب من حاجبٍ حاجباً ، فأقول له : لا تَقْبَحْ وَجْهَكَ إِلَى قَبْحِهِ ، فَوَاللَّهِ مَا أَتَيْتَكَ لَطْمَعٍ رَاغِباً ، وَلَا لَخُوفٍ رَاهِباً » .

• • •

وذم أعرابي رجلاً فقال : « غبْدُ الْفَعَالِ ، حُرُّ الْمَقَالِ ، عَظِيمُ الرِّوَاقِ ، دَنَى الْأَخْلَاقِ ، الدَّهْرُ يَرْفَعُهُ ، وَنَفْسُهُ تَضَعُهُ » .

• • •

وقال أعرابي : « دَخَاتِ الْبَصْرَةَ ، فَرَأَيْتَ ثِيَابَ أَحْرَارٍ عَلَى أَجْسَادِ عَبِيدٍ ، إِقْبَالُ

(١) الهواجر جمع هاجرة : وهي شدة الحر .

حَظَّهُمْ إِدْبَارُ حَظِّ الْكِرَامِ ، شَجَرٌ أَصُولُهُ عِنْدَ فِرْعَوْنَ ، شَفَلَهُمْ عَنِ الْمَعْرُوفِ رَغْبَتُهُمْ
فِي الْمَنَكْرِ .

* * *

وَذَكَرَ أَعْرَابِي رَجُلًا فَقَالَ : « ذَاكَ سُمُّ الْمَجَالِسِ ، أَعْيَا مَا يَكُونُ عِنْدَ جِلْسَانِهِ ،
أَبْلَغُ مَا يَكُونُ عِنْدَ نَفْسِهِ » .

* * *

وَذَكَرَ أَعْرَابِي رَجُلًا فَقَالَ : « ذَلِكَ مَنْ يَدَاوِي عَقْلَهُ مِنَ الْجَهْلِ ، أَحْوَجُ مِنْهُ إِلَى
مَنْ يَدَاوِي عَقْلَهُ مِنَ الْمَرَضِ ، إِنَّهُ لَا مَرَضَ أَوْجَعُ مِنْ قَلَّةِ عَقْلٍ » .

* * *

وَذَكَرَ أَعْرَابِي رَجُلًا لَمْ يَدْرِكْ بَثْرَهُ فَقَالَ : « كَيْفَ يَدْرِكُ بَثْرَهُ مَنْ فِي صَدْرِهِ
مِنَ الْبَلْغَمِ حَشْوٌ مَرْقَعَةٌ ، لَوْ دُقَّتْ بِوَجْهِهِ الْحِجَارَةُ لَرَضَّهَا ^(١) ، وَلَوْ خَلَا
بِالْكَعْبَةِ لَسَرَقَهَا » .

* * *

وَذَكَرَ أَعْرَابِي رَجُلًا فَقَالَ : « تَسَهَّرَ وَأَلَّهِ زَوْجَتَهُ جُوعًا إِذَا سَهَرَ النَّاسَ شَبَعًا ، نَمَّ
لَا يَخَافُ مَعَ ذَلِكَ عَاجِلَ عَارٍ ، وَلَا آجِلَ نَارٍ ، كَالْبَهِيمَةِ أَكَلَتْ مَا جَمَعَتْ ، وَنَكَحَتْ
مَا وَجَدَتْ » .

* * *

وَسَمِعَ أَعْرَابِي رَجُلًا يَزْعَقُ فَقَالَ : « وَيْحَكَ ! إِنَّمَا يَسْتَجَابُ لِمُؤْمِنٍ أَوْ مَظْلُومٍ ،
وَلَسْتُ بِوَاحِدٍ مِنْهُمَا ، وَأَرَاكَ يَخْفَى عَلَيْكَ ثِقَلُ الذَّنُوبِ ، فَيَحْسُنُ عِنْدَكَ مَقَابِحُ الْعِيُوبِ » .

* * *

(١) رضا : دنها .

وذكر أعرابي رجلاً بضعف فقال : « سيء الروية ، قليل التقيّة ، كثير السّعاية ، ضعيف النكايّة » .

* * *

وذكر أعرابي رجلاً فقال : « عليه كلّ يوم من فعله شاهدٌ بفسقه ، وشهاداتُ الأفعال ، أعدل من شهادات الرجال » .

* * *

وذكر أعرابي رجلاً بذلّة فقال : « عاش خاملاً ، ومات مؤثوراً » .

* * *

وقال أعرابي لرجل شريف البيت ، ذى الهمة : « ما أحوجك أن يكون عِرْضُك لمن يصونه ، فتكون فوق ما أنت دونه » .

* * *

وذكر أعرابي رجلاً فقال : « إن حدّثته يسأبئك إلى ذلك الحديث ، وإن سكت عنه أخذ في الترهات^(١) » .

* * *

وذكر أعرابي رجلاً راكباً هواه فقال : « والله لهو أقصدُ إلى ما يهواه ، من الطُّرُقِ إلى المياهِ ، أفقره ذلك أو أغناه » .

* * *

وقال أعرابي : « ليت فلاناً أقالنى من حسن ظنّى به ، فأختم بصواب إذ بدأت بخطأ ، ولكن من لم تُحكّمه التجارب ، أسرع بالمدح إلى من يستوجب الذم ، وبالذم إلى من يستوجب المدح » .

* * *

(١) الترهات جمع ترمة : وهى الباطل .

وقال أعرابي لرجل : « هل أنت إلا أنت لم تَغَيَّرْ؟ ولو كنتَ من حديدٍ مُحْتَمَى
وَوُضِعَتْ عَلَى عَيْنِي لَمْ تَذُبْ » .

وقال أعرابي لأخيه : « قد كنتُ نَهَيْتُكَ أَنْ تَدْنِسَ عِرْضَكَ بِعَرَضِ فُلَانٍ ، وَأَعْلَمِكَ
أَنَّهُ سَمِينُ الْمَالِ ، مَهْزُولُ الْمَعْرُوفِ ، مِنَ الْمَرْزُوقِينَ فَجَاءَ ، قَصِيرُ عَمْرِ الْغَنِيِّ ، طَوِيلُ
عَمْرِ الْفَقْرِ » .

وقال أعرابي : « لَا تَرِكْ اللَّهَ مُحَاً فِي سُلَايِي ^(١) نَاقَةَ حَمَلْتِي إِلَيْكَ ، وَالدَّاعِي عَلَيْهَا
أَحَقُّ بِالِدَعَاءِ عَلَيْهِ ، إِذْ كَلَّفَهَا الْمَسِيرَ إِلَيْكَ » .

وذكر أعرابي رجلاً فقال : « لَا يُؤْنَسُ جَاراً ، وَلَا يُؤْهِلُ دَاراً ، وَلَا يَبْعَثُ نَاراً » .

وذكر أعرابي امرأة قبيحة فقال : « تُرْخِي ذَيْلَهَا عَلَى عُرْقُوبِي نَعَامَةً ، وَتُسَدِّلُ خَمَارَهَا
عَلَى وَجْهِهَا كَالْجُعَالَةِ ^(٢) » .

وقال أعرابي لامرأة : « وَاللَّهِ إِنَّكَ لِمُسْرَفَةُ الْأُذُنِينَ ، جَا حِظَّةِ الْعَيْنِينَ ، ذَاتُ خَلْقٍ
مُتَضَائِلٍ : يُعْجَبُكَ الْبَاطِلُ ، إِنْ شَبِعْتَ بَطْرَتِ ، وَإِنْ جُعْتَ صَخْبَتِ ^(٣) ، وَإِنْ رَأَيْتِ
حَسَنًا دَفَنْتِهِ ، وَإِنْ رَأَيْتِ سَيئًا أَدْعَتِهِ ، تَكْرَمِينَ مِنْ حَقْرِكَ ، وَتُحْقِرِينَ مِنْ
أَكْرَمِكَ » .

(المعتمد للفريه ٢ : ٩٠ - ٩٢)

(١) السلاميات : عظام الأصابع .

(٢) الجعالة : خرقه يفزل بها القدر .

(٣) الصخب : شدة الصوت .

وسأل أعرابي رجلا فخرمه ، فقال له أخوه : « نزلتَ وَاللهِ بوادٍ غيرِ مَمْطُورٍ ،
وأنتَ رجلا بك غيرِ مسرورٍ ، فلم تُدركَ ما سألتَ ، ولا نلتَ ما أملتَ ، فارتجِلْ
بندَمٍ ، أو أقمِ على عَدَمٍ » . (المقد الفريد ٢ : ٩٢ ، وزهر الآداب ٢ : ٥)

• • •

ودخات أعرابية على خمدونة بنت المهدي ، فلما خرجت سئلت فقالت : « والله
لقد رأيتها فما رأيت طائلا ، كأن بطنها قرينة ، كأن ثديها دبة ، كأن استنها
رُقعة^(١) ، كأن وجهها وجهُ ديكٍ قد نَفَسَ عَفْرِيتَهُ^(٢) يقاتل ديكاً » .
(المقد الفريد ٢ : ٩٢ ، والأمال ٢ : ١٥٦)

• • •

وذم أعرابي رجلا فقال : « أفسدَ آخِرَتَهُ بصلاحِ دنياه ، ففارق ما أصلح غيرَ
راجعٍ إليه ، وقدم على ما أفسد غيرَ منتقل عنه ، ولو صدقَ رجل نفسه ما كذبتَه ، ولو
ألتى زمامه أوطأه راحلته » . (زهر الآداب ٢ : ٦)

* * *

قال الأصمعي : سمعت أعرابية تقول لرجل تخاصمه : « والله لو صوّرَ الجهل لأظلم
معهُ النهارُ ، ولو صوّرَ العقلُ لأضاء معهُ الليلُ ، وإنك من أفضلهما لمُعَدِمِ نَخْفِ اللهِ ،
واعلم أن من ورائك حَكْمٌ لا يحتاج المدعى عنده إلى إحضارِ بَيِّنَةٍ » .
(زهر الآداب ٢ : ١٦٢)

• • •

وقال أعرابي يعيب قوماً : « هم أقلُّ الناس ذُنُوبًا إلى أعدائهم ، وأكثرهم جُرْمًا
إلى أصدقائهم ، يَصُومُونَ عن المعروف ، وَيُنْظِرُونَ على الفحشاء » .
(البيان والتبيين ٣ : ٢٣٠ ، والمقد الفريد ٢ : ٩٠)

• • •

ووصف أعرابي رجلاً فقال : « صَغِيرُ الْقَدْرِ ، قَصِيرُ الشَّيْرِ ^(١) ، ضَيْقُ الصِّدْرِ ، لَثِيمُ النَّجْرِ ^(٢) ، عَظِيمُ الْكَبْرِ ، كَثِيرُ الْفَخْرِ » .

(البيان والتبيين ١ : ١٥٧ ، والمقد الفريد ٢ : ٩١)

* * *

وذكر أعرابي أميراً فقال : « يَقْضَى بِالْعَشْوَةِ ، وَيَطِيلُ الذَّشْوَةَ ، وَيَقْبَلُ الرِّشْوَةَ ^(٣) » .

(البيان والتبيين ٢ : ٥٠ ، والمقد الفريد ٢ : ٩١)

* * *

وسمع عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه أعرابياً يقول : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَأُمِّ أَوْفَى »
قال : « وَمَنْ أُمُّ أَوْفَى ؟ » ، قال . « امرأتى ، وإِنهَا حَمَقَاءُ مِرْغَامَةٍ ^(٤) ، أَكُولُ قَامَةً ^(٥) لَا تَبْقَى لَهَا حَامَةٌ ^(٦) ، غَيْرَ أَنَّهَا حَسَنَاءُ فَلَا تُفْرَكُ ^(٧) ، وَأُمُّ غِلْمَانٍ فَلَا تُتْرَكُ » .

(البيان والتبيين ٢ : ٤٧)

* * *

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت امرأة من العرب تخاصم زوجها وهي تقول :
« وَاللَّهِ إِنْ شُرْبِكَ لِأَشْتَفِافٍ ^(٨) ، وَإِنْ ضَجَّعْتِكَ لِأَنْجِمَافٍ ^(٩) ، وَإِنْ شِمَلْتِكَ لِأَلْتِفَافٍ ،
وَإِنَّكَ لِتَشْبَعُ لَيْلَةَ تَضَافٍ ، وَتَنَامُ لَيْلَةَ تَخَافٍ » ، فقال لها : « وَاللَّهِ إِنْكَ لَسَكْرَوَاءُ
السَّاقِينِ ^(١٠) ، قَعَوَاءُ الْفَخْذَيْنِ ^(١١) ، مَقَاءُ الرُّفْعَيْنِ ^(١٢) ، مُفَاضَةُ الْكَشْحَيْنِ ^(١٣) ضَيْفُكَ
جَائِعٌ ، وَشَرِّكَ شَائِعٌ » .

(الأمل ١ : ١٠٤)

* * *

(١) الشبر : القد . (٢) النجر : الأصل . (٣) العشوة والنشوة والرشوة بتثنية الفاء في الثلاثة ، العشوة : ركوب الأمر على غير بيان ، والنشوة : السكر ، والرشوة : الجعل والبرطيل « بكسر الباء » . (٤) المرغامة : المغضية ليعلمها . (٥) قامة : اسم فاعل ، من قم : أى أكل ما على الخوان كانه ، وقه : كنهه : (٦) الحامة : الخاصة . (٧) فرك زوجته وفركته كسبع ، وكنصر شاذ : أبغضته ، ورجل مفرك بالتشديد تيفض النساء وامرأة مفركة : ييفضها الرجال . (٨) اشرف ماني الإناء : شربه كله . (٩) الانجماف : الانصراف . (١٠) السكرواء : الدقيقة الساقين . (١١) القعواء : الدقيقة ، أو الدقيقة الفخذين ، وقيل : هى المتباعدة ما بين الفخذين (كالفجواء) . (١٢) الرفغ : أصل الفخذ ، والمقاء : الدقيقة الفخذين ، أو الطويلة من المقق بالتحريك وهو الطول . (١٣) المفاضة : المسترخية ، والكشحان : الحاصرتان .

عن عبد الرحمن عن عمه قال : مرّ أعرابي برجل يكنى أبا الفمر - وكان ضخماً جسيماً ، وكان بواباً لبعض الملوك - فقال : « أَعينَ الفقيرَ الحسيرَ ، فقال : ما أَلحفَ سائِلِكُم ، وأَكثَرَ جاتِكُم ، أراحنا اللهُ مِنكُم » ، فقال له الأعرابي : « لو فُرِّقَ قوتُ جسمك في جِسومِ عشرةِ منا ، لكفانا طعامُك في يومِ شهرًا ، وإنك أعظمُ السَّرَطَةِ (١) ، شديدُ الضَّرَطَةِ ، لو ذُرِّي بِحَبَقَتِكَ بَيْدَرٌ ، لكفَتْهُ رِيحُ الجُرِّيَّاءِ (٢) » .
(الأمال : ١ : ٢٢٦)

٦٤ - قولهم في الغزل

سئل أعرابي عن امرأة فقال : « هي أرقُّ من الهواء ، وأطيبُ من الماء ، وأحسنُ من النَّعْماء ، وأبعدُ من السماء » .
(الأمال : ١ : ٢٠١ ، والمعقد الفريد : ٢ : ٩٤)

وذكر أعرابي امرأة فقال : « لها جِلْدٌ من لؤلؤ ، مع رائحةِ المسك ، وفي كلِّ عَضْوٍ منها شمسٌ طالعة » .

وذكر أعرابي امرأة فقال : « كاد الغزالُ أن يكونها ، لولا ما تمَّ منها وما نقصَ منه » .

وذكر أعرابي نسوةً خرجن متنزّهاتٍ فقال : « وجوهٌ كالذنانير ، وأعناقُ كأعناقِ البعافير (٣) ، وأوساطٌ كأوساطِ الزنابير ، أقبلن إلينا مُحْجُول (٤) تحفِقُ ، وأوشحةٌ تُتَلَقُّ ، وكم أسيرٍ لهن وكم مُطَلَقٍ » .

(١) البلعة ، من سرطه كنصر وفرح : ابتلاه .
(٢) الحبيقة : الضرطة ، والبيدر : الموضع الذي تداس فيه الحبوب ، والجريياء : ريح الشمال الباردة .
(٣) اليمانيير جمع يمانير : وهو ولد البقرة الوحشية .
(٤) المحجول جمع حجل بالكسر والفتح : وهو الخيل . والأرشفة جمع وشاح بالنم والكسر : أديم يرضع بالجواهر ، تشده المرأة بين عاتقها وكشحيها .

ووصف أعرابي امرأة حسناء فقال: « تَبَسِّمُ عَنِ خَمَشٍ ^(١) اللَّثَاتِ ، كَأَقَا حِي
النَّبَاتِ ، فَالسَّعِيدِ مِنْ ذَاقِهِ ، وَالشَّقِيِّ مِنْ رَاقِهِ » .

* * *

وذكر أعرابي امرأة فقال: « هِيَ السَّقْمُ الَّذِي لِابْتُرَاءِ مِنْهُ ، وَالْبِرِّ الَّذِي لِاسْقَمِ مَعَهُ
وَهِيَ أَقْرَبُ مِنَ الْحَشَاءِ ، وَأَبْعَدُ مِنَ السَّمَاءِ » .

* * *

ووصف أعرابي امرأة فقال: « بِيضَاءُ جَعْدَةٍ ^(٢) لَا يَمَسُّ الثَّوْبُ مِنْهَا
إِلَّا مُشَاشَةً ^(٣) كَتَفَيْهَا ، وَحَلْمَةً تُدِيبُهَا ، وَرَضْفِي رَكْبَتَيْهَا ، وَرَانِفَتِي أَلْيَتَيْهَا ،
وَأُنْشِدُ :

أَبَتْ الرِّوَادِفُ وَالثَّدْيُ لِقَمَصِهَا مَسَّ البَطُونُ وَأَنْ تَمَسَّ ظَهْرًا
وَإِذَا الرِّيَاحُ مَعَ العَشِيِّ تَنَاوَحَتْ نَبَّهْنَ حَاسِدَةً وَهَجْنًا غَيْرًا

* * *

وذكر أعرابي امرأة فقال: « تَلِكُ شَمْسٌ بَاهَتْ بِهَا الأَرْضُ شَمْسَ سَمَائِهَا ،
وَلَيْسَ لِي شَفِيعٌ فِي اقْتِضَائِهَا ^(٤) ، وَإِنْ نَفْسِي لَكَتُومٌ لِدَائِهَا ، وَلَكِنِّي تَفِيضٌ
عِنْدَ امْتِلَائِهَا » .

* * *

وقال أعرابي في امرأة ودَّعَهَا لِلْمَسِيرِ : « وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ دَمْعَةً تَرْتَرِقُ مِنْ

(١) خدش ، والأقاحي جمع أمحوان بالضم : وهو نبت طيب الريح حواله ورقه أبيض ، ووسطه
صفر ، وراقه : أعجبه .

(٢) الجعد من الشعر : خلاف السبط ، أو القصير منه ، ورجل جعد الشعر والأنثى جعدة ، والجعد أيضا
المدج الخلق لمجتمع بعضه إلى بعض ، والجعد إذا ذهب به مذهب المدح فله معنيان مستحيان : أحدهما أن
يكون معصوب الجوارح شديد الأسر والخلق غير مسترخ ولا مضطرب ، والثاني أن يكون شعره جعدا غير
سبط لأن سبوطه الشعر هي الغالبة على شعور المجسم من الروم والفرس ، وجعودة الشعر هي الغالبة على
شعور العرب . (٣) المشاشة : رأس العظم ، والرضف : عظام في الركبة كالأصابع المضمومة قد أخذ
بعضها بعضا ، والرانفة : أسفل الألية عند القيام .

(٤) اقتضى دينه وتناهاه بمعنى .

عين بِإِيْمِدٍ^(١) على دِيْبَاجَةٍ خَدَّ ، أَحْسَنَ مِنْ عَبْرَةٍ أَمْطَرْتَهَا عَيْنَهَا ، فَاعْشَتْ بِهَا قَلْبِي .

* * *

وقال أعرابي : « إِنْ لِي قَلْبًا مَرُوعًا^(٢) ، وَعَيْنًا دَمُوعًا ، فَمَاذَا يَصْنَعُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِصَاحِبِهِ ، مَعَ أَنْ دَاءَهُمَا دَوَاؤُهُمَا ، وَسُقْمُهُمَا شِفَاؤُهُمَا ؟ » .

* * *

وقال أعرابي : « مَا أَشَدَّ جَوْلَةَ الرَّأْيِ عِنْدَ الْهَوَى ، وَفِطَامَ النَّفْسِ عَنِ الصَّبَا ! وَلَقَدْ تَقَطَّعَتْ كَبِدِي ! لَوْ لَمْ الْعَازِلِينَ لِلْمَاشِقِينَ قِرْطَةً فِي آذَانِهِمْ ، وَلَوْ عَاتَى الْحُبُّ نِيرَانًا فِي أَبْدَانِهِمْ ، مَعَ دَمُوعٍ عَلَى الْمَغَانِي^(٣) ، كَغُرُوبِ السَّوَانِي . » .

* * *

وذكر أعرابي امرأة فقال « لَقَدْ نَعِمْتَ عَيْنٌ نَظَرَتْ إِلَيْهَا ، وَشَقِيَ قَلْبٌ تَفَجَّعَ عَلَيْهَا ، وَلَقَدْ كُنْتُ أَزُورُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا ، فَيُرْحَبُ بِي طَرْفُهَا ، وَيَتَجَمَّنِي لِسَانُهَا » قِيلَ لَهُ فَمَا يَبْلُغُ مِنْ حُبِّكَ لَهَا ؟ قَالَ : « إِنْ ذَا كَرِهْتُ لَهَا وَبَيْنِي وَبَيْنَهَا عَدُوَّةَ الطَّائِرِ ، فَاجِدْ لَذِكْرُهَا رِيحَ الْمَسْكِ . » .

* * *

وقال أعرابي : « الْهَوَى هَوَانٌ ، وَلَكِنْ غُلِطَ بِاسْمِهِ ، وَإِنَّمَا يَعْرِفُ مَنْ يَقُولُ ، مِنْ أَبْكَنَّتْهُ الْمَنَازِلُ وَالطُّلُوسُ . » .

* * *

وذكر أعرابي امرأة فقال : « إِنْ لِسَانِي لَذِكْرُهَا لَذَنُورٌ ، وَإِنْ حُبُّهَا لِقَلْبِي لِقَتُولٌ ، وَإِنْ قَصِيرَ اللَّيْلِ بِهَا لِيَطُولُ . » .

* * *

(١) الإيْمِدُ : السَّكَلُ ، وَالِدِيْبَاجَةُ : الْحَدُّ . (٢) مَفْرَهُ .
(٣) الْمَغَانِي جَمْعٌ مَغْنَى : وَهُوَ الْمَنْزِلُ ، وَالغُرُوبُ جَمْعٌ غَرْبُ كَشَمْسٍ : وَهُوَ الدَّلْوُ الْعَظِيمَةُ ، وَالسَّوَانِي جَمْعٌ سَوَانِيَّةٌ : وَهِيَ الْفَنَاقَةُ يَسْقَى عَلَيْهَا ، وَالغَرْبُ وَأَدَاتُهُ .

ووصف أعرابي نساء ببلاغة وجمال فقال : « كلامهن أقتلُ من النَّبلِ ،
وأوقعُ بالقلب من الوَبْلِ بالمَحَلِّ ، فروعهن أحسنُ من فروع النخل » .
(العقد الفريد ٢ : ٩٢ - ٩٥)

* * *

وقال أعرابي : « دخلت البصرة ، فرأيت أعيناً دُعجاً^(١) ، وحوَاجِبَ زُجَا ،
يَسْحَبْنَ الثياب ، وَيَسْلُبْنَ الألباب » . (العقد الفريد ٢ : ٩٣ ، وزهر الآداب ٣ : ١٧)

* * *

وذكر أعرابي نساء فقال : « ظَعَانٌ^(٢) في سَوَالِفِهِنَّ طُولٌ ، غير قبيحات
المَطُولِ^(٣) إذا مَشَيْنَ أُسْبِلْنَ الذيولَ ، وإن رَكِبْنَ أَثْقَلْنَ الحُمُولَ^(٤) » .
(زهر الآداب ٣ : ١٧)

* * *

وقال أعرابي : « لقد رأيت بالبصرة بُرُوداً كأنها صُبِغَتْ بأنوار الرَّبِيعِ ، فهي
تَرُوعُ^(٥) ، واللابس لها أروع » . (العقد الفريد ٢ : ٩٦)

* * *

وقال أعرابي : « شَيِّعْنَا الحَىَّ وفيهم أدوية السَّقَامِ^(٦) ، ففَرَّأْنَ بِالْحَدَقِ السَّلَامَ ،
وَخَرِسْتَ الألسن عن الكلام » . (الأمل ٢ : ٥٠)

* * *

وسنات أعرابية عن الهوى فقالت : « لامتُع الهوى بملكه ، ولا مُلِي^(٧)

(١) دُعجاً جمع دُعجاء، وصف من الدهج بالتحريك : وهو سواد العين مع سعتها . وزجاء جمع زجاء من
الزجج بالتحريك أيضاً : وهو دقة الحاجبين في طول .

(٢) ظَعَانٌ جمع ظعينة : والظعينة في الأصل وصف للمرأة في هودجها ثم سميت بهذا الاسم وإن كانت
في بيتها لأنها تصير مظعونة ، وهي فعيلة بمعنى مفعولة لأن زوجها يظعن بها ، والسوالف جمع سالفه :

وهي ناحية مقدم العنق من لدن معلق القراط إلى نقرة الترقوة . (٣) عطلت المرأة كفرح عطلا
بالتحريك وعطولا : إذا لم يكن عليها حل . (٤) الحمول : الحوادج : أو الإبل عليها الحوادج جمع حمل

بالكسر ويفتح . (٥) تعجب .

(٦) أي المحبوبات المداوية للسقام .

(٧) ملاء الله حبيبه تملية : مته به وأعاشه معه طويلا .

بسلطانه ، وَقَبَصَ اللهُ يده ، وأوهنَ عَضُدَهُ ، فإنه جائرٌ لا يُنصِفُ في حكم ، أعمى
لا ينطق بعدل ، ولا يُقَصِّرُ في ظلم ، ولا يرعوى لذم ، ولا ينفاد لحق ، ولا يُبقي
على عقل وفهم . لو ملكَ الهوى وَأَطِيعَ ، لَرَدَّ الأمورَ على أدبارها ، والدنيا على أعقابها .

* * *

وسئل أعرابي عن الهوى فقال : « هو داءٌ تَدَاوَى به النفوس الصَّحَّاحُ ، وَتُسَلُّ منه
الأرواح ، وهو سُقْمٌ مُكْتَمٌ ، وَحَمِيمٌ ^(١) مُضْطَرَمٌ ، فالقلوب له مُنْضَجَةٌ ، والعيون ساكِبَةٌ » .
(زهر الآداب ٣ : ١٨)

* * *

ووصف أعرابي امرأةً يحبها فقال : « هي زينة الحُضُور ، وباب من أبواب
السرور ، وَلَدِ كَرُّها في المغيب ، والبعدِ عن الرقيب ، أشهى إلينا من كل ولد
وَنَسِيب ، وبها عُرِفَ فضل الحور العين ، واشتقَّ بها إليهن يومَ الدين » .
(زهر الآداب ٣ : ٢٤٤)

* * *

ووصف أعرابي نساءً فقال :

« يَلْتَمِثُنَّ على السَّبَائِكِ ^(٢) ، وَيَتَشَحَّنَّ على النَّيَّازِكِ ^(٣) ، وَيَأْتُرِرْنَ على العَوَانِكِ ^(٤)
وَيَرْتَفِقْنَ على الأَرَائِكِ ^(٥) ، وَيَتَهَادَيْنَ على الدَّرَانِكِ ^(٦) ، ابتسامهن وميضهن ،
عن وليمٍ كالإغريض ^(٧) ، وهنَّ إلى الصَّبَا صُورٌ ، وعن أَلْحَنَاءِ نُورٌ ^(٨) » .
(الأملال ١ : ٤٤ ، زهر الآداب ٣ : ١٨)

-
- (١) الحميم : الماء الحار . وفي الأصل : « وحى » ، وأراه محرفاً عن حميم ، ويناسبه قوله بعد :
والعيون ساكبة .
- (٢) اللتام على الفم ، والافانم على طرف الأنف ، تلثمت المرأة وتلفمت ، والسبائك هنا الأسنان شبيهاً
لبياضها بالسبائك . (٣) النيازك جمع نيزك كجعفر : وهو الرمح القصير .
- (٤) العوانك جمع عانك : وهو رمل منعقد يشق فيه البعير لا يقدر على السير .
- (٥) الأرائك جمع أريكة : وهي السرر أو الفرش ، وارتفق : اتكأ على مرفق يده ، أو على الخدة .
- (٦) يتهادين : عشيان مشياً ضميماً ، والدرانك : اللطائف جمع درنوك كمصفور ، ودونك كزبرج .
- (٧) الوبيض : العمعان الخفي ، والوليع : الطلع ، كأنه نظم اللؤلؤ في شدة بياضه . قال الشاعر يصف
نثر امرأة : وتبسم عن نير كالوليع ، والإغريض : الطلع حين ينشق عنه كافوره ، والبرد (بمحرك للراء) .
- (٨) صور : موائل ، ومنه قيل للمائل للضئ أصور ، ونور : نوافر من الريبة جمع نوار كسحاب .

قولهم في الوصف

٦٥- أعرابي يصف مطرا

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سئل أعرابي عن مطر فقال :

« استقلَّ سُدٌّ مع انتشار الطَّفْلِ^(١) ، فَشَصَا وَاحْزَأَل^(٢) ، ثم اكْفَهَرَتْ أَرْجَاؤُهُ ،
وَاحْمَوَتْ أَرْجَاؤُهُ ، وَابْدَعَرَتْ فَوَارِقُهُ^(٣) ، وَتَصَا حَكَتْ بَوَارِقُهُ ، وَاسْتَطَارَ وَادِقُهُ ، وَارْتَقَتْ
جُوبُهُ ، وَارْتَعَنَ هَيْدَبُهُ^(٤) ، وَحَشَكَتْ أَخْلَافُهُ ، وَاسْتَقَلَّتْ أَرَادُهُ ، وَانْتَشَرَتْ
أَكْنَفُهُ^(٥) ؛ فَالْعَدُّ مُرْتَجِسٌ ، وَالْبَرْقُ مُخْتَلِسٌ ، وَالْمَاءُ مُنْبَجِسٌ^(٦) ، فَانْتَرَعَ
الْقُدْرُ ، وَانْتَبَثَ الْوَجْرُ^(٧) ، وَخَلَطَ الْأَوْعَالَ بِالْأَجَالِ ، وَقَرَنَ الصَّيْرَانَ بِالرَّمَالِ^(٨) ،

(١) استقل : ارتفع ، والسد : السحاب الذي يمد الأنق : والطفل : الغشي إلى حد المغرب .

(٢) شصا : ارتفع ، واحزأل مثله . (٣) المكفهرة من السحاب : الذي يركب بعضه بعضا ،
وأرجاؤه : نواحيه جمع رجا كعصا ، واحموت : اسودت ، وأرجاؤه : أوساطه : جمع رجا كعصا ، وابدعرت
تفرقت : والفوارق جمع فارق ، وهو السحاب الذي ينقطع من معظم السحاب ، وأصله في الإبل ، يقال
ناقة فارق : وهي التي تندعن الإبل عند إنتاجها .

(٤) استطار : انتشر ، واللودق الذي يكون فيه الودق (كشمس) وهو المطر العظيم القطر ، وارتقت
الأمات ، وجوبه : فرجه ، وارتعن : استرخى ، والهيدب : الذي يتدل ويدنو من الأرض مثل هذب القطيفة
(٥) حشكت : امتلأت ، والأخلاف جمع خلف كحمل ، وهو الناقة كماضرع البقرة ، أروافه : ماخيره
والأكناف : النواحي .

(٦) مرتجس : مصوت من الرجس كحمل وهو الصوت ، مختلس : كأنه يختلس البصر لشدة لمعانه ،
منبجس : منبجر .

(٧) أترع : ملأ والقدر جمع خدير ، والوجر جمع وجار ككتاب وسحاب : وهو جمر الضبع والشمع ،
وانتبث : أخرج نبيثها وهو تراب البئر والقبر ، أي أنه لشدة هدم الوجر حتى أخرج ما بداخلها من التراب

(٨) الأوعال جمع وعل ، (كشمس وكنف ودئل) : التيس الجبلي ، والأجال جمع إجل كحمل وهو
القطيع من البقر أي أنه لشدة جمع بين الوهول - وهي تسكن الجبال - وبين البقر - وهي تسكن للقيمان
والرمال ، والصيران جمع صوار كمشجاع ، وصيار ككتاب وهو القطيع من البقر ، والرئال جمع رأل كشمس
فرخ النعام ، فالرئال تسكن الجله (بالتحريك وهي الأرض الصلبة المستوية المن) والصيران تسكن للرمال
والقيمان ، فترن بينهما .

فلأودية هدير، وللشراج خريير، وللتلاع زفير^(١)، وحطّ النبع والعمّ، من القلّل
الشمّ، إلى القيعان الصّحم^(٢)، فلم يبق في القلّل إلا معصم^(٣) مجرّثم، أو داحض^(٤)
مجرّجم^(٥)، وذلك من فضل رب العالمين، على عباده المذنبين.»

(الأمال : ١ : ١٧٣)

٦٦- أعرابي يصف مطراً

عن الأصمعي قال : سمعت أعرابياً من غنيّ يذكر مطراً أصاب^(٤) بلادهم في غيب^(٥)
جذب فقال :

« تدارك ربك خلقه ، وقد كلبت الأبحال ، وتقاصرت الآمال ، وعكفت
الياس ، وكظمت الأنفاس ، وأصبح الماشي مضرباً^(٥) ، والمترّب معدّماً ، وجفّيت
الحلائل ، وامتهنت العقائل ، فأنشأ سحاباً ركاماً^(٦) ، كنهوراً سجّاماً ، برّوقه
متألّقة ، ورعوده متقعّقة ، فسحّ ساجياً^(٧) راكداً ، ثلاثاً غير ذى فواق ، ثم أمر
ربك الشمال ، فطحرت^(٨) ركامه ، وفرّقت جهامه ، فانقشع محموداً ، وقد أحيا

(١) هدير : أي صوت كهدير الابل ، الشراج جمع شرج كشمس وهو مسيل الماء من الحرة إلى السهل .
والتلاع : مسيل الماء من الجبال حتى ينصب في الوادي . (٢) النبع : شجر يعخذ منه القسي ينبت في
الجبال ، والعمّ : الزيتون الجبل كقفل وعنق ، والقلل : أمال الجبال جمع قلة كفرصة ، والشمّ : المرتفعة
جمع شماء والقيعان جمع قاع : وهي أرض سهلة مطمئنة قد انفرجت منها الجبال والآكام ، والصحم : التي نطوها
حرة جمع أصحم . (٣) المعصم : الذي قد تمسك بالجبال وامتنع فيها (ويقال للرجل الذي يسلك يعرف فرسه
خوف القمط : معصم) مجرّثم : متقبض ، الداحض : الذي يفحص برجليه عند الموت ، والمجرّجم : المصروع .
(٤) صاب : جاد ، وكلبت : اشتدت ، والأبحال جمع محل كشمس وهو القمط . وعكفت : أقام .
(٥) الماشي : صاحب المافية ، مشى الرجل وأمشى : كثرت ماشيته ، والمضرم : المقارب المال المقل ،
والمترّب لغني الذي له المال مثل التراب كثرة ، يقال : أترّب الرجل إذا كثرت ماله (وقل أيضاً : ضمه)
وترب كفرح إذا افتقر كأنه لصق بالتراب ، وامتهنت : استخدمت واعتملت ، والعقائل جمع عقيلة ، وأنشأ
أحدث ، والنشأ : للسحاب أول ما يخرج .

(٦) الركام : المتراكم ، والكنهور من السحاب قطع كأنها الجبال ، أو المتراكم منه ، واحده كنهورة ،
وسجّام : صباب ، ومتألّقة : لامة ، ومتقعّقة : مصوّقة .

(٧) سح : صب ، ساجياً : ساكناً ، راكداً : ثابتاً ، والفواق : أن يصب صبية ثم يسكن ، ثم يصب
أخرى ثم يسكن مأخوذ من فواق الناقة وهو ما بين الخليلين ، كأنه يحلب حلبه ثم يسكن ، ثم يحلب أخرى
ثم يسكن . (٨) طحرت : أذهبت وأهدمت ، والجهام : السحاب الذي قد هراق ماءه ، تكّت : تحصى .

وَأَغْنَى ، وَجَادَ فَأَرْوَى ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا تَكْتَبُ نِعْمَهُ ، وَلَا تَنْفَدُ قِسْمُهُ ، وَلَا يَخِيبُ سَأَلُهُ ، وَلَا يَنْزُرُ ^(١) نَائِلُهُ . . . (الأمالي ١ : ١٧٦)

٦٧- أعرابي يصف مطرا

عن الأصمعي قال : « سألت أعرابياً من بني عامر بن صعصعة عن مطر صاب بلادهم فقال :

« نَشَأَ عَارِضاً ^(٢) ، فَطَلَعَ نَاهِضاً ، ثُمَّ ابْتَسَمَ وَامِضاً ، فَأَعَسَّ فِي الْأَقْطَارِ فَأَسْجَاهَا ، وَامْتَدَّ فِي الْأَفَاقِ فَغَطَّاهَا ، ثُمَّ ارْتَجَزَ ^(٣) فَهَمَّهُمَ ، ثُمَّ دَوَى فَأَظْلَمَ ، فَأَرَكَّ وَدَثَّ ، وَبَغَشَ وَطَشَّ ثُمَّ قَطَّقَطَ ^(٤) فَأَفْرَطَ ، ثُمَّ دِيمَ فَأَغْمَطَ ، ثُمَّ رَكَدَ فَأَثْجَمَ ، ثُمَّ وَبَلَ فَسَجَمَ ، وَجَادَ فَأَنْعَمَ ، فَقَمَسَ الرَّيْبَ ^(٥) وَأَفْرَطَ الزُّبَى ، سَبْعاً تَبَاعاً ، مَا يَرِيدُ انْقِشَاعاً ، حَتَّى إِذَا ارْتَوَتْ الْحُزُونُ ^(٦) وَتَضَحَّضَتْ الْمُتُونُ ، سَاقَهُ رَبُّكَ إِلَى حَيْثُ شَاءَ ، كَمَا جَلِبَهُ مِنْ حَيْثُ شَاءَ . . . (بلوغ الأرب ٢ : ٢٤٩)

(١) ينزر : يقل ، ومنه قيل : امرأة تزور : إذا كانت قايمة الولد .

(٢) العارض : السحاب المترص في الأفق ، وومض البرق كوعد : لمع خفيفاً ، ولم أجد في كتب اللغة « أعس » وإنما الذي فيها « عسمس السحاب : دنا من الأرض » وأسجأها : غطاها ، وق الأصل وأسجأها بالماء وهو تصحيف . (٣) ارتجز الرعد : صات ، وارتجز السحاب : تحرك بطيئاً لكثرة مائه ، وهمهم الرعد : إذا سمعت له دويماً ، والهمهمة : كل صوت معه بحج ، وأرك : أتى بالرك (بفتح الراء ويكسر) وهو المطر القليل أو هو فوق الدث ، والدث بالفتح : المطر الضعيف ، والبغشة بالفتح : المطرة للضعيفة وقد بغشت السماء كنع ، والطلش : المطر الضعيف وهو فوق الرذاذ ، طشت السماء كنصر وضرب .

(٤) القطقط بالكسر : المطر المتتابع العظيم القطر ، وقد قططت السماء ، والديمة بالكسر : مطر يدوم في سكوت بلا رعد وبرق ، أو يدوم أياماً ، وقد ديمت السماء . أغمط : دام ولازم ، وأثجمت السماء : أصرع مطرها ودام ، واللويل : المطر الشديد للضخم القطر ، وقد وبلت السماء كوعد : أمطرته ، وسجم كدخل : سال وانصب . (٥) قس الريا : كنصر وضرب : غوصها ، وأفراطها : ملاها حتى فاضت ، والزبي جمع زبية كفرصة ، وهي الرابية لا يعلوها الماء ، وحفرة تحفر لصيد الأسد (وهو المراد هنا) سميت بذلك لأنهم كانوا يحفرونها في موضع حال .

(٦) الحزون جمع حزن كشمس وهو الدليل من الأرض ، والمتون جمع متن كشمس : وهو ماصلب من الأرض وارقق ، والمتضحضح والمتضحضح : الماء القليل ، وقيل هو مالا فرق فيه ، وقيل هو الماء إلى السكبين أو إلى أنصاف السوق - وفي لغة هذيل الكثير - وقد تضحضح الماء ، والتضحضح أيضاً جرى للرباب ، تضحضح إذا ترقرق .

٦٨ - ثلاثة غلبه من الأعراب يصفون مطرا

عن الأصمعي قال : سررت بِغِلْمَةٍ من الأعراب يتماقلون^(١) في غدِير ، فقلت لهم : أياكم يصفالي الغَيْثُ وأعطيه دِرهما ؟ فخرجوا إلى فقالوا : كلنا ، وهم ثلاثة ، فقلت لهم : صِفُوا ، فأياكم ارتضيت ووصفه أعطيته الدرهم ، فقال أحدهم :

« عَنَ لَنَا عَارِضٌ قَصْرًا^(٢) ، تسوقه الصَّبَا ، وتحدوه الجنُوب ، يحبو حَبو المَعْتَنِكِ^(٣) ، حتى إذا ازَلَّامَتَ^(٤) صدوره ، وانتحلت خُصُورُهُ ، وَرَجَّعَ هَدِيرُهُ ، وَصَعَقَ زَيْبِرُهُ ، واستقل نَشَاصُهُ^(٥) ، وتَلَامَّ خِصَاصُهُ ، وارتعج ارتعاصُهُ ، وأوفدت سِقَابَهُ^(٦) ، وامتدت أطنابُهُ ، تدارك وَدْقُهُ ، وتَأَلَّقَ بَرَقُهُ ، وَحَفَزَتِ تَوَالِيَهُ^(٧) ، وَأَسْفَحَتِ عَزَالِيَهُ ، فغادر التَّرِي عَمْدًا^(٨) ، وَالْعَزَازَ ثُنْدًا ، وَالْحَثَّ عِقْدًا^(٩) ، وَالضَّحَاضِحَ مُتَوَاصِيَةً ، وَالشَّعَابَ مُتَدَاعِيَةً » .

(١) يتماقلون في الماء . (٢) عن : مرض ، والقصر : العشى ، والصبا : ريح تهب من مطلع الشمس إذا استوى الليل والنهار . (٣) عنك الرمل كنصر : تمعد وارتفع فلم يكن فيه طريق ، ورملة عانك : فيها فتمعد لا يقدر البعير على المشي فيها إلا أن يحبو ، واعتنك البعير واستعنك : حيا في العانك فلم يقدر على السير . وقال رؤبة : أوديت إن لم تحب حبو المعتنك .

(٤) ازلامت : ارتفعت ، والخصور جمع خصر : وهو وهط الإنسان ، والترجيع : ترديد الصوت في الحلق . (٥) النشاص ككتاب وسحاب : السحاب المرتفع ، أو المرتفع بفضه فوق بعض وخصاصه : فرجه ، وأصله الفرج بين الأثافي والثقب الصغير وكل لخلل أو خرق في باب ومنخل وبرقع ونحوه ، وارتعج : ارتعد ، وارتعص : تلوى وانفض ، وارتعص الرمح : اشتد اهتزازه .

(٦) أوفدت : أشرفت ، والمقاب جمع سقب كشمس وهو عمود الخباء ، والأطناب جمع طناب كعنق وهو جبل طويل يشد به الوتد . (٧) حفزه كضربه : دفعه من خلفه ، والتوالي : الأهازج والمآخير ، والعزالي بكسر اللام وفتحها جمع عزلاء : وهي مصب الماء من الراوية ونحوها ، وانسفحت : انصبت ، من سفح الدم أراقه . (٨) عمد التري كفرج : بلله المطر حتى إذا قبضت عليه تمعد لتدوته ، والعزاز : الأرض الصلبة مكان ثند : ند من الشاد بالتحريك وهو الندى . (٩) الحث : اليابس الخشن من الرمل ، والعقد ككتف وجبل : ماتعد من الرمل وتراكم ، والضحاضح كجعفر والضحاضح : الماء لقيصير ، متواصية : متواصلة ، والشعاب : شعبة كفرصة : وهي المسيل في الرمل ، وما عظم من سواق الأودية ، وصدع في الجبل يأوي إليه المطر .

وقال الآخر : « تَرَاءتُ الْمَخَائِلَ ^(١) مِنَ الْأَقْطَارِ ، تَحْنُ حَنِينَ الْعِشَارِ ، وَتَتْرَامِي بِشُهْبِ النَّارِ ، قَوَاعِدُهَا مِتْلَاحِكَةٌ ^(٢) ، وَبَوَاسِقُهَا مِتْضَاحِكَةٌ ، وَأَرْجَاؤُهَا مِتْقَازِفَةٌ ، وَأَمْجَازُهَا مُتْرَادِفَةٌ ، وَأَرْحَاؤُهَا مُتْرَاصِفَةٌ ، فَوَصَلَتْ الْغَرْبَ بِالشَّرْقِ ، وَالْوَبْلَ بِالْوَدْقِ ، سَحًّا دَرًّا كَأَنَّ ^(٣) ، مُتْتَابِعًا لَكَا كَا ، فَضَحَّضَتْ الْجَفَاجِفَ ^(٤) ، وَأَنْهَرَتْ الصَّفَاصِفَ ، وَحَوَّضَتْ الْأَصَالِفَ ، ثُمَّ أَقْلَعْتَ مَحْمُودَةَ الْأَثَارِ ، مَوْمُوقَةَ الْخِيَارِ » .

فقال الثالث : وَاللَّهِ مَا خَلَّتْهُ بَلِغٌ خُمْسًا ، فَقَالَ : هَلُمَّ الدَّرْهَمَ أَصِفْهُ لَكَ ، فَقُلْتَ : لَا ، أَوْ تَقُولُ كَمَا قَالَا ، قَالَ : لِأَبْدَنْتَهُمَا ^(٥) وَصَفًّا ، وَلَأَوْقَفْتَهُمَا رَصْفًا ، فَقُلْتَ : هَاتِ لِي أَبُوكَ ، فَقَالَ : « بَيْنَمَا الْحَاضِرُ بَيْنَ الْبَاسِ وَالْإِبْلَاسِ ، قَدْ عَمَّرَهُمُ الْإِشْفَاقُ ، رَهْبَةً الْإِمْلَاقِ ، وَقَدْ جَفَّتِ الْأَنْوَاءُ ^(٦) ، وَرَفَرَفَ الْبِلَاءُ ، وَاسْتَوْلَى الْقَنُوطُ عَلَى الْقُلُوبِ ، وَكَثُرَ الْاسْتِغْفَارُ مِنَ الذُّنُوبِ ، ارْتَاحَ رَبُّكَ لِعِبَادِهِ ، فَأَنْشَأَ سَحَابًا مُسْتَجْهَرًا ^(٧) كَنْهَوْرًا مُعْتَوِنًا كَأَنَّ مَحْلُولًا كَا ، ثُمَّ اسْتَقَلَّ وَاخْزَأَلَ ، فَصَارَ كَالسَّمَاءِ دُونَ السَّمَاءِ ،

(١) مخايل جمع مخيلة « بضم الميم وكسر الخاء » والمخيلة والمخيلة « بتشديد الياء المكسورة » والسحابة التي تصحبها ما طرة ، والعشار جمع عشراء ككنفساء : وهي الناقة التي مضى لحملها عشرة أشهر أو ثمانية ، أو هي كالنفساء من النساء ، والشهب جمع شهاب ككتاب : وهو شعلة من نار ساطعة .

(٢) قواعدها : أسافلها ، وأصله من قواعد البيت : أي أساسه ، متلاحكة : أي قد اشتد التماسها ، والمتلاحكة : للناقة الشديدة الخلق ، وبواسقها : أعاليها جمع باسقة ، من يسق : أي طال وارتفع ، ومتضاحكة أي يضحك فيها برقعها ، متقازفة : أي يقدف بعضها بعضا بالمطر ، وأرجاؤها : أوساطها ، متراصفة : متراكة قد رصف بعضها فوق بعض . (٣) أي صبا متتابع ، ولكا كا : مقراحا من السكك ككتاب وهو لرحام .

(٤) الجفاجف جمع جفجف كجعفر : وهي الأرض المرتفعة ليست بالغليظة ، وضحضحتها : جعلت فيها ضحاحح والصفاصف جمع صفصف كجعفر : وهو المستوى من الأرض ، وأنهر الماء : أساله ، والأصلف والصلفاء : ما صلب من الأرض ، والجمع أصالف ، وحوضت جعلت فيها حياضاً .

(٥) بذة : فاتة وغلبه ، والحاضر : ساكن الحضر ، والباس : العذاب والشدة ، والإبلاس : التحير واليأس : والاشفاق : الخوف ، والإملاق : الغافة . (٦) الأنواء جمع نوء : وهو في الأصل سقوط النجم في المغرب مع الفجر وطلوع آخر يقابله في ساعته من المشرق ، وكأنت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إليها . (٧) مستجهرأ : لم أجده هذه الكلمة في كتب اللغة ، وربما كان الأصل : « مستنهرأ » من استنهر الشيء إذا اتسع ، والمحلولك : الشديد السواد ، وقد تقدم معنى اعتنك واستعتك : واعنونك أفعول من هذه المادة ، ولم أجده في كتب اللغة .

وكالأرض المذخوة^(١) في لوح الهواء ، فأحسب الشهول وأتأق الهجول ، وأحيا
الرجاء ، وأمات الصرء ، وذلك من فضل رب العالمين .
قال : فملاً والله اليقعُ صدرى ، فأعطيت كل واحدٍ درهما ، وكتبت كلامهم .
(بلوغ الأرب ٣ : ٢٥٢)

٦٩ - أعرابي يصف مطرا

عن الأصمعي قال : سألت أعرابيا عن مطر صابهم بعد جذب فقال :
« ارتاح لنا ربك بعد ما استولى على الظنون ، وخامر القلب القنوط ، فأنشأ
بنو الجبهة^(٢) قزعة كالفرض من قبل العين ، فاحزأت عند ترجل النهار ،
لإزيم السرار^(٣) ، حتى إذا نهضت في الأفق طالعة ، أمر مسخرها الجنوب
فتنسمت لها ، فانتشرت أحضانها ، وأحمومت أركانها ، وبسق عنانها^(٤) وا كفهرت
رحاها ، وانبعجت كلاًها ، وذمرت أخراها أولها ، ثم استطارت عقائقها ،
وتققعت صواعقها ، ثم ارتفعت^(٥) جوانبها ، وتداعت سواكبها ، ودرت حوالبها
فكانت الأرض طبقا^(٦) سح فهضب ، وعم فأحسب ، فقل القيعان ، وضحضح

(١) الميسوطة ، والروح : الهواء وأحسبها : أرواها ، من أحسبه إذا أطعمه وسقاه حتى شبع
وروى ، وأتأق : ملاً ، والهجول جمع هجل كشمس : وهو الماطن من الأرض ، واليقع واليافع :
الشاب .

(٢) الجبهة : منزل للقمر ، قزعة : قطعة من السحاب ، والفرض : الترس ، والعين : القبلة ، وترجل
النهار : ارتفع .

(٣) الإزيم : لياة من ليالى الحاق — والحاق مثلثة : ثلاث ليالٍ من آخر الشهر ، والسرار :
آخر ليلة من الشهر ، وأحضانها جمع حضن كحمل : وهو جانب الشيء وناحيته ، وأحمومت : أسودت .

(٤) بسق : ارتفع ، والمانان : السحاب ، رحاها : وسطها ، وانبعجت : انشقت ، واللكاية من
السحاب : أسفله — ومن المزايدة رقعة مستديرة تخرز عليها تحت العروة ، وذمرت : حضت — والتدامر :
التحاض على القتال ، عقائقها بروقها المشبهة للعقائق .

(٥) ارتعن المطر : ثبت وجاد . (٦) غيث طبق : هام واسع يطبق الأرض ، وهضب كضرب :

الفيضان ، وَجَوَّخَ الْأَضْوَاجَ ^(١) ، وَأَتْرَعَ الشَّرَاجَ ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ كِفَاءَ إِسَاءَتِنَا
إِحْسَانًا ، وَجَزَاءَ ظَلَمِنَا عُفْرَانًا .
(بلوغ الأرب ٣ : ٢٥٢)

٧- أعرابي يصف مطرا

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت أعرابيا من بني عامر بن لؤي بن صعصعة
يصف مطراً فقال :

« نَشَأُ عِنْدَ الْقَصْرِ ، بِنَوَى الْغَفْرِ ^(٢) ، حَبِيْبًا عَارِضًا ، ضَاحِكًا وَامِضًا ، فَكَلَّا وَلَا ^(٣)
مَا كَانَ ، حَتَّى شَجَّيْتُ بِهِ أَقْطَارُ الْهَوَاءِ ، وَاحْتَجَبْتُ بِهِ السَّمَاءَ ، ثُمَّ أَطْرَقَ ^(٤) فَكَفَهَرَّ ،
وَتَرَكَمْ فَادْلَهَمَّ ، وَبَسَقَ فَازْلَأَمَ ، ثُمَّ حَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ ، فَحَنَّ ، فَالْبَرْقُ مُرْتَبِعٌ ،
وَالرَّعْدُ مُتَبَوِّجٌ ^(٥) ، وَانْتَجَرَاجٌ مُتَبَعٌ ، فَأَنْجَمَ ثَلَاثًا ، مُتَحَيِّرًا هَمَّاهَا ^(٦) ، أَخْلَافُهُ
حَاشِكَةٌ ، وَدَفَعَهُ مِتْوَاشِكَةٌ ، وَسَوَّاهُ مُتَعَارِكَةٌ ، ثُمَّ وَدَّعَ مُنْجِمًا ^(٧) ، وَأَقْلَعَ مُتَهَمًا ،
مَحْمُودَ الْبَلَاءِ ، مُتَرَعَّ النَّهَاءِ ، مُشْكُورَ النَّعْمَاءِ ، بِطَوَّلٍ ^(٨) ذِي الْكِبْرِيَاءِ . »

(بلوغ الأرب ٣ : ٢٥٤)

(١) جَوْخُ السَّيْلِ الْوَادِي : إِذَا كَسَرَ جَنْبَيْهِ وَانْتَلَعَ أَجْرَافَهُ ، وَفِي الْأَصْلِ « جَوْخٌ » وَهُوَ تَصْحِيفٌ .
وَالْأَضْوَاجُ جَمْعُ ضَوْجٍ كَشَمْسٍ : وَهُوَ مُعْطَفُ الْوَادِي ، وَالشَّرَاجُ جَمْعُ شَرَجٍ كَشَمْسٍ أَيْضًا : وَهُوَ مَسِيلُ الْمَاءِ
مِنَ الْحَرَّةِ (يَفْتَحُ الْحَاءُ) إِلَى الْمَهْلِ .

(٢) الْقَصْرُ : الْعَثَى ، وَالغَفْرُ : مَنْزِلُ الْقَمَرِ ، وَالْحَبِيْبُ : السَّحَابُ يَشْرَفُ مِنَ الْأَفْقِ عَلَى الْأَرْضِ ، أَوِ الَّذِي
بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ . (٣) قَالَ فِي السَّافِ : « وَالْعَرَبُ إِذَا أَرَادُوا تَقْلِيلَ مَدَّةِ فِعْلٍ أَوْ ظَهْوَرِ شَيْءٍ خَفِيَ
قَالُوا : كَانَ فِعْلُهُ كَلَاهُ وَرَبَّمَا كَرَّرُوا فَقَالُوا كَلَا وَلَا ، قَالَ الشَّاعِرُ : يَكُونُ نَزْوِلُ الْقَوْمِ فِيهَا كَلَا وَلَا : ،
وَالشَّجَا : مَا اعْتَرَضَ فِي الْخَلْقِ مِنْ عَظْمٍ وَنَحْوِهِ ، وَقَدْ شَجَّيْتُ بِهِ كَرَضِي .

(٤) هُوَ مَنْ أَطْرَقَتِ الْإِبِلُ : تَبِعَ بَعْضُهَا بَعْضًا ، وَادْلَهَمَ : اسْوَدَّ .

(٥) التَّبَوُّجُ : الصِّيَاحُ ، وَانْتَجَرَاجٌ : السَّحَابُ أَوَّلُ مَا يَنْشَأُ ، مُتَبَعٌ : مُتَشَقِّقٌ .

(٦) الْهَمَّاهُ : السَّرِيعُ ، حَاشِكَةٌ : كَثِيرَةُ الْمَاءِ ، مُتَوَاشِكَةٌ : يَسَارِعُ بَعْضُهَا بَعْضًا ، وَالسَّوَامُ : الْإِبِلُ الرَّاعِبَةُ .

(٧) أَنْجَمَ الْمَطَرَ وَغَيْرَهُ : أَقْلَعَ ، وَتَهَمًا : أَي سَائِرًا نَحْوَ تَهَامَةٍ ، وَالنَّهَاءُ جَمْعُ نَهْيٍ بِالسُّكْرِ وَالْفَتْحِ وَهُوَ الْقَدِيرُ .

(٨) أَي بِفَضْلِهِ وَقُدْرَتِهِ .

٧١ - أعرابي يصف مطرا

عن أبي عبيدة قال : خرج النعمان في بعض أيامه في عَقِبِ سَماء ، فلقى أعرابياً على ناقة ، فأمر فأتى به ، قال : كيف تركت الأرض ورائك ؟ فقال :

« فيح رُحاب^(١) ، منها السهولُ ومنها الصَّعاب ، منشوطة بِجبالها ، حاملة

لأثقالها » ، قال : إنما سألتك عن السماء ! قال :

« مُطَلَّة^(٢) مستقلَّة ، على غير سِقَاب ولا أطناب ، يختلف عَصْرُها ، ويتعاقب

سِرَاجِها ، قال : ليس عن هذا أسألك ! قال : فقل ما بدالك ، قال : هل صابَ الأرضَ غيثٌ ؟ قال :

« نعم : أغمطت^(٣) السماء في أرضنا ثلاثاً رهواً ، فثرت وأرزغت ، ورَسَّغت ،

ثم خرجتُ من أرض قومي أقرؤها^(٤) ، فإذا هي مُتَوَاصِيَّة ، لا خَطيطة بينها ، حتى هبطتُ

بِمشَار ، فتداعى السحابُ من الأقطار ، فجاءنا بالسيل الخرار ، ففعا^(٥) الآثار ، وملاً

الجفار ، وقوَّرتُ عاليَ الأشجار ، فأجحرَ الحُضار ، ومنع الشُّفار ، ثم أقلع عن نفع

وإضرار ، فلما اتلَّبت^(٦) لي القِيَمَان ، ووضعحت الشُّبُل في الغِيْطَان ، وفات الأعنان ،

من أقطار الأعنان ، فلم أجد وزراً إلا الغيران ، ففات وِجار الضُّبع ، ففادرتُ السهول

(١) فيح جمع فيحاء : واسعة ، وكذا رحاب ، منشوطة : مشدودة ، من نشط الجبل كنصر عقده (وأنشطه : حله) . (٢) مطلة : مرتفعة ، وكذا مستقلة ، والسقاب جمع سقب كشمس : وهو عمود الجباء ، والمصران : الليل والنهار ، وسراجها : الشمس والقمر . (٣) أي دامت ولازمت ، والرهو : السكون والثرة من العيون : الغزيرة كالثرارة ، وقد ثرت هي ، والرزغة بالتحريك : الوحل ، وأرزغ المطر الأرض بلها ولم تسل ، ورَسَّغ المطر : كثُر وثرى الأرض حتى تبلغ يده الحافر عنه إلى أرساغه .

(٤) أنتبها ، والخطيطة : الأرض لم تَمطر بين مطورتين ، أو التي مطر بعضها ، ومشار : موضع . (٥) محابها وطسها ، والجفار جمع جفر كشمس : البثر التي لم تطو ، وقورها : قطع من وسطها خرقا مستديرا ، وأجحر ، من أجحر الضب : أي أدخله في جحره ، والحضار جمع حاضر وهو المقيم في الحضرة ، والسفار جمع سافر وهو المسافر لا فعل له . (٦) اسقمت ، والأعنان : السحاب ، والأعنان من السماء : نواحيها ، والوزر الملبأ ، والغيران جمع غار : وهو الكهف في الجبل ، والوجار بالكسر والفتح : جحر الضبع وغيرها .

كالبحار ، تتلاطم بالتيار ، والحزون متلفعةً بالغيث^(١) ، والوحوش مقذوفة
على الأرجاء ، فازلت أطماً السماء ، وأخوض الماء ، حتى وطئت أرضكم .
(بلوغ الأرب ٣: ٢٥٧)

٧٢ - أعرابي يصف مطرا

عن أبي عبيدة قال : وقف أعرابي على قوم من الحاج فقال :
« يا قومي بدا شأني ، والذي أَلْفَجَنِي^(٢) إلى مسألتكم ، إن الغيث كان قد قوى عناً
نم تَكَرَّفاً السحابُ ، وشصاً الربابُ ، وأدلهم سَيْقَهُ^(٣) ، فارتجس ريقه ، وقلنا :
هذا عامُّ بكرِ الوسمى^(٤) ، محمود السمي ، ثم هبت له الشمال ، فأحزَّ أَلَّتْ طَخَارِيرُهُ^(٥) ،
وتفرَّع كِرْفَتُهُ متباشراً ، ثم تتابع لمعانُ البرق ، حيث تَشِيمُهُ الأبصار ، وتجدده النظار ،
ومرت^(٦) الجنوبُ مائه ، فقوَّض الحىُّ مُزَلِّمِينَ نحوه ، فسرحنا المالَ فيه وكان
وَحْماً وَخِيماً ، فأسافَ المالَ ، وأضفَ الحالَ ، فرجَم اللهُ امرأً جادِ بِمَيْرٍ ، أو دل
على خيرٍ » .
(بلوغ الأرب ٣: ٢٥٨)

٧٣ - أعرابي يصف مطرا

عن عبد الرحمن عن عمه قال :
قال أبو حبيب - وكان أعرابياً من بني ربيعة بن مالك - : « لقد رأيتنا في أرضٍ

- (١) الغيث : البالي من ورق الشجر المخالط لزبد السيل .
(٢) أَلْفَجَنِي ، وقوى المطر : احتبس ، وتكرفاً : تراكم ، وشصاً : ارتقع ، والرباب : السحاب الأبيض
(٣) ادلم : اسود ، والسيق : السحاب لا ماء فيه ، والريق : تردد الماء على وجه الأرض .
(٤) الوسمى : مطر الربيع الأول ، سمى بذلك لأنه يسم الأرض بالنبات ، والسمى جمع سماء : وهو المطر
أو المطرة الجيدة . (٥) الطخارير جمع طخروو كمصفور بالحاء والحاء : الطخ من السحاب ، والكرف :
السحاب المرتفع المتراكم ، وتفرَّع : تفرق وانقشع ، وشام البرق : نظر إليه أين يقصده .
(٦) هو من مري للناقة كرمى : مسح ضرعها اندر ، مزلمين : ماضين مرتحلين إليه ، وأساف المال :
أهلكه ، والسواف كجبان وشجاع : الموت في الناس والمال ، ساف سواً أى هلك ، وأسافه الله ، ويقال
أيضاً أساف الرجل : وقع في ماله السواف أى الموت : وأضف من الضفف كسهب وهو الضيق والشدة ،
أصابهم من العيش ضفف أى شدة .

مَجْفَاءً^(١) ، وزمان أَعْجَفَ ، وشجر أَعْصَمَ ، في قَفٍّ غليظ ، فينما نحن كذلك ، إذ أنشأ الله تعالى من السماء غيثاً مُسْتَكْفِئاً^(٢) نَشْوَهُ ، مُسَبِّلاًً عَزَّالِيَهُ ، ضِخَاماً قَطْرُهُ ، جَوْدًا صَوْبُهُ زَاكِيًا ، أنزله الله تعالى رزقاً لنا ، فَعَيْشَ به أموالنا ، وَوَصَلَ به طرقتنا ، وأصابنا وَإِنَّا لَبِنَوُطَةٌ^(٣) بعيدة الأرجاء ، فاهرَمَعَ مطرُها ، حتى رأيتنا وما نرى غير السماء والماء وَضَهَوَاتِ الطَّلْحِ^(٤) ، وَضَرَبَ السَّيْلُ النَّجَافَ ، وملاً الأودية فَزَعَبَهَا ، فما لبثنا إلا عشرًا ، حتى رأيتها رَوْضَةً تَنْدَى . (بلوغ الأرب ٣ : ٢٥٩)

٧٤- أعرابي يصف مطرا

ودخل أعرابي على سليمان بن عبد الملك فقال :

« أصابتك سماءٌ في وجهك يا أعرابي » ، قال : « نعم يا أمير المؤمنين ، غير أنها سَحَابٌ طَحْنَاءٌ وَطَفَاءٌ^(٥) ، كأن هَوَادِيهَا الدَّلَاءُ ، مُرَجِّحَةٌ النَوَاحِي ، موصولة بالآكام تكاد تَمَسُّ هَامَ الرِّجَالِ ، كثيرٌ زَجَلُهَا^(٦) ، قاصِفٌ رَعْدُهَا ، خاطفٌ^(٧) برقها ، حَثِيثٌ وَدْقُهَا ، بطيء مسيرها ، مُشْعَنْجِرٌ قَطْرُهَا ، مظلم نَوْوُهَا ، قد لَجِثَتِ الوَحْشُ إِلَى أوطانها ، تبحث عن أصولها بأظلافها ، متجمعة بعد شتاتها ، فلولا اعتصامنا يا أمير المؤمنين

(١) ليس بها نبات ، وأصله من العجف بالتحريك وهو الهزال ، وأعمى : يابس ، وأصله من العصم بالتحريك وهو يابس في مفصل للرسغ تنوع منه اليد والقدم ، والقف : ما غلظ من الأرض وارتفع ، لم يبلغ أن يكون جبلا : وأنشأ الله السحاب : رفعه . (٢) مستكفا : مستديرا كالكفة ، (والكفة بالكسر وبضم كل مستدير) ، وصوبه : مطره . (٣) النبوطة : الأرض يكثر بها الطلح (والطلح : شجر عظام) والموضع المرتفع عن الماء ، أو ليس بواد ولا تلة بل بين ذلك ، واهرمع : كثر وأسرع . (٤) الضهوة : بركة الماء ، والنجاف جمع نجف بالتحريك وبهاء : مكان لا يعلوه الماء ، أو هي أرض مستديرة مشرفة على ما حولها ، وزعبا : ملاءها .

(٥) سحابة وطفاء : مسترخية لكثرة ماؤها ، أو هي الدائمة للسح الخثيثة ، هواديا : أوائلها ومقادمها ، مرجحنة : ثقيلة مهتزة (٦) الزجل : الجلبة ورفع الصوت ، مشعجر : سائل منصب ، ولجا إليه كنع وفرح ، وأظلاف جمع ظلف بالكسر وهو للبقرة والشاة والظبي وشبهها كالقدم لنا ، والقتن جمع قنة ، وهي قنة الجبل . (٧) زدت هذه الكلمة كي يستقيم بها الكلام والظاهر أنها سقطت من الأصل في الطبع .

بعضاهِ الشجر ، وتعلقتنا بقنن الجبال ، لكننا جفأ^(١) في بعض الأودية ، ولقم الطريق ، فأطال الله للأمة بقاءك ، ونسأ لها في أجلك ببركتك ، وعاد الله بك على رعيتك ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد .

فقال سليمان : « لعمرُ أبيك لئن كانت بديهة لقد أحسنت ، وإن كانت محبرةً لقد أجدت » قال : بل محبرة مهْدورة يا أمير المؤمنين ، قال : « يا غلام أعطه ، فوالله لصِدْقه أعجبُ إلينا من صِفته » .

(المقدم الفرهد ٢ : ٩٦)

٧٥- أعرابية تصف مطرا

عن الأصمعي قال : « كان شيخ من الأعراب في خبائه ، وابنة له بالفناء^(٢) ، إذ سمع رعداً فقال : ماترَيْن يا بُنيّة؟ قالت : أراها حواء قرحاء^(٣) ، كأنها أقرابُ أتانٍ قمرآء ، ثم سمع راعدة أخرى فقال : كيف ترينها؟ قالت : أراها جمّة التّرجاف^(٤) متساقطة الأكناف ، تتألق بالبرق الوّلاف ، قال : هلمّي المفرّقة ، اننسي^(٥) نونيّاً » .

(بلوغ الأرب ٣ : ٢٥١)

٧٦- أعرابية تصف مطرا

عن الأصمعي قال : كان أعرابي ضرير تقوده ابنته ، وهي ترعى غنيمات لها ، فرأت سحاباً فقالت : يا أبت جاءتك السماء ، فقال : كيف ترينها؟ قالت : كأنها فرس دهماء^(٦) تجرّ جلالها ، قال : ارعى غنيماتك ، فرعت مَلِيّاً ، ثم قالت : يا أبت جاءتك السماء ، قال : كيف ترينها؟ قالت : كأنها عين جمل طريف^(٧) قال : ارعى

(١) الجفأ : الزبد ، ولقم الطريق : معظمه ووسطه ، وفي الأصل : « لقم » وهو تحريف .

(٢) للفناء : ما اتسع أمام الدار . (٣) حواء : وصف من الحوة بالضم وهي حرة إلى المواد ، والقرحة بالضم : وجه الفرس دون الفرة ، والوصف منه أفرح وقرحاء ، والأقرب جمع قرب كقفل وهنق : وهو الحاصرة ، والقمرّة بالضم : يباض فيه كدرة ، حمار أقر ، وأتان قراء .

(٤) كثيرة الاضطراب ، للولاف : المتتابع ، من ولف البرق كوعد ولفاً وولافاً بالكسر : تتابع .

(٥) اننسي : ما تلبسه الدابة لتصان به . (٦) سوداء ، والجلال جمع جل

بالضم والفتح : ما تلبسه الدابة لتصان به . (٧) الجمل ينتقل من مرعى إلى مرعى .

غَنِيَاتِكَ ، فرعت ملياً ، ثم قالت : يا أبت جاءتك السماء ، قال : كيف تربيتها ؟
قالت : سَطِحتَ وَابيضتَ ، قال : أدخل غنياتك ، قال : فجاءت السماء بشيء شطاً^(١) له
الزرع وأينع ، وَخَصِرَ وَنَصِرُ « ، (بلوغ الأرب ٢٦٠٣)

٧٧ - أعرابي يصف أرضاً

ووصف أعرابي أرضاً أحدها فقال :

« خَلَعَ شَيْعُهَا ، وَأَبْقَلَ رِمْتُهَا ، وَخَضَبَ عَرَفَجُهَا^(٢) ، وَأَسَقَ نَبْتُهَا ، وَاخضرتُ
قُرْيَانُهَا ، وَأَخوصتَ بَطْنَانُهَا^(٣) ، وَأَحْلستَ أَكْمُهَا ، وَاعتمَ نَبْتُ جَرَاثِمِهَا^(٤) ،
وَأَجرتُ بَقْلَتِهَا وَذُرْقَتِهَا وَخُبَازَتِهَا^(٥) ، وَاحورَّتْ خواصِرُ إِبِلِهَا ، وَشَكَرتْ
حَلْوَبَتِهَا ، وَسَمنتَ قَتوبَتِهَا^(٦) ، وَعَمِدَ ثَرَاها . وَعَقَدتْ تَنَاهِيها ، وَأماهتْ ثَمَارُها .
وَوَثِقَ النَّاسَ بِصَاثِرِهَا^(٧) . »

(البيان والتبيين ٢: ٧٧)

(١) شطاً الزرع : أخرج شطاه ، أى فراخه .

(٢) خلع الشيع : أورقه (والخالغ من الغضاه : الذى لا يسقط ورقه أبداً ، والغضاه ككتاب : كل شجر
نه شوك) والرمث . مرعى للإبل ، وشجر يشبه الغضا ، والمرجج : شجر سهلى ، وغضب للشجر كضرب
وسمع وعنى : اخضر . (٣) القرىان : مجارى الماء من الربو إلى الرياض جمع قرى كقنى ، وأخوص
المرجج : تفطر بورق ، أخوصت النخلة : أخرجت الخوص ، والبطنان جمع باطن وهو الغامض من الأرض
أى المطنن منها . (٤) أحلس النبت : غطى الأرض بكثرتة ، وأحلس الأرض فهى محلسة : صار
النبات هليها كالحلس كثرة الحلس كحمل كساء على ظهر البعير - والجراثيم جمع جرثومة بالضم ، وجرثومة
الشيء : أصله ، واعتم : أى كأنه ليس عمامة . (٥) أجرت البقلة : صارت لها جراء - وجراء ككتاب
جمع جرو بالفتلث وهو صغير كل شيء - والذرقه واحده الذرق وهو نبات مثل السكرات الجبل الدقاق فى
رأسه حب حلو يؤكل رطباً تحبه الرعاة يأتون به أهلهم : والحبازة والحبازي : النبت المعروف .

(٦) احوررت : ابيضت وذلك من الشد على خواصرها لثلاث تحيط (والحيط بالتحريك : انتفاخ بطنها من
مرعى ترعاه) والحلوبة : المحلوبة ، وشكرت للنافه : امتلأ ضرعها ، والداية : سمنت ، والقطوبة : الإبل
التي تقبها (وأفتب النافه : شد عليها القتب (بالتحريك) وهو إكافر صغير على قدر سنام البعير) .
(٧) عمد الثرى : بلاء المطر حتى إذا قبضت عليه عمقه لندوته ، والتناهى جمع تهيبة : وهى مستقر السيل
حيث ينتهى الماء من الوادى ، وعقدت تناهيها : أن يمر السيل مقبلاً حتى إذا انتهى منهاه دار بالأبطح
حتى يلتقى طرفا السيل ، وأماهت ثمارها : أى كثرت ماؤها ، والصارثة : المطر والكلأ .

٧٨ - رائد يصف أرضاً جديدة

قال أبو الجيب : وصف رائد أرضاً جديدة فقال :

« أُعْبِرْتُ جَادَتْهَا ^(١) ، وَذَرَعُ مَرْتَمَهَا ، وَقَضِمُ شَجْرُهَا ، وَرَقَّتْ كَرِشُهَا ، وَخَوَرُ عَظْمِهَا . وَالتقى سَرْحَاهَا ^(٢) . وَتَمَيَّزَ ^(٣) أَهْلُهَا . وَدَخَلَ قُلُوبَهُمُ الْوَهْلُ . وَأَمَوَاهُمُ الْهَزْلُ » .
(البيان والتبيين ٢ : ٧٧)

٧٩ - رائد يصف أرضاً

عن محمد بن كُنَاسَةَ قَالَ : أَخْبَرَنِي بَعْضُ فَصْحَاءِ أَعْرَابِ طَيْبٍ قَالَ :

« بَعَثَ قَوْمٌ رَائِدًا . فَقَالُوا : مَا وَرَاءَكَ ؟ قَالَ : عُشْبٌ وَتَعَاشِيبٌ ^(٤) ، وَكَنَازَةٌ مَتَفَرِّقَةٌ شَيْبٌ ، تَقْلَعُهَا بِأَخْفَافِهَا النَّيْبُ ^(٥) » ، قَالُوا : لِمَ تَصْنَعُ شَيْئًا ، هَذَا كَذِبٌ ! فَأَرْسَلُوا آخَرَ ، فَقَالُوا : مَا وَرَاءَكَ ؟ قَالَ : « عُشْبٌ نَادٌ مَادُمُولِي ^(٦) وَعَهْدٌ . مَتَدَارِكُ جَعْدٌ ^(٧) ، كَأَنْفَازِ نَسَاءِ بَنِي سَعْدِ ، تَشْبَعُ مِنْهُ النَّيْبُ وَهِيَ تَعْدُ ^(٨) » .
(البيان والتبيين ٢ : ٧٩)

(١) الجادة : الطريق إلى الماء ، وذرع المرتع : بعد عن الماء ، وقضم شجرها : تسكمر ، يقال : سيف قضم كفرح : أي طال عليه الدهر فتكمر حده ، وقضم السن : انصدع وتثلج ، وإذا لم يكن للجمال مرعى إلا للشجر وحده رقت أكراشه . (٢) يعني أنه إذا أكل كل سارح ما يليه ، التقيا عند الماء . (٣) تفرقوا في طلب السكلا ، والوهل : الفزع ، والهلز : موت مواشي الرجل .

(٤) العشب : السكلا للرطب ، والتعاشيب : القطع المتفرقة منه . (٥) النهب جمع ناب : وهو الناقة المسنة . (٦) جاء في اللسان : قال الأصمعي : قيل لبعض العرب : أصب لنا موضعاً أي أطلب فقال رائدهم : وجدت مكاناً ثمة أمثداً (بفتح فكسر) وقال زيد بن كثوة : بعثوا رائداً فجاء وقال : عشب ناد ماد (بفتح فسكون) كأنه أسوق بني سعد ، وثند الثبت كفرح : ندى فهو ثند ، وماد كنع اهتز وتروى وجرى فيه الماء وتنعم ولان والماد : الناعم من كل شيء ، والمولى : الذي أصابه الولي (والولي : المطر الذي يأتي بعد المطر) ، والعهده : أول مطر الوسمي (والوسمي : أول مطر الربيع) .

(٧) من قولهم : زيد جعد : أي متراكب مجتمع قد صار بعضه فوق بعض .

(٨) يعني أن العشب قد طال وتم ، والنيب تشبع منه وهي تعد : لأنها تتناوله وهي قائمة لا تبرح مكانها ولا تظاطي رأسها .

٨٠ - رائد يصف أرضاً

وبعث رجل أولاده يرتادون في خِصْب . فقال أحدهم : « رأيتُ بَقْلًا . وماء غَيْلاً^(١) . يسيل سَيْلاً . وخواصه تميل مَبِلاً ، يحسبها الرائد ليلاً » وقال الثاني : « رأيت دِيمة على دِيمة ، في عهدا غير قديمة . وَكَلًّا تشبَع منه النَّاب قبل الفطيمة » .
(البيان والتبيين ٢ : ٧٩)

* * *

وروى هذا الوصف عن ابن الكلبي بصورة أخرى قال :
« خطب هند بنته الخس الإيادية ثلاثة نفر من قومها ، وارتضت أنسابهم وجاهلهم ، وأرادت أن تسبر عقولهم ، فقالت لهم : « إني أريد أن ترتادوا لي مرعى ، فلما أتوها قالت لأحدهم : ما رأيت ؟ قال : رأيت بَقْلًا وَبُقَيْلاً ، وماءً غَدَقًا^(٢) سَيْلاً ، يحسبه الجاهل ليلاً ، قالت : أمرعت^(٣) ، قال الآخر : رأيت دِيمة بعد دِيمة ، على عهاد غير قديمة ، فالناب تشبَع قبل الفطيمة ، قال الثالث : رأيت غَيْثًا تُعَدُّ مُعَدًّا^(٤) ، متراكماً جَعْدًا ، كأنفاذ نساء بني سعد ، تشبَع منه النَّيب وهي تُعَدُّ » .
(بلوغ الأرب ٢ : ٢٥٦)

٨١ - أعرابي يصف أرضه وماله

عن أبي عمرو بن العلاء قال : لقيت أعرابياً بمكة فقلت له : ممن أنت ؟ قال : أسدي ، قلت : ومن أيهم ؟ قال : نهدي ، قلت : من أي البلاد ؟ قال : من عُمان ،

(١) الغيل : الماء الذي يجري بين الشجر .

(٢) الغدق : الماء الكثير . (٣) أمرعه أصابه مريماً كخصيب وزنا وهي .

(٤) الغيث : المطر والكلأ ، وقيل : الأصل المطر ثم سمي ما ينبت به غيثاً ، والمراد هنا الثاقب ، ويقال

ثعد معد : غض رطب رمص .

قلت: فأنتى لك هذه الفصاحة؟ قال: «إنا سكننا قَطْرًا لا نسمع فيه نَاجِخَةَ التِّيَّارِ^(١)»
 قلت: صف لى أرضك، قال: «سِيفٌ أَفِيحٌ، وَفَضَاءٌ صَحْصَحٌ، وَجَبَلٌ صَرَدَحٌ،
 وَرَمْلٌ أَصْبَحٌ^(٢)»، قلت: فما مالك؟ قال: النخل، قلت: فأين أنت من الإبل؟
 قال: «إن النخل حَمَلُهَا غِذَاءٌ، وَسَعْفُهَا^(٣) ضِيَاءٌ، وَجِدْعُهَا بِنَاءٌ، وَكَرْبُهَا صِلَاءٌ،
 وَلِيْفِهَا رِشَاءٌ، وَخَوْصُهَا وَعَاءٌ، وَقَرَوُهَا إِنَاءٌ». (ذيل الأمل ص ١٧)

٨٢ - أعرابي يصف بلدا

وذكر أعرابي بلداً فقال: «بلد كالثرس، ما تمشى فيه الرياح إلا عابرات سبيل،
 ولا يمرّ فيه السّفَرُ إلا بأدَلِّ دليل». (العقد الفريد ٢ : ٨٠)

وقال أعرابي: «مررت ببلد ألقى به الصّيف^(٤) بقاعه، فما ظهر غديراً يقصر
 الطّرفُ عن أرجائه، وقد نقتّ الرّيح القذى عن مائه، فكأنه سلاسل درع ذات
 فضول^(٥)». (العقد الفريد ٢ : ٩٦)

وسئل أعرابي عن مسافة ما بين بلدين فقال: «عمر ليلة، وأديم^(٦) يوم».
 وقال آخر: «سواد ليلة، أو بياض يوم».

(البيان والتبيين ٢ : ٥١، والعقد الفريد ٢ : ٩٧)

وقال آخر: «إن المسافر ومتاعه لعملي قلت^(٧) إلا ما وقى الله».

(العقد الفريد ٢ : ٥٢)

الناجحة: الصوت، والتيار: الموج. (٢) السيف: ساحل البحر، وساحل الوادى، أو
 لكل ساحل سيف، أو إنما يقال ذلك لسيف عمان، وأفح: واسع، والصحيح: ما استوى من
 الأرض، والصدوح: الصلب، والأصبح: الذى يعلو بياضه حمرة (٣) السعف: جريد النخل أو
 ورقه، والكرب: أصول السعف للغلاظ المراض، والرشاء: الحبل، والقرو: أسفل النخلة ينقر
 فينتبذ فيه - أى يخذ فيه للنبذ - .

(٤) الصيف كسيد ويخفف: المطر يهوى في الصيف أو بعد الربيع كالصيف.

(٥) جمع فضل: وهو الزيادة. (٦) أديم النهار: عامته أو بياضه. (٧) لقلت: الهلاك.

٨٣ - أعرابي يصف أشد البرد

سئل أعرابي فقيل له : ما أشدُّ البرد ؟ قال : ريح جرِّبياء ، في ظلِّ عماء ،
غِبِّ سماء^(١) . (البيان والعيين ١ : ١٦٢)

٨٤ - أعرابي يصف إبلا

وقال : سمعت أعرابياً يصف إبلاً فقال :
« إنها لعظامُ الحناجرِ ، سباطُ المشافرِ ، كَوْمٌ بهازِر^(٢) ، نُكْدٌ خناجر^(٣) ،
أجوافها رِغاب^(٤) ، وأعطائها رِحَاب^(٥) ، تُمنَع من البُهَم^(٥) وتُبَدِّل للجُمم^(٥) .
(الأما ١ : ٥٢)

٨٥ - أعرابي يصف ناقة

ووصف أعرابي ناقةً فقال : « إذا اكَالَتْ عَيْنُهَا ، وَأَلَّتْ^(٦) أُذُنُهَا ، وَسَجَّحَ^(٧)
خَدُّهَا ، وَهَدَل^(٨) مِشْفَرُهَا ، واستدارت جُمُجُمَتِهَا ، فهي الكريمة » .
(الأما ١ : ٢١٧)

(١) الجرياء : ريح للشمال الباردة ، أو الريح بين الجنوب والصبيا ، ولعماء : السحاب المرتفع : أو الكثيف ، أو المطر ، في غيب سماء : أي عتب مطر . (٢) الحنجرة والخنجر كمنصور : الحلقوم ، وجمه حناجر ، والمشافر جمع مشفر كبير : وهو البعير كالشقة للإنسان ، والكوم : العظام الأضمة جمع أكوم وكوما ، والهازر جمع بهزة كبندة : وهي العظيمة من النوق .

(٣) النكد : الغزيرات اللبن من الإبل (والتي لا لبن لها أيضا ضد) ، والحناجر : الغزيرات اللبن جمع خنجر كجعفر وبهاء وخنجورة بالضم . (٤) رِغاب : واسعة ، وأعطائها : مباركها عند الماء جمع هطن كسبب . (٥) البُهَم جمع بهمة كفرصة : وهو للشجاع الذي لا يدري من أين يؤتى ، من شدة بأسه ، والجُم جمع جمة كقبة ، وهم القوم يسألون في الديات .

(٦) أَل البعير : نصب أذنيه وحدهما . (٧) سجح : سهل وحسن . (٨) هدل : استرخى .

٨٦ - أعرابي يصف خيلاً

وقال الأصمعي : سمعت أعرابياً يقول : « خرجت علينا خيلٌ مستطيرةٌ النَّقْعُ ^(١) ،
كأن هوادِمْهَا ^(٢) أعلام ، وآذانها أطرافُ أقلام ، وفُرساتها أسودُ آجامٍ . »

٨٧ - أعرابي يصف خيلاً

وذكر أعرابي خيلاً فقال : « والله ما انحدرتُ في وادٍ إلا ملأتُ بطنه ،
ولا ركبتُ بطن جبل إلا أُمهلتُ حزنه ^(٣) . » (العقد الفريد ٢ : ٩٥)

٨٨ - أعرابي يصف خيلاً

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت أعرابياً يصف خيلاً فقال : « سباط
الحصائل ^(٤) . ظمَاءُ المفاصل ، شِدَادُ الأَبَاجِلِ ^(٥) ، قُبُ الأَياطِلِ ، كِرَامُ النَّوَاجِلِ ^(٦) . »
(الأمال ١ : ٥٢)

٨٩ - أعرابي يصف فرساً

ووصف بعض الأعراب فرساً فقال : « قد انتهى ضُورُه ، وَذَبَلُ فَرِيرُه ^(٧) ،
وظهر حَصِيرُه ^(٨) ، وتقلقت غُرُورُه ^(٩) ، واسترخت شاكيلته ^(١٠) ، يُقبل بزور
الأسد ، وَيُدْبِر بعَجْزِ الذئب ^(١١) . » (البيان والقبين ٣ : ٢٢٣ ، والأمال ٢ : ٢٥٦)

(١) للغيار . (٢) أوائلها . (٣) الحصائل جمع خصيلة : وهي كل قطعة من اللحم مستطيلة أو
مجتمعة ، وقيل : هي ما انماز من لحم الفخذ يفضه من بعض ، وسباط جمع سبط ككف وشمس ، رجل
سيط الجسم إذا كان حسن القد والامتواء : وظماء : ضمير . (٤) الأباجل جمع أبجل : وهو عرق
غليظ في الرجل أو في اليد ، يريد أنها شداد القوائم . (٥) الأياطل جمع أيطل : وهو الخاصرة ،
قب جمع أقب ، وصف من القبيب كسبب وهو دقة الحصر وضمور البطن ، والنواجل جمع ناجلة ، من
نجلته : أي ولدته . (٦) الفرير : موضع الحجمة من معرفة الفرس .
(٧) الحصير : عرق يمتد معترضاً على جنب الدابة إلى ناحية بطنها ، أو لحمه كذلك .
(٨) الغرور : النضون التي في جلده ، واحدها غر بالفتح . (٩) الشاكلة من الفرس : الملهدين
عرض الخاصرة والذفنة - والثفنة كفرحة : الركبة - .

٩٠ - أعرابي يصف خاتماً

وقال أعرابي يصف خاتماً : « شَفَّ^(١) تقديرُ حَلَقَتِه ، وَدُوَّرَ كَرْسِي فِضْتِه ،
وَأَحْكَمَ تَرْكِيْبِه ، وَأَتَقَنَ تَدْبِيْرِه ، فَبِهَ يَتِمُّ الْمُلْكُ ، وَيَنْفُذُ الْأَمْرُ ، وَيَكْرُمُ الْكِتَابُ ،
وَيَشْرُفُ الْمَكْتُوبُ إِلَيْهِ » . (المقدم الفرید ٢ : ٩٧)

٩١ - أعرابي يصف أطيب الطعام

وقال عبد الملك لأعرابي : « ما أطيبُ الطعام ؟ » ، فقال : « بَكْرَةٌ سِنَمَةٌ^(٢) ،
مُعْتَبَطَةٌ غَيْرُ ضَمِنَةٍ ، فِي قُدُورٍ رَذْمَةٌ^(٣) ، بِشْفَارٍ خَدِمَةٌ^(٤) ، فِي غَدَاةٍ شِبْمَةٌ^(٥) » ، فقال
عبد الملك : « وَأَبْيَكُ لَقَدْ أَطْيَبْتَ^(٦) . (البيان والتبيين ١ : ١٦٢)

٩٢ - أعرابي يصف السوق

وعاب رجل السوق^(٧) بِحَضْرَةِ أَعْرَابِي فَقَالَ : « لَا تَعْبَهُ ، فَإِنَّهُ عُدَّةُ الْمَسَافِرِ ،
وِطْعَامُ الْعَجَلَانِ ، وَغِذَاءُ الْمُبَكَّرِ ، وَبَلْفَعَةٌ^(٨) الْمَرِيضِ ، وَيَسْرُو^(٩) فَوَادَ الْحَزِينِ ،
وَيَرُدُّ مِنْ نَفْسِ الْمَحْدُودِ^(١٠) ، وَجَيِّدٌ فِي التَّسْمِينِ ، وَمَنْعُوتٌ فِي الطَّبِّ ، وَقَفَّارُهُ^(١١) يَحْلُو

(١) رقى .

(٢) البكرة : الفتية من الإبل ، والسنة : العظيمة العنام ، وفعله كفرح ، عبط الذهبية كضرب
واعبطها : نحرها من غير علة وهي سمينة فتية ، والضمنة : الزمنة والمبتلاة في جسدها من السنة كفرصة
وهي المرض . (٣) رذمت القصعة كفرح فهي رذمة ورذوم كصبور : امتلأت وتصببت جوانبها .
(٤) شفار جمع شفرة « بالفتح » : وهي للسكين للعظيم ، وخدمه كضربه : قطعه ، وسيف خذم
ككتف وصبور ومعظم : قاطع . (٥) الغداة : البكرة « بالضم » أو ما بين صلاة للفجر وطلوع
الشمس ، وشبمة : باردة ، وفعلها كفرح . (٦) أطاب الشيء وأطيبه : وجده طيباً .

(٧) السوق : ما يعمل من الخنطة والشمير . (٨) ما يتبلغ به . (٩) يسرو : يكشف ما عليه .

(١٠) المحدود : الذي قد حد أي قد ضرب الحد . (١١) القفار : الذي لم يلت بشيء من آدم ،

لا زيت ولا سمن ولا لبن . يقال طعام قفار .

الْبَلْغَمَ ، وملتوته يُصْقَى الدم ، وإن شئت كان شراباً ، وإن شئت كان طعاماً ، وإن شئت فتريداً ، وإن شئت فخبيصاً^(١) . (الأمال ٢ : ١٩٧)

٩٣ - أعرابي يصف الجمال

وقيل لأعرابي ما الجمال ؟ قال : « طول القامة ، ووضخم^(٢) الهامة ، ورُحْب^(٣) الشَّدق ، وبعْد الصوت » . وسئل آخر : ما الجمال ؟ قال « غُور العينين ، وإشراف الحاجبين ، ورُحْب الشَّدقين » . (البيان والتبيين ١ : ٦٧)

٩٤ - أبو المخش يصف ابنه

وسأل جعفر بن سليمان أبا المخش عن ابنه المخش^(٤) - وكان جزع عليه جزعاً شديداً - قال : صف لي المخش ، فقال : « كان أشدق خُرطمانياً^(٥) ، سائلاً لعابهُ ، كأنما ينظر من قَلتَيْن^(٦) ، كأن ترْقُوتَهُ بُوانٌ ، أو خالفةٌ ، كأن منكبه كِرْكِرَةٌ جملٍ ثَقَالٍ^(٧) ، فقا الله عيني إن كنت رأيتُ قبله أو بعده مثله » . (البيان والتبيين ١ : ٦٧)

٩٥ - أعرابي يصف بنيه

عن عبد الرحمن عن عمه قال : قلت لأعرابي بحمي الرَبْدَةِ : أَلَاكَ بَنُونَ ؟ قال : نعم ، وخالقهم لم تُقم عن مثلهم مُنْجِبَةٌ ، فقلت : صفهم لي ، فقال : « جهم ! وما جهم ؟

(١) الخبيص : نقي اللدقيق يخلط بالعمل .

(٢) وضخم ككرم ضخماً وضخامة فهو وضخم . (٣) رحب ككرم وسمع رحباً بالضم ورحابة فهو

رحب بالفتح . (٤) المخش في الأصل : الجري على العمل في الليل .

(٥) أشدق : واسع الشدقين : خرطمانياً : طويل . (٦) القلت : للنفرة في الجبل .

(٧) البوان : عمود للخياء ، والخالفة : عمود من أعمدة البيت في مؤخره ، والكركرة : رحى زور

البعير وبمير ثقالة : بطيء .

يُنْضِي الوَهْمَ ، وَيَصُدُّ الدَّهْمَ^(١) ، وَيَفْرِي الصُّفُوفَ ، وَيَعْلُ السُّيُوفَ^(٢) ، قلت :
 ثم من قال : « غَشَمْتُمْ ! وما غَشَمْتُمْ ؟ مَالُهُ مُقَسَّمٌ ، وَقِرْنُهُ مُجْرَجَمٌ^(٣) ، جِذْلُ
 حِكَاكٍ^(٤) ، وَمِدْرَةٌ لِكَاكٍ^(٥) » ، قلت : ثم من قال : « عَشْرَبٌ ! وما عَشْرَبٌ ؟
 لَيْثٌ مُحْرَبٌ ، وَسِمَامٌ مُقَشَّبٌ^(٦) ، ذِكْرُهُ بَاهِرٌ ، وَخَصْمُهُ عَائِرٌ ، وَفِنَاؤُهُ رُحَابٌ^(٧) ،
 وَدَاعِيهِ مُجَابٌ^(٨) » قلت : صف لي نفسك ، فقال : « لَيْثٌ أَبُو رِيَابِلٍ^(٩) ، رَكَّابٌ مَعَاضِلُ
 عَسَافٍ^(١٠) مُجَاهِلٌ ، حَمَالٌ أَعْبَاءٌ ، نَهَاضٌ بِيَزْلَاءٍ^(١١) » . (الأمل ٢ : ٥٣)

٩٦ - أعرابي يصف أخويه

عن العُتْبِيِّ قَالَ أَخْبَرَنِي أَعْرَابِيٌّ عَنْ إِخْوَةِ ثَلَاثَةٍ ، قَالَ : قُلْتُ لِأَحَدِهِمْ : أَخْبِرْنِي
 عَنْ أَخِيكَ زَيْدٍ فَقَالَ : « أَزِيدٌ إِنِّيهِ^(١١) ؟ وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَسْكَنَ فَوْرًا ، وَلَا أَبْعَدَ
 غَوْرًا ، وَلَا آخَذَ لِدَنْبٍ حُجَّةً قَدْ تَقَدَّمَ رَأْسُهَا مِنْ زَيْدٍ » ، فَقُلْتُ : أَخْبِرْنِي عَنْ أَخِيكَ
 زَائِدٍ قَالَ : « كَانَ وَاللَّهِ شَدِيدَ الْعُقْدَةِ ، لَيْنَ الْعَطْفَةِ ، مَا يُرْضِيهِ أَقْلٌ مِمَّا يُسْخِطُهُ ، فَقُلْتُ :
 فَأَخْبِرْنِي عَنْ نَفْسِكَ ، فَقَالَ : « وَاللَّهِ إِنْ أَفْضَلَ مَا فِيَّ لَمْ عَرَفْتِي بِفَضْلِهِمَا ، وَإِنِّي مَعَ ذَلِكَ
 لَغَيْرُ مُنْتَشِرٍ^(١٢) الرَّأْيِ ، وَلَا مَخْذُولُ الْعَزْمِ » . (الأمل ٢ : ١٤)

- (١) ينضي : يهزل ، والوهم : الضخم العظيم من الإبل ، والدهم : العدد الكثير .
 (٢) يفري : يشق ، ويميل : أي يوردها للدماء ثمانية ، مأخوذ من العليل في الشرب .
 (٣) المجرجم : المصروع . (٤) الجذل : أصل الشجرة ، وذلك أن الإبل الجرب تحتك به فتعجه
 له لذة ، والمعنى أنه من يستشقي به في الأمور بمنزلة ذلك الجذل الذي تستشقي به الإبل .
 (٥) المدرة : لسان القوم ، والمنكلم عنهم ، والدافع عنهم ، يقال : درهته هي ودرأته : أي دفعته ،
 واللكاز : الزحام . (٦) الحرب : المغضب الذي قد اشتد غضبه واحتد ، وحربت للسكران : إذا
 أحدثته ، ومقشَّب : مخلوط . (٧) باهر غالب ، ورحاب : متسع .
 (٨) ربابيل جمع ربيال بالكسر يهمز ولا يهمز : وهو الأمد ، والمعاضل : الدواعي .
 (٩) العساف : الذي يركب الطريق حل غير هداية ، والأعباء : الأثقال .
 (١٠) البزلاء : الرأي الجليد الذي يهزل (يضم الزاي) عن الصواب : أي يشق عنه .
 (١١) قال أبو هريرة : « هذه الزيادة تلحق في الاستفهام في آخر الكلمة إذا أنكرت أن يكون
 رأى المتكلم على ما ذكر ، أو يكون على خلاف ما ذكر » انظر هذا المبحث في الأمل ٢ : ١٥ .
 (١٢) أي مفرقة .

قولهم في الدعاء

٩٧ - دعاء أعرابي

قال أبو حاتم : أملى علينا أعرابيّ يقال له مرثد :

« اللهم اغفر لي ، والجِلْدُ بارد ، والنفسُ رَطْبَةٌ ، واللسانُ منطلق ، والصحفُ منشورة ، والأقلامُ جارية ، والتوبةُ مقبولة ، والأنفسُ مِرْيَجَةٌ^(١) ، والتضرّعُ مرجوٌّ ، قبل أن يفراق ، وحَشَكِ النفسِ^(٢) ، وعَلَزِ الصدرِ^(٣) ، وتَزَيَّلِ الأوصالَ^(٤) ، ونُصُولِ الشعرِ ، واحتيافِ^(٥) الترابِ ، وقبل أن لا أقدر على استغفارك حينَ يَفْنَى العملُ ، ويحضرُ الأجلُ ، وينقطع الأملُ .

أعِنِّي على الموتِ وكُرْبَتِهِ ، وعلى القبرِ وعَمَّتِهِ^(٦) ، وعلى الميزانِ وخِفَّتِهِ ، وعلى الصِّراطِ وزَلَّتِهِ ، وعلى يومِ القيامةِ وَرَوْعَتِهِ ، اغفر لي مغفرةَ عَزَمًا ، لا تغادرِ ذنبًا ، ولا تدعُ كَرَبًا ، اغفر لي جميع ما افترضتَ عليّ ولم أؤدّه إليك ، اغفر لي جميع ما تُبِتُ إليك منه ثم عدت فيه .

يا رب تظاهرت^(٧) علىّ منك النعمُ ، وتداركتَ عندك مني الذنوبُ ، فلك الحمد على النعم التي تظاهرتَ ، وأستغفرك للذنوب التي تداركتَ ، وأمسيتَ عن عذابي غنيًّا ، وأصبحتُ إلى رحمتك فقيرًا .

(١) مرج كفرح : أشر وبطر ونشط واختال وتبختر فهو مرج ومرج .

(٢) الحشك : شدة النزح . (٣) العلز : قلق وخفة وهلع يصيب المريض والمحتضر .

(٤) تزيلت وتزايلت : تفرقت ، والأوصال : المفاصل . (٥) الاحتياف : افتعال من الحيف وهو

الجور ، والمراد أكل تراب القبر الجثة ، والذي في كتب اللغة « التحيف » تحيفت الشيء : إذا تنقصته من حافاته .

(٦) فعله من غم الشيء : أي غطاه فانغم ، أراهي « غمته » بالضم : أي بلائه وكرب عذابه .

(٧) من تظاهروا إذا تعاونوا : أي تتابعت .

اللهم إني أسألك نجاح الأمل ، عند انقطاع الأجل ، اللهم اجعل خير عملي ما ولى
أجلى ، اللهم اجعلني من الذين إذا أعطيتهم شكروا ، وإذا ابتليتهم صبروا ، وإذا
أذكرتهم ذكروا ، واجعل لي قلباً تواباً أو اباً ، لا فاجراً ولا مرتاباً ، اجعلني من
الذين إذا أحسنوا ازدادوا ، وإذا أساءوا استغفروا .

اللهم لا تحقق عليَّ العذاب^(١) ، ولا تقطع بي الأسباب ، واحفظني في كل ما تحيط
به شفقتي ، وتأتي من ورائه سبحتي^(٢) ، وتمجيز عنه قوتي ، أدعوك دعاء ضعيفٍ عمله ،
مظاهرة ذنوبه ، ضنينٍ على نفسه ، دعاء من بدنه ضعيفٌ ، ومُنته^(٣) عاجزة ، قد
انتهت عُدتُه ، وخلقت^(٤) جدته ، وتمَّ ظمؤه . اللهم لا تخيبنني وأنا أرجوك ، ولا
تعذبني وأنا أدعوك ، والحمد لله على طول النسيئة^(٥) ، وحسن التباعة^(٦) ، وتشجج
العروق ، وإساعة الريق ، وتأخر الشدائد ، والحمد لله على حلمه بعد علمه ، وعلى عفوه
بعد قدرته ، والحمد لله الذي لا يودى^(٧) قتيله ، ولا يخيب سؤله ، ولا يرد رسوله ،
اللهم إني أعوذ بك من الفقر إلا إليك ، ومن الذل إلا لك ، وأعوذ بك أن أقول
زوراً ، أو أعشى فجوراً ، أو أكون بك مغروراً ، وأعوذ بك من شماتة الأعداء ،
وعُضال الداء ، وخيبة الرجاء ، وزوال النعمة .

(العقد المفريد ٢ : ٧٧ ، والبيان والتبيين ٣ : ٢٢٤ - ١٢٧ - ١٣٨)

(١) يشير إليه قوله تعالى : « أَمِنَ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ » .

(٢) فعلة من لاسج : وهو الثقل والانتشار في الأرض ، والإبعاد في السير ، والتصرف في المعاش .

(٣) المنة : القوة .

(٤) خلق الثوب كنصر وكرم وسمع : بلى ، والظم : ما بين الشربتين والوردتين .

(٥) الإمهال والتأخير . (٦) التباعة مثل التبعة بفتح فكسر . قاله للشاعر :

أكلت حنيفة ربهما زمن للتقحم والمجاهة

لم يحدروا من ربهم سوء العواقب والتباعة

• لأنهم كانوا قد اتخذوا لها من حيس فعبدها زمنًا ، ثم أصابتهم مجاعة فأكلوه . - والحيس كشمس :
تمر يخلط بالسمن والبن الحبيص فيصجن شديداً ، ثم ينذر منه نواه .

(٧) ودى للقتيل كوعى : أعطى ديته ، والسول : وهو ما سأله .

٩٨ - دعاء أعرابي

ودعا أعرابي وهو يطوف بالكعبة فقال :

« إلهي مَنْ أَوْلَى بالتَّصْيِيرِ وَالزَّلْزَلِ مِنِّي وَأَنْتَ خَلَقْتَنِي ؟ وَمَنْ أَوْلَى بِالْعَفْوِ مِنْكَ عَنِّي وَعِلْمِكَ بِي مَاضٍ ، وَقَضَاؤِكَ بِي مُحِيطٌ ؟ أَطَعْتُكَ بِقُوَّتِكَ وَالْمِنَّةَ لَكَ ، وَعَصَيْتُكَ بِعِلْمِكَ ، فَاسْأَلُكَ يَا إِلَهِي - بِوَجُوبِ رَحْمَتِكَ وَانْقِطَاعِ حُجَّتِي ، وَافْتِقَارِي إِلَيْكَ وَغِنَاكَ عَنِّي - أَنْ تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي .

إلهي لَمْ أَحْسِنْ حَتَّى أُعْطَيْتَنِي ، فَتَجَاوَزْ عَنِ الذُّنُوبِ الَّتِي كَتَبْتَ عَلَيَّ ، اللَّهُمَّ إِنَّا أَطَعْنَاكَ فِي أَحَبِّ الْأَشْيَاءِ إِلَيْكَ : شَهَادَةَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ وَحَدَاكَ لَا شَرِيكَ لَكَ ، وَلَمْ نَعْصِكَ فِي أَبْغَضِ الْأَشْيَاءِ إِلَيْكَ : الشَّرْكَ بِكَ ، فَاغْفِرْ لِي مَا بَيْنَ ذَلِكَ .

اللهم إِنَّكَ أَنْسُ الْمُؤْنِسِينَ لِأَوْلِيَائِكَ ، وَأَحْضَرُهُمُ لِلْمُتَوَكِّلِينَ عَلَيْكَ ، إِلَهِي أَنْتَ شَاهِدُهُمْ وَغَائِبُهُمْ ، وَالْمَطَّلَعُ عَلَى ضَمَائِرِهِمْ ، وَسِرِّي لَكَ مَكْشُوفٌ ، وَأَنَا إِلَيْكَ مَلْهُوفٌ ، إِذَا أَوْحَشْتَنِي الْغُرْبَةَ أَنْسَنِي ذِكْرُكَ ، وَإِذَا أَكْبَتَّ عَلَيَّ الْغُمُومُ لَجَأْتُ إِلَى الْإِسْتِجَارَةِ بِكَ ، عَلِمًا بِأَنَّ أَرْزَمَةَ الْأُمُورِ كُلِّهَا بِيَدِكَ ، وَمَصْدَرُهَا عَن قَضَائِكَ ، فَأَقِلِّني ^(١) إِلَيْكَ مَغْفُورًا لِي ، مَعْصُومًا بِطَاعَتِكَ بَقِيَّةَ عَمْرِي ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ .

٩٩ - دعاء أعرابي

وقال الأصمعي : حَجَّجْتَ فَرَأَيْتَ أَعْرَابِيًّا يَطُوفُ بِالْكَعْبَةِ وَيَقُولُ :

يَا خَيْرَ مَوْفُودٍ سَعَى إِلَيْهِ الْوُفْدُ ^(٢) ، قَدْ ضَعُفَتْ قُوَّتِي ، وَذَهَبَتْ مَنَّتِي ، وَأَنْتَ إِلَيْكَ بِذُنُوبٍ لَا تَفْسِلُهَا الْأَنْهَارُ ، وَلَا تَحْمِلُهَا الْبِحَارُ ، أَسْتَجِيرُ بِرِضَاكَ مِنْ سُخْطِكَ ، وَبِعَفْوِكَ مِنْ عَقُوبَتِكَ ، ثُمَّ التَفَتَ فَقَالَ : « أَيُّهَا الْمَشْفِقُونَ ، ارْحَمُوا مَنْ شَمَلَتْهُ الْخَطَايَا ،

(١) أَقْلَهُ : حَمَلَهُ . (٢) وَفَدَهُ إِلَيْهِ وَعَلَيْهِ : قَدَّمَ ، وَهُمْ وَفُودٌ وَوَفْدٌ كَهَمْسٍ وَرَكْعٌ وَأَرْفَادٌ .

وَعَمَّرَتْهُ الْبَلَايَا ، اِرْحَمُوا مِنْ قَطْعِ الْبِلَادِ ، وَخَلَّفَ مَا مَلَكَ مِنَ التَّلَادِ . اِرْحَمُوا مِنْ وَبَّخْتِهِ
الذُّنُوبِ ، وَظَهَّرَتْ مِنْهُ الْعُيُوبِ ، اِرْحَمُوا أَسِيرَ ضُرٍّ ، وَطَرِيدَ فَقْرٍ ، أَسْأَلُكُمْ بِالَّذِي
أَعْمَلْتُمْ الرَّغْبَةَ إِلَيْهِ ، إِلَّا مَا سَأَلْتُمْ اللَّهَ أَنْ يَهَبَ لِي عَظِيمَ جُرْمِي « ، ثُمَّ وَضَعَ فِي حَلْقَتِهِ
بِالْبَابِ خَدَّهُ وَقَالَ : ضَرَعَّ خَدِي لَكَ ، وَذَلَّ مَقَامِي بَيْنَ يَدَيْكَ ، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ :

عَظِيمُ الذَّنْبِ مَكْرُوبٌ مِنْ الْخَيْرَاتِ مَسْلُوبٌ
وَقَدْ أَصْبَحْتُ ذَا فَقْرٍ وَمَا عِنْدَكَ مَطْلُوبٌ

١٠٠ - دَعَاءُ أَعْرَابِي

وَسَمِعَ أَعْرَابِي بَعْرَفَاتٍ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ وَهُوَ يَقُولُ :

« اللَّهُمَّ إِنَّ هَذِهِ عَشِيَّةٌ مِنْ عَشَايَا مَحَبَّتِكَ ، وَأَحَدُ أَيَّامِ زُلْفَتِكَ ^(١) ، يَا مُلِّمٌ فِيهَا مِنْ
لَجَأٍ إِلَيْكَ مِنْ خَلْقِكَ أَنْ لَا يُشْرِكَ بِكَ شَيْئًا ، بِكُلِّ لِسَانٍ فِيهَا يُدْعَى ، وَلِكُلِّ خَيْرٍ فِيهَا
يُرْجَى ، أَتَيْتَ الْعَصَاةَ مِنَ الْبَلَدِ السَّحِيقِ ^(٢) ، وَدَعَيْتَ الْعُنَاةَ ^(٣) مِنْ شُعْبِ الْمَضِيقِ ،
رَجَاءً مَا لَا خُلْفَ لَهُ مِنْ وَعْدِكَ ، وَلَا انْقِطَاعَ لَهُ مِنْ جَزِيلِ عَطَائِكَ ، أَبَدَتْ لَكَ وَجُوهَهَا
الْمُصُونَةَ ، صَابِرَةً عَلَى وَهَجِ السَّمَامِ ^(٤) ، وَبَرَدَ اللَّيَالِي ، تَرْجُو بِذَلِكَ رِضْوَانَكَ ،
يَا غَفَّارُ ، يَا مُسْتَزَادًا مِنْ نِعْمِهِ ، وَمُسْتَعَاذًا مِنْ نِقَمِهِ ، اِرْحَمِ صَوْتَ حَزِينِ دَعَاكَ
بِرَفِيرٍ وَشَهِيْقٍ . »

ثُمَّ بَسَطَ كِلْتَا يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ وَقَالَ : « اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ بَسَطْتُ يَدَيَّ إِلَيْكَ دَاعِيًا

(١) الزلقة : للقربة . (٢) البعيد . (٣) العنائة جمع عنان من هنا : أى ذل وخضوع ، وفى
رواية الأماي : « أتيتك بالضوامر من الفج العميق ، وجاءت إليك المهارق من شعب المضيق » والضوامر
الإبل المهزولة ، والمهارق جمع مهرق (بضم الميم وفتح الراء) : الصحراء الملحاء .

(٤) السمام جمع سموم كصبور : وهى الريح الحارة تكون غالباً بالنهار ، وفى رواية الأماي : « على لفتح
السمام ، وبرد ليل التمام » - وليل التمام (ككعباب) وليل تمامي : أطول ليالى الشتاء - وفى رواية
الأماي : « نمتك تظاهرها على عند القفلة ، فكيف أياس منها عند الرجمة » - وأصل القفل
(بالتحريك) : والرجوع من السفر : ويطلق على الابتداء فى السفر كما هنا تفاؤلا بالرجوع - .

فطالما كَفَيْتَنِي ساهياً ، بنعمتك التي تظاهرت على عِنْدِ الغفلة ، فلا أياس بها عند التوبة ، لا تقطع رجائي منك لما قدّمت من اقرار^(١) آثامك ، وإن كنت لا أصل إليك إلا بك ، فهب لي ياربّ الصلاح في الولد ، والأمن في البلد ، والعافية في الجسد وعافني من شرّ الحسد ، ومن شرّ الدهر النكد^(٢) .

(العقد المفيد ٢ : ٧٧ ، والأمال ٢ : ٢٢٣)

١٠١ - دعاء أعرابي

ودعا أعرابي فقال : « يَا عِمَادَ مَنْ لَاعِمَادَ لَهُ ، وَيَارُ كُنَّ مِنْ لَارُ كُنَّ لَهُ ، وَيَا مُجِيرَ الضَّعْفَى^(٣) ، وَيَا مُنْقِذَ الْهَلْكَى ، وَيَا عَظِيمَ الرَّجَاءِ ، أَنْتَ الَّذِي سَبَّحَ لَكَ سَوَادُ اللَّيْلِ ، وَبَيَاضُ النَّهَارِ ، وَضَوْءُ الْقَمَرِ ، وَشُعَاعُ الشَّمْسِ ، وَحَفِيفُ الشَّجَرِ ، وَدَوَى الْمَاءِ^(٤) يَا مُحْسِنَ ، يَا مُجْمِلَ ، يَا مُفْضِلَ ، لَا أَسْأَلُكَ الْخَيْرَ بَخِيرِهِمْ عِنْدَكَ ، وَلَكِنِّي أَسْأَلُكَ بِرَحْمَتِكَ ، فَاجْعَلِ الْعَافِيَةَ لِي شِعَارًا وَدِنَارًا^(٥) ، وَجَنَّةَ دُونَ كُلِّ بَلَاءٍ . »

١٠٢ - دعاء أعرابي

وقال الأصمعي : سمعت أعرابياً في فلاة من الأرض ، وهو يقول في دعائه :
« اللَّهُمَّ إِنْ اسْتَفْغَرِي إِيَّاكَ مَعَ كَثْرَةِ ذُنُوبِي لِلْوُؤْمِ ، وَإِنْ تَرَكِي الْاسْتَفْغَارَ مَعَ مَعْرِفَتِي بِسَعَةِ رَحْمَتِكَ لَعَجْزٍ ، إِلَهِي كَمْ تَحَبَّبْتَ إِلَيَّ بِنِعْمَتِكَ ، وَأَنْتَ غَنَيْتَنِي ، وَكَمْ أَتَبَغَّضْتُ إِلَيْكَ بِذُنُوبِي ، وَأَنَا فَقِيرٌ إِلَيْكَ ، سَبَّحَانَ مَنْ إِذَا تَوَعَّدَ عَفَا ، وَإِذَا وَعَدَ وَفَى . »

(١) اقرت الذنب : آثامه وفعله .

(٢) يقال : رجل نكد ككثف وسبب وشمس وأنكد : شوم عسر .

(٣) الضعيف جمع ضعيف . (٤) المعنى : أن هذه الكائنات تدعو المتأمل فيها إلى تسبيحه جل شأنه .

(٥) الشعار : ما يلبس هل شعر الجسد ، والدثار : ما يلبس فوق الشعار ، والجنة : الرقاية .

١٠٣ - دعاء أعرابي

قال : وسمعت أعرابياً يقول في دعائه : « اللهم إن ذنوبي إليك لاتُضرك ؛ وإن رحمتك إياي لاتنقصك ، فاغفر لي مالا يضرُك ، وهب لي مالا ينقصك » .

١٠٤ - دعاء أعرابي

وقال : سمعت أعرابياً وهو يقول في دعائه : « اللهم إني أسألك عمل الخائنين ، وخوف العاملين حتى أتنعّم بترك النعيم^(٤) طمعاً فيما وعدت . وخوفاً مما أوعدت اللهم أعذني من سطواتك ، وأجرني من نِقَمَاتك ، سبقت لي ذنوبٌ ، وأنت تغفر لمن يحب^(٥) ، إليك بك أتوسلُ ، ومنك إليك أفرُّ » .

١٠٥ - دعاء أعرابي

وقال : سمعت أعرابياً يقول : « اللهم إن قوما آمنوا بك بألسنتهم ، ليحِقنوا دماءهم ، فأدرِكوا ما أمَلُوا ، وقد آمنَّا بك بقلوبنا ، لتُجيرنا من عذابك ، فأدرِك منا ما أمَلناه » .

١٠٦ - دعاء أعرابي

قال : ورأيت أعرابياً متعلقاً بأستار الكعبة ، رافعاً يديه إلى السماء ، وهو يقول : « ربِّ أترك معدِّبنا ، وتوحيدك في قلوبنا ؟ وما إخالك تفعل ! ولئن فعلت لَتَجْمَعُنَا مع قوم طالبا أبعضناهم لك » .

١٠٧ - دعاء أعرابي

وقال: سمعت أعرابياً يقول في صلاته : « الحمد لله حمداً لا يبلى جديده ، ولا يُحصى عديده^(١) . ولا يُبلغ حدوده ، اللهم اجعل الموت خيراً غائباً نتظره ، واجعل القبر خيراً بيّت نعمره ، واجعل ما بعده خيراً لنا منه . اللهم إن عينيّ قد أغرورقتا دموعاً من خشيتك ، فاغفر الزّلة ، وعدّ بحلمك ، على جهل من لم يرجُ غيرك » .

١٠٨ - دعاء أعرابي

وقال : رأيت أعرابياً أخذ بحلقتي باب الكعبة وهو يقول :
« سائلك عند بابك ، ذهبَت أيامه ، وبقيت آثامه ، وانقطعت شهوته ، وبقيت تباغته ، فارضَ عنه ، وإن لم ترضَ عنه فاعفُ عنه غير راض » .

١٠٩ - دعاء أعرابي

قال : ودعا أعرابي عند الكعبة فقال : « اللهم إنه لاشرفَ إلا بفعال ، ولا فعال إلا بمال ، فأعطني ما أستعينُ به على شرف الدنيا والآخرة » .

١١٠ - دعاء أعرابي

عن طاوُس قال : « بينا أنا بمكة إذ دفعت إلى الحجاج بن يوسف ، فثنى لي وماداً فجاست ، فبينما نحن نتحدث إذ سمعتُ صوت أعرابي في الوادي رافعاً صوته بالتلبية ،

فقال الحجاج . على بالمدني . فأُتِيَ به فقال : مَنْ الرَّجُلُ ؟ قال : مِنْ أَفْنَاءِ النَّاسِ ^(١) .
قال : ليس عن هذا سألتك . قال : نَعَمْ سَأَلْتَنِي . قال : من أي البلدان أنت ؟
قال : من أهل اليمن . قال له الحجاج . فكيف خلقت محمد بن يوسف - يعني أخاه .
وكان عامله على اليمن - قال : خلفته عظيمًا جسيمًا خراجًا ولاجا . قال . ليس عن هذا
سألتك ، قال : نَعَمْ سَأَلْتَنِي ، قال : كيف خلقت سيرته في الناس ؟ قال : خلفته ظلوماً
غشوماً ^(٢) ، عاصياً للخالق ، مُطِيعاً للمخلوق ، فازور ^(٣) من ذلك الحجاج ، وقال .
ما أقدمك لهذا ، وقد تعلم مكانته مني ! فقال له الأعرابي : أفترأه بمكانة منك أعز مني
بمكانتي من الله تبارك وتعالى ، وأنا وافر بيتي ، وقاضي دينه ، ومصدق نبيه
صلى الله عليه وسلم ؟ فَوَجَمَ ^(٤) لها الحجاج ، ولم يُجِر له جواباً ^(٥) ، حتى خرج الرجل
بلا إذن .

قال طاوس : فتبعته حتى أتى المذمّم فتعلق بأستار الكعبة ، فقال : بك أعوذ ،
وإليك ألوذ ، فاجعل لي في اللهف إلى جوارك ، والرّضا بضمانك ، مندوحة ^(٦) ،
عن منع الباخلين ، ورغني عما في أيدي المستأثرين ، اللهم عدّ بفرجك القريب ، ومعروفك .
القديم ، وعادتك الحسنّة .

قال طاوس : ثم اختفى في الناس ، فألفيته بعرفات قائماً على قدميه وهو يقول :
« اللهم إن كنت لم تقبل حجّي ونصبي ^(٧) وتعبّي ، فلا تحرمني أجر المصاب على
مصيبته ، فلا أعلم مصيبة أعظم ممن ورد حوضك ، وانصرف محروماً من
وجه رغبتك . »

(١) يقال « هو من أفناء الناس » إذا لم يعلم من هو ، واحده فنوكمحل أو فناكمصا .
(٢) ظلوماً . (٣) ازور : انصرف وماال : أي غضب منه . (٤) وجم : سكت على غيظ .
(٥) أي لم يردده . (٦) أي متسما .
(٧) في الأصل « ونسبي » وأراه محرفاً عن « نصبي » ، ويؤيده قوله بعد « وتعبى » .

١١١ - دعاء أعرابي

وقال الأصمعي . رأيت أعرابياً يطوف بالكعبة وهو يقول :

« إلهي عَجَّتْ^(١) إليك الأصواتُ ، بضروبٍ من اللغات ، يسألونك الحاجات
وحاجتي إليك إلهي أن تذكرني على طول البكاء ، إذا نسيتني أهلُ الدنيا ، اللهم هب لي
حقك ، وأرض عني خلقك ، اللهم لاتُعِينِي في طلب مالم تقدِّره لي ، وما قدَّرتَه لي
فيسِّرَه لي . »

١١٢ - دعاء أعرابي

قال : ودعت أعرابية لابن لها وجهته إلى حاجة فقالت : « كان الله صاحبك
في أمرك ، وخليفتك في أهلك ، وَوَلِيُّ نَجْحِ طَلِبَتِكَ^(٢) ، امضِ مُصَاحِبًا مَكْلُوءًا^(٣) ،
لا أشمت الله بك عدوًّا ، ولا أرى مُحِبِّكَ فيك سوءًا . »

(المعجم الفريد ٢ : ٧٦ - ٧٩)

١١٣ - دعاء أعرابي

وقال الأصمعي : خرجت أعرابية إلى مني فقتطع بها الطريق فقالت :

« يارب . أعطيت وأخذت ، وأنعمت وسلبت ، وكلُّ ذلك منك عدلٌ وفضلٌ ،
والذي عظم على الخلائق أمرك ، لا بسطت لساني بمسألة أحدٍ غيرك ، ولا بدلت
رغبتى إلا إليك ، يا قُرَّةَ أعين السائلين : أغنني بحُجُودٍ منك أتجيب^(٤) في فراديس

(١) صج يعج بكسر الميم وفتحها : صاح ورفع صوته .

(٢) النجح : النجاح ، والطلبية : ما طلبته . (٣) من كلاءه كمنه : حرسه .

(٤) تجيب : تمكن في المقام والحلول ، وتبيح الدار : توسطها ، والفراديس جمع فردوس

نِعْمَتَهُ ، وَأَتَقَلَّبَ فِي رُؤُوقٍ نَضَّرَتْهُ ^(١) أَحْلَى مِنْ الرَّجْلَةِ ^(٢) ، وَأَغْنَى مِنَ الْعَيْلَةِ ،
وَأَسْدَلُ عَلَى سِتْرِكَ الَّذِي لَا تَخْرِقُهُ الرِّيحُ ، وَلَا تُزِيلُهُ الرِّيحُ ، إِنَّكَ سَمِيعُ الدَّعَاءِ .
(البيان والتبيين ٢ : ٧٨ ، والمعقد للفريد ٣ : ١٣٨)

١١٤ - أدعية شتى

ومات ابن لأعرابي فقال : « اللهم إني وهبتُ له ما قَصَّرَ فيه من برِّي ، فهَبْ لي
ما قَصَّرَ فيه من طاعتك ، فإنك أجود وأكرم » .
(المعقد للفريد ٢ : ٧٩ ، والبيان والتبيين ٣ : ١٣٨)

* * *

ووقف أعرابي في بعض المواسم فقال : « اللهم إن لك عليَّ حقاً فتصدَّقْ بها عليَّ ،
وللناس تبعات قبلي فتحمَّلْها عني ، وقد أوجبت لكل ضيفٍ قرى ^(٣) ، وأنا ضيفك
الليلة ، فاجمل قرأى فيها الجنة » .
(المعقد للفريد ٢ : ٧٨ ، والبيان والتبيين ٢ : ٤٨)

* * *

وقال سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ : سمعت أعرابياً يقول عَشِيَّةَ عَرَفَةَ :
« اللهم لا تَحْرِمْنِي خَيْرَ مَا عِنْدَكَ لِشَرِّ مَا عِنْدِي ، وَإِنْ لَمْ تَتَقَبَّلْ تَعْمِي وَنَصِي ،
فَلَا تَحْرِمْنِي أَجْرَ الْمُصَابِ عَلَى مُصِيبَتِهِ » .
(زهر الآداب ٣ : ١٦٢)

* * *

وقال الأصمعي : سمعت أعرابياً يقول لرجل : « أطعمك الله الذي أطعمتني له ،
فقد أحببتني بقتل جوعي ، ودفعت عني سوء ظني ، فحفظك الله على كل جنب ، وفرج
عك كل كرب ، وغفر لك كل ذنب » .
(المعقد للفريد ٢ : ٨٤)

* * *

(١) في الأصل « رواق » وهو المصفاة ، وأراه محرفاً عن « رواق » وهو الفسطاط ، والنضرة :
النعمة والفضي . (٢) رجل كفرح فهو راجل ورجلان : إذا لم يكن له ظهير يركبه ، والرجلة بالفتح
ويكسر : شدة المشي ، والعيلة : الفقر .

(٣) قرى الضيف كرى ، قرى : أحسن إليه ، والقرى أيضا : ما قرى به الضيف .

عن الأصمعي قال : رأيت أعرابيا يصلي وهو يقول : أسألك الغفيرة^(١) ،
والناقة الغزيرة ، والشرف في العشيرة ، فإنها عليك يسيرة . (الأمال ٢ : ٢٣)

* * *

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت أعرابياً يدعو لرجل فقال : « جَنَّبِكَ اللهُ
الأمريين^(٢) ، وكفأك شرَّ الأجوفين^(٣) ، وأذأك البرددين^(٤) » .
(الأمال ٢ : ٧٢ ، والبيان والتبيين ٣ : ١٣٧)

* * *

ودعا أعرابي فقال : اللهم إني أسألك البقاء ، والنماء ، وطيب الإتياء^(٥) ،
وَحَطَّ الأعداء ، ورفع الأولياء . (البيان والتبيين ١ : ١٦٣)

* * *

وقال أعرابي : « اللهم لا تُنزلني ماء سوء ، فأكون امرأً سوءً » وقال أعرابي :
« اللهم قني عثرات الكرام » . (البيان والتبيين ١ : ٢١٥)

* * *

ووهب رجل لأعرابي شيئاً فقال : « جعل الله للمعروف إليك سبيلاً ، وللخير
عليك دليلاً ، وجعل عندك رِفْداً^(٦) جزيلاً ، وأبقاك بقاء طويلاً ، وأبلاك^(٧)
بلاء جيلاً » .

* * *

وقال الأصمعي : سمعت أعرابياً يدعو وهو يقول : اللهم ارزقني مالا أ كُتِبَ^(٨)
به الأعداء ، وبنين أصول بهم على الأقوياء . (البيان والتبيين ٣ : ٢٢٤)

(١) الغفيرة : المغفرة . (٢) الأمران : الفقر والهرم ، أو الجوع والمرض . (٣) الأجوفان :
الطن والفرج . (٤) البردان : برد العين وبرد العافية . (٥) الإتياء : الرزق ، من أتت الشجرة
أتوا وإتياء : طلع ثمرها ، أو بدأ صلاحها ، أو كثر حملها . (٦) الرfid : العطاء والصلوة .
(٧) الإبلاء : الإنعام والإحسان ، أبلت عنده بلاء حسناً ، وأبلاه الله بلاء حسناً .
(٨) كُتِبَ : صرعه وأذله ، ورد العدو بغيره .

ودعت أعرابية على رجل فقالت : « أمكن الله منك عدوًّا حسودًا ، وَجَع بك صديقًا ودودًا ، وسلط عليك همًّا يضيئك ، وجارًّا يؤذيك » .

(المقدم الفريد ٢ : ٩١)

* * *

ودعا أعرابي فقال : « أعود بك من الفواقر^(١) والبواقر ، ومن جارِ السوء ، في دار المقامة والظعن ، ومما ينكس رأس المرء ، ويُغري به لثام الناس » .

* * *

وقال أعرابي : « أعود بك من سقم ، وعداوة ذى رحم ودعواه ، ومن فاجرٍ وجدواه^(٢) ، وعمل لا ترضاه » .

(البيان والتبيين ٣ : ١٣٦)

* * *

ودعت أعرابية لرجل فقالت : « كبت الله كلَّ عدوك إلا نفسك » .
ودعا أعرابي فقال : « اللهم هب لي حَقَّك ، وأرض عني خلقك » .
وقال أعرابي : « اللهم إنك أمرتنا أن نَعفو عمن ظلمنا ، وقد ظلمنا أنفسنا فاعف عنا » .

(البيان والتبيين ٣ : ١٣٧)

* * *

وقال أعرابي : « منحكم الله منحة ليست بجداء ، ولا نكداء ، ولا ذات داء » .
وقال أعرابي : « اللهم إنك حبست عنا قطرَ السماء ، فذاب الشحم ، وذهب اللحم ورقَّ العظم ، فارحم أنين الآنة ، وحنين الحانة ، اللهم ارحم تحيرها في مراتعها ، وأنينها في مراتعها » .

* * *

(١) للفواقر جمع فاقرة : وهي الداهية ، والبواقر جمع باقرة : وهي الفتنة الصاهمة للألفة الشاقة للمصا .

(٢) الجدوى : العطية .

وحج أعرابي فقال : « اللهم إن كان رزقي في السماء فأنزله ، وإن كان في الأرض فأخرجه ، وإن كان نائياً فقرّبهُ ، وإن كان قريباً فيسرهُ » .

(البيان والتبيين ٣ : ١٢٨)

* * *

ومات ولد لرجل من الأعراب فصلى عليه ، فقال : « اللهم إن كنت تعلم أنه كريم الجدين ، سهّلُ الخدين ، فاغفر له وإلا فلا » .

(الأمل ١ : ٢٠٢)

* * *

وقالت أعرابية لرجل : « رماك الله بيلة لا أخت لها » أي لا تعيش بعدها .

(الأمل ١ : ٢١٧)

* * *

ودعا أعرابي فقال : « اللهم إني أعوذ بك أن أفترق في غناك ، أو أضلّ في هداك ، أو أذلّ في عزك ، أو أضامّ في سلطانك ، أو أضطهدّ والأمرُ إليك » .

(زهر الآداب ٣ : ١٦٤)

* * *

وقال الأصمى : سمعت أعرابية تقول : « اللهم ارزقني عملاً الخائفين ، وخوفَ العاملين ، حتى أنعمَ بترك التنعم ، رجاء لما وعدت ، وخوفاً مما أوعدت » .

وقال آخر : « اللهم من أراد بنا سوءاً فأحطه به كإحاطة القلائد ، بأعناق الولايد^(١) ، وأرسخه على هامته كرسوخ السجيل^(٢) ، على هام أصحاب الفيل » .

(زهر الآداب ٣ : ٢٤٦)

(١) الولايد جمع وليدة : وهي الصبية . (٢) السجيل : طين مطبوخ ، يشير إلى قوله تعالى :

« وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ، تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ » وأبَابِيل أي جماعات .

١١٥ - نوادر وملح لبعض الأعراب

«غزا أعرابي مع النبي صلى الله عليه وسلم فقتيل له : ما رأيت مع رسول الله في غزاتك هذه ؟ قال : وَضَعْنَا نِصْفَ الصَّلَاةِ^(١) ، وَأَرْجُو فِي الْغَزَاةِ الْآخَرَى أَنْ يَضَعَ النِّصْفَ الْبَاقِي .»

* * *

وَدَخَلَ أَعْرَابِي الْمَسْجِدَ ، وَالنَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسًا ، فَقَامَ يَصَلِّي ، فَلَمَّا فَرَغَ ، قَالَ : اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي وَمُحَمَّدًا ، وَلَا تَرْحَمْ مَعْنَا أَحَدًا ، « فَقَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : لَقَدْ تَحَجَّرَتْ^(٢) وَاسِعًا يَا أَعْرَابِي .»

* * *

وَخَرَجَ الْحِجَابُ مَتَصِيدًا بِالْمَدِينَةِ ، فَوَقَفَ عَلَى أَعْرَابِي يَرْعَى إِبْلَاءً لَهُ ، فَقَالَ لَهُ : يَا أَعْرَابِي ، كَيْفَ رَأَيْتَ سِيرَةَ أَمِيرِكُمُ الْحِجَابِ ؟ قَالَ لَهُ الْأَعْرَابِي : غَشُومٌ ظَلُومٌ ، لَا حَيَاءَ لَهُ ، فَقَالَ : فَلِمَ لَا تَشْكُوهُ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَبْدِ الْمَلِكِ ؟ قَالَ : فَأُظْلَمُ وَأُغْشَمُ ! فَيُنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا حَاطَتْ بِهِ الْخَيْلُ ، فَأَوْمَأَ الْحِجَابُ إِلَى الْأَعْرَابِي ، فَأَخَذَ وَحِيلَ ، فَلَمَّا صَارَ مَعَهُ ، قَالَ : مِنْ هَذَا ؟ قَالُوا لَهُ : الْحِجَابُ ، فَحَرَّكَ دَابَّتَهُ حَتَّى صَارَ بِالْقُرْبِ مِنْهُ ، ثُمَّ نَادَاهُ يَا حِجَابُ ، قَالَ : مَا تَشَاءُ يَا أَعْرَابِي ؟ قَالَ : السِّرُّ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَحَبُّ أَنْ يَكُونَ مَكْتُومًا ، فَضَحِكَ الْحِجَابُ ، وَأَمَرَ بِتَخْلِيَةِ سَبِيلِهِ .

* * *

« وَخَرَجَ أَبُو الْعَبَّاسِ السَّفَاحُ مَتَنَزِّهًا بِالْأَنْبَارِ ، فَأَمْعَنَ فِي نَزْهَتِهِ ، وَانْتَبَذَ مِنْ أَصْحَابِهِ ، خَوَافِي خِيَابَ الْأَعْرَابِي ، فَقَالَ لَهُ الْأَعْرَابِي : مِمَّنِ الرَّجُلُ ؟ قَالَ : مِنْ كِنَانَةَ ، قَالَ : مِنْ أَيِّ كِنَانَةَ ؟ قَالَ : مِنْ أَبْغَضِ كِنَانَةَ إِلَى كِنَانَةَ ، قَالَ : فَأَنْتَ إِذْنُ مِنْ قَرِيشٍ ؟ قَالَ :

(١) يعني صلاة القصر . (٢) أي ضيقت ما وسعه الله وخصصت به نفسك دون غيرك .

نعم ، قال : فمن أى قريش ؟ قال : من أبغض قريش إلى قريش ، قال : فأنت إذن من ولد عبد المطلب ؟ قال : نعم ، قال : فمن أى ولد عبد المطلب ؟ قال : من أبغض ولد عبد المطلب إلى ولد عبد المطلب ، قال : فأنت إذن أمير المؤمنين ، السلام عليك يا أمير المؤمنين ، ووثب إليه ، فاستحسن ما رأى منه ، وأمر له بجائزة .

* * *

وولى يوسف بن عمر الثقفى صاحب العراق أعرابياً على عمل له ، فأصاب عليه خيانة فعزله ، فلما قدم عليه ، قال له : يا عدو الله ، أكلت مال الله ، قال الأعرابي : فقال مَنْ آكلُ إذا لم آكلُ مالَ الله ؟ لقد راودتُ إبليسَ أن يُعطيني فلساً واحداً فما فعل ، فضحك منه وخلق سبيله .

* * *

وأخذ الحجاج أعرابياً لصاً بالمدينة فأمر بضربه ، فلما قرعه بسوط قال : يا رب شكراً ، حتى ضربه سبعمائة سوط ، فلقية أشعب ، فقال له : تدرى لم ضربك الحجاج سبعمائة سوط ؟ قال : لماذا ؟ قال : لكثرة شكرك ، إن الله تعالى يقول : « لئن شكرتم لأزيدنكم » ، قال : وهذا فى القرآن ؟ قال : نعم ، فقال الأعرابي :

يا رب لا شكراً فلا تزدني أسأتُ فى شكري فاعفُ عنى
باعدِ ثوابَ الشاكرين منى

* * *

ونزل عبد الله بن جعفر إلى خيمة أعرابية ولها دجاجة ، وقد دجنت (١) عندها ، فذبحتها وجاءت بها إليه ، فقالت : يا أبا جعفر هذه دجاجة لى كنت أدجنها وأعلفها من قوتي ، وألمسها فى آناء الليل ، فكأنما أمس بنتى زلت عن كبدى ، فندرتُ لله أن

(١) دجن الحمام والشاة وغيرهما كنصر : ألفت البيوت .

أدفعها في أكرم بقعة تكون ، فلم أجد تلك البقعة المباركة إلا بطنك ، فأردت أن أدفعها فيه ، فضحك عبد الله بن جعفر ، وأمر لها بخمسة درهم .

* * *

وسمع أعرابي وهو يقول في الطواف : « اللهم اغفر لأمي » ، فقيل له : مالك لا تذكر أباك ؟ قال : أبي رجل يحتال لنفسه ، وأما أمي فبأسة ضعيفة .

* * *

« وقال أبو زيد : رأيت أعرابياً كأنَّ أنفه كوز ، من عظمه ، فرآنا نضحك منه ، فقال : ما يضحككم ؟ فوالله لقد كنت في قوم ، ما كنت فيهم إلا أفطساً ! » .

* * *

« وجرى بأعرابي إلى السلطان ومعه كتاب قد كتب فيه قصته ، وهو يقول : « هاؤم أقرهوا كتابيه » ، فقيل له يقال هذا يوم القيامة ، قال : « هذا والله شر من يوم القيامة ، إن يوم القيامة يؤتى بحسناتي وسيئاتي ، وأتم جثم سيئاتي وتركتم حسناتي » .

* * *

« واشترى أعرابي غلاماً فقيل للبائع : هل فيه من عيب ؟ قال : لا ، إلا أنه يبول في الفراش ، قال ، هذا ليس بعيب ، إن وجد فراشاً فليبل فيه » .

* * *

ومر أعرابي بقوم وهو ينشد ابناً له ، فقالوا له ، صفه ، قال : كأنه دُنِينِيرٌ ، قالوا : لم نره ، ثم لم يلبث القوم أن أقبل الأعرابي ، وعلى عنقه جمل^(١) ، فقالوا ، هذا الذي قلت فيه دُنِينِيرٌ ؟ قال ، القَرْنَبِي^(٢) في عين أمها حسناء .

* * *

(١) الجمل : الحوراء .

(٢) القرنبى : دويبة من عشاش الأرض فوق الخنفساء إذا مصها أحدتقبضت فصارت مثل النكرة .

وقيل لأعرابي ، ما يمنعك أن تفزوا؟ قال ، والله إني لأبغض الموت علي فراشي ، فكيف أن أمضي إليه رَكُضًا؟ .

* * *

« وخرج أعرابي إلى الحج مع أصحاب له ، فلما كان ببعض الطريق راجعًا يريد أهله ، لقيه ابن عمه له ، فسأله عن أهله ومنزله ، فقال ، اعلم أنك لما خرجت ، وكانت لك ثلاثة أيام ، وقع في بيتك الحريق ، فرفع الأعرابي يديه إلى السماء ، وقال : ما أحسنَ هذا يارب ! تأمرنا بعمارة بيتك أنت ، وتخرّب بيوتنا ! » .

* * *

وخرجت أعرابية إلى الحج ، فلما كانت في بعض الطريق عطبت راحلتها ، فرفعت يديها إلى السماء ، وقالت ، « يارب أخرجتني من بيتي إلى بيتك ، فلا بيتي ولا بيتك ! » .

* * *

وعرّضت السجون بعد هلاك الحجاج ، فوجدوا فيها ثلاثة وثلاثين ألفًا ، لم يجب على واحد منهم قتل ولا صلب ، وفيهم أعرابي ، أخذ يبول في أصل مدينة واسط ، فكان فيمن أطلق ، فأنشأ يقول :

إذا ما خرجنا من مدينة واسطٍ خرينا وبلنا لا نخاف عقابا

* * *

ونظر أعرابي إلى قوم يلتمسون هلال شهر رمضان فقال : « والله لئن آثرتموه لتمسكن منه بدُنَابِي^(١) عيش أغبر » .

* * *

ونظر أعرابي إلى رجل سمين فقال « أرى عليك قَطيْفَة من نَسج أضراسك » .

* * *

وقال أعرابي : « اللهم إني أسألك مِيتة كَمِيتَةِ أَبِي خَارِجَةَ ، أَكَل بَدَجًا ^(١) ،
وشرب مِشْعَلًا ^(٢) ، ونام في الشمس ، فمات دَفَّانَ شَبَعَانَ رِيَّانَ » .

* * *

وقيل لأبي المِخْشِ الأعرابي : أَيَسْرُكَ أَنْكَ خَلِيفَةَ ، وَأَنْ أُمَّتَكَ حُرَّةٌ ،
قال : لا والله ما يسرّني ، قيل له : ولم ؟ قال ، « لأنها كانت تذهب الأُمَّة ،
وتضيع الأُمَّة » .

* * *

وحضر أعرابي سُفْرَةَ سليمان بن عبد الملك ، فجعل يمرّ إلى ما بين يديه ، فقال له
الحاجب مما يليك فَكُلْ يا أعرابي ، فقال : من أجذب انتجع ، فشقّ ذلك على سليمان
وقال للحاجب : إذا خرج عنا فلا يَعدُّ إلينا .

* * *

وشهد بعد هذا سُفْرَتَهُ أعرابي آخر ، فمرّ إلى ما بين يديه أيضاً ، فقال له الحاجب ،
مما يليك فكل يا أعرابي ، قال : من أخصب تحيّر ، فأعجب ذلك سليمان ، فقربه
وأكرمه وقضى حوائجه .

« وحضر أعرابي سفرة سليمان بن عبد الملك ، فلما أتى بالثألِوذج ، جعل يُسرِع فيه ،
فقال سليمان : أتدرى ما تأكل يا أعرابي ، فقال : بلى يا أمير المؤمنين إني لأجد ريقاً
هنيئاً ، وَمَزْدَرَدًا ^(٣) لَيْنًا ، وأظنه الصراط المستقيم الذي ذكره الله في كتابه ، فضحك
سليمان وقال : أزيدك منه يا أعرابي ؟ فإنهم يذكرون أنه يزيد في الدماغ ، قال :
كذبوك يا أمير المؤمنين ، لو كان كذلك لكان رأسك مثل رأس البغل ! » .

* * *

« وحضر سفرة سليمان أعرابي ، فنظر إلى شَعْرَةَ في لُقْمَةِ الأعرابي ، فقال : أرى

(١) البجج : ولد الضأن .

(٢) المشعل : شيء من جلود له أربع قوائم ينبل فيه ، وشرب مشعلا أي شرب مافيه .

(٣) ازدرده : ابغلمه .

شعرة في لقمتهك يا أعرابي ، قال ، وإنك لتراعيني مُرَاعاة من يُبَصِّر الشعرة في لقمته !
وَاللَّهِ لَا وَكُلْتِكَ أَبَدًا» ، فقال : استرها يا أعرابي ، فإنها زلة ، ولا أعود لمثلها .

* * *

وقال الأصمعي : قلت لأعرابي : أتمهمز^(١) إسرائيل ؟ قال : إني إذن لرجل سوء ،
قلت له : أفتجر فلسطين ؟ قال : إني إذا لقوي .

* * *

وسمع أعرابي إماماً يقرأ : « وَلَا تُنْكِحُوا^(٢) الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا » - قرأها
بفتح التاء - فقال : ولا إن آمنوا أيضاً لم ننكحهم ، فقيل له إنه يلحن وليس هكذا
يقرأ ، فقال : « أَخْرُوهُ قَبْضَهُ اللَّهُ ! لا تجعلوه إماماً ، فإنه يحل ما حرّم الله » .
(المقه الفرعه ٢ : ١٠٠ - ١٠٥)

* * *

وخطب أعرابي فلما أمجله بعض الأمر عن التصدير بالتحميد ، والاستفتاح بالتمجيد ،
قال : « أما بعد ، بغير ملال لذكر الله ، ولا إثارة غيره عليه ، فإننا نقول كذا ، ونسأل
كذا » فراراً من أن تكون خطبته بترأء وشوهاً^(٣) .
(البيان والتبيين ٢١٢ : ٢١٥)

* * *

ودفعوا إلى أعرابية علكاً^(٤) لتمضغه ، فلم تفعل ، فقيل لها في ذلك ، فقالت :
« ما فيه إلا تعب الأضراس ، وخيبة الحنجرة » .
(البيان والتبيين ٢ : ٤٧)

* * *

(١) من معاني الهمز : الفنز . (٢) أي تزوجوا .
(٣) وكانوا يسمون الخطبة التي لم يبتدئ صاحبها بالتحميد ، ويستفتح كلامه بالتمجيد والبراءة ويسمون
لتي لم توشح بالقرآن وتزين بالصلاة على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم « الشوهاة » .
(٤) العلك : اللبان (بالضم) .

وقيل لأعرابي : عند مَنْ تحب أن يكون طعامك ؟ قال : « عند أم حبي راضع ،
أو ابن سبيل شاسع ، أو كبير جائع ، أو ذى رحم قاطع » .
(البيان والتبيين ٢ : ٤٩)

• • •

وقال أعرابي :

« لولا ثلاث هُنَّ عيشُ الدهر ، والماء ، والنوم ، وأم عمرو ،
لما خَشِيتُ من مَضِيقِ القبر » .

(البيان والتبيين ٢ : ١٠١)

• • •

وسمع أعرابي رجلاً يقرأ سورة براءة فقال : « ينبغي أن يكون هذا آخر القرآن » ،
ف قيل له : ولم ؟ قال : « رأيت عهداً تُنبَدُ » .
(البيان والتبيين ٢ : ١٦٩)

• • •

وسمع أعرابي رجلاً يقرأ : « وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وُدُسْرٍ ، تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا
جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفْرًا^(١) » ، قالها بفتح الكاف ، فقال الأعرابي : « لا يكون » ،
فقرأها عليه بضم الكاف وكسر الفاء ، فقال الأعرابي : « يكون » .
(البيان والتبيين ٢ : ١٧٤)

(١) ذات الألواح والدر : هي السفينة ، والدر ما تشد به الألواح من المسامير وغيرها جمع دسار
ككتاب ، بأعيننا : برأى منا أى محفوظة ، وقد قرئ كُفْرًا بالبناء للفعل ، أى للكافرين : أفروا
حقاباً لهم .

الباب الرابع

في

خطب النكاح

١ - خطبة قريش في الجاهلية

روى الجاحظ قال :

كانت خطبة قريش في الجاهلية - يعني خطبة النساء :

« باسمك اللهم ، ذُكِرَتْ^(١) فلانة ، وفلانٌ^٢ بها مشغوفٌ ، باسمك اللهم ، لك ما سألت ولنا ما أعطيت » .

٢ - خطبة النبي صلى الله عليه وسلم في زواج السيدة فاطمة

« الحمد لله المحمود بنعمته ، المعبود بقدرته ، المرهوب من عذابه ، المرغوب فيما عنده ، النافذ أمره في سمائه وأرضه ، الذي خاق الخلق بقدرته ، وميزهم بأحكامه ، وأعزهم بدينه ، وأكرمهم بنبيه محمد صلى الله عليه . ثم إن الله تعالى جعل المصاهرة نسباً لاحقاً ، وأمرأاً مفترضاً ، ووشج^(٢) به الأرحام ، وألزمه الأنام ، قال تبارك اسمه ، وتعالى ذكره :

(١) ذكر فلان فلانة ذكراً (بفتح فسكون) : خطبها أو تعرض لخطبتها .

(٢) وشجت العروق والأغصان كوعد : اشتبكت والتفت وتداخلت ، ورحم واشجة ووشيجة :

مشتبكة متصلة ، وقد وشجها الله توشيجاً ، وفي الأصل : « وشج به الأرحام » وأراه محرفاً .

عَلَى لِسَانِي ذِكْرُكَ، وَلَا تُهِنِّهَا فَيَصْغُرَ عِنْدِي قَدْرُكَ ، وَقَدْ قَرَّبْتُكَ مَع قُرْبِكَ ، فَلَا تُبْعِدْ قَلْبِي مِنْ قَلْبِكَ .

٥ - خطبة شبيب بن شيبه

وقال العتبي : زَوْجَ شَيْبِ بْنِ شَيْبَةَ ابْنَةَ بِنْتِ سِوَارٍ^(١) الْقَاضِي ، فَقُلْنَا : الْيَوْمَ يَعْْبُ عُبَابُهُ^(٢) ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا تَكَلَّمُ فَقَالَ :

« الحمد لله ، وصلى الله على رسول الله ، أما بعد : فإن المعرفة منا ومنكم ، بنا وبكم^(٣) ، تمنعنا من الإكثار ، وإن فلاناً ذَكَرَ فلانة . »

٦ - خطبة الحسن البصري

« وكان الحسن البصري يقول في خطبة النكاح ، بعد الحمد والثناء عليه :

« أما بعد ، فإن الله جمع بهذا النكاح الأرحام المنقطعة ، والأنساب المتفرقة ، وجعل ذلك في سنة من دينه ، ومنهاج واضح من أمره ، وقد خَطَبَ إليكم فلان ، وعليه من الله نِعْمَةٌ ، وهو يبذل من الصَّدَاقِ كذا ، فاستخيروا الله ، وَرُدُّوا خيراً ، يرحمكم الله . »

٧ - خطبة ابن الفقير

وقال العتبي : حضرت ابن الفقير خطب على نفسه امرأة من باهلة فقال :

« وما حسنٌ أن يمدح المرء نفسه ولكن أخلاقاً تدمم وتمدح وإن فلانة ذُكِرَتْ لِي . »

(١) هو سوار بن عبد الله من قضاة البصرة وخطبائها - انظر البيان والتبيين ١ : ١٦١ - وقرأ في أمالي السيد المرتضى ٤ : ٢٢ حديثاً قريباً للجاحظ عنه في وقاره وضبطه من نفسه وملسكه من حركته - (٢) لأن والدي المروسين هطيان . (٣) أى المعرفة منا بكم ، والمعرفة منكم بنا .

٨ - خطبة عمر بن عبد العزيز

وقال عبد الملك بن مروان لعمر بن عبد العزيز :
« قد زوّجك أمير المؤمنين ابنته فاطمة » ، قال : « جزاك الله يا أمير المؤمنين خيراً ،
قد أجزلت العطية ، وكفيت المسألة » .

٩ - خطبة أخرى له

وحدث محمد بن عبيد الله القرشي عن أبي المقدام قال :
كانت قريش تستحسن من الخطاب الإطالة ، ومن الخطوب إليه التقصير^(١) ،
فشهدت محمد بن الوليد بن عتبة بن أبي سفيان خطب إلى عمر بن عبد العزيز أخته أم عمر
بنت عبد العزيز ، فتكلم محمد بن عبد الوليد بكلام جاز الحفظ ، فقال عمر :
« الحمد لله ذى الكبرياء ، وصلى الله على محمد خاتم الأنبياء ، أما بعد : فإن الرغبة
منك دعّعتك إلينا ، والرغبة فيك أجابتك منا ، وقد أحسن بك ظناً من أودعك
كريمته ، واختارك ولم يختَر عليك ، وقد زوجتكها على كتاب الله : إمساكٌ بمعروفٍ
أو تسريحٍ بإحسان » .

١٠ - خطبة بلال

وخطب بلال إلى قوم من خثعم لنفسه ولأخيه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« أنا بلال وهذا أخي ، كنا ضالّين فهدانا الله ، عبدين فأعتقنا الله ، فقيرين
فأغنانا الله ، فإن تزوّجونا فالحمد لله ، وإن تردّدونا فالاستعانُ اللهُ » .

(١) وكذلك روى الجاحظ في البيان والتبيين (١ : ٦٤) قال : « والسنة في خطبة النكاح أن يطيل
الخطاب ، ويقصر المحبب ، والمصري في زهر الآداب (٢ : ٣١) قال الأصمعي : « كانوا يستحبون من
الخطاب إلى الرجل حرمة الإطالة ، لتدل على الرغبة ، ومن الخطوب إليه الإيجاز ليدل على الإجابة » .

١١ - خطبة خالد بن صفوان

وزوج خالد بن صفوان مولاة من أمته ، فقال له العبد : لو دعوت الناس وخطبت !
قال : أدعهم أنت ، فدعاهم العبد ، فلما اجتمعوا ، تكلم خالد بن صفوان ، فقال :
« أما بعد : فإن الله أعظم وأجل من أن يذكر في نكاح هذين الكلبين ، وأنا
أشهدكم أني زوجت هذه الزانية من هذا ابن الزانية » .

١٢ - خطبة أعرابي

وخطب الفضل الرقاشي إلى قوم من بني تميم فخطب لنفسه ، فلما فرغ قام أعرابي
منهم فقال :
« تَوَسَّلَتْ بِجُرْمَةٍ ، وَأَوْلَيْتَ بِحَقٍّ ، وَاسْتَنْدَتَ إِلَى خَيْرٍ ، وَدَعَوْتَ إِلَى سُنَّةٍ ،
فَقَرَضْتُكَ مَقْبُولٌ ، وَمَا سَأَلْتَ مَبْذُولٌ ، وَحَاجَتُكَ مَقْضِيَةٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى » .
قال الفضل : لو كان الأعرابي حمد الله في أوَّل كلامه ، وصلى على النبي صلى الله
عليه وسلم لفصحتي يومئذ .

١٣ - خطبة المأمون

وقال يحيى بن أكرم : أراد المأمون أن يزوج ابنته من علي بن موسى الرضا ،
فقال : يا يحيى تكلم ، فأجلسته أن أقول : « أنكحت » ، فقلت : يا أمير المؤمنين ،
أنت الحاكم الأكبر ، والإمام الأعظم ، وأنت أوَّلَى بالكلام ، فقال :
« الحمد لله الذي تصاغرت الأمور بمشيئته ، ولا إله إلا هو إقراراً بربوبيته ،
وصلى الله على محمد عند ذكره ، أما بعد : فإن الله قد جعل النكاح ديناً ، ورضيه حكماً
وأنزله وحياً ، ليكون سبب المناسبة ، ألا وإني قد زوجت ابنة المأمون من علي بن موسى ،

وأمرتها أربعمئة درهم ، اقتداءً بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَاِتِّهَاءً إِلَى مَا دَرَجَ
إِلَيْهِ السَّلَفُ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

* * *

وخطب رجل إلى قوم ، فَأَتَى بِمَنْ يَخْطُبُ لَهُ ، فَاسْتَفْتَحَ بِحَمْدِ اللَّهِ ، وَأَطَالَ ، وَصَلَّى
عَلَى النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَأَطَالَ ، ثُمَّ ذَكَرَ الْبِدْءَ وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ،
وَاقْتَصَرَ ذِكْرَ الْقُرُونِ ، حَتَّى ضَجِرَ مَنْ حَضَرَ ، وَالتَفَتَ إِلَى الْخَاطِبِ ، فَقَالَ : مَا أُسْمِكُ
أَعَزَّكَ اللَّهُ ؟ فَقَالَ : وَاللَّهِ قَدْ أَنْسَيْتُ اسْمِي مِنْ طَوْلِ خُطْبَتِكَ ، وَهِيَ طَالِقٌ إِنْ تَزَوَّجْتَهَا
بِهَذِهِ الْخُطْبَةِ ، فَضَحِكَ الْقَوْمُ ، وَعَقَدُوا فِي مَجْلِسٍ آخَرَ .

(مفتاح الأفكار ص ٦٢ ، ومواسم الأدب ٢ : ١٢٠ ، والمعتمد الفرهاد ٢ : ١٦٣)

وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢٨ ، والبيان والتبيين ١ : ٢١٥ ،

٢١٧ - ٢ : ٥٠ : ١٣٠ - ٣ : ٢٢١ ، وزهر الآداب ٢ : ٣٠ ، ٣١)

الباب الخامس

في

خطب من أرتج عليهم

ونوادر طريفة لبعض الخطباء

روى الجاحظ قال : صعدَ عثمان بن عفَّانَ رضَى اللهُ تعالى عنه المنبرَ ، فأرتج عليه ، فقال :

« إن أبا بكر وعمر كانا يُعدَّان لهذا المقام مقالا ، وأتمَّ إلى إمام عادل أحوجُّ منكم إلى إمام خطيب » .

* * *

وروى ابن عبد ربه قال : أول خطبة خطبها عثمان بن عفَّانَ أرتج عليه ، فقال :
« أيها الناس : إن أوَّلَ كلِّ مرَّةٍ كَبَّ صعب ، وإن أعشَّ تأتتكم الخطبُ على وجهها ، وسيجعل اللهُ بعد عُسْرٍ يُسْرًا إن شاء اللهُ » .

* * *

ولما قدَّم يزيد بن أبي سُفْيَانَ الشَّامَ واليًّا عليها لأبي بكر ، خطب الناس فأرتج عليه ، فعاد إلى الحمد لله ، ثم أرتج عليه ، فعاد إلى الحمد لله ، ثم أرتج عليه ، فقال :
« يا أهل الشَّامَ ، عسى اللهُ أن يجعل من بعد عُسْرٍ يُسْرًا ، ومن بعدِ عِيٍّ بيانًا ،

وَأْتَمَّ إِلَى إِمَامٍ فَاعِلٌ^(١) ، أَحْوَجُ مِنْكُمْ إِلَى إِمَامٍ قَائِلٌ^(٢) ، « ، ثُمَّ نَزَلَ ، فَبَلَغَ ذَلِكَ عَمْرُوبَ بْنِ الْعَاصِ فَاسْتَحْسَنَهُ .

* * *

وَكَانَ يَزِيدُ بْنُ الْمُهَلَّبِ وَوَلِيُّ ثَابِتِ قُطْنَةَ^(٣) بَعْضَ قَرَى خُرَّاسَانَ^(٤) ، فَلَمَّا صَعِدَ الْمَنْبِرَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، قَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ ، ثُمَّ أَرْتَجِعُ عَلَيْهِ ، فَنَزَلَ وَهُوَ يَقُولُ :
فَالَا أَكُنْ فِيكُمْ خَطِيبًا فَإِنِّي بَسِيفِي إِذَا جَدَّ الْوَعْيَى تَلْخِطِيبُ
فَقِيلَ لَهُ : « لَوْ قَتَلْتَهَا فَوْقَ الْمَنْبِرِ ، لَكُنْتَ أَخْطَبَ النَّاسِ » .

* * *

وَخَطَبَ مَعَاوِيَةَ بْنُ أَبِي سَفْيَانَ لَمَّا وَوَلِيَّ ، فَحَصَرَ فَقَالَ :
« أَيُّهَا النَّاسُ : إِنِّي كُنْتُ أَعَدَدْتُ مَقَالًا أَقُومُ بِهِ فِيكُمْ ، فَحَجَبْتُ عَنْهُ ، فَإِنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ، كَمَا قَالَ فِي كِتَابِهِ^(٥) ، وَأْتَمَّ إِلَى إِمَامٍ عَدَلٍ ، أَحْوَجُ مِنْكُمْ إِلَى إِمَامٍ خَطِيبٍ ، وَإِنِّي أَمْرُكُمْ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ ، وَأَنْهَاكُمْ عَمَّا نَهَاكُمْ اللَّهُ عَنْهُ وَرَسُولُهُ ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ » .

* * *

وَصَعِدَ خَالِدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيُّ يَوْمًا الْمَنْبِرَ بِالْبَصْرَةِ لِيَخْطُبَ فَأَرْتَجِعُ عَلَيْهِ ، فَقَالَ :

(١) فِي عِيُونَ الْأَخْبَارِ : « إِمَامٌ عَادِلٌ » . (٢) وَفِي أَمَالِي السَّيِّدِ الْمُرْتَضَى أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ يَرُودُ لِعُمَيْرَانَ بْنِ عَفَّانَ ، وَفِي رَوَايَتِهَا : « إِمَامٌ فَعَالٌ » وَ « إِمَامٌ قَوَالٌ » بِصِيغَةِ الْمُبَالَغَةِ ، وَفِي الْأَغَانِي أَنَّهُ يَرُودُ لِثَابِتِ قُطْنَةَ ، وَفِيهِ : « أَمِيرٌ فَعَالٌ » وَ « أَمِيرٌ قَوَالٌ » .
(٣) هُوَ ثَابِتُ بْنُ كَعْبٍ ، وَلَقَّبَ قُطْنَةَ لِأَنَّ سَهْمًا أَصَابَهُ فِي إِحْدَى عَيْنَيْهِ ، فَذَهَبَ بِهَا فِي بَعْضِ حُرُوبِ الْبُرْقُوقِ ، فَكَانَ يَحْمِلُ عَلَيْهَا قُطْنَةَ ، وَهُوَ شَاعِرٌ فَارِسِيٌّ شَجَاعٌ مِنْ شُعْرَاءِ الدَّوَلَةِ الْأُمَوِيَّةِ ، وَكَانَ فِي صَحَابَةِ يَزِيدَ بْنِ الْمُهَلَّبِ ، وَكَانَ يُولِيهِ أَعْمَالًا مِنْ أَعْمَالِ الْبَصْرَةِ ، فَيُحْمَدُ فِيهَا مَكَانَهُ لِكِفَايَتِهِ وَشَجَاعَتِهِ ، وَقَدْ مَالَ إِلَى قَوْلِ الْمَرْجُوتِ ، وَلَهُ قَصِيدَةٌ فِي الْإِرْجَاءِ ، انْظُرْ تَرْجُمَتَهُ فِي الْأَغَانِي ج ١٣ ص ٤٧ .
(٤) وَفِي رَوَايَةٍ : أَنَّهُ خَطَبَ عَلَى مَنْبَرِ سَجِسْتَانَ ، وَفِي رَوَايَةِ الطَّبْرِيِّ : « فَخَطَبَ النَّاسَ فَحَصَرَ فَقَالَ : مَنْ يَطْعَمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ نَضَلَ » وَأَرْتَجِعُ عَلَيْهِ فَلَمْ يَنْطِقْ بِكَلِمَةٍ ، فَلَمَّا نَزَلَ مِنَ الْمَنْبَرِ قَالَ الْبَيْتُ الْمَذْكُورُ .
(٥) الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ : « وَعَلَّمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ » .

« أيها الناس : أما بعد ، فإن هذا الكلام ينجى أحيانا ، ويعزب أحيانا ، فيسيح عند مجيئه سببه^(١) ، ويعز عند عزو به طلبه ، ولربما كوبر فأبي^(٢) ، وعولج فنأى ، فالتأبي^(٣) لحيه ، خير من التعاطى لأبيه ، وتركة عند تنكره ، أفضل من طلبه عند تعذره ، وقد يختلج^(٤) من الجريء جنانه ، وينقطع من الذرب^(٥) لسانه ، فلا يبظره ذلك ولا يكسره ، وسأعود فأقول إن شاء الله » ، ثم نزل ، فما رئي حصر أبلغ منه .

* * *

وصعد أبو العنابس منبراً من منابر الطائف ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
أما بعد ، فأرتج عليه ، فقال : أتدرون ما أريد أن أقول لكم ؟ قالوا : لا ، قال :
فما ينفعني ما أريد أن أقول ليكم ، ثم نزل ؛ فلما كان في الجمعة الثانية ، وصعد المنبر
وقال : أما بعد ، أرتج عليه ، فقال : أتدرون ما أريد أن أقول لكم ؟ قالوا : نعم ،
قال : فما حاجتكم إلي أن أقول لكم ما علمتم ؟ ثم نزل ؛ فلما كانت الجمعة الثالثة ،
قال : أمّا بعد : فأرتج عليه ، قال : أتدرون ما أريد أن أقول لكم ؟ قالوا :
بعضنا يدرى ، وبعضنا لا يدرى ، قال : فليخبر الذي يدرى منكم الذي لا يدرى ،
ثم نزل .

* * *

وولى اليمامة رجل من بني هاشم يعرف بالذندان ، فلما صعد المنبر أرتج عليه ،
فقال :

(١) العيب : العطاء ، وفي رواية : « فيتسبب منه مجيئه سببه » .

(٢) وفي رواية : « فعسا » أي اشتد وصعب . (٣) تأتي له : ترفق ، وفي رواية :

« فالتأبي بالنون . (٤) يضطرب .

(٥) الحداد اللسان : وفي رواية : « ويرتج على البليغ لسانه » ، وفي أخرى : « وقد يرتج على
السن لسانه ، ولا ينظره القول إذا اتسع » ولا يمتنع إذا امتنع ، ومن لم تمكن له الخطوة ، فخليق أن
تتم له النبوة » وفي أخرى : « وقد يتعاضى على الذرب لسانه ، ثم لا يكابر للقول إذا امتنع ، ولا يرد
إذا اتسع ، وأولى الناس من عذر على النبوة ، ولم يؤاخذ على الكبوة ، من عرف ميدانه ، اشتهر إحسانه
وسأعود فأقول » .

« حَيًّا اللهُ هَذِهِ الْوَجُوهَ ، وَجَعَلَنِي فِدَاءَهَا ، إِنِّي قَدْ أَمَرْتُ طَائِفِي بِاللَّيْلِ أَنْ لَا يَرَى أَحَدًا إِلَّا أَنَا نِي بِهِ ، وَإِنْ كُنْتُ أَنَا هُوَ » ، ثُمَّ نَزَلَ .

وَخَطَبَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَامِرٍ ^(١) بِالْبَصْرَةِ فِي يَوْمِ أَضْحَى ، فَأُتِيَ عَلَيْهِ ، فَكَثَّ سَاعَةً ، ثُمَّ قَالَ :

« وَاللَّهِ لَا أَجْعَلُ عَلَيْكُمْ عِيًّا وَكُؤُومًا ، مِنْ أَخَذَ شَاةً مِنَ السُّوقِ فَعَمِيَ لَهَا ، وَثَمَنُهَا عَلَيَّ » .

قَالَ الْجَاهِظُ : وَلَمَّا حَصَرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَامِرٍ عَلَى مَنْبَرِ الْبَصْرَةِ ، شَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُ زِيَادُ : « أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، إِنَّكَ إِنْ أَقَمْتَ عَامَّةً مَنْ تَرَى ، أَصَابَهُ أَكْثَرُ مِمَّا أَصَابَكَ » .

وَكَانَ سَعِيدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْكَلْبِيُّ عَلَى قِنَاسِرِينَ ^(٢) ، فَوُتِبَ عَلَيْهِ زُفْرُ بْنُ الْحَارِثِ ، فَأَخْرَجَهُ مِنْهَا ، وَبَايَعَ لَابْنَ الزَّيْبِرِ ^(٣) ، فَلَمَّا قَعَدَ زُفْرٌ عَلَى الْمَنْبَرِ قَالَ : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَقْعَدَنِي مَقْعَدَ الْغَادِرِ الْفَاجِرِ » ، وَحَصَرَ ، فَضَحِكَ النَّاسُ مِنْ قَوْلِهِ .

وَصَعَدَ عَدِيُّ بْنُ أَرْطَاةَ ^(٤) الْمَنْبَرِ ، فَلَمَّا رَأَى جَمَاعَةَ النَّاسِ حَصَرَ فَقَالَ : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي يُطْعِمُ هَؤُلَاءِ وَيُسْقِيهِمْ » .

وَصَعَدَ رَوْحُ بْنُ حَاتِمِ الْمَنْبَرِ ، فَلَمَّا رَأَاهُمْ شَفَّنُوا ^(٥) أَبْصَارَهُمْ ، وَفَتَحُوا أَسْمَاعَهُمْ نَحْوَهُ ،

(١) انظر هامش الجزء الأول ص ٣٥٥ . (٢) كورة بالشام . (٣) انظر هامش الجزء

الثاني ص ١٤١ .

(٤) كان عامل يزيد بن عبد الملك على البصرة .

(٥) شفتة كضربة وعلمه شفوننا: نظر إليه بمؤخر عينيه، أو رفع طرفه ناظر إليه كالمتعجب أو كالكاره

بَحْرٍ فَقَالَ : « نَكْسُوا رءُوسَكُمْ ، وَغَضُّوا أَبْصَارَكُمْ ، فَإِنَّ الْمِنْبَرَ مَرَّ كَبٌّ صَعْبٌ ، وَإِذَا يَسَّرَ اللَّهُ فَتَحَ قُفْلِي تَيْسَّرَ » .

• • •

وكان عبد ربه الأَشْكَرِيُّ عاملاً لعيسى بن موسى^(١) على المدائن ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأرتج عليه ، فسكت ثم قال : « والله إني لأكون في بيتي فتجىء على لساني ألف كلمة ، فإذا قلتُ على أعوادكم هذه جاء الشيطان فحأها من صدري ، ولقد كنتُ وما في الأيام يوم أحبُّ إلىَّ من يوم الجمعة ، فصرتُ وما في الأيام يوم أبغضُ إلىَّ من يوم الجمعة ، وما ذلك إلا لخطبتكم هذه » .

• • •

وأرتج على معن بن زائدة ، فضرب المنبر برجله ، ثم قال : « فتى حُرُوبٌ ، لا فتى منابر » .

• • •

وحدث عيسى بن عمر قال :

خطب أميرٌ مرةً فانتقطع فنجل ، فبعث إلى قوم من القبائل عابوا ذلك وَلَفَّهْمُ^(٢) ، وفيهم يَرَبُوعِيٌّ جَلْدٌ ، فقال : اخطبوا ، فقام واحد فمرَّ في الخطبة ، حتى إذا بلغ « أما بعدُ » قال : أما بعد ، أما بعد ، ولم يدبر ما يقول ، ثم قال : فإن امرأتي طالقٌ ثلاثاً لم أُرِدْ أَنْ أُجَمِّعَ^(٣) اليوم فمعتنى ، وخطب آخر ، فلما بلغ « أما بعد » بقي ونظر فإذا إنسان ينظر إليه ، فقال : لعنك الله ! ترى ما أنا فيه ، وتلمحني ببصرك أيضاً ! وقال أحدهم : رأيتُ القَرَّاقِرَ^(٤) من السفن تجرى بيني وبين الناس ، وصعد اليربوعيُّ فخطب فقال : « أما بعد » فوالله ما أدري ما أقول ، ولا فيم أقتمونني ، أقول ماذا ؟ »

(١) هو عيسى بن موسى ابن أنس بن المنصور وكان أمير الكوفة . (٢) لفهم : جمعهم .

(٣) جمع الناس بالتشديد : أي شهدوا الجمعة ، كما يقال : عيدوا : أي شهدوا العيد .

(٤) القراقير : جمع قرقور كمنصور : وهي السفينة أو الطويلة أو العظيمة .

فقال بعضهم : قل في الزيت ، فقال : « الزيت مبارك^(١) ، فكلوا منه وادّهنوا » .
قال : فهو قول الشُّطَّار^(٢) اليوم ، إذا قيل لِمَ فعلت ذا ؟ فقل في شأن الزيت ،
وفي حال الزيت .

* * *

وروى الجاحظ أنه قيل لرجل من الوجوه : قم فاصعد المنبر وتكلم ، فلما صعد
حصراً وقال : « الحمد لله الذي يرزق هؤلاء » وبقي ساكناً فأنزلوه . وصعد آخر ،
فلما استوى قائماً ، وقابل بوجهه وجوه الناس ، وقعت عينه على صلعة^(٣) رجل فقال :
« اللهم العن هذه الصلعة » .

* * *

وقيل لوازع اليشكري : قم فاصعد المنبر وتكلم ، فلما رأى جمع الناس قال :
« لولا أن امرأتى لعنبا الله حملتني على إتيان الجمعة اليوم ما جمعت ، وأنا أشهدكم
أنها منى طالق ثلاثاً » .

* * *

ودعى أيوب بن القرية لكلام ، فاحتبس القول عليه ، فقال : « قد طال السمير ،
وسقط القمر ، واشتد المطر ، فماذا ينتظر ؟ » فأجابه فتى من عبد القيس فقال :
« قد طال الأرق ، وسقط الشفق ، وكثر اللثق^(٤) ، فلينطق من نطق » .

* * *

() يشير إلى الآية الكريمة : « الله نور السموات والأرض ، مثل نور نوره
كمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب دري
يوقد من شجرة مباركة ، زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضي
ولو لم تمسسه نار ، نور على نور » .

(٢) الشطار جمع شاطر : وهو من أعيانهم خبثاً ، والمراد به هنا أهل الدعارة وأصحاب النوادر
والتنكيت والفكاهات . (٣) الصلعة : موضع الصلع .

(٤) لثق يوماً كفرح : ركدت ريجه وكثر نداءه .

وجاء في أمالي السيد المرتضى :

روى أن بعض خلفاء بني العباس - وأظنه الرشيد - صعد المنبر ليخطب ، فسقطت على وجهه ذبابة ، فطردها ، فرجعت ، فحصر وأرتج عليه ، فقال : أعوذ بالله السميع العليم « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ : إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْفِذُوهُ ^(١) مِنْهُ ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ » ثم نزل ، فاستحسن ذلك منه .

• • •

وروى أن رجلا صعد المنبر أيام يزيد بن معاوية ، وكان والياً على قوم فقال لهم : « أيها الناس : إني إن لم أكن فارساً طيباً ^(٢) بهذا القرآن ، فإن معي من أشعار العرب ما أرجو أن يكون خلفاً منه ، وما أساء القائل أخو البراجم حيث قال :

وما عاجلاتُ الطير يُدنين للفتى رَشَاداً ، ولا من رِيثين يخب ^(٣)
وَرُبَّ أُمُورٍ لَا تَضِيرُكَ ضَيْرَةٌ وَلِلْقَلْبِ مِنْ مَخْشَاتِهِنَّ وَجِيب ^(٤)
ولا خيرَ فيمن لَا يُوْطِنُ نَفْسَهُ عَلَى نَائِبَاتِ الدَّهْرِ حِينَ تَنُوب
وفي الشكِّ قَرِيبٌ وفي الحزمِ قُوَّةٌ وَيُخْطِي الْفَتَى فِي حَدْسِهِ وَيُصِيب ^(٥)

فقال رجل من كلب : إن هذا المنبر لم يُنصب للشعر ، بل ليُحمد الله تعالى ،

(١) وكانوا يطلون أصدانهم بالطيب ولزغفران ويفلقون عليها الأبواب ، فيدخل الذباب من الكوى فيأكله . (٢) ماهراً حاذقاً .

(٣) كانت العرب تسمي بالطير الصائح ، وهو ماولاك ميامنه ، بأن يمر من مياسرك إلى ميامنك ، وتتشام بالبارح ، وهو ماولاك مياسره ، بأن يمر من ميامنك إلى مياسرك ، وذلك لأنه لا يمكنك رميه إلا بأن تنحرف له ، وربما كان أحدهم يهيج الطير ليطير ، فيعتمدها ، وعاجلات الطير هي أن يخرج الإنسان من منزله إذا أراد أن يزجر الطير ، فامر به أول ما يبصر فهو عاجلات الطير ، وإن أبطأت عنه وانتظرها فقد رأت أي أبطأت ، والأول عندهم محمود ، والثاني مذموم .

(٤) خشية خشية ومخشاة : خافه ، ووجب القلب وجيباً : خفق واضطرب . (٥) الحدس : اللظن والتخمين ، والأبيات لضابي بن الحارث البرجمي (انظر زهر الآداب ٢ : ٨٨) .

وَيُصَلِّي عَلَى النَّبِيِّ وَآلِهِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَلِلْقُرْآنِ ، فَقَالَ : أَمَا لَوْ أَنْشَدْتُمْكُمْ
شَعْرَ رَجُلٍ مِنْ كَلْبٍ لَسَرَّكُمْ ، فَكُتِبَ إِلَى يَزِيدَ بِذَلِكَ فَعَزَلَهُ ، وَقَالَ : قَدْ كُنْتُ
أُرَاكَ جَاهِلًا أَحْمَقَ ، وَلَمْ أَحْسَبْ أَنْ الْحَقَّ يَبْلُغُ بِكَ إِلَى هَذَا الْمُبْلَغِ ، فَقَالَ لَهُ : أَحْمَقُ مِنِّي
مَنْ وَلاَنِي !

* * *

وخطب عتّاب بن ورقاء^(١) فحث على الجهاد فقال : هذا كما قال الله تعالى
في كتابه :

كُتِبَ الْقَتْلُ وَالْقِتَالُ عَلَيْنَا وَعَلَى الْغَانِيَاتِ جِرُّ الذُّيُولِ^(٢)

* * *

وخطب يوماً فقال : هذا كما قال الله تبارك وتعالى : « إنما يتفاضل الناس بأعمالهم ،
وكل ما هو آتٍ قريبٌ » قالوا له : « إن هذا ليس من كتاب الله » قال : « ما ظننتُ
إلا أنه من كتاب الله » .

* * *

وخطب وكيع بن أبي سُودٍ^(٣) بخراسان فقال : « إن الله خلق السموات
والأرض في ستة أشهر » فقبل له : « إنها ستة أيام » فقال : « وأبيك لقد قُلتها
وإني لأستقلها ! » .

* * *

وصعد المنبر فقال : « إن ربيعة لم تزل غَضَابًا عَلَى اللَّهِ مَذْبَعًا نَبِيَّهُ مِنْ مُضَرَ ،

(١) انظر الجزء الثاني ص ٤٣٣ و ٤٤٥ . (٢) البيت لعمر بن أبي ربيعة ، وذلك أن مصعب بن الزبير
بمد أن قتل المختار بن أبي عبيد الثقفي دعا امرأته - وهي بنت النعمان بن بشير - إلى البراءة من المختار ،
فأبت فقتلها ، فقال في ذلك ابن أبي ربيعة :

إن من أعظم الكبائر عندي قتل جهنماء غادة مطبول
قتلت باطلا على غير ذنب إن قه درهما من قتيل
كتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جِر للذيول

والمطبول كمصفور : المرأة الفعجية الجميلة الممتلئة الطويلة العنق . (٣) انظر الجزء الثاني ص ٣١٢

ألا وإن ربيعة قومٌ كُشِفَ^(١) ، فإذا رأيتموهم فاطعموا الخيل في مناخرها ، فإن فرسا لم يُطعن في منخره إلا كان أشدَّ على فارسه من عدوه^(٢) .

* * *

وضربت بنو مازن أُلحِتات بن يزيد المُجاشِعي ، فجاءت جماعة منهم ، فيهم غالبُ أبو الفرزدق فقال : « يا قوم كونوا كما قال الله : لا يعجز القوم إذا تعاونوا » .

* * *

وخطب عدى بن زياد الإيادي ، فقال : « أقول لكم كما قال العبد الصالح لقومه : « مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى ، وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ^(٣) » ، قالوا له : « ليس هذا من قول عبد صالح ، إنما هو من قول فرعون » ، قال : من قاله فقد أحسن » .

* * *

وروى الطبري أن عبد الله بن الزبير كان ولى أخاه عبيدة على المدينة ، ثم نزعهُ عنها ، وكان سبب عزله إياه أنه خطب الناس ، فقال لهم : قد رأيت ما صنِعَ^(٤) بقوم في ناقة قيمتها خمسمائة درهم ، فسمى مَقومَّ الناقة ، وبلغ ذلك ابن الزبير فقال : إن هذا لهو التكلف .

وروى الجاحظ وابن عبد ربه هذا الخبر فقالا : خطب والى الإمامة^(٥) ، فقال : « إن الله لا يُقَارُّ^(٦) عباده على المعاصي ، وقد أهلك الله أمة عظيمة في ناقة ما كانت تساوي مائتي درهم » ، فسمى مَقومَّ ناقة الله .

* * *

(١) كشف جمع أكشف : وهو من ينهزم في الحرب ، ومن لا ترس معه في الحرب ، ومن لا بيضة على رأسه . (٢) وروى الطبري أن عبد الله بن خازم قال ذلك القول لأصحابه بخراسان ، قال لهم : « إذا لقيتم الخيل فاطعموها في مناخرها ، فإنه إن يطعن فرس في منخرته إلا أدبر أورى بصاحبه » . (الطبري ٧ : ٤٦) . (٣) الآية الكريمة : « قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى . . . » . (٤) يشير إلى ثمود قوم صالح عليه السلام - انظر هامش الجزء الثاني ص ٣٥٢ . (٥) لعلها المدينة . (٦) أى لا يقهرهم .

وخطب فَبَيْصَةَ ، وهو خليفة أبيه^(١) على خراسان ، وأتاه كتابه ، فقال :
« هذا كتاب الأمير ، وهو والله أهلٌ لأن أطيعه ، وهو أبى وأكبر منى . »

* * *

ودعى مُصَعب بن حَيَّان ليخطب في نكاح فحَصِر فقال : « لَتَنُؤُوا موتاكم
شهادة أن لا إله إلا الله ، فقالت أم الجارية ، عَجَل الله موتك ، ألهذا دعوناك ؟ » .

* * *

وخطب أمير المؤمنين الموالى - وهكذا لقبه - خطبة نكاح فحَصِر ، فقال :
« اللهم إنا نحمدك ونستعينك ولا نُشْرِكُ بك . »

* * *

وخطب قَتَيْبَةَ بن مُسْلِمٍ على منبر خراسان ، فسقط القضيب من يده ، فتنفأ له
عدوه بالشر ، واغتم صديقه ، فعرف ذلك قتيبة ، فأخذه وقال : « ليس الأمر على ما ظن
العدو ، وخاف الصديق^(٢) ، ولكنه كما قال الشاعر : »

فَأَلَقَتْ عَصَاهَا وَاسْتَقَرَّ بِهَا النَّوَى كَمَا قَرَّ عَيْنًا بِالْإِيَابِ الْمُسَافِرِ^(٣)

* * *

وتكلم صَعَصَعَةَ عند معاوية فَعَرِقَ ، فقال معاوية : بَهْرَكَ^(٤) القول ! فقال
صعصعة : إن الجياد نَضَّاحَةٌ بالماء .

* * *

وشخص يزيد بن عمر بن هُبَيْرَةَ إلى هشام بن عبد الملك ، فتكلم فقال هشام :
حامات من خلف مثل هذا ! فقال الأبرش الكلبي : ليس هناك ، أما تراه يَرَشِّحُ
جبينه لِضَيْقِ صدره ! قال يزيد : ما لذلك رَشِّحَ ، ولكن لجلوسك في هذا الموضع .

* * *

(١) هو المهلب بن أبي صفرة ، وكان والياً على خراسان - انظر الجزء الثاني ص ٢٨٥ .

(٢) وفي رواية : « كما ساء للصديق ، وسر للعدو . » (٣) النوى : الغربة البعيدة .

(٤) أى غلبك .

وقال عبيد الله بن زياد : « نِعِمَّ الشَّيْءُ الْإِمَارَةُ ، لَوْلَا قَعَقَعَةُ الْبَرِيدِ ، وَالتَّشْرِيفُ
لِلخُطْبِ » .

* * *

وقيل لعبد الملك بن مروان : عَجِّلْ عَلَيْكَ الْمَشِيبُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَقَالَ : كَيْفَ
لَا يَعْجَلُ عَلَيَّ ، وَأَنَا أَعْرَضُ عَقْلِي عَلَى النَّاسِ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ؟
« أَوْ قَالَ : شَيْبِنِي صَعُودَ الْمَنَابِرِ وَالخُوفِ مِنَ اللَّحْنِ » .

(. العقد الفريد ٢ : ١٦٢ - ١٦٣ و ٣ : ٢٥٦ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٧ و ٢٥٦ و
٢٥٩ ، وأمال السيد المرتضى ٤ : ١٩ - ٢٢ ، والأغانى ١٣ : ٤٧ ، ١٧ : ١١١ ، وتاريخ الطبري
ج ٧ : ص ٩٠ ، ج ٨ : ١٨٨ ، والبيان والتبيين ١ : ٧٤ ، ١٦٣ ، ١٨٦ - ٢ : ١٢٢ ، ١٢٦ ،
١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، والأمال ١ : ١١١ ، وتهذيب السكامل ١ : ١٧ ، وشرح العيون
ص ١٢٥ ، ٢٠٥ ، والصناعتين ص ٢١) .

بدء الخطب وختامها

قال ابن قُتَيْبَةَ في عيون الأخبار :

تتبع خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجدت أوائل أكثرها :
« الحمد لله نحمده ، ونستعينه ونؤمن به ، ونتوكل عليه ، ونستغفره ونتوب إليه ،
ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ،
ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له » ، ووجدت
في بعضها : « أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، وأحسبكم على طاعته » ، ووجدت
كل خطبة مفتاحها الحمد ، إلا خطبة العيد ، فإن مفتاحها التكبير .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٢١)

وروى ابن عبد ربه في العقد قال :

« وكان آخر كلام أبي بكر الذي إذا تكلم به عرف أنه قد فرغ من خطبته :

اللهم اجعل خير زماني آخره ، وخير عملي خواتمه ، وخير أيامي يوم ألقاك » .

وكان آخر كلام عمر الذي إذا تكلم به عرف أنه قد فرغ من خطبته : « اللهم

لا تدعني في غمرة ، ولا تأخذني على غرّة ، ولا تجعلني من الغافلين » .

وكان عبد الملك بن مروان يقول في آخر خطبته : « اللهم إن ذنوبي قد عظمت

وجلّت أن تحصى ، وهي صغيرة في جنب عفوك فاعف عني » .

(العقد الفريد ٢ : ١٢٢ ، ١٤٢)

تم بحمد الله

فهرس ذيل الجمهرة

الباب الأول

في خطب الأندلسيين والمغاربة

رقم الصفحة	الخطبة أو الوصية
١٦٢	خطبة عبد الرحمن الداخل يوم حربه مع يوسف الفهري
١٦٣	عبد الرحمن الداخل ورجل من جنده قنسرين
١٦٤	عبد الرحمن الداخل ورجل من جنده يهنته بفتح سرقسطة
١٦٤	تأديب عبد الرحمن الأوسط لابنه المنذر
١٦٦	عبد الرحمن الأوسط وابنه المنذر أيضاً
١٦٧	يعقوب بن عبد الرحمن الأوسط وأحد خدامه
١٦٨	وفاء الوزير بن غانم لصديقه الوزير هاشم بن عبد العزيز
١٦٩	خطبة منذر بن سعيد البلوطي في الاحتفال بقدم رسل ملك الروم
١٧٣	خطبة أخرى له
١٧٣	أحد حساد الرمادي الشاعر والمنصور بن أبي عامر
١٧٧	ابن اللبانة الشاعر وعز الدولة بن المعتصم بن صمادح
١٧٨	دفاع ابن الفخار عن القاضي الوحيدى بحضرة ابن تاشفين
١٧٩	موعظة ابن أبي رندقة الطرطوشي للأفضل بن أمير الجيوش
١٨٠	خطبة ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين
١٨٣	مقال لسان الدين ابن الخطيب في الحوض على الجهاد
١٨٤	ماخاطب به لسان الدين تربة السلطان الكبير أبي الحسن المريني
١٨٧	وصية لسان الدين لأولاده
٢٠١	خطبة وعظية له
٢٠٨	وصية موسى بن سعيد العنسى لابنه
٢١٧	خطبة ابن الزيات المنزوعة الألف
٢١٩	القاضي عياض التي ضمنها سور القرآن

- رقم الصفحة الخطبة أو الوصية
٢٢٢ خطبة سعيد بن أحمد المقرئ التي ضمنها سور القرآن
٢٢٤ » الكنعني التي ضمنها سور القرآن أيضاً

الباب الثاني

في خطب ووصايا مجهول عصرها أو قائلها

- ٢٢٦ خطبة أبي بكر بن عبد الله بالمدينة
٢٣٠ وصية أعمى من الأزد لشاب يقوده
٢٣١ » رجل لآخر وقد أراد سفراً
٢٣١ » » لابنه وقد أراد التزوج
٢٣٢ » بعض العلماء لابنه
٢٣٢ » لبعض الحكماء
٢٣٢ » أخرى
٢٣٣ » »
٢٣٣ عظة لبعض الحكماء
٢٣٤ نصيحة » »
٢٣٤ كلمات شتى لبعض الحكماء
٢٣٥ رجل من العرب والحجاج
٢٣٦ أحد الوافدين على عمر بن عبد العزيز
٢٣٦ كاتب وأمير
٢٣٧ وصف الهلباجة
٢٣٨ بعض البلغاء يصف رجلاً
٢٣٩ خمس جوار من العرب يصفن خيل آبائهن
٢٤١ رجل من العرب يصف مطراً

الباب الثالث

في نثر الأعراب

- ٢٤٣ قولهم في الوعظ والتوصية
٢٤٢ مقام أعرابي بين بندي سليمان بن عبد الملك

- ٢٤٣ أعرابي يصف هشام بن عبد الملك
٢٤٣ خطبة أعرابي
٢٤٤ » أخرى
٢٤٤ » »
٢٤٤ أعرابية توصي ابنها وقد أراد السفر
٢٤٥ أعرابية توصي ابنها
٢٤٦ أعرابي بوصى ابنه
٢٤٦ » ينصح لابنه
٢٤٦ » »
٢٤٦ » » لأخيه
٢٤٧ » يعظ أخاه
٢٤٧ » » صاحبه
٢٤٧ » » أخاه
٢٤٨ » » رجلا
٢٤٨ » » »
٢٤٨ » » »
٢٤٨ كلام أعرابي لابن عمه
٢٤٩ كلمات حكيمة للأعراب
٢٥٤ أجوبة الأعراب
٢٥٤ مجاوبة أعرابي للحجاج
٢٥٥ مسائلة الحجاج أعرابياً فصيحاً
٢٥٥ مجاوبة أعرابي لعبد الملك بن مروان
٢٥٦ مجاوبة أعرابي لخالد بن عبد الله القسري
٢٥٦ أجوبة شتى
٢٥٩ قولهم في الاستمناح والاستجداء
٢٥٩ أعرابي يجتدي عتبة بن أبي سفیان
٢٦٠ أعرابي يجتدي عمر بن عبد العزيز

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة
خطبة أعرابي بين يدي هشام بن عبد الملك	٢٦٠
مقام أعرابي بين يدي هشام	٢٦٠
أعرابي يستجدي عبيد الله بن زياد	٢٦١
أعرابية تستجدي عبد الله بن أبي بكر	٢٦٢
أعرابي يستجدي خالد بن عبد الله القسري	٢٦٣
» » معمر بن زائدة	٢٦٣
خطبة الأعرابي السائل في المسجد الحرام	٢٦٤
» » » » الجامع بالبصرة	٢٦٥
صورة أخرى	٢٦٥
» »	٢٦٦
أعرابي يستجدي	٢٦٦
» »	٢٦٦
» »	٢٦٧
» »	٢٦٧
أعرابية تستجدي	٢٦٨
أعرابي يستجدي	٢٦٨
» »	٢٦٨
» »	٢٦٩
» »	٢٦٩
أعرابية تستجدي	٢٧٠
أعرابي يستجدي	٢٧٠
» »	٢٧١
» »	٢٧١
» »	٢٧١
» »	٢٧١
» »	٢٧١
» »	٢٧٢
» »	٢٧٢

- ٢٧٢ أعرابي يسأل رجلا حاجة له
٢٧٣ قولهم في بكاء الموتى
٢٧٣ أعرابية تبكي ابنها
٢٧٤ حديث امرأة سكنت البادية قريبا من قبور أهلها
١٧٥ حديث امرأة مات ابنها بين يديها
٢٧٦ قولهم في الشكوى
٢٧٦ أعرابي يشكو حائه
٢٧٧ كلمات شتى في الشكوى
٢٨٢ قولهم في العتاب والاعتذار
٢٨٣ قولهم في المدح
٢٩٢ قولهم في الذم
٢٩٩ قولهم في الغزل
٣٠٤ قولهم في الوصف
٣٠٤ أعرابي يصف مطرا
» » » ٣٠٥
» » » ٣٠٦
٣٠٧ ثلاثة غلطة من الأعراب يصفون مطرا
٣٠٩ أعرابي يصف مطرا
» » » ٣١٠
» » » ٣١١
» » » ٣١٢
» » » ٣١٢
» » » ٣١٣
٣١٤ أعرابية تصف مطرا
» » » ٣١٤
٣١٥ » » أرضا

رقم الصفحة	الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	الخطبة أو الوصية
٣٢٤	قولهم في الدعاء	٣١٦	رائد يصف أرضاً جديدة
٣٢٤	دعاء أعرابي	٣١٦	» » »
٣٢٦	» »	٣١٧	» » »
٣٢٦	» »	٣١٧	أعرابي يصف أرضه ووالده
٣٢٧	» »	٣١٨	بلدا » »
٣٢٨	» »	٣١٩	أشد للبرد » »
٣٢٨	» »	٣١٩	إبلا » »
٣٢٩	» »	٣١٩	فاقة » »
٣٢٩	» »	٣٢٠	خيلا » »
٣٢٩	» »	٣٢٠	» » »
٣٢٩	» »	٣٢٠	» » »
٣٣٠	» »	٣٢٠	فرساً » »
٣٣٠	» »	٣٢١	خاتماً » »
٣٣٠	» »	٣٢١	أطيب الطعام » »
٣٣٠	» »	٣٢١	السويق » »
٣٣٢	» »	٣٢٢	الجمال » »
٣٣٢	» »	٣٢٢	أبو الخش يصف ابنه
٣٣٢	» »	٣٢٢	أعرابي يصف بنيه
٣٣٣	أدعية شتى	٣٢٣	أعرابي يصف أخويه
٣٣٧	نوادير وملح لبعض الأعراب		

الباب الرابع

في خطب النكاح

٣٤٤	خطبة قريش في الجاهلية
٣٤٤	» النبي صلى الله عليه وسلم في زواج السيدة فاطمة
٣٤٥	» الإمام علي كرم الله وجهه
٣٤٥	» عتبة بن أبي سفیان

الخطبة أو الرسالة

رقم الصفحة

خطبة شبيب بن شيبه	٣٤٦
الحسن البصرى	» ٣٤٦
ابن الفقير	» ٣٤٦
عمر بن عبد العزيز	» ٣٤٧
أخرى له	» ٣٤٧
بلال	» ٣٤٧
خالد بن صفوان	» ٣٤٨
أعرابي	» ٣٤٨
المأمون	» ٣٤٨

الباب الخامس

٣٥٠ في خطب من أرتج عليهم ونوادير طريقة لبعض الخطباء

٣٦١ بدء الخطب وختامها

تم الكتاب بحسن توفيقه وعونه تعالى

وسيتبعه إن شاء الله كتاب

جمهرة رسائل العرب

في عصور العربية الزاهرة